الضوء المنير على التفسير

جمعه الفقير الى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمد الصالحي

من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين ابي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

المعروف بابن قيّم الجوزيّة

رحمه الله تعالى

الناشر

مؤسسة النور للطباعة والتجليد

بالتعاون مع

مكتبة دار السلام



الضوء المنير

على

التفسير

المجلّد الأول

جمعه الفقير الى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمّد الصالحي

من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين ابى عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

المعروف بابن قيّم الجوزيّة

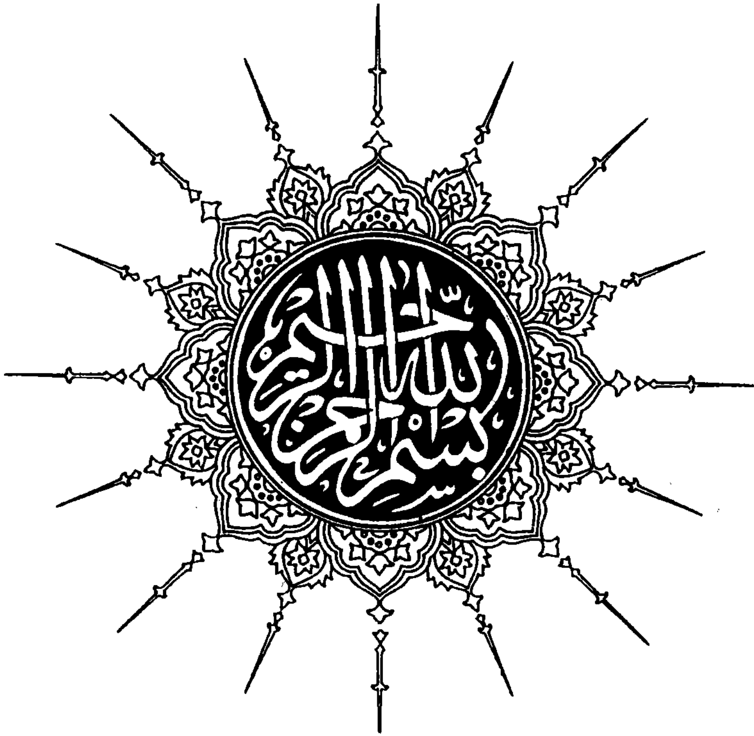
رحمه الله تعالى

الناشر

مؤسسة النّور للطّباعة والتجليد

بالتعاون مع

مكتبة دار السّلام


بسم الله الرحمن الرحيم

الضوء المنير
على
التفسير

الناشر

مؤسسة النور للطباعة والتجليد

هاتف:٤١١٨٨٧٤ ، فاكس:٤١١٤١٩١

دخنة ـ شارع الشيخ محمد بن إبراهيم

عنيزة-هاتف و فاكس: ٣٦٦٤١٠٤٠ (٠٦)

بالتعاون مع

مكتبة دارالسلام

الرياض-شارع الضباب-هاتف:٤٠٣٣٩٦٢ ،فاكس:٤٠٢١٦٦٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لجامعه: علي بن حمد بن محمد الصالحي

الحمد لله حمدًا كثيرًا كما يحبه ويرضاه، على فضله وكرمه وجزيل عطاياه، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي اختاره واصطفاه. والذي أرسله بكتابه المبين رحمة للعالمين. وعلى آله وأصحابه وأتباعه السائرين على هديه إلى يوم الدين.

وبعد: فقد رأيت أن أذكر لك أخي سبب اعتناقي لهذا العمل وما لي فيه من الصنع؛ راجيًا من الله أن ينفعني وإياك بها علمنا إنه جواد كريم.

ذلك بعد أن هداني الله لقراءة كتاب (مفتاح دار السعادة) لشمس الدين ابن القيم، رحمه الله، فراقني ما احتوى عليه من الفوائد المنوعة. وما أشبهه بجنة حَوَتْ جميع أنواع الفواكه والثمرات، ثم أعدت قراءته مرة ثانية فزادت رغبتي فيه: فرأيتني مشدودًا بالرغبة لقراءة بقية كتبه الموجودة. فكان ذلك والحمدلله.

ثم رأيت أن أكشف عن ناحية من هذا الكنز المدفون والفلك المشحون بأنواع العلوم والفنون، فأرشدني الله بهدايته إلى قسم التفسير فسرت في جمعه وقت فراغي عدة سنين، حرصًا على الإفادة والاستفادة. ولم أتمكن من استيعاب ما طرقه الشيخ من فن التفسير ولكني قاربت.

وقد صرفت النظر عن التكرار وعن مقارعة الشيخ للمبتدعة، إلا ما رأيت فيه كبير فائدة: كذلك صرفت النظر عن ترجمة الشيخ اختصارًا للوقت حيث قد تناولتها الأقلام قديمًا وحديثًا.

ثم: اعلم أخي أنه بمراجعتي لكتب الشيخ، رحمه الله، وجزاه عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء، تبين لي أنه يحيل على مؤلفات لم تكن موجودة في محيطنا، وقد حاولت البحث عنها فلم أعثر على شيء منها سوى (كتاب السماع) وقد طبع والحمد لله.

وقد بحثت مع طائفة من علمائنا المعاصرين وعلى رأسهم شيخنا (عبدالعزيز ابن عبدالله بن باز) فاتفق رأيهم على أن هذه الكتب لو كانت موجودة لوصلت إلينا عينًا أو خبرًا.

ويقوي هذا أن فهارس مكتبات العالم وصلت إلينا ولم تذكر شيئًا عنها .

ويقوي هذا أيضًا أنه في وقت متقدم وجدت طائفة تبحث عن مؤلفات الشيخ فتشتريها ؛ وتحرقها ؛ خشية انتشارها ، في وقت كان الاعتماد على المخطوطات في تدوين العلوم .

ومهما يكن فأنا أذكر لك حسب ما ظهر لي من قرائتي لكتب الشيخ ، رحمه الله ، أنه يحيل على الكتاب بعدة أسماء بها يقارب اسمه أو موطن كتابته نسيانًا منه لما سماه به ؛ لتزاحم الواردات عليه مما يحيط به هو وشيخه في عصرهما من خصومهما بدليل ما يلي :

ذكر في (مفتاح دار السعادة) في صحيفة ٤٧ من المطبوعة ما نصه : «وسميته (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة) إذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله بها عليّ حين انقطاعي عند بيته» إلى آخر ما ذكره مما يشير إلى مضمون (مفتاح دار السعادة) ومما يشير أيضًا إلى (روضة المحبين) في سطور. والشيخ ، رحمه الله ، أحال على أسماء كتب توحي بهذه الألفاظ لأنه ألفه بمكة .

وتوضيحاً لما ذكرته : فقد أحال في كتابه (بدائع الفوائد) ص٦٢ ج ٢ في بحثه على قول الله تعالى : ﴿**يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ . [البقرة: ١٤٦] . ثم قال : وقد بسطنا هذا في كتابنا (التحفة المكية) وذكرنا فيها من الأسرار والفوائد ما لا يكاد يشتمل عليه مصنف .

وبالرجوع إلى كتاب المفتاح ص١٠٢ و١٠٣ و١٠٤ ج١ ؛ نجد البحث موسعًا فيه الفائدة التامة حول هذه الآية وغيرها مما يدور حول مخاطبة الله لأهل الكتاب .

ومن ذلك : أحال في كتاب (بدائع الفوائد) أيضًا ص١١٩ ج١ بقوله : وقد قررت هذا المعنى وبينت شواهده من القرآن . . . وكونه على الصراط المستقيم الخ . . في كتاب (التحفة المكية) اهـ. وقد بحثه في المفتاح ص٧٩ ج٢ .

ومن ذلك أحال في البدائع أيضًا صحيفة ١٣٧ ج٤ في بحثه على الحكمة في خلق الله آدم على كتابه (التحفة المكية)، وذكر أنه ذكر من الحكم قريبًا من أربعين حكمة وهي موجودة في أول المفتاح متوالية .

وبحثها أيضًا بإيجاز في (شفاء العليل) ص٢٤١ في الوجه السابع والعشرين . وأحال في البدائع ص٢١٥ ج٢ على (الفوائد المكية)، وينطبق على ما

في المفتاح ص١٠٢ وص١٠٣ وص١٠٤ ج١ وهنا سماه (الفوائد المكية) وسبق قريبًا أنه سماه (التحفة المكية). **ومن** ذلك أحال في كتابه (مدارج السالكين) ص٤٩٠ ج٣ ولفظه: وقد ذكرنا هذه المسألة في كتاب (مفتاح دار السعادة) وذكرنا هناك نحوًا من ستين وجهًا تبطل قول من نفى التقبيح العقلي إلى آخر ما ذكر. وقد ذكر هذا في المفتاح ص٦٢ ج٢ حتى ص١١٠ وقبلها ذكر مقدمة مطولة ثم ذكرها واحدًا وستين وجهًا قال في آخرها: فهذه مجامع طرق العالم إلى آخر كلامه.

ثم إننا نجده أحال في المدارج ص٢٣ ج١ ولفظه: (وقد بيّنا بطلان هذا المذهب من ستين وجهًا في كتابنا المسمى (تحفة النازلين)، وأشبعنا الكلام في هذه المسألة هناك. وذكرنا جميع ما احتج به أرباب هذا المذهب وبيّنا بطلانه. والبحث في مسألة التحسين والتقبيح التي مرّت بك قريبًا.

وهناك إحالات كثيرة لم يتسن لي تطبيقها بوضوح لكنها في رأيي ـ والحقيقة يعلمها الله ـ أنها ترجع إلى كتاب المفتاح وهي إحالات. باسم (الفتح المكي)، و(التحفة المكية)، و(تحفة النازلين)، و(الأمالي المكية)، و(الفوائد المكية).

وأيضا فهناك إحالات باسم (الفتوحات القدسية) في مشاهد الخلق في مواقعة الذنب، وأخرى بنفس البحث باسم (سفر الهجرتين)، يترجح عندي أنها تنطبق على (سفر الهجرتين)، وعلى (مفتاح دار السعادة).

ومن ذلك أحال في (الجواب الكافي) رقم ٤٥ على كتاب (أيمان القرآن) عند قول الله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُون ومَا لا تُبْصِرُون﴾. [الحاقة: ٣٨، ٣٩].

وأحال فيه أيضًا رقم ٢٧٣ ولفظه: وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب (أقسام القرآن). **علما** بأن هذا الكتاب يسمى (التبيان في أقسام القرآن) وهذا الكتاب لم يُبدأ بمقدمة ولم يرتب على نسق سور القرآن، فلعله جزء من كتاب. فهذه ثلاثة أسماء الظاهر أنها على مسمى واحد.

وأيضا ذكر في كتاب المفتاح حكم داود وسليمان عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. وذكر أنه رجح الحكم السليماني من وجوه في كتابه (الاجتهاد والتقليد). وبمراجعتي لـ (أعلام الموقعين) وجدت البحث في فصل مستقل طبقًا للعناصر التي ذكرها في المفتاح ص٣٢٦ج١. ثم إني رجعت إلى مقدمة الأعلام فلم

أجد المؤلف سماه بأي اسم. فلا أدري كيف التوفيق؟ بينما ذكره في المفتاح وبين ما اشتهر بين النـاس من تسميته بـ (أعلام الموقعين). وتمر على إحالات باسم (المعالم) يظهر لي أنها تنطبق على (أعلام الموقعين). من ذلك ما ذكره في (إغاثة اللهفـان) ص٢٢ ج١ إحـالـة على كتاب (المعالم) وذلك في أسرار المثلين المائي والناري، والشيخ قد بحث المثلين وغيرهما من أمثال القرآن في (أعلام الموقعين) بتوسع، وبعضها في (اجتماع الجيوش الإسلامية).

ومن الغريب أن البعض نقل هذه الأمثال حرفيًّا وجعلها كتابًا مستقلاً، وتنـاقلهـا النـاس ظنًّا منهم أنها تأليف مستقل. ونقل البعض أيضًا من (بدائع الفوائد) تفسير المعوذتين وطبعت مستقلة.

ونقل البعض أيضًا من (إغاثة اللهفان) رسالة سماها: «الزيارة الشرعية والزيارة الشركية» وبما ذكرت كان لي شبه اقتناع أن الشيخ يحيل بما في ذاكرته أو قريبًا منها دون الرجوع إلى ما كتبه. ويمكن أن يكون بعض هذه الكتب مأخوذة من كتبه التي لم تصل إلينا، أو أن أحدًا تصرف في تسميتها غيره بعد وفاته أو قبلها، لأنه كان مسجونًا مع شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية حتى توفي الشيخ، رحمه الله.

وبما ذكرته ألقيت عصا الترحال، وأقمت للشيخ العذر لما عرفته من واقع حياته التي تغلي بالمشاكل مع خصومه وخصوم شيخه، أضف إلى ذلك ما هو مهتم به من الكتابة وإيجاد البحوث ومقارعة الخصوم دون مراجعة ما يكتبه أملاً أن يمدّ الله في عمره ويراجع ما كتب. **يؤيد** ذلك أن له تمنيات في كتابة بحوث لم يتمكن منها أو لم تصل إلينا. وله بحوث في (زاد المعاد) وإحالات على مواضع لم توجد، والظاهر أن هذا الكتاب من آخر ما كتب.

وأعتقد اعتقادًا قويًّا أن المشاكل ومقارعة الخصوم الحاقدين والحاسدين، حالت دون مراجعة ما كتب. وأنسته الأسماء المطابقة لواقع ما سماها به.

زد على ذلك أنه سُجن تبعًا لشيخه ولا تخفى حالة السجين. وزد على ذلك أنه كان يكتب في السفر والحضر، وغير خافٍ ظروف الأسفار في وقته.

ففي هذه الأحوال يُعذر ويشكر على ما بذله من جهد في البحث والتأليف المثمر، فجزاه الله خير الجزاء وضاعف له المثوبة والعطاء.

والذي يهمني من هذا التقديم أن محبِّي ما أُثر عن الشيخ يصرفون النظر عن المفقود، ويمعنون في الموجود. ويأخذ كل واحد منهم بنصيب، لأن كتابات الشيخ كنوز تنتظر من يكشف عنها.

ففيها بحوث التوحيد والتفسير، والحديث، والفقه، وبحوث القواعد المنوعة، والطب والسلوك، وغير ذلك من الفنون.

فنرجو الله أن يهيء لها من شباب الإسلام من يعتني بها لتمام الانتفاع بها، إنه كريم جواد. **ثم** اعلم ـ أيها القارىء الكريم ـ أن ما جمعته ينقصه الربط في بعض المواضع. وذلك بسبب أني التزمت أن لا أدخل فيما جمعته غير كلام المؤلف،رحمه الله ، إلا ما نقله هو عن غيره وهو نادر جدًّا. وقد أبحت لنفسي الحذف والاختصار حسبما رأيته.

وقد تُلْجِؤني الضرورة نادرًا إلى إيضاح ضروري أضعه بين قوسين مثل إيضاح إشارة، أو ضمير يعودان إلى ما تقدم. ثم اعلم أن من سبقني من جمع تفسير الشيخ لم يفِ بالغرض. فحاولت رأب الصدع بجهدي ولا أدعي الإحاطة وقد تم بحمد الله ما قصدت.

ثم اعلم أيضًا أنه كان بودي أن أعود إلى مراجعة كتب الشيخ، ولكن شمس الحياة قد شارفت على الغروب، راجيًا من الله أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، مقربًا لرضوانه وإلى جنات النعيم. ثم إني أرجو منك دعوة صالحة بظهر الغيب تعود عليك. كما أرجو منك الإرشاد لما تراه من خلل.

كما أني أرجو منك أخي القارىء أن تنظر إليه بعين الرضا والتغاضي، لأن التسامح من شيم الكرام. وأعوذ بالله من شر كل حاسد أو مغالط أو غامط. وقد سميت هذا المجموع: «الضوء المنير على التفسير».

أخي القارىء ستجد أول البحث إن كان له سابق (. . .) وستجد في آخره (. . .) إن كان له بقية في الأصل الذي نقل منه. وستجد في الحاشية رقم الصحيفة، ورقم الجزء إن كان الكتاب ذا أجزاء.

وستجد بعض الإرشادات والإحالات على البحث، إن كان له بقية، لأنه ليس من هدفي نقل جميع ما كتبه الشيخ خشية التطويل وإملال القراء. والإحالة كفيلة برغبة القارىء.

وستجد بعض التعليقات، فإن كانت من الأصول المأخوذ عنها فسأبقيها على ما هي عليه، وإن كان لي شيء منها ذكرت في آخره (ج) رمزًا لي. ولا يفوتني أن أذكر لك ـ أخي الكريم ـ أن الأرقام للصفحات والأجزاء تنطبق على الطبعات التي نقلتُ منها، وها أنا أذكر لك أسماء الطبعات وأسماء الكتب التي نقلتُ منها، وما نقلته من غير ما ذكرته هنا أحيل عليه في موضعه.

	اسم الكتاب	عدد مجلداته	إيضاحات
١	إغاثة اللهفان	٢	دار المعرفة ـ بيروت.
٢	أحكام أهل الذمة	٢	دار العلم للملايين.
٣	أعلام الموقعين	٤	مطبعة السعادة.
٤	التبيان في أقسام القرآن	١	طباعة دار الإفتاء.
٥	الجواب الكافي	١	طبعه الشيخ عبدالظاهر أبوالسمح
٦	جلاء الإفهام	١	دار الطباعة المحمدية.
٧	تحفة المودود	١	المطبعة الهندية على نفقة علي بن ثاني.
٨	حادي الأرواح	١	طبع على نفقة الشيخ قاسم بن ثاني.
٩	شفاء العليل	١	المطبعة الحسينية.
١٠	الفوائد	١	طبع على نفقة عمر بن عبدالجبار.
١١	بدائع الفوائد	٢	المطبعة المنيرية.
١٢	الفروسية	١	مطبعة الأنوار.
١٣	زاد المعاد	٤	مطبعة السنة المحمدية.
١٤	روضة المحبين	١	طبع على نفقة الملك غبدالعزيز.
١٥	الروح	١	الطبعة الثالثة، مطبعة الإدارة.
١٦	طريق الهجرتين	١	طبع على نفقة محمد الصالح.
١٧	كتاب الصلاة	١	الطبعة الخامسة لدار الإفتاء.
١٨	المنار المنيف	١	تحقيق الشيخ عبدالفتاح أبي غدة.
١٩	مختصر الصواعق	١	طباعة دار الإفتاء.

٢٠	مفتاح دار السعادة	١	دار الكتب العلمية
٢١	مدارج السالكين	٣	مطبعة السنة المحمدية .
٢٢	عدة الصابريــن	١	المطبعة السلفية بمصر .
٢٣	الطرق الحُكْمِيّـة	١	مطبعة السنة المحمدية .
٢٤	اجتماع الجيوش الإسلامية	١	مطبعة الإمام .
٢٥	تهذيب مختصر أبي داود	٨	مطبعة السُنة المحمدية .
٢٦	هداية الحيــارى	١	مؤسسة مكة للطباعة .

وهناك كتب أخرى ذكرها بعض المترجمين للشيخ ابن القيم .

منها: كتاب (أخبار النساء) منسوبًا إلى الشيخ ابن القيّم ، فالله يكافىء من نسبه إليه ، ولم يَذكر أحد من المحققين أنه له .

ومنها:(أمثال القرآن) ، وقد نوهنا عنه أنه منقول من أعلام الموقعين حرفيًّا .

ومنها: (إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان) ، ولم آخذ منه .

وذكر بعض المترجمين أن له كتبًا أخرى لم نعرف وجودها . وقد نوهنا عن رأينا عنها فيما سبق .

وختاما نرجو الله أن ينفعنا بما علمنا وأن لا يجعله وبالاً علينا ، كما نرجو الله أن يرد المسلمين إليه ردًّا جميلاً ، وأن يهدي ولاتهم لتحكيم كتابه وسنة نبيه . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وعلى من سار على هديه إلى يوم الدين .

الجامـــع :

علي الحمد المحمد الصالحي

مقدمة في آداب قراءة القرآن

فصل[1]

في هديه ﷺ في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه، وبكائه عند قراءته واستماعه، وتحسين صوته به، وتوابع ذلك.

كان له ﷺ حزب يقرؤه ولا يُخلّ به. وكانت قراءته ترتيلاً، لا هذًّا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفًا حرفًا. وكان يُقطع قراءته آية آية. وكان يمد عند حروف المد، فيمد «الرحمٰن» ويمد «الرحيم».

وكان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته، فيقول: «أعوذُ بالله مِنَ الشيطانِ الرَّجيم» وربما كان يقول: «اللهُمَّ إني أعوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجيم: من هَمْزِه، ونفْخِه، ونَفْثه» وكان تعوُّذه قبل القراءة. وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره. وأَمَر عبدالله بن مسعود فقرأ عليه وهو يسمع.

وخشع ﷺ لسماع القرآن منه حتى ذرفت عيناه.

وكان يقرأ القرآن قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا، ومتوضئًا ومُحْدثًا، ولم يكن يمنعه من قراءته إلا الجنابة. **وكان** ﷺ يتغنَّى به، ويرجِّع صوته به أحيانًا، كما رجَّع يوم الفتح في قراءته ﴿إِنَّافَتَحنا لَكَ فتحًا مُبينًا﴾. [الفتح: ١].

وحكى عبدالله بن مغفل ترجيعه «آاآ» ثلاث مرات، ذكره البخاري.

وإذا جَمعْتَ هذه الأحاديث إلى قوله: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم» وقوله: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن».

وقوله: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن».

علمت أن هذا الترجيع منه ﷺ كان اختيارًا، لا اضطرارًا لهز الناقة له، فإن هذا لو كان لأجل هز الناقة لما كان داخلاً تحت الاختيار، فلم يكن عبدالله بن مغفل يحكيه، ويفعله اختيارًا ليؤتسى به، وهو يرى هز الراحلة له، حتى ينقطع صوته ثم يقول: «كان يرجع في قراءته» فنسب الترجيع إلى فعله. ولو كان من هز الراحلة لم يكن منه فعل يسمى ترجيعًا.

---

(١) ٢٧٧ زاد المعاد جـ١.

وقد استمع ليلة لقراءة أبي موسى الأشعري، فلما أخبره بذلك قال: «لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبَّرته لك تحبيرًا» أي: حسنته وزينته بصوتي تزيينًا.

وروى أبوداود في سننه عن عبدالجبار بن الورد قال: سمعت ابن أبي مُلَيكة يقول: قال عبدالله بن أبي يزيد: «مر بنا أبولبابة فاتبعناه حتى دخل بيته، فإذا رجل رث الهيئة، فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يُحسِّنه ما استطاع». (١)

(٢) **وكان** ﷺ يقطع قراءته، ويقف عند كل آية، فيقول: «الحمدُ لله ربِّ العَالمينَ» ويقف «الرَّحمنِ الرَّحيم» ويقف «مَالِكِ يوم الدينَ».

وذكر الزهري: أنَ قراءة رسول الله ﷺ كانت آية آية، وهذا هو الأفضل، الوقوف على رءوس الآيات، وإن تعلقت بما بعدها.

وذهب بعض القراء إلى تتبع الأغراض والمقاصد، والوقوف عند انتهائها. واتّباعُ هدي النبي ﷺ وسنتِه أَوْلى. وممن ذكر ذلك البيهقي في شعب الإيمان وغيره، فإنه يرجح الوقوف على رءوس الآي، وإن تعلقت بما بعدها. وكان ﷺ يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، وقام بآية يرددها حتى الصباح(٣).

وقد اختلف الناس في الأفضل من الترتيل وقلة القراءة، أو السرعة، مع كثرة القراءة: أيهما أفضل؟ على قولين.. فذهب ابن مسعود وابن عباس وغيرهما: إلى أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها.

واحتج أرباب هذا القول بأن المقصود من القرآن فهمه وتدبره، والفقه فيه والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه.

كما قال بعض السلف «نزل القرآن ليُعمل به» فاتَّخذوا تلاوته عملاً.

ولهذا كان أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بمافيه، وإن لم يحفظوه عن

(١) بحث المؤلف رحمه الله قراءة الألحان هنا في زاد المعاد وفصل فيها تفصيلاً كاملاً بدءًا من ص ٢٧٨ - إلى ص٢٨٥ جـ١ فمن أراده فليرجع إليه. ج.

(٢) ١٨٢ زاد المعاد جـ١.

(٣) روى النسائي عن جسرة بنت دجاجة عن أبي ذر قال: قام النبي ﷺ، بآية حتى أصبح، والآية: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [المائدة:١١٨].

ظهر قلب. وأما من حفظه ولم يفهمه، ولم يعمل بما فيه: فليس من أهله، وإن أقام حروفه إقامة السهم.

قالوا: ولأن الإيمان أفضل الأعمال، وفهم القرآن وتدبره: هو الذي يثمر الإيمان.

وأما مجرد التلاوة من غير فهم ولا تدبر، فيفعلها البر والفاجر، والمؤمن والمنافق، كما قال النبي ﷺ: «ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن: كمثل الريحانة، ريحها طيّب، وطعمها مُر». والناس في هذا أربع طبقات: أهل القرآن والإيمان، وهم أفضل الناس.

الثانية: مَن عدم القرآن والإيمان. الثالثة: من أُوتي قرآنا ولم يؤتَ إيمانًا.

الرابعة: من أوتي إيمانًا ولم يؤت قرآنًا.

قالوا: فكما أن من أوتي إيمانًا بلا قرآن أفضل ممن أوتي قرآنًا بلا إيمان، فكذلك من أوتي تدبرًا وفهمًا في التلاوة أفضل ممن أوتي كثرة قراءة وسرعتها بلا تدبر.

قالوا: وهذا هدي النبي ﷺ فإنه كان يرتل السورة، حتى تكون أطول من أطول منها وقام بآية حتى الصباح.

وقال أصحاب الشافعي: كثرة القراءة أفضل، واحتجوا بحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم، حرف. ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» رواه الترمذي وصححه.

قالوا: ولأن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ القرآن في ركعة، وذكروا آثارًا عن كثير من السلف في كثرة القراءة.

والصواب في المسألة أن يقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجلّ وأرفع قدرًا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا.

فالأول: كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبداً قيمته نفيسة جدًا.

والثاني: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عددًا من العبيد قيمتهم رخيصة. **وفي** صحيح البخاري عن قتادة قال: «سألت أَنَسًا عن قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كان يمد مدًا».

وقال شعبة: حدثنا أبو جمرة قال: قلت لابن عباس «إني رجل سريع القراءة،

وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين؟ فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورة واحدة أعجب إليَّ من أن أفعل ذلك الذي تفعل، فإن كنت فاعلاً ولابد، فاقرأ قراءة تُسْمِع أذنيك، ويَعيها قلبك».

وقال إبراهيم: قرأ علقمة على ابن مسعود، وكان حسن الصوت، فقال «رتِّل فداك أبي وأمي، فإنه زين القرآن».

وقال ابن مسعود: «لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدَّقل، وقِفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هَمّ أحدكم آخر السورة».

وقال عبدالله أيضًا: «إذا سمعت الله يقول ﴿ياأيها الَّذين آمنوا﴾ فأصغ لها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تصرف عنه». . .

وكان رسول الله ﷺ يُسِرُّ بالقرآن في صلاة الليل تارة، ويجهر بها تارة، ويطيل القيام تارة، ويخففه تارة، ويوتر آخر الليل، وهو الأكثر وأوله تارة وأوسطه تارة.

فصـــل(1)

وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه. وجمع الفكر على تدبره وتعقله. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر.

قال الله تعالى: **﴿كِتَابٌ أنزَلنَاهُ إليكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ. وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الألبَابِ﴾**. [ص: ٢٩].

وقال تعالى: **﴿أَفَلا يَتَدبَّرُون القُرآنَ، أَم عَلَى قُلُوبٍ أقفَالُهَا﴾**. [محمد: ٢٤].

وقال تعالى: **﴿أَفَلَم يَدَّبَّرُوا القَولَ﴾**. [المؤمنون: ٦٨].

وقال تعالى: **﴿إنَّا جَعَلنَاهُ قُرآنًا عربيًّا لَعَلَّكُم تَعقِلُون﴾**. [الزخرف: ٣].

وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن، وإطالة التأمل. وجمع الفكر فيه على معاني آياته. فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما. وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتتُلُّ في يده(2) مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة.

وتثبت قواعد الإيمان في قلبه. وتشيد بنيانه. وتوطد أركانه. وتريه صورة الدنيا

(١) ٤٥١ مدارج جـ١.

(٢) تل الشيء في يده ـ بالمثناة المفتوحة ـ وضعه فيها.

والآخرة، والجنة والنار في قلبه **وتحضره** بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم. وتُبَصرِّه مواقع العبر وتشهده عدل الله وفضله.

وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، ومايحبه ومايبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها.

وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها.

وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم. ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه. وافتراقهم فيما يفترقون فيه...

(١)وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب حبيبًا كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه.

فصل(٢) في هديه ﷺ في سجود القرآن

كان ﷺ إذا مر بسجدة كبَّر، وسجد، وربما قال في سجوده «سجد وجهي للذي خَلَقَه وصوَّره، وشقَّ سمعه وبصره بحوله وقوته» وربما قال: «اللهم احطط عني بها وزرًا، واكتب لي بها أجرًا، واجعلها لي عندك ذُخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود» ذكرهما أهل السنن، ولم يذكر عنه: أنه كان يكبر للرفع من هذا السجود. ولذلك لم يذكره الخرقي ومتقدمو الأصحاب، ولا نقل فيه عنه تشهد ولا سلام ألبتة. وأنكر أحمد والشافعي السلام فيه، فالمنصوص عن الشافعي: أنه لا تشهد فيه ولا تسليم، وقال أحمد: أما التسليم فلا أدري ما هو؟ وهذا هو الصواب الذي لا ينبغي غيره.

وصح عنه ﷺ أنه سجد في ﴿**آلم تنزيل**﴾ وفي ﴿**صٓ**﴾ وفي ﴿**النجم**﴾ وفي ﴿**إذا السماء انشقت**﴾ وفي ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾ وذكر أبوداود عن عمرو بن العاص «أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة: منها ثلاث في المفصّل، وفي سورة الحج سجدتان» وأما حديث أبي الدرداء: «سجدت مع رسول الله ﷺ إحدى عشرة سجدة، ليس فيها من المفصل شيء: الأعراف، والرعد، والنحل،

---

(١) ٢٢٣ الجواب الكافي. (٢) ٩٧ زاد المعاد جـ١.

وبني إسرائيل، ومريم، والحج، وسجدة الفرقان، والنمل، والسجدة، وص، وسجدة الحواميم» فقال أبوداود: رُوِي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «إحدى عشرة سجدة» وإسناده واهٍ.

وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ لم يسجد في المفصل منذ تحول إلى المدينة» رواه أبو داود: فهو حديث ضعيف؛ في إسناده أبو قدامة الحارث بن عبيد، لا يحتج بحديثه، قال الإمام أحمد: أبو قدامة مضطرب الحديث. وقال يحيى بن معين: ضعيف. وقال النسائي: صدوق عنده مناكير. وقال أبوحاتم البُستي: كان شيخًا صالحًا ممن كثر وهْمه. وعلله ابن القطان بمطر الوراق. وقال :كان يشبهه في سوء الحفظ محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، وعِيبَ على مسلم إخراج حديثه. انتهى كلامه. ولا عيب على مسلم في إخراج حديثه؛ لأنه ينتقي من أحاديث هذا الضرب ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه. فغلط في هذا المقام من استدرك عليه إخراج جميع حديث الثقة. ومن ضعف جميع حديث سيء الحفظ. فالأولى: طريقة الحاكم وأمثاله، والثانية: طريقة أبي محمد بن حزم وأشكاله. وطريقة مسلم هي طريقة أئمة هذا الشأن. والله المستعان.

وقد صح عن أبي هريرة «أنه سجد مع النبي ﷺ في ﴿**إقرَأ بِاسم رَبِّك الذي خَلَق**﴾. [العلق: ١]. وفي ﴿**إذا السماء انشقت**﴾». [الانشقاق: ١]. وهو إنما أسلم بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بست سنين أو سبع. فلو تعارض الحديثان من كل وجه، وتقاوما في الصحة، لتعيَّن تقديم حديث أبي هريرة، لأنه مثبت معه زيادة علم خفيت على ابن عباس، فكيف وحديث أبي هريرة في غاية الصحة، متفق على صحته، وحديث ابن عباس فيه من الضعف ما فيه؟ والله أعلم.

(١)**المثال** الثامن والستون: رد السنة الثابتة في إثبات سجدات المفصل، والسجدة الأخيرة من سورة الحج، كما روى أبوداود في السنن: حدثنا محمد بن عبدالرحيم البرقي: ثنا سعيد بن أبي مريم: أخبرنا نافع بن يزيد، عن الحارث بن سعيد العتقي، عن عبدالله بن منير، عن عمرو بن العاص: «أن النبي ﷺ أقرأه خمس عَشْرَةَ سجدةً في القرآن، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان» تابعه

(١) ٣٨٧ أعلام جـ٢.

محمـد بن إسـماعيل السلمي عن سعيد بن أبي مريم، وقال ابن وهب: أنا ابن لهيعة، عن مشرح بن عاهان،عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلَتْ سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجد فيهما فلا يقرأهما» وحديث ابن لهيعة يحتج منه بما رواه عنه العَبَادلة: كعبدالله بن وهب، وعبدالله بن المبارك،وعبدالله بن يزيد المقري، قال أبوزرعة: ابن لهيعة كان ابن المبارك وابن وهب يتبعان أصوله، وقال عمرو بن علي: مَنْ كتَبَ عنه قبل احتراق كتبه مثل ابن المبارك وابن المقري أصح ممن كتب عنه بعد احتراقها، وقال ابن وهب: كان ابن لهيعة صادقًا، وقد انتقى النسائي هذا الحديث من جملة حديثه، وأخرجه، واعتمده، وقال. ما أخرجت من حديث ابن لهيعة قط إلا حديثًا واحدًا أخبرَنَاه هلال بن العلاء: ثنا معافى بن سليمان، عن موسى بن أَعْينَ، عن عمرو بن الحارث، عن ابن لهيعة، فذكره.

وقال ابن وهب: حدثني الصادقُ البارُّ ـ والله ـ عبدالله بن لهيعة، وقال الإمام أحمـد: من كان مثل ابن لهيعة بمصر في كثرة حديثه وضبطه وإتقانه؟! وقال ابن عُيينة: كان عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع، وقال أبوداود: سمعت أحمد يقول: ما كان مُحدّث مصر إلا ابن لهيعة، وقال أحمد بن صالح الحافظ: كان ابن لهيعة صحيح الكتاب طالبًا للعلم.

وقال ابن حِبان: كان صالحًا؛ لكنه يدلس عن الضعفاء، ثم احترقت كتبه، وكان أصحابنا يقولون: سماع مَنْ سمع منه قبل احتراق كتبه مثل العَبَادلة: ابن وهب، وابن المبارك والمقري والقعنبي فسماعهم صحيح، وقد صح عن أبي هريرة؛ أنه سجد مع النبي ﷺ في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾. [الانشقاق: ١]. وصح عنه ﷺ أنه سجد في النجم، ذكره البخاري.

فردت هذه السنن برأي فاسد وحديث ضعيف:

أما الرأي فهو أن آخر الحج السجود فيها سجود الصلاة لاقترانه بالركوع، بخلاف الأولى؛ فإن السجود فيها مجرد عن ذكر الركوع، ولهذا لم يكن قوله تعالى: ﴿يـا مَريَمُ اقْنُتِي لِرَبِّـكِ وَاسجُدِي وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينْ﴾. [آل عمران: ٤٣]. من مواضع السجدات بالاتفاق.

وأما الحـديث الضعيف فما رواه أبـو داود: ثنا محمد بن رافع: ثنا أزهر بن القاسم: ثنا أبو قدامة، عن مطر الوراق، عن عكرمة، عن ابن عباس أن النبي،

ﷺ، «لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة». **فأما** الرأي فيدل على فساده وجوه: منها أنه مردود بالنص.

ومنها أن اقتران الركوع بالسجود في هذا الموضع لا يخرجه عن كونه موضع سجدة، كما أن اقترانه بالعبادة التي هي أعم من الركوع لا يخرجه عن كونه سجدة، وقد صح سجوده، ﷺ، في النجم، وقد قرن السجود فيها بالعبادة كما قرنه بالعبادة في سورة الحج، والركوع لم يزده إلا تأكيدًا.

ومنها أن أكثر السجدات المذكورة في القرآن متناولة لسجود الصلاة؛ فإن قوله تعالى: ﴿**ولله يَسْجُدُ مَنْ في السَّماوات والأَرْض طَوْعًا وكَرْهًا**﴾. [الرعد: ١٥]. يدخل فيه سجود المصلين قطعًا، وكيف لا وهو أجل السجود وأفرضه؟ وكيف لا يدخل هو في قوله: ﴿**فاسْجُدُوا لله واعْبُدُوا**﴾. [النجم: ٦٢]. وفي قوله: ﴿**كَلَّا لا تُطِعْهُ واسْجُد واقْتَرِبْ**﴾. [العلق: ١٩]. وقد قال قبل: ﴿**أرأيت الذي ينهى عَبْدًا إذا صَلَّى**﴾. [العلق: ٩، ١٠]. ثم قال: ﴿**كَلَّا لا تُطِعْهُ واسْجُدْ واقْتَرِبْ**﴾. [العلق: ١٩]. فأمره بأن يفعل هذا الذي نهاه عنه عدو الله، فإرادة سجود الصلاة بآية السجدة لا تمنع كونها سجدة، بل تؤكدها وتقويها.

يوضحه أن مواضع السجدات في القرآن نوعان: إخبار، وأمر.

فالإخبار خبر من الله تعالى عن سجود مخلوقاته له عمومًا أو خصوصًا، فسُنَّ للتالي والسامع وجوبًا أو استحبابًا أن يتشبه بهم عند تلاوة آية السجدة أو سماعها، وآيات الأوامر بطريق الأولى. وهذا لا فرق فيه بين أمر وأمر، فكيف يكون الأمر بقوله: ﴿**فاسْجُدُوا لله واعْبُدُوا**﴾. [النجم: ٦٢]. مقتضيًا للسجود دون الأمر بقوله: ﴿**يَاأَيُّها الذين آمنوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا**﴾. [الحج: ٧٧]. فالساجد إما متشبه بمن أخبر عنه، أو ممتثل لما أمر به، وعلى التقديرين يُسَنُّ له السجود في آخر الحج كما يسن له السجود في أولها؛ فلما سَوَّت السنة بينهما سَوى القياس الصحيح والاعتبار الحق بينهما، وهذا السجود شرَعه الله ورسوله عبودية عند تلاوة هذه الآيات واستماعها، وقربة إليه، وخضوعًا لعظمته، وتذللاً بين يديه، واقتران الركوع ببعض آياته مما يؤكد ذلك ويقويه، لا يضعفه ويوهيه، والله المستعان.

وأما قوله تعالى: ﴿**يا مَرْيَمُ اقنُتِي لِرَبِّكِ واسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكعين**﴾. [آل

عمران:٤٣]. فإنها لم يكن موضع سجدة؛ لأنه خبر خاص عن قول الملائكة لامرأة بعينها أن تُديم العبادة لربها بالقنوت وتصلي له بالركوع والسجود؛ فهو خبر عن قول الملائكة لها ذلك، وإعلام من الله تعالى لنا أن الملائكة قالت ذلك لمريم، فسياق ذلك غير سياق آيات السجدات.

وأما الحديث الضعيف فإنه من رواية أبي قدامة ـ واسمه الحارث بن عبيد ـ قال الإمام أحمد رضي الله عنه: هو مضطرب الحديث، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال الأزدي: ضعيف، وقال ابن حبان: لا يحتج به إذا انفرد. قلت: وقد أنكر عليه هذا الحديث وهو موضع الإنكار؛ فإن أبا هريرة رضي الله عنه شهد سجوده ﷺ في المفصل في ﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١]. و ﴿اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ﴾. [العلق:١]. ذكره مسلم في صحيحه، وسجد معه، حتى لو صح خبر أبي قدامة هذا لوجب تقديمُ خبر أبي هريرة عليه؛ لأنه مثبت فمعه زيادة علم، والله أعلم.

المثال التاسع والستون: رد السنة الثابتة الصحيحة في سجود الشكر، كحديث عبدالرحمن بن عوف؛ أن رسول الله ﷺ خرَجَ نحو أُحد فخرَّ ساجدًا فأطال السجود، ثم قال: «إن جبريل أتاني وبشّرني فقال: إن الله تعالى يقول لك: مَنْ صلى عليك صليتُ عليه، ومن سلّم عليك سلمت عليه، فسجدت لله تعالى شاكرًا» وكحديث سعد بن أبي وقاص في سجوده ﷺ شاكرًا لربه، لما أعطاه ثلث أمته، ثم سجد ثانية فأعطاه الثلث الآخر، ثم سجد ثالثة فأعطاه الثلث الباقي، وكحديث أبي بكر، أن رسول الله ﷺ «كان إذا جاءه أمر يُسَرُّ به خر ساجدًا شكرًا لله تعالى، وأتاه بشير يبشره بظفر جُنْدٍ له على عدوهم، فقام وخر ساجدًا».

وسجد كعب بن مالك لما بشر بتوبة الله عليه، وسجد أبو بكر حين جاءه قتل مُسَيْلمة الكذاب، وسجد علي كرَّم الله وَجْهَه حين وجد ذا الثُّدَية في الخوارج الذين قتلهم، ولا أعلم شيئًا يدفع هذه السنن والآثار مع صحتها وكثرتها غير رأي فاسد، وهو: أن نعم الله سبحانه وتعالى لاتزال واصلة إلى عبده، فلا معنى لتخصيص بعضها بالسجود، وهذا من أفسد رأي وأبطله؛ فإن النعم نوعان: مستمرة، ومتجددة، فالمستمرة شكرها بالعبادات والطاعات، والمتجددة شرع لها سجود

الشكـر؛ شكرًا لله عليها، وخضوعًا له، وذلًّا في مقابلة فَرْحَة النعم وانبساط النفس لها، وذلـك من أكـبر أدوائهـا؛ فإن الله سبحـانـه لا يحب الفَرِحين ولا الأشِرين؛ فكان دواء هذا الداء الخضوع والذل والانكسار لرب العالمين، وكان في سجود الشكر من تحصيل هذا المقصود ما ليس في غيره، ونظير هذا السجود عند الآيات التي يُخوف الله بها عباده كما في الحديث: «**إذا رأيتم آية فاسجدوا**» وقد فزع النبي ﷺ عند رؤية انكساف الشمس إلى الصلاة، وأمر بالفزع إلى ذكره، ومعلوم أن آياته تعالى لم تزل مشاهدة معلومة بالحس والعقل، ولكن تجددها يُحدث للنفس من الـرهبـة والفـزع إلى الله مالا تحدثه الآيات المستمرة، فتجدُّد هذه النعم في اقتضـائهـا لسجود الشكر كتجدد تلك الأيات في اقتضائها للفزع إلى السـجود والصلوات، ولهذا لما بلغ فقيه الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس موتُ ميمونة زوج النبي ﷺ خر ساجدًا، فقيل له: أتسجد لذلك؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم آيـة فاسجـدوا**» وأي آية أعـظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ من بين أظهرنا؟ فلو لم تأت النصوصُ بالسجود عند تجدُّد النِّعَم لكان هو محض القياس، ومقتضى عبودية الرغبة، كما أن السجود عند الآيات مقتضى عبودية الرهبة، وقد أثنى الله سبحانه على الذين يُسارعون في الخيرات ويدعونه رَغَبًا ورهبًا، ولهذا فرق الفقهاء بين صلاة الكسوف وصلاة الاستسقاء بأن هذه صلاة رهبة وهذه صلاة رغبة، فصلوات الله وسلامه على مَنْ جاءت سننه وشريعته بأكمل ما جاءت به شرائع الرسل وسننهم وعلى آله.

تَفسِيرُ سُورَةِ الفَاتِحَة

سُورَةُ الفَاتِحَة — ترتيبها ١ — آياتها ٧

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**فاتحة** الكتاب: وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم، والخوف والحزن لمن عرف مقدارها، وأعطاها حقها. وأحسن تنزيلها على دائه. وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها. والسر الذي لأجله كانت كذلك.

ولما وقع بعض الصحابة على ذلك رقى بها اللديغ. فبرأ لوقته. فقال له النبي ﷺ: **«وما أدراك أنها رقية؟»**.

ومن ساعده التوفيق، وأُعِينَ بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة، وما اشتملت عليه: من التوحيد، ومعرفة الذات والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية. والتوكل والتفويض إلى من له الأمر كله، وله الحمد كله وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين، أغنته عن كثير من الأدوية والرقى.

(٢) فصل

ولما كانت «التوبة» هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم. ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن. فمن أعطى الفاتحة حقها ـ علمًا وشهودًا وحالاً ومعرفة ـ علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النَّصوح. فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها. فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدى، والثاني غَيٌّ ينافي قصده وإرادته. فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخرًا.

(٣)**والعبد** إذا عزم على فعل أمر فعليه أن يعلم أولا: هل هو طاعة لله أم لا؟ فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مُباحاً يستعين به على الطاعة، وحينئذ يصير طاعة.

فإذا بان له أنه طاعة فلا يُقْدِم عليه حتى ينظر هل هو مُعَانٌ عليه أم لا؟ فإن لم يكن مُعاناً عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه.

(١) ٣٧٣ زاد المعاد جـ٣. (٢) ١٧٩ مدارج جـ١.

(٣) ١٦٠ أعلام جـ٢

وإن كان مُعاناً عليه بقي عليه نظر آخر، وهو أن يأتيه من بابه؛ فإن أتاه من غير بابه أضاعه أو فرط فيه أو أفسد منه شيئًا.

فهذه الأمـور الثلاثة أصلُ سعادة العبد وفلاحه، وهي معنى قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٥، ٦].

فأسعد الخلق أهل العبادة، والاستعانة، والهداية إلى المطلوب، وأشقاهم منْ عدم الأمور الثلاثة.

ومنهم من يكون له نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصيبه من ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ معدوم أو ضعيف؛ فهذا مخذول مهينٌ محزون.

ومنهم من يكون نصيبه من ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قويًا ونصيبه من ﴿إِيَّاكَ نعبُدُ﴾ ضعيفاً أومفقوداً؛فهذا لهنفوذ وتسلطوقوة،ولكن لاعاقبة له،بل عاقبته أسوأ عاقبة.

ومنهم من يكون له نصيب من ﴿إياكَ نَعبُدُ، وإِيَّاكَ نَستَعِين﴾ ولكن نصيبه من الهـداية إلى المقصـود ضعيف جدًّا، كحـال كثير من العُبَّاد. والزهاد الذين قلَّ علمهم بحقائق مابعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق.

(١) **صلاح** العبـد وسعـادتـه في تحقيق معنى قولـه: ﴿إِيَّـاكَ نَعْبُدُ وإِيَّـاكَ نَسْتعين﴾. [الفاتحة: ٥، ٦]. فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب.

فالأول: من معنى ألوهيته، والثاني: من معنى ربوبيته، فإن الإله هو الذي تألهـه القلوب: محبـة، وإنابة، وإجلالاً، وإكراما، وتعظيماً، وذُلًّا، وخضوعاً، وخوفاً، ورجاءً، وتوكلاً، والرب هو الذي يُربي عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحه. فلا إله إلا هو، ولا رب إلا هو، فكما أن ربوبية ماسواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ماسواه. . .

(٢) **ثم** قوله ﴿اهدِنا الصراط المستقيم﴾ يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها وهي بيده، إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها.

والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله تعالى عالماً بالحق عاملاً به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلف عنهـا، وهي جعل العبد مريدًا للهدى محبًّا له مؤثراً له عاملاً به، فهذه

---

(١) ٢٧ إغاثة جـ ١.		(٢) ٥٣ شفاء العليل.

الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿**إنَّك لا تَهْدِي من أحبَبْت ولكنَّ الله يَهْدِيْ من يشاء**﴾. [القصص:٥٦]. مع قوله تعالى: ﴿**وإنَّك لتهدي إلى صراطٍ مُستقيم**﴾. [الشورى:٥٢]. فهذه هداية الدعوة والتعليم والإرشاد، وهي التي هدى بها ثمود فاستحبوا العمى عليها، وهي التي قال تعالى فيها: ﴿**وما كان الله لِيُضلَّ قوماً بَعْدَ إذْ هداهُمْ حَتَّى يُبين لَهُمْ ما يَتَّقُونَ**﴾. [التوبة:١١٥]. فهداهم هدى البيان الذي تقوم به حجته عليهم، ومنعهم الهداية الموجبة للاهتداء. التي لا يضل من هداه بها. فذاك عدله فيهم وهذا حكمته فأعطاهم ماتقوم به الحجة عليهم ومنعهم ماليسوا له بأهل ولا يليق بهم...

والمقصود ذكر بعض مايدل على إثبات هذه المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر، وهي خلق الله تعالى لأفعال المكلفين ودخولها تحت قدرته ومشيئته كما دخلت تحت علمه وكتابه.

قال تعالى ﴿**الله خَالِقُ كُلِّ شيء وهو على كُلِّ شيء وكيل**﴾. [الزمر:٦٢]. وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصًا بذاته وصفاته فإنه الخالق بذاته وصفاته وماسواه مخلوق له، واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخلة في مسمى اسمه.

فإن الله سبحانه اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال، المنزه عن كل صفة نقص ومثال، والعالم قسمان: أعيان وأفعال، وهو الخالق لأعيانه ومايصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك فلا يخرج شيء منه عن علمه ولا عن قدرته ولا عن خلقه ومشيئته.

(١)**والهداية** هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره، فالمهتدي هو العامل بالحق المريد له، وهي أعظم نعمة لله على العبد.

ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم، كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله، ومعلوم أن مايجهله العبد أضعاف أضعاف مايعلمه، وأن كل مايعلم أنه حق لا تطاوعه نفسه على إرادته، ولو أراده لعجز عن كثير منه فهو

(١) ٨٣ مفتاح جـ ١.

مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل.

أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه. وهل وقع على السداد؛ فيشكر الله عليه ويستديمه، أم خرج فيه عن الحق؛ فيتوب إلى الله تعالى منه، ويستغفره ويعزم على أن لا يعود.

وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه فإنه ابن وقته فيحتاج أن يعلم حكم ماهو متلبس به من الأفعال هل هو صواب أم خطأ؟

وأما المستقبل فحاجته فيه إلى الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق.

وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطراراً إليها.

وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد، وهو: إنا إذا كنا مهتدين فأي حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا؟!. وهل هذا إلا تحصيل الحاصل؟ أفسد سؤال وأبعده عن الصواب وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علماً بحقيقتها ومسماها، فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى ثبتنا على الهداية وأدمها لنا.

ومن أحاط علماً بحقيقة الهداية وحاجة العبد إليها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ماحصل له وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة.

لا سيما والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة. ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها. فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه بل لابد من عدم مانعه ومنافيه.

(١)**للإنسان** قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية.

واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها.

فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية. وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها.

واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه ـ سبحانه ـ على

(١) ١٨ فوائد.

العبد، والقيام بها إخلاصاً وصدقاً، ونصحاً وإحساناً، ومتابعة وشهوداً لِمِنَّتِهِ عليه وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مستحيي من مواجهته بتلك الخدمة، لعلمه أنها دون مايستحقه عليه ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته، فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم؛ الذي هدى إليه أولياءه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب.

فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام.

فإن قوله: **﴿الحمدُ لله ربِّ العالمِين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدِّين﴾**. [الفاتحة: ١-٣]. يتضمن الأصل الأول؛ وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى؛ وهي اسم الله، والرب، والرحمن. فاسم الله متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر. ومعاني أسمائه تدور على هذا.

وقوله: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وإياكَ نَسْتَعِينُ﴾. يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته.

وقوله: ﴿اهْدِنَا الصراط المُسْتَقِيم﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله ﴿غَيرِ المغضُوبِ عَلَيهِمْ ولا الضَّآلين﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله

إلى نعمته ورحمته، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته، فلا يكون إلا رحيماً منعماً، وذلك من موجبات إلهيته، فهو الإله الحق وإن جحده الجاحدون وعدل به المشركون. **فمن** تحقق بمعاني الفاتحة علمًا ومعرفة وعملاً وحالاً، فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين، والله المستعان.

فصل(١)

ولما كان تمامُ النعمة على العبد إنما هو بالهدى والرحمة، كان لهما ضدان: الضلال والغضب.

فأمرنا الله سبحانه أن نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويجنبنا طريق المغضوب عليهم، وهم ضد المرحومين وطريق الضآلين وهم ضد المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء من أجمع الدعاء، وأفضله وأوجبه، وبالله التوفيق.

(٢) فصل

إذا عرفت هذه المقدمات: فالجمع الصحيح ـ الذي عليه أهل (الاستقامة) ـ هو جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية. فيشهد صاحبه قَيُّومِيَّة الرب تعالى فوق عرشه، يدبر أمر عباده وحده. فلا خالق ولا رازق، ولا معطي ولا مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبر لأمر المملكة ـ ظاهراً وباطناً ـ غيره. فما شاء كان. وما لم يشأ لم يكن. لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. ولا يجري حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه. وأحاطت بها قدرته. ونفذت بها مشيئته. واقتضتها حكمته. فهذا جمع توحيد الربوبية.

وأما جمع توحيد الإلهية، فهو: أن يجمع قلبه وهمه وعزمه على الله. وإرادته، وحركاته على أداء حقه تعالى، والقيام بعبوديته سبحانه، فتجتمع شؤون إرادته على مراده الديني الشرعي.

وهذان الجمعان: هما حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن العبد يشهد من قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات الكمال التي لها كل الأسماء الحسنى.

(١) ١٧٥ إغاثة.

(٢) ٥١٠ مدارج جـ ٣.

ثم يشهد من قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً. قصدًا وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً.

ثم يشهد من قوله: ﴿وإيَّاك نستعين﴾ جميع أنواع الاستعانة والتوكل. والتفويض. فيشهد منه جمع الربوبية. ويشهد من: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ جمع الإلهية. ويشهد من: ﴿إيَّاك﴾ الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ثم يشهد من ﴿اهْدِنا﴾ عشر مراتب. إذا اجتمعت حصلت له الهداية:

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان. فيجعله عالماً بالحق مدركاً له.

الثانية: أن يُقدره عليه. وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريداً له. **الرابعة:** أن يجعله فاعلاً له.

الخامسة: أن يثبته على ذلك. ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة. أخص من الأولى.

فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالاً. وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلاً.

الثامنة: أن يُشهده المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه. فيكون مطالعاً له في سيره، ملتفتاً إليه، غير محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يُشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها. وهما طريق أهل الغضب، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً. وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً. ثم يشهد جمع ﴿الصراط المستقيم﴾ في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

فهذا هو الجمع الذي عليه رسل الله وأتباعهم. فمن حصل له هذا الجمع. فقد هدي إلى الصراط المستقيم. والله أعلم.

فصل (١)

إذا كان كل عمل فأصله المحبة والإرادة، والمقصود به التنعم بالمراد المحبوب، فكل حي إنما يعمل لما فيه تنعمه ولذته. فالتنعم هو المقصود الأول من كل قصد وكل حركة، كما أن العذاب والتألم هو المكروه المقصود أولاً بكل بغض وكل امتناع وكف، ولكن وقع الجهل والظلم من بني آدم بمعنيين: بالدِّين الفاسد، والدُّنيا الفاجرة، طلبوا بهما النعيم، وفي الحقيقة فإنما فيهما ضده. ففاتهم النعيم من حيث طلبوه، وآثروه، ووقعوا في الألم والعذاب من حيث هربوا منه.

وبيان ذلك: أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذوها ديناً: أو لا يتخذوها دينًا. **والذين** يتخذونها ديناً إما أن يكون الدِّين بها دين حق، وإما أن يكون دينا باطلا.

فنقول: النعيم التام: هو في الدين الحق علمًا وعملاً، فأهله هم أصحاب النعيم الكامل.

كما أخبر الله تعالى بذلك في كتابه في غير موضع، كقوله: ﴿**اهْدنا الصراط المسْتقيم. صراط الذين أنْعَمْتَ عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾. [الفاتحة:٦،٧]. وقوله عن المتقين المهتدين بالكتاب: ﴿**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾. [البقرة:٥]. وقوله: ﴿**فإمَّا يأتينَكم مني هُدى فمن اتَّبع هُداي فلا يَضِلُّ ولا يشقى**﴾. [طه:١٢٣]. وفي الآية الأخرى: ﴿**فَمَنْ تَبع هُداي فلا خوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون**﴾. [البقرة:٣٨]. وقوله: ﴿**إن الأبرار لفي نعيم وإن الفُجَّار لفي جحيم**﴾. [الانفطار:١٣-١٤]. **والقرآن مملوء من هذا.**

فوَعدُ أهل الهدى والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة، ووعيد أهل الضلال والفجور بالشقاء في الدار الآخرة مما اتفقت عليه الرسل، من أولهم إلى آخرهم، وتضمنته الكتب. **ولكن** نذكر ههنا نكتة نافعة.

وهي: أن الإنسان قد يسمع ويرى مايصيب كثيراً من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وماينال كثيراً من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال، وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل.

---
(١) ١٧٦ إغاثة جـ ٢.

وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين. **فإذا** سمع في القرآن قوله تعالى: **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾**. [المنافقون: ٨]. وقوله: **﴿وَإِنَّ جُنْدنا لهم الغالبون﴾**. [الصافات: ١٧٣]. وقوله: **﴿كَتَبَ الله لَأَغْلِبَنَّ أنا ورسُلي﴾**. [المجادلة: ٢١]. وقوله: **﴿والعاقِبَةُ للمتقين﴾**. [الأعراف: ١٢٨]. ونحو هذه الآيات، وهو ممن يصدق بالقرآن، حمل ذلك على أن حصوله في الدار الآخرة فقط. وقال: أما الدنيا فإنَّا نرى الكفار والمنافقين يغلبون فيها، ويظهرون، ويكون لهم النصر والظفر. والقرآن لا يرد بخلاف الحس.

ويعتمد على هذا الظن إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين، أو الفجرة الظالمين: وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى. فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق، فيقول: أنا على الحق، وأنا مغلوب، فصاحب الحق في هذه الدنيا مغلوب مقهور، والدولة فيها للباطل.

فإذا ذُكِّر بما وعده الله تعالى من حسن العاقبة للمتقين والمؤمنين، قال: هذا فى الآخرة فقط. **وإذا** قيل له: كيف يفعل الله تعالى هذا بأوليائه وأحبائه، وأهل الحق؟.

فإن كان ممن لا يعلل أفعال الله تعالى بالحكم والمصالح، قال: يفعل الله في ملكه مايشاء، ويحكم مايريد **﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون﴾**. [الأنبياء: ٢٣].

وإن كان ممن يعلل الأفعال، قال فعل بهم هذا ليعوضهم بالصبر عليه بثواب الآخرة وعلو الدرجات، وتوفية الأجر بغير حساب.

ولكل أحد مع نفسه في هذا المقام مباحثات وإيرادات وإشكالات وأجوبة، بحسب حاصله وبضاعته، من المعرفة بالله تعالى وأسمائه وصفاته وحكمته، والجهل بذلك، فالقلوب تغلي بما فيها، كالقدر إذا استجمعت غليانا . . .

(١) **وقد** جاء في السنة ماهو أخص من الحمد وهو الثناء الذي هو تكرار المحامد كما في قول النبي ﷺ لأهل قبا: «ماهذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به؟»، فإذا كان قد أثنى عليهم والثناء حمد متكرر، فما يمنع حمده لمن شاء من عباده. ثم الصحيح في تسمية النبي ﷺ محمداً أنه الذي يحمده الله وملائكته وعباده المؤمنون، وأما من قال: الذي يحمده أهل السموات وأهل الأرض فلا ينافي حمد الله تعالى،

(١) ٩٣ بدائع جـ٢.

بل حمد أهـل السمـوات والأرض له بعد حمد الله له، فلما حمده الله حمده أهل السموات والأرض.

وبالجملة فإذا كان الحمد ثناء خاصًا على المحمود لم يمتنع أن يحمد الله من يشاء من خلقه كما يثني عليه، فالصواب في الفرق بين الحمد والمدح أن يقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخبارًا مجردًا من حب وإرادة أو مقروناً بحبه وإرادته فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد، فالحمد إخبار عن محاسن المحمـود مع حبـه وإجـلالـه وتعظيمه، ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء بخـلاف المـدح فإنه خبر مجرد، فالقائل إذا قال: الحمد لله، أو قال: ربنا لك الحمد، تضمن كلامه الخبر عن كل مايحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الحمد المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه وهو الحميد المجيد، ولما كان هذا المعنى مقارنًا للحمد لا تقوم حقيقته إلا به؛ فسره من فسره بالرضى والمحبة وهو تفسير له بجزء مدلوله، بل هو رضاء ومحبة مقارنة للثناء؛ ولهذا السر ـ والله أعلم ـ جاء فعله على بناء الطبائع والغرائز، فقيل: حمد لتضمنه الحب الذي هو بالطبائع والسجايا أولى وأحق من فهم وحذر وسقم ونحوه بخلاف الإخبار المجرد عن ذلك وهو المدح؛ فإنه جاء على وزن فعل فقالوا: مدحه لتجرد معناه من معاني الغرائز والطبائع. فتأمل هذه النكتة البديعة وتأمل الإنشاء الثابت في قولك: ربنا لك الحمد، وقولك: الحمد لله كيف تجده تحت هذه الألفاظ؟ ولذلك لا يقال: موضعها المدح لله، ولا ربنا لك المدح، وسره ماذكـرت لك من الأخبار بمحاسن المحمود إخبارًا مقترنًا بحبه وإرادته وإجلاله وتعظيمه فإن قلت: فهذا ينقض قولكم: إنه لا يمتنع أن يحمد الله تعالى من شاء من خلقه؛ فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء ولا يستحق التعظيم غيره فكيف يعظم أحـدًا من عبـاده؟ قلتُ: المحبة لا تنفك عن تعظيم وإجلال للمحبوب ولكن يضاف إلى كل ذات بحسب ماتقتضيه خصائص تلك الذات فمحبة العبد لربه تستلزم إجـلالـه وتعظيمه، وكذلك محبة الرسول تستلزم توقيره وتعزيزه وإجلاله وكذلك محبة الوالدين والعلماء وملوك العدل.

وأما محبة الرب عبده فإنها تستلزم إعزازه لعبده وإكرامه إياه والتنويه بذكره وإلقاء التعظيم والمهابة له في قلوب أوليائه، فهذا المعنى ثابت في محبته وحمده لعبده سمي تعظيمًا وإجلالاً أو لم يسم.

ألا ترى أن محبته سبحانه لرسله كيف اقتضت أن نوه بذكرهم في أهل السماء والأرض، ورفع ذكرهم على ذكر غيرهم، وغضب على من لم يحبهم ويوقرهم ويجلهم، وأحل به أنواع العقوبات في الدنيا والآخرة، وجعل كرامته في الدنيا والآخرة لمحبيهم وأنصارهم وأتباعهم؟.

أوَ لا ترى كيف أمر عباده وأولياءه بالصلاة، التي هي تعظيم وثناء على خاتمهم وأفضلهم صلوات الله عليه وسلامه؟ أفليس هذا تعظيماً لهم وإعزازاً وتكريمًا وإكراماً؟. **فإن** قيل: فقد ظهر الفرق بين الحمد والمدح واستبان صبح المعنى وأسفر وجهه، فما الفرق بينهما وبين الثناء والمجد؟.

قيل: قد تعدينا طورنا فيما نحن بصدده، ولكن نذكر الفرق تكميلاً للفائدة فنذكر تقسيمًا جامعاً لهذه المعاني الأربعة أعني: الحمد، والمدح، والثناء، والمجد.

فنقول: الإخبار عن محاسن الغير له ثلاثة اعتبارات:

اعتبار من حيث المخبر به. واعتبار من حيث الإخبار عنه بالخبر. واعتبار من حيث حال المخبر.

فمن حيث الاعتبار الأول ينشأ التقسيم: إلى الحمد، والمجد فإن المخبر به: إما أن يكون من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها، أو من أوصاف الجمال والإحسان وتوابعها، فإن كان الأول فهو المجد، وإن كان الثاني فهو الحمد، وهذا لأن لفظ (م ج د) في لغتهم يدور على معنى الاتساع والكثرة، فمنه قولهم: (أمجد الدابة علفًا) أي: أوسعها علفًا، ومنه مجد الرجل فهو ماجد إذا كثر خيره وإحسانه إلى الناس قال الشاعر:

أنت تكون ماجد نبيل * إذا تهب شمأل بليل

ومنه قولهم في كل شجر نار واستمجد المرخ(١) والعفار(٢) أي كثرت النار فيهما.

ومن حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد، فإن الخبر عن المحاسن؛ إما متكرر أوْ لا. فإن تكرر فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد، فإن

---

(١) المرخ: شجر سريع الوري أي الوقود. (٢) والعفار كسحاب: شجر يتخذ منه الزناد.

الثناء مأخوذ من الثنى وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض. ومنه ثنيت الثوب، ومنه التثنية في الاسم، فالمثنى مكرر لمحاسن من يثني عليه مرة بعد مرة.

ومن جهة اعتبار حال المخبر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد، فإن المخبر عن محاسن الغير؛ إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أوْ لا، فإن اقترن به الحب فهو الحمد وإلا فهو المدح، فحصل هذه الأقسام وميزها.

ثم تأمل تنزيل قوله تعالى، فيما رواه عنه رسول الله ﷺ حين يقول العبد: ﴿الحمد لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ فيقول الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال: أثنى علي عبدي لأنه كرر حمده فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَومِ الدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي فإنه وصفه بالملك والعظمة والجلال.

فاحمد الله على ما ساقه إليك من هذه الأسرار والفوائد عفوًا، لم تسهر فيها عينك، ولم يسافر فيها فكرك عن وطنه، ولم تتجرد في تحصيلها عن مألوفاتك. بل هي عرائس معان تجلى عليك وتزف إليك، فلك لذة التمتع بها ومهرها على غيرك، لك غنمها وعليه غرمها.

قاعدة شريفة عظيمة القدر(١)

حاجة العبد إليها أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس؛ بل وإلى الروح التي بين جنبيه.

اعلم أن كل حي سوى الله فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي من جنس النعيم، واللذة والمضرة من جنس الألم والعذاب. فلا بد من أمرين: **أحدهما:** هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع به ويتلذذ به.

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود، والمانع لحصول المكروه والدافع له بعد وقوعه. فهاهنا أربعة أشياء: أمر محبوب مطلوب الوجود. والثاني: أمر مكروه مطلوب العدم، والثالث: الوسيلة إلى حصول المحبوب. والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه. فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حي سوى الله، لا يقوم صلاحه إلا بها.

إذا عرف هذا فالله سبحانه هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له،

(١) ٥٥ طريق الهجرتين.

وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه، فلا معبود سواه ولا معين على المطلوب غيره، وما سواه هو المكروه المطلوب بعده، وهو المعين على دفعه، فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قول العبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن هذه العبادة تتضمن المقصود المطلوب على أكمل الوجوه.

والمستعان هو الذي يستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه، فالأول من مقتضي ألوهيته، والثاني من مقتضى ربوبيته، لأن الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكرامًا، والرب هو الذي يرب عبده فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى جميع أحواله ومصالحه التي بها كماله، ويهديه إلى اجتناب المفاسد التي بها فساده وهلاكه. وفي القرآن سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين:

أحدها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتعين﴾.

الثاني قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلتُ وإليهِ أُنيب﴾. [الشورى: ١٠].

الثالث قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾. [هود: ١٢٣].

الرابع قوله تعالى: ﴿عَلَيك تَوكَّلنا وَإليكَ أَنَبْنا﴾. [الممتحنة: ٤].

الخامس قوله تعالى: ﴿وتَوكَّلْ عَلَى الحَيِّ الذَّي لَا يَموتُ وَسَبِّحْ بحمده﴾، [الفرقان: ٥٨]. **السادس** قوله: ﴿عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وَإليهِ مَتاب﴾، [الرعد: ٣٠].

السابع قوله: ﴿وَاذْكُر اسْمَ رَبِّك وَتَبَتَّلْ إليه تَبتيلاً. رَبُّ المشرِقِ والمغربِ لَا إله إلَّا هُوَ فاتَّخِذْه وَكِيلاً﴾. [المزمل: ٨، ٩]. (١)

ومما يقرر هذا أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أحب إليهم من الإيمان به ومحبتهم له ومعرفتهم به، وحاجتهم إليه في عبادتهم له وتألههم له كحاجتهم إليه بل أعظم في خلقه وربوبيته لهم ورزقه لهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة التي بها سعادتهم وفوزهم، وبها ولأجلها يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة ولا سرور بدون ذلك بحال، فمن أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكًا، ويحشره يوم القيامة أعمى.

ولهذا لا يغفر الله لمن يشرك به شيئا ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

(١) ذكر المؤلف هذا البحث في طريق الهجرتين ص ٢٥٥ في بحثه عن التوكل بأوسع من هذا (ج)

ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أفضل الحسنات. وكان توحيد الإلهية الذي كلمته (لا إله إلا الله) رأس الأمر.

فأما توحيد الربوبية الذي أقر به كل المخلوقات فلا يكفي وحده، وإن كان لابد منه، وهو حجة على من أنكر توحيد الألوهية، فحق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقهم عليه إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وأن يكرمهم إذا قدموا عليه.

وهذا كما أنه غاية محبوب العبد ومطلوبه، وبه سروره ولذته ونعيمه، فهو أيضًا محبوب الرب من عبده ومطلوبه الذي يرضى به، ويفرح بتوبة عبده إذا رجع إليه وإلى عبوديته وطاعته أعظم من فرح من وجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض مهلكة، بعد أن فقدها وأيس منها، وهذا أعظم فرح يكون، وكذلك العبد لا فرح له أعظم من فرحه بوجود ربه وأنسه به وطاعته له وإقباله عليه وطمأنينته بذكره وعمارة قلبه بمعرفته و الشوق إلى لقائه، فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه، ومن عبد غيره وأحبه - وإن حصل له نوع من اللذة والمودّة والسكون إليه والفرح والسرور بوجوده - ففساده به ومضرته وعطبه أعظم من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهي الذي هو عَذْبٌ في مبدئه عذاب في نهايته كما قال القائل:

مآرب كانت في الشباب لأهلها عِذابًا، فصارت في المشيب عَذابا

﴿لَوْ كَانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ إلَّا الله لفَسدَتا فَسُبْحان الله رَبِّ العَرش عَمَّا يَصِفُون﴾.

[الأنبياء: ٢٢]، فإن قوام السموات والأرض والخليقة بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلهًا حقًّا، إذ الإله الحق لا شريك له ولا سميَّ له ولا مثل له، فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأليه الإله الحق، كما أنها لا توجد إلا باستنادها إلى الرب الواحد القهار، ويستحيل أن تستند في وجودها إلى ربين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلى إلهين متساويين.

إذا عرف هذا: فاعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا: في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له

ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به.

فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها. ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ماحصل لم يدم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت ثم يعذب ولابد في وقت آخر.

وكثيرًا ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإنما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التي تحكه، فهي تدمي الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره، وهو يؤثر ذلك لما له في حكها من اللذة.

وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله، هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب، والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما، والله الموفق المعين، وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة.

والمقصود أن إله العبد الذي لابد له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين، هو الإله الحق الذي كل ما سواه باطل، والذي أينما كان فهو معه، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة، بل هي فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة، ولهذا قال إمام الحنفاء: ﴿لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾. [الأنعام: ٧٦]. والله أعلم.

(١) **الوجه** السادس: أول سورة في القرآن وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿الحمدُ لله رَبِّ العَالمين﴾ والأرواح من جملة العالم فهو ربها.

الثاني: قوله تعالى: ﴿إيَّاكَ نَعبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعينُ﴾ فالأرواح عابدة له مستعينة ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعانًا بها.

الثالث: أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم.

---

(١) ١٨١ كتاب الروح.

الرابع : أنها منعم عليها مرحومة، ومغضوب عليها، وضالة شقية، وهذا شأن المربوب المملوك لا شأن القديم غير المخلوق ، ونحن بعون الله ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة في هذه المطالب. وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال، وما تضمنته من منازل السائرين ومقامات العارفين، بالفرق بين وسائلها وغاياتها ومواهبها وكسبياتها. وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها ولا يسد مسدها. ولذلك لم ينزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها.

والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١)**اعلم** أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال وتضمنتها أكمل تضمن.

فاشتملت على التعريف بالمعبود ـ تبارك وتعالى ـ بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها. وهي «الله، والرب، الرحمن».

وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة فـ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الإلهية. و ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الأمور الثلاثة. فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته. والثناء والمجد كمالان لجده.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله: ﴿مَالِكِ يومِ الدين﴾.

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة.

أحدها: كونه رب العالمين. فلا يليق به أن يترك عباده سُدىً هملاً، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به. وماقَدَرَهُ حق قَدْرِهِ من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم «الله» وهو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرَّحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم

(١) ٧ مدارج جـ١.

تعـريفهم ما ينـالون به غاية كمالهم. فمن أعطى اسم «الرَّحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكـلأ، وإخراج الخبء، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح، أعـظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب ،وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر «يوم الدين» فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحدًا قبل إقامة الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه. وبهم اسْتُحِق الثواب والعقاب. وبهم قام سوق يوم الدين. وسيق الأبرار إلى النعيم. والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبـه ويرضاه. وعبادته ـ وهي شكره وحبه وخشيته ـ فطري ومعقول للعقول السليمة. لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم **وفي** هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول .يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل. ولم يؤمن به. ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفرًا به.

الموضع السـادس: من قوله: ﴿**اهْدِنَا الصِرَّاطَ الْمُستقيمَ**﴾ .[الفاتحة: ٦].

فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التـوفيق، وجعـلُ الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به راغبًا فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً. وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان

قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم. وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه ـ مما نريده ـ كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.(١)

وللهداية مرتبة أخرى ـ وهي آخر مراتبها ـ وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصل إليها. فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه؛ هُدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه.

وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار؛ يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم.

وعلى قدر سيره على هذا الصراط؛ يكون سيره على ذاك الصراط.

فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح.

ومنهم من يمر كشَدِّ الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا.

ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار.

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذْو القُذَّة بالقذة، جزاء وفاقًا ﴿هَلْ تُجزَونَ إلاَّ مَا كُنْتم تعْمَلُونَ؟﴾. [النمل: ٩٠].

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم. فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيْدِ﴾. [فصلت: ٤٦].

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

الموضع السابع: من معرفة نفس المسؤول، وهو الصراط المستقيم.

ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعيُّنه طريقًا للمقصود. ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل

(١) تقدم هذا البحث نقلاً عن المفتاح ص (٢٦) ،بأوسع من هذا.

بين نقطتين. وكلما تعوج طال وبعد. واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود. ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته. وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تعينه طريقًا.

و«الصراط» تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى: ﴿وأَنَّ هَذَا صِرَاطِيْ مُسْتَقِيمًا﴾. [الأنعام: ١٥٣]. وقوله: ﴿وإنَّكَ لَتَهْدِي إلىَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم: صِرَاطِ الله﴾. [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وتارة يضاف إلى العباد، كما في الفاتحة. لكونهم أهل سلوكه. وهو المنسوب[1] لهم. وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال.

فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة. لأن العبد؛ إما أن يكون عالمًا بالحق، أو جاهلًا به. والعالم بالحق إما أن يكون عاملًا بموجبه أو مخالفًا له. فهذه أقسام المكلفين. لا يخرجون عنها ألبتة.

فالعالم بالحق العامل به: هو المنعم عليه. وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح. وهو المفلح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾. [الشمس: ٩].

والعالم به المتبع هواه: هو المغضوب عليه.

والجاهل بالحق: هو الضال. والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل. والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل. فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به.

ومن ههنا كان اليهود أحق به. وهو متغلظ في حقهم. كقوله تعالى في حقهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا به أَنْفُسَهُمْ: أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ الله بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ الله مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾. [البقرة: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِئُكُمْ بِشرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عندَ الله؟ مَنْ لَعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ مِنْهُم الْقِرَدَةَ والخَنَازِيْرَ وعَبَدَ الطَّاغُوْت. أُولَئِكَ شرٌّ مَكَانًا وَأَضلُ عَنْ سَوَاء السَّبِيْلِ﴾. [المائدة: ٦٠].

والجاهل بالحق: أحق باسم الضلال. ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى؛ ﴿قُلْ يَا أَهلَ الكتَاب لا تَغْلُو في دِينكُم غَيرَ الحقِّ، وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْواء قومٍ

---

(١) كذا ولعله «المنصوب» (ج).

قَدْ ضَلُّوا مِنْ قبلُ وأَضَلُّوا كثيراً، وضلُّوا عَنْ سَوَاء السَّبِيل﴾. [المائدة: ٧٧].

فالأولى: في سياق الخطاب مع اليهود. والثانية: في سياقه مع النصارى.

وفي الترمذي وصحيح ابن حبَّان. من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: **«اليهود مغضوب عليهم. والنصارى ضالون»**.

ففي ذكر المنعَم عليهم ـ وهم من عرف الحق واتبعه ـ والمغضوب عليهم ـ وهم من عرفه واتبع هواه ـ والضالين ـ وهم من جهله ـ: ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة. لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود. وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة. **وأضاف** النعمة إليه، وحذف فاعل الغضب لوجوه.

منها: أن النعمة هي الخير والفضل. والغضب من باب الانتقام والعدل. والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين، وأسبقهما وأقواهما. وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه. وحذف الفاعل في مقابلتهما، كقول مؤمني الجن: **﴿وَأَنَّا لَا نَدرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ، أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُم رَشَدًا؟﴾**. [الجن: ١٠].

ومنه: قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين: **﴿فأَرَادَ رَبُّك أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ويَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُما﴾**. [الكهف: ٨٢].

وقال في خرق السفينة: **﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيْبَهَا﴾**. [الكهف: ٧٩]. ثم قال بعد ذلك: **﴿ومَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِيْ﴾**. [الكهف: ٨٢].

وتأمل قوله تعالى: **﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ﴾**. [البقرة: ٨٧].

وقوله: **﴿حُرِّمَتْ عَلَيكُم المَيتةُ والدَّمُ ولَحم الخنزير﴾**. وقوله: **﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُم أُمَّهَاتُكُم﴾**. [النساء: ٢٣]. ثم قال: **﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَا وَرَاء ذَلِكُم﴾**. [النساء: ٢٤].

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة؛ ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم. وأما مطلق النعمة: فعلى المؤمن والكافر. فكل الخلق في نعمه. **وهذا** فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافر من نعمة أم لا؟

فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان. ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر.

كما قال تعالى: **﴿وإِنْ تَعُدُّوا نِعمَةَ الله لَا تُحصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُوم**

كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤]. **والنعمة** من جنس الإحسان، بل هي الإحسان. والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر. والمؤمن والكافر.

وأما الإحسان المطلق: فللذين اتقوا والذين هم محسنون.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم﴿ وَمَا بِكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾. [النحل: ٥٣]. فأضيف إليه ما هو منفرد به. وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقًا ومجرى للنعمة.

وأما الغضب على أعدائه: فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه. فكان في لفظة «المغضوب عليهم» بموافقة أوليائه له: من الدلالة على تفرده بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها؛ ما ليس في لفظة «المنعم عليهم».

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه، وتحقيره وتصغير شأنه؛ ما ليس في ذكر فاعل النعمة، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره، ورفع قدره، ما ليس في حذفه.

فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه، ورفع قدره، فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه. كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أكرم وخلع عليه وشرف وأُعطي.

وتأمل سرًّا بديعًا في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره. فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية، التي هي العلم النافع والعمل الصالح. وهي الهدى ودين الحق. ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء. فهذا تمام النعمة. ولفظ «أنعمتَ عَلَيهم» يتضمن الأمرين:

وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضًا أمرين:

الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان.

والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه. فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال. فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم. وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم. فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله، وغضب الله عليه.

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب. وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال.

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال. فذكر «المغضوب عليهم» و «الضالين» في مقابلة المهتدين المنعم عليهم. وهذا كثير في القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح.

فالثاني كقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى منْ رَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾. [البقرة: ٥]. وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُون﴾. [الأنعام: ٨٢].

والأول كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمينَ في ضَلَالٍ وَسُعُر﴾. [القمر: ٤٧]. وقوله: ﴿خَتَمَ الله عَلَى قُلُوبِهِم وعَلَى سَمْعِهِم، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَة، وَلَهُمْ عَذَاب عَظِيم﴾. [البقرة: ٧].

وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى، فَمَنْ اتَّبعَ هُدَاي فَلا يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾. [طه: ١٢٣]. فهذا الهدى والسعادة.

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا. ونَحْشُرُهُ يومَ القِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ: رَبِّ لِمَ حَشرتني أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً؟ قَالَ: كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنا فَنَسِيتَهَا، وكَذَلِكَ اليومَ تُنْسى﴾. [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦]. فذكر الضلال والشقاء.

فالهدى والسعادة متلازمان. والضلال والشقاء متلازمان.

فصـــل

وذكر «الصِراط المُستقيم» مفردًا معرفًا تعريفين: تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة. وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد.

وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وأَنَّ هذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتبعُوهُ، وَلاَ تَتَّبعُوا السُّبُل فتفرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيلِه﴾. [الأنعام: ١٥٣]. فوحد لفظ «الصراط» و «سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له.

وقال ابن مسعود: «خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ

فَتَفَرّقَ بِكُم عَنْ سَبِيله. ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعلَّكُم تَتَّقُون﴾. [الأنعام: ١٥٣]. وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد. وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه. لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق. ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد. فإنه متصل بالله، موصل إلى الله. قال الله تعالى: **﴿هذا صِراط عَليَّ مُسْتَقيمٌ﴾**. [الحجر: ٤١].

قال الحسن: معناه صراط إليّ مستقيم.

وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة «على» مقام «إلى».

والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى. وهو الأشبه بطريق السلف. أي: صراط موصل إليّ.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه، لا يعرج على شيء. وهذا مثل قول الحسن، وأبين منه. وهو من أصح ما قيل في الآية.

وقيل: «عليّ» فيه للوجوب، أي: عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه.

والقولان نظير القولين في آية النحل. وهي: **﴿وَعَلَى الله قَصْدُ السَّبِيْل﴾**. [النحل: ٩]. والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر: أن السبيل القاصد ـ وهو المستقيم المعتدل ـ يرجع إلى الله، ويوصل إليه. قال طُفَيل الغَنَوي:

مَضَوا سَلفًا، قَصد السبيل عليهم		وصرفُ المنايا بالرجال تَشَقّلب

أي: ممرنا عليهم، وإليهم وصولنا. وقال الآخر:

فهن المنايا: أي واد سلكته		عليها طريقي، أو علي طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء، لا أداة «على» التي هي للوجوب. ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال **﴿إنَّ إلَيْنا إيَابَهُمْ، ثُمَّ إنَّ علينا حِسَابَهُمْ﴾**. [الغاشية: ٢٥، ٢٦]. وقال: **﴿إلينا مَرجعهُم﴾**. [يونس: ٧٠]. وقال **﴿ثُمَّ إلى رَبِّهِم مَّرجِعُهُم﴾**. [الأنعام: ١٠٨]. وقال، لما أراد الوجوب: **﴿ثُمَّ إنَّ علينا حسابهم﴾**. [الغاشية: ٢٦]. وقال: **﴿إنَّ عَلَينا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾**. [القيامة: ١٧]. وقال: **﴿وَمَا مِن دَآبَةٍ في الأرضِ إلاَّ عَلَى الله رِزقُها﴾**. [هود: ٦]. ونظائر ذلك؟.

قيل: في أداة «على» سر لطيف. وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى. وهو حق. كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُولئكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ﴾. [البقرة:٥]. وقال لرسوله ﷺ ﴿فَتَوكَّلْ عَلَى الله إنَّكَ عَلَى الحقِ المُبين﴾. [النمل:٧٩]. والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق. فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى. فكان في أداة «على» على هذا المعنى ما ليس في أداة «إلى» فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضًا. وكيف يكون المؤمن مستعليًا على الحق، وعلى الهدى؟.

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه. فكان في الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته.

وهذا بخلاف الضلال والريب. فإنه يؤتي فيه بأداة «في» الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ في رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدونَ﴾. [التوبة:٤٥]. وقوله: ﴿والَّذين كذَّبُوا بآياتنا صُمٌّ وَبُكْمٌ في الظُّلُماتِ﴾. [الأنعام:٣٩]. وقوله: ﴿فَذَرْهُم في غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حين﴾. [المؤمنون:٥٤]. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفي شَكٍّ منه مُرِيْبٌ﴾. [هود:١١٠].

وتأمل قوله تعالى: ﴿وإنَّا أو إيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أوْ في ضَلَالٍ مُبين﴾. [سبأ:٢٤]. فإن طريق الحق تأخذ علوًا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سُفلاً، هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

وَفِي قوله تعالى: ﴿قال: هَذَا صِراطٌ عَلَيَّ مُستقيمٌ﴾. [الحجر:٤١]. قول ثالث: وهو قول الكسائي: إنه على التهديد والوعيد، نظير قوله: ﴿إنَّ رَبَّكَ لَبِالْمرصَاد﴾. كما يقال: طريقك علي، وممرك علي. لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك، ولا معجز، والسياق يأبى هذا، ولا يناسبه لمن تأمله. فإنه قاله مجيباً لإبليس الذي قال: ﴿لأُغْوِيَنَّهمْ أجمعينَ، إلاَّ عبادكَ مِنْهم المُخلَصينَ﴾. [الحجر:٣٩، ٤٠]. فإنه لا سبيلَ لي إلى إغوائهم، ولا طريق لي عليهم.

فقرر الله عز وجل ذلك أتم التقرير. وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم. فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط، لأنه صراط

عليّ. ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط، ولا الحوم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله. فلا يصل عدو الله إلى أهله.

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل، ولينظر إلى هذا المعنى، ويوازن بينه وبين القولين الآخرين، أيهما أليق بالآيتين، وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف؟

وأما تشبيه الكسائي له بقوله: **﴿إنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد﴾**.[الفجر:١٤]. فلا يخفى الفرق بينهما سياقًا ودلالة. فتأمله.

ولا يقال في التهديد: هذا طريق مستقيم عليّ، لمن لا يسكله. وليست سبيل المهدِّد مستقيمة. فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم. وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله. فلا يستقيم هذا القول ألبتة.

وأما من فسره بالوجوب، أي عليّ بيان استقامته والدلالة عليه. فالمعنى صحيح. لكن في كونه هو المراد بالآية نظر. لأنه حذف في غير موضع الدلالة. ولم يؤلف الحذف المذكور، ليكون مدلولاً عليه إذا حذف. بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة. فإنه حذف مألوف معروف. حتى إنه لا يذكر ألبتة.

فإذا قلت: له درهم علي. كان الحذف معروفًا مألوفًا. فلو أردت: عليَّ نقده، أو عليّ وزنه وحفظه، ونحو ذلك، وحذفت: لم يسغ. وهو نظير: عليّ بيانه، المقدر في الآية، مع أن الذي قال السلف أليق بالسياق، وأجلُّ المعنيين وأكبرهما.

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رضي الله عنه يقول: وهما نظير قوله تعالى: **﴿إنَّ عَلَينا للهدى. وإنَّ لَنَا للآخرةَ والأولى﴾**. [الليل:١٢، ١٣].

قال: فهذه ثلاثة مواضع في القرآن في هذا المعنى.

قلت: وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة **﴿وَاللَّيلِ إذا يَغشى﴾**. إلا معنى الوجوب.

أي: علينا بيان الهدى من الضلال.

ومنهم من لم يذكر في سورة «النحل» إلا هذا المعنى كالبغوي. وذكر في «الحِجْر» الأقوال الثلاثة. وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة «النحل» واختار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث.

فصـــل

والصراط المستقيم: هو صراط الله. وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه، كما ذكرنا.

ويخبر سبحانه أنه على الصراط المستقيم. وهذا في موضعين من القرآن. في هود، والنحل.

قال في هود: ﴿**مَا مِنْ دَابةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصيتِهَا، إنَّ رَبِّي عَلى صِرَاطٍ مُسْتَقيم**﴾. [هود: ٥٦].

وقال في النحل: ﴿**وَضَرَبَ الله مَثَلاً: رَجُلَين، أحَدهُما أبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلى شَيء، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَه، أيْنَما يُوجِّههُّ لاَ يَأت بخير، هَلْ يَستوي هُوَ وَمَنْ يَأمُرُ بالعدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ؟**﴾. [النحل: ٧٦].

فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع. ولا تنطق ولا تعقل، وهي كَلٌّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه ويقيمه ويخدمه. فكيف يسوونه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد؟ وهو قادر متكلم، غني. وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله. فقوله صدق ورشد ونصح وهدى، وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة.

هذا أصح الأقوال في الآية. وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره. ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوي، فإنه جزم به، وجعله تفسير الآية. **ثم** قال: وقال الكلبي: يدلكم على صراط مستقيم.

قلت: ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم. فإن دلالته بفعله وقوله، وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله. فلا يناقض قول من قال: إنه سبحانه على الصراط المستقيم.

قال: وقيل: هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل. وهو على صراط مستقيم.

قلت: وهذا حق لا يناقض القول الأول فالله على الصراط المستقيم، ورسوله عليه. فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه. وعلى هذا يكون المثل مضروبًا لإمام الكفار وهاديهم، وهو الصنم الذي هو أبكم، لا يقدر على هدى ولا خير. ولإمام الأبرار، وهو رسول الله ﷺ الذي يأمر بالعدل. وهو على صراط مستقيم.

وعلى القول الأول: يكون مضروبًا لمعبود الكفار ومعبود الأبرار. والقولان متلازمان. فبعضهم ذكر هذا. وبعضهم ذكر هذا. وكلاهما مراد من الآية.

قال: وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر. يرويه عطية، عن ابن عباس.

وقال عطاء: الأبكم أبي بن خلف، ومن يأمر بالعدل: حمزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون.

قلت: والآية تحتمله. ولا يناقض القولين قبله، فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله وأتباع رسوله. وضد ذلك: معبود الكفار وهاديهم، والكافر التابع والمتبوع والمعبود. فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع. وبعضهم ذكر الهادي، وبعضهم ذكر المستجيب القابل. وتكون الآية متناولة لذلك كله. ولذلك نظائر كثيرة في القرآن.

وأما آية هود: فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحدًا. وهو أن الله سبحانه على صراط مستقيم. وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم. فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾. [الأنعام: ١١٥] وأفعاله كلها مصالح وحكم، ورحمة وعدل وخير. فالشر لا يدخل في أفعاله ولا أقواله ألبتة، لخروج الشر عن الصراط المستقيم. فكيف يدخل في أفعال من هو على الصراط المستقيم، أو أقواله؟ وإنما يدخل في أفعال من خرج عنه[1] وفي أقواله.

وفي دعائه عليه الصلاة والسلام: «**لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك**» ولا يلتفت إلى تفسير من فسره بقوله: والشر لا يُتقرب به إليك، أو لا يصعد إليك. فإن المعنى أجل من ذلك، وأكبر وأعظم قدرًا. فإن مَنْ أسماؤه كلها حسنى، وأوصافه كلها كمال، وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل: يستحيل دخول الشر في أسمائه أو أوصافه، أو أفعاله أو أقواله. فطابقْ بين هذا المعنى وبين قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. [هود: ٥٦]

وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾. [هود: ٥٦] أي هو ربي، فلا يُسلمني ولا يضيعني. وهو ربكم فلا يسلطكم عليّ ولا يمكنكم مني. فإن نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئًا بدون

---

(١) لعله من خرج عنه في أفعاله وفي أقواله (ج).

مشيئته، فإن ناصية كل دابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه. فهو المتصرف فيها. ومع هذا، فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها: على صراط مستقيم. لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة. ولو سلطكم عليّ فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه. لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم. لا يظلم ولا يفعل شيئًا عبثًا بغير حكمة.

فهكذا تكون المعرفة بالله، لا معرفة القدرية المجوسية، والقدرية الجبرية، نفاة الحكم والمصالح والتعليل. والله الموفق سبحانه.(١)

فصل

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثرُ الناس ناكبون عنه، مريدًا لسلوكِ طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة. والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين **﴿أَنْعم الله عَلَيهم من النَّبيينَ والصِّديقِينَ والشُّهَداء والصَّالِحِين. وَحسُن أولئك رفيقًا﴾**. [النساء: ٦٩]

فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له وهم الذين أنعم الله عليهم ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه.

وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم. فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له. فإنهم هم الأقلُّون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا.

كما قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين».

وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم. وغض الطرف عمن سواهم. فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا. وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم. فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك..

وقد ضربت لذلك مثلين. فليكونا منك على بال.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها. فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلامًا يؤذيه. فوقف ورد عليه،

(١) سيأتي إن شاء الله البحث فيها ذكره في سورة هود والنحل والحجر اهـ ج.

وتماسكا. فربما كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة. وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة. فإن التفت إليه أطمعه في نفسه. وربما فترت عزيمته. فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجَمْز[1] بقدر التفاته أو أكثر. فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه. فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق: ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم. وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت «**اللهم اهدني فيمن هديت**» أي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك. فاجعل لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم. فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق عليّ في جملة من تصدقت عليهم. وعلمني في جملة من علمته. وأحسن إليّ في جملة من شملته بإحسانك.

فصـــــل

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونَيْلُه أشرفَ المواهب: علَّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده. ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم. . فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم. توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء.

ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه. والإمام أحمد والترمذي.

---

(٢) الجمز: سرعة السير والعدو.

أحدهما: حديث عبدالله بن بُريدة، عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو، ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. فقال: «**والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**». قال الترمذي: حديث صحيح..

فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالواحدانية. وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد».

وهو كما قال ابن عباس: «العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته».

وفي راوية عنه: «هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد».

وقال أبو وائل: «هو السيد الذي انتهى سؤدده».

وقال سعيد بن جبير: «هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله».

وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: «وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحد» وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة. والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: اللهم إني أسالك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنّان، بديع السموات والأرض. ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال: «**لقد سأل الله باسمه الأعظم**» فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسل بالحمد، والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب ـ وهو الهداية ـ بعد الوسيلتين، فالداعي به حقيق بالإجابة.

ونظير هذا: دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل. رواه البخاري في صحيحه، من حديث ابن عباس: «**اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت. وبك خاصمت، وإليك حاكمت. فاغفر**

لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت» فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له. ثم سأله المغفرة.

فصــــل

في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد. ونوع في الإرادة والقصد. ويسمى الأول: التوحيد العلمي. والثاني: التوحيد القصدي الإرادي. لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة. والثاني بالقصد والإرادة. وهذا الثاني أيضًا نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية. فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال. والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيئان: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية والربوبية، والرحمة والملك. وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له. فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها. **ولهذا** كان الحمد كله لله حمدًا لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه.

ولهذا ذمّ الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها. فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدي، ولا تنفع ولا تضر. وهذه صفة إله الجهمية، التي عاب بها الأصنام، نسبوها إليه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في محاجّته لأبيه: ﴿يا أَبَتِ لِمَ تَعبُدُ مَالاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا؟﴾. [مريم: ٤٢].

فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة وَالمثابة لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر عليّ؟ لكن كان ـ مع شركه ـ أعرف بالله من الجهمية.

وكذلك كفار قريش كانوا ـ مع شركهم ـ مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه.

وقال تعالى: ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوْسَىٰ مِنْ بَعدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَه خُوَار. أَلَم يَروا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمِهُمُ وَلاَ يَهْدِيْهِم سَبِيلاً؟ اتَّخَذُوهُ وكَانُوا ظَالمِينَ**﴾. [الأعراف: ١٤٨].

فلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن في هذا إنكار عليهم، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك. **فإن** قيل: فالله تعالى لا يكلم عباده.

قيل: بلى قد كلمهم. فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة، كموسى. **ومنهم** من كلمه الله على لسان رسوله الملكي. وهم الأنبياء.

وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله. فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه. وقالوا لهم: هذا كلام الله الذي تكلم به، وأمرنا بتبليغه إليكم.

ومن ههنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة الرسل كلهم. لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به إلى عباده. فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة.

وقال تعالى: في سورة طه عن السامري: ﴿**فَأَخْرَجَ لَهُمُ عجلاً جَسَدًا لَه خُوَارٌ، فَقَالُوا: هَذَا إِلَهُكُم وَإِلهُ موُسىَ، فَنَسِيَ. أَفَلَا يَروْنَ أَنْ لَّا يَرجع إليهم قولاً، وَلَا يَمِلكُ لَهُمُ ضرًّا وَلَا نَفْعًا؟**﴾. [طه: ٨٨، ٨٩]. ورجع القول: هو التكلم والتكليم.

وقال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ الله مَثَلاً: رَجُلَيِن أَحدُهُما أَبْكم لاَ يَقدِرُ عَلَى شَيءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَولاَهُ، أينما يُوَجّههُ لا يأتِ بخير، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَّأمُرُ بالعدلِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُستَقيم؟**﴾. [النحل: ٧٥].

فجعل نفي صفة الكلام موجبًا لبطلان الإلهية. وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا، ولا مدبرًا، ولا ربًّا، بل هو مذموم، معيب ناقص، ليس له الحمد، لا في الأولى، ولا في الآخرة، وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال، التي لأجلها استحق الحمد.

ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة، وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه، وكلامه وتكليمه: توحيدًا. لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع، وجحد له. وإنما توحيده: إثبات صفة كماله، وتنزيهه عن التشبيه والنقائص. فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيدًا. وجعلوا إثباتها لله تشبيهًا وتجسيمًا وتركيبًا. فسموا الباطل باسم الحق، ترغيبًا فيه، وزخرفًا يُنفِّقونه به. وسموا الحق باسم الباطل تنفيرًا عنه.

والناس أكثرهم مع ظاهر السِّكَّة. ليس لهم نقد النقاد ﴿**مَنْ يَهْدِ الله فَهُوَ المُهْتَد. وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا**﴾. [الكهف: ١٧].

والمحمود لا يحمد على العدم والسكوت ألبتة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص، تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه، ولا مدح ولا كمال.

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه، وتعبيد كل شيء له. فاتخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال تعالى: ﴿**قَالُوا اتَّخذ الله وَلَدًا، سُبْحَانَه، هُوَ الغَنِيُّ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرض**﴾. [يونس: ٦٨].

وحمد نفسه على عدم الشريك، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره، فيكون شريكًا له. فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه. لأن الموجود أكمل من المعدوم.

ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمنًا لثبوت كمال.

كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته.

وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم، لتضمن ذلك كمال قيوميته.

وحمد نفسه بأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لكمال علمه وإحاطته.

وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحدًا، لكمال عدله وإحسانه.

وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار، لكمال عظمته، يُرى ولا يدرك، كما أنه يعلم ولا يحاط به علمًا.

فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال. لأن العدم لا يرى. فليس في كون الشيء لا

يرى كمال ألبتة. وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراكًا، لعظمته في نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوق له.

وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان، لكمال علمه.

فكل سلب في القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده، ولتضمنه كمال ثبوت ضده **فعلمت** أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده.

فصـــل

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات.

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبني على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله. فهي مشتقة من الصفات. فهي أسماء، وهي أوصاف. وبذلك كانت حُسْنَى، إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال. ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقم.

واللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها.

قال تعالى: ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾. [الأعراف: ١٨٠].

ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها. لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾. [الذاريات: ٥٨]. فعلم أن «القويَّ» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة.

وكذلك قوله: ﴿**فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾. [فاطر: ١٠]. فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويًا ولا عزيزًا.

وكذلك قوله: ﴿أَنْزَلَه بِعِلْمِه﴾. [النساء: ١٦٦]. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِل بِعِلمِ الله﴾. [هود: ١٤]. ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾. [البقرة: ٢٥٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» فأثبت المصدر الذي اشتقَّ منه اسمه «البصير».

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات**» **وفي** الصحيح حديث الاستخارة: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك**» فهو قادر بقدرة.

وقال تعالى لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي﴾. [الأعراف: ١٤٤]. فهو متكلم بكلام.

وهو العظيم الذي له العظمة، كما في الصحيح عنه ﷺ: «**يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي**».

وهو الحكيم الذي له الحكم ﴿فَالْحُكْمُ لله العَلِيِّ الكبير﴾. [غافر: ١٢].

وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته، أو عظمته انعقدت يمينه، وكانت مكفرة. لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه.

وأيضًا: لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يَسُغْ أن يخبر عنه بأفعالها. فلا يقال: يسمع ويرى، ويعلم ويقدر ويريد. فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها. فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها.

وأيضًا فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان، وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة، التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به. فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها. وهذا مكابرة صريحة، وبَهْت بَيِّن.

فإن من جعل معنى اسم «القدير» هو معنى اسم «السميع، البصير» ومعنى اسم «التواب» هو معنى اسم «المنتقم» ومعنى اسم «المعطى» هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها: والإلحاد فيها أنواع، هذا أحدها.

الثاني: تسمية الأوثان بها، كما يسمونها آلهة. وقال ابن عباس ومجاهد: «عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا. فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان».

وروى عن ابن عباس: ﴿**يلحدون في أسمائه**﴾. [الأعراف: ١٨٠]. «يكذبون عليه» وهذا تفسير بالمعنى.

وحقيقة الإلحاد فيها: العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها عنها. هذا حقيقة الإلحاد. ومن فعل ذلك فقد كذب على الله. ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب، أو هو غاية الملحد في أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها، وخرج بها عن حقائقها، أو بعضها، فقد عدل بها عن الصواب والحق، وهو حقيقة الإلحاد.

فالإلحاد: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد. فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها، حتى قال زعيمهم(١): «وهو المسمى بكل اسم ممدوح عقلاً، وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفًا» تعالى الله عما يقول الملحدون علوًا كبيرًا.

فصل

الأصل الثاني: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة. فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم.

فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة.

ويدل على الصفة الأخرى باللزوم. فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة. وعلى الذات وحدها. وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدل على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته.

ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه.

ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال

(١) هو أبو سعيد الخراز الذي قال عن ربه: وهو المسمى بأبي سعيد الخراز.

من لوازم الحياة الكاملة؛ أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم «العلي» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق، بكل اعتبار. فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات. فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلي».

وكذلك اسمه «الظاهر» من لوازمه: أن لا يكون فوقه شيء، كما في الصحيح، عن النبي ﷺ: **«وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء»** بل هو سبحانه فوق كل شيء. فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقيه القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج. لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوَّق أظهر من الفائق فيها. ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهرًا بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ «الباطن» وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل «الأول» الذي ليس قبله شيء، بـ «الآخر» الذي ليس بعده شيء.

وكذلك اسم «الحكيم» من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه. فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه. وكذلك سائر أسمائه الحسنى.

فصل

إذا تقرر هذان الأصلان. فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث. فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿**ولله الأسماء الحُسْنى**﴾. [الأعراف: ١٨٠]. ويقال: «الرحمن والرحيم، والقدوس والسلام، والعزيز، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم «الله»، واسم «الله» دال على كونه مألوهًا معبودًا، تألهه الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله. وصفات الجلال والجمال: أخص باسم «الله».

وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع. والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة. وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف: أخص باسم «الرحمن» وكرر إيذانًا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن: الذي الرحمة وصفه. والرحيم: الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُومِنِينَ رَحِيمًا﴾. [الأحزاب: ٤٣]. ﴿إِنَّه بِهِمْ رَءوفٌ رَحِيمٌ﴾. [التوبة: ١١٧]. ولم يجيء رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلىء غضبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملىء بذلك، فبناء فَعْلان للسعة والشمول.

ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. [طه: ٥]. ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾. [الفرقان: ٥٩]. فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، قد وسعها. والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيء﴾. [الأعراف: ٥٦]. فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كل شيء.

وفي الصحيح، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش. إن رحمتي تغلب غضبي»** وفي لفظ **«فهو عنده على العرش»**.

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى العَرشِ اسْتَوَى**﴾. [طه: ٥]. وقوله: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ الرَّحْمن فَاسْأَل بِهِ خَبِيْراً**﴾. [الفرقان: ٥٩]. ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى، إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم.

وصفات العدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر، والحكم، ونحوها: أخص باسم «الملك» وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، لتفرده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة. ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

فصــــل

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة. وهي «الله، والرب، والرحمن» كيف نشأ عنها الخلق، والأمر والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع. ولها الفرق.

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات. فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته. وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألَّهه وحده السعداء، وأقروا له طوعًا بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقًا مشركين في السعير، وفريقًا موحدين في الجنة. والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية.

فالالهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية.

فالدين والشرع، والأمر والنهي ـ مظهره، وقيامه :ـ من صفة الإلهية.

والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من صفة الملك.

وهو ملك يوم الدين. فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته. وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله. وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة: فهي التعلق، والسبب الذي بين الله وبين عباده. فالتأليه منهم له والربوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه. وبها هداهم. وبها أسكنهم دار ثوابه. وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم. فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته. فـ ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى**﴾[طه:٥]. مطابق لقوله: ﴿**رَبِّ العَالَمِين، الرَّحمنِ الرَّحِيمْ**﴾. [الفاتحة:٢،٣]. فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها. فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربًّا للعالمين مايدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه إن شاء الله.

فصل

في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود. فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿**وَالله غَنِيٌّ حَمِيْد**﴾. [التغابن:٦]. ﴿**وَالله عَلِيْم حَكِيْم**﴾. [التوبة:١١٠]. ﴿**وَالله قَدِيرٌ والله غفور رَّحِيمْ**﴾. [الممتحنة:٧]. فالغنى صفة كمال. والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضًا. وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضًا. وقدرته كمال، ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة ﴿**إنَّ الله كَانَ عَفُوًّا قَديرًا**﴾. [النساء:١٤٩]. واقتران العلم بالحلم ﴿**وَالله عَلِيمٌ حليم**﴾. [النساء:١٢].

وحملة العرش أربعة: اثنان يقولان: «**سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك**» واثنان يقولان: «**سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك**» فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليمًا، ولا كل حليم عالم. فما قُرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم. ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة ﴿**وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العِزَيزُ الرَّحِيمُ**﴾. [الشعراء:٩].

ومن ههنا كان قول المسيح عليه السلام: ﴿«إِنَّ تُعَذِبهُمْ فَإِنهُمْ عِبَادكَ. وَإِنْ تَغفِرِ لَهم فَإِنَّكَ أنتَ العزيز الحكيمُ﴾ . [المائدة: ١١٨]. أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة. وهي كمال القدرة. وعن حكمة، وهي كمال العلم. فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني [لا يكون قادرًا حكيمًا عليمًا. بل لا يكون ذلك إلا عجزًا[1]] فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها.

فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فاتت. فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. كان في هذا ـ من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها ـ ما ينزه عنه منصب المسيح عليه السلام، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولدًا، واتخذه إلهًا من دونه. فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة.

وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْنُبني وَبَنِيَّ أَنْ نَعبُدَ الأصنام. رَبِّ إنهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاس. فَمنْ تَبعَني فَإِنَّه مِني، وَمَنْ عَصَاني فَإِنَّكَ غَفُور رَّحيمْ﴾ . [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]. ولم يقل: فإنك عزيز حكيم. لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي إن تغفر لهم وترحمهم، بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كلَّ اسم يناسب ما ذكر معه، واقترن به، من فعله وأمره. والله الموفق للصواب.

فصل

في مراتب الهداية الخاصة والعامة. وهي عشر مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه. وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه. قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ الله مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ . [النساء: ١٦٤].

(١) ما بين المربعين زدناه ليتصل الكلام. هذا كلام الطابع الأول (ج).

فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه. وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية.

ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر «كلم» وهو «التكليم» رفعًا لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام، أو إشارة، أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم. فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز.

قال الفراء: العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلامًا بأي طريق وصل. ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة. يقال: فلان أراد إرادة، يريدون حقيقة الإرادة. ويقال: أراد الجدار، ولا يقال: إرادة. لأنه مجاز غير حقيقة. هذا كلامه.

وقال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ: رَبِّ أَرِنِي أَنظر إِليكَ**﴾. [الأعراف:١٤٣]. وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون. وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر، لا في الأول. وفيه أعطي الألواح. وكان عن مواعدة من الله له. والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة. وفيه قال الله له: ﴿**يَامُوسَى إِني اصْطَفيتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتي وَبِكَلامِي**﴾. [الأعراف: ١٤٤]. أي بتكليمي لك بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه في كتابه: أنه ناداه، وناجاه. فالنداء من بُعد، والنجاء من قرب. تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء. أو نجاء(١) وقال له أبوه آدم في محاجته: «**أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده؟**».

وكذلك يقول له أهل الموقف، إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه.

وكذلك في حديث الإسراء، في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة، على اختلاف الرواية. قال: «**وذلك بتفضيله بكلام الله**» ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى. ولا كان يسمى «كليم الرحمن».

وقال تعالى: ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء**﴾. [الشورى: ٥١].

---

(١) في لسان العرب: وفي حديث الشعبي «إذا عظمت الحلقة فهي نداء ونجاء».

ففرق بين تكليم الوحي، والتكليم بإرسال الرسول، والتكليم من وراء حجاب.

المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء. قال الله تعالى: ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده**﴾. [النساء: ١٦٣].

وقال: ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب**﴾. الآية [الشورى: ٥١].

فجعل الوحي في هذه الآية قسمًا من أقسام التكليم. وجعله في آية النساء قسيمًا للتكليم. وذلك باعتبارين. فإنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة. (١)

والوحي في اللغة: هو الإعلام السريع الخفي، ويقال في فعله: وَحَى، وأوحى. قال رؤبة: (وحى لها القرار فاستقرت) **وهو أقسام، كما سنذكره.**

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري. فيوحي إليه عن الله ما **أمره أن يوصله إليه. فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم.**

ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلًا، يراه عيانًا ويخاطبه. وقد يراه على صورته التي خلق عليها. وقد يدخل فيه الملك، ويوحي إليه ما يوحيه، ثم يَفْصِم عنه، أي يقلع. والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ.

المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث. وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما قال النبي ﷺ: «**إنه كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب**».

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله يقول: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا. وعلق وجودهم في هذه الأمة: بـ«إن» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى مُحدَّث ولا مُلْهَم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدث: هو الذي يحدَّث في سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث. لأنه استغنى بكمال صديقيته

(١) سيأتي له بحث بأطول من هذا في سورة النساء إن شاء الله تعالى (ج)

ومتـابعته عن التحديث والإلهام والكشف. فإنه قد سَلَّم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول. فاستغنى به عما منه(١).

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول. فإن وافقه قبله، وإلا رده. فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات «حدثني قلبي عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عَمَّن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حدثني قلبي عن ربي» كان مسندًا الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب.

قال: ومحدَّث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوَّه به يومًا من الدهر. وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك. بل كتب كاتبه يومًا «**هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب**» فقال: «**لا. آمحُهْ، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب. فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه بريء**» وقال: في الكلالة: «**أقول فيها برأيي. فإن يكن صوابًا فمن الله. وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان**».

فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ﷺ. وأنت ترى الاتحادي والحلولي والإباحي الشطاح، والسماعي: مجاهر بالقِحَة والفرية. يقول «حدثني قلبي عن ربي».

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين. وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئًا واحدًا.

المرتبة: الخامسة: مرتبة الإفهام.

قال: الله تعالى: ﴿**وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث، إذ نَفَشَت فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين. ففهّمناها سليمان، وكُلًّا آتينا حكمًا وعلمًا**﴾. [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

فذكر هذين النبيين الكـريمـين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم. وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

وقـال على بن أبي طالب ـ وقد سئل: «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون

---

(١) كذا في الأصل. ولعل الصواب «لرسالة الرسول، فاستغنى بها عن التحديث» لأن الصديقية تكون أيضًا بعد موت الرسول، كما نرجو أن يكون شيخ الإسلام وتلميذه من الصديقين، وإنما كان تسليمهم لرسالة الرسول ﷺ، علمًا وعقيدة وعملًا وحالًا وأدبًا وخلقًا، ودعوة وحبًّا وكرهًا وموالاة.

الناس؟» ـ فقال: «لا، والذي فَلَق الحبة وبرأ النَّسمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يُقْتَلَ مسلم بكافر».

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «والفهم الفهمَ فيما أدلى إليك» فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه. يعرف به، ويدرك مالا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عُدَّ ألفٌ بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ وما خص به ابن عباس من فهمه منها «أنها نَعْيُ الله سبحانه نبيه إلى نفسه» وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنًا. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره. ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه. وأما في حق صاحب الفهم: فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام. وهو تبيين الحق وتميزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه. بحيث يصير مشهودًا للقلب، كشهود العين للمرئيات.

وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحدًا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها. قال الله تعالى: ﴿**وما كان الله ليُضِلَّ قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون**﴾. [التوبة: ١١٥].

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب. وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده. والقرآن يصرح بهذا

في غير موضع، كقوله: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾. [الصف: ٥]. ﴿**وقولهم قلوبنا غُلْفٌ. بل طبع الله عليها بكفرهم**﴾. [النساء: ١٥٥]. فالأول: كفر عناد. والثاني: كفر طبع، وقوله؛ ﴿**ونُقلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾. [الأنعام: ١١٠]. فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلَّب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل. فإنه موضع عظيم.

وقال تعالى: ﴿**وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى**﴾. [فصلت: ١٧]. فهذا هدى بعد البيان والدلالة. وهو شرط لا موجب. فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء. وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوَّة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية، وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه. ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر في آياته المشهودة ويحضهم على التفكر في هذه وهذه. وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل. وجُعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضل الله من يشاء.

قال الله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم. فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء. وهو العزيز الحكيم**﴾. [إبراهيم: ٤].

فالرسل تبين. والله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

المرتبة السابعة: البيان الخاص. وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية ألبتة.

قال تعالى في هذه المرتبة: ﴿**إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل**﴾. [النحل: ٣٧].

وقال: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء**﴾. [القصص: ٥٦]. فالبيان الأول شرط. وهذا موجب.

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع. قال الله تعالى: ﴿ **ولو علم الله فيهم خيراً**

لأسمعهم ولـو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون﴾. [الأنفال: ٢٣]. وقد قال تعالى: **﴿وما يستوى الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوى الأحياء ولا الأموات. إن الله يُسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من في القبور. إنْ أنت إلا نذير﴾**. [فاطر: ١٩ - ٢٣].

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ. فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم. لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب. فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما. فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب. فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله: **﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحْدَث إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم﴾**. [الأنبياء: ٢].

وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها. وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه: فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه: **﴿ ماذا قال آنفًا؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾**. [محمد: ١٦].

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم. فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه.

ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر. وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته.

ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القبول.

فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن، وسماع القلب، وسماع القبول والإجابة.

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام. قال تعالى: **﴿ونفسٍ وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها﴾**. [الشمس: ٧، ٨]. وقال النبي ﷺ لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم: «**قل: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي**».

وقد جعل صاحب المنازل «الإلهام» هو مقام المحدثين.

قال: وهو فوق مقام الفراسة. لأن الفراسة ربما وقعت نادرة، واستصعبت على صاحبها وقتًا، أو استعصت عليه، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد.

قلت: التحديث أخص من الإلهام. فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان.

فأما التحديث: فالنبي ﷺ قال فيه: «**إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر**» يعني من المحدثين. فالتحديث إلهام خاص. وهو الوحي إلى غير الأنبياء.

إما من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه**﴾. [القصص:٧].

وقوله: ﴿**وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي**﴾. [المائدة:١١١].

وإما من غير المكلفين، كقوله تعالى: ﴿**وأوحى ربك إلى النَّحل أن اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون**﴾. [النحل:٦٨]. فهذا كله وحي إلهام.

وأما جعله فوق مقام الفراسة: فقد احتج عليه بأن الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم. والنادر لا حكم له. وربما استعصت على صاحبها واستصعبت عليه فلم تطاوعه. والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد، يعني في مقام القرب والحضور.

والتحقيق في هذا: أن كل واحد من «الفراسة» و «الإلهام» ينقسم إلى عام وخاص. وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر، وعام كل واحد قد يقع كثيرًا، وخاصه قد يقع نادرًا. ولكن الفرق الصحيح: أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل **وأما** الإلهام فموهبة مجردة، لا تنال بكسب ألبتة.

فصـــل

قال: وهو على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى: نبأ يقع وحيًا قاطعًا مقرونًا بسماع. إذ مطلق النبأ الخبر الذي له شأن. فليس كل خبر نبأ، وهو نبأ خبر عن غيب معظم.

ويريد بالـوحي والإلهـام: الإعلام الذي يقطع من وصل إليه بموجبه، إما بواسطة سمع، أو هو الإعلام بلا واسطة.

قلت: أمـا حصـولـه بواسـطة سمـع: فليس ذلك إلهامًا. بل هو من قبيل الخطاب. وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء. وهو الذي خُصَّ به موسى، إذ كان المخاطبُ هو الحق عز وجل.

وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع: فهو من أحد وجوه ثلاثة. لا رابع لها.

أعلاها: أن يخاطبه الملك خطابًا جزئيًا. فإن هذا يقع لغير الأنبياء. فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام. فلما اكْتَوى تركت خطابه. فلما ترك الكي عاد إليه خطاب ملكي. وهو نوعان:

أحدهما: خطاب يسمعه بأذنه. وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين.

والثاني: خطاب يلقى في قلبه يخاطب به الملك روحه، كما في الحديث المشهور «إن للملك لَمَّة بقلب ابن آدم. وللشيطان لمة. فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد» ثم قرأ ﴿**الشيطان يَعِدُكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً**﴾. [البقرة: ٢٦٨].

وقال تعالى: ﴿**إذ يوحي ربك إلى الملائكة: أني معكم. فثبتوا الذين آمنوا**﴾. [الأنفال: ١٢]. قيل: في تفسيرها: قَوُّوا قلوبهم، وبشروهم بالنصر.

وقيل: احضُروا معهم القتال. والقولان حق. فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم. ومن هذا الخطاب: واعظ الله عز وجل في قلوب عباده المؤمنين.

كما في جامع الترمذي ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعـالى ضرب مثـلاً: صراطًـا مستقيمًا. وعلى كَنَفَتي الصراطِ سوران، لهما أبـواب مفتحة، وعلى الأبوابِ ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس

الصراط. وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد في حَدٍ من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعي على رأس الصراط: كتاب الله. والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن» فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة.

وأما وقوعه بغير واسطة: فمما لم يتبين بعد. والجزم فيه بنفي أو إثبات موقوف على الدليل. والله أعلم.

النوع الثاني من الخطاب المسموع: خطاب الهواتف من الجان. وقد يكون المخاطب جنيًا مؤمنًا صالحًا. وقد يكون شيطانًا. وهذا أيضًا نوعان.

أحدهما: أن يخاطبه خطابًا يسمعه بأذنه.

والثاني: أن يلقى في قلبه عندما يُلِمُّ به. ومنه وعده وتَمْنيته حين يَعِدُ الإنسى ويُمَنِّيه، ويأمره وينهاه. كما قال تعالى: ﴿**يعدهم ويمنيهم. وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا**﴾. [النساء: ١٢٠]. وقال: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**﴾. [البقرة: ٢٦٨]. وللقلب من هذا الخطاب نصيب. وللأذن أيضًا منه نصيب. والعصمة منتفية إلا عن الرسل. ومجموع الأمة.

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحماني، أو ملكي؟ بأي برهان؟ أو بأي دليل؟ والشيطان يقذف في النفس وحيه. ويلقى في السمع خطابه. فيقول المغرور المخدوع «قيل لي، وخوطبت» صدقت، لكن الشأن في القائل لك والمخاطب. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغيلان بن سلمة ـ وهو من الصحابة لما طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه ـ: «**إني لأظن الشيطان ـ فيما يسترق من السمع ـ سمع بموتك. فقذفه في نفسك**» فمن يأمن القراء بعدك يا شهر؟...

(١) **المرتبة** العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة. وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**».

وقد قيل: في سبب هذا التخصيص المذكور: إن أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة. ثم انتقل إلى وحي اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة، من حين بعث إلى أن توفي، صلوات الله وسلامه عليه. فنسبة مدة الوحي

(١) ٥٠ مدارج جـ١.

في المنـام من ذلك: جزء من ستة وأربعين جزءًا. وهذا حسن. لولا ما جاء في الرواية الأخرى الصحيحة: «**إنها جزء من سبعين جزءًا**».

وقد قيل: في الجمع بينهما: إن ذلك بحسب حال الرائي، فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين. ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين. والله أعلم.

والرؤيا: مبدأ الوحي. وصدقها بحسب صدق الرائي. وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثًا. وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطىء، كما قال النبي ﷺ؛ وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها. فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما في زمن قوة نور النبوة: ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

ونظير هذا الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة. ولم تظهر عليهم، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. وقد نص أحمد على هذا المعنى.

وقال عبادة بن الصامت: «**رؤيا المؤمن كلام، يكلم به الرب عبده في المنام**».

وقد قال النبي ﷺ: «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات**». قيل: وما المبشرات، يا رسول الله؟ قال: «**الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو تُرَى له**» وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال: «**أرى رؤيـاكم قد تواطأت في العشر الأواخر. فمن كان منكم مُتَحَرِّيها فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان**».

والرؤيا كالكشف، منها رحماني. ومنها نفساني. ومنها شيطاني.

وقال النبي ﷺ: «**الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة. فيراه في المنام**».

والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحي. فإنها معصومة من الشيطان. وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحي الصريح. فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منهبة على اندراج قضية خاصة في حكمه، لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك.

ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهي. ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة. ويذكر الله حتى تغلبه عيناه. فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار. فإنه وقت النزول الإلهي، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين. وعكسه رؤيا العَتَمة، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية.

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «**رؤيا المؤمن كلام، يكلم به الرب عبده في المنام**». (١)

وللرؤيا ملك موكل بها، يُريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله. فيضربها لكل أحد بحسبه.

وقال مالك: «**الرؤيا من الوحي وحي**» وزَجَر عن تفسيرها بلا علم. وقال «**أتتلاعب بوحي الله؟**».

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها، يخرجنا ذكرها عن المقصود. والله أعلم.

فصل

في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين: شفاء القلوب، وشفاء الأبدان.

فأما اشتمالها على شفاء القلوب: فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال. فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم. وفساد القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب.

فالضلال نتيجة فساد العلم. والغضب نتيجة فساد القصد.

وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها. فهداية الصراط المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال. ولذلك كان سؤال هذه الهداية: أفرض دعاء على كل عبد. وأوجبه عليه كل يوم وليلة. في كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلى

(١) مكرر تقدم قريبًا.

الهداية المطلوبة. ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقق بـ ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥]. علمًا ومعرفة، وعملاً وحالاً: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد. فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل. فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدًا.

وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبة غير الله وعبوديته: من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل. فإذا جاء الحق معارضًا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم. فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل. فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى. وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان. فإذا لم يجدوا منه بدًّا أعطوه السكة والخطبة(١) وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين. لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به ﴿**وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم مرض، أم ارتابوا؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟ بل أولئك هم الظالمون**﴾. [النور: ٤٨ - ٥٠].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم. وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات. وهم أعظم الناس ندامة وتحسرًا، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن رَكْب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا. ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله. ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ. وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق. وفاز المحقون وخسر المبطلون. وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين. فياله هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه.

(١) السكة: المراد منها الاسم والشعار يضرب على النقود، ويقصد بذلك ما كان عليه الخلفاء في وقته، إذ لم يكن لهم من الخلافة إلا الصور. أما الحكم النافذ في الأمور فلغيرهم.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضًا كحال هذا. وكلاهما فاسد القصد. ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾[الفاتحة: ٥].

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء: (١) عبودية الله لا غيره (٢) بأمره وشرعه (٣) لا بالهوى (٤) ولا بآرء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم (٥) بالاستعانة على عبوديته به (٦) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام. وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد. وهما الرياء، والكبر فدواء الريا بـ ﴿**إياك نعبد**﴾ ودواء الكبر بـ ﴿**إياك نستعين**﴾.

وكثيرا ماكنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول ﴿**إياك نعبد**﴾ تدفع الرياء ﴿**وإياك نستعين**﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ ﴿**إياك نعبد**﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿**إياك نستعين**﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾. [الفاتحة: ٦]. عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفّل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة. وكان من المنعم عليهم ﴿**غير المغضوب عليهم**﴾. وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ﴿**والضالين**﴾. وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين: أن يُسْتَشْفَى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه. فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله (١)وكلامه وفهمت عنه فهمًا خاصًا، اختصها به، من معاني هذه السورة.

وسنبين إن شاء الله تعالى تضمنها للرد على جميع أهل البدع بأوضح البيان وأحسن الطرق.

(١) كذا في الأصل، والظاهر أن الواو زائدة (ج).

فصـــــل

وأما تضمنها لشفاء الأبدان، فنذكر منه ماجاءت به السنة، وما شهدت به قواعد الطب، ودلت عليه التجربة.

فأما مادلت عليه السنة: ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري «أن ناسًا من أصحاب النبي، ﷺ، مروا بحي من العرب. فلم يَقْرُوهم، ولم يُضَيِّفُوهم. فلُدغ سيد الحي. فأتوهم. فقالوا: هل عندكم من رُقية، أو هل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا. فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم على ذلك قطيعًا من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب. فقام كأن لم يكن به قَلَبَة. فقلنا: لا تعجلوا حتى نأتي النبي، ﷺ، فأتيناه فذكرنا له ذلك. فقال: «مايدريك أنها رقية؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهم». فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه. فأغنته عن الدواء. وربما بلغت من شفائه مالم يبلغه الدواء.

هذا مع كون المحل غير قابل، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم فكيف إذا كان المحل قابلاً.

فصـــــل

وأما شهادة قواعد الطب بذلك: فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحُمْات والسموم. وهي ذوات الأنفس الخبيثة التي تتكيف بكيفية غضبية، تثير فيها سُمية نارية، يحصل بها اللدغ. وهي متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها. فإذا تكيَّفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية، تجد راحة ولذة في إلقائها إلى المحل القابل، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة في إيصال شره إلى من يوصله إليه.

وكثير من الناس لا يهنأ له عيش في يوم لا يؤذى فيه أحدًا من بني جنسه. ويجد في نفسه تأذيًا بحمل تلك السمية والشر الذي فيه، حتى يفرغه في غيره. فيبرد عند ذلك أنينه. وتسكن نفسه. ويصيبه في ذلك نظير مايصيب من اشتدت شهوته إلى

الجماع. فيسوء خلقه. وتثقل نفسه حتى يقضي وطره. هذا في قوة الشهوة. وذاك في قوة الغضب.

وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعًا لهذه النفوس الغضبية. فلولا هو لفسدت الأرض وخربت ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾. [البقرة: ٢٥١]. وأباح الله ـ بلطفه ورحمته ـ لهذه النفوس من الأزواج وملك اليمين مايكسر حدتها.

والمقصود أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه، ومنها ما يؤثر في المحل بمجرد مقابلته له، وإن لم يمسه، فمنها مايطمس البصر، ويسقط الحبل.

ومن هذا نظر العائن. فإنه إذا وقع بصره على المعين حدثت في نفسه كيفية سمية أثرت في المعين بحسب عدم استعداده. وكونه أعزل من السلاح، وبحسب قوة تلك النفس.

وكثير من هذه النفوس يؤثر في المعين إذا وصف له. فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به. ومنكر هذا ليس معدودًا من بني آدم إلا بالصورة والشكل.

فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التي فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية. وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها، وماتضمنته من التوحيد والتوكل، والثناء على الله، وذكر أصول أسمائه الحسنى، وذكر اسمه الذي ماذكر على شر إلا أزاله ومحقه، ولا على خير إلا نماه وزاده. دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية، فحصل البرء.

فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده. وحفظ الشيء بمثله فالصحة تحفظ بالمثل. والمرض يدفع بالضد. أسبابٌ ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقاً وأمراً. ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة. وقبول من الطبيعة المنفعلة. فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية، ولم تقو نفس الراقي على التأثير، لم يحصل البرء.

فهنا أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل. فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء. وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولابد بإذن الله سبحانه وتعالى.

ومن عرف هذا كما ينبغي تبين له أسرار الرقى. وميز بين النافع منها وغيره. ورقى الداء بما يناسبه من الرقى. وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل، كما أن

السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع. وهذه إشارة مطلعة على ماوراءها لمن دق نظره، وحسن تأمله. والله أعلم.

وأما شهادة التجارب بذلك: فهي أكثر من أن تذكر. وذلك في كل زمان. وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أمورًا عجيبة. ولا سيما مدة المقام بمكة. فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة مني. وذلك في أثناء الطواف وغيره. فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط. جربت ذلك مرارًا عديدة. وكنت آخذ قدحًا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مرارًا. فأشربُهُ فأجدُ بِهِ من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك. ولكن بحسب قوة الإيمان، وصحة اليقين والله المستعان.

فصــل

في اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة.

وهذا يعلم بطريقين: مجمل، ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق، وإيثاره، وتقديمه على غيره، ومحبته والانقياد له، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق: هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما جاء به علمًا وعملاً في باب صفات الرب سبحانه، وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وفي حقـائق الإيمان، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى. وكل ذلك مسلَّم إلى رسول الله ﷺ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم أو عمل أو حقيقة، أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته، وعليه السكة المحمدية، بحيث يكون من ضرب المدينة. فهو من الصراط المستقيم، وما لم يكن كذلـك فهو من صراط أهل الغضب والضلال. فما ثَمَّ خروج عن هذه الطرق الثلاث:

طريق الرسول ﷺ وما جاء به.

وطريق أهل الغضب، وهي طريق من عرف الحق وعانده.

وطريق أهل الضلال: وهي طريق من أضله الله عنه.

ولهذا قال عبدالله ابن عباس، وجابر بن عبدالله رضي الله عنهم: «**الصراط المستقيم: هو الإسلام**».

وقال عبدالله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: «**هو القرآن**».

وفيه حديث مرفوع في الترمذي وغيره، وقال سهل بن عبدالله: «**طريق السنة والجماعة**». وقال بكر بن عبدالله المزني: «**طريق رسول الله ﷺ**».

ولا ريب أن ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه علمًا وعملاً وهو معرفة الحق وتقديمه، وإيثاره على غيره. فهو الصراط المستقيم.

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له.

فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه فباطل. وهو من صراط الأمتين:

الأمة الغضبية، وأمة أهل الضلال.(١).

فصـــل (٢)

في بيان تضمنها للرد على الرافضة وذلك من قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾. [الفاتحة: ٦]. إلى آخرها.

ووجه تضمنه إبطال قولهم: أنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

«**منعم** عليهم» وهم أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق واتبعوه.

و «**مغضوب** عليهم» وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه.

و «**ضالون**» وهم الذين جهلوه فأخطؤوه.

فكل من كان أعرف للحق، وأتبع له: كان أولى بالصراط المستقيم.

ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم: هم أولى بهذه الصفة من الروافض. فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ - ورضي الله عنهم - جهلوا الحق وعرفه الروافض، أو رفضوه وتمسك به الروافض.

ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدل على أهل الحق منهما. فرأينا أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا بلاد الكفر، وقلبوها بلاد إسلام. وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم والهدى. فآثارهم تدل على أنهم هم أهل الصراط المستقيم.

ورأينا الرافضة بالعكس في كل زمان ومكان. فإنه قَطُّ ما قام للمسلمين عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام. وكم جَرُّوا على الإسلام وأهله من بليَّة!! وهل عاثت سيوف المشركين عُبّاد الأصنام - من عسكر هولاكو وذويه من التتار - إلا من تحت رءوسهم؟ وهل عطلت المساجد، وحرقت المصاحف، وقتل سروات المسلمين وعلماؤهم وعبادهم وخليفتهم، إلا بسببهم ومن جَرّائهم؟ ومظاهرتُهم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة، وآثارهم في الدين معلومة. فأي الفريقين أحق بالصراط المستقيم؟ وأيهم أحق بالغضب والضلال، إن كنتم تعلمون؟.

---

(١) تفصيل الرد على المبطلين، وهم أنواع كثيرة من ملاحدة وجبرية وجهمية وغيرهم تركناه اختصارًا ما عدا الرافضة، وهو موجود في الأصل من المدارج الجزء الأول لمن أراده (ج).

(٢) ٧٢ مدارج جـ١.

ولهذا فسر السلف الصراط المستقيم وأهله: بأبي بكر وعمر، وأصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم، وهو كما فسروه. فإنه صراطهم الذي كانوا عليه. وهو عين صراط نبيهم. وهم الذين أنعم الله عليهم، وغضب على أعدائهم، وحكم لأعدائهم بالضلال.

وقال أبو العالية ـ رُفيع الرياحي ـ والحسن البصري، وهما من أجل التابعين: «**الصراط المستقيم: رسول الله ﷺ وصاحباه**».

وقال أبو العالية أيضًا في قوله: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾. [الفاتحة: ٧]. «**هم آل رسول الله ﷺ، وأبوبكر وعمر**». وهذا حق. فإن آله وأبا بكر وعمر على طريق واحدة. ولا خلاف بينهم، وموالاة بعضهم بعضًا، وثناؤهم عليهما، ومحاربة من حاربا، ومسالمة من سالما: معلومة عند الأمة. خاصها وعامها.

وقال زيد بن أسلم: «**الذين أنعم الله عليهم: هم رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر**». ولا ريب أن المنعم عليهم: هم أتباعه، والمغضوب عليهم: هم الخارجون عن اتباعه، وأتبع الأمة له وأطوعهم: أصحابه وأهل بيته. وأتبع الصحابة له: السمع والبصر، أبو بكر وعمر. وأشد الأمة مخالفة له: هم الرافضة، فخلافهم له معلوم عند جميع فرق الأمة. ولهذا يبغضون السنة وأهلها، ويعادونها ويعادون أهلها. فهم أعداء سنته ﷺ. وأهل بيته وأتباعه من بنيهم أكمل ميراثًا؛ بل هم ورثته حقًّا.

فقد تبين أن الصراط المستقيم: طريق أصحابه وأتباعه. وطريق أهل الغضب والضلال: طريق الرافضة.

وبهذه الطريق ـ بعينها ـ يرد على الخوارج. فإن معاداتهم الصحابة معروفة.

فصل

وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب: انتهى إلى هاتين الكلمتين. وعليهما مدار العبودية والتوحيد. حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب. جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن. وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن. وجمع معاني القرآن في المفصل. وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين. فنصفهما له تعالى وهو

﴿إياك نعبد﴾ ونصفهما لعبده. وهو ﴿إياك نستعين﴾.

وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

و«العبادة» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع.

والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل. والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له. ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتى تكون محبًّا خاضعًا.

ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبًا لهم. بل هو غاية مطلوبهم - ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم -: منكرين لكونه إلهًا، وإن أقروا بكونه ربًّا للعالمين وخالقًا لهم. فهذا غاية توحيدهم. وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك.

كما قال تعالى: ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم؟ ليقولن الله**﴾. [الزخرف: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ ليقولن الله**﴾. [الزمر: ٣٨]. ﴿**قل لمن الأرض ومن فيها؟ - إلى قوله - سيقولون لله. قل فأنَّى تُسْحَرون؟**﴾. [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]. ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

و«الاستعانة» تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه. فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره - مع ثقته به - لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه - مع عدم ثقته به - لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه. فيحتاج إلى اعتماده عليه. مع أنه غير واثق به.

و«التوكل» معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو حقيقة ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥].

وهذان الأصلان - وهما التوكل، والعبادة - قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها. هذا أحدها. الثاني: قول شعيب: ﴿**وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب**﴾. [هود: ٨٨]. الثالث: قوله تعالى: ﴿**ولله غيب السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه**﴾. [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى: حكاية عن المؤمنين: ﴿**ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا**

وإليك المصير﴾ . [الممتحنة: ٤] .

الخامس: قوله تعالى: ﴿**واذكر اسم ربك وتَبَتَّلْ إليه تبتيلاً. رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو، فاتخذه وكيلاً**﴾ . [المزمل: ٨، ٩] .

السادس: قوله تعالى: ﴿**قل: هو ربي. لا إله إلا هو، عليه توكلت وإليه متاب**﴾ . [الرعد: ٣٠] .

فهذه[1] ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين. وهما: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ . [الفاتحة: ٥] .

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل. إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها.

ولأن ﴿**إياك نعبد**﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله».

و﴿**إياك نستعين**﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب» فقدم ﴿**إياك نعبد**﴾ على ﴿**إياك نستعين**﴾ كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة.

ولأن ﴿**إياك نعبد**﴾ قسم الرب. فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به.

و ﴿**إياك نستعين**﴾ قسم العبد. فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ إلى آخر السورة.

ولأن «العبادة» المطلقة: تتضمن «الاستعانة» من غير عكس. فكل عابد لله عبودية تامة: مستعين به ولا ينعكس. لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته. فكانت العبادة أكمل وأتم. ولهذا كانت قسم الرب.

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس. ولأن «الاستعانة» طلب منه، و «العبادة» طلب له. ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، و «الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص. ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك، و «الاستعانة» طلب العون على العبادة.

وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك. وأداء حقه: أهم من التعرض لصدقته.

ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، و «الإعانة» فعله بك

(١) تقدم أنه ذكر أنها سبعة مواضع.

وتوفيقه لك. فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقِّهَا أعانك عليها. فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإعانة. وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

و «**العبودية**» محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى. وهكذا أبدًا، حتى يقضي العبد نَحبْه.

ولأن «إياك نعبد» له. و «إياك نستعين» به. وماله مقدم على ما به.

ولأن ماله متعلق بمحبته ورضاه. وما به متعلق بمشيئته. وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي. والمتعلق بمحبته: طاعاتهم وإيمانهم. فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته. ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدًا. وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فبهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم «إياك نعبد» على «إياك نستعين».

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم. وفيه الاهتمام وشدة العناية به. وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصْر فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك. والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدمًا. وسيبويه نص على الأهم، ولم ينف غيره.

ولأنه يقبح من القائل: أن يعتق عشرة أعبد مثلاً، ثم يقول لأحدهم: إياك أعتقت. ومن سمعه أنكر ذلك عليه، وقال: وغيره أيضا أعتقت. ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتأمل قوله تعالى: ﴿**وإياي فارهبون**﴾. [البقرة: ٤٠]. ﴿**وإياي فاتقون**﴾. [البقرة: ٤١]. كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟ وكذلك «إياك نعبد وإياك نستعين». هو في قوة: لا نعبد غيرك. ولا نستعين بسواك. وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق.

ولا عبرة بجدل من قلَّ فهمه، وفتح عليه باب الشك والتشكيك. فهؤلاء هم آفة العلوم، وبلية الأذهان والفهوم، مع أن في ضمير «إياك» من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل. ففي: إياك قصدت، وأحببت: من

الـدلالـة على معنى: حقيقتـك وذاتـك قصدي، ما ليس في قولك: قصدتك وأحببتك. وإياك أعني، فيه معنى: نفسك وذاتك وحقيقتك أعني.

ومن ههنا قال من قال من النحاة: إن «إيّا» اسم ظاهر مضاف إلى الضمير المتصل. ولم يردَّ عليه بردٍّ شاف.

ولـولا أنّـا في شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام في هذه المسألة، وذكرنا مذاهب النحاة فيها، ونصرنا الراجح. ولعلنا أن نعطف على ذلك بعون الله.

وفي إعـادة «إياك» مرة أخـرى دلالـة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين. ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت لملك مثـلاً: إياك أحب، وإياك أخاف. كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره، ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف.

إذا عرفت هذا؛ فالناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام:

أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها. فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها. ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الـرب تبـارك وتعـالى: الإعانة على مرضاته، وهو الذي عَلَّمه النبي ﷺ، لِحِبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال: «**يا معاذ، والله إني لأحبك. فلا تنس أن تقول دُبُرَ كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

فأنفـع الـدعاء: طلب العون على مرضاته. وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المـطلوب. وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العـون على مرضـاتـه. ثم رأيتـه في الفـاتحـة في: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥].

ومقابل هؤلاء: القسم الثاني. وهم المُعْرِضون عن عبادته والاستعانة به. فلا عبادة ولا استعانة. بل إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه. **فإنـه** سبحانه يسأله من في السموات والأرض: يسأله

أولياؤه وأعداؤه ويمدُّ هؤلاء وهؤلاء.

وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها. ولكن لما لم تكن عونًا له على مرضاته. كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه.

وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونًا على طاعته: كان مبعدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره. وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته. ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له. فيمنعه حماية وصيانة وحفظًا، لا بخلاً.

وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه.

فيظن ـ بجهله ـ أن الله لا يحبه ولا يكرمه. ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه. وهذا حشو قلبه ولا يشعر به. والمعصوم من عصمه الله. والإنسان على نفسه بصيره. وعلامة هذا: حمله على الأقدار. وعتابه الباطن لها. كما قيل:

وعـاجـز الـرأي مِضياع لفرصته		حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إليّ؟ والعاقل خصم نفسه. والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا خِيرته وعاقبته مغيبة عنك. وإذا لم نجد من سؤاله بُدًّا، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة. وقدم بين يدي سؤالك الاستخـارة. ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها. ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، بل إن وُكِل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته.

ولا تظن أن عطاءه كلَّ ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يمنْعه لهوان

عبده عليه، ولكنْ عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده.

قال الله تعالى: ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونَعَّمه، فيقول: ربي أكرَمَن. وأما إذا ما ابتلاه فَقَدر عليه رزقه فيقول: ربي أهانَنْ* كلا**﴾. [الفجر: ١٥ - ١٧].

أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليّ. ولكنه ابتلاء مني، وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخَوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقَدَر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سَعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

فرد الله سبحانه على مَنْ ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره. فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويُقَتِّر على المؤمن لا لإهانته. إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد على هذا وعلى هذا. وهو الغني الحميد.

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥].

فصل

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة. وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل. فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها. بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة. فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء. ولكنَّ أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان. وخذل هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفر. فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه. فهم موكولون إلى أنفسهم. مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده**».

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد: ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب. ومن الآلة إلى الفاعل. فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم .ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم. ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق، والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس. وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس. فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَليٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أَبَوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس هَمِّه على إنزال ما ينويه بهما. فهذه حال المتوكل. ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولابد.

قال الله تعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾. [الطلاق:٣]. أي كافيه. و«الحسب» الكافي. فإن كان ـ مع هذا ـ من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو.

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يَدُرْ مع ما يحبه ويرضاه. فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه

وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به. فقضيت له، وأسعف بها. سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهًا عند الخلق، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له. فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال، لا تستلزم الإسلام، فضلاً عن الولاية والقرب من الله. فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر. فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين. فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه. فالحال من الدنيا. فهو كالملك والمال، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره: ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه، ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة.

فصل

إذا عرف هذا: فلا يكون العبد متحققًا بـ ﴿**إياك نعبد**﴾ إلا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول ﷺ. والثاني: الإخلاص للمعبود. فهذا تحقيق ﴿**إياك نعبد**﴾.

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضًا إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة. وهم أهل «إياك نعبد» حقيقة. فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله. فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده. لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هربًا من ذمهم. بل قد عَدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لا يكون من عارف بهم ألبتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه.

فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم. ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه. ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه. وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه. وهو الذي بَلا عباده بالموت والحياة لأجله.

قال الله تعالى: ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليَبْلُوكم أيُّكم أحسنُ عملاً**﴾. [الملك: ٢]. وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملا.

قال الفضيل بن عياض: «العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا: لم يقبل. وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا: لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص: ما كان لله.

والصواب: ما كان على السنة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا**﴾. [الكهف: ١١٠].

وفي قوله: ﴿**ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾. [النساء: ١٢٥].

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره. وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يُرَد عليه ـ أحوج ما هو إليه ـ هباء منثورًا.

وفي الصحيح: من حديث عائشة، عن النبي ﷺ: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**».

وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا. فإن الله تعالى إنما يُعبَد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

الضرب الثاني(١): من لا إخلاص له ولا متابعة. فليس عمله موافقًا لشرع، وليس هو خالصًا للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله. وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله عز وجل. ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿**لا تَحْسَبَنَّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا. فلا تحسبنهم بمفَازة من العذاب. ولهم عذاب أليم**﴾. [آل عمران: ١٨٨].

يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص. وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف ـ من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة ـ عن الصراط المستقيم. فإنهم يرتكبون البدع والضلالات، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم. فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال

(١) هذا هو القسم الثاني من الأقسام الأربعة التي انقسم إليها الناس بحسب الإخلاص والمتابعة.

العبَّاد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله. كمن يظن أن سماع المُكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة. وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: مَنْ أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله. كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وَحميَّة وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال. فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة. فلا تقبل ﴿**وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾. [البينة: ٥].

فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر. والإخلاص له في العبادة. وهم أهل ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥].

ثم أهل مقام ﴿**إياك نعبد**﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق. فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد.

قالوا: والأجر على قدر المشقة. ورووا حديثًا لا أصل له: «**أفضل الأعمال أحمزها**» أي أصعبها وأشقها وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك. إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها. ثم هؤلاء قسمان: فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه. ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة. فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته. فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء: قسمان. فالعارفون المتبعون منهم: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرَّقهم وأذهب جمعيتهم. والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله. فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه. وربما يقول قائلهم:

يطالب بالأوراد من كان غافلاً ... فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟

ثم هؤلاء أيضًا قسمان: منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا، فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟ فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم، وأجب داعي الله، ثم عد إلى موضعك. وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي حق الرب. ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل «إياك نعبد».

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر. فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل. فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي ﷺ: «**الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله**».

رواه أبو يعلى. واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفّاع متعد إلى الغير. وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمْر النعم**» وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي. واحتجوا بقوله ﷺ: «**من دعا إلى هُدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**».

واحتجوا بقوله ﷺ: «**إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير**».

وبقوله ﷺ: «**إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها**».

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، مادام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم. لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب. ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس. ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضي ذلك الوقت ووظيفته.

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار. بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل. والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

الأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع. وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به. فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير. فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال. والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق. والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبده عليها. فهو لايزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره.

فإن رأيت العلماء رأيته معهم. وإن رأيت العباد. رأيته معهم.

وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم. وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم.

وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم. وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم. فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه.

فهذا هو المتحقق بـ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ حقًّا، القائم بهما صدقًا، مَلْبَسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه. ويدور معه حيث استقلت مضاربه. يأنس به كل مُحِقٍّ. ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع. وكالنخلة لا يسقط ورقها. وكلها منفعة حتى شوكها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله. فهو لله وبالله ومع الله. قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناسَ بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم. وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها. فواهًا له! ما أَغْرَبَه بين الناس! وما أشدَّ وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان. وعليه التكلان.

فصل

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة. وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحِكَم والتعليل، الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة، وصِرْف الإرادة. فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن تكون سببًا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببًا لنجاة. وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة.

كما قالوا في الخلق: إنه لم يخلق ما خلقه لعلة، ولا لغاية هي المقصودة به، ولا لحكمة تعود إليه منه. وليس في المخلوقات أسباب مقتضيات لمسبباتها، ولا فيها قُوى ولا طبائع. فليست النار سببًا للإحراق، ولا الماء سببًا للإرواء والتبريد، وإخراج النبات، ولا فيه قوة ولا طبيعة تقتضي ذلك. وحصول الإحراق والرِّي ليس بهما، لكن بإجراء العادة الاقترانية على حصول هذا عند هذا، لا بسبب ولا بقوة قامت به.

وهكذا الأمر عندهم في أمره الشرعي سواء. لا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور به صفة اقتضت حسنه، ولا المنهي عنه صفة اقتضت قبحه.

ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة. وقد ذكرناها في كتابنا الكبير المسمى «مفتاح دار السعادة. ومطلب أهل العلم والإرادة» وبينا فساد هذا الأصل من نحو ستين وجهًا وهو كتاب بديع في معناه. وذكرناه أيضًا في كتابنا المسمى «سَفَر الهجرتين، وطريق السعادتين».

وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها، ولا يتنعمون بها. وليست الصلاة قرة أعينهم. وليست الأوامر سرور قلوبهم، وغذاء أرواحهم وحياتهم. ولهذا يسمونها «تكاليف» أي قد كلفوا بها. ولو سمى مُدَّع لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا، وقال: إني إنما أفعله بكلفة: لم يعده أحد محبًا له.

ولهذا أنكر هؤلاء - أو كثير منهم - محبة العبد لربه. وقالوا: إنما يحب ثوابه وما يخلقه له من النعيم الذي يتمتع به. لا أنه يحب ذاته. فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه.

وحقيقة العبودية هي كمال المحبة. فأنكروا حقيقة العبودية ولُبَّها.

وحقيقة الإلهية: كونه مألوهًا محبوبًا بغاية الحب، المقرون بغاية الذل والخضوع، والإجلال والتعظيم. فأنكروا كونه محبوبًا. وذلك إنكار لإلهيته.

وشيخ هؤلاء: هو الجَعد بن درهم الذي ضَحَّى به خالد بن عبدالله القَسْرِي في يومِ أضحى. وقال: «**إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً**».

وإنما كان إنكاره: لكونه تعالى محبوبًا محبًا، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه، التي هي الخلة عند الجهمية، التي يشترك فيها جميع الخلائق. فكلهم أخلاء لله عندهم.

وقد بينا فساد قولهم هذا وإنكارهم محبة الله من أكثر من ثمانين وجهًا في كتابنا «قرة عيون المحبين، وروضة قلوب العارفين» وذكرنا فيه وجوب تعلق المحبة بالحبيب الأول من جميع طرق الأدلة النقلية والعقلية والذوقية والفطرية وأنه لا كمال للإنسان بدون ذلك ألبتة، كما أنه لا كمال لجسمه إلا بالروح والحياة، ولا لعينه إلا بالنور الباصر، ولا لأذنه إلا بالسمع، وأن الأمر فوق ذلك وأعظم.

الصنف الثاني: القدرية النفاة، الذين يثبتون نوعًا من الحكمة، والتعليل. ولكن لا يقوم بالرب، ولا يرجع إليه. بل يرجع إلى مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته.

فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضًا كقوله: ﴿**ونُودوا أن تِلْكُم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾. [الإعراف: ٤٩].

وقوله: ﴿**ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾. [النحل: ٣٢]. وقوله: ﴿**هل تجزون إلا ما كنتم تعملون**﴾. [النمل: ٩٠].

وقوله ﷺ - فيما يحكي عن ربه عز وجل -: «**يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها**» وقوله تعالى: ﴿**إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾. [الزمر: ١٠].

قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجرًا وثوابًا. لأنه يثوب إلى العامل من عمله، أي يرجع إليه منه.

قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجرًا ولا ثوابًا معنى.

قالوا: ويدل عليه الوزن. فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للوزن معنى.

وقد قال تعالى: ﴿**والوزن يومئذ الحق. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون**﴾. [الأعراف: ٨، ٩].

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل. وبينهما أعظم التباين.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء ألبتة. وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته، وينعم من أفنى عمره في معصيته. وكلاهما بالنسبة إليه سواء. وجوزت أن يرفع صاحبَ العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً، وأكثر وأفضل درجات. والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب، وهذا بالعقاب.

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح. وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنًا لها. وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله: ما أجهلهم بالله وأغرَّهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، حتى قالوا: إن إعطاءه ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة. ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء ألبتة.

والطائفتان جائرتان، منحرفتان عن الصراط المستقيم، الذي فطر الله عليه عباده، وجاءت به الرسل، ونزلت به الكتب.

وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب. مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها.

وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنّه، وصدقته على عبده. أن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحَبَّبها إليه، وزَينها في قلبه وكرَّه إليه أضدادها. ومع هذا فليست ثمنًا لجزائه وثوابه، ولا هي على قدره، بل غايتها ـ إذا بذل العبد فيها نُصْحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه ـ أن تقع شكرًا له على بعض نعمه عليه. فلو طالبه بحقه لبقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها. فلذلك لو عَذَّبَ أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم.. ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم. كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ.

ولهذا نفى ﷺ دخول الجنة بالعمل، كما قال: «**لن يدخل أحدًا منكم الجنة عمله**» وفي لفظ: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**».

وفي لفظ: «**لن ينجى أحدًا منكم عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**».

وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما في قوله: ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾. [النحل: ٣٢].

ولا تنافى بينهما. إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد. فالمنفيُّ استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمنًا وعوضًا لها، ردًّا على القدرية المجوسية، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله، وأغلظهم عنه حجابًا. وحُقَّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة.

ويكفي في جهلهم بالله: أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه في مِنَّته، وأن من تمام الفرح والسرور، والغبطة واللذة: اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة. وأعظمهم منه منزلة، وأقربهم إليه: أعرفهم

بهذه المنة، وأعظمهم إقرارًا بها، وذكرًا لها، وشكرًا عليها، ومحبة له لأجلها. فهل يتقلَّب أحد قط إلا في منته؟

﴿يَمُنُّون عليك أن أسلموا، قل لا تَمُنُّوا عليَّ إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾. [الحجرات: ١٧].

واحتمال مِنة المخلوق: إنما كانت نقصًا لأنه نظيره. فإذا مَنَّ عليه استعلى عليه، ورأى الممنونُ عليه نفسه دونه.

هذا مع أنه ليس في كل مخلوق، فلرسول الله، ﷺ، المنة على أمته، وكان أصحابه يقولون: «**الله ورسوله أَمَنُّ**» ولا نقص في منة الوالد على ولده، ولا عار عليه في احتمالها. وكذلك السيد على عبده.

فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم، ومحض صدقته عليهم، بلا عوض منهم ألبتة؟ وإن كانت أعمالهم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده. فهو المنان عليهم. بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها، وأعانهم عليها، وكملها لهم. وقبلها منهم على ما فيها؟ وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله: ﴿**بما كنتم تعملون**﴾. [النحل: ٣٢].

فهذه باء السببية، ردًّا على القدرية والجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء، ولا هي أسباب له. وإنما غايتها أن تكون أمارات.

قالوا: وليست أيضًا مطردة، لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر. فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشيئة.

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء، كما هي مبطلة لقول أولئك. وأدلة المعقول والفطرة أيضًا تبطل قول الفريقين. وتبين لمن له قلب ولب: مقدار قول أهل السنة. وهم الفرقة الوسط. المثبتون لعموم مشيئة الله، وقدرته، وخلقه العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعًا وقدرًا، وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً.

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعًا من الحق، وارتكبت لأجله نوعًا من الباطل، بل أنواعًا.

وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه: ﴿**والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾. [البقرة: ٢١٣]. و ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو**

الفضل العظيم﴾ . [الجمعة : ٤] .

الصنف الثالث : الذين زعموا أن فائدة العبادة : رياضة النفوس ، واستعدادها لفيض العلوم عليها ، وخروج قواها عن قوى النفوس السَّبُعية والبهيمية . فلو عُطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم . والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها ، وتنقلها إلى مشابهة العقول المجردة . فتصير عاملة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها . وهذا يقوله طائفتان .

إحداهما: من يقرب إلى النبوات والشرائع من الفلاسفة ، القائلين بقدم العالم ، وعدم انشقاق الأفلاك ، وعدم الفاعل المختار .

الطائفة الثانية : من تفلسفت من صوفية الإسلام . وتقرب إلى الفلاسفة . فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس وتجردها ، ومفارقتها العالم الحسي ، ونزول الواردات والمعارف عليها .

ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادات إلا لهذا المعنى . فإذا حصل لها بقي مخيرًا في حفظه أوراده ، أو الاشتغال بالوارد عنها .

ومنهم من يوجب القيام بالأوراد والوظائف . وعدم الإخلال بها . وهم صنفان أيضًا .

أحدهما: من يوجبونه حفظًا للقانون وضبطًا للنفوس .

والآخرون: الذين يوجبونه حفظًا للوارد ، وخوفًا من تدرج النفس ـ بمفارقتها له ـ إلى حالتها الأولى من البهيمية .

فهذه نهاية أقدام المتكلمين على طريق السلوك . وغاية معرفتهم بحِكَم العبادة وما شُرعت لأجله . ولا تكاد تجد في كتب القوم غير هذه الطرق الثلاثة ، على سبيل الجمع ، أو على سبيل البدل .

فصل

وأما الصنف الرابع : فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية ، أتباع الخليلين ، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه ، وأهل البصائر في عبادته ، ومراده بها .

فالطوائف الثلاث محجوبون عنهم بما عندهم من الشُبه الباطلة ، والقواعد الفاسدة . ما عندهم وراء ذلك شيء . قد فرحوا بما عندهم من المحال ، وقنعوا بما ألفوه من الخيال . ولو علموا أن وراءه ما هو أجل منه وأعظم ، لما ارتضوا بدونه ، ولكن عقولهم قصرت عنه ، ولم يهتدوا إليه بنور النبوة ، ولم يشعروا به ، ليجتهدوا في طلبه ، ورأوا أن ما معهم خير من

الجهل، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده.

فتركّب من هذه الأمور إيثار ما عندهم على ما سواه. وهذه بلية الطوائف. والمعافى من عافاه الله.

فصــل

فاعلم أن سر العبودية، وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل، ولم يعطلها. وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلها، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل. وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود.

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها، وما شرعت لأجله؟

وكيف يستقيم له العلم بأنها هى الغاية المقصودة بالخلق، والتي لها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلى مالا يليق به، ويتعالى عنه مَنْ خلق السموات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلاً. ولم يخلق الإنسان عبثًا ولم يتركه سُدًى مهملاً.

قال تعالى: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون؟**﴾. [المؤمنون: ١١٥].

أي لغير شيء ولا حكمة، ولا لعبادتي ومجازاتي لكم.

وقد صرح تعالى بهذا في قوله: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾. [الذاريات: ٥٦]. فالعبادة: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها.

قال الله تعالى: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سُدًى؟**﴾. [القيامة: ٣٦]. أي مهملاً.

قال الشافعي: لا يؤمر ولا يُنْهَى، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب.

والصحيح: الأمران. فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي. والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها. وحقيقة العبادة امتثالها.

وقال تعالى؛ ﴿**ويتفكرون في خلق السموات والأرض: ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً، سبحانك! فقنا عذاب النار**﴾. [آل عمران: ١٩١].

وقال: ﴿**وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق**﴾. [الحجر: ٨٥].

وقال: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق، ولتُجْزَى كل نفس بما كسبت﴾. [الجاثية: ٢٢].

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق، المتضمن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه فإذا كانت السموات والأرض وما بينهما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا علة له، ولا حكمة مقصودة هي غايته؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكّد عليهم الثواب بالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية، وارتياضها بمخالفة العوائد؟

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته.

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته. مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه. فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبّهِ.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها. فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها.

فقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحْبِبْكم الله﴾. [آل عمران: ٣١].

فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم. ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم. فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره. ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما. فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله.

ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه ألبتة، ولا يهديه الله.

قال الله تعالى: **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره. والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**. [التوبة: ٢٤].

فكل من قدّم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه. أو معاملة أحدهم على معاملة الله: فهو ممن ليس الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه.

وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله.. فذلك المقدَّم عنده أحبُّ إليه من الله ورسوله، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه، أو طاعته أو مرضاته، ظنًّا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول. فيطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك. فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك.

وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول، وعرف أن غير من اتبعه هو أولى به مطلقًا، أو في بعض الأمور. ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به. فهذا الذي يخاف عليه. وهو داخل تحت الوعيد. فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله، ولم يوافقه على اتباع شيخه. فهو من الظلمة المعتدين. وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

فصـــل

وبنى **﴿إياك نعبد﴾** على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع: فأصحاب **﴿إياك نعبد﴾** حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان

البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها. وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فـ ﴿**إياك نعبد**﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، و﴿**إياك نستعين**﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

فصل

وجميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿**إياك نعبد، وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥]. فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم.

فقال نوح لقومه: ﴿**اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾. [المؤمنون: ٢٣].

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم.

قال الله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾. [النحل: ٣٦].

وقال: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾. [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا. إني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة. وأنا ربكم فاتقون**﴾. [المؤمنون: ٥١: ٥٢].

فصل

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه.

فقال: ﴿**لن يَسْتَنْكِفَ المسيح أن يكون عبدًا لله، ولا الملائكة المقربون. ومن يستنكف**

عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا﴾. [النساء:١٧٢]. **وقال:** ﴿**إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون**﴾. [الأعراف:٢٠٦].

وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء: ﴿**وله من في السموات والأرض**﴾. [الأنبياء:١٩]. ههنا.

ثم يبتدىء: ﴿**ومَنْ عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون**﴾. [الأنبياء:١٩، ٢٠]. فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي إن له من في السموات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا.

ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿**ومَنْ عنده لا يستكبرون عن عبادته**﴾. [الأنبياء: ١٩، ٢٠]

يعني أن الملائكة الذينَ عنده لا يستكبرون عن عبادته يعني لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون ـ يقال: حَسَر واستحسر، إذا تعب وأعيى ـ بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم.

فالأول: وصف لعبيد ربوبيته. والثاني: وصف لعبيد إلـهيته.

وقال تعالى: ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَونًا**﴾. [الفرقان:٦٣]. إلى آخر السورة. **وقال:** ﴿**عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا**﴾. [الإنسان:٦].

وقال: ﴿**واذكر عبدنا داود**﴾. [ص:١٧].

وقال: ﴿**واذكر عبدنا أيوب**﴾. [ص:٤١].

وقال: ﴿**واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب**﴾. [ص:٤٥].

وقال عن سليمان: ﴿**نعم العبد إنه أواب**﴾. [ص:٣٠].

وقال عن المسيح: ﴿**إن هو إلا عبد أنعمنا عليه**﴾. [الزخرف:٥٩]. فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى. ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته. فقال تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا**﴾. [البقرة:٢٣]. وقال تبارك وتعالى: ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده**﴾. [الفرقان:١]. وقال: ﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب**﴾. [الكهف:١]. فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله.

وقال: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبدًا﴾. [الجن: ١٩]. فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه.

وقال: ﴿سُبْحَانَ الذي أسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾. [الإسراء: ١]. فذكره بالعبودية في مقام الإسراء.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد. فقولوا عبد الله ورسوله**».

وفي الحديث: «**أنا عبد. آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**».

وفي صحيح البخاري: عن عبدالله بن عمرو قال: «**قرأت في التوراة صفة محمد ﷺ: محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفَظّ ولا غليظ، ولا صَخّاب بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر**».

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده. فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾. [الزمر: ١٧، ١٨].

وجعل الأمن المطلق لهم. فقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُم اليَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. الذين آمَنُوا بِآيَاتِنَا وكَانُوا مُسْلِمِينْ﴾. [الزخرف: ٦٨، ٦٩].

وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به. فقال: ﴿إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلطَانٌ، إلاَّ مَن اتَّبَعَك مِنَ الغَاوِينَ﴾. [الحجر: ٤٢].

وقال: ﴿إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين آمَنُوا وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إنَّمَا سُلطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّونَهُ والذِيْنَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُوْنَ﴾. [النحل: ٩٩، ١٠٠].

وجعل النبي، ﷺ، إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان. فقال في حديث جبريل ـ وقد سأله عن الإحسان ـ: «**أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فصل

في لزوم ﴿إياك نعبد﴾ لكل عبد إلى الموت

قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. [الحجر: ٩٩]. وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّيْن حتى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾. [المدثر: ٤٦، ٤٧]. واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير.

وفي الصحيح ـ في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: «**أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه**». أي الموت وما فيه. فلا ينفك العبد من العبودية مادام في دار التكليف.

بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان: «**من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟**» ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود. فيسجد المؤمنون. ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود.

فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه. بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه.

ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ ـ بل على جميع الرسل ـ أعظم من الواجب على أممهم. والواجب على أولي العزم: أعظم من الواجب على من دونهم. والواجب على أولي العلم: أعظم من الواجب على من دونهم. وكل أحد بحسب مرتبته.

فصل

في انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

العبودية نوعان: عامة، وخاصة. فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، بَرِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ

يَتَفَطَّرْن منْهُ وتَنْشَقُّ الأرْضُ وتَخِرُّ الجبال هَدًّا. أن دَعَوْا للرَّحْمن وَلَدًا. وما يَنْبَغِي للرَّحْمَن أَنْ يَتَّخِذ وَلَدًا، إنْ كُلُّ مَنْ في السَّموٰات والأرْضِ إلَّا آتي الرَّحمَنِ عَبْدًا﴾. [مريم: ٨٨-٩٣]. **فهذا** يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله. فَيَقُولُ: أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هؤلاء؟﴾. [الفرقان: ١٧]. فسماهم عباده مع ضلالهم. لكن تسمية مقيدة بالإشارة.

وأما المطلقة: فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿قُلْ اللهُمَّ فَاطِرِ السَّموٰات والأرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادك فِيْمَا كَانُوا فِيْهِ يَخْتَلِفُونْ﴾. [الزمر: ٤٦].

وقال: ﴿وما الله يريد ظلمًا للعباد﴾. [غافر: ٣١]. وقال: ﴿إنَّ الله قد حَكَم بَيْنَ العِبَاد﴾. [غافر: ٤٨]. **فهذا** يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿يا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ولا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. [الزخرف: ٦٨]. وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الذينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْل فَيَتَّبِعُونَ أحسنه﴾. [الزمر: ١٧، ١٨]. وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الـذيـنَ يَمْشُـونَ عَلَى الأرْضِ هَوْنًا* وإذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سلامًا﴾. [الفرقان: ٦٣]. وقال تعالى عن إبليس: ﴿لأغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعِين. إلا عِبَادَك مِنْهُمُ المُخْلَصِينْ﴾. [الحجر: ٣٩، ٤٠]. فقال تعالى عنهم: ﴿إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَك عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾. [الحجر: ٤٢].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلٰهيته.

ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقًا إلا لهؤلاء.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية: فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

إما مُنكّرًا. كقوله: ﴿إنْ كُلُّ مَنْ في السَّمَواتِ والأرْضِ إلَّا آتِ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾. [طه: ٩٣].

والثاني: معرفًا باللام، كقوله: ﴿وما الله يُرِيدُ ظُلْمًا للعِبَادِ﴾. [غافر: ٣١]. ﴿إنَّ الله قَدْ حَكَم بَيْنَ العِبَادِ﴾. [غافر: ٤٨].

الثالث: مقيدًا بالإشارة أو نحوها، كقوله: ﴿أأنتُم أضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤلاء﴾. [الفرقان: ١٧].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده. فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر. كقوله: ﴿أَنْتَ تَحْكُم بَيْنَ عِبَادِكَ فِيما كَانُوا فِيْهِ يَخْتَلِفُون﴾. [الزمر: ٤٦].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم. كقوله: ﴿قُلْ يا عِبَادِيَ الذين أسْرَفُوا عَلى أنْفُسِهِم لا تقنطوا من رحمة الله﴾. [الزمر: ٥٣].

وقد يقال: إنما سماهم «عباده» إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع. إنما يقال «طريق مُعَبَّد» إذا كان مُذَلَّلاً بوطء الأقدام، و «فلان عَبَّده الحب» إذا ذلله، لكنْ أولياؤه خضعوا له وَذَلّوا طوعًا واختيارًا، وانقيادًا لأمره ونهيه. وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا.

ونظير إنقسام العبودية إلى خاصة وعامة: انقسام «القنوت» إلى خاص وعام، و «السجود» كذلك.

قال تعالى في القنوت الخاص: ﴿أَمَّنْ هُو قانتٌ آناء اللَّيْلِ ساجِدًا وَقَائِمًا؟ يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾. [الزمر: ٩]. وقال في حق مريم: ﴿وَكَانتْ مِنَ القَانِتِينْ﴾. [التحريم: ١٢]. وهو كثير في القرآن.

وقال في القنوت العام: ﴿وَلَهُ مَنْ في السَّمَواتِ والأرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾. [الروم: ٢٦]. أي خاضعون أذلاء.

وقال في السجود الخاص: ﴿إنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ ولَهُ يَسْجُدُونَ﴾. [الأعراف: ٢٠٦].

وقال: ﴿إذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكيًّا﴾. [مريم: ٥٨]. وهو كثير في القرآن.

وقال في السجود العام: ﴿ولله يَسْجُدُ مَنْ في السَّمَوَات والأرْضِ طَوْعًا وَكَرهًا وظِلالُهُمْ بِالغُدُوِّ والآصَالِ﴾. [الرعد: ١٥].

ولهذا كان هذا السجود الكُرْه غير السجود المذكور في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّمَوَاتِ وَمَنْ في الأرْضِ والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ والجبَالُ والشَّجَرُ والدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِن النَّاس﴾. [الحج: ١٨]. فخص بالسجود هنا كثيراً من

الناس وعمهم بالسجود في سورة النحل: ﴿ولله يَسْجُدُ ما في السَّمَوات و ما في الأرْضِ من دَآبَّة والملائِكَةُ﴾. [النحل: ٤٩]. وهو سجود الذل والقهر والخضوع. فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته. مقهور تحت سلطانه تعالى.

فصل

في مراتب ﴿إياك نعبد﴾ علمًا وعملاً

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل. فأما مراتبها العلمية فمرتبتان: إحداهما: العلم بالله. والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان. إحداهما: دينه الأمري الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العملية، فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين؛ فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات. وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية. فليس في حقهم مباحٍ متساوى الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة. ومَنْ دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات. وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات. ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

فصل

ورحَى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة. مَنْ كَمَّلها كمل مراتب العبودية. وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهي لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح.(١)

قوله(٢) تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيْم صِرَاطَ الذِينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. فيها عشرون مسألة:

أحدها: ما فائدة البدل في الدعاء والداعي مخاطب لمن لا يحتاج إلى البيان، والبدل القصد به بيان الاسم الأول؟.

الثانية: ما فائدة تعريف (الصراط المستقيم) باللام وهلا أخبر عنه بمجرد اللفظ دونها كما قال: ﴿وإنَّكَ لتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾؟ [الشورى: ٥٢].

الثالثة: ما معنى الصراط: ومن أي شيء اشتقاقه ولم جاء على وزن فعال، ولم ذكر في أكثر المواضع في القرآن بهذا اللفظ وفي سورة الأحقاف ذكر بلفظ الطريق فقال: ﴿يَهْدِي إلى الحَقِّ وإلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ [الأحقاف: ٣٠].

الرابعة: ما الحكمة في إضافته إلى قوله تعالى: ﴿الذيْنَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. بهذا اللفظ ولم يذكرهم بخصوصهم فيقول صراط النبيين والصديقين فلم عدل إلى لفظ المبهم دون المفسر؟

الخامسة: ما الحكمة في التعبير عنهم بلفظ الذين مع صلتها دون أن يقال: المنعم عليهم وهو أخصر كما قال: ﴿المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. وما الفرق؟

السادسة: لِمَ فرق بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم، فقال في أهل النعمة: الذين أنعمت وفي أهل الغضب: المغضوب بحذف الفاعل؟

السابعة لِمَ قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. فعدى الفعل بنفسه ولم يعده بإلى كما قال تعالى: ﴿وإنَّكَ لتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الشورى: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وهَدَيْنَاهُمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الأنعام: ٨٧].

الثامنة: أن قوله تعالى: ﴿الذيْن أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. يقتضي أن نعمته مختصة بالأولين دون المغضوب عليهم ولا الضالين. وهذا حجة لمن ذهب إلى أنه لا نعمة له على كافر فهل هذا استدلال صحيح أم لا؟

---

(١) بقية البحث في الأصل بتفصيل في الجزء الأول من مدارج السالكين ص١٠٩ لمن أراده (ج).

(٢) ٩ بدائع الفوائد جـ٢.

التاسعة: أن يقال: لم وصفهم بلفظ (غير)؟ وهلا قال تعالى: لا المغضوب عليهم، كما قال: ولا الضالين. وهذا كما تقول مررت بزيد لا عمرو وبالعاقل لا الأحمق.

العاشرة: كيف جرت (غير) صفة على الموصول وهي لا تتعرف بالإضافة وليس المحل محل عطف بيان إذ بابه الإعلام ولا محل لذلك إذ المقصود في باب البدل هو الثاني والأول توطئة وفي باب الصفات المقصود الأول والثاني بيان، وهذا شأن هذا الموضع فإن المقصود ذكر المنعم عليهم ووصفهم بمغايرتهم نوعي الغضب والضلال.

الحادية عشرة: إذا ثبت ذلك في البدل فالصراط المستقيم مقصود الإخبار عنه بذلك، وليس في نية الطرح، فكيف جاء صراط الذين أنعمت عليهم بدلاً منه، وما فائدة البدل هنا؟

الثانية عشرة: إنه قد ثبت في الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد وأبو حاتم، تفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود، والنصارى بأنهم الضالون، فما وجه هذا التقسيم والاختصاص، وكل من الطائفتين ضال مغضوب عليه؟

الثالثة عشرة: لم قدم المغضوب عليهم في اللفظ على الضالين؟

الرابعة عشرة: لم أتى في أهل الغضب بصيغة مفعول المأخوذة من فعل، ولم يأت في أهل الضلال بذلك فيقال: المضلين بل أتى فيهم بصيغة فاعل المأخوذة من فعل؟

الخامسة عشرة: ما فائدة العطف بلا هنا. ولو قيل: المغضوب عليهم والضالين لم يختل الكلام وكان أوجز؟

السادسة عشرة: إذ قد عطف بها فيأتي العطف بها مع الواو للمنفي نحو ماقام زيد ولا عمرو، وكقوله تعالى: **﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ولا عَلَى المَرْضَى ولا عَلَى الذيْنَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾**. [التوبة: ٩١]. إلى قوله تعالى: **﴿ولا عَلَى الذيْنَ إذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾**. [التوبة: ٩٢]. وأما بدون الواو فبابها الإيجاب نحو: مررت بزيد لا عمرو فهذه ستة عشرة مسألة في ذلك.

السابعة عشرة: هل الهداية هنا هداية التعريف والبيان أو هداية التوفيق والإلهام؟

الثامنة عشرة: كل مؤمن مأمور بهذا الدعاء أمرًا لازمًا، لا يقوم غيره مقامه ولابد منه، وهذا إنما نسأله في الصلاة بعد هدايته، فما وجه السؤال لأمر حاصل وكيف يطلب تحصيل الحاصل؟

التاسعة عشرة: ما فائدة الإتيان بضمير الجمع في اهدنا والداعي يسأل ربه لنفسه في الصلاة وخارجها ولا يليق به ضمير الجمع ولهذا يقول: «**رب اغفر لي وارحمني وتب علي**».

العشرون: ما حقيقة الصراط المستقيم الذي يتصوره العبد وقت سؤاله؟ فهذه أربع مسائل حقها أن تقدم أولا ولكن جر الكلام إليها بعد ترتيب المسائل الستة عشر. فالجواب بعون الله وتعليمه فإنه لا علم لأحد من عباده إلا ما علمه ولا قوة له إلا بإعانته أما المسألة الأولى :وهي ما فائدة البدل من الدعاء، أن الآية وردت في معرض التعليم للعباد والدعاء وحق الداعي أن يستشعر عند دعائـه ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به، إذ الدعاء مخ العبادة والمخ لا يكون إلا في عظم، والعظم لا يكون إلا في لحم ودم، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجًا بالثناء، فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية والرغبة فيهـا مشـوبًـا بالخـبر؛ تصريحًا من الداعي بمعتقده وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه، فكأنه متوسل إليه بإيمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته وحباهم بكرامته فإذا قال: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ والمخالفون للحق يزعمون أنهم على الصراط المستقيم أيضًا والداعي يجب عليه اعتقاد خلافهم وإظهار الحق الذي في نفسه، فلذلك أبدل وبين لهم ليمرن اللسان على ما اعتقده الجنان.

ففي ضمن هذا الدعاء المهم الإخبار بفائدتين جليلتين:

إحداهما: فائدة الخبر، والفائدة الثانية: فائدة لازم الخبر، فأما فائدة الخبر فهي الإخبار عنه بالاستقامة وأنه الصراط المستقيم الذي نصبه لأهل نعمته وكرامته.

وأما فائدة لازم الخبر فإقرار الداعي بذلك وتصديقه وتوسله بهذا الإقرار إلى ربه.

فهذه أربع فوائد. الدعاء بالهداية إليه. والخبر عنه بذلك، والإقرار والتصديق لشـأنـه. والتوسل إلى المدعو إليه بهذا التصديق، وفيه فائدة خامسة، وهي أن

الداعي إنما أمر بذلك لحاجته إليه وأن سعادته وفلاحه لا تتم إلا به فهو مأمور بتدبر ما يطلب وتصور معناه، فذكر له من أوصافه ما إذا تصور في خلده وقام بقلبه كان أشد طلبًا له وأعظم رغبة فيه وأحرص على دوام الطلب والسؤال له فتأمل هذه النكت البديعة. **وأما** المسألة الثانية وهي تعريف الصراط باللام هنا .فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره.

ألا ترى أن قولك: جالس فقيهًا أو عالمًا، ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالم ولا قولك: أكلت طيبًا، كقولك: الطيب، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق**» ثم قال: «**ولقاؤك حقٌّ والجنة حق والنار حق**» فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه.

فإذا عرفت هذا فلو قال: اهدنا صراطًا مستقيمًا لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته وجعله طريقًا إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن لا شيء مطلق منكر، واللام هنا للعهد العلمي الذهني وهو أنه طلب الهداية إلى سر(١) معهود قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال فلم يكن بد من التعريف.

فإن قيل: لم جاء منكرًا في قوله لنبيه ﷺ: ﴿**وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**﴾. [الفتح: ٢]. وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿**وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. [الأنعام: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. [الأنعام: ١٦١]

فالجواب: عن هذه المواضع بجواب واحد، وهو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم، وهداية رسوله إليه، ولم يكن للمخاطبين عهد به ولم يكن معروفًا لهم فلم يجئ معرفًا بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده، ولا تقدمه في اللفظ، معهود تكون اللام مصروفة إليه وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين

(١) كذا في الأصل ولعله إلى (صراط معهود) وفي المخطوطة (إلى معهود) ا.هـ (ج).

الموضعين أعني أن يكون لها معهود ذهني أو ذكري لفظي وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع فالتنكير هو الأصل وهذا بخلاف قوله: ﴿اهْدِنَا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطًا مستقيمًا هدى إليه أنبياءه ورسله، وكان المخاطب سبحانه المسؤول عن هدايته عالمًا به دخلت اللام عليه فقال: ﴿اهْدِنَا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ﴾. [الفاتحة: ٦].

وقال السهيلي: إن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيْمًا﴾. [الفتح: ٢]. نزلت في صلح الحديبية، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح، ورأوا أن الرأي خلافه وكان الله تعالى عما يقولون ورسوله ﷺ أعلم، فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية فلم يرد صراطًا مستقيمًا في الدين، وإنما أراد صراطًا في الرأي والحرب والمكيدة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الشورى: ٥٢]. أي: تهدي من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم، ولو قال في هذا الموطن: إلى الصراط المستقيم لجعل للكفر وللضلال حظًا من الاستقامة إذ الألف واللام تنبيء أن ما دخلت عليه من الأسماء الموصولة أحق بذلك المعنى مما تلاه في الذكر أو ما قرن به في الوهم، ولا يكون أحق به إلا والآخر فيه طرف منه.

وغير خاف ما في هذين الجوابين من الضعف والوهن.

أما قوله: إن المراد بقوله: ﴿ويهديك صراطًا مستقيمًا﴾ في الحرب والمكيدة فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله.

وأخبر النبي ﷺ، أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطًا مستقيمًا؟ وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك.

بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذي أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [الأنعام: ١٦١]. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿دِيْنًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيْفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾. [الأنعام: ١٦١]. ونصب دينًا هنا على البدل من الجار والمجرور أي هداني دينًا قيمًا، أفتراه يمكنه ههنا أن يقول: إنه الحرب والمكيدة؟ فهذا جواب فاسد جدًّا.

وتأمل ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا وذلك خمسة أشياء:

أحدها: الفتح المبين، والثاني: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، والثالث: هدايته الصراط المستقيم، والرابع: إتمام نعمته عليه، والخامس: إعطاءه النصر العزيز وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر؛ لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته فهو العلم النافع والعمل الصالح، والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه، بالحجة والبيان والسيف والسنان، فهو النصر بالحجة واليد قهر قلوب المخالفين بالحجة وقهر أبدانهم باليد، وهو سبحانه كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله كقوله تعالى: ﴿**هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَه بِالْهُدَى ودِيْنِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الـدِّيْنِ كُلِّهِ**﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩]. في موضعين في سورة براءة وفي سورة الصف[(١)].

وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وأَنْزَلْنَا مَعَهُم الكِتَابَ والْمِيْزَان لِيَقُوم النَّاسُ بِالقِسْطِ**﴾. [الحديد: ٢٥]. فهذا الهدى ثم قال: ﴿**وَأَنْزَلْنَا الحَدِيْدَ فِيْهِ بَأسٌ شَدِيدٌ**﴾. [الحديد: ٢٥]. فهذا النصر فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر. وقال تعالى: ﴿**الٓمٓ الله لا إِلَه إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وأَنْـزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجيل مِنْ قَبْلُ هُدَىً لِلنَّاس وأَنْزَل الفُرْقَان**﴾. [آل عمران: ١ - ٤]. فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدى أن كلًّا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل، ولهذا سمي تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانًا كما قال تعالى: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِالله وما أَنْزَلنا على عَبْدِنا يَوْمَ الفُرْقَان يَوْمَ التَقَى الجَمْعَان**﴾. [الأنفال: ٤١]. فذكر الأصلين ما أنزله على رسوله يوم الفرقان؛ وهو يوم بدر وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسى وهَارُون الفُرْقَان وَضِياء وذِكْرًا لِلْمُتَّقِـينَ**﴾. [الأنبياء: ٤٨]. فالفرقان نصره له على فرعون وقومه، والضياء والذكر التوراة، هذا هو معنى الآية.

ولم يصب من قال: إن الواو زائدة وأن ضياء منصوب على الحال كما بينا فساده في (الأمالي المكية) فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين الهدى والنصر وأنه لا يصح فيها غير ذلك ألبتة.

---

(١) والثالث في سورة الفتح (ج).

وأما جوابه الثاني عن قوله: ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾ بأنه لو عرف لجعل للكفر والضلال حظًّا من الاستقامة فما أدرى من أين جاء له هذا الفهم مع ذهنه الثاقب وفهمه البديع رحمه الله تعالى؟ وما هي إلا كبوة جواد ونبوة صارم، أفترى قوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ المُسْتَبِينَ* وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ**﴾. [الصافات: ١١٧، ١١٨]. يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة وما ثم غيره إلا طرق الضلال، وإنما الصراط المستقيم واحد وهو ما هدى الله إليه أنبياءه ورسله أجمعين، وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، وكذلك تعريفه في سورة الفاتحة هل يقال: إنه يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة بل يقال: تعريفه ينبىء أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة فإن التعريف في قوة الحصر، فكأنه قيل الذي لا صراط مستقيم سواه وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة. فتأمله هنا وفي نظائره.

وأما المسألة الثالثة وهي اشتقاق الصراط، فالمشهور أنه من صرطت الشيء أصرطه إذا بلعته بلعًا سهلاً، فسمى الطريق صراطًا لأنه يسترط المارة فيه.

والصراط: ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقًا مستقيمًا، سهلاً، مسلوكًا واسعًا، موصلاً إلى المقصود، فلا تسمى العرب الطريق المعوج صراطًا، ولا الصعب المشق ولا المسدود غير الموصل.

ومن تأمل موارد الصراط في لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط   إذا اعوج الموارد مستقيم

وبنوا الصراط على زنة فِعَال لأنه مشتمل على سالكه اشتمال الحلق على الشيء المسروط.

وهذا الوزن كثير في المشتملات على الأشياء كاللِحاف والخِمار والرِداء والغطاء والفِراش والكتاب إلى سائر الباب يأتي لثلاثة معان:

أحدها: المصدر كالقتال والضراب.

والثاني: المفعول نحو الكتاب، والبناء، والغراس.

والثالث: أنه يقصد به قصد الآلة التي يحصل بها الفعل ويقع بها كالخِمار والغِطاء والسِّداد لما يخمر به ويغطى ويسد به، فهذا آلة محضة والمفعول هو الشيء المخمر والمغطى والمسدود ومن هذا القسم الثالث إله بمعنى مألوه.

وأما ذكره له بلفظ الطريق في سورة الأحقاف خاصة فهذا حكاية الله تعالى لكلام مؤمني الجن أنهم قالوا لقومهم: ﴿**إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم**﴾. [الأحقاف: ٣٠].

وتعبيرهم عنه ههنا بالطريق فيه نكتة بديعة، وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى، وأن الكتاب الذي سمعوه مصدقًا لما بين يديه من كتاب موسى وغيره فكان فيه كالنبأ عن رسول الله ﷺ في قوله لقومه: ﴿**ما كنت بدعًا من الرسل**﴾ أي: لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم، وإنما بعثت مصدقًا لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان فقال مؤمنو الجن: ﴿**إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم**﴾ أي: إلى سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله وأنه ليس ببدع كما قال في أول السورة نفسها، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق؛ لأنه فعيل بمعنى مفعول أي مطروق، مشت عليه الرسل والأنبياء قبل، فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم، أن يؤمن به ويصدقه. فذكر الطريق ههنا إذًا أولى لأنه أدخل في باب الدعوة والتنبيه على تعين اتباعه والله أعلم.

ثم رأيت هذا المعنى بعينه قد ذكره السهيلي فوافق فيه الخاطر الخاطر.

وأما المسألة الرابعة: وهي إضافته إلى الموصول المبهم، دون أن يقول صراط النبيين والمرسلين ففيه ثلاث فوائد:

إحداها: إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا؛ فإن استحقاق كونهم من المنعم عليهم هو بهدايتهم إلى هذا الصراط؛ فبه صاروا من أهل النعمة، وهذا كما يعلق الحكم بالصلة دون الاسم الجامد لما فيه من الإنعام باستحقاق ما علق عليها من الحكم بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿**الذين يُنْفِقُون أَمْوَالَهُمْ بالليْلِ والنَّهَارِ سِرًّا وعَلانِيَةً فَلَهُمْ أجْرهم عِنْدَ رَبِهِمْ**﴾. [البقرة: ٢٧٤]. ﴿**والذي جَاء بالصِّدْق وصَدَّقَ بِهِ أولئِكَ هُم المُتَّقُون**﴾. [الزمر: ٣٣]. ﴿**إنَّ الذينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثمَّ اسْتَقَامُوا فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾. [الأحقاف: ١٣].

وهذا الباب مطرد فالإتيان بالاسم موصولاً على هذا المعنى من ذكر الاسم الخاص.

الفائدة الثانية: فيه إشارة إلى أن نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن

من هدي إلى هذا الصراط فقد أنعم عليه. فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه.

والفرق بين هذا الوجه والذي قبله، أن الأول: يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل الهداية إليه، والثاني: يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه.

الفائدة الثالثة: أن الآية عامة في جميع طبقات المنعم عليهم، ولو أتى باسم خاص لكان لم يكن فيه سؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم؛ فكان في الإتيان بالاسم العام من الفائدة أن المسؤول الهدى إلى جميع تفاصيل الطريق التي سلكها كل من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا أجل مطلوب وأعظم مسؤول.

ولو عرف الداعي قدر هذا السؤال لجعله هجيراه وقرنه بأنفاسه، فإنه لم يدع شيئًا من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه. ولما كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضًا متكررًا في اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه، ومن ثم يعلم تعين الفاتحة في الصلاة وأنها ليس منها عوض يقوم مقامها.

وأما المسألة الخامسة: وهي أنه قال: ﴿**الذين أنعمت عليهم**﴾ ولم يقل: المنعم عليهم كما قال: المغضوب عليهم.

فجوابها وجواب المسألة السادسة واحد وفيه فوائد عديدة:

أحدها: أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن، وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى، فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبني الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبني الفعل معها للمفعول أدبًا في الخطاب، وإضافته إلى الله أشرف قسمي أفعاله فمنه هذه الآية فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فقال: ﴿**المغضوب عليهم**﴾ وقال في الإحسان: ﴿**الذين أنعمت عليهم**﴾.

ونظيره قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه: ﴿**الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين**﴾. [الشعراء، ٧٨ - ٨٠] فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى ولما جاء إلى ذكر

المرض قال: ﴿وإذا مرضت﴾ ولم يقل: أمرضني، وقال: ﴿فهو يشفين﴾.

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيد بِمَنْ في الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِم رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. [الجن: ١٠]. فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب، وحذفوا فاعل إرادة الشر وبنو الفعل للمفعول.

ومنه قول الخضر عليه الصلاة والسلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾. [الكهف: ٧٩]. فأضاف العيب إلى نفسه.

وقال في الغلامين: ﴿فأرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾. [الكهف: ٨٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُم﴾. [البقرة: ١٨٧]. فحذف الفاعل وبناه للمفعول.

وقال: ﴿وأَحَلَّ الله البَيْعَ وحَرَّمَ الرِبَا﴾. [البقرة: ٢٧٥]. لأن في ذكر الرفث ما يحسن منه أن لا يقترن بالتصريح بالفاعل ومنه ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ [المائدة: ٣] وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبِالوَالِدَينِ إِحْسَانًا﴾. [الأنعام: ١٥١]. إلى آخرها.

ومنه وهو ألطف من هذا وأدق معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُم أُمهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وأَخْوَاتُكُمْ﴾. [النساء: ٢٤]. إلى آخرها ثم قال: ﴿وأُحِلَّ لَكُمْ ما وَراء ذلكم﴾. [النساء: ٢٤].

وتأمل قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِن الذين هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيبَاتٍ أُحِلتْ لَهُمْ﴾. [النساء: ١٩٠]. كيف صرح بفاعل التحريم في هذا الموضع وقال في حق المؤمنين: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ المَيْتة والدَّم﴾. [المائدة: ٣].

الفائدة الثانية: أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها، وأصل الشكر ذكر المنعم والعمل بطاعته وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالى الذي هو أساس الشكر وكان في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. من ذكره وإضافة النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله فضمن هذا اللفظ الأصلين وهما الشكر والذكر المذكوران في قوله: ﴿فاذْكُرُوني أَذْكُرْكُمْ وأشْكُرُوا لى ولا تَكْفُرُون﴾. [البقرة: ١٥٢].

الفائدة الثالثة: أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده، وهو المنعم بالهداية دون أن يشركه أحد في نعمته؛ فاقتضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف

الإفراد فيقال: أنعمت عليهم أي أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعمة.

وأما الغضب فإن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم، فموافقته تعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه؛ ويرضى عمن رضي عنه؛ فيغضب لغضبه ويرضى لرضاه، وهذا حقيقة العبودية.

واليهود قد غضب الله عليهم فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم، فحذف فاعل الغضب، وقال: المغضوب عليهم لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم على من غضبَ الله عليه بخلاف الإنعام؛ فإنه لله وحده. فتأمل هذه النكتة البديعة.

الفائدة الرابعة: أن المغضوب عليهم في مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم، والإشارة إلى نفس الصفة التي لهم والاقتصار عليها وأما أهل النعمة فهم في مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشادة بذكرهم.

وإذا ثبت هذا فالألف واللام في المغضوب، وإن كانتا بمعنى الذين فليست مثل الذين في التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسمى، فإن قولك: الذين فعلوا معناه: القوم الذين فعلوا، وقولك: الضاربون والمضروبون، ليس فيه ما في قولك: الذين ضربوا أو ضربوا فتأمل ذلك. فالذين أنعمت عليهم إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم بخلاف المغضوب عليهم؛ فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم والمعول عليه من الأجوبة ما تقدم.

وأما المسألة: السابعة: وهي تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف إلى.

فجوابها: أن فعل الهداية يتعدى بنفسه تارة، وبحرف إلى تارة، وباللام تارة، والثلاثة في القرآن.

فمن المعدي بنفسه هذه الآية وقوله: ﴿**وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**﴾. [الفتح: ٢].

ومن المعدى بإلى قوله: ﴿**وإنكَ لتَهْدِي إلى صِرَاط مُسْتَقِيم**﴾. [الشورى: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إنَني هَدَاني رَبي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**﴾. [الأنعام: ١٦١].

ومن المعدي باللام قوله قول أهل الجنة: ﴿**الحَمْدُ لله الذي هَدَانا لِهَذا**﴾. [الأعراف: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿**إنَّ هَذَا القُرآن يَهْدِي لِلتي هِيَ أقْوَمُ**﴾. [الإسراء: ٩].

والفروق لهذه المواضع تدق جدًّا عن أفهام العلماء ولكن نذكر قاعدة تشير إلى

الفرق. وهي أن الفعل المعدى بالحروف المتعددة لابد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معني الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق، نحو: رغبت عنه ورغبت فيه، وعدلت إليه وعدلت عنه، وملت إليه وعنه، وسعيت إليه وبه، وإن تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق نحو: قصدت إليه وقصدت له، وهديته إلى كذا وهديته لكذا.

وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر.

وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال فيشربون الفعل المتعدي به معناه.

هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه رحمه الله تعالى، وطريقة حذاق أصحابه يضمنون الفعل معنى الفعل لا يقيمون الحرف مقام الحرف.

وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن وهذا نحو قوله تعالى: ﴿**عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ**﴾. [الإنسان: ٦]. فإنهم يضمنون يشرب معنى يروي فيعدونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل على الفعلين: أحدهما بالتصريح به، والثاني: بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار. وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها.

ومنه قوله في السحاب: شربن بماء البحر حتى روين ثم ترفعن وصعدن، وهذا أحسن من أن يقال: يشرب منها فإنه لا دلالة فيه على الري، وأن يقال: يروى بها لأنه لا يدل على الشرب بصريحه بل باللزوم، فإذا قال: يشرب بها دل على الشرب بصريحه وعلى الري بحرف الباء فتأمله.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يرد فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ**﴾. [الحج: ٢٥]. وفعل الإرادة لا يتعدى بالباء، ولكن ضمن معنى: يهم فيه بكذا وهو أبلغ من الإرادة فكان في ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة، وهذا باب واسع لو تتبعناه لطال الكلام فيه، ويكفي المثالان المذكوران.

فإذا عرفت هذا ففعل الهداية، متى عُدِّي بإلى تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتى بحرف الغاية، ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين.

فإذا قلت: هديته لكذا فهم معنى: ذكرته له وجعلته له وهيأته ونحو هذا.

وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله وهو التعريف والبيان والإلهام.

فالقائل إذا قال: ﴿**اهْدِنَا الصِرَاطَ المُسْتَقِيم**﴾. [الفاتحة: ٦]. هو طالب من الله أن يعرفه إياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف وأتى به مجردًا معدى بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عُدِّي بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف. فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها.

وأما المسألة الثامنة: وهي أنه خص أهل السعادة(١) بالهداية دون غيرهم، فهذه مسألة اختلف الناس فيها وطال الحجاج من الطرفين، وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا؟.

فمن ناف محتج بهذه وبقوله: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ الله والرَّسُول فَأولئك مَعَ الذين أنْعَمَ الله عليْهِمْ مِن النَبِيين والصِديقين والشُهَداء والصَالحين وحَسُن أولئك رفيقًا**﴾. [النساء: ٦٩]. فخص هؤلاء بالإنعام فدل على أن غيرهم غير منعم عليه. وبقوله لعباده المؤمنين: ﴿**ولأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُم**﴾. [البقرة: ١٥٠].

وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة فأي نعمة على من خلق للعذاب الأبدي؟

ومن مثبت محتج بقوله: ﴿**وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها**﴾. [إبراهيم: ٣٤]. وقوله لليهود: ﴿**يا بَني إسْرَائِيل اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أنْعَمْتُ عَلَيْكُم**﴾. [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢]. وهذا خطاب لهم في حال كفرهم.

وبقوله في سورة النحل التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله: ﴿**كَذَلك يُتِمُّ نِعْمته عَلَيكم لعَلكم تُسْلِمُون، فإنْ تَولوا فإنَّمَا عَلَيْكَ البلاغُ المُبِين يعْرِفُونَ نِعْمَةَ الله ثُمَّ يُنْكِرُونَها وأكْثَرُهُم الكافرون**﴾. [النحل: ٨١ - ٨٣]. وهذا نص صريح لا يحتمل صرفًا.

واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة الله، وكل أحد مقر لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم، إلا من كابر وجحد حق الله تعالى وكفر بنعمته.

وفصل الخطاب في المسألة: أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم

(١) وفي نسخة خص أهل الهداية بالنعمة دون غيرهم.

فيها سواهم. ومطلق النعمة عام للخليقة كلهم؛ برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم.

فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم، فهذه غير مشتركة، ومطلق النعمة عام مشترك فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب، وإن أراد سلب مطلق النعمة أخطأ، وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب، وبهذا تتفق الأدلة ويزول النزاع ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب والله الموفق للصواب.

(١)**وأما** قوله: تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**﴾. [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢]. فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة: بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا عنهم، وبأن ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم فأمرهم أن يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته.

وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكراً، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه؟ وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم والله أعلم.

وأما المسألة التاسعة: وهي أنه قال: ﴿**غير المغضوب**﴾ ولم يقل: لا المغضوب عليهم.

فيقال: لا ريب أن «لا» يعطف بها بعد الإيجاب كما تقول: جاءني زيد لا عمرو، وجاءني العالم لا الجاهل.

وأما غير فهي تابع لما قبلها وهي صفة ليس إلا كما سيأتي، وإخراج الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخراجه مخرج العطف، وهذا إنما يعلم إذا عرف فرق ما بين العطف في هذا الموضع والوصف.

فنقول: لو أخرج الكلام مخرج العطف، وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم لا المغضوب عليهم؛ لم يكن في العطف بها أكثر من نفي إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم كما هو مقتضي العطف، فإنك إذا قلت: جاءني العالم لا الجاهل؛

(١) هذا يأتي في سورة البقرة مكررًا في موضعه (ج).

لم يكن في العطف أكثر من نفي المجيء عن الجاهل وإثباته للعالم.

وأما الإتيان بلفظ غير فهي صفة لما قبلها، فأفاد الكلام معها وصفهم بشيئين:

أحدهما: أنهم منعم عليهم، والثاني: أنهم غير مغضوب عليهم، فأفاد ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم، فإنه يتضمن صفتين: صفة ثبوتية وهي كونهم منعمًا عليهم، وصفة سلبية وهي كونهم غير مستحقين لوصف الغضب، وأنهم مغايرون لأهله، ولهذا لما أريد بها هذا المعنى جرت صفة على المنعم عليهم، ولم تكن صفة منصوبة على الاستثناء لأنها يزول منها معنى الوصفية المقصود.

وفيها فائدة أخرى، وهي: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ادعوا أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام فكأنه قيل لهم: المنعم عليهم غيركم لا أنتم، وقيل للمسلمين: المغضوب عليهم غيركم لا أنتم، فالإتيان بلفظة غير في هذا السياق أحسن وأدل على إثبات المغايرة المطلوبة فتأمله.

وتأمل كيف قال: ﴿**المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ ولم يقل: اليهود والنصارى مع أنهم هم الموصوفون بذلك تجريدًا لوصفهم بالغضب والضلال الذي به غايروا المنعم عليهم، ولم يكونوا منهم بسبيل؛ لأن الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال.

فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأما المسألة العاشرة: وهي جريان غير صفة على المعرفة وهي لا تتعرف بالإضافة ففيه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن غير هنا بدل لا صفة وبدل النكرة من المعرفة جائز، وهذا فاسد من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن باب البدل المقصود فيه الثاني، والأول توطئة له ومهاد أمامه، وهو المقصود بالذكر. فقوله: تعالى ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾. [آل عمران: ٩٧]. المقصود هو أهل الاستطاعة خاصة وذكر الناس قبلهم توطئة. وقولك: أعجبني زيد علمه، إنما وقع الإعجاب على علمه وذكرت صاحبه توطئة لذكره. وكذا قوله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ**﴾. [البقرة: ٢١٧]. المقصود إنما هو السؤال عن القتال في الشهر الحرام لا عن نفس الشهر. وهذا ظاهر

جدًّا في بدل البعض وبدل الاشتمال، ويراعى في بدل الكل من الكل ولهذا سمي بدلًا إيذانًا بأنه المقصود.

فقوله: ﴿لَنَسْفَعَن بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾. [العلق: ١٥، ١٦]. المقصود لنسفعن بالناصية الكاذبة الخاطئة، وذكر المبدل منه توطئة لها.

وإذا عرف هذا؛ فالمقصود هنا ذكر المنعم عليهم وإضافة الصراط إليهم. ومن تمام هذا المقصود وتكميله الإخبار بمغايرتهم للمغضوب عليهم، فجاء ذكر غير المغضوب مكملًا لهذا المعنى ومتممًا ومحققًا؛ لأن أصحاب الصراط المسؤول هدايته هم أهل النعمة، فكونهم غير مغضوب عليهم وصف محقق، وفائدته فائدة الوصف المبين للموصوف المكمل له وهذا واضح.

الوجه الثاني: أن البدل يجري مجرى توكيد المبدل وتكريره وتثنيته[1] ولهذا كان في تقدير تكرار العامل وهو المقصود بالذكر كما تقدم، فهو الأول بعينه ذاتًا ووصفًا، وإنما ذكر بوصف آخر مقصود بالذكر كقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٦، ٧]. ولهذا يحسن الاقتصار عليه دون الأول ولا يكون مخلًّا بالكلام، ألا ترى أنك لو قلت في غير القرآن: لله حج البيت على من استطاع إليه السبيل لكان كاملًا مستقيمًا لا خلل فيه؟ ولو قلت في دعائك: رب اهدني صراط من أنعمت عليه من عبادك لكان مستقيمًا؟

وإذا كان كذلك فلو قدر الاقتصار على (غير) وما في حيزها لاختل الكلام وذهب معظم المقصود منه؛ إذ المقصود إضافة الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم لا إضافته إلى غير المغضوب عليهم، بل أتى بلفظ (غير) زيادة في وصفهم والثناء عليهم، فتأمله.

الوجه الثالث: أن (غير) لا يعقل ورودها بدلًا وإنما ترد استثناء أو صفة أو حالًا.

وسر ذلك أنها لم توضع مستقلة بنفسها بل لا تكون إلا تابعة لغيرها، ولهذا قلما يقال: جاءني غير زيد، ومررت بغير عمرو. والبدل لا بد أن يكون مستقلًّا بنفسه كما تبين أنه المقصود.

ونكتته الفرق أنك في باب البدل قاصد إلى الثاني متوجه إليه قد جعلت الأول

(١) في نسخة وتبيينه بدل تثنيته.

سلمًا ومرقاة إليه، فهو موضع قصدك ومحط إرادتك. وفي باب الصفة بخلاف ذلك إنما أنت قاصد الموصوف موضح له بصفته. فاجعل هذه النكتة معيارًا على باب البدل والوصف، ثم زن بها غير المغضوب عليهم هل يصح أن يكون بدلاً أو وصفًا؟

الجواب الثاني: أن (غير) ههنا صح جريانه صفة على المعرفة؛ لأنها موصولة والموصول مبهم غير معين، ففيه رائحة من النكرة لإبهامه؛ فإنه غير دال على معين فصلح وصفه بغير لقربه من النكرة. وهذا جواب صاحب الكشاف قال: (فإن قلتَ): كيف صح أن يقع (غير) صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وإن أضيف إلى المعارف؟ قلتُ: الذين أنعمت عليهم لا توقيت فيه فهو كقوله:

ولقد أمرُّ على اللئيمِ يَسُبُّني فمضيتُ ثمتَ قلتُ لا يعنيني

ومعنى قوله: لا توقيتَ فيه، أي: لا تعيين لواحد من واحد كما تعين المعرفة، بل هو مطلق في الجنس، فجرى مجرى النكرة، واستشهاده بالبيت معناه أن الفعل نكرة وهو يسبني، وقد أوقعه صفة للئيم المعرفة[1] باللام؛ لكونه غير معين فهو في قوة النكرة، فجاز أن ينعت بالنكرة، وكأنه قال: على لئيم يسبني. وهذا استدلال ضعيف؛ فإن قوله: يسبني، حال منه لا وصف والعامل فيه فعل المرور والمعنى: أمُرّ على اللئيم سابًا لي، أي أمر عليه في هذه الحال فأتجاوزه ولا أحتفل بسببه.

الجواب الثالث: وهو الصحيح أن (غير) ههنا قد تعرفت بالإضافة؛ فإن المانع لها من تعريفها شدة إبهامها أو عمومها في كل مغاير للمذكور، فلا يحصل بها تعيين وهذا تجري صفة على النكرة فتقول: رجل غيرك يقول كذا ويفعل كذا، فتجري صفة للنكرة مع إضافتها إلى المعرفة، ومعلوم أن هذا الإبهام يزول لوقوعها بين متضادين بذكر أحدهما، ثم تضيفها إلى الثاني فيتعين بالإضافة ويزول الإبهام الذي يمنع تعريفها بالإضافة كما قال:

نحن بنو عمرو الهجان الأزهر النسب المعروف غير المنكر

أفلا تراه أجرى (غير المنكر) صفة على النسب، كما أجرى عليه (المعروف) لأنهما صفتان معينتان فلا إبهام في (غير) لأن مقابلها (المعروف) وهو معرفة وضده المنكر متميز متعين كتعين المعروف، أعني تعين الجنس.

(١) في نسخة المعرف.

وهكذا قوله: ﴿صِرَاطَ الذين أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٦]. فالمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم، فإذا كان الأول معرفة كانت غير معرفة لإضافتها إلى محصل متميز غير مبهم فاكتسبت منه التعريف.

وينبغي أن تتفطن هنا لنكتة لطيفة في (غير) تكشف لك حقيقة أمرها: فأين تكون معرفة وأين تكون نكرة؟ وهي أن غيراً هي نفس ما تكون تابعة له وضد ما هي مضافة إليه، فهي واقعة على متبوعها وقوع الاسم المرادف على مرادفه فإن (المعروف) هو تفسير (غير المنكر) والمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم هذا حقيقة اللفظة.

فإذا كان متبوعها نكرة لم تكن إلا نكرة، وإن أضيفت كما إذا قلت: رجل غيرك فعل كذا وكذا.

وإذا كان متبوعها معرفة لم تكن إلا معرفة كما إذا قيل: المحسن غير المسيء محبوب معظّم عند الناس، والبر غير الفاجر مهيب، والعادل غير الظالم مجاب الدعوة، فهذا لا تكون فيه غير إلا معرفة. ومن ادّعى فيها التنكير هنا غلط وقال مالا دليل عليه؛ إذ لا إبهام فيها بحال فتأمله.

فإن قلت: عدم تعريفها بالإضافة له سبب آخر وهي: أنها بمعنى مغاير اسم فاعل من غاير، كمثل بمعنى مماثل، وشبه بمعنى مشابه. وأسماء الفاعلين لا تعرف بالإضافة وكذا ما ناب عنها.

قلت: اسم الفاعل إنما لا يتعرف بالإضافة؛ إذا أضيف إلى معموله لأن الإضافة في تقدير الانفصال، نحو: هذا ضارب زيد غدًا، وليست غير بعاملة فيما بعدها عمل اسم الفاعل في المفعول حتى يقال: الإضافة في تقدير الانفصال بل إضافتها إضافة محضة كإضافة غيرها من النكرات. ألا ترى أن قولك: غيرك بمنزلة قولك: سواك، ولا فرق بينهما. والله أعلم.

وأما المسألة الحادية عشرة: وهي: ما فائدة إخراج الكلام في قوله: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم**﴾. [الفاتحة: ٧]. مخرج البدل مع أن الأول في نية الطرح؟

فالجواب: أن قولهم: الأول في البدل في نية الطرح كلام لا يصح أن يؤخذ على إطلاقه. بل البدل نوعان:

نوع يكون الأول فيه في نية الطرح، وهو بدل البعض من الكل وبدل الاشتمال، لأن المقصود هو الثاني لا الأول وقد تقدم.

ونوع لا ينوى فيه طرح الأول وهو بدل الكل من الكل، بل يكون الثاني بمنزلة التذكير والتوكيد وتقوية النسبة، مع ما تعطيه النسبة الإسنادية إليه من الفائدة المتجددة الزائدة على الأول، فيكون فائدة البدل التوكيد والإشعار بحصول وصف المبدل للمبدل منه فإنه لما قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ﴾. [الفاتحة: ٦]. فكأن الذهن طلب معرفة ما إذا كان هذا الصراط مختصًّا بنا أم سلكه غيرنا ممن هداه الله؟ فقال: ﴿صِرَاطَ الذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧].

وهذا كما إذا دللت رجلاً على طريق لا يعرفها، وأردت توكيد الدلالة وتحريضه على لزومها وأن لا يفارقها فأنت تقول: هذه الطريق الموصلة إلى مقصودك، ثم تزيد ذلك عنده توكيدًا وتقوية فتقول: وهي الطريق التي سلكها الناس والمسافرون وأهل النجاة.

أفلا ترى كيف أفاد وصفك لها بأنها طريق السالكين الناجين، قدرًا زائدًا على وصفك لها بأنها طريق موصلة وقريبة سهلة مستقيمة؟ فإن النفوس مجبولة على التأسي والمتابعة، فإذا ذكر لها من تتأسى به في سلوكها أنست واقتحمتها فتأمله.

وأما المسألة الثانية عشرة وهي: ما وجه تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى مع تلازم وصفي الغضب والضلال؟

فالجواب: أن يقال: هذا ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى، فإن كل مغضوب عليه ضال، وكل ضال مغضوب عليه، لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفيها وأحقها به وألصقه بها، وأن ذلك هو الوصف الغالب عليها، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب في القرآن والنصارى بالضلال، فهو تفسير للآية بالصفة التي وصفهم بها في ذلك الموضع.

أما اليهود فقال تعالى في حقهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا به أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُروا بِمَا أَنْزَلَ الله بَغْيًا أَنْ يُنَزِل الله مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاء من عِبَادِه فَبَاءوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ وللكَافِرِيْن عَذَابٌ مُهِينٌ﴾. [البقرة: ٩٠]. وفي تكرار هذا الغضب هنا أقوال:

أحدها: أنه غضب متكرر في مقابلة تكرر كفرهم برسول الله ﷺ والبغي عليه، ومحاربته فاستحقوا بكفرهم غضبًا، وبالبغي والحرب والصد عنه غضبًا آخر.

ونظيره قوله تعالى: ﴿**الذين كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوقَ العَذَابِ**﴾. [النحل: ٨٨]. فالعذاب الأول بكفرهم، والعذاب الذي زادهم إياه بصدهم الناس عن سبيله.

القول الثاني: أن الغضب الأول بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء، والغضب الثاني بكفرهم بالمسيح.

والقول الثالث: أن الغضب الأول بكفرهم بالمسيح، والغضب الثاني بكفرهم بمحمد ﷺ.

والصحيح في الآية: أن التكرار هنا ليس المراد به التثنية التي تشفع الواحد؛ بل المراد غضب بعد غضب، بحسب تكرر كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء، وكفرهم بالمسيح وبمحمد ﷺ ومعاداتهم لرسل الله، إلى غير ذلك من الأعمال التي كل عمل منها يقتضي غضبًا على حدته.

وهذا كما في قوله: ﴿**فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَين**﴾. [الملك: ٤٣]. أي كرة بعد كرة لا مرتين فقط. وقصد التعدد في قوله: ﴿**فَبَاءوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ**﴾. [البقرة: ٩٠]. أظهر.

ولا ريب أنَّ تعطيلهم ماً عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعي غضبًا، وتكذيبهم الأنبياء يستدعي غضبًا آخر، وقتلهم إياهم يستدعي غضبًا آخر، وتكذيبهم المسيح وطلبهم قتله، ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعي غضبًا، وتكذيبهم النبي ﷺ يستدعي غضبًا، ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضي غضبًا، وصدهم من أراد الدخول في دينه عنه يقتضي غضبًا، فهم الأمة الغضبية أعاذنا الله من غضبه، فهي الأمة التي باءت بالغضب(١) المضاعف المتكرر، وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى.

وقال تعالى: في شأنهم: ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ الله من لَعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَل مِنْهُم القِرَدَة والخَنَازِير وعَبَدَ الطَّاغُوت**﴾. [المائدة: ٦٠].

فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسخ، وهو أشد ما يكون من الغضب.

وقال تعالى: ﴿**لُعِنَ الذين كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائيل على لِسَانِ دَاود وَعِيسى ابن مَرْيَم ذلِك بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُون كَانُوا لا يَتَنَاهَون عن مُنْكَر فَعَلُوهُ لبِئْسَمَا كَانُوا**

---

(١) في نسخة بغضب الله.

يَفْعَلُون ترى كَثِيراً مِنْهُمْ يتولَّوْن الذين كَفَروا لبِئْسَما قَدَّمت لَهُمْ أنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِط الله عَلَيْهِمْ وفي العَذَاب هُمْ خَالِدُون﴾ . [المائدة: ٧٨: ٨٠] .

وأما وصف النصارى بالضلال ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أهْلَ الكِتَاب لا تَغْلُوا في دِيْنِكُم غَيْرَ الحق ولا تَتَّبِعُوا أهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوْا كَثِيْراً وَضَلُّوا عن سَواءِ السَّبِيْل﴾ . [المائدة: ٧٧] .

فهذا خطاب للنصارى لأنه في سياق خطابه معهم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الذينِ قالـوا إنَّ الله هُوَ المَسِيْـحُ ابن مَرَيَم وَقَالَ المَسِيْحُ يا بَنِي إسْرَائِيل اعْبُدُوا الله رَبِي وَرَبَّكُمْ﴾ . [المائدة: ٧٢] . إلى قوله: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيْل﴾ . [المائدة: ٧٧] .

فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولاً ثم أضلوا كثيرًا وهم أتباعهم، فهذا قبل مبعث النبي ﷺ حيث ضلوا في أمر المسيح وأضلوا أتباعهم، فلما بعث النبي ﷺ ازدادوا ضلالاً آخـر بتكذيبهم له وكفرهم به، فتضاعف الضلال في حقهم، هذا قول طائفة منهم الزمخشري وغيره، وهو ضعيف فإن هذا كله وصف لأسلافهم الذين هم لهم تبع، فوصفهم بثلاث صفات:

أحدها: قد ضلوا من قبلهم. **والثاني**: أنهم أضلوا أتباعهم.

والثالث: أنهم ضلوا عن سواء السبيل، فهذه صفات لأسلافهم.. الذين نُهي هؤلاء عن اتباع أهوائهم فلا يصح أن يكون وصفًا للموجودين في زمن النبي ﷺ، لأنهم هم المنهيون أنفسهم لا المنهي عنهم. فتأمله.

وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال في النصارى ضلالاً بعد ضلال؛ لفرط جهلهم بالحق وهي نظير الآية التي تقدمت في تكرار الغضب في حق اليهود، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود.

ووجه تكرار هذا الضلال: أن الضآل قد أخطأ نفس مقصوده فيكون ضآلاًّ فيه فيقصـد ما لا ينبغي أن يقصده ويعبد من لا ينبغي أن يعبده. وقد يصيب مقصودًا حقًّا لكن يضل في طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه.

فالأول ضلال في الغاية. **والثاني** ضلال في الوسيلة، ثم إذا دعا غيره إلى ذلك فقد أضله.

وأسلاف النصارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة فضلوا عن مقصودهم، حيث لم يصيبوه وزعموا أن إلههم بشر يأكل ويشرب ويبكي، وأنه قُتل وصلب وصفع،

فهذا ضلال في نفس المقصود حيث لم يظفروا به. وضلوا عن السبيل الموصلة إليه فلا اهتدوا إلى المطلوب ولا إلى الطريق الموصل إليه، ودعوا أتباعهم إلى ذلك فضلوا عن الحق وعن طريقه وأضلوا كثيرًا فكانوا أدخل في الضلال من اليهود، فوصفوا بأخص الوصفين.

والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم على قومهم؛ من السُّحت والرياسة فخافوا أن يذهب بالإسلام، فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق فإنهم كانوا يعرفون أن محمدًا رسول الله كما يعرفون أبناءهم.

ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة؛ من الكِبْر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء.

ووبخ النصارى بالضلال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق؛ فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى يتركب منها(١).

فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به، وإيثار غيره عليه بعد معرفته فلم يكن ضلالاً محضًا.

وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه؛ أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوبًا عليهم ضالين.

ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق، والبغي يمنعه من إرادته كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفًا وبيانًا، وإرشادًا وإلهامًا وتوفيقًا وإعانة فيعلِمه ويعرِّفه ثم يجعله مريدًا له قاصدًا لاتّباعه، فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال.

وكان السلف يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى، وهذا كما قالوا؛ فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه، وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه، وحسد من آتاه الله من فضله وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم إلى غير ذلك من

(١) في المخطوطة: (ويتركب منهما).

الأخلاق التي ذم بها اليهود: من الكبر واللّي والكتمان والتحريف والتحيّل على المحارم وتلبيس الحق بالباطل، فهذا شبهه باليهود ظاهر.

وأما من فسد من العبّاد فعبد الله بمقتضى هواه، لا بما بعث به رسوله ﷺ وغلا في الشيوخ فأنـزلهم منـزلة الربوبية، وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد فشبهه بالنصارى ظاهر. فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد.

ومن تصور الشبهين والوصفين وعلم أحوال الخلق، علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه؛ ولا أوجب منه عليه وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس؛ لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يهدينا الصراطَ المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضآلين. آمين. إنه قريب مجيب.

وأما المسألة الثالثة عشرة: وهو تقديم المغضوب عليهم على الضآلين فلوجوه عديدة.

أحدها: انهم متقدمون عليهم بالزمان.

الثاني: أنهم كانوا هم الذين يَلُون النبي ﷺ من أهل الكتابين فإنهم كانوا جيرانه في المدينة، والنصارى كانت ديارهم نائية عنه؛ ولهذا تجد خطاب اليهود والكلام معهم في القرآن أكثر من خطاب النصارى، كما في سورة البقرة والمائدة وآل عمران وغيرها من السور.

الثالث: أن اليهود أغلظ كفرًا من النصارى، ولهذا كان الغضب أخص بهم واللعنة والعقوبة، فإن كفرهم عن عناد وبغي كما تقدم؛ فالتحذير من سبيلهم والبعد منها أحق وأهم بالتقديم، وليس عقوبة من جهل كعقوبة من عَلِمَ وعانَد.

الرابع: وهو أحسنها أنه تقدم ذكر المنعَم عليهم والغضب ضد الإنعام، والسورة هي السبع المثاني التي يذكر فيها الشيء ومقابله، فذكر المغضوب عليهم مع المنعم عليهم فيه من الازدواج والمقابلة ما ليس في تقديم الضالين، فقولك: الناس منعم عليه ومغضوب عليه فكن من المنعم عليهم أحسن من قولك: منعم عليه وضال.

وأما المسألة الرابعة عشرة: وهي أنه أتى في أهل الغضب باسم المفعول وفي الضآلين باسم الفاعل فجوابها ظاهر.

فإن أهل الغضب من غضب الله عليهم وأصابهم غضبه فهم مغضوب عليهم.

وأما أهـل الضـلال فإنهم هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه، ولهذا

استحقـوا العقوبة عليه، ولا يليق أن يقال: ولا المضلين مبنيًّا للمفعول؛ لما في رائحته من إقامة عذرهم وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم بل فُعل فيهم.

ولا حجة في هذا للقـدرية فإنا نقول: إنهم هم الذين ضلوا وإن كان الله أضلهم، بل فيه رد على الجبرية الذين لا ينسبون إلى العبد فعلاً إلا على جهة المجاز لا الحقيقة. **فتضمنت** الآية الـرد عليهـم كما تضمـن قولـه: ﴿اهْـدِنَـا الصِرَاطَ المُسْتَقِيْم﴾. [الفاتحة: ٦]. الـرد على القدرية، ففي الآية إبطال قول الطائفتين، والشهـادة لأهـل الحق أنهم هم المصيبون، وهـم المثبتون للقدر توحيدًا وخلقًا، والقدرة[(١)] لإضافة أفعال العباد إليهم عملاً وكسبًا، وهو متعلق الأمر والعمل. كما أن الأول متعلق الخلق والقدرة.

فاقتضت الآية إثبات الشرع والقَدَر والمعاد والنبوة، فإن النعمة والغضب هو ثوابه وعقـابـه، فالمنعَم عليهم رسله وأتبـاعهم ليس إلا، وهـدى أتباعهم إنما يكون على أيديهم، فاقتضت إثبـات النبـوة بأقرب طريق وأبينها وأدلها على عموم الحاجة وشدة الضرورة إليها، وأنه لا سبيل للعبد أن يكون من المنعم عليهم إلا بهداية الله له، ولا تُنال هذه الهداية إلا على أيدي الرسل، وأن هذه الهداية لها ثمرة، وهي النعمة التامة المطلقة في دار النعيم، ولخلافها ثمرة وهي الغضب المقتضي للشقاء الأبدي.

فتأمل كيف اشتملت هذه الآية مع وجـازتها واختصارها على أهم مطالب الدين وأجلها. والله الهادي إلى سواء السبيل. وهو أعلم.

وأما المسألة الخامسة عشرة: وهي ما فائدة زيادة (لا) بين المعطوف والمعطوف عليه؟ ففي ذلك أربع فوائد:

أحدها: أن ذكرها تأكيد للنفي الذي تضمنه (غير)، فلولا ما فيها من معنى النفي لما عطف عليها بلا مع الواو فهو في قوة: لا المغضوب عليهم ولا الضالين، أو: غير المغضوب عليهم وغير الضآلين.

الفائدة الثانية: أن المراد المغايرة الواقعة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده، فلو لم يذكر (لا) وقيل: غير المغضوب عليهم والضآلين أوهم أن المراد ما غاير المجموع المـركب من النوعين، لا ما غاير كل نوع بمفرده، فإذا قيل: ولا الضالين كان صريحًا في أن المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء.

(١) نص المخطوطة: وهم المثبتون للقدر توحيدًا وخلقًا ولإضافة أفعال العباد إليهم.

وبيان ذلك أنك إذا قلت: ما قام زيد وعمرو، فإنما نفيت القيام عنهما ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل واحد منهما بمفرده.

الفائدة الثالثة: رفع توهُّم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم وأنهما صنف واحد وصفوا بالغضب والضلال، ودخل العطف بينهما كما دخل في عطف الصفات بعضها على بعض نحو قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ المُؤمِنُوْن الذين هُمْ في صَلاتِهِمْ خَاشِعُونْ والذين هُمْ عَنِ اللغو مُعْرِضُون**﴾. [المؤمنون: ١: ٣]. إلى آخرها فإن هذه صفات المؤمنين ومثل قوله: ﴿**سبِّح اسْمَ رَبِّك الأعْلَى الذي خَلَقَ فَسَوّى والذي قَدَّرَ فَهَدى**﴾. [الأعلى: ١-٣]. ونظائره.

فلما دخلت لا عُلم أنهما صنفان متغايران مقصودان بالذكر، وكانت (لا) أَوْلى بهذا المعنى من (غير) لوجوه:

أحدها: أنها أقل حروفًا. الثاني: التفادي من تكرار اللفظ. **الثالث:** الثقل الحاصل بالنطق بـ (غير) مرتين من غير فصل إلا بكلمة مفردة، ولا ريب أنه ثقيل على اللسان.

الرابع: أن (لا) إنما يُعطف بها بعد النفي، فالإتيان بها مُؤذن بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم كما نفى عنهم الضلال، و (غير) - وإن أفهمت هذا - (فلا) أدخل في النفي منها.

وقد عرف بهذا جواب **المسألة السادسة عشرة**: وهي أن (لا) إنما يُعطف بها في النفي.

وأما المسألة السابعة عشر: وهي: أن الهداية هنا من أي أنواع الهدايات؟ فاعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿**الذِي أَعْطَى كُلَّ شيء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾. [طـه: ٥٠]. أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيأته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال.

وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته؛ إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره.

وهداية الجماد المسخر لما خُلِق له فله هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها(١).

(١) في نسخة وضروبها.

وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرِّجْلين للمشي واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه.

ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين. وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومن الأبنية، ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصي عليها ثم تأوي إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء.

ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهـادة العزيز الحكيم، وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة، بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة.

فإن لم يهمل هذه الحيوانات سُدًى، ولم يتركها معطلة؛ بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها، كيف يليق به أن يترك النوعِ الإنساني، الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضّله على كثير من خلقه؛ مهملاً وسدى معطلاً لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته؛ بل يتركه معطلاً لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه؟ وهل هذا إلا مناف لحكمته ونسبته إلى ما لا يليق بجلاله؟ ولهذا أنكر ذلك على من زعمه، ونزّه نفسه عنه وبيّن أنه يستحيل نسبة ذلك إليه، وأنه يتعالى عنه فقال تعـالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُم أَنَّـمَا خَلَقْنَـاكُمْ عَبَثًـا وأَنَّكُمْ إِلَيْنَـا لا تُرْجَعُون فَتَعَالى الله المَلِكُ الحَقُّ**﴾. [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فنزه نفسه عن هذا الحسبان فدل على أنه مستقِرٌّ بطلانه في الفِطَر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر(١) عليه العقل والشرع كما هو أصح الطريقين في ذلك.

ومن فهم هذا فهم سر اقتران قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَآبَةٍ فِي الأَرْضِ ولا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَـاحَيْـهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَـالُكُمْ مَا فَرَّطْنَـا فِي الكِتَـابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾. [الأنعام: ٣٨]. بقوله: ﴿**وَقَالوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْه آيَةٌ مِن رَبِّه قُلْ إِنَّ الله قَادِرٌ على أن يُنَـزِل آيـةً ولكِنَّ أكثَـرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾. [الأنعام: ٣٧]. وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل

(١) في المخطوطة: مما تظافر.

دآبة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه؛ بل جعلها أممًا وهداها إلى غاياتها ومصالحها، كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟! فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لِنَجْدَي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا انتفى الهدى معها كقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾. [فصلت: ١٧]. أي بينّا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا.

ومنها قوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. [الشورى: ٥٢].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها وهي المذكورة في قوله: ﴿**يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾. [النحل: ٩٣].

وفي قوله: ﴿**إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ**﴾. [النحل: ٣٧].

وفي قول النبي ﷺ: «**من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له**».

وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾. [القصص: ٥٦]. فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾. [الشورى: ٥٢].

الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾. [يونس: ٩]. وقال أهل الجنة فيها: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا**﴾. [الأعراف: ٤٣].

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ**﴾. [الصافات: ٢٢، ٢٣].

إذا عُرف هذا فالهداية المسؤولة في قوله: ﴿**الصراط المستقيم**﴾ إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة، فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام.

فإن قيل: كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق؟

قيل: هذه هي المسألة الثامنة عشرة، وقد أجاب عنها من أجاب بأن المراد التثبيت ودوام الهداية. **ولقد** أجاب وما أجاب، وذكر فرعًا لا قوام له بدون أصله، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها.

ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به، وأعظم من ذلك بحول الله.

فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوبًا للرب تعالى مرضيًا له فيؤثره، وكونه مغضوبًا له مسخوطًا عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريدًا لجميع ما يحب الله منه أن يفعله، عازمًا عليه، ومريداً لترك جميع ما نهى الله عنه عازماً على تركه بعد خطوره بالبال مفصلاً، وعازمًا على تركه من حيث الجملة مجملاً، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائمًا به فعلاً وتركًا، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه.

فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية، ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها:

أحدها: أمور هُديَ إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها، فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هدي إليها تفصيلاً من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها.

فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه، ويتعلق بالماضي أمر سابع، وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها.

وإذا كان كذلك فإنما يقال: كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟ ثم يجاب عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها، إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل فيحنئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام.

فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، ومالا يريده من رشده أكثر مما يريده، ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعلية فيه، فالمسؤول هو أصل الهداية على الدوام تعليمًا وتوفيقًا وخلقًا للإرادة فيه وإقدارًا له، وخلقًا للفاعلية وتثبيتًا له على

ذلك، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علمًا وعملاً والتثبيت عليها والدوام إلى الممات.

وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره، أصلاً وتفصيلاً وتثبيتًا، ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام فليس له أنفع ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية. فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يثبت قلوبنا على دينه.

أما المسألة التاسعة عشرة: وهي الإتيان بالضمير في قوله: ﴿**اهدنا الصراط**﴾ ضمير جمع، فقد قال بعض الناس في جوابه: إن كل عضو من أعضاء العبد وكل حاسة ظاهرة وباطنة مفتقرة إلى هداية خاصة به، فأتى بصيغة الجمع تنزيلاً لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه.

وعرضت هذا الجواب على شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه؛ فاستركه واستضعفه جدًّا.

وهو كما قال فإن الإنسان اسم للجملة، لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه.

والقائل إذا قال: اغفر لي وأرحمني واجبرني وأصلحني واهدني، سائل من الله ما يحصل لجملته ظاهرِه وباطنِه فلا يحتاج أن يستشعر لكل عضو مسألة تخصه يفرد لها لفظة.

فالصواب: أن يقال: هذا مطابق لقوله: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. [الفاتحة: ٥]. والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم، فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته فأتى به بصيغة ضمير الجمع أي نحن معاشر عبيدك مُقِرُّون لك بالعبودية.

وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك؛ فيكون هذا أحسن وأعظم موقعًا عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك، استدعى مقته، فإذا قال: أنا وكل من في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدًّا وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك. فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية ما لا يتضمنه لفظ الإفراد، فتأمله.

وإذا تأملت أدعية القرآن، رأيت عامتها على هذا النمط نحو: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار**﴾ [البقرة: ٢٠١].

ونحو دعاء آخر البقرة، وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن.

وأما المسألة العشرون وهي: ما هو الصراط المستقيم؟.

فنذكر فيه قولاً وجيزًا، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته.

وحقيقته شيء واحد وهو طريق الله الذي نصبه لعباده على ألسن رسله، وجعله موصلاً لعباده إليه ولا طريق لهم إليه سواه؛ بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا.

وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحدًا في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحدًا في طاعته، فيجرد التوحيد ويجرد متابعة الرسول.

وهذا معنى قول بعض العارفين: إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين: صدق محبته، وحسن معاملته، وهذا كله مضمون شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين.

ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته، والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدًا رسول الله.

وهذا هو الهدى ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به. وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به، فقل ماشئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها، وهي معنى قول من قال: علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة.

ومعنى قول من قال: متابعة رسول الله ظاهرًا وباطنًا علمًا وعملاً، ومعنى قول من قال: الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة على أمره.

وأما ما عدا هذا من الأقوال كقول من قال: الصلوات الخمس.

وقول من قال: حب أبي بكر وعمر، وقول من قال: هو أركان الإسلام الخمس التي بني عليها.

فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع، لا تفسير مطابق له بل هي جزء من أجزائه، وحقيقته الجامعة ما تقدم. والله أعلم.

تَفسِيرُ
سُورَةِ البقـَرَة

سورة البقرة

آياتها ٢٨٦ ترتيبها ٢

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**تكرر** في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره. وكذلك الضلال؛ فأعمال البر تثمر الهدى، وكلما ازداد منها ازداد هدى. وأعمال الفجور بالضد.

وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر، فيجازي عليها بالهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء.

وأيضًا فإنه البَرُّ، ويحب أهل البر، فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويبغض الفجور وأهله، فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور.

فمن الأصل الأول، قوله تعالى: ﴿**الٓمٓ: ذلك الكِتَابُ لا رَيْبَ فيه، هُدًى للمُتّقِين**﴾. [البقرة: ١، ٢]. وهذا يتضمن أمرين:

أحدهما: أنه يهدي به من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب، فإن الناس على اختلاف مللهم ونِحَلهم قد استقر عندهم، أن الله ـ سبحانه ـ يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض، ويمقت فاعل ذلك، ويحب العدل والإحسان، والجود والصدق، والإصلاح في الأرض، ويحب فاعل ذلك، فلما نزل الكتاب أثابَ ـ سبحانه ـ أهل البر، بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهم على برهم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم، بأن حال بينهم وبين الاهتداء به...

(٢)**وكما** يقرن ـ سبحانه ـ بين الهدى والتقى والضلال والغيّ، فكذلك يقرن بين الهدى والرحمة والضلال والشقاء. فمن الأول قوله: ﴿**أوْلَئكَ عَلى هُدى مِنْ رَبِّهِم، وأوْلئك هُمُ المُفْلِحُونَ**﴾. [البقرة: ٥]. وقال: ﴿**أُولئِك عَلَيْهِم صَلوَاتٌ مِنْ رَبِّهِم وَرَحْمَةٌ، وَأوْلئك هُمُ المُهْتَدُون**﴾، [البقرة: ١٥٧]. وقال عن المؤمنين: ﴿**رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْد إذْ هَدَيْتَنا وهَبْ لنا مِنْ لَدُنك رَحْمَةً، إنَّك أَنْتَ الوَهَّابُ**﴾، [آل عمران: ٨]. وقال أهل الكهف: ﴿**رَبَّنا آتِنَا من لدُنْك رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أمْرنا رَشَدًا**﴾، [الكهف: ١٠]. وقال: ﴿**لقَدْ كَانَ في قصصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولي الألْبَاب، ما كَان**

(١) ١٢٨ فوائد.. (٢) ١٣١ فوائد.

حَدِيثًا يُفْتَرَى، ولكِنْ تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفصيلَ كلِّ شيءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾. [يوسف:١١١].

...[1]**والأمر** الثـاني: أن العبـد إذا آمن بالكتاب، واهتدى به مجملاً، وقبل أوامره، وصدّق بأخباره، كان ذلك سببًا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل؛ فإن الهداية لا نهاية لها، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى، إلى غير غاية.

فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهوفي مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى.

وكلما فوّت حظًا من التقوى، فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداه، وكلما اهتدى زادت تقواه، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ من الله نُورٌ وكِتَابٌ مُبِين، يَهْدِي بِهِ الله من اتَّبع رِضْوَانَه سُبُلَ السَّلامِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بِإذنِهِ وَيَهْدِيهِم إلى صِراطٍ مُسْتقيمٍ﴾، [المائدة:١٥،١٦]. وقال تعالى: ﴿الله يَجْتَبِي إلَيْهِ مَن يَشَاء ويَهْدِي إليْه من يُنيبُ﴾، [الشورى:١٣]. وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّر مَن يَخشى﴾، [الأعلى:١٠]. وقال: ﴿وما يَتَذكَّرُ إلاّ منْ يُنِيبُ﴾، [غافر:١٣]. وقال: ﴿إنَّ الذين آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَات يَهْدِيهم رَبُّهم بِإيْمَانِهِم﴾. [يونس:٩]. فهداهم أولاً للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية.

ونظير هذا قوله: ﴿وَيَزِيدُ الله الذيْن اهْتَدُوا هُدًى﴾. [مريم:٧٦].

وقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا إن تَتَّقوا الله يَجْعَلْ لكُمْ فُرْقَانًا﴾. [الأنفال:٢٩]. .

ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز، الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل. فسر الفرقان بهذا وبهذا، وقال تعالى: ﴿إنَّ في ذَلِك لآيةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾. [سبأ:٩]. وقال: ﴿إنَّ في ذلك لآيـاتٍ لِكُـلِّ صَبَّـارٍ شَكُورٍ﴾؛ [الشورى:٣٣]. في سورة لقمان، وسورة إبراهيم، وسبأ، والشورى.

فأخبر عن آياته المشهودة العيانية، أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية، أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة، ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه ـ سبحانه ـ كما قال:

---

(١) ١٢٩ فوائد.

﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى﴾، [طه: ١ - ٣]. وقال في الساعة: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾. [النازعات: ٤٥]. وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها، فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر - سبحانه - في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل، وما حل بهم في الدنيا من الخزي. قال بعد ذلك: ﴿إنَّ في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾. [هود: ١٠٣]. فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها. فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك، قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية.

وإنما كان الصبر والشكر سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفه صبر ونصفه شكر. فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى؛ فإذا كان مشركًا متّبعًا هواه لم يكن صابرًا ولا شكورًا، فلا تكون الآيات نافعة له، ولا مؤثرة فيه إيمانًا. (١).

فصل (٢)

ومن هذا إخباره سبحانه بأنه طَبَع على قلوب الكافرين وخَتم عليها وأنه أصمّها عن الحق وأعمى أبصارها عنه، كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾. [البقرة: ٦، ٧]. والوقف التام هنا.

ثم قال: ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾. [البقرة: ٧]. كقوله: ﴿أفرأيت من اتَّخذ إلهه هَواهُ وأضلَّهُ الله على عِلْم وختم على سَمْعِه وقَلْبه وجعَلَ على بَصرِه غشاوة﴾. [الجاثية: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وقولهم قلوبنا غلفٌ بلْ طَبَعَ الله عليها بكُفْرِهم﴾. [النساء: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿كذلك يَطْبَعُ الله على قُلُوب الكافرين﴾. [الأعراف: ١٠١]. ﴿كذلك نطبَع على قُلوب المُعْتَدِين﴾. [يونس: ٧٤]. ﴿ونَطْبَع على قلوبهم فهم

---

(١) الأصل الثاني يأتي على قوله: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾. [البقرة: ٢٦]. إن شاء الله. ج. (٢) ٨٢ شفاء العليل.

لا يَسْمَعُونَ﴾. [الأعراف: ١٠٠]. **وأخبر** سبحانه أن على بعض القلوب أقفالاً، تمنعها من أن تنفتح لدخول الهدى إليها.

وقال: ﴿قُلْ هُوَ للذين آمَنُوا هُدًى وشِفَاءٌ والذين لا يُؤمِنُون في آذانِهِم وَقْر وَهُو عَلَيْهِمْ عَمًى﴾. [فصلت: ٤٤]. فهذا الوقر والعمى حال بينهم وبين أن يكون لهم هدى وشفاء.

وقال تعالى: ﴿إنَّا جَعَلْنَا على قُلوبِهِمْ أكِنَّةً أنْ يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهِم وَقْرًا﴾. [الكهف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وكَذلك زُيِّن لِفرْعَونَ سُوء عَمَله وَصُدَّ عن السَّبيل﴾. [غافر: ٣٧]. قرأها الكوفيون وصُدَّ بضم الصاد حملاً على زُيِّنَ، وقال تعالى: ﴿إنَّ الله لا يَهْدِي مَن هُو مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾. [غافر: ٢٨]. وقال: ﴿والله لا يَهْدِي القومَ الظَّالِمِين﴾. [الصف: ٧]. ومعلوم أنه لم ينفِ هدى البيان والدلالة الذي تقوم به الحجة فإنه حجته على عباده.

والقدرية ترد هذا كله إلى المتشابه وتجعله من متشابه القرآن وتتأوله على غير تأويله، بل تتأوله بما يقطع ببطلانه وعدم إرادة المتكلم له كقول بعضهم: المراد من ذلك تسمية الله العبد مهتديًا وضالاًّ، فجعلوا هداه وإضلاله مجرد تسمية العبد بذلك، وهذا مما يعلم قطعًا أنه لا يصح حمل هذه الآيات عليه.

وأنت إذا تأملتها وجدتها لا تحتمل ما ذكروه ألبتة، وليس في لغة أمة من الأمم فضلاً عن أفصح اللغات وأكملها: هداه بمعنى: سماه مهتديًا، وأضله: سماه ضالاًّ وهل يصح أن يقال: علمه إذا سماه عالمًا، وفهمه: إذا سماه فهمًا.

وكيف يصح هذا في مثل قوله تعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾. [البقرة: ٢٧٢].

فهل فَهِم أحد غير القدرية المحرفة للقرآن من هذا: ليس عليك تسميتهم مهتدين، ولكن الله يسمى من يشاء مهتديًا؟.

وهل فَهِم أحد قط من قوله تعالى: ﴿إنَّك لا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]: لا تسميه مهتديًا ولكن الله يسميه بهذا الاسم؟ وهل فهم أحد من قول الداعي: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، وقوله: اللهم اهدني من عندك ونحوه. اللهم سمني

مهتديًا؟ وهذا من جناية القدرية على القرآن ومعناه، نظير جناية إخوانهم من الجهمية على نصوص الصفات وتحريفها عن مواضعها، وفتحوا للزنادقة والملاحدة جنايتهم على نصوص المعاد وتأويلها بتأويلات إن لم تكن أقوى من تأويلاتهم لم تكن دونها، وفتحوا للقرامطة والباطنية تأويل نصوص الأمر والنهي بنحو تأويلاتهم.

فتأويل التحريف الذي سلكته هذه الطوائف أصل فساد الدنيا والدين وخراب العالم. وسنفرد إن شاء الله كتابًا نذكر فيه جناية المتأولين على الدنيا والدين. وأنت إذا وازنت بين تأويلات القدرية والجهمية والرافضة، لم تجد بينها وبين تأويلات الملاحدة والزنادقة من القرامطة الباطنية وأمثالهم كبير فرق.

والتأويل الباطل يتضمن تعطيل ما جاء به الرسول والكذب على المتكلم أنه أراد ذلك المعنى؛ فتتضمن إبطال الحق وتحقيق الباطل، ونسبة المتكلم إلى مالا يليق به من التلبيس والإلغاز مع القول عليه بلا علم أنه أراد هذا المعنى.

فصل(1)

ومما ينبغي أن يُعلم: أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل، حصول الإيمان بأن يفك الذي ختم على القلب، وطبع عليه، وضرب عليه القفل، ذلك الختم والطابع والقفل، ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيّه، ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان.

وقرأ قارىء عند عمر بن الخطاب: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُون القرآنَ أَمْ على قُلُوبٍ أقفالُها**﴾. [محمد: ٢٤]. وعنده شاب فقال: اللهم عليها أقفالها ومفاتيحها بيدك لا يفتحها سواك. فعرفها له عمر وزادته عنده خيرًا، وكان عمر يقول في دعائه: اللهم إن كنت كتبتني شقيًّا فامحني واكتبني سعيدًا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت. فالرب تعالى فعّال لما يريد لا حجْر عليه.

وقد ضل ههنا فريقان: القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدورًا للرب، ولا يدخل تحت فعله؛ إذ لو كان مقدورًا له ومنعه العبد لناقض جوده ولطفه، والجبرية حيث زعمت أنه سبحانه إذا قدر قدرًا أو علم شيئًا فإنه لا يغيره بعد هذا

(١) ٩٠ شفاء العليل.

ولا يتصرف فيه بخلاف ماقدره وعلمه، والطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجـر أحـد أصلا، وجميع خلقه تحت حجره شرعًا وقدراً وهذه المسألة من أكبر مسائل القدر، وسيمر بك إن شاء الله في باب المحو والإثبات مايشفيك فيها.

والمقصود: أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم والطابع، وفتح ذلك القفل يفتحه من بيده مفاتيح كل شيء وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه، وإن كان فك الختم وفتح القفل غير مقدور له كما أن شرب الـدواء مقدور له، وزوال العلة وحصول العافية غير مقدور، فإذا استحكم به المرض وصار صفة لازمة له لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء، وإن كان غير مقدور له ولكن لما ألف العلة وساكنها ولم يحب زوالها ولا آثر ضدها عليها مع معرفته بما بينها وبين ضدها من التفاوت، فقد سد على نفسه باب الشفاء بالكلية.

والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالاً وهو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه لمحبته وملائمته لنفسه، فإذا عرف الهدى فلم يحبه ولم يرض به وآثر عليه الضلال، مع تكرر تعريفه منفعة هذا وخيره ومضرة هذا وشره، فقد سد على نفسه باب الهدى بالكلية.

فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلى من بيده هداه، وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه وأنه إن لم يهده الله فهو ضال، وسأل الله أن يقبل بقلبه وأن يقيه شر نفسه وفقه وهداه، بل لو علم الله منه كراهية لما هو عليه من الضلال وأنه مرض قاتـل إن لم يشفه منه أهلكه، لكانت كراهته وبغضه إياه مع كونه مبتلى به من أسباب الشفاء والهداية، ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال محبته له ورضاه به وكراهته الهدى والحق، فلو أن المطبوع على قلبه المختوم عليه كره ذلك ورغب إلى الله في فك ذلـك عنـه وفعل مقدوره، لكان هداه أقرب شيء إليه لكن إذا استحكم الطبع والختم حال بينه وبين كراهة ذلك وسؤال الرب فكه وفتح قلبه.

فصل(١)

فإن قيل: فإذا جوزّتم أن يكون الطبع والختم والقفل، عقوبة وجزاء على الجرائم والإعراض والكفر السابق على فعل الجرائم.

قيل: هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس ويظنون بالله سبحانه خلاف موجب أسمائه وصفاته.

والقرآن من أوله إلى آخره، إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له؛ وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم والمبالغة والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع بل كان اختيارًا، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية.

فتأمل هذا المعنى في قوله: ﴿إنَّ الذين كَفَروا سَوَاءٌ عَلَيهِم أءنْذَرْتَهُم أمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لا يُؤمِنُون خَتَمَ الله على قُلُوبِهم وعَلى سَمْعِهِم وعَلى أبْصَارِهِم غِشَاوَةٌ ولَهُم عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. [البقرة:٦،٧]. ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارًا قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا، بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه كما يعاقب بالعذاب كذلك(٢).

(٣)**قال** سبحانه وتعالى: ﴿ومن الناس من يقولُ آمنا بالله وَباليَوم الآخِرِ وَمَا

---

(١) ٢٤ شفاء العليل.

(٢) بعد هذا ذكر فصلا مطولاً مجموعاً فيه فائدة كبيرة جدًا لمن أراده وسنذكره مفرقًا في محاله إن شاء الله.

(٣) ٣٤٠ إغاثة جـ١.

هُمْ بِمؤمنين يُخَادِعُون الله والذين آمنوا ومَا يَخْدَعون إلاّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. [البقرة:٨،٩]. وقال تعالى: ﴿إنَّ المُنَافِقِين يُخَادِعُون الله وهو خَادِعُهُمْ﴾. [النساء:١٤٢]. وقال في أهل العهد: ﴿وَإنْ يُرِيدُوا أنْ يَخْدَعُوكَ فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ﴾. [الأنفال:٦٢].

فأخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء المخادعين مخدوعون، وهم لا يشعرون أن الله خادع مَن خدعه، وأنه يكفي المخدوعَ شَرَّ مَنْ خدعه.

والمخادعة: هي الاحتيال، والمراوغة: بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخادع. وهذا موافق لاشتقاق اللفظ في اللغة. فإنهم يقولون: طريق خَيْدَع، إذا كان مخالفًا للقصد لا يُشعَر به، و لا يُفطن له، ويقال للسراب: الخَيْدَع. لأنه يَغُرُّ من يراه، وضبٌّ خَدِع، أي: مراوغ. كما قالوا: أخدع من ضَبّ، ومنه: «الحرب خدعة(١)» وسوق خادعة، أي: متلونة، وأصله: الإخفاء والستر. ومنه سميت الخِزانة مخدعًا.

فلما كان القائل: «آمنت» مُظهرًا لهذه الكلمة، غير مريد حقيقتها المرعيَّة المطلوبة شرعًا، بل مريد لحكمها وثمرتها فقط؛ مُخادعًا، كان المتكلم بلفظ «بعتُ» و «اشتريت» و «طلقت» و «نكحت» و «خالعت» و «آجرت» و «ساقيت»، و«أوصيت» غير مريد لحقائقها الشرعية المطلوبة منها شرعًا، بل مريد لأمور أخرى غير ما شرعت له، أو ضدِّ ما شرعت له؛ مخادعًا. ذاك مخادعٌ في أصل الإيمان، وهذا مخادع في أعماله وشرائعه.

قال شيخنا: وهذا ضرب من النفاق في آيات الله تعالى وحدوده. كما أن الأول نفاق في أصل الدين.

يؤيد ذلك: ما رواه سعيد بن منصور، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما؛ «أنه جاءه رجل فقال: إن عَمِّي طلَّق امرأته ثلاثًا، أيُحِلُّها له رجل؟ فقال: «مَنْ يُخادع الله يخدعه».

---

(١) مثلثة الخاء، وكهُمَزَة، وروى بهن جميعًا، أي: تنقض بخدعة. رواه أحمد ومسلم والبخاري عن أبي هريرة.

فصل(١)

وأما المرض فقال تعالى: ﴿في قُلُوبهم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضًا﴾. [البقرة: ١٠].
وقال: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الذي في قَلْبِه مَرَضٌ﴾. [الأحزاب: ٣٢].
وقال: ﴿ولا يَرْتَابَ الذين أوْتُوا الكِتَابَ والمؤمِنُونَ ولِيَقُولَ الذين في قُلُوبهم مَرَضٌ والكافِرُون ماذا أرَادَ الله بهذا مثلاً﴾. [المدثر: ٣١]. ومرض القلب خروج عن صحته واعتداله فإن صحته أن يكون عارفًا بالحق محبًّا له، مُؤْثِرًا له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه. فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غيّ وشهوة، وقد سمى الله سبحانه كلًّا منهما مرضًا. **قال** ابن الأنباري: أصل المرض في اللغة الفساد، مرض فلان فسد جسمه وتغيرت حاله، ومرضت بالمرض تغيرت وفسدت قالت ليلى الأخيلية:

إذا هبط الحجاج أرضًا مريضة		تتبع أقصى دائها فشفاها

وقال آخر:

ألم تر أن الأرض أضحت مريضة		لفقد الحسين والبلاد اقشعرت

والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد وضعف، ونقصان، وظلمة، ومنه مرض الرجل في الأمر إذا ضعف فيه ولم يبالغ، وعين مريضة النظر أي فاترة ضعيفة، وريح مريضة إذا هب هبوبها كما قال: * راحت لأربعك الرياح مريضة *

أي: لينة ضعيفة حتى لا يعفى أثرها.

وقال ابن الأعرابي: أصل المرض النقصان ومنه بدن مريض أي: ناقص القوة وقلب مريض ناقص الدين، ومرض في حاجتي إذا نقصت حركته.

وقال الأزهري، عن المنذري، عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها، قال: والمرض الظلمة، وأنشد:

وليلة مرضت من كل ناحية		فما يضيء لها شمس ولا قمر

هذا أصله في اللغة. ثم الشك، والجهل، والحيرة، والضلال، وإرادة الغي وشهوة الفجور في القلب تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض، فيعاقبه الله بزيادة المرض لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها:

(١) ٩٨ شفاء.

...[1]**المرض** نوعان: مرض القلوب، ومرض الأبدان. وهما مذكوران في القرآن.

ومرض القلوب نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغي. وكلاهما في القرآن.

قال تعالى: في مرض الشبهة: ﴿في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ. فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾. [البقرة: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ الذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والكافِرُون: مَاذا أراد الله بهذا مثلاً﴾. [المدثر: ٣١].

وَقال تعالى في حق من دُعي إلى تحكيم القرآن والسنة فأبى وأعرض: ﴿وإذا دُعُوا إلى الله وَرَسُولِه ليَحكمَ بيْنَهُم إذا فَريقٌ منهم مُعرضُون. وإن يَكُنْ لَهُم الحقُّ يأتوا إليه مُذْعنين. أفي قُلُوبِهم مَرَضٌ؟ أم ارْتَابُوا؟ أَمْ يَخافُون أن يحيفَ الله عليهم ورَسُولُهُ؟ بَلْ أُولئِك هُمُ الظالِمُون﴾. [النور: ٤٨ - ٥٠]. فهذا مرض الشبهات والشكوك.

وأما مرض الشهوات فقال تعالى: ﴿يا نِسَاءَ النَّبي لسْتُنَّ كأحَدٍ من النِسَاءِ، إن اتَّقَيْتنَّ، فَلَا تَخْضَعن بالقَـولِ، فيَطْمعَ الذي في قَلبه مَرَضٌ﴾. [الأحزاب: ٣٢]. فهذا مرض شهوة الزنا. والله أعلم.

[2]**الوجه** السابع والثمانون: أن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه، إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته وهما: مرض الشهوات ومرض الشبهات، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله. وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين في كتابه.

أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب ففي قوله في حق المنافقين: ﴿في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضًا﴾. [البقرة: ١٠]. وقوله: ﴿وَلَيقُولَ الذيْن في قُلُوبِهم مَرَضٌ والكَافِرُون ماذَا أَرَاد الله بِهَذا مثلاً﴾. [المدثر: ٣١]. وقال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً للذين في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والقَاسِيةِ قُلُوبُهُم﴾. [الحج: ٥٣]. فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة.

وأما مرض الشهوة ففي قوله: ﴿يا نِسَاءَ النبيِّ لَسْتُنَّ كأحدٍ مِن النِساء إن اتَّقَيْتُنَّ فلا تَخْضَعنَ بالقَوْل فَيطْمَعَ الذي في قِلْبه مَرَضٌ﴾. [الأحزاب: ٣٢]. أي: لا تلن في الكلام فيطمع الذي في قلبه فجور وزنا. قالوا: والمرأة ينبغي لها إذا خاطبت الأجانب أن تغلظ كلامها وتقويّه ولا تلينه وتكسره؛ فإن ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها.

وللقلب أمراض أخر؛ من الرياء والكِبْر والعجب والحسد والفخر والخيلاء

(١) ١٣٤ زاد المعاد جـ٣.　(٢) ١١٠ مفتاح جـ١.

وحب الرياسة والعلو في الأرض، وهذا المرض مركب من مرض الشبهة والشهوة؛ فإنه لا بد فيه من تخيل فاسد وإرادة باطلة، كالعجب والفخر والخيلاء والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم، فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أو مركب منهما.

وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم، كما قال النبي ﷺ في حديث صاحب الشجة الذي أفتوه بالغسل فمات: «**قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال**» فجعل العي وهو عي القلب عن العلم، واللسان عن النطق به مرضًا وشفاؤه سؤال العلماء، فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان؛ لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت. وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم، ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ ربكم وَشِفَاءٌ لما في الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾. [يونس:٥٧]. ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الأبدان، وما يقال للعلماء: أطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما وإلا فالأمر أعظم، فإن كثيرًا من الأمم يستغنون عن الأطباء، ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد، وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب.

وأما العلماء بالله وأمره، فهم حياة الوجود وروحه ولا يستغني عنهم طرفة عين؛ فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء بل أعظم.

وبالجملة فالعلم للقلب مثل الماء للسمك إذا فقده مات، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها وكنسبة سمع الأذن، وكنسبة كلام اللسان إليه، فإذا عدمه كان كالعين العمياء والأذن الصماء واللسان الأخرس.

ولهذا يصف سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم، وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع، فبقيت على عماها وصممها وبكمها. قال تعالى: ﴿**وَمَنْ كَانَ فِي هذه أعْمى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾. [الإسراء:٧٢]. والمراد عمي القلب في الدنيا....

فصـــل(١)

وأما النفاق: فالداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئًا منه، وهو لا يشعر. فإنه أمر خفي على الناس. وكثيراً ما يخفي على من تلبّس به. فيزعم أنه مصلح وهو مفسد وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل. وهو أن يُظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله، مكذب به. لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه. وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين. وكشف أسرارهم في القرآن. وجلّى لعباده أمورهم. ليكونوا منها ومن أهلها على حذر.

وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات. وفي الكفار آيتين. وفي المنافقين ثلاث عشرة آية. لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم. وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله. فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدًّا. لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة.

يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه عِلْم وإصلاح. وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه!! وكم من حِصْن له قد قلعوا أساسه وخربوه!! وكم من عَلَم له قد طمسوه!! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه!! وكم ضربوا بمعاول الشُبَه في أصول غراسه ليقلعوها!! وكم عَمَّوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها!!

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبليّة. ولايزال يطرقه من شُبههم سَرِيَّةٌ بعد سرية. ويزعمون أنهم بذلك مصلحون **﴿ألا إنَّهُم هُم الْمُفْسِدُون ولكِن لا يَشْعُرُون﴾** [البقرة: ١٢]. **﴿يُرِيْدُونَ لِيُطفِئوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ والله مُتمُّ نُورِه وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُون﴾**. [الصف: ٨].

اتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون **﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُم زُبُرًا كُلُّ حِزْب بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون﴾** [المؤمنون: ٥٣]. **﴿يُوحي بَعْضُهُم**

(١) ٣٤٧ مدارج جـ١.

إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا﴾. [الأنعام: ١١٢]. ولأجل ذلك ﴿اتَّخَذُوا هَذا القُرآن مَهْجُورًا﴾. [الفرقان: ٣٠].

دَرست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها. ودَثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفَلَت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحيونها. وكَسَفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها. لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله. ولم يرفعوا به رأسًا. ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسًا. خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة. وعزلوها عن ولاية اليقين. وشَنُّوا عليها غارات التأويلات الباطلة. فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين. نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام. فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام. وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع في الصدور منها والأعجاز. وقالوا: مالكِ عندنا من عبور ـ وإن كان لابد ـ فعلى سبيل الاجتياز. أعدُّوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين، وقالوا ـ لما حَلَّت بساحتهم ـ: مالنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئًا من اليقين. وعوامُّهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخرين. فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين. وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور. ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هِمَمَهم إلى فعل المأمور وترك المحظور. فطريقة المتأخرين؛ أعلم وأحكم. وطريقة السلف الماضين؛ أجهل، لكنها أسلم.

أنزلوا نصوص السنة والقرآن، منزلة الخليفة في هذا الزمان، اسمه على السِّكة وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع. والحكم النافذ لغيره. فحكمه غير مقبول ولا مسموع.

لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران. فالظواهر ظواهر الأنصار. والبواطن قد تحيَّزت إلى الكفار. فألسنتهم ألسنة المسالمين. وقلوبهم قلوب المحار بين. ويقولون: ﴿آمَنَّا بالله وبِالْيَومِ الآخِرِ وما هُم بِمُؤمِنِين﴾. [البقرة: ٨].

رأس مالهم الخديعة والمكر. وبضاعتهم الكذب والخَتْر. وعندهم العقل المعيشي: أن الفريقين عنهم راضون. وهم بينهم آمنون ﴿يُخَادِعُون الله والذين آمَنُوا. ومَا يَخْدَعُون إلاّ أنْفُسَهُمْ وما يَشْعُرُونَ﴾. [البقرة: ٩].

قد نهكت أمـراض الشبهـات والشهوات قلوبهم فأهلكتها. وغلبت القصود السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها. ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون **﴿في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾**. [البقرة: ١٠].

من عَلَقت مخالب شكـوكهم بأديم إيمانـه مَزَّقته كل تمزيق. ومن تَعلَّق شَرَرُ فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق. ومن دخلت شبهات تلبيسهم في مسامعه حال بين قلبه وبين التصديق. ففسادهم في الأرض كثير. وأكثر الناس عنه غافلون **﴿وإذا قيـلَ لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحنُ مُصْلِحُون* ألا إنَّهم هم المفسدون ولكنْ لا يشعرون﴾**. [البقرة: ١١، ١٢]. المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفارًا. فهَمُّه في حمل المنقول. وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عنـدهم بمقبول. وأهل الاتّباع عندهم سفهاء فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون **﴿وإذَا قِيل لَهُم: آمنوُا كَما آمنَ الناسُ. قالوا: أنُؤمنُ كَما آمَنَ السُّفهاءُ؟ ألا إنهم هم السُّفهاءُ ولكنْ لا يعلمون﴾**. [البقرة: ١٣].

لكـل منهم وجهـان. وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين. وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون **﴿وَإذا لقُوا الذين آمَنوا قالوا: آمَنَّا. وإذَا خَلَوا إلى شياطينهم قالوا: إنَّا معكم، إنما نحنُ مستهزئون﴾**. [البقرة: ١٤].

قد أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاء بأهلها واستحقارًا، وأَبَوْا أن ينقادوا لحكم الـوحيين؛ فرحًـا بما عندهم من العلم الذي لا ينفع الاستكثار منه أشرًا واستكبارًا. فتراهم أبدًا بالمتمسكين بصريح الوحي يستهزئون **﴿الله يَسْتَهْزِيءُ بِهِمْ ويَمدُّهم في طُغْيَانِهم يَعْمَهُونَ﴾**. [البقرة: ١٥].

خرجـوا في طلب التجـارة البـائـرة في بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشُّبه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتها بين سُفن الهالكين **﴿أُولئِك الذينَ اشْتَرَوا الضَّلَالَةَ بِالهُدَى. فَمَا رَبِحَت تِجَارَتُهم، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين﴾**. [البقرة: ١٦].

أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا في ضوئها مواقع الهدى والضلال، ثم طفيء ذلك النور، وبقيت نارًا تأجج ذات لهب واشتعال، فهم بتلك النار معذبون، وفي تلك الظلمات يعمهون ﴿**مَثَلُهم كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقد نارًا، فلمَّا أضاءتْ مَا حَولَهُ؛ ذَهَبَ الله بِنُورِهم، وَتَركَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ**﴾. [البقرة: ١٧].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر؛ فهي لا تسمع منادي الإيمان. وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى؛ فهي لا تبصر حقائق القرآن. وألسنتهم بها خَرَس عن الحق فهم به لا ينطقون ﴿**صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ**﴾. [البقرة: ١٨].

صاب عليهم صَيِّب الوحي، وفيه حياة القلوب والأرواح؛ فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التي وُظِّفت عليهم في المساء والصباح؛ فجعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشَوْا ثيابهم، وجدّوا في الهرب، والطلبُ في آثارهم والصياح، فنودي عليهم على رءوس الأشهاد، وكشفت حالهم للمستبصرين، وضرب لهم مثلان بحسب حال الطائفتين منهم: المناظرين، والمقلدين. فقيل: ﴿**أَوْ كصيِّبٍ من السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرعدٌ وَبَرْقٌ. يَجْعَلُون أصابِعَهُم في آذانِهِم مِنْ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوتِ. والله مُحِيطٌ بِالكَافِرِينَ**﴾. [البقرة: ١٩].

ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه. وعجزت أسماعهم عن تلقي رعود وعوده وأوامره ونواهيه. فقاموا عند ذلك حيارَى في أودية التيه. لا ينتفع بسمعه السامع. ولا يهتدي ببصره البصير ﴿**كُلَّما أضاء لَهُم مَشَوا فِيه. وإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِم قَامُوا. ولو شَاء الله لَذَهَبَ بسمْعِهِم وأَبْصَارِهِم. إن الله على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ**﴾. [البقرة: ٢٠].

لهم علامات يُعرفون بها مبينة في السنة والقرآن. بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان. قام بهم - والله - الرياء. وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن. فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلاً ﴿**وإِذَا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالى. يُراءون النَّاسَ. ولا يَذكُرون الله إلا قليلاً**﴾. [النساء: ١٤٢].

أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تَيْعَر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. ولا تستقر مع إحدى الفئتين. فهم واقفون بين الجمعين. ينظرون أيُّهم أقوى وأعز قبيلاً

﴿مُذَبْذَبِين بَيْنَ ذَلكَ لا إلى هَؤلاء ولا إلى هَؤلاء ومَن يُضلل الله فلن تجدَ له سبيلاً﴾ [النساء: ١٤٣].

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم. وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم. وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين. فلا تحتاج بعده دليلاً ﴿الذينَ يَتَربَّصُون بكُمْ. فإن كَانَ لَكُم فتحٌ مِن الله، قَالوا: أَلَم نكن مَعكم؟ وإنْ كَانَ للكَافِرين نَصِيبٌ، قَالوا: أَلَم نستحوذْ عليكم ونمنعْكم من المؤمنين؟ فالله يحكمُ بينكم يومَ القيامة. ولن يَجعلَ الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾. [النساء: ١٤١].

يعجبُ السامعَ قولُ أحدهم لحلاوته ولينه. ويُشهد الله على ما في قلبه من كذبه ومَيْنه(١). فتراه عند الحق نائمًا. وفي الباطل على الأقدام. فخذ وصفهم من قول القدوس السلام: ﴿وَمِن النَّاس مَن يُعْجِبُك قولُه في الحياة الدنيا ويُشهِدُ الله على ما في قلبه. وهو ألدُّ الخصام﴾. [البقرة: ٢٠٤].

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد. ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿ وَإذا تَولَّى سَعَى في الأرض لِيُفْسدَ فِيها ويُهْلكَ الحَرْثَ والنَّسلَ. والله لا يُحبُّ الفَساد﴾. [البقرة: ٢٠٥].

فهم جنس بعضه يشبه بعضًا. يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه. وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه. ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه. كم ذكَّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه؟ وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه؟ فاسمعوا أيها المؤمنون: ﴿المُنَافِقُون والمُنَافِقَات بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ يَأمُرون بالمُنْكر ويَنْهَون عن المَعْرُوف ويقبضون أيديهم نَسُوا الله فنسيهم إنَّ المنافقين هم الفاسقون﴾. [التوبة: ٦٧].

(٢)**وإذا** تأملت القرآن وتدبرته وأعرته فكرًا وافيًا اطّلعت فيه من: أسرار المناظرات، وتقرير الحجج الصحيحة، وإبطال الشُّبه الفاسدة، وذكر النقض

---

(١) المَيْنُ: الكذب. راجع لسان العرب جـ١٣ ص (٤٢٥) طبعة دار صادر. المراجع.　(٢) ١٣٠ بدائع جـ٤.

والفرق والمعارضة والمنع على ما يشفي ويكفي لمن بصّره الله وأنعم عليه بفهم كتابه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**وإذَا قِيْل لَهُمْ لا تُفْسِدُوا في الأرْضِ قَالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون ألا إنَّهُم هُمْ المُفْسِدُونَ**﴾. [البقرة:١٢].

فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين فقال لهم المؤمنون: لا تفسدوا في الأرض فأجابهم المنافقون بقولهم: ﴿**إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون**﴾. فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وأن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد، فحَكَم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن أسْجلَ على المنافقين أربع إسجالات:

أحدها: تكذيبهم، **والثاني:** الإخبار بأنهم مفسدون. . **والثالث:** حصر الفساد فيهم بقوله: ﴿**هم المفسدون**﴾ **والرابع**: وصفهم بغاية الجهل وهو أنه لا شعور لهم ألبتة بكونهم مفسدين.

وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع، ثم نفى عنهم العلم في قولهم: ﴿**أنُؤمِنُ كَمَا آمَنَ السُفَهَاء**﴾. فقال: ﴿**ألا أنَّهُم هُمُ السُفَهَاء ولكِنْ لا يَعْلَمُونَ**﴾. [البقرة:١٣].

فنفى علمهم بسفههم وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل؛ أن يكون الرجل مفسدًا ولا شعور له بفساده ألبتة، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه.

وكذلك كونه سفيهًا، والسفه غاية الجهل وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله كان من أشقى النوع الإنساني، فنفيُ العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله، ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه، فتضمنت الآيتان: الإسجال عليهم بالجهل، وفساد آلات الإدراك؛ بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا والشر خيرًا.

وكذلك المناظرة الثانية معهم أيضًا فإن المؤمنين قالوا لهم: ﴿**آمنوا كما آمن الناس**﴾. فأجابهم المنافقون بقولهم: ﴿**أنؤمن كما آمن السفهاء**﴾.

وتقرير المناظرة من الجانبين، أن المؤمنين دعوهم إلى الإيمان الصادر من

العقلاء بالله ورسوله، وأن العاقل يتعين عليه الدخول فيما دخل فيه العقلاء الناصحون لأنفسهم، ولاسيما إذا قامت أدلته وصحت شواهده، فأجابهم المنافقون بما مضمونه: إنّا إنما يجب علينا موافقة العقلاء، وأما السفهاء الذين لا عقل لهم يميزون به بين النافع والضار فلا يجب علينا موافقتهم. فرد الله تعالى عليهم وحكم للمؤمنين وأسجل على المنافقين بأربعة أنواع: **أحدها**: تسفيههم[1]. **الثاني**: حصر السفه فيهم. **الثالث**: نفي العلم عنهم. **الرابع**: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من الإخبار عن سفه أهل الإيمان. **وخامس** أيضًا وهو: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من دعواهم التنزيه من السَّفَه.

...[2]**ومن** هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالِمون؛ فإنها تشبيهُ شيء بشيء في حكمه، وتقريبُ المعقولِ من المحسوس، أو أحدِ المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر، كقوله تعالى في حق المنافقين: **﴿مَثَلُهُم كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِم، وتَرَكَهُم في ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُون، صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ، أَوْ كَصَيِّبٍ من السَّماء فِيْهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وبَرْقٌ، يَجْعَلُون أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ مِن الصواعِقِ حَذَرَ المَوْتِ﴾**. إلى قوله: **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾**. [البقرة: ١٧-٢٠].

فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلاً ناريًّا، ومثلا مائيًّا، لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة؛ فإن النار مادة النور، والماء مادة الحياة.

وقد جعل الله سبحانه الوَحْيَ الذي أنزله من السماء متضمنًا لحياة القلوب واستنارتها، ولهذا سمّاه روحًا ونورًا، وجعل قابليه أحياء في النور، ومَنْ لم يرفع به رأسًا أمواتًا في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظّهم من الوحي وأنهم بمنزلة مَنِ استوقد نارًا لتضيء له وينتفع بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به، وانتفعوا به، وآمنوا به، وخالطوا المسلمين، ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام طفيء عنهم، وذهب الله بنورهم، ولم يقل: بنارهم؛ فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإضاءة، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فهذا حال مَنْ

---

(١) في نسخة: الحكم بسفههم.
(٢) ١٥٠ أعلام جـ١.

أبصر ثم عمي، وعَرَف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه، فهو لا يرجع إليه؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾. [البقرة: ١٨].

ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي، فشبههم بأصحاب صَيِّب ـ وهو المطر الذي يصوبُ أي: ينزل من السماء ـ فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم؛ اشتدَّتْ عليهم زَوَاجر القرآن ووعيدُه وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يُشْبه الصواعق، فحالهم كحال مَنْ أصابه مطَر فيه ظلمة ورعد وبرق، فلضعفه وخَوَرِه جعل أصبعيه في أذنيه، وغمض عينيه خشية من صاعقة تصيبه.

وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيراً من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة، إذا سمعوا شيئًا من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين، كأنهم حُمُرٌ مستنفرة، فرَّتْ من قسورة؛ ويقول مُخنثهم: سُدُّوا عنا هذا الباب، واقرءوا شيئًا غير هذا، وترى قلوبهم مولية وهم يَجْمَحُون؛ لثقل معرفة الرب سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم.

وكذلك المشركون على اختلاف شركهم، إذا جُرِّدَ لهم التوحيد وتُليت عليهم النصوصُ المبطلة لشركهم اشمأزَّتْ قلوبهم، وثقلت عليهم، ولو وَجَدوا السبيل الى سَدِّ آذانهم لفعلوا.

ولذلك تجد أعداء أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا نُصوص الثناء على الخلفاء الراشدين، وصحابة رسول الله ﷺ ثقل ذلك عليهم جدًّا، وأنكرته قلوبهم؛ وهذا كله شَبه ظاهر، ومثل محقق من إخوانهم من المنافقين في المَثَل الذي ضربه الله لهم بالماء؛ فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم.

(١)**يذكر سبحانه** هذين المثلين في القرآن في غير موضع لأوليائهَ وأعدائه، كما ذكرهما في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهم كَمَثَل الذي اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمَّا أَضَاءتْ ما حَوْلَه ذَهَب الله بِنُورِهِم وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُون، صُمٌّ بُكمٌ عميٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُون﴾. [البقرة: ١٧، ١٨].

شبّه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارًا لتضيء لهم وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين، فهم كقوم سفر ضلوا عن الطريق فأوقدوا النار تضيء لهم

(١) ٢١ اجتماع الجيوش.

الطريق، فلما أضاءت لهم فأبصروا وعرفوا طفئت تلك الأنوار وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سُدت عليهم أبواب الهدى الثلاث.

فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى فلا تسمع قلوبهم شيئًا ولا تبصره ولا تعقل ما ينفعها.

وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل. والقولان متلازمان، وقال في صفتهم: ﴿**فهم لا يرجعون**﴾ لأنهم قد رأوا في ضوء النار وأبصروا الهدى، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا، وقال سبحانه وتعالى: ﴿**ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ**﴾. ولم يقل: ذهب نورهم، وفيه سرٌّ بديع، وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالى، فإن الله تعالى مع المؤمنين، وإن الله مع الصابرين، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. فذهاب الله بذلك النور انقطاع لمعيته التي خص بها أولياءه، فقطعها بينه وبين المنافقين فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم، فليس لهم نصيبٍ من قوله: ﴿**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾. [التوبة: ٤٠]. ولا من ﴿**كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾. [الشعراء: ٦٢].

وتأمل قوله تعالى: ﴿**أضاءت ما حوله**﴾. كيف جعل ضوءها خارجًا عنه منفصلاً، ولو اتصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة، وكأن الضوء عارضًا والظلمة أصلية فرجع الضوء إلى معدنه وبقيت الظلمة في معدنها، فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به، حجة من الله قائمة، وحكمة بالغة تعرَّف بها إلى أولي الألباب من عباده.

وتأمل قوله تعالى: ﴿**ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ**﴾. ولم يقل: بنارهم ليطابق أول الآية، فإن النار فيها إشراق وإحراق فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية.

وتأمل كيف قال: بنورهم، ولم يقل: بضوئهم مع قوله: ﴿**فلما أضاءت ما حوله**﴾. لأن الضوء هو زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم؛ لأوهمَ الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته.

وأيضًا فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم.

وأيضًا فإن الله تعالى سمى كتابه نورًا ورسوله ﷺ نورًا، ودينه نورًا، وهداه نورًا؛ ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله.

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِيْنَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين**﴾. [البقرة: ١٦]. كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة، والرضى بها، وبذل الهدى في مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضى بها بدلاً من النور الذي هو الهدى والنور، فبدّلوا الهدى والنور وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فيالها من تجارة ما أخسرها! وصفقة ما أشد غبنها!

وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿**ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ**﴾. فوحّده ثم قال: ﴿**وتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ**﴾. فجمعها فإن الحق واحد وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله ﷺ لا بالأهواء والبِدَع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله ﷺ، من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة.

ولهذا يفرد سبحانه الحق ويجمع الباطل كقوله تعالى: ﴿**الله وَلِيُّ الَّذِيْنَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ من الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ والذين كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُم الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِن النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ**﴾. [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿**وأَنَّ هَذَا صِراطِي مُسْتَقِيمًا فاتّبِعُوه ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكم عَن سَبِيلِه**﴾. [الأنعام: ١٥٣]. فجمع سبل الباطل ووحد سبيل الحق، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿**يَهْدي به الله من اتّبَع رِضْوَانَه سُبُل السَّلام**﴾. [المائدة: ١٦]. فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم، فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد، وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها.

وقد صح عن النبي ﷺ، أنه خطَّ خطًّا مستقيمًا وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله وقال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوه ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عن سَبِيلِه ذَلِكُم وصَّاكُمْ به لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون**﴾. [الأنعام: ١٥٣].

وقد قيل: إن هذا مثل للمنافقين وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام. ويكون بمنزلة قول الله تعالى: ﴿كُلَّما أَوْقَدُوا نَارًا للحَرْبِ أَطْفَأَها اللهُ﴾. [المائدة: ٦٤].

ويكون قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾. مطابقًا لقوله تعالى: ﴿أطفأها الله﴾. ويكون تخييبهم وإبطال ما راموه، هو تركهم في ظلمات الحيرة لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه، ولا يبصرون سبيلاً بل هم صم بكم عمي.

وهذا التقدير - وإن كان حقًا - ففي كونه مرادًا بالآية نظر، فإن السياق إنما قصد لغيره.

ويأباه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَه﴾. وموقد نار الحرب لا يضيء ما حوله أبدًا.

ويأباه قوله تعالى: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ وموقد نار الحرب لا نور له.

ويأباه قوله تعالى: ﴿وتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرون﴾. وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة إلى ظلمة الشك والكفر.

قال الحسن رحمه الله: هو المنافق أبصر ثم عمي وعرف ثم أنكر، ولهذا قال: ﴿فهم لا يرجعون﴾. أي: لا يرجعون إلى النور الذي فارقوه. وقال تعالى في حق الكفار: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُون﴾. فسَلَبَ العقل عن الكفار إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان، وسلب الرجوع عن المنافقين لأنهم آمنوا ثم كفروا فلم يرجعوا إلى الإيمان.

ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً آخر مائيًا فقال تعالى: ﴿أو كصَيِّبٍ مِن السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ ورَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعلون أَصَابِعَهُمْ في آذانِهِم مِن الصَّواعِقِ حَذَر المَوْتِ واللهُ مُحِيطٌ بِالكافِرين﴾ [البقرة: ١٩].

فشبه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ، من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره وبقي في الظلمات حائرًا تائهًا لا يهتدي سبيلاً، ولا يعرف طريقًا، وبنصيب أصحاب الصيّب وهو المطر الذي يصوب أي: ينزل من عُلو إلى أسفل.

فشبه الهدى الذي هدى به عباده بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيبَ المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود

بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وأن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب: من ظلمة ورعد وبرق، ولوازم ذلك: من برد شديد وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل، لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب.

وهذه حال أكثر الخلق إلا من صحت بصيرته، فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد: من التعب والمشاق والتعرض لإتلاف المُهْجة والجراحات الشديدة، وملامة اللوّام ومعاداة من يخاف معاداته، لم يقدم عليه لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون.

وكذلك مَن عَزَم على سفر الحج إلى البيت الحرام فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته فإنه لا يخرج إليه ولا يعزم عليه.

وحال هؤلاء حال ضعيف البصيرة والإيمان الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد، والزواجر والنواهي، والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام على الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول، إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألبّاء، وأدرك الحق علماً وعملاً ومعرفة، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيب وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلم أنه حياة الوجود.

وقال الزمخشري: «لقائل أن يقول: شُبِّه دين الإسلام بالصيّب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من تشبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزاع من البلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق».

والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، والمراد: كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا.

قال: والصحيح الذي عليه علماء أهل البيان لا يتخطونه، أن التمثيلين جميعًا من جهة التمثيلات المركبة دون المفرقة، لا يتكلف لواحد واحد شيء بقدر شبهه فيه، وهذا القول الفصل والمذهب الجزل.

بيانه: أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض، ثم تأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها كما جاء في القرآن؛ حيث شبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئًا واحدًا بأخرى مثلها، كقوله تعالى: ﴿**مَثَل الـذَين حُمِّلوا التَوراةَ ثم لم يَحْمِلُوها كَمَثِل الحِمَارِ يَحْمِلُ أسفارًا**﴾. [الجمعة: ٥]. الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالين عند من حمل أسفار الحكمة، وحمل ما سواها من الأحمال ولا يشعر ذلك إلا بما يزيد فيه من الكد والتعب.

وكقوله تعالى: ﴿**واضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنيا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِن السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذرُوه الرِيَاحُ**﴾. [الكهف: ٤٥]. المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء هذا النبات، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض وتصييرها شيئًا واحدًا فلا.

كذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة، فشبه حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق.

قال: فإن قلت: أي المثلين أبلغ؟ قلت: الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته، ولذلك أخر، وهم يتدرجون في مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ.

قلت: قال شيخنا: الناس في الهدى الذي بعث الله تعالى به رسوله ﷺ أربعة أقسام، قد اشتملت عليهم هذه الأيات من أول السورة إلى ههنا: .

القسم الأول: قبلوه باطنًا وظاهرًا وهم نوعان:

أحدهما: أهل الفقه فيه والفهم والتعليم، وهم الأئمة الذين عقلوا عن الله تعالى كتابه وفهموا مراده، وبلغوه إلى الأمة واستنبطوا أسراره وكنوزه، فهؤلاء مثل الأرض الطيبة التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فرعى الناس فيه ورعت

أنعامهم، وأخذوا من ذلك الكلأ الغذاء والقوت والدواء وسائر ما يصلح لهم.

النوع الثاني: حفظوه وضبطوه وبلغوا ألفاظه إلى الأمة فحفظوا عليهم النصوص، وليسوا من أهل الاستنباط والتفقه في مراد الشارع، فهم أهل حفظ وضبط وأداء لما سمعوه، والأولون أهل فهم وفقه واستنباط وإثارة لدفائنه وكنوزه، وها النوع الثاني بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس فوردوه وشربوا منه وسقوا منه أنعامهم وزرعوا به.

القسم الثاني: من رده ظاهرًا وباطنًا وكفر به ولم يرفع به رأسًا، وهؤلاء أيضًا نوعان:

أحدهما: عرفه وتيقن صحته، وأنه حق ولكن حمله الحسد والكبر وحب الرياسة والملك والتقدم بين قومه؛ على جحده ودفعه بعد البصيرة واليقين.

النوع الثاني: أتباع هؤلاء الذين يقولون: هؤلاء ساداتنا وكبراؤنا وهم أعلم منا بما يقبلونه وما يردونه، ولنا أسوة بهم ولا نرغب بأنفسنا عن أنفسهم، ولو كان حقًا لكانوا هم أهله وأولى بقبوله، وهؤلاء بمنزلة الدواب والأنعام يساقون حيث يسوقهم راعيهم، وهم الذين قال الله فيهم: **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الذِينَ اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا وَرَأَوا العَذَاب وَتَقَطَّعَتْ بهم الأَسْبَابُ، وقال الذين اتَّبَعُوا لَو أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تبَرءوا مِنَّا. كذلِكَ يُرِيهِم الله أعْمَالَهم حَسَرَات عَلَيْهِمْ وما هُمْ بِخَارِجِين مِنْ النَّارِ﴾**. [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وقال تعالى فيهم: **﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ في النَّار يَقُولُوْن يَالَيْتَنا أَطَعْنَا الله وأَطَعْنَا الرَّسُولا وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنا وَكُبَرَاءنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيْلا، رَبَّنا آتِهِم ضِعْفَيْنِ مِنْ العَذَابِ والْعَنْهُم لَعْنًا كَبِيراً﴾**. [الأحزاب: ٦٦، ٦٨].

وقال تعالى فيهم: **﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ في النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ للذين اسْتَكْبَروا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تبَعًا فَهل أَنْتُم مُغنُونَ عَنَّا نَصِيبًا من النَّارِ، قَال الذين اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيْهَا، إِنَّ الله قَدْ حَكَم بين العِبَادِ﴾**. [غافر: ٤٧، ٤٨].

وقال فيهم: **﴿هَذَا فَلْيذُوقُوه حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ، وآخَرُ مِنْ شَكْلِه أزْوَاجٌ، هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُم لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ، قَالوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحبًا بكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوه لنا فَبِئْس القَرَارُ﴾**. [ص: ٥٧، ٦٠]. أي: سننتموه لنا وشرعتموه **﴿قالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لنا هذا فَزِدْه عَذَابًا ضِعْفًا في النَّارِ﴾**. [ص: ٦١]. فقولهم: لا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار أي: دَاخلوها كما دخلناها، ومقاسون عذابها كما نقاسيه، فأجابهم

الأتباع وقالوا: بل أنتم لا مرحبًا بكم أنتم قدمتموه لنا.

وفي الضمير قولان: **أحدهما**: أنه ضمير الكفر والتكذيب ورد قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واستبدال غيره به، والمعنى أنتم زينتم لنا الكفر ودعوتمونا إليه وحسنتموه لنا.

وقيل على هذا القول: إنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين، والمعنى على هذا: أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل ورد ما جاءوا به، والشرك بالله سبحانه وتعالى، أي: بدأتم به وتقدمتمونا إليه فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار، أي بئس المستقر والمنزل.

والقول الثاني: إن الضمير في قوله: ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾. [ص: ٦٠]. ضمير العذاب وصلي النار، والقولان متلازمان وهما حق.

وأما القائلون: ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا في النَّارِ﴾. [ص: ٦١]. فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم به؛ لأنهم الذين حملوهم عليه ودعوهم إليه.

ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد مَن سَنّ لهم الشرك وتكذيب الرسل، صلى الله عليهم وسلم، ضعفًا وهم الشياطين.(١)

القسم الثالث: الذين قبلوا ما جاء به الرسول ﷺ، وآمنوا به ظاهرًا، وجحدوه وكفروا به باطنًا، وهم المنافقون الذين ضُرب لهم هذا المثلان بمستوقد النار وبالصيب، وهم أيضًا نوعان:

أحدهما: من أبصر ثم عمي، وعلم ثم جهل وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر، فهؤلاء رءوس أهل النفاق وساداتهم وأئمتهم، ومثلهم مثل من استوقد نارًا ثم حصل بعدها على الظلمة.

والنوع الثاني: ضعفاء البصائر الذين أعشى بصائرهم ضوء البرق؛ فكاد أن يخطفها لضعفها وقوته، وأصم آذانهم صوت الرعد فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق، ولا يقربون من سماع القرآن والإيمان بل يهربون منه، ويكون حالهم حال من يسمع الرعد الشديد، فمن شدة خوفه منه يجعل أصابعه في أذنه، وهذه حال كثير من خفافيش البصائر في كثير من نصوص الوحي، وإذا

(١) سيأتي هذا البحث في سورة ص إن شاء الله(ج).

وردت عليه مخالفة لما تلقاه عن أسلافه وذوي مذهبه ومن يحسن به الظن، ورآها مخالفة لما عنده عنهم، هرب من النصوص وكره من يسمعه إياها، ولو أمكنه لسد أذنيه عند سماعها، ويقول: دعنا من هذه، ولو قدر لعاقب من يتلوها ويحفظها وينشرها ويعلمها، فإذا ظهر له منها ما يوافق ما عنده مشى فيها وانطلق، فإذا جاءت بخلاف ما عنده أظلمت عليه، فقام حائرًا لا يدري أين يذهب، ثم يعزم له التقليد وحسن الظن برؤسائه وسادته على اتباع ما قالوه دونها، ويقول مسكين الحال:هم أخبر بها مني وأعرف.

فيالله العجب: أوَ ليس أهلها والذابّون عنها والمنتصرون لها والمعظّمون لها والمخالفون لأجلها آراء الرجال المقدمون لها على ما خالفها، أعرف بها أيضًا منك وممن اتبعته، فلِمَ كان من خالفها وعزلها عن اليقين، وزعم أن الهدى والعلم لا يستفاد منها، وأنها أدلة لفظية لا تفيد شيئًا من اليقين، ولا يجوز أن يحتج بها على مسألة واحدة من مسائل التوحيد والصفات ويسميها الظواهر النقلية، ويسمي ما خالفها القواطع العقلية، فلِمَ كان هؤلاء أحق بها وأهلها، وكان أنصارها والذابُّون عنها والحافظون لها، هم أعداؤها ومحاربوها؟

ولكن هذه سنة الله في أهل الباطل، أنهم يعادون الحق وأهله، وينسبونهم إلى معـاداته ومحاربته، كالرافضة الذين عادوا أصحاب محمد ﷺ، بل وأهل بيته، ونسبوا أتباعه وأهل سنته إلى معاداته ومعاداة أهل بيته، وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

والمقصود: أن هؤلاء المنافقين قسمان: أئمة وسادة يدعون إلى النار، وقد مردوا على النفاق.

وأتباع لهم بمنزلة الأنعام والبهائم، فأولئك زنادقة مستبصرون، وهؤلاء زنادقة مقلدون، فهؤلاء أصناف بني آدم في العلم والإيمان.

ولا يجاوز هذه الستـة ـ اللهم ـ إلا من أظهـر الكفـر وأبطن الإيمان، كحال المستضعف بين الكفار الذي تبين له الإسلام ولم يمكنه المجاهرة بخلاف قومه، ولم يزل هذا الضرب في الناس على عهد رسول الله ﷺ، وبعده.

وهؤلاء عكس المنـافقين من كل وجه. وعلى هذا فالناس: إما مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإما كافر ظاهرًا وباطنًا، أو مؤمن ظاهرًا كافر باطنًا، أو كافر ظاهرًا مؤمن باطنًا، والأقسام الأربعة قد اشتمل عليها الوجود، وقد بين القرآن أحكامها.

فالأقسام الثلاثة الأولى ظاهرة، وقد اشتمل عليها أول سورة البقرة.

وأما القسم الرابع ففي قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤوهُمْ**﴾. [الفتح: ٢٥]. فهؤلاء كانوا يكتمون إيمانهم في قومهم ولا يتمكنون من إظهاره، ومن هؤلاء مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه، ومن هؤلاء النجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ، فإنه كان ملك النصارى بالحبشة، وكان في الباطن مؤمنًا، وقد قيل: إنه وأمثاله الذين عناهم الله عز وجل بقوله: ﴿**وإنّ مِن أَهْلِ الكِتَابِ لَمِن يُؤمِنُ بالله وَمَا أُنْزِل إلَيْكُم وَمَا أَنْزَل إليْهِمْ خاشِعِين لله لا يَشْتَرُون بَآياتِ الله ثَمنًا قَلِيلاً**﴾. [آل عمران: ١٩٩]. وقوله تعالى: ﴿**مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أَمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُوْن آياتِ الله آناء الليلِ وَهُم يَسْجُدُون، يُؤمنون بالله واليومِ الآخِرِ ويـأمُـرون بالمعـرُوف وَيَنْهَـون عن المنكـرِ ويسارعون في الخيراتِ وأولئك من الصالحين**﴾. [آل عمران: ١١٣، ١١٤]. فإن هؤلاء ليس المراد بهم المتمسك باليهودية والنصرانية بعـد محمد، ﷺ، قطعًا فإن هؤلاء قد شهد لهم بالكفر وأوجب لهم النار، فلا يثنى عليهم بهذا الثناء، وليس المراد به من آمن من أهل الكتاب ودخل في جملة المؤمنين وباين قومه، فإن هؤلاء لا يطلق عليهم أنهم من أهل الكتاب إلا باعتبار ماكانوا عليه، وذلك الاعتبار قد زال بالإسلام واستحدثوا اسم المسلمين والمؤمـنين، وإنـما يطلق الله سبحانه هذا الاسم على من هو باق على دين أهل الكتاب، **هذا هو المعروف في** القرآن كقوله تعالى: ﴿**يا أهلَ الكتابِ لِمَ تكفرون بآياتِ الله**﴾ [آل عمران: ٧٠]، ﴿**يا أهلَ الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم**﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿**يا أهلَ الكتاب لِمَ تُحاَجُّونَ في إبراهيمَ**﴾ [آل عمران: ٦٥]، ﴿**وإن الذين أُوتوا الكتابَ ليعلمون أنهَ الحقُّ من ربِّهم**﴾ [البقرة: ٤٤]، ونظائره.

ولهذا قال جابر بن عبدالله، وعبدالله بن عباس، وأنس بن مالك، والحسن وقتادة: **إن قوله تعالى: ﴿وإنَّ من أهلِ الكتابِ لمن يؤمنُ بالله وما أُنزلَ إليكم وما أُنزل إليهم﴾** [آل عمران: ١٩٩]: إنها نزلت في النجاشي، زاد الحسن وقتادة: وأصحابه.

وذكر ابن جرير في تفسيره من حديث أبي بكر الهذلي، عن قتادة، عن ابن المسيب، عن جابـر رضي الله عنه أن النبي، ﷺ، قال: «**اخرجوا فصلوا على أخيكم**» فصـلى بنا فكبر أربع تكبيرات، فقال: «**هذا النجاشي أصحمة**» فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط فأنزل الله تعالى ﴿**وإنَّ**

من أهلِ الكتابِ لمن يؤمنُ بالله﴾، الآية.

والمقصود أنَ الأقسام الأربعة قد ذكرها الله تعالى في كتابه وبين أحكامها في الدنيا وأحكامها في الآخرة، وقد تبين أن أحد الأقسام من آمن ظاهرًا وكفر باطنًا، وأنهم نوعان: رؤساؤهم وساداتهم، وأتباعهم ومقلدوهم.

وعلى هذا فأصحاب المثل الأول الناري شر من أصحاب المثل الثاني المائي، كما يدل السياق عليه، وقد يقال ـ وهو أَوْلى ـ: إن المثلين لسائر النوع وإنهم قد جمعوا بين مقتضى المثل الأول من الإنكار بعد الإقرار، والحصول في الظلمات بعد النور، وبين مقتضى المثل الثاني من ضعف البصيرة في القرآن، وسد الآذان عند سماعه والإعراض عنه، فإن المنافقين فيهم هذا وهذا، وقد يكون الغالب على فريق منهم المثل الأول، وعلى فريق منهم المثل الثاني.

وقد اشتمل هذان المثلان على حكم عظيمة:

منها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره لا من قبل نفسه، فإذا ذهبت تلك النار بقي في ظلمة، وهكذا المنافق لما أقر بلسانه من غير اعتقاد ومحبة بقلبه، وتصديق جازم، كان ما معه من النور كالمستعار.

ومنها: أن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تحمله، وتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم بدوامها، فإذا ذهبت مادة الإيمان طفيء كما تطفأ النار بفراغ مادتها.

ومنها: أن الظلمة نوعان: ظلمة مستمرة لم يتقدمها نور، وظلمة حادثة بعد النور، وهي أشد الظلمتين وأشقهما على من كانت حظه، فظلمة المنافق ظلمة بعد إضاءة، فمثلت حاله بحال المتسوقد للنار الذي حصل في الظلمة بعد الضوء، وأما الكافر فهو في الظلماتَ لم يخرج منها قط.

ومنها: أن في هذا المثل إيذانًا وتنبيهًا على حالهم في الآخرة، وأنهم يعطون نورًا ظاهرًا كما كان نورهم في الدنيا ظاهرًا، ثم يطفأ ذلك النور أحوج ما يكونون إليه؛ إذ لم تكن له مادة باقية تحمله ويبقون في الظلمة على الجسر لا يستطيعون العبور، فإنه لا يمكن أحدًا عبوره إلا بنور ثابت يصحبه حتى يقطع الجسر، فإن لم يكن لذلك النور مادة من العلم النافع والعمل الصالح، وإلا ذهب الله تعالى به أحوج ما كان إليه صاحبه، فطابق مثلهم في الدنيا بحالتهم التي هم عليها في هذه الدار،

وبحالتهم يوم القيامة عندما يقسم، ومن ههنا يعلم السر في قوله تعالى: ﴿**ذهب الله بنورهم**﴾ ولم يقل: أذهب الله نورهم.

فإن أردت زيادة بيان وإيضاح، فتأمل ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ وقد سئل عن الورود فقال: «**نجيء نحن يوم القيامة على تل فوق الناس، قال: فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا تبارك وتعالى بعد ذلك فيقول: من تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك، قال: فينطلق بهم فيتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم ـ منافق أو مؤمن ـ نورًا، ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب وحَسَك تأخذ من شاء الله تعالى، ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون فينجو أول زمرة، وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفًا لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوإ نجم في السماء، ثم كذلك، ثم تحل الشفاعة، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، فيجعلون بفناء الجنة، ويجعل أهل الجنة يرشّون عليهم الماء**» وذكر باقي الحديث.

فتأمل قوله: فينطلق فيتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم نورًا المنافق والمؤمن.

ثم تأمل قوله تعالى: ﴿**ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِم وتَرَكَهُم في ظلماتٍ لا يُبصِرُون**﴾. [البقرة: ١٧].

وتأمل حالهم إذا طفئت أنوارهم فبقوا في الظلمة، وقد ذهب المؤمنون في نور إيمانهم يتبعون ربهم عز وجل.

وتأمل قوله ﷺ في حديث الشفاعة: «**لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع كل مشرك إلهه الذي كان يعبده**»، والموحد حقيق بأن يتبع الإله الحق، الذي كل معبود سواه باطل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿**يَوم يُكْشَفُ عن سَاقٍ ويُدعَوْن إلى السُّجُودِ فلا يستطيعون**﴾. [القلم: ٤٢]. وذكر هذه الآية في حديث الشفاعة في هذا الموضع، وقوله في الحديث: «**فيكشف عن ساقه**» وبهذه[1] الإضافة يتبين المراد بالساق المذكور في الآية.

وتأمل ذكر الانطلاق واتباعه سبحانه بعد هذا، وذلك يفتح لك بابًا من أسرار

---

(١) في النسخة المعتمدة: هذه. والصواب ما أثبتناه لاستقامة المعنى. المراجع.

التوحيد وفهم القرآن، ومعاملة الله سبحانه وتعالى لأهل توحيده الذين عبدوه وحده ولم يشركوا به شيئًا، هذه المعاملة التي عامل بمقابلتها أهل الشرك؛ حيث ذهبت كل أمة مع معبودها فانطلق بها واتبعته إلى النار، وانطلق المعبود الحق واتبعه أولياؤه وعابدوه.

فسبحان الله رب العالمين الذي قرّت عيون أهل التوحيد به في الدنيا والآخرة، وفارقوا الناس فيه أحوج ما كانوا إليهم.

ومنها: أن المثل الأول متضمن لحصول الظلمة التي هي الضلال، والحيرة التي ضدها الهدى، والمثل الثاني متضمن لحصول الخوف الذي ضده الأمن فلا هدى ولا أمن ﴿**الذين آمنوا ولم يَلْبسوا إيمانهم بِظُلْمٍ أولئك لهُمْ الأمنُ وهم مُهْتَدُون**﴾. [الأنعام: ٨٢]. قال ابن عباس وغيره من السلف: مثل هؤلاء في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارًا في ليلة مظلمة في مفازة فاستضاء، ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي في ظلمة خائفًا متحيراً، كذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان، أمِنوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف.

قال مجاهد: إضاءة النار لهم إقبالهم إلى المسلمين والهدى، وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة.

وقد فسرت تلك الإضاءة وذهاب النور بأنها في الدنيا، وفسرت بالبرزخ، وفسرت بيوم القيامة.

والصواب أن ذلك شأنهم في الدور الثلاثة، فإنهم لما كانوا كذلك في الدنيا جوزوا في البرزخ وفي القيامة بمثل حالهم جزاء وفاقًا ﴿**وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيدِ**﴾ [فصلت: ٤٦]فإن المعاد يعود على العبد فيه ما كان حاصلاً له في الدنيا، ولهذا يسمَّى يوم الجزاء ﴿**ومَنْ كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً**﴾. [الإسراء: ٧٢]. ﴿**ويزيدُ الله الذين اهتدوَا هدًى**﴾. [مريم: ٧٦].

ومن كان مستوحشًا مع الله بمعصيته إياه في هذه الدار، فوحشته معه في البرزخ، ويوم المعاد أعظم وأشد، ومن قرّت عينه به في هذه الحياة الدنيا قرت عينه به يوم القيامة، وعند الموت ويوم البعث، فيموت العبد على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه، ويعود عليه عمله بعينه فينعم به ظاهرًا وباطنًا، فيورثه من

الفرح والسرور واللذة والبهجة وقرة العين، والنعيم وقوة القلب، واستبشاره وحياته وانشراحه، واغتباطه ما هو من أفضل النعيم وأجله، وأطيبه وألذه، وهل النعيم إلا طيب النفس، وفرح القلب وسروره وانشراحه واستبشاره؟!

هذا وينشأ له من أعماله ما تشتهيه نفسه، وتلذ عينه من سائر المشتهيات التي تشتهيها الأنفس وتلذها الأعين، ويكون تنوّع تلك المشتهيات وكمالها وبلوغها، مرتبة الحسن والموافقة: بحسب كمال عمله ومتابعته فيه وإخلاصه وبلوغه مرتبة الإحسان فيه، وبحسب تنوعه فمن تنوعت أعماله المرضية المحبوبة له في هذه الدار، تنوعت الأقسام التي يتلذذ بها في تلك الدار. وتكثرت له بحسب تكثر أعماله هنا، وكان مزيده بتنوعها والابتهاج بها، والالتذاذ هناك على حسب مزيده من الأعمال وتنوعه فيها في هذه الدار.

وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخوطة، أثرًا وجزاءً ولذة وألمًا يخصه لا يشبه أثر الآخر وجزائه، ولهذا تنوعت لذات أهل الجنة وآلام أهل النار. وتنوع ما فيهما من الطيبات والعقوبات، فليست لذة من ضرب في كل مرضاة الله بسهم وأخذ منها بنصيب، كلذة من أنمى سهمه ونصيبه في نوع واحد منها، ولا ألم من ضرب في كل مسخوط لله بنصيب وعقوبته كألم من ضرب بسهم واحد في مساخطه، وقد أشار النبي ﷺ، إلى أن كمال ما يستمتع به من الطيبات في الآخرة بحسب كمال ما قابله من الأعمال في الدنيا، فرأى قنواً[1] من حشف معلقًا في المسجد للصدقة فقال: «**إن صاحب هذا يأكل الحشف يوم القيامة**» فأخبر أن جزاءه يكون من جنس عمله؛ فيجزى على تلك الصدقة بحشف من جنسها.

وهذا الباب يفتح لك أبوابًا عظيمة من فهم المعاد وتفاوت الناس في أحواله، ومايجري فيه من الأمور.

فمنها: خفة حمل العبد على ظهره وثقله إذا قام من قبره؛ فإنه بحسب خفة وزره وثقله، إن خف خف وإن ثقل ثقل.

ومنها: استظلاله بظل العرش أو ضحاؤه[2] للحر والشمس، إن كان له من

(١) القنو: العذق الكبير (السباطة). (٢) أي: بروزه.

الأعمال الصالحة الخالصة والإيمان مما يظله في هذه الدار من حر الشرك والمعاصي والظلم، استظل هناك في ظل أعماله تحت عرش الرحمن، وإن كان ضاحيًا هنا للمعاصي والمخالفات والبدع والفجور ضحى هناك للحر الشديد.

ومنها: طول وقوفه في الموقف ومشقته عليه، وتهوينه عليه إن طال وقوفه في الصلاة ليلاً ونهاراً لله، وتحمل لأجله المشاق في مرضاته وطاعته، خف عليه الوقوف في ذلك اليوم وسهل عليه، وإن آثر الراحة هنا والدعة والبطالة والنعمة؛ طال عليه الوقوف هناك واشتدت مشقته عليه.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿**إنَّا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً، فاصبر لحكم ربِّك ولا تطع منهم آثما أو كفوراً، واذكر اسم ربِّك بكرةً وأصيلاً، ومن الليل فاسجدْ له وسبحْه ليلاً طويلاً، إن هؤلاء يحبون العاجلة وَيذرُونَ وراءهم يومًا ثقيلاً**﴾. [الإنسان: ٢٣-٢٧]. فمن سبَّح الله ليلاً طويلاً، لم يكن ذلك اليوم ثقيلاً عليه بل كان أخف شيء عليه.

ومنها: أن ثقل ميزانه هناك بحسب تحمل ثقل عمل الحق في هذه الدار، لا بحسب مجرد كثرة الأعمال، وإنما يثقل الميزان باتّباع الحق والصبر عليه وبذله إذا سئل، وأخذه إذا بذل، كما قال الصّديق في وصيته لعمر رضي الله عنهما:

«**واعلم أن لله حقًا بالليل لا يقبله بالنهار وله حق بالنهار لا يقبله بالليل. واعلم أنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق وثقل ذلك عليهم، ولا يستضيء به غيره، ولا يمشي أحد إلا في نور نفسه إن كان له نور مشى في نوره، وإن لم يكن له نور أصلاً لم ينفعه نور غيره**».

ولما كان المنافق في الدنيا قد حصل له نور ظاهر، غير مستمر ولا متصل بباطنه، ولا له مادة من الإيمان أعطي في الآخرة نورًا ظاهرًا، لا مادة له ثم يطفأ عنه أحوج ما كان إليه.

ومنها: أن مشيهم على الصراط في السرعة والبطء، بحسب سرعة سيرهم وبطئه على صراط الله المستقيم في الدنيا، فأسرعهم سيراً هنا أسرعهم هناك، وأبطأهم هنا أبطأهم هناك، وأشدهم ثباتًا على الصراط المستقيم هنا أثبتهم هناك، ومن خطفته كلاليب الشهوات والشبهات والبدع المضلة هنا خطفته الكلاليب التي كأنها شوك السعدان هناك، ويكون تأثير كلاليب الشهوات والشبهات والبدع فيه

هاهنا، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومخردل أي مقطع بالكلاليب مُكرْدس في النار، كما أثر فيهم تلك الكلاليب في الدنيا جزاء وفاقًا **﴿وماربك بظلام للعبيد﴾** [فصلت: ٤٦].

والمقصود أن الله تبارك وتعالى ضرب لعباده المثلين: المائي والناري في سورة البقرة، وفي سورة الرعد، وفي سورة النور لما تضمن المثلان من الحياة والإضاءة، فالمؤمن حي القلب مستنيره، والكافر والمنافق ميت القلب مظلمه.

وقال الله تعالى: **﴿أوَمَنْ كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾**. [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: **﴿وما يستوي الأعمى والبصيرُ ولا الظلماتُ ولا النورُ ولا الظلُّ ولا الحرورُ ومايستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ﴾**. [فاطر: ١٩-٢٢].

فجعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره بصيراً حيًّا في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك، مستنيراً بنوره، والآخر أعمى ميتًا في حر الكفر والشرك والضلال منغمساً في الظلمات.

وقال تعالى: **﴿وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ماكنتَ تدري ماالكتابُ ولا الإيمانُ﴾**. [الشورى: ٥٢].

وقد اختلفوا في مفسر الضمير من قوله تعالى: **﴿ولكن جعلناه نوراً﴾**. فقيل: هو الإيمان لكونه أقرب المذكورين، وقيل: هو الكتاب فإنه النور الذي هدى به عباده.

قال شيخنا: والصواب أنه عائد على الروح المذكور في قوله تعالى: **﴿وكذلك أوحينا إليك رُوحًا من أمرنا﴾**. [الشورى: ٥٢]، فسمى وحيه رُوحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح التي هي الحياة في الحقيقة، ومن عدمها فهو ميت لا حي، والحياة الأبدية السرمدية في دار النعيم هي ثمرة حياة القلب بهذا الروح الذي أوحى إلى رسوله، ﷺ، فمن لم يَحْيَ به في الدنيا فهو ممن له جهنم لا يموت فيها فيها ولا يحيى.

وأعظم الناس حياة في الدور الثلاث:دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الجزاء، أعظمهم نصيبًا من الحياة بهذا الروح.

وسماه رُوحًا في غير موضع من القرآن كقوله تعالى: **﴿رَفِيعُ الدَرَجات ذُو العَرْشِ يُلقي الرُّوحَ مِنْ أمره على من يَشاء من عِبادِه لِيُنْذِرَ يوم التَّلاقِ﴾**.

[غافر: ١٥] . وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الملائِكَة بالرُّوحِ مِنْ أمرِهِ على مَنْ يَشاء مِنْ عِبَادِهِ أنْ أنْذِرُوا أنَّه لا إله إلاَّ أنَا فَاتَّقُونِ﴾ . [النحل: ١٢].

وسماه نورًا لما يحصل به من استنارة القلوب وإضاءتها.

وكمال الروح بهاتين الصفتين: بالحياة والنور، ولا سبيل إليهما إلا على أيدي الـرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والاهتداء بما بعثوا به وتلقي العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم، وإلا فالروح ميتة مظلمة وإن كان العبد مشارًا إليه بالزهد والفقه والفضيلة والكلام في البحوث، فإن الحياة والاستنارة بالروح الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ وجعله نورًا يهدي به من يشاء من عباده وراء ذلك كله، فليس العلم كثرة النقل والبحث والكلام، ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها، وحقها من باطلها، وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال، ويميز النقد الذي عليه سكة أهل المدينة النبوية الذي لا يقبل الله عز وجل ثمنًا لجنته سواه، من النقد الذي عليه سكة جنكسخان ونوابه من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة. وكل من اتخذ لنفسه سكة وضربًا ونقدًا يروّجه بين العالم.

فهذه الأثمان كلها زيوف لا يقبل الله سبحانه وتعالى في ثمن جنته شيئًا منها، بل ترد على عاملها أحوج ما يكون إليها، وتكون من الأعمال التي قدم الله تعالى عليها فجعلها هباءً منثورًا.

(١)**قوله** تعالى: ﴿يَا أيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الذَّي خَلَقَكُم والذين مِن قَبْلِكُمْ لعَلَكُم تَتَّقُونَ﴾ . [البقرة: ٢١]. إلى قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودُها النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكَافِرِيْنَ﴾ . [البقرة: ٢٤].

فهذا استدلال في غاية الظهور ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين؛ من إثبات الصانع وصفات كماله من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وحكمته وأفعاله وحدوث العالم، وإثبات نوعي توحيده تعالى: توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له.

ثم قرر تعالى بعد ذلك إثبات نبوة رسوله محمد ﷺ، أبلغ تقرير وأحسنه وأتمه وأبعده عن المعارض، فثبت بذلك صدق رسوله في كل ما يقوله، وقد أخبر عن

(١) ١٣١ بدائع جـ٤.

المعاد والجنة والنار فثبت صحة ذلك ضرورة، فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه فصدَّرها تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ﴾. وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم.

ثم قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُم﴾ فأمرهم بعبادة ربهم وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكًا خالصًا حقيقيًّا، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه فعبادته له وشكره إياه واجب عليه ولهذا قال: ﴿اعبدوا ربكم﴾ ولم يقل: إلهكم.

والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح. والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفِطَر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿الذي خلقكم﴾ فنبه بهذا أيضًا على وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود، وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، كما قال في غير موضع من القرآن: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾. [الزخرف: ٨٧].

فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود، وكيف تجعلون معه شريكًا في العبادة وأنتم مقرّون بأنه لا شريك له في الخَلْق، وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية.

ثم قال: ﴿والذين من قبلكم﴾ فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم وأنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم، وخلقُه تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته، وذلك مستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته، فلا شبيه له فيها ولا في أفعاله فلا شريك له فيها.

ثم ذكر المطلوب من خلقهم، وهو أن يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه ويذكرونه فلا ينسونه ويشكرونه ولا يكفرونه، فهذه حقيقة تقواه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾ قيل: إنه تعليل للأمر، وقيل: تعليل للخلق، وقيل: المعنى: اعبدوه لتتقوه بعبادته. وقيل: المعنى: خلقكم لتتقوه وهو أظهر لوجوه:

أحدها : أن التقوى هي العبادة، والشيء لا يكون علة لنفسه.

الثاني: أن نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ .[الذاريات: ٥٦].

الثالث : أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ من الأمر.

ولمن نصر الأول أن يقول: لا يمتنع أن يكون قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ تعليلاً للأمر بالعبادة.

ونظيره قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُم الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الذين مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونْ﴾ .[البقرة: ١٨٣]. فهذا تعليل لِكَتْبِ الصيام، ولا يمتنع أن يكون تعليلاً للأمرين معًا، وهذا هو الأليق بالآية، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ فِراشًا والسَّماء بِناءً وَأَنْزَلَ مِن السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِن الثَّمَرَات رِزْقًا لكُمْ﴾ .[البقرة: ٢٢]. فذكر تعالى دليلاً آخر متضمنًا للاستدلال بحكمته في مخلوقاته.

فالأول: متضمن لأصل الخلق والإيجاد، ويسمى دليل الاختراع والإنشاء.

والثاني: متضمن للحِكَم المشهودة في خلقه، ويسمى دليل العناية والحكمة، وهو تعالى كثيرًا ما يكرر هذين النوعين من الاستدلال في القرآن.

ونظيره قوله تعالى: ﴿الله الَّذِي خَلَقَ السَّموٰاتِ والأَرْضَ وأَنْزَل من السَّماءِ مَاءً فأَخْرَجَ بِه مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُم الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُم الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُم الشَّمْسَ والقَمَرَ دَائِبَينِ وَسَخَّر لَكُم اللَّيْلَ والنَّهَارَ﴾ .[إبراهيم: ٣٢]. فذكر خلق السموات والأرض، ثم ذكر منافع المخلوقات وحكمها.

ونظيره قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّموٰاتِ والأَرْضَ وَأَنْزَل لَكُمْ مِن السَّماءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرها أَءِلهٌ مع الله بل هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ. أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قرارًا وجَعَل خِلاَلَها أَنْهارًا وَجعل لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَل بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ .[النمل: ٦٠، ٦١]. إلى آخر الآيات، على أن في هذه الآيات من الأسرار والحكم مابحسب عقول العالمين أن يفهموه ويدركوه، ولعله أن يمر بك إن شاء الله التنبيه على رائحة يسيرة من ذلك.

ونظير ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموٰاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ وَالفُلْكِ التِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزل الله مِن السَّماءِ

من ماءٍ فأحْيَا بِهِ الأرْض بَعْد مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيْها مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون﴾. [البقرة: ١٦٤].
وهذا كثير في القرآن لمن تأمله.

وذكر سبحانه في آية البقرة قرار العالَم، وهو الأرض وسقفه وهو السماء وأصول منافع العباد وهو الماء الذي أنزله من السماء، فذكر المسكن، والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه، ونبه تعالى بجعله للأرض فراشًا على تمام حكمته في أن هيأها لاستقرار الحيوان عليها؛ فجعلها فراشًا ومهادًا وبساطًا وقرارًا وجعل سقفها بناءً محكمًا مستويًا لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب. ثم قال: ﴿فلا تَجْعَلُوا لله أَنْدَادًا وَأَنْتُم تَعْلَمُونْ﴾. [البقرة:٢٢]. فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها، وظفر العقل بها بأول وهلة وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح، وأن كل متكلم ومستدل ومحاجّ إذا بالغ في تقرير ما يقرره وأطاله وأعرض القول فيه فغايته؛ إن صح ما يذكره أن ينتهي إلى بعض ما في القرآن.

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من البرهان الشافي في التوحيد، أي إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه الأفعال، فكيف تجعلون له أندادًا وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله؟!

فلما قرر نوعي التوحيد انتقل إلى تقرير النبوة فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلى عَبْدِنا فَأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءكُمْ مِنْ دُوْنِ الله إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾. [البقرة:٢٣]. إن حصل لكم ريب في القرآن وصدق من جاء به وقلتم إنه مفتعل فأْتوا ولو بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه، يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك حتى إن الذين راموا معارضته، كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه ويحكمون بسماجته وقبح ركاكته وخسته، فهو كمن أظهر طيبًا لم يشم أحد مثل ريحه قط وتحدّى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله، فاستحيى العقلاء وعرفوا عجزهم، وجاء الحُمقان بعذرة منتنة خبيثة وقالوا: قدجئنا بمثل ما جئت به، فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهانًا وعظمة وجلالة؟

وأكد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [البقرة:٢٣]. كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته: أجهد على بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك وأوليائك، ولا تبق منهم أحدًا حتى تستعين به. فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلاً، إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه، أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله، والنبي ﷺ، يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميهم وكتابيهم وعربهم وعجمهم ويقول: «**لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبدًا**» فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة وإيتام الأولاد وقتل النفوس والإقرار بالعجز عن معارضته.

وتقرير النبوة بهذه الآية له وجوه متعددة هذا أحدها.

وثانيها: إقدامه ﷺ على هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالاً عامًا إلى يوم القيامة، أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك، مستند إلى وحي من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

وثالثها: النظر إلى نفس ما تحدى به وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله، الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه. وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه. وبالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره، ولو لم يفهمه ولم يتأمله.

فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه حتى قصر بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها.

وبعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته.

وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام.

وبعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة، التي لا تشفي ولا تجدي، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله.

فإذا ثبتت النبوة بهذه الحجة القاطعة، فقد وجب على الناس تصديق الرسول في خبره وطاعة أمره.

(١)**التاسعة** «التعبد» وهو فوق التتيم. فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوبُ رِقَّه، فلم يبق له شيء من نفسه ألبتة؛ بل كله عبد لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا. وهذا هو حقيقة العبودية. ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة؛ وصفه الله بها في أشرف مقاماته: مقام الإسراء، كقوله: ﴿**سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ**﴾. [الإسراء: ١].

ومقام الدعوة. كقوله: ﴿**وأنه لما قام عبدُ الله يدعوه**﴾. [الجن: ٩].

ومقام التحدى كقوله: ﴿**وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا**﴾. [البقرة: ٢٣]. وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة.

وكذلك يقول المسيح عليه الصلاة والسلام لهم، إذا طلبوا منه الشفاعة ـ بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ: «**اذهبوا إلى محمد، عبدٍ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**». **سمعت** شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: فحصلت له تلك المرتبة: بتكميل عبوديته الله تعالى، وكمال مغفرة الله له.

وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام والخضوع للمحبوب. تقول العرب: «**طريق معبد**» أي: قد ذللته الأقدام وسهلته.

(٢)**وقد** أخبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعن المعاد والجنة والنار فثبتت صحة ذلك يقينًا، فقال تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودَها النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ للكَافِرِينْ وَبَشِّرِ الذين آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ أنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنْهَارُ**﴾. [البقرة: ٢٤، ٢٥]. الآية.

فاشتملت الآيات على تقرير مهمات أصول الدين: من إثبات خالق العالم، وصفاته ووحدانيته، ورسالة رسوله والمعاد الأكبر.

(٣)**قال** تعالى: ﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة**﴾، وقولهم: ﴿**هذا الذي رزقنا من قبل**﴾ أي: شبيهه ونظيره لا عينه، وهل المراد هذا الذي رزقنا في الدنيا نظيره من الفواكه والثمار، أو هذا نظير الذي رزقناه قبل في الجنة؟.

(١) ٢٩ مدارج جـ٣.
(٢) ١٣٦ بدائع جـ٤.
(٣) ١٢٢ حادي الأرواح.

قيل فيه قولان: ففي تفسير السدى، عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس. وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي، ﷺ: ﴿**قالوا هذا الذي رزقنا من قبل**﴾ أنهم أتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا. قال مجاهد: ما أشبهه به! وقال ابن زيد: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابهًا يعرفونه.

وقال آخرون: هذا الذي رزقنا من قبل من ثمار الجنة، من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضًا في اللون والطعم.

واحتج أصحاب هذا القول بحجج:

إحداها: أن المشابهة التي بين ثمار الجنة بعضها لبعض أعظم من المشابهة التي بينها وبين ثمار الدنيا؛ ولشدة المشابهة قالوا: هذا هو.

الحجة الثانية: ماحكاه ابن جرير عنهم قال: ومن علة قائلي هذا القول أن ثمار الجنة كلما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله، كما كان حدثنا ابن بشار: حدثنا ابن مهدي: حدثنا سفيان: سمعت ابن مرة يحدث عن أبي عبيدة وذكر ثمر الجنة وقال: كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى.

الحجة الثالثة: قوله ﴿**وأتوابه متشابهًا**﴾ وهذا كالتعليل والسبب الموجب لقولهم: ﴿**هذا الذي رزقنا من قبل**﴾.

الحجة الرابعة: أن من المعلوم أنه ليس كل مافي الجنة من الثمار قد رزقوه في الدنيا، وكثير من أهلها لا يعرفون ثمار الدنيا ولا رأوها، ورجحت طائفة منهم ابن جرير وغيره القول الآخر، واحتجت بوجوه.

قال ابن جرير: والذي يحقق صحة قول القائلين أن معنى ذلك: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا أن الله جل ثناؤه قال: ﴿**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا**﴾. [البقرة: ٢٥]. يقولون: هذا الذي رزقنا من قبل ولم يخصص أن ذلك من قيلهم في بعض دون بعض، فإذا كان قد أخبرجل ذكره عنهم أن ذلك من قيلهم كلما رزقوا ثمرة، فلا شك أن ذلك من قيلهم في أول رزق رزقوه من ثمارها أتوا به بعد دخولهم الجنة واستقرارهم فيها الذي لم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة، فإذا كان لا شك أن ذلك من قيلهم في أوله كما هو من قيلهم في وسطه وما يتلوه،

فمعلوم أنه محال أن يقولوا لأول رزق رزقوه من ثمار الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل هذا من ثمار الجنة، وكيف يجوز أن يقولوا لِأولِ رزق من ثمارها ولما يتقدمه عندهم غيرها: هذا هو الذي رزقنا من قبل، إلا أن ينسبهم ذو غية وضلال إلى قيل الكذب الذي قد طهرهم الله منه، أو يدفع دافع أن يكون ذلك من قيلهم لأول رزق يرزقونه من ثمارها، فيدفع صحة ما أوجب الله صحته من غير نصب، دلالة على أن ذلك في حال من أحوالهم دون حال.

فقد تبين أن معنى الآية: كلما رزقوا من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا.

قلت: أصحاب القول الأول يخصون هذا العام بما عدا الرزق الأول لدلالة العقل والسياق عليه، وليس هذا ببدع من طريقة القرآن، وأنت مضطر إلى تخصيصه ولابد بأنواع من التخصيصات:

أحدها: أن كثيرًا من ثمار الجنة وهي التي لا نظير لها في الدنيا لا يقال فيها ذلك.

الثاني: أن كثيرًا من أهلها لم يرزقوا جميع ثمرات الدنيا التي لها نظير في الجنة.

الثالث: أنه من المعلوم أنهم لا يستمرون على هذا القول أبد الآباد كلما أكلوا ثمرة واحدة قالوا: هذا الذي رزقنا في الدنيا، ويستمرون على هذا الكلام دائمًا إلى غير نهاية، والقرآن العظيم لم يقصد إلى هذا المعنى، ولا هو مما يعتني بهم من نعيمهم ولذتهم، وإنما هو كلام مبين خارج على المعتاد المفهوم من الطيب.

ومعناه: أنه يشبه بعضه بعضًا ليس أوله خيرًا من آخره، ولا هو مما يَعْرِض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها؛ من نقصان حملها وصغر ثمرها وغير ذلك، بل أوله مثل آخره، وآخره مثل أوله وهو خيار كله يشبه بعضه بعضًا، فهذا وجه قولهم، ولا يلزم مخالفة ما نصه الله سبحانه وتعالى، ولا نسبة أهل الجنة إلى الكذب بوجه، والذي يلزمهم من التخصيص يلزمك نظيره وأكثر منه والله أعلم.

وأما قوله عز وجل: ﴿وأتوا به متشابها﴾ قال الحسن خيار كله لا رذل ألم تروا إلى ثمر الدنيا كيف تسترذلون بعضه وأن ذلك ليس فيه رذل وقال قتادة: خيار لا رذل فيه فإن ثمار الدنيا ينقى منها ويرذل منها وكذلك قال ابن جريج وجماعة، وعلى هذا فالمراد بالتشابه التوافق

والتماثل. قالت طائفة أخرى منهم ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب رسول الله، ﷺ، متشابها في اللون والمرأى وليس يشبه الطعم قال مجاهد متشابها لونه مختلفا طعمه وكذا قال الربيع بن أنس.

وقال يحيى بن أبي كثير «عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة فيأكلونها ثم يأتونهم بمثلها فيقولون هذا الذي جئتمونا به آنفا، فيقول لهم الخدم كلوا فإن اللون واحد والطعم مختلف فهو قوله عز وجل: **﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها﴾** وقالت طائفة وناس معنى الآية أن يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أفضل وأطيب قال ابن وهب قال عبدالرحمن بن زيد يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان قالوا في الجنة هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها يعرفونه وليس هو مثله في الطعم واختار ابن جرير هذا القول قال ودليلنا على فساد قول من قال إن معنى الآية هذا الذي رزقنا من قبل أي في الجنة وتلك الدلالة على فساد ذلك القول هي الدلالة على فساد قول من خالف قولنا في تأويل قوله وأتوا به متشابها أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن المعنى الذي من أجله قال القوم هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها.

«**قلت**» وهذا لا يدل على فساد قولهم لما تقدم.

(١)**قال** تعالى: **﴿وَبَشر الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحات أن لَهُمْ جَنَّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار كُلما رُزقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا هذا الذي رُزقنا من قبلُ وأُتُوا به مُتَشابهاً وَلَهُمْ فيها أزواجٌ مُطهرةٌ وَهُم فيها خَالِدُون﴾**. فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه وعظَمة من أرسله إليك بهذه البشارة وقدر مابشرك به وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره.

وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات ومافيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه.

والأزواج جمع زوج والمرأة زوج للرجل وهو زوجها هذا هو الأفصح وهو لغة قريش وبها نزل القرآن كقوله: **﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾**.

ومن العرب من يقول: زوجة وهو نادر لا يكادون يقولونه! وأما المطهرة فإن جرت صفة على الواحد؛ فيجري صفة على جمع التكسير؛ إجراء له مجرى جماعة

(١) ١٥٥ حادي الأرواح.

كقوله تعالى: ﴿مساكن طيبة﴾. [الصف: ١٢]. ﴿وقرى ظاهرة﴾. [سبأ: ١٨]. ونظائره.

والمطهرة: من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق، وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ.

قال عبدالله بن المبارك: ثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي نظرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: ﴿**لهم فيها أزواجٌ مطهرةٌ**﴾ قال: «من الحيض والغائط والنخامة والبصاق».

وقال عبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس ﴿**مطهرة**﴾: لا يحضن ولا يُحْدِثن ولا يتنخمن.

وقال ابن عباس أيضًا: مطهرة من القذر والأذى.

وقال مجاهد: لا يَبُلن ولا يتغوطن ولا يُمذين ولا يُمنين ولا يحضن ولا يبصقن ولا يتنخمن ولا يلدن.

وقال قتادة: مطهرة من الإثم والأذى، طهرهن الله سبحانه من كل بول وغائط وقذر ومأثم.

وقال عبدالرحمن بن زيد: المطهرة التي لا تحيض، وأزواج الدنيا لسن بمطهرات، ألا تراهن يدمين ويتركن الصلاة والصيام؟ قال: وكذلك خلقت حواء حتى عصت، فلما عصت قال الله: **إني خلقتك مطهرة وسأدميك كما دميت هذه الشجرة.**

ذكر من يستحق هذه البشارة

(١)**قال** الله تعالى: ﴿**وبَشِّر الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ أنَّ لَهُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا**﴾. [البقرة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿**ألا إنَّ أَوْلِيَاء الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون، الذين آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون لَهُم البُشْرَى في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ لا تَبْدِيل لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيْم**﴾. [يونس: ٦٢: ٦٤].

(١) ٢٩١ حادي الأرواح.

وقال تعالى: ﴿إنَّ الذين قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠، الأحقاف: ١٣] الآية.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ المُؤمِنُون﴾. [المؤمنون: ١]. إلى قوله: ﴿أولَئِك هُم الوَارِثُون الذين يَرِثُونَ الفِرْدَوْس هُمْ فِيها خَالِدُون﴾. [المؤمنون: ١١].

وفي المسند وغيره: أن النبي ﷺ، قال: «قد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ثم تلا ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر آيات.

وقال تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلماتِ﴾. إلى قوله: ﴿أعدَّ الله لَهُمْ مغْفِرَةً وأجْرًا عَظِيمًا﴾. [الأحزاب: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿التَّائِبُون العَابِدُون الحَامِدُون السَّائِحُون الرَّاكِعُون السَّاجِدُونَ الآمِرُون بِالمَعْرُوف والنَّاهُونَ عَنْ المُنْكَرِ والحَافِظُون لِحُدُود الله وبَشِّر المُؤمنين﴾. [التوبة: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿تلك الجنة التي نُورثُ من عبادنا من كان تقيًّا﴾. [مريم: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ من رَّبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمواتُ والأَرْضُ أُعِدَتْ للمُتَّقِين الذين يُنْفِقُونَ في السرَّاء والضرَّاء والكَاظِمِينَ الغَيْظَ والعَافِينَ عَن النَّاس والله يُحب المُحْسنين والذين إذا فَعلُوا فَاحِشَة أو ظَلَموا أنْفُسَهم ذَكَرُوا الله فاسْتَغْفَروا لِذُنُوبِهم ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا الله ولم يُصرُّوا على ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون أُولئك جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَّبِّهم وَجَنْات تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خالدين فِيْها ونِعْمَ أَجْرُ العَامِلِين﴾. [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارةٍ تُنجيكُمْ مِن عَذَاب أَلِيْم تُؤمِنُون بِالله وَرَسُولِه وتُجَاهِدُون في سَبِيل الله بِأمْوَالِكُم وأنْفُسِكُم ذَلِكُم خَيرٌ لَكُم إن كُنْتم تَعْلَمون﴾. إلى قوله: ﴿وبَشِّر المُؤمنين﴾. [الصف: ١٠ - ١٣].

وقال تعالى: ﴿ولِمَنْ خَافَ مَقَام رَبِّه جَنْتَان﴾. [الرحمن: ٤٦]

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَن الهَوى فَإنَّ الجَنَّة هِيَ المَأْوَى﴾. [النازعات: ٤٠] وهذا في القرآن كثير، مداره على ثلاث قواعد: إيمان، وتقوى، وعمل خالص لله على موافقة السنة.

فأهل هذه الأصول الثلاثة، هم أهل البشرى دون من عداهم من سائر الخلق، وعليها دارت بشارات القرآن والسنة جميعها.

وهي تجتمع في أصلين: إخلاص في طاعة الله، وإحسان إلى خلقه. وضدها

يجتمع في الذين يراءُون ويمنعون الماعون.

وترجع إلى خصلة واحدة وهي موافقة الرب تبارك وتعالى في محآبه، ولا طريق إلى ذلك إلا بتحقيق القدوة ظاهرًا وباطنًا برسول الله ﷺ.

وأما الأعمال التي هي تفاصيل هذا الأصل فهي بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وبين هاتين الشعبتين سائر الشعب التي مرجعها تصديق الرسول في كل ما أخبر به، وطاعته في جميع ما أمر به إيجابًا واستحبابًا: كالإيمان بأسماء الرب، وصفاته، وأفعاله، وآياته؛ من غير تحريف لها ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل.

(1)**قوله** تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَها﴾**[البقرة: ٢٦]. الآية.

وهذا جواب اعتراض، اعترض به الكفار على القرآن وقالوا: إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة، فلو كان ما جاء به محمد ﷺ، كلام الله؛ لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة.

فأجابهم الله تعالى بأن قال: **﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾**. [البقرة: ٢٦].

فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها، إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه وإبطال الباطل وإدحاضه؛ كان من أحسن الأشياء، والحسن لا يستحيا منه، فهذا جواب الاعتراض.

فكأن معترضًا اعترض على هذا الجواب أو طلب حكمة ذلك، فأخبر تعالى عَمَّا له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة، وهي إضلال من شاء وهداية من شاء.

ثم كأن سائلاً سأل عن حكمة الإضلال لمن يضله بذلك.

فأخبر تعالى عن حكمته وعدله، وأنه إنما يضل به الفاسقين **﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض﴾**. [البقرة: ٢٧]. فكانت أعمالهم هذه القبيحة التي ارتكبوها سببًا لأن أضلهم وأعماهم عن الهدى.

---

(١) ١٣٦ بدائع جـ٤.

(١)**ولا** ريب أن القلب إذا طُبع عليه أظلمت صورة العلم فيه، وانطمست وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذي يهتدي به المهتدون سببًا لضلال هذا، كما قال تعالى: ﴿**يُضِلُّ به كثيراً ويهدي به كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلَّا الفَاسقِين الذين يَنْقُضُون عَهْد الله مِنْ بَعْد مِيثَاقِهِ ويَقْطَعُون مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَل ويُفْسِدُون في الأَرْض أولئك هُم الخَاسِرُون**﴾. [البقرة: ٢٦، ٢٧].

فأخبر تعالى أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس، وهو هداه الذي هدى به رسوله وعباده المؤمنين، ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يهتدي به من اتبع رضوان الله.

قال تعالى: ﴿**وإذا أُنْزِلَت سُورَة فَمِنْهُم مَنْ يَقُول أَيّكُم زَادَتْهُ هَذه إِيْمَانًا فَأَمَّا الذين آمَنُوا فَزَادَتْهُم إيمانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُون، وأَمَّا الذين في قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ ومَاتُوا وهُمْ كَافِرُون**﴾. [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

ولا شيء أعظم فسادًا لمحل العلم من صيرورته؛ بحيث يضل بما يهتدي به، فنسبته إلى الهدى والعلم نسبة الفم الذي قد استحكمت فيه المرارة إلى الماء العذب كما قيل: ومن يك ذا فم مر مريض يجد مُرًّا به الماءَ الزلالا

وإذا فسد القلب فسد إدراكه وإذا فسد الفم فسد إدراكه وكذلك إذا فسدت العين.

(٢)**وأما** الأصل(٣) الثاني وهو اقتضاء الفجور والكِبْر والكذب والضلال، فكثير أيضًا في القرآن، كقوله تعالى: ﴿**يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً، ومَا يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفَاسِقِين، الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْد مِيثَاقِهِ ويَقْطَعُون مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَلَ ويُفْسِدُون في الأَرْض، أولئِكَ هُم الخَاسِرُون**﴾. [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ الله الَّذِيْنَ آمَنُوا بالقَوْل الثَّابتِ في الحَياة الدُّنيا وفي الآخِرَة، ويُضِلُّ الله الظَّالِمِين ويَفْعَلُ الله ما يَشَاء**﴾. [إبراهيم: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿**فَمَا لَكُمْ في المُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ والله أَرْكَسهم بما كَسَبُوا**﴾. [النساء: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ. بَل لَعَنَهُم الله بِكُفْرِهِم فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُون**﴾. [البقرة: ٨٨].

---

(١) ١٠٠ مفتاح جـ١.
(٢) ١٣٠ فوائد.
(٣) تقدم الأصل الأول في الصفحة رقم ١٤٣(ج).

وقال تعالى: ﴿ونُقَلِّبُ أفئِدَتَهُمْ وأبْصَارَهُم كَمَا لم يُؤمِنُوا بِهِ أوَّلَ مَرَّةٍ﴾. [الأنعام: ١١٠].

فأخبر أنه عاقبهم على تخلفهم عن الإيمان، لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه بأن قلّب أفئدتهم وأبصارهم وحال بينهم وبين الإيمان، كما قال تعالى: ﴿يَا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرسُوْلِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ، واعْلَمُوْا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ﴾. [الأنفال: ٢٤]. فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلى ما فيه حياتهم، ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة، الذي يكون سببًا لأن يحول بينهم وبين قلوبهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ، والله لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾. [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رانَ على قُلوبِهِم ما كَانُوا يَكْسِبُون﴾. [المطففين: ١٤].

فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم، وحال بينها وبين الإيمان بآياته، فقالوا: أساطير الأولين.

وقال تعالى: في المنافقين: ﴿نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ﴾، [التوبة: ٦٧]. فجازاهم على نسيانهم له أن نسيهم، فلم يذكرهم بالهدى والرحمة، وأخبر أنه أنساهم أنفسهم، فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما: الهدى، ودين الحق. فأنساهم طلب ذلك ومحبته ومعرفته، والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له.

وقال تعالى في حقهم: ﴿أولَئِكَ الذين طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبِهِم واتَّبَعُوا أَهْوَاءهُم، والذين اهْتَدَوْا زَادَهُم هُدَىً وآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾. [محمد: ١٦، ١٧].

فجمع لهم بين اتباع الهوى والضلال الذي هو ثمرته وموجبه، كما جمع للمهتدين بين التقوى والهدى.

(١)**قوله** تعالى: ﴿كيف تَكْفُرون بالله وكُنْتُمْ أمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُم يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكُم ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُون﴾. [البقرة: ٢٨]. فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفِطَر والعقول، وأنه لا عذر لأحد في الكفر به ألبتة، فذكر تعالى أربعة أمور، ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق:

(١) ١٣٧ بدائع جـ٤.

الأول: كونهم كانوا أمواتًا لا أرواح فيهم، بل نطفًا وعلقًا ومضغة مواتًا لا حياة فيها.
الثاني: أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.
الثالث: أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة.
الرابع: أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه.

فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأُوَل ويكذب بالرابع؟! وهل الرابع إلاَّ طور من أطوار التخليق؟ فالذي أحياكم بعد أن كنتم أمواتًا، ثم أماتكم بعد أن أحياكم ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعدما يميتكم؟! وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله؟! فكيف يقع منكم بعدما شاهدتموه؟.

ففي ضمن هذه الآية الاستدلال على وجود الخالق وصفاته وأفعاله وعلى المعاد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون وعَلَّم آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُم على المَلائِكَةِ فَقَال أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ قَال يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِم قَال أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وأَعْلَمُ ما تُبْدُون وما كُنْتُم تَكْتُمُونَ**﴾. [البقرة: ٣٠ - ٣٣].

فهذه كالمناظرة من الملائكة، والجواب عن سؤالهم كأنهم قالوا: إن استخلفت في الأرض خليفة كان منه الفساد وسفك الدماء، وحكمتك تقتضي أن لا تفعل ذلك، وإن جعلت فيها فتجعل فيها من يسبح بحمدك ويقدس لك، ونحن نفعل ذلك فأجابهم تعالى عن هذا السؤال؛ بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلمه الملائكة، وإن وراء ما زعمتم من الفساد مصالح وحِكَمًا لا تعلمونها أنتم. وقد ذكرنا منها قريبًا من أربعين حكمة[1] في كتاب (التحفة المكيّة)، فاستخرج تعالى من هذا الخليفة وذريته الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين وعمر بهم الجنة، وميّز الخبيث من ذريته من الطيب فعمر بهم النار. وكان في ضمن ذلك من الحكم والمصالح ما لم تكن الملائكة تعلمه.

(١) يظهر أنها هي الموجودة في أول (مفتاح دار السعادة). (ج).

ثم إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خصه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة، وأمرهم بالسجود له تكريمًا له وتعظيمًا له وإظهارًا لفضله. وفي ضمن ذلك من الحكم مالا يعلمه إلا الله.

فمنها: امتحانهم بالسجود لمن زعموا أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء؛ فأسجدهم له وأظهر فضله عليهم؛ لما أثنوا على أنفسهم وذموا الخليفة كما فعل سبحانه ذلك بموسى لما أخبر عن نفسه أنه أعلم أهل الأرض؛ فامتحنه بالخضر وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث. وهذه سنته تعالى في خليقته وهو الحكيم العليم.

ومنها: جبره لهذا الخليفة وابتداؤه له بالإكرام والإنعام؛ لما علم مما يحصل له من الانكسار والمصيبة والمحنة فابتدأه بالجبر والفضل، ثم جاءت المحنة والبلية والذل، وكانت عاقبتها إلى الخير والفضل والإحسان، فكانت المصيبة التي لحقته محفوفة بإنعامين: إنعام قبلها، وإنعام بعدها ولذريته المؤمنين نصيب مما لأبيهم، فإن الله تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداء، وجعل العاقبة لهم فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب، فهي محفوفة بإنعام قبلها وإنعام بعدها، فتبارك الله رب العالمين.

ومنها: استخراجه تعالى ما كان كامنًا في نفس عدوه إبليس؛ من الكبر والمعصية الذي ظهر عند أمره بالسجود، فاستحق اللعنة والطرد والإبعاد على ما كان كامنًا في نفسه عند إظهاره، والله تعالى كان يعلمه منه ولم يكن ليعاقبه ويلعنه على علمه فيه، بل على وقوع معلومه، فكان أَمْرُه بالسجود له مع الملائكة مظهرًا للخبث والكفر الذي كان كامنًا فيه، ولم تكن الملائكة تعلمه فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه، وكان خافيًا عنهم من أمره، فكان في الأمر بالسجود له تكريمًا لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض، وجبرًا له وتأديبًا للملائكة وإظهارًا لما كان مستخفيًا في نفس إبليس، وكان ذلك سببًا لتمييز الخبيث من الطيب، وهذا من بعض حِكَمه تعالى في إسجادهم لآدم.

ثم إنه سبحانه لما علّم آدم ما علّمه، ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه فأنبأهم به آدم، وكان في طي ذلك جوابًا لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض؛ فإنه يفسد فيها ويسفك الدماء؛ فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان في ظنهم.

(١)**الوجه** التاسع والعشرون : أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة قالوا له: **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾** . [البقرة: ٣٠-٣٢]. إلى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس فلعنه وأخرجه من السماء.

بيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه رد على الملائكة لما سألوه: كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه؟ فقال: **﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَالا تَعْلَمُونَ﴾** . [البقرة: ٣٠]. فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها مالا يعلمونه وهو العليم الحكيم.

فظهر من هذا الخليفة: من خيار خلقه، ورسله وأنبيائه، وصالحي عباده، والشهداء، والصديقين، والعلماء، وطبقات أهل العلم والإيمان؛ من هو خير من الملائكة.

وظهر من إبليس؛ من هو شر العالمين، فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا، ولا بهذا ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة.

الثاني: أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله؛ ميزه عليهم بالعلم فعلمه الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.

جاء في التفسير أنهم قالوا: لن يخلق ربُّنا خلقًا هو أكرم عليه منا، فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، فلما امتحنهم بعلم ما علَّمه لهذا الخليفة؛ أقروا بالعجز والجهل ما لم يعلموه فقالوا: **﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾** . [البقرة: ٣٢]. فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال: **﴿يَا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم﴾** . [البقرة: ٣٣]. أقروا له بالفضل.

الثالث: أنه سبحانه لما أن عرَّفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم: **﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما**

---

(١) ٥٢ مفتاح جـ١.

كنتم تكتمـون﴾. [البقـرة:٣٣]. فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم، وأنه أحاط علمًا بظاهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض فتعرف إليهم بصفة العلم، وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم، وكفى بهذا شرفًا للعلم.

الرابع: أنـه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه فأظهر لهم أحسن ما فيه، وهو علمه؛ فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم.

ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام؛ لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم، أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير، فحينئذ قدمه ومكَّنه وسلم إليه خزائن الأرض. وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته، ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ومكنه في الأرض؛ فدل على أن صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة.

(١)**قـول** المـلائكة: ﴿**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**﴾ [البقرة: ٣٠] فقيل: المعنى: ونقـدس أنفسنـا لك فعـدَّى باللام، وهذا ليس بشيء، والصواب أن المعنى: نقدسك وننزهك عما لا يليق بك، هذا قول جمهور أهل التفسير.

وقال ابن جرير: ونقدس لك: ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس ومما أضاف إليك أهل الكفر بك قال: وقال بعضهم: نعظّمك ونمجدك قاله أبوصالح، وقال مجاهد: نعظمك ونكبرك. انتهى.

وقال بعضهم: ننزهك عن السوء فلا ننسبه إليك. واللام فيه على حدها في قوله: ﴿**رَدِفَ لكم**﴾ [النمل:٧٢]. لأن المعنى تنزيه الله لا تنزيه نفوسهم لأجله.

قلت: ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم: نسبح بحمدك؛ فإن التسبيح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء.

قال ميمون بن مهران: سبحان الله: كلمة يعظم بها الرب، ويحاشى بها من السوء.

وقال ابن عباس: هي تنزيه لله من كل سوء، وأصل اللفظة من المباعدة من قولهم: سَبَحْتُ في الأرض إذا تباعدت فيها ومنه ﴿**وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون**﴾.

(١) ١٧٨ شفاء.

[يس: ٤٠]. فمن أثنى على الله ونزهه عن السوء، فقد سبحه. ويقال: سبح الله وسبح له وقدسه وقدس له.

(١)**الوجه** السادس والعشرون: قوله: أي حكمة في إبقاء إبليس إلى آخر الدهر وإماتة الرسل؟ فكم لله في ذلك من حكمة تضيق بها الأوهام!

فمنها: أنه سبحانه لما جعله محكًا ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث، ووليه من عدوه؛ اقتضت حكمته إبقاءه؛ ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته؛ لفات ذلك الغرض.

كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر، ولو أهلكهم ألبتة لتعطلت الحكم الكثيرة في إبقائهم، فكما اقتضت حكمته امتحان أبي البشر؛ اقتضت امتحان أولاده من بعده به، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه، وينحاز إليه من وافقه ووالاه.

ومنها: أنه لما سبق حلمه وحكمته أنه لا نصيب له في الآخرة، وقد سبق له طاعة وعبادة جزاه بها في الدنيا؛ بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر، فإنه سبحانه لا يظلم أحدًا حسنة عملها، فأما المؤمن فيجزيه بحسناته في الدنيا وفي الآخرة، وأما الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل في الدنيا، فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له شيء. كما ثبت هذا المعنى في الصحيح عن النبي ﷺ.

ومنها: أن إبقاءه لم يكن كرامة في حقه، فإنه لو مات كان خيرًا له وأخف لعذابه وأقل لشرِّه، ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية، ومخاصمة من ينبغي التسليم لحكمه والقدح في حكمته والحلف على اقتطاع عباده وصدهم عن عبوديته، كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه فأبقي في الدنيا، وأملي له ليزداد هذا إثمًا على إثم ذلك الذنب، فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره، فيكون رأس أهل الشرِّ في العقوبة، كما كان رأسهم في الشر والكفر.

ولما كان مادة كل شر فعنه ينشأ جوزي في النار مثل فعله، فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ به فيه، ثم يسري منه إلى أتباعه عدلًا ظاهرًا وحكمة بالغة.

ومنها: أنه قال في مخاصمته لربه: ﴿**أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلًا**﴾، [الإسراء: ٦٢]. وعلم سبحانه أن في الذرية من لا يصلح لمساكنته في داره، ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث

(١) ٢٤٠ شفاء.

أبقاه له وقال له بلسان القدر: هؤلاء أصحابك وأولياؤك فاجلس في انتظارهم، وكلما مر بك واحد منهم فشأنك به، فلو صلح لي لما ملكتك منه، فإني أتولى الصالحين وهم الذي يصلحون لي، وأنت ولي المجرمين الذين غنوا عن موالاتي وابتغاء مرضاتي قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الذين آمَنُوا وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون إِنَّما سُلْطَانُهُ على الذين يَتولونَهُ والذين هُمْ بِهِ مُشْرِكُون﴾. [النحل: ٩٩، ١٠٠].

فأما إماتة الأنبياء والمرسلين، فلم يكن ذلك لهوانهم عليه، ولكن ليصلوا إلى محل كرامته ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم وأتباعهم، وليحيا الرسل بعدهم يرى رسولاً بعد رسول، فإماتتهم أصلح لهم وللأمة. أما هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى في أكمل لذة وسرور، ولاسيما وقد خيرهم ربهم بين البقاء في الدنيا واللحاق به. وأما الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم في حياتهم خاصة، بل أطاعوهم بعد مماتهم كما أطاعوهم في حياتهم، وأن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم، والله هو الحي الذي لا يموت، فكم في إماتتهم من حكمة ومصلحة لهم وللأمم!!

هذا وهُم بَشر، ولم يخلق الله البشر في الدنيا على خلقة قابلة للدوام، بل جعلهم خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضًا، فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف، ولضاقت بهم الأرض فالموت كمال لكل مؤمن، ولولا الموت لما طاب العيش في الدنيا ولا هناء لأهلها بها، فالحكمة في الموت كالحكمة في الحياة.

الوجه السابع والعشرون: قوله: أي حكمة ومصلحة في إخراج آدم من الجنة إلى دار الابتلاء والامتحان؟.

فالجواب أن يقال: كم لله سبحانه في ذلك من حكمة! وكم فيه من نعمة ومصلحة تعجز العقول عن معرفتها على التفصيل ولو استفرغت قواها كلها في معرفة ذلك!

وإهباط آدم وإخراجه من الجنة، كان سبيل[1] كماله ليعود إليها على أحسن أحواله، وهو سبحانه إنما خلقه ليستعمره وذريته في الأرض ويجعلهم خلفاء يخلف بعضهم بعضًا، فخلقهم سبحانه ليأمرهم وينهاهم ويبتليهم، وليست الجنة دار

(١) في النسخة: (كان يعسر كماله) والصواب ما أثبتناه لاستقامة المعنى. المراجع.

ابتلاء وتكليف، فأخرج الأبوين إلى الدار التي خلقوا منها وفيها؛ ليتزودوا منها إلى الدار التي خلقوا لها، فإذا وفوا تعب دار التكليف ونصبها، عرفوا قدر تلك الدار وشرفها وفضلها، ولو نشؤوا في تلك الدار لما عرفوا قدر نعمته عليهم بها، فأسكنهم دار الامتحان وعرضهم فيها لأمره ونهيه لينالوا بالطاعة أفضل ثوابه وكرامته، وكان من الممكن أن يحصل لهم النعيم المقيم هناك، لكن الحاصل عقيب الابتلاء والامتحان، ومعاناة الموت وما بعده وأهوال القيامة، والعبور على الصراط نوع آخر من النعيم لا يدرك قدره، وهو أكمل من نعيم من خلق في الجنة من الوِلْدان والحور العين بما لا تشابه بينهما بوجه من الوجوه.

ومن الحكم في ذلك أنه سبحانه أراد أن يتخذ من ذرية آدم رسلاً وأنبياء وشهداء، يحبهم ويحبونه وينزل عليهم كتبه ويعهد إليهم عهده، ويستعبدهم له في السراء والضراء، ويؤثرون محابه ومراضيه على شهواتهم وما يحبونه ويهوونه؛ فاقتضت حكمته أن أنزلهم إلى دار ابتلاهم فيها بما ابتلاهم ليكملوا بذلك الابتلاء مراتب عبوديته ويعبدونه بما تكرهه نفوسهم، وذلك محض العبودية، وإلا فمن لا يعبد الله إلا بما يحبه ويهواه فهو في الحقيقة إنما يعبد نفسه، وهو سبحانه يحب من أوليائه أن يوالوا فيه، ويعادوا فيه، ويبذلوا نفوسهم في مرضاته ومحابه، وهذا كله لا يحصل في دار النعيم المطلق.

ومن الحكمة في إخراجه من الجنة ما تقدم التنبيه عليه من اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها: كالغفور الرحيم التواب العفو المنتقم الخافض الرافع المعز المذل المحيي المميت الوارث. ولا بد من ظهور أثر هذه الأسماء ووجود ما يتعلق به، فاقتضت حكمته أن إنزال الأبوين من الجنة؛ ليظهر مقتضي أسمائه وصفاته فيهما وفي ذريتهما، فلو تَرَبَّت الذرية في الجنة لفاتت آثار هذه الأسماء وتعلقاتها، والكمال الإلهي يأبى ذلك، فإنه الملك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى ويكرم ويهين ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل، فأنزل الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم هذه الأحكام.

وأيضًا فإنهم أنزلوا إلى دار يكون إيمانهم تامًّا، فإن الإيمان قول وعمل وجهاد وصبر واحتمال، وهذا كله إنما يكون في دار الامتحان لا في جنة النعيم.

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم، منهم أبو الوفا بن عقيل وغيره: أن أعمال

الرسل والأنبياء والمؤمنين في الدنيا أفضل من نعيم الجنة.

قالوا: لأن نعيم الجنة حظهم وتمتعهم، فأين يقاس إلى الإيمان وأعماله، والصلوات وقراءة القرآن والجهاد في سبيل الله، وبذل النفوس في مرضاته وإيثاره على هواها وشهواتها؟ فالإيمان متعلق به سبحانه، وهو حقه عليهم ونعيم الجنة متعلق بهم وهو حظهم، فهم إنما خلقوا للعبادة والجنة دار نعيم لا دار تكليف وعبادة.

وأيضًا فإنه سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة وأعلمَ بذلك ملائكته، فهو سبحانه قد أراد بكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقه؛ لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة، فلم يكن بد من إخراجه من الجنة إلى دار قَدَّر سكناهم فيها قبل أن يخلقه، وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم، فمن أسبابه النهي عن تلك الشجرة، وتخليته بينه وبين عدوه حتى وسوس إليه بالأكل وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع في المعصية، وكانت تلك الأسباب موصلة إلى غايات محمودة مطلوبة، يترتب على خروجه من الجنة، ثم يترتب على خروجه أسباب أخر جُعلت غايات لحكم أخر، ومن تلك الغايات عوده إليها على أكمل الوجوه، فذلك التقدير وتلك الأسباب وغاياتها صادرة عن محض الحكمة البالغة، التي يحمده عليها أهل السموات والأرض والدنيا والآخرة، فما قدّر أحكم الحاكمين ذلك باطلاً، ولا دبره عبثًا ولا أخلاه من حكمته البالغة وحمده التام.

وأيضًا فإنه سبحانه قال للملائكة: **﴿إني جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾**. [البقرة: ٣٠].

ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذي خفي على الملائكة من أَمْر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه؛ بأن جعل من نسله من أوليائه وأحبائه ورسله وأنبيائه من يتقرب إليه بأنواع التقرب ويبذل نفسه في محبته ومرضاته، يسبح بحمده أناء الليل وأطراف النهار، ويذكره قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه، ويعبده ويذكره ويشكره في السراء والضراء، والعافية والبلاء، والشدة والرخاء، فلا يثنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة ولا بلاء، ولا فقر ولا مرض، ويعبده مع معارضة الشهوة وغلبات الهوى وتعاضد الطباع لأحكامها ومعاداة بني جنسه وغيرهم له، فلا يصده ذلك عن عبادته وشكره وذكره والتقرب إليه، فإن كانت عبادتكم لي بلا معارض ولا

ممانع فعبادة هؤلاء لي مع هذه المعارضات والموانع والشواغل.

وأيضًا فإنه سبحانه أراد أن يُظهر لهم ما خفي عليهم من شأن ما كانوا يعظمونه ويجلّونه ولا يعرفون ما في نفسه من الكِبْر والحسد والشر، فذلك الخير وهذا الشر كامن في نفوس لا يعلمونها، فلا بد من إخراجه وإبرازه لكي يعلم حكمة أحكم الحاكمين في مقابلة كل منهما بما يليق به.

وأيضًا فإنه سبحانه لما خَلَق خَلْقه أطوارًا وأصنافًا، وسبق في حكمه وحكمته تفضيل آدم وبنيه على كثير ممن خلق تفضيلاً، جعل عبوديتهم أكمل من عبودية غيرهم، وكانت العبودية أفضل أحوالهم وأعلى درجاتهم، أعني العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعًا واختيارًا لا كرهًا واضطرارًا.

ولهذا أرسل الله جبريل إلى سيد هذا النوع الإنساني، يخيره بين أن يكون عبدا رسولاً أو ملكًا نبيًا، فاختار بتوفيق ربه له أن يكون عبدًا رسولاً، وذكره سبحانه بأتم العبودية في أشرف مقاماته وأفضل أحواله: كمقام الدعوة والتحدي والإسراء وإنزال القرآن ﴿وأنَّهُ لَمَّا قَام عَبْدُ الله يَدْعُوهُ﴾، [الجن: ١٩]. ﴿وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنـا على عَبْدِنَا﴾، [البقرة: ٢٣]. ﴿سُبْحَان الذي أسْرَى بِعَبْدِه﴾، [الإسراء: ١]. ﴿تَبارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ على عَبْدِه﴾، [الفرقان: ١]. فأثنى عليه ونوّه به لعبوديته التامة له، ولهذا يقول أهل الموقف حين يطلبون الشفاعة: «**اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»(١).

فلما كانت العبودية أشرف أحوال بني آدم وأحبها إلى الله وكان لها لوازم وأسباب مشروطة لا يحصل إلا بها، كان من أعظم الحكمة أن أخرجوا إلى دار تجري عليهم فيهـا أحكـام العبـودية وأسبابها وشروطها وموجباتها، فكان إخراجهم من الجنة تكميلاً لهم وإتمامًا لنعمته عليهم مع ما في ذلك من محبوبات الرب تعالى، فإنه يحب: إجابة الدعوات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، ومغفرة الزلات وتكفير السيئات ودفع البليات، وإعزاز من يستحق العز وإذلال من يستحق الذل، ونصر المظلوم وجبر الكسير، ورفع بعض خلقه على بعض وجعلهم درجات؛ ليعرف قدر فضله وتخصيصه، فاقتضى ملكه التام وحمده الكامل أن يخرجهم إلى دار يحصل فيها محبوباته سبحانه، وإن كان لكثير منها طرق وأسباب يكرهها، فالوقوف على

---

(١) سبق ص ١٨٢ أن قائل هذا هو عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام، ولا معارضة هنا؛ لأن عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، من أهل الموقف. المراجع.

الشيء لابد منه[1] وإيجاد لوازم الحكمة من الحكمة، كما أن إيجاد لوازم العدل من العدل، كما ستقف عليه في فصل إيلام الأطفال، إن شاء الله.

(٢)ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم

وإبائه من السجود له وبيان فسادها، وقد كرر الله تعالى ذكرها في كتابه وأخبر فيها: أن امتناع إبليس من السجود كان كبراً منه وكفراً ومجرد إباء، وإنما ذكر تلك الشبهة تعنتًا، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر، وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم مايناقض الحكمة بوجه.

وأما شبهته الداحضة وهي أن أصله وعنصره النار، وأصل آدم وعنصره التراب، ورتب على ذلك أنه خير من آدم، ثم رتب على هاتين المقدمتين أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو فوقه وخير منه، فهي باطلة من وجوه عديدة:

أحدها: أن دعواه كونه خيرًا من آدم دعوى كاذبة باطلة، واستدلاله عليها بكونه مخلوقًا من نار وآدم من طين استدلال باطل، وليست النار خيرًا من الطين والتراب؛ بل التراب خير من النار وأفضل عنصرًا من وجوه:

أحدها: أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب.

الثاني: أن طبعها الخفة والحدة والطيش، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

الثالث: أن التراب يتكون فيه ومنه: أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزينتهم وآلات معايشهم ومساكنهم، والنار لا يتكون فيها شي من ذلك.

الرابع: أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه ألبتة، ولا عن ما يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقًا، وقد يستغني عنها الإنسان الأيام والشهور، فلا تدعوه إليها الضرورة فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار في بعض الأحيان؟.

الخامس: أن التراب إذا وُضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه، فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفًا، ولو استودعته النار لخانتك وأكلته ولم تُبق ولم تذر.

السادس: أن النار لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملاً لها، والتراب لا يفتقر إلى حامل، فالتراب أكمل منها.

---

(١) بالتسخة: (لا بدونه) ولعل الصواب ما أثبتناه (لابد منه) المراجع.

(٢) ١٣٩ بدائع جـ٤.

السابع: أن النار مفتقرة إلى التراب وليس بالتراب فقر إليها، فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكونًا من التراب أو فيه، فهي الفقيرة إلى التراب وهو الغني عنها.

الثامن: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار، وهو ضعيف يتلاعب به الهوى فيميل معه كيفما مال. ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره، ولما كانت المادة الآدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب قهر هواه وأسره ورجع إلى ربه، فاجتباه واصطفاه، فكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضًا سريع الزوال، فزال وكان الثبات والرزانة أصليًّا له فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس من ذلك فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصره: آدم إلى أصله الطيب الشريف، واللعين إلى أصله الرديء.

التاسع: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع؛ فالشر كامن فيها لا يصدها عنه إلا قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته فأين أحدهما من الآخر؟.

العاشر: أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه وأخبر عن منافعها وخلقها، وأنه جعلها مهادًا وفراشًا وبساطًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات، ودعا عباده إلى التفكر فيها والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلا موضعًا أو موضعين ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمُقْوين: تذكرة بنار الآخرة، ومتاع لبعض أفراد الإنسان وهم المقوون النازلون بالقواء وهي: الأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن؟.

الحادي عشر: أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصًا، وأخبر أنه بارك فيها عمومًا فقال: **﴿أئنكم لتكْفُرون بالذي خَلَقَ الأَرْضَ في يَوْمَيْنْ وتَجْعَلُون لَهُ أَنْدَادًا ذَلِك رَبُّ العَالَمِين وَجَعَلَ فِيها رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وبَارَكَ فِيْهَا وقَدَّرَ فِيها أَقْواتها في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء للسَّائِلِينَ﴾**. [فصلت: ٩، ١٠]. فهذه بركة عامة.

وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله: **﴿ونَجَّيْنَاهُ ولُوطًا إلى الأَرْض التي بَارَكْنَا**

فِيها للعَالِمين﴾. [الأنبياء: ٧١].

وقوله: ﴿وجَعَلْنَا بَيْنَهُم وبَيْنَ القُرَى التي بَارَكْنَا فِيها قُرىً ظَاهِرَةً﴾. [سبأ: ١٨]. وقوله: **﴿ولسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إلى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فِيها﴾**. [سبأ: ٨١].

وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلاً، بل المشهور أنها مُذهِبة للبركة ماحقة لها، فأين المبارَك في نفسه المبارِك فيما وضع فيه إلى مزيل البركة وماحقها؟.

الثاني عشر: أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه ويسبّح له فيها بالغُدوّ والآصال عمومًا، وبيته الحرام الذي جعله قيامًا للناس مباركًا فيه وهدى للعالمين خصوصًا، ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفًا وفضلًا على النار.

الثالث عشر: أن الله تعالى أودع في الأرض: من المنافع والمعادن والأنهار والعيون، والثمرات والحبوب والأقوات وأصناف الحيوانات وأمتعتها، والجبال والجنان والرياض والمراكب البهية والصور البهيجة ما لم يُودع في النار شيئًا منه، فأي روضة وجدت في النار أو جنة، أو معدن أو صورة أو عين فوارة أو نهر مطرد، أو ثمرة لذيذة أو زوجة حسنة أو لباس وسترة؟!.

الرابع عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض، فالنار إنما محلها الخادم لهذه الأشياء المكمل لها، فهي تابعة لها خادمة فقط، إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها، وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه ومن يقضي حوائجه.

الخامس عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته، رأى صورة الطين ترابًا ممتزجًا بماء فاحتقره، ولم يعلم أن الطين مركّب من أصلين: الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم، هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة! فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل.

وإذا استقريت الوجوه التي تدلك على أن التراب أفضل من النار وخير منها وجدتها كثيرة جدًّا، وإنما أشرنا إليها إشارة. ثم لو سلّم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيرًا من المخلوق من الطين، فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة،

والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص المادة، فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة، فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقذار النفوس له إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خُلُقًا وخَلْقًا؟.

وقد خلق الله تعالى الملائكة من نور، وآدم من تراب، ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة، وإن كان النور أفضل من التراب.

فهذا وأمثاله مما يدلك على ضعف مناظرة اللعين وفساد نظره وإدراكه، وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم؛ فعارض حكمة الله وأمره برأيه الباطل ونظره الفاسد، فقياسه باطل نصًّا وعقلاً.

وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه، فنعوذ بالله من الخذلان ونسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء، الذي ما رمي العبد بشر منه، ولأن يلقى الله بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراك به، أسلم له من أن يلقى الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه، وهل طرد الله إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه؛ إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس ثم قدمه عليه؟ والله يعلم أن شُبَه عدو الله مع كونها داحضة باطلة، أقوى من كثير من شُبَه المعارضين لنصوص الأنبياء بآرائهم وعقولهم.

فالعالم يتدبر سر تكرير الله لهذه القصة مرة بعد مرة، وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس، وهو لا يشعر فقد أقسم عدو الله أنه ليغوين بني آدم أجمعين إلا المخلَصين منهم، وصدق تعالى ظنه عليهم، وأخبر أن المخلصين لا سبيل له عليهم، والمخلصون هم الذين أخلصوا العبادة والمحبة والإجلال والطاعة لله، والمتابعة والانقياد لنصوص الأنبياء، فيجرد عبادة الله من عبادة ما سواه، ويجرد متابعة رسوله وترك ما خالفه لقوله دون متابعة غيره، فليزن العاقل نفسه بهذا الميزان قبل أن يوزن يوم القدوم على الله. والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١)**ولما** أهبطه سبحانه من الجنة وعرّضه وذريته لأنواع المحن والبلاء، أعطاهم أفضل مما منعهم وهو عهده الذي عهد إليه وإلى بنيه. وأخبر أنه من تمسك به صار إلى رضوانه ودار كرامته.

قال تعالى عقب إخراجه منها: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى**

---

(١) ٣٢ مفتاح جـ١.

فَمَن تَبِع هُدَاي فلا خَوْفٌ عَلَيهم ولا هُمْ يَحْزَنُون﴾. [البقرة:٣٨].

وفي الآية الأخرى قال: ﴿اهْبِطَا مِنْها جَميعًا بعضكم لبعض عدوٌ فَإمَّا يأتِينَّكُم مِني هُدى فَمَن اتَّبع هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ومن أعْرَضَ عَنْ ذِكْري فَإنَّ لهُ مَعِيشَــةً ضَنْكًا ونَحْشُرُه يَوْمَ القِيَامَةِ أعْمَى قَال رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أعْمَى وقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قَال كَذَلِكَ أتَتْك آيَاتُنا فَنسِيْتَها وكَذَلِك اليَوْم تُنْسَى﴾. [طه:١٢٣:١٢٦]. فلما كسره سبحانه بإهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد الذي عهده إليهم. فقال تعالى: ﴿فَإمَّا يَأتِيَنَّكم مِني هُدَىً﴾. [طه:١٢٣]. وهذه هي إن الشرطية المؤكدة بما الدالة على استغراق الزمان.

والمعنى: أي وقت وأي حين أتاكم مني هدى، وجعل جواب هذا الشرط جملة شرطية وهي قوله: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾. [طه:١٢٣].

(١)**ومتابعة** هدي الله التي رتب عليها هذه الأمور هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدح في تصديقه، وأمتثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله.

وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر. ويتبعهما أمران آخران: وهما نفي شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق، وأن لا يخمش بها وجه تصديقه، ودفع شهوات الغي الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال. فهنا أربعة أمور:

أحدها: تصديق الخبر.

الثاني: بذل الاجتهاد في رد الشبهات التي توحيها شياطين الجن والإنس في معارضته.

الثالث: طاعة الأمر.

والرابع: مجاهـدة النفس في دفـع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة، وهذان الأمران أعني: الشبهات والشهوات، أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده، كما أن الأصلين الأولين وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر، أصل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده.

وذلك أن العبـد له قوتان: قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة والكـلام، وقوة الإرادة والحب وما يتبعه من النية والعزم والعمل، فالشبهة تؤثر

(١) ٤٠ مفتاح جـ١.

فسادًا في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها، والشهوة تؤثر فسادًا في القوة الإرادية العملية ما لم يداوها بإخراجها.

قال الله تعالى في حق نبيه، يذكر ما منَّ به عليه من نزاهته وطهارته مما يلحق غيره من ذلك: ﴿**والنَّجْم إذا هَوى ما ضَلَّ صَاحِبُكُم وما غَوَى**﴾. [النجم: ١، ٢]. فما ضل دليل على كمال علمه ومعرفته وأنه على الحق المبين، وما غوى دليل على كمال رشده وأنه أبر العالمين فهو الكامل في علمه وفي عمله.

(١)**وهذه** المتابعة هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله تعالى: ﴿**إنَّ الذين يَتْلون كِتَاب الله**﴾. [فاطر: ٢٩]. وفي قوله: ﴿**الذين آتَيْنَاهُم الكِتَاب يَتْلُونه حَقَّ تِلاوَتِه أولئِك يُؤمِنُون بِهِ**﴾. [البقرة: ١٢١].

والمعنى: يتبعون كتاب الله حق اتباعه.

وقال تعالى: ﴿**اتْلُ ما أُوحِيَ إليْكَ مِن الكِتَاب وأَقِم الصَّلاَة**﴾. [العنكبوت: ٤٥]. وقال: ﴿**إنَّما أُمرتُ أن أعْبُد رَبَّ هَذِه البَلْدَةِ الذي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شيءٍ وأُمرتُ أن أكُونَ من المُسْلِمِين وأن أتْلواْ القرآن**﴾. [النمل: ٩١، ٩٢].

فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى، فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع يقال: اتل أثر فلان وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنى: تبعت خلفه.

ومنه قوله تعالى: ﴿**والشَّمْسِ وَضُحَاهَا والقَمَرِ إذا تَلاَها**﴾. [الشمس: ١، ٢]. أي تبعها في الطلوع بعد غيبتها.

ويقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضًا أي: يتبع، وسمي تالي الكلام تاليًا؛ لأنه يتبع بعض الحروف بعضًا لا يخرجها جملة واحدة؛ بل يتبع بعضها بعضًا مرتبة، كلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى.

وهذه التلاوة وسيلة وطريقة. والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنى واتّباعه تصديقًا بخبره، وائتمارًا بأمره، وانتهاءً بنهيه وائتمامًا به، حيث ما قادك انقدت معه، فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقًّا.

(١) ٤٢ مفتاح جـ١.

[1]**وقوله** تعالى: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِي هُدىً**﴾. هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله: ﴿**اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعض عدو**﴾. ثم قال: ﴿**فإما يأتينكم مني هدى**﴾. وكلا الخطابين لأبوي الثقلين، وهو دليل على أن الجن مأمورون منهيون داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة، وأن نبينا بُعث إليهم كما بعث إلى الإنس، كما لا خلاف بينهم أن مسيئهم مستحق العقاب.

إنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة، فالجمهور على أن مُحسنهم في الجنـة، كما أن مسيئهم في النار، وقيل: بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالحي ذريته خاصة. وحُكي هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى.

واحتج الأولون بوجوه:

أحدها: هذه الآية فإنه سبحانه أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى، وهذا مستلزم لكمال النعيم.

ولا يقال: إن الآية إنما تدل على نفي العذاب فقط، ولا خلاف أن مؤمنيهم لا يعاقبون. . لأنا نقول: لو لم تدل الآية إلا على أمر عدمي فقط لم يكن مدحًا لمؤمني الإنس، ولما كان فيها إلا مجرد أمر عدمي وهو عدم الخوف والحزن، ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به: أن من اتّبع هدى الله الذي أنزله حصل له غاية النعيم واندفع عنه غاية الشقاء، وعبّر عن هذا المعنى المطلوب بنفي الأمور المذكورة؛ لاقتضاء الحال لذلك فإنه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره سبحانه أنه معطيه وذريته عهدًا؛ من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء. ومعلوم أنه لا ينتفي ذلك كله إلا بدخول دار النعيم، ولكن المقام بذكر التصريح بنفي غاية المكروهات أولى.

الثاني: قوله تعالى: ﴿**وإذ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِن الجِنّ يَسْتَمِعُون القرآن فَلَمَّا حَضَرُوه قَالوا أَنْصِتُوا فَلَمّا قُضِيَ وَلَّواْ إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرين، قَالُوا يا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنا كِتَابًا أُنْزِل مِن بَعْد موسى مُصَدقًا لِمَا بَين يَدَيْه يَهْدِي إِلى الحَق وإلى طَرِيق مُسْتَقِيم، يَا قَوْمَنَا أجيبوا دَاعِي الله وآمِنُوا بِه يَغْفِرْ لَكُمْ من ذُنُوبِكم وَيجِرْكُم مِن عَذَاب أَليم**﴾. [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١].

(١) ٣٧ مفتاح جـ١.

فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم إخبارًا[١] بقوله: إن من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب، ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلاً بقوله: ﴿وَيُجِرْكُم مِن عَذَابٍ أليم﴾. [الأحقاف: ٣١]. بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار، فكل من غفر الله له فلا بد من دخوله الجنة.

الثالث: قوله تعالى في الحور العين: ﴿لَمْ يَطْمِثهن إنْسٌ قَبْلَهُم ولا جَانٌّ﴾. [الرحمن: ٧٤]. فهذا يدل على أن مؤمني الجن والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور، فدل على أن مؤمنيهم يتأتّى منهم طمث الحور العين بعد الدخول كما يتأتى من الإنس، ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الإخبار عنهم بذلك.

الرابع: قوله تعالى: ﴿فَإنْ لَّم تَفْعَلوا ولَن تَفعَلوا فَاتَّقُوا النَّارَ التِي وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّت للكافِرين وبَشِّرِ الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمرةٍ رِزْقًا قَالوا هَذا الذي رُزِقْنا من قَبْل وأُتُوا بِه مُتَشَابِهًا وَلَهُم فِيها أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فيها خَالِدُون﴾. [البقرة: ٢٤، ٢٥]. والجن منهم مؤمن ومنهم كافر، كما قال صالحوهم: ﴿وأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُون وَمِنَّا القَاسِطُون﴾. فكما دخل كافرهم في الآية الثانية، وجب أن يدخل مؤمنهم في الأولى.

الخامس: قوله عن صالحيهم: ﴿فَمَن أَسْلَم فأولئك تَحَرَّوا رَشَدًا﴾. [الجن: ١٤]. والرشد هو الهدى والفلاح، وهو الذي يهدي إليه القرآن، ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد؛ بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم.

السادس: قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إلى مَغْفرةٍ من رَبِّكُم وجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماء والأَرْضِ أُعِدَّت للذين آمَنُوا بالله وَرُسُلِه ذلك فَضْل الله يُؤْتِيْه مَنْ يَشاء والله ذُو الفَضْلِ العظيم﴾. [الحديد: ٢١]. ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله، فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة.

السابع: قوله تعالى: ﴿والله يَدْعُو إلى دَارِ السلام وَيَهْدِي مَنْ يشاء إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾. [يونس: ٢٥].

عم سبحانه بالدعوة، وخص بالهداية المفضية إليها، فمن هداه إليها، فهو ممن دعاه إليها، فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين إليها.

---

(١) لعلها: (إخبارًا مقررًا له أن). ج.

الثامن: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَمِيعًا يا مَعْشَر الجِنِّ قد اسْتَكْثَرْتُم من الإنس وَقَال أَوْلِيَاؤهم من الإِنس رَبَّنا اسْتَمتع بعضُنا بِبَعْضٍ وبَلغنا أجلَنا الذي أَجَّلْت لنَـا قَال النَّارُ مَثْوَاكم خَالِدِين فيها إلا ما شاء الله إنَّ رَبَّك حكيمٌ عليم وكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْض الظالمين بعضًا بِمَا كَانوا يَكْسِبُون يَا مَعْشَر الجنِّ والإِنْس أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُم يَقُصُّون عَلَيكم آيَاتِي ويُنْذِرُونَكم لِقَاء يَوْمِكُم هَذا قَالوا شَهِدْنا على أَنْفُسِنَا وغَرَّتْهُم الحَيَاة الدُّنْيَا وشَهِدُوا على أَنْفُسِهم أنَّهُم كَانُوا كَافِرين ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّك مُهْلِك القُرَى بِظُلمٍ وأَهْلُهَا غَافِلُون وَلِكُلٍّ دَرجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾. [الأنعام: ١٢٨ ـ ١٣٢].

وهـذا عام في الجن والإنس، فأخـبرهم تعـالى أن لكلهم درجات من عمله فاقتضى أن يكون لمحسنهم درجات من عمله كما لمحسن الإنس.

التـاسـع: قولـه تعـالى: ﴿إنَّ الذين قَالُوا رَبُّنا الله ثُم اسْتَقَامُوا تَتنزَّل عَلَيْهِم المَلائكة أَنْ لا تَخَافُوا ولا تَحْزنُوا وأَبْشِرُوا بالجَنَةِ التِي كُنْتُم تُوعَدُون﴾. [فصلت: ٣٠].
وقـوله تعالى: ﴿إنَّ الذين قَالوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهم ولا هُمْ يَحْزَنُون أولئك أَصْحَابُ الجَنَّة خَالِدِين فيها جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾[الأحقاف: ١٣، ١٤].

ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة:

أحدها: عموم الاسم الموصول فيها.

الثاني: ترتيبه الجزاء المذكور على المسألة ليدل على أنه مستحق بها، وهو قول: ﴿ربنا الله﴾ مع الاستقامة: والحكم يعم بعموم علته فإذا كان دخول الجنة مرتبًا على الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره، فمن أتى ذلك استحق الجزاء.

الثالث: أنه قال: ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُون أولئك أصحابُ الجَنَّة خَالِدين فيها جَزاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾. [الأحقاف: ١٣، ١٤]. فدل على أن كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة، وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى: ﴿فَمَن اتَّبع هُدَايَ فلا خَوفٌ عَلَيْهِم ولا هم يَحْزنون﴾. وأنه متناول للفريقين، ودلّت هذه الآية على أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

العاشر: أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله، فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته أولى، فإن رحمته سبقت غضبه والفضل أغلب من العدل، ولهذا لا يدخل النار إلا من عمل أعمال أهل النار، وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيرًا قط؛ بل

ينشيء لها أقوامًا يسكنهم إياها من غير عمل عملوه ويرفع فيها درجات العبد من غير سعي منه، بل بما يصل إليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها إليه، بخلاف أهل النار فإنه لا يعذب فيها بغير عمل أصلاً.

وقد ثبت بنص القرآن وإجماع الأمة أن مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، فمحسنهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون.

لكن قيل: إنهم يكونون في ربض الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم، كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحجة عنده، فإن ثبتت حجة يجب اتباعها، وإلا فهو مما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل، والله أعلم.

(١)**قال** الله تعالى: ﴿**واسْتَعِينوا بالصَبْرِ والصلاةِ، وإنَّها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين**﴾. [البقرة: ٤٥]. وقال: ﴿**يا أَيُّها الذين آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاةِ، إنَّ الله مع الصابرين**﴾. [البقرة: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿**وَأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عليها، لا نَسْأَلُك رزقًا، نحنُ نرزقُك، والعاقِبَةُ للتَّقوى**﴾. [طه: ١٣٢].

وفي السنن: «**كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة**» وقد تقدم ذكر الاستشفاء بالصلاة من عامة الأوجاع قبل استحكامها، والصلاة مجلبة للرزق حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدَّة للقوى، شارحة للصدر مغذية للروح، منورة للقلب. حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مبعدة من الشيطان، مقربة من الرحمن.

وبالجملة: فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما، ودفع المواد الرديئة عنهما. وما ابتلي رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بلية، إلا كان حظ المصلي منهما أقل. وعاقبته أسلم، وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهرًا وباطنًا، فما اسْتُدْفِعَتْ شرورُ الدنيا والآخرة، ولا اسْتُجْلِبَتْ مصالحُهما بمثل الصلاة.

وسر ذلك: أن الصلاة صلة بالله عز وجل، وعلى قدر صلة العبد بربه عز

(١) ٣٦٢ زاد المعاد جـ٣.

وجل، تفتح عليه من الخيرات أبوابها. وتقطع عنه من الشرور أسبابها. وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه عز وجل، والعافية والصحة والغنيمة والغنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات كلها مُحضرة لديه، ومسارعة إليه.

(١)**وهو**(٢) أكبر العون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿**واسْتَعِينوا بِالصَبر والصَّلاة. وإنها لكَبيرة إلا عَلى الخَاشعين**﴾. [البقرة: ٤٥].

(٣)**ثبت** في الصحيحين عنه ﷺ، أنه قال: «**فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» والثريد ـ وإن كان مركبًا ـ فإنه مركب من خبز ولحم، فالخبز أفضل الأقوات، واللحم سيد الإدام، فإذا اجتمعا لم يكن بعدهما غاية.

وتنازع الناس: أيهما أفضل؟ والصواب: أن الحاجة إلى الخبز أكثر وأعم، واللحم أجل وأفضل، وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عداه، وهو طعام أهل الجنة، وقد قال تعالى، لمن طلب البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل: ﴿**أتَسْتبدِلون الذي هُوَ أدْنى بالذي هُوَ خَيْرٌ؟**﴾. [البقرة: ٦١].

وكثير من السلف على أن الفوم: الحنطة. وعلى هذا: فالآية نص على أن اللحم خير من الحنطة. اهـ.

(٤)ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة وكيده لهم

أنهم قيل لهم(٥)، وهم مع نبيِّهم، والوحيُ ينزلُ عليه من الله تعالى: ﴿**ادخلوا هذه القرية**﴾. [البقرة: ٥٨].

قال قتادة، وابن زيد، والسُّدي، وابن جرير وغيرهم: هي قريةُ بيت المقدس ﴿**فَكلوا مِنْها حَيْثُ شِئتم رَغدًا**﴾. أي: هنيئًا واسعًا ﴿**وادْخُلوا الباب سُجَّدًا**﴾ قال السُّدِّي: هو بابٌ من أبواب بيت المقدس. وكذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى

---

(١) ٣١٧ مدارج جـ٢. وقد بحث الشيخ في زاد المعاد بحثًا واسعًا ذكر فوائده الدينية والدنيوية ص٣٦٧ جـ٣.

(٢) وهو، أي: الصبر.

(٣) ٣٧٧ زاد المعاد جـ٣.

(٤) ٣٠٨ إغاثة جـ٢.

(٥) لهم، أي: اليهود.

عنهما قال: والسجود بمعنى الركوع. وأصلُ السجود: الانحناءُ لمن تعظمه. فكل منحنٍ لشيء تعظيمًا له فهو ساجدٌ. قاله ابن جرير وغيره.

قلت: وعلى هذا فانحناء المتلاقيين عند السلام، أحدهما لصاحبه من السجود المحرَّم. وفيه نهيٌ صريحٌ عن النبي ﷺ.

ثم قيل لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: حُطَّ عنَّا خطايانا. هذا قول الحسن، وقتادة، وعطاء.

وقال عكرمة وغيره: أي قولوا: «لا إله إلا الله» وكأن أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تحطُّ بها الخطايا. وهي كلمة التوحيد.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «أمروا بالاستغفار».

وعلى القولين: فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار، وضمن لهم بذلك مغفرة خطاياهم. فتلاعب الشيطان بهم، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، وفعلاً غير الذي أمروا به.

فروى البخاري في صحيحه، ومسلم أيضًا: من حديث هَمَّام بن منبِّه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سُجَّدًا وقولوا حطَّة، نغفر لكم خطاياكم، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة. فبدلوا القول والفعل معًا. فأنزل الله عليهم رجزًا من السماء»**(١)

قال أبوالعالية: هو الغضبُ. وقال ابن زيدٍ: هو الطاعون(٢).

وعلى هذا، فالطاعونُ بالرصدِ لمن بَدَّل دين الله قولاً وعملاً.

---

(١) رواه البخاري في قصة موسى من أحاديث الأنبياء. وفي تفسير سورة البقرة. وتفسير سورة الأعراف.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية من سورة البقرة. وروى ابن أبي حاتم عن سعد بن مالك، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: **«الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم»** وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري به، وأصل الحديث في الصحيحين من حديث حبيب بن أبي ثابت **«إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها»** ـ الحديث.

فصـــل ومن تلاعب الشيطان بهم

أنهم كانوا في البرِّية قد ظلل عليهم الغمامُ، وأنزل عليهم المنِ والسلوى، فملُّوا ذلك، وذكروا عيش الثُّوم والبصل، والعدس، والبقل، والقِثّاء. فسألوه موسى عليه السلام.

وهذا من سوءِ اختيارهم لأنفسهم، وقلّة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها. ولهذا قال لهم موسى عليه السلام ﴿**أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خَيْرٌ؟ اهبطوا مِصْرًا**﴾. أي: مصرًا من الأمصار(١) ﴿**فَإن لكم مَاسألتُمْ**﴾. [البقرة: ٦١].

فكانوا في أفسح الأمكنة وأوسعها، وأطيبها هواء، وأبعدها عن الأذى، ومجاورة الأنتـــان والأقـــذار، سقفهم الـــذي يظلهم من الشمس: الغـــمام، وطعـــامهم: السلوى: وشرابهم: المنّ.

قال ابن زيدٍ: كان طعامُ بني إسرائيل في التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا. كان

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى ﴿**اهبطوا مِصْرًا**﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف واللام في المصاحف الأئمة العثمانية. وهو قراءة الجمهور بالصرف. قال ابن جرير: ولا أستجيز القراءة بغير ذلك، لإجماع المصاحف على ذلك. وقال ابن عباس «اهبطوا مصر من الأمصار» رواه ابن أبي حاتم. قال: وروي عن السدي وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك. وقال ابن جرير: وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود: ﴿**اهبطوا مِصْرَ**﴾ من غير إجراء، يعني من غير صرف. **ثم روي عن أبي العالية والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون. وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية والربيع وعن الأعمش أيضًا.** قال ابن جرير: **ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون، على قراءة الإجراء أيضًا. ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف، كما في قوله تعالى: ﴿قواريرًا قواريرًا﴾** [الإنسان: ١٥، ١٦]. ثم توقف في المراد: ما هو؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟ وهذا الذي قاله فيه نظر. والحق أن المراد مصر من الأمصار ا. هـ. وقال الزمخشري: وإنما صرفه مع اجتماع السببين فيه ـ وهما التعريف والتأنيث ـ لسكون وسطه. كقوله: (ونوحًا ولوطًا) وفيهما العجمة والتعريف. وإن أريد به البلد فما فيه إلا سبب واحد، وأنه يريد مصرًا من الأمصار اهـ. ورجح ابن جرير في تفسيره أن يكون مصر المعروفة. لقوله تعالى: ﴿**كذلك وأورثناها بني إسرائيل**﴾ [الشعراء٥٩]. يعني مصر. وهو الأظهر؛ لأن تلك الأطعمة إنما كان يعرفها بنو إسرائيل في مصر التي كانوا فيها في مصر ليتمتعوا بألوان الأطعمة. وأن ذلك أعظم نقيصة وعيب في الإنسان أن يهتم ببطنه وإن باع لها عزته وشرفه وحريته. والأمة التي تصاب بذلك أولى بها الموت، بل الموت خير من حياة هذه الأمة الحقيرة الذليلة التي لا تهتم إلا لبهيميتها. فالأولى أن يكون المراد مصر المعروفة التي كانوا بها يسومهم فرعون فيها العذاب، قبل أن ينقذهم الله بموسى منها.

شرابُهم عسلاً ينزل من السماء، يقال له: المن. وطعامهم طيرٌ، يقال له: السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل. لم يكن لهم خبز ولا غيره.

ومعلوم فضلُ هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة.

وكانوا مع ذلك يتفجر لهم من الحجر اثنا عشر عيناً من الماء. فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير. فذموا على ذلك. فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغيَّ بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والبدعة بالسنة[(١)]، وخدمة المخلوق بخدمة الخالق، والعيش النَكِد الفاني في هذه الدار بحظه من العيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى ؟!

فصل في الصابئة[(٢)]

وقد اختلف الناس فيهم اختلافًا كثيراً، وأشكل أمرهم على الأئمة لعدم الإحاطة بمذهبهم ودينهم، فقال الشافعي رحمه الله تعالى: هم صنف من النصارى.

وقال في موضع: يُنظَر في أمرهم، فإن كانوا يوافقون النصارى في أصل الدين، ولكنهم يخالفونهم في الفروع، فتؤخذ منهم الجزية؛ وإن كانوا يخالفونهم في أصل الدين لم يُقَرّوا على دينهم ببذل الجزية.

واختلف أصحابه؛ فقال أبوسعيد الأصطخري: ليسوا من النصارى، ولا يجوز إقرارهم على دينهم. قال: لأنهم يقولون: إن الفلك حي ناطق، وإن الكواكب السبعة آلهة، فهم في حكم عَبَدة الأوثان.

واستفتى القاهر بالله العباسي الفقهاء فيهم، فأفتاه أبوسعيد أنهم لا يُقرُّون، فأمر بقتلهم، فبذلوا مالاً عظيماً فتركهم.

وأما أقوال السلف فيهم، فذكر سفيان، عن ليث، عن مجاهد قال: هم قوم بين اليهود والمجوس ليس لهم دين.

وفي تفسير شيبان، عن قتادة قال: الصابئة قوم يعبدون الملائكة.

قال محمد بن جرير: واختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم من أهل

---

(١) بالنسخة: (والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار). والصواب: ما أثبتناه؛ لأن الصحيح في اللغة هو دخول الباء على المتروك كما قال من قبل: الضلال بالهدى، والغيّ بالرشاد، والشرك بالتوحيد. والمفهوم: بل المراد: أنهم تركوا السنة، وخدمة الخالق، والعيش الطيب. كما تركوا الهدى، والرشاد، والتوحيد. المراجع.

(٢) ١٩٢ أحكام جـ١.

الملل، فقال بعضهم: يلزم كل من خرج من دين إلى دين غير دينه. وقالوا: الذي عنى الله بهذا الاسم قوم لا دين لهم، ثم ذكر عن عبدالرزاق، عن سفيان، عن ليث، عن مجاهد قال: الصابئون قوم ليسوا يهود ولا نصارى ولا دين لهم.

وحكي عن حجاج، عن مجاهد قال: الصابئون بين المجوس واليهود، لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: الصابئون زعموا أنهم ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارى، قال: قد سمعنا ذلك.

وقال ابن وهب: قال ابن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي، إلا قول: لا إله إلا الله. قال: ولم يؤمنوا برسول الله عز وجل، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ، وأصحابه: هؤلاء الصابئون! يشبهونهم بهم.

وقال سعيد، عن قتادة: هم يعبدون الملائكة ويصلون [إلى] القبلة ويقرءُون الزبور.

وقال سفيان، عن السدي: هم طائفة من أهل الكتاب.

وقال ابن جرير: الصابىء المستحدث سوى دينه دينًا، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه؛ وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب صابئًا، يقال منه: صبأ فلان يصبأ صبأ، ويقال: صبأت النجوم إذا طلعت، وصبأ علينا فلان إذا طلع.

قلت: الصابئة أمة كبيرة، فيهم السعيد والشقي، وهي إحدى الأمم المنقسمة إلى مؤمن وكافر، فإن الأمم قبل مبعث النبي ﷺ، نوعان:

نوع كفار أشقياء كلهم، ليس فيهم سعيد، كعبدة الأوثان والمجوس.

ونوع منقسمون إلى سعيد وشقي، وهم اليهود والنصارى والصابئة.

وقد ذكر الله سبحانه النوعين في كتابه فقال: **﴿إنَّ الذين آمَنُوا والذين هَادُوا والنَّصارى والصَّابئِين مَن آمن بالله واليَوْم الآخِرِ وَعَمِل صَالِحًا فَلَهُم أجْرُهم عِنْدَ رَبهِم ولا خَوْفٌ عَلَيْهم ولا هُمْ يَحْزَنُون﴾**. [البقرة: ٦٢]. وكذلك قال في المائدة.

وقال في سورة الحج: **﴿إنَّ الذين آمَنُوا والذين هَادُوا والصَّابئِين والنَّصارى والمَجُوسَ والذين أشْرَكُوا إن الله يَفْصِلُ بَيْنَهُم يومَ القيامة، إنَّ اللهَ على كل شيءٍ شهيدٌ﴾**. [الحج: ١٧].

فلم يقل هاهنا: من آمن منهم[١] بالله واليوم الآخر، لأنه ذكر معهم المجوس والذين أشركوا، فذكر ست أمم: منهم اثنتان شقيتان، وأربع منهم منقسمة إلى شقي وسعيد، وحيث وعد أهل الإيمان والعمل الصالح منهم بالأجر؛ ذكرهم أربع أمم ليس إلا. ففي آية الفصل بين الأمم أدخل معهم الأمتين، وفي آية الوعد بالجزاء لم يدخلهما[٢] معهم، فعلم أن الصابئين فيهم المؤمن والكافر، والشقي والسعيد، وهذه أمة قديمة قبل اليهود والنصارى، وهم أنواع: صابئة حنفاء، وصابئة مشركون.

وكانت حران دار مملكة هؤلاء قبل المسيح، ولهم كتب وتآليف وعلوم.

وكان في بغداد منهم طائفة كبيرة: منهم إبراهيم بن هلال الصابيء صاحب «**الرسائل**»، وكان على دينهم، ويصوم رمضان مع المسلمين. وأكثرهم فلاسفة، ولهم مقالات مشهورة ذكرها أصحاب المقالات.

وجملة أمرهم أنهم لا يكذبون الأنبياء ولا يوجبون اتباعهم.

وعندهم أن من اتبعهم فهو سعيد ناج، وأن من أدرك بعقله ما دعوا إليه فوافقهم فيه وعمل بوصاياهم، فهو سعيد وإن لم يتقيد بهم.

فعندهم: دعوة الأنبياء حق، ولا تتعين طريقًا للنجاة، وهم يقرون أن للعالم صانعًا مدبرًا حكيمًا منزهًا عن مماثلة المصنوعات، ولكن كثيرًا منهم أو أكثرهم قالوا: نحن عاجزون عن الوصول إلى جلاله بدون الوسائط، والواجب التقرب إليه بتوسط الروحانيين المقدسين المطهرين عن المواد الجسمانية، المبرئين عن القوى الجسدية، المنزهين عن الحركات المكانية والتغييرات الزمانية، بل قد جبلوا على الطهارة، وفطروا على التقديس.

قالوا: وإنما أرشدنا إليهم معلمنا الأول «هرمس» فنحن نتقرب إليهم وبهم. وهم آلهتنا وشفعاؤنا عند رب الأرباب وإله الآلهة، فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن الشبهات الطبيعية، ونهذّب أخلاقنا عن علائق القوة العصبية، حتى تحصل المناسبة بيننا وبين الروحانيات، فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم، ونعرض أحوالنا

---

(١) ما ذكره الشيخ ابن القيم يلفت النظر؛ حيث لم يكن في الآيات الأولى ذكر (منهم) فلا أدري كيف هذا؟ ج.

(٢) بالنسخة (يدخلها) والصواب ما أثبتناه؛ لأنه يتحدث عن أمتين هما: المجوس، والذين أشركوا. المراجع.

عليهم، ونصبو في جميع أمورنا إليهم، فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم، ورازقنا ورازقهم. وهذا التطهير والتهذيب لا يحصل إلا برياضتنا وفطام أنفسنا عن دنيات الشهوات: وذلك إنما يتم بالاستمداد من جهة الروحانيات. والاستمداد هو التضرع والابتهال بالدعوات، وإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والصيام عن المطعومات والمشروبات.

(1)**وأما** الصابئة فأهل حران وكثير من بلاد الروم، وأما المشركون فجزيرة العرب جميعها وبلاد الهند وبلاد الترك وما جاورها، وأديان أهل الأرض لا تخرج عن هذه الأديان الخمسة، ودين الحنفاء لا يعرف فيهم ألبتة، وهذه الأديان الخمسة كلها للشيطان.

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الأديان ستة: واحد للرحمن وخمسة للشيطان. وهذه الأديان الستة مذكورة في آية الفصل في قوله تعالى: **﴿إنَّ الذِين آمَنُوا وَالذِّين هَادُوا والصَّابِئِين والنَّصَارى والمَجُوْسَ والذَين أشْرَكُوا إن الله يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ القِيَامَة إنَّ الله على كلِّ شيءٍ شَهِيدٌ﴾**. [الحج: ١٧].

فلما بعث الله رسوله ﷺ، استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعًا واختيارًا، ولم يكره أحدًا قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالاً لأمر ربه سبحانه حيث يقول: **﴿لا إكْرَاه في الدِّين قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِن الغَيِّ﴾**. [البقرة: ٢٥٦].

وهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحدًا على الدين، نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام.

والصحيح أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوّز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين، بل إما أن يدخلوا في الدين وإما أن يعطوا الجزية كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان.

---

(١) ١١ هداية.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ، تبين له أنه لم يكره أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتله مادام مقيمًا على هدنته لم ينقض عهده؛ بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له كما قال تعالى: ﴿**فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم**﴾. [التوبة: ٧].

ولما قدم المدينة صالَح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدءوه بالقتال قاتلهم، فمنَّ على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم.

وكذلك لما هادن قريشًا عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدءوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضًا هم جاءُوا لقتاله ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم.

والمقصود أنه ﷺ، لم يُكره أحدًا على الدخول في دينه ألبتة، وإنما دخل الناس في دينه اختيارًا وطوعًا، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقًّا.

فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية، أو أكثرهم. كما قال النبي ﷺ، لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة: أن لا إله إلا الله**» وذكر الحديث.

ثم دخلوا في الإسلام من غير رغبة ولا رهبة، وكذلك من أسلم من يهود المدينة، وهم جماعة كثيرون غير عبدالله بن سلام، مذكورون في كتب السير والمغازي . . .

(١)**أمر** الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد. فقال: ﴿**خُذوا ما آتَيْنَاكُم بقُوَّة**﴾. [الأعراف: ١١٧]. وقال: ﴿**وكتبنا له في الألواح من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ. فخُذْها بقوَّةٍ**﴾. [الأعراف: ١٤٥]. وقال: ﴿**يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوَّةٍ**﴾. [مريم: ١٢]. أي: بجد واجتهاد وعزم. لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور.

(١) ٤٧٠ مدارج جـ١.

(١)ومن تلاعبه بهذه الأمة أيضًا

ما قصه الله تعالى علينا («٢ : ٦٥، ٦٦ و٤ : ٤٧ ، ١٥٤ و٧ : ١٦٣ - ١٦٧و ١٦ : ١٢٤») من قصة أصحاب السبت، حتى مسخهم قِرَدةً لما تحيَّلوا على استحلال محارم الله تعالى.

ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله تعالى بأكل الحرام، واستباحةِ الفروج الحرام، والدم الحرام. وذلك أعظم إثمًا من مجرد العمل يوم السبت. ولكن لما استحلُّوا محارمَ الله تعالى بأدنى الحيل، وتلاعبوا بدينه، وخادعوه مخادعة الصبيان، ومسخوا دينه بالاحتيال، مسخهم الله تعالى قردَةً. وكان الله تعالى قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يومًا واحدًا، فلم يدعهم حرصُهم وجشعهم حتى تعدَّوا إلى الصيد فيه، وساعد القدر بأن عوقبوا بإمساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت، وإرسالها عليهم يوم السبت، وهكذا يفعل الله سبحانه بمن تعرض لمحارمه، فإنه يرسلها عليه بالقدر تزدلف إليه بأيِّها يبدأ.

فانظر ما فعل الحرص، وما أوجب من الحرمان بالكلية. ومن ههنا قيل: من طلبهَ كلَّه فاته كلُّه.

(٢)**قال** الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُم الذين اعْتَدَوا مِنْكُم في السَبْتِ**﴾. [البقرة:٦٥]. قال: رَمَوُا الحيتان في السبت، ثم أرجؤوها في الماء، فاستخرجوها بعد ذلك، فطبخوها فأكلوها ـ والله ـ أوخَمَ أكلةٍ، أسرعت في الدنيا عقوبة وأسرعت عذابًا في الآخرة، والله ما كانت لحوم الحيتان تلك بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين، إلا إنه عَجَّلَ لهؤلاء وأخر لهؤلاء.

وقوله: «رموها في السبت». يعني: احتالوا على وقوعها في الماء يوم السبت، كما بين غيره أنهم حفروا لها حياضًا ثم فتحوها عشية الجمعة، ولم يرد أنهم باشروا رميها يوم السبت؛ إذ لو اجترءوا على ذلك لاستخرجوها.

قال شيخنا: وهؤلاء لم يكفروا بالتوراة وبموسى، وإنما فعلوا ذلك تأويلًا

---

(١) ٣١٧ إغاثة جـ٢.		(٢) ١٧٤ أعلام جـ٣.

واحتيالاً، ظاهرهُ ظاهرُ الاتقاء وحقيقته حقيقة الاعتداء، ولهذا - والله أعلم - مسخوا قردة؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مَسَخَ أولئك المعتدون دين الله؛ بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته؛ مسخهم الله قردة تشبه الإنسان في بعض ظاهره دون الحقيقة، جزاء وفاقًا.

ويقوي ذلك أن بني إسرائيل أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل، وهو أعظم من أكل الصيد في يوم بعينه، ولم يعاقب أولئك بالمسخ كما عُوقب به من استحل الحرام بالحيلة؛ لأن هؤلاء لما كانوا أعظم جرمًا كانت عقوبتهم أعظم، فإنهم بمنزلة المنافقين يفعلون ما يفعلون ولا يعترفون بالذنب؛ بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم، بخلاف من أكل الربا وأموال الناس بالباطل والصيد المحرم عالمًا بتحريمه، فإنه يقترن بمعصيته اعترافُه بالتحريم وخشيته لله واستغفاره وتوبته يوماً ما، واعترافه بأنه مذنب عاصٍ، وانكسار قلبه من ذل المعصية، وازدراؤه على نفسه، ورجاؤه لمغفرة ربه له، وعد نفسه من المذنبين الخاطئين، وهذا كله إيمان يُفضي بصاحبه إلى خير، بخلاف الماكر المخادع المحتال على قلب دين الله، ولهذا حَذَّر النبي ﷺ أمته من ارتكاب الحيل فقال: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**».

وقد أخبر الله تعالى أنه جعل هذه القرية أو هذه الفعلة التي فعلها بأهلها، نَكَالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين.

فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكاله أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر والاحتيال، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكرًا وخديعة من الأقوال والأفعال، وأن يعلم أن لله يومًا تكع فيه الرجال، وتنسف فيه الجبال، وتترادف فيه الأهوال، وتشهد فيه الجوارح والأوصال، وتبلى فيه السرائر، وتظهر فيه الضمائر، ويصير الباطن فيه ظاهرًا، والسر علانية، والمستور مكشوفًا، والمجهول معروفًا، ويُحصّل ويبدو ما في الصدور، كما يبعثر ويخرج ما في القبور، وتجري أحكام الرب تعالى هنالك على القصود والنيات، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات، يوم تَبْيَضُّ وجوه بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ورسوله وكتابه، وما فيها من البر والصدق والإخلاص للكبير المتعال، وتسوَدُّ وجوه بما في

قلوب أصحابها من الخديعة والغش والكذب والمكر والاحتيال، هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون، وبدينهم كانوا يلعبون، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون.

[1]**ومن** تلاعبه بهم في حياة نبيهم أيضًا ما قصّه الله سبحانه وتعالى: في كتابه «٢[2]: ٦٧ - ٧٤» من قصة القتيل الذي قتلوه وتدافعوا فيه، حتى أمروا بذبح بقرة وضربه ببعضها. وفي هذه القصة أنواع من العِبَرِ:

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدْل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدي، وإعذارًا وإنذارًا للضالّ.

ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: أعتق رقبة، وأطعم مسكينًا، وصُم يومًا، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبيّنة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شُدِّد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير، عن الربيع، عن أبي العالية: «**لو أن القوم حين أُمروا أن يذبحوا بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إيَّاها. ولكنهم شدَّدوا**

(١) ٣١٤ إغاثة جـ٢.

(٢) الرقم يعني سورة البقرة.

على أنفسهم فشدَّد الله عليهم».

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجهَ الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر. فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾. [البقرة: ٦٧]. قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟﴾. فلما لم يعلموا وجهَ الحكمةِ في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه، قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟﴾ وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله. فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به. ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك. فلما قال لهم: ﴿أعوذُ بالله أنْ أكون من الجاهلين﴾ وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولوْنها. فلما أُخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها. فلما تعينَتْ لهم ولم يبق إشكالٌ، توقفوا في الامتثال ولم يكادوا يفعلون(١).

(١) قال أبو جعفر بن جرير: وهذه الأقوال التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه من الصحابة والتابعين والخالفين بعدهم، من قولهم: إن بني إسرائيل لو كانوا أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم؛ من أوضح الدلالة على أن القوم كانوا يرون أن حكم الله فيما أمر ونهى في كتابه وعلى لسان رسول الله ﷺ على العموم الظاهر، دون الخصوص الباطن، إلا أن يخص بعض ما عمه ظاهر التنزيل كتاب من الله أو رسول الله، وأن التنزيل أو الرسول إن خص بعض ما عمه ظاهر التنزيل بحكم خلاف مادل عليه الظاهر. فالمخصوص من ذلك خارج من حكم الآية التي عمت ذلك الجنس خاصة، وسائر حكم الآية على العموم، على نحو ما قد بيناه في كتابنا «كتاب الرسالة من لطيف القول في البيان عن أصول الأحكام» - في قولنا في العموم والخصوص - وموافقة قولهم في ذلك قولنا ومذهبهم مذهبنا، وتخطئتهم قول القائلين بالخصوص في الأحكام وشهادتهم على فساد قول من قال: حكم الآية الجائية مجيء العموم على العموم مالم يختص منها بعض ماعمته الآية. فإن خص منها بعض فحكم الآية حينئذ على الخصوص فيما خص منها وسائر ذلك على العموم وذلك أن جميع من ذكرنا قوله آنفًا ممن عاب على بني إسرائيل مسألتهم نبيهم عن صفة البقرة التي أمروا بذبحها وسنها وحليتها؛ رأوا أنهم كانوا في مألتهم رسول الله موسى ذلك مخطئين، وأنهم لو كانوا استعرضوا أدنى بقرة من البقر إذ أمروا بذبحها بقوله: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾. [البقرة: ٦٧]. فذبحوها كانوا للواجب عليهم من أمر الله في ذلك مؤدين، وللحق مطيعين. إذ لم يكن القوم حصروا على نوع من البقر دون نوع وسن دون سن. ورأوا مع ذلك أنهم إذا سألوا موسى عن سنها فأخبرهم عنها وحصرهم منها على سن دون سن، ونوع دون نوع، وخص من جميع أنواع البقر نوعاً منها، كانوا في مسألتهم إياه في المسألة الثانية بعد الذي خص لهم من أنواع البقر من الخطأ على مثل الذي كانوا عليه من الخطأ في مسألتهم إياه المسألة الأولى. وكذلك رأوا أنهم في المسألة الثالثة - على مثل الذي كانوا عليه من ذلك في الأولى والثانية. وأن اللازم كان لهم =

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم: ﴿**الآن جئتَ بالحق**﴾ فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردَّة وكفر ظاهر. وإن أرادوا: أنك الآن بَيَّنتَ لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها. فذلك جهلٌ ظاهر. فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿**إن الله يَأمُرُكُم أنْ تَذْبَحُوا بَقَرةً**﴾. [البقرة: ٦٧] . فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل. ولا في المذبوح. فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير: وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسى: ﴿**الآن جئْتَ بالحق**﴾ وزعم أن ذلك نفيٌ منهم أن يكون موسى عليه السلام أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، قال: وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلاً منهم، وهفْوة من هفواتهم.

= في الحالة الأولى استعمال ظاهر الأمر وذبح أي بهيمة شاءوا مما وقع عليه اسم بقرة عوان لا فارض ولا بكر، ولم يروا أن حكمهم إذ خص لهم بعض البقر دون البعض في الحال الثانية انتقل عن اللازم الذي كان لهم في الحال الأولى من استعمال ظاهر الأمر إلى الخصوص.

ففي إجماع جميعهم على ما روينا عنهم من ذلك مع الرواية التي رويناها عن رسول الله ﷺ بالموافقة لقولهم؛ دليل واضح على صحة قولنا في العموم والخصوص، وأن أحكام الله جل ثناؤه في آي كتابه فيها أمر ونهي على العموم، مالم يخص ذلك مايجب التسليم له، وأنه إذا خص منه شيء فالمخصوص منه خارجَ حكمه من حكم الآية العامة الظاهر، وسائر حكم الآية على ظاهرها العام. ويؤيد حقيقة ماقلنا في ذلك، وشاهد عدل على فساد قول من خالف قولنا فيه.

وقد زعم بعض من عظمت جهالته، واشتدت حيرته؛ أن القوم إنما سألوا موسى ما سألوا بعد أمر الله اياهم بذبح بقرة من البقر لأنهم ظنوا أنهم أمروا بذبح بقرة بعينها خصت بذلك، كما خصت عصا موسى في معناها. فسألوه ليجليها لهم ليعرفوها. ولو كان الجاهل تدبر قوله هذا لسهل عليه ما استصعب من القول. وذلك أنه استعظم من القوم مسألتهم نبيهم ما سألوه تشددًا منهم في دينهم، ثم أضاف إليهم من الأمر ماهو أعظم مما استنكره أن يكون كان منهم. فزعم أنهم كانوا يرون أنه جائز أن يفرض الله عليهم فرضاً، ويتعبدهم بعبادة ثم لا يبين لهم مايفرض عليهم ويتعبدهم به، حتى يسألوا بيان ذلك لهم. فأضاف إلى الله تعالى ذكره ما لا يجوز إضافته إليه، ونسب القوم من الجهل إلى ما لا ينسب المجانين إليه. فزعم أنهم كانوا يسألون ربهم أن يفرض عليهم الفراض. فنعوذ بالله من الحيرة. ونسأله التوفيق والهداية.

(١)**قال** تعالى في أصحاب الطريقين: ﴿**أفَتَطْمَعُون أنْ يُؤمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كان فريقٌ مِنْهُم يسمعـون كلامَ الله ثم يحرّفـونه من بعد ما عَقَلُوه وَهُمْ يعلمون**﴾. [البقرة: ٧٥].

ثم قال في أهل الطريق الثاني: ﴿**ومِنْهُم أُميّون لا يَعْلَمُون الكِتَابَ إلا أمَاني وإنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّون**﴾. [البقرة: ٧٨].

ثم قال في المصنفين الذين يصنفون ما لا يعلم أن الرسول قاله وجاء به؛ بل يعلم أن الرسول جاء بخلافه: ﴿**فَوَيلٌ للذين يَكْتُبون الكِتَابَ بأيْدِيهم ثم يقولون هذا من عند الله**﴾. الآية. [البقرة: ٧٩]. فهذه الطريق المذمومة التي سلكها علماء اليهـود، وقـد سلكها أشباههم من هذه الأمة تحقيقًا لقول الصادق المصدوق: «**لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعًا بذراع**».

وفي لفظ آخـر: «**لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقذة**» وكثير من هؤلاء الأشباه يحرفون كلام الله ويكتمونه لئلا يحتج به عليهم في خلاف أهوائهم.

فتارة يغل كتب الآثار التي فيها كلام رسول الله ﷺ وكلام أصحابه والتابعين وأئمة السنة ويمنع من إظهارها، وربما أعدمها وربما عاقب من كتبها أو وجدها عنده كما شاهدناه منهم عيانًا.

وكثير من هؤلاء يمنـع من تبليغ الأحـاديث النبـوية وتفسـير القرآن بالآثار والأخبـار، حتى إذا جاءت تفـاسير الجهمية والمعتزلة ونحوهم بالغ في مدحها، وقال: إن التحقيق فيها.

وما لم يمكنهم منعه من الكتاب والسنة وكتمانه سطوا عليه بالتحريف وتأولوه على غير تأويله، ثم يعتمدون على آثار موضوعة مكذوبة على رسول الله ﷺ وأصحابه موافقة لأهوائهم وبدعهم، فيقولون: هذا من عند الله، ويحتجون به ويضعون قواعد ابتدعوها وآراء اخترعوها ويسمونها: أصل الدين، وهي أضر شيء على الدين.

(٢) **ومن** ذلك قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أيَّامًا معَّدودةً قُل أتخذتُم عِندَ الله عَهدًا فَلَنْ يُخلِفَ الله عَهدَه أمْ تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لا تَعلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٨٠].

---

(١) ٣٤٩ مختصر الصواعق جـ٢. (٢) ١٤٣ بدائع جـ٤.

فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم، وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لابد من واحد منهما. وقد تعين بطلان أحدهما؛ فلزم ثبوت الآخر، فإن قولهم: **﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودةً﴾** خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي. فإمَّا أن يكون قولاً على الله بلا علم فيكون كاذباً، وإما أن يكون مستنداً إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر، وهذا منتفٍ قطعاً فتعين أن يكون خبراً كاذباً، قائله كاذب على الله تعالى.

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُم لا تَسفِكُونَ دِمَآءَكُم وَلاَ تُخرِجُونَ أَنفُسَكُم مِن دِيَارِكُم ثُمَّ أَقرَرتُم وَأَنتُم تَشهَدُونَ ثُمَّ أَنتُم هَؤُلاَءِ تَقتُلُونَ أَنفُسَكُم وَتُخرِجُونَ فَرِيقاً مِنكُم مِن دِيَارِهِم تَظَاهَرُونَ عَلَيهِم بِالإِثمِ وَالعُدوَانِ وَإِن يَأتُوكُم أُسَارَى تُفَادُوهُم وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيكُم إِخرَاجُهُم أَفَتُؤمِنُونَ بِبَعضِ الكِتَٰبِ وَتَكفُرُونَ بِبَعضٍ﴾** [البقرة: ٨٤، ٨٥].

فهذه حجة من الله احتج بها على أهل الكتاب؛ فإنه كان قد أخذ عليهم الميثاق: أن لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يجليه عن دياره، وأن يفدي بعضهم بعضاً من الأسر، فهذه ثلاثة عهود خالفوا منها عهدين، وأخذوا بالثالث؛ فقتل بعضهم بعضاً وأخرجه من دياره ثم فادوا أسراهم، لأن الله أمرهم بذلك، فإن كنتم قد فاديتم الأسارى لأن الله أمركم بفدائهم فلِمَ قتلتم بعضكم بعضاً وأخرجتموهم من ديارهم والله قد نهاكم عن ذلك؟ والأخذ ببعض الكتاب يوجب عليكم الأخذ بجميعه فكيف تكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض؟ **﴿فما جزاءُ منْ يفعلُ ذلك منكم إلا خزيٌ في الحياةِ الدنيا ويومَ القيامةِ يُرَدُّون إلى أشدِّ العذابِ وما اللّهُ بغافلٍ عما تعملون﴾** [البقرة: ٨٥].

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُم رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهوَىٰ أَنفُسُكُمُ استَكبَرتُم فَفَرِيقًا كَذَّبتُم وَفَرِيقًا تَقتُلُونَ﴾** [البقرة: ٨٧]. فهذا هو الذي تسميه النظار والفقهاء التشهي والتحكم فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته. وإن كان القول موافقًا لما تهواه وتشتهيه إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده قبلته وأجزته فترد ما خالف هواك وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم لا جواب له عليهما ألبتة؛ فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ

بجميعه، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات؛ إذ لو كان الشرع تابعًا للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعًا له ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهواءَهُم لَفَسَدَت السَّمواتُ وَالأَرضُ وَمن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

(١) **قال** تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلفٌ بَل لَّعَنَهُمُ الله بِكُفرِهِم﴾ [البقرة: ٨٨]. وقد اختلف في معنى قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلفٌ﴾.

فقالت طائفة: المعنى: قلوبنا أوعية للحكمة والعلم، فما بالها لا تفهم عنك ما أتيت به أوَ لا تحتاج إليك؟، وعلى هذا فيكون غلف جمع غلاف.

والصحيح قول أكثر المفسرين: أن المعنى: قلوبنا لا تفقه ولا تفهم ما تقول؛ وعلى هذا فهو جمع أغلف كأحمر وحمر.

قال أبو عبيدة: كل شيء في غلاف فهو أغلف كما يقال: سيف أغلف وقوس أغلف ورجل أغلف غير مختون.

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد: على قلوبنا غشاوة فهي في أوعية فلا تعي ولا تفقه ما تقول.

وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن كقولهم: ﴿قُلُوبنا في أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعيُنُهمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكرِي﴾ [الكهف: ١٠١]. ونظائر ذلك.

وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة؛ فليس في اللفظ ما يدل عليه ألبتة وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف أي: أوعية للعلم؟، والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء فلا يلزم من كون القلب غلافاً؛ أن يكون داخله العلم والحكمة وهذا ظاهر جدًا.

فإن قيل: فالإضراب ببل على هذا القول الذي قويتموه ما معناه.

---

(١) ٩٣ شفاء.

وأما على القول الآخر فظاهر أي: ليست قلوبكم محلاً للعلم والحكمة بل مطبوع عليها.

قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته؛ بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه، فكيف تقوم به عليهم الحجة؟، وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف فهم معذورون في عدم الإيمان فأكذبهم الله وقال: ﴿**بل طبع الله عليها بكفرهم**﴾ [النساء:١٥٥]. وفي الآية الأخرى: ﴿**بَل لَّعنَهُمُ الله بِكُفرِهِم**﴾ [البقرة:٨٨]. فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله؛ إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان؛ فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة والمعنى لم نخلق قلوبهم غلفاً لا تعي ولا تفقه؛ ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه ولا يفقهونه؛ بل اكتسبوا أعمالاً عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**ولما جاءهم كتابٌ من عندِ الله مُصدِّقٌ لما معهم وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنةُ الله على الكافرين**﴾ [البقرة: ٨٩]. فهذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد ﷺ فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية، ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهوره فيفتح لهم وينصرون، فلما ظهر النبي ﷺ كفروا به وجحدوا نبوته.

فاستفتاحهم به وجحد نبوته مما لا يجتمعان، فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي كان جحد نبوته محالاً، وإن كان جحد نبوّته كما يزعمون حقًّا كان استفتاحهم به باطلاً، فإن كان استفتاحهم به حقًّا فنبوته حق، وإن كانت نبوته كما يقولون باطلاً فاستفتاحهم به باطل، وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه ألبتة ويمكن تقريرها على صور عديدة:

منها: أن يقال: قد أقررتم بنبوته قبل ظهوره باستفتاحكم به فتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره.

الثانية: أن يقال: كنتم تستفتحون به، وذلك إقرار منكم بنبوته قبل ظهوره

---

(١) ١٤٤ بدائع جـ٤.

استنـادًا إلى ما عنـدكم من العلم بظهـوره؛ فلما شاهدتموه وصار المعلوم معاينًا بالرؤية؛ فالتصديق به حينئذ يكون أولى، فكفرتم به عند كمال المعرفة وآمنتم به حين كانت غيبًا لم تكمـل، فآمنتم به على تقدير وجوده، وكفرتم به عند تحقق وجوده، فأي تناقض وعناد أبلغ من هذا؟!(١)

التاسعة: أن يقال: الاستفتاح به تصديق وإقرار بنبوته، وتكذيبه جحد وكفر بها، والإيمان والتصـديق برسالة الرجل الواحد والتكذيب والجحد بها، مستلزم للكفر ولابد فإنه يستلزم أحد الأمرين: إما التصديق بنبوة من ليس بنبي، وإما جحد نبوة من هو نبي، وأيهما كان فهو كفر وقد أقررتم على أنفسكم بالكفر ولا بد، فلعنة الله على الكافرين.

العاشرة: تقرير الاستدلال بطريقة استسلاف المقدمات المؤاخذة بالاعتراف فيقال لهم: ألستم كنتم تستفتحون به؟ فيقولون: بلى، فيقال: أليس الاستفتاح به إيمان به؟ فلابد من الاعتراف بذلك. فيقال: أفليس ظهور من كنتم تؤمنون به قبـل وجوده موجبًا عليكم الإيمان به؟ فلا بد من الاعتراف أو العناد الصريح، وليس لأعداء الله على هذه الوجوه اعتراض ألبتة سوى أن قالوا: هذا كله حق، ولكن ليس هذا الموجود بالذي كنا نستفتح به، وهذا من أعظم البهت والعناد؛ فإن الصفات والعلامات التي فيه طابقت ما كانت عندهم مطابقة المعلوم لعلمه، فإنكار أن يكون هو إنما يكون جحدًا للحق وإنكارًا له باللسان والقلب يعرفه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ الله على الكَافِرِين﴾. [البقرة: ٨٩]. فأغنى عن هذه الوجوه والتقريرات كلها قوله تعالى: ﴿ولَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِن عِنْد الله مُصَدِّق لِمَا مَعَهُم وكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُون على الذين كَفَروا فَلَمَّا جَاءَهُم ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ الله على الكَافِرِين﴾. [البقرة: ٨٩]. والمادة الحق يمكن إبرازها في الصور المتعددة، وفي أي قالب أفرغت وصورة أبرزت ظهرت صحيحـة، وهذا شأن مواد براهين القرآن في أي صورة أبرزتها ظهرت في غاية الصحة والبيان، فالحمد لله المانّ بالهدى على عباده المؤمنين.

---

(١) اختصرنا كلام الشيخ من الثالثة إلى الثامنة، وهو موجود بالأصل. (ج).

وتأمل قوله تعالى في هذه الآية : ﴿**وَلَمَّا جَاءهُم رسولٌ من عِنْد الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ**﴾ . [البقرة: ١٠١]. كيف تجد تحته برهانًا عظيمًا على صدقه، وهو مجيء الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول ويصدقه، مع تباعد زمانهما وشهادة أعدائه وإقرارهم له بأنه لم يتلقَّه مِن بشر، ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يخبر بها إلا نبي أو من أخذ عنه وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد ألبتة، ولو كان ذلك؛ لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه ولعارضوه بمثل ما جاء به، إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذًا عن بشر أن يأخذوهم عن ملك أو عن نظيره فيعارضوا ما جاء به.

والمقصود أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول؛ من غير مواطأة ولا تشاعر ولا تلقي منه ولا ممن أخذ عنه، دليل قاطع على صدق الرسولين معًا.

ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة فيخبر فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادته صدقًا لا يتطرق إليه شبهة، فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع بالأول ولم يتواطأ معه، فيخبر بنظير تلك الشهادة سواء مع القطع بأنه لم يجتمع به ولا تلقاها عن أحد اجتمع به، فهذا يكفي في صدقه؛ إذا تجرد الإخبار فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق، أعظم من الأدلة التي اقترنت بخبر الأول فيكفي في العلم بصدق الثاني مطابقة خبره لخبر الأول، فكيف إذا بشر به الأول، فكيف إذا اقترن بالثاني من البراهين الدالة على صدقه نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها والله أعلم.

(1)**وقال** تعالى عن اليهود: ﴿**فَلَمَّا جَآءَهُم ما عَرَفُوا كفروُا به فلعنةُ الله على الكافرين**﴾. ثم قال: ﴿**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُروا بِمَا أَنْزَلَ الله بَغْيًا أَنْ يُنَزِل الله مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاء من عِبادِهِ**﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن كفرهم شكًا ولا اشتباهًا ولكن بغيًا منهم حيث صارت النبوة في ولد إسماعيل. ثم قال بعد ذلك: ﴿**ولما جاءهم رسولٌ من عنـدِ الله مصدِّقٌ لما معهم نَبَذَ فريقٌ من الذين أوتوا الكتابَ كتابَ الله وراءَ ظهـورِهم كأنهم لا يعلمون**﴾ [البقرة: ١٠١]. فلما شبههم في فعلهم هذا بمن لا يعلم؛ دل على أنهم نبـذوه عن علم كفعل من لا يعلم، تقول إذا خاطبت من

(١) ٩١ مفتاح جـ١.

عصاك عمدًا: كأنك لم تعلم ما فعلت أو كأنك لم تعلم بنهيي إياك، ومنه على أحد القولين قوله تعالى: ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغُ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهُم الكافرون﴾ [النحل: ٨٢، ٨٣].

قال السدي: يعني محمدًا ﷺ واختاره الزجاج. فقال: يعرفون أن أمر محمدٍ ﷺ حق ثم ينكرون ذلك، وأول الآية يشهد لهذا القول.

(١)**ومن** تلاعبه بهم: ما كان منهم في شأن زكريا ويحيى عليهما السلام، وقتلهم لهما، حتى سلط الله عليهم بُخْتُنَصَّر، وسَنْجاريب وجنودَهما، فنالوا منهم ما نالوه.

ثم ما(٢) كان منهم في شأن المسيح ورَمْيه وأمه بالعظائم، وهم يعلمون أنه رسول الله تعالى إليهم فكفروا به بَغْياً وعناداً، وراموا قَتْله وصَلْبه، فصانه الله تعالى من ذلك، ورفعه إليه، وطهره منهم. فأوقعوا القتل والصَّلب على شَبَهِه، وهم يظنون أنه رسول الله عيسى ﷺ؛ فانتقم الله تعالى منهم، ودَمّر عليهم أعظم تدمير، وألزَمَهم كلهم حكم الكفر بتكذيبهم بالمسيح؛ كما ألزم النصارى معهم حكم الكفر بتكذيبهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في سِفال ونَقْص إلى أن قَطَّعهم الله تعالى في الأرض أمماً، ومَزَّقهم كل مُمَزَّق، وسَلَبهم عزّهم وملكهم، فلم يَقُمْ لهم بعد ذلك مُلك إلى أن بَعث الله تعالى محمدًا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فكفروا به وكذبوه، فأتمَّ عليهم غضَبه، ودمَّرهم غاية التدمير، وألزمهم ذُلًّا وصغاراً لا يُرفع عنهم إلى أن يَنْزل أخوه المسيح من السماء، فيستأصل شأفتهم، ويُطَهِّر الأرض منهم، ومن عُبَّاد الصَّليب.

قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا به أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُروا بِمَا أَنْزَلَ الله بَغْيًا أَنْ يُنَزِّل الله مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاء من عِبَادِه فَباءوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ وللكَافِرِيْن عَذَابٌ مُهين﴾. [البقرة: ٩٠].

فالغضب الأول: بسبب كفرهم بالمسيح، والغضب الثاني. بسبب كفرهم

---

(١) ٣١٩ إغاثة جـ٢.

(٢) بالنسخة: (ثم كان منهم) بدون (ما) وقد أثبتناها لتمام المعنى. المراجع.

بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما.

(١)**قوله** تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمِنُوا بِمَآ أَنزَلَ الله قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُم قُل فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ الله مِن قَبلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]. هذه حكاية مناظرة بين الرسول ﷺ وبين اليهود لما قال لهم: ﴿آمِنُوا بِمَآ أَنزَلَ الله﴾ فأجابوه بأن قالوا: ﴿نُؤمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَينَا﴾ ومرادهم بهذا التخصيص أن نؤمن بالمنزل علينا دون غيره، فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين دل عليهما قوله تعالى: ﴿وَيَكفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الحَقُّ﴾ إلى آخر الآية. قال: إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم لأنه حق؛ فقد وجب عليكم أن تؤمنوا بما جاء به محمد لأنه حق مصدق لما معكم، وحكم الحق الإيمان به أين كان ومع من كان؛ فلزمكم الإيمان بالحقين جميعاً أو الكفر الصراح.

وفي قوله: ﴿وَيَكفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الحَقُّ﴾ نكتة بديعة جدًّا، وهي: أنهم لما كفروا به وهو حق لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم لأجل أنه حق، فإذًا لم يتبعوا الحق فيما أنزل عليهم ولا فيما جاء به محمد ﷺ؛ لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني وأعطوا الحق حقه من الإيمان. ففي ضمن هذه؛ الشهادة عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني؛ وهكذا الحكم في كل من فرق الحق فآمن ببعضه وكفر ببعضه، كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض؛ لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمن بالجميع.

ونظير هذا التفريق تفريق من يردُّ آيات الصفات وأخبارها، ويقبل آيات الأوامر والنواهي؛ فإن ذلك لا ينفعه لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض. فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له؛ فالشبهة التي عرضت لمن رد بعض ما جاء به النبي ﷺ أولى أن لا تكون نافعة، وإن كانت هذه عذرًا له فشبهة من كذب بعض الأنبياء مثلها. وكما أنه لا يكون مؤمنًا حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ومن كفر بنبي من الأنبياء فهو كمن كفر بجميعهم؛ فكذلك لا يكون مؤمنًا حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول، فإذا آمن ببعضه ورد بعضه فهو كمن كفر به كله.

---

(١) ١٤٨ بدائع جـ٤.

فتأمل هذا الموضع واعتبر به الناس على اختلاف طوائفهم، يتبين لك أن أكثر من يدعي الإيمان بريء من الإيمان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الوجه الثاني من النقض قوله: **﴿فَلِمَ تَقْتُلُون أَنْبِيَاء الله مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين﴾**. [البقرة: ٩١].

ووجه النقض: أنكم إن زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم فلم قتلتموهم من قبل، وفيم أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم فلا آمنتم بما أنزل إليكم، ولا بما أنزل على محمد ﷺ؟ ثم كأنه توقع منهم الجواب: بأنا لم نقتل من ثبتت نبوته ولم نكذب به، فأجيبوا على تقدير هذا الجواب الباطل منهم؛ بأن موسى قد جاءكم بالبينات ومالا ريب معه في صحة نبوته، ثم عبدتم العجل بعد غيبته عنكم وأشركتم بالله وكفرتم به، وقد علمتم نبوة موسى وقيام البراهين على صدقه فقال: **﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُوسى بِالبَيِّنات ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجَل مِنْ بَعْدِه وأَنْتُمْ ظَالِمُون﴾**. [البقرة: ٩٢]. فهكذا تكون الحجج والبراهين ومناظرات الأنبياء لخصومهم.

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ الله خَالِصَةً مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوا المَوْتَ إِنْ كُنْتُم صَادِقِين﴾**. [البقرة: ٩٤]. كانوا يقولون: نحن أحباء الله ولنا الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وإنما يعذب منا من عبد العجل مدة، ثم يخرج من النار وذلك مدة عبادتهم له، فأجابهم تبارك وتعالى عن قولهم: إن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، بالمطالبة وتقسيم الأمر: بين أن يكون لهم عند الله عهد عَهِده إليهم، وبين أن يكونوا قد قالوه عليه بما لا يعلمون. ولا سبيل لهم إلى ادعاء العهد، فتعين الثاني وقد تقدم.

ثم أجابهم عن دعواهم خلوص الآخرة لهم بقوله: **﴿فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين﴾**. لأن الحبيب لا يكره لقاء حبيبه، والابن لا يكره لقاء أبيه، لاسيما إذا علم أن كرامته ومثوبته مختصة به؛ بل أحب شيء إليه لقاء حبيبه وأبيه؛ فحيث لم يحب ذلك ولم يتمنه فهو كاذب في قوله مبطل في دعواه.

ونظير هذا قوله في سورة المائدة ردًا عليهم قولهم: **﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وأَحِبَاؤه قُلْ فَلِمَ يُعَذِبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾**. [المائدة: ١٨]. يعني: أن الأب لا يعذب ابنه، والحبيب لا يعذب حبيبه.

وههنا نكتة لطيفة جدًّا قلّ من ينتبه لها، ونحن نقررها بسؤال وجواب.

فإن قيل: معلوم أن الأب قد يؤدب ولده إذا أذنب، والحبيب قد يهجر حبيبه إذا رأى منه بعض ما يكره.

قيل: لو تأملت أيها السائل قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾. لعلمت الفرق بين هذا التعذيب وبين الهجران والتأديب. فإن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب المنافي للمحبة، فلو كانت المحبة قائمة كما زعموا لم يكن هناك ذنوب يستوجبون عليها العذاب: من المسخ قردة وخنازير، وتسلط أعدائهم عليهم يستبيحونهم ويستعبدونهم ويخربون متعبداتهم ويَسْبُون ذراريهم، فالمحب لا يفعل هذا بحبيبه ولا الأب بابنه. ومعلوم أن الرحمن الرحيم لا يفعل هذا بأمة إلا بعد فرط إجرامها وعتوها على الله واستكبارها عن طاعته وعبادته، وذلك ينافي كونهم أحبابه؛ فلو أحبوه لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك، ولو أحبهم لأدَّبهم ولم يعذبهم. فالتأديب شيء، والتعذيب شيء. والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح، والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح فهذا لون وهذا لون.

وفي ضمن هذه المناظرة معجزة باهرة للنبي ﷺ وهي: أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عداوته وتكذيبه، وهو يخبرهم خبرًا جزمًا أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه لوجدوا طريقًا إلى الرد عليه، بل ذلوا وغلبوا وعلموا صحة قوله، وإنما منعهم من تمني الموت معرفتهم بما لهم عند الله: من الخزي والعذاب الأليم بكفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ.

فإن قيل: فهلا أظهروا التمني وإن كانوا كاذبين! فقالوا: فنحن نتمناه.

قيل: وهذا أيضًا معجزة أخرى، وهي: أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألسنتهم فلم ترده قلوبهم ولم تنطق به ألسنتهم تصديقًا لقوله: ﴿**ولن يتمنوه أبدًا**﴾ [البقرة: ٩٥]

قلت: هذه الآية فيها للناس كلام معروف.

قالوا: إنها معجزة للنبي ﷺ، أعجز بها اليهود، ودعاهم إلى تمني الموت. وأخبر أنهم لا يتمنونه أبدًا. وهذا عَلَم من أعلام نبوته ﷺ، إذ لا يمكن الاطلاع على بواطنهم إلا بأخبار الغيب. ولم ينطق الله ألسنتهم بتمنيه أبدًا.

وقالت طائفة: لما ادعت اليهود: أن لهم الدار الآخرة عند الله، خالصة من دون

الناس، وأنهم أبناؤه وأحباؤه وأهل كرامته، كذبهم الله في دعواهم. وقال: إن كنتم صادقين فتمنوا الموت؛ لتصلوا إلى الجنة دار النعيم، فإن الحبيب يتمنى لقاء حبيبه.

ثم أخبر سبحانه: أنهم لا يتمنونه أبدًا بما قدمت أيديهم من الأوزار والذنوب الحائلة بينهم وبين ما قالوه. فقال: ﴿**ولن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم**﴾[البقرة: ٩٥]

وقالت طائفة ـ منهم محمد بن إسحاق وغيره ـ: هذه من جنس آية المباهلة، وأنهم لما عاندوا، ودفعوا الهدى عيانًا. وكتموا الحق: دعاهم إلى أمر يحكم بينهم وبينه. وهو أن يدعو بالموت على الكاذب المفتري. و«التمني» سؤال ودعاء، فتمنوا الموت، وادعوا به على المبطل الكاذب المفتري.

وعلى هذا فليس المراد: تمنوه لأنفسكم خاصة. كما قاله أصحاب القولين الأولين. بل معناه: ادعوا بالموت وتمنوه للمبطل. وهذا أبلغ في إقامة الحجة وبرهان الصدق، وأسلم من أن يعارضوا رسول الله بقولهم: فتمنوه أنتم أيضًا. إن كنتم محقين أنكم أهل الجنة. لتقدموا على ثواب الله وكرامته. وكانوا أحرص شيء على معارضته، فلو فهموا منه ما ذكره أولئك لعارضوه بمثله.

وأيضًا فإنا نشاهد كثيرًا منهم يتمنى الموت لضره وبلائه، وشدة حاله، ويدعو به. وهذا بخلاف تمنيه والدعاء به على الفرقة الكاذبة. فإن هذا لا يكون أبدًا، ولا وقع من أحد منهم في حياة النبي ﷺ ألبتة؛ وذلك لعلمهم بصحة نبوته وصدقه، وكفرهم به حسدًا وبغيًا. فلا يتمنوه أبدًا. لعلمهم أنهم هم الكاذبون. وهذا القول هو الذي نختاره. والله أعلم بما أراد من كتابه.

(١)**قال** ابن سعد: وأخبرنا علي بن محمد، عن علي بن مجاهد، عن محمد بن إسحق، عن سالم مولى عبدالله بن مطيع، عن أبي هريرة، قال: أتى رسول الله ﷺ بيت المدارس، فقال: «**أخرجوا إليَّ أعلمكم**»، فقالوا: عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله ﷺ، فناشده بدينه وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المن والسلوى وظللهم من الغمام: «**أتعلم أني رسول الله؟**» قال: اللهم نعم، وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وأن صفتك ونعتك لمبين في التوراة ولكن حسدوك، قال: «**فما يمنعك أنت؟**» قال: أكره خلاف قومي عسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم.

وقال أبو الشيخ الأصبهاني: حدثنا أبويحيى الرازي: حدثنا سهل بن عثمان:

---

(١) ٩٤ هداية.

حدثنا علي بن مسهر، عن دواد، عن الشعبي، قال: قال عمر بن الخطاب: كنت آتي اليهود عند دراستهم التوراة، فأعجب من موافقة التوراة للقرآن وموافقة القرآن للتوراة، فقالوا: يا عمر ما أحد أحب إلينا منك لأنك تغشانا، قلت: إنما أجيء لأعجب من تصديق كتاب الله بعضه بعضاً، فبينا أنا عندهم ذات يوم إذ مر رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا صاحبك، فقلت: أنشدكم الله وما أنزل عليكم من الكتاب أتعلمون أنه رسول الله؟ فقال سيدهم: قد نشدكم الله فأخبروه، فقالوا: أنت سيدنا فأخبره، فقال: إنا نعلم أنه رسول الله، قلت: فأني أهلككم إن كنتم تعلمون أنه رسول الله لِمَ لم تتبعوه؟! قالوا: إن لنا عدوًّا من الملائكة وسلمًا من الملائكة، عدونا جبريل وهو ملك الفظاظة والغلظة، وسلمنا ميكائيل وهو ملك الرأفة واللين. قلت: فإني أشهد ما يحل لجبريل أن يعادي سلم ميكائيل، ولا لميكائيل أن يعادي سلم جبريل ولا أن يسالم عدوه، ثم قمت فاستقبلني رسول الله ﷺ فقال: **«ألا أقرئك آيات نزلت علي قبل»** ؟ فتلا **﴿مَنْ كان عدوًّا لجبريلَ فإنه نزلـه على قلبك بإذن الله﴾** . [البقرة:٩٧]. الآية، فقلت: والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأخبرك بقول اليهود قال عمر: فلقد رأيتني أشد في دين الله من حجر.

وذكر أبو نعيم، من حديث عمرو بن عبسة قال: رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية، وعرفت أنها على الباطل يعبدون الحجارة، وهي لا تضر ولا تنفع، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب فسألته عن أفضل الدين؟ فقال: يخرج رجل من مكة ويرغب عن آلهة قومه يأتي بأفضل الدين، فإذا سمعت به فاتبعه، فلم يكن لي هم إلا مكة آتيها فأسأل: هل حدث فيها خبر؟ فيقولون: لا، فأنصرف إلى أهلي، وأعترض الركبان فأسألهم فيقولون: لا، فإني لقاعد إذ مر بي راكب فقلت: من أين جئت؟ قال: من مكة. قلت: هل حَدَث حَدَثٌ فيها؟ قال: نعم. رجل رغب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها. قلت: صاحبي الذي أريد فشددت راحلتي وجئت فأسلمت.

فصل(1)

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة

أن ألقى إليهم أن الربَّ تعالى محجور عليه في نَسْخ الشرائع، فحجروا عليه

---

(١) ٣٢٠ إغاثة جـ٢.

أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد، وجعلوا هذه الشبهة الشَيطانية تُرسًا لهم في جَحْد نبوة رسول الله، محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقرَّروا ذلك بأن النسخ يستلزم البداء(١) وهو على الله تعالى محال.

وقد أكذبهم الله تعالى في نص التوراة، كما أكذبهم في القرآن. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إسْرَائِيلَ إلاَّ ما حَرَّمَ إسْرَائِيلُ على نَفْسِه مِنْ قَبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ. قُلْ فأتوا بِالتَوْراة فَاتْلُوها إن كنتم صَادِقِين* فَمَن افْتَرى على الله الكَذبَ مِن بَعْدِ ذَلِك فأولَئك هُمُ الظَّالِمُون* قُلْ صَدقَ الله فَاتَّبِعُوا مِلَةَ إبْرَاهِيم حَنِيْفًا وَمَا كَانَ مِنْ المُشْرِكِين﴾. [آل عمران: ٩٣ - ٩٥].

فتضمنت هذه الآيات بيان كذبهم صريحًا في إبطال النسخ، فإنه سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل، قبل نزول التوراة، سوى ما حرَّم إسرائيل على نفسه منه.

ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالاً إنما هو بإحلال الله تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم، التي كانت حلالاً لبني إسرائيل. وهذا محض النسخ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾. [آل عمران: ٩٣]. أي: كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة، وهم يعلمون ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فأتوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوها إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين﴾. [آل عمران: ٩٣]. هل تجدون فيها أن إسرائيل حرّم على نفسه ما حرَّمته التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم ما خصَّه بالتحريم؟ وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة. وإذا كان إنما حرَّم هذا وحده، وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حرمت التوراةُ كثيرًا منه، ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع، والحجر على الله تعالى في نسخها.

فتأمل هذا الموضع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين، وما وردُوه.

(٢)**الفائدة** السابعة: إذا كان الحكم مستغربًا جدًّا مما لم تألفه النفوس، وإنما ألفت خلافه؛ فينبغي للمفتي أن يُوطِّيء قبله ما يكون مؤذنًا به كالدليل عليه

(١) أي ابتداء علم جديد لم يكن.
(٢) ١٦٣ أعلام جـ٤.

والمقدمة بين يديه، فتأمل ذكره سبحانه قصة زكريا وإخراج الولد منه بعد انصرام عصر الشبيبة، وبلوغه السن الذي لا يُولد فيه لمثله في العادة، فذكر قصته مقدمة بين يدي قصة المسيح وولادته من غير أب؛ فإن النفوس لما آنست بولد من بين شيخين كبيرين لا يُولد لهما عادة؛ سهل عليها التصديق بولادة ولد من غير أب.

وكذلك ذكر سبحانه قبل قصة المسيح، مُوافاة مريم رزقها في غير وقته وغير إبَّانه، وهذا الذي شجع نفس زكريا وحركها لطلب الولد وإن كان في غير إبَّانه.

وتأمل قصة نسخ القِبْلة لما كانت شديدة على النفوس جدًّا، كيف وطأ سبحانه قبلها عدة موطئات؟

منها: ذكر النسخ، ومنها: أنه يأتي بخير من المنسوخ أومثله.

ومنها: أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم؛ فعموم قدرته وعلمه صالح لهذا الأمر الثاني كما كان صالحًا للأول.

ومنها: تحذيرهم الاعتراض على رسوله كما اعترض مَنْ قبلهم على موسى، بل أمَرَهم بالتسليم والانقياد.

ومنها: تحذيرهم بالإصغاء إلى اليهود، وأن لا تستخفهم شبههم، فإنهم يودون أن يردوهم كفارًا من بعد ما تبين لهم الحق.

ومنها: إخباره أن دخول الجنة ليس بالتهود ولا بالتنصر، وإنما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل والنية لله مع متابعة أمره.

ومنها: إخباره سبحانه عن سَعَته، وأنه حيث ولى المصلّي وجهه فثمَّ وجهه تعالى، فإنه واسع عليم، فذكر الإحاطتين: الذاتية والعلمية، فلا يتوهمون أنهم في القبلة الأولى لم يكونوا مستقبلين وجهه تبارك وتعالى ولا في الثانية؛ بل حيثما توجهوا فثم وجهه تعالى.

وَمنها: أنه سبحانه وتعالى حَذَّر نبيه ﷺ عن اتباع أهواء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بل أمر أن يتبع هو وأمته ما أوحي إليه فيستقبلونه بقلوبهم وحده.

وَمنها: أنه ذكر عظمة بيته الحرام، وعظمة بانيه وملته، وَسَفَّه مَنْ يرغب عنها، وأمر باتباعها، فنوَّه بالبيت وبانيه وملته، وكل هذا توطئة بين يدي التحويل، مع ما في ضمنه من المقاصد الجليلة والمطالب السنية.

ثم ذكر فضل هذه الأمة وأنهم الأمة الوَسَط العدل الخيار، فاقتضى ذلك أن يكون نبيهم ﷺ، أوسَطَ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وخيارهم، وكِتَابهم كذلك، ودينهم كذلك، وقبلتهم التي يستقبلونها كذلك، فظهرت المناسبة شرعًا وقدرًا في أحكامه تعالى الأمرية والقدرية، وظهرت حكمته الباهرة، وتجلّت للعقول الزكية المستنيرة بنور ربها تبارك وتعالى.

والمقصود أن المفتي جديرٌ أن يذكر بين يدي الحكم الغريب الذي لم يؤلف مقدمات تؤنسُ به، وتدل عليه، وتكون توطئة بين يديه، وبالله التوفيق.

فصل(1)

في سياق الآيات الدالة على غش أهل الذمة للمسلمين وعداوتهم وخيانتهم وتمنيهم السوء لهم، ومعاداة الرب تعالى لمن أعزهم أو والاهم أو ولّاهم أمور المسلمين.

قال تعالى: ﴿مَا يَودُّ الذين كَفَرُوا مِنْ أهْلِ الكِتَاب ولا المُشْرِكِين أن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِن خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ [البقرة: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كثيرٌ من أهْلِ الكِتَابِ لو يَرُدُّونكُم مِن بَعْدِ إيمانِكُم كُفَّارًا، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ(2)﴾ [البقرة: ١٠٩] وقال تعالى لرسوله: ﴿ولَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ ولا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم. قُلْ إنَّ هُدى الله هو الهُدَى، وَلَئِن اتَّبَعْتَ أهْوَاءَهُمْ بَعْد الذي جاءكَ من العلمِ ما لكَ مِن الله من وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ﴾. [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿لا يَتَخِذِ المؤمنون الكَافرين أولياءَ من دون المؤمنين، ومن يفعلْ ذلك فليس من الله في شيءٍ إلا أن تتقوا منهم تقاةً؛ ويحذِّركم الله نفسَه، وإلى الله المَصِيرُ﴾. [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً من دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً، ودُّوا ما عَنِتُم، قَدْ بدت البغضاءُ من أفواهِهِم وما تُخفي صدورُهم أكبرُ،

---

(١) ٢٣٨ أحكام جـ١.

(٢) يأتي البحث على هذه الآية، وماشاكلها عند البحث في الحسد والمنافسة والغبطة في سورة المطففين ـ إن شاء الله تعالى. ويأتي أيضاً في سورة الفلق. ج.

قد بيَّنّا لَكُمُ الآيَاتِ إنْ كُنْتُم تَعْقِلُون﴾. [آل عمران: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿ألَم تَرَ إلى الذين أُوتُوا نَصِيبًا من الكِتَاب يَشْتَرُون الضلالَةَ، وَيُرِيدون أنْ تَضِلُّوا السَّبيلَ؟ والله أَعْلَمُ بِأعْدائِكم، وَكَفى بالله وَلِيًّا، وكَفى بالله نَصيراً﴾. [النساء: ٤٤، ٤٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين أُوتوا نَصِيبًا من الكِتَابِ يُؤمِنُون بالجِبْت والطَّاغُوتِ، ويَقُولون للذين كَفَروا: هَؤلاءِ أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أُولَئك الذين لعَنَهُمُ الله، ومَنْ يَلْعَنِ الله فَلَنْ تَجِد لَهُ نَصِيراً﴾. [النساء: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى مبشرًا لمن والاهم بالعذاب الأليم: ﴿بَشِّرِ المنافقين بأنَّ لهم عذابًا أليمًا. الذين يَتَّخِذُون الكَافِرين أوْلِياءَ مِنْ دُونِ المؤمنين. أيبتغون عندهم العزة؟ فَإنَّ العِزَةَ لله جَمِيعًا﴾. [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الكَافِرين أوْلِيَاءَ من دونِ المؤمنين. أتُريدون أن تَجْعَلُوا لله عَلَيْكُم سلطانًا مُبينًا؟﴾. [النساء: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَخِذُوا اليَهُود والنَّصارى أوْلياء، بَعْضُهم أَوْلِيَاء بَعْضٍ، ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإنَّهُ مِنْهُم، إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين. فَتَرى الذين في قُلُوبهم مَرضٌ يُسَارِعُون فِيهم، يَقُولون: نَخْشَى أن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ، فعَسَى الله أنْ يَأْتِي بالفَتْح أو أمرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا على ما أسَرُّوا في أنْفُسِهِمْ نَادِمين. ويَقُولُ الذين آمَنوا: أهؤلاءِ الذين أقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيْمَانِهِم إنَّهُمْ لمعكم؟ حَبِطَتْ أعْمَالُهم، فَأصْبَحُوا خَاسِرين﴾. [المائدة: ٥١، ٥٣].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الذين اتَّخَذُوا دِينَكُم هُزُوًا ولَعِبًا مِنْ الذين أُوتوا الكِتَاب مِنْ قَبْلِكُم والكُفَارَ أولياءَ، واتَقُوا الله إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِين. وإذا نَادَيْتُم إلى الصَّلاة اتَّخذوها هزوًا ولعبًا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾. [المائدة: ٥٧، ٥٨].

وقال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّون الذين كَفَرُوا، لَبِئْس ما قَدَّمَت لَهُمْ أنْفُسُهُم أنْ سَخِطَ الله عَلَيْهم، وفي العَذَابِ هُمْ خَالِدُون. وَلَوْ كَانُوا يُؤمِنُون بالله والنبيِّ وما أنزلَ إليه مَا اتَّخَذُوهُمْ أوْلِيَاءَ، وَلكِنَّ كَثِيراً مِنهُم فَاسِقُون﴾. [المائدة: ٨٠، ٨١].

وقال تعالى: ﴿كَيْف وإنْ يَظْهَروا عَلَيْكُم لا يَرْقُبُوا فِيْكُم إلًّا ولا ذِمَّةً؟ يُرْضُونَكُم بَأفْوَاهِهِم، وتَأبَى قَلوبهم، وأكْثَرُهم فَاسقون. اشتروا بآياتِ الله ثمنًا

قليلًا، فصدوا عن سبيلِهِ: إنَّهم ساء ما كَانوا يعملون. لا يرقبون في مؤمنٍ إلًّا ولا ذمة، وأولئك هُمْ المُعْتَدون﴾. [التوبة: ٨ - ١٠].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءكُم وإخْوَانَكُمْ أوْلياءَ إن اسْتَحَبُّوا الكُفْر على الإيمان، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكم فأولئك هُمُ الظالمون﴾. [التوبة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤمِنُون بالله واليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّون مِنْ حادَّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾. [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين تَوَلَّوا قَوْمًا غَضِبَ الله عليهم، ما هُمْ مِنْكُمْ ولا مِنْهُم، وَيَحْلِفُون على الكذب وَهُمْ يَعْلَمون. أعدَّ الله لهُم عذابًا شديدًا. إنهُمْ ساء ما كانُوا يَعْمَلُون﴾. [المجادلة: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدوي وعَدُوكم أوْلياء، تُلْقُون إليهم بالمَودة، وَقَد كفَرُوا بِمَا جَاءكم مِن الحَقِّ، يخرجون الرسولَ﴾. إلى قوله: ﴿قَد كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَة حَسَنَةٌ في إبْرَاهيم والذين مَعَهُ إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرآءُ مِنكم ومِمَّا تَعْبُدُون مِنْ دُونِ الله، كَفَرْنَا بِكُمْ، وبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُم العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ أَبَدًا حتى تُؤمِنُوا بالله وَحْدَهُ﴾. [الممتحنة: ١ - ٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أيُّهَا الذين آمَنُوا لا تَتولَّوْا قَوْمًا غَضِب الله عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا من الآخرةِ كما يئس الكُفارُ مِنْ أصْحَاب القُبُورِ﴾. [الممتحنة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا إنَّما المُشْرِكُون نجسٌ﴾. [التوبة: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿هَاأنْتُمْ أولاء تُحبُّونَهُم ولا يُحِبُّونَكُم، وتؤمِنُون بالكِتاب كُلّه، وإذَا لَقُوكُمْ قَالَوا: آمَنَّا، وإذا خَلَوا عَضوا عَلَيْكُمُ الأنَامِلَ من الغَيْظِ، قُلْ مُوتُوا بغَيْظِكم، إنَّ الله عَلِيمٌ بذَات الصدور. إنْ تَمْسَسْكُم حَسَنَةٌ تسؤهم، وإن تُصِبْكُم سيئةٌ يَفرَحُوا بها، وإنْ تَصبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضرُّكُم كَيْدُهُم شَيئًا، إن الله بِمَا يَعملُون مُحِيطٌ﴾. [آل عمران: ١١٩، ١٢٠].

وقد أخبر سبحانه عن أهل الكتاب، أنهم يعتقدون أنهم ليس عليهم إثم ولا خطيئة في خيانة المسلمين وأخذ أموالهم، فقال تعالى: ﴿وَمِن أهْلِ الكِتَاب مَنْ إن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤدِّه إليك، ومِنْهُم مَنْ إنْ تَأمَنْهُ بدِينار لا يُؤدِّه إلَيْك، إلَّا مَادُمت عَلَيْه قَائِمًا: ذَلِك بأنَّهُم قَالُوا: لَيْسَ عَلَيْنَا في الأمِّيِّن سَبِيلٌ، وَيَقُولُون على الله

الكَذِبَ، وَهُمْ يَعلَمُونَ﴾. [آل عمران: ٧٥].

والآيات في هذا كثيرة، وفي بعض هذا كفاية.

فصـــل

ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعًا من توليهم. وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم. والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبدًا، والولاية صلة، فلا تجامع معاداة الكافر أبدًا.

ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب، ومكاتبتهم الفرنج وأعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان، لثَنَاهُمْ ذلك عن تقريبهم وتقليدهم الأعمال. وهذا الملك (الصالح) كان في دولته نصراني يسمى محاضر الدولة أبا الفضائل بن دخان، ولم يكن في المباشرين أمكَنُ منه. وكان المذكور قذاةً في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين. ومثالبُه في الصحف مسطورة، ومخازيه مخلّدة مذكورة، حتى بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية، وخروجه من الملة الإسلامية؛ ولم يزل يكاتب الفرنج بأخبار المسلمين وأعمالهم وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها. وكان مجلسه معمورًا برسل الفرنج والنصارى، وهم مكرمون لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الأدرار والضيافات؛ وأكابر المسلمين محجوبون على الباب لا يؤذن لهم، وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام. فاجتمع به بعض أكابر الكتّاب فلامه على ذلك وحذره من سوء عاقبة صنعه، فلم يزده ذلك إلا تمردًا، فلم يمض على ذلك إلا يسير حتى اجتمع في مجلس (الصالح) أكابر الناس من الكتاب والقضاة والعلماء. فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى ذكر مخازي النصارى، فبسط لسانه في ذلك، وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق، وقال من جملة كلامه: إن النصارى لا يعرفون الحساب ولا يدرونه على الحقيقة، لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحدًا، والله تعالى يقول: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الذين قالوا: إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ﴾**. [المائدة: ٧٣]. وأول أمانتهم وعقد دينهم: بسم الأب والابن وروح القدس، إله واحد، فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء وقال في قصيدة له:

كيف يدري الحساب من جعل الوا ... حدَ رب الورى تعالى ثلاثة

ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده، ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة؟ وكلما استخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان دينارًا، وأخذ لنفسه اثنين، ولاسيما وهو يعتقد ذلك قربة وديانة؟

وانصرف القوم، واتفق أن كبت بالنصراني بطنته، وظهرت خيانته، فأريق دمه: وسُلِّط على وجوده عدمه، وفيه يقول عمارة اليمني:

قل لابن دخان إذا جئته ... ووجهه يندى من القَرْقَفِ
لم تكفك الدنيا ولو أنها ... أضعاف ما في سورة الزخرفِ
فاصفع قفا الذل ولو أنه ... بين قفا القسيس والأسقفِ
ملَّكك الدهر سُبال الورى ... فاحلق لحاهم آمنًا وانتفِ
خلا لك الديوان من ناظر ... مستيقظ العزم ومن مُشرفِ
فاكسب وحصل وادخر واكتنزْ ... واسرقْ وخُنْ وابطش ولا تضعف
وابك وقل ما صح في درهم ... فردٌ، وصلِّب وابتهل واحلف
واغتنم الفرصة من قبل أن ... تقضي على الإنجيل والمصحف

(١)**وقوله** تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾. [البقرة:١١١]. هذه دعوى كل واحدة من الطائفتين: أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منها، فقالت اليهود: لا يدخلها إلا من كان هودًا. وقالت النصارى: لا يدخلها إلا من كان نصرانيًا فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه، مع أمن اللبس ووضوح المعنى، فطالبهم الله تعالى بالبرهان على صحة الدعوى فقال: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾. [البقرة:١١١]. وهذا هو المسمى سؤال المطالبة بالدليل، فمن ادعى دعوى بلا دليل يقال له: هات برهانك إن كنت صادقًا فيما ادعيت، ويحتج بهذه الآية من يقول بلزوم النافي الدليل، كما يلزم المثبت.

وحكوا في ذلك ثلاثة مذاهب، ثالثها يلزمه في الشرعيات دون العقليات، واستدلالهم بالآية لا يصح؛ لأن الله تعالى لم يطالبهم بدليل النفي المجرد؛ بل

---

(١) ١٥٠ بدائع جـ٤.

ادعوا دعوى مضمونها: إثبات دخولهم هم الجنة وأن غيرهم لن[1] يدخلها فطولبوا بالدليل الدال على هذه الدعوة المركبة من النفي والإثبات، وصاحب هذه الدعوى يلزمه الدليل باتفاق الناس، وإنما الخلاف في النفي المجرد.

ولو استدل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنا النَّارُ إلا أيامًا معدودةً**﴾. [البقرة: ٨٠]. لكان أقرب مع كونه متضمنًا للنفي والإثبات، لكن الدعوى فيه إنما توجهت إلى النفي.

ومقصود الكلام: أنا لا نعذب بعد تلك الأيام، فلم ينكر عليهم اعترافهم بالتعـذيب تلك الأيام؛ بل دعواهم أنهم لا يعذبون بعدها، وذلك نفي محض فلذلك قلنا: إن الاستدلال بها أقرب من هذه الآية.

وبعد فالتحقيق في مسألة النافي: هل عليه دليل؟ أن النفي نوعان:

نوع: مستلزم لإثبـات ضد المنفي فهـذا يلزم النـافي فيه الدليل، كمن نفى الإباحة فإنه يطالب بالدليل قطعًا؛ لأن نفيها يستلزم ثبوت ضد من أضدادها ولا بد من دليل، وكذلك نفي التعذيب بالنار بعد الأيام المعدودة يستلزم دخول الجنة والفوز بالنعيم ولابد له من دليل.

النوع الثاني: نفي لا يستلزم ثبوتًا كنفي صحة عقد من العقود أو شرط أو عبادة في الشرعيات، ونفي إمكان شيء ما من الأشياء في العقليات، فالنافي إن نفى العلم به لم يلزمه دليل، وإن نفى المعلوم نفسه وادعى أنه منتف في نفس الأمر فلا بد له من دليل.

[2]**المثال** الخامس: وجه الرب جلَّ جلاله حيث ورد في الكتاب والسنة، فليس بمجاز بل على حقيقته واختلف المعطلون: في جهة التجوز في هذا فقالت طائفة: لفظ الوجه زائد والتقدير: ويبقى ربك، إلا ابتغاء ربه الأعلى ويريدون ربهم.

وقالت فرقة أخرى منهم: الوجه بمعنى الذات، وهذا قول أولئك وإن اختلفوا في التعبير عنه.

وقالت فرقة: ثوابه وجزاؤه فجعله هؤلاء مخلوقًا منفصلاً، قالوا: لأن الذي يراد هو الثواب وهذه أقوال، نعوذ بوجه الله العظيم من أن يجعلنا من أهلها.

---

(١) بالنسخة (لم) والصواب ما أثبتناه (لن). المراجع.

(٢) ١٧٤ مختصر الصواعق جـ٢.

قال عثمان بن سعيد الدارمي، وقد حكى قول بشر المريسي، أنه قال في قول النبي ﷺ: «**إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه**»: يحتمل أن يقبل الله عليه بنعمته وإحسانه وأفعاله وما أوجب للمصلي من الثواب فقوله: ﴿**ويبقى وجهُ ربِّك**﴾ [الرحمن:٢٧]. أي ما توجه به إلى ربك من الأعمال الصالحة وقوله: ﴿**فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله**﴾. [البقرة:١١٥]. أي: قبلة الله.

قال الدارمي: لما فرغ المريسي من إنكار اليدين ونفيهما عن الله، أقبل قبل وجه الله ذي الجلال والإكرام لينفيه عنه كما نفى عنه اليدين، فلم يدع غاية في إنكار وجه الله ذي الجلال والإكرام والجحود به، حتى ادعى أن وجه الله الذي وصفه بأنه ذو الجلال والإكرام مخلوق، لأنه ادعى أنه أعمال مخلوقة يتوجه بها إليه، وثواب وإنعام مخلوق يثيب به العامل، وزعم أنه قبلة الله وقبلة الله لا شك مخلوقة، ثم ساق الكلام في الرد عليه.

والقول بأن: لفظ الوجه مجاز، باطل من وجوه:

أحدها: أن المجاز لا يمتنع نفيه فعلى هذا لا يمتنع أن يقال: ليس لله وجه ولا حقيقة لوجهه، وهذا تكذيب صريح لما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسول الله ﷺ.

الثاني: أنه خروج عن الأصل والظاهر بلا موجب.

الثالث: أن ذلك يستلزم كون حياته وسمعه وبصره وقدرته وكلامه وإرادته وسائر صفاته مجازًا لا حقيقة كما تقدم تقريره.

الرابع: أن دعوى المعطل أن الوجه صلة، كذب على الله وعلى رسوله وعلى اللغة، فإن هذه الكلمة ليست مما عهد زيادتها.

الخامس: أنه لو ساغ ذلك لساغ لمعطل آخر أن يدعي الزيادة في قوله: أعوذ بعزة الله وقدرته، ويكون التقدير أعوذ بالله، ويدعي معطل آخر الزيادة في سمعه وبصره وغير ذلك.

السادس: أن هذا يتضمن إلغاء وجهه الكريم لفظًا ومعنى، وأن لفظه زائد ومعناه مُنتفٍ.

(١)**الوجه** السادس والعشرون: أنك إذا تأملت الأحاديث الصحيحة وجدتها مفسِّرة للآية مشتقة منها كقوله ﷺ: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإنما يستقبل ربه**».

---

(١) ١٨٨ مختصر الصواعق جـ٢.

وقوله: «**فالله يُقبلُ عليه بوجهه ما لم يصرفْ وجهَه عنه**».

وقوله: «**إذا قام أحدُكم إلى الصلاة فلا يبصقن قِبَل وجهه**».

وقوله: «**فإن الله بينه وبين القبلةِ**».

وقوله: «**إن الله يأمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت**». رواه ابن حبان في صحيحه والترمذي.

وقال: «**إن العبدَ إذا توضأ فأحسن الوضوءَ ثم قام إلى الصلاةِ أقبل الله عليه بوجهه فلا ينصرف عنه حتى ينصرف أو يُحدث حدث سوء**».

وقال: جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ «**إذا قام العبدُ يصلي أقبل الله عليه بوجههٍ، فإذا التفت أعرض الله عنه**، وقال: **يا ابن آدم أنا خير ممن تلتفت إليه فإذا أقبل على صلاته أقبل الله عليه فإذا التفت أعرض الله عنه**».

وقال ابن عمر: عن النبي ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فلا يتنخمَن تجاهَ وجْهِ الرحمن**».

وقال أبو هريرة: عن النبي ﷺ: «**إن العبد إذا قام إلى الصلاةِ فإنه بين عيني الرحمن فإذا التفت قال له: ابن آدم إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني تلتفت**».

...[1]**بقي** النظر في ترجيح أحد قولي الاجتهاد والتخيير في مسألة القبلة على الآخر، فمن نصر التخيير احتج بما في الترمذي وسنن ابن ماجة، عن عامر بن ربيعة،عن أبيه قال: «**كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلَّى كل رجل على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فنزل ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾**» [البقرة:١١٥]. قال الترمذي:هذا حديث حسن إلا إنه من حديث أشعث السمان وفيه ضعف.

وروى الدارقطني، من حديث عطاء، عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في مسير فأصابنا غيم فتحيرنا فاختلفنا في القبلة، فصلى كل رجل منا على حدة، وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا فذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة فقال: «**قد أجزأتكم صلاتكم**». قال الدارقطني: رواه محمد بن سالم، عن عطاء.

قال: ويروى أيضًا، عن محمد بن عبدالله العزرمي، عن عطاء، وكلاهما ضعيف. وقال العقيلي: لا يروى متن هذا الحديث من وجه يَثْبت.

---

(١) ٣٦٠ بدائع جـ٣.

واحتجوا أيضًا بما تقدم حكايته أن الله لم يأمر بالاستقبال إلا من كان عالمًا به وقادرًا عليه، وأما العاجز الجاهل فساقط عنه فرض الاستقبال فلا يكلَّف به.

ومن نصر الاجتهاد احتج بأن الله تعالى أوجب على العبد أن يتقيه ما استطاع، وهذا مقتضى وجوب الاجتهاد عليه في تقوى ربه تعالى، والتقوى هي: فعل ما أمر وترك ما نهى.

قالوا: وأيضًا فإنه من المعلوم أنه إذا قام إلى الصلاة، لم يجز له أن يستقبل أي جهة شاء ابتداء؛ بل ينظر إلى مطالع الكواكب ومساقطها وسمت جهة القبلة، حتى إذا علم جهتها استقبلها وهذا نوع اجتهاد، وأدلة الجهة متفاوتة الخفاء والظهور، فيجب على كل أحد فعل مقدوره من ذلك فإن لم يصبها قطعًا أصابها ظنًّا، وهو الذي يقدر عليه، فمتى ترك مقدوره لم يكن قد اتقى الله بحسب استطاعته.

وقولكم: إن الله إنما أوجب الاستقبال على القادر عليه العالم به.

قلنا: الله سبحانه وتعالى أوجب على كل عبد ما تؤديه إليه استطاعته من طاعته، فإذا عجز عن هذا اليقين وأدلة الجهة سقط عنه؛ ولكن من أين يسقط عنه بذل وسعه ومقدوره اللائق به؟.

(١)**قوله** تعالى: ﴿وقَالوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة:١١٦،١١٧]. إلى قوله: ﴿كُنْ فَيَكُون﴾.

فرد عليهم سبحانه دعواهم له اتخاذ الولد ونزه نفسه عنه. ثم ذكر أربع حجج على استحالة اتخاذه الولد:

أحدها: كون ما في السموات والأرض ملكًا له، وهذا ينافي أن يكون فيهما ولد له؛ لأن الولد بعض الوالد وشريكه فلا يكون مخلوقًا له مملوكًا له؛ لأن المخلوق مملوك مربوب عبد من العبيد، والابن نظير الأب فكيف يكون عبده تعالى ومخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره. فهذا من أبطل الباطل.

وأكد مضمون هذه الحجة بقوله: ﴿كل له قانتون﴾. [البقرة:١١٦]. فهذا تقرير لعبوديتهم له وأنهم مملوكون مربوبون، ليس فيهم شريك ولا نظير ولا ولد، فإثبات الولد لله من أعظم الإشراك به، فإن المشرك به جعل له شريكًا من مخلوقاته مع اعترافه بأنه مملوك،

(١) ١٥٢ بدائع جـ٤.

كما كان المشركون يقولون في تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلّا شريكًا هو لك تملكه وما ملك، فكانوا يجعلون من أشركوا به مملوكًا له عبدًا مخلوقًا.

والنصارى جعلوا له شريكًا هو نظيره، وجزء من أجزائه.

كما جعل بعض المشركين الملائكة بناته فقال تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا**﴾. [الزخرف: ١٥].

فإذا كان له ما في السموات والأرض عبيد قانتون مربوبون مملوكون؛ استحال أن يكون له منهم شريك، وكل من أقر بأن لله ما في السموات وما في الأرض؛ لزمه أن يقر له بالتوحيد ولا بد.

ولهذا يحتج سبحانه على المشركين بإقرارهم بذلك كقوله: ﴿**قُل لمن الأرْضُ ومَنْ فِيها إنْ كُنْتُم تَعلمُون. سَيَقُولُون لله قُلْ أفَلا تَذكَّرون**﴾. [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]. وسيأتي إن شاء تعالى مزيد بيان لهذا في موضعه.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿**بَدِيْعُ السَّموات والأرْض**﴾. [البقرة: ١١٧]. وهذه من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه؛ ولهذا قال في سورة الأنعام: ﴿**بَدِيعُ السَّمَواتِ والأرْضِ أنَّى يَكُون له وَلَدٌ**﴾ [الأنعام: ١٠١]. أي: من أين يكون لبديع السموات والأرض ولد؟

ووجه تقرير هذه الحجة: أن من اخترع هذه السموات والأرض مع عظمهما وآياتهما وفطرهما وابتدعهما، فهو قادر على اختراع ما هو دونهما ولا نسبة له إليهما ألبتة، فكيف يخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه ويجعلونه نظيراً وشريكًا وجزءاً؛ مع أنه تعالى بديع العالم العلوي والسفلي وفاطره ومخترعه وبارئه؟ فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب حتى يقولوا: إنه ولده، فإذا كان قد ابتدع العالم علويَّه وسفليَّه، فما يعجزه ويمنعه عن إبداع هذا العبد وتكوينه وخلقه بالقدرة التي خلق بها العالم العلوي والسفلي؟.

فمن نسب الولد لله، فما عرف الرب تعالى ولا آمن به ولا عَبَدَه.

فظهر أن هذه الحجة من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه.

وإن شئت أن تقرر الاستدلال بوجه آخر وهو أن يقال: إذا كان نسبة السموات والأرض وما فيهما إليه، إنما هي بالاختراع والخلق والإبداع؛ أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود، فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالبنوة؛ وقدرته على

اختراع العالم وما فيه لم تزل ولم يحتج فيها إلى معاون ولا صاحب ولا شريك.

وإن شئت أن تقررها بوجه آخر فتقول: النسبة إليه بالبنوة تستلزم حاجته وفقره إلى محل الولادة، وذلك ينافي غناه وانفراده بإبداع السموات والأرض. وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿**قَالوا اتَّخذ الله ولدًا سُبحانه هو الغنيُّ له ما في السموات وما في الأرض**﴾. [يونس: ٦٨]. فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يحيل نسبة الولد إليه، ونسبته إليه تقدح في كمال ربوبيته، وكمال غناه وكمال قدرته. ولذلك كان نسبة الولد إليه مسبة له تبارك وتعالى.

كما ثبت في الصحيحين، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**يقول الله تعالى: شتمني عبدي ابنُ آدم وما ينبغي له ذلك، وكَذبني ابنُ آدم وما ينبغي له ذلك، أما شَتْمُه إيايَّ فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحدُ الصمدُ الذي لم ألدْ ولم أُولدْ ولم يكن لي كُفُوًا أحد. وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يُعيدني كما بدأني وليس أولُ الخلقِ بأهْوَن علي من إعادته**».

وقال عمر بن الخطاب في النصارى: «**أذلوهم ولا تظلموهم؛ فلقد سبوا الله مسبةً ما سبَّه إياها أحد من البشر**».

وقال تعالى: ﴿**وَينذرَ الذين قالوا اتَّخذ الله ولدًا ما لهُمْ به من عِلْم ولا لآبائهم**﴾. [الكهف: ٥٤]. الآية.

وأخبر تعالى أنَّ السَمَوات كَادت تنفطر من قولهم هذا، وتَنْشَقَ الأرْض مِنْهُ، وتَخِر الجبال هدًّا، وما ذاك إلا لتضمنه شتم الرب تبارك وتعالى والتنقصَ به، ونسبة ما يمنع كمال ربوبيته وقدرته وغناه إليه.

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿**وإذَا قَضَى أمْرًا فَإنَّمَا يَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُون**﴾. [البقرة: ١١٧]

وتقرير هذه الحجة: أن من كانت قدرته تعالى كافية في إيجاد ما يريد إيجاده بمجرد أمره وقوله: ﴿**كُن**﴾ فأي حاجة به إلى ولد وهو لا يتكثّر به من قلة ولا يتعزز به، ولا يستعين به، ولا يعجز عن خلق ما يريد خلقه؟! وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق، ولا إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، وهذا المخلوقُ(١) العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد.

وقد ذكر تعالى حججًا أخرى على استحالة نسبة الولد إليه فنذكرها في

(١) هذه الكلمة (المخلوقُ) معطوفة على مَنْ الموصولة السابقة التي هي في محل رفع فاعل. المراجع.

هـذا المـوضـع:

منها: كمال علمه وعموم خلقه لكل شيء، واستحالة نسبة الصاحبة إليه فقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿بَديع السموات والأرْض أنى يَكُون لَهُ وَلَد وَلَم تَكُنْ لَهُ صاحبة﴾. [الأنعام: ١٠١]. الآية.

فأمّا منافاة عموم خلقه لنسبة الولد إليه فظاهر؛ فإنه لو كان له ولد لم يكن مخلوقًا، بل جزءًا وهذا ينافي كونه خالق كل شيء.

وبهذا يُعلم أن الفلاسفة الذين يقولون بتولد العقول والنفوس عنه بواسطة أو بغير واسطة، شرٌّ من النصارى، وأن من زعم أن العالم قديم فقد أخرجه عن كونه مخلوقًا لله، وقوله: أخبث من قول النصارى؛ لأن النصارى أخرجوا عن عموم خلقه شخصًا واحدًا أو شخصين، ومن قال بقدم العالم فقد أخرج العالم العلوي والسفلي والملائكة عن كونه مخلوقًا لله، والنصارى لم يصل كفرهم إلى هذا الحد.

وأما منـافاة عدم الصاحبة للولد فظاهر أيضًا؛ لأن الولد إنما يتولد من أصلين: فاعل، ومحل قابل يتصلان اتصالاً خاصًا، فينفصل من أحدهما جزء في الآخر يكون منه الولد، فمن ليس له صاحبة كيف يكون له ولد؛ ولذلك لما فهم عوام النصارى أن الابن يستلزم الصاحبة، لم يستنكفوا من دعوى كون مريم إلهة وأنها والدة الإله عيسى، فيقول عوامهم: يا والدة الإله اغفري لي، ويصرح بعضهم بأنها زوجة الرب.

ولا ريب أن القول بالإيلاد يستلزم ذلك، أو إثبات إيلاد لا يعقل ولا يتوهم، فخـواص النصارى في حيرة وضلال، وعوامهم لا يستنكفون أن يقولوا بالزوجة والإيلاد المعقول، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

والقوم في هذا المذهب الخبيث أضل خلق الله، فهم كما وصفهم الله بأنهم: ﴿قد ضلوا من قبلُ وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواءِ السبيل﴾ [المائدة: ٧٧].

وأما منافاة عموم علمه تعالى للولد فيحتاج إلى فهم خاص.

وتقريره أن يقال: لو كان له ولد لعلمه لأنه بكل شيء عليم، وهو تعالى لا يعلم له ولـدًا فيستحيل أن يكون له ولد لا يعلمه، وهذا استدلال بنفي علمه للشيء على نفيه في نفسه، إذ لو كان لَعَلِمَهُ، فحيث لم يعلمه فهو غير كائن.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُون مِنْ دُونِ الله مَالا يَضرُّهُم ولا يَنْفَعُهُمْ﴾.

[يونس: ١٨]. الآية. فهذا نفي لما ادعوه من الشفعاء بنفي علم الرب تعالى بهم، المستلزم لنفي المعلوم ولا يمكن أعداء الله المكابرة، وأن يقولوا: قد علم الله وجود ذلك؛ لأنه تعالى إنما يعلم وجود ما أوجده وكونه، ويعلم أنه سيوجد ما يريد إيجاده فهو يعلم نفسه وصفاته، ويعلم مخلوقاته التي دخلت في الوجود وانقطعت، والتي دخلت في الوجود وبقيت، والتي لم توجد بعد. وأما شيء آخر غير مخلوق له ولا مربـوب فالرب تعالى لا يعلمه؛ لأنه مستحيل في نفسه فهو يعلمه مستحيلاً لا يعلمه واقعًا؛ إذ لو عَلِمه واقعًا لكان العلم به عين الجهل، وذلك من أعظم المحال.

فهذه حجج الرب تبارك وتعالى على بطلان مانسبه إليه أعداؤه المفترون عليه، فوازن بينها وبين حجج المتكلمين الطويلة العريضة، التي هي كالضريع الذي لا يُسمِن ولا يُغني من جوع.

فإذا وازنت بينهما ظهرت لك المفاضلة إن كنت بصيرًا، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

فالحمد لله الذي أغنى عباده المؤمنين بكتابه وما أودعه من حججه وبيناته عن شقـاشق المتكلمين وهذيانات المتهوكين، فلقد عظمت نعمة الله على عبد أغناه بفهم كتابه عن الفقر إلى غيره ﴿**أوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أنَّا أنْزلنا عَلَيْك الكِتَابَ يُتْلَى عليهم إنَّ في ذَلِكَ لَرَحْمَةً وذِكْرَى لِقَوم يؤمِنُون**﴾. [العنكبوت: ٥١].

...[1]**ولا** خلاف بين أهـل اللغة أن الذرية يقال على الأولاد الصغار، وعلى الكبار أيضًا قال تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إبْرَاهِيم ربُّه بِكَلِمَاتٍ فَأتَمّهن قَال إني جَاعِلُك للنَّاس إمَامًا قَال ومِنْ ذُرِيَّتِي**﴾. [البقرة: ١٢٤].

وقـال تعـالى: ﴿**إنَّ اللهَ اصْـطَفَى آدَم وَنُـوحًـا وآلَ إبْرَاهِيم وآلَ عِمْرَان على العـالَمِين. ذُرِّيَّةً بَعْضُها من بَعْض**﴾. [آل عمران: ٣٣، ٣٤]. وقال: ﴿**وَمِنْ آبائِهِم وذُرِيَّاتِهِمْ وإخْوَانِهِمْ واجْتَبَيْنَاهُم وَهَدَيناهُمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**﴾. [الأنعام: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿**وآتَيْنا مُوسى الكِتَابَ وَجَعَلْناه هُدًى لِبَني إسْرَائِيلَ أن لَا تتخذوا من دوني وكيلاً. ذريةَ مَنْ حملنا مع نوحٍ إنَّهُ كان عبدًا شكورًا**﴾. [الإسراء: ٢، ٣].

وهل تقال الذرية على الآباء؟ فيه قولان: أحدهما أنهم يسمون ذرية أيضًا.

(١) ١٥٠/ جلاء الأفهام.

واحتجوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وآيةٌ لهم أنَّا حملنا ذُرِّيَّتَهم في الفُلْك المَشْحون﴾. [يس: ٤١].

وأنكر ذلك جماعة من أهل اللغة، وقالوا: لا يجوز هذا في اللغة، والذرية كالنسل، والعقب لا يكون إلا للعمود الأسفل. ولهذا قال تعالى: ﴿ومن آبائِهم وذُرِّيَّاتِهم وإخوانِهم﴾. [الأنعام: ٨٧]. فذكر جهات النسب الثلاث من فوق، ومن أسفل، ومن الأطراف.

قالوا: وأما الآية التي استشهدتم بها فلا دليل لكم فيها، لأن الذرية فيها لم تضف إليهم بوجه ما، والإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص. وإذا كان الشاعر قد أضاف الكوكب في قوله:

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحره — سهيل أذاعت غزلها في القرائب

فأضاف إليها الكوكب؛ لأنها كانت تغزل إذا لاح وظهر. والاسم قد يضاف بوجهين مختلفين إلى شيئين، وجهة إضافته إلى أحدهما غير جهة إضافته إلى الآخر.

قال أبو طالب في النبي ﷺ:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب — لدينا ولا يعزي لقول الأباطل

فأضاف بنوته بجهة غير جهة إضافته إلى أبيه عبدالله.

وهكذا لفظة رسول الله، فإن الله سبحانه يضيفه إليه تارة كقوله: ﴿قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا﴾. [المائدة: ١٥]. وتارة إلى المرسل إليهم كقوله: ﴿أَمْ لَم يَعْرِفُوا رَسولَهُم﴾. [المؤمنون: ٦٩]. فإضافته سبحانه إليه إضافة رسول إلى مرسله. وإضافته إليهم إضافة رسول إلى مرسل إليهم.

وكذا لفظ «كتابه» فإنه يضاف إليه تارة. فيقال كتاب الله. ويضاف إلى العباد تارة فيقال: كتابنا القرآن، وكتابنا خير الكتب، وهذا كثير، فهكذا لفظ الذرية أضيف إليهم بجهة غير الجهة التي أضيف بها إلى آبائهم.

وقالت طائفة: بل المراد جنس بني آدم ولم يقصد الإضافة إلى الموجود في زمن النبي ﷺ، وإنما أريد ذرية الجنس.

وقالت طائفة: بل المراد بالذرية نفسها. وهذا أبلغ في قدرته وتعديد نعمه عليهم. أن حمل ذريتهم في الفلك في أصلاب آبائهم، والمعنى: أنا حملنا الذين هم ذرية هؤلاء وهم نطف في أصلاب الآباء. وقد أشبعنا الكلام على ذلك في

كتاب الروح والنفس.

إذا ثبت هذا فالذرية: الأولاد، وأولادهم.

وهل يدخل فيها أولاد البنات؟ فيه قولان للعلماء هما روايتان عن أحمد:

أحدهما: يدخلون وهو مذهب الشافعي.

والثاني: لا يدخلون وهو مذهب أبي حنيفة رحمهم الله تعالى.

واحتج من قال بدخولهم: بأن المسلمين مجمعون على دخول أولاد فاطمة رضي الله عنها في ذرية النبي ﷺ، المطلوب لهم من الله الصلاة؛ لأن أحدًا من بناته لم يعقب غيرها، فمن انتسب إليه ﷺ، من أولاد ابنته، فإنما هو من جهة فاطمة رضي الله عنها خاصة. ولهذا قال النبي ﷺ في الحسن ابن ابنته: «**إن ابني هذا سيد**» فسماه ابنه.

ولما أنزل الله سبحانه آية المباهلة ﴿**فَمَن حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعدِ ما جَاءكَ مِن العِلْمِ فَقُلْ تَعَالوا نَدْعُ أبناءَنا وأَبْنَاءَكم**﴾. [آل عمران: ٦١]. الآية؛ دعا النبي ﷺ فاطمة رضي الله عنها، وحسنًا رضي الله عنه، وحسينًا رضي الله عنه وخرج للمباهلة.

قالوا: وأيضًا فقد قال تعالى في حق إبراهيم: ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوِدَ وسُليمانَ وأيوبَ ويُوسُفَ ومُوسى وهَارُونَ وكَذَلِكَ نَجزِي المُحْسِنِين. وزَكَرِيَّا ويَحْيى وعِيسى وإليَاس**﴾. [الأنعام: ٨٤، ٨٥]. ومعلوم أن عيسى لم ينتسب إلى إبراهيم إلا من جهة أمه مريم.

وأما من قال بعدم دخولهم: فحجته أن ولد البنات إنما ينتسبون إلى آبائهم حقيقة، ولهذا إذا ولد الهذلي أو التيمي أو العدوي هاشمية لم يكن ولدها هاشميًا، فإن الولد في النسب يتبع أباه وفي الحرية والرق أمه، وفي الدين خيرهما دينًا؛ ولهذا قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهن أبناء الرجال الأباعد

ولو وصى أو وقف على قبيلة لم يدخل فيها أولاد بناتها من غيرها.

قالوا: وأما دخول فاطمة رضي الله عنها في ذرية النبي ﷺ، فلشرف هذا الأصل العظيم والوالد الكريم، الذي لا يدانيه أحد من العالمين. سرى ونفذ إلى أولاد البنات لقوته وجلالته وعظم قدره، ونحن نرى من لا نسبة له إلى هذا الجناب العظيم من العظماء والملوك وغيرهم تسري حرمة إيلادهم وأبوتهم إلى أولاد بناتهم،

فتلحظهم العيون بلحظ أبنائهم ويكادون يضربون عن ذكر آبائهم صفحًا، فما الظن بهذا الإيلاد العظيم قدره الجليل خطره؟.

قالوا: وأما تمسككم بدخول المسيح في ذرية إبراهيم فلا حجة لكم فيه. فإن المسيح لم يكن له أب، فنسبه من جهة الأب مستحيل فقامت أمه مقام أبيه.

وهكذا كل من انقطع نسبه من جهة الأب: إما بلعان، أو غيره، قامت أمه في النسب مقام أبيه وأمه، ولهذا تكون في هذه الحال عصبته في أصح الأقوال. وهو إحدى الروايات عن الإمام أحمد رحمه الله. وهو مقتضى النصوص، وقول ابن مسعود وغيره. والقياس يشهد له بالصحة. لأن النسب في الأصل للأب، فإذا انقطع من جهته عاد إلى الأم فلو قدر عوده من جهة الأب رجع من الأم إليه وهكذا.

كما اتفق الناس عليه في الولاء أنه لموالي الأب. فإن تعذر رجوعه إليهم صار لموالي الأم. فإن أمكن عوده إليهم رجع من موالي الأم إلى معدنه وقراره.

ومعلوم أن الولاء فرع على النسب يحتذي فيه حذوه، فإذا كان عصبات الأم من الولاء، عصبات لهذا المولى الذي انقطع تعصيبه من جهة موالي أبيه؛ فلأن تكون عصبات الأم من النسب، عصبات لهذا الولد الذي انقطع تعصيبه من جهة أبيه بطريق الأولى. وإلا فكيف يثبت هذا الحكم في الولاء ولا يثبت في النسب الذي غايته أن يكون شبيهًا به ومفرعًا عليه، وهذا مما يدل على أن القياس الصحيح لا يفارق النص أصلًا، ويدلك على عمق علم الصحابة رضي الله عنهم، وبلوغهم في العلم إلى غاية يقصر عن نيلها السباق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.(١)

(٢)**وتأمل** كيف جاء في القرآن: ﴿**وباركنا عليه وعلى إسحاق**﴾. [الصآفات: ١٣٠] ولم يذكر إسماعيل، وجاء في التوراة ذكر البركة على إسماعيل ولم يذكر إسحاق، كما تقدم حكايته وعن إسماعيل: «**سمعتك هانا باركته**». فجاء في التوراة ذكر البركة في إسماعيل إيذانًا بما حصل لبنيه من الخير والبركة، لاسيما خاتمة بركتهم وأعظمها وأجلها برسول الله ﷺ، فنبههم بذلك على ما يكون في بنيه من هذه البركة العظيمة الموافية على لسان المبارك ﷺ، وذكر لنا في القرآن بركته على إسحاق منبهًا لنا على ما حصل

(١) سيأتي ذكر خليل الله إبراهيم في سورة الصافات وذكر فضائله وأهل بيته بأوسع من هذا إن شاء الله فراجعه(ج).
(٢) ١٨١ جلاء الأفهام.

في أولاده من نبوة موسى وغيره، وما أوتوه من الكتاب والعلم مستدعيًا من عباده الإيمان بذلك والتصديق به، وأن لا يهملوا معرفة حقوق هذا البيت المبارك وأهل النبوة منهم، ولا يقول القائل: هؤلاء أنبياء بني إسرائيل لا تعلق لنا بهم؛ بل يجب علينا احترامهم وتوقيرهم والإيمان بهم ومحبتهم وموالاتهم والثناء عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولما كان هذا البيت المبارك المطهر أشرف بيوت العالم على الإطلاق، خصهم الله سبحانه منه بخصائص:

منها: أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته.

ومنها: أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم، فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم.

ومنها: أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين: إبراهيم، ومحمدًا ﷺ، وقال تعالى ﴿**وَاتَّخَذَ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾. [النساء: ١٢٥]. وقال النبي ﷺ: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيمَ خليلاً**» وهذا من خواص هذا البيت.

ومنها: أنه سبحانه جعل صاحب هذا البيت إمامًا للعالمين كما قال تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلى إِبْرَاهِيم رَبُّه بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَهُنَّ قَالَ إِني جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماما**﴾. [البقرة: ١٢٤].

ومنها: أنه أجرى على يديه بناء بيته الذي جعله قيامًا للناس وقبلة لهم وحجًّا، فكان ظهور هذا البيت من أهل هذا البيت الأكرمين.

ومنها: أنه أمر عباده بأن يصلوا على أهل هذا البيت، كما صلى على أهل بيتهم وسلفهم وهم إبراهيم وآله، وهذه خاصية لهم.

ومنها: أنه أخرج منهم الأمتين المعظمتين التي لم تخرج من أهل بيت غيرهم. وهم: أمة موسى، وأمة محمد. وأمة محمد ﷺ تمام سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله.

ومنها: أن الله سبحانه أبقى عليهم لسان صدق وثناء حسنًا في العالم، فلا يذكرون إلا بالثناء عليهم والصلاة والسلام عليهم قال الله تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِيْنَ. سَلامٌ على إِبْرَاهِيْمَ. كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِين**﴾. [الصافات: ١٠٨-١١٠].

ومنها: جعل أهل هذا البيت فرقانًا بين الناس، فالسعداء أتباعهم ومحبوهم ومن تولاهم، والأشقياء من أبغضهم وأعرض عنهم وعاداهم. فالجنة لهم

ولأتباعهم، والنار لأعدائهم ومخالفيهم.

ومنها: أنه سبحانه جعل ذكرهم مقرونًا بذكره. فيقال: إبراهيم خليل الله ورسوله ونبيه. ومحمد رسول الله وخليله ونبيه. وموسى كليم الله ورسوله. قال تعالى لنبيِّه يذكره بنعمته عليه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. [الشرح: ٤]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا ذُكرتُ ذكرتَ معي. فيقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله في كلمة الإسلام، وفي الأذان، وفي الخطب. وفي التشهدات وغير ذلك.

ومنها: أنه سبحانه جعل خلاص خَلْقه من شقاء الدنيا والآخرة على أيدي أهل هذا البيت. فلهم على الناس من النعم مالا يمكن إحصاؤها ولا جزاؤها، ولهم المنن الجسام في رقاب الأولين والآخرين من أهل السعادة، والأيدي العظام عندهم التي يجازيهم الله عز وجل عليها.

ومنها: أن كل ضرر[1] ونفع وعمل صالح وطاعة لله تعالى حصلت في العالم، فلهم من الأجر مثل أجور عامليها. فسبحان من يختص بفضله من يشاء من عباده.

ومنها: أنه سبحانه وتعالى سد جميع الطرق بينه وبين العالمين وأغلق دونهم الأبواب، فلم يفتح لأحد قط إلا من طريقهم وبابهم.

قال الجنيد رضي الله عنه: يقول الله عز وجل لرسوله ﷺ: «**وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق أو استفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك**».

ومنها: أنه سبحانه خصهم من العلم بما لم يخص به أهل بيت سواهم من العالمين، فلم يطرق العالم أهل بيت أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكامه وأفعاله وثوابه وعقابه وشرعه، ومواقع رضاه وغضبه وملائكته ومخلوقاته منهم، فسبحان من جمع لهم علم الأولين والآخرين.

ومنها: أنه سبحانه خصهم من توحيده ومحبته وقربه والاختصاص به، بما لم يخص به أهل بيت سواهم.

ومنها: أنه سبحانه مكّن لهم في الأرض واستخلفهم فيها، وأطاع لهم أهل الأرض ما لم يحصل لغيرهم.

ومنها: أنه سبحانه أيدهم ونصرهم وأظفرهم بأعدائه وأعدائهم بما لم يؤيد غيرهم.

(١) قلت: [هكذا في المطبوعة، والصواب حذفها إذ المقام مقام مدح. وإثباتها تستلزم الذم] ا.هـ المراجع.

ومنها: أنه سبحانه محا بهم من آثار أهل الضلال والشرك، ومن الآثار التي يبغضها ويمقتها ما لم يمحه بسواهم.

ومنها: أنه سبحانه غرس لهم من المحبة والإجلال والتعظيم في قلوب العالمين، ما لم يغرسه لغيرهم.

ومنها: أنه سبحانه جعل آثارهم في الأرض سببًا لبقاء العالم وحفظه، فلا يزال العالم باقيًا ما بقيت آثارهم، فإذا ذهبت آثارهم من الأرض فذاك أوان خراب العالم. قال الله تعالى: ﴿**جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الحَرَامَ وَالهَدْيَ وَالقَلائِدَ**﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: «**لو ترك الناس كلهم الحج لوقعت السماء على الأرض**» وقال: «**لو ترك الناس كلهم الحج لما نظروا**» وأخبر النبي ﷺ، أن في آخر الزمان يرفع الله بيته من الأرض وكلامه من المصاحف وصدور الرجال، فلا يبق له في الأرض بيت يحج ولا كلام يتلى، فحينئذ يقرب خراب العالم.

وهكذا الناس اليوم إنما قيامهم بقيام آثار نبيهم وشرائعه بينهم. وقيام أمورهم وحصول مصالحهم واندفاع أنواع البلاء والشر عنهم؛ بحسب ظهورها بينهم وقيامها وهلاكهم وعنتهم وحلول البلاء والشر بهم، عند تعطلها والإعراض عنها والتحاكم إلى غيرها واتخاذ سواها.

ومن تأمل تسليط الله سبحانه من سلَّطه على البلاد والعباد من الأعداء؛ علم أن ذلك بسبب تعطيلهم لدين نبيهم وسننه وشرائعه؛ فسلط الله عليهم من أهلكهم وانتقم منهم، حتى إن البلاد التي لآثار النبي ﷺ، وسننه وشرائعه فيها ظهور دفع عنها، بحسب ظهور ذلك بينهم.

وهذه الخصائص وأضعاف أضعافها من آثار رحمة الله وبركاته على أهل هذا البيت. فلهذا أمرنا رسول الله ﷺ أن نطلب له من الله تعالى أن يبارك عليه وعلى آله، كما بارك على هذا البيت المعظم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن بركات أهل هذا البيت أنه سبحانه أظهر على أيديهم من بركات الدنيا والآخرة، ما لم يظهره على يدي أهل بيت غيرهم.

ومن بركاتهم وخصائصهم أن الله سبحانه أعطاهم من خصائصهم، ما لم يعط غيرهم **فمنهم:** من اتخذه خليلاً، ومنهم الذبيح، ومنهم من كلمه تكليمًا وقربه نجيًّا.

ومنهم: من أتاه شطر الحسن وجعله من أكرم الناس عليه.

ومنهم: من آتاه ملكًا لم يؤته أحدًا غيره، ومنهم من رفعه مكانًا عليًّا.

ولما ذكر سبحانه هذا البيت وذريتهم أخبر أن كلهم فضله على العالمين.

ومن خصائصهم وبركاتهم على أهل الأرض، أن الله سبحانه رفع العذاب العام عن أهل الأرض بهم وببعثتهم، وكانت عادته سبحانه في أمم الأنبياء قبلهم أنهم إذا كذبوا أنبياءهم ورسلهم أهلكهم بعذاب يعمهم كما فعل بقوم نوح وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط؛ فلما أنزل الله التوراة والإنجيل والقرآن، رفع بها العذاب العام عن أهل الأرض وأمر بجهاد من كذبهم وخالفهم. فكان بذلك نصرة لهم بأيديهم، وشفاء لصدورهم، واتخاذ الشهداء منهم وإهلاك عدوهم بأيديهم لتحصيل محابه سبحانه على أيديهم.

وحق لأهل بيت هذا بعض فضائلهم وخصائصهم؛ أن لا تزال الألسن رطبة بالصلاة عليهم والسلام والثناء والتعظيم، والقلوب ممتلئة من تعظيمهم ومحبتهم وإجلالهم، وأن يعرف المصلي عليهم أنه لو أنفق أنفاسه كلها في الصلاة عليهم ما وفَّى القليل من حقهم، فجزاهم الله عن بريته أفضل الجزاء، وزادهم في الملأ الأعلى تعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا، وصلى الله عليهم صلاة دائمة لا انقطاع لها وسلم تسليمًا كثيراً إلى يوم الدين.

(١)**قوله** تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَو نَصَارى تَهْتَدُوا﴾. [البقرة: ١٣٥]. فأُجيبوا عن هذه الدعوة بقوله: ﴿قُل بل ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين﴾. وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة:

أما المنع فما تضمنه حرف (بل) من الإضراب أي: ليس الأمر كما قالوا. وأما المعارضة ففي قوله: ﴿مِلَةَ إِبْرَاهِيم حَنِيْفًا﴾ أي: يتبع أو يتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا.

وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب، مما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية، لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك، ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد، فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية، فإن الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه، وهو الفطرة التي فطر الله عليها عباده، فمن كان عليها فهو المهتدي لا من كان يهوديًّا أو نصرانيًّا.

---

(١) ١٥٥ بدائع جـ٤.

فإن الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل.

والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره؛ فيُعبَد وحده ويُحب وحده ويطاع وحده، ولا يجعل معه إلهًا آخر، فمن أولى بالهداية صاحب هذه الملة أو ملة اليهودية والنصرانية؟

ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد. وهو أن يقولوا: فنحن على ملته أيضًا لم نخرج عنها وإبراهيم وبنوه كانوا هودًا أو نصارى.

فأجيبوا عن هذا السؤال بأنهم كاذبون فيه، وأن الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا فقال تعالى: ﴿**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى**﴾. [البقرة: ١٤٠]. الآية وقرر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا**﴾. إلى قوله: ﴿**وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾. [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

فإن قالوا: فهب أن إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا فنحن على ملته وإن انتحلنا هذا الاسم.

فأجيبوا عن هذا بقوله تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾. [البقرة: ١٣٦]. فهذه للمؤمنين.

ثم قال: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا**﴾ [البقرة: ١٣٧]. وإن أتوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به، فهم على ملة إبراهيم وهم مهتدون، وإن لم يأتوا بإيمان مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم وملته في شيء، وإنما هم في شقاق وعداوة فإن ملة إبراهيم الإيمان بالله وكتبه ورسله، وأن لا يفرق بين أحد منهم فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعضهم، فمن لم يأت بمثل هذا الإيمان فهو بريء من ملة إبراهيم مشاق لمن هو على ملته.

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَأَنْتُم أَعْلَمُ أَمِ اللهُ**﴾. [البقرة: ١٤٠]. أي: الله تعالى يعلم ما كان عليه إبراهيم والنبيون من الملل، وأنهم لم يكونوا يهودًا ولا نصارى فالله تعالى يعلم ذلك، فلو كانوا يهودًا أو نصارى والله تعالى لا يعلم ذلك لكنتم أعلم من الله بهم، هذا مع أن عندكم شهادة وبيّنة من الله بما كان عليه إبراهيم، وبأن هذا النبي على ملته ولكنكم كتمتم هذه الشهادة عن أتباعكم؛ فلم تؤدوها إليهم مع تحققكم لها، ولا أظلم ممن كتم شهادة استشهده الله بها فهي عنده من الله؛ إلا أنه كتمها من الله فالمجرور

متعلق بما تضمنه الظرف الذي هو عنده من الكون والحصول.

(١) **قوله** تعالى: ﴿**بِمِثْلِ ما آمَنْتُم بِهِ**﴾ وليس له مثل والجواب من أوجه:

الأول: أن المراد به التبكيت والمعنى: حصلوا دينًا آخر مثله وهو لا يمكن.

الثاني: أن المثل صلة.

الثالث: أنكم آمنتم بالفرقان من غير تصحيف ولا تحريف، فإن آمنوا بالتوراة من غير تصحيف ولا تحريف فقد اهتدوا.

الرابع: أن المراد: إن آمنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين، روى ابن جرير أن ابن عباس قال: **قولوا فإن آمنوا بالذي آمنتم به**. قال عبد الجبار: ولا يجوز ترك القراءة المتواترة.

(٢)الفصل السابع في حكمة الختان وفوائده

الختان من محاسن الشرائع التي شرعها الله سبحانه لعباده، وكمل بها محاسنهم الظاهرة والباطنة، فهو مكمل الفطرة التي فطرهم عليها، ولهذا كان من تمام الحنيفية ملة إبراهيم، وأصل مشروعية الختان لتكميل الحنيفية، فإن الله عز وجل لما عاهد إبراهيم ووعده أن يجعله للناس إمامًا، وعده أن يكون أبًا لشعوب كثيرة، وأن تكون الأنبياء والملوك من صلبه، وأن يكثر نسله، وأخبره أنه جاعل بينه وبين نسله علامة العهد أن يختنوا كل مولود منهم، ويكون عهدي هذا ميسمًا في أجسادهم، فالختان عَلم للدخول في ملة إبراهيم، وهذا موافق لتأويل من تأول قوله تعالى: ﴿**صِبْغَةَ الله وَمَن أَحْسَنُ مِنْ الله صِبْغَةً**﴾ [البقرة:١٣٨]. على الختان.

فالختان للحنفاء بمنزلة الصبغ والتعميد لعباد الصليب، فهم يطهرون أولادهم بزعمهم حين يصبغونهم في ماء المعمودية، ويقولون: الآن صار نصرانيًّا، فشرع الله سبحانه للحنفاء صبغة الحنيفية، وجعل ميسمها الختان، فقال: ﴿**صِبْغَةَ الله ومَنْ أَحْسَنُ مِن الله صِبْغَةً**﴾.

وقد جعل الله سبحانه السمات علامات لمن يضاف إليه المعلم بها، ولهذا الناس يسمون دوابهم ومواشيهم بأنواع السمات، حتى ما يكون مضاف منها إلى كل إنسان معروفًا بسمته، ثم قد تكون هذه السمة متوارثة في أمة بعد أمة.

فجعل الله سبحانه الختان علمًا لمن يضاف إليه وإلى دينه وملته، وينسب إليه

---

(١) ٢٠٨ بدائع جـ٤.	(٢) ١٠٩ تحفة المودود.

بنسبة العبودية والحنيفية، حتى إذا جهلت حال إنسان في دينه عرف بسمة الختان ودينه، وكانت العرب تدعى بأمة الختان.

ولهذا في حديث هرقل: إني أجد ملك الختان قد ظهر، فقال له أصحابه: لا يهمنك هذا، فإنما تختتن اليهود فاقتلهم، فبينما هم على ذلك، وإذا برسول رسول الله ﷺ، قد جاء بكتابه، فأمر به أن يكشف وينظر هل هو مختون؟ فوجد مختونًا، فلما أخبره أن العرب تختتن، قال هذا ملك هذه الأمة.

ولما كانت وقعة أجنادين بين المسلمين والروم جعل هشام بن العاص يقول: يا معشر المسلمين! إن هؤلاء القلف لا صبر لهم على السيف، فذكرهم بشعار عباد الصليب ودينهم، وجعله مما يوجب إقدام الحنفاء عليهم وتطهير الأرض منهم.

والمقصود أن صبغة الله هي الحنيفية التي صبغت القلوب بمعرفته ومحبته والإخلاص له وعبادته وحده لا شريك له.

وصبغة الأبدان بخصال الفطرة: من الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الآباط والمضمضة والاستنشاق والسواك والاستنجاء، فظهرت فطرة الله على قلوب الحنفاء وأبدانهم.

قال محمد بن جرير في قوله تعالى: ﴿صبغةَ الله﴾. [البقرة:١٣٨]. يعني بالصبغة: صبغة الإسلام، وذلك أن النصارى إذا أرادت أن تُنصِّر أطفالها جعلتهم في مباهم، وتزعم أن ذلك مما يقدس بمنزلة الختان لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية، فقال الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ، لما قال اليهود والنصارى: ﴿**كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، قلْ بلْ ملةَ إبراهيمَ حنيفًا وما كان من المشركين ـ إلى قوله ـ صبغةَ الله ومن أحسنُ من الله صبغة**﴾. [البقرة:١٣٥ـ١٣٨].

قال قتادة: إن اليهود تصبغ أبناءها يهودًا، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، وإن صبغة الله: الإسلام، فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أطهر.

وقال مجاهد: صبغة الله: فطرة الله، وقال غيره: دين الله.

هذا مع ما في الختان من الطهارة والنظافة والتزيين وتحسين الخلقة وتعديل الشهوة، التي إذا أفرطت ألحقت الإنسان بالحيوانات، وإن عدمت بالكلية ألحقته بالجمادات، فالختان يعدلها. ولهذا تجد الأقلف من الرجال والقلفاء من النساء لا يشبع من الجماع.

ولهذا يذم الرجل ويشتم ويعير بأنه ابن القلفاء - إشارة إلى غلمتها - وأي زينة أحسن من أخذ ما طال وجاوز الحد: من جلدة القلفة، وشعر العانة، وشعر الإبط، وشعر الشارب، وما طال من الظفر؛ فإن الشيطان يختبىء تحت ذلك كله ويألفه ويقطن فيه، حتى أنه ينفخ في إحليل الأقلف وفرج القلفاء ما لا يُنفخ في المختون، ويختبىء في شعر العانة وتحت الأظفار، فالغرلة أقبح في موضعها من الظفر الطويل، والشارب الطويل والعانة الفاحشة الطول، ولا يخفى على ذي الحس السليم قبح الغرلة، وما في إزالتها من التحسين والتنظيف والتزيين، ولهذا لما ابتلى الله خليله إبراهيم بإزالة هذه الأمور فأتمهن جعله إمامًا للناس، هذا مع ما فيه من بهاء الوجه وضيائه. وفي تركه من الكسفة التي ترى عليه.

(1)**وإنما** كانت هذه الخصال من الفطرة؛ لأن الفطرة، هي الحنيفية ملة إبراهيم، وهذه الخصال أمر بها إبراهيم، وهي من الكلمات التي ابتلاه ربه بهن، كما ذكر عبدالرزاق عن معمر، عن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: «ابتلاه بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد، التي في الرأس: ١ - قص الشارب، ٢ - والمضمضة، ٣ - والاستنشاق، ٤ - والسواك، ٥ - وفرق الرأس. وفي الجسد: ١ - تقليم الأظفار، ٢ - وحلق العانة، ٣ - والختان، ٤ - ونتف الإبط، ٥ - وغسل أثر الغائط والبول بالماء».

والفطرة فطرتان: فطرة تتعلق بالقلب، وهي معرفة الله ومحبته وإيثاره على ما سواه، وفطرة عملية، وهي هذه الخصال: فالأولى: تزكّي الروح وتطهِّر القلب، والثانية: تطهِّر البدن، وكل منهما تمد الأخرى وتقويها، وكان رأس فطرة البدن: الختان، لما سنذكره في الفصل السابع إن شاء الله.

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: **«من الفطرةِ - أو الفطرةُ -: ١ - المضمضة، ٢ - والاستنشاق، ٣ - وقص الشارب، ٤ - والسواك، ٥ - وتقليم الأظفار، ٦ - وغسل البراجم، ٧ - ونتف الإبط، ٨ - والاستحداد، ٩ - والاختتان، ١٠ - والانتطاق»**، [نسخة: الانتضاح] وقد اشتركت خصال الفطرة في الطهارة والنظافة وأخذ الفضلات المستقذرة، التي يألفها الشيطان ويجاورها من بني آدم، وله بالغرلة اتصال واختصاص ستقف عليه،

(١) ٩٤ تحفة المودود.

في الفصل السابع إن شاء الله.

وقال غير واحد من السلف: من صلَّى وحج واختتن فهو حنيف، فالحج والختان: شعار الحنيفية، وهي ﴿فطرة الله التي فَطَرَ الناسَ عليها﴾. [الروم: ٣٠].

قال الراعي: يخاطب أبا بكر رضي الله عنه:

أخليفة الرحمن إنّا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً
عربًا نرى لله في أموالنا حق الزكاة مُنزّل تنزيلاً

(١)**قوله** تعالى: ﴿سيقول السفهاء﴾ إلى قوله: ﴿صراط مستقيم﴾. [البقرة: ١٤٢]

هذا سؤال من السفهاء أوردوه على المؤمنين.

ومضمونه أن القبلة الأولى إن كانت حقًّا فقد تركتم الحق، وإن كانت باطلاً فقد كنتم على باطل، ولفظ الآية وإن لم يدل على هذا؛ فالسفهاء المجادلون في القبلة قالوه فأجاب الله تعالى عنه بجواب شاف بعد أن ذكر قبله مقدمات تقرره وتوضحه.

والسؤال من جهة الكفار أوردوه على صور متعددة ترجع إلى شيء واحد فقالوا ما تقدم.

وقالوا: لو كان نبيًّا ما ترك قبلة الأنبياء قبله.

وقالوا: لو كان نبيًّا ماكان يفعل اليوم شيئًا وغدًا خلافه.

وقال المشركون: قد رجع إلى قبلتكم فيوشك أن يرجع إلى دينكم.

وقال أهل الكتاب: لو كان نبيًّا ما فارق قبلة الأنبياء، وكثر الكلام وعظمت المحنة على بعض الناس كما قال تعالى:

﴿وإنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إلا عَلَى الذين هدى الله﴾. [البقرة: ١٤٣].

وتأمل حكمة العزيز الحكيم ولطفه وإرشاده في هذه القصة؛ لما علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطّأه ومهّده وذلله بقواعد قبله، فذكر النسخ وأنه إذا نسخ شيئًا أتى بمثله أو خير منه، وأنه قادر على ذلك فلا يعجزه، ثم قرر التسليم للرسول وأنه لا ينبغي أن يعترض عليه ويسأل تعنتًا كما جرى لموسى مع قومه.

ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمته وذكر بانيه وأثنى عليه وأوجب اتباع ملته، فقرر في النفوس بذلك توجهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة، وإلى بانيه بالاتّباع والموالاة والموافقة.

---

(١) ١٥٧ بدائع جـ٤.

وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرًا، فالقلوب عاكفة على محبته دائمة الاشتياق إليه، متوجهة إليه حيث كانت.

ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين وأضافه إليه بقوله: ﴿**أَنْ طَهِّرَا بيتيَ**﴾. [البقرة: ١٢٥].

وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت.

وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه، فلما استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذُكّروا بها؛ فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة، ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت فلما برز مرسوم ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحَرَام**﴾ [البقرة: ١٤٤] تلقاه رسول الله ﷺ والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول وكان عيدًا عندهم؛ لأن رسول الله ﷺ، كان كثيراً ما يقلب وجهه في السماء ينتظر أن يحوِّله الله عن قبلة أهل الكتاب، فولاه الله القبلة التي يرضاها وتلقى ذلك الكفار بالمعارضة، وذكر الشبهات الداحضة، وتلقاه الضعفاء من المؤمنين بالإغماض والمشقة، فذكر تعالى أصناف الناس عند الأمر باستقبال الكعبة، وابتدأ ذلك بالتسلية لرسوله وللمؤمنين عما يقول السفهاء من الناس: فلا تعبؤوا بقولهم فإنه قول سفيه.

ثم قال: ﴿**قُلْ لله المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ**﴾. [البقرة: ١٤٢].

فأخبر تعالى أن المشرق والمغرب له وأنه رب ذلك، فأينما تعبَّد له عباده بأمره إلى أي جهة كانت، فهم مطيعون له.

كما قال: ﴿**ولله المَشْرِقُ والمِغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله**﴾. [البقرة: ١١٥].

فلم يُصل مستقبل الجهات بأمره إلَّا له تعالى، فإذا كنتم تصلون إلى غير الكعبة بأمره ثم أمركم أن تصلوا إليها، فما صليتم إلَّا له أولاً وآخرًا وكنتم على حق في الاستقبال الأول والآخر، لأن كليهما كان بأمره ورضاه فانتقلتم من رضاه إلى رضاه.

ثم نبّه على فضل الجهة التي أمرهم بالاستقبال إليها ثانيًا، بأنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، كما هداكم للقبلة التي جعلها قبلتكم وشرعها لكم ورضيها، ولكن أمركم باستقبال غيرها أولاً لحكمة له في ذلك، وهو أن يعلم سبحانه من يتبع

الرسول ويدور معه حيثما دار ويأتمر بأوامره كيف تصرفت، وهو العالم بكل شيء؛ ولكن شاء أن يعلم معلومه الغيبي عيانًا مشاهدًا فيتميز بذلك الراسخ في الإيمان المُسَلِّم للرسول المنقاد له، ممن يعبد الله على حرف فينقلب على عقبه بأدنى شبهة، فهذا من بعض حكمه في أن جعل القبلة الأولى غير الكعبة، فلم يشرع ذلك سُدًى ولا عبثًا.

ثم أخبر سبحانه أنه كما جعل لهم أوسط الجهات قبلة بتعبّدهم، فكذلك جعلهم أمة وسطًا، فاختار القبلة الوسط في الجهات للأمة الوسط في الأمم.

ثم ذكر أن هذا التفضيل والاختصاص ليستشهدهم على الأمم، فيقبل شهادتهم على الخلائق يوم القيامة.

ثم أجاب تعالى عما سأل عنه المؤمنون: من صلاتهم إلى القبلة الأولى، وصلاة من مات من إخوانهم قبل التحويل فقال: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾. [البقرة:١٤٣]. وفيه قولان:

أحدهما: ما كان ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يجازيكم عليها لأنها كانت بأمره ورضاه.

والثاني: ما كان ليضيع إيمانكم بالقبلة الأولى وتصديقكم بأن الله شرعها ورضيها.

وأكثر السلف والخلف على القول الأول، وهو مستلزم للقول الآخر.

ثم ذكر منّته على رسوله واطلاعه على حرصه على تحويله عن قبلته الأولى فقال:

﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾. [البقرة: ١٤٤].

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب بأنهم يعلمون أنه الحق من ربهم، ولم يذكر للضمير مفسرًا غير ما في السياق وهو الأمر باستقبال المسجد الحرام، وأن أهل الكتاب عندهم من علامات هذا النبي أن يستقبل بيت الله الذي بناه إبراهيم في صلاته .ثم أخبر تعالى عن شدة كفر أهل الكتاب بأنهم لو أتاهم الرسول بكل آية ماتبعوا قبلته، ففي ذلك التسلية له وتركهم وقبلتهم، ثم برأه من قبلتهم فقال: ﴿**وما أنت بتابع قبلتهم**﴾. [البقرة: ١٤٥].

ثم ذكر اختلافهم في القبلة وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى؛

لأن القبلة من خواص الدين وأعلامه وشعائره الظاهرة، فأهل كل دين لا يفارقون قبلتهم إلا أن يفارقوا دينهم، فأخبر تعالى في هذه الجمل الثلاث بثلاث إخبارات تتضمن براءة كل طائفة من قبلة الطائفة الأخرى، وتتضمن الإخبار بأن أهل الكتاب لو رأوا كل آية تدل على صدق الرسول لما تبعوا قبلته عنادًا وتقليدًا لآبائهم، وإنهم وإن اشتركوا في خلاف القبلة الحق فهم مختلفون في باطلهم فلا تتبع طائفة قبلة الأخرى، فهم متفقون على خلاف الحق مختلفون في اختيار الباطل.

وفي هذه الآية أيضًا تثبيت للرسول، ﷺ، وللمؤمنين على لزوم قبلتهم وأنه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتاب: ارجعوا إلى قبلتنا فنتبعكم على دينكم فإن هذا خداع ومكر منهم؛ فإنهم لو رأوا كل آية تدل على صدقك ماتبعوا قبلتك؛ لأن الكفر قد تمكن من قلوبهم فلا مطمع للحق فيها، ولست أيضًا بتابع قبلتهم فليقطعوا مطامعهم من موافقتك لهم وعودك إلى قبلتهم، وكذلك هم أيضًا مختلفون فيما بينهم فلا يتبع أحد منهم قبلة الآخر،فهم مختلفون في القبلة، ولستم أيها المؤمنون موافقين لأحد منهم في قبلته؛ بل أكرمكم الله بقبلة غير قبلة هؤلاء المختلفين، اختارها الله لكم ورضيها.

وأكد تعالىٰ هذا المعنى بقوله: **﴿ولئِن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهم من بعدِ ما جاءكَ من العلمِ إنَّك إذًا لَمِنَ الظالمين﴾** [البقرة: ١٤٥].

فهذا كله تثبيت وتحذير من موافقتهم في القبلة وبراءة من قبلتهم كما هم براء من قبلتك وكما بعضهم بريء من قبلة بعض، فأنتم أيها المؤمنون أولى بالبراءة من قبلتهم التي أكرمكم الله بالتحويل عنها.

ثم أكد ذلك بقوله: **﴿الحقُّ من ربِّك فلا تكونَنَّ من المُمْتَرين﴾**. [البقرة: ١٤٧].

ثم أخبر تعالى عن اختصاص كل أمة بقبلتهم فقال: **﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُو مُوَلِّيْهَا﴾**. [البقرة: ١٤٨] وأصح القولين أن المعنى: هو متوجه إليها أي: موليها وجهه، فالضمير راجع إلى كل.

وقيل: إلى الله أي الله موليها إياه وليس بشيء؛ لأنه الله لم يولِّ القبلة الباطلة أبدًا، ولا أمر النصارى باستقبال الشرق قط؛ بل هم تولوا هذه القبلة من تلقاء أنفسهم وولوها وجوههم وقوله: **﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾**. [البقرة: ١٤٨] مشعر بصحة هذا القول أي: إذا كان أهل الملل قد تولوا الجهات فاستبقوا أنتم الخيرات،

وبادروا إلى ما اختاره الله لكم ورضيه وولاكم إياه ولا تتوقفوا فيه، أينما تكونوا يأتِ بكم الله جميعًا، يجمعكم من الجهات المختلفة والأقطار المتباينة إلى موقف القيامة، كما تجتمعون من سائر الجهات إلى جهة القبلة التي تأمونها، فهكذا تجتمعون من سائر أقطار الأرض إلى جهة الموقف الذي يؤمه الخلائق.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُم شِرْعَةً ومِنْهاجًا ولو شاء الله لجَعَلَكُم أُمَّةً واحِدَةً ولكن لِيَبْلُوَكُم فِيما آتاكُم فاسْتَبِقُوا الخَيرات﴾. [المائدة: ٤٨].

وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومناهجهم، كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم. فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فاستبقوا الخَيْراتِ أَيْنَما تَكُونوا يأتِ بكم الله جميعًا﴾. [البقرة: ١٤٨].

وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه، وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل يكون أقربها إلى الحق ما كان أدل على الله وأوصل إليه؛ لأنه كما أن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم، فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد، فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه؛ إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة.

فإذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا كفورًا وذهابًا في الطرق الباطلة وعبادة غيره، وإن دانوا غير دينه فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات وبادروا إليها، ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر.

فتأمل هذا السر البديع في السورتين، وفي قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُون﴾. [المائدة: ٤٨، الأنعام: ١٦٤] سر آخر أيضًا، وهو أن هذا الاختلاف دليل على يوم الفصل، وهو اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، ويبيِّن[1] لهم حقيقة ما اختلفوا فيه، فنفس الاختلاف دليل على يوم الفصل والبعث.

وقد أوضح ذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعث الله من يَموتُ. بلى وَعْدًا عَلْيه حَقًّا ولَكِنَّ أَكْثَر النَّاس لا يَعْلَمُون لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الذي يَخْتَلِفُون فيه ولِيَعْلَمَ الذين كَفَرُوا أَنَّهُم كَانُوا كَاذِبِين﴾. [النحل: ٣٨، ٣٩].

فذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثه الأموات بعدما أماتهم.

(١) في النسخة (بين) والصواب ما أثبتناه. المراجع.

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذبًا وأنه كان على باطل، وأن نسبته أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه؛ فيخزيه ذلك أعظم خزي.

فتأمل أسرار كلام الرب تعالى، وما تضمنته آيات الكتاب المجيد من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلام رب العالمين، والشاهدة لرسوله بأنه الصادق المصدوق، وهذا كله من مقتضى حكمته وحمده تعالى، وهو معنى كونه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، ولم يخلق ذلك باطلاً بل خلقه خلقًا صادرًا عن الحق آيلاً إلى الحق مشتملاً على الحق، فالحق سابق لخلقها مقارن له غاية له؛ ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى دون اللام المفيدة لمعنى الغاية وحدها، فالباء مفيدة معنى اشتمال خلقها على الحق السابق والمقارن والغاية.

فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته، وبكمال هاتين الصفتين؛ يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمة كله ومصلحة وحقًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾. [النمل: ٦]. فأخبر أن مصدر التلقي عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك كان صدقًا وعدلاً وهدى وإرشادًا.

وكذلك قالت الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالت: ﴿**عجوز عقيم**﴾ قالوا: ﴿**كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**﴾. [الذاريات: ٣٠]. وهذا راجع إلى قوله وخلقه، وهو خلق الولد لها على الكِبَر.

وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات، فهو ما اشتملت من الحكم والمصالح والمنافع والآيات الدالة للعباد على الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله، وأن لقاءه حق لا ريب فيه.

ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه؛ رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد؛ لأنها شهادة حال لا يقبل كذبًا، فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقًا حق تأمله إلا وجده دالًّا على فاطره وبارئه وعلى وحدانيته، وعلى كمال صفاته وأسمائه، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه.

وهذه طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات

وأحوالها على إثبات الصانع، وعلى التوحيد والمعاد والنبوات.

فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلاً ولا عبثًا، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق.

ومرة يخبرهم وينبههم على وجوه الاعتبار والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسله، حتى يبين لهم أن الرسل إنما جاءوهم بما يشاهدون أدلة صدقه وبما لو تأملوه؛ لرأوه مركوزًا في فطرهم مستقرًا في عقولهم، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به رسله عنه: من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته، وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان إنما يفتحه الله على من سبقت له منه سابقة السعادة، وهذا أشرف علم يناله العبد في هذه الدار.

وقد بينتُ في موضع آخر أن كل حركة تشاهد على اختلاف أنواعها، فهي دالة على التوحيد والنبوات والمعاد بطريق سهلة واضحة برهانية.

وكذلك ذكرتُ في رسالة إلى بعض الأصحاب بدليل واضح: أن الروح مركوز في أصل فطرتها وخلقتها شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزًا في نفس روحه وذاته وفطرته.

فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط، لاستخرج منها الإيمان بالله وصفاته والشهادة بأنه: لا إله إلا هو، والإيمان برسله وملائكته ولقائه، وإنما يصدق بهذا من أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه، وانجابتْ عنه سحائب غيّه وانكشف عن قلبه حجاب: ﴿**إِنَّا وَجَدْنا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ وإِنَّا على آثَارِهِمْ مُقْتَدُون**﴾.

[الزخرف: ٢٣].

فهنالك يبدو له سرٌّ طال عنه اكتتامه، ويلوح له صباح هو ليله وظلامه.

فقف الآن عند كل كلمة من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فـي السَّـمـوَاتِ والأَرْضِ لآيَاتٍ للمُؤْمِنِين. وفي خَلْقِكم وما يبثُّ من دَآبَةٍ آيَاتٌ لِقَوم يُوقِنُون. واخْتِلَافِ اللَّيْـلِ والنَّهَـار وَمَـا أَنْـزَل الله من السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْض بَعْد مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْم يعقلون**﴾. [الجاثية: ٣ - ٥].

ثم تأمل وجه كونها آية وعلى ماذا جعلت آية؟ أعلى مطلوب واحد أم مطالب متعددة؟ وكذلك سائر ما في القرآن من هذا النمط كآخر آل عمران.

وقوله في سورة الروم: ﴿ومن آياته﴾. [الروم: ٢٠-٢٥]. إلى آخرها.

وقوله في سورة النمل: ﴿قُلِ الحَمْدُ لله وَسَلامٌ على عِبَادِهِ الذين اصْطَفَى﴾. [النمل: ٥٩-٦٤]. إلى آخر الآيات وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن. وكقوله في سورة الذاريات: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلمُوقِنِين. وفي أَنْفُسِكُم أفَلا تُبْصِرُون﴾. [الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿وَكَأَيِّن مِن آيَةٍ في السَّمٰوات والأَرْضِ يَمُرُّون عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُون﴾. [يوسف: ١٠٥].

فهذا كله من الحق الذي خُلقت به السموات والأرض وما بينهما، وهو حق مقارن لوجود هذه المخلوقات، مسطور في صفحاتها يقرؤه كل موفق: كاتب، وغير كاتب كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها　　من الملك الأعلى إليك رسائلُ
وقد خط فيها لو تأملت خطها　　ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلُ

وأما الحق الذي هو غاية خلقها، فهو غاية تُراد من العباد وغاية تراد بهم.

فالتي تراد منهم أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله عز وجل، وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا؛ فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم.

قال تعالى: ﴿الله الذي خَلَق سَبْع سَمٰوَاتٍ وِمن الأَرْضِ مِثْلَهُن يَتنزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أنَّ الله على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ وأنَّ الله قَدْ أَحَاط بِكُلِّ شيءٍ عِلْمًا﴾. [الطلاق: ١٢].

فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. [الذاريات: ٥٦]. فهذه الغاية هي المرادة من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده.

وأما الغاية المرادة بهم، فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب.

قال تعالى: ﴿ولله مَا فِي السَّمٰوَاتِ وما في الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الذين أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا ويَجْزِيَ الذين أَحْسَنُوا بالحُسْنَى﴾. [النجم: ٣١].

وقال تعالى: ﴿إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخفِيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعى﴾. [طه: ١٥].

وقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذي يَخْتَلِفُون فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِين﴾. [النحل: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُم الله الذي خَلَقَ السَّمٰوات والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى على العَرْشِ يُدَبرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْد إِذْنِهِ ذَلِكُم الله رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوه أفلا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُم جَمِيعًا وعد الله حَقًّا إِنَّهُ يَبْدأُ الخَلْق ثُم يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَالِحَاتِ بِالقِسْطِ والذين كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُون﴾. [يونس: ٣، ٤].

فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولاً وآخرًا ووسطًا، وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق.

وقد أنكر تعالى على من زعم خلاف ذلك فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُم عَبَثًا وأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُون(١)﴾. [المؤمنون: ١١٥].

(٢)**ولنرجع** إلى ما كنا بصدده من الكلام في ذكر محاجة أهل الباطل للمسلمين في القبلة، ونصر الله لهم بالحجة عليهم.

وقد رأيت لأبي القاسم السهيلي في الكلام على هذه الآيات فصلاً أذكره بلفظه:

قال في قول النبي ﷺ، للبراء بن معرور: «**قد كنت على قبلة لو صبرت عليها**» يعني: لما صلى إلى الكعبة قبل الأمر بالتوجه إليها، ولم يأمره بالإعادة لأنه كان متأولاً.

قلت: ونظير هذا أنه لم يأمر من أكل في نهار رمضان بالإعادة؛ لما ربط الخيطين في رجليه وأكل حتى تبيَّنا له لأجل التأويل.

ونظيره أنه لم يأمر أبا ذر بإعادة ما ترك من الصلاة مع الجنابة؛ إذ لم يعرف شرع التيمم للجنب، فقال: يا رسول الله إني تصيبني الجنابة فأمكث الشهر والشهرين لا أصلي يعني في البادية ـ فقال: «أين أنت عن التيمم؟».

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر المستحاضة بالإعادة، وقد قالت: إني أستحاض حيضة شديدة، وقد منعتني الصوم والصلاة فأمرها أن تجلس أيام الحيض، ثم

(١) آخر البحث نقل إلى سورة المؤمنون. (٢) ١٦٧ بدائع جـ٤.

تصلي ولم يأمرها بإعادة ما تركت.

ونظيره أيضاً أنه لم يأمر المسيء في صلاته بإعادة ما تقدم له من الصلوات التي لم تكن صحيحة، وإنما أمره بالإعادة في الوقت؛ لأنه لم يؤد فرض وقته مع بقائه بخلاف ما تقدم له.

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر المتمعك في التراب كما تتمعك الدابة لأجل التيمم بالإعادة؛ مع أنه لم يصب فرض التيمم.

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر معاوية بن الحكم السلمي بإعادة الصلاة، وقد تكلم فيها بكلام أجنبي ليس من مصلحتها.

ونظيره أيضًا أنه لم يضمن أسامة قتيله بعد إسلامه بقصاص ولا دية ولا كفارة. ولا تجد هذه النظائر مجموعة في موضع.

فالتأويل والاجتهاد في إصابة الحق، منع في هذه المواضع من الإعادة والتضمين.

وقاعدة هذا الباب أن الأحكام إنما تثبت في حق العبد بعد بلوغه هو وبلوغها إليه. فكما لا يترتب في حقه قبل بلوغه هو؛ فكذلك لا يترتب في حقه قبل بلوغها إليه.

وهذا مجمع عليه في الحدود أنها لا تقام إلا على من بلغه تحريم أسبابها.

وما ذكرناه من النظائر يدل على ثبوت ذلك في العبادات والحدود..

ويدل عليه أيضًا في المعاملات قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا اتَّقُوا الله وذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إنْ كُنْتُم مُؤمِنِينْ**﴾. [البقرة: ٢٧٨]. فأمرهم تعالى أن يتركوا ما بقي من الربا وهو ما لم يقبض، ولم يأمرهم برد المقبوض؛ لأنهم قبضوه قبل التحريم فأقرهم عليه.

بل أهل قبا صلوا إلى القبلة المنسوخة بعد بطلانها، ولم يعيدوا ما صلوا؛ بل استداروا في صلاتهم وأتموها؛ لأن الحكم لم يثبت في حقهم إلا بعد بلوغه إليهم.

وفي هذا الأصل ثلاثة أقوال للفقهاء وهي لأصحاب أحمد، هذا أحدها وهو أصحها وهو اختيار شيخنا رضي الله عنه.

والثاني: أن الخطاب إذا بلغ طائفة ترتب في حق غيرهم ولزمهم كما لزم من بلغه، وهذا اختيار كثير من أصحاب الشافعي وغيرهم.

الثالث: الفرق بين الخطاب الابتدائي والخطاب الناسخ، فالخطاب الابتدائي يعم ثبوته من بلغه وغيره، والخطاب الناسخ لا يترتب في حق المخاطب إلا بعد بلوغه.

والفرق بين الخطابين: أنه في الناسخ مستصحب لحكم مشروع مأمور به

بخلاف الخطاب الابتدائي، ذكره القاضي أبو يعلى في بعض كتبه، ونصوص القرآن والسنة تشهد للقول الأول، وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة وإنما أشرنا إليها إشارة.

قال أبو القاسم: وفي الحديث دليل على أن النبي ﷺ، كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس، وهو قول ابن عباس يعني قوله للبراء: «**لقد كنتَ على قبلة**».

وقال طائفة: ما صلى إلى بيت المقدس إلا منذ قدم المدينة سبعة عشر شهرًا أو ستة عشر شهرًا. فعلى هذا يكون في القبلة نسخان: نسخ سُنّة بسنة، ونسخ سنة بقرآن، وقد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة.

فروي عنه من طرق صحاح؛ أن رسول الله ﷺ، كان إذا صلّى بمكة استقبل بيت المقدس، وجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس.

فلما كان ﷺ يتحرى القبلتين جميعًا، لم يُبِنْ توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة، ولذلك ـ والله أعلم ـ قال الله تعالى في الآية الناسخة: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحَرامِ**﴾. [البقرة: ١٥٠]. أي: من أي جهة جئت إلى الصلاة وخرجت إليها فاستقبل الكعبة؛ كنت مستدبرًا بيت المقدس أو لم تكن؛ لأنه كان بمكة يتحرى في استقباله بيت المقدس؛ أن تكون الكعبة بين يديه.

قال: وتدبر قوله: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وجْهَكَ**﴾. [البقرة: ١٥٠]. وقال لأمته: ﴿**وحيثما كنتم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَهُ**﴾. [البقرة: ١٥٠]. ولم يقل: حيث ما خرجتم، وذلك لأنه ﷺ، كان إمام المسلمين فكان يخرج إليهم في كل صلاة ليصلي بهم، وكان ذلك واجبًا عليه؛ إذ كان الإمام المقتدى به، فأفاد ذكر الخروج في خاصته هذا المعنى، ولم يكن حكم غيره هكذا يقتضي الخروج، ولاسيما النساء ومن لا جماعة عليه.

قلت: ويظهر في هذا معنى آخر وهو أن قوله: ﴿**وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾ خطاب عام له ﷺ، ولأمته يقتضي أمرهم بالتوجه إلى المسجد الحرام في أي موضع كانوا من الأرض.

وقوله: ﴿**وَمِن حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ**﴾. [البقرة: ١٥٠]. خطاب بصيغة الإفراد، والمراد هو والأمة كقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتقِ الله**﴾.

[الأحزاب: ١]. ونظائره، وهو يفيد الأمر باستقبالها من أي جهة ومكان خرج منه.

وقوله: ﴿وحَيْثُمَا كنتم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَه﴾ يفيد الأمر باستقبالها في أي موضع استقر فيه، وهو تعالى لم يقيد الخروج بغاية؛ بل أطلق غايته كما عم مبدأه، فمن حيث خرج إلى أي مخرج كان: من صلاة أو غزو أو حج أو غير ذلك، فهو مأمور باستقبال المسجد الحرام هو والأمة، وفي أي بقعة كانوا من الأرض، فهو مأمور هو والأمة باستقباله، فتناولت الآيتان أحوال الأمة كلها: في مبدأ تنقلهم من حيث خرجوا، وفي غايته إلى حيث انتهوا، وفي حال استقرارهم حيث ما كانوا، فأفاد ذلك عموم الأمر بالاستقبال في الأحوال الثلاث التي لا ينفك منها العبد.

فتأمل هذا المعنى ووازن بينه وبين ما أبداه أبوالقاسم يتبين لك الرجحان، والله أعلم بما أراد من كلامه، وإنما هو كدّ أفهام أمثالنا من القاصرين. فقوله: ﴿ومن حيث خرجت﴾. [البقرة: ١٥٠]. يتناول مبدأ الخروج وغايته له وللأمة. وكان أولى بهذا الخطاب؛ لأن مبدأ التوجه على يديه كان، وكان شديد الحرص على التحويل.

وقوله: ﴿وحيثما كنتم﴾. [البقرة: ١٥٠]. يتناول أماكن الكون كلها له وللأمة، وكانوا أولى بهذا الخطاب لتعدد أماكن أكوانهم وكثرتها؛ بحسب كثرتهم واختلاف بلادهم وأقطارهم واستدارتها حول الكعبة شرقًا وغربًا ويمنًا وعراقًا، فكان الأحسن في حقهم أن يقال لهم: ﴿وحَيْثُمَا كُنْتُم﴾ أي: من أقطار الأرض في شرقها وغربها وسائر جهاتها، ولا ريب أنهم أدخل في هذا الخطاب منه ﷺ.

فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تظفر بها في موضع غير هذا، والله أعلم.

قال أبوالقاسم: وكرر الباري تعالى الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام في ثلاث آيات؛ لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس:

اليهود؛ لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم.

وأهل الريب والنفاق اشتد إنكارهم له؛ لأنه كان أول نسخ نزل.

وكفار قريش قالوا: نَدِم محمد على فراق ديننا فسيرجع إليه كما رجع إلى قِبلتنا.

وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه فيقولون: يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل، وقد فارق قبلة إبراهيم وإسماعيل وآثر عليها قبلة اليهود.

فقال الله له حين أمره بالصلاة إلى الكعبة: ﴿لئلاَّ يكون للناس عليكم حجةٌ

إلا الذين ظلموا منهم﴾ على الاستثناء المنقطع أي: لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون.

وقال: ﴿الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِيْنَ﴾. [البقرة: ١٤٧]. أي: من الذين شكوا وامتروا.

ومعنى الحق من ربك: أي: الذي أمرتُك به من التوجه إلى البيت الحرام، هو الحق الذي كان عليه الأنبياء قبلك فلا تمتر في ذلك فقال: ﴿وَإِنَّ الذِيْنَ أُوتوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُون أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبهم﴾. [البقرة: ١٤٤].

وقال: ﴿وإنَّ فَرِيْقًا مِنْهُمْ ليكتمون الحقَّ وهُمْ يَعْلَمُون﴾. [البقرة: ١٤٦]. أي: يكتمون ما علموا أن الكعبة هي قِبلة الأنبياء.

ثم ساق: من طريق أبي داود في كتاب الناسخ والمنسوخ. قال: حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا عنبسة، عن يونس، عن ابن شهاب قال: كان سليمان بن عبدالملك لا يعظم إيليا كما يعظمها أهل بيته، قال: فسرت معه وهو ولي عهد، قال: ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، فقال سليمان، وهو جالس فيه: والله إن في هذه القبلة التي صلى إليها المسلمون والنصارى لعجبًا ـ كذا رأيته. والصواب: اليهود ـ قال خالد بن يزيد: أما والله إني لأقرأ الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ، وأقرأ التوراة فلم تجدها اليهود في الكتاب الذي أنزله الله عليهم، ولكن تابوت السكينة كان على الصخرة، فلما غضب الله عز وجل على بني إسرائيل رفعه فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم.

وروى أبو داود أيضًا أن يهوديًّا خاصم أبا العالية في القبلة فقال أبوالعالية: إن موسى كان يصلي عند الصخرة ويستقبل البيت الحرام، فكانت الكعبة قبلته وكانت الصخرة بين يديه. وقال اليهودي: بيني وبينك مسجد صالح النبي ﷺ، فقال أبو العالية: فإني صليت في مسجد صالح وقبلته الكعبة. انتهى.

قلت: وقد تضمن هذا الفصل فائدة جليلة، وهي أن استقبال أهل الكتاب لقبلتهم لم يكن من جهة الوحي والتوقيف من الله، بل كان عن مشورة منهم واجتهاد.

أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق أبدًا، وهم مقرون بذلك، ومقرون أن قبلة المسيح كانت قبلة بني إسرائيل

وهي الصخـرة، وإنـما وضع لهم شيوخهم وأسلافهم هذه القبلة وهم يعتذرون عنهم، بأن المسيح فوَّض إليهم التحليل والتحريم وشرع الأحكام، وأن ما حللوه وحرموه فقد حلّله هو وحرمه في السماء، فهم مع اليهود متفقون على أن الله لم يشرع استقبال المشرق على لسان رسوله أبدًا والمسلمون شاهدون عليهم بذلك.

وأما قبلة اليهـود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة ألبتة، وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا، فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا إليه، فلما رُفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة.

وأما السامرة فإنهم يصلون إلى طور لهم بأرض الشام يعظمونه ويحجون إليه، ورأيته أنا وهو في بلد نابلس، وناظرت فضلاءهم في استقباله، وقلت: هو قبلة باطلة مبتـدعة، فقال مشار إليه في دينهم: هذه هي القبلة الصحيحة. واليهود أخـطؤوها لأن الله تعالى أمر في التوراة باستقباله عيناً، ثم ذكر نصًّا بزعمه من التوراة في استقباله، فقلت له: هذا خطأ قطعًا على التوراة؛ لأنها إنما أنزلت على بنى إسرائيل فهم المخاطبون بها وأنتم فرع عليهم فيها، وإنما تلقيتموها عنهم، وهذا النص ليس في التوراة التي بأيديهم، وأنا رأيتها وليس هذا فيها، فقال لي: صدقت إنما هو في توراتنا خاصة.

قلت له: فمن المحـال أن يكون أصحاب التوراة المخاطبون بها، وهم الذين تلقوها عن الكليم وهم متفرقون في أقطار الأرض، قد كتموا هذا النص وأزالوه وبدّلوا القبلة التي أمروا بها وحفظتموها أنتم، وحفظتم النص بها فلم يرجع إليّ الجواب.

قلت: وهذا كله مما يقوِّي أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها**﴾. [البقرة:١٤٨]. راجعًا إلى كل أي هو موليها وجهه ليس المراد أن الله موليه إياها لوجوه هذا أحدها.

الثاني: أنه لم يتقدم لاسمه تعالى ذكر يعود الضمير عليه في الآية، وإن كان مذكورًا فيما قبلها؛ ففي إعادة الضمير إليه تعالى دون كل، رد الضمير إلى غير من هو أولى به ومنعه من القريب منه اللاحق به.

الثالث: أنه لو عاد الضمير عليه تعالى لقال: هو موليه إياها. هذا وجه الكلام كما قال تعـالى: ﴿**نُـوَلِّـهِ ما تَوَلى**﴾. [النساء:١١٥]. فوجه الكلام أن يقال: ولاه القبلة، لا يقال: ولى القبلة إياه فتأمله.

وقول أبي القاسم: أنه تعالى كرر ذكر الأمر باستقبالها ثلاثًا ردًّا على الطوائف الثلاث؛ ليس بالبين ولا في اللفظ إشعار بذلك. والذي يظهر فيه، أنه أمر به في كل سياق لمعنى يقتضيه:

فذكره أول مرة؛ ابتداء للحكم ونسخًا للاستقبال الأول فقال: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجهكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّك قِبْلَةً تَرْضَاها فَوَلِّ وَجْهَك شطْرَ المَسْجِد الحَرامِ وحَيْثُما كُنْتُمَ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شطْرَه**﴾. [البقرة: ١٤٤].

ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا هو الحق من ربهم؛ حيث يجدونه في كتبهم كذلك.

ثم أخبر عن عنادهم وكفرهم، وأنه لو أتاهم بكل آية ما تبعوا قبلته ولا هو أيضًا بتابع قبلتهم، ولا بعضهم بتابع قبلة بعض، ثم حذره من اتباع أهوائهم، ثم كرر معرفة أهل الكتاب به كمعرفتهم بأبنائهم وأنهم ليكتمون الحق عن علم، ثم أخبر أن هذا هو الحق من ربه فلا يلحقه فيه امتراء.

ثم أخبر أن لكل من الأمم وجهة هو مستقبلها ومويها وجهه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون الخيرات، ثم أعاد الأمر باستقبالها من حيث خرج في ضمن هذا السياق الزائد على مجرد النسخ، ثم أعاد الأمر به غير مكرر له تكررًا محضًا؛ بل في ضمنه أمرهم باستقبالها حيثما كانوا، كما أمرهم باستقبالها أولا حيثما كانوا عند النسخ وابتداء شرع الحكم، **فأمرهم** باستقبالها حيثما كانوا عند شرع الحكم وابتدائه، وبعد المحاجة والمخاصمة والحكم لهم وبيان عنادهم ومخالفتهم مع علمهم، فذكر الأمر بذلك في كل موطن لاقتضاء السياق له فتأمله. والله أعلم.

وقوله: إن الاستثناء في قوله: ﴿**إلا الذين ظلموا منهم**﴾. [البقرة: ١٥٠]. منقطع قد قاله أكثر الناس، ووجهه أن الظالم لا حجة له، فاستثناؤه مما ذكر قبله منقطع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ليس الاستثناء بمنقطع بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن حكموا بانقطاعه؛ حيث ظنوا أن الحجة هاهنا المراد بها الحجة الصحيحة الحق.

والحجة في كتاب الله يراد بها نوعان:

أحدهما: الحجة الحق الصحيحة كقوله: ﴿**وَتِلْك حُجَّتُنا آتَيْنَاها إبْرَاهِيم على**

قَوْمِه﴾. [الأنعام: ٨٣]. وقوله: ﴿قُل فلله الحُجَّة البَالِغَة﴾. [الأنعام: ١٤٩].

ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق أو بباطل كقوله: ﴿فإن حَآجُّوك فَقُلْ أسلمتُ وجْهِيَ لله﴾. [آل عمران: ٢٠]. وقوله: ﴿وإذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِنَاتٍ ما كَان حُجَّتُهُم إلا أن قَالُوا ائتوا بآبائنا إنْ كُنْتُم صَادِقِين﴾. [الجاثية: ٢٥]. وقوله: ﴿ألم ترَ إلى الذي حآجَّ إبراهيمَ في ربّه﴾. [البقرة: ٢٥٨]. وقوله: ﴿والذين يُحَآجُّون في الله مِنْ بَعْدِ ما استجيب له حُجَّتُهُم داحضةٌ عِنْد رَبّهِم﴾. [الشورى: ١٦].

وإذا كانت الحجة اسمًا لما يحتج به من حق أو باطل، صح استثناء حجة الظالمين من قوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجةٌ﴾. [البقرة: ١٥٠]. وهذا في غاية التحقيق.

والمعنى: أن الظالمين يحتجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة، فلا تخشوهم واخشوني.

(١)**قوله تعالى**: ﴿وكَذَلِك جَعَلْنَاكُم أمةً وسطًا لتكونوا شُهَداءَ على النَّاسِ ويكونَ الرسولُ عليكمُ شهيدًا﴾. [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿وفي هذا لِيَكونَ الرسولُ شهيدًا عليكم وتكونوا شهداءَ على الناسِ﴾. [الحج: ٧٨].

وجه الاستدلال: أنه تعالى أخبر أن جعل هذه الأمة عدولاً خيارًا ليشهدوا على الناس: بأن رسلهم قد بلغوهم عن الله رسالته وأدوا عليهم ذلك، وهذا يتناول شهادتهم على الأمم الماضية وشهادتهم على أهل عصرهم ومن بعدهم أن رسول الله ﷺ، أمرهم بكذا ونهاهم عن كذا، فهم حجة الله على من خالف رسول الله، وزعم أنه لم يأتهم من الله ما تقوم به عليه الحجة، وتشهد هذه الأمة الوسط عليه؛ بأن حجة الله بالرسل قامت عليه، ويشهد كل واحد بانفراده بها وصل إليه من العلم الذي كان به من أهل الشهادة، فلو كانت أحاديث رسول الله ﷺ لا تفيد؛ لم يشهد به الشاهد ولم تقم به الحجة على المشهود عليه.

(٢)**قوله تعالى**: ﴿وَكَذلِك جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونوا شُهَداءَ على النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيْدًا﴾. [البقرة: ١٤٣]. ووجه الاستدلال بالآية: أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خيارًا عدولاً، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم

---

(١) ٣٩٧ مختصر الصواعق جـ٢. (٢) ١٣٢ أعلام جـ٤.

وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم.

وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة.

والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوَّه بهم ورفع ذكرهم وأثنى عليهم؛ لأنه تعالى لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم وتدعو لهم وتستغفر لهم.

والشاهد المقبول عند الله هو الذي يشهد بعلم وصدق؛ فيخبر بالحق مستندًا إلى علمه به كما قال تعالى: ﴿**إلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُم يَعلَمُون**﴾. [الزخرف: ٨٦]. فقد يخبر الإنسان بالحق اتفاقًا من غير علمه به، وقد يعلمه ولا يخبر به؛ فالشاهد المقبول عند الله هو الذي يخبر به عن علم؛ فلو كان علمهم أن يفتي أحدهم بفتوى وتكون خطأ مخالفة لحكم الله ورسوله ولا يفتي غيره بالحق الذي هو حكم الله ورسوله إما: مع اشتهار فتوى الأول، أو بدون اشتهارها، كانت هذه الأمة العدل الخيار قد أطبقت على خلاف الحق.

بل انقسموا قسمين: قسمًا أفتى بالباطل، وقسمًا سكت عن الحق، وهذا من المستحيل، فإن الحق لا يعدوهم ويخرج عنهم إلى من بعدهم قطعًا، ونحن نقول لمن خالف أقوالهم: لو كان خيرًا ما سبقونا إليه.

فصل(١)

وكان يصلي إلى قبلة بيت المقدس، ويُحبُّ أن يُصرف إلى الكعبة. وقال لجبرائيل «**وَددتُ أن يصرف الله وجهي عن قبلة اليهود**»، فقال: إنما أنا عبد، فادعُ ربَّك واسأله. فجعل يُقلب وجهه في السماء يرجو ذلك، حتى أنزل الله عليه: ﴿**قَدْ نَرى تَقلُّبَ وَجْهِك في السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّك قِبْلة تَرْضَاهَا، فَولِّ وَجْهَكَ شطْر المَسْجدِ الحرام**﴾. [البقرة: ١٤٤].

وذلك بعد ستة عشر شهرًا من مقدمه المدينة، قبل وقعة بدر بشهرين.

قال محمد بن سعد: أنبأنا هاشم بن القاسم قال: حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي قال: ما خالف نبيٌّ نبيًّا قط في قبلة ولا في سُنة، إلا أن رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس حين قدم المدينة ستة عشر شهرًا، ثم قرأ:

(١) ١٤٧ زاد المعاد جـ٢.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحًا والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾. [الشورى:١٣]. الآية.

وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم في تحويلها إلى الكعبة حِكَمٌ عظيمة، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين.

فأما المسلمون، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وقالوا: آمنا به، كُلٌّ من عند ربنا. وهم الذين هدى الله، ولم تكن كبيرة عليهم.

وأما المشركون، فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق.

وأما اليهود، فقالوا: خالف قبلة الأنبياء قبله. ولو كان نبيًّا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء.

وأما المنافقون، فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقًّا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق: فقد كان على باطل. وكثرت أقاويل السفهاء من الناس. وكانت كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ على الذين هدى الله﴾. [البقرة:١٤٣]. وكانت محنة من الله، امتحن بها عباده، ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه.

ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيمًا وطَّأ سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه، وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله.

ثم عقَّب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت مع رسول الله ﷺ، ولم يَنْقَدْ له.

ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى، وشهادة بعضهم عل بعض بأنهم ليسوا على شيء، وحذَّر عباده المؤمنين من موافقتهم واتباع أهوائهم.

ثم ذكر كفرهم وشركهم به، وقولهم: إن له ولدًا، سبحانه وتعالى عما يقولون.

ثم أخبر: أن له المشرق والمغرب، وأينما يُولِّي عبادهُ وجوههم فَثَمَّ وجهه وهو الواسع العليم، لعظمته وسعته وإحاطته أينما يوجّه العبد فثم وجه الله.

ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه.

ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يَتَّبِع ملَّتهم، وأنه إن فعل ـ وقد أعاذه الله من ذلك ـ فما له من الله من ولي ولا نصير.

ثم ذكَّرَ أهل الكتاب بنعمته عليهم، وخوَّفهم من بأسه يوم القيامة.

ثم ذكر خليله إبراهيم بَاني بيته الحرام، وأثنى عليه ومدحه، وأخبر أنه جعله

للناس إمامًا يأتمُّ به أهل الأرض.

ثم ذكر بيته الحرام، وبناء خليله له، وفي ضمن هذا: أنَّ باني البيت كما هو إمام للناس، فكذلك البيت الذي بناه: إمام لهم.

ثم أخبر: أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفهُ الناس.

ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم، ويؤمنوا بما أنزل إليه، وإلى إبراهيم، وإلى سائر النبيين.

ثم ردَّ على من قال: إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هُودًا أو نصارى، وجعل هذا كله توطئةً ومقدمة بين يَدي تحويل القبلة ومع هذا كله: فقد كبُر ذلك على الناس، إلا من هدى الله منهم. وأكَّد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة، بعد ثالثة، وأمر به رسوله ﷺ حيثما كان، ومن حيث خرج.

وأخبر أن الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. هو الذي هداهم إلى هذه القبلة، وأنها هي القبلة التي تليق بهم وهم أهلها. لأنها أوسط القبل وأفضلها، وهم أوسط الأمم وخيارهم. فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم، كما اختار لهم أفضل الرسل، وأفضل الكتب، وأخرجهم في خير القرون، وخصهم بأفضل الشرائع، ومنحهم خير الأخلاق، وأسكنهم خير الأرض، وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل. وموقفهم في القيامة خير المواقف. فهم على تلّ عالٍ، والناس تحتهم. فسبحان من يختص برحمته من يشاء. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك لئلا يكون للناس عليهم حجة، ولكن الظالمون الباغون يحتجون عليهم بتلك الحجج التي ذكرت. ولا يعارض الملحدون الرسل إلا بها وبأمثالها من الحجج الداحضة. وكل من قدَّم على أقوال الرسول سواها، فحجته من جنس حجج هؤلاء. وأخبر سبحانه: أنه فعل ذلك ليتمَّ نعمته عليهم، وليهديهم.

ثم ذكَّرهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم، وإنزال كتابه عليهم، ليُزكِّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. ثم أمرهم بذكره وبشكره، إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمام نعمه، والمزيد من كرامته، ويستجلبون ذكره لهم، ومحبته لهم.

ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به، وهو الصبر والصلاة. وأخبرهم أنه مع الصابرين.

فصل[1]

مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر. قال تعالى: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم واشْكُرُوا لي ولا تَكْفُرون﴾**. [البقرة:١٥٢]. وقال النبي ﷺ لمعاذ: «**والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبي واللساني.

وذكره يتضمن ذكر أسمائه، وصفاته، وذكر أمره، ونهيه، وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به، وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده؛ فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهرًا وباطنًا؛ وهذان الأمران هما جماع الدين.

فذكره مستلزم لمعرفته، وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل؛ وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه، وهو ظن أعدائه به. قال تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْنا السَّمٰوات والأرْضَ وما بَيْنَهُما بَاطِلًا، ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُوا﴾**، [ص:٢٧]. وقال: **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ والأرضَ وَمَا بَيْنَهُما لاعِبِيْنَ ما خَلَقناهما إلاَّ بِالحَقِّ﴾**. [الدخان:٣٨، ٣٩]. . . . .

[2]**ولله** تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك منهما:

---

(١) ١٢٧ فوائد (٢) ١٥٥ عدة الصابرين.

أحدهما: أمره ونهيه الذي هو محض حقه عليه.

والثاني: شكر نعمه التي أنعم بها عليه فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لايزال يشهده تقصيره وتفريطه، وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته، فإن لم يتداركه بذلك هلك وكلما كان أفقه في دين الله؛ كان شهوده للواجب عليه أتم وشهـوده لتقصيره أعظم، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة؛ بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثر الديانين لا يعبؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس.

وأما الجهـاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم، فضلاً عن أن يريدوا فعلها، فضلاً عن أن يفعلوها. وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات؛ وإن زهد في الدنيا جميعها.

وقلّ أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته ويبذل عرضه في نصرة دينه، وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء.

وقد ذكر أبوعمر وغيره: أن الله تعالى أمر ملكًا من الملائكة أن يخسف بقرية فقال: يارب إن فيهم فلانًا الزاهد العابد قال: «**به فابدأ وأسمعني صوته إنه لم يتمعر وجهه في يوم قط**».

. . ...(١)**وفي** كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتـة. بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قيامًا، وقعودًا، وعلى جنوبهم. فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها. فكذلك القلوب بور خراب. وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا: ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقًا. وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه: نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء.

به يزول الـوقْـر عن الأسـماع، والبكم عن الألسن، وتنقشـع الـظلمة عن

---

(١) ٤٢٣ مدارج جـ٢.

الأبصار. زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن. فإن وجدتم... وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف: إذا تمكن الذِّكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان. فيجتمع عليه الشياطين. فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة؛ فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه. والله أعلم.

وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول: الأمر به مطلقًا ومقيدًا.

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته. وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

تفصيل ذلك

أما الأول: فكقوله تعالى: ﴿يَا أيُّهَا الذين آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكرًا كَثيراً. وسَبِّحُوه بُكْـرَةً وأصِيْلاً* هو الذي يُصَلي عَليكُمْ ومَلائكَتُهُ. لِيُخْرِجَكُم من الظُلُمَاتِ إلى النُورِ. وَكَان بِالمؤمِنِين رَحِيمًا﴾. [الأحزاب: ٤١، ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَبك في نَفْسِك تَضرعًا وخِيْفَةً﴾. [الأعراف: ٢٠٥].

وفيه قولان:

أحدهما: في سرك وقلبك. والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك،

وأما النهي عن ضده: فكقوله ﴿ولا تَكُن مِّنَ الغَافِلِين﴾. [الأعراف: ٢٠٥].

وقوله ﴿ولا تَكُونُوا كالذين نَسُوا الله فَأَنْسَاهُم أَنْفُسَهُمْ﴾. [الحشر: ١٩].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: ﴿واذكُرُوا الله كَثِيراً لعَلَكُم تُفْلِحُون﴾. [الجمعة: ١٠].

وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكقوله: ﴿إنَّ المُسْلِمِين والمُسْلِمَاتِ - إلى قوله - والذَّاكِرِين الله كَثيراً والذَّاكِرَات: أعدَّ الله لَهُمْ مَغْفِرَةً وأجْرًا عَظِيمًا﴾. [الأحزاب: ٣٥].

وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا لا تُلْهِكُم أمْوَالُكُمْ ولا أوْلادُكُم عَنْ ذِكْرِ الله. ومَنْ يَفْعَل ذلك فأولئك هُم الخَاسِرُون﴾. [المنافقون: ٩].

وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: ﴿فاذْكُرُوني أذْكُركُم. واشْكُرُوا لي ولا تَكْفُرُون﴾. [البقرة: ١٥٢].

وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالى: ﴿اتْلُ ما أُوحِي إلَيْك من الكتـاب وأقِمِ الصَلاةَ. إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عن الفَحْشَاءِ والمنكرِ. وَلَذِكْرُ الله أكبرُ﴾. [العنكبوت: ٤٥]. وفيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره. فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم. فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل. وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر؛ بل إذا تَمَّ

الذكر: مَحَقَ كل خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين:

إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له، ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر(١).

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿**ولتُكْمِلُوا العدَّةَ، ولتكبِّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون**﴾. [البقرة: ١٨٥].

وختم به الحج في قوله: ﴿**فإذا قَضَيْتُم مناسِكَكُم فاذْكُروا الله كَذِكركُم آباءَكُم أو أشَدَّ ذِكْرًا**﴾. [البقرة: ٢٠٠].

وختم به الصلاة كقوله: ﴿**فإذا قَضَيْتُم الصَّلاَة فَاذْكُروا اللّهَ قِيَامًا وقُعُودًا وعلى جُنُوبِكُم**﴾. [النساء: ١٠٣].

وختم به الجمعة كقوله: ﴿**فإذَا قُضِيَت الصَّلاةُ فَانْتَشِروا في الأرْضِ. وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله، واذْكُرُوا الله كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون**﴾. [الجمعة: ١٠].

ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا؛ وإذا كان آخر كلام العبد؛ أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته. وهم أولو الألباب والعقول. فكقوله تعالى: ﴿**إنَّ في خَلْقِ السَّمُوَات والأرْضِ واخْتِلاَفِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لآيَاتٍ لأوْلِي الألْبَابِ. الَّذين يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وقُعُودًا وعَلى جُنُوبِهِم**﴾. [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقترانه بها، وأنه روحها: فإنه سبحانه:

قرنه بالصلاة. كقوله: ﴿**وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾. [طه: ١٤].

وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه. بل هو روح الحج، ولُبُّه ومقصوده. كما قال النبي ﷺ: «**إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار؛ لإقامة ذكر الله**».

---

(١) ولعل في الآية معنى آخر: أن الصلاة هي أكبر الذكر. فقد قال تعالى: ﴿**أقم الصلاة لذكري**﴾ [طه: ١٤]. وهي أكبر وأقوى وأشد ناهٍ عن الفحشاء والمنكر.

وقرنه بالجهاد. وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء. فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُم فِئَةً فَاثْبُتُواَ واذْكُروا الله كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون**﴾. [الأنفال: ٤٥]. وفي أثر إلٰهي يقول الله تعالى: «**إن عبدي - كلَّ عبدي - الذي يذكرني وهو ملاق قِرْنه**».

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يستشهد به.

وسمعته يقول: المحبون يفتخرون بذكر من يحبونه في هذه الحال، كما قال عنترة:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ كأنها ... أشطان بئر في لبانِ الأدهم

وقال الآخر:

ذكرتك والخَطِّيُّ يَخْطُر بيننا ... وقد نَهَلَتْ منا المُثَقَّفة السُّمْر

وقال آخر:

ولقد ذكرتك والرماحُ شواجر ... نحوي. وبيضُ الهند تَقْطُر من دمي

وهذا كثير في أشعارهم. وهو مما يدل على قوة المحبة. فإن ذكر المحب محبوبه في تلك الحال التي لا يهم المرء غير نفسه - يدل على أنه عنده بمنزلة نفسه أو أعز منها. وهذا دليل على صدق المحبة والله أعلم.

فصل (1)

ومن منازل ﴿**إيَّاكَ نَعْبُد وإيَّاكَ نَسْتَعِين**﴾. [الفاتحة: ٥]. منزلة «الصبر».

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا.

وهو واجب بإجماع الأمة. وهو نصف الإيمان. فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعًا:

الأول: الأمر به. نحو قوله تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمَنُوا اسْتَعِينوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ**﴾. [البقرة: ١٥٣]. وقوله: ﴿**واسْتَعِينوا بالصَبْرِ والصَّلاةِ**﴾. [البقرة: ٤٥]. وقوله: ﴿**اصبِروا وصابِروا**﴾. [آل عمران: ٢٠٠]. وقوله: ﴿**واصبرْ وَمَا صبرُكَ إلا بالله**﴾. [النحل: ١٢٧].

---

(١) ١٥٢ مدارج جـ٢.

الثاني: النهي عن ضده. كقوله: ﴿**فاصبر كما صبرَ أُولُوا العزم من الرُّسل، ولا تستعجلْ لهم**﴾. [الأحقاف: ٣٥]. وقوله: ﴿**وَلاَ تُوَلُّوهم الأدبارَ**﴾. [الأنفال: ١٥]. فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة.

وقوله: ﴿**وَلاَ تُبطِلُوا أعمالَكم**﴾. [محمد: ٣٣]. فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها.

وقوله: ﴿**فَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تحزنوا**﴾. [آل عمران: ١٣٩]. فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى: ﴿**الصَّابِرين والصَّادِقين**﴾ الآية. [آل عمران: ١٧]. وقوله: ﴿**والصَّابِرِيْن في البَأسَاءِ والضَّراءِ وَحِينَ البَأس. أولئك الذين صَدَقُوا. وأولئِكَ هُمُ المُتَّقُون**﴾. [البقرة: ١٧٧]. وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله: ﴿**والله يحبُّ الصَّابِرين**﴾. [آل عمران: ١٤٦].

الخامس: إيجاب معيته لهم. وهي معية خاصة. تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم. ليست معية عامة. وهي معية العلم، والإحاطة. كقوله: ﴿**واصْبِرُوا. إنَّ الله مع الصَّابِرينَ**﴾. [الأنفال: ٤٦]. وقوله: ﴿**والله مع الصَّابِرينَ**﴾. [البقرة: ٢٤٩].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله: ﴿**وَلَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ خيرٌ لِلصَّابِرين**﴾. [النحل: ١٢٦]. وقوله: ﴿**وأنْ تَصْبِرُوا خيرٌ لَكُمْ**﴾. [النساء: ٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى: ﴿**وَلَنَجزِينَّ الذين صَبَرُوا أجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كَانُوا يَعْمَلُون**﴾. [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى: ﴿**إنَّما يُوَفَّي الصَّابِرُون أجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَاب**﴾. [الزمر: ١٠].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر. كقوله تعالى: ﴿ **ولنَبْلُونَّكم بِشيءٍ مِنْ الخَوْفِ والجُوعِ ونَقْصٍ من الأَمْوَالِ والأَنْفُسِ والثَّمَرَاتِ. وبَشِّرِ الصَّابِرِين**﴾. [البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم. كقوله تعالى: ﴿ **بَلى، إنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا، ويَأتُوكُمْ من فَوْرِهِم هذا يُمْدِدْكُم رَبُّكُم بخَمْسَةِ آلافٍ من المَلائِكَةِ**

مُسَوِّمِين﴾. [آل عمران: ١٢٥]. ومنه قول النبي ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر**».

الحادي عشر: **الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم. كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وغفرَ إنَّ ذلك لَمِنْ عَزْمِ الأمُورِ﴾**. [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى: **﴿وَيْلَكُم. ثوابُ الله خيرٌ لمن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا. ولا يُلَقَّاها إلا الصَّابِرُون﴾**. [القصص: ٨٠]. وقوله: **﴿ومَا يُلقَّاها إلا الذين صَبَروا ومَا يُلَقَّاها إلا ذو حظٍّ عَظِيم﴾**. [فصلت: ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر. كقوله تعالى لموسى: **﴿أن أَخْرِجْ قَوْمَك من الظُلُمَاتِ إلى النُورِ. وذَكِّرْهُم بأيَّامِ الله. إنَّ في ذَلِك لآيَاتٍ لِكُلِّ صبَّارٍ شَكُورٍ﴾**. [إبراهيم: ٥].

وقوله في أهل سبأ: **﴿فَجَعَلْنَاهُم أحَادِيثَ. ومَزَّقْنَاهم كُل مُمزَّق. إنَّ في ذَلك لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾**. [سبأ: ١٩].

وقوله في سورة الشورى: **﴿ومن آيَاتِهِ الجَوَارِ في البَحْرِ كَالأعْلامِ. إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظللنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ. إنَّ في ذلك لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾**. [الشورى: ٣٢، ٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالى: **﴿والمَلائِكَةُ يَدْخُلُون عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَاب. سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُم. فَنِعْم عُقبى الدَّارِ﴾**. [الرعد: ٢٣، ٢٤].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

ثم تلا قوله تعالى: **﴿وَجَعلْنَا مِنْهُم أئِمَّةً يَهْدُون بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون﴾**. [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان. وبالتقوى والتوكل. وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر

له. كما أنه لا جسد لمن لا رأس له.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خير عيش أدركناه بالصبر».

وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح «أنه ضياء» وقال: «**مَنْ يتصبَّرْ يُصبِّرْهُ الله**».

وفي الحديث الصحيح: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سرَّاء شكر؛ فكان خيراً له. وإن أصابته ضرَّاء صبر؛ فكان خيراً له**».

وقال للمرأة السوداء التي كانت تُصرع. فسألته: أن يدعو لها: «**إن شئتِ صبرت؛ ولك الجنة. وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**». فقالت: إني أتكشف فادع الله: أن لا أتكشف. فدعا لها.

وأمر الأنصار - رضي الله تعالى عنهم - بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده، حتى يلقوه على الحوض.

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر. وأمر بالصبر عند المصيبة. وأخبر: أنه إنما يكون «**عند الصَّدمة الأولى**».

وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب. فإن ذلك يخفف مصيبته، ويوفِّر أجره. والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة، ويذهب الأجر.

وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله، فقال:

«**وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً له وأوسع؛ من الصبر**».

فصل

و«الصبر» في اللغة: الحبس والكف. ومنه: قُتل فلان صبراً. إذا أمسك وحبس.

ومنه قوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مع الذين يَدْعُون رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُون وَجْهَهُ**﴾. [الكهف: ٢٨]. أي: احبس نفسك معهم.

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط. وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله. وصبر عن معصية الله. وصبر على امتحان الله.

فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب. والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها؛ أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر.

وأما صبره عن المعصية؛ فصبر اختيار ورضى، ومحاربة للنفس. ولاسيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة. فإنه كان شابًّا، وداعية الشباب إليها قوية. وعَزبًا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته. وغريبًا. والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه مَنْ بين أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكًا. والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر. والمرأة جميلة. وذات منصب. وهي سيدته. وقد غاب الرقيب. وهي الداعية له إلى نفسها. والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل: بالسجن والصغار. ومع هذه الدواعي كلها؛ صبر اختيارًا، وإيثارًا لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟

وكان يقول(١): الصبر على أداء الطاعات؛ أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل. فإن مصلحة الطاعة؛ أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة؛ أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.

وله ـ رحمه الله ـ في ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجهًا. ليس هذا موضع ذكرها. انتهى.

فصل(٢)
في هديه ﷺ في علاج حر المصيبة وحزنها

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابرين الذين إذَا أَصَابَتْهُم مُصِيْبَةٌ قَالوا إنَّا لله وإنَّا إليْهِ رَاجِعُون. أولِئك عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ مِن رَّبّهِمْ ورَحْمَةٌ. وأولئك هُم الْمُهْتَدون﴾. [البقرة: ١٥٥، ١٥٧].

---

(١) أي: ابن تيمية.

(٢) ٢٦٤ زاد المعاد جـ٣.

وفي المسند وصحيح مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي: عن أم سلمة، عنه ﷺ أنه قال: «**ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلُف لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها**». وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته. فإنها تتضمن أصلين عظيمين. وإذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته:

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك الله عز وجل حقيقة. وقد جعله عند العبد عارية. فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير.

وأيضًا: فإنه محفوف بعدمين: عدم قبله، وعدم بعده. وملك العبد له نعمة معارة في زمن يسير.

وأيضًا: فإنه ليس هو الذي أوجده من عدمه، حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يُبقي عليه وجوده، فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي.

وأيضًا: فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهي لا تصرُّف الملاَّك؛ ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق. ولابد أن يخلِّف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فردًا، كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة. ولكن بالحسنات والسيئات. فإذا كانت هذه بداية العبد وما خُوِّله ونهايته فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود؟ ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء.

ومن علاجه: أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه. وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى: **﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُم إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذلك على الله يَسير. لِكَيلا تَأسَوا على مافَاتَكُم، ولا تَفْرَحوا بِمَا آتَاكُمْ. والله لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾**. [الحديد: ٢٢، ٢٣].

ومن علاجه: أن ينظر إلى ما أصيب به. فيجد ربه قد أبقى عليه مثله أو أفضل منه، وادخر له ـ إن صبر ورضي ـ ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

ومن علاجه: أن يطفيء نار مصيبته ببرد التأسِّي بأهل المصائب.

(١)**وقد** وعد الصابرين بثلاثة أشياء، كل واحد خير من الدنيا وما عليها وهي: صلواته تعالى عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى: ﴿**أولئك عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِم وَرَحِمَةٌ وأولئك هُمُ الْمُهْتَدُون**﴾. [البقرة: ١٥٧] وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم.

وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه.

وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولي العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك.

(٢)**وقال** عبدالله بن المبارك: أخبرنا عبدالله بن لهيعة، عن عطاء بن دينار: أن سعيد بن جبير قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر.

فقوله: اعتراف العبد لله بما أصاب منه كأنه تفسير لقوله: ﴿**إنَّا لله**﴾ فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد.

وقوله: راجيًا به ما عند الله كأنه تفسير لقوله: ﴿**وإنَّا إليه راجعون**﴾ أي: نرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة.

وقوله: وقد يجزع الرجل وهو يتجلد، أي: ليس الصبر بالتجلد، وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور، ورد اللسان عن الشكوى، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر، فليس بصابر.

وقال يونس بن يزيد: سألت ربيعة بن أبي عبدالرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه.

وقال قيس بن الحجاج في قول الله: ﴿**فَاصْبِرِ صَبْرًا جَمِيلاً**﴾[المعارج: ٥]. قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو.

وكان شمر إذا عزى مصابًا قال: اصبر لما حكم ربُّك.

وقال أبو عقيل: رأيت سالم بن عبدالله بن عمر بيده سوط، وعليه إزار في موت واقد بن عبدالله بن عمر، لا يسمع صارخة ينالها بالسوط إلا ضربها.

---

(١) ١١٨ عدة الصابرين. (٢) ١٠١ عدة الصابرين.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن جعفر بن مهران قال: قالت امرأة من قريش: أما والذي لا خلد إلا لوجهه، ومن ليس في العز المنيع له كفوًا، لئن كان بدء الصبر مرًّا مذاقه، لقد يجني من غبه الثمر الحلو، قال: وانشدني عمرو بن بكير:

صبرت فكـان الصبر خيرُ مغبـة وهـل جزع يجدي علي فأجـزع
ملكت دمـوع العين حتى رددتها إلى ناظـري فالعين في القلب تدمع

فـائـدة(١)

قولهم: الصلاة من الله بمعنى الرحمة؛ باطل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الله تعالى غاير بينهما في قوله: ﴿**عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمةٌ**﴾. [البقرة: ١٥٧]

الثاني: أن سؤال الرحمة تشرع لكل مسلم، والصلاة تختص بالنبي ﷺ، وهي حق له ولآله، ولهذا منع كثير من العلماء من الصلاة على معين غيره، ولم يمنع أحد من الترحم على معين.

الثالث: أن رحمة الله عامة وسعت كل شيء، وصلاته خاصة بخواص عباده.

وقولهم: الصلاة من العباد بمعنى الدعاء مشكل من وجوه:

أحدها: أن الدعاء يكون بالخير والشر، والصلاة لا تكون إلا في الخير.

الثاني: أن دعوت تعدى باللام وصليت لا تعدى إلا بعلى، ودعا المعدى بعلى ليس بمعنى صلى، وهذا يدل على أن الصلاة ليست بمعنى الدعاء.

الثالث: أن فعل الدعاء يقتضي مدعوًّا ومدعوًّا له، تقول: دعوت الله لك بخير، وفعل الصلاة لا يقتضي ذلك، لا تقول: صليت الله عليك ولا لك؛ فدل على أنه ليس بمعناه. فأي تباين أظهر من هذا؟ ولكن التقليد يعمي عن إدراك الحقائق فإياك والإخلاد إلى أرضه.

ورأيت لأبي القاسم السهيلي كلامًا حسنًا في اشتقاق الصلاة، وهذا لفظه قال:

(١) ٢٦ بدائع جـ١.

(**معنى** الصلاة) اللفظة حيث تصرفت ترجع إلى الحنو والعطف؛ إلا أن الحنو والعطف يكون محسوسًا ومعقولاً، فيضاف إلى الله منه ما يليق بجلاله وينفي عنه ما يتقدس عنه. كما أن العلو محسوس ومعقول.

فالمحسوس منه صفات الأجسام.

والمعقول منه صفة ذي الجلال والإكرام. وهذا المعنى كثير موجود في الصفات، والكثير يكون صفة للمحسوسات وصفة للمعقولات وهو من أسماء الرب تعالى، وقد تقدس عن مشابهة الأجسام ومضاهاة الأنام، فالمضاف إليه من هذه المعاني معقولة غير محسوسة.

وإذا ثبت هذا فالصلاة كما تسمى عطفًا وحنوًا تقول: اللهم اعطف علينا، أي: ارحمنا. قال الشاعر:

ومازلت في ليني له وتعطفي عليه كما تحنو على الولد الأم

ورحمة العباد رقة في القلب إذا وجدها الراحم من نفسه؛ انعطف على المرحوم وانثنى عليه.

ورحمة الله للعباد جود وفضل، فإذا صلى عليه فقد أفضل عليه وأنعم، وهذه الأفعال إذا كانت من الله أو من العبد؛ فهي متعدية بعلى مخصوصة بالخير لا تخرج عنه إلى غيره، فقد رجعت كلها إلى معنى واحد؛ إلا أنها في معنى الدعاء. والرحمة صلاة معقولة أي انحناء معقول غير محسوس ثمرته من العبد الدعاء؛ لأنه لا يقدر على أكثر منه، وثمرته من الله الإحسان والإنعام فلم تختلف الصلاة في معناها، إنما اختلفت ثمرتها الصادرة عنها.

والصلاة التي هي الركوع والسجود انحناء محسوس، فلم يختلف المعنى فيها إلا من جهة المعقول والمحسوس، وليس ذلك باختلاف في الحقيقة، ولذلك تعدت كلها بعلى واتفقت في اللفظ المشتق من الصلاة، ولم يجز صليتُ على العدو، أي: دعوت عليه، فقد صار معنى الصلاة أرق وأبلغ من معنى الرحمة، وإن كان راجعًا إليه إذ ليس كل راحم ينحني على المرحوم ولا ينعطف عليه.

الله(١) سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما تولد منها؛ ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة؛ فعليه

---

(١) ٧١ عدة الصابرين.

من الوزر مثل أوزار من اتبعه؛ لأن اتباعهم له تولد عن فعله؛ ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُم كَامِلَةً يومَ القِيامَةِ ومِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. [النحل: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُم وأثقالاً مع أَثْقَالِهِم﴾. [العنكبوت: ١٣].

فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله، والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره؟.

قيل: التوبة منه بالندم عليه، وعدم إجابة دواعيه وموجباته، وحبس النفس عن ذلك.

فإن كان المتولد متعلقًا بالغير فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان؛ ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى؛ ليضلوا الناس بذلك؛ أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه فقال:

﴿إنَّ الذين يَكْتُمُون ما أَنْزَلْنا من البَيِّنَاتِ والهُدى مِن بَعْدِ ما بَيَّنَّاه للنَّاس في الكِتَابِ أولئك يَلْعَنُهُمُ الله ويَلْعَنُهُمُ اللاعِنُون إلا الذين تَابُوا وأَصْلَحُوا وبَيَّنُوا فأولئك أَتُوبُ عَلَيْهِم وأَنَا التَّوَّابُ الرحيمُ﴾. [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم؛ إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم، واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة؛ أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكفار والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم له رياءً وسمعة. فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان.

(١)**قال** تعالى: ﴿وَمِن النَّاسِ مَنْ يَتَخِذُ من دونِ الله أَنْدادًا يُحِبُّونهم كَحُبِّ الله والذين آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾. [البقرة: ١٦٥].

وأصح القولين أن المعنى: يحبونهم كما يحبون الله. وسووا بين الله وبين أندادهم في الحب.

ثم نفى ذلك عن المؤمنين فقال: ﴿والذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله﴾. فإن الذين آمنوا أخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره، وأما المشركون فلم يخلصوه لله.

(١) ٢٦٦ طريق الهجرتين.

والمقصود من الخلق والأمر إنما هو هذه المحبة، وهي أول دعوة الرسل. وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة؛ اعترافه وإقراره بهذه المحبة وإفراد الرب بها، فهو أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها، وجميع المقامات وسائل إليها، وأسباب لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل؛ فهي قطب رحى السعادة، وروح الإيمان، وساق شجرة الإسلام؛ ولأجلها أنزل الله الكتاب والحديد: فالكتاب هاد إليها ودال عليها ومفصل لها، والحديد لمن خرج عنها وأشرك فيها مع الله غيره؛ ولأجلها خلقت الجنة والنار: فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها لله وحده فأخلصهم لها، والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره وسوى بينه وبين الله فيها، كما أخبر تعالى عن أهلها أنهم يقولون في النار لآلهتهم ﴿**تالله إنْ كُنَّا لَفِي ضَلَال مُبِين، إذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِين**﴾. [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات؛ بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة: أن لا إله إلا الله.

فحقيق لمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها؛ أن يتيقظ لهذه المسألة علمًا وعملًا وحالًا وتكون أهم الأشياء عنده، وأجل علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها والمدار عليها والسؤال يوم القيامة عنها. . .

(١)**فإذا** عُرف ذلك، فالمحبة هي التي تحرك المحبَّ في طلب محبوبه الذي يكمل بحصوله له. فتحرك محبَّ الرحمن، ومُحبَّ القرآن، ومحبَّ العلم والإيمان، ومحبَّ المتاع والأثمان، ومحبَّ الأوثان والصُّلبان، ومحبَّ النِّسوان والمردان، ومحبَّ الأوطان، ومحبَّ الإخوان. فتثير من كل قلب حركة إلى محبوبه من هذه الأشياء. فيتحرك عند ذكر محبوبه منها دون غيره. ولهذا تجدُ محبَّ النِّسوان والصبيان، ومحبَّ قُرآن الشيطان بالأصوات والألحان، لا يتحرك عند سماع العلم وشواهد الإيمان، ولا عند تلاوة القرآن، حتى إذا ذُكر له محبوبه اهتزَّ له ورَبَا، وتحرَّك باطنه وظاهره شوقًا إليه وطربًا لذكره.

فكل هذه المحابِّ باطلة مُضْمَحِلَّة سوى محبة الله وما والاها: من محبة رسوله،

---

(١) ١٣٢ إغاثة جـ٢.

وكتابـه، ودينـه، وأوليائه. فهذه المحبة تدوم، وتدوم ثمرتها ونعيمها بدوام من تعلَّقت به، وفضلُها على سائر المحابِّ كفضل من تعلقت به على ما سواه. وإذا انقطعت علائق المحبين، وأسباب توادهم وتحابهم؛ لم تنقطع أسبابها. قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتُّبِعُوا مِن الذين اتَّبَعُوا وَرَأَوا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾. [البقرة: ١٦٦].

قال عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «المودَّة». وقال مجاهد: «تواصُلُهم في الدنيا» وقال الضحاك: «يعني تقطعت بهم الأرحام، وتفرقت بهم المنازل في النار». وقال أبو صالح: «الأعمال».

والكل حق. فإن الأسباب؛ هي الوُصَل التي كانت بينهم في الدنيا، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها.

وأما أسبـاب المـوحـدين المخلصـين لله؛ فاتصلت بهم ودام اتصـالها بدوام معبودهم ومحبوبهم. فإنَّ السبب تبعٌ لغايته في البقاء والانقطاع.

(١)**قال** تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتُّبِعُوا مِنْ الذين اتَّبَعُوا ورَأَوا العَذَابَ وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾. [البقرة: ١٦٦]. فالأسباب التي تقطعت بهم هي العلائق التي بغير الله ولغـير الله، تقـطعت بهم أحـوج ما كانـوا إليهـا. وذلـك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبـطلت؛ اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطلان غاياتها وتضمحل باضمحلالها.

وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، وكل سعي لغيره باطل ومضمحل.

وهـذا كما يشـاهـده الناس في الدنيا: من اضمحلال السعي والعلم والكد والخدمة، التي يفعلها العبد: لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال ذلك الذي عمل له؛ عدم ذلك العمل وبطل ذلك السعي ولم يبق في يده سوى الحرمان؛ ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة: «أليس عدلاً مني أني أولي كل رجل منكم ما كان يتـولى في الـدنيا» فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم فتتساقط بهم في النار، ويتولى عابدو الشمس والقمر والنجوم آلهتهم، فإذا كورت الشمس وانتثرت النجوم؛ اضمحلت تلك العبادة وبطلت وصارت حسرة عليهم

(١) ١٢ طريق الهجرتين.

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُم حَسَرَاتٍ عَلَيْهِم وَمَا هُمْ بِخَارِجِين من النار﴾، [البقرة: ١٦٧]. ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة وأغبنهم يوم معاده؛ فإنه يحال على مفلس كل الإفلاس بل على عدم، والموحد حوالته على المليء الكريم، فيابُعد ما بين الحوالتين.

(١)**والله** سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك به، التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل. وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيم إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ الآية. [البقرة: ١٣٠]. ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك. والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وأصل الشرك بالله الإشراك مع الله في المحبة كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ والذين آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾. [البقرة: ١٦٥].

فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به من دونه؛ فيتخذ الأنداد من دونه. يحبهم كحب الله.

وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم.

وقيل: بل المعنى أنهم أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لله، فإنهم وإن أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين أندادهم في المحبة؛ ضعفت محبتهم لله، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له؛ كانت أشد من محبة أولئك. والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة.

ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له؛ أنكر على من اتخذ من دونه وليًّا أو شفيعًا غاية الإنكار، وجمع ذلك تارة، وأفرد أحدهما عن الآخر تارة، بالإنكار فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُم اسْتَوى على العَرْشِ يُدَبِرُ الأَمْرَ ما من شفيعٍ إلا من بَعْدِ إِذْنِهِ﴾. [يونس: ٣].

وقال تعالى: ﴿الله الذي خلق السموات والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما في سِتَة أيام ثم استوى على العرش مَالكم من دُونِهِ من وَلي ولا شَفِيع أفلا تَتَذَكَّرُون﴾. [السجدة: ٤].

---

(١) ٢٥٤ الجواب الكافي.

وقال تعالى: ﴿وأَنْذِرْ بِهِ الذينَ يَخَافُون أَنْ يُحْشَروا إلى رَبِّهِم لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ لعَلهُم يَتقُونَ﴾. [الأنعام: ٥١].

وقال في الإفراد: ﴿أَم اتخذُوا مِنْ دُونِ الله شُفَعَاءَ قُل أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُون شَيئًا ولا يَعْقِلُون؟ قُل لله الشَّفاعةُ جميعًا﴾. [الزمر: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِم جَهَنمُ ولا يُغْني عَنْهُم ما كسبوا شيئًا ولا ما اتَّخَذُوا مِن دونِ الله أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾. [الجاثية: ١٠].

فإذا والى العبد ربه وحده واتخذه له وليًّا من دون أن يتخذ أولئك الذين يسمون شفعاء، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله؛ بخلاف من اتخذ المخلوقين أولياء من دون الله؛ فهذا لون وذاك لون. والشفاعة الشركية الباطلة لون. والشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون. وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والمقصود أن حقيقة العبودية وموجباتها لا تخلص مع الإشراك بالله في المحبة؛ بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية وموجباتها. فإن محبة رسول الله ﷺ بل تقديمه في الحب على الأنفس وعلى الآباء والأبناء؛ لا يتم الإيمان إلا بها؛ إذ محبته من محبة الله. وكذلك كل حُب في الله ولله.

كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**».

وفي لفظ في الصحيحين: «**لا يجد عبد طعم الإيمان إلا من كان في قلبه ثلاث خصال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**».

وفي الحديث الذي في السنن: «**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان**».

وفي حديث آخر: «**ما تحابَّ رجلان في الله؛ إلا كان أفضلهما أشدَّهما حبًّا لصاحبه**». فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها؛ وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك.

فصــل

وههنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينها. وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها:

أحدها: محبة الله. ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه. فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحب الله. وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر. وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحب الله، ولا يستقيم محبة ما يحب الله إلا بالحب فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئًا مع الله: لا لله، ولا من أجله؛ ولا فيه؛ فقد اتخذه ندًّا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه وهي المحبة الطبيعية. وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه: كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تُذَم إلا إن ألهت عن ذكر الله وشغلته عن محبته، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا لا تُلْهِكُم أَمْوَالُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ**﴾. [المنافقون: ٩].

وقال تعالى: ﴿**رِجَالٌ لا تُلْهِيهِم تِجَارةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ**﴾. [النور: ٣٧].

ثمالخُلَّة[1] وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها؛ بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه، وهذا المنصب خاصة للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما: إبراهيم ومحمد كما قال ﷺ: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**».

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ولكن صاحبكم خليل الله**».

وفي حديث آخر: «**إني أبرأ إلى كل خليل من خلته**».

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه فتعلق حبه بقلبه فأخذ منه شعبة؛ غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه، وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحانًا، ولم يكن المقصود ذبح الولد،

---

(١) الخُلَّة: بضم الخاء المحبة، والصداقة التي تخللت القلب.

ولكن المقصود ذبحه من قلبه؛ ليخلص القلب للرب. فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال، وقدم محبة الله على محبة ولده؛ حصل المقصود فرفع الذبح وفدي بذبح عظيم، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأسًا، بل لابد أن يبقي بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء. وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة(١). وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها، وقال: «**لا يبدل القول لدي خمس في الفعل وخمسون في الأجر**».

(٢) **المحبة** ثلاثة أقسام: محبة الله، والمحبة له وفيه، والمحبة معه. فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لا من قواطعها، فإن محبة الحبيب تقتضي محبة ما يحب ومحبة ما يعين على حبه، ويوصل إلى رضاه وقربه، وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه ويتوصل به إلى حبه وقربه؟

وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشركية، وهي كمحبة أهل الأنداد لأندادهم كما قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أَنْدَادًا يُحِبونَهُم كَحُبِّ الله والذين آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله**﴾. [البقرة: ١٦٥].

وأصل الشرك الذي لا يغفره الله؛ هو الشرك في هذه المحبة، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الربَّ سبحانه في خلق السموات والأرض، وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله، فوالوا عليها وعادوا عليها وتألَّهوها وقالوا: هذه آلهةٌ صغارٌ تقربنا إلى الإله الأعظم. ففرقٌ بين محبة الله أصلاً والمحبة له تبعًا والمحبة [معه] شركًا. وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنه مَفْرَق الطُّرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك.

ويُحكى أن الفُضيل دخل على ابنته في مرضها، فقالت له: يا أبت هل تحبني؟ قال: نعم. قالت: لا إله إلاَّ الله! والله ما كنتُ أظنُّ فيك هذا، ولم أكن أظنك تحب مع الله أحدًا، ولكن أفرد الله بالمحبة واجعل لي منك الرحمة، أي: يكون حبك لي حبَّ رحمةٍ جعلها الله في قلب الوالد لولده لا محبة مع الله. فلله حقٌّ من المحبة لا يشْركه

---

(١) التي كان مأموراً بها في قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا إذا ناجيتُم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة..**﴾ الآية [المجادلة: ١٢].

(٢) ٣١٤ روضة.

فيه غيره، وأظلم الظلم وضعُ تلك المحبة في غير موضعها، والتشريك بين الله وغيره فيها. فليتدبر اللبيب هذا الباب؛ فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى.

(١)**قال** الله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾**. [البقرة: ١٦٥]. فأخبر أن من أحب من دون الله شيئًا، كما يحب الله تعالى؛ فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا، فهذا ندٌّ في المحبة، لا في الخلق والربوبية؛ فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم. ثم قال: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾**. [البقرة: ١٦٥]. وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة: أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: **﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾**. [البقرة: ١٦٥]. فإن فيها قولين:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله؛ ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادًا.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذُمُّوا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة. ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم. وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي مُحضرة معهم في العذاب: **﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**. [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية؛ وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم.

وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى: **﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ**

---

(١) ٢٠ مدارج جـ٣.

يَعْدِلُون﴾. [الأنعام: ١]. أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم. وهذا أصح القولين.

وقيل: الباء. بمعنى «عن» والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربّهم يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره. وهذا ليس بقوي. إذ لا تقول العرب: عدلت بكذا، أي: عدلت عنه. وإنما جاء هذا في فعل السؤال. نحو: سألت بكذا، أي: عنه. كأنهم ضمنوه: اعتنيت به واهتممت. ونحو ذلك.

فصل(1)

في خاتمة لهذا الباب، هي الغاية المطلوبة، وجميع ما تقدم كالوسيلة إليها.

وهي: أن محبة الله سبحانه والأنس به، والشوق إلى لقائه، والرضى به وعنه؛ أصل الدين وأصلُ أعماله وإراداته.

كما أنّ معرفته، والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أجلُّ علوم الدين كلها، فمعرفته أجلُّ المعارف.

وإرادة وجهه أجلُّ المقاصد، وعبادته أشرفُ الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته، ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال، وذلك أساس الحنيفية ملَّة إبراهيم.

وقد قال تعالى لرسوله: **﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِع مِلَّةَ إِبْرَاهِيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ من الْمُشْرِكِين﴾**. [النحل: ١٢٣].

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُوصي أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: **«أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملَّة أبينا إبراهيم، حنيفًا مسلمًا، وما كان المشركين»**.

وذلك هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وعليها قام دينُ الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين. وليس لله دينٌ سواه. ولا يقبلُ من أحد دينًا غيره.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهُو فِي الآخِرَة مِنَ الخَاسِرِينَ﴾. [آل عمران: ٨٥].

فمحبته تعالى، بل كونُه أحب إلى العبد من كل ما سواه على الإطلاق، من أعظم واجبات الدين، وأكبر أصوله، وأجلِّ قواعده، ومن أحبَّ معه مخلوقًا مثل

---

(١) ١٩٥ إغاثة جـ٢.

ما يحبه فهو من الشرك الذي لا يغفر لصاحبه، ولا يُقبل معه عمل.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ، والذين آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾. [البقرة: ١٦٥].

وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمان؛ حتى يكون عبد الله ورسوله أحبَّ إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، ومحبته تبعٌ لمحبة الله، فما الظنُّ بمحبته سبحانه؟ وهو سبحانه لم يخلق الجنّ والإنس إلا لعبادته، التي تتضمن كمال محبته، وكمال تعظيمه والذل له، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزلَ كتبه، وشرع شرائعه. وعلى ذلك وضعَ الثوابَ والعقاب، وأسست الجنةُ والنار، وانقسم الناسُ إلى شقي وسعيد، وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء، فليس كمحبته وإجلاله وخوفه محبة وإجلالٌ ومخافة.

فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه، وهربت منه. والله سبحانه كلما خفته أنست به وفررت إليه. والمخلوق يخاف ظلمهُ وعدوانه، والرب سبحانه إنما يُخاف عدله وقِسْطه.

وكذلك المحبة. فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله؛ فهي عذاب للمحب ووبال عليه.

وما يحصل له بها من التألم؛ أعظم مما يحصل له من اللذة. وكلما كانت أبعدَ عن الله؛ كان ألمها وعذابها أعظم.

هذا إلى ما في محبته من الإعراض عنك، والتجني عليك، وعدم الوفاء لك، إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكراهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه وما هو أحب إليه منك. وإما لغير ذلك من الآفات.

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربُّها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها. فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن. فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك؛ فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك؛ أتَمُّ من كل نعيم، واللذة التي تناله؛ أعلى من كل لذة.

كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: «إنه ليمرُّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب».

وقال آخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات يهتزُّ فيها طربًا بأُنسه بالله وحبه له».

وقال آخر: «مساكينُ أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها».

وقال آخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

وَوُجدانُ هذه الأمور وذوقها؛ هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه. وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتمّ، والقرب منه أوفر؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته؛ أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب؛ وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه...

(١)قوله تعالى: ﴿**وإذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا ما أنزَل الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما ألفَيْنَا عَلَيْه آبَاءنا أَوَلَو كان آبَاؤُهم لا يَعْقِلُون شيئًا ولا يَهْتَدُون**﴾. [البقرة: ١٧٠]. فهذه مناظرة حكاها الله بين المسلمين والكفار، فإن الكفار لجؤوا إلى تقليد الآباء وظنوا أنه منجيهم، لإحسانهم ظنهم بهم فحكم الله بينهم بقوله: ﴿**أَوَلَوْ كَانَ آباؤُهم لا يعقلون شيئًا ولا يَهْتدون**﴾. [البقرة: ١٧٠].

وفي موضع آخر: ﴿**أوَ لَو كان الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السَّعير**﴾. [لقمان: ٢١].

وفي موضع آخر: ﴿**قال أَوَلَو جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُم عَلَيْهِ آباءكُمْ**﴾. [الزخرف: ٢٤].

فأخبر عن بطلان هذه الحجة وأنها لا تنجي من عذاب الله؛ لأن تقليد من ليس عنده علم ولا هدى من الله ضلالة وسفه.

والمعنى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير يقلدونهم، ولو كانوا لا علم عندهم ولا هدى يقلدونهم أيضًا. وهذا شأن من لا غرض له في الهدى ولا في اتباع الحق، إنْ غرضُه بالتقليد إلا دفع الحق والحجة إذا لزمته؛ لأنه لو كان مقصوده الحق لاتبعه إذا ظهر له، وقد جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، فلو

---

(١) ١٧٣ بدائع جـ٤.

كنتم ممن يتبع الحق لاتبعتم ما جئتكم به. فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم على حق فقد جئتكم بأهدى مما وجدتموهم عليه، وإنما جعلتم تقليدهم جُنَّة لكم تدفعون بها الحق الذي جئتكم به.

(١)**قوله** تعالى: ﴿وَمَثَلُ الذين كَفَرُوا كَمِثْلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلا دعاءً ونِدَاءً، صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُون﴾. [البقرة: ١٧١]. فتضمن هذا المثل ناعقًا، أي: مُصَوِّتًا بالغنم وغيرها، ومنعوقًا به وهو الدواب، فقيل: الناعق: العابد، وهو الداعي للصنم، والصنم هو المنعوق به المدعوُّ، وإن حال الكافر في دعائه، كحال من ينعق بما لا يسمعه، هذا قول طائفة منهم عبدالرحمن بن زيد وغيره.

واستشكل صاحبُ الكشاف وجماعة معه هذا القول، وقالوا: قوله: ﴿إلَّا دعاءً ونداءً﴾ لا يساعد عليه؛ لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداء.

وقد أجيب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن «إلا» زائدة، والمعنى:بما لا يسمع دُعاء ونداء؛ قالوا: وقد ذكر ذلك الأصمعي في قول الشاعر:

* حَرَاجِيجُ مَا تنفكُّ إلَّا مُناخَةً(٢) *

أي ما تنفك مُنَاخة، وهذا جواب فاسد، فإن «إلا» لا تزاد في الكلام.

الجواب الثاني: أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعو.

الجواب الثالث: أن المعنى أن مثل هؤلاء في دعائهم آلهتهُم التي لا تَفْقه دعـاءهم كمثل الناعق بغنمه، فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه هو في دعاء ونداء، وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء.

وقيل: المعنى ومثَلُ الذين كفروا كالبهائم التي لا تَفْقه مما يقول الراعي أكثر من الصوت؛ فالراعي هو داعي الكفار، والكفار هم البهائم المَنْعُوق بها.

قال سيبـويه: المعنى ومثلك يامحمـد ومَثَـلُ الـذين كفـروا كمثل الناعق والمنعوق به؛ وعلى قوله فيكون المعنى: ومثلُ الذين كفروا وداعيهم كمثل الغنم والناعق بها.

ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وأن تجعله من التشبيه المفرق، فإن

(١) ١٨٢ أعلام جـ١.

(٢) هذا صدر بيت لذي الرُّمَّة يصف إبلًا، وعجزه قوله: * على الخسف أو نرمي بها بلدًا قفراً *.

جعلته من المركب كان تشبيها للكفار في عدم فقههم وانتفاعهم بالغنم التي يَنْعِقُ بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئًا غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء، وإن جعلته من التشبيه المفرَّق فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النَعْق، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق، والله أعلم.

(١)**وقال** تعالى: **﴿وَمَثَلُ الذين كَفَرُوا كَمِثْلِ الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾** وسواء كان المعنى ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتا مجردة أو كان المعنى، ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء فالقولان متلازمان بل هما واحد وإن كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان.

(٢)**قد** جمع الله خصال البر في قوله تعالى: **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾**. إلى قوله ـ **﴿وأولئك هم المتقون﴾**.

فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمسة التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنها الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة، وايتاء الزكاة، والنفقات الواجبة وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه: من الصبر والوفاء بالعهد، فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين حقائقه وشرائعه، والأعمال المتعلقة بالجوارح، والقلب، وأصول الإيمان الخمسة.

ثم أخبر سبحانه عن هذه إنما هي خصال التقوى بعينها فقال **﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾**.

(٣)**قوله**: **«كيف تَرْدَعُون عن سفك الدم بسفكه، وإن ذلك كازالة النجاسة بالنجاسة»** سؤال في غاية الوَهْن والفساد، وأول مايقال لسائله: هل ترى رَدْع المفسدين والجناة عن فسادهم وجناياتهم وكفَّ عُدْوانهم مُسْتَحْسَنًا في العقول موافقًا لمصالح العباد أو لا تراه كذلك؟.

فإن قال «لا أراه كذلك» كفانا مؤنة جوابه بإقراره على نفسه بمخالفة جميع

---

(١) ٧٩ مفتاح جـ١ (٢) ٥ التبوكية (٣) ١٠٢ أعلام جـ٢

طوائف بني آدم على اختلاف مللهم ونحلهم ودياناتهم وآرائهم، ولولا عقوبة الجناة والمفسدين لأهلك الناس بعضُهم بعضا، وفسد نظام العالم، وصارت حالُ الدوابِّ والأنعام والوحُوش أحْسَن من حال بني آدم.

وإن قال: «بل لا تتم المصلحة إلا بذلك».

قيل له: من المعلوم أن عقوبة الجناة والمفسدين لا تتم إلا بمُؤلم يَرْدعهم، ويجعل الجاني نَكالاً وعظة لمن يريد أن يفعل مثل فعله، وعند هذا فلا بدَّ من إفساد شيء منه بحسب جريمته: في الكبر والصغر، والقلة والكثرة.

ومن المعلوم ببدَائِهِ العقول: أن التسوية في العقوبات مع تفاوت الجرائم غير مستحسن؛ بل منافٍ للحكمة والمصلحة؛ فإنه إن ساوى بينهم في أدنى العقوبات لم تحصل مصلحة الزجر. وإن ساوى بينها في أعظمها كان خلافَ الرحمة والحكمة؛ إذ لا يليق أن يُقتَلَ بالنظرة والقبلة ويُقْطَعَ بسرقة الحبة والدينار.

وكذلك التفاوت بين العقوبات مع استواء الجرائم قبيح في الفطر والعقول، وكلاهما تأباه حِكمة الرب تعالى وعدْله وإحسانه إلى خلقه، فأوقع العقوبة تارة بإتلاف النفس إذا انتهت الجناية في عظمها إلى غاية القبح: كالجناية على النفس أو الدين، أو الجناية التي ضررها عام؛ فالمفسدة التي في هذه العقوبة خاصة، والمصلحة الحاصلة بها أضعاف أضعاف تلك المفسدة، كما قال تعالى: ﴿**ولكمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أولي الألبابِ لَعلكُم تتقونَ**﴾ [البقرة: ١٧٩].

فلولا القصاص لفسدَ العالم، وأهلك الناس بعضهم بعضًا ابتداء واستيفاء، فكأن في القصاص دفعًا لمفسدة التَّجَرِّي على الدماء بالجناية وبالاستيفاء. وقد قالت العرب في جاهليتها:

«القتلُ أنفى للقتل» «وبسفك الدماءِ تُحْقَنُ الدماءُ».

أفلم تغسل النجاسة بالنجاسة، بل الجناية نجاسة والقصاص طُهْرة، وإذا لم يكنْ بد من موت القاتل ومن استحق القتل، فموته بالسيف أنفع له في عاجلته وآجلته، والموت به أسرع الموتات وأوحاها وأقلها ألمًا، فموته به مصلحة له ولأولياء القتيل ولعموم الناس، وجَرَى ذلك مجرى إتلاف الحيوان بذبْحه لمصلحة الآدمي، فإنه حسن، وإن كان في ذبحه إضرار بالحيوان؛ فالمصالح المرتبة على ذبحه أضعاف

أضعاف مفسدة إتلافه.

ثم هذا السؤال الفاسد؛ يَظْهر فسادُه وبطلانه بالموت الذي حتمه الله على عباده وساوى فيه بين جميعهم، ولولاهُ لما هَنَأ العيش، ولا وَسِعتهم الأرزاق، ولضاقت عليهم المساكن والمدن والأسواق والطرقات، وفي مفارقة البغيض من اللذة والراحة ما في مُواصلة الحبيب ، والموت مخلص للحي، والموت مريح لكل منهما من صاحبه، ومخرج من دار الابتلاء والامتحان [و] بابٌ للدخول في دار الحيوان(١)

جزى الله عنا الموت خيرًا فإنه أبـر بنا من كل بـر وأعـطف

يعجل تخليص النفوس من الأذى ويدني إلى الدار التي هـي أشرف

فكم لله سبحانه على عباده الأحياء والأموات في الموت من نعمة لا تحصى، فكيف إذا كان فيه طُهرة للمقتول، وحياة للنوع الإنساني، وتَشَفٍّ للمظلوم، وعدل بين القاتل والمقتول؛ فسبحان من تنزهت شريعته عن خلاف ما شرعها عليه من اقتراح العقول الفاسدة والآراء الضالة الجائرة.

وأما قوله: «لو كان ذلك مستحسنًا في العقول؛ لاستحسن في تحريق ثوبه وتخريب داره وذبح حيوانه مقابلته بمثله».

فالجواب عن هذا أن مفسدة تلك الجنايات تندفع بتغريمه نظير ما أتلفه عليه؛ فإن المِثلَ يسدُّ مسد المثل من كل وجه؛ فتصير المقابلة مفسدة محضة، كما ليس له أن يقتل ابنه أو غلامه مقابلة لقتله هو ابنه أو غلامه، فإن هذا شرعُ الظالمين المعتدين الذي تنزه عنه شريعة أحكم الحاكمين.

على أن للمقابلة في إتلاف المال بمثل فعله مساغًا في الاجتهاد.

وقد ذهب إليه بعضُ أهل العلم كما تقدم الإشارة إليه في عقوبة الكفار بإفساد أموالهم؛ إذا كانوا يفعلون ذلك بنا، أو كان يَغِيظُهم، وهذا بخلاف قتل عبده إذا قتل عبده أو قتل فرسه أو عَقَر فرسه، فإن ذلك ظلم لغير مستحق.

ولكن السُّنة اقتضت التضمين بالمثل، لا إتلاف النظير، كما غرم النبي ﷺ إحدى زوجتيه التي كَسَرَت إناء صاحبتها إناءً بدله، وقال: «**إناء بإناء**» ولا ريب أن هذا أقل فسادًا، وأصلح للجهتين؛ لأن المتلف اله إذا أخذ نظيره صار كمن

---

(١) الحيوان هنا: الحياة. ومنه قوله: ﴿وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٦٤].

لم يَفُتْ عليه شيء، وانتفع بما أخذه عوض ماله، فإذا مكناه من إتلافه كان زيادة في إضاعة المال، وما يراد من التَّشفي وإذاقة الجاني ألم الإتلاف فحاصل بالغُرْم غالبًا، ولا التفات إلى الصور النادرة التي لا يتضرر الجاني فيها بالغرم، ولا شك أن هذا أليق بالعقل، وأبلغ في الصلاح، وأوفق للحكمة.

وأيضًا فإنه لو شرع القصاص في الأموال ردعًا للجاني؛ لبقي جانب المجنى عليه غير مراعى، بل يبقى متألمًا موتورًا غير مجبور، والشريعة إنما جاءت بجَبْر هذا وردع هذا.

فإن قيل: فخيِّروا المجني عليه بين أن يغرم الجاني أو يتلف عليه نظير ما أتلفه هو، كما خيرتموه في الجناية على طرفه، وخيرتم أولياء القتيل بين إتلاف الجاني النظير وبين أخذ الدية.

قيل: لا مصلحة في ذلك للجاني ولا للمجني عليه ولا لسائر الناس، وإنما هو زيادة فساد، لا مصلحة فيه بمجرد التشفي، ويكفي تغريمه وتعزيره في التشفي، والفرق بين الأموال والدماء في ذلك ظاهر.

فإن الجناية على النفوس والأعضاء؛ تُدْخِل من الغيظ والحنق والعداوة على المجني عليه وأوليائه ما لا تدخله جناية المال، ويدخل عليهم من الغضاضة والعار واحتمال الضيم والحمية والتحرق لأخذ الثأر؛ ما لا يجبره المال أبدًا.

حتى إن أولادهم وأعقابهم ليعيّرون بذلك، ولأولياء القتيل من القصد في القصاص وإذاقة الجاني وأوليائه ما أذاقه للمجني عليه وأوليائه؛ ما ليس لمن حرق ثوبه أو عُقرت فرسه، والمجني عليه موتور هو وأولياؤه، فإن لم يوتر الجاني وأولياؤه ويجرعوا من الألم والغيظ ما تجرعه الأول لم يكن عدلاً.

وقد كانت العرب في جاهليتها؛ تعيب على مَنْ يأخذ الدية ويرضى بها من دَرْك ثأره وشفاء غيظه، كقول قائلهم يهجو من أخذ الدية من الإبل:

وإن الذي أصبَحْتُمُ تحلبونه دمٌ، غَيْرَ أن اللَّوْنَ ليس بأشقرا

وقال جرير يعير من أخذ الدية فاشترى بها نخلاً:

ألا أبلغ بني حجر بن وهب بأن التمر حُلوٌ في الشتاء

وقال آخر:

إذا صُبَّ ما في الوَطب فاعلم بأنه دَمُ الشيخ فاشرب من دم الشيخ أودَعِ

وقال آخر:

خليلان مختلفٌ شَكْلنا		أريدُ العلاء ويبغي السمن
أريد دماء بني مالك		ورَأيُ المعلى بياضُ اللبن

وهذا وإن كانت الشريعة قد أبطلته وجاءت بما هو خير منه وأصلح في المعاش والمعاد: من تخيير الأولياء بين إدراك الثأر ونيل التشفي، وبين أخذ الدية؛ فإن القصد به أن العرب لم تكن تعير مَنْ أخذ بدل ماله، ولم تعده ضعفًا ولا عجزًا ألبتة، بخلاف مَنْ أخذ بدل دم وليه، فما سَوَّى الله بين الأمرين في طبع ولا عقل ولا شرع، والإنسان قد يخرق ثوبه عند الغيظ، ويذبح ماشيته، ويتلف ماله، فلا يلحقهُ في ذلك من المشقة والغيظ والازدراء به؛ ما يلحق من قتل نفسه أو جَدَع أنفه أو قَلَع عينه.

(١)**الوجه** الرابع والخمسون: أن قولكم إذا قتل إنسان إنسانًا عرض للعقل هاهنا آراء متعارضة مختلفة إلى آخره.

فيقال: إن أردتم أن العقل يسوِّي بين ما شرعه الله من القصاص وبين تركه لمصلحة الجاني، فبهتٌ للعقل وكذب عليه؛ فإنه لا يستوي عند عاقل قط حسن الاقتصاص من الجاني بمثل ما فعل، وحسن تركه والإعراض عنه، ولا يعلم عقل صحيح يسوى بين الأمرين، وكيف يستوي أمران:

أحدهما: يستلزم فساد النوع وخراب العالم، وترك الانتصار للمظلوم، وتمكين الجناة من البغي والعدوان.

والثاني: يستلزم صلاح النوع وعمارة العالم، والانتصار للمظلوم، وردع الجناة والبغاة والمعتدين؟!

فكان في القصاص حياة العالم وصلاح الوجود. وقد نبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿**وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أولي الألباب لعلكم تتقون**﴾. [البقرة: ١٧٩].

وفي ضمن هذا الخطاب ما هو كالجواب لسؤال مقدر: إن إعدام هذه البنية الشريفة وإيلام هذه النفس وإعدامها في مقابلة إعدام المقتول؛ تكثير لمفسدة القتل، فلأية حكمة صدر هذا ممن وسعت رحمته كل شيء، وبهرت حكمته

---

(١) ٩٦ مفتاح جـ٢.

العقول؟ فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾. وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يقتل قصاصًا بمن قتله؛ كف عن القتل وارتدع وآثر حب حياته ونفسه، فكان فيه حياة له ولمن أراد قتله.

ومن وجه آخر: وهو أنهم كانوا إذا قتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم، قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيه وقبيلته، وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره وتشتد مؤنته.

فشرع الله تعالى القصاص، وأن لا يقتل بالمقتول غير قاتله؛ ففي ذلك حياة عشيرته وحيه وأقاربه، ولم تكن الحياة في القصاص من حيث إنه قتل؛ بل من حيث كونه قصاصًا يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غير، فتضمن القصاص الحياة في الوجهين.

وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز والبلاغة والفصاحة والمعنى العظيم.

فصدر الآية بقوله: ﴿لكم﴾ المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم عائدة إليكم، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحسانًا إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم لا لمن لا يبلغ العباد ضره ونفعه.

ثم عقبه بقوله: ﴿في القصاص﴾ إيذانًا بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل، وهو أن يفعل به كما فعل.

والقصاص في اللغة: المماثلة. وحقيقته راجعة إلى الاتباع.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾. [القصص: ١١]. أي: اتبعي أثره.

ومنه قوله: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾. [الكهف: ٦٤]. أي: يقصان الأثر ويتبعانه.

ومنه قص الحديث واقتصاصه لأنه يتبع بعضه بعضًا في الذكر، فسمي جزاء الجاني قصاصًا؛ لأنه يتبع أثره فيفعل به كما فعل، وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل، فيُقتل بمثل ما قتل به لتحقيق معنى القصاص.

وقد ذكرنا أدلة المسألة من الطرفين، وترجيح القول الراجح بالنص والأثر والمعقول في كتاب تهذيب السنن.

ونكر سبحانه الحياة تعظيمًا وتفخيمًا لشأنها، وليس المراد حياة ما؛ بل المعنى:

أن في القصاص؛ حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها المستحسنة في كل عقل، والتنكير كثيراً ما يجيء للتعظيم والتفخيم كقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وجَنَّةٍ﴾. [آل عمران: ١٣٣]. وقوله: ﴿ورضوانٌ من الله أكبرُ﴾. [التوبة: ٧٢]. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾. [النجم: ٤].

ثم خص أولى الألباب وهم: أولو العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته، إذ هم المنتفعون بالخطاب، ووازن بين هذه الكلمات وبين قولهم: «القتل أنفى للقتل» ليتبين مقدار التفاوت وعظمة القرآن وجلالته.

الوجه الخامس والخمسون: قولكم: إن القصاص إتلاف، بإزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان، ولا يحيا الأول بقتل الثاني؛ ففيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين، وأما مصلحة الردع والزجر واستبقاء النوع فأمر متوهم، وفي القصاص استهلاك محقق.

فيقال: هذا الكلام من أفسد الكلام وأبينه بطلاناً؛ فإنه يتضمن التسوية بين القبيح والحسن، ونفي حسن القصاص الذي اتفقت العقول والديانات على حسنه وصلاح الوجود به، وهل يستوي في عقل أو دين أو فطرة القتل ظلمًا وعدوانًا بغير حق، والقتل قصاصًا وجزاء بحق؟!.

ونظير هذه التسوية تسوية المشركين بين الربا والبيع؛ لاستوائهما في صورة العقد، ومعلوم أن استواء الفعلين في الصورة لا يوجب استواءهما في الحقيقة، ومدعي ذلك في غاية المكابرة.

وهل يدل استواء السجود لله، والسجود للصنم في الصورة الظاهرة وهو وضع الجبهة على الأرض؛ على أنهما سواء في الحقيقة حتى يتحير العقل بينهما ويتعارضان فيه؟! ويكفي في فساد هذا إطباق العقلاء قاطبة على قبح القتل الذي هو ظلم وبغي وعدوان، وحسن القتل الذي هو جزاء وقصاص وردع وزجر.

والفرق بين هذين؛ مثل الفرق بين الزنا والنكاح بل أعظم وأطهر، بل الفرق بينهما من جنس الفرق بين الإصلاح في الأرض والإفساد فيها. فما تعارض في عقل صحيح قط هذان الأمران حتى يتحير بينهما أيهما يؤثره ويختاره؟

وقولكم: إنه إتلاف بإزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان فكذلك هو، لكن إتلاف حسن هو مصلحة وحكمة وصلاح للعالم، في مقابلة إتلاف هو فساد وسفه

وخراب للعالم فأنَّى يستويان؟! أم كيف يعتدلان حتى يتحير العقل بين الإتلاف الحسن وتركه؟!

وقولكم: «لا يحيا الأول بقتل الثاني» قلنا: يحيا به عدد كثير من الناس؛ إذ لو ترك ولم يؤخذ على يديه لأهلك الناس بعضهم بعضًا، فإن لم يكن في قتل الثاني حياة للأول ففيه حياة العالم كما قال تعالى: ﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب**﴾. [البقرة: ١٧٩]

لكن هذا المعنى لا يدركه حق الإدراك إلا أولو الألباب.

فأين هذه الشريعة، وهذه الحكمة وهذه المصلحة؛ من هذا الهذيان الفاسد وأن يقال: قتل الجاني إتلاف بأزاء إتلاف، وعدوان في مقابلة عدوان فيكون قبيحًا، لولا الشرع؟! فوازن بين هذا وبين ما شرعه الله وجعل مصالح عباده منوطة به.

وقولكم: فيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين.

فيقال: لو أعطيتم رتب المصالح والمفاسد حقها؛ لم ترضوا بهذا الكلام الفاسد، فإن الشرائع والفطر والعقول متفقة على تقديم المصلحة الراجحة، وعلى ذلك قام العالم وما نحن فيه كذلك فإنه احتمال لمفسدة إتلاف الجاني إلى هذه المفسدة العامة، فمن تحير عقله بين هذين المفسدتين فلفساد فيه.

والعقلاء قاطبة متفقون على أنه يحسن إتلاف جزء لسلامة كل: كقطع الأصبع أو اليد المتآكلة لسلامة سائر البدن، ولذلك يحسن الإيلام لدفع إيلام أعظم منه، كقطع العروق وبط الخراج ونحوه.

فلو طرد العقلاء قياسكم هذا الفاسد وقالوا: هذا إيلام محقق لدفع إيلام متوهم، لفسد الجسد جملة، ولا فرق عند العقول بين هذا وبين قياسكم في الفساد.

الوجه السادس والخمسون: قولكم: إن مصلحة الردع والزجر وإحياء النوع أمر متوهم، كلام بيّن فساده؛ بل هو أمر متحقق وقوعه عادة، ويدل عليه ما نشاهده من الفساد العام عند ترك الجناة والمفسدين وإهمالهم وعدم الأخذ على أيديهم، والمتوهم من زعم أن ذلك موهوم وهو بمثابة من دهمه العدو فقال: لا نعرض أنفسنا لمشقة قتالهم: إنه مفسدة متحققة وأما استيلاؤهم على بلادنا وسبيهم

ذرارينا وقتل مقاتلتنا فموهوم. فياليت شعري من الواهم المخطىء في وَهْمِه؟!

ونظيره أيضًا: أن الرجل إذا تبيغ به الدم وتضرر إلى إخراجه، لا يتعرض لشق جلده وقطع عروقه، لأنه ألم محقق لا موهوم، ولو اطرد هذا القياس الفاسد لخرب العالم وتعطلت الشرائع. والاعتماد في طلب مصالح الدارين ودفع مفاسدهما مبني على هذا الذي سميتموه أنتم موهومًا، فالعمال في الدنيا إنما يتصرفون بناء على الغالب المعتاد الذي اطردت به العادة، وإن لم يجزموا به فإن الغالب صدق العادة واطرادها عند قيام أسبابها، فالتاجر يتحمل مشقة السفر في البر والبحر بناء على أنه يسلم ويغنم، فلو اطرد هذا القياس الفاسد وقال: السفر مشقة متحققة والكسب أمر موهوم؛ لتعطلت أسفار الناس بالكلية.

وكذلك عمال الآخرة لو قالوا: تعب العمل ومشقته أمر متحقق، وحسن الخاتمة أمر موهوم؛ لعطلوا الأعمال جملة، وكذلك الأجراء والصناع والملوك والجند وكل طالب أمر من الأمور الدنيوية والأخروية، لولا بناؤه على الغالب وما جرت به العادة؛ لما احتمل المشقة المتيقنة لأمر منتظر.

ومن ها هنا قيل: إن إنكار هذه المسألة يستلزم تعطيل الدنيا والآخرة من وجوه متعددة.

الوجه السابع والخمسون: قولكم: ويعارضه معنى ثالث وراءهما، فيفكر العقل في أنواع وشروط أخرى وراء مجرد الإنسانية: من العقل والبلوغ، والعلم والجهل، والكمال والنقص، والقرابة والأجنبية فيتحير العقل كل التحير. فلا بد إذًا من شارع: يفصل هذه الخطة، ويعين قانونًا يطرد عليه أمر الأمة، ويستقيم عليه مصالحهم.

فيقال: لا ريب أن الشرائع تأتي بما لا تستقل العقول بإدراكه، فإذا جاءت به الشريعة اهتدى العقل حينئذ إلى وجه حسن مأموره وقبح منهيه؛ فسرته الشريعة على وجه الحكمة والمصلحة الباعثين لشرعه، فهذا مما لا ينكر، وهذا الذي قلنا فيه: «إن الشرائع تأتي بمجارات العقول لا بمحالات العقول».

ونحن لم ندع ولا عاقل قط: أن العقل يستقل بجميع تفاصيل ما جاءت به الشريعة؛ بحيث لو ترك وحده لاهتدى إلى كل ما جاءت به.

إذا عرف هذا فغاية ما ذكرتم: أن الشريعة الكاملة اشترطت في وجوب

القصاص شروطًا لا يهتدي العقل إليها، وأي شيء يلزم من هذا، وماذا يقبح لكم ومنازعوكم يسلمونه لكم؟.

وقولكم: إن هذا معارض للوصف المقتضي لثبوت القصاص من قيام مصلحة العالم: إما غفلة عن الشروط المعارضة، وإما اصطلاح طارٍ سيم فيه ما لا يهتدي العقل إليه من شروط اقتضاء الوصف لموجبه معارضة.

فيا لله العجب! أي معارضة ها هنا إذا كان العقل والفطرة قد شهدا بحسن القتل قصاصًا، وانتظامه للعالم؟ وتوقفًا في اقتضاء هذا الوصف هل يضم إليه شرط آخر غيره، أم يكفي بمجرده؟ وفي تعيين تلك الشروط فأدرك العقل ما استقل بإدراكه، وتوقف عما لا يستقل بإدراكه حتى اهتدى إليه بنور الشريعة...

فصل(١)

وأما معاقبة السارق بقطع يده وترك معاقبة الزاني بقطع فرجه؛ ففي غاية الحكمة والمصلحة، وليس في حكمة الله ومصلحة خلقه وعنايته ورحمته بهم أن يتلف على كل جانٍ كلَّ عضو عَصَاه به، فيشرع: قَلْعَ عين مَنْ نَظَر إلى المحرم، وقطع أذن من استمع إليه، ولسان من تكلم به، ويَدِ من لَطَم غيره عُدْوانًا. ولا خفاء بما في هذا من الإسراف والتجاوز في العقوبة وقلب مراتبها.

وأسماء الرب الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة؛ تأبى ذلك. وليس مقصود الشارع مجرد الأمن من المعاودة ليس إلا، ولو أريد هذا لكان قتلُ صاحب الجريمة فقط، وإنما المقصود الزجر والنكال والعقوبة على الجريمة، وأن يكون إلى كَفِّ عدوانه أقرب، وأن يعتبر به غيره، وأن يُحْدِثَ له ما يذوقه من الألم توبةً نَصُوحًا، وأن يذكره ذلك بعقوبة الآخرة، إلى غير ذلك من الحكم والمصالح.

ثم إن في حدِّ السرقة معنى آخر، وهو: أن السرقة إنما تقع من فاعلها سرًّا كما يقتضيه اسمها، ولهذا يقولون: «فلان ينظر إلى فلان مُسَارقة» إذا كان ينظر إليه نظرًا خفيًا لا يريد أن يفطن له، والعازم على السرقة مُخْتَفٍ كاتم خائف أن يشعر بمكانه فيؤخذ به، ثم هو مستعد للهَرَب والخلاص بنفسه إذا أخذ الشيء، واليَدَان للإنسان كالجناحين للطائر في إعانته على الطيران، ولهذا يقال: «وصَلْتُ جَنَاحَ فلان»، إذا رأيته يسير منفردًا فانضممت إليه لتصحبه، فعوقب السارق بقطع اليد؛ قَصًّا لجناحه، وتسهيلاً لأخذه إن عاود السرقة، فإذا فعل به هذا في أول مرة؛ بقي مقصوص أحدِ الجناحين ضعيفًا في العَدْو، ثم يقطع في الثانية رجله؛ فيزداد ضعفًا في عدوه فلا يكاد يفوت الطالب، ثم تقطع يده الأخرى في الثالثة ورجله الأخرى في الرابعة، فيبقى لحمًا على وَضَمٍ؛ فيستريح ويريح.

وأما الزاني فإنه يزني بجميع بدنه، والتلذذ بقضاء شهوته يعم البدن، والغالب من فعله وقوعه برضا المزني بها، فهو غير خائف ما يخافه السارق من الطلب،

---

(١) ١٠٦ أعلام جـ٢.

فعوقب بما يعم بدنه: من الجلْد مرةً، والقتل بالحجارة مرة.

ولما كان الزنا من أمهات الجرائم وكبائر المعاصي؛ لما فيه من اختلاط الأنساب الذي يَبْطُل معه التعارف والتناصر على إحياء الدين، وفي هذا هلاكُ الحرثِ والنَّسل، فشاكل في معانيه أو في أكثرها القتل الذي فيه هلاك ذلك؛ فزجرعنه بالقصاص ليرتَدعَ عن مثل فعله مَنْ يَهُمُّ به؛ فيعود ذلك بعمارة الدنيا وصلاح العالم الموصل إلى إقامة العبادات الموصلة إلى نعيم الآخرة.

ثم إن للزاني حالتين:

إحداهما: أن يكون مُحصنًا قد تزوج، فعلم ما يقع به من العفاف عن الفروج المحرمة، واستغنى به عنها، وأحرز نفسه عن التعرض لحد الزنى، فزال عذره من جميع الوجوه في تخطي ذلك إلى مُواقعة الحرام.

الثانية: أن يكون بكرًا، لم يعلم ما علمه المُحْصَنُ ولا عمل ما عمله؛ فحصل له من العذر بعضُ ما أوجب له التخفيف؛ فحقن دمه، وزجر بإيلام جميع بدنه بأعلى أنواع الجلد؛ ردْعًا عن المعاودة للاستمتاع بالحرام، وبعثًا له على القنع بما رزقه الله من الحلال. وهذا في غاية الحكمة والمصلحة، جامع للتخفيف في موضعه والتغليظ في موضعه. وأين هذا مع قَطْع لسان الشاتم والقاذف وما فيه من الإسراف والعدوان؟

ثم إن قطع فرج الزاني فيه من تعطيل النَّسل وقطعه؛ عكس مقصود الرب تعالى من تكثير الذرية وذريتهم فيما جعل لهم من أزواجهم، وفيه من المفاسد أضعاف ما يتوهم فيه من مصلحة الزجر، وفيه إخلاء جميع البدن من العقوبة، وقد حصلت جريمة الزنا بجميع أجزائه؛ فكان من العدل أن تعمه العقوبة، ثم إنه غير متصور في حق المرأة، وكلاهما زان؛ فلا بد أن يستويا في العقوبة، فكان شرع الله سبحانه أكمل من اقتراح المقترحين.

وتأمل كيف جاء إتلاف النفوس؛ في مقابلة أكبر الكبائر وأعظمها ضررًا وأشدها فسادًا للعالم، وهي: الكفر الأصلي والطارىء، والقتل، وزنى المحصن.

وإذا تأمل العاقل فساد الوجود رآه من هذه الجهات الثلاث، وهذه هي الثلاث التي أجاب النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود بها حيث قال له: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلَقَكَ**»، قال: قلت: ثم أيٌّ؟ قال:

«**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني بحليلة جارك**» فأنزل الله عز وجل تصديق ذلك: ﴿**والذين لا يَدْعُون مع الله إلهًا آخَرَ، ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلَّا بِالحَقِّ، ولا يَزْنُونَ**﴾ الآية. [الفرقان: ٦٨].

ثم لما كان سرقة الأموال تلى ذلك في الضرر وهو دونه، جعل عقوبته قطع الطرف.

ثم لما كان القذف دون سرقة المال في المفسدة، جعل عقوبته دون ذلك وهو الجلد.

ثم لما كان شرب المسكر أقل مفسدة من ذلك، جعل حده دون جد هذه الجنايات كلها.

ثم لما كانت مفاسد الجرائم بعدُ متفاوتة غير منضبطة: في الشدة والضعف، والقلة والكثرة، وهي ما بين النظرة والخلوة والمعانقة؛ جعلت عقوباتها راجعة إلى اجتهاد الأئمة وولاة الأمور، بحسب المصلحة في كل زمان ومكان، وبحسب أرباب الجرائم في أنفسهم؛ فمن سَوَّى بين الناس في ذلك وبين الأزمنة والأمكنة والأحوال؛ لم يفقه حكمة الشرع، واختلفت عليه أقوال الصحابة وسيرة الخلفاء الراشدين وكثير من النصوص، ورأى عمر قد زاد في حد الخمر على أربعين، والنبي ﷺ إنما جلد أربعين، وعَزَّر بأمور لم يعزر بها النبي ﷺ، وأنفذ على الناس أشياء عفا عنها النبي ﷺ؛ فيظن ذلك تعارضًا وتناقضًا، وإنما أتى من قصور علمه وفهمه، وبالله التوفيق.

وأما قوله: «وجعل حد الرقيق على النصف من حد الحر، وحاجتهما إلى الزجر واحدة» فلا رَيْبَ أن الشارع فَرَقَ بين الحُرّ والعبد في أحكام، وسَوَّى بينهما في أحكام فسوَّى بينهما في الإيمان والإسلام ووجوب العبادات البدنية: كالطهارة والصلاة والصوم لاستوائهما في سببهما، وفرق بينهما في العبادات المالية: كالحج والزكاة والتكفير بالمال؛ لافتراقهما في سببهما، وأما الحدود فلما كان وقوع المعصية من الحر أقبحَ من وقوعها من العبد من جهة كمال نعمة الله تعالى عليه بالحرية، وأن جعله مالكًا لا مملوكًا، ولم يجعله تحت قهر غيره وتصرفه فيه، ومن جهة تمكنه بأسباب القدرة من الاستغناء عن المعصية بما عوّض الله عنها من المباحات، فقابل

النعمة التامة بضدها، واستعمل القدرة في المعصية؛ فاستحق من العقوبة أكثر مما يستحقه مَنْ هو أخفض منه رتبة وأنقص منزلة؛ فإن الرجل كلما كانت نعمة الله عليه أتم كانت عقوبته إذا ارتكب الجرائم أتم؛ ولهذا قال تعالى في حق من أتم نعمته عليهن من النساء: ﴿يا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ وكَانَ ذَلِكَ على الله يَسِيراً، ومَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لله وَرَسُولِه وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، وأَعَتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾. [الأحزاب: ٣٠، ٣١].

وهذا على وفق قضايا العقول ومستحسناتها؛ فإن العبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، وشكره له أتم، ومعصيته له أقبح، وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية؛ ولهذا كان أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالمًا لم ينفعه الله بعلمه، فإن نعمة الله عليه بالعلم أعظم من نعمته على الجاهل، وصدور المعصية منه أقبح من صدورها من الجاهل، ولا يستوي عند الملوك والرؤساء مَنْ عَصَاهم من خواصِّهم وحَشَمهم ومن هو قريب منهم، ومن عصاهم من الأطراف والبعداء؛ فجعل حد العبد أخف من حد الحر، جمعًا بين حكمة الزجر وحكمة نقصه، ولهذا كان على النصف منه في النكاح والطلاق والعدة، إظهارًا لشرف الحرية وخطرها، وإعطاء لكل مرتبة حقها من الأمر كما أعطاها حقها من القدر، ولا تنتقض هذه الحكمة بإعطاء العبد في الآخرة أجرين، بل هذا محض الحكمة؛ فإن العبد كان عليه في الدنيا حقان: حق لله، وحق لسيده فأعطي بإزاء قيامه بكل حق أجرًا، فاتفقت حكمة الشرع والقدر والجزاء، والحمد لله رب العالمين.

...[1]**ومن** ذلك المماثلة في القصاص في الجنايات الثلاث: على النفوس والأموال والأعراض؛ فهذه ثلاث مسائل:

الأولى: هل يفعل بالجاني كما فعل بالمجني عليه؟

فإن كان الفعل محرمًا لحق الله: كاللواط وتجريعه الخمر لم يفعل به كما فعل اتفاقًا.

وإن كان غير ذلك: كتحريقه بالنار وإلقائه في الماء، ورَضِّ رأسه بالحجر، ومنعه من الطعام والشراب؛ حتى يموت، فمالك والشافعي وأحمد في إحدى

(١) ٣٢٧ أعلام جـ١.

الروايات عنه؛ يفعلون به كما فعل، ولا فرق بين الجرح المزهق وغيره.

وأبو حنيفة وأحمد في رواية عنه يقولان: لا يقتل إلا بالسيف في العنق خاصة.

وأحمد في رواية ثالثة يقول: إن كان الجرح مزهقًا فعل به كما فعل، وإلاَّ قتل بالسيف.

وفي رواية رابعة يقول: إن كان مُزْهقًا أو مُوجبًا للقَوَد بنفسه لو انفرد فعل به كما فعل، وإن كان غير ذلك قتل بالسيف.

والكتابُ والميزان مع القول الأول، وبه جاءت السنة، فإن النبي ﷺ، رَضَّ رأس اليهودي بين حجرين كما فعل بالجارية، وليس هذا قتلاً لنقضه العهدَ، لأن ناقض العهد إنما يقتل بالسيف في العنق.

وفي أثر مرفوع: **«مَنْ حَرَّق حرقناه، ومن غرق غرقنا»**.

وحديثُ: «لا قَوَدَ إلا بالسيف» قال الإمام أحمد: ليس إسناده بجيد، والثابت عن الصحابة أنه يفعل به كما فعل، فقد اتفق على ذلك: الكتاب والسنة والقياس وآثار الصحابة، واسمُ القصاص يقتضيه لأنه يستلزم المماثلة.

المسألة الثانية: إتلاف المال؛ فإن كان مماله حرمة كالحيوان وَالعبيد؛ فليس له أن يتلف ماله كما أتلف ماله، وَإن لم تكن له حرمة كالثوب يشقه والإناء يكسره؛ فالمشهور أنه ليس له أن يُتْلف عليه نظير ما أتلفه، بل له القيمة أو المثل كما تقدم.

وَالقياس يقتضي أن له أن يفعل بنظير ما أتلفه عليه كما فعله الجاني به؛ فيشق ثوبه كما شق ثوبه، وَيكسر عصاه كما كسر عصاه إذا كانا متساويين، وهذا من العدل، وليس مع من مَنَعَه نص قياس وَلا إجماع! فإن هذا ليس بحرام لحق الله، وليست حرمة المال أعظم من حرمة النفوس والأطراف، وإذا مَكَّنه الشارعُ أن يُتْلف طرفه بطرفه فتمكينه من إتلاف ماله في مقابلة ماله؛ هو أولى وأحرى، وإن حكمة القصاص من التشفي ودرك الغَيْظ؛ لا تحصل إلا بذلك، ولأنه قد يكون له غرض في أذاه وإتلاف ثيابه ويعطيه قيمتها، ولا يشق ذلك عليه؛ لكثرة ماله فيشفي نفسه منه بذلك، ويبقى المجني عليه بغبنه وغيظه، فكيف يقع إعطاؤه القيمة من شفاء غيظه ودرك ثأره وبرد قلبه وإذاقة الجاني من الأذى ما ذاق هو؟ فحكمة هذه الشريعة الكاملة الباهرة وقياسها معًا؛يأبى ذلك وقوله: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدَى عَلَيْكُم﴾، [البقرة: ١٩٤]. وقوله: ﴿وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ

مِثْلُهَا﴾. [الشورى: ٤٠]. وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾. [النحل: ١٢٦]. يقتضي جواز ذلك، وقد صرح الفقهاء بجواز إحراق زروع الكفار وقطع أشجارهم؛ إذا كانوا يفعلون ذلك بنا، وهذا عين المسألة، وقد أقر الله سبحانه الصحابة على قَطْع نخل اليهود؛ لما فيه من خزيهم، وهذا يدل على أنه سبحانه يحبُّ خزي الجاني الظالم ويشرعه.

وإذا جاز تحريق متاع الغالِّ لكونه تعدَّى على المسلمين في خيانتهم في شيء من الغنيمة؛ فلأن يحرق ماله إذا حرق مال المسلم المعصوم؛ أولى وأحرى.

وإذا شرعت العقوبة المالية في حق الله الذي مسامحته به أكثر من استيفائه؛ فلأن تشرع في حق العبد الشحيح؛ أولى وأحرى.

ولأن الله سبحانه شرع القصاص؛ زَجرًا للنفوس عن العدوان، وكان من الممكن أن يوجب الدية استدراكًا لظلامة المجني عليه بالمال، ولكن ما شَرَعَه أكمل وأصلح للعباد، وأشفى لغيظ المجني عليه، وأحفظ للنفوس والأطراف، وإلا فمَنْ كان في نفسه مِن الآخر مِن قتلِهِ أو قطعِ طرفِهِ؛ قَتَلَه أو قَطَع طَرَفَه وأعطى ديته، والحكمة والرحمة والمصلحة تأبى ذلك، وهذا بعينه موجود في العدوان على المال.

فإن قيل: فهذا ينجبر بأن يعطيه نظير ما أتلفه عليه.

قيل: إذا رضي المجنى عليه بذلك فهو كما لو رضي بدية طرفه، فهذا هو مَحضُ القياس، وبه قال الأحمدان: أحمد بن حنبل، وأحمد ابن تيمية، قال في رواية موسى بن سعيد: وصاحب الشيء يخير، إن شاء شق الثوب، وإن شاء أخذ مثله.

المسألة الثالثة: الجناية على العرض، فإن كان حرامًا في نفسه كالكذب عليه وقذفه وسَبِّ والديه؛ فليس له أن يفعل به كما فعل به اتفاقًا.

وإن سَبّه في نفسه أو سَخِر به أو هزأ به أو بال عليه أو بَصَقَ عليه أو دعا عليه؛ فله أن يفعل به نظيرَ ما فعل به متحرّيًا للعدل.

وكذلك إذا كسعه أو صفعه؛ فله أن يستوفي منه نظير ما فعل به سواء، وهذا أقرب إلى الكتاب والميزان وآثار الصحابة؛ من التعزير المخالف للجناية جنسًا ونوعًا وقدرًا وصفة، وقد دلت السنة الصحيحة الصريحة على ذلك، فلا عِبْرَة بخلاف مَنْ خالفها.

ففي صحيح البخاري: أن نساء النبي ﷺ، أرسلنَ زينبَ بنت جَحْش إلى

رسـول الله ﷺ تكلِّمـه في شأن عائشـة، فأتتـه فأغلظت، وقالت: إنّ نساءك ينشدنك العدل في بنت ابن أبي قُحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة، فَسَبَّتها، حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة هل تتكلم، فتكلمت عائشة تَرُدُّ على زينب حتى أسكتتها، قالت: فنظر النبي ﷺ إلى عائشة وقال: «**إنها بنتُ أبي بكر**».

وفي الصحيحين هذه القصة: قالت عائشة: فأرسل أزواج النبي ﷺ، زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ - وهي التي كانت تساميني في المنزلة عند رسول الله ﷺ - فذكرت الحديث، وقالت: ثم وقعت فيَّ، فاستطالت عليَّ، وأنا أرقُبُ رسول الله ﷺ، وأرقب طَرفه: هل يأذن لي فيها؟ قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفتُ أن رسول الله ﷺ، لا يكره أن أنتصر، فلما وقعت بها لم أنشبها حتى أثخنت عليها، قالت: فقال رسول الله ﷺ، وتبسم: «**إنها ابنة أبي بكر**».

وفي لفظ فيهما: «لم أنشبها أن أثخنتها غلبة».

وقد حكى الله سبحانه عن يوسف الصديق أنه قال لإخوته: ﴿**أنتم شرٌّ مكانًا، والله أعلمُ بما تصفُون**﴾. لما قالوا: ﴿**إنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سرَقَ أخٌ لَهُ مِنْ قبْلُ، فأسرَّهَا يُوسُفُ في نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُم**﴾. [يوسف: ٧٧]. ذلك للمصلحة التي اقتضت كتمان الحال.

ومنْ تأمل الأحاديث رأى ذلك فيها كثيراً جدًّا، وبالله التوفيق.

(١)**وقد** سمى الله سبحانه المال خيراً في غير موضع من كتابه كقوله تعالى ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُم إِذَا حَضرَ أَحَدَكُم المَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيراً الوصيةُ**﴾ [البقرة: ١٨٠]. وقوله: ﴿**إِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لشَدِيْدٌ**﴾ [العاديات: ٨].

وأخبرَ رسول الله ﷺ، أن الخير لا يأتي إلا بالخير كما تقدم، وإنما يأتي بالشر معصية الله في الخير لانفسه.

وأعلم الله سبحانه أنه جعل المال قوامًا للأنفس وأمر بحفظها، ونهى أن يؤتىٰ السفهـاء من النسـاء والأولاد وغـيرهم، ومـدحه النبي ﷺ، بقوله: «**نعم المال الصالح مع المرء الصالح**».

---

(١) ٢٨٤ عدة الصابرين.

وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله؛ يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه ويعطي حقه .

وقال أبو إسحاق السبيعي : كانوا يرون السعة عونًا على الدين.

وقال محمد بن المنكدر: نعم العون على التقى الغنى.

وقال سفيان الثوري : المال في زماننا هذا سلاح المؤمن.

وقال يوسف بن أ سباط : ما كان المال في زمان منذ خلقت الدنيا؛ أنفع منه في هذا الزمان، والخير كالخيل: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر.

قالوا: وقد جعل الله سبحانه المال سببًا لحفظ البدن، وحفظه سبب لحفظ النفس، التي هي محل معرفة الله والإيمان به وتصديق رسله ومحبته والإنابة إليه، فهو سبب عمارة الدنيا والآخرة؛ وإنما يذم منه ما استخرج من غير وجهه وصرف في غير حقه، واستعبد صاحبه وملك قلبه وشغله عن الله والدار الآخرة؛ فيذم منه ما يتوسل به صاحبه إلى المقاصد الفاسدة، أو شغله عن المقاصد المحمودة، فالذم للجاعل لا للمجعول قال النبي ﷺ: «**تَعِس عبد الدينار تعس عبد الدرهم**» فذم عبدهما دونهما.

(١)**وقاعدة** الشريعة التي لا يجوز هدمها: أن المقاصد والاعتقادات معتبرة في التصرفات والعبارات، كما هي معتبرة في التقربات والعبادات.

فالقصد والنية والاعتقاد؛ يجعل الشيء: حلالاً أو حرامًا، وصحيحًا أو فاسدًا، وطاعة أو معصية.

كما أن القصد في العبادة؛ يجعلها: واجبة أو مستحبة أو محرمة، أو صحيحة أو فاسدة. ودلائل هذه القاعدة تفوت الحصر.

فمنها قوله تعالى في حق الأزواج إذا طلقوا أزواجهم طلاقًا رجعيًّا: ﴿**وبُعُولَتُهُنَّ أحقُّ بردِّهنَّ في ذَلِك إنْ أرَادُوا إصْلاحًا**﴾ .[البقرة:٢٢٨].

وقوله: ﴿**وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا**﴾ .[البقرة: ٢٣١]. وذلك نص في أن الرجعة؛ إنما ملكها الله تعالى لمن قصد الصلاح دون قصد الضرار.

وقوله في الخلع : ﴿**فَإن خِفْتُمْ ألاَّ يُقِيما حُدُودَ الله فلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ**

---

(١) ١٠٨ أعلام جـ٣.

به﴾ . [البقرة: ٢٢٩] .

وقوله: ﴿فإنْ طَلَّقها فَلَا جُناحَ عليهما أن يتراجعَا إن ظنَّا أن يُقِيما حدودَ الله﴾ . [البقرة: ٢٣٠].

فبين تعالى أن الخلع المأذون فيه والنكاح المأذون فيه، إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله .

وقال تعالى: ﴿مِنْ بعدِ وصيةٍ يُوصَى بها أو دينٍ غَيْرَ مضارٍّ﴾ . [النساء: ١٢] . فإنما قدم الله الوصية على الميراث إذا لم يقصد بها الموصي الضرار؛ فإن قَصَده فللورثة إبطالها وعدم تنفيذها.

وكذلك قوله: ﴿فَمن خافَ من مُوصٍ جَنَفًا أو إثمًا فأصلحَ بينهم فَلَا إثمَ عليه﴾ . [البقرة: ١٨٢] . فرفع الإثم عمن أبطل الجنف والإثم من وصية الموصي، ولم يجعلها بمنزلة نص الشارع الذي تحرم مخالفته .

وكذلك الإثم مرفوع عمن أبطل من شروط الواقفين ما لم يكن إصلاحًا، وما كان فيه جنَف أو إثم، ولا يحل لأحد أن يجعل هذا الشرط الباطل المخالف لكتاب الله بمنزلة نص الشارع، ولم يقل هذا أحد من أئمة الإسلام، بل قد قال إمام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله: «**كُلُّ شرطٍ ليس في كتابِ الله فهو باطلٌ وإن كان مائةَ شرطٍ، كتابُ الله أحقُّ، وشَرْطُ الله أوثقُ**» فإنما ينفذ مَن شروط الواقفين ما كان لله طاعة، وللمكلف مصلحة .

وأما ما كان بضد ذلك فلا حرمة له: كشرط التعزب والترهُّب المضاد لشرع الله ودينه؛ فإنه تعالى فتح للأمة باب النكاح بكل طريق، وسد عنهم باب السفاح بكل طريق، وهذا الشرط باطلٌ مضاد لذلك؛ فإنه يسدُّ على من التزمه باب النكاح، ويفتح له باب الفجور، فإن لوازم البشرية تتقاضاها الطباع أتمَّ تقاضٍ، فإذا سد عنها مشروعها فتحت له ممنوعها ولابد .

والمقصود: أن الله تعالى رفع الإثم عمن أبطل الوصية الجانفة الآثمة .

وكذلك هو مرفوع عمن أبطل شروط الواقفين التي هي كذلك، فإذا شَرَط الواقف القراءة على القبر، كانت القراءة في المسجد؛ أولى وأحب إلى الله ورسوله وأنفع للميت، فلا يجوز تعطيل الأحب إلى الله الأنفع لعبده واعتبار ضده .

وقد رَامَ بعضُهم الانفصال عن هذا بأنه قد يكون قصد الواقف حصول الأجر

له باستماعه للقرآن في قبره، وهذا غلط؛ فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة فإنه عمل اختياري وقد انقطع بموته.

ومن ذلك اشتراطه أن يصلي الصلوات الخمس في المسجد الذي بناه على قبره، فإنه شرط باطل لا يجب بل لا يحل الوفاء به، وصلاته في المسجد الذي لم يوضع على قبره أحب إلى الله ورسوله، فكيف يفتي أو يقضي بتعطيل الأحب إلى الله والقيام بالأكره إليه؛ اتباعًا لشرط الواقف الجانف الآثم؟

ومن ذلك أن يشرط عليه إيقاد قنديل على قبره أو بناء مسجد عليه؛ فإنه لا يحل تنفيذ هذا الشرط ولا العمل به، فكيف ينفذ شرط لعن رسول الله ﷺ فاعله؟

وبالجملة فشروط الواقفين أربعة أقسام:

شروط محرمة في الشرع.

وشروط مكروهة لله تعالى ورسوله ﷺ.

وشروط تتضمن ترك ما هو أحب إلى الله ورسوله.

وشروط تتضمن فعل ما هو أحب إلى الله تعالى ورسوله.

فالأقسام الثلاثة الأول لا حرمة لها ولا اعتبار، والقسم الرابع هو الشرط المتبع الواجب الاعتبار، وبالله التوفيق.

وقد أبطل النبي ﷺ، هذه الشروط كلها بقوله: «**مَنْ عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**». وما رده رسول الله ﷺ لم يجز لأحد اعتباره ولا الإلزام به وتنفيذه. ومن تفطن لتفاصيل هذه الجملة التي هي من لوازم الإيمان تخلص بها من آصار وأغلال في الدنيا، وإثم وعقوبة ونقص ثواب في الآخرة. وبالله التوفيق.

...(1)**والضرار** نوعان: جنف، وإثم. فإنه قد يقصد الضرار وهو الإثم، وقد يضار من غير قصد، وهو الجنف، فمن أوصى بزيادة على الثلث فهو مضار، قصد أو لم يقصد، فللوارث رد هذه الوصية. وإن أوصى بالثلث فما دون، ولم يعلم أنه قصد الضرار، وجب إمضاؤها.

فإن علم الموصَى له أنَّ الموصي إنما أوصى ضرارًا؛ لم يحلَّ له الأخذ، ولو اعترف

---

(1) ٣٧٧ إغاثة جـ١.

الموصي أنه إنما أوصى ضرارًا؛ لم تجز إعانته على إمضاء هذه الوصية.

وقد جوَّز سبحانه وتعالى إبطال وصية الجَنَف والإثم، وأن يُصلح الوصي أو غيره بين الورثة والموصى له، فقال تعالى: ﴿**فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنفًا أو إثمًا فأصلحَ بينهم فلاَ إثم عَليه**﴾. [البقرة: ١٨٢].

وكذلك إذا ظهر للحاكم أو الوَصيِّ الجَنَفُ أو الإثم في الوقف ومصرفه، أو بعض شروطه، فأبطل ذلك؛ كان مُصلحًا، لا مفسدًا. وليس له أن يُعينَ الواقف على إمضاء الجنف والإثم، ولا يصحح هذا الشرط، ولا يحكم به، فإن الشارع قد رَدَّه، وأبطله، فليس له أن يصحح ما رَدَّه الشارع وحَرَّمه، فإن ذلك مضادة له ومناقضة.

(١)**والذي** يقضي منه العجب؛ التحيل على مخالفة شرط الواقف وقصده، الذي يقطع بأنه قصده مع ظهور المفسدة. والوقوف مع ظاهر شرطه ولفظه المخالف لقصده والكتاب والسنة ومصلحة الموقوف عليه، بحيث يكون مرضاة الله ورسوله ومصلحة الواقف وزيادة أجره، ومصلحة الموقوف عليه وحصول الرفق به مع كون العمل أحبَّ إلى الله ورسوله، لا يغير شرط الواقف، ويجري مع ظاهر لفظه، وإن ظهر قصده بخلافه، وهل هذا إلا من قلة الفقه؟ بل من عدمه، فإذا تحيلتم على إبطال مقصود الواقف؛ حيث يتضمن المفاسد العظيمة، فهلاّ تحيلتم على مقصوده ومقصود الشارع؛ حيث يتضمن المصالح الراجحة: بتخصيص لفظه، أو تقييده، أو تقديم شرط الله عليه؟ فإن شرط الله أحق وأوثق.

بل يقولون ههنا: نصوص الواقف كنصوص الشارع.

وهذه جملة من أبطل الكلام، وليس لنصوص الشارع نظير من كلام غيره أبدًا؛ بل نصوص الواقف يتطرق إليها التناقض والاختلاف، ويجب إبطالها إذا خالفت نصوص الشارع وإلغاؤها، ولا حرمة لها حينئذ ألبتة، ويجوز - بل يترجح - مخالفتها إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله منها وأنفع للواقف والموقوف عليه، ويجوز اعتبارها والعدول عنها مع تساوي الأمرين، ولا يتعين الوقوف معها، وسنذكر إن شاء الله فيما بعد، ونبين ما يحل الإفتاء به وما لا يحل من شروط الواقفين؛ إذ القصد

---

(١) ٣٠٤ أعلام جـ٣.

بيان بطلان هذه الحيلة شرعًا وعرفًا ولغة.

(1)**والله تعالى** إنما أمر بالتعاون على البر والتقوى، وهو ما شرعه على لسان رسول الله ﷺ، دون ما لم يشرعه، فكيف بما شرع خلافه، والوقف إنما يصح على القُرَب والطاعات، ولا فرق في ذلك بين مصرفه وجهته وشرطه؛ فإن الشرط صفة وحال في الجهة والمصرف، فإذا اشترط أن يكون المصرف قربة وطاعة فالشرط كذلك، ولا يقتضي الفقه إلا هذا، ولا يمكن أحدًا أن ينقل عن أئمة الإسلام الذين لهم في الأمة لسانُ صدقٍ ما يخالف ذلك ألبتة.

بل نشهد بالله والله أن الأئمة لا تخالف ما ذكرناه، وأن هذا نفس قولهم، وقد أعاذهم الله من غيره، وإنما يقع الغلط من كثير من المنتسبين إليهم في فهم أقوالهم.

كما وقع لبعض مَنْ نصب نفسه للفتوى من أهل عصرنا: ما تقول السادة الفقهاء في رجل وقفَ وقفًا على أهل الذمة، هل يصح ويتقيد الاستحقاق بكونه منهم؟.

فأجاب بصحة الوقف، وتقييد الاستحقاق بذلك الوصف، وقال: هكذا قال أصحابنا، ويصح الوقف على أهل الذمة.

فأنكر ذلك شيخنا عليه غاية الإنكار، وقال: مقصود الفقهاء بذلك: أن كونه من أهل الذمة ليس مانعًا من صحة الوقف عليه بالقرابة أو بالتعيين، وليس مقصودهم: أن الكفر بالله ورسوله أو عبادة الصليب وقولهم: إن المسيح ابن الله؛ شرطُ لاستحقاق الوقف، حتى إن من آمن بالله ورسوله واتبع دين الإسلام لم يحل له أن يتناول بعد ذلك من الوقف، فيكون حِلُّ تناوله مشروطًا بتكذيب الله ورسوله والكفر بدين الإسلام، ففرق بين كون وصف الذمة مانعًا من صحة الوقف، وبين كونه مقتضيًا؛ فغلظ طبع هذا المفتي وكثف فهمه، وغَلُظ حجابه عن ذلك ولم يميز.

ونظيرُ هذا أن يقف على الأغنياء، فهذا يصح إذا كان الموقوف عليه غنيًّا، أو ذا قرابة فلا يكون الغِنَى مانعًا، ولا يصح أن يكون جهة الاستحقاق هو الغِنَى فيستحق مادام غنيًّا، فإذا افتقر واضطر إلى ما يقيم أَوَدَه حرم عليه تناول الوقف، فهذا لا يقوله إلا من حُرم التوفيق وصحبه الخذلان، ولو رأى رسول الله ﷺ، أحدًا من الأئمة يفعل ذلك، لاشتد إنكاره وغضبه عليه، ولما أقره ألبتة.

---

(1) ١٨٤ أعلام جـ٤.

وكذلك لو رأى رجلاً من أمته قد وقف على من يكون من الرجال عَزبًا غير متأهل، فإذا تأهل حرم عليه تناول الوقف؛ لاشتد غضبه ونكيره عليه، بل دينه يخالف هذا، فإنه كان إذا جاءه مال أعطى العَزبَ حظًّا، وأعطى الآهل حظين، وأخبر أن ثلاثة حق على الله عَوْنُهم، فذكر منهم: «**الناكح يريد العفاف**» وملتزم هذا الشرط حق عليه عدم إعانة الناكح.

ومن هذا أن يشترط أنه لا يستحق الوقف إلا من ترك الواجب عليه من طلب النصوص ومعرفتها، والتفقه في متونها، والتمسك بها، إلى الأخذ بقول فقيه معين يترك لقوله قول من سواه، بل يترك النصوص لقوله، فهذا شرط من أبطل الشروط.

وقد صرح أصحاب الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى، بأن الإمام إذا شرط على القاضي أن لا يقضي إلا بمذهب معين؛ بطل الشرط ولم يجز له التزامه.

وفي بطلان التولية قولان مبنيان على بطلان ا لعقود بالشروط الفاسدة.

وطَرْد هذا أن المفتي متى شرط عليه ألا يفتي إلا بمذهب معين؛ بَطَل الشرط.

وطَرْدُه أيضًا أن الواقف متى شَرَطَ على الفقيه أن لا ينظر ولا يشتغل إلا بمذهب معين؛ بحيث يهجر له كتاب الله وسنة رسوله الله ﷺ، وفتاوى الصحابة ومذاهب العلماء؛ لم يصح هذا الشرط قطعًا، ولا يجب التزامه، بل ولا يسوغ.

وعقد هذا الباب وضابطه، أن المقصود: إنما هو التعاون على البر والتقوى، وأن يطاع الله ورسوله بحسب الإمكان، وأن يقدم مَنْ قدمه الله ورسوله، ويؤخر مَنْ أخره الله ورسوله، ويعتبر ما اعتبره الله ورسوله، ويلغي ما ألغاه الله ورسوله.

وشروط الواقفين لا تزيد على نذر الناذرين، فكما أنه لا يوفى من النذور إلا بما كان طاعة لله ورسوله، فلا يلزم من شروط الواقفين إلا ما كان طاعة لله ورسوله.

فإن قيل: الواقف إنما نقل ماله لمن قام بهذه الصفة، فهو الذي رضي بنقل ماله إليه، ولم يرض بنقله إلى غيره، وإن كان أفضل منه، فالوقف يجري مجرى الجعالة، فإذا بذل الجاعل ماله لمن يعمل عملاً؛ لم يستحقه مَنْ عمل غيره، وإن كان بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض.

قيل: هذا منشأ الوهم والإيهام في هذه المسألة، وهو الذي قام بقلوب ضَعَفَة المتفقهين، فالتزموا وألزموا من الشروط؛ بما غيره أحبُّ إلى الله وأرضى له منه بإجماع

الأمة بالضرورة المعلومة من الدين.

وجواب هذا الوهم: أن الجاعل يبذل ماله في غرضه الذي يريده، إما: مُحرمًا أو مكروهًا، أو مُباحًا أو مستحبًّا أو واجبًا؛ لينال غرضه الذي بذل فيه ماله.

وأما الواقف فإنما يبذل ماله فيما يقربه إلى الله وثوابه، فهو لما علم أنه لم يبق له تمكن من بذل ماله في أغراضه؛ أَحَبَّ أن يبذله فيما يقربه إلى الله وما هو أنفع له في الدار الآخرة، ولا يشك عاقل أن هذا غرض الواقفين، بل ولا يشك واقف أن هذا غرضه.

والله سبحانه وتعالى مَلكه المالَ لينتفع به في حياته، وأذن له أن يحبسه لينتفع به بعد وفاته، فلم يملكه أن يفعل به بعد موته ما كان يفعل به في حياته.

بل حَجَر عليه فيه وملكه ثلثه يوصي به بما يجوز ويسوغ أن يوصي به، حتى إن حاف أو جار أو أثم في وصيته؛ جاز؛ بل وجب على الوصي والورثة ردُّ ذلك الجور والحيف والإثم، ورفع سبحانه الإثم عمن يرد ذلك الحيف والإثم، من الورثة والأوصياء، فهو سبحانه لم يملكه أن يتصرف في تحبيس ماله بعده؛ إلا على وجه يقربه إليه ويُدنيه من رضاه، لا على أي وجه أراد.

ولم يأذن الله ولا رسوله للمكلف أن يتصرف في تحبيس ماله بعده على أي وجه أراده أبدًا، فأين في كلام الله ورسوله أو أحد من الصحابة؛ ما يدل على أن لصاحب المال أن يقف ما أراد على من أراد، ويشرط ما أراد، ويجب على الحكام والمفتين أن ينفذوا وقفه ويُلزموا بشروطه؟.

وأما ما قد لهِجَ به بعضهم من قوله: «شروط الواقف كنصوص الشارع» فهذا يُراد به معنى صحيح ومعنى باطل، فإن أريد أنها كنصوص الشارع: في الفهم والدلالة، وتقييد مطلقها بمقيدها، وتقديم خاصِّها على عامها، والأخذ فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فهذا حق من حيث الجملة.

وإن أريد أنها كنصوص الشارع: في وجوب مراعاتها والتزامها وتنفيذها؛ فهذا من أبطل الباطل، بل يبطل منها ما لم يكن طاعة لله ورسوله، وما غيرهُ أحبُّ إلى الله وأرضى له ولرسوله منه، وينفذ منها ما كان قربة وطاعة كما تقدم.

ولما نذر أبو إسرائيل أن يصوم ويقوم في الشمس، ولا يجلس، ولا يتكلم؛ أمرَه النبي ﷺ، أن يجلس في الظل ويتكلم ويتم صومه، فألزمه بالوفاء بالطاعة، ونهاه

عن الوفاء بما ليس بطاعة.

وهكذا أخت عقبة بن عامر لما نَذَرَت الحج ماشية مكشوفة الرأس؛ أمَرَها أن تختمر وتركب وتحج وتُهدي بَدَنة.

فهكذا الواجب على أتباع الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أن يعتمدوا في شروط الواقفين، وبالله التوفيق.

فصل (١)
في هديه ﷺ في الصيام

لما كان المقصود من الصيام: حبس النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية؛ لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين، وتضيق مجاري الشيطان من العبد؛ بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها مع حكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، وليسكن كل عضو منها وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه؛ فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين. وهو لرب العالمين من سائر الأعمال. فإن الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها؛ إيثارًا لمحبة الله ومرضاته.

وهو سر بين العبد وربه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة. وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده؛ فهو أمر لا يطلع عليه بشر. وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثير عظيم في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة، التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها. فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات. فهو من أكبر العون على التقوى، كما

(١) ٣١٩ زاد المعاد جـ١.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُم الصيَامُ كَمَا كُتِبَ على الذين مِنْ قَبلِكُم لَعلَّكُم تَتَّقُونَ﴾. [البقرة: ١٨٣].

وقال النبي ﷺ: «**الصوم جُنَّة**»، وأمر من اشتدت به شهوة النكاح ولا قدرة له عليه بالصيام، وجعله وجاء هذه الشهوة.

والمقصود: أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفطر المستقيمة؛ شرعه الله لعباده: رحمة بهم وإحسانًا إليهم، وحمية لهم وجُنة. وكان هدي رسول الله ﷺ، فيه أكمل الهدى. وأعظم تحصيلاً للمقصود. وأسهله على النفوس.

ولما كان فَطْم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها؛ تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة؛ لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن. فنقلت إليه بالتدريج.

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفِّي رسول الله ﷺ، وقد صام تسع رمضانات.

وفرض أولاً على وجه التخيير: بينه، وبين أن يطعم عن كل يوم مسكينًا، ثم نقل من ذلك التخيير إلى تحتيم الصوم. وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام؛ فإنهما يفطران، ويطعمان عن كل يوم مسكينًا. ورخص للمريض والمسافر؛ أن يفطرا ويقضيا، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك. فإن خافتا على ولديهما زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكل يوم؛ فإن فطرهما لم يكن لخوف مرض، وإنما كان مع الصحة؛ فجبر بإطعام المسكين كفطر الصحيح في أول الإسلام.

وكان للصوم رتب ثلاث: إحداها: إيجابه بوصف التخيير.

والثانية: تحتيمه؛ لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يَطْعَم؛ حرم عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة. فنسخ ذلك.

بالرتبة الثالثة: وهي التي استقر عليها الشرع إلى يوم القيامة.

فصل

وكان من هديه ﷺ، في شهر رمضان؛ الإكثار من أنواع العبادات. فكان

جبريل عليه السلام يدارسه القرآن في رمضان. وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة.

وكان أجود الناس. وأجود ما يكون في رمضان؛ لما يكثر فيه من الصدقة والإحسان، وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف.

وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من الشهور، حتى إنه كان ليواصل فيه أحيانًا؛ ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة. وكان ينهى أصحابه عن الوصال. فيقولون له: إنك تواصل فيقول: «**لستُ كهيئتكم إني أبيتُ** - وفي رواية: **إني أظلُّ - عند ربي يُطعمني ويَسقيني**».

وقد اختلف الناس في هذا الطعام والشراب المذكورين على قولين:

أحدهما: أنه طعام وشراب حسي للفم. قالوا: وهذه حقيقة اللفظ. ولا موجب للعدول عنها.

الثاني: أن المراد به: ما يغذيه الله به من معارفه، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته وقرة عينه بقربه، وتنعمه بحبه والشوق إليه، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الأرواح وقرة العين، وبهجة النفوس والروح والقلب؛ بما هو أعظم غذاء وأجوده وأنفعه...

(١)**الصوم** جُنَّة من أدواء الروح والقلب والبدن. منافعه تفوت الإحصاء. وله تأثير عجيب في حفظ الصحة، وإذابة الفضلات، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها؛ ولاسيما إذا كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعًا، وحاجة البدن إليه طبعًا. ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء؛ ما يحفظ عليها قواها.

وفيه خاصية تقتضي إيثاره. وهي: تفريحه للقلب عاجلاً وآجلا. وهو أنفع شيء لأصحاب الأمزجة الباردة والرطبة. وله تأثير عظيم في حفظ صحتهم. وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية. وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعًا وشرعًا عظم انتفاع قلبه وبدنه به، وحبس عنه المواد الغريبة الفاسدة التي هو مستعد لها. وأزال المواد الرديئة الحاصلة بحسب كماله ونقصانه، ويحفظ الصائم مما ينبغي أن يتحفظ منه. وقيامه بمقصود الصوم. وسره وعلته الغائية. فإن القصد

---

١) ٣٦٤ زاد المعاد جـ٣.

منه؛ أمر آخر، وراء ترك الطعام والشراب. وباعتبار ذلك الأمر اختص من بين الأعمال بأنه لله سبحانه.

ولما كان وقاية وجُنَّة بين العبد، وبين ما يؤذي قلبه وبدنه عاجلاً وآجلا؛ قال الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كُتبَ عَلَيكُم الصيامُ كما كُتبَ على الذين منْ قَبلكُم لعلَّكُم تتقُونَ﴾**. [البقرة: ١٨٣].

فأحد مقصودي الصيام؛ الجُنة والوقاية. وهي حمية عظيمة النفع، والمقصود الآخر: اجتماع القلب والهم على الله تعالى، وتوفير قوى النفس على محابه وطاعته.

وقد تقدم الكلام في بعض أسرار الصوم عند ذكر هديه ﷺ فيه.

...[1]**قال** النبي ﷺ: لمن سأله عن أفضل الأعمال: «**عليك بالصوم فإنه لا عدل له**» ولما كان الصبر: حبس النفس عن إجابة داعي الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم؛ فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع؛ فسر الصبر في قوله تعالى: **﴿وَاسْتَعينُوا بِالصّبرِ والصَّلاَةِ﴾**. [البقرة: ٤٥]. أنه الصوم، وسمى رمضان شهر الصبر.

وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر، وذلك أن الصبر: حبس النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب، فإن النفس تشتهي الشيء لحصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها.

والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعي الأمرين، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ، في الحديث الصحيح وهو قوله: «**إذا كان يومُ صوم أحدِكم فلا يجهلْ ولا يصخبْ فإن أحدٌ سابَّه أو شاتمه فليقلْ إني صائمٌ**» فأرْشدَ ﷺ إلى تعديل قوى الشهوة والغضب، وأن الصائم ينبغي له أن يحتمي من إفسادهما لصومه: فهذه تفسد صومه وهذه تحبط أجره، كما قال في الحديث الآخر: «**من لم يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ به فليس للّهِ حاجةٌ في أن يدعَ طعامَه وشرابَه**».

قالوا: ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى: **﴿إني جَزَيْتُهُمُ اليَوْم بِما صَبَرُوا أنَّهم هُمُ الفَائِزُون﴾**. [المؤمنون: ١١١]. فجعل فوزهم جزاء صبرهم.

---

(١) ١١٧ ـ ١١٨ عدة الصابرين.

وقال تعالى: ﴿**والله مع الصابرين**﴾. [البقرة: ٢٤٩].

لا شيء يعدل معيته لعبده كما قال بعض العارفين: ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة لأنهم نالوا معية الله.

وقال تعالى: ﴿**واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا**﴾. [الطور: ٤٨]. وهذا يتضمن الحراسة والكلاية والحفظ للصابر لحكمه.

(١)**شهد** في لسانهم لها معانٍ: أحدها: الحضور، ومنه قوله تعالى: ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾. [البقرة: ١٨٥]. وفيه قولان: أحدهما: من شهد المصر في الشهر. والثاني: من شهد الشهر في المصر وهما متلازمان.

والثاني: الخبر، ومنه: «شهد عندي رجال مرضيون وأرضاهم عندي عمر أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح».

والثالث: الاطلاع على الشيء، ومنه: ﴿**والله على كل شيء شهيد**﴾. [البروج: ٩]. وإذا كان كل خبر شهادة؛ فليس مع من اشترط لفظ الشهادة فيها دليل: من كتاب ولا سنة، ولا إجماع ولا قياس صحيح.

وعن أحمد فيها ثلاث روايات:

إحداهن: اشتراط لفظ الشهادة.

والثانية: الاكتفاء بمجرد الإخبار، اختارها شيخنا.

والثالثة: الفرق بين الشهادة على الأقوال وبين الشهادة على الأفعال، فالشهادة على الأقوال لا يشترط فيها لفظ الشهادة، وعلى الأفعال يشترط؛ لأنه إذا قال: سمعته يقول؛ فهو بمنزلة الشاهد على رسول الله ﷺ، فيما يخبر عنه.

(٢)فصل

وأما مرض الأبدان فقال تعالى: ﴿**ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج**﴾. [النور: ٦١، الفتح: ١٧]. وذكر مرض البدن في الحج والصوم والوضوء؛ لسر بديع يبين لك عظمة القرآن، والاستغناء به ـ لمن فهمه وعقله ـ عن سواه.

---

(١) ٨ بدائع جـ١.

(٢) ١٣٥ زاد المعاد جـ٣.

وذلك: أن قواعد طِبِّ الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحِمْيَة عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة. فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة، فقال في آية الصوم: **﴿فَمَنْ كَانَ مِنكُم مَرِيضًا أو عَلَى سَفَرٍ: فَعِدَّةٌ مِنْ أيام أُخَرَ﴾**. [البقرة: ١٨٤].

فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلبًا لحفظ صحته وقوته، لئلا يذهبها الصوم في السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه الصوم من التحليل، وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فتَخُور القوة وتضعف. فأباح للمسافر الفطر حفظًا لصحته وقوته عما يضعفها.

وقال في آية الحج: **﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُم مريضًا أو بِهِ أذى مِن رأسِهِ: فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَام أو صَدَقَةٍ أو نُسُكٍ﴾**. [البقرة: ١٩٦]. فأباح للمريض ومَنْ به أذى من رأسه من قمل أو حِكَّة أو غيرهما؛ أن يحلق رأسه في الإحرام؛ استفراغًا لمادة الأبخرة الرديئة، التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر. فإذا حلق رأسه تَفَتَّحَتِ المَسامُّ، فخرجت تلك الأبخرة منها. فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذي انحباسُه.

والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمني إذا اجتمع، والبول، والغائط، والريح، والْقَيء، والعُطَاس، والنوم، والجوع، والعطش.

وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء بحبسه.

وقد نَبَّه سبحانه باستفراغ أدناها ـ وهو البخار المحتقن في الرأس ـ على استفراغ ما هو أصعب منه، كما هي طريقة القرآن: التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وأما الحِمْيَة: فقال تعالى في آية الوضوء: **﴿وَإن كُنتُم مَرضَى أو عَلَى سَفَرٍ، أَوجَاءَ أحدٌ مِنكم مِنَ الغائطِ، أو لامَسْتُم النساءَ، فَلَم تجدوا ماءً: فَتَيَمَّمُوا صعيدًا طيبًا﴾**. [المائدة: ٦]. فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب؛ حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه. وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له من داخل أو خارج.

فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب الثلاثة ومجامع قواعده. . .[1]

---

(١) بحث المؤلف هنا طب القلوب، وطب الأبدان بتوسع مفيد جدًا اهـ ج.

(١)**وأصول** الطب ثلاثة: الحمية، وحفظ الصحة، واستفراغ المادة المضرة. وقد جمعها الله تعالى له ولأمته في ثلاثة مواضع من كتابه، فحمى المريض من استعمال الماء؛ خشية من الضرر.

فقال تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُم مَرضَى أو عَلَى سَفرٍ أو جاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ الغائِطِ أَوْ لَامَستُم النّساءَ فَلَم تَجِدُوا ماءً فَتَيمموا صَعْيدًا طَيبًا**﴾. [المائدة: ٦]. فأباح التيمم للمريض حمية له، كما أباحه للعادم.

وقال في حفظ الصحة: ﴿**فَمَنْ كَانَ مِنْكُم مَرِيضًا أو عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِن أيامٍ أُخَرَ**﴾. [البقرة: ١٨٤]. فأباح للمسافر الفطر في رمضان حفظًا لصحته؛ لئلا يجتمع على قوته الصوم ومشقة السفر، فيضعف القوة والصحة.

وقال في الاستفراغ في حلق الرأس للمحرم: ﴿**فَمَنْ كَانَ مُنكم مَرِيضًا أو بِهِ أذى مِن رأسِهِ فَفِديَةٌ مِنْ صِيامٍ أو صَدَقةٍ أو نُسُكٍ**﴾. [البقرة: ١٩٦]. فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه وهو محرم؛ أن يحلق رأسه، ويستفرغ المواد الفاسدة، والأبخرة الرديئة التي تولد عليه القمل، كما حصل لكعب بن عُجرة، أو تولد عليه المرض.

وهذه الثلاثة هي قواعد الطب وأصوله، فذكر من كل جنس منها شيئًا وصورة؛ تنبيهًا بها على نعمته على عباده في أمثالها من حميتهم، وحفظ صحتهم، واستفراغ مواد أذاهم: رحمة لعباده ولطفًا بهم ورأفة بهم، وهو الرءوف الرحيم.

(٢)**وأما** مَنْ أكل في صومه ناسيًا فمن قال: «عدمُ فطره ومضيه في صومه على خلاف القياس» ظن أنه من باب ترك المأمور ناسيًا، والقياس أنه يلزمه الإتيان بها تركه، كما لو أحدث ونسي حتى صلى.

والذين قالوا: «بل هو على وفق القياس» حُجَّتُهم أقوى؛ لأن قاعدة الشريعة: أن مَنْ فَعَلَ محظورًا ناسيًا فلا إثم عليه، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿**رَبَّنا لَا تُؤَاخِذْنا إن نَسينَا أو أخطَأنَا**﴾. [البقرة: ٢٨٦].

وثبت عن النبي ﷺ أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء، وقال: قد فعلت.

---

(١) ٨٥ زاد المعاد جـ١. (٢) ٣١ أعلام جـ٢.

وإذا ثبت أنه غيرُ آثم فلم يفعل في صَوْمه محرمًا فلم يبطل صومه، وهذا مَحْض القياس؛ فإن العبادة إنما تَبْطُل بفعل محظور أو ترك مأمور.

وطَرْدُ هذا القياس أن مَنْ تكلَّم في صلاته ناسيًا؛ لم تبطل صلاته.

وطَرده أيضًا أن مَنْ جامع في إحرامه أو صيامه ناسيًا؛ لم يبطل صيامه ولا إحرامه. وكذلك مَنْ تطيَّبَ أو لبس أو غَطَّى رأسَه أو حلق رأسه أو قلم ظفره ناسيًا فلا فِدْيَةَ عليه، بخلاف قَتل الصيد، فإنه من باب ضَمان المتلفات فهو كدية القتيل. وأما اللباس والطيب فمن باب الترفُّهِ، وكذلك الحَلق والتقليم ليس من باب الإتلاف؛ فإنه لا قيمة له في الشرع ولا في العرف.

وطَرْدُ هذا القياس أن من فعل المحلوف عليه ناسيًا لم يحنث، سواء حلف بالله أو بالطلاق أو بالعتاق أو غير ذلك؛ لأن القاعدة أن مَنْ فعل المنهيَّ عنه ناسيًا؛ لم يُعَدَّ عاصيًا، والحنث في الأيمان كالمعصية في الإيمان. فلا يعد حانثا من فعل المحلوف عليه ناسيًا.

(١) **وذكر** أحمد أن شابًّا سأله فقال: أقَبِّلُ وأنا صائم؟ قال: «**لا**» وسأله شيخ: أقبل وأنا صائم؟ قال: «**نعم**» ثم قال: «**إن الشيخ يملك نفسَه**».

وسأله ﷺ، رجل فقال: يا رسول الله أكَلْتُ وشربت ناسيًا وأنا صائم، فقال: «**أطعمك الله وسقاك**» ذكره أبوداود، وعند الدارقطني فيه بإسناد صحيح: «**أتمَّ صومك، فإن الله أطعمك وسقاك، ولا قضاء عليك**» وكان أول يوم من رمضان.

وسألته ﷺ عن ذلك امرأة أكَلَتْ معه فأمسكت، فقال: «**مَالَكِ؟**» فقالت: كنت صائمة فنسيت، فقال ذو اليدين: الآن بعد ما شبعتِ؟ فقال ﷺ: «**أتمي صومَكِ؛ فإنما هو رزق ساقه الله إليك**» ذكره أحمد.

وسئل ﷺ، عن الخيط الأبيض والخيط الأسود، فقال: «**هو بَيَاضُ النهار وسواد الليل**» ذكره النسائي.

ونهاهم عن الوِصال ووَاصَل، فسألوه عن ذلك، فقال: «**إني لَسْتُ كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني**» متفق عليه.

---

(١) ٢٩٤ أعلام جـ٤.

وسأله ﷺ، رجل فقال: يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جُنُب أفأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا تُدْرِكني الصلاة وأنا جنب فأصوم**» فقال: لَسْتَ مثلَنا يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلَمَكم بما أتَّقي**» **ذكره مسلم**.

وسئل ﷺ عن الصوم في السفر، فقال: «**إن شئت صمت وإن شئت أفطرت**» وسأله ﷺ، حمزة بن عمرو فقال: إني أجد فيَّ قوة على الصيام في السفر، فهل على جناح؟ فقال: «**هي رخصة الله، فمن أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه**» ذكرهما مسلم.

فصــل(١)

وكان ﷺ يفطر قبل أن يصلي، وكان فطره على رطبات؛ إن وجدها، فإن لم يجدها فعلى تمرات، فإن لم يجد فعلى حسوات من ماء.

ويذكر عنه ﷺ أنه كان يقول عند فطره: «**اللهم لك صمتُ وعلى رزقك أفطرت، فتقبل منا إنك أنت السميعُ العليمُ**» ولا يثبت.

وروي عنه أيضًا أنه كان يقول: «**اللهم لك صمتُ، وعلى رزقك أفطرتُ**» ذكره أبو داود: عن معاذ بن زهرة، أنه بلغه: أن النبي ﷺ، كان يقول ذلك.

وروي عنه، أنه كان يقول إذا أفطر: «**ذهب الظمأُ، وابتلّت العروقُ، وثبت الأجرُ إن شاء الله تعالى**». ذكره أبوداود، من حديث الحسين بن واقد، عن مروان بن سالم المقنع، عن ابن عمر.

ويذكر عنه ﷺ: «**إن للصائم عند فطره دعوة لا ترد**» رواه ابن ماجه.

وصح عنه أنه قال: «**إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا؛ فقد أفطر الصائم**» وفسر بأنه قد أفطر حُكمًا وإن لم ينوه، وبأنه قد دخل وقت فطره، كأصبح وأمسى.

ونهى الصائم عن الرَّفَث والصَّخَب والسِّبَاب، وجواب السباب.

(١) ٣٣٣ زاد المعاد جـ١.

وأمره أن يقول لمن سابَّهُ: «إني صائم» فقيل: يقوله بلسانه. وهو أظهر. وقيل: بقلبه، تذكيراً لنفسه بالصوم. وقيل: يقوله في الفرض بلسانه، وفي التطوع في نفسه، لأنه أبعد عن الرياء.

فصل

وسافر رسول الله ﷺ في رمضان، فصام وأفطر، وخير الصحابة بين الأمرين. وكان يأمرهم بالفطر إذا دَنَوْا من عدوهم ليتقووا على قتاله.

فلو اتفق مثل هذا في الحضر، وكان في الفطر قوة لهم على لقاء عدوهم، فهل لهم الفطر؟ فيه قولان: أصحهما دليلاً: أن لهم ذلك. وهو اختيار ابن تيمية، وبه أفتى العساكر الإسلامية لما لقوا العدُوَّ بظاهر دمشق.

ولا ريب أن الفطر لذلك أولى من الفطر لمجرد السفر، بل إباحة الفطر للمسافر تنبيه على إباحته في هذه الحالة، فإنها أحق بجوازه:

لأن القوة هناك تختص بالمسافر، والقوة هنا: له وللمسلمين.

ولأن مشقة الجهاد أعظم من مشقة السفر.

ولأن المصلحة الحاصلة بالفطر للمجاهد، أعظم من المصلحة بفطر المسافر.

ولأن الله تعالى قال: ﴿**وأعدُّوا لَهُم مَا استَطَعتُم من قوَّةٍ**﴾. [الأنفال: ٦٠]

والفطر عند اللقاء من أعظم أسباب القوة، والنبي ﷺ قد فسر القوة بالرمي. وهو لا يتم ولا يحصل به مقصوده إلا بما يقوي ويعين عليه: من الفطر، والغذاء.

ولأن النبي ﷺ، قال للصحابة لما دنوا من عدوهم: «**إنكم قد دَنَوْتم من عدوكم والفطر أقوى لكم**» وكانت رخصة. ثم نزلوا منزلاً آخر فقال: «**إنكم مُصَبِّحُو عدوكم، والفطر أقوى لكم فأفطروا**». فكانت عزمة. فعلل بدُنُوِّهم من عدوهم، واحتياجهم إلى القوة التي يلقون بها العدو. وهذا سبب آخر غير السفر، والسفر مستقل بنفسه، ولم يذكره في تعليله، ولا أشار إليه، فالتعليل به اعتبارًا لما ألغاه الشارع في هذا الفطر الخاص، وإلغاء وصف القوة التي يقاوم بها العدو، واعتبار السفر المجرد إلغاء لما اعتبره الشارع وعلل به.

وبالجملة: فتنبيه الشارع وحكمته؛ يقتضي أن الفطر لأجل الجهاد أولى منه لمجرد السفر. فكيف وقد أشار إلى العلة ونبه عليها. وصرح بحكمها. وعزم عليهم بأن يفطروا لأجلها؟

ويدل عليه؛ ما رواه عيسى بن يونس، عن شعبة، عن عمرو بن دينار قال: سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه يوم فتح مكة: «**إنه يوم قتال فأفطروا**» تابعه سعيد بن الربيع، عن شعبة. فعلل بالقتال. ورتب عليه الأمر بالفطر بحرف الفاء.

وكل أحد يفهم من هذا اللفظ، أن الفطر لأجل القتال.

وأما إذا تجرد السفر عن الجهاد: فكان رسول الله ﷺ يقول في الفطر: «**هي رخصة من الله. فمن أخذ بها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه**».

(١)**إذا** رأى إنسانًا يغرق فلا يمكنه تخليصه إلا بأن يفطر هل يجوز له الفطر؟

أجاب أبو الخطاب: يجوز له الفطر إذا تيقن تخليصه من الغرق، ولم يمكنه الصوم من التخليص.

وأجاب ابن الزاغوني عنها: إذا كان يقدر على تخليصه وغلب على ظنه ذلك لزمه الإفطار وتخليصه.

ولا فرق بين أن يفطر بدخول الماء في حلقه وقت السباحة، أو كان يجد من نفسه ضعفًا عن تخليصه لأجل الجوع حتى يأكل لأنه يفطر للسفر المباح؛ فلأن يفطر للواجب أولى.

قلت: أسباب الفطر أربعة: السفر، والمرض، والحيض، والخوف على هلاك من يخشى عليه بصوم: كالمرضع والحامل إذا خافتا على ولديهما، ومثله مسألة الغريق.

وأجاز شيخنا ابن تيمية الفطر للتقوِّي على الجهاد وفعله، وأفتى به لما نازل العدو دمشق في رمضان، فأنكر عليه بعض المتفقهين وقال: ليس هذا سفر طويل. فقال الشيخ: هذا فطر للتقوِّي على جهاد العدو، وهو أولى من الفطر للسفر يومين: سفرًا مباحًا أو معصية، والمسلمون إذا قاتلوا عدوهم وهم صيام لم يمكنهم النكاية فيهم، وربما أضعفهم الصوم عن القتال؛ فاستباح العدو بيضة

---

(١) ٤٥ بدائع جـ٤.

الإسلام، وهل يشك فقيه أن الفطر ههنا أولى من فطر المسافر؟ وقد أمرهم النبي ﷺ، في غزوة الفتح بالإفطار ليتقووا على عدوهم، فعلل ذلك للقوة على العدو لا للسفر. والله أعلم.

قلت: إذا جاز فطر الحامل والمرضع لخوفهما على ولديهما، وفطر من يخلص الغريق؛ ففطر المقاتلين أولى بالجواز، ومن جعل هذا من المصالح المرسلة فقد غلط؛ بل هذا أمر من: باب قياس الأولى، ومن باب دلالة النص وإيمائه.

فصل (١)

تنازع الناس في كثير من الأحكام، ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها. وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بيانًا وأن العناية ببيانها أهم؛ لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد. فبينها الله سبحانه وتعالى ورسوله بيانًا شافيًا لا يقع فيه لبس يوقع الراسخين في العلم.(٢)

وآيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس.

وأما آيات الصفات؛ فيشترك في فهم معناها الخاص والعام، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية. ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله تعالى: ﴿**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ**﴾. حتى بين لهم بقوله: ﴿**مِنَ الْفَجرِ**﴾. [البقرة:١٨٧]. ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله: ﴿**وإذا سألَكَ عبادي عَنِّي فإني قريبٌ**﴾ الآية [البقرة:١٨٦]. وغيرها من آيات الصفات.

وأيضًا فإن آيات الأحكام؛ مجملة عرف بيانها بالسنة كقوله تعالى: ﴿**فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أو صدَقَةٍ أوْ نُسُكٍ**﴾. [البقرة:١٩٦]. فهذا مجمل في قدر الصيام والإطعام، فبينته السنة بأنه: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة. ونظائره كثيرة: كآية السرقة وآية الصلاة والزكاة والحج. وليس في آيات الصفات وأحاديثها

(١) ٢١ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) كذا بالأصل، ولعله: (يقع للراسخين في العلم) أو نحوه فتأمل

مجمل لا يحتاج إلى بيان من خارج؛ بل بيانها فيها وإن جاءت السنة بزيادة في البيان والتفصيل.

(١)**قال** الله تعالى: ﴿**فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم**﴾. [البقرة: ١٨٧]. فروى شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، قال: هو الولد، وقاله الحكم وعكرمة والحسن البصري والسدي والضحاك. وأرفع ما فيه ما رواه محمد بن سعد، عن أبيه: حدثني عمي، عن أبيه: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: هو الولد.

وقال ابن زيد: هو الجماع، وقال قتادة: ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم.

وعن ابن عباس رواية أخرى، قال: ليلة القدر.

والتحقيق أن يقال: لما خفف الله عن الأمة بإباحة الجماع ليلة الصوم إلى طلوع الفجر، وكان المجامع يغلب عليه حكم الشهوة وقضاء الوطر حتى لا يخطر بقلبه غير ذلك؛ أرشدهم سبحانه إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللذة، ولا يباشروها بحكم مجرد الشهوة، بل يبتغوا بها ما كتب الله لهم من الأجر.

والولد الذي يخرج من أصلابهم يعبد الله لا يشرك به شيئًا، ويبتغون ما أباح الله لهم من الرخصة بحكم محبته لقبول رخصه، فإن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

ومما كتب لهم ليلة القدر فأمروا أن يبتغوها.

لكن يبقى أن يقال: فما تعلق ذلك بإباحة مباشرة أزواجهم؟

فيقال: فيه إرشاد إلى أن لا يشغلهم ما أبيح لهم من المباشرة؛ عن طلب هذه الليلة التي هي خير من ألف شهر، فكأنه سبحانه يقول: اقضوا وطركم من نسائكم ليلة الصيام، ولا يشغلكم ذلك عن ابتغاء ما كتب لكم من هذه الليلة التي فضلكم بها. والله أعلم.

(١) ٥ تحفة المودود.

فصل في هديه ﷺ في الاعتكاف(١)

لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى؛ متوقفًا على جمعيته على الله، وَلَمِّ شَعَثِه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شَعَثَ القلب لا يَلُمُّه إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام؛ مما يزيده شعثًا، ويُشَتِّتُه في كل وَادٍ ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، ويضعفه، أو يَعُوقُه ويوقفه؛ اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده؛ أن شرع لهم من الصوم ما يُذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوِّقة عن سيره إلى الله تعالى.

وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضره، ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة.

وشرع لهم الاعتكاف، الذي مقصوده وروحه عُكُوف القلب على الله تعالى، وجمعيته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكرُه وحبُّه والإقبالُ عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهَمُّ كله به والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أُنْسُه بالله بدلاً عن أُنْسِه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور، حين لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه. فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم.

ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم؛ شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم، وهو العشر الأخير من رمضان.

ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه اعتكف مفطرًا قط، بل قالت عائشة: «لا اعتكاف إلا بصوم(٢)» ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم، ولا فعله النبي ﷺ إلا مع الصوم. فالقول الراجح الدليل، الذي عليه جمهور السلف؛ أن الصوم شرط في الاعتكاف، وهو الذي كان يرجحه شيخ الإسلام أبوالعباس ابن تيمية قدس الله روحه.

---

(١) ٣٥٥ زاد المعاد جـ١.

(٢) هو طرف من حديث رواه أبوداود، عن عائشة. وانظر الكلام على علته، وعلى اشتراط الصوم في الاعتكاف وعدمه في تهذيب السنن للشيخ ابن القيم (جـ٣ ص ٣٤٣ - ٣٤٤ - حديث ٢٢٦٣).

وأما الكلام: فإنه شرع للأمة حبس اللسان عن كل ما لا ينفع في الآخرة.

وأما فضـول المنام: فإنه شرع لهم من قيام الليل؛ ما هو من أفضل السهر وأحمـده عاقبـة، وهـو السهر المتوسط الذي ينفع القلب والبدن، ولا يَعُوق عن مصلحة العبد. ومدار رياضة أرباب الرياضات والسلوك؛ على هذه الأركان الأربعـة، وأسعدهم بها؛ من سلك فيها المنهاج النبوي المحمدي، ولم ينحرف انحراف الغالين، ولا قصر تقصير المفرطين.

وقد ذكرنا هديه ﷺ، في صيامه وقيامه وكلامه. فلنذكر هديه في اعتكافه.

كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، وتركه مرة فقضاه في شوال. واعتكف مرة في العشر الأول، ثم الأوسط، ثم العشر الآخر؛ يلتمس ليلة القدر، ثم تبين له أنها في العشر الأخير؛ فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه عز وجل.

وكان يأمر بخباء فيُضْرَب له في المسجد؛ يخْلُو فيه بربه عز وجل.

وكـان إذا أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله، فأمر به مرة فضرِب، فأمر أزواجه بأخْبيَتِهنَّ فضربِت، فلما صلى الفجر نظر فرأى تلك الأخبية، فأمر بخبائه فقُوِّض.

وترك الاعتكاف في شهر رمضان حتى اعتكف في العشر الأول من شوال(١).

وكان ﷺ، يعتكف كل سنة عشرة أيام، فلما كان في العام الذي قُبِض فيه: اعتكف عشرين يومًا.

وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين.

وكان يعرض عليه القرآن أيضًا في كل سنة مرة، فعرض عليه تلك السنة مرتين. وكان إذا اعتكف دخل قبته وحده.

وكان لا يدخل بيته في حال اعتكافه إلا لحاجة الإنسان.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن عائشة.

وكان يخرج رأسه من المسجد إلى بيت عائشة، فترجِّله وتغسله وهو في المسجد، وهي حائض.

وكان بعض أزواجه يزوره وهو معتكف، فإذا قامت تذهب: قام معها يقَلبِهُا - وكان ذلك ليلاً(١).

ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكف، لا بقبلة ولا غيرها.

وكان إذا اعتكف طرح له فراشه، ووضع له سريره في معتكَفه.

وكان إذا خرج لحاجته مرَّ بالمريض وهو على طريقه، فلا يُعرِّج عليه، ولا يسأل عنه.

واعتكف مرة في قبة تركية، وجعل على سُدَّتها حصيراً.

كل هذا تحصيلاً لمقصود الاعتكاف وروحه، عكس ما يفعله الجهال: من اتخاذ المعتكف موضع عشرة، ومجلبة للزائرين، وأخذهم بأطراف الأحاديث بينهم. فهذا لون، والاعتكاف النبوي لون. والله الموفق.

(٢)**﴿ولا تأكُلوا أموالَكم بينكم بالباطلِ، وتُدلُوا بها إلى الحكامِ﴾** [البقرة: ١٨٨] أي: تضيفوا ذلك إلى الحكام، وتتوصلوا بحكمهم إلى أكلها.

فإن قيل: لو أراد هذا المعنى لقيل: «وتُدْلُوا بالحكام إليها» وأما الإدلاء بها إلى الحكام فهو: التوصُّل بالبرطيل بها إليهم؛ فَتَرْشُوا الحاكم؛ لتتوصلوا برشوتِهِ إلى الأكل بالباطل.

قيل: الآية تتناول النوعين: فكل منهما إدلاء إلى الحكام بسببها، فالنهي عنهما معاً. ا. هـ.

وقد: ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه:

أحدها قوله: **﴿يسألونك عن الأهلةِ قُل هي مواقيتُ للناسِ والحجِّ﴾** [البقرة: ١٨٩].

والثانية قوله: **﴿هو الذي جعلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نورًا وقدَّره منازلَ لتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ ما خلق الله ذلك إلا بالحقِّ يفصلُ الآياتِ لقومٍ يعلمون﴾** [يونس: ٥].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن صفية أنها زارته وهو معتكف. . الحديث.

(٢) ٨٨ أعلام جـ١.

والثالثة قوله: ﴿**وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتين فمحونا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهارِ مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربِّكم ولتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ وكلَّ شيءٍ فصَّلناه تفصيلاً**﴾ [الإسراء:١٢]. فلولا ما يحدثه الله سبحانه في آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه؛ لم يعلم ميقات الحج، والصوم والعدد، ومدة الرضاع، ومدة الحمل، ومدة الإجارة، ومدة آجال الحاملات.

فإن قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وإفطارهم بعد غروب الشمس.

قيل: هذا وإن كان ممكنا إلا أنه يعسر ضبطه ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس.

ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها بالقمر؛ أمر يشترك فيه الناس، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس، وأقل اضطرابًا واختلافًا ولا يحتاج إلى تكلف حساب، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه، فالحكمة البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر، وأنفع، وأصلح، وأقل اختلافًا من تقديرها بسير الشمس.

فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، في مصالح دينهم ودنياهم.

مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب، وكمال حكمته، وعلمه وتدبيره. فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها. فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير، ولا يمكن عدمها

(١)**قوله** تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حتَّى لا تَكُونَ فِتنةٌ ويكُونَ الدينُ لله، فَإن انتهوا فَلا عدوان إلا عَلَى الظَّالمينَ**﴾. [البقرة:١٩٣]. فمدّ قتالهم إلى أن ينتهوا عن أسباب الفتنة، وهي الشرك، وأخبر أنه لا عدوان إلا على الظالمين؛ والمجاهر بالسب

---

(١) ٨٢٩ أحكام أهل الذمة جـ٢.

والعدوان على الإسلام غير منتهٍ، فقتاله واجب إذا كان غير مقدور عليه، وقتله مع القدرة حَتمٌ، وهو ظالم فعليه العدوان الذي نفاه عمن انتهى، وهو القتل والقتال. وهذا بحمد الله في غاية الوضوح.

(١)**وقد** فهم من قوله تعالى: ﴿**ولا تُلْقُوا بَأيْدِيكُم إلى التَهْلُكَةِ**﴾. [البقرة: ١٩٥]. انغماس الرجل في العدو؛ حتى بين له أبو أيوب الأنصاري أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة، بل هو من بيع الرجل نفسَه ابتغاء مرضاة الله، وأن الإلقاء بيده إلى التهلكة هو: ترك الجهاد والإقبالُ على الدنيا وعمارتها.

وقال الصديق رضي الله عنه: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتَضَعُونها على غير مواضعها ﴿**يَا أيُّها الذين آمنُوا عليكم أنفسَكم لاَ يضرُّكُم مَنْ ضَلَّ إذا اهتَدَيْتُم**﴾. [المائدة: ١٠٥]. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمهم الله بالعقاب من عنده**» فأخبرهم أنهم يضعونها على غير مواضعها؛ في فهمهم منها خلاف ما أريد بها.

(٢)**وذكر** أحمد عنه: أن رجلاً قال له: أوصني. فقال: «**أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء. وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام. وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن؛ فإنه روحك في السماء وذكر لك في الأرض**».

وقال: «**ذِرْوَةُ سنام الإسلام: الجهاد**»(٣) وقال: «**ثلاثة حقٌّ على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله. والمكاتب الذي يريد الأداء. والناكح الذي يريد العفاف**»(٤).

وقال: «**من مات ولم يَغزُ ولم يحدث نفسه بغزو؛ مات على شُعبة من نفاق**»(٥).

وذكر أبو داود عنه: «**من لم يَغْزُ، أو يجهز غازيًا، أو يخلف غازيًا في أهله بخير؛ أصابه الله بقارعةٍ قبل يوم القيامة**». (٦)

وقال: «**إذا ضَنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب**

---

(١) ٢٢٣ أعلام جـ١.		(٢) ١٦٠ زاد المعاد جـ٢.

(٣) رواه بهذا اللفظ الطبراني من حديث أبي أمامة، وزاد «لا يناله إلا أفضلهم» ورواه أحمد والنسائي والترمذي ـ وقال: حسن صحيح ـ وابن ماجة من حديث معاذ بن جبل ـ الطويل «كنت في سفر مع رسول الله، فأصبحت يوما قريبا منه ـ الحديث». (٤) رواه أحمد والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة. (٥) رواه مسلم وأبوداود والنسائي من حديث أبي هريرة. (٦) رواه أبوداود وابن ماجة عن القاسم عن أبي أمامة. قال المنذري في مختصر السنن: والقاسم أبو عبدالرحمن فيه مقال.

البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ أنزل الله بهم بلاءً فلم يرفعه عنهم حتى يُراجعوا دينهم»(١).

وذكر ابن ماجة عنه: «**من لقي الله عز وجل، وليس له أثر في سبيل الله؛ لقي الله وفيه ثلمة**»(٢).

وقال تعالى: ﴿**ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى التهلكةِ**﴾. [البقرة: ١٩٥]. وفسر أبو أيوب الأنصاري «الإلقاء باليد إلى التهلكة: بترك **الجهاد**»(٣).

وصح عنه ﷺ «**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**»(٤).

وصح عنه «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٥).

(٦)**ولما** نزل فرض الحج بادر رسول الله ﷺ، إلى الحج من غير تأخير. فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَأَتِمُّوا الحَجَّ والعمرَةَ لله**﴾. [البقرة: ١٩٦]. فإنها - وإن نزلت سنة ست، عام الحديبية - فليس فيها فرضية الحج، وإنما فيها الأمر بإتمامه، وإتمام العمرة، بعد الشروع فيهما، وذلك لا يقتضي وجوب الابتداء.

فإن قيل: فمن أين لكم تأخير نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة؟

قيل: لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، وصالحهم على أداء الجزية، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع، وفيها نزل صدر سورة آل عمران، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة.

---

(١) رواه أبو داود وغيره من طريق إسحاق بن أسيد - نزيل مصر - عن ابن عمر.

(٢) رواه الترمذي. وقال: حديث غريب. وابن ماجة وهو من رواية إسماعيل بن رافع عن سمى عن أبي صالح عن أبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي في حديث طويل في غزو المسلمين القسطنطينية، ومعهم أبو أيوب الأنصاري قال «وكانت التهلكة: الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الغزو. فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم».

(٤) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي موسى.

(٥) رواه البخاري ومسلم وأبوداود والترمذي من حديث أبي موسى.

(٦) ٣٦٥ زاد المعاد جـ١.

ويدل عليه: أن أهـل مكة وجدوا في نفوسهم على ما فاتهم من التجارة من المشركـين، لما أنـزل الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمنوا إنَّما المُشركُونَ نَجَسٌ، فَلا يَقْرَبوا المسْجدَ الحرامَ بَعد عَامهم هذا**﴾. [التوبة:٢٨] . فأعاضهم الله تعالى من ذلـك بالجزية. ونزول هذه الآيات والمناداة بها؛ إنما كان في سنة تسع، وبعث الصديق رضى الله عنه بذلك في مكة في موسم الحج، وأردفه بعلي رضي الله عنه، وهذا الذي ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف. والله أعلم.

فصـــل (١)

في هديه ﷺ، في حجه وعمره

اعتمر ﷺ، بعد الهجرة أربع عمر، كلهن في ذي القعدة:

الأولى: عمـرة الحـديبية، وهي أولاهن: سنـة ست، فصَـدَّه المشركون عن البيت، فنحر البُدْن حيث صُدَّ بالحديبية، وحلق هو وأصحابه رءوسهم، وحَلُّوا من إحرامهم، ورجع من عامه إلى المدينة.

الثانية: عمرة القَضِيَّة في العام المقبل، دخل مكة فأقام بها ثلاثًا، ثم خرج بعد إكمال عمرته.

واختلف هل كانت قضاء للعمرة التي صُدَّ عنها في العام الماضي، أم عمرة مستأنفة؟ على قولين للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد:

إحداهما: أنها قضاء. وهو مذهب أبي حنيفة.

والثانية: ليست بقضاء. وهو قول مالك.

والذين قالوا: كانت قضاء احتجوا بأنها سميت عمرة القضاء. وهذا الاسم تابع للحكم.

قال آخرون: القضاء هنا من المقاضاة، لأنه قاضى أهل مكة عليها، لا أنه مِنْ قَضَى يَقْضِي قَضَاءً. قالوا: ولهذا سميت عمرة القضية. قالوا: والذين صُدُّوا عن البيت كانوا ألفًا وأربعمائة، وهؤلاء كلهم لم يكونوا معه في عمرة القضية، ولو كانت قضاء لم يتخلف منهم أحد. وهذا القول أصح؛ لأن رسول الله ﷺ لم يأمر من كان معه بالقضاء.

(١) ٣٥٧ زاد المعاد جـ١.

فصل(١)

واختُلف في تسمية هذه العمرة بعُمرة القضاء: هل هو لكونها قضاء للعمرة التي صُدُّوا عنها، أو من المقاضاة؟ على قولين تقدما.

قال الواقدي: حدثني عبدالله بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر قال: «لم تكن هذه العمرة قضاءً، ولكن كان شرطًا على المسلمين أن يَعْتَمِرُوا في الشهر الذي حَاصَرَهم فيه المشركون».

واختلف الفقهاء في ذلك على أربعة أقوال:

أحدها: أَنَّ مَنْ أُحْصِرَ عن العمرة: يلزمه الهدي والقضاء، وهذا إحدى الروايات عن أحمد، بل أشهرها عنه.

والثاني: لا قضاء عليه، وعليه الهدي، وهو قول الشافعي، ومالك في ظاهر مذهبه، ورواية أبي طالب عن أحمد.

والثالث: يلزمه القضاء، ولا هدي عليه. وهو قول أبي حنيفة.

والرابع: لا قضاء عليه ولا هدي، وهو إحدى الروايات عن أحمد.

فمن أوجب عليه القضاء والهدي؛ احتَجَّ بأن النبي ﷺ، وأصحابه نَحَرُوا الهدي حين صُدُّوا، ثم قَضَوْا من قابل. قالوا: والعمرة تلزم بالشروع فيها، ولا يسقط الوجوب إلا بفعلها، ونَحْرُ الهدي لأجل التحلل قبل تمامها.

قالوا: وظاهر الآية يوجب الهدي، لقوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ** ﴾. [البقرة: ١٩٦].

ومَن لم يوجبهما؛ قالوا: لم يأمر النبي ﷺ، الذين أُحصروُا معه بالقضاء، ولا أحدًا منهم، ولا وَقَفَ الحلَّ على نحرهم الهدي؛ بل أمرهم أن يَحْلقُوا رءوسهم، وأمر من كانْ معه هدى أن ينحر هديه.

ومن أوجب الهدي دون القضاء؛ احتج بقوله: ﴿**فَإِنْ أُحْصِرْتُم فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**﴾. [البقرة: ١٩٦].

ومن أوجب القضاء دون الهدي؛ احتج بأن العمرة تلزم بالشروع، فإذا أُحْصِر

---

(١) ٣٧١ زادالمعاد جـ٢.

جاز له تأخيرها لعذر الإحصار، فإذا زال الحصر أتى بها بالوجوب السابق، ولا يوجب تخلل التحلل بين الإحرام بها أولاً، وبين فعلها في وقت الإمكان شيئًا.

وظاهر القرآن يرد هذا القول، ويوجب الهدي دون القضاء؛ لأنه جعل الهدي هو جميع ما على المُحْصَرْ، فدل على أنه يكتفي به منه. والله أعلم.

فصـــل

وفي نحره ﷺ - لما أُحصر بالحديبية - دليل على أن المُحْصَر ينحر هديه وقت حصره، وهذا لا خلاف فيه إذا كان مُحرِمًا بعمرة، وإن كان مُفْرِدًا أو قارنًا ففيه قولان:

أحدهما: أن الأمر كذلك. وهو الصحيح؛ لأنه أحد النسكين، فجاز الحلُّ منه، ونَحْرُ هديه وقت حصره كالعمرة. لأن العمرة لا تفوت، وجميع الزمان وَقْتٌ لها. فإذا جاز الحل منها ونحر هديها من غير خشيةِ فواتها، فالحج الذي يُخشى فواته أولى. وقد قال أحمد في رواية حنبل: إنه لا يُحلّ ولا ينحر الهدي إلى يوم النحر.

ووجه هذا: أن للهدي محل زمان ومحل مكان، فإذا عجز عن محل المكان؛ لم يسقط عنه محل الزمان؛ لتمكنه من الإتيان بالواجب في محله الزماني.

وعلى هذا القول لا يجوز له التحلل قبل يوم النحر؛ لقوله تعالى: ﴿ولا تَحْلِقُوا رُءُوسَكم حتى يبلُغَ الهدىُ مَحِلَّه﴾. [البقرة: ١٩٦].

فصـــل

وفي نحـره ﷺ وحِلّه: دليل على أن المحصَر بالعمـرة يتحلل. وهـذا قول الجمهور. وقد روي عن مالك: أن المعتمر لا يتحلل؛ لأنه لا يخاف الفَوْتَ، وهذا تبعـد صحتـه عن مالـك؛ لأن الآية إنـما نزلت في الحديبية. وكان النبي ﷺ، وأصحابه كلهم محرمين بعمرة، وحَلُّوا كلهم. وهذا مما لا يشك فيه أحد من أهل العلم.

فصـــل

وفي ذبحه ﷺ بالحديبية - وهي من الحل بالاتفاق - دليل على أن المحصَر ينحر هديه حيث أحصِر من حِلٍّ أو حرم. وهذا قول الجمهور وأحمد...

(١)**الثالثة**(٢): عمرته التي قرنها مع حجته، فإنه كان قارنًا لبضعة عشر دليلاً، سنذكرها عن قريب، إن شاء الله.

الرابعة: عمرته من الجِعِرَّانة، لما خرج إلى حُنين، ثم رجع إلى مكة، فاعتمر من الجعرانة داخلاً إليها.

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمُرٍ، كلهن في ذي القعدة - إلا التي كانت مع حجته -: عمرة من الحديبية - أو زمن الحديبية - في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة؛ وعمرة من الجعرانة، حيث قَسَم غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته».

ولم يناقض هذا ما في الصحيحين عن البراء بن عازب قال: «اعتمر رسول الله ﷺ في ذي القعدة قبل أن يحج مرتين»؛ لأنه أراد العمر المفردة المستقلة التي تمت. ولا ريب أنهما اثنتان. فإن عمرة القران لم تكن مستقلة، وعمرة الحديبية: صُد عنها، وحيلَ بينه وبين إتمامها. ولذلك قال ابن عباس: «اعتمر النبي ﷺ، أربع عمر: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء من قابل، والثالثة من الجعرانة، والرابعة: مع حجته» ذكره الإمام أحمد.

ولا تناقض بين حديث أنس: «أنهن في ذي القعدة، إلا التي مع حجته» وبين قول عائشة وابن عباس: «لم يعتمر رسول الله ﷺ إلا في ذي القعدة»؛ لأن مبدأ عمرة القران؛ كان في ذي القعدة، ونهايتها؛ كانت في ذي الحجة. مع انقضاء الحج. فعائشة وابن عباس أخبرا عن ابتدائها. وأنس أخبر عن انقضائها.

وأما قول عبدالله بن عمر: «إن النبي ﷺ اعتمر أربعًا. إحداهن في رجب» فوهَمٌ منه رضي الله عنه. قالت عائشة -: لما بلغها ذلك عنه - «يرحم الله أبا عبدالرحمن. ما اعتمر رسول الله ﷺ عمرة قط إلا وهو شاهد. وما اعتمر في رجب قط».

وأما ما رواه الدار قطني، عن عائشة قالت: «خرجت مع رسول الله ﷺ في عمرة في رمضان، فأفطر وصمتُ. وقصر وأتممت. فقلت: بأبي وأمي، أفطرتَ

---

(١) ٣٥٨ زاد المعاد جـ١.

(٢) سبق الكلام عن العمرة الأولى والثانية ص٣٤٩ أي قبل الصفحة السابقة.

وصمتُ. وقصرت وأتممت؟ فقال: أحْسَنْتِ يا عائشة» فهذا الحديث غلط؛ فإن رسول الله ﷺ، لم يعتمر في رمضان قط. وعُمَرُه مضبوطة العدد والزمان. ونحن نقول: يرحم الله أمَّ المؤمنين، ما اعتمر رسول الله ﷺ في رمضان قط.

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «لم يعتمر رسول الله ﷺ إلا في ذي القعدة» رواه ابن ماجة وغيره.

ولا خلاف أن عُمَره لم تزد على أربع، فلو كان قد اعتمر في رجب لكانت خمسًا، ولو كان قد اعتمر في رمضان لكانت ستًّا، إلا أن يقال: بعضهن في رجب، وبعضهن في رمضان، وبعضهن في ذي القعدة. وهذا لم يقع. وإنما الواقع اعتماره في ذي القعدة، كما قال أنس وابن عباس وعائشة.

وقد روى أبو داود في سننه، عن عائشة «أن النبي ﷺ اعتمر في شوال» وهذا - إن كان محفوظًا - فلعله في عمرة الجِعِرَّانة، حيث خرج في شوال، ولكن إنما أحرم في ذي القعدة.

فصل(١)

ولم يكن في عُمره عمرة واحدة خارجًا من مكة، كما يفعل كثير من الناس اليوم. وإنما كانت عمره كلها داخلاً إلى مكة.

وقد أقام بعد الوحي بمكة ثلاث عشرة سنة، لم ينقل عنه: أنه اعتمر خارجًا من مكة في تلك المدة أصلاً.

فالعمرة التي فعلها رسول الله ﷺ، وشرعها؛ عمرة الداخل إلى مكة، لا عمرة من كان بها فيخرج إلى الحِلِّ ليعتمر.

ولم يفعل هذا على عهده أحد قط إلا عائشة وحدها، من بين سائر من كان معه؛ لأنها كانت قد أهَلَّت بالعمرة؛ فحاضت، فأمرها فأدخلت الحج على العمرة، وصارت قارنة، وأخبرها: أن «طوافها بالبيت وبين الصفا والمروة قد وقع عن حجتها وعمرتها» فوجدت في نفسها أن يرجع صواحباتها بحج وعمرة مستقلين. فإنهن كنَّ متمتعات. ولم يَحِضْنَ ولم يَقْرِنَّ. وترجع هي بعمرة في ضمن حجتها. فأمر أخاها أن يُعْمِرها من التنعيم. تطييبًا لقلبها.

---

(١) ٣٦٠ زاد المعاد جـ١.

ولم يعتمر هو من التنعيم في تلك الحجة. ولا أحد ممن كان معه وسيأتي مزيد تقرير لهذا وبسط عن قريب. إن شاء الله تعالى.

فصل

دخل رسول الله ﷺ مكة بعد الهجرة خمس مرات، سوى المرة الأولى؛ فإنه وصل إلى الحديبية وصُدَّ عن الدخول إليها، أحرم في أربع منهن من الميقات لا قبله، فأحرم عام الحديبية من ذي الحليفة.

ثم دخلها المرة الثانية، فقضى عمرته وأقام بها ثلاثًا. ثم خرج.

ثم دخلها في المرة الثالثة عام الفتح في رمضان بغير إحرام.

ثم خرج منها إلى حنين، ثم دخلها بعمرة من الجعرانة، ودخلها في هذه العمرة ليلاً، وخرج ليلاً، فلم يخرج من مكة إلى الجعرانة ليعتمر، كما يفعل أهل مكة اليوم؛ وإنما أحرم منها في حال دخوله إلى مكة. ولما قضى عمرته ليلاً رجع من فَوْرِه إلى الجعرانة، فبات بها. فلما أصبح وزالت الشمس خرج من بطن سَرِف، حتى جامع الطريق؛ ولهذا خفيت هذه العمرة على كثير من الناس.

والمقصود: أن عمره كلها كانت في أشهر الحج، مخالفة لهدي المشركين، فإنهم كانوا يكرهون العمرة في أشهر الحج، ويقولون: هي من أفجر الفجور. وهذا دليل على أن الاعتمار في أشهر الحج؛ أفضل منه في رجب بلا شك.

وأما المفاضلة بينه وبين الاعتمار في رمضان؛ فموضع نظر، فقد صح عنه؛ أنه أمر أُمَّ مَعْقِل ـ لما فاتها الحج معه ـ أن تعتمر في رمضان، وأخبرها: أن «**عمرة في رمضان تعدل حجة**».

وأيضًا: فقد اجتمع في عمرة رمضان أفضل الزمان، وأفضل البقاع، ولكن لم يكن الله ليختار لنبيه ﷺ، في عمره إلا أولى الأوقات، وأحقها بها، فكانت العمرة في أشهر الحج نظير وقوع الحج في أشهره. وهذه الأشهر قد خصَّها الله تعالى بهذه العبادة وجعلها وقتًا لها، والعمرة حج أصغر، فأولى الأزمنة بها؛ أشهر الحج، وذو القعدة؛ أوسطها. وهذا مما نستخير الله فيه، فمن كان عنده فضل علم فليرشد إليه.

وقد يقال: إن رسول الله ﷺ، كان يشتغل في رمضان من العبادات؛ بما هو أهَمُّ من العمرة، ولم يكن يمكنه الجمع بين تلك العبادات وبين العمرة، فأخَّر

العمرة إلى أشهر الحج، ووفَّر نفسه على تلك العبادات في رمضان، مع ما في ترك ذلك من الرحمة بأمته، والرأفة بهم. فإنه لو اعتمر في رمضان؛ لبادرت الأمة إلى ذلك، وكان يشق عليها الجمع بين العمرة والصوم، وربما لا تسمح أكثر النفوس بالفِطْرِ في هذه العبادة؛ حرصًا على تحصيل العمرة وصوم رمضان، فتحصل المشقة. فأخَّرها إلى أشهر الحج. وقد كان يترك كثيرًا من العمل - وهو يحب أن يعمله - خشية المشقة عليهم.

ولما دخل الكعبة خرج حزينًا، فقالت له عائشة في ذلك، فقال: «**إني أخاف أن أكون قد شَقَقتُ على أمتي**»، وهَمَّ أن ينزل يستقي مع سُقاة زمزم للحجاج، فخاف أن يُغلبَ أهلها على سقايتهم بعده. والله أعلم.

...[1]**وحلق** الرأس ثلاثة أنواع:

أحدها: نُسُك وقربة.

والثاني: بدعة وشرك.

والثالث: حاجة ودواء.

فالأول: الحلق في أحد النسكين: الحج، أو العمرة.

والثاني: حلق الرأس لغير الله سبحانه. كما يحلقها المريدون لشيوخهم الأحياء والموتى. فيقول أحدهم: أنا حلقت رأسي لفلان، وأنت حلقته لفلان. وهذا بمنزلة أن يقول: سجدت لفلان. فإن حلق الرأس: خضوع، وعبودية، وذل؛ ولهذا كان من تمام الحج؛ حتى إنه عند الشافعي ركنٌ من أركانه. لا يتم إلا به. فإنه وضع النواصي بين يدي ربها؛ خضوعًا لعظمته، وتذللًا لعزته، وهو من أبلغ أنواع العبودية.

ولهذا كانت العرب إذا رأت إذلال الأسير منهم وعتقه: حلقوا رأسه، وأطلقوه. فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية، الذين أساس مشيختهم على الشرك والبدعة، فشرعوا لمريديهم أن يتعبدوا لهم، فزينوا لهم حلق رءوسهم لهم، كما زينوا السجود لهم، وسموه بغير اسمه، وقالوا: هو وضع الرأس بين يدي الشيخ، ولعمر الله، إن السجود لله: هو وضع الرأس بين يديه سبحانه. وزينوا لهم أن ينذروا لهم، وينوبوا لهم، ويحلفوا بأسمائهم، وهذا هو اتخاذهم أربابًا وآلهة من دون الله.

قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُؤْتِيهُ الله الكتابَ والحُكْمَ والنبوةَ، ثُمَّ يقولَ**

(١) ٢٤٢ زاد المعاد جـ٣.

لِلنَّـاسِ : كُونُـوا عبادًا لِي منْ دُون الله. وَلَكنْ كُونُوا رَبَّانيينَ بِمَا كُنتم تُعلمونَ الكتَـابَ وَبِمَا كُنُتم تَدرُسُونَ. وَلاَ يَأمُرَكُمْ أَنْ تتخُذوا المَلاَئِكَةَ وَالنَّبيينَ أرْبَابًا. أَيأمُرُكُم بِالكُفرِ بَعْدَ إذ أنتمُ مُسلمُونَ؟﴾. [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

وأشرف العبودية: عبودية الصلاة. وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة.

فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها، وهو السجود.

وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع. فإذا لقي بعضهم بعضًا ركع له، كما يركع المصلي لربه سواء.

وأخذ الجبابرة منها: القيام فيقوم الأحرار والعبيد على رءوسهم عبودية لهم؛ وهم جلوس.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل. فتعاطيها مخالفة صريحة له. فنهى عن السجود لغير الله. وقال: «**لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد**».

وأنكر على معاذ بن جبل لما سجد له وقال: «مَهْ» وتحريم هذا معلوم من دينه بالضرورة.

وتجويز من جوَّزه لغير الله مُراغمة لله ورسوله، وهو من أبلغ أنواع العبودية. فإذا جَوَّز هذا المشرك هذا النوع للبشر: فقد جوز العبودية لغير الله. وقد صح أنه قيل لرسول الله: الرجل يلقى أخاه. أينحني له؟ قال: «**لا**». قيل: أيلتزمه ويقبله؟ قال: «**لا**». قيل: أيصافحه؟ قال: «**نعم**».

وأيضًا: فالانحناء عند التحية سجود. ومنه قوله تعالى: ﴿**وادخلوا البابَ سُجَّدًا**﴾. [البقرة: ٥٨]. أي: منحنين. وإلا فلا يمكن الدخول على الجباه. وصح عنه النهي عن القيام وهو جالس، كما تعظم الأعاجم بعضها بعضًا. حتى منع من ذلك في الصلاة وأمرهم «إذا صلى جالسًا: أن يصلوا جلوسًا» وهم أصحاء لا عذر لهم؛ لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس، مع أن قيامهم لله. فكيف إذا كان القيام: تعظيمًا، وعبودية لغيره سبحانه؟

والمقصود: أن النفوس الجاهلة الضالة: أسقطت عبودية الله سبحانه، وأشركت فيها من تعظمه من الخلق؛ فسجدت لغير الله، وركعت له، وقامت بين يديه قيامها في الصلاة، وحلفت بغير الله، ونذرت لغيره، وحلقت لغيره، وذبحت

لغيره، وطافت بغير بيته، وعظمته بالحب والخوف والرجاء والطاعة، كما يعظم الخالق؛ بل أشد، وسوَّت مَنْ تعبده من المخلوقين برب العالمين، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل، وهم الذين بربهم يعدلون. وهم الذين يقولون، وهم في النار مع آلهتهم يختصمون: ﴿تَاللهِ إنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إذ نُسَويكمْ بَربِّ العالمين﴾. [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. وهم الذين قال فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتخذُ من دون الله أندادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ الله، والذين آمَنُوا أشدُّ حُبًّا لله﴾. [البقرة: ١٦٥]. وهذا كله من الشرك. والله لا يغفر أن يشرك به. فهذا فصل معترض في هديه في حلق الرأس، ولعله أهم مما قصدنا الكلام فيه. والله أعلم.

فصل(1)

في هدي رسول الله ﷺ في حلق الرأس، وتركه، وكيفية جعل شعره.

لم يكن هديه ﷺ حلق رأسه في غير نسك؛ بل لم يحفظ عنه أنه حلق رأسه إلا في حج أو عمرة.

وحلق الرأس أربعة أقسام: شرعي، وشِركي، وبدعي، ورخصة.

فالشرعي: الحلق في الحج والعمرة، والشوكي حلق الرأس للشيوخ فإنهم يحلقون رءوس المريدين للشيخ، ويقولون: احلق رأسك للشيخ فلان، وهذا من جنس السجود له، فإن حلق الرأس عبودية مذلة.

وكثير منهم يعمل المشيخة الوثنية، فترى المريد عاكفًا على السجود له، ويسميه: وضع رأس، وأدبًا، وعلى التوبة له، والتوبة لا تنبغي أن تكون لأحد إلا لله وحده، وعلى حلق الرأس له وحلق الرأس عبودية لا تصلح إلا لله وحده؛ وكانت العرب إذا منُّوا على الأسير؛ جزوا نواصيه وأطلقوه عبودية وإذلالاً له. ولهذا كان من تمام النسك؛ وضع النواصي لله عبودية وخصوعًا وذلاً. ويربونه على الحلف باسم الشيخ لإذلاله.

وقد صح عنه ﷺ، أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» فكيف من نذر لغير الله!

وأما الحلق البدعي فهو: كحلق كثير من المطَّوعة والفقراء، يجعلونه شرطًا في

---

(1) ٧٥٠ أحكام جـ٢.

الفقر وزيًّا يتميزون به عن أهل الشعور من الجند والفقهاء والقضاة وغيرهم.

وقد صح عن النبي ﷺ في الخوارج أنه قال: «**سيماهم التحليق**».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لصبيغ بن عسل وقد سأله عن مسائل فأمر بكشف رأسه وقال: «لو رأيتك محلوقًا لأخذت الذي فيه عيناك حتى أن تكون من الخوارج».

ومن حلق البدعة: الحلق عند المصائب بموت القريب ونحوه. فأما المرأة فيحرم عليها ذلك، وقد برىء رسول الله ﷺ من الحالقة والصالقة والشاقة.

فالحالقة التي تحلق شعرها عند المصيبة، والصالقة التي ترفع صوتها بالويل والثبور ونحوه، والشاقة التي تشق ثيابها، وأما الرجل فحلقه لذلك بدعة قبيحة يكرهها الله ورسوله.

وأما حلق الحاجة والرخصة: فهو كالحلق، لوجع، أو قملٍ، أو أذى في رأسه: من بثور ونحوها، فهذا لا بأس به.

وأما حلق بعضه وترك بعضه فهو مراتب: أشدها أن يحلق وسطه ويترك جوانبه، كما تفعل شمامسة النصارى، ويليه أن يحلق جوانبه ويدع وسطه كما يفعل كثير من السفلة وأسقاط الناس، ويليه أن يحلق مقدم رأسه ويترك مؤخره.

وهذه الصور الثلاثة داخلة في القزع[1] الذي نهى عنه رسول الله ﷺ، وبعضها أقبح من بعض؛ فإن دعت الحاجة إلى ذلك لضرر برأسه أو لاستخراج ضفيرة تؤذي[2] عينيه؛ جاز حلق بعضه.

هذا والأولى في هذه الحال: أن يقتصر على ما تدفع به الحاجة أو حلق جميعه، وهذا فيه نظر.

[3]**قوله** تعالى: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقْوى**﴾. [البقرة: ١٩٧]. فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن. وهذا من زينة القرآن الباطنة، المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة.

ومنه قوله تعالى لآدم ﴿**إنَّ لك ألاَّ تَجُوع فيها ولا تَعْرى. وأنَّك لا تَظْمَأُ فيها ولا**

(١) انظر في القَزَعَ البخاري ٧/ ١٦٣ وقارن بمسلم ١٤/ ١٠٠

(٢) في الأصل (الحرة يودى) بالمهملة.

(٣) ٢٥١ روضة المحبين.

تَضْحىٰ﴾ فقابل بين الجوع والعُرْي دون الجوع والظمإ، وبين الظمإ والضحى دون الظما والجوع، فإن الجوع عُرْي الباطن وذُلُّه، والعُرْي جوعُ الظاهر وذُلُّه. فقابل بين نفي ذلّ باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأُ حَرُّ الباطنُ، والضحى حرُّ الظاهر، فقابل بينهما.

(١)**قوله** تعالى: **﴿وتزوَّدُوا فَإنَّ خيرَ الزَّادِ التقوى﴾**. [البقرة:١٩٧]. أمر الحاجّ بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى. فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة؛ لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين.

ومنه قوله تعالى: **﴿يَا بَنِي آدم قَد أنزلْنَا عليكمْ لِبَاسًا يُواري سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِباسُ التَّقوى ذلك خيرٌ﴾**. [الأعراف:٢٦].

فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن، وكمال الظاهر والباطن.

ومنه قوله تعالى: **﴿فَمَنِ اتَّبع هُداىَ فَلاَ يَضلُّ وَلاَ يَشقى﴾**. [طه:١٢٣]. فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضًا، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح.

ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام؛ لما أرتْهُ النسوة اللائمات لها في حبه: **﴿فذلكُنَّ الَّذي لُمتُنَّنِى فيه﴾**. [يوسف:٣٢]. فأرتهن جماله الظاهر. ثم قالت: **﴿ولقدْ رَاوَدتُهُ عن نفْسِهِ فَاستعصَمَ﴾** فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره...

(٢)فصــــل

وسألته ﷺ عائشة رضي الله عنها فقالت: نرى الجهاد أفضل الأعمال، أفلا نجاهد؟ قال: «**لكن أفضل الجهاد وأجمله حَجٌّ مبرور**» ذكره البخاري، وزاد أحمد «**لكن هو جهاد**».

وسألته ﷺ امرأة: ما يعدلُ حجةً معك، فقال: «**عمرة في رمضان**» ذكره أحمد، وأصله في الصحيح.

وسألته ﷺ أم معقل فقالت: يا رسول الله إن عَلَيَّ حجة وإن لأبي معقل بَكْرًا،

---

(١) ٥٨ إغاثة جـ١.　(٢) ٢٩٩ أعلام جـ٤.

فقال أبو معقل: صدقَتْ، قد جعلته في سبيل الله، فقال: «**أعطِها فلتحُجَّ عليه فإنه في سبيل الله**» فأعطاها البكر فقالت: يا رسول الله إني امرأة قد كبرت سني وسقمت، فهل من عمل يجزىء عني من حجتي؟ فقال: «**عمرة في رمضان تجزىء عن حجة**» ذكره أبو داود.

وسأله ﷺ رجل فقال: إني أكرى في هذه الوجه، وكان الناس يقولون: ليس لك حج، فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه حتى نزلت هذه الآية: ﴿**لَيْسَ عَلَيكُم جُناحٌ أن تبتغُوا فضلاً من رَبكُمُ**﴾. [البقرة: ١٩٨]. فأرسل إليه رسول الله وقرأها عليه، وقال: «**لَكَ حج**» ذكره أبو داود.

وسئل ﷺ: أي الحج أفضل؟ قال: «**العَجُّ والثَّج**» فقيل: ما الحاج؟ قال: «**الشّعِث التفِل**» قال: ما السبيل؟ قال: «**الزاد والراحلة**» ذكره الشافعي.

وسئل ﷺ عن العُمرة، أواجبة هي؟ فقال: «**لا، وأن تعمر فهو أفضل**» قال الترمذي: صحيح.

وعند أحمد: أن أعرابيًّا قال: يا رسول الله أخبرني عن العمرة أواجبة هي؟ فقال: «**لا، وأن تعتمروا خير لكم**».

وسأله ﷺ رجل فقال: إن أبي أدركه الإسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع ركوب الرحل، والحج مكتوب علينا. أفأحج عنه؟ قال: «**أنت أكبر ولده؟**» قال: نعم. قال: «**أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه كان ذلك يجزيء عنه؟**» قال: نعم. قال: «**فحُج عنه**» ذكره أحمد.

(١)**وأما** المفصل: فهو الذي نحن بصدده، فإنا التزمنا أن الفسخ على وفق القياس، فلابد من الوفاء بهذا الالتزام.

وعلى هذا: فالوجه الأول جوابه: بأن التمتع ـ وإن تخلله التحلل ـ فهو أفضل من الإفراد الذي لا حل فيه، لأمر النبي، ﷺ، من لا هدي معه بالإحرام به، ولأمره أصحابه بفسخ الحج إليه، ولتمنيه أنه كان أحرم به؛ ولأنه النسك المنصوص عليه في كتاب الله. ولأن الأمة أجمعت على جوازه، بل على استحبابه، واختلفوا في غيره على قولين، فإن النبي، ﷺ، غضب حين أمرهم بالفسخ إليه بعد الإحرام بالحج فتوقفوا. **ولأنه من المحال قطعًا** أن يكون حجةٌ قط أفضل من حجة خير القرون. وأفضل العالمين مع نبيهم ﷺ. وقد أمرهم كلهم بأن يجعلوها متعة إلا

---

(١) ٤٥١ زاد المعاد

من ساق الهدي. فمن المحال أن يكون غير هذا الحج أفضل منه إلا حج من قرن وساق الهدي. كما اختاره الله سبحانه لنبيه. فهذا هو الذي اختاره الله لنبيه. واختار لأصحابه التمتع. فأي حج أفضل من هذين؟

ولأنه من المحال: أن ينقلهم من النسك الفاضل إلى المفضول المرجوح.

ولوجوه أخر كثيرة. ليس هذا موضعها. فرجحان هذا النسك أفضل من البقاء على الإحرام الذي يفوته بالفسخ. وقد تبين بهذا بطلان الوجه الثاني.

وأما قولكم: إنه نسك مجبور بالهدي. فكلام باطل من وجوه.

أحدها: أن الهدي في التمتع عبادة مقصودة. وهو من تمام النسك. وهو دم شكران لا دم جبران. وهو بمنزلة **الأضحية** للمقيم. وهو من تمام عبادة هذا اليوم. فالنسك المشتمل على الدم بمنزلة العيد المشتمل على الأضحية. فإنه ما تُقُرِّب إلى الله في ذلك اليوم بمثل إراقة دم سائل.

وقد روى الترمذي وغيره من حديث أبي بكر الصديق «أن النبي ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «العجُّ والثجّ» والعج: رفع الصوت بالتلبية. والثجُّ: إراقة دم الهدى. فإن قيل: يمكن المفرد أن يحصل هذه الفضيلة.

قيل: مشروعيتها إنما جاءت في حق القارن والمتمتع. وعلى تقدير استحبابها في حقه: فأين ثوابها من ثواب هدي المتمتع والقارن؟

الوجه الثاني: أنه لو كان دم جبران لما جاز الأكل منه. **وقد ثبت** عن النبي ﷺ: أنه أكل من هديه. فإنه «أمر من كل بدنه ببضعة. فجعلت في قدر، فأكل من لحمها. وشرب من مرقها» وإن كان الواجب عليه سُبع بدنة. فإنه أكل من كل بدنة من المائة. والواجب فيها مشاع لم يتعين بقسمة.

وأيضا فإنه قد ثبت في الصحيحين: «أنه أطعم نساءه من الهدي الذي ذبحه عنهن. وكن متمتعات» احتج به الإمام أحمد. فثبت في الصحيحين عن عائشة «أنه أهدى عن نسائه. ثم أرسل إليهن من الهدي الذي ذبحه عنهن».

وأيضًا، فإنه الله سبحانه وتعالى قال فيما يذبح بمنى من الهدي ﴿فَكُلُوا مِنَها وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفقير﴾ وهذا يتناول هدي التمتع والقرآن قطعا، إن لم يخص به. فإن المشروع هناك ذبح هدي المتعة والقرآن. ومن ههنا ـ والله أعلم ـ أمر النبي ﷺ، من كل بدنة ببضعة. فجعلت في قدر، امتثالاً لأمر ربه بالأكل، ليعم

به جميع هديه.

الوجه الثالث: أن سبب الجبران محظور في الأصل؛ فلا يجوز الإقدام عليه إلا لعذر، فإنه إما ترك واجب، أو فعل محظور، والتمتع مأمور به: إما أمر إيجاب عند طائفة، كابن عباس وغيره، أو أمر استحباب عند الأكثرين. فلو كان دمه دم جبران: لم يجز الإقدام على سببه بغير عذر. فبطل قولهم: إنه دم جبران. وعلم أنه دم نسك. وهذا وسع الله به على عباده، وأباح لهم بسببه التحلل في أثناء الإحرام، لما في استمرار الإحرام عليهم من المشقة. فهو بمنزلة القصر والفطر في السفر، وبمنزلة المسح على الخفين. وكان من هدي النبي ﷺ وهدى أصحابه فعل هذا وهذا، والله تعالى يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته، فمحبته لأخذ العبد بما يسَّره عليه **وسهله** له، مثل كراهته منه لارتكابه ما حرمه عليه، ومنعه منه. والهدي ـ وإن كان بدلاً عن ترفهه بسقوط أحد السفرين ـ فهو أفضل لمن قدم في أشهر الحج من أن يأتي بحج مفرد، ويعتمر عقيبه. والبدل قد يكون واجبا، كالجمعة عند من جعلها بدلا، وكالتيمم للعاجز عن استعمال الماء، فإنه واجب عليه وهو بدل. فإذا كان البدل قد يكون واجبا فكونه مستحبا أولى بالجواز. وتخلل النحلل لا يمنع أن يكون الجميع عبادة واحدة كطواف الإفاضة، فإنه ركن بالاتفاق، ولا يفعل إلا بعد التحلل الأول. وكذلك رمى الجمار أيام منى، وهو يفعل بعد الحل التام، وصوم رمضان يتخلله الفطر في لياليه، ولا يمنع ذلك أن يكون عبادة واحدة. ولهذا قال مالك وغيره: إنه يجزىء بنية واحدة للشهر كله، لأنه عبادة واحدة، والله أعلم.

(١)**وأفتى** ﷺ أصحابه بجواز فَسْخهم الحج إلى العمرة، ثم أفتاهم باستحبابه، ثم أفتاهم بفعله حتمًا، ولم ينسخه شيء بعده، وهو الذي نَدينُ الله به أن القول بوجوبه أقوى وأصح من القول بالمنع منه.

وقد صح عنه صحة لا شك فيها أنه قال: «**مَنْ لم يكن أهدى فليهلَّ بعمرة، ومن كان أهدى فليهل بحج مع عمرة**».

وأما ما فعله هو فإنه صح عنه أنه قَرَنَ بين الحج والعمرة من بضعة وعشرين وجهًا، رواه عنه ستة عشر نفسًا من أصحابه، ففعَل القِران، وأمر بفعله مَنْ ساق

(١) ٣٠٣ أعلام جـ٤.

الهدى، وأمر بفسخه إلى التمتع من لم يَسُقِ الهدى، وهذا من فعله وقوله كأنه رأى عين، وبالله التوفيق.

(١)**ويوضح** ذلك إيضاحًا بينًا ما روى مسلم في صحيحه، من حديث الزهري، عن عروة، عنها، قالت: «خرجنا مع رسول ﷺ في حجة الوداع فحضت، فلم أزل حائضًا حتى كان يوم عرفة، ولم أهل إلا بعمرة، فأمرني رسول الله ﷺ: أن أنقض رأسي، وأمتشط وأهل بالحج، وأترك العمرة، قالت: ففعلت ذلك، حتى إذا قضيت حجي بعث معي رسول الله ﷺ عبدالرحمن بن أبي بكر، وأمرني أن أعتمر من التنعيم، مكان عمرتي التي أدركني الحج ولم أُحل منها».

فهذا حديث في غاية الصحة والصراحة: أنها لم تكن أحلت من عمرتها، وأنها بقيت محرمة بها؛ حتى أدخلت عليها الحج. فهذا خبرها عن نفسها، وذلك قول رسول الله ﷺ لها، كل منهما يوافق الآخر. وبالله التوفيق.

وفي قوله ﷺ: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**» دليل على التفريق بين الحج والعمرة في التكرار، وتنبيه على ذلك؛ إذ لو كانت العمر كالحج لا تفعل في السنة إلا مرة؛ لسوَّى بينهما ولم يفرق.

وروى الشافعي: عن علي رضي الله عنه أنه قال: «اعتمر في كل شهر مرة».

وروى وكيع: عن إسرائيل، عن سويد بن أبي ناجية، عن أبي جعفر، قال: قال لي علي: «اعتمر في الشهر ـ إن أطقت ـ مرارًا» وذكر سعيد بن منصور: عن سفيان بن أبي حسين، عن بعض ولد أنس؛ «أن أنسًا كان إذا كان بمكة فجمم رأسه: خرج إلى التنعيم فاعتمر».

(٢)**وكان** يدور بيني وبين المكيين كلام في الاعتمار من مكة في رمضان وغيره، فأقول لهم: كثرة الطواف أفضل منها، فيذكرون قوله ﷺ: «**عمرة في رمضان تعدل حجة**»، فقلت لهم في أثناء ذلك: محال أن يكون مراد صاحب الشرع: العمرة التي يخرج إليها من مكة إلى أدنى الحل، وأنها تعدل حجة، ثم لا يفعلها هو مدة مقامة بمكة أصلاً، لا قبل الفتح ولا بعده، ولا أحد من أصحابه، مع

---

(١) ٣٦٤ زاد المعاد جـ١.

(٢) ٢٨٨ تهذيب السنن جـ٢.

أنهم كانوا أحرص الأمة على الخير، وأعلمهم بمراد الرسول، وأقدرهم على العمل به. ثم مع ذلك يرغبون عن هذا العمل اليسير والأجر العظيم؟ يقدر أن يحج أحدهم في رمضان ثلاثين حجة أو أكثر، ثم لا يأتي منها بحجة واحدة، وتختصون أنتم عنهم بهذا الفضل والثواب؛ حتى يحصل لأحدكم ستون حجة أو أكثر؟ هذا مالا يظنه من له مسكة عقل. وإنما خرج كلام النبي ﷺ على العمرة المعتادة، التي فعلها هو وأصحابه، وهي التي أنشؤوا السفر لها من أوطانهم، وبها أمر أم معقل، وقال لها: «**عمرة في رمضان تعدل حجة**» ولم يقل لأهل مكة: اخرجوا إلى أدنى الحل فأكثروا من الاعتمار، فإن عمرة في رمضان تعدل حجة. ولا فهم هذا أحد منهم. وبالله التوفيق.

...[1]**ثبت** في الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ قدم تلك الليلة ضعفة أهله، وكان ابن عباس فيمن قدم» وثبت: «أنه قدم سودة»، وثبت: «أنه حبس نساءه عنده؛ حتى دفعن بدفعه» وحديث أم حبيبة انفرد به مسلم. فإن كان محفوظًا، فهي إذًا من الضعفة التي قدمها.

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الإمام أحمد، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ بعث به مع أهله إلى منى يوم النحر، فرموا الجمرة مع الفجر»

قيل: نُقَدم عليه حديثه الآخر، الذي رواه أيضًا الإمام أحمد، والترمذي وصححه: «أن النبي ﷺ قدم ضَعَفة أهله، وقال: «**لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس**» ولفظ أحمد فيه: قدمنا رسول الله ﷺ: أغَيْلِمةَ بني عبدالمطلب، عَلَى حُمُراتٍ لنا من جمع[2]. فجعل يَلْطَحُ أفخاذنا[3] ويقول: «**أي بُنَيَّ، لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس**» لأنه أصح منه، وفيه: نهى النبيُّ، ﷺ، عن رمي الجمرة قبل طلوع الشمس. وهو محفوظ بذكر القصة فيه، والحديث الآخر إنما فيه: أنهم رموها مع الفجر.

ثم تأملنا. فإذا أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث، فإنه أمر الصبيان أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس، فإنه لا عذر لهم في تقديم الرمي. أما من قدمه من

(١) ٤٧١ زاد المعاد جـ١.

(٢) جمع صحة لحمر، وحمر: جمع حمار.

(٣) اللطح ـ بإسكان الطاء، وبالحاء المهملة ـ الضرب الخفيف بالكف كأنه للمداعبة والملاطفة.

النسـاء؛ فرمين قبل طلوع الشمس: للعذر، والخوف عليهن من مزاحمة الناس وحَـطْمهم. وهـذا الـذي دلت عليه السنة؛ جواز الرمي قبل طلوع الشمس، للعذر: بمرض، أو كبر يشق معه مزاحمة الناس لأجله، وأما القادر الصحيح؛ فلا يجوز له ذلك.

وفي المسألة ثلاثة مذاهب:

أحدها: الجواز بعد نصف الليل مطلقًا للقادر والعاجز. كقول الشافعي وأحمد.

الثاني: لا يجوز إلا بعد طلوع الفجر، كقول أبي حنيفة.

الثالث: لا يجوز لأهل القدرة إلا بعد طلوع الشمس، كقول جماعة من أهل العلم.

والذي دلت عليه السنة؛ إنما هو التعجيل بعد غيبوبة القمر، لا نصف الليل. وليس مع من حَدَّهُ بالنصف دليل. والله أعلم.

فصـــل

فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت ـ لا قبله قطعًا ـ بأذان وإقامة، يوم النحر، وهو يوم العيد، وهو يوم الحج الأكبر، وهو يوم الأذان ببراءة الله ورسوله من كل مشرك.

ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشْعَر الحرام. فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرع، والتكبير والتهليل، والذكر حتى أسفر جدًّا، وذلك قبل طلوع الشمس. وهنالك سأله عُروة بن مُضرِّس الطائي، فقال: يا رسول الله، إني جئت من جَبَلَيْ طَيِّء، أكْلَلْتُ راحلتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جَبَل إلا وقفت عليه. فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من شهد صلاتنا هذه ووقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهارًا: تَمّ حَجه. وقضى تَفَثَه**» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وبهذا احتج من ذهب إلى أن الوقوف بمزدلفة والمبيت بها: ركن كعرفة وهو مذهب اثنين من الصحابة: ابن عباس. وابن الزبير. وإليه ذهب إبراهيم النخعي، والشعبي وعلقمة والحسن البصري. وهو مذهب الأوزاعي، وحماد بن أبي سليمان، وداود بن علي الظاهري. وأبي عبيد القاسم بن سَلّام. واختاره المحمدان: ابن جرير، وابن خزيمة. وهو أحد الوجوه للشافعية. ولهم ثلاث حجج، هذه إحداها.

والثانية: قوله تعالى: ﴿**فَاذكروُا الله عند المشْعَرِ الحرَام**﴾. [البقرة: ١٩٨].

والثالثة: فعل رسول الله ﷺ الذي خرج مخرج البيان لهذا الذكر المأمور به.

واحتج من لم يره ركنًا بأمرين:

أحدهما: أن النبي ﷺ مَدَّ وقت الوقوف بعرفة إلى طلوع الفجر. وهذا يقتضي أن من وقف بعرفة قبل طلوع الفجر بأيسر زمان؛ صح حجه. ولو كان الوقوف بمزدلفة ركنًا؛ لم يصح حجه..

(١)**أرباب** العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا؛ عقيب الطاعات؛

---

(١) ١٧٥ مدارج جـ١.

لشهودهم : تقصيرهم فيها ، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه ، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ، ولا رضيها لسيده .

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات. وهو أجل المواقف وأفضلها. فقال: **﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِنْ عَرفاتٍ فَاذكروا الله عندَ المشعَرِ الحَرَام. وَاذْكُروهُ كما هَدَاكُم. وَإِنْ كُنتُم مِنْ قبلهِ لِمِن الضَّآلينَ. ثُم أفيضُوا مِنْ حيثُ أفاضَ النَّاسُ. واستغفروا الله، إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾**. [البقرة: ١٩٨،١٩٩] .وقال تعالى: **﴿وَالمستغفرينَ بالأَسْحَار﴾** . [آل عمران: ١٧] .

قال الحسن: مدوّا الصلاة إلى السحر. ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل .

وفي الصحيح : أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا . ثم قال : **«اللهم أنت السلام. ومنك السلام. تباركت ياذا الجلال والإكرام»** .

وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج ، واقتراب أجله . فقال في آخر سورة أنزلت عليه : **﴿إِذَا جَاءَ نَصرُ الله والفتحُ . وَرَأيتَ النَّاسَ يَدْخُلونَ في دين الله أفواجًا* فَسَبحْ بحمد رَبِّكَ واستغفرهُ إنَّه كان توابًا﴾** . [النصر: ١ - ٣] .

(١)فصل

ونحر رسول الله ﷺ بمنحره بمنى ، وأعلمهم: أن منى كلها منحر، وأن فجاج مكة طريق ومنحر. وفي هذا دليل على أن النحر لا يختص بمنى ، بل حيث نحر من فجاج مكة أجزأه، كما أنه لما وقف بعرفة قال : **«وقفت ههنا، وعرفة كلها موقف»** ووقف بمزدلفة وقال : **«وقفت ههنا، ومزدلفة كلها موقف»** .

وسئل ﷺ أن يُبنى له بمنى بناء يظله من الحر؟ فقال: **«لا ، مِنى مَناخ لمن سبق إليه»** . وفي هذا دليل على اشتراك المسلمين فيها، وأن من سبق إلى مكان منها فهو أحق به ، حتى يرتحل عنه ، ولا يملكه بذلك .

(٢)**قال** تعالى: **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدةً فَبعثَ الله النَّبيِّينَ مُبَشرينَ ومُنذرينَ وأنزل معهُمُ الكتابَ بالحقِّ ليَحْكُمَ بين النَّاس فيما اختلفُوا فيهِ﴾** . [البقرة: ٢١٣] .

---

(١) ٤٨١ زاد المعاد جـ١ . (٢) ٢٠٣ إغاثة جـ٢ .

قال سعيد: عن قتادة: «ذُكر لنا: أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الهدى، وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله عز وجل نوحًا، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، وبعث عند الاختلاف بين الناس وترك الحق».

وقال ابن عباس: «كان الناسُ أمةً واحدة: كانوا على الإسلام كلهم».

وهذا هو القول الصحيح في الآية.

وقد روى عطية: عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا أمة واحدة، كانوا كفاراً».

وهذا قول الحسن وعطاء، قالا: «كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح عليهما السلام أمةً واحدة، على ملَّةٍ واحدة، وهي الكفر، كانوا كفارًا كلهم أمثال البهائم، فبعث الله نوحًا وإبراهيم والنبيين».

وهذا القول ضعيف جدًا، وهو منقطع عن ابن عباس، والصحيح عنه خلافه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة: حدثنا شَيبان بن فَرُّوخ: حدثنا هَمَّامٌ: حدثنا قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «كانوا على الإسلام كلهم».

وهذا هو الصواب قطعًا، فإن قراءة أبيٍّ بن كعب: «فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين».

ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إلَّا أُمَّةً واحدةً فَاختلفُوا﴾. [يونس: ١٩].

والمقصود: أن العدوّ كادهم وتلاعبَ بهم حتى انقسَموا قسمين: كفارًا ومؤمنين، فكادهم بعبادة الأصنام، وإنكار البعث . . .(١)

(٢)**قوله** تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيكُم القتالُ وهُوَ كُرهٌ لكم، وعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وهو خَيرٌ لكُم، وعَسَى أن تُحِبُّوا شيئًا وهوَ شرٌّ لكُم، والله يعلَمُ وأنتُم لا تعلمُون﴾. [البقرة: ٢١٦].

---

(١) اختصرنا قرابة كراسة حول بدء عبادة الأوثان: أسبابها وأماكنها، فمن أراده فليرجع إليه اهـ.ج.

(٢) ٩٠ فوائد.

وقوله عز وجل: ﴿**فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أن تكرهُوا شيئًا ويَجْعَلَ الله فيه خَيراً كثيراً**﴾. [النساء: ١٩].

فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية.

والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية.

فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعـاده. وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويحب المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها شر كثير لا يعرفه.

فالانسان كما وصفه به خالقه: ظلوم جهول، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه.

فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضر الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصًا له، فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيراً له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له.

فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته، علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبـه، والمحن التي تنـزل به، فيهـا ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب...

(١)**قوله** تعالى: ﴿**وَعَسَى أن تكرهوا شيئًا وهوَ خيرٌ لكم. وعَسَى أن تُحبُّوا شيئًا وهو شرٌ لكم. والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون**﴾. [البقرة: ٢١٦].

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذ علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب. فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، أوجب له ذلك أمورًا:

---

(١) ١٣٥ فوائـد.

منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع.

وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه، لأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب.

وخاصة العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبه من الألم العظيم والشر الطويل. فنظر الجاهل لا يجاوز المبادىء إلى غاياتها.

والعاقل الكيس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها.

فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة، فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله، أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق، لما يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر، تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره، هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه - وهو لا يعلم - فلا يختار على ربه شيئًا، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ر به ورضي بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات؛ التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى.

ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو

محمود مشكور، ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم، غير ملطوف به فيه، لأنه مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره. إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيله في رده، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر؛ طريحًا كالميتة، فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف.

قاعدة(١)

إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن:

فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه؛ فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجلّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضًا، وللوقوف على أبواب غيره متعرضًا. وكانت البلية في حق هذا عين النعمة، وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب، وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة:

﴿وَعَسَى أن تكرَهُوا شيئًا وهُوَ خيرٌ لكمْ، وَعَسى أن تُحبُّوا شيئًا وهُوَ شرٌّ لكمْ، والله يعلمُ وأنتمْ لاَ تَعلمُونَ﴾. [البقرة:٢١٦].

وإن لم يردَّه ذلك البلاء إليه، بل شرد قلبه عنه ورده إلى الخلق وأنساه ذكر ربه والضراعة إليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه؛ فهو علامة شقاوته وإرادة الشر به، فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلى حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء، فبلية هذا وبال عليه وعقوبة ونقص في حقه، وبلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل. وبالله التوفيق.

(١) ١٦٣ طريق الهجرتين.

فصل(١)

المحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره، ولابد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه دفعًا للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره، وليس شيء يُحَبُّ لنفسه إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه فإنها تبع لمحبة الله سبحانه. وهي من لوازم محبته، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه.

وهذا موضع يجب الاعتناء به فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة والتي لا تنفع؛ بل قد تضر.

واعلم أنه لا يحب لذاته إلا من كماله من لوازم ذاته، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته، وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها، وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها: فما كان أشد منافاة لمحابه، كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها. فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته.

فإذا رأينا شخصًا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه؛ علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك.

وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه؛ علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك.

فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك في نفسك وفي غيرك، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة.

والمحبوب لغيره قسمان أيضًا: أحدهما ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله.

والثاني ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه إلى المحبوب، كشرب الدواء، قال تعالى: **﴿كُتِبَ عَلَيكُم القتالُ وَهُو كُرهٌ لكُمْ وَعَسَى أن تكرهُوا شَيئًا وهوَ خيرٌ لكم وعسَىَ أن تحبوا شيئًا وهو شرٌّ لكُم والله يعلمُ وأنتم لا تعلموُنَ﴾**. [البقرة: ٢١٦].

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم؛ لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه، والنفوس تحب الراحة والفراغ والرفاهية، وذلك شر لها؛ لإفضائه إلى فوات هذا المحبوب.

---

(١) ٢٦١ الجواب الكافي.

فالعاقل لا ينظر الى لذة المحبوب العاجلة فيؤثرها وألم المكروه العاجل فيرغب عنه؛ فإن ذلك قد يكون شرًّا له، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبها من اللذة بعدها وإن كانت منقطعة، فالأمور أربعة: مكروه يوصل إلى مكروه، ومكروه يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى مكروه.

فالمحبوب الموصل إلى المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين، والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين.

بقي القسمان الآخران يتجاذبها الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان. فالنفس تؤثر أقربهما جوارًا منها وهو العاجل، والعقل والإيمان يؤثران أنفعهما وأبقاهما، والقلب بين الداعيين وهو إلى هذا مرة. وإلى هذا مرة وههنا محل الابتلاء شرعًا وقدرًا...

...(1)**الفائدة** الثانية: يجوز للمفتي أن يَعْدِل عن جواب المستفتي عما سأله عنه إلى ما هو أنفع له منه، ولا سيما إذا تضمن ذلك بيان ما سأل عنه، وذلك من كمال علم المفتي وفقهه ونصحه، وقد قال تعالى: **﴿يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ، قُلْ: مَا أَنْفَقْتُم مِنْ خير فللوالدين والأقربينَ واليَتَامَى والمَساكين وابن السبيلِ، وَمَا تَفعلُوا مِنْ خيرٍ فَإِنَ الله بِهِ عليمٌ﴾**. [البقرة: ٢١٥]. فسألوه عن المُنْفَقِ فأجابهم بذكر المَصْرِف؛ إذ هو أهمُّ مما سألوه عنه، ونبههم عليه بالسياق، مع ذكره لهم في موضع آخر.

وهو قوله تعالى: **﴿قُلِ العَفو﴾**. [البقرة: ٢١٩]. وهو ما سهل عليهم إنفاقه ولا يضرهم إخراجه.

وقد ظن بعضهم أن من ذلك قوله تعالى: **﴿يَسْئلونَكَ عَنِ الأهِلَّة، قُل: هِيَ مَواقيتُ لِلَّناسِ وَالحج﴾**. [البقرة: ١٨٩]. فسألوه عن سبب ظُهورِ الهلال خفيًّا ثم لا يزال يتزايد فيه النور على التدريج حتى يكمل ثم يأخذ في النقصان، فأجابهم عن حكمة ذلك من ظهور مواقيت الناس التي بها تمامُ مصالحهم في أحوالهم ومَعَاشهم ومواقيت أكبر عبادتهم وهو الحج، وإن كانوا قد سألوا عن السبب فقد أجيبوا بما

(١) ١٥٨ أعلام جـ٤.

هو أنفع لهم مما سألوا عنه، وإن كانوا إنما سألوا عن حكمة ذلك فقد أجيبوا عن عين ماسألوا عنه. ولفظ سؤالهم محتمل؛ فإنهم قالوا: ما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يأخذ في الزيادة حتى يتم ثم يأخذ في النقص؟

فصـــل (١)

ثم بعث عبدالله بن جحش الأسدي إلى نخلة في رجب على رأس سبعة عشر شهرًا من الهجرة، في اثنى عشر رجلاً من المهاجرين. كل اثنين يعتقبان على بعير. فوصلوا إلى بطن نخلة، يرصدون عيرًا لقريش. وفي هذه السرية سمى عبدالله بن جحش أمير المؤمنين. وكان رسول الله ﷺ كتب له كتابًا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فلما فتح الكتاب وجد فيه: «**إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشًا، وتعلم لنا من أخبارهم**» فقال: سمعًا وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك وبأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فمضوا كلهم. فلما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غَزْوان بعيرًا لهما، كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه، وبعُدَ عبدالله بن جحش حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبدالله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة. فتشاور المسلمون، وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم. ثم اجتمعوا على ملاقاتهم، فرمى أحدُهم عمرو بن الحضرمي فقتله. وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل. ثم قدموا بالعير والأسيرين، وقد عزلوا من ذلك الخمس. وهو أول خُمس كان في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام. وأنكر رسول الله ﷺ عليهم ما فعلوه. واشتد تعنت قريش وإنكارهم ذلك، وزعموا أنهم قد وجدوا مقالاً، فقالوا: قد أحل محمد الشهر الحرام. واشتد ذلك على المسلمين، حتى أنزل الله تعالى: ﴿**يَسْئلونَكَ عَنِ الشَّهرِ الحرامِ: قتالٍ فيه؟ قُل: قِتالٌ فيهِ كَبيرٌ، وَصدٌ عَنْ سَبيلِ اللهِ، وَكُفرٌ بِهِ، وَالمسجدِ الحرامِ، وإخراجُ أهلِهِ منه: أكبر عند الله، والفتنةُ أكبرُ من القتلِ**﴾. [البقرة:٢١٧].

---

(١) ٢١٣ زاد المعاد جـ٢.

يقول سبحانه: هذا الذي أنكرتموه عليهم - وإن كان كبيراً - فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله والصدِّ عن سبيله وعن بيته، وإخراج المسلمين - الذين هم أهله - منه، والشرك الذي أنتم عليه، والفتنة التي حصلت منكم به؛ أكبرُ عند الله من قتالهم في الشهر الحرام.

وأكثر السلف فسروا الفتنة هنا بالشرك، كقوله تعالى: **﴿وَقَاتِلُوهم حتَّى لا تكوُن فتنةٌ﴾**. [البقرة:١٩٣]. ويدل عليه قوله: **﴿ثُمَّ لم تكن فِتنتُهم إلَّا أن قالوا: والله رَبِّنا ما كُنا مُشركينَ﴾**. [الأنعام:٢٣]. أي: لم يكن مآل شركهم وعاقبته، وآخر أمرهم؛ إلا أن تبرءوا منه وأنكروه.

وحقيقتها: أنها الشرك الذي يدعو صاحبه إليه ويقاتل عليه، ويعاقب من لم يفتتن به. ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها: **﴿ذُوقُوا فِتنتكُم﴾**. [الذاريات:١٤]. قال ابن عباس: «تكذيبكم» وحقيقته: ذوقوا نهاية فتنتكم وغايتها، ومرَّ مَصيرِ أمرها، كقوله: **﴿ذُوقوا مَا كُنتم تكسبُونَ﴾**. [الزمر:٢٤]. وكما فتنوا عباده على الشرك فتنوا على النار. وقيل لهم: **﴿ذوقوا فتنتكم﴾** ومنه قوله تعالى: **﴿إنَّ الَّذين فَتنُوا المُؤمِنِينَ والمُؤمناتِ ثُمَّ لم يَتوبُوا﴾**. [البروج:١٠]. فُسرت الفتنة هاهنا بتعذيبهم المؤمنين، وإحراقهم إياهم بالنار[1]. واللفظ أعم من ذلك. وحقيقته: عذبوا المؤمنين ليفتتنوهم عن دينهم. فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين.

وأما الفتنة التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه، أو يضيفها رسوله إليه، كقوله: **﴿وكَذلِكَ فَتَنَّا بعضهم ببعض﴾**[الأنعام:٥٣]. وقول موسى: **﴿إن هي إلَّا فِتنتُك تُضِلُّ بهَا مَن تَشَاءُ، وتَهدي مَن تَشَاءُ﴾**. [الأعراف:١٥٥]. فتلك بمعنى آخر، وهي بمعنى الامتحان والاختبار والابتلاء من الله لعباده: بالخير والشر، بالنعم والمصائب، فهذه لون وفتنة المشركين لون، وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر.

والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام - كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب علي ومعاوية، وبين أهل الجمل وصِفِّين، وبين المسلمين، حتى يتقاتلوا ويتهاجروا -

---

(١) أصل الفتنة في اللغة: الامتحان والاختبار. ومن ذلك: الفتان، وهو المبرد ونحوه من آلة ونحوه يختبر بها الذهب وغيره من المعادن ليعلم صفاؤه، ومافيه من مادة أخرى غيره.

لون آخر، وهي الفتنة التي قال النبي ﷺ فيها: «**ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي**».

وأحاديث الفتنة التي أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين: هي هذه الفتنة.

وقد تأتي الفتنة مرادًا بها المعصية، كقوله تعالى: ﴿**وَمِنهُم مَن يقولُ: ائذَن لي ولا تَفْتِنِي**﴾. [التوبة: ٤٩]. يقوله الجَدُّ بن قيس، لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك، يقول: ائذن لي في القعود، ولا تفتنى بتعريضي لبنات بني الأصفر، فإني لا أصبر عنهن. قال تعالى: ﴿**ألا في الفِتْنَةِ سَقَطُوا**﴾. [التوبة: ٤٩]. أي وقعوا في فتنة النفاق، وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر.

والمقصود: أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يبرىء أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام. بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام. فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة، ولاسيما وأولياؤه كانوا متأولين في قتالهم ذلك، أو مُقصِّرين نوعَ تقصيرٍ، يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات، والهجرة مع رسوله ﷺ وإيثار ما عند الله. فهم كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ ... جاءتْ محاسِنُه بألف شفيع

فكيف يقاس ببغيض عدوٍّ جاء بكل قبيح، ولم يأت بشفيع واحد من المحاسن؟.

فصل(١)

في حكمه ﷺ في أول غنيمة كانت في الإسلام وأول قتيل.

لما بعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش، ومعه سرية إلى نخلة ترصد عيرًا لقريش، وأعطاه كتابًا مختومًا، وأمره: أن لا يقرأه إلا بعد يومين. فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان بن عبدالله، والحكم بن كيسان، وكان ذلك في الشهر الحرام. فعنفهم المشركون، ووقف رسول الله ﷺ الغنيمة والأسيرين، حتى أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿**يسئلونك عن الشَّهرِ الحرَامِ: قِتالٍ فيه؟ قُلْ: قِتالٌ فيهِ كَبيرٌ، وَصَدٌّ عَن سَبيل الله وَكُفْرٌ بِهِ والمسجدِ الحرامِ، وإخرَاجُ أهلهِ منهُ أكبرُ عندَ**

---

٤٥٥ زاد المعاد جـ٣.

الله﴾. [البقرة:٢١٧]. فأخذ رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فدائهما. فقال: «**لا، حتى يقدَمَ صاحبانا** - يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان - **فإنا نخشاكم عليهما. فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم**». فلما قدما فاداهما رسول الله ﷺ بعثمان والحكم، وقسم الغنيمة.

وذكر ابن وهب: «أن النبي ﷺ رد الغنيمة وودى القتيل» والمعروف في السِّيَر خلاف هذا. . . .

(١) فصل
في فقه هذه القصة

ففيها: جواز القتال في الشهر الحرام؛ إن كان ذِكْر التاريخ فيها برجب محفوظًا، والظاهر - والله أعلم - أنه وهم غير محفوظ؛ إذْ لم يحفظ عن النبي ﷺ، أنه غزا في الشهر الحرام، ولا أغَارَ فيه، ولا بعث فيه سرية. وقد عَيَّرَ المشركون المسلمين بقتالهم في أول رجب في قصة العلاء بن الحضرمي، فقالوا: استحل محمد الشهر الحرام، وأنزل الله في ذلك: ﴿**يَسئلُونَك عَنِ الشَّهْرِ الحرَام: قِتال فيهِ؟ قُل: قِتالٌ فيه كبيرٌ**﴾ الآية. [البقرة:٢١٧]. ولم يثبت نسخ هذا بنصٍّ يجب المصير إليه، ولا أجمعت الأمة على نسخه. وقد استدل على تحريم القتال في الأشهر الحُرُم بقوله تعالى: ﴿**فإذا انْسَلَخَ الأشهُرُ الحُرُم فاقتلوا المُشركين حيثُ وجدتموهم**﴾. [التوبة: ٥].

ولا حجة في هذا، لأن الأشهر الحرم هاهنا هي أشهر التسيير التي سيَّر الله فيها المشركين في الأرض يأمنون فيها. وكان أولها: يوم الحج الأكبر، عاشر ذي الحجة، وآخرها: عاشر ربيع الآخر. هذا هو الصحيح في الآية، لوجُوه عديدة ليس هذا موضعها.

وفيها: جواز أكل ورق الشجر عند المخمَصَة، وكذلك عشب الأرض.

وفيها: جواز نهى الإمام وأمير الجيش للغزاة عن نَحْر ظُهورهم، وإن احتاجوا إليه، خَشْيَة أن يحتاجوا إلى ظهرهم عند لقاء عدوهم. ويجب عليهم الطاعة إذا نهاهم.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**يَسْئلُونك عَنِ الشَّهرِ الحَرَام قَتال فيه**﴾. [البقرة:٢١٧]. من

---

(١) ٣٨١ زاد المعاد جـ٢.
(٢) ٤٧ بدائع جـ٢.

باب بدل الاشتمال. . والسؤال إنما وقع عن القتال فيه، فَلِمَ قدم الشهر؟ وقد قلتم إنهم يقدمون ما هم ببيانه أهم وهم به أعنى.

قيل: السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر وتشنيع أعدائهم عليهم وانتهاك حرمته، فكان اعتناؤهم واهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال، فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر؛ فلذلك قدم في الذكر وكان تقديمه مطابقًا لما ذكرنا من القاعدة.

فإن قيل: فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر وهلا اكتفى بضميره فقال: قل هو كبير؟ وأنت إذا قلت: سألته عن زيد: أهو في الدار؟ كان أوجز من أن تقول: أزيد في الدار؟.

قيل في إعادته بلفظ الظاهر نكتة بديعة، وهي تعلق الحكم الخبري باسم القتال فيه عمومًا، ولو أتى بالمضمر وقال: هو كبير لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسئول عنه وليس الأمر كذلك، وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام.

ونظير هذه الفائدة قوله ﷺ وقد سئل عن الوضوء بماء البحر فقال: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**» فأعاد لفظ الماء ولم يقتصر على قوله: نعم توضؤوا به لئلا يتوهم اختصاص الحكم بالسائلين لضرب من ضروب الاختصاص، فعدل عن قوله: نعم توضؤوا إلى جواب عام يقتضي تعلق الحكم والطهورية بنفس مائه من حيث هو؛ فأفاد استمرار الحكم عل الدوام وتعلقه بعموم الآية، وبطل توهم قصره على السبب فتأمله فإنه بديع.

فكذلك في الآية لما قال: ﴿**قتال فيه كبير**﴾ فجعل الخبر بكبير واقعًا على قتال فيه، فيطلق الحكم به على العموم، ولفظ المضمر لا يقتضي ذلك.

وقريب من هذا قوله تعالى: ﴿**والذين يُمَسِّكُون بالكتاب وأقاموا الصَّلاةَ إنَّا لاَ نضيعُ أجرَ المصلحين**﴾. [الأعراف: ١٧٠]. ولم يقل: أجرهم تعليقًا لهذا الحكم بالوصف، وهو كونهم مصلحين وليس في الضمير ما يدل على الوصف المذكور.

وقريب منه، وهو ألطف معنى، قوله تعالى: ﴿**يسئلُونَكَ عن المحيضِ قُلْ هو أذىً فَاعتزلوا النساءَ في المحيض**﴾. [البقرة: ٢٢٢]. ولم يقل: فيه تعليقًا لحكم الاعتزال بنفس الحيض وأنه هو سبب الاعتزال. وقال تعالى: ﴿**قُلْ هُو أذىً**﴾.

ولم يقل: الحيض؛ لأن الآية جارية على الأصل ولأنه لو كرره لثقل اللفظ لتكرره ثلاث مرات، وكان ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمرًا ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضًا بخلاف قوله: ﴿قُلْ هو أذى﴾. فإنه إخبار بالواقع والمخاطبون يعلمون أن جهة كونه أذى هو نفس كونه حيضًا، بخلاف تعليق الحكم به فإنه إنما يُعلم بالشرع. فتأمله.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إنَّ الذين آمَنُوا والذين هَاجَرُوا وجَاهَدُوا في سَبِيْلِ الله أولئك يَرْجُون رَحْمَة الله**﴾. [البقرة:٢١٨]. فتأمل كيف جعل رجاءهم بإتيانهم بهذه الطاعات.

وقال المغترون: إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره الباغين على عباده المتجرئين على محارمه؛ أولئك يرجون رحمة الله.

وسر المسألة أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويصرف ما يعرضها للحبوط ويبطل أثرها.

(٢)فصل

ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان. والراجون رحمة الله: هم الذين قاموا بهذه الثلاثة، قال تعالى: ﴿**إنَّ الذين آمنوا والذين هَاجَرُوا وَجَاهدوا في سبيل الله، أولئك يرجون رحمة الله، والله غفورٌ رحيمٌ**﴾. [البقرة:٢١٨].

وكما أن الإيمان فرض على كل أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت:

هجرة إلى الله عز وجل بالتوحيد والإخلاص، والإنابة والتوكل، والخوف والرجاء، والمحبة والتوبة.

وهجرة إلى رسوله بالمتابعة والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله: فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها: فهجرته إلى ما**

(١) ٤٧ الجواب الكافي.
(٢) ١٠٨ زاد المعاد جـ١.

هاجر إليه» وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه. فهذا كله فرض عين، لا ينوب فيه أحد عن أحد. وأما جهاد الكفار والمنافقين: فقد يكتفى فيه ببعض الأمّة إذا حصل منهم مقصود الجهاد.

فصل(١)

والفرق بين الرجاء والتمني:

أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز.

والتمني حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه قال تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيلِ الله أولئك يرجون رحمةَ الله**﴾. [البقرة: ٢١٨]. فطوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء.

وقال المغترون: إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ما أسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمته.

وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم، فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فمثل بين عينيه ما وعده الله تعالى من كرامته وجنته؛ فامتد القلب مائلاً إلى ذلك شوقًا إليه وحرصًا عليه فهو شبيه بالماد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه.

وعلامة الرجاء الصحيح: أن الراجي يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها...

(٢)**وقد** تقدم أن الله سبحانه طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا. وقد فسر النبي ﷺ الإيمان بأنه ذو شعب وأعمال ظاهرة وباطنة.

وفسر الهجرة بأنها هَجْر ما نهى الله عنه، والجهاد بأنه جهاد النفس في ذات الله فقال: «**المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله**».

والمقصود أن الله سبحانه جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من سواهم من هذه الأمم.

---

(١) ٢٩٨ الروح.		(٢) ٣٠١ الروح.

وأما الأماني فإنها رءوس أموال المفاليس، أخرجوها في قالب الرجاء وتلك أمانيهم، وهي تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفس؛ فأظلم من دخانها فهو يستعمل قلبه في شهواتها، وكلما فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة وأحالته على العفو والمغفرة والفضل، وأن الكريم لا يستوفي حقه ولا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، ويسمي ذلك رجاء وإنما هو وسواس وأماني باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل، فيستريح إليها. قال تعالى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُم ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ولا يَجِدْ له مِن دُونِ الله وَلِيًّا ولا نَصِيراً**﴾. [النساء: ١٢٣]. فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته، ولم يجد له من دون الله وليًا ولا نصيرًا، وإذا ترك ولايته ونصرته؛ تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له ووكل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلاً من نصرة الله ورسوله، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه، وبنصرته نصرة نفسه وهواه فلم يدع للرجاء موضعًا. فإذا قالت لك النفس: أنا في مقام الرجاء فطالبها بالبرهان، وقل: هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، فالكيِّس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر ويتَّكِل على الأماني التي يسميها رجاء. والله الموفق.

...[1]**وقوله**: ﴿**كذلك يُبَيِّنُ الله لكم الآياتِ لعلَّكم تتفكرون. في الدنيا والآخرة**﴾. [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠]. فيتفكرون في الآيات التي بينها لهم. فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم بلقائه. ويتفكرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وآفاتها، والآخرة ودوامها وبقائها وشرفها. وقوله ﴿**وَمِن آياته: أن خَلَق لكم من أنفسكُم أزواجًا لِتَسكُنُوا إليها. وَجَعَل بَينكم مَوَدَّةً وَرَحمةً، إنَّ في ذلك لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾. [الروم: ٢١]. فالفكر الصحيح، المؤيد بحياة القلب ونور البصيرة: يدل على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وأما فكرٌ مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة؛ فإنما يعطي صاحبه نفيها وتعطيلها.

---

(١) ٣٥٧ مدارج السالكين جـ٣.

(١)**ولما** نزل التشديد في أكل مال اليتيم عَزَلُوا طعامهم عن طعام الأيتام وشرابهم من شرابهم، فذكروا ذلك لرسوله الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيسألونَكَ عَنِ اليَتامى، قُل: إصلاحٌ لهُم خيرٌ، وإن تُخالِطُوهم فَإخوانُكم﴾. [البقرة: ٢٢٠]. فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.

...(٢)**أحكام** القرآن يرشد سبحانه فيها إلى مَداركها وعللها، كقوله: ﴿وَيَسألونَك عن المحيضِ، قُل: هُوَ أذى، فَاعتزلوا النّساءَ في المحيضِ﴾(٣) [البقرة: ٢٢٢]. فأمر سبحانه نبيه أن يذكر لهم علة الحكم قبل الحكم.

وكذلك قوله: ﴿مَا أَفاءَ الله عَلى رَسُولِهِ مِن أَهلِ القُرى فللهِ وللرَّسولِ وَلِذي القُربى واليَتامى والمَساكين وابنِ السبيلِ، كَي لا يكونَ دُولَةً بينَ الأغنياءِ منكم﴾. [الحشر: ٧].

وكذلك قوله: ﴿والسَارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقطعُوا أَيديَهما، جَزاءً بِما كَسَبا، نَكَالاً من الله، والله عزيزٌ حكيمٌ﴾. [المائدة: ٣٨]. وقال في جزاء الصيد: ﴿لِيَذُوق وَبالَ أمره﴾. [المائدة: ٩٥].

(٤)**قوله** تعالى: ﴿يحبّ التوَّابين ويحبُّ المتطهرين﴾. [البقرة: ٢٢٢]. ففيه معنى آخر سوى ما ذكره(٥) وهو أن الطهر طهران: طهر بالماء من الأحداث والنجاسات، وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي، وهذا الطهور أصل لطهور الماء وطهور الماء لا ينفع بدونه؛ بل هو مكمل له معد مُهيِّء بحصوله فكان أولى بالتقديم لأن العبد أول ما يدخل في الإسلام فقد تطهر بالتوبة من الشرك ثم يتطهر بالماء من الحدث.

(٦)**قال** تعالى: ﴿فَائتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُم الله﴾. [البقرة: ٢٢٢].

قال مجاهد: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فَائتُوهُنَّ من حيثُ أمركم الله﴾. [البقرة: ٢٢٢]. فقال: تأتيها من حيث أُمرت أن تعتزلها. يعني في الحيض.

وقال علي بن أبي طلحة عنه: يقول في الفرج، ولا تَعْدُه إلى غيره.

---

(١) ٤١٠ أعلام جـ٤.
(٢) ١٦٣ أعلام جـ٤.
(٣) تقدم بحث في هذه الآية ص (٣٧٨).
(٤) ٦٨ بدائع جـ١.
(٥) يشير إلى أن السهيلي ذكر أن التقديم للتوبة سبب الطهارة.
(٦) ٣١٥ زاد المعاد جـ٣.

وقد دلت الآية على تحريم الوطء في دبرها من وجهين:

أحدهما: أنه أباح إتيانها في الحرث، وهو موضع الولد، لا في الحُشِّ الذي هو موضع الأذى. وموضع الحرث: هو المراد من قوله: ﴿**من حيثُ أمركم الله**﴾ الآية، قال: ﴿**فَـأتُـوا حَرثَكُم أَنَّى شئتم**﴾. [البقرة:٢٢٣]. وإتيانها في قُبلها من دبرها: مستفاد من الآية أيضًا، لأنه قال: ﴿**أنى شئتم**﴾ أي: من حيث شئتم: من أمامٍ، أو من خلف. قال ابن عباس: فائتوا حرثكم: يعني الفرج.

وإذا كان الله حرم الوطء في الفرج لأجل الأذى العارض، فما الظن بالحشِّ الذي هو محل الأذى اللازم، مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل، والذريعة القريبة جدًّا من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان؟

وأيضًا: فللمرأة حق على الزوج في الوطء، ووطؤها في دبرها يُفوِّتُ حقها، ولا يقضي وطَرَها، ولا يحصل مقصودها.

وأيضًا: فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل، ولم يخلق له. وإنما الذي هيىء له الفرج، فالعادلون عنه إلى الدبر خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعًا.

وأيضًا: فإن ذلك مضر للرجل، ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم. لأن للفرج خاصية في اجتذاب الماء المحتقن، وراحة الرجل منه، والوطء في الدبر لا يعين على اجتذاب جميع الماء، ولا يخرج كل المحتقن، لمخالفته للأمر الطبيعي.

وأيضًا: يضر من وجه آخر، وهو إحواجه إلى حركات متعبة جدًّا، لمخالفته للطبيعة. وأيضًا: فإنه محل القذر والنَّجْو، فيستقبله الرجل بوجهه ويلابسه.

وأيضًا: فإنه يضر بالمرأة جدًّا، لأنه وارد غريب، بعيد عن الطباع، منافر لها غاية المنافرة. وأيضًا: فإنه يُحدث الهمَّ والغم والنفرة من الفاعل والمفعول.

وأيضًا: فإنه يسود الوجه، ويُظلم الصدر، ويطمس نور القلب، ويكسو الوجه وحشة تكون عليه كالسيماء، يعرفها من له أدنى فراسة...

...[1]**كان** أهل الكتاب إنما يأتون النساء على جنوبهن على حرف. ويقولون: هو

---

(١) ٣١٢ زاد المعاد جـ٣.

أيسر للمرأة. وكانت قريش والأنصار تُشرِّح النساء على أقفائهن. فعابت اليهود عليهم ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿**نساؤكم حَرْثٌ لكم فَائتوا حَرْثَكمْ أنَّى شِئتم**﴾. [البقرة:٢٢٣].

وفي الصحيحين: عن جابر قال: «كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها: كان الولد أحول. فأنزل الله عز وجل: ﴿**نِسَاؤُكُم حَرثٌ لَكُم فَائتوا حرثكُم أنَّى شِئتم**﴾. [البقرة:٢٢٣]. ».

وفي لفظ لمسلم: «إن شاءَ مُجبِية، وإن شاء غير مجبية؛ غير أن ذلك في صِمام واحد» «والمجبية» المنكَّبة على وجهها. و«الصمام الواحد» الفرج. وهو موضع الحرث والولد. وأما الدبر فلم يبح قط على لسان نبي من الأنبياء.

ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها فقد غلط عليه.

وفي سنن أبي داود: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ملعون من أتى المرأة في دبرها**».

وفي لفظ لأحمد وابن ماجة: «**لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها**».

وفي لفظ للترمذي وأحمد: «**من أتى حائضًا أو امرأة في دبرها أو كاهنًا فصدقه؛ فقد كفر بما أنزل على محمد** ﷺ».

وفي لفظ للبيهقي: «**من أتى شيئًا من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر**».

وفي مصنف وكيع: حدثني زمعة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن عمرو بن دينار، عن عبدالله بن يزيد قال: قال عمر بن الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «**إن ا لله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أعجازهن**» وقال مرة: «**في أدبارهن**».

وفي الترمذي: عن طَلْق بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تأتوا النساء في أعجازهن. فإن الله لا يستحي من الحق**».

وفي الكامل لابن عدي من حديثه، عن المحاملي، عن سعيد بن يحيى الأموي قال: حدثنا محمد بن حمزة، عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة، عن عبدالله بن مسعود يرفعه: «**لا تأتوا النساء في أعجازهن**».

ورويناه في حديث الحسن بن علي الجوهري، عن أبي ذر مرفوعًا: «**من أتى الرجال أو النساء في أدبارهن فقد كفر**».

(١)**قال** تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. [البقرة: ٢٢٥].

واللغو نوعان:

أحدهما: أن يحلف على الشيء، يظنه كما حلف عليه، فيتبين بخلافه.

والثاني: أن يجري اليمين على لسانه من غير قصد للحلف: ـ كلا، والله! وبلى، والله! ـ في أثناء كلامه. وكلاهما رفع الله المؤاخذة به لعدم قصد الحالف إلى عقد اليمين وحقيقتها، وهذا تشريع منه سبحانه لعباده: أن لا يرتبوا الأحكام على الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها حقائقها ومعانيها، وهذا غير الهازل حقيقة وحكمًا.

وقد أفتى أصحاب النبي ﷺ بعدم وقوع طلاق المكره، وإقراره.

فصح عن عمر أنه قال: «ليس الرجل بأمين على نفسه إذا أوجعته، أو ضربته، أو أوثقته».

وصح عنه: «أن رجلًا تدلَّى بحبل ليَشْتار عسلًا، فأتت امرأته، فقالت: لأقطعن الحبل، أو لتطلقني، فناشدها الله، فأبت، فطلقها، فأتى عمر، فذكر له ذلك، فقال له: ارجع إلى امرأتك، فإن ذلك ليس بطلاق».

وكان علي بن أبي طالب لا يجيز طلاق المكره، وقال ثابت الأعرج: سألت ابن عمر وابن الزبير عن طلاق المكره؟ فقالا جميعًا: «ليس بشيء».

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الغار بن جبلة، عن صفوان بن عمرو الأصم عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: «أن رجلًا جلست امرأته على صدره، وجعلت السكين على حلقه، وقالت له: طلقني، أو لأذبحنك، فناشدها الله؛ فأبت، فطلقها ثلاثًا، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**لا قيلولة في الطلاق**» رواه سعيد بن منصور في سننه.

وروى عطاء بن عجلان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**كل الطلاق جائز، إلا طلاق المعتوه، والمغلوب على عقله**».

وروى سعيد بن منصور: حدثنا فرج بن فضالة: حدثني عمرو بن شراحيل المعافري: «أن امرأة استلت سيفًا، فوضعته على بطن زوجها، وقالت: والله

(١) ٧٥ زاد المعاد جـ٤.

لأنفذنه، أو لتطلقني، فطلقها ثلاثًا. فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب، فأمضى طلاقها»

وقال عليّ: «كل الطلاق جائز إلا طلاق المعتوه».

قيل: أما خبر الغار بن جبلة: ففيه ثلاث علل:

إحداها: ضعف صفوان بن عمرو.

والثانية: لين الغار بن جبلة.

والثالثة: تدليس بقية بن الوليد الراوي عنه.

ومثل هذا لا يحتج به. قال أبو محمد بن حزم: وهذا خبر في غاية السقوط.

وأما حديث ابن عباس: **«كل الطلاق جائز»** فهو من رواية عطاء بن عجلان، وضعفه مشهور، وقد رُمي بالكذب، قال أبومحمد بن حزم: وهذا الخبر شر من الأول.

وأما أثر عمر: فالصحيح عنه خلافه، كما تقدم، ولا يعلم معاصرة المعافري لعمر، وفرج بن فضالة فيه ضعف.

وأما أثر علي: فالذي رواه عنه الناس: أنه كان لا يُجيز طلاق المكره.

وروى عبدالرحمن بن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن: أن علي بن أبي طالب كان لا يجيز طلاق المكره. فإن صح عنه ما ذكرتم: فهو عام مخصوص بهذا.

فصـــل

وأما طلاق السكران

فقال تعالى: **﴿يَا أيها الذين آمنوا لا تقربُوا الصَّلاةَ وأنتم سكارى حَتى تعلموا مَا تقُولون﴾**. [النساء:٤٣]. فجعل سبحانه قول السكران غير معتبر، لأنه لا يعلم ما يقول.

وصح عنه ﷺ أنه «أمر بالمقرِّ بالزنا أن يُسْتَنْكَهَ» ليعتبر قوله الذي أقرَّ به، أو يلغى.

وفي صحيح البخاري في قصة حمزة لما عقر بعيرَي علي: «فجاء النبي ﷺ، فوقف عليه يلومه، فصَعَّد فيه النظر وصوَّبه، وهو سكران، ثم قال: هل أنتم إلا

عبيد لأبي؟ فنكص النبي ﷺ على عقبيه» وهذا القول لو قاله غير سكران لكان ردة وكفرًا، ولم يؤاخذ بذلك حمزة.

وصح عن عثمان بن عفان أنه قال: «ليس لمجنون ولا سكران طلاق»

رواه ابن أبي شيبة، عن وكيع، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن أبان بن عثمان، عن أبيه.

وقال عطاء: «طلاق السكران لا يجوز» وقال ابن طاوس: «طلاق السكران لا يجوز» وقال القاسم بن محمد: «لا يجوز طلاقه».

وصح عن عمر بن عبدالعزيز «أنه أتي بسكران طلق، فاستحلفه بالله الذي لا إله إلا هو، لقد طلقها وهو لا يعقل، فحلف، فرد إليه امرأته، وضربه الحد» وهو مذهب يحيى بن سعيد الأنصاري، وحميد بن عبدالرحمن، وربيعة الرأي، والليث بن سعد، وعبدالله بن الحسن، وإسحاق بن راهويه، وأبي ثور، والشافعي في أحد قوليه. واختاره المزني وغيره من الشافعية، ومذهب أحمد في إحدى الروايات عنه، وهي التي استقرَّ عليها مذهبه، وصرح برجوعه إليها، فقال في رواية: الذي لا يأمر بالطلاق: إنما أتى خصلة واحدة، والذي يأمر بالطلاق: قد أتى خصلتين: حرمها عليه، وأحلها لغيره، فهذا خير من هذا، وأنا أتقيهما جميعًا. وقال في رواية الميموني: وقد كنت أقول: إن طلاق السكران يجوز، حتى تبينته، فقلت: إنه لا يجوز طلاقه. لأنه لو أقر لم يلزمه، ولو باع لم يجز بيعه، قال: وألزمه الجناية. وما كان من غير ذلك فلا يلزمه، قال أبوبكر عبدالعزيز: وبهذا أقول. وهذا مذهب أهل الظاهر كلهم، واختاره من الحنفية أبو جعفر الطحاوي وأبو الحسن الكرخي . .

والذين أوقعوه لهم سبعة مآخذ:

أحدها: أنه مكلف، ولهذا يؤخذ بجناياته.

والثاني: أن إيقاع الطلاق عقوبة له.

والثالث: أن ترتب الطلاق على التطليق من باب ربط الأحكام بأسبابها، فلا يؤثر فيه السكر.

والرابع: أن الصحابة أقاموه مقام الصاحي في كلامه، فإنهم قالوا: «إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وحد المفتري ثمانون».

والخامس: حديث: «لا قيلولة في الطَّلاق» وقد تقدم.

والسادس: حديث: «كل طلاق جائز إلا طلاق المعتوه» وقد تقدم(١). . .

(٢)**والكسب** قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: عقد القلب وعزمه كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكم الله باللغوِ في أيمانِكم ولكن يُؤاخِذُكم بما كسبتْ قُلوبُكم﴾. [البقرة: ٢٢٥]. أي: بما عزمتم عليه وقصدتموه.

وقال الزجاج: أي: يؤاخذكم بعزمكم على: أن لا تبروا، وأن لا تتقوا، وأن تعتلوا في ذلك بأنكم حلفتم، وكأنه التفت إلى لفظ المؤاخذة وأنها تقتضي تعذيبًا فجعل كسب قلوبهم عزمهم على ترك البر والتقوى لمكان اليمين.

والقول الأول أصح وهو قول جمهور أهل التفسير؛ فإنه قابل به لغو اليمين وهو أن لا يقصد اليمين، فكسب القلب المقابل للغو اليمين هو عقده وعزمه كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولكن يؤاخذُكم بما عقدتُمُ الأيمانَ﴾. [المائدة: ٨٩]. فتعقيد الأيمان هو كسب القلب.

الوجه الثاني من الكسب: كسب المال من التجارة قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا أنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما كَسَبْتُمْ ومِمَّا أخْرَجْنَا لَكُم من الأرْضِ﴾. [البقرة: ٢٦٧]. فالأول للتجار، والثاني للزراع.

الوجه الثالث من الكسب: السعي والعمل كقوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إلا وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ﴾. [البقرة: ٢٨٦]. وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تكْسِبُون﴾. [الأعراف: ٣٩]. ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أن تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ﴾. [الأنعام: ٧٠]. فهذا كله للعمل.

واختلف الناس في الكسب والاكتساب: هل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق؟

فقالت طائفة: معناهما واحد، قال أبوالحسن علي بن أحمد: وهو الصحيح عند أهل اللغة ولا فرق بينهما قال ذو الرمة:

ألفىَ أباه بذاك الكسب يكتسب

وقال الآخرون: الاكتساب أخص من الكسب؛ لأن الكسب ينقسم إلى كسبه

(١) تقدما قريباً ص (٣٨٥) بأنهما لا يحتج بهما. ج.

(٢) ١٢٠ شفاء العليل.

لنفسه ولغيره ولا يقال: يكتسب. قال الحطيئة:

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة		فاغفر هداك مليك الناس يا عمر

قلت: والاكتساب افتعال وهو يستدعي اهتمامًا وتعملاً واجتهادًا، وأما الكسب فيصح نسبته بأدنى شيء ففي جانب الفضل جعل لها ما لها فيه أدنى سعي، وفي جانب العدل لم يجعل عليها إلا ما لها فيه اجتهاد واهتمام.

(١)حكم رسول الله ﷺ في الإيلاء

ثبت في صحيح البخاري: عن أنس قال: آلى رسول الله ﷺ من نسائه. وكانت انفكّت رجله، فأقام في مَشْرُبة له تسعًا وعشرين ليلة. ثم نزل. فقالوا: يا رسول الله، آليت شهرًا، فقال: «**الشهر تسعٌ وعشرون**».

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**لِلَّذين يُؤلُونَ مِنْ نِسَائِهم تَرَبُّصُ أربَعَةِ أشْهرٍ، فَإن فَاءُوا، فَإنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإنَّ الله سميعٌ عليمٌ**﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

الإيلاء لغة: الامتناع باليمين. وخُصّ في عرف الشرع بالامتناع باليمين من وطء الزوجة. ولهذا عُدِّي فعله بأداة «من» تضمينًا له معنى: يمتنعون من نسائهم. وهو أحسن من إقامة «من» مقام «على».

وجعل سبحانه للأزواج مدة أربعة أشهر يمتنعون فيها من وطء نسائهم بالإيلاء. فإذا مضت: فإما أن يفيء وإما أن يطلق.

وقد اشتهر عن علي وابن عباس: «أن الإيلاء إنما يكون في حال الغضب دون الرضى» كما وقع لرسول الله ﷺ مع نسائه.

وظاهر القرآن؛ مع الجمهور. وقد تناظر في هذه المسألة محمد بن سيرين ورجل آخر. فاحتج الآخر على محمد بقول علي. فاحتج عليه محمد بالآية، فسكت.

وقد دلت الآية على أحكام، منها: هذا.

ومنها: أن من حلف على ترك الوطء أقل من أربعة أشهر لم يكن موليًا.

وهذا قول الجمهور. وفيه قول شاذ: أنه مُولٍ.

ومنها: أنه لا يثبت له حكم الإيلاء حتى يحلف على أكثر من أربعة أشهر؛ فإن

(١) ١٧٤ زاد المعاد جـ٤.

كانت مدة الامتناع أربعة أشهر؛ لم يثبت له حكم الإيلاء، لأن الله جعل لهم مدة أربعة أشهر، وبعد انقضائها: إما أن يطلقوا، وإما أن يفيئوا. وهذا قول الجمهور. منهم أحمد والشافعي ومالك، وجعله أبوحنيفة موليًا بأربعة أشهر سواء. وهذا بناء على أصله: أن المدة المضروبة أجل لوقوع الطلاق بانقضائها، والجمهور يجعلون المدة أجلاً لاستحقاق المطالبة.

وهذا موضع اختلف فيه السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

فقال الشافعي: حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار قال: «أدركت بضعة عشر رجلاً من الصحابة كلهم يوقف المولي، يعني بعد أربعة أشهر». وروى سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: «سألت اثني عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن المُولي؟ فقالوا: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر» وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم.

وقال ابن مسعود وزيد بن ثابت: «إذا مضت الأربعة الأشهر، ولم يفِئ فيها؛ طلقت منه بمضيها» وهذا قول جماعة من التابعين، وقول أبي حنيفة وأصحابة. فعند هؤلاء؛ يستحق المطالبة قبل مضي الأربعة الأشهر، فإن فاء، وإلا طلقت بمضيها.

وعند الجمهور؛ لا يستحق المطالبة، حتى تمضي الأربعة الأشهر، فحينئذ يقال: إما أن تفيء، وإما أن تطلق، وإن لم يفئ أخذ بإيقاع الطلاق: إما بالحاكم، وإما بحبسه حتى يطلق.

قال الموقعون للطلاق بمضي المدة: آية الإيلاء تدل على ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عبدالله بن مسعود قرأ: ﴿فَإِن فاءوا - فِيهِن - فإنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [البقرة: ٢٢٦]. فإضافة الفيئة إلى المدة تدل على استحقاق الفيئة فيها، وهذه القراءة: إما أن تجري مجرى خبر الواحد، فتوجب العمل، وإن لم توجب كونها من القرآن. وإما أن تكون قرآنًا نسخ لفظه، وبقي حكمه. لا يجوز فيها غير هذا ألبتة.

الثاني: أن الله سبحانه جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر، فلو كانت الفيئة بعدها لزادت على مدة النص، وذلك غير جائز.

الثالث: أنه لو وطئها في مدة الإيلاء لوقعت الفيئة موقعها، فدل على استحقاق الفيئة فيها.

قالوا: ولأن الله سبحانه وتعالى جعل لهم تربص أربعة أشهر ثم قال: ﴿**فَإِنْ فَاءُوا، فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ**﴾. [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

وظاهر هذا: أن التقسيم في المدة التي لهم فيها التربص، كما إذا قال لغريمه: أصبر عليك بديني أربعة أشهر، فإن وفيتني وإلا حبستك. ولا يفهم من هذا إلا إن وفيتني في المدة، ولا يفهم منه: إن وفيتني بعدها، وإلا كانت مدة الصبر أكثر من أربعة أشهر، وقراءة ابن مسعود صريحة في تفسير الفيئة بأنها في المدة، وأقل مراتبها؛ أن تكون تفسيرًا. . .[1]

[2]**وقد** اختلف الفقهاء: هل يجب على الزوج مجامعة امرأته؟ فقالت طائفة: لا يجب عليه ذلك فإنه حقٌّ له، فإن شاء استوفاه، وإن شاء تركه، بمنزلة من استأجر دارًا إن شاء سكنها، وإن شاء تركها. وهذا من أضعف الأقوال، والقرآنُ والسنةُ والعرْفُ والقياس يرُدُّه، أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بالمعروفِ**﴾. [البقرة: ٢٢٨].

فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها، فإذا كان الجماع حقًّا للزوج عليها؛ فهو حقٌّ لها على الزوج بنص القرآن.

وأيضًا فإنه سبحانه وتعالى أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف.

ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابَّة شهوتها تعدِل شهوة الرجل أو تزيد عليها بأضعافٍ مضاعفة، ولا يذيقها لذة الوطءِ مرةً واحدةً.

ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه ردًّا عليه.

والله سبحانه وتعالى إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا على غيره فقال تعالى: ﴿**فإمْسَاكٌ بمعروفٍ أوْ تَسريحٌ بإحسانٍ**﴾. [البقرة: ٢٢٩].

وقالت طائفةٌ: يجب عليه وَطْؤُها في العمر مرةً واحدةً ليستقر لها بذلك الصدَّاق. وهذا من جنس القول الأول، وهذا باطلٌ من وجه آخر؛ فإن المقصود

---

(١) ذكر المؤلف بعد هذا أدلة الجمهور وأوصلها إلى عشرة. اهـ ج.

(٢) ٢٣ روضة المحبين.

إنما هو المعاشرةُ بالمعروف، والصداقُ دخل في العقد تعظيمًا لحرمته وفرقًا بينه وبين السفاح، فوجوبُ المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصدَّاق.

وقالت طائفة ثالثة: يجب عليه أن يطأها في كل أربعة أشهر مرة واحتجوا على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أباح للمولي تربصَ أربعة أشهر، وخير المرأة بعد ذلك، إن شاءت أن تقيم عنده، وإن شاءت أن تفارقه. فلو كان لها حقٌّ في الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزَّوج تركه في تلك المدة.

وهذا القول وإن كان أقرب من القولين اللذين قبله؛ فليس أيضًا بصحيح، فإنه غير المعروف الذي لها وعليها.

وأما جعلُ مدة الإيلاء أربعة أشهرٍ فنظرًا منه سبحانه للأزواج، فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وَطءِ امرأته مدة لعارضٍ من: سفرٍ، أو تأديب، أو راحة نفس، أو اشتغال بمهم، فجعل الله سبحانه وتعالى له أجلًا أربعة أشهر. ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطءُ موقَّتًا في كل أربعة أشهر مرَّة.

وقالت طائفة أخرى: بل يجب عليه أن يطأها بالمعروف، كما ينفق عليها ويكسوها ويعاشرها بالمعروف. بل هذا عمدة المُعاشرة ومقصودها، وقد أمر الله سبحانه وتعالى أن يعاشرها بالمعروف، فالوطءُ داخلٌ في هذه المعاشرة ولا بد.

قالوا: وعليه أن يُشبعها وَطئًا إذا أمكنه ذلك كما عليه أن يشبعها قوتًا. وكان شيخنا رحمه الله تعالى يرجح هذا القول ويختاره. وقد حضَّ النبي ﷺ عَلَى استعمال هذا الدواء ورغب فيه وعلق عليه الأجر وجعله صدقة لفاعله فقال: **«وفي بُضْعِ أحدكم صدقة»**.

ومن تراجم النسائي على هذا:

الترغيب في المباضعة

ثم ذكر هذا الحديث، ففي هذا كمال اللذة، وكمال الإحسان إلى الحبيبة، وحصول الأجر، وثواب الصدقة، وفرح النفس، وذهابُ أفكارها الرديئة عنها، وخفةُ الرُّوح، وذهابُ كثافتها وغِلَظها، وخفّة الجسم، واعتدالُ المزاج، وجلبُ الصحة، ودفع المواد الرديئة......

(١)**وقوله: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾**. [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

فختم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضى الزوجة، والإحسان إليها، بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه والجزاء من جنس العمل، فكما رجع إلى التي هي أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة، **﴿وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾**. [البقرة: ٢٢٧]. فإن الطلاق لما كان لفظًا يسمع ومعنى يقصد، عقبه باسم «السميع» للنطق به «العليم» بمضمونه.

وكقوله تعالى: **﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرًا إلا أن تقولوا قولاً معروفًا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم﴾**. [البقرة: ٢٣٥].

فلما ذكر سبحانه التعريض بخطبة المرأة الدال على أن المعرض في قلبه رغبة فيها ومحبة لها، وأن ذلك يحمله على الكلام الذي يتوصل به إلى نكاحها؛ رفع الجناح عن التعريض وانطواء القلب على ما فيه من الميل والمحبة.

ونفي مواعدتهن سرًا ـ فقيل: هو النكاح والمعنى: لا تصرحوا لهن بالتزويج إلا أن تعرضوا تعريضًا وهو القول المعروف.

وقيل: هو أن يتزوجها في عدتها سرًا فإذا انقضت العدة أظهر العقد ويدل على هذا قوله: **﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾** وهو: انقضاء العدة.

ومن رجح القول الأول قال: دلت الآية على إباحة التعريض بنفي الجناح، وتحريم التصريح بنهي المواعدة سرًا، وتحريم عقد النكاح قبل انقضاء العدة، فلو كان معنى مواعدة السر هو إسرار العقد كان تكرارًا.

ثم عقب ذلك بقوله: **﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾**. [البقرة: ٢٣٥]. أن تتعدوا ما حد لكم فإنه مطلع على ما تسرون وما تعلنون، ثم قال: **﴿واعلموا أن الله غفور حليم﴾**. [البقرة: ٢٣٥]. لولا مغفرته وحلمه لعنتم غاية العنت، فإنه سبحانه مطلع عليكم يعلم ما في قلوبكم، ويعلم ما تعملون.

---

(١) ٩٣ جلاء الأفهام.

فإن وقعتم في شيء مما نهاكم عنه فبادروا إليه بالتوبة والاستغفار، فإنه الغفور الحليم.

وهذه طريقة القرآن يقرن بين أسماء الرجاء، وأسماء المخافة كقوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أن الله شَدِيْدُ العِقَابِ وَأَنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾. [المائدة:٩٨].

وقال أهل الجنة: ﴿**الحَمْدُ لله الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إنَّ رَبَّنَا لغَفُورٌ شَكُورٌ**﴾. [فاطر:٣٤]. لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم؛ قالوا: ﴿**إنَّ رَبَّنَا لغَفُورٌ شكورٌ**﴾. [فاطر:٣٤]. وفي هذا معنى التعليل أي: بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات وشكر لنا الحسنات.

وقال تعالى: ﴿**ما يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُم إنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُم وكانَ الله شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾. [النساء:١٤٧]. فهذا جزاء لشكرهم، أي: إن شكرتم ربكم شكركم وهو عليم بشكركم لا يخفى عليه من شكره ممن كفره. والقرآن مملوء من هذا، والمقصود التنبيه عليه.

وأيضًا فإنه سبحانه يستدل بأسمائه على توحيده ونفي الشريك عنه، ولو كانت أسماء لا معنى لها لم تدل على ذلك كقول هارون لعبدة العجل: ﴿**يا قَوْمِ إنَّما فُتِنتُم بِهِ وإن رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ**﴾. [طه:٩٠].

وقوله سبحانه في القصة: ﴿**إنَّما إلهُكُمُ الله الذي لا إلهَ إلا هُو وسِعَ كُلَّ شيءٍ عِلْمًا**﴾. [طه:٩٨].

وقوله تعالى: ﴿**وإلهُكُمْ إلهٌ واحِدٌ لا إلهَ إلا هُو الرَّحْمَنُ الرَحِيمُ**﴾. [البقرة:١٦٣].

وقوله سبحانه في آخر سورة الحشر: ﴿**هُوَ الله الذي لا إلهَ إلَّا هُوَ عالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هو الله الذي لا إلهَ إلا هو المَلِكُ القُدُّوسُ السلامُ المؤمنُ المُهَيْمِنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ سبحانَ الله عَمَّا يُشْرِكُون**﴾. [الحشر:٢٢، ٢٣].

فسبح نفسه عن شرك المشركين به عقب تمدحه بأسمائه الحسنى المقتضية لتوحيده واستحالة إثبات شريك له.

ومن تدبر هذا المعنى في القرآن هبط به على رياض من العلم حماها الله عن كل أفاك معرض عن كتاب الله واقتباس الهدى منه. ولو لم يكن في كتابنا هذا إلا هذا الفصل وحده لكفى من له ذوق ومعرفة، والله الموفق للصواب.

وأيضًا فإن الله سبحانه يعلق بأسماء المعمولات من الظروف والجار والمجرور وغيرهما، ولو كانت أعلامًا محضة؛ لم يصح فيها ذلك كقوله: ﴿والله بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ﴾. . ﴿والله عليمٌ بالظالمين﴾. ﴿والله عَلِيمٌ بالمُفْسِدِين﴾. ﴿وكان بالمؤمنين رحيمًا﴾. ﴿إنَّهُ بهِمْ رءوفٌ رَحِيمٌ﴾. ﴿والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾. ﴿والله مُحيطٌ بالكافرين﴾. ﴿وكان الله بهم عليمًا﴾. ﴿وكَانَ الله عَلى كُلِّ شيءٍ مُقْتَدِرًا﴾. ﴿إنه بما يعملون خبير﴾. ﴿والله بَصِيرٌ بِمَا تَعْملون﴾. ﴿إنَّـه بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾. ونظائره كثيرة.

وأيضًا فإنه سبحانه يجعل أسماءه دليلًا على ما ينكره الجاحدون من صفات كماله كقوله تعالى: ﴿ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطِيفُ الخَبِيرُ﴾. [الملك: ١٤].

وقد اختلف النظار في هذه الأسماء: هل هي متباينة نظرًا إلى تباين معانيها وأن كل اسم يدل على معنى غير ما يدل عليه الآخر، أم هي مترادفة لأنها تدل على ذات واحدة، فمدلوها لا تعدد فيه وهذا شأن المترادفات؟ والنزاع لفظي في ذلك.

والتحقيق أن يقال: هي مترادفة بالنظر إلى الذات متباينة بالنظر إلى الصفات، وكل اسم منها يدل على الذات الموصوفة بتلك الصفة بالمطابقة وعلى أحدهما وحده بالتضمن، وعلى الصفة الأخرى بالالتزام.

...(١)**تقسيم** الألفاظ الى: صريح، وكناية، وإن كان تقسيمًا صحيحًا في أصل الوضع؛ لكن يختلف باختلاف الأشخاص والأزمنة والأمكنة. فليس حكمًا ثابتًا للفظ لذاته، فربَّ لفظ صريح عند قوم، كناية عند آخرين، أو صريح في زمان أو مكان، كناية في غير ذلك الزمان والمكان، والواقع شاهد بذلك. فهذا لفظ «السراح» لا يكاد أحد يستعمله في الطلاق، لا صريحًا ولا كناية، فلا يسوغ أن يقال: إن من تكلم به لزمه طلاق امرأته، نواه أو لم ينوه، ويدعي أنه ثبت له عرف الشرع والاستعمال، فإن هذه دعوى باطلة شرعًا واستعمالًا.

أما الاستعمال: فلا يكاد أحد يطلق به ألبتة.

وأما الشرع: فقد استعمله في غير الطلاق، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذين آمنُوا إذا نَكَحتم المؤمناتِ، ثُمَّ طَلقتُمُوهُنَّ من قبل أن تمسُّوهُنَّ، فَمَالَكُم عَليهنَّ من عدَّةٍ

(١) ١٥٧ زاد المعاد جـ٤.

تعتدُّونَها. فمتعوهُنَّ وسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جميلاً﴾. [الأحزاب: ٤٩]. فهذا السراح غير الطلاق قطعًا.

وكذلك «الفراق» استعمله الشرع في غير الطلاق، كقوله تعالى: **﴿يَا أيُّها النَّبيُّ إذَا طَلقتم النسـاءَ فَطَلقُوهنَّ لعدَّتهنَّ - إلى قوله - فإذا بلغنَ أجلهنَّ فأمسكوهنَّ بمعـروفٍ أو فارقـوهنَّ بمعـروفٍ﴾**. [الطلاق: ١، ٢]. فالإمساك هنا: الرجعة. والمفارقة: ترك الرجعة، لا إنشاء طلقة ثانية، هذا مما لا خلاف فيه ألبتة، فلا يجوز أن يقـال: إن من تكلم به طلقت زوجته، فهم معناه أو لم يفهمه، وكلاهما في البطلان سواء، وبالله التوفيق.

...(١)**وفي** صحيح مسلم قول ابن عمر للمطلق ثلاثًا: «حرمت عليك حتى تُنكح زوجًا غيرك. وعصيت ربك فيما أمرك به من طلاق امرأتك» وهذا تفسير منه للطلاق المأمور به. وتفسير الصحابي حجة. وقال الحاكم: هو عندنا مرفوع.

ومن تأمل القرآن حق التأمل تبين له ذلك. وعرف أن الطلاق المشروع بعد الدخول: هو الطلاق الذي تملك به الرجعة.

ولم يشرع الله سبحانه إيقاع الثلاث جملة واحدة ألبتة. قال تعالى: **﴿الطَّلاقُ مَرَّتَان﴾**. [البقرة: ٢٢٩]. **ولا** تعقل العرب في لغتها وقوع المرتين إلا متعاقبتين.

كما قال النبي ﷺ: **«من سبح الله دُبُرَ كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وحمده ثلاثًا وثلاثين، وكبره أربعًا وثلاثين»** ونظائره. فإنه لا يعقل من ذلك إلا تسبيح وتكبير وتحميد متوال، يتلو بعضه بعضًا. فلو قال: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين. والحمد لله ثلاثًا وثلاثين. والله أكبر أربعًا وثلاثين - بهذا اللفظ - لكان ثلاث مرات فقط.

وأصرح من هذا؛ قوله سبحانه: **﴿وَالَّذين يَرمُونَ أزواجَهم. وَلَم يَكن لهُم شُهداءُ إلاَّ أنفسُهم، فَشَهَادةُ أحدِهِم: أربعُ شَهَادَات بالله﴾**. [النور: ٦]. فلو قال: أشهد بالله أربع شهادات إني لمن الصادقين؛ كانت مرة.

وكـذلك قوله: **﴿وَيَدْرَأُ عَنْها العذابَ: أن تَشْهَدَ أربعَ شهاداتٍ بالله إنهُ لمنَ الكَاذبينَ﴾**. [النور: ٨]. فلو قالت: أشهد بالله أربع شهادات إنه لمن الكاذبين؛ كانت واحدة.

وأصرح من ذلك قوله تعالى: **﴿سَنُعَذِّبُهم مرتين﴾**. [التوبة: ١٠١]. فهذا مرة بعد مرة. ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: **﴿نُؤتِها أجرَهَا مَرَّتين﴾**. [الأحزاب: ٣١].

(١) ١٠٢ زاد المعاد جـ٤.

وقوله ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين**» فإن المرتين هنا: هما الضعفان، وهما المثلان. وهما مثلان في القَدْر. كقوله تعالى: ﴿**يُضَاعفْ لها العَذَابُ ضِعْفَيْنِ**﴾. [الأحزاب: ٣٠]. وقوله: ﴿**فَآتَتْ أُكُلَهَا ضعفينِ**﴾. [البقرة: ٢٦٥]. أي: ضعف ما يعذب به غيرها، وضعف ما كانت تؤتي.

ومن هذا قول أنس: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ مرتين» أي: شقتين وفرقتين، كما قال في اللفظ الآخر: «انشق القمر فِلْقتين» وهذا أمر معلوم قطعًا: أنه إنما انشق القمر مرة واحدة. والفرق معلوم بين ما يكون مرتين في الزمان، وبين ما يكون مثلين وجزءين ومرتين في المضاعفة. فالثاني: يتصور فيه اجتماع المرتين في آن واحد. والأول: لا يتصور فيه ذلك.

ومما يدل على أن الله لم يشرع الثلاث جملة: أنه قال: ﴿**وَالمطلقاتُ يَتَرَبَّصنَ بأنفسهنَّ ثَلاثَةَ قروءٍ** - إلى أن قال - **وَبُعُولَتُهنَّ أَحقُّ بردهنَّ في ذلك إنْ أَرادوا**﴾. [البقرة: ٢٢٨]. فهذا يدل على أن كل طلاق بعد الدخول: فالمطلق أحق فيه بالرجعة، سوى الثالثة المذكورة بعد هذا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**يا أيُّها النبيُّ إذا طَلَّقتُم النساءَ فَطَلقُوهن لِعِدَّتِهن** - إلى قوله - **فَإذا بَلغن أجلهُنَّ فَأمسكوهُنَّ بمعروفٍ أو فَارِقُوهنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾. [البقرة: ٢٣٢]. فهذا هو الطلاق المشروع.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أقسام الطلاق كلها في القرآن. وذكر أحكامها. فذكر الطلاق قبل الدخول، وأنه لا عدَّة فيه.

وذكر الطلقة الثالثة، وأنها تحرم الزوجة على المطلق، حتى تنكح زوجًا غيره. وذكر طلاق الفداء - الذي هو الخلع - وسماه فدية. ولم يحسبه من الثلاث كما تقدم.

وذكر الطلاق الرجعي الذي المطلقُ أحق فيه بالرجعة. وهو ما عدا هذه الأقسام الثلاثة. وبهذا احتج أحمد والشافعي وغيرهما على أنه ليس في الشرع طلقة واحدة بعد الدخول بغير عوض بائنة، وأنه إذا قال لها: أنت طالق طلقة بائنة؛ كانت رجعية. ويلغو وصفها بالبينونة. وأنه لا يملك إبانتها إلا بعوض.

وأما أبوحنيفة فقال: تبين بذلك. لأن الرجعة حق له. وقد أسقطها.

والجمهور يقولون: وإن كانت الرجعة حقًا له، لكن نفقة الرجعية وكسوتها حق عليه؛ فلا يملك إسقاطه إلا باختيارها، وبذلها العوض، وسؤالها أن تفتدي

نفسها منه بغير عوض في أحد القولين. وهو جواز الخلع بغير عوض. وأما إسقاط حقها من الكسوة والنفقة بغير سؤالها، ولا بذلها العوض؛ فخلاف النص والقياس.

قالوا: وأيضًا فالله سبحانه شرع الطلاق على أكمل الوجوه وأنفعها للرجل والمرأة. فإنهم كانوا يطلقون في الجاهلية بغير عدد، فيطلق أحدهم المرأة كلما شاء ويرجعها. وهذا ـ وإن كان فيه رفق بالرجل ـ ففيه إضرار بالمرأة. فنسخ سبحانه ذلك بثلاث. وقصر الزوج عليها. وجعله أحق بالرجعة، ما لم تنقض عدتها. فإذا استوفى العدد الذي ملكه حرمت عليه. فكان في هذا رفق بالرجل؛ إذ لم تحرم عليه بأول طلقة. وبالمرأة، حيث لم يجعل إليه أكثر من ثلاث. فهذا شرعه وحكمته وحدوده التي حدها لعباده. فلو حرمت عليه بأول طلقة يطلقها؛ كان خلاف شرعه وحكمته. وهو لم يملك إيقاع الثلاث جملة، بل إنما ملك واحدة. فالزائد عليها غير مأذون له فيه.

قالوا: وهذا كما أنه لم يملك إبانتها بطلقة واحدة، إذ هو خلاف ما شرعه، لم يملك إبانتها بثلاث مجموعة؛ إذ هو خلاف ما شرعه.

ونكتة المسألة؛ أن الله لم يجعل للأمَّة طلاقًا بائنًا قط، إلا في موضعين.

أحدهما: طلاق غير المدخول بها.

والثاني: الطلقة الثالثة. وما عداه من الطلاق؛ فقد جعل للزوج فيه الرجعة، هذا مقتضى الكتاب، كما تقدم تقريره وهذا قول الجمهور، منهم الإمام أحمد، والشافعي.

وأهل الظاهر قالوا: لا يملك إبانتها بدون الثلاث إلا في الخُلْع.

ولأصحاب مالك ثلاثة أقوال فيما إذا قال: أنت طالق طلقة لا رجعة فيها:

أحدها: أنها ثلاث. قال ابن الماجشون. لأنه قطع حقه من الرجعة؛ وهي لا تنقطع إلا بثلاث، فجاءت الثلاث ضرورة.

الثاني: أنها واحدة بائنة. كما قال، وهذا قول ابن القاسم. لأنه يملك إبانتها بطلقة بعوض، فملكها بدونه، والخلع عنده طلاق.

الثالث: أنها واحدة رجعية، وهذا قول ابن وهب، وهو الذي يقتضيه الكتاب والسنة والقياس. وعليه الأكثرون.

فصل

وأما المسألة الثانية، وهي وقوع الثلاث بكلمة واحدة فاختلف الناس فيها على أربعة مذاهب:

أحدها: أنه يقع. وهذا قول الأئمة الأربعة. وجمهور التابعين، وكثير من الصحابة.

الثاني: أنها لا تقع، بل ترد. لأنها بدعة محرمة. والبدعة مردودة. لقوله ﷺ «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» وهذا المذهب حكاه أبومحمد بن حزم. وحُكي للإمام أحمد فأنكره. وقال: هو قول الرافضة.

الثالث: أنه يقع به واحدة رجعية. وهذا ثابت عن ابن عباس. ذكره أبوداود عنه. قال الإمام أحمد: وهذا مذهب ابن إسحاق، يقول: خالفَ السنة. فيرد إلى السنة. انتهى.

وهو قول طاوس وعكرمة. وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

الرابع: أنه يفرق بين المدخول بها وغيرها. فتقع الثلاث بالمدخول بها. وتقع بغيرها واحدة. وهذا قول جماعة من أصحاب ابن عباس. وهو مذهب إسحاق بن راهويه، فيما حكاه عنه محمد بن نصر المروزي في كتاب اختلاف العلماء.

فأما من لم يوقعها جملة؛ فاحتجوا بأنه طلاق بدعة محرم. والبدعة مردودة. وقد اعترف أبومحمد بن حزم بأنها لو كانت بدعة محرمة لوجب أن ترد وتبطل. ولكنه اختار مذهب الشافعي: أن جمع الثلاث جائز غير محرم. وستأتي حجة هذا القول.

وأما من جعلها واحدة. فاحتج بالنص والقياس.

فأما النص: فما رواه معمر وابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه: «أن أبا الصهباء قال لابن عباس: ألم تعلم أن الثلاث كانت تجعل واحدة على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من إمارة عمر؟ قال: نعم» رواه مسلم في صحيحه.

وفي لفظ: «ألم تعلم أن الثلاث كانت على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من خلافة عمر ترد إلى واحدة؟ قال: نعم».

وقال أبوداود: حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا عبدالرزاق؛ أن ابن جريج قال: أخبرني بعض بني أبي رافع - مولى رسول الله ﷺ - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: طلق عبد يزيد أبوركانة وإخوته أم ركانة. ونكح امرأة من مُزينة، فجاءت

النبي ﷺ. فقالت: ما يغني عني إلا كما تعني هذه الشعرة ـ لشعرة أخذتها من رأسها ـ ففرق بيني وبينه. فأخذت النبي ﷺ حمية؛ فدعا بركانة وإخوته؛ ثم قال لجلسائه: «**ألا ترون أن فلانًا يشبه منه كذا وكذا** ـ من عبد يزيد ـ **وفلانًا يشبه كذا وكذا؟**» قالوا: نعم. قال النبي ﷺ، لعبد يزيد: «**طلقها**». ففعل. ثم قال: «**راجع امرأتك أمَّ ركانة وإخوته**». فقال: إني طلقتها ثلاثًا يا رسول الله. قال: «**قد علمت. راجعها**». وتلا ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**﴾. [الطلاق:١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سعد بن إبراهيم قال: حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق قال: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن عبدالله بن عباس قال: طلق ركانة بن عبد يزيد ـ أخو بني المطلب ـ امرأته ثلاثًا في مجلس واحد. فحزن عليها حزنًا شديدًا. قال: فسأله رسول الله ﷺ: «**كيف طلقتها؟**» فقال: طلقتها ثلاثًا. فقال: «**في مجلس واحد؟**» قال: نعم. قال: «**فإنما تلك واحدة. فأرجعها إن شئت**». قال: فراجعتها. وكان ابن عباس يرى: إنما الطلاق عند كل طهر.

قالوا: وأما القياس؛ فقد تقدم أن جمع الثلاث محرم وبدعة. والبدعة مردودة، لأنها ليست على أمر رسول الله ﷺ.

قالوا: وسائر ما تقدم في بيان التحريم يدل على عدم وقوعها جملة.

قالوا: ولو لم يكن معنا إلا قوله تعالى: ﴿**فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ**﴾. [النور:٦]. وقوله: ﴿**وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ**﴾. [النور:٨]. لكفى.

قالوا: وكذلك كل ما يعتبر له التكرار: من حلف، أو إقرار، أو شهادة. وقد قال النبي ﷺ، «**تحلفون خمسين يمينًا وتستحقون دم صاحبكم**» فلو قالوا: نحلف بالله خمسين يمينًا أن فلانًا قتله. كانت يمينًا واحدة.

قالوا: وكذلك الإقرار بالزنى، كما في الحديث: إن بعض الصحابة قال لماعز: إن أقررت أربعًا رجمك رسول الله ﷺ فهذا لا يعقل أن يكون الأربع فيه مجموعة بفم واحد.

وأما الذين فرقوا بين المدخول بها وغيرها؛ فلهم حجتان:

إحداهما: ما رواه أبو داود بإسناد صحيح: عن طاوس: أن رجلاً يقال له: أبوالصهباء كان كثير السؤال لابن عباس.. قال له: «أما علمت أن الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثًا قبل أن يدخل بها؛ جعلوها واحدة على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر وصدرًا من إمارة عمر؟ فلما رأى عمر الناس قد تتايعوا فيها[1] قال: أجيزهن عليهم».

الحجة الثانية: أنها تبين بقوله: أنت طالق، فيصادفها ذكر الثلاث وهي بائن؛ فيلغو. ورأى هؤلاء أن إلزام عمر بالثلاث هو في حق المدخول بها. وحديث أبي الصهباء في غير المدخول بها.

قالوا: ففي هذا التفريق موافقة المنقول من الجانبين، وموافقة القياس.

وقال بكل قول من هذه الأقوال جماعة من أهل الفتوى، كما حكاه أبومحمد بن حزم وغيره. ولكن عدم الوقوع جملة؛ هو مذهب الإمامية. وحكوه عن جماعة من أهل البيت.

قال الموقعون للثلاث: الكلام معكم في مقامين:

أحدهما: تحريم جمع الثلاث.

والثاني: وقوعها جملة. ولو كانت محرمة. ونحن نتكلم معكم في المقامين.

فأما الأول: فقد قال الشافعي، وأبوثور، وأحمد بن حنبل في إحدى الروايات عنه، وجماعة من أهل الظاهر: إن جمع الثلاث سنة.

واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿**فَإِنْ طَلَّقها فَلا تَحلُّ له مِنْ بَعْدُ حتى تنكِحَ زَوجًا غيرهُ**﴾. [البقرة: ٢٣٠]. ولم يفرق بين أن تكون الثلاث مجموعة أو مفرقة. ولا يجوز أن نفرق بين ما جمع الله بينه، كما لا يجمع بين ما فرق الله بينه.

وقال تعالى: ﴿**وإنْ طَلَّقتُمُوهُنَّ من قَبلِ أن تَمَسُّوهُنَّ**﴾. [البقرة: ٢٣٧]. ولم يفرق.

وقال: ﴿**لَا جُناحَ عَلَيكُم إن طَلَّقْتُم النِّساءَ مَالَم تَمَسُّوهُنَّ**﴾ الآية. [البقرة: ٢٣٦]. ولم يفرّق.

وقال: ﴿**وَلِلمُطلقاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوف**﴾. [البقرة: ٢٤١]. وقال: ﴿**يَا أَيُّها الذين آمنوا إذا نَكَحْتُم المُؤمناتِ ثُم طلقتُمُوهنَّ من قبلِ أن تمسُّوهُنَّ**﴾. [الأحزاب: ٤٩].

(١) التتايع ـ بالياء المثناة قبل العين ـ الوقوع والسقوط بجهالة.

ولم يفرق.

قالوا: وفي الصحيحين، من حديث أبي هريرة: «أن عويمرًا العجلاني طلق امرأته ثلاثًا ـ بعد أن لاعنها ـ بحضرة رسول الله ﷺ، قبل أن يأمره بطلاقها».

قالوا: فلو كان جمع الطلاق الثلاث معصية لما أقره عليه رسول الله ﷺ. ولا يخلو طلاقها أن يكون قد وقع وهي امرأته، أو حين حرمت عليه باللعان. فإن كان الأول؛ فالحجة عليه ظاهرة، وإن كان الثاني؛ فلا شك أنه طلقها وهو يظنها امرأته، فلو كان حرامًا لبين له رسول الله ﷺ وإن كانت قد حرمت عليه . . .

...(١)**قال** تعالى: ﴿**وَلَا يَحِلُّ لَكُم أن تأخذوا مما آتيتُمُوهنَّ شَيئًا إلَّا أن يَخَافَا أن لا يُقِيما حُدُودَ الله، فَإِنْ خِفتُم أن لَا يُقيمَا حُدودَ الله فَلَا جُناحَ عَلَيهما فِيَما افتَدَتْ بِهِ**﴾. [البقرة: ٢٢٩].

ومنع الخلع طائفة شاذة من الناس، خالفت النص والإجماع، وفي الآية دليل على جوازه مطلقًا بإذن السلطان وغيره.

ومنعه طائفة بدون إذنه. والأئمة الأربعة، والجمهور؛ على خلافه.

وفي الآية دليل على حصول البينونة به، لأنه سبحانه سماه «فدية» ولو كان رجعيًا ـ كما قال بعض الناس ـ لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له.

ودل قوله سبحانه: ﴿**فَلَا جُناحَ عَلَيهمَا فيما افتدتْ به**﴾. على جوازه بما قل وكثر، وأن له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها.

وقد ذكر عبدالرزاق: عن معمر، عن عبدالله بن محمد بن عقيل؛ أن الرُّبيِّع بنت معوِّذ بن عَفراء حدثته: «أنها اختلعت من زوجها بكل شيء تملكه. فخوصم في ذلك إلى عثمان بن عفان فأجازه. وأمره أن يأخذ عقاص رأسها فما دونه».

وذكر أيضًا: عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع؛ أن ابن عمر «جاءته مولاة لامرأته اختلعت من كل شيء لها، وكل ثوب لها، حتى نُقْبَتِها».

ورفعت إلى عمر بن الخطاب امرأة نَشزت عن زوجها فقال: «اخلعها ولو من قرطها». ذكره حماد بن سلمة، عن أيوب، عن كثير بن أبي كثير، عنه.

وذكر عبدالرزاق: عن معمر، عن ليث، عن الحكم بن عتيبة، عن علي بن أبي طالب: «لا يأخذ منها فوق ما أعطاها».

(١) ٦٦ زاد المعاد جـ٤.

وقال طاوس: «لا يحل له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها».

وقال عطاء: «إن أخذ زيادة على صداقها فالزيادة مردودة إليها».

وقال الزهري: «لا يحل له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها».

وقال ميمون بن مهران: «إن أخذ منها أكثر مما أعطاها لم يُسَرِّح بإحسان».

وقال الأوزاعي: «كانت القضاة لا تجيز أن يأخذ منها شيئًا إلا ما ساق إليها».

والذين جوزوه؛ احتجوا بظاهر القرآن وآثار الصحابة.

والذين منعوه؛ احتجوا بحديث أبي الزبير؛ أن ثابت بن قيس بن شماس لما أراد خلع امرأته. قال النبي ﷺ: **«أتردين عليه حديقته؟»** قالت: نعم، وزيادة. فقال النبي ﷺ: **«أما الزيادة فلا»** قال الدارقطني: سمعه أبوالزبير من غير واحد. وإسناده صحيح.

قالوا: والآثار من الصحابة مختلفة. فمنهم من رُويَ عنه تحريم الزيادة.

ومنهم من رُويَ عنه إباحتها. ومنهم من رُويَ عنه كراهتها.

كما رُويَ عن وكيع، عن أبي حنيفة، عن عمار بن عمران الهمداني، عن أبيه، عن علي؛ «أنه كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها» والإمام أحمد أخذ بهذا القول، ونص على الكراهة. وأبوبكر من أصحابه حرم الزيادة. وقال: تُرَدُّ عليها.

وقد ذكر عبدالرزاق: عن ابن جريج قال: قال لي عطاء: أتت امرأة رسول الله ﷺ. فقالت: يا رسول الله، إني أبغض زوجي، وأحب فراقه. قال: **«فتردين عليه حديقته التي أصدقك؟»** قالت: نعم، وزيادة من مالي. فقال رسول الله ﷺ: **«أما الزيادة من مالك فلا. ولكن الحديقة»**. قالت: نعم. فقضي بذلك على الزوج. وهذا ـ وإن كان مرسلًا ـ فحديث أبي الزبير مُقَوٍّ له. وقد رواه ابن جريج عنهما.

فصــل

وفي تسميته الخلع فدية دليل على أن فيه معنى المعاوضة

ولهذا اعتبر فيه رضى الزوجين. فإذا تقايلا الخلع، ورد عليها ما أخذ منها، وارتجعها في العدة: فهل لهما ذلك؟ منعه الأئمة الأربعة وغيرهم. وقالوا: قد بانت منه بنفس الخلع.

وذكر عبدالرزاق: عن معمر، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب؛ أنه قال في

المختلعة: «إن شاء أن يراجعها فليرد عليها ما أخذ منها في العدة، وليشهد على رجعتها».

قال معمر: وكان الزهري يقول ذلك. قال قتادة: وكان الحسن يقول: لا يراجعها إلا بخطبة. ولقول سعيد بن المسيب والزهري وجه دقيق من الفقه، لطيف المأخذ، تتلقاه قواعد الفقه وأصوله بالقبول، ولا نكارة فيه؛ غير أن العمل على خلافه؛ فإن المرأة مادامت في العدة فهي في حبسه، ويلحقها صريح طلاقه المنجز عند طائفة من العلماء، فإذا تقايلا عقد الخلع، وتراجعا إلى ما كانا عليه بتراضيهما؛ لم تمنع قواعد الشرع ذلك. وهو بخلاف ما بعد العدة. فإنها قد صارت عنه أجنبيّة محضة، فهو خاطب من الخطاب ويدل على هذا؛ أن له أن يتزوجها في عدتها منه بخلاف غيره اهـ.

(1)**وقد** ثَبُتَ بالنص والإجماع؛ أنه لا رجعة في الخلع، وثبت بالسنة وأقوال الصحابة؛ أن العدة فيه حيضة واحدة. وثبت بالنص جوازه بعد طلقتين، ووقوع ثالثة بعده. وهذا ظاهر جدًّا في كونه ليس بطلاق فإنه سبحانه قال: **﴿الطَّلاق مَرَّتَان. فإمسَاكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسَانٍ. وَلاَ يَحِلُّ لكُم أن تأخُذُوا مِمَّا آتيتُمُوهُنَّ شَيئًا إلا أن يخافَا ألاَّ يُقِيَما حُدُودَ الله. فإنْ خِفتُم ألاَّ يُقِيما حُدُودَ الله فَلاَ جُناحَ عليهما فيما افتَدتْ بِهِ﴾**. [البقرة: ٢٢٩]. وهذا ـ وإن لم يختص بالمطلقة تطليقتين ـ فإنه يتناولها وغيرها. ولا يجوز أن يعود الضمير إلى من لم يذكر، ويخلى منه المذكور، بل إما أن يختص بالسابق، أو يتناوله وغيره.

ثم قال: **﴿فَإنْ طَلَّقَها فَلاَ تَحِلُّ لهُ مِن بعدُ﴾**. [البقرة: ٢٣٠]. وهذا يتناول من طُلِّقت بعد فدية وطلقتين قطعًا؛ لأنها هي المذكورة، فلا بد من دخولها تحت اللفظ. فهذا فهم ترجمان القرآن الذي دعا له رسول الله ﷺ أن يعلمه الله تأويل القرآن، وهي دعوة مستجابة بلا شك.

وإذا كانت أحكام الفدية غير أحكام الطلاق؛ دل على أنها من غير جنسه. فهذا مقتضى النص والقياس، وأقوال الصحابة.

ثم من نظر إلى حقائق العقود ومقاصدها دون ألفاظها؛ يعد الخلع فسخًا، بأي لفظ كان، حتى بلفظ الطلاق. وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد، وهو اختيار

---

(١) ٦٩ زاد المعاد جـ٤.

شيخنا. قال: وهذا ظاهر كلام أحمد، وكلام ابن عباس وأصحابه.

قال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار؛ أنه سمع عكرمة مولى ابن عباس يقول: «ما أجازه المال فليس بطلاق».

قال عبدالله بن أحمد: رأيت أبي كان يذهب إلى قول ابن عباس.

وقال عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس: «الخلع تفريق وليس بطلاق».

وقال ابن جريج، عن ابن طاوس: «كان أبي لا يرى الفداء طلاقاً، ويخيره».

ومن اعتبر الألفاظ، ووقف معها، واعتبرها في أحكام العقود؛ جعله بلفظ الطلاق طلاقًا، وقواعد الفقه وأصوله؛ تشهد أن المرْعِيَّ في العقود حقائقها ومعانيها، لا صورها وألفاظها. وبالله التوفيق.

ومما يدل على هذا؛ أن النبي ﷺ «أمر ثابت بن قيس أن يطلق امرأته في الخلع تطليقة، ومع هذا؛ أمرها أن تعتد بحيضة» وهذا صريح في أنه فسخ، ولو وقع بلفظ الطلاق.

وأيضًا: فإنه سبحانه علق عليه أحكام الفدية بكونه فدية، ومعلوم أن الفدية لا تختص بلفظ، ولم يعين الله سبحانه لها لفظًا معينًا، وطلاق الفداء طلاق مقيد، ولا يدخل تحت أحكام الطلاق المطلق، كما لا يدخل تحتها في ثبوت الرجعة، والاعتداد بثلاثة قروء بالسنة الثابتة. وبالله التوفيق.

...[1]**ومن** ذلك لفظ الفدية، أدخل فيه طائفة خلع الحيلة على فعل المحلوف عليه مما هو ضد الفدية؛ إذ المراد بقاء النكاح بالخلاص من الحنث، وهي إنما شرعت لزوال النكاح عند الحاجة إلى زواله، وأخرجت منه طائفة ما فيه حقيقة الفدية ومعناها، واشترطت له لفظًا معينًا، وزعمت أنه لا يكون فدية وخلعًا إلا به، وأولئك تجاوزوا به، وهؤلاء قصروا به.

والصوابُ أن كل ما دخله المال فهو فدية بأي لفظ كان، والألفاظ لم ترد لذواتها ولا تعبدنا بها، وإنما هي وسائل إلى المعاني؛ فلا فرق قَطُّ بين أن تقول: «اخلعني بألف» أو: «فَادِني بألف» لا حقيقةً ولا شرعًا، ولا لغة ولا عرفًا؛ وكلامُ ابن عباس والإمام أحمد عام في ذلك، لم يقيده أحدهما بلفظ، ولا استثنى لفظًا دون لفظ، بل قال ابن عباس: عامة طلاق أهل اليمن الفداء.

(١) ٢٢٣ أعلام جـ١.

وقال الإمام أحمد: الخلع فرقة، وليس بطلاق، وقال: الخلع ما كان من جهة النساء، وقال: ما أجازه المال فليس بطلاق، وقال: إذا خالَعَهَا بعد تطليقتين فإن شاء راجَعَهَا فتكون معه على واحدة.

وقال في رواية أبي طالب: الخلعُ مثلُ حديث سهلة: إذا كرهت المرأة الرجل وقالت: لا أبرُّ لَكَ قَسَمًا، ولا أطيع لك أمرًا، ولا أغتسل لك من جنابة، فقد حل له أن يأخذ منها ما أعطاها؛ لأن النبي ﷺ، قال: «**أتَرُدِّينَ عليه حَدِيقتَهُ؟**».

قلت: وقد قال في الحديث: «**اقْبَلِ الحَدِيقَة وطلقها تطليقةً**» وجعل أحمدُ ذلك فداء.

وقال ابن هانىء: سُئل أبوعبدالله عن الخلع: أفَسْخٌ أم طلاق هو أم تذهب إلى حديث ابن عباس، كان يقول فرقة وليس بطلاق؟ فقال أبوعبدالله: كان ابن عباس يتأول هذه الآية: ﴿**الطَّلاقُ مرَّتَانِ فإمسَاكٌ بمَعروفٍ أو تَسريحٌ بإحْسَانٍ، وَلَا يَحِلُّ لَكُم أَن تَأخُذُوا مِمَّا آتيتُمُوهُنَّ شَيئًا إلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقيمَا حُدُودَ الله، فَإِنْ خِفْتُم أَلَّا يُقِيمَا حُدودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**﴾. [البقرة: ٢٢٩]. وكان ابن عباس يقول: هو فداء، قال ابن عباس: ذكر الله الطلاق في أول الآية، والفداء في وسطها، وذكر الطلاق بعد؛ فالفداء ليس هو بطلاق، وإنما هو فداء، فجعل ابن عباس وأحمد الفداء فداء لمعناه لا للفظه، وهذا هو الصواب؛ فإن الحقائق لا تتغير بتغيير الألفاظ، وهذا باب يطول تتبعه.

فصل(1)

ومن العجائب معارضة هذه الأحاديث والآثار بقوله تعالى: ﴿**فإنْ طلّقها فلا تحلُّ له من بَعْدُ حتى تنكحَ زوْجًا غيره**﴾. [البقرة: ٢٣٠]. والذي أنزلت عليه هذه الآية هو الذي لعن المحلِّل والمحلَّل له، وأصحابه أعلم الناس بكتاب الله تعالى، فلم يجعلوه زوجًا، وأبطلوا نكاحه، ولعنوه.

وأعجب من هذا قول بعضهم: نحن نحتجُّ بكونه سَمَّاه «محلِّلا» فلولا أنه أثبت الحلَّ لم يكن محللاً.

فيقال: هذه من العظائم، فإن هذا يتضمن أنَّ رسول الله ﷺ لعن من فعل السُّنَّة التي جاء بها، وفعلَ ما هو جائز صحيح في شريعته؛ وإنما سَمَّاه محللاً لأنه

(١) ٢٧٥ إغاثة جـ١.

أحلّ ما حرَّم الله، فاستحقَّ اللعنة. فإن الله سبحانه حرمها على المطلِّق، حتى تنكح زوجًا غيره، والنكاح اسم في كتاب الله وسُنة رسوله للنكاح الذي يتعارفه الناس بينهم نكاحًا، وهو الذي شُرِع إعلانه، والضَّرْبُ عليه بالدُّفوف، والوليمة فيه، وجُعل للإيواء والسكن، وجعله الله مودَّة ورحمة، وجرت العادة فيه بضد ما جرت به في نكاح المحلل. فإن المحلل لم يدخل على نفقة، ولا كسوة، ولا سُكْنَى، ولا إعطاء مهر، ولا يحصل به نسب ولا صهر، ولا قصد المقام مع الزوجة، وإنما دخل عاريةً، كالتيس المستعار للضِّراب، ولهذا شبهه به النبي ﷺ، ثم لعنه، فعُلم قطعًا لاشك فيه أنه ليس هو الزوج المذكور في القرآن، ولا نكاحُه هو النكاح المذكور في القرآن.

وقد فَطَر الله سبحانه قلوب الناس على أن هذا ليس بنكاح، ولا المحلل بزوج، وأن هذا منكر قبيح، تُعيَّر به المرأة والزوج، والمحلل والوَليُّ، فكيف يدخل هذا في النكاح الذي شرعه الله ورسوله، وأحبَّه، وأخبر أنه سنته، ومن رغب عنه فليس منه؟.

وتأمل قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ [البقرة: ٢٣٠]. أي: فإن طلقها هذا الثاني، فلا جناح عليها وعلى الأول أن يتراجعا، أي: ترجع إليه بعقد جديد، فأتى بحرف «إن» الدالة على أنه يمكنه أن يطلق وأن يُقيم، والتحليل الذي يفعله هؤلاء لا يتمكَّن الزوج فيه من الأمرين، بل يَشْرِطون عليه أنه متى وَطئها فهي طالق، ثم لما علموا أنه قد لا يُخبر بوطئها ولا يُقبلُ قولها في وقوع الطلاق، انتقلوا إلى أن جعلوا الشرط إخبار المرأة بأنه دخل بها. فبمجرد إخبارها بذلك تطلق عليه. والله سبحانه شرع النكاح للوصلة الدائمة وللاستمتاع، وهذا النكاح جعله أصحابه سببًا لانقطاعه، ولوقوع الطلاق فيه، فإنه متى وطىء، كان وطؤه سببًا لانقطاع النكاح وهذا ضد شرع الله. . .

...[1]**ولا** ريب أن من تدبَّر القرآن والسنة، ومقاصد الشارع؛ جَزم بتحريم الحيل وبطلانها. فإن القرآن دلّ على أن المقاصد والنيَّاتِ معتبرةٌ في التصرُّف والعادات، كما هي معتبرة في القُرُبات والعبادات، فيجعلُ الفعل حلالاً أو حرامًا، وصحيحًا

---

(١) ٣٧٧ إغاثة جـ١.

أو فاسدًا، وصحيحًا من وجه، فاسدًا من وجه، كما أن القصد والنية في العبادات تجعلها كذلك.

وشواهد هذه القاعدة كثيرة جدًّا في الكتاب والسنة.

وقد سمى الله سبحانه ابتداء النكاح للمطلق ثلاثًا بعد الزوج الثاني مراجعة؛ فقال: ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا**﴾. [البقرة: ٢٣٠]. أي: إن طلقها الثاني فلا جناح عليها وعلى الأول؛ أن يتراجعا نكاحًا مستأنفًا.

فمنها: قوله تعالى في آية الرجعة: ﴿**وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا**﴾. [البقرة: ٢٣١]. وذلك نصٌّ في أن الرجْعَة إنما تثبت لمن قَصَدَ الصلاح، دون الضِّرارِ، فإذا قصد الضرار لم يُمَلِّكه الله تعالى الرَّجعية.

...[1]**اسم** «المراجعة» في لسان الشارع؛ قد يكون مع زوال عقد النكاح بالكلية، فيكون ابتداء عقد، وقد يكون مع تشعثه، فيكون إمساكًا.

[2]**قوله** تعالى: ﴿**وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ**﴾. [النساء: ١٩]. فهذا دليل على أنه إذا عَضَلها لتفتدي نفسها منه، وهو ظالم لها بذلك، لم يحلَّ له أخذ ما بَذلته له ولا يملكه بذلك.

ومنها: قوله تعالى في آية الخُلع: ﴿**وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**﴾. [البقرة: ٢٢٩]. وهذا دليل على أن الخلع المأذون فيه؛ إنما هو إذا خافَ الزوجان أن لا يُقيما حدود الله، وأن النكاح الثاني إنما يُباح إذا ظَنَّا أن يُقيما حدود الله، فإنه شرط في الخلع عدم خوف إقامة حدوده، وشرط في العودِ. ظَنَّ إقامة حدوده.

[3]**وقد** نهى الله تعالى عن تعدي حدوده وقربانها[4]. فقال: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾. [البقرة: ١٨٧].

---

(١) ٥٤ زاد المعاد جـ٤.
(٢) ٣٧٨ إغاثة جـ١.
(٣) ٢٦ مدارج جـ٢.
(٤) بالنسخة (قربانه) والصواب ما أثبتناه. المراجع.

وقال: ﴿تلك حدودُ الله فلا تعتدوها﴾. [البقرة: ٢٢٩]. فإن الحدود يراد بها أواخر الحلال. وحيث نهى عن القربان فالحدود هناك؛ أوائل الحرام.

يقول سبحانه: لا تتعدوا ما أبحت لكم. ولا تقربوا ما حرمت عليكم. فالورع يخلص العبد من قربان هذه وتعدي هذه. وهو اقتحام الحدود.

فصل(١)

وأما تفريقه في العدة بين الموت والطلاق وعدة الحرة وعدة الأمة وبين الاستبراء والعدَّة، مع أن المقصود العلم ببراءة الرحم في ذلك كله، فهذا إنما يتبين وجهه إذا عُرِفَت الحكمة التي لأجلها شُرعت العدة وعرف أجناس العدد وأنواعها.

فأما المقام الأول ففي شرع العدة عدَّةُ حِكَم:

منها: العلم ببراءة الرحم، وأن لا يجتمع ماء الواطئين فأكثر في رحم واحد، فتختلط الأنساب وتفسد، وفي ذلك من الفساد ما تمنعه الشريعة والحكمة.

ومنها: تعظيم خَطَر هذا العقد، ورفع قدره، وإظهار شرفه.

ومنها: تطويل زمان الرَّجعة للمطلق؛ إذ لعله أن يندم ويفيء فيصادف زمنًا يتمكن فيه من الرجعة.

ومنها: قضاء حق الزوج، وإظهار تأثير فقده في المنع من التزين والتجمل، ولذلك شُرع الإحداد عليه أكثر من الإحداد على الوالد والولد.

ومنها: الاحتياط لحق الزوج، ومصلحة الزوجة، وحق الولد، والقيام بحق الله الذي أوجبه؛ ففي العدة أربعة حقوق.

وقد أقام الشارع الموتَ مقام الدخول في استيفاء المعقود عليه؛ فإن النكاح مدته العمر، ولهذا أقيم مقام الدخول في تكميل الصداق، وفي تحريم الربيبة عند جماعة من الصحابة ومَنْ بعدهم، كما هو مذهب زيد بن ثابت وأحمد في إحدى الروايتين عنه؛ فليس المقصود من العدَّة مجرد براءة الرحِم، بل ذلك من بعض مقاصدها وحكمها.

---

(١) ٦٥ أعلام جـ٢.

المقام الثاني في أجناسها، وهي أربعة في كتاب الله، وخامس بسنة رسول الله ﷺ:

الجنس الأول: أمُّ بابِ العِدَّةِ ﴿وَأُولاتُ الأحمالِ أجلُهنَّ أن يَضَعنَ حَملَهُنَّ﴾. [الطلاق: ٤].

الثاني: ﴿والذين يُتَوَفَّون منكم ويَذَرُون أزواجًا يَتَربَّصْنَ بأنفسهنَّ أربعَةَ أشهرٍ وَعَشرًا﴾. [البقرة: ٢٣٤].

الثالث: ﴿وَالمطلَّقاتُ يَتَربَّصْنَ بأنفسهنَّ ثَلاثَةَ قُروءٍ﴾. [البقرة: ٢٢٨].

الرابع: ﴿واللَّائي يَئِسْنَ من المحيضِ مِنْ نِسائِكُم إن ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أشهرٍ﴾. [الطلاق: ٤].

الخامس: قول النبي ﷺ: «**لا تُوطأ حاملٌ حتى تَضَع، ولا حائل حتى تستبرىء بحيضة**».

ومقدّمُ هذه الأجناس كلها الحاكم عليها كلها وضعُ الحملِ، فإذا وجد فالحكم له، ولا التفات إلى غيره، وقد كان بين السلف نزاع في المتوفى عنها أنها تتربص أبْعَدَ الأجلين، ثم حصل الاتفاق على انقضائها بوضع الحمل.

وأما عدة الوفاة فتجب بالموت، سواء دخل بها أو لم يدخل، كما دل عليه عموم القرآن والسنة الصحيحة واتفاق الناس؛ فإن الموت لما كان انتهاء العقد وانقضاءه؛ استقرت به الأحكام: من التوارث، واستحقاق المهر.

وليس المقصود بالعدة هاهنا مجرد استبراء الرحم كما ظنه بعض الفقهاء؛ لوجوبها قبل الدخول، ولحصول الاستبراء بحيْضَة واحدة، ولاستواء الصغيرة والآيسة وذوات القُرُوء في مدتها، فلما كان الأمر كذلك قالت طائفة: هي تعبدٌ محضٌ لا يعقل معناه، وهذا باطل لوجوه:

منها: أنه ليس في الشريعة حكم واحد إلا وله معنى وحكمة يعقله مَنْ عَقَله ويخفى على من خفي عليه.

ومنها: أن العِدَدَ ليست من باب العبادات المحضة؛ فإنها تجب في حق الصغيرة والكبيرة والعاقلة والمجنونة والمسلمة والذمية، ولا تفتقر إلى نية.

ومنها: أن رعاية حق الزوجين والولد والزوج الثاني ظاهر فيها؛ فالصواب أن يقال: هي حريم لانقضاء النكاح لما كمل، ولهذا تجد فيها رعاية لحق الزوج وحرمة له.

ألا ترى أن النبي ﷺ كان من احترامه ورعاية حقوقه تحريم نسائه بعده.

ولما كانت نساؤه في الدنيا هن نسائه في الآخرة قطعًا، لم يحلَّ لأحد أن يتزوج بهن بعده، بخلاف غيره؛ فإن هذا ليس معلومًا في حقه، فلو حرمت المرأة على غيره لتضررت ضررًا محققًا بغير نفع معلوم، ولكن لو تأيَّمَتْ على أولادها كانت محمودة على ذلك.

وقد كانوا في الجاهلية يبالغون في احترام حق الزوج، وتعظيم حريم هذا العقد غاية المبالغة: من تربُّص سنة في شر ثيابها وحفش بيتها، فخفف الله عنهم ذلك بشريعته التي جعلها رَحمة وحكمة ومصلحة ونعمة، بل هي من أجلِّ نعمه عليهم على الإطلاق، فله الحمد كما هو أهله.

وكانت أربعة أشهر وعشرًا على وفق الحكمة والمصلحة؛ إذ لا بدَّ من مدة مضروبة لها، وأولى المدد بذلك المدة التي يعلم فيها بوجود الولد وعدمه؛ فإنه يكون أربعين يومًا نُطفة، ثم أربعين عَلَقة، ثم أربعين مُضغة، فهذه أربعة أشهر، ثم ينفخ فيه الروح في الطور الرابع، فقدِّر بعشرة أيام لتظهر حياته بالحركة إن كان ثم حملٌ.

فصل

وأما عدة الطلاق فلا يمكن تعليلها بذلك؛ لأنها إنما تجب بعد المسيس بالاتفاق، ولا ببراءة الرحم؛ لأنه يحصل بحيضة كالاستبراء، وإن كان براءة الرحم بعض مقاصدها. ولا يقال: «هي تعبد» لما تقدم، وإنما يتبين حكمها إذا عرف ما فيها من الحقوق؛ ففيها حق الله، وهو امتثال أمره وطَلَب مرضاته، وحق للزوج المطِّلقِ وهو اتساع زمن الرَّجعة له، وحق للزوجة، وهو استحقاقها للنفقة والسكنى مادامت في العدة، وحق للولد، وهو الاحتياط في ثبوت نسبه وأن لا يختلط بغيره، وحق للزوج الثاني، وهو أن لا يَسْقي ماءه زرع غيره.

ورتب الشارع على كل واحد من هذه الحقوق ما يناسبه من الأحكام؛ فرتب على رعاية حقه هو: لزوم المَنْزِلِ، وأنها لا تَخْرُجُ ولا تُخْرَجُ، هذا مُوجَبُ القرآن ومنصوص إمام أهل الحديث وإمام أهل الرأي.

ورتب على حق المطلق تمكينه من الرجعة مادامت في العدة، وعلى حقها

استحقاق النفقة والسكنى، وعلى حق الولد ثبوت نسبه وإلحاقه بأبيه دون غيره، وعلى حق الزوج الثاني دخوله على بصيرة ورحم بريء غير مشغول بولد لغيره؛ فكان في جعلها ثلاثة قروء رعاية لهذه الحقوق، وتكميلاً لها، وقد دل القرآن على أن العدَّة حق للزوج عليها بقوله: ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمنوا إذا نَكَحتُم المُؤمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقتُمُوهُن من قبل أن تمسُّوهُنَّ فَمَا لكُم عَلَيهِنَّ من عدةٍ تعتدُّونها﴾. [الأحزاب: ٤٩].

فهذا دليل على أن العدة للرجل على المرأة بعد المسيس، وقال تعالى: ﴿وبُعولتُهنَّ أحقُّ بردهنَّ في ذلك، إن أَرادوا إصلاحًا﴾. [البقرة: ٢٢٨]. فجعل الزوج أحق بردها في العدة؛ فإذا كانت العدة ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر طالت مدة التربُّص لينظر في أمرها هل يمسكها بمعروف أو يُسرحها بإحسان.

كما جعل الله سبحانه للمولي تربُّصَ أربعة أشهر لينظر في أمره هل يفيء أو يطلق.

وكما جعل مدة تسيير الكفار أربعة أشهر لينظروا في أمرهم ويختاروا لأنفسهم.

فإن قيل: هذه العلة باطلة؛ فإن المختلعةَ والمفسوخ نكاحُها بسبب من الأسباب، والمطلقة ثلاثًا، والموطوءة بشبهة، والمزنيُّ بها تعتدُّ بثلاثة أقراء، ولا رجعة هناك، فقد وُجد الحكم بدون علته، وهذا يبطل كونها علة.

قيل: شرطُ النقض أن يكون الحكم في صورة ثابتًا بنص أو إجماع، وأما كونه قولاً لبعض العلماء فلا يكفي في النقض به.

وقد اختلف الناس في عدة المختلعة؛ فذهب إسحاق وأحمد في أصح الروايتين عنه دليلاً: أنها تعتد بحيضة واحدة، وهو مذهب عثمان بن عفان وعبدالله بن عباس، وقد حكي إجماع الصحابة ولا يعلم لهما مخالف، وقد دلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة دلالة صريحة، وعُذْرُ مَنْ خالفها أنها لم تبلغه، أو لم تصح عنده، أو ظن الإجماع على خلاف موجبها، وهذا القول هو الراجح في الأثر والنظر:

أما رجحانه أثرًا فإن النبي ﷺ لم يأمر المختلعة قط أن تعتد بثلاث حيض، بل قد رَوَى أهلُ السنن عنه، من حديث الربيع بنت معوذٍ؛ أن ثابت بن قيس ضَرَب امرأته فكسر يدها، وهي جميلة بنت عبدالله بن أبيّ، فأتى أخوها يشتكي إلى رسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت، فقال: «**خذ الذي لها عليك**

وخلِّ سبيلها» قال: نعم، فأمرها رسول الله ﷺ أن تتربص حيضة واحدة وتلحق بأهلها.

وذكر أبوداود، والنسائي: من حديث ابن عباس؛ أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها، فأمرها النبي ﷺ أو أُمِرَتْ أن تعتد بحيضة، قال الترمذي: الصحيحُ أنها أمرت أن تعتد بحيضة، وهذه الأحاديث لها طرق يصدق بعضها بعضًا.

وأُعِلّ الحديث بعلتين: أحدهما: إرساله، والثانية: أن الصحيح فيه «أُمِرَتْ» بحذف الفاعل، والعلتان غير مؤثرتين؛ فإنه قد روي من وجوه متصلة، ولا تعارض بين أمرت وأمَرَهَا رسول الله ﷺ؛ إذ من المحال أن يكون الآمر لها بذلك غير رسول الله ﷺ في حياته، وإذا كان الحديث قد روي بلفظ محتمل ولفظ صريح يفسر المحتمل ويبينه، فكيف يجعل المحتمل معارضًا للمفسر بل مقدمًا عليه؟ ثم يكفي في ذلك فتاوى أصحاب رسول الله ﷺ.

قال أبو جعفر النحاس في كتاب الناسخ والمنسوخ: هو إجماع من الصحابة.

وأما اقتضاء النظر له فإن المختلعة لم تَبْقَ لزوجها عليها عدة، وقد ملكت نفسها وصارت أَحَقَّ ببُضْعها، فلها أن تتزوج بعد براءة رحمها، فصارت العدة في حقها بمجرد براءة الرحم، وقد رأينا الشريعة جاءت في هذا النوع بحيضة واحدة، كما جاءت بذلك في المَسْبيَّة والمملوكة بعقد معاوضة أو تبرع والمهاجرة من دار الحرب، ولا ريب أنها جاءت بثلاثة أقراء في الرجعية، والمختلعةُ فرعٌ متردد بين هذين الأصلين؛ فينبغي إلحاقها بأشبهها بها؛ فنظرنا فإذا هي بذوات الحيضة أشبَهُ.

ومما يبين حكمة الشريعة في ذلك؛ أن الشارع قسم النساء إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: المفارقة قبل الدخول؛ فلا عدة عليها ولا رجعة لزوجها فيها.

الثاني: المفارقة بعد الدخول إذا كان لزوجها عليها رجعة، فجعل عدتها ثلاثة قروء، ولم يذكر سبحانه العدة بثلاثة قروء إلا في هذا القسم، كما هو مصرح به في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَالمطلَّقات يَتَرَبَّصْنَ بأنفُسهنَّ ثَلاَثَة قرُوءٍ، وَلاَ يَحِلُّ لهنَّ أن يكتُمْنَ مَا خَلَق الله في أرْحَامهنَّ، إن كُنَّ يُؤمنَّ بالله واليوم الآخِرِ، وَبُعُولَتُهنَّ أحقُّ بردهنَّ في ذلك، إن أرادوا إصْلاَحًا﴾. [البقرة:٢٢٨]. وكذا في سورة الطلاق لَمَّا ذكر الاعتداد بالأشهر الثلاثة في حق مَنْ إذا بلغت أجلها خُيِّرَ زوجها بين إمساك بمعروف أو مفارقتها بإحسان، وهي الرجعية قطعًا، فلم يذكر الأقراء أو بَدَلها في حق بائن ألبتة.

القسم الثالث: مَنْ بانت عن زوجها وانقطع حقه عنها بسَبْي أو هِجْرة أو خُلْع؛ فجعل عدتها حيضة للاستبراء، ولم يجعلها ثلاثًا؛ إذ لا رجعة للزوج، وهذا في غاية الظهور والمناسبة.

وأما الزانية والموطوءة بشبهة فموجبُ الدليل أنها تُستبرأ بحيضة فقط، ونص عليه أحمد في الزانية، واختاره شيخنا في الموطوءة بشبهة، وهو الراجح، وقياسهما على المطلقة الرجعية من أبعد القياس وأفسده.

فإن قيل: فهبْ أن هذا قد سلم لكم فيما ذكرتم من الصور، فإنه لا يُسَلَّم معكم في المطلقة ثلاثًا؛ فإن الإجماع منعقد على اعتدادها بثلاثة قروء مع انقطاع حق زوجها من الرجعة، والقصد مجرد استبراء رحمها.

قيل: نعم هذا سؤال وارد، وجوابه من وجهين:

أحدهما: أنه قد اختلف في عدتها: هل هي بثلاثة قروء أو بقُرْءٍ واحد؟ فالجمهور ـ بل الذي لا يعرف الناس سواه ـ أنها ثلاثة قروء.

وعلى هذا فيكون وَجهه أن الطَّلقة الثالثة لما كانت من جنس الأوليين أعطيت حكمهما؛ ليكون باب الطلاق كله بابًا واحدًا، فلا يختلف حكمه؛ والشارعُ إذا عَلَّق الحكم بوصف لمصلحة عامة لم يكن تخلفُ تلك المصلحة والحكمة في بعض الصور مانعًا من ترتب الحكم، بل هذه قاعدة الشريعة وتصرفها في مصادرها ومواردها.

الوجه الثاني: أن الشارع حرَّمها عليه حتى تنكح زوجًا غيره، عقوبة له، ولعن المحلِّلَ والمُحَلَّلَ له؛ لمناقضتهما ما قصده الله سبحانه من عقوبته؛ وكان من تمام هذه العقوبة أن طَوَّل مدة تحريمها عليه؛ فكان ذلك أبلغ فيما قصده الشارع من العقوبة، فإنه إذا علم أنها لا تحل له حتى تعتد بثلاثة قروء، ثم يتزوجها آخر بنكاح رغبة مقصودٍ لا تحليلٍ مُوجِبٍ للَّعْنَةِ، ويفارقها، وتعتد من فراقه ثلاثة قروء أخر، طال عليه الانتظار، وعيلَ صبره، فأمسك عن الطلاق الثلاث، وهذا واقع على وفق الحكمة والمصلحة والزجر؛ فكان التربص بثلاثة قروء في الرجعية نظرًا للزوج ومراعاة لمصلحته لما لم يوقع الثالثة المحرمة لها، وههنا كان تربصها عقوبة له وزجرًا لما أوقع الطلاق المحرم لما أحل الله له، وأكدت هذه العقوبة بتحريمها عليه إلا بعد زوج وإصابة وتربص ثان.

وقيل: بل عدتها حيضة واحدة، وهي اختيار أبي الحسين بن اللبان؛ فإن كان مسبوقًا بالإجماع فالصواب اتباع الإجماع، وأن لا يلتفت إلى قوله، وإن لم يكن في المسألة إجماع فقوله قوي ظاهر، والله أعلم.

فإن قيل: فقد جاءت السنة بأن المخيرة تعتد ثلاث حِيَضٍ، كما رواه ابن ماجه من حديث عائشة قالت: أمِرَتْ بَرِيْرَةُ أن تعتد ثلاث حِيَضٍ.

قيل: ما أصْرَحَه من حديث لو ثبت! لكنه حديث منكر بإسناد مشهور، وكيف يكون عند أم المؤمنين هذا الحديث وهي تقول: الأقراء الأطهار؟ فإن صح الحديث وجب القول به، ولم تسع مخالفته، ويكون حكمه حكم المطلقة ثلاثًا في اعتدادها بثلاثة قروء ولا رجعة لزوجها عليها؛ فإن الشارع يخصص بعض الأعيان والأفعال والأزمان والأماكن ببعض الأحكام، وإن لم يظهر لنا موجَبُ التخصيص، فكيف وهو ظاهر في مسألة المخيرة، فإنها لو جعلت عدتها حيضة واحدة لبادرت إلى التزوج بعدها، وأيس منها زوجها؟ فإذا جعلت ثلاث حيض طال زمن انتظارها وحَبْسِها عن الأزواج، ولعلها تتذكر زوجها فيها وترغب في رجعته، ويزول ما عندها من الوَحْشة، ولو قيل: إن اعتداد المختلعة بثلاث حِيَضٍ لهذا المعنى بعينه؛ لكان حسنًا على وفق حكمة الشارع، ولكن هذا مفقود في المسبية والمهاجرة والزانية والموطوءة بشبهة.

فإن قيل: فهَبْ أن هذا كله قد سلم لكم، فكيف يسلم لكم في الآيسة والصغيرة التي لا يوطأ مثلها؟

قيل: هذا إنما يرد على مَنْ جعل علة العدة مجرد براءة الرحم فقط، ولهذا أجابوا عن هذا السؤال بأن العدة ههنا شُرِعَتْ تعبدًا محضًا غير معقول المعنى، وأما مَنْ جعل هذا بعض مقاصد العدة وأن لها مقاصد أُخر من تكميل شأن هذا العقد واحترامه وإظهار خَطَره وشرفه فجعل لهم حريم بعد انقطاعه بموت أو فرقة، فلا فرق في ذلك بين الآيسة وغيرها، ولا بين الصغيرة والكبيرة، مع أن المعنى الذي طُوِّلَتْ له العدة في الحائض في الرجعية والمطلقة ثلاثًا؛ موجودٌ بعينه في حق الآيسة والصغيرة، وكان مقتضى الحكمة التي تضمنت النظر في مصلحة الزوج في الطلاق الرجعي، وعقوبته وزجره في الطلاق المحرم؛ التسوية بين النساء في ذلك، وهذا ظاهر جدًّا، وبالله التوفيق.

فصــل

وأما تحريم المرأة على الزوج بعد الطلاق الثلاث، وإباحتها له بعد نكاحها للثاني؛ فلا يَعْرِف حكمته إلا مَن له معرفة بأسرار الشريعة، وما اشتملت عليه من الحكم والمصالح الكلية فنقول وبالله التوفيق:

لما كان إباحة فَرْج المرأة للرجل بعد تحريمه عليه ومنعه منه؛ من أعظم نعم الله عليه، وإحسانه إليه؛ كان جديرًا بشكر هذه النعمة، ومراعاتها، والقيام بحقوقها، وعدم تعريضها للزوال، وتنوعت الشرائع في ذلك بحسب المصالح التي علمها الله في كل زمان ولكل أمة.

فجاءت شريعة التوراة بإباحتها له بعد الطلاق ما لم تتزوج، فإذا تزوجت حرمت عليه، ولم يبق له سبيل إليها؛ وفي ذلك من الحكمة والمصلحة ما لا يخفى؛ فإن الزوج إذا علم أنه إذا طلق المرأة وصار أمرُها بيدها، وأن لها أن تنكح غيره، وأنها إذا نكحت غيره حرمت عليه أبدًا، كان تمسكه بها أشدَّ، وحَذَره من مفارقتها أعظم، وشريعة التوراة جاءت بحسب الأمة الموسوية فيها من الشدة والإصْرِ ما يناسب حالها.

ثم جاءت شريعة الإنجيل بالمنع من الطلاق بعد التزوج ألبتة، فإذا تزوج بامرأة فليس له أن يطلقها.

ثم جاءت الشريعة الكاملة الفاضلة المحمديَّة، التي هي أكمل شريعةٍ نزلت من السماء على الإطلاق، وأجلُّها وأعلاها وأقْوَمُها بمصالح العباد في المعاش والمعاد؛ بأحسن من ذلك كله وأكمله وأوفقه للعقل والمصلحة.

فإن الله سبحانه أكمل لهذه الأمة دينها، وأتم عليها نعمته، وأباح لها من الطيبات ما لم يُبِحهُ لأمة غيرها.

فأباح للرجل أن ينكح من أطايب النساء أربعًا، وأن يَتَسَرَّى من الإماء بما شاء، وليس التسرى في شريعة أخرى غيرها.

ثم أكمل لعبده شرْعَه، وأتم عليه نعمته، بأن ملكه أن يفارق امرأته ويأخذ غيرها؛ إذ لعل الأولى لا تصلح له ولا توافقه، فلم يجعلها غلًّا في عُنُقه، وقيدًا في رجله، وإصرًا على ظَهْره، وشرع له فراقها على أكمل الوجوه لها وله، بأن يفارقها

واحدة ثم تتربص ثلاثة قروء، والغالب أنها في ثلاثة أشهر، فإن تاقَتْ نفسه إليها، وكان له فيها رغبة، وصرَّفَ مُقلِّب القلوب قلبه إلى محبتها، وجَدَ السبيلَ إلى ردها ممكنًا، والباب مفتوحًا، فراجع حبيبته، واستقبل أمره، وعاد إلى يده ما أخرجته يد الغضب ونزغات الشيطان منها.

ثم لا يؤمن غلبات الطباع ونزغات الشيطان من المعاودة، فمكن من ذلك أيضًا مرة ثانية، ولعلها أن تذوق من مرارة الطلاق وخراب البيت ما يمنعها من معاودة ما يغضبه، ويذوق هو من ألم فراقها ما يمنعه من التسرع إلى الطلاق، فإذا جاءت الثالثة جاء مالا مَرَدَّ له من أمر الله، وقيل له: قد اندفعت حاجتك بالمرة الأولى والثانية، ولم يبق لك عليها بعد الثالثة سبيل، فإذا علم أن الثالثة فراقُ بينِه وبينها وأنها القاضية أمسك عن إيقاعها، فإنه إذا علم أنها بعد الثالثة لا تحلُّ له إلا بعد تربص ثلاثة قروء وتزوج بزوج راغب في نكاحها وإمساكها، وأن الأول لا سبيل له إليها حتى يدخل بها الثاني دخولاً كاملاً يذوق فيه كل واحد منهما عُسَيْلَةَ صاحبه؛ بحيث يمنعهما ذلك من تعجيل الفراق ثم يفارقها: بموت أو طلاق أو خُلع ثم تعتدُّ من ذلك عدةً كاملة؛ تبين له حينئذ يأسُه بهذا الطلاق الذي هو من أبغض الحلال إلى الله، وعلم كل واحد منهما أنه لا سبيل له إلى العوْد بعد الثالثة، لا باختياره ولا باختيارها، وأكد هذا المقصود بأن لَعَنَ الزوج الثاني إذا لم ينكح نكاح رغبة يقصد فيه الإمساك، بل نكح نكاح تحليل، ولعن الزوج الأول إذا ردَّهَا بهذا النكاح، بل ينكحها الثاني كما نكحها الأول، ويطلقها كما طلقها الأول، وحينئذ فتباح للأول كما تباح لغيره من الأزواج.

وأنت إذا وازنت بين هذا وبين الشريعتين المنسوختين، ووازنت بينه وبين الشريعة المبدلة المبيحة ما لعن الله ورسوله فاعله، تبين لك عظمة هذه الشريعة، وجَلالتها، وهيمنتها على سائر الشرائع، وأنها جاءت على أكمل الوجوه وأتمها وأحسنها وأنفعها للخلق، وأن الشريعتين المنسوختين خير من الشريعة المبَدَّلة، فإن الله سبحانه شرعهما في وقت، ولم يشرع المبدلة أصلاً.

وهذه الدقائق ونحوها مما يختص الله سبحانه بفهمه من يشاء؛ فمن وصل إليها فليحمد الله، ومن لم يصل إليها فليسلم لأحكم الحاكمين وأعلم العالمين، وليعلم أن شريعته فوق عقول العقلاء وَفْقَ فِطَر الألبَّاء:

وقـل للعُـيون الـرُّمْـد لا تتـقـدَّمي إلى الـشـمس، واسـتـغشى ظَلاَمَ اللياليا
وسَـامـح، ولا تنكـر عليهـا، وخَلِّهـا وإن أنـكـرت حقًّا فقل خَلِّ ذالـيـا

وقـال غـيره:

عـاب الـتـفُّـقَه قـومٌ لا عُقُـول لـهـم وما عليه إذا عـابوه مـن ضـرر
ما ضرَّ شَمْسَ الضحى والشمسُ طَالعـة أن لا يَـرَى ضَـوءَها مَنْ ليس ذا بَصَـرِ

(١)ذكر حكمه ﷺ في العِدَد

هذا البـاب قد تولى الله سبحانه بيانه في كتابه أتم بيان، وأوضحه وأجمعه؛ بحيث لا تشذ عنه معتدة. فذكر أربعة أنواع من العدد. وهي جملة أنواعها:

النـوع الأول: عدة الحـامل: بوضع الحمل مطلقًا؛ بائنة كانت أو رجعية، مفـارقة في الحياة، أو متوفى عنها. فقال: ﴿**وأولاتُ الأحمالِ أجلُهنَّ أن يَضَعْنَ حملهنَّ**﴾. [الطلاق: ٤]. وهذا فيه عموم من ثلاث جهات:

أحدها: عموم المخبر عنه. وهو ﴿**أُولَاتُ الأَحْمَالِ**﴾ فإنه يتناول جميعهن.

الثاني: عمـوم الأجل. فإنه إضافة إليهن، وإضافة اسم الجمع إلى المعرفة يعم. فجعل وضع الحمل جميع أجلهن. فلو كان لبعضهن أجل غيره لم يكن جميع أجلهن.

الثالث: أن المبتدأ والخبر معرفتان. أما المبتدأ: فظاهر. وأما الخبر - وهو قوله تعـالى: ﴿**أن يضعن حملهن**﴾ - ففي تأويل مصـدر مضاف: أي أجلهن وضع حملهن، والمبتـدأ والخبر إذا كانا معرفتين؛ اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول. كقوله: ﴿**يا أيُّها النَّاسُ أنْتُم الفُقَرَاءُ إلى الله. والله هُو الغَنيُّ الحَمِيدُ**﴾. [فاطر: ١٥].

وبهذا احتج جمهور الصحابة على أن الحامل المتوفى عنها: عدتها وضع حملها. ولو وضعته والزوج على المغتسل، كما أفتى به النبي ﷺ سُبيعة الأسلمية. وكان هذا الحكم والفتوى منه مشتقًا من كتاب الله مطابقًا له.

النوع الثاني: عدة المطلقة التي تحيض وهي ثلاثة قروء. كما قال الله تعالى: ﴿**والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**﴾. [البقرة: ٢٢٨].

النوع الثالث: عدة التي لا حيض لها. وهي نوعان: صغيرة لا تحيض، وكبيرة

---
(١) ٣٥٥ زاد المعاد جـ٤.

قد يئست من الحيض. فبين سبحانه عدة النوعين بقوله: ﴿واللائي يَئِسْنَ مِنْ المَحِيضِ مِن نِسَائِكُمْ إنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أشْهُرٍ، واللائي لم يَحِضْنَ﴾. [الطلاق: ٤]. أي: فعدتهن كذلك.

النوع الرابع: المتوفَّى عنها زوجها. فبين عدتها بقوله سبحانه: ﴿والذين يُتوفَّون منكم ويَذَرون أزواجًا: يتربصن بأنفسهن أربعةَ أشهرٍ وعشرًا﴾. [البقرة: ٢٣٤]. فهذا يتناول المدخول بها وغيرها، والصغيرة والكبيرة.

ولا يدخل فيه الحامل؛ لأنها خرجت بقوله: ﴿وَأُوْلاتُ الأحْمَالِ أجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. [الطلاق: ٤]. فجعل وضع حملهن جميع أجلهن، وحصره فيه. بخلاف قوله في المتوفَّى عنهن: ﴿يتربصن﴾ فإنه فعل مطلق لا عموم له.

وأيضًا فإن قوله: ﴿أجلُهُنَّ أن يضعْنَ حملَهن﴾. [الطلاق: ٤]. متأخر في النزول عن قوله: ﴿يتربصْنَ﴾. [البقرة: ٢٣٤].

وأيضًا فإن قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. في غير الحامل بالاتفاق. فإنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته. فعمومها مخصوص اتفاقًا. وقوله: ﴿أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. غير مخصوص بالاتفاق. هذا لو لم تأت السنة الصحيحة بذلك. ووقعت الحوالة على القرآن. فكيف والسنة الصحيحة موافقة لذلك مقررة له؟

فهذه أصول العدد في كتاب الله، مفصلة مبينة.

ولكن اختلف في فهم المراد من القرآن ودلالته في مواضع من ذلك.

وقد دلت السنة ـ بحمد الله ـ على مراد الله منها.

ونحن نذكرها، ونذكر أولى المعاني وأشبهها، ودلالة السنة عليها.

فمن ذلك: اختلاف السلف في المتوفى عنها إذا كانت حاملاً.

فقال علي وابن عباس وجماعة من الصحابة: «أبعد الأجلين: من وضع الحمل، أو أربعة أشهر وعشرًا» وهذا أحد القولين في مذهب مالك. اختاره سُحْنون.

قال أحمد في رواية أبي طالب عنه: إن علي بن أبي طالب وابن عباس يقولان في المعتدة الحامل: «أبعد الأجلين».

وكان ابن مسعود يقول: «من شاء بَاهَلْتُه: إن سورة النساء القُصري نزلت بعدُ».

وحديث سُبيعة يقضي بينهم: «إذا وضعت: فقد حَلَّت».

وابن مسعود يتأول القرآن: ﴿أجلهُنَّ أن يَضَعْنَ حملَهن﴾ [الطلاق: ٤] هي في المتوفى عنها. والمطلقة مثلها، إذا وضعت: فقد حلت وانقضت عدتها.

ولا تنقضي عدة الحامل إذا أُسقطت حتى يتبين خَلقه. فإذا بان له يد أو رجل عتقت به الأمة، وتنقضي به العدة. وإذا ولدت ولدًا وفي بطنها آخر: لم تنقض العدة حتى تلد الآخر، ولا تغيب عن منزلها الذي أصيب فيه زوجها أربعة أشهر وعشرًا، إذا لم تكن حاملًا. والعدة من يوم يموت أو يطلق. هذا كلام أحمد.

وقد تناظر في هذه المسألة ابن عباس وأبوهريرة، فقال أبوهريرة: «عدتها وضع الحمل».

وقال ابن عباس: «عدتها أقصى الأجلين» فحكَّما أم سلمة. فحكمت لأبي هريرة. واحتجت بحديث سُبيعة. وقد قيل: إن ابن عباس رجع.

وقال جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم، والأئمة الأربعة: إن عدتها وضع الحمل. ولو كان الزوج على مغتسله، فوضعت؛ حلت.

قال أصحاب الأجلين: هذه قد تناولها عمومان. وقد أمكن دخولها في كليهما. فلا تخرج من عدتها بيقين حتى يأتي عليها أقصى الأجلين.

قالوا: ولا يمكن تخصيص عموم إحداهما بخصوص الأخرى. لأن كل آية منهما عامة من وجه، خاصة من وجه.

قالوا: فإذا أمكن دخول بعض الصور في عموم الآيتين، يعني إعمالًا للعموم في مقتضاه. فإذا اعتدَّت أقصى الأجلين: دخل أدناهما في أقصاهما.

والجمهور أجابوا عن هذا بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن صريح السنة يدل على اعتبار الحمل فقط، كما في الصحيحين: أن سبيعة الأسلمية تُوفِّي عنها زوجها، وهي حبلى، فوضعت، فأرادت أن تنكح، فقال لها أبوالسنابل: ما أنت بناكحة حتى تعتدي آخر الأجلين. فسألت النبي ﷺ؟ فقال: «**كذب أبو السنابل قد حللت، فانكحي من شئت**».

الثاني: أن قوله: ﴿وأولاتُ الأحمالِ أجلُهُن أن يضعْنَ حملَهنُ﴾ [الطلاق: ٤]. نزلت بعد قوله: ﴿والذين يُتوَفَّوْنَ منكم ويذَرُون أزواجًا يتربَصْنَ بأنفسهن أربعةَ أشهرٍ وعشرًا﴾. [البقرة: ٢٣٤]. وهذا جواب عبدالله بن مسعود. كما في صحيح

البخاري عنه: «أيجعلون عليها التغليظ، ولا يجعلون لها الرخصة؟ أشهدُ لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى: ﴿وأولاتُ الأحمالِ أجلهن أن يَضَعْنَ حملَهُن﴾. [الطلاق: ٤].».

وهذا الجواب يحتاج إلى تقرير. فإن ظاهره؛ أن آية سورة الطلاق مقدمة على آية البقرة. لتأخرها عنها فكانت ناسخة لها. ولكن النسخ عند الصحابة والسلف: أعم منه عند المتأخرين. فإنهم يريدون به ثلاثة معان:

أحدها: رفع الحكم الثابت بخطاب.

الثاني: رفع دلالة الظاهر: إما بتخصيص، وإما بتقييد وهو أعم مما قبله.

الثالث: بيان المراد باللفظ الذي بيانه من خارج. وهذا أعم من المعنيين الأولين. فابن مسعود أشار بتأخر نزول سورة الطلاق إلى أن آية الاعتداد بوضع الحمل ناسخة لآية البقرة، إن كان عمومها مرادًا، أو مخصصة لها إن لم يكن عمومها مرادًا، أو مبينة للمراد منها، أو مقيدة لإطلاقها. وعلى التقديرات الثلاث؛ فيتعين تقديمها على عموم تلك وإطلاقها. وهذا من كمال فقهه ورسوخه في العلم، ومما يبين أن أصول الفقه، التي هي أصول الفقه؛ سَجِيّة للقوم وطبيعة لهم، لا يتكلفونها، كما أن العربية والمعاني والبيان وتوابعها لهم كذلك. فمن بعدهم إنما يجهد نفسه ليتعلق بغبارهم، وأنّى له؟.

(١)**الثالث**: أنه لو لم تأت السنة الصريحة باعتبار الحمل، ولم تكن آية الطلاق متأخرة؛ لكان تقديمها هو الواجب، لما قررناه أولاً من جهات العموم الثلاثة فيها، وإطلاق قوله: ﴿يتربَصْنَ﴾ وقد كانت الحوالة على هذا الفهم ممكنة. ولكن لغموضه ودقته على كثير من الناس؛ أحيل في ذلك الحكم على بيان السنة. وبالله التوفيق.

فصل

ودل قوله سبحانه: ﴿أجلهن أن يضعن حملهن﴾ [الطلاق: ٤]. على أنها إذا كانت حاملاً بتوءمين؛ لم تنقض العدة حتى تضعهما جميعًا.

ودلت على أن من عليها الاستبراء، فعدتها؛ وضع الحمل أيضًا.

ودلت على أن العدة تنقضي بوضعه على أي صفة كان: حيًا أو ميتًا، تام

---

(١) المقصود به الجواب الثالث الذي أجاب به الجمهور عن رأي أصحاب الأجلين وقد سبق الجوابان الأول والثاني. المراجع.

الخلقة أو ناقصها، نفخ فيه الروح أو لم ينفخ.

ودل قوله: ﴿يَتَرَبَّصْن بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. على الاكتفاء بذلك. وإن لم تحض. وهذا قول الجمهور. وقال مالك: إذا كانت عادتها أن تحيض في كل سنة مرة. فتوفي عنها زوجها؛ لم تنقض عدتها حتى تحيض حيضتها، فتبرأ من عدتها. فإن لم تحض انتظرت تمام تسعة أشهر من يوم وفاته. وعنه رواية ثانية كقول الجمهور: أنها تعتد أربعة أشهر وعشرًا. ولا تنتظر حيضها...[1]

...[2]**الدليل** الثاني: أن لفظ (القرء) لم يستعمل في كلام الشارع إلا للحيض، ولم يجيء عنه في موضع واحد استعماله للطهر، فحمله في الآية على المعهود المعروف من خطاب الشارع؛ أولى، بل متعين. فإنه ﷺ قال للمستحاضة: «**دعي الصلاة أيام أقرائك**» وهو ﷺ المعبر عن الله تعالى. وبلغة قومه نزل القرآن. فإذا ورد المشترك في كلامه على أحد معنييه؛ وجب حمله في سائر كلامه عليه، إذ لم تثبت إرادة الآخر في شيء من كلامه ألبتة. ويصير هو لغة القرآن التي خوطبنا بها. وإن كان له معنى آخر في كلام غيره. ويصير هذا المعنى؛ الحقيقة الشرعية في تخصيص المشترك بأحد معنييه، كما يخص المتواطىء بأحد أفراده. بل هذا أولى؛ لأن أغلب أسباب الاشتراك تسمية أحد القبيلتين الشيء باسم، وتسمية الأخرى بذلك الاسم مسمى آخر. ثم تتسع الاستعمالات. بل قال المبرد وغيره: لا يقع الاشتراك في اللغة إلا بهذا الوجه خاصة. والواضع لم يضع لفظًا مشتركًا ألبتة، فإذا ثبت استعمال الشارع لفظ «القرء» في الحيض؛ علم أن هذه لغته، فيتعين حمله عليها في كلامه.

يوضح ذلك: ما في سياق الآية من قوله: ﴿**لَا يَحِلُّ لهنَّ أن يَكتُمْنَ مَا خَلَقَ الله في أرحَامِهنَّ**﴾. [البقرة: ٢٢٨]. وهذا هو الحيض. والحمل، عند عامة المفسرين. والمخلوق في الرحم؛ إنما هو الحيض الوجودي، ولهذا قال السلف والخلف: هو الحمل والحيض. وقال بعضهم: الحمل، وبعضهم: الحيض. ولم يقل أحد قط: إنه الطهر؛ ولهذا لم ينقله من عُني بجمع أقوال أهل التفسير، كابن الجوزي وغيره.

---

(١) ذكر الشيخ ابن القيّم هنا مانصه باختصار: فصل: ومن ذلك اختلافهم في الأقراء: هل هي الحيض أو الأطهار؟ فقال أكابر الصحابة: إنها الحيض.. وقالت طائفة: الأقراء الأطهار.. وذكر البحث في عدة صفحات لمن أراده اهـ.ج.

(٢) ٣٦٥ زاد المعاد جـ٤.

وأيضًا: فقد قال سبحانه: ﴿**وَاللَّائي يَئِسْنَ من المحيضِ من نِسَائِكم إنِ ارْتَبْتُم فَعِدَّتُهنَّ ثَلاثَةُ أشهرٍ، واللَّائي لَم يَحِضنَ**﴾. [الطلاق: ٤]. فجعل كل شهر بإزاء حيضة. وعلق الحكم بعدم الحيض، لا بعدم الطهر من الحيض.

وأيضًا: فحديث عائشة، عن النبي ﷺ: «**طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان**» رواه أبو داود، وابن ماجه، والترمذي. وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث مظاهر بن أسلم. ومظاهر؛ لا يعرف له في العلم غير هذا الحديث.

وفي لفظ للدارقطنى: «**طلاق العبد ثنتان**»، وروى ابن ماجه: من حديث عطية العوفي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**طلاق الأمة اثنتان، وعدتها حيضتان**».

وأيضًا قال ابن ماجه في سننه: حدثنا علي بن محمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: «أمرت بَريرة أن تعتد بثلاث حيض».

وفي المسند: عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ خَيَّر بريرة. فاختارت. وأمرها أن تعتد عدة الحرة» وقد فسر «عدة الحرة» بثلاث حيض في حديث عائشة.

فإن قيل: فمذهب عائشة: أن الأقراء الأطهار؟

قيل: ليس هذا بأول حديث خالفه راويه، فأخذنا بروايته دون رأيه.

وأيضًا: ففي حديث الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذ؛ «أن النبي ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس بن شمّاس ـ لما اختلعت من زوجها ـ أن تتربص حيضة واحدة، وتلحق بأهلها» رواه النسائي.

وفي سنن أبي داود: عن ابن عباس؛ «أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها؛ فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة».

وفي الترمذي؛ «أن الربيع بنت معوذ اختلعت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها رسول الله ـ أو أمرت ـ أن تعتد بحيضة» قال الترمذي: حديث الربيع الصحيح: «أنها أُمِرَتْ أن تعتد بحيضة».

وأيضًا: فإن الاستبراء هو عدة الأمة، وقد ثبت عن أبي سعيد؛ أن النبي ﷺ، قال في سبايا أوطاس: «**لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة**» رواه أحمد وأبوداود.

فإن قيل: لا نسلم أن استبراء الأمة بالحيضة، وإنما هو بالطهر الذي هو قبل الحيضة. كذلك قال ابن عبد البر، وقال: قولهم: «إن استبراء الأمة حيضة بإجماع» ليس كما ظنوا. بل جائز لها عندنا؛ أن تنكح إذا دخلت في الحيضة، واستيقنت أن دمها دم حيض. كذلك قال إسماعيل بن إسحاق ليحيى بن أكثم حين أدخل عليه في مناظرته إياه؟

قلنا: هذا يرده قوله ﷺ: «**لا توطأ حامل حتى تضع، ولا حائل حتى تستبرأ بحيضة**».

وأيضًا: فالمقصود الأصلي من العدة؛ إنما هو استبراء الرحم. وإن كان لها فوائد أخر. ولشرف الحرة المنكوحة وخطرها؛ جعل العلم الدال على براءة رحمها: ثلاثة أقراء. فلو كان القرء هو الطهر؛ لم تحصل بالقرء الأول دلالة. فإنه لو جامعها في الطهر، ثم طلقها ثم حاضت؛ كان ذلك قرءًا محسوبًا من الأقراء عند من يقول: الأقراء الأطهار، ومعلوم أن هذا لم يدل على شيء؛ وإنما الذي يدل على البراءة الحيض الحاصل بعد الطلاق، لو طلقها في طهر لم يصبها فيها؛ فإنما يعلم هنا براءة الرحم بالحيض الموجود قبل الطلاق. والعدة لا تكون قبل الطلاق؛ لأنها حكمة. والحكم لا يسبق سببه فإذا كان الطهر الموجود بعد الطلاق لا دلالة له على البراءة أصلاً؛ لم يجز إدخاله في العدة الدالة على براءة الرحم. وكان مثله كمثل شاهد غير مقبول. ولا يجوز تعليق الحكم بشهادة شاهد لا شهادة له...

...[1]**فإن** قيل: فإذا جعلنا الأقراء الأطهار استقبلت عدتها بعد الطلاق بلا فصل، ومن جعلها الحيض لم تستقبلها على قوله حتى ينقضي الطهر.

قيل: كلام الرب تبارك وتعالى لابد أن يحمل على فائدة مستقلة. وحمل الآية على معنى: فطلقوهن طلاقًا، تكون العدة بعده؛ لا فائدة فيه. وهذا بخلاف ما إذا كان المعنى: فطلقوهن طلاقًا، يستقبلن فيه العدة، لا يستقبلن فيه طهرًا لا تعتد به. فإنها إذا طلقت حائضًا استقبلت طهرًا لا تعتد به. فلم تطلق لاستقبال العدة. ويوضحه قراءة من قرأ: [فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ]. وقُبُل العدة هو الوقت الذي يكون بين يدي العدة تستقبل به، كقبل الحائض.

يوضحه: أنه لو أريد ما ذكروه لقيل: في أول عدتهن. فالفرق بَيِّنٌ بين قُبل

(١) ٣٨٣ زاد المعاد جـ٤.

الشيء وأوله.

وأما قولكم: لو كانت القروء هي الحيضة؛ لكان قد طلقها قبل العدة.

فنقول: أجل. وهذا هو الواجب عقلاً وشرعًا: فإن العدة لا تفارق الطلاق ولا تسبقه.. بل يجب تأخرها عنه.

وقولكم: وكان ذلك تطويلاً عليها كما لو طلقها في الحيض.

قيل: هذا مبني على أن العلة في تحريم طلاق الحائض خشية التطويل عليها، وكثير من الفقهاء لا يرضون هذا التعليل، ويفسدونه بأنها لو رضيت بالطلاق فيه، واختارت التطويل؛ لم تُبَحْ له. ولو كان ذلك لأجل التطويل، لم تُبَحْ له برضاها، كما يباح إسقاط الرجعة الذي هو حق المطلق بتراضيهما بإسقاطها بالعوض اتفاقًا، ويبدونه في أحد القولين. وهذا مذهب أبي حنيفة وإحدى الروايتين عن أحمد ومالك. ويقولون: إنما حرم طلاقها في الحيض لأنه طلقها في وقت رغبته عنها. ولو سلمنا أن التحريم لأجل التطويل عليها فالتطويل المضر؛ أن يطلقها حائضًا، فتنتظر مضي الحيضة والطهر الذي يليها، ثم تأخذ في العدة. فلا تكون مستقبلة لعدتها بالطلاق. وأما إذا طلقت طاهرًا؛ فإنها تستقبل العدة عقب انقضاء الطهر. فلا يتحقق التطويل.

وقولكم: «إن القرء مشتق من الجمع؛ وإنما يجمع الحيض في زمن الطهر» عنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن هذا ممنوع. والذي هو مشتق من الجمع؛ إنما هو من باب اليائي من المعتل. من قَرَى يقري كقضى يقضي. والقرء من المهموز من باب الهمز. من قرأ يقرأ كنحر ينحر. وهما أصلان مختلفان. فإنهم يقولون: قريت الماء في الحوض أقريه: أي: جمعته. ومنه سميت القرية. ومنه قرية النمل: للبيت الذي تجتمع فيه؛ لأنه يقريها أي: يضمها ويجمعها.

وأما المهموز: فإنه من الظهور والخروج على وجه التوقيت والتحديد. ومنه قراءة القرآن. لأن قارئه يظهره ويخرجه مقدرًا محددًا، لا يزيد ولا ينقص.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**إنَّ علينا جمعَه وقرآنَهُ**﴾ [القيامة: ١٧].

ففرق سبحانه بين الجمع والقرآن. ولو كانا واحدًا لكان تكريرًا محضًا. ولهذا قال ابن عباس: ﴿**فَإذا قرأناهُ فاتبع قُرآنَهُ**﴾. [القيامة: ١٨]. «فإذا بيناه» فجعل

قرآنه. نفس إظهاره وبيانه. لا كما زعم أبوعبيدة: أن القرآن مشتق من الجمع.

ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سلًى قط، وما قرأت جنينًا. هو من هذا الباب، أي: ما ولدته وأخرجته وأظهرته. ومنه فلان يقرئك ويقرأ عليك السلام، هو من الظهور والبيان. ومنه قولهم: قرأت المرأة حيضة أو حيضتين: أي حاضتهما؛ لأن الحيض ظهور ما كان كامنًا كظهور الجنين.

ومنه قَرْء الثريا وقَرْء الريح وهو الوقت الذي يظهر فيه المطر والريح. فإنهما يظهران في وقت مخصوص.

وقد ذكر هذا الاشتقاق المصنفون في كتب الاشتقاق. وذكره أبو عمرو وغيره. ولا ريب أن هذا المعنى في الحيض أظهر منه في الطهر.

وقولكم: إن عائشة قالت: «القروء الأطهار» والنساء أعلم بهذا من الرجال.

فالجواب: أن يقال: جعل النساء أعلم بمراد الله من كتابه وأفهم لمعناه من أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود، وأبي الدرداء وأكابر أصحاب النبي ﷺ؟ فنزول ذلك في شأنهن لا يدل على أنهن أعلم به من الرجال؛ وإلا كانت كل آية نزلت في النساء؛ تكون النساء أعلم بها من الرجال، ويجب على الرجال تقليدهن في معناها وحكمها. فيكنّ أعلم من الرجال بآية الرضاع، وآية الحيض، وتحريم وطء الحائض، وآية عدة المتوفى عنها، وآية الحمل والفصال، ومدتهما، وآية تحريم إبداء الزينة إلا لمن ذكر فيها. وغير ذلك من الآيات التي تتعلق بهن، وفي شأنهن نزلت. ويجب على الرجال تقليدهن في حكم هذه الآيات ومعناها. وهذا لا سبيل إليه ألبتة.

وكيف؟ ومدار العلم بالوحي على الفهم والمعرفة ووفور العقل. والرجال أحق بهذا من النساء، وأوفر نصيبًا منهن، بل لا يكاد يختلف الرجال والنساء في مسألة إلا والصواب في جانب الرجال.

وكيف يقال: إذا اختلفت عائشة، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود في مسألة؛ أن الأخذ بقول عائشة أولى؟ وهل الأولى إلا قول فيه خليفتان راشدان، وإن كان الصديق معهما كما حكي عنه؟ فذلك القول مما لا يعدوه الصواب ألبتة. فإن النقل عن عمر وعلي ثابت. وأما عن الصديق؛ ففيه غرابة. ويكفينا قول جماعة من الصحابة، فيهم مثل عمر وعلي وابن مسعود وأبي

الدرداء وأبي موسى. فكيف نقدم قول أم المؤمنين وفهمها على أمثال هؤلاء؟

ثم يقال: فهذه عائشة ترى رضاع الكبير ينشر الحرمة، ويثبت المحرمية، ومعها جماعة من الصحابة، وقد خالفها غيرها من الصحابة. وهي روت فيه حديث التحريم به. فهلا قلتم: النساء أعلم بهذا من الرجال، ورجحتم قولها على قول من خالفها؟ ونقول لأصحاب مالك: وهذه عائشة لا ترى التحريم إلا بخمس رضعات ومعها جماعة من الصحابة، وروت منه حديثين، فهلا قلتم: النساء أعلم بهذا من الرجال، وقدمتم قولها على قول من خالفها؟

فإن قلتم: هذا حكم يتعدى إلى الرجال فيستوي النساء معهم فيه؟

قيل: ويتعدى حكم العدة مثله إلى الرجال. فيجب أن يستوي النساء معهم فيه. وهذا لاخفاء به. ثم يرجح قول الرجال في هذه المسألة بأن رسول الله ﷺ شهد لواحد من هذا الحزب بأن الله ضرب الحق على لسانه وقلبه. وقد وافق ربه تبارك وتعالى في عدة مواضع، قال فيها قولاً فنزل القرآن بمثل ما قال: وأعطاه النبي ﷺ فضل إنائه في النوم وأوّله بالعلم، وشهد له بأنه محدَّث مُلْهَم فإذا لم يكن بد من التقليد؛ فتقليده أولى. وإن كانت الحجة هي التي تفصل بين المتنازعين فتحكيمها هو الواجب. . .

(١)ذكر حكمه ﷺ في النفقة على الزوجات

وأنه لم يقدرها. ولا ورد عنه ما يدل على تقديرها. وإنما ردّ الأزواج فيها إلى العرف.

ثبت عنه في صحيح مسلم: أنه قال في خطبة حجة الوداع بمحضر الجمع العظيم قبل وفاته ببضعة وثمانين يومًا: «**واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**».

وثبت عنه ﷺ في الصحيحين: أن هندًا امرأة أبي سفيان قالت له: إن أبا سفيان رجل شحيح، ليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم. فقال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**».

(١) ٢٨٢زاد المعاد جـ٤ .

وفي سنن أبي داود: من حديث حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما تقول في نسائنا؟ قال: «**أطعموهن مما تأكلون، واكسوهنَّ مما تلبسون، ولا تضربوهن ولا تُقَبِّحوهنَّ**» وهذا الحكم من رسول الله ﷺ مطابق لكتاب الله تعالى حيث يقول تعالى: ﴿**وَالوالِدَاتُ يُرضِعْنَ أولاَدَهُنَّ حَولَينِ كَامِلينِ لِمَن أَرادَ أن يتمَّ الرَّضَاعَةَ، وعَلَى المولُودِ لَهُ رِزقُهنَّ وكسوتُهنَّ بالمعروفِ**﴾. [البقرة: ٢٣٣].

والنبي ﷺ جعل نفقة المرأة مثل نفقة الخادم وسوَّى بينهما في عدم التقدير، وردهما إلى المعروف. فقال: «**للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف**» فجعل نفقتهما بالمعروف. ولا ريب أن نفقة الخادم غير مقدرة. ولم يقل أحد بتقديرها.

(١)**وقال** ابن جريج: قلت لعطاء: ﴿**وعلى الوارث مثل ذلك**﴾. [البقرة: ٢٣٣]. قال: «على ورثة اليتيم أن ينفقوا عليه كما يرثونه. قلت له: أيحبس وارث المولود إن لم يكن للمولود مال؟ قال: أفيدعه يموت؟»

وقال الحسن: ﴿**وعلَى الوارث مثلُ ذلك**﴾ قال: «على الرجل الذي يرث أن ينفق عليه حتى يستغني» وبهذا فسر الآية جمهور السلف. منهم: قتادة، ومجاهد، والضحاك، وزيد بن أسلم، وشريح القاضي، وقبيصة بن ذؤيب، وعبدالله بن عتبة بن مسعود. وإبراهيم النخعي، والشعبي، وأصحاب ابن مسعود، ومن بعدهم: سفيان الثوري، وعبدالرزاق، وأبوحنيفة، وأصحابه، ومن بعدهم: أحمد وإسحاق وداود وأصحابهم.

وَقد اختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة على عدة أقوال:

أحدها: أنه لا يجبر أحد على نفقة أحد من أقاربه. وإنما ذلك برٌّ وَصِلَة. وهذا مذهب يعزى إلى الشعبي.

قال عبد بن حميد الكشي: حدثنا قبيصة، عن سفيان الثوري، عن أشعث، عن الشعبي قال: «ما رأيت أحدًا أجبر أحدًا على أحد. يعني: على نفقته».

وفي إثبات هذا المذهب بهذا الكلام نظر. والشعبي أفقه من هذا. والظاهر أنه أراد: أن الناس كانوا أتقى لله من أن يحتاج الغنى أن يجبره الحاكم على الإنفاق على قريبه المحتاج. فكان الناس يكتفون بإيجاب الشرع عن إيجاب الحاكم أو إجباره.

(١) ٣٢١ زاد المعاد جـ٤.

المذهب الثاني: أنه يجب عليه النفقة على أبيه الأدنى وأمه التي ولدته خاصة. فهذان الأبوان يجبر الذكر والأنثى من الولد على النفقة عليهما إذا كانا فقيرين. فأما نفقة الأولاد: فإن الرجل يجبر على نفقه ابنه الأدنى، حتى يبلغ فقط. وعلى نفقة بنته الدنيا حتى تزوج. ولا يجبر على نفقة ابن ابنه ولا بنت ابنه وإن سفلا. . .(١)

فصل(٢)

فإن قيل: فما تقولون في وجوب الإنفاق على الأقارب مع اختلاف الدين؟ لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى الوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾. [البقرة: ٢٣٣]. واختلاف الدين يمنع الميراث.

قيل: أما الأقارب مطلقًا فلا تجب نفقتهم مع اختلاف الدين.

وأما عمود النسب ففيهم روايتان: إحداهما: لا تجب نفقتهم لذلك.

والثانية: يجب، لتأكد قرابتهم بالعصبة. وحكى بعض الأصحاب في وجوب نفقة الأقارب مطلقًا ـ مع اختلاف الدين ـ أنه إنْ منع وجوب الإنفاق منَعَ في سائر الأقارب، وإن لم يكن مانعًا لم يمنع في حق قرابة الكلالة، كالرق والغنى. فأما أن يكون مانعًا في قرابة دون قرابة فلا وجه له؛ ولا يصح التعليل بتأكد: القرابة، لأن الأخ والأخت أقرب من أولاد البنات. والذي يقوم عليه الدليل وجوب الإنفاق وإن اختلف الدينان، لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسانَ بِوالِديهِ حُسنًا﴾. [العنكبوت: ٨]. ﴿وإن جَاهَدَاكَ على أن تُشرِكَ بي مَا ليس لَكَ به علمٌ فلا تُطعْهُما، وصَاحبهُما في الدُّنيا معروفًا﴾. [لقمان: ١٥].

وليس من الإحسان ولا من المعروف ترك أبيه وأمه في غاية الضرورة والفاقة، وهو في غاية الغنى.

وقد ذم الله تبارك وتعالى قاطعي الرحم، وعظم قطيعتها وأوجب حقها وإن كانت كافرة. قال تعالى: ﴿وَاتقوا الله الذي تساءلونَ بِهِ وَالأرحامَ﴾. [النساء: ١]. وقال تعالى: ﴿والذينَ ينقضُونَ عَهْدَ الله من بعدِ ميثاقِهِ ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصَلَ﴾. [الرعد: ٢٥]. (٣)**وفي** الحديث: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»، «والرحم معلقة بساق العرش

---

(١) يأتي في سورة النساء ـ إن شاء الله ـ بحث مفصل بأدلة واضحة حول هذا الموضع اهـ.ج.

(٢) ٤١٧ أحكام جـ٢.

(٣) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم وليس فيه كلمة (رحم) وإنما هي من تفسير أحد رواته وهو سفيان. فقد قال في روايته: يعني: قاطع رحم. راجع الفتح (١٠/٣٤٧) وصحيح مسلم: (٤/١١/١٩) رقم (٢٥٥٦)٠ المراجع.

تقول: **يارب صل من وصلني، واقطع من قطعني»**، وليس من صلة الرحم ترك القرابة تهلك جوعًا وعطشًا وعريًا، وقريبه من أعظم الناس مالاً. وصلة الرحم واجبة وإن كانت لكافر، فله دينه وللواصل دينه. وقياس النفقة على الميراث قياس فاسد؛ فإن الميراث مبناه على النصرة والموالاة بخلاف النفقة، فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة. وقد جعل الله للقرابة حقًا ـ وإن كانت كافرة ـ فالكفر لا يسقط حقوقها في الدنيا: قال الله تعالى: **﴿وَاعبدُوا الله وَلا تُشركُوا بهِ شَيئًا وبالوالدين إحسـانًا، وبذي القُرْبَى واليَتامى والمساكين والجارِ ذي القُربى والجارِ الجنُبِ، والصَّاحِبِ بالجَنْبِ وابن السبيلِ وَمَا مَلَكتْ أيمانكُم﴾**. [النساء: ٣٦].

وكل مَن ذكر في هذه الآية فحقه واجب وإن كان كافرًا، فما بالُ ذي القربى وحده يخرج من جملة من وصى الله بالإحسان إليه؟ ورأس الإحسان الذي لا يجوز إخـراجـه من الآية هو الإنفاق عليه عند ضرورته وحاجته، وإلا فكيف يوصي بالإحسان إليه في الحالة التي لا يحتاج إلى الإحسان، ولا يجب [له الإحسان] أحوج ما كان إليه؟.

والله سبحـانه وتعالى حرّم قطيعة الرحم وإن كانت كافرة. وتركُ رحمه يموت جوعًا وعطشًا وهو من أغنى الناس وأقدرهم على دفع ضرورته أعظم قطيعة.

...(١)**ولـو** افتـداه من الأسر كان له مطالبته بالفداء، وليس ذلك دينًا عليه، والقـرآن يدل على هذا القول، فإن الله تعالى قال: **﴿فَإِنْ أرضَعْنَ لَكُم فآتوهنَّ أجورهُنَّ﴾**. [الطلاق: ٦]. فأمر بإيتاء الأجر بمجرد الإرضاع، ولم يشترط عقدًا ولا إذن الأب. وكذلك قوله: **﴿وَالوَالداتُ يُرضعنَ أولادهُنَّ حَوْلينِ كاملينِ لِمَن أَرَادَ أن يتمَّ الرَّضَاعةَ، وَعَلَى المَوْلُودِ لَهَ رزقُهُنَّ وكسوتُهُنَّ بالمعروفِ﴾**. [البقرة: ٢٣٣]. فأوجب ذلك عليه، ولم يشترط عقدًا ولا إذنًا، ونفقةُ الحيوانِ واجبة على مالكه، والمستأجر والمرتهن له فيه حق، فإذا أنفق عليه النفقة الواجبة على ربه كان أحقَّ بالرجوع من الإنفاق على ولده، فإن قال الراهن: أنا لم آذنْ لك في النفقة، قال: هي واجبة عليك، وأنا أستحق أن أطالبك بها لحفظ المرهون والمستأجر، فإذا رضي المنفقُ بأن يعتاض بمنفعة الرهن وكان نظير النفقة؛ كان قد أحسن إلى صاحبه، وذلك خير مَحْض، فلو لم يأتِ به النصُّ لكان القياس يقتضيه.

---

(١) ٢٤ أعـلام جـ٢.

وطَرْدُ هذا القياس أن المودَعَ والشريكَ والوكيل إذا أنفق على الحيوان واعتاض عن النفقة بالركوب والحلب؛ جاز ذلك كالمرتهن.

(١)**قال الله تعالى: ﴿والوالِداتُ يُرْضِعْنَ أولادَهن حَولَين﴾** الآية. [البقرة: ٢٣٣].
إلى قوله تعالى: **﴿إذا سَلَّمْتُم ما آتَيتُم بالمعروفِ﴾** فدلت الآية على عدة أحكام:

أحدها: أن تمام الرضاع حولان(٢)، وذلك حق للولد إذا احتاج إليه وأكد بكاملين؛ لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر.

وثانيها: أن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل ذلك، بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل؛ فلهما ذلك.

وثالثها: أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك، وإن كرهت الأم إلا أن يكون مضاراً بها وبولدها فلا يجاب إلى ذلك، ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث أو أكثر، وأحمد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلاً في الحر والبرد ...

(٣-٤)**اختلف** الناس في القيام والسجود: أيهما أفضل؟ فرجحت طائفة القيام لوجوه:

أحدها: أن ذكره أفضل الأذكار. فكان ركنه أفضل الأركان.

والثاني: قوله تعالى: **﴿وقُوموا لله قانتين﴾**. [البقرة: ٢٣٨].

الثالث: قوله ﷺ **«أفضل الصلاة طول القنوت»**.

وقالت طائفة: السجود أفضل.

واحتجت بقوله ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد(٥)»**.

وبحديث معدان بن أبي طلحة قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ، فقلت: حدثني بحديث عسى الله أن ينفعني به، فقال: عليك بالسجود، فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: **«ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفع الله له بها درجة، وحَطَّ عنه بها خطيئة»**. قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء، فسألته؟ فقال

---

(١) ١٣٩ تحفة المودود.
(٢) بالنسخة (حولين) وهو خطأ، لأنه خبر (أن) وخبرها مرفوع، وعلامة رفعه هنا الألف، لأنه مثنى. المراجع.　　(٣) ١٢٢ زاد المعاد جـ١.
(٤) سبق الكلام على قوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء...﴾ [البقرة: ٢٣٥].
(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة.

لي مثل ذلك(١).

وقال رسول الله ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي ـ وقد سأله مرافقته في الجنة ـ: «**أعني على نفسك بكثرة السجود**».

وأول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ سورة ﴿**اقرأ**﴾ [العلق: ١] على الأصح، وختمها بقوله: ﴿**وَاسْجُدْ واقترب**﴾. [العلق: ١٩].

وبأن السجود لله يقع من المخلوقات كلها، علويها وسفليها.

وبأن الساجد أذل ما يكون لربه وأخضع له. وذلك أشرف حالات العبد. فلهذا كان أقرب ما يكون من ربه في هذه الحالة.

وبأن السجود هو سر العبودية، فإن العبودية هي الذل والخضوع. يقال: طريق معبد: أي ذَلَّلته الأقدام ووَطَّأته: وأذل ما يكون العبد وأخضع: إذا كان ساجدًا.

وقالت طائفة: طول القيام بالليل أفضل، وكثرة الركوع والسجود بالنهار أفضل.

واحتجت هذه الطائفة بأن صلاة الليل قد خُصَّت باسم القيام لقوله تعالى: ﴿**قُمِ اللَّيلَ**﴾ [المزمل: ٢] وقوله ﷺ: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا**» ولهذا يقال: قيام الليل، ولا يقال: قيام النهار.

قالوا: وهذا كان هدى النبي ﷺ. فإنه ما زاد في الليل على إحدى عشرة ركعة، أو ثلاث عشر ركعة.

وكان يصلي الركعة في بعض الليالي بالبقرة وآل عمران والنساء، وأما بالنهار فلم يحفظ عنه شيء من ذلك، بل كان يخفف السنن.

وقال شيخنا رضي الله عنه: الصواب: أنهما سواء، والقيام أفضل بذكره وهو القراءة والسجود أفضل بهيأته. فهيئة السجود أفضل من هيئة القيام، وذكر القيام أفضل من ذكر السجود.

وهكذا كان هدي رسول الله ﷺ. فإنه كان إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود، كما فعل في صلاة الكسوف وفي صلاة الليل، وكان إذا خفف القيام خفف الركوع والسجود. وكذلك كان يفعل في الفرض كما قاله البراء بن عازب:

---

(١) رواه مسلم والترمذي والنسائي.

«كان قيامه وركوعه وسجوده واعتداله قريبًا من السواء» والله أعلم.

...[١]**عن** أبي هريرة أنه قال: «والله لأنا أقربكم صلاةً برسول الله ﷺ» فكان أبوهريرة يقنت في الركعة الأخيرة من صلاة الصبح بعدما يقول: سمع الله لمن حمده فيدعو للمؤمنين ويلعن الكفار، ولا ريب أن رسول الله ﷺ فعل ذلك ثم تركه، فأحب أبوهريرة أن يعلمهم أن مثل هذا القنوت سنة. وأن رسول الله ﷺ فعله.

وهذا رد على أهل الكوفة الذين يكرهون القنوت في الفجر مطلقًا، عند النوازل وغيرها، ويقولون: هو منسوخ، وفعله بدعة.

فأهل الحديث؛ متوسطون: بين هؤلاء، وبين من استحبه عند النوازل وغيرها. وهم أسعد بالحديث من الطائفتين. فإنهم يقنتون حيث قنت رسول الله ﷺ، ويتركونه حيث تركه، فيقتدون به في فعله وتركه، ويقولون: فعله سنة، وتركه سنة.

ومع هذا فلا ينكرون على من داوم عليه، ولا يكرهون فعله، ولا يرونه بدعة، ولا فاعله مخالفًا للسنة، بل من قنت فقد أحسن، ومن تركه فقد أحسن، وركن الاعتدال محل للدعاء والثناء. وقد جمعهما النبي ﷺ فيه. ودعاء القنوت ثناء ودعاء، فهو أولى بهذا المحل.

وإذا جهر به الإمام أحيانًا ليعلم المأمومين فلا بأس بذلك. فقد جهر عمر بالاستفتاح ليعلم المؤمنين، وجهر ابن عباس بقراءة الفاتحة في صلاة الجنازة ليعلمهم أنها سنة.

ومن هذا أيضًا جهر الإمام بالتأمين، وهذا من الاختلاف المباح الذي لا يعنف فيه من فعله ولا من تركه. وهذا كرفع اليدين في الصلاة وتركه، وكالخلاف في أنواع التشهدات وأنواع الأذان والإقامة، وأنواع النسك: من الإفراد، والقران، والتمتع. وليس مقصدنا إلا ذكر هديه ﷺ الذي كان يفعله هو. فإنه قبلة القصد، وإليه التوجه في هذا الكتاب، وعليه مدار التفتيش والطلب. وهذا شيء والجائز الذي لا ينكر فعله وتركه شيء.

فنحن لم نتعرض في هذا الكتاب لما يجوز ولما لا يجوز، وإنما مقصودنا فيه هدي النبي ﷺ، الذي كان يختاره لنفسه، فإنه أكمل الهدي وأفضله. فإذا قلنا: لم يكن

(١) ١٤٣ زاد المعاد جـ١.

من هديه المداومة على القنوت في الفجر، ولا الجهر بالبسملة؛ لم يدل ذلك على كراهية غيره، ولا أنه بدعة، ولكن هديه ﷺ أكمل الهدي وأفضله. والله المستعان.

...[1] **العـزة** يراد بها ثلاثـة معان: عزة القوة. وعزة الامتناع. وعزة القهر. والرب تبارك وتعالى له العزة التامة بالاعتبارات الثلاث.

ويقال من الأول: عزَّ يَعَزُّ ـ بفتح العين ـ في المستقبل.

ومن الثاني: عَزَّ يَعِزُّ ـ بكسرها ـ

ومن الثالث: عَزَّ يعُزُّ ـ بضمها ـ أعطوا أقوى الحركات لأقوى المعاني، وأخفها لأخفها، وأوسطها لأوسطها.

وهذه «العزة» مستلزمة للوحدانية؛ إذ الشركة تنقص العزة. ومستلزمة لصفات الكمال؛ لأن الشركة تنافي كمال العزة. ومستلزمة لنفي أضدادها، ومستلزمة لنفي مماثلة غيره له في شيء منها.

فالروح تعـاين ـ بقوة معرفتها وإيمانها ـ بهاء العزة وجلالها وعظمتها. وهذه المعاينة هي نتيجة العقيدة الصحيحة المطابقة للحق في نفس الأمر، المتلقاة من مشكاة الوحي. فلا يطمع فيها واقف مع أقيسة المتفلسفين، وجدل المتكلمين، وخيالات المتصوفين.

[2]فصـــل

ومن منـازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، منزلة «السكينة» هذه المنزلة من منازل المواهب. لا من منازل المكاسب.

وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» في كتابه في ستة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَال لهم نَبِيُّهُم: إنَّ آيةَ مُلكِهِ: أن يَأتيكُمُ التَّابُوتُ فيهِ سكينةٌ مِن رَّبِّكُم﴾. [البقرة: ٢٤٨].

الثاني: قوله تعالى: ﴿أَنزل الله سَكينَتَهُ على رسولِهِ وَعَلَى المُؤمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

الثـالث: قولـه تعالى: ﴿إذْ يقولُ لِصَاحِبه: لا تحزنْ إنَّ الله مَعَنَا. فأنزلَ الله سَكِينَتَهُ عليه. وأيَّده بجنُودٍ لَم تَروهَا﴾. [التوبة: ٤٠].

الرابع: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذي أنزلَ السّكينَةَ في قُلُوبِ المُؤمنينَ لِيزدادُوا إيمانًا

---

(١) ٢٥٧ مدارج جـ٣.

(٢) ٥٠٢ مدارج جـ٢.

مَعَ إيمانِهِم. ولله جُنودُ السَّموات والأرض وكَانَ الله عليمًا حكيمًا﴾. [الفتح: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ الله عن المُؤمنِينَ إذْ يُبَايعُونَكَ تَحتَ الشَّجَرةِ. فَعلِمَ مَا في قُلُوبهم، فأنزلَ السكينةَ عَلَيهم. وَأثابهم فتحًا قريبًا﴾. [الفتح: ١٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿إذ جَعَلَ الذينَ كَفروا في قُلُوبِهِمُ الحَمِيةَ حَمِيَّةَ الجَاهِليَّةِ. فَأنزلَ الله سكينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلى المُؤمنينَ﴾. [الفتح: ٢٦]. الآية.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إذا اشتدت عليه الأمور: قرأ آيات السكينة.

وسمعته يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه، تعجز العقول عن حملها ـ من محاربة أرواح شيطانية، ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة ـ قال: فلما اشتد عليَّ الأمر، قلت لأقاربي ومن حولي: اقرءوا آيات السكينة، قال: ثم أقلع عني ذلك الحال، وجلست وما بي قَلَبة.

وقد جربت أنا أيضًا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه. فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأنينته.

وأصل «السكينة» هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف. فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه. ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب. كيوم الهجرة، إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رءوسهم. لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما.

وكيوم حُنين، حين وَلَّوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يَلْوي أحد منهم على أحد.

وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكُّم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس.

وحسبك بضعف عمر رضي الله عنه عن حملها ـ وهو عمر ـ حتى ثبته الله بالصديق رضي الله عنه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة، إلا التي في سورة البقرة.

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق، حتى وارى التراب جلدة بطنه. وهو يرتجز بكلمة عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا»

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: «إني باعث نبيًّا أميًّا، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صَخَّاب في الأسواق، ولا مُتَزَيِّن بالفحش، ولا قَوَّال للخنا. أُسدِّده لكل جميل. وأَهَبُ له كل خُلُقٍ كريم. ثم أجعل السكينة لباسه، والبِرَّ شِعاره، والتقوى ضميره. والحكمة مقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته. والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه».

قال صاحب المنازل:

«**السكينة:** اسم لثلاثة أشياء. أولها: سكينة بني إسرائيل التي أعطوها في التابوت. قال أهل التفسير: هي ريح هفافة. وذكروا صفتها».

قلت: اختلفوا: هل هي عين قائمة بنفسها، أو معنى؟ على قولين:

أحدهما: أنها عين. ثم اختلف أصحاب هذا القول في صفتها: فروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنها ريح هفافة. لها رأسان ووجه كوجه الإنسان».

ويروى عن مجاهد: إنها صورة هِرَّة لها جناحان، وعينان لهما شعاع. وجناحان من زمرد وزبرجد، فإذا سمعوا صوتها أيقنوا بالنصر.

وعن ابن عباس: هي طست من ذهب من الجنة. كان يغسل فيه قلوب الأنبياء.

وعن وهب بن مُنَبِّه: هي روح من روح الله تتكلم. إذا اختلفوا في شيء أخبرتهم ببيان ما يريدون.

والثاني: أنها معنى. ويكون معنى قوله: ﴿وسَكِينةٌ من رَبّكُم﴾ [البقرة:٢٤٨] أي: ومجيئه إليكم: سكينة لكم وطمأنينة.

وعلى الأول: يكون المعنى: إن السكينة في نفس التابوت. ويؤيده عطف قوله: ﴿وبقيةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هٰرونَ﴾ قال عطاء بن أبي رباح: ﴿فيه سكينة﴾ هي ما تعرفون من الآيات فتسكنون إليها. وقال قتادة، والكلبي: هي من السكون، أي طمأنينة من ربكم. ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا. . .(١)

(٢)**قوله** تعالى: ﴿واصبرْ وما صبرُكَ إلَّا باللهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقول هود: ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ [هود: ٨٨]. ومعلوم أن الصبر والتوفيق فعل اختياري للعبد، وقد أخبر أنه به لا بالعبد، وهذا لاينبغي أن يكون فعلاً للعبد حقيقة، ولهذا أمر به، وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه، وإنما يؤمر العبد بفعله هو، ومع هذا فليس فعله واقعاً، به وإنما هو بالخالق لكل شيء الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالتصبير منه سبحانه وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد وهو فعل العبد.

ولهذا أثنىٰ على من يسأله أن يصبره فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالوتَ وجنودِهِ قالَوا رَبَّنا أَفْرِغْ علينا صبْراً وثَبِّتْ أَقْدَامنا وانصرنا على القومِ الكافرين فهزموهم بإذن الله﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١]. ففي الآية أربعة أدلة:

أحدها: قولهم: ﴿أفرغ علينا صبراً﴾.

والصبر فعلهم الاختياري فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه، إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: ﴿وثبت أقدامنا﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: ﴿وانصرنا على القومِ الكافرين﴾ فسألوه النصر، وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب؛ فيحصل النصر.

---

(١) استمر المؤلف في بحث السكينة لمن أراده. وخلاصته أن السكينة الثانية: للمحدثين، والثالثة: التي نزلت على قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين. ج.	(٢) ٦٣ شفاء.

وأيضاً: فإن كون الإنسان منصوراً على غيره:إما أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم، وذلك أيضًا فعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده وأثنى على من طلبه منه.

وعند القدرية لا يدخل تحت مقدور الرب.

الرابع قوله: ﴿**فهزموهم بإذن الله**﴾ وإذنه ها هنا هو الإذن الكوني القدري أي: بمشيئته وقضائه وقدره، ليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر؛ فإن ذلك لايستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور المكون لايتخلف عنه ألبتة.

[1]**وفي** صحيح البخاري: عن أبي هريرة ؛ أنه أتاه آتٍ يحثو من الصدقة، وكان قد جعله النبي ﷺ عليها ليلة بعد ليلة، فلما كان في الليلة الثالثة قال: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ـ وكانوا أحرص شيءٍ على الخير ـ فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسيّ: ﴿**الله إلـهَ إلا هو الحيُّ القَيُّوم**﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتى تختمها؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي، ﷺ: «**صدقك وهو كذوب**».

وقد روى الإمام أحمد نحو هذه القصة في «مسنده»؛ أنها جرت لأبي الدرداء، ورواها الطبراني في معجمه أنها جرت لأُبي بن كعب.

[2] **لما** بعث الله رسول الله ﷺ؛ استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعاً واختياراً، ولم يكره أحداً قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه؛ فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه؛ امتثالاً لأمر ربه سبحانه حيث يقول: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ**﴾، [البقرة: ٢٥٦]. وهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحداً على الدِّين.

نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة؛ كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه

---

(١) ٢٠٦ الوابل الصيب.

(٢) ١١ هداية.

عن ذلك؛ حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام.

والصحيح: أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين؛ بل: إما أن يدخلوا في الدين، وإما أن يعطوا الجزية كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة، وإن استثنىٰ هؤلاء بعض عبدة الأوثان.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ؛ تبينَّ له أنه لم يكره أحداً على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه؛ فلم يقاتله ما دام مقيمًا على هدنته لم ينقض عهده؛ بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٧].

ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدءوه بالقتال؛ قاتلهم: فمن على بعضهم، وأجلىٰ بعضهم، وقتل بعضهم.

وكذلك لما هادن قريشًا عشر سنين؛ لم يبدءهم بقتال؛ حتى بدءوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضًا هم جاءوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه؛ لم يقاتلهم.

والمقصود: أنه ﷺ لم يكره أحداً على الدخول في دينه ألبتة، وإنما دخل الناس في دينه اختياراً وطوعاً، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته؛ لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقًّا.

فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية أو أكثرهم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلـه إلا الله...**» وذكر الحديث، ثم دخلوا في الإسلام من غير رغبة ولا رهبة، وكذلك من أسلم من يهود المدينة، وهم جماعة كثيرون غير عبدالله بن سلام مذكورون في كتب السير والمغازي...

...(١) **الوجه** الرابع عشر: أن النور صفة كمال، وضده صفة نقص؛ ولهذا:

---

(١) ٢٠٢ مختصر الصواعق جـ٢.

سمى الله نفسه نوراً، وسمى كتابه نوراً، وجعل لأوليائه النور ولأعدائه الظلمة؛ فقال: ﴿اللهُ وليُّ الَّـذين آمَنُـوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذين كَفروا أولياؤهم الطاغُوتُ يخرجونهم من النورِ إلى الظلماتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويجيء الأنبياء يوم القيامة وأممهم؛ لكل نبي نوران، ولكل واحد من أتباعهم نور، وتجيء هذه الأمة؛ لكل منهم نوران، ولنبيهم ﷺ في كل شعرة نور.

ولما كانت مادة الملائكة التي خلقوا منها نوراً؛ كانوا بالمحل الذي أحلهم الله به، وكانوا خيراً محضاً.

والنور ظاهر وباطن فمتى حل ظاهره بجسم كساه؛ من: الجمال والجلال، والمهابة والضياء، والحسن والبهجة والسناء؛ بحسب ما كسي من النور، وزالت عنه الوحشة والثقل وكان: مفرحاً لرائيه، سارًّا لناظريه. وإذا حل باطنه بالباطن؛ اكتسى من الخير والعلم، والرحمة والهداية، والعفو والجود، والصبر والحلم، والتواضع والنصيحة؛ بحسب ذلك النور. فالنور في الحقيقة هو كمال العبد في الظاهر والباطن.

ولما كان ليوسف الصديق من هذا النور النصيب الوافر؛ ظهر في جماله الظاهر والباطن؛ فكان على الصفة التي ذكرها الله في كتابه.

وكذلك رسول الله ﷺ لما كان نصيبه؛ من هذا النور أكمل نصيب؛ كان أجمل الخلق ظاهراً وباطناً؛ فكان وجهه يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر، وكان كلامه كله نوراً، وعمله نوراً، ومدخله ومخرجه نوراً؛ فإذا تكلَّم رؤي النور يخرج من بين ثناياه. فكان أكمل الخلق في نور الظاهر والباطن، وكان نوره من أكبر آيات نبوته.

قال عبدالله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه؛ فجئت حتى رأيته، فلما وقع بصري عليه؛ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «**ياأيها الناس: أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»، فاستدل على نبوته: بنور وجهه، ونور كلامه؛ بنوره المرئي، ونوره المسموع كما قال حسان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... لكانت بداهته تأتيك بالخبر

أي: ما يبدهك من وجهه ومنظره ونوره وبهائه، وأخذه الصرصري فقال:

لو لم يقل إني رسول أما شاهده في وجهه ينطق

فإذا كان هذا نور عبده، فكيف بنوره سبحانه؟!

. . .(١) **وقد** سمى الله سبحانه وتعالى «العلم» الذي بعث به رسوله: نوراً، وهدى، وحياة. وسمى ضده: ظلمة، وموتاً، وضلالاً. قال الله تعالى: **﴿اللهُ وليُّ الذين آمنوا، يخرجُهُم من الظلمات إلىٰ النورِ، والَّذينَ كفروا أوليآؤُهُم الطَّاغُوتُ، يخرجُونهُم منَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ﴾** [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: **﴿أوَ مَن كَانَ ميتاً فأحييناهُ وجعلنا لَهُ نوراً يمشي به في النَّاسِ، كَمَنْ مَثَلُه في الظُّلُمَاتِ لَيسَ بِخارجٍ مِنها﴾** [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: **﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مُّبين يهدي به اللهُ مَنِ اتَّبع رضوانَهُ سُبُلَ السلامِ. ويُخرجهُمْ من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذنِهِ. ويهديهم إلى صِراطٍ مُّستقيم﴾** [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: **﴿يَاأيُّها الناسُ، قد جاءَكُم بُرهانٌ من رَّبِّكُم. وأنزلْنا إليكم نورًا مُبيناً﴾** [النساء: ١٧٤].

وقال تعالى: **﴿فالذين آمنوا بِه وعَزَّرُوهُ ونصروهُ، واتَّبعُوا النُّورَ الذي أُنزِلَ معهُ، أولئِك هُمُ المفلحونَ﴾** [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: **﴿وكذلك أوحينا إليكَ رُوحاً من أَمْرِنَا، ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ. ولكِنْ جَعلْناهُ نورًا نهدي به من نشاءُ من عِبادِنا﴾** [الشورى: ٥٢].

فجعله «روحاً» لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. و «نوراً» لما يحصل به من الهدى والرشاد.

ومثل هذا النور في قلب المؤمن: **﴿كمشكاةٍ فيها مصبَاحٌ. المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كأنَّها كَوْكَبٌ دُرِيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَاركةٍ زَيْتُونَةٍ لا شرقيةٍ ولا غَرْبيَّةٍ. يكادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَو لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ. نورٌ على نُورٍ. يهدي اللهُ لِنُورهِ من يَشَاءُ﴾** [النور: ٣٥].

(١) ١٦٢ مدارج جـ٣.

ومثل حال من فقد هذا النور؛ بمن هو في ﴿**أو كظلمات**[1] **في بحرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ موجٌ، مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ، مِنْ فوقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فوقَ بَعْضٍ إذا أخرجَ يدهُ لم يَكَدْ يَراهَا. ومَن لَم يَجعلِ اللهُ لَهُ نوراً فما لَهُ مِن نُورٍ**﴾ [النور: ٤٠].

. . .[2]**قوله** تعالى: ﴿**أَلم تَرَ إلى الذي حاجَّ إبراهيم في رَبِّه أَنْ آتاهُ اللهُ المُلْكَ إذْ قَالَ إبراهيمُ رَبِّيَ الَّـذي يُحْيي وَيُمِيتُ. قَالَ أنَـا أُحْيي وَأُمِيتُ. قال إبـراهيمُ فإنَّ اللهَ يَأْتي بالشمسِ من المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا من المَغْرِبِ. فَبُهِتَ الَّذي كَفَر واللهُ لاَيَهْدِي القومَ الظَّالمِين**﴾ [البقرة: ٢٥٨].

لما أجاب إبراهيم ﷺ المحاج له في الله: بأن الذي يحيي ويميت هو الله؛ أخذ عدو الله في المغالطة والمعارضة؛ بأنه يحيي ويميت: بأنه يقتل من يريد، ويستبقي من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هذا، فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس، من غير الجهة التي يأتي الله بها منها بزعمه، فإنه ادَّعىٰ أنه يساوي الله في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقاً؛ فليتصرف في الشمس تصرفاً تصح به دعواه، وليس هذا انتقالاً من حجة إلى حجة أوضح منها، كما زعم بعض النظار، وإنما هو إلزام للمدعي في طرد حجته إن كانت صحيحة.

... **طلب** إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه. إذ قال: ﴿**رَبِّ أرِني: كيفَ تحيي الموتىٰ؟ قال: أَوَ لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئنَّ قَلْبي**﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فطلب إبراهيم: أن يكون اليقين عياناً، والمعلوم مشاهداً. وهذا هو المعنى الذي عبَّر عنه النبي ﷺ بالشك في قوله: «**نحن أحق بالشك من إبـراهيم**»، حيث قال: ﴿**رَبِّ أَرني كيف تحيي الموتىٰ؟**﴾ وهو ﷺ لم يشك ولا إبراهيم حاشاهما من ذلك، وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة.

هذا أحد الأقوال في الحديث.

وفيه قول ثان: أنه على وجه النفي أي: لم يشك إبراهيم؛ حيث قال ما قال لم نشك نحن. وهذا القول صحيح أيضًا. أي: لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن أحق به منه. لكن لم يطلب ما طلب شكًّا وإنما طلب ماطلبه طمأنينة. . . .

---

(١) في المطبوعة: ظلمات فأثبتناالصواب من الآية.

(٢) ١٠٩ مختصر الصواعق جـ١. (٣) ٤٧١ مدارج جـ١.

...(١) **إبراهيم** - ﷺ - طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى؛ إلى رؤية تحقيقه عيانًا. فطلب - بعد حصول العلم الذهني - تحقيق الوجود الخارجي؛ فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب.

ولما كان بين «العلم» و «العيان» منزلة أخرى؛ قال النبي ﷺ: «**نحن أحق بالشكِّ من إبراهيم**» إذ قال: ﴿**رَبِّ أَرِني كيف تحيي الموتىٰ**﴾ وإبراهيم لم يَشُكَّ ﷺ، ورسول الله ﷺ لم يشك؛ ولكن أوقع اسم «الشك» على المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سمي العلم اليقيني - قبل مشاهدة معلومه - ظنًّا. قال تعالى: ﴿**الَّذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلاَقُوا رَبِّهِم، وأَنَّهُمْ إِليهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿**الَّذين يظُنُّونَ أنهم مُلاقوا اللهِ**﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وهذا الظن علم جازم. كما قال تعالى: ﴿**واعلَمُوا أَنكُم مُلَاقُوهُ**﴾ [البقرة: ٢٢٣]. لكن بين الخبر والعيان فرق.

وفي المسند مرفوعاً: «**ليس الخبر كالعيان**» ولهذا لما أخبر الله موسى: أنه قد فتن قومه، وأن السامري أضلهم؛ لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح، ما حصل له عند مشاهدة ذلك...

...(٢) **فإن قلت**: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟...

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق. واجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء. وهذا التخلف له عدة أسباب: أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه: أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك: ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيباً شهادة.

وقد روى أحمد في مسنده، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس الخبر كالمعاينة**».

---

(١) ٣٫٨٨ مدارج جـ٣. (٢) ٤٥ الجواب.

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم: عدم استحضاره، أو غيبته عن القلب كثيراً من أوقاته أو أكثرها؛ لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك: تقاضي الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورخص التأويل، وإلف العوائد؛ فهناك لايمسك الإيمان في القلب؛ إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا.

وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

وجماع هذه الأسباب؛ يرجع إلى ضعف: البصيرة، والصبر؛ ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة في الدين فقال تعالى: ﴿**وجَعْلنَاهُم أئمةً يهدونَ بِأمْرِنا لَمَّا صَبَروا وكانُوا بآيَاتِنا يُوقِنُوْنَ**﴾ [السجدة: ٢٤].

...[1] **قوله** تعالى: ﴿**مَثَلُ الذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ في سبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ في كُلِّ سُنْبلةٍ مائةُ حَبَّة، والله يُضاعِفُ لِمَن يَشَاء، وَاللهُ وَاسِعٌ عَليمٌ**﴾ [البقرة: ٢٦١]. شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله؛ سواء كان المراد به: الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر، بمن بَذَرَ بَذْراً فأنبتت كلُّ حبةٍ منه سبعَ سنابل، اشتملَتْ كلُّ سنبلة على مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك؛ بحسب حال المنفق، وإيمانه، وإخلاصه، وإحسانه، ونَفْعِ نفقته، وقَدْرِها، ووُقوعها موقعها؛ فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من: الإيمان، والإخلاص، والتثبيت عند النفقة، وهو إخراج المالِ بقلبٍ ثابت قد انشرحَ صدره بإخراجه، وسَمَحَتْ به نفسُه، وخَرَجَ من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه، غيرُ جَزِع ولا هَلِع ولا مُتْبعه نفسَه ترجُفُ يدُه وفؤاده؛ ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومَصَارفه بمواقعه، وبحسب طيب المنفق وزكاته.

وتحت هذا المثل من الفقه؛ أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبَذر، فالمنفق مالَه الطيب لله لا لغيره باذرٌ ماله في أرضٍ زكية، فمغله بحسب: بَذْره، وطيب أرضه، وتعاهُدِ البذر بالسقي، ونَفْي الدَّغَلِ والنبات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمورُ ولم

(١) ١٨٣ أعلام جـ١.

تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة؛ جاء أمثالَ الجبالِ، وكان مثله كمثل جنة برَبْوَةٍ، وهي المكان المرتفع، الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح، فتربى الأشجار هناك أتم تربية، فنزَلَ عليها من السماء مَطَرٌ عظيم القَطْر مُتَتَابع؛ فروَاها ونمَّاها؛ فآتت أُكلها ضعفي ما يؤتيه غيرُها؛ بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فَطَلٌّ: مطر صغير القَطْر، يكفيها لكرم منبتها، يزكو على الطل وينمى عليه.

مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل؛ إشارة إلى نوعي الإنفاق: الكثير، والقليل.

فمن الناس مَنْ يكون إنفاقه وابلاً، ومنهم من يكون إنفاقه طَلاًّ، والله لا يضيع مثقالَ ذرة.

فإن عَرَضَ لهذا العامل ما يغرق أعمالَه ويُبْطِل حسناته؛ كان بمنزلة رجل له جَنَّة من نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات، وأصَابَه الكِبَرُ وله ذرية ضُعَفاء، فأصابها إعصار فيه نار؛ فاحترقت.

فإذا كان يومُ استيفاء الأعمال وإحراز الأُجور؛ وَجَدَ هذا العاملُ عملَه قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة، فحسْرَتُهُ حينئذ أشَدُّ من حَسْرة هذا على جنته.

فهذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسَلْب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبرُ والضعفُ؛ فهو أحْوَجُ ما كان إلى نعمته، ومع هذا فله ذرية ضعفاء لايقدرون على نفعه والقيام بمصالحه، بل هم في عِيَاله فحاجَتُه إلى نعمته حينئذٍ أشَدُّ ما كانت لضعفه وضعف ذريته، فكيف يكون حالُ هذا إذا كان له بستان عظيم فيه من جميع الفواكه والثمر، وسلطان ثمره أجلّ الفواكه وأنفعها، وهو ثمرالنخيل والأعناب، فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته، فأصبح يوماً وقد وَجَده محترقاً كله كالصَرِيم؟ فأيُّ حسرةٍ أعظمُ من حسرته؟

قال ابن عباس: هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره.

وقال مجاهد: هذا مثلُ المفرِّطِ في طاعة الله؛ حتى يموت.

وقال السدي: هذا مثل المُرَائي في نفقته الذي يُنْفِقُ لغير الله، ينقطع عنه نفعُهَا؛ أحوج ما يكون إليه.

وسأل عمر بن الخطاب الصحابة يوماً عن هذه الآية، فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء ياأمير المؤمنين، قال: قل ياابن أخي ولا تحقر نفسك، قال: ضرب مثلاً لعمل، قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بالحسنات، ثم بعث الله له الشيطانَ؛ فعملَ بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله كلها.

قال الحسن: هذا مثَلُ قَلَّ والله مَنْ يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه؛ أفقر ما كان إلى جنته. وإن أحَدَكم ـ والله ـ أفقَرُ ما يكون إلى عمله؛ إذا انقطعت عنه الدنيا.

فصـــــل

فإنْ عَرَضَ لهذه الأعمال من الصدقات ما يُبْطلها من المَنِّ والأذَىٰ والرياء؛ فالرياء يمنع انعقادها سببًا للثواب، والمنُّ والأذىء يبطل الثواب الذي كان سبباً له، فمثلُ صاحبها وبطلانُ عمله كمثل صَفْوَن ـ وهو الحجر الأمْلَسُ ـ عليه تراب فأصابه وابلٌ ـ وهو المطر الشديد ـ فتركه صَلْداً لا شيء عليه.

وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ، وانطباقَها على أجزاء الممثل به؛ تعرف عظمة القرآن وجلالته، فإن الحجر في مقابلة قَلْب هذا المرائي والمانِّ والمؤذي؛ فقلبه في قَسْوَته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر، والعملُ الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر؛ فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النَّبَات والثبات عند نزول الوابل؛ فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلأ، وكذلك قلب المرائي ليس له ثباتٌ عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر، فإذا نزل عليه وابلُ الوَحْي؛ انكشف عنه ذلك الترابُ اليسير الذي كان عليه؛ فبرز ما تحته حجراً صَلْداً لا نبات فيه. وهذا مثلٌ ضربه الله سبحانه لعمل المُرائي ونفقته، لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه؛ أحْوَجَ ماكان إليه، وبالله التوفيق.

...[1] **قوله** تعالى: ممثلاً لقبح الرياء المبطل للعمل، والمنِّ والأذى المبطل

---

(١) ٢٤٠ مدارج جـ١.

للصدقات: ﴿صفوان﴾ وهو الحجَر الأملس ﴿عليه تراب﴾ غبار قد لصق به «فأصابه مطر» شديد فأزال ما عليه من التراب ﴿فتركه صلداً﴾ أملس لا شيء عليه. وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه. فـ «الصفوان» وهو الحجَر؛ كقلب المرائي والمانّ والمؤذي، و«التراب» الذي لصق به؛ ما تعلَّق به من أثر عمله وصدقته، و«الوابل» المطر الذي به حياة الأرض، فإذا صادفها ليِّنة قابلة؛ نَبَتَ فيها الكلأ، وإذا صادف الصخور والحجارة الصُّم: لم ينبت فيها شيئاً. فجاء هذا الوابل إلى التراب الذي على الحجر، فصادفه رقيقاً، فأزاله؛ فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات.

وهذا يدل على أن قبح «المنّ، والأذى، والرياء» مستقر في العقول؛ فلذلك نبهها على شَبهه ومثاله.

وعكس ذلك قوله تعالى: ﴿ومَثَلُ الذين ينفقون أموالَهم ابْتغاءِ مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسِهم، كمثلِ جَنَّةٍ برَبْوةٍ أصابَها وابلٌ. فآتت أُكُلَها ضِعْفَين. فإن لَم يُصِبْها وَابِلٌ فطلٌّ، واللهُ بما تَعْمَلُونَ بصير﴾ [البقرة: ٢٦٥]. فإن كانت هذه الجنة، التي بموضع عال؛ حيث لا تُحجَب عنها الشمس والرياح، وقد أصابها مطر شديد؛ فأخرجت ثمرتها ضِعفَي ما يخرج غيرها؛ إن كانت مستحسنة في العقل والحس. فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا لشكور، بل بثباتٍ من نفسه، وقوة على الإنفاق، لا يخرج النفقة وقلبُه يَرْجُف على خروجها، ويداه ترتعشان، ويضعف قلبه، ويخور عند الإنفاق؛ بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة.

ولما كان الناس في الإنفاق على هذين القسمين؛ كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت: كمثل الوابل. ومثل نفقة الآخر كمثل الطل، وهو المطر الضعيف. فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته، وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه، أفلا تراه سبحانه نبَّه العقول على ما فيها من استحسان هذا، واستقباح فعل الأول؟

وكذلك قوله: ﴿أَيَوَدُّ أحدُكم أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّة من نخيلٍ وأَعنَاب تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، له فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ، وأصابَه الكِبَر، وله ذُرِّيَّةٌ ضُعفَاءُ فأَصَابَها

إعصَارٌ فِيه نَارٌ، فَاحْتَرَقَتْ؟ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فنبه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة، التي تحبط ثواب الحسنات، وشبهها بحال شيخ كبير، له ذرية ضعفاء؛ بحيث يخشى عليهم الضيعة وعلى نفسه، وله بستان هو مادة عيشه وعيش ذريته، فيه النخيل والأعناب ومن كل الثمرات فأرجَى وأفقر ماهو له وأسَرُّ ما كان به؛ إذ أصابه نار شديدة فأحرقته.

فنبه العقول على أن قبح المعاصي التي تغرق الطاعات كقبح هذه الحال، وبهذا فسرها عمر وابن عباس رضي الله عنهم «لرجل غني عمل بطاعة الله زمانًا؛ فبعث الله له الشيطان؛ فعمل بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله» ذكره البخاري في صحيحه.

أفلا تراه نبه العقول على قبح المعصية بعد الطاعة وضرب لقبحها هذا المثل.

(1)**المقصود** في الزكاة أمور عديدة:

منها: سَدُّ خَلَّة الفقير.

ومنها: إقامة عبودية الله بفعل نفس ما أمر به.

ومنها: شكر نعمته عليه من المال.

ومنها: إحراز المال وحفظه بإخراج هذا المقدار منه.

ومنها: المواساة بهذا المقدار؛ لما علم الله فيه من مصلحة رب المال ومصلحة الآخذ.

ومنها: التعبد: بالوقوف عند حدود الله، وأن لا ينقص منها ولا يغير.

وهذه المقاصد إن لم تكن أعظم من مقصود إراقة الدم في الأضحية؛ فليست بدونه، فكيف يجوز إلغاؤها واعتبار مجرد إراقة الدم؟.

ثم إن هذا الفرق ينعكس عليكم من وجه آخر، وهو أن مقصود الشارع من إراقة دم الهَدْي والأضحية؛ التقربُ إلى الله سبحانه بأجَلِّ ما يقدر عليه من ذلك

(1) ٣٠٠ أعلام جـ١.

النوع، وأعلاه وأغلاه ثمناً، وأنفسه عند أهله، فإنه لن يناله سبحانه لحومُها ولا دماؤها، وإنما يناله تقوى العبد منه، ومحبته له، وإيثاره بالتقرب إليه: بأحب شيء إلى العبد، وآثره عنده، وأنفسه لديه، كما يتقرب المحبُّ إلى محبوبه: بأنفس ما يقدر عليه، وأفضله عنده.

ولهذا فَطَر الله العبادَ على أن من تقرَّب إلى محبوبه بأفضل هدية يقدر عليها وأجَلِّها وأعلاها؛ كان أحظىٰ لديه، وأحبَّ إليه ممن تقرب إليه بألف واحدٍ رديء من ذلك النوع.

وقد نبَّه سبحانه على هذا بقوله: ﴿**يَاأيُّها الَّذينَ آمنُوا أنفِقُوا مِن طيباتِ ما كَسَبتُم، ومِما أَخْرَجْنَا لَكُم منَ الأرضِ، ولا تيمَّمُوا الخبيثَ منه تنفقُونَ، ولستُم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه، واعلمُوا أَنَّ الله غنيٌّ حميدٌ**﴾ البقرة: ٢٦٧].

وقال تعالى: ﴿**ولكنَّ البِرَّ من آمن باللهِ اليَومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنَّبيِّينَ وآتى المالَ عَلَىٰ حُبِّه**﴾ [البقرة:١٧٧]. وقال: ﴿**ويُطْعِمُون الطعامَ على حبه**﴾ [الإنسان:٨]. وسئل النبي ﷺ عن أفضل الرقاب فقال: «**أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها**».

ونذر عمر أن ينحر نجيبة فأعطى بها نجيبتين، فسأل النبي ﷺ أن يأخذهما بها وينحرهما، فقال: «**لا، بل انحرها إياها**» فاعتبر في الأضحية عَيْنَ المنذور دون ما يقوم مقامه، وإلا كان أكثر منه، فلأن يعتبر في الزكاة نفس الواجب، دون ما يقوم مقامه، ولو كان أكثر منه؛ أولى وأحرى. . .

(١)**وقال** عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿**ولا تَيَمَّمْوا الخَبيثَ منه تُنفقونَ ولستم بآخِذِيهِ إلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فيه وَاعْلَمُوا أَنَّ الله غَنيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [البقرة: ٢٦٧]. يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمداً؛ بل هو الغني بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته، وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائدته عليكم.

---

(١) ١٣٥ طريق الهجرتين.

ومن المتعين على من لم يباشر قلبه؛ حلاوة هذا الخطاب، وجلالته، ولطف موقعه، وجذبه للقلوب والأرواح، ومخالطته لها؛ أن يعالج قلبه بالتقوى، وأن يستفرغ منه المواد الفاسدة التي حالت بينه وبين حظه من ذلك، ويتعرض إلى الأسباب التي يناله بها، من صدق الرغبة واللجأ إلى الله أن: يحيي قلبه، ويزكيه، ويجعل فيه الإيمان والحكمة.

فالقلب الميت لا يذوق طعم الإيمان ولا يجد حلاوته، ولا يتمتع بالحياة الطيبة، لا في الدنيا ولافي الآخرة.

ومن أراد مطالعة أصول النعم؛ فليسم سرح الذكر في رياض القرآن.

وليتأمل: ما: عدد الله فيه من نعمه، وتعرف بها إلى عباده من أول القرآن إلى آخره؛ حين خلق أهل النار وابتلاهم: بإبليس وحزبه، وتسليط أعدائهم عليهم، وامتحانهم بالشهوات والإرادات والهوى؛ لتعظم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربته.

فلله على أوليائه وعباده؛ أتم نعمة وأكملها في كل ما خلقه من: محبوب ومكروه، ونعمة ومحنة، وفي كل ما أحدثه في الأرض من وقائعه بأعدائه، وإكرامه لأوليائه، وفي كل ما قضاه وقدره.

وتفصيل ذلك لا تفي به أقلام الدنيا وأوراقها ولا قوى العباد، وإنما هو التنبيه والإشارة. ومن استقرى الأسماء الحسنى؛ وجدها مدائح وثناء؛ تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها، ومع ذلك فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء: لم تتحرك بها الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لا حت لمتوسم، ولا سنحت في فكر.

ففي دعاء أعرف الخلق بربه وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن: ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي**».

وفي الصحيح عنه ﷺ في حديث الشفاعة لما يسجد بين يدي ربه قال: «فيفتح

عليَّ من محامده بشيء لا أحسنه الآن».

وكان يقول في سجوده: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**» فلا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه ألبتة، وله أسماء وأوصاف وحمد وثناء لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ونسبة ما يعلم العباد من ذلك إلى ما لايعلمونه كنقرة عصفور في بحر.

...(١)**والفرق** بين الخيل والإبل؛ أن الخيل تراد لغير ما تراد له الإبل. . .

وللشارع قصد أكيد في: اقتنائها، وحفظها، والقيام عليها، وترغيب النفوس في ذلك بكل طريق ولذلك عفا عن أخذ الصدقة منها؛ ليكون ذلك أرغَبَ للنفوس فيما يحبه الله ورسوله من: اقتنائها، ورباطها، وقد قال الله تعالى: ﴿**وأعِدُّوا لَهُم مَّا آستطَعتُم مِّن قُوَّةٍ ومِن رِّبَاطِ الخَيْلِ**﴾ [الأنفال: ٦٠]. فرباط الخيل من جنس آلات السلاح والحرب، فلو كان عند الرجل منها ما عساه أن يكون ولم يكن للتجارة؛ لم يكن عليه فيه زكاة، بخلاف ما أعِدَّ للنفقة؛ فإنَّ الرجل إذا ملك منه نصاباً ففيه الزكاة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بعينه في قوله: «**قد عفوْتُ لكم عن صَدَقَة الخيل والرقيق، فهاتوا صدقة الرِّقَةِ**». أفلا تراه كيف فرق بين: ما أعد للإنفاق، وبين ما أعد: لإعلاء كلمة الله، ونصر دينه، وجهاد أعدائه؟ فهو من جنس السيوف والرماح والسهام، وإسقاطُ الزكاةِ في هذا الجنس من محاسن الشريعة وكمالها.

فصل

وأما قوله: «أوجب في الذهب والفضة والتجارة ربع العشر، وفي الزروع والثمار نصف العشر أو العشر، وفي المعدن الخُمُسَ» فهذا أيضاً من كمال الشريعة ومراعاتها للمصالح؛ فإن الشارع أوجب الزكاة: مواساة للفقراء، وطُهْرَةً للمال، وعبودية للرب، وتقرباً إليه: بإخراج محبوب العبد له، وإيثار مرضاته.

ثم فَرَضها على أكمل الوجوه، وأنفعها للمساكِين، وأرفقها بأرباب الأموال؛ ولم يفرضها في كل مال، بل فرضها في الأموال التي تحتمل المُوَاساة، ويكثر فيها الربح

(١) ٨٩ أعلام جـ٢.

والـدر والنسـل، ولم يفـرضها فيما يحتاج العبد إليه من ماله، ولا غِنَى له عنه: كعبيده، وإمائه، ومركوبه، وداره، وثيابه، وسلاحه؛ بل فرضها في أربعة أجناس من المال: المواشي، والزروع والثمار، والذهب والفضة، وعروض التجارة؛ فإن هذه أكثر أمـوال الناس الدائرة بينهم، وعامة تصرفهم فيها، وهي التي تحتمل المـواسـاة، دون ما أسقط الـزكاة فيه، ثم قَسَّمَ كل جنس من هذه الأجناس؛ بحسب حاله وإعداده للنماء: إلى ما فيه الزكاة، وإلى ما لا زكاة فيه.

فقسم المواشي إلى قسمين:

سائمة ترعي بغير كلفة ولا مشقة ولا خسارة؛ فالنعمة فيها كاملة والمنة بها وافرة، والكلفة فيها يسيرة، والنماء فيها كثير؛ فخصَّ هذا النوعَ بالزكاة.

وإلى مَعْلوفـة بالثمن أو عاملة في مصالح أربابها في دَوَاليبهم وحُرُوثهم وحَمْل أمتعتهم؛ فلم يجعل في ذلك زكاة؛ لكلفة المعلوفة وحاجة المالكين إلى العوامل؛ فهي: كثيابهم، وعبيدهم، وإمائهم، وأمتعتهم.

ثم قسم الزروع والثمار إلى قسمين:

قسم يجري مَجْرَى السائمة من بهيمة الأنعام، في سَقْيه من ماء السماء، بغير كلفة، ولا مشقة؛ فأوجب فيه العشر.

وقسم يُسْقى بكلفة ومشقة؛ ولكن كلفته دون كلفة المعلوفة بكثير؛ إذ تلك تحتاج إلى العَلْف كل يوم؛ فكان مَرْتَبة بين السائمة والمعلوفة، فلم يوجب فيه زكاة ما شرب بنفسه، ولم يسقط زكاته جملة واحدة، فأوجب فيه نصف العشر.

ثم قسم الذهب والفضة إلى قسمين:

أحدهما: ما هو مُعَد: للثَّمنية والتجارة به، والتكسب؛ ففيه الزكاة كالنقدين والسبائك ونحوها.

وإلى ما هو مُعَد للانتفاع دون الربح والتجارة: كحِلْية المرأة، وآلات السلاح التي يجوز استعمالُ مثلها فلا زكاة فيه.

ثم قسَّم العُرُوضَ إلى قسمين: قسم أعد للتجارة؛ ففيه الزكاة.

وقسم أعد للقِنْية والاستعمال، فهو مصروف عن جهة النماء؛ فلا زكاة فيه.

ثم لما كان حصولُ النماء والربح بالتجارة؛ من أشق الأشياء وأكثرها مُعَاناة وعملاً؛ خَفّفها بأن جعل فيها ربع العشر، ولما كان الربح والنماء بالزروع والثمار التي تُسْقَى بالكلفة؛ أقلَّ كلفة والعملُ أيسرَ ولا يكون في كل السنة؛ جعله ضعفه، وهو نصف العشر، ولما كان التعب والعمل فيما يشرب بنفسه؛ أقلَّ والمؤنة أيسر؛ جعلَهُ ضعف ذلك وهو العشر، واكتفى فيه بزكاة عامة خاصة؛ فلو أقام عنده بعد ذلك عدة أحوال لغير التجارة؛ لم يكن فيه زكاة؛ لأنه قد انقطع نماؤه وزيادته، بخلاف الماشية، وبخلاف ما لو أعِدَّ للتجارة؛ فإنه عُرْضَة للنماء.

ثم لما كان الرِّكازُ: مالاً مجموعاً محصلاً، وكلفة تحصيله أقل من غيره، ولم يحتج إلى أكثر من استخراجه؛ كان الواجب فيه ضعف ذلك وهو الخمس.

فانظر إلى تناسب هذه الشريعة الكاملة، التي بَهَرَ العقولَ حسنُها وكمالها، وشهدَتِ الفِطَرُ بحكمتها، وأنه لم يطرق العالم شريعة أفضل منها، ولو اجتمعت عقول العقلاء وفِطَر الألِبّاء واقترحت شيئاً يكون أحسن مقترح؛ لم يصل اقتراحها إلى ما جاءت به.

ولما لم يكن كل مالٍ يحتمل المواساة قَدَّر الشارع لما يحتمل المواساة نُصُباً مقدرة، لا تجب الزكاة في أقل منها.

ثم لما كانت تلك النُّصُبُ تنقسم: إلى ما لا يُجْحِف المواساة ببعضه؛ أوجب الزكاة منها، وإلى ما يجحف المواساة ببعضه؛ فجعل الواجب من غيرِهِ، كما دون الخمس والعشرين من الإبل.

ثم لما كانت المواساة لا تحتمل كل يوم ولا كل شهر؛ إذ فيه إجحاف بأرباب الأموال؛ جعلها كل عام مرة، كما جعل الصيام كذلك.

ولما كانت الصلاة لا يشق فعلها كل يوم؛ وَظفّها كل يوم وليلة.

ولما كان الحجُّ يشقُّ تكرر وجوبه كل عام؛ جعله وظيفة العمر.

وإذا تأمَّل العاقلُ مقدار ما أوجبه الشارع في الزكاة؛ وجَدَه: مما لا يضر المخرج فقده، وينفع الفقير أخذه، ورآه قد راعىٰ فيه حالَ صاحبِ المال وجانِبَهُ حقَّ الرعاية، ونفعَ الآخذ به، وقصد إلى كل جنس من أجناس الأموال؛ فأوجب الزكاة في أعلاه وأشرفه.

فأوجب زكاة العين في الذهب والورِق؛ دون الحديد والرصاص والنحاس ونحوها.

وأوجب زكاة السائمة في الإبل والبقر والغنم؛ دون الخيل والبغال والحمير، ودون ما يقل اقتناؤه، كالصيود على اختلاف أنواعها، ودون الطير كله.

وأوجب زكاة الخارج من الأرض في أشرفه، وهو الحبوب والثمار؛ دون البقول والفواكه والمَقَاثِي والمَبَاطخ والأنوار.

وغير خافٍ تميُّزُ ما أوجب فيه الزكاة؛ عما لم يوجبها في: جنسه، ووصفه، ونفعه، وشدة الحاجة إليه، وكثرة وجوده، وأنه جارٍ مجرى الأموال لما عداه من أجناس الأموال؛ بحيث لوفقد لأضرَّ فقْدُه بالناس، وتعطل عليهم كثير من مصالحهم، بخلاف ما لم يوجب فيه الزكاة؛ فإنه جارٍ مَجْرَى الفضلات والتتمات التي لو فقدت لم يعظم الضرر بفقدها.

وكذلك راعىٰ في المستحقين لها أمرين مهمين: أحدهما: حاجة الآخذ.

والثاني نفعه؛ فجعل المستحقين لها نوعين: نوعاً يأخذ لحاجته، ونوعاً يأخذ لنفعه، وحَرَّمها على مَنْ عداهما.

(1)**قوله** تعالى: ﴿**الشيطانُ يعدُكُم الفَقرَ ويَأْمُرُكُم بالفحْشآءِ واللهُ يعِدُكم مَغْفِرةً مِّنْهُ وفضلاً**﴾ [البقرة: ٢٦٨]. قيل: ﴿**يعدكم الفقر**﴾ يخوِّفكم به، يقول: إن أنفقتم أموالكم افتقرتم ﴿**ويأمركم بالفحشاء**﴾، قالوا: هي البخل في هذا الموضع خاصة، ويُذكَر عن مقاتل والكلبي: «كل فحشاء في القرآن فهي الزنىٰ إلا في هذا الموضع فإنها البخل».

والصواب: أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوف، فحذف موصوفها إرادة للعموم: أي بالفعْلَة الفحشاء والخلَّة الفحشاء، ومن جملتها البخل، فذكر سبحانه وَعْد الشيطان وأمْرَه: يأمرهم بالشر، ويخوفهم من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان؛ فإنه إذا

---

(١) ١٠٧ إغاثة جـ٢.

خوَّفه من فعل الخير؛ تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزيَّنها له؛ ارتكبها.

وسمى سبحانه تَخْويفه وَعْدَ الانتظار الذي خوفه إياه، كما ينتظر الموعود ما وعد به.

ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهي المغفرة والفضل، فالمغفرة؛ وقاية الشر، والفضل؛ إعطاء الخير.

وفي الحديث المشهور: «إن للملك بقلب ابن آدم لَمَّة، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيبٌ بالوعد»، ثم قرأ: ﴿الشيطانُ يعدكم الفقرَ ويأمركُم بالفحشاءِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٦٨].

فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله، وآخر بضده، نستعيذ بالله تعالى من شر الشيطان.

..(1) **قال** الله تعالى: ﴿يُؤتي الحِكْمَةَ مَن يَشَاء. وَمَن يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتيَ خيراً كثيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وقال تعالى: ﴿وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ. وعَلَّمَكَ ما لم تكن تعلمُ وكان فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً﴾ [النساء: ١١٣]. وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿ويُعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾. [آل عمران: ٤٨].

الحكمة في كتاب الله نوعان: مفردة، ومقترنة بالكتاب.

فالمفردة فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله».

وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه.

وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه. وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل. وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها.

---

(1) ٤٧٨ مدارج جـ٢.

وقال الحسن: الورع في دين الله. كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب: فهي السنة. كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة.

وقيل: هي القضاء بالوحي. وتفسيرها بالسنة؛ أعم وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا: بفهم القرآن، والفقه: في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان.

والحكمة حكمتان: علمية، وعملية.

فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها: خَلْقاً، وأمراً، قدراً، وشرعاً.

والعملية: كما قال صاحب المنازل: «وهي وضع الشيء في موضعه»...

..[1] **والله** تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه. فالرجل الكامل؛ من له إرث كامل من أبيه. ونصف الرجل ـ كالمرأة ـ له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى. وأكمل الخلق في هذا؛ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأكملهم؛ أولو العزم. وأكملهم؛ محمد ﷺ؛ ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه، وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْـزَلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ وعَلَّمَك ما لم تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿كما أَرْسلنَا فِيكُم رَسُولاً مِنكم يتلواْ عليكم آياتِنَا، ويزكيكم، ويعلمُكم الكتابَ والحِكْمةَ، ويعلمُكُم ما لم تَكُونُوا تعلمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

فكل نظام الوجود؛ مرتبط بهذه الصفة. وكل خلل في الوجود، وفي العبد؛

(١) ٤٧٩ مدارج جـ٢.

فسببه؛ **الإخلال** بها. فأكمل الناس؛ أوفرهم منها نصيباً، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال؛ أقلهم منها ميراثًا.

ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول، والله أعلم.

...(١) **الوجه** السادس والعشرون: أنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بأنه آتاه خيراً كثيرًا فقال تعالى: **﴿يؤتي الحكمةَ من يشاءُ ومن يؤتَ الحكمةَ فَقَدْ أوتيَ خيراً كثيراً﴾** [البقرة: ٢٦٩].

قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة: إصابة الحق والعمل به، وهي: العلم النافع، والعمل الصالح.

الوجه السابع والعشرون: أنه سبحانه عدد نعمه وفضله على رسوله، وجعل من أجلِّها: أن آتاه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم. فقال تعالى: **﴿وأنزل اللهُ عليك الكتابَ والحكمةَ وعلمك ما لم تَكن تعلم وكان فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً﴾** [النساء: ١١٣].

الوجه الثامن والعشرون: أنه سبحانه ذكّر عباده المؤمنين بهذه النعمة، وأمرهم: بشكرها، وأن يذكروه على إسدائها إليهم، فقال تعالى: **﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكُم آياتِنا ويُزكيكم ويُعلمكم الكتابَ والحكمةَ ويُعلمكم ما لم تكونُوا تعلمونَ فاذكروني أذكرْكُمْ واشكُرُوا لي ولا تكفرونِ﴾** [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢].

...(٢) **قوله** تعالى: **﴿للفقراء الذين أُحْصِرُوا في سبيل اللهِ لايستطيعون ضَرْباً في الأرضِ، يَحْسبُهُمُ الجاهِلُ أغنياءَ مِنَ التعففِ. . .﴾** الآية [البقرة: ٢٧٣]. أي: الصدقات لهؤلاء. كان فقراء المهاجرين نحو أربعمائة، لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، فكانوا وقفاً على كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ، وهم أهل الصفة. هذا أحد الأقوال في

---

(١) ٥١ مفتاح جـ١. (٢) ٤٣٨ مدارج جـ٢.

إحصارهم في سبيل الله .

وقيل: هو حبسهم أنفسَهم في طاعة الله .

وقيل: حَبَسهم الفقرُ والعُدْمُ عن الجهاد في سبيل الله .

وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى ؛ أحصروا عن الضرب في الأرض ؛ لطلب المعاش ، فلا يستطيعون ضرباً في الأرض .

والصحيح : أنهم - لفقرهم وعجزهم وضعفهم - لا يستطيعون ضرباً في الأرض ، ولكمال عفتهم وصيانتهم ؛ يحسبهم من لم يعرف حالهم ؛ أغنياء .

والموضع الثاني : قوله تعالى : ﴿**إنَّما الصَّدقَاتُ للفقراء . . .**﴾ الآية [التوبة : ٦٠]

والموضع الثالث : قوله تعالى : ﴿**ياأيها الناسُ أنتم الفقراءُ إلى الله**﴾[1] [فاطر : ١٥] .

فالصنف الأول : خواص الفقراء . والثاني : فقراء المسلمين : خاصهم ، وعامهم .

والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم : غنيهم وفقيرهم ، مؤمنهم وكافرهم .

فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى ؛ يقابلهم : أصحاب الجِدَة ، ومن ليس محصراً في سبيل الله ، ومن لا يكتم فقره تعففاً . فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني .

والصنف الثاني ؛ يقابلهم : الأغنياء أهل الجدة ، ويدخل فيهم المتعفف وغيره ، والمحصر في سبيل الله وغيره .

والصنف الثالث ؛ لا مقابل لهم ، بل الله وحده الغني ، وكل ما سواه فقير إليه .

[2]**قال:** الشرط الثالث : الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح ، وذلك لأن المسألة فيها ضرب من : الخصومة ، والمنازعة والمحاربة ، والرجوع عن مالك الضر والنفع ؛ إلى من

---

(١) ذكر الفقر في غير هذه المواضع ﴿**الشيطانُ يعدُكم الفقرَ**﴾ [البقرة : ٢٦٨] . ﴿**إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي . وإن تخفوها وتؤتوها الفقراءَ فهو خيرٌ لكم**﴾ [البقرة : ٢٧١] ﴿**لقدْ سمع اللّهُ قولَ الذين قالوا : إنَّ اللّهَ فقيرٌ ونحن أغنياءُ**﴾ [آل عمران : ١٨١] . ﴿**ومن كان فقيراً فليأكلْ بالمعروفِ**﴾ [النساء : ٦] . ﴿**إن يكنْ غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما**﴾ [النساء : ١٣٥] . ﴿**وأطعموا البائسَ الفقيرَ**﴾ [الحج : ٢٨] . ﴿**إن يكونوا فقراءَ يُغْنِهِمُ اللّهُ مِن فضلِهِ**﴾ [النور : ٣٢] ﴿**واللّهُ الغنيُّ وأنتم الفقراءُ**﴾ [محمد : ٣٨] . ﴿**للفقراءِ المهاجرين الذين أخرجوا من ديارِهم وأموالِهِم**﴾ [الحشر : ٨] .

(٢) ٢٣١ مدارج جـ٢ .

لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا إلا بربه، وفيها الغيبة عن المعطي المانع.

والإلحاح ينافي حال الرضى ووصفه. وقد أثنى الله سبحانه على الذين لا يسألون الناس إلحافاً. فقال تعالى: ﴿**يَحْسَبُهُم الجاهلُ أغنياءَ من التعففِ تَعْرِفُهُم بسيماهم، لايسألون الناسَ إلحافاً**﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فقالت طائفة: يسألون الناس ما تدعو حاجتهم إلى سؤاله. ولكن لا يلحفون، فنفى الله عنهم سؤال الإلحاف، لا مطلق السؤال.

قال ابن عباس: إذا كان عنده غداء؛ لم يسأل عشاء، وإذا كان عنده عشاء؛ لم يسأل غداء.

وقالت طائفة - منهم: الزجاج، والفراء وغيرهما -: بل الآية اقتضت ترك السؤال مطلقاً؛ لأنهم وُصفوا بالتعفف، والمعرفة بسيماهم، دون الإفصاح بالمسألة؛ لأنهم لو أفصحوا بالسؤال؛ لم يحسبهم الجاهل أغنياء.

ثم اختلفوا في وجه قوله تعالى: ﴿**لا يسألون الناسَ إلحافاً**﴾.

فقال الزجاج: المعنى لا يكون منهم سؤال؛ فيقع إلحاف. كما قال تعالى: ﴿**فما تنفعُهم شفاعة الشافعين**﴾ [المدثر: ٤٨] أي: لا تكون شفاعة فتنفع، وكما في قوله تعالى: ﴿**ولا يقبل منها عدل**﴾ [البقرة: ١٢٣] أي: لا يكون عدل فيقبل، ونظائره.

قال امرؤ القيس:

* على لاحبٍ لا يُهْتَدى لمناره[1] *

أي: ليس له منار يهتدى به.

قال ابن الأنباري: وتأويل الآية: لا يسألون ألبتة فيخرجهم السؤال في بعض الأوقات إلى الإلحاف؛ فيجري هنا مجرى قولك: فلان لا يرجَى خيره، أي: ليس له خير فيرجى.

وقال أبو علي: لم يثبت في هذه الآية مسألة منهم. لأن المعنى: ليس منهم مسألة؛ فيكون منهم إلحاف. قال: ومثل ذلك قول الشاعر:

لا يُفْزِع الأرنبَ أهوالُها　　　ولا ترى الضَّبَّ بها ينجحر

---

(١) اللاحب: الطريق الواسع الواضح.

أي: ليس بها أرنب؛ فيفرغ لهولها ولا ضب. فينجحر.

وقال الفراء: نفي الإلحاف عنهم، وهو يريد نفي جميع السؤال.

...[1] **فإن** قيل: فما قولكم في نحو قوله تعالى: ﴿**يغفرْ لكم من ذنوبِكُم**﴾ [نوح: ٤] ﴿**نَغْفِرْ لَكُم خَطَاياكم**﴾ [البقرة: ٥٨]؟

قلنا: هي متعلقة بمعنى الإنقاذ والإخراج من الذنوب فدخلت من لتؤذن بهذا المعنىٰ، ولكن لايكون ذلك في القرآن؛ إلا حيث يذكر الفاعل والمفعول، الذي هو الذنب نحو قوله: ﴿**لكم**﴾ لأنه المنقذ المخرج من الذنوب بالإيمان، ولو قلت: يغفر من ذنوبكم، دون أن يذكر الاسم المجرور؛ لم يحسن إلا على معنى التبعيض؛ لأن الفعل الذي كان في ضمن الكلام وهو الإنقاذ؛ قد ذهب بذهاب الاسم الذي هو واقع عليه.

فإن قلت: فقد قال تعالى: ﴿**وما كَان قولهُم إلا أن قالوُا رَبَّنَا اغْفِر لَنا ذُنوبَنَا**﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وفي سورة الصف: ﴿**يغفــرْ لكم ذُنُــوبَكُم**﴾ [الصف: ١٢]. فما الحكمـة في سقوطها هنا؟ ومالفرق؟

قلت: هذا إخبار عن المؤمنين، الذين قد سبق لهم الإنقاذ من ذنوب الكفر؛ بإيمانهم، ثم وعدوا على الجهاد بغفران مااكتسبوا في الإسلام من الذنوب، وهي غير محبطة كإحباط الكفر المهلك للكافر؛ فلم يتضمن الغفران معنى الاستنقاذ؛ إذ ليس ثم إحــاطـة من الـذنب بالمذنب؛ وإنـما يتضمن معنى: الإذهـاب، والإبطال، للذنوب؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات بخلاف الآيتين المتقدمتين؛ فإنهما: خطاب للمشركـين، وأمر لهم بما ينقذهم ويخلصهم، مما أحاط بهم من الذنوب، وهو الكفر. ففي ضمن ذلك الإعلام والإشارة: بأنهم واقعون في مهلكة قد أحاطت بهم، وأن لا ينقذهم منها إلا المغفرة المتضمنة للإنقاذ، الذي هو أخص من الإبطال والإذهاب. وأما المؤمنون؛ فقد أنقذوا.

وأما قوله تعالى: ﴿**ويكفرُ عنكم من سيِّئاتِكُم**﴾ [البقرة: ٢٧١]. فهي في موضع

---

(١) ٥٨ بدائع جـ٢.

من التي للتبعيض؛ لأن الآية في سياق ثواب الصدقة فإنه قال: ﴿**إن تبدوا الصدقاتِ فنِعِمَّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراءَ فهو خيرٌ لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم**﴾ والصدقة لا تذهب جميع الذنوب.

ومن هذا النحو قوله ﷺ: «**فليكفرْ عن يمينه وليأتِ الذي هو خير**» فأدخل عن في الكلام، إيذاناً بمعنى الخروج عن اليمين.

لما ذكر الفاعل، وهو الخارج؛ فكأنه قال: فليخرج بالكفارة عن يمينه.

ولما لم يذكر الفاعل المكفر في قوله: ﴿**ذٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُم**﴾ [المائدة: ٨٩]. لم يذكر من، وأضاف الكفارة إلى الأيمان.

وذلك من إضافة المصدر إلى المفعول؛ وإن كانت الأيمان لا تكفر؛ وإنما يكفر الحنث والإثم، ولكن الكفارة حل لعقد اليمين، فمن هنالك؛ أضيفت إلى اليمين، كما يضاف الحل إلى العقد؛ إذ اليمين عقد، والكفارة حل له. والله أعلم.

...(1) **إن الله** سبحانه قسم خلقه إلى غني وفقير، ولا تتم مصالحهم إلا بسَدِّ خَلَّة الفقير، فأوجب سبحانه في فُضُول أموال الأغنياء ما يسدُّ [به] خَلَّة الفقراء، وحَرَّم الربا الذي يضر بالمحتاج، فكان أمره بالصدقة ونهيه عن الربا أخوين شقيقين؛ ولهذا جمع الله بينهما في قوله: ﴿**يَمحقُ اللهُ الربا ويُرْبِي الصدقاتِ**﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقوله: ﴿**وما آتيتم من رباليربواْ في أموالِ الناسِ فلا يربُوا عندَ اللهِ، وما آتَيْتم مِنْ زكاةٍ تُريدون وَجْهَ اللهِ فأولئك هُمُ المضعفون**﴾ [الروم: ٣٩].

وذكر الله سبحانه أحكام الناس في الأموال في آخر سورة البقرة، وهي ثلاثة: عدل، وظلم، وفضل؛ فالعدل البيع، والظلم الربا، والفضل الصدقة؛ فمدح المتصدقين وذكر ثوابهم، وذم المرابين وذكر عقابهم، وأباح البيع والتداين إلى أجل مسمى.

(2) **وأما الفَرْق الإسلامي**: فهو الفرق بين: ما شرعه الله وأمر به وأحبه ورضيه،

---

(1) ١٨ أعلام جـ٢.

(2) ٥٠٧ مدارج جـ٣.

وبين ما نهى عنه وكرهه ومقت فاعله. وهذا الفرق من لم يكن من أهله؛ لم يشم رائحة الإسلام ألبتة.

وقد حكى الله سبحانه عن أهل الفرق الطبيعي: أنهم أنكروا هذا الفرق. فشهدوا الجمع بين المأمور والمحظور؛ إذ قالوا: ﴿إنَّما البَيْعُ مثلُ الربا﴾[البقرة: ٢٧٥]. لا فرق بينهما. وقالوا: الميتة مثل المذكاة. لا فرق بينهما، وقالوا: الحلال والحرام شيء واحد. فهذا جمعهم وذاك فرقهم. فهذا فرق يتعلق بالأعمال.

[1] **قال** تعالى: ﴿يَاأيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقوا اللهَ وذَرُوا ما بَقِيَ من الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٨]، فأمر بترك ما بقي؛ دون رد ما قُبض ولم يكن صحيحاً؛ بل كان عفواً كما قال سبحانه: ﴿فَمنْ جاءه موعظةٌ من ربِّه فانتهى فله ما سلف﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فجعل له ما سلف من الربا وإن لم يكن مباحاً له؛ وكذلك سائر العقود له ما سلف منها، ويجب عليه ترك ما يحرمه الإسلام، وهذه الآية هي الأصل في هذا الباب جميعه، فإنه تعالى؛ لم يبطل ما وقع في الجاهلية على خلاف شرعه، وأمر بالتزام شرعه من حين قام الشرع، ومن تأمَّل حكم رسول الله ﷺ في باب أنكحة الكفَّار إذا أسلموا عليها؛ وجده مشتقًا من القرآن مطابقاً له.

[2] **الثامن** عشر: أن العقل تحت حجر الشرع: فيما يطلبه ويأمر به، وفيما يحكم به ويخبر عنه. فهو محجور عليه في الطلب والخبر. وكما أن من عارض أمر الرسل بعقله: لم يؤمن بهم، وبما جاءوا به؛ فكذلك من عارض خبرهم بعقله. ولا فرق بين الأمرين أصلاً.

يوضحه: أن الله سبحانه حكىٰ عن الكفَّار معارضة أمره بعقولهم، كما حكى عنهم معارضة خبره بعقولهم.

أما الأول: ففي قوله: ﴿الذينَ يأكلون الربا لا يقومونَ إلا كما يقومُ الذي يَتخبطُهُ الشيطانُ مِنَ المسِّ ذلك بأنهم قالوا إنما البيعُ مِثلُ الربا وأحلَّ اللهُ البيعَ وحرَّم الرِّبا﴾ [البقرة: ٢٧٥]. فعارضوا تحريمه للربا بعقولهم التي سوت بين الربا

---

(١) ٣٥٤ أحكام جـ١.   (٢) ١٥١ مختصر الصواعق جـ١.

والبيع. فهذا معارضة النص بالرأي.

ونظير ذلك: ما عارضوا به تحريم الميتة من قياسها على المذكاة، وقالوا: تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله. وفي ذلك أنزل الله: ﴿**وإنَّ الشَّياطين ليوحونَ إلى أوليائِهم لِيُجَادِلُوكُمْ وإنْ أطعْتُمُوهُمْ إنَّكمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢١].

وعارضوا أمره بتحويل القبلة، وقالوا: إن كانت القبلة الأولى حقًّا؛ فقد تركت الحق. وإن كانت باطلاً؛ فقد كنت على باطل.

وإمام هؤلاء شيخ الطريقة إبليس عدو الله، فإنه أول من عارض أمر الله بعقله، وزعم أن العقل يقتضي خلافه.

وأما الثاني: وهو معارضة خبره بالعقل، فكما حكى الله سبحانه عن منكري المعاد: ﴿**وضَرَبَ لنا مثلاً ونَسِيَ خلقَه قال من يحيي العظامَ وهي رميمٌ**﴾ [يس: ٧٨]. وأخبر سبحانه أنهم عارضوا ما أخبر به من التوحيد بعقولهم.

وعارضوا إخباره عن النبوات بعقولهم، وعارضوا بعض الأمثال التي ضربها بعقولهم؛ وعارضوا أدلة نبوة رسوله ﷺ بعقولهم؛ فقالوا: ﴿**لولا نُزِّلَ هذا القُرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القريتَينِ عَظِيم**﴾ [الزخرف: ٣١]. وأنت إذا صغت هذه المعارضة صوغاً مزخرفاً؛ وجدتها من جنس معارضة المعقول للمنقول.

وكذلك قولهم: ﴿**مَا لِهَذا الرَّسُولِ يأكُلُ الطَّعامَ ويَمْشي في الأسواقِ لولا أُنزِلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً. أو يُلْقَى إليه كنزٌ أو تكون لهُ جَنَّةٌ يأْكُلُ منها**﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨]. أي: لو كان رسولاً لخالق السموات والأرض: لما أحوجه أن يمشي بيننا في الأسواق في المعيشة، ولأغناه من أكل الطعام، ولأرسل معه ملكاً من الملائكة، أو ألقى إليه كنزاً يغنيه عن طلب الكسب.

وعارضوا شرعه ودينه الذي شرعه لهم على لسان رسوله، وتوحيده؛ بمعارضة عقلية، واستندوا فيها إلى القدر. فقال تعالى: ﴿**سَيقولُ الَّذين أشركُوا لو شَاء اللهُ ما أَشْركْنَا ولا آباؤنَا ولا حرَّمنا من شيءٍ كذلك كذَّبَ الذين من قَبْلِهم حتى ذَاقُوا بأسنا. قُلْ هل عندكُمْ من عِلْمٍ فتخرجوه لنا؟ إن تتبعون إلا الظنَّ وإنْ أنتُم إلا تَخْرُصُونَ. قُلْ فللهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ فلو شاء لهداكُم أجمعين**﴾ [الأنعام: ١٤٨ ـ ١٤٩].

وحكى مثل هذه المعارضة في سورة النحل، وفي سورة الزخرف. وإذا تأملتها

حق التأمل؛ رأيتها أقوى بكثير من معارضة آيات الصفات بعقولهم، فإن إخوانهم عارضـوا بمشيئـة الله للكائنات، والمشيئة ثابتة في نفس الأمر، والنفاة عارضوا بأصول فاسدة: هم وضعوها من تلقاء أنفسهم، أو تلقوها عن أعداء الرسل من الصابئة والمجوس والفلاسفة، وهي خيالات فاسدة.

وبالجملة فمعارضة أمر الرسل أو خبرهم بالمعقولات؛ إنما هي طريقة الكفار. فهم سلف الخلف بعدهم، فبئس السلف والخلف.

ومن تأمَّـل معـارضـة المشركين للرسل بالعقول؛ وجدها أقوى من معارضة الجهمية والنفاة، لخبرهم عن: الله وصفاته، وعلوه على خلقه، وتكليمه لملائكته ورسله؛ بعقـولهم. فإن كانت تلك المعـارضة باطلة؛ فهذه أبطل وأبطل. وإن صحت هذه المعارضة؛ فتلك أولى بالصحة منها. وهذا لا محيد لهم عنه. . .

...[1] **الطبقة** السابعة: أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس بأموالهم، على اختـلاف حاجـاتهم ومصـالحهم من: تفريج كرباتهم، ودفع ضروراتهم، وكفايتهم في مهماتهم، وهم أحد الصنفين اللذين قال النبي ﷺ فيهم: «**لا حسد إلا في اثنتين**[2]: **رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق**»، يعني أنه لاينبغي لأحد أن يغبط أحداً على نعمـة ويتمنى مثلها، إلا أحد هذين؛ وذلك لما فيهما: من منافع النفع العام، والإحسان المتعدي إلى الخلق، فهذا ينفعهم بعلمه، وهذا ينفعهم بماله.

والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه؛ أنفعهم لعياله.

ولا ريب أن هذين الصنفين، من أنفع الناس لعيال الله، ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين ولا يعمر العالم إلا بهما.

قال تعالى: ﴿**الَّذينَ يُنْفِقون أَمْوالَهُمْ في سبيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنفقُوا مَنًّا ولا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عند ربِّهِمْ ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقال تعالى: ﴿**الذين يُنفِقون أموالَهم بالليلِ والنهارِ سِرًّا وعلانيةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ**

---

(١) ٣٦٢ طريق الهجرتين.

(٢) في النسخة (اثنين) والصواب: (اثنتين) كما أثبتناه، وكما في البخاري ومسند أحمد. المراجع.

عِنْدَ رَبِّهِم ولا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنون﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال تعالى: **﴿إنَّ المصدِّقين والمُصدقاتِ وأَقْرضُوا الله قرضاً حسناً يُضاعَفُ لَهُمْ ولهم أجرٌ كريمٌ﴾** [الحديد: ١٨].

وقال تعالى: **﴿من ذا الذي يُقرضُ الله قَرْضاً حسناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أضعافاً كثيرةً واللهُ يقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإليْهِ تُرْجَعُون﴾** [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: **﴿مَنْ ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حسناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾** [الحديد: ١١]. فصدَّر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر.

والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازي عليه أضعافاً مضاعفة؟

وسمي ذلك الإنفاق قرضاً حسناً؛ حثًّا للنفوس وبعثًا لها على البذل، لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولابد؛ طوَّعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه فإن علم أن المستقرض: مليٌّ، وفيٌّ، محسن؛ كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه.

فإن علم أن المستقرض: يتجر له بما اقترضه، وينميه له، ويثمره؛ حتى يصير أضعاف ما بذله؛ كان بالقرض أسمح وأسمح.

فإن علم: أنه مع ذلك كله؛ يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم؛ فإنه لايتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من: البخل والشح، أو عدم الثقة بالضمان؛ وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة؛ برهاناً لصاحبها.

وهذه الأمور كلها؛ تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سماه قرضاً، وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة؛ ولكن قرض إحسان إلى المقرض واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح، فهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به.

ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة، وهو الأجر الكريم. وحيث جاء هذا القرض في القرآن؛ قيده بكونه حسنًا، وذلك يجمع أموراً ثلاثة:

أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله؛ ابتغاء مرضاة الله.

الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي.

فالأول: يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الأخذ وقال تعالى: ﴿**مَثَلُ الذين يُنفِقُون أمْوالَهُم في سبيل الله كمثل حبَّةٍ أنبتَتْ سَبْعَ سنابِلَ في كُلِّ سُنْبلةٍ مائةُ حَبَّةٍ والله يُضاعِفُ لمن يشاءُ والله واسعٌ عليمٌ**﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض، ومثل سبحانه بهذا المثل؛ إحضاراً لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غيبت في الأرض؛ فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائةحبة، حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته، كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة؛ الواحدة؛ فينضاف الشاهد العيانى إلى الشاهد الإيماني القرآني؛ فيقوى إيمان المنفق، وتسخو نفسه بالإنفاق.

وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل، وهي من جموع الكثرة؛ إذ المقام مقام تكثير وتضعيف، وجمعها على سنبلات في قوله تعالى: ﴿**وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يَابِسَاتٍ**﴾ [يوسف: ٤٦]. فجاء بها على جمع القلة؛ لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير، وقوله تعالى: ﴿**والله يُضاعِفُ لمن يشاءُ**﴾ [البقرة: ٢٦١].

قيل: المعنى: والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، بل يختص برحمته من يشاء؛ وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه، ولصفات المنفق وأحواله في: شدة الحاجة، وعظيم النفع، وحسن الموقع.

وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك، فلا يقتصر به على السبعمائة؛ بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة.

واختلف في تفسير الآية فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة.

وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة، ليطابق الممثل

للممثل به. فهنا أربعة أمور: منفق، ونفقة، وباذر، وبذر.

فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه، فذكر من شق الممثل المنفق؛ إذ المقصود ذكر حاله وشأنه، وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها. وذكر من شق الممثل به البذر؛ إذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة، وترك ذكر الباذر؛ لأن القرض لايتعلق بذكره.

فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان. وهذا كثير في أمثال القرآن؛ بل عامتها ترد على هذا النمط.

ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها، وهما: الواسع، العليم.

فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه، فإن المضاعف واسع العطاء، واسع الغنى، واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق؛ فإنه عليم: بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها؛ ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها؛ فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته؛ بل يضع فضله مواضعه: لسعته، ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله: بحكمته، وعلمه.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذين يُنفِقُونَ أَمْوالَهُم في سبيلِ اللهِ ثُمَّ لايُتْبِعُونَ ما أَنفَقُوا مَنًّا ولا أَذَىً لَهُم أَجْرُهُمْ عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون﴾ [البقرة: ٢٦٢].

هذا بيان للقرض الحسن ماهو؟ وهو أن يكون في سبيله، أي: في مرضاته، والطريق الموصلة إليه، ومن أنفعها؛ سبيل الجهاد.

وسبيل الله خاص وعام، والخاص جزء من السبيل العام، وأن لا يتبع صدقته بمن ولا أذى. فالمن نوعان:

أحدهما: منّ بقلبه من غير أن يصرِّح به بلسانه، وهذا إن لم يبطل الصدقة؛ فهو من نقصان شهود منة الله عليه في إعطائه المال وحرمان غيره، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه، فلله المنّة عليه من كل وجه، فكيف يشهد قلبه منة لغيره؟.

والنوع الثاني: أن يمن عليه بلسانه؛ فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه،

ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجب عليه حقًّا وطوقه منة في عنقه فيقول: أما أعطيتك كذاوكذا؟ ويعدد أياديه عنده. قال سفيان: يقول: أعطيتك فما شكرت.

وقال عبدالرحمن بن زياد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً، ورأيت أن سلامك يثقل عليه، فكف سلامك عنه. وكانوا يقولون: إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها، وإذا أسديت إليكم صنيعة فلا تنسوها. وفي ذلك قيل:

وإن امرءاً أهدى إلي صنيعة　　وذكرنيها مرة لبخيل

وقيل: صنوان: من منح سائله ومنّ، ومن منع نائله وضن.

وحظر الله على عباده المن بالصنيعة واختص به صفة لنفسه؛ لأن منَّ العباد: تكدير، وتعيير، ومنَّ الله سبحانه وتعالى: إفضال، وتذكير.

وأيضاً: فإنه هو المنعم في نفس الأمر والعباد وسائط، فهو المنعم على عبده في الحقيقة. وأيضًا: فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه. ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

وأيضاً: فالمنة أن يشهد المعطي: أنه هو رب الفضل والإنعام، وأنه ولي النعمة ومسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا الله.

وأيضاً: فالمانُّ بعطائه يشهد نفسه: مترفعاً على الآخذ، مستعلياً عليه، غنيًّا عنه، عزيزاً ويشهد ذل الآخذ، وحاجته إليه، وفاقته، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضاً: فإن المعطي قد تولى الله ثوابه، ورد عليه أضعاف ما أعطى؛ فبقي عوض ماأُعطي عند الله. فأي حق بقي له قبل الآخذ؟ فإذا امتن عليه؛ فقد ظلمه ظلماً بينًا، وادَّعىٰ أن حقه في قلبه. ومن هنا ـ والله أعلم ـ بطلت صدقته بالمن؛ فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعوض تلك الصدقة عنده، فلم يرض به، ولا حظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنَّ عليه بما أعطاه؛ أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له.

فتأمل هذه النصائح من الله لعباده، ودلالته على ربوبيته وإلـٰهيته وحده، وأنه يبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته وإلـٰهيته، لا إلـٰه غيره ولا رب سواه.

ونبه بقوله: ﴿**ثم لا يُتْبِعُون ما أنفقوا منًّا ولا أذىً**﴾ [البقرة: ٢٦٢]. على أن المنّ والأذى ـ ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ـ ضر بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق. ولو أتى بالواو وقال: ولا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذىً؛ لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن والأذى المتراخي: مبطلاً لأثر الإنفاق، مانعاً من الثواب؛ فالمقارن أولىٰ وأحرىٰ.

وتأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاء فقال: ﴿**لهم أجرهُم عند ربِّهم**﴾ وقرنه بالفاء في قوله تعالى: ﴿**الَّذين يُنفقون أَمْوالَهُم بالليل والنهارِ سرًّا وعلانيةً فلهم أجرُهُم عند ربِّهم**﴾ [البقرة: ٢٧٤]. فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف؛ تفهم: معنى الشرط والجزاء، وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة. فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره؛ جرد الخبر عن الفاء، فإن المعنى: إن الذي ينفق ماله لله، ولا يمن ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله، ويمن ويؤذي بنفقته، فليس المقام مقام شرط وجزاء؛ بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانية، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال، فأتى بالفاء في الخبر؛ ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار، وعلى أي حالة وجد من سرٍّ وعلانية؛ فإنه سبب للجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت؛ سبب لأجره وثوابه.

فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها تمر(١) بك في التفاسير، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له.

ثم قال تعالى: ﴿**قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ومَغْفِرة خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً واللهُ غنيٌّ حليمٌ**﴾ [البقرة: ٢٦٣].

---

(١) هكذا بالنسخة، ولعل الصواب: (فقد لا تمر) ليستقيم المعنى. المراجع.

فأخبر أن القول المعروف ـ وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره ـ، والمغفرة ـ وهي العفو عمن أساء إليك ـ خيرٌ من الصدقة بالأذى.

فالقول المعروف: إحسان، وصدقة بالقول.

والمغفرة: إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان، والصدقة المقرونة بالأذى؛ حسنة مقرونة بما يبطلها. ولا ريب أن حسنتين؛ خير من حسنة باطلة.

ويدخل في المغفرة؛ مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى له بسبب رده، فيكون عفوه عنه؛ خيراً من أن يتصدق عليه ويؤذيه. هذا على المشهور من القولين في الآية.

والقول الثاني: أن المغفرة من الله، أي: مغفرة لكم من الله؛ بسبب القول المعروف، والرد الجميل؛ خير من صدقة يتبعها أذى.

وفيها قول ثالث: أي: مغفرة وعفو من السائل إذا رد وتعذر المسئول؛ خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى.

وأوضح الأقوال هو الأول، ويليه الثاني، والثالث ضعيف جدًّا؛ لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسئول لا للسائل الآخذ.

والمعنى: أن قول المعروف له والتجاوز والعفو؛ خير لك من أن تتصدق عليه وتؤذيه، ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حليمٌ﴾ وفيه معنيان:

أحدهما: أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة؛ فنفعها عائد عليكم لا إليه سبحانه وتعالى، فكيف يمنُّ بنفقته ويؤذي؛ مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه، ومع هذا فهو حليمٌ؛ إذ لم يعاجل المانّ بالعقوبة. وفي ضمن هذا: الوعيد، والتحذير.

والمعنى الثاني: أنه سبحانه وتعالى مع غناه التام من كل وجه؛ فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح، مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة، فكيف يؤذي أحدكم بمنه وأذاه، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره؟!

ثم قال تعالى: **﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأذى كالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاَء النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ**

تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

تضمنت هذه الآية الإخبار: بأن المن والأذى يحبط الصدقة، وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وقد تقدم الكلام على هذه المسألة في أول هذه الرسالة فلا حاجة إلى إعادته.

وقد يقال: إن المن والأذى المقارن للصدقة؛ هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقييد، والسياق يدل على إبطالها به مطلقًا.

وقد يقال: تمثيله بالمرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ يدل على أن المن والأذى المبطل؛ هو المقارن كالرياء وعدم الإيمان، فإن الرياء لو تأخر عن العمل؛ لم يبطله. ويجاب عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن التشبيه وقع في الحال التي يحبط بها العمل، وهي حال المرائي والمانّ المؤذي، في أن كل واحد منهما يحبط العمل.

الثاني: أن الرياء لا يكون إلا مقارنًا للعمل، لأنه «فِعال» من الرؤية التي صاحبها يعمل ليرى الناس عمله فلا يكون متراخيًا، وهذا بخلاف المن والأذى فإنه يكون مقارنًا ومتراخيًا، وتراخيه أكثر من مقارنته.

وقوله: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ﴾ إما أن يكون المعنى: كإبطال الذي ينفق؛ فيكون قد شبه الإبطال بالإبطال، أو المعنى: لا تكونوا كالذي ينفق ماله رئاء الناس؛ فيكون تشبيهًا للمنفق بالمنفق.

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي: مثل هذا المنفق الذي قد بطل ثواب نفقته ﴿كمثل صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس، وفيه قولان: أحدهما: أنه واحد.

والثاني: جمع صفوة ﴿عَلَيْه تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ وهو الأملس الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره، وهذا من أبلغ الأمثال

وأحسنها، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي - الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر - بالحجر: لشدته، وصلابته، وعدم الانتفاع به.

وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار، الذي علق بذلك الحجر، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر، فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته، وأزالها كما يذهب الوابل التراب الذي على الحجر فيتركه صلدًا، فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه: لبطلانه وزواله.

وفيه معنى آخر وهو: أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملاً يرتب عليه الأجر، ويزكو له كما تزكو الحبة، التي إذا بذرت في التراب الطيب؛ أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، ولكن وراء هذا الإنفاق مانع يمنع من نموه وزكائه، كما أن تحت التراب حجرًا يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه؛ فلا ينبت ولا يخرج شيئًا، ثم قال: **﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** [البقرة: ٢٦٥].

هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق، فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص، والتثبيت من النفس هو الصدق في البذل. فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان، إن نجا منهما؛ كان مثله ما ذكره في هذه الآية: -

إحداهما: طلبه بنفقته: محمدة، أو ثناء، أو غرضًا من أغراضه الدنيوية. وهذا حال أكثر المنفقين.

والآفة الثانية: ضعف نفسه وتقاعسها وترددها: هل يفعل، أم لا؟

فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله، والآفة الثانية تزول بالتثبيت. فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل، وهذا هو صدقها. وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها.

فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك؛ كان مثله كجنة - وهي البستان الكثير الأشجار - فهو مجتنّ بها، أي: مستتر ليس قاعاً فارغاً. والجنة بربوة - وهو المكان المرتفع - فإنها أكمل من الجنة التي بالوهاد والحضيض؛ لأنها إذا ارتفعت كانت: بمدرجة الأهوية والرياح، وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها؛ فكانت أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره. فإن الثمار تزداد طيبًا وزكاء

بالرياح والشمس، بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال.

وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع؛ لم يخش عليها إلا من قلة الماء والشراب.

فقال تعالى: ﴿**أَصَابَهَا وَابِلٌ**﴾ [البقرة: ٢٦٥]. وهو المطر الشديد العظيم القدر؛ فأدت ثمرتها وأعطت بركتها؛ فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يثمر غيرها، أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل، فهذا حال السابقين المقربين. ﴿**فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**﴾ فهو دون الوابل، فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها؛ فتكتفي في إخراج بركتها بالطل، وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة، وهم درجات عند الله، فأصحاب الوابل أعلاهم درجة، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وأصحاب الطل مقتصدوهم.

فمثّل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين؛ يوجب زكاء ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف؛ فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة، بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم، فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة.

واختلف في الضعفين، فقيل: ضعفا الشيء مثلاه زائدًا عليه، وضعفه مثله.

وقيل: ضعفه مثلاه، وضعفاه ثلاثة أمثاله، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله، كلما زاد ضعفًا؛ زاد مثلًا.

والذي حمل هذا القائل على ذلك؛ فراره من استواء دلالة المفرد والتثنية، فإنه رأى ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه، فإذا زاد إلى المثل؛ صار مثلين، وهما الضعف. فلو قيل: لها ضعفان؛ لم يكن فرق بين المفرد والمثنى، فالضعفان عنده مثلان مضافان إلى الأصل، ويلزم من هذا أن يكون ثلاثة أضعافه؛ ثلاثة أمثال مضافة إلى الأصل، وهكذا أبدًا.

والصواب: أن الضعفين هما المثلان فقط: الأصل ومثله. وعليه يدل قوله تعالى: ﴿**فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ**﴾ أي: مثلين، وقوله تعالى: ﴿**يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ**﴾ [الأحزاب: ٣٠]. أي: مثلين.

ولهذا قال في الحسنات: ﴿**نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ**﴾ [الأحزاب: ٣١].

وأما ما توهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية؛ فوهم منشؤه؛ ظن أن الضعف

هو المثل مع الأصل، وليس كذلك، بل المثل له اعتباران: إن اعتبر وحده فهو ضعف، وان اعتبر مع نظيره فهما ضعفان. والله أعلم.

واختلف في رافع قوله: ﴿فطل﴾ فقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، أي: وطله يكفيها، وقيل: خبر مبتدأه محذوف: فالذي يُرويها ويصيبها طل.

والضمير في ﴿أصابها﴾ إما: أن يرجع إلى الجنة، أو إلى الربوة وهما متلازمان.

ثم قال تعالى: **﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجرِي مِن تَحْتِهـا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمراتِ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصَارٌ فيـهِ نارٌ فَاحْـتَرَقَتْ كَذلِـكَ يُبَـيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾** [البقرة: ٢٦٦].

قال الحسن: هذا مثلٌ قلَّ - والله - من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه؛ أفقر ما كان إلى جنته. وإن أحدكم - والله - أفقر ما يكون إلى عمله؛ إذا انقطعت عنه الدنيا.

وفي صحيح البخـاري: «عن عبيد بن عمير قال: سأل عمر يومًا أصحاب النبي، ﷺ: فيم هم يرون هذه الآية نزلت: **﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَخِيلٍ﴾** الآية؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: قل يا ابن أخي ولا تحقر بنفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل عمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله[1].

فقوله تعالى: **﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾** أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري، وهو أبلغ من النفي والنهي، وألطف موقعًا، كما ترى غيرك يفعل فعلاً قبيحًا فتقول: لا يفعل هذا عاقل، لا يفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة.

وقال تعالى: **﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾** بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام، كما تقول: أيفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقول: أيودون..

(١) لقد سبق هذا الحديث بوجه آخر، وهذا اللفظ المذكور بنحو ما عند البخاري. انظر الفتح: (٤٩/٨) رقم: (٤٥٣٨) وقد ذكر ابن حجر في نفس الموضع عدة أوجه لروايته. ا هـ المراجع.

وقوله: ﴿أيود﴾ أبلغ في الإنكار من لو قيل: أيريد؛ لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها؛ أقبح وأنكر من مجرد إرادتها.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَخيلٍ وَأَعْنابٍ﴾ خص هذين النوعين من الثمار بالذكر؛ لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعًا، فإن منهما: القوت والغذاء، والدواء والشراب، والفاكهة، والحلو والحامض، ويؤكلان رطبًا ويابسًا، ومنافعهما كثيرة جدًّا.

وقد اختلف في الأنفع والأفضل منهما؛ فرجحت طائفة النخيل، ورجحت طائفة العنب، وذكرت كل طائفة حججًا لقولها فذكرناها في غير هذا الموضع(١).

وفصل الخطاب: أن هذا يختلف باختلاف البلاد، فإن الله سبحانه وتعالى أجرى العادة؛ بأن سلطان أحدهما لا يحل حيث يحل سلطان الآخر، فالأرض التي يكون فيها سلطان النخيل؛ لا يكون العنب بها طائلاً ولا كثيرًا، لأنه إنما يخرج في الأرض الرخوة اللينة المعتدلة غير السبخة؛ فينمو فيها فيكثر، وأما النخيل فنموه وكثرته في الأرض الحارة السبخة، وهي لا تناسب العنب، فالنخل في أرضه وموضعه أنفع وأفضل من العنب فيها، والعنب في أرضه ومعدنه أفضل من النخل فيها. والله أعلم.

والمقصود أن هذين النوعين؛ هما أفضل أنواع الثمار وأكرمها، فالجنة المشتملة عليهما من أفضل الجنان، ومع هذا فالأنهار تجري تحت هذه الجنة، وذلك أكمل لها وأعظم في قدرها، ومع ذلك فلم تعدم شيئًا من أنواع الثمار المشتهاة؛ بل فيها من كل الثمرات، ولكن معظمها ومقصودها النخيل والأعناب، فلا تنافي بين كونها من نخيل وأعناب و﴿فِيها مِن كُلِّ الثَّمرَاتِ﴾.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهما جَنَّتَيْنِ مِن أَعْنابٍ وَحفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زرعًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وكانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: ٣٢-٣٤].

وقد قيل: إن الثمار هنا وفي آية البقرة (٢٦٦) المراد بها المنافع والأموال، والسياق يدل على أنها الثمار المعروفة لا غيرها، لقوله هنا: ﴿لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمرَاتِ﴾.

---

(١) في كتاب: (مفتاح دار السعادة). ذكر مفاضلة بين النخيل والأعناب وانتهت بأن النخيل أفضل.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَصَابَهَا﴾ أي: الجنة ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ وفي الكهف ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾. [الكهف: ٤٢]. وما ذلك إلا ثمار الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ هذا إشارة إلى شدة حاجته إلى جنته، وتعلق قلبه بها من وجوه.

أحدها: أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها.

الثاني: أن ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه.

الثالث: أن له ذرية؛ فهو حريص على بقاء جنته؛ لحاجته وحاجة ذريته.

الرابع: أنهم ضعفاء؛ فهم كَلٌّ عليه لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم.

الخامس: أن نفقتهم عليه؛ لضعفهم وعجزهم، وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة: لخطرها في نفسها، وشدة حاجته وذريته إليها.

فإذا تصورت هذه الحال وهذه الحاجة؛ فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار ـ وهي الريح التي تستدير في الأرض، ثم ترتفع في طبقات الجو كالعمود ـ وفيه نار مرت بتلك الجنة؛ فأحرقتها وصيرتها رمادًا؟،

فصدق ـ والله ـ قول(١) الحسن: هذا مثلٌ قلَّ من يعقله من الناس.

ولهذا نبه سبحانه وتعالى على عظم هذا المثل، وحَدَا القلوب إلى التفكر فيه؛ لشدة حاجتها إليه، فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فلو فكر العاقل في هذا المثل وجعله قبلة قلبه؛ لكفاه وشفاه، فهكذا العبد إذا عمل بطاعة الله، ثم أتبعها بما يبطلها ويفرقها من معاصي الله؛ كانت كالإعصار ذي النار المحرق للجنة، التي غرسها بطاعته وعمله الصالح، ولولا أن هذه المواضع أهم مما كلامنا بصدده ـ من ذكر مجرد الطبقات ـ لم نذكرها، ولكنها من أهم المهم، والله المستعان الموفق لمرضاته.

فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره، وتأمله كما ينبغي؛

---

(١) كلمة (قول) ليست بالنسخة، وزيدت لإيضاح المعنى. وقد مر قول الحسن ـ رحمه الله ـ في ص(٤٧٤) وفي غيرها. المراجع.

لما سولت له نفسه ـ والله ـ إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها، ولكن لابد أن يغيب عنه علمه عند المعصية؛ ولهذا استحق اسم الجهل. فكل من عصى الله فهو؛ جاهل.

فإن قيل: الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ واو الحال، أم واو العطف؟

وإذا كانت للعطف، فعلام عطفت ما بعدها؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أنها[1] واو الحال، اختاره الزمخشري، والمعنى: أيود أحدكم أن تكون له جنة شأنها كذا وكذا، في حال كبره وضعف ذريته.

والثاني: أن تكون للعطف على المعنى، فإن فعل التمني، وهو قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُم﴾ لطلب الماضي كثيرًا، فكان المعنى: أيود لو كانت له جنة من نخيل وأعناب، وأصابه الكبر؛ فجرى عليها ما ذكر.

وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي ـ الذي لم يصدر إنفاقه عن الإيمان ـ بالصفوان الذي عليه التراب، فإنه لم ينبت شيئًا أصلاً؛ بل ذهب بذره ضائعًا، لعدم إيمانه وإخلاصه، ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصًا بنيته لله، ثم عرض له ما أبطل ثوابه بالجنة، التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها، ثم سلط عليها الإعصار الناري فأحرقها، فإن هذا نبت له شيء وأثمر له عمله ثم احترق، والأول لم يحصل له شيء يدركه الحريق. فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء للصدور وهدى ورحمة.

ثم قال: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. أضاف سبحانه الكسب إليهم وإن كان هو الخالق لأفعالهم، لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه؛ لأنه ليس فعلاً لهم، ولا هو مقدور لهم، فأضاف مقدورهم إليهم، وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه، ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنها بالكلية.

وخص سبحانه هذين النوعين ـ وهما: الخارج من الأرض، والحاصل بكسب التجارة ـ دون غيرهما من المواشي.

---

(١) بالنسخة: (أنه) والصواب ما أثبتناه. المراجع.

إما بحسب الواقع؛ فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك: فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب. والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، فخص هذين النوعين بالذكر؛ لحاجتهم إلى: بيان حكمهما، وعموم وجودهما.

وإما لأنهما أصول الأموال، وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ. فإن الكسب تدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من: الملابس، والمطاعم، والرقيق، والحيوانات، والآلات، والأمتعة، وسائر ما تتعلق به التجارة. والخارج من الأرض يتناول: حبها، وثمارها، وركازها، ومعدنها، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الأرض، فكان ذكرهما أهم.

ثم قال: ﴿**وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ**﴾ فنهى سبحانه عن قصد إخراج الرديء كما هو عادة أكثر النفوس: تمسك الجيد لها، وتخرج الرديء للفقير.

ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيممه؛ فيه ما يشبه العذر لمن فعل ذلك، لا عن قصد وتيمم، بل عن اتفاق، إذا كان هو الحاضر إذ ذاك، أو كان ماله من جنسه، فإن هذا لم يتيمم الخبيث؛ بل تيمم إخراج بعض ما منّ الله عليه، وموقع قوله: ﴿**مِنْهُ تُنْفِقُونَ**﴾ موقع الحال، أي: لا تقصدوه منفقين منه.

ثم قال: ﴿**وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ**﴾ أي: لو كنتم أنتم المستحقين له، وبذل لكم؛ لم تأخذوه في حقوقكم إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه، من قولهم: أغمض فلان عن بعض حقه، ويقال للبائع: أغمض - أي: لا تستقص - كأنك لا تبصر. وحقيقته من إغماض الجفن، فكأن الرائي لكراهته له لا يملأ عينه منه؛ بل يغمض من بصره ويغمض عنه بعض نظره بغضًا.

ومنه قول الشاعر:

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيـ ـم رجال يرضون بالإغماض

وفيه معنيان:

أحدهما: كيف تبذلون لله وتهدون له ما لا ترضون ببذله لكم ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له، والله أحق من يخير له خيار الأشياء وأنفسها؟

والثاني: كيف تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبًا؟ ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما فقال: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾

فغناه وحمده يأبى قبول الرديء، فإن قابل الرديء الخبيث: إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغنى عنه، الشريف القدر، الكامل الأوصاف؛ فإنه لا يقبله.

ثم قال تعالى: ﴿**الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ واللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً، واللّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٦٨].

هذه الآية تتضمن: الحض على الإنفاق، والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني، فإنها اشتملت: على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعوه إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين، فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح؛ هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي: بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإنه يهم بالصدقة والبذل؛ فيجد في قلبه داعيًا يقول له: متى أخرجت هذا؛ دعتك الحاجة إليه، وافتقرت إليه بعد إخراجه، وإمساكه خير لك؛ حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه. فإذا صور له هذه الصورة؛ أمره بالفحشاء وهي البخل، الذي هو من أقبح الفواحش. وهذا إجماع من المفسرين أن الفحشاء هنا البخل(١). فهذا وعده وهذا أمره، وهو الكذب في وعده، الغارّ الفاجر في أمره. فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنه يدلي من يدعوه بغروره، ثم يورده شر الموارد. كما قال:

دلاهم بغُرور ثم أوردهم ... إن الخبيث لمن والاه غرّار

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه، ولا محبة في بقائه غنيًا؛ بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته، وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل؛ ليسيء ظنه بربه، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه؛ فيستوجب منه الحرمان.

وأما الله سبحانه؛ فإنه يعد عبده: مغفرة منه لذنوبه، وفضلاً؛ بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه: إما في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة. فهذا وعد الله، وذاك

---

(١) تقدم ص(٤٥٤)نقلاً عن الإغاثة ص (١٠٧) جـ٢ ما يحسن الرجوع إليه من ذكره أن الصواب: أن الفحشاء على بابها في العموم.. إلخ ما ذكره. ج.

وعد الشيطان، فلينظر البخيل والمنفق، أي الوعدين هو أوثق؟ وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه؟ والله يوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، وهو الواسع العليم.

وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين، فإنه واسع العطاء، عليم: بمن يستحق فضله، ومن يستحق عدله؛ فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وهو بكل شيء عليم.

فتأمل هذه الآيات، ولا تستطل بسط الكلام فيها؛ فإن لها شأنًا لا يعقله إلا من: عقل عن الله خطابه وفهم مراده ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وتأمل ختم هذه السورة؟ التي هي سنام القرآن: بأحكام الأموال، وأقسام الأغنياء وأحوالهم، وكيف قسمهم إلى ثلاثة أقسام؟

القسم الأول: محسن وهم: المتصدقون. فذكر جزاءهم ومضاعفته، وما لهم في قرض أموالهم للملىء الوفي، ثم حذرهم مما يبطل ثواب صدقاتهم ويحرقها بعد استوائها وكمالها من: المن، والأذى، وحذرهم مما يمنع ترتب أثرها عليها؛ ابتداء من الرياء، ثم أمرهم أن يتقربوا إليه بأطيبها، ولا يتيمموا أردأها وخبيثها.

ثم حذرهم من الاستجابة لداعي البخل والفحش وأخبر أن: استجابتهم لدعوته، وثقتهم بوعده؛ أولى بهم، وأخبر أن هذا من حكمته، التي يؤتيها من يشاء من عباده، وأن من أوتيها؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا: أوتي ما هو خير وأفضل من الدنيا كلها؛ لأنه سبحانه وصف الدنيا بالقلة فقال تعالى: ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ**﴾ [النساء: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**﴾ [البقرة: ٢٦٩]. فدل على أن ما يؤتيه عبده من حكمته؛ خير من الدنيا وما عليها، ولا يعقل هذا كل أحد؛ بل لا يعقله إلا من له: لب، وعقل ذكي، فقال تعالى: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾. [البقرة: ٢٦٩].

ثم أخبر أن كل ما أنفقوه من نفقة أو تقربوا به إليه من نذر؛ فإنه يعلمه، فلا يضيع لديه؛ بل يعلم ما كان لوجهه، ويكل جزاء من عمل لغيره إلى من عمل له، فإنه ظالم لنفسه وماله من نصير.

ثم أخبر سبحانه عن أحوال المتصدقين لوجهه في صدقاتهم، وأنه يثيبهم عليها: إن أبدوها، أو كتموها؛ بعد أن تكون خالصة لوجهه، فقال: ﴿**إِنْ تُبْدُوا**

الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١]. أي: فنعم شيء هي، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية، فلا يتوهم مبديها بطلان أثره وثوابه؛ فيمنعه ذلك من إخراجها وينتظر بها الإخفاء؛ فتفوت، أو تعترضه الموانع، ويحال: بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها؛ فلا يؤخر صدقة العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر، وهذه كانت حال الصحابة.

ثم قال: **﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾** [البقرة: ٢٧١]. فأخبر أن إعطاءها للفقير في خفية؛ خير للمنفق من إظهارها وإعلانها.

وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة، ولم يقل: وإن تخفوها؛ فهو خير لكم، فإن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه: كتجهيز جيش، وبناء قنطرة، وإجراء نهر، أو غير ذلك.

وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه، وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرى الناس أن يده هي اليد السفلى، وأنه لا شيء له؛ فيزهدون في معاملته ومعاوضته، وهذا قدر زائد من الإحسان إليه بمجرد الصدقة؛ مع تضمنه: الإخلاص، وعدم المراءاة وطلبهم المحمدة من الناس، وكان إخفاؤها للفقير؛ خيراً من إظهارها بين الناس.

ومن هذا مدح النبي ﷺ صدقة السر، وأثنى على فاعلها، وأخبر أنه: أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة؛ ولهذا جعله سبحانه خيراً للمنفق، وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته، ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم، فإنه بما تعملون خبير.

ثم أخبر: أن هذا الإنفاق إنما نفعه لأنفسهم يعود عليهم؛ أحوج ماكانوا إليه، فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائد إليها؟!.

وأن نفقة المؤمنين إنما تكون ابتغاء وجهه خالصًا؛ لأنها صادرة عن إيمانهم.

وأن نفقتهم ترجع إليهم وافية كاملة، ولا يظلم منها مثقال ذرة. وصدر هذا الكلام بأن الله هو الهادي الموفق لمعاملته وإيثار مرضاته، وأنه ليس على رسوله هداهم؛ بل عليه إبلاغهم، وهو سبحانه الذي يوفق من يشاء لمرضاته.

ثم ذكر المصرف الذي توضع فيه الصدقة، فقال تعالى: **﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ**

التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣]. فوصفهم بست صفات: إحداها: الفقر.

الثانية: حبسهم أنفسهم في سبيله تعالى وجهاد أعدائه ونصر دينه، وأصل الحصر: المنع، فمنعوا أنفسهم من تصرفها في أشغال الدنيا، وقصروها على بذلها لله، وفي سبيله.

الثالثة: عجزهم عن الأسفار للتكسب. والضرب في الأرض هو: السفر، قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ﴾ [النساء:١٠١].

الرابعة: شدة تعففهم، وهو حسن صبرهم، وإظهارهم الغنى، يحسبهم الجاهل أغنياء من: تعففهم، وعدم تعرضهم، وكتمانهم حاجتهم.

الخامسة: أنهم يعرفون بسيماهم، وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها، وهذا لا ينافي حسبان الجاهل؛ أنهم أغنياء؛ لأن الجاهل له ظاهر الأمر، والعارف هو: المتوسم المتفرس، الذي يعرف الناس بسيماهم، فالمتوسمون خواص المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥].

السادسة: تركهم مسألة الناس فلا يَسألونهم. والإلحاف هو: الإلحاح، والنفي متسلط عليهما معًا، أي: لا يسألون ولا يلحفون، فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف. وهذا كقوله:

على لا حب لا يُهْتَدَىٰ لمناره

أي: ليس فيه منار فيهتدي به.

وفيه كالتنبيه على أن المذموم من السؤال؛ هو سؤال الإلحاف، فأما السؤال بقدر الضرورة من غير إلحاف؛ فالأفضل تركه، ولا يحرم.

فهذه ست صفات للمستحقين للصدقة، فألغاها أكثر الناس ولحظوا منها ظاهر الفقر وزيه من غير حقيقته، وأما سائر الصفات المذكورة فعزيز أهلها، ومن يعرفهم أعز، والله يختص بتوفيقه من يشاء، فهؤلاء هم المحسنون في أمواهم.

القسم الثاني: (الظالمون) وهم ضد هؤلاء، وهم الذين يذبحون المحتاج

المضطر. فإذا دعته الحاجة إليهم؛ لم ينفسوا كربته إلا بزيادة على ما يبذلونه له وهم أهل الربا، فذكرهم تعالى بعد هذا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

فصدّر الآية بالأمر بتقواه المضادة للربا، وأمر بترك ما بقي من الربا بعد نزول الآية.

وعفا لهم عما قبضوه به قبل التحريم، ولولا ذلك، لردوا ما قبضوه به قبل التحريم.

وعلق هذا الامتثال على وجود الإيمان منهم، والمعلق على شرط منتف عند انتفائه.

ثم أكد عليهم التحريم بأغلظ شيء وأشده؛ وهي محاربة المرابي لله ورسوله، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

ففي ضمن هذا الوعيد: أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوى: الربا، وقطع الطريق والسعي في الأرض بالفساد؛ لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض، قاطع الطريق على الناس: هذا بقهره لهم وتسلطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها. فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله، وآذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا: بحربه، وحرب رسوله.

ثم قال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. يعني: إن تركتم الربا وتبتم إلى الله منه وقد عاقدتم عليه؛ فإنما لكم رءوس أموالكم: لا تزدادون عليها؛ فتظلمون الآخذ، ولا تنقصون منها؛ فيظلمكم من أخذها. فإن كان هذا القابض معسرًا فالواجب؛ إنظاره إلى ميسرة، وإن تصدقتم عليه وأبرأتموه؛ فهو أفضل لكم وخير لكم. فإن أبت نفوسكم، وشحت: بالعدل الواجب؛ أو الفضل المندوب؛ فذكروها يومًا ترجعون فيه إلى الله، وتلقون ربكم؛ فيوفيكم جزاء أعمالكم؛ أحوج ما أنتم إليه، فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق ثم عقبه بالظالم وهو المرابي . . .(١)

(٢)**والله** سبحانه قد قال في آية المُدَاينة [البقرة: ٢٨٢]. التي أرشد بها عباده إلى حفظ حقوق بعضهم على بعض خشية ضياعها بالجحود، أو النسيان، فأرشدهم

---

(١) القسم الثالث يأتي آخر السورة. ج.		(٢) ٤٨ إغاثة جـ٢.

إلى حفظها بالكتاب، وأكد ذلك بأن أمَرَهم بكتابةِ الدين، وأمر الكاتِب أنْ يكتُبَ.

ثم أكد ذلك بأن نهاه أنْ يأبَى أن يكتبَ. ثم أعاد الأمر بأن يكتب مرة أخرى، وأمر مَنْ عليه الحقُّ أن يُمْلِلَ، ويَتْقِي ربه. فلا يَبْخَسْ من الحقِّ شيئًا. فإن تَعَذَّر إملاؤه: لسفهه، أو صغره، أو جنونه، أو عدم استطاعته؛ فوَلِيُّه مأمور بالإملاء عنه.

وأرشدهم إلى حفظها باستشهاد: شهيدين من الرجال، أو رجل وامرأتين. فأمرهم بالحفظ بالنصاب التام، الذي لا يحتاج صاحبُ الحق معه إلى يمينٍ، ونهى الشهودَ أن يأبَوْا إذا دُعوا إلى إقامة الشهادة.

ثم أكَّد ذلك عليهم بنهيهم أن يمتنعوا من كتابة الحقير والجليل من الحقوق، سآمة ومللاً.

وأخبر أن ذلك: أعدل عنده، وأقْوَم للشهادة. فيتذكرها الشاهد إذا عاين خَطَّه؛ فيقيمها. وفي ذلك تنبيهٌ على أن له أن يقيمها إذا رأى خطه وتَيَقَّنه. وإلا لم يكن بالتعليل بقوله: ﴿وأقومُ للشهادةِ﴾ فائدة.

وأخبر أن ذلك: أقرب إلى اليقين، وعدم الريب. ثم رفع عنهم الجناح بترك الكتابة؛ إذا كان بيعاً حاضراً فيه التقابُضُ من الجانبين، يأمَنُ به كلُّ واحد من المتبايعين من: جُحود الآخر، ونِسْيانه.

ثم أمرهم مع ذلك بالإشهاد إذا تبايعوا: خَشْيَةَ الجحود، وغَدْر كل واحدٍ منهما بصاحبه. فإذا أشهدَا على التبايع أمِنا ذلك.

ثم نهي الكاتبَ والشهيدَ عن أن يُضَارَّا: إما بأنْ يمتنعا من الكتابة والشهادة تَحَمُّلاً وأداءً، أو أن يَطْلُبا على ذلك جُعْلاً يَضرُّ بصاحب الحق، أو بأن يكتُم الشاهدُ بعضَ الشهادة، أو يؤخِّر الكتابة والشهادة تأخيراً يَضرُّ بصاحب الحق، أو يَمْطُلاه، ونحو ذلك، أو هو نَهْيٌ لصاحب الحق أن يُضارَّ الكاتبَ والشهيدَ، بأن: يَشْغَلهما عن ضرورتهما وحوائجهما، أو يُكلِّفهما من ذلك ما يَشُقُّ عليهما.

ثم أخبر أن ذلك فسوق بفاعله. فهذا كله عند القدرة على الكتاب والشهود.

ثم ذكر ما تُحفظ به الحقوق؛ عند عدم القدرة على الكتاب والشهود، وهو السَّفَر في الغالب، فقال: ﴿وَإن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

فدلّ ذلـك دلالة بَيِّنة أن الرِّهان قائمةٌ مقام الكتاب والشهود، شاهدة مخبرة بالحق، كما يُخبر به الكتاب والشهودُ.

وهـذا - والله أعلم - سِرُّ تقييد الرهن بالسَّفَر؛ لأنه حالٌ يتعذر فيها الكتاب الـذي يَنْـطِقُ بالحق غالبـاً، فقام الرهنُ مقامه، ونابَ منابَهُ. وأكد ذلك بكونه مقبوضاً للمرتهن، حتى لا يتمكن الراهنُ من جَحْده.

فلا أحسنَ من هذه النصيحة، وهذا الإرشاد والتعليم، الذي لو أخذَ به الناسُ لم يضع في الأكثر حقُّ أحد، ولم يتمكَّنْ المبطِلُ من الجحود والنِّسيانِ.

فهذا حكمه سبحانه المتضمنُ لمصالح العبادِ في معاشهم ومعادهم. . .

...[1]**فبينة** الحال ودَلالته هنا تفيد من ظهور صدق المدعي؛ أضعافَ ما يفيد مجرد اليد عند كل أحد؛ فالشارع لا يهمل مثل هذه البينة والدلالة، ويضيع حقًّا يعلم كلُّ أحدٍ ظهوره وحجته، بل لما ظنَّ هذا من ظنه؛ ضيعوا طريق الحكم، فضـاع كثـير من الحقوق؛ لتوقف ثبوتها عندهم على طريق معين، وصار الظالم الفـاجـر ممكَّناً من ظلمه وفجوره، فيفعل ما يريد، ويقول: لا يقوم على بذلك شاهدان اثنان، فضاعت حقوق كثيرة لله ولعباده.

وحينئذ أخرج الله أمر الحكم العلمي عن أيديهم، وأدخل فيه من أمر الأمارة والسياسـة؛ ما: يحفظ به الحق تارة ويضيع به أخرى، ويحصل به العدوان تارة والعدل أخرى. ولو عرف ما جاء به الرسول على وجهه؛ لكان فيه تمام المصلحة المُغنية عن التفريط والعدوان.

وقد ذكر الله سبحانه نصاب الشهادة في القرآن في خمسة مواضع:

فذكر نصاب شهادة الزنى أربعة في سورة النساء، وسورة النور.

وأما في غير الزنىٰ فذكر: شهادة الرجلين، والرجل والمرأتين؛ في الأموال؛ فقال في آية الدين: **﴿وَاستشهدوا شهيدينِ من رجالِكم، فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامـرَأتانِ﴾** [البقرة: ٢٨٢] فهذا في التحمل والوثيقة، التي يحفظ بها صاحبُ المال حقه، لا في طريق الحكم، وما يحكم به الحاكم، فإن هذا شيء وهذا شيء.

وأمر في الرجعة بشاهدين عدلين.

---

(١) ٩٠ أعلام جـ١.

وأمر في الشهادة على الوصية في السفر باستشهاد: عدلين من المسلمين، أو آخـرين من غيرهم. وغـيرُ المؤمنـين هم الكفـار، والآية صريحة في قبول شهادة الكـافرين على الوصية في السفر؛ عند عدم الشاهدين المسلمين، وقد حكم به النبي، ﷺ، والصحـابة بعده ولم يجىء بعدها ما ينسَخُها؛ فإن المائدة من آخر القرآن نزولاً، وليس فيها منسوخ، وليس لهذه الآية معارض ألبتة.

ولا يصح أن يكون المراد بقوله: ﴿**من غيركم**﴾: من غير قبيلتكم، فإن الله سبحانه خاطب بها المؤمنين كافة بقوله: ﴿**يا أيُّها الَّذين آمنوا شَهَادة بينكم إذا حضرَ أحدَكُمُ المَوتُ حين الوصِيَّةِ اثنان ذَوَا عدلٍ منكم أو آخرانِ من غيركُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٦] ولم يُخاطب بذلك قبيلةً معينة حتى يكون قوله: ﴿**من غيرِكُمْ**﴾ أيتها القبيلة، والنبي، ﷺ، لم يفهم هذا من الآية؛ بل إنما فهم ما هي صَريحة فيه، وكذلك أصحابه من بعده، وهو سبحانه ذكر ما يحفظ به الحقوق من الشهود، ولم يذكر أن الحكام لا يحكمون إلا بذلك[١].

[٢]**وقد** ذهب مالك إلى التوصل إلى الإقرار بما يراه الحاكم، وذلك يستند إلى قوله: ﴿**إن كان قميصُه قُدَّ من قُبُل**﴾ [يوسف: ٢٦] ومتى حكمنا بعقد الأزج وكثرة الخشب ومعاقدالقمط في الجص[٣]وما يصلح للمرأة والرجل، يعني في الدعاوي، والدباغ والعطارإذا تخاصما[٤]في جلدوالقيافة، والنظر في الخنثى والنظر في إمارات القبلة، وهل اللوث في القسامة إلا نحو هذا. انتهى.

قلت: الحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الإمارات ودلائل الحال، كفقهه في كليات الأحكام؛ ضيع الحقوق.

فههنا فقهان لابد للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في الـوقائع وأحوال الناس، يميز به بين: الصادق والكاذب، والمحق والمبطل. ثم يطبق بين هذا وهذا، بين الواقع والواجب؛ فيعطي الواقع حكمه من الواجب.

---

(١) بحث المؤلف في البينات قرابة كراسة، قرر فيها ثبوت الحق بأي بينة. ج.

(٢) ١١٧ بدائع جـ٣.

(٣) في المطبوعة: الحصن وأثبتنا الصواب من المخطوطة.

(٤) في المطبوعة: تحاكما وأثبتنا الصواب من المخطوطة.

ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالها وعدلها وسعتها ومصلحتها، وأن الخلق لاصلاح لهم بدونها ألبتة؛ علم أن السياسة العادلة: جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علماً بمقاصدها ووضعها مواضعها؛ لم يحتج معها إلى سياسة غيرها ألبتة فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها.

وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، وهي من الشريعة، علمها من علمها، وخفيت علي من خفيت عنه.

ولا تنس في هذا الموضع قول سليمان نبي الله للمرأتين، اللتين ادعتا الولد فحكم به داود للكبرى، فقال سليمان: «**إتوني بالسكين أشقه بينهما**» فقالت الصغرى: لا تفعل هو ابنها؛ فقضى به للصغرى؛ لما دل عليه امتناعها، من رحمة الأم، ودل رضى الكبرى بذلك على الاسترواح إلى التأسي بمساواتها في فقد الولد.

وكذلك قول الشاهد من أهل امرأة العزيز: ﴿**إن كان قميصُه قُدَّ من قُبُلٍ**﴾ ﴿**وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبُرٍ**﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧] فذكر الله تعالى ذلك مقرراً له، غير منكر على قائله؛ بل رتب عليه العلم: ببراءة يوسف، وكذب المرأة عليه.

وقد أمر النبي، ﷺ، الزبير أن يقرر ابني أبي الحقيق بالتعذيب على إخراج الكنز؛ فعذبهما حتى أقرا به.

ومن ذلك قول علي للظعينة التي حملت كتاب حاطب وأنكرته فقال لها: «لتخرجن الكتاب أو لنجردنك».

وهل تقتضي محاسن الشريعة الكاملة إلا هذا؟!

وهل يشك أحد في أن كثيراً من القرائن؛ تفيد علماً أقوى من الظن المستفاد من الشاهدين؛ بمراتب عديدة؟!

فالعلم المستفاد من مشاهدة الرجل مكشوف الرأس، وآخر هارب قدامه، وبيده عمامة، وعلى رأسه عمامة، فالعلم بأن هذه عمامة المكشوف رأسه؛ كالضروري. فكيف تقدم عليه اليد التي إنما تفيد ظنًا ما عند عدم المعارضة، وأما مع هذه المعارضة فلا تفيد شيئاً؛ سوى العلم بأنها يد عادية فلا يجوز الحكم بها ألبتة؟ ولم تأت الشريعة بالحكم لهذه اليد وأمثالها ألبتة.

وقد أمر النبي، ﷺ، الملتقط أن يدفع اللقطة إلى واصفها، وقد نص أحمد على اعتبار الوصف عند تنازع المالك والمستأجر في الدفين في الدار.

وهذه من محاسن مذهبه، ونص على البلد يفتح؛ فيوجد فيه أبواب مكتوب عليها بالكتابة القديمة: أنها وقف؛ أنه يحكم بذلك لقوة هذه القرينة، وهل الحكم بالقافة إلا حكم بقرينة الشبه؟ وكذلك اللوث في القسامة؛ حتى إن مالكاً وأحمد في إحدى الروايتين؛ يقيدان بها؛ وهو الصواب الذي لاريب فيه، وكذلك الحكم بالنكول إنما هو مستند إلى قوة القرينة الدالة على أن الناكل غير محق.

وبالجملة فالبينة: اسم لكل ما يبين الحق. ومن خصها بالشاهدين؛ فلم يوف مسماها حقه.

ولم تأت البينة في القرآن قط مراداً بها الشاهدان؛ وإنما أتت مراداً بها: الحجة، والدليل، والبرهان: مفردة، ومجموعة.

وكذلك قول النبي، ﷺ: «**البينة على المدعي**» المراد به بيان ما يصحح دعواه.

والشاهدان من البينة، ولا ريب أن غيرهما من أنواع البينة؛ قد تكون أقوى منهما كدلالة الحال على صدق المدعي؛ فإنها أقوى من دلالة إخبار الشاهد.

والبينة والحجة والدلالة، والبرهان والآية، والتبصرة؛ كالمترادفة؛ لتقارب معانيها.

والمقصود أن الشرع لم يلغ القرائن ولا دلالات الحال؛ بل من استقرأ مصادر الشرع وموارده؛ وجده: شاهدا لها بالاعتبار، مرتباً عليها الأحكام.

وقول ابن عقيل: ليس هذا فراسة.

يقال: ولا ضير في تسميته فراسة؛ فإنها فراسة صادقة.

وقد مدح الله سبحانه وتعالى الفراسة وأهلها، في مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿**إن في ذلك لآياتٍ للمتوسمين**﴾ [الحجر:٧٥]. وهم المتفرسون الذين يأخذون بالسيما، وهي العلامة، ويقال: توسمت فيك كذا، أي: تفرسته، كأنك أخذت من السيما، وهي فعلاً من السمة، وهي العلامة.

وقال تعالى: ﴿**وَلَو نَشَاءُ لأَرَيْنَاكهم فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ**﴾[محمد: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الجاهِلُ أَغنياءَ مَنَ التعففِ تعرفهم بِسيمَاهم**﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفي الترمذي مرفوعاً: «**اتقوا فِراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله**» ثم قرأ: ﴿**إنَّ في ذلك لآياتٍ للمتوسمين**﴾ [الحجر: ٧٥] والله أعلم.

...[1]**وقال** شيخ الإسلام ابن تيمية: القرآن لم يذكر الشاهدين، والرجل والمرأتين في طرق الحكم التي يحكم بها الحاكم، وإنما ذكر هذين النوعين من البينات في الطرق التي يحفظ بها الإنسان حقه.

فقال تعالى: ﴿**يَا أيُّها الذين آمنوا إذا تَدَايَنتُم بدَيْنٍ إلى أجلٍ مُسمًّى فَاكتبوهُ. وليكتُب بينكم كاتبٌ بالعدلِ. ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتبَ كما علَّمَه الله. فليكتبْ. وَلْيُمْلِلِ الذي عليه الحقُّ. وَلْيتَّقِ الله ربَّه. ولاَ يبخسْ منه شيئاً. فإن كان الذي عليه الحَقُّ سفيهاً أو ضعيفاً أوَ لاَ يَستطيعُ أن يُملَّ هو فليمللْ وليُّه بالعدلِ. واستشهدوا شهيدينِ من رجالِكم. فإن لم يكونا رجلينِ فرجلٌ وامرأتانِ ممن تَرْضَوْنَ من الشهداءِ**﴾ [البقرة: ٢٨٢]

فأمرهم سبحانه بحفظ حقوقهم بالكتاب، وأمر من عليه الحق أن يملي الكاتب، فإن لم يكن ممن يصح إملاؤه؛ أملى عنه وليه.

ثم أمر من له الحق أن يستشهد على حقه برجلين، فإن لم يجد؛ فرجل وامرأتان.

ثم نهى الشهداء المتحملين للشهادة عن التخلف عن إقامتها؛ إذا طُلبوا بذلك.

ثم رخص لهم في التجارة الحاضرة: أن لا يكتبوها.

ثم أمرهم بالإشهاد عند التبايع.

ثم أمرهم إذا كانوا على سفر ـ ولم يجدوا كاتباً ـ أن يستوثقوا بالرُّهُن المقبوضة.

كل هذا نصيحة لهم، وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقهم. وما تحفظ به الحقوق شيء، وما يحكم به الحاكم شيء. فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين والمرأتين. فإن الحاكم يحكم بالنكول واليمين المردودة، ولا ذكر لهما في القرآن؛ فإن كان الحكم بالشاهد الواحد واليمين مخالفاً لكتاب الله؛ فالحكم بالنكول والرد أشد مخالفة...

[2]**الطريق** الثامن من طرق الحكم: الحكم بالرجل الواحد والمرأتين.

قال الله تعالى: ﴿**واستشهدوا شهيدين من رجالِكم. فإن لم يكونا رجلينِ فَرَجُلٌ وامرأتانِ ممن ترضَوْنَ مِن الشهداءِ، أن تضلَّ إحداهما فتذكِّرَ إحداهما**

(١) ٧١ الطرق الحكمية. (٢) ١٤٩ الطرق الحكمية.

الأخرى﴾[البقرة: ٢٨٢]. فإن قيل: فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين؛ بدل عن الشاهدين، وأنه لا يقضى بهما إلا عند عدم الشاهدين.

قيل: القرآن لا يدل على ذلك. فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم. فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق، فإن لم يقدروا على أقواها؛ انتقلوا إلى مادونها. فإن شهادة الرجل الواحد أقوى من شهادة المرأتين؛ لأن النساء؛ يتعذر غالباً حضورهن مجالس الحكام، وحفظهن وضبطهن؛ دون حفظ الرجال وضبطهم. ولم يقل سبحانه: احكموا بشهادة رجلين، فإن لم يكونا رجلين؛ فرجل وامرأتان.

وقد جعل سبحانه المرأة على النصف من الرجل في عدة أحكام:

أحدها: هذا. والثاني: في الميراث، والثالث: في الدية، والرابع: في العقيقة، والخامس: في العتق.

كما في الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: «**من أعتق امرأً مسلماً أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار. ومن أعتق امرأتين مسلمتين أعتق الله بكل عضو منهما عضواً من النار**».

وقوله تعالى: **﴿أن تَضِلَّ إحداهما فَتَذكِّرَ إحداهُما الأخرى﴾** فيه دليل على أن الشاهد إذا نسي شهادته فذكره بها غيره؛ لم يرجع إلى قوله حتى يذكرها؛ وليس له أن يقلده. فإنه سبحانه قال: **﴿فَتذَكِّرَ إحداهُما الأخرى﴾** ولم يقل: فتخبرها. وفيها قراءتان: التثقيل والتخفيف. والصحيح: أنهما بمعنى واحد من «الذِّكر».

وأبعد من قال: فيجعلها ذَكراً؛ لفظاً ومعنى. فإنه سبحانه جعل ذلك علة للضلال الذي هو ضد الذكر. فإذا ضلت أو نسيت؛ ذكرتها الأخرى فذكرت.

وقوله: ﴿أن تضل﴾ تقديره عند الكوفيين: لئلا تضلَّ إحداهما. ويطردون ذلك في كل ماجاء من هذا. كقوله: **﴿يبينُ الله لكم أن تضلُّوا﴾**[النساء: ١٧٦] ونحوه.

ويرد عليهم نصب قوله: **﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾** إذ يكون تقديره: لئلا تضل، ولئلا تذكر.

وقدّره البصريون بمصدر محذوف، وهو: الإرادة والكراهة والحذر، ونحوها.

فقالوا: يبين الله لكم أن تضلوا، أي: حذر أن تضلوا، وكراهة أن تضلوا ونحوه.

ويشكل عليهم هذا التقدير في قوله: **﴿أن تضل إحداهما﴾** فإنهم إن قدروه: كراهة أن تضل إحداهما؛ كان حكم المعطوف عليه - وهو: فتذكر - حكمه. فيكون مكروهاً، وإن قدروها: إرادة أن تضل إحداهما؛ كان الضلال مراداً.

والجواب عن هذا: أنه كلام محمول على معناه. والتقدير: أن تذكر إحداهما الأخرى؛ إن ضلت، وهذا مراد قطعاً. والله أعلم.

وقال شيخنا ابن تيمية رحمه الله تعالى: قوله تعالى: **﴿فَإِن لم يكونا رجلين فَرَجلٌ وامرأتانِ ممَّن ترضَوْنَ من الشُّهداء أن تضلَّ إحداهما فتذكِّرَ إحداهما الأخرى﴾** [البقرة: ٢٨٢] فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل؛ إنما هو لإذكار إحداهما الأخرى؛ إذا ضلت. وهذا إنما يكون فيما يكون فيه الضلال في العادة، وهو النسيان وعدم الضبط. وإلى هذا المعنى أشار النبي، ﷺ، حيث قال: «**أما نقصان عقلهن: فشهادة امرأتين بشهادة رجل**» فبين أن شطر شهادتهن؛ إنما هو لضعف العقل، لا لضعف الدين. فعلم بذلك؛ أن عدل النساء بمنزلة عدل الرجال. وإنما عقلها ينقص عنه. فما كان من الشهادات لا يخاف فيه الضلال في العادة؛ لم تكن فيه على نصف رجل، وما يقبل فيه شهادتهن منفردات؛ إنما هو أشياء تراها بعينها، أو تلمسها بيدها، أو تسمعها بأذنها من غير توقف على عقل: كالولادة والاستهلال، والارتضاع، والحيض، والعيوب تحت الثياب. فإن مثل هذا لا ينسى في العادة، ولا تحتاج معرفته إلى كمال عقل، كمعاني الأقوال التي تسمعها من الإقرار بالدين وغيره، فإن هذه معان معقولة، ويطول العهد بها في الجملة.

...[1]**والمنافع** التي يجب بذلها نوعان:

منها: ما هو حق المال، كما ذكرنا في الخيل، والإبل، والحلي.

ومنها: ما يجب لحاجة الناس.

وأيضاً: فإن بذل منافع البدن تجب عند الحاجة: كتعليم العلم، وإفتاء الناس، وأداء الشهادة، والحكم بينهم، وأداء الشهادة[2]، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي

---

(١) ٢٦١ الطرق الحكمية.

(٢) هكذا بالنسخة، ولعله تكرار. المراجع.

عن المنكر، وغير ذلك من منافع الأبدان.

وكذلك من أمكنه إنجاء إنسان من مهلكة؛ وجب عليه أن يخلصه، فإن ترك ذلك ـ مع قدرته عليه ـ؛ أثم، وضمنه.

فلا يمتنع وجوب بذل منافع الأموال للمحتاج، وقد قال تعالى: **﴿ولا يأبَ الشهداءُ إذا ما دُعُوا﴾** وقال: **﴿وَلاَ يَأبَ كَاتِبٌ أن يكتبَ كَمَا عَلَّمه الله﴾**

وللفقهاء في أخذ الجعل على الشهادة أربعة أقوال، وهي أربعة أوجه في مذهب أحمد: أحدها: أنه لا يجوز مطلقاً، والثاني: أنه يجوز عند الحاجة، والثالث: أنه لا يجوز إلا أن يتعين عليه، والرابع: أنه يجوز، فإن أخذه عند التحمل؛ لم يأخذه عند الأداء.

...[1]**الشهادة** المتعينة حق على الشاهد، يجب عليه القيام به، ويأثم بتركه. قال الله تعالى: **﴿وَلاَ تَكتُموا الشهادةَ ومن يَكتُمْها فإنه آثمٌ قلبُه﴾** [البقرة: ٢٨٣] وقال تعالى: **﴿وَلاَ يَأبَ الشهداءُ إذا مَادُعوا﴾** [البقرة: ٢٨٢] وهل المراد به: إذا ما دعوا للتحمل، أو للأداء؟ على قولين للسلف، وهما روايتان عن أحمد، والصحيح: أن الآية تعمهما، فهي حق عليه[2]، يأثم بتركه ويتعرض للفسق والوعيد. ولكن ليست حقًا تصح الدعوي به، والتحليف عليه؛ لأن ذلك يعود على مقصودها بالإبطال؛ فإنه مستلزم: لاتهامه، والقدح فيه بالكتمان.

[3]**وعبارات** السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار قال مجاهد: حَكَمَ، وقضى. وقال الزجاج: بَيَّنَ.

وقالت طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها؛ فإن «الشهادة» تتضمن: كلام الشاهد، وخبره، وقوله. وتتضمن: إعلامه، وإخباره، وبيانه. فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يُعلم به غيره؛ بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها.

---

(١) ١٤٨ الطرق الحكمية.

(٢) بالنسخة (حق له) والصواب ما أثبتناه. المراجع.

(٣) ٤٥٠ مدارج جـ٣.

وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط؛ تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به.

قال الله تعالى: ﴿**إلَّا مَن شَهِدَ بالحقِّ وَهم يَعلمون**﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال النبي، ﷺ: «**على مثلها فاشهد**» وأشار إلى الشمس.

وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به؛ فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة.

قال تعالى: ﴿**قل: هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذينَ يَشهدونَ أَنَّ الله حَرَّم هذا. فإن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُم**﴾ [الأنعام: ١٥٠]. وقال تعالى: ﴿**وَجَعلوا الملائِكَةَ الَّذينَ هُم عِبادُ الرَّحمن إنَاثاً. أشهِدُوا خلقَهم؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهم وَيُسْئلُونَ**﴾ [الزخرف: ١٩].

فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم.

قال النبي، ﷺ: «**عَدَلَتْ شهادةُ الزور الإشراك بالله**» وشهادة الزور هي قول الزور.

كما قال تعالى: ﴿**وَاجَتنبوا قولَ الزُّورِ. حُنفَاءَ لله غَيرَ مُشركين به**﴾ [الحج: ٣٠،٣١]

وعند نزول هذه الآية؛ قال رسول الله، ﷺ: «**عدلت شهادة الزور الإشراك بالله**» فسمى قول الزور شهادة، وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة.

قال تعالى: ﴿**يَا أيُّها الذين آمنوا، كُونُوا قَوَّامينَ بالقسطِ شُهداءَ لله، وَلَو على أنفسكم**﴾ [النساء: ١٣٥].

فشهادة المرء على نفسه: هي إقراره على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي: «فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله، ﷺ»، وقال تعالى: ﴿**قَالُوا: شَهِدنا عَلى أنفسِنا. وَغَرَّتهمُ الحياةُ الدُّنيا. وَشَهِدُوا عَلى أنفسِهم أَنَّهم كَانوا كافرين**﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا ـ وأضعافه ـ يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره؛ لا يشترط في قبول شهادته؛ أن يتلفظ بلفظ الشهادة، كما هو مذهب مالك، وأهل المدينة، وظاهر كلام أحمد، ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك.

وقد قال ابن عباس: «شهد عندي رجال مرضيون ـ وأرضاهم عندي عمر ـ أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح؛ حتى تطلع الشمس، وبعد العصر؛ حتى تغرب الشمس».

ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة. والعشرة الذين شهد لهم رسول الله، ﷺ، بالجنة، لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة؛ بل قال: «**أبوبكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة**» الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فقد دخل في الإسلام، وشهد شهادة الحق، ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة، وأنه قد دخل في قوله: «**حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله**»، وفي لفظ آخر: «**حتى يقولوا: لا إله إلا الله**» فدل على أن مجرد قولهم: «لا إله إلا الله» شهادة منهم.

وهذا أكثر من أن تذكر شواهده من الكتاب والسنة، فليس مع من اشترط لفظ الشهادة؛ دليل يعتمد عليه. والله أعلم.

...(1)**وقبول** شهادة العبد: هو موجب الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، وصريح القياس، وأصول الشرع، وليس مع من ردها: كتاب ولا سنة، ولا إجماع، ولا قياس.

قال تعالى: **﴿وَكَذلك جَعَلنَاكم أمةً وَسطاً لتكونوا شُهداءَ على النَّاسِ، وَيَكونَ الرَّسولُ عليكم شَهيداً﴾** [البقرة: ١٤٣]. والوسط: العدل الخيار. ولا ريب في دخول العبد في هذا الخطاب. فهو عدل بنص القرآن. فدخل تحت قوله: **﴿وأشهدُوا ذوى عدلٍ منكُم﴾** [الطلاق: ٢].

وقال تعالى: **﴿يا أيُّها الذين آمنوا كُونوا قوَّامِينَ بالقسطِ شُهداءَ لله﴾** [النساء: ١٣٥، المائدة: ٨](2) وهو من الذين آمنوا قطعاً؛ فيكون من الشهداء لذلك.

وقال تعالى: **﴿وَاستشهدوا شَهيدينِ مِن رجالِكم﴾** [البقرة: ٢٨٢] ولا ريب أن العبد من رجالنا.

---

(١) ١٦٦ الطرق الحكمية (٢) آية المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾.

وقال تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا وَعَمِلوُا الصَّالِحَاتِ أولئك هُم خيرُ البريَّةِ﴾ [البينة: ٧] والعبد المؤمن الصالح من خير البرية؛ فكيف ترد شهادته؟ وقد عدّله الله ورسوله، كما في الحديث المعروف المرفوع: «**يحمل هذا العلم من كل خَلَف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**» والعبد يكون من حملة العلم، فهو عدل بنص الكتاب والسنة. وأجمع الناس على أنه مقبول الشهادة على رسول الله، ﷺ، إذا روى عنه الحديث، فكيف تقبل شهادته على رسول الله، ﷺ، ولا تقبل شهادته على واحد من الناس؟

...[1]**ثم** ذكر العادل[2] في آية التداين فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ**﴾ [البقرة: ٢٨٢] الآية، ولولا أن هذه الآية تستدعي سفراً وحدها؛ لذكرت بعض تفسيرها، والغرض إنما هو التنبيه والإشارة.

وقد ذكر أيضاً العادل، وهو آخذ رأس ماله من غريمه لا بزيادة ولا نقصان.

ثم ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة، التي هي من كنز تحت عرشه، والشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام وأصول الإيمان ومقامات الإحسان؛ ما يستدعي بيانه؛ كتاباً مفرداً.

والمقصود ذكر طبقات الخلائق في الدار الآخرة. ولنعد إلى المقصود: فإن هذا من سعي القلم، ولعله أهم مما نحن بصدده: فهذه الطبقات الأربع من طبقات الأمة هم؛ أهل الإحسان والنفع المتعدى وهم: العلماء، وأئمة العدل، وأهل الجهاد، وأهل الصدقة وبذل الأموال في مرضاة الله. فهؤلاء ملوك الآخرة، وصحائف حسناتهم متزايدة، تملى فيها الحسنات وهم في بطون الأرض، مادامت آثارهم في الدنيا. فيالها من نعمة ما أجلها! وكرامة ما أعظمها! يختص الله بها من يشاء من عباده.

[3]**ولما** نزل قوله تعالى: ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض وَإنْ تُبْدُوا ما في**

---

(١) ٣٧٨ طريق الهجرتين.

(٢) وهو القسم الثالث من أصحاب الأموال الثلاثة الذين ذكر أولهم، وهم (المحسنون المتصدقون) ص ٣٧٥ من طريق الهجرتين.

قلت: وقد سبق ذكرهم ص (٤٦٩ - ٤٧١) من هذا البحث. المراجع.

(٣) ٢٢١ مختصر الصواعق جـ١.

أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ [البقرة: ٢٨٤] أشكل ذلك على بعض الصحابة وظنوا أن ذلك من تكليفهم بما لا يطيقونه، فأمرهم، ﷺ، ان يقابلوا النص بالقبول. فبين الله سبحانه بعد ذلك: أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأنه لا يؤاخذهم بما نسوه أو اخطؤوا فيه، وأنه لا يحمل عليهم إصراً كما حمله على الذين من قبلهم، وأنه لا يحملهم مالا طاقة لهم به، وأنهم إن قصروا في بعض ما أمروا به أو نهوا عنه ثم استغفروا: عفا الله عنهم، وغفر لهم، ورحمهم. فانظر ماذا أعطاهم الله تعالى لما قابلوا خبره: بالرضى والتسليم، والقبول والانقياد، دون المعارضة والرد. . .

(1)**قال** سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وعَلَيهَا مَا اكتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني: من السيئات؛ لأن الذنوب يوصل إليها بواسطة: الشهوة، والشيطان، والهوى، والحسنة تنال؛ بهبة الله من غير واسطة شهوة، ولا إغراء عدو. فهذا الفرق بينهما على ما قاله السهيلي.

وفيه فرق أحسن من هذا وهو: أن الاكتساب يستدعي التعمل والمحاولة والمعاناة؛ فلم يجعل على العبد؛ إلا ما كان من هذا القبيل الحاصل بسعيه ومعاناته وتعمله. وأما الكسب؛ فيحصل بأدنى ملابسة؛ حتى بالْهَمِّ بالحسنة، ونحو ذلك.

فخص الشر بالاكتساب والخير بأعم منه؛ ففي هذا مطابقة للحديث الصحيح: «**إذا هم عبدي بحسنةٍ فاكتبوها وإنْ هَمَّ بسيِّئة فلا تكتبوها**».

وأما حديث الواسطة وعدمها؛ فضعيف؛ لأن الخير أيضاً بواسطة: الرسول، والمَلَك، والإلهام، والتوفيق. فهذا في مقابلة وسائط الشر. فالفرق ما ذكرناه. والله أعلم.

(2)**وفي** الصحيحين: عن أبي مسعود الأنصاري، عن النبي، ﷺ، قال: «**من قرأ بهاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**».

الصحيح: أن معناها: كفتاه من شر ما يؤذيه، وقيل: كفتاه قيام الليل: وليس بشيء.

وقال علي بن أبي طالب: ما كنت أرى أحدًا يعقل، ينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاث الأواخر من سورة البقرة.

---

(١) ٧٤ بدائع جـ٢.　　(٢) ٢٠٧ الوابل الصيب.

فهرس الضوء المنير على التفسير
المجلـــد الأول

رقم الصحيفة الموضـــــــوع

تفسير سورة البقـــرة

انتهى فهرس المجلد الأول

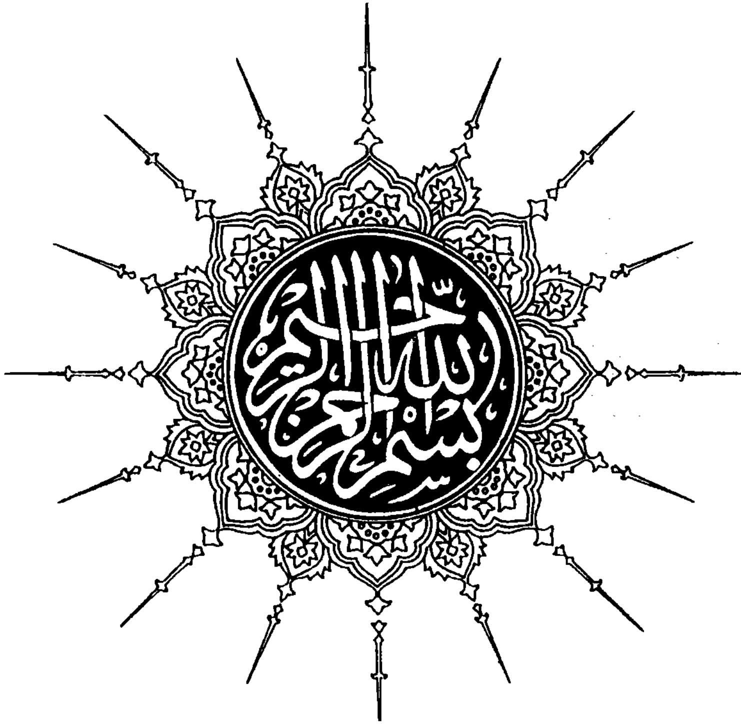
الضوء المنير
على
التفسير

المجلد الثاني

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده
علي الحمد المحمد الصالحي

من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيم الجوزية
رحمه الله تعالى

الناشر
مؤسسة النور للطباعة والتجليد
بالتعاون مع
مكتبة دار السلام


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

. . .(١) ﴿الم. الله لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ. نزَّل عليك الكتابَ بالحق مصدقًا لما بين يديه﴾ [آل عمران: ١ - ٣].

وقال: ﴿وهَذا كِتَابٌ أنزلناهُ مُباركٌ مُّصدقُ الذي بين يديه﴾. [الأنعام: ٩٢].

أفلا ترى كيف اطرد في القرآن وصف الكتاب بأنه مصدق لما بين يديه.

وقال: وباتفاق الناس أن المراد مصدق لما تقدمه من الكتب، وبهذه الطريق يكون مصدقًا للنبي، ﷺ، ويكون أبلغ في الدليل على صدقه من أن يقال: هذا كتاب مصدق لك، فإنه إذا كانت(٢) الكتب المتقدمة تصدقها وتشهد بصحة ما فيها مما أنزله الله من غير مواطأة ولا اقتباس منها؛ دل على أن الذي جاء به رسول الله، ﷺ، صادق؛ كما أن الذي جاء بها كذلك وأن مخرجهما من مشكاة واحدة.

ولهذا قال النجاشي حين قرئ عليه القرآن: إن هذا والذي جاء به موسى يخرج من مشكاة واحدة، يعني: فإذا كان موسى صادقًا وكتابه حق فهذا كذلك؛ إذ من المحال أن يخرج شيئان من مشكاة واحدة؛ ويكون أحدهما باطلاً محضًا والآخر حقًّا محضًا، فإن هذا لا يكون إلا مع غاية التباين والتنافر.

فالقرآن صدق الكتب المتقدمة، وهي بشرت به وبمن جاء به؛ فقام الدليل على صدقه من الوجهين معًا: من جهة بشارة من تقدمه به، ومن جهة تصديقه ومطابقته له فتأمله.

ولهذا كثيرًا ما يتكرر هذا المعني في القرآن؛ إذ في ضمنه الاحتجاج على الكتابيين بصحة نبوة محمد، ﷺ، بهذه الطريق، وهي حجة أيضًا على غيرهم بطريق اللزوم؛ لأنه إذا جاء بمثل ما جاءوا به من غير أن يتعلم منهم حرفًا واحدًا؛ دل على أنه من عند الله، وحتى لو أنكروا رسالة من تقدم؛ لكان في مجيئه بمثل ما جاءوا به؛ إثبات لرسالته ورسالة من تقدمه، ودليل على صحة الكتابين وصدق الرسولين؛ لأن الثاني قد جاء بأمر لا يمكن أن ينال بالتعليم أصلاً، ولا البعض

---

(١) ١١٤ بدائع جـ٢.　　(٢) في نسخة اذا طابق الكتب المتقدمة وصدقها وشهد بصحة مافيها.

منه: فجاء على يدي أميّ لا يقرأ كتابًا ولا خطه بيمينه ولا عاشر أحدًا من أهل الكتاب؛ بل نشأ بينكم وأنتم تشاهدون حاله حضرًا وسفرًا وظعنًا وإقامة، فهذا من أكبر الأدلة على أن ما جاء به ليس من عند البشر ولا في قدرتهم.

وهذا برهان بيّن أبين من برهان الشمس، وقد تضمن ما جاء به تصديق من تقدمه، وتضمن ما تقدمه البشارة به، فتطابقت حجج الله وبيناته على صدق أنبيائه ورسله، وانقطعت المعذرة وثبتت الحجة، فلم يبق لكافر إلا العناد المحض أو الإعراض والصد.

(١)**ومن** تجريبات السالكين، التي جوبوها فألفوها صحيحة؛ أن من أدمن «**يا حي يا قيوم لا إلـه إلا أنت**» أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ شديد اللهج بها جدًّا.

وقال لي يومًا: لهذين الاسمين ـ وهما ﴿**الحيُّ القيُّومُ**﴾ [آل عمران: ٢] تأثير عظيم في حياة القلب. وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم.

وسمعته يقول: من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر «**ياحي ياقيوم، لا إلـه إلا أنت برحمتك أستغيث**» حصلت له حياة القلب، ولم يمت قلبه.

ومن علم عبوديات الأسماء الحسنى والدعاء بها، وسرَّ ارتباطها بالخلق والأمر، وبمطالب العبد وحاجاته؛ عرف ذلك وتحققه. فإن كل مطلوب يسأل بالمناسب له. فتأمل أدعية القرآن والأحاديث النبوية تجدها كذلك.

... (٢)**والمقصود:** أن لاسم ﴿**الحي القيوم**﴾ تأثيرًا خاصًّا في إجابة الدعوات، وكشف الكربات.

وفي السنن وصحيح أبي حاتم بن حبان مرفوعًا: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين** ﴿**وإلهُكم إلـهٌ واحدٌ لا إلهَ إلاَّ هُوَ الرَّحمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ١٦٣] **وفاتحة آل عمران:** ﴿**الٓمٓ. اللهُ لاَ إلَـهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ**﴾[آل عمران: ١، ٢]» قال الترمذي: حديث صحيح.

---

(١) ٤٤٨ مدارج جـ١.　(٢) ٢٧٦ زاد المعاد جـ٣.

وفي السنن وصحيح ابن حبـان أيضًا: من حديث أنس؛ أن رجلاً دعا فقال: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنَّان. بديع السموات والأرض ياذا الجـلال والإكرام، ياحي ياقيوم» فقال النبي، ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى**» ولهذا كان النبي، ﷺ، إذا اجتهد في الدعاء قال: «**ياحي ياقيوم**». . .

(١)**وسألته،** ﷺ، **عائشة** ـ رضي الله عنها ـ عن قوله تعالى: ﴿**هُوَ الذي أنزلَ عليك الكتابَ مِنهُ آياتٌ مُّحكماتٌ هُنَّ أمُّ الكتاب، وأخرُ مُتشابهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِم زَيـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَاتَشَابَهَ مِنهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾ [آل عمران: ٧]. فقال: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابَهَ منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**» متفق عليه.

(٢)**والمتـأولـون** أصنـافٌ عديدة، بحسب البـاعث لهم على التـأويل، وبحسب قصور أفهامهم ووُفورها، وأعظمهم توغلاً في التأويل الباطل مَنْ فسد قَصْدُه وفهمه، فكلما ساء قصده وقصر فهمه؛ كان تأويلُه أشدَّ انحرافًا.

فمنهم من يكون تأويله لنوع هَوى من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق.
ومنهم من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أخْفَتْ عليه الحق.
ومنهم من يكون تأويله لنوع هدى من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق.
ومنهم من يجتمع له الأمران: الهَوَى في القصد، والشبهة في العلم.

وبالجملة فافتراق أهل الكتابين، وافتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إنما أوجبه التأويل.

وإنما أريقت دمـاء المسلمين: يوم الجمل، وصِفِّين، والحَرَّةِ، وفتنة ابن الزبير وهلم جرا بالتأويل. وإنما دخل أعداء الإسلام: من المتفلسفة، والقرامطة، والباطنية، والإسماعيلية، والنصيرية من باب التأويل.

---

(١) ٤١٠ أعلام جـ٤.　(٢) ٢٥١ أعلام جـ٤.

فما امتحن الإسلام بمحنة قَطُّ إلا وسببها التأويل؛ فإن محنته: إما من المتأولين، وإما أن يسلط عليهم الكفار؛ بسبب ما ارتكبوا من التأويل، وخالفوا ظاهر التنزيل وتعلَّلوا بالأباطيل.

فما الذي أراق دماء بني جذيمة، وقد أسلموا، غير التأويل؛ حتى رفع رسول الله، ﷺ، يديه وتبرأ إلى الله من فعل المتأول بقتلهم وأخذ أموالهم؟

وما الذي أوجب تأخر الصحابة - رضي الله عنهم - يوم الحديبية عن موافقة رسول الله، ﷺ، غير التأويل؛ حتى اشتد غضبه لتأخرهم عن طاعته حتى رجعوا عن ذلك التأويل.

وما الذي سَفَكَ دمَ أمير المؤمنين عثمان؛ ظلمًا وعُدْوانًا، وأوقع الأمة فيما أوقعها فيه حتى الآن غير التأويل؟

وما الذي سفك دم علي رضي الله عنه، وابنه الحسين وأهل بيته رضي الله تعالى عنهم غير التأويل؟

وما الذي أراقَ دم عمَّار بن ياسر وأصحابه غير التأويل؟

وما الذي أراق دم ابن الزبير، وحجر بن عدي، وسعيد بن جُبَير وغيرهم من سادات الأمة غير التأويل؟

وما الذي أريقت عليه دماء العرب في فتنة أبي مسلم غير التأويل؟

وما الذي جَرَّد الإمام أحمد بين العقابين وضَرْب السياط؛ حتى عَجَّت الخليقة إلى ربها تعالى غير التأويل؟

وما الذي قتل الإمام أحمد بن نصر الخزاعي، وخَلد خلقًا من العلماء في السجون؛ حتى ماتوا غير التأويل؟

وما الذي سَلَّط سيوفَ التتار على دار الإسلام؛ حتى ردوا أهلها غير التأويل؟

وهل دخلت طائفةُ الإلحادِ: من أهل الحلول، والاتحاد؛ إلا من باب التأويل؟!

وهل فتح باب التأويل إلا مضادةً ومناقضةً لحكم الله في تعليمه عباده البيان الذي امتنَّ الله في كتابه على الإنسان بتعليمه إياه؟! فالتأويل بالألغاز والأحاجيِّ

والأغلوطات أوْلىٰ منه بالبيان والتبيين.

وهل فرق بين دفع حقائق ما أخبرت به الرسل عن الله، وأمرت به بالتأويلات الباطلة المخالفة له وبين رَدِّه وعدم قبوله؟! ولكن هذا رد جحود ومعاندة، وذاك رد خداع ومصانعة.

قال أبوالوليد بن رشد المالكي في كتابه المسمى بـ«الكشف عن مناهج الأدلة» وقد ذكر التأويل وجنايته على الشريعة، إلى أن قال: «﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تشابه مِنهُ**﴾ [آل عمران: ٧].

وهؤلاء أهلُ الجدل والكلام، وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأوَّلُوا كثيرًا مما ظنوه ليس على ظاهره، وقالوا: إن هذا التأويل هو المقصود به، وإنما أمر الله به في صورة المتشابه؛ ابتلاء لعباده واختبارًا لهم، ونعوذ بالله من سوء الظن بالله.

بل نقول: إن كتاب الله العزيز إنما جاء مُعْجِزًا من جهة الوضوح والبيان، فما أبعد من مقصد الشارع مَنْ قال فيما ليس متشابه: إنه متشابه، ثم أول ذلك المتشابه بزعمه، وقال لجميع الناس: إن فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل، مثل ما قالوه في آية الاستواء على العرش وغير ذلك مما قالوا: إن ظاهره متشابه».

ثم قال: «وبالجملة فأكثر التأويلات التي زعم القائلون بها أنها المقصود من الشرع إذا تأملت وجَدْتَ ليس يقوم عليها برهان»(١).

إلى أن قال: «ومثالُ مَنْ أوَّلَ شيئًا من الشرع وزعمَ أن ما أوله هو الذي قصده الشرع؛ مثالُ مَنْ أتى إلى دَوَاء قد ركَّبه طبيب ماهر ليحفظ صحة جميع الناس أو أكثرهم، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء الأعظم، لرَدَاءة مزاج كان به ليس يعرض إلا للأقل من الناس، فزعم أن بعض تلك الأدوية التي صرح باسمها الطبيبُ الأول في ذلك الدواء العام المنفعة، لم يرد به ذلك الدواء العام الذي جرت العادة في اللسان أن يُدَلَّ بذلك الاسم عليه، وإنما أراد به دواء آخر مما يمكن أن يدل عليه بذلك باستعارة بعيدة، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك

---

(١) ما يأتي من النقل من مختصر الصواعق هو من كلام ابن رشد منصوصًا في أوله في مختصر الصواعق. ج.

المركب الأعظم، وجعل فيه بدله الدواء الذي ظن أنه قصده الطبيبُ، وقال للناس: هذا هو الذي قصده الطبيب الأول، فاستعمل الناسُ ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول، ففسدت أمزجة كثير من الناس، فجاء آخرون فشَعَروا بفساد أمزجة الناس من ذلك الدواء المركب، فراموا إصلاحه بأن بَدَّلوا بعضَ أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول؛ فعرض من ذلك للناس نوعٌ من المرض غير النوع الأول، فجاء ثالث فتأول في أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني؛ فعرض للناس من ذلك نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين، فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة؛ فعرض منه للناس نوع رابع من المرض غير الأمراض المتقدمة؛ فلما طال الزمان بهذا الدواء المركب الأعظم، وسَلَّط الناسُ التأويلَ على أدويته، وغيروها وبَدَّلوها؛ عَرَض منه للناس أمراض شتى، حتى فسدت المنفعة المقصودة بذلك الدواء المركب في حق أكثر الناس، وهذه هي حالة الفِرَقِ الحادثة في هذه الشريعة مع الشريعة، وذلك أن كل فرقة منهم تأولت غير التأويل الذي تأولته الفرقة الأخرى، وزعمت أنه هو الذي قصده صاحبُ الشرع حتى تمزق الشرع كل مُمَزَّق، وبَعُدَ جدًّا عن موضوعه الأول، ولما علم صاحب الشرع، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، أن مثل هذا يعرض ولابُدَّ في شريعته قال، ﷺ: «**ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة**» يعني بالواحدة: التي سلكت ظاهرَ الشرع ولم تُؤَوِّله.

وأنت إذا تأملت ما عرض في هذه الشريعة في هذا الوقت من الفساد العارض فيها من قبل التأويل؛ تبينت أن هذا المثال صحيح.

وأولُ مَنْ غير هذا الدواء الأعظم هم الخوارج، ثم المعتزلة بعدهم، ثم الأشعرية، ثم الصوفية، ثم جاء أبوحامد فطَمَّ الوادي على القَرِيِّ» هذا كلامه بلفظه(١).

ولو ذهبنا نستوعب ما جَنَاه التأويل على الدنيا والدين، وما نال الأمم قديمًا وحديثًا بسببه من الفساد لاستدعى ذلك عِدَّة أسفار، والله المستعان(٢).

---

(١) أي كلام ابن رشد.

(٢) نقل هذا الموضوع في مختصر الصواعق بلفظه كما ذكر هنا جـ١ ص٧٨ ـ ٧٩.

(١) **قال** تعالى: ﴿**زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ من النِّساءِ، والبَنِينَ والقناطيرِ المُقَنْطَرةِ مِنَ الذَّهبِ والفِضَّةِ والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ والحَرْثِ**﴾ [آل عمران: ١٤].
وفي الصحيحين: عن النبي، ﷺ: «**لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لابتغى إليه ثانيًا، ولو كان له ثانٍ لابتغى إليه ثالثًا. ولا يملؤ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**».

هذا وإنه أعظم حائل بين الخليقة وبين فوزها الأكبر يوم معادها. وأعظم شيء عُصي الله به، وبه قطعت الأرحام، وأريقت الدماء، واستُحِلت المحارم، ومنعت الحقوق، وتظالم العباد، وهو المرغب في الدنيا وعاجلها، والمزهِّد في الآخرة وما أعد الله لأوليائه فيها. فكم أميت به من حق، وأحيي به من باطل، ونصر به ظالم، وقهر به مظلوم(٢). وما أحسن ما قال فيه أبوالقاسم الحريري:

تَبًّا له من خادع مُماذِق ... أصفر ذي وجهين، كالمنافق
يبدو بوصفين لعين الرامق ... زينة معشوق ولون عاشق
وحبه عند ذوي الحقائق ... يدعو إلى ارتكاب سخط الخالق
لولاه؛ لم تقطع يمين السارق ... ولا بَدَت مظلمة من فاسق
ولا اشمأز باخل من طارق ... ولا اشتكى المطول مَطْل العائق
ولا استعيذ من حسود راشق ... وشرُّ ما فيه من الخلائق:
أن ليس يغني عنك في المضايق ... إلا إذا فَرَّ فرار الآبق

(٣) **وأما** الاعتذار بالقدر: فهو مخاصمة لله، واحتجاج من العبد على الرب، وحمل لذنبه على الأقدار. وهذا فعل خصماء الله. كما قال بعض شيوخهم في قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ للناسِ حُبُّ الشَّهواتِ مِنَ النِّسَاءِ والبنينَ والقناطيرِ المقنطرةِ من الذَّهبِ والفضَّةِ**﴾ [آل عمران: ١٤] قال: أتدرون ما المراد بهذه الآية؟ قالوا: ما المراد

---

(١) ٣٤٨ زاد المعاد جـ٣.
(٢) وكم أطيع الله به ووصلت به الأرحام، وعزت به جيوش الإسلام، وأقيمت به حصون وسدت به ثغور، وشقت به أنهار. وكان خير عون على مغفرة الله ورضوانه، والبلوغ إلى محابه، والفوز بالقرب منه، ورفيع الدرجات في جناته، للمتقين الذين يخشون ربهم، ومما رزقهم الله ينفقون.
(٣) ١٨٣ مدارج جـ١.

بها؟ قال: إقامة أعذار الخليقة.

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه. وإنما المراد بها: التزهيد في هذا الفاني الذاهب، والترغيب في الباقي الدائم، والإزراء بمن آثر هذا المزيَّن واتبعه، بمنزلة الصبي الذي يزين له ما يلعب به. فيهش إليه ويتحرك له، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين، فلم يقل: «زَيَّنا للناس» والله تعالى يضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وزَيّن لَهُم الشَّيطانُ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]. وقال: ﴿وكَذَلِكَ زَيّنَ لِكَثيرٍ من المُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِم شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وفي الحديث: «**بعثت هاديًا وداعيًا، وليس إليَّ من الهداية شيء، وبعث إبليس مُغْويًا ومزينًا، وليس إليه من الضلالة شيء**».

ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿كذلك زيَّنا لكلِّ أمةٍ عَمَلَهُم﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فإن إضافة التزيين إليه قضاء وقدرًا، وإلى الشيطان تسببًا، مع أن تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى ما زَيَّنَه الشيطان لهم. فمن عقوبة السيئة؛ السيئة بعدها، ومن ثواب الحسنة؛ الحسنة بعدها.

والمقصود:(١) أن الاحتجاج مناف للتوبة. وليس هو من الاعتذار في شيء. وفي بعض الآثار «إن العبد -إذا أذنب. فقال: يارب، هذا قضاؤك. وأنت قدّرت عليّ. وأنت حكمت عليّ. وأنت كتبت عليّ. يقول الله عزّ وجلّ: وأنت عملت، وأنت كسبت. وأنت أردت واجتهدت. وأنا أعاقبك عليه. وإذا قال: يارب، أنا ظلمت. وأنا أخطأت. وأنا اعتديت. وأنا فعلت. يقول الله عزّ وجلّ: وأنا قدّرت عليك وقضيت وكتبت، وأنا أغفر لك. وإذا عمل حسنة. فقال: يارب أنا عملتها. وأنا تصدّقت. وأنا صليت. وأنا أطعمت. يقول الله عزّ وجلّ: وأنا أعنتك. وأنا وفقتك. وإذا قال: يارب أنت أعنتني ووفقتني. وأنت مَنَنْت عليَّ. يقول الله: وأنت عملتها. وأنت أردتها. وأنت كسبتها».

فالاعتذار اعتذاران: اعتذار ينافي الاعتراف. فذلك مناف للتوبة. واعتذار يقرّر الاعتراف. فذلك من تمام التوبة.

...(٢)**وأما** آية آل عمران فإنها لما كانت في سياق الإخبار بما زين للناس

(١) ١٨٤ مدارج جـ١. (٢) ٧٦ بدائع جـ١.

من الشهوات التي آثروها على ما عند الله واستغنوا بها؛ قدم ما تعلق الشهوة به أقوى والنفس إليه أشد سعرًا، وهو النساء التي فتنتهن أعظم فتن الدنيا، وهي السيود التي حالت بين العباد وبين سيرهم إلى الله، ثم ذكر البنين المتولدين منهن. فالإنسان يشتهي المرأة للذة والولد وكلاهما مقصود له لذاته.

ثم ذكر شهوة الأموال؛ لأنها تقصد لغيرها، فشهوتها شهوة الوسائل،وقدم أشرف أنواعها وهو الذهب ثم الفضة بعده.

ثم ذكر الشهوة المتعلقة بالحيوان الذي لا يعاشر عشرة النساء والأولاد. فالشهوة المتعلقة به دون الشهوة المتعلقة بها، وقدم أشرف هذا النوع وهو الخيل فإنها حصون القوم ومعاقلهم وعزهم وشرفهم؛ فقدمها على الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم.

ثم ذكر الأنعام وقدمها على الحرث؛ لأن الجمال بها والانتفاع أظهر وأكثر من الحرث كما قال تعالى: ﴿**وَلَكُم فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**﴾ [النحل: ٦]. والانتفاع بها أكثر من الحرث؛ فإنها ينتفع بها: ركوبًا، وأكلاً وشربًا، ولباسًا وأمتعة وأسلحة، ودواء وقنية إلى غير ذلك من وجوه الانتفاع.

وأيضا فصاحبها أعز من صاحب الحرث وأشرف وهذا هو الواقع؛ فإن صاحب الحرث لابد له من نوع مذلة، ولهذا قال بعض السلف وقد رأى سكة: ما دخل هذا دار قوم إلا دخلهم الذل فجعل الحرث في آخر المراتب وضعاً له في موضعه. . .[1]

. . .[2] **والمقصود** أنه سبحانه جعل الغني والفقر، ابتلاء وامتحانًا للشكر والصبر، والصدق والكذب، والإخلاص والشرك. قال تعالى: ﴿**لِيَبْلُوَكُم فِيمَا آتَاكُم**﴾ [المائدة: ٤٨] وقال تعالى: ﴿**الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُم لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت: ١، ٣].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُم وَأَوْلَادُكُم فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [التغابن: ١٥].

---

(١) هذا البحث قطعة من بحث سيأتي أوله وآخره في سورة التوبة فصلناه للحاجة إليه هنا فمن أراده فليرجع إلى الأصل.

(٢) ١٧٨ عدة الصابرين.

فجعل الدنيا: عرضًا عاجلاً، ومتاع غرور، وجعل الآخرة: دار جزاء، وثواب. وحف الدنيا بالشهوات وزينها بها كما قال تعالى: **﴿زُيِّنَ للنَّاس حُبُّ الشَّهوات مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ والقناطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَب والفضةِ والخيلِ المُسَوَّمةِ والأنْعَامِ والحَرْثِ ذلِكَ مَتَاعُ الحَياةِ الدُّنْيَا واللهُ عِنْدَه حُسنُ المَآب﴾** [آل عمران: ١٤].

فأخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أماني طلابها ومؤثريها على الآخرة وهو سبعة أشياء:

النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة.

والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه.

والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها.

والخيل المسومة التي هي عزّ أصحابها وفخرهم وحصونهم وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم. والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم، وغير ذلك من مصالحهم. والحرث الذي هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوَّق عباده إلى متاع الآخرة، وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال: **﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بَخيرٍ مِنْ ذَلِكُم للَّذينَ اتَّقَوا عِنْدَ رَبِّهِم جَنَّاتٌ تَجري من تَحْتِهَا الأنْهَارُ خالدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ورِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ واللهُ بَصيرٌ بالعِبَادِ﴾** [آل عمران: ١٥].

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع، ومن هم أهله الذين هم أولى به فقال: **﴿الذين يَقُولُونَ ربَّنا إننا آمنَّا فاغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وقِنَا عَذَابَ النَّارِ. الصَّابِرِينَ والصَّادِقِينَ والقانِتِينَ والمُنفقِينَ والمُسْتَغفرينَ بالأسحارِ﴾** [آل عمران: ١٦، ١٧].

فأخبر سبحانه أن ما أعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا، وهو نوعان: ثواب يتمتعون به، وأكبر منه وهو رضوانه عليهم.

. . . (١)**قال** الله تعالى: **﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلـهَ إلاَّ هُوَ والملائكَةُ وأولوا العِلْمِ قائمًا بالقسْطِ لا إلـهَ إلاَّ هُوَ العَزيزُ الحَكِيمُ﴾** [آل عمران: ١٨].

استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال:

(١) ٤٨ مفتاح جـ١.

﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلَّا هُوَ والملائكَةُ وأولوا العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ﴾.

وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته.

والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي، ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله، ينفون عنه: تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**».

وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة: رأيت رجلًا قدم رجلاً إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي، فادعى عليه دعوى فسأل المدعى عليه فأنكر، فقال للمدعي: ألك بينة؟ قال: نعم، فلان وفلان. قال: أما فلان فمن شهودي، وأما فلان فليس من شهودي. قال: فيعرفه القاضي؟ قال: نعم. قال: بماذا؟ قال: أعرفه بكتب الحديث. قال: فكيف تعرفه في كتبه الحديث؟ قال: ما علمت إلا خيراً. قال: فإن النبي، ﷺ، قال: «**يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله**» فمن عدله رسول الله، ﷺ، أولى ممن عدلته أنت. فقال: قم فهاته. فقد قبلت شهادته. وسيأتي - إن شاء الله - الكلام على هذا الحديث في موضعه.

الخامس: أنه وصفهم بكونهم أولي العلم، وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه، ليس بمستعار لهم.

السادس: أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد، ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفًا.

السابع: أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره، وهو شهادة: أن لا إله إلا الله، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم.

الثامن: أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده.

التاسع: أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن

ملائكته ومنهم، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة، فكان هو الشاهد بها لنفسه؛ إقامة وإنطاقًا وتعليمًا، وهم الشاهدون بها له إقرارًا واعترافًا وتصديقًا وإيمانًا.

العاشر: أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة؛ فإذا أدوها؛ فقد أدوا الحق المشهود به فثبت الحق المشهود به فوجب على الخلق الإقرار به، وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم، وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم؛ فلهم من الأجر مثل أجره.

وهذا فضل عظيم لا يدري قدره إلا الله، وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم؛ فلهم من الأجر مثل أجره أيضًا. **فهذه** عشرة أوجه في هذه الآية.

الوجه الحادي عشر في تفضيل العلم وأهله: أنه سبحانه نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم، كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار. فقال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والذينَ لا يَعْلَمُون**﴾ [الزمر: ٩]. كما قال تعالى: ﴿**لا يَسْتَوِي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجَنَّةِ**﴾ [الحشر: ٢٠]. وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم.

الوجه الثاني عشر: أنه سبحانه جعل أهل الجهل؛ بمنزلة العميان الذين لا يبصرون فقال: ﴿**أَفَمَن يَعلمُ أنَّما أُنزلَ إليك مِن ربِّكَ الحقُّ كمنْ هو أعمَىٰ**﴾ [الرعد: ١٩] فما ثم إلا عالم أو أعمى، وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي في غير موضع من كتابه.

الوجه الثالث عشر: أنه سبحانه أخبر عن أولي العلم بأنهم يرون أن ما أنزل إليه من ربه حقًا، وجعل هذا ثناء عليهم واستشهادًا بهم. فقال تعالى: ﴿**وَيَرَى الذينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ**﴾ [سبأ: ٦].

الوجه الرابع عشر: أنه سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم: وجعل ذلك كالشهادة منهم فقال: ﴿**وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: ٤٣]. وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل

على الأنبياء . . .(١).

. . . .(٢)**قال** تعالى ﴿**شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إلـٰهَ إلَّا هُوَ والملائكَةُ وأولوا العِلْم قائمًا بالقسْطِ لا إلـٰهَ إلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . إنَّ الدِّينَ عندَ الله الإِسْلَامُ**﴾ [آل عمران : ١٨ ، ١٩] .

فتضمنت هذه الآية الكريمة ؛ إثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع هذه الطوائف ، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم . وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلـٰهية ، والحقائق الإيمانية .

فتضمنت هذه الآية ؛ أجل شهادة ، وأعظمها ، وأعدلها ، وأصدقها ، من أجلِّ شاهدٍ ، بأجلِّ مشهود به .

وعبارات السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء ، والإعلام والبيان ، والإخبار.

قال مجاهد : حَكَمَ ، وقضى . وقال الزجاج : بَيَّنَ .

وقالت طائفة : أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن «الشهادة» تتضمن : كلام الشاهد ، وخبره ، وقوله . وتتضمن : إعلامه ، وإخباره وبيانه . فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها: علم ، ومعرفة ، واعتقاد لصحة المشهود به ، وثبوته .

وثانيها: تكلمه بذلك ، ونطقه به ، وإن لم يُعلم به غيره . بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها ، وينطبق بها أو يكتبها .

وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به ، ويخبره به ، ويبينه له .

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به .

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية ، والقيام بالقسط ؛ تضمنت هذه المراتب الأربعة : علم الله سبحانه بذلك . وتكلمه به ، وإعلامه ، وإخباره لخلقه به ، وأمرهم وإلزامهم به .

أما مرتبة العلم : فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة ، وإلا كان الشاهد شاهدًا بما لا علم له به .

---

(١) أوصل المؤلف هذه الوجوه إلى ثلاثة وخمسين بعد المئة ، أي قرابة ربع هذا الكتاب رحمة الله عليه فمن أرادها فليرجع إليها . ج .

(٢) ٤٥٠ مدارج جـ٣ .

قال الله تعالى: ﴿إلَّا مَنْ شَهِدَ بالحَقِّ وهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال النبي، ﷺ: «على مثلها فاشهد» وأشار إلى الشمس.

وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة.

قال تعالى: ﴿قُلْ: هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذينَ يَشْهَدُون أنَّ الله حَرَّم هذا. فإنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهم﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وقال تعالى: ﴿وجَعَلُوا الملائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إنَاثًا. أَشَهِدُوا خَلْقَهُم؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُم ويُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم. قال النبي ﷺ: «**عَدَلَتْ شهادَةُ الزور الإشراكَ بالله**» وشهادة الزور هي قول الزور. كما قال تعالى: ﴿واجْتَنِبُوا قَولَ الزُّورِ حُنَفَاء لله غَيْرَ مُشْرِكِين بِهِ﴾. [الحج: ٣٠، ٣١].

وعند نزول هذه الآية قال رسول الله، ﷺ: «**عدلت شهادة الزور الإشراك بالله**» فسمى قول الزور شهادة، وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة.

قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا كُونوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ لله. ولَوْ عَلَى أنْفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥].

فشهادة المرء على نفسه؛ هي إقراره على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي: «فلما شهد على نفسه أربع مرات؛ رجمه رسول الله، ﷺ». وقال تعالى: ﴿قالوا: شهِدْنَا على أنْفُسِنَا وغرَّتهُمُ الحياةُ الدُّنيا وشَهِدُوا على أنفُسِهِمْ أنَّهُم كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا ـ وأضعافه ـ يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره؛ لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة. كما هو مذهب مالك، وأهل المدينة. وظاهر كلام أحمد. ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك.

وقد قال ابن عباس: «شهد عندي رجال مرضيون ـ وأرضاهم عندي عمر ـ أن رسول الله، ﷺ، نهى عن الصلاة بعد الصبح؛ حتى تطلع الشمس، وبعد العصر؛ حتى تغرب الشمس».

ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة. والعشرة الذين شهد لهم رسول الله، ﷺ، بالجنة. لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة. بل قال: «**أبوبكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة**» الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «لا إلـه إلا الله. محمد رسول الله» فقد دخل في الإسلام. وشهد شهادة الحق. ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة، وأنه قد دخل في قوله: «**حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله**» وفي لفظ آخر: «**حتى يقولوا: لا إلـه إلا الله**» فدل على أن مجرد قولهم: «لا إلـه إلا الله» شهادة منهم. وهذا أكثر من أن تذكر شواهده من الكتاب والسنة. فليس مع من اشترط لفظ الشهادة؛ دليل يعتمد عليه. والله أعلم.

فصل

وأما مرتبة الإعلام والإخبار، فنوعان: إعلام بالقول. وإعلام بالفعل. وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر: تارة يعلمه بقوله، وتارة بفعله.

ولهذا كان من جعل دارًا مسجدًا، وفتح بابها لكل من دخل إليها، وأذن بالصلاة فيها؛ مُعْلمًا أنها وقف. وإن لم يتلفظ به.

وكذلك من وُجِد متقربًا إلى غيره بأنواع المسار؛ معلمًا له ولغيره أنه يحبه، وإن لم يتلفظ بقوله، وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادة الرب ـ جل جلاله ـ وبيانه وإعلامه: يكون بقوله تارة، وبفعله تارة أخرى. فالقول: هو ما أرسل به رسله. وأنزل به كتبه.

ومما قد علم بالاضطرار؛ أن جميع الرسل أخبروا عن الله: أنه شهد لنفسه «بأنه لا إله إلا هو» وأخبر بذلك. وأمر عباده أن يشهدوا به. وشهادته سبحانه «أن لا إله إلا هو» معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلامه.

وأما بيانه وإعلامه بفعله؛ فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة. وهذا أيضًا يستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة، والإرشاد والبيان. فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره، كما يبينه الشاهد والمخبر. بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ. وقد يسمى شاهد الحال نطقًا وقولاً وكلامًا؛ لقيامه مقامه، وأدائه مؤداه.

كما قيل:

وقالت له العينان: سمعًا وطاعة　　وحدَّرتا بالدر لما يثقب

وقال الآخر:

شكا إليَّ جملي طول السُّرَى　　صبرًا جميلي. فكلانا مبتلى

وقال الآخر:

امتلأ الحوض، وقال: قَطْني　　مهلًا رويدًا. قد ملأت بطني

ويسمى هذا شهادة أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿**مَاكَانَ لِلمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُروا مَسَاجِدَ الله، شَاهِدِينَ على أنْفُسِهم بالكُفْرِ**﴾ [التوبة: ١٧]. فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله. فهي شهادة بكفرهم، وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت به.

والمقصود: أن الله سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه. فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله.

ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية. فتتطابق شهادة القول وشهادة الفعل. كما قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِم آياتِنَا في الآفَاقِ وفي أنفُسِهم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ**﴾ [فصلت: ٥٣] أي: أن القرآن حق.

فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية.

وهذه الشهادة الفعلية قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير.

قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو.

وأما المرتبة الرابعة ـ وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه ـ: فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به. كما قال تعالى: ﴿**وقَضَىٰ رَبُّكَ أَن لا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿**وقال الله: لا تَتَّخِذُوا إلهَيْنِ اثْنَينِ إنَّمَا هُوَ إلهٌ واحدٌ**﴾ [النحل: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وما أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لهُ الدِّيْنَ﴾ [البينة: ٥].
وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ الله إلـٰهًا آخرَ﴾ [الإسراء: ٣٩].
وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تَدْعُ مَعَ الله إلـٰهًا آخرَ﴾ [القصص: ٨٨].
والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك؛ أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر، وبَيَّن وأعلم، وحكم وقضى: أن ما سواه ليس بإلـٰه. وأن إلـٰهية ما سواه أبـطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلـٰهية لغيره. وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلـٰهًا، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلـٰهًا. وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلًا يستفتي أو يستشهد، أو يستطب من ليس أهلًا لذلك، ويدع من هو أهل له. فتقول: هذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب؛ المفتي فلان، والشاهد فلان، والطبيب فلان. فإن هذا أمر منك ونهي.

وأيضا فإن الأدلة قد دلت على أنه سبحانه وحده المستحق للعبادة؛ فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة، تضمن هذا الإخبار: أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم. فإذا شهد سبحانه أنه «لا إله إلا هو» تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

وأيضا فلفظ «الحكم» و«القضـاء» يستعمـل في الجمـل الخـبرية. فيقال للجملة الخبرية «قضية» و«حكم» وقد حُكم فيها بكيت وكيت.

قال تعـالى: ﴿أَلَا إنَّهُمْ مِنْ إفكِهِم لَيَقُـولُـونَ وَلَدَ اللّهُ، وإنهُم لَكَاذِبُونَ أَصطَفَى البنات على البَنِينَ مالَكُم كيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١ - ١٥٤].

فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكمًا.

وقال في موضـع آخـر: ﴿أفنَجعَـلُ المُسلِمينَ كَالْمُجْرِمِينَ؟ ما لَكُم كيفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. لكن هذا حكم لا إلزام معه، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو؛ متضمن للإلزام. والله سبحانه أعلم.

فصل

وقوله تعالى: ﴿قائمًا بالقسط﴾ القسط: هو العدل. فشهد الله سبحانه: أنه قائم بالعدل في توحيده. وبالوحدانية في عدله. و«التوحيد» و«العدل» هما جماع صفات الكمال.

فإن «التوحيد» يتضمن: تفرده سبحانه بالكمال والجلال، والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه.

و«العدل» يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة.

فهذا توحيد الرسل وعدلهم: إثبات الصفات، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإثبات القدر والحِكَم. والغايات المطلوبة المحمودة بفعله وأمره.

لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية، الذي هو: إنكار الصفات، وحقائق الأسماء الحسنى، وعدلهم، الذي هو: التكذيب بالقدر، أو نفي الحِكَم والغايات والعواقب الحميدة التي يفعل الله لأجلها ويأمر.

وقيامه سبحانه بالقسط في شهادته يتضمن أمورًا:

أحدها: أنه قائم بالقسط في هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الإطلاق، وإنكارها وجحودها أعظم الظلم على الإطلاق. فلا أعدل من التوحيد ولا أظلم من الشرك. فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولًا وفعلًا؛ حيث شهد بها، وأخبر وأعلم عباده، وبين لهم تحقيقها وصحتها، وألزمهم بمقتضاها، وحكم به، وجعل الثواب والعقاب عليها، وجعل الأمر والنهي من حقوقها وواجباتها، فالدين كله من حقوقها، والثواب كله عليها، والعقاب كله على تركها.

وهذا هو العدل الذي قام به الرب تعالى في هذه الشهادة. فأوامره كلها تكميل لها، وأمر بأداء حقوقها. ونواهيه كلها صيانة لها عما يهضمها ويضادها. وثوابه كله عليها. وعقابه كله على تركها، وترك حقوقها. وخلقه السماوات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها. وهي الحق الذي خلقت به. وضدها هو الباطل والعبث الذي نزه نفسه عنه. وأخبر أنه لم يخلق به السماوات والأرض.

قال تعالى ـ ردًا على المشركين المنكرين لهذه الشهادة ـ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ

والأرضَ ومَابَيْنَهُما بَاطلاً. ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا. فَوَيلٌ للَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيم * مَاخَلَقْنَا السَّماوَاتِ والأرْضَ وَمَابَيْنَهُما إلَّا بالحَقِّ وأَجلٍ مُّسَمّى. والَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٢ ـ ٣].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُورًا. وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ. مَاخَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلَّا بالحَقِّ﴾ [يونس: ٥].

وقال: ﴿أَوَلَم يَتَفَكَّرُوا فِي أنفسِهِم ما خلق الله السَّماوَاتِ والأرْضَ ومَا بينَهما إلَّا بالحَقِّ وأَجلٍ مُّسَمًّى. وإنَّ كَثيراً مِّنَ النَّاسِ بلِقاءِ رَبِّهِم لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وقال: ﴿وَمَاخَلَقْنَا السَّماوَاتِ والأرْضَ ومَابَيْنَهُما لاَعِبِينَ * مَاخَلَقْنَاهُمَا إلَّا بالحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وهذا كثير في القرآن. والحق الذي خلقت به السماوات والأرض ولأجله: هو التوحيد. وحقوقه من الأمر والنهي، والثواب والعقاب. فالشرع والقدر، والخلق والأمر، والثواب والعقاب قائم بالعدل. والتوحيد صادر عنهما. وهذا هو الصراط المستقيم الذي عليه الرب سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ـ حكاية عن نبيه هود ـ: ﴿إنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم. مَامِن دَآبَّةٍ إلَّا هُوَ آخذُ بِنَاصِيَتِها. إنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله. فهو يقول الحق. ويفعل العدل. ﴿وتَمَّتْ كَلِمَةُ رِبِّكَ صِدْقًا وعَدْلاً. لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وهَوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]. ﴿والله يَقُولُ الحَقَّ. وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

فالصراط المستقيم ـ الذي عليه ربنا تبارك وتعالى ـ: هو مقتضى التوحيد والعدل.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ الله مَثلاً رَّجُلَيْنِ أَحدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ علَىٰ شَيْءٍ. وهُوَ كَلٌّ على مَوْلاَهُ. أَيْنَما يُوَجِّههُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ. هَل يَسْتَوِي هو ومن يأْمُرُ بالعَدْلِ وهو على صراطٍ مُّسْتقيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

فهذا مثل ضربه الله لنفسه وللصنم. فهو سبحانه الذي يأمر بالعدل. وهو على صراط مستقيم. والصنم مثل العبد الذي هو كَلٌّ على مولاه. أينما يوجهه لا

يأت بخير.

والمقصود: أن قوله تعالى: ﴿قائمًا بالقسطِ﴾ هو كقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. [هود: ٥٦]. وقوله: ﴿قائماً بالقسطِ﴾ نصب على الحال. وفيه وجهان:

أحدهما: أنه حال من الفاعل في «شهد الله» والعامل فيها الفعل. والمعنى على هذا: شهد الله حال قيامه بالقسط: أنه لا إله إلا هو.

والثاني: أنه حال من قوله «هو» والعامل فيها معنى النفي. أي: لا إلـه إلا هو، حال كونه قائمًا بالقسط. وبين التقديرين فرق ظاهر.

فإن التقدير الأول؛ يتضمن أن المعنى: شهد الله ـ متكلمًا بالعدل، مخبرًا به، آمرًا به، فاعلًا له، مجازيًا به ـ أنه لا إلـه إلا هو. فإن العدل يكون في القول والفعل.

والمقسط هو العادل في قوله وفعله. فشهد الله قائمًا بالعدل ـ قولاً وفعلاً ـ أنه لا إلـه إلا هو. وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط. وهي أعدل شهادة، كما أن المشهود به أعدل شيء وأصحه وأحقه.

وذكر ابن السائب وغيره في سبب نزول الآية ما يشهد بذلك. وهو: «أن حَبرين من أحبار الشام قدما على النبي، ﷺ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بمدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان. فلما دخلا على النبي، ﷺ، قالا له: أنت محمد؟ قال: «**نعم**». وأحمد؟ قال: «**نعم**». قالا: نسألك عن شهادة. فإن أخبرتنا بها آمنًا بك. قال: «**سلاني**». قالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله» فنزلت: ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [آل عمران: ١٨].

وإذا كان القيام بالقسط يكون في القول والفعل كان المعنى: أنه كان سبحانه يشهد وهو قائم بالعدل عالم به، لا بالظلم. فإن هذه الشهادة؛ تضمنت قولاً وعملاً. فإنها تضمنت: أنه هو الذي يستحق العبادة وحده دون غيره، وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء، وأن الذين أشركوا به غيره هم الضالون الأشقياء. فإذا شهد قائمًا بالعدل ـ المتضمن جزاء المخلصين بالجنة، وجزاء المشركين بالنار ـ؛ كان هذا من تمام موجب الشهادة وتحقيقها. وكان قوله: ﴿قَائِمًا بِالقِسْطِ﴾ تنبيهًا على جزاء الشاهد بها والجاحد لها. والله أعلم.

فصل

وأما التقدير الثاني ـ وهوأن يكون قوله ﴿قائمًا﴾ حالاً مما بعد ﴿إلَّا﴾ ـ فالمعنى: أنه لا إله إلا هو قائمًا بالعدل، فهو وحده المستحق الإلـٰهية، مع كونه قائمًا بالقسط.

قال شيخنا: وهذا التقدير أرجح. فإنه يتضمن، أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له: بأنه لا إلـه إلا هو، وأنه قائم بالقسط.

قلت: مراده أنه إذا كان قوله: ﴿قائمًا بالقِسْطِ﴾ حالاً من المشهود به؛ فهو كالصفة له. فإن الحال صفة في المعنى لصاحبها. فإذا وقعت الشهادة على ذي الحال وصاحبها كان كلاهما مشهودًا به. فيكون: ﴿والملائكةُ وأولُوا العِلْمِ﴾ قد شهدوا بأنه قائم بالقسط. كما شهدوا بأنه لا إلـه إلا هو، والتقدير الأول لا يتضمن ذلك. فإنه إذا كان التقدير: شهد الله ـ قائمًا بالقسط ـ أنه لا إلـه إلا هو، والملائكة وأولـو العلم يشهدون أنه لا إلهٰ إلا هو؛ كان القيام ﴿بالقسط﴾ حالاً من اسم ﴿الله﴾ وحده.

وأيضا فكونه قائماً بالقسط فيما شهد به؛ أبلغ من كونه حالاً من مجرد الشهادة.

فإن قيل: فإذا كان حالاً من ﴿هو﴾ فهلا اقترن به؟ ولم فصل بين صاحب الحال وبينها بالمعطوف، فجاء متوسطًا بين صاحب الحال وبينها؟

قلت: فائدته ظاهرة. فإنه لو قال: «شهدَ الله أنه لا إله إلا هُوَ قائمًا بالقسط والملائكة وأولو العلم» لأوهم عطف الملائكة وأولي العلم على الضمير في قوله ﴿قائمًا بالقِسْطِ﴾ ولا يحسن العطف لأجل الفصل. وليس المعنى على ذلك قطعًا. وإنما المعنى على خلافه. وهو أن قيامه بالقسط مختص به، كما أنه مختص بالإلـٰهية. فهو وحده الإلـه المعبود المستحق العبادة. وهو وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل.

قوله: ﴿لا إلـهَ إلَّا هُوَ﴾ ذكـر محمـد بن جعفـر أنه قال: الأولى وصف وتـوحيد، والثـانية: رسم وتعليم، أي قولوا: «لا إله إلا هو» ومعنى هذا: أن الأولى؛ تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها. والتالي للقرآن إنما يخبر عن شهادته هو. وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه. فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولها التالي. فيكون شاهدًا هو أيضًا.

وأيضًا فالأولى؛ خبر عن الشهادة بالتوحيد. والثانية؛ خبر عن نفس التوحيد. وختم بقوله: ﴿العزيزُ الحكيمُ﴾ فتضمنت الآية: توحيده وعدله، وعزته وحكمته. فالتوحيد يتضمن: ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وعدم المماثل له فيها، وعبادته وحده لا شريك له.

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها منازلها، وأنه لم يخص شيئًا منها إلا بمخصص اقتضى ذلك. وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة، ولا يمنع من يستحق العطاء، وإن كان هو الذي جعله مستحقًا.

والعزة تتضمن: كمال قدرته وقوته وقهره.

والحكمة تتضمن: كمال علمه وخبرته، وأنه أمر ونهى، وخلق وقدر، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمال الحمد.

فاسمه ﴿العزيز﴾ يتضمن الملك. واسمه ﴿الحكيم﴾ يتضمن الحمد. وأول الآية يتضمن التوحيد. وذلك حقيقة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد. وهو على كل شيء قدير» وذلك أفضل ماقاله رسول الله، ﷺ، والنبيون من قبله.

و﴿ الحكيم ﴾ الذي إذا أمر بأمر كان حسنًا في نفسه، وإذا نهى عن شيء كان قبيحًا في نفسه. وإذا أخبر بخبر كان صدقًا، وإذا فعل فعلاً كان صوابًا، وإذا أراد شيئًا كان أولى بالإرادة من غيره. وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده.

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة: الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك، وعدله المنافي للظلم، وعزته المنافية للعجز، وحكمته المنافية للجهل والعيب. ففيها الشهادة له بالتوحيد، والعدل، والقدرة والعلم والحكمة؛ ولهذا كانت أعظم شهادة. ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف إلا أهل السنة. وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها.

فالفلاسفة: أشد الناس إنكارًا وجحودًا لمضمونها، من أولها إلى آخرها.

وطوائف الاتحادية: هم أبعد خلق الله عنها من كل وجه.

وطائفة الجهمية: تنكر حقيقتها من وجوه:

منها: أن «الإلـه» هو الذي تألهه القلوب، محبة له، واشتياقًا إليه، وإنابة. وعندهم: أن الله لا يُحِب ولا يُحَبُّ. ومنها: أن «الشهادة» كلامه وخبره عما شهد به. وهو عندهم لا يقول ولا يتكلم. ولا يشهد ولا يخبر.

ومنها: أنها تتضمن مباينته لخلقه بذاته وصفاته. وعند فرعونيهم؛ أنه لا يباين الخلق ولا يحايثهم. وليس فوق العرش إلـه يعبد، ولا رب يصلى له ويسجد. وعند حلوليَّتهم؛ أنه حالٌّ في كل مكان بذاته، حتى في الأمكنة التي يستحيي من ذكرها. فهؤلاء مثبتة الجهمية. وأولئك نفاتهم.

ومنها: أن قيامه بالقسط في أفعاله وأقواله، وعندهم؛ أنه لم يقم ولا يقوم به فعل ولا قول ألبتة. وأن قوله مخلوق من بعض المخلوقات، وفعله هو المفعول المنفصل. وأما أن يكون له فعل يكون به فاعلاً حقيقة: فلا.

ومنها: أن ﴿القسط﴾ عندهم لا حقيقة له؛ بل كل ممكن فهو قسط. وليس في مقدوره ما يكون ظلمًا وقسطًا؛ بل الظلم عندهم هو المحال الممتنع لذاته. والقسط هو الممكن. فنزه الله سبحانه نفسه ـ على قولهم ـ عن المحال الممتنع لذاته الذي لا يدخل تحت القدرة. ومنها: أن العزة هي القوة والقدرة. وعندهم لا يقوم به صفة، ولا له صفة وقدرة تسمى قدرة وقوة.

ومنها: أن «الحكمة» هي الغاية التي يفعل لأجلها، وتكون هي المطلوبة بالفعل، ويكون وجودها أولى من عدمها. وهذا عندهم ممتنع في حقه سبحانه. فلا يفعل لحكمة ولا غاية، بل لا غاية لفعله ولا أمره. وما ثم إلا محض المشيئة المجردة عن الحكمة والتعليل.

ومنها: أن «الإلـه» هو الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وهو الذي يفعل بقدرته ومشيئته وحكمته. وهو الموصوف بالصفات والأفعال، المسمى بالأسماء التي قامت بها حقائقها ومعانيها. وهذا لا يثبته على الحقيقة إلا أتباع الرسل، وهم أهل العدل والتوحيد.

فصل

فالجهمية والمعتزلة؛ تزعم أن ذاته لا تُحب. ووجهه لا يرى، ولا يُلتذ بالنظر إليه، ولا تشتاق القلوب إليه. فهم في الحقيقة منكرون الإلـٰهية.

والقدرية: تنكر دخول أفعال الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوان تحت قدرته ومشيئته وخلقه. فهم منكرون في الحقيقة لكمال عزته وملكه.

والجبرية: تنكر حكمته، وأن يكون له في أفعاله وأوامره غاية يفعل ويأمر لأجلها. فهم منكرون في الحقيقة لحكمته وحمده.

وأتباع ابن سينا، والنصير الطوسي وفروخهما: ينكرون أن يكون ماهية غير الوجود المطلق، وأن يكون له وصف ثبوتي زائد على ماهية الوجود. فهم في الحقيقة منكرون لذاته وصفاته وأفعاله، لا يتحاشون من ذلك.

والاتحادية: أدهى وأمر؛ فإنهم رفعوا القواعد من الأصل، وقالوا: ما ثم وجودٌ خالق ووجود مخلوق. بل الخلق المشبه هو عين الحق المنزه. كل ذلك من عين واحدة؛ بل هو العين الواحدة.

فهذه الشهادة العظيمة: كل هؤلاء هم بها غير قائمين، وهي متضمنة لإبطال ما هم عليه ورده، كما تضمنت إبطال ما عليه المشركون ورده. وهي مبطلة لقول طائفتي الشرك والتعطيل. ولا يقوم بهذه الشهادة إلا أهل الإثبات الذين يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، وينفون عنه مماثلة المخلوقات ويعبدونه وحده لا يشركون به شيئًا.

فصل

وإذا كانت شهادته سبحانه تتضمن بيانه للعباد، ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به؛ وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها؛ لم ينتفعوا، ولم يقم عليهم بها الحجة، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها، بل كتمها؛ لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة. وإذا كان لا يُنتفع بها إلا ببيانها؛ فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

أما السمع؛ فبسمع آياته المتلوة القولية المتضمنة لإثبات صفات كماله ونعوت جلاله، وعلوه على عرشه فوق سبع سماواته، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده تكلمًا وتكليمًا. حقيقة لا مجازًا.

وفي هذا إبطال لقول من قال: إنه لم يرد من عباده ما دلت عليه آياته السمعية: من إثبات معانيها، وحقائقها التي وضعت لها ألفاظها. فإن هذا ضد البيان والإعلام. ويعود على مقصود الشهادة بالإبطال والكتمان.

وقد ذم الله من كتم شهادة عنده من الله، وأخبر أنه من أظلم الظالمين.

فإذا كانت عند العبد شهادة من الله، تُحقق ما جاء به رسوله من أعلام نبوته، وتوحيد الرسل، وأن إبراهيم وأهل بيته كانوا على الإسلام كلهم، وكتم هذه الشهادة؛ كان من أظلم الظالمين، كما فعله أعداء رسول الله، ﷺ، من اليهود، الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم[1].

فكيف يظن بالله سبحانه أنه كتم شهادة الحق التي يشهد بها الجهمية والمعتزلة والمعطلة، ولا يشهد بها لنفسه. ثم يشهد لنفسه بما يضادها ويناقضها، ولا يجامعها بوجه ما؟ سبحانك هذا بهتان عظيم!

فإن الله سبحانه شهد لنفسه بأنه استوى على العرش، وبأنه القاهر فوق عباده، وبأن ملائكته يخافونه من فوقهم، وأن الملائكة تعرج إليه بالأمر، وتنزل من عنده به، وأن العمل الصالح يصعد إليه، وأنه يأتي ويجيء، ويتكلم، ويرضى ويغضب، ويحب ويكره، ويتأذى، ويفرح ويضحك، وأنه يسمع ويبصر، وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم لقائه، إلى غير ذلك مما شهد به لنفسه، وشهد له به رسله. وشهدت له الجهمية بضد ذلك، وقالوا: شهادتنا أصح، وأعدل من شهادة النصوص؛ فإن النصوص تضمنت كتمان الحق وإظهار خلافه.

فشهادة الرب تعالى، تكذب هؤلاء أشد التكذيب، وتتضمن أن الذي شهد به قد بينه وأوضحه وأظهره؛ حتى جعله في أعلى مراتب الظهور والبيان. وأنه لو كان الحق فيما يقوله المعطلة والجهمية؛ لم يكن العباد قد انتفعوا بما شهد به

(١) في المطبوعة «أبنائهم» والصواب ما أثبتناه.

سبحانه. فإن الحق في نفس الأمر - عندهم - لم يشهد به لنفسه. والذي شهد به لنفسه، وأظهره وأوضحه؛ فليس بحق، ولا يجوز أن يستفاد منه الحق واليقين.

وأما آياته العيانية الخلقية، والنظر فيها والاستدلال بها؛ فإنها تدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية. وآيات الرب؛ هي دلائله وبراهينه التي بها يعرفه العباد، وبها يعرفون أسماءه وصفاته، وتوحيده، وأمره ونهيه.

فالرسل تخبر عنه بكلامه الذي تكلم به، وهو آياته القولية. ويستدلون على ذلك بمفعولاته التي تشهد على صحة ذلك، وهي آياته العيانية.

والعقل يجمع بين هذه وهذه؛ فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة.

وهو سبحانه - لكمال عدله ورحمته، وإحسانه وحكمته، ومحبته للعذر، وإقامته للحجة - لم يبعث نبيًّا من الأنبياء إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به. قال تعالى: ﴿**لقد أرسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّنَاتِ وأنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والمِيزَانَ لِيَقُومَ الناسُ بالقِسْطِ**﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿**وما أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إلاَّ رجالاً نُوحِي إليهم. فاسألُوا أَهْلَ الذِّكرِ إن كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ * بالبيِّنَاتِ والزُّبُرِ**﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿**قد جَاءَكُمْ رسلٌ من قبلي بالبيِّنات وبالذي قُلْتُم فلِمَ قَتَلْتُمُوهُم إن كُنتُم صَادِقِين؟ فإن كذَّبُوكَ فقد كُذِّبَ رُسُلٌ من قبلكَ جاءوا بالبيِّناتِ والزُّبُرِ والكِتَابِ المُنير**﴾ [آل عمران: ١٨٣، ١٨٤].

وقال تعالى: ﴿**وإن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رسُلٌ من قَبْلِكَ**﴾ [فاطر: ٤].

وقال تعالى: ﴿**وإن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِم جَاءتهمْ رُسُلُهُم بالبيِّنَاتِ وبالزُّبُرِ وبِالكتَابِ المُنِيرِ**﴾ [فاطر: ٢٥].

حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام؛ حتى قال له قومه: ﴿**يا هُودُ ما جِئْتَنَا ببيّنةٍ**﴾ [هود: ٥٣]. ومع هذا فبينته من أظهر البينات. وقد أشار إليها بقوله: ﴿**إني أُشهدُ الله واشْهَدُوا أنِّي بريءٌ مما تُشْرِكُونَ مِن دُونهِ فكيدُوني جميعًا ثمَّ لا تُنْظِرُونَ * إني تَوَكَّلتُ على الله ربي وربِّكم ما من دابَّةٍ إلاَّ هو آخِذٌ بناصيتِها إنَّ ربي على صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]. فهذا من أعظم

الآيات: أن رجلاً واحدًا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جَزِع ولا فزع، ولا خوار؛ بل واثق مما قاله جازم به، قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم، ومما هم عليه إشهاد واثق به، معتمد عليه، معلم لقومه: أنه وليه وناصره، وأنه غير مسلطهم عليه.

ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة: أنه بريء من دينهم وآلهتهم، التي يوالون عليها ويعادون، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم، واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده، وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يُمهلونه ـ وفي ضمن ذلك؛ أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك ـ وأنكم لورُمْتُموه؛ لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

ثم قرر دعوته أحسن تقرير، وبين أن ربه تعالى وربهم، الذي نواصيهم بيده: هو وليه ووكيله، والقائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم: فلا يخذل من توكل عليه وآمن به، ولا يُشمت به أعداءه، ولا يكون معهم عليه. فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه ـ في قوله وفعله ـ يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أن من صراطه المستقيم؛ أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه، وينزل به بأسه. فإن الصراط المستقيم؛ هو العدل الذي عليه الرب تعالى، ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام، ونصره أولياءه ورسلَه على أعدائهم، وأنه يذهب بهم، ويستخلف قومًا غيرهم، ولا يضره ذلك شيئًا، وأنه القائم سبحانه على كل شيء حفظًا ورعاية وتدبيرًا وإحصاءً.

فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم؟ وهي شهادة من الله سبحانه لهم، بَيَّنها لعباده غاية البيان، وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله.

وفي الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: **«ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**

. . .(١)**ومن** أسمائه تعالى: «**المؤمن**» وهو في أحد التفسيرين: المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم. فهو الذي صدَّق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه. وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم قضاء وخَلْقًا.

فإنه سبحانه أخبر ـ وخبره الصدق، وقوله الحق ـ أنه لابد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم؛ أن الوحي الذي بلغته رسله حق. فقال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ**﴾ [فصلت: ٥٣] أي: القرآن. فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿**قُل أَرَأَيْتُم إنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ**﴾ [فصلت: ٥٢]. ثم قال: ﴿**أَوَ لَم يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٍ**﴾ [سورة فصلت: ٥٣]. فشهد سبحانه لرسوله بقوله: أن ما جاء به حق، ووعدَه أن يُرِيَ العباد من آياته الفعلية الخَلْقية؛ ما يشهد بذلك أيضًا.

ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته سبحانه على كل شيء.

فإن من أسمائه «**الشهيد**» الذي لا يغيب عنه شيء، ولايعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء؛ بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته. والأول استدلال بقوله وكلماته. والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته. فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته، فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا.

قلت: أجل! هو لعمر الله كما ذكرت. وشأنه أجل وأعلى. فإن الرب تعالى هو المدلول عليه، وآياته هي الدليل والبرهان.

فاعلم أن الله سبحانه في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته. فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات.

وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود؛ أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزهُ عن كل عيب ونقص. فالكمال

---

(١) ٤٦٦ مدارج جـ٣. وسيأتي هذا البحث في سورةفصلت ـ إن شاء الله ـ.ج.

كله، والجمال والجلال والبهاء، والعزة والعظمة والكبرياء؛ كله من لوازم ذاته. يستحيل أن يكون على غير ذلك؛ فالحياة كلها له، والعلم كله له، والقدرة كلها له، والسمع والبصر والإرادة، والمشيئة والرحمة والغنى، والجود والإحسان والبر؛ كله خاص له قائم به. وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه؛ بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه.

ومن كمالـه المقدس: اطلاعه على كل شيء، وشهادته عليه؛ بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته، باطنًا وظاهراً. ومَنْ هذا شأنُه؛ كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، وأن يعبدوا معه غيره؟ وأن يجعلوا معه إلهًا آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يُقِرَّ من يَكذِبُ عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته، ويرفع شأنه. ويجيب دعوته، ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر؛ وهو ـ مع ذلك ـ كاذب عليه مفتر، ساع في الأرض بالفساد؟؟

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء، وقدرته على كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء. ومن ظنَّ ذلك به، وجَوَّزَه عليه؛ فهو من أبعد الخلق من معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة، وصفة المشيئة.

والقرآن مملوء من هذه الطريق، وهي طريق الخاصة؛ بل خاصة الخاصة هم الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله.

وإذا تدبرت القرآن؛ رأيته ينادي على ذلك، فيبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله. قال الله تعالى: ﴿**وَلَو تَقوَّلَ علينا بعضَ الأقاويلِ * لأخذْنَا مِنْهُ باليَمين * ثمَّ لقَطعْنَا مِنْهُ الوتينَ * فَمَا مِنكُم من أحَدٍ عَنْهُ حَاجِزينَ**﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

أفلا تراه كيف يخبر سبحانه؛ أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يُقِرَّ من تَقوَّل عليه بعض الأقاويل؟ بل لابد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه. وقال تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُون افتَرَى على الله كَذِبًا فإن يشَإِ الله يَخْتِمْ على قَلبِكَ**﴾ [الشورى: ٢٤] ههنا انتهى جواب الشرط.

ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق؛ أنه ﴿ويمحُ الله الباطل ويحقُّ الحقَّ﴾. [الشورى: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَاقَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِه إِذْ قالوا: ما أنزَلَ الله على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام؛ لم يَقْدُره حق قدره، ولا عرفه كما ينبغي، ولا عظمه كما يستحق. فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفتري عليه ويؤيده؟ ويظهر على يديه الآيات والأدلة؟ وهذا في القرآن كثير جدًّا؛ يستدل بكماله المقدس، وأوصافه وجلاله: على صدق رسله، وعلى وعده ووعيده، ويدعو عباده إلى ذلك.

كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته، وعلى بطلان الشرك.

كما في قوله: ﴿هُوَ الله الَّذِي لا إِلـهَ إلاَّ هُوَ عَالِمُ الغيب والشَّهادةِ هُوَ الرحمَنُ الرَّحيمُ * هو الله الذي لا إلـهَ إلَّا هُوَ. المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلاَمُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٣] وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن.

ويستدل سبحانه بأسمائه وصفاته على بطلان ما نُسِب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة، وأن كماله المقدس يمنع من شرعها.

كقوله: ﴿وإذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا: وَجَدْنا عليهَا آباءَنَا والله أَمَرَنَا بِهَا قل: إِنَّ الله لَا يَأْمُرُ بالفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ على الله مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقوله عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش والقول عليه بلا علم: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨].

فأعلمك أن ما كان سيئة في نفسه فهو يكرهه، وكماله يأبى أن يجعله شرعًا له ودينًا. فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به، وما يحبه ويبغضه، ويثيب عليه ويعاقب عليه؛ ولكن هذه الطريق لا يصل إليها إلا خاصة الخاصة؛ فلذلك كانت طريقة الجمهور الدلالات بالآيات المشاهدة، فأنها أوسع وأسهل تناولاً. والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض، ويرفع درجات من يشاء، وهوالعليم الحكيم.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره؛ فإنه هو الدعوة

والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الحكم والدليل، وهو الدعوى والبينة، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّه وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]. أي: من ربه وهو القرآن.

وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِم أَنَّا أنزَلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم إِنَّ في ذلِكَ لَرَحْمَةً وذِكْرَى لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ قلْ كَفَىٰ بالله بَيني وبينَكم شَهِيدًا يَعْلَمُ ما في السَّمٰوَاتِ والأرض والذين آمَنُوا بالباطلِ وكَفَرُوا بالله أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُون﴾ [العنكبوت: ٥١، ٥٢] فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله على رسوله؛ يكفي عن كل آية؛ ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله، وفيه بيان مايوجب لمن اتبعه السعادة، وينجيه من العذاب.

ثم قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بالله بَيْني وَبَيْنَكُم شَهيدًا يَعْلَمُ مَافِي السَّمَٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

فإذا كان الله سبحانه عالمًا بجميع الأشياء؛ كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها؛ فإنها شهادة بعلم تام، محيط بالمشهود به. فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم.

وهو سبحانه يذكر: علمه عند شهادته، وقدرته وملكه عند مجازاته، وحكمته عند خلقه وأمره، ورحمته عند ذكر إرسال رسوله، وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم، وسمعه عند ذكر دعائهم، ومسألته وعزته وعلمه عند قضائه وقدره.

فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر، والثواب والعقاب.

فصل

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ويَقُولُ الَّذينَ كَفَرُوا لستَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بالله شَهيدًا بَيْني وبَيْنَكم وَمَنْ عِنْدَه عِلْمُ الكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]. فاستشهد على رسالته بشهادة الله له. ولابد أن تعلم هذه الشهادة، وتقوم بها الحجة على المكذبين له.

وكذلك قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيء أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ الله شَهِيدٌ بَيْني وبَيْنَكُمْ﴾. [الأنعام: ١٩]

وكذلك قوله: ﴿لكنِ الله يشهدُ بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفىٰ بالله شهيداً﴾ [النساء: ١٦٦].

وكذلك قوله: ﴿يسٓ والقُرآن الحكيم إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلين﴾ [يسٓ: ١ ـ ٣].

وقوله: ﴿تِلْكَ آياتُ الله نَتْلوهَا عَلَيْكَ بالحَقِّ وإنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِين﴾ [البقرة: ٢٥٢].

وقوله ﴿والله يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُه﴾. [المنافقون: ١]. وقوله: ﴿مُحمدٌ رسولُ الله﴾. [الفتح: ٢٩].

فهذا كله شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبَيَّن صحتها غاية البيان؛ بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم. فكونه سبحانه شاهدًا لرسوله؛ معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر في ذلك وتأمله؛ علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة، وأعدلها وأظهرها، وصدقه بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده: من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبائح، وعما لا يليق به. وفي كل وقت يُحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد. ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿هُوَ الذي أَرسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَىٰ ودينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ على الّدينِ كُلِّهِ وكَفَىٰ بالله شَهيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]. فيظهره ظهورين: ظهورًا بالحجة، والبيان، والدلالة، وظهورًا بالنصر، والظفر، والغلبة، والتأييد؛ حتى يظهره على مخالفيه، ويكون منصورًا.

وقوله: ﴿لَكِنِ الله يَشهَدُ بما أنزَلَ إلَيْكَ أنزله بعلْمِهِ، والملائكة يشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]. فما فيه من الخبر عن علم الله الذي لا يعلمه غيره؛ من أعظم الشهادة بأنه هو الذي أنزله. كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ. قل: فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِه مُفْتَرَيَاتٍ. وادْعُوا مَن اسْتَطَعْتُم مِنْ دُونِ الله إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ فَإلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُم فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله وأَن لَّا إلـهَ إلَّا هُوَ فَهَلْ أنتُم مُسْلِمُون﴾ [هود: ١٣، ١٤] وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله ـ وهو معلوم له،

كما يعلم سائر الأشياء. فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل - وإنما المعنى: أنزله مشتملاً على علمه. فنزوله مشتملاً على علمه؛ هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق.

ونظير هذا قوله: ﴿**قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الفرقان ٦]. ذكر ذلك سبحانه تكذيبًا وردًّا على من قال: ﴿**افْتَرَاهُ**﴾ [الفرقان: ٤].

فصل

ومن شهادته أيضًا؛ ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم، واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه. فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب، والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هوعليه من أسمائه وصفاته؛ بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك، وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر - التي فطر عليها الحيوان - الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذي كالأبوال والأنتان.

فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة به، والسكون إليه ومحبته. وفطرها على بغض الكذب والباطل، والنفور عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه. ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه. ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره.

ولهذا ندب الله - عز وجل - عباده إلى تدبر القرآن. فإن كل من تدبره أوجب له تدبرُه علمًا ضروريًّا ويقينًا جازمًا؛ أنه حق وصدق. بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق. وأن الذي جاء به أصدق خلق الله، وأبرهم، وأكملهم علمًا وعملاً، ومعرفة. كما قال تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَو كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتلافًا كثيراً**﴾ [النساء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتدبَّرُونَ القُرآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤].

فلو رفعت الأقفال عن القلوب؛ لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علمًا ضروريًّا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية: من

الفرح، والألم، والحب، والخوف؛ أنه من عند الله: تكلم به حقًا، وَبَلَّغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد.

فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له: «فهل يَرْتَدُّ أحد منهم سَخَطة لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد».

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]..

وقوله: ﴿وَ لِيَعْلَمَ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّك فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ [الحج: ٥٤]..

وقوله: ﴿وَيَرى الَّذِيْنَ أُوتُوا العِلم الذي أُنزل إليك من ربِّك هو الحقَّ﴾. [سبأ: ٦].

وقوله: ﴿أفمن يَّعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ من ربِّكَ الحقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله: ﴿ويقولُ الَّذين كَفَرُوا لولاَ أُنزل عليه آيةٌ من ربِّه، قلْ إنَّ اللهَ يُضِلُّ من يشاءُ ويهدي إليه من أناب﴾ [الرعد: ٢٧].

يعني: أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية؛ بل هو الذي يهدي ويضل.

ثم نبههم على أعظم آية وأجلها، وهي؛ طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله. فقال: ﴿الذينَ آمنُوا وتَطْمئنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾ [الرعد: ٢٨]. أي: بكتابه وكلامه. ﴿ألا بذكرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. فطمأنينة القلوب الصحيحة، والفطر السليمة به، وسكونها إليه؛ من أعظم الآيات؛ إذ يستحيل في العادة أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل.

فإن قيل: فلم لم يذكر الله سبحانه شهادة رسله مع الملائكة، فيقول: شهد الله أنه لا إلـه إلا هو والملائكة والرسل، وهم أعظم شهادة من أولي العلم؟

قيل: في ذلك عدة فوائد:

إحداها: أن أولي العلم أعم من الرسل والأنبياء فيدخلون هم وأتباعهم.

وثانيها: أن في ذكر «أولي العلم» في هذه الشهادة، وتعليقها بهم؛ ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضياته، وأن من كان من أولي العلم؛ فإنه يشهد بهذه الشهادة. كما يقال: إذا طلع الهلال واتضح؛ فإن كل من كان من أهل النظر يراه، وإذا فاحت رائحة ظاهرة؛ فكلٌّ من كان من أهل الشم يشم هذه الرائحة.

قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٦]. أي: كل من له رؤية يراها حينئذ عيانًا. ففي هذا بيان أن من لم يشهد له الله سبحانه بهذه الشهادة؛ فهو من أعظم الجهال؛ وإن علم من أمور الدنيا مالم يعلمه غيره، فهو من أولي الجهل، لا من أولي العلم.

وقد بينا أنه لم يقم بهذه الشهادة ويؤديها على وجهها؛ إلا أتباع الرسل أهل الإثبات، فهم أولو العلم، وسائر من عداهم؛ أولو الجهل، وإن وَسَّعوا القول وأكثروا الجدال.

ومنها: الشهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة؛ أنهم «أولو العلم». فشهادته لهم أعدل وأصدق من شهادة الجهمية والمعطلة والفرعونية لهم بأنهم جهال. وأنهم حشوية، وأنهم مشبهة، وأنهم مجسمة ونوابت ونواصب. فكفاهم شهادة أصدق الصادقين لهم بأنهم من «أولي العلم» إذ شهدوا له بحقيقة ما شهد به لنفسه، من غير تحريف ولا تعطيل، وأثبتوا له حقيقة هذه الشهادة ومضمونها. وخصومهم نفوا عنه حقائقها، وأثبتوا له ألفاظها ومجازاتها.

فصل

وفي ضمن هذه الشهادة الإلـهية؛ الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم؛ فإنه سبحانه قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، واستشهد بهم - جل وعلا - على أجل مشهود به، وجعلهم حجة على من أنكر هذه الشهادة؛ كما يحتج بالبينة على من أنكر الحق. فالحجة قامت بالرسل على الخلق. وهؤلاء نواب الرسل وخلفاؤهم في إقامة حجج الله على العباد.

فصل

وقد فسرت «شهادة أولي العلم» بالإقرار. وفسرت بالتَّبيين والإظهار، والصحيح؛ أنها تتضمن الأمرين: فشهادتهم إقرار، وإظهار، وإعلام، وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿**وكَذلك جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وسطًا لتَكُونُوا شُهدَاء على الناسِ ويكُونَ الرسُولُ عليكم شهيدًا**﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال تعالى: ﴿**هُوَ سَمَّاكُم المُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفي هذا**(١) **لِيكُونَ الرَّسُولُ شَهيدًا عليكم وتكُونُوا شُهداءَ على الناسِ**﴾ [الحج: ٧٨].

فأخبر: أنه جعلهم عدولاً خيارًا، ونوه بذكرهم قبل أن يوجدهم، لما سبق في علمه من اتخاذه لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة. فمن لم يقم بهذه الشهادة ـ علمًا وعملاً، ومعرفةً وإقرارًا، ودعوة وتعليماً، وإرشاداً ـ فليس من شهداء الله. والله المستعان.

قوله تعالى: ﴿**إنَّ الدينَ عِنْدَ الله الإسلامُ**﴾ [آل عمران: ١٩]. اختلف المفسرون: هل هو كلام مستأنف، أو داخل في مضمون هذه الشهادة؟ فهو بعض المشهود به.

وهذا الاختلاف مبني على القراءتين في كسر «إن» وفتحها. فالأكثرون على كسرها على الاستئناف. وفتحها الكسائي وحده. والوجه؛ هو الكسر؛ لأن الكلام الذي قبله قد تم. فالجملة الثانية مقررة مؤكدة لمضمون ما قبلها. وهذا أبلغ في التقرير، وأذهب في المدح والثناء؛ ولهذا كان كسر ﴿**إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعوهُ إنَّهُ هو البَرُّ الرَّحيمُ**﴾ [الطور: ٢٨]. أحسن من الفتح. وكان الكسر في قول الملبي: «لبيك. إن الحمد والنعمة لك» أحسن من الفتح.

وقد ذكر في توجيه قراءة الكسائي ثلاثة أوجه:

---

(١) أي: سماكم المسلمين فيما أنزل على الرسل من قبل وفي هذا القرآن الذي أنزله على رسولكم.

أحدها: أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين، فهي واقعة على ﴿**إنَّ الدينَ عِنْدَ اللهِ الإسلامُ**﴾ [آل عمران: ١٩]. وهو المشهود به. ويكون فتح «أنه» من قوله: ﴿**أنَّه لا إله إلاَّ هُوَ**﴾ [آل عمران: ١٨]. على إسقاط حرف الجر، أي: بأنه لا إله إلا هو ـ وهذا توجيه الفراء. وهو ضعيف جدًّا؛ فإن المعنى على خلافه ـ وأن المشهود به هو نفس قوله: ﴿**أنه لا إله إلا هو**﴾ فالمشهود به «أن» وما في حيزها، والعناية إلى هذا صرفت، وبه حصلت. ولكن لهذا القول ـ مع ضعفه ـ وجه، وهو أن يكون المعنى: شهد الله بتوحيده، أن الدين عند الله الإسلام. والإسلام: هو توحيده سبحانه. فتضمنت الشهادة: توحيده، وتحقيق دينه؛ أنه الإسلام لا غيره.

الوجه الثاني: أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين معًا، كلاهما مشهود به على تقدير حذف الواو وإرادتها. والتقدير: وأن الدين عنده الإسلام؛ فتكون جملة استغنى فيها عن حرف العطف بما تضمنت من ذكر المعطوف عليه. كما وقع الاستغناء عنها في قوله: ﴿**ثَلَاثَةٌ رابِعُهُم كَلْبُهُم ويَقُولُون خَمْسَةٌ سَادِسُهُم كَلْبُهُم**﴾ [الكهف: ٢٢] فيحسن ذكر الواو وحذفها، كما حذفت هنا، وذكرت في قوله: ﴿**ويَقُولُون سَبْعَةٌ وثَامِنُهُم كَلْبُهُم**﴾ [الكهف: ٢٢].

الوجه الثالث: وهو مذهب البصريين ـ: أن يجعل «أن» الثانية بدلاً من الأولى. والتقدير: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام. وقوله: «أنه لا إله إلا هو» توطئة للثانية وتمهيد. ويكون هذا من البدل الذي الثاني فيه نفسُ الأول. فإن «الدين» الذي هو نفس «الإسلام عند الله» هو «شهادة أن لا إله إلا الله» والقيام بحقها. ولك أن تجعله على هذا الوجه من باب بدل الاشتمال؛ لأن الإسلام يشتمل على التوحيد.

فإن قيل: فكان ينبغي على هذه القراءة أن يقول: إن الدين عند الله الإسلام؛ لأن المعنى: شهد الله أن الدين عنده الإسلام. فلم عدل إلى لفظ الظاهر؟.

قيل: هذا يرجح قراءة الجمهور، وأنها أفصح وأحسن؛ ولكن يجوز إقامة الظاهر مقام المضمر، وقد ورد في القرآن وكلام العرب كثيرًا. فإن الله تعالى قال: ﴿**واتَّقوا اللهَ واعلَمُوا أنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ**﴾ [البقرة: ١٩٦]. وقال: ﴿**واتَّقُوا اللهَ إنَّ**

اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩]. وقال تعالَى: **﴿والَّذين يُمَسِّكُونَ بالكِتَابِ وأَقَامُوا الصَّلاةَ، إنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ المُصلِحِينَ﴾** [الأعراف: ١٧٠]. قال ابن عباس: افتخر المشركون بآبائهم؛ فقال كل فريق: لا دين إلا دين آبائنا، وما كانوا عليه؛ فأكذبهم الله تعالى فقال: **﴿إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسلامُ﴾** [آل عمران: ١٩]. يعني: الذي جاء به محمد، وهو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، ليس لله دين سواه **﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾** [آل عمران: ٨٥].

وقد دل قوله: **﴿إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسلامُ﴾**. على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه.

قال أول الرسل نوح: **﴿فإنْ تَوَلَّيْتُم فما سَأَلْتُكُم من أَجْرٍ إن أجرِيَ إلاَّ على اللهِ وأُمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ﴾** [يونس: ٧٢].

وقال إبراهيم وإسماعيل: **﴿ربَّنا واجعلنَا مُسلمين لك ومن ذُرِّيَّتنا أُمَّة مُسْلِمَةً لَّكَ﴾** [البقرة: ١٢٨]. **﴿ووصَّى بها إبراهيمُ بنيهِ ويعقُوبُ يا بنيَّ إنَّ اللهَ اصطَفَى لكم الدينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتُم مُسْلِمُونَ﴾** [البقرة: ١٣٢].

وقال يعقوب لبنيه عند الموت: **﴿ما تعبدُون من بعدي قالوا نعبدُ إلـهكَ ـ إلى قوله ـ ونحنُ لهُ مُسلِمونَ﴾** [البقرة: ١٣٣].

وقال موسى لقومه: **﴿إنْ كُنْتُم آمنتُم باللهِ فَعَليه توكَّلُوا إن كُنتُم مُسلمين﴾** [يونس: ٨٤].

وقال تعالى: **﴿فَلما أحسَّ عيسى منهم الكفرَ قال من أنصاري إلى اللهِ قال الحَوَارِيُّونَ نحنُ أنصارُ اللهِ آمنَّا باللهِ واشهد بأنَّا مُسلمونَ﴾** [آل عمران: ٥٢].

وقالت ملكة سبأ: **﴿ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سُلَيْمانَ للهِ ربِّ العالمين﴾** [النمل: ٤٤].

فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد دينًا سواه، فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخمسة للشيطان، فدين الرحمن، هو الإسلام. والتي للشيطان: اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والصابئة، ودين المشركين.

فهذا بعض ما تضمنته هذه الآية العظيمة من أسرار التوحيد والمعارف.

(١)**قال** الله تعالى: ﴿**قُلِ اللهمَّ مَالِكَ المُلك تُؤْتِي الملكَ من تشاءُ وتَنزعُ الملكَ ممن تشاءُ وتُعزُّ من تشاءُ وتذلُّ من تشاءُ بيدكَ الخيرُ إنَّك على كل شيءٍ قديرٌ**﴾ [آل عمران: ٢٦].

فصدر الآية سبحانه بتفرده بالملك كله، وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء لا غيره. فالأول: تفرده بالملك، والثاني: تفرده بالتصرف فيه، وأنه سبحانه هو الذي يعز من يشاء بما يشاء من أنواع العز، ويذل من يشاء بسلب ذلك العز عنه وأن الخير كله بيديه ليس لأحد معه منه شيء، ثم ختمها بقوله: ﴿**إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ**﴾.

فتناولت الآية: ملكه وحده، وتصرفه، وعموم قدرته.

وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيده وأنها كلها خير، فسلبه الملك عمن يشاء وإذلاله من يشاء خير، وإن كان شرًّا بالنسبة إلى المسلوب الذليل، فإن هذا التصرف دائر: بين العدل، والفضل، والحكمة والمصلحة؛ لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير يحمد عليه الرب ويثنى عليه به، كما يحمد ويثنى عليه بتنزيهه عن الشر وأنه ليس إليه.

كما ثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله، ﷺ، كان يثني على ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله: «**لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت**».

فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل كل ما نسب إليه فهو خير. والشر إنما صار شراً لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أضيف إليه؛ لم يكن شرًّا ـ كما سيأتي بيانه ـ.

وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله؛ ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه ـ كما تقدم ـ، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها

(١) ١٧٨ شفاء.

اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله. فإذا وضع في محله؛ لم يكن شرًّا؛ فعلم أن الشر ليس إليه، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك، فإن منها: القدوس، السلام، العزيز، الجبار، المتكبر.

فالقدوس: المنزهُ من كل شر ونقص وعيب كما قال أهل التفسير: هو الطاهر من كل عيب المنزهُ عما لا يليق به، وهذا قول أهل اللغة، وأصل الكلمة من الطهارة والنزاهة.

ومنه بيت المقدس لأنه مكان يتطهر فيه من الذنوب، ومن أمه لا يريد إلا الصلاة فيه رجع من خطيئته كيوم ولدته أمه.

ومنه سميت الجنة: حظيرة القدس؛ لطهارتها من آفات الدنيا.

ومنه سمي جبريل: روح القدس؛ لأنه طاهر من كل عيب...

...[1] **وكذلك** اسمه «**السلام**» فإنه الذي سلم من العيوب والنقائص، ووصفه بالسلام أبلغ في ذلك من وصفه بالسالم، ومن موجبات وصفه بذلك؛ سلامة خلقه من ظلمه لهم، فسلم سبحانه من إرادة الظلم والشر، ومن التسمية به ومن فعله ومن نسبته إليه، فهو السلام من صفات النقص وأفعال النقص، وأسماء النقص، المسلم لخلقه من الظلم؛ ولهذا وصف سبحانه ليلة القدر بأنها سلام، والجنة بأنها دار السلام، وتحية أهلها السلام، وأثنى على أوليائه بالقول السلام، كل ذلك السالم من العيوب.

وكذلك «**الكبير**» من أسمائه و«**المتكبر**». قال قتادة وغيره: هو الذي تكبر عن السوء، وقال أيضًا: الذي تكبر عن السيئات.

وقال مقاتل: المتعظم عن كل سوء.

وقال أبو إسحاق: الذي يكبر عن ظلم عباده.

وكذلك اسمه «**العزيز**» له العزة التامة، ومن تمام عزته؛ براءته عن كل سوء وشر وعيب؛ فإن ذلك ينافي العزة التامة.

وكذلك اسمه «العلي» **الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص، ومن كمال علوه؛ أن لا يكون فوقه شيء، بل يكون فوق كل شيء.**

(١) ١٧٩ شفاء.

وكذلك اسمه «**الحميد**» وهو الذي له الحمد كله، فكمال حمده؛ يوجب أن لا ينسب إليه: شر ولا سوء ولا نقص لا في أسمائه ولا في أفعاله ولا في صفاته؛ فأسماؤه الحسنى؛ تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه؛ مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء، فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم.

والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه؛ كان قد فعل الشر والسوء.

والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلاً لذلك، وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب، فجَعْلُه فاعلاً خير، والمفعول شر قبيح، فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها، فهو خير وحكمة ومصلحة؛ وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصًا وشرًّا وهذا أمر معقول في الشاهد.

فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللبنة الناقصة؛ فوضع ذلك في موضع يليق به ويناسبه؛ كان ذلك منه عدلاً وصوابًا يمدح به؛ وإن كان في المحل عوج ونقص وعيب يذم به المحل.

ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها؛ كان ذلك حكمة وعدلاً وصوابًا؛ وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها، فمن وضع العمامة على الرأس، والنعل في الرجل، والكحل في العين، والزبالة في الكناسة؛ فقد وضع الشيء موضعه، ولم يظلم النعل والزبالة إذ هذا محلهما.

ومن أسمائه سبحانه «**العدل**» و«**الحكيم**» الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه، فهو المحسن الجواد الحكيم العدل في كل ما خلقه، وفي كل ما وضعه في محله وهيأه له، وهو سبحانه له الخلق والأمر.

فكما أنه في أمره لا يأمر إلا بأرجح الأمرين، ويأمر بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإذا تعارض أمران؛ رجح أحسنهما وأصلحهما، وليس في الشريعة أمر يفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه، ولا نهي عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده.

فإن قلت: فإذا كان وجوده خيراً من عدمه فكيف لا يشاء وجوده، وإذا كان عدمه خيراً من وجوده فكيف يشاء وجوده؟ فالمشيئة العامة تنقض عليك هذه القاعدة الكلية.

قلت: لا تنقضها؛ لأن وجوده ـ وإن كان خيرًا من عدمه ـ فقد يستلزم وجوده فوات محبوب له هو أحب إليه من وقوع هذا المأمور من هذا المعنى، وعدم المنهي ـ وإن كان خيرًا من وجوده ـ فقد يكون وجوده وسيلة وسببًا إلى ما هو أحب إليه من عدمه. وسيأتي تمام تقرير ذلك في باب اجتماع القدر والشرع وافتراقهما ـ إن شاء الله ـ.

والرب سبحانه إذا أمر بشيء؛ فقد أحبه ورضيه وأراده وبينه، وهو لا يحب شيئًا إلا ووجوده خير من عدمه، ومانهى عنه؛ فقد أبغضه وكرهه، وهو لا يبغض شيئًا إلا وعدمه خير من وجوده، هذا بالنظر إلى ذات هذا وهذا، وأما باعتبار إفضائه إلى ما يحب ويكره فله حكم آخر.

ولهذا أمر سبحانه عباده أن يأخذوا بأحسن ما أنزل إليهم، فالأحسن هو المأمور به وهو خير من المنهي عنه، وإذا كانت هذه سنته في أمره وشرعه؛ فهكذا سنته في خلقه وقضائه وقدره، فما أراد أن يخلقه أو يفعله كان أن يخلقه ويفعله خيرًا من أن لا يخلقه ولا يفعله، وبالعكس. وما كان عدمه خيرًا من وجوده فوجوده شر وهو لا يفعله بل هو منزه عنه والشر ليس إليه . . .

(١)... **لا** خلاف أن لفظ «اللهم» معناه: يا الله؛ ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب. فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اللهم اغفر لي وارحمني. . .

(٢)... **وإذا** علم هذا من شأن الميم؛ فهم ألحقوها في اخر هذا الاسم الذي يسأل به الله سبحانه في كل حاجة وكل حال؛ إيذانًا بجميع أسمائه وصفاته.

فإذا قال السائل: «**اللهم إني أسألك**»، كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم؛ إيذانًا بسؤاله تعالى بأسمائه كلها.

كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**ما أصاب عبدًا قط: هم، ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ**

---

(١) ٧٢ جلاء الأفهام.　　(٢) ٧٨ جلاء الأفهام.

حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنـزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عنـدك؛ أن تجعل القرآن العظيم: ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحًا» قالوا: يارسول الله أفلا نتعلمهن؟ قال: «**بلى: ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**»(١).

فالداعي مندوب إلى أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، كما في الاسم الأعظم: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، الحنان المنان بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم**(٢)».

وهذه الكلمات تتضمن الأسماء الحسنى كما ذكر في غير هذا الموضع.

والدعاء ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته. وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿**ولله الأَسْماءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والثاني: أن تسأله بحاجتك وفقرك، وذلك فتقول: أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير ونحو ذلك.

والثالث: أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحدًا من الأمرين. فالأول أكمل من الثاني، والثاني أكمل من الثالث. فإذا جمع الدعاء الأمور الثلاثة؛ كان أكمل، وهذه عامة أدعية النبي ﷺ.

وفي الدعاء الذي علمه صديق الأمة(٣) ذكر الأقسام الثلاثة؛ فإنه قال في أوله: « **ظلمتُ نفسي كثيراً**»، وهذا حال السائل ثم قال: «**وإنه لا يغفر الذنوب**

---

(١) رواه ابن حبان، وأحمد، والبزار من حديث ابن مسعود، وأخرجه أيضًا الحاكم وصححه، وأبويعلى في مسنده قال في مجمع الزوائد: رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، وقد روي بألفاظ أخرى نحو هذه عن أبي موسى الأشعري وغيره.

(٢) رواه الإمام أحمد واللفظ له، وابن ماجه، ورواه أبوداود والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٣) رواه البخاري، ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ.

إلا أنت» وهـذا حال المسئول ثم قال: «**فاغفر لي**» فذكر حاجته وختم الدعاء باسمين من الأسماء الحسنى تناسب المطلوب وتقتضيه.

وهذا القول الذي اخترنا؛ قد جاء عن غير واحد من السلف.

قال الحسن البصري: «**«اللهم» مجمع الدعاء**».

وقال أبو رجاء العطاردي: «إن الميم في قوله: «اللهم» فيها تسعة وتسعون اسمًا من أسماء الله تعالى».

وقال النضر بن شميل: «من قال: «اللهم»؛ فقد دعا الله بجميع أسمائه»...

...[1]**وقد** جاء في الأثر: «**إن المبتلى إذا دُعِيَ لهُ: اللهم ارحمه، يقول الله سبحانه: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟**».

وفي أثر آخر: «**إن الله إذا أحب عبده حماه الدُّنيا وطيباتها وشهواتها، كما يحمي أحدُكم مريضه**». فهذا من تمام رحمته به، لا من بخله عليه.

كيف؟ وهو الجواد الماجد، الذي له الجود كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقلُّ من ذرة في جبال الدنيا ورمالها؟

فمن رحمتـه سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمةً وحميةً، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغنيُّ الحميد، ولا بُخْلاً منه عليهم بما نهاهم عنه، فهو الجوادُ الكريم.

ومن رَحمته: أن نَغَّصَ عليهم الدُّنيا وكدَّرها لئلاَّ يَسْكُنوا إليها، ولا يطمَئنوا إليها، ويرْغبوا في النَّعيم المُقيم في دَاره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليُعطيهم، وابتلاهم ليُعافيهم، وأماتَهم ليُحْيِيَهم.

ومن رحمته بهمْ: أن حذَّرهم نفسه، لئلا يغترُّوا به، فيعاملوه بما لا تَحسن معاملتُه به كما قال تعالى: ﴿**ويُحَذِّرُكم الله نفسه والله رءوفٌ بالعِبَادِ**﴾ [آل عمران: ٣٠].

قال غير واحد من السلف: من رأفته بالعبادِ: حذَّرهم من نفسه، لئلا يغترُّوا به.

---

(١) ١٧٥ إغاثة جـ٢.

(١)**الوجه** الرابع والثلاثون بعد المائة: أن الله سبحانه وتعالى؛ خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبته وإيثار مرضاته، المستلزمة لمعرفته، ونصب للعباد علمًا لا كمال لهم إلا به، وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة على وفق مرضاته ومحبته؛ ولذلك أرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه، فكمال العبد الذي لا كمال له إلا به أن تكون حركاته موافقة لمايحبه الله منه ويرضاه له؛ ولهذا جعل اتباع رسوله دليلاً على محبته.

قال تعالى: **﴿قُلْ إنْ كُنْتُم تُحبُّونَ اللهَ فاتبعُوني يُحبِبْكم اللهُ ويَغفرْ لكم ذُنُوبَكم واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾** [آل عمران: ٣١].

فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه؛ أن يتحرك بحركة اختيارية في غير مرضاته، وإذا فعل فعلاً مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته؛ تاب منه كما يتوب من الذنب، ولايزال هذا الأمر يقوى عنده؛ حتى تنقلب مباحاته كلها طاعات، فيحتسب نومه وفطره وراحته، كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده، وهو دائمًا بين سراء يشكر الله عليها، وضراء يصبر عليها، فهو سائر إلى الله دائمًا في نومه ويقظته.

قال بعض العلماء: الأكياس عاداتهم عبادات الحمقى، والحمقى عباداتهم عادات.

وقال بعض السلف: حبذا نوم الأكياس وفطرهم يغبنون به سهر الحمقى وصومهم، فالمحب الصادق إن نطق نطق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضاة الله فهو لله وبالله ومع الله.

ومعلوم أن صاحب هذا المقام أحوج خلق الله إلى العلم، فإنه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها، ولا السكون المحبوب له من غيره إلا بالعلم، فليست حاجته إلى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته، ولأنه في نفسه صفة كمال؛ بل حاجته إليه كحاجته إلى ما به قوام نفسه وذاته؛ ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريديهم بالعلم وطلبه، وأنه من لم يطلب العلم لم يفلح، حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة.

---

(١) ١٥٩ مفتاح جـ١.

وقال ذو النون وقد سئل من السفلة؟ فقال: من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه.

وقال أبو يزيد: لو نظرتم إلى الرجل وقد أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به؛ حتى تنظروا كيف تجدونه: عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، ومعرفة الشريعة.

وقال أبوحمزة البزاز: من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلا متابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله.

...(1) **فالله** تعالى إنما خلق الخلق لعبادته؛ الجامعة لكمال محبته؛ مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله: فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه، ورسله وملائكته وأولياءه. فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها؛ فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة؛ ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها.

فقال تعالى: ﴿قُل إنْ كُنتم تُحبُّون اللهَ فاتبعُوني يُحْبِبْكم اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم. ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم؛ فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول، ﷺ: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره. ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما.

---

(١) ٩٩ مدارج جـ١.

فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله. ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه ألبتة، ولا يهديه الله. قال الله تعالى: **﴿قُلْ إنْ كان آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكُم وأزواجُكُم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشَون كسادَهَا ومساكِنُ ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربَّصُوا حتى يأتيَ اللهُ بأمرِهِ. واللهُ لا يَهدي القومَ الفاسقين﴾** [التوبة: ٢٤].

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة الله؛ فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وإن قاله بلسانه؛ فهوكذب منه وإخبار بخلاف ما هو عليه(١).

(٢) **فصل** في الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها. وهي عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه؛ ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال. فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أحبه لا محالة؛ ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

---

(١) تكملة البحث تقدم في سورة الفاتحة ضمن قوله فصل: فاعلم أن سرَّ العبودية وغايتها وحكمتها ص١٠٠.

(٢) ١٧ مدارج جـ٣.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة. فإنها داعية إلى محبته.

السابع: ـ وهو من أعجبها ـ إنكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى. وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم خَتْم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر. ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمتَ أن فيه مزيدًا لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة؛ وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب. وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التوفيق.

...[1] **لما** كثر المدعون للمحبة؛ طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى. فلو يُعْطَى الناس بدعواهم لادعى الخَلِيُّ حُرقة الشَّجيِّ؛ فتنوع المدعون في الشهود. فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿**قُلْ إنْ كُنتم تُحِبُّون الله فاتَّبِعُوني يُحبِبْكم اللهُ**﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية: ﴿**يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائمٍ**﴾ [المائدة: ٥٤]. فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم؛ فهلموا إلى بيعة ﴿**إنَّ الله اشترى مِنَ الْمُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُم وأموَالَهُم بأنَّ لهم الجنَّةَ**﴾ [التوبة: ١١١].

فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد

---

(١) ٨ مدارج جـ٣.

التبايع؛ عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأنًا. فرأوا من أعظم الغَبْن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس. فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار. وقالوا: **«والله لا نقيلك ولا نستقيلك»**.

فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا؛ رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافها معًا **﴿ولاَتَحْسَبنَّ الَّذين قُتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أمواتًا بل أحياءٌ عِنْدَ ربِّهم يُرزقُونَ * فَرِحينَ بِمَا آتاهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ﴾** [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠]. إذا غُرست شجـرة المحبـة في القلب، وسُقيت بماء الإخـلاص ومتـابعـة الحبيب؛ أثمرت أنواع الثمار، وآتت أُكُلها كل حين بإذن ربها: أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

لايزال سعي المحب صاعدًا إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء **﴿إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالحُ يَرْفَعُهُ﴾** [فاطر: ١٠].

(١)**قال** بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحنة **﴿قلْ إنْ كُنتُم تُحبونَ اللهَ فاتَّبِعُوني يُحبِبْكم اللهُ﴾** [آل عمران: ٣١].

وقال: ﴿يحببكم الله﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها. فدليلها وعـلامتهـا؛ اتبـاع الرسول. وفائدتها وثمرتها؛ محبة المرسِل لكم. فما لم تحصل المتابعة؛ فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية.

(٢)...**فالمحبون** ثلاثة أقسام: منهم من يريد من المحبوب، ومنهم من يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب. وهذا أعلى أقسام المحبـين، وزهـد هذا أعلى أنواع الزهد، فإنه قد زهد في كل إرادة تخالف مراد محبوبه، وبين هذا وبين الزهد في الدُّنيا؛ أعظمُ مما بين السماء والأرض.

فالـزهـد خمسـة أقسام: زهدٌ في الدُّنيا، وزهد في النفس، وزهد في الجاه والرئاسة، وزهد فيما سوى المحبوب، وزهدٌ في كل إرادة تخالف مراد المحبوب. وهذا إنما يحصل بكمال المتابعة لرسول الحبيب. قال الله تعالى: **﴿قُلْ إن كُنتُم تُحبُّون اللهَ فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لكم ذُنُوبَكم واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾** [آل عمران: ٣١].

---

(١) ٢٢ مدارج جـ ٣.	(٢) ٢٨٤ روضة.

فجعل سبحانه متابعة رسوله سببًا لمحبتهم له ، وكونُ العبد محبوبًا لله أعلى من كونه محبًّا لله ، فليس الشأن أن تحب الله ؛ ولكن الشأن أن يحبك الله ، فالطاعة للمحبوب عنوان محبته كما قيل :

تَعْصي الإلـه وأنـت تزعـم حبَّه ... هـذا محـالٌ فـي القياس بديـعُ
لـو كـان حبُّك صـادقًا لأطعته ... إن المحـبّ لمـن يحـبّ مطيـعُ

فصـــــل(1)

والفرق بين الحب في الله والحب مع الله ، وهذا من أهم الفروق وكل أحد محتاج ؛ بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا .

فالحب في الله هو من كمال الإيمان ، والحب مع الله هو عين الشرك .

والفرق بينهما : أن المحب في الحب تابع لمحبة الله ، فإذا تمكنت محبته من قلب العبـد ؛ أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله ، فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه ؛ كان ذلك الحب له وفيه ، كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأولياءه ؛ لكونه تعالى يحبهم ، ويبغض من يبغضهم ؛ لكونه تعالى يبغضهم .

وعلامة هذا الحب والبغض في الله ؛ أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حبًّا ؛ لإحسانه إليه وخدمته له وقضاء حوائجه ، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضًا إذا وصـل إليه من جهته ما يكرهه ويؤلمه : إما خطأ وإما عمدًا ، مطيعًا لله فيه ، أو متأولاً ، أو مجتهدًا ، أو باغيًا نازعًا تائبًا .

والدين كله يدور على أربع قواعد : حب ، وبغض ، ويترتب عليهما : فعل ، وترك . فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله ، فقد استكمل الإيمان ؛ بحيث إذا أحب أحب لله ، وإذا أبغض أبغض لله ، وإذا فعل فعل لله ، وإذا ترك ترك لله ، وما نقص من أصنافه هذه الأربعة ؛ نقص من إيمانه ودينه بحسبه .

وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان : نوع يقدح في أصل التوحيد وهو شرك .

---

(1) ٣٠٩ الروح .

ونوع يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يخرج من الإسلام.

فالأول: كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم قال تعالى: ﴿**ومن الناسِ مَن يَتخذُ من دونِ اللهِ أنداداً يُحبُّونهم كحبِّ اللهِ**﴾ [البقرة: ١٦٥]. وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله كما يحبون الله، فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها: الخوف والرجاء والعبادة والدعاء. وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله، ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ومعاداتهم ومحاربتهم، وبذلك أرسل الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه وفي مرضاته. فكل من عبد شيئاً من لدن عرشه إلى قرار أرضه؛ فقد اتخذ من دون الله إلهًا ووليًا وأشرك به كائنًا ذلك المعبود ما كان، ولابد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه.

والنوع الثاني: محبة ما زينه الله للنفوس: من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث؛ فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء. فهذه المحبة ثلاثة أنوع:

فإن أحبها لله: توصلاً بها إليه، واستعانة على مرضاته وطاعته؛ أثيب عليها وكانت من قسم الحب لله توصلاً بها إليه ويلتذ بالتمتع بها، وهذا حال أكمل الخلق الذي حبب إليه من الدنيا: النساء والطيب، وكانت محبته لهما عونًا له على محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره.

وإن أحبها: لموافقة طبعه، وهواه، وإرادته ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه بل نالها بحكم الميل الطبيعي؛ كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك؛ ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه.

وإن كانت هي مقصوده ومراده وسعيه في تحصيلها والظفر بها، وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه؛ كان ظالمًا لنفسه متبعًا لهواه.

فالأولى: محبة السابقين، والثانية: محبة المقتصدين، والثالثة: محبة الظالمين.

فتأمل: هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق فإنه معترك النفس الأمّارة والمطمئنة. والمهدي من هداه الله.

فصـــل(١)

إذا تَبـيَّنَ هذا فأصـلُ المحبَّة المحمودَة التي أمر الله تعالى بها وَخَلَق خَلْقَه لأجلها؛ هي مَحَبَّتُه وحدَه لا شريك له، المتضمنةُ لعبادته دون عبادةِ ما سواه.

فإن العبادة تتضمَّن غاية الحُبِّ بغاية الذُّلِّ، ولا يصلحُ ذلك إلا لله عز وجل وحده.

ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواعٌ مُتفاوتة في القَدْر والوصفِ؛ كان أغلبُ ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يَختَصُّ به ويليق به: كالعبادة والإنابة والإِخْباتِ؛ ولهذا لا يذكر فيها لفظُ العشق والغرَام، والصبَّابة، والشغف، والهوَى، وقد يُذكر لها لفظ المحبـة، كقوله: ﴿**يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله: ﴿**قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُم اللهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]. وقوله: ﴿**والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ**﴾. [البقرة: ١٦٥]. ومدارُ كتب الله تعالى المنزَّلة من أوّلها إلى آخرها؛ على الأمر بتلك المحبَّة ولوازمها، والنهي عن محبة ما يضادها وملازمتها، وضرب الأمثال والمقاييس لأهل المحبتين، وذِكْرِ قِصصهم ومآلهم، ومنازلهم، وثوابهم، وعقابهم.

ولا يجد حلاوة الإيمان، بل لا يَذُوق طعمه، إلا من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، كما في الصحيحين: من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان ـ وفي لفظ: لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث ـ: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحبَّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالى منه، كما يكره أن يُلْقى في النـار**». وفي الصحيحـين أيضـاً عنـه قال: قال رسـول الله، ﷺ: «**والـذي نفسي بيـده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين**».

ولهذا اتفقت دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم؛ على عبادة الله وحده لا شريك له. وأصل العبادة وتمامها وكمالها؛ هو المحبة، وإفراد الرب سبحانه بها فلا

---

(١) ١٣٣ إغاثة جـ٢.

يشرك العبد به فيها غيره. . .

...**الفائدة** السابعة[1] إذا كان الحكم مستغرباً جدًّا مما لم تألَفْه النفوسُ وإنما ألفت خلافه؛ فينبغي للمفتي أن يوطيء قبله ما يكون مؤذنًا به كالدليل عليه والمقدمة بين يديه.

فتأمل ذكره سبحانه قصة زكريا، وإخراج الولد منه بعد انصرام عَصْر الشبيبة وبلوغه السن الذي لا يُولَد فيه لمثله في العادة.

فذكر قصته مقدمة بين يدي قصة المسيح وولادته من غير أب؛ فإن النفوس لما آنست بولد من بين شيخين كبيرين لا يُولَد لهما عادة؛ سهل عليها التصديق بولادة ولد من غير أب.

وكذلك ذكر سبحانه قبل قصة المسيح مُوافاة مريم رزقها في غير وقته وغير إبانه، وهذا الذي شجع نفس زكريا وحركها لطلب الولد وإن كان في غير إبانه.

[2] **ومما** قدم بالفضل قوله: ﴿**واسجدِي وارْكَعي مع الرَّاكِعين**﴾ [آل عمران: ٤٣]. لأن السجود أفضل. وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

فإن قيل: فالركوع قبله بالطبع والزمان والعادة؛ لأنه انتقال من علو إلى انخفاض، والعلو بالطبع قبل الانخفاض فهلا قدم الركوع.

الجواب أن يقال: انتبه لمعنى الآية من قوله: ﴿**اركَعي معَ الرَّاكِعين**﴾ ولم يقل: اسجدي مع الساجدين، فإنما عبر بالسجود عن الصلاة وأراد صلاتها في بيتها؛ لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها مع قومها، ثم قال لها: اركعي مع الراكعين، أي: صلى مع المصلين في بيت المقدس، ولم يرد أيضًا الركوع وحده دون أجزاء الصلاة؛ ولكنه عبر بالركوع عن الصلاة كما تقول: ركعت ركعتين وأربع ركعات. تريد الصلاة لا الركوع بمجرده، فصارت الآية متضمنة لصلاتين: صلاتها وحدها عبر عنها بالسجود؛ لأن السجود أفضل حالات العبد وكذلك صلاة المرأة في بيتها أفضل لها، ثم صلاتها في المسجد عبر عنها بالركوع؛ لأنه في الفضل دون السجود، وكذلك صلاتها مع المصلين دون صلاتها وحدها في

---

(١) ١٦٣ أعلام جـ٤. (٢) ٦٤ بدائع جـ١.

بيتها ومحرابها. وهذا نظم بديع وفقه دقيق... وهذه نبذ تشير لك إلى ماوراء أو تنبذك وأنت صحيح بالعراء(١).

(٢)... **وأما** قوله تعالى: ﴿**يا مريمُ اقنتي لربِّك واسجُدِي واركعي مع الرَّاكعين**﴾ [آل عمران: ٤٣]. فقد أبعد النجعة فيها تعسفه من فائدة التقديم وأتى بما ينبو اللفظ عنه.

وقال غيره: السجود كان في دينهم قبل الركوع. وهذا قائل ما لا علم له به.

والذي يظهر في الآية ـ والله أعلم بمراده من كلامه ـ أنها اشتملت على مطلق العبادة وتفصيلها؛ فذكر الأعم، ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص. فذكر القنوت أولاً وهو الطاعة الدائمة؛ فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة.

ثم ذكر ما هو أخص منه وهو السجود الذي يشرع وحده: كسجود الشكر والتلاوة، ويشرع في الصلاة فهو أخص من مطلق القنوت، ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة، فلا يسن الإتيان به منفردًا فهو أخص مما قبله.

ففائدة الترتيب؛ النزول من الأعم إلى الأخص، إلى أخص منه، وهما طريقتان معروفتان في الكلام: النزول من الأعم إلى الأخص، وعكسها وهو الترقي من الأخص إلى ما هو أعم منه إلى ما هو أعم ونظيرها. ﴿**ياأيها الَّذِين آمنوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا واعْبُدُوا ربَّكُم وافْعَلُوا الخَيْرَ**﴾. [الحج: ٧٧].

فذكر أربعة أشياء: أخصها الركوع، ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله.

والذي يزيد هذا وضوحًا؛ الكلام على ما ذكره بعد هذه الآية من قوله: ﴿**وطَهِّر بَيْتِي للطَّائِفِينَ والعَاكِفِينَ والرُّكَّع السُّجُودِ**﴾ [الحج: ٢٦]. فإنه ذكر أخص هذه الثلاثة: وهو الطواف الذي لا يشرع إلا بالبيت خاصة، ثم انتقل منه إلى

---

(١) في المطبوعة «أو سدل وأنت صحيح» وصححناه من المخطوطة. (ج).

(٢) ٨٠ بدائع جـ١.

الاعتكاف وهو القيام المذكور في الحج، وهو أعم من الطواف؛ لأنه يكون في كل مسجد ويختص بالمساجد لا يتعداها، ثم ذكر الصلاة التي تعم سائر بقاع الأرض سوى ما منع منه مانع أو استثني شرعًا.

وإن شئت قلت: ذكر الطواف الذي هو أقرب العبادات بالبيت، ثم الاعتكاف الذي يكون في سائر المساجد، ثم الصلاة التي تكون في البلد كله بل في كل بقعة. فهذا تمام الكلام على ما ذكره من الأمثلة...

ومن[1] طرق الأحكام؛ الحكم بالقرعة، قال تعالى: **﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ومَاكُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ومَاكُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾** [آل عمران: ٤٤]. قال قتادة: «كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم فتشاح عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا عليها بسهامهم: أيهم يكفلها؟ فقرع زكريا، وكان زوج أختها، فضمها إليه».

وروي نحوه عن مجاهد، وقال ابن عباس: «لما وضعت مريم في المسجد اقترع عليها أهل المصلى، وهم يكتبون الوحي، فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها» وهذا متفق عليه بين أهل التفسير.

وقال تعالى: **﴿وإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلى الفُلْكِ المَشْحُونِ، فَسَاهَم فَكَانَ مِنَ المُدْحَضِينَ﴾** [الصافات: ١٣٩-١٤١]. يقول تعالى: فقارع، فكان من المغلوبين.

فهذان نبيان كريمان استعملا القرعة، وقد احتج الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا إن صح ذلك عنهم، وفي الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا**».

وفي الصحيحين أيضًا: عن عائشة: «أن النبي، ﷺ كان إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه».

---

(١) ٢٨٧ الطرق الحكمية.

وفي صحيح مسلم: عن عمران بن حصين: «أن رجلاً أعتق ستة مملوكين له عند موته، لم يكن له مال غيرهم، فدعاهم رسول الله، ﷺ، فجزأهم أثلاثًا، ثم أقرع بينهم: فأعتق اثنين، وأرقَّ أربعة. وقال له قولاً شديدًا».

وفي صحيح البخاري: عن أبي هريرة: «أن رسول الله، ﷺ، عرض على قوم اليمين، فسارعوا إليه، فأمر أن يُسهم بينهم في اليمين: أيهم يحلف».

وفي سنن أبي داود: عن النبي، ﷺ، قال: «**إذا أكره اثنان على اليمين، أو استحباها، فليستهما عليها**».

وفي رواية أحمد: «**إذا أكره اثنان على اليمين أو استحباها**».

وفيه أيضًا: أن رجلين اختصما في متاع إلى النبي، ﷺ، وليس لواحد منهما بينة، فقال: «**استهما على اليمين ما كان، أحبا ذلك أو كرها**».

وفي الصحيحين: عن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة، عن أم سلمة قالت: أتى رسول الله ﷺ رجلان يختصمان في مواريث لهما، لم تكن لهما بينة إلا دعواهما، فقال: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئًا، فإنما أقطع له قطعة من النار**».

ورواه أبوداود في السنن. وفيه: فبكى الرجلان، وقال كل واحد منهما: حقي لك، فقال لهما النبي ﷺ: «**أما إذا فعلتما ما فعلتما فاقتسما، وتوخيا الحق، ثم استهما، ثم تحالا**».

فهذه السنة ـ كما ترى ـ قد جاءت بالقرعة، كما جاء بها الكتاب، وفعلها أصحاب رسول الله، ﷺ، بعده.

قال البخاري في صحيحه: «ويذكر أن قومًا اختلفوا في الأذان فأقرع بينهم سعد».

وقد صنف أبوبكر الخلال مصنفًا في القرعة، وهو في جامعه، فذكر مقاصده.

قال أحمد في رواية إسحاق بن إبراهيم وجعفر بن محمد: القرعة جائزة.

وقال يعقوب بن بُختان: سئل أبوعبدالله عن القرعة، ومن قال: إنها قمار. قال: إن كان ممن سمع الحديث، فهذا كلام رجل له خبر، يزعم أن حكم رسول الله، ﷺ، قمار.

وقال المروذي: قلت لأبي عبدالله: إن ابن أكثم يقول: إن القرعة قمار. قال: هذا قول رديء خبيث، ثم قال: كيف؟ وقد يحكمون هم بالقرعة في وقت إذا قُسمت الدار، ولم يرضوا، قالوا: يقرع بينهم، وهو يقول: لو أن رجلًا له أربع نسوة فطلق إحداهن، وتزوج الخامسة، ولم يدر أيتهن التي طلق؟ قال: يورثهن جميعًا، ويأمرهن أن يعتددن جميعًا، وقد ورّث من لا ميراث لها، وقد أمر أن تعتد من لا عدة عليها، والقرعة تصيب الحق، فعلها النبي، ﷺ.

وقال أبو الحارث: كتبت إلى أبي عبدالله أسأله، فقلت: إن بعض الناس ينكر القرعة، ويقول: هي قمار اليوم(١)، ويقول: هي منسوخة؟. فقال أبوعبدالله: من ادعى أنها منسوخة؛ فقد كذب وقال الزور، القرعة سنة رسول الله، ﷺ، أقرع في ثلاثة مواضع: أقرع بين الأعبُد الستة، وأقرع بين نسائه لمَّا أراد السفر، وأقرع بين رجلين تدارءا في دابة، وهي في القرآن في موضعين.

قلت: يريد أنه أقرع بنفسه في ثلاثة مواضع، وإلا فأحاديث القرعة أكثر وقد تقدم ذكرها.

قال: وهم يقولون إذا اقتسموا الدار والأرضين: أقرع بين القوم، فأيهم أصابته القرعة؛ كان له ما أصاب من ذلك، يجبر عليه.

وقال الأثرم: إن أبا عبدالله ذكر القرعة واحتج بها، وبيَّنها. وقال: إن قومًا يقولون: القرعة قمار، ثم قال أبوعبدالله: هؤلاء قوم جهلوا، فيها عن النبي، ﷺ، خمس سنن.

قال الأثرم: وذكرت له أنا حديث الزبير في الكفن، فقال: حديث أبي الزناد؟ فقلت: نعم، قال أبوعبدالله: قال أبوالزناد: يتكلمون في القرعة، وقد ذكرها الله تعالى في موضعين من كتابه.

وقال حنبل: سمعت أباعبدالله قال في قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]. أي: أقرع، فوقعت القرعة عليه، قال: وسمعت أبا عبدالله يقول: القرعة حكم رسول الله، ﷺ، وقضاؤه. فمن ردّ القرعة؛ فقد ردّ على رسول الله، ﷺ، قضاءه وفعله. ثم قال: سبحان الله لمن قد علم بقضاء

---

(١) في بعض النسخ «القوم» وما ذكرناه أولى لمناسبة السياق.

النبي، ﷺ، ويفتي بخلافه!! قال الله تعالى: ﴿وَمَاآتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه وَمَانَهَاكُم عَنهُ فانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وقال: ﴿أطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

قال حنبل: وقال عبدالله بن الزبير الحميدي: من قال بغير القرعة؛ فقد خالف رسول الله، ﷺ، في سنته التي قضى بها وقضى بها أصحابه بعده.

وقال في رواية الميموني: في القرعة خمس سنن: حديث أم سلمة: «إن قومًا أتوا النبي، ﷺ، في مواريث وأشياء دَرست بينهم، فأقرع بينهم»، وحديث أبي هريرة - حين تداريا في دابة - فأقرع بينهما، وحديث: الأعبد الستة، وحديث: أقرع بين نسائه، وحديث علي.

وقد ذكر أبوعبدالله من فعلها بعد النبي، ﷺ، فذكر ابن الزبير، وابن المسيب، ثم تعجب من أصحاب الرأي وما يردون من ذلك.

قال الميموني: وقال لي أبوعبيد القاسم بن سلام - وذاكرني أمر القرعة - فقال: أرى أنها من أمر النبوة، وذكر قوله تعالى: ﴿إذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُم أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. وقوله: ﴿فساهم﴾ [الصافات: ١٤١]...

...(1)**وأما** من نصر القول بالقرعة؛ فقالوا: إن الشارع جعل القرعة معينة في كل موضع تتساوى فيه الحقوق، ولا يمكن التعيين إلا بها؛ إذ لولاها لزم أحد باطلين:

إما الترجيح بمجرد الاختيار والشهوة وهو باطل في تصرفات الشارع.

وإما التعطيل ووقف الأعيان، وفي ذلك تعطيل الحقوق وتضرر المكلفين بما لا تأتي به الشريعة الكاملة؛ بل ولا السياسة العادلة. فإن الضرر الذي في تعطيل الحقوق؛ أعظم من الضرر المقدر في القرعة بكثير، ومحال أن تجيء الشريعة بالتزام أعظم الضررين لدفع أدناهما.

وإذا عرف هذا؛ فالحق إذا كان لواحد غير معين؛ فإن القرعة تعينه فيسعد الله بها من يشاء، ويكون تعيين القرعة له هو غاية ما يقدر عليه المكلف، فالتعيين بها تعيين لتعلق حكم الله لما عينته، فهي دليل من أدلة الشرع واجب العمل به؛ وإن كان في نفس الأمر بخلافه، كالبينة والإقرار والنكول فإنها أدلة منصوبة من

---

(1) ٢٦٢ بدائع جـ٣.

الشارع لفصل النزاع؛ وإن كانت غير مطابقة لمتعلقها في بعض الصور؛ فلهذا نصب الشارع القرعة معينة للمستحق قاطعة للنزاع؛ وإن تعلقت بغير صاحب الحق في نفس الأمر، فإن جماعة المستحقين إذا استووا في سبب الاستحقاق لم تكن القرعة ناقلة لحق أحدهم ولا مبطلة له، بل لما لم يمكن تعميمهم كلهم ولا حرمانهم كلهم، وليس أحدهم أولى بالتعيين من الآخرين؛ جعلت القرعة فاصلة بينهم معينة لأحدهم، فكأن المقرع يقول: اللهم قد ضاق الحق عن الجميع وهم عبيدك فخص بها من تشاء منهم به، ثم تلقى فيسعد الله بها من يشاء ويحكم بها على من يشاء. وهذا سر القرعة في الشرع.

وبهذا علم بطلان قول من شبهها بالقمار الذي هو ظلم وجور، وكيف يلحق غاية الممكن من العدل والمصلحة بالظلم والجور. هذا من أفسد القياس وأظهره بطلانًا وهو كقياس البيع على الربا، فإن الشريعة فرقت بين القرعة والقمار كما فرقت بين الربا والبيع، فأحل الله البيع وحرم الربا، وأحل الشارع القرعة وحرم القمار، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُم أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَاكُنْتَ لَدَيْهِم إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٤٤]. وقال تعالى إخبارًا عن ذي النون: ﴿**فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ**﴾ [الصافات: ١٤١].

وقد احتج الأئمة بشرع من قبلنا جاء ذلك منصوصًا عنهم في مواضع. وقد ثبت عن النبي، ﷺ، أنه كان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه...

(1)**قال** ابن إسحاق: وحدثني محمد بن أبي محمد، مولى زيد بن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبير - أو عكرمة - عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران، وأحبار يهود عند رسول الله، ﷺ، فتنازعوا عنده. فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًا. وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانيًا. فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿**يـاأَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ، وَمَاأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ والإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ، أَفَلا تَعْقِلُونَ هاأنتم هؤلاءِ حَاجَجتُم فِيما لكم به علمٌ فلِمَ تُحَاجُّونَ فيما لَيْسَ**

(١) ٨٠ زاد المعاد جـ٣.

لَكُم به علمٌ واللهُ يَعْلمُ وأَنْتُم لا تَعْلَمُـونَ. مَاكَانَ إبراهيمُ يهودِيًا ولا نَصْرَانِيًّا، ولكن كان حنيفًـا مُسْلِمًا وما كَان مِنَ الْمُشْرِكِينَ إنَّ أولى الناسِ بإبراهيمَ للذين اتبعُوهُ وهذا النَّبيُّ والَّذِينَ آمَنُوا، واللهُ وليُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨]. فقال رجـل من الأحبار: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ وقال رجل من نصارى نجران: أوذلك تريد يامحمد؟ وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله، ﷺ: «**معاذ الله أن أعْبُدَ غيرَ الله، أو آمر بعبادة غيره. ما بذلك بعثني ولا أمـرني**» فأنـزل الله عز وجـل في ذلك: **﴿مَاكَانَ لِبَشرٍ أن يُؤْتِيهُ اللهُ الكِتَابَ والحُكمَ والنُّبَوةَ ثُمَّ يَقُولَ للنَّاس كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللهِ، ولكِنْ كُونُوا رَبَّانيينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُـونَ الكِتَابَ وبِمَا كُنْتُم تَدْرُسُونَ، ولا يَأْمُركم أن تَتَّخِذُوا الملائِكَةَ والنَّبِيِّينَ أربَابًا، أَيَأْمُرُكُمْ بالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

ثم ذكر ما أخذ عليهم وعلى آبائهم من الميثاق بتصديقه وإقرارهم به على أنفسهم، فقـال: **﴿وإذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النَّبيينَ ـ إلى قوله ـ من الشَّاهِدينَ﴾** [آل عمران: ٨١].

وحدثني محمد بن سهل بن أبي أمامة قال: «لما قدم وفد نجران على رسول الله، ﷺ، يسألونه عن عيسى ابن مريم، نزل فيهم فاتحة آل عمران إلى رأس الثمانين منها».

وروينا عن أبي عبدالله الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبدالجبار، عن يونس بن بكير، عن سلمة بن عبد يُوشَع، عن أبيه، عن جده ـ قال يونس: وكان نصرانيًّا فأسلم ـ؛ أن رسول الله، ﷺ، كتب إلى أهل نجران: «**باسم إلـه إبراهيم وإسحـاق ويعقـوب. أمـا بعـد: فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد. فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحـرب، والسـلام**» فلما أتى الأسقفَّ الكتـابُ، فقرأه؛ فُظِع به وذعر به ذعرًا شديدًا، فبعث إلى رجل من أهل نجران، يقال له: شُرَحْبيل بن وَداعة، وكان من همدان، ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت مُعْضِلة قبله ـ لا الأَيْهَم، ولا السيد، ولا العـاقب ـ فدفع الأسقف كتاب رسول الله، ﷺ، إليه فقرأه، فقال الأسقف: ياأبـامـريم، ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمتَ ما وعد الله إبراهيم في ذرية

إسماعيل من النبوة، فما يؤمَن أن يكون هذا هو ذلك الرجل، ليس لي في النبوة رأى، لو كان من أمر الدنيا أشرت عليك فيه برأي، وجهدت لك فيه. فقال الأسقف: تَنَحَّ فاجلس، فتنحَّى شرحبيل فجلس ناحيةً، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: عبدالله بن شرحبيل، وهو من ذي أصبح من حمير، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه. فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف: تنحَّ فاجلس، فتنحَّى ناحية فجلس. فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه. فقال له مثل قول شرحبيل وعبدالله، فأمره الأسقف فتنحَّى، فجلس ناحية. فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعًا أمر الأسقف بالناقوس فَضُرِب به، ورُفعت النيران والمسوح في الصوامع ـ وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار. وإذا كان فزعهم بالليل ضُرب الناقوس ورُفعت النيران في الصوامع ـ فاجتمع حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح، أهلُ الوادي: أعلاه، وأسفله ـ وطول الوادي: مسيرة يوم للراكب السريع ـ وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل. فقرأ عليهم كتاب رسول الله، ﷺ، وسألهم عن الرأي فيه؟ فاجتمع رأي أهل الرأي منهم على أن يبعثوا: شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبدالله بن شرحبيل الأصبحي، وجبار بن فيض الحارثي، فيأتوهم بخبر رسول الله، ﷺ. فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حُلَلًا لهم يجرونها من الحبرة وخواتيم الذهب. ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله، ﷺ، فسلموا عليه، فلم يرد عليهم السلام، وتَصَدَّوا لكلامه نهارًا طويلًا، فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل والخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف ـ وكانا معرفة لهم؛ كانا يخرجان بالعير في الجاهلية إلى نجران، فيشتري لهما من بُرِّها وثمرها وذرتها ـ فوجدوهما في ناس من الأنصار والمهاجرين في مجلس، فقالوا: ياعثمان، ويا عبدالرحمن، إن نبيكم كتب إلينا بكتاب، فأقبلنا مُجيبين له، فأتيناه فسلمنا عليه، فلم يرد سلامنا، وتصدينا لكلامه نهارًا طويلًا، فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأي منكما، أترون أن نعود؟ فقال لعلي بين أبي طالب ـ وهو في القوم ـ: ما ترى ياأبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال

علي لعثمان وعبدالرحمن: أرى أن يضعوا حُلَلَهم هذه وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم، ثم يأتون إليه. ففعل الوفد ذلك، فوضعوا حللهم وخواتيمهم، ثم عادوا إلى رسول الله، ﷺ، فسلموا عليه، فردّ سلامهم، ثم قال: «**والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى، وإن إبليس لمعهم**» ثم سألهم وسألوه؟ فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له: ما تقول في عيسى؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى، فيسرنا إن كنت نبيًّا أن نعلم ما تقول فيه؟ فقال رسول الله، ﷺ: «**ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيمواحتى أخبركم بما يقول الله لي في عيسى**». فأصبح الغد وقد أنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿**إِنَّ مَثَل عِيْسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمتَرِينَ، فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعدِ مَاجَاءَكَ مِنَ العِلْمِ ، فقلْ تَعالوا نَدْعُ أَبنَاءَنا وأَبنَاءَكم ونساءَنَا وَنِسَاءَكُمْ، وأنفُسَنَا وأنفُسَكُم ثُمَّ نَبتهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِين**﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦١] فأبوا أن يقروا لذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد بعدما أخبرهم الخبر؛ أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره للمباهلة، وله يومئذ عدة نسوة، فقال شرحبيل لصاحبيه: يا عبدالله بن شرحبيل، ويا جبار بن فيض، قد علمتماأن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي، وإني والله أرى أمرًا مقبلاً، وأرى والله إن كان هذا الرجل ملكًا مبعوثًا، فكنا أول العرب طعن في عيبته ورد عليه أمره؛ لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور قومه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا لأدنى العرب منهم جوارًا، ولئن كان هذا الرجل نبيًّا مرسلاً فلاعَنَّاه؛ فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك، فقال له صاحباه: فما الرأي ياأبا مريم؟ فقد وضعتك الأمور على ذراع. فهات رأيك، فقال: إني أرى أن أحكمه، فإني أرى رجلاً لا يحكم شططًا أبدًا، فقالا له: أنت وذاك، فلقي شرحبيل رسول الله، ﷺ، فقال: إني قد رأيت خيرًا من ملاعنتك، فقال: «**وما هو؟**» قال شرحبيل: أحكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح. فمهما حكمت فينا؛ فهو جائز، فقال رسول الله، ﷺ: «**لعل وراءك أحدًا يُثَرِّب عليك**»، فقال له شرحبيل: سل صَاحِبَيَّ، فسألهما؟ فقالا: ما يرد الوادي ولا يصدر إلا عن رأي شرحبيل، فقال رسول الله، ﷺ: «**كافر ـ أو قال:**

جاحد ـ موفق»، فرجع رسول الله، ﷺ، ولم يلاعنهم، حتى إذا كان من الغد أتوه، فكتب لهم في الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لنجران، إذْ كان عليهم حكمه: في كل ثمرة، وفي كل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق، فأفضل عليهم، وترك ذلك كله على ألفي حُلة، في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، وكل حلة أوقية، مازادت على الخراج أو نقصت على الأواقي فبحساب. وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم بحساب. وعلى نجران مثواة رسلي ومتعتهم بها عشرين فدونه، ولا يحبس رسول فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين فرسًا، وثلاثين بعيراً، إذا كان كيد باليمن ومغدرة. وما هلك مما أعاروا رسولي: من دروع أو خيل أو ركاب؛ فهو ضمان على رسولي حتى يؤديه إليهم. ولنجران وحسبها جوار الله وذمة محمد النبي على أنفسهم وملتهم، وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم وتبعتهم، وأن لا يغيروا مما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا وَقِهٌ من وقهيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. وليس عليهم ريبة ولا دم جاهلية. ولا يحشرون ولا يعشّرون، ولا يطأ أرضهم جيش. ومن سأل منهم حقًّا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين. ومن أكل ربا من ذي قبلُ فذمتي منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر. وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله، حتى يأتي الله بأمره، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم، غير منقلبين بظلم. شهد أبوسفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة بن شعبة، وكتب» حتى إذا قضوا كتابهم انصرفوا إلى نجران، فتلقاهم الأسقف ووجوه نجران على مسيرة ليلة، ومع الأسقف أخ له من أمه، وهو ابن عمه من النسب، يقال له بشر بن معاوية، وكنيته: أبو علقمة، فدفع الوفد كتاب رسول الله، ﷺ، إلى الأسقف. فبينا هو يقرؤه ـ وأبوعلقمة معه وهما يسيران ـ إذا كَبَتْ ببشر ناقته، فتَعَّس بشر ـ غير أنه لا يكني عن رسول الله ﷺ ـ فقال له الأسقف عند ذلك: قد تعست والله نبيًّا مرسلاً، فقال بشر: لا جرم والله، لا أحل عنها عقدًا حتى آتيه فضرب وجه ناقته نحو

المدينة، وثنى الأسقف ناقته عليه، فقال له: افهم عني. إنما قلت هذا لتبلغ عني العرب، مخافة أن يقولوا: إنا أُخذنا حمقة، أو نجعنا بهذا الرجل بما لم تنتجع به العرب، ونحن أعزهم وأجمعهم دارًا. فقال له بشر: لا والله، لا أقيلك ما خرج من رأسك أبدًا. فضرب بشر ناقته وهو مول ظهره للأسقف، وهو يقول:

إليك تعدو قلقاً وَضينها معترضاً في بطنها جنينها

مخالفًا دين النصارى دينها

حتى أتى النبي، ﷺ، فأسلم. ولم يزل أبوعلقمة مع النبي، ﷺ، حتى استشهد بعد ذلك. ودخل الوفد نجران: فأتى الراهب لتب بن أبي شمر الزبيدي، وهو في رأس صومعة له، فقال له: إن نبيًّا قد بعث بتهامة، وإنه كتب إلى الأسقف، فأجمع أهل الوادي أن يُسَيِّرُوا إليه: شرحبيل بن وداعة، وعبدالله بن شرحبيل، وجبار بن فيض، فيأتونهم بخبره، فساروا حتى أتوه، فدعاهم إلى المباهلة، فكرهوا ملاعنته، وحكمه شرحبيل، فحكم عليهم حكمًا، وكتب لهم كتابًا. ثم أقبل الوفد بالكتاب حتى رفعوه إلى الأسقف، فبينا الأسقف يقرؤه وبشر أبوعلقمة معه كبَتْ ببشر ناقته فتعَّسه. فشهد الأسقف أنه نبي مرسل، فانصرف أبوعلقمة نحوه يريد الإسلام. فقال الراهب: أنزلوني، وإلا رميت بنفسي من هذه الصومعة، فأنزلوه. فانطلق الراهب بهدية إلى رسول الله، ﷺ، منها هذا البرد الذي يلبسه الخلفاء، والقَعْب والعصا، وأقام الراهب بعد ذلك يسمع كيف ينزل الوحي والسنن والفرائض والحدود، وأبى الله للراهب الإسلام فلم يسلم، واستأذن رسولَ الله، ﷺ، في الرجعة إلى قومه، وقال: إن لي حاجة ومعادًا إن شاء الله تعالى. فرجع إلى قومه، فلم يَعُدْ حتى قبض رسول الله، ﷺ. وإن الأسقف أباالحرث أتى رسول الله، ﷺ، ومعه السيد والعاقب ووجوه قومه، وأقاموا عنده يستمعون ما أنزل الله عليه، فكتب للأسقف هذا الكتاب وللأساقفة بنجران بعده: «**بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبي، إلى الأسقف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهُنتهم ورُهبانهم وأهل بِيَعِهم ورقيقهم وملتهم وسواقتهم، وعلى كل ما تحت أيديهم من قليل وكثير: جوار الله ورسوله، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته. ولا يغير حق من**

حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا مما كانوا عليه، على ذلك جوار الله ورسوله أبدًا، ما نصحوا وأصلحوا عليهم، غير منقلبين بظالم ولا ظالمين، وكتب المغيرة بن شعبة» فلما قبض الأسقف الكتاب استأذن في الانصراف إلى قومه ومن معه، فأذن لهم فانصرفوا.

وروى البيهقي بإسناد صحيح إلى ابن مسعود: «أن السيد والعاقب أتيا رسول الله، ﷺ، فأراد أن يلاعنهما، فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه، فوالله إن كان نبيًا فلاعنته؛ لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، ثم قالوا له نعطيك ما سألت: فابعث معنا رجلاً أمينًا حق أمين. ولا تبعث معنا إلا أمينًا. فقال النبي، ﷺ: **«لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حق أمين»**، فاستشرف لها أصحابه، فقال: **«قم يا أبا عبيدة بن الجراح»**. فلما قام قال: **«هذا أمين هذه الأمة»** ورواه البخاري في صحيحه من حديث حذيفة بنحوه.

وفي صحيح مسلم: من حديث المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله، ﷺ، إلى نجران، فقالوا: فيما قالوا: أرأيت ما يقرءُون: **﴿يا أختَ هارونَ﴾** [مريم: ٢٨] وقد كان بين عيسى وموسى ما قد علمتم؟ قال: فأتيت النبي، ﷺ، فأخبرته، فقال: **«أفلا أخبرتهم: أنهم كانوا يسمون - يعني بأسماء أنبيائهم والصالحين الذين كانوا قبلهم»**.

وروينا عن يونس بن بكير، عن ابن إسحاق قال: «وبعث رسول الله، ﷺ، علي بن أبي طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم».

فصل في فقه هذه القصة

ففيها: جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين.

وفيها: تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين، وفي مساجدهم أيضًا، إذا كان ذلك عارضًا، ولا يمكّنون من اعتياد ذلك.

وفيها: أن مجرد إقرار الكافر الكتابي لرسول الله، ﷺ، بأنه نبي لا يدخله في الإسلام، ما لم يلتزم طاعته ومتابعته. فإذا تمسك بدينه بعد هذا الإقرار لا يكون ردة منه.

ونظير هذا؛ قول الحبرين له ـ وقد سألاه عن ثلاث مسائل ـ فلما أجابهما قالا: نشهد أنك نبي. قال: «**فما يمنعكما من اتباعي؟**» قالا: نخاف أن تقتلنا اليهود، ولم يلزمهما بذلك الإسلام.

ونظير ذلك؛ شهادة عمه أبي طالب له بأنه صادق، وأن دينه من خير أديان البرية دينًا، ولم تدخله هذه الشهادة في الإسلام.

ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له، ﷺ، بالرسالة، وأنه صادق، وأن هذه الشهادة لم تدخلهم في الإسلام؛ علم أن الإسلام أمر وراء ذلك، وأنه ليس هو المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل هو: المعرفة، والإقرار، والانقياد، والتزام طاعته واتباع شرائعه، ظاهرًا وباطنًا.

وقد اختلف أئمة الإسلام في الكافر إذا قال: «أشهد أن محمدًا رسول الله» ولم يزد: هل يحكم بإسلامه بذلك؟ على ثلاثة أقوال، وهي ثلاث روايات عن أحمد: إحداها: يحكم بإسلامه بذلك.

والثانية: لا يحكم بإسلامه حتى يأتي بشهادة: أن لا إله إلا الله.

والثالثة: أنه إن كان مقرًا بالتوحيد حكم بإسلامه، وإن لم يكن مقرًا لم يحكم بإسلامه، حتى يأتي به.

وليس هذا موضع استيفاء هذه المسألة، وإنما أشرنا إليها إشارة. وأهل الكتابين مُجْمِعُون على أن نبيًّا يخرج في آخر الزمان، وهم ينتظرونه. ولا يشك علماؤهم أنه محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب؛ وإنما يمنعهم من الدخول في الإسلام رئاستهم على قومهم، وخضوعهم لهم، وما ينالونه منهم من المال والجاه.

وفيها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم ـ بل استحباب ذلك؛ بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته: من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم ـ ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فَلْيُوَلِّ ذلك أهله وليُخَلِّ بين المطي وحاديها، والقوسِ وباريها. ولولا خشية الإطالة؛ لذكرنا من الحجج التي

تلزم أهل الكتابين الإقرار بأنه رسول الله بما في كتبهم، وبما يعتقدونه، مما لا يمكنهم دفعه؛ ما يزيد على مائة طريق، ونرجو من الله سبحانه أن يوفق لإفرادها بمصنف مستقل[١]. . .

ودار بيني وبين بعض علمائهم مناظرة في ذلك، فقلت له في أثناء الكلام: لا يتم لكم القدح في نبوة نبينا، ﷺ، إلا بالطعن في الرب تبارك وتعالى، والقدح فيه، ونسبته إلى أعظم الظلم والسفه والفساد. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً فقال: كيف يلزمنا ذلك؟ قلت: بل أبلغ من ذلك. لا يتم لكم ذلك إلا بجحوده وإنكار وجوده تعالى.

وبيان ذلك أنه إذا كان محمد عندكم ليس بنبي صادق، وهو بزعمكم ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفتري على الله، ويتقول عليه ما لم يقله، ثم يتم الله له ذلك ويستمر حتى يحلل ويحرم، ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع، وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل، وهم أهل الحق، ويسبي نساءهم وأولادهم ويغنم أموالهم وديارهم، ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله تعالى له به، ومحبته له، والرب تعالى يشاهده وما يفعل بأهل الحق وأتباع الرسل، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثًا وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره، ويُعْلي أمره، ويُمَكِّن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر. وأعجب من ذلك: أنه يجيب دعوته، ويهلك أعداءه من غير فعل منه نفسه ولا سبب، بل تارة بدعائه، وتارة يستأصلهم سبحانه من غير دعاء منه، ﷺ، ومع ذلك: يقضي له كل حاجة سأله إياها، ويَعِدُه كلَّ وَعْدٍ جميل، ثم ينجز له وعده على أتم الوجوه وأهنئها وأكملها ـ هذا ـ وهو عندكم في غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أكذب ممن كذب على الله واستمر على ذلك، ولا أظلم ممن أبطل شرائع أنبيائه ورسله، وسعى في رفعها من الأرض وتبديلها بما يريد هو، وقتل أولياء الله وحزبه وأتباع رسله، واستمرت نصرته عليهم دائمًا، والله تعالى في ذلك كله يقره ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوتين. وهو يخبر عن ربه: أنه أوحى

---

(١) قد أفرد ذلك في كتاب (هداية الحيارى من اليهود والنصارى).

إليه: أنه لا ﴿أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللهِ كذبًا أو قال: أُوحِيَ إليَّ ولم يوحَ إليه شيءٌ، ومن قال سَأُنْزِلُ مثلَ ما أنزل اللهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. فيلزمكم معاشر من كذبه أحد أمرين، لابد لكم منهما:

إما أن تقولوا: لا صانع للعالم ولا مدبر، ولو كان للعالم صانع مدبر قدير حكيم لأخذ على يديه، ولقابله أعظم مقابلة، وجعله نكالاً للظالمين؛ إذْ لا يليق بالملوك غير هذا. فكيف بملك الأرض والسموات وأحكم الحاكمين؟

الثاني: نسبة الرب إلى ما لا يليق به من الجور والسَّفَه والظلم، وإضلال الخلق دائمًا أبد الآباد، لا بل نصرة الكاذب، والتمكين له من الأرض، وإجابة دعوته، وقيام أمره من بعده، وإعلاء كلماته دائمًا، وإظهار دعوته، والشهادة له بالنبوة، قرنًا بعد قرن على رءوس الأشهاد في كل مجمع ونادٍ. فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين؟ فلقد قَدَحْتُم في رب العالمين أعظم قَدْح، وطعنتم فيه أشد طعن، وأنكرتموه بالكلية. ونحن لا ننكر أن كثيرًا من الكذابين قام في الوجود، وظهرت له شوكة، ولكن لم يتم له أمر، ولم تطل مدته، بل سلط الله عليه رسله وأتباعهم، فمحقوا أثره، وقطعوا دابره، واسْتَأْصَلُوا شَأْفَتَه. هذه سنته في عباده منذ قامت الدنيا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فلما سمع مني هذا الكلام قال: معاذ الله أن نقول: إنه ظالم أو كاذب، بل كل منصف من أهل الكتاب يقر بأن من سلك طريقه، واقتفى أثره؛ فهو من أهل النجاة والسعادة في الأخرى.

قلت له: فكيف يكون سالك طريق الكذاب ومقتفي أثره بزعمكم من أهل النجاة والسعادة، فلم يجد بُدًّا من الاعتراف برسالته، ولكن لم يرسل إليهم.

قلت: فلقد لزمك تصديقه، ولابد، وهو قد تواترت عنه الأخبار بأنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين: كتابيِّهم وأميهم، ودعا أهل الكتاب إلى دينه، وقاتل من لم يدخل في دينه منهم، حتى أقروا بالصغار والجزية، فبُهت الكافر ونهض من فَوره.

والمقصود أن رسول الله، ﷺ، لم يزل في جدال الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم إلى أن توفي. وكذلك أصحابه من بعده. وقد أمره الله سبحانه بجدالهم

بالتي هي أحسن في السور المكية والمدنية. وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحجة إلى المباهلة. وبهذا قام الدين، وإنما جعل السيف ناصرًا للحجة وأعدل السيوف: سيف ينصر حجج الله وبيناته، وهو سيف رسوله وأمته.

وفيها: أن من عَظَّم مخلوقًا فوق منزلته التي يستحقها؛ بحيث أخرجه عن منزلة العبودية المحضة؛ فقد أشرك بالله، وعبد مع الله غيره. وذلك مخالف لجميع عقول ذوي الفطرة السليمة ولدعوة جميع الرسل.

وأما قوله: إنه، ﷺ، كتب إلى نجران: «**باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب**» فلا أظن ذلك محفوظًا. وقد كتب إلى هرقل: «**بسم الله الرحمن الرحيم**» وهذه كانت سنته في كتبه إلى الملوك، كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وقد وقع في هذه الرواية هذا، وقال: إن ذلك قبل أن ينزل عليه: ﴿**طسٓ. تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [النمل: ١]. وذلك غلط على غلط؛ فإن هذه السورة مكية باتفاق، وكتابه إلى نجران بعد مرجعه من تبوك.

وفيها: جواز إهانة رسل الكفار، وترك كلامهم، إذا ظهر منهم التعاظم والتكبر؛ فإن رسول الله، ﷺ، لم يكلم الرسل، ولم يرد السلام عليهم حتى لبسوا ثياب سفرهم، وألقوا حللهم وحلاهم.

ومنها: أن السنة في مجادلة أهل الباطل - إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا؛ بل أَصرُّوا على العناد - أن يدعوهم إلى المباهلة. وقد أمر الله سبحانه بذلك رسوله، ولم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك، ودعا إليه ابنُ عمه عبدالله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع(١)، ولم ينكر عليه الصحابة. ودعا إليه الأوزاعي وسفيان الثوري في مسألة رفع اليدين ولم ينكر عليه ذلك. وهذا من تمام الحجة.

وفيها: جواز صلح أهل الكتاب على ما يريد الإمام: من الأموال، ومن الثياب وغيرها. ويجري ذلك مجرى ضرب الجزية عليهم، فلا يحتاج إلى أن يفرد كل واحد منهم بجزية، بل يكون ذلك المال جزية عليهم، يقتسمونها كما أحبوا.

---

(١) مثلما تقدم في قصة غزوة أحد، وأنها كانت نصرًا لرسول الله والمؤمنين.

ولما بعث معاذًا إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً، أو عَدْله معافريًا.

والفرق بين الموضعين: أن أهل نجران لم يكن فيهم مسلم. وكانوا أهل صلح. وأما اليمن: فكانت دار إسلام، وكان فيهم يهود، فأمره أن يضرب الجزية على كل واحد منهم. والفقهاء يخصون الجزية بهذا القسم دون الأول، وكلاهما جزية؛ فإنه مال مأخوذ من الكفار على وجه الصَّغار في كل عام.

وفيها: جواز أخذ الحلل في الذمة، كما تؤخذ في الدية أيضًا. وعلى هذا: يجوز ثبوتها في الذمة بعقد السلم بالضمان وبالتلف، كما تثبت فيها بعقد الصداق والخُلع. وفيها: أنه يجوز معاوضتهم على ما صالحوا عليه من المال بغيره من أموالهم بحسابه وفيها اشتراط الإمام على الكفار: أن يُؤوُا رسله ويكرموهم، ويضيفوهم أياماً معدودة.

وفيها: جواز اشتراطه عليهم عارية ما يحتاج المسلمون إليه: من سلاح أو متاع أو حيوان، وأن تلك العارية مضمونة، لكن هل هي مضمونة بالشرط، أو بالشرع؟ هذا محتمل، وهذا محتمل، وقد تقدم الكلام عليه في غزوة حنين، وقد صرح ههنا بأنها مضمونة بالرد، ولم يتعرض لضمان التلف.

وفيها: أن الإمام لا يقر أهل الكتاب على المعاملات الرِّبوية، لأنها حرام في دينهم، وهذا كما لا يقرهم على السكر، ولا على اللواط والزنى، بل يَحُدُّهم على ذلك.

وفيها: أنه لا يجوز أن يؤخذ رجل من الكفار بظلم آخر، كما لا يجوز ذلك في حق المسلمين، وكلاهما ظلم.

وفيها: أن عقد العهد والذمة مشروط بنصح أهل العهد والذمة وإصلاحهم، فإذا غشوا المسلمين وأفسدوا: فلا عهد لهم، ولا ذمة. وبهذا أفتينا نحن وغيرنا في انتقاض عهدهم لما حرقوا الحريق العظيم في دمشق؛ حتى سرى إلى الجامع، وبانتقاض عهد من واطأهم وأعانهم بوجه ما؛ بل ومن علم ذلك ولم يرفعه إلى ولي الأمر، فإن هذا من أعظم الغش والضرر بالإسلام والمسلمين.

وفيها: بعث الإمام الرجل العالم إلى أهل الذمة في مصلحة الإسلام، وأنه ينبغي أن يكون أمينًا، وهو الذي لا غرض له ولا هوى، وإنما مراده؛ مجرد مرضاة

الله ورسوله، لا يَشُوبُها بغيرها. فهذا هو الأمين حق الأمين، كحال أبي عبيدة بن الجراح.

وفيها: مناظرة أهل الكتاب وجوابهم عما سألوه عنه، فإن أشكل على المسئول سأل أهل العلم.

وفيها: أن الكلام عند الإطلاق يحمل على ظاهره، حتى يقوم دليل على خلافه، وإلا لم يشكل على المغيرة قوله تعالى: ﴿**يا أُخْتَ هَارُونَ**﴾ [مريم: ٢٨] هذا؟ وليس في الآية ما يدل على أنه هارون بن عمران، حتى يلزم الإشكال، بل الموردُ ضمّ إلى هذا؛ أنه هارون بن عمران، ولم يكتف بذلك حتى ضم إليه؛ أنه أخو موسى بن عمران، ومعلوم؛ أنه لا يدل اللفظ على شيء من ذلك، فإيراده إيراد فاسد، وهو إما: من سوء الفهم، أو فساد القصد.

وأما قول ابن إسحاق: «إن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم» فقد ظن أنه كلام متناقض، ولأن الصدقة والجزية لا يجتمعان، وأشكل منه ما ذكره هو وغيره: «أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر - أو جمادى الأولى - سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثًا، «**فإن استجابوا، فاقبلْ منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم**» فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركاب يضربون في كل وجه، ويدعون إلى الإسلام، فأسلم الناس ودخلوا فيما دُعوا إليه، وأقام خالد فيهم يعلمهم الإسلام، وكتب بذلك إلى رسول الله، فكتب إليه رسول الله، ﷺ، أن يقبل، ويُقبل إليه وفدهم».

وقد تقدم «أنهم وفدوا على رسول الله، فصالحهم على ألفي حلة، وكتب لهم كتاب أمن، وأن لا يغيروا عن دينهم ولا يحشروا ولا يعشروا».

وجواب هذا: أن أهل نجران كانوا صنفين: نصارى، وأميين. فصالح النصارى على ما تقدم، وأما الأميون منهم فبعث إليهم خالد بن الوليد فأسلموا، وقدم وفدهم على النبي، ﷺ، وهم الذين قال لهم رسول الله، ﷺ: «**بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية**» قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحدًا بظلم. قال: «**صدقتم**»، وأمَّر عليهم قيس بن الحصين، وهؤلاء هم بنو الحارث بن

كعب، فقوله: «**بعث عليًا إلى أهل نجران ليأتيه بصدقاتهم أو جزيتهم**». أراد به الطائفتين من أهل نجران: صدقات من أسلم منهم، وجزية النصارى.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إن مثلَ عَيسى عند اللهِ كمثَلِ آدم خَلَقَه مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قال له كُنْ فيكُونُ**﴾ [آل عمران: ٥٩] فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين؛ بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طَوْعًا لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجودَ عيسى من غير أبٍ مَنْ يُقِرُّ بوجود آدم من غير أب ولا أم؟ ووجود حَوَّاء من غير أم؟ فآدم وعيسى نَظِيرَان يجمعهما المعنى الذي يصحُّ تعليقُ الإيجاد والخلق به.

(٢)**وقد** وبخهم الله سبحانه، وبكتهم على لسان رسوله بالتحريف والكتمان والإخفاء. فقال تعالى: ﴿**يا أهلَ الكتابِ لِمَ تلبسون الحقَّ بالباطلِ وتكتمون الحقَّ وأنتم تعلمون**﴾ [آل عمران: ٧١]. وقال تعالى: ﴿**إنَّ الذين يَكتمونَ ما أنزلنا من البيِّنَاتِ والهُدَى مِن بَعْد ما بيَّنَّاه للناسِ في الكتابِ أولئك يلْعَنُهم اللهُ ويلعَنُهُمُ اللاعنون**﴾ [البقرة: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**﴾. [البقرة: ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿**يا أهلَ الكتابِ قد جاءَكُم رسولُنَا يُبَيِّنُ لكم كثيراً مما كنتم تُخْفُونَ من الكتابِ ويعْفُوا عن كثيرٍ قد جَاءَكُم مِنَ اللّهِ نُورٌ وكتابٌ مبينٌ يَهدي به اللّهُ من اتبع رِضْوَانَه سُبُلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهم من الظُّلماتِ إلى النُّورِ بإذنِهِ ويَهْدِيهم إلى صراطٍ مُّسْتقيم**﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وأما التحريف، فقد أخبر سبحانه عنهم في مواضع متعددة، وكذلك لَيّ اللسان بالكتاب ليحسبه السامع منه وما هو منه. فهذه خمسة أمور:

أحدها: لبس الحق بالباطل، وهو خلطه به بحيث لا يتميز الحق من الباطل.

---

(١) ١٣٤ أعلام جـ١.　　(٢) ٤٩ هداية.

الثاني: كتمان الحق.

الثالث: إخفاؤه، وهو قريب من كتمانه.

الرابع: تحريف الكلم عن مواضعه، وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه.

الخامس: ليُّ اللسان به؛ ليلبس على السامع اللفظ المنزل بغيره، وهذه الأمور إنما ارتكبوها لأغراض لهم دعتهم إلى ذلك. فإذا عادوا الرسول وجحدوا نبوته وكذبوه وقاتلوه، فهم إلى أن يجحدوا نعته وصفته، ويكتموا ذلك ويزيلوه عن مواضعه ويتأوَّلوه على غير تأويله؛ أقرب بكثير. وهكذا فعلوا ولكن لكثرة البشارات وتنوعها غلبوا عن كتمانها وإخفائها فصاروا إلى تحريف التأويل وإزالة معناها عمن لا تصلح لغيره، وجعلها لمعدوم لم يخلقه الله ولا وجود له ألبتة.

(١) **الثاني** عشر: أنه من الممتنع أن تخلو الكتب المتقدمة عن الإخبار بهذا الأمر العظيم، الذي لم يطرق العالم من حين خلق إلى قيام الساعة؛ أمر أعظم منه ولا شأن أكبر منه، فإنه قلب العالم، وطبق مشارق الأرض ومغاربها، واستمر على العالم على تعاقب القرون وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومثل هذا النبأ العظيم لابد أن تتطابق الرسل على الإخبار به.

وإذا كان الدجال رجل كاذب يخرج في آخر الزمان، وبقاؤه في الأرض أربعين يومًا؛ قد تطابقت الرسل على الإخبار به، وأنذر به كل نبي قومه من نوح إلى خاتم الرسل، فكيف تتطابق الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها على السكوت عن الإخبار بهذا الأمر العظيم، الذي لم يطرق العالم؛ أمر أعظم منه ولا يطرقه أبدًا. هذا ما لا يسوغه عقل عاقل وتأباه حكمة أحكم الحاكمين، بل الأمر بضد ذلك.

وما بعث الله سبحانه نبيًا؛ إلا أخذ عليه الميثاق بالإيمان بمحمد وتصديقه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصدِّقٌ لما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّهُ، قال أَأَقْرَرْتُم وأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُم إِصْرِي، قَالُوا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوا وأَنَا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقال ابن عباس: ما بعث الله من نبي إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمد وهو

(١) ٥١ هدايـــة.

حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وليتابعنه.

(١)**السادس** والعشرون: أن هؤلاء المعارضين للكتاب والسنة بعقلياتهم التي هي في الحقيقة جهليات؛ إنما يبنون أمرهم في ذلك على أقوال مشتبهة مجملة تتحمل معاني متعددة، ويكون ما فيها: من الاشتباه في المعنى، والإجمال في اللفظ؛ يوجب تأويلها بحق وباطل. فبما فيها من الحق يقبل من لم يحط بها علمًا بما فيها من الباطل؛ لأجل الالتباس والاشتباه، ثم يعارضون بما فيها من الباطل نصوص الأنبياء.

وهذا منشأ ضلال من ضل من الأمم قبلنا وهو منشأ البدع كلها.

فإن البدع لو كانت باطلًا محضًا لما قبلت، ولبادر كل أحد إلى ردها وإنكارها. ولو كانت حقًا محضًا لم تكن بدعة وكانت موافقة للسنة. ولكنها تشتمل على الحق والباطل ويلتبس فيها الحق والباطل كما قال تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بالبَاطِلِ وتَكْتُمُونَ الحَقَّ وأنتم تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]. فنهى عن لبس الحق بالباطل، ولبسه به هو خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر.

ومنه التلبيس، وهو التدليس والغش الذي باطنه خلاف ظاهره، فكذلك الحق إذا لبس بالباطل؛ يكون فاعله قد أظهر الباطل، في صورة الحق وتكلم بلفظ له معنيان: معنى صحيح، ومعنى باطل، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ومراده الباطل. فهذا من الإجمال في اللفظ.

وأما الاشتباه في المعنى فيكون له وجهان: هو حق من إحدهما، وباطل من الآخر. فيوهم إرادة الوجه الصحيح ويكون غرضه الباطل. فأصل ضلال بني آدم من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة؛ ولاسيما إذا صادفت أذهانًا سقيمة، فكيف إذا انضاف إلى ذلك هوى وتعصب؟ فنسأل الله مثبت القلوب أن يثبت قلوبنا على دينه.

(٢) **وفي** سننه(٣) عن ابن عباس قال: قال رسول الله، ﷺ، «**الناس شركاء في**

---

(١) ١٦٦ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ٤٩٨ زاد المعاد جـ٤.

(٣) أي في سنن ابن ماجة.

ثلاث: الماء، والنار، والكلأ، وثمنه حرام».

وفي صحيح البخاري: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله، ﷺ: **«ثلاثة لا ينظر الله تعالى إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل كان على فضل ماء بالطريق فمنعه ابنَ السبيل، ورجل بايع إمامه، لا يبايعه إلا للدنيا: فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعة بعد العصر، فقال: والذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا. فصدقه رجل»**. ثم قرأ هذه الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بعَهْدِ اللهِ وأَيمَانِهِم ثَمَنًا قليلاً﴾ الآية [آل عمران: ٧٧].

وفي سنن أبي داود: عن بُهَيْسَة الفزارية قالت: استأذن أبي النبيَّ، ﷺ، فدخل بينه وبين قميصه. فجعل يقبل ويلتزم. ثم قال: يا نبي الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: **«الماء»**، قال: يا نبي الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: **«الملح»**. قال: يا نبي الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: **«أن تفعل الخير خير لك»**.

الماء خلقه الله في الأصل مشتركًا بين العباد والبهائم وجعله سُقيا لهم. فلا يكون أحد أخص به من أحد، ولو أقام عليه وبنى عليه. قال عمر بن الخطاب: «ابن السبيل أحق بالماء من الباني عليه» ذكره أبو عبيد عنه.

وقال أبوهريرة: «ابن السبيل أول شارب» فأما من حازه في إنائه أو في قربته فذاك غير المذكور في الحديث، وهو بمنزلة سائر المباحات إذا حازها إلى ملكه، ثم أراد بيعها كالحطب والكلأ والملح. وقد قال النبي ﷺ: **«لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيأخذ حزمة من حطب، فيبيع، فيكف الله بها وجهه؛ خير له من أن يسأل الناس، أعطي أو منع»** رواه البخاري.

وفي الصحيحين: عن علي قال: «أصبت شارفًا مع رسول الله ﷺ في مغنم يوم بدر، وأعطاني رسول الله ﷺ شارفًا آخر، فأنختهما يومًا عند باب رجل من الأنصار، وأنا أريد أن أحمل عليهما إذْخرًا لأبيعه ـ وذكر الحديث» فهذا في الكلأ

والحطب المباح بعد أخذه وإحرازه، وكذلك السمك وسائر المباحات. وليس هذا محل النهي بالضرورة، ولا محل النهي أيضًا بيع مياه الأنهار الكبار المشتركة بين الناس، فإن هذه لا يمكن منعها والحجر عليها. وإنما محل النهي صور: أحدها: المياه المنتَقَعة من الأمطار إذا اجتمعت في أرض مباحة، فهي مشتركة بين الناس وليس أحد أحق بها من أحد إلا بالتقديم لقرب أرضه، كما سيأتي إن شاء الله. فهـذا النـوع لا يحل بيعه ولا منعه، ومانعه عاص مستوجب لوعيد الله ومَنْعِ فضله؛ إذ منع ما لم تعمل يداه.

(١)**قال** تعـالى: **﴿إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بعَهْدِ الله وأيمانِهم ثَمنًا قليلاً أُولئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ في الآخرة ولا يُكَلِّمُهُم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يُزكيهم﴾**. [آل عمران: ٧٧].

وقـال في حق الـذين يكتمـون ماأنـزل الله من البينـات والهدى: **﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾** [البقرة: ١٧٤]. فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين؛ لكانوا في ذلك هم وأعداؤه سواء، ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة أصلاً؛ إذ تكليمه لعباده عند الفرعونية والمعطلة مثل أن يقال: يؤاكلهم ويشاربهم ونحو ذلك، تعالى الله عما يقولون.

وقد أخبر الله سبحانه أنه يسلم على أهل الجنة، وأن ذلك السلام حقيقة وهو قول من رب رحيم.

وتقـدم تفسير النبي، ﷺ، لهذه الآية، في حديث جابر في الرؤية، وأنه يشرف عليهم من فوقهم ويقول: «**سلام عليكم ياأهل الجنة**» فيرونه عيانًا. وفي هذا إثبات الرؤية والتكليم والعلو. والمعطلة تنكر هذه الأمور الثلاثة وتكفر القائل بها.

وتقدم حديث أبي هريرة في سوق الجنة وقول النبي، ﷺ: «**لا يبقى أحد في ذلـك المجلس إلا حاضره الله محاضرة فيقول: يافلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا**» الحديث.

---

(١) ٢٤٧ حادي الأرواح.

وتقدم حديث عدي بن حاتم: «مامنكم إلا من سيكلمه ربه يوم القيامة».

وحديث أبي هريرة في الرؤية وفيه: «يقول الرب تبارك وتعالى للعبد: ألم أكرمك وأسودك» الحديث.

وحديث بريدة: «ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربه وليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب» الحديث.

وحديث أنس في يوم المزيد، ومخاطبته فيه لأهل الجنة مرارًا.

وبالجملة فتأمل أحاديث الرؤية تجد في أكثرها ذكر التكليم.

قال البخاري في صحيحه: (باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة) وساق فيه عدة أحاديث.

فأفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى وتكليمه لهم؛ فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة وأعلى نعيمها وأفضله الذي ماطابت لأهله إلا به. والله المستعان.

(١)**الناس** ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع. هذا تقسيم خاص للناس وهو الواقع، فإن العبد إما أن يكون قد حصل كماله من العلم والعمل أوْ لا.

فالأول العالم الرباني، والثاني إما أن تكون نفسه متحركة في طلب ذلك الكمال، ساعية في إدراكه أوْ لا. فالثاني هو المتعلم على سبيل النجاة، والثالث هو الهمج الرعاع. فالأول؛ هو الواصل. والثاني؛ هو الطالب، والثالث؛ هو المحروم.

والعالم الرباني. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو المعلم، أخذه من التربية أي: يربي الناس بالعلم ويربيهم به كما يربي الطفل أبوه. وقال سعيد بن جبير: هو الفقيه العليم الحكيم.

قال سيبويه: زادوا ألفًا ونونًا في الرباني إذا أرادوا تخصيصًا بعلم الرب تبارك وتعالى، كما قالوا شعراني ولحياني.

---

(١) ١٢٥ مفتاح جـ ١.

ومعنى قول سيبويه ـ رحمه الله ـ إن هذا العالم لما نسب إلى علم الرب تعالى الذي بعث به رسوله وتخصص به؛ نسب إليه دون سائر من علم علمًا.

قال الواحدي: فالرباني على قوله منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب. أي: يعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى.

وقال المبرد: الرباني الذي يرب العلم ويرب الناس به، أي: يعلمهم ويصلحهم. وعلى قوله فالرباني: من رب يرب ربًا، أي: يربيه فهو منسوب إلى التربية يربي علمه؛ ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه كما يربي صاحب المال ماله ويربي الناس به كما يربي الأطفال أولياؤهم.

وليس هذا من قوله: ﴿**وكأيِّن مِنْ نبيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبيُّونَ كَثِيرٌ**﴾ [آل عمران: ١٤٦]. فالربيون هنا الجماعات بإجماع المفسرين، قيل: إنه من الرِّبة بكسر الراء وهي الجماعة.

قال الجوهري: الربي واحد الربيين وهم الألوف من الناس. قال تعالى: ﴿**وكأيِّن مِنْ نبيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبيُّونَ كَثِيرٌ فما وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُم**﴾ [آل عمران: ١٤٦]. ولا يوصف العالم بكونه ربانيًا حتى يكون عاملاً بعلمه معلمًا له فهذا قسم.

والقسم الثاني: متعلم على سبيل نجاة. أي قاصدًا بعلمه النجاة وهو المخلص في تعلمه، المتعلم ما ينفعه، العامل بما علمه، فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة؛ إلا بهذه الأمور الثلاثة.

فإنه إن تعلم ما يضره ولا ينفعه، لم يكن على سبيل نجاة. وإن تعلم ما ينتفع به لا للنجاة فكذلك، وإن تعلمه ولم يعمل به؛ لم يحصل له النجاة؛ ولهذا وصفه بكونه على السبيل، أي: على الطريق التي تنجيه، وليس حرف على وما عمل فيه متعلقًا بمتعلم إلا على وجه التضمين. أي مفتش متطلع على سبيل نجاته فهذا في الدرجة الثانية. وليس ممن تعلمه ليماري به السفهاء أو يجاري به العلماء، أو يصرف وجوه الناس إليه، فإن هذا من أهل النار، كما جاء في الحديث، وثبته أبو نعيم أيضًا قوله، ﷺ، «**من تعلم علمًا مما يُبْتَغى به وجه**

الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا؛ لم يجد رائحة الجنة». قال: وثبت أيضًا قوله، ﷺ: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة؛ عالم لم ينفعه الله بعلمه»، فهؤلاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة؛ بل على سبيل الهلكة نعوذ بالله من الخذلان.

القسم الثالث: المحروم المعرض فلا عالم ولا متعلم، بل همج رعاع، والهمج من الناس حمقاؤهم وجهلتهم، وأصله من الهمج جمع همجة، وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها، فشبه همج الناس به والهمج أيضًا مصدر قال الراجز:

قد هلكت جارتنا من الهمج وإن تجع تأكل عتودًا أو ثلج

والهمج هنا مصدر ومعناه: سوء التدبير في أمر المعيشة. وقولهم: همج هامج مثل ليل لايل. والرعاع من الناس الحمقى الذين لا يعتد بهم.

وقوله: اتباع كل ناعق، أي: من صاح بهم ودعاهم؛ تبعوه سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال. فإنهم لا علم لهم بالذي يدعون إليه أحق هو أم باطل، فهم مستجيبون لدعوته، وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان فإنهم الأكثرون عددًا الأقلون عند الله قدرًا، وهم حطب كل فتنة، بهم توقد ويشب ضرامها، فإنها يعتزلها أولو الدين، ويتولاها الهمج الرعاع، وسمي داعيهم ناعقًا تشبيهًا لهم بالأنعام التي ينعق بها الراعي فتذهب معه أين ذهب.

(١) **وقال** تعالى: ﴿**كيف يَهْدي الله قومًا كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهم وشَهِدُوا أنَّ الرسولَ حقٌّ وجَاءَهُم البيِّنَاتُ والله لا يَهْدِي القومَ الظَّالِمين**﴾ [آل عمران: ٨٦]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قريظة والنضير ومن دان بدينهم، كفروا بالنبي، ﷺ، بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به وشهدوا له بالنبوة؛ وإنما كفروا بغيًا وحسدًا.

قال الزجاج: أعلم الله عز وجل أنه لا جهة لهدايتهم؛ لأنهم قد استحقوا

(١) ٩١ مفتاح جـ١.

أن يضلوا بكفرهم، لأنهم كفروا بعد البينات، ومعنى: كيف يهديهم، أي: أنه لا يهديهم؛ لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمدًا، فمن أين تأتيهم الهداية؟! فإن الذي ترتجى هدايته؛ من كان ضالاً ولا يدري أنه ضال؛ بل يظن أنه على هدى فإذا عرف الهدى اهتدى، وأما من عرف الحق وتيقنه، وشهد به قلبه ثم اختار الكفر والضلال عليه، فكيف يهدي الله مثل هذا؟!

(١)**وقال** ابن عباس رضي الله عنهما: كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتدَّ ولحق بالمشركين، ثم ندم فأرسل إلى قومه: سَلُوا لي رسول الله، ﷺ، هل لي من توبة؟ فجاء قومه إلى النبي، ﷺ، فقالوا: هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ**﴾ إلى قوله: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾. [آل عمران: ٨٦ ـ ٨٩]. فأرسل إليه فأسلم، ذكره النسائي.

(٢) **وفي** قصة الفتح من الفقه: جواز جوار المرأة وأمانها للرجل والرجلين، كما أجاز النبي، ﷺ، أمان أم هانيء لَحَمَوَيْهَا.

وفيها من الفقه: جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردته من غير استتابة، فإن عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح كان قد أسلم وهاجر. وكان يكتب الوحي لرسول الله، ﷺ، ثم ارتد ولحق بمكة. فلما كان يوم الفتح؛ أتى به عثمان بن عفان رسول الله، ﷺ، ليبايعه، فأمسك عنه طويلاً، ثم بايعه، وقال: «**إنما أمسكت عنه؛ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه**». فقال له رجل: هلاَّ أومأت إليَّ يارسول الله؟ فقال: «**ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**». فهذا كان قد تغلظ كفره بردته، بعد إيمانه وهجرته وكتابته الوحي، ثم ارتد ولحق بالمشركين يطعن على الإسلام ويَعِيبُه. وكان رسول الله، ﷺ، يريد قتله. فلما جاء به عثمان بن عفان ـ وكان أخاه من الرضاعة ـ لم يأمر النبي، ﷺ، بقتله حياءً من عثمان، ولم يبايعه ليقوم بعض أصحابه فيقتله، فهابوا رسول الله أن يُقْدِمُوا على قتله بغير إذنه، واستحيا رسول الله، ﷺ، من عثمان، وساعد القدر السابق لما يريد الله سبحانه

---

(١) ٣٩٨ أعلام جـ٤. (٢) ٤٣٧ زاد المعاد جـ٢.

بعبدالله مما ظهر منه بعد ذلك من الفتوح فبايعه. وكان ممن استثنى الله بقوله:

﴿كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْمًـا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِم، وشَهِدُوا أنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ. والله لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزاؤُهُم أنَّ عَلَيْهِم لَعْنَةَ اللهِ والملائكةِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ. خَالِدينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلَاهُمْ يُنْظَرُونَ إلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦ - ٨٩].

وقوله، ﷺ: **«ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»** أي: أن النبي، ﷺ، لا يخالف ظاهره باطنه، ولا سِرُّه علانيته. وإذا نفذ حكم الله وأمره لم يُوم به؛ بل يصرح به ويعلنه ويظهره. والله أعلم.

فصل(١)

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة(٢)

أن ألقى إليهم : أن الربَّ تعالى محجور عليه في نَسْخ الشرائع، فحجروا عليه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد، وجعلوا هذه الشبهة الشيطانية تُرْسًا لهم في جَحْد نبوة رسول الله محمد، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. وقَرَّروا ذلك بأن النَّسخ يستلزم البَداء(٣) وهو على الله تعالى محال.

وقد أكـذبهم الله تعالى في نَصِّ التوراة، كما أكذبهم في القرآن. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَام كَانَ حِلًّا لبني إسْرَائيلَ إلاَّ مَاحَرَّمَ إسْرَائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ. قُلْ فَأْتوا بالتَّورَاةِ فَاتْلُوهَا إنْ كُنْتُم صَادقِينَ فَمَن افْتَرى عَلَى الله الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ قُلْ صَدَقَ اللهُ فاتَّبِعُوا مِلةَ إبْرَاهيِمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣ ـ ٩٥].

فتضمنتْ هذه الآيات بيانَ كذِبهم صريحًا في إبطال النسْخ، فإنه سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كُلَّه كان حَلالاً لبني إسرائيل، قبل نزول التوراةِ، سوى ما حرَّمَ إسرائيل على نفسه منه.

ومعلوم أنَّ بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حَلالاً؛ إنما هو بإحلال الله تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم، التي كانت حلالاً لبني إسرائيل. وهذا مَحضُ النَّسخ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ أي: كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة، وهم يعلمون ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

هل تجدون فيها أن إسرائيل حرّم على نفسه ما حَرَّمته التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم ما خصَّه بالتحريم؟ وهي لحوم الإبل وألبانُها خاصة. وإذا كان إنما حَرَّم هذا وحْدَه، وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حَرمت التوراةُ كثيرًا منه؛

(١) ٣٢٠ إغاثة جـ٢. (٢) أي اليهود. (٣) أي: ابتداء علم جديد لم يكن.

ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع، والحَجْر على الله تعالى في نسخها.

فتأمل هذا الموضع الشريف الذي حامَ حولَه أكثرُ المفسرين، وما وَرَدُوه.

وهذا أوَلى من احتجاج كثير من أهل الكلام عليهم: بأن التوراة حَرَّمت أشياء كثيرةً من المناكح، والذبائح، والأفعال، والأقوال. وذلك نسخٌ لحكم البراءة الأصلية، فإن هذه المناظرة ضعيفة جدًّا. فإن القوم لم ينكروا رَفْع البراءة الأصلية، بالتحريم والإيجاب؛ إذ هذا شأن كلِّ الشرائع، وإنما أنكروا تحريم ما أباحه الله تعالى؛ فيجعله حرامًا، أو تحليل ما كان حرمه؛ فيجعله مباحًا. وأما رفع البراءة والاستصحاب؛ فلم ينكره أحد من أهل الملل.

ثم يقال لهذه الأمة الغضبية: هل تُقرّون أنه كان قبل التوراة شريعة أم لا؟ فهم لا ينكرون أن يكون قبل التوراة شريعة.

فيقال لهم: فهل رفعت التوراة شيئًا من أحكام تلك الشرائع المتقدمة أم لا؟.

فإن قالوا: لم تَرْفَعْ شيئًا من أحكام تلك الشرائع؛ فقد جاهروا بالكذب والبَهْتِ، وإن قالوا: قد رفعت بعض الشرائع المتقدمة؛ فقد أقروا بالنسخ قطعًا.

وأيضا: فيقال للأمة الغضبية: هل أنتم اليوم على ماكان عليه موسى عليه السلام

فإن قالوا: نعم. قلنا: أليس في التوراة أن من مَسَّ عظم ميِّتٍ، أو وَطِيء قبرًا، أو حضَر ميِّتًا عند موته، فإنه يصير من النجاسة بحالٍ لا مخرج له منها إلا برمادِ البقرة التي كان الإمام الهارونيُّ يَحْرقها؟ فلا يمكنهم إنكار ذلك.

فيقال لهم: فهل أنتم اليوم على ذلك؟

فإن قالوا: لا نقدر عليه، فيقال لهم: لِمَ جعلتم أن من مس العظم والقبر والميت طاهراً يصلح للصلاة، والذي في كتابكم خلافه؟

فإن قالوا: لأنَّا عدمنا أسباب الطهارة، وهي رَماد البقرة، وعدمنا الإمام المطهِّر المستغفر فيقال لهم: فهل أغناكم عدمه عن فعله، أو لم يغنكم؟.

فإن قالوا: أغنانا عدمه عن فعله. قيل لهم: قد تَبَدَّل الحكم الشرعي من الوجوب إلى إسقاطه لمصلحة التعذر.

فيقال: وكذلك يتبدل الحكم الشرعيُّ بنسخه لمصلحة النسخ، فإنكم إن بَنَيتم على اعتبار المصالح والمفاسد في الأحكام؛ فلا ريب أن الشيء يكون مصلحة

في وقت دون وقت، وفي شريعة دون أخرى، كما كان تزويجُ الأخ بالأخت مصلحةً في شريعـة آدم عليه السلام، ثم صار مَفْسدةً في سائر الشرائع، وكذلك إباحة العمل يوم السبت كان مصلحةً في شريعة إبراهيم عليه السلام ومَنْ قبله وفي سائرِ الشرائع، ثم صار مفسدة في شريعة موسى عليه السلام، وأمثال ذلك كثيرة.

وإن منعتم مراعاة المصالح في الأحكام، ومنعتم تعليلها بها، فالأمر حينئذ أظهرُ، فإنه سبحانه يُحَلِّلُ ما يشاء، ويُحَرِّم ما يشاء، والتحليل والتحريم تبعُ لمجرد مشيئته، لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ.

وإن قلتم: لا نستغني في الـطهـارة عن ذلـك الـطهور الذي كان عليه أسلافنا، فقد أقررتم بأنكم الأنجاسُ أبدًا، ولا سبيل لكم إلى حصول الطهارة. . .

(1)**فيقال** لهم: فكيف أقررتم لموسى بالنبوة، وقد جاء بتغيير بعض شرائع من تقدمه؛ فإن قدح ذلك في المسيح ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، قدح في موسى، فلا تقدحون في نبوتهما بقادحٍ إلا ومثله في نبوة موسى سواء. كما أنكم لا تثبتون نبوة موسى ببرهان إلا وأضعافُه شاهد على نبوة محمد، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فمن أبين المحال أن يكون موسى رسولاً صادقًا ومحمدٌ ليس برسول، أو يكون المسيح رسولاً ومحمد، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ليس برسول.

ويقال للأمة الغضبية أيضًا: لا يخلو المحرم:

إما أن يكون تحريمه لعَيْنِه وذاته؛ بحيث تمنع إباحته في زمان من الأزمنة.

وإما أن يكون تحريمه لما تَضَمَّنه من المفسدة في زمان دون زمان، ومكان دون مكان، وحال دون حال.

فإن كان الأول، لزم أن يكون ما حرمته التوراة؛ محرمًا على جميع الأنبياء في كل زمان ومكان، من عهد نوح إلى خاتم الأنبياء، عليهم السلام.

وإن كان الثاني، ثبت أن التحريم والإباحة تابعان للمصالح، وإنما يختلفان باختلاف الزمان والمكان والحال، فيكون الشيء الواحد حرامًا في مِلَّة دون ملة، وفي وقت دون وقت، وفي مكان دون مكان، وفي حال دون حال. وهذا معلومٌ

(1) **٣٢٥ إغاثة جـ٢.**

بالاضطرار من الشرائع، ولا يليق بحكمة أحكم الحاكمين غير ذلك.

ألا ترى أن تحريم السبت لو كان لعينه؛ لكان حرامًا على إبراهيم ونوح وسائر النبيين؟ وكذلك ماحرمته التوراة من المطاعم والمناكح وغيرها، لو كان حراماً لعينه وذاته؛ لوجب تحريمه على كل نبي وفي كل شريعة.

وإذا كان الربُّ تعالى لا حَجْر عليه، بل يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويبتلي عباده بما يشاء، ويَحكُم ولا يُحكَم عليه. فما الذي يُحيل عليه ويمنعه أن يأمر أمَّة بأمرٍ من أوامر الشريعة، ثم ينهَى أمة أخرى عنه أو يُحرِّم محرَّمًا على أمة ويُبيحهُ لأمة أخرى؟

بل أي شيء يمنعه سبحانه أن يفعل ذلك في الشريعة الواحدة في وقتين مختلفين، بحسب المصلحة؟ وقد بين ذلك سبحانه وتعالى بقوله: **﴿ما نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نأْتِ بخيرٍ مِنْهَا أوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ ألَمْ تَعْلَم أنَّ اللهَ لَهُ مُلكُ السَّمواتِ والأرض﴾** [البقرة: ١٠٦، ١٠٧].

فأخبر سبحانه أن عموم قُدْرته ومُلْكِه وتَصرُّفه في مملكته وخَلقِه؛ لا يمنعه أن يَنْسَخَ ما يشاء، ويثبتَ ما يشاء، كما أنه يمحو من أحكامه القَدَريّة الكَوْنية ما يشاء، ويُثْبِتُ. فهكذا أحكامُه الدينية الأمْرية، ينسخُ منها مايشاء، ويُثْبِتُ منها مايشاء.

فمن أكفَر الكفر وأظلم الظلم؛ أن يُعارَض الرسول الذي جاء بالبينات والهدى وتُدْفَعَ نُبُوته، وتُجْحَدَ رسالته؛ بكونه أتى بإباحة بعضِ ما كان مُحَرَّمًا على مَنْ قَبْله، أو تَحْريم بعضِ ما كان مباحًا لهم. وبالله التوفيق، يُضِلُّ من يشاء ويهدي مَنْ يشاء.

ومن العجب أن هذه الأمة الغضبيَّة تحجُر على الله تعالى أن ينسخَ ما يشاء من شرائعه، وقد تركوا شريعة موسى، عليه السلام، في أكثر ما هم عليه، وتمسَّكوا بما شرعه لهم أحبارهم وعلماؤهم.

فمن ذلك: أنهم يقولون في صلاتهم ما ترجمته هكذا: «اللهم اضربْ ببُوق عظيم لفيفنا واقْبضنا جميعًا من أربعة أقطار الأرض إلى قُدْسك، سبحانك ياجامع شتات قوم إسرائيل».

ويقولون كل يوم ما ترجمته هكذا: «أردُد حُكامنا كالأولين، ومسرَّاتِنا

كالابتلاء وابْنِ أورْشليم قرية قُدْسِك في أيامنا، وأعزنا بابتنائها، سبحانك ياباني يُورشليم».

فهذا قولهم في صلاتهم، مع علمهم بأن موسى وهارون - عليهما السلام - لم يقولا شيئًا من ذلك؛ ولكنها فصولٌ لَفَّقوها بعد زوال دولتهم.

وكذلك صيامُهم: كصوم إحراق بيت المقدس، وصوم أحصا، وصوم كَدَلْيَا التي جعلوهـا فرضًا لم يَصُمْها موسى، ولا يُوشع بن نون، وكذلك صومُ صَلبِ هامان، ليس شيء من ذلك في التوراة؛ وإنما وضعوها لأسباب اقتضت وضعها عندهم.

هذا. مع أن في التوراة ما ترجمته: «لا تزيدوا على الأمر الذي أنا مُوصيكم به شيئًا، ولا تَنقصوا منه شيئًا».

وقد تضمنت التوراة أوامر كثيرة جدًّا، هم مجمعون على تعطيلها وإلغائها. فإما أن تكون منسوخة: بنصوص أخرى من التوراة، أو بنقل صحيح عن موسى، عليه السلام، أو باجتهاد علمائهم. وعلى التقادير الثلاث: فقد بطلت شبهتُهم في إنكار النسخ.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إليه سبيلاً**﴾ [آل عمران: ٩٧]. حج البيت مبتدأ، وخبره في أحد المجرورين قبله.

والذي يقتضيه المعنى أن يكـون في قولـه: ﴿**عـلى الناس**﴾ لأنه وجوب والوجوب يقتضي «على».

ويجوز أن يكون في قوله: ﴿**ولله**﴾ لأنه يتضمن الوجوب والاستحقاق.

ويرجـح هذا التقـدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نيةَ التأخير، وكان الأحق(٢) أن يكون ﴿**ولله**﴾.

ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله: «حج البيت على الناس» أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال: «حج البيت لله» أي: حق واجب لله فتأمله.

وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان.

إحداهما: أنه اسم للموجب للحج فكان؛ أحق بالتقديم من ذكر الوجوب.

فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع:

أحدها: الموجب لهذا الفرض فبديء بذكره.

---

(١) ٤٢ بدائع جـ٢.

(٢) في نسخة: فكان الأحسن.

والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس.

والثالث: النسبة والحق المتعلق به إيجابًا، وبهم وجوبًا وأداء وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان لله اسمًا سبحانه؛ وجب الاهتمام بتقديمه: تعظيمًا لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفًا من تضييعه إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما أوجبه غيره.

وأما قوله: ﴿من﴾ فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول: بأنها فاعل المصدر، كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وهذا القول يضعف من وجوه:

منها: أن الحج فرض عين ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم لأن المعنى يؤول إلى: ولله على الناس أن يحج البيت مستطيعهم فإذا أدى المستطيعون الواجب؛ لم يبق واجبًا على غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك؛ بل الحج فرض عين على كل أحد حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب فلا يؤاخذه به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج أسقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط للفرض عن العاجزين. وإن أردت زيادة إيضاح:

فإذا قلت: واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعة للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة؛ انقطع تعلق الوجوب عن غيرهم.

وإذا قلت: واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع؛ كان الوجوب متعلقًا بالجميع، وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال: ولله حج البيت على المستطيعين؛ هذه النكتة البديعة فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد؛ أولى من إضافته إلى المفعول، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول. فلو كان ﴿من﴾ هو الفاعل؛ لأضيف المصدر إليه وكان يقال: ولله على الناس حج من استطاع، وحمله على باب: يعجبني ضرب زيدًا عمرو، مما يفصل به بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف؛ حمل على المكثور المرجوح، وهي قراءة ابن عامر: ﴿قتلَ أولادَهم ـ بفتح الدال ـ شركائِهم﴾ [الأنعام: ١٣٧] فلا يصار إليه.

وإذا ثبت أن ﴿مَنْ﴾ بدل بعض من كل؛ وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى الناس كأنه قيل: من استطاع منهم. وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، وحسنه ههنا أمور:

منها: أن ﴿مَنْ﴾ واقعة على من يعقل كالاسم المبدل منه فارتبطت به.

ومنها: أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعم؛ لقبح حذف الضمير العائد.

ومثال ذلك إذا قلت: رأيت أخوتكَ من ذهب إلى السوق، تريد من ذهب منهم، لكان قبيحًا؛ لأن الذاهب إلى السوق أعم من الأخوة.

وكذلك لو قلت: إلبس الثياب ما حسن وجمل، تريد منها، ولم تذكر الضمير لكان أبعد في الجواز؛ لأن لفظ ماحسن أعم من الثياب، وباب بدل البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه، فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيدته بضمير يعود إلى الأول؛ ارتفع العموم وبقي الخصوص.

ومما حسن حذف الضمير في هذه الآية أيضًا مع ما تقدم؛ طول الكلام بالصلة والموصول. وأما المجرور من قوله: ﴿إليه﴾ فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون في موضع حال من سبيل كأنه نعت نكرة قدم عليها؛ لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل. والثاني: أن يكون متعلقاً بسبيل.

فإن قيل: كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل؟

قيل: السبيل كان ههنا عبارة عن الموصل إلى البيت: من قوت، وزاد، ونحوهما كان فيه رائحة الفعل، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق، فصلح تعلق المجرور به، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ؛ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير؛ لأنه ضمير يعود على البيت والبيت هو المقصود به الاعتناء وهم يقدمون في كلامهم ماهم به أهم وببيانه أعني، هذا تعبير السهيلي وهو بعيد جدًّا.

بل الصواب في متعلق الجار والمجرور؛ وجه آخر أحسن من هذين ولا يليق بالآية سواه، وهو الوجوب المفهوم من قوله: ﴿على الناسِ﴾ أي: يجب على الناس الحج، فهو حق واجب. وأما تعليقه بالسبيل أو جعله حالاً منها؛ ففي غاية البعد فتأمله.

ولا يكاد يخطر بالبال من الآية. وهذا كما يقول: لله عليك الحج ولله عليك

الصلاة والزكاة.

ومن فوائد الآية وأسرارها: أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه؛يذكره بلفظ الأمر والنهي وهو الأكثر، أو بلفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو ﴿**كُتِبَ عليكمُ الصِّيامُ**﴾ [البقرة: ١٨٣]. ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكم الميتة**﴾ [المائدة: ٣]. ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُم**﴾ [الأنعام: ١٥١].

وفي الحج أتى بهذا النظم الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه:

أحدها: أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص.

ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على.

ثم أبدل منه أهل الاستطاعة، ثم نكر السبيل في سياق الشرط؛ إيذانًا بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت: من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول مايسمى سبيلاً.

ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال: ﴿**ومن كفر**﴾ أي: بعدم التزام هذا الواجب، وتركه.

ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره باستغنائه عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد. وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام: بمقته له، وسخطه عليه، وإعراضه بوجهه عنه؛ ما هو من أعظم التهديد وأبلغه.

ثم أكد ذلك بذكر اسم العالمين عمومًا، ولم يقل: فإن الله غني عنه؛ لأنه إذا كان غنيًا عن العالمين كلهم؛ فله الغنى الكامل التام من كل وجه عن كل أحد بكل اعتبار. وكان أدل على عظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه.

ثم أكّد هذا المعنى بأداة ﴿**إن**﴾ الدالة على التوكيد.

فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد هذا الفرض العظيم.

وتأمل سر البدل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين: مرة بإسناده إلى عموم الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين. وهذا من فوائد البدل: تقوية المعنى، وتأكيده بتكرار الإسناد، ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته.

ثم تأمل ما في الآية: من الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وحلتين؛ اعتناء به وتأكيدًا لشأنه.

ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت، وعظم شأنه بما يدعو

النفوس إلى قصده وحجه، وإن لم يطلب ذلك منها فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. فوصفه بخمس صفات:

أحدها: أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض.

الثاني: أنه مبارك. والبركة كثرة الخير ودوامه. وليس في بيوت العالم أبرك منه، ولا أكثر خيرًا، ولا أدوم، ولا أنفع للخلائق.

الثالث: أنه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة؛ حتى كأنه هو نفس الهدى.

الرابع: ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية.

الخامس: الأمن لداخله.

وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده؛ ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار، وتناءت بهم الأقطار.

ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدلك على: الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره.

ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦] لكفى بهذه الإضافة فضلًا وشرفًا، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حبًّا له وشوقًا إلى رؤيته، فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرًا أبدًا، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبًّا وإليه اشتياقًا، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم كما قيل:

أطوف به والنفس بعد مشوقة		إليه وهل بعد الطواف تداني
وألثم منه الركن أطلب برد ما		بقلبي من شوق ومن هيماني
فوالله ما أزداد إلا صبابة		ولا القلب إلا كثرة الخفقان

(1)**ثبت** عنه، ﷺ، أنه علمهم خطبة الحاجة: «**الحمد لله، نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا - وفي لفظ: وسيئات أعمالنا - من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله،**

(1) ٩٠ زاد المعاد جـ٢.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»، ثم يقرأ الآيات الثلاث: ﴿ياأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، ولاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. ﴿ياأيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُم الذي خَلَقَكُم من نَفْسٍ واحدةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها﴾ [النساء: ١]. الآية ﴿ياأيُّها الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلاً سديدًا يُصْلِحْ لكُمْ أَعْمَالَكُم، ويَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُم، ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا[1]﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١]. وقال شعبة: قلت لأبي إسحاق: هذه في خطبة النكاح، أو في غيره؟ قال: في كل حاجة، وقال: «إذا أفاد أحدكم امرأة، أو خادمًا، أو دآبة، فليأخذ بناصيتها، ولْيَدْعُ الله بالبركة، ويسمي الله ـ عز وجل ـ، وليقل: اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما جُبِلَتْ عليه، وأعوذ بك من شرها، وشر ما جُبِلَتْ عليه»[2]. وكان يقول للمتزوج: «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»[3]. وقال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله. اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدَّر بينكما ولد في ذلك؛ لم يضره شيطان أبدًا»[4].

...[5]**قوله** تعالى: ﴿ومَنْ يَعْتَصِمْ باللهِ فَقد هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُستقيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]. ووجه الاستدلال بالآية؛ أنه تعالى أخبر عن المعتصمين به: بأنهم قد هُدُوا إلى الحق.

فنقول: الصحابة رضوان الله عليهم معتصمون بالله؛ فهم مهتدون. فاتباعهم واجب. أما المقدمة الأولى فتقريرها من وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿واعْتَصِمُوا بالله هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ المولىٰ ونِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]. **ومعلوم** كمال تَوَلِّي الله تعالى لهم، ونصْره إياهم أتمَّ نُصْرةٍ.

وهذا يدل على أنهم اعتصموا به أتم اعتصام، فهم مهديون بشهادة الرب لهم بلا شك، واتباع المهديِّ واجبٌ شرعًا وعقلاً وفطرة.

[6]**وقال:** ﴿واعْتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. فالاعتصام به نوعان:

(١) أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي ـ وحسنه ـ من حديث عبدالله بن مسعود.
(٢) أخرجه أبو داود ابن ماجة من حديث ابن شعيب عن أبيه، عن جده.
(٣) أخرجه البخاري، في قصة زواج زينب: عن أنس.
(٤) متفق عليه من حديث ابن عباس.
(٥) ١٣٤ أعلام جـ٤.
(٦) ٣٢٣ مدارج جـ٣.

اعتصام توكل واستعانة وتفويض ولجإ وعياذ، وإسلام النفس إليه، والاستسلام له سبحانه.

والثاني: اعتصام بوحيه. وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومعقولاتهم، وأذواقهم وكشوفاتهم ومواجيدهم. فمن لم يكن كذلك فهو مُنْسَلٌّ من هذا الاعتصام. فالدين كله في الاعتصام به وبحبله، علمًا وعملاً، وإخلاصًا واستعانة، ومتابعة، واستمرارًا على ذلك إلى يوم القيامة.

(1)**الاعتصام** نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله. قال الله تعالى: **﴿واعْتَصِمُوا بحَبْلِ اللهِ جميعًا ولا تَفَرَّقُوا﴾** [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿واعتصموا باللهِ هو مولاكم فنِعْمَ المولى ونِعْمَ النصيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

والاعتصام: افتعال من العصمة. وهو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية. والاعتصام: الاحتماء. ومنه سميت القلاع: العواصم، لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله. ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين.

فأما الاعتصام بحبله؛ فإنه يعصم من الضلالة. والاعتصام به؛ يعصم من الهلكة. فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج: إلى هداية الطريق، والسلامة فيها. فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له. فالدليل؛ كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق. والعُدة والقوة والسلاح؛ بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله؛ يوجب له الهداية واتباع الدليل. والاعتصام بالله؛ يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التي يستلئم بها في طريقه؛ ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود: «هو الجماعة». وقال: «عليكم بالجماعة. فإنها حبل الله

---

(١) ٤٦٠ مدارج جـ١.

الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة».

وقال مجاهد وعطاء: «بعهد الله» وقال قتادة والسُّدِّي وكثير من أهل التفسير: «هو القرآن».

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي، ﷺ: «**إن هذا القرآن هو حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع، وعصمة مَنْ تمسَّك به، ونجاة من تبعه**».

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عن النبي، ﷺ، في القرآن: «**هو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم. وهو الصراط المستقيم. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء. ولا تختلف به الألسن. ولا يَخْلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء**».

وقال مقاتل: «بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى».

وفي الموطأ، من حديث مالك: عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله، ﷺ، قال: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا. ويسخط لكم ثلاثًا. يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، وأن تناصحوا من وَلاه الله أمركم. ويسخط لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**» رواه مسلم في الصحيح.

قال صاحب المنازل:

«**الاعتصام** بحبل الله: هو المحافظة على طاعته، مراقبًا لأمره».

ويريد بمراقبة الأمر: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها؛ لا لمجرد العادة، أو لعلة باعثة سوى امتثال الأمر. كما قال طلق بن حبيب في التقوى: «هي العمل بطاعة الله على نور من الله؛ ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله؛ تخاف عقاب الله».

وهذا هو الإيمان والاحتساب، المشار إليه في كلام النبي، ﷺ، كقوله: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له**» فالصيام والقيام؛ هو الطاعة. والإيمان؛ مراقبة الأمر. وإخلاص الباعث؛ هو أن يكون الإيمان الآمر، لا شيء سواه. والاحتساب؛ رجاء ثواب الله.

فالاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل. والله أعلم.

فصــل

وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه، والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه.

فإن ثمرة الاعتصام به؛ هو الدفع عن العبد. والله يدافع عن الذين آمنوا. فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلى العطب، ويحميه منه. فيدفـع عنـه: الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشَرَّ نفسه. ويدفع عنه؛ موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه. فتفقد في حقه أسباب العطب. فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها. ويدفع عنه قَدرَه بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه.

...[1] **وقال** ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِين تَفَرَّقُوا واختلفوا مِنْ بَعدِ مَاجَاءهُمُ البَيِّنَاتُ**﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقال: ﴿**إنَّ الذين فَرَّقوا دينَهم وكانوا شيَعًا لست منهم في شيءٍ**﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقال: ﴿**وَأَطِيعُوا الله ورَسُولَهُ، ولَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم**﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقال: ﴿**فتقطَّعوا أمرَهُم بَيْنَهُم زُبُرًا، كُلُّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٣]. والزبر: الكتب، أي: كل فرقة صنفوا كتبًا أخذوا بها، وعملوا بها، ودَعَوا إليها دون كتب الآخرين كما هو الواقع سَوَاء، وقال: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ [آل عمران: ١٠٦]. قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف.

وقال النبي ﷺ: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**» وقال: «**اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا**» وكان التنازع والاختلاف أشدَّ شيء على رسول الله، ﷺ، وكان إذا رأى من الصحابة اختلافًا يسيرًا في فَهْم النصوص؛ يظهر في وجهه حتى كأنما فقيء فيه حَبُّ الرُّمَّان ويقول: «**أبهذا أمرتُمْ؟**» ولم يكن أحد بعده أشدَّ عليه الاختلاف من عمر ـ رضي الله عنه ـ، وأما الصديق فَصَانَ الله خلافته عن الاختلاف المستقر في حكم واحد من أحكام الدين، وأما خلافة عمر فتنازع الصحابة تنازعًا يسيرًا في قليل من المسائل جدًّا، وأقر بعضُهم بعضًا

---

(١) ٢٥٩ أعلام جـ١.

على اجتهاده من غير ذم ولا طعن، فلما كانت خلافة عثمان اختلفوا في مسائل يسيرة صَحِبَ الاختلافَ فيها بعضُ الكلام واللوم، كما لام عليٌّ عثمانَ في أمر المُتْعة وغيرها، ولامه عَمّار بن ياسر وعائشة في بعض مسائل قسمة الأموال والولايات، فلما أفضت الخلافة إلى علي كرم الله وجهه في الجنة صار الاختلاف بالسيف.

والمقصود: أن الاختلاف مُنافٍ لما بعث الله به رسوله؛ قال عمر - رضي الله عنه -: لا تختلفوا؛ فإنكم إن اختلفتم كان مَنْ بعدكم أشَدَّ اختلافًا...

(١) **قوله** تعالى: ﴿**إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عنهم أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِنَ اللهِ شَيئًا، وأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فيها صِرٌّ أصابتْ حَرْثَ قومٍ ظَلَمُوا أنفسَهم فأهلكَتْه وما ظَلَمَهُمُ الله ولكنْ أنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ**﴾. [آل عمران: ١١٦ - ١١٧]. هذا مثلٌ ضرَبه الله تعالى لمن أنفق مالَه في غير طاعته ومرضاته، فشبه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم: في المَكارم والمَفَاخر، وكَسْب الثناء وحُسْن الذكر لا يبتغونَ به وجه الله، وما ينفقوه ليصدُّوا به عن سبيل الله واتبَاع رسله؛ بالزرع الذي زرَعه صاحبُه؛ يرجو نفعه وخيره فأصابته ريحٌ شديدةُ البردِ جدًّا، يحرق بردُها ما يمر عليه من الزرع والثمار، فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته.

واختلف في الصِّرِّ؛ فقيل: البرد الشديد، وقيل: النار، قاله ابن عباس.

قال ابن الأنباري: وإنما وُصفت النار بأنها صِرٌّ لِتَصرِيتها عند الالتهاب.

وقيل: الصر: الصوتُ الذي يصحب الريح من شدة هُبُوبها.

والأقوال الثلاثة متلازمة؛ فهو برد شديد مُحْرِق بيبسه للحَرْث كما تحرقه النار، وفيه صوت شديد.

وفي قوله: ﴿**أصابتْ حَرْثَ قَومٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**﴾ تنبيهٌ على أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظلمهم؛ فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة حتى أهلكت زرعهم وأيبسته، فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها.

...(٢) **قال** الله تعالى لنبيه، ﷺ: ﴿**ليس لَكَ مِنَ الأمرِ شيْءٌ**﴾ [آل عمران:

---

(١) ١٨٦ أعلام جـ١. (٢) ٢١٧ مدارج جـ٢.

١٢٨] فإذا تيقن العبد أن الأمر كله لله، وليس له من الأمر قليل ولا كثير؛ لم يكن له معول - بعد ذلك - غير الرضى بمواقع الأقدار، وما يجري به من ربه الاختيار.

...[1] **فنقول**: الربا نوعان: جلي، وخفي.

فالجلي حُرِّمَ؛ لما فيه من الضرر العظيم، والخفي حُرِّمَ لأنه ذريعة إلى الجلي.

فتحريم الأول قصدًا، وتحريم الثاني وسيلة. فأما الجلي؛ فربا النَّسيئة، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، مثل أن يؤخِّر دَيْنه ويزيده في المال، وكلما أخره زاد في المال، حتى تصير المائة عنده آلافًا مؤلفة؛ وفي الغالب لا يفعل ذلك إلا مُعْدم محتاج؛ فإذا رأى أن المستحق يؤخر مطالبته ويصبر عليه بزيادة يبذلها له تكلف بذلها ليفتدي من أسْرِ المطالبة والحبس، ويدافع من وقت إلى وقت، فيشتد ضرره، وتعظم مصيبته، ويعلوه الدَّيْنُ حتى يستغرق جميع موجوده، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له، ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه، فيأكل مال أخيه بالباطل، ويحصل أخوه على غاية الضرر، فمن رحمة أرحم الراحمين وحكمته وإحسانه إلى خلقه؛ أن حرم الربا، ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وآذَنَ مَنْ لم يَدَعْه بحربه وحرب رسوله، ولم يجئ مثلُ هذا الوعيد في كبيرة غيره؛ ولهذا كان من أكبر الكبائر.

وسئل الإمام أحمد عن الربا الذي لا شك فيه؛ فقال: هو أن يكون له دَيْن فيقول له: أتقضي أم تُرْبي؟ فإن لم يَقْضِه زاده في المال وزاده هذا في الأجل.

وقد جعل الله سبحانه الربا ضد الصدقة، فالمرابي ضد المتصدق، قال الله تعالى: ﴿**يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا ويُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وقال: ﴿**ومَا آتَيْتُم من رِّبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عندَ اللهِ، وما آتيتُم من زكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُوْلئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**﴾ [الروم: ٣٩].

وقال: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أضعافًا مُضَاعفةً واتَّقُوا اللهَ لعلكم تُفْلِحُونَ، واتَّقُوا النَّارَ التي أُعِدَّتْ لِلكَافِرِين**﴾ [آل عمران: ١٣٠، ١٣١].

ثم ذكر الجنة التي أعدت للمتقين الذين ينفقون في السَّراء والضَّراء، وهؤلاء

---

(١) ١٣٥ أعلام جـ٢

ضِدُّ المرابين، فنهى سبحانه عن الربا الذي هو ظلم للناس، وأَمَرَ بالصدقة التي هي إحسان إليهم.

وفي الصحيحين: من حديث ابن عباس: عن أسامة بن زيد، أن النبي، ﷺ، قال: «**إنما الربا في النسيئة**» ومثل هذا يُرَاد به حصر الكمال وأن الربا الكامل إنما هو في النسيئة. كما قال تعالى: ﴿**إنما المؤْمِنُون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهم وإذا تُلِيَتْ عليهم آياته زادتْهم إيمانًا وعلى رَبهم يتوكلون**﴾ إلى قوله ﴿**أولئك هم المؤمنون حقًّا**﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]. وكقول ابن مسعود: «إنما العالم الذي يخشى الله».

(١) ذكر أصناف أهل الجنة الذين ضمنت لهم دون غيرهم

قال تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إلى مَغْفرةٍ من ربِّكم وجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰوٰاتُ والأرضُ أُعِدتْ للمُتقين الَّذين يُنْفِقُونَ في السَّراء والضَّراء والكاظِمين الغَيْظَ والعافِينَ عن النَّاس واللهُ يُحبُّ المحْسِنين، والَّذين إذا فَعَلُوا فاحشَةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهم ذَكَرُوا الله فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنوبهم وَمَنْ يَغْفرُ الذُّنوبَ إلا اللهُ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون، أولئِكَ جَزَاؤُهم مَّغْفرةٌ من ربِّهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ونِعْمَ أجرُ العاملين**﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

فأخبر أنه أعد الجنة للمتقين دون غيرهم، ثم ذكر أوصاف المتقين فذكر بذلهم للإحسان: في حالة العسر واليسر، والشدة والرخاء. فإن من الناس من يبذل في حال اليسر والرخاء، ولا يبذل في حال العسر والشدة.

ثم ذكر كف أذاهم عن الناس: بحبس الغيظ بالكظم، وحبس الانتقام بالعفو، ثم ذكر حالهم بينهم وبين ربهم في ذنوبهم، وأنها إذا صدرت منهم قابلوها: بذكر الله، والتوبة، والاستغفار، وترك الإصرار. فهذا حالهم مع الله وذاك حالهم مع خلقه.

(٢) **الإصرار**: هو الاستقرار على المخالفة، والعزم على المعاودة، وذلك ذنب آخر، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير. وهذا من عقوبة الذنب؛ أنه يوجب ذنبًا أكبر منه. ثم الثاني كذلك. ثم الثالث كذلك، حتى يستحكم الهلاك.

فالإصرار على المعصية؛ معصية أخرى. والقعود عن تدارك الفارط من

---

(١) ٨٧ حادي الأرواح. (٢) ١٨١ مدارج جـ١.

المعصية إصرار ورضا بها، وطمأنينة إليها. وذلك علامة الهلاك.

وأشد من هذا كله؛ المجاهرة بالذنب، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه. فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة؛ فعظيم. وإن لم يؤمن بنـظره إليه واطلاعه عليه؛ فكفر، وانسلاخ من الإسلام بالكلية. فهو دائر بين الأمـرين: بين قلة الحياء، ومجـاهـرة نظر الله إليه، وبين الكفر والانسلاخ من الدين. فلذلك يشترط في صحة التوبة؛ تيقنه أن الله كان ناظرًا ـ ولايزال ـ إليه مطلعًا عليه، يراه جَهْرة عند مواقعة الذنب؛ لأن التوبة لا تصح إلَّا من مسلم، إلا أن يكون كافرًا بنظر الله إليه جاحدًا له؛ فتوبته دخوله في الإسلام، وإقراره بصفات الرب جل جلاله.

وشرائط التوبة ثلاثة: الندم، والإقلاع، والاعتذار.

فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة. فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم.

فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها. وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة.

ولما كان متوقفًا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له.

فأما الندم: فإنه لا تتحقق التوبة إلا به؛ إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه. وفي المسند «**الندم توبة**».

وأما الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكم سُنَنٌ فَسيرُوا في الأرض فانظُروا كيفَ كان عاقبـةُ المُكَـذِّبين**﴾ [آل عمران: ١٣٧]. أي: قد كان من قبلكم أمم أمثالكم فانظروا إلى عواقبهم السيئة، واعلموا أن سبب ذلك ما كان من تكذيبهم بآيات الله ورسله، وهم الأصل وأنتم الفرع، والعلة الجامعة التكذيب، والحكم الهلاك.

(١) ١٣٤ أعلام جـ١.

(١) فصـــل في غزوة أحد(٢)

ولما قتل الله أشراف قريش ببدر، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها، ورَأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم، وجاء ـ كما ذكرنا ـ إلى أطراف المدينة في «غـزوة السـويق» ولم ينل ما في نفسه: أخذ يُؤَلِّبُ على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، فجمع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش وحلفائها والأحابيش، وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا، ليحاموا عنهن، ثم أقبل بهم نحو المدينة، فنزل قريبًا من جبل أحد بمكان يقال له غينين. وذلك في شوال من السنة الثالثة.

واستشار رسول الله، ﷺ، أصحابه: أيخرج إليهم، أمْ يمكث في المدينة؟ وكـان رأيه: أن لا يخرجـوا من المـدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن دخلوها قاتلهم المسلمـون على أفـواه الأزِقَّة، والنساء من فوق البيوت. ووافقه على هذا الرأي عبدالله بن أبي ابن سلول. وكان هو الرأي. فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ـ ممن فاتـه الخـروج يوم بدر ـ وأشـاروا عليه بالخـروج، وأَلحـوا عليه في ذلك. وأشار عبدالله بن أبيّ بالمقام في المدينة. وكان رأيه أن لا يخرجوا من المدينة. وتابعه عليه بعض الصحـابة، فألَحَّ أولئك على رسول الله، ﷺ، فنهض ودخل بيته ولبس لأْمَته، وخرج عليهم، وقد انثنى عزم أولئك. وقالوا: أكرهنا رسول الله، ﷺ، على الخروج، فقالوا: يارسول الله، إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل. فقال رسول الله، ﷺ: «**ما ينبغي لنبي إذا لبس لأْمته أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه**» فخرج رسول الله، ﷺ، في ألف من الصحابة. واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة. وكان رسول الله، ﷺ، رأى رؤيا وهو بالمدينة. رأى «أن في سيفه ثَلْمة، ورأى أن بَقَرًا تُذبح، وأنه أدخل يده في درع حصينة، فتأوَّل الثَّلْمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الدرع بالمدينة»(٣) فخرج يوم الجمعة. فلما صار بالشوط

(١) ٢٣١ زاد المعاد جـ٢. (٢) قال ابن كثير في البداية: كانت في شوال سنة ثلاث. قاله الترمذي وقتادة وموسى بن عقبة وابن إسحاق ومالك.

(٣) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري. ورواه البيهقي من حديث ابن عباس مطولاً، وفيه «أن سيف ذا الفقار فل» وكذلك قال الترمذي وابن ماجه.

بين المدينة وأُحد؛ انْعَزَل عبدالله بن أبي بنحو ثلث العسكر، وقال: تخالفني وتسمع لغيري؟ فتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام ـ والد جابر بن عبدالله ـ يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول: «تعالوا، قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع» فرجع عنهم وسَبَّهم، وسأله قوم من الأنصار؛ أن يستعينوا بحلفائهم من يهود، فأبى وسلك حَرَّة بني حارثة، وقال: «**من رجلٌ يخرج بنا على القوم من كَثَب؟**» فخرج به بعض الأنصار[1] حتى سلك في حائط لبعض المنافقين. وكان أعمى. فقام يَحْثُو التراب في وجوه المسلمين، ويقول: لا أحلُّ لك أن تدخل في حائطي إن كنت رسول الله، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال: «**لا تقتلوه. فهذا أعمى القلب، أعمى البصر**» ونفذ رسول الله، ﷺ، حتى نزل الشعب من أحد في عَدْوة الوادي، وجعل ظهره إلى أُحُد، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم. فلما أصبح يوم السبت تَعَبَّأ للقتال، وهو في سبعمائة، فيهم خمسون فارسًا. واستعمل على الرُّمَاة ـ وكانوا خمسين ـ عبدالله بن جبير، وأمره وأصحابه «أن يلزموا مركزهم وأن لا يفارقوه، ولو رأى الطير تتخطف العسكر» وكانوا خلف الجيش، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنَّبل؛ لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم. وظاهَرَ رسول الله، ﷺ، بين درعين يومئذ. وأعطى اللواء مُصعَب بن عمير. وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو.

واستعرض الشبان يومئذ، فرَدَّ من استصغره عن القتال. وكان منهم: عبدالله بن عمر، وأسامة بن زيد، وأسيد بن ظهير بن رافع، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، وعَرابة بن أوس، وعمرو بن حزام. وأجاز من رآه مُطِيقًا، وكان منهم سَمْرة بن جُندب، ورافع بن خديج. ولهما خمس عشرة سنة.

فقيل: أجاز من أجاز لبلوغه بالسن خمس عشرة سنة، وردّ من رد لصغره عن سن البلوغ. وقالت طائفة: إنما أجاز لإطاقته، وردّ من رد لعدم إطاقته، ولا تأثير للبلوغ وعدمه في ذلك.

قالوا: وفي بعض ألفاظ حديث ابن عمر: «فلما رآني مُطيقًا أجازني».

---

(١) هو أبوخيثمة أخو بني حارثة بن الحارث.

وتعبت قريش للقتال، وهم في ثلاثة آلاف، وفيهم مائتا فارس. فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل. ودفع رسول الله، ﷺ، سيفه إلى أبي دُجَانة سِمَاك بن خَرَشة. وكان شجاعًا بطلاً يختال عند الحرب(١). وكان أول من بدر من المشركين: أبوعامر الفاسق ـ واسمه: عبد عمرو ابن صيفي ـ وكان يسمى الراهب، فسماه رسول الله، ﷺ: «**الفاسق**» وكان رأس الأوس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام شرَق به، وجاهر رسول الله، ﷺ، بالعداوة، فخرج من المدينة، وذهب إلى قريش يُؤَلِّبُهم على رسول الله، ﷺ، ويَحُضُّهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه، فكان أولَ من لقي المسلمين، فنادى قومه وتعرف إليهم، فقالوا له: «لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق» فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر. ثم قاتل المسلمون قتالاً شديدًا. وكان شعار المسلمين يومئذ «أمِتْ أمِتْ» وأبلى يومئذ أبودجانة الأنصاري، وطلحة بن عبيدالله، وأسد الله وأسد رسوله: حمزة بن عبدالمطلب، وعلي بن أبي طالب، والنضر بن أنس، وسعد بن الربيع. وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار، فانهزم عدو الله، وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم، فلما رأى الرماة هزيمتهم؛ تركوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله، ﷺ، بحفظه، وقالوا: «ياقوم الغنيمة، الغنيمة» فذكَّرهم أميرهم عهدَ رسول الله، ﷺ، فلم يسمعوا، وظنوا أن ليس للمشركين رَجْعة، فذهبوا في طلب الغنيمة، وأَخْلَوْا الثغر، وكَرَّ فرسان من المشركين، فوجدوا الثغر قد خلا من الرماة، فجازوا منه وتمكنوا، حتى أقبل آخرهم؛ فأحاطوا بالمسلمين. فأكرم الله من أكرم منهم بالشهادة، وهم سبعون. وولَّى الصحابة. وخلص المشركون إلى رسول الله، ﷺ، فجرحوا وجهه، وكسروا رَبَاعَيته اليمنى، وكانت السفلى. وهشموا البيضة على رأسه، ورموه بالحجارة حتى وقع لشِقِّه. وسقط في حُفْرَةٍ من الحُفَرِ التي كان أبوعامر الفاسق يكيد بها المسلمين. فأخذ عليٌّ بيده، واحتضنه طلحة بن عبيدالله. وكان الذي تولى أذاه ﷺ، عمرو

---

(١) روى أحمد وابن إسحاق وغيرهما: أن رسول الله، ﷺ، أخذ سيفًا يوم أحد فقال: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**» حتى قام أبودجانة، فقال: وما حقه؟ قال: «**أن تضرب به في العدو حتى ينحني**». قال: أنا آخذه بحقه، فأعطاه إياه.

ابن قَمِئَة، وعتبة بن أبي وقاص، وقيل: إن عبدالله بن شهاب الزهري عم محمد ابن مسلم بن شهاب الزهري هو الذي شجَّه. وقتل مصعب بن عمير بين يديه، فدفع اللواء إلى علي بن أبي طالب، ونَشَبَتْ حلقتان من حِلَق المِغْفَر في وجهه، فانتزعهما أبوعبيدة بن الجَرَّاح، وعضَّ عليهما حتى سقطت ثَنِيَّتاه من شدة غوصهما في وجهه، وامتص مالك بن سنان ـ والد أبي سعيد الخدري ـ الدم من وَجْنته، وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه، فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة، حتى قُتلوا، ثم جَالدَهُم طلحة حتى أجْهضم عنه، وتَرَّس أبودجانة بظهره عليه، والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك.

وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان؛ حتى سقطت على وجنته فردها عليه رسول الله، ﷺ، بيده، وكانت بعد ذلك أصح عينيه وأحسنهما.

وصرخ الشيطان بأعلى صوته: إن محمدًا قد قتل. ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين، وفرَّ أكثرهم. وكان أمر الله قدرًا مقدورًا

(١)**ومر** أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم، فقال: «ما تنتظرون؟ فقالوا: قتل رسول الله، ﷺ، فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل الناسَ، ولقي سعدَ بن معاذ، فقال: ياسعد، إني لأجد ريحَ الجنة من دون أحد، فقاتل حتى قُتل، ووجد به سبعون ضربة». وجرح يومئذ عبدالرحمن بن عوف نحوًا من عشرين جراحة.

وأقبل رسول الله، ﷺ، نحو المسلمين، فكان أولَ من عرفه تحت المغفر: كعبُ بن مالك، فصاح بأعلى صوته: «يامعشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله، ﷺ» فأشار إليه بيده: **أن اسكت**» واجتمع إليه المسلمون، ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه، وفيهم أبوبكر وعمر وعلي والحارث بن الصِّمَّة الأنصاري وغيرهم. فلما استندوا إلى الجبل أدرك رسولَ الله، ﷺ، أبيٌّ بن خلف على جواد له، يقال له: العَوْد، زعم عدو الله أنه يقتل عليه رسول الله، ﷺ. فلما اقترب منه تناول رسول الله، ﷺ، الحربة من الحارث بن الصمة، فطعنه بها، في تُرْقَوته،

---

(١) سيأتي هذا وما بعده في (١١٠/١) مكرر لكن فيه زيادة فائدة.(ج)

فكَرَّ عدو الله منهزمًا، فقال له المشركون: والله ما بك من بأس. فقال: والله لو كان ما بي بأهل المجاز لماتوا أجمعين. وكان يعلف فرسه بمكة ويقول: أقتل عليه محمدًا، فبلغ ذلك رسول الله، ﷺ، فقال: «**بل أنا أقتله إن شاء الله تعالى**» فلما طعنه تذكر عدو الله قول رسول الله: «**أنا أقتله**» فأيقن أنه مقتول من ذلك الجرح، فمات منه في طريقه بسَرِف مرجعه إلى مكة. وجاء عليٌّ إلى رسول الله، ﷺ، ليغسل عنه الدم، فوجده أجنأ فرده. وأراد رسول الله، ﷺ، أن يعلو صخرة هنالك فلم يستطع لما به، فجلس طلحة تحته حتى صعدها، وحانت الصلاة فصلى بهم جالسًا. وصار رسول الله، ﷺ، ذلك اليوم تحت لواء الأنصار. وشد حنظلة الغسيل ـ وهو حنظلة بن أبي عامر ـ على أبي سفيان، فلما تمكن منه حمل على حنظلة شداد بن الأسود، فقتله، وكان جُنبًا ـ فإنه سمع الصيحة وهو على امرأته، فقام من فوره إلى الجهاد ـ فأخبر رسول الله، ﷺ، أصحابه؛ أن الملائكة تغسله، ثم قال: «**سلوا أهله ما شأنه؟**» فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر. وجعل الفقهاء هذا حجة أن الشهيد إذا قتل جنبًا يغسل، اقتداء بالملائكة.

وقتل المسلمون حامل لواء المشركين، فرفعته لهم عَمْرة بنت علقمة الحارثية، حتى اجتمعوا إليه.

وقاتلت أم عمارة ـ وهي نُسَيبة بنت كعب المازنية ـ قتالاً شديدًا، وضربت عمرو بن قمئة بالسيف ضربات، فوقَتْه درعان كانتا عليه، وضربها عمرو بالسيف فجرحها جرحًا شديدًا على عاتقها.

وكان عمرو بن ثابت بن وَقْش ـ المعروف بالأُصَيرم ـ من بني عبدالأشهل يأبى الإسلام، فلما كان يومُ أُحُد قذف الله الإسلام في قلبه، للحسنى التي سبقت له منه، فأسلم وأخذ سيفه، ولحق بالنبي، ﷺ، فقاتل: فأُثبِتَ بالجراح، ولم يعلم أحد بأمره، فلما انجلت الحرب طاف بنو عبدالأشهل في القتلى يلتمسون قتلاهم. فوجدوا الأصيرم، وبه رُمَق يسير، فقالوا: والله، إن هذا الأصيرم. ما جاء به؟ لقد تركناه، وإنه لمنكر لهذا الأمر، ثم سألوه: ما الذي جاء بك؟ أَحَدَبٌ على قومك، أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله، ﷺ، حتى أصابني ما ترون، ومات من وقته. فذكروه لرسول الله

ﷺ، فقال: «**هو من أهل الجنة**» قال أبوهريرة: «ولم يُصَلِّ لله صلاة قط».

فلما انقضت الحرب أشرف أبوسفيان على الجبل، ونادى: أفيكم محمدٌ؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة؛ لعلمه وعلم قومه؛ أن قيام الإسلام بهم، فقال: أما هؤلاء فقد كفُيتموهم. فلم يملك عمر نفسه أن قال: «ياعدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوءك» فقال: قد كان في القوم مُثْلة لم آمر بها ولم تَسُؤْني، ثم قال: اعْلُ هُبُل، فقال النبي ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» فقالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**» ثم قال: لنا العزى، ولا عزى لكم، قال: «**ألا تجيبونه؟**» قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**».

فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته وبشركه: تعظيمًا للتوحيد، وإعلامًا بعزة من عبده المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يغلب، ونحن حزبه وجنده. ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل قد روي، أنه نهاهم عن إجابته وقال: «**لا تجيبوه**» لأن كَلْمَهم لم يكن بَرَد بعد في طلب القوم، ونار غيظهم بعدُ متوقدة، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، حَمِيَ عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ واشتد غضبه، وقال: «كذبت يا عدو الله» فكان في هذا الإعلام من: الإذلال والشجاعة، وعدم الجبن، والتعرف إلى العدو في تلك الحال؛ ما يؤذنهم بقوة القوم، وبسالتهم، وأنهم لم يَهِنُوا ولم يضعفوا، وأنه والمسلمون جديرون بعدم الخوف منهم. وقد أبقى الله لهم ما يسوءهم منهم. وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة وَهْلَة ـ بعد ظنه وظن قومه أنهم قد أصيبوا ـ: من المصلحة، وغيظ العدو وحزبه، والفَتِّ في عضده؛ ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحدًا واحـدًا. فكان سؤاله عنهم، ونعيهم لقومه؛ آخر سهام العدو وكيده. فصبر له النبي، ﷺ، حتى استوى في كيده، ثم انتدب له عمر، فردَّ سهام كيده عليه، فكان ترك الجواب أولى وأحسن، وذكره ثانيًا أحسن وأحسن.

وأيضا فإن في ترك إجابته حين سأل عنهم: إهانة له، وتصغيراً لشأنه. فلما مَنَّتْـهُ نفسـه موتهم، وظن أنهم قد قتلوا، وحصل له من الكبر بذلك والأشر ما

حصل؛ كان في جوابه: إهانة له، وتحقير، وإذلال. ولم يكن هذا مخالفًا لقول النبي، ﷺ: «**لا تجيبوه**» فإنه إنما نهى عن إجابته لَّما سأل: أفيكم محمد؟ أفيكم فلان؟ أفيكم فلان؟ ولم ينه عن إجابته لما قال: أما هؤلاء فقد قتلوا. وبكل حال؛ فلا أحسن من ترك إجابته أولًا، ولا أحسن من إجابته ثانيًا.

ثم قال أبوسفيان: يومٌ بيوم بدر، والحرب سِجَال، فأجابه عمر: «لا سواء. قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار».

قال ابن عباس: ما نصر الله رسول الله، ﷺ، في موطن نَصْرَه يوم أُحد، فأُنكر ذلك عليه، فقال: بيني وبين من أنكر كتاب الله، إن الله يقول: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُم اللهُ وَعْدَهُ إذ تَحُسُّونَهُم بإِذْنِهِ**﴾ [آل عمران: ١٥٢]. قال ابن عباس: والحسُّ القتل، ولقد كان لرسول الله، ﷺ، ولأصحابه أولُ النهار، حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة، أو تسعة ـ وذكر الحديث(١)».

وأنـزل الله عليهم النُّعَـاسَ أَمَنَةً منه، في غزاة بدر، وأحد. والنعاس في الحرب وعند الخوف: دليل على الأمن، وهو من الله. وفي الصلاة ومجالس الذكر والعلم؛ من الشيطان.

وقاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله، ﷺ. ففي الصحيحين: عن سعد بن أبي وقاص قال: «رأيت رسول الله، ﷺ، يومَ أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض، كأشد القتال، مارأيتهما قبلُ ولا بعدُ».

وفي صحيح مسلم؛ أنـه، ﷺ، أفـرد يوم أحـد في سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، فلما رَهقوه قال: «**من يَرُدُّهم عنا، وله الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه، فقال: «**من يردهم عنا، وله الجنة، وهو رفيقي في الجنة؟**» فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسولُ الله، ﷺ: «**ما أنصفْنا أصحابنا**» وهذا يروى على وجهين: بسكون الفاء ونصب «أصحابنا» على المفعولية، وفتح الفاء، ورفع «أصحابنا» على الفاعلية.

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث عبدالله بن ذكوان ـ أبي الزناد ـ عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس أنه قال: «ما نصر الله في موطن كما نصر يوم أحد» قال عبيدالله: فأنكرنا عليه. قال ابن عباس: بيني وبين من أنكر كتاب الله ـ ثم ساق الحديث بطوله. وانظره في (ج١ ص٢٨٧، ٢٨٨).

ووجه النصب: أن الأنصار لما خرجوا للقتال، واحدًا بعد واحد حتى قتلوا، ولم يخرج القرشيان، قال ذلك، أي: ما أنصفت قريشٌ الأنصار. ووجه الرفع: أن يكون المراد بالأصحاب؛ الذين فَرُّوا عن رسول الله، ﷺ، حتى أفردوه في النفر القليل، الذين قتلوا واحدًا بعد واحد، فلم ينصفوا رسول الله، ﷺ، ولا من ثبت معه.

وفي صحيح ابن حبان: عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال أبوبكر الصديق: لما كان يومُ أحد؛ انصرف الناس كلهم عن النبي، ﷺ، فكنت أول من فاء إلى النبي، ﷺ، فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه، قلت: كُنْ طلحة، فدِاك أبي وأمي، كن طلحة، فداك أبي وأمي، فلم أنشَبْ أن أدركني أبوعبيدة بن الجراح، وإذا هو يشتد كأنه طير، حتى لحِقني، فدفَعْنا إلى النبي، ﷺ، فإذا طلحة بين يديه صريعًا، فقال النبي، ﷺ: «**دونَكم أخاكم. فقد أوجب**»، وقد رُمِيَ النبي، ﷺ، في وَجْنته، حتى غابت حلقة من حلق المغفر في وجنته، فذهبتُ لأنزعها عن النبي، ﷺ، فقال أبوعبيدة: نَشدتك بالله ياأبا بكر إلا تركتني؟ قال: فأخذ أبوعبيدة السهم بفيه، فجعل يُنَضْنِضه(١)، كراهة أن يؤذي رسول الله، ﷺ، ثم استلَّ السهم بفيه. فنَدَرت ثنية أبي عبيدة، قال أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ: ثم ذهبت لآخذ الآخر، فقال أبوعبيدة: نشدتك بالله ياأبا بكر إلا تركتني؟ قال: فأخذه، فجعل ينضنضه حتى استلَّه، فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى، ثم قال رسول الله، ﷺ: «**دونكم أخاكم، فقد أوجب**»، قال: فأقبلنا على طلحة نُعالجه، وقد أصابته بضعة عشر ضربة.

وفي مغازي الأموي: أن المشركين صعدوا على الجبل، فقال رسول الله، ﷺ، لسعد: «**اجْبُنْهم**» ـ يقول: ارددهم ـ فقال: كيف أجبنهم وحدي؟ ـ قال ذلك ثلاثًا ـ فأخذ سعد سهمًا من كِنانته، فرمى به رجلاً فقتله، قال: ثم أخذت سهمي أعرفه، فرميت به آخر فقتله، ثم أخذته أعرفه، فرميت به آخر فقتله. فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك، فجعلته في كنانتي، فكان عند سعد

---

(١) أي يحركه في رفق وخفة، ويروى بالصاد المهملة.

حتى مات، ثم كان عند بنيه.

وفي الصحيحين: عن أبي حازم؛ أنه سُئل عن جُرح رسول الله، ﷺ، فقال: والله إني لأعرف من كان يغسل جُرح رسول الله، ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دُووِيَ: كانت فاطمة ابنته تغسله، وعلي بن أبي طالب يسكب الماء بالمِجَنِّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، فألصقتها، فاستمسك الدم».

وفي الصحيح: أنه كسرت رَبَاعيَتُه، وشُجَّ رأسه، وجعل يسلُت الدم عنه، ويقول: «**كيف يفلح قوم شَجُّوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعو إلى الله؟**»، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ، أو يَتُوبَ عَلَيْهِم أو يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهم ظَالِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٢٨].

ولما انهزم الناس؛ لم ينهزم أنس بن النضر، وقال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدم، فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين ياأبا عمر؟ فقال أنس: واهًا لريح الجنة يا سعد، إني أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القومَ حتى قتل، فما عرف حتى عرفته أخته ببنانه. وبه بضع وثمانون: مابين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم»(١).

وانهزم المشركون أول النهار ـ كما تقدم ـ فصرخ فيهم إبليس: أيْ عباد الله، أخزاكم الله، فارجعوا من الهزيمة فاجتَلِدوا، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم. و«نظر حذيفة إلى أبيه اليمان والمسلمون يريدون قتله، وهم يظنونه من المشركين، فقال: أيْ عباد الله، أبي، أبي، فلم يفهموا قوله حتى قتلوه، فقال: يغفر الله لكم، فأراد رسول الله، ﷺ، أن يَدِيَهُ، فقال: قد تصدقت بديته على المسلمين، فزاد ذلك حذيفة خيراً عند النبي، ﷺ»(٢).

وقال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله، ﷺ، يوم أحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: «**إنْ رأيته فاقرأه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله:**

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي من حديث أنس بن مالك.

(٢) رواه البخاري من حديث عائشة.

كيف تجدك؟» قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته، وهو بآخر رَمَق، وفيه سبعون ضربة: ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله، ﷺ، يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «أخبرني، كيف تجدك؟» فقال: وعلى رسول الله الصلاة والسلام، قل له: يارسول الله: أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عُذْرَ لكم عند الله إن خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ، وفيكم عين تَطْرِف، وفاضت نفسه من وقته(١).

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار(٢) وهو يَتَشَحَّط في دمه، فقال: «يافلان، أشعَرت أن محمدًا قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل؟ فقد بلَّغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رسولٌ قَدْ خَلَتْ من قبلهِ الرُّسُلُ**﴾ الآية. [آل عمران: ١٤٤]».

وقال عبدالله بن عمرو بن حَرَام: رأيت في النوم قبل أحد مبشر بن عبدالمنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيام. فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنة، نَسرَح فيها حيث نشاء؛ قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ فقال: بلى، ثم أحييت. فذكرت ذلك لرسول الله، ﷺ، فقال: «**هذه الشهادة ياأبا جابر**».

وقال خيثمة أبوسعد بن خيثمة ـ وكان ابنه استشهد مع رسول الله، ﷺ، يوم بدر ـ: «لقد أخطأتني وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصًا، حتى ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيتُ ابني البارحة في النوم في أحسن صورة، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، يقول: «الحق بنا تُرافقنا في الجنة، فقد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا»، وقد والله يا رسول الله أصبحتُ مُشتاقًا إلى مرافقته في الجنة، وقد كَبِرت سِنِّي، ورَقَّ عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادْعُ الله يارسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة؟ فدعا له رسول الله، ﷺ، بذلك، فقتل بأحد شهيدًا».

---

(١) ذكره ابن إسحاق. وقال ابن كثير في البداية: الرجل الذي التمس سعدًا في القتلى: هو محمد بن مسلمة، فيما ذكره محمد بن عمر الواقدي. وقال أبوعمر بن عبدالبر: هو أبي بن كعب. وكان سعد بن الربيع من النقباء ليلة العقبة. وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبدالرحمن بن عوف.

(٢) قال ابن كثير في البداية: لعله أنس بن النضر. وذكر أن كلامه هذا رواه البيهقي في دلائل النبوة.

وقال عبدالله بن جحش في ذلك اليوم: «اللهم إني أُقسم عليك أن ألقى العـدو غدًا فيقتلوني، ثم يَبْقُـروا بطني، ويجْدَعُوا أنفي وأذُني، ثم تسألني: فيم ذلك؟ فأقول: فيك».

وكان عمرو بن الجَموح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شبَبَة، يغزون مع رسول الله، ﷺ، إذا غزا. فلما توجهوا إلى أُحُدٍ أراد أن يتوجه معه، فقال بنوه: إنَّ الله قد جعل لك رُخصة، فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد؟ فأتى عمرو بن الجموح رسول الله، ﷺ، فقال: يارسول الله إن بنيَّ هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك، ووالله إني لأرجو أن أستشهد، فأَطَأ بعَرجَتي هذه في الجنة. فقال له رسول الله، ﷺ: «**أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد**»، وقال لبنيه: «**وما عليكم أن تدعوه؟ لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة**»، فخرج مع رسول الله، ﷺ، فقتل يوم أحد شهيدًا.

وانتهى أنس بن النضر: إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، في رجال من المهاجرين والأنصار، قد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ فقالوا: قُتِلَ رسول الله، ﷺ، فقال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا. فموتوا على ما مات عليه رسول الله، ﷺ. ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتل.

وأقبل أبيٌّ بن خلف عدو الله وهو مُقَنَّع في الحديد، ويقول: لا نجَوتُ إن نجا محمد - وكان حَلَف بمكة أن يقتلَ رسول الله، ﷺ - فاستقبله مُصْعَب بن عُمير، فقتل مُصْعبًا. وأبصر رسول الله، ﷺ، تُرْقُوَةَ أبي بن خلف من فُرْجة بين سابغة الدرع والبَيْضَة، فَطَعنه بحربته، فوقع عن فرسه، فاحتمله أصحابه، وهو يَخور خوار الثَّور، فقالوا: ما أجزعك؟! إنما هو خَدْش. فذكر لهم قولَ النبي، ﷺ: «**أنا أقتله إن شاء الله تعالى**» فمات برابغ. فقال ابن عمر: «إني لأسير ببطن رابـغ بعـد هَوِيٍّ من الليل إذا نارٌ تأجَّج لي، فَيمَّمْتُها. فإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها، يصيح: العَطَش العطش، وإذا رجل يقول: لا تَسْقِهِ. هذا قتيل رسول الله، ﷺ، هذا أبيّ بن خلف»(١).

---

(١) تقدم ذكر هذا في ص (١٠٥).

وقال نافع بن جبير: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحدًا، فنظرت إلي النبْل يأتي من كل ناحية، ورسول الله، ﷺ، وسْطَها. كل ذلك يُصَرف عنه، ولقد رأيت عبدالله بن شهاب الزُّهري يقول يومئذ: دلوني على محمد، لا نَجَوتُ إن نَجا، ورسول الله، ﷺ، إلى جنبه، ما معه أحد، ثم جاوزه فعاتبه في ذلك صفوان؛ فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه مِنَّا ممنوع. فخرجنا أربعة، فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك.

ولما مَصَّ مالك بن سنان ـ والد أبي سعيد الخدري ـ جُرحَ رسول الله، ﷺ، حتى أنقاه؛ قال له: «مُجَّه». قال: والله لا أُمُجُّه أبدًا، ثم أدبر. فقال النبي، ﷺ: «**من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**»(١).

قال الزهري، وعاصم بن عمرو، ومحمد بن يحيى بن حبان وغيرهم: كان يومُ أحد يومَ بلاء وتمحيص، اختبر الله ـ عز وجل ـ به المؤمنين، وأظهر به المنافقين ممن كان يظهر الإسلام بلسانه، وهو مُسْتَخْفٍ بالكفر. فأكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته. وكان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران: أولها: ﴿**وإذْ غَدوتَ من أهلِكَ تُبَوِّيءُ المُؤْمنين مَقَاعِدَ للقِتالِ**﴾ [آل عمران: ١٢١]. إلى آخر القصة.

فصل

فيما اشتملت عليه هذه الغزوة من الأحكام والفقه

منها: أن الجهاد يلزم بالشروع فيه: حتى إن من لبس لأْمَتَهُ، وشرع في أسبابه، وتَأَهَّبَ للخروج؛ ليس له أن يرجع عن الخروج حتى يقاتل عدوه.

ومنها: أنه لا يجب على المسلمين إذا طَرَقَهم عَدُوُّهم في ديارهم الخروجُ إليه، بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم ويقاتلوهم فيها، إذا كان ذلك أنْصَرَ لهم على عدوهم، كما أشار به رسول الله، ﷺ، يوم أحد.

ومنها: جواز سلوك الإمام بالعسكر في بعض أملاك رَعِيَّته، إذا صادف

---

(١) ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة في ترجمة مالك: أن ابن أبي عاصم رواه عن أم عبدالرحمن بنت أبي سعيد، عن أبيها. وأخرجه ابن السكن عن عبدالرحمن بن أبي سعيد، عن أبيه. وأخرجه سعيد بن منصور بلاغًا، عن عمرو بن السائب.

ذلك طريقه، وإن لم يَرْض المالك.

ومنها: أنه لا يأذن لمن لا يطيق القتال من الصبيان غير البالغين، بل يردهم إذا خرجوا، كما رَدَّ رسول الله، ﷺ، ابن عمر ومن معه.

ومنها: جواز الغزو بالنساء، والاستعانة في الجهاد بهن.

ومنها: جواز الانغماس في العدو، كما انغمس أنس بن النضر وغيره.

ومنها: أن الإمام إذا أصابته جراحة صلى بهم قاعدًا، وصلوا وراءه قعودًا، كما فعل رسول الله، ﷺ، في هذه الغزوة. واستمرت على ذلك سنته إلى حين وفاته(١).

ومنها: جواز دعاء الرجل أن يُقْتَلَ في سبيل الله وتَمَنِّيهِ ذلك. وليس هذا من تَمَنِّي الموت المنهي عنه. كما قال عبدالله بن جَحْش بن رباب: «اللهم لَقِّني من المشركين رجلاً عظيمًا كفْرُه، شديدًا حَرْده، فأقَاتِلَه فَيَقْتُلني ويَسْلبني، ثم يَجْدع أنفي وأذني، فإذا لقيتُك، فقلتَ: يا عبدالله بن جحش، فيم جُدِعْتَ؟ قلت: فيك يارب»(٢).

ومنها: أن المسلم إذا قتلَ نفسه؛ فهو من أهل النار، لقوله ﷺ في قَزْعان ابن الحارث العبسي الذي أبْلى يوم أحد بلاء شديدًا، فلما اشْتَدت به الجراح نحر نفسه، فقال، ﷺ: «**هو من أهل النار**»(٣).

ومنها: أن السنة في الشهيد: أن لا يغسَّل، ولا يصلى عليه، ولا يكفَّن في غير ثيابه، بل يدفن فيها بدَمِه وكُلومه، إلا أن يُسْلَبها، فيكفَّن في غيرها.

ومنها: أنه إذا كان جُنبًا؛ غسل كما غسلت الملائكة حَنْظَلة بن أبي عامر.

ومنها: أن السنة في الشهداء: أن يدفنوا في مصارعهم، ولا يُنْقَلوا إلى مكان آخر. فإن قومًا من الصحابة نَقَلوا قتلاهم إلى المدينة، فنادَى منادي رسول الله،

---

(١) وهي مسألة خلافية. ومنع القائلون بالنسخ: أن يكون الرسول ﷺ كان إمامًا في صلاته في مرض موته، بل كان الإمام أبابكر - رضي الله عنه - والرسول يصلي بصلاته. هكذا وجد في الطبعة التي نقلنا منها، ولكن السنة الواردة من قوله ﷺ: «إذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً أجمعين» (ج).

(٢) قال الحافظ في الإصابة: رواه البغوي من طريق إسحاق بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، وأخرجه ابن المبارك في الجهاد مرسلاً. وقال الزبير بن بكار: كان يقال له: المجدع في الله.

(٣) رواه البخاري، من حديث سهل بن سعد.

ﷺ، بالأمر برَدِّ القتلى إلى مضاجعهم.

قال جابر: «بينا أنا في النظَارَة؛ إذْ جاءت عمتي بأبي وخالي، عادلتهما على ناضح، فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا. وجاء رجل ينادي: ألا إن رسول الله، ﷺ، يأمركم أن ترجعوا القتلى، فتدفنوها في مصارعها؛ حيث قتلت، قال: فرجعنا بهما فَدفَنَّاهما حيث قتلا. فبينا أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان؛ إذْ جاءني رجل، فقال: يا جابر، والله لقد أثار أباك عمالُ معاوية، فبدا، فخرج طائفة منه. قال: فأتيته، فوجدته على النحو الذي تركته لم يتغير منه شيء. قال: فوَارَيتُه فصارت سنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم»(١).

ومنها: جواز دفن الرجلين أو الثلاثة في القبر الواحد، فإن رسول الله، ﷺ، كان يدفن الرجلين والثلاثة في القبر، ويقول: «**أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟**» فإذا أشاروا إلى رجل قدَّمه في اللَّحْد(٢) ودفن عبدالله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح في قبر واحد؛ لما كان بينهما من المحبة، فقال: «**ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد**» ثم حُفر عنهما بعد زمن طويل، ويد عبدالله بن عمرو بن حرام على جراحته، كما وضعها حين جرح، فأميطت يده عن جراحته فانبعث الدم، فرُدَّت إلى مكانها فسكن الدم. وقال جابر: «رأيت أبي في حفرته حين حُفر عليه كأنه نائم، وما تغير من حاله قليل ولا كثير. قيل له: أفرأيت أكفانه؟ فقال: إنما دفن في نَمِرَةٍ خُمِّرَ بها وجهُه، وعلى رجليه الحَرْمَل، فوجدنا النمرة كما هي، وعلى رجليه الحرمل على هيأته، وبين ذلك ستة وأربعون سنة».

وقد اختلف الفقهاء في أمر النبي، ﷺ، أن يدفن شهداء أحد في ثيابهم: هل هو على وجه الاستحباب والأَوْلَويَّة، أو على وجه الوجوب؟ على قولين: الثاني: أظهرهما. وهو المعروف عن أبي حنيفة. والأول: هو المعروف عن أصحاب الشافعي وأحمد.

فإن قيل: فقد روى يعقوب بن شيبة، وغيره بإسناد جيد: «أن صَفِيَّة

---

(١) روى أبوداود والترمذي والنسائي منه ما يختص بحملهم إلى المدينة، ثم أمر الرسول ﷺ بإرجاعهم ودفنهم في مضاجعهم. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري.

أَرْسَلَتْ إلى النبي، ﷺ، ثوبين ليكفن فيهما حمزة، فكفنه في أحدهما، وكفن في الآخر رجلًا آخر»؟ قيل: حمزة كان الكفار قد سلبوه ومثّلوا به، وبقروا بطنه، واستخرجوا كبده، فلذلك كُفِّن في كفن آخر.

وهذا القول في الضعف؛ نظير قول من قال: يغسل الشهيد. وسنة رسول الله، ﷺ، أولى بالاتباع.

ومنها: أن شهيد المعركة لا يصلى عليه؛ لأن رسول الله، ﷺ، لم يصل على شهداء أحد، ولم يُعْرَفْ عنه أنه صلى على أحد استشهد معه في مغازيه. وكذلك خلفاؤه الراشدون ونُوَّابهم من بعدهم.

فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين: من حديث عقبة بن عامر: «أن النبي، ﷺ، خرج يومًا، فصلى على أهل أُحُدٍ صَلاَتَه على الميت، ثم انصرف إلى المنبر» وقال ابن عباس: «صلى رسول الله، ﷺ، على قتلى أحد»(١).

قيل: أمّا صلاته عليهم؛ فكانت بعد ثمان سنين من قتلهم، قُرب موته كالمُودِّع لهم.

ويشبه هذا؛ خروجه إلى البقيع قبل موته يستغفر لهم، كالمودع للأحياء والأموات. فهذه كانت توديعًا منه لهم، لا أنها سنة الصلاة على الميت. ولو كان ذلك كذلك لم يُؤَخِّرها ثمان سنين. لاسِيَّما عند من يقول: لا يصلَّى على القبر أو يصلى عليه إلى شهر.

ومنها: أن مَن عَذَرَ الله في التخلف عن الجهاد لمرض أو عَرَج؛ يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجَمُوحِ وهو أعْرَج.

ومنها: أن المسلمين إذا قتلوا واحدًا منهم في الجهاد، يظنونه كافرًا، فعلى

---

(١) قال المجدابن تيمية في المنتقى: وقد رويت الصلاة بأسانيد لا تثبت: وقال الحافظ في الفتح (٣: ١٣٥، ١٣٦): وقال الشافعي في الأم: جاءت الأخبار كأنها عيان من وجوه متواترة: أن النبي ﷺ لم يصل على قتلى أحد وما روي «أنه ﷺ صلَّى عليهم وكبَّر على حمزة سبعين تكبيرة» لا يصح وقد كان ينبغي لمن عارض بذلك هذه الأحاديث الصحيحة أن يستحيي على نفسه. قال: وأما حديث عقبة بن عامر: فقد وقع في نفس الحديث «أن ذلك كان بعد ثمان سنين» يعني والمخالف يقول: لا يصلي على القبر إذا طالت المدة. قال: وكأنه ﷺ دعا لهم واستغفر لهم حين علم قرب أجله مودعًا لهم بذلك. ولا يدل ذلك على نسخ الحكم الثابت.

الإمام ديتُه من بيت المال؛ لأن رسول الله، ﷺ، أراد أن يَدِيَ اليمانَ أبا حذيفة، فامتنع حذيفة من أخذ الدِّيَةِ، وتصدق بها على المسلمين.

فصــل

في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد

وقد أشار ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أمهاتها وأصولها في سورة آل عمران؛ حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وإذْ غَدَوْتَ من أهلك تُبَوِّيءُ المؤمنين مَقَاعِدَ للقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]. إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفهم بسوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشُؤْم ذلك، كما قال تعالى: ﴿ولَقَدْ صَدَقَكُم اللهُ وعْدَهُ إذْ تَحُسُّونَهُم بإذنه، حَتَّى إذا فَشِلْتُم وتَنازَعْتُم في الأمرِ، وعَصَيْتُم من بعدِ ما أراكُم ما تُحِبُّون، منكم من يُرِيدُ الدُّنيا، ومنكم من يريدُ الآخرةَ، ثم صَرَفَكم عنهم لِيَبْتَلِيَكُمْ ولقد عَفَا عنكم﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشدَّ حذرًا ويقظة، وتحرزًا من أسباب الخذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم؛ جرت بأن يُدَالُوا مَرَّة، ويُدَالَ عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا؛ دخل معهم المسلمون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره. ولو انْتُصِرَ عليهم دائمًا؛ لم يحصل المقصود، من البعْثَة والرسالة، فاقتضت حكمة الله: أن جمع لهم بين الأمرين؛ ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به؛ ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا من أعْلَام الرسل، كما قال هرقل لأبي سفيان: «هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سِجَال: نُدَال عليه المرة ويُدَالُ علينا الأخرى. قال: كذلك الرسل تُبْتلى، ثم تكون لهم العاقبة» رواه البخاري.

ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب. فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت، دخل معهم في الإسلام

ظاهـرًا من ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حكمة الله ـ عز وجل ـ: أن سَبَّبَ لعباده مِحْنَةً مَيَّزَت بين المؤمن والمنافق. فأطلع المنافقون رءوسهم في هذه الغزوة، وتكلمـوا بها كانـوا يكتمـونه، وظهرت مُخَبَّآتُهم، وعاد تَلْويحُهم تصريحًا، وانقسم الناس: إلى كافر، ومؤمن، ومنافق؛ انقسامًا ظاهرًا، وعرف المؤمنون؛ أن لهم عَدُوًّا في عُقر دورهم. وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم، وتحرزوا منهم. قال الله تعالى: ﴿**ما كان اللهُ لِيَذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حَتَّى يَمِيزَ الخبيثَ من الطَّيب، وما كان اللهُ لِيُطْلِعَكم على الغَيْب، ولكنَّ اللهَ يَجْتَبي من رُسُلِهِ من يشاءُ**﴾ [آل عمران: ١٧٩]. أي: ما كان اللهِ لِيَذَرَكَم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يَميزَ أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم أُحُد ﴿**وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكم على الغيب**﴾ [آل عمران: ١٧٩] الـذي يَميزُ بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في علمـه وغيبـه، وهـو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزًا مشهودًا، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة.

وقوله: ﴿**ولكنَّ اللهَ يَجتبي من رُّسلِهِ من يشاءُ**﴾ [آل عمران: ١٧٩] استدْرَاكٌ لما نفـاه من اطلاع خلقه على الغيب كما قال: ﴿**عَالِمُ الغَيب، فلا يُظْهِرُ على غَيبِهِ أحدًا. إلا مَنْ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ**﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]. فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يُطلِع عليه رسلَه، فإن آمنتم به واتَّقَيْتم؛ كان لكم أعظم الأجر والكرامة.

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظَفَرِهم، وفي حال ظَفَرِ أعدائهم بهم. فإذا ثبتوا على الطاعة والعبـودية فيما يحبون وما يكرهون؛ فهم عبيده حقًا، وليسوا كمن يعبد الله على حَرْفٍ واحد: من السراء، والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظْفَرَهم بعَدُوِّهم في كل مَوْطِنٍ، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبدًا؛ لَطَغَتْ نفوسُهم، وشَمَخَت وارتفعت، فلو بَسَط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق. فلا يصلح عباده إلا: السراء والضراء، والشدة والرخاء، والقبض والبسط. فهو المُدَبِّرُ لأمر عباده كما يليق بحكمته. إنه بهم خبير بصير.

ومنهـا: أنـه إذا امتحنهم بالغَلَبة والكَسْرَة والهزيمة؛ ذَلُّوا وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العِزَّة والنصر. فإن خِلْعَةَ النَّصْرِ؛ إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: ﴿**ولقد نَصَركم اللهُ بِبَدرٍ وأنتم أذلةٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وقال: ﴿**ويوم حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُم فلم تُغْنِ عَنكُم شيئًا**﴾ [التوبة: ٢٥]. فهو سبحانه إذا أراد أن يعزَّ عبده ويجبره وينصره؛ كسره أولاً ويكون جبره له ونصره؛ على مقدار ذُلِّه وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هَيَّأ لعباده المؤمنين منازلَ في دار كرامته، لم تَبْلُغْها أعمالهم ولم يكونوا بَالِغِيها إلا بالبلاء والمحنة، فقَيَّض لهم الأسباب التي توصلهم إليها: من ابتلائه وامتحانه، كما وفَّقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى؛ طُغْيَانًا ورُكُونًا إلى العاجلة. وذلك مرض يَعُوقُها عن جِدِّها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد رَبُّها ومالكها وراحمها كرامته؛ قَيَّضَ لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه. فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكَريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراك الأدْوَاء منه. ولو تركه لَغَلَبْتُه الأدْوَاء حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه المُقَرَّبُونَ من عباده. وليس بعد درجة الصِّدِّيقيَّة إلا الشهادة. وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء، تُرَاق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويُؤْثِرُون رضاه ومحابَّه على نفوسهم. ولا سبيل إلى نَيْل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المُفْضِيَةِ إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويَمْحَقَهُمْ؛ قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومَحْقَهُم. ومن أعظمها ـ بعد كفرهم ـ بَغْيُهم وطُغْيانُهُمْ، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتَمَحَّص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿**ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأنتم الأعْلَوْنَ إنْ كُنْتُم مؤمنين، إن يمْسَسْكُم قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثلُه**.

وتلك الأيام نُدَولها بين الناس، وليعلَمَ اللهُ الذين آمنوا، ويتخذَ منكم شُهَدَاء، واللهُ لا يُحبُّ الظالمين، وليُمَحِّصَ الله الذين آمنوا ويَمْحَقَ الكافِرينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤١]. فجمع لهم في هذا الخطاب: بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحْيَاء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحِكَم الباهرة التي اقتَضت إدَالَةَ الكفار عليهم. فقال: ﴿إن يَمْسَسْكم قَرحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثْلُه﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فقد استويتم في القَرْح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إنْ تَكُونوا تألَـمُونَ فإنَّهم يَألـمُونَ كما تَألَمُونَ، وتَرْجُونَ مِنَ الله ما لا يَرجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] فما بالكم تَهنُـونَ وتضعفون عند القرح والألم؟ فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أُصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي؟

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عرض حاضر، يقسمها دُوَلًا، بين أوليائه وأعدائه، بخلاف الآخرة. فإن عزها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي؛ أن يتميز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة، بعد أن كانوا معلومين في غيبه. وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحس.

ثم ذكـر حكمـة أخـرى، وهي؛ اتخاذه سبحانه منهم شهداء، فإنه يحب الشهـداء من عباده، وقد أعدَّ لهم أعْلَى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلابد أن ينيلهم درجة الشهادة.

وفي قوله: ﴿واللهُ لا يُحبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] تنبيه لطيف الموقع جدًّا على كراهته وبغضه للمنافقين، الذين انخذَلُوا عن نَبيِّه يوم أُحد، فلم يشهدوه. ولم يتخذ منهم شهداء، لأنه لم يحبهم. فأرْكَسَهُمْ ورَدَّهُمْ؛ ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم. فثَبَّطَ هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وَفقَ لها أولياءه وحزبه.

ثم ذكر حكمه أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهي؛ تمحيص الذين آمنوا، وهو تَنْقِيتُهُم وتخليصهم: من الذنوب، ومن آفات النفوس.

وأيضا فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين، فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي؛ مَحْق الكافرين: بطغيانهم، وبغيهم، وعُدْوانهم.

ثم أنكـر عليهم؛ حُسْبَانَهم وظَنَّهم أنهم يدخلون الجنة بدون: الجهاد في سبيله، والصَّـبْر على أذى أعـدائـه. وأن هذا ممتنع، بحيث يُنْكَر على من ظنه وحسبـه، فقال: ﴿**أَمْ حَسِبْتُم: أن تَدْخُلُوا الجنَّةَ، ولَمَّا يَعلَم اللهُ الذينَ جَاهَدُوا مِنْكُم ويَعْلَمَ الصَّابِرينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٢]. أي: ولَمَّا يَقَعَ ذلكَ منكم فيعلمَه، فإنه لو وقع لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم. فإن الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه، دون أن يقع معلومه.

ثم وبَّخَهُم على هزيمتهم، من أمر كانوا يَتَمَنَّونه ويَوَدُّون لِقَاءه، فقال:

﴿**ولقد كُنْتُمْ تَمَنَّونَ الموْتَ من قبل أن تَلْقَوْه فَقَدْ رَأيتُمُوهُ وأنتُم تَنْظُرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٤٣]. قال ابن عباس: «لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهـداء بدر من الكـرامـة؛ رَغِبُـوا في الشهادة، فَتَمَنَّوا قِتالاً يستشهدون فيه، فيَلْحَقُون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد. وسَبَّبَه لهم، فلم يَلْبَثُوا أن انهزموا، إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى:

﴿**ولقـد كُنْتُم تَمَنَّـونَ المـوْتَ مـن قبـل أن تَلْقَـوْه فقَـدْ رَأيتُمُـوهُ وأنتُـم تَنْظُـرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٤٣].

ومنها: أن وقعة أحد؛ كانت مقدمة وإرْهَاصًا بين يدي موت رسول الله ﷺ، فَنَبَّأَهم ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ أو قُتل، بل الواجب له عليهم: أن يَثْبُتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يُقْتلوا. فإنهم إنما يعبدون رَبَّ محمد، وهو حَيٌّ لا يموت. فلو مات محمد أو قُتل؛ لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به. فكل نفس ذائقة الموت. وما بعث الله محمداً ﷺ إليهم ليُخَلَّدَ، لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد. فإن الموت لابد منه، سواء مات رسول الله ﷺ، أو بقي؛ ولهذا وبَّخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه، لما صَرَخَ الشيطان بأن محمدًا قد قتل، فقال:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسلُ، أفَإنْ مَاتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُم على أعقابكم؟ ومَن ينْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْه فلن يَضرَّ اللهُ شيئًا وسَيَجزي اللهُ الشاكرينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والشاكرون: هم الذين عرفوا قَدْرَ النعمة فَثَبَتُوا عليها، حتى ماتوا أو قتلوا. فظهر أثر هذا العتاب وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارْتَدَّ من ارتدّ على عقبيه. وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزهم وأظفرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه: أنه جعل لكل نفس أجلاً، لابد أن تستوفيه، ثم تلحق به، فَيَرِدَ الناس كلهم حَوْضَ المَنَايَا مَوْرِدًا واحدًا، وإن تَنَوَّعتْ أسبابه، ويَصْدُرُون عن موقف القيامة مَصادرَ شتَّى: فريقٌ في الجنة، وفريق في السعير.

ثم أخبر سبحانه: أن جماعة كثيرة من أنبيائه قتلوا، وقتل معهم أتباع لهم كثيرون، فما وَهَنَ مَن بقي منهم لِمَا أصابهم في سبيل الله، وما ضَعُفُوا وما اسْتَكَانُوا، وما وَهَنُوا عند القتل ولا ضَعُفَوا ولا اسْتَكَانوا؛ بل تَلَقَّوا الشهادة بالقوة والعزيمة والإقدام، فلم يستشهدوا مُدبِرين مستكينين أذِلَّة؛ بل استشهدوا أعزة كِرَامًا مُقْبلين، غير مدبرين. والصحيح: أن الآية تتناول الفريقين كليهما.

ثم أخبر سبحانه عما اسْتَنْصَرَت به الأنبياء وأُمَمُهم على قومهم: من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم، وسؤالهم ربهم: أن يُثَبِّتَ أقدامهم، وأن ينصرهم على أعدائهم.

فقال: ﴿وَمَاكَانَ قولَهم: إلاَّ أَنْ قالوا: ربَّنَا اغْفرْ لنا ذُنوبَنا وإسْرَافَنا في أَمْرِنا، وثَبِّتْ أقدَامَنا، وانْصُرْنا على القومِ الكافِرينَ. فَآتَاهُم اللهُ ثَوَابَ الدُّنيا، وحُسْنَ ثواب الآخرةِ، واللهُ يُحبُّ المحسنين﴾ [آل عمران: ١٤٧، ١٤٨].

لما علَم القوم أن العدو إنما يُدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يَسْتَزِلُّهُمْ ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصيرٌ في حق، أو تَجاوُزٌ لِحَدٍّ، وأن النصر مَنُوطٌ بالطاعة، قالوا: **﴿ربَّنا اغفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وإسرَافَنا في أمْرِنا﴾** ثم علموا أن ربهم ـ تبارك وتعالى ـ إن لم يُثَبِّتْ أقدامَهم وينصرهم؛ لم يقدُروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم، وأنه إن لم يثبت

أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا. فَوَفَّوا المقامَين حَقَّهُما: مقام المقتضي - وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه - ومقام إزالة المانع من النصرة - وهو الذنوب والإسراف - وحَذَّرَهم سبحانه من طاعة عدوهم، وأخبر أنهم إن أطاعوهم؛ خسروا الدنيا والآخرة. وفي ذلك تَعْرِيضٌ بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أحد.

ثم أخبر سبحانه: أنه مَولَى المؤمنين، وهو خير الناصرين. فمن والاه؛ فهو المنصور.

ثم أخبر: أنه سيلقي في قلوب أعدائهم الرُّعْبَ الذي يمنعهم من الهجوم عليهم والإقدام على حربهم. فإنه يُؤيدُ حزبه بجند من الرعب ينتصرون به على أعدائهم. وذلك الرعبُ بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله. وعلى قدر الشرك يكون الرعب. فالمشرك بالله أشدُّ شيءٍ خوفًا ورُعْبًا، والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بالشرك لهم الأمن والهدى والفلاح، والمشرك له الخوف والضلال والشقاء.

ثم أخبرهم: أنه صَدَقهم وعده في النُّصْرَة على عدوه، وهو الصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة ولزوم أمر الرسول؛ لاسْتَمَرَّت نُصْرَتُهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة وفارقوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصرة فصرفهم عن عدوهم عقوبة وابْتَلاء، وتعريفًا لهم بسوء عواقب المعصية، وحسن عاقبة الطاعة.

ثم أخبر: أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، وأنه ذُو فضل على عباده المؤمنين. وقيل للحسن: «كيف يعفو عنهم، وقد سَلَّطَ عليهم أعداءهم؛ حتى قتلوا منهم من قتلوا ومَثَّلُوا بهم، ونَالُوا منهم ما نالوا؟ فقال: لولا عفوه عنهم لاسْتأْصَلَهم، ولكن بعفوه عنهم دفع عنهم عدوهم، بعد أن كانوا مجمعين على استئصالهم».

ثم ذكَّرهم بحالهم وقت الفِرار مُصْعِدين - أي جَادِّين في الهرب والذهاب في الأرض، أو صاعدين في الجبل - لا يَلْوُون على أحد من نبيهم ولا أصحابه. والرسول يدعوهم في أُخْرَاهم «**إليَّ عباد الله، أنا رسول الله**» فأثابهم بهذا الهرب والفرار غمًّا بعد غم: غم الهزيمة والكسرة، وغم صرخَةِ الشيطان فيهم: بأن محمدًا قد قتل.

وقيل: جازاكم غمًّا بما غَمَمْتُم رسولَه بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوّه. فالغم الذي حصل لكم؛ جزاء على الغم الذي أوقعتموه بنبيه.

والقول الأول؛ أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿**لِكَيْلَا تَحْزَنُوا على ما فَاتَكم ولا ما أَصَابَكم**﴾ [آل عمران: ١٥٣] تنبيه على حكمة هذا الغَم بعد الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح، فنسوا بذلك السبب. وهذا إنما يحصل بالغم الذي يعقبه غم آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنه حصل لهم غَمُّ فوات الغنيمة، ثم أعقبه غَمُّ الهزيمة، ثم غم الجِرَاحِ التي أصابتهم، ثم غم القتل، ثم غم سماعهم: أن رسول الله ﷺ قد قُتل، ثم غمّ ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم. وليس المراد غَمَّين اثنين خاصة، بل غَمًّا متتابعًا، لتمام الابتلاء والامتحان.

الثالث: أن قوله: ﴿**بغمٍّ**﴾ من تمام الثواب، لا أنه سبب جزاء الثواب. والمعنى: أثابهم غَمًّا متصلاً بغم، جزاءً على ما وقع من الهرب، وإسلامهم نبيهم ﷺ وأصحابه، وترك استجابتهم له، وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر وفَشَلهم. وكل واحد من هذه الأمور يوجب غَمًّا يخصه، فترادفت عليهم الغموم. كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها، ولولا أن تداركهم بعفوه؛ لكان أمرًا آخر.

ومن لُطْفِهِ بهم ورأفته ورحمته؛ أن هذه الأمور التي صدرت منهم؛ كانت من موجبات الطِّبَاع، وهي من بَقَايا النفوس، التي تمنع من النصرة المستقرة، فقيَّضَ لهم بلطفه أسبابًا أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتب عليها آثارها المكروهة، فعلموا حينئذ: أن التوبة منها والاحتراز من أمثالها، ودفعها بأضدادها؛ أمرٌ مُتَعينٌ، لا يتم لهم الفلاح والنصرة الدائمة المستقرة إلا به. فكانوا أشدَّ حذرًا بعدها، ومعرفةً بالأبواب التي دخل عليهم منها:

* وربما صحت الأجسام بالعلل *.

ثم إنه سبحانه تداركهم برحمته، وخَفَّفَ عنهم ذلك الغم، وغَيَّبَه عنهم بالنُّعَاسِ، الذي أنزله عليهم أَمَنَةً منه ورحمة. والنُّعاسُ في الحرب؛ علامة النصرة

والأمن، كما أنزله عليهم يوم بدر. وأخبر: أن من لم يُصِبْه ذلك النعاس، فهو ممن أَهَمَّته نفسُه، لا دينه ولا نبيه ولا أصحابه، وأنهم يظنون بالله غَيْر الحق ظَنَّ الجاهلية.

وقد فُسِّرَ هذا الظن الذي لا يليق بالله: بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سَيَضْمَحِلُّ، وأنه يُسْلِمهُ للقتل.

وقد فسر بظنهم: أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقَدَرِه، ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة، وبإنكار القَدَر، وبإنكار أن يُتِمَّ الله أمرَ رسوله، ويظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السَّوء الذي ظنه المنافقون والمشركون بربهم، سبحانه وتعالى، وعذبهم به، كما قال في سورة الفتح: **﴿ويُعَذِّبَ المنافقينَ والمنافقاتِ والمشركين والمشركات: الظَّآنِّينَ باللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عليهم دائرةُ السَّوْءِ، وغَضِبَ اللهُ عليهم وَلَعنُهم، وأَعَدَّ لَهُم جهنمَ وساءَتْ مَصيراً﴾** [الفتح: ٦].

وإنما كان هذا ظَنَّ السوء وظن الجاهلية، المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق: لأنه ظَنٌّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المُبَرَّأة من كل عيب وسوء، وهو خلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتَفَرُّده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه، وخلاف كلمته التي سبقت لرسله: أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده: بأنهم هم الغالبون.

فمن ظن: أنه لا ينصر رسوله، ولا يُتِمُّ أمره، ولا يؤيده ويؤيد حزبه، ويعليهم ويُظفِرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة، يَضْمَحِلُّ معها التوحيد والحق اضْمِحْلالاً لا يقومان بعده أبدًا؛ فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونُعُوتِه.

فإن حمده وعِزَّته، وحكمته وإلهيته؛ تأبى ذلك، وتأبى أن يُذِل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستمرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به. فمن ظن به ذلك؛ فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا عرف صفاته وكماله.

وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره؛ فما عرفه، ولا عرف ربوبيته ومُلكه وعظمته.

وكذلك من أنكر أن يكون قَدَّرَ ما قدره من ذلك وغيره: لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة، وغاية مطلوبة، هي أحب إليه من فَوْتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضِيَة إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة، لإفضائها إلى ما يحب، وإن كانت مكروهة له. فما قَدَّرَها سُدى، ولا أنشأها عبثًا، ولا خلقها باطلاً ﴿**ذلك ظَنُّ الذين كَفروا، فَويلٌ للذين كَفرُوا مِنَ النارِ**﴾ [ص: ٢٧].

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظَنَّ السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يَسْلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف مُوجِب حمده وحكمته.

فمن قَنَطَ من رحمته وأَيِس من روحه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن جَوَّزَ عليه: أن يُعَذِّب أولياءه، مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوي بينهم وبين أعدائه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أن يترك خلقه سُدى مُعطلين عن الأمر والنهي، لا يرسل إليهم رسله، ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هَملاً كالأنعام؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن: أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دارٍ يُجازي فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويتبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن: أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصًا لوجهه الكريم على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، وأنه يعاقبه بما لا صنيع له فيه، ولا اختيار له، ولا قدرة ولا إرادة له في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به. أو ظَنَّ به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويُجْرِيها على أيديهم يُضِلُّون بها عبادَه، وأنه يحسن منه كل شيء، حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته، فيخلده في الجحيم في أسفل السافلين، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين،

وكلا الأمرين عنده في الحُسْن سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه وتمثيل: وترك الحقَّ لم يخبر به، وإنما رمز إليه رموزًا بعيدة، وأشار إليه إشارات مُلْغِزة لم يصرح به، وصرح دائمًا بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يُتْعِبُوا أذهانهم وقُوَاهُم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير مدلوله العربي، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات، التي هي بالألغاز والأحاجيِّ أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويُرِيحَهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان؛ فقد ظن به ظن السوء.

فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه؛ فقد ظن بقدرة الله العجز. وإن قال: إنه قادر، ولم يبين، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يُوهِم - بل يوقع - في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد؛ فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء، وظن: أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيهُ والتمثيل والضلال، وظاهر كلام المُتَهوِّكين الحيارَى؛ هو الهدى والحق. وهذا من أسوأ الظن بالله. فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظَّانِّين به غير الحق ظن الجاهلية.

ومن ظن به: أنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يقدر على إيجاده وتكوينه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه كان معطَّلا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادرًا عليه، بعد أن لم يكن قادرًا؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد

السماوات والأرض، ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئًا من الموجودات في الأعيان؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه لا سمع له ولا بصر، ولا علم له ولا إرادة، ولا كلام يقول به، وأنه لم يُكَلِّم أحدًا من الخلق، ولا يتكلم أبدًا، ولا قال ولا يقول، ولا له أمر ولا نهي يقوم به؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه ليس فوق سماواته، على عرشه بائنًا من خلقه، بل إن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين، وإلى الأمكنة التي يُرغب عن ذكرها، وأنه أسفل، كما أنه أعلى، وأن من قال: سبحان ربي الأسفل، كمن قال: سبحان ربي الأعلى؛ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به: أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد، كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يَسْخَط، ولا يُوالي ولا يُعادِي، ولايقرب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المتقين؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه يُسَوِّى بين المُتَضَادَّيْن، أو يُفَرِّقُ بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديدة الخالصة الصواب بكبيرة واحدة، تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته، ويخلده في العذاب كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين، وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه؛ فقد ظن به ظن السوء.

وبالجملة: فمن ظن به سبحانه خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه ووصفه به رسله؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن: أن له ولدًا(١) أو شريكًا، وأن أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، أو

---

(١) وكذلك من يظن أنه سبحانه: هو المادة أو الحقيقة الأولى التي خرج منها كل الوجود ـ كالنواة للنخلة ـ وأن الوجود بأنواعه وأجناسه: هو أسماؤه وصفاته، فهو هي. وهي هو ـ كما يدين الصوفية: فقد ظن به أسوأ الظن وأقبحه، بل هو أشنع الكفر، وهو أصل ضلال كل المشركين من أولهم إلى آخرهم.

أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم؛ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به: أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقرب إليه؛ فقد ظن به خلاف حكمته، وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظن به: أنه إذا ترك لأجله شيئًا لم يُعَوِّضه خيرًا منه، أو من فعل لأجله شيئًا لم يُعْطِهِ أفضل منه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه يغضب على عبده، ويعاقبه ويحرمه بغير جُرْمٍ ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة ومَحْضِ الإرادة؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه إذا صَدَقه في الرغبة والرهبة، وتضرع إليه وسأله، واستعان به وتوكل عليه: أن يُخَيِّبَه، ولا يعطيه ما سأله، فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن به: أنه يُثيبُه إذا عصاه بما يُثِيبُه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه؛ فقد ظن به خلاف ماتقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ماهو أهله، وما لايفعله.

ومن ظن به: أنه إذا عصاه وأسخطه، وأوضع في معاصيه، ثم اتَّخَذَ من دونه وليًّا، ودعا من دونه مَلَكًا أو بشرًا، حيًّا أو ميتًا، يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلصه من عذابه؛ فقد ظن به ظن السوء. وذلك زيادة في بعده من الله، وفي عذابه.

ومن ظن به: أنه يسلط على رسوله محمد ﷺ أعداءَه تسليطًا مستقرًّا دائمًا في حياته وفي مماته، وأنه ابتلاه بهم لا يفارقونه، فلما مات اسْتَبَدُّوا بالأمر دون وصيته، وظلموا أهل بيته، وسَلَبُوهم حقهم وأذَلُّوهم، وكانت العزَّةُ والغَلَبَةُ والقَهْرُ لأعدائه وأعدائهم دائمًا، من غير جُرْمٍ ولا ذنب لأوليائه وأهل الحق، وهو يرى قَهْرَهم لهم، وغصْبهم إياهم حقهم، وتبديلهم دين نبيهم. وهو يقدر على نصر أوليائه وحزبه وجنده، ولا ينصرهم ولا يديلهم، بل يديل أعداءَهم عليهم أبدًا، أو أنه لا يقدر على ذلك، بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته، ثم جعل أعداءه

الذين بَدَّلوا دينه مُضاجعيه في حفرته، تُسَلِّم أمته عليه وعليهم كل وقت ـ كما تظنه الرافضة ـ؛ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه. سواء: قالوا: إنه قادر على أن ينصرهم ويجعل لهم الدولة والظفر، أو قالوا: إنه غير قادر على ذلك. فهم إما: قادحون في قدرته، أو قادحون في حكمته وحمده؛ وذلك من ظن السوء به.

ولا ريب أن الرب الذي فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك، غير محمود عندهم، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك، لكن رفَؤوا هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه، واستجاروا من الرَّمْضَاء بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرة على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يقدر على أفعال عباده، ولا هي داخلة تحت قدرته؛ فظنوا به ظن إخوانهم المجوس والثَّنَوِيَّة بربهم.

وكل مبطل وكافر، ومبتدع مقهور مستذل؛ فهو يظن بربه هذا الظن. وأنه أولى بالنصر والظفَر والعلو من خصومه. فأكثر الخلق ـ بل كلهم، إلا من شاء الله ـ يظنون بالله غير الحق وظن السوء. فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مَبْخُوسُ الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ماأستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك. وإن كان هو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه، وتَغَلْغَلَ في معرفة دَفائنها وطَوَايَاهَا؛ رأى ذلك فيها كامنًا كُمُونَ النار في الزِّنَاد. فاقْدَحْ زِنَادَ من شئت ينبئك شرره عما في زناده. ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تَعَتبًا على القدر وملامة له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمُسْتَقِلٌّ ومُسْتَكْثِر. وفتش نفسك: هل أنت سالم من ذلك؟

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليَتُبْ إلى الله ويستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليَظُنَّ السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء ومنبع كل شر، والمركَّبة على الجهل والظلم. فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغني الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه. فذاته

لها الكمال المطلق من كل وجه. وصفاته كذلك. وأفعاله كذلك. كلها حكمة ومصلحة، ورحمة وعدل. وأسماؤه كلها حسنى.

فلا تظنن بربك ظَنَّ سَوء فإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيرا وكيف بظالم جان جهول؟
وقل: يا نفس مأوى كل سوء أيُرْجَى الخير من ميت بخيل؟
وظن بنفسك السوأى، تجدها كذاك. وخيرها كالمستحيل
وما بك من تُقىً ـ فيها وخير فتلك مواهب الرب الجليل
وليس بها. ولا منها، ولكن من الرحمن، فاشكر للدليل

والمقصود: ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله تعالى: ﴿**وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُم أَنْفُسُهُم، يَظُنُّونَ باللهِ غيرَ الحقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ**﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿**هل لنا من الأمرِ من شيءٍ**﴾. وقولهم: ﴿**لَو كَانَ لنا مِنَ الأَمْرِ شيَءٌ ما قُتِلْنا ههنا**﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية: إثبات القدر، ورد الأمر كله إلى الله. ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى لما ذُموا عليه، ولما حَسُنَ الرد عليهم بقوله: ﴿**قُلْ: إنَّ الأمرَ كُلَّه لله**﴾، ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية. ولهذا قال غير واحد من المفسرين: إن ظنهم الباطل ههنا: هو التكذيب بالقدر، وظنهم: أن الأمر لو كان إليهم، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تَبَعًا لهم، ويسمعون منهم؛ لما أصابهم القتل، ولكان النصر والظفر لهم. فأكْذَبَهم الله ـ عز وجل ـ في هذا الظن الباطل، الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل، الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر ـ الذي لم يكن بُدٌّ من نفاذه ـ أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿**قلْ: إنَّ الأمرَ كُلَّه للهِ**﴾ فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤُه وقَدَرُه، وجرى به علمه وكتابه السابق. وما شاء الله كان ولابد؛ شاء الناس أم أبوا. وما لم يشأ لم يكن؛ شاء الناس أم لم يشاءوا. وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل: فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلى دفعه، سواء كان لكم من الأمر شيء أو لم يكن لكم، وأنكم لو كنتم في بيوتكم ـ وقد كتب القتل على بعضكم ـ لَخَرَجَ الذين كتب عليهم

القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولابد، سواء كان لهم من الأمر شيء أولم يكن. وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القدرية النفاة، الذين يُجَوِّزُون أن يقع ما لا يشاؤه الله، وأنه يشاء ما لا يقع.

فصل

ثم أخبر سبحانه عن حكمة أخرى في هذا التقدير: وهي ابتلاء ما في صدورهم، واختبار ما فيها من الإيمان والنفاق. فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانًا وتسليماً، والمنافق ومن في قلبه مرض: لابد أن يظهر مافي قلبه على جوارحه، ولسانه.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي تمحيص ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه. فإن القلوب يخالطها ـ بغلبة الطبائع ومَيْل النفوس، وحكم العادة، وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة ـ ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام، والبر والتقوى، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة؛ لم تتخلص من هذه المخالطة، ولم تتمحص منه.

فاقتضت حكمة العزيز الرحيم؛ أن يقيض لها من المحن والبلاء؛ ما يكون لها كالدواء الكَريه لمن عرض له داء، إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خيف عليه الفساد والهلاك. فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل من قتل منهم؛ تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم. فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن تولي من تولى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم، فاستزلَّهم الشيطان بتلك الأعمال حتى تولوا، فكانت أعمالهم جندًا عليهم، ازداد بها عدوهم قوة. فإن الأعمال جند للعبد وجند عليه. ولابد للعبد في كل وقت من سريَّةٍ من نفسه، تهزمه أو تنصره، فهو يُمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتله بها، ويبعث إليه سَرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه. فأعمال العبد تسوقه قَسْرًا إلى مقتضاها من الخير والشر. والعبد لا يشعر، أو يشعر ويتعامى. ففرار الإنسان من عدوه ـ وهو يطيقه ـ إنما هو

بجند من عمله، بعثه له الشيطان واستزلَّه به.

ثم أخبر سبحانه أنه عفا عنهم؛ لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شك. وإنما كان عارضًا عفا الله عنه، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها.

ثم كرر عليهم سبحانه أن هذا الذي أصابهم إنما أُتوا فيه من قبل أنفسهم، وبسبب أعمالهم. فقال: ﴿**أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قد أصبتم مِثْلَيْهَا قُلْتُم: أَنَّى هذا قُلْ هو من عندِ أنفسِكُم إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ**﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وذكر هذا بعينه فيما هو أعمُّ من ذلك في السور المكية، فقال: ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾. وقال: ﴿**ما أَصابك من حسنةٍ من الله، وما أصابك من سيِّئةٍ فمن نفسك**﴾ [النساء: ٧٩]. فالحسنة والسيئة ههنا: النعمة والمصيبة، فالنعمة من الله مَنَّ بها عليك، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك. فالأول؛ فضله، والثاني، عدله. والعبد يتقلَّب بين فضل ربه وعدله، جارٍ عليه فضله، ماضٍ فيه حكمه، عَدْلٌ فيه قضاؤه.

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿**إن اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ**﴾ بعد قوله: ﴿**قُلْ: هو من عِندِ أَنفسِكم**﴾ إعلامًا لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادل قادر. وفي ذلك إثبات القدر والسبب. فذكر السبب وأضافه إلى نفوسهم. وذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه. فالأول؛ ينفي الجبر، والثاني؛ ينفي القول بإبطال القدر. فهو مشاكل قوله: ﴿**لِمَنْ شاء منكم أن يَّسْتَقِيمَ وما تَشاءون إلَّا أنْ يشاءَ اللهُ ربُّ العالمين**﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩] وفي ذكر قدرته ههنا نكتة لطيفة، وهي: أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، ولا تتكلوا على سواه. وكشفَ هذا المعنى وأَوْضَحَه كُلَّ الإيضاح بقوله: ﴿**وما أصابَكُم يومَ الْتَقَى الجَمْعَانِ فَبإذنِ اللهِ**﴾ [آل عمران: ١٦٦]. وهو الإذن الكوني القدري، لا الشرعي الديني، كقوله في السِّحْر: ﴿**وَمَاهُم بضَارِّينَ به مِن أَحَدٍ إلَّا بإذنِ اللهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين عِلْم عَيَان ورؤية، يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تميزًا ظاهرًا. وكان من حكمة هذا التقدير: تكلُّم المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون وسمعوا رَدَّ الله عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مُؤَدَّى النفاق وما يَؤُول إليه، وكيف يُحرم صاحبه سعادة الدنيا

والآخرة، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة. فلله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة! ونعمة على المؤمنين سابغة! وكم فيها من تحذير وتخويف! وإرشاد وتنبيه! وتعريف بأسباب الخير والشر، ومآلهما وعاقبتهما!

ثم عَزَّى نبيَّه وأولياءه عمن قُتل منهم في سبيله أحسن تعزية وألطفها، وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لها، فقال:

﴿ولا تحسبن الذين قُتلُوا في سبيلِ اللهِ أمْواتًا بلْ أحياءٌ عِندَ ربِّهم يُرزَقُون، فرِحينَ بمَا آتاهُم اللهُ من فَضْلِهِ، ويَسْتبْشِرُون بالذينَ لم يَلْحَقُوا بهم منْ خَلْفهم ألّا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يَحزَنُون﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه، وأنهم عنده، وجَرَيان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضا، بل هو كمال الرضا، واستبشارهم بإخوانهم، الذين باجتماعهم بهم؛ يَتمُّ سُرُورهم ونعيمُهم، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته.

وذكرهم سبحانه ـ في أثناء هذه المحنة ـ بما هو من أعظم مِنَنِهِ ونِعمِهِ عليهم التي لو قابلوا بها كل محنَة تنالهم وبلية؛ لتلاشت في جنب هذه المنة والنعمة. ولم يبق لها أثر ألبتة. وهي منته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم إليهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وينقذهم من الضلال الذي كانوا فيه قبل إرساله؛ إلى الهدى، ومن الشقاء؛ إلى الفلاح، ومن الظلمة؛ إلى النور، ومن الجهل؛ إلى العلم. فكل بليَّة ومحنة تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له؛ أمر يسير جدًّا في جنب هذا الخير الكثير، كالذي ينال الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم من الخير. فأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره ليُوحِّدُوه، ويَتَّكِلُوا ولا يخافوا غيره. وأخبرهم بما لهم فيها من الحِكَم، لئلا يتهموه في قضائه وقدره، ولِيَتَعَرَّف إليهم بأنواع صفاته وأسمائه، وسَلَّاهُم بما أعطاهم مما هو أجلُّ قدرًا، وأعظم خطرًا مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعَزَّاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه وكرامته؛ لينافسوهم فيه، ولا يحزنوا عليهم. فله الحمد كما هو أهله، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله.

فصــل

ولما انقضت الحرب انكفأ المشركون. فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإِحْرَاز الذَّرَاري والأموال، فشق ذلك عليهم. فقال النبي، ﷺ، لعليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «**اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون؟ فإنْ هم جَنَّبوا الخيل وامْتَطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة. فوالذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسِيرَنَّ إليهم، ثم لأناجِزنَّهم فيها**». قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون؟ فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة. ولما عزموا على الرجوع إلى مكة أشرف على المسلمين أبوسفيان، ثم ناداهم: موعدكم الموسم ببدر. فقال النبي، ﷺ: «**قولوا: نعم، قد فعلنا**» قال أبوسفيان: فذلكم الموعد. ثم انصرف هو وأصحابه. فلما كان في بعض الطريق تَلاوَمُوا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض: لَمْ تصنعوا شيئًا أصبتم شَوْكَتَهم وحدَّهم، ثم تركتموه وقد بقي منه رءوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نَسْتأْصِلَ شَأفَتهم. فبلغ ذلك رسول الله، ﷺ، فنادى في الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم، وقال: «**لا يخرج معنا إلا من شهد القتال**» فقال له عبدالله بن أبيّ: أركب معك؟ قال: «**لا**». فاستجاب له المسلمون، على ما بهم من الجُرْح الشديد والخوف. وقالوا: سمعاً وطاعة. واستأذنه جابر بن عبدالله، وقال: يارسول الله، إني أحب أن لا تشهد مشهدًا إلا كنت معك، وإنما خَلَّفني أبي على بناته، فائذن لي أسير معك، فأذِن له. فسار رسول الله، ﷺ، والمسلمون معه، حتى بلغوا حمراء الأسد ـ على ثمانية أميال من المدينة ـ وأقبل مَعْبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله، ﷺ، فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيُخَذِّله. فلحقه بالرَّوْحَاءِ ولم يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم، وخرجوا في جَمْع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلَّف عنهم من أصحابهم فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذا الأكَمَة. فقال أبوسفيان: والله لقد أجمعنا الكَرَّة عليهم لنستأصلهم قال: فلا تفعل، فإني لك ناصح، فرجعوا على

أعقابهم إلى مكة. ولقي أبوسفيان بعض المشركين - من عبدالقيس - يريدون المدينة. فقال: هل لكم أن تُبلغوا محمدًا رسالة، وأُوقِرُ لكم رواحلكم زبيبًا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم. قال: أبْلِغوا محمدًا: أنا قد أجمعنا الكَرَّة لنستأصله ونَسْتأصِل أصحابه. فمرَّ الركب برسول الله، ﷺ، وهو بحمراء الأسد فأخبروه. فلما بلغهم قوله؛ قالوا: ﴿**حَسبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ. فانقَلَبُوا بنعمةٍ مِنَ اللهِ وفَضلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُم سُوءٌ، واتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ واللهُ ذو فَضْلٍ عَظيمٍ**﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

(١)**الأصل** الثامن: أن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم وقهرهم وكسرهم لهم أحيانا؛ فيه حكمة عظيمة، لا يعلمها على التفصيل إلا الله عز وجل:

فمنها: استخراج عبوديتهم، وذلهم لله، وانكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤاله نصرهم على أعدائهم. ولو كانوا دائمًا منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا، ولو كانوا دائماً مقهورين مغلوبين منصورًا عليهم عدوهم؛ لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة؛ فاقْتَضتْ حِكْمَةُ أحكم الحاكمين أنْ صَرَّفَهم بين غَلبهم تارةً، وكونهم مغلوبين تارةً. فإذا غُلِبُوا تَضَرَّعُوا إلى رَبِّهم، وأنابوا إليه، وخَضَعوا له، وانْكَسَروا له، وتابوا إليه، وإذا غَلَبُوا أقامُوا دينه وشعائرَه، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوَّه، ونَصَرُوا أولياءه.

ومنها: أنهم لو كانوا دائمًا منصورين، غالبين، قاهرين؛ لدخلَ معهم مَنْ ليس قَصْدُه الدِّين، ومتابعة الرسول. فإنه إنما ينضاف إلى مَنْ له الغَلَبةُ والعِزَّة، ولو كانوا مَقْهورين مَغْلُوبين دائمًا؛ لم يَدْخُلْ معهم أحدٌ. فاقتضت الحكمة الإلـٰهيَّة أن كانت لهم الدَّوَلَةُ تارةً، وعليهم تارة. فيتميَّز بذلك بين مَنْ يُريدُ الله ورسوله، ومنَ ليس له مرادٌ إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يُحبُّ مِنْ عباده تَكْمِيل عبوديتهم على السَّراء والضَّرَّاء، وفي حالِ العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم. فلله سبحانه على العباد في كِلْتا الحالين عبوديَّةٌ بمقتضى تلك الحال. لا تحصلُ إلا بها، ولا يستقيم

---

(١) ١٨٩ إغاثة جـ٢.

القَلْبُ بدونها، كما لا تَسْتَقيمُ الأبدان إلا بالحَرِّ والبَرْدِ، والجوع والعَطَش، والتَّعَب والنَّصَب، وأضدادها. فتلك المِحَنُ والبلايا شرطٌ في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه، ووجودُ الملزوم بدون لازمه ممتنعٌ.

ومنها: أنَّ امتحانَهم بإدَالَةِ عَدُوِّهم عليهم يُمَحِّصُهم، ويُخَلِّصُهم، ويُهَذِّبُهم. كما قال تعالى في حِكْمة إدالة الكفار على المؤمنين يومَ أُحُدٍ: ﴿**ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنوا وأنتم الأعْلَونَ إن كُنْتُم مؤْمِنين * إن يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فقدْ مَسَّ القومَ قرحٌ مثلُه وتلك الأيامُ نُدَاولها بين الناس وليعلمَ اللهُ الذين آمنوا ويتخذَ منكُمْ شهداءَ واللهُ لا يحبُّ الظالمين * وليُمَحِّصَ اللهُ الذين آمنوا ويمحَقَ الكَافِرينَ * أم حَسِبْتم أن تدخلوا الجنةَ ولَمَّا يعلم اللهُ الذين جاهدوا منكمْ ويَعْلَمَ الصَّابرينَ ولقَدْ كُنْتُم تَمَنَّونَ الموْتَ مِنْ قَبْلِ أن تَلْقَوْهُ فقدْ رأيتُمُوهُ وأنتُمْ تَنْظُرُونَ * وما مُحَمَّدٌ إلا رسولٌ قدْ خلَتْ مِنْ قَبْلِه الرسُلُ أفإنْ مَاتَ أو قُتِلَ انقَلَبْتُم على أعقابِكُمْ ومَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئًا وسيجزِي اللهُ الشَّاكرينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤٤].

فذكر سبحانه أنواعًا من الحِكَم التي لأجْلها أُديلَ عليهم الكفار، بعد أن ثبَّتهم وقَوَّاهم وبشرهم بأنهم الأعلون بما أُعطوا من الإيمان، وسَلَّاهم بأنهم وإن مَسَّهم القَرْحُ في طاعته وطاعة رسوله؛ فقد مَسَّ أعداءهم القَرْحُ في عداوته وعداوة رَسُوله.

ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دولاً بين الناس، فيصيب كُلًّا منهم نصيبه منها كالأرزاق والآجال.

ثم أخبرَهم أنه فعلَ ذلك؛ ليعلم المؤمنين منهم، وهو سبحانه بكلِّ شيء عليم قبلَ كَوْنه وبعد كَوْنه، ولكنه أراد أن يَعلمهم موجودين مُشاهَدين، فيعلم إيمانهم واقعًا.

ثم أخبرَ أنه يُحب أن يَتَّخِذ منهم شهداء، فإن الشهادة درجة عالية عنده، ومنزلة رفيعة لا تُنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العَدُوِّ لم تحْصُل درجةُ الشهادة التي هي من أحبِّ الأشياء إليه، وأنفعها للعبد.

ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين، أي: تَخْليصهم من ذُنوبهم بالتَّوْبة والرُّجُوع إليه واستغفاره من الذنوب التي أُديل بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريدُ أن يَمْحَقَ الكافرين ببغيهم وطغيانهم، وعدوانهم إذا انتصروا.

ثم أنكر عليهم حُسْبَانهم وظَنّهم: دخولَ الجنة: بغير جهاد، ولا صبر. وأن حكمته تأبى ذلك. فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائمًا منصورين غالبين؛ لما جاهَدَهُمْ أحد، ولما ابْتُلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم.

فهذا بعض حِكَمِه في نصْرَة عدوهم عليهم، وإدالته في بعض الأحيان.

(١)**قوله**: وأي حكمة في تسليط أعدائه على أوليائه يسومونهم سوء العذاب؟ فكم لله في ذلك من حكم باهرة:

منها: حصول محبوبه من: عبودية الصبر، والجهاد، وتحمل الأذى فيه، والرضى عنه في السراء والضراء، والثبات على عبوديته وطاعته مع قوة المعارض وغلبته وشوكته، وتمحيص أوليائه من أحكام البشرية ودواعي الطباع ببذل نفوسهم له وأذى أعدائه لهم، وتمييز الصادق من الكاذب، ومن يريده ويعبده على جميع الحالات؛ ممن يعبده على حرف، وليحصل له مرتبة، الشهادة التي هي من أعلى المراتب ولا شيء أبرّ عند الحبيب من بذل محبة(٢) نفسه في مرضاته ومجاهدة عدوه، فكم لله في هذا التسليط من نعمة ورحمة وحكمة!

وإذا شئت أن تعلم ذلك؛ فتأمل الآيات من أواخر آل عمران من قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ من قَبْلِكُم سننٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

إلى قوله: ﴿إنما ذ لكم الشيطان يخوِّفُ أولياءَه فلا تخافوهم، وخافونِ إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٧٥].

إلى قوله: ﴿ما كان اللهُ ليذرَ المؤمنين على ما أَنْتُمْ عليه حتى يميزَ الخبيث من الطَّيِّب﴾ [آل عمران: ١٧٩]. فكان هذا التمييز من بعض حكم ذلك التسليط، ولولا ذلك التسليط؛ لم تظهر فضيلة الصبر والعفو والحكم(٣) وكظم الغيظ، ولا حلاوة النصر والظفر والقهر؛ فإن الأشياء يظهر حسنها بأضدادها، ولولا ذلك التسليط؛ لم تستوجب الأعداء المحق والإهانة والكبت، فاستخرج ذلك التسليط من القوة إلى الفعل؛ ما عند أوليائه؛ فاستحقوا كرامتهم عليه، وما عند أعدائه؛ فاستحقوا

---

(١) ٢٦٦ شفاء.

(٢) هكذا في المطبوعة ولعلها «مهجة».

(٣) هكذا في المطبوعة ولعلها «الحلم» (ج).

عقوبتهم عليه، فكان هذا التسليط مما أظهر حكمته وعزته ورحمته ونعمته في الفريقين وهو العزيز الحكيم.

...(١)**والعارف** إنما يشكو إلى الله وحده، وأعرف العارفين مَنْ جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس، فهو يشكو موجبات تسليط الناس عليه، فهو ناظر لقوله تعالى: ﴿**وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كَسَبَتْ أيديكم**﴾ [الشورى: ٣٠]

وقوله: ﴿**وما أصابَكَ من سيئةٍ فمن نَفْسِكَ**﴾ [النساء: ٧٩].

وقوله: ﴿**أوَلَمَّا أصابَتْكم مُصِيبةٌ قد أَصَبْتُم مِّثْلَيها قُلتُم أنَّى هذا قُلْ هو من عند أنفسِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فالمراتب ثلاثة: أخسها: أن تشكو الله إلى خلقه، وأعلاها: أن تشكو نفسك إليه، وأوسطها: أن تشكو خلقه إليه.

(٢)**الفائدة** الستون: إن كان عنده مَنْ يثق بعلمه ودينه فينبغي له أن يشاوره، ولا يستقل بالجواب، ذهابًا بنفسه وارتفاعًا بها؛ أن يستعين على الفتاوى بغيره من أهل العلم، وهذا من الجهل، فقد أثْنَى الله سبحانه على المؤمنين بأن أمْرَهم شورى بينهم، وقال تعالى لنبيه، ﷺ: ﴿**وشَاوِرْهُم في الأمر**﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقد كانت المسألة تنزل بعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فيستشير لها مَنْ حضر من الصحابة، وربما جمعهم وشاورهم، حتى كان يشاور ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو إذا ذاك أحْدَثُ القوم سنًّا، وكان يشاور عليًّا ـ كرم الله وجهه ـ وعثمان وطلحة، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف وغيرهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ، ولاسيما إذا قصد بذلك: تمرين أصحابه وتعليمهم، وشَحْذَ أذهانهم.

...(٣) **قال** تعالى: ﴿**فَبِما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم، ولَو كُنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا من حَولِك**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالرب سبحانه بسط هؤلاء مع خلقه؛ ليقتدي بهم السالك، ويهتدي بهم الحيران، ويُشفَى بهم العليل، ويستضاء بنور هدايتهم ونصحهم ومعرفتهم في ظلمات دياجي الطبع والهوى. فالسالكون يقتدون بهم إذا سكتوا. وينتفعون

---

(١) ٨٦ فوائد. (٢) ٢٥٦ أعلام جـ٤.

(٣) ٣٠٢ مدارج جـ٣.

بكلماتهم إذا نطقوا. فإن حركاتهم وسكونهم لما كانت بالله ولله؛ وعلى أمر الله جذبت قلوب الصادقين إليهم. وهذا النور الذي أضاء على الناس منهم؛ هو نور العلم والمعرفة. والعلماء ثلاثة: عالم استنار بنوره، واستنار به الناس. فهذا من خلفاء الرسل، وورثة الأنبياء.

وعالم استنار بنوره، ولم يستنر به غيره. فهذا إن لم يفرط كان نفعه قاصرًا على نفسه. فبينه وبين الأول ما بينهما.

وعالم لم يستنر بنوره، ولا استنار به غيره. فهذاعلمه وبال عليه. وبسطته للناس فتنة لهم. وبسطة الأول رحمة لهم.

(١)**فصل**: وأما الخذلان فقال تعالى: **﴿إن ينْصُرْكم الله فلا غالِبَ لَكُمْ وإن يَخْذُلْكم فمن ذا الذي يَنْصرُكُم من بعدِهِ﴾**. [آل عمران: ١٦٠]

وأصل الخذلان الترك والتخلية، ويقال للبقرة والشاة إذا تخلفت مع ولدها في المرعى وتركت صواحباتها: خذول.

قال محمد بن إسحاق في هذه الآية: إن ينصرك الله فلا غالب لك من الناس، ولن يضرك خذلان من خذلك. وإن يخذلك فلن ينصرك الناس، أي: لا تترك أمري للناس، وارفض الناس لأمري.

والخذلان: أن يخلي الله تعالى بين العبد وبين نفسه ويكله إليها، والتوفيق ضده: أن لا يدعه ونفسه ولا يكله إليها؛ بل يصنع له ويلطف به ويعينه ويدفع عنه، ويكلؤه كلاءة الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه؛ فمن خلى بينه وبين نفسه فقد هلك كل الهلاك؛ ولهذا كان من دعائه، ﷺ، : **«ياحي ياقيوم، يابديع السماوات والأرض، ياذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك»**.

فالعبد مطروح بين الله وبين عدوه إبليس: فإن تولاه الله؛ لم يظفر به عدوه. وإن خذله وأعرض عنه؛ افترسه الشيطان كما يفترس الذئب الشاة...

(١) ١٠٠ شفاء.

فصـــــل(١)

وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية، التي لا تنال العبارة كمالها، ولا يدرك الوصف حسنها، ولا تقترح عقول العقلاء ـ ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم ـ فوقها.

وحسب العقول الكاملة الفاضلة: أن أدركت حسنها، وشهدت بفضلها، وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها، فهي نفسها الشاهد والمشهود له، والحجة والمحتج له، والدعوى والبرهان. ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها؛ لكفى بها برهانًا وآية وشاهدًا على أنها من عند الله، وكلها شاهدة له: بكمال العلم وكمال الحكمة، وسعة الرحمة والبر والإحسان، والإحاطة بالغيب والشهادة، والعلم بالمباديء والعواقب، وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، فما أنعم عليهم بنعمة أجل من: أن هداهم لها، وجعلهم من أهلها، وممن ارتضاهم لها؛ فلهذا امتن على عباده بأن هداهم لها.

قال تعالى: **﴿لقد مَنَّ اللهُ على المؤْمنين إذْ بعثَ فيهم رَسُولاً من أنفسِهم يتلو عليهم آيـاتِهِ ويُزَكِّيهم ويُعَلِّمُهم الكتابَ والحِكْمةَ وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مُبينٍ﴾** [آل عمران: ١٦٤].

(٢) **فصل** وفي هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم في هذه الدنيا، وأتم وأطيب. وإن كانت أجسادهم متلاشية، ولحومهم متمزقة، وأوصالهم متفرقة، وعظامهم نخِرة؛ فليس العمل على الطَّلَل، إنما الشأن في الساكن.

قال الله تعالى: **﴿ولا تَحسَبنَّ الذين قُتِلُوا في سبيلِ اللهِ أمواتًا بلْ أَحْياءٌ عند ربِّهم يُرْزَقُون﴾** [آل عمران: ١٦٩]. وقال تعالى: **﴿ولا تقولوا لمن يقتلُ في سبيلِ اللهِ أمواتٌ بلْ أحياءٌ. ولكنْ لا تشعرون﴾** [البقرة: ١٥٤].

وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم؛ فما الظن بحياة الرسل في البرزخ؟ ولقد أحسن القائل ما شاء:

---

(١) ٣٠١ مفتاح جـ١.
(٢) ٢٨٢ مدارج جـ٣.

فالعيش نوم. والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة ـ التي هي يقظة من نوم الدنيا ـ أكملها وأتمها. وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم؛ يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها. والله المستعان.

...[1]**روي** عن أبي هريرة: أن أرواح الأبرار في عليين، وأرواح الفجار في سجين. وعن عبدالله بن عمرو مثل ذلك.

قال أبوعمرو: هذا قول يعارضه من السنة ما لا مدفع في صحة نقله، وهو قوله: «**إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي: إن كان من أهل الجنة؛ فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار؛ فمن أهل النار. يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة**».

وقال آخرون: إنما معنى هذا الحديث في الشهداء دون غيرهم؛ لأن القرآن والسنة إنما يدلان على ذلك.

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿**ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً بلْ أحياءٌ عند ربِّهم يُرزَقون فَرِحِين بما آتاهم الله من فضلِهِ**﴾[آل عمران: ١٦٩، ١٧٠]. الآية.

وأما الآثار: فذكر حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ من طريق بقي بن مخلد مرفوعًا: «**الشهداء يغدون ويروحون ثم يكون مأواهم إلى قناديل معلقة بالعرش، فيقول لهم الرب تبارك وتعالى: هل تعلمون كرامة أفضل من كرامة أكرمتكموها؟ فيقولون: لا. غير أنا وددنا أنك أعدت أرواحنا في أجسادنا حتى نقاتل مرة أخرى فنقتل في سبيلك**» ـ رواه عن هناد، عن إسماعيل بن المختار، عن عطية، عنه. ثم ساق حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله، ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم ـ يعني يوم أحد ـ جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق؛ لئلا ينكلوا عن الحرب ولا يزهدوا في**

---

(١) ١١٨ الروح.

الجهاد؟ قال: فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتًا بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزَقُون﴾ [آل عمران: ١٦٩]» والحديث في مسند أحمد وسنن أبي داود.

ثم ذكر حديث الأعمش: عن عبدالله بن مرة، عن مسروق قال: سألنا عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن هذه الآية: ﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتًا بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزَقُون﴾ فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: «**أرواحهم في جوف طير خضر تسرح في الجنة في أيها شاءت، ثم تأوي إلى** تلك القناديل، **فاطلع إليها ربك اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: وأي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا في** أجسادنا؛ **حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا.** والحديث في صحيح مسلم.

قلت: وفي صحيح البخاري: عن أنس، أن أم الربيع بنت البراء ـ وهي أم حارثة بن سراقة ـ أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة؟ ـ وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب ـ فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «**يا أم حارثة إنها جنان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**». ثم ساق من طريق بقي بن مخلد: حدثنا يحيى بن عبدالحميد، ثنا ابن عيينة، عن عبيدالله بن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول: أرواح الشهداء تجول في أجواف طير خضر، تعلق في ثمر الجنة.

...(١) **وقد** أخبر النبيُّ، ﷺ، بأن نسمة المؤمن وهي روحه، طائر يعلق في شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها.

وأخبر أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وأخبر أن الروح تنعم وتعذب في البرزخ إلى يوم القيامة.

وقد أخبر سبحانه عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهذه حياة أرواحهم ورزقها دار؛ وإلا فالأبدان قد تمزقت. وقد فسر رسول الله، ﷺ، هذه

(١) ٤٧ الروح.

الحياة بأن: «**أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة؛ حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى**».

وصح عنه، ﷺ، أن أرواح الشهداء في طير خضر تعلُق من ثمر الجنة (وتعلق بضم اللام أي تأكل العلقة).

وقال ابن عباس: قال رسول الله، ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم بأحد؛ جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب. فقال الله ـ عز وجل ـ أنا أبلغهم عنكم. فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتًا بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزَقُون﴾**[آل عمران: ١٦٩، ١٧١] الآيات» رواه الإمام أحمد.

وهذا صريح في أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها. وسيأتي مزيد تقرير لذلك عن قريب ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وإذا كان هذا شأن الأرواح، فتميزها بعد المفارقة؛ يكون أظهر من تميز الأبدان، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان، فإن الأبدان تشتبه كثيرًا، وأما الأرواح فقل ما تشتبه. . .

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة، وهم متميزون في علمنا أظهر تميز، وليس ذلك التميز راجعًا إلى مجرد أبدانهم، وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم ما يختص به أحدهم من الآخر؛ بل التميز الذي عندنا بها علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها، وتميز الروح عن الروح بصفاتها؛ أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته، ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيرًا، وبين روحيهما أعظم التباين والتميز، وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين

في الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين، فإذا تجردت هاتان الروحان؛ كان تميزهما في غاية الظهور. . .

...(١)**قوله** في الحديث الصحيح للرجل الذي قَضَى عليه، فقال: «حسبي الله ونعم الوكيل» فقال: «**إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل**»(٢) فهذا قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» بعد عجزه عن الكيس، الذي لو قام به لقضى له على خَصمه. فلو فعل الأسباب التي يكون بها كَيِّسًا، ثم غُلب، فقال: «حسبي الله ونعم الوكيل» لكانت الكلمة قد وقعت موقعها.

كما أن إبراهيم الخليل لما فعل الأسباب المأمور بها، ولم يعجز بتركها، ولا بترك شيء منها، ثم غلبه عدوه، وألقوه في النار، قال في تلك الحال: «**حسبي الله ونعم الوكيل**» فوقعت الكلمة موقعها، واستقرت في مظانها، فأثَّرت أثرها، وترتب عليها مقتضاها.

وكذلك رسول الله، ﷺ، وأصحابه يوم أحد، لما قيل لهم بعد انصرافهم من أحد: ﴿**إنَّ النـاسَ قد جَمَعُوا لكم فَاخْشَوهُم**﴾ [آل عمران: ١٧٣] فتجَهَّزوا، وخرجوا للقاء عدوهم، وأعطوهم الكَيْس من نفوسهم، ثم قالوا: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» فأثرت الكلمة أثرها، واقتضت موجبها.

ولهذا قال تعالى: ﴿**ومن يَتَّقِ اللهَ يجعـلْ له مَخرجًا ويرزُقْه من حيثُ لا يَحتَسِبُ ومَن يَتَـوكَّـلْ على الله فهـو حَسْبُـه**﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فجعل التوكل بعد التقوى، التي هي القيام بالأسباب المأمور بها. فحينئذ: إنْ توكل على الله، فهو حسبه.

وكما قال الله في موضع آخر: ﴿**واتَّقُوا اللهَ وعلَى اللهِ فَلْيَتَوكَّلِ المؤمنون**﴾ [المائدة: ١١]. فالتوكل والحَسْبُ بدون القيام بالأسباب المأمور بها؛ عجز محض. فإن كان مشوبًا بنوع من التوكل؛ فهو توكل عجز. فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا يجعل عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها، التي

---

(١) ٣٥ زاد المعاد جـ٢.

(٢) رواه أبو داود والنسائي من حديث عوف بن مالك، وفي إسناده بقية بن الوليد وفيه مقال.

لا يتم المقصود إلا بها كلها. ومن ههنا غلط طائفتان من الناس:

إحداهما: زعمت أن التوكل وحده؛ سبب مستقل كافٍ في حصول المراد، فعطّلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة الله، الموصلة إلى مسبِّباتها، فوقعوا في نوع تفريط وعجز، بحسب ما عِطّلوا من الأسباب، وضَعَفُ توكلهم من حيث ظنوا قوته بانفراده عن الأسباب. فجمعوا الهمَّ كله، وصيروه همًّا واحدًا.

وهذا ـ وإن كان فيه قوة من هذا الوجه ـ ففيه ضعف من جهة أخرى. فكلما قوي جانِب التوكل بإفراده؛ أضعفه التفريط في السبب الذي هو محل التوكل فإن التوكل محله؛ الأسباب، وكماله؛ بالتوكل على الله فيها.

وهذا كتوكل الحَرَّاث الذي شق الأرض، وألقى فيها البذر، فتوكل على الله في زرعه وإنباته. فهذا قد أعطى التوكل حقه، ولم يضعف توكله بتعطيل الأرض وتخليتها بُورًا. وكذلك توكل المسافر في قطع المسافة؛ مع جِدِّه في السير.

وتوكل الأكياس في النجاة من عذاب الله، والفوز بثوابه؛ مع اجتهادهم في طاعته. فهذا هو التوكل الذي يترتب عليه أثره، ويكون الله حَسْبَ من قام به.

وأما توكل العجز والتفريط فلا يترتب عليه أثره، وليس الله حسبَ صاحبه. فإن الله إنما يكون حسبَ المتوكل عليه؛ إذا اتَّقاه. وتقْوَاهُ: فعل الأسباب المأمور بها، لا إضاعتها.

والطائفة الثانية: التي قامت بالأسباب، ورأت ارتباط المسببات بها شرعًا وقَدَرًا، وأعرضت عن جانب التوكل. وهذه الطائفة ـ وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته ـ فليس لها قوة أصحاب التوكل، ولا عَوْنُ الله لهم، وكفايته إياهم، ودفاعه عنهم؛ بل هي مخذولة عاجزة بحسب ما فاتها من التوكل.

فالقوة كل القوة في التوكل على الله، كما قال بعض السلف: «من سره أن يكون أقوى الناس؛ فليتوكل على الله» فالقوة مضمونة للمتوكل، والكفاية والحسب والدفع عنه، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما ينقص من التقوى والتوكل، وإلا فمع تحققه بهما؛ لابد أن يجعل الله له مخرجًا من كل ما ضاق على الناس، ويكون الله حَسْبَه وكافيه.

والمقصود : أن النبي ، ﷺ ، أرشـد العبد إلى ما فيه غاية كماله ، ونَيْل مطلوبه : أن يحرص على ما ينفعه ، ويبذل فيه جهده . وحينئذ ينفعه التحسب ، وقول : «حسبي الله ونعم الوكيل» بخلاف من عجز وفرّط ، حتى فاتته مصلحته ، ثم قال : «حسبي الله ونعم الوكيل» فإن الله يلومه ، ولا يكون في هذا الحال حَسْبَه ، فإنما هو حسبُ من اتَّقاه ، وتوكل عليه .

(١) **قاعدة** التوكل على الله نوعان : أحدهما : توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية ، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية .

والثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه : من الإيمان واليقين ، والجهاد والدعوة إليه ، وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله .

فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله ؛ كفاه النوع الأول تمام الكفاية ، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني ؛ كفاه أيضًا ، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه .

فأعظم التـوكـل عليه : التـوكـل في الهـداية ، وتجريد التوحيد ، ومتابعة الرسول ، وجهاد أهل الباطل ، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم .

والتوكل: تارة يكون توكل اضطرار وإلجاء ؛ بحيث لا يجد العبد ملجأً ولا وزرًا إلا التوكل ؛ كما إذا ضاقت عليه الأسباب وضاقت عليه نفسه ، وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه . وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير ألبتة .

وتارة يكون توكل اختيار ؛ وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد :

فإن كان السبب مأمورًا به ؛ ذم على تركه . وإن قام بالسبب وترك التوكل ؛ ذم على تركه أيضًا ، فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن ، والواجب القيام بهما والجمع بينهما . وإن كان السبب محرماً ؛ حرم عليه مباشرته ، وتوحد السبب في حقه في التوكل ، فلم يبق سبب سواه ، فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه ؛ بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق .

وإن كان السبب مباحاً ؛ نظرت : هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه؟

---

(١) ٨٥ فوائد .

فإن أضعفه وفرق عليك قلبك وشتت همك؛ فتركه أولى. وإن لم يضعفه؛ فمباشرته أولى؛ لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به، فلا تعطل حكمته مهما أمكنك القيام بها؛ ولاسيما إذا فعلته عبودية، فتكون قد أتيت: بعبودية القلب بالتوكل، وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة.

والذي يحقق التوكل؛ القيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطلها لم يصح توكله.

كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه، فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيًا، كما أن من عطلها يكون توكله عجزًا، وعجزه توكلاً.

وسر التوكل وحقيقته؛ هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب؛ مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: «توكلت علي الله» مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به.

فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء.

كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء. فقول العبد: «توكلت على الله» مع اعتماد قلبه على غيره، مثل قوله «تبت إلى الله» وهو مصر على معصيته مرتكب لها.

فصل[1]

ومن كيد عدو الله تعالى: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر؛ وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا فقال: ﴿إنما ذٰلِكم الشّيطَانُ يُخَوِّف أولياءَه فلا تَخافُوهُم وخافُون إنْ كُنْتُم مُؤْمِنينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

المعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه. قال قتادة: «يعظمهم في صدوركم، ولهذا قال: فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين. فكلما قوي إيمان العبد؛ زال من قلبه خوف أولياء الشيطان وكلما ضعف إيمانه؛ قوي خوفه منهم».

ومن مكايده أنه يسحر العقل دائمًا حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذي يضره؛ حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء.

---

(١) ١١٠ إغاثة جـ١

وينفِّر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له، حتى يخيِّل له أنه يضره.

فلا إله إلا الله. كم فتن بهذا السحر من إنسان!

وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان!

وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة، وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة! وكم بَهْرَج من الزُّيوف على الناقدين!

وكم روّج من الزغل على العارفين! فهو الذي سحر العقول؛ حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات، ووعدهم الفوز بالجنات؛ مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس، وحسن الخلق معهم، والعمل بقوله: ﴿عَلَيْكُم أنفسكم﴾ [المائدة: ١٠٥]. والإعراض عما جاء به الرسول، ﷺ، في قالب التقليد، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم، والنفاق والإدهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بين الناس...

(١)**وقد** أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿فلا تخافوهم وخافونِ إنْ كُنْتُم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٧٥] فجعل الخوف منه شرطًا في تحقق الإيمان، وإن كان الشرط داخلاً في الصيغة على الإيمان؛ فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط في حصوله وتحققه، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقق السبب، كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه، فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه. وانتفاء الخوف عند انتفاء الإيمان؛ انتفاء للمعلول عند انتفاء علته. فتدبره.

والمعنى: إن كنتم مؤمنين فخافوني. والجزاء محذوف مدلول عليه بالأول عند سيبويه وأصحابه، أو هو المتقدم نفسه، وهو جزاء وإن تقدم كما هو مذهب الكوفيين.

---

(١) ٢٨٢ طريق الهجرتين.

وعلى التقديرين: فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان، وكل منهما مستلزم للآخر. لكن الاستلزام مختلف، وكل منهما منتفٍ عند انتفاء الآخر، لكن جهة الانتفاء مختلفة كما تقدم.

والمقصود: أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته؛ فلا يختلف عنه.

وقال تعالى: ﴿**فلا تَخْشَوا الناسَ واخْشَونِ**﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿**إنَّهم كانُوا يُسارعون في الخيراتِ ويدعُونَنا رغبًا ورهبًا**﴾ [الأنبياء: ٩٠]. فالرغب: الرجاء والرغبة. والرهب: الخوف والخشية...

فصل(١)

اعلم أن من أعظم حكمة الرب وكمال قدرته ومشيئته؛ خلق الضدين؛ إذ بذلك: تعرف ربوبيته وقدرته وملكه، كالليل والنهار، والحر والبرد، والعلو والسفل، والسماء والأرض، والطيب والخبيث، والداء والدواء، والألم واللذة، والحسن والقبيح. فمن كمال قدرته وحكمته خلق جبريل وخلقك، فخلق أطيب الأرواح وأزكاها وأطهرها وأفضلها، وأجرى على يديه كل خير، وخلق أنجس الأرواح وأخبثها وأرداها وأجرى على يديه كل شر وكفر وفسوق ومعصية، وجعل الطيب منحازًا إلى تلك الروح، والخبيث منحازًا إلى هذه الروح. فتلك مغناطيس كل طيب، وهذه مغناطيس كل خبيث وأي حكمة أبلغ من هذا؟

يوضحه: أن المادة الأرضية مشتملة على الطيب والخبيث، وقد اقتضت الحكمة أن خلق منها آدم وذريته؛ فلابد أن يأتي بنو آدم كذلك مشاكلتهم لمادتهم. والمادة النارية فيها الخير والشر؛ فلابد أن يأتي المخلوق منها كذلك. والله تعالى يريد تخليص الطيب من المادة الأرضية من الخبيث؛ ليجعل الطيب مجاورًا له في دار كرامته مختصًا برؤيته والقرب منه. ويجعل الخبيث في دار الخبث، حظه: البعد منه والهوان والطرد والإبعاد؛ إذ لا يليق بحمده وحكمته وكماله أن يكون مجاورًا له في داره مع الطيبين. فأخرج من المادة النارية من جعله: محركًا للنفوس، داعيًا لها إلى

(١) ٣٣٩ مختصر الصواعق جـ١.

محل الخبث؛ لتنجذب إليه النفوس الخبيثة بالطبع وتميل إليه بالمناسبة؛ فتتحيز إلى ما يناسبها وما هو أولى بها؛ حكمة ومصلحة وعدلاً، لا يظلمها في ذلك بارئها وخالقها؛ بل أقام داعيًا يظهر بدعوته إياها واستجابتها له، ما كان معلومًا لبارئها وخالقها من أحوالها، وكان خفيًا على العباد. فلما استجابت لأمره ولبت دعوته، وآثرت طاعته على طاعة ربها ووليها الحق الذي تتقلب في نعمه وإحسانه؛ ظهر لملائكته ورسله وأوليائه حكمته وعدله: في تعذيب هذه النفوس، وطردها عنه، وإبعادها عن رحمته. وأقام للنفوس الطيبة داعيًا يدعوها إليه وإلى مرضاته وكرامته، فلبت دعوته واستجابت لأمره؛ فعلم عباده حكمته في تخصيصها بمثوبته وكرامته، فظهر لهم حمده التام وحكمته البالغة في الأمرين، وعلموا أن خَلْقَ عدو الله إبليس وجنوده وحزبه، وخلق وليه وعبده جبريل وجنوده وحزبه؛ هو عين الحكمة والمصلحة، وأن تعطيل ذلك منافٍ لمقتضى حكمته وحمده.

يوضحه: أن من لوازم ربوبيته تعالى وإلهيته؛ إخراج الخبأ في السموات والأرض: من النبات والأقوات والحيوان والمعادن وغيرها. وخبأ السموات ما أودعها من أمره الذي يخرجه كل وقت بفعله وأمره. وهذا من تدبيره لملائكته وتصرفه في العالم العلوي والسفلي. فبإخراج هذا الخبأ؛ تظهر قدرته ومشيئته وعلمه وحكمته. وكذلك النفوس فيها خبأ كامن يعلمه سبحانه منها؛ فلابد أن يقيم أسبابًا يظهر بها خبأ النفوس الذي كان كامنًا فيها. فإذا صار ظاهرًا عيانًا؛ ترتب عليه أثره؛ إذ لم يكن يترتب على نفس العلم به، دون أن يكون معلومًا واقعًا في الوجود. قال تعالى: ﴿ما كان اللهُ ليذَرَ المؤمنين على ما أنْتُم عليه حتَّى يميزَ الخبيثَ من الطَّيِّب﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿وهو الذي خَلَقَ السَّمٰوات والأرْضَ في ستَّةِ أيَّام وكان عَرْشُهُ عَلىٰ الماءِ ليبْلُوكَمْ أيُّكم أحْسَنُ عَملاً﴾ [هود: ٧]. فأخبر أنه خلق العالم العلوي والسفلي؛ ليبلو عباده؛ فيظهر من يطيعه ويحبه ويجله ويعظمه، ممن يعصيه ويخالفه. وهذا الابتلاء والامتحان؛ يستلزم أسبابًا يحصل بها، فلابد من خلق أسبابه؛ ولهذا لما كان من أسبابه خلق الشهوات ومايدعو إليها وتزيينها؛ فعل ذلك.

وقال تعالى: ﴿إنَّـا جَعَلْنَا مَاعَلى الأرض زِينَةً لَها لنَبْلُوهمْ أيُّهمْ أحسنُ

عَمَلًا﴾ [الكهف:٧]. فهذه ثلاثة مواضع في القرآن تبين حكمته في خلق أسباب الابتلاء والاختبار.

فظهر أن من بعض الحكم في خلق عدو الله: إخراج خبأ النفوس الخبيثة، التي شرها وخبثها؛ كامن فيها فأخرج خبأها بزناد دعوته، كما يخرج خبأ النار بقدح الزناد، وكما يخرج خبأ الأرض بإنزال الماء عليها، وكما يخرج خبأ الأنثى بلقاح الذكر لها، وكما يخرج خبأ القلوب الزاكية بإنزال وحيه وكلامه عليه، فكم له سبحانه من حكمة بالغة، وآية ظاهرة في خلق عدوه إبليس!

فإن من كمال الحكمة والقدرة؛ إظهار شرف الأشياء الفاضلة بأضدادها: فلولا الليل؛ لم يظهر فضل النهار ونوره وقدره، ولولا الآلم؛ لم يعرف فضل اللذة وشرفها وقدرها، ولولا المرض؛ لم يعرف فضل العافية، ولولا وجود قبح الصورة؛ لم يظهر فضل الحسن والجمال؛ ولهذا كان خلق النار وعذاب أهلها فيها؛ أعظم لنعيم أهل الجنة وأبلغ في معرفة قدرها وخطرها. فكان خلق هذا القبيح الشنيع المنظر والمخبر، الذي صورته؛ أشنع من باطنه، وباطنه؛ أقبح من صورته؛ مكملاً لحسن تلك الروح الزكية الفاضلة التي كمل الله تعالى بصورتها جمال الظاهر والباطن. فلو كان الخلق كلهم على حسن يوسف مثلاً فأي فضيلة وتمييز يكون له؟ ولو كانت الكواكب كلها شموسًا وأقمارًا. فأي مزية كانت تكون للنيرين؟

(١)**وقد** اصطفى الله من خلقه أنبياء أنبأهم من أنباء الغيب بما يشاء، وأطلعهم منها على ما لم يطلع عليه غيرهم.

كما قال تعالى: ﴿مَاكَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَاأَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يميزَ الخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ومَاكَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَىٰ الغَيْبِ ولَكِنَّ اللهَ يجتبي من رُسُلِه من يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿عالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إلَّا من ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فإنَّه يسلُكُ من بين يديه ومن خلفِهِ رصدًا﴾ [الجن، ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفي من الملائِكَةِ رُسُلاً ومِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ

---

(١) ١٤٨ مختصر الصواعق جـ١.

بَصيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

فهو سبحانه يصطفي من يطلعه من أنباء الغيب على ما لم يطلع عليه غيره.

وكذلك سمى نبيًّا من الإنباء، وهو الإخبار؛ لأنه مخبر من جهة الله ومخبر عنه، فهو منبأ، ومنبىء. وليس كل ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون خبرهم؛ بل ولا أكثره.

ولهذا كان أكمل الأمم علمًا أتباع الرسل؛ وإن كان غيرهم أحذق منهم في علم: النجوم والهندسة، وعلم الكم المتصل والمنفصل، وعلم النبض والقارورة، والأبوال ومعرفة قوامها، ونحوها من العلوم التي لما جاءتهم رسلهم بالبينات؛ فرحوا بما عندهم من العلم بها، وآثروها على علوم الرسل. وهي كما قال الواقف على نهاياتها: «ظنون كاذبة، وإن بعض الظن إثم» وهي علوم غير نافعة ـ فنعوذ بالله من علم لا ينفع ـ وإن نفعت؛ فنفعها بالنسبة إلى علوم الأنبياء، كنفع العيش العاجل بالنسبة إلى الآخرة ودوامها.

فليس العلم في الحقيقة إلا ما أخبرت به الرسل عن الله ـ عز وجل ـ طلبًا وخبرًا، فهو العلم: المزكي للنفوس، المكمل للفطر، المصحح للعقول الذي خصه الله باسم العلم، وسمى ما عارضه ظنًّا لا يغني من الحق شيئًا وخرصًا وكذبًا، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فيه مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ العِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١].

وشهد لأهله: أنهم أولو العلم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ والإِيمانَ لَقَد لبِثْتُم في كتاب الله إلى يوم البَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ والملائكةُ وأولُوا العِلْمِ قائمًا بالقِسْطِ لا إلَه إلا هو العزيزُ الحكيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. والمراد بهم: أولو العلم بما أنزله على رسله، ليس المراد بهم أولي العلم بالمنطق والفلسفة وفروعهما.

وقال تعالى: ﴿ولا تَعْجَلْ بَالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إليك وحْيُهُ وقلْ ربِّ زِدْني علمًا﴾. [طه: ١١٤] فالعلم الذي أمره باستزادته هو علم الوحي، لا علم الكلام والفلسفة.

(١)**معرفة** الله ـ سبحانه ـ نوعان:

---

(١) ١٦٩ فوائد.

معرفة إقرار: وهي التي اشترك فيها الناس: البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

والثاني: معرفة توجب: الحياء منه والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته والإنابة إليه، والأنس به والفرار من الخلق إليه. وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم، وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم، وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها.

وقد قال أعرف الخلق به: **«لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»**.

وأخبر أنه ـ سبحانه ـ يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن.

ولهذا المعرفة بابان واسعان:

باب التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله.

والباب الثاني: التفكر في آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها، وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله، وقيامه بالقسط على خلقه.

وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى، وجلالها وكمالها، وتفرده بذلك، وتعلقها بالخلق والأمر؛ فيكون فقيهًا في أوامره ونواهيه؛ فقيهًا في قضائه وقدره، فقيهًا في أسمائه وصفاته، فقيهًا في الحكم الديني الشرعي، والحكم الكوني القدري، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

...[1]**فإن قيل:** فقد ذكرتم الفكر ومنفعته، وعظم تأثيره في الخير والشر فما متعلقه الذي ينبغي أن يوقع عليه ويجري فيه؟ فإنه لا يتم المقصود منه إلا بذكر متعلقه الذي يقع الفكر فيه، وإلا ففكر بغير متفكر فيه محال.

قيل: مجرى الفكر ومتعلقه أربعة أمور:

أحدهما: غاية محبوبة مرادة الحصول. الثاني: طريق موصلة إلى تلك الغاية.

الثالث: مضرة مطلوبة الإعدام مكروهة الحصول.

الرابع: الطريق المفضي إليها الموقع عليها. فلا تتجاوز أفكار العقلاء هذه الأمور الأربعة. وأي فكر تخطاها؛ فهو من الأفكار الردية والخيالات والأماني

(١) ١٨٣ مفتاح جـ١.

الباطلة. كما يتخيل الفقير المعدم نفسه، من أغنى البشر، وهو يأخذ ويعطي وينعم ويحرم.

وكما يتخيل العاجز نفسه، من أقوى الملوك، وهو يتصرف في البلاد والرعية.

ونظير ذلك من أفكار القلوب الباطولية، التي من جنس أفكار السكران والمحشوش والضعيف العقل. فالأفكار الردية هي قوت الأنفس الخسيسة، التي هي في غاية الدناءة، فإنها قد قنعت بالخيال ورضيت بالمحال، ثم لاتزال هذه الأفكار تقوى بها وتتزايد؛ حتى توجب لها آثاراً ردية، ووساوس وأمراضاً بطيئة الزوال.

وإذا كان الفكر النافع لا يخرج عن الأقسام الأربعة التي ذكرناها؛ فله أيضًا محلان ومنزلان: أحدهما: هذه الدار. والآخر: دار القرار.

فأبناء الدنيا الذين ليس لهم في الآخرة من خلاق؛ عمروا بيوت أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة في هذه الدار، فأثمرت لهم أفكارهم فيها ما أثمرت؛ ولكن إذا حقت الحقائق وبطلت الدنيا، وقامت الآخرة؛ تبين الرابح من المغبون وخسر هنالك المبطلون.

وأبناء الآخرة الذين خلقوا لها؛ عمروا بيوت أفكارهم على تلك الأقسام الأربعة فيها.

ونحن نفصل ذلك بعون الله وفضله فنقول: كل طالب لشيء؛ فهو محب له، مؤثر لقربه، ساع في طريق تحصيله، متوصل إليه بجهده. وهذا يوجب له: تعلق أفكاره بجمال محبوبه وكماله وصفاته التي يحب لأجلها، وتعلقها بما يناله به من الخير والفرح والسرور. ففكره في حال محبوبه دائر بين الجمال والإجمال والحسن والإحسان. فكلما قويت محبته؛ ازداد هذا الفكر وقوي وتضاعف؛ حتى يستغرق أجزاء القلب، فلا يبقى فيه فضل لغيره؛ بل يصير بين الناس بقالبه، وقلبه كله في حضرة محبوبه.

فإن كان هذا المحبوب، هو المحبوب الحق الذي لا تنبغي المحبة إلا له، ولا يحب غيره إلا تبعًا لمحبته؛ فهو أسعد المحبين به، وقد وضع الحب موضعه، وتهيأت نفسه لكمالها الذي خلقت له، والذي لا كمال لها بدونه بوجه. وإن كانت تلك المحبة لغيره من المحبوبات الباطلة المتلاشية، التي تفنى وتبقى حزازات القلوب بها على حالها فقد وضع المحبة في غير موضعها، وظلم نفسه أعظم ظلم

وأقبحه، وتهيأت بذلك نفسه لغاية شقائها وألمها.

وإذا عرف هذا؛ عرف أن تعلق المحبة بغير الإله الحق؛ هو عين شقاء العبد وخسرانه. فأفكاره المتعلقة بها كلها باطلة، وهي مضرة عليه في حياته وبعد موته. والمحب الذي قد ملك المحبوب أفكار قلبه؛ لا يخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه أو بنفسه، ثم فكره في محبوبه لا يخرج عن حالتين:

إحداهما: فكرته في جماله وأوصافه.

والثانية: فكرته في أفعاله وإحسانه وبره ولطفه، الدالة على كمال صفاته.

وإن تعلق فكره بنفسه؛ لم يخرج أيضًا عن حالتين:

إما أن يفكر في أوصافه المسخوطة، التي يبغضها محبوبه ويمقته عليها ويُسقطه من عينه، فهو دائمًا يتوقع بفكره عليها ليتجنبها ويبعد منها.

والثانية: أن يفكر في الصفات والأخلاق والأفعال التي تقربه منه وتحببه إليه؛ حتى يتصف بها.

فالفكرتان الأوليان؛ توجب له زيادة محبته وقوتها وتضاعفها والفكرتان الآخرتان؛ توجب محبة محبوبه له وإقباله عليه وقربه منه وعطفه عليه وإيثاره على غيره. فالمحبة التامة مستلزمة لهذه الأفكار الأربعة.

فالفكرة الأولى والثانية؛ تتعلق بعلم التوحيد وصفات الإله المعبود سبحانه وأفعاله.

والثالثة والرابعة؛ تتعلق بالطريق الموصلة إليها وقواطعها وآفاتها وما يمنع من السير فيها إليه .فتفكره في صفات نفسه يميز له المحبوب لربه منها من المكروه له.

وهذه الفكرة توجب ثلاثة أمور:

أحدها: أن هذا الوصف هل هو مكروه مبغوض لله أم لا؟

الثاني: هل العبد متصف به أم لا؟

والثالث: إذا كان متصفًا به فما طريق دفعه والعافية منه؟

وإن لم يكن متصفًا به فما طريق حفظ الصحة وبقائه على العافية والاحتراز منه.

وكذلك الفكرة في الصفة المحبوبة تستدعي ثلاثة أمور:

أحدها: أن هذه الصفة هل هي محبوبة لله مرضية له أم لا؟

الثاني: هل العبد متصف بها أم لا؟

الثالث: أنه إذا كان متصفًا بها فما طريق حفظها ودوامها؟

وإن لم يكن متصفًا بها فما طريق اجتلائها والتخلق بها؟ ثم فكرته في الأفعال على هذين الوجهين أيضًا سواء.

ومجاري هذه الأفكار ومواقعها كثيرة جدًا لا تكاد تنضبط.

وإنما يحصرها ستة أجناس: الطاعات الظاهرة والباطنة، والمعاصي الظاهرة والباطنة، والصفات والأخلاق الحميدة والأخلاق والصفات الذميمة. فهذه مجاري الفكرة في صفات نفسه وأفعالها.

وأما الفكرة في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه، فتوجب له التمييز: بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والإقرار والتعطيل، وتنزيه الرب عما لا يليق به، ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام.

ومجاري هذه الفكرة: تدبر كلامه، وما تعرف به سبحانه إلى عباده على ألسنة رسله: من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه، وتدبر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه، التي قصها على عباده وأشهدهم إياها؛ ليستدلوا بها على أنه إلههم الحق المبين، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويستدلوا بها على أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، وأنه شديد العقاب، وأنه غفور رحيم، وأنه العزيز الحكيم، وأنه الفعال لما يريد، وأنه الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأن أفعاله كلها دائرة: بين الحكمة والرحمة، والعدل والمصلحة؛ لا يخرج شيء منها عن ذلك.

وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه والنظر في آثار أفعاله.

وإلى هذين الأصلين؛ ندب عباده في القرآن فقال في الأصل الأول: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُون القُرْآنَ**﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤]. ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القولَ**﴾ [المؤمنون: ٦٨]. ﴿**كتابٌ أنزلنا إليك مُباركٌ ليدبروا آياتِهِ**﴾ [ص: ٢٩]. ﴿**إنَّا أنزَلناه قُرآنًا عربيًا لعلَّكم تَعْقِلُون**﴾ [يوسف: ٢]. ﴿**كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون**﴾[فصلت: ٣].

وقال في الأصل الثاني: ﴿**قُلِ انظُروا مَاذَا في السَّمواتِ والأرْضِ**﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿**إنَّ في خلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ الذين يَذْكُرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جُنُوبِهم ويَتَفكرون في خَلْقِ**

السمواتِ والأرض﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

﴿إن في السمواتِ والأرض لأياتٍ للمؤمنين وفي خلقِكم وما يَبُثُّ من دابَّةٍ آياتٌ لقومٍ يوقنون. واختلافِ الليلِ والنهارِ وما أنزل اللهُ من السماءِ من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٌ لقومٍ يعقلون﴾ [الجاثية: ٣-٥]. **﴿أولَم يَسيرُوا في الأرض فينظروا كيفَ كان عاقبةُ الذين كانوا من قَبْلِهم﴾** [غافر: ٢١]. **﴿قُل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلُ﴾** [الروم: ٤٢]. **﴿ومن آياتِهِ أن خَلَقَكم من ترابٍ ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون ومن آياتِهِ أن خَلَقَ لكم من أنفسِكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعلَ بينكم مودةً ورحمةً إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون ـ إلى قوله ـ ومن آياتِهِ أن تقومَ السَّماءُ والأرضُ بأمره﴾** [الروم: ٢٠ ـ ٢٥].

ونوع سبحانه الآيات في هذه السور؛ فجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم؛ آيات للعالمين كلهم؛ لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته.

وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال، وإلقاء المودة والرحمة بينهم؛ آيات لقوم يتفكرون. فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم؛ أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة؛ فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك؛ دله فكره على أنه الإله الحق المبين، الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلاهيته وحكمته ورحمته.

وجعل المنام بالليل والنهار؛ للتصرف في المعاش وابتغاء فضله؛ آيات لقوم يسمعون. وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل: من حياة العباد بعد موتهم، وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم. فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل، وأصغى إليه، واستدل بهذه الآية عليه.

وجعل إراءتهم البرق، وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به؛ آيات لقوم يعقلون. فإن هذه أمور مرئية بالأبصار مشاهدة بالحس. فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله؛ استدل بها: على وجود الرب تعالى، وقدرته وعلمه، ورحمته

وحكمته، وإمكان ماأخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم، كما أحيا هذه الأرض بعد موتها. وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل؛ فإن الحس دل على الآية،والعقل دل على ما جعلت له آية؛ فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر، والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال: ﴿ومن آياتِهِ يريكم البرقَ خوفًا وطمعًا ويُنَزِّلُ من السماء ماءً فيحيي به الأرضَ بعد موتِها إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾ [الروم: ٢٤] فتبارك الذي جعل كلامه: حياة للقلوب، وشفاء لما في الصدور.

وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث: المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا والتفويض، والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله.

وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة، التي بهاد فساد القلب وهلاكه.

فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر؛ لاشتغلوا بها عن كل ما سواها. فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه؛ كررها ـ ولو مائة مرة، ولو ليلة ـ فقراءة آية بتفكر وتفهم؛ خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى: حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن.

وهذه كانت عادة السلف؛ يردد أحدهم الآية إلى الصباح.

وقد ثبت عن النبي، ﷺ، أنه قام بآية يرددها حتى الصباح، وهي قوله: ﴿إنْ تُعَذِّبهُم فإنَّهم عبادُك وإن تَغْفِرْ لهم فإنَّك أنتَ العزيزُ الحكيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فقراءة القرآن بالتفكر؛ هي أصل صلاح القلب.

ولهذا قال ابن مسعود: «لا تهذوا القرآن هذَّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، لا يكن هم أحدكم آخر السورة».

وروى أبو أيوب، عن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث. قال: «لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة، فأتدبرها، وأرتلها؛ أحب إلي من أن أقرأ القرآن كما تقرأ». والتفكر في القرآن نوعان:

تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه.

وتفكر في معاني ما دعا عباده إلى التفكر فيه.

فالأول: تفكر في الدليل القرآني. والثاني: تفكر في الدليل العياني.

الأول: تفكر في آياته المسموعة، والثاني: تفكر في آياته المشهودة؛ ولهذا أنزل الله القرآن؛ ليتدبر ويتفكر فيه، ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه.

قال الحسن البصري: «أنزل القرآن ليعمل به؛ فاتخذوا تلاوته عملاً».

(١)الباب العشرون

في طلب أهل الجنة لها من ربهم وطلبها لهم وشفاعتها فيهم إلى ربها عز وجل

قال الله تعالى؛ حكاية عن أولي الألباب من عباده قولهم: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مناديًا ينادي للإيمانِ أن آمنوا بربِّكم فآمنَّا ربَّنا فاغفرْ لنا ذُنُوبَنا وكفِّرْ عنا سيئاتِنا وتوفَّنا مع الأبرارِ ربَّنا وآتِنا ما وعدتنا على رُسُلكَ ولا تُخْزِنا يومَ القيامةِ إنَّك لا تخلفُ الميعادَ**﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤]. والمعنى: وآتنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من دخول الجنة.

وقالت طائفة: معناه: وآتنا ما وعدتنا على الإيمان برسلك، وليس بسهل حذف الاسم والحرف معاً؛ إلا أن يقدر على تصديق رسلك؛ وطاعة رسلك؛ وحينئذ فيتكافأ التقديران.

ويترجح الأول بأنه قد تقدم قولهم: ﴿**ربَّنا إنَّنا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان أن آمنُوا بربِّكم فآمنَّا**﴾ [آل عمران: ١٩٣] وهذا صريح في الإيمان بالرسول والمرسل.

ثم توسلوا إليه بإيمانهم أن يؤتيهم: ما وعدهم على ألسنة الرسل، فإنهم إنما سمعوا بوعدهم لهم بذلك من الرسل، وذلك أيضًا يتضمن: التصديق بهم، وأنهم بلغوهم وعده فصدقوا به، وسألوه أن يؤتيهم إياه. وهذا هو الذي ذكره السلف والخلف في الآية.

وقيل: المعنى: آتنا ما وعدتنا من النصر والظفر على ألسنة الرسل. والأول أعم وأكمل.

---

(١) ٦٧ حادي الأرواح.

وتأمل كيف تضمن إيمانهم به: الإيمان بأمره ونهيه، ورسله ووعده ووعيده، وأسمائه وصفاته، وأفعاله وصدق وعده، والخوف من وعيده، واستجابتهم لأمره. فبمجموع ذلك؛ صاروا مؤمنين بربهم. فبذلك صح لهم التوسل إلى سؤال ما وعدهم به، والنجاة من عذابه.

وقد أشكل على بعض الناس سؤالهم: أن ينجز لهم وعده مع أنه فاعل لذلك ولابد.

وأجاب بأن هذا تعبد محض كقوله: ﴿**ربِّ احكمْ بالحقِّ**﴾ [الأنبياء: ١١٢] وقول الملائكة: ﴿**فاغفرْ للذين تابوا واتبعوا سبيلَك**﴾ [غافر: ٧].

وخفي على هؤلاء؛ أن الوعد معلق بشروط منها؛ الرغبة إليه سبحانه وتعالى، وسؤاله أن ينجزه لهم، كما أنه معلق بالإيمان وموافاتهم به، وأن لا يلحقه ما يحبطه. فإذا سألوه سبحانه أن ينجز لهم ما وعدهم؛ تضمن ذلك: توفيقهم، وتثبيتهم، وإعانتهم على الأسباب التي ينجز لهم بها وعده؛ فكان هذا الدعاء من أهم الأدعية وأنفعها، وهم أحوج إليه من كثير من الأدعية.

وأما قوله: ﴿**ربِّ احْكُمْ**﴾ [الأنبياء: ١١٢]. فهذا سؤال له سبحانه وتعالى أن ينصرهم على أعدائهم؛ فيحكم لهم عليهم بالنصر والغلبة.

وكذا سؤال الملائكة ربهم أن يغفر للتائبين؛ هو من الأسباب التي يوجب بها لهم المغفرة، فهو سبحانه نصب الأسباب التي يفعل بها ما يريده بأوليائه وأعدائه، وجعلها أسبابًا لإرادته، كما جعلها أسبابًا لوقوع مراده، فمنه السبب والمسبب.

وإن أشكل عليك ذلك؛ فانظر إلى خلقه الأسباب التي توجب محبته وغضبه، فهو يحب ويرضى ويغضب ويسخط عن الأسباب التي خلقها وشاءها، فالكل منه وبه مبتدأ من مشيئته وعائد إلى حكمته وحده. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد لا يلجه إلا العالمون بالله.

ونظير هذه الآية في سؤاله ما وعد به؛ قوله تعالى: ﴿**قُلْ أذلك خيرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلدِ التي وُعِدَ المتقون كانتْ لهم جزاءً ومصيراً لهم فيها ما يشاءُون خالدين كان على ربِّك وعدًا مسئولاً**﴾ [الفرقان: ١٥، ١٦].

...[1]**أثنى** تعالى على عباده المتفكرين في مخلوقاته؛ بأنهم أوصلهم فكرهم فيها إلى شهادتهم: بأنه تعالى لم يخلقها باطلاً، وأنهم لما علموا ذلك وشهدوا به؛ علموا أن خلقها يستلزم: أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، فذكروا في دعائهم هذين الأمرين فقالوا: **﴿ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانَك فقِنَا عذابَ النارِ ربَّنا إنَّكَ من تُدخلِ النارَ فقد أخزيتَه وما للظالمين من أنصارٍ﴾** [آل عمران: ١٩١، ١٩٢].

فلما علموا أن خلق السموات والأرض؛ يستلزم الثواب والعقاب؛ تعوذوا بالله من عقابه.

ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السموات والأرض فقالوا: **﴿ربَّنا إننا سَمِعْنا مناديًا ينادي للإيمانِ أن آمِنُوا بربِّكم فآمَنَّا﴾** [آل عمران: ١٩٣].

فكانت ثمرة فكرهم في خلق السموات والأرض: الإقرار به تعالى، وبوحدانيته وبدينه، وبرسله، وبثوابه وعقابه، فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم؛ إلى مغفرة ذنوبهم، وتكفير سيئاتهم، وإدخالهم مع الأبرار إلى جنته التي وعدهموها. وذلك تمام نعمته عليهم؛ فتوسلوا بإنعامه عليهم، أولاً إلى إنعامه عليهم آخرًا، وتلك وسيلة بطاعته إلى كرامته، وهو إحدى الوسائل إليه، وهي الوسيلة التي أمرهم بها في قوله: **﴿ياأيُّها الذين آمنوا اتَّقُوا الله وابْتَغُوا إليه الوسيلةَ﴾** [المائدة: ٣٥].

وأخبر عن خاصة عباده أنهم يبتغون الوسيلة إليه؛ إذ يقول تعالى: **﴿أولئك الذين يَدْعُون يبتغون إلى ربِّهم الوسيلَةَ أيُّهم أقربُ﴾** [الإسراء: ٥٧]. على أن في هاتين الآيتين أسرارًا بديعة، ذكرتها في كتاب (التحفة المكية في بيان الملة الإبراهيمية) فأثمر لهم فكرهم الصحيح في خلق السموات والأرض؛ أنها لم يخلقها باطلاً، وأثمر لهم: الإيمان بالله ورسوله، ودينه وشرعه، وثوابه وعقابه، والتوسل إليه بطاعته، والإيمان به. وهذا الذي ذكرناه في هذا الفصل؛ قطرة من بحر لا ساحل له فلا تستطله؛ فإنه كنز من كنوز العلم لا يلائم كل نفس ولا يقبله كل محروم. والله يختص برحمته من يشاء.

(١) ١٦٦ بدائع جـ٤.

[1]**فصل** والشر المستعاذ منه نوعان: أحدهما: موجود يطلب رفعه.

والثاني: معدوم يطلب بقاؤه على العدم وأن لا يوجد.

كما أن الخير المطلق نوعان:

أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه.

والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله.

فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين وعليها مدار طلباتهم. وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى؛ حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا**﴾ [آل عمران: ١٩٣]. فهذا الطلب لدفع الشر الموجود. فإن الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه.

ثم قال: ﴿**وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ**﴾ فهذا طلب لدوام الخير الموجود، وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه. فهذان قسمان.

ثم قال: ﴿**رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ**﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه. ثم قال: ﴿**وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم، وهو خزي يوم القيامة، فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب، قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما: المغفرة، ودوام الإسلام إلى الموت، ثم اتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة وهما: أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة.

فإذا عرف هذا فقوله، ﷺ، في تشهد الخطبة: «**ونعوذ باللهِ من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**» يتناول الاستعاذة من شر النفس الذي هو معدوم؛ لكنه فيها بالقوة فيسأل: دفعه، وأن لا يوجد.

وأما قوله: «**من سيئات أعمالنا**» ففيه قولان:

أحدهما: أنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت، فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعاذة: من الشر المعدوم الذي لم يوجد، ومن الشر الموجود؛

(١) ٢٠٧ بدائع جـ٢.

فطلب دفع الأول ورفع الثاني.

والقول الثاني: أن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها، وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضًا؛ دفع المسبب، والأول دفع السبب،فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه، وعلى الأول؛ يكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه؛ فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها. وعلى الثاني؛ يكون من باب إضافة المسبب إلى سببه والمعلول إلى علته، كأنه قال من عقوبة عملي والقولان محتملان.

فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به؟ فإن مع كل واحد منهما نوعًا من الترجيح. فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس،فشر النفس يولد الأعمال السيئة؛ فاستعاذ من صفة النفس ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة، وهذان جماع الشر وأسباب كل ألم؛ فمتى عوفي منهما؛ عوفي من الشر بحذافيره. ويترجح الثاني بأن سيئات الأعمال؛ هي العقوبات التي تسوء العامل، وأسبابها؛ شر النفس؛ فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها، والقولان في الحقيقة متلازمان، والاستعاذة من أحدهما؛ تستلزم الاستعاذة من الآخر.

فصل

ولما كان الشر له سبب هو مصدره، وله مورد ومنتهى وكان السبب: إما من ذات العبد، وإما من خارج، ومورده ومنتهاه: إما نفسه، وإما غيره كان هنا أربعة أمور:

شر مصدره من نفسه ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى.

وشر مصدره من غيره وهو السبب فيه، ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى.

جمع النبي، ﷺ، هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصديق أن يقوله؛ إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه: «**اللهم فاطرَ السمواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَه، أشهدُ أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي، وشر الشيطان وشِرْكِهِ وأن أقترفَ على نفسي سوءًا، أو أجرَّه إلى مسلمٍ**» فذكر مصدري الشر وهما: النفس والشيطان، وذكر مورديه ونهايتيه وهما: عوده على النفس، أو على أخيه المسلم؛ فجمع الحديث مصادر الشر وموارده، في أوجز لفظه وأخصره وأجمعه وأبينه.

فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا ـ فإن لم تفِ بطهرهم طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة ـ: نهر التوبة النصوح.

ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها.

ونهر المصائب العظيمة المكفرة.

فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة. فورد القيامة طيبًا طاهرًا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع.

فصل[1]

في الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب. وقد جاء في كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين، وذكر كلًّا منهما منفردًا عن الآخر:

فالمقترنان كقوله تعالى؛ حاكيًا عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنا فَاغْفِرْ لنا ذُنُوبَنا وكَفِّر عَنَّا سَيِّئاتِنا وتوفَّنا مع الأبرار﴾ [آل عمران: ١٩٣].

والمنفرد كقوله: ﴿والَّذين آمنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ وآمنُوا بما نُزِّل على مُحَمَّدٍ وهو الحقُّ من ربِّهم كفَّر عنهم سيئاتِهم وأَصْلَحَ بالَهم﴾ [محمد: ٢].

وقوله في المغفرة: ﴿ولَهم فيها من كُلِّ الثَّمراتِ وَمَغْفِرةٌ من رَبِّهم﴾ [محمد: ١٥].

وكقوله: ﴿ربنا اغْفِر لنا ذُنُوبَنا وإسرافَنا في أَمرِنا﴾ [آل عمران: ١٤٧]. ونظائره. فههنا أربعة أمور: ذنوب، وسيئات، ومغفرة، وتكفير.

فالذنوب: المراد بها الكبائر. والمراد بالسيئات: الصغائر. وهي ما تعمل فيه الكفارة، من الخطأ وما جرى مجراه. ولهذا جعل لها التكفير. ومنه أخذت الكفارة. ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل في الكبائر في أصح القولين. فلا تعمل في قتل العمد. ولا في اليمين الغموس في ظاهر مذهب أحمد وأبي حنيفة.

والدليل على أن السيئات هي الصغائر، والتكفير لها؛ قوله تعالى: ﴿إن تَجتَنِبُوا كبائرَ ما تُنْهَون عنه نُكَفِّرْ عنكم سيئاتِكم ونُدْخِلْكم مُدْخلًا كريماً﴾ [النساء: ٣١].

وفي صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة؛ أن رسول الله، ﷺ، كان يقول: «**الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانَ إلى رمضانَ؛ مكفرات لما بينهن؛ إذا اجتنبت الكبائرُ**».

---

(١) ٣١٠ مدارج جـ١.

ولفظ «المغفرة» أكمل من لفظ «التكفير»؛ ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر. فإن لفظ «المغفرة» يتضمن: الوقاية، والحفظ. ولفظ «التكفير» يتضمن: الستر، والإزالة. وعند الإفراد: يدخل كل منهما في الآخر. كما تقدم.

فقوله تعالى: ﴿**كَفَّرْ عنهم سيئاتِهم**﴾ [محمد: ٢]. يتناول صغائرها وكبائرها، ومحوها ووقاية شرها؛ بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال، كما قال تعالىٰ: ﴿**لِيُكَفِّرَ اللّهُ عنهم أسوأَ الذي عملوا**﴾ [الزمر: ٣٥].

وإذا فهم هذا؛ فهم السر في الوعد على المصائب والهموم والغموم والنصب؛ والوصب بالتكفير دون المغفرة. كقوله في الحديث الصحيح: «**ما يصيب المؤمن من هَمٍّ ولا غمٍّ ولا أذى - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياه**» فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب، ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب؛ فهي كالبحر لا يتغير بالجيف. وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث.

(١)**وقيل** في قوله تعالى: ﴿**اصبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطُوا**﴾ [آل عمران: ٢٠٠]: إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى؛ فـ«الصبر» دون المصابرة، و«المصابرة» دون «المرابطة»، و«المرابطة» مفاعلة من الربط وهو الشد. وسمي المرابط مرابطًا؛ لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع.

ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: مرابط.

ومنه قول النبي، ﷺ: «**ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطَى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط. فذلكم الرباط**» وقال: «**رباط يوم في سبيل الله؛ خير من الدنيا وما فيها**».

(٢)**وأما** الاصطبار فهو أبلغ من التصبر؛ فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب فالتصبر مبدأ الاصطبار، كما أن التكسب مقدمة الاكتساب. فلايزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطبارًا.

---

(١) ١٥٩ مدارج جـ٢.

(٢) ١٧ عدة الصابرين.

وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر؛ فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة.

قال الله تعالى: ﴿**ياأيُّها الذين آمنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطُوا واتَّقُوا الله لعلَّكم تُفْلِحُون**﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فأمرهم: بالصبر وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه: أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح؛ موقوف عليها فقال: ﴿**واتَّقوا الله لعلَّكم تُفْلِحونَ**﴾ فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر؛ فهي لزوم ثغر القلب؛ لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته.

...[1]**وعلم** عباده كيفية هذه الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿**ياأيُّها الذين آمنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورابِطُوا واتَّقُوا الله لعلَّكم تُفْلِحُون**﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. ولا يتم أمر الجهاد؛ إلا بهذه الأمور الأربعة. فلا يتم الصبر إلا بمصابرة العدو وهو مقاومته ومنازلته.

فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهي المرابطة، وهي: لزوم ثغر القلب وحراسته؛ لئلا يدخل منه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل. فهذه الثغور يدخل منها العدو؛ فيجوس خلال الديار، ويفسد ماقدر عليه.

فالمرابطة لزوم هذه الثغور ولا يخلي مكانها، فيصادف العدو الثغر خاليًا فيدخل منها.

فهؤلاء أصحاب رسول الله، ﷺ، خير الخلق بعد النبيين والمرسلين - صلى الله عليهم وسلم أجمعين - وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم، وقد خلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد؛ فدخل منه العدو فكان ما كان.

---

(١) ١٣٠ الجواب الكافي.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به؛ هو تقوى الله. فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى. ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر.

فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين واصطدام العسكرين، وكيف تدال مرة ويدال عليك أخرى؟ أقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره؛ فوجد القلب في حصنه جالسًا على كرسي مملكته، أمره نافذ في أعوانه وجنده قد أحاطوا به، يقاتلون عنه، ويدافعون عن حوزته؛ فلم يمكنهم الهجوم عليه إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه؛ فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة فقيل له: هي النفس. فقال لأعوانه: ادخلوا عليها من مرادها...

...[1] **وقال** ابن عباس عنه - ﷺ - ليلة مبيته عنده، إنه: لما استيقظ رفع رأسه إلى السماء، وقرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران: ﴿إنَّ في خَلْقِ السمواتِ والأرض﴾ - إلى آخرها [آل عمران: ١٩٠ - ٢٠٠] ثم قال: **«اللهم لك الحمد، أنت نورُ السمواتِ والأرض ومن فيهن، ولك الحمدُ أنت قَيِّم السمواتِ والأرض ومن فيهن، ولك الحمدُ أنت الحقُّ، ووعدك الحق، وقولُك الحقُّ، ولقاؤك حقٌّ، والجنةُ حقٌّ، والنارُ حقٌّ، والنبيون حقٌّ، ومحمد حقٌّ، والساعةُ حقٌّ، اللهم لك أسلمت، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنَبْتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغْفِرْ لي ما قَدَّمتُ وما أَخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنت إلٰهي لا إلَه إلا أنتَ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم»**[2].

---

(١) ٣٨ زاد المعاد جـ٢.
(٢) متفق عليه.

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل(١)

فإن قيل: ما تقولون في قوله عز وجل: ﴿فإنْ خِفْتُم ألَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أيمانُكُم ذلك أَدْنى ألَّا تَعُولُوا﴾. [النساء:٣].

قال الشافعي: «أن لا تكثر عيالكم، فدل على أن قلة العيال أولى».

قيل: قد قال الشافعي رحمه الله ذلك، وخالفه جمهور المفسرين من السلف والخلف، وقالوا: معنى الآية: ذلك أدنى أن لا تجوروا ولا تميلوا، فإنه يقال: عال الرجل يعول إذا مال وجار، ومنه عول الفرائض لأن سهامها زادت، ويقال: عال يعيل عيلة إذا احتاج، قال تعالى: ﴿وإنْ خِفْتُم عَيْلَة فَسَوفَ يُغنيكُم الله مِن فَضْلِهِ إنْ شَاءَ﴾. [التوبة: ٢٨]. قال الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه		وما يدري الغني متى يعيل

أي: متى يحتاج ويفتقر. وأما كثرة العيال فليس من هذا ولا من هذا، ولكنه من: **أفعل**، **يقال: أعال الرجل يعيل، إذا كثر عياله**، مثل: ألبن وأتمر إذا صار ذا لبن وتمر، **هذا قول أهل اللغة**. **قال** الواحدي في بسيطه: ومعنى تعولوا: تميلوا وتجوروا، عند جميع أهل التفسير واللغة.

وروي ذلك مرفوعًا. روت عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ: ﴿أَلَّا تعولوا﴾ قال: «**لا تجوروا**»، وروي: «**لا تميلوا**»، قال: وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة والربيع والسُّدِّي وابن مالك وعكرمة والفراء والزجاج وابن قتيبة وابن الأنباري.

قلت: ويدل على تعين هذا المعنى من الآية، وإن كان ما ذكره الشافعي لغة حكاها الفراء عن الكسائي، أنه قال: «ومن الصحابة من يقول: عال يعول إذا كثر عياله، قال الكسائي: وهو لغة فصيحة سمعتها من العرب». لكن يتعين الأول لوجوه:

---

(١) ٨ تحفة المودود.

أحدها: أنه المعروف في اللغة الذي لا يكاد يعرف سواه، ولا يعرف عال يعول إذا كثر عياله؛ إلا في حكاية الكسائي، وسائر أهل اللغة على خلافه.

الثاني: أن هذا مروي عن النبي ﷺ، ولو كان من الغرائب فإنه يصلح للترجيح. الثالث: أنه مروي عن عائشة وابن عباس، ولم يعلم لهما مخالف من المفسرين.

وقد قال الحاكم أبو عبدالله: تفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع.

الرابع: أن الأدلة التي ذكرناها على استحباب تزوج الولود، وإخبار النبي، عليه السلام، أنه يكاثر بأمته الأمم يوم القيامة، يرد هذا التفسير.

الخامس: أن سياق الآية إنما هو في نقلهم مما يخافون الظلم والجور فيه إلى غيره، فإنه قال في أولها: ﴿**وإن خِفْتُم ألَّا تُقسِطُوا في اليَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم منَ النِّساءِ مثنى وثُلَاثَ ورُبَاعَ**﴾. [النساء: ٣]. فدلهم سبحانه على ما يتخلصون به من ظلم اليتامى وهو نكاح ما طاب لهم من النساء البوالغ، وأباح لهم منه، ثم دلهم على ما يتخلصون به من الجور والظلم في عدم التسوية بينهن، فقال: ﴿**فإنْ خِفْتُم ألَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم**﴾. [النساء: ٣]. ثم أخبر سبحانه أن الواحدة وملك اليمين أدنى إلى عدم الميل والجور، وهذا صريح في المقصود.

السادس: أنه لا يلتئم قوله: ﴿**فإن خِفْتُم ألَّا تَعْدِلُوا**﴾ في الأربع، فانكحوا واحدة أو تسروا ما شئتم بملك اليمين، فإن ذلك أقرب إلى أن تكثر عيالكم، بل هذا أجنبي من الأول! فتأمله.

السابع: أنه من الممتنع أن يقال لهم: إن خفتم أن لا تعدلوا بين الأربع، فلكم أن تتسروا بمائة سرية وأكثر، فإنه أدنى أن لا تكثر عيالكم.

الثامن: أن قوله: ﴿**ذلِكَ أدْنَى ألَّا تعولُوا**﴾. تعليل لكل واحد من الحكمين المتقدمين، وهما: نقلهم من نكاح اليتامى إلى نكاح النساء البوالغ، ومن نكاح الأربع إلى نكاح الواحدة أو ملك اليمين، ولا يليق تعليل ذلك بقلة العيال.

التاسع: أنه سبحانه قال: ﴿**فإن خفتم ألَّا تعدلُوا**﴾. [النساء: ٣]. ولم يقل:

وإن خفتم أن لا تفتقروا أو تحتاجوا، ولو كان المراد قلة العيال لكان الأنسب أن يقول ذلك.

العاشر: أنه تعالى إذا ذكر حكمًا منهيًّا عنه وعلل النهي بعلة أو أباح شيئًا وعلل عدمه بعلة، فلابد أن تكون العلة مضادة لضد الحكم المعلل، وقد علل سبحانه وتعالى إباحة نكاح غير اليتامى والاقتصار على الواحدة أو ملك اليمين، بأنه أقرب إلى عدم الجور، ومعلوم أن كثرة العيال لا تضاد عدم الحكم المعلل، فلا يحسن التعليل به.

(1)**قال تعالى:** ﴿**ووَجَدَكَ عائِلًا فأَغْنَى**﴾. [الضحى: ٨]. وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير، يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر.

وأعال يعيل إذا صار ذا عيال مثل لبن وأثمر وأثرى إذا صار ذا لبن وثمر وثروة.

وعال يعول إذا جار، ومنه قوله تعالى: ﴿**ذلِكَ أَدْنَى أنْ لا تَعُولُوا**﴾.

وقيل المعنى: ألا تكثر عيالكم، والقول هو الأول لوجوه:

أحدها: أنه لا يعرف في اللغة: عال يعول إذا كثر عياله، وإنما المعروف في ذلك: أعال يعيل، وأما عال يعول فهو بمعنى الجور، ليس إلا.

هذا الذي ذكره أهل اللغة قاطبة.

الثاني: أنه سبحانه قابل ذلك بالعدل الذي نقلهم عند خوفهم من فقده إلى الواحدة والتسري بما شاءوا من ملك أيمانهم، ولا يحسن هنا التعليل بعدم العيال. **يوضحه: الوجه الثالث: أنه سبحانه نقلهم عند الخوف من عدم القسط في نكاح** اليتامى إلى من سواهن من النساء، لئلا يقعوا في ظلم أزواجهم اليتامى، وجوز لهم نكاح الواحدة وما فوقها إلى الأربع، ثم نقلهم عند خوف الجور وعدم العدل في القسمة إلى الواحدة، أو النوع الذي لا قسمة عليهم في الاستمتاع بهن وهن الإماء.

---

(١) ١٦٤ عدة الصابرين.

فانتظمت الآية بيان الجائز من نكاح اليتامى والبوالغ، والأولى من ذينك القسمين عند خوف العول، فما لكثرة العيال مدخل هاهنا ألبتة.

يوضحه:

الوجه الرابع: أنه لو كان المحذور كثرة العيال لما نقلهم إلى ما شاءوا من كثرة الإماء بلا عدد، فإن العيال كما يكونون من الزوجات يكونون من الإماء ولا فرق، فإنه لم ينقلهم إلى إماء الاستخدام بل إلى إماء الاستفراش.

يوضحه:

الوجه الخامس: أن كثرة العيال ليس أمرًا محذورًا مكروهًا للرب تعالى، كيف وخير هذه الأمة أكثرها نساءً، وقد قال النبي ﷺ: «**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم**»؟! فأمر بنكاح الولود ليحصل منها ما يكاثر به الأمم يوم القيامة.

والمقصود أنه سبحانه جعل نبيه غنيًّا شاكرًا بعد أن كان فقيرًا صابرًا، فلا تحتج به طائفة لحالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به أيضًا لحالها.

[1]**وأما** قوله: «وقصَرَ عدد المنكوحات على أربع، وأباح ملك اليمين بغير حصرٍ» فهذا من تمام نعمته وكمال شريعته، وموافقتها للحكمة والرحمة والمصلحة، فإن النكاح يُراد للوطء وقضاء الوطر.

ثم من الناس من يغلب عليه سلطان هذه الشهوة فلا تندفع حاجته بواحدة، فأطلق له ثانية وثالثة ورابعة، وكان هذا العدد موافقًا لعدد طباعه وأركانه، وعدد فصول سنته، ولرجوعه إلى الواحدة بعد صبر ثلاث عنها، والثلاث أول مراتب الجمع.

وقد علق الشارع بها عدة أحكام، ورخَّص للمهاجر أن يقيم بعد قضاء نسكه بمكة ثلاثًا، وأباح للمسافر أن يمسح على خفيه ثلاثًا، وجعل حد الضيافة المستحبة أو الموجبة ثلاثًا، وأباح للمرأة أن تَحِدَّ على غير زوجها ثلاثًا، فرحم الضرة بأن جعل غاية انقطاع زوجها عنها ثلاثًا ثم يعود؛ فهذا محض الرحمة والحكمة

---

(١) ٨٤ أعلام جـ٢.

والمصلحة. وأما الإماء فلما كنَّ بمنزلة سائر الأموال من الخيل والعبيد وغيرها لم يكن لقصر المالك على أربع منهن أو غيرها من العدد معنى؛ فكما ليس في حكمة الله ورحمته أن يقصر السيد على أربعة عبيد أو أربع دواب وثياب ونحوها، فليس في حكمته أن يقصره على أربع إماء.

وأيضا فللزوجة حق على الزوج اقتضاه عقد النكاح يجب على الزوج القيام به، فإن شاركها غيرُها وجب عليه العدل بينهما؛ فقصر الأزواج على عدد يكون العدل فيه أقرب مما زاد عليه، ومع هذا فلا يستطيعون العدل ولو حرصوا عليه، ولا حق لإمائه عليه في ذلك، ولهذا لا يجب لهن قسم، ولهذا قال تعالى: ﴿**فإنْ خِفْتُم أن لا تَعْدِلُوا فواحدةً أو ما ملكتْ أيمانُكُمْ**﴾. [النساء: ٣]. والله أعلم.

وأما قوله: «وأنه أباح للرجل أن يتزوج بأربع زوجات، ولم يبح للمرأة أن تتزوج بأكثر من زوج واحد» فذلك من كمال حكمة الرب تعالى وإحسانه ورحمته بخلقه ورعاية مصالحهم، ويتعالى سبحانه عن خلاف ذلك، وينزه شرعه أن يأتي بغير هذا، ولو أبيح للمرأة أن تكون عند زوجين فأكثر لفسد العالم، وضاعت الأنساب، وقَتَلَ الأزواج بعضهم بعضًا، وعظمت البلية، واشتدت الفتنة، وقامت سوق الحرب على ساق، وكيف يستقيم حال امرأة فيها شُركاء متشاكسون؟ وكيف يستقيم حال الشركاء فيها؟ فمجيء الشريعة بما جاءت به من خلاف هذا من أعظم الأدلة على حكمة الشارع ورحمته وعنايته بخلقه.

فإن قيل: فكيف روعي جانب الرجل، وأطلق له أن يُسيم طرفه ويقضي وطره، وينتقل من واحدة إلى واحدة، بحسب شهوته وحاجته، وداعي المرأة داعيه، وشهوتها شهوته؟

قيل: لما كانت المرأة من عادتها أن تكون مخبأة من وراء الخدور، ومحجوبة في كِنِّ بيتها، وكان مزاجها أبرد من مزاج الرجل، وحركتها الظاهرة والباطنة أقل من حركته، وكان الرجل قد أعطي من القوة والحرارة التي هي سلطان الشهوة أكثر مما أعطيته المرأة، وبُلي بما لم تُبْلَ به؛ أطلق له من عدد المنكوحات ما لم يطلق للمرأة.

وهذا مما خص الله به الرجال، وفضلهم به على النساء، كما فضلهم عليهن بالرسالة والنبوة والخلافة والملك والإمارة وولاية الحكم والجهاد وغير ذلك، وجعل

الرجال قوامين على النساء ساعين في مصالحهن، يدأبون في أسباب معيشتهن، ويركبون الأخطار، ويجوبون القفار، ويعرضون أنفسهم لكل بلية ومحنة في مصالح الزوجات. والرب تعالى شكور حليم، فشكر لهم ذلك، وجبرهم بأن مكنهم مما لم يمكن منه الزوجات.

وأنت إذا قايستَ بين تعب الرجال وشقائهم وكدهم ونصبهم في مصالح النساء، وبين ما ابتلي به النساء من الغيرة؛ وجدت حظ الرجال من تحمل ذلك التعب والنصب والدأب أكثر من حظ النساء من تحمل الغيرة؛ فهذا من كمال عدل الله وحكمته ورحمته؛ فله الحمد كما هو أهله.

وأما قول القائل: «إن شهوة المرأة تزيد على شهوة الرجل».

فليس كما قال، والشهوة منبعها الحرارة، وأين حرارة الأنثى من حرارة الذكر؟ ولكن المرأة - لفراغها وبطالتها وعدم معاناتها لما يشغلها عن أمر شهوتها وقضاء وطرها - يغمرها سلطان الشهوة، ويستولي عليها، ولا يجد عندها ما يعارضه، بل يصادف قلبًا فارغًا ونفسًا خالية فيتمكن منها كل التمكن؛ فيظن الظان أن شهوتها أضعاف شهوة الرجل، وليس كذلك.

ومما يدل على هذا أن الرجل إذا جامع امرأته أمكنه أن يجامع غيرها في الحال، وكان النبي ﷺ يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، وطاف سليمان على تسعين امرأة في ليلة، ومعلوم أن له عند كل امرأة شهوة وحرارة باعثة على الوطء، والمرأة إذا قضى الرجل وطره فَتَرتْ شهوتها، وانكسرت نفسها، ولم تطلب قضاءها من غيره في ذلك الحين، فتطابقت حكمة القدر والشرع والخلق والأمر، ولله الحمد.

(١)**قال** ابن عقيل: قولهم: إن الله جعل للمرأة شهوة تزيد على شهوة الرجل بسبعة أجزاء. قال: لو كان كذلك ما جعل الله للرجل أن يتزوج بأربع ويتسرى بما شاء من الإماء، وضيق على المرأة فلا تزيد على رجل، ولها من القسم الربع وحاشا حكمته أن تضيق على الأحوج وتوسع على من دونه في الحرج.

---

(١) ٤١ بدائع جـ٤.

أجابه حنبلي آخر فقال: إن ذلك إنما كان لعارض راجح وهو خوفه اشتباه الأنساب.

وأيضا ففي التوسعة للرجل يكثر النسل الذي هو من أهم مقاصد النكاح.

وأيضا: فإن الرجل والمرأة لما اشتركا في التذاذ كل منهما بصاحبه وقضاء وطره منه وخص الرجل بالنفقة والكسوة وكلفة المرأة؛ عوّض بأن أطلق له الاستمتاع بغيرها.

وأيضا: فإن المرأة مقصورة في الخدر لا تدخل ولا تخرج إلا لحاجة حتى إن صلاتها في بيتها؛ أفضل من صلاتها في المسجد لم يقع نظرها من الرجال على ما يقع نظر الرجل عليه. فحاجته إلى أكثر من واحدة أشد من حاجتها.

وأيضا: فإن طبيعة الذكر الحرارة، وطبيعة الأنثى البرودة وصاحب الحرارة يحتاج من الجماع فوق ما يحتاج إليه صاحب البرودة.

وأيضا: فإن الله فضل الذكر على الأنثى في الميراث والدية والشهادة والعقيقة وغير ذلك؛ ولهذا قال تعالى: **﴿ولا تَتَمنَّوا ما فَضَّلَ الله بِهِ بَعْضَكُم على بَعضٍ للرِّجَالِ نصيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وللنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكتسَبْنَ واسأَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ﴾**. [النساء: ٣٢].

فكان من تفضيله الذكر على الأنثى؛ أن خصَّ بجواز نكاح أكثر من واحدة والله أعلم.

(١)**وأما** قوله: «أباح للرجل أن يستمتع من أمته بملك اليمين بالوطء وغيره، ولم يبح للمرأة أن تستمتع من عبدها لا بوطء ولا غيره» فهذا أيضًا من كمال هذه الشريعة وحكمتها، فإن السيد قاهر لمملوكه، حاكم عليه، مالك له، والزوج قاهر لزوجته حاكم عليها، وهي تحت سلطانه وحكمه شبه الأسير؛ ولهذا منع العبد من نكاح سيدته للتنافي بين كونه مملوكها وبَعْلَهَا، وبين كونها سيدته وموطوءته، وهذا أمر مشهور بالفطرة والعقول قبحه، وشريعة أحكم الحاكمين منزهة عن أن تأتي به.

...(٢)**ومنه: ﴿فَكُلُوهُ هنيئًا مَريئًا﴾**. [النساء: ٤] هنيئًا في عاقبته، مريئًا في مذاقه. وقيل: معناه: أنه أسرع انحدارًا عن المريء لسهولته وخفته عليه،

---

(١) ٨٤ أعلام جـ٢. (٢) ٢٩٤ زاد المعاد جـ٣.

بخلاف الكثير، فإنه لا يسهل على المريء انحداره. ومن آفات الشرب نهلة واحدة: أنه يخاف منه الشرق، بأن ينسد مجرى الشراب لكثرة الوارد عليه، فيغُصُّ به. فإذا تنفس رويدًا رويدًا، ثم يشرب: أمن من ذلك.

ومن فوائده: أن الشارب إذا شرب أول مرة تصاعد البخار الدخاني الحار الذي كان على القلب والكبد، لورود الماء البارد عليه. فأخرجته الطبيعة عنها. فإذا شرب مرة واحدة؛ اتفق نزول الماء البارد وصعود البخار. فيتدافعان ويتعالجان. ومن ذلك يحدث الشرق والغُصَّة، ولا يهنأ الشارب بالماء، ولا يمريه، ولا يتم رِيُّه.

وقد روى عبدالله بن المبارك والبيهقي وغيرهما: من حديث أبي قتادة، عن النبيء ﷺ: **«إذا شرب أحدُكم فليمصَّ الماءَ مصًّا، ولا يعُبَّ عبًّا، فإن الكُبادَ من العَبِّ»**(١). «والكُبَاد» بضم الكاف وتخفيف الباء: هو وجع الكبد، وقد علم بالتجربة؛ أن ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها، ويضعف حرارتها. وسبب ذلك؛ المضادة التي بين حرارتها وبين ما ورد عليها من كيفية البارد وكميته. ولو ورد بالتدريج شيئًا فشيئًا لم يضاد حرارتها ولم يضعفها. وهذا مثاله؛ صب الماء البارد على القدر، وهي تفور: لا يضرها صبه قليلًا قليلًا.

وقد روى الترمذي في جامعه عنه ﷺ: **«لا تشربوا نفسًا واحدًا، كشرب البعير، لكن اشربوا مَثْنَى وثلاث، وسموا إذا أنتم شربتم، واحمدوا إذا أنتم فرغتم»**.

وللتسمية في أول الطعام والشراب، وحمد الله في آخره: تأثير عجيب في نفعه واستمرائه، ودفع مضرته. قال الإمام أحمد: إذا جمع الطعام أربعًا فقد كمل: إذا ذكر اسم الله في أوله، وحمد الله في آخره، وكثرت عليه الأيدي، وكان من حل.

(٢)**قال تعالى: ﴿ولا تُؤتُوا السُّفَهَاء أَمْوالَكُم التي جَعَلَ الله لكمْ قيامًا وارْزُقوهم فيها**

(١) رواه ابن السني وأبو نعيم في الطب.
(٢) ٥٩ إغاثة جـ٢.

واكسوهم﴾. [النساء: ٥]. قال ابن عباس: «لا تعمد إلى مالك الذي خَوَّلك الله وجعله لك معيشة، فتعطيه امرأتك وبنيك، فيكونوا هم الذين يقومون عليك في كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم».

فالسفهاء هم النساء والصبيان، وقد جعل الله سبحانه الأزواج قَوَّامين عليهم، كما جعل وليَّ الطفل قوامًا عليه، والقَوَّام على غيره أمير عليه. ومَنْ قبل قول الزوجة أو الطفل بعد البلوغ في عدم إيصال النفقة إليهما؛ فقد جعلهما قوامين على الأزواج والأولياء، ولو لم يقبل قول الزوج لم يكن قوامًا على المرأة فإن المرأة إذا كانت غريباً مقبول القول دون الزوج كانت هي القوامة..

فائـــدة (1)

عطية الأولاد المشروع أن يكون على قدر مواريثهم:

لأن الله تعالى منع ممايؤدي إلى قطيعة الرحم، والتسوية بين الذكر والأنثى مخالفة لما وضعه الشرع من التفضيل؛ فيفضي ذلك إلى العداوة.

ولأن الشرع أعلم بمصالحنا فلو لم يكن الأصلح التفضيل بين الذكر والأنثى لما شرعه. **ولأن حاجة الذكر إلى المال أعظم من حاجة الأنثى.**

ولأن الله تعالى جعل الأنثى على النصف من الذكر في الشهادات والميراث **والديات وفي العقيقة بالسنة ولأن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء.**

فإذا علم الذكر أن الأب زاد الأنثى على العطية التي أعطاها الله وسواها بمن فضله الله عليها؛ أفضى ذلك إلى العداوة والقطيعة، كما إذا فضل عليه من سوى الله بينه وبينه. فأي فرق بين أن يفضل من أمر الله بالتسوية بينه وبين أخيه ويسوي بين من أمر الله بالتفضيل بينهما؟!

واعترض ابن عقيل على دليل التفضيل وقال: بناء العطية حال الحياة والصحة، والمال لا حق لأحد فيه، ولهذا لا يجوز له الهبات والعطايا للوارث، وما

(١) ١٥١ بدائع جـ٣.

زاد على الثلث للأجانب عبرة بحال صحته وقطعًا له عن حال مرض الموت فضلاً عن الموت، وكذا تعطى الأخوات مع وجود الابن والأب، وإن لم يكن لهم حق في الإرث، وتلك عطية من الله على سبيل التحكم لا اختيار لأحد فيه، وهذه عطية من مكلف غير محجور عليه فكانت على حسب اختياره: من تفضيل وتسوية. وهذا هو القول الصحيح عندي.

قلت: وهذه الحجة ضعيفة جدًّا فإنها باطلة بما سلمه من امتناع التفضيل بين الأولاد المتساويين في الذكورة والأنوثة، وكيف يصح له قوله: إنها عطية من مكلف غير محجور عليه فجازت على حسب اختياره وأنت قد حجرت عليه في التفضيل بين المتساويين.[1] اهـ.

...[2]**والمقصود** تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكماً أو حكمين. ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك.

ومنهم من يقتصر في الفَهْمِ على مجرد اللفظ، دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره.

وأخص من هذا وألطف؛ ضمه إلى نص آخر متعلق به؛ فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به.

وهذا كما فهم ابن عباس من قوله: ﴿وحَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْرًا﴾. [الأحقاف: ١٥]. مع قوله: ﴿والوالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَولاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾. [البقرة: ٢٣٣]. أن المرأة قد تلد لستة أشهر.

وكما فهم الصديق من آية الفرائض في أول السورة وآخرها: أن الكلالة من لا ولد له ولا والد، وأسقط الإخوة بالجد.

[3]**وقد** أرشد النبي ﷺ عمر إلى هذا الفهم حيث سأله عن الكلالة وراجعه

---

(١) ماذكره ابن القيم في رده على ابن عقيل هو الصواب لما ذكره ابن القيم من الأدلة. (ج).

(٢) ٣٥٤ أعلام جـ١. (٣) ٣٥٥ أعلام جـ١.

السؤال فيها مرارًا، فقال: «يكفيك آية الصيف». وإنما أشكل على عمر قوله: ﴿قُلِ اللهُ يُفتِيكُمْ فِي الكَلَالَةِ إنِ امرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾. [النساء: ١٧٦]. الآية، فدله النبيُّ ﷺ على ما يبين له المراد منها، وهي الآية الأولى التي نزلت في الصيف، فإنه وَرَّث فيها ولد الأم في الكلالة السدس، ولا ريب أن الكلالة فيها مَنْ لا ولد له ولا والد، وإن عَلاَ.

ونحن نذكر عدة مسائل مما اختلف فيها السلف ومن بعدهم، وقد بينتها النصوص، **ومسائل قد احتج فيها بالقياس وقد بيَّنها النص وأغنى فيها عن القياس:**

المسألة الأولى: المشتركة في الفرائض، وقد دلَّ القرآن على اختصاص ولد الأم فيها بالثلث، بقوله تعالى: ﴿وإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُختٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ. فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُم شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾. [النساء: ١٢]. وهؤلاء ولد الأم؛ فلو أدخلنا معهم ولد الأبوين لم يكونوا شركاء في الثلث؛ بل يزاحمهم فيه غيرهم.

فإن قيل: بل ولد الأبوين منهم؛ إلغاء لقرابة الأب.

قيل: هذا وهم؛ لأن الله سبحانه قال في أول الآية: ﴿ولَهُ أَخٌ أَوْ أُختٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾. ثم قال: ﴿فإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ من ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾. فذكر حكم واحدهم وجماعتهم حكمًا يختص به الجماعة منهم كما يختص به واحدهم، وقال في ولد الأبوين: ﴿إِنِ امرؤٌ هَلَكَ لَيْسَ له وَلَدٌ ولَهُ أُختٌ فَلَهَا نِصْفُ ما تَرَكَ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ. وإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً ونِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾. [النساء: ١٧٦]. فذكر حكم ولد الأب والأبوين واحدهم، وجماعتهم، وهو حكم يختص به جماعتهم كما يختص به واحدهم فلا يشاركهم فيه غيرهم، فكذا حكم ولد الأم، وهذا يدل على أن أحد الصنفين غير الآخر، فلا يشارك أحدُ الصنفين الآخر، وهذا الصنف الثاني هو ولد الأبوين أو الأب بالإجماع، والأول هو ولد الأم بالإجماع، كما فسرته قراءة بعض الصحابة «من أم» وهي تفسيرٌ وزيادة إيضاح، وإلا فذلك معلوم من السياق؛ ولهذا ذكر سبحانه ولد الأم في آية الزوجين، وهم أصحاب

فرض مُقَدَّر لا يخرجون عنه، ولا حظ لأحد منهم في التعصيب؛ ولم يذكر فيها أحدًا من العصبة، بخلاف ما ذكر في آية العمودين الآية التي قبلها؛ فإن لجنسهم حظًّا في التعصيب، ولهذا قال في آية الإخوة من الأم والزوجين: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢] ولم يقل ذلك في آية العمودين، فإن الإنسان كثيرًا ما يقصد ضرار الزوج وولد الأم؛ لأنهم ليسوا من عصبته، بخلاف أولاده وآبائه فإنه لا يضارهم في العادة، فإذا كان النص قد أعطى ولد الأم الثلث لم يجز تنقيصهم منه، وأما ولد الأبوين فهم جنس آخر وهم عصبته، وقد قال النبي ﷺ: «**أَلحِقوا الفرائضَ بأهلها، فما بقي فلأَوْلى رجلٍ ذكرٍ**». وفي هذه المسألة لم تُبْقِ الفرائض شيئًا، فلا شيء للعصبة بالنص.

وأما قول القائس: «هب أن أبانا كان حمارًا» فقول باطل حسًّا وشرعًا، فإن الأب لو كان حمارًا لكانت الأم أتانًا.

وإذا قيل: يقدر وجوده كعدمه، قيل: هذا باطل، فإن الموجود لا يكون كالمعدوم، وأما بطلانه شرعًا فإن الله سبحانه حكم في ولد الأبوين بخلاف حكمه في ولد الأم فإن قيل: الأب إن لم ينفعهم لم يضرهم.

قيل: بل قد يضرهم كما ينفعهم، فإن ولد الأم لو كان واحدًا وولد الأبوين مائة وفَضَل نصفُ سدس انفرد ولد الأم بالسدس، واشترك ولد الأبوين في نصف السدس، فهلا قبلتم قولهم ههنا: «هبْ أن أبانا كان حمارًا»! وهلا قدرتم الأب معدومًا فخرجتم عن القياس كما خرجتم عن النص! وإذا جاز أن ينقصهم الأب جاز أن يحرمهم.

وأيضا فالقرابة المتصلة الملتئمة من الذكر والأنثى لا تفرق أحكامها، هذه قاعدة النسب في الفرائض وغيرها، فالأخ من الأبوين لا نجعله كأخ من أب وأخ من أم؛ فنعطيه السدس فرضًا بقرابة الأم والباقي تعصيبًا بقرابة الأب.

فإن قيل: فقد فرقتم بين القرابتين، فقلتم في ابني عم أحدهما أخ لأم: يعطى الأخ للأم بقرابة الأم السدس، ويقاسم ابن العم بقرابة العمومة.

قيل: نعم هذا قول الجمهور، وهو الصواب، وإن كان شُرَيْح ومن قال

بقوله أعطى الجميع لابن العم الذي هو أخ لأم، كما لو كان ابن عم لأبوين، والفرق بينهما على قول الجمهور؛ أن كليهما في بنوَّة العم سواء، وأما الإخوة للأم فمستقلة ليست مقترنة بأبوة حتى يجعل كابن العم للأبوين، فههنا قرابة الأم منفردة عن قرابة العمومة، بخلاف قرابة الأم في مسألتنا فإنها متحدة بقرابة الأب.

ومما يبين أن عدم التشريك هو الصحيح أنه لو كان فيها أخوات لأب لفرض لهنَّ الثلثان وعالت الفريضة، فلو كان معهن أخوهن سقطن به، ويسمى: **الأخ المشئوم**، فلما كنَّ بوجوده يصرن عصبة صار تارة ينفعهن وتارة يضرهن، ولم يجعل وجوده كعدمه في حال الضرار، فكذلك قرابة الأب لما صار الإخوة بها عصبة صار ينفعهم تارة ويضرهم أخرى، وهذا شأن العصبة فإن العصبة تارة تحوزُ المال، وتارة تحوز أكثره، وتارة تحوز أقله وتارة تخيب؛ فمن أعطى العصبة مع استغراق الفروض المال خرج عن قياس الأصول وعن موجب النص فإن قيل: فهذا استحسان.

قيل: لكنه استحسان يخالف الكتاب والميزان، فإنه ظلم للإخوة من الأم؛ حيث يؤخذ حقهم ويعطاه غيرهم، وإن كانوا يَعْقِلُون عن الميت وينفقون عليه؛ لم يلزم من ذلك أن يشاركوا مَنْ لا يعقل ولا ينفق في ميراثه، فعاقلة المرأة ـ من أعمامها وبني عمها وإخوتها ـ يعقلون عنها، وميراثها لزوجها وولدها كما قضى بذلك رسول الله ﷺ، فلا يمتنع أن يعقل ولد الأبوين ويكون الميراث لولد الأم ...

(1)**ومنها:** قوله تعالى في آية الفرائض: ﴿**من بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ**﴾. [النساء: ١٢]. فإنه سبحانه وتعالى إنما قدم على الميراث وصية من لم يضارَّ الورثة، فإذا كانت الوصية وصية ضرار كانت حرامًا، وكان للورثة إبطالها، وحرم على الموصَى له أخذ ذلك بدون رضا الورثة، وأكَّد سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿**تِلْكَ حُدودُ الله فَلَا تَعْتَدُوها**﴾. [النساء: ١٣].

وتأمل كيف ذكر سبحانه وتعالى الضِّرار في هذه الآية دون التي قبلها؛ لأن

---

(١) ٣٧٧ إغاثة جـ١.

الأولى تضمَّنت ميراث العمــودين، والثــانية تضمنت ميراث الأطــراف: من الزوجين، والإخوة. والعادة أن الميت قد يُضارُّ زوجته وإخوته، ولا يكاد يضارُّ والديه وولده . . .

(١) **المسألة** السادسة: ميراث الجد مع الإخوة، والقرآن يدل لقول الصديق ومَنْ معه من الصحابة: كأبي موسى وابن عباس وابن الزبير وأربعة عشر منهم رضي الله عنهم.

ووجه دلالة القرآن على هذا القول قوله تعالى: ﴿**يَسْتَفْتُونَكَ قُل اللهُ يُفْتِيكُم في الكَلاَلةِ إنِ امرؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لهُ ولَدٌ ولَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ**﴾. [النساء: ١٧٦]. إلى آخر الآية، فلم يجعل للإخوة ميراثًا إلا في الكلالة.

وقد اختلف الناس في الكلالة، والكتاب يدل على قول الصديق: أنها ما عدا الوالد والولد، فإنه سبحانه قال في ميراث ولد الأم: ﴿**وإنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أوِ امرأَةٌ ولَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فلكلٍّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ**﴾. [النساء: ١٢]. فسوَّى بين ميراث الإخوة في الكلالة، وإن فرق بينهم في جهة الإرث ومقداره، فإذا كان وجود الجد مع الإخوة للأم لا يدخلهم في الكلالة، بل يمنعهم من صدق اسم الكلالة على الميت أو عليهم أو على القرابة، فكيف أدخل ولد الأب في الكلالة ولم يمنعهم وجوده صدق اسمها؟! وهل هذا إلا تفريق محض بين ما جمع الله بينه؟!

يوضحه الوجه الثاني: وهو أن ولد الولد يمنع الإخوة من الميراث، ويخرج المسألة عن كونها كلالة؛ لدخوله في قوله: ﴿**لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ**﴾. [النساء: ١٧٦]. ونسبة أب الأب إلى الميت كنسبة ولد ولده إليه، فكما أن الولد وإن نزل يخرج المسألة عن الكَلالة فكذلك أبُ الأب وإن علا، ولا فرق بينهما ألبتة.

يوضحه الوجه الثالث: وهو أن نسبة الإخوة إلى الجد كنسبة الأعمام إلى

---

(١) اختصرنا المسألة الثانية وهي البحث في العُمَرِيَّتَيْنِ، والثالثة: وهي ميراث الأخوات مع البنات. والرابعة: وهي ميراث البنات. والخامسة: وهي ميراث بنت الابن السدس مع البنت لطول البحث فيها فمن أرادها فليرجع إلى الأصل (ج).

أبي الجد، فإن الأخ ابن الأب والعم ابن الجد، فإذا خلف عمه وأبا جده فهو كما لو خلف أخاه وجده سواء، وقد أجمع المسلمون على تقديم أب الجد على العم، فكذلك يجب تقديم الجد على الأخ؛ وهذا من أبين القياس وإن لم يكن هذا قياسًا جليًّا فليس في الدنيا قياس جلي[١] . . .

[٢]**قال** تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوبَةُ على الله للذينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾. [النساء:١٧]. **قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله، ﷺ، أن كل ماعصي الله به فهو جهالة.**

وقال غيره: أجمع الصحابة أن كل من عصى الله فهو جاهل. وقال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

وسمي عدم مراعاة العلم جهلاً، إما لأنه لم ينتفع به، فنُزِّل منزلة الجهل، وإما لجهله بسوء ما تجني عواقب فعله.

[٣]**ومن** أحكامها[٤]: أن العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجز عنها، بحيث يتعذر وقوعها منه، هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف، وشاهد الزور إذا قُطع لسانه، والزاني إذا جُبَّ، والسارق إذا أُتي على أطرافه الأربعة، والمزور إذا قُطعت يده، ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها. ففي هذا قولان للناس:

فقالت طائفة: لا تصح توبته؛ لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنه الفعل والترك. فالتوبة من الممكن، لا من المستحيل. ولهذا لا تتصور التوبة من نقل الجبال عن أماكنها، وتنشيف البحار، والطيران إلى السماء، ونحوه.

قالوا: ولأن التوبة مخالفة داعي النفس، وإجابة داعي الحق. ولا داعي للنفس هنا، إذ يعلم استحالة الفعل منها.

قالوا: ولأن هذا كالمكره على الترك، المحمول عليها قهرًا. ومثل هذا لا تصح توبته.

---

(١) تابع المؤلف الأدلة حتى أوصلها إلى عشرين وجهًا ا هـ(ج).

(٢) ٤٧٠ مدارج جـ١.

(٣) ٢٨٣ مدارج جـ١..

(٤) أي: التوبة.

قالوا: ومن المستقر في فطر الناس وعقولهم: أن توبة المفاليس وأصحاب الجوائح: توبة غير معتبرة، ولا يحمدون عليها. بل يسمونها توبة إفلاس، وتوبة جائحة، قال الشاعر:

ورحت عن توبة سائلاً   وجدتها توبة إفلاس

قالوا: ويدل على هذا أيضًا: أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلت على أن التوبة عند المعاينة لا تنفع؛ لأنها توبة ضرورة لا اختيار.

قال تعالى: ﴿إِنَّما التوبَةُ علَى اللهِ للذيْنَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ. فأُولئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِم وكَان اللهُ عَلَيًا حكيمًا. ولَيْسَتِ التَّوبَةُ للذينَ يعمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حتَّى إذا حَضرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ إنِّي تُبْتُ الآنَ. ولا الذينَ يموتُونَ وهُمْ كُفَّارٌ أُولئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أليمًا﴾. [النساء: ١٧، ١٨].

والجهالة ههنا جهالة العمل وإن كان عالمًا بالتحريم.

قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ، على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة عمدًا كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل.

وأما التوبة من قريب؛ فجمهور المفسرين على أنها التوبة قبل المعاينة. قال عكرمة: قبل الموت. وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت. وقال السدي والكلبي: أن يتوب في صحته قبل مرض موته...

(١)**وصف** الله سبحانه أهل معصيته بالجهل في قوله تعالى: ﴿إِنَّما التوبَةُ على الله للذينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتوبُونَ من قريبٍ فأولَئِكَ يتُوبُ الله عليْهِمْ وكانَ الله عَلِيمًا حكيمًا﴾. قال سفيان الثوري: كل من عمل ذنبًا من خلق الله فهو جاهل؛ كان جاهلاً أو عالمًا، إن كان عالمًا فمن أجهل منه؟ وإن كان لا يعلم فمثل ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتوبُونَ من قريبٍ فَأُولئكَ يَتُوبُ الله عليهم وكانَ الله عليمًا حكيمًا﴾. [النساء: ١٧]. قال: قبل الموت. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذنب المؤمن جهل منه. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ، أن كل شيء عصي الله فيه فهو جهالة. وقال السدي: كل من عصى الله فهو جاهل.

---

(١) ٩٠ مفتاح جـ١.

قالوا: ويدل على صحة هذا أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد، فإنه لو رأى صبيًّا يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ورؤيته له وعقابه على الذنب وتحريمه له وسوء عاقبته؟! فلابد من غفلة القلب عن هذا العلم وغيبته عنه، فحينئذ يكون وقوعه في المعصية صادرًا عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم.

والذنب محفوف بجهلين: جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه، وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه، وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة، فما عصي الله إلا بالجهل، وما أطيع إلا بالعلم.

فصل(1)

ومن حكمته سبحانه ما منعهم من العلم: علم الساعة ومعرفة آجالهم، وفي ذلك من الحكمة البالغة ما لا يحتاج إلى نظر، فلو عرف الإنسان مقدار عمره؛ فإن كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش، وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت في ذلك الوقت؟ فلولا طول الأمل لخربت الدنيا وإنما عمارتها بالآمال. وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك؛ فهو واثق بالبقاء فلا يبالي بالانهماك في الشهوات والمعاصي وأنواع الفساد ويقول: إذا قرب الوقت أحدثت توبة. وهذا مذهب لا يرتضيه الله تعالى عز وجل من عباده ولا يقبله منهم، ولا تصلح عليه أحوال العالم، ولا يصلح العالم إلا على هذا الذي اقتضته حكمته وسبق في علمه، فلو أن عبدًا من عبيدك عمل على أن يسخطك أعوامًا، ثم يرضيك ساعة واحدة إذا تيقن أنه صائر إليك؛ لم تقبل منه ولم يفز لديك بما يفوز به من همه رضاك. وكذا سنة الله عز وجل: أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع قال تعالى: ﴿**وليستِ التوبةُ للذينَ يعملون السيئاتِ حتَّى إذا حَضَرَ أحدَهمُ الموتُ قال إنِّي تبتُ الآنَ**﴾. [النساء: ١٨]. وقوله: ﴿**فلما رأوا بأسَنا قالُوا آمنَّا بالله وحدَهُ وكفرنَا بما كنَّا بهِ مُشركِينَ فلم يكُ ينفعُهُم إيمانُهم لما رأوْا بأسنا سنَّة الله التي قَدْ خَلَتْ في عباده**﴾. [غافر: ٨٤، ٨٥]. والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة

(١) ٢٨٣ مفتاح جـ١.

الطبيعة؛ فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار في نفسه، فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه؛ لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له، وأنه يرى كل وقت ما لا صبر له عليه، فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه خائف مختلج في صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له، فهو يجيب داعي النفس تارة وداعي الإيمان تارات، فأما من بنى أمره على أن لا يقف عن ذنب ولا يقدم خوفًا ولا يدع لله شهوة، وهو فرح مسرور يضحك ظهرًا البطن إذ ظفر بالذنب، فهذا الذي يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة، ولا يوفق لها؛ فإنه من معاصيه وقبائحه على نقد عاجل يتقاضاه سلفًا وتعجيلاً، ومن توبته وإيابه ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى انقضاء الأجل، وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبًا؛ لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس والاستمرار على ذلك، شديد على النفس صعب عليها، أثقل من الجبال؛ ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضعف البصيرة وقلة النصيب من الإيمان، فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقدًا بنسيئة ولا عاجلاً بآجل كما قال بعض هؤلاء وقد سئل: أيما أحب إليك درهم اليوم أو دينار غدًا؟ فقال: لا هذا ولا هذا، ولكن ربع درهم من أول أمس. فحرام على هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله.

فإذا بلغ العبد حد الكبر وضعفت بصيرته ووهت قواه، وقد أوجبت له تلك الأعمال قوة في غيه وضعفًا في إيمانه، صارت كالملكة له بحيث لا يتمكن من تركها، فإن كثرة المزاولات تعطي الملكات فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة في الغي والمعاصي، وكلما صدر عنه واحد منها أثر أثرًا زائدًا على أثر ما قبله؛ فيقوى الأثران وهلم جرا، فيهجم عليه الضعف والكبر ووهن القوة على هذه الحال؛ فينتقل إلى الله بنجاسته وأوساخه وأدرانه لم يتطهر للقدوم على الله، فما ظنه بربه؟ ولو أنه تاب وأناب وقت القدرة والإمكان؛ لقبلت توبته ومحيت سيئاته، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون. ولا شيء أشهى لمن انتقل إلى الله على هذه الحال من التوبة، ولكن فرط في أداء الدين حتى نفد المال، ولو أداه وقت الإمكان لقبله ربه، وسيعلم المسرف والمفرط أي ديان أدان؟ وأي غريم يتقاضاه يوم يكون الوفاء من الحسنات؟ فإن فنيت فيحمل السيئات. فبان أن من حكمة الله ونعمه على عباده أن ستر عنهم

مقادير آجالهم ومبلغ أعمارهم، فلا يزال الكيس يترقب الموت وقد وضعه بين عينيه؛ فينكف عما يضره في معاده، ويجتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم.

فإن قلت: فها هو مع كونه قد غيب عنه مقدار أجله، وهو يترقب الموت في كل ساعة ومع ذلك يقارف الفواحش وينتهك المحارم، فأي فائدة وحكمة حصلت بستر أجله عنه؟ **قيل: لعمر الله إن الأمر كذلك وهو الموضع الذي حير الألباب والعقلاء وافترق الناس لأجله فرقًا شتى:**

ففرقة أنكرت الحكمة وتعليل أفعال الرب جملة، وقالوا بالجبر المحض وسدوا على أنفسهم الباب وقالوا: لا تعلل أفعال الرب تعالى ولا هي مقصود بها مصالح العباد، وإنما مصدرها محض المشيئة وصرف الإرادة، فأنكروا حكمة الله في أمره ونهيه.

وفرقة نفت لأجله القدر جملة، وزعموا أن أفعال العباد غير مخلوقة لله حتى يطلب لها وجوه الحكمة، وإنما هي خلقهم وإبداعهم، فهي واقعة بحسب جهلهم وظلمهم وضعفهم، فلا يقع على السداد والصواب إلا أقل القليل منها.

فهاتان الطائفتان متقابلتان أعظم تقابل.

فالأولى غلت في الجبر وإنكار الحكم المقصودة في أفعال الله.

والثانية: غلت في القدر وأخرجت كثيرًا من الحوادث؛ بل أكثرها عن ملك الرب وقدرته.

وهدى الله أهل السنة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فأثبتوا لله عز وجل عموم القدرة والمشيئة، وأنه تعالى أن يكون في ملكه ما لا يشاء، أو يشاء ما لا يكون، وأن أهل سمواته وأرضه أعجز وأضعف من أن يخلقوا ما لا يخلقه الله، أو يحدثوا ما لا يشاء، بل ما شاء الله كان ووجد وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم المشيئة له، وأنه لا حول ولا قوة إلا به، ولا تتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه، ومع ذلك فله في كل ما خلق وقضى وقدر وشرع من الحكم البالغة والعواقب الحميدة، ما اقتضاه كمال حكمته وعلمه وهو العليم الحكيم، فما خلق شيئًا ولا قضاه ولا شرعه إلا لحكمة بالغة؛ وإن تقاصرت عنها

عقول البشر، فهو الحكيم القدير فلا تجحد حكمته كما لا تجحد قدرته.

والطائفة الأولى جحدت الحكمة.

والثانية جحدت القدرة، والأمة الوسط أثبتت له كمال الحكمة وكمال القدرة.

فالفرقة الأولى تشهد في المعصية مجرد المشيئة والخلق العاري عن الحكمة، وربما شهدت الجبر وأن حركاتهم بمنزلة حركات الأشجار ونحوها.

والفرقة الثانية تشهد في المعصية مجرد كونها فاعلة محدثة مختارة، هي التي شاءت ذلك بدون مشيئة الله.

والأمة الوسط تشهد عز الربوبية وقهر المشيئة ونفوذها في كل شيء، وتشهد مع ذلك فعلها وكسبها واختيارها وإيثارها شهواتها على مرضات ربها.

فيوجب الشهود الأول لها: سؤال ربها والتذلل والتضرع له: أن يوفقها لطاعته ويحول بينها وبين معصيته، وأن يثبتها على دينه ويعصمها بطواعيته.

ويوجب الشهود الثاني لها: اعترافها بالذنب وإقرارها به على نفسها، وأنها هي الظالمة المستحقة للعقوبة، وتنزيه ربها عن الظلم، وأن يعذبها بغير استحقاق منها أو يعذبها على ما لم تعمله فيجتمع لها من الشهودين: شهود التوحيد والشرع والعدل والحكمة. **وقد ذكرنا في الفتوحات القدسية مشاهد الخلق في مواقعة الذنب وأنها تنتهي إلى ثمانية مشاهد:**

أحدها: المشهد الحيواني البهيمي الذي شهود صاحبه مقصور على شهوات لذته به فقط، وهو في هذا المشهد مشارك لجميع الحيوانات وربما يزيد عليها في اللذة وكثرة التمتع.

والثاني: مشهد الجبر وأن الفاعل فيه سواه والمحرك له غيره ولا ذنب له هو، وهذا مشهد المشركين وأعداء الرسل.

الثالث: مشهد القدر وهو أنه هو الخالق لفعله المحدث له بدون مشيئة الله وخلقه، وهذا مشهد القدرية المجوسية.

الرابع: مشهد أهل العلم والإيمان، وهو مشهد القدر والشرع يشهد فعله وقضاء الله وقدره كما تقدم.

الخامس: مشهد الفقر والفاقة والعجز والضعف، وأنه إن لم يعنه الله ويثبته ويوفقه؛ فهو هالك. والفرق بين مشهد هذا ومشهد الجبرية ظاهر.

السادس: مشهد التوحيد وهو الذي يشهد فيه انفراد الله عز وجل بالخلق والإبداع ونفوذ المشيئة، وأن الخلق أعجز من أن يعصوه بغير مشيئته. والفرق بين هذا المشهد وبين المشهد الخامس؛ أن صاحبه شاهد لكمال فقره وضعفه وحاجته، وهذا شاهد لتفرد الله بالخلق والإبداع، وأنه لا حول ولا قوة إلا به.

السابع: مشهد الحكمة وهو أن يشهد حكمة الله عز وجل في قضائه وتخليته بين العبد والذنب، ولله في ذلك حكم تعجز العقول عن الإحاطة بها، وذكرنا منها في ذلك الكتاب قريبًا من أربعين حكمة، وقد تقدم في أول هذا الكتاب التنبيه على بعضها.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ولَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ**﴾. [النساء: ١٩]. فحرَّم سبحانه وتعالى أن يأخذ منها شيئًا مما آتاها، إذا كان قد توسَّل إليه بالعَضْل.

(٢)فصل

فيما حكم الله سبحانه بتحريمه من النساء على لسان نبيه

حرم الأمهات وهن: كل من بينك وبينه ولادة من جهة الأمومة أو الأبوة كأمهاته وأمهات آبائه، وأجداده من جهة الرجال والنساء وإن علون.

وحرم البنات وهن: كل من ينسب إليه بولادة، كبنات صلبه، وبنات بناته وأبنائهن، وإن سَفُلْنَ. وحرم الأخوات من كل جهة.

وحرم العمات وهن: أخوات آبائه وإن علون من كل جهة.

وأما عمة العم: فإن كان العم لأب: فهي عمة أبيه. وإن كان لأم: فعمته أجنبية منه. فلا تدخل في العمات. وأما عمة الأم: فهي داخلة في عماته، كما دخلت عمة أبيه في عماته.

---

(١) ٣٧٨ إغاثة جـ١.

(٢) ١٥ زاد المعاد جـ٤.

وحرم الخالات وهن: أخوات أمهاته وأمهات آبائه، وإن علون.

وأما خالة العمة: فإن كانت العمة لأب؛ فخالتها أجنبية، وإن كانت لأم؛ فخالتها حرام؛ لأنها خالة. وأما عمة الخالة: فإن كانت الخالة لأم؛ فعمتها أجنبية، وإن كانت لأب؛ فعمتها حرام؛ لأنها عمة الأم.

وحرم بنات الأخ وبنات الأخت، فيعم الأخ والأخت من كل جهة وبناتهما، وإن نزلت درجتهن.

وحرم الأم من الرضاعة، فيدخل فيه أمهاتها من قبل الآباء والأمهات، وإن علون. وإذا صارت المرضعة أمَّه صار صاحب اللبن - وهو الزوج أو السيد إن كانت جارية - أباه. وآباؤه أجداده. فنبه بالمرضعة صاحبة اللبن - التي هي مستودع فيها للأب - على كونه أبًا بطريق الأولى؛ لأن اللبن له، وبوطئه ثاب. ولهذا حكم رسول الله ﷺ، بتحريم لبن الفحل. فثبت بالنص. وإيماؤه: انتشار حرمة الرضاع إلى أم المرتضِع وأبيه من الرضاعة، وأنه قد صار ابنًا لهما، وصارا أبوين له؛ فلزم من ذلك؛ أن يكون إخوتها وأخواتها خالات له وعمات، وأبناؤهما وبناتهما إخوة له وأخوات.

فنبه بقوله: ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾. [النساء: ٢٣]. على انتشار حرمة الرضاع إلى إخوتها وأخواتها، كما انتشرت منها إلى أولادهما. فكما صاروا إخوة وأخوات للمرتضع، فأخوالهما وخالاتهما؛ أخوال وخالات له، وأعمام وعمات له. الأول: بطريق النص، والآخر: بتنبيهه، كما أن الانتشار إلى الأم بطريق النص، وإلى الأب بطريق تنبيهه. وهذه طريقة عجيبة مطردة في القرآن، لا يقع عليها إلا كل غائص على معانيه ووجوه دلالاته.

ومن هنا قضى رسول الله ﷺ، أنه: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**». ولكن الدلالة دلالتان: خفية، وجلية. فجمعهما للأمة ليتم البيان، ويزول الالتباس، ويقع على الدلالة الجلية الظاهرة من قصر فهمه عن الخفية.

وحرم أمهات النساء. فدخل في ذلك أم المرأة، وإن علت من نسب أو رضاع، دخل بالمرأة أو لم يدخل بها. لصدق الاسم على هؤلاء كلهن.

وحرم الربائب اللاتي في حجور الأزواج. وهن بنات نسائهم المدخول بهن

فتناول ذلك بناتهن، وبنات بناتهن، وبنات أبنائهن. فإنهن داخلات في اسم «الربائب». وقيد التحريم بمقيدين: أحدهما: كونهن في حجور الأزواج. والثاني: الدخول بأمهاتهن. فإذا لم يوجد الدخول لم يثبت التحريم. سواء حصلت الفرقة بموت أو طلاق. هذا مقتضى النص.

وذهب زيد بن ثابت ومن وافقه، وأحمد في رواية عنه: إلى أن موت الأم في تحريم الربيبة كالدخول بها؛ لأنه يكمل الصداق، ويوجب العدة والتوارث؛ فصار كالدخول والجمهور أَبَوا ذلك. وقالوا: الميتة غير مدخول بها؛ فلا تحرم ابنتها. والله تعالى قيد التحريم بالدخول، وصرح بنفيه عند عدم الدخول.

وأما كونها في حجر: فلما كان الغالب ذلك ذكره لا تقييدًا للتحريم به، بل هو بمنزلة قوله: ﴿**ولا تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكم خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ**﴾. [الإسراء: ٣١].

ولما كان من شأن بنت المرأة أن تكون عند أمها، فهي في حجر الزوج وقوعًا وجوازًا فكأنه قال: اللاتي من شأنهن أن يكنَّ في حجوركم.

ففي ذكر هذا فائدة شريفة. وهي جواز جعلها في حجره، وأنه لا يجب عليه إبعادها عنه، وتجنب مؤاكلتها، والسفر والخلوة بها. فأفاد هذا الوصف؛ عدم الامتناع من ذلك.

ولما خفي هذا على بعض أهل الظاهر شرط في تحريم الربيبة: أن تكون في حجر الزوج. وقيد تحريمها بالدخول بأمها. وأطلق تحريم أم المرأة، ولم يقيده بالدخول. فقال جمهور العلماء من الصحابة ومن بعدهم: إن الأم تحرم بمجرد العقد على البنت دخل بها أو لم يدخل. ولا تحرم البنت إلا بالدخول بالأم. وقالوا: أبهموا ما أبهم الله.

وذَهَبت طائفة إلى أن قوله: ﴿**اللاتي دَخَلْتُم بهنَّ**﴾. [النساء:٢٣] وصف لنسائكم الأولى والثانية، وأنه لا تحرم الأم إلا بالدخول بالبنت.

وهذا يرده نظم الكلام، وحيلولة المعطوف بين الصفة والموصوف، وامتناع جعل الصفة للمضاف إليه، دون المضاف إلا عند البيان. فإذا قلت: مررت

بغلام زيد العاقل: فهو صفة للغلام لا لزيد، إلا عند زوال اللبس. كقولك: مررت بغلام هند الكاتبة.

ويرده أيضًا: جعل صفة واحدة لموصوفين مختلفي الحكم والتعلق والعامل. وهذا لا يعرف في اللغة التي نزل بها القرآن.

وأيضا: فإن الموصوف الذي يلي الصفة أولى بها لجواره، والجار أحق بصقبه، ما لم تدع ضرورة إلى نقلها عنه، أو تخطيها إياه إلى الأبعد.

فإن قيل: فمن أين أدخلتم ربيبته التي هي بنت جاريته التي دخل بها، وليست من نسائه؟

قلنا: السُّرِّية قد تدخل في جملة نسائه. كما دخلت في قوله: ﴿**نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُم فأتوا حَرْثَكُم أنَّى شِئْتُم**﴾. [البقرة: ٢٢٣].

ودخلت في قوله: ﴿**أحلَّ لَكُم ليلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُم**﴾. [البقرة:١٨٧]. **ودخلت في قوله: ﴿ولا تنكِحُوا ما نَكَحَ آباؤكُم من النِّساء﴾**. [النساء:٢٢].

فإن قيل: فيلزمكم على هذا إدخالها في قوله: ﴿**وأُمَّهاتِ نِسَائِكُم**﴾. [النساء: ٢٣]. فتحرم عليه أم جاريته.

قلنا: نعم. وكذلك نقول: إذا وطىء أمته حرمت عليه أمها وابنتها.

فإن قيل: فأنتم قد قررتم أنه لا يشترط الدخول بالبنت في تحريم أمها. فكيف تشترطونه ههنا؟ قلنا: لتصير من نسائه. فإن الزوجة صارت من نسائه بمجرد العقد. وأما المملوكة: فلا تصير من نسائه حتى يطأها. فإذا وطئها صارت من نسائه، فحرمت عليه أمها وابنتها.

فإن قيل: فكيف أدخلتم السرية في نسائه في آية التحريم، ولم تدخلوها في نسائه في آية الظهار والإيلاء.

قيل: السياق والواقع يأبى ذلك. فإن الظهار كان عندهم طلاقًا. وإنما محله الأزواج لا الإماء. فنقله الله سبحانه من الطلاق إلى التحريم الذي تزيله الكفارة. فنقل حكمه وأبقى محله.

وأما الإيلاء: فصريح في أن محله الزوجات؛ لقوله تعالى: ﴿**للذينَ يؤلُونَ**

مِنْ نِسـائِهم تَرَبُّصُ أربعةِ أَشْهُرٍ. فإنْ فَاءُوا فإنَّ الله غَفُورٌ رَحيمٌ. وإنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فإنَّ الله سَمِيعٌ عَلَيمٌ﴾. [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

وحرم سبحانه حلائل الأبناء. وهن موطوءات الأبناء بنكاح أو ملك يمين. فإنها حليلة بمعنى مُحَلَّلة. ويدخل في ذلك ابن صلبه، وابن ابنه، وابن ابنته. ويخرج من ذلك التبنيِّ. وهذا التقييد قصد به إخراجه.

وأما حليلة ابنه من الرضاع: فإن الأئمة الأربعة ومن قال بقولهم يدخلونها في قوله: **﴿وحلائل أبنائكم﴾**. ولا يخرجونها بقوله: **﴿الذينَ من أصلابكم﴾**. ويحتجون بقول النبيِّ ﷺ: «**حرموا من الرضاع ما يحرم من النسب**».

قالوا: وهذه الحليلة تحرم إذا كانت لابن النسب. فتحرم إذا كانت لابن الرضاع. قالوا: والتقييد لإخراج ابن التبني لا غير. وحرموا من الرضاع بالصهر نظير ما يحرم من النسب.

ونازعهم في ذلك آخرون، فقالوا: لا تحرم حليلة ابنه من الرضاعة؛ لأنه ليس من صلبه. والتقييد كما يخرج حليلة ابن التبني يخرج حليلة ابن الرضاع سواء ولا فرق بينهما.

قالوا: وأما قوله ﷺ: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**» فهو من أكبر أدلتنا وعمدتنا في المسألة. فإن تحريم حلائل الآباء والأبناء إنما هو بالصهر لا بالنسب. والنبيُّ ﷺ، **قد قصر تحريم الرضاع على نظيره من النسب**، لا على شقيقه من الصهر. فيجب الاقتصار بالتحريم على مورد النص.

قالوا: والتحريم بالرضاع فرع على تحريم النسب، لا على تحريم المصاهرة. فتحريم المصاهرة أصل قائم بذاته؛ والله سبحانه لم ينص في كتابه على تحريم الرضاع إلا من جهة النسب، ولم ينبه على التحريم به من جهة الصهر ألبتة، لا بنص ولا إيماء، ولا إشارة. والنبيُّ ﷺ، أمر أن يحرم به ما يحرم من النسب.

وفي ذلك إرشاد وإشارة إلى أنه لا يحرم به ما يحرم بالصهر. ولولا أنه أراد الاقتصار على ذلك لقال: حرموا من الرضاع ما يحرم من النسب والصهر.

قالوا: وأيضًا فالرضاع مشبه بالنسب. ولهذا أخذ منه بعض أحكامه، وهو الحرمة والمحرمية فقط، دون التوارث والإنفاق وسائر أحكام النسب. فهو نسب

ضعيف، فأخذ بحسب ضعفه بعض أحكام النسب، ولم يقو على سائر أحكام النسب؛ وهو ألصق به من المصاهرة. فكيف يقوى على أخذ أحكام المصاهرة، مع قصوره عن أحكام مشبهه وشقيقه؟

وأما المصاهرة والرضاع: فإنه لا نسب بينهما، ولا شبهة نسب، ولا بعضية، ولا اتصال.

قالوا: ولو كان تحريم الصهرية ثابتًا لبينه الله ورسوله بيانًا شافيًا، يقيم الحجة ويقطع العذر. فمن الله البيان، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم والانقياد.

فهذا منتهى النظر في هذه المسألة. فمن ظفر فيها بحجة فليرشد إليها، وليدل عليها؛ فإنا لها منقادون، وبها معتصمون. والله الموفق للصواب.

فصل وحرم سبحانه وتعالى نكاح من نكحهن الآباء

وهذا يتناول منكوحاتهم بملك اليمين، أو عقد نكاح. ويتناول آباء الآباء وآباء الأمهات وإن علون، واستثنى بقوله: ﴿**إلا ما قد سلف**﴾ [النساء:٢٢] والاستثناء من مضمون جملة النهي، وهو التحريم المستلزم للتأثيم والعقوبة، فاستثنى منه ما سلف قبل إقامة الحجة والرسول والكتاب.

فصل وحرم سبحانه الجمع بين الأختين

وهذا يتناول الجمع بينهما في عقد النكاح وملك اليمين، كسائر محرمات الآية. وهذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم. وهو الصواب.

وتوقفت طائفة في تحريمه بملك اليمين لمعارضة هذا العموم، بعموم قوله سبحانه: ﴿**والذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِم حَافِظُونَ. إلَّا على أَزْوَاجِهِم أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمانُهُم فإنَّهم غَيْرُ مَلُومِينَ**﴾. [المؤمنون: ٥، ٦]. ولهذا قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: «أحلتهما آية وحرمتهما آية».

وقال الإمام أحمد في رواية عنه: لا أقول هو حرام. ولكن ننهى عنه. فمن أصحابه من جعل القول بإباحته رواية عنه. والصحيح؛ أنه لم يبحه، ولكن تأدب مع الصحابة أن يطلق لفظ «الحرام» على أمر توقف فيه عثمان بن عفان، بل قال: ننهى عنه. والذين جزموا بتحريمه رجحوا آية التحريم من وجوه:

أحدها: أن سائر ما ذكر فيها من المحرمات عام في النكاح وملك اليمين، فما بال هذا وحده حتى يخرج منها؟ فإن كانت آية الإباحة مقتضية لحل الجمع بالملك، فلتكن مقتضية لحل أم موطوءته بالملك، ولموطوءة أبيه وابنه بالملك، إذ لا فرق بينهما ألبتة. ولا يعلم بهذا قائل.

الثاني: أن آية الإباحة بملك اليمين مخصوصة قطعًا بصور عديدة، لا يختلف فيها اثنان، كأمه وابنته، وأخته وعمته، وخالته من الرضاعة. بل كأخته وعمته وخالته من النسب، عند من لا يرى عتقهن بالملك، كمالك والشافعي. ولم يكن عموم قوله: ﴿**أو ما ملكتْ أيمانُكُم**﴾. [النساء: ٤] معارضًا لعموم تحريمهن بالعقد والملك. فهذا حكم الأختين سواء.

الثالث: أن حل الملك ليس فيه أكثر من بيان جهة الحل وسببه. ولا تعرض فيه لشروط الحل، ولا لموانعه. وآية التحريم فيها بيان موانع الحل من النسب والرضاع والصهر وغيره. فلا تعارض بينهما ألبتة، وإلا كان كل موضع ذكر فيه شرط الحل وموانعه معارضًا لمقتضى الحل. وهذا باطل قطعًا. بل هو بيان لما سكت عنه دليل الحل من الشروط والموانع.

الرابع: أنه لو جاز الجمع بين الأختين المملوكتين في الوطء جاز الجمع بين الأم وابنتها المملوكتين. فإن نص التحريم شامل للصورتين شمولاً واحدًا، وأن إباحة المملوكات إن عمت الأختين عمت الأم وابنتها.

الخامس: أن النبي ﷺ، قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجمع ماءه في رحم أختين**». ولا ريب أن جمع الماء كما يكون بعقد النكاح يكون بملك اليمين. والإيمان يمنع منه.

فصل

وقضى رسول الله ﷺ، بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها. وهذا التحريم مأخوذ من تحريم الجمع بين الأختين، لكن بطريق خفي.

وما حرمه رسول الله ﷺ، مثل ما حرمه الله. ولكن هو مستنبط من دلالة الكتاب.

وكان الصحابة أحرص شيء على استنباط أحاديث الرسول، ﷺ، من القرآن.

ومن ألزم نفسه ذلك، وقرع بابه، ووجه قلبه إليه، واعتنى به بفطرة سليمة، وقلب زكي؛ رأى السنة كلها تفصيلاً للقرآن، وتبييناً لدلالته، وبياناً لمراد الله منه. وهذا أعلى مراتب العلم. فمن ظفر به فليحمد الله. ومن فاته فلا يلومن إلا نفسه وهمته وعجزه.

واستفيد من تحريم الجمع بين الأختين، وبين المرأة وعمتها، وبينها وبين خالتها؛ أن كل امرأتين بينهما قرابة لو كان أحدهما ذكراً حرم على الآخر، فإنه يحرم الجمع بينهما. ولا يستثنى من هذا صورة واحدة. فإن لم يكن بينهما قرابة لم يحرم الجمع بينهما. وهل يكره؟ على قولين. وهذا كالجمع بين امرأة رجل وابنته من غيرها.

واستفيد من عموم تحريمه سبحانه المحرمات المذكورة: أن كل امرأة حرم نكاحها حرم وطؤها بملك اليمين، إلا إماء أهل الكتاب. فإن نكاحهن حرام عند الأكثرين، ووطأهن بالملك جائز. وسوى أبو حنيفة بينهما: فأباح نكاحهن كما يباح وطؤهن بالملك.

والجمهور احتجوا عليه بأن الله سبحانه وتعالى إنما أباح نكاح الإماء بوصف الإيمان فقال تعالى: ﴿وَمَنْ لم يسْتَطِعْ مِنْكُم طَوْلاً أن يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ المؤمِنَـاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْـمَانُكُم مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤمِنَات. والله أَعْلَمُ بإيمانِكُم﴾. [النساء: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿ولا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حتَّى يُؤمِنَّ﴾. [البقرة: ٢٢١]. خص ذلك بحرائر أهل الكتاب. بقي الإماء على قضية التحريم. وقد فهم ابن عمر وغيره من الصحابة إدخال الكتابيات في هذه الآية. فقال: «لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: إن المسيح إلـهها».

وأيضا: فالأصل في الأبضاع؛ الحرمة. وإنما أبيح نكاح الإماء المؤمنات، فمن عداهن؛ على أصل التحريم. وليس تحريمهن مستفاداً من المفهوم.

واستفيد من سياق الآية ومدلولها؛ أن كل امرأة حرمت حرمت ابنتها إلا العمة والخالة، وحليلة الابن وحليلة الأب، وأم الزوجة. وأن كل الأقارب حرام

إلا الأربع المذكورات في سورة الأحزاب. وهن: بنات الأعمام والعمات، وبنات الأخوال والخالات.

فصل ومما حرمه النص: نكاح الزوجات المحصنات

واستثنى من ذلك ملك اليمين. فأشكل هذا الاستثناء على كثير من الناس. فإن الأمة المزوجة يحرم وطؤها على مالكها. فأين محل الاستثناء؟

فقالت طائفة: هو منقطع، أي لكن ما ملكت أيمانكم. وقد رد هذا لفظًا ومعنى.

أما اللفظ فإن الانقطاع إنما يقع حيث يقع التفريغ، وبابه غير الإيجاب: من النفي والنهي والاستفهام. فليس الموضع موضع الانقطاع.

وأما المعنى: فإن المنقطع لابد فيه من رابط بينه وبين المستثنى منه؛ بحيث يُخرج ما تُوُهِّم دخوله فيه بوجه ما. فإنك إذا قلت: ما بالدار من أحد؛ دل على انتفاء من بها بدوابهم وأمتعتهم. فإذا قلت: إلا حماراً، أو إلا الأثافي ونحو ذلك؛ أزلت توهم دخول المستثنى في حكم المستثنى منه.

وأبين من هذا قوله تعالى: ﴿لا يسمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إلاَّ سَلاَمًا﴾. [مريم: ٦٢]. فاستثناء السلام أزال توهم نفي السماع العام. فإن عدم سماع اللغو يجوز أن يكون لعدم سماع كلام ما، وأن يكون مع سماع غيره. وليس في تحريم نكاح الزوجة ما يوهم تحريم وطء الإماء بملك اليمين حتى يخرجه.

وقالت طائفة: بل الاستثناء على بابه، ومتى ملك الرجل الأمة المزوجة كان ملكه طلاقًا لها. وحل له وطؤها.

وهي مسألة بيع الأمة: هل يكون طلاقًا لها أم لا؟ فيه مذهبان للصحابة. فابن عباس يراه طلاقًا. ويحتج له بالآية.

وغيره يأبى ذلك، ويقول: كما يجامع الملك السابق للنكاح اللاحق اتفاقًا ولا يتنافيان، كذلك الملك اللاحق لا ينافي النكاح السابق.

قالوا: وقد «خير رسول الله ﷺ، بريرة لما بيعت». ولو انفسخ نكاحها لم يخيرها.

قالوا: وهذا حجة على ابن عباس فإنه هو راوي الحديث، والأخذ برواية الصحابي لا برأيه.

وقالت طائفة ثالثة: إن كان المشتري امرأة لم ينفسخ النكاح، لأنها لا تملك الاستمتاع ببضع الزوجة. وإن كان رجلاً انفسخ، لأنه يملك الاستمتاع به. وملك اليمين أقوى من ملك النكاح، وهذا الملك يبطل النكاح دون العكس، قالوا: وعلى هذا فلا إشكال في حديث بريرة.

(١)**قال** الله تعالى عقيب ذكره ما أحل لعباده من الزوجات والإماء وما حرم عليهم: ﴿يُرِيدُ الله لِيُبَيِّنَ لكم ويهديَكم سُنَنَ الذينَ مِنْ قَبلِكُمْ ويَتُوبَ عليكُمْ والله عليمٌ حَكِيمٌ. والله يُريدُ أَنْ يَتُوبَ عليكُمْ ويُرِيدُ الذينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عظيمًا. يُرِيدُ الله أَنْ يُخَفِّفَ عنكُمْ وخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾. [النساء: ٢٦-٢٨]. أي: لا يصبر عن النساء، كما ذكر الثوري: عن ابن طاوس، عن أبيه: ﴿وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفًا﴾. قال: إذا نظر إلى النساء لم يصبر، وكذلك قال غيرُ واحد من السلف.

ولما كانت الشهوة في هذا الباب غالبة لابد أن توجب ما يوجب التوبة؛ كرَّر سبحانه وتعالى ذكر التوبة مرتين، فأخبر أن متبعي الشهوات يريدون من عباده أن يميلوا ميلاً عظيمًا.

وأخبر سبحانه وتعالى أنه يريد التخفيف عنا لضعفنا، فأباح لنا أن ننكح ما طاب لنا من أطايب النساء أربعًا، وأن نتسرى من الإماء بما شئنا، ولما كان العبد له في هذا الباب ثلاثة أحوال: حالة جهل بما يحلُّ له ويحرم عليه، وحالة تقصير وتفريط، وحالة ضعف وقلة صبر، قابل سبحانه جهل عبده بالبيان والهدى، وتقصيره وتفريطه بالتوبة، وضعفه وقلة صبره بالتخفيف.

(٢)**والمقصود:** أن العشق لما كان مرضًا من الأمراض: كان قابلاً للعلاج. وله أنواع من العلاج، فإن كان مما للعاشق سبيل إلى وصل محبوبه شرعًا وقدرًا: فهو علاجه، كما ثبت في الصحيحين: من حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»**.

فدل المحب على علاجين: أصلي، وبدلي، وأمره بالأصلي: وهو العلاج الذي وضع لهذا الداء. فلا ينبغي العدول عنه إلى غيره، ما وجد إليه سبيلاً.

---

(١) ٢١٩ روضة.

(٢) ٣٢٢ زاد المعاد جـ٣.

وروى ابن ماجه في سننه: عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**لم نر للمتحابين مثل النكاح**».

وهذا المعنى الذي أشار إليه سبحانه عقيب إحلال النساء: حرائرهن، وإمائهن، عند الحاجة، بقوله: ﴿**يُرِيدُ الله أَنْ يُخَفِّفَ عنكُم وخُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفًا**﴾. [النساء: ٢٨].

فذكر تخفيفه في هذا الموضع، وإخباره عن ضعف الإنسان؛ يدل على ضعفه عن احتمال هذه الشهوة، وأنه سبحانه خفف عنه أمرها بما أباحه له من أطايب النساء: مثنى وثلاث ورباع، وأباح له ما شاء مما ملكت يمينه، ثم أباح له أن يتزوج بالإماء إن احتاج إلى ذلك؛ علاجًا لهذه الشهوة، وتخفيفًا عن هذا الخلق الضعيف، ورحمة به...

(١)**قال** تعالى: ﴿**وخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا**﴾. [النساء: ٢٨]. قال طاوس ومقاتل وغيرهما: لا يصبر عن النساء. وقال الحسن: **هو خلقه من ماء مهين**. وقال الزجاج: ضعف عزمه عن قهر الهوى.

والصواب أن ضعفه يعم هذا كله، وضعفه أعظم من هذا وأكثر: فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر. والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صبيب الحدور. فبالاضطرار لابد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تخلى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب إليه من نفسه.

وخلقه على هذه الصفة؛ هو من الأمور التي يحمد عليها الرب سبحانه ويثنى عليه بها، وهو موجب حكمته وعزته، فكل ما يحدث من هذه الخلقة ويلزم عنها فهو بالنسبة إلى الخالق سبحانه خير وعدل وحكمة، إذ مصدر هذه الخلقة عن صفات كماله: من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته.

وبالنسبة إلى العبد تنقسم إلى: خير وشر، وحسن وقبيح، كما تكون بالنسبة إليه: طاعة ومعصية، وبرًا وفجورًا، بل أخص من ذلك، مثل كونها صلاة وصيامًا وحجًا وزنًا وسرقة وأكلاً وشربًا، إذ ذاك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه، وموجب أمر الله له ونهيه.

ولله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة، والحمد المطلق على جميع ما خلقه وأمر به، وعلى ما لم يخلقه مما لو شاءه لخلقه، وعلى توفيقه الموجب لطاعته وعلى خذلانه الموقع في معصيته،

---

(١) ١٠٨ طريق الهجرتين.

وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة، وأحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل ما صنع. ومايحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذى؛ فله في ذلك سبحانه أعظم حكمة مطلوبة، وتلك الحكمة إنما تحصل على الوجه الواقع المقدر بما خلق لها من الأسباب التي لا تنال غاياتها إلا بها، فوجود هذه الأسباب بالنسبة إلى الخالق الحكيم سبحانه؛ هو من الحكمة.

ولهذا يقرن سبحانه في كتابه بين اسمه الحكيم واسمه العليم تارة، وبين اسمه العزيز تارة كقوله: ﴿**و الله عَليمٌ حَكِيمٌ**﴾. [النساء: ٢٦، الأنفال: ٧١]. ﴿**واللّهُ عزيـزٌ حَكِيمٌ**﴾. [البقرة: ٢٤، المائدة: ٣٨]. وقوله: ﴿**وكان اللّهُ عزيزًا حكيمًا**﴾. [النساء: ١٥٨، ١٦٥، الفتح: ٧، ١٩]. ﴿**وكَانَ اللّهُ عَليمًا حَكِيمًا**﴾. [الفتح: ٤]. ﴿**وإنَّكَ لَتُلَقَّى القُرآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عليمٍ**﴾. [النمل: ٦]. فإن العزة تتضمن القوة، ولله القوة جميعًا، يقال: عز يعَز ـ بفتح العين ـ إذا اشتد وقوي . . .

(١)**قال** تعالى: ﴿**إلَّا أَنْ تَكونَ تِجارَةً عن تَرَاضٍ مِنْكُم**﴾. [النساء: ٢٩]. فأباح التجارة التي تراضى بها المتبايعان؛ فإذا تراضيا على شرط لا يخالف حكم الله جاز لهما ذلك، ولا يجوز إلغاؤه وإلزامهما بما لم يلتزماه ولا ألزمهما الله ولا رسوله به، ولا يجوز إلزامهما بما لم يلزمهما الله ورسوله به، ولا هما التزماه، ولا إبطال ما شرطاه مما لم يحرم الله ورسوله عليهما شرطه، ومحرِّم الحلال كمحلِّل الحرام، فهؤلاء ألغوا من شروط المتعاقدين ما لم يُلغه الله ورسوله، وقابلهم آخرون من القياسيين فاعتبروا من شروط الواقفين ما ألغاه الله ورسوله، وكلا القولين خطأ؛ بل الصواب إلغاء كل شرط خالف حكم الله، واعتبار كل شرط لم يحرمه الله ولم يمنع منه، وبالله التوفيق.

(٢)**وفي** هذه الغزوة(٣) احتلم أمير الجيش عمرو بن العاص، وكانت ليلة باردة، فخاف على نفسه من الماء، فتيمَّم وصلى بأصحابه الصبح. فذكروا ذلك للنبيء ﷺ، فقال: «**يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟**» فأخبره بالذي

---

(١) ٣٤٩ أعلام جـ١.
(٢) ٣٧٩ زاد المعاد جـ٢.
(٣) أي غزوة ذات السلاسل.

منعه من الاغتسال، وقال: إني سمعت الله يقول: ﴿ولاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم إنَّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾. [النساء: ٢٩]. فضحك رسول الله ﷺ، ولم يقل شيئًا.

وقـد احتـج بهذه القصـة من قال: إن التيمم لا يرفـع الحـدث؛ لأن النبي، ﷺ، سمّاه جنبًا بعد تيمُّمه. وأجاب من نازعهم في ذلك بثلاثة أجوبة:

أحـدها: أن الصحـابـة لما شكـوه قالوا: صلى بنا الصبح وهو جنب، فسأله النبي، ﷺ، عن ذلك، وقال: «**صليت بأصحابك وأنت جنب؟**» استفهامًا واستعلامًا. فلما أخبره بعذره، وأنه تيمم للحاجة: أقره على ذلك.

الثـاني: أن الـرواية اختلفت عنه، فروي عنه فيها: «أنه غسل مغابنه، وتوضأ وضوءه للصلاة ثم صلى بهم» ولم يذكر التيمم. وكأن هذه الرواية أقوى من رواية التيمم. قال عبدالحق الإشبيلي في أحكامه:ـوقد ذكرها وذكر رواية التيمم قبلها، ثم قال وهذا أَوْصَل من الأول، لأنه عن عبدالرحمن بن جبير المصري، عن أبي القيس مولى عمرو، عن عمرو، والأولى ـ التي فيها التيمم ـ من رواية عبدالرحمن بن جبير، عن عمرو بن العاص، لم يذكر بينهما أبا قيس.

الثالث: أن النبي، ﷺ، أراد أن يستعلم فقه عمرو في تركه الاغتسال فقال له: «**صليت بأصحابك وأنت جنب؟**» فلما أخبره أنه تيمم للحاجة؛ علم فقهه **فلم ينكر عليه. ويدل عليه أن ما فعله عمرو من التيمم ـ والله أعلم ـ كان خشية الهـلاك بالبرد كما أخبر به، والصلاة بالتيمم في هذه الحال جائزة غير منكر على فاعلها، فعلم أنه أراد استعلام فقهه وعلمه ـ والله أعلم ـ.**

(١)**الطبقة** التاسعة: طبقة أهل النجاة، وهي طبقة من يؤدي فرائض الله ويترك محارم الله، مقتصرًا على ذلك لا يزيد عليه ولا ينقص منه، فلا يتعدى إلى ما حرم الله عليه ولا يزيد على ما فرض عليه. هذا من المفلحين بضمان رسول الله، ﷺ، لمن أخبره بشرائع الإسلام فقال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، فقال ﷺ: «**أفلح إن صدق**».

---

(١) ٣٧٩ طريق الهجرتين.

وأصحاب هذه الطبقة مضمون لهم على الله تكفير سيئاتهم، إذا أدوا فرائضه واجتنبوا كبائر ما نهاهم عنه.

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾. [النساء: ٣١].

وصح عنه، ﷺ، أنه قال: «الصلواتُ الخمسُ ورمضانُ إلى رمضانَ والجمعةُ إلى الجمعةِ مكفِّراتٌ لما بينهن ما لم تُغشَ كبيرةٌ». فإن غشي أهل هذه الطبقة كبيرة وتابوا منها توبة نصوحًا؛ لم يخرجوا من طبقتهم فكانوا بمنزلة من لا ذنب له. فتكفير الصغائر يقع بشيئين: أحدهما الحسنات الماحية، والثاني: اجتناب الكبائر.

وقد نص عليها سبحانه وتعالى في كتابه فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾. [هود: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ﴾. [النساء: ٣١].

الطبقة العاشرة: طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم، وغشوا كبائر ما نهى الله عنه، ولكن رزقهم الله التوبة النصوح قبل الموت، فماتوا على توبة صحيحة. فهؤلاء ناجون من عذاب الله: إما قطعًا عند قوم، وإما رجاء وظنًّا عند آخرين. وهم موكولون إلى المشيئة، ولكن نصوص القرآن والسنة تدل على نجاتهم وقبول توبتهم، وهو وعد وعدهم الله إياه، والله لا يخلف الميعاد.

فإن قيل: فما الفرق بين أهل هذه الطبقة والتي قبلها؟ فإن الله إذا كفر عنهم سيئاتهم، وأثبت لهم بكل سيئة حسنة كانوا كمن قبلهم أو أرجح.

قيل: قد تقدم الكلام على هذه المسألة بما فيه كفاية[1] فعليك بمعاودته هناك.

وكيف يستوي عند الله من أنفق عمره في طاعته ولم يغش كبيرة، ومن لم

---

(١) انظر ص ٢٣١ وما بعدها، ولا سيما ص٢٤٥ ـ ٢٩٠ من الأصل المنقول منه، أعانك الله ووفقك، وهو بحث في التوبة موسع فراجعه إن شئت. (ج).

يدع كبيرة إلا ارتكبها، وفرط في أوامره، ثم تاب؟ فهذا غايته أن تمحى سيئاته، ويكون لا له ولا عليه، وأما أن يكون هو ومن قبله سواء أو أرجح منه فكلا.

(١)**تأمل** قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجتنبوا كبائر ما تُنْهَوْنَ عنه نُكَفِّرْ عنكم سيئاتِكُم﴾. كيف تجد تحته بألطف دلالة وأدقها وأحسنها؛ أنه من اجتنب الشرك جميعه كفرت عنه كبائره، وأن نسبة الكبائر إلى الشرك كنسبة الصغائر إلى الكبائر، فإذا وقعت الصغائر مكفرة باجتناب الكبائر؛ فالكبائر تقع مكفرة باجتناب الشرك.

وتجد الحديث الصحيح كأنه مشتقٌّ من هذا المعنى، وهو قوله ﷺ، فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «**ابنَ آدمَ إنَّك لو لقيتني بقُرَابِ الأرضِ خطايا ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئًا لقيتُك بقُرَابها مغفرةً**».

وقوله: «**إن الله حرَّم على النارِ مَنْ قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**».

بل محو التوحيد الذي هو توحيدُ الكبائرَ؛ أعظمُ من محو اجتناب الكبائر للصغائر.

(٢)**وقد** دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة؛ على أن من الذنوب كبائر وصغائر، قال الله تعالى: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عنهُ نُكَفِّر عنكُمْ سَيِّئَاتكم**﴾. [النساء: ٣١].

وقال تعالى: ﴿**الذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ والفَوَاحِشَ إلَّا اللمم**﴾. [النجم: ٣٢].

وفي الصحيح عنه ﷺ، أنه قال: «**الصلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعةِ ورمضانُ إلى رمضانَ مكفِّراتٌ لما بينهن إذا اجتنبتِ الكبائرُ**». وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات:

إحداها: أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها، بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية.

الثانية: أن تقاوم الصغائر ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر.

الثالثة: أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر.

---

(١) ٢٢٦ أعلام جـ١. (٢) ١٦٨ الجواب الكافي.

فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة.

وفي الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: «**الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وشهادةُ الزورِ**»(١).

فصل(٢)

وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافًا لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة.

وفي الصحيحين: من حديث الشعبي، عن عبدالله بن عمرو، عن النبي، ﷺ، قال: «**الكبائرُ: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النفسِ، واليمينُ الغموسُ**».

وفيهما: عن عبدالرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، عن النبي، ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ـ ثلاثًا ـ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «**الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين** ـ وجلس وكان متكئًا فقال ـ: **ألا وقولُ الزورِ**»، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

وفي الصحيح: من حديث أبي وائل، عن عمرو بن شُرحبيل، عن عبدالله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعلَ لله ندًّا وهو خلقك**». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدَك مخافةَ أن يَطْعمَ معك**». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تُزاني بحليلةِ جارك**». فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي، ﷺ: ﴿**والذين لَا يَدْعُونَ مَعَ الله إِلَـهًا آخَرَ ولَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلَّا بالحقِّ ولَا يَزْنُونَ**﴾. [الفرقان: ٦٨].

...(٣)**وأكثر** الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات؛ في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها. ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها. فعندهم من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم، وصولة طاعاتهم، ومِنَّتهم على الخلق بلسان الحال،

---

(١) بقية البحث في سورة الفرقان. ج	(٢) ٣٢٠ مدارج جـ١.

(٣) ١٨٧ مدارج جـ١.

واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابع ذلك؛ ما هو أبغض إلى الله، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك.

فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها، ليكسر بها نفسه، ويعرفه قدره، ويذله بها، ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه؛ فهي رحمة في حقه.

كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح، وإقبال بقلوبهم إليه. فهو رحمة في حقهم، وإلا فكلاهما على خطر.

...فصل(١)

النظر الرابع(٢): نظره إلى الآمر له بالمعصية، المزيِّن له فعلها، الحاضّ له عليها. وهو شيطانه الموكَّل به.

فيفيده النظر إليه، وملاحظته؛ اتخاذه عدوًّا، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة، والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر. فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض. لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفَر به فيها.

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه. فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح. فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة:

إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه.

وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله: من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئًا. والبدعتان في الغالب متلازمتان. قلَّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى. كما قال بعضهم: تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال. فاشتغل الزوجان

---

(١) ٢٢٢ مدارج جـ١.

(٢) تقدم ذكر أن للعبد في الذنب نظراً إلى أربعة أمور ذكرها مفصله.

نظر إلى الأمر والنهي، ونظر إلى الحكم والقضاء. ونظر إلى محل الجناية ومصدرها وهو النفس الأمارة بالسوء ويفيده نظره إليها أمورًا .. إلخ فمن أرادها فليرجع إليها وهذا الرابع آخرها (ج).

بالعـرس. فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام. تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة، بالبدعة الفاجرة، فتولَّد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

فإن قطع هذه ا لعقبة، وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان. وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل، وبَغوه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث.

فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر. فإن ظفر به فيها زيَّنها له، وحسَّنها في عينه، وسوَّف به، وفتح له باب الإرجاء. وقال له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه الأعمال، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، **وهي قوله**: «لا يَضرُّ مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة». والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه. لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله. وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها؛ بل يدعو الخلق إليها؛ ولتضمنها القول على الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة، وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولَّاه الله ورسوله، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره، وموالاة من عاداه، ومعـاداة من والاه، وإثبـات ما نفـاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق؛ بجعل الحق باطلاً، والباطل حقًّا، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العِوَج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة.

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين. كما تنسل الشعرة من العجين. فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى **﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾**.

[النور: ٤٥]. **فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:**

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر. فكال له منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللَّمَم، أَوَ ما علمت بأنها تكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات؟ ولا يزال يهوِّن عليه أمرها حتى يُصرّ عليها. فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه. فالإصرار على الذنب أقبح منه. ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار. ولا صغيرة مع الإصرار.

وقد قال ﷺ: «**إيَّاكم ومحقراتِ الذنوبِ**» ثم ضرب لذلك مثلاً: بقوم نزلوا بفلاة من الأرض، فأعوزهم الحطب، فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود، حتى جمعوا حطبًا كثيرًا، فأوقدوا نارًا وأنضجوا خبزتهم. فكذلك فإن محقرات الذنوب **تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه. فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار. وأتبع السيئة الحسنة. طلبه على:**

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها. فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه؛ تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة، والمنازل العالية. ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئًا من القربات؛ ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشتري، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته، وضنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير ربح؛ طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات. فأمره بها، وحسَّنها في عينه، وزيَّنها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا؛ لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية. فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر

بهم في العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤسها، وسيدها ومسودها. فإن في الأعمال والأقوال سيدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرءوساً، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح:

«سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللهم أنت ربي. لا إله إلا أنت»... الحديث.

وفي الحديث الآخر: **«الجهادُ ذروةُ سنامِ الأمرِ»**.

وفي الأثر الآخر: **«إن الأعمال تفاخرت. فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله. وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن»**. ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها. ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه. وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير. فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط. وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها. فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء به.

فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله. فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تسمى عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة. ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له.

وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه:

أحدها قوله: **﴿ومن يُهاجرْ في سبيلِ الله يجدْ في الأرضِ مُراغمًا كثيراً وسَعةً﴾**. [النساء: ١٠٠]. سمي المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغمًا يراغم به عدو الله وعدوه. والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته كما قال تعالى: **﴿ذلِكَ**

بأنَّهم لا يُصيبُهُم ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيل الله ولايطؤُونَموطِئًا يغيظُ الكُفَّارَ. ولا يَنَالُونَ مِن عدوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لهم بِهِ عَمَلٌ صَالحٌ. إنَّ الله لاَ يُضيعُ أَجْرَ المُحسِنِينَ﴾. [التوبة: ١٢٠].

وقال تعالى في مثل رسول الله، ﷺ، وأتباعه: ﴿ومَثَلُهُم في الإِنْجيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأه فآزَرَه فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ﴾. [الفتح: ٢٩].

فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له. فموافقته فيها من كمال العبودية.

وشرع النبي، ﷺ، للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: «**إن كانت صلاتَهُ تامةً كانتا ترغمان أنفَ الشيطانِ**». وفي رواية: «**ترغيمًا للشيطانِ**». وسماهما «**المرغمتين**».

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر. وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته، ومعاداته لعدوه، يكون نصيبه من هذه المراغمة. ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلا الله؛ لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس. ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول.

وبالله المستعان. وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه في الذنب، راغمه بالتوبة النصوح. فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى.

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار «التوبة» لا تستهزىء بها. فلعلك لا تظفر بها في مصنف آخر ألبتة. ولله الحمد والمنة. وبه التوفيق.

(١)**وفي** المسند من حديث الأشعث بن قيس قال: **تضيّفت بعض أصحاب النبي، ﷺ، فقام إلى امرأته فضربها قال: فحجزت بينهما فرجع إلى فراشه فقال: يا**

---

(١) ٣٢١ روضة المحبين.

أشعث احفظ عني شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ: «**لا تسألنَّ رجلًا فيما يضرب امرأته**».

وذكر حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة: أن ابن عمر رضي الله عنهما سمع امرأته تكلم رجلًا من وراء جدار، بينها وبينه قرابة لا يعلمها ابن عمر؛ فجمع لها جرائد ثم ضربها حتى أضبَّتْ[1] حسيسًا.

وذكر الخرائطي: عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه، أنه كان يأكل تفاحة ومعه امرأته فدخل عليه غلام له فناولته تفاحة قد أكلت منها، فأوجعها معاذ ضربًا؛ ودخل يومًا على امرأته وهي تطلع في خباء أدم فضربها.

وذكر الثوري، عن أشعث، عن الحسن: أن امرأة جاءت تشكو زوجها إلى النبي، ﷺ، لطمها، فدعا الرجل ليأخذ حقها فأنزل الله عز وجل: ﴿**الرِّجالُ قوَّامون على النساءِ بما فضَّلَ الله بعضَهم على بعضٍ**﴾. [النساء: ٣٤]. فقال رسول الله، ﷺ: «**أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا**»...

[2]فصل في حكمه ﷺ في خدمة المرأة لزوجها

قال ابن حبيب في الواضحة: حكم النبي، ﷺ، بين علي بن أبي طالب وبين زوجته فاطمة حين اشتكيا إليه الخدمة. فحكم على فاطمة بالخدمة الباطنة خدمة البيت. وحكم على علي بالخدمة الظاهرة.

ثم قال ابن حبيب: والخدمة الباطنة: العجين، والطبخ والفرش، وكنس البيت، واستقاء الماء، وعمل البيت كله.

وفي الصحيحين: أن فاطمة أتت النبي، ﷺ، تشكو إليه ما تلقى في يديها من الرحى. وتسأله خادمًا. فلم تجده. فذكرت ذلك لعائشة. فلما جاء رسول الله، ﷺ، أخبرته. قال علي: فجاءنا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم. فقال: «**مكانكما**»، فجاء فقعد بيننا، حتى وجدت برد قدميه على بطني فقال: «**ألا أدلكما على ما هو خير لكما مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما فسبِّحا الله ثلاثًا وثلاثين،**

---

(١) أضبَّ الشيء: أخفاه.

(٢) ٦١ زاد المعاد جـ٤.

واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبِّرا أربعًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم»، قال علي: فما تركتها بعد، قيل: ولا ليلة صِفِّين؟ قال: ولا ليلة صفين.

وصح عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: «كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله، وكان له فرس، وكنت أسوسه، وكنت أحشُّ له، وأقوم عليه».

وصح عنها: «أنها كانت تعلف فرسه، وتسقي الماء، وتخرز الدَّلو وتعجن، وتنقل النوى على رأسها من أرض له على ثلثي فرسخ».

فاختلف الفقهاء في ذلك. فأوجب طائفة من السلف والخلف خدمتها له في مصالح البيت، وقال أبو ثور: عليها أن تخدم زوجها في كل شيء.

ومنعت طائفة وجوب خدمته عليها في شيء، وممن ذهب إلى ذلك: مالك والشافعي وأبو حنيفة، وأهل الظاهر.

قالوا: لأن عقد النكاح إنما اقتضى الاستمتاع، لا الاستخدام، وبذل المنافع، قالوا: والأحاديث المذكورة إنما تدل على التطوع، ومكارم الأخلاق، فأين الوجوب منها؟ **واحتج من أوجب الخدمة: بأن هذا هو المعروف عند من خاطبهم الله سبحانه بكلامه.**

وأما ترفيه المرأة وخدمة الزوج لها، وكنسه وطحنه وعجنه، وغسله وفرشه وقيامه بخدمة البيت: فمن المنكر، والله تعالى يقول: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بالمَعْرُوفِ**﴾. [البقرة: ٢٢٨]. وقال: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ على النِّسَاءِ**﴾. [النساء: ٣٤]. فإذا لم تخدمه المرأة، بل يكون هو الخادم لها: فهي القوَّامة عليه.

وأيضا: فإن المهر في مقابلة البضع. وكل من الزوجين يقضي وطره من صاحبه، فإنما أوجب الله سبحانه نفقتها وكسوتها ومسكنها في مقابلة استمتاعه بها، وخدمتها وما جرت به عادة الأزواج.

وأيضا: فإن العقود المطلقة إنما تُنزَّل على العرف، والعرف خدمة المرأة، وقيامها بمصالح البيت الداخلة.

وقولهم: إن خدمة فاطمة وأسماء كانت تبرعًا وإحسانًا؛ يرده أن فاطمة كانت تشتكي ما تلقى من الخدمة، فلم يقل لعلي: لا خدمة عليها وإنما هي عليك، وهو ﷺ، لا يحابي في الحكم أحدًا، ولما رأى أسماء والعلف على رأسها

والـزبـير معـه، لم يقـل له: لا خدمـة عليها، وأن هذا ظلم لها، بل أقره على استخـدامها، وأقر سائر أصحابه على استخدام أزواجهم؛ مع علمه بأن منهن الكارهة والراضية، هذا أمر لا ريب فيه، ولا يصح التفريق بين شريفة ودنيئة، وفقيرة وغنية، فهذه أشرف نساء العالمين كانت تخدم زوجها، وجاءت أباها ﷺ، تشكـو إليه الخدمة، فلم يُشكِها وقد سمى النبي ﷺ، في الحديث الصحيح: المـرأة: عانية، فقـال: «**اتقـوا الله في النسـاء، فإنهن عوان عندكم**». والعاني: الأسير. ومرتبة الأسير: خدمة من هو تحت يده.

ولا ريب أن النكاح نوع من الرق، كما قال بعض السلف: «النكاح رق، فلينظر أحدكم عند من يُرِقُّ كريمته» ولا يخفى على المنصف الراجح من المذهبين، والأقوى من الدليلين.

حكم رسول الله بين الزوجين يقع الشقاق بينهما

روى أبو داود في سننه: من حديث عائشة: أن حبيبة بنت سهل: كانت عند ثابت بن قيس بن شمَّاس. فضربها، فكسر بعضها. فأتت النبي ﷺ، بعد الصبـح. فدعـا النبي ﷺ، ثابتـًا. فقـال: «**خذ بعض مالها وفارقها**». فقال: ويصلح ذلك يا رسول الله؟ قال: «**نعم**». قال: فإني أصدقتها حديقتين، وهما بيدها. فقال النبي ﷺ: «**خذهما وفارقها**». ففعل.

وقد حكم الله تعالى بين الزوجين يقع الشقاق بينهما بقوله تعالى: ﴿**وإِنْ خِفْتُم شِقَاقَ بَينِهما فَابعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصلاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيراً**﴾. [النساء: ٣٥].

وقد اختلف السلف والخلف في الحكمين: هل هما حاكمان، أو وكيلان؟ على قولين:

أحدهما: أنهما وكيلان. وهو قول أبي حنيفة والشافعي في قول، وأحمد في رواية.

والثاني: أنهما حاكمان. وهذا قول أهل المدينة ومالك، وأحمد في الرواية الأخرى، والشافعي في القول الآخر. وهذا هو الصحيح.

والعجب كل العجب ممن يقول: هما وكيلان، لا حاكمان، والله تعالى قد

نصبهما حكمين. وجعل نصبهما إلى غير الزوجين. ولو كانا وكيلين لقال: فليبعث وكيلًا من أهله، ولتبعث وكيلًا من أهلها.

وأيضا: فلو كانا وكيلين لم يختصا بأن يكونا من الأهل. وأيضًا: فإنه جعل الحكم إليهما، فقال: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصلاحًا يُوفِّقِ الله بَيْنَهُمَا﴾. والوكيلان لا إرادة لهما إنما يتصرفان بإرادة موكليهما. . .

(١)**روى** النسائي: من حديث جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «**ابدأ بنفسك، فتصدق عليها. فإن فضل شيء فلأهلك. فإن فضل عن أهلك شيء فلذوي قرابتك. فإن فضل عن ذي قرابتك فهكذا وهكذا**». وهذا كله تفسير لقوله تعالى: ﴿**واعبُدُوا الله ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيْئًا وبالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وبِذِي القُرْبَى**﴾. [النساء: ٣٦]. وقوله: ﴿**وآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ**﴾. [الإسراء: ٢٦]. وقوله: ﴿**فَآتِ ذَا القُربَى حَقَّه**﴾. [الروم: ٣٨]. فجعل تعالى حق ذي القربى يلي حق الوالدين، كما جعله النبي ﷺ، سواء بسواء.

وأخبر سبحانه أن لذي القربى حقًّا على قرابته، وأمر بإتيانه إياه، فإن لم يكن ذلك حق النفقة فلا ندري: أي حق هو؟

وأمر تعالى بالإحسان إلى ذي القربى، ومن أعظم الإساءة؛ أن يراه يموت جوعًا وعريًا، وهو قادر على سد خلَّته، وستر عورته، ولا يطعمه لقمة، ولا يستر له عورة، إلا بأن يقرضه ذلك في ذمته. وهذا الحكم من النبي ﷺ، مطابق لكتاب الله تعالى حيث يقول: ﴿**والوَالِدَاتُ يُرْضِعنَ أولاَدهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بالمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِهَا ولاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وعَلَى الوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ**﴾. [البقرة: ٢٣٣]. فأوجب سبحانه وتعالى على الوارث مثل ما أوجب على المولود له.

وبمثل هذا الحكم حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فروى سفيان بن عيينة، عن ابن جريج، عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب: «أن عمر حبس عصبة صبي على أن ينفقوا عليه، الرجال دون النساء».

---

(١) ٣٢٠ زاد المعاد جـ٤.

وقال عبدالرزاق: أنبأنا ابن جريج: أخبرني عمرو بن شعيب: أن ابن المسيب أخبره: «أن عمر بن الخطاب وقف بني عم مَنْفوس - بني عم كلالة - بالنفقة عليه، مثل العاقلة. فقالوا: لا مال له. فقال: ولو، وقوفهم بالنفقة عليه كهيأة العقل». قال ابن المديني: قوله:«ولو»:أي ولو لم يكن له مال.

وذكر ابن أبي شيبة: عن أبي خالد الأحمر، عن حجاج، عن عمرو، عن سعيد بن المسيب قال: «جاء ولي يتيم إلى عمر بن الخطاب فقال: أنفق عليه. ثم قال: لو لم أجد إلا أقصى عشيرته لفرضت عليهم». وحكم بمثل ذلك أيضًا زيد بن ثابت... (١).

...(٢)**قوله** تعالى: ﴿**إنَّ الله لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتالاً فَخُورًا. الذينَ يَبْخَلُونَ ويَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبُخْلِ ويَكْتُمُونَ مَا آتاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ**﴾. [النساء: ٣٦، ٣٧]. فاختياله وفخره من كفره وكنوده، وهذا ضد قوله: ﴿**الذينَ يُؤْمِنُونَ بالغَيْب ويُقيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُونَ**﴾. [البقرة: ٣]. وقوله: ﴿**واعْبُدُوا الله ولاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبالوَالِدَيْنِ إحْسَانًا**﴾. [النساء: ٣٦].

وكذلك ذكر الخُلُقين الذميمين في قوله: ﴿**والذينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم رِئَاءَ النَّاس ولا يُؤمِنُونَ بالله ولاَ باليَوم الآخرِ**﴾. [النساء: ٣٨].

ونظيره: ﴿**ومَاذا عليهم لَو آمَنُوا بالله واليَوْمِ الآخرِ وأنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُم الله**﴾. [النساء: ٣٩].

ونظيره ما تقدم في سورة الليل من ذم المستغني البخيل، ومدح المعطي المصدق بالحسنى...

...(٣) **وأما** بكاؤه ﷺ؛ فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة؛ ولكن كان تدمع عيناه حتى تهملا، ويسمع لصدره أزيز كأزيز المِرْجَل.

وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفًا على أمته، وشفقة عليها، وتارة

(١) البحث مبسوط، فليرجع إليه من أراده أ هـ ج. (٢) ٥٢ التبيان.

(٣) ٩٥ زاد المعاد جـ١.

من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحب للخوف والخشية.

ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وبكى رحمة له. وقال: «**تدمع العين، ويحزن القلب. ولا نقول إلا ما يرضي ربنا. وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون**».

وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض.

وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء، وانتهى فيها إلى قوله تعالى: ﴿**فكيف إذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وجِئْنَا بِكَ عَلى هؤلاءِ شَهِيدًا**﴾. [النساء: ٤١].

وبكى لما مات عثمان بن مظعون، وبكى لما كسفت الشمس، وصلى صلاة الكسوف، وجعل يبكي في صلاته، وجعل ينفخ ويقول: «**ربِّ، ألم تعدْني أن لا تعذبَهم وأنا فيهم، وهم يستغفرون؟ ونحن نستغفرُك**».

وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته، وكان يبكي أحيانًا في صلاة الليل.

والبكاء أنواع: أحدها: بكاء الرحمة والرقة.

والثاني: بكاء الخوف والخشية.

والثالث: بكاء المحبة والشوق.

والرابع: بكاء الفرح والسرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

والسادس: بكاء الحزن. والفرق بينه وبين بكاء الخوف: أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصول مكروه، أو فوات محبوب. وبكاء الخوف يكون لما يتوقع في المستقبل من ذلك.

والفرق بين بكاء السرور والفرح وبكاء الحزن: أن دمعة السرور باردة، والقلب فرحان. ودمعة الحزن حارة والقلب حزين. ولهذا يقال لما يُفرح به: هو قُرَّة عين، وأقر الله به عينه. ولما يُحزن: هو سخينة العين وأسخن الله عينه به.

والسابع: بكاء الخور والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمع العين والقلب قاس، فيظهر صاحبه الخشوع وهو من أقسى الناس قلبًا.

والتاسع: البكاء المستعار والمستأجر عليه كبكاء النائحة بالأجرة، فإنها كما

قال عمر بن الخطاب: «تبيع عَبرتها، وتبكي شجو غيرها».

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو أن يرى الرجل الناس يبكون لأمر ورد عليهم فيبكي معهم، ولا يدري لأي شيء يبكون، ولكن يراهم يبكون فيبكي. وما كان من ذلك دمعًا بلا صوت فهو بُكى مقصور. وما كان معه صوت فهو بكاء ممدود. على بناء الأصوات. وقال الشاعر:

بكت عيني، وحقَّ لها بكـاهـا وما يغني البكـاء ولا العـويل

وما كان منه مستدعى متكلفًا فهو التباكي. وهو نوعان: محمود، ومذموم.

فالمحمود: أن يستجلب لرقة القلب ولخشية الله، لا للرياء والسمعة.

والمذموم: أن يجتلب لأجل الخلق. وقد قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ، وقد رآه يبكي هو وأبو بكر في شأن أسارى بدر: «أخبرني: ما يبكيك يا رسول الله؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإلا تباكيت». ولم ينكر عليه ﷺ، وقد قال بعض السلف: «ابكوا من خشية الله فإن لم تبكوا فتباكوا».

(١)**لفظ** السكر و«المسكر» من الألفاظ المذمومة شرعاً وعقلاً. وعامة مايستعمل؛ في السكر المذموم الذي يمقته الله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿**يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأَنتُم سُكارى**﴾. [النساء: ٤٣].

وعبر به سبحانه عن الهول الشديد الذي يحصل للناس عند قيام الساعة. فقال تعالى: ﴿**وتَرى النَّاسَ سُكَارى وما هُم بِسُكَارَى ولكنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ**﴾. [الحج: ٢]. ويقال: فلان أسكره حب الدنيا.

وكذلك يستعمل في سكر الهوى المذموم. فأين أطلق الله سبحانه أو رسوله أو الصحابة أو أئمة الطريق المتقدمون على هذا المعنى الشريف، الذي هو من أشرف أحوال محبيه وعابديه اسم «السكر»، المستعمل في سكر الخمر، وسكر الفواحش؟ كما قال عن قوط لوط: ﴿**لَعَمْـرُكَ إنَّهم لَفِي سَكرَتِهم يَعْمَهُونَ**﴾. [الحجر: ٧٢]. فوصف بالسكر أرباب الفواحش، وأرباب الشراب المسكر...

...**فنقول** ـ وبالله التوفيق ـ: السكر لذة ونشوة يغيب معها العقل الذي

(١) ٣٠٥ مدارج جـ٣.

يحصل به التمييز. فلا يعلم صاحبه ما يقول. قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأنتُم سُكَارى حتى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾. [النساء: ٤٣]. فجعل الغاية التي يزول بها حكم السكر؛ أن يعلم مايقول. فإذا علم مايقول خرج عن حد السكر.

قال الإمام أحمد: السكران من لم يعرف ثوبه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره. ويذكر عن الشافعي أنه قال: إذا اختلط كلامه المنظوم، وأفشى سره المكتوم.

فالسكر يجمع معنيين: وجود لذة، وعدم تمييز. وقاصد السكر قد يقصدهما جميعًا، وقد يقصد أحدهما. فإن النفس لها هوى وشهوات تلتذ بإدراكها. والعلم بما في تلك اللذات من المفاسد العاجلة والآجلة يمنعها من تناولها. والعقل يأمرها بأن لا تفعل. فإذا زال العلم الكاشف المميز، والعقل الآمر الناهي: انبسطت النفس في هواها. وصادفت مجالاً واسعًا.

وحرم الله سبحانه السكر لشيئين، ذكرهما في كتابه. وهما: إيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة. وذلك يتضمن حصول المفسدة الناشئة من النفوس بواسطة زوال العقل، وانتفاء المصلحة التي لا تتم إلا بالعقل. وإيقاع العداوة من الأول، والصد عن ذكر الله من الثاني. . .(١)

(٢)**وأما** إن كان سبب الذهول المخرج عن الاستقامة، باستدعائه وتكلفه وإرادته: فهو عاص مفرط، مضيع لأمر الله. له حكم أمثاله من المفرطين.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: متى كان السبب محظورًا، لم يكن السكران معذورًا.

...(٣)**وفي** مسائل الميموني: سألت أبا عبدالله عن طلاق السكران فقال: أكثر ما عندي أنه لا يلزمه الطلاق. قلت: أليس كنت مرة تخاف أن يلزمه؟ قال: بلى؛ ولكن أكثر ما عندي أنه لا يلزمه الطلاق؛ لأني رأيته ممن لا يعقل. قلت: السكر شيء أدخله على نفسه فلذلك يلزمه. قال: قد يشرب رجل البنج أو الدواء فيذهب عقله! قلت: فبيعه وشراؤه وإقراره؟ قال: لا يجوز، وقال في رواية أبي

---

(١) بقية البحث يأتي في أول سورة الحج ـ إن شاء الله ـ ج. (٢) ٣٧٥ مدارج جـ٢.

(٣) ٤٨ أعلام جـ٤.

الحارث: أرفع شيء فيه حديث الزهري: عن أبان بن عثمان، عن عثمان: «ليس لمجنون ولا سكران طلاق». وقال في رواية أبي طالب: والذي لا يأمر بالطلاق فإنما أتى خصلة واحدة، والذي يأمر بالطلاق قد أتى خصلتين: حرمها عليه وأحلها لغيره، فهذا خير من هذا وأنا أتقي جميعها.

وممن ذهب إلى القول بعدم نفوذ طلاق السكران من الحنفية: أبو جعفر الطحاوي وأبو الحسن الكرخي، وحكاه صاحب النهاية عن أبي يوسف وزفر.

ومن الشافعية: المزني وابن سُريج وجماعة ممن اتبعهما. وهو الذي اختاره الجويني في النهاية، والشافعي نص على وقوع طلاقه، ونص في أحد قوليه على أنه لا يصح ظهاره، فمن أتباعه مَنْ نقل عن الظهار قولاً إلى الطلاق، وجعل المسألة على قولين، ومنهم من قرر حكم النصين ولم يفرق بطائل.

والصحيح أنه لا عبرة بأقواله: من طلاق ولا عتاق ولا بيع ولا هبة ولا وقف ولا إسلام ولا ردة ولا إقرار، لبضعة عشر دليلاً ليس هذا موضع ذكرها، ويكفي منها قوله تعالى: ﴿**يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأنتم سُكارى حتَّى تعلَمُوا ما تَقُولُونَ**﴾. [النساء: ٤٣] وأمر النبي ﷺ، باستنكاه[١] ماعِز لما أقر بالزنا بين يديه، وعدم أمر النبي ﷺ، حمزة بتجديد إسلامه لما قال في سكره: «أنتم عبيد لآبائي» وفتوى عثمان وابن عباس ولم يخالفهما أحد من الصحابة.

والقياس الصحيح المحض على زائل العقل بدواء أو بنج أو مسكر هو فيه معذور بمقتضى قواعد الشريعة؛ فإن السكران لا قصد له؛ فهو أولى بعدم المؤاخذة من اللاغي، ومن جرى اللفظ على لسانه من غير قصد له.

وقد صرح أصحاب أبي حنيفة بأنه لا يقع طلاق الموسوس، وقالوا: لا يقع طلاق المعتوه، وهو مَنْ كان قليل الفهم مختلط الكلام فاسد التدبير، إلا أنه لا يضرب ولا يشتم كما يفعل المجنون[٢].

---

(١) استنكاهه: شم ريح فمه، وفي نسخة «باستنكار ماعز» تحريف.

(٢) يأتي في سورة يونس بحث موسع فيما فيه المؤاخذة وعدمها. كما بحثه في شفاء العليل رقم ١٣٨، ١٤٧، ١٤٨ أهـ. ج.

(١)فصل في هديه ﷺ في الحمية

الدواء كله شيئان: حمية، وحفظ صحة. فإذا وقع التخليط احتيج إلى الاستفراغ الموافق، وكذلك مدار الطب كله على هذه القواعد الثلاثة.

والحمية حميتان: حمية عما يجلب المرض، وحمية عما يزيده، فيقف على حاله.

فالأولى: حمية الأصحاء، والثانية: حمية المرضى. فإن المريض إذا احتمى وقف مرضه عن التزايد، وأخذت القوى في دفعه. والأصل في الحمية قوله تعالى: **﴿وإنْ كُنْتُم مَرْضَى أَوْ عَلى سفرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم منَ الغَائِط أو لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾**. [المائدة: ٦]. فحمى المريض من استعمال الماء لأنه يضره...

(٢)**أما** المسألة الأولى وهي: إيجاب الشارع ﷺ، الغسل من المني دون البول. فهذا من أعظم محاسن الشريعة وما اشتملت عليه من الرحمة والحكمة والمصلحة؛ فإن المني يخرج من جميع البدن، ولهذا سماه الله سبحانه وتعالى **﴿سُلالَة﴾**. [السجدة: ٨]. لأنه يسيل من جميع البدن.

وأما البول فإنما هو فَضْلَة الطعام والشراب المستحيلة في المعدة والمثانة، فتأثر البدن بخروج المني؛ أعظم من تأثره بخروج البول، وأيضًا فإن الاغتسال من خروج المني؛ من أنفع شيء للبدن والقلب والروح، بل جميع الأرواح القائمة بالبدن فإنها تقوى بالاغتسال، والغسل يخلف عليه ما تحلل منه بخروج المني، وهذا أمر يعرف بالحس.

وأيضا فإن الجنابة توجب ثقلاً وكسلاً، والغسل يحدث له نشاطًا وخفة، ولهذا قال أبو ذر لما اغتسل من الجنابة: كأنما ألقيت عني حملاً.

وبالجملة فهذا أمر يدركه كل ذي حس سليم وفطرة صحيحة، ويعلم أن الاغتسال من الجنابة يجري مجرى المصالح التي تلحق بالضروريات للبدن والقلب، مع ما تحدثه الجنابة من بُعد القلب والروح عن الأرواح الطيبة، فإذا اغتسل زال ذلك البعد، ولهذا قال غير واحد من الصحابة: إن العبد إذا نام

---

(١) ٢٠٣ زاد المعاد جـ٣.	(٢) ٥٨ أعلام جـ٢.

عرجَتْ روحه، فإن كان طاهرًا أذن لها بالسجود، وإن كان جنبًا لم يؤذن لها، ولهذا أمر النبيُّ ﷺ، الجنب إذا نام أن يتوضأ. وقد صرح أفاضل الأطباء بأن الاغتسال بعد الجماع يعيد إلى البدن قوته، ويخلف عليه ما تحلل منه، وأنه من أنفع شيء للبدن والروح، وتركه مضر، ويكفي شهادة العقل والفطرة بحسنه، وبالله التوفيق.

...(١)**ذكر** أهل المغازي والتفسير ـ مثل محمد بن إسحاق ـ أن كعب بن الأشرف كان موادعًا للنبي ﷺ، في جملة من وادعه من يهود المدينة، وكان عربيًّا من بني طيِّىء، وكانت أمه من بني النضير.

قالوا: فلما قتل أهل بدر شق ذلك عليه، وذهب إلى مكة ورثاهم لقريش، وفضَّل دين الجاهلية على دين الإسلام؛ حتى أنزل الله فيه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُؤمِنُون بالجِبْتِ والطَّاغُوتِ ويَقُولونَ للذينَ كَفَرُوا هؤلاءِ أَهْدَى من الذينَ آمَنُوا سَبيلاً. أُولئكَ الذينَ لَعَنَهُمُ الله ومَنْ يَلعَنِ الله فَلَنْ تَجِدَ لهُ نصيراً**﴾. [النساء: ٥١، ٥٢].

ثم لما رجع إلى المدينة، أخذ ينشد الأشعار، ويشبِّب بنساء المسلمين؛ حتى آذاهم، حتى قال النبيُّ ﷺ: «**مَن لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله**» وذكروا قصة قتله مبسوطة.

وقال الواقدي: حدثني عبدالحميد بن جعفر، عن يزيد بن رومان، ومعمر، عن الزهري، عن كعب بن مالك، وإبراهيم بن جعفر، عن أبيه، عن جابر، وذكر القصة، قال: ففزعت يهود ومن معها من المشركين، فجاءوا إلى النبيِّ ﷺ، حين أصبحوا فقالوا: قد طُرق صاحبنا الليلة، وهو سيد من ساداتنا، بلا جرم ولا حدث علمناه، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه لو قر كما قرَّ غيره ممن هو على رأيه ما اغتيل؛ ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان للسيف**»، ودعاهم رسول الله ﷺ، إلى أن يكتب بينهم كتابًا ينتهون إلى ما فيه: فكتبوا بينه وبينهم كتابًا تحت العذق في دار رملة بنت الحارث؛ فحذرت يهود وخافت وذلت من يوم قتل ابن الأشرف. . .

---

(١) ٨٤٥ أحكام جـ٢.

(١)**وقال** الواقدي: حدثني عبدالحميد بن جعفر، عن يزيد بن رومان ومعمر، عن الزهري، عن ابن كعب بن مالك، وإبراهيم بن جعفر، عن أبيه، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، فكل قد حدثني منه بطائفة، وكان الذي اجتمعوا لنا عليه قالوا: كان كعب بن الأشرف شاعرًا، وكان يهجو النبي ﷺ، وأصحابه، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره، وكان رسول الله ﷺ، قدم المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة الإسلام، فيهم أهل الحلقة والحصون، ومنهم حلفاء الحيين جميعًا: الأوس والخزرج، فأراد رسول الله ﷺ، حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم وموادعتهم، وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشركًا، فكان المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ، وأصحابه أذى شديدًا، فأمر الله نبيه والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم، وفيهم أنزل الله: ﴿**ولتسمَعُنَّ من الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكم ومِنَ الذينَ أشْرَكُوا أذًى كثيراً وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقوا فإنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾. [آل عمران: ١٨٦]. وفيهم أنزل الله: ﴿**ودَّ كثيرٌ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إيمانِكُم كفَّارًا**﴾ الآية. [البقرة: ١٠٩].

فلما أبى ابن الأشرف أن يمسك(٢) عن أذى رسول الله ﷺ، وأذى المسلمين، وقد بلغ منهم، فلما قدم زيد بن حارثة بالبشارة من بدر بقتل المشركين، وأسر من أسر منهم فرأى الأسارى مقرنين كُبت وذل، ثم قال لقومه: ويلكم! لبطن الأرض خير لكم من ظهرها اليوم؛ هؤلاء سراةُ الناس قد قُتلوا وأسروا، فما عندكم؟ قالوا: عداوته ما حيينا، فقال: وما أنتم وقد وطىء قومه وأصابهم؟ ولكني أخرج إلى قريش فأحضها وأبكي قتلاها لعلهم ينتدبون فأخرج معهم؛ فخرج حتى قدم مكة ووضع رحله عند أبي وداعة بن أبي صبرة السهمي، وتحته عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص، فجعل يرثى قريشًا، وذكر ما رثاهم به من الشعر وما أجابه حسان، فأخبره بنزول كعب على من نزل، فقال حسان. فذكر شعرًا هجا به أهل البيت الذين نزل فيهم. قال: فلما بلغها شعره نبذت رحله وقالت: ما لنا

---

(١) ٨٤٩ أحكام جـ٢.

(٢) هكذا بالصارم (٧٩) وفي الأصل (يدع).

ولهذا اليهودي؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسان؟ فتحول، فكلما تحول عند قوم دعا رسول الله، ﷺ، حسانًا، فقال: «**ابن الأشرف نزل على فلان**» فلا يزال يهجوهم حتى ينبذوا رحله، فلما لم يجد مأوى قدم المدينة، فبلغ النبي، ﷺ، قدومه فقال: «**اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشرَّ وقوله الأشعارَ**»، وقال رسول الله، ﷺ: «**من لي من ابن الأشرف فقد آذاني؟**» فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله، أنا أقتله، قال: «**فافعل**»، وذكر الحديث.

فقد اجتمع لابن الأشرف ذنوب منها: أنه رثى قتلى قريش، وحضَّهم على محاربة النبي، ﷺ، وواطأهم على ذلك، وأعانهم على محاربته بإخباره أن دينهم خير من دينه، وهجا النبي، ﷺ، والمسلمين.

قلنا(١) الجواب من وجوه:

أحدها: أن كعبًا كان له عهد من النبي ﷺ، ثم إن النبي ﷺ، جعله ناقضًا للعهد بهجائه وأذاه بلسانه.

الثاني: أنا قد قدمنا في حديث جابر: أن أول ما نقض به العهد قصيدته التي أنشأها يهجو بها رسول الله ﷺ، وأن رسول الله، ﷺ، لما هجاه بهذه القصيدة ندب إلى قتله.

الثالث: أن النبي، ﷺ، قال لليهود لما جاءوا إليه في شأن قتله: «**إنه نال منا الأذى، وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان للسيف**». وهذا نص في أن من فعل هذا؛ فقد استحق السيف.

الرابع: أن النبي، ﷺ، لم يندب إلى قتله لكونه ذهب إلى مكة وفعل ما فعل هناك، وإنما ندب إلى قتله لما قدم وهجاه، كما جاء ذلك مفسرًا في حديث جابر المتقدم في قوله: «ثم قدم المدينة معلنًا بعداوة النبي. ﷺ» ثم بين أن أول ما قطع به العهد تلك الأبيات التي قالها بعد الرجوع، وأن النبي، ﷺ، حينئذ ندب إلى قتله، وكذلك في حديث موسى بن عقبة: «**من لنا من ابن الأشرف، فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا؟**».

---

(١) جواب لإيراد ذكره المؤلف صحيفة ٨٤٦ خلاصته ما تقدم قبل هذا الجواب.

ويؤيد ذلك شيئان: أحدهما: أن سفيان بن عيينة، روى عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، قال: جاء حُيَيُّ بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا: أنتم أهل الكتاب، وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور، قطع أرحامنا، واتَّبعه سراق الحجيج: بنو غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: بل أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ**﴾. إلى قوله: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً**﴾. [النساء: ٥١، ٥٢].

وكذلك قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب: رجلين من اليهود من بني النضير أتيا قريشًا في الموسم، فقال لهما المشركون: نحن أهدى أم محمد وأصحابه، فإنَّا أهل السدانة والسقاية وأهل الحرم؟ فقالا: أنتم أهدى من محمد وأصحابه، وهما يعلمان أنهما كاذبان، إنما حملهما على ذلك حسد محمد وأصحابه، فأنزل الله فيهم: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً**﴾. [النساء: ٥٢]. فلما رجعا إلى قومهما قال لهما قومهما: إن محمدًا يزعم أنه قد نزل فيكم كذا وكذا. قالا: صدق والله ما حملنا على ذلك إلا حسده وبغضه...

(١)**وقال** سعيد بن جبير: سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيراً**﴾. [النساء: ٥٨]. فوضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه وقال: هكذا سمعت رسول الله ﷺ، يقرؤها ويضع إصبعه. رواه أبو داود وغيره.

(٢)**والعظة** هي الأمر والنهي، المعروف بالترغيب والترهيب.

والعظة نوعان: عظة بالمسموع، وعظة بالمشهود. فالعظة بالمسموع: الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد، والنصائح التي جاءت على لسان الرسل وما

---

(١) ٣٤٢ مختصر الصواعق جـ٢. (٢) ٤٤٤ مدارج جـ١.

أوحي إليهم. وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا.

والعظة بالمشهود: الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العبر، وأحكام القدر، ومجاريه، وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله.

فائدة(١)

الحاكم محتاج إلى ثلاثة أشياء لا يصح له الحكم إلا بها:

معرفة الأدلة، والأسباب، والبينات.

فالأدلة تعرفه الحكم الشرعي الكلي.

والأسباب تعرفه ثبوته في هذا المحل المعين أو انتفاءه عنه.

والبينات تعرفه طريق الحكم عند التنازع.

ومتى أخطأ في واحد من هذه الثلاثة، أخطأ في الحكم.

وجميع خطأ الحكام مداره على الخطأ فيها أو في بعضها.

مثال ذلك: إذا تنازع عنده اثنان في رد سلعة مشتراة بعيب فحكمه موقوف على:

العلم بالدليل الشرعي الذي يسلط المشتري على الرد، وهو إجماع الأمة المستند إلى حديث المصراة وغيره.

وعلى العلم بالسبب المثبت بحكم الشارع في هذا البيع المعين، وهو كون هذا الوصف عيبًا يسلط على الرد أم ليس بعيب، وهذا لا يتوقف العلم به على الشرع؛ بل على الحس أو العادة والعرف أو الخبر ونحو ذلك.

وعلى البينة التي هي طريق الحكم بين المتنازعين، وهي كل ما تبين له صدق أحدهما يقينًا أو ظنًّا: من إقرار، أو شهادة أربعة عدول، أو ثلاثة في دعوى الإعسار بتلف ماله على أصح القولين، أو شاهدين أو رجل وامرأتين، أو شاهد ويمين أو شهادة رجل واحد، وهو الذي يسميه بعضهم الإخبار، ويفرق بينه وبين الشهادة مجرد اللفظ أو شهادة امرأة واحدة كالقابلة والمرضعة، أو شهادة النساء منفردات؛ حيث لا رجل معهن كالحمامات والأعراس على الصحيح، الذي لا يجوز القول بغيره. أو شهادة الصبيان على الجراح إذا لم يتفرقوا، أو شهادة الأربع من النسوة، أو المرأتين، أو القرائن الظاهرة عند الجمهور: كمالك، وأحمد،

---

(١) ١٢ بدائع جـ٤.

وأبي حنيفة. كتنازع الرجل وامرأته في ثيابهما وكتب العلم ونحو ذلك، وكتنازع النجار والخياط في القدوم والجلم والإبرة والذراع، وكتنازع الوراق والحداد في الدواة والمسطرة والقلم والمطرقة والكلبتين والسندان، ونحو ذلك مما يقضي فيه أكثر أهل العلم لكل واحد من المتنازعين بآلة صنعته بمجرد دعواه.

والشافعي يقسم الخف بين الرجل والمرأة، ويقسم الكتاب الذي يقرأ فيه بينهما، وكذلك طيلسانه وعمامته.

أو الشاهد واليمين، أو اليمين المردودة، أو النكول المجرد، أو القسامة، أو التعان الزوج ونكول الزوجة، أو شهادة أهل الذمة في الوصية في السفر، أو شهادة بعضهم على بعض أو الوصف للقطة، أو شهادة الدار[1]، أو الحبل في ثبوت زنى التي لا زوج لها، أو رائحة المسكر أو قيئه، أو وجود المسروق عند من ادعى عليه سرقته على أصح القولين، أو وجود الآجر ومعاقد القمط وعقد الأزج عند من يقول بها، فهذه كلها داخلة في اسم البينة فإنها اسم لما يبين الحق ويوضحه.

وقد أرشد الله سبحانه إليها في كتابه؛ حيث حكى عن شاهد يوسف اعتباره قد القميص.

وحكى عن يعقوب وبنيه أخذهم البضائع التي باعوا بها بمجرد وجودهم لها في رحالهم؛ اعتمادًا على القرائن الظاهرة بأنها وهبت لهم ممن ملك التصرف فيها، وهم لم يشاهدوا ذلك ولا علموا به ولكن اكتفوا بمجرد القرينة الظاهرة. وكذلك سليمان بن داود عليهما السلام حكم للمرأة بالولد بقرينة رحمتها له لما قال: «**ائتوني بالسكين أشقه بينهما**». فقالت الصغرى: لا تفعل هو ابنها. فقضى به لها وهذا من أحسن القرائن وألطفها...

[2]**ولا يتمكن** المفتي ولا الحاكم في الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علمًا.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر.

---

(١) فيما إذا تنازعا في دآبة فتركاها فدخلت دارًا. (٢) ٨٧ أعلام جـ١.

فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك؛ لم يعدم أجرين أو أجرًا.

فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه، إلى معرفة حكم الله ورسوله.

كما توصَّل شاهد يوسف بشق القميص من دبر، إلى معرفة براءته وصدقه.

وكما توصل سليمان ﷺ بقوله: «ائتوني بالسكين حتى أشقَّ الولد بينكما»، إلى معرفة عين الأم.

وكما توصل أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله للمرأة التي حملت كتاب حاطب لما أنكرته: لتخرجِنَّ الكتاب أو لنجرِّدنَّك، إلى استخراج الكتاب منها.

وكما توصل الزبير بن العوام بتعذيب أحد ابني أبي الحقيق بأمر رسول الله ﷺ، حتى دلَّهم على كنز حيي؛ لما ظهر له كذبه في دعوى ذهابه بالإنفاق بقوله: المال كثير والعهد أقرب من ذلك.

وكما توصل النعمان بن بشير بضرب المتهمين بالسرقة، إلى ظهور المال المسروق عندهم، فإن ظهر وإلا ضرب من اتهمهم كما ضربهم، وأخبر أن هذا حكم رسول الله ﷺ.

ومن تأمل الشريعة وقضايا الصحابة؛ وجدها طافحة بهذا، ومن سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم، ونسبه إلى الشريعة التي بعث الله بها رسوله.

(١)**البينة** في كلام الله ورسوله وكلام الصحابة: اسم لكل ما يُبين الحق فهي، أعم من البينة في اصطلاح الفقهاء، حيث خصوها بالشاهدين أو الشاهد واليمين، ولا حجر في الاصطلاح ما لم يتضمن حمل كلام الله ورسوله عليه، فيقع بذلك الغلط في فهم النصوص، وحملها على غير مراد المتكلم منها.

وقد حصل بذلك للمتأخرين أغلاط شديدة في فهم النصوص، ونذكر من ذلك مثالاً واحدًا، وهو ما نحن فيه (لفظ البينة) فإنها في كتاب الله اسم لكل ما يبين الحق كما قال تعالى: ﴿**لقد أرسَلْنَا رُسُلَنا بالبيِّنَاتِ**﴾. [الحديد: ٢٥]. وقال: ﴿**ومـا أَرْسَلنا من قَبْلِكَ إلاَّ رجالاً نوحِي إليهم فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكر إنْ كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ بالبَيِّنَاتِ**﴾. [النحل: ٤٣، ٤٤]. وقال: ﴿**ومَا تفرَّقَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلاَّ مِنْ بَعْـدِ ما جَاءَتْهُمُ البَيِّنَـةُ**﴾. [البينة: ٤]. وقال: ﴿**قُل إنِّي على بيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي**﴾. [الأنعام ٥٧]. وقال: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ**﴾. [هود: ١٧]. وقال: ﴿**أَمْ آتيناهُم كِتَـابًـا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ**﴾. [فاطر: ٤٠]. وقال: ﴿**أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما في الصُّحُفِ**

---

(١) ٩٠ أعلام جـ١.

الأولى﴾. [طه: ١٣٣]. وهـذا كثير، لم يختص لفظ البينة بالشاهدين، بل ولا استعمل في الكتاب فيهما ألبتة.

إذا عرف هذا فقول النبي ﷺ، للمدعي: «**ألك بينة؟**» وقول عمر: «البينة على المدعي» وإن كان هذا قد روي مرفوعًا المراد به: ألك ما يبين الحق من شهود أو دلالة؟ فإن الشارع في جميع المواضع يقصد ظهور الحق بما يمكن ظهوره به من البينات التي هي أدلة عليه وشواهد له، ولا يردّ حقًّا قد ظهر بدليله أبدًا فيضيع حقوق الله وعباده ويعطِّلها، ولا يقف ظهور الحق على أمر معين لا فائدة في تخصيصه به مع مساواة غيره في ظهور الحق أو رجحانه عليه ترجيحًا لا يمكن جحده ودفعه، كترجيح شاهد الحال على مجرد اليد، في صورة من على رأسه عمامة وبيده عمامة وآخر خلفه مكشوف الرأس يعدو أثره، ولا عادة له بكشف رأسه، فبينة الحال ودلالته هنا تُفيد من ظهور صدق المدعي أضعاف ما يفيد مجرد اليد عند كل أحد؛ فالشارع لا يهمل مثل هذه البينة والدلالة، ويضيع حقًّا يعلم كل أحد ظهوره وحجته. . .

...(1)**والمقصود**: أن الحكم بين الناس في النوع الذي لا يتوقف على الدعوى، هو المعروف بولاية الحسبة، وقاعدته وأصله هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، ووصف به هذه الأمة، وفضلها لأجله على سائر الأمم التي أخرجت للناس.

وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض كفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من ذوي الولاية والسلطان، فعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم، فإن مناط الوجوب؛ هو القدرة، فيجب على القادر ما لا يجب على العاجز، قال تعالى: **﴿فَاتَّقُوا الله ما اسْتَطَعْتُم﴾**. [التغابن: ١٦]. وقال النبي ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم**».

وجميع الولايات الإسلامية؛ مقصودها: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لكن من المتولين من يكون بمنزلة الشاهد المؤتمن، والمطلوب منه؛ الصدق، مثل صاحب الديوان، الذي وظيفته؛ أن يكتب المستخرج والمصروف.

---

(١) ٢٥٦ الطرق الحكمية.

والنقيب والعريف الذي وظيفته؛ إخبار ولي الأمر بالأحوال.

ومنهم من يكون بمنزلة الآمر المطاع، والمطلوب منه؛ العدل، مثل الأمير والحاكم، والمحتسب.

ومدار الولايات كلها: على الصدق في الأخبار، والعدل في الإنشاء، وهما قرينان في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا﴾. [الأنعام: ١١٥].

وقال النبي ﷺ، لما ذكر الأمراء الظلمة: «**من صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني، ولست منه، ولا يرد على الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فهو مني وأنا منه وسيرد على الحوض**».

وقال تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين. تنزل على كل أفاك أثيم﴾. [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. «فالأفاك»: الكاذب، و«الأثيم» الظالم الفاجر.

وقال تعالى: ﴿لنسفعًا بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة﴾. [العلق: ١٥، ١٦].

وقال النبي ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار**».

ولهذا يجب على كل ولي أمر؛ أن يستعين في ولايته بأهل الصدق والعدل، والأمثل فالأمثل، وإن كان فيه كذب وفجور، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم.

قال عمر رضي الله عنه: «من قلد رجلًا على عصابة، وهو يجد في تلك العصابة من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين».

والغالب: أنه لا يوجد الكامل في ذلك، فيجب تحري خير الخيرين، ودفع شر الشرين، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يفرحون بانتصار الروم والنصارى على المجوس عباد النار، لأن النصارى أقرب إليهم من أولئك.

وكان يوسف الصديق عليه السلام نائبًا لفرعون مصر، وهو وقومه مشركون، وفعل من الخير والعدل ما قدر عليه، ودعا إلى الإيمان بحسب الإمكان.

فصـــل عموم الولايات وخصوصها:

إذا عرف هذا فعموم الولايات وخصوصها، وما يستفيده المتولي بالولاية؛ يتلقى من الألفاظ والأحوال والعرف، وليس لذلك حد في الشرع، فقد يدخل في ولاية القضـاء ـ في بعض الأزمنـة والأمكنة ـ ما يدخل في ولاية الحرب في زمان ومكان آخر، وبالعكس، وكذلك الحسبة، وولاية المال، وجميع هذه الولايات في الأصل ولايات دينية، ومناصب شرعية، فمن عدل في ولاية من هذه الولايات، وساسهـا بعلم وعـدل، وأطـاع الله ورسوله بحسب الإمكان، فهو من الأبرار العادلين، ومن حكم فيها بجهل وظلم، فهو من الظالمين المعتدين، و﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾. [الانفطار: ١٣، ١٤].

فولاية الحرب في هذه الأزمنة، في البلاد الشامية والمصرية وما جاورها؛ تختص بإقـامـة الحـدود: من القتل، والقطع، والجلد، ويدخل فيها الحكم في دعاوى التهم التي ليس فيها شهود ولا إقرار، كما تختص ولاية القضاء بما فيه كتاب وشهـود وإقـرار، من الدعاوى التي تتضمن إثبات الحقوق والحكم بإيصالها إلى أربابها، والنظر في الأبضاع والأموال التي ليس لها ولي معين، والنظر في حال نظار الوقوف، وأوصياء اليتامى، وغير ذلك.

وفي بلاد أخرى ـ كبلاد الغرب ـ ليس لوالي الحرب مع القاضي حكم في شيء، إنما هو منفذ لما يأمر به متولي القضاء.

وأما ولاية الحسبة؛ فخاصتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما ليس من خصائص الولاة والقضاة، وأهل الديوان ونحوهم، فعلى متولي الحسبة أن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها، ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس، وأما القتل: فإلى غيره، ويتعاهد الأئمة والمؤذنين، فمن فرط منهم فيما يجب عليه من حقوق الأمة، وخرج عن المشروع؛ ألزمه به، واستعان فيما يعجز عنه بوالي الحرب والقاضي.

واعتناء ولاة الأمور بإلزام الرعية بإقامة الصلاة؛ أهم من كل شيء، فإنها عماد الدين، وأساسه وقاعدته، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله: «إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها؛ حفظ دينه،

ومن ضيعها؛ كان لما سواها أشد إضاعة».

ويأمر والي الحسبة: بالجمعة والجماعة، وأداء الأمانة والصدق، والنصح في الأقوال والأعمال، وينهى عن الخيانة، وتطفيف المكيال والميزان، والغش في الصناعات والبياعات، ويتفقد أحوال المكاييل والموازين، وأحوال الصناع الذين يصنعون الأطعمة والملابس والآلات؛ فيمنعهم من صناعة المحرم على الإطلاق كآلات الملاهي، وثياب الحرير للرجال، ويمنع من اتخاذ أنواع المسكرات. . .

...(١)**وأما** تقديم السمع على البصر؛ فهو متقدم عليه؛ حيث وقع في القرآن مصدرًا أو فعلاً أو اسمًا:

فالأول كقوله تعالى: ﴿**إنَّ السَّمعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كلّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسئولاً**﴾. [الإسراء: ٣٦].

الثاني: كقوله تعالى: ﴿**إنَّني معكُمَا أَسْمَعُ وأَرَى**﴾. [طه: ٤٦].

والثالث: كقوله تعالى: ﴿**سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾. ﴿**إنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصِيرُ**﴾. ﴿**وَكَانَ الله سميعًا بَصِيراً**﴾.

فاحتج بهذا من يقول: إن السمع أشرف من البصر، وهذا قول الأكثرين، وهو الذي ذكره أصحاب الشافعي.

وحكوا هم وغيرهم عن أصحاب أبي حنيفة أنهم قالوا: البصر أفضل، ونصبوا معهم الخلاف وذكروا الحجاج من الطرفين.

ولا أدري ما يترتب على هذه المسألة من الأحكام؛ حتى تذكر في كتب الفقه وكذلك القولان للمتكلمين والمفسرين.

وحكى أبو المعالي عن ابن قتيبة؛ تفضيل البصر، ورد عليه.

واحتج مفضلو السمع؛ بأن الله تعالى يقدمه في القرآن حيث وقع.

وبأن بالسمع تنال سعادة الدنيا والآخرة، فإن السعادة بأجمعها في طاعة الرسل والإيمان بما جاءوا به، وهذا إنما يدرك بالسمع.

ولهذا في الحديث الذي رواه أحمد وغيره: من حديث الأسود بن سريع:

---

(١) ٧٠ بدائع جـ١.

«ثلاثة كلهم يدلي على الله بحجته يوم القيامة، فذكر منهم رجلاً أصم يقول: يا رب لقد جاء الإسلام وأنا لا أسمع شيئًا».

واحتجوا بأن العلوم الحاصلة من السمع؛ أضعاف أضعاف العلوم الحاصلة من البصر، فإن البصر لا يدرك إلا بعض الموجودات المشاهدة بالبصر القريبة، والسمع يدرك: الموجودات والمعدومات، والحاضر والغائب، والقريب والبعيد، والواجب والممكن والممتنع، فلا نسبة لإدراك البصر إلى إدراكه.

واحتجوا بأن فقد السمع يوجب ثلم القلب واللسان؛ ولهذا كان الأطرش خلقة، لا ينطق في الغالب.

وأما فقد البصر فربما كان معينًا على قوة إدراك البصيرة وشدة ذكائها، فإن نور البصر ينعكس إلى البصيرة باطنًا فيقوى إدراكها ويعظم؛ ولهذا تجد كثيرًا من العميان، أو أكثرهم عندهم من الذكاء الوقاد والفطنة وضياء الحس الباطن، ما لا تكاد تجده عند البصير.

ولا ريب أن سفر البصر في الجهات والأقطار ومباشرته للمبصرات على اختلافها؛ يوجب تفرق القلب وتشتيته، ولهذا كان الليل؛ أجمع للقلب، والخلوة؛ أعون على إصابة الفكرة.

قالوا: فليس نقص فاقد السمع كنقص فاقد البصر.

ولهذا كثير في العلماء والفضلاء وأئمة الإسلام من هو أعمى، ولم يعرف فيهم واحد أطرش؛ بل لا يعرف في الصحابة أطرش.فهذا، ونحوه من احتجاجهم على تفضيل البصر[1].

قال منازعوهم: يفصل بيننا وبينكم أمران:

أحدهما: أن مدرك البصر[2] النظر إلى وجه الله تعالى في الدار الآخرة، وهو أفضل نعيم أهل الجنة وأحبه إليهم، ولا شيء أكمل من المنظور إليه سبحانه، فلا حاسة في العبد أكمل من حاسة تراه بها.

---

(١) هكذا بالنسخة المعتمدة، والصواب (السمع) لأن سياق الكلام السابق في حجج تفضيل السمع المراجع.

(٢) كذا بالأصل ولعله: هو لذة.

الثاني: أن هذا النعيم وهذا العطاء؛ إنما نالوه بواسطة السمع، فكان السمع كالوسيلة لهذا المطلوب الأعظم، فتفضيله عليه كفضيلة الغايات على وسائلها.

وأما ما ذكرتم من سعة إدراكاته وعمومها؛ فيعارضه كثرة الخيانة فيها ووقوع الغلط، فإن الصواب فيما يدركه السمع بالإضافة إلى كثرة المسموعات قليل في كثير، ويقابل كثير مدركاته: صحة مدركات البصر، وعدم الخيانة، وأن ما يراه ويشاهده لا يعرض فيه من الكذب ما يعرض فيه فيما يسمعه، وإذا تقابلت المرتبتان بقي الترجيح بما ذكرناه.

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه:

وفصل الخطاب؛ أن إدراك السمع، أعم وأشمل، وإدراك البصر أتم وأكمل، فهذا له التمام والكمال، وذاك له العموم والشمول، فقد ترجح كل منهما على الآخر بما اختص به. تم كلامه.

وقد ورد في الحديث المشهور أن النبي، ﷺ، قال لأبي بكر وعمر: «**هذان السمع والبصر**» وهذا يحتمل أربعة أوجه:

أحدها: أن يكون المراد؛ أنهما مني بمنزلة السمع والبصر.

والثاني: أن يريد؛ أنهما من دين الإسلام بمنزلة السمع والبصر من الإنسان؛ فيكون الرسول، ﷺ، بمنزلة القلب والروح، وهما بمنزلة السمع والبصر من الدين. **وعلى هذا فيحتمل وجهين**:

أحدهما: التوزيع فيكون أحدهما بمنزلة السمع، والآخر بمنزلة البصر.

والثاني: الشركة فيكون هذا التنزيل والتشبيه بالحاستين؛ ثابتًا لكل واحد منهما، فكل منهما بمنزلة السمع والبصر.

فعلى احتمال التوزيع والتقسيم تكلم الناس أيهما هو السمع؟ وأيهما هو البصر؟ وبنوا ذلك على أي الصفتين أفضل؛ **فهي صفة الصديق**، والتحقيق أن صفة البصر للصديق وصفة السمع للفاروق.

ويظهر لك هذا من كون عمر مُحَدَّثًا كما قال النبي، ﷺ: «**قد كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثون؛ فإن يكن في هذه الأمة أحد فعمر**».

والتحديث المذكور هو: ما يلقى في القلب من الصواب والحق، وهذا

طريقه السمع الباطن، وهو بمنزلة التحديث والإخبار في الأذن.

وأما الصديق؛ فهو الذي كمل مقام الصديقية؛ لكمال بصيرته حتى كأنه قد باشر بصره مما أخبر، كأنه ينظر إلى ما أخبر به من الغيب من وراء ستوره، وهذا لكمال البصيرة، وهذا أفضل مواهب العبد وأعظم كراماته التي يكرم بها، وليس بعد درجة النبوة إلا هي؛ لهذا جعلها سبحانه بعدها فقال: **﴿ومن يُطِعِ الله والرَّسُول فأولئك مع الذين أَنْعَمَ الله عليهم مِنَ النبيين والصِّدِّيقين والشُّهَداء والصَّالِحِينَ﴾**. [النساء: ٦٩]. وهذا هو الذي سبق به الصديق لا بكثرة صوم ولا بكثرة صلاة، وصاحب هذا يمشي رويدًا ويجيء في الأول، ولقد تعناه من لم يكن سيره على هذا الطريق وتشميره إلى هذا العلم، وقد سبق من شمر إليه؛ وإن كان يزحف زحفاً ويحبو حبواً. **ولا تستطل هذا الفصل؛ فإنه أهم مما قصد بالكلام فليعد إليه.**

فقيل: تقديم السمع على البصر له سببان:

أحدهما: أن يكون السياق يقتضيه؛ بحيث يكون ذكرها بين الصفتين متضمنًا: للتهديد، والوعيد؛ كما جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته، التي تقتضي الحذر والاستقامة كقوله: **﴿فإنْ زَلَلتُم مِنْ بَعدِ ما جَاءَتْكُمُ البَيِّناتُ فاعْلَمُوا أَنَّ الله عَزيزٌ حَكِيمٌ﴾**. [البقرة: ٢٠٩]. وقوله: **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنيا فَعِنْدَ الله ثَوَابُ الدُّنيا والآخرَةِ وَكَانَ الله سَمِيعًا بَصِيراً﴾**. [النساء: ١٣٤]. **والقرآن مملوء من هذا، وعلى هذا فيكون في ضمن ذلك:** إني أسمع ما يردون به عليك، **وما** يقابلون به رسالاتي، وأبصر ما يفعلون.

ولا ريب أن المخاطبين بالرسالة بالنسبة إلى الإجابة والطاعة نوعان:

أحدهما: قابلوها بقولهم: صدقت، ثم عملوا بموجبها.

والثاني: قابلوها بالتكذيب، ثم عملوا بخلافها؛ فكانت مرتبة المسموع منهم قبل مرتبة البصر، فقدم ما يتعلق به على ما يتعلق بالمبصر.

وتأمل هذا المعنى في قوله تعالى لموسى: ﴿إنَّني مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأَرى﴾. [طه: ٤٦].

فهو يسمع ما يجيبهم به ويرى ما يصنعه، وهذا لا يعم سائر المواضع؛ بل يختص منها بما هذا شأنه.

والسبب الثاني: أن إنكار الأوهام الفاسدة لسمع الكلام مع غاية البعد بين

السامع والمسموع، أشد من إنكارها لرؤيته مع بعده.

وفي الصحيحين: عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا. فقال الثالث: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا. ولم يقولوا أترون الله يرانا؛ فكان تقديم السمع؛ أهم، والحاجة إلى العلم به؛ أمس.

وسبب ثالث: وهو أن حركة اللسان بالكلام؛ أعظم حركات الجوارح، وأشدها تأثيراً في الخير والشر والصلاح والفساد؛ بل عامة ما يترتب في الوجود من الأفعال؛ إنما ينشأ بعد حركة اللسان، فكان تقديم الصفة المتعلقة به؛ أهم وأولى؛ وبهذا يعلم تقديمه على العليم حيث وقع.

(١)**قال** تعالى: ﴿**يا أيُّها الذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ إلى قوله: ﴿**وأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾. [النساء: ٥٩].

فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر؛ بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخوطبوا به، كما يقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله، أحسن كما أحسن الله إليك. ويا أيها العالم علم الناس ما ينفعهم، ويا أيها الحاكم احكم بالحق، ونظائره.

ولهذا كثيراً ما يقع به الخطاب في القرآن بالشرائع كقوله: ﴿**يا أيُّها الذينَ آمَنُوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ**﴾. [البقرة: ١٨٣]. ﴿**يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إذَا نُودِيَ للصَّلاةِ**﴾. [الجمعة: ٩]. ﴿**يا أيُّها الذينَ آمَنُوا أَوفُوا بالعُقُودِ**﴾. [المائدة: ١]. ففي هذا إشارة إلى أنكم: إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه.

ثم قال تعالى: ﴿**أطيعُوا اللّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنْكُم**﴾. [النساء: ٥٩]. فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولي الأمر، وسلط عليهما عاملاً واحدًا. وقد كان ربما يسبق إلى الوهم؛ أن الأمر يقتضي عكس هذا؛ فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله. ولكن الواقع هنا في الآية هو المناسب.

---

(١) ٢٩ الرسالة التبوكية.

وتحته سر لطيف، وهو: دلالته على أن ما يأمر به رسوله تجب طاعته فيه، وإن لم يكن مأمورًا به بعينه في القرآن؛ فتجب طاعة الرسول مفردة ومقرونة. فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن، وإلا فلا تجب طاعته فيه كما قال النبي ﷺ: «**يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله تعالى، ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه. ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه**».

أما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم؛ إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول، لا طاعة مفردة مستقلة، كما صح عن النبي ﷺ، أنه قال: «**على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية الله تعالى. فإذا أمر بمعصية الله تعالى فلا سمع ولا طاعة**».

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**فردُّوه إلى اللهِ والرَّسولِ**﴾. [النساء: ٥٩]. ولم يقل: وإلى الرسول. فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول، فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول ﷺ، هو بعينه حكم الله. فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعني: إلى كتابه؛ فقد رددتموه إلى رسوله. وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله؛ فقد رددتموه إلى الله. وهذا من أسرار القرآن.

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى في أولي الأمر.

وعنه فيهم رحمه الله تعالى روايتان:

إحداهما: أنهم العلماء.

الثانية: أنهم الأمراء.

والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية. والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعًا؛ فإن العلماء والأمراء، ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله. فإن العلماء ولاته: حفظًا وبيانًا، وبلاغًا وذبًا عنه، وردًّا على من ألحد فيه وزاغ عنه.

وقد وكلهم الله بذلك فقال تعالى: ﴿**فإن يكفُرْ بِهَا هؤلاءِ فَقَد وكّلنَا بِهَا قومًا لَيْسُوا بها بكَافِرِينَ**﴾. [الأنعام: ٨٩].

فيا لها من وكالة أوجبت: طاعتهم، والانتهاء إلى أمرهم، وكون الناس تبعًا لهم!

والأمراء ولاته: قيامًا ودعاية وجهادًا وإلزامًا للناس به. وأخذهم على يد من خرج عنه.

وهذان الصنفان؛ هم الناس، وسائر النوع الإنساني؛ تبع لهم ورعية.

ثم قال تعالى: **﴿فإنْ تَنازَعْتُم في شيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُولِ إنْ كُنْتُم تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخِرِ﴾**. [النساء: ٥٩].

وهذا دليل قاطع على أنه، يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله؛ إلى الله ورسوله، لا إلى أحد غير الله ورسوله. فمن أحال الرد على غيرهما؛ فقد ضادَّ أمر الله، ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله؛ فقد دعا بدعوى الجاهلية. فلا يدخل العبد في الإيمان؛ حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله.

ولهذا قال تعالى: **﴿إنْ كُنتُم تُؤمِنُونَ بالله واليَومِ الآخِرِ﴾**. وهذا مما ذكرنا آنفًا؛ أنه شرط ينتفي المشروط بانتفائه.

فدل على أن من حكم غير الله ورسوله في موارد مقتضى النزاع؛ كان خارجًا من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر. وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة: بيانًا، وشفاء؛ فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها، عاصمة للمتمسكين بها الممتثلين ما أمرت به **﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ويَحْيَى مَن حَيَّ عَنْ بَيِّنةٍ. وإنَّ الله لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**. [الأنفال: ٤٢].

وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله؛ هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول؛ هو الرد إليه في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته.

ثم قال تعالى: **﴿ذلكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾**. [النساء: ٥٩]. أي: هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي؛ وأولياء الأمر، ورد ما تنازعتم فيه إليّ وإلى رسولي؛ خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خير لكم وأحسن عاقبة.

فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله؛ هو سبب السعادة عاجلاً وآجلاً.

ومن تدبر العالم والشرور الواقعة فيه؛ علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة

الرسول والخروج عن طاعته؛ وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول.

وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها؛ إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها. فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه. فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته؛ لم يكن في الأرض شر قط.

وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول؛ ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين. فعلم أن شرور الدنيا والآخرة؛ إنما هو الجهل بما جاء به الرسول، ﷺ، والخروج عنه. وهذا برهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول، ﷺ: علمًا، والقيام به عملاً.

وكمال هذه السعادة بأمرين آخرين:

أحدهما: دعوة الخلق إليه. والثاني: صبره واجتهاده على تلك الدعوة.

فانحصر الكمال الإنساني في هذه المراتب الأربعة:

إحداها: العلم بما جاء به الرسول ﷺ.

والثانية: العمل به.

والثالثة: نشره في الناس، ودعوتهم إليه.

والرابعة: صبره واجتهاده في أدائه وتنفيذه.

ومن طلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، وأراد اتباعهم؛ فهذه طريقتهم حقًا.

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم ... فقد وضحت للسالكين عيانا

وقال تعالى لرسوله، ﷺ: ﴿**قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ**﴾. [سبأ: ٥٠]. فهذا نص صريح في أن هدى الرسول، ﷺ؛ إنما يحصل بالوحي.

فيا عجبا كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة؟! ولكن ﴿**مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا**﴾. [الكهف: ١٧].

فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلتان، وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد، عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى. والحمد لله رب العالمين.

(١)قال تعالى: ﴿يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأمْرِ مِنْكُم﴾. [النساء: ٥٩] وفسر أولي الأمر بالعلماء، قال ابن عباس: هم الفقهاء والعلماء، أهل الدين الذين يعلمون الناس دينهم، أوجب الله تعالى طاعتهم. وهذا قول مجاهد، والحسن، والضحاك، وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد.

وفسروا بالأمراء، وهو قول ابن زيد وإحدى الروايتين عن ابن عباس وأحمد. والآية تتناولها جميعًا، فطاعة ولاة الأمر واجبة إذا أمروا بطاعة الله ورسوله، وطاعة العلماء كذلك، فالعالم بما جاء به الرسول العامل به؛ أطوع في أهل الأرض من كل أحد، فإذا مات؛ أحيا الله ذكره ونشر له في العالمين أحسن الثناء، فالعالم بعد وفاته؛ ميت وهو حي بين الناس، والجاهل في حياته؛ حي وهو ميت بين الناس. كما قيل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله　　وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم　　وليس لهم حتى النشور نشور

وقال الآخر:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم　　وعاش قوم وهم في الناس أموات

وقال آخر:

وما دام ذكر العبد بالفضل باقيًا　　فذلك حي وهو في الترب هالك

ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقه: كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم إلا صورهم؟! وإلا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع، وهذه هي الحياة حقًا حتى عد ذلك حياة ثانية. كما قال المتنبي:

ذكر الفتى عيشه الثاني وحاجته　　ما فاته وفضول العيش أشغال

---

(١) ١٣٧ مفتاح جـ١.

(١)**والتحقيق** أن الأمراء إنما يُطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء؛ فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول؛ فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء، ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء، وكان الناس كلهم لهم تبعًا، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما، كما قال عبدالله بن المبارك وغيره من السلف: صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، قيل: من هم؟ قال: الملوك، والعلماء. كما قال عبدالله بن المبارك:

رأيت الذنوبَ تُميت القلوبَ ... وقد يورث الذلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوب حياةُ القلوب ... وخيرٌ لنفسِكَ عِصيانُهَا
وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ ... وأحْبَارُ سوءٍ ورُهبَانُهَا

(٢)فصل

في تحريم الإفتاء في دين الله بالرأي المتضمن لمخالفة النصوص والرأي الذي لم تشهد له النصوص بالقبول

قال الله: **﴿فإن لَمْ يَسْتَجيبوا لك فاعْلَمْ أنما يتبعون أَهْوَاءهُمْ، ومَنْ أَضَلُّ ممن اتَّبع هَوَاهُ بغير هُدى مِنَ الله؟ إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾** فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما، إما الاستجابة لله والرسول وماجاء به، وإما اتباع الهوى، فكُلُّ مالم يأتِ به الرسولُ فهو من الهوى.

وقال تعالى: **﴿يا داود إنا جعلناك خليفةً في الأرض، فاحكم بينْ الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يَضِلّون عنْ سبيل الله لهم عذابٌ شديد بما نَسُوا يوم الحساب﴾** فقسَّم سبحانه طريق الحُكْم بين الناس إلى الحقِّ وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ماخالفه.

وقال تعالى لنبيه، ﷺ: **﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتَّبِعْها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يُغْنُوا عنك من الله شيئًا، وإنْ الظالمين بعضهم أولياء بعضٍ، والله ولي المتقين﴾** فقسم الأمر بين الشريعة التي جعله هو سبحانه عليها وأوحى إليه العمل بها وأمر الأمة بها وبين اتِّباع أهواء الذين لا يعلمون؛ فأمر بالأول، ونهى عن الثاني.

---
(١) ١٠ أعلام جـ١.
(١) ٤٧ أعـلام جـ١.

وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا ما أُنْزِل إليكُمْ من رَبِّكُم، ولا تتبعوا من دُونه أولياء، قليلاً ماتذكرون﴾ فأمر باتباع المنزل منه خاصة: وأعْلَم أن من اتبع غيره فقد اتبع من دونه أولياء.

قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وأَطيعُوا الرَّسولَ وأُولي الأَمْرِ مِنْكُمْ فإنْ تَنازَعْتُم في شيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُولِ إنْ كُنتُم تُؤمِنُونَ بالله واليومِ الآخِرِ ذلكَ خيرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾. [النساء: ٥٩]، فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل؛ إعلامًا بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقًا، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه، ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول؛ إيذانًا بأنهم إنما يُطاعون تبعًا لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة كما صح عنه ﷺ، أنه قال: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**». وقال: «**إنما الطاعة في المعروف**». وقال في ولاة الأمور: «**من أمركم منهم بمعصية الله فلا سمع له ولا طاعة**». وقد أخبر ﷺ، عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها: «**إنهم لو دخلوا لما خرجوا منها**». مع أنهم إنما كانوا يدخلونها؛ طاعة لأميرهم، وظنًا أن ذلك واجب عليهم، ولكن لما قصَّروا في الاجتهاد وبادروا إلى طاعة من أمر بمعصية الله، وحملوا عموم الأمر بالطاعة بما لم يُرِدْه الآمر ﷺ، وما قد علم من دينه إرادةُ خلافه، فقصَّروا في الاجتهاد وأقدموا على تعذيب أنفسهم وإهلاكها من غير تثبت وتبين: هل ذلك طاعة لله ورسوله أم لا؟ فما الظن بمن أطاع غيره في صريح مخالفة ما بعث الله به رسوله؟ ثم أمر تعالى برد ما تنازع فيه المؤمنون إلى الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأخبرهم أن ذلك خير لهم في العاجل وأحسن تأويلاً في العاقبة.

وقد تضمن هذا أمورًا:

منها: أن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام ولا يخرجون بذلك عن الإيمان، وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيمانًا.

ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة، من أولهم إلى آخرهم، لم يَسُوموها تأويلاً، ولم يحرِّفوها عن مواضعها تبديلاً، ولم يبدوا لشيء منها إبطالاً، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقَّوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمرًا واحدًا، وأجْرَوها على سَنن واحد، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عضين، وأقروا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه.

والمقصود: أن أهل الإيمان لا يخرجهم تنازعهم في بعض مسائل الأحكام عن حقيقة الإيمان، إذا ردّوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، كما شرطه الله عليهم بقوله: ﴿فردّوه إلى الله والرسولِ إن كُنْتُم تُؤمنُونَ بالله واليومِ الآخِرِ﴾. [النساء: ٥٩]. ولا ريب أن الحكم المعلق على شرط؛ ينتفي عند انتفائه.

ومنها: أن قوله: ﴿فإن تنازعتُم في شيء﴾. نكرة في سياق الشرط؛ تعم كلَّ ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقِّه وجلِّه، جليه وخفيه، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافيًا؛ لم يأمر بالرد إليه؛ إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع، إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع.

ومنها: أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ، هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته.

ومنها: أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد؛ انتفى الإيمان؛ ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر، ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم، وأن عاقبته أحسن عاقبة.

ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكَّم الطاغوت وتحاكم إليه.

والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مُطاع،

فطاغوت كل قوم مَنْ يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله؛ فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها؛ رأيت أكثرهم [عدلوا] عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة ـ وهم الصحابة ومن تبعهم ـ ولا قصدوا قَصْدَهم، بل خالفوهم في الطريق والقصد معًا.

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء بأنهم إذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول؛ أعرضوا عن ذلك، ولم يستجيبوا للداعي، ورَضُوا بحكم غيره، ثم توعَّدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم وأموالهم؛ بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول وتحكيم غيره والتحاكم إليه كما قال تعالى: ﴿**فإنْ تَوَلَّوا فاعْلَم أنما يُريدُ الله أن يُصيبَهُم ببَعْضِ ذُنُوبِهِمْ**﴾. [المائدة: ٤٩]. اعتذروا بأنهم إنما قصدوا الإحسان والتوفيق، أي: بفعل ما يرضي الفريقين ويوفق بينهما، كما يفعله من يروم التوفيق بين ما جاء به الرسول وبين ما خالفه، ويزعم أنه بذلك محسن قاصد الإصلاح والتوفيق، والإيمان إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول وبين كل ما خالفه: من طريقة، وحقيقة، وعقيدة، وسياسة ورأي؛ فمحض الإيمان في هذا الحرب لا في التوفيق، وبالله التوفيق.

(١)**الوجه** الحادي والأربعون: قولكم: إن الله سبحانه أمر بطاعة أولي الأمر وهم العلماء، وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به.

فجوابه: أن أولي الأمر قد قيل: هم الأمراء، وقيل: هم العلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد.

والتحقيق أن الآية تتناول الطائفتين، وطاعتهم من طاعة الرسول، لكن خَفِيَ على المقلدين أنهم إنما يُطاعون في طاعة الله إذا أمروا بأمر الله ورسوله؛ فكان العلماء مبلِّغين لأمر الرسول، والأمراء منفِّذين له؛ فحينئذ تجب طاعتهم تبعًا لطاعة الله ورسوله، فأين في الآية تقديم آراء الرجال على سنة رسول الله ﷺ،

(١) ٢٢٠ أعلام جـ٢.

وإيثار التقليد عليها؟

الوجه الثاني والأربعون: أن هذه الآية من أكبر الحجج عليهم، وأعظمها إبطالاً للتقليد، وذلك من وجوه:

أحدها: الأمر بطاعة الله التي هي امتثال أمره واجتناب نهيه.

الثاني: طاعة رسوله، ولا يكون العبد مطيعًا لله ورسوله حتى يكون عالمًا بأمر الله ورسوله، ومن أقر على نفسه بأنه ليس من أهل العلم بأوامر الله ورسوله وإنما هو مقلد فيها لأهل العلم؛ لم يمكنه تحقيق طاعة الله ورسوله ألبتة.

الثالث: أن أولي الأمر قد نَهَوْا عن تقليدهم، كما صح ذلك عن: معاذ بن جبل، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وغيرهم من الصحابة، وذكرناه نصًا عن الأئمة الأربعة وغيرهم، وحينئذ فطاعتهم في ذلك إن كانت واجبة؛ بطل التقليد، وإن لم تكن واجبة؛ بطل الاستدلال.

الرابع: أنه سبحانه قال في الآية نفسها: **﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُم في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُولِ إنْ كُنتُم تُؤْمِنُونَ بالله واليومِ الآخِرِ﴾** [النساء: ٥٩]. وهذا صريح في إبطال التقليد، والمنع من ردِّ المتنازع فيه إلى: رأي، أو مذهب، أو تقليد.

فإن قيل: فما هي طاعتهم المختصة بهم؛ إذ لو كانوا إنما يُطاعون فيما يخبرون به عن الله ورسوله؛ كانت الطاعة لله ورسوله لا لهم؟

قيل: وهذا هو الحق، وطاعتهم إنما هي تبع لا استقلال، ولهذا قرنها بطاعة الرسول ولم يعد العامل، وأفرد طاعة الرسول وأعاد العامل؛ لئلا يتوهم أنه إنما يطاع تبعًا كما يطاع أولو الأمر تبعًا، وليس كذلك؛ بل طاعته واجبةٌ استقلالاً سواء كان ما أمر به ونهى عنه في القرآن أو لم يكن.

(١)**طرف** من فتاويه، ﷺ، في الجهاد:

سئل عن قتال الأمراء الظلمة، فقال: «**لا، ما أقاموا الصلاة**». وقال: «**خيار أئمتكم: الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم. وشرار أئمتكم: الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**». قالوا: أفلا ننابذهم؟ قال: «**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، لا، ما أقاموا فيكم الصلاة**».

(١) ٣٩١ أعلام جـ٤.

ثم قال ﷺ: «ألا مَنْ ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدًا من طاعته». ذكره مسلم.

وقال: «يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برىء، ومن أنكر فقد سلم، ولكن مَنْ رضي وتابع». قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صلوا». ذكره مسلم، وزاد أحمد: «ما صلوا الخمس».

وسأله، ﷺ،رجل فقال: أرأيت إن كان علينا أمراء يمنعوننا حقنا ويسألوننا حقهم، قال: «اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلتم». ذكره الترمذي.

وقال: «إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها». قالوا: فما تأمرنا من أدرك ذلك؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم». متفق عليه.

وسأله،ﷺ، رجل فقال: دُلَّني على عمل يعدل الجهاد، قال: «لا أجده». ثم قال: «هـل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟» قال: ومن يستطيع ذلك؟ فقال: «مثل المجاهد في سبيل الله؛ كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام، ولا صلاة؛ حتى يرجع المجاهد في سبيل الله». ذكره مسلم...

(1)**الطبقة** الخامسة: أئمة العدل وولاته، الذين تؤمن بهم السبل ويستقيم بهم العالم، ويستنصر بهم الضعيف ويذل بهم الظالم، ويأمن بهم الخائف وتقام بهم الحدود ويدفع بهم الفساد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقام بهم حكم الكتاب والسنة، وتطفأ بهم نيران البدع والضلالة، وهؤلاء الذين تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن عز وجل يوم القيامة؛ فيكونون عليها؛ والولاة الظلمة قد صهرهم حر الشمس وقد بلغ منهم العرق مبلغه، وهم يحملون أثقال مظالمهم العظيمة على ظهورهم الضعيفة، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيل أحدهم: إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

قال النبي،ﷺ: «المقسطون على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن تبارك وتعالى، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في: حكمهم، وأهلهم، وما ولوا».

---
(1) ٣٥٤ طريق الهجرتين.

وعنه، ﷺ: «**إن أحب الخلق إلى الله وأقربهم منه منزلة يوم القيامة؛ إمام عادل. وإن أبغض الخلق إلى الله وأبعدهم منه منزلة يوم القيامة؛ إمام جائر**». أو كما قال.

وهم أحد السبعة الأصناف الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وكما كان الناس في ظل عدلهم في الدنيا؛ كانوا في ظل عرش الرحمن يوم القيامة؛ ظلًّا بظل جزاء وفاقًا، ولو لم يكن من فضلهم وشرفهم؛ إلا أن أهل السموات والأرض، والطير في الهواء يصلون عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم. وولاة الظلم يلعنهم من بين السموات والأرض حتى الدواب والطير، كما أن معلم الناس الخير؛ يصلي عليه الله وملائكته، وكاتم العلم والهدى الذي أنزله الله، وحامل أهله على كتمانه؛ يلعنه الله وملائكته ويلعنه اللاعنون.

فيالها من منقبة ومرتبة! ما أجلها وأشرفها! أن يكون الوالي والإمام على فراشه ويعمل بالخير وتكتب الحسنات في صحائفه؛ فهي متزايدة ما دام يعمل بعدله، ولساعة واحدة منه خير من عبادة أعوام من غيره.

فأين هذا من الغاش لرعيته الظالم لهم، قد حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار.

ويكفي في فضله وشرفه؛ أنه يكف عن الله دعوة المظلوم كما في الآثار: «**أيها الملك المسلط المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لتكف عني دعوة المظلوم. إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، فإني لا أحجبها ولو كانت من كافر**». فأين من هو نائم وأعين العباد ساهرة تدعو الله له، وآخر أعينهم ساهرة تدعو عليه؟

(١)فصل في بيان حقيقة التأويل لغة واصطلاحًا

هو تفعيل، من آل يؤول إلى كذا: إذا صار إليه، فالتأويل: التصيير، وأولته تأويلًا: إذا صيرته إليه.

ثم تسمى العاقبة تأويلًا؛ لأن الأمر يصير إليها. قال الله تعالى: ﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُم فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُم تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾. [النساء: ٥٩].

---

(١) ١٠ مختصر الصواعق جـ١.

وتسمى حقيقة الشيء المخبر به تأويلاً؛ لأن الأمر ينتهي إليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ تَأْويله يومَ يَأْتي تَأْويلُهُ يَقولُ الذينَ نَسوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحَقِّ﴾. [الأعراف: ٥٣]. فمجيء تأويله؛ مجيء نفس ما أخبرت به الرسل من: اليوم الآخر، والمعاد وتفاصيله، والجنة والنار.

ويسمى تعبير الرؤيا تأويلها بالاعتبارين؛ فإنه تفسير لها وهو عاقبتها وما تؤول إليه.

وقال يوسف لأبيه: ﴿يا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾. [يوسف: ١٠٠]. أي: حقيقتها ومصيرها إلى هاهنا. انتهى.

وتسمى العلة الغائية والحكمة المطلوبة بالفعل تأويلاً؛ لأنها بيان لمقصود الفاعل وغرضه من الفعل الذي لم يعرف الرائي له غرضه به، ومنه قول الخضر لموسى قبل أن يذكر[1] له الحكمة المقصودة بها فعله من: تخريق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار بلا عوض: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيهِ صَبْراً﴾. [الكهف: ٧٨]. فلما أخبره بالعلة الغائية التي انتهى إليها فعله قال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيهِ صَبْراً﴾. [الكهف: ٨٢].

فالتأويل في كتاب الله تعالى المراد منه حقيقة المعنى الذي يؤول اللفظ إليه؛ وهي الحقيقة الموجودة في الخارج.

فإن الكلام نوعان: خبر وطلب. **فتأويل** الخبر هو الحقيقة. وتأويل الوعد والوعيد؛ هو نفس الموعود والمتوعد به.

وتأويل ما أخبر الله به من صفاته العلى وأفعاله؛ نفس ما هو عليه سبحانه، وما هو موصوف به من الصفات العلى.

وتأويل الأمر هو نفس الأفعال المأمور بها. قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ، يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك**». يتأول القرآن، فهذا التأويل هو فعل نفس المأمور به. فهذا هو التأويل في كلام الله ورسوله.

وأما التأويل في اصطلاح أهل التفسير والسلف من أهل الفقه والحديث،

---

(١) بالنسخة: بعد أن ذكر، والصواب ما أثبتناه: قبل أن يذكر. ا هـ المراجع.

فمرادهم به؛ معنى التفسير والبيان. ومنه قول ابن جرير وغيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا. ومنه قول الإمام أحمد في الرد على الجهمية: «فيما تأولته من القرآن على غير تأويله» فأبطل تلك التأويلات التي ذكرها وهو تفسيرها المراد بها. وهو تأويلها عنده. فهذا التأويل يرجع إلى فهم المؤمن ويحصل في الذهن، والأول يعود إلى وقوع حقيقته في الخارج.

وأما المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين، فمرادهم بالتأويل؛ صرف اللفظ عن ظاهره، وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه؛ ولهذا يقولون: التأويل على خلاف الأصل، والتأويل يحتاج إلى دليل. وهذا التأويل هو الذي صنف في تسويغه وإبطاله من الجانبين، فممن صنف في إبطال التأويل على رأي المتكلمين: القاضي أبو يعلى، والشيخ موفق الدين ابن قدامة. وقد حكى غير واحد إجماع السلف على عدم القول به.

ومن التأويل الباطل؛ تأويل أهل الشام قوله ﷺ، لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**» فقالوا: نحن لم نقتله، إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا. وهذا التأويل مخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذي قتله هو الذي باشر قتله لا من استنصر به؛ ولهذا رد عليهم من هو أولى بالحق والحقيقة منهم فقالوا: أفيكون رسول الله ﷺ، وأصحابه هم الذين قتلوا حمزة والشهداء معه؛ لأنهم أتوا بهم حتى أوقعوهم تحت سيوف المشركين؟

ومن هذا قول عروة بن الزبير؛ لما روى حديث عائشة: «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فزيد في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر» فقيل له: فما بال عائشة أتمت في السفر؟ قال: تأولت كما تأول عثمان. وليس مراده أن عائشة وعثمان تأولا آية القصر على خلاف ظاهرها. وإنما مراده أنهما تأولا دليلاً قام عندهما اقتضى جواز الإتمام فعملا به. فكان عملهما به هو تأويله، فإن العمل بدليل الأمر؛ هو تأويله كما كان رسول الله ﷺ، يتأول قوله تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ**﴾. [النصر:٣] بامتثاله بقوله: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**» فكأن عائشة وعثمان تأولا قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ [النساء:١٠٣] فإن إتمامها من إقامتها.

وقيل: تأولت عائشة أنها أم المؤمنين، وأنها أمهم حيث كانت، فكأنها مقيمة بينهم.

وأن عثمان كان إمام المسلمين؛ فحيث كان فهو منزله.

أو أنه كان قد عزم على الاستيطان بمنى، أو أنه كان قد تأهل بها، ومن تأهل ببلد؛ لم يثبت له حكم المسافر.

أو أن الأعراب كانوا قد كثروا في ذلك الموسم؛ فأحب أن يعلمهم فرض الصلاة وأنها أربع.

أو غير ذلك من التأويلات التي ظناها أدلة مقيدة لمطلق القصر، أو مخصصة لعمومه، وإن كانت كلها ضعيفة.

والصواب هدي رسول الله ﷺ، فإنه كان إمام المسلمين وعائشة أم المؤمنين في حياته ومماته وقد قصرت معه، ولم يكن عثمان ليقيم بمكة وقد بلغه أن رسول الله ﷺ، إنما رخص في الإقامة بها للمهاجرين بعد قضاء نسكهم ثلاثًا، والمسافر إذا تزوج في طريقه؛ لم يثبت له حكم الإقامة بمجرد التزوج ما لم يزمع الإقامة.

وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة؛ هو التأويل الصحيح وغيره هو الفاسد.

والتأويل الباطل أنواع(١):

...(٢)**قال** تعالى ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ يَزْعُمونَ أَنَّهمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُروا بِهِ ويُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُم ضَلالاً بَعِيدًا. وإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللّهُ وإِلى الرَّسُولِ رَأَيْتَ المُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا. فَكَيْفَ إِذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا. أُولئكَ الذين يَعْلَمُ الله مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا**﴾. [النساء: ٦٠ - ٦٣].

ومن صفاتهم: معارضة ما جاء به الرسول ﷺ، بعقول الرجال وآرائهم، ثم تقديمها على ما جاء به. فهم معرضون عنه، معارضون له، زاعمون أن الهدى في آراء الرجال وعقولهم، دون ما جاء به. فلو أعرضوا عنه وتعوضوا بغيره لكانوا منافقين، فكيف إذا جمعوا مع ذلك معارضته، وزعموا أنه لا يستفاد منه هدى.

(١) سردها في المختصر، فمن أرادها فليرجع إليها. ج.
(٢) ٤٠٧ طريق الهجرتين.

ومن صفاتهم: كتمان الحق، والتلبيس على أهله، ورميهم له بأدوائهم: فيرمونهم إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ودعوا إلى الله ورسوله: بأنهم أهل فتن مفسدون في الأرض. وقد علم الله ورسوله والمؤمنون بأنهم أهل الفتن المفسدون في الأرض، وإذا دعاهم ورثة الرسول إلى كتاب الله وسنة رسوله خالصة غير مشوبة؛ رموهم: بالبدع، والضلال. ﴿وإذا قِيل لهم تعَالَوا إلى مَا أَنْزَلَ الله وإلى الرَّسُولِ رَأَيْتَ المُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾. [النساء: ٦١].

(١)**فكيف** لهم بالفلاح والهدى! بعد ما أصيبوا في عقولهم وأديانهم؟ وأنى لهم التخلص من الضلال والردى! وقد اشتروا الكفر بإيمانهم؟ فما أخسر تجارتهم البائرة! وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقًا ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بالله إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحسَانًا وتَوْفِيقًا﴾. [النساء: ٦٢].

نشب زقوم الشبه والشكوك في قلوبهم، فلا يجدون له مسيغًا ﴿أُولئكَ الذِينَ يَعْلَمُ الله مَا فِي قُلُوبِهِم. فَأَعْرِضْ عَنْهُم وعِظْهُم وقُلْ لَهُم في أَنْفُسِهِم قَوْلاً بَلِيغًا﴾. [النساء: ٦٣].

تبا لهم، ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان. فالقوم في شأن وأتباع الرسول في شأن. لقد أقسم الله جل جلاله في كتابه بنفسه المقدسة قسمًا عظيمًا، يعرف مضمونه أولو البصائر. فقلوبهم منه على حذر؛ إجلالاً له وتعظيمًا. فقال تعالى تحذيرًا لأوليائه وتنبيهًا على حال هؤلاء وتفهيمًا: ﴿فلَا ورَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِم حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. [النساء: ٦٥].

(٢)**ومن** منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. [الفاتحة: ٥]. منزلة «التسليم» وهي نوعان: تسليم لحكمه الديني الأمري، وتسليم لحكمه الكوني القدري.

فأما الأول: فهو تسليم المؤمنين العارفين. قال تعالى: ﴿فَلَا ورَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لَا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِم حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. [النساء: ٦٥].

---

(١) ٣٥٣ مدارج جـ١. (٢) ١٤٦ مدارج جـ٢.

فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصدر بانتفاء الحرج، والتسليم.

وأما التسليم للحكم الكوني: فمزلة أقدام، ومضلَّة أفهام، حَيَّر الأنام، وأوقع الخصام. وهي مسألة الرضى بالقضاء. وقد تقدم الكلام عليها بما فيه كفاية. وبينا أن التسليم للقضاء يحمد إذا لم يؤمر العبد بمنازعته ودفعه. ولم يقدر على ذلك، كالمصائب التي لا قدرة له على دفعها.

وأما الأحكام التي أمرْ بدفعها: فلا يجوز له التسليم إليها؛ بل العبودية: مدافعتها بأحكام أخر، أحب إلى الله منها.

...(١)**ثم** أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد؛ حتى يُحَكِّموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده؛ حتى ينتفي عن صدورهم الحَرَج والضِّيق عن قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضًا بذلك؛ حتى يسلموا تسليمًا، وينقادوا انقيادًا.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤمِنٍ ولاَ مُؤمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله ورَسُولُهُ أمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُم الخِيْرَةُ مِنْ أَمْرِهم﴾. [الأحزاب: ٣٦]. فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخير بعد ذلك فقد ضلَّ ضلالاً مبينًا.

(٢)﴿فَلاَ ورَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهم حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. [النساء: ٦٥].

وفرض تحكيمه لم يسقط بموته؛ بل هو ثابت بعد موته كما كان ثابتًا في حياته، وليس تحكيمه مختصًا بالعمليات دون العلميات كما يقوله أهل الزيغ والإلحاد.

وقد افتتح سبحانه هذا الخبر بالقسم المؤكد بالنفي قبله، وأقسم على انتفاء الإيمان منهم؛ حتى يحكموا رسوله ﷺ، في جميع ما تنازعوا فيه: من دقيق الدين وجليله، وفروعه وأصوله.

ثم لم يكتف منهم بهذا التحكيم؛ حتى ينتفي الحرج وهو الضيق؛ مما حكم به؛ فتنشرح صدورهم لقبول حكمه انشراحًا لا يبقى معه حرج، ثم يسلموا تسليمًا أي: ينقادوا انقيادًا لحكمه، والله يشهد ورسوله وملائكته والمؤمنون: أن من قال:

---

(١) ٥١ أعلام جـ١.

(٢) ٣٥٢ مختصر الصواعق جـ٢.

أدلة القرآن والسنة لا تفيد اليقين، وأن أحاديث الأسماء والصفات أخبار آحاد لا تفيد العلم؛ بمعزل عن هذا التحكيم، وهو يشهد على نفسه بذلك.

وقد قال تعالى قبل ذلك: ﴿**يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأَمْرِ مِنْكُم**﴾. الآية. [النساء: ٥٩]. وأجمع المسلمون أن الرد إليه؛ هو الرجوع إليه في حياته، والرجوع إلى سنته بعد مماته.

واتفقوا أن فرض هذا الرد؛ لم يسقط بموته، فإن كان متواتر أخباره وآحادها لا تفيد علمًا ولا يقينًا؛ لم يكن للرد إليه وجه.

ولما أصَّل أهل الزيغ والضلال هذا الأصل؛ ردوا ما تنازع فيه الناس من هذا الباب إلى: منطق اليونان، وخيالات الأذهان، ووحي الشيطان، ورأي فلان وفلان. وهؤلاء يتناولهم قوله سبحانه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ يَزْعُمونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بمَا أُنْزِلَ إليْكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلكَ يُريدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ويُرِيدُ الشَّيطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا**﴾. [النساء: ٦٠].

والطاغوت اسم لكل ما تعدى حده وتجاوز طوره، ومعلوم أن هذا الذي يتحاكم إليه أهل الزيغ حده أن يكون محكومًا عليه لا حاكمًا، ثم أخبر تعالى عن حال هؤلاء المتحاكمين إلى غير ما جاء به رسوله ﷺ، فقال: ﴿**وإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلى مَا أَنْزَلَ الله وإلى الرَّسُولِ رَأَيْتَ المُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا**﴾. [النساء: ٦١]. فجعل الإعراض عما جاء به الرسول والالتفات إلى غيره؛ هو حقيقة النفاق، كما أن حقيقة الإيمان؛ هو تحكيمه، وارتفاع الحرج عن الصدور بحكمه، والتسليم لما حكم به: رضًى، واختيارًا، ومحبة. فهذا حقيقة الإيمان، وذلك الإعراض حقيقة النفاق.

ثم أخبر سبحانه عن عقوبة المعرضين عن التحاكم إليه، الراضين بحكم الغير من خلقه في قوله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بالله إنْ أَرَدْنَا إلَّا إحْسَانًا وتَوْفِيقًا**﴾. [النساء: ٦٢].

فأخبر أن هذا الإعراض عن التحاكم إليه؛ سبب لأن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الذينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾. [النور: ٦٣].

وقال في المتولين عن حكمه: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ**﴾. [المائدة: ٤٩].

قال أبو داود: حدثنا حماد بن سلمة، عن يعلى بن حكيم، عن سعيد بن جبير؛ أنه حدث بحديث، فقال له رجل من أهل الكوفة: إن الله تعالى يقول في كتابه كذا وكذا، فغضب سعيد، وقال: لا أراك تعرض في حديث رسول الله، ﷺ، كان رسول الله، ﷺ، أعلم بكتاب الله منك.

فإذا كان هذا إنكارهم على من عارض سنة رسول الله، ﷺ، بالقرآن؛ فماذا تراهم قائلين لمن عارضها؛ بآراء المتكلمين ومنطق المتفلسفين، وأقيسة المتكلمين، وخيالات المتصوفين، وسياسات المعتدين؟

ولله بلال بن سعد؛ حيث يقول: ثلاث لا يقبل معهن عمل: الشرك، والكفر، والرأي. قلت: يا أبا عمرو ما الرأي؟ قال: يترك سنة الله ورسوله، ويقول بالرأي.

وقال أبو العالية في قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ الذينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾. [فصلت: ٣٠]. [الأحقاف: ١٣]. قال: أخلصوا لله: الدين، والعمل، والدعوة؛ أن جردوا الدعوة إليه وإلى كتابه وسنة رسوله، ﷺ، فقط لا إلى رأي فلان وقول فلان.

وقال سفيان في قوله تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الذيْنَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ**﴾. [النور: ٦٣]. قال: يطبع على قلوبهم.

وقال الإمام أحمد: إنما هي الكفر، ولقي عبدالله بن عمر جابرَ بن زيد في الطواف فقال له: يا أبا الشعثاء إنك من فقهاء البصرة؛ فلا تفت إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك؛ هلكت وأهلكت.

وقال ابن خزيمة: قلت لأحمد بن نصر، وحدث بخبر عن رسول الله، ﷺ، أما تأخذ به؟ فقال: أترى على وسطي زنارًا، لا تقل لخبر النبي، ﷺ: أتأخذ به، وقل: أصحيح هو ذا؟ فإذا صح الخبر عن رسول الله، ﷺ، قلت به؛ شئت أم أبيت.

وقال أفلح مولى أم سلمة: إنها كانت تحدث: أنها سمعت رسول الله، ﷺ، يقول على المنبر وهي تمتشط: «**أيها الناس**» فقالت لماشطتها: كفي رأسي، قالت: فديتك إنما يقول: «**أيها الناس**» قالت: ويحك! أولسنا من الناس؟ فكفت رأسها،

وقامت في حجرتها، فسمعته يقول: «**أيها الناس بينا أنا على حوضي إذ مر بكم زمر، افترقت بكم الطرق فناديتكم: ألا هلم إلى الطريق، فينادي مناد: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول: ألا سحقًا سحقًا**».

وهذه الطرق التي تفرقت بهم؛ هي الطرق والمذاهب التي ذهبوا إليها، وأعـرضوا عن طريقه ومذهبه ﷺ، فلا يجوزون على الطريق التي هو عليها يوم القيامة، كما لم يسلكوا الطريق التي كان عليها هو وأصحابه.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: إياكم والرأي؛ فإن الله رد على الملائكة الرأي.

وقال: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾. [البقرة: ٣٠]. وقال لنبيه ﷺ: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ**﴾. [النساء: ١٠٥]. ولم يقل: بما رأيت. وقال بعض العلماء: ما أخرج آدم من الجنة؛ إلا بتقديم الرأي على النص، وما لعن إبليس وغضب عليه؛ إلا بتقديم الرأي على النص، ولا هلكت أمة من الأمم؛ إلا بتقديم آرائها على الوحي، ولا تفرقت الأمة فرقًا وكانوا شيعًا؛ إلا بتقديم آرائهم على النصوص.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ، برأي اجتهادًا، والله ما ألو عن الحق، وذلك يوم أبي جندل والكتاب بين يدي رسول الله ﷺ، وبين أهل مكة، فقال رسول الله ﷺ: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**» فقال: بل تكتب كما نكتب: باسمك اللهم، فرضي رسول الله ﷺ، وأبيت عليه؛ حتى قال رسول الله ﷺ: «**تراني أرضى وتأبى**»، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾. [الحجرات: ١]. قال: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾. [النساء: ٦٥].

أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسمًا مؤكدًا بالنفي قبله، على عدم إيمان الخلق؛ حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم: من الأصول والفروع، وأحكام الشرع وأحكام المعاد، وسائر الصفات وغيرها.

---

(١) ٢٧٤ التبيان.

ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم؛ حتى ينتفي عنهم الحرج، وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح، وتنفسح له كل الانفساح، وتقبله كل القبول.

ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضًا؛ حتى ينضاف إليه: مقابلة حكمه بالرضى والتسليم، وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض. فهنا قد يحكم الرجل غيره وعنده حرج من حكمه، ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسليم والانقياد؛ إذ قد يحكمه وينتفي الحرج عنه في تحكيمه، ولكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضى بحكمه. والتسليم أخص من انتفاء الحرج. فالحرج مانع، والتسليم أمر وجودي، ولا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه؛ إذ قد ينتفي الحرج، ويبقى القلب فارغًا: منه، ومن الرضى به والتسليم له. فتأمله.

وعند هذا يعلم أن الرب تبارك وتعالى؛ أقسم على انتفاء إيمان أكثر الخلق. وعند الامتحان تعلم: هل هذه الأمور الثلاثة موجودة في قلب أكثر من يدعي الإسلام أم لا؟

(١)**الطبقة** الرابعة: ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بعثوا به: علمًا، وعملاً، ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم، وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة، وهي مرتبة الصديقية، ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء فقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾. [النساء: ٦٩]. فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة، وهؤلاء: هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول وأمته، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

(٢)**وقد** اختلف في تفضيل مداد العلماء على دم الشهداء وعكسه، وذكر لكل قول وجوه من التراجيح والأدلة. ونفس هذا النزاع دليل على تفضيل العلم

---

(١) ٣٥١ طريق الهجرتين.　　(٢) ٨٠ مفتاح جـ١.

ومرتبته، فإن الحاكم في هذه المسألة هو العلم؛ فبه وإليه وعنده؛ يقع التحاكم والتخاصم، والمفضل منهما من حكم له بالفضل.

فإن قيل: فكيف يقبل حكمه لنفسه؟ قيل: وهذا أيضًا دليل على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه، فإن الحاكم إنما لم يسغ أن يحكم لنفسه؛لأجل مظنة التهمة والعلم لا تلحقه تهمة في حكمه لنفسه، فإنه إذا حكم؛ حكم بها تشهد العقول والفطر بصحته وتتلقاه بالقبول، ويستحيل حكمه لتهمة. فإنه إذا حكم بها: انعزل عن مرتبته، وانحط عن درجته؛ فهو الشاهد المزكي العدل، والحاكم الذي لا يجور ولا يعزل. فإن قيل: فماذا حكمه في هذه المسألة التي ذكرتموها؟.

قيل: هذه المسألة كثر فيها الجدال، واتسع المجال، وأدلى كل منهما بحجته واستعلى بمرتبته.

والذي يفصل النزاع ويعيد المسألة إلى مواقع الإجماع: الكلام في أنواع مراتب الكمال، وذكر الأفضل منها، والنظر في أي هذين الأمرين أولى به وأقرب إليه؟.

فهذه الأصول الثلاثة؛ تبين الصواب، ويقع بها فصل الخطاب.

فأما مراتب الكمال فأربع: النبوة، والصديقية، والشهادة، والولاية.

وقد ذكرها الله سبحانه في قوله: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وكَفَى باللهِ عليمًا**﴾. [النساء: ٦٩، ٧٠].

وذكر تعالى هؤلاء الأربع في سورة الحديد:

فذكر تعالى الإيمان به وبرسوله. ثم ندب المؤمنين إلى أن تخشع قلوبهم لكتابه ووحيه.

ثم ذكر مراتب الخلائق: شقيهم، وسعيدهم فقال: ﴿**إنَّ المُصَّدِّقِينَ والمُصَّدِّقَاتِ وأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ والذينَ آمَنُوا باللهِ ورُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ والشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِم لَهُم أَجْرُهُم ونُورُهُم والذينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ**﴾. [الحديد: ١٨، ١٩].

وذكر المنافقين قبل ذلك؛ فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد: شقيهم، وسعيدهم.

والمقصود أنه ذكر فيها المراتب الأربعة: الرسالة، والصديقية، والشهادة والولاية. فأعلا هذه المراتب: النبوة والرسالة، ويليها الصديقية. فالصديقون هم

أئمـة أتباع الرسل، ودرجتهم أعلا الدرجات بعد النبوة، فإن جرى قلم العالم بالصديقية وسال مداده بها؛ كان أفضل من دم الشهيد الذي لم يلحقه في رتبة الصديقية، وإن سال دم الشهيد بالصديقية وقطر عليها؛ كان أفضل من مداد العالم الذي قصر عنها، فأفضلهما؛ صديقهما، فإن استويا في الصديقية؛ استويا في المرتبة، والله أعلم.

والصديقية هي كمال الإيمان بما جاء به الرسول: علمًا، وتصديقًا، وقيامًا. فهي راجعـة إلى نفس العلم، فكل من كان أعلم بما جاء به الرسول، وأكمل تصديقًا له؛ كان أتم صديقية، فالصديقية شجرة: أصولها؛ العلم، وفروعها؛ التصديق، وثمرتها؛ العمل. فهذه كلمات جامعة في مسألة العالم والشهيد وأيهما أفضل؟.

(١)**وأما** تقديم النبيين على الصديقين فلما ذكره(٢)، ولكون الصديق تابعًا للنبي، فإنما استحق اسم الصديق؛ بكمال تصديقه للنبي فهو تابع محض، وتأمل تقديم الصديقين على الشهداء؛ لفضل الصديقين عليهم، وتقديم الشهداء على الصالحين؛ لفضلهم عليهم. اهـ.

(٣)**وفي** الصحيحين: عن أنس بن مالك قال: مر بجنازة فأثني عليها خير فقال نبي الله: **«وجبت وجبت وجبت»** ومر بجنازة فأثني عليها شر فقال: **«وجبت وجبت وجبت»**، فقال عمر: فداك أبي وأمي، مر بجنازة فأثني عليها خير فقلت: **«وجبت وجبت وجبت»**، ومـر بجنازة فأثني عليها شر فقلت: **«وجبت وجبت وجبت»** فقال رسول الله ﷺ: **«من أثنيتم عليه خيراً؛ وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرًّا؛ وجبت له النار، وأنتم شهداء الله في الأرض»**.

وفي الحديث الآخر: **«يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار»** قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: **«بالثناء الحسن وبالثناء السيىء»**.

وبالجملة: فأهل الجنة؛ أربعة أصناف ذكرهم الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ

(١) ٧٠ بدائع جـ١.
(٢) أي من الفضل والشرف، كما تقدم صفحة ٦٣ السطر الرابع من البدائع جـ١. اهـ ج.
(٣) ٩٠ حادي الأرواح.

والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقًا﴾. [النساء: ٦٩]. فنسأل الله أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه.

(١) **المسألة** الثانية: وهي أن أرواح الموتى هل تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا؟

فهي أيضًا مسألة شريفة كبيرة القدر.

وجوابها: أن الأرواح قسمان: أرواح معذبة؛ وأرواح منعمة.

فالمعذبة في شغل بما هي فيه من العذاب عن التزاور والتلاقي.

والأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة؛ تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا، وما يكون من أهل الدنيا؛ فتكون كل روح مع رفيقها الذي هو على مثل عملها.

وروح نبينا محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، في الرفيق الأعلى قال الله تعالى: **﴿وَمَنْ يُطِعِ الله والرَّسُولَ فَأولئِكَ مَعَ الذينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِنَ النَّبيينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقًا﴾**. [النساء: ٦٩]. وهذه المعية ثابتة: في الدنيا، وفي دار البرزخ، وفي دار الجزاء، والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاثة.

وروى جرير، عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال أصحاب محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا، فإذا مت؛ رفعت فوقنا؛ فلم نرك فأنزل الله تعالى: **﴿وَمَنْ يُطِعِ الله والرَّسُولَ فَأولئِكَ مَعَ الذينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِنَ النَّبيينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقًا﴾**.

وقال الشعبي: جاء رجل من الأنصار وهو يبكي إلى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «**ما يبكيك يا فلان؟**» فقال: يا نبي الله والله الذي لا إله إلا هو؛ لأنت أحب إليَّ من أهلي ومالي، والله الذي لا إله إلا هو؛ لأنت أحب إليَّ من نفسي، وأنا أذكرك أنا وأهلي، فيأخذني كذا؛ حتى أراك فذكرت موتك وموتي فعرفت أني لن أجامعك إلا في الدنيا، وأنك ترفع في النبيين، وعرفت أني إن دخلت الجنة كنت في منزل أدنى من منزلك، فلم يرد النبي، ﷺ، شيئاً فأنزل الله تعالى: **﴿وَمَنْ يُطِعِ الله والرَّسُولَ فَأولئِكَ مَعَ الذينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِنَ النَّبيينَ**

(١) ١٩ الروح.

والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ﴾ إلى قوله: **﴿وكفى باللَّهِ عليمًا﴾**.

فصل(١)

قال القدري: قال الله سبحانه: **﴿ما أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله ومَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾**. [النساء: ٧٩]. وعند الجبري أن الكل فعل الله، وليس من العبد شيء. قال الجبري: في الكلام استفهام مقدر تقديره أفمن نفسك؟ فهو إنكار لا إثبات.

وقرأها بعضهم فمن نفسك؟ بفتح الميم ورفع نفسك، أي: من أنت حتى تفعلها؟ قال: ولابد من تأويل الآية، وإلا ناقض قوله في الآيةالتي قبلها: **﴿وإِنْ تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِه مِنْ عِنْدِ الله وإِنْ تُصِبْهُم سَيِّئَة يَقُولُوا هذِه من عِنْدِك قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله﴾**. [النساء: ٧٨] فأخبر أن الحسنات والسيئات جميعًا من عنده لا من عند العبد.

قال السني: أخطأتما جميعًا في فهم الآية أقبح الخطأ، ومنشأ غلطكما أن الحسنات والسيئات في الآية المراد بها: الطاعات، والمعاصي التي هي فعل العبد الاختياري، وهذا وهم محض في الآية؛ وإنما المراد بها النعم والمصائب.

ولفظ الحسنات والسيئات في كتاب الله يراد به هذا تارة وهذا تارة.

فقوله تعالى: **﴿إِنْ تَمْسَسْكُم حَسَنَةٌ تَسُؤهُم وإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَة يَفْرَحُوا بِهَا﴾**. [آل عمران: ١٢٠]. وقوله: **﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤهُم وإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾**. [التوبة: ٥٠]. وقوله: **﴿وبَلَوْنَاهُم بالحَسَنَات والسَّيِّئَاتِ﴾**. [الأعراف: ١٦٨]. وقوله: **﴿وإِنْ تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُور﴾**. [الشورى: ٤٨]. وقوله: **﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِه وإِنْ تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَه﴾**. [الأعراف: ١٣١]. وقوله: **﴿ما أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله ومَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾**. [النساء: ٧٩]. المراد في هذا كله النعم والمصائب(٢).

---

(١) **١٥٩** شفاء العليل.

(٢) تقدم في آل عمران نقلاً عن زاد المعاد ص٢٦٦ جـ٢: فالحسنة والسيئة هنا: النعمة، والمصيبة، فالنعمة من الله مَنَّ بها عليك، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك. فالأول؛ فضله، والثاني؛ عدله. والعبد يتقلب بين فضل ربه وعدله، جارٍ عليه فضله، ماضٍ فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه. أهـ.

وأما قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾. [الأنعام: ١٦٠]. وقوله: ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾. [هود: ١١٤]. وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ﴾. [الفرقان: ٧٠]. فالمراد به في هذا كله؛ الأعمال المأمور بها والمنهي عنها، وهو سبحانه إنما قال: ما أصابك، ولم يقل: ما أصبت وما كسبت.

فما يفعله العبد يقال فيه: ما أصبت وكسبت وعملت كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾. [الأنبياء: ٩٤]. وكقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَو إِثْمًا﴾. [النساء: ١١٢]. وقول المذنب التائب: يا رسول الله أصبت ذنبًا فأقم عليَّ كتاب الله، ولا يقال في هذا: أصابك ذنب وأصابتك سيئة.

وما يفعل به بغير اختياره يقال فيه: أصابك كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾. [الشورى: ٣٠]. وقوله: ﴿وإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾. [التوبة: ٥٠]. وقوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِثْلَيْهَا﴾. [آل عمران: ١٦٥]. فجمع الله في الآية بين: ما أصابوا بفعلهم وكسبهم، وما أصابهم مما ليس فعلًا لهم. وقوله: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُم أَنْ يُصِيبَكُم اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾. [التوبة: ٥٢]. وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾. [الرعد: ٣١]. وقوله: ﴿فَأَصَابَتْكُم مُصِيبَةُ المَوْتِ﴾. [المائدة: ١٠٦].

فقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾. [النساء: ٧٩] هو من هذا القسم الذي يصيب العبد لا باختياره، وهذا إجماع من السلف في تفسير هذه الآية.

قال أبو العالية: وإن تصبكم حسنة؛ هذا في السراء، وإن تصبهم سيئة؛ هذا في الضراء.

قال السدي: الحسنة: الخصب تنتج مواشيهم وأنعامهم ويحسن حالهم، فتلد نساؤهم الغلمان، قالوا: هذا من عند الله، ﴿وإِنْ تُصبهم سيئة﴾ قال: الضر في أموالهم تشاءموا بمحمد، وقالوا: هذه من عنده، قالوا: بتركنا ديننا واتباعنا محمدًا أصابنا ما أصابنا، فأنزل الله سبحانه ردًا عليهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾. [النساء: ٧٨]. الحسنة والسيئة.(١)

(١) هذا بحث مطول، وهو مناظرة بين: سني، وقدريّ، وجبريّ في عدة صفحات لمن أراده. أ هـ (ج).

(١)**الوجه** العاشر: أن أسباب العذاب من النفس وغاياتها اتباع أهوائها. وأما أسباب الخير فمن ربها وفاطرها، وهو الغاية والمقصود بها فهي به وله. قال الله تعالى: ﴿ما أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله ومَا أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾. [النساء: ٧٩]. فالحسنات مصدرها من الله وغايتها منتهية إليه. والسيئات من النفس وهي غايتها قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ الله﴾ [النحل: ٥٣].

فليس للحسنات سبب إلا مجرد فضل الله ومنته، والأعمال الصالحة وإن كانت أسباب النعم والخيرات، فمَنْ وفقه لها وأعانه عليها وشاءها له سواه؟!

فالنعم وأسبابها من الله. وأما السيئات التي أسلفها العبد فمن نفسه، وسببها: جهله، وظلمه. فإذا ترتبت عليها سيئات الجزاء كان كالسبب والمسبب من نفسه، فليس للجزاء السيىء في الدنيا والآخرة سبب؛ إلا ذنوب العبد التي من نفسه، فالشر كله من نفسه والخير كله من ربه، فإن أكثره ليس للعبد فيه مدخل. فإن الله هو الذي أنعم عليه به.

ولهذا قال بعض السلف: «لا يرجونَّ عبد إلا ربه، ولا يخافنَّ إلا ذنبه». ولهذا قال تعالى: ﴿ما أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله ومَا أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾. [النساء: ٧٩].

فخص بالخطاب تنبيهًا على الأدنى، ولم يخرجه في صورة العموم؛ لئلا يتوهم متوهم أنه عام مخصوص. فكان ذكر الخاص؛ أبلغ في العموم وقصده من ذكر العام. فتأمله فإنه أسلوب عجيب في القرآن.

والمقصود أن سبب الحسنات كلها؛ هو الحي القيوم، الذي لم يزل ولا يزال، وهو الغاية المقصودة من فعلها فتدوم بدوام سببها. وأما السيئات فسببها وغايتها؛ منقطع هالك فلا يجب دوامها.

فتأمل هذا الوجه فإنه من ألطف الوجوه. فإن الأسباب تضمحل باضمحلال غاياتها وتبطل ببطلانها. ولهذا كان كل عمل باطلاً؛ إلا ما أريد به وجه الله. فإن جزاءه وثوابه يدوم بدوامه، وما لم يرد به وجهه وأريد به ما يضمحل

(١) ٣٦٦ مختصر الصواعق جـ١

ويفنى؛ فإنـه يفنى بفنـائـه. قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾. [الفرقان: ٢٣].

وهذه هي الأعمال التي كانت لغيره، فكما أن ما لا يكون به لا يكون؛ فما كان لغيره لا يدوم، ولهذا كان لبعض حكم الله تعالى في تخريب هذا العالم، أن يشهد من عبد شيئًا غيره أنه لا يصلح للعبادة والألوهية، ويشهد العابد حال معبوده.

والمقصود أن النعم؛ تدوم بدوام سببها وغايتها، وأن الشرور والآلام؛ تبطل وتضمحل باضمحلال سببها. . .

(١)**قوله** تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتقى ولاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾. [النساء: ٧٧].

جمعت بين: التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والحض على فعل الخير والزجر عن فعل الشر؛ إذ قوله: ﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾. يتضمن: حثهم على كسب الخير، وزجرهم عن كسب الشر.

(٢)**قوله:** ﴿فَمَالِ هَؤُلاءِ القَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾. [النساء: ٧٨].
فذمَّ من لم يفقـه كلامـه، والفقـه أخص من الفهم، وهو فهم مراد المتكلم من كلامـه، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة، وبحسب تفاوت مراتب الناس في هذا؛ تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم.

وقـد كان الصحابة يستدلون على إذن الرب تعالى وإباحته بإقراره وعدم إنكاره عليهم في زمن الوحي، وهذا استدلال على المراد بغير لفظ، بل بما عرف من موجب أسمائه وصفاته، وأنه لا يُقرُّ على باطل حتى يبينه.

وكـذلك استـدلال الصـديقة الكبرى أم المؤمنين خديجة، بما عرفته من: حكمة الرب تعالى، وكمال أسمائه، وصفاته، ورحمته؛ أنه لا يُخزي محمدًا ﷺ، فإنه يصلُ الرَّحم، ويحمل الكلَّ، ويقري الضَّيف، ويُعينُ على نوائب الحق، وأن من كان بهذه المثابة؛ فإن العزيز الرحيم الذي هو أحكم الحاكمين وإلـه العالمين؛ لا يُخزيه، ولا يسلط عليه الشيطان.

---

(١) ٨ بدائع جـ٤.　　(٢) ٢١٩ أعلام جـ١.

وهذا استدلال منها قبل ثبوت النبوة والرسالة، بل استدلال على صحتها وثبوتها في حق مَنْ هذا شأنه؛ فهذا معرفة منها بمراد الرب تعالى وما يفعله من أسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، وإحسانه، ومجازاته المحسن بإحسانه، وأنه لا يضيع أجر المحسنين.

وقد كانت الصحابة؛ أفهم الأمة لمراد نبيها وأتبع له، وإنما كانوا يدندنون حول معرفة مراده ومقصوده، ولم يكن أحد منهم يظهر له مراد رسول الله ﷺ، ثم يعدلُ عنه إلى غيره ألبتة.

والعلم بمراد المتكلم؛ يعرف: تارة من عموم لفظه، وتارة من عموم علته، والحوالة على الأول أوضح لأرباب الألفاظ، وعلى الثاني؛ أوضح لأرباب المعاني والفهم والتدبر.

وقد يعرض لكل من الفريقين ما يخلّ بمعرفة مراد المتكلم، فيعرض لأرباب الألفاظ التقصير بها عن عمومها، وهضمها تارة، وتحميلها فوق ما أريد بها تارة، ويعرض لأرباب المعاني فيها؛ نظير ما يعرض لأرباب الألفاظ. فهذه أربع آفات هي منشأ غلط الفريقين. . .

فصل(1)

قالوا: ولو كان القياس حجة؛ لما تعارضت الأقيسة، وناقض بعضها بعضًا، فترى كل واحد من المتنازعين من أرباب القياس؛ يزعم أن قوله هو القياس، فيبدي منازعه قياسًا آخر ويزعم أنه هو القياس، وحجج الله وبيناته لا تتعارض، ولا تتهافت.

قالوا: فلو جاز القول بالقياس في الدين؛ لأفضى إلى وقوع الاختلاف الذي حذَّر الله منه ورسوله، بل عامة الاختلاف بين الأمة إنما نشأ من جهة القياس، فإنه إذا ظهر لكل واحد من المجتهدين قياس مقتضاه نقيض حكم الآخر؛ اختلف ولابد وهذا يدل على أنه من عند غير الله، من ثلاثة أوجه:

أحدها: صريح قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا

(1) ٢٥٨ أعلام جـ١.

كَثِيراً﴾. [النساء: ٨٢].

الثاني: أن الاختـلاف سببه: اشتباه الحق، وخفاؤه؛ وهذا لعدم العلم الذي يميز بين الحق والباطل.

الثالث: أن الله سبحانه ذمَّ الاختلاف في كتابه، ونهى عن التفرق والتنازع، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّين مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا والذِي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ ومَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهِيمَ ومُوسَى وعِيْسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾. [الشورى: ١٣].

وقال: ﴿ولا تَكُونُوا كالذِينَ تفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ﴾. [آل عمران: ١٠٥]. وقـال: ﴿إنَّ الذين فرَّقُوا دِينَهُمْ وكانوا شِيعًا لسْتَ مِنْهمْ في شيء﴾. [الأنعام: ١٥٩]. وقـال: ﴿وأَطِيعُـوا الله وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم﴾. [الأنفال: ٤٦].

وقـال: ﴿فَتَقَـطَّعُـوا أَمْـرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْب بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾. [المؤمنون: ٥٣]. والزبر: الكتب، أي كل فرقة صنفوا كتبًا: أخذوا بها، وعملوا بها، ودعوا إليها؛ دون كتب الآخرين كما هو الواقع سواء.

وقـال: ﴿يَـوْمَ تَبْيَضُّ وُجُـوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾. [آل عمران: ١٠٦]. قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف.

وقال النبي ﷺ: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**» وقال: «**اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا**» وكان التنازع والاختلاف أشدَّ شيء على رسول الله ﷺ، وكان إذا رأى من الصحابة اختلافًا يسيراً في فهم النصوص يظهر في وجهه؛ حتى كأنما فقىء فيه حبُّ الرُّمَّان ويقول: «**أبهذا أمرتم؟**».

ولم يكن أحد بعده أشدَّ عليه الاختلاف من عمر رضي الله عنه.

وأما الصديق؛ فصان الله خلافته عن الاختلاف المستقر في حكم واحد من أحكام الدين، وأما خلافة عمر؛ فتنازع الصحابة تنازعًا يسيراً في قليل من المسائل جدًّا، وأقر بعضهم بعضًا على اجتهاده من غير ذم ولا طعن، فلما كانت خلافة عثمان؛ اختلفوا في مسائل يسيرة صَحِبَ الاختلاف فيها بعض الكلام واللوم، كما لام عليٌّ عثمان في أمر المتعة وغيرها، ولامه عمَّار بن ياسر وعائشة في بعض مسائل قسمة الأموال والولايات فلما أفضت الخلافة إلى علي كرم الله وجهه في الجنة؛ صار

الاختلاف بالسيف.

والمقصود: أن الاختلاف مناف لما بعث الله به رسوله، قال عمر رضي الله عنه: لا تختلفوا، فإنكم إن اختلفتم؛ كان من بعدكم أشدَّ اختلافًا...

(١)**وقد** مدح الله تعالى أهل الاستنباط في كتابه وأخبر أنهم أهل العلم، ومعلوم أن الاستنباط؛ إنما هو استنباط المعاني والعلل ونسبة بعضها إلى بعض، فيعتبر ما يصح منها بصحة مثله ومشبهه ونظيره، ويلغى ما لا يصح، هذا الذي يعقله الناس من الاستنباط.

قال الجوهري: الاستنباط كالاستخراج، ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ، فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط، إذ موضوعات الألفاظ لا تُنال بالاستنباط، وإنما تنال به العلل والمعاني والأشباه والنظائر ومقاصد المتكلم؛ والله سبحانه ذم من سمع ظاهرًا مجردًا فأذاعه وأفشاه، وحمد من استنبط من أولي العلم حقيقته ومعناه. يوضحه أن الاستنباط؛ استخراج الأمر الذي مِنْ شأنه أن يخفى على غير مستنبطه. ومنه استنباط الماء من أرض البئر والعين.

ومن هذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ، بشيء دون الناس؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه.

ومعلوم أن هذا الفهم؛ قدر زائد على معرفة موضوع اللفظ وعمومه أو خصوصه؛ فإن هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب، وإنما هذا فهم لوازم المعنى ونظائره، ومراد المتكلم بكلامه ومعرفة حدود كلامه؛ بحيث لا يدخل فيها غير المراد، ولا يخرج منها شيء من المراد.

(٢)**قال** الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾. [النساء: ٨٥]. وكل من أعان غيره على أمر: بقوله أو فعله؛ فقد صار شفيعًا له، والشفاعة للمشفوعَ له هذا أصلها، فإن الشافع يَشفع صاحبَ الحاجة؛ فيصير له شفعًا في قضائها لعجزه عن الاستقلال بها،

(١) ٢٢٥ أعلام جـ١. (٢) ٤٠٣ روضة.

مدخل في حكم هذه الآية؛ كل متعاونين على خير أو شر، بقول أو عمل.

ونظيرها قوله تعالى: ﴿**وتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ والتَّقْوَى ولاَ تَعَاوَنُوا عَلى الإِثْمِ والعُدْوَانِ**﴾. [المائدة: ٢].

وفي الصحيح عنه ﷺ، أنه كان إذا جاءه طالب حاجة يقول: «**اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما أحب**». . .

(١)**قال** تعالى: ﴿**فَمَالَكُمْ فِي المُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ واللّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللّهُ ومَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً**﴾. [النساء: ٨٨].

قال الفراء: أركسهم ردهم إلى الكفر، وقال أبو عبيدة: يقال ركست الشيء وأركسته لغتان: إذا رددته، والركس قلب الشيء على رأسه، أورد أوله على آخره، والارتكاس الارتداد، قال أمية:

فأركسوا في حميم النار إنهم ... كانوا عصاة وقالوا الإفك والزورا

ومن هذا يقال للروث: الركس؛ لأنه رد إلى حال النجاسة، ولهذا المعنى سمي رجيعًا، والركس والنكس والمركوس والمنكوس بمعنى واحد.

قال الزجاج: أركسهم نكسهم وردهم، والمعنى: أنه ردهم إلى حكم الكفار من الذل والصغار.

وأخبر سبحانه عن حكمه وقضائه فيهم وعدله، وأن إركاسه كان بسبب كسبهم وأعمالهم كما قال: ﴿**بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾. [المطففين: ١٤]. فهذا توحيده وهذا عدله، لا ما تقوله القدرية المعطلة من أن التوحيد؛ إنكار الصفات، والعدل؛ التكذيب بالقدر.

...(٢)**وأشار** بالقلب المنكوس - وهو المكبوب - إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿**فَمَا لَكُمْ فِي المُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ والله أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا**﴾. [النساء: ٨٨]. أي: نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة. وهذا شر القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطل حقًا ويوالي أصحابه، والحق باطلاً ويعادي أهله، فالله المستعان.

---

(١) ١٠١ شفاء. (٢) ١٣ إغاثة جـ١

وأشار بالقلب الذي له مادتان، إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه؛ حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منـه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر؛ أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان؛ أقرب منه للكفر، والحكم للغالب وإليه يرجع.

فصـــل(١)

اختلف الناس: هل من الذنوب ذنب لا تقبل توبته أم لا؟

فقال الجمهـور: التوبة تأتي على كل ذنب. فكل ذنب يمكن التوبة منه وتقبل.

وقالت طائفة: لا توبة للقاتل. وهذا مذهب ابن عباس المعروف عنه، وإحدى الروايتين عن أحمد. وقد ناظر ابن عباس في ذلك أصحابه، فقالوا: أليس قد قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿**وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بالحَقِّ**﴾ إلى أن قال: ﴿**إلاَّ مَنْ تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِم حَسَنَات وكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾. [الفرقان: ٦٨ـ٧٠]. فقال: كانت هذه الآية في الجاهلية.

وذلك أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا. فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسن؛ لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة فنزل: ﴿**والذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلـهًا آخرَ**﴾. الآية [الفرقان: ٦٨]. فهذه في أولئك. وأما التي في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجزَاؤهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا. وغَضِبَ الله عَلَيْهِ ولَعَنَهُ. وأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾. [النساء: ٩٣]. فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ثم قتل؛ فجزاؤه جهنم.

وقال زيد بن ثابت: «لما نزلت التي في الفرقان: ﴿**والذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلـهًا آخرَ**﴾. عجبنا من لينها. فلبثنا سبعة أشهر. ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة» وأراد بالغليظة؛ هذه الآية التي في سورة النساء، وباللينة؛ آية الفرقـان. قال ابن عبـاس: «آية الفـرقان مكية. وآية النساء مدنية. نزلت ولم ينسخها شيء».

قال هؤلاء: ولأن التوبة من قتل المؤمن عمدًا متعذرة؛ إذ لا سبيل إليها إلا

---

(١) ٣٩٢ مدارج جـ١.

باستحلاله، أو إعادة نفسه - التي فوَّتها عليه - إلى جسده؛ إذ التوبة من حق الآدمي؛ لا تصح إلا بأحدهما. وكلاهما متعذر على القاتل. فكيف تصح توبته من حق آدمي لم يصل إليه، ولم يستحله منه؟

ولا يرد عليهم هذا في المال إذا مات ربه ولم يوفِّه إياه، لأنه يتمكن من إيصال نظيره إليه بالصدقة.

قالوا: ولا يرد علينا أن الشرك أعظم من القتل. وتصح التوبة منه؛ فإن ذلك محض حق الله؛ فالتوبة منه ممكنة. وأما حق الآدمي: فالتوبة موقوفة على أدائه إليه واستحلاله؛ وقد تعذر. . .

فصل[1]

واختلفوا فيما إذا تاب القاتل وسلَّم نفسه. فقتل قصاصًا، هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق؟

فقالت طائفة: لا يبقى عليه شيء. لأن القصاص حده. والحدود كفارة لأهلها، وقد استوفى ورثة المقتول حق موروثهم، وهم قائمون مقامه في ذلك؛ فكأنه قد استوفاه بنفسه؛ إذ لا فرق بين: استيفاء الرجل حقه بنفسه، أو بنائبه، ووكيله.

يوضح هذا: أنه أحد الجنايتين، فإذا استوفيت منه؛ لم يبق عليه شيء، كما لو جنى على طرفه فاستقاد منه؛ فإنه لا يبقى له عليه شيء.

وقالت طائفة: المقتول قد ظلم، وفاتت عليه نفسه، ولم يستدرك ظلامته. والوارث إنما أدرك ثأر نفسه، وشفاء غيظه، وأي منفعة حصلت للمقتول بذلك؟ وأي ظلامة استوفاها من القاتل؟

قالوا: فالحقوق في القتل ثلاثة: حق لله، وحق للمقتول، وحق للوارث. فحق الله؛ لا يزول إلا بالتوبة، وحق الوارث؛ قد استوفاه بالقتل، وهو مخير بين ثلاثة أشياء: بين القصاص، والعفو مجانًا، أو إلى مال. فلو أحله، أو أخذ منه مالاً لم يسقط حق المقتول بذلك، فكذلك إذا اقتص منه؛ لأنه أحد الطرق الثلاثة في استيفاء حقه؛ فكيف يسقط حق المقتول بواحد منها دون الآخرين؟!

(١) ٣٩٨ مدارج جـ١.

قالوا: ولو قال القتيل: لا تقتلوه؛ لأطالبه بحقي يوم القيامة. فقتلوه، أكان يسقط حقه أو لم يسقطه؟ فإن قلتم: يسقط؛ فباطل؛ لأنه لم يرض بإسقاطه. وإن قلتم: لا يسقط؛ فكيف تسقطونه إذا اقتص منه، مع عدم العلم برضا المقتول بإسقاط حقه؟ وهذه حجج كما ترى في القوة، لا تندفع إلا بأقوى منها أو بأمثالها.

فالصواب ـ والله أعلم ـ أن يقال: إذا تاب القاتل من حق الله، وسلم نفسه طوعًا إلى الوارث، ليستوفي منه حق موروثه؛ سقط عنه الحقان، وبقي حق الموروث لا يضيعه الله. ويجعل من تمام مغفرته للقاتل؛ تعويض المقتول؛ لأن مصيبته لم تنجبر بقتل قاتله. والتوبة النصوح تهدم ما قبلها. فيعوض هذا عن مظلمته، ولا يعاقب هذا لكمال توبته. وصار هذا كالكافر المحارب لله ولرسوله إذا قتل مسلمًا في الصف، ثم أسلم وحسن إسلامه. فإن الله سبحانه يعوض هذا الشهيد المقتول، ويغفر للكافر بإسلامه، ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلمًا؛ فإن هدم التوبة لما قبلها كهدم الإسلام لما قبله.

وعلى هذا إذا سلم نفسه وانقاد، فعفا عنه الولي، وتاب القاتل توبة نصوحًا؛ فالله تعالى يقبل توبته، ويعوض المقتول.

فهذا الذي يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده، والحكم بعد ذلك لله: ﴿**إنَّ ربَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحكْمِه وهُوَ العَزيزُ العَلِيمُ**﴾. [النمل: ٧٨].

فصل[1]

وبعث[2] سرية إلى إضَم، وكان منهم: أبو قتادة الحارث بن ربعي، ومُحَلِّم بن جَثَّامة بن قيس، في نفر من المسلمين، فمرَّ بهم عامر بن الأضبط الأشجعي على قَعُود له، معه مُتَيِّع له ووَطْبٌ من لبن، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه، وحمل عليه محلِّم بن جثامة فقتله، لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتبعه. فلما قدموا على رسول الله ﷺ، أخبروه الخبر، فنزل فيهم القرآن: ﴿**يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إذَا ضَرَبْتُم في سَبيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُوا ولاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إليكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنيا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ**

(١) ٣٦٣ زاد المعاد جـ٢.	(٢) أي النبيُّ ﷺ.

كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُم فَتَبَيَّنُوا إنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾. [النساء: ٩٤].
فلما قدموا أُخبر رسول الله، ﷺ، بذلك، فقال رسول الله، ﷺ: «**أقتلته بعد ما قال: آمنت بالله؟**».

ولما كان عام خيبر جاء عيينة بن بدر يطلب بدمٍ عامر بن الأضبط الأشجعي - وهو سيد قيس - وكان الأقرع بن حابس يرد عن محلِّم - وهو سيد خندف - فقال رسول الله، ﷺ، لقوم عامر: «**هل لكم أن تأخذوا الآن منا خمسين بعيراً، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة؟**». فقال عيينة بن بدر: والله لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحزن مثل ما أذاق نسائي. فقال رجل من بني ليث - يقال له: ابن مكيتل. وهو قصير من الرجال - فقال: يا رسول الله، ما أجد لهذا القتيل في غُرَّة الإسلام شبهًا إلا كغنم وردت، فشربت أولاها. فنفرت أخراها، أُسْنُنِ اليوم وغيِّر غدا(١). فقال رسولِ الله، ﷺ: «**هل لكم أن تأخذوا خمسين بعيراً الآنَ، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة؟**» فلم يزل بهم حتى رضوا بالدية، فقال قوم محلم بن جثامة: ائتوا به حتى يستغفر له رسول الله، ﷺ، قال: فجاء رجل طِوال، ضَرْبُ اللحم، في حُلَّة قد تهيأ للقتل. فلما قام بين يديه قال: «**اللهم لا تغفر لمحلم**»، قالها ثلاثًا، فقام، وإنه ليتلقَّى دموعه بطرف ثوبه.

قال ابن إسحاق: وزعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك(٢).

قال ابن إسحاق: وحدثني سالم بن النضر قال: لم يقبلوا الدية حتى قام الأقرع بن حابس، فخلا بهم، فقال: يا معشر قيس، سألكم رسول الله، ﷺ، قتيلاً تتركونه؛ ليصلح به بين الناس، فمنعتموه إياه، أفأمنتم أن يغضب عليكم رسول الله، ﷺ، فيغضب الله عليكم لغضبه، ويلعنكم رسول الله، ﷺ، فيلعنكم الله بلعنته؟ والله لَتُسْلِمُنَّه إلى رسول الله، ﷺ، أو لآتينَّ بخمسين من بني تميم، كلهم يشهدون أن القتيل ما صلى قط، فلأبطِلَنَّ دمه، فلما قال ذلك أخذوا الدية.

(٣)**نفي** التساوي في كتاب الله قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُم سِقَايَةَ الحَاجِّ وعِمَارَةَ المسجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ باللهِ﴾. [التوبة: ١٩].

---

(١) أي: أعمل بسنتك التي سننتها في القصاص، ثم بعد ذلك إذا شئت أن تغير فغير.
(٢) رواه أبو داود وابن ماجه.	(٣) ٨ بدائع جـ٤.

وقد يأتي بين الفاعلين نحو: ﴿لا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ والمُجَاهِدِونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾. [النساء: ٩٥].

وقد يأتي بين الجزاءين كقوله: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وأَصْحَابُ الجَنَّةِ﴾. [الحشر: ٢٠].

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى والبَصِيرُ ولاَ الظُّلُمَاتُ ولاَ النُّورُ ولاَ الظِّلُّ ولاَ الحَرُورُ ومَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ ولاَ الأَمْوَاتُ﴾. [فاطر: ١٩ - ٢٢].

فالأعمى والبصير: الجاهل والعالم، والظلمات والنور: الكفر والإيمان، والظل والحرور: الجنة والنار، والأحياء والأموات: المؤمنون والكفار.

[1]**قال** تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ والمُجَاهِدِونَ فِي سبيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِم وأَنْفُسِهِم فَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِم وأَنْفُسِهِم عَلى القَاعِدِينَ دَرَجَةً وكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى. وفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلى القَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. دَرَجَاتٍ مِنْهُ ومَغْفِرَةً ورَحْمَةً وكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. [النساء: ٩٥، ٩٦]. ذكر ابن جرير: عن هشام بن حسان، عن جبلة بن عطية، عن ابن محيريز قال: ﴿فضَّل اللهُ المُجَاهِدِينَ على القَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾. قال: هي سبعون درجة، ما بين الدرجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين عامًا.

وقال ابن المبارك: أنبأنا سلمة بن نبيط، عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. [الأنفال: ٤]. قال: بعضهم أفضل من بعض، فيرى الذي قد فضل به فضله، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد من الناس.

وتأمل قوله كيف أوقع التفضيل أولاً بدرجة، ثم أوقعه ثانيًا بدرجات.

فقيل: الأول: بين القاعد المعذور والمجاهد، والثاني: بين القاعد بلا عذر والمجاهد.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ومَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٢، ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا المُؤمِنُونَ الذينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وإِذَا تُلِيَتْ

(١) ٥٩ حادي الأرواح.

يا رسـول الله أولئـك النبيون؟ قال: «**بلى، والذي نفسي بيده وأقوام آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**». وهذا على شرط البخاري أيضًا.

وفي المسند من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إن المتحابين لترى غرفهم في الجنة كالكوكب الطالع الشرقي أو الغربي فيقال: من هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المتحابون في الله عز وجل**».

وفي المسند من حديث أبي سعيد الخدري أيضًا عن النبي، ﷺ، قال: «**إن في الجنة مائة درجة، ولو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن؛ وسعتهم**».

وفي المسند عنه أيضًا عن النبي، ﷺ، قال: «**يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة؛ حتى يقرأ آخر شيء معه**». وهذا صريح في أن درج الجنة تزيد على مائة درجة.

وأما حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري في صحيحه: عن النبي، ﷺ، قال: «**إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**». فإما أن تكون هذه المائة من جملة الدرج، وإما أن تكون نهايتها هذه المائة، وفي ضمن كل درجة درجة دونها.

ويدل على المعنى الأول؛ حديث زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**من صلى هؤلاء الصلوات الخمس، وصام شهر رمضان، كان حقًّا على الله أن يغفر له هاجر أو قعد؛ حيث ولدته أمه**»، قلت: يا رسول الله ألا أخرج فأوذن الناس؟ قال: «**لا، ذر الناس يعملون، وإن في الجنة مائة درجة، بين كل درجتين منها مثل ما بين السماء والأرض، وأعلى درجة منها الفردوس، وعليها يكون العرش وهي أوسط شيء في الجنة، ومنها تفجر أنهار الجنة، وإذا سألتم الله فسلوه الفردوس**». رواه الترمذي هكذا بلفظه.

وروى أيضًا من حديث عطاء، عن عبادة بن الصامت؛ أن رسول الله، ﷺ، قال: «**إن في الجنة مائة درجة**» ثم ذكر نحو حديث معاذ.

وفيه أيضًا من حديث عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، ﷺ: «في

عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الذينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُوَلَئِكَ هُمُ المُؤمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. [الأنفال: ٢ ـ ٤].

وفي الصحيحين: من حديث مالك، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ، قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق، من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم**»، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**».

ولفظ البخاري: «**في الأفق**» وهو أبين، والغابر هو الذاهب الماضي الذي قد تدلى للغروب، وفي التمثيل به دون الكوكب المسامت للرأس وهو أعلى فائدتان:

إحداهما: بعده عن العيون.

والثانية: أن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض، وإن لم تسامت العليا السفلى كالبساتين الممتدة من رأس الجبل إلى ذيله، والله أعلم.

وفي الصحيحين أيضًا: من حديث سهل بن سعد؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرفة في الجنة كما ترون الكوكب في أفق السماء**».

وقال الإمام أحمد: حدثنا فرات: أخبرني فليح، عن هلال يعني ابن علي، عن عطاء، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة كما تراءون أو ترون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع في تفاضل الدرجات**». قالوا: يا رسول الله أولئك النبيون؟ قال: «**بلى والذي نفسي بيده وأقوام آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**». ورجال هذا الإسناد احتج بهم البخاري في صحيحه.

وفي هذا الحديث «**الغارب**» وفي حديث أبي سعيد الخدري: «**الغابر**»، وقوله: «**الطالع**» صفة للكوكب، وصفه بكونه غاربًا وبكونه طالعًا، وقد صرح بهذا المعنى في الحديث الذي رواه ابن المبارك، عن فليح بن سليمان، عن هلال بن علي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون في الغرف كما يرى الكوكب الشرقي والكوكب الغربي في الأفق في تفاضل الدرجات**»، قالوا:

الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مائة عام». قال: هذا حديث حسن غريب.

وفيه أيضًا من حديث أبي سعيد يرفعه: «**إن في الجنة مائة درجة، لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن؛ لوسعتهم**». ورواه أحمد بدون لفظة «في» كما تقدم، وقد رويت هذه الأحاديث بلفظة «في» وبدونها. وإن كان المحفوظ ثبوتها؛ فهي من جملة درجها، وإن كان المحفوظ سقوطها؛ فهي الدرج الكبار المتضمنة للدرج الصغار، والله أعلم.

ولا تناقض بين تقدير ما بين الدرجتين بالمائة وتقديره بالخمسمائة، لاختلاف السير في السرعة والبطء والنبي ﷺ، ذكر هذا تقريبًا للأفهام. ويدل عليه حديث زيد بن حبان: حدثنا عبدالرحمن بن شريح: حدثني أبو هانىء التجيبي: سمعت أبا علي التجيبي: سمعت أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**مائة درجة في الجنة، ما بين الدرجتين ما بين السماء والأرض، أو بعد ما بين السماء والأرض**»، قلت: يا رسول الله لمن؟ قال: «**للمجاهدين في سبيل الله**».

(1)**وقال** تعالى: ﴿**لا يستوي القاعِدُونَ مِنَ المُؤمنينَ غَيْرُ أُولي الضَّرَرِ والمُجَاهِدونَ في سَبيلِ الله بأَمْوَالِهم وأَنْفُسِهم. فَضَّلَ اللهُ المُحاهدينَ بأَموالهم وأَنْفُسِهم عَلى القَاعدينَ دَرَجَةً وكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى وفَضَّلَ اللهُ المُجاهدينَ على القَاعِدينَ أَجْرًا عَظِيمًا. دَرَجاتٍ مِنْهُ ومَغفِرَةً ورَحْمَةً وكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾. [النساء: ٩٥، ٩٦]. فنفى سبحانه وتعالى التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد، وبين المجاهدين، ثم أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة، ثم أخبر عن تفضيلهم عليهم درجات.

وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس، من جهة أن القاعدين الذين فضل عليهم المجاهدون بدرجات، إن كانوا هم القاعدين الذين فضل عليهم أولو الضرر، فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقًا، وعلى هذا فما وجه استثناء أولي الضرر من القاعدين وهم لا يستوون والمجاهدون أصلًا؟ فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحدًا، فهذا وجه الإشكال.

(١) ٣٥٦ طريق الهجرتين.

ونحن نذكر ما يزيل الإشكال بحمد الله، فاختلف القراء في إعراب ﴿غير﴾: فقرىء رفعًا ونصبًا وهما في السبعة، وقرىء بالجر في غير السبعة وهي قراءة أبي حيوة. **فأما** قراءة النصب فعلى الاستثناء؛ لأن غيرًا يعرب في الاستثناء إعراب الاسم الواقع بعد إلا وهو النصب، هذا هو الصحيح.

وقالت طائفة: إعرابها نصب على الحال، أي لا يستوي القاعدون غير مضرورين، أي: لا يستوون في حال صحتهم هم والمجاهدون والاستثناء أصح، فإن «غير» لا تكاد تقع حالاً في كلامهم إلا مضافة إلى نكرة كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾. [البقرة: ١٧٣، الأنعام: ١٤٥، النحل: ١١٥].

وقوله عز وجل في أول المائدة: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إلَّا ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾. [المائدة: ١].

وقوله، ﷺ: «**مرحبًا بالوفد غير خزايا ولا ندامى**». فإن أضيفت إلى معرفة كانت تابعة لما قبلها، كقوله تعالى: ﴿صِراطَ الذينَ أَنْعَمْتَ عليهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. [الفاتحة: ٧]. ولو قلت: مرحبًا بالوفد غير الخزايا ولا الندامى، لجررت غير، هذا هو المعروف من كلامهم، والكلام في عدم تعرف غير بالإضافة وحسن وقوعها إذ ذاك حالاً؛ له مقام آخر.

وأما الرفع فعلى النعت للقاعدين، هذا هو الصحيح.

وقال أبو إسحاق وغيره: هو خبر مبتدأ محذوف تقديره الذين هم غير أولي الضرر، والذي حمله على هذا ظنه أن غيرًا لا تقبل التعريف بالإضافة فلا تجري صفة للمعرفة، وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها؛ سوى أن غيرًا توغلت في الإبهام؛ فلا تتعرف بما يضاف إليه.

وجواب هذا: أنها إذا دخلت بين متقابلين؛ لم يكن فيها إبهام؛ لتعيينها ما تضاف إليه. **وأما** قراءة الجر ففيها وجهان أيضًا: أحدهما: ـ وهو الصحيح ـ أنه نعت للمؤمنين.

والثاني: ـ وهو قول المبرد ـ أنه بدل منه، بناء على أنه نكرة فلا تنعت به المعرفة. وعلى الأقوال كلها فهو مفهوم معنى الاستثناء، وإن نفي التسوية غير مسلط على ما أضيف إليه غيره.

وقوله: ﴿**فَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدينَ على القَاعِدِينَ دَرَجَةً**﴾. [النساء: ٩٥]. هو مبين لمعنى نفي المساواة. **قالوا:** والمعنى: فضل الله المجاهد على القاعد من أولي الضرر درجة واحدة؛ لامتيازه عنه بالجهاد بنفسه وماله.

ثم أخبر سبحانه وتعالى أن الفريقين كليهما؛ موعود بالحسنى فقال: ﴿**وكلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى**﴾. أي: المجاهد، والقاعد المضرور؛ لاشتراكهما في الإيمان.

قالوا: وفي هذا دليل على تفضيل الغني المنفق على الفقير؛ لأن الله أخبر أن المجاهد بماله ونفسه؛ أفضل من القاعد، وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس.

وأما الفقير فنفى عنه الحرج بقوله: ﴿**ولاَ عَلَى الذينَ إِذَا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهم قُلتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيهِ**﴾. [التوبة: ٩٢]. فأين مقام من حكم له بالتفضيل إلى مقام من نفى عنه الحرج.

قالوا: فهذا حكم القاعد من أولي الضرر والمجاهد، وأما القاعد من غير أولي الضرر فقال تعالى: ﴿**وفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدينَ عَلى القَاعِدينَ أَجْرًا عَظِيمًا. دَرَجَاتٍ مِنْهُ ومَغْفِرَةً ورَحْمَةً وكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾. [النساء: ٩٥، ٩٦].

وقوله: ﴿**دَرجاتٍ**﴾ قيل: هو نصب على البدل من قوله: ﴿**أَجْرًا عِظِيمًا**﴾.

وقيل: تأكيد له وإن كان بغير لفظه؛ لأنه هو في المعنى.

قال قتادة: كان يقال: الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة.

وقال ابن زيد: الدرجات التي فضل الله بها المجاهد على القاعد سبع، وهي التي ذكرها الله تعالى في براءة؛ إذ يقول تعالى: ﴿**ذَلِكَ بأَنَّهم لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ولاَ نَصبٌ ولاَ مَخْمَصَةٌ فِي سبيلِ اللهِ ولاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغيظُ الكُفَّارَ ولا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إنَّ اللهَ لاَ يُضيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ**﴾. فهذه خمس، ثم قال: ﴿**ولاَ يُنْفِقُونَ نَفقَةً صَغِيرَةً ولاَ كَبِيرَةً ولا يَقْطَعُونَ وادِيًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عملٌ صالِحٌ**﴾. [براءة: ١٢٠، ١٢١]. فهاتان اثنتان. **وقيل:** الدرجات سبعون درجة، ما بين الدرجتين حُضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة.

والصحيح أن الدرجات هي المذكورة في حديث أبي هريرة، الذي رواه البخاري في صحيحه: عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**من آمن بالله ورسوله، وأقام**

الصلاة، وصام رمضان، فإن حقًا على الله أن يدخله الجنة؛ هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نخبر الناس بذلك؟ قال: **«إنَّ في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»**.

قالوا: وجعل سبحانه وتعالى التفضيل الأول بدرجة فقط، وجعله ههنا بدرجات ومغفرة ورحمة، وهذا يدل على أنه يفضل على غير أولي الضرر، فهذا تقرير هذا القول وإيضاحه.

ولكن بقي أن يقال: إذا كان المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقًا؛ لزم أن لا يستوي مجاهد وقاعد مطلقًا، فلا يبقى في تقييد القاعدين بكونهم من غير أولي الضرر فائدة، فإنه لا يستوي المجاهدون والقاعدون من أولي الضرر أيضًا.

وأيضا فإن القاعدين المذكورين في الآية الذين وقع التفضيل عليهم؛ هم غير أولي الضرر، لا القاعدون الذين هم أولو الضرر. فإنهم لم يذكر حكمهم في الآية؛ بل استثناهم وبين أن التفضيل على غيرهم، فاللام في «القاعدين» للعهد، والمعهود هم غير أولي الضرر لا المضرورون.

وأيضا فالقاعد من المجاهدين لضرورة تمنعه من الجهاد؛ له مثل أجر المجاهد، كما ثبت عن النبي، ﷺ، أنه قال: **«إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا»**.

وقال، ﷺ: **«إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديًا إلا وهم معكم»**. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: **«وهم بالمدينة، حبسهم العذر»**.

وعلى هذا فالصواب أن يقال: الآية دلت على أن القاعدين عن الجهاد من غير أولي الضرر؛ لا يستوون هم والمجاهدون، وسكت عن حكمهم بطريق منطوقها، ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين، بل هذا النوع منقسم إلى:

معذور من أهل الجهاد، غلبه عذره وأقعده عنه، ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها، وإنما أقعده العجز، فهذا الذي تقتضيه أدلة الشرع؛ أن له مثل أجر المجاهد. وهذا القسم لا يتناوله الحكم بنفي التسوية.

وهذا لأن [قاعدة الشريعة]: أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل؛ نزل صاحبه في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام.

كما دل عليه قوله، ﷺ: **«إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»**. قالوا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: **«إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»**.

وفي الترمذي ومسند الإمام أحمد: من حديث أبي كبشة الأنماري، عن النبي، ﷺ، أنه قال: **«إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلمًا، فهو يتقي في ماله ربه ويصل به رحمه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا بأحسن المنازل. وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً، فهو يقول: لو أن لي مالاً؛ لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، وهما في الأجر سواء. وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا، فهو لا يتقي في ماله ربه، ولا يصل به رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا، فهذا بأسوأ المنازل عند الله. وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا فهو يقول: لو أن لي مالاً؛ لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، وهما في الوزر سواء»**.

فأخبر، ﷺ، أن وزر الفاعل والناوي الذي ليس مقدوره إلا بقوله دون فعله سواء؛ لأنه أتى بالنية ومقدوره التام. وكذلك أجر الفاعل والناوي الذي اقترن قوله بنيته. وكذلك المقتول الذي اقترن قوله بنيته. وكذلك المقتول الذي سل السيف وأراد به قتل أخيه المسلم فقتل، نزل منزلة القاتل لنيته التامة التي اقترن بها مقدورها من السعي والحركة.

ومثل هذا قوله، ﷺ: **«من دل على خير؛ فله مثل أجر فاعله»** فإنه بدلالته ونيته؛ نزل منزلة الفاعل.

ومثله: «من دعا إلى هدى؛ فله مثل أجور من اتبعه. ومن دعا إلى ضلالة؛ كان عليه من الوزر مثل آثام من اتبعه». لأجل نيته واقتران مقدورها بها من الدعوة.

ومثله: «إذا جاء المصلي إلى المسجد ليصلي جماعة فأدركهم وقد صلوا فصلى وحده؛ كتب له مثل أجر صلاة الجماعة بنيته وسعيه». كما قد جاء مصرحًا به في حديث مروي. ومثل هذا: من كان له ورد يصليه من الليل فنام، ومن نيته أن يقوم إليه فغلب عينه نوم، كتب له أجر ورده، وكان نومه عليه صدقة.

ومثله: المريض والمسافر إذا كان له عمل يعمله فشغل عنه بالمرض والسفر؛

كتب له مثل عمله وهو صحيح مقيم.

ومثله: «**من سأل الله الشهادة بصدق؛ بلغه الله سبحانه وتعالى منازل الشهداء ولو مات على فراشه**»، ونظائر ذلك كثيرة.

والقسم الثاني: معذور ليس من نيته الجهاد ولا هو عازم عليه عزمًا تامًّا، فهذا لا يستوي هو والمجاهد في سبيل الله، بل قد فضل الله المجاهدين عليه، وإن كان معذورًا؛ لأنه لا نية له تلحقه بالفاعل التام كنية أصحاب القسم الأول.

وقد قال النبي ﷺ، في حديث عثمان بن مظعون: «**إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته**». فلما كان القسم المعذور فيه هذا التفصيل؛ لم يجز أن يساوَى بالمجاهد مطلقًا، ولا ينفَى عنه المساواة مطلقًا.

ودلالة المفهوم لا عموم لها، فإن العموم إنما هو من أحكام الصيغ العامة وعوارض الألفاظ، والدليل الموجب للقول بالمفهوم؛ لا يدل على أن له عمومًا يجب اعتباره فإن أدلة المفهوم ترجع إلى شيئين: أحدهما: التخصيص، والآخر: التعليل.

فأما التخصيص: فهو أن تخصيص الحكم بالمذكور؛ يقتضي نفي الحكم عما عداه وإلا بطلت فائدة التخصيص، وهذا لا يقتضي العموم وسلب حكم المنطوق عن جميع صور المفهوم، لأن فائدة التخصيص قد تحصل بانقسام صور المفهوم إلى ما يسلب الحكم عن بعضها، ويثبت لبعضها ثبوت تفصيل فيه، فيثبت له حكم المنطوق على وجه دون وجه: إما بشرط لا تجب مراعاته في المنطوق، وإما في وقت دون وقت. بخلاف حكم المنطوق فإنه ثابت أبدًا. ونحو ذلك من فوائد التخصيص. وإذا كانت فائدة التخصيص حاصلة بالتفصيل والانقسام؛ فدعوى لزوم العموم من التخصيص؛ دعوى باطلة فإثباته مجرد التحكم.

وأما التعليل فإنهم قالوا: ترتيب الحكم على هذا الوصف المناسب له؛ يقتضي نفي الحكم عما عداه، وإلا لم يكن الوصف المذكور علة. وهذا أيضًا لا يستلزم عموم النفي عن كل ما عداه، وإنما غايته اقتضاؤه نفي الحكم المرتب على ذلك الوصف عن الصور المنفي عنها الوصف، وأما نفي الحكم جملة فلا يجوز ثبوته بوصف آخر.

وعلة أخرى فإن الحكم الواحد بالنوع؛ يجوز تعليله بعلل مختلفة، وفي

الواحد بالعين كلام ليس هذا موضعه. ومثال هذا ما نحن فيه لأن قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾. [النساء: ٩٥]. لا يدل على مساواة المضرورين المجاهدين مطلقًا من حيث الضرورة؛ بل إن ثبتت المساواة فإنها معللة بوصف آخر وهي النية الجازمة والعزم التام، والضرر المانع من الجهاد في ذلك الحال لا يكون مانعًا من المساواة في الأجر، والله أعلم.

(١)**الكلام** في الحيل، وانقسامها إلى أحكامها الخمسة:

فنقول: ليس كل ما يسمى حيلة حرامًا، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾. [النساء: ٩٨].

أراد بالحيلة: التحيل على التخلص من بين الكفار، وهذه حيلة محمودة يُثاب عليها. وكذلك الحيلة على هزيمة الكفار، كما فعل نعيم بن مسعود يوم الخندق. أو على تخليص ماله منهم، كما فعل الحجَّاج بن علاط بامرأته.

وكذلك الحيلة على قتل رأس من رءوس أعداء الله، كما فعل الذين قتلوا ابن أبي الحُقَيْق اليهودي، وكعب بن الأشرف، وأبا رافع وغيرهم؛ فكل هذه حيل محمودة محبوبة لله ومرضية له.

والحيلة: مشتقة من التحول، وهو النوع والحالة كالجِلْسَة والقِعْدة والرِّكبة فإنها بالكسر للحالة، وبالفتح للمرة، كما قيل: الفَعْلَة للمرة، والفِعْلة للحالة، والمَفْعَل للموضع، والمِفْعَل للآلة، وهي من ذوات الواو، فإنها من التحول من حال يَحُولُ، وإنما انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وهو قلب مَقيس مُطَّرد في كلامهم، نحو ميزان وميقات وميعاد؛ فإنها مِفْعَال من الوَزْن والوَقْت والوَعْد.

فالحيلة هي نوع مخصوص من التصرف والعمل الذي يتحوَّلُ به فاعله من حال إلى حال، ثم غلب عليها بالعُرف استعمالها في سلوك الطرق الخفية التي يتوصَّل بها الرجل إلى حصول غرضه؛ بحيث لا يتفطن له إلا بنوع من الذكاء والفطنة؛ فهذا أخص من موضوعها في أصل اللغة، وسواء كان المقصود أمراً جائزاً أو محرماً.

وأخص من هذا استعمالها في التوصل إلى الغرض الممنوع منه شرعًا أو عقلًا

---

(١) ٢٥٢ أعلام جـ٣.

أو عادة، فهذا هو الغالب عليها في عرف الناس؛ فإنهم يقولون: فلان من أرباب الحيل، ولا تُعاملوه فإنه مُتَحَيِّل، وفلان يعلّم الناس الحيل، وهذا من استعمال المطلق في بعض أنواعه كالدابة والحيوان وغيرهما.

وإذا قسمت باعتبارها لغة؛ انقسمت إلى الأحكام الخمسة.

فإن مباشرة الأسباب الواجبة حيلة على حصول مسبباتها؛ فالأكل والشرب واللبس والسفر الواجب حيلة على المقصود منه، والعقود الشرعية واجبها ومستحبها ومُباحها كلها حيلة على حصول المعقود عليه، والأسباب المحرمة كلها حيلة على حصول مقاصدها منها، وليس كلامنا في الحيلة بهذا الاعتبار العام الذي هو مَورد التقسيم إلى مباح ومحظور؛ فالحيلة جنس تحته التوصل إلى فعل الواجب، وترك المحرم، وتخليص الحق، ونصر المظلوم، وقهر الظالم، وعقوبة المعتدي، وتحته التوصل إلى استحلال المحرم، وإبطال الحقوق، وإسقاط الواجبات، ولما قال النبي، ﷺ: **«لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»** غلب استعمال الحيل في عرف الفقهاء على النوع المذموم، وكما يذم الناس أرباب الحيل؛ فهم يذمون أيضًا العاجز، الذي لا حيلة عنده لعجزه وجهله بطرق تحصيل مصالحه، فالأول ماكر مخادع، والثاني عاجز مفرط، والممدوح غيرهما، وهو من له خبرة بطرق الخير والشر خفيِّها وظاهرها؛ فيحسن التوصل إلى مقاصده المحمودة التي يحبها الله ورسوله بأنواع الحيل، ويعرف طرق الشر الظاهرة والخفية التي يتوصل بها إلى خداعه والمكر به؛ فيحترز منها ولا يفعلها ولا يدل عليها، وهذه كانت حال سادات الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم كانوا أبرَّ الناس قلوبًا، وأعلم الخلق بطرق الشر ووجوه الخداع، وأتقى لله من أن يرتكبوا منها شيئًا أو يدخلوه في الدين، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لست بخبٍّ ولا يخدعني الخب.

وكان حذيفة أعلم الناس بالشر والفتن، وكان الناس يسألون رسول الله، ﷺ، عن الخير، وكان هو يسأله عن الشر، والقلب السليم ليس هو الجاهل بالشر الذي لا يعرفه؛ بل الذي يعرفه ولا يريده؛ بل يريد الخير والبر. . .(١).

---

(١) بحث المؤلف قبل هذا وبعده بحثًا مطولاً لمن أراده. ج.

...(١) **الثامن:** فرحه بغلبة عدوه وقهره له، ورده خاسئًا بغيظه وغمِّه وهمِّه؛ حيث لم ينل منه أُمنيته، والله تعالى يحب من عبده أن يراغم عدوه ويغيظه، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**ولا يطؤُونَ مَوْطِئًا يَغيظُ الكُفَّار ولا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ**﴾. [التوبة: ١٢٠]. وقال: ﴿**لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ**﴾. [الفتح: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿**ومَنْ يُهَاجِر في سَبيلِ الله يَجِدْ في الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وسَعَةً**﴾. [النساء: ١٠٠]. أي: مكانًا يرغم فيه أعداء الله.

وعلامة المحبة الصادقة، مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم(٢).

التاسع: التفكر في أنه لم يخلق للهوى؛ وإنما هيىء لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى كما قيل:

قد هيؤوك لأمــر لو فطنــت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

العاشر: أن لا يختار لنفسه؛ أن يكون الحيوان البهيم؛ أحسن حالاً منه، فإن الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه، فيؤثر النافع على الضار، والإنسان أُعطي العقل لهذا المعنى، فإذا لم يميز به بين ما يضره وما ينفعه، أو عرف ذلك وآثر ما يضره كان حال الحيوان البهيم؛ أحسن منه، ويدل على ذلك أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح، ما لا يناله الإنسان مع عيشٍ هنيىء خال عن الفكر والهم؛ ولهذا تُساق إلى منحرها وهي منهمكة على شهواتها لفقدان العلم بالعواقب. . .

فصــل(٣)

وكان من هديه، ﷺ، في صلاة الخوف: أن أباح الله سبحانه وتعالى قصر أركان الصلاة وعددها؛ إذا اجتمع الخوف والسفر.

وقصر العدد وحده: إذا كان سفر لا خوف معه.

وقصر الأركان وحدها: إذا كان خوف لا سفر معه، وهذا كان هديه، ﷺ، وبه تُعلم الحكمة في تقييد القصر في الآية بالضرب في الأرض والخوف.

---

٥٠٣ روضة.

(٢) تقدم ص ٢٠٨ بحث على هذه الآية.

(٣) ٣٠٥ زاد المعاد جـ١.

وكان من هديه، ﷺ، في صلاة الخوف إذا كان العدو بينه وبين القبلة: أن يَصُفَّ المسلمين كلهم خلفه، ويكبر ويكبرون جميعًا، ثم يركع ويركعون جميعًا، ثم يرفع ويرفعون جميعًا معه، ثم ينحدر بالسجود والصف الذي يليه خاصة، ويقوم الصف المؤخر في مواجهة العدو. فإذا فرغ من الركعة الأولى، ونهض إلى الثانية؛ سجد الصف المؤخر بعد قيامه سجدتين، ثم قاموا فتقدموا إلى مكان الصف الأول وتأخر الصف الأول مكانهم؛ لتحصل فضيلة الصف الأول للطائفتين، وليدرك الصف الثاني مع النبي، ﷺ، السجدتين في الركعة الثانية، كما أدرك الأول معه السجدتين في الأولى، فيستوي الطائفتان فيما أدركوا معه، وفيما قضوا لأنفسهم، وذلك غاية العدل. فإذا ركع صنع الطائفتان كما صنعوا أول مرة. فإذا جلس في التشهد سجد الصف المؤخر سجدتين، ولحقوه في التشهد، فسلم بهم جميعًا.

وإن كان العدو في غير جهة القبلة: فإنه كان تارة يجعلهم فرقتين: فرقة بإزاء العدو، وفرقة تصلي معه؛ فتصلي معه إحدى الفرقتين ركعة، ثم تنصرف في صلاتها إلى مكان الفرقة الأخرى، وتجيء الأخرى إلى مكان هذه؛ فتصلي معه الركعة الثانية، ثم تسلم، وتقضي كل طائفة ركعة ركعة بعد سلام الإمام.

وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعة، ثم يقوم إلى الثانية، وتقضي هي ركعة وهو واقف، وتسلم قبل ركوعه، وتأتي الطائفة الأخرى، فتصلي معه الركعة الثانية، فإذا جلس في التشهد؛ قامت فقضت ركعة، وهو ينتظرها في التشهد، فإذا تشهدت يسلم بهم. وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعتين فتسلم قبله، وتأتي الطائفة الأخرى فيصلي بهم الركعتين الأخيرتين ويسلم بهم؛ فيكون له أربعًا، ولهم ركعتين ركعتين.

(١) **وكان** ﷺ، يقصر الرباعية، فيصليها ركعتين من حين يخرج مسافرًا إلى أن يرجع إلى المدينة، ولم يثبت عنه، ﷺ، أنه أتم الرباعية في سفره ألبتة.

وأما حديث عائشة رضي الله عنها: «أن النبي، ﷺ، كان يقصر في السفر

---

(١) ٢٦٥ زاد المعاد جـ١.

ويتم، ويفطر ويصوم» فلا يصح. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هو كذب على رسول الله، ﷺ، انتهى.

وقد روي: «كان يقصر وتتم» الأول بالياء آخر الحروف، والثاني بالتاء المثناة من فوق، وكذلك «يفطر وتصوم» أي: تأخذ هي بالعزيمة في الموضعين.

قال شيخنا ابن تيمية، وهذا باطل، ما كانت أم المؤمنين لتخالف رسول الله،ﷺ، وجميع أصحابه، فتصلي خلاف صلاتهم، كيف؟ والصحيح عنها أنها قالت: «إن الله فرض الصلاة ركعتين ركعتين، فلما هاجر رسول الله،ﷺ، إلى المدينة زيد في صلاة الحضر، وأقرَّت صلاة السفر» فكيف يظن بها مع ذلك أن تصلي بخلاف صلاة النبي،ﷺ، والمسلمين معه؟

قلت: وقد أتمت عائشة بعد موت النبي،ﷺ. قال ابن عباس وغيره: «إنها تأوّلت، كما تأول عثمان» و«أن النبي،ﷺ، كان يقصر دائمًا» فركَّب بعض الرواة من الحديثين حديثًا وقال: «فكان رسول الله،ﷺ، يقصر وتتم هي» فغلط بعض الرواة، فقال: «كان يقصر ويتم» أي: هو.

والتأويل الذي تأولته قد اختلف فيه، فقيل: ظنَّت أن القصر مشروط بالخوف في السفر، فإذا زال الخوف؛ زال سبب القصر، وهذا التأويل غير صحيح، فإن النبي،ﷺ، سافر آمنًا، وكان يقصر الصلاة. والآية قد أشكلت على عمر رضي الله عنه وعلى غيره، فسأل عنها رسول الله،ﷺ، فأجابه بالشفاء، و«أن هذا صدقة من الله، وشرع شرعه للأمة» وكان هذا بيان: أن حكم المفهوم غير مراد، وأن الجناح مرتفع في قصر الصلاة عن الآمن والخائف، وغايته: أنه نوع تخصيص للمفهوم، أو رفع له.

وقد يقال: إن الآية اقتضت قصرًا يتناول: قصر الأركان بالتخفيف، وقصر العدد بنقصان ركعتين، وقيد ذلك بأمرين: الضرب في الأرض، والخوف. فإذا وجد الأمران؛ أبيح القصران، فيصلون صلاة الخوف مقصورة عددها وأركانها، وإن انتفى الأمران، فكانوا آمنين مقيمين؛ انتفى القصران، فيصلون صلاة تامة كاملة، وإن وجد أحد السببين؛ ترتب عليه قصره وحده، فإذا وجد الخوف والإقامة؛ قصرت الأركان واستوفى العدد. وهذا نوع قصر، وليس بالقصر المطلق

في الآية. فإن وجد السفر والأمن؛ قصر العدد واستوفى الأركان، وسميت صلاة أمن؛ وهذا نوع قصر، وليس بالقصر المطلق.

وقد تسمى هذه الصلاة مقصورة، باعتبار نقصان العدد.

وقد تسمى تامة، باعتبار إتمام أركانها، وأنها لم تدخل في قصر الآية، والأول؛ اصطلاح كثير من الفقهاء المتأخرين، والثاني؛ يدل عليه كلام الصحابة. كعائشة وابن عباس وغيرهما. قالت عائشة رضي الله عنها: «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فلما هاجر رسول الله ﷺ، إلى المدينة زيد في صلاة الحضر، وأُقِرَّت صلاة السفر».

فهذا يدل على أن صلاة السفر عندها غير مقصورة من أربع، وإنما هي مفروضة كذلك، وأن فرض المسافر ركعتان. وقال ابن عباس: «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعًا، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة». متفق على حديث عائشة.

وانفرد مسلم بحديث ابن عباس. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «صلاة السفر ركعتان، والجمعة ركعتان، والعيد ركعتان، تمام غير قصر، على لسان محمد ﷺ، وقد خاب من افترى» وهذا ثابت عن عمر...

(١)فائـــــدة

استدل على وجوب الجماعة: بأن الجمع بين الصلاتين شرع في المطر لأجل تحصيل الجماعة؛ مع أن إحدى الصلاتين قد وقعت خارج الوقت، والوقت واجب فلو لم تكن الجماعة واجبة؛ لما ترك لها الوقت الواجب.

اعتــرض على ذلـك: بأن الـواجب قد يسقط لغير الـواجب بل لغـير المستحب، فإن شطر الصـلاة يسقط؛ لسفـر الفـرجة والتجارة، ويسقط غسل الرجلين؛ لأجل لبس الخف، وغايته أن يكون مباحًا.

وهذا الاعتراض فاسد؛ فإن فرض المسافر ركعتان؛ فلم يسقط الواجب لغير الواجب، وأيضًا فإنه لا محذور في سقوط الواجب لأجل المباح، وليس الكلام

(١) ١٥٩ بدائع جـ٣.

في ذلك، وإنما المستحيل؛ أن يراعى في العبادة أمر مستحب يتضمن فوات الواجب، فهذا هو الذي لا عهد لنا في الشريعة بمثله ألبتة، وبذلك خرج الجواب عن سقوط غسل الرجلين؛ لأجل الخف.

واستدل على وجوبها: بأن الله تعالى أمر بها في صلاة الخوف، التي هي محل التخفيف وسقوط ما لا يسقط في غيرها، واحتمال ما لا يحتمل في غيرها، فما الظن بصلاة الآمن المقيم؟!

فاعترض على ذلك: بأن المقصود الاجتماع في صلاة الخوف، فقصد اجتماع المسلمين وإظهار طاعتهم وتعظيم شعار دينهم، ولاسيما حيث كانوا مع النبي ﷺ، فكان المقصود أن يظهروا للعدو طاعة المسلمين له وتعظيمهم لشأنه؛ حتى إنهم في حال الخوف الذي لا يبقى أحد مع أحد يتبعونه ولا يتفرقون عنه ولا يفارقونه بحال، وهذا كما جرى لهم في عمرة القضاء معه؛ حتى قال عروة بن مسعود: لقد وفدت على الملوك: كسرى، وقيصر؛ فلم أر ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم محمدًا أصحابه.

والذي يدل على هذا: أنا رأينا الجماعة تسقط عند المطر الذي يبل النعال، فكان منادي رسول الله ﷺ، ينادي: ألا صلوا في رحالكم. والجمعة تسقط؛ بخشية فوات الخبز الذي في التنور مع كون الجماعة شرطًا فيها، وتسقط؛ خشية مصادفة غريم يؤذيه. ومعلوم أن عذر الحرب ومواقفة الكفار؛ أعظم من هذا كله، ومع هذا فأقيم شعارها في تلك الحال. فدل على أن المقصود ما ذكرنا.

قلت: ونحن لا ننكر أن هذا مقصود أيضًا مضموم إلى مقصود الجماعة، فلا منافاة بينه وبين وجوب الجماعة؛ بل إذا كان هذا أمرًا مطلوبًا؛ فهو من أدل الدلائل على وجوب الجماعة في تلك الحال، ومع أن هذا مقصود أيضًا في اجتماع المسلمين في الصلاة وراء إمامهم.

وأسباب العبادات التي شرعت لأجلها؛ لا يشترط دوامها في ثبوت تلك العبادات، بل تلك العبادات تستقر وتدوم وإن زالت أسباب مشروعيتها. وهذا كالرمَل في الطواف والسعي بين الصفا والمروة.

ونظير هذا: اعتراضهم على أحاديث الأمر بفسخ الحج إلى العمرة؛ بأن

المقصود بها: الإعلام بجواز العمرة في أشهر الحج مخالفة للكفار.

فقيل لهم: وهذا من أدل الدلائل على استحبابه ودوام مشروعيته؛ فإن ما شرع من المناسك قصدًا لمخالفة الكفار؛ فإنه دائم المشروعية إلى يوم القيامة. كالوقوف بعرفة، فإن النبي، ﷺ، خالفهم ووقف بها، وكانوا يقفون بمزدلفة. فقال خالف هدينا هدي المشركين، وكالدفع من مزدلفة قبل طلوع الشمس، فإنهم كانوا لا يدفعون منها حتى تشرق الشمس؛ فقصد مخالفتهم وصارت سنة إلى يوم القيامة، وهذه قاعدة من قواعد الشرع: أن الأحكام المشروعة لهذه الأسباب في الأصل؛ لا يشترط في ثبوتها قيام تلك الأسباب، فلو كان ما ذكرتم من الأسباب في كون الجماعة مأمورًا بها في صلاة الخوف هو الواقع؛ لم يلزم منه سقوط الأمر بها عند زوال تلك الأسباب. وفتح هذا الباب يفضي إلى إسقاط كثير من السنن، وذلك باطل.

فصل(1)

وأما المسألة السادسة وهي: هل تصح صلاة من صلى وحده وهو يقدر على الصلاة جماعة أم لا؟ فهذه المسألة مبنية على أصلين:

أحدهما: أن صلاة الجماعة فرض أم سنة؟ وإذا قلنا هي فرض، فهل هي شرط لصحة الصلاة أم تصح بدونها مع عصيان تاركها؟ فهاتان مسألتان:

أما المسألة الأولى: فاختلف الفقهاء فيها، فقال بوجوبها: عطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وأبو عمرو الأوزاعي، وأبو ثور، والإمام أحمد في ظاهر مذهبه، ونص عليه الشافعي في مختصر المزني فقال: وأما الجماعة فلا أرخص في تركها إلا من عذر.

وقال ابن المنذر في كتاب الأوسط: ذكر حضور الجماعة على العميان وإن بعدت منازلهم عن المسجد، ويدل على ذلك أن شهود الجماعة فرض لا ندب. ثم ذكر حديث ابن أم مكتوم أنه قال: يا رسول الله إن بيني وبين المسجد نخلاً وشجراً، فهل يسعني أن أصلي في بيتي؟ قال: «تسمع الإقامة؟» قال: نعم. قال: «**فأتها**».

قال ابن المنذر: ذكر تخويف النفاق على تارك شهود العشاء والصبح في جماعة.

(1) ٦٠ كتاب الصلاة.

ثم قال في أثناء الباب: «فدلت الأخبار التي ذكرت على وجوب فرض الجماعة على من لا عذر له، فمما دل عليه؛ قوله لابن أم مكتوم وهو ضرير: «**لا أجد لك رخصة**» فإذا كان الأعمى لا رخصة له؛ فالبصير أولى أن لا تكون له رخصة.

قال: وفي اهتمامه ﷺ، بأن يحرق على قوم تخلفوا عن الصلاة بيوتهم؛ أبين البيان على وجوب فرض الجماعة؛ إذ غير جائز أن يتهدد رسول الله ﷺ، من تخلف عن ندب وعما ليس بفرض.

قال: ويؤيده حديث أبي هريرة: أن رجلًا خرج من المسجد بعدما أذن المؤذن فقال: أما هذا فقد عصى أبا القاسم. ولو كان المرء مخيرًا في ترك الجماعة وإتيانها لم يجز أن يُعَصَّى من تخلف عما لا يجب عليه أن يحضره، وإنما لما أمر الله جل ذكره بالجماعة في حال الخوف؛ دل على أن ذلك في حال الأمن؛ أوجب.

والأخبار المذكورة في أبواب الرخصة في التخلف عن الجماعة لأصحاب الأعذار؛ تدل على فرض الجماعة على من لا عذر له، ولو كان حال العذر وغير حال العذر سواء؛ لم يكن للترخيص في التخلف عنها في أبواب العذر معنى.

ودل على تأكيد فرض الجماعة؛ قوله ﷺ: «**من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له**». ثم ساق الحديث في ذلك ثم قال: وقال الشافعي: ذكر الله الأذان بالصلاة فقال: ﴿**وإذَا نَادَيتُم إلى الصَّلاَةِ**﴾. [المائدة: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿**إذَا نُودِيَ للصَّلاَةِ مِنْ يَومِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوا إلى ذِكْرِ الله**﴾. [الجمعة: ٩]. وسن رسول الله ﷺ، الأذان للصلوات المكتوبات. فأشبه ما وصفت أن لا يحل أن تصلى كل مكتوبة إلا في جماعة؛ حتى لا يخلو جماعة مقيمون أو مسافرون من أن يصلى بهم صلاة جماعة، فلا أرخص لمن قدر على صلاة الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر، وإن تخلف أحد فصلاها منفردًا لم تكن عليه إعادتها، صلاها قبل الإمام أو بعده، إلا صلاة الجمعة فإن من صلاها ظهرًا قبل صلاة الإمام كان عليه إعادتها لأن إتيانها فرض». هذا كله لفظ ابن المنذر. وقالت الحنفية والمالكية: هي سنة مؤكدة، ولكنهم يؤثمون تارك السنن المؤكدة ويصححون الصلاة بدونها، والخلاف بينهم وبين من قال: إنها واجبة؛ لفظي، وكذلك صرح بعضهم بالوجوب.

قال الموجبون: قال الله تعالى: ﴿**وإذَا كُنْتَ فيهِمْ فَأَقَمْتَ لهم الصَّلاة فَلْتَقُمْ**

طَائِفَةٌ منهم مَعَكَ وليَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُم . فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ولْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ . [النساء: ١٠٢].

ووجه الاستدلال بالآية من وجوه: أحدها: أمره سبحانه لهم بالصلاة في الجماعة، ثم أعاد هذا الأمر سبحانه مرة ثانية في حق الطائفة الثانية بقوله: **﴿ولتأتِ طَائِفَةٌ أخرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾** . وفي هذا دليل على أن الجماعة فرض على الأعيان؛ إذ لم يسقطها سبحانه عن الطائفة الثانية بفعل الأولى، ولو كانت الجماعة سنة لكان أولى الأعذار بسقوطها عذر الخوف، ولو كانت فرض كفاية لسقطت بفعل الطائفة الأولى.

ففي الآية دليل على وجوبها على الأعيان، فهذه على ثلاثة أوجه: أمره بها أولاً، ثم أمره بها ثانيًا، وأنه لم يرخص لهم في تركها حال الخوف.

الدليل الثاني: قوله تعالى: **﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ فلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُم تَرْهَقُهُم ذِلَّةٌ وقَد كَانُوا يُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ وهُمْ سَالِمُونَ﴾** . [القلم: ٤٢، ٤٣].

ووجه الاستدلال بها: أنه سبحانه عاقبهم يوم القيامة: بأن حال بينهم وبين السجود، لما دعاهم إلى السجود في الدنيا فأبوا أن يجيبوا الداعي.

إذا ثبت هذا فإجابة الداعي هي: إتيان المسجد بحضور الجماعة لا فعلها في بيته وحده، فهكذا فسر النبي، ﷺ، الإجابة، فروى مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة قال: أتى النبي، ﷺ، رجل أعمى فقال: يا رسول الله، ليس لي قائد يقودني إلى المسجد. فسأل رسول الله، ﷺ، أن يرخص له، فرخص له. فلما ولى دعاه فقال: «**هل تسمع النداء**»؟. قال: نعم. قال: «**فأجب**» فلم يُجْعَل مجيبًا له بصلاته في بيته إذا سمع النداء، فدل على أن الإجابة المأمور بها؛ هي إتيان المسجد للجماعة. ويدل عليه حديث ابن أم مكتوم. قال: يا رسول الله، إن المدينة كثيرة الهوام والسباع. فقال رسول الله، ﷺ: «**تسمع حي على الصلاة، حي على الفلاح؟**» قال: نعم. قال: «**فحيهلا**». رواه أبو داود والإمام أحمد. وحيهلا: اسم فعل أمر معناه أقبل وأجب، وهو صريح في أن إجابة هذا الأمر بحضور الجماعة، وأن المتخلف عنها لم يجبه.

وقد قال غير واحد من السلف في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾. [القلم:٤٣] قال: هو قول المؤذن: «حي على الصلاة، حي على الفلاح». فهذا الدليل مبني على مقدمتين: إحداهما: أن هذه الإجابة واجبة. والثانية: لا تحصل إلا بحضور الصلاة في الجماعة. وهذا هو الذي فهمه أعلم الأمة وأفقههم من الإجابة، وهم الصحابة رضي الله عنهم.

فقال ابن المنذر في كتاب الأوسط: روينا عن ابن مسعود وأبي موسى أنهما قالا: من سمع النداء ثم لم يجب؛ فإنه لا تجاوز صلاته رأسه، إلا من عذر.

قال: وروي عن عائشة أنها قالت: من سمع النداء فلم يجب؛ لم يرد خيرًا ولم يرد به. وعن أبي هريرة أنه قال: لأن تمتلىء أذنا ابن آدم رصاصًا مذابًا؛ خير له من أن يسمع المنادي، ثم لا يجيبه.

فهذا وغيره يدل على أن الإجابة عند الصحابة؛ هي حضور الجماعة، وأن المتخلف عنها غير مجيب فيكون عاصيًا.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. [البقرة: ٤٣].

ووجه الاستدلال بالآية: أنه سبحانه أمرهم بالركوع وهو الصلاة، وعبر عنها بالركوع؛ لأنه من أركانها، والصلاة يعبر عنها بأركانها وواجباتها، كما سماها الله سجودًا وقرآنًا وتسبيحًا، فلابد لقوله: ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ من فائدة أخرى؛ وليست إلا فعلها مع جماعة المصلين، والمعية تفيد ذلك. إذا ثبت هذا الأمر المقيد بصفة أو حال، لا يكون المأمور ممتثلًا؛ إلا بالإتيان به على تلك الصفة والحال.

فإن قيل: فهذا ينتقض بقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. [آل عمران: ٤٣]. والمرأة لا يجب عليها حضور الجماعة.

قيل: الآية لم تدل على تناول الأمر بذلك لكل امرأة، بل مريم بخصوصها أمرت بذلك، بخلاف قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. ومريم كانت لها خاصة لم تكن لغيرها من النساء، فإن أمها نذرتها أن تكون محررة لله ولعبادته ولزوم المسجد، وكانت لا تفارقه فأمرت أن تركع مع أهله. ولما اصطفاها الله وطهرها على نساء العالمين؛ أمرها من طاعته بأمر اختصها به على

سائر النساء. قال تعالى: ﴿وإذْ قَالَتِ الملائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إنَّ الله اصْطَفَاكِ وطَهَّرَكِ واصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِين. يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ واسْجُدِي وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

فإن قيل: كونهم مأمورين أن يركعوا مع الراكعين؛ لا يدل على وجوب الركوع معهم حال ركوعهم؛ بل يدل على الإتيان بمثل ما فعلوا، كقوله تعالى: ﴿يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. [التوبة: ١١٩]. فالمعية تقتضي(١) المشاركة في الفعل، ولا تستلزم المقارنة فيه.

قيل: حقيقة المعية؛ مصاحبة ما بعدها لما قبلها، وهذه المصاحبة تفيد قدرًا زائدًا على المشاركة ولا سيما في الصلاة، فإنه إذا قيل: صلَّى مع الجماعة، أو صليت مع الجماعة؛ لا يفهم منه إلا اجتماعهم على الصلاة...

(٢) **الدليل** الثاني عشر: إجماع الصحابة رضي الله عنهم، ونحن نذكر نصوصهم.

قد تقدم قول ابن مسعود: ولقد رأيتنا ومايتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن أبي موسى الهلالي، عن ابن مسعود قال: من سمع المنادي فلم يجب من غير عذر؛ فلا صلاة له.

وقال أحمد أيضًا: حدثنا وكيع: حدثنا مسعر، عن أبي الحصين، عن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري قال: من سمع المنادي فلم يجب بغير عذر؛ فلا صلاة له.

وقال أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي حيان التيمي، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه قال: لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد. قيل: ومن جار المسجد؟ قال: من سمع المنادي.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا هشيم: أخبرنا منصور، عن الحسن بن علي قال: من سمع النداء فلم يأته؛ لم تجاوز صلاته رأسه، إلا من عذر.

وقال عبدالرزاق: عن أنس، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: من سمع النداء من جيران المسجد وهو صحيح من غير عذر؛ فلا صلاة له.

وقال وكيع: عن عبدالرحمن بن حصين، عن أبي نجيح المكي، عن أبي

---

(١) في النسخة (تقضي) والصواب ما أثبتناه [تقتضي]. المراجع. (٢) ٧٠ كتاب الصلاة.

هريرة قال: لأن تمتلىء أذنا ابن آدم رصاصًا مذابًا؛ خير له من أن يسمع المنادي، ثم لا يجيبه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن عدي بن ثابت، عن عائشة، أم المؤمنين، رضي الله عنها قالت: من سمع المنادي فلم يجب من غير عذر، لم يجد(١) خيراً ولم يرد به.

قال وكيع: حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: من سمع النداء ثم لم يجب من غير عذر؛ فلا صلاة له.

وقال عبدالرزاق: عن ليث، عن مجاهد قال: سأل رجل ابن عباس فقال: رجل يصوم النهار، ويقوم الليل، لا يشهد جمعة ولا جماعة؟ فقال ابن عباس: هو في النار. ثم جاء الغد فسأله عن ذلك فقال: هو في النار. قال: واختلف إليه قريبًا من شهر يسأله عن ذلك، ويقول ابن عباس: هو في النار.

فهذه نصوص الصحابة كما تراها صحة وشهرة وانتشارًا، ولم يجىء عن صحابي واحد خلاف ذلك، وكل من هذه الآثار؛ دليل مستقل في المسألة لو كان وحده، فكيف إذا تعاضدت وتضافرت؟ وبالله التوفيق.

ومن تأمل السنة حق التأمل؛ تبين له أن فعلها في المساجد فرض على الأعيان؛ إلا لعارض يجوز معه ترك الجمعة والجماعة، فترك حضور المسجد لغير عذر كترك أصل الجماعة لغير عذر، وبهذا تتفق جميع الأحاديث والآثار. ولما مات رسول الله، ﷺ، وبلغ أهل مكة موته خطبهم سهيل بن عمرو ـ وكان عتاب بن أسيد عامله على مكة قد توارى خوفًا من أهل مكة، فأخرجه سهيل ـ وثبت أهل مكة على الإسلام، فخطبهم بعد ذلك عتاب وقال: يا أهل مكة والله لا يبلغني أن أحدًا منكم تخلف عن الصلاة في المسجد في الجماعة؛ إلا ضربت عنقه. وشكر له أصحاب رسول الله، ﷺ، هذا الصنيع وزاده رفعة في أعينهم. فالذي ندين لله به أنه لا يجوز لأحد التخلف عن الجماعة في المسجد؛ إلا من عذر. والله أعلم بالصواب.

---

(١) سبق في أول ص ٢٨٩ بنحوه. المراجع.

(١)**قال** الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله وهُوَ مَعَهُم. إذْ يُبَيِّتُونَ مَالا يرضَى مِنَ القَوْلِ﴾. [النساء: ١٠٨]. فقد أخبر أنه لا يرضى بما يبيتونه من القول، المتضمن البهت، ورمي البريء، وشهادة الزور، وبراءة الجاني. فإن الآية نزلت في قصة هذا شأنها، مع أن ذلك كله بمشيئته. إذ أجمع المسلمون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولم يخالف في ذلك إلا القدرية المجوسية، الذين يقولون: يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء.

وتأويل من تأول الآية على أنه لا يرضاه دينًا، مع محبته لوقوعه؛ مما ينبغي أن يصان كلام الله عنه؛ إذ المعنى عندهم: أنه محبوب له، ولكن لا يُثاب فاعله عليه، فهو محبوب بالمشيئة، غير مثاب عليه شرعًا.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه مسخوط للرب، مكروه له قدرًا وشرعًا، مع أنه وجد بمشيئته وقضائه. فإنه يخلق ما يحب وما يكره. وهذا كما أن الأعيان كلها خلقه. وفيها مايبغضه ويكرهه: كإبليس وجنوده، وسائر الأعيان الخبيثة. وفيها مايحبه ويرضاه: كأنبيائه ورسله، وملائكته وأوليائه. وهكذا الأفعال كلها خلقه.

ومنها ما هو محبوب له، وما هو مكروه له. خَلَقه لحكمة له في خلق ما يكره ويبغض كالأعيان. وقال تعالى: ﴿والله لا يُحبُّ الفَسَادَ﴾. [البقرة: ٢٠٥]. مع أنه بمشيئته وقضائه وقدره.

وقال تعالى: ﴿إنْ تَكْفُرُوا فإنَّ الله غَنيٌّ عَنْكُمْ ولاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ. وإنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُم﴾. [الزمر: ٧]. فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره؛ وأحدهما محبوب له مرضي، والآخر مبغوض له مسخوط.

وكذلك قوله ـ عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر ـ ﴿كلُّ ذَلِكَ كان سَيِّئُهُ عندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾. [الإسراء: ٣٨]. فهو مكروه له مع وقوعه بمشيئته وقضائه وقدره . . .

(٢)**الأصل** الخامس: أنه سبحانه حكيم، لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل.

---

(١) ٢٥٣ مدارج جـ١. (٢) ١٩٠ شفاء.

بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة؛ لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل. وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا، وهذا في مواضع لا تكاد تحصى ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها، فنذكر بعض أنواعها:

النوع الأول: التصريح بلفظ الحكمة وما تصرف منه كقوله: ﴿**حكمةٌ بالغةٌ**﴾. [القمر: ٥]. وقوله: ﴿**وأنزلَ الله عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ**﴾. [النساء: ١١٣].

وقوله: ﴿**ومَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيْراً كَثِيراً**﴾. [البقرة: ٢٦٩].

والحكمة هي: العلم النافع والعمل الصالح، وسمي حكمة؛ لأن العلم والعمل قد تعلقا بمتعلقهما وأوصلا إلى غايتهما، وكذلك لا يكون الكلام حكمة حتى يكون موصلاً إلى الغايات المحمودة والمطالب النافعة؛ فيكون مرشدًا إلى العلم النافع والعمل الصالح فتحصل الغاية المطلوبة. فإذا كان المتكلم به لم يقصد مصلحة المخاطبين، ولا هداهم ولا إيصالهم إلى سعادتهم ودلالتهم على أسبابها وموانعها، ولا كان ذلك هو الغاية المقصودة المطلوبة، ولا تكلم لأجلها ولا أرسل الرسل وأنزل الكتب لأجلها، ولا نصب الثواب والعقاب لأجلها؛ لم يكن حكيمًا ولا كلامه حكمة فضلاً عن أن تكون بالغة.

النوع الثاني: إخباره أنه فعل كذا لكذا، وأنه أمر بكذا لكذا كقوله: ﴿**ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الله يَعْلَمُ ما في السَّموات ومَا في الأَرْضِ**﴾. [المائدة: ٩٧]. وقوله: ﴿**الله الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ ومِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ وأَنَّ الله قَد أَحَاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْمًا**﴾. [الطلاق: ١٢].

وقال: ﴿**جَعَلَ الله الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيامًا للنَّاسِ والشَّهْرَ الحَرَامَ والهَدْيَ والقَلائِدَ ذلكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا في السَّمواتِ ومَا في الأَرْضِ وأَنَّ الله بُكلِّ شيء عَلِيمٌ**﴾. [المائدة:٩٧]. وقوله: ﴿**رُسُلاً مُبَشِّرين ومُنْذِرين لئِلاَّ يَكُونَ للنَّاسِ على الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل**﴾. [النساء: ١٦٥].

وقوله: ﴿**إنَّا أَنْزَلْنا إلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ لِتَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَراكَ الله**﴾. [النساء: ١٠٥].

وقوله: ﴿**لئلاَّ يعلمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ على شيء مِنْ فَضلِ الله**﴾. [الحديد: ٢٩].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنا القِبْلَةَ التي كُنْتَ عليها إلا لِنَعْلَمَ من يتبعُ الرسول ممن ينقلبُ على عَقِبَيْهِ﴾. [البقرة:١٤٣].

وقوله: ﴿فإِنَّهُ يَسلُكُ مِنْ بَينِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قد أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾. [الجن: ٢٧، ٢٨]. **أي:** ليتمكنوا بهذا الحفظ والرصد من تبليغ رسالاته؛ فيعلم الله ذلك واقعًا.

وقوله: ﴿ويُنزِّلُ مِنَ السَّماءِ مَاءً لِيُطهِّرَكُمْ بِهِ وليَرْبطَ عَلَى قُلُوبِكُم ويُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَام﴾. [الأنفال: ١١].

وقوله: ﴿ويُبطِلَ البَاطِلَ﴾. [الأنفال: ٨]. وقوله: ﴿وما جَعَلَهُ الله إلاّ بُشْرى لكم ولِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم به﴾. [آل عمران: ١٢٦].

وقوله: ﴿قُل نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ لِيُثَبِّتَ الذينَ آمَنُوا﴾. [النحل: ١٠٢].

وقوله: ﴿ومَا جَعلنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلاّ مَلاَئِكَةً وما جَعَلْنَا عِدَّتَهُم إلاَّ فِتْنَةً للذينَ كَفرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ ويَزْدَادَ الذينَ آمَنُوا إيمَانًا﴾. [المدثر: ٣١].

وقوله: ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ على النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيكم شَهيدًا﴾. [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿وأَنْزَلْنَا إليْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إليهم﴾. [النحل: ٤٤].

وقوله: ﴿هذا بَلاَغٌ للنَّاسِ ولِيُنْذَرُوا بِهِ ولِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إلـهٌ واحِدٌ وليذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَاب﴾. [إبراهيم: ٥٢].

وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيِّنَاتِ وأَنْزَلْنَا مَعهُم الكِتَابَ والمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ وأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ومَنَافِعُ للنَّاسِ وليعْلَم الله مَنْ يَنْصُرُهُ ورُسُلَهُ بالغَيْب﴾. [الحديد: ٢٥].

وقوله: ﴿وكَذَلِكَ نُرِي إبراهيمَ مَلَكُوتَ السَّموات والأَرْضِ وليكُونَ مِنَ المُوقِنِين﴾. [إبراهيم: ٥٢].

وقوله: ﴿والخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وزِيْنَةً ويَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾. [النحل: ٨]. وهذا في القرآن.

فإن قيل اللام في هذا كله لام العاقبة كقوله: ﴿فالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ

لَهُم عَدُوًّا وحَزَنًا﴾. [القصص: ٨].

وقوله: ﴿وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ الله عليهِم مِنْ بَيْنِنَا﴾. [الأنعام: ٥٣].

وقوله: ﴿ليجْعَلَ ما يُلقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً للذينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. [الحج: ٥٣].

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ويَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾. [الأنفال: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلِتَصْغى إليهِ أَفْئِدَةُ الذينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخِرَةِ ولِيَرْضَوْهُ ولِيَقْتَرِفُوا مَاهُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾. [الأنعام: ١١٣].

فإن ما بعد اللام في هذا ليس هو الغاية المطلوبة، ولكن لما كان الفعل منتهيًا إليه وكان عاقبة الفعل؛ دخلت عليه لام التعليل، وهي في الحقيقة لام العاقبة. فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن لام العاقبة إنما تكون في حق من هو جاهل أو هو عاجز عن دفعها. فالأول كقوله: ﴿فالتَقَطَهُ آل فِرْعَوْنَ ليكُونَ لَهُم عَدُوًّا وحَزَنًا﴾. [القصص: ٨].

والثاني: كقول الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب	فكلكم يصير إلى ذهاب

وأما من هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير؛ فيستحيل في حقه دخول هذه اللام، وإنما اللام الواردة في أفعاله وأحكامه؛ لام الحكمة والغاية المطلوبة.

الجواب الثاني: إفراد كل موضع من تلك المواضع بالجواب:

أما قوله: ﴿فالتقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ليكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. [القصص: ٨].

فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له؛ فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدَّر ذلك وقضى به؛ ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، وذكر فعلهم دون قضائه؛ لأنه أبلغ في كونه حزنًا لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به؛ كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من أن لا يكون له فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه: كمال قدرته، وعلمه، وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعونُ الأبناءَ في طلبه؛ هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته، ويكون في قبضته وتحت تصرفه، فذكر فعلهم به في هذا؛ أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر،

وقد أعلمنا سبحانه أن أفعال عباده كلها واقعة بقضائه وقدره[1].

[2]**ووقعت** مسألة وهي: أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك.

فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية وإنما قصد تعظيمه، وقال: إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه وتدخلني عليه، فهو المقصود، وهذه وسائل وشفعاء، فلم كان هذا القدر موجبًا لسخطه وغضبه تبارك وتعالى، ومخلدًا في النار، وموجبًا سفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم؟

وترتب على هذا سؤال آخر، وهو أنه: هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع، أم ذلك قبيح في الفطر والعقول، يمتنع أن تأتي به شريعة؛ بل جاءت بتقرير ما في الفطر والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح؟ وما السبب في كونه لا يغفره من دون سائر الذنوب؟ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾. [النساء: ٤٨، ١١٦].

فتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه، ولا تستهونه فإن به يحصل الفرق: بين المشركين والموحدين، والعالمين بالله والجاهلين، وأهل الجنة وأهل النار. فنقول وبالله التوفيق والتأييد. ومنه نستمد المعونة والتسديد، فإنه من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع:

الشرك شركان: شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد؛ أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

والشرك الأول نوعان: أحدهما شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون إذ قال: ﴿**وما ربُّ العالمين**﴾. [الشعراء: ٢٣]...[3]

---

(١) يأتي الجواب عن بقية الآيات في مواضعها من السور ـ إن شاء الله ـ (ج). (٢) ١٧٣ الجواب الكافي.

(٣) هذا بحث مطول ينتهي بكراسة كبيرة.. فمن أراده فليرجع إليه. أ هـ (ج)

(١) **وقال** تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شيطَانًا مَرِيدًا. لَعَنَهُ الله وقالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا. ولأُضِلَّنَّهُم ولأُمَنِّيَنَّهم ولآمُرنَّهم فلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأَنْعَام ولآمُرنَّهم فلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله وَمَنْ يَتَّخِذِ الشيطَانَ وليًّا مِنْ دُونِ الله فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا. يَعِدُهُمْ ويُمَنِّيهِم وما يَعِدُهُمُ الشَّيطَانُ إلَّا غُرُورًا﴾. [النساء: ١١٧ ـ ١٢٠].

قال الضحاك: «مفروضًا أي: معلومًا» وقال الزجاج: «أي: نصيبًا افترضته على نفسي».

قال الفراء: «يعني: ما جُعل له عليه السبيل من الناس، فهو كالمفروض».

قلت: حقيقة الفرض هو التقدير. والمعنى: أن من اتَّبع الشيطان وأطاعه، فهو من نصيبه المفروض وحظِّه المقسوم، فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه، فالناس قسمان: نصيب الشيطان ومفروضه، وأولياء الله وحزبه وخاصته.

وقوله: ﴿ولأضلَّنَّهم﴾ يعني: عن الحق ﴿ولأُمنينَّهم﴾ قال ابن عباس: «يريد: تعويق التوبة وتأخيرها».

وقال الكلبي: «أمنيهم: أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث».

وقال الزجاج: «أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم: أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة».

وقيل: لأمنينهم ركوب الأهواء الداعية إلى العصيان والبدع.

وقيل: أمنيهم طول البقاء في نعيم الدنيا، فأطيل لهم الأمل ليؤثروها على الآخرة.

وقوله: ﴿ولآمُرنَّهم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعامِ﴾. «البتك» القطع، وهو في هذا الموضع: قطع آذان البحيرة، عن جميع المفسرين.

ومن ههنا؛ كره جمهور أهل العلم تثقيب أذني الطفل للحلق، ورخَّص بعضهم في ذلك للأنثى، دون الذكر؛ لحاجتها إلى الحلية، واحتجوا بحديث أم زرعٍ، وفيه: «**أناسَ مِنْ حُليّ أُذني**»(٢). وقال النبي، ﷺ: «**كنت لك كأبي زرعٍ**

---

(١) ١٠٥ إغاثة جـ١.

(٢) حديث أم زرع رواه البخاري بطوله في باب حسن المعاشرة مع الأهل في كتاب النكاح، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «جلس إحدى عشرة امرأة ـ الحديث» قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٩: ٢١٣):

لأم زرع». ونص أحمد رحمه الله على جواز ذلك في حق البنت، وكراهته في حق الصبي.

وقوله: ﴿ولآمرنَّهم فليُغيِّرنَّ خَلْقَ الله﴾ قال ابن عباس: «يريد: دين الله» وهو قول: إبراهيم، ومجاهد، والحسن، والضحاك، وقتادة، والسُّدي، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير.

ومعنى ذلك: هو أن الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة، وهي ملة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿فأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّين حَنيفًا فِطْرتَ الله التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ. مُنيبينَ إليْهِ واتَّقُوهُ﴾. [الروم: ٣٠، ٣١]. ولهذا قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يُمجسانه، كما تُنْتَج البهيمة بهيمة جمعاء، فهل تُحِسُّون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها»؟ ثم قرأ أبو هريرة: ﴿فِطْرَتَ الله التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1] الآية. متفق عليه.

فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغيير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابد أن يُغيِّرهما. فغيَّر فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها، وغيَّر الصورة بالجدع والبتك، فغيَّر الفطرة إلى الشرك، والخِلقة إلى البَتْك والقطع، فهذا تغيير خلقة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة.

ثم قال: ﴿يعدهم ويمنيهم﴾ فوعده: ما يصل إلى قلب الإنسان، نحو: سيطول عمرك، وتنال من الدينا لذَّتك، وستعلو على أقرانك، وتظفر بأعدائك، والدنيا دُول ستكون لك كما كانت لغيرك. ويطول أمله، ويعدُهُ بالحسنى على شركه ومعاصيه، ويُمنِّيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها. والفرق بين وعده

وهي أم زرع بنت أكيمل بن ساعدة. و«أناس» أثقل حتى تدلى واضطرب. والنوس: حركة كل شيء متدل اهـ وقد رواه مسلم أيضًا.

(١) «تنتج» أي تلد. يقال: نتجت الناقة إذا ولدت فهي منتوجة. «الجمعاء» السليمة من العيوب المجتمعة الأعضاء. الجدع: قطع الأنف والأذن والشفة. وهو بالأنف أخص. ومعنى الحديث: أن المولود يولد على نوع من الجبلة. وهي فطرة الله. وكونه متهيئًا لقبول الحق طبعًا وطوعًا؛ لو خلته شياطين الإنس والجن وما يختار؛ لم يختر غيرها فضرب لذلك الجدعاء والجمعاء مثلاً.

وتمنيته أنه يعد الباطل، ويمنّي المحال، والنفس المهينة التي لا قدر لها تغتذي بوعده وتمنيته، كما قال القائل:

مُنًى إن تكن حقًا تكن أحسن المنى　　وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدًا

فالنفس المبطلة الخسيسة: تلتذ بالأماني الباطلة والوعود الكاذبة، وتفرح بها، كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها. فالأقوال الباطلة مصدرها وعد الشيطان وتمنيته؛ فإن الشيطان يمني أصحابها الظفر بالحق وإدراكه، ويعدهم الوصول إليه من غير طريقه، فكل مبطل فله نصيب من قوله: ﴿**يَعِدُهم ويُمنّيهم وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلاَّ غُرُورًا**﴾. [النساء: ١٢٠]...

(١)**وفي** الصحيحين: لما حرض النبي ﷺ، النساء على الصدقة، جعلت المرأة تلقي خرصها... الحديث. والخرص: هو الحلقة الموضوعة في الأذن، ويكفي في جوازه؛ علم الله ورسوله بفعل الناس له، وإقرارهم على ذلك، فلو كان مما ينهى عنه؛ لنهى القرآن أو السنة.

فإن قيل: فقد أخبر الله سبحانه عن عدوه إبليس، أنه قال: ﴿**ولآمُرَنَّهُم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأَنْعَامِ**﴾. [النساء: ١١٩]. أي: يقطعونها، وهذا يدل على أن قطع الأذن وشقها وثقبها؛ من أمر الشيطان، فإن البتك: هو القطع، وثقب الأذن: قطع لها، فهذا ملحق بقطع آذان الأنعام.

قيل: هذا من أفسد القياس، فإن الذي أمرهم الشيطان به: أنهم كانوا إذا ولدت لهم الناقة خمسة أبطن، فكان البطن السادس؛ ذكرًا؛ شقوا أذن الناقة، وحرموا ركوبها والانتفاع بها، ولم تطرد عن ماء ولا عن مرعى، وقالوا: هذه بحيرة، فشرع لهم الشيطان في ذلك شريعة من عنده، فأين هذا من بخش [نسخة: نخس] أذن الصبية ليوضع فيها الحلية التي أباح الله لها أن تتحلى بها؟! وأما ثقب الصبي فلا مصلحة له فيه، وهو قطع عضو من أعضائه، لا لمصلحة دينية ولا دنيوية، فلا يجوز.

ومن أعجب ما في هذا الباب ما قال الخطيب في تاريخه: أنا الحسن بن علي

---

(١) ١٢٦ تحفة المودود.

الجوهري: ثنا محمد بن العباس الخزاز: حدثنا أبو عمر عثمان بن جعفر المعروف بابن الكبار: ثنا أبو الحسن علي بن إسحاق بن راهويه قال: ولد أبي من بطن أمه مثقوب الأذنين، قال: فمضى جدي راهويه إلى الفضل بن موسى السيناني فسأل عن ذلك، وقال: ولد لي ولد خرج من بطن أمه مثقوب الأذنين، فقال: يكون ابنك رأسًا: إما في الخير، وإما في الشر، فكأن الفضل بن موسى - والله أعلم - تفرس فيه، أنه لما تفرد عن المولودين كلهم بهذه الخاصة؛ أن ينفرد عنهم بالرياسة في الدين أو الدنيا(١).

(٢)**ولما** نزل قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُم ولاَ أَمَانِي أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ**﴾. [النساء: ١٢٣]. قال أبو بكر: يا رسول الله، جاءت قاصمة الظهر، فأينا لم يعمل سوءً؟ فقال: «**يا أبا بكر، ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ أليس يصيبك الأذى؟**» قال: بلى، قال: «**فذلك مما تجزون به**» فأشكل على الصديق أمر النجاة مع هذه الآية، وظن أن الجزاء في الآخرة ولابد. فأخبره النبي ﷺ: أن جزاءه وجزاء المؤمنين بما يعملونه من السوء في الدنيا؛ ما يصيبهم من: النصب، والحزن، والمشقة؛ فيكون ذلك كفارة لسيئاتهم فلا يعاقبون عليها في الآخرة. وهذا مثل قوله: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم**﴾. [الشورى: ٣٠].

(٣)**ومن** مراسيل يحيى بن كثير قال: فقد رسول الله ﷺ، سلمان، فسأل عنه، فأخبر أنه عليل فأتاه يعوده فقال: «**شفى الله سقمك، وعظم أجرك، وغفر ذنبك، ورزقك العافية في دينك وجسمك إلى منتهى أجلك. إن لك من وجعك خلالاً ثلاثًا: أما واحدة فتذكرة من ربك يذكرك بها، وأما الثانية: فتمحيص لما سلف من ذنوبك، وأما الثالثة: فادع بما شئت فإن المبتلى مجاب الدعوة**».

وقال زياد بن الربيع: قلت لأبي بن كعب: آية من كتاب الله قد أحزنتني. قال: ما هي؟ قلت: ﴿**مَنْ يَعمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ**﴾. [النساء: ١٢٣]. قال: ما كنت أراك إلا أفقه مما أرى، إن المؤمن لا يصيبه عثرة قدم ولا اختلاج عرق؛ إلا بذنب، وما

(١) قلت: لقد كان إسحاق بن راهويه رأسًا كبيرًا في الخير، حيث كان رأسًا في الحديث وهو أحد شيوخ الإمام البخاري صاحب الصحيح - رحمهما الله تعالى - المراجع.

(٢) ٢٢٠ مختصر الصواعق جـ١.　　(٣) ٩٧ عدة الصابرين.

يعفو الله عنه أكثر.

وسئلت عائشة عن هذه الآية فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله، ﷺ، فقال النبي، ﷺ: «**يا عائشة هذه معاقبة الله تعالى لعبده؛ بما يصيبه من: الحمى، والبلية، والشوكة، وانقطاع شسعه؛ حتى البضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيفزع لها فيجدها في اضبنه؛ حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكير**» ضبن الإنسان ما تحت يده يقال: اضطبن كذا إذا حمله تحت يده.

وقال وهب بن منبه: لا يكون الرجل فقيهًا كامل الفقه؛ حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء، وصاحب الرخاء ينتظر البلاء.

وفي بعض كتب الله سبحانه: إن الله ليصيب العبد بالأمر يكرهه وإنه ليحبه؛ لينظر كيف تضرعه إليه؟

وقال كعب: أجد في التوراة: لولا أن يحزن عبدي المؤمن؛ لعصبت الكافر بعصابة من حديد لا يصدع أبدًا.

وقال معروف الكرخي: إن الله ليبتلي عبده المؤمن بالأسقام والأوجاع؛ فيشكو إلى أصحابه؛ فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي ما ابتليتك بهذه الأوجاع والأسقام إلا؛ لأغسلك من الذنوب فلا تشكني...

فصل(١)

وأما الخُلَّة فتوحيد المحبة، فالخليل هو الذي توحد حبه لمحبوبه، وهي رتبة لا تقبل المشاركة؛ ولهذا اختص بها في العالم الخليلان: إبراهيم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، كما قال الله تعالى: ﴿**واتَّخَذَ الله إبرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾. [النساء: ١٢٥].

وصح عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»(٢).

---

(١) ٥٤ روضة.

(٢) قال السيوطي: رواه ابن ماجه والبيهقي وغيرهما.

وفي الصحيح(١) عنه، ﷺ: «**لو كنتُ متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً. ولكن صاحبَكم خليلُ الرحمن**». وفي الصحيح أيضًا: «**إني أبرأ إلى كل خليل من خلته**»(٢).

ولما كانت الخلة مرتبة لا تقبل المشاركة؛ امتحن الله سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولده لما أخذ شعبة من قلبه، فأراد سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره، فامتحنه بذبح ولده، والمراد ذبحه من قلبه، لا ذبحه بالمُدْيَة، فلما أسلما لأمر الله وقدم محبة الله تعالى على محبة الولد؛ خلص مقام الخلة وفدي الولد بالذبح.

وقيل: إنما سميت خلة؛ لتخلل المحبة جميع أجزاء الروح. قال:

قد تخلَّلت مسلك الرُّوح مني		وبــذا سمــي الخـليل خليلاً

والخلة الخليلُ يستوي فيه المذكر والمؤنث؛ لأنه في الأصل مصدر قولك: خليل بيِّن الخُلَّة والخُلُولة قال(٣):

ألا أَبْـلِغـا خُــلَّتي جـابـرًا		بــأن خـليلَك لــم يُـقْـتَـل

ويجمع على خلال مثل قلَّة وقِلال. والخل الود والصديق، والخلال أيضًا مصدر بمعنى المخالَّة ومنه قوله تعالى: ﴿**لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ**﴾. [إبراهيم: ٣٦].

وقال في الآية الأخرى: ﴿**لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ**﴾. [البقرة: ٢٥٤].

قال امرؤ القيس:		ولست بمَقْلِيِّ الخِلال ولا قالي(٤)

والخليل الصديق والأنثى خليلة، والخِلالة والخَلالة والخُلالة بكسر الخاء وفتحها وضمها: الصداقة والمودة، قال(٥):

وكيـف تـواصلُ من أصبحت		خلالَــتُــه كأبي مَرْحَــب(٦)

وقد ظن بعض من لا علم عنده؛ أن الحبيب أفضل من الخليل، وقال: **محمد حبيب الله، وإبراهيم خليل الله، وهذا باطل من وجوه كثيرة**

(١) في ن: الصحيحين وهذا الحديث مروي في الصحيحين وغيرهما بألفاظ متقاربة. وسيأتي قريبًا.

(٢) رواه مسلم بلفظ آخر.		(٣) هو أوفى بن مطر المازني.

(٤) قال ياقوت: صدره: صرفت الهوى عنهن من خشية الردى.		(٥) قال ياقوت: هو النابغة الجعدي.

(٦) قال في الصحاح: وأبو مرحب كنية الظل ويقال هو كنية عرقوب الذي قيل فيه مواعيد عرقوب.

منها: أن الخلة خاصة والمحبة عامة، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وقال في عباده المؤمنين: ﴿**يُحِبُّهُم ويُحِبُّونَه**﴾. [المائدة: ٥٤].

ومنها أن النبي، ﷺ، نفى أن يكون له من أهل الأرض خليل، وأخبر أن أحب النساء إليه عائشة ومن الرجال أبوها.

ومنها: أنه قال: «**إنَّ الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**».

ومنها: أنه قال: «**لو كنتُ متخذًا من أهلِ الأرضِ خليلاً لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً؛ ولكنْ أخوةُ الإسلام ومودَّتُه**».

فصل[1]

وقضى رسول الله، ﷺ، أن اليتيمة تستأمر في نفسها «**ولا يُتْمَ بعد احتلام**» فدل ذلك على جواز نكاح اليتيمة قبل البلوغ، وهذا مذهب عائشة، وعليه يدل القرآن والسنة، وبه قال أحمد وأبو حنيفة وغيرهما. قال تعالى: ﴿**ويَسْتَفْتُونَكَ في النِّسَاءِ قُلِ الله يُفتيكُم فيهنَّ ومَا يُتْلى عَلَيْكُم في الكِتَابِ في يَتَامَى النِّساء اللاَّتي لا تُؤتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وتَرغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ**﴾. [النساء: ١٢٧]. قالت عائشة: «هي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في نكاحها، ولا يقسط لها سنة صداقها. فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن سنة صداقهن».

وفي السنن الأربعة عنه، ﷺ: «**اليتيمة تستأمر في نفسها، فإن صمتت فهو إذنها. وإن أبت فلا جواز عليها**».

[2]**وفي** الصحيحين: عن عائشة في قوله: ﴿**وإنِ امرَأَةٌ خَافَتْ منْ بَعلِهَا نُشُوزًا أو إعْـرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصلِحَا بينَهُمَا**﴾. [النساء: ١٢٨]. «نزلت في المرأة تكون عند الرجل، فتطول صحبتها، فيريد طلاقها، فتقول: لا تطلقني وأمسكني، وأنت في حل من النفقة عليَّ والقسم لي. فذلك قوله: ﴿**فلاَ جُنَاحَ عَلَيهِـمَا أَنْ يُصلِحَا بَينَهُمَا صُلحًا والصُّلحُ خيرٌ**﴾». وقضى خليفته الراشد وابن عمه، علي بن أبي طالب: «أنه إذا تزوج الحرة على الأمة: قسم للأمة ليلة، وللحرة **ليلتين**».

---

(١) ٦ زاد المعاد جـ٤.		(٢) ٣٦ زاد المعاد جـ٤.

وقضاء خلفائه ـ وإن لم يكن مساويًا لقضائه ـ فهو كقضائه في وجوبه على الأمة.

وقد احتج الإمام أحمد بهذا القضاء عن علي، وضعفه أبو محمد بن حزم بالمنهال بن عمرو، وبابن أبي ليلى، ولم يصنع شيئًا فإنهما ثقتان حافظان جليلان، ولم يزل الناس يحتجون بابن أبي ليلى على شيء في حفظه، يتقى منه: ما خالف فيه الأثبات، وما تفرد به عن الناس، وإلا فهو غير مدفوع عن الأمانة والصدق[1]. . .

[2]**قال** تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقسطِ شهداءَ لله ـ إلى قوله ـ فإن الله كان بما تعملون خبيراً**﴾. [النساء: ١٣٥].

فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية، وهذا أمر بالقيام به في حق كل أحد: عدوًّا كان، أو وليًّا.

وأحق ما قام به العبد بالقسط: الأقوال، والآراء، والمذاهب؛ إذ هي متعلقة بأمر الله وخبره، فالقيام فيها بالهوى والعصبية: مضاد لأمر الله، مناف لما بعث به رسوله، والقيام فيها بالقسط؛ وظيفة خلفاء الرسول في أمته وأمنائه بين أتباعه. ولا يستحق اسم الإيمان إلا من قام فيها بالعدل المحض: نصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولعباده. وأولئك هم الوارثون حقًّا، لا من يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه؛ معيارًا على الحق، وميزانًا له، يعادي من خالفه، ويوالي من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته. فأين هذا من القيام بالقسط الذي فرضه الله على كل أحد، وهو في هذا الباب؛ أعظم فرضًا وأكبر وجوبًا.

ثم قال: ﴿**شهداء لله**﴾ الشاهد هو المخبر، فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور.

وأمر تعالى أن يكون شهيدًا له مع القيام بالقسط، وهذا يتضمن: أن تكون الشهادة بالقسط، وأن تكون لله لا لغيره.

وقال في الآية الأخرى: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَداءَ بالقِسْطِ**﴾. [المائدة: ٨].

فتضمنت الآيتان أمورًا أربعة: أحدها القيام بالقسط. الثاني: أن يكون لله. الثالث: الشهادة بالقسط. الرابع: أن تكون لله.

للبحث صلة فمن أراده فليرجع إليه أ هـ(ج). (٢) ٢٣ الرسالة التبوكية.

واختصت آية النساء: بالقيام بالقسط، والشهادة لله، وآية المائدة: بالقيام لله، والشهادة بالقسط؛ لسر عجيب من أسرار القرآن ليس هذا موضع ذكره.

ثم قال تعالى: ﴿ولو على أنفُسِكُم أو الوالِديْنِ والأَقْرَبِين﴾. [النساء: ٣٥].
فأمر سبحانه أن يقام بالقسط ويشهد بالقسط على كل أحد؛ ولو كان أحب الناس إلى العبد، فيقوم بالقسط على نفسه ووالديه اللذين هما أصله، وأقاربه الذين هم أخص به وألصق من سائر الناس.

فإن كان ما في العبد من محبة لنفسه ولوالديه وأقربيه يمنعه من القيام عليهم بالحق، ولا سيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم؛ فإنه لا يقوم به في هذه الحال؛ إلا من كان الله ورسوله أحبَّ إليه من كل ما سواهما.

وهذا يمتحن به العبد إيمانه؛ فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله منه.

وعكس هذا عدل العبد في أعدائه ومن يجفوه، فإنه لا ينبغي أن يحمله بغضه لهم أن يحيف عليهم، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن يترك القيام عليهم بالقسط؛ فلا يدخله ذلك البغض في باطل، ولا يقصر به هذا الحب عن الحق. كما قال بعض السلف: العادل هو الذي إذا غضب؛ لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رضي؛ لم يخرجه رضاه عن الحق.

فاشتملت الآيتان على هذين الحكمين: وهما القيام بالقسط، والشهادة به على الأولياء والأعداء.

ثم قال تعالى: ﴿إنْ يَكُنْ غنيًّا أو فَقِيراً فالله أولَى بهمَا﴾. [النساء: ١٣٥]. أي: إن يكن المشهود عليه غنيًّا ترجونه وتأملون عود منفعة غناه عليكم؛ فلا تقومون عليه، أو فقيراً؛ فلا ترجونه ولا تخافونه؛ فالله أولى بهما منكم هو ربهما ومولاهما وهما عبيده؛ كما أنكم عبيده فلا تحابوا غنيًّا لغناه، ولا فقيراً لفقره؛ فإن الله أولى بهما منكم. وقد يقال: فيه معنى آخر أحسن من هذا، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة على الغني والفقير. أما الغني فخوفًا على ماله، وأما الفقير فلإعدامه، وإنه لا شيء له، فتتساهل النفوس في القيام عليه بالحق. فقيل لهم: الله أولى بالغني والفقير منكم، أعلم بهذا وأرحم بهذا، فلا تتركوا أداء الحق والشهادة على غني ولا فقير.

ثم قال: ﴿**فلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أن تَعْدِلُوا**﴾. [النساء: ١٣٥]. نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل.

وقوله: ﴿**أن تعدِلُوا**﴾. منصوب الموضع لأنه مفعول لأجله، وتقديره عند البصريين: كراهية أن تعدلوا، أو حذر أن تعدلوا، فيكون اتباعكم للهوى؛ كراهية العدل، أو فرارًا منه.

وعلى قول الكوفيين التقدير: أن لا تعدلوا، وقول البصريين أحسن وأظهر.

ثم قال تعالى: ﴿**وإن تَلُووا أو تُعرِضُوا فإنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً**﴾ [النساء: ١٣٥]. ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق؛ محذرًا منهما ومتوعدًا عليهما: أحدهما: اللي، والآخر: الإعراض. فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقًا إلى دفعها؛ أعرض عنها وأمسك عن ذكرها؛ فكان شيطانًا أخرس. **وتارة** يلويها ويحرفها. اللي مثال الفتل وهو التحريف. وهو نوعان:

لي في اللفظ، ولي في المعني. فاللي في اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق: إما بزيادة لفظة، أو نقصانها، أو إبدالها بغيرها. ولي في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظًا وإرادة غيره. كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي، ﷺ، وغيره. فهذا أحد نوعي اللي.

والنوع الثاني منه: لي المعنى، وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم، وتجهاله ما لم يرده، أو يسقط منه البعض المراد به، ونحو هذا من لي المعاني. فقال تعالى: ﴿**وإنْ تَلوُوا أو تُعْرِضُوا فإنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً**﴾. [النساء: ١٣٥]. ولما كان الشاهد مطالبًا بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتمها ولا يغيرها؛ كان الإعراض نظير الكتمان، واللي نظير تغييرها وتبديلها. فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم.

والمقصود: أن الواجب الذي لا يتم الإيمان - بل لا يحصل مسمى الإيمان - إلا به: مقابلة النصوص بالتلقي والقبول والإظهار لها ودعوة الخلق إليها، ولا تقابل بالاعتراض تارة وباللي أخرى.

...[(١)] **قال تعالى:** ﴿**ولَنْ يَجْعَلَ الله للكَافِرينَ على المُؤمنِينَ سَبِيلاً**﴾.

(١) ٢٩٤ أحكام جـ١.

[النساء: ١٤١]. ومن أعظم السبيل: تسليط الكافر على انتزاع أملاك المسلمين منهم، وإخراجهم منها قهرًا، وقد قال تعالى: ﴿**لا يَسْتَوي أصحابُ النَّارِ وأصحابُ الجنَّة**﴾. [الحشر: ٢٠]. وهذا يقتضي مطلق المساواة بين المسلم والكافر، لا نفي المساواة المطلقة، فإنها منتفية عن كل شيئين وإن تماثلا.

وبهذه الآية؛ احتج من نفى القصاص بينهم وبين المسلمين.

وأيضا فالذمي تبع لنا في الدار، وليس بأصل من أهل الدار، ولهذا عند الشافعي يؤدي الجزية أجرة لمكان السكنى والتبسط في دار الإسلام، ولهذا متى نقض العهد ألحق بمأمنه، وأخرج من دارنا وألحق بداره، فهو في دار الإسلام أجري مجرى الساكن المنتفع، لا مجرى الساكن الحقيقي؛ وحق السكنى لا يقوى على انتزاع الشقص من يد مالكه.

وقد قال تعالى: ﴿**ولَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبورِ من بَعْدِ الذِّكرِ أن الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبادِي الصَّالِحُونَ**﴾. [الأنبياء: ١٠٥].

وقال النبي ﷺ، لليهود: «**اعلموا أن الأرض لله ورسوله**». فعباده الصالحون هم وارثوها، وهم الملاك لها على الحقيقة، والكفار فيها تبع ينتفعون بها؛ لضرورة إبقائهم بالجزية، فلا يساوون المالكين حقيقة، ولهذا منعهم كثير من الأئمة من شراء الأرض العشرية؛ لما في ذلك من إسقاط حق المسلم من العشر الذي يجب، فكيف يسلطون على انتزاع نفس أرض المسلم وعقاره منه قهرًا.

وأيضا فلو كانوا مالكين حقيقة لما أوصى النبي ﷺ، بإخراجهم من جزيرة العرب وقال: «**لئن عشت لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب**» هذا مع بقائهم على عهدهم، وعدم نقضهم له؛ فلو كانوا مالكين لدورهم حقيقة لما أخرجهم منها ولم ينقضوا عهدًا.

ولهذا احتج الإمام أحمد بذلك على أنه: لا شفعة لهم على مسلم. وهذا من ألطف ما يكون من الفهم، وأدق ما يكون من الفقه.

وأيضا فالشفعة تقف على ملك ومالك، فإذا اختصت الشفعة بملك دون مالك، وهو العقار دون غيره، فأولى أن تختص بمالك دون مالك، وهو المسلم دون غيره، وهذا ـ على أصل من يقول: الشفعة تثبت على خلاف القياس ـ ظاهر

جدًّا، فإنها تسليط على انتزاع ملك الغير منه قهرًا، لمصلحة الشفيع؛ فيجب أن يقتصر بها على ما: قام عليه الدليل، وثبت به الإجماع دون غيره. وأما نحن فليست الشفعة عندنا على خلاف القياس، ولكن حكمة الشارع وقياس أصوله أوجبتها؛ دفعًا لضرر الشركة بحسب الإمكان؛ وإذا كان البائع قد رغب عن الشقص ورضي بالثمن؛ فرغبته عنه لشريكه ليدفع عنه ضرر الشريك الدخيل أولى، وهو يأخذ منه الثمن الذي يأخذه من الشريك، ولا يفوت عليه شيء.

فهذا محض قياس الأصول، ولكن هذا حق للمسلم على المسلم، فلا حق للذمي فيه كسائر الحقوق التي لأهل الإسلام بعضهم على بعض، وإذا كان كثير من الفقهاء يمنعون الذمي من التمليك بالإحياء(١): كعبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد في رواية، وكثير من المالكية مع أن الإحياء لا يتضمن انتزاع ملك مسلم منه؛ فلأن يمنع من انتزاع أرض المسلم وعقاره منه قهرًا؛ أولى وأحرى.

(٢)**قوله** (٣)سبحانه: **﴿ولَنْ يَجْعَلَ الله للكَافِرينَ على المُؤمنينَ سَبيلاً﴾**. [النساء: ١٤١]. فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضاد الإيمان؛ ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تسببُّوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسببوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ومخالفته(٤).

---

(١) قارن مثلاً بكتاب الأم (للشافعي) ٤/١٣٢. (٢) ١٠١ إغاثة جـ١.

(٣) ما قبله يأتي في سورة النحل ويأتي بكامله في سورة نوح إن شاءالله وأيضًا فسيأتي هذا البحث في سورة سبأ نقلاً عن الجواب الكافي ورقمه فيه ص ٢٢.

(٤) رواه الإمام أحمد والبخاري عن البراء بن عازب قال: جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد ـ وكانوا خمسين رجلاً ـ عبدالله بن جبير. قال: ووضعهم موضعاً. وقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم». فهزموهم. قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن على الجبل قد بدت أسوقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبدالله بن جبير: الغنيمة؟ أي قوم الغنيمة. ظهر أصحابكم فما تنظرون؟ قال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله؟ قالوا: إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين. . . الحديث. وفيه: أن انتقال الرماة كان سبباً في كشف ظهر المسلمين، فدخل منه كمين للمشركين فارتد المنهزمون منهم وأحاطوا بالمسلمين، وقتل من المسلمين سبعون.

والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطانًا، حتى جعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلطًا وقهرًا، فمن وجد خيراً،فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه.

فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه، والجميع بقضاء من أزمَّة الأمور بيده، ومردها إليه، وله الحجة البالغة؛ فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكن أبت حكمته وحمده وملكه إلا ذلك ﴿**فللهِ الحَمدُ رَبِّ السمواتِ ورَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالِمِينَ ولَهُ الكِبرِيَاءُ في السَّمواتِ والأَرْضِ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾. [الجاثية: ٣٦، ٣٧].

(١) **ومن** فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الإيمان؛ فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين؛ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وفاته كل خير رتبه الله في كتابه على الإيمان، وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها:

فمنها: الأجر العظيم ﴿**وسوف يؤتِ الله المؤمنين أجرًا عظيمًا**﴾. [النساء: ١٤٦].

ومنها: الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة ﴿**إنَّ الله يُدافِعُ عن الذينَ آمَنُوا**﴾. [الحج: ٣٨].

ومنها: استغفار حملة العرش لهم ﴿**الذينَ يَحمِلُونَ العَرْشَ ومَنْ حَوله يُسَبِّحُونَ بحمدِ ربِّهم ويُؤمِنُونَ به ويَستَغْفِرُونَ للذينَ آمَنُوا**﴾. [غافر: ٧].

ومنها: موالاة الله لهم «**ولا يذل من والاه الله**»، قال الله تعالى: ﴿**الله وليُّ الذينَ آمَنُوا**﴾. [البقرة: ٢٥٧].

ومنها: أمره ملائكته بتثبيتهم ﴿**إذْ يُوحِي ربُّكَ إلى المَلائِكَةِ أنِّي مَعَكُم فثَبِّتُوا الذينَ آمَنُوا**﴾. [الأنفال: ١٢].

ومنها: أن لهم الدرجات عند ربهم، والمغفرة، والرزق الكريم.

ومنها: العزة ﴿**ولله العزَّةُ ولِرَسُولِهِ وللمُؤمِنينَ**﴾. [المنافقون: ٨].

ومنها: معية الله لأهل الإيمان ﴿**وأنَّ الله مَعَ المُؤمِنينَ**﴾. [الأنفال: ١٩].

ومنها: الرفعة في الدنيا والآخرة ﴿**يرفَع الله الذينَ آمَنُوا مِنْكُم والذينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجَاتٍ**﴾. [المجادلة: ١١].

---

(١) الجواب الكافي (٩٤).

ومنها: أنه أعطاهم كفلين من رحمته، وأعطاهم نوراً يمشون به، ومغفرة ذنوبهم.

ومنها: الود الذي يجعله سبحانه لهم، وهو أنه يحبهم ويحببهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين.

ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف **﴿فَمَنْ آمَنَ وأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَليهِمْ ولاَ هُم يَحْزَنُونَ﴾**. [الأنعام: ٤٨].

ومنها: أنهم المنعم عليهم، الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة.

ومنها: أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء **﴿قل هُوَ للذينَ آمَنُوا هُدًى وشِفَاء والذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ في آذانِهِم وَقرٌ وهُوَ عليهِم عَمىً أولئك يُنادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾**. [فصلت: ٤٤].

والمقصود: أن الإيمان سبب جالب لكل خير. وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان. فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئًا يخرجه من دائرة الإيمان، ويحول بينه وبينه، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين، فإن استمر على الذنوب وأصر عليها؛ خيف عليه أن يرين على قلبه فيخرجه عن الإسلام بالكلية.

ومن هنا اشتد خوف السلف كما قال بعضهم: أنتم تخافون الذنوب وأنا أخاف الكفر.

...(1)**قال** تعالى: **﴿مَا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُم إنْ شَكَرْتُم وآمَنْتُم وكَانَ الله شَاكِرًا عَلِيمًا﴾**. [النساء: ١٤٧].

فتأمل ما تحت هذا الخطاب من العدل واللطف والرحمة، وأنه سبحانه ليس له غرض في تعذيبكم، ولا يعذبكم تشفيًا ولا لحاجة به إلى ذلك، ولا هو ممن يعذب سدى وباطلاً بلا موجب ولا سبب؛ ولكن لما تركتم الشكر والإيمان، واستبدلتم بهما: الكفر، والشرك، وجحود حقه عليكم، وإنكار كماله وأبدلتم نعمته كفرًا؛ أحللتم بأنفسكم جزاء ذلك وعقوبته، وسعيتم بجهدكم إلى دار العقوبة ساعين في أسبابها، بل دعاته ورسله تمسك بأيديكم وحجزكم عن الطريق

---

(١) ٣٤٥ مختصر الصواعق جـ١.

الموصلة إلى محل عذابه؛ وأنتم تجاذبونهم أشد المجاذبة، وتتهافتون فيها، ولم يكفكم ذلك حتى بغيتم طريق رضاه ورحمته عوجًا، وصددتم عنها ونفرتم عباده عنها بجهدكم، وآثرتم موالاة عدوه على موالاته وطاعته، فتحيزتم إلى أعدائه؛ متظاهرين عليه ساعين في إبطال دعوته الحق، فما يفعل سبحانه بعذابكم لولا أنكم أوقعتم أنفسكم فيه بما ارتكبتم. وهذا المسلك ظاهر المصلحة والحكمة والعدل في حقهم، وإن كانوا هم الذين فوتوا على أنفسهم المصلحة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُم ولكِنْ كَانُوا أنفُسَهم يَظْلِمُونَ﴾. [النحل: ١١٨]. وهذا الأمر لابد أن يشهدوه؛ إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، ويقروا به ولا يبقى عندهم ريب ولا شك...

(١)**وأما** تسميته سبحانه بالشكور؛ فهو في حديث أبي هريرة.

وفي القرآن تسميته: شاكرًا. قال الله تعالى: ﴿وكَانَ الله شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. [النساء: ١٤٧].

وتسميته أيضًا شكور قال الله تعالى: ﴿والله شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾. [التغابن: ١٧]. وقال تعالى: ﴿إن هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وكَانَ سَعْيُكُم مَشْكُورًا﴾. [الإنسان: ٢٢].

فجمع لهم سبحانه بين الأمرين: أن شكر سعيهم، وأثابهم عليه. والله تعالى يشكر عبده؛ إذا أحسن طاعته ويغفر له؛ إذا تاب إليه؛ فيجمع للعبد: بين شكره لإحسانه، ومغفرته لإساءته، إنه غفور شكور.

وقد تقدم في الباب العشرين ذكر حقيقة شكر العبد وأسبابه ووجوهه.

وأما شكر الرب تعالى؛ فله شأن آخر كشأن صبره، فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة؛ فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بقوله؛ بأن يثني عليه بين ملائكته وفي ملائه الأعلى ويلقي له الشكر بين عباده، ويشكره بفعله فإذا ترك له شيئًا أعطاه

(١) ٣٠٨ عدة الصابرين.

أفضـل منه وإذا بذل له شيئًا رده عليه أضعافًا مضاعفة، وهو الذي وفقه للترك والبذل، وشكره على هذا وهذا.

ولما عقر نبيه سليمان الخيل؛ غضبًا له؛ إذ شغلته عن ذكره فأراد ألا تشغله مرة أخرى؛ أعاضه عنها متن الريح.

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته؛ أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن له؛ شكر له ذلك بأن مكَّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

ولما بذل الشهداء أبدانهم له؛ حتى مزقتها أعداؤه، شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيرًا خضرًا أقرَّ أرواحَهم فيها، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث؛ فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه.

ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبوهم؛ أعاضهم من ذلك بأن: صلى عليهم هو وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في سمواته وبين خلقه؛ فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار.

ومن شكـره سبحـانه: أنه يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، ويخفف به عنه يوم القيامة؛ فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان وهو من أبغض خلقه إليه.

ومن شكره: أنه غفر للمرأة البغي؛ بسقيها كلبًا كان قد جهده العطش؛ حتى أكل الثرى، وغفر لآخر؛ بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين، فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه، والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه.

وأبلغ من ذلك: أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يحسن به إلى نفسه، وشكره؛ بل شكره على قليله بالأضعاف المضاعفة، التي لا نسبة لإحسان العبد إليها، فهو المحسن بإعطاء الإحسان، وإعطاء الشكر؛ فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه؟ وتأمل قوله سبحانه: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُم إِنْ شَكَرْتُم وآمَنْتُم وكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾. [النساء: ١٤٧]. كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى؛ يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرم، كما يأبى إضاعة سعيهم باطلاً،

فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسيء.

وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوًا كبيرًا. فشكره سبحانه؛ اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة؛ فهو منزه عن خلاف ذلك، كما تنزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده.

ومن شكره سبحانه: أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير، ولا يضيع عليه هذا القدر، ومن شكره سبحانه: أن العبد من عباده يقوم له مقامًا يرضيه بين الناس؛ فيشكره له، وينوه بذكره، ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين.

كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأثنى به عليه، ونوه بذكره بين عباده.

وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته إليه، فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، فإنه سبحانه غفور شكور؛ يغفر الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل.

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة؛ كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها وهذا شأن أسمائه الحسنى: أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها. ولهذا يبغض: الكفور والظالم، والجاهل، والقاسي القلب، والبخيل والجبان، والمهين، واللئيم.

وهو سبحانه: جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين.

محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين.

جواد يحب أهل الجود، سِتِّيرٌ يحب أهل الستر، قادر يلوم على العجز، والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف.

عفو يحب العفو، وتر يحب الوتر، وكل ما يحبه؛ من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكل ما يبغضه؛ فهو مما يضادها وينافيها(١).

---

(١) سيأتي إن شاء الله تعالى عن عدة الصابرين زيادة بحث على قوله تعالى في سورة الأنعام **﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾**. [الأنعام: ٥٣].

[(١)] **قوله:** ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾. [النساء: ١٥٥]. أي: ما لعناهم إلا بنقضهم ميثاقهم.

ونحو ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ منْ الله لِنْتَ لَهُمْ﴾. [آل عمران: ١٥٩]. أي: ما لنت لهم إلا برحمة من الله، ولا تسمع قول من يقول من النحاة: أن ما زائدة في هذه المواضع؛ فإنه صادر عن عدم تأمل.

فإن قيل: فمن أين لكم أفادة (ما) هذه للمعنيين المذكورين من النفي والإيجاب، وهي لو كانت على حقيقتها من النفي الصريح لم تفد إلا معنى واحدًا وهو النفي، فإذا لم يكن النفي صريحًا فيها كيف تفيد معنيين؟!.

قيل: نحن لم ندع أنها أفادت النفي والإيجاب بمجردها؛ ولكن حصل ذلك منها، ومن القرائن المحتفة بها في الكلام...

...[(٢)] **فالمسلمون** يؤمنون بالمسيح الصادق الذي جاء من عند الله بالهدى ودين الحق، الذي هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، والنصارى إنما تؤمن بمسيح دعا إلى عبادة نفسه وأمه وأنه ثالث ثلاثة وأنه الله وابن الله، وهذا هو أخو المسيح الكذاب لو كان له وجود، فإن المسيح الكذاب يزعم أنه الله، والنصارى في الحقيقة اتباع هذا المسيح، كما أن اليهود إنما ينتظرون خروجه، وهم يزعمون أنهم ينتظرون النبي الذي بشروا به، فعوضهم الشيطان بعد مجيئه من الإيمان به انتظارًا للمسيح الدجال.

وهكذا كل من أعرض عن الحق؛ يعوض عنه بالباطل.

وأصل هذا: أن إبليس لما أعرض عن السجود لآدم كبرًا أن يخضع له؛ تعوض بذلك ذل القيادة لكل فاسق ومجرم من بنيه، فلا بتلك النخوة ولا بهذه الحرفة.

والنصارى لما أنفوا أن يكون المسيح عبدًا لله؛ تعوضوا من هذه الأنفة بأن رضوا بجعله مصفعة اليهود ومصلوبهم الذي يسخرون منه ويهزءون به، ثم عقدوا له تاجًا من الشوك بدل تاج الملك، وساقوه في حبل إلى خشبة الصلب يصفقون حوله ويرقصون. فلا بتلك الأنفة له من عبودية الله، ولا بهذه النسبة له إلى أعظم الذل والضيق والقهر...

(١) ١٥٠ بدائع جـ٢. (٢) ٦٥ هداية.

(١) **ونحن** نذكر الآن الأمر كيف ابتدأ وتوسط، وانتهى، حتى كأنك تراه عياناً

كان الله سبحانه قد بشر بالمسيح على ألسنة أنبيائه، من لدن موسى إلى زمن داود ومن بعده من الأنبياء، وأكثر الأنبياء تبشيراً به داود، وكانت اليهود تنتظره وتصدق به قبل مبعثه، فلما بعث كفروا به؛ بغيًا وحسدًا، وشردوه في البلاد وطردوه وحبسوه، وهموا بقتله مرارًا إلى أن أجمعوا على القبض عليه وعلى قتله، فصانه الله وأنقذه من أيديهم، ولم يهنه بأيديهم، وشبه لهم بأنهم صلبوه ولم يصلبوه، كما قال تعالى: ﴿**وبِكُفْرِهم وقَوْلِهِم على مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وقولِهم إنَّا قَتَلْنَا المَسْيحَ عيسى ابنَ مَرْيَم رَسُولَ الله ومَا قَتَلُوهُ ومَا صَلَبُوهُ ولكن شُبِّه لهم وإنَّ الذينَ اختَلَفُوا فيهِ لَفِي شكٍّ مِنهُ ما لَهُمْ بِهِ من عِلْمٍ إلاَّ اتّباعَ الظَّنِّ ومَا قَتَلُوه يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ الله إليه وكَانَ الله عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾. [النساء: ١٥٦- ١٥٨].

وقد اختلف في معنى قوله: ﴿**ولِكِن شُبِّهِ لَهُم**﴾.

فقيل: المعنى: ولكن شبه للذين صلبوه بأن ألقى شبهه على غيره فصلبوا الشبه

وقيل: المعنى: ولكن شبه النصارى أي: حصلت لهم الشبهة في أمره وليس لهم علم بأنه ما قتل وما صلب؛ ولكن لما قال أعداؤه: إنهم قتلوه وصلبوه، واتفق رفعه من الأرض؛ وقعت الشبهة في أمره، وصدقهم النصارى في صلبه لتتم الشناعة عليهم، وكيف ما كان فالمسيح صلوات الله وسلامه عليه؛ لم يقتل ولم يصلب يقينًا لا شك فيه.

ثم تفرق الحواريون في البلاد بعد رفعه، على دينه ومنهاجه يدعون الأمم إلى: توحيد الله، ودينه، والإيمان بعبده ورسوله ومسيحه، فدخل كثير من الناس في دينه ما بين ظاهر مشهور ومختف مستور، وأعداء الله اليهود في غاية الشدة والأذى لأصحابه وأتباعه، ولقي تلاميذ المسيح وأتباعه من اليهود ومن الروم شدة شديدة من قتل وعذاب وتشريد وحبس وغير ذلك.

وكان اليهود في زمن المسيح في ذمة الروم وكانوا ملوكًا عليهم، وكتب نائب الملك ببيت المقدس إلى الملك؛ يعلمه بأمر المسيح وتلاميذه وما يفعل من العجائب

---

(١) هداية (٦٧).

الكثيرة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فهم أن يؤمن به ويتبع دينه فلم يتابعه أصحابه.

ثم هلك وولي بعده ملك آخر؛ فكان شديدًا على تلامذة المسيح . . .

...[1]**قوله**: وأما قول الله عز وجل: ﴿**وكلَّم الله مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾. [النساء: ١٦٤]. فليس هو من باب المجاز؛ بل هو حقيقة.

فيقال له: ما أسرع ما هدمت جميع ما بنيته ونقضت كل ما أصلته، فإنك قدمت في أول الباب أن الفعل يقتضي جميع أفراد المصدر وهذا محال فالأفعال عامتها مجاز.

وقدمت أن خلق الله السموات والأرض مجاز، وعلم الله مجاز، فما بال ﴿**وكلم الله موسى**﴾ وحده حقيقة من بين سائر الأفعال.

ومن العجب أن يكون خلق الله السموات والأرض وعلم الله عندك مجازًا، وهو أظهر للأمم من كل ظاهر ﴿**وكلَّم الله مُوسى تَكْلِيمًا**﴾. [النساء: ١٦٤]. حقيقة وفيه من أظهر الخلاف والخفاء ما لا يخفى.

ونحن لا نشك أن الجميع حقيقة ومن قال: إن ذلك أو بعضه مجاز فهو ضال، ولكن القائلون بأن ﴿**كلم الله موسى**﴾ مجاز يقولون أن خلق الله وعلم الله حقيقة، وهم الجهمية والكلابية.

وأما القائلون بخلق القرآن فلهم قولان: أكثرهم يقول: إنه مجاز، وبعضهم يقول: إنه حقيقة، وكلم الله ويكلم حقيقة في خلق حروف وأصوات يكون متكلمًا مكلمًا،والمتكلم عندهم حقيقة من فعل الكلام، وحقيقة الكلام عندهم هي الحروف والأصوات، وأصابوا في ذلك لكن أخطؤوا في اعتقادهم أن المتكلم من فعل الكلام في غيره، ولم يقم به فالكلام عندهم مخلوق والرب لم يقم به عندهم كلام، ولا أمر ولا نهي.

وهؤلاء الذين اتفق السلف وأئمة الإسلام على تكفيرهم.

...[2]**في** الحديث الصحيح الذي بلغناه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وسائر

---

(١) ١٠٥ مختصر الصواعق جـ٢.　(٢) ٢٧٨ مختصر الصواعق جـ٢.

الأمة تلقته بالقبول، وتقييده بالصوت إيضاحًا وتأكيدًا كما قيد التكليم بالمصدر في قولـه: ﴿**وكلَّم الله موسَى تَكليمًا**﴾. قال البخاري في صحيحه: حدثنا عمر بن حفص بن غياث: حدثنا أبي: حدثنا الأعمش: حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللهﷺ: «**يقول الله تعالى: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك. فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار**».

[(١)]**وقد** دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على أن الله سبحانه يتكلم بمشيئته. كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته، وهي صفة ذات وفعل قال تعالى: ﴿**إنَّما قولُنا لشيءٍ إذَا أردْنَاهُ أنْ نَقُولَ لهُ كُنْ فَيَكُون**﴾. [النحل: ٤٠].

وقوله: ﴿**إنَّما أمرُهُ إذا أَرادَ شَيئًا أنْ يَقُولَ لهُ كُنْ فَيَكُون**﴾. [يس: ٨٢].

فإذا تخلص الفعل للاستقبال و﴿**أن**﴾ كذلك ﴿**ونقول**﴾ فعل دال على الحال والاستقبال ﴿**وكن**﴾ حرفان يسبق أحدهما الآخر فالذي اقتضته هذه الآية؛ هو الذي في صريح العقول والفطر.

وكذلك قوله: ﴿**وإذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهلِكَ قَرْيَةً**﴾. [الإسراء: ١٦]. سواء كان الأمر هاهنا: أمر تكوين، أو أمر تشريع؛ فهو موجود بعد أن لم يكن.

وكذلك قوله: ﴿**ولَقَدْ خَلَقْنَاكُم ثُمَّ صَوَّرنَاكُم ثُمَّ قُلْنَا للمَلاَئِكَةِ اسجُدُوا لآدَمَ**﴾. [الأعراف: ١١]. وإنما قال لهم: اسجدوا بعد خلق آدم وتصويره.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**ولَمَّا جَاءَ مُوسى لِمِيقَاتِنَا وكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إلَيْكَ قالَ لَنْ تَرَانِي**﴾. [الأعراف: ١٤٣]. الآيات كلها. فكم من برهان يدل على أن التكلم هو الخطاب وقع في ذلك الوقت.

وكذلك قوله: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِيءِ الوَادِ الأَيْمَن**﴾. [القصص: ٣٠].

والذي ناداه هو الذي قال له: ﴿**إنَّني أنَا الله لا إلـهَ إلاَّ أنَا فَاعْبُدْنِي**﴾. [طه: ١٤].

وكذلك قولـه: ﴿**ويَـوْمَ يُنَادِيهِم فَيَقُولُ**﴾. [القصص: ٦٥]. وقوله: ﴿**يَوْمَ يَحْشُرُهُم جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ للمَلاَئِكَةِ أَهْؤلاءِ إيَّاكُم كَانُوا يَعْبُدُونَ**﴾. [سبأ: ٤٠]. وقوله: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ**﴾. [ق: ٣٠].

---

(١) ٢٩٦ مختصر الصواعق جـ٢.

ومحال أن يقول سبحانه لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ قبل خلقها ووجودها.

وتأمل نصوص القرآن من أوله إلى آخره، ونصوص السنة ولاسيما أحاديث الشفاعة وحديث المعراج وغيرها.

...(١)**بل** إذا تأمل من بصره الله تعالى طريقة القرآن والسنة؛ وجدها متضمنة لدفع ما يوهمه الكلام من خلاف ظاهره، وهذا موضع لطيف جدًا في فهم القرآن نشير إلى بعضه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**وكَلَّمَ الله مُوسى تَكْلِيمًا**﴾. [النساء: ١٦٤]. رفع سبحانه توهم المجاز في تكليمه لكليمه بالمصدر المؤكد الذي لا يشك عربي القلب واللسان، أن المراد به: إثبات تلك الحقيقة كما تقول العرب: مات موتًا ونزل نزولاً، ونظائره. ونظيره التأكيد بالنفس والعين وكل وأجمع، والتأكيد بقوله حقًا ونظائره.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**قَدْ سَمِعَ الله قَولَ التي تُجَادِلُكَ في زَوْجِهَا وتَشْتَكِي إلى الله والله يَسمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إنَّ الله سميعٌ بصيرٌ**﴾. [المجادلة: ١]. فلا يشك صحيح الفهم ألبتة في هذا الخطاب: أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه، في إثبات صفة السمع للرب تعالى حقيقة، وأنه بنفسه يسمع.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**والذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ**﴾. [الأعراف: ٤٢]. فرفع توهم السامع أن المكلف به عمل جميع الصالحات المقدورة المعجوز عنها، كما يجوزه أصحاب تكليف مالا يطاق، رفع هذا التوهم بجملة اعترض بها بين المبتدأ وخبره تزيل الإشكال. **ونظيره** ﴿**وأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ بالقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا**﴾. [الأنعام: ١٥٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَقَاتِلْ في سَبيلِ الله لا تُكَلَّفُ إلَّا نَفْسَكَ وحَرِّضِ المُؤمِنِينَ**﴾. [النساء: ٨٤]. فلما أمره بالقتال وأخبره أنه لا يكلف بغيره، بل إنما يكلف بنفسه أتبعه بقوله: ﴿**وحَرِّضِ المؤمِنينَ**﴾؛ لئلا يتوهم سامع أنه وإن لم يكلف بهم فإنه يهملهم ويتركهم...

(١) ٦٩ مختصر الصواعق جـ١.

(١) **احتج** بعض أهل السنة على القائلين من المعتزلة: بأن تكليم الله لموسى؛ مجاز بقوله: ﴿وكلَّم الله موسَى تَكلِيمًا﴾. فأكد الفعل بالمصدر، ولا يصح المجاز مع التوكيد.

قال السهيلي: فذاكرت بها شيخنا أبا الحسن فقال: هذا حسن لولا أن سيبويه أجاز في مثل هذا؛ أن يكون مفعولاً مطلقًا وإن لم يكن منعوتًا في اللفظ، فيحتمل على هذا أن يريد: تكليمًا ما، فلا يكون في الآية حجة قاطعة، والحجاج (٢) عليهم كثيرة.

قلت: وهذا ليس بشيء، والآية صريحة في أن المراد بها تكليم أخص من الإيحاء؛ فإنه ذكر أنه أوحى إلى نوح والنبيين من بعده، وهذا الوحي هو التكليم العام المشترك، ثم خص موسى باسم خاص وفعل خاص وهو كلم تكليمًا، ورفع توهم إرادة التكليم العام عن الفعل بتأكيده بالمصدر، وهذا يدل على اختصاص موسى بهذا التكليم. ولو كان المراد تكليمًا ما لكان مساويًا لما تقدم من الوحي أو دونه وهو باطل.

وأيضا فإن التأكيد في مثل هذا السياق: صريح في التعظيم، وتثبيت حقيقة الكلام والتكليم فعلاً ومصدرًا. ووصفه بما يشعر بالتقليل مضاد للسياق فتأمله.

وأيضا فإن الله سبحانه قال لموسى: ﴿إنِّي اصْطَفَيْتُكَ على النَّاسِ بِرِسَالاتي وبِكَلامِي﴾. [الأعراف: ١٤٤]. فلو كان التكليم الذي حصل له تكليمًا ما كان مشاركًا لسائر الأنبياء فيه فلم يكن لتخصيصه بالكلام معنى.

وأيضا فإن وصف المصدر ههنا مؤذن بقلته، وأن نوعًا من أنواع التكليم حصل له، وهذا محال ههنا؛ فإن الإلهام تكليم ما؛ ولهذا سماه الله تعالى وحيًا والوحي تكليم ما فقال: ﴿وأَوْحَينَا إلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أرضِعِيهِ﴾. [القصص: ٧]. ﴿وإذ أَوْحيتُ إلى الحَوَارِيينَ﴾. [المائدة: ١١١]. ونظائره.

وقال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه. فكل هذه الأنواع تسمى تكليمًا ما.

---

(١) ٧٨ بدائع جـ٢.

(٢) كذا أيضًا في المخطوطة ولعله الحجج عليهم كثيرة (ح).

وقد خص الله سبحانه موسى واصطفاه على البشر بكلامه له.

وأيضًا فإن الله سبحانه حيث ذكر موسى؛ ذكر تكليمه له باسم التكليم الخاص دون الاسم العام كقوله: ﴿**ولَمَّا جَاءَ مُوسى لِمِيقَاتِنَا وكَلَّمَهُ رَبُّهُ قال رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إليكَ قالَ لَنْ تَرَانِي**﴾. [الأعراف: ١٤٣]. بل ذكر تكليمه له بأخص من ذلك، وهو تكليم خاص كقوله: ﴿**ونَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا**﴾. [مريم: ٥٢]. فناداه وناجاه، والنداء والنجاء أخص من التكليم؛ لأنه تكليم خاص: فالنداء تكليم من البعد يسمعه المنادى، والنجاء تكليم من القرب.

وأيضًا فإنه اجتمع في هذه الآية ما يمتنع معه حملها على ما ذكره، وهو أنه ذكر الوحي المشترك، ثم ذكر عموم الأنبياء بعد محمد ونوح، ثم ذكر موسى بعينه بعد ذكر النبيين عمومًا، ثم ذكر خصوص تكليمه، ثم أكده بالمصدر. وكل من له أدنى ذوق في الألفاظ ودلالتها على معانيها؛ يجزم بأن هذا السياق يقتضي تخصيص موسى بتكليم لم يحصل لغيره، وأنه ليس تكليمًا ما. فما ذكره أبو الحسن غير حسن بل باطل قطعًا.

(١) **المثال** العاشر: رد الجهمية النصوص المحكمة الصريحة التي تفوت العد على أن الله سبحانه: تكلم ويتكلم، وكلم ويكلم، وقال ويقول، وأخبر ويخبر، ونبأ وأمر ويأمر، ونهى وينهى، ورضي ويرضى، ويعطي ويبشر وينذر ويحذر، ويوصل لعباده القول ويبين لهم ما يتقون، ونادى وينادي، وناجى ويناجي، ووعد وأوعد، ويسأل عباده يوم القيامة ويخاطبهم، ويكلم كلًّا منهم ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب، ويراجعه عبده مراجعة. وهذه كلها أنواع للكلام والتكليم، وثبوتها بدون ثبوت صفة التكلم له ممتنع، فردها الجهمية مع إحكامها وصراحتها وتعيينها للمراد منها؛ بحيث لا تحتمل غيره بالمتشابه من قوله: ﴿**ليس كمثلِهِ شيء**﴾. [الشورى: ١١].

المثال الحادي عشر: ردوا محكم قوله: ﴿**ألا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ**﴾. [الأعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿**ولكن حقَّ القَولُ مِني**﴾. [السجدة: ١٣]. وقوله: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ**

---

(١) ٢٨٠ أعلام جـ٢.

روحُ القُـدُسِ من رَبِّـكَ بالحَقِّ﴾. [النحل: ١٠٢]. وقـولـه: ﴿وكلَّم الله مُوسى تَكْلِيـماً﴾. [النسـاء: ١٦٤]. وقـولـه: ﴿إنِّي اصْـطَفَيْتُـكَ على النَّـاسِ بِرِسَـالاَتي وبكَلاَمِي﴾. [الأعراف: ١٤٤]. وغيرها من النصوص المحكمة بالمتشابه من قوله: ﴿خالِقُ كُلِّ شيَء﴾. [الزمر: ٦٢].

وقوله: ﴿إنَّه لقوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾. [الحاقة: ٤٠]. والآيتان حجة عليهم.

فإن صفات الله جل جلاله؛ داخلة في مسمى اسمه؛ فليس «الله» اسماً لذات: لا سمع لها، ولا بصر لها، ولا حياة لها، ولا كلام لها، ولا علم، وليس هذا رب العالمين، وكلامه تعالى وعلمه وحياته وقدرته ومشيئته ورحمته؛ داخلة في مسمى اسمه؛ فهو سبحانه بصفاته وكلامه الخالق، وكل ما سواه مخلوق.

وأما إضافة القرآن إلى الرسول فإضافة تبليغ محض، لا إنشاء. والرسالة تستلزم تبليغ كلام المرسِل، ولو لم يكن للمرسِلِ كلام يبلغه الرسول لم يكن رسولاً؛ ولهذا قال غير واحد من السلف: مَنْ أنكر أن يكون الله متكلماً فقد أنكر رسالة رسله؛ فإن حقيقة رسالتهم تبليغ كلام مَنْ أرسلهم؛ فالجهمية وإخوانهم ردُّوا تلك النصوص المحكمة بالمتشابه، ثم صيروا الكل متشابهاً، ثم ردوا الجميع، فلم يثبتوا لله: فعلاً يقوم به يكون به فاعلاً، كما لم يثبتوا له:كلاماً يقوم به يكون به متكلماً؛ فلا كلام له عندهم ولا أفعال، بل كلامه وفعله عندهم مخلوق منفصل عنه، وذلك لا يكون صفة له؛ لأنه سبحانه إنما يوصف بما قام به لا بما لم يقم به.

...(١) **وقوله:** ﴿لكنِ الله يَشهَدُ بمَا أَنْزَلَ إليكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ والمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾. [النساء: ١٦٦]. فما فيه من الخبر عن علم الله الذي لا يعلمه غيره؛ من أعظم الشهادة بأنه هو الذي أنزله. كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُل فَأتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِه مُفْتَرَيات. وادعُوا من اسْتَطَعْتُم من دُونِ الله إنْ كُنتُم صَادِقِينَ. فَإن لم يستجيبوا لَكُم فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعلمِ الله. وأَنْ لَّا إلـهَ إلا هُو فَهَل أَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾. [هود: ١٣، ١٤]. وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله ـ وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء. فإن كل شيءٍ معلوم له من حق وباطل ـ وإنما المعنى: أنزله مشتملاً على علمه. فنزوله مشتملاً على علمه؛ هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق. ونظير هذا قوله: ﴿قُلْ

(١) ٤٧٠ مدارج جـ٣.

أَنْـزَلَـهُ الذي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمواتِ والأَرْضِ﴾. [الفرقان: ٦]. ذكر ذلك سبحانه تكذيبًا وردًّا على من قال: **﴿افتَرَاهُ﴾**.

(١)**قال** تعالى: **﴿لكِنِ الله يَشهَدُ بِما أَنْزلَ إليْكَ أَنْزَلَهُ بِعلْمِهِ﴾**. [النساء: ١٦٦]. أي: أنزله وفيه علمه الذي لا يعلمه البشر؛ فالباء للمصاحبة مثل قوله: **﴿فَإنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُم فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلمِ الله﴾**. [هود: ١٤]. أي: أنزل وفيه علم الله، وذلك من أعظم البراهين على صدق نبوة من جاء به.

ولم يصنع شيئًا من قال: إن المعنى أنزله وهو يعلمه. وهذا وإن كان حقًّا فإن الله يعلم كل شيء، فليس في ذلك دليل وبرهان على صحة الدعوى، فإن الله يعلم الحق والباطل بخلاف ما إذا كان المعنى: أنزله متضمنًا لعلمه الذي لا يعلمه غيره إلا من أطلعه الله وأعلمه به، فإن هذا من أعظم أعلام النبوة والرسالة.

وقال فيما عارضه من الشبه الفاسدة التي يسميها أربابها قواطع عقلية: **﴿إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وإنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحقِّ شَيْئًا﴾**. [النجم: ٢٨]. وقال تعالى: **﴿إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وإن هُمْ إلَّا يَخْرُصُونَ﴾**. [الأنعام: ١١٦].

وقال لمن أنكر المعاد بعقله: **﴿وقَالُوا ما هيَ إلَّا حَياتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ ونَحْيَا وما يُهْلِكُنَا إلَّا الدَّهْرُ وما لَهُمْ بذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ﴾**. [الجاثية: ٢٤].

والظن الذي أثبته سبحانه للمعارضين نصوص الوحي بعقولهم؛ ليس هو الاعتقاد الراجح؛ بل هو أكذب الحديث وقال: **﴿قُتِلَ الخَرَّاصُونَ. الذينَ هُمْ في غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾**. [الذاريات: ١٠، ١١].

وأنت إذا تأملت ما عند هؤلاء المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم؛ رأيت كله خرصًا، وعلمت أنهم هم الخراصون، وأن العلم في الحقيقة ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقام الله به حجته وهدى به أنبياءه ورسله وأتباعهم، وأثنى عليهم فقال: **﴿كَما أَرْسَلْنا فيكُمْ رَسُولاً مِنْكُم يَتْلُوا عليْكُم آياتِنَا ويُزَكِّيكم ويُعَلِّمُكم الكِتَاب والحِكمَة ويُعَلِّمكُم ما لَمْ تَكُونوا تَعْلَمُون﴾**. [البقرة: ١٥١].

وقال تعالى: **﴿وأَنْزَلَ الله عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَم**

(١) ١٤٩ مختصر الصواعق جـ١.

وكَانَ فَضْلُ الله عَليكَ عَظيمًا﴾. [النساء: ١١٣].

وقال تعالى: **﴿لَقَدْ مَنَّ الله على المُؤمِنينَ إذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسهِمْ يَتْلُو عليهِمْ آيَاتِهِ ويُزَكِّيهم ويُعَلِّمُهُم الكِتَابَ والحِكْمَةَ﴾.** [آل عمران: ١٦٤]. فهذه النعمة والتزكية؛ إنما هي لمن عرف أن ما جاء به الرسول وأخبر به عز وجل عن صفاتـه وأفعاله؛ هو الحق كما أخبر به، لا كمن زعم أن ذلك مخالف لصريح العقل، وأن العقول مقدمة عليه. والله المستعان.

فصل(١)

والله تعالى جعل العبودية؛ وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه. فقال: **﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكونَ عبدًا لله ولاَ المَلاَئِكَةُ المقرَّبونَ ومَنْ يَستَنْكِفْ عنْ عِبَادَتِه ويَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرهم إليه جميعًا﴾.** [النساء: ١٧٢].

وقال: **﴿إنَّ الـذينَ عِنْـدَ رَبِّكَ لا يَستَكبِرُونَ عن عِبَادَتِه ويُسَبِّحُونَه ولهُ يَسجُدُونَ﴾.** [الأعراف: ٢٠٦].

وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء: **﴿ولهُ مَنْ في السَّمواتِ والأَرْضِ﴾.** ههنا.

ثم يبتـدىء **﴿ومَنْ عِنـدَهُ لا يَستَكـبِرونَ عنْ عِبـادَتِـهِ ولاَ يَسْتَحْسِرونَ. يُسبِّحُونَ الليلَ والنَّهارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾.** [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي: إن له من في السموات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا.

ثم استأنف جملة أخرى فقال: **﴿ومِنْ عِنده لاَ يَستَكبِرونَ عنْ عِبادتِهِ﴾.** يعني: أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني: لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون ـ يقال: حَسَرَ واستحسر، إذا تعب وأعيا ـ بل عبـادتهم وتسبيحهم كالنفَس لبني آدم. فالأول: وصف لعبيد ربوبيته. والثاني: وصف لعبيد إلـهيته.

وقال تعـالى: **﴿وعِبَـادُ الـرَّحمنِ الـذينَ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْنًا﴾.** [الفرقان: ٦٣]. إلى آخر السورة.

---

(١) ١٠٢ مدارج جـ١.

وقال: ﴿عينًا يَشْرَبُ بها عِبادُ الله يُفَجِّرُونها تفْجيراً﴾. [الإنسان: ٦].

وقال: ﴿واذْكر عبْدَنا داودَ﴾. [ص: ٣٨].

وقال: ﴿واذْكُر عَبدَنا أيْوبَ﴾. [ص: ٤١].

وقال: ﴿واذكُر عِبادَنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعْقُوبَ﴾. [ص: ٤٥].

وقال عن سليمان: ﴿نِعْمَ العَبْدُ إنَّه أوَّاب﴾. [ص: ٣٠].

وقال عن المسيح: ﴿إنْ هُوَ إلاَّ عَبدٌ أنْعمنا عَليه﴾. [الزخرف: ٥٩].

فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى.

ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته. فقال تعالى: ﴿إنْ كُنتُم في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا﴾. [البقرة: ٢٣]. وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ على عَبْدِهِ﴾. [الفرقان: ١]. وقال: ﴿الحمد لله الذي أنْزَلَ على عَبْدِهِ الكِتابَ﴾. [الكهف: ١].

فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله.

وقال: ﴿وأنَّه لَمَّا قَامَ عَبدُ الله يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلِيهِ لِبَدًا﴾. [الجن: ١٩].

فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه.

وقال: ﴿سُبْحَانَ الذي أسْرَى بِعَبْدِهِ ليلاً﴾. [الإسراء: ١]. فذكره بالعبودية في مقام الإسراء.

وفي الصحيح عنه ﷺ، أنه قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد. فقولوا: عبدالله ورسوله**».

وفي الحديث: «**أنا عبد. آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**».

وفي صحيح البخاري: عن عبدالله بن عمرو قال: قرأت في التوراة صفة محمد ﷺ: «محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخَّاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر».

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده. فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ الذينَ يَسْتَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ﴾. [الزمر: ١٧، ١٨].

وجعل الأمن المطلق لهم. فقال تعالى: ﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عليكُمُ اليَومَ ولا أنْتُم تَحْزَنُونَ. الذينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وكَانُوا مُسْلِمينَ﴾. [الزخرف: ٦٨، ٦٩].

وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به. فقال: ﴿إنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَليهِمْ سُلطانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوينَ﴾. [الحجر: ٤٢]. وقال: ﴿إنَّه لَيْسَ لَهُ سُلطَانٌ عَلَى الذينَ آمَنُوا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُون. إنَّما سُلطَانُهُ على الذيـن يَتولَّونَهُ والذين هم بِهِ مُشْركون﴾. [النحل: ١٠٠].

وجعل النبي، ﷺ، إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان. فقال في حديث جبريل ـ وقد سأله عن الإحسان ـ: «**أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

...[1]**ثم** إن الجهمي ادعى أمرًا فقال: أنا أجد آية في كتاب الله مما يدل على أن القرآن مخلوق: قول الله تعالى: ﴿إنَّما المسيحُ عيسى ابنُ مَريَمَ رَسُولُ الله وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنْهُ﴾. [النساء: ١٧١] وعيسى مخلوق.

قلنا له: إن الله تعالى منعكِ الفهم للقرآن؛ إن عيسى تجري عليه ألفاظ لا تجري على القرآن؛ لأنا نسميه مولودًا وطفلاً وصبيًا وغلامًا يأكل ويشرب، وهو مخاطب بالأمر والنهي، يجري عليه الخطاب والوعد والوعيد.

ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم، فلا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى، فهل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى؟ ولكن المعنى في قوله تعالى: ﴿إنَّما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ الله وكلمته أَلْقَاهَا إلى مريمَ وروحٌ مِنْهُ﴾. فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: كن، فكان عيسى بكن وليس عيسى هو كن، ولكن كان بكن، فكن من الله قول، وليس كن مخلوقًا.

وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى؛ وذلك أن الجهمية قالوا: روح الله وكلمته إلا أن كلمته مخلوقة.

وقالت النصارى: عيسى روح الله وكلمته من ذاته؛ كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب.

قلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة، وإنما الكلمة قول الله تعالى كن وقوله: ﴿رُوحٌ مِنه﴾ يقول من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى:

---

(١) ١٧٩ الروح.

﴿وسَخَّرَ لَكُم ما في السَّمواتِ ومَا في الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾. [الجاثية: ١٣]. يقول من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها: بكلمة الله خلقها، كما يقال: عبدالله وسماء الله وأرض الله. فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الأرواح.

وقد أضاف الله إليه الروح الذي أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله، ولم يدل ذلك؛ على أنه قديم غير مخلوق، فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إليهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قالتْ إنِي أَعُوذُ بالرحمنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيًّا. قالَ إنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّك لأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا﴾. [مريم: ١٧ - ١٩]. فهذا الروح؛ هو روح الله وهو عبده ورسوله.

سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **الله** سبحانه وتعالى يقول في كتابه: ﴿**وتعاوَنُوا على البِرِّ والتَّقوى ولا تَعاوَنُوا على الإِثْمِ والعُدوانِ واتَّقوا الله إنَّ الله شديدُ العِقابِ**﴾. [المائدة: ٢].

وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد: في معاشهم، ومعادهم، فيما بينهم بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم؛ فإن كل عبد لا ينفك من هاتين الحالتين، وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق.

فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها؛ أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم؛ تعاونًا على مرضاة الله، وطاعته التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدين كله، وإذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر: إما تضمنًا وإما لزومًا. ودخوله فيه تضمنًا أظهر؛ لأن البر جزء مسمى التقوى، وكذلك التقوى فإنها جزء مسمى البر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران؛ لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند الانفراد.

ونظير هذا لفظ: الإيمان والإسلام، والإيمان والعمل الصالح، والفقير والمسكين، والفسوق والعصيان، والمنكر والفاحشة، ونظائره كثيرة.

وهذا قاعدة جليلة من أحاط بها؛ زالت عنه إشكالات كثيرة أشكلت على طوائف كثيرة من الناس.

ولنذكر من هذا مثالاً واحدًا يستدل به على غيره، وهو البر والتقوى.

فإن حقيقة البِر هو: الكمال المطلوب من الشيء والمنافع التي فيه والخير، كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها في الكلام.

ومنه البُر بالضم؛ لمنافعه وخيره بالإضافة إلى سائر الحبوب، ومنه رجل بار وبر، وكرام بررة، والأبرار.

فالبر كلمة جامعة لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد، وفي مقابلته الإثم.

(١) ٣ الرسالة التبوكية.

وفي حديث النواس بن سمعان، أن النبي ﷺ، قال له: «جئت تسأل عن البر والإثم».

فالإثم كلمة جامعة للشرور والعيوب التي يذم العبد عليها. فيدخل في مسمى البر: الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة.

ولا ريب أن التقوى جزء هذا المعنى، وأكثر ما يعبر بالبر عن بر القلب، وهو وجود طعم الإيمان فيه وحلاوته، وما يلزم ذلك من طمأنينته وسلامته وانشراحه وقوته وفرحه بالإيمان، فإن للإيمان فرحة وحلاوة ولذة في القلب، فمن لم يجدها؛ فهو فاقد الإيمان أو ناقصه، وهو من القسم الذي قال الله عز وجل فيهم: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا يدخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكم﴾. [الحجرات: ١٤]. فهؤلاء على أصح القولين مسلمون غير منافقين، وليسوا بمؤمنين؛ إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم فيباشرها حقيقة.

وقد جمع الله خصال البر في قوله تعالى: ﴿لَيسَ البرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجوهَكُم قِبَلَ المَشرِقِ والمَغرِبِ ـ إلى قوله ـ وأُولئِكَ هُمُ المُتَّقونَ﴾. [البقرة: ١٧٧].

فأخبر سبحانه أن البر هو: الإيمان بالله، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر. وهذه هي أصول الإيمان الخمسة التي لا قوام للإيمان إلا بها. وأنها الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة. وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه: من الصبر، والوفاء بالعهد.

فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين: حقائقه وشرائعه، والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب، وأصول الإيمان الخمسة.

ثم أخبر سبحانه عن هذه: أنها هي خصال التقوى بعينها فقال: ﴿أُولئِكَ الذينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقون﴾.

وأما التقوى فحقيقتها: العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا أو نهيًا، فيفعل ما أمر الله به: إيمانًا بالأمر، وتصديقًا بوعده. ويترك ما نهى الله عنه: إيمانًا بالنهي، وخوفًا من وعيده.

كما قال طلق بن حبيب: «إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى». قالوا: وما التقوى؟ قال: «أن تعمل بطاعة الله على نور من الله؛ ترجو ثواب الله، وأن تترك

معصية الله على نور من الله ؛ تخاف عقاب الله» .

وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى، فإن كل عمل لابد له من مبدإ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة ؛ حتى يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض: لا العادة ولا الهوى، ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك ؛ بل لابد أن يكون مبدؤه ؛ محض الإيمان، وغايته ؛ ثواب الله تعالى، وابتغاء مرضاته، وهو الاحتساب .

ولهذا كثيراً ما يقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النبي، ﷺ: **«من صامَ رمضان إيمانًا واحتسابًا»** و **«من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا»** ونظائره .

فقوله: على نور من الله ؛ إشارة إلى الأصل الأول، وهو الإيمان الذي هو مصدر العمل، والسبب الباعث عليه .

وقوله: ترجو ثواب الله ؛ إشارة إلى الأصل الثاني، وهو الاحتساب، وهو الغاية التي لأجلها يُوقع العمل ولها يقصد به . ولا ريب أن هذا اسم لجميع أصول الإيمان وفروعه، وأن البر داخل في هذا المسمى .

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر كقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا على البرِّ والتَّقوى**﴾ [المائدة: ٢].

فالفرق بينهما: فرق بين السبب المقصود لغيره، والغاية المقصودة لنفسها .

فإن البر مطلوب لذاته ؛ إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه كما تقدم .

وأما التقوى فهي الطريق الموصل إلى البر والوسيلة إليه، ولفظها يدل على هذا: فإنها فَعْلَى من وقى يقي . وكان أصلها: وقوى فقلبوا الواو تاء كما قالوا: تراث من الوراثة، وتجاه من الوجه، وتخمة من الوخمة، ونظائرها .

فلفظها دال على أنها من الوقاية، فإن المتقي قد جعل بينه وبين النار وقاية، فالوقاية من باب دفع الضر، فالتقوى والبر كالعافية والصحة .

وهذا باب شريف ينتفع به انتفاعًا عظيمًا في فهم ألفاظ القرآن ودلالته، ومعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، فإنه هو العلم النافع .

وقد ذم الله تعالى في كتابه ؛ من ليس له علم بحدود ما أنزل الله على رسوله،

فإن عدم العلم بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين:

إحداهما: أن يدخل في مسمى اللفظ؛ ما ليس منه فيحكم له بحكم المراد من اللفظ؛ فيساوي بين ما فرق الله بينهما.

والثانية: أن يخرج من مسمى بعض أفراده الداخلة تحته فيسلب عنه حكمه، فيفرق بين ما جمع الله بينهما، والذكي الفطن يتفطن لأفراد هذه القاعدة وأمثالها، فيرى أن كثيراً من الاختلاف أو أكثره؛ إنما ينشأ من هذا الموضع، وتفصيل هذا لا يفي به كتاب ضخم.

ومن هذا لفظ الخمر؛ فإنه اسم شامل لكل مسكر؛ فلا يجوز إخراج بعض المسكرات منه وينفي عنها حكمه. وكذلك لفظ الميسر، وإخراج بعض أنواع القمار منه. وكذلك لفظ النكاح، وإدخال ماليس بنكاح في مسمّاه. وكذلك لفظ الربا، وإخراج بعض أنواعه منه، وإدخال ماليس بربا فيه. وكذلك لفظ: الظلم والعدل، والمعروف والمنكر، ونظائره أكثر من أن تُحصى.

والمقصود: أن المقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم؛ التعاون على البر والتقوى، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علماً وعملاً، فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه؛ فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الإنساني: قائماً بعضه ببعضه، معيناً بعضه لبعض.

ثم قال تعالى: ﴿**وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢].

والإثم والعدوان في جانب النهي؛ نظير البر والتقوى في جانب الأمر.

والفرق ما بين الإثم والعدوان؛ فرق ما بين محرم الجنس ومحرم القدر، فالإثم ماكان حراماً لجنسه، والعدوان ماحرم لزيادة في قدره، وتعدي ما أباح الله منه.

فالزنى وشرب الخمر والسرقة ونحوها؛ إثم، ونكاح الخامسة واستيفاء المجني عليه أكثر من حقه ونحوه؛ عدوان.

فالعدوان هو تعدي حدود الله التي قال فيها: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾. [البقرة: ٢٢٩].

وقال في موضع آخر: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾. [البقرة: ١٨٧]. فنهى عن تعديها في آية، وعن قربانها في آية.

وهذا لأن حدوده سبحانه؛ هي النهاية الفاصلة بين الحلال والحرام.

ونهاية الشيء: تارة تدخل فيه فتكون منه، وتارة لا تكون داخلة فيه فيكون لها حكم مقابله. فبالاعتبار الأول؛ نهى عن تعديها، وبالاعتبار الثاني؛ نهى عن قربانها.

فصل(1)

وأما ﴿الإثم والعُدوان﴾ فهما قرينان. قال الله تعالى: **﴿وتَعاوَنُوا على البرِّ والتَّقوى ولاَ تَعَاوَنُوا على الإثمِ والعُدوان﴾** [المائدة: ٢]. وكل منهما إذا أفرد؛ تضمن الآخر.

فكل إثم عدوان، إذ هو: فعل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به؛ فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم؛ فإنه يأثم به صاحبه، ولكن عند اقترانهما؛ فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما.

فالاثم: ماكان محرم الجنس: كالكذب، والزنى، وشرب الخمر، ونحو ذلك.

والعدوان: ما كان محرم القدر والزيادة.

فالعدوان: تعدي ما أبيح منه إلى القدر المحرم والزيادة، كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه: إما بأن يتعدى على ماله، أو بدنه، أو عرضه. فإذا غصبه خشبة؛ لم يرض عوضها إلا داره، وإذا أتلف عليه شيئًا؛ أتلف عليه أضعافه، وإذا قال فيه كلمة، قال فيه أضعافها. فهذا كله عدوان وتعدٍّ للعدل.

وهذا العدوان نوعان: عدوان في حق الله، وعدوان في حق العبد.

فالعدوان في حق الله: كما إذا تعدى ما أباح الله له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات؛ إلى ما حرم عليه من سواهما. كما قال تعالى: **﴿والذينَ هُمْ لِفُروجِهِمْ حَافِظُونَ. إلاَّ علَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم فَإِنَّهُم غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذلكَ فأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ﴾**. [المعارج: ٢٩ - ٣١].

وكذلك تعدى ما أبيح له من زوجته وأمته؛ إلى ما حرم عليه منها، كوطئها في حيضها أو نفاسها، أو في غير موضع الحرث، أو في إحرام أحدهما، أو صيامه الواجب. ونحو ذلك.

(1) ٣٦٨ مدارج جـ١.

وكذلك كل من أبيح له منـه قدر معين، فتعداه إلى أكثر منه؛ فهو من العدوان، كمن أبيح له إساغة الغصة بجرعة من خمر؛ فتناول الكأس كلها، أو أبيح له نظرة الخِطبة، والسَّوم، والشهادة، والمعاملة، والمداواة؛ فأطلق عنان طرفه في ميادين محاسن المنظور، وأسام طرف ناظره في تلك الرياض والزهور؛ فتعدى المبـاح إلى القدر المحظور، وحام حول الحِمَى المحوط المحجور؛ فصار ذا بصر حائر، وقلب عن مكانه طائر، أرسل طرفه رائدًا يأتيه بالخبر فخامر عليه، وأقام في تلك الخيام؛ فبعث القلب في آثاره، فلم يشعر؛ إلا وهو أسير يحجل في قيوده بين تلك الخيام، فما أقلعت لحظات ناظـره؛ حتى تشَحَّطَ بينهن قتيلاً، وما برحت تنوشه سيوف تلك الجفون؛ حتى جندلته تجديلاً. هذا خطر العدوان. وما أمامه؛ أعظم وأخطر. وهذا فوت الحرمان، وما حرمه من فوات ثواب من غَضّ طرفه لله عز وجل؛ أجل وأكبر.

سافـر الطرف في مفاوز محاسن المنظور إليه؛ فلم يربح إلا أذى السفر. وغرَّر بنفسه في ركوب تلك البيداء، وما عرف أن راكبها على أعظم الخطر.

يالها من سَفرَة لم يبلغ المسافر منها ما نواه! ولم يضع فيها عن عاتقه عصاه، حتى قُطع عليه فيهـا الطريق، وقعد له فيها الرصَد على كل نقب ومضيق. لا يستطيع الرجوع إلى وطنه والإياب، ولا له سبيل إلى المرور والذهاب، يرى هجير الهاجرة من بعيد، فيظنه برد الشراب ﴿**حتَّى إذا جَاءَهُ لم يَجِدهُ شَيئًا ووَجَدَ الله عِنْدَهُ فوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحِساب**﴾. [النور: ٣٩]. وتيقن أنه كان مغرورًا بلامع السراب.

تالله ما استوت هذه الذلة وتلك اللذة في القيمة؛ فيشتريها بها العارف الخبير. ولا تقاربا في المنفعة؛ فيتحير بينهما البصير. ولكن على العيون غشاوة؛ فلا تفرق بين مواطن السلامة، ومواضع العثور. والقلوب تحت أغطية الغفلات، راقدة فوق فرش الغرور ﴿**فإنَّهَا لَا تعمَى الأَبْصَارُ ولِكِن تَعْمَى القُلُوبُ التي في الصُّدُور**﴾. [الحج: ٤٦].

ومن أمثلة العدوان: تجاوز ما أبيح من الميتة للضرورة؛ إلى ما لم يبح منها، إمـا بأن يشبـع؛ وإنـما أبيح له سد الرمق ـ على أحد القولين في مذهب أحمد، والشافعي، وأبي حنيفة ـ.

وأباح مالك له الشبع والتزود؛ إذا احتاج إليه، فإذا استغنى عنها وأكلها

واقيًا لماله، وبُخلاً عن شراء المذكى ونحوه؛ كان تناولها عدوانًا. قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ولاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [البقرة: ١٧٣].

قال قتادة والحسن: لا يأكلها من غير اضطرار، ولا يَعْدُو شِبعه. وقيل: «غير باغ» غير طالبها، وهو يجد غيرها «ولا عاد» أي: لا يتعدى ما حد له منها. فيأكل حتى يشبع. ولكن سدّ الرمق. وقال مقاتل: غير مستحل لها، ولا متزودمنها.

وقيل: لا يبغي بتجاوز الحد الذي حد له منها. ولا يتعدى بتقصيره عن تناوله؛ حتى يهلك. فيكون قد تعدى حد الله بمجاوزته أو التقصير عنه؛ فهذا آثم، وهذا آثم.

وقال مسروق: من اضطر: إلى الميتة، والدم، ولحم الخنزير؛ فلم يأكل ولم يشرب حتى مات؛ دخل النار. وهذا أصح القولين في الآية.

وقال ابن عباس وأصحابه والشافعي: «غير باغ» على السلطان «ولا عاد» في سفره. فلا يكون سفر معصية. وبنوا على ذلك أن العاصي بسفره لا يترخص.

والقول الأول؛ أصح لعشرة أوجه. ليس هذا موضع ذكرها؛ إذ الآية لا تعرّض فيها للسفر بنفي ولا إثبات، ولا للخروج على الإمام، ولا هي مختصة بذلك ولا سيقت له، وهي عامة في حق المقيم والمسافر. والبغي والعدوان فيها؛ يرجعان إلى الأكل المقصود بالنهي، لا إلى أمر خارج عنه لا تعلق له بالأكل، ولأن نظير هذا قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ﴾. [المائدة: ٣]. فهذا هو الباغي العادي. والمتجانف للإثم. المائل إلى القدر الحرام من أكلها. وهذا هو الشرط الذي لا يباح له بدونه. ولأنها إنما أبيحت للضرورة. فتقدرت الإباحة بقدرها. وأعلمهم أن الزيادة عليها بغي وعدوان وإثم؛ فلا تكون الإباحة للضرورة سببًا لحله. والله أعلم.

والإثم والعدوان؛ هما الإثم والبغي المذكوران في سورة الأعراف، مع أن البغي غالب استعماله: في حقوق العباد، والاستطالة عليهم. وعلى هذا فإذا قرن البغي بالعدوان ؛ كان البغي ظلمهم بمحرم الجنس: كالسرقة، والكذب، والبهت، والابتداء بالأذى. والعدوان: تعدي الحق في استيفائه إلى أكبر منه؛ فيكون البغي والعدوان في حقهم، كالإثم والعدوان في حدود الله.

فههنا أربعة أمور: حق لله وله حد، وحق لعباده وله حد، فالبغي والعدون والظلم؛ تجاوز الحدين إلى ما وراءهما، أو التقصير عنهما، فلا يصل إليهما. اهـ

فصـــل

فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس، وهو أن تكون مخالطته لهم؛ تعاونًا على البر والتقوى؛ علمًا وعملاً.

وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالى؛ فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته، وهو قوله تعالى: ﴿**واتَّقُوا الله**﴾. فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق، وواجبه بينه وبين الحق، ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا: بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك؛ لمحض النصيحة، والإحسان، ورعاية الأمر، ولا يتم له أداء الواجب الثاني إلا: بعزل الخلق من البين، والقيام به لله تعالى: إخلاصًا، ومحبة، وعبودية.

فينبغي التفطن لهذه الدقيقة، التي كل خلل يدخل على العبد في أداء هذين الأمرين الواجبين؛ إنما هو من عدم مراعاتها علمًا وعملاً.

وهذا معنى قول الشيخ عبدالقادر قدس الله روحه: «كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ومن لم يكن كذلك: لم يزل في تخبيط، ولم يزل أمره فرطًا»...

(١)**والمقصود** بهذا: أن من أعظم التعاون على البر والتقوى؛ التعاون على سفر الهجرة إلى الله والرسول: باليد واللسان، والقلب والمساعدة، والنصيحة تعليمًا، وإرشادًا، ومودة. ومن كان هكذا مع عباد الله؛ فكل خير إليه أسرع، وأقبل الله إليه بقلوب عباده، وفتح على قلبه أبواب العلم، ويسره لليسرى، ومن كان بالضد؛ فبالضد.

فإن قلت: قد أشرت إلى سفر عظيم وأمر جسيم، فما زاد هذا السفر وما طريقه وما مركبه؟**قلت**: زاده العلم الموروث من خاتم الأنبياء ﷺ، ولا زاد له سواه.

(١) ٤٧ الرسالة التبوكية.

فمن لم يحصل هذا الزاد؛ فلا يخرج من بيته، وليقعد مع الخالفين. فرفقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يحصوا، فله أسوة بهم، ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئًا، كما قال تعالى: ﴿**وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾. [الزخرف: ٣٩].

فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسي بعضهم ببعض في العذاب. فإن مصائب الدنيا إذا عمت؛ صارت مسلاة وتأسى بعض المصابين ببعض، كما قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي　　على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن　　أسلي النفس عنه بالتأسي

فهذا الروح الحاصل من التأسي؛ معدوم بين المشتركين في العذاب يوم القيامة.

وأما طريقه فهو: بذل الجهد، واستفراغ الوسع؛ فلا ينال بالمنى ولن يدرك بالهوينا، وإنما هو كما قيل:

فخض غمرات الموت واسم إلى العلا　　لكي تدرك العز الرفيع الدائم
فلا خير في نفس تخاف من الردى　　ولا همة تصبو إلى لوم لائم

ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين:

أحدهما: أن لا يصبو في الحق إلى لوم لائم، فإن اللوم يصيب الفارس؛ فيصرعه عن فرسه ويجعله صريعًا في الأرض.

والثاني: أن تهون عليه نفسه في الله؛ فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال، فمتى خافت النفس: تأخرت، وأحجمت، وأخلدت إلى الأرض.

ولا يتم هذان الأمران إلا بالصبر، فمن صبر قليلاً؛ صارت تلك الأهوال ريحًا رخاء في حقه، تحمله بنفسها إلى مطلوبه، فبينما هو يخاف منها؛ إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه.

وأما مركبه فصدق اللجأ إلى الله والانقطاع إليه بكليته، وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه، والضراعة إليه وصدق التوكل والاستعانة به، والانطراح بين يديه انطراح المسلوم المكسور الفارغ الذي لا شيء عنده، فهو يتطلع إلى قيِّمِهِ ووليه: أن يجبره، ويلم شعثه، ويمده من فضله، ويستره فهذا الذي يرجى له: أن يتولى

الله هدايته، وأن يكشف له ما خفي على غيره من طريق هذه الهجرة ومنازلها.

فصل

ورأس الأمر وعموده في ذلك: إنما هو دوام التفكر، وتدبر آيات الله؛ حيث تستولي على الفكر، وتشغل القلب. فإذا صارت معاني القرآن؛ مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه وصار له التصرف، وصار هو الأمير المطاع أمره؛ فحينئذ: يستقيم له سيره، ويتضح له الطريق، وتراه ساكتًا وهو يباري الريح ﴿**وترى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وهي تمرُّ مرَّ السَّحابِ**﴾ [النمل: ٨٨].

(١)**الله** سبحانه المسئول المرجو الإجابة أن يمتعكم بالإسلام والسنة والعافية، فإن سعادة الدنيا والآخرة ونعيمهما وفوزهما؛ مبني على هذه الأركان الثلاثة.

وما اجتمعن في عبد بوصف الكمال؛ إلا وقد كملت نعمة الله عليه، وإلا فنصيبه من نعمة الله؛ بحسب نصيبه منها.

والنعمة نعمتان: نعمة مطلقة، ونعمة مقيدة.

فالنعمة المطلقة: هي المتصلة بسعادة الأبد، وهي الإسلام والسنة.

وهي التي أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسأله في صلواتنا؛ أن يهدينا صراط أهلها، ومن خصهم بها، وجعلهم أهل الرفيق الأعلى حيث يقول تعالى: ﴿**ومَن يُطِعِ الله والرَّسُولَ فأُولئِكَ مَعَ الذينَ أَنْعَمَ الله عليهِمْ مِنَ النَّبيينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ وحَسُنَ أُولئكَ رَفِيقًا**﴾. [النساء: ٦٩]. فهؤلاء الأصناف الأربعة؛ هم أهل هذه النعمة المطلقة، وأصحابها أيضًا هم المعنيون بقول الله تعالى: ﴿**اليَوْمَ أَكْملتُ لَكُم دِينَكُم وأَتْمَمْتُ عليكُمْ نِعمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الإسلامَ دِينًا**﴾. [المائدة: ٣]. فأضاف الدين إليهم؛ إذ هم المختصون بهذا الدين القيم دون سائر الأمم. والدين: تارة يضاف إلى العبد وتارة يضاف إلى الرب، فيقال: الإسلام دين الله الذي لا يقبل من أحد دينًا سواه؛ ولهذا يقال في الدعاء: اللهم انصر دينك الذي أنزلت من السماء.

ونسب الكمال إلى الدين، والتمام إلى النعمة مع إضافتها إليه؛ لأنه هو وليها ومسديها إليهم، وهم محل محض النعمة قابلين لها.

---

(١) ٢ اجتماع الجيوش.

ولهذا يقال في الدعاء المأثور للمسلمين: واجعلهم مثنين بها عليك، قابليها، وأتمها عليهم.

وأما الدين فلما كانوا هم القائمين به الفاعلين له بتوفيق ربهم؛ نسبه إليهم فقال: ﴿**أَكْمَلْتُ لَكُم دِيْنَكُم**﴾. وكان الإكمال في جانب الدين، والتمام في جانب النعمة.

واللفظتان وإن تقاربتا وتواخيتا؛ فبينهما فرق لطيف يظهر عند التأمل، فإن الكمال أخص بالصفات والمعاني، ويطلق على الأعيان والذوات، ولكن باعتبار صفاتها وخواصها.

كما قال النبي، ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد**».

وقال عمر بن عبدالعزيز: «إن للإيمان حدودًا وفرائض، وسننًا وشرائع، فمن استكملها؛ فقد استكمل الإيمان».

وأما التمام فيكون في الأعيان والمعاني. ونعمة الله: أعيان، وأوصاف، ومعان. وأما دينه؛ فهو شرعه المتضمن: لأمره، ونهيه، ومحابه؛ فكانت نسبة الكمال إلى الدين والتمام إلى النعمة؛ أحسن، كما كانت إضافة الدين إليهم، والنعمة إليه؛ أحسن.

والمقصود: أن هذه النعمة هي النعمة المطلقة، وهي التي اختصت بالمؤمنين، وإذا قيل: ليس لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار؛ فهو صحيح.

والنعمة الثانية: النعمة المقيدة: كنعمة الصحة والغنى، وعافية الجسد، وتبسط الجاه، وكثرة الولد، والزوجة الحسنة، وأمثال هذه.

فهذه النعمة مشتركة بين: البر والفاجر، والمؤمن والكافر.

وإذا قيل: لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار؛ فهو حق، فلا يصح إطلاق السلب والإيجاب؛ إلا على وجه واحد وهو أن النعمة المقيدة لما كانت استدراجًا للكافر، ومآلها إلى العذاب والشقاء؛ فكأنها لم تكن نعمة، وإنما كانت بلية كما سماها الله تعالى في كتابه كذلك، فقال تعالى: ﴿**فأَمَّا الإنسانُ إذا ما ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فأَكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ فيقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وأَمَّا إذا ما ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عليهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي**

أَهَانَن. كَلَّا﴾. [الفجر: ١٥-١٧]. أي: ليس كل من أكرمته في الدنيا ونعمته فيها؛ فقد أنعمت عليه؛ وإنما كان ذلك ابتلاء مني له واختبارًا. ولا كل من قدرت عليه رزقه فجعلته بقدر حاجته من غير فضلة؛ أكون قد أهنته؛ بل أبتلي عبدي بالنعم كما أبتليه بالمصائب.

فإن قيل: كيف يلتئم هذا المعنى ويتفق مع قوله: ﴿**فأكرمه**﴾ فأثبت له الإكـرام، ثم أنكر عليه قوله: ﴿**ربي أكرمن**﴾ وقال: ﴿**كلَّا**﴾ أي: ليس ذلك إكرامًا مني؛ وإنما هو ابتلاء، فكأنه أثبت له الإكرام ونفاه.

قيل: الإكـرام المثبت غير الإكرام المنفي، وهما من جنس النعمة المطلقة والمقيدة، فليس هذا الإكرام المقيد؛ بموجب لصاحبه أن يكون من أهل الإكرام المطلق.

وكذلك أيضًا إذا قيل: إن الله أنعم على الكافر نعمة مطلقة؛ ولكنه رد نعمة الله وبدلها؛ فهو بمنزلة من أعطي مالاً يعيش به فرماه في البحر كما قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلى الـذينَ بَدَّلُـوا نعمَـةَ الله كُفْرًا**﴾. [إبراهيم: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿**وأمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُم فَاسْتَحَبُّوا العَمَى على الهُدى**﴾. [فصلت: ١٧]. فهدايته إياهم؛ نعمة منه عليهم، فبدلوا نعمة الله وآثروا عليها الضلال. فهذا فصل النزاع في مسألة «هل لله على الكافر نعمة أم لا؟» وأكثر اختلاف الناس من جهتين:

إحداهما: اشتراك الألفاظ وإجمالها. والثانية: من جهة الإطلاق والتفصيل.

فصـــل

وهذه النعمة المطلقة؛ هي التي يُفرح بها في الحقيقة، والفرح بها؛ مما يحبه الله ويرضاه، وهو لا يحب الفرحين، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ الله وبِرَحْمَتِهِ فبذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾. [يونس: ٥٨].

وقد دارت أقوال السلف على أن فضل الله ورحمته: الإسلام والسنة، وعلى حسب حياة القلب؛ يكـون فرحه بهما، وكلما كان أرسخ فيهما؛ كان قلبه أشد فرحًا؛ حتى إن القلب إذا باشر روح السنة؛ ليرقص فرحًا أحزنَ ما يكون الناس، فإن السنة حصن الله الحصين، الذي من دخله؛ كان من الآمنين، وبابه الأعظم الذي من دخله؛ كان إليه من الواصلين، تقوم بأهلها؛ وإن قعدت بهم أعمالهم،

ويسعى نورها بين أيديهم؛ إذا طفئت لأهل البدع والنفاق أنوارهم.

وأهل السنة هم المبيضَّة وجوههم؛ إذا اسودَّت وجوه أهل البدعة.

قال تعالى: ﴿**يَوم تَبْيَضُّ وُجوهٌ وتَسْوَدُّ وُجوهٌ**﴾. [آل عمران: ١٠٦]. قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل البدعة والتفرق، وهي الحياة والنور اللذان بهما: سعادة العبد، وهداه، وفوزه، قال تعالى: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وجعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا**﴾. [الأنعام: ١٢٢].

فصاحب السنة حي القلب مستنيره، وصاحب البدعة ميت القلب مظلمه.

وقد ذكر الله سبحانه هذين الأصلين في كتابه في غير موضع، وجعلهما صفة أهل الإيمان، وجعل ضدهما صفة من خرج عن الإيمان. فإن القلب الحي المستنير؛ هو الذي: عقل عن الله، وفهم عنه، وأذعن، وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسوله، ﷺ. والقلب الميت المظلم الذي: لم يعقل عن الله، ولا انقاد لما بعث به رسوله، ﷺ. . .

(١)**الحادي** عشر: إن الله تعالى قد تمم الدين بنبيه، ﷺ، وكمله به، ولم يحوجه هو ولا أمته بعده: إلى عقل، ولا نقل سواه، ولا رأي، ولا منام، ولا كشف، قال الله تعالى: ﴿**اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم وأَتْمَمتُ عليكُمْ نِعمَتي ورَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا**﴾. [المائدة: ٣].

وأنكر على من لم يكتف بالوحي فقال: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِم أَنَّا أَنْزَلنَا عليكَ الكِتابَ يُتْلى عليهِمْ إنَّ في ذلِكَ لَرَحمَةً وذِكرى لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ**﴾. ذكر هذا؛ جوابًا لطلبهم آية تدل على صدقه، فأخبر أنه يكفيهم من كل آية. فلو كان ما تضمنه من الإخبار: عنه، وعن صفاته، وأفعاله، واليوم الآخر؛ يناقض العقل؛ لم يكن دليلًا على صدقه فضلًا عن أن يكون كافيًا.

وسيأتي في الوجه الذي بعد هذا؛ بيان أن تقديم العقل على النقل؛ يبطل كون القرآن آية وبرهانًا على صحة النبوة(٢).

---

(١) ١٤٠ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) لم ننقله اختصارًا فمن أراده فليرجع إليه وما بعده. ج.

والمقصود: أن الله سبحانه تمم الدين وأكمله بنبيه، ﷺ، وما بعثه به؛ فلم يحوج أمته إلى سواه. فلو عارضه العقل وكان أولى بالتقديم منه؛ لم يكن: كافيًا للأمة، ولا تامًّا في نفسه.

وفي مراسيل أبي داود: أن رسول الله، ﷺ، رأى بيد عمر ورقة فيها شيء من التوراة فقال: «**كفى بقوم ضلالة أن تبعوا كتابًا غير كتابهم، أنزل على نبي غير نبيهم**». فأنزل الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَكفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عليكَ الكِتَابَ يُتْلى عليهِمْ إنَّ في ذَلِكَ لَرَحْمَةً وذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ**﴾. [العنكبوت: ٥١].

وقال تعالى: ﴿**فَلَا ورَبِّكَ لَا يُؤمِنُونَ حتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾. [النساء: ٦٥].

فأقسم سبحانه أنا لا نؤمن؛ حتى نحكم رسوله في جميع ما شجر بيننا، وتتسع صدورنا لحكمه، فلا يبقى فيها حرج، ونسلم لحكمه.

(١)**وقال؛** معرفًا لعباده، ومذكرًا لهم عظيم نعمته عليهم، مستدعيًا منهم شكره على أن جعلهم من أهلها: ﴿**اليومَ أكملتُ لَكمْ دينَكم**﴾. الآية [المائدة: ٣].

وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم؛ بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم؛ بالتمام، إيذانًا في الدين بأنه: لا نقص فيه، ولا عيب، ولا خلل، ولا شيء خارجًا عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته.

ووصف النعمة بالتمام؛ إيذانًا بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار.

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم؛ إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه؛ إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقًّا، وهم قابلوها، وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خصوا به دون الأمم، وفي إتمام النعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة، فجاء أتممت في مقابلة: أكملت، وعليكم في مقابلة: لكم، ونعمتي في مقابلة: دينكم، وأكد ذلك وزاده تقريرًا وكمالاً وإتمامًا للنعمة بقوله: ﴿**ورَضِيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دينًا**﴾. [المائدة: ٣].

(١) ٣٠١ مفتاح جـ١.

وكان بعض السلف الصالح يقول: يا له من دين لو أن له رجالاً.

...[1]**بين الله** سبحانه على لسان رسوله بكلامه وكلام رسوله؛ جميع ما أمره به، وجميع ما نهى عنه، وجميع ما أحلّه، وجميع ما حرَّمه، وجميع ما عفا عنه؛ وبهذا يكون دينه كاملاً، كما قال تعالى: ﴿**اليومَ أكْمَلتُ لَكُم دينَكُم وأتْمَمتُ عَليكُمْ نِعمَتي**﴾.

ولكن قد يقصُر فهم أكثر الناس عن فهم ما دلت عليه النصوص، وعن وجه الدلالة وموقعها. وتفاوت الأمة في مراتب الفهم عن الله ورسوله؛ لا يحصيه إلا الله.

ولو كانت الأفهام متساوية؛ لتساوت أقدام العلماء في العلم، ولما خصَّ سبحانه سليمان بفهم الحكومة في الحَرْث، وقد أثنى عليه وعلى داود بالعلم والحكم.

وقد قال عمر لأبي موسى في كتابه إليه «الفَهْمَ الفَهْمَ فيما أدلي إليك». وقال علي: «إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه». وقال أبو سعيد: كان أبو بكر أعلمنا برسول الله، ﷺ. ودعا النبي، ﷺ، لعبدالله بن عباس: أن يُفَقِّهه في الدين، ويعلمه التأويل.

والفرق بين الفقه والتأويل: أن الفقه هو: فَهْمُ المعنى المراد، والتأويل: إدراك الحقيقة التي يَؤول إليها المعنى التي هي أخِيَّتُه وأصله، وليس كل من فقه في الدين عرف التأويل، فمعرفة التأويل؛ يختص به الراسخون في العلم، وليس المراد به: تأويل التحريف، وتبديل المعنى؛ فإن الراسخين في العلم يعلمون بطلانه، والله يعلم بطلانه.

...[2]**وقال:** ﴿**اليومَ أكْمَلتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأتْمَمْتُ عليكُم نِعمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلامَ دينًا**﴾. [المائدة: ٣].

وقال: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾. [البقرة: ١٨٥].

وقال: ﴿**يُريدُ الله لِيُبيِّنَ لَكُمْ ويَهدِيَكم سُنَنَ الذينَ مِنْ قَبْلِكم ويَتُوبَ عليكُمْ والله عَليمٌ حَكِيمٌ ۝ والله يُريدُ أَنْ يَتوبَ عليكُمْ ويُريدُ الذينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهواتِ أَنْ تَميلُوا مَيْلاً عَظيمًا ۝ يُريدُ الله أَنْ يُخَفِّفَ عنكُمْ وخُلِقَ الإنْسانُ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٢٦، ٢٨].

ويتنصل سبحانه إلى عباده، من مواضع الظنة والتهمة، التي نسبها إليه من لم يعرفه حق معرفته ولا قدره حق قدره: من تكليف عباده ما لا يقدرون عليه، ولا

(١) ٣٣٢ أعلام جـ١.		(٢) ١٣٥ طريق الهجرتين.

طاقة لهم بفعله ألبتة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به، وخلق السموات والأرض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية، وأنه لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم كما قال: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُون . ما أُرِيدُ مِنهُم مِنْ رِزقٍ وما أُرِيدُ أنْ يُطْعِمُونِ﴾**. [الذاريات: ٥٦، ٥٧]. فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جودًا وإحسانًا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله: **﴿إنْ أَحْسَنْتُمْ أَحسَنتُم لأَنْفُسِكُمْ﴾**. [الإسراء: ٧]. **﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُون﴾**. [الروم: ٤٤].

ولما أمرهم بالوضوء، وبالغسل من الجنابة، الذي يحط عنهم أوزارهم، ويدخلون به عليه، ويرفع به درجاتهم قال تعالى: **﴿ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عليكُمْ مِنْ حَرَجٍ ولكنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم ولِيُتِمَّ نِعمَتَهُ عليكُمْ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾**. [المائدة: ٦].

وقال في الأضاحي والهدايا: **﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها ولا دِماؤهَا ولكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُم﴾**. [الحج: ٣٧].

وقال عقيب أمرهم بالصدقة، ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: **﴿ولا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنهُ تُنْفِقونَ ولَستُمْ بِآخِذِيهِ إلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فيهِ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾**. [البقرة: ٢٦٧]. يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة، ولا يوجب له حمدًا؛ بل هو:الغني بنفسه،الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته...

(١)**الله** سبحانه جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها، وأباح صيد الكلب المعلم، وهذا أيضًا من شرف العلم، أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم، وأما الكلب الجاهل؛ فلا يحل أكل صيده، فدل على شرف العلم وفضله. قال الله تعالى: **﴿يَسأَلُونَكَ ماذا أُحِلَّ لَهُم قُل أُحِلَّ لَكُم الطَّيِّباتُ وما عَلَّمتُم مِن الجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعلِّمونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُم اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عليكُم واذكُرُوا اسمَ اللهِ عليهِ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾**. [المائدة: ٤]. ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما؛ كان صيد الكلب المعلم والجاهل سواء.

---

(١) ٥٥ مفتاح جـ١.

فصـــل (١)

ويجـوز نكـاح الكتـابية بنص القـرآن. قال تعـالى: ﴿والمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤمِنَـاتِ والمُحْصَنَـاتُ مِنَ الـذينَ أُوتُـوا الكِتَـابَ مِنْ قَبلِكُمْ﴾. [المائـدة: ٥]. والمحصنات هنا هنَّ العفايف، وأما المحصنات المحرّمات في سورة «النساء» فهن المزوجات.

وقيـل: المحصنـات الـلاتي أبحن هن الحـرائـر، ولهـذا لم تحل إماء أهل الكتاب. والصحيح الأول لوجوه:

أحدها: أن الحرية ليست شرطًا في نكاح المسلمة.

الثاني: أنه ذكر الإحصان في جانب الرجل، كما ذكره في جانب المرأة فقال: ﴿إذَا آتَيتُمُوهنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِين﴾. [المائدة: ٥]. وهذا إحصان عفة بلا شك، فكذلك الإحصان المذكور في جانب المرأة.

الثالث: أنه سبحانه ذكر الطيبات من المطاعم، والطيبات من المناكح فقال تعالى: ﴿اليَومَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وطَعامُ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وطَعَامُكُم حِلٌّ لَهُمْ والمُحْصَنَـاتُ مِنَ المُؤمِنـاتِ والمحصنـاتُ مِنَ الـذينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾. [المائدة: ٥].

والزانية خبيثة بنص القرآن، والله سبحانه وتعالى حرَّم على عباده الخبائث من المطاعم والمشارب والمناكح، ولم يُبح لهم إلا الطيبات؛ وبهذا يتبين بطلان قول من أباح تزوّج الزواني.

وقد بيَّنَّا بطلان هذا القول من أكثر من عشرين وجهًا في غير هذا الكتاب(٢).

والمقصـود: أن الله سبحانه أباح لنا المحصنات من أهل الكتاب، وفعله أصحاب نبينا، ﷺ، فتزوج عثمان نصرانية، وتزوج طلحة بن عبيدالله نصرانية، وتزوج حذيفة يهودية.

قال عبدالله بن أحمد: سألت أبي عن المسلم يتزوج النصرانية أو اليهودية؟ فقـال: ما أحب أن يفعل ذلك، فإن فعل فقد فعل ذلك بعض أصحاب النبي، ﷺ.

---

(١) ٤١٩ أحكام جـ٢.　　(٢) لعلها في إغاثة اللهفان كما ذكره المعلق على أحكام أهل الذمة. ج.

وقال صالح بن أحمد: حدثني أبي: حدثنا محمد بن جعفر: حدثنا سعيد، عن قتادة: أن حذيفة بن اليمان، وطلحة بن عبيدالله، والجارود بن المعلّى ـ وذكر آخر ـ تزوجوا نساء من أهل الكتاب، فقال لهم عمر: طلقوهن، فطلقوا إلا حذيفة. فقال عمر: طلّقها. فقال: تشهد أنها حرام؟ قال: هي جمرة، طلّقها. فقال: تشهد أنها حرام؟ فقال: هي جمرة! قال حذيفة: قد علمت أنها جمرة، ولكنها لي حلال. فأبى أن يطلقها، فلما كان بعدُ طلقها، فقيل له: ألا طلقتها حين أمرك عمر؟ فقال: كرهت أن يظن الناس أني ركبت أمرًا لا ينبغي.

(١)**وسئل** ﷺ، عن الوضوء، فقال: «**أسبغ الوضوء، وخلّل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق؛ إلا أن تكون صائمًا**» ذكره أبو داود.

وسأله ﷺ، عمرو بن عَبسة فقال: كيف الوضوء؟ قال: «**أما الوضوء فإنك إذا توضأت فغَسَلت كفيك فأنقيتهما؛ خرجَتْ خطاياك من بَين أظفارك وأناملك، فإذا تمضمضت واستنشقت، وغسلت وجهك ويديك إلى المرفقين، ومسحت رأسك، وغسلت رجليك؛ اغتسلت من عامة خطاياك كيوم ولدتك أمك**». ذكره النسائي.

وسأله ﷺ، أعرابي عن الوضوء، فأراه ثلاثًا ثلاثًا ثم قال: «**هكذا الوضوء؛ فمن زاد على هذا؛ فقد أساء وتعدَّى وظلم**» ذكره أحمد.

...(٢)**وأما** تقديم غسل الوجه، ثم اليد، ثم مسح الرأس، ثم الرجلين في الوضوء؛ فمن يقول إن هذا الترتيب واجب. وهو: الشافعي، وأحمد، ومن وافقهما؛ فالآية عندهم اقتضت التقديم وجوبًا لقرائن عديدة:

أحدها: أنه أدخل ممسوحًا بين مغسولين، وقطع النظير عن نظيره، ولو أريد الجمع المطلق؛ لكان المناسب أن يذكر المغسولات متسقة في النظم، والممسوح بعدها؛ فلما عدل إلى ذلك؛ دل على وجوب ترتيبها على الوجه الذي ذكره الله.

الثاني: أن هذه الأفعال؛ هي أجزاء فعل واحد مأمور به وهو الوضوء، فدخلت الواو عاطفة لأجزائه بعضها على بعض. والفعل الواحد يحصل من ارتباط أجزائه بعضها ببعض، فدخلت الواو بين الأجزاء للربط؛ فأفادت الترتيب؛ إذ هو

(١) ٢٨٠ أعلام جـ٤. (٢) ٦٩ بدائع جـ١.

الربط المذكور في الآية، ولا يلزمه من كونها لا تفيد الترتيب بين أفعال لا ارتباط بينها نحو: أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة؛ أن لا تفيده بين أجزاء فعل مرتبطة بعضها ببعض.

فتأمل هذا الموضع ولطفه، وهذا أحد الأقوال الثلاثة في إفادة الواو للترتيب.

وأكثر الأصوليين لا يعرفونه ولا يحكونه، وهو قول ابن أبي موسى من أصحاب أحمد، ولعله أرجح الأقوال.

الثالث: أن لبداءة الرب تعالى بالوجه دون سائر الأعضاء خاصة؛ فيجب مراعاتها، وأن لا تلغى وتهدر؛ فيهدر ما اعتبره الله ويؤخر ما قدمه الله. وقد أشار النبي، ﷺ، إلى أن ما قدمه الله؛ فإنه ينبغي تقديمه، ولا يؤخر بل يقدم ما قدمه الله ويؤخر ما أخره الله، فلما طاف بين الصفا والمروة بدأ بالصفا وقال: «**نبدأ بما بدأ الله به**».

وفي رواية للنسائي: «**ابدءوا بما بدأ الله به**». على الأمر.

فتأمل بداءته بالصفا؛ معللاً ذلك بكون الله بدأ به؛ فلا ينبغي تأخيره، وهكذا يقول المرتبون للوضوء سواء. نحن نبدأ بما بدأ الله به، ولا يجوز تأخير ما قدمه الله، ويتعين البداءة بما بدأ الله به.

وهذا هو الصواب لمواظبة المبين عن الله مراده، ﷺ، على الوضوء المرتب. فاتفق جميع من نقل عنه وضوءه كلهم على إيقاعه مرتبًا، ولم ينقل عنه أحد قط أنه أخل بالترتيب مرة واحدة، فلو كان الوضوء المنكوس مشروعًا لفعله ولو في عمره مرة واحدة؛ لتبين جوازه لأمته. وهذا بحمد الله أوضح. أ. هـ.

(١)**وأما** إيجابه لغسل المواضع التي لم تخرج منها الريح، وإسقاطه غسل الموضع الذي خرجت منه، فما أوفقه للحكمة! وما أشده مطابقة للفطرة!.

فإن حاصل السؤال: لم كان الوضوء في هذه الأعضاء الظاهرة دون باطن المقعدة، مع أن باطن المقعدة أولى بالوضوء من الوجه واليدين والرجلين؟

وهذا سؤال معكوس، من قلب منكوس؛ فإن من محاسن الشريعة أن كان الوضوء في الأعضاء الظاهرة المكشوفة، وكان أحقها به؛ إمامها ومقدمها في الذكر والفعل، وهو الوجه الذي نظافته ووضاءته عنوان على نظافة القلب، وبَعْده

(١) ٧٥ أعلام جـ٢.

اليدان، وهما آلة البطش والتناول والأخذ، فهما أحق الأعضاء بالنظافة والنزاهة بعد الوجه.

ولما كان الرأس؛ مجمَعَ الحواس، وأعلى البدن، وأشرفه؛ كان أحق بالنظافة، لكن لو شُرع غسله في الوضوء؛ لعظمت المشقة، واشتدت البلية، فشرع مسح جميعه، وأقامه مقام غسله تخفيفًا ورحمة، كما أقام المسح على الخفين مقام غسل الرجلين.

ولعل قائلاً يقول: وما يجزىء مسح الرأس والرجلين من الغسل والنظافة؟ ولم يعلم هذا القائل: أن إمساس العضو بالماء: امتثالاً لأمر الله، وطاعة له، وتعبدًا؛ يؤثر في نظافته وطهارته ما لا يؤثر غسله بالماء والسِّدْر بدون هذه النية، والتحاكم في هذا إلى الذوق السليم، والطبع المستقيم، كما أن مَعْكَ الوجه بالتراب؛ امتثالاً للآمر، وطاعة، وعبودية؛ تكسبه:وضاءة، ونظافة، وبهجة؛ تبدو على صفحاته للناظرين؛ ولما كانت الرجلان تمس الأرض غالبًا، وتباشر من الأدناس ما لا تباشره بقية الأعضاء؛ كانت أحقَّ بالغسل، ولم يوفق للفهم عن الله ورسوله من اجتزأ بمسحهما من غير حائل.

فهذا وجه اختصاص هذه الأعضاء بالوضوء، من بين سائرها من حيث المحسوس، وأما من حيث المعنى، فهذه الأعضاء هي آلات الأفعال التي يباشر بها العبد ما يريد فعله، وبها يعصى الله سبحانه ويطاع؛ فاليد تبطش، والرجل تمشي، والعين تنظر، والأذن تسمع، واللسان يتكلم؛ فكان في غسل هذه الأعضاء؛ امتثالاً لأمر الله، وإقامة لعبوديته؛ما يقتضي إزالة ما لحقها من درن المعصية ووسخها.

وقد أشار صاحب الشرع، ﷺ، إلى هذا المعنى بعينه؛ حيث قال في الحديث الصحيح، الذي رواه مسلم في صحيحه: عن عمرو بن عبسة قال: قلت يا رسول الله حدثني عن الوضوء، قال: «**ما منكم من رجل يقرب وضوءه فيتمضمض ويستنشق فينثر؛ إلا خرَّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين؛إلا خرَّت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح برأسه؛ إلا خرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى**

الكعبين؛ إلا خرَّت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجَّده بالذي هو أهله ـ أو هو له أهل ـ وفرغ قلبه لله؛ إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه».

وفي صحيح مسلم أيضًا: عن أبي هريرة؛ أن النبي، ﷺ، قال: **«إذا توضأ العبد المسلم ـ أو المؤمن ـ فغسل وجهه؛ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ فإذا غسل يديه؛ خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ فإذا غسل رجليه؛ خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ حتى يخرج نقيًّا من الذنوب».**

وفي مسند الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر قال: سمعت النبي، ﷺ، يقول: **«رَجُلانِ من أمتي يقوم أحدهما من الليل يعالج نفسه إلى الطهور، وعليه عُقد، فيتوضأ؛ فإذا وضأ يديه انحلت عقدة، وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة، وإذا مسح رأسه انحلت عقدة، وإذا وضأ رجليه انحلت عقدة، فيقول الرب عز وجل للذي وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه، ما سألني عبدي هذا فهو له».**

وفيه أيضًا: عن أبي أمامة يرفعه: **«أيما رجل قام إلى وضوئه يريد الصلاة ثم غسل كفيه؛ نزلت خطيئته من كفيه مع أول قطرة، فإذا مضمض واستنشق واستنثر؛ نزلت خطيئته من لسانه وشفتيه مع أول قطرة، فإذا غسل وجهه؛ نزلت خطيئته من سمعه وبصره مع أول قطرة، فإذا غسل يديه إلى المرفقين ورجليه إلى الكعبين سَلِمَ من كل ذنب هو له، ومن كل خطيئة كهيئته يوم ولدته أمه، فإذا قام إلى الصلاة؛ رفع الله بها درجته، وإن قعد قعد سالمًا».**

وفيه: أن مقصود المضمضة كمقصود غسل الوجه واليدين سواء، وأن حاجة اللسان والشفتين إلى الغسل كحاجة بقية الأعضاء؛ فمن أنكسُ قلبًا وأفسدُ فطرةً وأبطل قياسًا ممن يقول: إن غسل باطن المقعدة أولى من غسل هذه الأعضاء، وإن الشارع فرق بين المتماثلين؟! هذا إلى ما في غَسْلِ هذه الأعضاء المقارن لنية التعبد لله: من انشراح القلب وقوته، واتساع الصدر، وفرح النفس، ونشاط الأعضاء؛ فتميزت عن سائر الأعضاء، بما أوجب غسلها دون

غيرها، وبالله التوفيق.

(١)**فأوامر** الرب تعالى: رحمة وإحسان، وشفاء ودواء وغذاء للقلوب، وزينة للظاهر والباطن، وحياة للقلب والبدن.

وكم في ضمنه: من مسرة وفرحة، ولذة وبهجة، ونعيم وقرة عين.

فما يسميه هؤلاء تكاليف؛ إنما هو: قرة العيون وبهجة النفوس، وحياة القلوب،ونور العقول، وتكميل للفطر، وإحسان تام إلى النوع الإنساني أعظم من إحسانه إليه: بالصحة والعافية، والطعام والشراب واللباس.

فنعمته على عباده: بإرسال الرسل إليهم، وإنزال كتبه عليهم، وتعريفهم أمره ونهيه، وما يحبه وما يبغضه؛ أعظم النعم وأجلها وأعلاها وأفضلها؛ بل لا نسبة لرحمتهم: بالشمس والقمر، والغيث والنبات، إلى رحمتهم: بالعلم والإيمان، والشرائع والحلال والحرام.

فكيف يقال: أي حكمة في ذلك، وإنما هو مجرد مشقة ونصب بغير فائدة؟ فوالله إن من زعم ذلك وظنه في أحكم الحاكمين؛ لأضل من الأنعام، وأسوأ حالاً من الحمير، ونعوذ بالله من: الخذلان، والجهل بالرحمن وأسمائه وصفاته.

وهل قامت مصالح الوجود: إلا بالأمر والنهي، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ولولا ذلك؛ لكان الناس بمنزلة البهائم: يتهارجون في الطرقات، ويتسافدون تسافد الحيوانات، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، ولا يمتنعون من قبيح، ولا يهتدون إلى صواب.

وأنت ترى الأمكنة والأزمنة التي خفيت فيها آثار النبوة، كيف حال أهلها؟ وما دخل عليهم من: الجهل،والظلم، والكفر بالخالق،والشرك بالمخلوق، واستحسان القبائح،وفساد العقائد والأعمال.

فإن الشرائع بتنزيل الحكيم العليم أنزلها وشرعها الذي يعلم ما في ضمنها من: مصالح العباد في المعاش والمعاد، وأسباب سعادتهم الدنيوية والأخروية فجعلها: غذاء ودواء وشفاء، وعصمة وحصنا وملجأ، وجنة ووقاية.

وكانت بالقياس إلى مصالح الأبدان، بمنزلة حكيم عالم ركب للناس أمرًا؛

(١) ٢٢٦ شفاء العليل.

يصلح لكل مرض، ولكل ألم، وجعله مع ذلك غذاء للأصحاء، فمن يغذى به من الأصحاء؛ غذاه، ومن يداوى به من المرض؛ شفاه.

وشرائع الرب تعالى؛ فوق ذلك وأجل منه وإنما هو تمثيل وتقريب، فلا أحسن من أمره ونهيه وتحليله وتحريمه، أمره قوت وغذاء وشفاء، ونهيه حمية وصيانة. فلم يأمر عباده بما أمرهم به؛ حاجة منه إليهم ولا عبثًا؛ بل رحمة وإحسانًا ومصلحة، ولا نهاهم عما نهاهم عنه؛ بخلاً منه عليهم؛ بل حماية وصيانة عما يؤذيهم ويعود عليهم بالضرر؛ إن تناولوه. فكيف يتوهم من له مسكة من عقل خلوها من الحكم والغايات المحمودة المطلوبة لأجلها؟

ولهذا استدل كثير من العقلاء على النبوة بنفس الشريعة، واستغنوا بها عن طلب المعجزة، وهذا من أحسن الاستدلال، فإن دعوة الرسل من أكبر شواهد صدقهم. وكل من له خبرة بنوع من أنواع العلوم إذا رأى حاذقًا قد صنف فيه كتابًا جليلاً؛ عرف أنه من أهل ذلك العلم بنظره في كتابه.

وهكذا كل من له: عقل وفطرة سليمة، وخبرة بأقوال الرسل ودعوتهم؛ إذا نظر في هذه الشريعة؛ قطع قطعًا نظير القطع بالمحسوسات: أن الذي جاء بهذه الشريعة؛ رسول صادق، وأن الذي شرعها؛ أحكم الحاكمين.

ولقد شهد لها عقلاء الفلاسفة: بالكمال والتمام، وأنه لم يطرق العالم ناموس؛ أكمل ولا أحكم. هذه شهادة الأعداء.

وشهد لها من زعم أنه من الأولياء: بأنها لم تشرع لحكمة ولا لمصلحة، وقالوا: أي حكمة في الإلزام بهذه التكاليف الشاقة المتعبة؟ وأي مصلحة للمكلف في ذلك؟ وأي غرض للمكلف؟ وما هي إلا محض المشيئة المجردة من قصد غاية أو حكمة. ولو استحيى هؤلاء من العقلاء؛ لمنعهم الحياء؛ من تسويد القلوب والأوراق بمثل ذلك.

وهل تركت الشريعة خيراً ومصلحة؛ إلا جاءت به وأمرت به وندبت إليه؟

وهل تركت شرًّا ومفسدة إلا نهت عنه؟ وهل تركت لمفرح أفراحًا أو لمتعنت تعنتًا أو لسائل مطلبًا؟ فمن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون.

وعند نفاة الحكم: أنه يجوز عليه ضد ذلك الحكم من كل وجه، وأنه لا

فرق بينه وبين ضده في نفس الأمر؛ إلا لمجرد التحكم والمشيئة.

فلو اجتمعت حكمة جميع الحكماء من أول الدهر إلى آخره، ثم قيست إلى حكمة هذه الشريعة الكاملة الحكيمة الفاضلة؛ لكانت كقطرة من بحر.

وإنما نعني بذلك الشريعة التي أنزلها الله على رسوله، وشرعها للأمة، ودعاهم إليها؛ لا الشريعة المبدلة، ولا المؤولة، ولا ما غلط فيه الغالطون وتأوله المتأولون. فإن هذين النوعين قد يشتملان على فساد وشر؛ بل الشر والفساد الواقع بين الأمة من هاتين الشريعتين، اللتين نسبتا إلى الشريعة المنزلة من عند الله: عمدًا، أو خطأ، وإلا فالشريعة على وجهها: خير محض، ومصلحة من كل وجه، ورحمة، وحكمة ولطف بالمكلفين، وقيام مصالحهم بها فوق قيام مصالح أبدانهم بالطعام والشراب، فهي مكملة للفطر والعقول، مرشدة إلى ما يحبه الله ويرضاه، ناهية عما يبغضه ويسخطه، مستعملة لكل قوة وعضو؛ حركة في كماله، الذي لا كمال له سواه، آمرة بمكارم الأخلاق ومعاليها، ناهية عن دنيئها وسفسافها.

واختصار ذلك: أنه شرع استعمال كل قوة وكل عضو وكل حركة في كمالها، ولا سبيل إلى معرفة كمالها على الحقيقة إلا بالوحي، فكانت الشرائع ضرورية في مصالح الخلق، وضرورتها له فوق كل ضرورة تقدر، فهي أسباب موصلة إلى سعادة الدارين، ورأس الأسباب الموصلة إلى حفظ صحة البدن وقوته واستفراغ أخلاطه. ومن لم يتصور الشريعة على هذه الصورة؛ فهو من أبعد الناس عنها.

وقد جعل الحكيم العليم لكل قوة من القوى، ولكل حاسة من الحواس، ولكل عضو من الأعضاء: كمالًا حسيًا، وكمالًا معنويًا. وفقد كماله المعنوي؛ شر من فقد كماله الحسي، فكماله المعنوي بمنزلة الروح، والحسي بمنزلة الجسم، فأعطاه كماله الحسي خلقًا وقدرًا، وأعطاه كماله المعنوي شرعًا وأمرًا، فبلغ بذلك غاية السعادة والانتفاع بنفسه، فلم يدع للإحسان إليه والاعتناء بمصالحه وإرشاده إليها وإعانته على تحصيلها: أفراحًا يفرحه، ولا شفاء يطلبه؛ بل أعطاه من ذلك؛ ما لم يصل إليه أفراحه، ولا تدرك معرفته.

ويكفي العاقل البصير الحي القلب؛ فكرة في فرع واحد من فروع الأمر والنهي وهو الصلاة.

الصلاة

وما اشتملت عليه من : الحكم الباهرة ، والمصالح الباطنة والظاهرة، والمنافع المتصلة بالقلب والروح والبدن، والقوى التي لو اجتمع حكماء العالم قاطبة واستفرغوا قواهم وأذهانهم؛ لما أحاطوا بتفاصيل حكمها وأسرارها، وغاياتها المحمودة.

بل انقطعوا كلهم دون أسرار الفاتحة، وما فيها من المعارف الإلهية والحكم الربانية، والعلوم النافعة والتوحيد التام، والثناء على الله بأصول أسمائه وصفاته، وذكر أقسام الخليقة باعتبار غاياتهم ووسائلهم.

وما في مقدماتها وشروطها من الحكم العجيبة من: تطهير الأعضاء والثياب والمكان، وأخذ الزينة، واستقبال بيته الذي جعله إمامًا للناس، وتفريغ القلب لله، وإخلاص النية، وافتتاحها بكلمة جامعة لمعاني العبودية؛ دالة على أصول الثناء وفروعه، مخرجة من القلب الالتفات إلى ما سواه والإقبال على غيره.

فيقدم بقلبه الوقوف بين يدي عظيم جليل: أكبر من كل شيء، وأجل من كل شيء، وأعظم من كل شيء بلا سبب في كبريائه السموات وما أظلت، والأرض وما أقلت، والعوالم كلها، عنت له الوجوه، وخضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، قاهر فوق عباده، ناظر إليهم، عالم بما تكن صدورهم، يسمع كلامهم ويرى مكانهم، لا يخفى عليه خافية من أمرهم.

ثم أخذ في تسبيحه وحمده وذكره، تبارك اسمه وتعالى جده، وتفرده بالإلهية، ثم أخذ في الثناء عليه بأفضل ما يثنى عليه به من: حمده، وذكر ربوبيته للعالم، وإحسانه إليهم، ورحمته بهم، وتمجيده بالملك الأعظم، في اليوم الذي لا يكون فيه ملك سواه حين يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ويدينهم بأعمالهم، ثم إفراده بنوعي التوحيد: توحيد ربوبيته؛ استعانة به، وتوحيد إلهيته؛ عبودية له.

ثم سؤاله أفضل مسئول وأجل مطلوب على الإطلاق، وهو: هداية الصراط المستقيم، الذي نصبه لأنبيائه ورسله وأتباعهم، وجعله صراطًا موصلاً لمن سلكه إليه وإلى جنته، وأنه صراط من اختصهم بنعمته: بأن عرفهم الحق، وجعلهم

متبعين له دون صراط أمة الغضب الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، وأهل الضلال الذين ضلوا عن معرفته واتباعه.

فتضمنت: تعريف الرب والطريق الموصل إليه، والغاية بعد الوصول، وتضمنت الثناء والدعاء وأشرف الغايات، وهي العبودية وأقرب الوسائل إليها، وهي الاستعانة؛ مقدمًا فيها على الوسيلة، والمعبود المستعان على الفعل؛ إيذانًا لاختصاصه، وأن ذلك لا يصلح إلا له سبحانه.

وتضمنت: ذكر الإلهية، والربوبية، والرحمة، فيثنى عليه، ويعبد بإلهيته، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويدير الملك، ويضل من يستحق الإضلال، ويغضب على من يستحق الغضب بربوبيته وحكمته، وينعم ويرحم، ويجود ويعفو، ويغفر ويهدي، ويتوب برحمته.

فلله كم في هذه السورة من: أنواع المعارف والعلوم، والتوحيد، وحقائق الإيمان!!.

ثم يأخذ بعد ذلك في تلاوة: ربيع القلوب، وشفاء الصدور، ونور البصائر، وحياة الأرواح، وهو كلام رب العالمين؛ فيحل به في ما شاء من: روضات مونقات، وحدائق معجبات؛ زاهية أزهارها مونقة ثمارها، قد ذللت قطوفها تذليلاً، وسهلت لمتناولها تسهيلاً، فهو يجتني من تلك الثمار خيرًا يؤمر به، وشرًّا ينهى عنه، وحكمة وموعظة وتبصرة وتذكرة وعبرة، وتقريرًا لحق، ودحضًا لباطل، وإزالة لشبهة وجوابًا عن مسألة، وإيضاحًا لمشكل، وترغيبًا في أسباب فلاح وسعادة، وتحذيرًا من أسباب خسران وشقاوة، ودعوة إلى هدى، ورد عن ردى، فتنزل على القلوب نزول الغيث على الأرض التي لا حياة لها بدونه، ويحل منها محل الأرواح من أبدانها، فأي نعيم وقرة عين، ولذة قلب وابتهاج وسرور، لا يحصل له في هذه المناجاة؟!.

والرب تعالى يسمع لكلامه جاريًا على لسان عبده، ويقول: حمدني عبدي، أثنى علي عبدي، مجدني عبدي.

ثم يعود إلى تكبير ربه عز وجل فيجدد لربه عهد التذكرة، كونه أكبر من كل شيء بحق عبوديته، وما ينبغي أن يعامل به، ثم يرجع حانيًا له ظهره: خضوعًا لعظمته، وتذللاً لعزته، واستكانة لجبروته، مسبحًا له بذكر اسمه العظيم؛ فنزه

عظمته عن حال العبد وذله وخضوعه، وقابل تلك العظمة بهذا الذل والانحناء والخضوع، قد تطامن وطأطأ رأسه وطوى ظهره، وربه فوقه يرى خضوعه وذله ويسمع كلامه، فهو ركن تعظيم وإجلال كما قال، ﷺ: «**أما الركوع فعظموا فيه الرب**».

ثم عاد إلى حاله من القيام: حامدًا لربه، مثنيًا عليه بأكمل محامده وأجمعها وأعمها، مثنيًا عليه؛ بأنه أهل الثناء والمجد، معترفًا بعبوديته، شاهدًا بتوحيده: وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأنه لا ينفع أصحاب الجدود والأموال والحظوظ جدودهم عنه ولو عظمت.

ثم يعود إلى تكبيره، ويخر له ساجداً على أشرف ما فيه وهو الوجه؛ فيعفره في التراب: ذلًا بين يديه، ومسكنة، وانكسارًا، وقد أخذ كل عضو من البدن حظه من هذا الخضوع؛ حتى أطراف الأنامل ورؤوس الأصابع، وندب له أن يسجد معه ثيابه وشعره: فلا يكفه، وأن لا يكون بعضه محمولاً على بعض، وأن يتأسر التراب بجبهته، وينال قبل وجهة المصلى، ويكون رأسه أسفل ما فيه؛ تكميلاً للخضوع والتذليل، لمن له العز كله والعظمة كلها، وهذا أيسر اليسير من حقه على عبده، فلو دام كذلك من حين خلق إلى أن يموت، لما أدى حق ربه عليه.

ثم أمر أن يسبح ربه الأعلى، فيذكر علوه سبحانه في حال سفوله هو، وينزهه عن مثل هذه الحال، وأن من هو فوق كل شيء وعال على كل شيء ينزه عن السفول بكل معنى؛ بل هو الأعلى بكل معنى من معاني العلو.

ولما كان هذا غاية ذل العبد وخضوعه وانكساره؛ كان أقرب ما يكون الرب منه في هذه الحال، فأمر أن يجتهد في الدعاء؛ لقربه من القريب المجيب، وقد قال تعالى: ﴿**واسجد واقترب**﴾. [العلق: ١٩].

وكان الركوع كالمقدمة بين يدي السجود والتوطئة له؛ فينتقل من خضوع إلى خضوع: أكمل، وأتم منه، وأرفع شأنًا. وفصل بينهما بركن مقصود في نفسه؛ يجتهد فيه بالحمد والثناء والتمجيد، وجعل بين خضوعه: خضوع قبله، وخضوع بعده، وجعل خضوع السجود بعد الحمد والثناء والمجد، كما جعل خضوع الركوع بعد ذلك. فتأمل هذا الترتيب العجيب، وهذا التنقل في مراتب العبودية، كيف ينتقل من مقام الثناء على الرب بأحسن أوصافه وأسمائه وأكمل محامده، إلى من له

خضوعه وتذلله أن له هذا الثناء، ويستصحب في مقامه خضوعه بما يناسب ذلك المقام، ويليق به فتذكر عظمة الرب في حال خضوعه، وعلوه في حال سفوله.

ولما كان أشرف أذكار الصلاة؛ القرآن؛ شرع في أشرف أحوال الإنسان، وهي هيئة القيام، التي قد انتصب فيها قائمًا على أحسن هيئة.

ولما كان أفضل أركانها الفعلية؛ السجود؛ شرع فيها بوصف التكرار، وجعل خاتمة الركعة وغايتها التي انتهت إليها، فطابق افتتاح الركعة بالقرآن، واختتامها بالسجود؛ أول سورة افتتح بها الوحي؛ فإنها بدئت بالقراءة وختمت بالسجود، وشرع له بين هذين الخضوعين: أن يجلس جلسة العبيد، ويسأل ربه أن: يغفر له ويرحمه، ويرزقه، ويهديه، ويعافيه. وهذه الدعوات تجمع له خير دنياه وآخرته.

ثم شرع له تكرار هذه الركعة مرة بعد مرة، كما شرع تكرار الأذكار والدعوات مرة بعد مرة؛ ليستعد بالأول لتكميل ما بعده، ويجبر بها بعده ما قبله، وليشبع القلب من هذا الغذاء، وليأخذ رواه ونصيبه وافرًا من الدواء ليقاومه. فإن منزلة الصلاة من القلب منزلة الغذاء والدواء؛ فإذا تناول الجائع الشديد الجوع من اللقمة أو اللقمتين؛ كان غناؤها عنه وسدها من جوعه يسيرًا جدًّا.

وكذلك المرض الذي يحتاج إلى قدر يغني من الدواء، إذا أخذ منه المريض قيراطًا من ذلك؛ لم يزل مرضه بالكلية وأزال بحسبه. فما حصل الغذاء أو الشفاء للقلب بمثل الصلاة، وهي لصحته ودوائه بمنزلة غذاء البدن ودوائه.

ثم لما أكمل صلاته؛ شرع له: أن يقعد قعدة العبد الذليل المسكين لسيده، ويثني عليه بأفضل التحيات، ويسلم على من جاء بهذا الحظ الجزيل، ومن نالته الأمة على يديه، ثم يسلم على نفسه وعلى سائر عباد الله المشاركين له في هذه العبودية، ثم يتشهد شهادة الحق، ثم يعود فيصلي على من علم الأمة هذا الخير ودلهم عليه.

ثم شرع له أن: يسأل حوائجه، ويدعو بما أحب؛ ما دام بين يدي ربه مقبلاً عليه، فإذا قضى ذلك أذن له في الخروج منها بالتسليم على المشاركين له في الصلاة.

هذا إلى ما تضمنته الأحوال والمعارف من أول المقامات إلى آخرها، فلا تجد

منزلة من منازل السير إلى الله ولا مقامًا من مقامات العارفين؛ إلا وهو في ضمن الصلاة. وهذا الذي ذكرناه من شأنها كقطرة من بحر.

فكيف يقال: إنها تكليف محض لم يشرع لحكمة ولا لغاية قصدها الشارع؛ بل هي محض كلفة ومشقة مستندة إلى محض المشيئة، لا لغرض ولا لفائدة ألبتة؛ بل مجرد قهر وتكليف، وليست سببًا لشيء من مصالح الدنيا والآخرة.

ثم تأمل أبواب الشريعة ووسائلها وغاياتها؛ كيف تجدها مشحونة بالحكم المقصودة والغايات الحميدة، التي شرعت لأجلها، التي لولاها؛ لكان الناس كالبهائم؛ بل أسوأ حالاً.

فكم في الطهارة من: حكمة ومنفعة للقلب والبدن، وتفريج للقلب، وتنشيط للجوارح، وتخفيف من أحمال ما أوجبته الطبيعة، وإلقاء عز النفس من درن المخالفات! فهي منظفة للقلب والروح والبدن، وفي غسل الجنابة من زيادة النعومة والإخلاف على البدن؛ نظير ما تحلل منه بالجنابة؛ ما هو من أنفع الأمور.

وتأمل كون الوضوء في الأطراف التي هي محل الكسب والعمل؛ فجعل في الوجه الذي فيه: السمع، والبصر، والكلام، والشم، والذوق. وهذه الأبواب هي أبواب المعاصي، والذنوب كلها منها يدخل إليها، ثم جعل في اليدين وهما طرفاه وجناحاه، اللذان بهما يبطش ويأخذ ويعطي، ثم في الرجلين، اللتين بهما يمشي ويسعى، ولما كان غسل الرأس مما فيه أعظم حرج ومشقة؛ جعل مكانه المسح، وجعل ذلك مخرجًا للخطايا من هذه المواضع، حتى يخرج مع قطر الماء من شعره وبشره.

كما ثبت عن النبي، ﷺ، من حديث أبي هريرة، قال: **«إذا توضأ العبد المسلم ـ أو المؤمن ـ فغسل وجهه؛ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ، فإذا غسل يديه؛ خرج من يديه كل خطيئة كان يبطشها يداه مع الماء ـ أو مع آخر قطر ـ فإذا غسل رجليه؛ خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ـ أو مع آخر قطر ـ الماء حتى يخرج نقيًا من الذنوب»**. رواه مسلم.

وفي صحيح مسلم أيضًا: عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله، ﷺ: **«من توضأ فأحسن الوضوء؛ خرجت خطاياه؛ حتى يخرج من تحت أظفاره»**.

فهذا من أجلِّ حِكَم الوضوء وفوائده. وقال نفاة الحكمة: إنه تكليف ومشقة وعناء محض، لا مصلحة فيه ولا حكمة شرع لأجلها.

ولو لم يكن في مصلحته وحكمته؛ إلا أنه سيماء هذه الأمة وعلامتهم في وجوههم وأطرافهم يوم القيامة بين الأمم، ليست لأحد غيرهم.

ولو لم يكن فيه من المصلحة والحكمة؛ إلا أن المتوضىء يطهر يديه بالماء وقلبه بالتوبة؛ ليستعد للدخول على ربه ومناجاته، والوقوف بين يديه طاهر البدن والثوب والقلب، فأي حكمة ورحمة ومصلحة فوق هذا؟!

ولما كانت الشهوة تجري في جميع البدن؛ حتى أن تحت كل شعرة شهوة؛ سرى غسل الجنابة إلى حيث سرت الشهوة كما قال النبي، ﷺ: **«إن تحت كل شعرة جنابة»**. فأمر أن يوصل الماء إلى أصل كل شعرة؛ فيبرد حرارة الشهوة؛ فتسكن النفس، وتطمئن إلى ذكر الله وتلاوة كلامه، والوقوف بين يديه، فوالله لو أن أبقراط ودونه أوصوا بمثل هذا؛ لخضع أتباعهم لهم فيه، وعظموهم عليه غاية التعظيم، وأبدوا له من الحكم والفوائد ما قدروا عليه.

ثم لما كان العبد خارج الصلاة مهملاً[١] جوارحه، قد أسامها في مراتع الشهوات والحظوظ؛ أمر بالعبودية[٢] بجميع جوارحه كلها؛ ليقبل[٣] على ربه وتأخذ جوارحه[٤] بحظها من عبوديته فيسلم قلبه وبدنه وجوارحه وحواسه وقواه لربه عز وجل؛ واقفًا بين يديه؛ مقبلاً بكله عليه، معرضًا عمن سواه، متنصلاً من إعراضه عنه وجنايته على حقه، ولما كان هذا طبعه وذاته؛ أمر أن يجدد هذا الركوع إليه، والإقبال عليه وقتًا بعد وقت؛ لئلا يطول عليه الأمد فينسى ربه وينقطع عنه بالكلية، وكانت الصلاة من أعظم نعم الله عليه، وأفضل هداياه التي ساقها إليه، فأبى نفاة الحكمة إلا جعلها كلفة وعناء وتعبًا، لا لحكمة ولا لمصلحة ألبتة إلا مجرد القهر والمشيئة.

وقد فتح ذلك الباب فساق الشريعة كلها من أولها إلى آخرها هذا المساق،

(١) في النسخة (مهمل) والصواب نصبها بالفتحة لأنها خبر كان. المراجع.
(٢) في النسخة (العبودية) بدون باء، وقد أثبتنا الباء لتمام المعنى. المراجع.
(٣، ٤) زيدت كلمة (ليقبل) و(جوارحه) ليتم المعنى. المراجع.

واستدل بما ظهر لك على ما خفي عنك، ولعل الحكمة فيما لم تعلمه أعظم منها فيما علمته، فإن الذي علمته على قدر عقلك وفهمك، وما خفي عنك فهو فوق عقلك وفهمك، ولو تتبعنا تفصيل ذلك لجاء عدة أسفار فيكتفى منه بأدنى بينة، والله المستعان.

(١)**ومما** يظن أنه على خلاف القياس باب التيمم.

قالوا: إنه على خلاف القياس من وجهين:

أحدها: أن التراب مُلوث، لا يزيل درنًا ولا وسخًا، ولا يطهر البدن، كما لا يطهر الثوب. **والثاني**: أنه شرع في عضوين من أعضاء الوضوء دون بقيتها، وهذا خروج عن القياس الصحيح.

ولعمر الله إنه خروج عن القياس الباطل المضاد للدين، وهو على وفق القياس الصحيح.

فإن الله سبحانه جعل من الماء كل شيء حي، وخلقنا من التراب.

فلنا مادتان: الماء، والتراب، فجعل منهما نشأتنا وأقواتنا، وبهما تطهرنا وتعبدنا.

فالتراب: أصل ما خلق منه الناس، والماء حياة كل شيء، وهما الأصل في الطبائع التي ركب الله عليهما هذا العالم وجعل قوامه بهما، وكان أصل ما يقع به تطهير الأشياء من الأدناس والأقذار؛ هو الماء في الأمر المعتاد، فلم يجز العدول عنه إلا في حال العدم والعذر بمرض أو نحوه، وكان النقل عنه إلى شقيقه وأخيه التراب؛ أولى من غيره، وإن لوَّث ظاهرًا فإنه يطهر باطنًا، ثم يقوي طهارة الباطن؛ فيزيل دنس الظاهر أو يخففه، وهذا أمر يشهده من له بصر نافذ: بحقائق الأعمال، وارتباط الظاهر بالباطن، وتأثر كل منهما بالآخر وانفعاله عنه.

وأما كونه في عضوين ففي غاية الموافقة للقياس والحكمة، فإن وضع التراب على الرؤوس مكروه في العادات، وإنما يفعل عند المصائب والنوائب، والرِّجلان محل ملابسة التراب في أغلب الأحوال، وفي تتريب الوجه من: الخضوع، والتعظيم لله، والذل له، والانكسار لله، ماهو من أحب العبادات إليه وأنفعها للعبد.

(١) ٣٩٧ أعلام جـ١.

ولذلك يستحب للساجد أن يترِّب وجهه لله، وأن لا يقصد وقاية وجهه من التراب كما قال بعض الصحابة، لمن رآه قد سجد وجعل بينه وبين التراب وقاية فقال: «تَرِّب وجهك» وهذا المعنى لا يوجد في تتريب الرجلين.

وأيضًا فموافقة ذلك للقياس من وجه آخر، وهو أن التيمم جعل في العضوين المغسولين، وسقط عن العضوين الممسوحين، فإن الرجلين تمسحان في الخف، والرأس في العمامة، فلما خفف عن المغسولين بالمسح خفف عن الممسوحين بالعفو؛ إذ لو مُسحَا بالتراب لم يكن فيه تخفيف عنهما، بل كان فيه انتقال من مسحهما بالماء إلى مسحهما بالتراب؛ فظهر أن الذي جاءت به الشريعة؛ هو أعدل الأمور وأكملها، وهو الميزان الصحيح.

وأما كون تيمم الجنب كتيمم المحدث؛ فلما سقط مسح الرأس والرجلين بالتراب عن المحدث؛ سقط مسح البدن كله بالتراب عنه بطريق الأولى؛ إذ في ذلك من المشقة والحرج والعسر؛ ما يناقض رخصة التيمم، ويدخل أكرم المخلوقات على الله في شبه البهائم إذا تمرغ في التراب، فالذي جاءت به الشريعة لا مَزيدَ في الحسن والحكمة والعدل عليه، ولله الحمد.

فصل(١)

وأما جمعها بين الماء والتراب في التطهير فلله ما أحسنه من جمع!! وألطفه وألصقه بالعقول السليمة والفطر المستقيمة! وقد عقد الله سبحانه الإخاء بين الماء والتراب قدرًا وشرعًا؛ فجمعهما الله عز وجل وخلق منهما آدم وذريته، فكانا أبوين اثنين لأبوينا وأولادهما؛ وجعل منهما حياة كل حيوان، وأخرج منهما أقوات الدواب والناس والأنعام، وكانا أعمّ الأشياء وجودًا، وأسهلها تناولاً، وكان تعفير الوجه في التراب لله من أحب الأشياء إليه، ولما كان عقد هذه الأخوة بينهما قدرًا أحكم عقد وأقواه؛ كان عقد الأخوة بينهما شرعًا أحسَن عقدٍ وأصحَه، فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين، وله الكبرياء في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

---

(١) ١٥٥ أعلام جـ٢.

فصل(١)

والفرق بين الاحتياط والوسوسة: أن الاحتياط الاستقصاء والمبالغة في اتباع السنة. وما كان عليه رسول الله، ﷺ، وأصحابه من غير غلو ومجاوزة، ولا تقصير ولا تفريط، فهذا هو الاحتياط الذي يرضاه الله ورسوله.

وأما الوسوسة فهي: ابتداع ما لم تأت به السنة، ولم يفعله رسول الله، ﷺ، ولا أحد من الصحابة؛ زاعمًا أنه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضبطه، كمن يحتاط بزعمه، ويغسل أعضاءه في الوضوء فوق الثلاثة؛ فيسرف في صب الماء في وضوئه وغسله، ويصرح بالتلفظ بنية الصلاة مرارًا أو مرة واحدة، ويغسل ثيابه مما لا يتيقن نجاسته؛ احتياطًا، ويرغب عن الصلاة في نعله احتياطًا إلى أضعاف أضعاف هذا، مما اتخذه الموسوسون دينًا، وزعموا أنه احتياط.

وقد كان الاحتياط باتباع هدي رسول الله، ﷺ، وما كان عليه؛ أولى بهم؛ فإنه الاحتياط الذي من خرج عنه؛ فقد فارق الاحتياط وعدل عن سواء الصراط.

والاحتياط كل الاحتياط؛ الخروج عن خلاف السنة ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم.

(٢)**قول** الله تعالى: **﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا كُونُوا قوَّامِينَ لله شُهَداءَ بالقِسْطِ ولا يَجرِمَنَّكم شنآنُ قومٍ على أن لا تَعْدِلوا اعدِلُوا هوَ أقرَبُ للتَّقوى واتَّقوا الله إنَّ الله خبيرٌ بما تَعْمَلُونَ﴾**. [المائدة: ٨].

فإذا كان قد نهى عباده أن يحملهم بغضهم لأعدائه؛ أن لا يعدلوا عليهم، مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله؛ فكيف يسوغ لمن يدعي الإيمان أن يحمله بغضه لطائفة منتسبة إلى الرسول، تصيب وتخطىء؛ على أن لا يعدل فيهم؛ بل يجرد لهم العداوة وأنواع الأذى؟

ولعله لا يدري؛ أنهم أولى بالله ورسوله وما جاء به منه: علمًا، وعملاً، ودعوة إلى الله على بصيرة، وصبرًا من قومهم على الأذى في الله، وإقامة لحجة الله، ومعذرة لمن خالفهم بالجهل، لا كمن نصب معالمه صادرة عن آراء الرجال، فدعا إليها وعاقب عليها، وعادى من خالفها بالعصبية وحمية الجاهلية. والله المستعان

(١) ٣١٢ الروح. (٢) ١٦٥ بدائع جـ٢.

وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

(١)**قوله: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعمَةَ الله عليكُمْ إذْ هَمَّ قومٌ أنْ يبسُطُوا إليكمْ أَيْديَهم فكفَّ أيدِيَهُمْ عَنْكُم﴾**. [المائدة: ١١]. فأخبر سبحانه بفعلهم، وهو الهم وبفعله، وهو كفهم عما هموا به، ولا يصح أن يقال: إنه سبحانه أشل أيديهم، وأماتهم، وأنزل عليهم عذابًا حال بينهم وبين ما هموا به؛ بل كفَّ قدرهم وإرادتهم؛ مع سلامة حواسهم وبنيتهم، وصحة آلات الفعل منهم.

وعند القدرية هذا محال؛ بل هم الذي يكفون أنفسهم، والقرآن صريح في إبطال قولهم.

ومثله قوله: **﴿وهُوَ الذي كَفَّ أيديَهُمْ عَنْكُم وأيديَكُمْ عنهُم ببطْنِ مَكَّةَ من بعدِ أنْ أَظْفَرَكُمْ عليهم﴾**. [الفتح: ٢٤]. فهذا كف أيدي الفريقين؛ مع سلامتهما وصحتهما وهو: بأن حال بينهم وبين الفعل؛ فكف بعضهم عن بعض.

فصل(٢)

وأما جعله القلب قاسيًا فقال تعالى: **﴿فَبِمَا نَقْضِهِم ميثَاقَهُم لَعَنَّاهُم وجَعلنَا قُلوبَهُم قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِه ونَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا به﴾**. [المائدة: ١٣]. والقسوة: الشدة والصلابة في كل شيء، يُقال: حجر قاس، وأرض قاسية: لا تنبت شيئًا. قال ابن عباس: قاسية عن الإيمان، وقال الحسن: طبع عليها.

والقلوب ثلاثة: قلب قاس، وهو اليابس الصلب الذي لا يقبل صورة الحق ولا تنطبع فيه. وضده القلب اللين المتماسك، وهو السليم من المرض، الذي يقبل صورة الحق بلينه ويحفظه بتماسكه. بخلاف المريض الذي لا يحفظ ماينطبع فيه؛ لميعانه ورخاوته، كالمائع الذي إذا طبعت فيه الشيء قبل صورته بما فيه من اللين، ولكن رخاوته تمنعه من حفظها. فخير القلوب القلب الصلب الصافي اللين؛ فهو يرى الحق بصفائه ويقبله بلينه.

(٣)**قوله تعالى: ﴿فأَغْرينا بينَهُم العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إلى يَومِ القِيامَةِ﴾**. [المائدة: ١٤]. وقوله: **﴿وأَلْقَينَا بينَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إلى يَومِ القِيامةِ﴾** [المائدة: ٦٤]. وهذا الإغراء والإلقاء؛ محض فعله سبحانه. والتعادي والتباغض؛

(١) ٥٧ شفاء. (٢) ١٠٥ شفاء. (٣) ٥٨ شفاء.

أثره وهو محض فعلهم. **وأصل** ضلال القدرية والجبرية؛ من عدم اهتدائهم إلى الفرق بين: فعله سبحانه، وفعل العبد.

فالجبرية جعلوا التعادي والتباغض؛ فعل الرب دون المتعاديين والمتباغضين.

والقدرية جعلوا ذلك؛ محض فعلهم الذي: لا صنع لله فيه، ولا قدرة، ولا مشيئة.

وأهل الصراط السويّ جعلوا ذلك فعلهم؛ وهو أثر فعل الله، وقدرته، ومشيئته، كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الذي يُسَيِّرُكم في البَرِّ والبَحْرِ**﴾. [يونس: ٢٢]. فالتسيير؛ فعله والسير فعل العباد، وهو أثر التسيير، وكذلك الهدى والإضلال؛ فعله، والاهتداء والضلال؛ أثر فعله، وهما أفعالنا القائمة بنا، فهو الهادي والعبد المهتدي، وهو الذي يضل من يشاء والعبد الضال، وهذا حقيقة وهذا حقيقة؛ والطائفتان عن الصراط المستقيم ناكبتان.

...(١)**والأمر** (٢)الثاني: أن العبد إذا آمن بالكتاب، واهتدى به مجملاً، وقبل أوامره، وصدق بأخباره؛ كان ذلك سببًا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل؛ فإن الهداية لا نهاية لها، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى، إلى غير غاية، فكلما اتقى العبد ربه؛ ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى، وكلما فوت حظًا من التقوى؛ فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى؛ زاد هداه، وكلما اهتدى؛ زادت تقواه، قال تعالى: ﴿**قَد جَاءَكم منَ الله نُورٌ وكِتَابٌ مُبينٌ يَهدِي بهِ الله من اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ويُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النورِ بإذنه ويَهْدِيهُم إلى صِرَاطٍ مُستَقيمٍ**﴾. [المائدة: ١٥].

وقال تعالى: ﴿**الله يَجْتَبِي إليهِ مَنْ يَشَاءُ ويَهْدِي إليه مَنْ يُنيبُ**﴾. [الشورى: ١٣]. وقال تعالى: ﴿**سَيَذَّكَرُ مَنْ يَخْشَى**﴾. [الأعلى: ١٠]. وقال: ﴿**وَمَا يَتَذَكَّرُ إلَّا مَنْ يُنيب**﴾. [غافر: ١٣]. وقال: ﴿**إنَّ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهديهُم ربُّهُم بإيمانِهم**﴾. [يونس: ٩]. فهداهم أولاً للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية.

(١) ١٢٩ فوائد.

(٢) تقدم الأول في أول سورة البقرة

ونظير هذا قوله: ﴿وَيَزِيدُ الله الذينَ اهتَدَوا هُدًى﴾. [مريم ٧٦]. وقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لكُمْ فُرقَانًا﴾. [الأنفال: ٢٩]. ومن الفرقان؛ ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز، الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل، فسر الفرقان بهذا وبهذا، وقال تعالى: ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنيبٍ﴾. [سبأ: ٩]. وقال: ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. [سبأ: ١٩].

فأخبر عن آياته المشهودة العيانية، أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية، أنها إنما ينتفع بها: أهل التقوى والخشية والإنابة، ومن كان قصده اتباع رضوانه.

وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه ـ سبحانه ـ كما قال: ﴿طَه. مَا أَنْزَلْنَا عليكَ القُرآنَ لِتَشْقَى. إلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾. [طه: ١ ـ ٣]. وقال في الساعة: ﴿إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾. [النازعات: ٤٥]. وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها، فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر ـ سبحانه ـ في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل، وما حل بهم في الدنيا من الخزي؛ قال بعد ذلك: ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لِمَن خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾. [هود: ١٠٣]. فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها. فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك؛ قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية.

وإنما كان الصبر والشكر سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات؛ ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفه صبر ونصفه شكر. فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه.

وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان؛ إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر؛ التوحيد، ورأس الصبر؛ ترك إجابة داعي الهوى؛ فإذا كان مشركًا متبعًا هواه؛ لم يكن صابرًا ولا شكورًا، فلا تكون الآيات نافعة له، ولا مؤثرة فيه إيمانًا.

(١)فصـــل

ولو لم يكن في محبة الله إلا أنها تنجي محبَّه من عذابه؛ لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبداً.وسئل بعض العلماء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟. فقال: في قوله تعالى: ﴿**وقَالَتِ اليَهودُ والنَّصارى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكم بِذُنُوبِكُمْ**﴾. الآية. [المائدة: ١٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يونس، عن الحسن رضي الله عنه؛ أن النبي، ﷺ، قال: «**والله لا يعذب الله حبيبه؛ ولكن قد يبتليه في الدنيا**».

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيّار: حدثنا جعفر: حدثنا أبو غالب قال: بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسى ابن مريم، ﷺ: يا معشر الحواريين تحبّبوا إلى الله ببغض.أهل المعاصي، وتقربوا إليه بالمقت لهم، والتمسوا رضاه بسخطهم، قالوا: يا نبي الله فمن نجالس؟ قال: جالسوا: من يزيد في أعمالكم منطقه، ومن تذكركم بالله رؤيته، ويزهدكم في دنياكم علمه.(٢)

ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثوابًا عاجلاً؛ أن الله سبحانه وتعالى يقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه، كما أنه يعرض بقلوبهم عمن أعرض عنه، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن في تفسير شيبان، عن قتادة قال: ذكر لنا أن هَرِم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد على الله بقلبه؛ إلا أقبل الله عز وجل بقلوب المؤمنين إليه؛ حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم.

وقد روي هذا مرفوعًا ولفظه: وما أقبل عبد على الله بقلبه؛ إلا أقبل الله عز وجل عليه بقلوب عباده، وجعل قلوبهم تفد إليه بالود والرحمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع...

(٣)**قوله** في سورة المائدة ردًا عليهم قولهم: ﴿**نَحْنُ أَبنَاءُ الله وأحبَّاؤه قلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكم بِذُنوبكم**﴾[المائدة:١٨]. يعني: إن الأب لا يعذب ابنه والحبيب لا يعذب حبيبه.

وههنا نكتة لطيفة جدًا، قلَّ من ينتبه لها، ونحن نقررها بسؤال وجواب.

---

(١) ٤٤٣ روضة. (٢) في نسخة الأمير: عمله. (٣) ١٥٠ بدائع جـ٤.

فإن قيل: معلوم أن الأب قد يؤدب ولـده إذا أذنب، والحبيب قد يهجر حبيبه إذا رأى منه بعض ما يكره.

قيل: لو تأملت أيها السائل قوله: ﴿**قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبكم بِذُنُوبِكم**﴾؛لعلمت الفـرق بين هذا التعـذيب وبين الهجران والتأديب، فإن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب المنافي للمحبة، فلو كانت المحبة قائمة كما زعموا؛ لم يكن هناك ذنوب يستـوجبـون عليها العذاب من:المسخ قردة وخنازير، وتسلط أعدائهم عليهم؛ يستبيحونهم ويستعبدونهم ويخربون متعبداتهم ويَسْبُون ذراريهم، فالمحب لا يفعل هذا بحبيبه، ولا الأب بابنه.

ومعلوم أن الـرحمن الـرحيم لا يفعل هذا بأمة؛ إلا بعد فرط إجرامها، وعتوها على الله، واستكبارها عن طاعته وعبادته، وذلك ينافي كونهم أحبابه؛ فلو أحبوه؛ لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك، ولو أحبهم؛ لأدبهم ولم يعـذبهم، فالتـأديب شيء، والتعذيب شيء، والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح، والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح، فهذا لون وهذا لون.

...[1]**قوله** تعالى: ﴿**إنَّ فِيهَا قَومًا جَبَّارين**﴾ [المائدة: ٢٢]. قال: أراد الطول والقـوة والعـظم، ذهب في هذا إلى الجبار من النخل، وهو الطويل الذي فات الأيدي، ويقال: رجل جبار؛ إذا كان طويلاً عظيمًا قويًا، تشبيهًا بالجبار من النخل. قال قتادة: كانت لهم أجسام وخلق عجيبة ليست لغيرهم.

وقيل: الجبار ههنا من: جبره على الأمر؛ إذا أكرهه عليه.

قال الأزهـري: وهي لغـة معـروفة وكثير من الحجازيين يقولونها، وكان الشافعي رحمه الله يقول: جبره السلطان.

ويجوز أن يكون الجبار من: أجبره على الأمر؛ إذا أكرهه. قال الفراء: لم أسمع فعالاً من أفعل إلا في حرفين وهما: جبار من أجبر، ودراك من أدرك، وهذا اختيار الزجاج، قال: الجبار من الناس العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد.

وأما الجبار من أسماء الرب تعالى؛ فقد فسره بأنه: الذي يجبر الكسير ويغني الفقير، والرب سبحانه كذلك، ولكن ليس هذا معنى اسمه الجبار، ولهذا قرنه

(١) ١٢١ شفاء.

باسمه المتكبر، وإنما هو الجبروت وكان النبي، ﷺ، يقول: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**». فالجبار اسم من أسماء التعظيم؛ كالمتكبر والملك والعظيم والقهار(١). . .

فصــل ومن تلاعبه بهم(٢)

أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه، وفَرَق بهم البحر، وأراهم الآيات والعجائب، ونصرهم وآواهم، وأعزهم وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العـالمين. ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتب الله لهم، وفي ضمن هذا بشـارتهم بأنهم: منصورون، ومفتوح لهم، وأن تلك القرية لهم، فأبوا طاعته وامتثال أمره، وقـابلوا هذا الأمـر والبشـارة، بقـولهم: ﴿**فاذْهَبْ أَنْتَ ورَبُّـكَ فَقَـاتِلاَ إِنَّا هَهُنا قَاعِدُونَ**﴾ [المائدة: ٢٤].

وتأمل: تلطف نبي الله تعالى موسى عليه السلام بهم، وحسن خطابه لهم، وتـذكيرهم بنعم الله عليهم، وبشارتهم بوعد الله لهم: بأن القرية مكتوبة لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أدبارهم، وأنهم إن عصوا أمره، ولم يمتثلوا؛ انقلبوا خاسرين.

فجمع لهم بين: الأمر والنهي، والبشارة والنذارة، والترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم السالفة؛ فقابلوه أقبح المقابلة؛ فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم: ﴿**يا مُوسَى إِنَّ فيهَا قَومًا جَبَّارِين**﴾. فلم يوقروا رسول الله وكليمه، حتى نادوه باسمه، ولم يقـولـوا: يا نبي الله. وقـالوا: ﴿**إِنَّ فيها قومًا جَبَّارين**﴾. ونسوا قدرة جبار السمـوات والأرض الـذي يُذل الجبابرة لأهل طاعته. وكان خوفهم من أولئك الجبارين ـ الذين نواصيهم بيد الله ـ أعظمَ من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه، وكانوا أشد رهبة في صدورهم منه.

ثم صرحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة. فقالوا: ﴿**وإِنَّا لنْ نَدْخُلَها حتَّى يَخْرُجوا مِنْهَا**﴾ [المائدة: ٢٢]. فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد:

أحدها: تمهيد عذر العصيان بقولهم: ﴿**إِنَّ فيهَا قومًا جبَّارين**﴾.

والثاني: تصريحهم بأنهم غير مطيعين، وصدَّروا الجملة بحرف تأكيد، وهو

(١) بقية البحث سيأتي ـ إن شاء الله ـ في آخر سورة الحشر. (٢) ٣١٢ إغاثة جـ٢.

«إنَّ» ثم حققوا النفي بأداة «لن» الدالة على نفي المستقبل. أي: لا ندخلها الآن، ولا في المستقبل.

ثم علقـوا دخـولها بشرط خروج الجبارين منها، فقال لهم: ﴿**رَجُلانِ مِنَ الذينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ الله عليهمَا**﴾ [المائدة: ٢٣]. بطاعته والانقياد إلى أمره، من الذين يخافون الله. هذا قول الأكثرين وهو الصحيح.

وقيل: من الذين يخافونهم من الجبارين[١]، أسلما واتَّبعا موسى عليه السلام ﴿**ادْخُلُوا عليهم البـابَ**﴾ أي: باب القرية، فاهجموا عليهم، فإنهم قد مُلئوا منكم رعبًـا ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فإنَّكم غالِبُونَ**﴾. ثم أرشداهم إلى ما يحقق النصر والغلبة لهم وهو التوكل.

فكان جواب القوم أن ﴿**قالوا يا مُوسى إنَّا لَنْ نَدْخُلها أبدًا ما دَامُوا فيهَا فاذْهَبْ أَنْتَ وربُّكَ فَقَاتِلَا إنَّا هَهُنا قَاعِدُون**﴾ [المائدة: ٢٤].

فسبحان من عظم حلمه؛ حيث يقابل أمره بمثل هذا المقابلة، ويواجه رسوله بمثل هذا الخطاب، وهو يحلُمُ عنهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل وَسِعَهم حلمه وكرمه. وكان أقصى ما عاقبهم به؛ أن ردَّهم في بَرِّيَّة التِّيه أربعين عامًا، يظلل عليهم الغمام من الحر، وينزل عليهم المنَّ والسلوى.

وفي الصحيحين: عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا؛ لأن أكون صاحبه؛ أحب إليَّ مما عُدِلَ به، أتى النبي، ﷺ، وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنتَ وربُّـك فقـاتلا إنَّا ههنا قاعدون، ولكنا نقاتل عن يمينك وشمالك، وبين يديك ومن خلفك. فرأيت رسول الله، ﷺ، أشرق وجهه لذلك، وسرَّ به»[٢]. **فلما** قابلوا نبي الله بهذه المقابلة قال: ﴿**رَبِّ إنِّي لا أملِكُ إلاَّ نَفْسِي وأَخِي**

(١) لعل في العبارة تحريفاً أو نقصًا يدل عليه ما في تفسير ابن كثير والبغوي وغيرهما قالا: وقرأ سعيد بن جبير (يُخافون) بضم الياء على البناء للمفعول، وقال: الرجلان من الجبارين، فأسلما واتبعا موسى.
وقال ابن كثير: أي ممن لهما مهابة وموضع من الناس. ويقال: إنهم يوشع بن نون وكالب بن يوفنا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطية، والسدِّي، والربيع بن أنس،وغير واحد من السلف والخلف. فيكون نظم عبارة المصنف: وقيل: «يُخافون» بضم الياء أي: من الذين يخافونهم إلخ يعني أنهما من الجبارين.

(٢) رواه البخاري في المغازي برقم: (٣٩٥٢)، وفي التفسير برقم: (٤٦٠٩). وذلك يوم بدر.

فافْرُقْ بيننَا وبينَ القَوْمِ الفَاسِقينَ. قالَ فإنَّها مُحَرَّمَةٌ عليهم أَرْبَعينَ سَنَةً يَتِيهُونَ في الأَرْضِ فلاَ تَأْسَ على القَومِ الفَاسِقين﴾ [المائدة: ٢٥، ٢٦].

(١)**وأما** «اليهود» فقد حكى الله لك عن جهل أسلافهم وغباوتهم وضلالهم؛ ما يدل على ما وراءه من ظلمات الجهل التي بعضها فوق بعض.

ويكفي في ذلك عبادتهم العجل، الذي صنعته أيديهم من ذهب، ومن غباوتهم أن جعلوه على صورة أبلد الحيوان وأقله فطانة، الذي يضرب المثل به في قلة الفهم، فانظر إلى هذه الجهالة والغباوة المتجاوزة للحد كيف عبدوا مع الله إلـهًا آخر، وقد شاهدوا من أدلة التوحيد وعظمة الرب وجلاله ما لم يشاهده سواهم؟!

وإذ قد عزموا على اتخاذ إلـه دون الله؛ فاتخذوه ونبيهم حي بين أظهرهم لم ينتظروا موته! وإذ قد فعلوا؛ فلم يتخذوه من الملائكة المقربين، ولا من الأحياء الناطقين؛ بل اتخذوه من الجمادات!.

وإذ قد فعلوا؛ فلم يتخذوه من الجواهر العلوية: كالشمس، والقمر، والنجوم؛ بل من الجواهر الأرضية!

وإذ قد فعلوا؛ فلم يتخذوه من الجواهر، التي خلقت فوق الأرض، عالية عليها، كالجبال ونحوها، بل من جواهر لا تكون إلا تحت الأرض، والصخور والأحجار عالية عليها. **وإذ** قد فعلوا؛ فلم يتخذوه من جوهر يستغني عن: الصنعة، وإدخال النار، وتقليبه وجوهًا مختلفة، وضربه بالحديد، وسبكه؛ بل من جوهر يحتاج إلى نيل الأيدي له بضروب مختلفة، وإدخاله النار، وإحراقه، واستخراج خبثه!

وإذ قد فعلوا؛ فلم يصوغوه على تمثال ملك كريم، ولا نبي مرسل، ولا على تمثال جوهر علوي لا تناله الأيدي؛ بل على تمثال حيوان أرضي!

وإذ قد فعلوا؛ فلم يصوغوه على تمثال أشرف الحيوانات وأقواها وأشدها امتناعًا من الضيم: كالأسد، والفيل، ونحوهما؛ بل صاغوه على تمثال أبلد الحيوان وأقبله للضيم والذل؛ بحيث يحرث عليه الأرض، ويسقى عليه بالسواقي والدواليب، ولا له قوة يمتنع بها من كبير ولا صغير! فأي معرفة لهؤلاء بمعبودهم ونبيهم وحقائق الموجودات؟!!

(١) ١٨٩ هداية.

وحقيق بمن سأل نبيه أن يجعل له إلـهًا؛ فيعبد إلـهًا مجعولاً بعد ما شاهد تلك الآيات الباهرات: أن لا يعرف حقيقة الإلـه، ولا أسماءه، وصفاته ونعوته، ودينه، ولا يعرف حقيقة المخلوق، وحاجته وفقره.

ولو عرف هؤلاء معبودهم ورسولهم لما قالوا لنبيهم: ﴿**لَن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً**﴾ [البقرة: ٥٥].

ولا قالوا له: ﴿**فاذهب أنت وربك فقاتلا**﴾ [المائدة: ٢٤].

ولا قتلوا نفسًا، وطرحوا المقتول على أبواب البرآء من قتله ونبيهم حي بين أظهرهم، وخبر السماء والوحي يأتيه صباحًا ومساء، فكأنهم جوزوا أن يخفى هذا على الله كما يخفى على الناس؟!

ولو عرفوا معبودهم؛ لما قالوا في بعض مخاطباتهم له: «يا أبانا انتبه من رقدتك، كم تنام».

ولو عرفوه؛ لما سارعوا إلى: محاربة أنبيائه، وقتلهم، وحبسهم، ونفيهم؛ ولما تحيلوا على: تحليل محارمه: وإسقاط فرائضه بأنواع الحيل.

ولقد شهدت التوراة: بعدم فطانتهم، وأنهم من الأغبياء.

ولو عرفوه لما حجروا عليه بعقولهم الفاسدة؛ أن يأمر بالشيء في وقت لمصلحة، ثم يزيل الأمر به في وقت آخر؛ لحصول المصلحة، وتبدله بما هو خير منه؛ وينهى عنه، ثم يبيحه في وقت آخر؛ لاختلاف الأوقات والأحوال في المصالح والمفاسد، كما هو مشاهد في أحكامه القدرية الكونية، التي لا يتم نظام العالم ولا مصلحته إلا بتبديلها واختلافها بحسب الأحوال والأوقات والأماكن، فلو اعتمد طبيب أن لا يغير الأدوية والأغذية بحسب اختلاف الزمان والأماكن والأحوال؛ لأهلك الحرث والنسل وعد من الجهال، فكيف يحجر على طبيب القلوب والأديان أن تتبدل أحكامه بحسب اختلاف المصالح؟! وهل ذلك إلا قدح في حكمته ورحمته وقدرته وملكه التام وتدبيره لخلقه؟!!

ومن جهلهم بمعبودهم ورسوله وأمره؛ أنهم أمروا أن يدخلوا باب المدينة التي فتحها الله عليهم سجدًا ويقولوا: حطة، فيدخلوا متواضعين لله سائلين منه أن يحط عنهم خطاياهم، فدخلوا يزحفون على أستاههم بدل السجود لله،

ويقولون: «هنطا سقماثا» أي: حنطة سمراء، فذلك سجودهم وخشوعهم، وهذا استغفارهم واستقالتهم من ذنوبهم.

ومن جهلهم وغباوتهم؛ أن الله سبحانه أراهم من آيات قدرته وعظيم سلطانه وصدق رسوله؛ ما لا مزيد عليه، ثم أنزل عليهم بعد ذلك كتابه وعهد إليهم فيه عهده، وأمرهم أن يأخذوه بقوة فيعبدوه بما فيه، كما خلصهم من عبودية فرعون والقبط؛ فأبوا أن يقبلوا ذلك وامتنعوا منه، فنتق الجبل العظيم فوق رؤوسهم على قدرهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوا؛ أطبقته عليكم؛ فقبلوه من تحت الجبل.

قال ابن عباس: رفع الله الجبل فوق رؤوسهم وبعث نارًا من قبل وجوههم، وأتاهم البحر من تحتهم، ونودوا: إن لم تقبلوا أرضختكم بهذا، وأحرقتكم بهذا، وأغرقتكم بهذا؛ فقبلوه، وقالوا: سمعنا وأطعنا؛ ولولا الجبل؛ ما أطعناك، ولما أمنوا بعد ذلك قالوا: ﴿سَمِعْنَا وعَصَيْنَا﴾. [النساء: ٤٦].

ومن جهلهم؛ أنهم شاهدوا الآيات ورأوا العجائب التي يؤمن على بعضها البشر، ثم قالوا بعد ذلك: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لكَ حتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾. [البقرة: ٥٥]. وكان الله سبحانه قد أمر موسى أن يختار من خيارهم سبعين رجلاً لميقاته فاختارهم موسى، وذهب بهم إلى الجبل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل، وقال للقوم: ادنوا ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الحجاب وقعوا سجدًا، فسمعوا الرب تعالى وهو يكلم موسى ويأمره وينهاه ويعهد إليه، فلما انكشف الغمام؛ قالوا: ﴿لَن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً﴾.

ومن جهلهم؛ أن هارون لما مات ودفنه موسى قالت بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته، حسدته على خلقه ولينه ومحبة بني إسرائيل له، قال: فاختاروا سبعين رجلاً فوقفوا على قبر هارون، فقال موسى: يا هارون أقتلت أم مت؟ قال: بل مت وما قتلني أحد. فحسبك من جهالة أمة وجفائهم؛ أنهم اتهموا نبيهم ونسبوه إلى قتل أخيه، فقال موسى: ما قتلته؛ فلم يصدقوه؛ حتى أسمعهم كلامه وبراءة أخيه مما رموه به.

ومن جهلهم؛ أن الله شبههم في حملهم التوراة وعدم الفقه فيها والعمل بها بالحمار يحمل أسفارًا، وفي هذا التشبيه من النداء على جهالتهم وجوه متعددة:

منها: أن الحمار من أبلد الحيوانات، التي يضرب بها المثل في البلادة.

ومنها: أنه لو حمل غير الأسفار من طعام أو علف أو ماء؛ لكان له به شعور بخلاف الأسفار. ومنها: أنهم حُمِّلُوها لا أنهم حَمَلُوها طوعًا واختياراً؛ بل كانوا كالمكلفين لما حملوه لم يرفعوا به رأساً ومنها: أنهم حيث حملوها تكليفاً وقهراً؛ لم يرضوا بها ولم يحملوها رضى واختياراً، وقد علموا أنهم لابد لهم منها، وأنهم إن حملوها اختياراً كان لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

ومنها: أنها مشتملة على مصالح معاشهم ومعادهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة؛ فإعراضهم عن التزام ما فيه سعادتهم وفلاحهم إلى ضده؛ من غاية الجهل والغباوة، وعدم الفطانة.

ومن جهلهم وقلة معرفتهم؛ أنهم طلبوا عوض المن والسلوى، اللذين هما أطيب الأطعمة وأنفعها وأوفقها للغذاء الصالح؛ البقل والقثاء والثوم والعدس والبصل، ومن رضي باستبدال هذه الأغذية عوضًا عن المن والسلوى؛ لم يكثر عليه أن يستبدل: الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدى، والغضب بالرضى، والعقوبة بالرحمة، وهذه حال من لم يعرف: ربه، ولا كتابه، ولا رسوله، ولا نفسه.

وأما نقضهم ميثاقهم، وتبديلهم أحكام التوراة، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، وأكلهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم الرشا، واعتداؤهم في السبت حتى مسخوا قردة، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وتكذيبهم عيسى ابن مريم رسول الله، ورميهم له ولأمه بالعظائم، وحرصهم على قتله، وتفردهم دون الأمم بالخبث والبهت، وشدة تكالبهم على الدنيا وحرصهم عليها، وقسوة قلوبهم، وحسدهم، وكثرة سخرهم؛ فإليه النهاية. وهذا وأضعافه من الجهل وفساد العقل؛ قليل على من كذب رسل الله، وجاهر بمعاداته ومعاداة ملائكته وأنبيائه وأهل ولايته، فأي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله؟! وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة؟! وأي علم أو عمل حصل لمن فاته العلم بالله، والعمل بمرضاته، ومعرفة الطريق الموصلة إليه، ومآله بعد الوصول إليه؟!.

فصل(١)

ثم كاد أحد ولدي آدم، ولم يزل يتلاعب به، حتى قتل أخاه، وأسخط أباه، وعصى مولاه، فسن للذرية قتل النفوس، وقد ثبت في الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: «**ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأوَّل كفلٌ من دمها؛ لأنه أوَّل من سنَّ القتل**».

فكاد العدو هذا القاتل بقطيعة رحمه، وعقوق والديه، وإسخاط ربه، ونقص عدده وظلم نفسه، وعرَّضه لأعظم العقاب، وحرمه حظَّه من جزيل الثواب.

...(٢)**قال** الله تعالى: ﴿**إنَّما يتقبَّلُ الله من المُتَّقين**﴾ [المائدة: ٢٧]. وأحسن ما قيل في تفسير الآية: أنه إنما يتقبل الله عَمَلَ مَنْ اتقاه في هذا العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره. وهذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه؛ علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله والله أعلم. . .

(٣)**قوله**: ﴿**من أجل ذلكَ كتبنَا على بَني إسرائيلَ أنَّه مَنْ قَتَل نفسًا بغير نَفْسٍ أَوْ فسادٍ في الأَرْضِ فكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَميعًا**﴾ [المائدة:٣٢]. وقد ظنت طائفة أن قوله من أجل ذلك تعليل لقوله: ﴿**فأصبَحَ مِنَ النَّادمينَ**﴾ [المائدة: ٣١]. أي: من أجل قتله لأخيه، وهذا ليس بشيء؛ لأنه: يشوش صحة النظم، وتقل الفائدة بذكره، ويذهب: شأن التعليل بذلك للكتابة المذكورة، وتعظيم شأن القتل حين جعل علة لهذه الكتابة فتأمله.

فإن قلت: كيف يكون قتل أحد بني آدم للآخر؛ علة لحكمه على أمة أخرى بذلك الحكم؟ وإذا كان علة فكيف كان قاتل نفس واحدة بمنزلة قاتل الناس كلهم؟

قلت: الرب سبحانه يجعل أقضيته وأقداره؛ عللاً وأسبابًا لشرعه وأمره، فجعل حكمه الكوني القدري، علة لحكمه الديني الأمري، وذلك أن القتل عنده لما كان من أعلى أنواع الظلم والفساد؛ فخم أمره، وعظم شأنه؛ وجعل إثمه أعظم من إثم غيره، ونزل قاتل النفس الواحدة منزلة قاتل الأنفس كلها، ولا يلزم من التشبيه أن يكون المشبه بمنزلة المشبه به من كل الوجوه، فإذا كان قاتل الأنفس

(١) ٢٠٣ إغاثة جـ٢. (٢) ٨٢ مفتاح جـ١. (٣) ١٩٥ شفاء.

كلها يصلى النار وقاتل النفس الواحدة يصلاها؛ صح تشبيهه به، كما يأثم من شرب قطرة واحدة من الخمر، ومن شرب عدة قناطير وإن اختلف مقدار الإثم.

وكذلك من زنى مرة واحدة وآخر زنى مرارًا كثيرة كلاهما آثم، وإن اختلف قدر الإثم، وهذا معنى قول مجاهد: من قتل نفسًا واحدة يصلى النار بقتلها كما يصلاها من قتل الناس جميعًا، وعلى هذا فالتشبيه في أصل العذاب لا في وصفه.

وإن شئت قلت: التشبيه في أصل العقوبة الدنيوية وقدرها، فإنه لا يختلف بقلة القتل وكثرته، كما لو شرب قطرة فإن حده حد من شرب راوية، ومن زنى بامرأة واحدة حده حد من زنى بألف، وهذا تأويل الحسن وابن زيد، قالا: يجب عليه من القصاص بقتلها مثل الذي يجب عليه لو قتل الناس جميعًا.

ولك أن تجعل التشبيه في الأذى والغم الواصل إلى المؤمنين بقتل الواحد منهم، فقد جعلهم كلهم خصماءه وأوصل إليهم من الأذى والغم ما يشبه القتل، وهذا تأويل ابن الأنباري، وفي الآية تأويلات أخر.

فصل[1]

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة، قال الله تعالى: **﴿مِنْ أَجْلِ ذلك كَتَبْنَا على بني إسرائيل أنَّه مَنْ قَتَلَ نفسًا بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأَنَّما قَتَل الناسَ جميعًا ومَنْ أَحيَاهَا فكأَنَّما أَحْيا النَّاسَ جَميعًا﴾**. [المائدة: ٣٢]. وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس، وقالوا: معلوم أن إثم قاتل مائة؛ أعظم إثمًا عند الله من إثم قاتل نفس واحدة، وإنما أتوا من ظنهم أن التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة، والقول لم يدل على هذا، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء؛ أخذه بجميع أحكامه، وقد قال تعالى: **﴿كأَنَّهم يَوْمَ يرونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلَّا عَشيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾**. [النازعات: ٤٦]. وقال تعالى: **﴿كأَنَّهُم يَومَ يَرونَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلبَثُوا إلَّا ساعَةً من نَهارٍ﴾**. [الأحقاف: ٣٥]. وذلك لا يوجب أن لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار. وقد قال النبي، ﷺ: «**من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل. ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله**». أي: مع العشاء، كما جاء في لفظ آخر. وأصرح من هذا قوله: «**من صام رمضان وأتبعه ستًّا من شوال فكأنما صام**

(١) ١٩٨ الجواب الكافي.

الـدهـر». وقوله، ﷺ: «**من قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن**». ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء؛ لم يبلغ ثواب المشبه به؛ فيكون قدرها سواء، ولو كان قدر الثواب سواء؛ لم يكن لمصلي الفجر والعشاء في جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب، وما أوتي أحد بعد الإيمان؛ أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله، ﷺ. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فإن قيل: ففي أي شيء وقـع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وبين قاتل الناس جميعاً؟ قيل: في وجوه متعددة:

أحدها: أن كل واحـد منهما: عاص لله ورسوله، ﷺ، مخالف لأمره، متعرض لعقوبته، وكل منهما قد باء بغضب الله ولعنته واستحقاق الخلود في نار جهنم، وأعد لهم عذابًا عظيمًا، وإن تفاوتت درجات العذاب، فليس إثم من قتل نبيًّا، أو إمامًا عادلاً، أو عالمًا يأمر الناس بالقسط؛ كمن قتل من لا مزية له من آحاد الناس. الثاني: أنهما سواء في استحقاق إزهاق النفس.

الثالث: أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام؛ فإن من قتل نفسًا بغير استحقاق؛ بل لمجرد الفساد في الأرض، ولأخذ ماله؛ فإنه يجترىء على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله، فهو معاد للنوع الإنساني.

ومنها أنه يسمى: قاتلاً، أو فاسقًا، أو ظالمًا، أو عاصيًا؛ بقتله واحدًا، كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعًا.

ومنها: أن الله سبحانه جعل المؤمنين في: توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، وتواصلهم؛ كالجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى[1] له سائر الجسد بالحمى والسهر؛ فإذا أتلف القاتل عضوًا من ذلك الجسد؛ فكأنما أتلف سائر الجسد، وآلم جميع أعضائه. فمن آذى مؤمنًا واحدًا. فقد آذى جميع المؤمنين؛ وفي أذى جميع المؤمنين أذى جميع الناس كلهم، فإن الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم. فإيذاء الخفير؛ إيذاء المخفر.

وقد قال النبي، ﷺ: «**لا تقتل نفس ظلمًا بغير حق؛ إلا كان على ابن آدم الأول كفل**[2] **منها؛ لأنه أول من سن القتل**».

---

(١) التداعي: التهدم.

(٢) الكفل بكسر الكاف وسكون الفاء النصيب.

ولم يجئ هذا الوعيد في أول زان، ولا أول سارق،ولا أول شارب مسكر، وإن كان أول المشركين قد يكون؛ أولى بذلك من أول قاتل؛ لأنه أول من سن الشرك. ولهذا رأى النبي، ﷺ، عمرو بن لُحَيٍّ[1] الخزاعي؛ يعذب أعظم العذاب في النار؛ لأنه أول من غير دين إبراهيم عليه السلام.

وقد قال تعالى: ﴿ولا تكونوا أوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾. [البقرة: ٤١]. أي: فيقتدى بكم من بعدكم؛ فيكون إثم كفره عليكم.

وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها.

وفي جامع الترمذي: عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي، ﷺ، قال: «**يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة؛ ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دمًا، يقول: يا رب سل هذا فيم قتلني؟**» فذكروا لابن عباس التوبة، فتلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِنًا مُتَعمِّدًا فجَزاؤُهُ جهنَّمُ خَالدًا فيهَا﴾. [النساء: ٩٣]. ثم قال: مانسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة؟ قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وفي صحيح البخاري: عن سمرة بن جندب قال: «أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيبًا؛ فليفعل، ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهرقه؛ فليفعل».

وفي جامع الترمذي: عن نافع قال: نظر عبدالله بن عمر يومًا إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن عند الله؛ أعظم حرمة منك». قال الترمذي: هذا حديث حسن...

[2]**وأما** قوله: أوجب الحد في القطرة الواحدة من الخمر دون الأرطال الكثيرة من البول، فهذا أيضًا من كمال الشريعة ومطابقتها للعقول والفطر وقيامها بالمصالح.

فإن ما جعل الله سبحانه في طباع الخلق النَّفرة عنه ومجانبته؛ اكتفى بذلك عن الوازع عنه بالحد؛ لأن الوازع الطبيعي كاف في المنع منه.

وأما ما يشتد تقاضي الطباع له؛ فإنه غلَّظ العقوبة عليه بحسب شدة تقاضي الطبع له، وسدَّ الذريعة إليه من قُرب وبُعد، وجعل ما حوله حِمًى، ومنع

(١) بضم اللام، وفتح الحاء وتشديد الياء.　(٢) ٨٣ أعلام جـ٢.

من قربانه، ولهذا عاقب في الزنى بأشنع القتلات، وفي السرقة بإبانة اليد، وفي الخمر بتوسيع الجلد ضربًا بالسوط، ومنع قليل الخمر وإن كان لا يسكر؛ إذ قليله داع إلى كثيره.

ولهذا كان من أباح من نبيذ التمر المسكر القدر الذي لا يسكر؛ خارجًا عن: محض القياس، والحكمة، وموجب النصوص.

وأيضًا فالمفسدة التي في شرب الخمر، والضرر المختص، والمتعدي؛ أضعاف الضرر والمفسدة التي في شرب البول وأكل القاذورات، فإن ضررها مختص بمتناولها.

فصل[1]

وأما اعتبار توبة المحارب قبل القدرة عليه دون غيره؛ فيقال: أين في نصوص الشارع هذا التفريق؟ بل نصه على اعتبار توبة المحارب قبل القدرة عليه: إما من باب التنبيه على اعتبار توبة غيره بطريق الأولى؛ فإنه إذا دفعت توبته عنه حد حرابه مع شدة ضررها وتعديه؛ فلأن تدفع التوبة ما دون حد الحراب؛ بطريق الأولى والأحرى. وقد قال الله تعالى: ﴿**قُل للذينَ كَفَرُوا إنْ ينْتَهُوا يُغْفَرْ لهم ما قَدْ سَلَفَ**﴾. [الأنفال: ٣٨].

وقال النبي، ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**».

والله تعالى جعل الحدود؛ عقوبة لأرباب الجرائم، ورفع العقوبة عن التائب شرعًا وقدرًا؛ فليس في شرع الله ولا قدره عقوبة تائب ألبتة.

وفي الصحيحين: من حديث أنس قال: «كنت مع النبي، ﷺ، فجاء رجل فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا، فأقمه عليَّ، قال: ولم يسأله عنه، فحضرت الصلاة فصلى مع النبي، ﷺ، فلما قضى النبي، ﷺ، الصلاة قام إليه الرجل فأعاد قوله. قال: «**أليس قد صليت معنا؟**» قال: نعم. قال: «**فإن الله عز وجل قد غفر لك ذنبك**» فهذا لما جاء تائبًا بنفسه من غير أن يُطلب غفر الله له، ولم يقم عليه الحد الذي اعترف به، وهو أحد القولين في المسألة، وهو احدى الروايتين عن أحمد، وهو الصواب.

(١) ٧٨ أعلام جـ٢.

فصـــل(١)

النوع الثامن: ذكر الحكم الكوني والشرعي عقيب الوصف المناسب له، وتارة يذكر بإن، وتارة يقرن بالفاء، وتارة يذكر مجردًا.

فالأول: كقـولـه: ﴿وزكـريا إذ نادى ربَّه ربِّ لا تذرني فردًا وأنْتَ خيرُ الوارثين فاسْتَجَبْنَا لهُ ووَهبنَا لهُ يَحيى وأصْلَحْنَا لهُ زوجهُ إنَّهم كانُوا يُسارِعُونَ في الخيراتِ ويَدْعُونَنَا رَغبًا ورَهَبًاوكانوا لناخَاشِعينَ﴾. [الأنبياء: ٨٩، ٩٠]. وقوله: ﴿إنَّ المتَّقين في جَنَّاتٍ وعُيونٍ آخِذينَ مَا آتاهُم رَبّهم إنَّهم كَانُوا قَبلَ ذلكَ مُحسِنينَ﴾. [الذاريات: ١٥، ١٦]. وقوله: ﴿كَذَلكَ لِنَصرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبادِنَا المُخْلَصِينَ﴾. [يوسف: ٢٤]. وقـولـه: ﴿ والـذين يُمسِّكُون بالكِتَاب وأقَامُوا الصَّلاة إنَّا لا نُضيعُ أَجْرَ المُصلِحِينَ﴾. [الأعراف: ١٧١]. والثاني: كقوله: ﴿والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيدِيهُما جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾. [المائدة: ٣٨].

﴿الزَّانيةُ والزَّاني فاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُما مَائَةَ جَلْدَةٍ﴾. [النور: ٢]. ﴿والذينَ يَرمُونَ المُحْصَناتِ ثمَّ لم يَأْتُوا بأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فاجْلِدوهُم ثَمانِينَ جَلْدَةٍ﴾. [النور: ٤].

الثالث: كقـولـه: ﴿إنَّ المُتَّقـين في جَنَّاتٍ وعُيونٍ﴾ [الذاريات: ١٥]. ﴿إنَّ الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحَاتِ وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ لَهُم أَجْرُهُم عندَ ربِّهِم﴾. [البقرة: ٢٧٧]. وهذا في التنزيل يزيد على عدة آلاف موضع، بل القرآن مملوء منه.

فإن قيل: هذا إنما يفيد كون تلك الأفعال أسبابًا لما رتب عليها؛ لا يقتضي إثبات التعليل في فعل الرب وأمره، فأين هذا من هذا؟.

قيل: لما جعل الرب سبحانه هذه الأوصاف عللاً لهذه الأحكام وأسبابًا لها؛ دل ذلك على أنه حكم بها شرعًا وقدرًا؛ لأجل تلك الأوصاف، وأنه لم يحكم بها لغير علة ولا حكمة؛ ولهذا كان كل من نفى التعليل والحكم؛ نفي الأسباب، ولم يجعل لحكم الرب الكوني والديني سببًا ولا حكمة هي العلة الغائية، وهؤلاء ينفون الأسبـاب والحكم. ومن تأمـل شرع الـرب وقدره وجزاءه؛ جزم جزمًا ضروريًا ببطلان قول النفاة.

---

(١) ١٩٦ شفاء.

والله سبحانـه قد رتب الأحكام على أسبابها وعللها، وبين ذلك: خبرًا وحسًّا، وفطرة وعقلاً، ولو ذكرنا ذلك على التفصيل لقام منه عدة أسفار.

...[1]**وأما** قوله : من حكم على الناس بخلاف ما ظهر عليهم لم يسلم من خلاف التنـزيل والسنـة، فإنـه يصير بذلك إلى قبول توبة الزنديق، وحقن دمه بإسلامه وقبول توبة المرتد وإن ولد على الإسلام، وهاتان مسألتان فيهما نزاع بين الأمة مشهور، وقد ذكر الشافعي الحجة على قبول توبتهما.

ومن لم يقبل توبتهما يقول: إنه لا سبيل إلى العلم بها؛ فإن الزنديق قد علم أنه لم يزل مظهرًا للإسلام، فلم يتجدد له بإسلامه الثاني حال مخالفة لما كان عليه، بخلاف الكافر الأصلي؛ فإنه إذا أسلم؛ فقد تجدد له بالإسلام حال لم يكن عليها، والزنديق إنما رجع إلى إظهار الإسلام.

وأيضا: فالكافر كان معلنًا لكفره غير مستتر به ولا مُخفٍ له، فإذا أسلم؛ تيقنًا أنه أتى بالإسلام رغبة فيه لا خوفًا من القتل، والزنديق بالعكس فإنه كان مُخفيًا لكفره مستترًا به، فلم نؤاخذه بما في قلبه إذا لم يظهر عليه، فإذا ظهر على لسانه، وآخذناه به، فإذا رجع عنه؛ لم يرجع عن أمر كان مظهرًا له غير خائف من إظهاره؛ وإنما رجع؛ خوفًا من القتل.

وأيضـا: فإن الله تعـالى سنَّ في عبـاده: أنهم إذا رأوا بأسـه؛ لم ينفعهم الإسلام، وهذا إنما أسلم عند معاينة البأس، ولهذا لو جاء من تلقاء نفسه وأقر بأنه قال كذا وكذا وهو تائب منه؛ قبلنا توبته ولم نقتله.

وأيضا: فإن الله تعـالى سنَّ في المحـاربين: أنهم إن تابوا من قبل القدرة عليهم؛ قبلت توبتهم، ولا تنفعهم التوبة بعد القدرة عليهم، ومحاربة الزنديق للإسلام بلسانه؛ أعظم من محاربة قاطع الطريق بيده وسنانه؛ فإن فتنة هذا في الأموال والأبدان، وفتنة الزنديق في القلوب والإيمان، فهو أولى ألا تقبل توبته بعد القدرة عليه، وهذا بخلاف الكافر الأصلي؛ فإن أمره كان معلومًا، وكان مظهرًا لكفره غير كاتم له، والمسلمون قد أخذوا حِذْرهم منه، وجاهروه بالعداوة والمحاربة.

---

(١) ١٤١ أعلام جـ٣.

وأيضا: فإن الزنديق هذا دأبه دائمًا، فلو قبلت توبته؛ لكان تسليطًا له على بقاء نفسه بالزندقة والإلحاد، وكلما قُدِرَ عليه؛ أظهر الإسلام وعاد إلى ما كان عليه، ولا سيما وقد علم أنه أَمِنَ بإظهار الإسلام من القتل، فلا يزعُه خوفه من المجاهرة بالزندقة والطعن في الدين ومسبة الله ورسوله، فلا ينكف عدوانه عن الإسلام؛ إلا بقتله.

وأيضا: فإن من سبَّ الله ورسوله؛ فقد حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فسادًا، فجزاؤه؛ القتل حدًّا. والحدود لا تسقط بالتوبة بعد القدرة اتفاقًا.

ولا ريب أن محاربة هذا الزنديق لله ورسوله وإفساده في الأرض؛ أعظم محاربةٍ وإفسادًا، فكيف تأتي الشريعة بقتل من صال على عشرة دراهم لذمي أو على بدنه ولا تقبل توبته، ولا تأتي بقتل من دأبه الصول على كتاب الله وسنة رسوله والطعن في دينه، وتقبل توبته بعد القدرة عليه؟

وأيضا: فالحدود بحسب الجرائم والمفاسد، وجريمة هذا؛ أغلظ الجرائم، ومفسدة بقائه بين أظهر المسلمين؛ من أعظم المفاسد.

وههنا قاعدة يجب التنبيه عليها لعموم الحاجة إليها، وهي أن الشارع إنما قبل توبة الكافر الأصلي من كفره بالإسلام؛ لأنه ظاهر لم يعارضه ما هو أقوى منه، فيجب العمل به؛ لأنه مقتضٍ لحقن الدم والمعارضُ منتف، فأما الزنديق فإنه قد أظهر ما يبيح دمه، فإظهاره بعد القدرة عليه للتوبة والإسلام؛ لا يدل على زوال ذلك الكفر المبيح لدمه دلالة قطعية ولا ظنية، أما انتفاء القطع فظاهر، وأما انتفاء الظن؛ فلأن الظاهر إنما يكون دليلًا صحيحًا؛ إذا لم يثبت أن الباطن بخلافه، فإذا قام دليل على الباطن؛ لم يلتفت إلى ظاهر قد علم أن الباطن بخلافه.

ولهذا اتفق الناس على أنه لا يجوز للحاكم أن يحكم بخلاف علمه، وإن شهد عنده بذلك العدول، وإنما يحكم بشهادتهم؛ إذا لم يعلم خلافها.

وكذلك لو أقر إقرارًا علم أنه كاذب فيه، مثل أن يقول لمن هو أسنّ منه: «هذا ابني» لم يثبت نسبه ولا ميراثه اتفاقًا.

وكذلك الأدلة الشرعية مثل: خبر الواحد العدل، والأمر والنهي، والعموم والقياس؛ إنما يجب اتباعها إذا لم يقم دليل أقوى منها يخالف ظاهرها.

وإذا عرف هذا؛ فهذا الزنديق قد قام الدليل على فساد عقيدته، وتكذيبه واستهانته بالدين، وقدحه فيه؛ فإظهاره الإقرار والتوبة بعد القدرة عليه؛ ليس فيه أكثر مما كان يظهره قبل هذا، وهذا القدر قد بطلت دلالته بما أظهره من الزندقة؛ فلا يجوز الاعتماد عليه لتضمنه: إلغاء الدليل القوي، وإعمال الدليل الضعيف الذي قد ظهر بطلان دلالته.

ولا يخفى على المنصف قوة هذا النظر وصحة هذا المأخذ، وهذا مذهب: أهل المدينة ومالك وأصحابه، والليث بن سعد، وهو المنصور من الروايتين عن أبي حنيفة، وهو إحدى الروايات عن أحمد؛ نصرها كثير من أصحابه؛ بل هي أنصّ الروايات عنه. وعن أبي حنيفة وأحمد: أنه يستتاب، وهو قول الشافعي. وعن أبي يوسف روايتان: إحداهما: أنه يستتاب، وهي الرواية الأولى عنه، ثم قال آخرًا: أقتله من غير استتابة، لكن إن تاب قبل أن يقدر عليه؛ قبلت توبته، وهذا هو الرواية الثالثة عن أحمد.

ويا لله العجب! كيف يقاوِم دليل إظهاره للإسلام بلسانه بعد القدرة؛ عليه أدلة زندقته، وتكررها منه مرة بعد مرة، وإظهاره كل وقت للاستهانة بالإسلام، والقدح في الدين، والطعن فيه في كل مجمع؟ مع استهانته بحرمات الله واستخفافه بالفرائض وغير ذلك من الأدلة؟

ولا ينبغي لعالم قط أن يتوقف في قتل مثل هذا، ولا تترك الأدلة القطعية لظاهر؛ قد تبين عدم دلالته وبطلانها، ولا تسقط الحدود عن أرباب الجرائم بغير موجب.نعم لو أنه قَبْلَ رفعه إلى السلطان؛ ظهر منه من الأقوال والأعمال ما يدل على حسن الإسلام وعلى التوبة النصوحة، وتكرر ذلك منه؛ لم يقتل كما قاله أبو يوسف وأحمد في إحدى الروايات، وهذا التفصيل؛ أحسن الأقوال في المسألة.

ومما يدل على أن توبة الزنديق بعد القدرة؛ لا تعصم دمه؛ قوله تعالى: **﴿قلْ هل تَرَبَّصُونَ بنا إلا إحدَى الحُسنَيين ونحنُ نتربَّصُ بكم أن يُصيبكم الله بعذابٍ من عِنْدِه أو بأيدِينَا﴾** [التوبة: ٥٢].

قال السلف في هذه الآية: **﴿أو بِأيْديِنَا﴾** بالقتل إن أظهرتم ما في قلوبكم، وهو كما قالوا؛ لأن العذاب على ما يبطنونه من الكفر بأيدي المؤمنين؛ لا يكون إلا

بالقتل؛ فلو قبلت توبتهم بعدما ظهرت زندقتهم؛ لم يمكن المؤمنين أن يتربصوا بالـزنادقة: أن يصيبهم الله بأيديهم؛ لأنهم كلما أرادوا أن يعذبوهم على ذلك؛ أظهروا الإسلام؛ فلم يصابوا بأيديهم قط، والأدلة على ذلك كثيرة جدًا، وعند هذا فأصحاب هذا القول يقولون: نحن أسعد بالتنزيل والسنة من مخالفينا في هذه المسألة، المشنعين علينا بخلافها وبالله التوفيق.

فصل(١)

واختلف في توبة السارق إذا قُطعت يده، هل من شرطها: ضمان العين المسروقة لربها؟

وأجمعوا على أن من شرط صحة توبته: أداؤها إليه، إذا كانت موجودة بعينها. وإنما اختلفوا إذا كانت تالفة. فقال الشافعي وأحمد: من تمام توبته؛ ضمانها لمالكها، ويلزمه ذلك، موسرًا كان أو معسرًا. وقال أبو حنيفة: إذا قطعت يده - وقد استُهلكت العين - لم يلزمه ضمانها، ولا تتوقف صحة توبته على الضمان؛ لأن قطع اليد هو مجموع الجزاء. والتضمين عقوبة زائدة عليه لا تشرع.

قال: وهذا بخلاف ما إذا كانت العين قائمة، فإن صاحبها قد وجد عين ماله؛ فلم يكن أخذها عقوبة ثانية، بخلاف التضمين؛ فإنه غرامة، وقد قُطع طرفه، فلا نجمع عليه غرامة الطرف وغرامة المال.

قالوا: ولهذا لم يذكر الله في عقوبة السارق والمحارب؛ غير إقامة الحد عليهما. ولو كان الضمان لما أتلفوه واجبًا لذكره مع الحد. ولما جعل مجموع جزاء المحاربين ما ذكره من العقوبة بأداة «إنما» التي هي عندكم للحصر. فقال: ﴿إِنَّمَا جزاءُ الذينَ يُحَارِبُونَ الله ورسولَه ويَسعَونَ في الأَرْضِ فَسادًا أَن يُقَتَّلُوا أَو يُصَلَّبُوا أَو تُقَطَّعَ أَيدِيهِم وَأَرجُلُهُم مِنْ خِلافٍ أَو يُنفَواْ مِنَ الأَرض ذَلِكَ لَهُم خِزيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُم فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. الآية [المائدة: ٣٣]. ومدلول هذا الكلام - عند من يجعل أداة «إنما» للحصر -: أنه لا جزاء لهم غير ذلك.

(١) ٣٦٥ مدارج جـ١.

فصل(١)

وأما قوله: «وقطع يد السارق التي باشر بها الجناية، ولم يقطع فرج الزاني وقد باشر به الجناية، ولا لسان القاذف وقد باشر به القذف».

فجوابه: أن هذا من أدل الدلائل على أن هذه الشريعة؛ منزلة من عند أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.

ونحن: نذكر فصلاً نافعًا في الحدود ومقاديرها، وكمال ترتبها على أسبابها، واقتضاء كل جناية لما رُتِّب عليها دون غيرها، وأنه ليس وراء ذلك للعقول اقتراح، ونورد أسئلة لم يوردها هذا السائل، وننفصل عنها بحول الله وقوته أحسن انفصال. والله المستعان وعليه التكلان.

إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، لما خلق العباد وخلق الموت والحياة، وجعل ما على الأرض زينة لها؛ ليبلو عباده ويختبرهم أيهم أحسن عملاً؛ لم يكن في حكمته بد من تهيئة أسباب الابتلاء في أنفسهم وخارجًا عنها، فجعل في أنفسهم: العقول الصحيحة، والأسماع والأبصار، والإرادات والشهوات، والقوى والطبائع، والحب والبغض، والميل والنفور، والأخلاق المتضادة المقتضية لآثارها اقتضاء السبب لمسبَّبه والتي في الخارج الأسبابُ التي تطلب النفوس حصولها فتنافس فيه، وتكره حصوله فتدفعه عنها.

ثم أكد أسباب هذا الابتلاء: بأن وكَّل بها قرناء من الأرواح الشريرة الظالمة الخبيثة، وقُرناء من الأرواح الخيرة العادلة الطيبة، وجعل دواعي القلب وميوله مترددة بينهما: فهو إلى داعي الخير مرة، وإلى داعي الشر مرة؛ ليتم الابتلاء في دار الامتحان، وتظهر حكمة الثواب والعقاب في دار الجزاء، وكلاهما من الحق الذي خلق الله السماوات والأرض به ومن أجله، وهما مقتضى ملك الرب وحمده؛ فلابد أن يظهر ملكه وحمده فيهما، كما ظهر في خلق السماوات والأرض وما بينهما.

وأوجب ذلك في حكمته ورحمته وعدله؛ بحكم إيجابه على نفسه: أن أرسل رُسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه؛ ليتم ما اقتضته حكمته في خلقه وأمره.

وأقام سوق الجهاد؛ لما حصل من المعاداة والمنافرة بين هذه الأخلاق

(١) ٩٣ أعلام جـ٢.

والأعمال والإرادات، كما حصل بين من قامت به، فلم يكن بد من حصول مقتضى الطباع البشرية، وما قارنها من الأسباب من: التنافس والتحاسد، والانقياد لدواعي الشهوة، والغضب، وتعدّي ما حد له، والتقصير عن كثير مما تعبد به، وسهل ذلك عليها اغترارها بموارد المعصية مع الإعراض عن مصادرها، وإيثارها ما تتعجله من يسير اللذة في دنياها على ما تتأجله من عظيم اللذة في أخراها، ونزولها على الحاضر المشاهد، وتجافيها عن الغائب الموعود، وذلك مُوجَبُ ما جُبِلَتْ عليه من جهلها وظلمها.

فاقتضت أسماء الرب الحسنى، وصفاته العليا، وحكمته البالغة، ونعمته السابغة، ورحمته الشاملة، وجوده الواسع: أن لا يضرب عن عباده الذكر صفحًا، وأن لا يتركهم سدى، ولا يخليهم ودواعي أنفسهم وطبائعهم؛ بل ركب في فطرهم وعقولهم: معرفة الخير والشر، والنافع والضار، والألم واللذة ومعرفة أسبابها؛ ولم يكتف بمجرد ذلك حتى: عرفهم به مفصلاً على ألسنة رسله، وقطع معاذيرهم؛ بأن أقام على صدقهم من الأدلة والبراهين ما لا يبقى معه لهم عليه حجة؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

وصرف لهم طرق: الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب. وضرب لهم الأمثال وأزال عنهم كل إشكال، ومكنهم من القيام بما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه غاية التمكين، وأعانهم عليه بكل سبب، وسلطهم على قهر طباعهم بما يجرّهم إلى: إيثار العواقب على المباديء، ورفض اليسير الفاني من اللذة إلى العظيم الباقي منها.

وأرشدهم إلى التفكر والتدبر وإيثار ما تقضي به عقولهم وأخلاقهم من هذين الأمرين، وأكمل لهم دينهم، وأتم عليهم نعمته بما أوصله إليهم على ألسنة رسله من: أسباب العقوبة والمثوبة، والبشارة والنذارة، والرغبة والرهبة، وتحقيق ذلك بالتعجيل لبعضه في دار المحنة؛ ليكون علمًا وأمارة لتحقيق ما أخره عنهم في دار الجزاء والمثوبة، ويكون: العاجل مذكرًا بالآجل، والقليل المنقطع بالكثير المتصل، والحاضر الفائت مؤذنًا بالغائب الدائم.

فتبارك الله رب العالمين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وسبحانه وتعالى عما يظنه به من لم يقدره حق قدره، ممن أنكر: أسماءه وصفاته، وأمره ونهيه،

ووعده ووعيده، وظن به ظن السوء فأرداه ظنه فأصبح من الخاسرين.

فكان من بعض حكمته سبحانه ورحمته؛ أن شرع العقوبات في الجنايات الواقعة بين الناس بعضهم على بعض، في النفوس والأبدان والأعراض والأموال، كالقتل والجراح والقذف والسرقة؛ فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الإحكام، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر، مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع؛ فلم يشرع في الكذب قطع اللسان ولا القتل، ولا في الزنى الخصاء، ولا في السرقة إعدام النفس. وإنما شرع لهم في ذلك ما هو موجَب أسمائه وصفاته من: حكمته ورحمته، ولطفه وإحسانه، وعدله؛ لتزول النوائب، وتنقطع الأطماع عن التظالم والعدوان، ويقتنع كل إنسان بما آتاه مالكه وخالقه؛ فلا يطمع في استلاب غيره حقه.

ومعلوم أن لهذه الجنايات الأربع؛ مراتب متباينة في القلة والكثرة، ودرجات متفاوتة في شدة الضرر وخفته، كتفاوت سائر المعاصي في الكبر والصغر ومابين ذلك.

ومن المعلوم أن النظرة المحرمة؛ لا يصلح إلحاقها في العقوبة بعقوبة مرتكب الفاحشة، ولا الخدشة بالعود بالضربة بالسيف، ولا الشتم الخفيف بالقذف بالزنى والقدح في الأنساب؛ ولا سرقة اللقمة والفلس بسرقة المال الخطير العظيم، فلما تفاوتت مراتب الجنايات لم يكن بد من تفاوت مراتب العقوبات.

وكان من المعلوم أن الناس لو وُكلوا إلى عقولهم، في معرفة ذلك وترتيب كل عقوبة على ما يناسبها من الجناية: جنسًا؛ ووصفًا؛ وقدرًا؛ لذهبت بهم الآراء كل مَذْهَب، وتشعبت بهم الطرق كل مَشْعَب، ولعظم الاختلاف واشتد الخطب، فكفاهم أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين مؤنة ذلك، وأزال عنهم كلفته، وتولى بحكمته وعلمه ورحمته تقديره نوعًا وقدرًا، ورتَّب على كل جناية: ما يناسبها من العقوبة، ويليق بها من النكال.

ثم بلغ من سعة رحمته وجوده؛ أن جعل تلك العقوبات كفارات لأهلها، وطهرة تزيل عنهم المؤاخذة بالجنايات إذا قدموا عليه، ولا سيما إذا كان منهم بعدها التوبة النصوح والإنابة؛ فرحمهم بهذه العقوبات أنواعًا من الرحمة في الدنيا والآخرة، وجعل هذه العقوبات دائرة على ستة أصول: قَتْل، وقَطْع، وجَلْد،

ونَفْي، وتغريم مال، وتعزير. فأما القتل فجعله عقوبة أعظم الجنايات:

كالجناية على الأنفس، فكانت عقوبته من جنسه.

وكالجناية على الدين بالطعن فيه والارتداد عنه، وهذه الجناية أولى بالقتل وكف عدوان الجاني عليه من كل عقوبة؛ إذ بقاؤه بين أظهر عباده مفسدة لهم، ولا خير يرجى في بقائه ولا مصلحة؛ فإذا حبس شره، وأمسك لسانه، وكف أذاه، والتزم الذل والصغار وجريان أحكام الله ورسوله عليه وأداء الجزية؛ لم يكن في بقائه بين أظهر المسلمين ضرر عليهم، والدنيا بلاغ ومتاع إلى حين.

وجعله أيضًا عقوبة الجناية على الفروج المحرمة؛ لما فيها من المفاسد العظيمة واختلاط الأنساب والفساد العام.

وأما القطع فجعله عقوبة مثله عدلاً، وعقوبة السارق؛ فكانت عقوبته به أبلغ وأردع من عقوبته بالجلد، ولم تبلغ جنايته حد العقوبة بالقتل؛ فكان أليق العقوبات به إبانة العضو الذي جعله وسيلة إلى أذى الناس، وأخذ أموالهم.

ولما كان ضرر المحارب أشد من ضرر السارق، وعدوانه أعظم؛ ضم إلى قطع يده قطع رجله؛ ليكف عدوانه، وشر يده التي بطش بها، ورجله التي سعى بها، وشرع أن يكون ذلك من خلاف؛ لئلا يفوت عليه منفعة الشق بكماله، فكف ضرره وعدوانه، ورحمه بأن أبقى له: يدًا من شق، ورجلاً من شق.

وأما الجلد فجعله عقوبة الجناية على الأعراض، وعلى العقول، وعلى الأبضاع، ولم تبلغ هذه الجنايات مبلغًا يوجب القتل ولا إبانة طرف، إلا الجناية على الأبضاع؛ فإن مفسدتها قد انتهضت سببًا لأشنع القتلات، ولكن عارضها في البكر شدة الداعي وعدم المعوض، فانتهض ذلك المعارض سببًا لإسقاط القتل، ولم يكن الجلد وحده كافيًا في الزجر فغلظ بالنفي والتغريب؛ ليذوق من: ألم الغربة، ومفارقة الوطن، ومجانبة الأهل والخلطاء؛ ما يزجره عن المعاودة.

وأما الجناية على العقول بالسكر؛ فكانت مفسدتها لا تتعدى السكران غالبًا، ولهذا لم يحرم السكر في أول الإسلام، كما حرمت الفواحش والظلم والعدوان في كل ملة، وعلى لسان كل نبي، وكانت عقوبة هذه الجناية غير مقدرة من الشارع؛ بل ضرب فيها بالأيدي والنعال وأطراف الثياب والجريد، وضرب

فيها أربعين، فلما استخفَّ الناس بأمرها وتتابعوا في ارتكابها؛ غلظها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي أُمِرْنَا باتباع سنته، وسنته من سنة رسول الله، ﷺ؛ فجعلها ثمانين بالسوط، ونَفَى فيها، وحَلَق الرأس، وهذا كله من فقه السنة؛ فإن النبي، ﷺ، أمر بقتل الشارب في المرة الرابعة، ولم ينسخ ذلك، ولم يجعله حدًّا لابد منه؛ فهو عقوبة ترجع إلى اجتهاد الإمام في المصلحة، فزيادة أربعين والنفي والحلق أسهل من القتل.

فصل

وأما تغريم المال ـ وهو العقوبة المالية ـ فشرعها في مواضع:

منها: تحريق متاع الغال من الغنيمة، ومنها: حرمان سهمه.

ومنها: إضعاف الغرم على سارق الثمار المعلقة، ومنها: إضعافه على كاتم الضالة المتلقطة. ومنها: أخذ شطر مال مانع الزكاة.

ومنها: عزمه، ﷺ، على تحريق دور من لا يصلي في الجماعة؛ لولا ما منعه من إنفاذه، ما عزم عليه، من كون الذرية والنساء فيها؛ فتتعدى العقوبة إلى غير الجاني، وذلك لا يجوز كما لا يجوز عقوبة الحامل.

ومنها: عقوبة من أساء على الأمير في الغزو؛ بحرمان سلب القتيل لمن قتله؛ حيث شفع فيه هذا المسيء، وأمر الأمير بإعطائه، فحرم المشفوع له عقوبة للشافع الآمر. وهذا الجنس من العقوبات نوعان: نوع مضبوط، ونوع غير مضبوط.

فالمضبوط: ما قابل المُتْلَف: إما لحق الله سبحانه كإتلاف الصيد في الإحرام، أو لحق الآدمي كإتلاف ماله.

وقد نبه الله سبحانه على أن تضمين الصيد؛ متضمن للعقوبة بقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾. [المائدة: ٩٥].

ومنه: مقابلة الجاني؛ بنقيض قصده من الحرمان، كعقوبة القاتل لمورِّثه؛ بحرمان ميراثه، وعقوبة المدبَّر إذا قتل سيده ببطلان تدبيره، وعقوبة الموصى له؛ ببطلان وصيته. ومن هذا الباب عقوبة الزوجة الناشزة؛ بسقوط نفقتها وكسوتها.

وأما النوع الثاني غير المقدر؛ فهذا الذي يدخله اجتهاد الأئمة بحسب المصالح؛ ولذلك لم تأت فيه الشريعة بأمر عام، وقدر لا يزاد فيه ولا ينقص

كالحدود، ولهذا اختلف الفقهاء فيه: هل حكمه منسوخ أو ثابت؟ والصواب أنه يختلف باختلاف المصالح، ويرجع فيه إلى اجتهاد الأئمة في كل زمان ومكان بحسب المصلحة؛ إذ لا دليل على النسخ، وقد فعله الخلفاء الراشدون ومن بعدهم من الأئمة.

وأما التعزير ففي كل معصية لا حد فيها ولا كفارة؛ فإن المعاصي ثلاثة أنواع:

نوع فيه الحد ولا كفارة فيه. و نوع فيه الكفارة ولا حد فيه. ونوع لا حد فيه ولا كفارة.

فالأول: كالسرقة والشرب والزنى والقذف.

والثاني: كالوطء في نهار رمضان، والوطء في الإحرام.

والثالث: كوطء الأمة المشتركة بينه وبين غيره، وقبلة الأجنبية والخلوة بها، ودخول الحمام بغير مئزر، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، ونحو ذلك.

فأما النوع الأول فالحد فيه مغن عن التعزير.

وأما النوع الثاني فهل يجب مع الكفارة فيه تعزير أم لا؟ على قولين، وهما في مذهب أحمد.

وأما النوع الثالث ففيه التعزيز قولاً واحدًا، لكن هل هو كالحد؛ فلا يجوز للإمام تركه، أو هو راجع إلى اجتهاد الإمام في إقامته، وتركه، كما يرجع إلى اجتهاده في قدره؟ على قولين للعلماء، الثاني: قول الشافعي، والأول: قول الجمهور.

وما كان من المعاصي محرم الجنس كالظلم والفواحش؛ فإن الشارع لم يشرع له كفارة، ولهذا لا كفارة في الزنى وشرب الخمر وقذف المحصنات والسرقة، وطَرْدُ هذا أنه لا كفارة في قتل العمد ولا في اليمين الغموس، كما يقوله أحمد وأبو حنيفة ومن وافقهما، وليس ذلك تخفيفًا عن مرتكبهما؛ بل لأن الكفارة لا تعمل في هذا الجنس من المعاصي، وإنما عملها فيها فيما كان مباحًا في الأصل وحرِّم لعارض كالوطء في الصيام والإحرام، وطرد هذا وهو الصحيح وجوب الكفارة في وطء الحائض، وهو موجب القياس لو لم تأت الشريعة به، فكيف وقد جاءت به مرفوعة وموقوفة؟

وعكس هذا؛ الوطء في الدبر ولا كفارة فيه، ولا يصح قياسه على الوطء في

الحيض؛ لأن هذا الجنس لم يبح قط، ولا تعمل فيه الكفارة، ولو وجبت فيه الكفارة؛ لوجبت في الزنى واللواط بطريق الأولى؛ فهذه قاعدة الشارع في الكفارات، وهي في غاية المطابقة للحكمة والمصلحة.

فصل

وكان من تمام حكمته ورحمته؛ أنه لم يأخذ الجناة بغير حجة، كما لم يعذبهم في الآخرة إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وجعل الحجة التي يأخذهم بها:

إما منهم وهي الإقرار، أو ما يقوم مقامه من إقرار الحال، وهو أبلغ وأصدق من إقرار اللسان، فإن من قامت عليه شواهد الحال بالجناية: كرائحة الخمر وقَيْئِها وحَبَل من لا زوج لها ولا سيد، ووجود المسروق في دار السارق وتحت ثيابه؛ أولى بالعقوبة ممن قامت عليه شهادة إخباره عن نفسه التي تحتمل الصدق والكذب، وهذا متفق عليه بين الصحابة؛ وإن نازع فيه بعض الفقهاء.

وإما أن تكون الحجة من خارج عنهم وهي البينة، واشترط فيها العدالةُ وعدمُ التهمة؛ فلا أحسن في العقول والفطر من ذلك، ولو طلب منها الاقتراح؛ لم تقترح أحسن من ذلك، ولا أوفق منه للمصلحة.

فإن قيل: كيف تدَّعون أن هذه العقوبات لاصقة بالعقول وموافقة للمصالح، وأنتم تعلمون أنه لا شيء بعد الكفر بالله؛ أفظع ولا أقبح من سفك الدماء؟ فكيف تردعون عن سفك الدم بسفكه؟ وهل مثال ذلك إلا إزالة نجاسة بنجاسة؟ ثم لو كان ذلك مستحسنًا؛ لكان أولى أن يحرق ثوب من حرق ثوب غيره، وأن يذبح حيوان من ذبح حيوان غيره، وأن تخرب دار من خرب دار غيره، وأن يجوز لمن شُتم أن يشتم شاتمه، وما الفرق في صريح العقل بين هذا، وبين قتل من قتل غيره أو قَطْع من قطعه؟ وإذا كان إراقة الدم الأول مفسدة وقطع الطرف كذلك، فكيف زالت تلك المفسدة بإراقة الدم الثاني وقطع الطرف الثاني؟ وهل هذا إلا مضاعفة للمفسدة وتكثير لها؟ ولو كانت المفسدة الأولى تزول بهذه المفسدة الثانية؛ لكان فيه ما فيه؛ إذ كيف تزال مفسدة بمفسدة نظيرها من كل وجه؟ فكيف والأولى لا سبيل إلى إزالتها؟ وتقرير ذلك بما ذكرناه من عدم إزالة مفسدة تحريق الثياب وذبح المواشي وخراب الدور وقطع الأشجار بمثلها، ثم كيف حسن

أن يعاقب السارق بقطع يده التي اكتسب بها السرقة، ولم تحسن عقوبة الزاني بقطع فرجه الذي اكتسب به الزنى؟ ولا القاذف بقطع لسانه الذي اكتسب به القذف؟ ولا المزور على الإمام والمسلمين بقطع أنامله التي اكتسب بها التزوير؟ ولا الناظر إلى ما لا يحل له بقلع عينه التي اكتسب بها الحرام؟ فعلم أن الأمر في هذه العقوبات: جنسًا، وقدرًا، وسببًا؛ ليس بقياس، وإنما هو محض المشيئة، ولله التصرف في خلقه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

فالجواب ـ وبالله التوفيق والتأييد ـ من طريقين: مُجمل، ومفصل:

أما المجمل: فهو أن مَن شرع هذه العقوبات ورتَّبها على أسبابها جنسًا وقدرًا؛ فهو عالم الغيب والشهادة، وأحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، ومن أحاط بكل شيء علمًا، وعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وأحاط علمه بوجوه المصالح: دقيقها وجليلها، وخفيها وظاهرها، ما يمكن إطلاع البشر عليه وما لا يمكنهم. وليست هذه التخصيصات والتقديرات؛ خارجة عن وجوه الحكم والغايات المحمودة.

كما أن التخصيصات والتقديرات الواقعة في خلقه كذلك، فهذا في خلقه وذاك في أمره، ومصدرهما جميعًا عن كمال علمه وحكمته ووضعه كلَّ شيء في موضعه الذي لا يليق به سواه ولا يتقاضى إلا إياه، كما وضع قوة البصر والنور للباصر في العين، وقوة السمع في الأذن، وقوة الشم في الأنف، وقوة النطق في اللسان والشفتين، وقوة البطش في اليد، وقوة المشي في الرجل، وخص كل حيوان وغيره بما يليق به ويحسن أن يعطاه من أعضائه وهيئاته وصفاته وقدره، فشمل إتقانه وإحكامه لكل ماشمله خلقه كما قال تعالى: ﴿صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شيء﴾[النمل: ٨٨].

وإذا كان سبحانه قد أتقن خلقه غاية الإتقان، وأحكمه غاية الإحكام، فلأن يكون أمره في غاية الإتقان والإحكام أولى وأحرى، ومن لم يعرف ذلك مفصلاً؛ لم يسعه أن ينكره مجملاً، ولا يكون جهله بحكمة الله في: خلقه، وأمره، وإتقانه كذلك، وصدوره عن محض العلم، والحكمة؛ مسوغًا له إنكاره في نفس الأمر.

وسبحان الله ما أعظم ظلم الإنسان وجهله! فإنه لو اعترض على أي صاحب صناعة، كانت مما تقصر عنها معرفته وإدراكه على ذلك، وسأله عما

اختصت به صناعته من: الأسباب والآلات، والأفعال والمقادير، وكيف كان كل شيء من ذلك على الوجه الذي هو عليه لا أكبر ولا أصغر ولا على شكل غير ذلك؟ يسخر منه، ويهزأ به، وعجب من سخف عقله وقلة معرفته.

هذا ما تهيئه بمشاركته له في صناعته، ووصوله فيها إلى ما وصل إليه، والزيادة عليه والاستدراك عليه فيها.

هذا مع أن صاحب تلك الصناعة؛ غير مدفوع عن العجز والقصور وعدم الإحاطة والجهل، بل ذلك عنده عتيد حاضر، ثم لا يسعه إلا التسليم له، والاعتراف بحكمته، وإقراره بجهله، وعجزه عما وصل إليه من ذلك، فهلا وَسِعه ذلك مع أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، ومن أتقن كل شيء؛ فأحكمه، وأوقعه على وفق الحكمة والمصلحة!

وقد كان هذا الوجه وحده؛ كافيًا في دفع كل شبهة وجواب كل سؤال، وهذا غير الطريق التي سلكها نُفاة الحكم والتعليل، ولكن مع هذا فنتصدى للجواب المفصل، بحسب الاستعداد وما يناسب: علومنا الناقصة، وأفهامنا الجامدة، وعقولنا الضعيفة، وعباراتنا القاصرة ...

...(1)**أسماء** الرب تعالى كلها أسماء مدح، فلو كانت ألفاظًا مجردة لا معاني لها؛ لم تدل على المدح. وقد وصفها الله سبحانه بأنها حسنى كلها فقال: ﴿**ولله الأسماءُ الحُسنَى فادْعُوهُ بِهَا وذَرُوا الذينَ يُلحِدُونَ في أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾. [الأعراف: ١٨٠].

فهي لم تكن حسنى لمجرد اللفظ؛ بل لدلالتها على أوصاف الكمال؛ ولهذا لما سمع بعض العرب قارئًا يقرأ: ﴿**والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيهِمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ الله والله غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾. [المائدة: ٣٨]. قال: ليس هذا كلام الله تعالى، فقال القارىء: أتكذب بكلام الله تعالى؟ فقال: لا، ولكن ليس هذا بكلام الله، فعاد إلى حفظه وقرأ: ﴿**والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾. فقال الأعرابي: «صدقت: عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع».

---

(١) ٩٣ جلاء الأفهام.

ولهذا إذا ختمت آية الرحمة باسم عذاب أو بالعكس؛ ظهر تنافر الكلام، وعدم انتظامه.

وفي السنن من حديث أبي بن كعب حديث: «قراءة القرآن على سبعة أحرف» ثم قال: «ليس منها إلا شاف كاف إن قلت: سميعًا عليمًا، عزيزًا حكيمًا، ما لم تختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب».

ولو كانت هذه الأسماء أعلامًا محضة لا معنى لها؛ لم يكن فرق بين ختم الآية بهذا، أو بهذا.

وأيضا فإنه سبحانه يعلل أحكامه وأفعاله بأسمائه، ولو لم يكن لها معنى؛ لما كان التعليل صحيحًا، كقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم إِنَّه كَانَ غَفَّارًا﴾. [نوح: ١٠].

فصل(١)

وأما قطع يد السارق في ثلاثة دراهم، وترك قطع المختلس والمنتهب والغاصب؛ فمن تمام حكمة الشارع أيضًا؛ فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه، فإنه يَنْقُبُ الدور ويهتك الحِرْزَ ويكسر القُفْل، ولا يمكن صاحب المتاع الاحتراز بأكثر من ذلك، فلو لم يشرع قطعه؛ لسرق الناس بعضهم بعضًا، وعظم الضرر، واشتدت المحنة بالسُّرَّاق.

بخلاف المنتهب والمختلس؛ فإن المنتهب هو الذي يأخذ المال جهرة بمرأى من الناس، فيمكنهم أن يأخذوا على يديه، ويخلصوا حق المظلوم، أو يشهدوا له عند الحاكم.

وأما المختلس فإنه إنما يأخذ المال على حين غفلة من مالكه وغيره، فلا يخلو من نوع تفريط يمكن به المختلس من اختلاسه، وإلا فمع كمال التحفظ والتيقظ لا يمكنه الاختلاس، فليس كالسارق، بل هو بالخائن أشبه.

وأيضا فالمختلس إنما يأخذ المال من غير حرز مثله غالبًا، فإنه الذي يغافلك ويختلس متاعك في حال تخلِّيك عنه وغفلتك عن حفظه، وهذا يمكن الاحتراز منه غالبًا، فهو كالمنتهب.

وأما الغاصب فالأمر فيه ظاهر، وهو أولى بعدم القطع من المنتهب، ولكن

(١) ٦١ أعلام جـ٢.

يسوغ كفُّ عدوان هؤلاء: بالضرب، والنَّكال، والسجن الطويل، والعقوبة بأخذ المال كما سيأتي. فإن قيل: فقد وردت السنة بقطع جاحد العارية، وغايته أنه خائن، والمعير سلطه على قبض ماله، والاحتراز منه ممكن بأن لا يدفع إليه المال؛ فبطل ما ذكرتم من الفرق.

قيل: لَعَمْرُ الله لقد صح الحديث؛ بأن امرأة كانت تستعير المتاع وتَجْحَدُه، فأمر بها النبي، ﷺ، فقطعت يدها، فاختلف الفقهاء في سبب القطع: هل كان سرقتها وعرَّفها الراوي بصفتها؛ لأن المذكور سبب القطع كما يقوله الشافعي وأبو حنيفة ومالك، أو كان السبب المذكور هو سبب القطع كما يقوله أحمد ومن وافقه؟ ونحن في هذا المقام لا ننتصر لمذهب معين ألبتة، فإن كان الصحيح قول الجمهور؛ اندفع السؤال، وإن كان الصحيح هو القول الآخر؛ فموافقته للقياس والحكمة والمصلحة؛ ظاهر جدًّا؛ فإن العارية من مصالح بني آدم التي لابد لهم منها، ولا غنى لهم عنها، وهي واجبة عند حاجة المستعير وضرورته إليها إما بأجرة أو مجانًا، ولا يمكن المعير كل وقت أن يُشْهِدَ على العارية، ولا يمكن الاحتراز بمنع العارية: شرعًا، وعادة، وعرفًا. ولا فرق في المعنى: بين من توصَّل إلى أخذ متاع غيره بالسرقة، وبين من توصل إليه بالعارية وجَحَدَها، وهذا بخلاف جاحد الوديعة؛ فإن صاحب المتاع فرَّط حيث ائتَمَنَهُ.

فصل

وأما قطع اليد في ربع دينار، وجعل ديتها خمسمائة دينار؛ فمن أعظم المصالح والحكمة؛ فإنه احتاط في الموضعين للأموال والأطراف، فقطعها في ربع دينار حفظًا للأموال، وجعل ديتها خمسمائة دينار حفظًا لها وصيانة، وقد أورد بعض الزنادقة(١) هذا السؤال وضمنه بيتين، فقال:

يد بخمس مئي من عسجدٍ وُدِيَتْ ... ما بالُها قُطِعت في رُبْعِ دينار
تناقُضٌ ما لنا إلا السكوتُ له ... ونستجير بمولانا من العار

فأجابه بعض الفقهاء بأنها كانت ثمينة لما كانت أمينة، فلما خانت هانت، وضمنه الناظم قوله:

---

(١) ينسبان إلى أبي العلاء المعري، وحفظي «يد بخمس مئين عسجد».

يد بخمس مئي من عسجد وديت لكنها قطعت في ربع دينار
حماية الدم أغلاها وأرخصها خيانة المال فانظر حكمة الباري

وروي أن الشافعي[١] رحمه الله أجاب بقوله:

هناك مظلومة غالت بقيمتها وههُنا ظَلَمَتْ هانت على الباري

وأجاب شمس الدين الكردي بقوله:

قل للمعريِّ عارٌ أيما عار جَهْلُ الفتى وهو عن ثوب التُّقى عار
لا تقدحَنَّ زناد الشعر عن حِكَم شعائر الشرع لم تقدح بأشعار
فقيمة اليدِ نصفُ الألف من ذَهَب فإن تعدَّت فلا تسوى بدينار

فصل

وأما تخصيص القطع بهذا القدر؛ فلأنه لابد من مقدار يجعل ضابطًا لوجوب القطع؛ إذ لا يمكن أن يقال: يُقْطَع بسرقة فَلْس أو حبة حِنْطة أو تمرة، ولا تأتي الشريعة بهذا، وتنزه حكمة الله ورحمته وإحسانه عن ذلك، فلابد من ضابط، وكانت الثلاثة دراهم أول مراتب الجمع، وهي مقدار ربع دينار.

وقال إبراهيم النخعي وغيره من التابعين: كانوا لا يقطعون في الشيء التافه؛ فإن عادة الناس التسامح في الشيء الحقير من أموالهم، إذا لا يلحقهم ضرر بفقده، وفي التقدير بثلاثة دراهم حكمة ظاهرة؛ فإنها كفاية المقتصد في يومه له ولمن يمونه غالبًا، وقوت اليوم للرجل وأهله له خطر عند غالب الناس؛ وفي الأثر المعروف: «**من أصبح آمنًا في سربه، معافىً في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**».

فصل

وأما إيجاب حد الفرية على من قذف غيره بالزنى دون الكفر؛ ففي غاية المناسبة؛ فإن القاذف غيره بالزنى لا سبيل للناس إلى العلم بكذبه، فجعل حد الفرية تكذيبًا له، وتبرئة لعرض المقذوف، وتعظيمًا لشأن هذه الفاحشة التي يُجْلَد من رمى بها مسلمًا.

وأما من رمى غيره بالكفر؛ فإن شاهد حال المسلم، واطلاع المسلمين عليها؛

(١) لا يتفق ذلك مع أن قائل البيتين هو المعري.

كاف في تكذيبه، ولا يلحقه من العار بكذبه عليه في ذلك؛ ما يلحقه بكذبه عليه في الرمي بالفاحشة، ولا سيما إن كان المقذوف امرأة؛ فإن العار والمعرَّة التي تلحقها بقذفه بين أهلها، وتشعُّب ظنون الناس، وكونَهم: بين مصَدق، ومكذب؛ لا يلحق مثله بالرمي بالكفر.

فصل

وأما اكتفاؤه في القتل بشاهدين دون الزنى ففي غاية الحكمة والمصلحة؛ فإن الشارع احتاط للقصاص والدماء واحتاط لحد الزنى، فلو لم يقبل في القتل إلا أربعة لضاعت الدماء، وتواثب العادون، وتجرءوا على القتل.

وأما الزنى فإنه بالغ في ستره كما قدر الله ستره، فاجتمع على ستره شرع الله وقدره، فلم يقبل فيه إلا أربعة، يصفون الفعل وصف مشاهدة، ينتفي معها الاحتمال. وكذلك في الإقرار، لم يكتف بأقل من أربع مرات؛ حرصًا على ستر ما قدر الله ستره، وكره إظهاره، والتكلم به، وتوعد من يحب إشاعته في المؤمنين بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

فصل

وأما جلد قاذف الحرِّ دوُنَ العبد فتفريق لشرعه بين ما فرق الله بينهما بقدره، فما جعل الله سبحانه العبد كالحر من كل وجه: لا قدرًا، ولا شرعًا.

وقد ضرب الله سبحانه لعباده الأمثال التي أخبر فيها بالتفاوت بين الحر والعبد، وأنهم لا يرضون أن تساويهم عبيدهم في أرزاقهم.

فالله سبحانه وتعالى فضَّل بعض خلقه على بعض، وفضل الأحرار على العبيد في الملك وأسبابه والقدرة على التصرف، وجعل العبد مملوكًا والحر مالكًا، ولا يستوي المالك والمملوك.

وأما التسوية بينهما في أحكام الثواب والعقاب؛ فذلك موجب العدل والإحسان؛ فإنه يوم الجزاء لا يبقى هناك: عبد وحر، ولا مالك ولا مملوك.

(1)**فائدة:** اعترض نفاة المعاني والحكم على مثبتها في الشريعة بأن قالوا: الشرع قد فرق بين المتماثلات:

(١) ١٤٠ بدائع جـ٣.

فأوجب الحد بشرب الخمر، ولم يحد بشرب الدم والبول وأكل العذرة، وهي أخبث من الخمر.

وأوجب قطع اليد في سرقة ربع دينار، ومنع من قطعها في نهبة ألف دينار.

وأوجب الحد في رمي الرجل بالفاحشة، ولم يوجبه في رميه بالكفر، وهو أعظم منه.

ولم يرتب على الربا حدًّا؛ مع كونه من الكبائر.

ورتب الحد على شرب الخمر والزنا، وهما من الكبائر.

فأجاب المثبتون بأن قالوا: هذا مما يدل على: اعتبار المعاني والحكم، ونصب الشرع بحسب مصالح العباد؛ فإن الشارع ينظر إلى المحرم ومفسدته، ثم ينظر إلى وازعه وداعيه فإذا عظمت مفسدته رتب عليها من العقوبة بحسب تلك المفسدة. ثم إن كان في الطباع التي ركبها الله تعالى في بنى آدم وازعًا عنه؛ اكتفى بذلك الوازع عن الحد، فلم يرتب على شرب البول والدم والقيء وأكل العذرة؛ حدًّا لما في طباع الناس من الامتناع عن هذه الأشياء، فلا تكثر مواقعتها؛ بحيث يدعو إلى الزجر بالحد.

بخلاف شرب الخمر والزنى والسرقة، فإن الباعث عليها قوي؛ فلولا ترتيب الحدود عليها؛ لعمت مفاسدها، وعظمت المصيبة بارتكابها.

وأما النهبة فلم يرتب عليها حدًّا إما: لأن بواعث الطباع لا تدعو إليها غالبًا؛ خوف الفضيحة والاشتهار وسرعة الأخذ، وإما لأن مفسدتها؛ تندفع بإغاثة الناس ومنعهم المنتهب وأخذهم على يده.

وأما الربا فلم يرتب عليه حدًّا فقيل: لأنه يقع في الأسواق وفي الملأ، فوكلت إزالته إلى إنكار الناس؛ بخلاف السرقة والفواحش وشرب الخمر، فإنها إنما تقع غالبًا سرًّا، فلو وكلت إزالته إلى الناس؛ لم تزل.

وأحسن من هذا أن يقال: لما كان المرابي إنما يقضى له برأس ماله فقط؛ فإن أخذ الزيادة؛ قضى عليه بردها إلى غريمه، وإن لم يأخذها؛ لم يقض له بها كانت مفسدة الربا منتفية بذلك، فإن غريمه لو سأله؛ لم يعطه إلا رأس ماله، فحيث رضي بإعطائه الزيادة؛ فقد رضي باستهلاكها وبذلها مجانًا، والآخذ لها؛ رضى بأكل النار.

وأجود من هذين أن يقال: ذنب الربا أكبر من أن يطهره الحد؛ فإن المرابي محارب لله ورسوله، آكل الجمر، والحد إنما شرع طهرة وكفارة، والمرابي لا يزول عنه إثم الربا بالحد؛ لأن حرمته أعظم من ذلك، فهو كحرمة مفطر رمضان عمدًا من غير عذر، ومانع الزكاة بخلًا، وتارك صلاة العصر، وتارك الجمعة عمدًا؛ فإن الحدود كفارات وطهر، فلا تعمل إلا في ذنب يقبل التكفير والطهر.

ومن هذا عدم إيجاب الحد بأكل أموال اليتامى؛ لأن آكلها قد وجبت له النار؛ فلا يؤثر الحد في إسقاط ما وجب له من النار.

وكذلك ترك الصلاة؛ هو أعظم من أن يرتب عليه حد.

ونظير هذا اليمين الغموس؛ هي أعظم إثماً من أن يكون فيها حد أو كفارة.

وإذا تأملت أسرار هذه الشريعة الكاملة؛ وجدتها في غاية الحكمة ورعاية المصالح؛ لا تفرق بين متماثلين ألبتة ولا تسوي بين مختلفين، ولا تحرم شيئًا لمفسدة، وتبيح ما مفسدته مساوية لما حرمته أو رجحته عليه، ولا تبيح شيئًا لمصلحة وتحرم ما مصلحته مساوية لما أباحته ألبتة، ولا يوجد فيما جاء به الرسول شيء من ذلك ألبتة. ولا يلزمه الأقوال المستندة إلى آراء الناس وظنونهم واجتهاداتهم، ففي تلك من التفريق بين المتماثلات، والجمع بين المختلفات، وإباحة الشيء وتحريم نظيره، وأمثال ذلك؛ ما فيها.

(1)**قوله: ﴿أُولَئِكَ الذينَ لَمْ يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾** [المائدة: ٤١]. عقيب قوله: **﴿سَمَّاعُونَ للكَذِبِ سَمَّاعُونَ لقَوْمٍ آخَرينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾**. [المائدة: ٤١]. مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله؛ أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه ردَّه وكذبه إن قدر على ذلك، وإلا حرَّفه، كما تصنع الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها، يردُّون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب بحقائقها، وهذه بكونها أخبار آحاد، لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت؛ لما أعرضت عن الحق، وتعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله.

(١) ٥٥ إغاثة جـ١.

كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني. قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله».

فالقلب الطاهر ـ لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث ـ لا يشبع من القرآن، ولا يتغذّى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته؛ بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة. فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل، المحرفين للحق، لم يحصل لها الطهارة.

ولا يصح أن تفسر الإرادة ههنا بالإرادة الدينية، وهي الأمر والمحبة، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمرًا ومحبة، ولم يرده منهم كونًا. فأراد الطهارة لهم وأمرهم بها، ولم يرد وقوعها منهم، لما له في ذلك من الحكمة التي فواتها؛ أكره إليه من فوات الطهارة منهم. وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القدر[1].

ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه؛ فلابد أن يناله الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه؛ ولهذا حرَّم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره. فإنها دار الطيبين. ولهذا يقال لهم: ﴿طِبْتُم فادْخُلُوهَا خَالِدينَ﴾. [الزمر: ٧٣]. أي: ادخلوها بسبب طيبكم. والبشارةعند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿الذينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عليكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾. [النحل: ٣٢].

فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث. فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهرًا من نجاساته؛ دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا: فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر؛ لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة؛ دخلها بعدما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم لا يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهذَّبون

(١) هو كتاب (شفاء العليل في القضاء والقدر والتعليل). طبعه السيد أمين الخانجي سنة ١٣٢٠هـ.

وينقون من بقايا بقيت عليهم، قصَّرت بهم عن الجنة، . ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة.

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفًا على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر.

وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفًا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر. فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب. ولهذا شرع للمتوضيء أن يقول عقيب وضوئه: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوَّابين واجعلني من المتطهرين»[1] فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء، فلما اجتمع له الطهران؛ صلح للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته.

فصل[2]

وأما عدم مشيئته سبحانه وإرادته فكما قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الذينَ لم يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّـرَ قُلوبَهم**﴾. [المائدة: ٤١]. وقال: ﴿**ولَو شِئنَا لآتينا كُلَّ نَفسٍ هُدَاهَا**﴾. [السجدة: ١٣]. ﴿**ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأَرْضِ كُلُّهُم جميعًا**﴾. [يونس: ٩٩].

وعدم مشيئته للشيء؛ مستلزم لعدم وجوده، كما أن مشيئته تستلزم وجوده، فما شاء الله؛ وجب وجوده، وما لم يشأ؛ امتنع وجوده.

وقد أخبر سبحانه أن العباد لا يشاءون إلا بعد مشيئته، ولا يفعلون شيئًا إلا بعد مشيئته، فقال: ﴿**ومَا تَشَاءُون إلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ**﴾. [الإنسان: ٣٠]. وقال: ﴿**وما يَذكرُونَ إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ**﴾. [المدثر: ٥٦].

فإن قيل: فهل يكون الفعل مقدورًا للعبد في حال عدم مشيئة الله له أن يفعله؟ قيل: إن أريد بكونه مقدورًا؛ سلامة آلة العبد التي يتمكن بها من الفعل، وصحـة أعضائه، ووجود قواه، وتمكينه من أسباب الفعل، وتهيئة طريق فعله،

(١) روى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**». وزاد الترمذي: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**».

(٢) ١٠٤ شفاء.

وفتح الطريق له؛ فنعم هو مقدور بهذا الاعتبار.

وإن أريد بكـونه مقدورًا القدرة المقارنة للفعل، وهي الموجبة له التي إذا وجدت؛ لم يتخلف عنها الفعل؛ فليس بمقدور بهذا الاعتبار.

وتقرير ذلك أن القدرة نوعان:

قدرة مصححة، وهي قدرة الأسباب والشروط، وسلامة الآلة، وهي مناط التكليف. وهذه متقدمة على الفعل غير موجبة له.

وقـدرة مقارنة للفعل مستلزمة له، لا يتخلف الفعل عنها، وهذه ليست شرطًا في التكليف؛ فلا يتوقف صحته وحسنه عليها، فإيمان من لم يشأ الله إيمانه وطاعة من لم يشأ طاعته؛ مقدور بالاعتبار الأول، غير مقدور بالاعتبار الثاني.

وبهـذا التحقيق تزول الشبهـة في تكليف ما لا يطاق، كما يأتي بيانـه في موضعه إن شاء الله تعالى.

فإذا قيل: هل خلق لمن علم أنه لا يؤمن قدرة على الإيمان، أم لم يخلق له قدرة؟ قيل: خلق له قدرة مصححة متقدمة على الفعل، هي مناط الأمر والنهي، ولم يخلق له قدرة موجبة للفعل مستلزمة له، لا يتخلف عنها، فهذه فضله يؤتيه من يشاء، وتلك عدله التي تقوم بها حجته على عبده.

فإن قيل: فهل يمكنه الفعل، ولم يخلق له هذه القدرة؟

قيل: هذا هو السؤال السابق بعينه، وقد عرفت جوابه وبالله التوفيق.

فصـــل[1]

في حكمه، ﷺ، على أهل الكتاب في الحدود بحكم الإسلام

ثبت في الصحيحـين والمسـانيد: أن اليهود جاءوا إلى رسول الله، ﷺ، فذكـروا له: أن رجلًا منهم وامرأة زنيا. فقال رسول الله، ﷺ: **«ما تجدون في التـوراة في شأن الرجم؟»** قالوا: نَفْضَحُهم ويجلدون. فقال عبدالله بن سلام: كذبتم، إن فيهـا الرجم. فأُمروا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم. فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك. فرفع

(١) ٤٣٩ زاد المعاد جـ٣.

يده. فإذا فيها آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد، إن فيها الرجم. فأمر بهما رسول الله، ﷺ، فرجما.

فتضمنت هذه الحكومة: أن الإسلام ليس بشرط في الإحصان، وأن الذِّميَّ يُحصَن بالذمية. وإلى هذا ذهب أحمد والشافعي.

ومن لم يقولوا بذلك؛ اختلفوا في وجه هذا الحديث. فقال مالك في غير الموطأ: لم يكن اليهود بأهل ذمة. والذي في صحيح البخاري: «أنهم أهل ذمة» ولا شك أن هذا كان بعد العهد الذي وقع بين النبي، ﷺ، وبينهم، ولم يكونوا إذ ذاك حربًا؛ كيف ذلك، وقد تحاكموا إليه ورضوا بحكمه؟ وفي بعض طرق الحديث: «أنهم قالوا: اذهبوا بنا إلى هذا النبي، فإنه بعث بالتخفيف» وفي بعض طرقه: «أنهم دعوه إلى بيت مِدْراسهم. فأتاهم، وحكم بينهم» فهم كانوا أهل عهد وصلح بلا شك.

وقالت طائفة أخرى: إنما رجمهما بحكم التوراة. قالوا: وسياق القصة صريح في ذلك؛ وهذا مما لا يجدي عليهم شيئًا ألبتة؛ فإنه حكم بينهم بالحق المحض؛ فيجب اتباعه بكل حال. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

وقالت طائفة: رجمهما سياسة. وهذا من أقبح الأقوال؛ بل رجمهما بحكم الله الذي لا حكم سواه.

وتضمنت هذه الحكومة: أن أهل الذمة إذا تحاكموا إلينا لا نحكم بينهم؛ إلا بحكم الإسلام.

وتضمنت قبول شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض؛ لأن الزانيين لم يقرَّا، ولم يشهد عليهما المسلمون، فإنهم لم يحضروا زناهما، كيف وفي السنن في هذه القصة: «فدعا رسول الله، ﷺ، بالشهود، فجاءوا أربعة، فشهدوا أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة»؟.

وفي بعض طرق هذا الحديث: «فجاء أربعة منهم»

وفي بعضها: فقال لليهود: «**ائتوني بأربعة منكم**»؟.

وتضمنت الاكتفاء بالرجم، وأن لا يجمع بينه وبين الجلد. قال ابن عباس: «الرجم في كتاب الله لا يغوص عليه إلا غواص» وهو قوله تعالى: ﴿يا

أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُم رَسُولُنَا يُبيِّنُ لكم كثيراً مِمَّا كُنتُم تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ﴾. [المائدة: ١٥]. واستنبطه غيره من قوله: ﴿إِنَّا أَنْزلنَا التوراةَ فيهَا هُدًى ونُور يَحكُمُ بهَا النَّبيُّونَ الذينَ أَسْلَمُوا للذينَ هَادُوا﴾. [المائدة: ٤٤]. قال الزهري في حديثه: «فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿إِنَّا أَنْزَلنَا التَّوراةَ فيهَا هُدًى ونُورٌ يَحْكُمُ بهَا النَّبيُّونَ الذينَ أَسْلَمُوا﴾ كان النبي، ﷺ، منهم».

...[1]**قوله** تعالى: ﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولئِكَ هُم الكَافِرُونَ﴾. [المائدة: ٤٤]. قال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة؛ بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر» وكذلك قال طاووس.

وقال عطاء: «هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق».

ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحدًا له. وهو قول عكرمة. وهو تأويل مرجوح؛ فإن نفس جحوده كفر: سواء حكم، أو لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله. قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام. وهذا تأويل عبدالعزيز الكناني، وهو أيضًا بعيد؛ إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل، وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه.

ومنهم: من تأولها على الحكم بمخالفة النص، تعمدًا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل. حكاه البغوي عن العلماء عمومًا.

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب. وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما، وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ؛ فلا يصار إليه.

ومنهم: من جعله كفرًا ينقل عن الملة[2].

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين: الأصغر، والأكبر بحسب حال الحاكم: فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانًا، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة؛ فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه أنه حكم الله؛ فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه. فهذا مخطيء، له حكم المخطئين.

---

(١) ٣٣٦ مدارج جـ١.

(٢) يأتي في سورة الأحزاب ـ إن شاء الله ـ نقلاً عن الأعلام ص (٢٦١) جـ٢، ما له صلة بهذا. ج.

والقصد: أن المعـاصي كلها من نوع الكفر الأصغر. فإنها ضد الشكر، الـذي هو العمل بالطاعة. فالسعي: إما شكر، وإما كفر، وإما ثالث؛ لا من هذا، ولا من هذا. والله أعلم.

فصــل

وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق:

فأما كفـر التكـذيب: فهـو اعتقاد كذب الرسل. وهذا القسم قليل في الكفار؛ فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة. وأزال به المعذرة. قال الله تعالى عن فرعون وقومه: **﴿وجَحَدُوا بهَا واسْتَيْقَنَتهَـا أَنْفُسُهم ظُلمًا وعُلُوًّا﴾**. [النمل: ١٤]. وقال لرسوله، ﷺ: **﴿فإنَّهُم لا يُكَذِّبُونَكَ ولكنَّ الظَّالمينَ بآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾**. [الأنعام: ٣٣].

وإن سُمي هذا كفر تكذيب أيضًا؛ فصحيح؛ إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس. فإنه لم يجحد أمر الله، ولا قابله بالإنكـار. وإنـما تلقاه بالإباء والاستكبار. ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينْقَدْ له إباءًا واستكبارًا، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل.

كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: **﴿أَنُؤمِن لِبَشَرينِ مِثلِنَا وقومُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾**. [المؤمنون: ٤٧].

وقول الأمم لرسلهم: **﴿إنْ أَنْتُم إلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾**. [إبراهيم: ١٠].

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾. [الشمس: ١١].

وهـو كفـر اليهود، كما قال تعالى: **﴿فَلَمَّا جَاءَهُم ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾**. [البقرة: ٨٩]. وقال: **﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾**. [البقرة: ١٤٦].

وهو كفر أبي طالب أيضًا؛ فإنه صدقه، ولم يشك في صدقه؛ ولكن أخذته الحمية، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر.

وأما كفر الإعراض: فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول: لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة، كما قال أحد بني عبد

ياليل للنبي، ﷺ: «والله أقول لك كلمة. إن كنت صادقًا؛ فأنت أجلّ في عيني من أن أرد عليك. وإن كنت كاذبًا؛ فأنت أحقر من أن أكلمك».

وأما كفر الشك: فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه؛ بل يشك في أمره. وهذا لا يستمر شكه؛ إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول، ﷺ، جملة: فلا يسمعها، ولا يلتفت إليها. وأما مع التفاته إليها، ونظره فيها؛ فإنه لا يبقى معه شك؛ لأنها مستلزمة للصدق؛ ولا سيما بمجموعها. فإن دلالتها على الصدق، كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق: فهو أن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب. فهذا هو النفاق الأكبر، وسيأتي بيان أقسامه إن شاءالله تعالى.

فصل

وكفر الجحود نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص.

فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله، وإرساله الرسول.

والخاص المقيد: أن يجحد فرضًا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله بها نفسه، أو خبرًا أخبر الله به: عمدًا، أو تقديمًا لقول من خالفه عليه؛ لغرض من الأغراض.

وأما جحد ذلك جهلاً، أو تأويلاً يُعذر فيه صاحبه؛ فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه، وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح؛ ومع هذا فقد غفر الله له ورحمه؛ لجهله؛ إذ كان الذي فعله مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة الله على إعادته: عنادًا، أو تكذيبًا.

فصل(١)

في الحكم بين الفريقين وفصل الخطاب بين الطائفتين

معرفة الصواب في هذه المسألة مبني على معرفة حقيقة الإيمان والكفر، ثم يصح النفي والإثبات بعد ذلك. فالكفر والإيمان متقابلان، إذا زال أحدهما خلفه الآخر.

(١) ٢٤ـ الصلاة.

ولما كان الإيمان أصلًا له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيمانًا، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة: كالحياء، والتوكل، والخشية من الله، والإنابة إليه؛ حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق؛ فإنه شعبة من شعب الإيمان.

وهذه الشعب منها: ما يزول الإيمان بزوالها، كشعبة الشهادة.

ومنها: ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا: منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ويكون إليها أقرب.

وكذلك الكفر ذو أصل وشعب.

فكما أن شعب الإيمان؛ إيمان، فشعب الكفر؛ كفر.

والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر.

والصدق شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر.

والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان، وتركها من شعب الكفر.

والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر.

والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان.

وشعب الإيمان قسمان: قولية، وفعلية.

وكذلك شعب الكفر نوعان: قولية، وفعلية.

ومن شعب الإيمان القولية؛ شعبة يوجب زوالها زوال الإيمان.

فكذلك من شعبه الفعلية؛ ما يوجب زوالها زوال الإيمان.

وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية، فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختيارًا، وهي شعبة من شعب الكفر، فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه: كالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف. فهذا أصل.

وها هنا أصل آخر، وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من: قول، وعمل.

والقول قسمان: قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام. والعمل قسمان: عمل القلب وهو نيته وإخلاصه.

وعمل الجوارح، فإذا زالت هذه الأربعة؛ زال الإيمان بكماله، وإذا زال

تصديق القلب؛ لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة. وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق، فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة.

فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب، وهو محبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه، واليهود، والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول؛ بل ويقرون به سرًّا وجهرًا ويقولون: ليس بكاذب، ولكن لا نتبعه، ولا نؤمن به. وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب؛ فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجورح.

ولا سيما إذا كان ملزومًا لعدم محبة القلب وانقياده، الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم، كما تقدم تقريره.

فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح، إذ لو أطاع القلب وانقاد؛ أطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان. فإن الإيمان ليس مجرد التصديق ـ كما تقدم بيانه ـ وإنما هو التصديق المستلزم: للطاعة، والانقياد.

وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبينه، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه، وإن سمي الأول هدى؛ فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتداء، كما أن اعتقاد التصديق وإن سمي تصديقًا؛ فليس هو التصديق المستلزم للإيمان. فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته.

فصل

وها هنا أصل آخر، وهو: أن الكفر نوعان: كفر عمل، وكفر جحود وعناد.

فكفر الجحود: أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله؛ جحودًا وعنادًا، من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه. وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه.

وأما كفر العمل فينقسم: إلى ما يضاد الإيمان، وإلى ما لا يضاده، فالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبي وسبه؛ يضاد الإيمان.

وأما الحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة؛ فهو من الكفر العملي قطعًا،

ولا يمكن أن ينفى عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه: فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر، وتارك الصلاة كافر بنص رسول الله، ﷺ؛ ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد، ومن الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرًا، ويسمي رسول الله، ﷺ، تارك الصلاة كافرًا، ولا يطلق عليهما اسم الكفر.

وقد نفى رسول الله، ﷺ، الإيمان عن: الزاني، والسارق، وشارب الخمر، وعمن لا يأمن جاره بوائقه.

وإذا نفي عنه اسم الإيمان؛ فهو كافر من جهة العمل، وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد.

وكذلك قوله: **«لا ترجعوا بعدي كفارًا: يضرب بعضكم رقاب بعض»**. فهذا كفر عمل. وكذلك قوله: **«من أتى كاهنًا فصدَّقه أو امرأة في دبرها؛ فقد كفر بما أنزل على محمد»**.

وقوله: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما».

قال سفيان بن عيينة، عن هشام بن حجير، عن طاوس، عن ابن عباس[1] في قوله تعالى: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾**. [المائدة: ٤٤]. ليس هو بالكفر الذي يذهبون إليه.

وقال عبدالرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾**. قال: هو بهم كفر، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال في رواية أخرى عنه: كفر لا ينقل عن الملة. وقال طاوس: ليس بكفر ينقل عن الملة. وقال وكيع، عن سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

وهذا الذي قاله عطاء بيِّن في القرآن لمن فهمه.

فإن الله سبحانه سمى الحاكم بغير ما أنزله كافرًا، وسمى جاحد ما أنزله على رسوله كافرًا، وليس الكافران على حد سواء.

---

(١) هذا الفاصل مذكور في سورة البقرة لشدة صلته بقول الله تعالى: **﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض..﴾** الآية. [البقرة: ٨٥]. ج.

وسمى الكافر ظالمًا كما في قوله تعالى: ﴿والكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. [البقرة: ٢٥٤]. وسمى متعدي حدوده في النكاح والطلاق، والرجعة والخلع؛ ظالمًا فقال: ﴿ومَنْ يَتعَدَّ حُدودَ اللهِ فَقدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.]الطلاق: ١]. وقال نبيه يونس: ﴿لا إلـهَ إلا أنت سُبحَانَكَ إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. [الأنبياء: ٨٧].

وقال صفيه آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾. [الأعراف: ٢٣]. وقال كليمه موسى: ﴿رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِر لي﴾. [القصص: ١٦]. وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم. وسمى الكافر فاسقًا، كما في قوله: ﴿وما يُضلّ بهِ إلاَّ الفَاسِقينَ الذينَ يَنْقُضُونَ عهْدَ الله مِنْ بَعْدِ مَيْثَاقِه﴾. [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿ولَقَدْ أَنْزَلْنَا إليْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وما يَكْفُرُ بهَا إلاَّ الفَاسِقُونَ﴾. [البقرة: ٩٩]. وهذا كثير في القرآن.

وسمى المؤمن فاسقًا، كما في قوله تعالى: ﴿يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا إنْ جاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَومًا بِجهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نَادِمينَ﴾. [الحجرات: ٦]. نزلت في الحكم بن أبي العاص، وليس الفاسق كالفاسق.

وقال تعالى: ﴿والذينَ يَرْمُونَ المُحْصنَاتِ ثمَّ لمْ يَأْتُوا بأربعةِ شُهداءَ فاجْلِدُوهُم ثمانِينَ جَلْدَةً ولاَ تقْبَلُوا لَهُم شَهادَةً أَبَدًا وأولئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾. [النور: ٤]. وقال عن إبليس: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه﴾. [الكهف: ٥٠]. وقال: ﴿فَمَن فَرَضَ فيهنَّ الحَجَّ فَلاَ رَفَثَ ولاَ فُسُوقَ﴾. [البقرة: ٩٧]. وليس الفسوق كالفسوق.

والكفر كفران، والظلم ظلمان، والفسق فسقان، وكذا الجهل جهلان:

جهل كفر كما في قولـه تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلينَ﴾. [الأعراف: ١٩٩].

وجهل غير كفر كقوله تعالى: ﴿إنَّما التَّوبَةُ على اللهِ للذينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثمَّ يتوبُونَ مِنْ قَريبٍ﴾. [النساء: ١٧].

كذلك الشرك شركان: **شرك** ينقل عن الملة، وهو الشرك الأكبر.

وشرك لا ينقل عن الملة، وهو الشرك الأصغر، وهو شرك العمل، كالرياء.

قال تعالى في الشرك الأكبر: ﴿إنَّهُ من يُشرِكْ باللهِ فَقَد حرَّم اللهُ عليهِ الجَنَّةَ ومأْوَاهُ النَّارُ﴾. [المائدة: ٧٢]. وقال: ﴿ومَنْ يُشرِكْ باللهِ فكأَنَّمَا خرَّ مِنَ السَّماءِ

فَتَخْطَفُه الطَّيرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾. [الحج: ٣١].

وفي شرك الرياء: ﴿**فَمَنْ كَانَ يرجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ولَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾. [الكهف: ١١٠].

ومن هذا الشرك الأصغر قوله، ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**». رواه أبو داود وغيره. ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرجه عن الملة ولا يوجب له حكم الكفار. ومن هذا قوله، ﷺ: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل**».

فانظر كيف انقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل: إلى ما هو كفر ينقل عن الملة، وإلى ما لا ينقل عنها.

وكذا النفاق نفاقان: نفاق اعتقاد، ونفاق عمل. فنفاق الاعتقاد: هو الذي أنكره الله على المنافقين في القرآن، وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار. ونفاق العمل كقوله، ﷺ، في الحديث الصحيح: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**».

وفي الصحيح أيضًا: «**أربع من كن فيه؛ كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن؛ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا اؤتمن خان**».

فهذا نفاق عمل قد يجتمع مع أصل الإيمان، ولكن إذا استحكم وكمل فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فإن الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال، فإذا كملت في العبد ولم يكن له ما ينهاه عن شيء منها؛ فهذا لا يكون إلا منافقًا خالصًا.

وكلام الإمام أحمد يدل على هذا، فإن إسماعيل بن سعيد الشالنجي قال: سألت أحمد بن حنبل عن المصرّ على الكبائر يطلبها بجهده، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم، هل يكون مصرًا من كانت هذه حاله؟ قال: هو مصر، مثل قوله: «**لا يزني الزاني حين يزني؛ وهو مؤمن**» يخرج من الإيمان ويقع في الإسلام. ونحو قوله: «**لا يشرب الخمر حين يشربها؛ وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق؛ وهو مؤمن**»، ونحو قول ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فأُولئِكَ هُمُ الكَافِرونَ**﴾. قال إسماعيل: فقلت له ما هذا الكفر؟ قال: كفر لا ينقل عن

الملة، مثل الإيمان بعضه دون بعض، فكذلك الكفر، حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه.

فصل

وها هنا أصل آخر، وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان. وهذا من أعظم أصول أهل السنة. وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع: كالخوارج والمعتزلة والقدرية، ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل، وقد دل عليه: القرآن والسنة، والفطرة، وإجماع الصحابة.

قال تعالى: ﴿**وَمَا يُؤمِنُ أَكثَرُهُم باللهِ إلاَّ وهُم مُشْرِكُونَ**﴾. [يوسف: ١٠٦].

فأثبت لهم إيمانًا به سبحانه مع الشرك.

وقال تعالى: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لم تُؤمِنُوا ولكِن قُولُوا أسلَمْنَا ولمَّا يَدخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكُم وإن تُطيعُوا الله ورَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ من أعمالكم شَيئًا إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحِيمٌ**﴾. [الحجرات: ١٤]. فأثبت لهم: إسلامًا، وطاعة لله ورسوله، مع نفي الإيمان عنهم، وهو الإيمان المطلق الذي يستحق اسمه بمطلقه ﴿**الذينَ آمَنُوا باللهِ ورَسُولِهِ ثمَّ لَمْ يَرتَابُوا وجَاهَدُوا بأَمْوالِهم وأَنْفُسِهِم في سَبيلِ اللهِ**﴾. [الحجرات: ١٥]. وهؤلاء ليسوا منافقين في أصح القولين؛ بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله، وليسوامؤمنين وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار.

قال الإمام أحمد: من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن ـ يريد الزنى والسرقة وشرب الخمر والانتهاب ـ فهو مسلم، ولا أسميه مؤمنًا. ومن أتى دون ذلك ـ يريد دون الكبائر ـ سميته مؤمنًا ناقص الإيمان، فقد دل على هذا قوله، ﷺ: «**فمن كانت فيه خصلة منهن؛ كانت فيه خصلة من النفاق**». فدل على أنه يجتمع في الرجل نفاق وإسلام. وكذلك الرياء شرك، فإذا راءى الرجل في شيء من عمله اجتمع فيه الشرك والإسلام، وإذا حكم بغير ما أنزل الله، أو فعل ما سماه رسول الله، ﷺ، كفراً؛ وهو ملتزم للإسلام وشرائعه؛ فقد قام به كفر وإسلام.

وقد بينَّا أن المعاصي كلها شعب من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها

شعب من شعب الإيمان، فالعبد تقوم به شعبة أو أكثر من شعب الإيمان، وقد يسمى بتلك الشعبة مؤمنًا، وقد لا يسمى. كما أنه قد يسمى بشعبة من شعب الكفر كافرًا، وقد لا يطلق عليه هذا الاسم. فها هنا أمران: أمر اسمي لفظي، وأمر معنوي حكمي. فالمعنوي هل هذه الخصلة كفر أم لا؟ واللفظي هل يسمى من قامت به كافرًا أم لا؟ فالأمر الأول شرعي محض، والثاني لغوي وشرعي.

فصل

وها هنا أصل آخر، وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد؛ أن يسمى مؤمنًا، وإن كان ما قام به إيمانًا. ولا من قيام شعبة من شعب الكفر به؛ أن يسمى كافرًا، وإن كان ما قام به كفرًا. كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به؛ أن يسمى عالمًا، ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب؛ أن يسمى فقيهًا ولا طبيبًا، ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيمانًا، وشعبة النفاق نفاقًا، وشعبة الكفر كفرًا. وقد يطلق عليه الفعل كقوله: «**فمن تركها فقد كفر**»، و«**من حلف بغير الله فقد كفر**» رواه الحاكم في صحيحه بهذا اللفظ.

فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق، وكذا يقال لمن ارتكب محرمًا: إنه فعل فسوقًا، إنه فسق بذلك المحرم، ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه. وهكذا الزاني والسارق والشارب والمنتهب؛ لا يسمى مؤمنًا وإن كان معه إيمان، كما أنه لا يسمى كافرًا وإن كان ما أتى به من خصال الكفر وشعبه إذ المعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان. **والمقصود:** أن سلب الإيمان عن تارك الصلاة؛ أولى من سلبه عن مرتكب الكبائر.

...(١)**قوله** تعالى: **﴿لِكُلٍّ جعلنَا مِنكُم شِرعَةً ومنْهَاجًا، ولو شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحِدَةً ولكنْ لِيَبْلُوكُم فيما آتَاكُم فاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾**. [المائدة: ٤٨].

وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومناهجهم، كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم. فقال: **﴿ولِكُلٍّ وجهة هو موليها فاستَبِقُوا الخَيْرَاتِ أينَمَا تَكُونُوا يأتِ بكم اللهُ جَمِيعًا﴾**. [البقرة: ١٤٨].

(١) ١٦١ بدائع جـ٤.

وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه، وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل، يكون أقربها إلى الحق؛ ما كان أدل على الله وأوصل إليه؛ لأنـه كما أن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده، وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم؛ فمرجعهم إلى رب واحد وإلـه واحد، فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم؛ إليه وحده في الدنيا: فلا يعبدون غيره، ولا يدينون بغير دينه؛ إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة، فإذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا: كفورًا، وذهابًا في الطرق الباطلة، وعبادة غيره، وأن دانوا غير دينه؛ فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات وبادروا إليها، ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر.

فتأمل هذا السر البديع في السورتين[1]، وفي قوله: ﴿**فينبئكم بما كُنتم فيه تختلفـون**﴾ [المائدة:٤٨]. سر آخـر أيضًـا وهو أن هذا الاختلاف دليل على يوم الفصل، وهو اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، ويبين لهم حقيقة ما اختلفوا فيه فنفس الاختلاف؛ دليل على يوم الفصل والبعث.

وقد أوضح ذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿**وأَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيمانِهم لا يبعَثُ اللهُ من يَموتُ بَلى وعدًا عَلَيه حقًّا ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يعلمُونَ لِيُبيِّنَ لهم الذي يَخْتَلِفُونَ فيهِ وليعْلَمَ الذينَ كَفَرُوا أَنَّهُم كَانُوا كَاذِبِينَ**﴾. [النحل: ٣٨، ٣٩]. فذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثه الأموات بعد ما أماتهم:

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم. والذي حصل في الدنيا، بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذبًا، وأنه كان على باطل، وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من: افترائه، وكذبه، وبهتانه؛ فيخزيه ذلك أعظم خزي.

فصـــل[2]

والفرق بين: الحكم المنزل الواجب الاتباع، والحكم المؤول الذي غايته أن يكون جائز الاتباع؛ أن الحكم المنزل هو الذي أنزله الله على رسوله، وحكم به بين عباده، وهو حكمه الذي لا حكم له سواه.

(١) يعني سورة البقرة وسورة المائدة. ج.
(٢) ٣٢٥ الروح.

وأما الحكم المؤول فهو أقوال المجتهدين المختلفة، التي لا يجب اتباعها ولا يكفر ولا يفسق من خالفها، فإن أصحابها لم يقولوا: هذا حكم الله ورسوله؛ بل قالوا: اجتهدنا برأينا فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله، ولم يلزموا به الأمة.

بل قال أبو حنيفة: هذا رأيي فمن جاءنا بخير منه قبلناه. **ولو** كان هو عين حكم الله لما ساغ: لأبي يوسف، ومحمد، وغيرهما؛ مخالفته فيه.

وكذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على ما في الموطأ، فمنعه من ذلك، وقال: قد تفرق أصحاب رسول الله، ﷺ، في البلاد وصار عند كل قوم علم؛ غير ما عند الآخرين.

وهذا الشافعي ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه.

وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها، ويقول: لا تقلدني، ولا تقلد فلانًا، ولا فلانًا، وخذ من حيث أخذوا، ولو علموا رضي الله عنهم أن أقوالهم يجب اتباعها؛ لحرموا على أصحابهم مخالفتهم، ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم في شيء، ولما كان أحدهم يقول القول ثم يفتي بخلافه؛ فيروى عنه في المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك، فالرأي والاجتهاد؛ أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه، والحكم المنزل؛ لا يحل لمسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه.

وأما الحكم المبدل، وهو الحكم بغير ما أنزل الله؛ فلا يحل تنفيذه، ولا العمل به، ولا يسوغ اتباعه، وصاحبه بين: الكفر، والفسوق، والظلم.

(١)**قوله** تعالى: ﴿وأَنِ احكُمْ بينَهُم بِمَا أَنْـزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِـع أَهْـوَاءَهُمْ واحْـذَرْهُم أَنْ يَفْتِنُـوكَ عَنْ بعضِ ما أَنْـزَلَ اللهُ إليكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. إلى قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ومَنْ أَحْسَنُ من اللهِ حُكمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. .

ووجه الاستدلال: أن كل ما حكم به رسول الله، ﷺ، فهو مما أنزل الله، وهو ذكر من الله أنزله على رسوله. وقد تكفل سبحانه بحفظه، فلو جاز على حكمه: الكذب، والغلط، والسهو من الرواة، ولم يقم دليل على غلطه، وسهو ناقله؛ لسقط حكم ضمان الله وكفالته لحفظه، وهذا من أعظم الباطل. . .

(١) ٤٠٠ مختصر الصواعق جـ٢.

(١)**وقال** عبدالله بن أحمد: حدثنا أبي : ثنا وكيع: ثنا إسرائيل، عن سماك بن حرب، عن عياض الأشعري، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قلت لعمر رضي الله عنه: إن لي كاتبًا نصرانيًا(٢) قال: مالك؟ قاتلك الله! أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿**يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُو اليهودَ والنَّصارى أَوْلياءَ بعضُهُم أَوْليـاءُ بعضٍ، ومَنْ يتولَّهُم منكُمْ فإنَّهُ مِنْهُم**﴾. [المائدة: ٥١]. ألا اتخذت حنيفًا، قال: قلت يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه. قال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله.

وكتب إليه بعض عماله يستشيره في استعمال الكفار، فقال: إن المال قد كثر، وليس يحصيه إلا هم، فاكتب إلينا بما ترى، فكتب إليه: «لا تدخلوهم في دينكم، ولا تسلمـوهم ما منعهم الله منـه، ولا تأمنوهم على أموالكم، وتعلموا الكتابة فإنما هي(٣) الرجال.

وكتب إلى عماله: أما بعد: فإنه من كان قِبَلَهُ كاتب(٤) من المشركين فلا يعـاشره ولا يوازره ولا يجالســه ولا يعتضد برأيه، فإن رسول الله، ﷺ، لم يأمر باستعمالهم، ولا خليفته من بعده.

وورد عليه كتاب معاوية بن أبي سفيان: أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإن في عملي كاتبًا نصرانيًا لا يتم أمر الخراج إلا به، فكرهت أن أقلده دون أمرك. فكتب إليه: عافانا الله وإياك، قرأت كتابك في أمر النصراني، أما بعد: فإن النصراني قد مات، والسلام.

وكان لعمر رضي الله عنه عبد نصراني فقال له: أسلم حتى نستعين بك على بعض أمـور المسلمين، فإنه لا ينبغي لنا أن نستعين على أمرهم بمن ليس منهم. فأبى، فأعتقه وقال: اذهب حيث شئت!

وكتب إلى أبي هريرة رضي الله عنـه: أمـا بعـد: فإن للنـاس نفـرة عن سلطانهم، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك؛ أقم الحدود ولو ساعة من النهار؛ وإذا

(١) ٢١٠ أحكام جـ١.

(٢) أشار ابن قتيبة في (عيون الأخبار ١/٤٣ ط. دار الكتب المصرية) إلى اتخاذ أبي موسى الأشعري كاتباً نصرانيًا لنفسه. وفيه: «فرفع يده فضرب فخذه حتى كاد يكسرها».

(٣) كذا في الأصل، ولعلها: (فإنما هي حلية الرجال). (٤) في الأصل: كانت.

حضرك أمران: أحدهما لله، والآخر للدنيا، فآثر نصيبك من الله، فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى. عد مرضى المسلمين، واشهد جنائزهم، وافتح بابك، وباشرهم، وأبعد أهل الشر[1] وأنكر أفعالهم، ولا تستعن في أمر من أمور المسلمين بمشرك، وساعد على مصالح المسلمين بنفسك، فإنما أنت رجل منهم؛ غير أن الله تعالى جعلك حاملاً لأثقالهم.

فصل

ودرج على ذلك الخلفاء الذين لهم ثناء حسن في الأمة: كعمر بن عبدالعزيز، والمنصور، والرشيد، والمهدي، والمأمون، والمتوكل، والمقتدر. ونحن نذكر بعض ما جرى.

فأما عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى فإنه كتب إلى جميع عماله في الآفاق: أما بعد: فإن عمر بن عبدالعزيز يقرأ عليكم من كتاب الله: ﴿**يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا إنَّما المُشرِكُونَ نَجَسٌ**﴾. [التوبة: ٢٨]. جعلهم الله «حزب الشيطان» وجعلهم ﴿**الأخسرين أعمالاً، الذينَ ضَلَّ سعيُهم في الحيَاةِ الدُّنيا وهُم يَحْسَبُونَ أنَّهُم يُحسِنُونَ صُنْعًا**﴾. [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. واعلموا أنه لم يهلك من هلك من قبلكم؛ إلا: بمنعه الحق، وبسطه يد الظلم، وقد بلغني عن قوم من المسلمين فيما مضى؛ أنهم إذا قدموا بلدًا أتاهم أهل الشرك؛ فاستعانوا بهم في أعمالهم وكتابتهم، لعلمهم بالكتابة والجباية والتدبير، ولا خيرة ولا تدبير فيما يغضب الله ورسوله؛ وقد كان لهم في ذلك مدة، وقد قضاها الله تعالى، فلا أعلمن أن أحدًا من العمال أبقى في عمله رجلاً متصرفًا في غير دين الإسلام؛ إلا نكلت به، فإن مَحْوَ أعمالهم كمحو دينهم[2]، وأنزلوهم منزلتهم التي خصهم الله بها من الذل والصغار، وآمر بمنع اليهود والنصارى من الركوب على السروج إلا على الأُكُف، وليكتب كل منكم بما فعله من عمله.

وكتب إلى حيان، عامله على مصر، باعتماد ذلك، فكتب إليه: أما بعد: يا أمير المؤمنين فإنه إن دام هذا الأمر في مصر أسلمت الذمة، وبطل ما يؤخذ

---

(١) كذا في الأصل. ولعلها: (الشرك).

(٢) في سيرة عمر بن عبدالعزيز (لابن عبدالحكم ص ١٣٦): «فإن محق أعمالهم محق أديانهم».

منهم، فأرسل إليه رسولاً وقال له: اضرب حيان على رأسه ثلاثين سوطًا أدبًا على قوله، وقل له: من دخل في دين الإسلام فضع عنه الجزية، فوددت لو أسلموا كلهم؛ فإن الله بعث محمدًا، ﷺ، داعيًا لا جابيًا(١).

وأمر أن تهدم بيع النصارى المستجدة، فيقال: إنهم توصلوا إلى بعض ملوك الروم، وسألوه في مكاتبة عمر بن عبدالعزيز. فكتب إليه: أما بعد يا عمر فإن هؤلاء الشعب سألوا في مكاتبتك لتجري أمورهم على ما وجدتها عليه، وتبقي كنائسهم وتمكنهم من عمارة ما خرب منها، فإنهم زعموا أن من تقدمك فعل في أمر كنائسهم ما منعتهم منه، فإن كانوا مصيبين في اجتهادهم فاسلك سنتهم، وإن يكونوا مخالفين لها فافعل ما أردت. فكتب إليه عمر: أما بعد: فإن مثلي ومثل من تقدمني، كما قال الله تعالى في قصة داود وسليمان: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فيهِ غَنَمُ القومِ وكُنَّا لِحُكْمِهِم شاهِدِينَ. فَفَهَّمناها سُلَيمانَ وكُلًّا آتَيْنا حُكمًا وعِلْمًا﴾. [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

وكتب إلى بعض عماله: أما بعد: فإنه بلغني أن في عملك كاتبًا نصرانيًّا يتصرف في مصالح الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الذينَ اتَّخَذُوا دينَكُمْ هُزُوًا ولَعِبًا من الذينَ أُوتُوا الكِتابَ من قَبْلِكم والكُفَّارَ أَوْلياءَ واتَّقُوا الله إنْ كُنتُم مُؤمِنِينَ﴾. [المائدة: ٥٧]. فإذا أتاك كتابي هذا فادع حسان بن زيد، يعني ذلك الكاتب، إلى الإسلام؛ فإن أسلم فهو منا ونحن منه، وإن أبى فلا تستعن به، ولا تتخذ أحدًا على غير دين الإسلام في شيء من مصالح المسلمين. فأسلم حسان وحسن إسلامه.

وأما أبو جعفر المنصور؛ فإنه لما حجَّ اجتمع جماعة من المسلمين إلى شبيب بن شيبة، وسألوه مخاطبة المنصور أن يرفع عنهم المظالم، ولا يمكن النصارى من ظلمهم وعسفهم في ضياعهم، ويمنعهم من انتهاك حرماتهم، وتحريهم، لكونه أمرهم أن يقبضوا ما وجدوه لبني أمية. قال شبيب: فطفت معه، فشبَّك أصابعه على أصابعي، فقلت يا أمير المؤمنين، أتأذن لي أن أكلمك بما في نفسي؟ فقال: أنت وذاك؛ فقلت: إن الله لما قسم أقسامه بين خلقه لم يرض لك إلا بأعلاها

(١) وبنحوه كتب عمر أيضًا إلى عبدالرحمن بن عبدالحميد عامله على الحيرة. (انظر: خراج أبي يوسف: ١٣١).

وأسناها، ولم يجعل فوقك في الدنيا أحدًا، فلا ترض لنفسك أن يكون فوقك في الآخرة أحد. يا أمير المؤمنين، اتق الله فإنها وصية الله، إليكم جاءت، وعنكم قبلت، وإليكم تؤدى. وما دعاني إلى قولي إلا محض النصيحة لك، والإشفاق عليك، وعلى نعم الله عندك. اخفض جناحك إذا علا كعبك، وابسط معروفك إذا أغنى الله يديك. يا أمير المؤمنين، إن دون أبوابك نيرانًا تأجج من الظلم والجور، لا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه محمد، ﷺ، يا أمير المؤمنين، سلطت الذمة على المسلمين، ظلموهم وعسفوهم وأخذوا ضياعهم، وغصبوهم أموالهم، وجاروا عليهم، واتخذوك سلمًا لشهواتهم، وإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا يوم القيامة. فقال المنصور: خذ خاتمي فابعث به إلى من تعرفه من المسلمين. وقال: يا ربيع، اكتب إلى الأعمال واصرف من بها من الذمة، ومن أتاك به شبيب فأعلمنا بمكانه لنوقع باستخدامه. فقال شبيب: يا أمير المؤمنين، إن المسلمين لا يأتونك، وهؤلاء الكفرة في خدمتك، إن أطاعوهم أغضبوا الله، وإن أغضبوهم أغروك بهم، ولكن تولي في اليوم الواحد عدة، فكلما وليت رجلًا عزلت آخر.

وأما المهدي فإن أهل الذمة في زمانه قويت شوكتهم، فاجتمع المسلمون إلى بعض الصالحين وسألوه أن يعرفه بذلك وينصحه، وكان له عادة في حضور مجلسه، فاستدعي للحضور عند المهدي، فامتنع، فجاء المهدي إلى منزله وسأله السبب في تأخره، فقص عليه القصة، وذكر اجتماع الناس إلى بابه متظلمين من ظلم الذمة ثم أنشده:

بأبي وأمي ضاعت الأحلام ... أم ضاعت الأذهان والأفهام؟
من صد عن دين النبي محمد ... أله بأمر المسلمين قيام؟
إلا تكن أسيافهم مشهورة ... فينا، فتلك سيوفهم أقلام

ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنك تحملت أمانة هذه الأمة، وقد عرضت على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، ثم سلمت الأمانة التي خصك الله بها إلى أهل الذمة دون المسلمين. يا أمير المؤمنين، أما سمعت تفسير جدك لقوله تعالى: **﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾**. [الكهف: ٤٩].

إن الصغيرة التبسم، والكبيرة القهقهة، فما ظنك بأموال المسلمين وأماناتهم وأسرارهم! وقد نصحتك، وهذه النصيحة حجة علي ما لم تصل إليك. فولّى عمارة بن حمزة: أعمال الأهواز، وكور دجلة، وكور فارس. وقلد حمادًا أعمال السواد، وأمره أن ينزل إلى الأنبار وإلى جميع الأعمال، ولا يترك أحدًا من الذمة يكتب لأحد من العمال. وإن علم أن أحدًا من المسلمين استكتب أحدًا من النصارى قطعت يده؛ فقطعت يد شاهونة وجماعة من الكتاب.

وكان للمهدي على بعض ضياعه كاتب نصراني بالبصرة، فظلم الناس في معاملته، فتظلم المتظلمون إلى سوار بن عبدالله القاضي، فأحضر وكلاء النصراني واستدعى بالبينة، فشهدت على النصراني بظلم الناس وتعدي مناهج الحق. ومضى النصراني فأخذ كتاب المهدي إلى القاضي سوار بالتثبت في أمره، فجاء البصرة ومعه الكتاب، وجماعة من حمقى النصارى، وجاءوا إلى المسجد فوجدوا سوارًا جالسًا للحكم بين المسلمين. فدخل المسجد وتجاوز الموضع الذي كان يجب الوقوف عنده، فمنعه الخدم فلم يعبأ بهم وسبهم، ودنا حتى جلس عن يمين سوار ودفع له الكتاب، فوضعه بين يديه ولم يقرأه وقال: ألست نصرانيًّا؟ فقال: بلى، أصلح الله القاضي. فرفع رأسه وقال: جروا برجله. فسحب إلى باب المسجد وأدبه تأديبًا بالغًا، وحلف ألا يبرح واقفًا إلى أن يوفي المسلمين حقوقهم. فقال له كاتبه: قد فعلت اليوم أمرًا يخاف أن يكون له عاقبة. فقال: أعز أمر الله يعزك الله.

وأما هارون الرشيد فإنه لما قلد الفضل بن يحيى أعمال خراسان، وجعفرًا أخاه ديوان الخراج، أمرهما بالنظر في مصالح المسلمين، فعمرت المساجد والجوامع والصهاريج والسقايات، وجعل في المكاتب مكاتب لليتامى، وصرف الذمة عن أعمالهم، واستعمل المسلمين عوضًا منهم، وغير زيهم ولباسهم، وخرب الكنائس، وأفتاه بذلك علماء الإسلام.

وأما المأمون فقال عمرو بن عبدالله الشيباني: استحضرني المأمون في بعض لياليه ونحن بمصر، فقال لي: قد كثرت سعايات النصارى، وتظلم المسلمون منهم، وخانوا السلطان في ماله؛ ثم قال: يا عمرو، تعرف من أين أصل هؤلاء القبط؟ فقلت: هم بقية الفراعنة الذين كانوا بمصر، وقد نهى أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب رضي الله عنه عن استخدامهم. فقال: صف لي كيف كان تناسلهم في مصر، فقلت: يا أمير المؤمنين، لما أخذت الفرس الملك من أيدي الفراعنة قتلوا القبط، فلم يبق منهم إلا من اصطنعته يد الهرب واختفى «بأنْصِنا»[1] وغيرها، فتعلموا طبًّا وكتابًا، فلما ملكت الروم ملك الفرس؛ كانوا سببًا في إخراج الفرس عن ملكهم، وأقاموا في مملكة الروم إلى أن ظهرت دعوة المسيح. وفيهم يقول خالد بن صفوان من قصيدة له يمدح بها عمرو بن العاص رضي الله عنه ويحثه على قتلهم ويغريه بهم:

يا عمرو قد ملكت يمينك مصرنا ... وبسطت فيها العدل والإقساطا
فاقتل بسيفك من تعدى طوره ... واجعل فتوح سيوفك الأقباطا
فيهم أقيم الجور في جنباتها ... ورأى الأنام البغي والإفراطا
عبدوا الصليب وثلثوا معبودهم ... وتوازروا وتعدوا الأشراطا

وبقي في نفس المأمون منهم، فلما عاد إلى بغداد؛ اتفق لهم مجاهرة في بغداد بالبغي والفساد على معلمه علي بن حمزة الكسائي، فلما قرأ عليه المأمون، ووصل إلى قوله تعالى: **﴿يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذوا اليَهودَ والنَّصارى أُوْلياءَ بَعضُهُم أولِياءُ بعضٍ ومَن يتولَّهُم مِنكُم فإنَّهُ مِنهم﴾**. [المائدة: ٥١].

قال الكسائي: يا أمير المؤمنين، أتقرأ كتاب الله ولا تعمل به؟ فأمر المأمون بإحضار الذمة، فكان عدة من صرف وسجن ألفين وثمان مئة، وبقي جماعة من اليهود منحازين إلى حماية بعض جهاته، فخرج توقيعه بما نسخته: «أخبث الأمم اليهود، وأخبث اليهود السامرة، وأخبث السامرة بنو فلان؛ فليقطع ما بأسمائهم من ديوان الجيش والخراج - إن شاء الله تعالى -».

ودخل بعض الشعراء على المأمون وفي مجلسه يهودي جالس فأنشده:

يا ابن الذي طاعته في الورى ... وحكمه مفترض واجب
إن الذي عظمت من أجله ... يزعم هذا أنه كاذب

فقال له المأمون: أصحيح ما يقول؟ قال: نعم. فأمر بقتله.

وأما المتوكل فإنه صرف أهل الذمة من الأعمال، وغير زيهم في مراكبهم

(١) أنصنا: مدينة أزلية من نواحي الصعيد على شرقي النيل (معجم البلدان ١/٣٥٣).

وملابسهم(١). وذلك أن المباشرين منهم للأعمال كثروا في زمانه، وزادوا على الحد، وغلبوا على المسلمين لخدمة أمه وأهله وأقاربه. وذلك في سنة خمس وثلاثين ومئتين، فكانت الأعمال الكبار كلها أو عامتها إليهم في جميع النواحي، وكانوا قد أوقعوا في نفس المتوكل من مباشري المسلمين شيئًا، وأنهم بين مفرط وخائن، وعملوا عملاً بأسماء المسلمين وأسماء بعض الذمة لينفوا التهمة، وأوجبوا باسم كل واحد منهم مالاً كثيرًا، وعرض على المتوكل، فأغري بهم وظن ما أوجبوا من ذلك حقًّا، وأن المال في جهاتهم كما أوجبوه.

ودخل سلمة بن سعيد النصراني على المتوكل، وكان يأنس به ويحاضره فقال: يا أمير المؤمنين، أنت في الصحاري والصيد، وخلفك معادن الذهب والفضة، ومن يشرب في آنية الذهب والفضة ويملؤها ذهبًا عوضًا عن الفاكهة. فقال له المتوكل: عند من؟ فقال: عند الحسين بن مخلد، وأحمد بن إسرائيل، وموسى بن عبدالملك، وميمون بن هارون، ومحمد بن موسى، (وكل واحد من هؤلاء اسمه ثابت في العمل المقدم ذكره المرفوع للمتوكل) فقال له المتوكل: ما تقول في عبيدالله بن يحيى؟ فسكت. فقال: بحياتي عليك، قل لي ما عندك، فقال: قد حلفتني بحياتك، ولا بد لي من صدقك على كل حال. والله يا أمير المؤمنين، لقد صاغ له صوالجة وأكرمن ثلاثين ألف دينار، فقلت له: أمير المؤمنين يضرب كرة من جلود بصولجان من خشب، وأنت تضرب كرة من فضة بصولجان من فضة!! فالتفت المتوكل إلى الفتح بن خاقان وقال: ابعث فاحضر هؤلاء، وضيق عليهم، فحضرت جماعة الكتاب وعلموا ما وقعوا فيه من الكافر، فاجتمعوا إلى عبيدالله بن يحيى فأنفذ معهم كاتبه إلى سلمة، وعاتبه فيما جرى منه، فحلف إنني لم أفعل ما فعلته إلا على سكر، ولم أقل ما قلته عن حقيقة، فأخذ خطه بذلك؛ فدخل عبيدالله بن يحيى على المتوكل وعرفه مأثمة أهل الذمة على المسلمين وغيرهم، وأوقفه على خط سلمة وقال: هذا قصده أن يخلو أركان دولة أمير المؤمنين من الكتاب المسلمين، ويتمكن هو ورهطه منها. وكان المتوكل قد جعل في موكبه من يأخذ المتظلمين ويحضرهم بين يديه على خلوة، فأحضر بين يديه شيخ كبير،

(١) قارن بتاريخ الطبري ١١/ ٣٧.

فذكر أنه من أهل دمشق، وأن سعيد بن عون النصراني غصبه داره. فلما وقف المتوكل على قصة الشيخ؛ اشتد غضبه إلى أن كادت تطير أزراره(١)، وأمره أن يكتب إلى صالح عامله برد داره. قال الفتح بن خاقان: فقمت ناحية لأكتب له بما أمرني فأتبعني رسولاً يستحثني، فبادرت إليه، فلما وقف على الكتاب زاد فيه بخطه: نفيت عن العباس، لئن خالفت فيما أمرت به لأوجهن من يجيئني برأسك. ووصل الشيخ بألف دينار، وبعث معه حاجبًا، وكثر تظلم الناس من كتاب أهل الذمة، وتتابعت الإغاثات، وحج المتوكل تلك السنة، فرئي رجل يطوف بالبيت ويدعو على المتوكل، فأخذه الحرس وجاءوا به سريعًا، فأمر بمعاقبته، فقال له: والله يا أمير المؤمنين، ما قلت ما قلته إلا وقد أيقنت بالقتل، فاسمع كلامي ومر بقتلي. فقال: قل. فقال: سأطلق لساني بما يرضي الله ورسوله ويغضبك يا أمير المؤمنين، قد اكتنفت دولتك كتاب من الذمة أحسنوا الاختيار لأنفسهم، وأساءوا الاختيار للمسلمين، وابتاعوا دنياهم بآخرة أمير المؤمنين. خفتهم ولم تخف الله، وأنت مسئول عما اجترحوا وليسو مسئولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك(٢)، فإن أخسر الناس صفقة يوم القيامة من أصلح دنيا غيره بفساد آخرته، واذكر ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة، وأول ليلة يخلو المرء في قبره بعمله! فبكى المتوكل؛ إلى أن غشي عليه، وطلب الرجل فلم يوجد، فخرج أمره بلبس النصارى واليهود الثياب العسلية(٣)، وألا يمكنوا من لبس الثياب؛ لئلا يتشبهوا بالمسلمين، ولتكن رُكُبُهم خشبًا، وأن تهدم بيَعُهم المستجدة، وأن تطبق عليهم الجزية، ولا يفسح لهم في دخول حمامات المسلمين، وأن يُفرد لهم حمامات خدمها ذمة، ولا يستخدموا مسلمًا في حوائجهم لنفوسهم، وأفرد لهم من يحتسب عليهم؛ وكتب كتابًا نُسخته: «أما بعد: فإن الله اصطفى الإسلام دينًا، فشرفه وكرمه، وأناره ونصره، وأظهره وفضله وأكمله، فهو الدين لا يقبل غيره؛ قال تعالى: ﴿ومنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلامِ دينًا فَلَنْ يُقبَلَ مِنهُ وهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرينَ﴾. [آل عمران: ٨٥]. بعث به صفيَّه وخيرته من خلقه محمدًا، ﷺ، فجعله خاتم النبيين

---

(١) الأزرار جمع زر، وهو عُظَيْم في القلب. (٢) في الأصل (إخوتك).

(٣) في الأصل: (العسلي) راجع في هذا الطبري ١١/٣٧، المقريزي: الخطط جـ٢ ص٤٩٤.

وإمام المتقين وسيد المرسلين، ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ويَحِقَّ القولُ على الكَافِرينَ﴾ [يس: ٧٠]. وأنزل كتابًا عزيزًا ﴿لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَينَ يديْهِ ولاَ مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. [فصلت: ٤٢]. أسعد به أمته وجعلهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ يَأْمُرُونَ بالمَعْروفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ويُؤمِنُونَ بالله ولَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لكَانَ خيراً لَهُم مِنهُم المؤمِنونَ وأَكْثَرُهُم الفَاسِقونَ﴾. [آل عمران: ١١٠]. وأهان الشرك وأهله، ووضعهم وصغرهم، وقمعهم وخذلهم، وتبرأ منهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة وقال: ﴿قَاتِلوا الذينَ لا يُؤمِنُونَ بالله ولاَ باليوم الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ ورَسُولُهُ ولا يَدينُونَ دينَ الحَقِّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حتَّى يُعْطُوا الجِزيَةَ عَنْ يَدٍ وهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وطبع على قلوبهم وخبث سرائرهم وضمائرهم، فنهى عن ائتمانهم[1] والثقة بهم، لعداوتهم للمسلمين وغشهم وبغضائهم فقال: ﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُم لا يَأْلُونَكم[2] خبَالاً ودُّوا مَا عَنِتُّم[3] قَد بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ومَا تُخْفِي صُدُورُهُم أَكْبَرُ[4] قَدْ بَيَّنَا لكُمُ الآياتِ إنْ كُنتُم تَعْقِلونَ﴾. [آل عمران: ١١٨]. وقال: ﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذوا الكافِرينَ أولِياءَ مِنْ دُونِ المؤمِنينَ أَتُريدونَ أَنْ تَجعَلُوا للّهِ عليكُم سُلطانًا مُبينًا﴾. [النساء: ١١٤]. وقال: ﴿لا يَتَّخذُ المؤمِنونَ الكافرينَ أَولِياءَ مِنْ دُونِ المُؤمنينَ ومَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فلَيْسَ مِنَ اللهِ في شَيءٍ﴾. [آل عمران: ٢٨]. وقال: ﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اليهودَ والنَّصارى أَولياءَ بَعضُهُم أَولياءُ بَعضٍ ومَنْ يتولَّهُم منكُمْ فإنَّهُ منهُم إنَّ اللّهَ لا يَهْدي القَومَ الظَّالِمينَ﴾. [المائدة: ٥١]. وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أن أناسًا لا رأي لهم ولا رويَّة يستعينون بأهل الذمة في أفعالهم، ويتخذونهم بطانة من دون المسلمين، ويسلطونهم على الرعية فيعسفونهم، ويبسطون أيديهم إلى ظلمهم وغشمهم، والعدوان عليهم؛ فأعظم أمير المؤمنين ذلك وأنكره وأكبره وتبرأ إلى الله منه، وأحب التقرب إلى الله تعالى بحسمه والنهي عنه. . .[5]

[6] **قال** تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الذين آمَنُوا من يَرتَدَّ مِنكُم عن دِينِه فَسوفَ يَأْتي اللهُ

---

(١) في الأصل: (ائتمايهم).
(٢) في الأصل: (يأتونكم).
(٣) في الأصل: (عندتم).
(٤) سقطت كلمة (أكبر) من الأصل.
(٥) استمر المؤلف رحمه الله في سياق أعمال الولاة حول هذا الموضوع. ج.
(٦) ٢٢ مدارج جـ٣.

بقوم يُحِبُّهُم ويُحبُّونه أَذلَّة على المُؤمنينَ أعزَّةٍ على الكَافِرينَ يُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ ولاَ يَخَافُونَ لَومَةَ لائِمٍ﴾. [المائدة: ٥٤]. فقد ذكر لهم أربع علامات:

إحداها: أنهم ﴿أذلةٍ على المؤمنين﴾ قيل: معناه: أرقاء، رحماء، مشفقين عليهم، عاطفين عليهم. فلما ضمن «أذلة» هذا المعنى عداه بأداة «على». قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده. وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أشدَّاءُ على الكفار رُحَماءُ بينَهُم﴾. [الفتح: ٢٩].

العلامة الثالثة(١): الجهاد في سبيل الله: بالنفس واليد واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة. فكل محب يأخذه اللوم عن محبوبه؛ فليس بمحب على الحقيقة. كما قيل:

لا كل من لسواك فيه بقية　　　يجد السبيل بها إليه اللوم

وقال تعالى: ﴿أُولئكَ الذينَ يَدعُونَ يبتَغُونَ إلى ربِّهم الوَسيلَةَ أَيُّهُم أقرَبُ﴾ إلى قوله ﴿محذورًا﴾. [الإسراء: ٥٧]. فذكر المقامات الثلاثة: الحب، وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف: يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

(٢)**قال** تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الذين آمَنُوا من يَرتَدّ مِنكُم عن دِينِهِ فَسَوفَ يَأْتِي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهم ويحبُّونَهُ أذِلَّةٍ على المؤمنينَ أعزَّةٍ على الكَافِرينَ﴾. [المائدة: ٥٤].

لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات؛ عداه بأداة «على» تضمينًا لمعاني هذه الأفعال. فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل. وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول، فالمؤمن ذلول. كما في الحديث: «**المؤمن كالجمل الذلول، والمنافق والفاسق ذليل**». وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق: الكذاب، والنمام، والبخيل، والجبار.

وقوله: ﴿أعزَّةٍ على الكافرين﴾. هو من عزة القوة والمنعة والغلبة. قال عطاء رضي الله عنه: للمؤمنين كالوالد لولده. وعلى الكافرين كالسبع على فريسته.

(١) لعله قصد من الأولى اثنتين لأنها: ﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين﴾.

(٢) ٣٢٧ مدارج جـ٢.

كما قال في الآية الأخرى: ﴿أشدَّاءُ على الكفار رُحماءُ بينهم﴾ [الفتح: ٢٩].

(١)**الطائفة** الملامتية، الذين يظهرون مالا يمدحون عليه، ويُسرون ما يحمدهم الله عليه؛ عكس المرائين المنافقين.

وهؤلاء طائفة معروفة، لهم طريقة معروفة، تسمى: «طريقة أهل الملامة» وهم «الطائفة الملامتية» يزعمون: أنهم يحتملون ملام الناس لهم على ما يظهرونه من الأعمال؛ ليخلص لهم ما يبطنونه من الأحوال، ويحتجون بقوله تعالى: **﴿فَسَوفَ يأتِي اللهُ بقومٍ يُحبُّهم ويُحبُّونَه أذلَّةٍ على المُؤمنينَ أعزَّةٍ على الكَافرينَ يُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ ولاَ يَخافُونَ لومَةَ لائِمٍ﴾**. [المائدة: ٥٤]. فهم عاملون على إسقاط جاههم ومنزلتهم في قلوب الناس. لما رأوا المغترِّين ـ المغترَّ بهم ـ من المتنسبين إلى السلوك، يعملون على تزكية نفوسهم، وتوفير جاههم في قلوب الناس؛ فعاكسهم هؤلاء، وأظهروا بطالة، وأبطنوا أعمالاً، وكتموا أحوالهم جهدهم، وينشدون في هذه الحال:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الودُّ يا غاية المنى ... فكل الذي فوق التراب تراب...

(٢)**لما** كثر المدعون للمحبة؛ طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادَّعى الخليّ حرقة الشجيِّ، فتنوع المدعون في الشهود. فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة **﴿إن كنتُم تحبُّون الله فاتَّبعوني يُحببكُمُ الله﴾**. [آل عمران: ٣١]. فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة. وقيل: لا تقبل العدالة إلا بتزكية **﴿يُجاهِدونَ في سبيلِ الله ولا يَخافُونَ لَومَةَ لائم﴾**. [المائدة: ٥٤]. فتأخر أكثر المدَّعين للمحبة، وقام المجاهدون. فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقدُ التبايع؛ يوجب التسليم من الجانبين. فلما رأى التجار عظمة المشْتَرَى وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد؛ عرفوا أن للسلعة قدرًا

(١) ١٧٧ مدارج جـ٣. (٢) ١٥٣ زاد المعاد جـ٢.

وشأنًا ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البيِّن، والغبن الفاحش: أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة، تذهب لذتها وشهوتها، وتبقى تبعتها وحسرتها؛ فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء. فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان، رضاءً واختيارًا من غير ثبوت خيار، وقالوا: «والله لا نقيلك ولا نستقيلك»(١). فلما تم العقد، وسلموا المبيع، قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعاف أموالكم معها ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِندَ ربِّهم يُرزَقُونَ﴾. [آل عمران: ١٦٩].

لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلبًا للربح عليكم؛ بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المبيع والإعطاء عليه أجل الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن.

...(٢)**إذا** غُرست شجرة المحبة في القلب، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب؛ أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

لا يزال سعي المحب صاعدًا إلى حبيبه، لا يحجبه دونه شيء ﴿إليه يَصعدُ الكلمُ الطَّيِّبُ والعَملُ الصَّالحُ يَرفَعُهُ﴾. [فاطر: ١٠].

(٣)**ولما** كانت المحبة جنسًا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف؛ كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى، ما يختص به ويليق به من أنواعها، ولا يصلح إلا له وحده مثل: العبادة، والإنابة، ونحوهما. فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده، وكذا الإنابة.

وقد ذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى: ﴿فَسوفَ يأتِي اللهُ بقومٍ يُحِبُّهم ويُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ومِنَ النَّاسِ من يتَّخِذ من دونِ الله أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كحبِّ الله والذينَ آمَنُوا أشد حُبًّا لله﴾. [البقرة: ١٦٥].

وأعظم أنواع المحبة المذمومة؛ المحبة مع الله، التي سوى فيها المحب بين محبة الله ومحبته للند الذي اتخذه من دون الله.

---

(١) قالها الأنصار لرسول الله ﷺ ليلة بيعة العقبة الثانية.

(٢) ٩ مدارج جـ٣.		(٣) ٢٦٩ الجواب الكافي.

وأعظم أنواعها المحمودة؛ محبة الله وحده . . .

(١)**وهكذا** المحبة وصف نفسه منها بأعلاها وأشرفها فقال: ﴿يُحِبُّهم ويُحِبُّونه﴾. [المائدة: ٥٤]. و﴿يُحبُّ التَّوَّابينَ ويُحِبُّ المتطهِّرين﴾. [البقرة: ٢٢٢]. و﴿يُحبُّ المُحسنينَ﴾. [البقرة: ١٩٥]. و﴿يُحبُّ الصَّابرينَ﴾. [آل عمران: ١٤٦].

ولم يصف نفسه بغيرها من: العلاقة، والميل، والصبابة، والعشق، والغرام، ونحوها. فإن مسمى المحبة؛ أشرف وأكمل من هذه المسميات، فجاء في حقه إطلاقه دونها.

وهذه المسميات لا تنفك عن لوازم ومعان؛ تنزه تعالى عن الاتصاف بها.

وهكذا جميع ما أطلقه على نفسه من صفاته العلى؛ أكمل معنى ولفظًا مما لم يطلقه.

فالعليم الخبير؛ أكمل من الفقيه والعارف، والكريم الجواد؛ أكمل من السخي.

والخالق البارىء المصور؛ أكمل من الصانع الفاعل، ولهذا لم تجئ هذه في أسمائه الحسنى، والرحيم والرءوف؛ أكمل من الشفيق.

فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من: الأسماء، والصفات. والوقوف معها، وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه؛ ما لم يكن مطابقًا لمعنى أسمائه وصفاته، وحينئذ فيطلق المعنى لمطابقته له دون اللفظ؛ ولا سيما إذا كان مجملاً أو منقسمًا إلى ما يمدح به، وغيره، فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مقيدًا، وهذا كلفظ الفاعل والصانع، فإنه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنى إلا إطلاقًا مقيدًا، أطلقه على نفسه كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُريدُ﴾. [البروج: ١٦]. ﴿ويفعَلُ اللهُ ما يَشاء﴾. [إبراهيم: ٢٧]. وقوله: ﴿صُنعَ اللهِ الذي أتقَنَ كُلَّ شيءٍ﴾ [النمل:٨٨]. فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى: ما يمدح عليه، ويذم.

ولهذا المعنى ـ والله أعلم ـ لم يجئ في الأسماء الحسنى: (المريد) كما جاء فيها: السميع البصير، ولا (المتكلم) ولا (الآمر الناهي)، لانقسام مسمى هذه الأسماء؛ بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها. ومن هنا يعلم غلط بعض

(١) ٣٢٩ طريق الهجرتين.

المتـأخـرين، وزلقه الفاحش؛ في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه؛ اسـمًا مطلقـا؛ فأدخله في أسـمائـه الحسنى! فاشتق له اسم: (الماكر)، و(الخـادع)، و(الفـاتن)، و(المضل)، و(الكاتب)، ونحوها من قوله: ﴿ويمكُرُ اللهُ﴾. [الأنفال: ٣٠]. ومن قوله: ﴿وهُوَ خَادِعهُم﴾. [النساء: ١٤٢]. ومن قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُم فيه﴾. [طه: ١٣١]. ومن قوله: ﴿يُضلُّ من يَشاءُ﴾. [الرعد: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغلِبَنَّ﴾. [المجادلة: ٢١]. وهذا خطأ من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء فإطلاقها عليه لا يجوز.

الثاني: أنـه سبحانه أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مقيدة، فلا يجوز أن ينسب إليه مسمى الاسم عند الإطلاق.

الثالث: أن مسمى هذه الأسماء منقسم: إلى ما يمدح عليه المسمى به، وإلى ما يذم؛ فيحسن في موضع، ويقبح في موضع. فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل.

الرابع: أن هذه ليست من الأسماء الحسنى التي يسمى بها سبحانه، فلا يجوز أن يسمى بها؛ فإن أسماء الرب سبحانه كلها حسنى. كما قال تعالى: ﴿ولله الأسماءُ الحُسْنَى﴾. [الأعراف: ١٨٠]. وهي التي يحب سبحانه أن يثنى عليه ويحمد ويمجد بها، دون غيرها.

الخامس: أن هذا القائل لو سُمي بهذه الأسماء، وقيل له هذه مدحتك وثناء عليك، فأنت الماكر الفاتن المخادع المضل اللاعن الفاعل الصانع ونحوها؛ لما كان يرضى بإطلاق هذه الأسماء عليه ويعدها مدحة، ولله المثل الأعلى، سبحانه وتعالى عما يقول الجاهلون به علوًّا كبيرًا.

السـادس: أن هذا القائل يلزمه أن يجعل من أسمائه: اللاعن، والجائي والآتي، والـذاهب، والتـارك، والمقـاتل، والصادق، والمنزل والنازل، والمدمدم والمدمر، وأضعاف أضعاف ذلك، فيشتق له اسمًا من كل فعل أخبر به عن نفسه، وإلا تناقض تناقضًا بيِّنًا، ولا أحد من العقلاء طرد ذلك، فعلم بطلان قوله والحمد لله رب العالمين.

فصل (١)

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام، سواء كانت: محمودة أو مذمومة، نافعة أو ضارة: من الوجد، والذوق، والحلاوة، والشوق، والأنس، والاتصال بالمحبوب، والقرب منه، والانفصال عنه، والبعد منه، والصد والهجران، والفرح والسرور، والبكاء والحزن، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها.

والمحبة المحمودة؛ هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته، وهذه المحبة هي عنوان السعادة، وضدها هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته؛ وهي عنوان الشقاوة. **ومعلوم** أن الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه، وإنما يصدر ذلك عن جهله وظلمه.

فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها، وذلك ظلم من الإنسان لنفسه.

إما أن تكون النفس جاهلة بحال محبوبها: بأن تهوى الشيء وتحبه:

غير عالمة بما في محبته من المضرة، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم.

وإما عالمة بما في محبته من الضرر؛ لكن تؤثر هواها على علمها.

وقد تتركب محبتها من أمرين: من اعتقاد فاسد، وهوى مذموم. وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس. فلا تقع المحبة الفاسدة؛ إلا من: جهل، أو اعتقاد فاسد وهو غالب، أو ما تركب من ذلك؛ فأعان بعضه بعضًا فتتفق: شبهة يشتبه بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب، وشهوة تدعو إلى وصوله؛ فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والإيمان، والغلبة لأقواهما.

إذا عرف هذا، فتوابع كل نوع من أنواع المحبة؛ له حكم متبوعه.

فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد، وتوابعها؛ كلها نافعة له، حكمها حكم متبوعها: فإن بكى نفعه، وإن حزن نفعه، وإن فرح نفعه، وإن انبسط نفعه، وإن انقبض نفعه، فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوة.

والمحبة المضرة المذمومة وتوابعها وآثارها؛ كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه، كيفما تقلب في آثارها ونزل في منازلها؛ فهو في خسارة وبعد، وهذا شأن كل

(١) ٢٧٦ الجواب الكافي.

فعل تولد عن طاعة أو معصية، فكل ما تولد من الطاعة؛ فهو زيادة لصاحبه وقرب، وكل ما تولد من المعصية؛ فهو خسران لصاحبه وبعد.

قال تعالى: **﴿ذلِكَ بأنَّهم لا يُصيبُهُم ظمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخمَصَةٌ في سبيلِ الله ولا يطؤونموطِئًا يغيظُ الكُفَّار ولا يَنالُونَ مِنْ عدوٍّ نَيْلًا إلاَّ كُتِبَ لَهُم به عَمَلٌ صَالحٌ إنَّ الله لا يُضيعُ أَجْرَ المُحْسِنينَ. ولا يُنفقونَ نفقةً صَغِيرَةً ولا كبيرةً ولا يَقْطَعُونَ واديًا إلاَّ كُتِبَ لهم ليجزِيَهُم الله أَحْسَنَ ما كَانُوا يَعمَلُونَ﴾**. [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

فأخبر سبحانه في الآية الأولى أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم؛ يكتب لهم به عمل صالح.

وأخبر في الثانية أن أعمالهم الصالحة التي باشروها؛ تكتب لهم أنفسها.

والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم؛ وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح، والثاني نفس أفعالهم فكتب لهم.

فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ما له وما عليه.

سيعلم يوم العرض أي بضاعة   أضاع وعند الوزن ما كان حصلا

(١)**شأن** أعداء الله دائمًا، ينقمون على أوليائه؛ ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله، كما قال تعالى: **﴿قلْ يا أَهْلَ الكِتَابِ هَل تَنْقِمُونَ منَّا إلاَّ أَنْ آمَنَّا باللهِ وما أُنزل إلينا وما أُنْزِلَ مِنْ قبلُ وأَنَّ أكثَرَكُم فاسِقُونَ﴾**. [المائدة: ٥٩].

وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله؛ تنزيههم عن مثل فعلهم، فقالوا: **﴿أخرجُوهُم مِنْ قريَتِكُم إنَّهم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرونَ﴾**. [الأعراف: ٨٢].

وكذلك أهل الإشراك ينقمون من الموحدين: تجريدهم التوحيد، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده. **وكذلك** أهل البدع ينقمون من أهل السنة: تجريد متابعتها، وترك ما خالفها. **وكذلك** المعطلة ينقمون من أهل الإثبات: إثباتهم لله صفات كماله، ونعوت جلاله.

وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة: محبتهم للصحابة جميعهم، وترضيهم عنهم، وولايتهم إياهم، وتقديم ما قدمه رسول الله، ﷺ، منهم، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها.

(١) ٥٨ التبيان.

وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول: أخذهم بحديثه، وتركهم ما خالفه.

وكل هؤلاء لهم نصيب، وفيهم شبه من أصحاب الأخدود، وبينهم وبينهم نسب قريب أو بعيد.

[1]**وقال** تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكم بشرٍّ مِنْ ذلكَ مَثُوبةً عندَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عليه وجَعَلَ مِنهُمُ القِرَدَةَ والخَنازيرَ وعبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئكَ شرٌّ مَكَانًا وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبيلِ. وإِذَا جَاءُوكُم قالوُا آمَنَّا وقَدْ دَخلُوا بالكُفْرِ وهُمْ قَدْ خَرَجُوا بهِ واللهُ أَعلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمونَ. وتَرَى كثيراً مِنهُمْ يُسارعُونَ في الإِثْمِ والعُدْوَانِ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانيُّونَ والأَحبَارُ عَنْ قَوْلِهِم الإِثْمَ وأَكْلِهِمُ السُّحتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. [المائدة: ٦٠ - ٦٣].

وقال تعالى: ﴿تَرَى كَثيراً مِنهُم يَتوَلَّوْنَ الذينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُم أَنْ سَخِطَ اللهُ عليهِمْ وفي العَذَابِ هُمْ خَالِدُون﴾. [المائدة: ٨٠].

وقد أمرنا الله سبحانه أن نسأله في صلواتنا: أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين.

وثبت عن النبي، ﷺ، أنه قال: «اليهود مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالّون».

فأول تلاعب الشيطان بهذه الأمة؛ في حياة نبيها، وقرب العهد بإنجائهم من فرعون وإغراقه وإغراق قومه، فلما جاوزوا البحر رأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم فقالوا: ﴿يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إلـهًا كَما لَهُمْ آلِهَة﴾. فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿إنَّكُم قومٌ تَجْهَلُونَ إنَّ هؤلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فيهِ وبَاطِلٌ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

فأي جهل فوق هذا؟ والعهد قريب، وإهلاك المشركين أمامهم، بمَرْأًى من عيونهم، فطلبوا من موسى عليه السلام؛ أن يجعل لهم إلـهًا، فطلبوا من مخلوق أن يجعل لهم إلـهًا مخلوقًا. وكيف يكون الإلـه مجعولاً؟ فإن الإلـه هو الجاعل لكل ما سواه. والمجعول مربوب مصنوع، فيستحيل أن يكون إلـهًا.

وما أكثر الخلف لهؤلاء في اتخاذ إلـه مجعول، فكل من اتخذ إلـهًا غير الله؛

(١) ٢٩٩ إغاثة جـ٢.

فقد اتخذ إلـهًا مجعولاً .

وقد ثبت عن النبي ، ﷺ ، أنه كان في بعض غزواته ، فمرُّوا بشجرة يعلِّق عليها المشركون أسلحتهم وشاراتهم وثيابهم ، يسمونها ذات أنواط . فقال بعضهم : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال : «**الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلـهًا كما لهم آلهة ، ثم قال : لتركبنَّ سَنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقذَّة**» .

(١)**الوجه** الثالث عشر : أن الله تعالى أنكر على اليهود نسبة يده إلى النقص والعيب ، ولم ينكر عليهم إثبات اليد له تعالى فقال : ﴿**وقالَتِ اليهودُ يَدُ الله مَغْلولَةٌ غُلَّتْ أيدِيهِمْ ولُعِنُوا بِما قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان**﴾ . [المائدة : ٦٤]. فلعنهم على وصف يده بالعيب ؛ دون إثبات يده ، وقدر إثباتها له زيادة على ما قالوا بأنهما : يدان مبسوطتان.وبهذايعلم تلبيس الجهمية المعطلة على أشباه الأنعام ؛ حيث قالوا : إن الله لعن اليهود على إثبات اليد له سبحانه ، وأنهم مشبهة ، وهم أئمة المشبهة . فتأمل هذا الكذب من هذا القائل ، والتلبيس ، وأن الآية صريحة بخلاف قوله .

الوجه الرابع عشر : أن يد القدرة لا يعرف في الاستعمال أن يقال فيها : يد فلان كذا . هكذا فضلاً أن يقال : فعل هذا بيمينه ، فضلاً عن أن يقال : فعله بيديه ، فضلاً عن أن يقال : فعله بيمينه ؛ وإنما المستعمل في يد القدرة والنعمة أن تكون : مجردة عن الإضافة ، وعن التثنية ، وعن نسبة الفعل إليها . فيقال : لفلان عندي يد ، ولو لا يد له عندي ، ولا يكادون يقولون : يده أو يداه عندي ، وله عندي يده ويداه يوضحه :

الوجه الخامس عشر : أن اليد حيث أريد بها النعمة أو القدرة ؛ فلابد أن يقترن باللفظ ما يدل على ذلك ليحصل المراد ، فأما أن تطلق ويراد بها ذلك ؛ فهذا لا يجوز. كما إذا أطلق البحر والأسد ، وادعى بذلك أنه أريد به : الرجل الجواد والشجاع . فهذا لا يجيزه عاقل ، ولا يتكلم به ؛ إلا مَنْ قصده التلبيس والتعمية ، وحيث أراد تلك المعاني ؛ فإنه يأتي من القرائن بما يدل على مراده . فأين معكم في قوله : ﴿**لِمَا خلَقْتُ بيَدِي**﴾ . [ص : ٧٥]. ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان**﴾ . [المائدة : ٦٤].

---

(١) ١٥٨ مختصر الصواعق جـ٢ .

وقوله: «**يقبض الله سمواته بيده والأرض باليد الأخرى**». وقوله: «**فأقوم عن يمين ربي**». وقوله: «**فيوقف بين يدي الرحمن**» ما يدل على إرادة المجاز.

الوجه السادس عشر: أن يد القدرة والنعمة، لا يعرف استعمالها ألبتة؛ إلا في حق من له يد حقيقة. فهذه موارد استعمالها من أولها إلى آخرها؛ مطردة في ذلك فلا يعرف العربي خلاف ذلك...

... (١)**فإن** قال القائل: فما أنكرتم أن تكون يده ووجهه جارحة؛ إذ كنتم لا تعقلون يدًا ووجهًا هما صفة غير الجارحة.

قلنا: لا يجب ذلك؛ كما لا يجب إذا لم نعقل حيًّا عالمًا قادرًا إلا جسمًا؛ أن نقضي نحن وأنتم ذلك على الله.

وكما لا يجب إذا كان قائمًا بذاته؛ أن يكون جوهرًا؛ لأنَّا وأيَّاكم لم نجد قائمًا بنفسه في شاهدنا إلا كذلك.

الجواب لهم إن قالوا: فيجب أن يكون علمه وكلامه وحياته وسائر صفات ذاته؛ أعراضًا وأجسامًا؛ أجناسًا أو حوادث، أو أغيارًا، له تعالى ومحتاجة إلى قلب، ولو تتبعنا النقول عن أهل السنة لزادت على المئين.

خاتمة لهذا الفصل

ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين؛ في أكثر من مائة موضع ورودًا متنوعًا، متصرفًا فيه، مقرونًا بما يدل على أنها يد حقيقة من: الإمساك، والطي، والقبض، والبسط، والمصافحة، والحثيات، والنضح باليد، والخلق باليدين، والمباشرة بهما، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده، وتخمير طينة آدم بيده، ووقوف العبد بين يديه، وكون المقسطين عن يمينه، وقيام رسول الله، ﷺ، يوم القيامة عن يمينه، وتخيير آدم بين ما في يديه، فقال: اخترت يمين ربي، وأخذ الصدقة بيمينه؛ يربيها لصاحبها، وكتابته بيده على نفسه: أن رحمته تغلب غضبه، وأنه مسح ظهر آدم بيده، ثم قال له ويداه مفتوحتان: اختر. فقال: اخترت يمين ربي. وكلتا يديه يمين مباركة، وأن يمينه

(١) ١٧١ مختصر الصواعق جـ٢.

ملأى لا يغيضها نفقة؛ سحاء الليل والنهار، وبيده الأخرى القسط يرفع ويخفض، وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، وأنه يطوي السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يطوي الأرض باليد الأخرى، وأنه خط الألواح التي كتبها لموسى بيده.

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي بإسناد صحيح، عن عبدالله بن عمرو بن العاص؛ أن الملائكة قالت: يا رب قد أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون فيها، ويشربون ويلبسون، فاجعل لنا الآخرة كما جعلت لهم الدنيا فقال: «**لا أفعل**» فأعادوا ذلك؛ فقال: «**لا أفعل**» فأعادوا ذلك عليه فقال: «**وعزتي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان**». ورواه عبدالله بن أحمد، في كتاب السنة عن النبي ﷺ مرسلاً.

وقوله: الأيدي ثلاثة: فيد الله العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد السائل السفلى. فهل يصح في عقل أو لغة أو عرف؛ أن يقال: قدرة الله أو نعمته العليا، ويد المعطي التي تليها؟ فهل يحتمل هذا التركيب غير يد الذات بوجه ما؟ وهل يصح أن يراد به غير ذلك؟

وكذلك قوله: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**» واليد العليا؛ هي المنفقة، واليد السفلى؛ هي السائلة.

فضم هذا إلى قوله: الأيدي ثلاثة: فيد الله العليا، ويد المعطي؛ هي التي تليها، وإلى قوله: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾. [المائدة: ٦٤]. تقطع بالضرورة أن المراد: يد الذات، لا يد القدرة والنعمة، فإن التركيب والقصد والسياق لا يحتمله ألبتة.

وتأمل قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾. [الفتح: ١٠]. فلما كانوا يبايعون رسول الله، ﷺ، بأيديهم، ويضرب بيده على أيديهم، وكان رسول الله، ﷺ، هو السفير بينه وبينهم؛ كانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى. ولما كان سبحانه فوق سمواته على عرشه، وفوق الخلائق كلهم؛ كانت يده فوق أيديهم، كما أنه سبحانه فوقهم، فهل يصح هذا لمن ليس له يد حقيقة؟ فكيف يستقيم أن يكون المعنى: قدرة الله ونعمته فوق قدرهم ونعمهم؟ أم تقتضي

المقابلة أن يكون المعنى ؛ هو الذي يسبق إلى الأفهام من هذا الكلام؟ .

وكذلك قوله : «**ما تصدق أحدٌ بصدقةٍ من طيبٍ ولا يقبل اللهُ إلا الطيبَ إلا أخذها الرحمنُ بيمينه ؛ وإن كانت تمرة ؛ فتربو في كف الرحمن ؛ حتى تكون أعظم من الجبل**» . فهل يحتمل هذا الكلام غير الحقيقة؟

وهب أن اليد تستعمل في النعمة ، أفسمعتم أن اليمين والكف يستعملان في النعمة ، في غير الوضع الجديد الذي اخترعتموه ، وحملتم عليه كلام الله وكلام رسوله ، ﷺ؟ وكذلك وبيده الأخرى القسط،هل يصح أن يكون المعنى :وبقدرته الأخرى؟ .

وهل يصح في قوله : إن المقسطين عن يمين الرحمن ، أنه : عن قدرته في لغة من اللغات؟ وهل سمعتم باستعمال اليمين ؛ في النعمة ، والكف ؛ في النعمة؟ .

وكيف يحتمل قوله : «**إن الله أخذ ذرية آدم من ظهره ، ثم أفاض بهم في كفه**» كف النعمة والقدرة؟ وهذا لم تعهدوا أنتم ولا أسلافكم به استعمالاً ألبتة ؛ سوى الوضع الجديد الذي اخترعتموه .

وكذلك قوله : «**خمر الله طينة آدم ثم ضرب بيده فيها ، فخرج كل طيب بيمينه ، وكل خبيث بيده الأخرى ، ثم خلط بينهما**» فهل يصح في هذا السياق غير الحقيقة؟ فضع لفظ النعمة والقدرة هاهنا ، ثم انظر هل يستقيم ذلك؟ .

وهل يصح في قوله : «**والخير كله في يديك**» أن يكون : في نعمتك ، أو في قدرتك؟ وقال عبدالله بن الحارث : عن النبي ، ﷺ : «**إن الله خلق آدم بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده**» أفيصح أن يخص الثلاث بقدرته ، ولا سيما لفظ الحديث : «**إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثة أشياء**» أفيصح أن توضع النعمة والقدرة موضع اليد هنا؟

(١)**واحتج** البخاري في الصحيح ، في خلق أفعال العباد على ذلك ؛ بنصوص التبليغ ، كقوله تعالى : ﴿**يا أيُّها الرسول بَلِّغْ ما أُنزل إليك من ربِّك**﴾ . [المائدة : ٦٧] ، وقوله : ﴿**إن عليك إلا البلاغ**﴾ . [الشورى : ٤٨] . وقوله : ﴿**لقد أبلَغْتُكم رسالَةَ ربِّي**﴾ . [الأعراف : ٧٩] . وهذا من رسوخه في العلم ؛ فإن ذلك يتضمن أصلين ضلَّ فيهما أهل الزيغ :

(١) ٣٠١ مختصر الصواعق جـ٢ .

أحدهما: أن الرسول ليس له من الكلام إلا مجرد تبليغه، فلو كان هو قد أنشأ ألفاظه؛ لم يكن مبلغًا؛ بل منشئًا مبتدئًا. ولا تعقل الأمم كلها من التبليغ سواء تأدية كلام الغير بألفاظه ومعانيه؛ ولهذا يضاف الكلام إلى المبلغ عنه لا إلى المبلغ.

وأيضا فالتبليغ والبـلاغ؛ هو الإيصال وهو معدى من: بلغ إذا وصل، والإيصال حقيقة أن يورد إلى الموصل إليه، ما حمله إياه غيره، فله مجرد إيصاله.

الأصل الثاني: أن التبليغ فعل المبلغ وهو مأمور به مقدور له، وتبليغه هو تلاوته بصوت نفسه، فلو كان الصوت والتلاوة وصوت المتكلم به أولى وتلاوته؛ لم يكن فعلاً مأموراً به، مضافًا إلى المأمور وبالجملة. فالتبليغ هو صوت المبلغ القائم به.

قال البخاري: باب ما جاء في قوله تعالى: **﴿بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ من ربِّك وإنْ لم تَفْعَلْ فما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ﴾**. [المائدة: ٦٧]. وقول النبي، ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية، وليبلغْ الشاهدُ الغائبَ وأن الوحي قد انقطع**».

فتأمل مقصوده بقوله: «**وأن الوحي قد انقطع**» فلو كانت أصواتنا بالقرآن؛ هي نفس الصوت القديم الذي تكلم الله تعالى به؛ لم يكن الوحي قد انقطع؛ بل هو متصل مادامت أصوات العباد مسموعة بالتلاوة، فالقائلون: إن هذا الصوت؛ هو نفس الصوت القديم ظهر عند تلاوة التالي، وهو الصوت الذي أوحى الله به الوحي إلى رسوله، وهو غير منقطع؛ لزمه لزومًا بينًا أن الوحي متصل غير منقطع ....

(١)**وقال** تعالى: **﴿يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ من ربِّك وإنْ لم تَفْعَلْ فما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ منَ النَّاسِ﴾**. فنسألهم: هل بيَّن رسول الله، ﷺ، ما أنزل إليه من ربه أم لم يبين؟ وهل بلغ ما أنزل إليه أم لم يبلغ؟ فلابد من أحد أمرين: فمن قولهم: إنه بلغ ما أنزل إليه، وبينه للناس، وأقام الحجة على من بلغه. فنسألهم عن ذلك التبليغ وذلك البيان: أهما باقيان عندنا وإلى يوم القيامة، أم هما غير باقيين؟

فإن قالوا: بل هما باقيان إلى يوم القيامة؛ رجعوا إلى قولنا، وأقروا أن الحق من كل ما أنزل الله في الدين مبين مما لم ينزله مبلغ إلينا وإلى يوم القيامة، وهذا هو نص قولنا في أن خبر الواحد العدل عن مثله مسندًا إلى رسول الله، ﷺ، حق

(١) ٣٨٣ مختصر الصواعق جـ٢.

مقطوع بغيبه، موجب للعلم والعمل.

وإن قالـوا: بل هما غير باقيين؛ دخلوا في عظيمة، وقطعوا بأن كثيراً من الدين قد بطل، وأن التبليغ قد سقط في كثير من الشرائع، وأن بيان رسول الله، ﷺ، لكثير من الدين قد ذهب ذهابًا لا يوجد معه أبدًا، وهذا قول الرافضة؛ بل شر منه؛ لأن الرافضة ادعت أن حقيقة الدين؛ موجودة عند إنسان مضمون كونه في العالم، وهؤلاء أبطلوه من جميع العالم. ونعوذ بالله من كلا القولين.

...(١) **واختلف** فيما وقع للنبيّ ﷺ من هذا(٢) ونحوه فقيل: هو قبل نزول قوله: ﴿**والله يَعْصِمُك مِنَ النَّاسِ**﴾. وقيل: العصمة الموعود بها عصمة النفس من القتل، لا عصمته من أذاهم بالكلية؛ بل أبقى الله تعالى لرسوله ثواب ذلك الأذى، ولأمته حسن التأسي به؛ إذا أوذي أحدهم؛ نظر إلى ما جرى عليه، ﷺ، فتأسى وصبر. وللمؤذين الأشقياء الأخذة الرابية.

(٣) فصل في حرسه صلى الله عليه وسلم

فمنهم: سعد بن معاذ؛ حرسه يوم بدر حين نام في العريش، ومحمد بن مسلمة؛ حرسه يوم أحد، والزبير بن العوام؛ حرسه يوم الخندق، ومنهم عبَّاد بن بشر، وهو الذي كان على حرسه. وحرسه جماعة آخرون غير هؤلاء. فلما نزل قوله تعالى: ﴿**والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾. [المائدة: ٦٧]. خرج على الناس فأخبرهم بها، وصرف الحرس.

(٤) **قال** تعالى: ﴿**ما المسيحُ ابن مريم إلا رسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِهِ الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانَا يأْكُلانِ الطَّعامَ انظُر كَيْفَ نبينُ لَهُم الآياتِ ثُمَّ انظُرْ أنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [المائدة: ٧٥].

وقد تضمنت هذه الحجة؛ دليلين يبطلان إلـهية المسيح وأمه:

أحدهما: حاجتهما إلى الطعام والشراب، وضعف بنيتهما عن القيام بنفسها؛ بل هي محتاجة فيما يعينهما إلى الغذاء والشراب، والمحتاج إلى غيره لا

(١) ٢١٢ بدائع الفوائد جـ٣.

(٢) يشير إلى كسر رباعيته ﷺ يوم أحد، وغير ذلك من الأذى الذي تعرض له من الكفار.

(٣) ٦٥ زاد المعاد جـ١.

(٤) ١٠٤ مختصر الصواعق جـ١.

يكون إلـهًا؛ إذ من لوازم الإلـه أن يكون غنيًّا.

الثاني: أن الـذي يأكل الطعام؛ يكون منه ما يكون من الإنسان؛ من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه؛ بل يستحي من التصريح بذكرها.

ولهذا ـ والله أعلم ـ عبر الله سبحانه عنها بلازمها؛ من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من هذه الفضلة. فكيف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولدًا من هذا الجنس؟ ولو كان يليق به ذلك، أو يمكن؛ لكان الأولى به أن يكون من جنس: لا يأكل ولا يشرب، ولا يكون منه الفضلات المستقذرة(١).

(٢)**وقال** تعالى: ﴿**لُعِنَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ بني إسرائِيلَ على لِسانِ داودَ وعيسى ابن مريمَ ذلك بِما عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُون كانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عن منكرٍ فَعَلُوهُ لَبئس ما كَانُوا يفعَلُون ترى كَثيراً منهم يتوَلَّونَ الذينَ كَفرُوالَبِئسما قَدَّمَت لَهُمْ أَنْفُسُهُم أن سَخِطَ اللهُ عليهِمْ وفي العَذَابِ هُم خَالِدُونَ**﴾. [المائدة: ٧٨ ـ ٨٠].

وأما وصف النصارى بالضلال؛ ففي قوله تعالى: ﴿**قُلْ يا أَهْلَ الكِتاب لَا تَغْلُوا في دِينِكُم غَيْرَ الحقّ ولا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَومٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قبلُ وأَضَلُّوا كَثيراً وضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾. [المائدة: ٧٧].

فهـذا خطاب للنصارى؛ لأنه في سياق خطابه معهم بقوله: ﴿**لَقَدْ كَفر الذينَ قَالُوا إنَّ الله هُوَ المَسِيحُ ابن مَريم وقالَ المسيحُ يا بَني إسرائيلَ اعبُدُوا الله ربِّي وربَّكُم**﴾ إلى قوله: ﴿**وضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبيلِ**﴾. [المائدة: ٧٢ ـ ٧٧].

فوصفهم بأنهم قد ضلُّوا أولاً، ثم أضلوا كثيراً، وهم أتباعهم، فهذا قبل مبعث النبي، ﷺ، حيث ضلوا في أمر المسيح وأضلوا أتباعهم، فلما بعث النبي، ﷺ، ازدادوا ضلالاً آخر: بتكذيبهم له، وكفرهم به؛ فتضاعف الضلال في حقهم.

هذا قول طائفة، منهم الزمخشري وغيره، وهو ضعيف؛ فإن هذا كله وصف لأسلافهم، الذين هم لهم تبع فوصفهم بثلاث صفات:

أحدها: أنهم قد ضلوا من قبلهم. والثاني: أنهم أضلوا أتباعهم.

(١) سيأتي ـ إن شاء الله ـ في سورة الأنبياء تكرير لهذا الدليل وزيادة. ا. هـ (ج) (٢) ٣٠ بدائع جـ٢.

والثالث: أنهم ضلوا عن سواء السبيل، فهذه صفات لأسلافهم، الذين نهي هؤلاء عن اتباع أهوائهم، فلا يصح أن يكون وصفًا للموجودين في زمن النبي، ﷺ؛ لأنهم هم المنهيون أنفسهم، لا المنهي عنهم. فتأمله.

وإنما سر الآية: أنها اقتضت تكرار الضلال في النصارى ضلالاً بعد ضلال؛ لفرط جهلهم بالحق، وهي نظير الآية التي تقدمت في تكرار الغضب في حق اليهود؛ ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود. ووجه تكرار هذا الضلال: أن الضال[1] قد أخطأ نفس مقصوده؛ فيكون ضالاً فيه فيقصد ما لا ينبغي أن يقصده، ويعبد من لا ينبغي أن يعبده، وقد يصيب مقصودًا حقًا؛ لكن يضل في: طريق طلبه، والسبيل الموصلة إليه. فالأول: ضلال في الغاية. والثاني: ضلال في الوسيلة، ثم إذا دعا غيره إلى ذلك فقد أضله.

وأسلاف النصارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة؛ فضلوا عن مقصودهم؛ حيث لم يصيبوه، وزعموا: أن إلـههم بشر يأكل ويشرب ويبكي، وأنه قتل وصلب وصفع، فهذا ضلال في نفس المقصود؛ حيث لم يظفروا به، وضلوا عن السبيل الموصلة إليه، فلا اهتدوا إلى المطلوب، ولا إلى الطريق الموصل إليه، ودعوا أتباعهم إلى ذلك؛ فضلوا عن الحق وعن طريقه، وأضلوا كثيرًا؛ فكانوا أدخل في الضلال من اليهود، فوصفوا بأخص الوصفين.

والذي يحقق ذلك: أن اليهود إنما أتوا من: فساد الإرادة، والحسد، وإيثار ما كان لهم على قومهم من السحت والرياسة؛ فخافوا أن يذهب بالإسلام، فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق، فإنهم كانوا يعرفون أن محمدًا رسول الله كما يعرفون أبناءهم؛ ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة من: الكبر، والحسد، وإيثار السحت، والبغي، وقتل الأنبياء، ووبخ النصارى بالضلال والجهل، الذي هو عدم العلم بالحق، فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى، يتركب منها.

فكفر اليهود نشأ من: عدم إرادة الحق والعمل به، وإيثار غيره عليه بعد معرفته؛ فلم يكن ضلالاً محضًا.

(١) بالنسخة (الضلال) والصواب ما أثبتناه لتمام المعنى. المراجع.

وكفر النصارى نشأ من: جهلهم بالحق، وضلالهم فيه. فإذا تبين لهم، وآثروا الباطل عليه؛ أشبهوا الأمة الغضبية، وبقوا مغضوبًا عليهم ضآلين.

ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله؛ إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق، والبغي يمنعه من إرادته؛ كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت: أن يهديه الصراط المستقيم: تعريفًا وبيانًا، وإرشادًا وإلهامًا وتوفيقًا، وإعانة؛ فيعلمه ويعرفه، ثم يجعله مريدًا له قاصدًا لاتباعه، فيخرج بذلك عن طريقة: المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال.

وكان السلف يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى، وهذا كما قالوا. فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من: تحريف الكلم عن مواضعه، وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه، وحسد من آتاه الله من فضله وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم، إلى غير ذلك من الأخلاق، التي ذم بها اليهود من: الكفر[1]، واللّيّ، والكتمان، والتحريف، والتحيل على المحارم، وتلبيس الحق بالباطل، فهذا شبهه باليهود ظاهر.

وأما من فسد من العبّاد فعبَدالله بمقتضى هواه لا بما بعث به رسوله، ﷺ، وغلا في الشيوخ: فأنزلهم منزلة الربوبية، وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد؛ فشبهه بالنصارى ظاهر.

فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد، ومن تصوّر الشبهين والوصفين، وعلم أحوال الخلق؛ علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء، الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه ولا أوجب منه عليه، وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس؛ لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته، وهذا يحصل له بفوته؛ شقاوة الأبد.

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم[2] عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضآلين آمين. إنه قريب مجيب.

---

(١) في نسخة: (الكبر).

(٢) في النسخة المعتمدة: (أنعمتَ) والصواب ما أثبتناه؛ لمناسبة السياق. المراجع.

(١)**ههنا** ثلاثة أشياء، تنافي تعظيم الأمر والنهي:

أحدها: الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.

والثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي.

فالأول: تفريط. والثاني: إفراط

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان:

إما: إلى تفريط وإضاعة.

وإما: إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، كالوادي بين جبلين. والهدى بين ضلالتين. والوسط بين طرفين ذميمين. فكما أن الجافي عن الأمر؛ مضيع له، فالغالي فيه؛ مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد.

وقد نهى الله عن الغلو بقوله: ﴿**يا أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا في دِينِكُم غَيْرَ الحقِّ**﴾. [المائدة: ٧٧]. والغلو نوعان:

نوع يخرجه عن كونه مطيعًا: كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمى الجمرات بالصخرات الكبار، التي يرمى بها في المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشرًا، أو نحو ذلك عمدًا.

وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار: كقيام الليل كله، وسرد الصيام الدهر أجمع، بدون صوم أيام النهي، والجور على النفوس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي، ﷺ: «**إن هذا الدين يسر، ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه؛ فسددوا وقاربوا ويسروا، واستعينوا بالغَدوة والرَّوحة، وشيء من الدُّلجة**» يعني: استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة. فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها.

وقال ﷺ: «**ليُصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر؛ فليرقد**» رواهما البخاري.

وفي صحيح مسلم: عنه، ﷺ، أنه قال: «**هلك المتنطِّعون ـ قالها ثلاثًا ـ وهم المتعمقون المتشددون**». وفي صحيح البخاري: عنه، ﷺ: «**عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يملُّ الله حتى تملّوا**».

(١) ٤٩٦ مدارج جـ٢.

وفي السنن: عنه، ﷺ، أنه قال: «**إن هذا الدين متين؛ فأوغِلْ فيه برفْق. ولا تُبَغِّضنَّ إلى نفسك عبادة الله**» أو كما قال.

...[1]**وكذلك** من قدمنا ذكرهم من الأحبار والرهبان الذين عرفوه بنعته وصفته كما يعرفون أبناءهم، قال تعالى: ﴿**الذينَ آتينَاهُم الكِتابَ يعرفونَهُ كما يَعْرِفونَ أبنَاءَهم وإنَّ فريقًا مِنهُم ليكْتُمُونَ الحقَّ وهُم يَعلَمُونَ**﴾. [البقرة: ١٤٦].

وقال في موضع آخر: ﴿**الذينَ آتينَاهُم الكِتابَ يعرفونَه كما يَعرِفونَ أبناءَهم الذينَ خَسِرُوا أنفُسهُم فهم لا يُؤمِنونَ**﴾. [الأنعام: ٢٠].

ومعلوم أن هذه المعرفة إنما هي بالنعت والصفة المكتوبة عندهم، التي هي منطبقة عليه، كما قال بعض المؤمنين منهم: والله لأحدنا أعرف به من ابنه، إن أحدنا ليخرج من عند امرأته وما يدري ما يحدث بعده.

ولهذا أثنى الله سبحانه على من عرف الحق منهم، ولم يستكبر عن اتباعه فقال: ﴿**لَتجِدنَّ أشدَّ النَّاس عداوَةً للذينَ آمَنُوا اليَهُودَ والذينَ أَشْرَكُوا ولَتَجِدَنَّ أقربَهم مَودةً للذينَ آمَنُوا الذينَ قَالُوا إنَّا نَصارَى ذلِك بأنَّ منهم قِسِّيسينَ ورُهْبَانًا وأنَّهم لا يَسْتَكْبِرونَ وإذا سَمِعُوا ما أُنزلَ إلى الرَّسول تَرى أَعْيُنَهم تَفيضُ مِنَ الدَّمع ممَّا عَرَفُوا من الحقِّ يقولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدينَ. وما لَنَا لا نُؤمِنُ بالله ومَا جَاءَنا منَ الحقِّ ونطمَعُ أن يُدْخِلَنا ربُّنا معَ القَوْمِ الصَّالحين. فأثابَهُم اللَّهُ بما قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ خَالدينَ فيها وذَلِك جَزاءُ المُحْسِنينَ. والذينَ كَفَرُوا وكذَّبُوا بآياتنا أُولئك أصْحابُ الجحِيم**﴾. [المائدة: ٨٢ - ٨٦].

قال ابن عباس: لما حضر أصحاب النبي، ﷺ، بين يدي النجاشي، وقرءوا القرآن؛ سمع ذلك القسيسون والرهبان؛ فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق، فقال الله تعالى: ﴿**ذلك بأنَّ مِنهُم قِسِّيسين ورُهْبانًا وأنَّهم لا يَسْتَكْبِرون**﴾. [المائدة: ٨٢]. وقال سعيد بن جبير: بعث النجاشي من خيار أصحابه ثمانين رجلًا إلى رسول الله، ﷺ، فقرأ عليهم القرآن؛ فبكوا ورقوا، وقالوا: نعرف والله، فأسلموا وذهبوا إلى النجاشي فأخبروه؛ فأسلم، فأنزل الله فيهم: ﴿**وإذا سَمِعوا ما أُنْزِل إلى الرسول**﴾. الآيات.

---

(١) ٤٣ هداية الحيارى.

وقال السدي: كانوا اثني عشر رجلاً: سبعة من القسيسين، وخمسة من الرهبان. فلما قرأ عليهم رسول الله، ﷺ، القرآن؛ بكوا، وقالوا: ﴿ربَّنا آمنَّا بما أنزلتَ واتَّبعنا الرسولَ فاكتبْنا مع الشاهدين﴾.

قال ابن عباس: هم محمد وأمته، وهم القوم الصالحون الذين طمعوا أن يدخلهم الله فيهم.

والمقصود: أن هؤلاء الذين عرفوا أنه رسول الله بالنعت الذي عندهم، فلم يملكوا أعينهم؛ من البكاء، وقلوبهم؛ من المبادرة إلى الإيمان.

(١)**وقع** في القرآن لفظ «المعرفة» ولفظ «العلم».

فلفظ «المعرفة» كقوله: ﴿ممَّا عَرَفُوا من الحقِّ﴾. [المائدة: ٨٣]. وقوله: ﴿الذين آتيناهم الكِتَاب يعرفُونهُ كما يَعْرفُون أبناءهُم﴾. [البقرة: ١٤٦].

وأما لفظ «العلم» فهو أوسع إطلاقًا.

كقوله: ﴿فاعلمْ أنَّه لا إله إلا الله﴾. [محمد: ١٩]. وقوله: ﴿شَهِد الله أنه لا إله إلا هو﴾. الآية. [آل عمران: ١٨].

وقوله: ﴿والذين آتيناهُمُ الكِتاب يعلمون أنَّه مُنزَّلٌ من رَبِّكَ بالحقِّ﴾. [الأنعام: ١١٤]. وقوله: ﴿وقُلْ ربِّ زدني علمًا﴾. [طه: ١١٤].

وقوله: ﴿أفمن يعلمُ أنَّما أُنزلَ إليك من ربِّك الحقُّ كَمَنْ هُو أَعْمى﴾. [الرعد: ١٩]. وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يستوي الذين يعلمُون والذين لا يَعْلَمُون﴾. [الزمر: ٩].

وقوله: ﴿وقال الذين أُوتُوا العلم والإيمان لقد لبثْتم في كتاب الله إلى يوم البَعْثِ﴾. [الروم: ٥٦]. وقوله: ﴿وقال الذين أُوتُوا العلم ويلَكُم ثوابُ الله خيرٌ لِمَن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا﴾. [القصص: ٨٠].

وقوله: ﴿وتِلْك الأمثَالُ نَضرِبُها للنَّاس وما يَعْقِلُها إلاَّ العَالِمُون﴾. [العنكبوت: ٤٣]. وقوله: ﴿قال الذي عنْدَهُ علمٌ من الكتاب﴾. [النمل: ٤٠].

وقوله: ﴿اعلَمُوا أن الله يُحيي الأرض بعد مَوْتِها﴾. [الحديد: ١٧].

وقوله: ﴿اعلَمُوا أنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ﴾. [الحديد: ٢٠].

وقوله: ﴿واتَّقُوا الله واعْلَمُوا أنَّكُم مُلاقُوهُ﴾. [البقرة: ٢٢٣].

وقوله: ﴿فاعْلَمُوا أنما أُنْزِلَ بعلم الله﴾. [هود: ١٤]. وهذا كثير.

(١) ٣٣٤ مدارج جـ٣.

واختار سبحانه لنفسه اسم «العلم» وماتصرف منه. فوصف نفسه بأنه عالم، وعليم، وعلاَّم، وعَلِمَ. وأخبر أن له علماً، دون لفظ «المعرفة» في القرآن. ومعلوم أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكمل نوعه المشارك له في معناه.

وإنما جاء لفظ «المعرفة» في القرآن في مؤمني أهل الكتاب خاصة. كقوله: **﴿ذَلِكَ بأَنَّ منهُم قِسِّيسين ورُهْبانًا وأَنَّهم لا يَسْتَكْبِرُون ـ إلى قوله ـ مِمَّا عَرَفُوا من الحقِّ﴾**. [المائدة: ٨٢، ٨٣]. وقوله: **﴿الذين آتيناهُمُ الكِتَاب يَعرِفونَهُ كما يَعْرِفُون أبناءهُم﴾**. [البقرة: ١٤٦].

فصل(١)

ومما وقع في هذه الغزوة(٢): إباحة متعة النساء، ثم حرمها قبل خروجه من مكة، واختلف في الوقت الذي حرمت فيه المتعة على أربعة أقوال:

أحدها: أنه يوم خيبر. وهذا قول طائفة من العلماء، منهم الشافعي وغيره.

والثاني: أنه عام فتح مكة. وهذا قول ابن عيينة وطائفة.

والثالث: أنه عام حنين. وهذا في الحقيقة هو القول الثاني، لاتصال غزاة حُنين بالفتح.

والرابع: أنه عام حجة الوداع. وهو وهم من بعض الرواة، سافر فيه وهمه من فتح مكة إلى حجة الوداع، كما سافر وهم معاوية من عمرة الجِعرَّانة إلى حجة الوداع؛ حيث قال: «قصَّرت عن رسول الله، ﷺ، بمِشْقَص على المروة في حجته» ـ وقد تقدم في الحج ـ وسفر الوهم من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، ومن واقعة إلى واقعة؛ كثيراً ما يعرض للحفّاظ فمن دونهم.

والصحيح: أن المتعة إنما حرمت عام الفتح؛ لأنه قد ثبت في صحيح مسلم: «أنهم استمتعوا عام الفتح مع النبي، ﷺ، بإذنه» ولو كان التحريم زمن خيبر؛ لزم النسخ مرتين. وهذا لا عهد بمثله في الشريعة ألبتة، ولا يقع مثله فيها.

وأيضا: فإن خيبر لم يكن فيها مسلمات؛ وإنما كنَّ يهوديات، وإباحة نساء أهل الكتاب؛ لم يكن ثبت بعد؛ إنما أبحن بعد ذلك في سورة المائدة بقوله: **﴿اليومَ أُحِلَّ لكُمُ الطَّيباتُ وطَعَامُ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وطَعَامُكم حلٌّ لَهُم والمُحْصَناتُ مِنَ المُؤمِناتِ والمُحْصَناتُ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتاب مِنْ قَبلِكُم﴾**.

(١) ٤٣٣ زاد المعاد جـ٢.
(٢) أي غزوة الفتح.

[المائدة: ٥]. وهذا متصل بقوله: ﴿اليومَ أكملتُ لَكُم دينكُم﴾. [المائدة:٣]. وبقوله: ﴿اليومَ يَئِسَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ دِينكُم﴾. [المائدة: ٣]. وهذا كان في آخر الأمر بعد حجة الوداع، أو فيها، فلم تكن إباحة نساء أهل الكتاب ثابتة زمن خيبر، ولا كان للمسلمين رغبة في الاستمتاع بنساء عدوهم قبل الفتح، وبعد الفتح؛ استُرق من استرق منهن، وصِرنَ إمَاءً للمسلمين.

فإن قيل: فما تصنعون بما ثبت في الصحيحين: من حديث علي بن أبي طالب: «أن رسول الله، ﷺ، نهى عن مُتعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية» وهذا صحيح صريح؟

قيل: هذا الحديث قد صحت روايته بلفظين: **هذا أحدهما**.

والثاني: الاقتصار على نهي النبي، ﷺ، عن نكاح المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر. هذه رواية ابن عيينة، عن الزهري. قال قاسم بن أصبغ: قال سفيان بن عيينة: يعني «أنه نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، لا عن نكاح المتعة».

ذكره أبو عمر بن عبدالبر في التمهيد، ثم قال: على هذا أكثر الناس. انتهى.

فتوهّم بعض الرواة «أن يوم خيبر» ظرف لتحريمهن، فرواه: «حرم رسول الله، ﷺ، المتعة زمن خيبر، والحمر الأهلية» واقتصر بعضهم على رواية بعض الحديث، فقال: «حرم رسول الله، ﷺ، المتعة زمن خيبر» فجاء بالغلط البيّن.

فإن قيل: فأي فائدة في الجمع بين التحريمين، إذا لم يكونا قد وقعا في وقت واحد؟ وأين المتعة من تحريم الحمر؟

قيل: هذا الحديث رواه علي بن أبي طالب؛ محتجًا به على ابن عمه عبدالله بن عباس في المسألتين، فإنه كان يبيح المتعة ولحوم الحمر، فناظره علي بن أبي طالب في المسألتين، وروى له التحريمين، وقيَّد تحريم الحمر بزمن خيبر، وأطلق تحريم المتعة، وقال: «إنك امرؤ تائه، إن رسول الله، ﷺ، حرَّم المتعة، وحرم لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر» كما قاله سفيان بن عيينة، وعليه أكثر الناس. فروى الأمرين؛ محتجًا عليه بهما، لا مقيدًا لهما بيوم خيبر، والله الموفق.

ولكن ههنا نظر آخر. وهو أنه: هل حرمها تحريم الفواحش التي لا تُباح بحال، أو حرمها عند الاستغناء عنها، وأباحها للمضطر؟ هذا هو الذي نظر فيه ابن

عباس وقال: «أنا أبحتها للمضطر كالميتة والدم» فلما توسع فيها من توسع، ولم يقف عند الضرورة؛ أمسك ابن عباس عن الإفتاء بحلّها، ورجع عنه. وقد كان ابن مسعود يرى إباحتها، ويقرأ: ﴿**يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أحلَّ الله لَكُم**﴾. [المائدة: ٨٧].

ففي الصحيحين عنه قال: «كنَّا نغزو مع رسول الله، ﷺ، وليس لنا نساء، فقلنا: ألا نختصي؟ فنهانا، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبدالله: ﴿**يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طيِّباتِ ما أحَلَّ الله لَكُم ولا تَعْتَدُوا إنَّ الله لا يُحِبُّ المُعتَدينَ**﴾. [المائدة: ٨٧]. ». وقراءة عبدالله هذه الآية عقيب هذا الحديث تحتمل أمرين:

أحدهما: الرد على من يحرمها، وأنها لو لم تكن من الطيبات لما أباحها رسول الله.

والثاني: أن يكون أراد آخر هذه الآية، وهو الرد على من أباحها مطلقًا، وأنه معتدٍ، فإن رسول الله، ﷺ، إنما رخص فيها: للضرورة، وعند الحاجة في الغزو، وعند عدم النساء، وشدة الحاجة إلى المرأة. فمن رخص فيها في الحضر ـ مع كثرة النساء وإمكان النكاح المعتاد ـ؛ فقد اعتدى، والله لا يحب المعتدين.

فإن قيل: فكيف تصنعون بما روى مسلم في صحيحه: من حديث جابر وسلمة بن الأكوع قالا: «خرج علينا منادي رسول الله، ﷺ، فقال: إن رسول الله، ﷺ، قد أذِنَ لكم أن تستمتعوا، يعني: مُتعة النساء»؟

قيل: هذا كان زمن الفتح قبل التحريم، ثم حرمها بعد ذلك، بدليل ما رواه مسلم في صحيحه: عن سلمة بن الأكوع قال: «رخص لنا رسول الله، ﷺ، عام أوطاس في المتعة ثلاثًا، ثم نهى عنها»، وعام أوطاس هو عام الفتح؛ لأن غزاة أوطاس متصلة بفتح مكة. . .

...(١)**الله** سبحانه شرع النكاح للوصلة الدائمة وللاستمتاع، وهذا النكاح(٢) جعله أصحابه سببًا لانقطاعه، ولوقوع الطلاق فيه، فإنه متى وطىء كان وطؤه سببًا لانقطاع النكاح، وهذا ضد شرع الله.

وأيضا: فإن الله سبحانه جعل نكاح الثاني وطلاقه واسمه؛ كنكاح الأول

(١) ٢٧٧ إغاثة جـ١.
(٢) أي نكاح التحليل. المراجع.

وطـلاقـه واسمـه: فهذا زوج، وهذا زوج. وهذا نكاح، وهذا نكاح. وكذلك الطلاق. ومعلوم أن نكاح المحلل وطلاقه واسمه لا يشبه نكاح الأول ولا طلاقه، ولا اسمه كاسمه: ذاك زوج راغب، قاصد للنكاح، باذل للمهر، ملتزم للنفقة والسكنى والكسوة، وغير ذلك من خصائص النكاح. والمحلل بريء من ذلك كله، غير ملتزم لشيء منه.

وإذا كان الله تعـالى ورسـولـه قد حرم نكاح المتعة مع أن قصد الزوج؛ الاستمتاع بالمرأة، وأن يقيم معها زمانًا، وهو ملتزم لحقوق النكاح، فالمحلل الذي ليس له غرض أن يقيم مع المرأة؛ إلا قدر ما ينزو عليها ـ كالتيس المستعار لذلك ثم يفارقها ـ؛ أولى بالتحريم.

وسمعت شيخ الإسلام يقول: نكاح المتعة؛ خير من نكاح التحليل من عشرة أوجه:

أحدها: أن نكاح المتعة كان مشروعًا في أول الإسلام، ونكاح التحليل لم يُشرع في زمن من الأزمان.

الثاني: أن الصحابة تمتَّعوا على عهد النبي، ﷺ، ولم يكن في الصحابة محلل قط.

الثالث: أن نكاح المتعة مختلف فيه بين الصحابة، فأباحه ابن عباس، وإن قيل: إنه رجع عنه، وأباحه عبدالله بن مسعود. ففي الصحيحين عنه قال: «كنا نغزو مع رسول الله، ﷺ، وليس لنا نساء. فقلنا: ألا نختصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخَّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل. ثم قرأ عبدالله **﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ الله لَكُم﴾**. [المائدة:٨٧]. ». وفتوى ابن عباس بها مشهورة.

قال عروة: «قام عبدالله بن الزبير بمكة فقال: إن ناسًا أعمى الله قلوبهم، كما أعمى أبصارهم، يفتون بالمتعة؛ يُعرِّض بعبدالله بن عباس. فناداه، فقال: إنك لجلفٌ جافٍ، فلعمري لقد كانت المتعة تُفعل على عهد إمام المتقين، يريد رسول الله، ﷺ. فقال له ابن الزبير: فجرب نفسك فوالله إن فعلتها لأرجمنك بأحجارك». فهذا قول ابن مسعود وابن عباس في المتعة، وذاك قولهما وروايتهما في نكاح التحليل...

فصـــل(١)

ومن أعظم مكايده؛ ما نصبه للناس من الأنصاب والأزلام، التي هي من عمله، وقد أمر الله تعالى باجتناب ذلك، وعلّق الفلاح باجتنابه، فقال: ﴿**يا أيُّهَا الـذينَ آمَنُـوا إنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسرُ والأَنْصَابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيطانِ فاجْتَنِبوهُ لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ**﴾. [المائدة: ٩٠].

فالأنصاب: كل ما نُصب يعبد من دون الله: من حجر، أو شجر، أو وثن، أو قبر(٢). وهي جمع، واحدها نُصُب، كطُنُب وأطناب.

قال مجاهد، وقتادة، وابن جريج: «كانت حول البيت أحجار، كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويُشرِّحون اللحم عليها، وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها. قالوا: وليست بأصنام، إنما الصنم ما يصوّر ويُنقش».

وقال ابن عباس: «هي الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى».

وقال الزَّجاج: «حجارة كانت لهم يعبدونها، وهي الأوثان».

وقال الفرَّاء: «هي الآلهةالتي كانت تعبد، من أحجار وغيرها».

وأصل اللفظة: الشيء المنصوب الذي يقصده من رآه، ومنه قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَخرُجونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كأَنَّهمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ**﴾. [المعارج: ٤٣].

قال ابن عباس: «إلى غاية، أو عَلَم يُسرعون». وهو قول أكثر المفسرين.

وقال الحسن: «يعني: إلى أنصابهم، أيُّهم يستلمها أولاً».

قال الزجاج: وهذا على قراءة من قرأ «نُصُب» بضمتين، كقوله: ﴿**وما ذُبِحَ على النُّصُبِ**﴾. [المائدة: ٣]. قال: «ومعناه: أصنام لهم».

---

(١) ٢٠٧ إغاثة جـ١.

(٢) قال هشام بن السائب الكلبي في كتاب الأصنام: واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتًا. ومنهم من اتخذ صنمًا. ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرًا أمام خيمته، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب. فإذا كانت تماثيل سموها الأصنام والأوثان، وسموا طوافهم الدوار. فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا. وجعل ثلاث أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه. فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك. فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها. وهم على ذلك عارفون فضل الكعبة عليها يحجونها ويعتمرون إليها، وكان الذين يفعلون من ذلك في أسفارهم إنما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها، ولصبابة بها.

والمقصود: أن النصب: كل شيء نُصب: من خشبة، أو حجر، أو عَلَم. والإيفاض: الإسراع.

وأمـا الأزلام. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي قِداح كانوا يستقسمون بها الأمور» أي: يطلبون بها علم ما قُسِمَ لهم.

وقال سعيد بن جبير: «كانت لهم حصيات إذا أراد أحدهم أن يغزو، أو يجلس، استقسم بها».

وقـال أيضًا: «هي القدحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهلية في أمورهم: أحدهما: عليه مكتوب: أمرني ربي، والآخر: نهاني ربي. فإذا أرادوا أمرًا ضربوا بها، فإن خرج الذي عليه: أمرني؛ فعلوا ما همُّوا به. وإن خرج الذي عليه: نهاني؛ تركوه».

وقال أبو عبيد: «الاستقسام: طلب القسمة».

وقال المبرِّد: «الاستقسام: أخذ كل واحدٍ قَسْمَه».

وقيل: الاستقسام: إلزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح، كقسم اليمين.

وقال الأزهري: ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ «أي: تطلبوا من جهة الأزلام ما قُسم لكم من أحد الأمرين».

وقال أبو إسحاق الزجاج وغيره: «الاستقسام بالأزلام حرام».

ولا فرق بين ذلك وبين قول المنجم: لا تخرج من أجل نجم كذا، واخرج من أجل طلوع نجم كذا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وما تَدْرِي نَفْسٌ ماذَا تَكْسِبُ غدًا﴾. [لقمان: ٣٤]. وذلك دخول في علم الله عز وجل، الذي هو غيب عنا. فهو حرام كالأزلام التي ذكرها الله تعالى.

والمقصود: أن الناس قد ابتُلوا بالأنصاب والأزلام: فالأنصاب للشرك والعبادة، والأزلام للتَّكهُّن، وطلب علم ما استأثر الله به. هذه للعلم، وتلك للعمل، ودين الله سبحانه وتعالى مضادٌّ لهذا وهذا، والذي جاء به رسول الله، ﷺ، إبطالهما، وكسر الأنصاب والأزلام.

فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين: من شجرة، أو عمود، أو وثن، أو قبر، أو خشبة، أو عين، ونحو ذلك. والواجب هدم ذلك كله، ومحو

أثـره. كما أمـر النبي، ﷺ، عليًّا رضي الله عنه بهدم القبور المشرفة، وتسويتها بالأرض، كما روى مسلم في صحيحه: عن أبي الهيَّاج الأسدي. قال: قال لي علي رضي الله عنه: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته». وعمَّى الصحابة بأمر عمر رضي الله عنه قبر دانيال، وأخفوه عن الناس. ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجـرة التي بايع تحتها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، أصحابه أرسل فقطعها. رواه ابن وضَّاح في كتابه. فقال: سمعت عيسى بن يونس يقول: «أمـر عمـر بن الخـطاب رضي الله عنـه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقطعها؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة. قال عيسى بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون، عن نافع: «أن الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر رضي الله عنه»...

(١)**قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ والميسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عَمَلِ الشَّيطَانِ فاجْتَنِبُوهُ لعلَّكُم تُفلِحُونَ﴾**. [المائدة: ٩٠]. فلفظ الخمر؛ عام في كل مسكر، فإخراج بعض الأشربة المسكرة عن شمول اسم الخمر لها؛ تقصير به وهضم لعمومه، بل الحق ما قاله صاحب الشرع: كل مسكر خمر.

وإخراج بعض أنواع الميسر عن شمول اسمه لها؛ تقصير أيضًا به، وهضم لمعناه، فما الذي جعل النرد الخالي عن العوض من الميسر، وأخرج الشطرنج عنه، مع أنه من أظهر أنواع الميسر، كما قال غير واحد من السلف: إنه ميسر؟ وقال علي كرم الله وجهه: هو ميسر العجم.

وأما تحميل اللفظ فوق ما يحتمله، فكما حمل لفظ قوله تعالى: **﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تأكُلُوا أموالَكُم بينَكُم بالبَاطِلِ إلاَّ أن تَكونَ تجارَةً عن تَراضٍ مِنكم﴾**. [النساء: ٢٩]. وقوله في آية البقرة: **﴿إلاَّ أن تكونَ تجارَةً حَاضِرَةً تُديرُونَها بينَكُم﴾**. [البقرة: ٢٨٢]. مسألة العِينة التي هي ربًا بحيلة وجعلها من التجارة، ولعمر الله إن الربا الصريح تجارة للمرابي وأي تجارة! وكما حمل قوله تعالى: **﴿فَلاَ تَحِلُّ لهُ مِن بعدُ حتى تنكِحَ زَوجًا غَيْرَهُ﴾**. [البقـرة: ٢٣٠]. على مسألة التحليل، وجعل التيس

(١) ٢٢٠ أعلام جـ١.

المستعـار الملعـون على لسان رسول الله، ﷺ، داخلاً في اسم الزوج، وهذا في التجاوز؛ يقابل الأول في التقصير.

ولهذا كان معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله؛ أصل العلم وقاعدته وأخِيَّته التي يرجع إليها، فلا يخرج شيئًا من معاني ألفاظه عنها، ولا يدخل فيها ما ليس منها، بل يعطيها حقها، ويفهم المراد منها.

ومن هذا لفظ: الأيمان والحلف، أخرجت طائفة منه الأيمان الالتزامية، التي يلتزم صاحبها بها إيجاب شيء أو تحريمه، وأدخلت طائفة فيها التعليق المحض الذي لا يقتضي حضًا ولا منعًا، والأول نقص من المعنى، والثاني تحميل له فوق معناه.

ومن ذلك لفظ: الربا، أدخلت فيه طائفة ما لا دليل على تناول اسم الربا له: كبيع الشَّيْرَجِ بالسمسم، والدِّبْسِ بالعنب، والزيت بالزيتون، وكل ما استخرج من ربوي وعمل منه بأصله، وإن خرج عن اسمه ومقصوده وحقيقته، وهذا لا دليل عليه يوجب المصير إليه: لا من كتاب، ولا من سنة، ولا إجماع،ولا ميزان صحيح، وأدخلت فيه من مسائل مد عجوة ما هو أبعد شيء عن الربا، وأخرجت طائفة أخرى منه ما هو من الربا الصحيح؛ حقيقة: قصدًا، وشرعًا: كالحيل الربوية التي هي أعظم مفسدة من الربا الصريح، ومفسدة الربا البحت الذي لا يتوصل إليه بالسلاليم أقل بكثير، وأخرجت منه طائفة؛ بيع الرطب بالتمر، وإن كان كونه من الربا؛ أخفى من كون الحيل الربوية منه، فإن التماثل موجود فيه في الحال دون المآل، وحقيقة الربا في الحيل الربوية أكمل وأتم منها في العقد الربوي الذي لا حيلة فيه.

ومن ذلك لفظ: البينة، قصَّرت بها طائفة، فأخرجت منه: الشاهد، واليمين، وشهادة العبيد العدول الصادقين المقبولي القول على الله ورسوله، وشهادة النساء منفردات في المواضع التي لا يحضرهن فيه الرجال كالأعراس والحمامات، وشهادة الزوج في اللعان إذا نكلت المرأة، وأيمان المدَّعِين الدم إذا ظهر اللَّوْث، ونحو ذلك مما يبين الحق أعظم من بيان الشاهدين، وشهادة القاذف، وشهادة الأعمى على ما يتيقنه، وشهادة أهل الذمة على الوصية في السفر إذا لم يكن هناك مسلم، وشهادة الحال: في تداعي الزوجين متاع البيت، وتداعي النجار

والخياط آلتهما ونحو ذلك، وأدخلت فيه طائفة ما ليس منه: كشهادة مجهول الحال الذي لا يعرف بعدالة ولا فسق، وشهادة وجوه الأجر ومعاقد القمط ونحو ذلك؛ والصواب أن كل ما بيَّن الحق فهو بينة، ولم يعطل الله ولا رسوله حقًّا بعد ما تبين بطريق من الطرق أصلاً؛ بل حكم الله ورسوله الذي لا حكم له سواه أنه:متى ظهر الحق ووضح بأي طريق كان،وجب تنفيذه ونصره، وحرم تعطيله وإبطاله، وهـذا باب يطول استقصاؤه، ويكفي المستبصر التنبيه عليه، وإذا فهم هذا في جانب اللفظ فهم نظيره في جانب المعنى سواء... (١)

...(٢)**قـوله** تعـالى: ﴿**يـا أيُّهَـا الذينَ آمَنُوا إنَّما الخَمرُ والمَيسِرُ والأَنصَابُ والأَزلَامُ رِجْسٌ مِنْ عمَـلِ الشَّيـطَانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ**﴾. [المائدة: ٩٠].

فدخل في الخمر كل مسكر: جامدًا كان، أو مائعًا، من العنب، أو من غيره.

ودخل في الميسر: كل أكل مال بالباطل، وكل عمل محرَّم يوقع في العداوة والبغضاء، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

ودخل في قوله: ﴿**قد فَرَضَ اللّهُ لكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُم**﴾. [التحريم: ٢]. كل يمين منعقدة.

ودخـل في قولـه: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُم قُلْ أُحِلَّ لكُمُ الطَّيِّبَات**﴾. [المائدة: ٤]. كل طيب من: المطاعم، والمشارب، والملابس، والفروج.

ودخل في قوله: ﴿**وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مثلُها**﴾. [الشورى: ٤٠]، ﴿**فَمَنِ اعتَدَى عليكُمْ فَاعْتَدُوا عليهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدَى عَلَيكُمْ**﴾. [البقرة: ١٩٤]. ما لا تحصى أفراده من الجنايات وعقوباتها؛ حتى اللطمة والضربة والكسعة كما فهم الصحابة.

ودخل في قوله: ﴿**قُلْ إنَّما حَرَّم ربِّي الفَواحِشَ ما ظَهَرَ منهَا ومَا بَطَن والإِثمَ والبَغْيَ بغيرِ الحَقِّ وأَنْ تُشرِكُوا بالله مَا لَمْ يُنزِّلْ بهِ سُلطانًا وأَنْ تَقُولُوا على الله مَا لاَ تَعْلَمُـونَ**﴾. [الأعـراف: ٣٣]: تحريم كل فاحشـة؛ ظاهـرة وبـاطنـة، وكـل ظلم وعدوان؛ في مال أو نفس أو عِرْض، وكل شرك بالله؛ وإن دقَّ؛ في قول أو عمل أو إرادة: بأن يجعل لله عدلاً بغيره في اللفظ أو القصد أو الاعتقاد، وكل قول على الله لم يأت به نصٌّ عنه، ولا عن رسوله في تحريم أو تحليل، أو إيجاب أو إسقاط،

(١) ذكر المؤلف عدة أمثلة فمن أرادها فليرجع إليها.
(٢) ٣٣٤ أعلام جـ١.

أو خبر عنه باسم أو صفة ؛ نفيًا أو إثباتًا ، أو خبرًا عن فعله ؛ فالقول عليه بلا علم حرام في أفعاله وصفاته ودينه .

ودخل في قوله: ﴿**والجُروحُ قِصاصٌ**﴾ . [المائدة: ٤٥]. وجوبه في كل جرح يمكن القصاص منه ، وليس هذا تخصيصًا ؛ بل هو مفهوم من قوله : ﴿**قِصاص**﴾ . وهو المماثلة. ودخل في قوله: ﴿**وعَلى الوَارِثِ مثلُ ذلك**﴾ . [البقرة:٢٣٣]. وجوب نفقة الطفل ، وكسوته ، ونفقة مرضعته على كل وارث قريب أو بعيد .

ودخل في قوله: ﴿**ولَهُنَّ مِثلُ الذين عَلَيهنَّ بالمَعْرُوفِ**﴾ . [البقرة: ٢٢٨]. جميع الحقوق التي للمرأة وعليها ، وأن مرد ذلك إلى ما يتعارفه الناس بينهم ويجعلونه معروفًا لا منكرًا ، والقرآن والسنة كفيلان بهذا أتم كفالة .

(١)**قرن** الله سبحانه بين الخمر والأنصاب ، وهي الأصنام التي تُعبد من دون الله فقال: ﴿**يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عَمَلِ الشَّيطَانِ فاجْتَنِبُوهُ لعلَّكُم تُفلِحُونَ. إنَّما يُريدُ الشيطانُ أَنْ يُوقِعَ بينَكُمُ العَدَاوَةَ والبَغضَاءَ في الخَمْرِ والمَيْسِرِ ويَصُدَّكُمْ عنْ ذِكرِ الله وعنِ الصَّلاةِ فهَلْ أَنْتُم مُنْتَهُونَ**﴾ . [المائدة: ٩٠، ٩١].

ومعلوم أن شارب الخمر لا يدوم سُكره؛ بل لابد أن يُفيق، ولعل أوقات إفاقته أكثر من أوقات سكره. وأما سَكرة العشق فقلَّ أن يستفيق صاحبها إلا إذا جاءت الرسل تطلبه للقدوم على الله تعالى؛ ولهذا استمرت سكرة اللوطية حتى فجأهم عذاب الله وعقوبته؛ وهم في سكرتهم يعمهون، فكيف إذا خرج العشق إلى حد الجنون المطبق؟ كما أنشد محمد بن جعفر الخرائطي في كتاب اعتلال القلوب، قال: أنشد الصيدلاني:

قالت: جُننت على رأسي فقلت لها ... العشقُ أعظم مما بالمجانين
العشق ليس يفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون في الحين

فصاحبه أحقُّ بأن يشبَّه بعابد الوثن، والعاكف على التماثيل، فإن عكوف قلب العاشق على صورة محبوبه وتمثاله يُشبه عكوف عابد الصنم على صنمه.

وإذا كان الشيطان: يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين المسلمين في الخمر

(١) ٧ شفاء.

والميسر، ويصدهم بذلك عن ذكر الله وعن الصلاة؛ فالعداوة والبغضاء والصد الذي يوقعه بالعشق أعظم بكثير.

وجميع المعاصي يجتمع فيها هذان الوصفان: وهما العداوة والبغضاء، والصدُّ: عن ذكر الله، وعن الصلاة . . .

...**ورواه** الإمام أحمد في مسنده أطول من هذا:عن عبدالله بن فيروز الديلميّ قال: دخلت على عبدالله بن عمرو، وهو في حائط له بالطائف يقال له: الوهط، وهو مخاصر فتى من قريش يزن بشرب الخمر، فقلت: **بلغني عنك** حديث: أن من شرب شربة خمر لم تقبل توبته أربعين صباحًا، وأن الشقي من شقي في بطن أمه، وأن من أتى بيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه؛ خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده؛ ثم انطلق؛ فقال عبدالله بن عمرو: إني لا أحل لأحد أن يقول عليَّ ما لم أقل، سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**من شرب من الخمر شربة؛ لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب؛ تاب الله عليه**» فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: «**فإن عاد؛ كان حقًا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة**». قال: وسمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره. فمن أصابه من نوره يومئذ؛ اهتدى، ومن أخطأه؛ ضل**» فلذلك أقول: جف القلم على علم الله، وسمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**إن سليمان بن داود سأل الله عز وجل ثلاثًا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأل الله تعالى حكمًا يصادف حكمه فأعطاه الله إياه، وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد؛ خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى عز وجل قد أعطانا إياه**». ورواه الحاكم في صحيحه، وهو على شرط الشيخين ولا علة له.

...[1]**المعالجة** بالمحرمات؛ قبيحة عقلاً وشرعًا، أما الشرع؛ فما ذكرنا من هذه الأحاديث وغيرها. وأما العقل؛ فهو أن الله سبحانه إنما حرمه لخبثه، فإنه لم يحرم على هذه الأمة طيبًا عقوبة لها، كما حرمه على بني إسرائيل بقوله: ﴿فَبِظُلمٍ مِنَ

(١) ٢٤٠ زاد المعاد جـ٣.

الذينَ هَادوا حَرَّمْنَا عليهم طيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُم﴾. [النساء: ١٦٠]. وإنما حرم على هذه الأمة ما حرم لخبثه، وتحريمه له: حمية لهم، وصيانة عن تناوله؛ فلا يناسب أن يطلب به الشفاء من الأسقام والعلل. فإنه ـ وإن أثر في إزالتها ـ لكنه يعقب سقمًا أعظم منه في القلب بقوة الخبث الذي فيه. فيكون المداوى به قد سعى في إزالة سقم البدن بسقم القلب.

وأيضا: فإن تحريمه؛ يقتضي تجنبه والبعد عنه بكل طريق. وفي اتخاذه دواء؛ حض على الترغيب فيه وملابسته. وهذا ضد مقصود الشارع.

وأيضا: فإنه داء، كما نص عليه صاحب الشريعة، فلا يجوز أن يتخذ دواء.

وأيضا: فإنه يكسب الطبيعة والروح صفة الخبث؛ لأن الطبيعة تنفعل عن كيفية الدواء انفعالاً بينًا. فإذا كانت كيفيته خبيثة اكتسبت الطبيعة منه خبثًا. فكيف إذا كان خبيثًا في ذاته؟ ولهذا حرم الله سبحانه على عباده: الأغذية، والأشربة، والملابس الخبيثة؛ لما تُكسب النفس من هيأة الخبث وصفته.

وأيضا: فإن في إباحة التداوي به ـ لا سيما إذا كانت النفوس تميل إليه ـ؛ ذريعة إلى تناوله للشهوة واللذة، لا سيما إذا عُرِّفت النفوس أنه: نافع لها، مزيل لأسقامها، جالب لشفائها. فهذا أحب شيء إليها. والشارع سد الذريعة إلى تناوله بكل ممكن. ولا ريب أن بين سد الذريعة إلى تناوله وفتح الذريعة إلى تناوله؛ تناقضًا وتعارضًا.

وأيضا: فإن في هذا الدواء المحرم من الأدواء ما يزيد على ما يظن فيه من الشفاء. وليفرض الكلام في أم الخبائث، التي ما جعل الله لنا فيها شفاء قط. فإنها شديدة المضرة بالدماغ، الذي هو مركز العقل عند: الأطباء، وكثير من الفقهاء والمتكلمين.

قال أبقراط ـ في أثناء كلامه في الأمراض الحادة ـ: ضرر الخمرة بالرأس شديد؛ لأنه يسرع الارتفاع إليه. ويرتفع بارتفاعه الأخلاط التي تعلو في البدن؛ وهو كذلك يضر بالذهن.

وقال صاحب الكامل: إن خاصية الشراب؛ الإضرار بالدماغ والعصب.

أما غيره من الأدوية المحرمة فنوعان:

أحدهما: تعافه النفس، ولا تنبعث لمساعدته الطبيعة على دفع المرض به: كالسموم، ولحوم الأفاعي، وغيرها من المستقذرات. فيبقى كَلًّا على الطبيعة مثقلاً

لها؛ فيصير حينئذ داء لا دواء.

والثاني: ما لا تعافه النفس، كالشراب الذي تستعمله الحوامل مثلاً، فهذا ضرره أكثر من نفعه، والعقل يقضي بتحريم ذلك؛ فالعقل والفطرة مطابقان للشرع في ذلك.

وههنا سر لطيف في كون المحرمات لا يستشفى بها. فإن شرط الشفاء بالدواء: تلقيه بالقبول، واعتقاد منفعته. وما جعل الله فيه من بركة الشفاء. فإن النافع هو المبارك، وأنفع الأشياء؛ أبركها...

...[1]**وقالوا** أيضًا: فالله سبحانه حرم الميسر في كتابه، كما حرم الخمر.

والميسر هو القمار. وتحريمه إما أن يكون: لنفس العمل، أو لما فيه من أكل باطل، أو لمجموع الأمرين، وليس هنا قسم رابع، وأيما كان فليس في هذا العقد المتنازع فيه واحد من الأمور الثلاثة؛ بل هو خال عنها.

فإن المغالبات في الشرع تنقسم ثلاثة أقسام:

أحدها: ما فيه مفسدة راجحة على منفعته: كالنرد، والشطرنج. فهذا يحرمه الشارع ولا يبيحه؛ إذ مفسدته راجحة على مصلحته، وهو من جنس مفسدة السكر؛ ولهذا: قرن الله سبحانه بين الخمر والقمار في الحكم، وجعلهما قريني الأنصاب والأزلام، وأخبر أنها كلها رجس، وأنها من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها، وعلق الفلاح باجتنابها، وأخبر أنها تصد عن ذكره، وعن الصلاة، وتهدد من لم ينته عنها.

ومعلوم أن شارب الخمر إذا سكر؛ كان ذلك: مما يصده عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقع العداوة والبغضاء بسببه.

وكذلك المغالبات التي تلهي بلا منفعة: كالنرد، والشطرنج، وأمثالهما؛ يصد عن ذكر الله وعن الصلاة: لشدة التهاء النفس بها، واشتغال القلب فيها بالفكر.

ومن هذا الوجه فالشطرنج؛ أشد شغلاً للقلب، وصدًّا عن ذكر الله وعن الصلاة؛ ولهذا جعله بعض العلماء أشد تحريمًا من النرد، وجعل النص: إن اللاعب بالنرد؛ عاص لله ورسوله؛ تنبيهًا بطريق الأولى على أن اللاعب

(١) ٢٢ الفروسية.

بالشطرنج ؛ أشد معصية ؛ إذ لا يحرم الله ورسوله فعلاً مشتملاً على مفسدة، ثم يبيح فعلاً مشتملاً على مفسدة أكبر من تلك، والحس والوجود شاهد بأن مفسدة الشطرنج وشغلها للقلب وصدها عن ذكر الله وعن الصلاة ؛ أعظم من مفسدة النرد، وهي توقع العداوة والبغضاء ؛ لما فيها من قصد كل من المتلاعبين : قهر الآخر، وأكل ماله . وهذا من أعظم ما يوقع العداوة والبغضاء ؛ فحرم الله سبحانه هذا النوع ؛ لاشتماله على : ما يبغضه، ومنعه مما يحبه .

القسم الثاني : عكس هذا، وهو ما فيه مصلحة راجحة، وهو متضمن لما يحبه الله ورسوله ؛ فهو متعين عليه ومفوض إليه . فهذا لا يحرم ولا يؤمر به : كالصراع، والعَدْو، والسباحة، وشيل الأثقال، ونحوها . فهذا القسم رخص فيه الشارع بلا عوض ؛ إذ فيه مصلحة راجحة، وللنفس فيه استراحة وإجمام .

وقد يكون مع(١) القصد الصالح عملاً صالحًا، كسائر المباحات التي تصير بالنية ؛ طاعات . فاقتضت حكم الشرع ؛ الترخيص فيه ؛ لما يحصل فيه من إجمام النفس وراحتها، واقتضت تحريم العوض فيه ؛ إذ لو أباحته بعوض ؛ لاتخذته النفس صناعة ومكسبًا ؛ فالتهت به عن كثير من مصالح دينها ودنياها . فأما إذا كان لعبًا محضًا، ولا مكسب فيه ؛ فإن النفس لا تؤثره على مصالح دنياها ودينها، ولا تؤثره عليها إلا النفس الذي خلقت للبطالة .

قالوا: بهذا القسم ثبتت حكمة الشرع في إدخاله السبق في الخف، والحافر، والنصل، ومنعه فيما عداها . وتأثيره أن الدخيل لا مصلحة فيه للمسابقين ألبتة .

قالوا: وأيضًا فالشرع مبناه على العدل، فإن الله سبحانه : أرسل رسله، وأنزل كتبه ؛ ليقوم الناس بالقسط . وقد حرم الله سبحانه الظلم على نفسه، وجعله محرمًا بين عباده، والعقود كلها مبناها على العدل بين المتعاقدين، عقود المعاوضات والمشاركات، جائزها ولازمها . وإذا كان مبنى العقد على العدل بين المتعاقدين وحده دون الآخر، وكلاهما في العمل والرغبة سواء، وكل منهما راغب في السبق والكسب ؛ فما الذي جوز البذل لأحدهما دون الآخر؟ . . .

---

(١) في النسخة المعتمدة (من القصد) والصواب ما أثبتناه . المراجع .

فصل(١)

في تحرير مذاهب أهل العلم: فيما يجوز بذل السبق فيه؛ للمغالبات، وما لا يجوز. وعلى أي وجه يجوز؟. وقد تقدم(٢) أن المغالبات ثلاثة أقسام:

محبوب مرضي لله ورسوله، معين على تحصيل محابه: كالسباق بالخيل، والإبل، والرمي بالنشاب.

وقسم مبغوض مسخوط لله ورسوله، موصل إلى ما يكرهه الله ورسوله، كسائر المغالبات التي: توقع العداوة، والبغضاء، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة: كالنرد، والشطرنج، وما أشبههما.

وقسم ليس بمحبوب لله ولا مسخوط له؛ بل هو مباح لعدم المضرة الراجحة: كالسباق على الأقدام، والسباحة، وشيل الأحجار، والصراع، ونحو ذلك.

فالنوع الأول: يشرع مفردًا عن الرهن، ويشرع فيه كل ما كان أدعى إلى تحصيله؛ فيشرع فيه بذل الرهن من هذا وحده ومنهما معًا، ومن الأجنبي. وأكل المال به؛ أكل بحق ليس أكلًا بباطل، وليس من القمار والميسر في شيء.

والنوع الثاني: محرم وحده ومع الرهان، وأكل المال به؛ ميسر وقمار كيف كان؛ سواء كان من أحدهما، أو كليهما، أو من ثالث. وهذا باتفاق المسلمين.

فأما إن خلا عن الرهان؛ فهو حرام عند الجمهور: نردًا كان، أو شطرنجًا. هذا قول: مالك وأصحابه، وأبي حنيفة وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وقول جمهور التابعين، ولا يحفظ عن صحابي حله.

وقد نص الشافعي على تحريم النرد، وتوقف في تحريم الشطرنج؛ فلم يجزم بتحريمه، وذكر أنه لم يتبين له تحريمه؛ ولهذا اختلف أصحابه في الشطرنج: فمنهم من حرمه، ومنهم من كرهه ولم يحرمه.

وممن حرمه وبالغ في تقرير تحريمه أبو عبدالله الحليمي.

والشافعي نص على تحريم النرد الخالي عن العوض، وتوقف في الشطرنج الخالي عن العوض. فمن أصحابه من طرد توقفه في النرد أيضًا وقال: إذا خلا عن العوض؛ لم يحرم كالشطرنج. وهذا محض القياس؛ لأن مفسدة الشطرنج؛ أعظم

---

(١) ٦٠ الفروسية.

(١) في الصفحة السابقة والتي قبلها.

من مفسدة النرد بكثير، فإذا لم تنهض مفسدة الشطرنج للتحريم فالنرد أولى.

ومنهم من طرد نصه في تحريم النرد، وعداه إلى الشطرنج، وهذا أصح تخريجًا ودليلاً؛ فإن مفسدة الشطرنج؛ أعظم من مفسدة النرد. وكل ما يدل على تحريم النرد بغير عوض فدلالته على تحريم الشطرنج؛ بطريق أولى.

وقد ثبت في صحيح مسلم: عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**من لعب بالنردشير؛ فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه**».

وفي الموطأ، والسنن: من حديث أبي موسى الأشعري: عن النبي، ﷺ: «**من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله**».

وتحرير المسألة وفقهها: أن الله سبحانه لما حرم الميسر:

هل هو لأجل مافيه من المخاطرة المتضمنة لأكل المال بالباطل؟ فعلى هذا إذا خلا عن العوض؛ لم يكن حرامًا؛ فهذا طرد من طرد ذلك الأصل وقال: إذا خلا النرد والشطرنج عن العوض؛ لم يكونا حرامًا؛ لكن هذا القول خلاف النص والقياس كما سنذكره.

أو حرمه لما يشتمل عليه في نفسه: من المفسدة وإن خلا عن العوض فتحريمه من جنس تحريم الخمر فإنه يوقع العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وأكل المال، وفيه عون وذريعة إلى الإقبال عليه واشتغال النفوس به؟ فإن الداعي حينئذ يقوى من وجهين:

من جهة المغالبة، ومن جهة أكل المال؛ فيكون حرامًا من الوجهين.

وهذا المأخذ أصح نصًا وقياسًا، وأصول الشريعة وتصرفاتها؛ تشهد له بالاعتبار.

فإن الله سبحانه قال في كتابه: ﴿**يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ والميسرُ والأَنْصَابُ والأَزلَامُ رجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيطانِ فاجْتَنِبُوهُ لعلَّكُم تُفْلِحُونَ إنَّما يُريدُ الشَّيطانُ أَنْ يوقعَ بَينَكُم العَدَاوةَ والبَغْضَاءَ في الخَمْرِ والمَيْسر ويُصدَّكُم عن ذِكر اللهِ وعَنِ الصَّلاةِ فهل أنتُمْ مُنْتَهُونَ وأَطِيعُوا اللهَ وأَطيعُوا الرَّسولَ واحذَرُوا فإنْ تَوَليتُم فاعْلَمُوا أنَّما عَلى رسولِنَا البَلاغُ المُبين**﴾. [المائدة: ٩٠ - ٩٢].

فقرن الميسر؛ بالأنصاب والأزلام والخمر. وأخبر: أن الأربعة رجس، وأنها من عمل الشيطان. ثم أمر باجتنابها وعلق الفلاح باجتنابها.

ثم نبه على وجوه المفسدة المقتضية للتحريم فيها، وهي: ما يوقعه الشيطان بين أهلها: من العداوة والبغضاء، ومن الصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

وكل أحد يعلم أن هذه المفاسد ناشئة من نفس العمل، لا من مجرد أكل المال به. فتعليل التحريم بأنه متضمن لأكل المال بالباطل؛ تعليل بغير الوصف المذكور في النص، وإلغاء للوصف الذي نبه النص عليه وأرشد إليه. وهذا فاسد من الوجهين.

يوضحه: أن السلف الذين نزل القرآن بلغتهم؛ سموا نفس الفعل ميسرًا، لا أكل المال به. فقال غير واحد من السلف: الشطرنج ميسر العجم.

وصنف أبو محمد بن قتيبة كتابًا في الميسر، وذكر فيه أنواعه وأصنافه وعدها.

ومعلوم أن أكل المال به؛ يكون أكلًا له بالباطل؛ لأنه أكل بعمل محرم في نفسه: فالمال حرام، والعمل حرام؛ بخلاف أكله بالنوع الأول؛ فإنه أكل بحق فهو حلال والعمل طاعة.

وأما النوع الثالث وهو المباح: فإنه وإن حرم أكل المال به؛ فليس لأن في العمل مفسدة في نفسه وهو حرام؛ بل لأن تجويز أكل المال به ذريعة إلى اشتغال النفوس به واتخاذه مكسبًا، لاسيما وهو من اللهو واللعب الخفيف على النفوس، فتشتد رغبتها فيه من الوجهين. فأبيح في نفسه؛ لأنه إعانة وإجمام للنفس وراحة لها، وحرم أكل المال به؛ لئلا يتخذ عادة وصناعة ومتجرًا. فهذا من حكمة الشريعة ونظرها في المصالح والمفاسد ومقاديرها.

يوضح هذا: أن الله سبحانه حرم الخمر: قليلها، وكثيرها، ما أسكر منها، وما لم يسكر؛ لأن قليلها يدعو إلى كثيرها الذي: يغير العقل، ويوقع في المفاسد التي يريد الشيطان أن يوقع العباد فيها، ويمنع عن الصلاح الذي يحبه الله ورسوله. فتحريم كثيرها؛ من باب تحريم الأسباب الموقعة في الفساد، وتحريم قليلها؛ من باب سد الذرائع.

وإذا تأملت أصول هذه المغالبات؛ رأيتها في ذلك كالخمر: قليلها يدعو إلى كثيرها، وكثيرها يصد عن ما يحبه الله ورسوله ويوقع فيما يبغضه الله ورسوله. فلو لم يكن في تحريمها نص؛ لكانت أصول الشريعة وقواعدها وما اشتملت عليه من

الحكم والمصالح وعدم الفرق بين المتماثلين؛ توجب تحريم ذلك والنهي عنه.

فكيف والنصوص قد دلت على تحريمه، فقد اتفق على تحريم ذلك النص والقياس.

وقد سمى علي بن أبي طالب الشطرنج تماثيل؛ فمر بقوم يلعبون بها فقال: «ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون»وقلب الرقعة عليهم. ولا يعلم أحد من الصحابة أحلها(١) ولا لعب بها وقد أعاذهم الله من ذلك.

وكل ما نسب إلى أحد منهم، من أنه لعب بها كأبي هريرة؛ افتراء وبهت على الصحابة، ينكره: كل عالم بأحوال الصحابة، وكل عارف بالآثار.

وكيف خير القرون، وخير الخلق بعد رسول الله، ﷺ، يبيح اللعب بشيء، صَدُّه عن ذكر الله وعن الصلاة؛ أعظم من صد الخمر إذا استغرق فيه لاعبه، والواقع شاهد بذلك؟

وكيف يحرم الشارع النرد ويبيح الشطرنج، وهو يزيد عليه مفسدة بأضعاف مضاعفة؟

وكيف يظن برسول الله، ﷺ، وأصحابه إباحة ميسر العجم، وهو أبغض إلى الله ورسوله من ميسر العرب؛ بل الشطرنج سلطان أنواع الميسر.

وإذا كان اللاعب بالنرد كغامس يده في لحم خنزير ودمه، فكيف حال اللاعب بالشطرنج؟ وهل هذا إلا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى؟.

وإذا كان من لعب بالنرد عاصيًا لله ورسوله مع خفة مفسدة النرد، فكيف تسلب المعصية لله ورسوله عن صاحب الشطرنج مع: عظم مفسدتها، وصدها عن ما يحب الله ورسوله، وأخذها بفكر لاعبها، واشتغال قلبه وجوارحه وضياع عمره، ودعاء قليلها إلى كثيرها مثل دعاء قليل الخمر إلى كثيرها، ورغبة النفوس فيها بالعوض فوق رغبتها فيها بلا عوض؟ فلو لم يكن في اللعب فيها مفسدة أصلاً غير أنها ذريعة قريبة الإيصال إلى أكل المال الحرام بالقمار؛ لكان تحريمها متعينًا في الشريعة. كيف وفي المفاسد الناشئة من مجرد اللعب بها؛ ما يقتضي تحريمها؟.

وكيف يظن بالشريعة أنها تبيح ما: يلهي القلب ويشغله أعظم شغل عن

(١) في النسخة: (أصلها) ولعل ما أثبتناه هو الصواب. المراجع.

مصالح دينه، ويورث العداوة والبغضاء بين أربابها، وقليلها يدعو إلى كثيرها، ويفعل بالعقل والفكر كما يفعل المسكر وأعظم؟!.

ولهذا يصير صاحبها عاكفًا عليها كعكوف شارب الخمر على خمره أو أشد؛ فإنه لا يستحيي ولا يخاف، كما يستحيي شارب الخمر، وكلاهما مشبه بالعاكف على الأصنام. أما صاحب الشطرنج؛ فقد صح عن علي عليه السلام أنه شبهه بالعاكف على التماثيل.

وأما صاحب الخمر؛ ففي مسند الإمام أحمد: عن النبي، ﷺ، أنه قال: **«شارب الخمر كعابد وثن»**.

وقد صح النهي عنها عن: عبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، ولا يعلم لهما في الصحابة مخالف في ذلك ألبتة، واتفق على تحريمها الأئمة الثلاثة وأتباعهم.

والشافعي لم يجزم بإباحتها فلا يجوز أن يقال: مذهب الشافعي إباحتها فإن هذا كذب عليه؛ بل قال:

وأما الشطرنج فلم يتبين لي تحريمها. فتوقف رضي الله عنه في التحريم، ولم يُفتِ بالإباحة ثم اختلف المحرمون لها: هل هي أشد تحريمًا من النرد، أو النرد أشد تحريمًا منها؟.

فصح عن ابن عمر أنه قال: الشطرنج شر من النرد. ونص مالك على ذلك. وقال الإمام أحمد، وأبو حنيفة: النرد أشد تحريمًا منها.

قال شيخ الإسلام: وكلا القولين صحيح باعتبار، فإن الغالب على النرد؛ اشتمالها على عوض بخلاف الشطرنج، فالنرد بعوض؛ شر من الشطرنج الخالي عن العوض. وأما إذا اشتملا جميعًا على العوض أو خَلَوَا عنه فالشطرنج؛ شر من النرد، فإنها تحتاج إلى فكر يلهي قلب صاحبها أكثر مما يحتاج إليه النرد؛ ولهذا يقال: إنها مبنية على مذهب القدر، والنرد على مذهب الجبر، فمضرتها بالعقل والدين أعظم من مضرة النرد. ولكن إذا خلوا عن العوض كان تحريمهما من جهة العمل، وإذا اشتملا على العوض صار تحريمهما من الوجهين: من جهة العمل، ومن جهل أكل المال بالباطل؛ فتصير بمنزلة لحم الخنزير الميت.

قال أحمد: هو حرام من وجهين، فإن غصبه أو سرقه من نصراني صار

حرامًا من ثلاثة أوجه. فالتحريم يقوى ويضعف؛ بحسب قوة المفاسد وضعفها ويحسب تعدد أسبابه.

فصل

إذا عرف هذا فاتفق الناس:

على تحريم أكل العوض في هذا النوع. وعلى تحريم المغالبة فيه بالرهان.

واتفقوا على جواز أكل المال بسباق الخيل، والإبل، والنصال من حيث الجملة وإن اختلفوا في كيفية الجواز وتفصيله على ما سنذكره.

واختلفوا في مسائل هل هي ملحقة بهذا أو هذا؟ ونحن نذكرها:

المسألة الأولى: اختلفوا في جواز المسابقة على البغال والحمير بعوض. فقال الإمام أحمد، ومالك، والشافعي في أحد قوليه، والزهري: لا يجوز ذلك.

وقال أبو حنيفة، والشافعي في القول الآخر: يجوز.

المسألة الثانية: اختلفوا في المسابقة على الحمام، والفيل، والبقر بعوض. فمنعه أحمد، ومالك، وأكثر الشافعية، وأجازه أصحاب أبي حنيفة وبعض الشافعية، وبعض أصحاب أحمد في الحمام الناقلة للأخبار.

المسألة الثالثة: هل يجوز العوض في المسابقة على الأقدام؟ فمنعه مالك، وأحمد، والشافعي في المنصوص عنه صريحًا. وأجازه الحنفية وبعض الشافعية، وهو مخالف لنص الإمام.

المسألة الرابعة: هل يجوز العوض في المسابقة بالسباحة؟ منعه الأكثرون، وجوزه بعض الشافعية والحنفية.

المسألة الخامسة: الصراع. منع أحمد، ومالك، وبعض أصحاب الشافعي؛ العوض فيه، وهو مقتضى نص الشافعي في منعه العوض في المسابقة بالأقدام، وجوزه بعض أصحابه وأصحاب أبي حنيفة.

المسألة السادسة: المشابكة بالأيدي. لا تجوز بعوض عند الجمهور، وفيها وجه للشافعية للجواز، ومقتضى مذهب أصحاب أبي حنيفة جوازه. فإنهم جوزوه في الصراع، والمسابقة بالأقدام، والمغالبة في مسائل العلم.

المسألة السابعة: المسابقة بالسيف، والرمح، والعمود. منعها بعوض

مالك، وأحمد. وجوزها أصحاب أبي حنيفة، وللشافعية فيها وجهان.

المسألة الثامنة: المسابقة بالمقاليع على العوض. منعها الجمهور، وللشافعية فيها وجه، ومقتضى مذهب أصحاب أبي حنيفة الجواز.

المسألة التاسعة: المغالبة بشيل الأثقال: كالحجارة، والعلاج. فالجمهور لا يجوزون العوض فيها. ومن جوزه على المشابكة، والسباحة، والصراع، والأقدام؛ فمقتضى قوله الجواز هنا؛ إذ لا فرق.

المسألة العاشرة: المثاقفة. لا تجوز بعوض عند الجمهور، وأباحها بعض الشافعية، وهو مقتضى مذهب أبي حنيفة.

المسألة الحادية عشر: المسابقة على حفظ القرآن، والحديث، والفقه وغيره من العلوم النافعة والإصابة في المسائل هل تجوز بعوض؟ منعه أصحاب مالك، وأحمد، والشافعي، وجوزه أصحاب أبي حنيفة وشيخنا. وحكاه ابن عبدالبر، عن الشافعي وهو أولى من الشباك، والصراع، والسباحة، فمن جوز المسابقة عليها بعوض؛ فالمسابقة على العلم أولى بالجواز، وهي صورة مراهنة الصديق لكفار قريش على صحة ما أخبرهم به وثبوته.

وقد تقدم أنه لم يقم دليل شرعي على نسخه. وأن الصديق أخذ رهنهم بعد تحريم القمار. وأن الدين قيامه بالحجة والجهاد. فإذا جازت المراهنة على آلات الجهاد؛ فهي في العلم أولى بالجواز، وهذا القول هو الراجح.

المسألة الثانية عشر: المسابقة بالسهام على بعد الرمي، لا على الإصابة. فأيهما كان أبعد مدى؛ كان هو الغالب. منعها بالعوض أصحاب أحمد، والشافعي. ويلزم من جوزها في المسابقة بالأقدام، والسباحة، والمصارعة؛ جوازها هنا؛ بل هي أولى بالجواز. فإن المقصود بالرمي أمران: البعد، والإصابة. فالبعد أحد مقصوديه، والسبق به من جنس السبق بالخيل، والإبل.

وبكل حال؛ فهو أولى من سائر الصور التي قاسوها على مورد النص بالجواز، وظاهر الحديث يقتضيه، فإنه أثبت السبق في النصل، كما أثبته في الخف والحافر. هذا يقتضي أن يكون السبق به كالسبق بهما، فإما أن يقال: يقتضي الإصابة دون السبق في الغاية، فكلا وهو في اقتضائهما معًا؛ أظهر من الاقتصار على الإصابة فقط. والله أعلم.

فصــل

في مأخذ هذه الأقوال وهي نوعان: لفظي، ومعنوي. فاللفظي: الاقتصار على ما أثبته النص بعد النفي العام، وهي الثلاثة المذكورة في الحديث فقط. فلا يجوز في غيرها.

وهؤلاء جعلوا أكل المال بهذه الثلاثة مستثنى من جميع أنواع المغالبات، وقالوا: ليس غيرها في معناها؛ حتى يلحق بها. فإن سائر هذه الأنواع المذكورة؛ لا يتضمن ما تتضمنه هذه الثلاثة من: الفروسية، وتعلم أسباب الجهاد، واعتيادها، وتمرين البدن عليها. فأين هذه من السباحة، والمشابكة، والسعي، والصراع، والعلاج، واللعب بالحمام. فلا نص ولا قياس.

قالوا: ويوضح هذا: أن الخيل والإبل؛ هي التي عهدت المسابقة عليها بين الصحابة، في عهد رسول الله، ﷺ. ولم يسابق على بغل، ولا حمار قط، لا هو ولا أحد من أصحابه، مع وجود الحمير والبغال عندهم. والخيل هي التي تصلح: للكر، والفر، ولقاء العدو، وفتح البلاد.

وأما أصحاب الحمير؛ فأهل الذلة والقلة، ولا منفعة بهم في الجهاد ألبتة. فقياسها على الخيل؛ من أفسد القياس. وفهم حوافرها من حوافر الخيل؛ من أبعد الفهم.

الخيل هي التي يسهم لها في الجهاد؛ دون البغال والحمير.

وهي التي أخبر رسول الله، ﷺ: **«أن الخير معقود بنواصيها إلى يوم القيامة»**.

وهي التي ورد الحث، عن النبي، ﷺ، على اقتنائها والقيام عليها.

وأخبر بأن أبوالها وأرواثها في ميزان صاحبها.

وهي التي جعل رسول الله، ﷺ، تأديبها، وتعليمها، وتمرينها على الكر، والفر؛ من الحق؛ بخلاف غيرها من الحيوانات.

وهي التي أمر الله سبحانه المؤمنين برباطها إعدادًا لعدوه فقال: **﴿وأَعِدُّوا لَهُم ما اسْتَطَعتُم مِنْ قوَّةٍ ومِنْ رِبَاطِ الخَيلِ﴾**. [الأنفال: ٦٠].

وهي التي ضمن العز لأربابها، والقهر لمن عاداهم، فظهورها: عز لهم، وحصون، ومعاقل.

وهي التي كانت أحب الدواب إلى رسول الله، ﷺ، وهي أكرم الدوآب، وأشرفها نفوسًا، وأشبهها طبيعة بالنوع الإنساني(١).

فصــل(٢)

وأما رميه بيده الكـريمـة، ﷺ، فقال ابن إسحاق في المغازي: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة؛ أن رسول الله، ﷺ، رمى عن قوسه يوم أحد؛ حتى انـدقت سنهـا. فأخـذهـا قتـادة بن النعمان فكانت عنده. وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان؛ حتى وقعت على وجنته، فحدثني عاصم بن عمـر؛ أن رسول الله، ﷺ، ردها بيده فكانت أحسن عينيه وأَحَدَّها.

فصــل

وأما طعنه بالحربة، وهي رمح قصير ففي مغازي موسى بن عقبة، وابن إسحاق، والأموي، وغيرها: أنه لما كان يوم أحد، وأسند رسول الله، ﷺ، إلى الجبل؛ أدركه أبيّ بن خلف وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا. قال ابن إسحـاق: وكان أبيّ بن خلف، كما حدثني صالح بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف؛ يلقى رسول الله، ﷺ، بمكة فيقول: يا محمد إن عندي العود ـ فرسًا له ـ أعلفه كل يوم فرقًا من ذرة؛ أقتلك عليها. فيقول: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**». قال موسى بن عقبـة: قال سعيد بن المسيب: فلما أدرك أبيّ رسول الله، ﷺ، اعترض له رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله، ﷺ، فخلوا طريقه، واستقبله مصعب بن عمـير أخـو بني عبـدالـدار؛ يقي رسـول الله، ﷺ، بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله، ﷺ، ترقوة أبي بن خلف من فرجة في سابغة الدرع والبيضة؛ فطعنه بحربته؛ فوقع أبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فكسر ضلعًا من أضلاعه. فلما رجع إلى قريش، وقد خدشه في عنقه خدشًا غير كبير، فاحتقن الدم قال: قتلني والله محمد. قالوا له: ذهب والله فؤادك إنه ما كان بك من بأس. قال: إنه قد كان قال لي بمكة: «**أنا أقتلك**» فوالله لو بصق عليَّ لقتلني. فمات عدو الله بسرف وهم قافلون إلى مكـة. قال ابن عقبــة في هذا الحديث: «قال: والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون».

---

(١) اقتصرنا على هذا من مآخذ القائلين والبقية موجودة في الأصل.	(٢) ١٦ الفروسية.

فصل

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الرماح في كتابه، فقال: **﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ليَبْلُوكم اللّهُ بشيءٍ منَ الصَّيدِ تنالُهُ أيدِيكُم ورِماحُكم لِيَعْلَم اللّهُ مَنْ يَخافُهُ بالغَيْبِ﴾**. [المائدة: ٩٤].

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله، ﷺ: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة؛ حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**».

وفي سنن ابن ماجه: عن علي بن أبي طالب، قال: كانت بيد رسول الله، ﷺ، قوس عربية، فرأى رجلاً بيده قوس فارسية فقال: «**ماهذه؟ ألقها وعليك بهذه وأشباهها ورماح القناة؛ فإنهما يزيد الله بهما في الدين، ويمكن لكم في البلاد**». والرماح للمقاتلة بمنزلة الصياصي للوحش تدفع بها من يقصدها، وتحارب بها. وقد نص الإمام أحمد على أن: العمل بالرمح؛ أفضل من الصلاة النافلة في الأمكنة، التي يحتاج فيها إلى الجهاد.

والفروسية تظهر في ثلاثة أشياء: ركوب الخيل والمسابقة عليها، ورمي النشاب، واللعب بالرمح. وهو بنود كثيرة، ومبناه: التبطيل، والنقل، والتسريح، والنشل، والطعن، والدخول، والخروج، ومداره على أصلين: الطعن، والتبطيل. فالشجاع الخبير الذي لا يطعن في موطن التبطيل، ولا يبطل في موضع الطعن؛ بل يعطي كل حال ما يليق به، ويعرف حكم ملازقة القرن، ومفارقته، ومحاربته، ومضايقته، وهزله، وجده، وأخذه، ورده، وطلوعه، ونزوله، وكره، وفره، ويعطي كل حال من هذه الأحوال كفوها، وما يليق بها، ويكون عارفًا بالدخول والخروج، ومواطن الطعن والضرب، والإقدام والإحجام، واستعمال الطعن الكاذب في موضعه، والصادق في موضعه، والاستدارة عند المجاولة يمينًا وشمالاً، وإعمال الكف حال دخول القرن على قرنه في الخروج منه والدخول عليه، فلا يشغله أحدهما عن الآخر.

ولما كان الجلاد بالسيف والسنان، والجدال بالحجة والبرهان؛ كالأخوين

الشقيقين، والقرينين المتصاحبين؛ كانت أحكام كل منهما شبيهة بأحكام الآخر ومستفادة منه، فالإصابة في الرمي والنصال؛ كالإصابة في الحجة والمقال، والطعن والتبطيل؛ نظير إقامة الحجة وإبطال حجة الخصم. والخروج؛ نظير الإيراد والاحتراز. وجواب القرن عند دخوله عليك؛ كجواب الخصم عما يورده عليك.

فالفروسية فروسيتان: فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطعن.

ولما كان أصحاب النبي، ﷺ، أكمل الخلق في الفروسيتين؛ فتحوا القلوب بالحجة والبرهان، والبلاد بالسيف والسنان، وما الناس إلا هؤلاء الفريقان، ومن عداهما فإن لم يكن ردءًا وعونًا لهما؛ فهو كَلٌّ على نوع الإنسان.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله: بجدال الكفار والمنافقين، وجلاد أعدائه المشاقين والمحاربين؛ فعلم الجدال والجلاد؛ من أهم العلوم وأنفعها للعباد في المعاش والمعاد، ولا يعدل مداد العلماء إلا دم الشهداء، والرفعة وعلو المنزلة في الدارين؛ إنما هي لهاتين الطائفتين، وسائر الناس؛ رعية لهما منقادون لرؤسائهما.

(1)**وفيها**(2) جواز أكل ميتة البحر، وأنها لم تدخل في قوله عز وجل: **﴿حُرِّمَتْ عَلَيكُمُ الميتَةُ والدَّمُ﴾**. [المائدة: ٣]. وقد قال تعالى: **﴿أُحِلَّ لَكُم صيدُ البَحرِ وطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ﴾**. [المائدة: ٩٦]. وقد صح: عن أبي بكر الصديق، وعبدالله بن عباس، وجماعة من الصحابة «أن صيد البحر: ما صيد منه، وطعامه: ما مات فيه» وفي السنن: عن ابن عمر مرفوعًا وموقوفًا: «**أُحلّت لنا ميتتان ودمان، فأمَّا الميتتان: فالسمك والجراد**. . .» الحديث.

...(3)**وقال** تعالى: **﴿جَعَلَ اللّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيامًا للنَّاسِ والشَّهْرَ الحَرَامَ والهَدْيَ والقَلاَئِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أنَّ اللّهَ يعلَمُ ما فِي السَّمواتِ وما فِي الأَرضِ وأنَّ اللّهَ بكُلِّ شيءٍ عَليمٍ﴾**. [المائدة: ٩٧]. فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر: أن يذكر، وأن يشكر؛ يذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره، شاكر لمن شكره، فذكره؛ سبب لذكره، وشكره؛ سبب لزيادته من فضله. فالذكر للقلب واللسان، والشكر للقلب محبة وإنابة، وللسان ثناء وحمد، وللجوارح طاعة وخدمة.

(١) ٣٨١ زاد المعاد جـ٢. (٢) أي سرية الخبط. (٣) ١٢٨ الفوائد.

(١) **الوجه** الرابع والعشرون: أنه سبحانه أخبر أنه: خلق الخلق، ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد؛ ليعلم عباده أنه: بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ ومِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمرُ بينَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ وأنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْمًا﴾. [الطلاق: ١٢]. فدل على أن: علم العباد بربهم وصفاته، وعبادته وحده؛ هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر.

(٢) **ومنه** قوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرامَ قِيامًا للنَّاسِ والشَّهْرَ الحَرَامَ والهَدْيَ والقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أنَّ الله يعلَمُ ما في السَّمواتِ وما في الأَرضِ وأنَّ اللَّهَ بكُلِّ شيءٍ عَليمٍ﴾. [المائدة: ٩٧]. فذكر صفة العلم التي اقتضت تخصيص هذا المكان، وهذا الزمان بأمر اختصا به دون سائر الأمكنة والأزمنة.

...(٣) **قال** أبو عمر: وروى جرير بن عبدالحميد، ومحمد بن فضيل: عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ما رأيت قومًا خيرًا من أصحاب رسول الله، ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة؛ حتى قبض، ﷺ، كلهن في القرآن: يسألونك عن المحيض، يسألونك عن الشهر الحرام، يسألونك عن اليتامى. ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم. قال أبو عمر: ليس في الحديث من الثلاث عشرة مسألة إلا ثلاث.

قلت: ومراد ابن عباس بقوله: «ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة» المسائل التي حكاها الله في القرآن عنهم، وإلا فالمسائل التي سألوه عنها وبين لهم أحكامها بالسنة؛ لا تكاد تحصى، ولكن إنما كانوا يسألونه عما ينفعهم من الواقعات، ولم يكونوا يسألونه عن المقدَّرات والأغلوطات وعضل المسائل، ولم يكونوا يشتغلون بتفريع المسائل وتوليدها؛ بل كانت هممهم مقصورة على تنفيذ ما أمرهم به، فإذا وقع بهم أمر سألوا عنه؛ فأجابهم، وقد قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَسأَلُوا عن أَشْياءَ إنْ تُبدَ لكُمْ تَسُؤكُم وإن تَسأَلُوا عنهَا حينَ يُنزَّلُ القرآنُ تُبدَ لَكُم عفَا اللَّهُ عَنْهَا واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قد سأَلَهَا قَومٌ مِنْ قَبلكم ثُمَّ أصبَحُوا بها كَافِرينَ﴾. [المائدة: ١٠١].

(١) ٥١ مفتاح جـ١.	(٢) ٢٠٣ شفاء.	(٣) ٧١ أعلام جـ١.

وقد اختلف في هذه الأشياء المسئول عنها: هل هي أحكام قدرية أو أحكام شرعية؟ على قولين؛ فقيل: إنها أحكام شرعية عفا الله عنها، أي: سكت عن تحريمها؛ فيكون سؤالهم عنها سبب تحريمها؛ ولو لم يسألوا لكانت عفوًا.

ومنه قوله، ﷺ، وقد سئل عن الحج: أفي كل عام؟ فقال: «**لو قلت نعم؛ لوجبت، ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**». ويدل على هذا التأويل؛ حديث أبي ثعلبة المذكور: «**إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرمًا**. . .» الحديث.

ومنه الحديث الآخر: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدَّ حدودًا فلا تَعتَدُوها، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها**». وفسرت بسؤالهم عن أشياء من الأحكام القدرية.

كقول عبدالله بن حذافة: «مَنْ أبي يا رسول الله».

وقول آخر: «أين أبي يا رسول الله» قال: «**في النار**».

والتحقيق: أن الآية تعم النهي عن النوعين.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿**إِنْ تُبْدَ لَكُم تَسُؤْكُم**﴾ [المائدة: ١٠١]. إما في أحكام الخلق والقدر؛ فإنه يسوءهم أن يبدو لهم ما يكرهونه مما سألوا عنه، وإما في أحكام التكليف؛ فإنه يسوءهم أن يبدو لهم ما يشق عليهم تكليفه مما سألوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿**وإنْ تَسألوا عنها حين ينزل القرآن تُبد لكم**﴾. فيه قولان:

أحدهما: أن القرآن إذا نزل بها ابتداء بغير سؤال فسألتم عن تفصيلها وعلمها؛ أبدي لكم وبين لكم، والمراد بحين النزول: زمنه المتصل به، لا الوقت المقارن للنزول، وكأن في هذا إذنًا لهم في السؤال عن تفصيل المنزل ومعرفته بعد إنزاله؛ ففيه رفع لتوهم المنع من السؤال عن الأشياء مطلقًا.

والقول الثاني: أنه من باب التهديد والتحذير، أي: ما سألتم عنها في وقت نزول الوحي؛ جاءكم بيان ما سألتم عنه بما يسوءكم، والمعنى: لا تتعرضوا للسؤال عما يسوءكم بيانه، وإن تعرضتم له في زمن الوحي؛ أبدي لكم.

وقوله: ﴿**عفا اللَّهُ عنها**﴾ أي: عن بيانها خبرًا وأمرًا؛ بل طوى بيانها عنكم رحمة ومغفرة وحلمًا والله غفور حليم.

فعلى القول الأول: عفّا الله عن التكليف بها؛ توسعة عليكم.

وعلى القول الثاني: عفا الله عن بيانها؛ لئلا يسوءكم بيانها.

وقوله: ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾. أراد نوع تلك المسائل، لا أعيانها، أي: قد تعرَّض قوم من قبلكم لأمثال هذه المسائل، فلما بينت لهم كفروا بها، فاحذروا مشابهتهم والتعرض لما تعرضوا له.

ولم ينقطع حكم هذه الآية؛ بل لا ينبغي للعبد أن يتعرض للسؤال عما إن بدا له ساءه؛ بل يستعفي ما أمكنه، ويأخذ بعفو الله.

ومن ههنا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا صاحب الميزاب، لا تخبرنا؛ لما سأله رفيقه عن مائه أطاهر أم لا؟

وكذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يبدي له من أحواله وعاقبته ما طواه عنه وستره؛ فلعله يسوءه إن أبدي له، فالسؤال عن جميع ذلك؛ تعرض لما يكرهه الله؛ فإنه سبحانه يكره إبداءها؛ ولذلك سكت عنها. والله أعلم.

(1)**وسأله** ﷺ، أبو ثعلبة عن قوله تعالى: **﴿يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا عليكُمْ أنْفُسكم﴾** الآية. [المائدة: ١٠٥]. فقال: «**ائتمروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر؛ حتى إذا رأيت شُحًّا مطاعًا، وهوًى متَّبعًا ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه: فعليك بنفسك، ودع عنك العوام؛ فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين يعملون مثل عملكم**». ذكره أبوداود.

...(2)**بعث** الله رسله، وأنزل كتبه بالإنكار على الخلق بما هم عليه من أحكام البشرية وغيرها؛ فبهذا أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وانقسمت الدار إلى: دار سعادة للمنكرين، ودار شقاوة للمنكر عليهم. فالطعن في ذلك؛ طعن في الرسل والكتب. والتخلص من ذلك؛ انحلال من ربقة الدين.

ومن تأمل أحوال الرسل مع أممهم: وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشد القيام؛ حتى لقوا الله تعالى، وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم.

وأخبر النبي، ﷺ: أن المتخلص من مقامات الإنكار الثلاثة؛ ليس معه من الإيمان حبة خردل، وبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد المبالغة،

(١) ٤١١ أعلام جـ٤. (٢) ١٢٣ مدارج جـ٣.

حتى قال: «**إن الناس إذا تركوه: أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**».

وأخبر: أن تركه: يمنع إجابة دعاء الأخيار، ويوجب تسلط الأشرار.

وأخبر: أن تركه: يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه، ويحل لعنة الله؛ كما لعن الله بني إسرائيل على تركه.

وهل الجهاد إلا أعلى أنواع الإنكار؛ وهو جهاد باليد، وجهاد أهل العلم؛ إنكار باللسان. . .

...[1]**وأما** المسألة الثانية ـ وهي قبول شهادتهم على المسلمين في السفر ـ فقد دل عليها صريح القرآن، وعمل بها الصحابة، وذهب إليها فقهاء الحديث.

قال صالح بن أحمد: قال أبي: لا تجوز شهادة أهل الذمة إلا في موضع، في السفر، الذي قال الله تعالى: ﴿**أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾. [المائدة: ١٠٦]. فأجازها أبو موسى الأشعري.

وقد روي عن ابن عباس: «**أو آخران من غيركم من أهل الكتاب**» وهذا موضع ضرورة؛ لأنه في سفر، ولا نجد من يشهد من المسلمين. وإنما جاءت في هذا المعنى اهـ.

وقال إسماعيل بن سعيد الشالنجي: سألت أحمد ـ فذكر هذا المعنى ـ قلت: فإن كان ذلك على وصية المسلمين هل تجوز شهادتهم؟ قال: نعم؛ إذا كان على الضرورة.

قلت: أليس يقال: هذه الآية منسوخة؟ قال: من يقول؟ وأنكر ذلك، وقال: وهل يقول ذلك إلا إبراهيم؟

وقال في رواية ابنه عبدالله وحنبل: تجوز شهادة النصراني واليهودي في الميراث، على ما أجاز أبو موسى في السفر، وأحلفه.

وقال في رواية أبي الحارث: لا تجوز شهادة اليهودي والنصراني في شيء؛ إلا في الوصية في السفر؛ إذا لم يكن يوجد غيرهم. قال الله تعالى: ﴿**أو آخران من غيركم**﴾ فلا تجوز شهادتهم إلا في هذا الموضع. وهذا مذهب قاضي العلم والعدل: شريح؛ وقول سعيد بن المسيب، وحكاه عن: ابن عباس، وأبي موسى الأشعري.

(١) ١٨٢ الطرق الحكمية.

قال المروذي: حدثنا ابن نمير قال: حدثني يعلى بن الحارث، عن أبيه، عن غيلان بن جامع، عن إسماعيل بن خالد، عن عامر قال: «شهد رجلان من أهل دقوقا(١) على وصية مسلم. فاستحلفهما أبو موسى بعد العصر: ما اشترينا به ثمنًا قليلاً، ولا كتمنا شهادة الله إنا إذًا لمن الآثمين. ثم قال: إن هذه القضية ما قضي فيها مذ مات رسول الله، ﷺ، إلى اليوم(٢)».

وذكر محمد بن إسحاق: عن أبي النضر، عن باذان ـ مولى أم هانىء ـ، عن ابن عباس، عن تميم الداري في قوله عز وجل: ﴿**ياأيُّها الذين آمَنُوا شهادَةُ بينَكُم إذا حَضَرَ أَحَـدَكُم الموتُ**﴾ الآية. [المائدة:١٠٦] قال: «برىء الناس منها غيري وغير عدي بن بدَّاء ـ وكان نصرانيين يختلفان إلى الشام ـ فأتيا الشام. وقدم زيد بن أبي مريم ـ مولى بني سهم ـ ومعه جام من فضة، هو أعظم تجارته، فمرض؛ فأوصى إليهما. قال تميم: فلما مات أخذنا الجام، فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء، فلما قدمنا؛ دفعنا ماله إلى أهله، فسألوا عن الجام؟ فقلنا: ما دفع إلينا غير هذا. فلما أسلمت تأثمت من ذلك. فأتيت أهله، فأخبرتهم الخبر، وأديت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها؛ فأتوا به النبي، ﷺ، فسألهم البينة؟ فلم يجيبوا، فأحلفهم بما يعظم به على أهل دينهم؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿**يا أَيُّهَا الذينَ آمَنوا شهادة بينكم**﴾ الآية. فحلف عمرو بن العاص وأخو سهم؛ فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بدَّاء».

(٣)**وأما** رد اليمين: فقال أبو عبيد: حدثونا عن مسلمة بن علقمة، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي: «أن المقداد استسلف من عثمان سبعة آلاف درهم، فلما قضاها أتاه بأربعة آلاف. فقال عثمان: إنها سبعة. فقال المقداد: ما كانت إلا أربعة. فما زالا؛ حتى ارتفعا إلى عمر. فقال المقداد: يا أمير المؤمنين، ليحلف أنها كما يقول، وليأخذها. فقال عمر: أنصفك. احلف أنها كما تقول، وخذها».

قال أبو عبيد: فهذا عمر قد حكم برد اليمين، ورأى ذلك المقداد، ولم ينكره عثمان. فهؤلاء ثلاثة من أصحاب رسول الله، ﷺ، عملوا برد اليمين.

(١) بلد بين بغداد وأربل، تمد وتقصر.　　(٢) رواه أبو داود، وسكت عنه المنذري.

(٣) ٨٦ الطرق الحكمية.

حدثنا هشيم، عن حصين بن عبدالرحمن قال: كان شريح يقضي برد اليمين.

وحدثنا يزيد، عن هشام، عن ابن سيرين، عن شريح: أنه كان إذا قضى على رجل باليمين، فردها على الطالب، فلم يحلف: لم يعطه شيئًا، ولم يستحلف الآخر.

وحدثنا عباد بن العوام، عن الأشعث، عن الحكم بن عتبة، عن عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: أن أباه كان إذا قضى على رجل باليمين، فردها على الذي يدّعي، فأبى أن يحلف؛ لم يجعل له شيئًا. وقال: لا أعطيك ما لا تحلف عليه.

قال أبو عبيد: على أن رد اليمين له أصل في الكتاب والسنة:

فالذي في الكتاب قول الله تعالى: ﴿**اثنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُم أَوْ آخَرَانِ مِن غَيْرِكم**﴾. [المائدة: ١٠٦]. ثم قال: ﴿**فإن عُثِرَ على أنَّهُمَا استَحَقَّا إثْمًا فآخَرانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا من الذينَ استحقَّ عليهمْ الأوليانِ. فيُقسِمانِ بالله لَشَهَادَتُنا أحقُّ من شَهَادَتِهما. وما اعتَدَينَا إنَّا إذًا لَمِنَ الظَّالِمين. ذلكَ أدْنَى أنْ يأتُوا بالشَّهادَةِ على وجهِهَا أو يَخَافُوا أن تُرَدَّ أيمَانٌ بَعدَ أيمَانِهم**﴾. [المائدة: ١٠٧، ١٠٨].

وأما السنة: فحكم رسول الله، ﷺ، في القسامة بالأيمان على المدعين، فقال: «**تستحقون دم صاحبكم بأن يقسم منكم خمسون: أن يهود قتلته**». فقالوا: كيف نقسم على شيء لم نحضره؟ قال: «**فيحلف لكم خمسون من يهود ما قتلوه**» قال: فردها رسول الله، ﷺ، على الآخرين، **بعد** أن حكم بها للأولين. فهذا هو الأصل في رد اليمين.

قلت: وهذا مذهب الشافعي ومالك. وصوبه الإمام أحمد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ورضي عنه: ليس المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم في النكول ورد اليمين بمختلف؛ بل هذا له موضع، وهذا له موضع. فكل موضع أمكن المدعي معرفته والعلم به، فرد المدعى عليه اليمين؛ فإنه

فكل موضع أمكن المدعي معرفته والعلم به، فرد المدعى عليه اليمين؛ فإنه إن حلف استحق، وإن لم يحلف لم يحكم له بنكول المدعى عليه. وهذا كحكومة عثمان والمقداد. فإن المقداد قال لعثمان: «احلف أن الذي دفعته إليَّ كان سبعة آلاف وخذها» فإن المدعي هنا يمكنه معرفة ذلك والعلم به. كيف وقد ادعى به؟ فإذا لم يحلف؛ لم يحكم له إلا: ببينة، أو إقرار.

وأما إذا كان المدعي لا يعلم ذلك، والمدعى عليه هو المنفرد بمعرفته: فإنه إذا نكل عن اليمين؛ حكم عليه بالنكول، ولم ترد على المدعي، كحكومة عبدالله بن عمر وغريمه في الغلام. فإن عثمان قضى عليه «أن يحلف أنه باع الغلام، وما به داء يعلمه» وهذا يمكن أن يعلمه البائع. فإنه إنما استحلفه على نفي العلم: أنه لا يعلم به داء، فلما امتنع من هذه اليمين؛ قضى عليه بنكوله.

وعلى هذا: إذا وجد بخط أبيه في دفتره: أن له على فلان كذا وكذا، فادعى به عليه، فنكل. وسأله إحلاف المدعي: أن أباه أعطاني هذا، أو أقرضني إياه؛ لم ترد عليه اليمين، فإن حلف المدعى عليه؛ وإلا قضي عليه بالنكول؛ لأن المدعى عليه يعلم ذلك. وكذلك لو ادعى عليه: أن فلانًا أحالني عليك بمائة. فأنكر المدعى عليه ونكل عن اليمين، وقال للمدعي: أنا لا أعلم أن فلانًا أحالك، ولكن احلف وخذ. فهمنا إن لم يحلف، لم يحكم له بنكول المدعى عليه.

وهذا الذي اختاره شيخنا رحمه الله هو فصل النزاع في النكول ورد اليمين. وبالله التوفيق.

(١)**وجاء في دعاء المسيح: ﴿اللهم ربَّنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾**. [المائدة: ١١٤].

فذكر الأمرين(٢) ولم يجئ في القرآن سواه، ولا رأيت أحدًا تعرض لهذا ولا نبه عليه. وتحته سر عجيب دال على: كمال معرفة المسيح بربه، وتعظيمه له؛ فإن هذا السؤال كان عقيب سؤال قومه له: **﴿هل يَستطيعُ ربُّكَ أن ينزِّلَ علينا مائِدةً منَ السماء﴾**. [المائدة: ١١٢]. فخوفهم الله، وأعلمهم: أن هذا مما لا يليق أن يسأل عنه، وأن الإيمان يرده؛ فلما ألحوا في الطلب، وخاف المسيح أن يداخلهم الشك إن لم يُجابوا إلى ما سألوا؛ بدأ في السؤال باسم (اللهم) الدال على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته. ففي ضمن ذلك تصوره بصورة المثني الحامد الذاكر لأسماء ربه المثني عليه بها. وأن المقصود من هذا الدعاء وقضاء هذه الحاجة؛ إنما هو: أن يثني على الرب بذلك، ويمجده به، ويذكر آلاءه، ويظهر شواهد قدرته وربوبيته، ويكون برهانًا على صدق رسوله؛ فيحصل بذلك من زيادة الإيمان، والثناء على الله؛ أمر يحسن معه الطلب، ويكون كالعذر فيه؛ فأتى بالاسمين: اسم الله الذي

(١) ١٩٤ بدائع جـ٢.

(٢) اسم الله الذي يثنى عليه به، واسم الرب الذي يدعى ويسأل به.

يثني عليه به، واسم الرب الذي يدعى ويسئل به؛ لما كان المقام مقام الأمرين.

فتأمل هذا السر العجيب، ولا ينب عنه فهمك؛ فإنه من الفهم الذي يؤتيه الله من يشاء في كتابه. وله الحمد.

وأما السلام على النبي، ﷺ، بلفظ الخطاب؛ فقد ذكرنا سره في الوجه الذي قبل هذا، فالعهد به قريب.

(1)**وتأمل** أحوال الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، مع الله، وخطابهم، وسؤالهم. كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟

قال المسيح، عليه السلام: ﴿**إنْ كُنتُ قلتُه فقد عَلِمتَهُ**﴾. [المائدة: ١١٦]. ولم يقل: لم أقله. وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب. ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره، فقال: ﴿**تعلم ما في نفسي**﴾ ثم برأ نفسه عن علمه: بغيب ربه، وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿**ولا أعلمُ ما في نَفسك**﴾. ثم أثنى على ربه، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها، فقال: ﴿**إنَّك أنْتَ علاَّمُ الغُيوبِ**﴾. [المائدة: ١١٦]. ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به - وهو محض التوحيد - فقال: ﴿**ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا اللّهَ ربي وربَّكم**﴾ [المائدة: ١١٦].ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم. فقال: ﴿**وكنتُ عليهم شهيدًا ما دمتُ فيهم. فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيبَ عليهم**﴾. ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم. فقال: ﴿**وأنت على كلِّ شيء شهيد**﴾. [المائدة: ١١٧]. ثم قال: ﴿**إن تعذبْهم فإنهم عبادُك**﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام. أي: شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم. وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك. فإذا عذبتهم - مع كونهم عبيدك - فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له؛ لم تعذبهم؛ لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته. فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحسانًا عبيده؟ لولا فرط عتوِّهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

(1) ٣٧٨ مدارج جـ٢.

وقد تقدم قوله: ﴿إنَّك أنتَ علَّام الغُيوب﴾. أي: هم عبادك، وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم؛ فإذا عذبتهم؛ عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه. فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه. فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجهال. ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية؛ وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وإنْ تغفِر لهم فإنَّك أنت العزيزُ الحكيم﴾ [المائدة: ١١٨]. ولم يقل: «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى. فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار. فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة. بل مقام براءة منهم. فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربَّه على أعدائه، الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على مَن غضب الرب عليهم. فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين: لكمال القدرة، وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم؛ ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم. وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره: لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال: هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب(١).

(٢)**قال** تعالى: ﴿هَذَا يومُ يَنْفَعُ الصَّادقينَ صِدقُهم لَهُم جنَّاتٌ تجري منْ تَحتِها الأَنهارُ خَالدينَ فيها أبدًا رضِيَ الله عنهُم ورَضُوا عنه ذلك الفوزُ العَظيم﴾. [المائدة: ١١٩]. وقال تعالى: ﴿والذِي جَاءَ بالصِّدقِ وصدَّق به أولئِكَ هُمُ المُتَّقون﴾. [الزمر: ٣٣]. فالذي جاء بالصدق؛ هو من شأنه الصدق في: قوله، وعمله، وحاله. فالصدق، في هذه الثلاثة:

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها.

---

(١) تقدم في سورة الفاتحة ص (٦٣) ما له صلة بهذا البحث يحسن الرجوع إليه. ج.

(٢) ٢٧٠ مدارج جـ٢.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على: الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة. فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به؛ تكون صديقيته.

ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه؛ ذروة سنام الصديقية، سمي «الصديق» على الإطلاق. و«الصديق» أبلغ من الصدوق. والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلى مراتب الصدق؛ مرتبة الصديقية. وهي: كمال الانقياد للرسول، ﷺ، مع كمال الإخلاص للمرسل.

(١)**قوله** عز وجل: **﴿قال الله هذا يومُ ينفعُ الصادقين صدقُهم لهم جنَّاتٌ تجري مِن تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبدًا رَضي الله عنهم ورضوا عنه. ذلك الفوز العظيم﴾** [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى في آخر سورة المجادلة: **﴿ويُدْخِلهُم جنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنهارُ خَالدينَ فيهَا رَضِي اللّهُ عنهُم ورَضُوا عنه أُولئِك حزبُ اللّهِ أَلاَ إنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾**.

وقال في آخر سورة: ﴿لم يكن﴾(٢): **﴿خَالِدينَ فيهَا أبدًا. رَضِي اللّهُ عَنْهُم ورَضُوا عنهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه﴾**. [البينة: ٨].

فتضمنت هذه الآيات؛ جزاءهم على: صدقهم وإيمانهم، وأعمالهم الصالحة، ومجاهدة أعدائه، وعدم ولايتهم، بأن رضي الله عنهم؛ فأرضاهم؛ فرضوا عنه. وإنما حصل لهم هذا بعد: الرضى به ربًّا، وبمحمد نبيًّا، وبالإسلام دينًا.

---

(١) ١٨٧ مدارج جـ٢.

(٢) وهي سورة البينة.

المجلـد الثانـي
فهرس سورة آل عمـران

فهرس سورة النســــــاء

فهــــرس ســــورة الــمـائـدة

انتهى فهرس المجلد الثاني

الضوء المنير على التفسير

المجلد الثالث

جمعه الفقير الى ربه العلي عبده

على الحمد المحمد الصالحي

من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

المعروف بابن قيم الجوزية

رحمه الله تعالى

الناشر

مؤسسة النور للطباعة والتجليد

بالتعاون مع

مكتبة دار السلام

الناشر
مؤسسة النور للطباعة و التجليد
هاتف: ٤١١٨٨٧٤، فاكس: ٤١١٤١٩١
دخنة ـ شارع الشيخ محمد بن إبراهيم
عنيزة-هاتف و فاكس: ٣٦٤١٠٤٠ (٠٦)

بالتعاون مع
مكتبة دارالسلام

الرياض-شارع الضباب-هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢، فاكس: ٤٠٢١٦٥٩



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** تعالى: ﴿**اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾[الأنعام: ١]. فعدل المشرك من: خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور؛ بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه.

(٢)**قوله** تعالى ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم يَعْدِلون**﴾ أي: يعدلون به غيره في العبادة(٣)، التي هي المحبة والتعظيم. وهذا أصح القولين.

وقيل: الباء، بمعنى «عن» والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون: عن عبادته إلى عبادة غيره. وهذا ليس بقوي؛ إذ لا تقول العرب: عدلت بكذا، أي: عدلت عنه. وإنما جاء هذا في فعل السؤال، نحو: سألت بكذا، أي: عنه؛ كأنهم ضمنوه: اعتنيت به واهتممت. ونحو ذلك.

...(٤)**قوله** سبحانه: ﴿**الحمدُ لِلَّهِ الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّور ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ أي: يَعْدِلُون به غيره، فيجعلون له من خَلقِه عَدْلاً وشبهًا. قال ابن عباس: «يريد: عدلوا به مِنْ خَلْقِي الحجارَةَ والأصنامَ، بعد أن أقروا بنعمتي وربوبيتي».

وقال الزجاج: «أعلمَ الله سبحانه أنه خالق ما ذكر في هذه الآية، وأنَّ خالقها لا شيء مثله، وأعلم أنَّ الكفار يجعلون له عديلاً» والعَدْلُ: التسويةُ، يقال: عدَل الشيء بالشيء؛ إذا سَوَّاه به. ومعنى يعدلون به: يشركون به غيرَهُ.

قال مجاهد: قال الأحمر: «عدَلَ الكافرُ بربه عدلاً، وعدولاً؛ إذا سَوّى به غيره فعبَده». وقال الكِسائي: «عدلت الشيء بالشيء، أعدِله عدولاً؛ إذا ساويته به».

ومثله قوله تعالى عن هؤلاء المشبهين، إنهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿**تاللَّهِ إن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[الشعراء: ٩٧ - ٩٨]

---

(١) ١٧٨ الجواب الكافي.
(٢) ٢١ مدارج جـ٣.
(٣) وعدلوا به في الطاعة والتشريع.
(٤) ٢٢٩ إغاثة جـ٢.

فاعترفوا أنهم كانوا في أعظم الضلال وأبينه؛ إذ جعلوا لله شِبهاً وعَدْلاً من خلقه سَوَّوهم به في العبادة والتعظيم.

(١)**الرب** تعالى هو الخالق للنور والظلمة، كما استفتح سبحانه سورة الأنعام بقوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السمٰوَاتِ والأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ ثُمَّ الذِينَ كَفَروا بِرَبِّهِم يَعْدِلونَ**﴾ [الأنعام: ١]. فاستفتح السورة بإبطال قول أهل الشرك أجمعين؛ من الثنوية المجوس القائلين: بأن للعالم نورين: نور، وظلمة. فأخبر أنه وحده رب النور والظلمة وخالقهما، كما أنه وحده خالق السموٰات والأرض.

والله تعالى جعل الموجودات: عاليًا، وسافلاً، ومتوسطًا بينهما. وجعل لسافلها الظلمة، وهي مسكن أهل الظلمات من خلقه، وجعل لعاليها النور، وهو مسكن أهل النور منهم، وجعل هذه الأرض وما فوقها إلى العلو متوسطاً بينهما، فكلما كان أقرب إلى العرش والكرسي؛ كان أعظم نوراً؛ ولهذا كان فضل نور العرش والكرسي؛ على ما تحته؛ كفضل نور الشمس والقمر على أخفى الكواكب، وكلما كان أقرب إلى السفلي المطلق؛ كان أشد ظلمة؛ ولهذا لما كان محبس أهل الظلمات سجين؛ كانت سوداء مظلمة لا نور فيها بوجه، فكلما كان أقرب إلى الرب تعالى؛ كان أعظم نوراً ظاهراً وباطناً، وكلما بعد عنه؛ كان أشد ظلمة بحسب بعده عنه.

وذكر الإمام أحمد في كتاب: (الزهد): أن موسى أقام أياماً لا يحدث بني إسرائيل إلا متبرقعاً؛ من النور الذي غشي وجهه حين كلمه ربه فلم يكن أحد ينظر إليه.

فنسبة الأنوار كلها إلى نور الرب، كنسبة: العلوم إلى علمه، والقوى إلى قوته، والغنى إلى غناه، والعزة إلى عزته، وكذلك باقي الصفات. والعبد إذا سما بصره صعوداً إلى نور الشمس؛ غشي دون إدراكه، وتعذر عليه غاية التعذر، وأي نسبة لنور الشمس إلى نور خالقها ومبدعها؟! وإذا كان نور البرق يكاد يلتمع البصر ويخطفه ولا يقدر العبد على إدراكه فكيف بنور الحجاب؟! فكيف بما فوقه؟! والأمر أعظم من أن يصفه واصف أو يتصوره عاقل؛ فتبارك الله رب العالمين،

---

(١) ٢٠٣ مختصر الصواعق جـ٢.

الـذي أشرقت الـظلمات بنور وجهه، وعجزت الأفكار عن إدراك كنهه ، ودلت الآيات وشهدت الفطر باستحالة شبهه. فلولا وصف نفسه لعباده؛ لما أقدموا على وصفه. فهو كما وصف نفسه وأثنى على نفسه. وفوق ما يصفه الواصفون.

(١) **ومما** يدخل في هذا الباب: جمع الظلمات، وإفراد النور، وجمع سبل الباطل، وإفراد سبل الحق، وجمع الشمائل، وإفراد اليمين.

أما الأول فكقـوله: ﴿**الحمدُ للّهِ الذي خلَقَ السمواتِ والأرضَ وجعَلَ الظلماتِ والنورَ**﴾ [الأنعام: ١].

وأما الثاني فكقوله: ﴿**وَأَنَّ هذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفَرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيلِه**﴾[الأنعام: ١٥٣].

وأما الثالث فكقوله: ﴿**يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ اليَمِينِ والشَّمآئِلِ**﴾[النحل: ٤٨].

والجواب عنها يخرج من مشكاة واحدة؛ وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أن طريق الحق واحـد، وهـو علـى الواحـد الأحـد كما قـال تعالى: ﴿**هـذا صِـرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ**﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد: «الحق طريقه على الله ويرجع إليه، كما يقال: طريقك علي».

ونظيره قوله: ﴿**وعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ**﴾[النحل: ٩]. في أصح القولين.

أي: السبيل القصد، الذي يوصل إلى الله، وهي طريق عليه، قال الشاعر:

فهـن المنـايـا أي واد سلكنـه　　عليها طريقي أو عليّ طريقها

وقد قررت هذا المعنى، وبينت: شواهده من القرآن، وسر كون الصراط المستقيم على الله، وكونه تعالى على الصراط المستقيم، كما في قول هود: ﴿**إنَّ رَبِّي عَلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[هود: ٥٦] في كتاب (التحفة المكية)(٢).

والمقصـود: أن طريق الحق واحد؛ إذ مَرَدُّه إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة؛ فإنها لا ترجع إلى شيء موجود، ولا غاية لها يوصل إليها؛ بل هي بمنزلة بنيات الطريق، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود، فهي وإن تنوعت؛ فأصلها طريق واحد.

---

(١) ١١٩ بدائع جـ١.

(٢) المقصود به «مفتاح دار السعادة» كما أشرت في المقدمة (ج).

ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق؛ بل هما هما؛ أُفرد النور وجمعت الظلمات.

وعلى هذا جاء قوله: ﴿**الله وليُّ الَّذين آمنُوا يُخرجُهم من الظلمات إلى النُّورِ والَّذين كَفَرُوا أولِيَاؤُهم الطَّاغُوتُ يُخرجُونَهم من النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ**﴾[البقرة: ٢٥٧].

فوحد: ولي الذين آمنوا؛ وهو الله الواحد الأحد، وجمع: الذين كفروا؛ لتعددهم وكثرتهم، وجمع الظلمات؛ وهي طرق الضلال والغي؛ لكثرتها واختلافها، ووحد(١) النور؛ وهو دينه الحق وطريقه المستقيم، الذي لا طريق إليه سواه.

ولما كانت اليمين جهة الخير والفلاح وأهلها هم الناجون؛ أفردت، ولما كانت الشمال جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشمال؛ جمعت في قوله: ﴿**عن اليمين والشمائل**﴾ [النحل: ٤٨].

فإن قيل: فهلا كذلك في قوله: ﴿**وأَصحَابُ الشِّمالِ ما أصحابُ الشِّمالِ**﴾[الواقعة: ٤١] وما بالها جاءت مفردة؟.

قيل: جاءت مفردة؛ لأن المراد أهل هذه الجهة، ومصيرهم ومآلهم إلى جهة واحدة، وهي جهة الشمال، مستقر أهل النار، والنار من جهة الشمال؛ فلا يحسن مجيئها مجموعة؛ لأن الطرق الباطلة وإن تعددت فغايتها المرد إلى طريق الجحيم، وهي جهة الشمال. وكذلك مجيئها مفردة في قوله: ﴿**عَن اليَمِينِ وعن الشِّمالِ قَعِيدٌ**﴾[ق: ١٧]. لما كان المراد: أن لكل عبد قعيدين: قعيداً عن يمينه، وقعيداً عن شماله؛ يحصيان عليه الخير والشر؛ فلكل عبد من يختص بيمينه وشماله من الحفظة، فلا معنى للجمع ههنا.

وهذا بخلاف قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿**ثُمَّ لآتِينَّهم مِن بينِ أيْدِيهم ومِن خَلْفِهم وعَنْ أيْمانِهم وعَنْ شَمَائِلِهِمْ**﴾[الأعراف: ١٧]. فإن الجمع هنا في مقابلة كثرة من يريد إغواءهم، فكأنه أقسم أن يأتي كل واحد واحد: من بين يديه، ومن خلفه وعن يمينه، وعن شماله. ولا يحسن هنا: عن يمينهم، وعن شمالهم؛ بل الجمع ههنا من مقابلة الجملة بالجملة المقتضي توزيع الأفراد.

---

(١) يأتي ص ١١٣ ما هو شبيه بهذا البحث على قوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا..﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ج.

ونظيره ﴿**فَاغْسِلُوا وُجوهَكُم وأيْدِيكُم إلى المَرافِق**﴾[المائدة: ٦].

وقد قال بعض الناس: إن الشمائل إنما جمعت في الظلال، وأفرد اليمين؛ لأن الظل حين ينشأ أول النهار يكون في غاية الطول، يبدو كذلك ظلًا واحداً من جهة اليمين، ثم يأخذ في النقصان، وأما إذا أخذ في جهة الشمال؛ فإنه يتزايد شيئاً فشيئاً، والثاني منه غير الأول، فكلما[1] زاد منه شيئاً؛ فهو غير ما كان قبله؛ فصار كل جزء منه كأنه ظل؛ فحسن جمع الشمائل في مقابلة تعدد الظلال. وهذا معنى حسن....

[2]**وأما** الجعل فقد أطلق على الله سبحانه بمعنيين:

أحدهما: الإيجاد والخلق. والثاني: التصيير.

فالأول: يتعدى إلى مفعول كقوله: ﴿**وجعلَ الظلمات والنورَ**﴾ [الأنعام: ١].

والثاني: أكثر ما يتعدى إلى مفعولين كقوله ﴿**إنَّا جَعَلْناه قُرْآنًا عربيًّا**﴾[الزخرف: ٣].

وأطلق على العبد بالمعنى الثاني خاصة كقوله: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأ من الحَرثِ والأنعَام نَصِيبًا**﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وغالب ما يستعمل؛ في حق العبد في جعل التسمية والاعتقاد؛ حيث لا يكون له صنع في المجعول كقوله: ﴿**وجعلُوا الملائكَةَ الَّذِين هُم عِبادُ الرَّحمٰن إنَاثًا**﴾[الزخرف: ١٩] وقوله: ﴿**قُل أرأيتُم ما أنزَلَ الله لَكُم مِن رِزْقٍ فجعلتُم مِنْه حَرامًا وحَلالًا**﴾[يونس: ٥٩]. وهذا يتعدى إلى واحد، وهو جعل اعتقاد وتسمية.

وأما الفعل والعمل فإطلاقه على العبد كثير ﴿**لبئْسَ ما كَانُوا يَفْعَلُون**﴾[المائدة: ٧٩]. ﴿**لَبِئْسَ مَا كَانوا يعْمَلون**﴾ [المائدة: ٦٢] ﴿**بِمَا كُنتُم تَعْمَلُون**﴾ [الزخرف: ٧٢]. وأطلقه على نفسه فعلًا واسمًا:

فالأول: كقوله: ﴿**ويَفْعَلُ اللّهُ ما يشاءُ**﴾ [ابراهيم: ٢٧]. والثاني كقوله: ﴿**فعَّال لما يُريد**﴾[البروج: ١٦]، وقوله: ﴿**وكُنَّا فَاعِلين**﴾ في موضعين من كتابه:

أحدهما قوله: ﴿**وسَخَّرنا مع داود الجبَالَ يُسَبِّحنَ والطَّير وكُنَّا فَاعلِين**﴾ [الأنبياء: ٧٩]. والثاني قوله: ﴿**يومَ نَطْوي السَّماءَ كطَيِّ السجِل للكُتُبِ كما بدأنا أوَّلَ خَلقٍ نعيدُه وعدًا علينا إنا كُنَّا فَاعِلينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) في النسخة (فلما) ولعل الصواب ما أثبتناه. المراجع. (٢) ١٣٣ شفاء العليل.

فتأمل قوله: ﴿كنا فاعلين﴾ في هذين الموضعين المتضمنين للصنع العجيب الخارج عن العادة، كيف تجده: كالدليل على ما أخبر به؟! وأنه لا يستعصي على الفاعل حقيقة، أي: شأننا الفعل، كما لا يخفى الجهر والإسرار بالقول على من شأنه العلم والخبرة، ولا تصعب المغفرة على من شأنه أن يغفر الذنوب، ولا الرزق على من شأنه أن يرزق العباد. وقد وقع الزجاج على هذا المعنى بعينه فقال: ﴿وكنا فاعلين﴾ قادرين على فعل ما نشاء.

(١)**وتأمل** كيف أتت مجموعة في قوله تعالى: ﴿وهو اللَّهُ فِي السَّموات وفِي الأرض يَعْلمُ سِرَّكُم وجَهْركُم﴾[الأنعام: ٣]. فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة، وهي: تعلق الظرف بها في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية.

فالمعنى: وهو الإله، وهو المعبود في كل واحدة واحدة من السموات، ففي كل واحدة من هذا الجنس؛ هو المألوه المعبود.

فذكر الجمع هنا؛ أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد.

ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسننة؛ فسر الآية بما لا يليق بها، فقال: الوقف التام على السموات، ثم يبتدىء بقوله: ﴿وفي الأرض يعلمُ﴾ وغلط في فهم الآية، وأن معناها ما أخبرتك، وهو قول محققي أهل التفسير.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿أَلَم يرَوا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهم مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهم فِي الأرض ما لَم نُمكِّن لَكُم، وأرسَلْنا السَّماء عليْهم مِدْرارًا، وجَعَلْنَا الأنهارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهم، فأَهْلَكْنَاهم بِذُنُوبِهم، وأنشأنَا مِنْ بَعْدهم قرنًا آخرين﴾[الأنعام: ٦] فذكر سبحانه إهلاك مَن قبلنا من القرون، وبَيَّن أن ذلك كان لمعنى القياس، وهو ذنوبهم، فهم الأصل ونحن الفرع، والذنوب: العلة الجامعة، والحكم: الهلاك؛ فهذا محض قياس العلة.

...(٣)**فإن** المشركين قالوا تعنتاً في كفرهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِل عَلَيْهِ مَلكٌ﴾[الأنعام: ٨] يعنون: مَلَكا نُشاهده ونراه، يشهد له ويصدقه؛ وإلا فالملك كان ينزل عليه بالوحي من الله.

---

(١) ١١٦ بدائع جـ١. (٢) ١٣٤ أعلام جـ١. (٣) ٣٩٢ مدارج جـ٣.

فأجاب الله تعالى عن هذا، وبيَّن الحكمة في عدم إنزال الملك على الوجه الـذي اقترحوه: بأنه لو أنزل ملكاً ـ كما اقترحوا ـ ولم يؤمنوا ويصدقوه؛ لعوجلوا بالعذاب. كما جرت واستمرت به سنته تعالى مع الكفار في آيات الاقتراح، إذا جاءتهم ولم يؤمنـوا بها. فقـال: ﴿**وَلَوْ أَنْزَلنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأمرُ ثُمَّ لا يُنظَرون**﴾ [الأنعـام: ٨]. ثم بين سبحـانـه: أنـه لو أنـزل ملكـاً ـ كما اقترحوا ـ لما حصل به مقصودهم؛ لأنه إن أنزله في صورته لم يقدروا على التلقي عنه؛ إذ البشر لا يقدرون على مخاطبة الملك ومباشرته، وقد كان النبي، ﷺ ـ وهو أقوى الخلق ـ، إذا نزل عليه الملك: كُرِب لذلك، وأخذه البُرَحاء، وتَحَدَّر منه العرق في اليوم الشاتي. وإن جعله في صورة رجل: حصل لهم لبس: هل هو رجل، أم ملك؟ فقال تعالى: ﴿**وَلَـو جَعَلْنَـاه مَلَكـا لَجَعَلْنَـاه رَجُـلاً ولَلَبَسْنَـا عَلَيْهِم**﴾ في هذه الحـال ﴿**مـا يلبِسُون**﴾[الأنعام: ٩] على أنفسهم حينئذ. فإنهم يقولون ـ إذا رأوا الملك في صورة الإنسان ـ:هذا إنسان، وليس بملك. فهذا معنى الآية. . .

...(١)**قالوا**(٢) ﴿**لولاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ؟**﴾ [الأنعام: ٨]. أي: نعاينه ونراه. وإلا فالملك لم يزل يأتيه من عند الله بأمره ونهيه. فهم اقترحوا نزول ملك يعاينونه. فأخبر سبحانه عن الحكمة التي لأجلها: لم يجعل رسوله إليهم من الملائكة، ولا أنزل ملكاً يرونه؛ فقال: ﴿**ولَوْ أنزلْنا ملَكًا لَقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُون**﴾ [الأنعام: ٨] أي: لوجب العذاب، وفُرغ من الأمر، ثم لا يمهلون إن أقاموا على التكذيب.

وهذا نظير قوله في سورة الحجر: ﴿**وقَالُوا يَا أَيُّها الَّذِي نُزِّل عَليهِ الذِّكرُ إنَّك لَمَجْنُون لَو مَا تأْتِينَا بالملائِكَة إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [الحجر: ٦، ٧]. قال الله عز وجل: ﴿**ما نُنزِّل الملائِكَةَ إلاَّ بالحَقِّ ومَا كَانُوا إذًا مُنْظَرِينَ**﴾ [الحجر: ٨]. و«الحق» ههنا العذاب. ثم قال: ﴿**ولَوْ جعلْنَاه مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً**﴾ [الأنعام: ٩]. أي: لو أنزلنا عليهم ملكا لجعلناه في صورة آدمي؛ إذ لا يستطيعون التلقي عن الملك في صورته التي هو عليها؛ وحينئذ فيقع اللبس منا عليهم؛ . لأنهم لا يدرون: أرجل هو، أم ملك؟ ولو جعلناه رجلاً لخلطنا عليهم، وشبهنا عليهم الذي طلبوه بغيره.

(١) ٢٤٥ مدارج جـ١ .　　　(٢) قالوا: أي الكفار.

وقوله: ﴿ما يلبسون﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه جزاء لهم على لَبْسهم على ضعفائهم. والمعنى: أنهم شبهوا على ضعفائهم، ولَبَّسوا عليهم الحق بالباطل؛ فشُبِّه عليهم، وتلبس عليهم الملك بالرجل.

والثاني: أنه لبس عليهم ما لَبسوا على أنفسهم، وأنهم خلطوا على أنفسهم، ولم يؤمنوا بالرسول منهم، بعد معرفتهم صدقه، وطلبوا رسولاً ملكيًّا يعاينوه. وهذا تلبيس منهم على أنفسهم. فلو أجبناهم إلى ما اقترحوه؛ لم يؤمنوا عنده؛ وللبسنا عليهم لَبْسهم على أنفسهم.

(١)**الرضى** بالله ربًّا: أن لا يتخذ رَبًّا غير الله تعالى: يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه. قال الله تعالى: ﴿**قل أغير الله أبغي ربًّا وهو رب كل شيء**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيدًا وإلهًا. يعني: كيف أطلب ربًّا غيره وهو رب كل شيء؟! وقال في أول السورة: ﴿**قُل أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوات والأرض**﴾ [الأنعام: ١٤]. يعني: معبوداً وناصراً ومعينا وملجأ. وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿**أفغَيْرَ اللَّهِ أبتغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أنْزَلَ إلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً**﴾ [الأنعام: ١١٤]. أي: أفغير الله أبتغي مَن يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؛ وقد أنزله مفصَّلا، مبيناً كافياً شافياً؟!.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل؛ رأيتها هي نفس الرضى بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد، ﷺ، رسولاً؛ ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتقًّا منها. فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا، ولا يبغي ربًّا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصراً؛ بل يوالي من دونه أولياء؛ ظنًّا منه: أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك؛ بل التوحيد؛ أن لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين: بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه. فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما؛ فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

(١) ١٨١ مدارج جـ٢.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً: يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربًّا، ولا إلهاً، ولا غيره حكماً.

وتفسير الرضى بالله ربًّا: أن يسخط عبادة مادونه. هذا هو الرضى بالله إلهاً. وهو من تمام الرضى بالله ربًّا. فمن أعطى الرضى به ربًّا حقه سخط عبادة ما دونه قطعًا؛ لأن الرضى بتجريد ربوبيته؛ يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية؛ يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

(1)**قوله** تعالى: ﴿**قُلْ أيُّ شيْءٍ أكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهُ شَهيدٌ بَيْني وبَيْنَكُم**﴾ [الأنعام: ١٩] المراد بالآية: شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته، فإن المشركين قالوا لرسول الله، ﷺ: من يشهد لك على ما تقول؟ فأنزل الله سبحانه آيات: شهادته له، وشهادة ملائكته، وشهادة علماء أهل الكتاب به؛ فقال تعالى: ﴿**قُلْ كَفى باللهِ شَهيدًا بَيْني وبَيْنَكُمْ ومَنْ عِنْدَه عِلْمُ الكِتاب**﴾ [الرعد: ٤٣] أي: ومن عنده علم الكتاب يشهد لي وشهادته مقبولة؛ لأنها شهادة بعلم.

قال الله تعالى: ﴿**لكِن اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزلَ إلَيْكَ أَنْزَلَه بعِلْمِه، والمَلائِكَةُ يَشْهَدون، وكَفَى بالله شَهيداً**﴾ [النساء: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿**قُلْ أَيُّ شيْءٍ أكبَرُ شَهادَةً قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْني وبَيْنَكُم**﴾، فأخبر سبحانه في هذه المواضع بشهادته لرسوله، وكفى بشهادته إثباتاً لصدقه، وكفى به شهيداً. فإن قيل: وما شهادته لرسوله؟

قيل: هي ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصدقه، بعد العلم بها ضرورة، فدلالتها على صدقه؛ أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق، فشهادته سبحانه لرسوله: أصدق شهادة، وأعظمها، وأدلها على ثبوت المشهود به. فهذا وجه. ووجه آخر: أنه: صدقه بقوله، وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه. فإذا أخبر عنه أنه شهد له قولاً؛ لزم ضرورة صدقه في ذلك الخبر، وصحت الشهادة له به قطعاً...

...**ونظير** هذا استشهادهم بقوله تعالى: ﴿**وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أنْتُم ولا**

(١) ٣٣٨ طريق الهجرتين.

آباؤكم **﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾**[الأنعام: ٩١] حتى رتب على ذلك بعضهم: أن الذكر بالاسم المفرد وهو «الله، الله» أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» وهذا فاسد مبنيّ على فاسد. فإن الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلاً، ولا مفيد شيئًا، ولا هو كلام أصلاً، ولا يدل على مدح ولا تعظيم، ولا يتعلق به إيمان، ولا ثواب، ولا يدخل به الذاكر في عقد الإسلام جملة، فلو قال الكافر: «الله، الله» من أول عمره إلى آخره؛ لم يصر بذلك مسلمًا؛ فضلاً عن أن يكون من جملة الذكر، أو يكون أفضل الأذكار.

وبالغ بعضهم في ذلك حتى قال: الذكر بالاسم المضمر؛ أفضل من الذكر بالاسم الظاهر! فالذكر بقوله: «هو، هو» أفضل من الذكر بقولهم: «الله، الله».

وكل هذا من أنواع الهوس والخيالات الباطلة، المفضية بأهلها إلى أنواع من الضلالات، فهذا فساد هذا البناء الهائر.

وأما فساد المبني عليه؛ فإنهم ظنوا أن قوله تعالى: **﴿قُلِ اللّهُ﴾** أي: **قل هذا** الاسم، فقل: الله، الله. وهذا من عدم فهم القوم لكتاب الله، فإن اسم الله هنا؛ جواب لقوله: **﴿قُل مَن أنزَلَ الكِتابَ الذِي جاءَ به مُوسَى نُورًا وهُدًى للنَّاسِ، تَجعلُونَه قَراطِيسَ تُبدُونها وتُخْفُون كَثيراً﴾** [الأنعام: ٩١] إلى أن قال: **﴿قُلِ اللّهُ﴾** أي: قل: الله أنزله. فإن السؤال معاد في الجواب فيتضمنه؛ فيحذف اختصاراً كما يقول: من خلق السموات والأرض؟ فيقال: الله. أي: الله خلقهما، فيحذف الفعل لدلالة السؤال عليه. فهذا معنى الآية الذي لا تحتمل غيره!(١)

(٢)**الخامس** والأربعون: أن الله سبحانه؛ إنما أقام الحجة على خلقه بكتابه ورسله، فقال تعالى: **﴿تبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلى عَبدِه ليَكونَ للعَالمين نَذِيراً﴾** [الفرقان: ١] وقال تعالى: **﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾** [الأنعام: ١٩] فكل من بلغه هذا القرآن؛ فقد أنذر به وقامت عليه حجة الله.

وقال تعالى: **﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾** [النساء: ١٦٥]. وقال تعالى: **﴿وما كُنا مُعَذِّبينَ حتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾** [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: **﴿كُلَّما أُلقِي فيها فَوْجٌ سَأَلهم خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُم نَذِيرٌ قَالُوا**

---

(١) تطرق لهذه المسألة في آخر رسالته العبودية بما يزيدها وضوحًا (ج). (٢) ١١٦ مختصر الصواعق جـ١.

بلى قد جاءنا نذير فكذّبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلاَّ في ضلال كبير وقالوا لو كنَّا نسمع أو نعقل ما كنَّا في أصحاب السَّعير﴾ [الملك: ٨ ـ ١١]. فلو كان كلام الله ورسوله لا يفيد اليقين والعلم، والعقل معارض له؛ فأي حجة تكون قد قامت على المكلفين بالكتاب والرسل؟ وهل هذا القول إلا مناقض لإقامة حجة الله بكتابه من كل وجه؟!.

(١)**قال** تعالى: **﴿وَأُوحِي إليَّ هذا القُرآنُ لأُنذِرَكُم به وَمَنْ بَلَغَ﴾** [الأنعام: ١٩]

أي: ومن بلغه القرآن، فكل من بلغه القرآن وتمكن من فهمه؛ فهو منذر به. والأحاديث التي رويت في امتحان الأطفال والمعتوهين والهالك في الفترة؛ إنما تدل على امتحان من لم يعقل الإسلام، فهؤلاء يدلون بحجتهم أنهم: لم تبلغهم الدعوة، ولم يعقلوا الإسلام.

ومن فهم دقائق الصناعات والعلوم؛ لا يمكنه أن يدل على الله بهذه الحجة. وعدم ترتيب الأحكام عليهم في الدنيا قبل البلوغ؛ لايدل على عدم ترتبها عليهم في الآخرة، وهذا القول هو المحكي عن أبي حنيفة وأصحابه، وهو في غاية القوة.

(٢)**قال** تعالى: **﴿ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا يا ليتنا نردُّ ولا نكذبَ بآياتِ ربِّنا ونكونَ من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يُخْفُون من قبلُ ولو ردُّوا لعادوا لما نهو عنه وإنَّهم لكاذبون﴾** [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا. فراجع أقوالهم؛ تجدها: لا تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً. ومعناها أجلّ وأعظم مما فسروها به، ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببل، ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه، وظنوا أن الذي بدالهم العذاب، فلما لم يروا ذلك ملتئماً مع قوله: **﴿ما كانوا يخفون من قبلُ﴾**؛ قدروا مضافاً محذوفاً، وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل؛ فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه، وهو: أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم؛ بل كانوا يظهرونه، ويدعون إليه، ويحاربون عليه. ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا: إن القوم في بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وحجدوه وقالوا: **﴿واللّهِ ربنا ما كنا مشركين﴾**

---

(١) ١٧٩ التحفة. (٢) ١٩٨ عدة الصابرين.

[الأنعام: ٢٣]. فلما وقفوا على النار؛ بدا لهم جزاء ذلك الذي أخفوه.

قال الواحدي: وعلى هذا أهل التفسير، ولم يصنع أرباب هذا القول شيئًا؛ فإن السياق والإضراب ببل، والإخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وقولهم: ﴿**والله ربِّنا ما كنا مشركين**﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ لا يلتئم بهذا الذي ذكروه فتأمله.

وقالت طائفة منهم الزجاج: بل بدا للأتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث. وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، وفيه من التكلف ما ليس بخافٍ.

وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال: كأن كفرهم لم يكن باديًا لهم؛ إذ خفيت عليهم مضرته.

ومعنى كلامه: أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفيًّا عنهم؛ لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينوا العذاب؛ ظهرت لهم حقيقته وشره.

قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته في أمر قبل: قد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك. وقد كان ظاهراً له قبل.

هذا ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم، الذي كانوا ينادون به على رءوس الأشهاد، ويدعون إليه كل حاضر وباد؛ بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم، ولا يقال لمن أظهر الظلم والفساد وقَتْلَ النفوس والسعي في الأرض بالفساد: أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه.

فمعنى الآية - والله أعلم بما أراد من كلامه -: أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها؛ تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله.

فأخبر سبحانه: أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس في طبائعهم وسجاياهم الإيمان؛ بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردوا؛ لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله. وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم: أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها؛ تبين لك معنى الإضراب ببل، وتبين معنى الذي بدا لهم، والذي كانوا يخفونه، والحامل لهم على قولهم: ﴿**يا ليتنا نردُّ ولا نكذبَ بآياتِ ربِّنا**﴾ [الأنعام: ٢٧]. فالقوم كانوا يعلمون: أنهم كانوا في الدنيا على باطل، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه؛ ولكنهم أخفوه ولم يظهروه

بينهم؛ بل تواصوا بكتمانه، فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان؛ معرفة مالم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم: أنهم على باطل، وأن الرسل على الحق؛ فعاينوا ذلك عيانا بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه، فلو ردوا؛ لما سمحت نفوسهم بالإيمان؛ ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل؛ وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باجتياله. وهذا كمن كان يخفى محبة شخص ومعاشرته، وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد في عدوله عنه، فقيل له: إن اطلع عليه وليه عاقبك، وهو يعلم ذلك ويكابر، ويقول: بل محبته ومعاشرته هي الصواب، فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة؛ تمنى أن يعفى من العقوبة، وأنه لا يجتمع به بعد ذلك؛ وفي قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة، بل بعد أن مسته وأنهكته فظهر له عند العقوبة ما كان يخفي من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه، ولو رد؛ لعاد لما نهي عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى وهو نفي قولهم: إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا؛ لأنه ظهر لنا الآن أن ما قالت الرسل هو الحق، أي: ليس كذلك بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه، وكنتم تخفونه فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا؛ بل ظهر لكم ما كان معلومًا وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه. والله أعلم.

(١)**قالوا**: ويكفي في هذا إخباره تعالى عن الكفار؛ أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل: ﴿**يا ليتنا نُردُّ ولاَ نُكذبَ بآياتِ ربِّنا وَنَكُونَ من المُؤمنين بل بدَا لَهُم ما كانوا يُخفون من قبلُ ولَو رُدُّوا لعَادُوا لِمَا نُهوا عنْهُ وإنَّهُم لكَاذِبُونَ**﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]. فأي علم أبينَ من علم من ورد القيامة ورأى ما فيها، وذاق عذاب الآخرة، ثم لو رُدَّ إلى الدنيا؛ لاختار الضلال على الهدى، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ أنَّنا نزلنا إليهم المَلاَئكةَ وكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وحَشَرْنَا عَلَيْهم كلَّ شيْءٍ قُبُلًا ما كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إلا أنْ يَشَاءَ اللّهُ ولَكِن أكْثَرَهُم يَجْهَلُون**﴾ [الأنعام: ١١١]. فهل بعد: نزول الملائكة عيانًا، وتكليم

(١) **٩٣** مفتاح جـ١.

الموتى لهم، وشهادتهم للرسول بالصدق، وحشر كل شيء في الدنيا عليهم؛ من بيان وإيضاح للحق وهدى؟! ومع هذا: فلا يؤمنون، ولا ينقادون للحق، ولا يصدقون الرسول. ومن نظر في سيرة رسول الله، ﷺ، مع قومه ومع اليهود؛ علم أنه كانوا جازمين بصدقه، ﷺ، لا يشكون أنه صادق في قوله: إنه رسول الله؛ ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان.

قال المسور بن مخرمة رضي الله عنه لأبي جهل - وكان خاله -: أي خال! هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته التي قالها؟ قال أبو جهل - لعنه الله تعالى -: يا ابن أخي، والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى: الأمين. ما جربنا عليه كذباً قط؛ فلما وخطه الشيب؛ لم يكن ليكذب على الله. قال: يا خال! فلم لا تتبعونه؟ قال: يا ابن أخي تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، فلما تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي. فمتى ندرك هذه؟

وهذا أمية بن أبي الصلت كان ينتظره يوماً بيوم، وعلمه عنده قبل مبعثه. وقصته مع أبي سفيان لما سافرا معًا معروفة، وأخباره برسول الله، ﷺ. ثم لما تيقنه وعرف صدقه قال: لا أؤمن بنبي من غير ثقيف أبداً.

وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله، ﷺ، ولم يشك فيه؛ وآثر الضلال والكفر استبقاء لملكه.

ولما سأله(١) اليهود عن التسع آيات البينات فأخبرهم بها؛ قبلوا يده وقالوا: نشهد أنك نبي. قال: «فما يمنعكم أن تتبعوني؟» قالوا: إن داود عليه السلام دعا: أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخشى إن اتبعناك أن تقتلنا يهود.

فهؤلاء قد تحققوا نبوته وشهدوا له بها، ومع هذا فآثروا الكفر والضلال ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة.

فقيل: لا يصير الكافر مسلماً بمجرد شهادة: أن محمداً رسول الله، ﷺ، حتى يشهد لله بالوحدانية، وقيل: يصير بذلك مسلماً، وقيل: إن كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود؛ صار مسلماً بذلك. وإن كان كفره بالشرك مع ذلك؛ لم

(١) الهاء هنا عائد على الرسول ﷺ.

يصر مسلماً إلا بالشهادة بالتوحيد كالنصارى والمشركين، وهذه الأقوال الثلاثة في مذهب الإمام أحمد وغيره. . .

[1]**فصل** وأما الفتون؛ فهو مصدر فتنه يَفْتِنُه فُتُوناً. قال الله تعالى: ﴿وفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾[طه: ٤٠] أي: امتحنَّاك واختبرناك. والفِتْنة يقال على ثلاثة معان:

أحـدهـا: الامتحـان والاختبـار ومنـه قولـه تعـالى: ﴿إنْ هِيَ إلَّا فِتْنَتُك﴾[الأعراف: ١٥٥] أي: امتحانك واختبارُك.

والثـاني: الافتتـان نفسه، يقال: هذه فِتْنَة فلان أي: افْتتانُه. ومنه قوله تعالى: ﴿واتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] يقال: أَصَابته الفِتْنة، وفَتَنَته الدنيا، وفتنته المرأةُ وأفتنته، قال الأعشى:

لئـن فَتَنَتْني لَهِيَ بالأمسِ أَفتنت سعـيداً فأَضْحى قد قَلىٰ كل مسلم

وأنكر الأصمعي أفتنته.

والثـالث: المفتـون به نفسـه، يُسمى فتنـةً، قال الله تعـالى: ﴿إنَّـما أَمْوَالُكُم وأَوْلَادُكُم فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهم إلَّا أَنْ قَالُوا واللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أي: لم تكن عاقبة شركهم؛ إلا أن تبرءوا منه وأنكروه. وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. ذُوقُوا فِتْنَتَكُم﴾ [الذاريات: ١٤] فقيل: المعنى: يحرقون، ومنه: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظرَ ما جَوْدَته؟، ودينارٌ مفتون.

قال الخليل: والفَتْن: الإحراق؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم عَلَى النَّار يُفْتَنُونَ﴾ وورقٌ فَتِينٌ، أَي: فضةٌ مُحْرَقَة. وافْتُتِن الرجل، وفُتِن؛ إذا أَصابته فتنةٌ؛ فذهب مالُه أو عقلُه. وفتنتـهُ المـرأةُ إذا ولَّهته، وقوله تعالى: ﴿فإنَّكُمْ ومَا تَعْبُدُون مَا أَنْتُم عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصآفات: ١٦١-١٦٣] أَي: لا تفتنون عَلَى عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم. فذلك الذي يفتتن بفتنتكم إياه. وأما قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ ويُبْصِرُونَ بأَيِّكُم الْمَفْتُونُ﴾[القلم: ٥، ٦] فقيل: الباء زائدة.

وقيل: المفتون مصدر: كالمعقول، والميسور، والمحلوف، والمعسور.

---

(١) ٤٧ روضة.

والصواب: أنّ يُبْصر؛ مُضمَّنٌ معنى يَشْعُر ويعلم، قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الَّذِي خَلَقَ السَّموٰاتِ والأرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤمِنِ يَسَعُهُمَا المَاءُ وَالشَّجَرُ ويتَعَاوَنَانِ عَلَى الْفَتَّانِ» يُروى بفتح الفاء وهو واحدٌ، وبضمها وهو جمعُ فاتنٍ كتاجرٍ وتُجّار، والمقصود: أن الحب موضع الفتون، فما فُتن من فتن؛ إلا بالمحبة.

(١)**وقال** تعالى لرسوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُم لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] يعني: أنهم قد عرفوا صدقك، وأنك غير كاذب فيما تقول؛ ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون. قال قتادة: يعلمون أنك رسول؛ ولكن يجحدون. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُم ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللّهِ وأَنْتُمْ تَشْهَدُون*يا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمون الحَقَّ وأَنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠، ٧١] يعني: تكفرون بالقرآن وبمن جاء به، وأنتم تشهدون: بصحته، وبأنه الحق. فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود، لا عن جهل وخفاء.

وقال تعالى عن السحرة من اليهود: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاه مَالَه في الآخرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: علموا من أخذ السحر وقَبِلَهُ؛ لا نصيب له في الآخرة، ومع هذا العلم والمعرفة؛ فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه.

وقال تعالى: ﴿الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَه كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب: في القبلة كما في سورة البقرة.

وفي التوحيد، كقوله في الأنعام: ﴿أئِنَّكُم لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لاَ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ واحِدٌ وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ يَعْرِفُونَه كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٩، ٢٠]. وفي الكتاب أنه منزل من عند الله، لقوله تعالى: ﴿والَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾[الأنعام: ١١٤]. . . (٢)

---

(١) ٩١ مفتاح جـ١.

(٢) يأتي أصل هذا البحث في سورة طه بكامله إن شاء الله تعالى. ج.

...(١) **قال** تعالى: ﴿**أفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فنزه نفسه عن هذا الحسبان؛ فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع، كما هو أصح الطريقين في ذلك.

ومن فهم هذا؛ فهم سر اقتران قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ [الأنعام: ٣٨] بقوله: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الأنعام: ٣٧] وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه؛ بل جعلها أممًا، وهداها إلى غاياتها ومصالحها؛ كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟ فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

ومن(٢) ذلك قوله: ﴿**وقَالُوا لوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيةٌ من ربِّه قلْ إنَّ اللَّهَ قادرٌ على أن ينزِّلَ آيةً ولكنَّ أكْثرَهُمْ لَا يَعْلَمُون**﴾ أي: لا يعلمون حكمته تعالى، ومصلحة عباده في الامتناع من إنزال الآيات التي يقترحها الناس على الأنبياء. وليس المراد: أن أكثر الناس لا يعلمون أن الله قادر؛ فإنه لم ينازع في قدرة الله أحد من المقرين بوجوده سبحانه؛ ولكن حكمته في ذلك لا يعلمها أكثر الناس.

(٣)**قوله** سبحانه: ﴿**وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إلى ربهم يُحْشَرُونَ والذينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأ الله يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**﴾ [الأنعام: ٣٨، ٣٩] وقد قال النبي، ﷺ: «**لولا أن الكلاب أمة من الأمم؛ لأمرت بقتلها**» وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون إخباراً عن أمر غير ممكن فعله، وهو أن الكلاب أمة لا

= وهو موجود في سورة البقرة، والقصص بتفصيل موسع حول خطاب الله لأهل الكتاب ذمًّا ومدحًا.

(١) ٣٥ بدائع جـ٢. (٢) ١٩٧ شفاء.

(٣) ٧٧ شفاء.

يمكن إفناؤها؛ لكثرتها في الأرض، فلو أمكن إعدامها من الأرض؛ لأمرت بقتلها.

والثاني: أن يكون مثل قوله: «**أَمِنْ أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح**» فهي أمة مخلوقة بحكمة ومصلحة؛ فإعدامها وإفناؤها؛ يناقض ما خلقت لأجله. والله أعلم بما أراد رسوله.

قال ابن عباس في رواية عطاء: ﴿**إلا أمم أمثالكم**﴾ يريد: يعرفونني، ويوحدونني، ويسبحونني، ويحمدونني مثل قوله تعالى: ﴿**وإن مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء: ٤٤] ومثل قوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوٰاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ**﴾ [النور: ٤١].

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّموٰاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ والشَّمْسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوآبُّ**﴾ [الحج: ١٨]. وقوله: ﴿**ولِلّهِ يسجدُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ مِنْ دَآبَّةٍ**﴾ [النحل: ٤٩] ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ والطَّيرَ**﴾ [سبأ: ١٠]. ويدل عليه قوله: ﴿**وأوحى ربُّكَ إِلَى النَّحْلِ**﴾ [النحل: ٦٨] وقوله: ﴿**قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ**﴾ [النمل: ١٨] وقول سليمان: ﴿**علِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ**﴾ [النمل: ١٦].

وقال مجاهد: أمم أمثالكم، أصناف مصنفة، تعرف بأسمائها.

وقال الزجاج: أمم أمثالكم في أنها تبعث.

وقال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في: طلب الغذاء، وابتغاء الرزق، وتوقي المهالك.

وقال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدمي؛ إلا وفيه شبه من البهائم: فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب. ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقي إليها الطعام الطيب؛ عافته، فإذا قام الرجل عن رجيعه؛ ولغت فيه. فلذلك تجد من الأدميين من لو سمع خمسين حكمة؛ لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل ترواه وحفظه.

قال الخطابي: ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية، واستنبط منها هذه الحكمة، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعًا لظاهره؛ وجب المصير إلى باطنه.

وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودآبة، وذلك ممتنع من جهة: الخلقة، والصورة، وعدم من جهة: النطق، والمعرفة؛ فوجب أن يكون منصرفاً إلى المماثلة في الطباع والأخلاق.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فاعلم أنك إنما تعاشر البهائم والسباع؛ فليكن حذرك منهم ومباعدتك إياهم على حسب ذلك. انتهى كلامه.

والله سبحانه قد جعل بعض الدواب كسوبًا محتالاً، وبعضها متوكلاً غير محتالٍ، وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقاً مضموناً وأمراً مقطوعاً، وبعضها يدخر، وبعضها لا تكسب له، وبعض الذكورة يعول ولده، وبعضها لا يعرف ولده ألبتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه، وبعضها تضع ولدها وتكفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها، وبعضها لاتزال تعرفه وتعطف عليه. . .

(١)**قال** تعالى: **﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾**[الأنعام: ٣٨].

وقد اختلف في الكتاب ههنا: هل هو القرآن أو اللوح المحفوظ؟ على قولين:

فقالت طائفة: المراد به: القرآن، وهذا من العام المراد به الخاص: أي ما فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه، كقوله: **﴿وَنَزَّلْنَا عليك الْكِتَاب تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾** [النحل: ٨٩]. ويجوز أن يكون من العام المراد به عمومه، والمراد: إن كل شيء ذكر فيه مجملاً ومفصلاً، كما قال ابن مسعود، وقد لعن الواصلة والمستوصلة،: مالي لا ألعن من لعنه الله في كتابه؟ فقالت امرأة: لقد قرأت القرآن فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه(٢) قال تعالى: **﴿مَا آتَاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾** [الحشر: ٧] ولعن رسول الله ﷺ، الواصلة والمستوصلة. وقال الشافعي: ما نزل بأحدٍ من المسلمين نازلة؛ إلا وفي كتاب الله سبيل الدلالة عليها.

وقالت طائفة: المراد بالكتاب في الآية: اللوح المحفوظ، الذي كتب الله فيه كل شيء، وهذا إحدى الروايتين عن ابن عباس، وكان هذا القول أظهر في

---

(١) ٤٠ شفاء.

(٢) في المطبوعة «وجدته» والصواب ماأثبتناه. المراجع.

الآية، والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾. وهذا يتضمن: أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل والتقدير الأول، وأنها لم تخلق سدى؛ بل هي معبدة مذللة قد قدر خلقها وأجلها ورزقها وما تصير إليه.

ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها، ثم قال: ﴿إلى ربهم يُحشَرُونَ﴾ فذكر مبدأها ونهايتها، وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: ﴿ما فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] أي: كلها قد كتبت وقدّرت وأحصيت، قبل أن توجد، فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي؛ وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول.

ولمن نصر القول الأول؛ أن يجيب عن هذا: بأن في ذكر القرآن ههنا الإخبار عن تضمنه لذكر ذلك والإخبار به فلم نفرط فيه من شيء؛ بل أخبرناكم بكل ما كان وما هو كائن: إجمالاً، وتفصيلاً.

ويرجحه أمر آخر وهو: أن هذا ذكر عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا لولاَ نُزِّلَ عَلَيهِ آيَةٌ من ربِّه قلْ إنَّ اللّهَ قادرٌ عَلَى أن يُنزلَ آيةً ولكنَّ أكثرَهُم لا يعلمون﴾ [الأنعام: ٣٧].

فنبههم على أعظم الآيات وأدلها على صدق رسول الله، ﷺ، وهو الكتاب الذي يتضمن بيان كل شيء، ولم يفرط فيه من شيء.

ثم نبههم بأنهم أمة من جملة الأمم التي في السموات والأرض، وهذا يتضمن؛ التعريف: بوجود الخالق وكمال قدرته وعلمه وسعة ملكه، وكثرة جنوده، والأمم التي لا يحصيها غيره، وهذا يتضمن: أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وأنه رب العالمين. فهذا دليل على وحدانيته وصفات كماله من جهة خلقه وقدره، وإنزال الكتاب الذي لم يفرط فيه من شيء دليل من جهة أمره وكلامه، فهذا استدلال بأمره، وذاك بخلقه. ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين؟!

وشهد لهذا أيضاً قوله: ﴿وقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَات مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِين،أو لم يكفِهِم أنا أَنزلنا عليك الكتابَ يتلى عليهم إن في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

ولمن نصر: أن المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ؛ أن يقول: لما سألوا آية أخبرهم سبحانه بأنه لم يترك إنزالها لعدم قدرته على ذلك؛ فإنه قادر على ذلك؛

وإنما لم ينزلها لحكمته ورحمته بهم وإحسانه إليهم؛ إذ لو أنزلها على وفق اقتراحهم؛ لعوجلوا بالعقوبة إن لم يؤمنوا.

ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته بخلق الأمم العظيمة، التي لا يحصي عددها إلا هو، فمن قدر على خلق هذه الأمم مع اختلاف أجناسها وأنواعها وصفاتها وهيئاتها؛ كيف يعجز عن إنزال آية؟!

ثم أخبر عن كمال قدرته وعلمه: بأن هؤلاء الأمم قد: أحصاهم، وكتبهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم؛ في كتاب لم يفرط فيه من شيء، ثم يميتهم، ثم يحشرهم إليه ﴿**والـذِينَ كذَّبُوا بآيَاتِنَا صُمٌّ وبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ**﴾ [الأنعام: ٣٩]. عن النظر والاعتبار، الذي يؤديهم إلى معرفة ربوبيته ووحدانيته وصدق رسله.

ثم أخبر أن الآيات؛ لا تستقل بالهدى؛ ولو أنزلها على وفق اقتراح البشر؛ بل الأمر كله له ﴿**مَنْ يَشَأ اللَّهُ**[1] **يُضْلِلهُ وَمَنْ يَشَأ يَجْعَلهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الأنعام: ٣٩] فهو أظهر القولين. والله أعلم.

...[2]**قوله** تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أمَمٌ أمْثَالُكُمْ**﴾ [الأنعام: ٣٨]. قال: منهم: من يكون على أخلاق السباع العادية. ومنهم: من يكـون على أخـلاق الكـلاب، وأخلاق الخنازير، وأخلاق الحمير. ومنهم: من يتطوس في ثيابه، كما يتطوس الطاووس في ريشه. ومنهم: من يكون بليداً كالحمار. ومنهم من يؤثـر على نفسـه كالديك. ومنهم: من يألف ويؤلف كالحمام. ومنهم الحقود كالجمل. ومنهم: الذي هو خير كله كالغنم. ومنهم أشباه الثعالب تروغ كروغانها.

وقـد شبـه الله تعـالى أهـل الجهل والغي: بالحمر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة. وتقوى هذه المشابهة باطنًا؛ حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفيًا يراه المتفرسون، وتظهر في الأعمال ظهوراً يراه كل أحد. ولا يزال يقوى؛ حتى تعلو الصورة فتنقلب له الصورة بإذن الله وهو المسخ التام، فيقلب الله سبحانه وتعـالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير. . .

(١) لفظ الجلالة غير موجود بالنسخة. وقد أثبتناه من المصحف. (٢) ١٦٠ الجواب الكافي.

(١)**قال** الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان: حدثنا رشدين(٢) بن سعد، عن حرملة بن عمران التجيبي، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي، ﷺ، قال: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه وما يحب؛ فإنما هو استدراج**» ثم تلا قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ الآية. [الأنعام: ٤٤].

(٣)**قوله** تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾ [الأنعام: ٤٤]. وهذا من أعظم الغرة: أن تراه يتابع عليك نعمه، وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور. وطبع النفس الأمارة الاغترار. فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحتاج(٤) والشيطان الغرور، والنفس المغترة؛ لم يقع هناك خلاف، فالشياطين غروا المغترين بالله، وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه، في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويف؛ حتى هجم الأجل؛ فأخذوا على أسوأ أحوالهم.

وقال تعالى: ﴿**وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾ [الحديد: ١٤]. وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾ [فاطر: ٥]. وأعظم الناس غرور بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل ﴿**لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي**﴾ [فصلت: ٥٠] أي: أنا أهله، وجدير به، ومستحق له، ثم قال: ﴿**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**﴾ فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره فقال: ﴿**وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى**﴾ يعني: الجنة والكرامة. فهكذا تكون الغرة بالله. فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك؛ حتى يتردى في آبار الهلاك.

(٥)**وقد** أخبر تعالى أن تسليط الشيطان؛ إنما هو على الذين يتولونه، والذين

---

(١) ٢١٧ عدة الصابرين.
(٢) بالنسخة (رشد) والصواب ما أثبتناه من المسند. المراجع.
(٣) ٢٩٨ الروح.
(٤) لعله المحجاج.
(٥) ٣٢٧ مختصر الصواعق جـ١.

هم به مشركـون. فلما تولـوه دون الله وأشركوه معه؛ عوقبوا على ذلك بتسليطه عليهم. وكانت هذه الأولوية والإشراك؛ عقوبة خلو القلب وفراغه من الإخلاص والإنـابـة العـاصمة من ضدها. فقد بين أن إخلاص الدين يمنع من سلطان الشيطان؛ لأن فعل السيئات توجب العذاب. فإخلاص القلب لله؛ مانع له من فعـل ما يضـاده، وإلهـامه البر والتقوى؛ ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته. وإلهام الفجور؛ عقوبة خلوه من الإخلاص. فإن قلت: هذا الترك إن كان أمرًا وجوديًّا عاد السؤال، وإن كان أمرًا عدميًّا فكيف يعاقب على العدم؟

قلت(١): ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه؛ فهذا قد يقال: إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو عن أسباب الخير، وهذا العدم ليس بكف للنفس ومنع لها عما تريده وتحبه؛ بل هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها. والعقوبة على الأمر العدمي؛ هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل. فلله سبحانه عقوبتان: إحداهما: جعله خاطئاً مذنباً لا يحس بألمها ومضرتها؛ لموافقتها شهوته، وإرادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات. والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات.

وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾. فهذه العقوبة الأولى. ثم قال: ﴿**حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً**﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الثانية.

وأعط هذا الموضع حقه من التأمل، وانظر كيف ترتبت هاتان العقوبتان إحداهما على الأخرى؟ لكن العقوبة الأولى عقوبة موافقة لهواه وإرادته، والثانية مخالفة لما يحبه ويتلذذ به. وتأمل عدل الرب تعالى في هذه وهذه، وأنه سبحانه إنما وضع العقوبة في محلها الأولى بها، الذي لا يليق بها غيره، وهذا أمر لولم تشهده القلوب وتعرفه؛ لما جاز أن ينسب إلى الله تعالى سواه ولا يظن به غيره، فإنه من ظن السوء بمن يتعالى ويتقدس عن كل سوء وعيب.

فإن قلت: هل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده؛ من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له؟ أم ذلك محض جعله في

(١) في النسخة: (وقلت) بالواو، والصواب بحذفها كما أثبتناه. المراجع.

قلوبهم؟ قلت: لا، بل هو محض منته وفعله، وهو من أعظم الخير الذي هو في يده، فالخير كله في يديه، ولا يقدر أحدنا يأخذ من الخير إلا ما أعطاه، ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قلت: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم، ولم يوفقوا له، ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم؛ عاد السؤال، وكان منعهم منه ظلماً، ولزمك القول: بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه؟ قيل: لا يكون بمنعه سبحانه لهم من ذلك ظالماً؛ وإنما يكون المانع ظالماً إذا منع غيره حقًا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرمه الرب على نفسه، وأما إذا منع غيره ما ليس حقًا له؛ بل محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالماً بمنعه.

فإن قلت: فإذا كان العطاء والبذل والتوفيق؛ إحساناً ورحمة وفضلاً؛ فهلا كانت الغلبة له، كما أن رحمته تغلب غضبه؟

قيل: المقصود من هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع، والمنع المستلزم للعقوبة؛ ليس بظلم. وهذا سؤال عن الحكمة التي أوجبت تقديم العدل على الفضل في بعض المحال، وهلا ساوى بين العباد في الفضل؟

وهذا السؤال حاصله: لم تفضل على هذا ولم يتفضل على هذا؟

وقد تولى سبحانه الجواب عنه بقوله: **﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾** [الجمعة: ٤]. وقوله: **﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾** [الحديد: ٢٩]. وليس في الحكمة اطلاع فرد من أفراد الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه.

بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد؛ حتى أبصر طرفاً يسيراً من حكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وتأمل أحوال محال ذلك، واستدل بما علمه على مالم يعلمه وتيقن أن مصدر ما علم ومالم يعلمه، لحكمة بالغة لا توزن بعقول المخلوقين؛ فقد وفق للصواب.

ولما استشكل المشركون هذا التخصيص قالوا: **﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾** فقال لهم الله مجيباً لهم: **﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾**[الأنعام: ٥٣]. وهذا جواب شاف كاف، وفي ضمنه أنه سبحانه؛ أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر؛ من المحل الذي لا يصلح لغرسها؛ فلو غرست فيه

لم تثمر، فكان غرسها هناك ضائعاً لا يليق بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿**اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه**﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(١)**قال** تعالى: ﴿**وَلاَ تَطْرُد الذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لاَ نُرِيدُ مِنْكُم جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً**﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿**وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى، إلاَّ ابتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى**﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الله وَرَسُولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ، فَإِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً**﴾ [الأحزاب: ٢٩]. فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة.

كما في مستدرك الحاكم، وصحيح ابن حبان، في الحديث المرفوع: عن النبي، ﷺ: أنه كان يدعو: «**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق: أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي. وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قُرَّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وبَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مُضِلَّة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**». فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه. وعند الجهمية: لا وجه له سبحانه ولا ينظر إليه، فضلاً أن يحصل به لذة. كما سمع بعضهم داعياً يدعو بهذا الدعاء فقال: ويحك! هَبْ أن له وجهاً، أفتلتذ بالنظر إليه؟

(٢)**قال** تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاَءِ مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بينِنا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٣]. وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى، ويشكرونه عليها، ويحبونه ويحمدونه على أن جعلهم من أهله. فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدى وإضلال من

---

(١) ٢٣ مدارج جـ٣ .	(٢) ١٢٨ مدارج جـ١ .

أضـل، ولم يطرد عن بابـه، ولم يبعـد عن جنابه؛ من يليق به التقريب والهدى والإكرام؛ بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد، وحكمته وحمده تأبى تقريبه وإكرامه، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه. . .

...[1] **ولو** علم في الكفار: خيراً، وقبولاً لنعمة الإيمان وشكرًا له عليها، ومحبة له، واعترافاً بها؛ لهداهم إلى الإيمان؛ ولهذا لما قالوا للمؤمنين: ﴿**أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا**﴾ أجابهم بقوله: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٣].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: هم الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان، ويشكرون الله عليها.

فهو سبحانه ما أعطى إلا بحكمته، ولا منع إلا بحكمته، ولا أضل إلا بحكمته. وإذا تأمل البصير أحوال العالم وما فيه من النقص؛ رآه عين الحكمة. وما عمرت الدنيا والآخرة والجنة والنار إلا بحكمته.

وفي الحكمة ثلاثة أقوال للناس:

أحـدها: أنها مطابقـة علمه لمعلومه، وإرادته ومشيئته لمراده. هذا تفسير الجبرية، وهو في الحقيقة نفي حكمته؛ إذ مطابقة المعلوم والمراد؛ أعم من أن يكون «حكمة» أو خلافها، فإن السفيه من العباد، يطابق علمه وإرادته لمعلومه ومراده، مع كونه سفيها.

الثـاني ـ مذهب القدرية النفاة ـ: أنها مصالح العباد، ومنافعهم العائدة عليهم؛ وهو إنكار لوصفه تعالى بالحكمة، وردوها إلى مخلوق من مخلوقاته.

الثـالث ـ قول أهل الإثبات والسنة ـ: إنها الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه بخلقه وأمره، التي أمر لأجلها، وقَدَّر وخلق لأجلها؛ وهي صفته القائمة به كسائر صفاته: من سمعه وبصره، وقدرته وإرادته، وعلمه وحياته وكلامه.

وللرد على طائفتي الجبرية والقدرية موضع غير هذا. والله أعلم.

[2]**قـوله** تعـالى: ﴿**وَكَـذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيننا**﴾ [الأنعام: ٥٣]. فلا ريب أن هذا تعليل لفعله المذكور، وهو امتحان

---

(١) ٤٨١ مدارج جـ٢. (٢) ١٩١ شفاء.

بعض خلقه ببعض، كما امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم؛ أنف وحمي أن يسلم معه أو بعده، ويقول: هذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا، فلو كان ذلك خيراً وسعادة؛ ما سبقنا هؤلاء إليه. فهذا القول منهم؛ هو بعض الحكم والغاية المطلوبة بهذا الامتحان، فإن هذا القول دال على: إباء واستكبار، وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به. وهذا وإن كان علة؛ فهو مطلوب لغيره.

والعلل الغائية: تارة تطلب لنفسها، وتارة تطلب لغيرها؛ فتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه، وقول هؤلاء ماقالوه وما يترتب عليه هذا القول؛ موجب لآثار مطلوبة للفاعل من إظهار: عدله، وحكمته، وعزه، وقهره، وسلطانه، وعطائه من يستحق عطاءه ويحسن وضعه عنده، ومنعه من يستحق المنع ولا يليق به غيره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون المنعم عليهم فيما من عليهم، من بين من لا يعرفها ولا يشكر ربه عليها، وكانت فتنة بعضهم ببعض؛ لحصول هذا التمييز الذي ترتب عليه: شكر هؤلاء، وكفر هؤلاء.

(١)**أما** استشهاده بالآية، فوجهه: أن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم؛ قد أودع الله قلوبهم سرًّا من أسرار معرفته ومحبته، والإيمان به، خفي على أعداء الرسل؛ فنظروا إلى ظواهرهم، وعموا عن بواطنهم، فازدروهم واحتقروهم، وقالوا للرسول: «اطرد هؤلاء عنك؛ حتى نأتيك ونسمع منك» وقالوا: ﴿**أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ من بَيْنِنا**﴾ [الأنعام: ٥٣]، فقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿**ولا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أعلمُ الغَيْبَ ولاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِين تَزْدَرِي أَعْيُنُكُم لَنْ يُؤتِيهم اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [هود: ٣١]. قال الزجاج: المعنى: إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادى الرأي وظاهره؛ فليس عَلَيَّ أن أطلع على ما في أنفسهم. فإذا رأيت من يوحد الله؛ عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله. وهذا معنى حسن.

---

(١) ١٧٠ مدارج جـ٣.

والذي يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم؛ إذ أهَّلَهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله. والله سبحانه وتعالى عليم حكيم، يضع العطاء في مواضعه. وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم من بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعلَمَ بِالشَّاكِرِين**﴾ [الأنعام: ٥٣] فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه: أهَّلهم للهدى والحق، وحَرَمه رؤساء الكفار وأهل العزة والثروة منهم؛ كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة. فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده: من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها. وليس كل أحد عنده هذا السر، فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء.

(١)**وقد قرن** تعالى ذكره الذي هو المراد من الخلق بذكره، وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر: خادم لهما، ووسيلة إليهما، وعَونا عليهما. قال تعالى: ﴿**فاذْكُرُوني أَذْكُرْكُم واشكُرُوا لي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكرو وآمنوا به، فقال: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُم إن شَكَرْتُم وآمَنْتُم**﴾ [النساء: ١٤٧]. أي: إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان، فما أصنع بعذابكم بعد هذا؟

وأخبر سبحانه: أن أهلَ الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال: ﴿**وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعلَمَ بِالشَّاكِرِين**﴾ [الأنعام: ٥٣] وقسم الناس إلى: شكور، وكفور. فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله. قال تعالى في الإنسان: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُوراً**﴾ [الإنسان: ٣]. وقال نبيه سليمان عليه السلام: ﴿**هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَني أَأَشْكُرُ أم أكفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [النمل: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿**وإذ تأذن ربُّكم لئن شكرتُم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديدٌ**﴾ [إبراهيم: ٧] وقال تعالى: ﴿**إنْ تَكْفُروا فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنْكُم وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وإنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ [الزمر: ٧] وهذا كثير في القرآن. يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده.

---

(١) ١٢٢ عدة الصابرين.

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَو قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان؛ فلم ينقلبوا على أعقابهم.

وعلق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره.

وقد وقف سبحانه كثيراً من الجزاء على المشيئة كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله في الإجابة: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]. وقوله في الرزق: ﴿يرزقُ مَن يشاءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وفي المغفرة: ﴿يغفرُ لمن يشاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، والتوبة: ﴿ويتوبُ اللَّهُ على من يشاءُ﴾ [التوبة: ٩]. وأطلق جزاء الشكر إطلاقًا؛ حيث ذكر كقوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها؛ جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِنْ بَين أَيْدِيهِم وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِم وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين﴾ [الأعراف: ١٧].

ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده، فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وذكر الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه سمع رجلا يقول: اللهم اجعلني من الأقلين. فقال: ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِن عِبَادِيَ الشَّكُور﴾ [سبأ: ١٣] وقال: ﴿إِلاَّ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَاهُم﴾ [ص: ٢٤] فقال عمر: صدقت.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّه كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣].

وفي تخصيص نوح هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته؛ إشارة إلى الاقتداء به؛ فإنه أبوهم الثاني؛ فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلاً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَتَه هُمُ البَاقِينَ﴾ [الصآفات: ٧٧] فأمر

الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فـ﴿إنَّه كَانَ عَبْداً شكُوراً﴾ [الإسراء: ٣].

وقد أخبر سبحانه: إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته، فقال: ﴿وَاشكُرُوا للَّهِ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأمر عبده موسى أن يتلقى ما أتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وأول وصية وصى الله بها الإنسان بعد ما عقل عنه؛ بالشكر له وللوالدين، فقال: ﴿وَوَصَّينَا الإنسانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ في عَامَيْنِ أنِ اشْكُـر لِي ولِـوَالِدَيْكَ إليَّ المَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] وأخبر: أن رضاه في شكره، فقال تعالى: ﴿وإنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكـر نعمه فقال: ﴿إنَّ إبراهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لأنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

فأخبر عنه سبحانه: بأنه، أمة أي: قدوة يؤتم به في الخير، وأنه قانتا لله. والقـانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه الصفات: بأنه شاكر لأنعمه؛ فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه: أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره؛ بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها ﴿واللَّهُ أخرجكم من بطونِ أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تشكرون﴾ [النحل: ٧٨]. فهذه غاية الخلق وغـاية الأمـر، فقـال: ﴿ وَلَقَـدْ نَصرَكُمْ اللَّهُ بِبَـدْرٍ وَأَنْتُم أذِلَّـةُ فاتَّقُوا الله لَعَلَّكُم تَشْكُرُونِ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. ويجوز أن يكون قوله: ﴿لعلكم تشكرون﴾؛ تعليلاً لقضـائه لهم بالنصر، ولأمره لهم بالتقوى، ولهما معًا وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر، وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: ﴿كَمَا أرْسَلْنَا فِيكُم رَسُولاً مِنكُم يَتْلُو عَلَيْكُم آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُم وَيُعَلِّمُكُم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُـونُـوا تَعْلَمونَ فَاذْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. قالوا: فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره. والصبر إنما حمد لإفضاله وإيصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في الصحيحين: عن النبي، ﷺ، أنه قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**».

وثبت في المسند والترمذي: أن النبي، ﷺ، قال لمعاذ: «**والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل: حدثنا أبومعاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة: قال: كان من دعاء النبي، ﷺ: «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

قال: وحدثنا محمود بن غيلان: حدثنا المؤمل بن إسماعيل: حدثنا حماد بن سلمة: حدثنا حميد الطويل، عن طلق بن حبيب، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله، ﷺ، قال: «**أربع من أعطيهن؛ فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وبدناً على البلاء صابرًا، وزوجة لا تبغيه خوناً في نفسها ولا في ماله**».

وذكر أيضاً من حديث القاسم بن محمد، عن عائشة، عن النبي، ﷺ، قال: «**ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله؛ إلا كتب الله له شكرها. وما علم الله من عبد ندامة على ذنب؛ إلا غفر الله له قبل أن يستغفره. وإن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبته؛ حتى يغفر له**».

وقد ثبت في صحيح مسلم: عنه، ﷺ، أنه قال: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة؛ فيحمده عليها، ويشرب الشربة؛ فيحمده عليها**» فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال تعالى: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ**﴾» [التوبة: ٧٢]. في مقابلة شكره بالحمد.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عبدالله بن صالح: حدثنا أبوزهير يحيى بن عطارد القرشي، عن أبيه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**لا يرزق اللهُ عبداً الشكر؛ فيحرمه الزيادة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾**».

وقال الحسن البصري: إن الله ليمتع بالنعمة ماشاء، فإذا لم يشكر عليها؛ قلبها عذاباً؛ ولهذا كانوا يسمون الشكر: الحافظ، فإنه الذي يحفظ النعم

الموجودة؛ والجالب فإنه يجلب النعم المفقودة.

وذكر ابن أبي الدنيا: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال لرجل من همدان: إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن. فلن ينقطع المزيد من الله؛ حتى ينقطع الشكر من العبد.

وقال عمر بن عبدالعزيز: قيدوا نعم الله بشكر الله، وكان يقال: الشكر قيد النعم.

وقال مطرف بن عبدالله: لأن أعافى فأشكر؛ أحب إلى من أن أبتلى فأصبر.

وقال الحسن: أكثروا ذكر هذه النعم، فإن ذكرها؛ شكر، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: ﴿**وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحى: ١١].

والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وقال علي بن الجعد: سمعت سفيان الثوري يقول: إن داود عليه الصلاة والسلام قال: الحمد لله حمداً كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله؛ فأوحى الله إليه: ياداود أتعبت الملائكة.

وقال شعبة: حدثنا المفضل بن فضالة، عن أبي رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز، لم نره عليه قبل ولا بعد فقال: إن رسول الله، ﷺ، قال: «**إذا أنعم الله على عبد نعمة؛ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**».

وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي، ﷺ، قال: «**كلو واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف؛ فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**».

وذكر شعبة: عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن أبيه، قال: أتيت رسول الله، ﷺ، وأنا قشف الهيئة، فقال: «**هل لك من مال؟**» قال: قلت: نعم، قال: «**من أي المال؟**» قلت: من كل المال قد آتاني الله من: الإبل، والخيل، والرقيق، والغنم. قال: «**فإذا آتاك[1] الله مالاً فلير عليك**».

وفي بعض المراسيل: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في: مأكله، ومشربه**».

---

(١) في النسخة: «آتاني» والصواب ما أثبتناه. المراجع.

وروى عبدالله بن يزيد المقري، عن أبي معمر، عن بكير بن عبدالله رفعه: **«من أعطي خيراً فرؤي عليه سمي: حبيب الله، محدثاً بنعمة الله. ومن أعطي خيراً فلم ير عليه سمي: بغيض الله: معادياً لنعمة الله»**.

وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه، وحمده بلسانه؛ لم يستتم ذلك؛ حتى يرى الزيادة لقول الله تعالى: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٧]. . .

(١) **قوله** تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فأجابهم بأن حكمته وعلمه؛ يأبى أن يضع رسالاته في غير محلها وعند غير أهلها، ولو كان الأمر راجعاً إلى محض المشيئة؛ لم يكن في هذا جواب(٢). بل كان الجواب: إن أفعاله لا تعلل وهو يرجح مثلاً على مثل بغير مرجح والأمر عائد إلى مجرد القدرة كما يقوله المنكرون.

وكذلك قوله: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٣]. فلما سألوا عن التخصيص بمشيئة الله، وأنكروا ذلك؛ أجيبوا: بأن الله أعلم بمن يصلح لمشيئته، وهو أهل لها، وهم الشاكرون الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون عليها المنعم، فهؤلاء يصلحون لمشيئته. ولو كان الأمر عائداً إلى محض المشيئة؛ لم يحسن هذا الجواب.

ولهذا يذكر سبحانه صفة العلم؛ حيث يذكر التخصيص والتفصيل بينهما، على أنه إنما حصل بعلمه سبحانه بما في التخصيص المفصل مما يقتضي تخصيصه وتفضيله، وهو الذي جعله أهلاً لذلك كما قال تعالى: ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨١]. فذكر علمه عقيب ذكر: تخصيصه سليمان بتسخير الريح له، وتخصيصه الأرض المذكورة بالبركة.

ومنه قوله: ﴿**جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ**

---

(١) ٢٠٣ شفاء العليل.

(٢) في النسخة (جواباً) وهو خطأ، والصواب الرفع لأنه اسم كان مؤخر. المراجع.

وَالهدي وَالقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الأرض وأَنَّ الله بِكُلِّ شيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]. فذكر صفة العلم التي اقتضت تخصيص هذا المكان وهذا الزمان بأمر اختصا به؛ دون سائر الأمكنة والأزمنة.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِه وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]. فأخبر: أنه وضع هذه الكلمة عند أهلها ومن هم أحق بها، وأنه أعلم بمن يستحقها من غيرهم. فهل هذا وصف من يخص بمحض المشيئة لا بسبب وغاية؟

(1)**وبالجملة** فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه، وحكمته وحمده أقاماه في مقامه الذي لا يليق به سواه، ولا يحسن أن يتخطاه. والله أعلم حيث يجعل مواقع عطائه وفضله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] فهو سبحانه أعلم بمواقع الفضل، ومحالِّ التخصيص، ومحال الحرمان. فبحمده وحكمته أعطى، وبحمده وحكمته حرم، فمن ردَّه المنع إلى الافتقار إليه، والتذلل له، وتملقه؛ انقلب المنع في حقه عطاء. ومن شغله عطاؤه وقطعه عنه؛ انقلب العطاء في حقه منعاً.

فكل ماشغل العبد عن الله؛ فهو مشؤوم عليه، وكل ماردَّه إليه؛ فهو رحمة به.

والرب تعالى يريد من عبده أن يفعل، ولا يقع الفعل؛ حتى يريد سبحانه من نفسه أن يعينه. فهو سبحانه أراد منا الاستقامة دائماً، واتخاذ السبيل إليه، وأخبرنا: أن هذا المراد لا يقع؛ حتى يريد من نفسه: إعانتنا عليها، ومشيئته لنا.

فهما إرادتان: إرادة من عبده أن يفعل، وإرادة من نفسه أن يعينه؛ ولا سبيل له إلى الفعل إلا بهذه الإرادة، ولا يملك منها شيئاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] فإن كان مع العبد روح أخرى، نسبتها إلى روحه؛ كنسبة روحه إلى بدنه، يستدعي بها إرادة الله من نفسه؛ أن يفعل به ما يكون به العبد فاعلاً، وإلا فمحله غير قابل للعطاء، وليس معه إناء يوضع فيه العطاء، فمن جاء بغير إناء؛ رجع بالحرمان، ولا يلومنَّ إلا نفسه . . .

(١) ٣٣ زاد المعاد جـ٢.

(١)قاعدة جليلة

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]. وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ الآية [النساء: ١١٥].

والله تعالى قد بيَّن في كتابه: سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء، وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء، وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء.

وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما، وأوضحهما وبينهما غاية البيان؛ حتى شاهدتها البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه؛ عرفوا: سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية؛ فاستبانت لهم السبيلان، كما يستبين للسالك: الطريق الموصل إلى مقصوده، والطريق الموصل إلى الهلكة.

فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة؛ وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة؛ فإنهم نشؤوا في: سبيل الضلال والكفر والشرك، والسبل الموصلة إلى الهلاك؛ وعرفوها مفصلة، ثم جاءهم الرسول؛ فأخرجهم من تلك الظلمات إلى: سبيل الهدى، وصراط الله المستقيم؛ فخرجوا: من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر؛ فعرفوا: مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه. فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. فازدادوا: رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضاً لما انتقلوا عنه. وكانوا: أحب الناس في التوحيد والإيمان والإسلام، وأبغض الناس في ضده، عالمين بالسبيل على التفصيل.

---

(١) ١٠٧ فوائد.

(١)**المثال** السابع: مما ادعى المعطلة مجازه الفوقية، وقد ورد به القرآن: مطلقاً بدون حرف، ومقترنا بحرف.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨ - ١٦] في موضعين.

والثاني: كقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. وفي حديث الأوعال لما ذكر: السموات السبع، وذكر البحر الذي فوقها، والعرش فوق ذلك كله، والله فوق ذلك؛ لا يخفى عليه أعمالكم.

وحقيقة الفوقية علو ذات الشيء على غيره، فادعى الجهمي: أنها مجاز في فوقية الرتبة والقهر، كما يقال: الذهب فوق الفضة والأمير فوق نائبه، وهذا وإن كان ثابتًا للرب تعالى؛ لكن إنكار حقيقة فوقيته سبحانه وحملها على المجاز؛ باطل من وجوه عديدة:

أحدها: أن الأصل الحقيقة، والمجاز على خلاف الأصل.

الثاني: أن الظاهر خلاف ذلك.

الثالث: أن هذا الاستعمال المجازي لابد فيه من قرينة تخرجه عن حقيقته، فأين القرينة في فوقية الرب تعالى؟

الرابع: أن القائل إذا قال: الذهب فوق الفضة؛ قد أحال المخاطب على مايفهم من هذا السياق، والعهد(٢)، فأمرين: عهد تساويهما في المكان، وتفاوتهما في المكانة؛ فانصرف الخطاب إلى ما يعرفه السامع ولا يلتبس عليه، فهل لأحد من أهل الإسلام وغيرهم عهد بمثل ذلك في فوقية الرب تعالى حتى ينصرف فهم السامع إليها؟!.

الخامس: أن العهد والفطر والعقول والشرائع وجميع كتب الله المنزلة؛ على خلاف ذلك، وأنه سبحانه فوق العالم بذاته فالخطاب بفوقيته ينصرف إلى ما استقر في الفطر والعقول والكتب السماوية... (٣)

... (٤)**قوله** تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَابًا مِنْ فَوقِكُم أو مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُم**﴾ [الأنعام: ٦٥] وقد ثبت عن النبي، ﷺ، أنه قال عند

(١) ٢٠٥ مختصر الصواعق جـ٢. (٢) في النسخة: (والمعتد) ولعل الصواب ما أثبتناه. المراجع.
(٣) أوصلها المختصر إلى ١٧ وجهاً في عدة صحائف.(ج). (٤) ٩٩ تبيان.

نزول هذه الآية: «**أعوذ بوجهك**»(١). ولكن قد ثبت عنه، ﷺ، أنه لابد أن يقع في أمته خسف؛ ولكن لا يكون عامًا، وهذا عذاب من تحت الأرجل. وروي أنه كان في الأمة قذف أيضاً، وهذا عذاب من فوق. فيكون هذا من باب الإخبار بقدرته على ما سيفعله، وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال؛ فهو من القدرة على مالا يريده.

وقد صرح سبحانه: بأنه لو شاء لفعل مالم يفعله، في غير موضع من كتابه.

كقوله: ﴿**وَلَوْ شاء رَبُّك لآمن مَنْ في الأرْض كُلُّهم جميعاً**﴾. [يونس: ٩٩] وقوله: ﴿**وَلَوْ شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاها**﴾. [السجدة: ١٣] ونظائره. وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة، وبه تبين فساد قول من قال: إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبله. وإن الصواب: التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة، فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقاً؛ خطأ. والله أعلم.

(٢)**وقد** ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلاً مطابقًا لحاله؛ فقال تعالى: ﴿**قُلْ أَندعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَنْفَعُنَا ولاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَه إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ٧١].

(٣)**والمقصود**: أن هؤلاء كفروا بالأصلين، اللذين جاءت بهما جميع الرسل والأنبياء، من أولهم إلى آخرهم:(٤)

أحدهما: عبادةُ الله وحده لا شريك له، والكفر بما يُعبد من دونه من إله.

---

(١) روى البخاري في باب التفسير من سورة الأنعام عن جابر قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **قل هو القادرُ على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم**﴾ قال رسول الله، ﷺ: «**أعوذ بوجهك**» قال: ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾ قال: «**أعوذ بوجهك**» ﴿**أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض**﴾ قال رسول الله، ﷺ: «**هذا أهون - أو هذا أيسر**» اهـ. قال الحافظ ابن حجر في الفتح: (٢٠٣/٨): وقد روى ابن مردويه: من حديث ابن عباس ما يفسر به حديث جابر. ولفظه عن النبي، ﷺ: «**دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعًا، فرفع عنهم اثنتين، وأبي أن يرفع عنهم اثنتين: دعوت الله أن يرفع الرجم من السماء، والخسف من الأرض، وأن لا يلبسهم شيعًا، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الخسف والرجم، وأبى أن يرفع عنهم الآخرين**». (٢) **٨٥ مفتاح جـ١**.

(٣) **٢٥٣ إغاثة جـ٢**. (٤) **تقدم أول البحث في سورة البقرة عند ذكر الله تعالى الصابئين.**

والثاني: الإيمان برسله وما جاءوا به من عند الله؛ تَصديقًا وإقراراً، وانقياداً وامتثـالاً. وليس هذا مختصًـا بمشركي الصـابئـة، كما غلط فيه كثيرٌ من أرباب المقالات؛ بل هذا مذهب المشركين من سائر الأمم؛ لكن شركُ الصابئة كانَ من جهة الكواكب والعُلويَّات؛ ولذلك ناظرَهُم إمام الحنفاء، صلوات الله وسلامه عليه، في بُطلان إلهيتها بما حكاه الله سبحانه في سورة الأنعام (الآيات ٧٤ ـ ٨٣) أحْسن مناظرةٍ وأبينَهَا، ظهرت فيها حجَّته ودُحِضَتْ حجتُهم. فقال بعد أن بَيَّنَ بطلان إلهيَّةِ الكواكب، والقمر، والشمس بأفولها، وأنَّ الإله؛ لا يليق به أن يغيبَ ويأفَل؛ بل لا يكونُ إلا شاهداً غيْرَ غائب، كما لا يكون إلا: غالباً قاهراً، غير مغلوب ولا مقهـور، نافعاً لعباده، يملك لعابده الضرَّ والنفع، فيسمعُ كلامَهُ، ويَرَى مكانه، ويَهْدِيهِ ويُرْشِده، ويَدفَع عنه كلَّ ما يضُرُّه ويُؤذِيهِ. وذلك ليس إلا لله وَحده. فكلُّ معبودٍ سواه باطلٌ.

فلما رأى إمامُ الحنفا: أن الشمسَ والقمرَ والكواكبَ؛ ليستْ بهذه المثابة؛ صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومُبدِعها، فقال: ﴿**إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّموَاتِ والأرْضَ حَنِيفاً**﴾ [الأنعام: ٧٩].

وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالِّها التي هي مفتقرة إليها، ولا قِوام لها إلا بها. فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويدبرها ويَرُبُّها. والمحتاجُ المخلوق المربوب المدبَّر لا يكون إلهاً. فحاجَّه قومه في الله. ومن حاجَّ في عبادة الله فحجته داحضة، فقال: إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿**أتُحَاجُّوني في اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ**﴾ [الأنعام: ٨٠]. وهذا من أحسن الكلام، أي: أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وبتوحيده، وعن عبادته وحده، وتُشكِّكُوني فيه؛ وقد أرشدني وبينَّ لي الحق، حتى استبان لي كالعيان، وبينَّ لي بطلان الشركَ وسوء عاقبته، وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشركَ به؟ وقد هداني إلى الحق، وسبيل الرشاد؟ فالمحاجة والمجادلة؛ إنما فائدتها؛ طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق، ومنٍ الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار. ومجادلتكم إيَّاي في الإله الحق الذي كلٍ معبود سواه باطل؛ تتضمن خلاف ذلك.

فخوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوف المشرك الموحد بإلٰه الذي يألهه مع الله؛ أن يناله بسوء؛ فقال الخليل: ﴿**وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ**﴾ [الأنعام: ٨٠]. فإن آلهتكم أقلُّ وأحقر من أن تضر من كفر بها وجحد عبادتها، ثم ردَّ الأمر إلى مشيئة الله وحده، وأنه هو الذي يُخاف ويُرجَى. فقال: ﴿**إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا**﴾ [الأنعام: ٨٠]. وهذا استثناء منقطع. والمعنى: لا أخاف آلهتكم، فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة؛ لكن إن شاء ربي شيئاً؛ نالني وأصابني، لا آلهتُكم التي لا تشاء ولا تعلم شيئاً، وربي له المشيئة النافذة، وقد وَسِعَ كل شيء علماً، فمن أولَى بأن يُخاف ويعبد: هو سبحانه، أم هي؟.

ثم قال: ﴿**أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٠]. فتعلمون ما أنتم عليه من إشراك من: لا مشيئة له، ولا يعلم شيئاً ممن له المشيئة التامة والعلم التام.

ثم قال: ﴿**وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا**﴾ [الأنعام: ٨١].

وهذا من أحسن قَلْب الحجة؛ وجعل حجة المبطل بعينها دالة على: فساد قوله، وبطلان مذهبه. فإنهم خوفوه بآلهتهم التي لم يُنزل الله عليهم سُلطاناً بعبادتها. وقد تبين بطلانُ إلهيتها ومضرة عبادتها. ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى؛ فأيُّ الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف: فريق الموحدين، أم فريق المشركين؟

فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل، الذي لا حكم أصحُّ منه، فقال: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾ أي: بشرك ﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولما نزلت هذه الآية؛ شَقَّ أمرها على الصحابة، وقالوا: يا رسول الله وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال: «**إنما هو الشرك: ألم تسمعوا قول العبد الصالح**: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**[1]﴾؟» [لقمان: ١٣].

فحكم سبحانه للموحدين؛ بالهدى والأمن، وللمشركين؛ بضدِّ ذلك، وهو الضلالُ والخوفُ، ثم قال: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ**

(١) رواه أحمد والبخاري: عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. والعبد الصالح هو لقمان.

دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال أبومحمد بن حزم: وكان الذي ينتحله الصابئون؛ أقدم الأديانِ على وَجْهِ الدَّهْرِ، والغالب على الدنيا، إلى أن أحْدَثوا الحوادث، وبدَّلوا شرائعه؛ فبعث الله إليهم إبـراهيم خليله بدين الإسلام، الذي نحن عليه اليوم، وتَصحيح ما أفسدوه، وبالحنيفيَّة السَّمحة، التي أتانا بها محمد رسول الله، ﷺ، من عند الله تعالى. وكانوا في ذلك الزمان وبعده يُسَمون الحنفاء.

قلت: هم قسمان: صابئة مشركون، وصابئة حُنفاء. وبينهم مناظرات. وقد حكى الشِّهْرِسْتَانيُّ بعض مناظراتهم في كتابه.

(١)**الوجه** الثالث والعشرون: أنه سبحانه ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة، وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعه درجته بعلم الحجة، فقال تعالى عقيب مناظرته لأبيه وقومه في سورة الأنعام: **﴿وتِلكَ حُجَّتُنَا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ إنَّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ﴾** [الأنعام: ٨٣]. قال زيد بن أسلم رضي الله عنه: نرفع درجات من نشاء بعلم الحجة.

(٢)**فإن** قيل: فما الفـرق بين الحجـج والبينات؟ قيل: الفرق بينهما: أن الحجـج هي الأدلـة العلمية، التي يعقلها القلب وتسمع بالأذن. قال تعالى في مناظرة إبراهيم لقومه، وتبيين بطلان ما هم عليه بالدليل العلمي: **﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيمَ على قومه نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ﴾** قال ابن زيد: بعلم الحجة.

وقال تعالى: **﴿فإِنْ حَاجُوكَ فَقُلْ أسلَمْتُ وَجْهِي للّهِ وَمَن اتَّبَعَن(٣)﴾** [آل عمران: ٢٠].

... (٤)**وأنكـر** على مَنْ فهم من قوله تعالى: **﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظلمٍ أولئـك لهم الأمنُ وهم مهتـدون﴾** أنه ظُلْم النفس بالمعاصي، وبين أنه الشرك، وذكر قول لقمان لابنه: **﴿إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ﴾** مع أن سياق اللفظ عنـد إعطائه حقه من التأمل؛ يبين ذلك؛ فإن الله سبحانه لم يقل: ولم يظلموا

---

(١) ٥١ مفتاح جـ١. (٢) ١٤٤ مفتاح جـ١.

(٣) تتمة الكلام يأتي على قول الله تعالى: ﴿والذين يحاجّون في الله﴾ [الشورى: ١٦].

(٤) ٣٥١ أعلام جـ١.

أنفسهم، بل قال: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ [الأنعام: ٨٢]. ولَبْسُ الشيء بالشيء: تغطيته به وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به، ويلبسه إلا الكفر. ومن هذا قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وأحَاطَتْ به خطيئته فأولَئِكَ أصْحَابُ النَّارِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١] فإن الخطيئة لا تحيط بالمؤمن أبداً، فإن إيمانه يمنعه من إحاطة الخطيئة به، ومع أن سياق قوله: ﴿وَكَيْفَ أخَافُ مَا أشْرَكْتم وَلَا تَخافُونَ أنَّكُم أشْرَكْتُم بِالله مَالَم يُنَزِّلْ به عَلَيْكُم سُلْطَاناً، فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمْنِ إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]. ثم حكم الله أعدل حكم وأصدقه: أن مَنْ آمن ولم يلبس إيمانه بظلم؛ فهو أحق بالأمن والهدى، فدل على أن الظلم الشرك.

وسأله عمر بن الخطاب عن الكلالة، وراجعه فيها مراراً، فقال: «**تكفيك آية الصَّيْف**» واعترف عمر بأنه خَفِيَ عليه فهمها، وفهمها الصديق.

وقد نهى النبي، ﷺ، عن لحوم الحمر الأهلية ففهم بعض الصحابة من نهيه: أنه لكونها لم تخمس، وفهم بعضهم: أن النهي لكونها كانت حمولة القوم وظهرهم، وفهم بعضهم: أنه لكونها كانت جوَّال القرية، وفهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة وكبار الصحابة؛ ما قَصده رسول الله، ﷺ، بالنهي وصرح بعلته: من كونها رجساً.

وفهمت المرأة من قوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً﴾ [النساء: ٢٠]: جواز المُغالاة في الصَّداق، فذكرته لعمر؛ فاعترف به.

وفهم ابن عباس من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُه وفِصَالُه ثلاثون شهراً﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿والوالداتُ يُرْضِعْنَ أولادَهن حولين كاملين﴾. [البقرة: ٢٣٣]: أن المرأة قد تلد لستة أشهر، ولم يفهمه عثمان؛ فَهمَّ برجم امرأة ولدت لها؛ حتى ذكره به ابن عباس؛ فأقر به.

ولم يفهم عمر من قوله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»: قتال مانعي الزكاة؛ حتى بَيَّنَ له الصديق؛ فأقر به.

وفهم قدامة بن مظعون من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إذا مَا اتَّقوا وآمنوا﴾ [المائدة: ٩٣]: رفع الجناح عن الخمر؛ حتى بَيَّنَ له عمر: أنه لا يتناول الخمر، ولو تأمل سياق الآية؛ لفهم المراد منها، فإنه إنما رفع الجُنَاح عنهم فيما طعموه مُتَّقين له فيه، وذلك إنما يكون باجتناب ما حَرَّمه من المطاعم؛ فالآية لا تتناول المحرم بوجه ما.

وقد فهم من قوله تعالى: **﴿وَلاَ تُلقُوا بأَيْدِيكُم إلَى التَّهلُكَةِ﴾** [البقرة: ١٩٥]: انغماس الرجل في العدو؛ حتى بين له أبوأيوب الأنصاري: أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة؛ بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضات الله، وأن الإلقاء بيده إلى التهلكة؛ هو ترك الجهاد والإقبالُ على الدنيا وعمارتها.

وقال الصديق رضي الله عنه: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: **﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا عَلَيْكُمْ أنفُسَكُم لاَ يَضرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهتَدَيْتُمْ﴾** [المائدة: ١٠٥]. وإني سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه؛ أو شك أن يعمهم الله بالعقاب من عنده**» فأخبرهم: أنهم يضعُونها على غير مواضعها؛ في فهمهم منها خلافَ ما أريد بها.

وأشكل على ابن عباس أمْرُ الفِرْقَةِ الساكتة، التي لم ترتكب ما نهيت عنه من اليهود: هل عُذِّبُوا أو نَجوا؟ حتى بين له مولاه عِكْرِمة دخولهم في الناجين دون المعذبين، وهذا هو الحق؛ لأنه سبحانه قال عن الساكتين: **﴿وإذ قالت أمة منهم لِمَ تَعِظُونَ قومًا اللَّهُ مُهْلِكُهُم أو مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾**[الأعراف: ١٦٤].

فأخبر: أنهم أنكروا فعلهم وغضبوا عليهم، وإن لم يواجهوهم بالنهي؛ فقد واجههم به مَنْ أدَّى الواجب عنهم؛ فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فرض كفاية، فلما قام به أولئك؛ سقط عن الباقين؛ فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم.

وأيضا: فإن الله سبحانه إنما عذب الذين نَسُوا ماذكروا به وعتوا عما نُهُوا عنه، وهذا لا يتناول الساكتين قطعًا، فلما بيَّن عكرمة لابن عباس: أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين؛ كسَاه بُرْدَة وفرح به.

...[1]**ولما** نزل قوله تعالى: **﴿الذين آمَنُوا وَلَمْ يَلبِسوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولَئكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾** [الأنعام: ٨٢] قال الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله

(١) ٢٢٠ مختصر الصواعق جـ١.

وأينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال: «**ذاك الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح**: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾؟» فلما أشكل عليهم المراد بالظلم، وظنوا أن ظلم النفس داخل فيه، وأن من ظلم نفسه أي ظلم كان لم يكن آمنًا ولا مهتديًا؛ أجابهم، ﷺ: «**إن الظلمَ الرافعَ للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك**». وهذا والله هو الجواب، الذي يشفي العليل ويروي الغليل، فإن الظلم المطلق التام؛ هو الشرك الذي هو وضع العبادة في غير موضعها، والأمن والهدى المطلق؛ هو الأمن في الدنيا والآخرة والهدى إلى الصراط المستقيم.

... (١) **ماحكاه** سبحانه من محاجة إبراهيم عليه السلام قومه بقوله: ﴿**وحَآجَّهُ قومُهُ، قَالَ أَتُحَآجُّوني في الله وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ به إلاَّ أن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أفلاَ تتذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بالله مَالَمْ يُنَزِّل به عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فأيُّ الْفَرِيقَين أحَقُّ بالأمْن إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٢] فهذا الكلام لم يخرج في ظاهره مخرج كلام البشر، الذي يتكلفه أهل النظر والجدال والمقايسة والمعارضة؛ بل خرج في صورة كلام خبري يشتمل على مبادىء الحِجَاج، ويشير إلى مقدمات الدليل ونتائجه بأوضح عبارة وأفصحها، والغرض منه: أن إبراهيم قال لقومه متعجباً مما دعوه إليه من الشرك: ﴿**أتُحَاجُّوني في الله**﴾ وتطمعون أن تستزلوني عن توحيده بعد أن هداني، وتأكدت بصيرتي واستحكمت معرفتي بتوحيده بالهداية التي رزقنيها، وقد علمتم: أن من كانت هذه حاله في اعتقاده أمراً من الأمور عن بصيرة، لا يعارضه فيها رِيْب؛ فلا سبيل إلى استزلاله عنها.

وأيضا: فإن المحاجة بعد وضوح الشيء وظهوره؛ نوع من العبث بمنزلة المحاجة في طلوع الشمس، وقد رآها من يحاجه بعينه. فكيف يؤثر حجاجكم له أنها لم تطلع، ثم قال: ﴿**وَلاَ أخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إلاَّ أن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً**﴾ فكأنه، صلوات الله وسلامه عليه، يذكر أنهم خوفوه آلهتهم: أن يناله منها معرة، كما قاله قوم هود: ﴿**إنْ نَقُولُ إلاَّ اعتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ**﴾[هود: ٥٤] فقال إبراهيم: إن

(١) ١٠٦ مختصر الصواعق جـ١.

أصابني مكروه فليس ذلك من قبل هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله، وهي أقل من ذلك؛ فإنها ليست ممن يرجى أو يخاف؛ بل يكون ذلك الذي أصابني من قبل الحي الفعال، الذي يفعل ما يشاء، بيده الضر والنفع، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ثم ذكر سعة علمه سبحانه في هذا المقام؛ منبهاً على موقع احتراز لطيف وهو: أن لله تعالى علمًا في وفيكم وفي هذه الآلهة لا يصل إليه علمي، فإذا شاء أمراً من الأمور؛ فهو أعلم بها يشاؤه؛ فإنه وسع كل شيء علماً، فإن أراد أن يصيبني بمكروه لا علم لي: من أي جهة أتاني؟ فعلمه محيط بمالم أعلمه. وهذا غاية التفويض والتبريء من الحول والقوة وأسباب النجاة وأنها بيد الله لا بيدي.

وهكذا قول شعيب، ﷺ، لقومه: ﴿**قَدِ افترينا على اللّهِ كَذِباً إنْ عُدْنَا في مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكونُ لَنَا أنْ نَعُود فِيهَا إلَّا أن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا. وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللّهِ تَوكَّلْنَا رَبَّنَا افتحْ بَيْنَنَا وَبينَ قَوْمِنَا بالحَقِّ وَأنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**﴾ [الأعراف: ٨٩] فردت الرسل بها يفعله الله، وأنه إذا شاء شيئاً فهو أعلم بها يشاؤه، ولا علم لنا بامتناعه.

ثم رجع الخليل إليهم مقرراً للحجة، فقال: ﴿**وَكَيْفَ أخَافُ مَا أشْرَكتُمْ وَلا تَخَافُونَ أنَّكُمْ أشْرَكْتُمْ بالله**﴾ يعني في إلهيته: ﴿**مَالَم يُنزِّل به عَلَيكُمْ سُلْطَانًا فأيُّ الفَريقَين أحَقُّ بالأمْن إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بظُلْم أولَئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢] يقول لقومه: كيف يسوغ في عقل أن أخاف ما جعلتموه لله شريكًا في الإلهية، وهي ليست موضع نفع ولا ضر، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في الإلهية أشياء لم ينزل بها حجة عليكم. والذي أشرك بخالقه وفاطره فاطر السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه؛ آلهة لا تخلق شيئاً، وهي مخلوقة، ولا تملك لا نفسها ولا لعابديها ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وجعلها ندًّا له ومثلاً في الإلهية؛ أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلٰهًا آخر؛ بل وحده وأفرده: بالإلهية والربوبية، والقهر والسلطان، والحب والخوف والرجاء. فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ فحكم الله تعالى بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب، وأقرت به الفطر، فقال تعالى: ﴿**الَّذين آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولَئك لَهُمْ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢].

فتأمل هذا الكلام وعجيب موقعه في قطع الخصوم، وإحاطته بكل ما وجب في العقل أن يرد به ما دعوه إليه؛ بحيث لم يبق لطاعن مطعن ولا سؤال، ولما كانت بهذه المثابة؛ عظمها بإضافتها إلى نفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**﴾ [الأنعام: ٨٣] وكفى بحجة يكون الله تعالى ملقيها لخليله؛ أن تكون: قاطعة لموارد العناد، وقامعة لأهل الشرك والإلحاد.

(١)**المناظرة** في العلم نوعان: أحدهما: للتمرن والتدرب على إقامة الحجج ودفع الشبهات. والثاني: لنصرة الحق وكبت الباطل.

والأول يشبه السباق والنضال. والثاني يشبه الجهاد وقتال الكفار.

وقال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**﴾[الأنعام، ٨٣]. قال مالك: قال زيد بن أسلم: بالعلم، بعلم الحجة يرفع درجة صاحبه. فإن العلم بالحجج، والقوة على الجهاد مما رفع الله به درجات الأنبياء وأتباعهم، كما قال تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم والَّذِينَ أوتوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١]. وقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ أولي الأيدِي والأَبْصَارِ**﴾[ص، ٤٥].

فالأيدي القوى التي يقدرون بها على: إظهار أمر الله، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه. والأبصار البصائر في دينه؛ ولهذا يسمي سبحانه الحجة سلطاناً.

قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن: فهو الحجة، كما قال تعالى: ﴿**أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ للَّهُ بها مِن سلطان**﴾ [النجم: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿**أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِم سُلْطَانًا فهو يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ**﴾ [الروم: ٥١]. وهذا لأن الحجة تسلط صاحبها على خصمه. فصاحب الحجة له سلطان وقدرة على خصمه؛ وإن كان عاجزًا عنه بيده.

وهذا أحد أقسام النصرة التي نصر الله بها رسله والمؤمنين في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿**إنَّا لَنَنْصُرُ رسُلَنَا والذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ**﴾

---

(١) ٢٧ فروسية.

[غافر: ٥١]. فإذا كانت المسابقة شرعت؛ ليتعلم المؤمن القتال، ويتعوده، ويتمرن عليه. فمن المعلوم: أن المجاهد قد يقصد دفع العدو؛ إذا كان المجاهد مطلوبًا والعدو طالباً. وقد يقصد الظفر بالعدو ابتداء؛ إذا كان طالباً والعدو مطلوباً، وقد يقصد كلا الأمرين.

فالأقسام ثلاثة يؤمر المؤمن فيها بالجهاد. وجهاد الدفع أصعب من جهاد الطلب؛ فإن جهاد الدفع يشبه باب دفع الصائل؛ ولهذا أبيح للمظلوم أن يدفع عن نفسه، كما قال تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**﴾ [الحج: ٣٩]. وقال النبي، ﷺ: «**من قتل دون ماله؛ فهو شهيد، ومن قتل دون دمه؛ فهو شهيد**».

لكن دفع الصائل على الدين جهاد وقربة، ودفع الصائل على المال والنفس مباح ورخصة؛ فإن قتل فيه؛ فهو شهيد. فقتال الدفع أوسع من قتال الطلب وأعم وجوباً؛ ولهذا يتعين على كل أحد: يجاهد فيه العبد بإذن سيده وبدون إذنه، والولد بدون إذن أبويه، والغريم بدون إذن غريمه. وهذا جهاد المسلمين يوم أحد، والخندق.

ولا يشترط في هذا النوع من الجهاد: أن يكون العدو ضعفي المسلمين فما دون؛ فإنهم كانوا يوم أحد والخندق أضعاف المسلمين، وكان الجهاد واجباً عليهم؛ لأنه جهاد ضرورة ودفع لا جهاد اختيار. ولهذا تباح صلاة الخوف بحسب الحال في هذا الموضع، وهل تباح في جهاد الطلب إذا خاف فوت العدو ولم يخف كرته؟ فيه قولان للعلماء، هما روايتان عن الإمام أحمد.

ومعلوم: أن الجهاد الذي يكون فيه الإنسان طالباً مطلوباً؛ أوجب من الجهاد الذي هو فيه طالب لا مطلوب، والنفوس فيه أرغب من الوجهين. وأما جهاد الطلب الخالص فلا يرغب فيه إلا أحد الرجلين: إما عظيم الإيمان يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ فيكون الدين كله لله، وإما راغب في المغنم والسبي.

فجهاد الدفع يقصده كل أحد، ولا يرغب عنه إلا الجبان المذموم شرعاً وعقلاً. وجهاد الطلب الخالص لله يقصده سادات المؤمنين.

وأما الجهاد الذي يكون فيه طالباً مطلوباً، فهذا: يقصده خيار الناس لإعلاء كلمة الله ودينه، ويقصده أواسطهم للدفع ومحبة للظفر.

(١)**قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبـراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِـهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصطَفَيْنَاهُ في الدُّنيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِم قَالَ أَسلَمتُ لِربِّ العَالَمِينَ﴾** [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

فقسم سبحانه الخلائق قسمين: سفيهًا لا أسفه منه. ورشيدًا.

فالسفيه: من رغب عن ملته إلى الشرك. والرشيد: من تبرأ من الشرك قولاً وعمـلاً وحالاً. فكان قوله توحيداً. وعمله توحيداً. وحاله توحيداً، ودعوته إلى التوحيد. وبهذا أمر الله سبحانه جميع المرسلين ـ من أولهم إلى آخرهم ـ.

...(٢)**والوكالة** يراد بها أمران. أحدهما: التوكيل. وهو الاستنابة والتفويض. والثاني: التوكل. وهو التعرف بطريق النيابة عن الموكل. وهذا من الجانبين. فإن الله تبـارك وتعالى يوكل العبد ويقيمه في حفظ ما وَكَّله فيه. والعبد يوكل الرب ويعتمد عليه.

فأما وكالة الرب عبده، ففي قوله تعالى: **﴿فَإِنْ يَّكفُر بهَا هؤلاءِ فَقَد وَكلنا بهَا قومًا لَّيسُوا بهَا بِكَافِرِينَ﴾** [الأنعام: ٨٩] قال قتادة: وكَّلنا بها الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرناهم ـ يعني قبل هذه الآية ـ وقال أبو رجاء العطاردي: معناه إن يكفر بها أهـل الأرض، فقـد وكلنـا بها أهـل السماء وهم الملائكة. وقال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار أهل المدينة.

والصـواب أن المراد من قام بها إيماناً، ودعوة وجهادًا ونصرة. فهؤلاء هم الذين وكلهم الله بها. فإن قلت: فهل يصح أن يقال: إن أحدًا وكيل الله؟.

قلت: لا. فإن الوكيل من يتصرف عن موكله بطريق النيابة. والله عز وجل لا نائب له، ولا يخلفه أحد، بل هو الذي يخلف عبده، كما قال النبي، «**اللهم** أنت الصاحب في السفر. والخليفة في الأهل». **على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه، ورعايته والقيام به.**

وأما توكيل العبـد ربـه: فهو تفويضه إليه، وعزل نفسه عن التصرف، وإثباته لأهله ووليه. ولهذا قيل في التوكل: إنه عزل النفس عن الربوبية، وقيامها

(١) ٤٨٢ مدارج جـ٣. (٢) ١٢٦ مدارج جـ١.

بالعبودية. وهذا معنى كون الرب وكيل عبده. أي كافيه، والقائم بأموره ومصالحه. لأنه نائبه في التصرف.

فوكالة الرب عبده أمر وتعبد وإحسان له، وخلعة منه عليه، لا عن حاجة منه، وافتقار إليه كموالاته. وأما توكيل العبد ربه: فتسليم لربوبيته، وقيام بعبوديته.

وقوله(١) وهو: «من أصعب منازل العامة عليهم» لأن العامة لم يخرجوا عن نفوسهم ومألوفاتهم. ولم يشاهدوا الحقيقة التي شهدها الخاصة. وهي التي تشهد التوكيل فهم في رق الأسباب. فيصعب عليهم الخروج عنها، وخلو القلب منها، والاشتغال بملاحظة المسبب وحده.

وأما كونه: «أوهى السبل عند الخاصة» فليس على إطلاقه. بل هو من أجل السبل عندهم وأفضلها، وأعظمها قدراً. وقد تقدم في صدر الباب: أمر الله رسوله بذلك. وحضه عليه هو والمؤمنين.

ومن أسمائه: ﴿المتوكل﴾ وتوكله أعظم توكل. وقد قال الله له: ﴿**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ**﴾ [النمل: ٧٩].

وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به. فالدين كله في هذين المقامين. وقال رسل الله وأنبياؤه: ﴿**وَمَا لَنَا أَنْ لَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا؟**﴾ [إبراهيم: ١٢]. فالعبد آفته: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل. فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله.

نعم التوكل على الله في معلوم الرزق المضمون، والاشتغال به عن التوكل في نصرة الحق والدين: من أوهى منازل الخاصة. أما التوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه فيه وفي الخلق. فهذا توكل الرسل والأنبياء عليهم السلام، فكيف يكون من أوهى منازل الخاصة؟.

قوله: «لأن الحق قد وكل الأمور إلى نفسه، وأيأس العالم من ملك شيء منها».

---

(١) أي صاحب المنازل. ذكرناه لما اشتمل عليه الجواب من فوائد. رحم الله الجميع. ج.

جوابه: أن الذي تولى ذلك أسند إلى عباده كسباً وفعلاً، وإقداراً، واختياراً، وأمراً ونهياً، استعبدهم به. وامتحن به من يطيعه ممن يعصيه، ومن يؤثره ممن يؤثر عليه. وأمر بتوكلهم عليه فيما أسنده إليهم وأمرهم به، وتعبدهم به. وأخبر: أنه يحب المتوكلين عليه، كما يحب الشاكرين. وكما يحب المحسنين، وكما يحب الصابرين. وكما يحب التوابين.

(١)**الوجه** الخامس والثلاثون بعد المائة: أن الله سبحانه جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه، وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه، وناهيك بها منزلة شريفة ومنقبة عظيمة.

قال تعالى ﴿**ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٨٨، ٨٩].

وقد قيل: إن هؤلاء القوم هم الأنبياء. وقيل: أصحاب رسول الله، ﷺ. وقيل: كل مؤمن. هذه أمهات الأقوال بعد أقوال متفرعة عن هذه: كقول من قال هم الأنصار، أو المهاجرون والأنصار، أو قوم من أبناء فارس، وقال آخرون: هم الملائكة.

قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصواب: أنهم الأنبياء الثمانية عشر، الذين سماهم في الآيات قبل هذه الآية. قال: وذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما يليها بأن يكون خبراً عنهم؛ أولى وأحق بأن يكون خبراً عن غيرهم، فالتأويل: فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا وكذبوا بها وجحدوا حقيقتها؛ فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك، الذين لا يجحدون حقيقتها، ولا يكذبون بها؛ ولكنهم يصدقون بها، ويؤمنون بصحتها.

قلت: السورة مكية، والإشارة بقوله: ﴿**هؤلاء**﴾ إلى: من كفر به من قومه أصلاً، ومن عداهم تبعاً؛ فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة.

والقوم الموكلون بها هم: الأنبياء أصلاً، والمؤمنون بهم تبعاً؛ فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة إليها.

---

(١) ١٦١ مفتاح جـ١.

ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلاً، وللمؤمنين بهم تبعاً، وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول خلفاؤه في أمته وورثته، فهم الموكلون بها: وهذا ينتظم الأقوال التي قيلت في الآية. وأما قول من قال: إنهم الملائكة؛ فضعيف جدًّا، لا يدل عليه السياق وتأباه لفظة ﴿قوماً﴾؛ إذ الغالب في القرآن؛ بل المطرد تخصيص (القوم) ببني آدم دون الملائكة. وأما قول إبراهيم لهم: ﴿قوم منكرون﴾ [الذاريات: ٢٥] فإنما قاله لما ظنهم من الإنس.

وأيضاً: فلا يقتضيه فخامة المعنى ومقصوده؛ ولهذا لو أظهر ذلك، وقيل: فإن يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا بها الملائكة، فإنهم لا يكفرون بها؛ لم نجد[1] منه من: التسلية، وتحقير شأن الكفرة بها، وبيان عدم تأهلهم لها والإنعام عليهم، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم؛ لكونهم أحق بها وأهلها[1]. والله أعلم حيث يضع هداه ويختص به من يشاء.

وأيضا: فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها، وأنه لا ضيعة عليها، وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها؛ فإن لها قوماً غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويذبون عنها، فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئاً، فإن لها أهلاً ومستحقًّا سواهم. فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته، وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمسارعة إلى قبولها، وما تحته من تنبيههم على: محبته لهم، وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين، وما تحته من: احتقارهم، وازدرائهم، وعدم المبالاة والاحتفال بهم، وإنكم وإن لم تؤمنوا بها؛ فعبادي المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا به أولاَ تُؤْمِنُوا إنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذَا يُتْلَى عَلَيْهِم يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

وإذا كان للملك: عبيد قد عصوه وخالفوا أمره ولم يلتفتوا إلى عهده، وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره؛ فنظر إليهم، وقال:

(١) لتمام المعنى لابد أن يكون هناك مفعولاً للفعل (نجد) ـ يكون بعد كلمة (وأهلها) وتقديره: لم نجد منه من التسلية... وأهلها؛ ما نجده في كونهم بشرا. المراجع.

إن يكفر هؤلاء بنعمي ويعصوا أمري ويضيعوا عهدي ؛ فإن لي عبيداً سواهم وهم أنتم: تطيعـون أمـري، وتحفظون عهدي، وتؤدون حقي ؛ فإن عبيده المطيعين يجدون في أنفسهم من: الفرح والسرور، والنشاط وقوة العزيمة ؛ ما يكون موجباً لهم: المزيد من القيام بحق العبودية، والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم. وهذا أمر يشهد به الحس والعيان.

وأما توكيلهم بها ؛ فهـو يتضمن: توفيقهم للإيمان بها، والقيام بحقوقها ومراعاتها، والذب عنها، والنصيحة لها، كما يوكل الرجل غيره بالشيء ؛ ليقوم به، ويتعهده، ويحافظ عليه. و(**بها**) الأولى متعلقة بـ(**وكلنا**)، و(**بها**) الثانية متعلقة بكافرين، والباء في (**بكافرين**) لتأكيد النفي.

فإن قلت: فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء الموكلين: إنه وكيل الله، بهذا المعنى، كما يقال: ولي الله؟ قلت: لا يلزم من إطلاق فعل التوكل المقيد بأمر ما ؛ أن يصـاغ منه اسم فاعل مطلق، كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد ؛ أن يقال: خليفة الله، لقوله: ﴿**ويستخلفكم في الأرض**﴾.

وقوله: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذين آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ [النور: ٥٥]. فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم: إنه خليفة الله ؛ لأنه استخلاف مقيد.

ولما قيل للصديق: يا خليفة الله ؛ قال: لست بخليفة الله ؛ ولكني خليفة رسـول الله، وحسبي ذلـك ؛ ولكن يسوغ أن يقال: هو وكيل بذلك، كما قال تعالى: ﴿**فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا**﴾.

والمقصـود: أن هذا التـوكيل خاص بمن قام بها: علماً وعمـلاً، وجهاداً لأعـدائهـا، وذبًّـا عنهـا ونفياً: لتحـريف الغـالـين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجـاهلين. وأيضـا: فهـو توكيل رحمـة وإحسان وتوفيق واختصاص، لا توكيل حاجة، كما يوكل الرجل من يتصرف عنه في غيبته لحاجة إليه.

ولهذا قال بعض السلف: ﴿**فقد وكلنا بها قوماً**﴾ يقول: رزقناها قوماً ؛ فلهذا لا يقـال لمن رزقهـا ورحم بها: إنه وكيل لله، وهذا بخلاف اشتقاق ولي الله من الموالاة ؛ فإنها المحبة والقرب، فكما يقال: عبدالله وحبيبه، يقال: وليه. والله تعالى

يوالي عبده: إحساناً إليه، وجبراً له، ورحمة؛ بخلاف المخلوق؛ فإنه يوالي المخلوق؛ لتعززه به وتكثره بموالاته لذل العبد وحاجته. وأما العزيز الغني فلا يوالي أحداً من ذل ولا حاجة. قال تعالى: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ للّه الّذي لَمْ يَتَّخِذْ ولداً ولَمْ يَكُنْ لهُ شريكٌ في المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ من الذلِّ وكبِّرْه تكبيراً﴾ [الإسراء: ١١١]. . . .

...[1]**لاريب** أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم: علما، ومعرفة، وحالاً؛ تفاوتًا لا يحصيه إلا الله. فأكمل الناس توحيدًا الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسلون منهم؛ أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكمل توحيداً، وهم[2]: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأكملهم توحيداً: الخليلان: محمد، وإبراهيم، صلوات الله وسلامه عليهما. فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما: علمًا، ومعرفة، وحالا، ودعوة للخلق، وجهاداً.

فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه؛ ولهذا أمر الله سبحانه نبيه، ﷺ، أن يقتدي بهم فيه. كما قال سبحانه، ـ بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك، وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته، ثم قال: ﴿أولئك الّذينَ آتيْنَاهُم الكِتابَ والحُكمَ والنُّبوةَ. فإن يَكْفُـرْ بهَا هؤلاءِ فقـد وكّلْنا بهَا قَوْماً لَيْسُوا بهَا بكَافِرينَ أولَئكَ الّذينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُداهم اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠] فلا أكمل من توحيد من أُمر رسول الله، ﷺ، أن يقتدي بهم. ولما قاموا بحقيقته: علماً، وعملاً، ودعوة، وجهاداً؛ جعلهم الله أئمة للخلائق: يهدون بأمره، ويدعون إليه، وجعل الخلائق تبعًا لهم: يأتمرون بأمرهم، وينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده. وخص بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم. وبالشقاء والضلال مخالفيهم. وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله: ﴿إنّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَاماً قال وَمِنْ ذُرِّيَتِي قال لاَ يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. أي: لا ينال عهدي بالإمامة مشرك؛ ولهذا أوصى نبيه محمداً، ﷺ، أن

(١) ٤٨٠ مدارج جـ٣.

(٢) في مخطوطتنا: وهم: محمد، نوح، وإبراهيم، وموسى وعيسى فإنهما. . . والمطبوعة أصح، إلا أنه سقط منها ذكر (عيسى). ج.

يتبع ملة إبراهيم. وكان يُعَلِّم أصحابه، إذا أصبحوا: أن يقولوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، ﷺ، وملّة أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً. وما كان من المشركين**» فملة إبراهيم؛ التوحيد، ودين محمد؛ ما جاء به من عند الله: قولاً، وعملاً، واعتقاداً. وكلمة الإخلاص؛ هي شهادة: أن لا إله إلا الله. وفطرة الإسلام؛ هي ما فطر الله عليه عباده من: محبته، وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له: عبودية وذلاًّ، وانقياداً، وإنابة.

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه؛ فهو من أسفه السفهاء.

(١)**الوجه** الثاني: أن دعوة محمد بن عبدالله، صلوات الله وسلامه عليه، هي دعوة جميع المرسلين قبله، من أولهم إلى آخرهم، فالمكذب بدعوته؛ مكذب بدعوة إخوانه كلهم، فإن جميع الرسل جاءوا بما جاء به، فإذا كذبه المكذب؛ فقد زعم أن ما جاء به باطل، وفي ذلك تكذيب كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله، ولا يمكن أن يعتقد أن ما جاء به صدق، وأنه كاذب مفتر على الله، وهذا في غاية الوضوح، وهذا بمنزلة شهود شهدوا بحق فصدقهم الخصم، وقال: هؤلاء كلهم شهود عدول صادقون، ثم شهد آخر على شهادتهم سواء، فقال الخصم: هذه الشهادة باطلة وكذب لا أصل لها، وذلك تكذيب بشهادة جميع الشهود قطعاً، ولا ينجيه من تكذيبهم اعترافه بصحة شهادتهم، وأنها شهادة حق مع قوله: إن الشاهد بها كاذب فيما شهد به. فكما أنه لو لم يظهر محمد، ﷺ، لبطلت نبوات الأنبياء قبله، فكذلك إن لم يصدق؛ لم يمكن تصديق نبي من الأنبياء قبله.

الوجه الثالث: أن الآيات والبراهين التي دلت على صحة نبوته وصدقه؛ أضعاف أضعاف آيات من قبله من الرسل، فليس لنبي من الأنبياء آية توجب الإيمان به؛ إلا ولمحمد، ﷺ، مثلها أو ما هو في الدلالة مثلها؛ وإن لم يكن من جنسها. فآيات نبوته؛ أعظم وأكبر وأبهر وأدل، والعلم بنقلها قطعي: لقرب العهد، وكثرة النقلة، واختلاف أمصارهم وأعصارهم، واستحالة تواطئهم على الكذب.

فالعلم بآيات نبوته؛ كالعلم بنفس وجوده وظهوره وبلده، بحيث لا تمكن المكابرة في ذلك، والمكابر فيه في غاية الوقاحة والبهت، كالمكابرة في وجود ما

(١) ١٨٥ هداية.

يشاهده الناس، ولم يشاهده هو من البلاد والأقاليم والجبال والأنهار، فإن جاز القدح في ذلك كله؛ فالقدح في وجود عيسى وموسى وآيات نبوتهما؛ أجوز وأجوز، وإن امتنع القدح فيهما وفي آيات نبوتهما؛ فامتناعه في محمد، ﷺ، وآيات نبوته؛ أشد.

ولذلك لما علم بعض علماء أهل الكتاب: أن الإيمان بموسى لايتم مع التكذيب بمحمد أبداً؛ كفر بالجميع، وقال: ﴿**ما أنزل اللّهُ على بَشَرٍ من شيءٍ**﴾. كما قال تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدره إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتابَ الَّذي جَاء به مُوسى نُوراً وهُدًى لِلنَّاس تَجْعلُونه قَرَاطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً وعُلِّمتُم مَا لَمْ تَعْلَموا أنتُم وَلَا آباؤكُم قُلْ اللّهُ ثم ذَرْهُم في خَوْضِهِم يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام: ٩١].

قال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود يقال له: مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي، ﷺ: «**أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة: إن الله يبغض الحبر السمين؟!**» وكان حبراً سميناً؛ فغضب عدو الله، وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له أصحابه الذين معه: ويحك ولا موسى فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِه**﴾ الآية [الأنعام: ٩١]. وهذا قول عكرمة.

قال محمد بن كعب: جاء ناس من اليهود إلى النبي، ﷺ، وهو محتب، فقالوا: يا أبا القاسم، ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى، ألواحاً يحملها من عند الله عز وجل؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكبَرَ مِنْ ذٰلِكَ**﴾ الآية. [النساء: ١٥٣].

وجاء رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك، ولا على موسى، ولا على عيسى، ولا على أحد؛ شيئاً، ما أنزل الله على بشر من شيء، فحل رسول الله، ﷺ، حبوته، وجعل يقول: «**ولا على أحد؟!!**».

وذهب جماعة، منهم؛ مجاهد: إلى أن الآية نزلت في مشركي قريش، فهم الذين جحدوا أصل الرسالة، وكذبوا بالرسل، وأما أهل الكتاب فلم يجحدوا نبوة موسى وعيسى، وهذا اختيار ابن جرير، **قال**: وهو أولى الأقاويل بالصواب؛ لأن ذلك في سياق الخبر عنهم، فهو أشبه من أن يكون خبراً عن اليهود، ولم يجر لهم

ذكر يكون هذا به متصلاً، مع ما في الخبر عن من أخبر الله عنه من هذه الآية من إنكاره: أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً من الكتب، وليس ذلك مما تدين به اليهود؛ بل المعروف من دين اليهود؛ الإقرار: بصحف إبراهيم، وموسى، وزبور داود. والخبر من أول السورة إلى هذا الموضع؛ خبر عن المشركين من عبدة الأوثان، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ موصول به غير مفصول عنه.

قلت: ويقوي قوله؛ إن السورة مكية، فهي خبر عن زنادقة العرب، المنكرين لأصل النبوة. ولكن بقي أن يقال: فكيف يحسن الرد عليهم؛ بما لا يقرون به من إنزال الكتاب الذي جاء به موسى؟ وكيف يقال لهم: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾؟! [الأنعام: ٩١] ولا سيما على قراءة من قرأ بتاء الخطاب، وهل ذلك صالح لغير اليهود؟ فإنهم كانوا يخفون من الكتاب؛ مالا يوافق أهواءهم وأغراضهم، ويبدون منه ما سواه، فاحتج عليهم بما يقرون به من كتاب موسى، ثم وبخهم: بأنه خانوا الله ورسوله فيه، فأخفوا بعضه وأظهروا بعضه. وهذا استطراد من ذكر جحدهم النبوة بالكلية، وذلك إخفاء لها وكتمان؛ إلى جحد ما أقر به كتابهم بإخفائه وكتمانه، فتلك سجية لهم معروفة لا تنكر؛ إذ من أخفى بعض كتابه الذي يقر بأنه من عند الله، كيف لا يجحد أصل النبوة؟

ثم احتج عليهم: بأنهم قد علموا بالوحي مالم يكونوا يعلمونه هم ولا آباؤهم، ولولا الوحي الذي أنزله على أنبيائه ورسله؛ لم يصلوا إليه، ثم أمر رسوله أن يجيب عن هذا السؤال، وهو قوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ فقال: ﴿قل الله﴾ أي: الله الذي أنزله، أي: إن كفروا به وجحدوه؛ فصدقْ به أنت، وأقرَّ به: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1] [الأنعام: ٩١].

جواب هذا السؤال أن يقال: إن الله سبحانه احتج عليهم بما يقر به أهل الكتابين، وهم أولو العلم دون الأمم التي لا كتاب لها، أي: إن جحدتم أصل النبوة، وأن يكون الله أنزل على بشر شيئاً؛ فهذا كتاب موسى تقر به أهل الكتاب، وهم أعلم منكم؛ فاسألوهم عنه. ونظائر هذا في القرآن كثيرة، يستشهد سبحانه بأهل الكتاب على منكري النبوات والتوحيد.

---

(١) تقدم في أول السورة الكلام على قوله: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ ماله علاقة بهذا فليرجع إليه (ج).

والمعنى: إنكم إن أنكرتم أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً، فمن أنزل كتاب موسى؟ فإن لم تعلموا ذلك؛ فاسألوا أهل الكتاب.

وأما قوله تعالى: ﴿**تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً**﴾ فمن قرأها بالياء؛ فهي إخبار عن اليهود بلفظ الغيبة، ومن قرأها بلفظ التاء للخطاب؛ فهو خطاب لهذا الجنس الذين فعلوا ذلك. أي: تجعلونه يامن أنزل عليه كذلك.

وهذا من أعلام نبوته: أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوه في كتابهم، وأنهم جعلوه قراطيس وأبدوا بعضه وأخفوا كثيراً منه، وهذا لا يعلم من غير جهتهم إلا بوحي من الله. ولا يلزم أن يكون قوله: ﴿**تَجْعَلُونَه قَرَاطِيسَ**﴾ خطاباً لمن حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿**ما أنزل اللّهُ على بَشرٍ من شيءٍ**﴾ بل هذا استطراد من الشيء إلى: نظيره، وشبهه، ولازمه. وله نظائر في القرآن كثيرة:

كقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً**﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] إلى آخر الآيات فاستطرد من الشخص المخلوق من الطين، وهو آدم؛ إلى النوع المخلوق من النطفة، وهم أولاده، وأوقع الضمير على الجميع بلفظ واحد.

ومثله قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمرَّت به، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا له شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠] إلى آخر الآيات.

ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّموٰاتِ والأَرْضَ لَيَقُولن خَلَقَهُنَّ العزيزُ العليمُ الَّذي جَعل لَكُم الأرْض مَهْداً وَجَعَل لَكُم فِيها سُبلاً لعلَّكُم تَهْتَدونَ والَّذي نَزَّل مِنَ السَّماء مَاءً بِقَدرٍ فَأَنْشَرْنَا به بَلْدَةً مَيْتاً كذلك تُخْرَجُونَ والَّذي خَلَقَ الأزْوَاجَ كُلَّهَا**﴾ [الزخرف: ٩-١٢] إلى آخر الآيات.

وعلى التقديرين فهؤلاء لم يتم لهم إنكار نبوة النبي، ﷺ، ومكابرتهم؛ إلا بهذا الجحد والتكذيب العام، ورأوا أنهم إن أقروا ببعض النبوات وجحدوا نبوته؛ ظهر تناقضهم وتفريقهم بين المتماثلين، وأنهم لا يمكنهم الإيمان بنبي؛ وجحد نبوة مَنْ نبوته؛ أظهر، وآياتها؛ أكثر وأعظم ممن أقروا به. وأخبر سبحانه أن من جحد: أن يكون قد أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ لم يقدره حق قدره، وأنه نسبه إلى ما لا

يليق به؛ بل يتعالى ويتنزه عنه. . .

...(١)**ودار** بيني وبين بعض علمائهم مناظرة في ذلك، فقلت له في أثناء الكلام: لا يتم لكم القدح في نبوة نبينا، ﷺ، إلا بالطعن في الرب تبارك وتعالى، والقدح فيه، ونسبته إلى أعظم الظلم والسفه والفساد. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً. فقال: كيف يلزمنا ذلك.

قلت: بل أبلغ من ذلك: لا يتم لكم ذلك إلا بجحوده وإنكار وجوده تعالى.

وبيان ذلك: أنه إذا كان محمد عندكم ليس بنبي صادق، وهو بزعمكم ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفتري على الله، ويتقول عليه مالم يقله، ثم يتم الله له ذلك، ويستمر؛ حتى يحلل ويحرم، ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع، وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل، وهم أهل الحق، ويسبي نساءهم وأولادهم، ويغنم أموالهم وديارهم، ويتم له ذلك؛ حتى يفتح الأرض، وينسبَ ذلك كله إلى أمر الله تعالى له به، ومحبته له، والرب تعالى يشاهده وما يفعل بأهل الحق وأتباع الرسل، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله: يؤيده وينصره، ويُعْلِي أمره، ويُمَكِّنَ له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر.

وأعجب من ذلك: أنه يجيب دعوته، ويهلك أعداءه من غير فعل منه نفسه ولا سبب؛ بل تارة بدعائه، وتارة يستأصلهم سبحانه من غير دعاء منه، ﷺ، ومع ذلك: يقضي له كل حاجة سأله إياها، ويَعِدُه كلَّ وَعْدٍ جميل، ثم ينجز له وعده على أتم الوجوه وأهنئها وأكملها. هذا، وهو عندكم في غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أكذب ممن كذب على الله واستمر على ذلك، ولا أظلم ممن أبطل شرائع أنبيائه ورسله، وسعى في رفعها من الأرض وتبديلها بما يريد هو، وقتل أولياء الله وحزبه وأتباع رسله، واستمرت نصرته عليهم دائماً؛ والله تعالى في ذلك كله يقره، ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوَتِين، وهو يخبر عن ربه: أنه أوحى إليه أنه لا ﴿**أظْلَمُ مِمَّن افْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً أو قال أوحِيَ إليَّ، ولم يُوحَ إلَيهِ شيَءٌ ومَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أنْزَلَ الله**﴾ [الأنعام: ٩٣]. فيلزمكم معاشر من كذبه أحد أمرين، لابد لكم منهما:

إما أن تقولوا: لا صانع للعالم ولا مدبر، ولو كان للعالم صانع مدبر قدير

---

٨٩ زاد المعاد جـ٣.

حكيم؛ لأخذ على يديه، ولقابله أعظم مقابلة، وجعله نكالاً للظالمين؛ إذ لا يليق بالملوك غير هذا. فكيف بَملِك الأرض والسموات وأحكم الحاكمين؟

الثاني: نسبة الرب إلى مالا يليق به من: الجور والسَّفَه والظلم، وإضلال الخلق دائماً أبد الآباد؛ لا بل نصرة الكاذب، والتمكين له من الأرض، وإجابة دعوته، وقيام أمره من بعده، وإعلاء كلماته دائماً، وإظهار دعوته، والشهادة له بالنبوة، قرناً بعد قرن على رءوس الأشهاد في كل مجمع ونادٍ. فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين؟ فلقد قَدَحْتُم في رب العالمين أعظم قَدْح، وطعنتم فيه أشد طعن، وأنكرتموه بالكلية.

ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين قام في الوجود، وظهرت له شوكة، ولكن لم يتم له أمر، ولم تطل مدته؛ بل سلط الله عليه رسله وأتباعهم، فمحقوا أثره، وقطعوا دابره، واسْتَأْصَلُوا شَأْفَتَهُ. هذه سنته في عباده منذ قامت الدنيا، وإلى أن يرث الأرض ومَن عليها.

فلما سمع مني هذا الكلام قال: معاذ الله أن نقول: إنه ظالم أو كاذب؛ بل كل منصف من أهل الكتاب يقر: بأن من سلك طريقه، واقتفى أثره؛ فهو من أهل النجاة والسعادة في الأخرى.

قلت له: فكيف يكون سالك طريق الكذاب ومقتفي أثره بزعمكم من أهل النجاة والسعادة؟ فلم يجد بُدًّا من الاعتراف برسالته، ولكن لم يرسل إليهم.

قلت: فقد لزمك تصديقه، ولابد، وهو قد تواترت عنه الأخبار بأنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين: كتابيِّهم، وأميهم. ودعا أهل الكتاب إلى دينه، وقاتل من لم يدخل في دينه منهم، حتى أقروا بالصغار والجزية، فبُهت الكافر ونهض من فَوره[1].

والمقصود: أن رسول الله، ﷺ، لم يزل في جدال الكفار على اختلاف مِلَلِهم ونِحَلهم إلى أن تُوفي. وكذلك أصحابه من بعده. وقد أمره الله سبحانه بجدالهم بالتي هي أحسن في السور المكية والمدنية. وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحجة إلى المباهلة. وبهذا قام الدين، وإنما جعل السيف ناصراً للحجة. وأعدل

(١) ساق الشيخ هذه المناظرة في التبيان من ١١٣/١١٤ قريباً من هذا السياق وفيه زيادة. ج.

السيوف؛ سيف ينصر حجج الله وبيناته، وهو سيف رسوله وأمته.

(١) **قال** تعالى: ﴿**قل من أنزل الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للنَّاس تَجْعَلُونَه قَراطِيس تبدونَها وتُخفون كثيراً وعُلِّمتم مالم تعْلموا أنتم ولا آباؤكم قل اللّهُ**﴾ يعني: الذي أنزله. جعل سبحانه تعليمهم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلًا على صحة النبوة والرسالة؛ إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل، فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء؟ وهذا من فضل العلم وشرفه، وأنه دليل على صحةِ النبوة والرسالة. والله الموفق للرشاد.

(٢) **وقد** احتج أبوعبدالله بن منده على إعادة الروح إلى البدن بأن قال: حدثنا محمد بن الحسين بن الحسن: ثنا محمد بن يزيد النيسابوري: ثنا حماد بن قيراط: ثنا محمد بن الفضل، عن يزيد بن عبدالرحمن الصائغ البلخي، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس، أنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم قاعد؛ تلا هذه الآية: ﴿**وَلَوْ تَرى إذ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ المَوْتِ وَالمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ**﴾ الآية. [الأنعام: ٩٣] قال: «**والذي نفس محمد بيده؛ ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة والنار**»، ثم قال: «**فإذا كان عند ذلك؛ صف له سماطان من الملائكة، ينتظمان ما بين الخافقين كأن وجوههم الشمس فينظر إليهم ما يرى غيرهم وإن كنتم ترون أنهم ينظرون**(٣) **إليكم، مع كل منهم أكفان وحنوط، فإن كان مؤمناً؛ بشروه بالجنة، وقالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى رضوان الله وجنته؛ فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير من الدنيا وما فيها، فلا يزالون يبشرونه ويحفون به، فَلَهُم ألطف وأرأف من الوالدة بولدها، ثم يسلّون روحه من تحت كل ظفر ومفصل، ويموت الأول فالأول ويهون عليه، وكنتم ترونه شديداً؛ حتى تبلغ ذقنه، قال: فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم، فيبتدرها كل ملك منهم: أيهم يقبضها؟ فيتولى قبضها ملك الموت**» ثم تلا رسول الله، ﷺ ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلَىٰ رَبِّكُم تُرْجَعُونَ**﴾ [السجدة: ١١] «**فيتلقاها بأكفان بيض، ثم يحتضنها إليه؛ فلهو أشد لزومًا لها من المرأة إذا ولدتها، ثم يفوح**

(١) ٥٧ مفتاح جـ١. (٢) ٦٠ الروح. (٣) هكذا في المنقول عنه ـ والظاهر ـ أنه ينظر إليكم ـ ح.

منها ريح أطيب من المسك، فيستنشقون ريحها ويتباشرون بها ويقولون: مرحباً بالروح الطيبة والروح الطيب، اللهم صل عليه روحاً وعلى جسد خرجت منه. قال: فيصعدون بها والله عز وجل خلق في الهواء لا يعلم عدتهم إلا هو، فيفوح لهم منها ريح أطيب من المسك فيصلون عليها ويتباشرون، ويفتح لهم أبواب السماء، فيصلي عليها كل ملك في كل سماء مربهم؛ حتى ينتهي بها بين يدي الملك الجبار، فيقول الجبار جل جلاله: مرحباً بالنفس الطيبة وبجسد خرجت منه، وإذا قال الرب عز وجل للشيء: مرحباً؛ رحب له كل شيء ويذهب عنه كل ضيق، ثم يقول لهذه النفس الطيبة: أدخلوها الجنة، وأروها مقعدها من الجنة، واعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم، ثم اذهبوا بها إلى الأرض، فإني قضيت: أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فوالذي نفس محمد بيده؛ لهي أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول: أين تذهبون بي إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه؟ قال: فيقولون: إنا مأمورون بهذا فلابد لك منه؛ فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه، فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه».

فدل هذا الحديث على: أن الروح تعاد بين الجسد والأكفان، وهذا عود غير التعلق الذي كان لها في الدنيا بالبدن، وهو نوع آخر، وغير تعلقها به حال النوم، وغير تعلقها وهي في مقرها؛ بل هو عود خاص للمساءلة.

قال شيخ الإسلام: الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال، وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور، وقابلهم آخرون فقالوا: السؤال للروح بلا بدن، وهذا قاله ابن مرة وابن حزم وكلاهما غلط، والأحاديث الصحيحة ترده، ولو كان ذلك على الروح فقط؛ لم يكن للقبر بالروح اختصاص.

وهذا يتضح بجواب المسألة، وهي قول السائل: هل عذاب القبر على النفس والبدن، أو على النفس دون البدن، أو على البدن دون النفس، وهل يشارك البدن النفس في النعيم والعذاب أم لا؟.

وقد سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة، ونحن نذكر لفظ جوابه فقال:

بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة: تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين، كما تكون على الروح منفردة عن البدن، وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام.

وفي المسألة أقوال شاذة، ليست من أقوال أهل السنة والحديث: قول من يقول: إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب، وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان، وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين. ويقوله كثير من أهل الكلام من: المعتزلة، وغيرهم الذين يقرون بمعاد الأبدان؛ لكن يقولون: لا يكون ذلك في البرزخ، وإنما يكون عند القيام من القبور، لكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن في البرزخ فقط، ويقولون: إن الأرواح هي المنعمة أو المعذبة في البرزخ، فإذا كان يوم القيامة؛ عذبت الروح والبدن معًا، وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من: أهل الكلام والحديث، وغيرهم؛ وهو اختيار ابن حزم وابن مرة.

فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة؛ بل هو مضاف إلى قول من يقول بعذاب القبر، ويقر بالقيامة ويثبت معاد الأبدان والأرواح.

ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه على الروح فقط.

الثاني: أنه عليها وعلى البدن بواسطتها.

الثالث: أنه على البدن فقط. وقد يضم إلى ذلك القول الثاني، وهو قول من يثبت عذاب القبر ويجعل الروح هي الحياة، ويجعل الشاذ: قول منكر عذاب الأبدان مطلقاً، وقول من ينكر عذاب الروح مطلقاً. فإذا جعلت الأقوال الشاذة ثلاثة؛ فالقول الثاني الشاذ: قول من يقول: إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب؛ وإنما الروح هي الحياة، وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من: المعتزلة؛ والأشعرية: كالقاضي أبي بكر وغيره، وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن، وهذا قول باطل، وقد خالف أصحابه أبوالمعالي الجويني وغيره؛ بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة: أن الروح تبقى بعد فراق البدن،

وأنها منعمة أو معذبة. **والفلاسفة** الإلهيون يقرون بذلك، لكن ينكرون معاد الأبدان، وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان، لكن ينكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان، وكلا القولين خطأ وضلال؛ لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام، وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام؛ بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام.

والقول الثالث الشاذ: قول من يقول: إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب؛ بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم، ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه؛ بناء على: أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب، فجميع هؤلاء الطوائف ضلال في أمر البرزخ؛ لكنهم خير من الفلاسفة فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى.

فصل فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة؛ فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها: أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة. وأنها تتصل بالبدن أحياناً، ويحصل له معها النعيم أو العذاب. ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى؛ أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين. ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى.

(١)**فصل** وأما المسألة الثامنة: وهي قول السائل: ما الحكمة في كون عذاب القبر؛ لم يذكر في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟ فالجواب من وجهين: مجمل، ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده: الإيمان بهما، والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة. وقال تعالى: **﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾** [النساء: ١١٣]. وقال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ويعلمهم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾** [الجمعة: ٢]. وقال تعالى: **﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ﴾** [الأحزاب: ٣٤]. والكتاب؛ هو القرآن؛ والحكمة؛ هي السنة باتفاق السلف، وما

(١) ٩٢ الروح.

أخبر به الرسول عن الله فهو في وجوب تصديقه والإيمان به، كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام، لا ينكره إلا من ليس منهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**إني أوتيت الكتاب ومثله معه**».

وأما الجواب المفصل؛ فهو: أن نعيم البرزخ وعذابه؛ مذكور في القرآن في غير موضع. فمنها قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو**[1] **أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُم اليوم تُجْزَونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [الأنعام: ٩٣].

وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صح أن يقال لهم: اليوم تجزون.

ومنها قوله تعالى: ﴿**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦] فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً لا يحتمل غيره.

ومنها قوله تعالى: ﴿**فَذَرْهُم حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُم الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ، يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُم كَيْدُهُم شَيئًا وَلَا هُم يُنْصَرُونَ، وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الطور: ٤٥ - ٤٧].

وهذا يحتمل: أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا، وقد يقال - وهو أظهر -: إن من مات منهم؛ عذب في البرزخ، ومن بقي منهم؛ عذب في الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم: في الدنيا، وفي البرزخ.

ومنها قوله تعالى: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ**﴾ [السجدة: ٢١].

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم: عبدالله بن عباس على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن، لكن من فقهه في القرآن ودقة

فهمه فيه فهم منها عذاب القبر، فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين: أدنى، وأكبر. فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا، فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿**من العذاب الأدنى**﴾. ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى فتأمله.

وهذا نظير قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها**». ولم يقل: فيأتيه حرها وسمومها؛ فإن الذي وصل إليه بعض ذلك وبقي له أكثره. والذي ذاقه أعداء الله في الدنيا، بعض العذاب الأدنى، وبقي لهم ما هو أعظم منه...

(1)**وأما** المسألة العشرون وهي: هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران؟ فاختلف الناس في ذلك: فمن قائل: إن مسماهما واحد وهم الجمهور.

ومن قائل: إنهما متغايران.

ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته، فنقول: النفس تطلق على أمور:

أحدها: الروح. قال الجوهري: النفس: الروح. يقال: خرجت نفسه، قال أبوخراش:

نجا سالمًا والنفس منه بشدقه ... ولم ينج إلا جفن سيف ومئزر

أي: بجفن سيف ومئزر.

والنفس: الدم. يقال: سالت نفسه، وفي الحديث: «**مالا نفس له سائلة؛ لا ينجس الماء إذا مات فيه**».

والنفس: الجسد. قال الشاعر:

نبئت أن بني تميم أدخلوا ... أبناءهم تامور نفس المنذر

والتامور: الدم.

والنفس: العين. يقال: أصابت فلانًا نفس، أي: عين.

قلت: ليس كما قال، بل النفس هاهنا الروح، ونسبة الإصافة إلى العين توسع؛ لأنها تكون بواسطة النظر المصيب، والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم.

قلت: والنفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها: كقوله تعالى: ﴿**فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُم**﴾ [النور: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكم**﴾

(١) ٢٦٤ الروح.

[النساء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عن نَفْسِها﴾ [النحل: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَة﴾ [المدثر: ٣٨].

وتطلق على الروح وحدها: كقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿أخْرِجُوا أنفُسَكُم﴾ [الأنعام: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس.

وتطلق الروح على القرآن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِن أمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله، قال تعالى: ﴿يُلقِي الرُّوحَ مِنْ أمْرِه على مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِه لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ [غافر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِن أمْرِه عَلى مَنْ يَشَاءُ مِن عبادِه أن أنذِروا أنَّه لا إلهَ إلاَّ أنا فاتَّقونِ﴾ [النحل: ٢].

وسمى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة؛ فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها ألبتة، بل حياة الحيوان البهيم؛ خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحاً؛ لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح؛ لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هبَّت الأرواح من نحو أرضكم وجدت لمسراها على كبدي بردا

ومنها الروح والريحان والاستراحة. فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها.

وسميت نفساً: إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها في البدن؛ سميت نفساً.

ومنه النفَس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجاً كليًّا، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح؛ فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفساً؛ لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، ولأن الحياة لا تتم إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس؛ فلهذا قال:

تسيل على حد الظباة نفوسنا   وليست على غير الظباة تسيل

ويقال: فاضت نفسه، وخرجت نفسه، وفارقت نفسه، كما يقال: خرجت روحه وفارقت، ولكن الفيض: الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة وهي: الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض: إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض: إذا اندفع قسراً وقهراً. فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي.

[(1)]**وقال** تعالى: ﴿**إن اللّهَ فالقُ الحبِّ والنوى يُخرجُ الحيَّ من الميِّتِ ومُخْرِجُ الميِّتِ من الحَيِّ ذلِكم اللّهُ فأنَّى تُؤفكـون فَالِقُ الإصْبَـاحِ وَجَعَـلَ اللَّيـلَ سَكَنًا وَالشَّمسَ وَالقمرَ حُسْبانًا ذَلك تَقْديرُ العَزيز العَليم وهُو الَّذي جَعَلَ لَكُم النُّجومَ لِتَهتـدُوا بهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآياتِ لِقَومٍ يَعْلَمون وهُو الذي أنشأكُم مِنَ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقرٌ وَمُستودَعٌ قَد فَصَّلنَا الآياتِ لِقومٍ يَفْقَهون وَهو الَّذي أنزَل مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فأخْرجْنَا به نَبَاتَ كُلِّ شيْءٍ فأخْرَجْنَا مِنه خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتراكِباً ومِن النَّخْلِ منْ طَلْعِها قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّات مِن أعْنَابٍ والزَّيْتُون وَالرُّمَّان مُشْتَبِهاً وَغيْرَ مُتَشابِه انظرُوا إلى ثَمَرِه إذا أثْمرَ وَيَنْعِهِ إن فِي ذلِكم لآيات لقوم يؤمنون**﴾ [الأنعام: ٩٥ - ٩٩].

فأمر سبحانه بالنظر إليه: وقت خروجه وإثماره، ووقت نضجه وإدراكه. يقال: أينعت الثمار إذا نضجت وطابت؛ لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة، ثم في خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة إلى ذلك اللون المشرق الناصع، والطعم الحلو اللذيذ الشهي، لآيات لقوم يؤمنون.

وقال بعض السلف: حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها، فينظروا إليها ثم تلا: ﴿**انْظُروا إلى ثَمَره إذَا أثْمَر وَيَنْعِه**﴾.

ولو أردنا أن نستوعب ما في آيات الله المشهودة من العجائب والدلالات الشاهدة لله: بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي ليس كمثله شيء، وأنه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر، ولا ألطف؛ لعجزنا نحن والأولون والآخرون، عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك، ولكن مالا يدرك جميعه لا ينبغي ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك، وهذا حين الشروع في الفصول...»[(2)]

---

(١) ٢٠٥ مفتاح جـ١. (٢) سرد المصنف فصولاً نافعة جدًا، فمن أرادها فليرجع إليها. ج.

(١)**فصل** الدليل السادس قوله عز وجل: ﴿**لا تُدْرِكُه الأبْصارُ وَهو يُدْرِكُ الأبْصَارَ**﴾ [الأنعام: ١٠٣]. والاستدلال بهذا أعجب؛ فإنه من أدلة النفاة. وقد قرر شيخنا وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه، وقال لي: أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله؛ إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله، فمنها هذه الآية، وهي على جواز الرؤية؛ أدل منها على امتناعها. فإن الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به.

وإنما يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم إذا تضمن أمراً وجوديًّا كتمدحه: بنفي السِّنة والنوم المتضمن كمال القيومية ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته وإلهيته وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية وغناه، ونفي الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته؛ ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمراً ثبوتيًّا؛ فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه. فلو كان المراد بقوله: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ أنه لا يرى بحال؛ لم يكن في ذلك مدح ولا كمال لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار، والرب جل جلاله يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض فإذًا المعنى: أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به، كما كان المعنى في قوله: ﴿**ومَا يَعْزُب عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ**﴾ [يونس: ١٦٩]. أنه يعلم كل شيء، وفي قوله: ﴿**وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوب**﴾ [ق:٣٨] أنه كامل القدرة، وفي قوله: ﴿**وَلاَ يَظلم ربُّك أحداً**﴾ [الكهف: ٤٩] أنه كامل العدل. وفي قوله: ﴿**لاَ تَأْخُذُه سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. أنه كامل القيومية.

فقوله: ﴿**لاَ تُدْرِكه الأبْصَار**﴾ **يدل على غاية عظمته، وأنه أكبر من كل**

---

(١) ٢٠٧ حادي الأرواح.

شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به؛ فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فلما تراءى الجمعانِ قال أصحابُ موسى إنَّا لمدركون قال كلا﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]. فلم ينف موسى الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: ﴿إنَّا لَمُدْرَكُون﴾: إنا لمرئيون؛ فإن موسى صلوات الله وسلامه عليه؛ نفى إدراكهم إياهم بقوله ﴿كلا﴾ وأخبر الله سبحانه أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿وَلَقَد أَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فاضْرِبْ لَهُم طَرِيقاً فِي البَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧] فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر، وبدونه فالرب تعالى يرى ولا يدرك، كما يعلم ولا يحاط به، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية. قال ابن عباس: ﴿لَا تُدْرِكُه الأَبْصَار﴾. لا تحيطُ به الأبصار. قال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار. وقال عطية: ينظرون إلى الله، ولا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره يحيط بهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُه الأَبْصَارُ وَهُو يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عياناً، ولا تدركه أبصارهم بمعنى: أنها لا تحيط به إذ كان غير جائز أن يوصف الله عز وجل بأن شيئاً يحيط به وهو بكل شيء محيط.

وهكذا يسمع كلام من يشاء من خلقه، ولا يحيطون بكلامه.

وهكذا يعلم الخلق ما علمهم ولا يحيطون بعلمه.

ونظير هذا؛ استدلالهم على نفي الصفات بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١ وهذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كما له ونعوت جلاله، وأنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مثل فيها، وإلا فلو أريد بها نفي الصفات لكان العدم المحض؛ أولى بهذا المدح منه.

مع أن جميع العقلاء إنما يفهمون من قول القائل: فلان لا مثل له، وليس له نظير ولا شبيه ولا مثل؛ أنه قد تميز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه فيها، وكلما كثرت أوصافه ونعوته؛ فاق أمثاله وبعد عن مشابهة أضرابه.

فقوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ من أدل شيء على كثرة نعوته وصفاته، وقوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣] من أدل شيء على أنه يرى ولا يدرك.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلى

العرْش يَعْلمُ ما يَلجُ في الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنهَا وَمَا يَنْزِلُ مِن السَّماءِ وما يَعْرُجُ فِيها وهو مَعَكم أينَما كنتم واللّهُ بِمَا تَعْمَلونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. من أدل شيء على مباينة الرب لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته؛ بل خلقهم خارجاً عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه: فيراهم وينفذهم بصره، ويحيط بهم علماً وقدرة وإرادة وسمعاً وبصراً، فهذا معنى كونه سبحانه معهم أينما كانوا.

وتأمل حسن هذه المقابلة لفظاً ومعنى بين قوله: ﴿لَا تُدرِكُه الأبصار وهو يدرِك الأبصَارَ﴾ فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار فلا تخفى عليه، فهو: العظيم في لطفه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير[1].

...[2]**ومن** ظن من القوم أن «كشف العين» ظهور الذات المقدسة لعيانه حقيقة؛ فقد غلط أقبح الغلط، وأحسن أحواله؛ أن يكون صادقاً ملبوساً عليه؛ فإن هذا لم يقع في الدنيا لبشر قط، وقد منع منه كليم الرحمن ﷺ.

وقد اختلف السلف والخلف: هل حصل هذا لسيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه؟. فالأكثرون على أنه لم ير الله سبحانه، وحكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعاً من الصحابة. فمن ادعى كشف العيان البصري عن الحقيقة الإلهية؛ فقد وهم وأخطأ، وإن قال: إنما هو كشف العيان القلبي، بحيث يصير الرب سبحانه كأنه مرئي للعبد، كما قال النبي ﷺ: **«اعبد الله كأنك تراه»** فهذا حق. وهو قوة يقين، ومزيد علم فقط.

نعم قد يظهر له نور عظيم فيتوهم أن ذلك نور الحقيقة الإلهية، وأنها قد تجلت له، وذلك غلط أيضاً؛ فإن نور الرب تعالى لا يقوم له شيء، ولما ظهر للجبل منه أدنى شيء؛ ساخ الجبل وتدكدك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَاتُدْرِكُهُ الأبْصَارُ﴾ قال: «ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى به لم يقم له شيء».

---

(١) بسط المؤلف رحمه الله البحث في الرؤية وأدلته في كتابه هذا في الباب الخامس والستين.

(٢) ٢٢٩ مدارج جـ٣.

وهذا النور الذي يظهر للصادق: هو نور الإيمان الذي أخبر الله عنه في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال أبي بن كعب: «مثل نوره في قلب المؤمن» فهذا نور يضاف إلى الرب. ويقال: هو نور الله. كما أضافه الله سبحانه إلى نفسه. والمراد: نور الإيمان الذي جعله الله له خلقاً وتكويناً، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]. فهذا «النور» إذا تمكن من القلب، وأشرق فيه؛ فاض على الجوارح. فيُرَى أثره في الوجه والعين. ويظهر في القول والعمل. وقد يقوى حتى يشاهده صاحبه عياناً. وذلك لاستيلاء أحكام القلب عليه، وغيبة أحكام النفس.

والعين شديدة الارتباط بالقلب، تظهر ما فيه. فتقوى مادة النور في القلب ويغيب صاحبه بما في قلبه عن أحكام حسه؛ بل وعن أحكام العلم فينتقل من أحكام العلم إلى أحكام العيان...

(١)**الفعل** أو القول المُفْضِي إلى المفسدة قسمان:

أحدهما: أن يكون وضعه للإفضاء إليها: كشُرْب المسكر المُفْضي إلى مفسدة السكر، وكالقَذْف المُفْضِي إلى مفسدة الفِرْيَة، والزنى المُفْضِي إلى اختلاط المياه وفساد الفراش، ونحو ذلك؛ فهذه أفعال وأقوال وضعت مفضية لهذه المفاسد، وليس لها ظاهر غيرها.

والثاني: أن تكون موضوعة للإفضاء إلى أمر جائز أو مستحب، فيتخذ وسيلة إلى المحرم: إما بقصده، أو بغير قصد منه.

فالأول: كمن يعقد النكاح قاصداً به التحليل، أو يعقد البيع قاصداً به الربا، أو يخالع قاصداً به الحنث، ونحو ذلك.

والثاني: كمن يُصَلي تطوعاً بغير سبب في أوقات النهي، أو يسب أرباب المشركين بين أظهرهم، أو يصلي بين يدي القبر لله، ونحو ذلك.

ثم هذ االقسم من الذرائع نوعان:

أحدهما: أن تكون مصلحة الفعل أرجَحَ من مفسدته.

---

(١) ١٤٨ أعلام جـ٣.

والثاني: أن تكون مفسدته راجحة على مصلحته؛ فههنا أربعة أقسام:

الأول: وسيلة موضوعة للإفضاء إلى المفسدة.

الثاني: وسيلة موضوعة للمُبَاح قصِد بها التوسلُ إلى المفسدة.

الثالث: وسيلة موضوعة للمباح لم يُقْصَد بها التوسل إلى المفسدة؛ لكنها مُفضِية إليها غالبًا، ومفسدتها أرجح من مصلحتها.

الرابع: وسيلة موضوعة للمباح وقد تُفْضِي إلى المفسدة، ومصلحتها أرجح من مفسدتها، فمثال القسم الأول والثاني قد تقدم.

ومثال الثالث: الصلاة في أوقات النهي ومَسَبَّة آلهة المشركين بين ظَهْرَانيهم، وتزين المتوفَّى عنها في زمن عِدَّتها، وأمثال ذلك.

ومثال الرابع: النظر إلى المخطوبة والمُسْتَامة والمشهود عليها ومَنْ يطؤها ويعاملها، وفعل ذوات الأسباب في أوقات النهي، وكلمة الحق عند ذي سلطان جائرٍ ونحو ذلك؛ فالشريعة جاءت: بإباحة هذا القسم، أو استحبابه، أو إيجابه بحسب درجاته في المصلحة، وجاءت بالمنع من القسم الأول: كراهة، أو تحريماً بحسب درجاته في المفسدة، بقي النظر في القسمين الوسط: هل هما مما جاءت الشريعة بإباحتهما أو المنع منهما؟ فنقول: الدلالة على المنع من وجوه:

الوجه الأول: قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فحرم الله تعالى سَبَّ آلهة المشركين - مع كون السب غيظاً وحَمية لله وإهانة لآلهتهم - لكونه ذريعة إلى سبهم الله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز؛ لئلا يكون سبباً في فعل ما لا يجوز.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ**﴾ [النور: ٣١] فمنعهن من الضرب بالأرجُلِ وإن كان جائزا في نفسه؛ لئلا يكون سبباً إلى سَمْع الرجال صوتَ الخلخال؛ فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهنَّ.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُم الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم، والذين لَمْ يَبْلُغُوا الحلم مِنْكم، ثَلاثَ مَرَّاتٍ**﴾ الآية [النور: ٥٨]. أمر تعالى مماليكَ المؤمنين، ومَنْ لم يبلغ منهم الحلم؛ أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة؛ لئلا يكون دخولهم

هجمًا بغير استئذان فيها؛ ذريعةً إلى اطلاعهم على عَوْرَاتهم وقت إلقاء ثيابهم: عند القائلة، والنوم، واليقظة، ولم يأمرهم بالاستئذان في غيرها وإن أمكن في تركه هذه المفسدة؛ لنُدُورها وقلة الإفضاء إليها فجعلت كالمقدمة.

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا**﴾ [البقرة: ١٠٤]. نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة ـ مع قصدهم بها الخير ـ؛ لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم؛ فإنهم كانوا يخاطبون بها النبيَّ، ﷺ، ويقصدون بها السبَّ، يقصدون فاعلاً من الرعونة، فنهي المسلمون عن قولها؛ سدًّا لذريعة المشابهة، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبي، ﷺ، تشبهاً بالمسلمين يقصدون بها غير ما يقصده المسلمون.(١)

وأما(٢) التزيين فقال تعالى: ﴿**كَذَلِك زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهم**﴾ [الأنعام: ١٠٨] وقال: ﴿**أفمن زُيِّن له سوءُ عملِه فرآه حسنا فإنَّ اللّهَ يضلُّ من يشاءُ ويهدي من يشاءُ**﴾ [فاطر: ٨]. وقال: ﴿**وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُون**﴾ [الأنعام: ٤٣] فأضاف التزيين إليه منه سبحانه خلقاً ومشيئة، وحذف فاعله تارة، ونسبه إلى سببه ومن أجراه على يده تارة. وهذا التزيين من الله(٣) سبحانه حسن؛ إذ هو ابتلاء واختبار للعبد؛ ليتميز المطيع منهم من العاصي، والمؤمن من الكافر، كما قال تعالى: ﴿**إنَّا جَعَلْنَا مَا على الأرْض زِينةً لها لِنبلُوهم أيُّهم أحسنُ عملاً**﴾ [الكهف: ٧] وهو من الشيطان قبيح.

وأيضاً فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيء؛ عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده وعبوديته، وإيثار سي العمل على حسنه، فإنه لابد أن يعرفه سبحانه السيء من الحسن، فإذا آثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه؛ زينه سبحانه له وأعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحًا، وكل ظالم وفاجر وفاسق لابد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحاً، فإذا تمادى عليه؛ ارتفعت رؤية قبحه من قلبه فربما رآه حسنًا عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه وهو حجة

(١) أوصلها المؤلف إلى تسعة وتسعين وجهاً تضمنت علماً جمًّا جزاه الله خيرا (ج).

(٢) ١٠٣ شفاء.

(٣) (من الله) ليست موجودة بالنسخة، وقد أثبتناه لإتمام المعنى. المراجع.

الله عليه، فإذا تمادى في غيه وظلمه؛ ذهب ذلك النور، فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم. ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة، وبالتعريف الأول.

فتزيين الرب تعالى عدل، وعقوبته حكمة، وتزيين الشيطان إغواء وظلم وهو السبب الخارج عن العبد والسبب الداخل فيه حبه وبغضه وإعراضه، والرب سبحانه خالق الجميع، والجميع واقع بمشيئته وقدرته ولو شاء لهدى خلقه أجمعين، والمعصوم من عصمه الله، والمخذول من خذله الله، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

(1)**قال** تعالى: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وأَبْصَارَهُم كَمَا لَمْ يُؤمِنُوا به أوَّل مَرَّةٍ وَنَذَرهم فِي طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ**﴾ [الأنعام: ١١٠] وهذا عطف على ﴿**أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤمِنُونَ**﴾ أي: نحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

واختلف في قوله: ﴿**كما لم يؤمنوا به أول مرة**﴾، فقال كثير من المفسرين: المعنى: نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة.

قال ابن عباس في رواية عطاء عنه: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وَأَبْصَارَهُمْ**﴾ حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي، قال: وهذا كقوله: ﴿**واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾[الأنفال: ٢٤].

وقال آخرون المعنى: ﴿**وَنُقَلِّب أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ**﴾ لتركهم الإيمان به أول مرة؛ فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم، وهذا معنى حسن؛ فإن كاف التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل كقوله: ﴿**وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ**﴾ [القصص:٧٧] وقوله: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُم رَسُولاً مِنْكُم يَتْلُو عَلَيْكُم آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُم الكِتابَ والحِكمةَ ويُعَلِّمُكُم ما لَم تَكونُوا تَعْلمُون فاذْكُرُوني أَذْكُرْكُم**﴾ [البقرة: ١٥٢]. والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه؛ الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر. والتقليب تحويل الشيء من وجه إلى وجه، وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية ووصولهم إليها كما سألوا؛ أن يؤمنوا إذا جاءتهم لأنهم رأوها عيانًا وعرفوا أدلتها وتحققوا صدقها، فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقليبًا لقلوبهم

(١) ٩٩ شفاء.

وأبصارهم عن وجهها، الذي ينبغي أن تكون عليه.

وقد روى مسلم في صحيحه: من حديث عبدالله بن عمرو؛ أنه سمع رسول الله، ﷺ، يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها؛ بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفه كيف يشاء**» ثم قال رسول الله، ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**».

وروى الترمذي: من حديث أنس، قال: كان رسول الله، ﷺ، يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» فقلت: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم. إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء**» قال(١): هذا حديث حسن.

وروى حماد، عن أيوب وهشام ويعلى بن زياد، عن الحسن قال: قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: دعوة كان رسول الله، ﷺ، يكثر أن يدعو بها: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» فقلت: يا رسول الله دعوة كثيراً ما تدعو بها، قال: «**إنه ليس من عبد إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله؛ فإذا شاء أن يقيمه؛ أقامه وإذا شاء أن يزيغه؛ أزاغه**». وقوله: ﴿**وَنَذَرهم فِي طُغْيَانِهم يَعْمَهُونَ**﴾ قال ابن عباس: أخذلهم وأدعهم في ضلالهم يتمادون.

...(٢)**وأما** العقوبة الأولى فلا يلزم أن تكون على ذنب؛ بل هي جارية مجرى تولد الآلام عما يأكله ويشربه ويتمتع به؛ فتولدت تلك الذنوب بعد البلوغ عن تلك الأسباب المتقدمة قبله، وهذا القول الوسط في العقوبة على العدم، وهو الذي دل عليه القرآن. قال الله تعالى: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهم وأبْصَارهُم كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّل مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الأنعام: ١١٠] فأخبر سبحانه عن عقوبتهم على عدم الإيمان بتقليب أفئدتهم وأبصارهم.

فإن قلت: هذه عقوبة على أمر وجودي، وهو تركهم الإيمان بعد إرسال الرسول ودعائه لهم.

قلت: الموجب لهذه العقوبة الخاصة؛ هو عدم الإيمان، ولكن إرسال

---

(١) (قال): أي الترمذي. المراجع. (٢) ٣٣٠ مختصر الصواعق جـ١

الرسول وترك طاعته؛ شرط في وقوع العذاب، فالمقتضي قائم وهو عدم الإيمان؛ لكنه مشروط وقوعه بشرط وهو إرسال الرسول ففرق بين انتفاء الشيء لانتفاء موجبه ومقتضيه، وانتفائه؛ لانتفاء شرطه بعد قيام المقتضى.

(١)**حذار** حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك؛ فإنك تعاقب بتقليب القلب، ورد ما يرد عليك من الحق رأساً، ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك.

قال تعالى: ﴿**ونقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أوَّلَ مرة**﴾ فعاقبهم على رد الحق أول مرة: بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته؛ فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره؛ عقوبة لك. قال تعالى: ﴿**فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إلَى طَائِفَةٍ مِنهم فاستأذَنُوكَ للخُرُوجِ فَقُل لنْ تَخْرُجوا مَعِيَ أبداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِي عَدُوًّا إنَّكُم رَضِيتُم بِالقُعُودِ أوَّلَ مَرَّةٍ فاقْعُدوا مَعَ الخالِفِين**﴾ [التوبة: ٨٣] فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين؛ فليهنه السلامة.

(٢)**الوجه** الحادي والثلاثون: أنه سبحانه ذم أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه، فقال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرُهم يَجْهَلُونَ**﴾ [الأنعام: ١١١] وقال: ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثرهم لا يَعْلَمون**﴾ [الأنعام: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أنَّ أكثَرَهم يسْمَعُون أو يَعْقلون إن هم إلَّا كالأنْعَام بل هم أضلُّ سَبيلاً**﴾ [الفرقان: ٤٤].

فَلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام، حتى جعلهم أضل سبيلاً منهم.

وقال: ﴿**إنَّ شَرَّ الدَّوآبِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِين لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٢]. أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها: من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب، فالجهال شر منهم وليس على دين الرسل أضر من الجهال؛ بل هم أعداؤهم على الحقيقة.

وقال تعالى لنبيه وقد أعاذه: ﴿**فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ**﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال كليمه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**أعُوذُ بالله أن أكون مِنَ**

---

(١) ١٨٠ بدائع جـ٣.
(٢) ٥٣مفتاح جـ١.

الجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]. وقال لأول رسله نوح عليه السلام: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ [هود: ٤٦].

فهذه حال الجاهلين عنده، والأول حال أهل العلم عنده.

وأخبر سبحانه عن عقوبته لأعدائه: أنه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه، فقال تعالى: ﴿وَإذَا قَرأتَ القرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً وجَعَلْنَا على قُلوبِهم أكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ وفي آذَانِهِم وَقْراً﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

وأمر نبيه بالإعراض عنهم فقال: ﴿وأعرِضْ عن الجاهلين﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأثنى على عباده المؤمنين بالإعراض عنهم ومتاركتهم، كما في قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعْرَضُوا عنْه وَقَالُوا لَنَا أعْمَالُنَا وَلَكُم أعْمالُكُم سَلاَمٌ عَلَيكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده، وبغضه للجهل وأهله، وهو كذلك عند الناس، فإن كل أحد يتبرأ منه وإن كان فيه.

(١)**قبول** التأويل له أسباب:

منها: أن يأتي به صاحبه: مموهاً بزخرف من القول، مكسوًّا حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة؛ فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجنِّ يُوحِي بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]. فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء؛ بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، ويغتر به الأغمار وضعفاء العقول. فذكر السبب الفاعل وهو ما يغر السامع من زخرف القول. فلما أصغت إليه ورضيته؛ اقترفت ما تدعو إليه من الباطل: قولاً، وعملاً.

فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر، الذي فيه بيان أصول الباطل، والتنبيه على مواقع الحذر منها.

وإذا تأملت مقالات أهل الباطل؛ رأيتهم قد كسوها من العبارات المستحسنة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، فيسمون أم الخبائث:

(١) ٨٧ مختصر الصواعق جـ١.

أم الأفراح، ويسمون اللقمة الملعونة التي هي الحشيشة: لقيمة الذكر والفكر التي تثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ...

(١) **أكثر** الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظ ويردونه بعينه بلفظ آخر، قال الله تعالى: ﴿**وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الإِنسِ والجِنِّ يُوحِي بَعْضُهم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً**﴾ [الأنعام: ١١٢] فسماه زخرفاً وهو القول الباطل؛ لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع، ويلقيه إلى سمع المغرور فيغتر به. والمقصود أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن: أن يدخل فيها ما يضر العبد، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه. وإن دخله بغير اختياره أفسده عليه.

(٢)**فصل** وأما اللام في قوله: ﴿**ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾ [الأنعام: ١١٣] فهي على بابها للتعليل؛ فإنها إن كانت تعليلاً لفعل العدو، وهو إيحاء بعضهم إلى بعض؛ فظاهر، وعلى هذا فيكون عطفًا على قوله: ﴿**غروراً**﴾ فإنه مفعول لأجله: أي: ليغروهم بهذا الوحي، ولتصغى إليه أفئدة من يلقى إليه فيرضاه ويعمل بموجبه، فيكون سبحانه قد أخبر بمقصودهم من الإيحاء المذكور، وهو أربعة أمور: غرور من يوحون إليه، وإصغاء أفئدتهم إليهم، ومحبتهم لذلك، وانفعالهم عنده بالاقتراف.

وإن كان ذلك تعليلاً لجعله سبحانه لكل نبي عدوًّا؛ فيكون هذا الحكم من جملة الغايات، والحكم المطلوبة بهذا الجعل، وهي غاية وحكمة مقصودة لغيرها؛ لأنها مفضية إلى أمور هي محبوبة مطلوبة للرب سبحانه، وفواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من حصولها، وعلى التقديرين فاللام لام التعليل والحكمة.

(٣)**قوله** تعالى: ﴿**أفَغَيْرَ اللّهِ أبْتَغِي حَكَماً وَهو الَّذِي أنْزَلَ إلَيْكُم الْكِتَابَ مُفَصَّلاً**﴾ [الأنعام: ١١٤].

فهذا يبين أن الحكم بين الناس؛ هو الله وحده بما أنزل من الكتاب المفصل. كما قال في الآية الأخرى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُم فِيه من شَيْءٍ فحكمُه إلى الله**﴾ [الشورى: ١٠].

---

(١) ١٣٤ الجواب الكافي.
(٢) ١٩٣ شفاء العليل
(٣) ٢١٧ مختصر الصواعق جـ١.

وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُم الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اختَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ [النساء: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بينَهم ثُمَّ لا يَجِدوا فِي أَنْفُسِهم حرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّموا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥].

فقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾ [الأنعام: ١١٤] استفهام إنكار، يقول: كيف أبتغي حكمًا غير الله وقد أنزل كتابا مفصلًا؟ فإن قوله: ﴿وَهُوَ الذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُم الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ جملة في موضع الحال.

وقوله: ﴿مفصَّلاً﴾ يبين أن الكتاب الحاكم مفصل مبين؛ ضد ما يصفه به من يزعم: أن عقول الرجال تعارض بعض نصوصه، أو أن نصوصَه خيلت أو أفهمت خلاف الحق لمصلحة المخاطب، أو أن لها معان لا تفهم ولا يعلم المراد منها، أو أن لها تأويلات باطلة، خلاف ما دلت عليه ظواهرها. فهؤلاء كلهم ليس الكتاب عندهم مفصلاً، بل مجمل مؤول، ولا يعلم المراد منه، والمراد منه خلاف ظاهره أو إفهام خلاف الحق. ثم قال: ﴿والذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّه مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ فَلاَ تَكونَنَّ مِنَ المُمْتَرينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وذلك أن الكتاب الأول مصدق للقرآن، فمن نظر فيه؛ علم علمًا يقينيًّا أن هذا وهذا من مشكاة واحدة، لاسيما في باب التوحيد والأسماء والصفات، فإن التوراة من ذلك، ليس هو المبدل المحرف الذي أنكره الله عليهم؛ بل هو من الحق الذي شهد له القرآن وصدقه. ولهذا لم ينكر النبي، ﷺ، عليهم ما في التوراة من الصفات، ولا عابهم به، ولا جعله تشبيهاً وتجسيماً أو تمثيلاً، كما فعل كثير من النفاة، وقال: اليهود أئمة التشبيه والتجسيم، ولا ذنب لهم في ذلك، فإنهم قرءوا ما في التوراة. فالذي عابهم الله به من تأويل التحريف والتبديل؛ لم يعبهم به المعطلة، بل شاركوهم فيه، والذي استشهد الله على نبوة رسوله، ﷺ، به من موافقة ما عندهم من التوحيد والصفات؛ عابوهم به ونسبوهم إلى التشبيه والتجسيم. وهذا ضد ما عليه الرسول وأصحابه، فإنهم كانوا إذا ذكروا له شيئاً من هذا الذي تسميه المعطلة تجسيماً وتشبيهاً؛ صدقهم عليه وأقرهم ولم ينكره، كما

صدقهم في خبر الحبر الذي ثبت من حديث ابن مسعود وضحك تعجباً وتصديقاً له، وفي غير ذلك، ثم قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥]. فما أخبر به فهو صدق، وما أمر به فهو عدل. وهذا يبين أن ما في النصوص من الخبر فهو صدق، علينا أن نصدق به لا نعارضه ولا نعرض عنه. ومن عارضه بعقله؛ لم يصدق به، ولو صدقه تصديقاً مجملاً ولم يصدقه تصديقاً مفصلاً في أعيان ما أخبر به؛ لم يكن مؤمناً. ولو أقر بلفظه مع جحد معناه، أو صرفه إلى معان أخر غير ما أريد به؛ لم يكن مصدقاً؛ بل هو إلى التكذيب أقرب.

(١)**الرضى** بالله ربًّا: أن لا يتخذ رَبًّا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره. وينزل به حوائجه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أبغِي رَبًّا، وهو رَبُّ كُلِّ شيءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيداً وإلهاً» يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿قُل أغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ والأَرضِ﴾ [الأنعام: ١٤] يعني: معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأ، وهو من المولاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿أفَغيرَ اللَّهِ أبْتَغِي حَكَماً وَهو الَّذِي أنْزَل إلَيْكُم الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤]. أي: أفغير الله أبتغي مَنْ يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه، وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً؟

(٢)**الوجه** الخامس عشر: أنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة في ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله، فقال تعالى: ﴿أفَغَيْرَ اللّهِ أبتَغي حَكَماً وهوَ الَّذي أنْزَل إلَيْكم الكِتَاب مُفَصَّلاً والَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أنَّه مُنَزَّلٌ مِنْ ربِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

(٣)**وقد** ذم سبحانه الأكثرين في غير موضع كقوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أكْثَر مَن في الأرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَو حَرَصتَ بمؤمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿وَقَليلٌ مِن عِبَادِي الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿وإنَّ كَثِيراً مِن الخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهم عَلَى بَعْضٍ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا

(١) ١٨١مدارج جـ٢. (٢) ٥٠ مفتاح جـ١. (٣) ١٤٧ مفتاح جـ١.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [صٓ: ٢٤].

وقال بعض العارفين: انفرادك في طريق طلبك، دليل على صدق الطلب.

مت بداء الهوى وإلا فخاطر	واطرق الحي والعيون نواظر

لا تخف وحشة الطريق إذا سر	ت وكن في خفارة الحق سائر

[1]**وسألته**، ﷺ، عائشة رضي الله عنها، فقالت: إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكِرَ اسمُ الله عليه أم لا؟ فقال: «**سمُّوا أنتم وكلوا**» ذكره البخاري.

وسأله ﷺ رجل فقال: أنأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿**ولا تأكلُوا مِمَّا لم يُذكرِ اسمُ اللّهِ عليه**﴾[الأنعام: ١٢١] إلى آخر الآية، هكذا ذكره أبوداود، وأن الذي سأل هذا السؤال هم اليهود، والمشهور في هذه القصة أن المشركين هم الذين أوردوا هذا السؤال، وهو الصحيح، ويدل عليه كون السورة مكية، وكون اليهود يحرمون الميتة كما يحرمها المسلمون، فكيف يوردون هذا السؤال وهم يوافقون على هذا الحكم؟

ويدل عليه أيضاً قوله: ﴿**وإنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إلىٰ أوليَائِهم لِيُجَادِلُوكُم**﴾ [الأنعام: ١٢١]. فهذا سؤال مجادل في ذلك، واليهود لم تكن تجادل في هذا، وقد رواه الترمذي بلفظ ظاهره؛ أن بعض المسلمين سأل هذا السؤال، ولفظه: أتى ناسٌ إلى النبي، ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، أنأكل مما نقتل ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَإنْ أطَعْتُمُوهُم إنَّكُم لَمُشْرِكُونَ**﴾[الأنعام: ١١٨: ١٢١]. وهذا لا يناقض كون المشركين هم الذين أوردوا هذا السؤال؛ فسأل عنه المسلمون رسولَ الله ﷺ . ولا أحسب قوله: «**إنَّ اليَهُودَ سألُوا عَنْ ذَٰلِكَ**» إلا وَهَماً من أحد الرواة، والله أعلم.

وسأله، ﷺ، رجل فقال: يا رسول الله إني إذا أصبت اللحم انتشرتُ للنساء، وأخذتني شهوتي، فحرمت عَلَيَّ اللحم، فأنزل الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ الله لَكُم، وَلَا تَعْتَدُوا، إنَّ الله لَا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم الله حَلَالًا طَيِّباً**﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨] ذكره الترمذي.

---

(١) ٣٨٠ أعلام جـ٤.

وسأله، ﷺ، أبوثعلبة الخُشَني رضي الله عنه، فقال: إن أرضنا أرضُ أهل كتاب، وإنهم يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر، فكيف نصنع بآنيتهم وقدورهم؟ فقال ﷺ: «**إن لم تجدوا غيرَهَا فارْحَضُوها واطبخوا فيها واشربوا**» قال: قلت: يا رسول الله ما يحل لنا وما يحرم علينا؟ قال: «**لا تأكلوا لحم الحمرِ الإنسية، ولا يحل كل ذي ناب من السباع**» ذكره أحمد.

وقد ثبت عنه في صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة؛ أنه قال: «**أكلُ كل ذِي ناب من السِّباع حرام**» وهذان اللفظان يبطلان قول من تأول نهيه عن أكل كل ذي ناب من السباع: بأنه نهيُ كراهةٍ؛ فإنه تأويل فاسد قطعاً، وبالله التوفيق.

وسئل ﷺ: أما تكون الذكاة إلا في الحلق واللَّبَّة؟ فقال: «**لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك**» ذكره أبوداود، وقال: هذا ذكاة المتردي، وقال يزيد بن هارون: هذا للضرورة، وقيل: هو في غير المقدور عليه...

(١)**قال** الله تعالى: ﴿**أو مَن كَان ميتاً فأحْيَيْنَاهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٢]. استشهاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهر جدًّا. فإن المراد بها: من كان ميت القلب، بعدم روح العلم والهدى والإيمان؛ فأحياه الرب تعالى بروح أخرى، غير الروح التي أحيا بها بَدَنه، وهي روح معرفته وتوحيده، ومحبته وعبادته وحده لا شريك له؛ إذ لا حياة للروح إلا بذلك، وإلا فهي في جملة الأموات.

ولهذا وصف الله تعالى مَنْ عَدِم ذلك بالموت، فقال: ﴿**أوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فأحْيَيْنَاهُ**﴾. **وقال** تعالى: ﴿**إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمَّ الدعاءَ**﴾ [النمل: ٨٠] **وسمى وحيه روحاً، لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، فقال تعالى**: ﴿**وكَذَلِكَ أوْحَيْنَا إليكَ رُوحاً مِنْ أمْرنَا. مَا كُنْتَ تَدْرِي ما الكِتَابُ ولا الإيمانُ ولَكِنْ جَعَلنَاهُ نُوراً نَهْدِي به مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢]. فأخبر: أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور» تحصل به الإضاءة.

وقال تعالى: ﴿**يُنَزِّل المَلائِكة بالرُّوحِ مِنْ أمْرِه عَلى مَنْ يَشَاء مِنْ عبَادِهِ أنْ أنذِرُوا أنَّه لا إلهَ إلاَّ أنا فاتَّقُونِ**﴾ [النحل: ٦].

---

(١) ٢٥٨ مدارج جـ٣.

وقال تعالى: ﴿رفيعُ الدرجاتِ ذو العرشِ يلقي الروحَ من أمرهِ على من يشاءُ من عبادهِ لينذرَ يوم التلاقِ﴾ [غافر: ١٥] . فالوحي حياة الروح كما أن الروح حياة البدن؛ ولهذا من فقد هذه الروح فقد فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة: أما في الدنيا فحياته حياة البهائم وله المعيشة الضنك، وأما في الآخرة فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته . . .

(١)**الجاهل** ميت القلب والروح، وإن كان حي البدن. فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض. قال الله تعالى: ﴿أوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فأحْيَيْنَاه وَجَعَلْنَا له نُوراً يَمشي به فِي النَّاسِ كَمن مثلُه في الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بخَارجٍ منْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿إن هُو إلاَّ ذِكْرٌ وقرآن مُبينٌ لِيُنذِرَ مَن كَان حَيًّا وَيَحِقَّ القَولُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]. وقال تعالى: ﴿إنَّكَ لَا تُسْمِعُ المَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [النمل: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿إنَّ الله يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُور﴾ [فاطر: ٢٢].

وشبههم - في موت قلوبهم - بأهل القبور؛ فإنهم قد ماتت أرواحهم، وصارت أجسامهم قبوراً لها. فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء. وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة، وملزومهما، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك له؛ كانت ميتة حقيقة. وليس هذا تشبيهاً لموتها بموت البدن؛ بل ذلك موت القلب والروح . . .

(٢)**قوله** تعالى: ﴿وإذَا جَاءَتْهم آية قَالوا لَنْ نُؤمِنَ حَتَّى نُؤتى مثل ما أوتيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أعْلَمُ حَيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فأجابهم: بأن حكمته وعلمه يأبى أن يضع رسالاته في غير محلها، وعند غير أهلها، ولو كان الأمر راجعاً إلى محض المشيئة؛ لم يكن في هذا جواب؛ بل كان الجواب: أن أفعاله لا تعلل وهو يرجح مثلاً على مثل بغير مرجح، والأمر عائد إلى مجرد القدرة كما يقوله المنكرون، وكذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهم بِبَعضٍ لِيقُولُوا أهؤلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَينِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. فلما سألوا عن

---

(١) ٢٦٢ مدارج جـ٣.　　(٢) ٢٠٣ شفاء العليل.

التخصيص بمشيئة الله وأنكروا ذلك؛ أجيبوا: بأن الله أعلم بمن يصلح لمشيئته وهو أهل لها، وهم الشاكرون الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون عليها المنعم فهؤلاء يصلحون لمشيئته، ولو كان الأمر عائدًا إلى محض المشيئة؛ لم يحسن هذا الجواب؛ ولهذا يذكر سُبحانه صفة العلم حيث يذكر التخصيص والتفصيل بينهما، على أنه إنما حصل بعلمه سبحانه بما في التخصيص المفصل، مما يقتضي تخصيصه وتفصيله وهو الذي جعله أهلاً لذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إلى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]. فذكر علمه عقيب ذكر تخصيصه سليمان بتسخير الريح له وتخصيصه الأرض المذكورة بالبركة.

الباب الرابع(١)

في أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شر فيه

أصل كل خير وسعادة للعبد، بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره. فالحياة والنور مادة الخير كله، قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُه فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فجمع بين الأصلين: الحياة، والنور، فبالحياة؛ تكون: قوته، وسمعه وبصره، وحياؤه وعِفَّته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح. فكلما قويت حياته؛ قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته؛ ضعفت فيه هذا الصفات. وحياؤه من القبائح؛ هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب الصحيح الحيُّ إذا عرضت عليه القبائح؛ نَفَر منها بطبعه وأبغضها، ولم يلتفت إليها؛ بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: «هلك من لم يكن له قلب: يعرف به المعروف، وينكر به المنكر».

---

(١) ٢٠ إغاثة جـ١.

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك؛ بحسب قوة المرض وضعفه.

وكذلك إذا قوي نوره، وإشراقه؛ انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، **فاستبان حسنَ الحسن بنوره، وآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح**.

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين في مواضع من كتابه؛ فقال تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [الشورى: ٥٢]. فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله، صلى الله عليه وآله وسلم، للأمرين، فهو روح تحيىٰ به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به، كما قال تعالى: **﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاه وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾** [الأنعام: ١٢٢] أي: أومن كان كافراً ميت القلب، مغموراً في ظلمة الجهل؛ فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيًّا بعد موته، مشرقاً مستنيراً بعد ظلمته؟ فجعل الكافر ـ لانصرافه عن طاعته، وجهله: بمعرفته، وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته ـ بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به؛ فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله تعالى وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سُدُف الظلام(١)، كما قيل:

ليلي بوجهك مُشرقٌ ... وظلامُه في الناس ساري
الناس في سُدُف الظلا ... م ونحن في ضوء النهار

ولهذا يضرب الله سبحانه وتعالى المثلين: المائيَّ والناريَّ لوحيه ولعباده.

أما الأول فكما قال في سورة الرعد: **﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ**

(١) يأتي في سورة الأنفال بحث جيد حول هذه الآية إن شاء الله (ج).

زَبدٌ مِثْلُهُ، كَذَلِكَ يَضْرِب الله الحَقَّ وَالْبَاطِلَ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَب جُفَاءً وأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكثُ فِي الأرض كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فضرب لوحيه المثل بالماء؛ لما يحصل به من الحياة، وبالنار؛ لما يحصل بها من الإضاءة والإشراق، وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها: فوادٍ كبير يسع ماء كثيراً، ووادٍ صغير يسع ماء قليلاً. كذلك القلوب مُشبَّهة بالأودية: فقلب كبير يسع علماً كثيراً، وقلب صغير إنما يسع بقدره.

وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات، بسبب مخالطة الوحي لها، وإمارته لما فيها من ذلك؛ بما يحتمله السيل من الزبد. وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها، بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له، وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع. وكذلك في المثل الذي بعده: يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صَفْوه.

وأما ضرب هذين المثلين للعباد، فكما قال في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهم كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوقَدَ نَارًا، فلمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوله ذَهبَ اللَّهُ بنُورِهم وَتركَهُم فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُون صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجعُونَ﴾ فهذا المثل الناري. ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ﴾ [البقرة: ١٧، ١٩] فهذا المثل المائي. وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم؛ في كتاب المعالم وغيره(١).

والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه؛ موقوف على هذين الأصلين. قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠] فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله ولِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فأخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان. فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

(١) في كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية) كلام قيم عن هذين المثلين. قلت: وفي أعلام الموقعين ذكر هذا المثل وغيره من أمثال القرآن. وما ذكره من كتاب المعالم فلم نعثر عليه. ج.

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور. وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم. فقد ماتت قلوبهم وقُبرت في أبدانهم؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] ولقد أحسن القائل:

وفي الجهل، قبل الموت، موت لأهله ... وأجسامهم، قبل القبور، قبورُ

وأرواحهم في وَحْشَة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشورِ نشورُ

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يُلقيه إلى الأنبياء روحاً، كما قال تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] في موضعين من كتابه(١)، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] لأن حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة؛ هي التي خص بها سبحانه مَنْ قَبلَ وحيه، وعمل به، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة في الدارين.

ومثله قوله تعالى: ﴿وأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

ومثله قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذه الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

ومثله قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

فبين سبحانه أنه يُسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يُشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]. وقال تعالى، وقد جمع بين النوعين: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ . وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ

(١) والموضع الثاني في سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ الملائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ من عباده﴾ [النحل: ٢].

عَلَى الذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فأهل الهدى والإيمان؛ لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال؛ لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالى: **﴿أَفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾** [الزمر: ٢٢]. فأهل الإيمان؛ في النور وانشراح الصدر، وأهل الضلال؛ في الظلمة وضيق الصدر. وسيأتي في باب طهارة القلب مزيد تقرير لهذا إن شاء الله تعالى.

والمقصود: أن حياة القلب وإضاءته؛ مادة كل خير فيه، وموته وظلمته؛ مادة كل شرّ فيه.

(١)**فصل:** وأما تضييق الصدر وجعله حرجاً لا يقبل الإيمان؛ فقال تعالى: **﴿فمن يرد اللّهُ أن يهديه يشرحْ صدرَه للإسلامِ ومن يردْ أن يضلَّه يجعلْ صدرَه ضيقاً حرجاً كأنما يصعدُ في السماءِ﴾** [الأنعام: ١٢٥].

والحرج هو الشديد الضيق في قول أهل اللغة جميعهم، يقال: رجل حَرَجٌ وحَرِجٌ أي: ضيق الصدر، قال الشاعر:

لا حَـــرِجُ الصـــدرِ ولا عنيـــفُ

وقال عبيد بن عمير: قرأ ابن عباس هذه الآية فقال: هل هنا أحد من بني بكر؟ قال رجل: نعم. قال: ما الحَرَجَة فيكم؟ قالوا: الوادي الكثير الشجر الذي لا طريق فيه. فقال ابن عباس: كذلك قلب الكافر.

وقرأ عمر بن الخطاب الآية فقال: ايتوني رجلاً من كنانة واجعلوه راعياً فأتوه به فقال عمر: يافتى ما الحَرَجَةُ فيكم؟ فقال: الشجرة تحدق بها الأشجار الكثيرة، فلا تصل إليها راعية ولا وحشية. فقال عمر: كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الخير.

قال ابن عبـاس: يجعل صدره ضيقاً حرجاً: إذا سمع ذكر الله؛ اشمأز قلبه، وإن ذكر شيء من عبادة الأصنام؛ ارتاح إلى ذلك.

ولما كان القلب محلًّا للمعرفة والعلم والمحبة والإنابة، وكانت هذه الأشياء إنما تدخل في القلب إذا اتسع لها، فإذا أراد الله هداية عبد؛ وسع صدره وشرحه

---

(١) ١٠٦ شفاء.

فدخلت فيه وسكنتـه، وإذا أراد ضلاله؛ ضيق صدره وأحرجه، فلم يجد محلاً يدخل فيه؛ فيعدل عنه ولا يساكنه.

وكل إنـاء فارغ إذا دخـل فيه الشيء ضاق به، وكلما أفرغت فيه الشيء ضاق؛ إلا القلب اللين فكلما أفرغ فيه الإيمان والعلم؛ اتسع وانفسح، وهذا من آيات قدرة الرب تعالى.

وفي الترمذي وغيره: عن النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم: «**إذا دخل النور القلب؛ انفسح وانشرح**» قالوا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**».

فشرح الصدر من أعظم أسباب الهدى، وتضييقه من أسباب الضلال.

كما أن شرحه من أجل النعم، وتضييقه من أعظم النقم، فالمؤمن منشرح الصـدر منفسحـه في هذه الـدار على ما نالـه من مكروهها، وإذا قوي الإيمان وخـالـطت بشـاشتـه القلوب؛ كان على مكارهها أشرح صدراً منه على شهواتها ومحابها، فإذا فارقها كان انفساح روحه والشرح الحاصل له بفراقها أعظم بكثير، كحال من خرج من سجن ضيق إلى فضاء واسع موافق له، فإنها سجن المؤمن، فإذا بعثه الله يوم القيامة رأى من انشراح صدره وسعته مالانسبة لما قبله إليه، فشرح الصدر كما أنه سبب الهداية؛ فهو: أصل كل نعمة، وأساس كل خير.

وقد سأل كليم الرحمن موسى بن عمران ربه: أن يشرح له صدره، لما علم أنه لا يتمكن من تبليغ رسالته والقيام بأعبائها إلا إذا شرح له صدره، وقد عدد سبحانه من نعمه على خاتم أنبيائه ورسله شرح صدره له، وأخبر عن أتباعه: أنه شرح صدورهم للإسلام.

فإن قلت: فما الأسباب التي تشرح الصدر والتي تضيقه؟

قلت: السبب الـذي يشرح الصدر؛ النور الذي يقذفه الله فيه. فإذا دخله ذلك النور؛ اتسع بحسب قوة النور وضعفه، وإذا فقد ذلك النور؛ أظلم وتضايق.

فإن قلت: فهل يمكن اكتساب هذا النور أم هو وهبي؟

قلت: هو وهبي وكسبي، واكتسابه أيضاً مجرد موهبة من الله تعالى: فالأمر كله لله، والحمد كله له، والخير كله بيديه، وليس مع العبد من نفسه شيء ألبتة؛

بل الله واهب الأسباب ومسبباتها، وجاعلها أسبابًا، ومانحها من يشاء، ومانعها من يشاء، إذا أراد بعبده خيراً؛ وفقه لاستفراغ وسعه وبذل جهده في الرغبة والرهبة إليه، فإنهما مادتا التوفيق. فبقدر قيام الرغبة والرهبة في القلب؛ يحصل التوفيق.

فإن قلت: فالرغبة والرهبة بيده لا بيد العبد.

قلت: نعم والله، وهما مجرد فضله ومنته، وإنما يجعلهما في المحل الذي يليق بهما، ويحبسهما عمن لا يصلح لهما.

فإن قلت: فما ذنب من لا يصلح؟

قلت: أكثر ذنوبه أنه لا يصلح؛ لأن صلاحيته بما اختاره لنفسه وآثره وأحبه من الضلال والغي على بصيرة من أمره، فآثر هواه على حق ربه ومرضاته، واستحب العمى على الهدى، وكان كفر المنعم عليه بصنوف النعم وجحد إلهيَّته والشرك به، والسعي في مساخطه؛ أحب إليه من شكره وتوحيده، والسعي في مرضاته، فهذا من عدم صلاحيته لتوفيق خالقه ومالكه.

وأي ذنب فوق هذا، فإذا أمسك الحكم العدل توفيقه عمن هذا شأنه؛ كان قد عدل فيه وانسدت عليه أبواب الهداية وطرق الرشاد؛ فأظلم قلبه فضاق عن دخول الإسلام والإيمان فيه فلو جاءته كل آية لم تزده إلا ضلالاً وكفراً.

وإذا تأمل من شرح الله صدره للإسلام والإيمان هذه الآية وما تضمنته من أسرار التوحيد والقدر[1] والعدل وعظمة شأن الربوبية؛ صار لقلبه عبودية أخرى ومعرفة خاصة، وعلم: أنه عبد من كل وجه وبكل اعتبار، وأن الرب تعالى رب كل شيء ومليكه من الأعيان والصفات والأفعال، والأمر كله بيده والحمد كله له، وأزمة الأمور بيده ومرجعها كلها إليه.

ولهذه الآية شأن: فوق عقولنا، وأجل من أفهامنا، وأعظم مما قال فيها المتكلمون، الذين ظلموها معناها وأنفسهم كانوا يظلمون.

---

(١) في المطبوعة «العذر» والصواب ما أثبتناه. المراجع.

(١)فصل في أسباب شرح الصدر وحصولها على الكمال له، ﷺ

فأعظم أسباب شرح الصدر؛ التوحيد. وعلى حسب كماله وقوته وزيادته؛ يكون انشراح صدر صاحبه. قال الله تعالى: ﴿**أفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَه لِلإسْلَام فَهُوَ على نُورٍ مِنْ رَبِّهِ**﴾ [الزمر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ الله أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَه للإسْـلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أن يُضِلَّه يَجْعَل صَدْرَه ضَيِّقًا حَرَجاً كأنَّما يَصعَّد في السَّمَاءِ**﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهدى والتوحيد؛ من أعظم أسباب شرح الصدر.

والشرك والضلال؛ من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه.

ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصـدر ويوسعه، ويفرح القلب، فإذا فقد هذا النور من القلب ضاق وحرج، وصار في أضيق سجن وأصعبه.

وقد روى الترمذي في جامعه: عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**إذا دخل النور القلب؛ انفسح وانشرح**»، قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**». فنصيب العبد من انشراح صدره؛ بحسب نصيبه من هذا النور.

وكذلك النور الحسي والظلمة الحسية، هذه تشرح الصدر، وهذه تضيقه.

ومنها: العلم فإنه يشرح الصدر ويوسعه، حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد؛ انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن الرسول، ﷺ، وهو العلم النافع. فأهله أشرح الناس صدراً، وأوسعهم قلوباً، وأحسنهم أخلاقاً، وأطيبهم عيشاً.

ومنها: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، ومحبته بكل القلب، والإقبال عليه، والتنعم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك، حتى إنه ليقول أحياناً: إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذاً في عيش طيب.

---

(١) ٣١٦ زاد المعاد جـ١.

وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه؛ إلا من له حِس به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد، كان الصدر؛ أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قَذَى عينه، ومخالطتهم حُمَّى روحه.

ومن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه، فإن من أحب شيئاً غير الله عُذِّب به، وسجنَ قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالاً، ولا أنْكد عيشاً، ولا أتعب قلباً. فهما محبتان:

محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح، وغذاؤها ودواؤها، بل حياتها وقرة عينها. وهي محبة الله وحده في القلب، وانجذاب قُوَى الميل والإرادة والمحبة كلها إليه.

ومحبة هي عذاب الروح، وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء، وهي محبة ما سواه سبحانه.

ومن أسباب شرح الصدر: دوام ذكره على كل حال، وفي كل موطن.

فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب. وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسان إلى الخلق، ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه، والنفع بالبدن وأنواع الإحسان. فإن الكريم المحسن: أشرح الناس صدراً، وأطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً. والبخيل الذي ليس فيه إحسان: أضيق الناس صدراً، وأنكدهم عيشاً، وأعظمهم همًّا وغمًّا.

وقد ضرب رسول الله، ﷺ، في الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدق: **«كمثل رجلين عليهما جُنَّتان من حديد، كلما هَمَّ المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت، حتى يجر ثيابه، ويُعْفِيَ أثره. وكلما هَمَّ البخيل بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها ولم تتسع عليه»** فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل، وانحصار قلبه.

ومنها: الشجاعة. فإن الشجاع: منشرح الصدر، واسع البِطان، متسع القلب، والجبان: أضيق الناس صدراً، وأحصرهم قلباً، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له ولا نعيم؛ إلا من جنس ما للحيوان البهيم.

وأما سرور الروح ولذتها، ونعيمها وابتهاجها: فمحرم على كل جبان، كما هو محرم على كل بخيل، وعلى كل معرض عن الله سبحانه، غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه، متعلق القلب بغيره.

وإن هذا النعيم والسرور؛ ليصير في القبر رياضاً وجنة. وذلك الضيق والحصر؛ ينقلب في القبر عذاباً وسجناً. فحال العبد في القبر؛ كحال القلب في الصدر: نعيماً وعذاباً، وسجناً وانطلاقاً. ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيق صدر هذا لعارض، فإن العوارض تزول بزوال أسبابها؛ وإنما المعول على الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان. والله المستعان.

ومنها ـ بل من أعظمها ـ: إخراج دَغَل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البُرْء.

فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره، ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه؛ لم يحظ من انشراح صدره بطائل. وغايته؛ أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

ومنها: ترك فضول النظر والكلام، والاستماع والمخالطة، والأكل والنوم؛ فإن هذه الفضول تستحيل آلاماً وغموماً وهموماً في القلب تحصره وتحبسه، وتضيقه ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها.

فلا إلـه إلا الله، ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم! وما أنكد عيشه وما أسوأ حاله! وما أشد حصر قلبه!!

ولا إله إلا الله ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همته دائرة عليها، حائمة حولها!! فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**﴾ [الانفطار: ١٣]. ولذلك نصيب وافر من قوله تعـالى: ﴿**وَإِنَّ الفُجَّـار لَفِي جَحِيم**﴾ [الانفطار: ١٤]. وبينهـما مراتب متفاوتة، لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

والمقصود: أن رسول الله ، ﷺ ، كان أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها: انشراح الصدر، واتساع القلب، وقرة العين، وحياة الروح؛ فهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة وقرة العين، مع ما خص به من الشرح الحسي، وأكمل الخلق متابعة له: أكملهم انشراحاً ولذة وقرة عين، وعلى حسب متابعته؛ ينال العبد من انشراح صدره وقرة عينه ولذة روحه؛ ما ينال، فهو، ﷺ، في ذروة الكمال من: شرح الصدر، ورفع الذكر، ووضع الوزر. ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتِّباعه. والله المستعان.

وهكذا لأتباعه نصيب: من حفظ الله لهم، وعصمته إياهم، ودفاعه عنهم، وإعـزازه لهم، ونصره لهم؛ بحسب نصيبهم من المتابعة: فمستقل، ومستكثر. فمن وجد خيراً: فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه.

(١)**ولما** كان «السلام» اسماً من أسماء الرب تبارك وتعالى، وهو اسم مصدر في الأصل ـ كالكلام والعطاء ـ بمعنى السلامة؛ كان الرب تعالى أحقَّ به من كل ما سواه؛ لأنه السالم من كل آفة وعيب ونقص وذم، فإن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وكماله من لوازم ذاته، فلا يكون إلا كذلك والسلام يتضمّن:

سلامة أفعاله من العبث، والظلم، وخلاف الحكمة. وسلامة صفاته من مشابهة صفات المخلوقين. وسلامة ذاته من كل نقص وعيب. وسلامة أسمائه من كل ذم. فاسم «السلام» يتضمّن: إثبات جميع الكمالات له، وسلب جميع النقائص عنه. **وهذا** معنى: «سبحان الله، والحمد لله».

ويتضمن: إفراده بالألوهية، وإفراده بالتعظيم.

وهذا معنى: «لا إله إلا الله، والله أكبر».

فانتظم اسم «السلام» الباقيات الصالحات التي يثنى بها على الرب جل جلاله.

ومن بعض تفـاصيل ذلك أنه: الحيّ الذي سلمت حياته من: الموت، والسِّنَـةِ، والنوم، والتغير. القادر الذي سلمت قدرته من: اللغوب، والتعب، والإعياء، والعجز عما يريد. العليم الذي سلم علمه أن: يعزب عنه مثقال ذرة، أو يغيب عنه معلوم من المعلومات؛ وكذلك سائر صفاته على هذا.

---

(١) ١٩٣ أحكام جـ١ .

فرضاه سبحانـه سلام أن ينـازعـه الغضب. وحلمـه سلام أن ينازعه الانتقـام. وإرادتـه سلام أن ينازعها الإكراه. وقدرته سلام أن ينازعها العجز. ومشيئته سلام أن ينازعها خلاف مقتضاها. وكلامه سلام أن يعرض له كذب أو ظلم؛ بل تمَّت كلماته صدقاً وعدلاً. ووعده سلام أن يلحقه خُلْفٌ.

وهو سلام أن يكون: قبله شيء، أو بعده شيء، أو فوقه شيء، أو دونه شيء؛ بل هو العالي على كل شيء، وفوق كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، والمحيط بكل شيء.

وعطاؤه ومنعه سلام أن يقع في غير موقعه. ومغفرته سلام: أن يبالي بها، أو يضيق بذنـوب عباده، أو تصدر عن عجز عن أخذ حقه كما تكون مغفرة النـاس. ورحمته وإحسانه، ورأفته وبره وجوده، وموالاته لأوليائه، وتحببه إليهم وحنانه عليهم، وذكره لهم وصلاته عليهم؛ سلام أن يكون لحاجة منه إليهم أو تعزز بهم، أو تكثر بهم.

وبالجملة فهو السلام من كل ما ينافي كماله المقدس بوجه من الوجوه.

وأخطأ كل الخطإ من زعم أنه من أسماء السُّلُوب، فإن السلب المحض لا يتضمن كمالًا بل اسم «السلام» متضمن للكمال السالم من كل ما يضادّه، وإذا لم تظلم هذا الاسم ووفيته معناه؛ وجدته مستلزماً: لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع، وثبوت المعاد، وحدوث العالم، وثبوت القضاء والقدر، وعلوّ الرب تعالى على خلقه، ورؤيته لأفعالهم، وسمعه لأصواتهم، واطلاعه على سرائرهم وعـلانياتهم، وتفـرّده بتدبيرهم، وتوحده في كماله المقدس عن شريك بوجه من الوجوه، فهو السلام الحق من كل وجه، كما هو النزيه البريء عن نقائص البشر من كل وجه.

ولما كان سبحانه موصوفاً بأن له يَدَين؛ لم يكن فيهما شمال، بل كلتا يديه يمين مباركة، كذلك أسماؤه كلها حُسْنَى، وأفعاله كلها خير، وصفاته كلها كمال.

وقد جعل سبحانه السلام تحية أوليائه في الدنيا، وتحيتهم يوم لقائه.

ولما خلق آدم وكمل خلقه فاستوى قال الله له: **«اذهب إلى أولئك النفر من**

الملائكة، فاستمع ما يحيّونك به؛ فإنها تحيتك وتحية ذريتك من بعدك».

وقال تعالى: **﴿لَهُم دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾** [الأنعام: ١٢٧]. وقال: **﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دارِ السَّلَامِ﴾** [يونس: ٢٥]. وقد اختلف في تسمية الجنة «بدار السلام»:

فقيل: السلام هو الله، والجنة داره. وقيل: السلام هو السلامة، والجنة دار السلامة من كل آفة وعيب ونقص. وقيل: سميت «دار السلام»؛ لأن تحيتهم فيها سلام، ولا تنافي بين هذه المعاني كلها .

وأما قول المسلم: «السلام عليكم» فهو إخبار للمسلَّم عليه بسلامته من: غيلة المسلم، وغشه، ومكْره، وَمَكروهٍ يناله منه، فيردّ الرادّ عليه مثل ذلك: أي فعل الله ذلك بك، وأحلَّه عليك. والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الأول؛ أنه: في الأول خبر، وفي الثاني طلب.

ووجه ثالث: وهو أن يكون المعنى: اذكر الله الذي عافاك من المكروه، وأمَّنـك من المحذور، وسلَّمك مما تخاف، وعاملنا من السلامة والأمان بمثل ما عاملك به، فيرد الرادّ عليه مثل ذلك. ويستحب له أن يزيده، كما أن من أهدى لك هدية يستحب لك أن تكافئه بزيادة عليها؛ ومن دعا لك؛ ينبغي أن تدعو له بأكثر من ذلك.

ووجه رابع: وهو أن يكون معنى سلام المسلِّم وردّ الراد؛ بشارة من الله سبحانه، جعلها على ألسنة المسلمين لبعضهم بعضاً بالسلامة من الشر وحصول الـرحمة والبركة، وهي دوام ذلك وثباته، وهذه البشارة أعطُوها لدخولهم في دين الإسـلام، فأعـظمهم أجـراً أحسنهم تحية، وأسبقهم في هذه البشـارة، كما في الحديث: «**وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام**».

واشتق الله سبحانه لأوليائه للتحية[1] بينهم اسماً من أسمائه، واسم دينه الإسلام الذي هو دين أنبيائه ورسله وملائكته. قال تعالى: **﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾** [آل عمران: ٨٣].

ووجه خامس: وهو أن كل أمة من الأمم؛ لهم تحية بينهم من: أقوال،

---

(١) في المطبوعة «من تحية» والصواب ما أثبتناه. المراجع.

وأعمال: كالسجود، وتقبيل الأيدي، وضرب الجُوك ، وقول بعضهم: أنعم صباحاً، وقول بعضهم: عِش ألف عام، ونحو ذلك؛ فشرع الله تبارك وتعالى لأهل الإسلام ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وكانت أحسن من جميع تحيات الأمم بينها؛ لتضمّنها السلامة التي لا حياة ولا فلاح إلا بها، فهي الأصل المقدّم على كل شيء؛ وانتفاع العبد بحياته إنما يحصل بشيئين: بسلامته من الشر، وحصول الخير. والسلامة من الشر؛ مقدمة على حصول الخير، وهي الأصل، فإن الإنسان بل وكل حيوان إنما يهتم بسلامته أولاً وغنيمته ثانياً.

على أن السلامة المطلقة تتضمَّن حصول الخير، فإنه لوفاته؛ حصل له الهلاك والعطب أو النقص، ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة، فتضمنت السلامة: نجاة العبد من الشر، وفوزه بالخير، مع اشتقاقها من اسم الله.

والمقصود أن السلام اسمه ووصفه وفعله، والتلفظ به ذكرٌ له، كما في السنن: أن رجلاً سلَّم على النبي ، ﷺ، فلم يَرُدَّ عليه حتَّى تيمَّم وردّ عليه وقال: «**إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهارة**».

فحقيق بتحية هذا شأنها: أن تُصان عن بذلها لغير أهل الإسلام، وألا يُحَيَّ بها أعداء القُدُّوس السلام؛ ولهذا كانت كتب النبي ، ﷺ، إلى ملوك الكفار: «**سلامٌ على من اتبع الهدى**» ولم يكتب لكافر: «سلام عليكم» أصلاً، فلهذا قال في أهل الكتاب: «**لا تبدءوهم بالسلام**».

فصل(١)

ومن تلاعبه، تلاعبه بعباد الحيوانات: فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر وطائفة عبدت البشر الأحياء والأموات وطائفة تعبد الشجر، وطائفة تعبدُ الجن، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُول لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤُلَاء إِيَّاكُم كَانُوا يَعْبُدونَ قَالوا سُبحَانَكَ أنت وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِم، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤمِنُون﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَد إِلَيْكُم يَابَنِي آدمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عدُوٌّ مُبِين وأَنِ اعْبُدُونِي هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. يعني: قد استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم.

قال ابن عباس، ومُجاهد، والحسن وغيرهم: «أضللتم منهم كثيراً» فيُجيبه سبحانه أولياؤهم من الإنس بقولهم: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يَعْنُون اسْتِمْتَاعَ كلِّ نَوْعٍ بالنَّوع الآخر. فاسْتِمْتاعُ الجنِّ بالإنْس: طَاعَتُهم لهم فيما يأمُرونهم به: من الكفر، والفسوق، والعصْيان. فإنَّ هذا أكثرُ أغراض الجنِّ من الإنس. فإذا أطاعوهم فيه؛ فقد أعْطَوْهُم مُناهُمْ. واستمتاع الإنس بالجنِّ: أنهم أعانُوهُم عَلَى مَعْصِيةِ الله تعالى، والشِّرْكِ به بكلِّ ما يقدرون عليه: من التَّحسين، والتَّزيين، والدعاء، وقَضاء كثير من حوائجهم، واسْتخدامِهم بالسِّحْرِ والعزائم، وغيرها. فأطاعهم الإنس فيما يُرضيهم: من الشِّرْكِ، والفواحش، والفجور. وأطاعَتْهُم الجن فيما يُرضِيهم: من التأثيرات، والإخبار ببعض المغيَّباتِ. فتمتع كلٌّ من الفريقين بالآخر.

وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية، الذين لهم كشوف شيطانية وتأثير شيطاني. فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن، وإنَّما هُم من أولياءِ الشيطان. أطاعوه في: الإشراك، ومعصيةِ الله، والخروج عمَّا بَعث به رُسلَه، وأنزل به كُتبه.

---

(١) ٢٣٥ إغاثة جـ٢.

فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات، واغترَّ بهم مَن قلَّ حظُّه من العلم والإيمان فوالى أعداء الله، وعادَى أولياءه، وحَسَّنَ الظن بمن خرج عن سبيله وسنته، وأساء الظنّ بمن اتبع سُنة الرسول، وما جاء به، ولم يَدَعها لأقوال المختلفين، وآراء المتحيرين، وشَطَحات المارقين، وتُرَّهات المتصوفين.

والبصيرُ الذي نوّر الله بصيرته بنور الإيمان والمعرفة، إذا عرَف حقيقة ما عليه أكثرُ هذا الخلق، وكان ناقداً، لا يروجُ عليه الزَّغلُ؛ تبين له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية، وهي منطبقة عليهم.

فالفاسقُ يستمتع بالشيطان، بإعانته له على أسباب فسوقه، والشيطان يستمتع به في: قبوله منه، وطاعته له؛ فيَسره ذلك، ويفرح به منه.

والمشرك يَسْتمتعُ به الشيطان: بشركه به، وعبادته له، ويستمتع هو بالشيطان في: قضاء حوائجه، وإعانته له.

ومن لم يُحط علماً بهذا؛ لم يَعلم حقيقة الإيمان والشرْك، وسرَّ امتحان الربِّ سبحانه كلًّا من الثقلين بالآخر.

ثم قالوا: ﴿وَبَلَغْنَا أَجلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] وهو يتناول أجلَ الموتِ، وأجلَ البعث. فكلاهما أجلٌ أجَّله الله تعالى لعباده. وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما: ﴿ثُمَّ قَضَى أجلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَه﴾ [الأنعام: ٢].

وكأن هذا ـ والله أعلم ـ إشارةٌ منهم إلى نوع اسْتعطاف وتوبة؛ فكأنهم يقولون: هذا أمر قد كان إلى وقت. وانقطع بانقطاع أجله، فلم يستمرّ، ولم يدُم. فبلغ الأمرُ الذي كان أجَله، وانتهى إلى غايته، ولكل شيء آخر، فقال تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] فإنَّه وإن انقطع زمنُ التمتع وانقضى أجلُه؛ فقد بقي زمن العقوبة؛ فلا يتوهَّم أنه إذا انقضى زمن الكفر والشرك، وتمتع بعضكم ببعض؛ أنَّ مفسدته زالتْ بزواله، وانتهت بانتهائه[1]. والمقصود: أن الشيطان تلاعب بالمشركين؛ حتى عبدوه واتخذوه وذريته أولياء من دون الله.

[2]**وقال** تعالى: ﴿وَيومَ يَحْشُرُهُم جميعاً يا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرتُم مِنَ

(١) يأتي في سورة هود بحث على هذه الآية ـ إن شاء الله تعالى ـ في آخر البحث في أبدية النار. (ج)

(٢) ٤٢٠ طريق الهجرتين.

الإنس وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبلَغْنَا أجَلَنا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا﴾ إلى قوله: ﴿**إلاَّ مَا شَاءَ الله**﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وهذا صريح في تكليفهم، فإن هذا القول يقال للجن في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله، وعبادتهم لهم دون الله، ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم. فإنهم كانوا: يستوحونهم ويعوذون بهم، ويذبحون لهم وبأسمائهم، ويوالونهم من دون الله، كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان. فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض. ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة ـ وقد جمع العابدين والمعبودين ـ: ﴿**أهؤلاء إيَّاكُم كانُوا يَعْبُدُون قالوا سُبحانك أنت ولِيُّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجِنَّ أكْثَرهم بهم مُؤمِنون**﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

فهؤلاء عباد الجن وأولياء الشياطين. وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به؛ لما ينال به من المتعة بمعبوده. وكثير منهم ملبوس عليه، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر.

وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلى هذا الشرك بالجن فقال:

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم　　وأنت إلهي ربنا ورجاؤنا

ولهذا يقولون في القيامة: ﴿**رَبَّنا اسْتَمْتَع بَعضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أجَلَنا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا**﴾. قال الله تعالى: ﴿**النَّارُ مَثْواكُم خالِدين فِيها إلاَّ ما شَاء الله**﴾ [الأنعام: ١٢٨]. فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب. وهو كثير في القرآن.

ومما يدل على تكليفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكم رُسُلٌ مِنْكُم يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**كَافِرِينَ**﴾ [الأنعام: ١٣٠] فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشهدوا على أنفسهم بالكفر؛ دل ذلك على: تكليفهم، وتوجه الخطاب إليهم.

...[1]**وكثير** من الفقهاء من الطوائف الأربع يقولون: قبحها[2] ثابت

---

(١) ٢٣٢ مدارج جـ١.

(٢) يأتي إن شاء الله في سورة الأعراف بحث على قول الله تعالى: ﴿**وإذا فعلوا فاحشة**﴾ الآية (ج).

بالعقل. والعقاب؛ متوقف على ورود الشرع. وهو الذي ذكره سعد بن علي الزنجاني من الشافعية، وأبوالخطاب من الحنابلة. وذكره الحنفية وحكوه عن أبي حنيفة نصًا. لكن المعتزلة منهم يصرحون بأن العقاب ثابت بالعقل.

وقد دلَّ القرآن: أنه لا تلازم بين الأمرين، وأنه لا يعاقب إلا بإرسال الرسل، وأن الفعل نفسه حسن وقبيح. ونحن نبين دلالته على الأمرين.

أما الأول: ففي قوله تعالى: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾** [الإسراء: ١٥]. وفي قوله: **﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ﴾** [النساء: ١٦٩]. وفي قوله: **﴿كُلَّمَا أُلقِيَ فِيها فَوْجٌ سألَهُم خزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُم نَذِيرٌ قالوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فكَذَّبْنا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِن شَيْءٍ﴾** [الملك: ٨، ٩]. فلم يسألوهم عن مخالفتهم للعقل، بل للنذُر. وبذلك دخلوا النار.

وقال تعالى: **﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ والإِنْسِ ألم يأتِكُم رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقصُّونَ عَليكُم آياتي، وَيُنْذِرونكُم لِقَاءَ يومِكُم هذا قالوا شَهِدْنَا عَلى أنفسِنَا وغرَّتهُم الحَيَاةُ الدُّنْيَا وشَهِدُوا عَلَى أنْفُسِهِم أنَّهُم كَانُوا كَافِرِينَ﴾** [الأنعام: ١٣٠]. وفي الزمر: **﴿أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنكُم يَتْلونَ عَلَيْكُم آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُم هَذَا﴾** [الزمر: ٧١]. ثم قال في الأنعام بعدها: **﴿ذَلِكَ أن لم يَكُن رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾** [الأنعام: ١٣١].

وعلى أحد القولين ـ وهو أن يكون المعنى: لم يهلكهم بظلمهم قبل إرسال الرسل ـ فتكون الآية دالة على الأصلين: أن أفعالهم وشِرْكهم ظلم قبيح قبل البعثة، وأنه لا يعاقبهم عليه إلا بعد الإرسال. وتكون هذه الآية في دلالتها على الأمرين؛ نظير الآية التي في القصص: **﴿وَلَولاَ أن تصيبهُم مُصيبةٌ بما قدَّمت أيديهم فيقولوا ربَّنَا لَولاَ أرْسلْت إلَيْنَا رَسُولاً فنتَّبع آياتِكَ وَنكونَ مِنَ المُؤمِنِينَ﴾** [القصص: ٤٧]. فهذا يدل على أن ما قَدَّمت أيديهم سببٌ لنزول المصيبة بهم. ولولا قبحه لم يكن سبباً، لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها، وهو عدم مجيء الرسول إليهم؛ فمذ جاء الرسول؛ انعقد السبب، ووجد الشرط؛ فأصابهم سيئات ما عملوا؛ وعوقبوا بالأول والآخر.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُم وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بعدكم ما يَشاءُ كَمَا أَنْشاكم من ذُرِّيَةِ قوم آخرينَ**﴾ [الأنعام: ١٣٣] فهذا قياس جَليٌّ، يقول سبحانه: إن شئت أذهبتكم واستخلفتُ غيرَكُم، كما أذهبتُ مَنْ قبلَكم واستخلفتكم فذكر أركان القياس الأربعة: علة الحكم: وهي عموم مشيئته وكمالها، والحكم: وهو إذهابه بهم(٢) وإتيانه بغيرهم، والأصل: وهو مَنْ كان من قبل، والفرع: وهم المخاطبون.

(٣)فصل في قدوم وفد خولان

وقدم عليه، ﷺ، في شهر شعبان سنة عشر وفد خولان، وهم عشرة، فقالوا: يا رسول الله، نحن على من وراءها من قومنا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل، ومصدقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، وقد ركبنا حُزون الأرض وسهولها. والمِنَّة لله ولرسوله علينا. وقَدِمْنَا زائرين لك، فقال رسول الله، ﷺ: «**أما ماذكرتم من مسيركم إليَّ؛ فإن لكم بكل خطوة خطاها بعيركم حسنة، وأما قولكم زائرين؛ فإنه من زارني بالمدينة؛ كان في جواري يوم القيامة**».

قالوا: يا رسول الله، هذا السفر الذي لا تَوَى عليه. ثم قال رسول الله، ﷺ: «**ما فعل عمُّ أنس؟**» ـ وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه ـ قالوا: بشر، أبدلنا الله به ما جئت به. وقد بقيت منا بقايا: من شيخ كبير، وعجوز كبيرة متمسكون به. ولو قدمنا عليه لهدمناه، إن شاء الله. فلقد كنا منه في غرور وفتنة. فقال لهم رسول الله، ﷺ: «**وما أعظم ما رأيتم من فتنته؟**» قالوا: لقد رأيننا أسْنتنا حتى أكلنا الرِّمة، فجمعنا ما قدرنا عليه وابتعنا به مائة ثور، ونحرناها لعم أنس قُرْبَاناً في غدوة واحدة، وتركناها تَرِدُها السباع، ونحن أحوج إليها من السباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا، ولقد رأينا العُشْب يواري الرجال، ويقول قائلنا: أنعمَ علينا عم أنس. وذكروا لرسول الله، ﷺ، ما كانوا يقسمون لصنمهم هذا من

---

(١) ١٣٨ أعلام جـ١.

(٢) كذا بالأصل. ولعله: لهم

(٣) ١٠٦ زاد المعاد جـ٣.

أنعـامهم وحروثهم، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له وجزءاً لله بزعمهم. قالوا: كنا نزرع الزرع، فنجعل له وسَطه، فنسميه له، ونسمى زرعًا آخر حِجَرة لله، فإذا مالت الريح: فالذي سميناه لله؛ جعلناه لعم أنس، وإذا مالت الريح فالذي جعلناه لعم أنس؛ لم نجعله لله. فذكر لهم رسول الله، ﷺ، : أن الله أنزل عليه في ذلك: ﴿**وَجَعلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً**﴾ [الأنعام: ١٣٦]. قالـوا: وكنـا نتحـاكم إليه، فيتكلم، فقال رسول الله، ﷺ : «**تلك الشياطين تكلمكم**». وسألوه عن فرائض الدين؟ فأخبرهم. وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاوروا وأن لا يظلموا أحداً. قال: «**فإن الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة**». ثم ودعوه بعد أيام، وأجازهم. فرجعوا إلى قومهم، فلم يحلوا عقدة؛ حتى هدموا عم أنس.

(١)**فصل:** وأمـا تحريم بيع الخنزير: فيتناول جملته وجميع أجزائه الظاهرة والبـاطنـة. وتـأمـل كيف ذكر لحمه عند تحريم الأكل، إشارة إلى تحريم أكله، ومعـظمـه اللحم؟ فذكـر اللحم تنبيهـاً على تحريم أكله دون ما قبله. بخلاف الصيد، فإنه لم يقل فيه: وحرم عليكم لحم الصيد، بل حرم نفس الصيد؛ ليتناول ذلـك أكله وقتله. وههنـا لما حرم البيع ذكر جملته، ولم يخص التحريم بلحمه؛ ليتناول بيعه: حيًّا، وميِّتاً.

فصل: وأما تحريم بيع الأصنام؛ فيستفاد منه تحريم بيع كل آلة متخذة للشرك: على أي وجه كانت، ومن أي نوع كانت، صنماً أو وثناً أو صليباً. وكذلك الكتب المشتملة على الشرك وعبادة غير الله، فهذه كلها؛ يجب إزالتها وإعدامها، وبيعها، ذريعة إلى اقتنائها واتخاذها. فهي أولى بتحريم البيع من كل ما عداها. فإن مفسدة بيعها بحسب مفسدتها في نفسها. والنبي، ﷺ، لم يؤخر ذكرها لخفة أمرها، ولكنه تدرج من الأسهل إلى ما هو أغلظ منه. فإن الخمر أخف حالاً من الميتة؛ فإنها قد تصير مالاً محترماً، إذا قلبها الله سبحانه ابتداء خلًّا، أو الآدمي بصنعته عند طائفة من العلماء، وتضمن إذا أتلفت على الذمي عند طائفة بخلاف

---

(١) ٤٧٢ زاد المعاد جـ٤.

الميتـة. وإنما لم يجعل الله في أكل الميتة حدًّا؛ اكتفاء بالزاجر الذي جعله الله في الطباع من: كراهتها، والتنزه عنها، وإبعادها عنها بخلاف الخمر.

والخنزير أشد تحريماً من الميتة؛ ولهذا أفرده الله تعالى بالحكم عليه أنه رجس في قوله: **﴿قُل لا أجد فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يطعَمه إلَّا أن يَكُونَ مَيْتَةً أو دَماً مَسْفُوحاً أو لَحْمٍ خِنْزِيرٍ فإنَّه رِجْسٌ أو فِسْقاً﴾** [الأنعام: ١٤٥]. فالضمير في قوله: «فإنه» وإن كان عوده إلى الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم: فإنه يترجح اختصـاص الخنزير به لثلاثة أوجه: أحدها: قربه منه، والثاني: تذكيره، دون قولـه: «فـإنها رجس» والثالث: أنه أتى بالفاء و«إن» تنبيهًا على علة التحريم؛ لتنزجر النفوس عنه. ويقابل هذه العلة؛ ما في طباع بعض الناس من استلذاذه واستطابته، فنفى عنه ذلك. وأخبر أنه «رجس» وهذا لا يحتاج إليه في الميتة والدم؛ لأن كونهما رجساً؛ أمر مستقر معلوم عندهم. ولهذا في القرآن نظائر، فتأملها.

ثم ذكر بعد ذلك؛ تحريم بيع الأصنام، وهو أعظم تحريماً وإثماً، وأشد منافاة للإسلام من بيع الخمر والميتة والخنزير.

(١)**وسألته**، ﷺ، ميمونة عن شاة ماتت فألقوا إهَابَهَا، فقال: «**هلا أخَذْتُم مَسْكها**» فقالت: نأخذ مسْك شاة قد ماتت؟ فقال لها، ﷺ: «**إنما قال تعالى: ﴿قُل لَا أجدُ فِيما أوْحِيَ إليَّ مُحَرَّماً عَلى طَاعِمٍ يطْعمه إلَّا أن يكوُن مَيتَةً أو دَماً مَسْفُوحاً أو لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾** وإنكم **لا تطعمونه. إن تدبغوه تنتفعوا به**» فأرسلت إليها فسلخت مَسْكها فَدبَغته، فاتخذت منه قِرْبة حتى تخرقت عندها، ذكره أحمد.

وسئل، ﷺ، عن جلود الميتة، فقال: «**ذكاؤها دِباغها**» ذكره النسائي.

فصــل(٢)

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه فضيعوا أمره ونهيه. ونسوا: أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين. ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

---

(١) ٢٨٠ أعلام جـ٤.

وقال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق. . .

[1]**وأما** القدرية الإبليسية والشركية؛ فكثير منهم منسلخ عن الشرع، عدو لله ورسله، ولا يقر بأمر ولا نهي، وتلك وراثة عن شيوخهم الذين قال الله فيهم: **﴿سَيَقُول الَّذِين أشْرَكُوا لو شَاءَ الله ما أشْرَكْنَا ولا آباؤنا ولا حَرَّمنا مِن شَيْءٍ كذَلِك كَذَّب الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهم حَتَّى ذَاقُوا بَأسَنَا، قُلْ هَلْ عِندكُم مِنْ عِلمٍ فتخْرِجُوهُ لَنا إن تَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وإنْ أنْتُم إلَّا تَخْرُصُونَ﴾** [الأنعام: ١٤٨] وقال تعالى: **﴿وقال الَّذِينَ أشْرَكُوا لَوْ شَاءَ الله ما عَبَدْنَا مِنْ دُونِه مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آباؤنا ولا حَرَّمْنا من دونه من شيءٍ، كَذلك فَعَل الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهم فَهَل عَلَى الرُّسُلِ إلَّا البَلَاغُ المُبِين﴾** [النحل: ٣٥] وقال تعالى: **﴿وقَالُوا لَوْ شاء الرَّحمن ما عَبَدْناهُم ما لَهم بذَلِك مِنْ عِلْمٍ، إنْ هُم إلَّا يَخْرُصُونَ﴾** [الزخرف: ٢٠]. وقال تعالى: **﴿وإذا قِيلَ لَهم أنْفقُوا مِمَّا رَزَقَكُم الله قال الَّذين كفروا لِلَّذين آمنُوا أنُطْعِمُ مَنْ لَو يَشاءُ الله أطْعَمَهُ إنْ أنتُم إلَّا في ضَلَالٍ مُبِين﴾** [يس: ٤٧]. فهذه أربعة مواضع في القرآن، بين سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل.

وقد افترق الناس في الكلام على هذه الآيات أربع فرق:

الفرقة الأولى: جعلت هذه الحجة حجة صحيحة، وأن للمحتج بها الحجة على الله. ثم افترق هؤلاء فرقتين:

فرقة كذبت بالأمر والوعد والوعيد، وزعمت أن الأمر والنهي والوعد والوعيد بعد هذا يكون ظلماً، والله لا يظلم من خلقه أحداً.

وفرقة صدقت بالأمر والنهي والوعد والوعيد وقالت: ليس ذلك بظلم، والله يتصرف في ملكه كيف يشاء، ويعذب العبد على ما لا صنع له فيه، بل يعذبه على فعله هو سبحانه لا على فعل عبده؛ إذ العبد لا فعل له، والملك ملكه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فإن هؤلاء الكفار إنما قالوا هذه المقالة التي حكاها الله عنهم استهزاء منهم، ولو قالوها اعتقاداً للقضاء والقدر وإسناداً لجميع الكائنات إلى مشيئته وقدرته لم ينكر عليهم. ومضمون قول هذه الفرقة أن هذه

(١) ٨٧ طريق الهجرتين.

حجة صحيحة إذا قالوها على وجه الاعتقاد لا على جهة الاستهزاء، فيكون للمشركين على الله الحجة، وكفى بهذا القول فساداً وبطلاناً[١].

...[٢]**وأيضا** فإن الله سبحانه نوَّع الأدلة الدالة عليه، والتي تعرّف عباده به غاية التنوع، وصرّف الآيات وضرب الأمثال: ليقيم عليهم حجته البالغة ويتم عليهم بذلك نعمته السابغة، ولا يكون لأحد بعد ذلك حجة عليه سبحانه؛ بل الحجة كلها له، والقدرة كلها له فأقام عليهم حجته، ولو شاء لسوَّى بينهم في الهداية كما قال تعالى: ﴿**فلله الحُجَّة البالِغةُ فلو شَاء لَهَداكُم أجْمَعِينَ**﴾ [الأنعام: ١٤٩]. فأخبر أن له الحجة البالغة، وهي التي بلغت إلى صميم القلب، وخالطت العقل، واتحدت به فلا يمكن العقل دفعها ولا جحدها. ثم أخبر أنه سبحانه قادر على هداية خلقه كلهم، ولو شاء ذلك لفعله لكمال قدرته ونفوذ مشيئته ولكن حكمته تأبى ذلك. . .

وقد[٣] أنكر الله سبحانه وتعالى على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزمين لمحبته ورضاه. فكيف بمن جعل ذلك شيئاً واحداً؟!

قال الله تعالى: ﴿**سَيَقُول الَّذِينَ أشْرَكُوا لَو شَاءَ الله مَا أشْرَكْنَا وَلاَ آباؤنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهم حَتَّى ذَاقُوا بَأسَنَا قل هَل عِنْدَكُم مِنْ عِلْم فَتخرجُوه لَنا إنْ تتبعون إلا الظَّن وإن أنتُم إلاَّ تَخْرُصُونَ**﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿**وقَالَ الَّذين أشْرَكُوا لَوْ شَاء الله مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونه مِنْ شيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونه مِنْ شيْءٍ كذلك فَعل الَّذين مِنْ قَبلِهم**﴾ [النحل: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَو شَاءَ الرَّحمنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ**﴾ [الزخرف: ٢٠]. فهم استدلوا على محبته لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك، وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه[٤].

...[٥]**وقد** أنكر الله سبحانه على من احتج على محبته بمشيئته في ثلاثة مواضع من كتابه: في سورة الأنعام، والنحل، والزخرف فقال تعالى: ﴿**سيقولُ**

(١) استمر المؤلف في ذكر الفرق وتفرقها، وأطال في الموضوع ببيان شافٍ لمن أراده (ج).

(٢) ١٢٢ طريق الهجرتين. (٣) ١٩١ مدارج جـ٢.

(٤) هنا فصل المؤلف بين المشيئة والمحبة تفصيلاً واضحاً يحسن الرجوع إليه. (ج) (٥) ١٢٦ شفاء العليل.

الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤُنا ولا حرمنا من شيءٍ كذلك كذَّب الذين من قبلِهم حتى ذاقوا بأسَنا قلْ هلْ عندكم من علمٍ فتخرجوه لنا إن تتبعونَ إلا الظنَّ وإن أنتمْ إلا تَخْرُصُون﴾[الأنعام: ١٤٨].

وكذلك حكى عنهم في النحل، ثم قال: **﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم فهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلاَّ البَلاَغُ المُبِينُ﴾** [النحل: ٣٥].

وقال في الزخرف: **﴿وقَالوا لَو شَاء الرَّحمنُ مَا عَبدْنَاهم مَالَهم بذَلِك مِن عِلْمٍ إن هُم إلا يَخرُصُون﴾**[الزخرف: ٢٠].

فاحتجوا على محبته لشركهم ورضاه به؛ بكونه أقرهم عليه، وأنه لولا محبته له ورضاه به لما شاءه منهم، وعارضوا بذك أمره ونهيه ودعوة الرسل، قالوا: كيف يأمر بالشيء قد شاء منا خلافه، وكيف يكره منا شيئاً قد شاء وقوعه، ولو كرهه لم يمكنا منه ولَحَالَ بيننا وبينه، فكذبهم سبحانه في ذلك وأخبر: أن هذا تكذيب منهم لرسله، وأن رسله متفقون على أنه سبحانه يكره شركهم ويبغضه ويمقته، وأنه لولا بغضه وكراهته لما أذاق المشركين بالله عذابه؛ فإنه لا يعذب عبده على ما يحبه، ثم طالبهم بالعلم على صحة مذهبهم بأن الله أذن فيه، وأنه يحبه ويرضى به، ومجرد إقراره لهم قدراً لا يدل على ذلك عند أحد من العقلاء، وإلا كان الظلم والفواحش والسعي في الأرض بالفساد والبغي، محبوباً له مرضيًّا. ثم أخبر سبحانه: أن مستندهم في ذلك إنما هو الظن وهو أكذب الحديث، وأنهم لذلك كانوا أهل الخرص والكذب. ثم أخبر سبحانه أن له الحجة عليهم من جهتين:

إحداهما: ما ركبه فيهم من العقول التي يفرقون بها بين الحسن والقبيح والباطل، والأسماع والأبصار التي هي آلة إدراك الحق، والتي يفرق بها بينه وبين الباطل.

والثانية: إرسال رسله وإنزال كتبه وتمكينهم من الإيمان والإسلام ولم يؤاخذهم بأحد الأمرين، بل بمجموعهما لكمال عدله وقطعاً لعذرهم من جميع الوجوه؛ ولذلك سمى حجته عليهم بالغة، أي: قد بلغت غاية البيان وأقصاه؛ بحيث لم يبق معها مقال لقائل، ولا عذر لمعتذر. ومن اعتذر إليه سبحانه بعذر صحيح قبله. ثم ختم الآية بقوله: **﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [الأنعام: ١٤٩]. وأنه

لا يكون شيء إلا بمشيئته، وهذا من تمام حجته البالغة. فإنه إذا امتنع الشيء لعدم مشيئته؛ لزم وجوده عند مشيئته، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، كان هذا من أعظم أدلة التوحيد، ومن أبين أدلة بطلان ما أنتم عليه من الشرك واتخاذ الأنداد من دونه، فما احتججتم به من المشيئة على ما أنتم عليه من الشرك هو من أظهر الأدلة على بطلانه وفساده . . .

...(١)**وتأمل** قوله سبحانه بعد حكايته عن أعدائه واحتجاجهم: بمشيئته وقدره على إبطال ما أمرهم به رسوله، وأنه لولا محبته ورضاه به لما شاءه منهم: ﴿**قُلْ فَلله الحُجَّةُ الْبَالِغةُ فَلَو شَاءَ لَهَدَاكُم أجْمَعِينَ**﴾ [الأنعام: ١٤٩]. فأخبر سبحانه: أن الحجة له عليهم: برسله وكتبه وبيان ما ينفعهم ويضرهم، وتمكنهم من الإيمان بمعرفة أوامره ونواهيه، وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول؛ فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك، واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه.

ثم قرر تمام الحجة بقوله: ﴿**فَلَو شَاءَ لَهَدَاكُم أجْمَعِينَ**﴾ فإن هذا يتضمن: أنه المتفرد بالربوبية والملك والتصرف في خلقه، وأنه لا رب غيره ولا إله سواه، فكيف يعبدون معه إلهاً غيره، فإثبات القدر والمشيئة من تمام حجته البالغة عليهم، وأن الأمر كله لله، وأن كل شيء ما خلا الله باطل، فالقضاء والقدر والمشيئة النافذة من أعظم أدلة التوحيد؛ فجعلها الظالمون الجاحدون حجة لهم على الشرك، فكانت حجة الله هي البالغة وحجتهم هي الداحضة وبالله التوفيق.

(٢)**قاعدة** شريفة: الناس قسمان: علية وسفلة. فالعلية من عرف الطريق إلى ربه وسلكها قاصداً الوصول إليه، وهذا هو الكريم على ربه. والسفلة من لم يعرف الطريق إلى ربه ولم يتعرفها، فهذا هو اللئيم الذي قال الله فيه: ﴿**وَمَنْ يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ**﴾ [الحج: ١٨].

والطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدد فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلاً لمن سلكه. قال الله تعالى: ﴿**وأنَّ هذا صِراطِي مُستَقِيماً فاتَّبِعوه وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) ١٧ شفاء العليل.　　(٢) ١٧٧ طريق الهجرتين.

فوحد سبيله؛ لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة؛ لأنها كثيرة متعددة، كما ثبت أن النبي، ﷺ، خط خطًّا ثم قال: «**هذا سبيل الله**». ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره ثم قال: «**هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿**وأنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُل فَتَفَرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيلِه**﴾[الأنعام: ١٥٣].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿**الله وليُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلَى النُّورِ، والَّذِينَ كَفَرُوا أوْلِيَاؤهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إلَى الظلُمَاتِ**﴾ [البقرة: ٢٥٧]. فوحد النور الذي هو سبيله، وجمع الظلمات التي هي سبل الشيطان.

ومن فهم هذا فهم السر في إفراد النور وجمع الظلمات في قوله تعالى: ﴿**الحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّموٰاتِ والأرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّور**﴾ [الأنعام: ١]. مع أن فيه سرًّا ألطف من هذا، يعرفه من يعرف منبع النور، ومن أين فاض وعما ذا حصل؟ وأن أصله كله واحد، وأما الظلمات فهي متعددة بتعدد الحجب المقتضية لها، وهي كثيرة جدًّا، لكل حجاب ظلمة خاصة، ولا ترجع الظلمات إلى النور الهادي، جل جلاله: أصلاً، لا وصفاً، ولا ذاتاً، ولا اسماً، ولا فعلاً؛ وإنما ترجع إلى مفعولاته، فهو جاعل الظلمات، ومفعولاتها متعددة مُتكثرة، بخلاف النور فإنه يرجع إلى اسمه وصفته، تعالى أن يكون كمثله شيء، وهو نور السموات والأرض. قال ابن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه. ذكره الدارمي عنه. وفي صحيح مسلم: عن أبي ذر: يارسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «**نور، أنى أراه؟!**».

والمقصود: أن الطريق إلى الله واحد، فإنه الحق المبين. والحق واحد، مرجعه إلى واحد. وأما الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل. فالباطل متعدد، وطرقه متعددة.

وأما ما يقع في كلام بعض العلماء: أن الطريق إلى الله متعددة متنوعة، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها؛ رحمة منه وفضلاً، فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق. وكشف ذلك وإيضاحه: أن الطريق هي

واحدة جامعة لكل ما يرضى الله، وما يرضيه متعدد متنوع فجميع ما يرضيه طريق واحد، ومراضيه متعددة متنوعة؛ بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، وكلها طرق مرضاته. فهذه التي جعلها الله لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جدًّا؛ لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها؛ لم يسلكها إلا واحد بعد واحد؛ ولكن لما اختلفت الاستعدادات؛ تنوعت الطرق؛ ليسلك كل امرىء إلى ربه طريقاً يقتضيها استعداده وقوته وقبوله.

ومن هنا يعلم تنوع الشرائع واختلافها، مع رجوعها كلها إلى دين واحد، مع وحدة المعبود ودينه، ومنه الحديث المشهور: «**الأنبياء أولاد عَلات دينهم واحد**»، فأولاد العلات: أن يكون الأب واحداً والأمهات متعددة. فشبه دين الأنبياء بالأب الواحد وشرائعهم بالأمهات المتعددة، فإنها وإن تعددت فمرجعها إلى أب واحد كلها.

وإذا علم هذا؛ فمن الناس: من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله؛ طريق العلم والتعليم، قد وفر عليه زمانه مبتغياً به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفاً على طريق العلم والتعليم؛ حتى: يصل من تلك الطريق إلى الله، ويفتح له فيها الفتح الخاص، أو يموت في طريق طلبه؛ فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إلى الله وَرَسُولِه ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْموتُ فَقَدْ وَقَعَ أجْرُه على اللّهِ**﴾ [النساء: ١٠٠].

وقد حكى عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل، وهو حريص، طالب للقرآن، أنه رؤى بعد موته وأخبر أنه في تكميل مطلوبه، وأنه يتعلم في البرزخ، فإن العبد يموت على ما عاش عليه.

ومن الناس: من يكون سيد عمله؛ الذكر، وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله، فمتى فتر عنه أو قصر؛ رأى أنه قد غبن وخسر.

ومن الناس: من يكون سيد عمله وطريقه؛ الصلاة، فمتى قصر في ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها؛ أظلم عليه وقته، وضاق صدره.

ومن النـاس: من يكـون طريقه؛ الإحسان والنفع المتعدى(١): كقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا، وسلك منه طريقاً إلى ربه. ومن الناس: من يكون طريقه؛ الصوم، فهو متى أفطر؛ تغير عليه قلبه وساءت حاله. ومن الناس: من يكون طريقه؛ تلاوة القرآن، وهي الغالب على أوقاته، وهي أعظم أوراده.

ومنهم: من يكون طريقه؛ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قد فتح الله له فيه، ونفذ منه إلى ربه. ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه؛ الحج والاعتمار.

ومنهم: من يكون طريقه؛ قطع العلائق، وتجريد الهمة، ودوام المراقبة، ومراعاة الخواطر، وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم: جامع المنفذ السالك إلى الله في كل واد الواصل إليه من كل طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه، ونصب عينه يؤمها أين كانت، ويسير معها حيث سارت، قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك: إن كان علم وجـدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت، وأين كانت؛ جالبـة ما جلبـت، مقتضية ما اقتضت؛ جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها، والقيام بأدائها؛ مراقباً له فيها، عاكفاً عليه بالروح والقلب والبدن والسر، قد سلمتُ إليه المبيع منتظراً منه تسليم الثمن: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُم الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. فهذا هو العبد السالك إلى ربه النافذ إليه حقيقة، ومعنى النفوذ إليه: أن يتصل به قلبه، ويعلق به تعلق المحب التام المحبة بمحبوبه؛ فيسلو به عن جميع المطالب سواه...

الباب(٢) السادس عشر في توحد طريق الجنة، وأنه ليس لها إلا طريق واحد.

---

(١) في النسخة: (المعتدى) والصواب: (المتعدى) المراجع   (٢) ٥٧ حادي الأرواح.

هذا ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم، صلوات الله وسلامه عليهم.

وأما طرق الجحيم فأكثر من أن تحصى؛ ولهذا يوحد سبحانه سبيله ويجمع سبل النار: كقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقال: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ**﴾ [النحل: ٩]. أي: ومن السبيل جائر عن القصد، وهي سبيل الغي.

وقال: ﴿**هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ**﴾[الحجر: ٤١]. وقال ابن مسعود: خط لنا رسول الله، ﷺ، خطًا، وقال: «**هَذا سبيل الله**» ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، ثم قال: «**هذه سبل، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوه وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ**﴾ الآية.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُبِين يَهدي به الله مَن اتَّبع رِضوانَه سُبُل السَّلام**﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

قيل: هي سبل تجتمع في سبيل واحد، وهي بمنزلة الجواد، والطرق في الطريق الأعظم، فهذه هي شعب الإيمان يجمعها الإيمان، وهو شعبة، كما يجمع ساق الشجرة أغصانها وشعبها، وهذه السبل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره وطاعة أمره، وطريق الجنة هي إجابة الداعي إليها ليس إلا.

وقد روى البخاري في صحيحه: عن جابر قال: «جاءت ملائكة إلى النبي، ﷺ، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً. فقالوا: مثله مثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان: الدار الجنة، والداعي محمد، فمن أطاع محمداً؛ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً؛ فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس».

ورواه الترمذي عنه، ولفظه: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «**إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه**:

اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل مائدة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك؛ دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام؛ دخل الجنة ومن دخل الجنة؛ أكل ما فيها».

(١)**ومن** ذلك قوله تعالى: ﴿**هَل يَنْظُرُونَ إلاَّ أن تَأتِيَهُم الْمَلاَئِكَةُ أوْ يَأتِيَ رَبُّك أوْ يَأتِي بَعْضُ آيَاتِ ربِّكَ**﴾ [الأنعام: ١٥٨]. فلما ذكر إتيانه سبحانه ربما توهم متوهم أن المراد: إتيان بعض آياته؛ أزال هذا الوهم ورفعه بقوله: ﴿**أوْ يَأتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع نصًا صريحاً في معناه لا يحتمل غيره.

وإذا تأملت أحاديث الصفات، رأيت هذا لائحاً على صفحاتها بادياً على ألفاظها: كقوله، ﷺ: «**إنكم ترون ربكم عياناً، كما نرى الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب، وكما يرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب**».

وقوله، ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، ولا حاجب يحجبه**». فلما كان كلام الملوك قد يقع بواسطة الترجمان، ومن وراء الحجاب؛ أزال هذا الوهم من الأفهام.

وكذلك لما قرأ، ﷺ: ﴿**وَكَانَ الله سَمِيعاً بَصِيراً**﴾[النساء: ١٣٤] وضع إبهامه على أذنه وعينه؛ رفعاً لتوهم متوهم أن السمع والبصر غير العينين المعلومتين، وأمثال ذلك كثير في الكتاب والسنة، كما في الحديث الصحيح أنه قال: «**يقبض الله سمواته بيده، والأرض بيده الأخرى**» ثم جعل رسول الله، ﷺ، يقبض يده ويبسطها؛ تحقيقاً لإثبات اليد، وإثبات صفة القبض.

ومن هذا إشارته إلى السماء حين استشهد ربه تبارك وتعالى على الصحابة أنه بلغهم ؛ تحقيقاً لإثبات صفة العلو، وأن الرب الذي استشهده فوق العالم، مستو على عرشه.

وهذه أمثلة يسيرة ليعرف الفهم المنصف القاصد للهدى والنجاة منها: ما يقبل التأويل، وما لا يقبله. والله المستعان.

(١) ٧٢ مختصر الصواعق جـ١.

فصــل

في بيـان أنـه لا يأتي المعطل للتوحيد العلمي الخبري بتأويل؛ إلا أمكن المشرك المعطل للتوحيد العملي أن يأتي بتأويل من جنسه.

وقـد اعـترف حذاق الفلاسفة وفضلاؤهم ؛ فقال أبوالوليد بن رشد في (كتاب الكشف عن مناهج الأدلة) : القول في الجهة.

وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة يثبتونها لله سبحانه وتعالى؛ حتى نفتها المعتزلة، ثم اتبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية: كأبي المعالي، ومن اقتدى بقوله.

وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات الجهة: مثل قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: ٥]. ومثل قوله: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ومثـل قولـه تعـالى: ﴿**وَيَحْمِلُ عَرشَ ربِّكَ فَوْقَهُم يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ**﴾ [الحاقة: ١٧]. ومثل قوله: ﴿**يُدبر الأمر مِن السَّماء إلى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إليه فِي يَوم كان مِقْـداره أَلْفَ سَنَـة مِمَّا تعدُّونَ**﴾ [السجدة: ٥]. ومثل قوله: ﴿**تَعْرُجُ الملائكة والروح إليه**﴾ [المعارج: ٤]. ومثل قوله: ﴿**أأمِنتُم مَن في السَّماءِ**﴾ [الملك: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات التي إن سلط التأويل عليها؛ عاد الشرع كله متأولاً.

وإن قيل فيها: إنها من المتشابهات؛ عاد الشرع كله متشابهاً؛ لأن الشرائع كلها مبينة أن الله في السماء، ومنه تنزل الملائكة إلى النبيين بالوحي، وأن من السماء نزلت الكتب وإليهـا كان الإسراء بالنبي، ﷺ، حتى قرب من سدرة المنتهى، وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك...

(١)**الوجه** الثالث عشر: أن أعلم الخلق بالله وأنصحهم للأمة وأقدرهم على العبارة التي لا توقع لبساً؛ قد صرح بالنزول مضافاً إلى الرب في جميع الأحاديث، ولم يذكر في موضع واحد ما ينفي الحقيقة؛ بل يؤكدها. فلو كانت إرادة الحقيقة باطلة منتفية؛ لزم القدح في علمه أو نصحه أو بيانه كما تقدم تقريره.

الرابع عشر: أنه لم يقتصر على لفظ النزول العاري عن قرينة المجاز المذكور معه ما يؤكد إرادة الحقيقة؛ حتى نوع هذا المعنى، وعبر عنه بعبارات متنوعة:

(١) ٢٢٤ مختصر الصواعق جـ٢.

كالهبوط، والدنو، والمجيء، والإتيان، والطواف في الأرض قبل يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَجَاء رَبُّكَ والمَلكُ صَفًّا صفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. وقال: ﴿هَل يَنظرون إلاَّ أن تَأتيَهم الملائكةُ أو يأتي ربُّك أو يأتي بعضُ آيات رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. ففرق بين إتيان الملائكة وإتيان أمره وإتيان نفسه. وقال محمد بن جرير الطبري. في تفسير قوله: ﴿هَل ينظُرونَ إلاَّ أن يأتِيهُم الله في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالمَلائِكة﴾ [البقرة: ٢١٠]: **وقد** ورد في هذا حديث عن النبي، ﷺ، وهو المرجع والمعتمد عليه في ذلك، ثم ساق الحديث ولفظه: «**إذا كان يوم القيامة تقفون موقفاً واحداً مقدار سبعين عاماً، لا ينظر إليكم ولا يقضي بينكم، فتبكون؛ حتى تنقطع الدموع، ثم تدمعون دماً، وتعرقون حتى يبلغ منكم العرق الأذقان، ويلجمكم؛ فتضجون وتقولون: من يشفع لنا عند ربنا فيقضي بيننا؟ فتقولون: من أحق بهذا من أبيكم آدم؟! جبل الله تربته، وخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه الله قبلاً؛ فيؤتي آدم فيطلب ذلك إليه، فيأبى، ثم يستقرئون الأنبياء كلما جاءوا نبيًّا؛ يأبى حتى يأتوني فيسألوني فآتي الفحص قدام العرش؛ فأخر ساجداً فلا أزال ساجداً**».

(١)**وقال** رزين بن معاوية صاحب (تجريد الصحاح)، وهو من أعلم أهل زمانه بالسنن والآثار، وهو من المالكية اختصر تفسير ابن جرير الطبري. وعلى كتابه التجريد اعتمد صاحب كتاب (جامع الأصول) وهذبه، قال في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أنْ تَأتِيَهُم الْمَلاَئِكَةُ أوْ يَأتِي رِبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. قال مجاهد: ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ عند الموت حين توفاهم ﴿أو يأتي ربك﴾ يوم القيامة لفصل القضاء ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ طلوع الشمس من مغربها، أو ما شاء الله، وعن قتادة مثله. وقال محمد بن جرير الطبري: حيث ذكر في القرآن إتيان الملائكة؛ فهو محتمل لإتيانهم لقبض الأرواح، ويحتمل أن يكون نزولهم بعذاب الكفار وإهلاكهم.

وأما إتيان الرب عز وجل؛ فهو يوم القيامة لفصل القضاء لقوله: ﴿هل ينظُرونَ إلاَّ أنْ يأتِيهُم الله في ظُلَلٍ مِنَ الغَمام وَالمَلاَئِكَة﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿وجاء رَبُّكَ وَالمَلكُ﴾ [الفجر: ٢٢].

قال رزين: قال بعض المتبعين لأهوائهم، المقدمين بين يدي كتاب الله

(١) ٢٢٥ مختصر الصواعق جـ٢.

لأرائهم من المعتزلة والجهمية ومن نحا نحوهم من أشياعهم ؛ فيمتنعون من وصف الله تعالى بما وصف به نفسه من قوله: ﴿هَل يَنْظُرُون إلَّا أن يأتِيهُم الله فِي ظُلل مِنَ الغَمامِ وَالمَلَائِكَة﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ [الملك: ١٦، ١٧] وقوله: ﴿الرَّحمنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] إلى أن قال: وأهل العلم بالكتاب والآثار من السلف والخلف؛ يثبتون جميع ذلك ويؤمنون به بلا كيف ولا توهم، ويمرون الأحاديث الصحيحة كما جاءت عن رسول الله، ﷺ، انتهى.

والاتيان والمجيء من الله تعالى نوعان:

مطلق ومقيد. فإذا كان مجيء رحمته أو عذابه؛ كان مقيداً كما في الحديث: «**حتى جاء الله بالرحمة والخير**». **ومنه قوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]. وقوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهم﴾ [المؤمنون: ٧١]. وفي الأثر: «**لا يأتي بالحسنات إلا الله**».

النوع الثاني: المجيء والإتيان المطلق كقوله: ﴿وجاء ربك والملك﴾. وقوله: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾.

وهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه، هذا إذا كان مطلقاً فكيف إذا قيد بما يجعله صريحاً في مجيئه نفسه، كقوله: ﴿إلَّا أنْ تَأتِيَهم الملائكة أو يأتِيَ رَبُّكَ أوْ يَأتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. فعطف مجيئه على مجيء الملائكة، ثم عطف مجيء آياته على مجيئه، ومن المجيء المقيد قوله: ﴿فأتَى الله بُنْيانَهم مِنَ القواعِد﴾ [النحل: ٢٦]. فلما قيده بالمفعول وهو البنيان، وبالمجرور وهو القواعد؛ دل ذلك على مجيء ما بينه؛ إذ من المعلوم أن الله سبحانه إذا جاء بنفسه؛ لا يجيء من أساس الحيطان وأسفلها. وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿هُوَ الذي أخْرَجَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ أهْلِ الكِتَابِ مِنْ دِيَارِهم لأوَّل الحَشْرِ ما ظننتُم أن يَخرجُوا وَظَنُّوا أنَّهم ما نِعتُهم حُصُونُهم من الله فأتاهم الله من حيث لَم يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢].

فهذا مجيء مقيد لقوم مخصوصين قد أوقع بهم بأسه، وعلم السامعون أن جنوده من الملائكة والمسلمين أتوهم؛ فكان في هذا السياق ما يدل على المراد، على أنه لا يمتنع في الآيتين أن يكون الإتيان على حقيقته، ويكون ذلك دنواً ممن يريد إهلاكهم بغضبه وانتقامه، كما يدنو عشية عرفة من الحجاج برحمته ومغفرته، ولا

يلزم من هذا الدنو والإتيان الملاصقة والمخالطة؛ بل يأتي هؤلاء برحمته وفضله، وهؤلاء بانتقامه وعقوبته، وهو فوق عرشه إذ لا يكون الرب إلا فوق كل شيء. ففوقيته وعلوه من لوازم ذاته، ولا تناقض بين نزوله ودنوه وهبوطه ومجيئه وإتيانه وعلوه؛ لإحاطته وسعته وعظمته، وأن السموات والأرض في قبضته، وأنه مع كونه الظاهر الذي ليس فوقه شيء؛ فهو الباطن الذي ليس دونه شيء، فظهوره بالمعنى الذي فسره به أعلم الخلق؛ لا يناقض بطونه بالمعنى الذي فسره به أيضاً؛ فهو سبحانه يدنو ويقرب ممن يريد الدنو والقرب منه؛ مع كونه فوق عرشه.

وقد قال النبي، ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**» فهذا قرب الساجد من ربه، وهو فوق عرشه.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «**إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**». فهذا قربه من داعيه، والأول قربه من عابديه، ولم يناقض ذلك كونه فوق سمواته على عرشه.

وإن عسر على فهمك اجتماع الأمرين فإنه يوضحه لك: معرفة إحاطة الرب وسعته، وأنه أكبر من كل شيء، وأن السموات السبع والأرضين في يده كخردلة في كف العبد، وأنه يقبض سمواته السبع بيده والأرضين باليد الأخرى، ثم يهزهن، فمن هذا شأنه كيف يعسر عليه الدنو ممن يريد الدنو منه وهو على عرشه، وهو يوجب لك فهم اسمه الظاهر والباطن، وتعلم أن التفسير الذي فسر رسول الله، ﷺ، به هذين الاسمين؛ هو تفسير الحق المطابق: لكونه بكل شيء محيط، وكونه فوق كل شيء، ومما يوضح لك ذلك: أن النزول والمجيء والإتيان والاستواء والصعود والارتفاع؛ كلها أنواع أفعاله، وهو الفعال لما يريد، وأفعاله كصفاته قائمة به، ولولا ذلك؛ لم يكن فعالا ولا موصوفاً بصفات كماله، فنزوله ومجيئه واستواؤه وارتفاعه وصعوده ونحو ذلك؛ كلها أفعال من أفعاله التي إن كانت مجازاً؛ فأفعاله كلها مجاز، ولا فعل له في الحقيقة؛ بل هو بمنزلة الجمادات، وهذا حقيقة من عطل أفعاله.

وإن كان فاعلاً حقيقة فأفعاله نوعان: لازمة، ومتعدية، كما دلت النصوص التي هي أكثر من أن تحصر على النوعين.

وبإثبات أفعاله وقيامها به؛ تزول عنك جميع الإشكالات، وتصدق النصوص بعضها بعضاً، وتعلم مطابقتها للعقل الصريح.

وإن أنكرت حقيقة الأفعال وقيامها به سبحانه؛ اضطرب عليك هذا الباب أعظم اضطراب، وبقيت حائراً في التوفيق بين النصوص وبين أصول النفاة؛ وهيهات لك بالتوفيق بين النقيضين والجمع بين الضدين.

يوضحه: أن الأوهام الباطلة والعقول الفاسدة، لما فهمت من نزول الرب ومجيئه وإتيانه وهبوطه ودنوه؛ ما يفهم من مجيء المخلوق وإتيانه وهبوطه ودنوه، وهو أن يفرغ مكاناً ويشغل مكانًا؛ نفت حقيقة ذلك فوقعت في محذورين: محذور التشبيه، ومحذور التعطيل.

ولو علمت هذه العقول الضعيفة أن نزوله سبحانه ومجيئه وإتيانه لا يشبه نزول المخلوق وإتيانه ومجيئه، كما أن سمعه وبصره وعلمه وحياته كذلك؛ بل يده الكريمة ووجهه الكريم كذلك، وإذا كان نزولاً ليس كمثله نزول فكيف تنفى حقيقته؟! فإن لم تنف المعطلة حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله بالكلية؛ وإلا تناقضوا، فإنهم أي معنى أثبتوه؛ لزمهم في نفيه ما ألزموا به أهل السنة المثبتين لله ما أثبت لنفسه، ولا يجدون إلى الفرق سبيلاً.

(١)**فائدة** قوله تعالى: ﴿**فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ أنث عدد الأمثال لتأويلها بحسنات، ومثله قراءة أبي العالية: ﴿لَا تَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨] بالتاء، والفعل مسند إلى الإيمان؛ لكنه طاعة وإثابة في المعنى.

(٢)**الرضى** بالله ربًا: أن لا يتخذ رَبًّا غير الله تعالى: يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه. قال الله تعالى: ﴿**قُل أَغَيْرَ الله أَبْغِي رَبًّا وَهوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ١٦٤]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيداً وإلهاً» يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو رب كل شيء. وقال في أول السورة: ﴿**قُل أَغَيْرَ الله أَتَّخِذ وليًا فَاطِرِ السَّمَواتِ والأَرْضِ**﴾ [الأنعام: ١٤]. يعني: معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأ. وهو من الموالاة التي تتضمن: الحب، والطاعة. وقال في وسطها: ﴿**أَفَغَيرَ الله أَبْتَغِي حَكَماً وَهو الَّذِي أَنْزَل إِلَيْكُم الْكِتَابَ مُفَصَّلاً**﴾ [الأنعام: ١١٤]. أي: أفغير الله أبتغي مَن

(١) ٢٠٩ البدائع جـ٤. (٢) ١٨١ مدارج جـ٢.

يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصَّلاً، مبيناً كافياً شافياً!!

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل؛ رأيتها هي نفس الرضى بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد، ﷺ، رسولاً، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتق منها. فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا، ولا يبغي ربًّا سواه؛ لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصراً؛ بل يوالي من دونه أولياء. ظنًّا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك؛ بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين: بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه؛ فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما؛ فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربًّا، ولا إلهاً، ولا غيره حكماً.

وتفسير الرضى بالله ربًّا: أن يسخط عبادة مادونه. هذا هو الرضى بالله إلهاً، وهو من تمام الرضى بالله ربًّا. فمن أعطى الرضى به ربًّا حقه؛ سخط عبادة ما دونه قطعاً؛ لأن الرضى بتجريد ربوبيته؛ يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية؛ يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

بهذا تم مايسر الله جمعه من سورة الأنعام والحمد لله.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** تعالى: ﴿الٓمٓصٓ، كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنه لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ اتَّبِعُوا مَآأُنزِلَ إِلَيْكُم مِّنْ رَّبِكُمْ وَلَاتَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أولِيَآءَ قِلِيلًا مَّاتَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١ ـ ٣]، فأمر سبحانه باتباع ماأنزل على رسوله ونهىٰ عن اتباع غيره، فما هو إلا: اتباع المنزل، أَوْ اتباع أولياء من دونه، فإنه لم يجعل بينهما واسطة، فكل من لم يتبع الوحي؛ فإنما يتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به.

. . . (٢)**وكذلك** الحرج الذي في الصدور منه فإنه:

تارة يكون حرجًا من إنزاله، وكونه حقًّا من عند الله. وتارة يكون من جهة التكلُّم به، أو كونه مخلوقًا من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلم به. وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لايكفي العباد؛ بل هم محتاجون معه إلى: المعقولات، والأقيسة، أو الآراء، أو السياسات. وتارة يكون من جهة دلالته وماأريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة. وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة، فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أوهم أنها مرادة لضرب من المصلحة.

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم، ويجدونه في صدورهم. ولا تجد مبتدعًا في دينه قط، إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته. كما أنك لاتجد ظالمًا فاجرًا إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء.

(٣)**وأما** الفاء فهي موضوعة للتعقيب وقد تكون للتسبيب والترتيب، وهما

---

(١) ٣٥ الرسالة التبوكية.　　(٢) ٨١ فوائد.

(٣) ١٩٥ بدائع جـ٢.

راجعان إلى معنى التعقيب؛ لأن الثاني بعدهما أبدًا إنما يجيء في عقب الأول.

فالسبب نحو: ضربته فبكىٰ، والترتيب: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤]، دخلت الفاء لترتيب اللفظ لأن الهلاك يجب تقديمه في الذكر؛ لأن الاهتمام به أولىٰ، وإن كان مجيء البأس قبله في الوجود، ومن هذا: أن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد بعد ذلك جده؛ دخلت ثم لترتيب الكلام لا لترتيب المعنىٰ في الوجود، وهذا معنىٰ قول بعض النحاة: إنها تأتي للترتيب في الخبر لا في المخبر.

وعندي في الآية تقديران آخران أحسن من هذا أحدهما: أن يكون المراد بالإهلاك إرادة الهلاك، وعبر بالفعل عن الإرادة وهو كثير، فترتب مجيء البأس على الإرادة ترتب المراد على الإرادة.

والثاني: وهو ألطف أن يكون الترتيب ترتيب تفصيل على جملة؛ فذكر الإهلاك ثم فصّله بنوعين:

أحدهما: مجيء البأس بياتًا أي: ليلاً. والثاني: مجيئه وقت القائلة، وخصّ هذين الوقتين؛ لأنهما وقت راحتهم وطمأنينتهم؛ فجاءهم بأس الله أسكن ماكانوا وأروحه؛ في وقت طمأنينتهم وسكونهم على عادته سبحانه في أخذ الظالم؛ في وقت بلوغ آماله وكرمه وفرحه وركونه إلى ماهو فيه.

وكذلك قوله: ﴿حتى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْها أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤].

والمقصود أن الترتيب هنا ترتيب التفصيل على الجمل، وهو ترتيب علمي لا خارجي. فإن الذهن يشعر بالشيء جملة أولاً، ثم يطلب تفصيله بعد ذلك، وأما في الخارج؛ فلم يقع إلا مفصلاً.

فتأمل هذا الموضع الذي خفي على كثير من الناس؛ حتى ظنَّ أن الترتيب في الآية كترتيب الأخبار، أي: إنَّا أخبرناكم بهذا قبل هذا.

(١)**الطبقة** الحادية عشرة: طبقة أقوام خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا: فعملوا حسنات وكبائر، ولقوا الله مصرِّين عليها غير تائبين منها، لكن حسناتهم

(١) ٣٨٠ طريق الهجرتين.

أغلب من سيئاتهم، فإذا وزنت بها رجحت كفة الحسنات، فهؤلاء أيضًا ناجون فائزون، قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ، فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِيْنُهُ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُه فَأُولَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُون﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، قال حذيفة، وعبدالله بن مسعود وغيرهما من الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف، وهذه الموازنة تكون بعد القصاص واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته. فإذا بقي شيء منها وزن هو وسيئاته. . .

. . . (١)**والقرآن** والسنة، قد دلَّا على الموازنة، وإحباط الحسنات بالسيئات، فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض، ولايرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه ـ فعلَ أهل الهوى والتعصب ـ بل نقبل الحق ممن قاله، ونرد الباطل على من قاله.

فأما الموازنة: فمذكورة في سورة الأعراف: (٨ ـ ٩) والأنبياء (٤٧)، والمؤمنين (١٠١ ـ ١١١) والقارعة، والحاقة (١٩ ـ ٣٧).

وأما الإحباط: فقد قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيْعُوا اللهَ وأَطِيْعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُم﴾ [محمد: ٣٣] وتفسير الإبطال هاهنا بالردة؛ لأنها أعظم المبطلات، لا لأن المبطل ينحصر فيها. وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمنوا لَاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فهذان سببان عَرَضا بعدُ للصدقة فأبطلاها. شبَّه سبحانه بطلانها: بالمنِّ وَالأَذىٰ؛ بحال المتصدق رياءً في بطلان صدقة كلٍ واحد منهما. وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لَاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهرِ بَعضِكُم لِبَعْضٍ أَنْ تَحبَطَ أَعْمَالُكُم وَأَنتُم لَاتَشعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]. وفي الصحيح عن، النبي، ﷺ قال: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**».

وقالت عائشة رضي الله عنها، لأم ولد زيد بن أرقم، وقد باع بيع العِينة: «أخبري زيدًا: أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله، ﷺ، إلا أن يتوب».

وقد نصَّ أحمد على هذا في رواية، فقال: ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف

(١) ٢٧٨ مدارج جـ١.

على نفسه، فيستدين ويتزوج، لايقع في محظور؛ فيحبط عمله.

فإذا استقرت قاعدة الشريعة: أن من السيئات مايحبط الحسنات بالإجماع، ومنها مايحبطها بالنص؛ جاز أن يحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة، فتصير التوبة كأنها لم تكن؛ فيلتقي العملان ولا حاجز بينهما؛ فيكون التأثير لهما جميعًا.

قالوا: وقد دلَّ القرآن، والسنة، وإجماع السلف؛ على الموازنة. وفائدتها: اعتبار الراجح؛ فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح.

قال ابن مسعود: «يُحَاسب الناس يوم القيامة: فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة؛ دخل النار، ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة؛ دخل الجنة» ثم قرأ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينه فَأولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِيُنه فَأولَئِكَ الَّذِيْنَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]. ثم قال: «إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح»، قال: «ومن استوت حسناته وسيئاته؛ كان من أصحاب الأعراف».

وعلى هذا: فهل يُحبط الراجحُ المرجوحَ، حتى يجعله كأن لم يكن، أو يحبط ماقابله بالموازنة، ويبقى التأثير للقدر الزائد؟ فيه قولان للقائلين بالموازنة ينبني عليهما: أنه إذا كانت الحسنات أرجح من السيئات بواحدة مثلاً، فهل يدفع الراجح المرجوح جملة؟ فيثاب على الحسنات كلها، أو يسقط من الحسنات ماقابل السيئات، فلا يثاب عليه، ولايعاقب على تلك السيئات، فيبقى القدر الزائد لا مقابل له، فيثاب عليه وحده؟. وهذا الأصل فيه قولان لأصحاب الموازنة.

وكذلك إذا رجحت السيئات بواحدة، هل يدخل النار بتلك الواحدة التي سلمت عن مقابل، أو بكل السيئات التي رجحت؟ على القولين. هذا كله على أصل أصحاب التعليل والحكم...

فصل[1]

فهذا بعض كلام السلف والخلف في هذه الآية[2]. وعلى كل تقدير فلا تدل على خلق الأرواح قبل الأجساد خلقًا مستقرًا، وإنما غايتها أن تدل على إخراج

---

(١) ٢١١ الروح. (٢) الإشارة هنا إلى قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم...﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]. ج.

صورهم وأمثالهم في صور الذر، واستنطاقهم ثم ردهم إلى أصلهم؛ إن صحّ الخبر بذلك.

والذي صحّ إنما هو إثبات القدر السابق وتقسيمهم إلى: شقي، وسعيد.

وأما استدلال أبي محمد بن حزم بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**﴾ [الأعراف: ١١] فما أليق هذا الاستدلال بظاهريته؛ لترتيب الأمر بالسجود لآدمٍ على خلقنا وتصويرنا، والخطاب للجملة المركبة من البدن والروح، وذلك متأخر عن خلق آدم؛ ولهذا قال ابن عباس: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ**﴾ يعني آدم ﴿**ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ**﴾ لذريته، ومثال هذا ماقاله مجاهد: ﴿**خلقناكم**﴾ يعني آدم و﴿**صورناكم**﴾ في ظهر آدم؛ وإنما قال: ﴿**خلقناكم**﴾ بلفظ الجمع وهو يريد آدم، كما تقول: ضربناكم، وإنما ضربت سيدهم.

واختار أبو عبيد في هذه الآية قول مجاهد؛ لقوله تعالى بعد: ﴿**ثم قلنا للملائكة اسجدوا**﴾ وكان قوله تعالى للملائكة: اسجدوا؛ قبل خلق ذرية آدم وتصويرهم في الأرحام، وثم توجب التراخي والترتيب. فمن جعل الخلق والتصوير في هذه الآية لأولاد آدم في الأرحام؛ يكون قد راعىٰ حكم ثم في الترتيب؛ إلا أن يأخذ بقول الأخفش؛ فإنه يقول: ثم هاهنا في معنى الواو. قال الزجاج: وهذا خطأ لايجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعلمه، قال أبو عبيد: وقد بيَّنه مجاهد حين قال: إن الله تعالى خلق ولد آدم وصورهم في ظهره، ثم أمر بعد ذلك بالسجود. قال: وهذا بيِّن في الحديث، وهو أنه أخرجهم من ظهره في صور الذر.

قلت: والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ**﴾ [الحج: ٥]، فأوقع الخلق من تراب عليهم وهو لأبيهم آدم؛ إذ هو أصلهم. والله سبحانه يخاطب الموجودين، والمراد: آباؤهم، كقوله تعالى: ﴿**وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون**﴾ [البقرة: ٥٥]. . .(١)

---

(١) وهذا طرف من البحث على المسألة الثامنة عشرة. وفيها مناقشات طويلة، مفادها: هل الروح مخلوقة قبل الأبدان أم بعدها؟ وهي أكثر من كراسة تبدأ من ص (١٩٢) وتنتهي ص (٢١٦) لمن أرادها. ج.

[(١)] **قال** الله تعالى إخبارًا عن عدوه إبليس، لَـمَّا سأله عن امتناعه عن السجود لآدم، واحتجاجه بأنه خيرٌ منه، وإخراجه من الجنة: أنه سأله أن يُنظِره، فأنظَره، ثم قال عدو الله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

قال جمهور المفسرين والنحاة: حذف: «على» فانتصب الفعل، والتقدير: لأقعدنَّ لهم على صراطك، والظاهر؛ أن الفعل مضمر، فإن القاعد على الشيء ملازم له، فكأنه قال: لألزمنَّه، ولأرْصُدَنَّه، ولأعَوِّجنه، ونحو ذلك.

قال ابن عباس: «دينك الواضح»، وقال ابن مسعود: «هو كتاب الله»، وقال جابر: «هو الإسلام»، وقال مجاهد: «هو الحق».

والجميع عبارات عن معنى واحد، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى، وقد تقدَّم حديث سَبْرة بن الفاكه: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه كلها**...» الحديث. فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن عباس في رواية عطية[(٢)] عنه: «مِنْ قِبَل الدنيا»، وفي رواية عليٍّ[(٣)] عنه «أُشككهم في آخرتهم».

وكذلك قال الحسن: «من قبل الآخرة، تكذيبًا بالبعث والجنة والنار». وقال مجاهد: «﴿**من بين أيديهم**﴾: من حيث يبصرون». ﴿**ومن خلفهم**﴾، قال ابن عباس: «أرغبهم في دنياهم»، وقال الحسن: «من قبل دنياهم أزيِّنها لهم وأشَهِّيها لهم».

وعن ابن عباس رواية أخرى: «من قِبَل الآخرة». وقال أبو صالح: «أُشككهم في الآخرة وأباعدها عليهم». وقال مجاهد أيضًا: «من حيث لايبصرون». ﴿**وعن أيمانهم**﴾ قال ابن عباس: «أُشَبِّه عليهم أمر دينهم». وقال

---

(١) غاثة جـ١.

(٢) هو عطية بن سعد بن جنادة العوفي ـ بفتح العين المهملة وإسكان الواو، أبو الحسن الكوفي، يروي عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس ضعفه الثوري وهشيم وابن عدي، وحسّن له الترمذي أحاديث مات سنة ١١١.

(٣) هو علي بن أبي طلحة ـ سالم ـ الهاشمي مولاهم أبو الحسن الجزري، يروي عن ابن عباس مرسلًا. له في مسلم حديث واحد. وعن أبي داود والنسائي وابن ماجه حديث آخر. مات سنة ١٤٣.

أبو صالح: «الحق أشككهم فيه». وعن ابن عباس أيضًا: «من قبل حسناتهم». قال الحسن: «من قبل الحسنات أثبطهم عنها». وقال أبو صالح أيضًا: «من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم: أُنفقّه عليهم وأُرَغِّبهم فيه». وقال الحسن: «﴿وعن شمائلهم﴾ السيئات يأمرهم بها، ويَحُثُّهم عليها ويزينها في أعينهم».

وصحّ عن ابن عباس رضي الله عنه، أنه قال: «ولم يقل: من فوقهم؛ لأنه علم أن الله من فوقهم». قال الشعبي: «فالله ـ عز وجل ـ أنزل الرحمة عليهم من فوقهم». وقال قتادة: «أتاك الشيطان ياابن آدم من كل وجه؛ غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله».

قال الواحدي: وقول من قال: «الأيمان كناية عن الحسنات، والشمائل كناية عن السيئات؛ حَسَنٌ، لأن العرب تقول: اجعلني في يمينك، ولاتجعلني في شمالك، تريد: اجعلني من المقدمين عندك، ولاتجعلني من المؤخَّرين، وأنشد لابن الدُّمَيْنَة:

أَلُبْنَى، أفي يُمْنى يَديك جعلتني فأَفرحَ، أم صَيّرتني في شمالك؟

وروى أبو عبيد عن الأصمعي: هو عندنا باليمين: أي بمنزلةٍ حسنة، وبضد ذلك: هو عندنا بالشمال، وأنشد:

رأيت بني العَلَّات لما تظافروا يَحُوزون سهمي بينهم في الشمائل[1]

أي: ينزلوني بالمنزلة السيئة. وحكى الأزهري عن بعضهم في هذه الآية: «لأُغْويَنَّهُمْ حَتَّى يُكَذِّبُوا بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أمور الأمم السالفة، ومن خلفهم بأمر البعث، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، أي: لأضلنهم فيما يعملون؛ لأن الكسب يقال فيه: ذلك بما كسبت يداك، وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئًا؛ لأنهما الأصل في التصرُّف، فجعلتا مثلاً لجميع مايعمل بغيرهما».

وقال آخرون ـ منهم أبو إسحاق، والزمخشري ـ واللفظ لأبي إسحاق: «ذكر هذه الوجوه للمبالغة في التوكيد، أي. لآتينهم من جميع الجهات، والحقيقة ـ والله

(١) بنو العلات: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد. وسهمي، أي حظي ونصيبي.

أعلم ـ أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم».

وقال الزمخشري: «ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ماأمكنه وقدر عليه، كقوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وهذا يوافق ماحكيناه عن قتادة: «أتاك من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك» وهذا القول أعم فائدة، ولا يناقض ماقال السلف، فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين. قال شقيق: «ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يديَّ، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي؛ فيقول: لاتخف فإن الله غفوررحيم، فأقرأ: ﴿وإنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، وأما من خلفي فيخوفني الضيّعَة على من أخلِّفه، فأقرأ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ومن قِبَل يميني، يأتيني من قبَل النساء، فأقرأ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ومن قِبَل شمالي فيأتيني من قبَل الشهوات، فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَايَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

قلت: السُّبل التي يسلكها الانسان أربعة لاغير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأيُّ سبيل سلَكها من هذه؛ وجد الشيطانَ عليها رصَدًا له، فإن سلكها في طاعة؛ وجده عليها يُثَبِّطه عنها ويقطعه، أو يعُوقه ويبُطِّئه، وإن سلكها لمعصية؛ وجده عليها حاملاً له وخادمًا ومعينًا ومُمَنِّيًا، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك...

فصل(١)

وأول كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة: أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَاوُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢].

(١) ١١١ إغاثة جـ١.

فالوسوسة: حديث النفس والصوت الخفي، وبه سمى صوت الحُليّ وسواسًا، ورجل موسوس بكسر الواو، ولايفتح فإنه لحن، وإنما قيل له: موسوس؛ لأن نفسه توسوس إليه، قال تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَاتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [قٓ: ١٦].

وعلم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عَوراتهما، فإنها معصية، والمعصية تهتك ستر مابين الله وبين العبد، فلما عصيا انْهَتَك ذلك الستر، فبدت لهما سوآتهما، فالمعصية تبدي السوأة الباطنة والظاهرة؛ ولهذا رأىٰ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في رؤياه الزناة والزواني عراة بادية سوآتهم، وهكذا إذا رؤي الرجل أو المرأة في منامه مكشوف السوأة؛ فإنه يدل على فساد في دينه، قال الشاعر:

إني كأني أرى من لا حياء له ولا أمانة وسط الناس عريانًا

فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباسًا ظاهرًا يواري العورة ويسترها، ولباسًا باطنًا من التقوى، يجمل العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع مايسترها.

ثم قال: ﴿مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٠] أي: إلا كراهة أن تكونا ملَكين، وكراهة أن تخلدا في الجنة، ومن ههنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كَيْدِه الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه، ويخالطه، ويسألها عما تحبه وتؤثره، فإذا عرفه: استعان به على العبد، ودخل عليه من هذا الباب.

وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضًا أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنه باب لايخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود.

فشامّ عدو الله الأبوين، فأحسّ منهما إيناسًا وركونًا إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم؛ فعلم أنه لايدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين، وقال: مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

وكان عبدالله بن عباس يقرؤها ملِكين بكسر اللام، ويقول: «لم يطمعا أن

يكونا من الملائكة، ولكن استشرفا أن يكونا ملكين فأتاهما من جهة الملك» ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَايَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]. وأما على القراءة المشهورة فيقال: كيف أطمع عدو الله آدم عليه السلام أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولاتشرب، وكان آدم عليه السلام أعلم بالله وبنفسه والملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله، ولاسيما مما نهاه الله عز وجل عنه؟

فالجواب: أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا في ذلك أصلاً، وإنما كذبهما عدو الله وغرّهما، وخدعهما بأن سمّى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها، فسموا الخمر: أم الأفراح، وسموا أختها[1] بلقيمة الراحة، وسموا الربا: بالمعاملة، وسموا المكوس: بالحقوق السلطانية، وسموا أقبح الظلم وأفحشه: شرع الديوان، وسموا أبلغ الكفر، وهو جحد صفات الرب: تنزيهًا، وسموا مجالس الفسوق: مجالس الطيبة؛ فلما سماها شجرة الخلد قال: مانهاكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولاتموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لايموتون، ولم يكن آدم ـ عليه السلام ـ قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود في الجنة، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه: أنه ناصح لهما، فاجتمعت الشبهة والشهوة، وساعد القدر فأخذتهما سِنَةُ الْغَفْلَة، واستيقظ لهما العدو، كما قيل:

واستيقظوا وأراد الله غفلتهم ... لينفذ القَدَر المحتوم في الأزل

إلا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله: ﴿أو تكونا من الخالدين﴾.

فيقال: الماكر المخادع لابد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل مايدل على مكره وكيده، ولا حاجة بنا إلى تصحيح كلام عدو الله، والاعتذار عنه، وإنما يعتذر عن الأب في كون ذلك رَاجَ عليه وولج سمعه، فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا مَلَكين، وإنما ردَّد الأمر بين أمرين: أحدهما:

(١) بالنسخة (أخاها)، والصواب ما أثبتناه. والمقصود بها الحشيشة. المراجع.

ممتنع، والآخر: ممكن. وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر؛ ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن؛ جزم له به؛ ولم يردده. فقال: ﴿**يَاآدمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لَايَبْلَى**﴾ فلم يُدْخِل أداة الشك ههنا كما أدخلها في قوله: ﴿**إلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ**﴾ فتأمله.

ثم قال: ﴿**وقاسَمَهُما إنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾، فتضمن هذا الخبر أنواعًا من التأكيد: أحدها: تأكيده بالقسم. الثاني: تأكيده بإنَّ. الثالث: تقديم المعمول على العامل، إيذانًا بالاختصاص، أي: نصيحتي مختصة بكما، وفائدتها إليكما لا إليَّ. الرابع: إثباته باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم، دون الفعل الدال على التجدد. أي: النصح صفتي وسَجِيَّتي، ليس أمرًا عارضًا لي. الخامس: إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم. السادس: أنه صوّر نفسه لهما ناصحًا من جملة الناصحين، فكأنه قال لهما: الناصحون لكما في ذلك كثير، وأنا واحد منهم، كما تقول لمن تأمره بشيء: كل أحد معي على هذا، وأنا من جملة من يشير عليك به.

سعى نحوها حتى تجاوز حدّه وكَثَّر فارتابت، ولو شاء قللا

وورث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين كما كان المنافقون يقولون لرسول الله، ﷺ، إذا جاءوه: ﴿**نشهد إنَّك لرسول الله**﴾ [المنافقون: ١] فأكدوا خبرهم بالشهادة، وبإنَّ، وبلام التأكيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿**ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم**﴾ [التوبة: ٥٦].

ثم قال تعالى: ﴿**فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ**﴾ قال أبو عبيدة: خذلهما وخلَّاهما، من تَدْلِيَةِ الدَّلْوِ، وهو إرسالها في البئر. وذكر الأزهري لهذه اللفظة أصلين:

أحدهما قال: أصله الرجل العطشان يتدلَّى في البئر لِيَرْوَى من الماء فلا يجد فيها ماء فيكون قد تَدَلَّى فيها بالغرور، فوُضِعَتْ التدلية موضع الإطماع فيما لايُجْدِي نفعًا، فيقال: دَلَّاه، إذا أطمعه، ومنه قول أبي جُنْدَب الهُذَلي:

أُحُص، فلا أجير ومن أجره فليس كمن تَدلَّى بالغرور

أحص: أي أقطع. الثاني: فدلَّاهما بغرور، أي: جَرَّأهما على أكل

الشجرة، وأصله: دللهما من الدلال والدالة[1] وهي الجراءة، قال شَمَّر: يقال: مادلَّلَك عليَّ، أي: ماجَرَّأَكَ عليَّ، وأنشد لقيس بن زهير:

أظـن الحـلم دلَّ عليَّ قومـي وقـد يُستجهـل الرجل الحليم

قلت: أصـل التدلية في اللغة الإرسال والتعليق، يقال: دلَّى الشيء في مِهْـوَاةٍ، إذا أرسله بتعليق. وتـدلَّى الشيء بنفسـه، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْـوَهُ**﴾ [يوسف: ١٩]، قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلىٰ دلوه إذا أرسلها في البئر، ودلاَّهَا بالتخفيف، إذا نزعها من البئر، فأدلىٰ دلوه يدليه إدلاءً إذا أرسلها، ودلاها يدلوها دلوا؛ إذا نزعها وأخرجها.

ومنه الإدلاء، وهو التوصل إلى الرجل برحم منه، ويشاركه في الاشتقاق الأكبر؛ الدلالة، وهي: التوصل إلى الشيء بإبانته وكشفه.

ومنه الدلُّ وهو مايدل على العبد من أفعاله، وكان عبدالله بن مسعود يُشَبَّه برسول الله، ﷺ، في هَديْه ودَلِّه وسَمْتِه، فالهدي الطريقة التي عليها العبد، من أخلاقه وأقواله وأعماله، والدلُّ مايدل من ظاهره على باطنه، والسَّمْت هيأته ووقاره ورزانته.

والمقصود: ذكر كيد عدو الله ومكره بالأبوين. قال مُطَرِّفُ بن عبدالله: قال لهما: إني خُلقت قبلكـما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرْشِدْكما وحلف لهما، وإنما يُخدع المؤمن بالله، قال قتادة: «وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله خدعنا»، فالمؤمن غر كريم، والفاجر خَبٌّ لئيم. وفي الصحيح: أن عيسى ابن مريم عليه السلام رأي رجلاً يسرق، فقال: «**سرقت؟**» فقال: لا والله الذي لا إلـه إلا هو، فقال المسيح: «**آمنت بالله، وكذَّبت بصري**».

وقد تأوَّله بعضهم على أنه لما حلف له؛ جَوَّز أن يكون قد أخذ من ماله، فظنه المسيح سرقة؛ وهذا تكلف، وإنما كان الله سبحانه وتعالى في قلب المسيح عليه السلام أجلَّ وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبًا، فلما حلف له السارق دار

---

(١) قال أبو حيان في البحر: فأبدل من المضاعف الأخير حرف علة، كما قالوا: تظنيت. وأصله: تظننت، ومن كلام بعض العلماء: «خدع الشيطان آدم فانخدع ونحن من خدعنا بالله انخدعنا له» ا هـ. وروى ابن سعد في الطبقات وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر: «أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه، وكان عبيده يفعلون ذلك؛ طلبًا للعتق، فقيل له: يخدعونك. فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له».

الأمر بين تهمته وتهمة بصره، فردّ التهمة إلى بصره لما اجتهد له في اليمين، كما ظنّ آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له بالله عز وجل، وقال: «ماظننت أحدًا يحلف بالله تعالى كاذبًا». . .

. . .(١)**قال** تعالى: ﴿فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المُسْتَقيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] فردَّ أمر الله بقدره، واحتجَّ عَلَى ربه بالقدر، وانقسم أتباعه أربعَ فِرَق كما رأيت.

فإبليس وجنوده أُرسلوا بالقدر إرسالاً كونيًا، فالقدَرُ دينهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّـا أَرْسَلْنَـا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، فدينُهم القَـدَر، ومصـيرُهم سقر. فبعث الله الرسل بالأمر، وأمرهم أن يحاربوا به أهل القَـدَر، وشرَع لهم من أمره سُفُنًا، وأمرهم أن يركبوا فيها هم وأتباعُهم في بحر القدَر، وخَصَّ بالنجاةِ من ركبها، كما خَصَّ بالنجاة أصحاب السفينة، وجعل ذلـك آيةً للعالَمين، فأصحابُ الأمر حربٌ لأصحاب القَدَر؛ حتى يرُدُّوهم إلى الأمر، وأصحاب القدَر يحاربون أصحابَ الأمر؛ حتى يخرجوهم منه، فالرسلُ دينُهم الأمرُ مع إيمانهم بالقدَر وتحكيمِ الأمر عليه، وإبليسُ وأتباعُه دينهُم القدَر ودفعُ الأمر به.

فتامل هذه المسألة في القدر والأمر، وانقسامِ العالَم فيها إلى هذه الأقسام الخمسة. وبالله التوفيق.

(٢) فصـــل

في بيانِ كَيْدِ الشيطانِ لنفسِه، قبلَ كَيْدِه للأبوين، ثم لم يَقْتَصِرْ على ذلك، حتى كَادَ ذُرِّيةَ نفســه، وذرِّية آدم، فكان مشئومًا على نفسه وعلى ذرِّيته وأوليائِه وأهلِ طاعتِه من الجنِّ والإِنْسِ.

أما كيده لنفسه فإنَّ اللهَ سبحانه لما أمَرَه بالسجودِ لآدَمَ عليه السلام، كان في امتثالِ أمره وطاعتِه: سعادتُه وفلاحُه، وعِزُّهُ ونجاتُه، فَسَوَّلَتْ له نفسُه الجاهلَة الظالمة: أنَّ في سجوده لآدم عليه السلام غَضاضةً عليه، وهَضْمًا لنفسه؛ إذ يَخْضَعُ ويقعُ ساجدًا لمن خُلِقَ من طِينٍ، وهو مخلوقٌ من نار، والنارُ ـ بزَعْمِه ـ أشرفُ من

(١) ٧٣ روضة المحبين.
(٢) ٢٠٠ إغاثة جـ٢.

الـطين، فالمخلوقُ منهـا خَيْرٌ من المخلوق منه، وخضوعُ الأَفْضَلِ لمن هو دونه غَضَاضَةٌ عليه، وهَضْمٌ لمنزلته. فلما قام بقلبه هذا الهوَسُ، وقارَنَهُ الحسَد لآدمَ، لـمَا رأى رَبَّهُ سبحانه قد خَصَّه به من أنواع الكرامة، فإنه خَلَقه بيدِه، ونفخَ فيه من رُوحـه، وأسْجَدَ له ملائكته، وعَلمه أسماء كلِّ شيء، ومَيَّزه بذلك عن الملائكة وأسكنه جَنَّتَه، فعند ذلك بلغ الحسَدُ من عَدُوّ الله كلَّ مبلغ.

وكان عَدوّ الله يُطِيفُ به وهو صَلْصَالٌ كالفَخَّار، فيتعجبُ منه، ويقول: لأمر عظيم قد خُلق هذا، ولئِن سُلِّط عليَّ لأعَّصينه، ولئن سلطت عليه لأهلكنه، فلما تم خلق آدم عليه السلام في أحسن تقويم وأكمل صورة وأجملها، وكمُلتْ محاسنه الباطنة، بالعلم والحلم والوقار، وتولى ربُّه سبحانه خلقه بيده، فجاء في أحسن خلق، وأتمِّ صورة، طوله في السماء ستون ذراعًا، قد أُلبس رِداء الجمالِ والحسنِ، والمهابة والبَهاء، فرأتِ الملائكة منظرًا لم يُشاهدوا أحسنَ منه وَلا أجمل؛ وقعوا كلُّهم سجودًا له، بأمْر ربهم تبارك وتعالى، فَشَقَّ الحسود قَميصه من دُبُرٍ، واشتعلت في قلبـه نيران الحَسَـد المتين، فعارضَ النصَّ بالمعقول بزعمه، كفعل أوليائـه من المبْـطلين وقـال: ﴿**أَنَـا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَه مِنْ طِينٍ**﴾ [الأعراف: ١٢]. فأَعْرَضَ عن النصِّ الصريحِ، وقابَلَهُ بالرأي الفاسدِ القبيحِ، ثم أرْدَفَ ذلك بالاعتراضِ على العليمِ الحكيمِ، الذي لاتجدُ العقولُ إلى الاعتراض على حكمته سبيلاً. فقال: ﴿**أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٦٢].

وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى: أخبرني، لم كَرَّمته عليَّ؟ وغَوْرُ هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي؛ لأن المفضول يخضع للفاضل، فلِمَ خالفت الحكمة؟ ثم أردَف ذلك بتفضيل نفسه عليه، وإزرائه به، فقال: ﴿**أنا خير منه**﴾. ثم قرر ذلك بحجته الداحضة، في تفضيل مادته وأصله على مادة آدم ـ عليه السلام ـ وأصله، فأنتجت له هذه المقدمات: إباءه وامتناعه من السجود، ومعصيتَه الرب المعبود، فجمـع بين الجهـل والظلم، والكِبْرِ والحسد والمعصية، ومعارضة النص بالرأي والعقل، فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها من حيث أراد

رفعتها، وأذلها من حيث أراد عزتها، وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مَضرّته لم يبلغ منه ذلك المبلغ، ومن كان هذا غشُّه لنفسه، فكيف يسمع منه العاقل ويقبل، ويواليه؟ قال تعالى: ﴿وإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَن أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

فصــل(١)

وأمــا كيده للأبــوين فقــد قَصَّ اللهُ سبحــانــه علينــا قِصَّتــه معهــما: [الأعراف: ٢٠ - ٢٢] وأنه لم يزَلْ يَخْدَعهما، ويَعِدُهما، ويُمَنِّيهما الخلودَ في الجنَّةِ، حتى حَلَفَ لهما بالله جَهْد يَمينه: إنه ناصحٌ لهما، حتى اطمأنًا إلى قوله، وأجاباه إلى ماطلبَ منهما، فجرَى عليهما من المِحْنة والخروج من الجنة ونزْع لباسهما عنهما ماجَرى، وكان ذلك بكَيْده ومَكره الذي جَرَى به القلمُ، وسَبَق به القَدَر، وَرَدَّ الله سبحــانــه كَيْدَه عليه، وتــدارَكَ الأبوين برحمته ومَغفرته. فأعادهما إلى الجنة على أحسن الأحــوال وأجملها، وعاد عاقبةُ مكره عليه: ﴿ولَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾

وظن عدوُّ الله بجهله أنَّ الغلَبة والظَّفَر له في هذه الحرب، ولم يعلم بكَمِين جَيش: ﴿رَبَّنــا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ولا بإقبال دَوْلَة: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢].

وظن اللعينُ بجهله أن الله سبحانه يتخلَّى عن صَفِيِّه وحَبيبه الذي خَلقه بيده، ونفخَ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكتَه، وعَلَّمه أسماء كل شيء، من أجل أَكْلَةٍ أكلَها. وما علم أنَّ الطبيبَ قد عَلَّم المريضَ الدواء قبلَ المرض، فلما أَحَسَّ بالمرض بادَرَ إلى استعمال الدَّواء، لـمَّا رماهُ العدُوُّ بسَهْمٍ وقعَ في غير مَقْتَل، فبادر إلى مُداواة الجُرْحِ، فقام كأنْ لم يكُنْ به قَلَبَةٌ...(٢).

---

(١) ٢٠٢ إغاثة جـ٢.

(٢) ما به قلبه - بالتحريك - أي داء وعلة، ومنه حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه البخاري وغيره في رقيته رئيس القبيلة بالفاتحة: «فانطلق يمشي وما به قلبة» قال الفراء: ما به علة يخشى عليه منها. وهو مأخوذ من قولهم: قلب الرجل، إذا أصابه وجع في قلبه، ليس يكاد يفلت منه. وقال ابن الأعرابي: أصل ذلك في الدواب. أي: ما به داء يقلب حافره. وما بالمريض قلبة. أي علة يقلب منها. اهـ. من تاج العروس.

(١) **وفيها**: عن أبي الأحوص الجشمي قال: رآني النبي، ﷺ، وعليَّ أطمار فقال: «**هل لك من مال؟**» قلت: نعم قال: «**من أيّ المال؟**» قلت: من كل ما آتى الله من الإبل والشاه، قال: «**فلترِ نعمته وكرامته عليك**» فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه، وهو جمال باطن، فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة، والجمال الباطن بالشكر عليها.

ولمحبته سبحانه للجمال؛ أنزل على عباده لباسًا وزينة تجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم. فقال: ﴿**يَابَنِي آدم قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُم لِبَاسًا يُوَارِي سوْآتِكُم وَرِيْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوى ذٰلِكَ خيرٌ**﴾ [الأعراف: ٢٦]. وقال في أهل الجنة: ﴿**وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّة وَحَرِيْرًا**﴾ [الإنسان: ١١، ١٢] فجمل وجوههم بالنضرة، وبواطنهم بالسرور، وأبدانهم بالحرير.

وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة، فيبغض القبيح وأهله، ويحب الجمال وأهله.

(٢) **وقد** جمع سبحانه بين الجمالين، أعني: جمال الظاهر وجمال الباطن؛ في غير موضع من كتابه:

منها: قوله تعالى: ﴿**يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُواري سَوْءآتِكُم وَرِيْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوىٰ ذٰلِكَ خَيرٌ**﴾ [الأعراف: ٢٦].

ومنها: قوله تعالى في نساء الجنة: ﴿**فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ**﴾ [الرحمن: ٧٠]، فهن حسان الوجوه، خيرات الأخلاق.

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَلَقَّاهُم نَضْرَةً وسُرُورًا**﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة جمال الوجوه، والسرور جمال[٣] القلوب.

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. فالنضرة تزين ظواهرهم، والنظر يجمل بواطنهم.

---

(١) ١٨٣ فوائد وفيها: أي في السنن. (٢) ٣٠٠ مدارج جـ٣.

(٣) في النسخة: (وجمال) بزيادة الواو. والصواب حذفها. المراجع.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وحُلُّوا أسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَّسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوْرًا﴾ [الإنسان: ٢١] فالأساور جملت ظواهرهم، والشراب الطهور طهر بواطنهم.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إنَّا زَيَّنَّا السَّمَآء الدُّنيا بزِيْنةٍ الْكَوَاكِب وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصآفات: ٦، ٧] فجمل ظاهرها بالكواكب، وباطنها بالحراسة من الشياطين.

فصــــل(١)

ومما يبيّن أنَّ هذه الفواحش أصلُها المحبة لغير الله تعالى، سواء كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة، أو غير ذلك: أنها في المشركين أكثرُ منها في المخلصين، ويوجدُ فيهم منها ما لا يوجدُ مثله في المخلصين.

قال تعالى: ﴿يَابَني آدَمَ لاَيَفْتَنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كما أَخْرجَ أبَوَيْكُم منَ الجَنَّةِ يَنْزعُ عَنْهُما لِبَاسَهُما لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِما إنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَتَروْنَهُمْ إنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذينَ لاَ يُؤْمِنُون وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْها آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِها قُلْ إنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلَصِينَ لَهُ الدِّيْنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَق وأن تشركُوا باللهِ مالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطانًا وَأَن تَقُولُوا على اللهِ مالا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧ ـ ٣٣].

فأخبر سبحانه أنه: جعل الشياطين أولياء للذين لايؤمنون، وهو قوله: ﴿أفتتخــذونـه وذريتـه أَوْلِيَـاء مِنْ دُوني وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ للظالمِـينَ بدلاً﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال تعالى في الشيطان: ﴿إنما سُلطانه على الذين يتولَّوْنَهُ والذينَ هُمْ به مُشْرِكُـونَ﴾ [النحـل: ١٠٠] وأخبر عنه أنه أقسم بعِزَّة ربه أنه يُغوي عباده أجمعين، واستثنى أهل الإخلاص منهم. وأخبر سبحانه عن أولياء الشيطان، أنهم إذا فعلوا فاحشةً احتجوا بتقليد أسلافهم، وزعموا أن الله سبحانه أمرهم بها، فاتَّبعوا الظن الكاذب والهوى الباطل.

قال شيخنا: وفي هذا الوصف نصيب كبير لكثير من المنتسبين إلى القبلة

---

(١) ١٥٥ إغاثة جـ٢.

من: الصوفية، والعباد، والأمراء، والأجناد، والمتفلسفة، والمتكلمين، والعامة، وغيرهم، يستحلُّون من الفواحش ماحَرَّمه الله ورسوله: ظانين أنَّ الله أباحه، أو تقليدًا لأسلافهم. وأصله العشقُ الذي يُبغضه الله، فكثيرٌ منهم يجعله دينًا، ويرى أنه يتقرَّب به إلى الله:

إما لزعمه أنه يُزَكِّي النفسَ ويُهَذِّبها.

وإما لزعمه أنه يجمعُ بذلك قلبه على آدميٍّ، ثم ينقلُه إلى عبادة الله وحده.

وإما لزعمه أن الصورَ الجميلة مظاهر الحقِّ ومشاهدهُ، ويسميها: «مظاهر الجمال الأَحديِّ»

وإما لاعتقاده حلول الرب فيها، واتحاده بها؛ ولهذا تجد بين نُسَّاك هؤلاء وفقرائهم وأمرائهم وأصحابهم؛ توافقًا وتآلفًا على اتخاذ أنداد من دون الله يحبونهم كحبِّ الله: إما تَدَيُّنًا، وإما شهوة، وإما جمعًا بين الأمرين؛ ولهذا يتآلفون ويجتمعون على السماع الشيطاني، الذي يهيج الحب المشترك، فيُهَيِّج من كل قلب مافيه من الحب.

وسبب ذلك: خلوُّ القلب مما خُلق له من عبادة الله تعالى التي تجمع: محبته وتعظيمه، والخضوع والذلِّ له، والوقوف مع أمره ونهيه ومحَابِّه ومساخطه، فإذا كان في القلب وُجدان حلاوة الإيمان وذَوْق طعمه؛ أغناهُ ذلك عن محبة الأنداد وتأليهها، وإذا خلا القلب من ذلك؛ احتاج إلى أن يستبدل به مايهواه، ويتخذه إلـهه، وهذا من تبديل الدين، وتغيير فِطْرة الله التي فَطَرَ عليها عباده، قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فطرة اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليْها لاتبدْيل لِخَلْقِ الله**﴾ [الروم: ٣٠]. أي: نفسُ خلق الله لاتبديل له، فلا يخلق الخلق إلا على الفطرة، كما أن خلقه للأعضاء على السلامة من الشَّقِّ والقطع، ولا تبديل لنفس هذ الخلق.

ولكن يقع التغيير في المخلوق بعد خلقه، كما قال النبيُّ، ﷺ: «**كل مولود يُولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه، ويُنَصِّرانِه، ويُمَجِّسانه، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بهيمة جَمْعاء، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟**»(١).

---

(١) رواه البخاري في باب: إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ =

فالقلوب مفطورة على حب إلـهها وفاطرها وتأليهه، فصرفُ ذلك التألُّه

من كتاب الجنائز. وفي تفسير سورة الروم من كتاب التفسير، عن أبي هريرة. ورواه مسلم كذلك، بلفظ: «**ما من مولود يولد إلا على الفطرة...**» الحديث. ثم يقول: ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيْلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّيْنُ الْقَيِّمُ**﴾ [الروم: ٣٠]. قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة. فمنهم: الأسود بن سريع التميمي، رواه الإمام أحمد بلفظ: «**كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها**»، ورواه النسائي في كتاب السير، ومنهم: جابر بن عبدالله الأنصاري، رواه الإمام أحمد. بلفظ: «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه: إما شاكرًا، وإما كفورًا**»، ومنهم ابن عباس، أخرجه الشيخان بلفظ: سُئل رسول الله، ﷺ، عن أولاد المشركين، فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم**»، ومنهم عياض بن حمار المجاشعي. رواه الإمام أحمد بلفظ: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال في خطبته: «**إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ماجهلتم مما علمني في يومي هذا: كل مانحلته عبادي حلال. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين؛ فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ماأحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجميهم وعربيهم، إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لايغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظانًا. ثم إن الله عز وجل أمرني أن أحرق قريشاً. فقلت: يارب إذن يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة. فقال: استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك. وأنفق عليهم ننفق عليك، وابعث جندًا نبعث خمسة مثله. وقاتل بمن أطاعك من عصاك. وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق. ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى مسلم. ورجل فقير عفيف متصدق. وأهل النار خمسة: الضعيف لا زبر له الذين هم فيكم تبعًا، أو تبعاء - شك يحيى - لايبتغون أهلاً ولا مالاً. والخائن الذي لايخفى عليه طمع وإن دق؛ إلا خانه، ورجل لايصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك. وذكر البخيل والكذاب والشنظير الفاحش**» انفرد بإخراجه مسلم. اهـ. ببعض تصرف.

وقوله: «**تنتج**» بضم التاء وسكون النون وفتح التاء - أي تلد. يقال: نتجت - بضم النون وكسر التاء - الناقة، إذا ولدت. فهي منتوجة. وأنتجت: إذا حملت، فهي نتوج. وقوله: «**جمعاء**» أي: سليمة من العيوب مجتمعة الأعضاء كاملتها. فلا جدع فيها ولا كي. والجدعاء: المقطوعة الأنف والأذن مشقُوقتها. والمراد منها هنا: التي ليست ناقصة شيئًا من أعضائها. قال ابن الأثير ومعنى الحديث: أن المولود يولد على نوع من الجبلة، وهي فطرة الله تعالى، وكونه متهيئًا لقبول الحق طبعًا وطوعًا، لو خلته شياطين الإنس والجن ومايختار؛ لم يختر غيرها. فضرب لذلك الجمعاء والجدعاء مثلاً. يعني أن البهيمة تولد مجتمعة الخلق سوية الأطراف سليمة من الجدع، لولا تعرض الناس إليها لبقيت كما ولدت سليمة اهـ.

وقوله في رواية أحمد ومسلم: «**فأضلتهم الشياطين**» وفي رواية: «**فاجتالتهم**» أي: حولتهم وحرفتهم، وثلغ الرأس ضربها؛ حتى تنشدخ، و«**الشنظير**» الفحاش السيء الخلق.

والمحبة إلى غيره؛ تغيير للفطرة.

ولما تغيرت فِطَرُ الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها إلى حالتها التي خُلقت عليها، فمن استجاب لهم، رجع إلى أصل الفطرة، ومن لم يستجب لهم، استمر على تغيير الفطرة وفسادها.

(١)**وأما** الأصل الثاني(٢)؛ وهو: دلالته على أن الفعل في نفسه حسن وقبيح؛ فكثير جدًّا. كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا فعلوا فاحشةً قَالوا وَجدْنَا عَلَيها آباءَنَا واللهُ أمَرَنا بها قُل إنَّ الله لَا يأمُرُ بالفحشاءِ أتقولون على اللهِ مَالا تَعْلمُونَ قُلْ أَمَر رَبِّي بِالْقِسط وأقيموا وجوهَكُم عِندَ كُلِّ مَسجدٍ وادعوهُ مُخْلصينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدأكُم تعودونَ فَريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضَّلالة إنَّهم اتخذوا الشياطين أولياء من دُونِ اللهِ، ويحسبون أنهم مهتدون يابني آدَمَ خُذُوا زينتَكُم عندَ كُلِّ مسجدٍ وكُلوا واشرَبُوا ولا تُسرفوا إنَّهُ لَا يُحِبُّ المُسْرفين قُلْ من حرَّم زينة الله التي أَخْرَجَ لعباده والطيبات من الرزق قُلْ هيَ للذين آمنُوا في الحياةِ الدُّنْيا خالصةً يومَ القيامةِ كذلك نُفصِّل الآيات لقوم يعلمون قل إنَّما حرَّم ربي الفواحِشَ ماظهرَ منها ومابطَنَ والإثمَ والبغيَ بغيرِ الحقِّ وأن تُشركوا باللهِ مالم ينزلْ به سُلطانًا وأن تَقُولُوا على اللهِ مالا تَعْلَمُون**﴾ [الأعراف: ٢٨ ـ ٣٣].

فأخبر سبحانه أن فعلهم فاحشة قبل نهيه عنه، وأمر باجتنابه بأخذ الزينة، و «الفاحشة» هـٰهنا هي طوافهم بالبيت عُراة ـ الرجال والنساء ـ غير قريش.

ثم قال تعالى: ﴿**إن الله لَايأمُرُ بالفَحْشَاءِ**﴾ [الأعراف: ٢٨] أي: لا يأمر بما هو فاحشة في العقول والفطر، ولو كان إنما عُلم كونه فاحشة بالنهي، وأنه لامعنى لكونه فاحشة إلا تعلق النهي به؛ لصار معنى الكلام: إن الله لايأمر بما ينهى عنه. وهذا يصان عن التكلم به آحاد العقلاء، فضلاً عن كلام العزيز الحكيم.

وأي فائدة في قوله: «إن الله لايأمر بما ينهى عنه»؟ فإنه ليس لمعنى كونه: «فاحشة» عندهم إلا أنه منهيٌّ عنه، لا أن العقول تستفحشه.

---

(١) ٢٣٣ مدارج جـ١.

(٢) تقدم الأصل الأول في سورة الأنعام على قوله تعالى: ﴿يامعشر الجن والإنس﴾. (ج).

ثم قال تعالى: ﴿**قل أمر ربي بالقسط**﴾ والقسط عندهم: هو المأمور به، لا أنه قِسْط في نفسه. فحقيقة الكلام: قل أمر ربي بما أمر به. ثم قال: ﴿**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾ دل على أنه طيب قبل التحريم، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريمه مناف للحكمة. ثم قال: ﴿**قُلْ إنَّما حرَّم رَبي الفَواحِشَ ماظَهَر منها ومابطَنَ**﴾ ولو كان كونها فواحش إنما هو لتعلق التحريم بها، وليست فواحش قبل ذلك؛ لكان حاصل الكلام: قل إنَّما حرَّم ربي ماحرم، وكذلك تحريم الإثم والبغي، فكون ذلك فاحشة وإثمًا وبغيًا بمنزلة كون الشرك شركًا، فهو شرك في نفسه قبل النهي وبعده.

فمن قال: إن الفاحشة والقبائح والآثام إنما صارت كذلك بعد النهي، فهو بمنزلة من يقول: الشرك إنما صار شركاً بعد النهي، وليس شركًا قبل ذلك.

ومعلوم أن هذا وهذا مكابرة صريحة للعقل والفطرة، فالظلم ظلم في نفسه قبل النهي وبعده، والقبيح قبيح في نفسه قبل النهي وبعده، والفاحشة كذلك، وكذلك الشرك، لا أن هذه الحقائق صارت بالشرع كذلك.

نعم الشارع كساها بنهيه عنها قبحًا إلى قبحها، فكان قبحها من ذاتها، وازدادت قبحًا عند العقل بنهى الرب تعالى عنها، وذَمَّه لها، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها. كما أن العدل والصدق والتوحيد، ومقابلة نعم المنعم بالثناء والشكر؛ حسن في نفسه، وازداد حسنًا إلى حسنه بأمر الرب به، وثنائه على فاعله، وإخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله. **بل** من أعلام نبوة محمد ﷺ؛ أنه: يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويُحِلُّ لهم الطيبات، ويُحرِّم عليهم الخبائث.

فلو كان كونه معروفًا ومنكرًا وخبيثًا وطيبًا إنما هو لتعلق الأمر والنهي والحل والتحريم به؛ لكان بمنزلة أن يقال: يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه، ويحل لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم مايحرم عليهم وأي فائدة في هذا؟! وأي عَلَم يبقى فيه لنبوته؟ وكلام الله يصان عن ذلك، وأن يُظَن به ذلك، وإنما المدح والثناء والعَلَم الدال على نبوته: أن مايأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنهُ وكونه معروفًا، ومانيهىٰ عنه تشهد قبحه وكونه منكرًا، ومايحله تشهد كونه طيبًا ومايحرمه تشهد كونه خبيثا.

وهذه دعوة جميع الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين، والكذابين والسحرة، فإنهم يدعون إلى مايوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغي وإثم وظلم.

ولهذا قيل لبعض الأعراب ـ وقد أسلم، لما عرف دعوته، ﷺ ـ: عن أي شيء أسلمت؟ ومارأيت منه مما دلك على أنه رسول الله؟ قال: «ماأمر بشيء، فقال العقل: ليته نهىٰ عنه، ولا نهىٰ عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به، ولا أحلَّ شيئًا. فقال العقل: ليته حرَّمه، ولا حرَّم شيئًا، فقال العقل: ليته أباحه».

فانظر إلى هذا الأعرابي، وصحة عقله وفطرته، وقوة إيمانه، واستدلاله على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ماحسن في العقل، وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه ولو كان جهة الحسن والقبح والطيب والخبث: مجرد تعلق الأمر والنهي والإباحة والتحريم به؛ لم يحسن منه هذا الجواب، ولكان بمنزلة أن يقول: وجدته يأمر وينهىٰ، ويبيح ويحرم، وأي دليل في هذا؟

كذلك قوله تعالى: ﴿**إنَّ الله يأمُرُ بالعدلِ والإحسان وإيتآءِ ذِي القُرْبىٰ وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي**﴾[النحل: ٩٠].

وهؤلاء يزعمون: أن الظلم في حق عباده هو المحرم والمنهي عنه، لا أن هناك في نفس الأمر ظلمًا نهى عنه، وكذلك الظلم الذي نزه نفسه عنه هو الممتنع المستحيل، لا أن هناك أمرًا ممكنًا مقدورًا لو فعله لكان ظلمًا، فليس في نفس الأمر عندهم ظلم منهي عنه ولا منزه عنه، إنما هو المحرم في حقه، والمستحيل في حقه، فالظلم المنزه عنه عندهم: هو الجمع بين النقيضين، وجعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد، ونحو ذلك.

والقرآن صريح في إبطال هذا المذهب أيضًا، قال الله تعالى: ﴿**قَال قرينُه ربنا ماأطغيْتُهُ ولكن كَان في ضَلالٍ بعيدٍ قَالَ لا تختصِمُوا لديَّ وقد قدَّمت إليكم بالوعيد مايُبدَّلُ القولُ لَدَيَّ وما أنا بظلَّام للعبيدِ**﴾ [قٓ: ٢٧ ـ ٢٩]. أي: لا أؤاخذ عبدًا بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ماعمله من صالح. ولهذا قال قبله: ﴿**وقد قدَّمت إليكم بالوعيد**﴾ المتضمن لإقامة الحجة، وبلوغ الأمر والنهي، وإذا

آخذتكم بعد التقدم؛ فلست بظالم، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدُّم إليه بأمره ونهيه، فذلك الظلم الذي تنزه الله سبحانه وتعالى عنه.

وقال تعالى: **﴿وَمَنْ يَّعْمل من الصَّالِحات وهو مُؤْمِنٌ فلا يَخَافُ ظُلْمًا ولا هَضْمًا﴾** [طه: ١١٢]. يعني: لا يُحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ماعمل، ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لايمكن وجوده؛ لم يكن لعدم الخوف منه معنى، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

وقال تعالى: **﴿مَنْ عمل صالحاً فلنفسِهِ ومَن أساء فعليها ومارُبُّكَ بِظَلَّامٍ للعبيد﴾** [فصلت: ٤٦]. أي: لا يحمل المسيء عقاب مالم يعمله، ولايمنع المحسن من ثواب عمله.

(١)**ومن** هذا قوله تعالى: **﴿وَإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءَنا والله أمرنا بها قُلْ إنّ الله لا يأمُرُ بالفحشَاءِ أتقُولُونَ على اللهِ مَالاَ تعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٢٨].

فقوله: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ دليل على أنها في نفسها فحشاء، وأن الله لايأمر بما يكون كذلك، وأنه يتعالى ويتقدَّس عنه، ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة؛ كان بمنزلة أن يقال: إن الله يأمر بما ينهى عنه. وهذا كلام يصان عنه آحاد العقلاء فكيف بكلام رب العالمين؟!

ثم أكد سبحانه هذا الإنكار بقوله: **﴿قُلْ أَمَرَ ربي بِالْقِسْطِ وَأقِيْمُوا وُجُوهَكُم عِندَ كُلِّ مسجد وادْعُوه مُخْلِصينَ لهُ الدِّين﴾** [الأعراف: ٢٩]

فأخبر أنه يتعالى عن الأمر بالفحشاء؛ بل أوامره كلها: حسنة في العقول، مقبولة في الفطر؛ فإنه أمر بالقسط لا بالجور، وبإقامة الوجوه له عند مساجده لا لغيره وبدعوته وحده مخلصين له الدين لا بالشرك، فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء، أفلا تراه كيف يخبر بحسن مايأمر به ويحسنه وينزه نفسه عن الأمر بضده، وأنه لايليق به تعالى. **﴿ومن أحسنُ دِيْنًا ممَّن أسْلَم وَجْهه لله وَهُوَ مُحسنٌ واتَّبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا واتَّخَذَ اللهُ إبراهيم خليلاً﴾** [النساء: ١٢٥].

فاحتج سبحانه على حسن دين الإسلام، وأنه لاشيء أحسن منه؛ بأنه يتضمن إسلام الوجه لله، وهو: إخلاص القصد والتوجه والعمل له سبحانه،

(١) ٩ مفتاح جـ٢.

والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن، لا مرتكب للقبح الذي يكرهه الله؛ بل هو مخلص لربه، محسن في عبادته بما يحبه ويرضاه، وهو مع ذلك متبع لملة إبراهيم في محبته لله وحده، وإخلاص الدين له وبذل النفس والمال في مرضاته ومحبته، وهذا احتجاج منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول، وتشهد به الفطر، وأنه بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال، وهذا استدلال بغير الأمر المجرد؛ بل هو دليل على أن ماكان كذلك؛ فحقيق بأن يأمر به عباده ولايرضى منهم سواه.

فصـــل (١)

والأدب هو الدين كله، فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب، حتى يقف بين يدي الله طاهرًا. ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته، للوقوف بين يدي ربه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة. فقال تعالى: ﴿**خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف: ٣١]. فعلَّق الأمر بأخذ الزينة، لا بستر العورة، إيذانًا بأن العبد ينبغي له؛ أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة.

وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال، وكان يلبسها وقت الصلاة. ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي.

ومعلوم: أن الله سبحانه وتعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، لاسيما إذا وقف بين يديه، فأحسن ماوقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهرًا وباطنًا. ومن الأدب؛ نهي النبي، ﷺ، المصلي أن يرفع بصره إلى السماء.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقًا، خافضًا طرفه إلى الأرض، ولايرفع بصره إلى فوق.

قال: والجهمية ـ لما لم يفقهوا هذا الأدب، ولا عرفوه ـ ظنوا أن هذا دليل على (٢) أن الله ليس فوق سمواته، على عرشه، كما أخبر به عن نفسه، واتفقت عليه

---

(١) ٣٨٤ مدارج جـ٢.

(٢) (على) غير موجودة بالأصل، وأثبتناها لتمام المعنى. المراجع.

رسله، وجميع أهل السنة.

قال: وهذا من جهلهم؛ بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول، ﷺ، على نقيض قولهم؛ إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض، ولا يرفع بصره إليهم، فما الظن بملك الملوك سبحانه؟

وسمعته يقول في نهيه، ﷺ، عن قراءة القرآن في الركوع والسجود: إن القرآن هو أشرف الكلام، وهو كلام الله. وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد، فمن الأدب مع كلام الله: أن لايقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولى به.

ومن الأدب مع الله: أن لايستقبل بيته ولايستدبره عند قضاء الحاجة. كما ثبت عن النبي، ﷺ، في حديث أبي أيوب، وسلمان، وأبي هريرة، وغيرهم، رضي الله عنهم.

والصحيح: أن هذا الأدب؛ يعم الفضاء والبنيان، كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

ومن الأدب مع الله، في الوقوف بين يديه في الصلاة؛ وضع اليمنى على اليسرى حال قيام القراءة، ففي الموطأ لمالك: عن سهل بن سعد: «أنه من السنة»، و«كان الناس يؤمرون به». ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء، فعظيم العظماء أحق به.

ومنها: السكون في الصلاة، وهو الدوام، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿الذيْنَ هُمْ عَلىٰ صَلاَتِهِم دائمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]، قال عبدالله بن المبارك، عن ابن لهيعة: حدَّثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ أهم الذين يصلون دائمًا؟ قال: لا. ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران: الدوام عليها، والمداومة عليها، فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْن هُمْ عَلىٰ صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُون﴾ [المعارج: ٣٤]. وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة.

وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوي، ويعظم الله تعالى، حتى لايكون في قلبه شيء أعظم منه، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه، حتى يكون أقل من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه: ظاهرًا، وباطنًا.

ولايستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته. ومعرفته بدينه وشرعه، ومايحب ومايكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق: علمًا، وعملاً، وحالاً. والله المستعان.

(١) **قوله** تعالى: ﴿**يَابَنِي آدَم خُذُوا زِينَتَكُم عند كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا وَلا تُسرِفوا إنَّه لَا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ**﴾ [الأعراف: ٣١]. جمعت أصول أحكام الشريعة كلها؛ فجمعت: الأمر، والنهي، والإباحة، والخبر.

(٢) فصل في هديه ﷺ في حفظ الصحة

لما كان اعتدال البدن وصحته وبقاؤه؛ إنما هو بواسطة الرطوبة المقاومة للحرارة، فالرطوبة؛ مادته، والحرارة؛ تنضجها، وتدفع فضلاتها، وتصلحها، وتلطفها؛ وإلا أفسدت البدن ولم يمكن قيامه.

وكذلك الرطوبة؛ هي غذاء الحرارة، فلولا الرطوبة؛ لأحرقت البدن، وأيبسته، وأفسدته. فقوام كل واحدة منهما بصاحبتها، وقوام البدن بهما جميعًا، وكل منهما مادة للأخرى. فالحرارة؛ مادة للرطوبة، تحفظها، وتمنعها من الفساد والاستحالة. والرطوبة؛ مادة للحرارة، تغذوها، وتحملها. ومتى مالت إحداهما إلى الزيادة على الأخرى؛ حصل لمزاج البدن الانحراف بحسب ذلك، فالحرارة دائمًا؛ تحلل الرطوبة؛ فيحتاج البدن إلى مابه يُخلِف عليه ماحللته الحرارة ـ لضرورة بقائه ـ وهو الطعام والشراب.

ومتى زاد على مقدار التحلل؛ ضعفت الحرارة عن تحليل فضلاته، فاستحالت مواد رديئة، فعاثت في البدن، وأفسدت، فحصلت الأمراض المتنوعة

---

(١) ٧ بدائع جـ٤. (٢) ٢٨٢ زاد المعاد جـ٣.

بحسب تنوع موادها، وقبول الأعضاء واستعدادها، وهذا كله مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، فأرشد عباده إلى إدخال مايقيم البدن من الطعام والشراب عِوَض ماتحلل منه، وأن يكون بقدر ماينتفع به البدن في الكمية والكيفية، فمتى جاوز ذلك؛ كان إسرافًا، وكلاهما: مانع من الصحة، جالب للمرض ـ أعني: عدم الأكل والشرب، أو الإسراف فيه ـ فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلـهيتين. ولا ريب أن البدن دائمًا في التحلل والاستخلاف، وكلما كثر التحلل ضعفت الحرارة لفناء مادتها، فإن كثرة التحلل؛ تفني الرطوبة، وهي مادة الحرارة؛ وإذا ضعفت الحرارة ضعف الهَضْم، ولا يزال كذلك؛ حتى تفنى الرطوبة، وتنطفيء الحرارة جملة، فيستكمل العبد الأجل الذي كتب الله له أن يصل إليه. فغاية علاج الإنسان لنفسه ولغيره؛ حراسة البدن إلى أن يصل إلى هذه الحالة، لا أنه يستلزم بقاء الحرارة والرطوبة اللتين بقاء الشباب والصحة والقوة بهما، فإن هذا مما لم يحصل لبشر في هذه الدار. وإنما غاية الطبيب: أن يحمي الرطوبة عن مفسداتها من العفونة وغيرها. ويحمي الحرارة عن مضاعفاتها. ويعدِّل بينهما بالعدل في التدبير، الذي به قام بدن الإنسان، كما أن به قامت السموات والأرض. وسائر المخلوقات إنما قوامها بالعدل.

ومن تأمَّل هدي النبي، ﷺ، وجده أفضل هدي يمكن حفظ الصحة به، فإن حفظها؛ موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب والملبس والمسكن، والهواء والنوم واليقظة، والحركة والسكون، والمنكح والاستفراغ، والاحتباس.

فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة؛ كان أقرب إلى دوام الصحة، أو غلبتها إلى انقضاء الأجل.

ولما كانت الصحة والعافية من أجلِّ نعم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر منحه، بل العافية المطلقة؛ أجل النعم على الإطلاق. فحقيق بمن رزق حظًّا من التوفيق: مراعاتها، وحفظها، وحمايتها عما يضادها.

وقد روى البخاري في صحيحه: من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله، ﷺ: **«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ»**.

وفي الترمذي وغيره: من حديث عبدالله بن محصن الأنصاري قال: قال

رسول الله، ﷺ: «**من أصبح معافىً في جسده، آمنًا في سِرْبه، عنده قُوت يومه؛ فكأنما حِيزتْ له الدنيا**».

وفي الترمذي أيضًا: من حديث أبي هريرة، عن النبي، ﷺ؛ أنه قال: «**أول مايسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم، أن يقال له: ألم نُصِحَّ لك جسمك، ونُرْوِكَ من الماء البارد؟**»، ومن ههنا؛ قال من قال من السلف في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيْمِ**﴾ [التكاثر: ٨]. قال: عن الصحة.

وفي مسند الإمام أحمد: أن النبي، ﷺ، قال للعباس: «**ياعباس، ياعمَّ رسول الله، سَلِ الله العافية في الدنيا والآخرة**».

وفيه عن أبي بكر الصديق قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتي أحد ـ بعد اليقين ـ خيراً من العافية**».

فجمع بين عافيتي الدين والدنيا. ولايتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية. فاليقين؛ يدفع عنه عقوبات الآخرة. والعافية؛ تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه. وفي سنن النسائي: من حديث أبي هريرة يرفعه: «**سلوا الله العفو والعافية والمعافاة. فما أوتي أحد ـ بعد يقين ـ خيراً**(١) **من معافاة**».

وهذه الثلاثة تتضمن إزالة الشرور الماضية بالعفو، والحاضرة بالعافية، والمستقبلة بالمعافاة، فإنها تتضمَّن المداومة والاستمرار على العافية. وفي الترمذي مرفوعًا: «**ماسُئل الله شيئًا أحبَّ إليه من العافية**». وقال عبدالرحمن بن أبي ليلى: عن أبي الدرداء، قلت: «يارسول الله، لَأنْ أُعافىَ فأشكرْ أحبُّ إليَّ من أن أُبْتَلىَ فأصبر. فقال رسول الله، ﷺ: «**ورسول الله يحب معك العافية**».

ويذكر عن ابن عباس؛ أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله، ﷺ، فقال له: ماأسأل الله بعد الصلوات الخمس؟ فقال: «**سل الله العافية**». فأعاد عليه. فقال له في الثالثة: «**سل الله العافية في الدنيا والآخرة**».

(٢) **أكمل** الناس لذة؛ من جمع له بين: لذة القلب والروح، ولذة البدن، فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لاينقص حظه من الدار الآخرة، ولايقطع عليه

---

(١) في الأصل (خير) والصواب نصبها. المراجع. (٢) ١٤٩ فوائد.

لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه، فهذا ممن قال تعالى فيه: ﴿قُلْ مَنْ حرَّم زِينة الله التي أخـرج لِعبـادِه والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هي لِلَّذِيْن آمنُوا في الحياة الدُّنيا خالصةً يوم القيامة﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأبخسهم حظًّا من اللذة؛ من تنـاولهـا على وجـه يحول بينه وبين لذات الآخرة؛ فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات: ﴿أَذهَبْتُمْ طيباتِكُم في حَياتِكُم الـدُّنيـا واستمتعتم بهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فهؤلاء تمتعوا بالطيبات، وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع: فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي أذن لهم فيه، فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة، وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة، وسواء أذن لهم فيه، أم لا فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة؛ فلا لذة الدنيا دامت لهم، ولا لذة الآخرة حصلت لهم. فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب؛ فليجعل لذة الدنيا موصلاً له إلى لذة الآخرة، بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله وإرادته وعبادته، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه، لابحكم مجرد الشهوة والهوى.

وإن كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها؛ فليجعل مانقص منها زيادة في لذة الآخرة، ويجم نفسه ههنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك.

فطيبات الـدنيا ولذاتها نعم العون؛ لمن صح طلبه لله والدار الآخرة، وكانت همه لما هناك، وبئس القاطع؛ لمن كانت هي مقصوده وهمته وحولها يدندن، وفواتها في الدنيا؛ نعم العون لطالب الله والدار الآخرة، وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة؛ فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لاينقص حظه من الآخرة، ظفر بهما جميعًا، وإلا خسرهما جميعًا.

فصل (١)

وقد حرَّم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات؛ بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إنَّما حَرَّمَ ربي الفَواحِشَ مَاظَهَرَ مِنْها وَمَابَطَنَ وَالإِثمَ وَالبَغي بِغيرِ الحقِّ وَأَنْ تُشرِكُوا باللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ

(١) ٣٨ أعلام جـ١.

بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فرتب المحرماتِ أربعَ مراتبَ، وبدأ بأسهلها؛ وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا منه؛ وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريمًا منهما؛ وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله؛ وهو القول عليه بلا علم.

وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في: أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه، وشرعه.

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولوا لِمَا تَصِفُ ألسنَتُكُم الكَذِبَ هٰذَا حَلاَلٌ وَهٰذَا حَرامٌ لِتفتروا على اللهِ الكَذِبَ إنَّ الَّذينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكذِب لاَيُفْلِحونَ مَتَاعٌ قليلٌ ولهم عذابٌ أليمٌ﴾ [النحل ١١٦، ١١٧]. فتقدَّم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال، وهذا بيان منه سبحانه؛ أنه لايجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام؛ إلا بما علم أن الله سبحانه أحَله وحرمه. . .

(١)**قوله** تعالى: ﴿قُلْ إنَّما حَرَّم رَبِّيَ الفواحِشَ ماظهر منها ومابَطن والإِثمَ والبغي بِغير الحقِّ وأن تُشْرِكُوا باللهِ مالَم يُنزِّل به سُلْطانًا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾ [الأعراف: ٣٣].

وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها لاتستحسنها العقول فتعلق التحريم بها لفحشها. فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق؛ يدل على أنه هو العلة المقتضية له.

وهذا دليل في جميع هذه الآيات التي ذكرناها؛ فدلَّ على أنه حرمها؛ لكونها فواحش، وحرم الخبيث؛ لكونه خبيثًا وأمر بالمعروف؛ لكونه معروفًا، والعلة يجب أن تغاير المعلول فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيًّا عنه، وكونه خبيثًا هو معنى كونه محرمًا؛ كانت العلة عين المعلول وهذا محال فتأمَّله.

وكذا تحريم الإثم والبغي؛ دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل التحريم.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلاَتقربُوا الزِّنىٰ إنَّه كَانَ فاحِشَةً وَسَآءَ

(١) ٧ مفتاح جـ٢.

سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]. فعلل النهي في الموضعين بكون المنهي عنه فاحشة، ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي؛ لكان تعليلاً للشيء بنفسه، ولكان بمنزلة أن يقال: لا تقربوا الزنىٰ فإنه يقول لكم: لا تقربوه أو فإنه منهي عنه وهذا محال من وجهين. **أحدهما**: أنه يتضمَّن إخلاء الكلام من الفائدة، والثاني: أنه تعليل للنهي بالنهي.

فصــــل (١)

وأما القول على الله بلا علم؛ فهو أشد هذه المحرمات تحريمًا، وأعظمها إثمًا؛ ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان، ولاتباح بحال؛ بل لاتكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير، الذي يباح في حال دون حال. فإن المحرمات نوعان: محرَّم لذاته لايباح بحال، ومحرَّم تحريمًا عارضًا في وقت دون وقت. قال الله تعالى في المحرَّم لذاته: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[الأعراف:٣٣]. ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾. ثم انتقل منه إلى ماهو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ به سُلْطَانًا﴾. ثم انتقل منه إلى ماهو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُوْنَ﴾ فهذا أعظم المحرَّمات عند الله وأشدها إثمًا. فإنه يتضمن: الكذب على الله، ونسبته إلى مالا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ماأثبته وإثبات مانفاه، وتحقيق ماأبطله وإبطال ماحققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ماأبغضه وبغض ماأحبه، ووصفه بما لايليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثمًا، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات. فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم.

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذَّروا فتنتَهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك مالم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش،

(١) ٣٧٢ مدارج جـ١.

والظلم والعدوان؛ إذ مَضَرَّة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له؛ أشد.

وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده، بلا برهان من الله. فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلسنتكم الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ الآية [النحل: ١١٦]. فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه وتعالى ما لم يصف به نفسه؟ أو نفى عنه منها ماوصف به نفسه؟

قال بعض السلف: لِيَحْذَرْ أحدكم أن يقول: أحلَّ الله كذا. وحرَّم الله كذا. فيقولَ الله: كذبتَ. لم أُحِلَّ هذا، ولم أُحَرِّم هذا.

يعني التحليل والتحريم بالرأي المجرد، بلا برهان من الله ورسوله.

وأصل الشرك والكفر؛ هو القول على الله بلا علم. فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودًا من دون الله: يقرّبه إلى الله، ويشفع له عنده، ويقضي حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك. فكل مشرك قائل على الله بلا علم، دون العكس؛ إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله، فهو أعم من الشرك. والشرك فرد من أفراده.

ولهذا كان الكذب على رسول الله، ﷺ، موجبًا لدخول النار. . .

. . . (١)**الفائدة** الحادية عشرة: إذا نزلت بالحاكم أو المفتي النازلة:

فإما أن يكون: عالمًا بالحق فيها، أو غالبًا على ظنه؛ بحيث قد استفرغ وسعه في طلبه ومعرفته، أو لا، فإن لم يكن عالمًا بالحق فيها ولا غَلَبَ على ظنه؛ لم يحل له أن يفتي، ولا يقضي بما لا يعلم، ومتى أقدم على ذلك؛ فقد تعرَّض لعقوبة الله.

ودخل تحت قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما حرَّم رَبيَ الفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإِثْمَ والْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا باللهِ مالم يُنَزِّلْ به سُلطانًا وَأَنْ تَقُولُوا على اللهِ مالا تَعْلَمُون﴾ [الأعراف: ٣٣].

فجعل القول عليه بلا علم أعظم المحرمات الأربع التي لا تباح بحال؛ ولهذا حصر التحريم فيها بصيغة الحصر. ودخل تحت قوله تعالى: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنَّهُ لكم عَدُوٌّ مبينٌ إنما يأمُرُكُم بالسُّوءِ والفحشاءِ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ [البقرة: ١٦٨ - ١٦٩].

---

(١) ١٧٣ أعلام جـ٤.

ودخل في قول النبي ، ﷺ : «**من أفتى بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه**». وكان أحد القضاة الثلاثة الذين ثلثاهم في النار.

وإن كان قد عَرَف الحق في المسألة : علمًا ، أو ظنًا غالبًا ؛ لم يحل له أن يفتي ولايقضي بغيره بالإجماع المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، وهو أحد القضاة الثلاثة والمفتين الثلاثة والشهود الثلاثة . وإذا كان مَنْ أفتى أو حكم أو شهد بغير علم مرتكبًا لأعظم الكبائر ، فكيف من أفتى أو حكم أو شهد بما يعلم خلافه؟

فالحاكم والمفتي والشاهد كل منهم مخبر عن حكم الله ؛ فالحاكم مخبر منفذ ، والمفتي مخبر غير منفذ ، والشاهد مخبر عن الحكم الكوني القدري المطابق للحكم الديني الأمري ؛ فمن أخبر منهم عما يعلم خلافه ؛ فهو كاذب على الله عمدًا : ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِيْنَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ**﴾ [الزمر: ٦٠].

ولا أظلم ممن كذب على الله وعلى دينه ، وإن أخبروا بما لم يعلموا ؛ فقد كذبوا على الله جهلاً ، وإن أصابوا في الباطن ، وأخبروا بما لم يأذن الله لهم في الإخبار به ، وهم أسْوَأ حالاً من القاذف إذا رأى الفاحشة وَحْده فأخبر بها ؛ فإنه كاذب عند الله وإن أخبر بالواقع ؛ فإن الله لم يأذن له في الإخبار بها ؛ إلا إذا كان رابع أربعة ، فإن كان كاذبًا عند الله في خبرٍ مطابقٍ لمخبره حيث لم يأذن له في الإخبار به ؛ فكيف بمن أخبر عن حكمه بما لم يعلم أن الله حكم به ولم يأذن له في الإخبار به؟

قال الله تعالى : ﴿**ولا تقولوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هذا حَلالٌ وهذا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الكَذِب إنَّ الذيْنَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لَايُفْلِحُوْنَ مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ**﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧]. وقال تعالى : ﴿**فَمَن أَظْلَمُ ممن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إذْ جَاءَهُ**﴾ [الزمر: ٣٢]. والكذب على الله يستلزم التكذيب بالحق والصدق. وقال تعالى : ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا، أولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيقُولُ الأشهادُ هؤلآءِ الَّذين كذبوا على ربهم ألا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ**﴾ [هود: ١٨].

وهؤلاء الآيات وإن كانت في حق المشركين والكفار؛ فإنها متناولة لمن كذب على الله في توحيده ودينه وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ولا تتناول المخطيء المأجور إذا

بذل جهده، واستفرغ وُسْعَهُ في إصابة حكم الله وشرعه، فإن هذا هو الذي فرضه الله عليه، فلا يتناول المطيع لله وإن أخطأ، وبالله التوفيق.

الفائدة الثانية عشرة: حكم الله ورسوله يظهر على أربعة ألسِنَة: لسان الراوي، ولسان المفتي، ولسان الحاكم، ولسان الشاهد.

فالراوي يظهر على لسانه لفظ حكم الله ورسوله. والمفتي يظهر على لسانه معناه وماستنبطه من لفظه. والحاكم يظهر على لسانه الإخبار بحكم الله وتنفيذه. والشاهد يظهر على لسانه الإخبار بالسبب الذي يُثْبِت حكم الشارع.

والواجب على هؤلاء الأربعة أن يخبروا بالصدق المستند إلى العلم، فيكونوا عالمين بما يخبرون به، صادقين في الإخبار به، وآفة أحدهم الكذب والكتمان، فمتىٰ كتم الحق أو كذب فيه؛ فقد حادّ الله في شرعه ودينه، وقد أجرى الله سنته أن يَمْحق عليه بركةعلمه ودينه ودنياه إذا فعل ذلك.

كما أجرى عادته سبحانه في المتبايعين إذا كَتَما وكذبا؛ أن يمحق بركة بيعهما، ومن التزم الصدقَ والبيان منهم في مرتبته؛ بورك له في علمه ووقته ودينه ودنياه، وكان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا، فبالكتمان يعزل الحق عن سلطانه، وبالكذب يقلبه عن وجهه، والجزاء من جنس العمل، فجزاء أحدهم أن يعزله الله عن سلطان المهابة والكرامة والمحبة والتعظيم، الذي يلبسه أهل الصدق والبيان، ويلبسه ثوب الهوان والمَقْت والخِزْي بين عباده، فإذا كان يوم القيامة جازىٰ الله سبحانه مَنْ يشاء من الكاذبين الكاتمين بطَمْس الوجوه ورَدِّها على أدبارها، كما طَمَسُوا وجه الحق وقلبوه عن وجهه؛ جزاء وفاقًا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيْدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

(١)**وقال** تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَو كَذَّب بآياتِه أولَٰئك يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الكِتَابِ﴾[الأعراف: ٣٧].

قال سعيد بن جبير ومجاهد وعطية: أي ماسبق لهم في الكتاب من الشقاوة

---

(١) ٤٢ شفاء.

والسعادة، ثم قرأ عطية: ﴿فريقًا هدىٰ وفريقًا حق عليهم الضلالة﴾.

والمعنى: أن هؤلاء أدركهم ماكتب لهم من الشقاوة، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء. قال: يريد ماسبق عليهم في علمي في اللوح المحفوظ، فالكتاب على هذا القول؛ الكتاب الأول. ونصيبهم؛ ماكتب لهم من الشقاوة وأسبابها.

وقال ابن زيد والقرطبي والربيع بن أنس: ينالهم ماكتب لهم من الأرزاق والأعمال، فإذا فني نصيبهم واستكملوه؛ جاءتهم رسلنا يتوفونهم. ورجح بعضهم هذا القول؛ لمكان «حتى» التي هي للغاية. يعني: أنهم يستوفون أرزاقهم وأعمارهم إلى الموت.

ولمن نصر القول الأول أن يقول: حتى في هذا الموضع؛ هي التي تدخل على الجمل، وينصرف الكلام فيها إلى الابتداء كما في قوله:

* فياعجبا حتى كليبٌ تسبني *

والصحيح: أن نصيبهم من الكتاب يتناول الأمرين:

فهو نصيبهم من الشقاوة ونصيبهم من الأعمال التي هي أسبابها، ونصيبهم من الأعمار التي هي مدة اكتسابها، ونصيبهم من الأرزاق التي استعانوا بها على ذلك، فعمت الآية هذا النصيب كله، وذكر هؤلاء بعضه، وهؤلاء بعضه. هذا على القول الصحيح، وأن المراد: ماسبق لهم في أم الكتاب.

وقالت طائفة: المراد بالكتاب القرآن. قال الزجاج: معنى نصيبهم من الكتاب: ماأخبر الله من جزائهم: نحو قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُم نارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، وقوله: ﴿يسلكه عذابًا صعدا﴾.

قال أرباب هذا القول: وهذا هو الظاهر؛ لأنه ذكر عذابهم في القرآن في مواضع، ثم أخبر أنه ينالهم نصيبهم منه.

والصحيح: القول الأول، وهو: نصيبهم الذي كتب لهم أن ينالوه قبل أن يخلقوا، ولهذا القول وجه حسن وهو: أن نصيب المؤمنين منه الرحمة والسعادة، ونصيب هؤلاء منه العذاب والشقاء: فنصيب كل فريق منه ماختاروه لأنفسهم وآثروه على غيره، كما أن حظَّ المؤمنين منه كان الهدى والرحمة، فحظ هؤلاء منه

الضلال والخيبة، فكان حظهم من هذه النعمة أن صارت نقمة وحسرة عليهم.

وقريب من هذا قوله: ﴿**وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون**﴾ أي: تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به. . . .

قال الحسن: تجعلون حظَّكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، قال: وخسر عبد لايكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به.

(١)**قال** تعالى: ﴿**فَمَن أظْلَمُ مِمَّن افْترىٰ على اللهِ كذِبًا أو كَذَّبَ بآياته أولَٰئك ينـالهم نَصيبهم من الكتاب حتى إذَا جَآءَتهم رُسُلُنَا يَتَوَفَّونَهُم قَالُوا أيْنَ مَاكُنْتم تَدعون من دُونِ الله قالوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلىٰ أنْفُسِهم أنَّهُم كانوا كَافِرِيْن قَالَ ادخلُوا في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِكُم مِّن الجِنّ والإِنْسِ في النَّار كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُختهَا حَتى إذا ادَّارَكُوا فِيْها جَمِيْعًا قَالَتْ أُخْراهم لأُولاهُم رَبَّنا هٰؤُلآءِ أضلُّونا فآتِهم عَذابًـا ضِعْفًـا من النَّارِ قَالَ لكل ضعفٌ ولكن لاتعلمُون وقَالَتْ أولاهم لأخـراهم فَما كانَ لكُمْ عَلَيْنـا من فضـلٍ فَذُوقُـوا العَذَابَ بِما كُنْتُم تَكْسِبُوْنَ**﴾ [الأعراف: ٣٧ ـ ٣٩]. فليتـدبـر العـاقل هذه الآيات وماشتملت عليه من العبر، وقوله: ﴿**افترىٰ على الله كذبًا أو كذب بآياته**﴾، ذكر الصنفين المبطلين.

أحدهما: منشيء الباطل والفرية، وواضعها، وداعي الناس إليها.

والثاني: مكذب بالحق. فالأول كفره بالافتراء وإنشاء الباطل. والثاني كفره بجحود الحق. وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل. فإن انضاف إلى ذلك دعوته إلى باطله وصد الناس عن الحق؛ استحق تضعيف العذاب لتضاعف كفره وشره؛ ولهذا قال الله تعالى: (٢) ﴿**الَّذِيْنَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سبيلِ اللهِ زِدْنَاهُم عَذابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِما كَانُوا يُفْسِدُونَ**﴾ [النحل: ٨٨]، فلما كفروا وصدُّوا عباده عن سبيله؛ عذبَّهم عذابين: عذابًا بكفرهم، وعذابًا بصدِّهم عن سبيله. وحيث يذكر الكفر المجرد لايعدد العذاب كقوله: ﴿**والكَافِرُونَ لَهُم عَذَابٌ شَدِيْدٌ**﴾(٣) [الشورى: ٢٦] وقوله: ﴿**أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب**﴾ يعني: ينالهم ماكتب لهم في الدنيا

---

(١) ٣٦ الرسالة التبوكية. (٢) في المطبوعة هكذا ﴿إن الذين . .﴾ والصواب حذف [إن]. المراجع.

(٣) في المطبوعة ﴿عذاب أليم﴾ والصواب ماأثبتناه. المراجع.

من الحياة والرزق وغير ذلك: ﴿حَتَّى إِذَا جَآءَتْهُم رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُم قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُم تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أين ما كنتم توالون فيه وتعادون فيه وترجونه وتخافونه من دون الله ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ زالوا وفارقوا، وبطلت تلك الدعوة: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِم أَنَّهُم كانُوا كافِرِيْنَ قَال ادْخُلوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُم مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ ادخلوا في جملة هذه الأمم: ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعًا قالت أخراهم لأولاهم﴾ كل أمة متأخرة لأسلافها ﴿ربنا هؤلاء أضلُّونا فآتهم عذابًا ضعفًا من النار﴾ ضاعفه عليهم بما أضلونا وصدُّونا عن طاعة رسلك، ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿لكل ضعف﴾ من الأتباع والمتبوعين بحسب ضلاله وكفره: ﴿ولكن لاتعلمون﴾ لاتعلم كل طائفة بما فيه أختها من العذاب المضاعف ﴿وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل﴾ فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل، وبينوا لكم الحق، وحذروكم من ضلالنا، ونهوكم عن اتِّباعنا وتقليدنا، فأبيتم إلا اتباعنا وتقليدنا وترك الحق الذي أتتكم به الرسل، فأي فضل كان لكم علينا، وقد ضللتم كما ضللنا، وتركتم الحق كما تركنا، فضللتم أنتم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين؟ فأي فضل كان لكم علينا؟ ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ فلله ماأشفاها من موعظ! وماأبلغها من نصيحة! لو صادفت من القلوب حياة، فإن هذه الآية وأمثالها مما يذكر قلوب السائرين إلى الله، وأما أهل البطالة فليس عنده‍م من ذلك خبر.

(١)**الطبقة** السابعة عشرة: طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعًا لهم يقولون: إنَّا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على أسوة بهم؛ ومع هذا فهم متاركون لأهل الإسلام غير محاربين لهم، كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أولئك أنفسهم من السعي في إطفاء نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم بمنزلة الدواب.

وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار؛ وإن كانوا جهالًا مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلا مايحكى عن بعض أهل البدع؛ أنه لم يحكم لهؤلاء بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة

(١) ٤١١ طريق الهجرتين.

المسلمين: لا الصحابة، ولا التابعين، ولا من بعدهم؛ وإنما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث في الإسلام.

وقد صحّ عن النبي، أنه قال: «**ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»، فأخبر أن أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية، ولم يعتبر في ذلك غير المربى والمنشأ على ماعليه الأبوان.

وصح عنه أنه قال، ﷺ: «**إن الجنة لايدخلها إلا نفس مسلمة**»، وهذا المقلد ليس بمسلم، وهو عاقل مكلف، والعاقل المكلف لايخرج عن الإسلام أو الكفر، وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف في تلك الحال، وهو بمنزلة الأطفال والمجانين. وقد تقدَّم الكلام عليهم.

والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرًا معاندًا فهو كافر جاهل، فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهّال غير معاندين، وعدم عنادهم لايخرجهم عن كونهم كفّارًا، فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله: إما عنادًا، أو جهلاً وتقليدًا لأهل العناد، فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند؛ فهو متبع لأهل العناد.

وقد أخبر الله في القرآن في غير موضع بعذاب المقلدين لأسلافهم من الكفار، وأن الأتباع مع متبوعهم، وأنهم يتحاجون في النار، وأن الأتباع يقولون: ﴿**رَبَّنا هٰؤلآء أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذابًا ضِعْفًا مِنَ النَّار قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلٰكِنْ لاتَعْلَمُون**﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَتحاجُّونَ في النَّار فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلذينَ اسْتَكبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ قالَ الَّذِينَ استَكْبروا إِنَّـا كُلٌّ فيهـا إن الله قد حَكَمَ بَيْنَ العِبـاد**﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقـال تعـالى: ﴿**وَلَـوْ تَرَى إذ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ القَوْلَ يَقُولُ الَّذِين استضعفُوا لِلَّذين استكبروا لولا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِين قال الذين اسْتَكْبروا للذِينَ استُضْعِفُوا أَنحنُ صددناكُم عَنِ الهُدَى بعد إِذْ جاءَكُم بَلِ كُنتمْ مُجْرمِين وقال الذين استُضعِفوا لِلذِين اسْتكبروا بل مَكْرُ الليلِ والنَّهار إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ باللهِ وَنَجْعَلَ له أَنْدادًا**﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئًا. وأصرح من هذا قوله تعالى: **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبعوا وَرَأَوا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ وَقالَ الَّذين اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّءوا مِنَّا﴾** [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وصح عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه، لاينقص من أوزارهم شيئًا**» وهذا يدل على أن كفر من اتبعهم؛ إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

نعم لابد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه، والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله. وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لايتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضًا:

أحدهما: مريد للهدى، مؤثر له، محب له، غير قادر عليه ولا على طلبه؛ لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة.

الثاني: معرض لا إرادة له، ولايحدث نفسه بغير ماهو عليه.

فالأول يقول: يارب لو أعلم لك دينًا خيرًا مما أنا عليه لدنت به وتركت ماأنا عليه، ولكن لا أعرف سوى ماأنا عليه ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.

والثاني: راض بما هو عليه، لايؤثر غيره عليه ولاتطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز، وهذا لايجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق.

فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به؛ فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزاً وجهلاً.

والثاني كمن لم يطلبه؛ بل مات على شركه، وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض.

فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله،

ولايعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق، وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا؟ فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه؛ بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله سبحانه وتعالى لايعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه. هذا في أحكام الثواب والعقاب.

وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر: فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة، وهو مبني على أربعة أصول:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى لايعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿**وَماكُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿**كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا مانَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الملك: ٨، ٩]. وقال تعالى: ﴿**فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١١].

وقال تعالى: ﴿**يامَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا قَالُوا شَهِدْنا عَلَى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ**﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذّب من جاءه الرسول، وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه.

وقال تعالى: ﴿**وَما ظَلَمْناهُمْ وَلٰكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ**﴾ [الزخرف: ٧٦].

والظالم من عرف ماجاء به الرسول أو تمكّن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ماجاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم؟

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين:

أحدهما: الإعراض عن الحجة، وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها.

الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها. فالأول كفر إعراض،

والثاني كفر عناد، وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لايفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له. فهذا بمنزلة الأصم الذي لايسمع شيئًا ولايتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما.

الأصل الرابع: أن أفعال الله سبحانه وتعالى تابعة لحكمته التي لايخل بها، وأنها مقصودة لغايتها المحمودة وعواقبها الحميدة، وهذا الأصل هو أساس الكلام في هذه الطبقات، إلا من عرف مافي كتب الناس ووقف على أقوال الطوائف في هذا الباب، وانتهى إلى غاية مراتبهم ونهاية إقدامهم، والله الموفق للسداد الهادي إلى الرشاد.

وأما من لم يثبت حكمة ولا تعليلاً، ورد الأمر إلى محض المشيئة التي ترجح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح، فقد أراح نفسه من هذا المقام الضنك، واقتحام عقبات هذه المسائل العظيمة، وأدخلها كلها تحت قوله: ﴿**لايُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُم يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وهو الفعال لما يريد، وصدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿**لا يسأل عما يفعل**﴾ لكمال حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها، وأنه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد يسأل عنه كما يسأل المخلوق، وهو الفعال لما يريد ولكن، لايريد أن يفعل إلا ماهو خير ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يفعل الشر ولا الفساد ولا الجور ولا خلاف مقتضى حكمته؛ لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآياتِنا واسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاتُفَتَّحُ لَهُم أَبْوابُ السَّمَآءِ**﴾ [الأعراف: ٤٥]، وهذا دليل على أن المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء، وهذا

---

(١) ٢٣٥ الروح.

التفتيح هو تفتيحها لأرواحهم عند الموت كما تقدَّم في الأحاديث المستفيضة: أن السماء تفتح لروح المؤمنين حتى يُنتهى بها إلى بين يدي الرب تعالى. وأما الكافر فلا تفتح لروحه أبواب السماء ولاتفتح لجسده أبواب الجنة.

(١) **روى** مسلم في صحيحه. من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة: عن النبي، ﷺ، قال: «**ينادي منادٍ أن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وأن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وأن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا**» وذلك قول الله عز وجل: ﴿**وَنودوا أن تِلْكُمُ الجَنَّة أُورِثْتُمُوْهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ الأعراف: ٤٣].

قال عثمان بن أبي شيبة: حدَّثنا يحيى بن آدم: حدثنا حمزة الزيات، عن أبي إسحاق، عن الأغر، عن أبي هريرة وأبي سعيد، عن النبي، ﷺ: ﴿**ونُودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ قال: «**نودوا أن صحوا فلا تسقموا أبدًا واخلدوا فلا تموتوا أبدًا، وأنعموا فلا تبأسوا أبدًا**».

...(٢) **وأحسن** مايقع هذا الاعتراض إذا تضمَّن تأكيداً أو تنبيهًا أو احترازًا، كقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِين آمنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَانُكَلفُ نَفْسًا إلَّا وُسعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُم فِيْها خَالِدُوْنَ**﴾ [الأعراف: ٤٢]. فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿**لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا**﴾ لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم: أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿**لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسعَهَا**﴾ وهذا أحسن من قول من قال: إنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر. فهما خبران عن مخبر واحد، **فإن** عدم التكليف فوق الوسع لايخص الذين آمنوا؛ بل هو حكم شامل لجميع الخلق، مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة محذوفة أي نفسًا منهم، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة.

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى: ﴿**وَيَجْعَلُوْنَ لله الْبَنَاتِ سُبْحَانه وَلَهُم مَّايَشْتَهُون**﴾ [النحل: ٥٧]، فاعترض بقوله: ﴿**سبحانه**﴾ بين الجعلين، وفوائد

---

(١) ١٦٥ الروح. (٢) ١٣٨ تبيان.

الاعـتراض تختلف بحسب قصـد المتكلم وسياق الكـلام، ومن قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد، وتعظيم المقسم به والمخبر به والمخبر عنه، ورفع توهم خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدَّر وغير ذلك.

فمن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر:

لو أن البـاخلين ـ وأنت منهم ـ رأوك تعـلمـوا منـك المـطالا

ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر:

فلا هجـره يبدو ـ وفي اليأس راحة ـ ولا وصـله يصفـو لنـا فنكـارمـه

فقوله: وفي اليأس راحة؛ جواب لتقدير سؤال سائل ومايغني عنك هجره؟ فقال: وفي اليأس راحة، أي المطلوب أحد أمرين: إما يأس مريح، أو وصال صاف.

ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي:

ألا زعـمـت بنـو جعـد بأني ـ وقـد كذبـوا ـ كبير السن فاني

ومنه قول نصيب:

فكدت ـ ولم أخلق من الطير ـ إن بدا سنـا بارق نحـو الحجـاز أطـير

فقوله: ولم أخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار، لو قال: فكدت أطير، فيقال له: وهل خلقت من الطير، فاحترز بهذا الاعتراض، وعندي أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا، وهو قوة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز، فأخبر أنه كاد يطير على أنه أبعد شيء من الطيران، فإنه لم يخلق من الطير، ولا عجب طيران من خلق من الطير، وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير، لشدة نزوعه وشوقه إلى جهة محبوبه فتأمَّله.

ومن مواقع الاعتراض: الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر:

قد كنـت أبـكـي وأنـت راضية حذار هذا صدود والـغـضـب

إن تم ذا الهـجـر ياظلوم ـ ولا تم ـ فما لي في العيش من أرب

(١)**المـرتبـة** الـرابعـة الهـداية في الآخـرة إلى طريق الجنـة والنـار. قال

---

(١) ٨٥ مفتاح جـ١.

تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا الَّذِيْنَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُم وَمَاكَانُوا يَعبُدونَ مِنْ دُونِ الله فاهْدُوهم إلى صِرَاطِ الجَحِيْمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وأما قول أهل الجنة: ﴿الحَمْد لله الَّذِي هَدَانا لِهَذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتدي لَوْلاَ أَنْ هَدانَا الله﴾ [الأعراف: ٤٣] فيحتمل: أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم، ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وأنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة؛ كان أحسن وأبلغ.

. . .[1]**الصنف** الثاني: القدرية النفاة، الذين يثبتون نوعًا من الحكمة، والتعليل، ولكن لايقوم بالرب، ولايرجع إليه؛ بل يرجع إلى مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته. فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضًا كقوله: ﴿ونُودوا أنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أورِثْتُمُوهَا بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله: ﴿ادْخلوا الجنَّة بما كُنْتُم تَعْمَلُون﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله: ﴿هل تجزون إلا ماكنتم تعملون﴾ [النمل: ٩٠]. وقوله، ﷺ، فيما يحكي عن ربه عز وجل: «**ياعبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها**». وقوله تعالى: ﴿إنَّما يُوفَّى الصَّابِرُوْن أجرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَاب﴾ [الزمر: ١٠]. قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاءً وأجرًا وثوابًا؛ لأنه يثوب إلى العامل من عمله، أي يرجع إليه منه. قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل؛ لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجرًا ولا ثوابًا معنى.

قالوا: ويدل عليه الوزن. فلولا تعلُّق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للوزن معنى، وقد قال تعالى: ﴿والْوَزْنُ يومَئِذٍ الحقُّ فمن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ومَنْ خفَّتْ مَوازِيْنُه فَأُولَئِكَ الَّذِيْنَ خَسِرُوا أنْفُسَهُم بما كَانوا بِآياتنا يَظْلمون﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل، وبينهما أعظم التباين.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء ألبتة، وجوزت أن يعذب الله من

---

(١) ٩٢ مدارج جـ١.

أفنى عمره في طاعته، وينعم من أفنى عمره في معصيته، وكلاهما بالنسبة إليه سواء. وجوزت أن يرفع صاحبَ العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً، وأكثر وأفضل درجات، والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب، وهذا بالعقاب.

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنًا لها، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله، ماأجهلهم بالله وأغرَّهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة العبد على العبد، حتى قالوا: إن إعطاءه مايعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له؛ من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة، ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء ألبتة.

والطائفتان جائرتان، منحرفتان عن الصراط المستقيم، الذي فطر الله عليه عباده، وجاءت به الرسل، ونزلت به الكتب. وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب، مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها.

وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنِّه، وصدقته على عبده، إن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحَبَّبها إليه، وزَيَّنها في قلبه وكرَّه إليه أضدادها. ومع هذا فليست ثمنًا لجزائه وثوابه، ولا هي على قدره، بل غايتها ـ إذا بذل العبد فيها نُصْحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه ـ أن تقع شكرًا له على بعض نعمه عليه، فلو طالبه بحقه لبقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها؛ فلذلك لو عَذَّبَ أهل سمواته وأهل أرضه؛ لعذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم؛ لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم. كما ثبت ذلك عن النبي، ﷺ.

ولهذا نفى النبي، ﷺ، دخول الجنة بالعمل، كما قال: «**لن يدخل أحدًا منكم الجنة عملُه**». وفي لفظ: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**». وفي لفظ: «**لن ينجي أحدًا منكم عمله**» قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**».

و أثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما في قوله: ﴿**ادْخُلوا الجَنَّة بما كُنتم تَعْمَلون**﴾ [النحل: ٣٢] ولاتنافي بينهما. إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد، فالمنفيُّ استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمنًا وعوضًا لها، ردًّا على القدرية المجوسية، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله، وأغلظهم عنه حجابًا، وحُقَّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة، ويكفي في جهلهم بالله: أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه في مِنَّته، وأن من تمام الفرح والسرور، والغبطة واللذة: اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة. وأعظمهم منه منزلة، وأقربهم إليه: أعرفهم بهذه المنة، وأعظمهم إقرارًا بها، وذكرًا لها، وشكرًا عليها، ومحبة له لأجلها. فهل يتقلَّب أحد قط إلا في منته؟ ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَن أَسْلَمُوا، قُلْ لاَتَمُنُّوا عليَّ إسْلامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم أَنْ هَدَاكُم لِلإيْمانِ إنْ كُنْتم صَادِقِيْن**﴾ [الحجرات: ١٧].

واحتمال مِنة المخلوق؛ إنما كانت نقصًا لأنه نظيره، فإذا مَنَّ عليه استعلَى عليه، ورأى الممنونُ عليه نفسه دونه، هذا مع أنه ليس في كل مخلوق، فلرسول الله، ﷺ، المنة على أمته، وكان أصحابه يقولون: «الله ورسوله أَمَنُّ» ولا نقص في منة الوالد على ولده، ولا عار عليه في احتمالها، وكذلك السيد على عبده.

فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلَّب الخلائق في بحر منته عليهم، ومحض صدقته عليهم، بلا عوض منهم ألبتة؟ وإن كانت أعمالهم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده، فهو المنان عليهم؛ بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها، وأعانهم عليها، وكملها لهم، وقبلها منهم على مافيها؟ وهذا هو المعنىٰ الذي أثبت به دخول الجنة في قوله: ﴿**بما كنتم تعملون**﴾. فهذه باء السببية، ردًّا على القدرية والجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء، ولا هي أسباب له، وإنما غايتها أن تكون أمارات.

قالوا: وليست أيضًا مطردة، لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر، فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشيئة.

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء، كما هي مبطلة لقول أولئك، وأدلة المعقول

والفطرة أيضًا تبطل قول الفريقين. وتبينّ لمن له قلب ولب؛ مقدار قول أهل السنة، وهم الفرقة الوسط، المثبتون لعموم مشيئة الله، وقدرته، وخلقه العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعًا وقدرًا، وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً، وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعاً من الحق، وارتكبت لأجله نوعاً من الباطل؛ بل أنواعًا، وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١)**الطبقة** الثانية عشرة: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فتقابل أثراهما فتقاوما، فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار، وسيئاتهم المساوية من دخول الجنة. **فهؤلاء** هم أهل الأعراف، لم يفضل لأحدهم حسنة يستحق بها الرحمة من ربه، ولم يفضل عليه سيئة يستحق بها العذاب.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى أهل هذه الطبقة في سورة الأعراف ـ بعد أن ذكر دخول أهل النار وتلاعنهم فيها، ومخاطبة أتباعهم لرؤسائهم وردهم عليهم، ثم مناداة أهل الجنة أهل النار ـ فقال تعالى: **﴿وبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الأَعْرافِ رجالٌ يعرفون كُلًّا بسيماهُمْ ونادَوْا أَصْحاب الجنَّةِ أَنْ سلامٌ عليكم لم يدخلُوها وهم يطمعون وإذا صُرِفَتْ أبصارُهُم تلقاء أصحابِ النار قالُوا رَبَّنا لاتجْعلنا مع القوم الظالمين﴾** [الأعراف: ٤٦، ٤٧]. فقوله تعالى: **﴿وَبَيْنَهُما حِجابٌ﴾** أي: بين أهل الجنة والنار حجاب.

قيل: هو السور الذي يضرب بينهم، له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب: باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي الكفار من جهتهم العذاب، والأعراف جمع عرف وهو المكان المرتفع، وهو سور عال بين الجنة والنار عليه أهل الأعراف.

قال حذيفة وعبدالله بن عباس: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك

---

(١) ٣٨١ طريق الهجرتين.

حتى يقضي الله فيهم مايشاء، ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته.

قال عبدالله بن المبارك: أخبرنا أبو بكر الهذلي قال: كان سعيد بن جبير يحدِّث عن ابن مسعود قال: يحاسب الله الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة؛ دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر بواحدة؛ دخل النار، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازينُه فأُولـئِكَ هُمُ المُفْلِحون ومَنْ خَفَّت موازينُهُ فأُولـئِـكَ الَّـذِين خَسِرُوا أَنْفُسهم**﴾ [الأعراف: ٨، ٩]. ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح. قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: ﴿**سلام عليكم**﴾، وإذا صرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار قالوا: ﴿**رَبَّنا لاتَجْعَلنا مع القوم الظَّالمين**﴾ [الأعراف: ٤٧]، فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورًا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نورًا، فإذا أتوا على الصراط سلب الله تعالى نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿**رَبَّنا أَتْمِم لَنا نُورَنا**﴾ [التحريم: ٨].

وأما أصحاب الأعراف فإن النور لم ينزع من أيديهم، فيقول الله: ﴿**لَمْ يدخلُوها وهم يَطْمعون**﴾ [الأعراف: ٤٦] فكان الطمع للنور الذي في أيديهم، ثم أدخلوا الجنة وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً. يريد آخر أهل الجنة دخولاً ممن لم يدخل النار. **وقيل**: هم قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم فقتلوا، فأعتقوا من النار لقتلهم في سبيل الله، وحبسوا عن الجنة لمعصية آبائهم، وهذا من جنس القول الأول. **وقيل** هم قوم رضي عنهم أحد الأبوين دون الآخر، يحبسون على الأعراف حتى يقضي الله بين الناس ثم يدخلهم الجنة. وهي من جنس ماقبله فلا تناقض بينهما. **وقيل**: هم أصحاب الفترة وأطفال المشركين.

وقيل: هم أولو الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف، فيطلعون على أهل النار وأهل الجنة جميعًا.

وقيل: هم الملائكة لا من بني آدم. والثابت عن الصحابة هو القول الأول.

وقد رويت فيه آثار كثيرة مرفوعة لا تكاد تثبت أسانيدها، وآثار الصحابة في ذلك؛ المعتمدة. وقد اختلف في تفسير الصحابي هل له حكم المرفوع، أو الموقوف؟ على قولين: الأول: اختيار أبي عبدالله الحاكم، والثاني هو الصواب، ولا نقول على رسول الله، ﷺ، ما لم نعلم أنه قاله.

وقوله تعالى: ﴿**وعلى الأعراف رجال**﴾ صريح في أنهم من بني آدم، ليسوا من الملائكة. وقوله تعالى: ﴿**يعرفون كُلًّا بسيماهُمْ**﴾ يعني: يعرفون الفريقين بسيماهم. ﴿**ونَادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكُمْ**﴾ أي: نادى أهل الأعراف أهل الجنة بالسلام، وقوله تعالى: ﴿**لم يَدْخُلوها وهُمْ يَطْمَعون**﴾ الضميران في الجملتين لأصحاب الأعراف، لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها، قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريدها بهم.

وقال الحسن: الذي جمع الطمع في قلوبهم يوصلهم إلى مايطمعون، وفي هذا رد على قول من قال: إنهم أفاضل المؤمنين علوا على الأعراف يطالعون أحوال الفريقين، فعاد الصواب إلى تفسير الصحابة، وهم أعلم الأمة بكتاب الله ومراده منه.

ثم قال تعالى: ﴿**وإذا صُرِفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا رَبَّنا لا تَجْعلنا مع القوم الظالمين**﴾ هذا دليل على أنه بمكان مرتفع بين الجنة والنار، فإذا أشرفوا على أهل الجنة؛ نادوهم بالسلام، وطمعوا في الدخول إليها. وإذا أشرفوا على أهل النار؛ سألوا الله أن لايجعلهم معهم. ثم قال تعالى: ﴿**ونادىٰ أصحابُ الأعرافِ رجالاً يعرفونَهُم بِسِيماهُم**﴾ يعني من الكفار الذين في النار، فقالوا لهم: ﴿**ماأَغْنَىٰ عَنكُم جَمْعُكم وما كُنْتُمْ تَستكبِرون**﴾ [الأعراف: ٤٨]. يعني مانفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم على الحق ولااستكباركم، وهذا إما نفي، وإما استفهام وتوبيخ، وهو أبلغ وأفخم، ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفّار يسترذلونهم في الدنيا ويزعمون أن الله لايختصهم دونهم بفضله كما لم يختصهم دونهم في الدنيا، فيقول لهم أهل الأعراف: ﴿**أهؤلآء الذين أَقْسَمتُم**﴾ أيها المشركون أن الله تعالى لاينالهم برحمة، فهاهم في الجنة يتمتعون ويتنعمون وفي رياضها يحبرون، ثم يقال لأهل الأعراف: ﴿**ادخلوا الجَنَّةَ لا خَوْفُ عَلَيْكُم ولا**

أَنْتُم تَحْزَنُون﴾ [الأعراف: ٤٩].

وقيل: إن أصحاب الأعراف إذا عيروا الكفار وأخبروهم أنهم لم يغن عنهم جمعهم واستكبارهم، عيرهم الكفار بتخلفهم عن الجنة، وأقسموا أن الله لاينالهم برحمة، لما رأوا من تخلفهم عن الجنة، وأنهم يصيرون إلى النار؛ فتقول لهم الملائكة حينئذ: ﴿أَهؤلآءِ الَّذِين أَقْسَمْتُمْ لايَنالُهُمُ الله بِرَحْمَة ادْخُلُوا الجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُم وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُون﴾ والقولان قويّان محتملان والله أعلم.

(١)**قوله** تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُم الله الَّذي خَلَقَ السَّموات والأَرْضَ في سِتَّة أَيَّام ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى العرش يُغشِي الَّليْلَ النَّهارَ يَطْلُبُه حَثِيثًا والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجوم مسخرات بأمره ألا له الخَلْق والأَمْر تبارك الله ربُّ العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤].

فإن قلت: فما الحكمة في كون بعض النجوم راتبًا وبعضها متنقلاً.

قيل: إنها لو كانت كلها راتبة؛ لبطلت الدلالة والحكم التي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها، ولو كانت كلها منتقلة؛ لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم يقاس عليها؛ لأنه إنما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب، كما يقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التي يمرون عليها، فلو كانت كلها بحال واحدة لاختل نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها: ولتشبث المعطل بذلك وقال: لو كان فاعلها ومبدعها مختارًا؛ لم تكن على وجه واحدٍ وأمر واحد وقدر واحد. فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته.

(٢)**قوله**: ﴿الرَّحْمٰنُ على العرش اسْتَوىٰ﴾ [طه: ٥] في سبع آيات من القرآن حقيقة عند جميع فرق الأمة. إلا الجهمية ومن وافقهم فإنهم قالوا: هو مجاز، ثم اختلفوا في مجازه، والمشهور عنهم ماحكاه الأشعري عنهم وبدَّعهم وضلَّلهم فيه: بمعنىٰ استولى أي: ملك، وقهر.

وقالت فرقة منهم: بل معنى قصد وأقبل على خلق العرش.

وقالت فرقة أخرى: بل هو مجمل في مجازاته يحتمل خمسة عشر وجهًا، كلها

---

(١) ٢١١ مفتاح جـ١. (٢) ١٢٦ مختصر الصواعق جـ٢.

لايعلم أيها المراد، إلا أنا نعلم انتفاء الحقيقة عنه بالعقل.

هذا الذي قالوه باطل من اثنين وأربعين وجهًا.

أحدها: أن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم وأنزل بها كلامه نوعان مطلق، ومقيد.

فالمطلق: مالم يوصل معناه بحرف مثل قوله: ﴿ولمَّا بلَغَ أشدَّه واستوىٰ﴾ وهذا معناه: كمل وتم، يقال: استوى النبات، واستوى الطعام.

وأما المقيد فثلاثة أضراب:

أحدها مقيد بإلى كقوله: ﴿ثُمَّ استوى إلى السَّماء﴾ واستوى فلان إلى السطح وإلى الغرفة، وقد ذكر سبحانه هذا المعدى بإلى في موضعين من كتابه: في البقرة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الذي خلق لكم مافي الأرض جميعًا ثُمَّ استوى إلىٰ السَّماء﴾ [البقرة: ٢٩]، والثاني في سورة فصلت[1]: ﴿ثُمَّ استوى إلى السَّماء وهي دُخَان﴾ [فصلت: ١١]، وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف كما سنذكره، ونذكر ألفاظهم بعد إن شاء الله.

والثاني: مقيد بعلى كقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَووا علىٰ ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقوله: ﴿واسْتَوت عَلَى الجُودِي﴾ [هود: ٤٤]، وقوله: ﴿فاسْتَوَى عَلىٰ سُوقِهِ﴾ [الحجرات: ٢٦]، وهذا أيضًا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون بواو (مع) التي تعدي الفعل إلى المفعول معه نحو: استوى الماء والخشبة بمعنى: ساواها، وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم، ليس فيها معنى استولى ألبتة ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم، وإنما قاله متأخرو النحاة ممن سلك طريق المعتزلة والجهمية يوضحه:

الوجه الثاني أن الذين قالوا ذلك لم يقولوه نقلاً فإنه مجاهرة بالكذب؛ وإنما قالوه استنباطًا وحملاً منهم للفظة استوى، على استولى واستدلوا بقول الشاعر.

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف أو دم مهراق

وهذا البيت ليس من شعر العرب كما سيأتي بيانه.

---

(١) في المطبوعة «السجدة» والصواب ماأثبتناه. المراجع.

الوجه الثالث: أن أهل اللغة لما سمعوا ذلك أنكروه غاية الإنكار ولم يجعلوه من لغة العرب. قال ابن الأعرابي، وقد سئل: هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى؟ فقال: لا تعرف العرب ذلك، وهذا هو من أكابر أئمة اللغة.

الوجه الرابع: ماقاله الخطابي في كتابه: شعار الدين. قال: القول في أن الله مستوٍ على عرشه. ثم ذكر الأدلة في القرآن ثم قال: فدل ماتلوته من هذه الآي: أن الله تعالى في السماء مستوٍ على العرش. وقد جرت عادة المسلمين خاصهم وعامهم بأن يدعوا ربهم عند الابتهال والرغبة إليه، ويرفعوا أيديهم إلى السماء؛ وذلك لاستفاضة العلم عندهم بأن المدعو في السماء سبحانه(١).

. . .(٢)**الوجه** الخامس والعشرون: أنه لو كان الاستواء بمعنى الملك والقهر؛ لجاز أن يقال: استوى على ابن آدم، وعلى الجبل، وعلى الشمس والقمر، وعلى البحر والشجر والدواب، وهذا لايطلقه مسلم.

فإن قيل: هذا جائز وإنما خصص العرش بالذكر؛ لأنه أجل المخلوقات وأرفعها وأوسعها فتخصيصه بالذكر، تنبيه على مادونه.

قيل: لو كان هذا صحيحًا لم يكن ذكر الخاص منافيًا لذكر العام. ألا ترى أن ربوبيته لما كانت عامة للأشياء لم يكن تخصيص العرش بذكره منها كقوله: ﴿**ربُّ الْعَرْشِ الْعَظيم**﴾ [المؤمنون: ٨٦] مانعًا من تعميم إضافتها كقوله: ﴿**رَبُّ كلِّ شيءٍ**﴾ [الأنعام: ١٦٤] فلو كان الاستواء بمعنى الملك والقهر؛ لكان لم يمنع إضافته إلى العرش إضافته إلى كل ماسواه، وهذا في غاية الظهور.

الوجه السادس والعشرون: أنه إذا فسر الاستواء بالغلبة والقهر؛ عاد معنى هذه الآيات كلها إلى أن الله تعالى أعلم عباده بأنه خلق السموات والأرض، ثم غلب العرش بعد ذلك وقهره وحكم عليه، أفلا يستحي من الله من في قلبه أدنى وقار لله ولكلامه أن ينسب ذلك إليه وأنه أراده بقوله: ﴿**الرَّحمٰن على العرش استوىٰ**﴾ أي: اعلموا ياعبادي أني بعد فراغي من خلق السموات والأرض غلبت

---

(١) استمر المؤلف في سردها في المختصر لمن أرادها، وسنذكر منها ما سيمر بك قريبًا، هدى الله الجميع إلى الصراط المستقيم. ج.

(٢) ١٤٠ مختصر الصواعق جـ٢.

عرشي وقهرته واستوليت عليه.

الوجه السابع والعشرون: أن أعلم الخلق به قد أطلق عليه أنه فوق، عرشه كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه: «**الله فوق العرش**» وفي حديث عبدالله بن رواحة رضي الله عنه، الذي صححه ابن عبدالبر وغيره.

وأن العرش فوق الماء طاف   وفـوق العرش رب العالمين

وهذه الفوقية هي[1] تفسير الاستواء المذكور في القرآن والسنة.

والجهمية يجعلون كونه فوق العرش بمعنى أنه خير من العرش وأفضل منه، كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم، والمعنى عندهم: أنه أعلم الأمة بأن الله خير وأفضل من العرش.

فيا للعقول أين في لغة العرب حقيقة أو مجازًا أو كناية واستعارة بعيدة أن يقال: استوى على كذا إذا كان أعظم منه قدرًا وأفضل، هذا من لغة الطماطم، لا من لغـة القوم الذين بعث فيهم رسول الله، ﷺ، وكتاب الله لايحتمل هذا التأويل الباطل الذي تنفر عنه العقول...

...[2]**الوجه** الثلاثون: أن الاستيلاء الذي فسروا به الاستواء:

إما أن يراد به الخلق أو القهر أو الغلبة أو الملك أو القدرة عليه ولايصح أن يكون شيء منها مرادًا.

أما الخلق فلأنه يتضمن أن يكون خلقه بعد خلق السموات والأرض، وهذا بخلاف إجماع الأمة، وخلاف مادلَّ عليه القرآن والسنة وإن أدَّعىٰ بعض الجهمية المتأخرين: أنه خلق بعد خلق السموات والأرض، وادَّعىٰ الإجماع على ذلك.

وليس العجب من جهله؛ بل من إقدامه على حكاية الإجماع على ما لم يقله مسلم، ولايصح أن يراد به بقية المعاني للوجوه التي ذكرناها وغيرها، فلا يجوز تفسير الآية به؛ ولهـذا لم يقله عالم من علماء السلف؛ بل صرَّحوا بخلافه كما قال أبو العالية: علا وارتفع، وقال مجاهد: استقر، وقال مالك: الاستواء معلوم. وقال يزيد بن هارون: من زعم أن الرحمن فوق العرش استوى، على خلاف مايقر في

---

(١) في المطبوعة «هو» والصواب ما أثبتناه. المراجع.
(٢) ١٤٣ الصواعق جـ٢.

قلوب العامة فهو جهمي، وقد تقدَّم حكاية قول من قال: استوى بذاته، واستوى حقيقة، فأوجدونا عمن يقتدى بقوله في تفسير، أو عن رجل واحد من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم، أو عن إمام له في الأمة لسان صدق أنه فسر اللفظ باستولىٰ، ولن تجدوا إلى ذلك سبيلاً . . .

. . .(١)**وقد** صرَّح أئمة العربية: بأن الشيء إنما يجوز حذفه؛ إذا كان الموضع الذي ادَّعىٰ فيه حذفه قد استعمل فيه ثبوته أكثر من حذفه، فلابد أن يكون موضع ادِّعاء الحذف قد استعمل فيه ثبوته أكثر من حذفه، حتى إذا جاء ذلك محذوفًا في موضع علم بكثرة ذكره في نظائره أنه قد أزيل في هذا الموضع فحمل عليه، فهذا شأن من يقصد البيان، وأما من يقصد التلبيس والتعمية فله شأن آخر.

مثال ذلك قوله: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه: ٥] ﴿**ثم استوى على العرش**﴾ [يونس: ٣]، في جميع موارده من أولها إلى آخرها على هذا اللفظ، فتأويله باستولىٰ باطل، وإنما كان يصح أن لو كان أكثر مجيئه بلفظ استولىٰ، ثم يخرج موضع عن نظائره ويرد بلفظ استوى، فهذا كان يصح تأويله باستولى، فتفطن لهذا الموضع، واجعله قاعدة فيما يمتنع تأويله من كلام المتكلم، ويجوز تأويله.

ونظير هذا اطِّراد النصوص بالنظر إلى الله تعالى هكذا: «**ترون ربكم**»، «**تنظرون إلى ربكم**»، ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة: ٢٣]، ولم يجيء في موضع واحد: ترون ثواب ربكم، فيحمل عليه ماخرج عن نظائره.

ونظير ذلك اطِّراد قوله: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ**﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿**يُنَادِيهِمْ**﴾ [القصص: ٦٢، ٦٥]﴿**وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا**﴾[الأعراف: ٢٢] ﴿**وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نادينا**﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿**إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ**﴾ [النازعات: ١٦]، ونظائرها، ولم يجيء في موضع واحد: أمرنا من يناديهم، ولا: ناداه ملك، فتأويله بذلك عين المحال.

ونظير ذلك قوله، ﷺ: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول**» في نحو ثلاثين حديثاً. كلها مصرحة بإضافة النزول إلى الرب تعالى. ولم يجيء موضع واحد بقوله: ينزل ملك ربنا، حتى يحمل ماخرج عن نظائره عليه.

---

(١) ٦٨ مختصر الصواعق جـ١.

وإذا تأمَّلت نصوص الصفات التي لاتسمح الجهمية بتسميتها نصوصًا، وإذا احترموها قالوا: ظواهر سمعية، وقد عارضها القواطع العقلية، وجدتها كلها من هذا الباب. ومما يقضي منه العجب أن كلام شيوخهم وتصنيفهم عندهم نص في مرادهم لايحتمل التأويل وكلام الموافقين عندهم نص لايجوز تأويله، حتى إذا جاءوا إلى كلام الله ورسوله وقفوه على التأويل. . .

(١)**قوله** عز وجل: ﴿**ادعوا ربَّكُم تَضرُّعًا وخُفية إنَّه لايُحبُّ المُعْتَدين ولاتُفْسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوْفًا وطَمَعاً إن رَحمَةَ اللهِ قريبٌ منَ المحسنين**﴾ [الأعراف: ٥٥ ـ ٥٦]. هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعها، وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو: طلب ماينفع الداعي، وطلب كشف مايضره أو دفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقًا، والمعبود لابد وأن يكون مالكًا للنفع والضر.

ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لايملك ضرًّا ولا نفعًا، وذلك كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿**وَيَعْبُدونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لايضرُّهُم ولا يَنْفَعُهُمْ**﴾ [يونس: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَدْعُ مِنْ دُون الله**(٢) **ما لَا يَنْفَعُكَ وَ لَايَضرُّكَ**﴾ [يونس: ١٠٦]. وقوله تعالى: ﴿**قُلْ أتعبدونَ من دُونِ اللهِ مَا لَا يَملِكُ لَكُم ضَرًّا ولا نَفعًا واللهُ هو السميعُ العليمُ**﴾ [المائدة: ٧٦]. وقوله تعالى: ﴿**أَفتعبدُونَ مِن دُونِ الله ما لا يَنْفعُكُم شيئًا ولا يَضرُّكم أُفٍّ لَكُم ولِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾. [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿**وَآتلُ عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتَعْبُدونَ قَالُوا نَعْبُد أصنامًا فنظلُّ لها عاكفينَ قَال هل يسمعونَكم إذ تَدْعُون أو ينفعونكم أو يَضرُّون**﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٣]. وقوله تعالى: ﴿**واتَّخذوا مِنْ دُونه آلهةً لَّا يَخلقُونَ شَيئًا وهُمْ يُخْلقونَ وَلَا يَمْلِكونَ لأَنْفُسِهِم ضرًّا ولا نفعًا ولايملكون موتًا وَلَا حَياةً ولانُشُورًا**﴾ [الفرقان: ٣]. وقال تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُوْنَ مِنَ دُونِ اللهِ مَالاَ**

(١) ٢ بدائع جـ٣.

(٢) في المطبوعة (ولاتدع من دونه) والصواب ماأثبتناه. المراجع.

يَنْفَعُهم وَلاَ يَضرُّهُم وكان الكَافِرُ علىٰ ربِّهِ ظَهيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥].

فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدِّي فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم، وهذا في القرآن كثير تبين أن المعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى خوفًا ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

وعلى هذا فقوله تعالى: **﴿وَإذا سأَلَك عِبادي عَنِّي فإِنِّي قريبٌ أُجيبُ دَعوةَ الدَّاعِ إِذا دَعَانِ﴾** [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية. قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعًا، فتأمله فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له.

وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعدًا هي من هذا القبيل.

ومثال ذلك قوله: **﴿أقِمِ الصَّلاة لِدُلوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ الليل﴾** [الإسراء: ٧٨] فسر الدلوك بالزوال، وفسر بالغروب، وحُكيا قولين في كتب التفسير، وليسا بقولين؛ بل اللفظ يتناولهما معًا فإن الدلوك هو الميل، ودلوك الشمس ميلها؛ ولهذا الميل مبدأ ومنتهىٰ فمبدأه الزوال ومنتهاه الغروب، فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار، لا بتناول المشترك لمعنييه ولا اللفظ لحقيقته ومجازه.

ومثاله أيضًا ماتقدَّم من تفسير الغاسق بالليل والقمر، وأن ذلك ليس باختلاف؛ بل يتناولهما لتلازمهما؛ فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة.

ومن ذلك قوله عز وجل: **﴿قُلْ مَايَعْبَأُ بكم ربي لَولا دُعاؤُكُم﴾** [الفرقان: ٧٧]. قيل: لولا دعاؤكم إياه، وقيل: دعاؤه إياكم إلى عبادته؛ فيكون المصدر مضافًا إلى المفعول، وعلى الأول مضافًا إلى الفاعل وهو الأرجح من القولين؛ وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء، وهو في دعاء العبادة أظهر أي: مايعبأ بكم ربي لولا أنكم تعبدونه، وعبادته تستلزم مسألته فالنوعان داخلان فيه.

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وقال ربكم ادعوني أستجِب لكم﴾** فالدعاء

يتضمن النوعين، وهو في دعاء العبادة أظهر؛ ولهذا عقبه بقوله: ﴿**إِنَّ الذين يَسْتَكبرون عَنْ عِبَادَتي سَيَدْخُلون جَهَنَّم دَاخِرِيْنَ**﴾ [غافر: ٦٠]، فسر الدعاء في الآية بهذا وهذا.

وقد روى سفيان، عن منصور، عن ذر[1]، عن نسيع الكندي، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول على المنبر: «**إنَّ الدعاء هو العبادة** ثم قرأ: ﴿**ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وأما قوله تعالى: ﴿**ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له**﴾ [الأعراف: ١٩٤] وقوله: ﴿**إن يدعون من دونه إلا إناثًا**﴾ [النساء: ١١٧] وقوله: ﴿**وضلَّ عنهم ماكانوا يدعون من قبل**﴾ [فصلت: ٤٨] وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم، فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو في دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة:

أحدها أنهم قالوا: ﴿**ما نعبدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ [الزمر: ٣] فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم.

الثاني أن الله تعالى فسر هذا الدعاء في مواضع أخر بأنه العبادة كقوله: ﴿**وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون**﴾ [الشعراء: ٩٢] وقوله: ﴿**إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم**﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقوله: ﴿**قل ياأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون**﴾ [الكافرون: ١، ٢] وهو كثير في القرآن، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها.

الثالث أنهم كانوا يعبدونها ويتقربون بها إلى الله، فإذا جاءتهم الحاجات والكربات والشدائد دعوا الله وحده وتركوها، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة، وقوله تعالى: ﴿**فادعوا الله مخلصين له الدين**﴾ [غافر: ١٤] هو دعاء العبادة والمعنى: اعبدوه وحده وأخلصوا عبادته، لاتعبدوا معه غيره، وأما قول إبراهيم الخليل، ﷺ: ﴿**إن ربي**

(١) هكذا بالنسخة، وفي تفسير البغوي، عن أبي ذر. ج.

لسميع الدعاء﴾ [إبراهيم: ٣٩] فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام، لأنه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول: دعاء الثناء، ودعاء الطلب، وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء وإجابته للطلب، فهو سميع لهذا وهذا.

وأما قول زكريا: **﴿ولم أكن بدعائك رب شقيًا﴾** [مريم: ٤] فقد قيل: إنه دعاء المسألة والمعنى: إنك عودتني إجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه كما حكي أن رجلاً سأل رجلاً وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا وكذا، فقال: مرحبًا بمن توسل إلينا بنا وقضىٰ حاجته، وهذا ظاهر ههنا، ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ماسأله.

وأما قوله تعالى: **﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أو ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أيًّا مَّاتدعوا فله الأسماءُ الحُسْنَىٰ﴾** [الإسراء: ١١٠] فهذا الدعاء المشهور، وأنه دعاء المسألة وهو سبب النزول. قالوا: كان النبي، ﷺ، يدعو ربه فيقول مرة: «**ياالله**» ومرة: «يارحمن» فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال ابن عباس: سمع المشركون النبي، ﷺ، يدعو في سجوده: «**يارحيم**» فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا وهو يدعو مثنى مثنى؛ فأنزل الله هذه الآية: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾** وقيل: إن الدعاء ههنا بمعنى التسمية كقولهم: دعوت ولدي سعيدًا، وادعه بعبد الله ونحوه. والمعنى: سموا الله، أو سموا الرحمن، فالدعاء ههنا بمعنى التسمية، وهذا قول الزمخشري، والذي حمله على هذا قوله: **﴿أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾** فإن المراد بتعدده معني أي وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا.

والمعنى أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى: إما الله وإما الرحمن، فله الأسماء الحسنىٰ، أي: فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى. والضمير في له يعود إلى المسمى، فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد، بل

المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء، ولكنه متضمن معنى التسمية، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب؛ بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب؛ فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في تدعوا معنى: تسموا فتأمله.

والمعنى أيًّا ما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿**إنَّا كُنَّا من قبلُ ندعوه إنه هو البرُّ الرحيمُ**﴾ [الطور: ٢٨] فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى: إنَّا كنا من قبل نخلص له العبادة؛ وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره؛ فإن الله سبحانه يسأله من في السموات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب.

وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف: ﴿**ربُّنا ربُّ السمواتِ والأرضِ لن نَّدْعُوَا من دُونِهِ إلـهًا**﴾ [الكهف: ١٤] أي: لن نعبد غيره.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**أتدعون بعلاً وتذرون أحسنَ الخالقين**﴾ [الصافات: ١٢٥].

وأما قوله تعالى: ﴿**وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون**﴾ [القصص: ٦٤] فهذا من دعاء المسألة، يبكتهم الله عزوجل ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن شركاءهم لايستجيبون لدعوتهم، وليس المراد: اعبدوهم، وهو نظير قوله تعالى: ﴿**ويومَ يقولُ نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم**﴾ [الكهف: ٥٢]وهذا التقرير نافع في مسألة الصلاة، وأنها: هل نقلت عن مسماها في اللغة فصارت حقيقة شرعية منقولة، أو استعملت في هذه العبادة مجازًا للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوي؟ أو هي باقية على الوضع اللغوي، وضم إليها أركان وشرائط؟ وعلى ماقررناه لا حاجة إلى شيء من ذلك. فإن المصلي من أول صلاته إلى آخرها لاينفك عن دعاء إما دعاء عبادة وثناء، أو دعاء طلب ومسألة، وهو في الحالين داع، فما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء فتأمله. إذا عرف هذا فقوله تعالى: ﴿**ادعوا ربكم تضرعًا وخفية**﴾ [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعي الدعاء؛ لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة؛ ولهذا

أمر بإخفائه وإسراره. قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ومايسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿**ادعوا ربكم تضرعًا وخفية**﴾، وأن الله ذكر عبدًا صالحاً ورضي بفعله فقال: ﴿**إذ نادى ربه نداء خفيًّا**﴾ [مريم: ٣] وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفي، وليس كالذي قال: إن الله يسمع إن جهرنا ولايسمع إن أخفينا.

وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم؛ ولهذا لاتخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخف عندهم الكلام بمقدار مايسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه ولله المثل الأعلىٰ. فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

وثالثها: أنه أبلغ في التضرُّع والخشوع الذي هو روح الدعاء. ولبه ومقصوده. فإن الخاشع الذليل الضارع، إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه وذلت جوارحه، وخشع صوته حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لايتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

ورابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

وخامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الله في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته؛ كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى.

وسادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدًّا: أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنىٰ سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿**إذ نادى ربه نداء خفيًّا**﴾ فكلما استحضر القلب؛ قُرْبَ الله تعالى منه وأنَّه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك؛ أخفى دعاءه ماأمكنه،

ولم يتأتَ له رفع الصوت به بل؛ يراه غير مستحسن كما أن من خاطب جليسًا له يسمع خفي كلامه فبالغ في رفع الصوت؛ استهجن ذلك منه، ولله المثل الأعلى سبحانه.

وقد أشار النبي، ﷺ، إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح؛ لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، وهم معه في السفر فقال: «**أربعوا على أنفسكم إنكم لاتدعون أصم ولا غائبًا إنكم تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**» وقال تعالى: ﴿**وَإذا سَألكَ عِبادِي عَني فإني قريبٌ أجيب دعوة الدَّاع إذا دَعانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقد جاء أن سبب نزولها: أن الصحابة قالوا يارسول الله: ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾، وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم عن هذا سألوا فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لايحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجي، لا مسألة البعيد المنادى، وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده. وأقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه؛ بل هو قرب خاص من الداعي والعابد.

كما قال النبي، ﷺ، راويًا عن ربه تبارك وتعالى: «**من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً**». فهذا قربه من عابده.

وأما قربه من داعيه وسائله، فكما قال تعالى: ﴿**وَإذَا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الدَّاع إذا دَعَانِ**﴾. وقوله: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعًا وخُفيَةً**﴾ [الأعراف: ٥٥] فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب.

وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر وبناء آخر وشأن آخر، كما قد ذكرناه في كتاب (التحفة المكية)[١] على أن العبارة تنبو عنه، ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبدًا؛ لكن بحسب قوة المحبة وضعفها؛ يكون تصديق العبد بهذا القرب.

وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها؛ فتزل قدم بعد ثبوتها. وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء

(١) المؤلف يطلق التحفة المكية على مفتاح دار السعادة وعلى روضة المحبين انظر ص٤٧ من المفتاح (ج).

تعبيرهم؛ فوقعوا في أنواع من الطامات والشطح.

وقابلهم من غلظ حجابه؛ فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوف فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا. وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء في كتاب (التحفة) أكثر من مائة طريق[1]، والمقصود ههنا الكلام على هذه الآية.

وسابعها: أنه أدعىٰ إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لايمل، والجوارح لاتتعب بخلاف ماإذا رفع صوته؛ فإنه قد يكل لسانه، وتضعف بعض قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعًا صوته، فإنه لايطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته.

وثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات؛ فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد؛ فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والإنس؛ فشوشت عليه ولابد ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته؛ فيضعف أثر الدعاء لكفى. ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء وأخفاه؛ أمن هذه المفسدة.

وتاسعها: أن أعظم النعم: الإقبال على الله، والتعبد له، والانقطاع إليه، والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة. فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لايقصد إظهارها له.

وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَاتقصُص رُؤياكَ عَلى إخْوَتِك فَيكيدُوا لَكَ كَيْدًا إنَّ الشَّيْطَان للإنسَان عَدُوٌّ مُّبِين﴾ [يوسف: ٥].

وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدَّث بها وأخبر بها. فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه؛ ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله، وأن لايطلعوا عليه أحدًا، ويتكتمون به غاية التكتم كما أنشد بعضهم في ذلك:

---

(١) هذه الإحالة تنطبق على روضة المحبين (ج).

من سارروه فأبدى السر مجتهدا لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعــدوه فلم يظفــر بقـربهم وأبـدلـوه مكان الأنس إيحاشًا
لايأمنـون مذيعًا بعض سرهم حاشـا ودادهم من ذلكم حاشا

والقـوم أعظم شيء كتمانًا لأحوالهم مع الله، وما وهب الله لهم من محبته والأنس به وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتديء والسالك فإذا تمكّن أحدهم وقوي، وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبـه، بحيث لايخشى عليه من العواصف؛ فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليقتدى به ويؤتم به؛ لم يبال، وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله.

وإذا كان الـدعـاء المـأمور بإخفائه، يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة.

وعاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب.

كما قال النبي، ﷺ: «**أفضل الدعاء الحمد لله**» فسمي الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد يتضمن: الحب، والثناء.

والحب أعلىٰ أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجة ما.

فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلى ماقيل: إن الذاكر متعرِّض للنوال، وإن لم يكن مصرحًا بالسؤال، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرُّض، كما قال أمية بن أبي الصلت:

أأذكــر حاجتي أم قد كفــاني حبــاؤك إن شيمتــك الحبـاء
إذا أثـنىٰ عليك المــرء يومًــا كفــاه من تعــرضــه الثنــاء

وعـلى هذه الـطريقـة التي ذكـرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، وهو طلب المحب، فهو دعاء حقيقة؛ بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

والمقصود: أن كل واحد من الدعاء والذكر؛ يتضمن الآخر ويدخل فيه.

وقد قال تعالى: ﴿**وَاذكُرْ رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضرُّعًا وَخِيفَةً ودُون الجَهر من القـول**﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. فأمر تعالى نبيه أن يذكره في نفسه، قال مجاهد، وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرُّع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح.

وقـد تقـدَّم حديث أبي موسى: كنـا مع النبي، ﷺ، في سفر فارتفعت أصـواتنا بالتكبير فقال: «**يأيها الناس أربعوا**[1] **على أنفسكم؛ فإنكم لاتدعون أصم ولا غائبًا؛ إنما تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**».

وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿**وَآذْكر ربَّك في نفسِكَ تضرُّعًا وخِيفَةً**﴾.

وفي آية الدعاء: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ فذكر التضرُّع فيهما معًا وهو التذلُّل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف؛ فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولابد، فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته.

والمحبـة مالم تقـرن بالخوف؛ فإنها لاتنفع صاحبها، بل قد تضره، لأنها توجب الإدلال والانبساط. وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات: إنَّما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له، فإذا حصل المقصود؛ فالاشتغال بالوسيلة باطل.

ولقد حدَّثني رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له ترك فيها حضور الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه، فقال له: بلىٰ. فقال له: فقلب المريد أعزعليه من ضياع عشرة دراهم، أو كما قال، وهو إذا خرج ضاع قلبه، فحفظه لقلبه؛ عذر مسقط للجمعة في حقه، فقال له: هذا غرور؛ بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله وحفظ قلبه مع الله. فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر ويراعىٰ حفظ قلبه، أو كما قال.

---

(١) أربعوا: أي: أرفقوا.

فتأمل هذا الغرور العظيم. كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك؛ انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصته الخاصة. وسبب هذا؛ عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته.

ولهذا قال بعض السلف: من عبدالله بالحب وحده: فهو زنديق ومن عبده بالخوف وحده؛ فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن.

وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه**﴾ فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف فهذه طريقة عباده وأوليائه. وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات، ويقول المحب لايضره ذنب.

وصنف بعضهم في ذلك مصنفًا، وذكر فيه أثراً مكذوباً: إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب. وهذا كذب قطعًا مناف للإسلام؛ فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن.

ولو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ؛ وأما عن رسول الله، ﷺ، فمعاذ الله من ذلك، فله[1] محمل وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إيَّاه إلى أن يصر على ذنب؛ لأن الإصرار على الذنب مناف لكونه محبًّا لله، وإذا لم يصر على الذنب؛ بل بادر إلى التوبة النصوح منه، فإنه يمحا أثره ولا يضره الذنب، وكلما أذنب وتاب إلى الله؛ زال عنه أثر الذنب وضرره. فهذا المعنىٰ صحيح.

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف؛ يوقع في هذه المعاطب؛ فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته؛ لئلا تخرج عن الدرب، والرجاء حاد يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يسوقها، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصى يردها إذا حادت

(١) هذا جواب (لو) في قوله: ولو أن هذا الكلام... إلخ.

عن الطريق، وتركت تركب التعاسيف؛ خرجت عن الطريق وضلَّت عنها، فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه، بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة؛ فسد فسادًا لا يرجىٰ صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه؛ ضعف إيمانه بحسبه.

فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء، ومع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضًا، فإنه قال: ﴿**اذكرْ ربَّك في نَفْسِكَ**﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فلم يحتج بعدها أن يقول خفية، وقال في الدعاء: ﴿**وادعوه خوفًا وطمعًا**﴾ [الأعراف: ٥٦] فلم يحتج أن يقول في الأول: ادعوا ربكم تضرعًا وخيفة فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام، ودلَّت على ذلك أكمل دلالة، وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤله ومطلوبه؛ لم تتحرك نفسه لطلبه، إذ طلب مالا طمع فيه ممتنع، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، كما تقدَّم، فذكر في كل آية ماهو اللائق بها والأولىٰ بها من الخوف والطمع.

فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور وهدًى ورحمة للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿**إنَّهُ لَايُحِبُّ المُعْتدين**﴾ [الأعراف: ٥٥]، قيل: المراد أنه لايحب المعتدين في الدعاء، كالذي يسأل ما لايليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك.

وقد روى أبو داود في سننه من حديث حمَّاد بن سلمة، عن سعيد الجريري(١) عن أبي نعامة أن(٢) عبدالله بن مغفل(٣) سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يابني، سل الله الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في: الطهور والدعاء**». وعلى هذا فالاعتداء في الدعاء تارة بأن يسأل مالا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات. وتارة بأن يسأل مالا يفعله الله،

---

(١) في نسخة (الحريري).

(٢) في نسخة عن أبي معاوية.

(٣) وفي نسخة ابن معقل.

مثـل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة. أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب. أو يسأله أن يطلعه على غيبه، أو يسأله أن يجعله من المعصومين. أو يسأله أن يهب له ولدًا من غير زوجة ولا أمة، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء.

فكل سؤال يناقض حكمة الله، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمَّن خلاف ماأخبر به؛ فهو اعتداء لايحبه الله ولايحب سائله.

وفسر الاعتـداء برفـع الصـوت أيضًا في الدعاء. قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء، والنداء في الدعاء والصياح.

وبعد فالآية أعم من ذلك كله، وإن كان الاعتداء في الدعاء مرادًا بها؛ فهو من جملة المراد، والله لايحب المعتدين في كل شيء: دعاءً. كان أو غيره، كما قال: ﴿**ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين**﴾ [البقرة: ١٩٠، المائدة: ٨٧].

وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته، وأخبر أنه لايحب أهل العدوان وهم الذين يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانًا، فإن أعظم العدوان الشرك وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لابد أن يكون داخلًا في قوله: ﴿**إنه لايحب المعتدين**﴾ [الأعراف: ٥٥].

ومن العـدوان أن يدعوه غير متضرع؛ بل دعاء مدل كالمستغني بما عنده المدل على ربه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكـين من كل جهة في مجموع حالاته، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرِّع خائف؛ فهو معتد.

ومن الاعتداء أن تعبده بما لم يشرعه، وتثني عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه، فإن هذا اعتداء في دعاء الثناء والعبادة وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب. وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:

أحدهما: محبوب للرب تبارك وتعالى، مرضي له وهو الدعاء تضرُّعًا وخفية.

والثـاني: مكـروه له مبغوض مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه الله وندب إليه، وحذَّر مما يبغضه، وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو أنه لايحب فاعله، ومن لم يحبه الله فأي خير يناله؟

وفي قولـه: ﴿إنَّـه لَا يُحِبُّ المُعْتَدِيْنَ﴾ عقب قوله: ﴿ادْعُوا ربكُم تضَرُّعًا وخُفْيَةً﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعًا وخفية فهو من المعتدين، الذين لايحبهم. فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داع لله تضرعًا وخفية، ومعتد بترك ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. قال أكثر المفسرين: لاتفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إيَّاها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والـدعوة إلى غيره والشرك به؛ هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أيدي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

وقال عطية في الآية: ولاتعصوا في الأرض؛ فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر؛ فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم وتقول: اللهم العنهم، فبسببهم؛ أجدبت الأرض، وقحط المطر.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله، ﷺ؛ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا. وغـيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته؛ فلا سمع له ولاطاعة، فإن الله أصلح الأرض: برسوله، ودينه، وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به، وبمخالفة رسوله.

ومن تدبَّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطـاعـة رسوله وكل شر في العالم، وفتنة، وبلاء، وقحط، وتسليط عدو، وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله.

ومن تدبَّر هذا حق التدبُّر، وتأمَّل أحوال العالم منذ قام إلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين؛ وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي حق غيره عمومًا وخصوصًا ولا وقوة إلا بالله العلي العظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَّطَمَعًا﴾ إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكره معه

من الخوف والطمع، فأمر أولاً بدعائه تضرُّعًا وخفية، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضًا: خوفًا وطمعًا. وفصل بين الجملتين بجملتين، إحداهما: خبرية، ومتضمنة للنهي، وهي قوله: ﴿إنه لايُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾ والثانية: طلبية، وهي قوله: ﴿ولاتُفْسِدُوا في الأرضِ بَعْدَ إصْلاَحِهَا﴾ والجملتان مقررتان مقويتان للجملة الأولى، مؤكدتان لمضمونها. ثم لما تم تقريرها وبيان مايضادها ويناقضها أمر بدعائه: خوفًا وطمعًا.

ثم قرر ذلك وأكَّد مضمونه بجملة خبرية، وهي قوله: ﴿إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيْبٌ مِّن المُحْسِنِيْنَ﴾ فتعلق هذه الجملة بقوله: وادعوه خوفًا وطمعًا، كتعلق قوله: ﴿إنه لايحب المعتدين﴾ بقوله: ﴿ادعوا ربكم تضرُّعًا وخفية﴾

ولما كان قوله تعالى: ﴿وادْعُوهُ خَوْفًا وَّطَمَعًا﴾ مشتملاً على جميع مقامات الإيمان والإحسان وهي: الحب، والخوف، والرجاء، عقبها بقوله: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ أي: إنما يقال من دعاه خوفًا وطمعًا، فهو المحسن، والرحمة قريب منه، لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

ولما كان دعاء التضرُّع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقب ذلك بقوله: ﴿إنه لايحب المعتدين﴾.

وانتصاب قوله: تضرُّعًا وخفية، وخوفًا وطمعًا. قيل: هو على الحال، أي: ادعوه متضرعين مخفين، خائفين طامعين. وهذا هو الذي رجحه السهيلي وغيره.

وقيل: هو نصب على المفعول له، وهذا قول كثير من النحاة.

وقيل: هو نصب على المصدر، وفيه على هذا تقديران:

أحدهما: أنه منصوب بفعل مقدر من لفظ المصدر، والمعنى: تضرعوا، إليه تضرعًا وأخفوا خفية.

الثاني: أنه منصوب بالفعل المذكور نفسه. لأنه في معنى المصدر فإن الداعي متضرع طامع في حصول مطلوب، خائف من فواته. فكأنه قال: تضرَّعوا تضرعًا.

والصحيح في هذا أنه: منصوب على الحال، والمعنى عليه فإن المعنى: ادعوا ربكم متضرعين إليه: خائفين طامعين. ويكون وقوع المصدر موقع الاسم على حد قوله: ، ﴿وَلكِنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ وقولهم: رجل عدل، ورجل صوم.

قال الشاعر: فإنما هي إقبال وإدبار.

وهو أحسن من أن يقال: ادعوه متضرعين خائفين وأبلغ.

والذي حسَّنه أن المأمور به هنا شيئان: الدعاء الموصوف المقيد بصفة معينة وهي صفة: التضرُّع، والخوف، والطمع. فالمقصود تقييد المأمور به بتلك الصفة، وتقييد الموصوف الذي هو صاحبها بها، فأتىٰ بالحال على لفظ المصدر لصلاحيته لأن يكون صفة للفاعل، وصفة للفعل المأمور به.

فتأمل هذه النكتة؛ فإنك إذا قلت: اذكر ربك تضرُّعًا، فإنك تريد اذكره متضرِّعاً إليه، واذكره ذكر تضرُّع، فأنت مريد للأمرين معًا، ولذلك إذا قلت ادعه طمعًا أي: ادعه دعاء طمع، وادعه طامعًا في فضله.

وكذلك إذا قلت: ادعه رغبة ورهبة، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعونَ في الخيرَاتِ وَيَدعوننَا رَغَبًا ورَهبًا**﴾ [الأنبياء: ٩٠] كان المراد: ادعه راغبًا وراهبًا، وادعه دعاء رغبة ورهبة.

فتأمل هذا الباب تجده كذلك، فأتى فيه بالمصدر الدال على وصف المأمور به بتلك الصفة؛ وعلى تقييد الفاعل بها، تقييد صاحب الحال بالحال.

ومما يدل على هذا، أنك تجد مثل هذا صالحًا وقوعه جوابًا لكيف، فإذا قيل: كيف أدعوه؟ قيل: تضرعًا وخفية. وتجد اقتضاء كيف لهذا أشد من اقتضاء لم. ولو كان مفعولاً له لكان جوابًا للم، ولايحسن هنا، ألا ترى أن المعنى ليس عليه، فإنه لايصح أن يقال: لِمَ أدعوه؟ فيقول: تضرعًا وخفية. وهذا واضح، ولا هو انتصاب على المصدر المبين للنوع الذي لايتقيد به الفاعل، لما ذكرناه من صلاحيته جوابًا لكيف.

وبالجملة؛ فالمصدرية في هذا الباب لاتنافي الحال؛ بل الإتيان بالحال ههنا بلفظ المصدر يفيد مايفيده المصدر مع زيادة فائدة الحال؛ فهو أتم معنى، ولا تنافي بينهما، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين**﴾، فيه تنبيه ظاهر، على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله: هو رحمته، ورحمته قريب من المحسنين، الذين فعلوا ماأمروا به من دعائه: خوفًا

وطمعًا، فقرب مطلوبكم منكم: وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم: وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم؛ فإن الله هو الغني الحميد، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم. وقوله: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه.

فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان.

ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان؛ فهو السبب في قرب الرحمة منهم.

ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين.

فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة. وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم، لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان، لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان، فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة، بعدًا ببعد، وقربًا بقرب. فمن تقرَّب بالإحسان تقرَّب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله ـ سبحانه ـ يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه الله فرحمته أبعد شيء منه.

والإحسان ههنا هو: فعل المأمور به، سواء كان إحسانًا إلى الناس، أو إلى نفسه. فأعظم الإحسان: الإيمان، والتوحيد، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه: إجلالاً، ومهابة، وحياء، ومحبة، وخشية. فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان، فقال: **«أن تعبد الله كأنك تراه»**.

وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وإنما كتب رحمته للذين: يتقون، ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون رسوله. فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان: و﴿**هَل جَزاءُ الإحسانِ إلاّ الإحْسَانُ**﴾ يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه، قال ابن

عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة. وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي، عن أنس بن مالك، قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] ثم قال: «هل تدرون ماقال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة».

(١)**قوله** سبحانه: ﴿وهو الذي يُرْسِلُ الرياح بُشرىً بينَ يدي رحمته حتى إذا أقلَّت سحابًا ثقالاً سُقناه لبَلَدٍ مَّيِّتٍ فأنْزلنا به الماءَ فأخْرَجنا به مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذٰلِكَ نُخرِجُ الْمَوْتىٰ لعلكم تذكَّرون والبلَدُ الطَّيِّبُ يخرُجُ نَبَاتُهُ بإِذن رَبِّه وَالَّذِي خَبُثَ لايَخرُجُ إلا نَكِدًا كَذٰلِكَ نُصرِّفُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧، ٥٨]. فأخبر سبحانه أنهما إحياءان، وأن أحدهما معتبر بالآخر، مَقِيس عليه، ثم ذكر قياسًا آخر: أن من الأرض مايكون أرضًا طيبةً؛ فإذا أنزلنا عليها الماء أخرجت نباتَهَا بإذن ربها، ومنها ماتكون أرضًا خبيثة، لاتخرج نباتها إلا نَكِدا، أي قليلاً غير منتفع به، فهذه إذا أنزل عليها الماء لم تخرج ماأخرجت الأرض الطيبة، فشبه ـ سبحانه ـ الوحي الذي أنزله من السماء على القلوب بالماء؛ الذي أنزله على الأرض بحصُول الحياة بهذا وهذا، وشَبَّه القلوبَ بالأرض إذ هي محل الأعمال، كما أن الأرض محل النبات، وأن القلب الذي لاينتفع بالوحي، ولايزكوا عليه، ولايؤمن به: كالأرض التي لاتنتفع بالمطر، ولاتخرج نباتها به؛ إلا قليلاً لاينفع، وأن القلب الذي آمن بالوحي، وزكا عليه، وعمل بما فيه: كالأرض التي أخرجت نباتها بالمطر؛ فالمؤمن إذا سَمِعَ: القرآن، وعَقَله، وتَدَبَّرَه، بانَ أثرهُ عليه، فشُبِّه بالبَلَدِ الطيب، الذي يمرع، ويخصب، ويحسن أثر المطر عليه فينبت من كل زوج كريم، والمعرضُ عن الوحي عَكْسهُ، والله الموفق.

(٢)**ويكفي** اللَّبيبَ موعظةً واستبصارًا، ماقصّه الله ـ سبحانه ـ وتعالى عليه في سورة الأعراف في شأن أصحاب الهوى المَذموم تحذيرًا واعتبارًا، فبدأ ـ سبحانه وتعالى ـ بهوىٰ إبليس، الحاملِ له على التكبُّر عن طاعة الله ـ عز وجل ـ في أمره

---

(١) ١٤٠ أعلام جـ١.　　(٢) ٢٠٥ روضة المحبين.

بالسجود لآدم، فحمله هوى النفس وإعجابُه بها عَلَىٰ أن عصىٰ أمره، وتكبَّر عَلَىٰ طاعته، فكان من أمره ما كان. ثم ذكر سبحانه هوى آدم حين رغب في ٱلخلود في ٱلجنة، وحمله هواه عَلَىٰ أن أكل [من] الشجرة ٱلتي نُهِيَ عنها، وكان ٱلحامل له عَلَىٰ ذلك هو ى النفس ومحبتها للخلود، فكان عاقبةُ ذلك الهوى والشهوة إخراجه منها إلى دار التعب والنَّصَب.

وقيل: إنه إنما أكل منها طاعة لحوّاءَ، فحمله حبُّه لها أن أطاعها، ودخل في هواها، وإنما توصَّل إليه عدوه من طريقها ودخل عليه من بابها، فأول فتنة كانت في هذا العالم بسبب النساء.

ثم ذكر [سبحانه] فتنة الكفار، الذين أشركوا به مالم ينزل به سلطانًا، وابتدعوا في دينه مالم يشرعه، وحرموا زينته التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وتعبدوا له بالفواحش وزعموا أنه أمرهم بها، واتَّخَذُوا الشياطين [أَولِيَآءَ] من دونه، والحامل لهم على ذلك كله الهوى والحبُّ الفاسد، وعليه حاربوا رسله، وكذبوا كتبه، وبذلوا أنفسَهم وأموالهم وأهليهم دونه حتى خسروا الدُّنيا والآخرة.

ثم ذكر - سبحانه وتعالى - قصة [قوم] نوحٍ، وما أصارهم إليه ٱلهوى من الغرق في الدنيا ودخول النار في الآخرة. ثم ذكر قصة عادٍ، وما أفضىٰ إليه بهم الهوى من الهلاك الفظيع والعقوبة المستمرة. ثم قصة قوم صالح كذلك. ثم قصة العشاق، أئمة الفساق، وناكحي الذُّكران، وتاركي النسوان، وكيف أخذهم: [وهم] في خوضهم يلعبون، وقطع دابرهم؛ وهم في سكر عشقهم يعمهون، وكيف جمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أمة من الأمم أجمعين، وجعلهم سلفًا لإخوانهم اللُّوطية من المتقدمين والمتأخرين، ولما تجرَّأوا على هذه المعصية ومردوا، ونهجوا لإخوانهم طريقًا، وقاموا بأمرها وقعدوا، ضجّت الملائكة إلى الله من ذلك ضجيجًا، وعجَّت الأرض إلى ربها من هذا الأمر عجيجاً، وهربت الملائكة إلى أقطار السموات، وشكتهم إلى الله جميع المخلوقات، وهو - سبحانه تعالى - قد حكم أنه لايأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم، والتقدم بالوعد والوعيد إليهم، فأرسل إليهم رسوله الكريم، يحذرهم من سوء صنيعهم، وينذرهم عذابه الأليم، فأذّن رسول الله ﷺ بالدعوة على رءوس الملأ منهم

والأشهاد، وصاح بها بين أظهرهم في كل حاضر وباد، وقال، فكان في قوله لهم من أعظم الناصحين: ﴿أتأتونَ الفاحشة ماسبقكم بها من أحدٍ مِنَ العالمين﴾ [الأعراف: ٨٠]. ثم أعاد لهم القول نصحًا وتحذيرًا، وهم في سكرة عشقهم لايعقلون: ﴿إنَّكُمْ لَتَأْتونَ الرِّجال شهوةً من دُونِ النساء بل أنتم قومٌ مسرفون﴾ [الأعراف: ٨١]. فأجابَ العُشّاق جواب من أركِسَ في هواه وغيه؛ فقلبه بعشقه مفتون: و﴿قالوا أخرِجُوا آل لوطٍ من قريتكم إنَّهم أناسٌ يتطهَّرون﴾ [النمل: ٥٦]. فلما أن حانَ الوقت المعلوم، وجاءَ ميقاتُ نفوذ القدر المحتوم، أرسل الرَّحمن ـ تبارك وتعالى ـ لتمام الإنعام والامتحان إلى بيت لوطٍ ملائكةً في صورة البشر، وأجمل مايكون من الصوَّرَ، وجاءوه في صورة الأضياف، النزول بذي الصدر الرحيب، فـ: ﴿سيّءَ بهم وضَاقَ بهم ذرعًا وقال هذا يومٌ عصيبٌ﴾ [هود: ٧٧] وجاء الصريخ إلى اللوطية أن لوطًا قد نزل به شبابٌ لم ينظر إلى مثل حسنهم وجمالهم الناظرون، ولا رأى مثلهم الراؤون، فنادى اللوطية بعضهم بعضًا أن هلُمّوا إلى منزل لوط ففيه قضاء الشهوات، ونيلُ أكبر اللذات: ﴿وجآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨]. فلما دخلوا إليه وهجموا عليه قال لهم وهو كظيم من الهم والغم، وقلبه بالحزن عميد: ﴿ياقوم هَؤُلآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فاتّقوا الله ولاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] فلما سمع اللوطية مقاله، أجابوه جوابَ الفاجر المجاهر العنيد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا في بناتِكَ مِنْ حَقٍّ وإنَّكَ لَتَعْلَمُ مانُريدُ﴾ [هود: ٧٩] فقال لهم لوطٌ مقالة المضطهد الوحيد: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] فلما رأت رسل الله مايقاسي نبيه من اللوطية كشفوا له عن حقيقة الحال، وقالوا: هوِّن عليك، ﴿يالُوطُ إنّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ فسُرّ نبي الله سرورَ المحب، وافاه الفرج بغتةً على يد الحبيب، وقيل له: ﴿فأَسْرِ بأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ولايَلْتَفِتْ مِنكُم أحدٌ إلا امرأتَكَ إنّهُ مُصِيبُهَا مآأَصَابَهُمْ إنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨٠] ولما أبوا إلا مراودته عن أضيافه، ولم يرعوا حقَّ الجار، ضربَ جبريل بجناحه على وجوههم، فطمس منهم الأعينَ، وأعمىَ الأبصار، فخرجوا من عنده عُمْيانًا، يتحسسون ويقولون: «ستعلم غدًا مايحل بك أيها المجنون» فلما انشق عمود الصبح جاء النداء من عند

رب الأرباب: أن اخسف بالأُمة اللوطية، وأذقهم أليم العذاب، فاقتلع القويُّ الأمين جبريل مدائنهم على ريشةٍ من جناحه، ورفعها في الجو، حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، وصياح ديكهم، ثم قلبها، فجعل عاليهَا سافلَها، وأُتبعوا الحجارة من سجيل وهو: الطين المستحجر الشديد، وخوَّف سبحانه إخوانهم على لسان رسوله من هذا الوعيد، فقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَآء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سافِلَهَا وأَمْطَرْنا عَلَيْهَا حجارةً من سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مسوَّمَةً عند ربِّكَ وما هِيَ مِنَ الظالِمِين بِبَعِيدٍ**﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣] فهذه عاقبة اللوطية عُشَّاق الصور، وهم السلف، وإخوانهم بعدهم على الأثر...

...**وكذلك** قومُ شعيب، إنما حملهم على بخس المكيال والميزان فرطُ محبتهم للمال، وغلبهم الهوى على طاعة نبيهم، حتى أُصابهم العذاب.

وكذلك قومُ فرعونَ، حملهم الهوى والشهوة وعشق الرئاسة على تكذيب موسى؛ حتى آل بهم الأمر إلى ما آل.

وكذلك أهل السبت، الذين مُسِخُوا قردةً، إنما أُتُوا من جهة محبة الحيتان، وشهوة أكلها، والحرص عليها.

وكذلك الذي آتاه الرب تبارك وتعالى آياته: ﴿**فانسَلَخَ مِنهَا فأَتْبَعَهَ الشَّيطانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٥] وقال تعالى: ﴿**ولو شئْنَا لَرَفعْنَاه بهَا ولكنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إن تَحمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وتأمل قوله تعالى: ﴿**آتيناه آياتنا**﴾ فأَخبر أن ذلك إنما حصل له بإيتآء الرب له لا بتحصيله هو ثم قال: ﴿**فانْسَلَخَ مِنها**﴾ ولم يقل فسلخناه بل أضاف الإنسلاخ إليه وعبر عن برآءته منها بلفظة الإنسلاخ الدَّالَّة على تخليه عنها بالكلية، وهذا شأنُ الكافر. وأما المؤمن ولو عصى الله [تبارك وتعالى] ما عصاه فإنه لاينسلخ من الإيمان بالكلية، ثم قال: ﴿**فأَتبعه الشيطان**﴾ ولم يقل فتبعه فإن في أَتبعه إعلامًا بأَنه أدركه ولحقه، كما قال تعالى: ﴿**فأَتبعوهم مشرقين**﴾ [الشعراء: ٦٠] أي لحقوهم ووصلوا إليهم. ثم قال: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا**﴾ ففي ذلك دليل [على] أن مجرد العلم لايرفع صاحبه، فهذا قد أخبر الله سبحانه أنه آتاه آياته ولم يرفعه بها، فالرفعة

بالعلم قدرٌ زائدٌ على مجرد تعلمه، ثم أخبر الله ـ عز وجل ـ عن السبب الذي منعه أن يُرفع بها؟ فقال: ولكنه أخلد إلى الأرض، واتَّبع هوَاهُ، وقوله: أَخْلد إلى الأرض، أي: سكن إليها، ونزل بطبعه إليها، فكانت نفسه: أرضية سفلية، لاسماوية علوية، وبحسب مايُخلد العبد إلى الأرض يهبط من السمآء.

قال سهل: قسم الله الأعضاء من الهوى، لكل عضوٍ منه حظًّا فإذا مال عضوٌ منها إلى الهوى رجع ضررُه إلى القلب، وللنفس سبع حجب سماوية وسبع حجب أرضية، فكلما دفن العبد نفسه أرضًا أرضًا؛ سما قلبه سماء سماء، فإذا دفن النفس تحت الثرى، وصل القلب إلى العرش.

ثم ذكر سبحانه مثل المتبع لهواه كمثل الكلب الذي لايفارقه اللهث في حالتي تركه والحمل عليه، فهكذا هذا لايفارقه [اللهث] على الدُّنيا راغبًا وراهبًا.

والمقصود أن هذه السورة من أولها إلى آخرها في ذكر حال أهل الهوى والشهوات، وما آل إليه أمرهم، فالعشق والهوى أصلُ كل بلية. . . . .

. . . [(١)] **قوله** تعالى إخبارًا عن نبيه شعيب أنه قال لقومه: **﴿قَدِ افترينا على اللهِ كَذبًا إن عُدنا في مِلَّتِكُم بعد إذ نجانا اللهُ مِنْها ومايكُون لَنا أن نعودَ فيها إلاَّ أن يشاءَ اللهُ ربُّنَا﴾** [الأعراف: ٨٩] وهذا يبطل تأويل القدرية: المشيئة في مثل ذلك بمعنى: الأمر. فقد علمت أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به؛ ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء، ويهدي من يشاء.

ثم قال شعيب: **﴿وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيءٍ عِلْمًا﴾** فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه، فإن له ـ سبحانه ـ في خلقه علم محيط، ومشيئته نافذة، وراء مايعلمه الخلائق، فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علم آخر، ومشيئة أخرى، وراء علومنا ومشيئتنا، فلذلك رد الأمر إليه.

ومثله قول إبراهيم: **﴿ولا أخافُ ماتُشرِكُونَ بِهِ إلاَّ أنْ يَّشاءَ رَبِّي شَيْئاً وسِعَ رَبِّي كُلَّ شيءٍ علمًا أفلا تَتَذَكَّرُونَ﴾** [الأنعام: ٨٠]. فأعادت الرسل بكمال معرفتها بالله أمورها إلى مشيئة الرب وعلمه؛ ولهذا أمر الله رسوله أن لايقول لشيء

---

(١) ٦٤ شفاء العليل.

إنه فاعله حتى يستثني بمشيئة الله فإنه إن شاء فعله، وإن شاء لم يفعله، وقد تقدَّم تقرير هذا المعنى.

وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد، فهو دليل على القدر، وخلق أفعال العباد، ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد. قال ابن عباس: الإيمان بالقدر نظام التوحيد؛ فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده.

(١)**قال** نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿**وما يكونُ لنا أن نَعُودَ فيها إلا أن يشاء الله ربُّنَا**﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: نحن لانعود في ملتكم، ولا نختار ذلك، إلا أن يشاء الله ربنا شيئًا فينفذ ماشاءه.

وكذلك قال إبراهيم: ﴿**ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربي شيئًا وسعَ ربي كل شيء علمًا**﴾ أي لايقع بي مَخُوف من جهة آلهتكم أبدًا، إلا أن يشاء ربي شيئًا فينفذ ماشاءه، فرد الأنبياء ماأخبروا ألا يكونَ إلى مشيئة الربِّ - تعالى - وإلى علمه استدراكًا واستثناء، أي لايكون ذلك أبدًا، ولكن إن شاءه الله تعالى كان، فإنه تعالى عالم بما لا نعلمه نحن من الأمور التي تقتضيها حكمته وحده.

(٢)فصل

ومن عقوباتها(٣) أنها تمحق: بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة. وبالجملة أنها تمحق: بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصىٰ الله، ومامحيت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: ﴿**ولو أنَّ أهلَ القُرىٰ آمَنُوا واتَّقوا لَفَتَحنا عليهم بَرَكَاتٍ من السَّماءِ والأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿**وَأنْ لَّوِ استقامُوا عَلَى الطَّرِيْقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَّاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيْهِ**﴾(١) [الجن: ١٦]. وأن العبدَ ليحرم الرزقَ بالذنب يصيبه. وفي الحديث: «**أن روح القدس نفث في روعي**(٤)، **أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإنه لاينال ما عند الله إلا**

---

(١) ٧٦ أعلام جـ٤. (٢) ١١١ الجواب الكافي. (٣) أي المعصية.

(٤) الروع بضم الراء: القلب والعقل، يقال: وقع في روعي، أي في خلدي وبالي.

بطاعتـه، وأن الله جعـل الـروح[1]. **والفـرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»** وقد تقدَّم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد: «أنا الله إذا رضـيت باركـت وليس لبركتي منتهى. وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد».

وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ولاطول العمر بكثرة الشهور والأعوام. ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه.

وقـد تقدَّم أن عمر العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله، واشتغل بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه . . . . .

فصــــل[2]

(عظيــم النفــع)

الجهال بالله وبأسمائه وصفاته المعطلون لحقائقها، يُبغِّضون الله إلى خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد إليه بطاعته من حيث لايعلمون.

ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذى عليها. فمنها: أنهم يقررون في نفوس الضعفاء أن الله ـ سبحانه ـ لاتنفع معه طاعة، وإن طال زمانها، وبالغ العبد، وأتى بها بظاهره وباطنه، وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره، بل شأنه ـ سبحانه ـ أن يأخذ المطيع المتقي من المحراب إلى الماخور، ومن التوحيد والمسبحة إلى الشرك والمزمار، ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر. ويروون في ذلك آثـارًا صحيحة لم يفهموها، وباطلة لم يقلها المعصوم. ويزعمون أن هذه حقيقة التوحيد، ويتلون على ذلك قوله تعالى: ﴿**لَايُسْئَلُ عمَّا يَفْعَلُ**﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وقوله: ﴿**أفَأَمِنُوا مَكْرَ الله فلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ القومُ الخَاسِرون**﴾ [الأعراف: ٩٩]. وقوله: ﴿**واعْلَموا أنَّ الله يَحُولُ بين المرءِ وقَلْبِه**﴾ [الأنفال: ٢٣].

ويقيمون إبليس حجة لهم على هذه المعرفة، وأنه كان طاووس الملائكة،

---

(١) الروح: أي الرحمة. (٢) ١٥٨ فوائد.

وأنه لم يترك في السماء رقعة ولا في الأرض بقعة؛ إلا وله فيها سجدة أو ركعة، لكن جنى عليه جاني القدرة، وسطا عليه الحكم، فقلب عينه الطيبة، وجعلها أخبث شيء، حتى قال بعض عارفيهم، إنك ينبغي أن تخاف الله كما تخاف الأسد الذي يثب عليك بغير جرم منك ولا ذنب أتيته إليه، ويحتجون بقول النبي ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة؛ حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**». . . . .

. . . (١)**وهل** في التنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا، ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله لما أتوا بأكثر من هذا، وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر، ويرد على أهل البدع وينصر الدين، ولعمر الله العدو العاقل أقل ضررًا من الصديق الجاهل.

وكتب الله المنزلة كلها، ورسله كلهم شاهدة بضد ذلك؛ ولاسيما القرآن، فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله به الناس إليه، لصلح العالم صلاحًا لا فساد معه؛ فالله سبحانه أخبر ـ وهو الصادق الوفي ـ أنه إنما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم، ولا يخاف(٢) المحسن لديه ظلمًا ولا هضمًا، ولا يخاف بخسًا ولا رهقًا، ولا يضيع عمل محسن أبدًا، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة، ولا يظلمها، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤتى من لدنه أجرًا عظيمًا، وإن كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه، وأنه يجزي بالسيئة مثلها، ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب، ويجزي بالحسنة عشرة أمثالها ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وهو الذي أصلح الفاسدين وأقبل بقلوب المعرضين، وتاب على المذنبين، وهدى الضالين، وأنقذ الهالكين، وعلم الجاهلين، وبصر المتحيرين، وذكَّر الغافلين، وآوى الشاردين، وإذا أوقع عقابًا أوقعه بعد شدة التمرُّد والعتو عليه، ودعوة العبد إلى الرجوع إليه، والإقرار بربوبيته وحثه مرة بعد مرة، حتى إذا أيس من استجابته والإقرار بربوبيته ووحدانيته، أخذه ببعض كفره وعتوه وتمرده بحيث يعذر العبد من نفسه ويعترف

---

(١) ١٦٠ فوائد. (٢) في المطبوعة «ويخاف المحسن» والصواب ماأثبتناه، لأن السياق يقتضي نفي الخوف عن المحسن وليس إثباته. المراجع.

بأنـه سبحـانـه لم يظلمه، وأنه هو الظالم لنفسه، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿فَاعْتَرَفوا بذنبِهِمْ فَسُحقاً لأَصحاب السَّعيرْ﴾ [الملك: ١١]، وقال عمن أهلكهم في الدنيا، إنهم لما رأوا آياته وأحسوا بعذابه، قالوا: ﴿ياوَيْلَنا إنَّا كنّا ظالِمِين فمازَالتْ تِلكَ دَعْواهُم حتى جَعلْنَاهُم حَصِيدًا خَامِدِيْنَ﴾ [الأنبياء: ١٤، ١٥]. وقال أصحاب الجنة التي أفسدها عليهم لما رأوها، قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنا إنَّا كُنَّا ظَالِمِيْنَ﴾

قال الحسن: لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ماوجدوا عليه حجة ولا سبيلًا. ولهـذا قال تعـالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القومِ الَّذينَ ظَلَمُوا والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمِيْنَ﴾ الأنعام :٤٥]. فهذه الجملة في موضع الحال، أي: قطع دابرهم، حال كونه ـ سبحانه ـ محمودًا على ذلك، فقطع دابرهم قطعًا مصاحبًا لحمده، فهو قطع وإهـلاك، يحمـد عليه الـرب تعـالى، لكمال حكمته وعدله ووضعه العقوبة في موضعها، الذي لايليق به غيرها، فوضعها في الموضع الذي يقول من علم الحال، لاتليق العقوبة إلا بهذا المحل، ولايليق به إلا العقوبة، ولهذا قال عقيب إخباره عن الحكم بين عبـاده ومصـير أهـل السعـادة إلى الجنة وأهل الشقاء إلى النار: ﴿وقُضِى بَيْنَهُم بالحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾؛ فحذف فاعل القول إشعارًا بالعموم، وأن الكون كله قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، لما شاهدوا من حكمة الحق وعـدلـه وفضله، ولهـذا قال في حق أهـل النار: ﴿قِيْلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهنَّم﴾ [الزمر: ٧٢]؛ كأن الكون كله يقول ذلك حتى تقوله أعضاؤهم وأرواحهم وأرضهم وسماؤهم، وهـو ـ سبحـانه ـ يخبر أنه أهلك أعداءه وأنجىٰ أولياءه، ولايعمهم بالهلاك بمحض المشيئة.

ولما سأله نوح نجاة ابنه، أخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره، ولم يقل إني أغرقه بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سبب ولا ذنب. وقد ضمن ـ سبحانه ـ زيادة الهداية للمجاهدين في سبيله، ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم.

وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين: الذين يتبعون رضوانه، وأخبر أنه لايضل إلا الفاسقين؛ الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه، وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره على الهدى، فيطبع حينئذ على سمعه وقلبه، وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه إذا جاءه ولم يؤمن به، ودفعه ورده، فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له

على رده ودفعه، لما تحققه وعرفه، وأنه ـ سبحانه ـ لو علم في تلك المحال التي حكم عليها بالضلال والشقاء خيرًا لأفهمها، وهداها، ولكنها لاتصلح لنعمته، ولاتليق بها كرامته. وقد أزاح ـ سبحانه ـ العلل، وأقام الحجج، ومكَّن من أسباب الهداية، وأنه لا يضل إلا الفاسقين والظالمين، ولا يطبع إلا على قلوب المعتدين، ولا يركس في الفتنة إلا المنافقين بكسبهم، وأن الرين الذي غطَّى به قلوب الكفَّار هو عين كسبهم وأعمالهم، كما قال: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ على قُلوبهم مَّاكَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [المطففين: ١٤]، وقال عن أعدائه من اليهود: ﴿**وقَولهم قُلُوبُنَا غُلْفُ بَلْ طَبَعَ اللهُ عليها بكفرهِمْ**﴾ [النساء: ١٥٥].

وأخبر أنه لايضل من هداه حتى يبين له مايتقي، فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى، والغيَّ على الرشاد، ويكون مع نفسه وشيطانه وعدو ربه عليه. وأما المكر الذي وصف به نفسه فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيء بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء؛ لأنه عدل ومجازاة. وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر.

وأما كون «**الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب**»؛ فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملا صالحًا مقبولاً للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه.

وقوله «**لم يبق بينه وبينها إلا ذراع**». يشكل على هذا التأويل، فيقال: لما كان العمل بآخره وخاتمته، لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له، بل كان فيه آفة كامنة، ونكتة خذل بها في آخر عمره، فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة، فرجع إلى موجبها وعملت عملها، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه،(١) لقد أورده مع صدقه فيه وإخلاصه بغير سبب منه يقتضي إفساده عليه، والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض.

وأما شأن إبليس فإن الله ـ سبحانه ـ قال للملائكة: ﴿**إنِّي أعلمُ ما لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فالرب ـ تعالى ـ كان يعلم مافي قلب إبليس من: الكفر، والكبر، والحسد، ما لايعلمه الملائكة، فلما أمروا بالسجود، ظهر ما في قلوبهم

(١) كذا في الأصل ولعل في العبارة تحريفًا أو نقصًا (ج).

من: الطاعة، والمحبة، والخشية، والانقياد، فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوه من: الكبر، والغش، والحسد، فأبىٰ واستكبر، وكان من الكافرين.

وأما خوف أوليائه من مكره، فحق؛ فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلى الشقاء، فخوفهم من ذنوبهم ورجاؤهم لرحمته. وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]؛ إنما هو في حق الفجار والكفار. ومعنى الآية: فلا يعصى ويأمن مقابلة الله له على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون.

والذي يخافه العارفون بالله من مكره، أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال، فيحصل منهم نوع اغترار، فيأنسوا بالذنوب، فيجيئهم العذاب على غرة وفترة.

وأمر آخر؛ وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذكره، فيتخلَّى عنهم إذا تخلوا عن ذكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة، فيكون مكره بهم تخليه عنهم.

وأمر آخر؛ وهو أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم مالا يعلمونه من نفوسهم، فيأتيهم المكر من حيث لايشعرون وأمر آخر؛ أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه، فيفتنون به، وذلك مكر ا هـ.

....(١)**والمقصود:** الفرق بين الحجج والبينات، فنقول: الحجج: الأدلة العلمية، والبينات: جمع بينة، وهي صفة في الأصل يقال: آية بينة، وحجة بينة.

والبينة اسم لكل مايبين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمي.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبيِّناتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالمِيْزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]. فالبينات: الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات؛ والكتاب هو الدعوة. وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وهدًى للعَالِمِينَ. فيه آياتٌ بِّينَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

ومقام إبراهيم: آية جزئية، مرئية بالأبصار. وهو من آيات الله الموجودة في العالم. ومنه قول موسى لفرعون وقومه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَة مِّن رَّبِّكُم فأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسرآئيلَ. قال إنْ كُنتَ جِئْتَ بآيةٍ فأْتِ بهَا إنْ كُنْتَ من الصَّادِقِيْنَ فَألقىٰ عَصَاهُ﴾ [الأعراف: ١٠٥، ١٠٧]. وكان إلقاء العصا وانقلابها حية هو البينة، وقال قوم

---

(١) ١٤٦ مفتاح جـ١.

هود: ﴿ياهود ماجئتنا ببينة﴾ يريدون آية الاقتراح؛ وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسول الله إليهم، فطلب الآية بعد ذلك تعنت واقتراح؛ لايكون لهم عذر في عدم الإجابة إليه.

وهذه هي الآيات التي قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرسِلَ بالآيات إلَّا أنْ كَذَّبَ بها الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] فعدم إجابته ـ سبحانه ـ إليها إذ طلبها الكفّار رحمة منه، وإحسان؛ فإنه جرت سنته التي لاتبديل لها أنهم إذا طلبوا الآية واقترحوها وأجيبوا ولم يؤمنوا عوجلوا بعذاب الاستئصال.

فلما علم سبحانه أن هؤلاء لايؤمنون، ولو جاءتهم كل آية لم يجبهم إلى ماطلبوا، فلم يعمهم بعذاب لما أخرج من بنيهم وأصلابهم من عباده المؤمنين، وإن أكثرهم آمن بعد ذلك بغير الآيات التي اقترحوها، فكان عدم إنزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الرب ورحمته وإحسانه، بخلاف الحجج، فإنها لم تزل متتابعة، يتلو بعضها بعضًا وهي كل يوم في مزيد وتوفي رسول الله ﷺ وهي أكثر ماكانت وهي باقية إلى يوم القيامة.

. . . (١)**قوله**: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكنَا القُرُون مِنْ قَبلِكُم لَمَّا ظَلمُوا وجَاءَتْهم رُسُلُهم بالْبَيِّنات ومَا كانُوا لِيُؤمنُوا﴾ [يونس: ١٣]. الآية. وفي موضع آخر: ﴿تِلكَ الْقُرىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أنبآئِهَا وَلَقَدْ جَآءتهم رُسُلُهُم بالبيِّناتِ فما كَانُوا لِيؤمِنوا بما كذبوا من قبلُ كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على قلوبِ الكافِرِيْنَ﴾. [الأعراف ١٠١].

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال أحدها: قال أبو إسحاق: هذا إخبار عن قوم لايؤمنون كما قال عن نوح: ﴿أنه لن يُؤمِنَ مِنْ قَومِكَ إلَّا مَنْ قد آمَن﴾ [هود: ٣٦]، واحتج على هذا بقوله: ﴿كَذٰلِكَ يَطبعُ اللهُ عَلىٰ قُلوبِ الكافِرِيْنَ﴾ [الأعراف: ١٠١] قال: وهذا يدل على أنه قد طبع على قلوبهم.

وقال ابن عباس: فما كان أولئك الكفّار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذَّبوا يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرهًا وأقروا باللسان وأضمروا التكذيب. وقال مجاهد: فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم. قلت: وهو نظير قوله: ﴿وَلَو رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

(١) ٣١ شفاء العليل.

وقال آخرون: لما جاءتهم رسلهم بالآيات التي اقترحوها وطلبوها ماكانوا ليؤمنوا بعد رؤيتها ومعاينتها؛ بما كذبوا به من قبل رؤيتها ومعاينيها فمنعهم تكذيبهم السابق بالحق لما عرفوه من الإيمان به بعد ذلك، وهذه عقوبة من رد الحق أو أعرض عنه فلم يقبله، فإنه يصرف عنه ويحال بينه وبينه، ويقلب قلبه عنه، فهذا إضلال العقوبة، وهو من عدل الرب في عبده.

وأما الإضلال السابق الذي ضلَّ به عن قبوله أولاً والاهتداء به، فهو إضلال ناشيء عن علم الله السابق في عبده، أنه لايصلح للهدى، ولايليق به، وأن محله غير قابل له. فالله أعلم حيث يضع هداه وتوفيقه، كما هو أعلم حيث يجعل رسالته، فهو أعلم حيث يجعلها أصلاً وميراثًا، وكما أنه ليس كل محل أهلاً لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلى الخلق، فليس كل محل أهلاً لقبولها والتصديق بها، كما قال تعالى: **﴿وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولوا أَهٰؤلآءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْننـا أَلَيْسَ اللهُ بأَعَلَم بالشَّـاكِرِيْنَ﴾** [الأنعام: ٥٣]. أي: ابتلينا واختبرنا بعضهم ببعض، فابتلي الرؤساء والسادة بالاتباع والموالي والضعفاء؛ فإذا نظر الرئيس والمطاع إلى المولى والضعيف إنفة، أنف أن يسلم، وقال: هذا يمنّ الله عليه بالهدى والسعادة دوني. قال الله ـ تعالى ـ: **﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾** وهم الذين يعرفون النعمة وقدرها، ويشكرون الله عليها بالاعتراف والذل والخضوع والعبودية، فلو كانت قلوبكم مثل قلوبهم، تعرفون قدر نعمتي، وتشكروني عليها، وتذكروني بها، وتخضعون لي كخضوعهم، وتحبوني كحبهم لمننت عليكم كما مننت عليهم، ولكن لِمَنِّي ونعمي محال لاتليق إلا بها، ولا تحسن إلا عندها، ولهذا يقرن كثيراً بين التخصيص والعلم، كقوله ههنا: **﴿أَليسَ اللهُ بِأَعْلَم بالشَّاكِرِيْنَ﴾** [الأنعام: ١٢٤] وقوله:[1] **﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ماأوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾** [الأنعام: ١٢٤].

. . [2] **لم يحك الله التطير إلا عن أعداء الرسل كما قالوا لرسلهم: ﴿ إنَّا**

(١) في المطبوعة «إذا جاءتهم» والصواب ماأثبتناه كما في المصحف. المراجع.

(٢) ٢٣١ مفتاح جـ٢.

تَطَيَّرنَا بِكُم لَئِن لم تنتهوا لنرجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عذابٌ أَلِيمٌ. قالوا طائِرُكُم مَّعكُم أئِن ذُكِّرتُم بل أنتم قومٌ مُسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨ ـ ١٩].

وكذلك حكىٰ الله سبحانه عن قوم فرعون فقال: **﴿فَإِذا جاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بموسىٰ ومَنْ مَّعَهُ ألا إنَّما طائِرُهُم عِنْدَ اللهِ﴾** [الأعراف: ١٣١].

حتى إذا أصابهم الخصب والسعة والعافية، قالوا: لنا هذه، أي: نحن الجديرون الحقيقون به، ونحن أهله. وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوه، قالوا: هذا بسبب موسى وأصحابه؛ أصبنا بشؤمهم ونفض علينا غبارهم كما يقوله المتطيِّر لمن يتطير به.

فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده، كما قال ـ تعالى ـ عن أعداء رسوله ﷺ. **﴿وإنْ تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يَقُولوا هٰذِهِ مِنْ عِندِ الله وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذه من عندكَ﴾** [النساء: ٧٨]. فهذه ثلاثة مواضع: حكى فيها التطير عن أعدائه، وأجاب ـ سبحانه ـ عن تطيرهم بموسى وقومه بأن طائرهم عند الله لا بسبب موسى.

وأجاب عن تطير أعداء رسول الله ﷺ بقوله: **﴿قُل كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللهِ﴾**. وأجاب عن الرسل بقوله: **﴿قَالُوا طائِركُم مَّعَكُم﴾** [يس: ١٩]. وأما قوله: **﴿ألا إنَّما طَآئِرهُم عِنْدَ اللهِ﴾** [الأعراف: ١٣١].

فقال ابن عباس طائرهم ماقضى عليهم وقدر لهم. وفي رواية: شؤمهم عند الله، ومن قبله أي: إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

وقال أيضًا: إن الأرزاق والأقدار تتبعكم وهذا كقوله تعالى: **﴿وكُلَّ إنسانٍ ألزمْنَاهُ طائرَهُ فِي عُنقِهِ ونُخْرِجُ له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورًا** [الإسراء: ١٣]. أي مايطير له من الخير والشر، فهو لازم له في عنقه. والعرب تقول: جرى له الطائر بكذا من الخير والشر. قال أبو عبيدة: الطائر عندهم: الحظ، وهو الذي تسميه العامة: البخت يقولون: هذا يطير لفلان أي يحصل له. قلت ومنه الحديث: فطار لنا عثمان بن مظعون أي: أصابنا بالقرعة لما اقترع الأنصار على نزول المهاجرين عليهم.

وفي حديث رويفع بن ثابت حتى أن أحدنا ليطير له النصل والريش، والآخر القدح. أي يحصل له بالشركة في الغنيمة.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وكُلَّ إنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائره في عُنقهِ﴾، أن الطائر ههنا هو العمل. قاله الفراء، وهو يتضمن الرد على نفاة القدر؛ وخص العنق بذلك من بين سائر أجزاء البدن: لأنها محل الطوق الذي يطوقه الإنسان في عنقه، فلا يستطيع فكاكه ومن هذا يقال: إثم هذا في عنقك. وأفعل كذا وإثمه في عنقي. والعرب تقول: طوقها طوق الحمامة، وهذا ربقة في رقبته.

وعن الحسن: ابن آدم لتنظر لك صحيفة؛ إذا بعثت قلدتها في عنقك، فخصوا العنق بذلك؛ لأنه موضع القلادة والتميمة واستعمالهم التعاليق فيها كثير.

كما خصت الأيدي بالذكر في نحو: ﴿بِما كَسَبَتْ أَيْدِيْكُم﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. ونحوه. وقيل: المعنى: أن الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار وهو الذي أصابهم في الدنيا. وقيل: المعنى: أن سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليه مايسوؤهم، ويعاقبون عليهم بعد موتهم بما وعدهم الله ولا طائر أشأم من هذا. وقيل: حظهم ونصيبهم، وهذا لايناقض قول الرسل طائركم معكم أي: حظّكم وما نالكم من خير وشر معكم، بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل ببغيكم وعدوانكم فطائر الباغي الظالم معه وهو عند الله كما قال تعالى: ﴿وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يقولوا هٰذه من عندكَ قُل كلٌّ من عندِ اللهِ فَما لِهؤلآءِ القَوْمِ لايكادُون يَفْقهُونَ حديثًا﴾ [النساء: ٧٨] ولو فقهوا وفهموا لما تطيروا بما جئت به لأنه ليس فيما جاء به الرْسول ﷺ مايقتضي الطيرة، فإنه كله خيرٍ محض لا شر فيه وصلاح لا فساد فيه، وحكمة لا عبث فيها، ورحمة لاجور فيها.

فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا، فإن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والمصلحة والحكمة والرحمة؛ وليس فيما أتيتهم به لو فهموا مايوجب تطيرهم بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصبائهم التي يتناولوها منه بأعمالهم وكسبهم. ويحتمل أن يكون المعنى: طائركم معكم أي: راجع عليكم، فالطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم. وهذا من باب القصاص في الكلام مثل قوله في الحديث: «أخذنا فالك من فيك».

ونظيره قول النبي ﷺ: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم**». **فعلى** هذا معنى طائركم معكم أي: نصيبكم طيرتكم التي تطيرتم بها، لأنهم اعتقدوا الشؤم فيها، ولا شؤم فيها البتة، فقيل لهم: الشؤم منكم، وهو نازل بكم، فتأمَّله.

وهذا يشبه قوله - تعالى -: ﴿**وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُم وَعَندَاللهِ مَكرُهُم وإنْ كَان مَكْرُهُم لِتَزُولَ منهُ الجِبالُ**﴾ [إبراهيم: ٤٦] قيل: جزاء مكرهم عنده؛ فمكر بهم كما مكروا برسله. ومكره تعالى بهم إنما كان بسبب مكرهم، فهو مكرهم عاد عليهم، وكيدهم عاد عليهم. فهكذا طيرتهم عادت عليهم، وحلت بهم وسمي جزاء المكر: مكراً، وجزاء الكيد: كيدًا؛ تنبيهًا على أن الجزاء من جنس العمل.

ولما ذكر سبحانه أن ماأصابهم من حسنة وسيئة أي نعمة ومحنة فالكل منه - تعالى - بقضائه وقدره؛ فكأنهم قالوا: فما بالك أنت تصيبك الحسنات والسيئات كما تصيبنا؟ فذكر - سبحانه - أن ماأصابه من حسنة فمن الله منّ بها عليه، وأنعم بها عليه، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، أي بسبب من قبله أي: لا، لنقض ما جاء به، ولا لشر فيه، ولا لشؤم يقتضى أن تصيبه السيئة؛ بل بسبب من نفسه ومن قبله.

وقد قيل في قوله - تعالى -: ﴿**طائِرُكُم عِند اللهِ بَلْ أنْتُم قومٌ تُفْتَنُونَ**﴾ [النمل: ٤٧]. أن طائرهم ههنا هو السبب الذي يجيء فيه خيرهم وشرهم، فهو عند الله وحده، وهو قدره وقسمه إن شاء رزقكم وعافاكم، وإن شاء حرمكم وابتلاكم.

ومن هذا قالوا: طائر الله لا طائر كلبي، قدر الله الغالب الذي يأتي بالحسنات ويصرف السيئات.

ومنه: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، وعلى هذا فالمعنى: بطائركم: نصيبكم، وحظكم الذي يطيرلكم، ومن فسره بالعمل فالمعنى: طائركم الذي طار عنكم من أعمالكم.

وبهذين القولين فسر معنى قوله تعالى: ﴿**وكُلَّ إنْسَانٍ أَلْزَمناهُ طَائِره في عُنقِهِ**﴾ [الإسراء: ١٣] وأنه ما طار عنه من عمله، أو صار لا زمًا له، مما قضى الله

عليه، وقدر عليه، وكتب له من الرزق والأجل والشقاوة والسعادة.

(١)**فأول** تلاعُب الشيطان بهذه الأمة(٢) في حياة نبيِّها، وقُرب العهد بإنجائهم من فرعون وإغراقه وإغراق قومه، فلما جاوَزُوا البحرَ رأوا قومًا يَعْكُفون عَلَى أصنام لهم. فقالوا: ﴿**ياموسى اجْعَلْ لَنا إلـٰهًا كما لَهُم آلِهَةٌ**﴾. فقال لهم موسىٰ عليه السلام: ﴿**إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجهلُونَ إنَّ هؤلاَءِ مُتَبَّرٌ ماهُمْ فيه وباطلٌ ماكانوا يعملون**﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٣٩]. فأي جهلٍ فوق هذا؟ والعهد قريبٌ، وإهلاك المشركين أمامهم، بِمَرْأىٰ من عيونهم. فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلـٰهًا، فطلبوا من مخلوقٍ أن يجعل لهم إلـٰهًا مخلوقًا. وكيف يكون الإلـٰه مجعولاً؟ فإن الإلـٰه هو الجاعلُ لكلِّ ماسواه، والمجعول مربوبٌ مصنوعٌ، فيستحيل أن يكون إلـٰهًا.

وما أكثر الخلف لهؤلاء في اتخاذ إلـٰه مجعول، فكل من اتخذ إلـٰهاً غير الله فقد اتخذ إلـٰهًا مجعولاً.

وقد ثبت عن النبي ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ: أنه كان في بعض غزواته، فمرُّوا بشجرة يُعَلِّق عليها المشركون أسلحتهم وشاراتِهم وثيابَهم، يسمونها ذاتَ أنواطٍ، فقال بعضهم: يارسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذات أنواط، فقال: الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى: ﴿**اجعل لنا إلـٰهًا كما لهم آلهة**﴾، ثم قال: «لَتَرْكَبُنَّ سَنن من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة».

(٣)**ومن** تلاعب الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيهم أيضًا: ماقصه الله ـ تعالى ـ في كتابه حيث يقول: ﴿**وإذ قُلْتم ياموسىٰ لن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرى الله جَهْرَةً**﴾ [البقرة: ٥٥]. أي أعيانًا. قال ابنُ جرير: ذكَّرهم الله ـ تعالى ـ بذلك اختلاف آبائهم، وسوء استقامةِ أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله مايُثلجُ بأقلها الصدورُ، وتطمئنُّ بالتصديق معها النفوسُ، وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسبوغ النعم من الله ـ تعالى ـ لديهم. وهم مع ذلك مرة يسألون

---

(١) ٢٩٩ إغاثة جـ٢.	(٢) أي اليهود.

(٣) ٣٠٥ إغاثة جـ٢.

نبيِّهم أن يجعل لهم إلـهًا غير الله، ومرة يعبدون العجلَ من دون الله. ومرة يقولون: لا نصدِّقُكَ حتى نرى الله جَهْرة.

وأخرى يقولون له إذا دُعوا إلى القتال: ﴿**ٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّك فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [المائدة: ٢٤]. ومرة يقال لهم: ﴿**قُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا نغفر لكم خَطاياكُمْ**﴾ [البقرة: ٥٨]. فيقولون: «حَبَّة في شعيرةٍ»[1]. ويدخلون من قِبَل أسْتاههم. ومرة يعرض عليهم العمل بالتوراة، فيمتنعون من ذلك، حتى نَتَق الله تعالى عليهم الجبل كأنه ظُلَّة.

إلى غير ذلك من أفعالهم، التي آذوا بها نبيَّهم، التي يكثر إحصاؤها، فأعلم ربنا تباركَ وتعالى الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهودِ بني إسرائيل، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم[2] أنهم لن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم، وجحودهم نبوته، وتركهم الإقرارَ به وبما جاءَ به، مع علمهم به، ومعرفتهم بحقيقة أمره كأسلافهم، وآبائهم الذين قصَّ الله علينا قصصهم.

وقال محمد بن إسحاق: «لما رجع موسى إلى قومه، فرأى ماهم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرَّق العجل وذَرَّاه في اليمِّ، اختار موسى منهم سَبعين رجلًا، الخيِّر فالخيِّر، وقال: انطلقوا إلى الله - عز وجل - فتوبوا إلى الله مما صنعتم، واسألوهُ التوبة على من تركتم وراءَكم من قَومكم، فصوموا وتَطَهَّرُوا، وطهِّروا نِيَّاتِكم[3] فخرج بهم إلى طُور سَيْناء لميقاتٍ وَقَّته له رَبُّه، وكان لايأتيه إلا بإذن منه، فقال له السبعون - فيما ذُكِر لي - حين صنعوا ماأمرهم به، وخرجوا للقاء الله: ياموسى اطلب لنا إلى ربك أن نسمَع كلام رَبِّنا، فقال: أفعلُ، فلما دَنا موسى من الجبل، وقع عليه الغَمام، حتى تغشَّى الجبل كله، ودنا موسى فأدخل فيه، وقال للقوم: آدْنوا وكان موسى عليه السلام إذا كلمه ربُّه وقع على جبهته نورٌ ساطعٌ لا يستطيعُ أحدٌ من بني آدم أنْ ينظر إليه. فضرب دونه

(١) في نسخة «حنطة في شعرة».

(٢) في تفسير ابن جرير «الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله - ﷺ -».

(٣) في نسخة «وطهروا ثيابكم».

بالحجاب، ودنا القومُ، حتى إذا دخلوا في الغَمام وَقَعوا سجودًا، فَسَمعوه تعالى وهـو يكَلِّم نبيه موسى، يأمـره وينهاه: افعلْ، ولاتفعل. فلما فرغ اللهُ من أمره انكشف عن موسى الغمام. فأقبل إليهم. فقالوا لموسى عليه السلام: لَنْ نؤمِنَ لَكَ حتَّى نرى الله جهـرةً. فأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ، فماتُوا جميعًا. وقامَ موسى عليه السلام يُناشِدُ رَبَّهُ ويدْعُوه، ويرغَبُ إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لو شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِنْ قَبْلُ وإيَّايَ أتُهْلِكُنا بما فعَلَ السُّفهَاء مِنَّا﴾[الأعراف: ١٥٥].

فإن قيل: فما مقصودُ موسى بقوله: ﴿لوشئْتَ أهلكْتَهم من قَبْلُ﴾.

فقد ذُكر فيه وجوهٌ.

فقال السُّدي: لما ماتوا قام موسى يبكي، ويقول: يارب، ماذا أقولُ لبني إسرائيل، إذا أتيْتَهُمْ وقد أهلكتَ خيارهم؟

وقال محمد بن إسحاق: اخترتُ منهم سبعين رجلًا، الخيِّر فالخيِّر، آرْجِع إليهم وليس معي منهم رجل واحد؟ فما الذي يُصَدِّقوني به، أو يأمنوني عليه بعد هذا؟

وعلى هذا، فالمعنى: لو شئتَ أهلكتهم من قبـل خروجنـا، فكـان بنو إسرائيل يُعاينون ذلك، ولايتهمونني. وقال الزجاج: المعنى: لو شئت أهلكتهم من قبل أن تبتليهم بما أوجبَ عليهم الرَّجفة.

قلت: وهؤلاء كلهم حامُوا حول المقصود، والذي يظهر ـ والله أعلم بمراده ومراد نبيه ـ: أن هذا استعطافٌ من موسى عليه السلام لرَبِّه، وتوَسُّلٌ إليه بعفوه عنهم من قَبْلُ، حين عبد قومهم العجل، ولم يُنكروا عليهم. يقول موسى: إنهم قد تقَـدَّم منهم مايقتضي هلاكَهُمْ. ومـع هذا فَوَسِعَهم عفْـوُكَ ومغفـرتُـكَ، ولم تُهْلِكْهُمْ، فليسعهم اليوم ماوسعهم من قبل.

وهذا كما يقول مَنْ واخَذَه سيِّدُه بجُرْم: لو شئت واخذتني من قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم، ولكن وسعني عفوك أولًا، فليسعني اليوم. ثم قال نبيُّ الله: ﴿أتُهلِكُنا بما فعلَ السُّفهَاءُ منَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فقال ابن الإنباري وغيره: هذا استفهام على معنى الجَحْد، أي لستَ تفعلُ ذلك. والسفهاء هٰهنا: عبدة العجل.

قال الفرَّاء: ظَنَّ موسى أنهم أُهلِكوا باتخاذِ قومهم العجل، فقال: ﴿أَتُهْلِكُنا بِمافَعَلَ السفهاء منَّا﴾ وإنما كان إهلاكهم بقولهم: ﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

ثم قال: ﴿إن هي إلا فتنَتُكَ﴾ وهذا من تمام الاستعطاف، أي ما هي إلا ابتلاؤك واختبارُك لعبادك، فأنت ابتليتهم وامتحنتهم، فالأمرُ كله لك وبيدك، لا يكشِفه إلا أنت، كما لم يمتحن به ويختبر به إلا أنت، فنحن عائذون بك منك، ولاجئون منك إليك(١).

فصل(٢)

وأما الفتون فهو مصدر فَتَنَه يَفْتِنُه فُتُونًا قال الله تعالى: ﴿وفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] أي: امتحنَّاك واختبرناك. والفِتْنَة يقال عَلَى ثلاثة معانٍ:

أحدها: الامتحان والاختبار ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: امتحانك واختبارُك.

والثاني: الافتتان نفسه، يقال: هذه فِتْنَة فلان. أي: افْتِتَانُه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] يقال أصابته الفِتْنة وفَتَنَتْهُ الدنيا وفتنته المرأةُ وأَفتنته، قال الأعشى:

لئـن فَتَنَتْني لَهْيَ بالأمس أَفتنت		سعيدًا فأضحى قد قَلىٰ كل مسلم

وأنكر الأصمعي أَفتنته.

والثالث: المفتون به نفسهُ يُسمى فتنةً، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أي: لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه.

وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤] فقيل المعنى يحرقون، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظرَ ماجَوْدَته ودينارٌ مفتون.

قال الخليل: والفَتْن الإحراق، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّار

---

(١) ناقش ابن القيم صاحب المنازل هنا مناقشة هامة لمن أرادها (ج).

(٢) ٤٧ روضة المحبين.

يُفْتَنُـونَ﴾ وورِقٌ فَتِـينٌ أي فضـةٌ مُحْرَقَـة. وافْتُتِن الرجل وفُتِن إذا أصابته فتنةٌ فذهب مالُه أو عقلُه. وفَتَنَتْهُ المرأة إذا ولَّهته وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ. إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣] [أي: لا تفتنون عَلَى عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم] فذلك الذي يفتتن بفتنتكم إياه.

وأما قوله [تعالى]: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ. بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦] فقيل الباء زائدة.

وقيل المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب أَنَّ يُبْصِر مُضَمَّنٌ معنى يَشْعُر ويعلم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَسَعُهُمَا الْمَاءُ وَالشَّجَرُ وَيَتَعَاوَنَانِ عَلَى الْفَتَّانِ، يُروى بفتح الفاء وهو واحدٌ وبضمها وهو جمعُ فاتنٍ كتاجرٍ وتُجَّار، والمقصود أن الحب موضع الفتون فما فُتن من فتن إلا بالمحبة.

(١)الباب الخامس والستون

في رؤيتهم ربهم ـ تبارك وتعالى ـ بأبصارهم جهرة كما يرى القمر ليلة البدر، وتجليه لهم ضاحكًا إليهم

هذا الباب: أشرف أبواب الكتاب، وأجلها قدرًا، وأعلاها خطرًا، وأقرها لعيون أهل السنة والجماعة؛ وأشدها على أهل البدعة والضلالة وهي: الغاية التي شمَّر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا ناله أهل الجنة نسوا ماهم فيه من النعيم. وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم: أشد عليهم من عذاب الجحيم.

اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وجميع الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام على تتابع القرون. وأنكرها أهل البدع المارقون، والجهمية المتهوكون، والفرعونية

---

(١) ٢٠٢ حادي الأرواح.

المعطلون، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون، ومن حبل الله منقطعون، وعلى مسبة أصحاب رسول الله عاكفون، وللسنةوأهلها محاربون، ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون، وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون وعن بابه مطرودون، أولئك أحزاب الضلال وشيعة اللعين، وأعداء الرسول وحزبه.

وقد أخبر الله ـ سبحانه ـ عن أعلم الخلق به في زمانه، وهو كليمه ونجيّه وصفيّه من أهل الأرض؛ أنه سأل ربه ـ تعالى ـ النظر إليه، فقال له ربه ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**لَنْ تَرَانِي ولكن انظر إلى الجَبَل فإن استقر مَكَانه فسوفَ تَراني فلمَّا تجلَّى ربُّه للجَبَلِ جَعَلَهُ دكًّا**﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أنه لايظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه: أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل هو من أبطل الباطل، وأعظم المحال. وهو عند فروخ اليونان والصابئة والفرعونية بمنزلة أن: يسأله أن يأكل، ويشرب، وينام، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه.

فيالله العجب! كيف صار اتباع الصابئة والمجوس والمشركين: عباد الأصنام، وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله ـ تعالى ـ من موسى بن عمران، وبما يستحيل عليه، ويجب له، وأشد تنزيهًا له منه؟!!

الوجه الثاني: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالاً لأنكره عليه. ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه ـ تبارك وتعالى ـ أن يريه كيف يحيي الموتى لم ينكر عليه. ولما سأل عيسى ابن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر سؤاله.

ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله، وقال: ﴿**إنِّي أَعظكَ أَنْ تكونَ مِنَ الجاهلِينْ، قال رَبِّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليْس لي به علمٌ وإلَّا تغفر لي وترحمْني أكُنْ من الخَاسِرين**﴾ [هود: ٤٦، ٤٧].

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: لن تراني. ولم يقل: لا تراني، ولا إني لست بمرئي، ولاتجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمّله، وهذا يدل

على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يُرىٰ؛ ولكن موسى لاتحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته ـ تعالى ـ يوضحه.

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿**ولكِنِ انظُر إلى الجبل فإن استقرَّ مَكانَه فَسَوْفَ تَرَاني**﴾ فأعلمه: أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذا الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف؟!

الوجه الخامس: وهو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على أن يجعل الجبل مستقراً مكانه؛ وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن. وقد علَّق به الرؤية، ولو كانت محالاً في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته، ولو كانت الرؤية محالاً لكان ذلك نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف: آكل وأشرب وأنام. فالأمران عندكم سواء.

الوجه السادس: قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ ربه للجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**﴾. وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته ـ تبارك وتعالى ـ فإنه إذا جاز أن يتجلَّى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلَّى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه؟ فأعلم ـ سبحانه وتعالى ـ موسى: أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربه ـ سبحانه وتعالى ـ قد كلَّمه منه إليه، وخاطبه، وناجاه، وناداه. ومن جاز عليه: التكلُّم، والتكليم، وأن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة؛ فرؤيته أولىٰ بالجواز. ولهذا لايتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم، وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين: فأنكروا أن يكلم أحدًا، أو يراه أحد. ولهذا سأله موسى النظر إليه لما أسمعه كلامه، وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه، فلم يخبره باستحالة ذلك عليه، ولكن أراه أن ماسأله لايقدر على احتماله كما لم يثبت الجبل لتجليه. وأما قوله تعالى: ﴿**لن تراني**﴾ فإنما يدل على النفي في المستقبل، ولايدل على دوام النفي، ولو قيدت بالتأبيد؛ فكيف إذا أطلقت؟! قال ـ تعالى ـ: ﴿**ولَنْ يَتَمَنَّوهُ أبدًا**﴾ [البقرة: ٩٥]. مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَنَادَوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**﴾ [الزخرف: ٧٧].

فصل(١)

الدليل الثاني قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّقُوا الله واعْلَمُوا أنَّكُم مُّلاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿تَحيتهُم يَوْمَ يَلْقَونهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَنْ كان يرجُوا لِقاء رَبِّه﴾ [الكهف: ١١٠] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ الَّذِيْنَ يَظُنُّونَ أنَّهُم ملاقُوا الله﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وأجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحي السليم من العمى والمانع اقتضىٰ المعاينة والرؤية.

ولاينتقض هذا بقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِم إلىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَه﴾ [التوبة: ٧٧] فقد دلَّت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه ـ تعالى ـ في عرصات القيامة، بل والكفار أيضًا كما في الصحيحين من حديث التجلي يوم القيامة؛ وسيمر بك عن قريب إن شاء الله تعالى.

وفي هذه المسألة ثلاثة أقوال لأهل السنة. أحدها: أن لا يراه إلا المؤمنون. والثاني: يراه جميع أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار؛ فلا يرونه بعد ذلك. والثالث: يراه المنافقون دون الكفّار. والأقوال الثلاثة في مذهب أحمد وهي لأصحابه، وكذلك الأقوال الثلاثة بعينها لهم في تكليمه لهم، ولشيخنا في ذلك مصنف مفرد، وحكىٰ فيه: الأقوال الثلاثة وحجج أصحابها.

وكذا قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَاأَيُّها الإنْسانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيْهِ﴾ [الانشقاق: ٦] إن عاد الضمير على العمل فهو رؤيته في الكتاب مسطورًا مثبتًا. وإن عاد على الرب ـ سبحانه وتعالى ـ فهو لقاؤه الذي وعد به.

(٢)**وقال** الحسن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتي الَّذِين يتكبَّرون في الأَرْضِ بغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. قال: أمنعهم التفكر فيها.

وقال بعض العارفين: لو طالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقدر في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش، ولم تقر لهم فيها عين.

وقال الحسن: طول الوحدة أتم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة.

---

(١) ٢٠٤ حادي الأرواح. (٢) ١٨٠ مفتاح جـ١.

وقال وهب: ما طالت فكرة أحد قط إلا علم، وما علم أمرؤ قط إلا عمل.
وقال عمر بن عبدالعزيز: الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة.
وقال عبدالله بن المبارك: لبعض أصحابه، وقد رآه مفكراً: أين بلغت؟ قال: الصراط.
وقال بشر: لو فكر الناس في عظمة الله ماعصوه.
وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة بلا قلب.
وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الولاية. والفكرة في الآخرة: تورث الحكمة، وتجلي القلوب.
وقال ابن عباس: التفكُّر في الخير يدعو إلى العمل به.
وقال الحسن إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذِّكر على الفكر، والفكر على الذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة.
ومن كلام الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة. وهذا لأن الفكرة: عمل القلب. والعبادة: عمل الجوارح. والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح.

. . . . (١)**قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُون الرَّسُول النبي الأميَّ الَّذي يجدونه مَكْتوبًا عِنْدَهُمْ في التَّوْراةِ والإنجيل﴾** [الأعراف: ١٥٧]، فوجود الرسول في التوراة والإنجيل ووجود القرآن فيه واحد، فمن جعل وجود كلام الله في المصحف كذلك، فهو أضل من حمار أهله. وقد علم بذلك أنه لايحتاج إلى حذلقة متحذلق يقول: إنه لابد من حذف وإضمار، وتقديره عبارة كلام الله في المصحف أو حكايته؛ فإنك إذا قلت في هذا الكتاب: كلام رسول الله ﷺ أو كلام الشافعي وأحمد، فإن كل أحد يفهم المراد بذلك، ولايتوقف فهمه على حذف وإضمار، كما لايذهب وهمه إلى أن: صفة المتكلم، والقول القائم به، والصوت واللفظ المسموع منه: فارق ذاته، وانفصل من محله، وانتقل إلى محل آخر؛ هذا كله أمر محسوس مشهود، لاينازع فيه من فهمه إلا عنادًا؛ لكن قد لا يفهمه بعض الناس: لفرط

---

(١) ٣٢٠ مختصر الصواعق جـ٢.

بلادة، وعمى قلب، أو غلبة هوى. ومما يوضح هذا أن الله ـ سبحانه ـ كتب مقادير الخلائق، عنده قبل أن يخلق السموات والأرض، كتابًا: مفصلاً، محيطًا بالكائنات. وأخبرنا بذلك في كتابه. فالخبر عنها مكتوب في المصاحف في قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] والإمام هو: الكتاب، ومعلوم قطعًا: إن كتابتها في الكتاب السابق ليس هو مثل كتابتها في القرآن؛ فإن ذلك كتابة مفصلة، وهذا إخبار عنها، فكتابة اسم القرآن في رقٍّ أو غيره؛ ليس هو مثل كتابة معانيه، وإذا كتب كلام المتكلم في كتاب لم تكن الحروف المكتوبة من جنس الحروف الملفوظة، لا من حيث المادة، ولا من حيث الصورة، حتى يقال: انتقلت تلك الحروف بمادتها وصورتها، وحلت في الكتاب، ولايتوهم هذا سليم العقل والحواس.

فصل

وكلام الرب ـ تعالى ـ بل كلام كل متكلِّم تُدرك حروفه وكلماته: بالسمع تارة، وبالبصر تارة، فالسمع نوعان: مطلق ومقيد، فالمطلق ماكان بغير واسطة، كما سمع موسى بن عمران: كلام الرب ـ تعالى ـ من غير واسطة، بل كلمه تكليمًا منه إليه، وكما يسمع جبرائيل وغيره من الملائكة: كلامه وتكليمه سبحانه، وأما المقيد: فالسمع بواسطة المبلغ: كسماع الصحابة، وسماعنا لكلام الله حقيقة بواسطة المبلغ عنه، كما يسمع كلام رسول الله ﷺ بل وكلام غيره: كمالك، والشافعي، وسيبويه، والخليل بواسطة المبلغ، فقوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ [التوبة: ٦] من النوع الثاني، وكذلك قوله: ﴿وإِذَا سَمِعُوا مَاأُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ [المائدة: ٨٣] وقوله في الحديث: «**كأنَّ الناسَ لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه يوم القيامة من الرحمن**». من النوع الأول، ومنه قوله ـ ﷺ ـ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**».

وأما النظر فعلىٰ نوعين أيضًا، فإن المكتوب قد يكتبه غير من يتكلم به، فيكون الناظر إليه ناظرًا إلى الحروف والكلمات بواسطة ذلك الكتاب، وقد يكون المتكلم نفسه كتب كلامه؛ فينظر الناظر إلى حروفه وكلماته التي كتبها بيده، كما

سمع منه كلماته التي تكلم بها، وهذا كما كتب لموسى التوراة بيده بغير واسطة، كما في الحديث الصحيح في قصة احتجاج آدم وموسى، وفي حديث الشفاعة وغير ذلك. فجمع لموسى بين الأمرين أسمعه كلامه بغير واسطة، وأراه إياه بكتابته اهـ.

(١)**الوجه** الثالث والعشرون: أن الأعيان توصف بكونها: طيبة، وخبيثة، ونافعة، وضارة. فكذلك توصف بكونها: حلالاً، وحرامًا. إذ الحل والحرمة تبع طيبها وخبثها وكونها: ضارة، ونافعة. كما قال ـ تعالى ـ:(٢) **﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾** [الأعراف: ١٥٧] ولابد أن يكون الحلال طيباً في نفسه، والحرام خبيثًا في نفسه، فوصفه بكونه حلالاً أو حرامًا جار مجرىٰ وصفه بكونه طيباً أو خبيثًا، ودلالة تحريم العين وتحليلها على الفعل المتعلِّق بها من باب دلالة الالتزام. وقد علمت أن ما يدل بالالتزام لا يقال فيه: إنه محذوف مقدر.

(٣)**وإذا** كان لامعنى عندهم للمعروف إلا ماأمر به؛ فصار معروفًا بالأمر. ولا للمنكر إلا مانهىٰ عنه؛ فصار منكرًا بنهيه فأي معنى لقوله: **﴿يَأْمُرُهُم بِالمعروف وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾**. وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه. وهذا كلام ينزه عنه آحاد العقلاء، وتقر بحسنه الفطر، فأمرهم بما هو معروف في نفسه، عند كل عقل سليم. ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول، بحيث إذا عرض على العقول السليمة أنكرته أشد الإنكار، كما أن ماأمر به إذا عرض على العقل السليم قبله أعظم قبول، وشهد بحسنه. كما قال بعض الأعراب؛ وقد سئل، بم عرفت أنه رسول الله؟ فقال: ماأمر بشيء، فقال العقل: ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال: ليته أمر به. فهذا الأعرابي أعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء. وقد أقرَّ عقله وفطرته بحسن ماأمر به وقبح مانهى عنه؛ حتى كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته.

ولو كان جهة كونه معروفًا ومنكرًا هو الأمر المجرد، لم يكن فيه دليل، بل كان يطلب له الدليل من غيره، ومن سلك ذلك المسلك الباطل لم يمكنه أن

---

(١) ١٠٤ مختصر الصواعق جـ٢. (٢) في المطبوعة «يحل» والصواب ماأثبتناه كما في المصحف. المراجع.

(٣) ٦ مفتاح جـ٢.

يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه.

ومعلوم أن: نفس الدين الذي جاء به، والملة التي دعا إليها من: أعظم براهـين صدقه، وشواهد نبوته. ومن لم يثبت لذلك: صفات وجودية، أوجبت حسنه، وقبول العقول له. ولضده صفات أوجبت قبحه، ونفور العقل عنه؛ لقد سدّ على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة، وجعلها مستدلاً عليه فقط.

ومما يدل على صحة ذلك، قوله ـ تعالى ـ: **﴿ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ ويُحَرِّمُ عليهمُ الخَبَائِثَ﴾**. فهذا صريح في أن: الحلال كان طيباً قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثًا قبل تحريمه. ولم يستفد: طيب هذا، وخبث هذا؛ من نفس الحل والتحريم لوجهين اثنين.

أحـدهما: أن هذا علم من أعـلام نبـوته، التي احتج الله بها على أهل الكتـاب. فقـال: **﴿الَّـذين يَتبعُـونَ الرسولَ النَّبيَّ الأميَّ الذيْ يَجدونَهَ مَكتوبًا عنـدهُم في التَـوراةِ والإنجيلِ يَأْمُرُهُم بالمعروف ويَنْهَاهُم عن المُنكَر ويُحِل لَهُم الـطيِّباتِ ويُحرِّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهُم﴾**[الأعراف:١٥٧]فلو كان الطيب والخبيث إنما استفيد من التحريم والتحليل، لم يكن في ذلك دليل، فإنه بمنزلة أن يقال: يحل لهم مايحل، ويحرم عليهم مايحرم. وهذا أيضًا باطل، فإنه لا فائدة، فيه وهو الوجه الثاني.

فثبت أنه: أحلَّ ماهو طيب في نفسه، قبل الحل، فكساه بإحلاله طيباً آخر، فصار منشأ طيبه من الوجهين معًا، فتأمَّل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار الشريعة، ويشرفك على: محاسنها، وكمالها، وبهجتها، وجلالها. وأنه من الممتنـع في حكمـة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ماوردت به، وأن الله ـ تعالى ـ يتنزه عن ذلك؛ كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به.

. . .[1]**وموسى** عليه السلام كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعـة جلال وقهـر، أُمِرُوا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم: الشحوم، وذوات الظفر، وغيرها من الطيبات، وحرِّمت عليهم: الغنائم، وعجل لهم من العقوبات

(١) ٤٥٧ مدارج جـ٢.

ماعُجِّل، وحُمِّلُوا من الآصار والأغلال، ما لم يحمله غيرهم.

وكان موسى - ﷺ - من أعظم خلق الله: هيبة، ووقارًا. وأشدهم: بأسًا، وغضبًا لله، وبطشًا بأعداء الله. وكان لايُستطاع النظر إليه.

وعيسى ﷺ: كان في مظهر الجمال، وكانت شريعته: شريعة فضل، وإحسان، وكان لايقاتل، ولايحارب، وليس في شريعته قتال ألبتة. والنصارىٰ يحرم عليهم دينهم القتال. وهم به عصاة لشرعه، فإن الإنجيل يأمرهم فيه: أن «من لطمك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر. ومن نازعك ثوبك، فأعطه رداءك، ومن سخرك ميلاً، فامش معه ميلين» ونحو هذا. وليس في شريعتهم مشقة، ولا آصار، ولا أغلال، وإنما النصارى ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم، ولم تكتب عليهم.

وأما نبينا ﷺ: فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك: القوة، والعدل، والشدة في الله، وهذا اللين والرأفة والرحمة، وشريعته أكمل الشرائع، فهو نبي الكمال، وشريعته: شريعة الكمال، وأمته: أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم: أكمل الأحوال والمقامات، ولذلك تأتي شريعته بالعدل: إيجابًا له وفرضًا، وبالفضل: ندبًا إليه واستحبابًا، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندى موضعه، فيذكر الظلم ويحرمه، والعدل ويوجبه، والفضل ويندب إليه في بعض آيات. كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مثلها﴾ [الشورى: ٤٠]. فهذا عدل: ﴿فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجرُهُ عَلَى اللهِ﴾. فهذا فضل: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. فهذا تحريم للظلم، ﴿وإن عَاقَبْتُمْ فعاقِبُوا بِمِثْلِ ماعُوقِبتُم به﴾ النحل: ١٢٦]. فهذا إيجاب للعدل، وتحريم للظلم: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرين﴾ [النحل ١٢٦]. ندب إلى الفضل. وقوله: ﴿وإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُم رُءُوسُ أَمْوَالِكُم لاتظلمون ولا تُظْلَمُون﴾ [البقرة: ٢٧٩]. تحريم للظلم: ﴿وَإِن كانَ ذُو عُسْرَةٍ فنظِرَةٌ إلى مَيْسِرَةٍ﴾ عدل: ﴿وأَنْ تَصدَّقوا خيرٌ لكُم إن كُنتم تعلمون﴾ [البقرة: ٢٨٠]. فضل. وكذلك تحريم ماحرم على أمته صيانة وحِمْية.

حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة، وهداهم لما ضَلَّتْ عنه الأمم قبلهم، ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وكمّل لهم من المحاسن بما فرَّقه في الأمم قبلهم، كما كمّل نبيهم ﷺ من المحاسن بما فرقه في الأنبياء قبله، وكمّل في كتابه من المحاسن بما فرقها في الكتب قبله، وكذلك في شريعته. فهؤلاء «الضنائن» وهم المجتبون الأخيار. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّين مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨] وجعلهم شهداء على الناس، فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم.

وتفصيل تفضيل هذه الأمة وخصائصها يستدعي سِفْرًا، بل أسفارًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

. . . .(١)**وأشكل** على ابن عباس: أَمْرُ الفِرْقة الساكتة، التي لم ترتكب ما نهيت عنه من اليهود: هل عُذِّبوا أو نَجَوْا، حتى بيّن له مولاه عكرمة دخولهم في الناجين دون المعذبين، وهذا هو الحق؛ لأنه ـ سبحانه ـ قال عن الساكتين: ﴿**وإذْ قالت أمَّة منهُم لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا الله مُهْلِكُهُم أو مُعَذِّبُهُم عذابًا شَدِيدًا**﴾ [الأعراف: ١٦٤] فأخبر أنهم أنكروا فعلهم وغضبوا عليهم، وإن لم يواجهوهم بالنهي، فقد واجههم به مَنْ أدّى الواجب عنهم؛ فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فرض كفاية، فلما قام به أولئك سقط عن الباقين، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم.

وأيضًا فإن الله ـ سبحانه ـ إنما عذَّب الذين نسوا ماذُكِّروا به، وعتوا عما نُهُوا عنه، وهذا لايتناول الساكتين قطعا، فلما بيّن عكرمة لابن عباس: أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين؛ كساه بردة وفرح به.

. . .(٢)**ولله** سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته، سوى العبودية العامة التي سوى بين عباده فيها.

فعلى العالم من عبوديته: نشر السُّنَّة، والعلم الذي بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ماليس على غيره.

---

(١) ٣٥٣ أعلام جـ١.　　(٢) ١٥٧ أعلام جـ٢.

وعلى الحاكم من عبودية: إقامة الحق، وتنفيذه، وإلزامه من هو عليه به، والصبر على ذلك، والجهاد عليه ماليس على المفتي.

وعلى الغني من عبودية: أداء الحقوق التي في ماله ماليس على الفقير.

وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما.

وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يومًا في: الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فقالت له امرأة: هذا واجب قد وُضع عنا، فقال: هَبي أنه قد وضع عنكن سلاح اليد واللسان، فلم يوضع عنكن سلاح القلب، فقالت: صدَقت جزاك الله خيرًا.

وقد غر إبليسُ أكثـرَ الخلقِ، بأنْ حَسّنَ لهم القيام بنـوع من: الـذكر، والقـراءة، والصـلاة، والصيام، والـزهـد في الـدنيا، والانقطاع، وعطلوا هذه العبـوديات، فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من: أقل الناس دينًا؛ فإن الدين هو القيام لله بما أمر به، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي؛ فإن تركَ الأمرِ أعظمُ من ارتكاب النهي؛ من أكثر من ثلاثين وجهًا، ذكرها شيخنا رحمه الله في بعض تصانيفه.

ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابه، رأى أن أكثر من يُشار إليهم بالدين، هم أقل الناس دينًا، والله المستعان.

وأي دين، وأيُّ خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله ﷺ يرغب عنها وهو: بارد القلب، ساكت اللسان؟ شيطان أخرس! كما أن المتكلم بالباطل: شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الـذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياسـاتهم، فلا مبـالاة بما جرى على الـدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نوزع في بعض مافيه غضاضة عليه في: جاهه، أو ماله: بذل، وتبذّل، وجدَّ، واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء ـ مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم ـ قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لايشعرون، وهو: موت القلوب؛ [1] فإنّ القلب كلما كانت حياته

---

(١) في المطبوعة «فإنه القلب» والصواب حذف الضمير. المراجع.

أتم، كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل. وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أثرًا أن الله ـ سبحانه ـ أَوْحَىَ إلى مَلِكٍ من الملائكة: أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يارب! كيف وفيهم فلان العابد؟! فقال: به فابدأ؛ فإنه لم يتمعَّر وجهه فيَّ يومًا قط.

وذكر أبو عمر في كتاب التمهيد: أن الله ـ سبحانه ـ أوحى إلى نبي من أنبيائه: أن قل لفلان الزاهد! أما زهدك في الدنيا فقد تعجَّلْت به الراحة، وأما انقطاعك إليَّ، فقد اكتسبت به العز، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك؟ فقال: يارب! وأيُّ شيء لك عليَّ؟ قال: هل وَالَيتَ فيَّ وَليًّا، أو عادَيْتَ فيَّ عدوًّا؟

(١)**كل** من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلابد أن يقول على الله غير الحق في: فتواه، وحكمه في: خبره، وإلزامه، لأن أحكام الرب ـ سبحانه ـ كثيرًا ماتأتي على خلاف أغراض الناس.

ولاسيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات، فإنهم لاتتم لهم أغراضهم؛ إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرًا، فإذا كان العالم والحاكم: محبين للرياسة، متبعين للشهوات، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع مايضاده من الحق، ولاسيما إذا قامت له(٢) شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى، فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحق، وإن كان الحقُّ ظاهرًا: لا خفاء به، ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته، وقال لي مخرج بالتوبة. وفي هؤلاء وأشباههم، قال ـ تعالى ـ: **﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾** [مريم: ٥٩]، وقال ـ تعالى ـ فيهم أيضًا: **﴿فَخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتابَ يأخُذونَ عَرَضَ هذا الأدنىٰ ويقولُونَ سَيُغفرُ لَنَا وإن يَأتِهم عرضٌ مثلُهُ يأخُذوهُ أَلَم يُؤخَذْ عليهم مِيْثَاقُ الكتابِ أن لاَيَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الحقَّ ودَرسُوا مافِيه والدَّار الآخرَةُ خَيْرٌ للذين يتَّقُون أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾** [الأعراف: ١٦٩].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنىٰ، مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك،

---

(١) ٩٨ فوائد. (٢) الضمير هنا راجع للفظ «كل» الأول، لا للعالم والحاكم فليتفطن لذلك.

وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن: ذلك دينه، وشرعه، وحكمه. فتارة يقولون على الله ما لايعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وأما الذين يتقون، فيعلمون أن: الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة، وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها.

هؤلاء لابد أن يبتدعوا في الدين؛ مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران، فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب، فلا يميز بين السنة والبدعة أو ينكسه، فيرى: البدعة سنة، والسنة بدعة؛ فهذه آفة العلماء، إذا آثروا الدنيا، واتبعوا الرياسات والشهوات. وهذه الآيات فيهم إلى قوله: ﴿**وَاتْلُ عَليهم نَبَأَ الذي آتيناهُ آيَاتِنا فانْسَلَخَ منها فأَتْبَعَهُ الشيطانُ فكانَ من الغاوينَ ولو شئنا لرفعنَاهُ بهَا ولَٰكِنَّه أَخْلَدَ إلىٰ الأَرْضِ واتَّبع هواهُ فمثلُهُ كمثلِ الكلبِ إن تحمِل عليه يلهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَث**﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]: فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

(وتأمل) ماتضمنته هذه الآية من ذمه، وذلك من وجوه.

أحدها: أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لايعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة؛ كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿**فأتبعه الشيطان**﴾ ولم يقل: تبعه، فإن في معنى أتبعه: أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظًا ومعنى.

ورابعها: أنه غوى بعد الرشد. والغي: الضلال في العلم، والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ماذكر.

وخامسها: أنه ـ سبحانه ـ لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه،

لأنه لم يرفع به، فصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن خسة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنىٰ على الأشرف الأعلىٰ.

وسابعها: أن اختياره للأدنىٰ لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض، وميل بكليته إلى ماهناك، وأصل الإخلاد: اللزوم على الدوام، كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان، إذا لزم الإقامة به، قال مالك بن نويرة.

بأبنـاء حي من قبـائـل مالك　　　وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله إلى الدنيا: بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هي: الأرض ومافيها، ومايستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه، فجعل هواه إمامًا يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبَّهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات: همة، وأسقطها نفسًا، وأبخلها. وأشدها كلبًا، ولهذا سمي كلبًا.

وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا، وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها، وحرصه على تحصيلها: بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا. هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وعظ وزجر فهو كذلك، فاللهث لايفارقه في كل حال: كلهث الكلب.

قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث، فإنما يلهث من: إعياء، أو عطش؛ إلا الكلب، فإنه يلهث في: حال الكلال، وحال الراحة، وحال الري، وحال العطش. فضربه الله مثلاً لهذا الكافر، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال؛ كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس مايكون وأشنعه. فهذا حال العالم المؤثر الدنيا على الآخرة.

وأما العابد الجاهل فآفته من إعراضه عن: العلم، وأحكامه، وغلبة خياله، وذوقه، ووجده، وماتهواه نفسه، ولهذا قال سفيان بن عيينة، وغيره:

احذروا فتنة العالم الفاجر، وفتنة العابد الجاهل، فإن فتنتهما: فتنة لكل مفتون، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه، وذاك بغيه يدعو إلى الفجور.

وقد ضرب الله ـ سبحانه ـ مثل النوع الآخر بقوله: ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُر فلما كَفَرَ قال إنِّي بريءٌ مِّنْكَ إنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِيْنَ فكان عاقِبَتَهُما أَنَّهُما في النَّارِ خَالِديْن فيها وذلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِيْنَ**﴾ [الحشر: ١٦، ١٧]. وقصته معروفة، فإنه بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل، فأوقعه الشيطان بجهله، وكفّره بجهله، فهذا إمام كل عابد جاهل يكفر ولايدري، وذاك إمام كل عالم فاجر يختار الدنيا على الآخرة.

وقد جعل ـ سبحانه ـ رضا العبد: بالدنيا وطمأنينته، وغفلته عن معرفة آياته، وتدبرها، والعمل بها سبب شقائه وهلاكه، ولايجتمع هذان: أعني الرضا بالدنيا، والغفلة عن آيات الرب، إلا في قلب من لايؤمن بالمعاد ولايرجو لقاء رب العباد، وإلا فلو رسخ قدمه في الإيمان بالمعاد لما رضي الدنيا، ولا اطمأن إليها، ولا أعرض عن آيات الله. وأنت إذا تأمَّلت أحوال الناس، وجدت هذا الضرب هو الغالب على الناس، وهم عمار الدنيا، وأقل الناس عددًا من هو على خلاف ذلك، وهو من أشد الناس غربة بينهم، لهم شأن وله شأن، علمه غير علومهم، وإرادته غير إرادتهم، وطريقه غير طريقهم، فهو في واد، وهم في واد، قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ الَّـذِيْنَ لايرجُون لِقَآءنَا وَرضوا بالحياةِ الدُّنْيا واطمأنُّوا بِهَا والَّذِيْنَ هُم عَنْ آياتِنا غافِلُونَ أولَئِكَ مأوَاهُمُ النَّارُ بِمَا** [(١)] **كانوا يَكْسِبونَ**﴾ [يونس: ٧، ٨].

ثم ذكر وصف ضد هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم، بقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِيْن آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمُ رَبُّهم بإِيْمَانِهِم تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهارُ في جَنَّاتِ النَّعِيم**﴾ [يونس: ٩]. فهؤلاء إيمانهم بلقاء الله أورثهم: عدم الرضا بالدنيا، والطمأنينة إليها، ودوام ذكر آياته، فهذه مواريث الإيمان بالمعاد، وتلك مواريث عدم الإيمان به والغفلة عنه.

[(٢)] **وفي** صحيح الحاكم وغيره من حديث أبي جعفر الرازي، ثنا الربيع بن

---

(١) في المطبوعة «بما يكسبون» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

(٢) ٩ شفاء.

أنس، عن أبي العالية، عن أبيِّ بن كعب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ من ظُهورِهِم (١)ذُرِّيَّتهم﴾ قال جمعهم له يومئذ جمعًا ماهو كائن إلى يوم القيامـة، فجعلهم أزواجًا، ثم صورهم، واستنطقهم، فتكلَّموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم: ﴿ألسْتُ بِرَبِّكُم قالوا بلىٰ شَهِدنا أنْ تَقُولوا يَوْمَ القيامَةِ إنَّا كُنَّا عن هٰذا غافِلينْ﴾ إلى قوله: ﴿المبطلون﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]. قال: «فإني أشهد عليكم: السموات السبع، والأرضين السبع؛ وأشهد عليكم أباكم آدم، أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم، أو تقولوا: إنَّا كنَّا عن هذا غافلين. فلا تشركوا بي شيئًا؛ فإني أرسل إليكم رسلي: يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي. فقـالوا: نشهد أنك: ربنا وإلـٰهنا، لا رب لنا غيرك. ورُفع لهم أبوهم آدم، فرأى فيهم: الغني والفقير، وحسن الصورة وغير ذلك. فقال: رب! لو سويت بين عبـادك فقـال: إني أحب أن أشكـر. ورأى فيهم الأنبياء، مثـل السرج. وذكر تمام الحديث.

وفي صحيحـه وجامع الترمذي من حديث هشام بن يزيد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «**لما خلق الله آدم، مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة؛ هو خالقها إلى يوم القيامة: أمثال الذر، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: من هؤلاء يارب. فقال: هؤلاء ذريتك. فرأىٰ فيهم رجـلًا، أعجبه وبيص مابين عينيه، فقال: يارَبِّ من هذا؟ قال: ابنك داود، يكون في آخر الأمم. قال: كم جعلت له من العمر؟ قال: ستين سنة. قال: يارب زده من عمري أربعين سنة. قال الله: إذًا يكتب ويختم، فلا يبدِّل. فلما انقضىٰ عمر آدم، جاء ه ملك الموت، قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة. قال له: أو لم تجعلها لابنك داود. قال: فجحد، فجحدت ذريته، ونسي، فنسيت، ذريته، وخطيء، فخطئت ذريته**». قال هذا على شرط مسلم.

(٢)**وقـال** تعـالى: ﴿**واتْلُ عليهِم نبأ الذي آتيناه آياتِنَا فانسَلَخَ منها فَأَتبَعَهُ**

---

(١) في المطبوعة «ذرياتهم» والصواب ماأثبتناه كما في المصحف. المراجع. (٢) ٩٢ مفتاح جـ١.

الشَّيطانُ فكان من الغاوين ولو شئنا لَرفعْناهُ بها ولكنَّه أخلدَ إلى الأرضِ واتَّبع هواهُ فَمثَلُهُ كمثَلِ الكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]. قالوا: فهل بعد هذه الآية بيان، فإن هذا آتاه الله آياته، فانسلخ منها، وآثر الضلال والغي. وقصته معروفة، حتى قيل: إنه كان أوتي الاسم الأعظم. ومع هذا فلم ينفعه علمه، وكان من الغاوين؛ فلو استلزم العلم والمعرفة: الهداية لاستلزمه في حق هذا.

(١)**وقوله** تعالى: **﴿وَاتْلُ عَلَيهِمْ نَبأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فانسلخ منها فأتبعُه الشيطانُ فكانَ من الغاوينَ ولو شئنا لرفعناهُ بها ولكنَّه أخْلَدَ إلىٰ الأرضِ واتَّبع هواهُ فمثلُهُ كمثلِ الكَلْبِ إنْ تحمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتركهُ يَلْهَثْ ذٰلِكَ مَثَلُ القومِ الذين كذَّبُوا بآياتِنا فاقْصُصِ القَصَصَ لعلَّهم يَتَفكَّرُون﴾** [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

فشبه سبحانه من آتاه كتابَهُ، وعلَّمه العلم الذي منعه غيرهُ، فترك العمل به، واتبـع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق؛ بالكلب الذي هو مِن أخبَثِ الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأخسِّها نفسًا، وهمته لاتتعدَّى بطنه، وأشدَّها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لايمشي إلا وخطمه في الأرض، يتشمَّم ويستروح حِرْصًا وشرهًا، ولايزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحَجَـر رجـع إليه ليعضـه من فرط نهمتـه(٢)، وهـو من أمهَنِ الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المُروِحَة أحبُّ إليه من اللحم الطري، والعذرة أحبُّ إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها شيئًا، إلا هرَّ عليه(٣) وقهره: لحرصه، وبخله، وشرهه.

ومن عجيب أمره وحرصه: أنه إذا رأى ذا هيئة رثة، وثياب دنية، وحال زرية، نبحه وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة، وثياب جميلة، ورياسة؛ وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه:

---

(١) ١٦٥ أعلام جـ١.
(٢) نهمته: شهوته البالغة إلى الطعام.
(٣) هرَّ عليه: نبحه.

بالكلب في حال لهثه؛ سر بديع، وهو أن هذا الذي حاله ماذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه، إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير: لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه. واللهف، واللهث: شقيقان، وأخوان في اللفظ والمعنى، قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى، فلا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده أنه: ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث؛ وهكذا الذي انسلخ من آيات الله، لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها، فهذا يلهف على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكلَ الثرى من العطش، وإن كان فيه صبر على الجوع؛ وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثًا، يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا، وذلك لشدة حرصه؛ فحرارة الحرص في كبدِه توجبُ له دوامَ اللهث، فهكذا مشبهه شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه، توجب له دوام اللهف، فإن حملت عليه المَوْعِظة والنصيحة فهو يلهف، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف.

قال مجاهد: وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به.

وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تركته لم يهتد إلى خير: كالكلب، إن كان رابضًا لهث، وإن طرد لهث.

وقال الحسن: هو المنافق لايثبت على الحق، دُعِيَ أو لم يُدْعَ، وعِظَ أو لم يوعَظْ: كالكلب يلهث طُرِدَ، أو ترك.

وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه، أو لم تحمل عليه.

وقال أبو محمد بن قتيبة: كل شيء يلهث، فإنما يلهث من: إعياء أو عَطَش؛ إلا الكلب، فإنه يلهث في: حال الكلال، وحال الراحة، وحال الصحة، وحال المرض والعطش، فضربه الله مثلًا لمن كذب بآياته، وقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال: كالكلب، إن طردته لهث، وإن تركته على

حاله لهث، ونظيره قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُم إلى الهُدىٰ لايتَّبِعُوْكُم سوآء عليكم أدَعَوْتُمُوهُم أم أنتم صامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]. وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنى، فمنها قوله: ﴿آتيناه آياتنا﴾ فأخبر ـ سبحانه ـ أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه، ثم قال: ﴿فانسلخ منها﴾ أي خرج منها، كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم، ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي تسبَّب إلى انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها قوله سبحانه: ﴿فاتبعه الشيطان﴾ أي: لحقه وأدركه، كما قال في قوم فرعون: ﴿فاتبعوهم مشرقين﴾ وكان محفوظًا محروسًا بآيات الله، محميَّ الجانب بها من الشيطان، لاينال منه شيئًا إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظَفرَ الأسدِ بفريسته، فكان من: الغاوين العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء، ومنها أنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ فأخبر ـ سبحانه ـ أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي: باتباع الحق، وإيثاره، وقصد مرضاة الله. فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه، ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لاينفع.

وأخبر ـ سبحانه ـ: أنه هو الذي يرفع عبده، إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو: موضوع لايرفع أحدٌ به رأسًا، فإن الخافض الرافع ـ سبحانه ـ خفضه ولم يرفعه، والمعنى: لو شئنا: فضلناه، وشرَّفناه، ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

قال ابن عباس: ولو شئنا لرفعناه بعمله بها. وقالت طائفة: الضمير في قوله (لرفعناه) عائد على الكفر، والمعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكُفْر، بما معه من آياتنا، قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه، وهذا المعنى حق، والأول هو مراد الآية، وهذا من لوازم المراد، وقد تقدم: أن السلف كثيرًا ماينبهون على لازم معنى الآية، فيظن الظان: أن ذلك هو المراد منها.

وقوله: ﴿ولكنه أخْلَد إلى الأرض﴾ قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض،

وقال مجاهد: سكن، وقال مقاتل: رضي بالدنيا، وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ، والمخلد من الرجال: هو الذي يُبْطيء مشيته. ومن الدواب: التي تبقي ثناياه إلى أن تخرج رباعيته، وقال الزجاج: خلد وأخلد، وأصله من الخلود، وهو الدوام والبقاء، ويقال: أخلد فلان بالمكان، إذا أقام به، قال مالك بن نُوَيْرة:

بأبناء حَيٍّ من قبائِلِ مالكٍ وعَمْرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

قلت: ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يَطُوفُ عليهم ولدانٌ مخلَّدون**﴾ [الواقعة: ١٧]. أي قد خلقوا للبقاء؛ لذلك لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم على سن واحد أبدًا.

وقيل: هم المقرَّطون في آذانهم، والمسوَّرون في أيديهم، وأصحاب هذا القول، فسَّروا اللفظة ببعض لوازمها، وذلك أمارة التخليد على ذلك السن، فلا تنافي بين القولين. وقوله: ﴿**واتَّبَعَ هواه**﴾ قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور، وترك معاليها. وقال أبو روق: اختار الدنيا على الآخرة، وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه. وقال ابن دُرَيد: كان هواه مع القوم، يعني: الذينَ حاربوا موسى وقومه. وقال يمان: اتبع امرأته لأنها هي التي حملته على مافعل.

فإن قيل: الاستدراك بلكن يقتضي أن يثبت بعدها ما نفي قبلها، أو ينفي ماأثبت، كما تقول: لو شئت لأعطيته؛ لكني لم أعطه. ولو شئت لما فعلت كذا؛ لكني فعلته؛ فالاستدراك يقتضي: ولو شئنا لرفعناه بها، ولكننا لم نشأ، أو لم نرفع، فكيف استدرك بقوله: ﴿**ولكنه أخلد إلى الأرض**﴾ بعد قوله: ﴿**ولو شئنا لرفعناه بها**﴾؟

قيل: هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى، المعدول فيه عن مُرَاعاة الألفاظ إلى المعاني، وذلك أن مضمون قوله: ﴿**ولو شئنا لرفعناه بها**﴾ أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات من: إيثار الله، ومرضاته على هَوَاه، ولكنه آثرَ الدنيا، وأخلد إلى الأرض، واتَّبع هواه.

. . . .[1]**وقال تعالى ﴿ولقد ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كثيراً من الجن والإنس لَهُم قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُون بها ولهم أعينٌ لايُبْصِرُونَ بها ولهم آذانٌ لايَسْمَعُونَ بِهَا﴾**. [الأعراف: ١٧٩]

---

(١) ١٠١ مفتاح جـ١.

ولما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس، كانوا بمنزلة فاقديها. قال ـ تعالى ـ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يعقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] فالقلب يوصف: بالبصر، والعمىٰ، والسمع، والصمم، والنطق، والبكم؛ بل هذه له أصلاً، وللعين والأذن واللسان تبعا، فإذا عدمها القلب فصاحبه أعمى، وإن كان مفتوح العين، أصم ولا آفة بإذنه، أبكم وإن كان فصيح اللسان، قال ـ تعالى ـ: ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ فلا تنافي بين قيام الحجة بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والختم والقفل على قلوب من لايعمل بموجب الحجة، وينقاد لها.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِذَا قَرأتَ القُرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وبَيْنَ الذين لايُؤمنونَ بالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُوراً وجعلنا على قُلُوبِهم أَكِنَّةً أنْ يَّفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ في القرآنِ وحدَهُ وَلَّوا على أدبْارِهم نُفورا**﴾ [الإسراء: ٤٦]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه منعهم فقه كلامه وهو الإدراك الذي ينتفع به من فقهه، ولم يكن ذلك مانعا لهم من الإدراك الذي تقوم به الحجة عليهم؛ فإنهم لو لم يفهموه جملة ماولوا على أدبارهم نفورًا عند ذكر توحيد الله؛ فلما ولوا عند ذكر التوحيد، دلّ على أنهم كانوا يفهمون الخطاب وأن الذي غشي قلوبهم: كالذي غشي آذانهم، ومعلوم أنهم لم يعدموا السمع جملة، ويصيروا كالأصم.(١)

قاعدة جليلة(٢)

ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: مايرجع إلى قاعدة نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود، وشيء.

الثاني: مايرجع إلى صفات معنوية: كالعليم والقدير، والسميع.

الثالث: مايرجع إلى أفعاله نحو: الخالق، والرزاق.

الرابع: مايرجع إلى التنزيه المحض، ولابد من تضمنه ثبوتًا؛ إذ لا كمال في العدم المحض: كالقدوس السلام.

---

(١) استمر البحث وتطرق في آخره لتقسيم خطاب الله لأهل الكتاب. (ج).

(٢) ١٥٩ بدائع جـ١.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس: وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة، لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه، لا على معنى مفرد، نحو: المجيد، العظيم، الصمد. فإن المجيد من: اتصف بصفات متعددة، من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا. فإنه موضوع: للسعة، والكثرة، والزيادة. فمنه: استمجد المرخ، والغفار، وأمجد الناقة علفًا. ومنه: ﴿ذُوْ[1] الْعَرْشِ الْمَجِيْدُ﴾ [البروج: ١٥]. صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله، كما علمناه ﷺ لأنه في مقام: طلب المزيد، والتعرُّض لسعة العطاء، وكثرته، ودوامه. فأتىٰ في هذا المطلوب باسم يقتضيه كما تقول: اغفر لي، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم. ولايحسن أنك: أنت السميع البصير. فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته؛ وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه. ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي: «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**». ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد: لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام**». فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده وأنه الذي لا إله إلا هو المنان. فهو توسل إليه، بأسمائه وصفاته، وماأحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند المسئول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله.

ولنرجع إلى المقصود وهو: وصفه ـ تعالى ـ بالاسم المتضمن لصفات عديدة.

فالعظيم: من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال. وكذلك الصمد. قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده. وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهىٰ سؤدده. وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد. وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء. وقال ابن الانباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن: الصمد: السيد الذي ليس فوقه أحد: الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم.

واشتقاقه يدل على هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد

---

(١) في المطبوعة «رب العرش» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد. وهذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بكـر النـاعي بخـير بني أسـد		بعمرو بن يربوع وبالسيد الصمد

والعرب تسمي أشرافها: بالصمد لاجتماع قصد القاصدين إليه، واجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد. وهكذا عامة الصفات المقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن.

فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك. واجتماع الغنى مع الحمد: كمال آخـر، فله ثنـاء من غنـاه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم. فتأمَّله: فإنه من أشرف المعارف.

وأما صفات السلب المحض: فلا تدخل في أوصافه تعالى؛ إلا أن تكون متضمنة لثبوت: كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهٰية، والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله. وكذلك الإخبار عنه بالسلوب، هو لتضمنها ثبوتًا: كقوله تعالى: ﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياتـه وقيوميتـه. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿**ومامسنا من لغوب**﴾ [قٓ: ٣٨] متضمن لكمال قدرته. وكذلك قوله: ﴿**وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة**﴾ [يونس: ٦١] متضمن لكمال علمه. وكذلك قوله: ﴿**لم يلد ولم يولد**﴾ متضمن لكمال صمديته وغناه وكذلك قوله: ﴿**ولم يكن له كُفُواً أحد**﴾ متضمن لتفرده بكماله، وأنه لانظير له. وكذلك قوله تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَار**﴾ [الأنعام: ١٠٣]. متضمن لعظمته، وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ماوصف به نفسه من السلوب.

ويجب أن يعلم هنا أمور:

أحدها: أن مايدخل في باب الإخبار عنه تعالى؛ أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته: كالشيء الموجود والقائم بنفسه؛ فإنه يخبر به عنه، ولايدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص؛ لم تدخل بمطلقها

في أسمائه؛ بل يطلق عليه منها كمالها، وهذا: كالمريد، والفاعل، والصانع؛ فإن هذه الألفاظ لاتدخل في أسمائه؛ ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق؛ بل هو الفعّال لما يريد. فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة؛ ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلاً وخبراً.

الثالث: أنه لايلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا؛ أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين، فجعل من أسمائه الحسنى: المضل، الفاتن، الماكر تعالى الله عن قوله؛ فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه ـ سبحانه ـ منها إلا أفعال مخصوصة معينة؛ فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة، والله أعلم.

الرابع: أن أسماءه الحسنىٰ هي: أعلام، وأوصاف، والوصف بها لاينافي العلمية بخلاف أوصاف العباد؛ فإنها تنافي علميتهم؛ لأن أوصافهم مشتركة فنافتها العلمية المختصة بخلاف أوصافه تعالى.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات: دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمُّن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنىٰ لها اعتباران اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول؛ مترادفة، وبالاعتبار الثاني؛ متباينة.

السابع: أن مايطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، ومايطلق عليه من الأخبار؛ لايجب أن يكون توقيفيًا كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه: هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض مالم يرد به السمع؟

الثامن: أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل؛ فيخبر به عنه فعلاً ومصدراً نحو: السميع البصير القدير، يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو: ﴿قَد سَمِعَ اللهُ﴾ [المجادلة: ١]. ﴿وقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُوْنَ﴾ [المرسلات: ٢٣]. هذا إن كان الفعل متعديًا، فإن كان لازمًا لم يخبر عنه به نحو: الحي؛ بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال: حيي.

التاسع: أن أفعال الرب ـ تبارك وتعالى ـ صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم. فالرب ـ تبارك وتعالى ـ فعاله عن كماله، والمخلوق

كماله عن فعاله؛ فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل، فالرب لم يزل كاملاً؛ فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله: كمل ففعل، والمخلوق فعل، فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنىٰ والعلم بها؛ أصل للعلم بكل معلوم.

فإن المعلومات سواه: إما أن تكون خلقًا له تعالى أو أمرًا. إما علم بما كونه، أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنىٰ، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى، وهذا كله حسن لايخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه. فأمره كله: مصلحة، وحكمة، ورحمة، ولطف، وإحسان؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى. وفعله كله لايخرج عن: العدل، والحكمة، والمصلحة، والرحمة؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سدى ولا عبثًا.

وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده، فوجود من سواه تابع لوجوده تبع المفعول المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها؛ أصل للعلم بكل ماسواه.

فالعلم بأسمائه وإحصاؤها؛ أصل لسائر العلوم. فمن أحصىٰ أسماءه كما ينبغي للمخلوق؛ أحصىٰ جميع العلوم؛ إذ إحصاء أسمائه؛ أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها.

وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى؛ ولهذا لاتجد فيها خللاً ولا تفاوتًا؛ لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله: إما أن يكون لجهله به، أو لعدم حكمته. وأما الرب تعالى؛ فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض.

الحادي عشر: أن أسماءه كلها حسنىٰ، ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً.

وقد تقدم أن من أسمائه مايطلق عليه باعتبار الفعل، نحو: الخالق، والرازق، والمحيي، والمميت. وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها؛ لأنه لو فعل الشر؛ لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنىٰ، وهذا باطل، فالشر ليس إليه. فكما لايدخل في صفاته ولايلحق ذاته؛ لا يدخل في

أفعاله. فالشر ليس إليه؛ لايضاف إليه فعلاً ولا وصفًا، وإنما يدخل في مفعولاته، وفرق بين الفعل والمفعول فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله.

فتأمل هذا فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام وضلَّت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قطب السعادة، ومدار النجاة والفلاح. المرتبة الأولىٰ: إحصاء ألفاظها وعددها. المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها. المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الحُسْنَىٰ فَادْعوه بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وهو مرتبتان:

إحداهما: دعاء ثناء وعبادة.

والثاني: دعاء طلب ومسألة، فلا يثني عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلىٰ، وكذلك لايسأل إلا بها، فلا يقال: ياموجود، أو ياشيء، أو ياذات اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب؛ فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم.

ومن تأمَّل أدعية الرسل، ولا سيما خاتمهم وإمامهم؛ وجدها مطابقة لهذا.

وهذه العبارة أولىٰ من عبارة من قال: يتخلَّق بأسماء الله، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإلـه على قدر الطاقة.

وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان، وهي التعبد.

وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن، وهي الدعاء المتضمِّن للتعبُّد والسؤال. **فمراتبها** أربع: أشدَّها إنكارًا عبارة الفلاسفة وهي التشبه، وأحسن منها عبارة من قال التخلُّق، وأحسن منها عبارة من قال التعبُّد. وأحسن من الجميع الدعاء، وهي لفظ القرآن.

الثالث عشر: اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد: كالحي، والسميع، والبصير، والعليم، والقدير، والملك، ونحوها.

فقالت: طائفة من المتكلمين: هي حقيقة في العبد، مجاز في الرب. وهذا قول غلاةالجهمية، وهو أخبث الأقوال وأشدّها فسادًا.

الثاني: مقابله وهو أنها: حقيقة في الرب مجاز في العبد، وهذا قول أبي العباس الناشي.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول أهل السنة وهو الصواب. واختلاف الحقيقتين فيهما لايخرجها عن كونها حقيقة فيهما.

وللرب تعالى منها مايليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به. وليس هذا موضع التعرُّض لمأخذ هذه الأقوال وإبطال باطلها وتصحيح صحيحها، فإن الغرض الإشارة إلى أمور ينبغي معرفتها في هذا الباب، ولو كان المقصود بسطها؛ لاستدعت سفرين أو أكثر.

الرابع عشر: أن الاسم والصفةمن هذا النوع له ثلاثة اعتبارات: اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد. الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلى الرب مختصًا به. الثالث: اعتباره مضافًا إلى العبد مقيدًا به، فما لزم الاسم لذاته وحقيقته؛ كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه مايليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به.

وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات، والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم والقدير وسائر الأسماء؛ فإن شرط صحة إطلاقها؛ حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها، فإثباته للرب تعالى؛ لا محذور فيه بوجه؛ بل ثبتت على وجه لايماثله فيه خلقه ولايشابههم.

فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق؛ ألحد في أسمائه، وجحد صفات كماله. ومن أثبته له على وجه يماثل فيه خلقه؛ فقد شبهه بخلقه؛ ومن شبه الله بخلقه؛ فقد كفر. ومن أثبته له على وجه لايماثل فيه خلقه؛ بل كما يليق بجلاله وعظمته؛ فقد برىء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

ومالزم الصفة لإضافتها إلى العبد؛ وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة، والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك. وكذلك مايلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ماينتفع به، ودفع مايتضرر به. وكذلك مايلزم علوه من احتياجه إلى ماهو عال عليه، وكونه محمولاً به مفتقرًا إليه، محاطًا به. كل هذا يجب نفيه عن: القدوس السلام تبارك وتعالى.

ومالزم صفة من جهة اختصاصه ـ تعالى ـ بها، فإنه لايثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن مايختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرًا، وعقلتها كما ينبغي؛ خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة التعطيل، وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور؛ أثبت لله الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ حقيقة؛ فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم فخلصت من التشبيه. فتدبَّر هذا الموضع واجعله (١)أخيَّتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب.

الخامس عشر: أن الصفة متى قامت بموصوف؛ لزمها أمور أربعة: أمران لفظيان، وأمران معنويان. فاللفظيان ثبوتي وسلبي. فالثبوتي: أن يشتق للموصوف منها اسم. والسلبي: أن يمتنع الاشتقاق لغيره والمعنويان ثبوتي وسلبي. **فالثبوتي**: أن يعود حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه والسلبي: أن لايعود حكمها إلى غيره، ولايكون خبرًا عنه، وهي قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات.

فلنذكر من ذلك مثالاً واحدًا، وهو صفة الكلام، فإنها إذا قامت بمحل كانت هو المتكلم دون من لم تقم به، وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال وأمر ونهى ونادىٰ وناجىٰ وأخبر وخاطب وتكلم وكلَّم، ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره؛ فيستدل بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به، وبسلبها عن غيره على عدم قيامها به. وهذا هو أصل السنة الذي ردوا به على المعتزلة والجهمية، وهو من أصح الأصول طردًا وعكسا.

السادس عشر: أن الأسماء الحسنىٰ لاتدخل تحت حصر، ولا تحد بعدد؛ فإن الله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما في الحديث الصحيح: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت**

(١) في المطبوعة «جُنَّتك» ولعل الصواب ماأثبتناه لدلالة الكلام بعدها (ج).

به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك».

فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سمَّى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه. وقسم أنزل به كتابه فتعرف به إلى عباده. وقسم استأثر به في علم غيبه، فلم يطلع عليه أحد من خلقه؛ ولهذا قال: «**استأثرت به**» أي: انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمي به؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه.

ومن هذا قول النبي، ﷺ، في حديث الشفاعة: «**فيفتح عليَّ من محامده بما لا أحسنه الآن**»، وتلك المحامد هي تفي بأسمائه وصفاته، ومنه قوله، ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**». وأما قوله، ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها؛ دخل الجنة**» فالكلام جملة واحدة. وقوله: «**من أحصاها؛ دخل الجنة**». صفة، لا خبر مستقل.

والمعنى: له أسماء متعددة، من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة.

وهذا لاينفي أن يكون له أسماء غيرها. وهذا كما تقول: لفلان مائة مملوك قد أعدَّهم للجهاد، فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه.

السابع عشر: أن أسماءه تعالى، منها مايطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره، وهو غالب الأسماء، كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يدعا به مفردًا ومقترنًا بغيره، فتقول: ياعزيز ياحليم ياغفور يارحيم، وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه به يسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده؛ بل مقرونًا بمقابله: كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله فإنه مقرون: بالمعطي والنافع والعفوّ، فهو المعطي المانع الضار النافع، المنتقم العفوّ، المعز المذل؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم: عطاء ومنعًا، ونفعًا وضرًا، وعفوًا وانتقامًا. وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ.

فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد، الذي

يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرىٰ الاسم الواحد؛ ولذلك لم تجيء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة فاعلمه. فلو قلت: يا مذل ياضار يامانع وأخبرت بذلك؛ لم تكن مثنيًا عليه، ولا حامدًا له حتى تذكر مقابلها.

الثامن عشر: أن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لاتقتضي كمالاً ولا نقصًا، وإن كانت القسمة التقديرية؛ تقتضي قسمًا رابعًا وهو ما يكون كمالاً ونقصًا باعتبارين.

والرب تعالى منزه عن الأقسام الثلاثة، وموصوف بالقسم الأول، وصفاته كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله.

وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته، هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء؛ أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها، وتفسير الاسم منها بغيره؛ ليس تفسيرًا بمرادف محض؛ بل هو على سبيل التقريب والتفهيم.

وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال؛ أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى، وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص. فله من صفة الإدراكات: العليم الخبير، دون العاقل الفقيه، والسميع البصير، دون السامع والباصر والناظر. ومن صفات الإحسان: البر الرحيم الودود، دون الرفيق والشفوق ونحوهما.

وكذلك العلي العظيم، دون الرفيع الشريف. وكذلك الكريم، دون السخي، والخالق الباريء المصور، دون الفاعل الصانع المشكل، والغفور العفو، دون الصفوح الساتر.

وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها، وما لا يقوم غيره مقامه فتأمَّل ذلك، فأسماؤه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا تعدل عما سمى به نفسه إلى غيره، كما لاتتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، إلى ماوصفه به المبطلون والمعطلون.

التاسع عشر: أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالاً على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولاً لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كما تقدَّم بيانه كاسمه: العظيم، والمجيد، والصمد.

كما قال ابن عباس، فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: الصمد السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه، هذه صفته لاتنبغي إلا له ليس له كفوًا أحد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهّار. هذا لفظه، وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطىٰ الكلام في تفسير الأسماء الحسنى؛ ففسَّر الاسم بدون معناه ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يحط بهذا علمًا؛ بخس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه. فتدبره.

العشرون: وهي الجامعة لما تقدَّم من الوجوه، وهومعرفة الإلحاد في أسمائه حتى لايقع فيه. قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادته [ل ح د] فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر، الذي قد مال عن الوسط. ومنه الملحد في الدِّين، المائل عن الحق إلى الباطل.

قال ابن السكيت: الملحد: المائل عن الحق المدخل فيه ماليس منه.

ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك وقوله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا**﴾ [الكهف: ٢٧] أي: من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجىء إليه، وتبتهل إليه فتميل إليه عن غيره. تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإلٰهية، والعزىٰ من العزيز. وتسميتهم الصنم إلـٰهًا، وهذا إلحاد حقيقة؛ فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارىٰ له أباً، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدَّس من النقائص، كقول أخبث اليهود:

إنـه فقير. وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه. وقولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وأمثال ذلك، مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لاتتضمن صفات ولا معاني؛ فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة له، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام، ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً، وشرعًـا، ولغـة، وفـطرة، وهـو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه.

ثم الجهمية وفـروخهم متفـاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب، وكل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله؛ فقد ألحدَ في ذلك؛ فليستقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عما يقول المشبهون علوًّا كبيرًا. **فهذا** الإلحـاد في مقـابلة إلحـاد المعـطلة، فإن أولئـك نفـوا صفـة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله؛ فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفـظًا ولا معنىً؛ بل أثبتـوا له الأسـماء والصفـات، ونفـوا عنـه مشـابهـة المخلوقات، فكان إثباتهم بريًّا من التشبيه، وتنزيههم خليًّا من التعطيل، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنمًا، أو عطّل حتى كأنه لايعبد إلا عدمًا.

وأهل السنة وسط في النحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء. فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره، ويسهل لنا السبيل إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله إنه قريب مجيب(١).

(١) من هنا إلى آخره لم يوجد في المحطوطة.

فهذه عشرون فائدة مضافة إلى القاعدة التي بدأنا بها في أقسام مايوصف به الرب تبارك وتعالى، فعليك بمعرفتها ومراعاتها، ثم اشرح الأسماء الحسنىٰ إن وجدت قلبًا عاقلاً، ولسانًا قائلاً، ومحلاً قابلاً، وإلا فالسكوت أولىٰ بك. فجناب الربوبية؛ أجل وأعزّ مما يخطر بالبال، أو يعبر عنه المقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. حتى ينتهي العلم إلى من أحاط بكل شيء علمًا.

وعسى الله أن يعين بفضله على تعليق شرح الأسماء الحسنىٰ مراعيًا فيه أحكام هذه القواعد، بريئًا من الإلحاد في أسمائه وتعطيل صفاته، فهو المانّ بفضله، والله ذو الفضل العظيم.

. . (١) **قلت**: أسماء الرب تعالى، هي أسماء ونعوت؛ فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه، لا تنافي اسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة؛ جرىٰ تابعًا على اسم الله، ومن حيث هو اسم؛ ورد في القرآن غير تابع؛ بل ورود الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصًا به تعالى؛ حسن مجيئه مفردًا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك، وهذا لاينافي دلالته على صفة الرحمن، كاسم الله، فإنه دال على صفة الألوهية، ولم يجيء قط تابعًا لغيره؛ بل متبوعًا، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها؛ ولهذا لاتجيء هذه مفردة، بل تابعة.

فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لاينافي أحدهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعًا.

وأما الجمع بين الرحمن الرحيم؛ ففيه معنىٰ هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلُّقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمَّل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] ولم يجئْ قط: رحمن بهم؛ فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم

---

(١) ٢٤ بدائع جـ١.

برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك؛ لم ينجل لك صورتها.

(١)**الوجه** الرابع والعشرون: أنه ليس في القرآن صفة إلا وقد دلَّ العقل الصريح على إثباتها لله تعالى، فقد تواطأ عليها دليل العقل والسمع، فلا يمكن أن يعارض ثبوتها دليل صحيح ألبتة، لا عقلي ولا سمعي؛ بل إن كان المعارض سمعيًّا؛ كان كاذبًا مفترىً أو مما أخطأ المعارض به في فهمه. وإن كان عقليًّا؛ فهي شبهة خيالية.

واعلم أن هذه دعوى عظيمة ينكرها كل جهمي وناف وفيلسوف، ويعرفها من نوّر الله قلبه بالإيمان، وباشر قلبه معرفة الذي دعت إليه الرسل وأقرت به الفطر، وشهدت به العقول الصحيحة المستقيمة لا المنكوسة المركوسة.

وقد نبَّه سبحانه في كتابه على ذلك في غير موضع، وبين أن ماوصف به نفسه هو الكمال الذي لايستحقه سواه، فجاحده جاحد لكمال الرب تعالى. فإنه تمدح بكل صفة وصف بها نفسه، وأثنىٰ بها على نفسه، ومجد بها نفسه، وحمد بها نفسه، فذكرها سبحانه على وجه المدحة له والتعظيم والتمجيد، وتعرف بها إلى عباده؛ ليعرفوا كماله ومجده وعظمته وجماله. وكثيراً مايذكرها عند ذكر آلهتهم التي عبدوها من دونه، فذكر سبحانه من صفات كماله وعلوه على عرشه وتكلمه وتكليمه وإحاطة علمه ونفوذ مشيئته؛ ماهو منتف عن آلهتهم. فيكون ذلك من أدل دليل على بطلان إلـٰهيتها وفساد عبادتها.

ويذكر ذلك عند دعوته عباده إلى ذكره وشكره وعبادته، فيذكر لهم من أوصاف كماله ونعوت جلاله، مايحدو(٢) قلوبهم إلى المبادرة إلى دعوته والمسارعة إلى طاعته. ويذكر صفاته لهم عند ترغيبهم وترهيبهم؛ لتعرف القلوب من تخافه وترجوه. ويذكر صفاته أيضًا عند أحكامه وأوامره ونواهيه. فقلَّ أن تجد آية حكم من أحكام المكلفين؛ إلا وهي مختتمة بصفة من صفاته أو صفتين.

---

(١) ١٥٦ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) بالنسخة: (يجدون) ولعل الصواب ما أثبتناه. المراجع.

وقد يذكر الصفة في أول الآية ووسطها وآخرها كقوله: **﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادلك في زوجها وتَشْتَكي إلى اللهِ واللهُ يَسمَع تحاوُرَكُما إنَّ الله سميعٌ بصيرٌ﴾** [المجادلة: ١]. ويذكر صفاته عند سؤال عباده لرسوله، ﷺ، عنه.

ويذكرها عند سؤالهم له عن أحكامه، حتى إن الصلاة لاتنعقد إلا بذكر أسمائه وصفاته، فذكر أسمائه وصفاته؛ روحها وسرها، يصحبها من أولها إلى آخرها. وإنما أمر بإقامتها ليذكر بأسمائه وصفاته. وأمر عباده أن يسألوه بأسمائه وصفاته؛ ففتح لهم باب الدعاء: رغبًا، ورهبًا؛ ليذكره الداعي بأسمائه وصفاته فيتوسل إليه بها؛ ولهذا كان أفضل الدعاء ماتوسَّل فيه الداعي إليه بأسمائه وصفاته، قال الله تعالى: **﴿ولله الأَسْماءُ الحُسْنىٰ فادْعوُهُ بها﴾** [الأعراف: ١٨٠].

وكان اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: آية الكرسي، وفاتحة آل عمران؛ لاشتمالهما على صفة الحياة المتضمنة لجميع الصفات، وصفة القيوسية المتضمنة لجميع الأفعال؛ ولهذا كانت سيدة آي القرآن وأفضلها.

ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن؛ لأنها أخلصت الإخبار عن الرب تعالى وصفاته، دون خلقه وأحكامه وثوابه وعقابه.

وسمع النبي، ﷺ، رجلاً يدعو: «**اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، الذي لا إله إلا أنت المنان، بديعِ السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام ياحي ياقيوم**». وسمع آخر يقول: «**اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد**». فقال لأحدهما: «**لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»، وقال للآخر: «**سل تعطه**»؛ وذلك لما تضمنه هذا الدعاء من أسماء الرب وصفاته، وفي الحديث الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: «**ما أصاب عبدًا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي**

وغمي؛ **إلا أذهب الله همه وأبدله مكانه فرحًا**». قالوا: أفلا نتعلمهن يارسول الله؟ قال: «**بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**».

وقد نبه سبحانه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول. فاستيقظت لتنبيهه العقول الحية، واستمرت على رقادها العقول الميتة، فقال في صفة العلم: ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَن خَلق وهو اللَّطيفُ الخَبيْر**﴾ [الملك: ١٤]. فتأمَّل صحة هذا الدليل مع غاية إيجاز لفظه واختصاره. وقال: ﴿**أَفَمَنْ يخلُقُ كَمَنْ لايخْلُقُ أَفلا تَذكَّرُونَ**﴾ [النحل: ١٧] فما أصح هذا الدليل وماأوجزه. وقال تعالى في صفة الكلام: ﴿**وَاتَّخذ قَوْمُ موسى مِنْ بعده من حُليِّهم عِجْلاً جَسَدًا لهُ خُوارٌ أَلَمْ يروا أَنَّهُ لايُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبيلاَ**﴾ [الأعراف: ١٤٨]. نبه بهذا الدليل على أن من لايكلم ولا يهدي؛ لا يصلح أن يكون إلـهًا. وكذلك قوله في الآية الأخرى عن العجل: ﴿**أَفلاَ يرَوْنَ أَلاّ يَرْجِع إليهم قولاً ولاَ يمْلِكُ لَهُمْ ضَرًا ولا نَفْعًا**﴾ [طه: ٨٩]. فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع؛ دليلاً على عدم الإلـهية. وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإلـه لا بد أن يكلم ويتكلم، ويملك لعباده الضر والنفع؛ وإلا لم يكن إلـهًا. وقال تعالى: ﴿**أَلَم نَجْعَلْ لَّهُ عينين ولسانًا وَشفَتَيْنْ وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْن**﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠]. نبه بهذا الدليل العقلي القاطع: أن الذي جعلك تتصرف وتتكلَّم وتعلم؛ أولىٰ أن يكون بصيرًا متكلمًا عالمًا. وأي دليل عقلي قطعي أقوىٰ من هذا وأبين وأقرب إلى العقول؟! قال تعالى في آلهة المشركين المعطلين: ﴿**أَلَهُمْ أَرْجلٌ يَمْشُونَ بها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أم لَهُمْ أَعينٌ يُبْصِرُونَ بهَا أَمْ لهم آذانٌ يَسْمَعُونَ بهَا**﴾ [الأعراف: ١٩٥]. فجعل سبحانه عدم البطش والسمع والمشي والبصر لهم دليلاً على عدم إلـهية من عدمت منه هذه الصفات.

وقد وصف الله سبحانه نفسه بضد صفة أوثانهم وبضد ماوصفه به المعطلة والجهمية. فوصف نفسه: بالسمع والبصر والفعل باليدين والمجيء والإتيان، وذكر ضد صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصفات فيها دليلاً على عدم إلـهيتها. **فتأمل** آيات التوحيد والصفات في القرآن على كثرتها وتفننها واتساعها وتنوعها؛ تجدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها، وأنه المتفرد بذلك الكمال، فليس له فيه شبيه ولا مثيل.

وأي دليل في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبره، وملك السموات والأرض وقيومهما؟ فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع الكمال له فأي قضية تصح في العقل بعد هذا؟

ومن شك في أن صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب والرضىٰ والفرح والرحمة كمال؛ فهو ممن سلب خاصة الإنسانية وانسلخ من العقل. بل من شك أن إثبات الوجه واليدين وما أثبته لنفسه معهما كمال؛ فهو مصاب في عقله. ومن شك أن كونه يفعل باختياره ماشاء ويتكلم إذا شاء، وينزل إلى حيث يشاء، ويجيء إلى حيث شاء غير كمال؛ فهو جاهل بالكمال، والجماد عنده أكمل من الحيي الذي تقوم به الأفعال الاختيارية.

فصل(1)

ومن حكمته سبحانه ما منعهم من العلم: علم الساعة، ومعرفة آجالهم.

وفي ذلك من الحكمة البالغة ما لايحتاج إلى نظر، فلو عرف الإنسان مقدار عمره. **فإن** كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش، وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت في ذلك الوقت، فلولا طول الأمل؛ لخربت الدنيا، وإنما عمارتها بالآمال، وإن كان طويل العمر، وقد تحقَّق ذلك فهو واثق بالبقاء، فلا يبالي بالانهماك في الشهوات والمعاصي وأنواع الفساد، ويقول: إذا قرب الوقت أحدثت توبة، وهذا مذهب لايرتضيه الله تعالى عز وجل من عباده، ولا يقبله منهم، ولاتصلح عليه أحوال العالم، ولا يصلح العالم إلا على هذا الذي اقتضته حكمته وسبق في علمه؛ فلو أن عبدًا من عبيدك عمل على أن يسخطك أعوامًا، ثم يرضيك ساعة واحدة إذا تيقَّن أنه صائر إليك؛ لم تقبل منه ولم يفز لديك بما يفوز به من همه رضاك، وكذا سنة الله عز وجل أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع. قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوبةُ لِلَّذِين يَعْمَلون السَّيِّئاتِ حتَّى إذا حَضَرَ أحدَهُمُ الموتُ قَالَ إنِّي تُبْتُ الآن﴾ [النساء: ١٨] وقوله: ﴿فلمَّا رأوْا بَأسَنا قَالُوا آمنَّا باللهِ وحده وكفرنَا

---

(1) ٢٨٣ مفتاح ج١

بما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينْ. فَلم يَكُ يَنفعُهُم إيْمانُهم لَمَّا رأوْا بأسْنا سُنَّتَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٤ ـ ٨٥].

والله تَعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة، فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار في نفسه، فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه؛ لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له، وأنه يرى كل وقت ما لا صبر له عليه، فهو إذا واقع الذنب؛ واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه خائف مختلج في صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له، فهو يجيب داعي النفس تارة وداعي الإيمان تارات.

فأما من بنى أمره على أن لايقف عن ذنب، ولايقدم خوفًا ولايدع لله شهوة، وهو فرح مسرور يضحك ظهرًا لبطن إذ ظفر بالذنب؛ فهذا الذي يخاف عليه: أن يحال بينه وبين التوبة، ولايوفق لها؛ فإنه من معاصيه وقبائحه على نقد عاجل يتقاضاه سلفًا وتعجيلاً، ومن توبته وإيابه ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى انقضاء الأجل.

وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبًا؛ لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس والاستمرار على ذلك؛ شديد على النفس، صعب عليها أثقل من الجبال.

ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضعف البصيرة وقلة النصيب من الإيمان، فنفسه لاتطوع له أن يبيع نقدًا بنسيئة، ولا عاجلاً بآجل، كما قال بعض هؤلاء، وقد سئل: أيهما أحب إليك درهم اليوم أم دينار غدًا؟ فقال: لا هذا ولا هذا؛ ولكن ربع درهم مر أول أمس ،فحرام على هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله . . .

فصـــل (١)

... **ومنها** مخالفة الحديث صريحَ القرآن: كحديث مقدار الدنيا، «وأنها سبعة آلاف سنة ونحنُ في الألف السابعة».

وهذا من أَبينِ الكذب؛ لأنه لو كان صحيحًا لكان كلُّ أحد عالمًا: أنه قد بقي للقيامة من وقتنا هذا مئتان وأَحَدٌ وخمسون سنة(٢). والله تعالى يقول: **﴿يَسألونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قل إنما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لايُجَلِّيها لوقتها إلا هو ثَقُلَتْ في السمواتِ والأَرضِ لاتأتيكم إلا بغْتَةً يَسْأَلُونَك كَأَنَّكَ حَفيٌّ عنها قل إنما عِلْمُهَا عِندَ الله﴾** [الأعراف: ١٨٧]. وقال الله تعالى: **﴿إنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾** [لقمان: ٣٤].

وقال النبي ﷺ: **«لا يَعْلَمُ مَتَىٰ تقومُ السَّاعةُ إلا الله»**(٣).

١٤٤ ـ وقد جَاهَرَ بالكَذِب بعضُ من يدَّعي في زماننا العلم ـ وهو يَتَشَبَّعُ بما لم يُعْطَ ـ أنَّ رسول الله، ﷺ، كان يَعْلَمُ متىٰ تقومُ السَّاعَة، قيل له: فقد قال في حديث جبريل: **«ماالمسئول عنها بأعلم من السَّائل»**(٤)، فحرَّفه عن موضعه، وقال: معناه أنا وأنت نعلمها.

١٤٥ ـ وهذا من أعظم الجهل وأقبح التحريف. والنبي، ﷺ، أعلم بالله من أن يقول لمن كان يظنه أعرابيًا: أنا وأنت نعلم الساعة. إلا أن يقول هذا الجاهل: إنه كان يعرف أنه جبريل. ورسول الله، ﷺ، هو الصادق في قوله: **«والذي نفسي**

---

(١) ٨٠ المنار المنيف.

(٢) استفيد من هذا أن الشيخ ابن القيم ألف هذا الكتاب في سنة ٧٤٩، أي قبل وفاته بنحو ثلاث سنوات رحمه الله تعالىٰ، وأكرمه برضوانه.

(٣) هو جزء من حديث ابن عمر عن النبي، ﷺ، قال: **«مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله: ١ ـ لايعلم مافي غدٍ إلا الله، ٢ ـ ولا يعلَمُ ماتغيضُ الأرحامُ إلا الله. ٣ ـ ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله. ٤ ـ ولا تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت، إلا الله. ٥ ـ ولا يعلمُ متى تقوم الساعة إلا الله»**. رواه البخاري ٨: ٢٨٤ و١٣: ٣٠٩.

(٤) رواه عن عمر بن الخطاب مسلم ١: ١٥٧، وأبو داود ٤: ٣٠٩، والنسائي، ٨: ٩٧، وعن أبي هريرة البخاري ١: ١٠٦ و٨: ٣٩٥، ومسلم ١: ١٦٢ ـ ١٦٥ وأبو داود ٤: ٣١٠، والنسائي ٨: ١٠١.

بيده ما جاءَني في صورة إلا عرفته، غيرَ هذه الصُّورة»(١).

١٤٦ ـ وفي اللفظ الآخَر: «ماشُبِّه عليَّ غير هذه المرة»(٢).

١٤٧ ـ وفي اللفظ الآخر: «رُدُّوا عليَّ الأعرابي، فذهبوا فالتمسوا، فلم يجدوا شيئًا»(٣).

١٤٨ ـ وإنما عَلِمَ النبي، ﷺ، أنه جبريل بعد مدة، كما قال عمر: فلبثت مليًا، ثم قال النبي، ﷺ: «ياعمر، أتدري من السائل»(٤)؟ والمحرِّفُ يقول: عَلِمَ وقتَ السؤال أنه جبريل، ولم يُخْبِر الصحابة بذلك إلا بعد مدة.

١٤٩ ـ ثم قولُه في الحديث: «ماالمسئول عنها بأعلم من السَّائل» يَعُمُّ كلَّ سائل ومسئول. فكلُّ سائل ومسئول عن هذه الساعة شأنُهما كذلك.

ولكن هؤلاء الغُلاة عندهم: أنَّ عِلْم رسول الله، ﷺ، منطَبِق على علم الله،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» من حديث ابن عمر في «مسند عمر» ١: ٥٣، ولفظُه: قال النبي ﷺ: «التمَسوه»، فلم يجدوه، قال: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم، ما أتاني في صُورة إلا عرفتُه غيرَ هذه الصورة». وروى الطبراني في «الكبير» من حديث ابن عمر أيضًا: فقال النبي، ﷺ: «عليَّ بالرجل»، فقمنا وقمتُ أنا إلى طريق من طرق المدينة فلم نر شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: «هل تدرون من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا جبريل يعلمكم مناسك دينكم، ماجاءني في صورة قط إلا عرفته إلا في هذه الصورة». قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١: ٤١ وقد ذكَرَ هذا الحديث عن الطبراني: «ورجالُه موثقون». وانظر ما علّقه الشيخ أحمد شاكر على هذا الحديث في «المسند» ١: ٣١٤.

(٢) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» من طريق سليمان التيمي، ولفظُه: ثم نَهَضَ فولّى، فقال رسول الله ﷺ: «عليَّ بالرجل»، فطلبناه كلَّ مطلب، فلم نَقدر عليه، فقال: «هل تدرون من هذا؟ هذا جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم. خُذوا عنه، فوالذي نفسي بيده ماشُبِّه عليَّ منذ أتاني قبلَ مرتي هذه، وما عَرفتُه حتى ولّى». ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١: ١٠٦ و ١١٥.

وفي «المسند» للإمام أحمد في «مسند أبي عامر الأشعري رضي الله عنه» ٤: ١٢٩ و ١٦٤: «ثم ولّى، فلمّا لم نَرَ طريقه بعد، قال النبي، ﷺ: «سبحان الله ـ ثلاثًا ـ هذا جبريل، جاء ليعلم الناس دينهم، والذي نفسُ محمّد بيده ماجاءني قط إلا وأنا أعرفه إلا أن تكون هذه المرّة».

(٣) تقدّم آنفًا في رواية: «المسند» ١: ٥٣ عن ابن عمر قال: «التمسُوه، فلم يجدوه». وفي رواية البخاري ٨: ٣٩٥ ومسلم ١: ١٦٤. من حديث أبي هريرة ـ واللفظ لمسلم ـ: فقال ﷺ: «رُدّوا عليَّ الرجل، فأخذوا ليردّوه فلم يروا شيئًا».

(٤) هو لفظ رواية مسلم ١: ١٥٩.

سواءً بسـواء(١)، فكـلُّ مايعلمه الله يعلمه رسول الله، ﷺ. والله تعالى يقول: ﴿وممَّنْ حولَكُم مِنَ الأَعـراب منـافِقُـون ومن أَهْـلِ المـدينـة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم﴾ [التوبة: ١٠١]. وهذا في «براءَة» وهو في أَواخر (براءَة) وهي من أواخر مانَزَلَ من القُرآن. هذا والمنافقون جيرانُه في المدينة.

١٥٠ ـ ومن هذا(٢) حديثُ: «**عِقد عائشة رضي الله عنها لَمَّا أرسَلَ في طلبه، فأَثاروا الجملَ فوجدوه**»(٣).

١٥١ ـ ومن هذا حديثُ: تلقيح النَّخْلِ، وقال: «**ما أَرىٰ لو تركتموه يضرُّه شيءٌ**» فتركوه فجاءَ شِيصًا(٤)، فقال: «**أنتم أَعلَمُ بدنياكم**»(٥). وقد قال الله تعالى: ﴿قل لا أَقولُ لكُم عِنْدِي خَزَائِنُ الله ولا أَعلَمُ ٱلْغَيْب﴾ [الأنعام: ٥٠]. وقال: ﴿ولو كنتُ أَعلَمُ ٱلغيبَ لاستَكثرتُ من الخيْر﴾ [الأعراف: ١٨٨]. ولما جرىٰ لأُمِّ المؤمنين عائشـة ماجرىٰ، ورماها أهلُ الإفك بما رموها به؛ لم يكن، ﷺ، يَعْلَمُ حقيقة الأمر، حتى جاءَه الوحي من الله ببراءتها.

١٥٢ ـ وعند هؤلاء الغُلاة: أنه عليه الصلاة والسلام كان يعلم الحال على حقيقته بلا ريبة، واستشار الناس في فراقها ودعا الجارية فسأَلها، وهو يعلم الحالة، وقال لها: «**إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله**» وهو يعلم علمًا يقينًا أنها لم تلم بذنب، ولا ريب أن الحامل لهؤلاء على الغلو؛ إنما هو اعتقادهم أنه يُكَفِّرُ عنهم سيئاتهم ويدخلهم الجنة، وكلما غلوا وزادوا غُلُوًّا فيه كانوا أقرب إليه وأخص به؛ فهم أعصىٰ النـاس لأمره، وأشدهم مخالفة لسنته، وهؤلاء فيهم شبه ظاهر من النصارى الذين غلوا في المسيح أعظم الغلو، وخالفوا شرعه ودينه أعظم المخالفة.

---

(١) قال الشيخ علي القاري: «ومن اعتقد تسوية علم الله ورسوله يكفر إجماعًا، كما لايخفى». انتهى من آخر: «الموضوعات الكبرى» من الفصل (١٦).

(٢) أي من الغيب الذي لايعلمُه ولم يعلمه رسول الله، ﷺ.

(٣) رواه البخاري (١/ ٣٦٥)، (٨: ٢٠٥).

(٤) هو التمر الذي لايشتد نواه.

(٥) رواه مسلم بنحو هذا اللفظ منن طرق متعددة ١٥: ١١٦ ـ ١١٨، وابن ماجة ٢: ٨٢٥، والإمام أحمد في «المسند» من حديث أنس ٣: ١٥٢، وحديث عائشة ٦: ١٢٣، وفي جميع الطرق لم أر الألفاظ التي ذكرها المؤلف، فالظاهر أنه رواه بالمعنى.

والمقصود: أن هؤلاء يصدقون بالأحاديث المكذوبة الصريحة، ويحرفون الأحاديث الصحيحة عن مواضعها لترويج معتقداتهم.

(١)**فنقول:** قد استقرت حكمة الله ـ عز وجل ـ في خلقه وأمره على وقوع **التناسب والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع وهروبه من مخالفه ونفرته عنه بالطبع. فسرُّ التمازج والاتصال في العالم العلوي والسفلي؛ إنما هو التناسب، والتشاكل والتوافق. وسر التباين والانفصال؛ إنما هو لعدم التشاكل والتناسب. وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمثل إلى مثله مائل، وإليه صائر. والضد عن ضده.** هارب، وعنه نافر، وقد قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ نفسٍ وَّاحِدَةٍ وَّجَعَلَ منها زَوجها لَيَسكُن إليها**﴾ [الأعراف: ١٨٩] فجعل سبحانه علة سكون الرجل إلى امرأته؛ كونها من جنسه وجوهره. فعلة السكون المذكور، وهو الحب؛ كونها منه. فدلَّ على أن العلة ليست بحسن الصورة، ولا الموافقة في القصد والإرادة، ولا في الخلق والهدي، وإن كانت هذه أيضًا من أسباب السكون والمحبة.

وقد ثبت في الصحيح: عن عائشة عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**الأرواح جنودٌ مُجَنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وماتناكر منها اختلف**».

وفي مسند الإمام أحمد وغيره: عن أبي هريرة في سبب هذا الحديث: «أن امرأة كانت بمكة تُضْحِك الناس. فجاءت إلى المدينة. فنزلت على امرأة تضحك الناس. فقال النبي ﷺ: **الأرواح جنود مجندة. . .**» الحديث.

وقد استقرت شريعته سبحانه؛ أن حكم الشيء حكم مثله، فلا تفرق شريعته بين متماثلين أبدًا، ولا تجمع بين متضادين. ومن ظن خلاف ذلك: فإما لقلة علمه بالشريعة، وإما لتقصيره في معرفة التماثل والاختلاف، وإما لنسبته إلى الشريعة ما لم ينزل به سلطانًا؛ بل يكون من آراء الرجال. فبحكمته وعدله؛ ظهر خلقه وشرعه. وبالعدل والميزان، قام الخلق والشرع، وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين. هذا كما أنه ثابت في الدنيا. فهو كذلك يوم القيامة. قال تعالى: ﴿**احشُرُوا الَّذين ظَلَمُوا وأَزْواجَهُم وما كانوا يَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ فاهدُوهُم إلىٰ صِرَاطِ الجَحِيم**﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

(١) ٣١٩ زاد المعاد جـ٣.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعده الإمام أحمد: «أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم». وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] أي: قُرِن كل صاحب عمل بشكله ونظيره. فقرن بين المتحابين في الله في الجنة، وقرن بين المتحابين في طاعة الشيطان في الجحيم، فالمرء مع من أحب، شاء أم أبىٰ . . .

(١)**والله** تعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ وجعلَ منها زوْجَها لِيسكُنَ إلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فجعل علة السكون أنها منه، ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية؛ لوجب أن لا يُسْتَحْسَنَ الأنقصُ من الصور، ونحن نجد كثيرًا ممن يؤثر الأَدنى، ويعلم فضل غيره، ولا يجد محيدًا لقلبه عنه، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس، وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببها.

(٢)**قوله** تعالىٰ: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خفيفًا فمرَّت به فلمّا أثْقَلَتْ دَعوا آلله رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صَالحًا لنكونَنَّ من الشَّاكِرِيْنَ فَلَمّا آتَاهُما صَالحًا جَعَلا له شُركَاءَ فِيمَا آتَاهُما فَتَعالىٰ اللهُ عَمَّا يُشْرِكُون﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠].

فالنفس الواحدة وزوجها آدمُ وحوآء، واللذان جعلا له شركآء فيما آتاهما المشركون من أولادهما. ولايلتفت إلى غير ذلك مما قيل: إن آدم وحوّاء كانا لايعيش لهما ولدٌ؛ فأتاهما إبليس فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولدٌ فسمياه عبدالحارث ففعلا؛ فإن الله سبحانه اجتباه وهداه، فلم يكن ليشرك به بعد ذلك.

ونظير هذا الاستطراد قوله: ﴿يَسْألونَك عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هي مواقيتُ للنَّاسِ والحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] ثم قال: ﴿وليْسَ البرُّ بأَن تَأْتُوا الْبُيوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ٨٩]. فإنهمْ كانوا يفعلون ذلك في الإحرام، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأَهلَّةِ استطرد منه إلى ذكر مايفعلونه فيه، وهو كثيرٌ جدًّا.

(٣)**قوله** تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُم فَادْعُوهم

---

(١) ٨٦ روضة.
(٢) ٣٠٨ روضة.
(٣) ١٤٩ أعلام جـ١.

فَلْيَسْتجيبُوا لَكُمْ إنْ كُنتمْ صادقِين أَلَهُم أَرجُلٌ يَمْشُون بهَا أَمْ لَهُم أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بها أَم لَهُم أَعينٌ يُبصرون بهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بهَا﴾ [الأعراف: ١٩٤، ١٩٥]. فبين سبحانه أن هذه الأصنام أشباح وصُور خالية عن صفات الإلـهية، وأن المعنى المعتبر معدومٌ فيها، وأنها لو دُعِيَتْ لم تُجبْ، فهي صور خالية عن أوصاف ومعان تقتضي عبادتها، وزاد هذا تقريرًا بقوله: ﴿أَلَهُم أرْجُلٌ يَمْشُونَ بها أمْ لهُم أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بهَا أم لهم أعينٌ يُبْصِرُون بهَا أم لهُم آذانٌ يَسمعون بهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥].

أي: إن جميعَ ماهذه الأصنام من الأعضاء التي نَحتَتْها أيديكم إنما هي صُوَر عاطلة عن حقائقها وصفاتها؛ لأن المعنى المراد المختص بالرِّجل هو مَشْيها، وهو معدوم في هذه الرجل؛ والمعنى المختص باليدِ هو بَطْشُها وهو معدوم في هذه اليد، والمراد بالعين إبصارها وهو معدوم في هذه العين، ومن الأُذنِ سمعُها وهو معدوم فيها، والصور في ذلك كله ثابتة موجودة، وكلها فارغة خالية عن الأوصاف والمعاني، فاستَوَى وجودُها وعدمُها، وهذا كله مُدْحِض لقياس الشبه الخالي عن العلة المؤثِّرة والوصف المقتضي للحكم، والله أعلم.

(١)**فقال تعالى**: ﴿أمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُم يَسمَعُوْنَ أو يَعْقِلُونَ إنْ هُم إلَّا كالأَنْعامِ بَلْ هُم أضلُّ سَبِيْلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] ولهذا نفى الله عن الكفَّار: السمع والبصر والعقول، إما لعدم انتفاعهم بها، فَنُزِّلت منزلة المعدوم، وإما لأن النفي توجه إلى أسماع قلوبهم وأبصارها، وإدراكها؛ ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور، كقول أصحاب السعير: ﴿لو كُنَّا نسمَعُ أوْ نَعْقِلُ ماكُنَّا في أصحاب السَّعيْر﴾ [الملك: ١٠] ومنه في أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿وَتَراهُمْ يَنْظُرونَ إليكَ وَهُم لايُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]. فإنهم كانوا ينظرون إلى صورة النبي، ﷺ، بالحواس الظاهرة، ولايبصرون صورة نبوته، ومعناها بالحاسة الباطنة، التي هي بصر القلب.

والقول الثاني: أن الضمير عائد على الأصنام. ثم فيه قولان:

أحدهما: أنه على التشبيه، أي: كأنهم ينظرون إليك. ولا أبصار لهم يرونك بها.

---

(١)

والثاني: المراد به المقابلة. تقول العرب: داري تنظر دارك. أي تقابلها.

وكذلك السمع ثابت لهم. وبه قامت الحجة عليهم. ومنتف عنهم. وهو سمع القلب. فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك، كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء. ولم يسمعوه بالروح الحقيقي، الذي هو روح حاسة السمع، التي هي حظ القلب. فلو سمعوه من هذه الجهة: لحصلت لهم الحياة الطيبة، التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب. ولزال عنهم الصمم والبكم. ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة مَنْ عَدِم السمع والعقل.

فحصول السمع الحقيقي: مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة، التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم. فإن بها يحصل غذاء القلب ويعتدل. فتتم قوته وحياته، وسروره ونعيمه، وبهجته. وإذا فقد غذاءه الصالح: احتاج إلى أن يعتاض عنه بغذاء قبيح خبيث. وإذا فسد غذاؤه: خبث ونقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب مافسد من غذائه، كالبدن إذا فسد غذاؤه ونقص.

(١) **قوله** تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَن الجَاهِلينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ليس المراد إعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبه.

قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم: صن نفسك عن مقابلتهم على سفههم وهذا كثير في كلامهم.

(٢)**وقد** جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ. وَأْمُرْ بِالعُرْفِ. وَأَعرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه، ﷺ، بمكارم الأخلاق. وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال: رسول الله، ﷺ، لجبريل: «ما هذا؟» قال: لا أدري حتى أسأل، فسأل.

---

(١) ١٠٠ مفتاح جـ١. (٢) ٣٠٥ مدارج جـ٢.

ثم رجع إليه. فقال: «إن الله يأمرك أن تَصِلَ من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك».

ولا ريب أن للمطاع من الناس ثلاثة أحوال:

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذه منهم مايبذلونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موالٍ، ومعادٍ له معارض. وعليه في كل واحد من هذه واجب.

فواجبه: في أمرهم ونهيهم؛ أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم. وينهاهم عن ضده.

وواجبه فيما يبذلونه من الطاعة: أن يأخذ منهم ماسهل عليهم، وطوَّعت له به أنفسهم، سماحةً واختيارًا، ولا يحملهم على العَنَت والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه، الإعراض عنهم. وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه. فقد قال الله تعالى لنبيه، ﷺ: ﴿**خُذِ العَفوَ وأْمُرْ بالْعُرفِ. وَأعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيْنَ**﴾.

قال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس، مثل: قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خذ ما عفا لك من أموالهم. وهو الفاضل عن العيال. وذلك معنى قوله تعالى: ﴿**وَيَسْألونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفو**﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم قال تعالى: ﴿**وأْمُرْ بالعرف**﴾ وهو كل معروف، وأعرفه؛ التوحيد، ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد. ثم قال تعالى: ﴿**وأعرِض عَنِ الجاهِلين**﴾ يعني: إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه. كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُون قَالُوا سَلَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٣]. وعلى هذا فليست بمنسوخة؛ بل يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه، ولا ينتقم لنفسه.

وهكذا كان خلقه، ﷺ. قال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله، ﷺ، أحسن الناس خلقًا» وقال: «مامسستُ ديباجًا ولا حريرًا ألين من كف رسول الله، ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله، ﷺ، ولقد خدمت رسول الله، ﷺ، عشر سنين، فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألافعلت كذا» متفق عليهما.

(١)**وقال** تعالى: ﴿هذا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى ورحمةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَاب ما كان حديثًا يُفْتَرىٰ ولكن تَصْدِيقَ الَّذي بينَ يَدَيْه وتفصيل كُلِّ شيءٍ وهُدًى ورحمةً لقوم يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وشفاءٌ لِمَا في الصُّدُور وهُدىً وَرَحمةٌ للمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فقوله: ﴿هَذا بصائِرُ مِنْ رَبِّكُم﴾ عام مطلق، وقوله: ﴿وهدىً ورحمة لقوم يوقنون﴾ خاص بأهل اليقين. ونظير ذلك قوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ وهُدىً ورحمةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. ونظيره في الخصوص قوله تعالى: ﴿هُدىً لِلمُتَّقِين﴾ البقرة: ٢]، وقوله: ﴿يَهْدِي به اللهُ مَن اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلام﴾ [المائدة: ١٦]. ونظيره أيضًا قوله: ﴿هَذَا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقد أخبر أنه هُدًى عام لجميع المكلفين. فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَىٰ الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِم الهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس. والبصائر جمع بَصيرة، وهي فعيلة بمعنى: مُفعِلة، أي: مبصرة لمن تبصَّر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]. أي: مُبَيِّنَةً موجبة للتبَّصر. وفعل الإبصار يستعمل لازمًا ومتعديًّا، يقال: أبصرته، بمعنىٰ أريته، وأبصرته، بمعنى: رأيته. فمُبْصِرَة في الآية: يعني مرئية، لا بمعنى رائية، والذين ظنوها بمعنى رائية غَلِطوا في الآية، وتحيَّروا في معناها. فإنه يقال: بَصُر به، وأبصره، فيُعَدَّىٰ بالباء تارة، والهمزة تارة.

(١) ١٦٩ إغاثة جـ٢.

ثم يقال: أبصرته كذا، أي: أريته إيَّاه، كما يقال: بَصَّرته به. وبَصُرَ هو به.

فههنا بَصيرة، وتَبْصِرَة، ومبصِرة، فالبصيرة: المبينة التي تُبْصر، والتَّبصرةُ مَصْدَر، مثلُ التَّذكرَة، وسُمِّي بها مايُوجِب التَّبصرة، فيقال: هذه الآية تَبْصِرةٌ، لكونها آلَة التبصُّر، ومُوجِبه.

فالقرآن بصيرةٌ وتَبصرَة، وهُدًى وشفاء، ورَحمة، بمعنى عام، وبمعنى خاصٍ؛ ولهذا يَذكرُ الله سبحانه هذا وهذا، فهو هُدًى للعالمين، وموعظةٌ للمتقين، وهُدًى للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، وموعظة للمتقين(١)، فهو في نفسه هُدًى ورحمة، وشِفاء وموعظة.

فمن اهتَدَىٰ به واتَّعظَ واشْتَفَى؛ كان بمنزلة مَنْ استعملَ الدَّوَاء الذي يَحْصُل به الشفاء، فهو دواءٌ له بالفعل. وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوَّة، وكذلك الهدَى؛ فالقرآن هدًى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يَهْتَدِ به، فإنما يُهتَدَىٰ به ويُرْحَم، ويَتَّعِظُ المتقون الموقنون. والهدى في الأصل: مصدرُ هَدى يهدي هدًى.

فمن لم يعملْ بعلمه لم يكن مُهْتدَياً، كما في الأثر: «**من ازداد علمًا ولم يزدد هُدًى لم يزدَدْ من الله تعالى إلا بُعدًا**» ولكن يسمَّى هُدًى؛ لأن مِنْ شَأنِه أنْ يهديَ.

وهذا أحسنُ من قول من قال: إنه هُدًى، بمعنى: هادٍ، فهو مَصْدَرٌ بمعنى: الفاعل، كعَدْل بمعنىٰ: العادل، وزَوْر بمعنىٰ: الزائر، ورجُل صَوْمٌ أي بمعنى: صائم، فإن الله سبحانه قد أخبرَ أنه يَهْدِي به. فالله الهادي، وكتابه الهُدَىٰ الذي يهْدِي به على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

فههنا ثلاثةُ أشياء: فاعلٌ، وقابلٌ، وآلةٌ، فالفاعل؛ هو الله تعالى، والقابل؛ قلبُ العبدِ، والآلةُ؛ هو الذي يحصل به الهدى، وهو الكتاب المنزَّل، والله سبحانه يَهدي خلقه هُدًى، كما يقال: دَلَّهم دِلالة، وأرشدهم إرشادًا، وبَيَّنَ لهم بَيانًا.

والمقصود: أن المحلَّ القابلَ هو قلبُ العبد المتَّقي، المُنيب إلى رَبِّه، الخائف

---

(١) لعل هذا تكرار.

منه، الذي يَبْتغي رِضاه، ويهرَبُ من سَخَطه، فإذا هداه الله فكأنَّه وصلَ أثرُ فعله إلى محلٍّ قابـل، فيتأثَّر به، فصارَ هُدًى له وشفاء ورحمةً وموعظةً بالوجود والفعل والقبـول، وإذا لم يكن المحلُّ قابلاً؛ وصل إليه الهُدى فلم يُؤَثِّر فيه، كما يصلُ الغِذاء إلى محلٍّ غير قابل للاغتذاء، فإنه لايؤْثِرُ فيه شيئًا، بل لا يزيده إلا ضعفًا وفسادًا إلى فساده، كما قال تعالى في السورة التي نَزَّلها: ﴿**فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون وأما الذين فِي قُلُوبهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ**﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. وقال: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ماهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالمِينَ إلا خَسَارًا**﴾ [الإسراء: ٨٢].

فتخلف الاهتداء يكون: لعدم قبول المحل تارة، ولعدم آلة الهدى تارة، ولعـدم فعـل الفاعل، وهو الهادي تارة، ولايحصلُ الهُدى على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

فصـــل(١)

قال: «والـذكر: هو التخلص من الغفلة والنسيان». والفرق بين الغفلة والنسيان: أن «الغفلة» ترك باختيار الغافل، و«النسيان» ترك بغير اختياره؛ ولهذا قال تعـالى: ﴿**وَلاَ تَكُنْ مِّنَ الْغَـافِلِينَ**﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. ولم يقل: ولا تكن من الناسين. فإن النسيان لا يدخل تحت التكليف فلا ينهى عنه.

قال: «وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى، الذكر الظاهر: ثناءً، أو دعاءً، أو رعاية». يريد بالظاهر: الجاري على اللسان، المطابق للقلب، لا مجرد الذكر اللساني؛ فإن القوم لايعتدون به.

فأما ذكر الثناء: فنحو: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إلـه إلا الله، والله أكبر». **وأما** ذكـر الدعاء فنحو: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا. وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِيْنَ**﴾ [الأعراف: ٢٣]. و «**ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث**» ونحو ذلك. **وأما** ذكـر الـرعـاية: فمثـل قول الذاكر: الله معي، الله ناظر إليَّ. الله شاهـدي، ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله. وفيه رعاية لمصلحة

---

(١) ٤٣٤ مدارج جـ٢.

القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرز من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس. **والأذكار** النبوية تجمع الأنواع الثلاثة؛ فإنها متضمنة للثناء على الله، والتعرُّض للدعاء والسؤال، والتصريح به. كما في الحديث: «**أفضل الدعاء الحمد لله**». قيل لسفيان بن عيينة: كيف جعلها دعاء؟ قال: أما سمعت قول أمية بن الصلت لعبدالله بن جُدعان يرجو نائله:

أأذكر حاجتي، أم قد كفاني حباؤك؟ إن شيمتك الحباء
إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

فهذا مخلوق واكتفى من مخلوق بالثناء عليه، فكيف برب العالمين. والأذكار النبوية متضمنة أيضًا لكمال الرعاية ومصلحة القلب من الغفلات والاعتصام من الوساوس والشيطان. والله أعلم.

(١)**أعظم** الأسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ولذة النعيم في الدارين، ويدخل عليه عدوه منها؛ هو الغفلة المضادة للعلم، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة، هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء وهما من عدم العلم. **أما** الغفلة فمضادة للعلم منافية له، وقد ذم سبحانه أهلها ونهىٰ عن السكون منهم وطاعتهم والقبول منهم. قال تعالى: ﴿**ولا تكن من الغافلين**﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وقال تعالى: ﴿**ولا تُطِعْ مَنْ أغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا**﴾ [الكهف: ٢٨] وقال تعالى: ﴿**ولقد ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كثيراً مِنَ الجنِّ والإنسِ لَهُم قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا ولَهُم أعينٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا ولَهُم آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كالأَنْعام بَلْ هُمْ أضَلُّ أولَئِكَ هُم الغَافِلُونَ**﴾ الأعراف: ١٧٩].

وقال النبي، ﷺ، في وصيته لنساء المؤمنين: «**لا تغفلن فتنسين الرحمة**».

وسئل بعض العلماء عن عشق الصور فقال: قلوب غفلت عن ذكر الله؛ فابتلاها الله بعبودية غيره، فالقلب الغافل مأوى الشيطان. . .

(٢)**والمقصود**: أن الغفلة والكسل اللذين هما أصل الحرمان، سببهما؛ عدم العلم، فعاد النقص كله إلى عدم العلم والعزيمة، والكمال كله إلى العلم والعزيمة. **والناس** في هذا على أربعة أضرب:

(١) ١١٢ مفتاح جـ١.
(٢) ١١٤ مفتاح جـ١.

الضرب الأول: من رزق علمًا وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل، وهـذا الضرب خلاصة الخلق، وهم الموصوفون في القرآن بقوله: ﴿**الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾. وقوله: ﴿**أولي الأَيديْ والأَبْصار**﴾ [ص: ٤٥].

وبقوله: ﴿**أو من كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَّمشِيْ بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام: ١٢٢] فبالحياة تنال العزيمة، وبالنور ينال العلم، وأئمة هذا الضرب؛ هم أولو العزم من الرسل.

الضرب الثاني: من حرم هذا وهذا، وهم الموصوفون بقوله: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ البُكم الَّذِينَ لاَيَعْقِلُونَ**﴾ وبقوله: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرهُم يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُم إِلَّا كالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلّ سَبِيْلاً**﴾ [الفرقان: ٤٤] وبقوله: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسمِعُ الْمَوتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ**﴾ [النمل: ٨٠]. وقوله: ﴿**وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنِ فِي القُبُورِ**﴾ [فاطر: ٢٢]. وهذا الصنف شر البرية يضيقون الديار ويغلون الأسعار، وعند أنفسهم أنهم يعلمون، ولكن ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، ويتعلمون ولكن مايضرهم ولاينفعهم. وينطقون، ولكن عن الهوى ينطقون. ويتكلّمون، ولكن بالجهل يتكلمون. ويؤمنون، ولكن بالجبت والطاغوت، ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله ما لايضرهم ولاينفعهم، ويجادلون ولكن بالباطل؛ ليدحضوا به الحق. ويتفكرون ويبيتون ولكن ما لا يرضى من القول يبيتون، ويدعون ولكن مع الله إلـهًا آخر يدعون، ويذكرون ولكن إذا ذكروا لايذكرون، ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءُون ويمنعون الماعون، ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون، ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم: ثم يقولون، هذا من عند الله؛ ليشـتروا به ثمنًا قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون، ويقولون: إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون! فهذا الضرب ناس بالصورة، وشياطين بالحقيقة، وجلهم إذا فكرت فهم: حمير، أو كلاب، أو ذئاب وصدق البُحْتُرِي في قوله:

لم يبقَ من جل هذا الناس باقية ... ينالها الوهم إلا هذه الصور

وقال الآخر:

لا تخدعنك اللحاء والصور		تسعة أعشار من ترى بقر
في شجر السرو منهم مثل		لها رواء وما لها ثمر

وأحسن من هذا كله قوله تعالى: ﴿**وإذا رأيتَهم تعجِبكَ أجسامهم وإن يقولوا تسمعْ لقولهم كأنهم خُشُبٌ مسندة**﴾ [المنافقون: ٤] علمهم كما قيل فيه:

زوامل للأسفار لا علم عندهم		بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك مايدري البعير إذا غدا		بأوساقه أوراح مافي الغرائر

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح، قوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِيْن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ واللهُ لاَيَهْدِي الْقَومِ الظَّالِمِيْنَ**﴾ [الجمعة: ٥].

الضرب الثالث: من فتح له باب العلم، وأغلق عنه باب العزم والعمل. فهذا في رتبة الجاهل أو شر منه. وفي الحديث المرفوع: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه**» ثبته أبو نعيم وغيره، فهذا جهله كان خيرًا له وأخف لعذابه من علمه، فما زاده العلم إلا وبالاً وعذابًا، وهذا لا مطمع في صلاحه؛ فإن التائه عن الطريق يرجى له العود إليها إذا أبصرها، فإذا عرفها وحاد عنها عمدًا فمتى ترجى هدايته، قال تعالى: ﴿**كَيْفَ يَهدِي اللهُ قَومًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِم وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُم البَيِّنَات وَاللهُ لا يَهْدِي القَوم الظَّالِمِيْنَ**﴾ [آل عمران: ٨٦].

الضرب الرابع: من رزق حظًا من العزيمة والإرادة، ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة، فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم: ﴿**ومن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِيْنَ أنعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّن وَالصِّدِّيقين والشُّهَداء والصَّالحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيْقًا ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وكَفَى بِاللهِ عَلِيْمًا**﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠]. رزقنا الله من فضله، ولا حرمنا بسوء أعمالنا إنه غفور رحيم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأعراف والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل في غزوة بدر الكبرى(١)

فلما كان في رمضان من هذه السنة(٢)؛ بلغ رسول الله (ﷺ) خبر العير المقبلة من الشام لقريش، صحبة أبي سفيان، وهي العير التي خرجوا في طلبها لما خرجت من مكة، وكانوا نحو أربعين رجلاً، وفيها أموال عظيمة لقريش. فندب رسولُ الله (ﷺ) الناس للخروج إليها، وأمر من كان ظهره حاضرًا بالنهوض، فلم يحتفل لها احتفالاً بليغًا، لأنه خرج مسرعًا في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، لم يكن معهم من الخيل إلا فرسان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكِنْدي. وكان معهم سبعون بعيرًا، يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد. وكان رسول الله، (ﷺ) وعلي بن أبي طالب، ومرثَد بن أبي مَرْثَد الغنوى يعتقبون بعيرًا، وزيد بن حارثة وابنه، وكبشة، موالى رسول الله (ﷺ) يعتقبون بعيرًا، وأبو بكر، وعمر، وعبدالرحمن بن عوف، يعتقبون بعيرًا. واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم فلما كان بالرَّوحاء رَدَّ أبا لبابة بن عبدالمنذر، واستعمله على المدينة. **ودفع** اللواء إلى مُصْعب بن عُمير الرواية الواحدة،(٣) إلى علي بن أبي طالب، والأخرى التي للأنصار: إلى سعد بن معاذ. وجعل على السَّاقَة قيس بن أبي صَعْصَعَة، وسار فلما قرب من الصفراء بعث بَسْبَسَ(٤) بن عمر الجهني، وعدي بن أبي الزِّغْباء الجهني، إلى بَدْر يتجسَّسان أخبار العير.

وأما أبو سفيان: فإنه بلغه مخرج رسول الله، (ﷺ) وقَصْده إياه، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفاري إلى مكة، مستصرخًا لقريش بالنفير إلى عيرهم، لتمنعوه من محمد وأصحابه. وبلغ الصريخ أهل مكة، فنهضوا مسرعين؛ وأوعبوا في الخروج، فلم يتخلف من أشرافهم أحد، سوى أبي لهب، فإنه عَوَّض عنه رجلاً

(١) ٢١٦ زاد المعاد جـ ٢. (٢) أي: السنة الثانية من الهجرة.
(٣) هكذا بالنسخة (الرواية الواحدة) ولعله: والراية الأولى. المراجع.
(٤) بسبس: بباءين بنقطة واحدة. وفي مسلم من حديث أنس «بسبسة».

كان له عليه دين[١]، وحشدوا مَنْ حولهم من قبائل العرب، ولم يختلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي، فلم يخرج معهم منهم أحد. وخرجوا من ديارهم كما قال الله: ﴿بَطَرًا ورِئَاءَ النَّاسِ وَيصُدُّونَ عن سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنفال:٤٧]. وأقبلوا كما قال رسول الله، (ﷺ): «**بَحدِّهم وحديدهم، تحاد الله وتحاد رسوله**» وجاءوا على حَرْدٍ قادرين، وعلى حَمِيَّةٍ وغضب وحَنَق على رسول الله (ﷺ) وأصحابه، لما يريدون من أخذ عيرهم، وقتل من فيها، وقد أصابوا بالأمس عمرو بن الحضرمي والعير التي كانت معه، فجمعهم الله على غير ميعاد، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تواعَدتُّمْ لَاختَلَفتُمْ في الْمِيعادِ وَلٰكِن لِيَقْضِيَ اللهُ أمرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:٤٢].

ولما بلغ رسول الله (ﷺ) خروج قريش، استشار أصحابه، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثانيًا، فتكلموا أيضًا فأحسنوا، ثم استشارهم ثالثًا، ففهمت الأنصار أنه يَعْنِيهم، فبادر سعد بن معاذ، فقال: «يارسول الله، كأنك تُعَرِّضُ بنا». وكان إنما يَعْنِيهم، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم، فلما عزم على الخروج استشارهم ليعلم ما عندهم، فقال له سعد: «لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًّا عليها: أن لا تنصرك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم: فاظْعَن حيث شئت، وصِلْ حَبْلَ من شئت، واقطع حبل من شئت، وخُذْ من أموالنا ما شئت، وأعطنا منها ما شئت، وما أخذت منا كان أحبَّ إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فَأَمْرُنَا تَبَعٌ لأمرك، فوالله لئن سرتَ حتى تبلغ البَرْك من غَمدان لَنَسيرنَّ معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خُضْنَاه معك» وقال له المقداد: «لا نقول لك، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَـاذهبْ[٢] أنتَ وَرَبُّـكَ فَقَـاتِـلَا إِنَّـا هٰـهنـا قَاعِـدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]. ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، ومن بين يديك ومن خلفك» فأشرق وجه رسول الله (ﷺ) وَسُرَّ بما سمع من أصحابه[٣]، وقال: «**سيروا**

---

(١) هو العاص بن هشام بن ربيعة. كما في سيرة ابن هشام وغيره.

(٢) في المطبوعة «اذهبْ» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

(٣) رواه البخاري من حديث عبدالله بن مسعود قال: «شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به ـ الحديث» وأبوالمقداد هو عمرو بن ثعلبة. والأسود بن عبد يغوث الزهري حالفه، فتبناه فنسب إليه. وهو المقداد الكندي أيضاً. لأنه أصاب دماً في بهراء ـ قبيلته ـ فهرب منه إلى كندة فحالفهم، ثم أصاب دماً في كندة، فهرب إلى مكة، فحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري.

وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، وإني قد رأيت مَصَارِعَ القوم».

فسار رسول الله (ﷺ) إلى بدر. وخفض أبو سفيان، فلحق بساحل البحر، ولما رأى أنه قد نجا، وأحرز العير، كتب إلى قريش: أن ارجعوا، فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم، فأتاهم الخبر وهم بالجُحْفة، فهموا بالرجوع، فقال أبو جهل: والله لا نرجع، حتى نقدم بدرًا، فنقيم بها، ونطعم من حضرنا من العرب، وتخافنا العرب بعد ذلك، وأشار الأخنس بن شُريق عليهم بالرجوع فعصوه، فرجع هو وبنو زُهْرة، فلم يشهد بدرًا زهري، فاغتبطت بنو زهرة بعدُ برأي الأخنس، فلم يزل فيهم مطاعًا معظمًا، وأرادت بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع، فساروا.

وسار رسول الله (ﷺ) حتى نزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر، فقال: «**أشيروا عليَّ في المنزل**» فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله، أنا عالم بها وبقُلبها، إن رأيت أن نسير إلى قُلُب قد عرفناها، فهي كثيرة الماء عذبة، فننزل عليها ونسبق القوم إليها، ونُغَوِّر ما سواها من المياه؟ وسار المشركون سِراعًا يريدون الماء.

وبعث (ﷺ) عليًا وسعدًا والزبير إلى بدر يلتمسون الخبر، فقدموا بعبدين لقريش، ورسول الله (ﷺ) قائم يصلي، فسألهما أصحابه: لمن أنتما؟ فقالا: نحن سقاة لقريش، فكره ذلك أصحابه، وودوا لو كانا لعير أبي سفيان. فلما سلم رسول الله (ﷺ) قال لهما: «**أخبراني أين قريش؟**» قالا: وراء هذا الكثيب، فقال: «**كم القوم؟**» فقالا: لا علم لنا، فقال: «**كم ينحرون كل يوم؟**» قالا: يوما عشرًا، ويومًا تسعًا، فقال رسول الله (ﷺ): «**القوم ما بين التسعمائة إلى الألف**» وأنزل الله ـ عز وجل ـ عليهم في تلك الليلة مطرًا واحدًا، فكان على المشركين وابلاً شديدًا، منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طَلًّا طهرهم به، وأذهب عنهم رِجْس الشيطان، ووطَّأ به الأرض، وَصَلَّب به الرملَ، وثَبَّت به الأقدام، ومهَّد به المنزل، وربط به على قلوبهم فسبق رسول الله (ﷺ) وأصحابه إلى الماء، فنزلوا عليه شَطْرَ الليل، وصنعوا الحِياضَ، ثم غوَّروا ما عداها من المياه، ونزل رسول الله (ﷺ) وأصحابه على الحياض، وبُنِيَ لرسول الله (ﷺ) عريش يكون فيه على تَلٍّ مُشرِف على المعركة، ومشى في موضع المعركة، وجعل يشير بيده «**هذا مصرع**

فلان، وهـذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله» فما عدا أحد منهم موضع إشارته.

فلما طلع المشركون، وتراءى الجمعان: قال رسول الله (ﷺ): «**اللهم هذه قريش، جاءت بخيلها وفخرها، جاءت تحاربك وتكذب رسولك**» فقام ورفع يديه، واستنصر ربه، وقال: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك**» فالتزمـه الصديق من ورائه، وقال له: «يارسول الله! أبشر، فو الذي نفسي بيده، لَيُنْجِزَنَّ الله لك ما وعدك» واستنصر المسلمون الله واستغاثوه، وأخلصوا له، وتضرعوا إليه، فأوحى الله إلى ملائكته ﴿**أنِّي مَعَكُم، فَثبتُوا الَّذِينَ آمنُوا، سَأُلقِي فِي قلوب الَّذِينَ كَفَـرُوا الرُّعْبَ**﴾ [الأنفال: ١٢]. وَأوحى الله إلى رسوله ﴿**أَنِّي مُمِدُّكم بِألفٍ مِن الملآئِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ [الأنفال: ٩]. قرىء بكسر الدال وفتحها، فقيل: المعنى: أنهم رِدْفٌ لكم، وقيل: يَرْدِفَ بعضهم بعضًا أَرْسَالاً، لم يأتوا دَفعة واحدة.

فإن قيـل: هٰهنا ذكَر أنه أمَدَّهم بألف، وفي سورة آل عمران قال: ﴿**إذ تَقُول لِلمؤمِنينَ: أَلَنْ يكفيكُمْ أنْ يُمدَّكُمْ ربُّكم بثَلاثَةِ آلافٍ مِّن الملآئِكَةِ منزَلِينَ؟ بلىٰ، إنْ تَصبرُوا وتَتَّقُوا، وَيَأتُوكُم مِنْ فَوْرِهِم هٰذَا: يُمددْكُم رَبُّكم بِخَمْسَةِ آلافٍ مّنَ الملائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥]. فكيف الجمع بينهما؟

قيل: اختلف في هذا الإمداد الذي هو بثلاثة آلاف، والذي هو بالخمسة على قولين:

أحدهما: أنه كان يوم أُحُد. وكان إمدادًا مُعَلَّقًا على شرط. فلما فات شرطه فات الإِمداد، وهذا قول الضحاك ومقاتل، وإحدى الروايتين عن عكرمة.

وَالثاني: أنه كان يوم بدر، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة، والرواية الأخرى عن عكرمة، واختاره جماعة من المفسرين.

وحجـة هؤلاء: أن السياق يدل على ذلـك، فإنه سبحانه قال: ﴿**وَلَقَد نَصرَكُم الله بِبَدْرٍ وأنتُم أذلَةٌ، فاتَّقُوا الله لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ، إذْ تَقُول للمُؤمِنِينَ: أَلَنْ يَكفِيَكُم أنْ يُمـدَّكُم رَبُّكُم بِثَـلاَثَةِ آلافٍ مِن الملآئِكَةِ مُنْزَلِينَ؟ بَلىٰ، إنْ تَصْبرُوا وَتَتَّقُوا**﴾ ـ إلى أن قال: ﴿**وما جعله الله**﴾ ـ أي: هذا الإمداد ـ ﴿**إلَّا بُشْرَى لَكُم، وَلِتطَمئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ**﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

قال هؤلاء: فلما استغاثوا: أَمَدَّهم بتمام ثلاثة آلاف، ثم أمدهم بتمام خمسة

آلاف، لما صبروا واتقوا، وكان هذا التدرج ومتابعة الإمداد: أحسن موقعًا، وأقوى لنفوسهم، وأسرَّ لها من أن يأتي مرة واحدة. وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقة الأولى: القصة في سياق أُحُد. وإنما أدخل ذكر بَدْر اعتراضًا في أثنائها. فإنه سبحانه قال: ﴿**وإذ غَدَوْتَ من أهلِكَ تُبَوِّىء المؤمنين مَقَاعِدَ للقتال، والله سميعٌ عليمٌ. إذ هَمَّتْ طَآئفتان مِنكم أن تَفْشَلا. والله وَلِيُّهُمَا وَعَلى الله فَلْيَتوكَّل المُؤمِنُونَ**﴾ [آل عمران: ١٢١ - ١٢٢]. ثم قال: ﴿**وَلَقَد نصَرَكُمُ الله بِبَدرٍ وأنتُم أذلَةٌ، فَاتَّقوا الله لَعلَّكُم تَشكُرونَ**﴾ [آل عمران: ١٢٣]. فذكرهم نعمته عليهم لما نصرهم ببدر، وهم أذلة، ثم عاد إلى قصة أحد. وأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿**ألَنْ يَكْفِيَكُم أن يُمدَّكُم رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُنْزَلِينْ**﴾ [آل عمران: ١٢٤]. ثم وعدهم - إن صبروا واتقوا - أن يمدهم بخمسة آلاف. فهذا من قول رسوله. والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف، وإمداد بدر بألف، وهذا معلق على شرط، وذلك مطلق. والقصة في سورة آل عمران هي قصة أحد مستوفاة مطولة، وبدر ذكرت فيها اعتراضًا. والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال.

يوضح هذا: أن قوله ﴿**وَيَأتُوكُم مِّنْ فَورِهِم هٰذا**﴾ [آل عمران: ١٢٥]. قد قال مجاهد: «هو يوم أحد» وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه، فلا يصح قوله: إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر، وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد. والله أعلم.

فصل

وبات رسول الله (ﷺ) يصلى إلى جِذْع شجرة هنالك، وكانت ليلةَ الجمعة، السابع عشر من رمضان في السنة الثانية، فلما أصبحوا أقبلت قريش في كَتائبها، واصطَفَّ الفريقان، فمشى حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة في قريش أن يرجعوا ولا يقاتلوا، فأبى ذلك أبو جهل. وجرى بينه وبين عتبة كلام أحفظه، وأمر أبو جهل أخا عمرو بن الحضرمي أن يطلب دَمَ أخيه عمرو، فكشف عن اسْتِه وصرخ، وقال «واعمراه» فحمي القوم، ونشبت الحرب، وعَدَّلَ رسول الله (ﷺ) الصفوف، ثم رجع إلى العريش، هو وأبو بكر خاصة، وقام سعد بن معاذ في قوم من الأنصار على باب العريش يحمون رسول الله (ﷺ).

وخـرج عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، يطلبون المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار: عبدالله بن رَوَاحَة، وعوف، ومعوذ، ابنا عَفْراء، فقالوا: لهم: من أنتم؟ فقالوا: من الأنصار. قالوا: أكفاء كرام. وإنها نريد بنى عمنا. فبرز إليهم على، وعبيدة بن الحارث وحمزة، فَقَتَلَ عليٌّ قِرْنه الوليدَ، وقتل حمزةُ قِرنه عتبة، واختلف عبيدة وقرنه الوليدُ[1] ضربتين، فكرَّ عليٌّ وحمزة على قرن عبيدة فقتـلاه، واحتملا عبيدة ـ وقد قطعت رجله ـ فلم يزل صمتًا حتى مات بالصفراء وكان عليٌّ يقسم بالله لنزلت هذه الآية فيهم: ﴿**هٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ**﴾الآية[2] [الحج: ١٩].

ثم حَميَ الوطيس، واستدارت رَحَى الحرب، واشتد القتال، وأخذ رسول الله (ﷺ) في الدعاء والابتهال، ومناشدة ربه ـ عز وجل ـ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فرده عليه الصديق رضي الله عنه، وقال: «بعضَ مناشدتك ربك، فإنه مُنجز لك ما وعدك» فأغْفَى رسول الله (ﷺ) إغْفَاءَةً واحدة، وأخذ القوم النعاسُ في حال الحرب، ثم رفع رسول الله (ﷺ) رأسه فقال: «**أبشر يا أبا بكر. هذا جبريل على ثناياه النَّقْع**[3]» وجاء النصر، وأنزل الله جنده، وأيّد رسوله والمؤمنين، ومنحهم أكتاف المشركين أسْرًا وقتلاً. فقتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين.

[4]**قال** تعـالى: ﴿**إذ يُوحي رَبُّـكَ إلىَ الملائِكَةِ: أنّي مَعكُم. فَثبتُوا الذَّينَ آمنُـوا**﴾ [الأنفال: ١٢]. في تفسـيرهـا: قَوُّوا قلوبهم، وبشروهم بالنصر. وقيل: احضُروا معهم. والقولان حق. فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم.

---

(١) المشهور كما في كتب السيرة أن قرن عبيدة بن الحارث هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وليس الوليد كما ذكر العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ فالوليد كان قرن عليّ بن أبي طالب وقتله عليّ وقتل حمزة شيبة بن ربيعة بن عبد شمس. وقال ابن هشام في السيرة النبوية ٢ / ٢٥٢ : قال ابن إسحاق وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس قتله عبيدة بن الحارث بن المطلب. قال ابن هشام: اشترك فيه هو وحمزة وعليّ.
قال ابن إسحاق: وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس قتله حمزة بن عبدالمطلب، والوليد بن عتبة بن ربيعة قتله علي بن أبي طالب. وذكره أيضاً المباركفوري في الرحيق المختوم ٢١٦/٢١٧ ا. هـ المراجع.

(٢) رواه البخاري من حديث علي. . وروى نحوه أبو داود في باب المبارزة.

(٣) رواه البخاري ومسلم. (٤) ٤٦ مدارج جـ ١.

(١) **التاسع**) أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر، بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف، بخلاف الربط على القلب فإنه يستلزم الصبر، كما قال تعالى: ﴿**وينزّل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم**﴾ [الأنفال: ١١]. ومعنى الربط في اللغة الشد. ولهذا يقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه، كأنه حبس قلبه عن الاضطراب ومنه يقال: هو رابط الجأش. وقد ظن الواحدى أن «على» زائدة، والمعنى يربط قلوبكم، وليس كما ظن، بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر. فإنه يقال: ربط الفرس والدابة ولا يقال: ربط عليها. فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه. كأنه أحاط عليه بالربط. فلهذا قيل: ربط على قلبه، وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه. والمقصود أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

(٢) فصل

ولما عزمت قريش على الخروج ذكروا ما بينهم وبين بني كنانة من الحرب، فَتَبدَّى لهم إبليس في صورة سُراقة بن مالك المُدلجي. وكان من أشراف كنانة، فقال لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جارٌ لكم: من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه. فخرجوا والشيطان جارٌ لهم لا يفارقهم. فلما انبعثوا للقتال ورأى عدو الله جندَ الله قد نزلت من السماء فَرَّ، ونكص على عَقبيه، فقالوا: إلى أين يا سراقَة؟ ألم تكن قلْت: إنك جارٌ لنا لا تفارقنا؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله. والله شديد العقاب. وصدق في قوله: إني أرى ما لا ترون، وكذب في قوله: إني أخاف الله. وقيل: كان خوفه على نفسه أن يهلك معهم. وهذا أظهر.

ولما رأى المنافقون ومَنْ في قلبه مرض قلَّة حزب الله وكثرة أعدائه: ظنوا أن الغلبة إنما هي بالكثرة، وقالوا: ﴿**غرَّ هؤلاء دينُهم**﴾ [الأنفال: ٤٩]. فأخبر الله سبحانه: أن النصر بالتوكل عليه، لا بالكثرة ولا بالعدد. والله عزيز لا يغلب، حكيم ينصر من يستحق النصر، وإن كان ضعيفًا. فعزته وحكمته أوجبت نصر الفئة المتوكلة عليه.

---

(١) ١١٨ التبيان. ٢ ٢٢٣ زاد المعاد جـ ٢.

ولما دنـا العدوّ وتواجه القوم: قام رسول الله (ﷺ) في الناس، فوعظهم وذكَّرهم بما لهم في الصبر والثبات من النصر، والظفر العاجل، وثواب الله الآجل. وأخبرهم «أن الله قد أوجب الجنة لمن استشهد في سبيله» فقام عمير بن الحمام الأنصاري السلمي، فقال: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**». قال: بخٍ بخٍ يارسول الله، قال: «**ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟**» قال: لا والله يارسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «**فإنك من أهلها**» قال: فأخرج تَمْرات من قَرْنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر. ثم قاتل حتى قتل. فكان أول قتيل، وأخذ رسول الله (ﷺ) مِلء كفه من الحصى فرمى بها وجوه العدو، فلم تترك رجلاً منهم إلا ملأت عينيه. وشغلوا بالتراب في أعينهم؛ وشغل المسلمون بقتلهم. فأنزل الله في شأن هذه الرمية على رسوله ﴿**وما رَميتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ الله رَمىٰ**﴾ [الأنفال: ١٧]. وقد ظن طائفة أن الآية دلت على نفى الفعل عن العبد، وإثباته لله، وأنه هو الفاعل حقيقة. وهذا غلط منهم من وجوه عديدة مذكورة في غير هذا الموضع. ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي، ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميه، فالرمي يراد به: الحذف والإيصال، فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال. وكانت الملائكة يومئذ تبادر المسلمين إلى قتل أعدائهم.

(١)...**وأما** قوله: ﴿**فَلم تَقتُلوهُمْ ولكنَّ الله قَتلهُمْ، ومَا رَميتَ إذ رَميتَ ولكِنَّ الله رَمىٰ**﴾ [الأنفال: ١٧]. فغاب عنهم فقه الآية وفهمها، والآية من أكبر معجزات النبي (ﷺ) والخطاب بها خاص لأهل بدر. وكذلك القبضة التي رمى بها النبي (ﷺ) فأوصلها الله سبحانه إلى جميع وجوه المشركين، وذلك خارج عن قدرته (ﷺ) وهو الرمي الذي نفاه عنه، وأثبت له الرمي الذي هو في محل قدرته وهو الحذف: وكذلك القتل الذي نفاه عنهم هو قتل لم تباشره أيديهم وإنما باشرته أيدي الملائكة فكان أحدهم يشتد في أثر الفارس وإذا برأسه قد وقع أمامه من ضربة الملك ولو

(١) ٢٧٨ أعلام جـ ٢.

كان المراد مافهمه هؤلاء الذين لا فقه لهم في فهم النصوص لم يكن فرق بين ذلك وبين كل قتل وكل فعل ...

(١)**فهذه** الآية نزلت في شأن رميه (ﷺ) المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء. فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته. ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ. فكان منه (ﷺ) مبدأ الرمي. وهو الحذف. ومن الله سبحانه وتعالى: نهايته، وهو الإيصال. فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه، ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته.

ونظير هذا: قوله في الآية نفسها: ﴿**فَلَم تَقْتُلُوهُم ولكنَّ الله قَتَلَهُم**﴾. ثم قال: ﴿**وَمَارَميتَ إذ رَمَيتَ. وَلَكِنَّ الله رَمى**﴾ [الأنفال: ١٧] فأخبره: أنه هو وحده هو الذي تفرد بقتلهم. ولم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرد بإيصال الحصى إلى أعينهم. ولم يكن ذلك من رسوله. ولكن وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه أقام أسباباً ظاهرة، كدفع المشركين. وتولى دفعهم، وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس. فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافاً إليه وبه. وهو خير الناصرين.

(١)**وقوله** تعالى: ﴿**وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً**﴾ [الأنفال: ١٧] فالبلاء الحسن هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء، وليس من الابتلاء الذي هو الامتحان بالمكروه، بل من أبلاه بلاء حسناً إذا أنعم عليه، يقال: أبلاك الله ولا ابتلاك، فأبلاه بالخير، وابتلاه بالمكاره غالباً، كما في الحديث «**إني مبتليك ومبتل بك**».

(٣)**قال** ابن عباس: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يَشْتَدُّ في أثَرِ رجل من المشركين أمامه، إذْ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس فوقه يقول: أقدم حَيزوم، إذْ نظر إلى المشرك أمامه مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفُه، وشُق وجهه كضربة السوط، فأحضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله (ﷺ) فقال: «**صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة**(٤)».

---

(١) ٤٢٦ مدارج جـ ٣.

(٢) ٣٤٢ طريق الهجرتين.

(٣) ٢٢٤ زاد المعاد جـ ٢.

(٤) رواه مسلم من حديث ابن عباس.

وقال أبو داود الأنصاري المازني(١) «إني لأتَّبعُ رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه، قبل أن يصل إليه سيفي. فعرفت أنه قد قتله غيري» «وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال العباس: إن هذا والله ما أسرني لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً، على فرس أبلق، وما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، قال: «**اسكت، فقد أيدك الله بملك كريم**». وأسرنا من بني عبدالمطلب ثلاثة: العباس، وعقيل، ونوفل بن الحارث».

وذكر الطبراني في معجمه الكبير: عن رفاعة بن رافع قال: «لما رأى إبليس ما يفعل الملائكة بالمشركين - يوم بدر - أشفق أن يخلص القتل إليه، فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يَظنه سُراقة بن مالك، فوكز في صدر الحارث، فألقاه، ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر، ورفع يديه، وقال: اللهم إني أسألك نَظْرتك إياي، وخاف أن يخلص إليه القتل. فأقبل أبو جهل بن هشام، فقال: يا معشر الناس، لا يهزمنكم خذلان سُرَاقة إياكم، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يَهُولَنَّكم قتل عتبة وشيبة والوليد، فإنهم قد عَجلوا، فواللات والعزى، لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال، ولا ألْفيَنَّ رجلاً منكم قتل منهم رجلاً، ولكن خذوهم أخذا، حتى نُعَرِّفهم سوء صنيعهم، واستفتح أبو جهل في ذلك اليوم فقال: اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه، فأحْنِه الغداة: اللهم أيُّنا كان أحبَّ إليك وأرضى عندك، فانصره اليوم، فأنزل الله عز وجل ﴿**إن تَستَفتِحُوا فَقَد جاءَكُمُ الفَتحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيرٌ لَكُم، وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغني عَنكُم فِئَتُكُم شَيئاً وَلَو كَثُرَت وَأَنَّ اللهَ مَعَ المُؤمِنِينَ**﴾(٢) [الأنفال: ١٩].

ولما وضع المسلمون أيديهم في العدو يقتلون ويأسرون، وسعد بن معاذ واقف على باب الخيمة التي فيها رسول الله (ﷺ) وهي العريش، مُتَوشِّحاً بالسيف، في ناس من الأنصار: رأى رسولُ الله (ﷺ) في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال رسول الله (ﷺ): «**كأنك تكره ما يصنع الناس؟**» قال: أجل، والله، كانت أول وقعة أوقعها الله بالمشركين وكان الإثخان في القتل أحبَّ إليّ من استبقاء الرجال».

(١) قيل: اسمه عمرو. وقيل: عمير بن مالك النجاري الخزرجي. وحديثه رواه ابن اسحاق. وفي البداية لابن كثير: عن أبي واقد الليثي. (٢) رواه الإمام أحمد والنسائي في التفسير والحاكم في المستدرك من حديث عبدالله بن ثعلبة. ورواه الواقدي من حديث ابن عباس.

ولما بردت الحرب، وولى القوم منهزمين، قال رسول الله (ﷺ): **«من ينظر لنا ما صنع أبو جهل؟»** فانطلق ابن مسعود، فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته، وقال: أنت أبو جهل؟ فقال: لمن الدائرة اليوم؟ فقال: لله ولرسوله، وهل أخزاك الله يا عدو الله؟ فقال: وهل فوق رجل قتله قومه، فقتله عبدالله، ثم أتى النبي (ﷺ) فقال: قتلته، فقال: **«آلله الذي لا إله إلا هو؟»** فرددها ثلاثاً، ثم قال: **«الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه»** فانطلقنا فأريته إياه، فقال: **«هذا فرعون هذه الأمة»**[1].

وأسر عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف وابنه عليًا، فأبصره بلال، وكان أُمَيَّة يعذبه بمكة، فقال: رأس الكفر أمية بن خلف؟ لا نجوت إن نجا. ثم استصرخ جماعة من الأنصار، واشتد عبد الرحمن بهما يحرزهما منهم، فأدركوهم، فشغلهم عن أمية بابنه، ففرغوا منه، ثم لحقوهما، فقال له عبد الرحمن: ابْرُكْ فَبَرك، فألقى نفسه عليه، فضربوه بالسيف من تحته حتى قتلوه، وأصاب بعض السيوف رِجْلَ عبد الرحمن بن عوف. وقد كان قال له أمية قبل ذلك: من الرجل المعلم في صدره ذاك بريشة نعامة؟ فقال: حمزة بن عبد المطلب. فقال: ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل. وكان مع عبد الرحمن أدراع قد استلبها فلما رآه أمية قال له: أنا خير لك من هذه الأدراع، فألقاها وأخذه. فلما قتله الأنصار كان يقول: «يرحم الله بلالاً، فجعنى بأدْرَاعي وبأسيري»[2].

وانقطع يومئذ سيف عُكَّاشة بن مِحْصن، فأعطاه النبي (ﷺ) جِذْلاً من حطب، فقال: **«دونك هذا»** فلما أخذه عكاشة وهَزَّه: عاد في يديه سيفاً طويلاً شديداً أبيض، فلم يزل عنده يقاتل به حتى قتل في الردة أيام أبي بكر.

ولقي الزبير عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج في السلاح، لا يُرى منه إلا الحَدَق، فحمل عليه الزبير بحربته، فطعنه في عينه فمات، فوضع رجله على الحربة ثم تمطى، فكان الجهد: أن نزعها، وقد انثنى طرفاها، فسأله إياها رسول الله (ﷺ) فأعطاه إياها، فلما قُبض رسول الله (ﷺ) أخذها، ثم طلبها أبو بكر رضي الله عنه فأعطاه إياها. فلما قُبض أبو بكر سأله إياها عمر فأعطاه إياها،

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أنس، والبخاري من حديث ابن مسعود.
(٢) روى البخاري قصة قتل أمية، عن عبد الرحمن بن عوف نحوًا من هذا السياق.

فلما قبض عمر أخذها ثم طلبها عثمان فأعطاه إياها، فلما قبض عثمان وقعت عند آل علي، فطلبها عبدالله بن الزبير فأخذها. فكانت عنده حتى قتل.

وقال رفاعة بن رافع: «رُميتُ بسهم يوم بدر فَفُقِئَت عيني، فبصق فيها رسول الله (ﷺ) ودعا لي، فما آذاني منها شيء بعد».

فلما انقضت الحرب أقبل رسول الله (ﷺ) حتى وقف على القتلى، فقال: «**بئس عَشِيرةُ النبي كنتم لنبيكم، كذبتوني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس**». ثم أمر بهم فسحبوا إلى قليب من قُلُب بدر، فطرحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «**يا عتبة بنَ ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، ويا فلان، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا؟**» فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، ما تخاطب من أقوام قد جَيَّفوا؟ فقال: «**والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون الجواب**».

ثم أقام رسول الله (ﷺ) **بعرصتهم ثلاثاً**. و«كان إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً[1]». ثم ارتحل مؤيداً منصوراً، قرير العين بنصر الله له، ومعه الأسارى والمغانم. فلما كان بالصفراء قسم الغنائم، وضرب عنق النضر بن الحارث بن كِلْدة، ثم لما نزل بعِرْق الظَّبية: ضرب عنق عقبة بن أبي مُعيَط. ودخل رسول الله (ﷺ) المدينة مؤيداً مظفراً منصوراً، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة. وحينئذ دخل عبدالله بن أبي ابن سلول المنافق وأصحابه في الإسلام ظاهراً.

وجملة من حضر بدراً من المسلمين: ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً: من المهاجرين ستة وثمانون، ومن الأوس: أحد وستون، ومن الخزرج: مائة وسبعون وإنما قَلَّ عدد الأوس عن الخزرج ـ وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة، وأصبر عند اللقاء ـ لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفير بغتة. وقال النبي (ﷺ): «**لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضراً**» فاستأذنه رجال، ظهورهم كانت في علو المدينة: أن يستأني بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم، فأبى، ولم يكن عزمهم على

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن، من حديث أبي طلحة.

اللقاء، ولا أعدوا له عُدَّة، ولا تَأَهَّبُوا له أهبة، ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

واستُشْهد من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين، وستة من الخزرج، واثنان من الأوس، وفرغ رسول الله (ﷺ) من شأن بدر والأسارى في شهر شوال.

(١)**وذكر** عبدالله بن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه، فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان جالس على التراب. قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما في وجوهنا قال: إني أبشركم بما يسركم أنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني إن الله قد نصر نبيه (ﷺ) وأهلك عدوه وأسر فلان وفلان وفلان وقتل فلان وفلان: التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك كأني أنظر إليه كنت أرعى به لسيدي رجل من بني ضمرة فقال له جعفر: ما بالك جالساً على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق، قال: إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى (ﷺ) أن حقًّا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعاً، عندما أحدث الله لهم من نعمة فلما أحدث الله لي نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع.

(٢)**وقال** تعالى: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤] فأخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان. فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور. وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم. فقد ماتت قلوبهم وقُبرت في أبدانهم. فقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الله يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر: ٢٢] ولقد أحسن القائل:

وفي الجهل، قبل الموت، موت لأهله ... وأجسامهم، قبل القبور، قبورُ
وأرواحهم في وَحْشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشورُ

(٣)**قال** الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا استَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحيِيكُم وَاعلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَينَ المَرءِ وَقَلبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيهِ تُحشَرُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٤].

(١) ١٤١ عدة الصابرين. (٢) ٢٢ إغاثة جـ١. (٣) ٨٧ فوائد.

فتضمنت هذه الآية أموراً: أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة، فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات.

فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة، بحسب ما استجاب للرسول. قال مجاهد: ﴿**لما يحييكم**﴾ يعني: للحق. وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. وقال السدي: هو الإسلام أحياهم به بعد موتهم بالكفر. وقال ابن إسحاق، وعروة بن الزبير، واللفظ له: ﴿**لما يحييكم**﴾ يعني: للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وهذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة، وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهراً وباطناً. قال الواحدي: والأكثرون على أن معنى قوله: ﴿**لما يحييكم**﴾: هو الجهاد، وهو قول ابن إسحاق، واختيار أكثر أهل المعاني. قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم، يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم، واجترأ عليهم عدوهم، [قلت]: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة.

أما في الدنيا فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد.

وأما في البرزخ فقد قال تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحيَاءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ**﴾. [آل عمران: ١٦٩]

وأما في الآخرة فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم. ولهذا قال ابن قتيبة: ﴿**لما يحييكم**﴾ يعني: الشهادة.

وقال بعض المفسرين: ﴿**لما يحييكم**﴾ يعني: الجنة؛ فيها دار الحيوان وفيها الحياة الدائمة الطيبة. حكاه أبو علي الجرجاني.

والآية تتناول هذا كله، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة. والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة؛ فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة. والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة:

حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه على ما يضره، ومتى نقصت فيه هذه الحياة، ناله من الألم والضعف بحسب ذلك، ولذلك كانت حياة المريض والمحزون، وصاحب الهم والغم، والخوف والفقر والذل، دون حياة من هو معافى من ذلك.

وحياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل، والغي والرشاد، والهوى والضلال، فيختار الحق على ضده، فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال، وتفيده قوة الإيمان والإرادة والحب للحق وقوة البغض والكراهة للباطل. فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته بحسب نصيبه من هذه الحياة، كما أن البدن الحي يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم، ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم. فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حياة القلب، فإذا بطلت حياته بطل تمييزه، وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار. كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك؛ الذي هو رسول الله من روحه، فيصير حيًّا بذلك النفخ، وكان قبل ذلك من جملة الأموات، فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول (ﷺ) من الروح الذي ألقي إليه. قال تعالى: ﴿يُنزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِن أَمرِهِ عَلَى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾ [النحل: ٢]، وقال: ﴿يُلقِي الرُّوحَ مِن أَمرِه عَلى مَن يَشاءُ مِن عَبادِه﴾ [غافر: ١٥] وقال: ﴿وَكَذلِكَ أَوحَينا إِلَيكَ رُوْحاً مِّن أَمرِنَا، مَا كُنْتَ تَدرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلناه نُوراً نَّهدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبادِنَا﴾. [الشورى: ٥٢]

فأخبر أن وحيه روح ونور، فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكي، فمن أصابه نفخ الرسول الملكي ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان؛ ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين، وفاتته الأخرى. قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيتاً فَأَحيَيْنَاهُ وَجَعَلنَا لَهُ نُوراً يَمشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيسَ بِخَارِجٍ مِنهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ فجمع له بين

النور والحياة كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة. قال ابن عباس، وجميع المفسرين: كان كافراً ضالاً فهديناه. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يتضمن أموراً:

أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور وهم في الظلمة؛ فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتـدوا للطريق، وآخـر معه نور يمشي به في الطريق ويراها ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنـه يمشي بنـوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.

وقوله: ﴿وَاعلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَينَ المرءِ وَقَلبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]. المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته؛ وهذا قول ابن عباس، وجمهور المفسرين. وفي الآية قول آخر: أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية: فهو بينه وبين قلبه. ذكره الواحدي، عن قتادة؛ وكان هذا أنسب بالسياق. لأن الاستجابة أصلها بالقلب، فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه، فيعلم هل استجاب له قلبه وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه؟.

وعلى القول الأول فوجه المناسبة: أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها، فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم على تركها، بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفئِدَتَهُم وأَبصَارَهُم كَما لَم يُؤمِنُوا به أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾. [الصف: ٥].

(١)**وقال** تعالى: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ [البقرة: ١٠].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا استَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحيِيكُم وَاعلَمُـوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَينَ المرءِ وَقَلبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيهِ تُحشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي: إن

(١) شفاء ٣١.

تركتم الاستجابة لله ورسوله عاقبكم بأن يحول بينكم وبين قلوبكم فلا تقدرون على الاستجابة بعد ذلك.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤]. ووجه الاستدلال أن هذا أمر لكل مؤمن بلغته دعوة الرسول (ﷺ) إلى يوم القيامة، ودعوته نوعان: مواجهة ونوع بواسطة المبلغ وهو مأمور بإجابة الدعوتين في الحالتين، وقد علم أن حياته في تلك الدعوة والاستجابة لها، ومن الممتنع أن يأمره الله تعالى بالإجابة لما لا يفيد علماً أو يحييه بما لا يفيد علماً أو يتوعده على ترك الاستجابة لما لا يفيد علماً بأنه إن لم يفعل عاقبه وحال بينه، وبين قلبه.

فصل

النوع الحادي والعشرون: إخباره سبحانه عن تركه بعض مقدوره لما يستلزمه من المفسدة، وأن المصلحة في تركه ولو كان الأمر راجعاً إلى محض المشيئة لم يكن ذلك علة للحكم كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣] فعلل سبحانه عدم إسماعهم السماع الذي ينتفعون به وهو سماع الفهم. بأنهم لا خير فيهم يحسن معه أن يسمعهم، وبأن فيهم مانعاً آخر يمنع من الانتفاع بالمسموع لو سمعوه وهو الكبر والإعراض، فالأول: من باب تعليل عدم الحكم بعدم ما يقتضيه. والثاني: من باب تعليله بوجود مانعه...

(٣)**وأما** سماع الإجابة: ففي مثل قوله تعالى: ﴿**وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٤٧] أي: مستجيبون لهم. وفي قوله: ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾ [المائدة ٤١] أي: مستجيبون له. وهو المراد. وهذا المراد بقول المصلي: «سمع الله لمن حمده» أي أجاب الله حَمْدَ من حمده. وهو السمع الذي نفاه الله عز وجل عمن لم يرد به خيراً. في قوله: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٣] أي: لجعلهم يسمعون

---

(١) ٣٩٩ مختصر الصواعق جـ ٢. (٢) شفاء ٢٠٣. (٣) ١٩٨ مدارج جـ ٣.

سمع إجابة وانقياد. وقيل: المعنى لأفهمهم. وعلى هذا: يكون المعنى لأسمع قلوبهم. فإن سماع القلب يتضمن الفهم.

والتحقيق: أن كلا الأمرين مراد. فلو علم فيهم خيراً لأفهمهم، ولجعلهم يستجيبون لما سمعوه وفهموه. (١) والمقصود: أن «سماع الإجابة» هو سماع انقياد القلب، والروح، والجوارح، لما سمعته الأذنان.

(٢)**ومعلوم** أنهم لم يعدموا السمع جملة ويصيروا كالأصم. ولذلك ينفي سبحانه عنهم السمع تارة ويثبته أخرى قال الله تعالى: **﴿وَلَو عَلِمَ الله فِيهِم خَيراً لَأسمَعَهُم﴾**.

ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن وأمر الرسول بأسماعهم إياه. وقال تعالى: **﴿وقَالُوا لو كُنَّا نَسمَعُ أو نَعقِلُ مَا كُنَّا في أَصحَابِ السَّعِيرِ﴾** [الملك: ١٠] فهذا السمع المنفي عنهم سمع الفهم والفقه والمعنى: ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم سمعاً ينتفعون به، وهو فقه المعنى وعقله وإلا فقد سمعوه سمعاً تقوم به عليهم الحجة؛ ولكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكراهته ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه.

والرجل إذا اشتدت كراهته للكلام ونفرته عنه لم يفهم ما يراد به فينزل منزلة من لم يسمعه. قال تعالى: **﴿مَا كَانُوا يَستَطِيعُونَ السَّمعَ وَمَا كَانُوا يُبصِرُونَ﴾** [هود: ٢٠] نفى عنهم استطاعة السمع مع صحة حواسهم وسلامتها، وإنما لفرط بغضهم ونفرتهم عنه وعن كلامه؛ صاروا بمنزلة من لا يستطيع أن يسمعه ولا يراه وهذا استعمال معروف للخاصة والعامة يقولون: لا أطيق أنظر إلى فلان ولا أستطيع أن أسمع كلامه؛ من بغضه ونفرته عنه.

وبعض الجبرية يحتج بهذه الآية وشبهها على مذهبهم، ولا دلالة فيها إذ ليس المراد سلبهم السمع والبصر الذي تقوم به الحجة قطعاً، وإنما المراد سلب السمع الذي يترتب عليه فائدته وثمرته والقدر حق، ولكن الواجب تنزيل القرآن منازله ووضع الآيات مواضعها واتباع الحق حيث كان، ومثل هذا إذا لم يحصل له فهم الخطاب لا يعذر بذلك لأن الآفة منه وهو بمنزلة من سد أذنيه عند الخطاب

(١) يأتي إن شاء الله في سورة يونس الكلام على هذه الآية رقم ٣١ فلعله فيه زيادة فائدة.

(٢) ١٠١ مفتاح جـ ١.

فلم يسمعه فلا يكون ذلك عذراً له.

ومن هذا قولهم: ﴿**قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**﴾ [فصلت: ٥] يعنون: أنهم في ترك القبول منه ومحبة الاستماع لما جاء به وإيثار الإعراض عنه وشدة النفار عنه بمنزلة من لا يعقله ولا يسمعه ولا يبصر المخاطب لهم به، فهذا هو الذي يقولون لأجله في النار: ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١٠] ولهذا جعل ذلك مقدوراً عليهم وذنباً اكتسبوه. فقال تعالى: ﴿**فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١١]

والله تعالى ينفي تارة عن هؤلاء العقل والسمع والبصر، فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله. وتارة ينفي عنهم السمع والعقل. وتارة ينفي عنهم السمع والبصر. وتارة ينفي عنهم العقل والبصر.

وتارة ينفي عنهم السمع وحده، فنفى الثلاثة نفي لمدارك العلم بطريق المطابقة، ونفى بعضها نفي له بالمطابقة، والآخر باللزوم. فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر، بل أصل فسادهما من فساده، وإذا فسد السمع والبصر فسد القلب، فإذا أعرض عن سمع الحق وأبغض قائله بحيث لا يحب رؤيته امتنع وصول الهدى إلى القلب ففسد، وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر، فكل مدرك من هذه يصح بصحة الآخر ويفسد بفساده. فلهذا يجيء في القرآن نفي ذلك صريحاً ولزوماً، وبهذا التفصيل يعلم اتفاق الأدلة من الجانبين.....

(١)...**الوجه** الخامس والستون: أن الإنسان إنما يميز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان، وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلاً منه وأقوى بطشاً وأكثر جماعاً وأولاداً وأطول أعماراً، وإنما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه، فإذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة، فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شرًّا منهم كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس: ﴿**إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون**﴾ فهؤلاء هم الجهال ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم**﴾ أي: ليس عندهم محل قابل للخير (ولو) كان محلهم قابلاً للخير (لأسمعهم) أي: لأفهمهم والسمع ههنا

(١) ٧٨ مفتاح جـ ١.

سمع فهم وإلا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعنَا وَهُم لَا يَسْمَعُونَ﴾. [الأنفال: ٢١] وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنعِقُ بِمَا لَا يَسمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُم لَا يَعقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وسواء كان المعنى: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتاً مجردة أو كان المعنى ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء فالقولان متلازمان بل هما واحد، وإن كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى، فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان.

والسمع يراد به إدراك الصوت ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن.

فمن الأول قوله: ﴿**قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير**﴾ [المجادلة: ١] وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع، وذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله (ﷺ) وأنا في جانب البيت وإنه ليخفى علي بعض كلامها فأنزل الله: ﴿قَد سَمِعَ الله قَولَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوجِهَا﴾ [المجادلة: ١].

والثاني: سمع الفهم كقوله: ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم**﴾ أي: لأفهمهم ﴿**ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾ لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق، ففيهم آفتان: إحداهما: أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم، ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم وهذا غاية النقص والعيب.

والثالث: سمع القبول والإجابة كقوله تعالى: ﴿لَو خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُم إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوضَعُوا خِلَالَكُم يَبغُونَكُمُ الفِتنَةَ وَفِيكُم سَمَّاعُونَ لَهُم﴾ [التوبة: ٤٧]

(١) ٣٧ زاد المعاد جـ ٣.

أي: قابلون مستجيبون. ومنه قوله: ﴿سماعون للكذب﴾ أي: قابلون له مستجيبون لأهله. ومنه قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» أي: أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه. وقول النبي (ﷺ): «إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده فقولوا: ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم» أي يجيبكم.

والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه ومعاده؛ كان الحيوان البهيم خيراً منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل اهـ.

(١)**ومنها:** أن الرجل إذا أتيحت له فُرْصَة القرْبة والطاعة، فالحَزْم كل الحزم في انتهازها، والمبادرة إليها، والعجز: في تأخيرها، والتَّسْويف بها، ولا سيما إذا لم يَثِق بقدرته وتَمَكُّنه من أسباب تحصيلها. فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض، قلَّما تثبت. والله سبحانه يعاقب من فتح له باباً من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعد من إرادته، عقوبة له، فمن لم يستجب لله ولرسوله ـ إذا دعاه ـ حال بينه وبين قلبه وإرادته، ولا يمكنه الاستجابة بعد ذلك قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا استَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُول إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحيِيكُم وَاعلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَينَ المرءِ وَقَلبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد صرح الله سبحانه بهذا في قوله: ﴿ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهم وأبصارهم كما لم يُؤْمِنُوا به أَوَّلَ مرَّة﴾ [الأنعام: ١١٠] وفي قوله تعالى: ﴿فلما زَاغُوا أزَاغَ الله قُلُوبَهم﴾ [الصف: ٥] وقوله: ﴿وَمَا كانَ الله لِيُضِلَّ قوماً بعدَ إذْ هَدَاهُم، حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم ما يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] وهو كثير في القرآن.

(٢)**وقال:** ﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمنُوا إن تَتَّقُوا الله يَجعَلْ لَّكُم فُرقَاناً وَّيُكَفِّرْ عَنكُم سَيئاتِكُم وَيَغفِر لَكُم﴾ [الأنفال: ٢٩] وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة، والنصر، والعلم، والنور، الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب وذلك غاية التيسير. وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠] والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر.

(٣)**وقال** مالك للشافعي رضي الله عنهما في أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِن

(١) ٣٧ زاد المعاد جـ ٣. (٢) ٣٧ التبيان. (٣) ٢٥٨ أعلام جـ ٤.

تَتَّقُوا الله يَجعَل لَّكُم فُرْقاناً﴾ [الأنفال: ٢٩] ومن الفرقان النور الذي يفرق به العبدُ بين الحق والباطل، وكلما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتم، وبالله التوفيق.

(١) **ومن** الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعزّ الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل فسر الفرقان بهذا وبهذا. . .

(٢) **وتأمل** قوله تعالى لنبيه: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُم وَأَنتَ فيهِم﴾ [الأنفال: ٣٣] كيف يفهم منه أنه إذا كان وجودُ بدنه وذاتِهِ فيهم دفَعَ عنهم العذاب وهم أعداؤه، فكيف وجود سره والإيمان به ومحبته ووجود ما جاء به إذا كان في قوم أو كان في شخص؟ أفليس دفعه العذاب عنهم بطريق الأولى والأحْرَى؟.

(٣) **وأما** «الاستغفار» فهو نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة.

فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿استَغفروا رَبَّكُم إِنَّه كَانَ غَفَّاراً. يُرسِلِ السَّمَاءَ عَليكُم مِّدرَاراً﴾ [نوح: ١٠-١١]. وكقول صالح لقومه: ﴿لَولاَ تَستَغفِرُونَ الله لَعلَّكُم تُرحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦]. وكقوله تعالى: ﴿وَاستَغفِرُوا الله إِنَّ الله غَفورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعذِّبَهُمْ وأَنتَ فِيهِم. وَمَا كَانَ الله مُعَذِبَهُم وَهُم يَستَغفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

والمقرون كقوله تعالى: ﴿استَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِليهِ يُمتِّعْكُم مَّتاعاً حَسَناً إِلىٰ أجلٍ مُّسَمًّى ويُؤتِ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضله﴾ [هود: ٣] وقول هود لقومه ﴿استَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِليهِ يُرسِلِ السَّمَاءَ عَلَيكُم مِّدرَاراً﴾ [هود: ٥٢]. وقول صالح لقومه: ﴿هُوَ أَنشأكُم مِنَ الأَرضِ واستعمَرَكُم فِيهَا. فَاستَغفروهُ ثُمَّ تُوبُوا إِليهِ إِنَّ ربِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]. وقول شعيب: ﴿وَاستَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ إِنَّ ربِّي رَحِيمٌ وَّدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

فالاستغفار المفرد كالتوبة. بل هو التوبة بعينها. مع تضمنه طلب المغفرة من الله. وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره.

لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر. فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له. ولكن الستر لازم مسماه أو جزؤه. فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

---

(١) ١٢٩ الفوائد.	(٢) ٢٢٦ أعلام جـ ١.	(٣) ٣٠٧ مدارج جـ ١.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب. ومنه المغفر، لما يقي الرأس من الأذى. والستر لازم لهذا المعنى. وإلا فالعمامة لا تسمى مِغفراً، ولا القبع ونحوه مع ستره. فلابد في لفظ «المغفر» من الوقاية. وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُم وَهُم يَستَغفِرُونَ**﴾ [الأنفال: ٣٣]. فَإِنَّ الله لَا يُعَذِّبُ مُستغفراً.

وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته. فهذا ليس باستغفار مطلق. ولهذا لا يمنع العذاب. فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار. وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى. فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فها هنا ذنبان: ذنب قد مضى. فالاستغفار منه: طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله.

والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى.

ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضاً فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقاً تؤديه إلى هلاكه. ولا توصله إلى المقصود. فهو مأمور أن يوليها ظهره. ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته. والتي توصله إلى مقصوده. وفيها فلاحه.

فهنا أمران لابد منهما: مفارقة شيء. والرجوع إلى غيره. فخصت «التوبة» بالرجوع، و«الاستغفار» بالمفارقة. وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين. ولهذا جاء ـ والله أعلم ـ الأمر بهما مرتباً بقوله: ﴿**اِستَغفِروا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ**﴾ [هود: ٣]. فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر. والتوبة طلب جلب المنفعة. فالمغفرة أن يقيه شر الذنب. والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه. وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده. والله أعلم.

(١)**قال** تعالى عن الكفار: ﴿**وَمَا كانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾ [الأنفال: ٣٥]. قال ابن عباس، وابن عمر. وعطية، ومجاهد،

(١) ٢٤٤ إغاثة جـ ١.

والضحَّاك، والحسن، وقتادةُ «المكاء: الصَّفير، والتَّصْدية: التصْفيق».

وكذلك قال أهل اللغة: المكاء: الصَّفير. يقال: مَكا، يَمْكو، مُكاء. إذا جمع يديه ثم صَفَّر فيهما. ومنه: مَكَتِ اسْتُ الدّابة، إذا خرجت منها الريح بصوت. ولهذا جاء على بناء الأصوات، كالرُّغاء، والعُواء، والثُّغاء. قال ابن السِّكِّيت: الأصوات كلها مضمومة، إلا حرفين: النِّداء، والغِناء.

وأما التصدية: فهي في اللغة: التصفيق. يقال: صَدَى يَصدَى تَصْدِيةً، إذا صفَّق بيديه. قال حسان بن ثابت، يعيب المشركين بصفيرهم وتصفيقهم:

إذا قام الملائكة انبعثتم صلاتُكم التَّصدِّي والمكاء

وهكذا الأشباه. يكون المسلمون في الصلوات الفرض والتطوع، وهم في الصفير والتصفيق. قال ابن عباس: «كانت قريش يطوفون بالبيت عُراة، ويُصَفِّرون ويصفقون». وقال مجاهد: «كانوا يعارضون النبي (ﷺ) في الطواف ويصفرون ويصفقون، يَخْلطون عليه طوافه وصلاته» ونحوه عن مقاتل. ولا ريب أنهم كانوا يفعلون هذا وهذا.

فالمتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق أشباه النوع الأول، وإخوانهم المخلِّطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة أشباه النوع الثاني. قال ابن عَرَفة، وابن الأنباري: المكاء والتَّصْدية ليسا بصلاة ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكانَ الصلاة التي أُمروا بها: المكاء والتصدية. فألزمهم ذلك عظيمَ الأوزار، وهذا كقولك: زُرْته، فجعل جَفائي صِلَتي، أي أقام الجفاء مقام الصِّلة.

والمقصود: أن المصفقين والصفارين في يَراع أو مِزْمار ونحوه فيهم شَبَهٌ من هؤلاء، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر. فلهم قِسْط من الذم، بحسب تشبههم بهم: وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مُكائهم وتَصْدِيتهم.

والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابَهُمْ أمرٌ، بل أُمروا بالعدول عنه إلى التسبيح. لئلا يتشبهوا بالنساء، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة، وقَرنُوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعلاً؟

فصل(١)

والفتنة بعشق الصور تنافي أن يكون دين العبد كله لله ، بل ينقص من كون دينه لله بحسب ما حصل له من فتنة العشق . وربما أخرجت صاحبه من أن يبقى معه شيء من الدين لله . قال تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾ [الأنفال: ٣٩].

فناقض بين كون الفتنة وبين كون الدين كله . فكل منهما يناقض الآخر .

والفتنة قد فسرت بالشرك . فما حصلت به فتنة القلوب فهو إما شرك ، وإما من أسباب الشرك . وهي جنس تحته أنواع من الشبهات ، والشهوات . وفتنة الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله من أعظم الفتن . ومنه فتنة أصحاب العِجْل ، كما قال تعالى لموسى : ﴿فإنّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥].

فصل(٢)

وأما اللام في قوله : ﴿لِيَهلِكَ مَن هَلَكَ عَن بيّنةٍ وَيَحيىٰ مَن حَيَّ عَن بَيّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. فلام التعليل على بابها فإنها مذكورة في بيان حكمته ؛ في جمع أوليائه وأعدائه على غير ميعاد ، ونصرة أوليائه مع قلتهم ورقتهم وضعف عددهم وعدتهم ، على أصحاب الشوكة والعدد والحد والحديد الذي لا يتوهم بشر أنهم ينصرون عليهم ، فكانت تلك آية من أعظم آيات الرب سبحانه ، صدق بها رسوله وكتابه ؛ ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بينة ؛ فلا يكون له على الله حجة ويحيى من حي بالإيمان بالله ورسوله عن بينة ، فلا يبقى عنده شك ولا ريب وهذا من أعظم الحكم .

ونظير هذا قوله : ﴿إِنَ هُوَ إِلَّا ذِكر وقُرآنٌ مُبينٌ لِيُنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقّ القَولُ عَلَى الكَافِرينَ﴾ [يس: ٦٩-٧٠].

فصل(٣)

بين رعاية الحقوق مع الضر ، ورعايتها مع العافية ؛ بون بعيد . إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه ؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُم فِئَةً فَاثْبُتُوا

---

(١) ١٥٨ إغاثة جـ ٢ . (٢) ١٩٣ شفاء. (٣) ١٦٩ فوائد.

وَاذكُرُوا الله كَثِيراً لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. ليس العجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة، إنما العجب من ضعيف سقيم تعتوره الأشغال، وتختلف عليه الأحوال، وقلبه واقف في الخدمة، غير متخلف بما يقدر عليه.

(١)**قوله** تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُم فِئَةً فَاثبُتُوا وَاذكُرُوا الله كَثِيراً لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ، وَأَطِيعُوا الله وَرَسُوله وَلَا تَنازَعُوا فَتفشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم وَاصبِرُوا إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦]. فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء؛ ما اجتمعت في فئة قط إلا نصرت وإن قلت وكثر عددها:

أحدها: الثبات. الثاني: كثرة ذكره سبحانه وتعالى. الثالث: طاعته وطاعة رسوله. الرابع: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن، وهو جند يُقوى به المتنازعون عدوهم عليهم؛ فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام، لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرها كلها. الخامس: ملاك ذلك كله وقوامه وأساسه وهو الصبر.

فهذه خمسة أشياء تبتني عليها قبة النصر، ومتى زالت أو بعضها زال من النصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضاً وصار لها أثر عظيم في النصر. ولما اجتمعت في الصحابة لم تقم لهم أمة من الأمم وفتحوا الدنيا ودانت لهم البلاد. ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت؛ آل الأمر إلى ما آل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والله المستعان وعليه التكلان.

(٢) فصل

ومن(٣) كيده للإنسان: أنه يورده الموارد التي يُخَيِّلُ إليه أنَّ فيها منفعته، ثم يُصْدِرُهُ المصادر التي فيها عَطَبه، ويتخلَّى عنه ويُسْلمه وَيقفُ يَشْمَتُ به، ويضحك منه، فيأمره بالسَّرقة والزنى والقتل، ويدل عليه ويفضحه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي

(١) ١٢٩ الفروسية. (٢) ١٠٨ إغاثة جـ ١. (٣) أي الشيطان ـ لعنه الله ـ.

أَخَافُ اللهَ واللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨]. فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بَدْرٍ في صورة سُراقة بن مالك، وقال: أنا جار لكم من بَني كِنَانة أن يَقْصِدوا أهْلَكم وذراريكم بسوء، فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصر رسوله فَرَّ عنهم، وأسلمهم ، كما قال حسان:

دَلَّاهم بغُرورٍ، ثم أسلمهم إن الخبيث لمن والاه غَرار

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنى ثم بقتلها، ثم دَلَّ أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فَرَّعنه وتركه. وفيه أنزل الله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر:١٦]. وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرتْ عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته؛ فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢]. فأوردهم شر الموارد وتبرأ منهم كل البراءة.

وتكلم الناس في قول عدو الله: ﴿إني أخاف الله﴾ فقال قتادة، وابن إسحاق: «صدق عدو الله في قوله: ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ وكذب في قوله: ﴿إني أخاف الله﴾ والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا مَنَعَة فأوردهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه».

وقالت طائفة: «إنما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقابه في الآخرة»، وهذا أصح، وهذا الخوف لا يستلزم إيماناً ولا نجاة.

قال الكلبي: «خاف أن يأخذه جبريل فيعرفهم حاله فلا يطيعونه».

وهذا فاسد، فإنه إنما قال لهم ذلك بعد أن فَرَّ ونكص على عقبيه، إلا أن يريد أنه إذا عرف المشركون أن الذي أجارهم وأوردهم إبليس لم يطيعوه فيما بعد ذلك، وقد أبعد النُّجْعَة إن أراد ذلك، وتكلَّف غير المراد. وقال عطاء: «إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك» وهذا خوف هلاك الدنيا فلا ينفعه. وقال الزجاج وابن

الأنباري: «ظن أن الوقت الذي أنظر إليه قد حضر ـ زاد ابن الأنباري ـ قال: أخاف أن يكون الوقت المعلوم الذي يزول معه إنظاري قد حضر فيقع بي العذاب، فإنه لما عاين الملائكة خاف أن يكون وقت الإنظار قد انقضى، فقال ما قال إشفاقاً على نفسه».

فائدة(١)

من الآفات الخفية العامة: أن يكون العبد في نعمة أنعم الله بها عليه واختارها له، فيملها العبد ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم لجهله ـ أنه خير له منها، وربه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه، حتى إذا ضاق ذرعاً بتلك النعمة وسخطها، وتبرم بها واستحكم ملله(٢) لها، سلبه الله إياها، فإذا انتقل إلى ما طلبه، ورأى التفاوت بين ما كان فيه وما صار إليه، اشتد قلقه وندمه، وطلب العودة إلى ما كان فيه.

فإذا أراد الله بعبده خيراً ورشداً، أشهده أن ما هو فيه نعمة من نعمه عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه، فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه، استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته عاجز عنها، مفوض إلى الله، طالب منه حسن اختياره له. وليس على العبد أضر من ملله لنعم الله؛ فإنه لا يراها نعمة، ولا يشكره عليها، ولا يفرح بها، بل يسخطها ويشكوها ويعدها مصيبة، هذا وهي من أعظم نعم الله عليه. فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم، ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه، وهم مجتهدون في دفعها وردها جهلاً وظلماً.

فكم سعت إلى أحدهم من نعمة وهو ساع في ردها بجهده. وكم وصلت إليه وهو ساع في دفعها وزوالها بظلمه وجهله. قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الأنفال: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]. فليس للنعم أعدى من نفس العبد؛ فهو مع عدوه ظهير على نفسه؛ فعدوه يطرح النار في نعمه وهو ينفخ فيها؛ فهو الذي مكنه من طرح النار ثم أعانه بالنفخ، فإذا اشتد ضرامها، استغاث من الحريق، وكان غايته معاتبة الأقدار.

---

(١) ١٨٠ فوائد. (٢) في المطبوعة (ملكه) ولعل الصواب ما ذكرناه. المراجع.

وعاجز الرأي مضياع لفرصته		حتى إذا فات أمر عاتب القدرا اهـ.

[1]**قال** الله تعالى: ﴿وأعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعتُم مِنَ قُوةٍ وَمِن رِبَاطِ الخَيل﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال تعالى في حق المؤمنين: ﴿أَشِّداءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَينَهُم﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال فيهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمِنِين أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابتغاء القوم﴾ [النساء: ١٠٤]. أي: لا تضعفوا. وقال: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحزَنُوا وَأَنتُم الأعلَون إِن كُنتم مُّؤمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وفي الصحيحين: عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**». «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن**». وكان النبي (ﷺ) يتعوذ بالله من الجبن، والجبن خلق مذموم عند جميع الخلق. وأهل الجبن هم أهل سوء الظن بالله، وأهل الشجاعة والجود هم أهل حسن الظن بالله، كما قال بعض الحكماء في وصيّته: عليكم بأهل السخاء فإنهم أهل حسن الظن بالله، والشجاعة حصن للرجل من المكاره، والجبن إعانة منه لعدوه على نفسه، وهو جند وسلاح يعطيه عدوه ليحاربه.

وقالت العرب: الشجاعة وقاية والجبن مقتلة.

وقد أكذب الله سبحانه أطماع الجبناء في ظنهم أن جبنهم ينجيهم من القتل والموت. فقال تعالى: ﴿قُل لَّن يَّنفَعَكُم الفِرَار إِن فَرَرتُمْ مِّنَ الْمَوتِ أَوِ القَتلِ﴾ [الأحزاب: ١٦]. ولقد أحسن القائل:

أقول لها وقد طارت شعاعاً		من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم		على الأجل الذي لك لن تطاعي
وما ثوب الحياة بثوب عز		فيطوي عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي		وداعيه لأهل الأرض داعي

واعتبر ذلك بأن من يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً. وفي وصية أبي بكر الصديق لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهب لك الحياة. وقال خالد بن الوليد: حضرت كذا وكذا زحفاً في الجاهلية والإسلام، وما في جسدي موضع إلا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف، وها أنا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء.

(١) ١٢٥ الفروسية.

ولا ريب عند كل عاقل أن استقبال الموت إذا جاءك خير من استدباره قال حسان:

ولسنا على الأعقاب تدمي كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

(١)**فإذا** قلت: علمت فمطلوبها ثلاثة معان: محل وصفة وإضافة الصفة إلى المحل، وهن ثلاث معلومات إذا عرف هذا فقال بعض المتكلمين: لا يضاف إلى الله سبحانه إلا العلم لا المعرفة؛ لأن علمه متعلق بالأشياء كلها مركبها ومفردها تعلقاً واحداً بخلاف علم المحدثين؛ فإن معرفتهم بالشيء المفرد وعلمهم به غير علمهم ومعرفتهم لشيء آخر، وهذا بناء منه على أن الله تعالى يعلم المعلومات كلها بعلم واحد، وأن علمه بصدق رسول الله (ﷺ) هو عين علمه بكذب مسيلمة. والذي عليه محققو النظار خلاف هذا القول وأن العلوم متكثرة متغايرة بتكثر المعلومات وتغايرها فلكل معلوم علم يخصه ولإبطال قول أولئك وذكر الأدلة الراجحة على صحة قول هؤلاء مكان هو أليق به، وعلى هذا فالفرق بين إضافة العلم إليه تعالى وعدم إضافة المعرفة لا ترجع إلى الإفراد والتركيب في متعلق العلم؛ وإنما ترجع إلى نفس المعرفة ومعناها فإنها في مجاري استعمالها إنما تستعمل فيما سبق تصوره من نسيان أو ذهول أو عزوب عن القلب، فإذا تصور وحصل في الذهن قيل: عرفه أو وصف له صفته ولم يره، فإذا رآه بتلك الصفة وتعينت فيه قيل: عرفه ألا ترى أنك إذا غاب عنك وجه الرجل ثم رأيته بعد زمان فتبينت أنه هو قلت: عرفته وكذلك عرفت اللفظة وعرفت الديار وعرفت المنزل وعرفت الطريق.

وسر المسألة أن المعرفة لتمييز ما اختلط فيه المعروف بغيره فاشتبه فالمعرفة تمييز له وتعيين ومن هذا قوله تعالى: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ [البقرة: ١٤٦]. فإنهم كان عندهم من صفته قبل أن يروه ما طابق شخصه عند رؤيته، وجاء كما يعرفون أبناءهم من باب ازدواج الكلام وتشبيه أحد اليقينين(٢) بالآخر فتأمله، وقد بسطنا هذا في كتاب التحفة المكية وذكرنا فيها من الأسرار والفوائد ما لا يكاد يشتمل عليه مصنف. وأما ما زعموا من قولهم: أن علمت قد يكون بمعنى عرفت واستشهادهم بنحو قوله تعالى: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ [التوبة: ١٠١]. وبقوله:

---

(١) ٦٢ بدائع.

(٢) وفي نسخة التعيين.

﴿**وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم**﴾ فالذي دعاهم إلى ذلك أنهم رأوا علمت قد تعدت إلى مفعول واحد وهذا هو حقيقة العرفان(١) فاستشهاد ظاهر على أنه قد قال بعض الناس: إن تعدى فعل العلم في هذه الآيات وأمثالها إلى مفعول واحد، لا يخرجها عن كونها علماً على الحقيقة فإنها لا تتعدى إلى مفعول واحد على نحو تعدى عرفت، ولكن على جهة الحذف والاختصار فقوله: ﴿**لا تعلمهم نحنُ نعلمهم**﴾ لا تنفي عنه معرفة أعيانهم وأسمائهم وإنما تنفي عنه العلم بعدوانهم ونفاقهم وما تقدم من الكلام يدلك على ذلك وكذلك قوله: ﴿**وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم**﴾ فربما كانوا يعرفونهم ولا يعلمونهم أعداء لهم فيتعلق العلم بالصفة المضافة إلى الموصوف لا بعينه وذاته. قال هذا وإنما مثل من يقول: إن علمت بمعنى عرفت من أجل إنها متعدية إلى مفعول واحد في اللفظ كمثل من يقول: إن سألت يتعدى إلى غير العقلاء بقولهم: سألت الحائط وسألت الدار ويحتج بقوله: ﴿**واسأل القَرْيَةَ**﴾ قال: وإنما هذا جهل بالمجاز والحذف وكذلك ما تقدم وليس ما قاله هؤلاء بقوي فإن الله سبحانه نفى عن رسوله معرفة أعيان أولئك المنافقين. هذا صريح اللفظ وإنما جاء نفى معرفة نفاقهم من جهة اللزوم فهو (ﷺ) كان يعلم وجود النفاق في أشخاص معينين وهو موجود في غيرهم ولا يعرف أعيانهم وليس المراد أن أشخاصهم كانت معلومة له معروفة عنده وقد انطووا على النفاق وهو لا يعلم ذلك فيهم، فإن اللفظ لم يدل على ذلك بوجه والظاهر بل المتعين أنه (ﷺ) لو عرف أشخاصهم لعرفهم بسيماهم وفي لحن القول ولم يكن يخفي عليه نفاق من يظهر له الإسلام ويبطن عداوته وعداوة الله عز وجل.

والذي يزيد هذا وضوحاً الآية الأخرى فإن قوله: ﴿**تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُم وَآخَرِينَ مِن دُونِهِم لَا تَعلَمُونَهُمُ**﴾ [الأنفال: ٦٠]. فيهم قولان:

أحدهما: أنهم الجن المظاهرون لأعدائهم من الإنس على محاربة الله ورسوله، وعلى هذا فالآية نص في أن العلم فيها بمعنى المعرفة، ولا يمكن أن يقال: إنهم كانوا عارفين بأشخاص أولئك جاهلين عداوتهم كما أمكن مثله في الإنس.

---

(١) في نسخة الفرقان ومعناه الفارق كذا في المخطوط.

والقول الثاني: أنهم المنافقون وعلى هذا فقوله: ﴿لا تعلمونهم﴾ إنما ينبغي حمله على معرفة أشخاصهم لا على معرفة نفاقهم؛ لأنهم كانوا عالمين بنفاق كثير من المنافقين يعلمون نفاقهم ولا يشكون فيه، فلا يجوز أن ينفي عنهم علم ما هم عالمون به، وإنما ينفي عنهم معرفة أشخاص من هذا الضرب فيكون كقوله تعالى: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ فتأمله.. ويزيده وضوحاً أن هذه الأفعال لا يجوز فيها الاقتصار على أحد المفعولين بخلاف باب أعطى وكسا للعلة المذكورة هناك وهي تعلق هذه الأفعال بالنسبة، فلابد من ذكر المنتسبين بخلاف باب أعطى فإنه لم يتعلق بنسبة، فيصح الاقتصار فيه على أحد مفعولين وهذا واضح كما تراه والله أعلم. وأما تنظيرهم لسألت الحائط والدار فيا بعد ما بينهما! فإن هذا سؤال بلسان الحال وهو كثير في كلامهم جداً، على أنه لا يمتنع أن يكون سؤالاً بلسان المقال صريحاً كما يقول الرجل للدار الخربة: ليت شعري ما فعل أهلك؟! وليت شعري ما صيرك إلى هذه الحال؟! وليس هذا سؤال استعلام بل سؤال تعجب وتفجع وتحزن. وأما قوله: ﴿وَاسْأَلِ القرية﴾ [يوسف: ٨٢]. فالقرية إن كانت هنا اسماً للسكان كما هو المراد بها في أكثر القرآن والكلام، فلا مجاز ولا حذف، وإن كان المراد بها المسكن فعلى حذف المضاف فأين التسوية والتنظير؟!.

قولهم: علمت وظننت يتعدى إلى مفعولين ليس هما مفعولان في الحقيقة، وإنما هو المبتدأ والخبر وهو حديث إما معلوم وإما مظنون، فكان حق الاسم الأول أن يرتفع بالابتداء والثاني بالخبر ويلغى الفعل؛ لأنه لا تأثير له في الاسم إنما التأثير لعرفت الواقعة على الاسم المفرد تعييناً وتمييزاً، ولكن أرادوا تشبث علمت بالجملة التي هي الحديث كيلا يتوهم الانقطاع بين المبتدأ وبين ما قبله.

(١)**قوله** تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [الأنفال: ٦٢-٦٣].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ [آل عمران: ١٠٣].

---

(١) ٥٧ شفاء.

وتأليف القلوب جعل بعضها يألف بعضاً، ويميل إليه ويحبه وهو من أفعالها الاختيارية، وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره.

[١] **قال** تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال: ٦٤]. أي: الله وحده كافيك وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد. وهنا تقديران:

أحدهما: أن تكون الواو عاطفة لـ«من» على الكاف المجرورة، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار على المذهب المختار، وشواهده كثيرة، وشبَه المنع منه واهية.

والثاني: أن تكون الواو «واو مع» وتكون «مَن» في محل نصب عطفاً على الموضع، فإن «حسبك» في معنى كافيك، أي: الله يكفيك ويكفي من اتبعك، كما تقول العرب: حسبك وزيداً درهم. قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاكَ سيف مهند

وهذا أصح التقديرين. وفيها تقدير ثالث: أن تكون «من» في موضع رفع بالابتداء، أي: ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله. وفيها تقدير رابع. وهو خطأ من جهة المعنى. وهو أن تكون «من» في موضع رفع عطفاً على اسم الله، ويكون المعنى: حسبك الله وأتباعُك وهذا - وإن قاله بعض الناس - فهو خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه، فإن الحسب والكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة.

قال الله تعالى: ﴿**وَإِن يرِيدُوا أن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسبَكَ الله، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصرِهِ وَبِالْمُؤمِنِينَ**﴾ [الأنفال: ٦٢]. ففرق بين الحَسْب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره، وبعباده. وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده، حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُم فَاخشَوهُم فَزَادَهُم إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسبُنَا الله وَنِعمَ الوَكِيلُ**﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله. فإذا كان هذا قولهم، ومَدْح الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعك حسبك؟ وأتباعه قد أفردوا

(١) ٣ زاد المعاد جـ ١.

الرب تعالى بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه، فكيف يشرك بينهم وبينه في حَسب رسوله؟ هذا من أمحل المحال، وأبطل الباطل.

ونظير هذا قوله: ﴿**وَلَو أَنَّهُم رَضُوا مَا آتاهُمُ الله وَرَسُولُه وَقَالُوا حَسبُنَا الله سَيُؤتِينَا الله مِن فَضلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلى الله رَاغِبُونَ**﴾ [التوبة: ٥٩].

فتأمل: كيف جعل الإيتاء لله ورسوله؟ كما قال تعالى: ﴿**وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾ [الحشر: ٧]. وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا: حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا إِلىٰ الله راغبون**﴾ ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿**فَإِذَا فَرَغتَ فَانصَبْ، وَإِلىٰ رَبِّكَ فَارغَب**﴾ [الشرح: ٧-٨] فالرغبة والتوكل والإنابة والتحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿**أَلَيسَ الله بِكَافٍ عَبده**﴾ [الزمر: ٣٦]. والحسب هو الكافي، فأخبر سبحانه وتعالى: أنه كاف عبده، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية؟ والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن تذكر ههنا.

والمقصود: أنه بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله تعالى علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح، والعزة والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة.

ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة.

فائدة(١)

تأمل الحكمة في التشديد في أول التكليف ثم التيسير في آخره، بعد توطين النفس على العزم والامتثال فيحصل للعبد الأمران: الأجر على عزمه وتوطين نفسه، على الامتثال، والتيسير والسهولة بما خفف الله عنه.

فمن ذلك أمر الله تعالى رسوله بخمسين صلاة ليلة الإسراء، ثم خففها وتصدق بجعلها خمساً. ومن ذلك أنه أمر أولاً بصبر الواحد إلى العشرة، ثم خفف

(١) ١٨٣ بدائع جـ ٣.

عنهم ذلك إلى الاثنين. ومن ذلك أنه حرم عليهم في الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع، ثم خفف عنهم بإباحة ذلك إلى الفجر. ومن ذلك أنه أوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسوله (ﷺ) فلما وطنوا له أنفسهم على ذلك خففه عنهم. ومن ذلك تخفيف الاعتداد بالحول بأربعة أشهر وعشرًا.

وهذا كما قد يقع في الابتلاء بالأوامر، فقد يقع في الابتلاء بالقضاء والقدر: يشدد على العبد أولاً ثم يخفف عنه، وحكمته تسهيل الثاني بالأول وتلقي الثاني بالرضى وشهود المنة والرحمة. وقد يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريباً من هذا، فهؤلاء المصادرون يطلب منهم الكثير جدًّا الذي ربما عجزوا عنه، ثم يحطون إلى ما دونه لتطوع لهم أنفسهم بذله ويسهل عليهم.

وقد يفعل بعض الحمالين قريباً من هذا، فيزيدون على الحمل شيئاً لا يحتاجون إليها، ثم يحط تلك الأشياء فيسهل حمل الباقي عليهم.

والمقصود أن هذا باب من الحكمة خلقاً وأمراً، ويقع في الأمر والقضاء والقدر أيضاً ضد هذا فينقل عباده بالتدريج من اليسير إلى ما هو أشد منه؛ لئلا يفجأ هذا التشديد بغتة فلا تحمله ولا تنقاد له.

وهذا كتدريجهم في الشرائع شيئاً بعد شيء دون أن يؤمروا بها كلها وهلة واحدة. وكذلك المحرمات. ومن هذا أنهم أمروا بالصلاة أولاً ركعتين ركعتين، فلما ألفوها زيد فيها ركعتين أخريين في الحضر. ومن هذا أنهم أمروا أولاً بالصيام وخيروا فيه بين الصوم عيناً وبين التخيير بينه وبين الفدية، فلما ألفوه أمروا بالصوم عيناً. ومن هذا أنهم أذن لهم بالجهاد أولاً من غير أن يوجبه عليهم، فلما توطنت عليه نفوسهم وباشروا حسن عاقبته وثمرته أمروا به فرضاً.

وحكمة هذا التدريج التربية على قبول الأحكام والإذعان لها والانقياد لها شيئاً فشيئاً. وكذلك يقع مثل هذا في قضائه وقدره المقدر على عبده؛ بل لابد منه اقتضاء حمده وحكمته فيبتليه بالأخف أولاً ثم يرقيه إلى ما هو فوقه حتى يستكمل ما كتب عليه منه.

ولهذا قد يسعى العبد في أول البلاء في دفعه وزواله ولا يزداد إلا شدة؛ لأنه كالمرض في أوله وتزايده، فالعاقل يستكين له أولاً وينكسر ويذل لربه ويمد عنقه

خاضعاً ذليلاً لعزته؛ حتى إذا مر به معظمه وغمرته وأذن ليله بالصباح فإذا سعي في زواله ساعدته الأسباب.

ومن تأمل هذا في الخلق انتفع به انتفاعاً عظيماً ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١)فصل في هديه (ﷺ) في الأسارى

كان يمن على بعضهم، ويقتل بعضهم، ويفادي بعضهم بالمال، وبعضهم بأسرى المسلمين. وقد فعل ذلك كله بحسب المصلحة. ففادى أسارى بدر بمال، وقال: «لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتْنَى لتركتهم له(٢)».

وهبط عليه في صلح الحديبية ثمانون متسلحون يريدون غِرَّته، فأسرهم ثم مَنَّ عليهم(٣). وأسر ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، فربطه بسارية المسجد ثم أطلقه فأسلم(٤).

واستشار الصحابة في أسارى بدر. فأشار عليه الصديق: أن يأخذ منهم فدية، تكون لهم قوة على عدوهم، ويطلقهم لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام. وقال عمر: لا والله: ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله (ﷺ) ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قال عمر. فلما كان من الغد أقبل عمر، فإذا رسول الله (ﷺ) يبكي هو وأبو بكر، فقال: يا رسول الله، من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله (ﷺ): «**أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة**، وأنزل الله ﴿**مَا كَانَ لِنَبيّ أن يَكُونَ له أسرىٰ حَتَّى يُثْخِنَ في الأرض**﴾ [الأنفال: ٦٧] الآية».

وقد تكلم الناس في أي الرأيين كان أصوب؟ فرجَّحت طائفة قول عمر لهذا الحديث.

ورجحت طائفة قول أبي بكر، لاستقرار الأمر عليه، وموافقة الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب،

---

(١) ١٧٤ زاد المعاد جـ ٢. (٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود، من حديث محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه. (٣) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث أنس.

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

ولتشبيه النبي (ﷺ) له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول الله (ﷺ) لأبي بكر أولاً، ولموافقة الله له آخراً، حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصديق. فإنه رأى ما يستقر عليه حكم الله آخراً، وغلّبَ جانب الرحمة على جانب العقوبة.

قالوا: وأما بكاء النبي (ﷺ): فإنما كان رحمة لنزول العذاب بمن أراد بذلك عرض الدنيا، ولم يرد ذلك رسول الله (ﷺ) ولا أبو بكر ـ وإن أراده بعض الصحابة ـ فالفتنة كانت تعم ولا تصيب من أراد ذلك خاصة، كما هُزم العسكر يوم حُنين بقول أحدهم: «لن نُغْلَب اليوم من قِلَّة» وبإعجاب كثرتهم لمن أعجبته منهم، فهزم الجيش بذلك فتنة ومحنةً. ثم استقر الأمر على النصر والظفر. والله أعلم.

واستأذنه الأنصار أن يتركوا للعباس عمه فداءه، فقال: «لا تدعوا منه درهماً» واستوهب من سَلَمة بن الأكْوَع جارية نَفّله إياها أبو بكر في بعض مغازيه فوهبها له، فبعث بها إلى مكة، ففدَى بها ناساً من المسلمين[٢] وفدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل، وردّ سبي هوازن عليهم بعد القسمة.

[١]**قال** تعالى: ﴿لَولا كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسّكم فِيما أخَذْتُم عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٨]. وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم: لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلال لكم لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجة لعاقبكم. وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم وإن عملوا ما شاؤوا لعاقبهم. وقال آخرون ـ وهو الصواب ـ: لولا كتاب من الله سبق بهذا كله لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأنفال والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٨ شفاء العليل.

سُورَةُ التَّوبَةِ

ترتيبها ٩ — آياتها ١٢٩

(١)**قال** ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله بعد مُنْصَرَفه من تبوك: بقية رمضان وشوال وذا القعدة ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج سنة تسع؛ ليقيم للمسلمين حَجَّهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم، فخرج أبوبكر والمؤمنون.

قال ابن سعد: فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة، وبعث معه رسول الله (ﷺ) بعشرين بدنة، قلّدها وأشعرها بيده، عليها ناجية بن جُندب الأسلمي. وساق أبو بكر خمس بدنات.

قال ابن إسحاق: فنزلت براءة في نقض ما بين رسول الله وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه. فخرج عليٌّ بن أبي طالب على ناقة رسول الله العَضْبَاء.

قال ابن سعد: فلما كان أبو بكر بالعَرْج ـ وابن عائذ يقول: بضَجْنان لَقيه علي بن أبي طالب على العَضْبَاء. فلما رآه أبو بكر قال: أمير أمْ مأمور؟ قال: لا، بل مأمور، ثم مضيا.

وقال ابن سعد: فقال له أبو بكر: استعملك رسول الله (ﷺ) على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس، وأنْبذُ إلى كل ذي عهد عهده. فأقام أبو بكر للناس حجهم، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب، فأذن في الناس عند الجمرة بالذي أمره رسول الله، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وقال: «أيها الناس، لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله (ﷺ) فهو إلى مدته».

وقال الحميدي: حدثنا سفيان قال: حدثني أبو إسحاق الهمداني، عن زيد بن نفيع قال: سألنا عليًا: «بأي شيء بُعثت في الحجة؟ قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مسلم وكافر في المسجد الحرام بعد عامه هذا، ومن كان بينه وبين النبي (ﷺ) عهد فَعهْده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فَأجَله إلى أربعة أشهر».

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة قال: «بعثني أبو بكر في تلك الحجة في

(١) ٥٢ زاد المعاد جـ٣.

مؤذنين بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ثم أردف النبي (ﷺ) أبا بكر بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة. قال: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

وفي هذه القصة: دليل على أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر.

واختلف في حجة الصديق هذه: هل هي التي أسقطت الفرض، أو المسقطة هي حجة الوداع مع النبي (ﷺ)؟ على قولين، أصحهما الثاني. والقولان مبنيان على أصلين: **أحدهما**: هل كان الحج فُرِضَ قبل عام حجة الوداع، أم لا؟.

والثاني: هل كانت حجة الصديق رضي الله عنه في ذي الحجة، أم وقعت في ذي القعدة، من أجل النَّسيء الذي كان أهل الجاهلية يؤخرون به الأشهر ويقدمونها؟ على قولين، والثاني قول مجاهد وغيره.

وعلى هذا: فلم يؤخر النبي (ﷺ) الحج بعد فرضه عاماً واحداً؛ بل بادر إلى الامتثال في العام الذي فرض فيه. وهذا هو الأليق بهديه وحاله (ﷺ) وليس بيد من ادَّعى تقدم فرض الحج سنة ست أو سبع أو ثمان أو تسع دليل واحد.

وغاية ما احتج به من قال: فرض سنة ست. قوله تعالى: ﴿**وَأَتِمُّوا الحجَّ وَالعُمرةَ لله**﴾ [البقرة: ١٩٦] وهي قد نزلت بالحديبية سنة ست، وهذا ليس فيه ابتداء فرض الحج، وإنما فيه الأمر بإتمامه إذا شرع فيه. فأين هذا من وجود ابتدائه؟ وآيةُ فرض الحج، وهي قوله تعالى: ﴿**ولله عَلَى النَّاسِ حِجُّ البيتِ مَنِ استَطَاعَ إليهِ سبيلاً**﴾. [آل عمران: ٩٧]، نزلت عام الوفود وأواخر سنة تسع أ. هـ.

(١) **وسأله**، (ﷺ) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: عن يوم الحج الأكبر، فقال: «يوم النحر» ذكره الترمذي.

وعند أبي داود بإسناد صحيح: أن رسول الله (ﷺ) وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حَج فيها، فقال: «**أي يوم هذا؟**» قالوا: يوم النحر، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر».

وقد قال تعالى: ﴿**وأذان منَ الله وَرَسُولِهِ إلى النَّاسِ يَومَ الحَجّ الأكبَرِ أنَّ الله**

(١) ٣٠٣ أعلام جـ٤.

بريءٌ مِنَ المُشرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣] وإنما أَذَّنَ المؤذنُ بهذه البراءة يوم النحر.

وثبت في الصحيح: عن أبي هريرة أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. ا.هـ.

(١)**ومن** هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض. فخير الأيام عند الله يوم النحر، وهو يوم الحج الأكبر، كما في السنن عنه (ﷺ) أنه قال: «أفضل الأيام عند الله: يوم النحر، ثم يوم النَّفْر».

وقيل: يوم عرفة أفضل منه، وهذا هو المعروف عند أصحاب الشافعي، قالوا: لأنه يوم الحج الأكبر، وصيامه يكفر سنتين، وما من يوم يعتق الله فيه الرقاب أكثر منه في يوم عرفة، ولأنه سبحانه وتعالى يدنو فيه من عباده، ثم يباهي ملائكته بأهل الموقف والصواب القول الأول، لأن الحديث الدال على ذلك لا يعارضه شيء يقاومه. والصواب: أن يوم الحج الأكبر: هو يوم النحر، لقوله تعالى: ﴿وأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى النَّاسِ يَوْمَ الحجِّ الأكبرِ﴾. [التوبة: ٣]. وثبت في الصحيحين: أن أبا بكر وعليًّا رضي الله عنهما، أذنا بذلك يوم النحر، لا يوم عرفة.

وفي سنن أبي داود بأصح إسناد: أن رسول الله (ﷺ) قال: «يوم الحج الأكبر: يوم النحر» وكذلك قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة.

ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع والتوبة والابتهال والاستقالة، ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة، ولهذا سمي طوافه طواف الزيارة، لأنهم قد طهروا من ذنوبهم يوم عرفة، ثم أذن لهم ربهم يوم النحر في زيارته والدخول عليه إلى بيته، ولهذا كان فيه ذبح القرابين، وحلق الرءوس، ورمي الجمار، ومعظم أفعال الحج.

وعمل يوم عرفة كالطهور والاغتسال بين يدي هذا اليوم.

وكذلك تفضيل عشر ذي الحجة على غيره من الأيام، فإن أيامه أفضل الأيام عند الله وقد ثبت في صحيح البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله منه في هذه الأيام العشر**» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء**».

(١) ١٦ زاد المعاد جـ١.

وهي الأيام العشر التي أقسم الله بها في كتابه بقوله: ﴿**وَالفَجرِ وَلَيَالٍ عَشرٍ**﴾ [الفجر: ١-٢] ولهذا يستحب فيها الإكثار من التكبير والتهليل والتحميد، كما قال النبي (ﷺ): «**فأكثروا فيهن من التكبير والتهليل والتحميد**» ونسبتها إلى الأيام كنسبة مواضع المناسك إلى سائر البقاع.

ومن ذلك: تفضيل شهر رمضان على سائر الشهور، وتفضيل عشره الأخير على سائر الليالي، وتفضيل ليلة القدر على ألف شهر.

فإن قلت: أي العشرين أفضل: عشر ذي الحجة، أو العشر الأخير من رمضان؟ وأي الليلتين أفضل: ليلة القدر، أو ليلة الإسراء؟

قلت: أما السؤال الأول: فالصواب فيه أن يقال: ليالي العشر الأخير من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة، وأيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام عشر رمضان. وبهذا التفصيل يزول الاشتباه.

ويدل عليه أن ليالي العشر من رمضان إنما فضلت باعتبار ليلة القدر، وهي من الليالي، وعشر ذي الحجة إنما فضل باعتبار أيامه؛ إذ فيه: يوم النحر، ويوم عرفة، ويوم التروية.

وأما السؤال الثاني: فقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجل قال: ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، وقال آخر: بل ليلة القدر أفضل، فأيهما المصيب؟.

فأجاب: الحمد لله، أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر: فإن أراد به: أن تكون الليلة التي أسري فيها بالنبي (ﷺ) ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد (ﷺ) من ليلة القدر، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه في ليلة القدر: فهذا باطل، لم يقله أحد من المسلمين، وهو معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام، هذا إذا كانت ليلة الإسراء تعرف عينها، فكيف ولم يقم دليل معلوم لا على شهرها، ولا على عشرها، ولا على عينها؟ بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة، ليس فيها ما يقطع به، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة التي يظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره، بخلاف ليلة القدر، فإنه قد ثبت في الصحيحين عنه (ﷺ) أنه قال: «**تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان**».

وفي الصحيحين: عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**من قام ليلة القدر إيماناً**

واحتساباً: غفر له ما تقدم من ذنبه».

وقد أخبر سبحانه وتعالى: أنها خير من ألف شهر، وأنه أنزل فيها القرآن.

وإن أراد الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي (ﷺ) وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة: فهذا صحيح، وليس إذا أعطى الله نبيه (ﷺ) فضيلة في مكان أو زمان يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة. هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وغير ذلك من النعم التي أنعم عليه بها: والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور ومقادير النعم التي لا تعرف إلا بوحي، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم. ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها، لا سيما على ليلة القدر، ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولا يذكرونها، ولهذا لا يعرف أي ليلة كانت، وإن كان الإسراء من أعظم فضائله (ﷺ) ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان ولا ذلك المكان بعبادة شرعية، بل غار حراء الذي ابتدىء فيه بنزول الوحي وكان يتحراه قبل النبوة، لم يقصده هو ولا أحد من الصحابة بعد النبوة مدة مقامه بمكة، ولا خص اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها، ولا خص المكان الذي ابتدىء فيه بالوحي ولا الزمان بشيء.

ومن خص الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله، كان من جنس أهل الكتاب، الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مواسم وعبادات، كيوم الميلاد، ويوم التعميد، وغير ذلك من أحوال. وقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه جماعة يتبادرون مكاناً يصلون فيه، فقال: «ما هذا؟ قالوا: مكان صلى فيه رسول الله (ﷺ) فقال: أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا، فمن أدركته فيه الصلاة فليصل، وإلا فليمض».

وقد قال بعض الناس: إن ليلة الإسراء في حق النبي (ﷺ) أفضل من ليلة القدر، وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء، فهذه الليلة في حق الأمة أفضل لهم، وليلة الإسراء في حق رسول الله (ﷺ) أفضل له.

فإن قيل: فأيهما أفضل: يوم الجمعة، أو يوم عرفة؟ فقد روى ابن حبان في صحيحه: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «**لا تطلع الشمس على يوم أفضل من يوم الجمعة**» وفيه أيضاً حديث تميم بن أوس: «**خير يوم طلعت فيه الشمس: يوم الجمعة**». قيل: قد ذهب بعض العلماء إلى تفضيل يوم الجمعة على يوم عرفة، محتجًا بهذا الحديث، وحكى القاضي أبو يعلى رواية عن أحمد: أن ليلة الجمعة أفضل من ليلة القدر.

والصواب: أن يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام، وكذلك ليلة القدر وليلة الجمعة، ولهذا كان لوقفة الجمعة يوم عرفة مزية على سائر الأيام من وجوه متعددة:

أحدها: اجتماع اليومين اللذين هما أفضل الأيام.

الثاني: أنه اليوم الذي فيه ساعة محققة الإجابة، وأكثر الأقوال: إنها آخر ساعة بعد العصر، وأهل الموقف كلهم إذ ذاك واقفون للدعاء والتضرع.

الثالث: موافقته ليوم وقفة رسول الله (ﷺ).

الرابع: أن فيه اجتماع الخلائق من أقطار الأرض للخطبة وصلاة الجمعة. ويوافق ذلك اجتماع أهل عرفة يوم عرفة بعرفة، فيحصل من اجتماع المسلمين في مساجدهم وموقفهم من الدعاء والتضرع ما لا يحصل في يوم سواه.

الخامس: أن يوم الجمعة يوم عيد، ويوم عرفة يوم عيد لأهل عرفة، ولذلك كره لمن بعرفة صومه.

وفي النسائي: عن أبي هريرة: «نهى رسول الله (ﷺ) عن صوم يوم عرفة بعرفة» وفي إسناده نظر؛ لأن مهدي بن حرب ليس بمعروف، ومداره عليه، ولكن ثبت في الصحيح: من حديث أم الفضل: «أن ناساً تماروا عندها يوم عرفة في صيام النبي (ﷺ) فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم، فأرسلت إليه بقدح لبن، وهو واقف على بعير بعرفة، فشربه».

وقد اختلف في حكمة استحباب فطر يوم عرفة بعرفة.

فقالت طائفة: ليتقوى على الدعاء، وهذا قول الخرقي وغيره.

وقال غيرهم - منهم شيخ الإسلام ابن تيمية: الحكمة فيه أنه عيد لأهل

عرفة، فلا يستحب صومه لهم، قال: والدليل عليه الحديث الذي في السنن عنه، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى: عيدنا أهل الإسلام**».

قال شيخنا: وإنما يكون يوم عرفة عيداً في حق أهل عرفة لاجتماعهم فيه، بخلاف أهْل الأمصار، فإنهم إنما يجتمعون يوم النحر. فكان هو العيد في حقهم. والمقصود: أنه إذا اتفق يوم عرفة ويوم جمعة فقد اتفق عيدان معاً.

السادس: أنه موافق ليوم إكمال الله تعالى دينه لعباده المؤمنين، وإتمام نعمته عليهم، كما ثبت في صحيح البخاري: عن طارق بن شهاب قال: «جاء يهودي إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، آية تقرءونها في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت، ونعلم ذلك اليوم الذي نزلت فيه لاتخذناه عيداً، قال: أيّ آية؟ قال: ﴿**اَلْيَومَ أكملتُ لَكُم دِينَكُم وأتْمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسَلاَمَ دِيناً**﴾ [المائدة: ٣] فقال عمر بن الخطاب: إني لأعلم اليومَ الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه، نزلت على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بعرفة يوم جمعة ونحن واقفون معه بعرفة».

السابع: أنه موافق ليوم الجمع الأكبر، والموقف الأعظم: يوم القيامة. فإن القيامة يوم الجمعة، كما قال النبي (ﷺ): «**خير يوم طلعت عليه الشمس: يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه**» ولهذا شرع الله سبحانه وتعالى لعباده يوماً يجتمعون فيه، فيذكرون المبدأ والمعاد، والجنة والنار، وادخر الله تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة، إذ فيه كان المبدأ، وفيه المعاد، ولهذا كان النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، يقرأ في فجره سورتي السجدة، وهل أتى على الإنسان، لاشتمالهما على ما كان وما يكون في هذا اليوم: من خلق آدم، وذكر المبدأ والمعاد، ودخول الجنة والنار، فكان تذكير الأمة في هذا اليوم بما كان فيه وما يكون. فهكذا يتذكر الإنسان بأعظم مواقف الدنيا ـ وهو يوم عرفة ـ الموقف الأعظم بين يدي الرب سبحانه في هذا اليوم بعينه، ولا يتنصف حتى يستقر أهل الجنة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم.

الثامن: أن الطاعة الواقعة من المسلمين يوم الجمعة أكثر منها في سائر

الأيام، حتى إن أكثر أهل الفجور يحترمون يوم الجمعة وليلته، ويرون أن من تجرأ فيه على معاصي الله عز وجل عجل الله عقوبته ولم يمهله، وهذا أمر قد استقر عندهم وعلموه بالتجارب، وذلك لعظم اليوم وشرفه عند الله، واختيار الله سبحانه له من بين سائر الأيام، ولا ريب أن للوقفة فيه مزية على غيره.

التاسع: أنه موافق ليوم المزيد في الجنة، وهو اليوم الذي يجمع فيه أهل الجنة في واد فسيح، وينصب لهم منابر من لؤلؤ، ومنابر من ذهب، ومنابر من الزبرجد والياقوت على كثبان المسك، فينظرون لربهم تبارك وتعالى، ويتجلى لهم، فيرونه عياناً، ويكون أسرعهم موافاة: أعجلهم رواحاً إلى المسجد، وأقربهم منه أقربهم من الإمام. فأهل الجنة مشتاقون إلى يوم المزيد فيها، لما ينالون فيه من الكرامة، وهو يوم جمعة، فإذا وافق يوم عرفة كان له زيادة مزية واختصاص وفضل ليس لغيره.

العاشر: أنه يدنو الرب تبارك وتعالى عشية يوم عرفة من أهل الموقف، ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: «**ما أراد هؤلاء؟ أشهدكم أني قد غفرت لهم**» ويحصل مع دنوه منهم تبارك وتعالى ساعة الإجابة، التي لا يرد فيها سائلاً يسأل خيراً، فيقربون منه بدعائه والتضرع إليه في تلك الساعة ويقرب منهم تعالى نوعين من القرب: **أحدهما**: قرب الإجابة المحققة في تلك الساعة.

والثاني: قربه الخاص من أهل عرفة، ومباهاته بهم ملائكته، فتستشعر قلوب أهل الإيمان هذه الأمور، فتزداد قوة إلى قوتها، وفرحاً وسروراً وابتهاجاً، ورجاء لفضل ربها وكرمه. فبهذه الوجوه وغيرها فضلت وقفة يوم الجمعة على غيرها.

وأما ما استفاض على ألسنة العوام بأنها تعدل ثنتين وسبعين حجة: فباطل، لا أصل له عن رسول الله (ﷺ) ولا عن أحد من الصحابة والتابعين. والله أعلم.

فصل

والمقصود: أن الله سبحانه وتعالى اختار من كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبه. واختصه لنفسه وارتضاه دون غيره، فإنه تعالى طيب لا يحب إلا الطيب، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيب، فالطيب من كل شيء هو مختاره تعالى. وأما خلقه تعالى فعام للنوعين.

وبهذا يعلم عنوان سعادة العبد وشقاوته، فإن الطيب لا يناسبه إلا الطيب، ولا يرضى إلا به، ولا يسكن إلا إليه، ولا يطمئن قلبه إلا به، فله من الكلم الطيب الذي لا يصعد إلى الله تعالى إلا هو، وهو أشد شيء نفرة عن الفحش في المقال، والتفحش في اللسان والبذاء، والكذب والغيبة والنميمة والبهت وقول الزور، وكل كلام خبيث.

وكذلك لا يألف من الأعمال إلا أطيبها، وهي الأعمال التي اجتمعت على حسنها الفطر السليمة مع الشرائع النبوية، وزكتها العقول الصحيحة. فاتفق على حسنها الشرع والعقل والفطرة، مثل أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً.(١)

(٢)**ثم** كان الكفار معه(٣) بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة. فأمر بأن يُتِمَّ لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفيَ لهم به ما استقاموا على العهد. فإن خاف منهم خيانة نَبَذَ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يُعلمهم بنبذ العهد، وأُمِر أن يقاتل مَنْ نقض عهده.

ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها. فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب، حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم. فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان. وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم.

وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم.

وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه. فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق. فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انْسَلَخت قاتلهم، وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿**فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**﴾ [التوبة: ٢] وهي الحُرُم المذكورة في قوله:

(١) استمر المؤلف في ذكر الأمثلة في عدة صحائف يحسن الرجوع إليها.

(٢) ٢٠٨ زاد المعاد جـ٢. (٣) أي مع النبي (ﷺ).

﴿فإذَا انْسَلَخَ الأشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] فالحُرُمُ ههنا: هي أشهر التسيير. أولها: يوم الأذان، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة. وهو يوم الحج الأكبر، الذي وقع فيه التأذين بذلك. وآخرها: العاشر من ربيع الآخر.

وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿إن عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرضَ، مِنها أربَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] فإن تلك واحد فرد، وثلاثة سرد: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة والمحرم. ولم يُسَيِّرْ المشركين في هذه الأربعة. فإن هذا لا يمكن. لأنها غير متوالية وهو إنما أجَّلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم، فقتل الناقض لعهده، وأجَّل من لا عهد له، أو له عهد مطلق: أربعة أشهر. وأمره أن يُتِم للموفي بعهده عهده إلى مُدَّته. فأسلم هؤلاء كلهم ولم يُقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية.

فاستقر أمر الكفار معه ـ بعد نزول براءة ـ على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه. فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين: فإنه أُمِر أن يقبل منهم علانيتهم، ويَكِلَ سرائرهم إلى الله، وأن يُجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم وأخبره أنه إن استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم.

فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين. اهـ.

فصل[1]

فيما في خطبته العظيمة ثاني يوم الفتح من أنواع العلم

فمنها قوله: «إن مكة حرَّمها الله ولم يُحرِّمها الناس» فهذا تحريم شرعي قَدَري، سبق به قدره يوم خلق هذا العالم، ثم ظهر به على لسان خليليه: إبراهيم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما.

(١) ٤٢٠ زاد المعاد جـ٢.

كما في الصحيح عنه (ﷺ) أنه قال: «**اللهم إن إبراهيم خليلك حرَّم مكة، وإني أُحَرِّم المدينة**» فهذا إخبار عن ظهور التحريم السابق، يوم خلق السموات والأرض على لسان إبراهيم، فلهذا: لم ينازع أحد من أهل الإسلام في تحريمها.

وإن تنازعوا في تحريم المدينة. والصواب المقطوع به تحريمها، إذْ قد صح فيه بضعة وعشرون حديثاً عن رسول الله (ﷺ) لا مَطْعَن فيها بوجه.

ومنها قوله: «**فلا يَحِلُّ لأحد أن يَسْفِك بها دماً**» هذا التحريم لِسفْك الدم المختص بها، وهو الذي يباح في غيرها، ويحرم فيها، لكونها حَرَماً، كما أن تحريم عَضدِ الشجر بها، واختلاء خَلاها، والتقاط لقطتها: هو أمر مختص بها، وهو مُباح في غيرها، إذ الجميع في كلام واحد، ونظام واحد، وإلا بطلت فائدة التخصيص. وهذا أنواع:

أحدها: وهو الذي ساقه أبو شريح العَدَوي لأجله ـ أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تُقاتَل، لا سيما إن كان لها تأويل، كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد، وبايعوا ابن الزبير، فلم يكن قتالُهم، ونَصْبُ المَنْجَنِيق عليهم، وإحلال حرم الله جائزاً بالنص والإجماع، وإنما خالف في ذلك عمرو بن سعيد الفاسق وشِيَعته، وعارض نص رسول الله (ﷺ) برأيه وهواه، فقال: «إن الحرم لا يعيذ عاصياً» فيقال له: هو لا يعيذ عاصياً من عذاب الله، ولو لم يُعِذْهُ من سفَك دَمِه، لم يكن حرماً بالنسبة إلى الآدميين، وكان حرماً بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم. وهو لم يزل يُعيذُ العصاة من عهد إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه، وقام الإسلام على ذلك...

[(١)]**وتأمل** كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿**حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ**﴾ [التوبة: ٦] فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله، فيقول: قلت كذا وكذا. وقلت له ما أمرتني أن أقوله، كما قال المسيح: ﴿**مَا قُلْتُ لهم إلاَّ مَا أَمَرْتَني به**﴾ [المائدة: ١١٧] والمرسل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا. كما قال تعالى: ﴿**قُل لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقيموا الصَّلاَةَ**﴾ [إبراهيم: ٣١] ﴿**وقُل لِعبادِي يَقُولُوا الَّتي هِيَ أحسَنُ**﴾ [الإسراء: ٥٣] ﴿**قُل لِّلمُؤمِنِينَ**

(١) ١١١ التبيان.

﴿يَغُضُّوا مِن أبصَارِهِم﴾ [النور: ٣٠] ونظائره، فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال: قال الرسول كذا، وهذا قول الرسول ـ أي قاله مبلغاً ـ وهذا قوله مبلغاً عن مرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في موضع واحد، بل قيل للصديق ـ وقد تلى آية ـ هذا كلامك وكلام صاحبك فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي. هذا كلام الله.

(١)**قال** الله تعالى: ﴿فَاقتُلُوا المُشرِكِينَ حيثُ وَجَدتُّمُوهُم وَخُذُوهُم واحصُرُوهُم واقعدوا لَهُم كُلَّ مَرْصَدٍ، فإن تَابُوا وَأقامُوا الصَّلاة وآتوا الزَّكاة فَخَلُّوا سبيلَهُم﴾ [التوبة: ٥] فأمر بقتلهم حتى يتوبوا من شركهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

ومن قال: لا يقتل تارك الصلاة يقول: متى تاب من شركه سقط عنه القتل، وإن لم يقم الصلاة ولا آتى الزكاة، وهذا خلاف ظاهر القرآن.

وفي الصحيحين: من حديث أبي سعيد الخدري قال: بعث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو باليمن إلى النبي (ﷺ) بذهيبة(٢) فقسمها بين أربعة، فقال رجل: يا رسول الله اتق الله. فقال: «**ويلك ألستُ أحق أهل الأرض أن يتقي الله**»؟ ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ فقال: «**لا، لعله أن يكون يصلي**» فقال خالد: فكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟ فقال رسول الله (ﷺ): «**إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم**». فجعل النبي (ﷺ) المانع من قتله كونه يصلي، فدل على أن من لم يصل يقتل، ولهذا قال في الحديث الآخر: «**نهيت عن قتل المصلين**» وهو يدل على أن غير المصلين لم ينهه الله عن قتلهم.

وروى الإمام أحمد والشافعي في مسنديهما: من حديث عبدالله بن عدي بن الخيار؛ أن رجلاً من الأنصار حدثه؛ أنه أتى النبي (ﷺ) وهو في مجلس فسارَّه يستأذنه في قتل رجل من المنافقين، فجهر رسول الله (ﷺ) فقال: «**أليس يشهد أن لا إله إلا الله**»؟ فقال الأنصاري: بلى يا رسول الله، ولا شهادة له. قال: «**أليس يشهد أن محمداً رسول الله**»؟ قال: بلى، ولا شهادة له. قال: «**أليس يصلي الصلاة**»؟ قال: بلى، ولا صلاة له. قال: «**أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم**» فدل

(١) ٥ كتاب الصلاة.
(٢) هي بالضم على التصغير: القطعة من الذهب.

على أنه لم ينهه عن قتل من لم يصل.

وفي صحيح مسلم: عن أم سلمة، عن النبي (ﷺ) قال: «**إنه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد بريء، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع**[1]» فقالوا: يارسول الله، ألا نقاتلهم؟ فقال: «**لا، ما صلوا**».

وفي الصحيحين: من حديث عبدالله بن عمر؛ أن النبي (ﷺ) قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله**».

فوجه الاستدلال به من وجهين: أحدهما: أنه أمر بقتالهم إلى أن يقيموا الصلاة. الثاني: قوله: «**إلا بحقها**» والصلاة من أعظم حقها.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. ثم قد حرمت عليّ دماؤهم وأموالهم وحسابهم على الله**». رواه الإمام أحمد وابن خزيمة في صحيحه فأخبر، (ﷺ) أنه أمر بقتالهم إلى أن يقيموا الصلاة. وأن دماءهم وأموالهم إنما تحرم بعد الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فدماؤهم وأموالهم قبل ذلك غير محرمة بل هي مباحة.

وعن أنس بن مالك قال: لما توفي رسول الله (ﷺ) ارتد العرب. فقال عمر: يا أبا بكر. كيف تقاتل العرب؟ فقال أبو بكر: إنما قال رسول الله (ﷺ): «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**». رواه النسائي وهو حديث صحيح.

وتقييد هذه الأحاديث يبين مقتضى الحديث المطلق الذي احتجوا به على ترك القتل مع أنه حجة عليهم، فإنه لم يثبت العصمة للدم والمال إلا بحق الإسلام، والصلاة آكد حقوقه على الإطلاق.

وأما حديث ابن مسعود وهو: «**لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث**» فهو حجة لنا في المسألة، فإنه جعل منهم التارك لدينه، والصلاة ركن الدين

(١) الخبر محذوف لدلالة ما قبله عليه، وتقديره: لم يبرأ ولم يسلم من الإثم.

الأعظم، ولا سيما إن قلنا بأنه كافر فقد ترك الدين بالكلية. وإن لم يكفر فقد ترك عمود الدين. قال الإمام أحمد(١): وقد جاء في الحديث: «**لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة**».

وقد كان عمر بن الخطاب يكتب إلى الآفاق: إن أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، قال: فكل مستخف بالصلاة مستهين بها، فهو مستخف بالإسلام مستهين به، وإنما حظهم في الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة. فاعرف نفسك يا عبدالله، واحذر أن تلقى الله ولا قدر للإسلام عندك، فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك.

وقد جاء الحديث عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**الصلاة عمودالدين**»، ألست تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط ولم ينتفع بالطنب ولا بالأوتاد؟ وإذا قام عمود الفسطاط انتفعت بالطنب والأوتاد، وكذلك الصلاة من الإسلام.

وجاء الحديث أن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن تقبلت منه صلاته تقبل منه سائر عمله، وإن ردت عليه صلاته رد عليه سائر عمله. فصلاتنا آخر ديننا، وهي أول ما نسأل عنه غداً من أعمالنا يوم القيامة، فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين؛ إذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام. هذا كله كلام أحمد.

والصلاة أول فروض الإسلام، وهي آخر ما يفقد من الدين، فهي أول الإسلام وآخره، فإذا ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه، وكل شيء ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه، قال الإمام أحمد: كل شيء يذهب آخره فقد ذهب جميعه، فإذا ذهبت صلاة المرء ذهب دينه.

والمقصود أن حديث عبدالله بن مسعود: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه» من أقوى الحجج في قتل تارك الصلاة.

(١) انظر: (رسالة الصلاة) للإمام أحمد رقم ١٩، ٢٠، ٢١.

واختلف القـائلون بقتله في مسـائل: إحداها: أنه هل يستتاب أم لا؟ فالمشهـور أنه يستتاب فإن تاب ترك وإلا قتل، هذا قول الشافعي وأحمد وأحد القولين في مذهب مالك.

وقال أبو بكر الطرطوشي في تعليقه: مذهب مالك، أنه يقال له: صل. ما دام الوقت باقياً، فإن فعل ترك وإن امتنع حتى خرج الوقت قتل، وهل يستتاب أم لا؟ قال بعض أصحابنا يستتاب. فإن تاب وإلا قتل. وقال بعضهم لا يستتاب لأن هذا حد من الحدود يقام عليه فلا تسقطه التوبة كالزاني والسارق، وهذا القول يلزم من قال يقتل حدًّا، فإنه إذا كان حده على ترك الصلاة القتل كان كمن حده القتل على الزنى والمحاربة، والحدود تجب بأسبابها المتقدمة ولا تسقطها التوبة بعد الرفع إلى الإمام. وأما من قال يقتل لكفره فلا يلزمه هذا لأنه جعله كالمرتد، وإذا أسلم سقط عنه القتل قال الطرطوشي: وهكذا حكم الطهارة والغسل من الجنابة والصيام عندنا، فإذا قال: لا أتوضأ ولا أغتسل من الجنابة ولا أصوم قتل ولم يستتب.

(١)**أورد** شيخنا الهراسي سؤالاً على القول بكفر تارك الصلاة، وزعم أنه لا جواب عنه فقال: إذا أراد هذا الرجل معاودة الإسلام فبماذا يسلم، فإنه لم يترك كلمة الإسلام؟ فأجابه ابن عقيل بأن قال: إنما كان كفره بترك الصلاة لا بترك الكلمة، فهو إذا عاود فعل الصلاة صارت معاودته للصلاة إسلاماً. فإن الدال على إسلام الكافر الكلمة أو الصلاة. قلت: وهذا الذي ذكره شيخنا يرد عليه في كل من كفر بشيء من الأشياء مع إتيانه بالشهادتين وتلك صور عديدة.

(٢)**ويقـال** له: الصـلاة رياضة النفس والبدن جميعًا؛ إذ كانت تشتمل على حركات وأوضاع مختلفة، من الانتصاب والركوع والسجود والتورك والانتقالات، وغيرها من الأوضاع التي يتحرك معها أكثر المفاصل، وينغمز معها أكثر الأعضاء الباطنة، كالمعدة، والأمعاء وسائر آلات النفس، والغذاء. فما يُنكر أن يكون في هذه الحـركات تقوية وتحليل للمواد؛ ولا سيما بواسطة قوة النفس وانشراحها في الصلاة؛ فتقوى الطبيعة؛ فيندفع الألم، ولكن داء الزندقة والإعراض عما جاءت به الرسل، والتعوُّض عنه بالإلحاد داء ليس له دواء إلا نارٌ تلظَّى، لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى.

(١) ١٧٦ بدائع جـ٣.　　(٢) ٢٧٩ زاد المعاد جـ٣.

وأما تأثير الجهاد في دفع الهم والغم، فأمر معلوم بالوجدان. فإن النفس متى تركت صائل الباطل وصولته واستيلاءه: اشتد همُّها وغمها وكربها وخوفها. فإذا جاهدته لله أبدل الله ذلك الهم والحزن فرحاً ونشاطاً وقوة. كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُم يُعَذِّبْهُم الله بأيدِيْكُم وَيُخْزِهِم، وينْصُرُكُمْ عَلَيهِمْ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَومٍ مُّؤمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيظَ قُلُوبِهِم﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] فلا شيء أذهب لجوَى القلب وغمه وهمه وحزنه من الجهاد. والله المستعان.

وأما تأثير «لا حول ولا قوة إلا بالله» في دفع هذا الداء، فلما فيها من كمال التفويض، والتبري من الحول والقوة إلا به، وتسليم الأمر كله له، وعدم منازعته في شيء منه، وعموم ذلك لكل تحول من حال إلى حال، في العالم العلوي والسفلي. والقوة على ذلك التحول، وأن ذلك كله، بالله وحده. فلا يقوم لهذه الكلمة شيء. وفي بعض الآثار: «إنه ما ينزل ملك من السماء ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله» ولها تأثير عجيب في طرد الشيطان. والله المستعان.

فصل (١)

وأما أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله فقالوا: لا ينتقض العهد إلا بأن يكون لهم منعة(٢) فيمتنعون من الإمام، ويمنعون الجزية، ولا يمكنه إجراء الأحكام عليهم. فأما إذا امتنع الواحد منهم عن أداء الجزية، أو فعل شيئاً من هذه الأشياء التي فيها ضرر على المسلمين أو غضاضة على الإسلام لم يصر ناقضًا(٣) للعهد.

لكن من أصولهم أن ما لا قتل فيه عندهم مثل القتل بالمثقل، والتلوط، وسب الذمي لله ورسوله وكتابه ونحو ذلك إذا تكرر، فعلى الإمام أن يقتل فاعله تعزيراً. وله أن يزيد على الحد المقدر فيه إذا رأى [المصلحة] في ذلك(٤)، ويحملون(٥) ما جاء عن النبي (ﷺ) من القتل في مثل هذه الجرائم على أنه رأى المصلحة في ذلك، ويسمونه القتل سياسةً، وكان حاصله أن للإمام أن يعزر بالقتل

---

(١) ٨٠٩ أحكام جـ٢.

(٢) قارن بالصارم ١٠: «وأما أبو حنيفة وأصحابه فقالوا: لا ينقض العهد بالسب. ولا يقتل الذمي بذلك. لكن يعزَّر».

(٣) في الأصل (لم يصرنا قضاء).

(٤) قارن ببدائع الكاساني ٧/٦٣.

(٥) في الأصل (وتحملون).

في الجـرائم التي تغلَّظت(١) بالتكرار، وشُرع القتل في جنسها، ولهذا أفتى أكثر أصحـابهم بقتـل من أكثر من سب النبي (ﷺ) من أهل الذمة وإن أسلم بعد أخذه. وقالوا: يقتل سياسةً؛ وهذا متوجه على أصولهم.

قال القـاضي في «التعليق»: الـدلالـة على أن نقض العهد يحصل بهذه الأشياء ـ وإن لم يشترطه في عقد الذمة ـ أن(٢) الإيمان يقتضي الكف عن الإضرار، وفي هذه الأشياء إضرار، فيجب أن ينتقض العهد بفعلها كما لو شرط ذلك في عقد الأمان. قال: ولأن عقد الذمة عقد أمان، فانتقض بالمخالفة من غير شرط كالهدنة.

الدليل الثاني:(٣) قلت: واحتج غيره من الأصحاب بوجوه أخر سوى ماذكره.

منها قولـه تعـالى: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخرِ وَلا يُحرِّمونَ ما حرّمَ الله وَرَسولُهُ ولا يدينونَ دينَ الحقِّ مِن الذينَ أُوتوا الكِتابَ حتى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يدٍ وهُمْ صِاغرونَ**﴾ [التوبة: ٢٩] فلا يجوز الإمساك عن قتالهم إلا إذا كانوا صاغرين حال إعطاء الجزية. والمراد بإعطاء الجزية من حين بذلها(٤) أو التزامها إلى حين تسليمها وإقباضها، فإنهم إذا بذلوا الجزية شرعوا في الإعطاء ووجب الكف عنهم إلى أن نقبضها منهم(٥)؛ فمتى لم يلتزموها أو التزموها وامتنعوا من تسليمهـا لم يكونوا معطين لها، فليس المراد أن يكونوا صاغرين حال تناول الجزية منهم فقط، ويفارقهم(٦) الصغار فيما عدا هذا الوقت. هذا باطل قطعاً. وإذا علم هذا فمن جاهرنا بسب الله ورسوله، وإكراه حريمنا على الزنى، وتحريق جوامعنـا ودورنـا، ورفـع الصليب فوق رءوسنا، فليس معه من الصغار شيء، فيجب قتاله ـ بنص الآية ـ حتى يصير صاغراً.

(١) في الأصل (بعطب) بإهمال جميع الأحرف، وقارن بالصارم ١١.
(٢) في المطبوعة «الإمام» ولعل الصواب ما أثبتناه. المراجع.
(٣) يبدو أن كل ما سبق هو الدليل الأول على قتل الساب، فهنا يبدأ الدليل الثاني ولو لم يصرح بذلك ابن القيم، لأنه سيذكر الدليل الثالث بعد قليل في أول الفصل التالي.
(٤) في الأصل (بدلها) بالدال المهملة.
(٥) في الصارم ١١ «إلى أن يقبضوناها، فيتم الإعطاء»: وفي الأصل (نقتضيها).
(٦) في الأصل (وتفارقهم).

فإن قيل: فالمأمور به القتال إلى هذه الغاية(١)، فمن أين لكم القتل المقدور عليه. فالجواب من وجوه:

أحدها: أن كل من أمرنا بقتاله من الكفار؛ فإنه يقتل إذا قدرنا عليه.

الثاني: أنا إذا كنا مأمورين أن نقاتلهم إلى هذه الغاية لم يجز أن نعقد لهم عهد الذمة بدونها ولو عُقد لهم عقداً فاسداً.

الثالث: أن الأصل إباحة دمائهم، يمسك عصمتها الحَبلان: حبل من الله بالأمر بالكف عنهم، وحبل من الناس بالعهد والعقد؛ ولم يوجد واحد من الحبلين؛ أما حبل الله سبحانه فإنه إنما اقتضى الأمر(٢) بالكف عنهم إذا كانوا صاغرين، فمتى لم يوجد وصف الصغار المقتضى للكف منهم وعنهم فالقتل للمقدور عليه منهم والقتال للطائفة الممتنعة واجب؛ وأما حبل الناس فلم يعاهدهم الإمام والمسلمون، إلا على الكف عما فيه إدخال ضرر على المسلمين وغضاضة في الإسلام، فإذا لم يوجد فلا عهد لهم من الإمام ولا من الله، وهذا ظاهر لا خفاء به.

فصل

الدليل الثالث(٣): قوله تعالى: ﴿**كيف يكونُ للمشركين عهد عند الله وعند رسوله**﴾ إلى قوله: ﴿**وإنْ نَكثُوا أيمانَهم مِنْ بَعدِ عهدِهمْ وطعنوا في دينكُمْ فَقاتِلوا أئِمةَ الكفرِ إنَّهمْ لا أيْمانَ لهمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتهونَ**﴾ [التوبة: ٧،١٢] فنفى الله أن يكون لمشرك عهد ممن كان النبي (ﷺ) عاهدهم إلا قوماً ذكرهم فجعل لهم عهداً ما داموا مستقيمين لنا، فعلم أن العهد لا يبقى للمشرك إلا ما دام مستقيماً، ومعلوم أن مجاهرتنا بتلك الأمور العظام تقدح في الاستقامة كما تقدح مجاهرتنا بالاستقامة فيها، بل مجاهرتنا بسب ربنا ونبينا وكتابه، وإحراق مساجدنا ودورنا أشد علينا من مجاهرتنا بالمحاربة إن كنا مؤمنين: فإنه يجب علينا أن نبذل دماءنا وأموالنا حتى تكون كلمة الله هي العليا، ولا يُجْهَرَ بين أظهرنا بشيء من أذى الله ورسوله، فإذا

(١) في الأصل (فالمأثور به القتال إلى هذه العناية). (٢) في الأصل (ألا).

(٣) االصارم المسلول ١٣ (الموضع الثاني).

لم يكونوا مستقيمين لنا مع القدح في أهون الأمرين فكيف يستقيمون لنا مع القدح في أعظمهما؟

يوضح ذلك قوله: ﴿**كيفَ وَإن يظهروا عليكم لا يَرقبُوا فيكمْ إلاًّ ولاَ ذِمَّةً**﴾ [التوبة: ٨] أي: كيف يكون لهم عهد ولو ظهروا عليكم لم يرقبوا الرحم التي بينكم وبينهم ولا العهد، فعلم أن من كانت حالته أنه إذا ظهر لم يرقب ما بيننا وبينه من العهد لم يكن له عهد، ومن جاهرنا بالطعن في ديننا وسب ربنا ونبينا، كان ذلك من أعظم الأدلة على أنه لو ظهر علينا لم يرقب العهد الذي بيننا وبينه، فإنه إذا كان هذا فعله مع وجود العهد والذلة، فكيف يكون مع القدرة والدولة؟! وهذا بخلاف من لم يظهر لنا شيئاً من ذلك، فإنه يجوز أن يفي لنا بالعهد لو ظهر.

فإن قيل: فالآية إنما هي في أهل الهدنة المقيمين في دارهم.

قيل: الجواب من وجهين: أحدهما: أن لفظها أعم، الثاني: أنها إذا كان معناها في أهل الذمة المقيمين بدارهم فثبوته في أهل الذمة المقيمين بدارنا أولى وأحرى[1].

الدليل الرابع: [2] قوله تعالى: ﴿**وَإنْ نَكثُوا أيْمانَهُمْ مِنْ بَعدِ عَهْدِهِم وَطعنوا في دِينكمْ فَقاتِلوا أئمةَ الكُفْرِ**[3]﴾ [التوبة: ١٢] فأمر سبحانه بقتال من نكث يمينه. أي عهده[4] الذي عاهدنا عليه من الكف عن أذانا والطعن في ديننا، وجعل علة قتاله ذلك، وعطف الطعن في الدين على نكث العهد، وخصه بالذكر بياناً أنه من أقوى الأسباب الموجبة للقتال. ولهذا تغلظ على صاحبه العقوبة، وهذه كانت سنة رسول الله (ﷺ) فإنه كان يهدر دماء من آذى الله ورسوله، وطعن في الدين، ويمسك عن غيره. فإن قيل: فالآية تدل على أن من نقض عهده، وطعن في الدين، فإنه يقاتل ، فمن أين لكم أن من طعن في الدين ولم ينقض العهد لم يقاتل؟ ومعلوم أن الحكم المعلق بوصفين لا يثبت إلا بوجود أحدهما.

فالجواب من وجوه: أحدها: أن هذا من باب تعليق الحكم بالوصفين المتلازمين اللذين[5] لا ينفك أحدهما عن الآخر، فمتى تحقق أحدهما تحقق الآخر،

(١) في الصارم ١٣ (بطريق الأولى). (٢) في الصارم ١٤ (الموضع الثالث).
(٣) في الصارم ١٤: (وهذه الآية تدل من وجوه: أحدها أن مجرد نكث الأيمان مقتض للمقاتلة، وإنما ذكر الطعن في الدين وأفرده لأنه من أقوى الأسباب الموجبة للقتال).
(٤) في الأصل (عهد). (٥) في الأصل (الذين).

وهذا كقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يشاقِقِ الرَّسول مِنْ بَعْدِ ما تَبيَّنَ لَهُ الهُدى وَيتَّبِعْ غير سبيـلِ المؤمنين نولِّه ما تولى**﴾ [النساء: ١١٥] وكقوله: ﴿**وَلا تَلْبسوا الحقَّ بالباطل وَتكتُموا الحق**﴾ [البقرة: ٤٢] وقوله: ﴿**ومن يعْصِ الله وَرَسُوله وَيَتَعدَّ حُدودهُ يدخله ناراً خالِداً فيها**﴾ [النساء: ١٤] ونظائره كثيرة جدًّا، فلا يتصور بقاؤه على العهد مع الطعن في ديننا، بل إمكان بقائه على العهد دينًا أقرب من بقائه على العهد مع المجاهرة بالطعن في الدين، بل إن أمكن بقاؤه على العهد مع المجاهرة بالطعن في الدين وسبُّه الله ورسولـه أمكن بقـاؤه عليه مع المحـاربة باليد، ومنع إعطاء الجزية. وهذا واضح(١) لا خفاء به.

الجواب الثاني: أنه لابد أن يكون لكل صفة من هاتين الصفتين ما يبين في الحكم، وإلا فالوصف العديم التأثير لا يتعلق به الحكم، فلا يصح أن يقال: من أكل وزنى حُدّ، ثم قد تكون كل صفة مستقلة بالتأثير لو انفردت، كما يقال: يقتل هذا لأنه زانٍ مرتد.

وقد يكـون مجمـوع الجـزاء مرتبـاً على المجمـوع، ولكل وصف تأثير في البعض، كما قال تعالى: ﴿**والذينَ لا يدْعونَ مع الله إلهاً آخرَ ولا يَقْتُلونَ النَّفسَ التي حَرمَ الله إلا بالحقِّ**﴾ [الفرقان: ٦٨]. وقد تكون تلك الصفات متلازمة، كل منها لو فرض تجرده لكان مؤثراً على سبيل الاستقلال، فيذكر إيضاحاً وبياناً للموجب(٢).

وقد يكون بعضها مستلزماً للبعض من غير عكس، كما قال تعالى: ﴿**إنَّ الذينَ يكفرونَ بِآياتِ الله وَيقْتُلونَ النَّبيِّينَ بغَيْرِ الحقِّ**﴾ [آل عمران: ٢١] وهذه الآية - من أي الأقسام فرضت - كانت دليلاً، لأن أقصى ما يقال: إن نقض العهد هو المبيح للقتال، والطعن في الدين مؤكد(٣) له موجب له.

فنقول: إذا كان الطعن يغلظ قتال من ليس بيننا وبينه عهد ويوجبه، فَلأَنْ يوجب قتل من بيننا وبينه ذمة - وهو ملتزم للصغار - أولى، فإن المعاهد له أن يظهر في داره ما شاء من أمر دينه(٤)، والذمي ليس له أن يظهر في دار الإسلام شيئاً من دينه الباطل.

(١) في الأصل (أوضح).
(٢) في الأصل وبيان الموجب). وقارن بالصارم ١٥.
(٣) في الأصل (مؤكداً).
(٤) زاد في الصارم ١٥ (الذي لا يؤذينا).

الجـواب الثـالث: أن مجرد نكث الأيْمان، مقتض للمقـاتلة ولو تجرد عن الطعن في الدين، وضرره أشد من ضرر الطعن في الدين علينا، فإذا كان أيسر الأمرين مقتضياً للمقاتلة فكيف بأشدهما؟

الجـواب الرابع[١]: أن الذمي إذا سب الله والرسول، أو عاب الإسلام علانية، فقد نكث يمينه، وطعن في ديننا، ولا خلاف بين المسلمين أنه يعاقب على ذلك بما يردعه وينكل به، فعلم أنه لم يعاهدنا عليه، إذ لو كان معاهداً عليه لم تَجز عقوبته عليه، كما لا يعاقب على شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك. وإذا كنا عاهدناه على ألا يطعن في ديننا، ثم طعن، فقد نكث يمينه من بعد عهده، فيجب قتله بنص الآية.

قال شيخنا: «وهذه دلالة ظاهرة جدًّا[٢]، لأن المنازع سلم لنا أنه ممنوع [٣] من ذلك بالعهد الذي بيننا وبينه، لكنه يقول: ليس كل ما مُنع منه ينقض عهده كإظهار الخمر والخنزير». ولكن الفرق بين من وجد منه فعل ما منع منه العهد مما لا يضر بنا ضرراً بيِّناً[٤] كترك الغيار مثلاً وشرب الخمر وإظهار الخنزير ـ وبين من وجد منه فعل ما منع منه العهد مما فيه غاية الضرر بالمسلمين وبالدين، فإلحاق أحدهما بالآخر باطل.

يوضح ذلك الجواب الخامس: أن النكث هو مخالفة العهد، فمتى خالفوا شيئاً مما صولحوا عليه فهو نَكْثٌ مأخوذ من نكث الحبل ـ وهو نَقض قُواه؛ و[٥] نكث الحبل[٦] يحصل بنقض قوة واحدة كما يحصل بنقض جميع القوى، لكن قد [يبقى من قولها] يتمسك به الحبل[٧]، وقد يهن[٨] بالكلية. وهذه المخالفة من المعاهد قد تبطل العهد بالكلية حتى تجعله حربيًّا، وقد تشعّث العهد حتى تبيح عقوبتهم،

---

(١) هو الصارم ١٦ (في الوجه الثاني). (٢) الذي في الصارم ١٦ (وهذه دلالة قوية حسنة).

(٣) في الأصل (أن المنازع سلم أن لنا به ممنوع) صوابه ـ كما أثبتناه ـ من الصارم (٤) في الأصل (بيننا).

(٥) في الأصل (أو). صوابه (و) من الصارم ١٦. (٦) في الأصل (الحيل) بالياء.

(٧) كذا بالأصل. والذي في الصارم ١٦ ـ وعنه أخذ ابن القيم ـ «ولكن قد بقي من قواه ما يستمسك الحبل به». (٨) يهن: يضعف، مضارع وهن.

كما أن فقد[١] بعض الشروط في البيع والنكاح وغيرهما[٢] قد يبطله بالكلية[٣]، وقد يبيح الفسخ والإمساك[٤].

وأما من قال: «ينتقض العهد بجميع المخالفات» فظاهرٌ[٥] على قول قاله[٦] القاضي في «التعليق». واحتج القاضي بأنهم «لو أظهروا منكراً في دار الإسلام مثل إحداث البيع والكنائس في دار الإسلام، ورفع الأصوات بكتبهم، والضرب بالنواقيس، وإطالة البناء على أبنية المسلمين، وإظهار الخمر والخنزير. وكذلك ما أخذ عليهم تركه من التشبه بالمسلمين في ملبوسهم ومركوبهم وشعورهم وكناهم. قال: والجواب أن من أصحابنا من جعله ناقضاً للعهد بهذه الأشياء ـ وهو ظاهر كلام الخرقي، فإنه قال: «ومن نقض العهد بمخالفة شيء مما صولحوا عليه عاد حربيًّا» ـ فعلى هذا لا نسلم، وإن سلمناه فَلِما تبيّن فيها أنه لا ضرر على المسلمين فيها، وإنما نهوا عن فعلها لما في إظهارها من المنكر، وليس كذلك في ملتنا لأن في فعلها ضرراً بالمسلمين، فبان الفرق» انتهى كلامه[٨]. قال شيخنا:[٩] فعلى التقديرين فقد[١٠]اقتضى العقد ألا يظهروا شيئاً من عَيْب ديننا، وأنهم متى أظهروه فقد نكثوا وطعنوا في الدين، فيدخلون في عموم الآية لَفظاً ومعنى، ومثلُ هذا العموم يبلغ درجة النص.

فصل

وفي الآية دليل من وجه آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢] وهم الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا في ديننا؛ ولكن أقام الظاهر مقام المضمر[١١]بينهما على الوصف الذي استحقوا به المقاتلة، كقوله:

---

(١) سقطت لفظة (فقد) في مطبوعة الصارم ١٦ سهواً أو تطبيعاً. (٢) في الصارم ١٦ (ونحوهما).
(٣) الذي في الصارم ١٦ (قد يبطل البيع بالكلية كما لو وصفه بأنه فرس فظهر بعيراً).
(٤) الذي في الصارم ١٦ (وقد يبيح الفسخ كالإخلال بالرهن والضمين، هذا عند من يفرّق في المخالفة)، ثم يتشابه النصان هنا وهناك. (٥) في الصارم ١٦ (فالأمر ظاهر على قوله).
(٦) في الأصل (قال) والسياق يقتضي استبدال (قاله) به: وتتمة هذه العبارة كلها استطراد من ابن القيم.
(٧) في الأصل (فالعين). (٨) كلام القاضي أبي يعلى في «التعليق».
(٩) أي ابن تيمية في الصارم المسلول بالنص الحرفي ١٦. (١٠)كذا بالأصل والذي في الصارم ١٦ (قد).
(١١)الذي في الصارم ١٧ (وأوقع الظاهر موقع المضمر).

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ وَأقاموا الصلاةَ إنَّالاَ نُضيع أَجر المُصلِحينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] ونظائره، فدل على أن من نكث يمينه، وطعن في ديننا، فهو من أئمة الكفر(١). وإمام الكفر هو الداعي إليه المُتَّبَعُ فيه(٢). وإنما صار إماماً في الكفر لأجل الطعن، وإلا فإنَّ(٣) مجرد النكث لا يوجب ذلك، وهذا ظاهر: فإن الطاعن(٤) في الدين يعيبه ويذمه ويدعو(٥) إلى خلافه، وهذا شأن الإمام: فإذا طعن الذمي في الدين كان إماماً في الكفر، فيجب قتاله(٦). وقوله: ﴿إنَّهُمْ لاَ أَيْمانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢] علة أخرى لقتاله، فأما على قراءة الكسر(٧) فتكون الآية(٨) قد تضمنت ذكر المقتضي للقتال ـ وهو نكث العهد والطعن في الدين ـ وبيان عدم المانع من القتال: وهو الإيمان العاصم. وأما على قراءة فتح الألف فالأيمان جمع يمين(٩)، وهي أحسن القراءتين، لأنه قد تقدم في أول الآية قوله: ﴿وإنْ نَكَثُوا أيْمانَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢] فأخبر سبحانه عن سبب القتال ـ وهو نكث الأيمان والطعن في الدين ـ ثم أخبر أنه لا أيمان لهم تعصمهم(١٠)من القتل لأنهم قد نكثوها.

والمراد بالأيْمان(١١)هنا العهود لا القسم بالله، فإن النبي (ﷺ) لم يقاسمهم بالله عام الحديبية وإنما عاهدهم، ونسخة الكتاب محفوظة(١٢)ليس فيها قسم، وهذا

(١) فصل هذا ابن تيمية في الصارم ١٧ بأطول من هذا فقال: «لأن قوله ﴿أئمة الكفر﴾ إما أن يعني به الذين نكثوا أو طعنوا أو بعضهم، والثاني لا يجوز، لأن الفعل الموجب للقتال صدر من جميعهم، فلا يجوز تخصيص بعضهم بالجزاء، إذ العلة يجب طردها إلا لمانع، ولا مانع، ولأنه علّل ذلك ثانياً بأنهم لا أيمان لهم، وذلك يشمل جميع الناكثين الطاعنين».

(٢) في الأصل (الممتنع فيه) ولا معنى له: صوابه من الصارم ١٧.

(٣) في الأصل (وإلا في). والذي في الصارم ١٧ (لأن) من غير لفظة (وإلا).

(٤) في الصارم ١٧ (والطعن)، وقد أضاف الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد لفظة [أن] ليستقيم التعبير على رأيه، فجاءت الجملة مطبوعة في الصارم هكذا (لأن الطعن في الدين [أن] يعيبه ويذمه). ولم تكن ثمة حاجة لهذه الزيادة.

(٥) في الأصل (يدعو) بغير واو العطف، وفي الصارم ١٧ (ويدعو) وهو الصواب.

(٦) زاد في الصارم (لقوله تعالى: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾).

(٧) أي على قراءة (لا إيمان لهم) بدلاً من (أيمان).　(٨) في الأصل (فيكون الأمر) ولا معنى له.

(٩) في الأصل (مهن) وهو تصحيف عجيب.　(١٠) في الأصل (يعصمهم).

(١١) في الصارم ١٧ (واليمين هنا).　(١٢) في الأصل (يحفظ) والذي في الصارم ١٧ (معروفة).

لأن كلاً من المتعاهدين يمد يمينه إلى الآخر[١]، ثم صار مجرد الكلام بالعهد يسمى يميناً وإن لم يحصل فيه مد اليمين.

وقد قيل: سمي العهد يميناً [لأن اليمين][٢] هي القوة والشدة، كما قال تعالى: ﴿**لأخذنا منه باليمين**﴾ [الحاقة: ٤٥].

ولما[٣] كان الحلف معقوداً مشدوداً[٤] سمي يميناً، فاسم اليمين جامع للعهد الذي بين العبد وبين ربه وإن كان نذراً، ومنه قول النبي (ﷺ) «**النذر حلفة**»[٥] وللعهد الذي بين المخلوقين، ومنه قوله تعالى: ﴿**ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها**﴾[٦] [النحل: ٩١] فالنهي عن بعض العهود وإن لم يكن فيها قسم، وقال تعالى: ﴿**ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً**﴾ [الفتح: ١٠] وإن لم يكن هناك قسم، ومنه قوله تعالى: ﴿**واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام**﴾ [النساء: ١] معناه: تتعاهدون وتتعاقدون به، والمقصود[٧] أن كل[٨] من طعن في ديننا بعد أن عاهدناه عهداً يقتضي ألا يفعل ذلك فهو إمام في الكفر لا يمين[٩] له، فيجب قتله بنص الآية، وبهذا يظهر الفرق بينه وبين الناكث الذي ليس بإمام[١٠] في الكفر[١١]، وهو من خالف بفعل[١٢] شيء مما صولح عليه[١٣].

---

(١) الذي في الصارم ١٧ (وهذا لأن اليمين يقال: إنما سميت بذلك لأن المعاهدين يمد كل منهما يمينه إلى الآخر، ثم غلبت حتى صار مجرد الكلام بالعهد يسمى يميناً).

(٢) هذه الزيادة التي يقتضيها السياق موجودة في مطبوعة الصارم ١٧.

(٣) في الصارم (فلما).

(٤) في الأصل (مسدوداً) وفي مطبوعة الصارم (مشدداً).

(٥) زاد في الصارم ١٨ (وقوله «كفارة النذر كفارة اليمين»).

(٦) زاد في الصارم ١٨ (وإنما لفظ العهد: «بايعناك على ألا نفر» ليس فيه قسم).

(٧) في الصارم ١٨ (فثبت أن كل من طعن) الخ.

(٨) في الأصل (كان).

(٩) في الأصل (لا يميز) صوابه من الصارم ١١.

(١٠) في الأصل (إمام).

(١١) سقطت عبارة (في الكفر) من مطبوعة الصارم ١٨.

(١٢) في الأصل (يفطر) وهو تحريف عجيب. صوابه (بفعل) من الصارم ١٨.

(١٣) زاد في الصارم ١٨ (من غير الطعن في الدين).

فصـل

الدليل الخامس[١] : قوله تعالى : ﴿**أَلَا تُقَاتِلُونَ**[٢] **قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ**﴾ [التوبة : ١٣] فجعل همَّهم بإخراج الرسول موجباً لقتالهم[٣] ؛ لما فيه من الأذى له[٤] . ومعلوم قطعاً أن سبه أعظم أذى له من مجرد إخراجه[٥] من بلده ، ولهذا عفا (ﷺ) عامَ الفتح عن الذين همّوا بإخراجه ولم يعف عمن سبه : فالذمي إذا أظهر سبَّه (ﷺ) فقد نكث عهده ، وفعل ما هو أعظم من الهم بإخراج الرسول ، وبدأ بالأذى ؛ فيجب قتاله .

فصـل

الدليل السادس[٦] : قوله تعالى : ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُم وَيُخْزِهِمْ وينصركُمْ عَلَيهِمْ وَيَشْفِ صُدُور قَوْمٍ مُؤْمِنِين . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِم**﴾ [التوبة : ١٤ ، ١٥] فأمر سبحانه بقتال الناكثين الطاعنين في الدين ، ورتب على ذلك ستة أشياء[٧] : تعذيبهم بأيدي[*] المؤمنين ، وخزيهم ، والنصرة عليهم ، وشفاء صدور المؤمنين ، وذهاب غيظ قلوبهم ، وتوبته[٨] ، على غيرهم . والتقدير : إن تقاتلوهم يحصل[٩] هذا . وإذا كانت هذه الأمور مرتبة على قتال الناكث والطاعن في الدين

---

(١) هذا الدليل الخامس مقتبس مما ذكره ابن تيمية في الصارم ١٨ فيما سماه ، (الوجه الرابع) ، وكأني بابن القيم حين بلغ هذا الموضع من كتابه (أحكام أهل الذمة) قد وضع نصب عينيه كتاب شيخه «الصارم» وطفق ينسخ منه نسخاً حرفيًّا تارة ويقتبس منه مع الاختصار تارة أخرى . ولعلنا لاحظنا أن ابن القيم قد نقل من كتاب شيخه أكثر أدلته ونصوصه حتى الآن ابتداء من الصفحة ٥ حتى الصفحة ١٨ من مطبوعة (الصارم) وسيستمر ـ بعد إيراد الدليل الخامس والدليل السادس ـ بالنقل المتتابع من الصارم ابتداء من الصفحة ١٩ حتى الصفحة ٢٤ . ثم من الصفحة ٦١ حتى الصفحة ٩٢ ، ويتخلل ذلك كله استطراد من ابن القيم بين الفينة والفينة ، حتى ليوشك أن يكون مجموع ما نقله ابن القيم من كتاب شيخه زهاء خمسين صفحة من القطع الكبير المطبوع . (٢) في الأصل (تقاتلوا) .

(٣) في مطبوعة الصارم ١٨ (من المحضضات على قتالهم) .

(٤) في الصارم ١٨ (وما ذاك إلا لما فيه من الأذى) . (٥) في الصارم ١٨ (أغلظ من الهم بإخراجه) .

(٦) هذا الدليل السادس هو في الصارم ١٨ (الوجه الخامس) .

(٧) في مطبوعة الصارم (وضمن لنا ـ إن فعلنا ذلك ـ أن يعذبهم بأيدينا) إلخ ، وليس فيه ذكر العدد (ستة) .

(٨) حروف هذه الكلمة كلها مهملة في الأصل ، وإنما كان تقدير اللفظة (توبته) لقوله في ختام الآية المستشهد بها ﴿ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم﴾ . (٩) في مطبوعة الصارم ١٩ (يكن) .

(*) في المطبوعة «بأذى» ولعل الصواب ما أثبتناه . المراجع .

ـ وهي أمور مطلوبة ـ كان سببها المقتضي لها مطلوباً للشارع ـ وهو القتال ـ وإذا كانت هذه الأمور مطلوبة حاصلة بالقتال، لم يجز تعطيل القتال الذي هو سببها مع قيام المقتضي له من جهة من يقاتله: وهو النكث والطعن في الدين.

فشفاء الصدور الحاصل من ألم النكث والطعن، وذهاب الغيظ الحاصل في صدور المؤمنين من ذلك، مقصود[١] للشارع مطلوب الحصول.

ولا ريب أن من أظهر سب رسول الله (ﷺ) من أهل الذمة فإنه يغيظ المؤمنين ويؤلمهم أكثر من سفك دماء بعضهم وأخذ أموالهم: فإن هذا يثير[٢] الغضب لله والحمية له ولرسوله، وهذا القدر لا يهيج في قلب المؤمن غيظ[٣] أكثر منه، بل المؤمن المسدّد[٤] لا يغضب هذا الغضب إلا لله ورسوله[٥]؛ والله سبحانه يحب[٦] شفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم؛ وهذا إنما يحصل بقتل السبّاب لأَوْجُهٍ[٧]:

أحدها: أن تعزيره وتأديبه يذهب غيظ قلوبهم إذا شتم واحداً من المسلمين، فلو أذهب التعزير والتأديب غيظ قلوبهم إذا شتم الرسول؛ لكان غيظهم من سب نبيّهم[٨] مثل غيظهم من سب واحد منهم، وهذا باطل قطعاً.

الثاني: أن شتمه أعظم عندهم من أن يسفك دماء بعضهم بعضاً[٩] ثم لو قُتل واحد منهم لم يَشْفِ صدورهم إلاَّ قتله، فَأَنْ لا تُشفى صدورهم إلا بقتل الساب أَوْلى وأحرى.

الثالث: أن الله جعل قتالهم هو السبب في حصول الشفاء، والأصل عدم

---

(١) في الصارم ١٩ (أمر مقصود).

(٢) في الأصل (يبين) صوابه من الصارم ٢٠

(٣) كذا بالأصل، وفي الصارم (غيظاً).

(٤) في الأصل (المشدد) بالشين المعجمة.

(٥) سقطت من الصارم لفظة (ورسوله).

(٦) في الصارم ٢٠ (يطلب).

(٧) هذه الأوجه أربعة في كل من الصارم وكتاب ابن القيم هذا. وهذا يدل صراحة على أن ابن القيم كان ينقل كلام شيخه نقلاً حرفيًّا، ولكن العجيب في الأمر أنه غالباً لا يعزو النص إلى صاحبه رغم نسخه إياه كلمة كلمة بل حرفاً حرفاً!! أكان يحفظ أقوال ابن تيمية عن ظهر الغيب ويمليها من حفظه وهو لا يدري؟ أم ثقل عليه أن يعيد للقارىء عبارته (قال شيخنا) في كل مرة؟ أم عد من حقه أن يروي «موافقاته» لشيخه وكأنها آراؤه وأفكاره؟

(٨) في الأصل (من سب بينهم)، وفي الصارم ٢٠ (من شتمه).

(٩) كذا بالأصل، وهو تعبير غير فصيح، والذي في الصارم ٢٠ (أن يؤخذ بعض دمائهم).

سبب(١) آخر يُحَصِّله(٢)، فيجب أن يكون القتل والقتال هو الشافي لصدور المؤمنين من مثل هذا.

الرابع: أن النبي (ﷺ) لما فتحت مكة وأراد أن يشفي صدور خُزاعة ـ وهم القوم المؤمنون ـ من بني بكر الذين قاتلوهم، مكّنهم منهم نصف النهار أو أكثر مع أمانه لسائر الناس، فلو كان شفاء صدورهم وذهاب غيظ قلوبهم يحصل بدون القتل للذين نكثوا أو طعنوا لما فعل ذلك مع أمانه الناس(٤).

فصل

الدليل السابع(٥) قوله سبحانه: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا، ذَٰلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ**﴾ [التوبة: ٦٣] ذكر سبحانه هذه الآية عقيب قوله: ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ**﴾[التوبة: ٦١] فجعلهم مؤذين له بقولهم «هو أذن»، ثم قال: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ فجعلهم بهذا مُحَادِّين، ومعلوم قطعاً أن من أظهر مسبة الله ورسوله والطعن في دينه أعظم محادَّة له ولرسوله ؛ وإذا ثبت أنه محادٌّ فقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الأَذَلِّينَ**﴾ [المجادلة: ٢٠] والأذل أبلغ من الذليل، ولا يكون أذل حتى يخاف على نفسه وماله، لأن من(٧) كان دمه وماله معصوماً لا يستباح فلبس بأذلّ، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إلا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ**﴾ فبين سبحانه أنهم أينما ثقفوا فعليهم الذلة إلا مع العهد، فعُلم أن مَنْ له عهد وحبل يأمن به على نفسه وماله لا ذلّةَ عليه، وإن كانت عليه المسكنة، فإن المسكنة قد تكون مع عدم الذلة، وقد جعل سبحانه الحادّين(٩) في الأذلين، فلا يكون لهم عهد، إذ العهد ينافي الذلة، كما دلت عليه

(١) في الأصل (تسبب).	(٢) في الأصل (فحصله)، تصويبه من الصارم ٢٠.

(٣) في الأصل (القتلة الذين)، وقارن بالصارم ٢٠.	(٤) في الصارم ٢٠ (للناس).

(٥) هو في الصارم ٢٠ (الموضع الرابع)، ويلاحظ هنا أن ابن القيم يختصر أدلة شيخه.

(٦) في الأصل (ورسوله).

(٧) كذا في الأصل. وفي مطبوعة الصارم ٢٢ (لأنه إن كان...).

(٨) قوله (يأمن به على نفسه وماله) سقط من مطبوعة الصارم ٢٢.

(٩) في مطبوعة الصارم ٢٢ (المخادعين) وما في مخطوطتنا أدق وأنسب للسياق.

الآية، وهذا ظاهر، فإن الأذلّ ليس له قوة يمتنع بها ممَّن(١) أراده بسوء، فإذا كان [له](٢) من المسلمين عهد يجب عليهم به نصره ومنعه فليس بأذل، فثبت أن المحاد لله ورسوله لا يكون له عهد يعصمه.

فصل(٣)

قولهم: «ولا نرغب في ديننا ولا ندعو إليه أحداً»

هذا من أولى الأشياء أن ينتقض العهد به: فإنه حراب الله وسوله باللسان، وقد يكون أعظم من الحراب باليد، كما أن الدعوة إلى الله ورسوله جهاد بالقلب وباللسان، وقد يكون أفضل من الجهاد باليد.

ولما كانت الدعوة إلى الباطل مستلزمة(٤) ـ ولابد ـ للطعن في الحق كان دعاؤهم إلى دينهم وترغيبهم فيه طعناً في دين الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَّكثوا أيْمانَهُمْ [مِنْ] بعدِ عَهْدِهِمْ وَطَعنُوا في دِينِكُمْ فَقاتِلوا أئمة الكُفْر﴾. [التوبة: ١٢]

ولا ريب أن الطعن في الدين أعظم من الطعن بالرمح والسيف، فأولى ما انتقض به العهد الطعن في الدين، ولو لم يكن مشروطاً عليهم. فالشرط ما زاده إلا تأكيداً وقوة.

الباب الثالث(٥)

في انقسام أدوية أمراض القلب إلى قسمين: طبيعية وشرعية.

مرض القلب نوعان: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال؛ وهو النوع المتقدم، كمرض الجهل؛ ومرض الشبهات والشكوك، ومرض الشهوات. وهذا النوع هو أعظم النوعين ألماً، ولكن لِفسادِ القلب لا يُحس بالألم، ولأن سَكْرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلا فألمه حاضر فيه حاصل له، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما، وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

(١) في الأصل (فمن)، صوابه من الصارم.　(٢) الزيادة من الصارم ٢٢.
(٣) ٧٢٩ أحكام جـ٢.　(٤) في الأصل (متلزمة).　(٥) ١٨ إغاثة جـ١.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال، كالهمِّ والغمِّ والحَزَنِ والغيظ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية، كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب؛ وما يدفع موجبها مع قيامها، وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيراً بما يتألم به القلب، ويشقيه مايشقيه.

فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن، وهذه قد لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت، وأما أمراضه التي لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية؛ فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الدائم، إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء، ولهذا يقال: «شفي غيظه» فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك، فإذا انتصف منه اشتفى قلبه، قال تعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ**﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]. فأمر بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ست فوائد.

فالغيظ يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه، فإن شَفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضاً؛ من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفي مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضاً أُخر أصعب من مرض العشق، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وكذلك الغَمُّ والهم والحزن أمراض للقلب، وشفاؤها بأضدادها: من الفرح والسرور، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرىء من مرضه، وإن كان بباطل توارَى ذلك واستتر، ولم يزل، وأعقب أمراضاً هي أصعب وأخطر.

وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب. فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم، وهي في الحقيقة إنما تزيده مرضاً إلى مرضه؛ لكن اشتغل القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه، بسبب جهله بالعلوم النافعة، التي هي شرط في صحته وبُرْئه، قال النبي، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، في الذين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتي بفتواهم: «**قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذْ لم يعلموا؟ فإنما شِفاء العِيِّ السؤال** » فجعل الجهل مرضاً وشفاءه سؤال أهل العلم.

وكذلك الشاك في الشيء المرتاب فيه، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين: ثلج صدره؛ وحصل له بَرْد اليقين، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رُشده، وينشرح بالهدَى والعلم، قال تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأَنَّمَا يَصَّعَّدُ في السَّماءِ**﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وسيأتي ذكر مرض ضيق الصدر وسببه وعلاجه، إن شاء الله تعالى.

والمقصود: أن من أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطبيعية، ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية، والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن. اهـ.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ. لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ، واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٩، ٢٢]. فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يستوي عنده عمار المسجد الحرام، وهم عماره بالاعتكاف والطواف والصلاة، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن، وأهل سقاية الحاج، لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله؛ وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون. وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات، فنفى التسوية بين المجاهدين وعمار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عماره بقوله: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ، فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾ [التوبة: ١٨]. فهؤلاء هم عمار المساجد، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم.

(٢)**واختلف** نفر من الصحابة في أفضل الأعمال؛ فقال بعضهم: سقاية الحاج، وقال بعضهم: عمارة المسجد الحرام، وقال بعضهم: الحج، وقال بعضهم: الجهاد في سبيل الله، فاستفتى عمرُ في ذلك رسول الله (ﷺ) فأنزل الله

---

(١) ٣٥٦ طريق الهجرتين.		(٢) ٣١١ أعلام جـ٤

عز وجل: ﴿أجَعَلْتم سِقاية الحاجِّ وعمارَة المسجدِ الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ [التوبة: ١٩، ٢٠].

(١)**نفي** التساوي في كتاب الله قد يأتي بين الفعلين كقوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله﴾.

وقد تأتي بين الفاعلين نحو: ﴿لَا يَستوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤمِنينَ غيرُ أولي الضَرَرِ والمُجاهِدُونَ في سَبيلِ الله﴾ [النساء: ٩٥].

وقد تأتي بين الجزاءين كقوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَستَوِي الأعمىٰ والبصيرُ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلا الحرورُ وَمَا يَستوي الأحياءُ وَلَا الأمواتُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٢]. فالأعمى والبصير الجاهل والعالم، والظلمات والنور الكفر والإيمان، والظل والحرور، الجنة والنار، والأحياء والأموات المؤمنون والكفار.

(٢)**وأما** تقديم المال على الولد فلم يطرد في القرآن؛ بل قد جاء مقدماً كذلك في قوله: ﴿وَما أموالُكم ولا أولادكم بِالتي تقرّبكم﴾ [سبأ: ٣٧]. وقوله: ﴿إنما أموالُكَم وأولادُكم فِتنة﴾ [التغابن: ١٥]. وقوله: ﴿لا تلهكم أموالُكَم وَلَا أَولَادُكُم عن ذِكرِ الله﴾ [المنافقون: ٩].

وجاء ذكر البنين مقدماً كما في قوله: ﴿قُل إن كَان آباؤكُم وأبناؤكُم وَإخوانُكُم وأزواجُكُم وَعَشِيرتكُم وَأموال اقْتَرَفتموها﴾ [التوبة: ٢٤]. وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهوَاتِ مِنَ النِّساءِ وَالبَنِينَ وَالقَناطِيرِ المُقنطَرةِ مِنَ الذَّهبِ وَالفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]. فأما تقديم الأموال في تلك المواضع الثلاثة فلأنها ينتظمها معنى واحد، وهو التحذير من الاشتغال بها والحرص على تحصيلها؛ حتى يفوته حظه من الله والدار الآخرة، فهي في موضع عن الالتهاء بها، وأخبر في موضع أنها فتنة، وأخبر في موضع آخر أن الذي يقرب عباده إليه إيمانهم وعملهم الصالح لا أموالهم ولا أولادهم، ففي ضمن هذا النهي عن الاشتغال بها عما يقرب إليه.

(١) ٨ بدائع جـ٤.　(٢) ٤٠٧ بدائع جـ١.

ومعلوم أن اشتغال النـاس بأموالهم والتلاهي بها، أعظم من اشتغالهم بأولادهم، وهذا هو الواقع حتى إن الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحة ولده وعن معاشرته وقربه.

وأما تقديمهم على الأموال في تينك الآيتين فلحكمة باهرة، وهي أن براءة متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها أحب إليه من الجهاد في سبيل الله.

ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وأولاده وآبائه وإخوانه وعشيرته، تمنعه من الخـروج عنهم، أكثـر مما يمنعـه مفارقته ماله، فإن تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر، نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر ولا يكاد عند هذا التصور يخطر له مفارقة ماله، بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال.

وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته.

فبدأ أولاً بذكر أصول العبد، وهم آباؤه المتقدمون طبعاً وشرفاً ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم، وحتى عن أبنائهم؛ ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية، ولا يشهدون على آبائهم بالكفر والنقيصة ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم.

ثم ذكر الفروع وهم الأبناء؛ لأنهم يتلونهم في الرتبة وهم أقرب أقاربهم إليهم وأعلق بقلوبهم وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة.

ثم ذكر الإخوان وهم الكلالة وحواشي النسب. فذكر الأصول أولاً، ثم الفروع ثانياً، ثم النظراء ثالثاً.

ثم الأزواج رابعـاً؛ لأن الـزوجـة أجنبية عنده، ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها، وهي إنما تراد للشهوة. وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم، ويرادون للنصرة والدفاع وذلك مقدم على مجرد الشهوة.

ثم ذكر القرابة البعيدة خامساً، وهي العشيرة وبنو العم، فإن عشائرهم كانوا بني عمتهم غالباً، وإن كانوا أجانب فأولى بالتأخير.

ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب سادساً، ووصفها بكونها مقترفة أي مكتسبة؛ لأن القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل وله أحب وبقدره أعرف؛ لما حصل له فيه من التعب والمشقة بخلاف مال جاء عفواً بلا كسب: من ميراث أو هبة أو وصية، فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه على بقائه، أعظم من الثاني والحس شاهد بهذا وحسبك به.

ثم ذكر التجارة سابعاً؛ لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التي يحصله بها، فالتجارة عنده وسيلة إلى المال المقترف، فقدم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشى كسادها، وهذا يدل على شرفها وخطرها وأنه قد بلغ قدرها إلى أنها مخوفة الكساد.

ثم ذكر الأوطان ثامناً آخر المراتب؛ لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ماتقدم. فإن الأوطان تتشابه وقد يقوم الوطن الثاني مقام الأول من كل وجه ويكون خيراً منه فمنها عوض. وأما الآباء والأبناء والأقارب والعشائر فلا يتعوض منها بغيرها. فالقلب وإن كان يحن إلى وطنه الأول فحنينه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم فمحبة الوطن آخر المراتب، وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إيثار البعيد على القريب فذلك جزئي لا كلي فلا تناقض به. وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع.

(1) فصل في غزوة حنين وتسمى غزوة أوطاس

وهما موضعان بين مكة والطائف، فسميت الغزوة باسم مكانها. وتسمى غزوة هَوازِن؛ لأنهم الذين أَتَوْا لقتال رسول الله (ﷺ).

قال ابن إسحاق: ولما سمعت هوازن برسول الله (ﷺ)، وما فتح الله عليه من مكة، جمع مالك بن عوف النَّصْري، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت إليه مُضَر وجُشَم كلها، وسعد بن بكر، وناسٌ من بني هلال. وهم قليل. ولم يشهدها من بني قيس بن عَيلان إلا هؤلاء. ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب. وفي جشم: دُرَيْدُ بن الصِّمَّة شيخ كبير، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب، وكان شجاعاً مجرِّباً، وفي ثقيف سيدان لهم. وفي الأحلاف: قارب بن

(1) ٤٣٨ زاد المعاد جـ٢.

الأسود. وفي بني مالك: سبيع بن الحارث، وأخوه أحمر بن الحارث. وجِمَاعُ أمر الناس: إلى مالك بن عوف النصْري.

فلما أجمع السيرَ إلى رسول الله (ﷺ) ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم. فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمة، فلما نزل قال: بأيِّ وَادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم، مجال الخيل. لا حَزْن ضَرِس، ولا سهل دَهِس، مالي أسمع رُغَاءَ البعير، ونُهاق الحمير، وبكاء الصبي، وثُغَاء الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم، قال: أين مالك؟ قيل: هذا مالك ـ ودُعِيَ له ـ قال: يا مالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، وثغاء الشاء؟ قال: سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله؛ ليقاتل عنهم. فقال: راعي ضأن والله، وهل يَرُدُّ المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورُمْحه، وإن كانت عليك فُضِحْت في أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلتْ كَعْبٌ وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحد. قال: غاب الحدّ والجدّ، لو كان يوم علاءٍ ورفعة لم يغب عنهم كعب ولا كلاب، ولوَدِدْتُ أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر، وعوف بن عامر. قال: ذانك الجَذَعان من عامر؟ لا ينفعان ولا يضران، يا مالك! إنك لم تصنع بتقديم البيضة ـ بيضة هوازن ـ إلى نُحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعَلْيَاء قومهم. ثم الْقَ الصَّبَأة على مُتُون الخيل، فإن كانت لك لحق بك مَنْ وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. قال: والله لا أفعل، إنك قد كَبرت وكبر عقلك. والله لَتُطِيعُنِّي يا معشر هوازن، أو لأتَّكِئَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأي، فقالوا: أطعناك، فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.

يا ليتني فيها جَذَعْ أخُبُّ فيها وأضَعْ
أقود وَطْفاء الزمع كأنها شاة صَدَعْ[1]

(١) الوطفاء: المرأة كثيرة شعر هدبي العين، والزمع ـ بفتح الزاي والعين رذال الناس، والصدع: الصغيرة، أو الوسط التي لا قيمة لها.

ثم قال مالـك للناس: إذا رأيتموهم فاكسروا جُفون سيوفكم، ثم شُدُّوا عليهم شدة رجل واحد. وبعث عيونا من رجاله، فأتوه وقد تفرقت أوْصَالُهم. قال: ويلكم! ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْقٍ، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد. فلما سمع بهم نبي الله (ﷺ) بعث إليهم عبدالله بن أبي حَدْرَد الأسلمي، وأمره أن يدخل في النـاس، فيقيم فيهم، حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم. فانطلق ابن أبي حدرد، فدخل فيهم، حتى سمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله (ﷺ) وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله فأخبره الخبر، فلما أجمع رسول الله السير إلى هوازن ذُكر له: أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه ـ وهو يومئذ مشرك ـ فقال: «**يا أبا أمية، أعِرْنا سلاحك هذا نَلْقَى فيه عدونا غداً**»، فقال صفوان: أغَصباً يا محمد؟ قال: «**بل عارية، وهي مضمونة حتى نُؤدِّيها إليك**»، فقال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول الله سأله أن يكفيهم حملها ففعل.

ثم خرج رسـول الله (ﷺ)، معـه ألفـان من أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه، ففتح الله بهم مكة. وكانوا اثني عشر ألفاً. واستعمل عَتَّاب بن أسيد على مكة أميراً. ثم مضى يريد لِقَاء هوازن.

قال ابن إسحاق: فحدثني **عاصم** بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبدالله قال: «لما استقبلنا وادي حُنين انْحَدَرْنَا في وَادٍ من أوْدِية تِهَامة، أجوف حطوط، إنما نَنْحَدِر فيه انْحِدَاراً. قال: في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكَمَنُوا لنا في شِعَابه وأجنابه ومَضَايقه. وقد أجمعوا وتهيَّؤوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ـ ونحن منحطون ـ إلا الكتائب قد شدوا علينـا شَدَّة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يَلْوي أحد منهم على أحد، وانحاز رسول الله (ﷺ)، ذات اليمين، ثم قال: «**إلى أَين أيُّها الناس. هَلُمَّ إليَّ. أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله**» وبقي مع رسول الله نفر من المهاجرين وأهل بيته. وفيمن ثبت معه من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، ومن أهل بيتـه: علي، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث، وابنه، والفضل بن العباس،

وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن ابن أم أيمن، وقتل يومئذ. قال: ورجل من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية سوداء في رأس رُمْح طويل، أمام هوازن، وهوازن خلفه، إذا أدْرَك طَعن برُمحِه، وإذا فاته الناس رفع رُمْحَه لمن وراءه فاتبعوه. فبينا هو كذلك إذْ هَوَى إليه علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يُريدَانِه. قال: فيأتي عليٌّ من خلفه، فضرب عرقُوبي الجمل، فوقع على عجزه، فوثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطَنَّ قدمه بنصف ساقه، فانجعَفَ عن رَحْلِه. قال: واجتلد الناس. قال: فوالله ما رَجعتْ رَاجِعَةُ الناس من هزيمتهم، حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله (ﷺ)(١).

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المسلمون، ورأى من كان مع رسول الله من جُفَاة أهل مكة الهزيمة: تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الطعن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته. وصرخ جبلة بن الجنيد ـ وقال ابن هشام: صوابه: كَلَدة ـ ألاَ بطل السحر اليوم. فقال له صفوان، أخوه لأمه ـ وكان بعد مشركاً ـ: اسكت، فَض الله فاك، فوالله لأن يَرُبَّني رجل من قريش أحب إلي من أن يَرُبَّني رجل من هوازن.

وذكر ابن سعد: عن شيبة بن عثمان الحجبي قال: لما كان عام الفتح دخل رسول الله (ﷺ) مكة عنوة، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى إن اختلطوا أنْ أصيب من محمد غِرَّة، فأثأر منه، فأكونَ أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يَبْقَ من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما أتبعته أبداً، وكنت مُرْصداً لما خرجت له، لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة، فلما اختلط الناس اقْتَحَمَ رسول الله عن بغلته، فأصلتُّ السيفَ، فدنوت أريد ما أريد منه، ورفعت سيفي حتى كدت أشعره إياه، فرفع لي شُواظٌ من نار كالبرق، كاد يَمْحَشُني، فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه، فالتفت إلي رسول الله (ﷺ) فناداني: «**يا شيب، ادْن مني**»، فدنوت منه فمسح صدري، ثم قال: «**اللهم أعِذْهُ من الشيطان**» قال: **فوالله لهو كان ساعتئذٍ أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي**، وأذهب الله ما كان في نفسي، ثم قال: «**ادن فقاتل الكفار**» فتقدمت أمامه أضرب

(١) ورواه الإمام أحمد من حديث ابن إسحاق.

بسيفي. الله أعلم أني أحب أن أقِيه بنفسي كل شيء، ولو لقيت تلك الساعة أبي ـ لو كان حيًّا ـ لأوقعت به السيف، فجعلت ألـزمـه فيمن لزمـه، حتى تراجع المسلمون، فكروا كَرَة رجل واحد، وقُرِّبَتْ بغلة رسول الله، فاستوى عليها وخرج في أثرهم حتى تفرقوا في كل وجه، ورجع إلى معسكره فدخل خِباءَه، فدخلت عليه ـ ما دخل عليه أحد غيري ـ حُبًّا لرؤية وجهه، وسروراً به. فقال: «**يا شيب، الذي أراد الله بك خير مما أردت لنفسك**» ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي ما لم أكن أذكره لأحد قط. قال: فقلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، ثم قلت: استغفر لي. فقال: «**غفر الله لك**».

وقال ابن إسحاق: وحدثني الزهري، عن كثير بن العباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال: «إني لمع رسول الله (ﷺ) آخِذٌ بحَكمة بغلته البيضاء، قد شَجَرْتها بها، وكنت امْرَءاً جَسِيماً شديدَ الصوت، قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول ـ حين رأي ما رأى من الناس ـ: «**إلى أين أيها الناس؟**» قال: فلم أرَ الناس يلْوُون على شيء، فقال: «**يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السُّمرة**» فأجابوا: لبَّيْك، لبَّيْك. قال: فيذهب الرجل ليثني سيره، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ دِرعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وقوسه وترسه، ويقتحم عن بعيره ويُخلِّي سبيلَه، ويَؤُمَّ الصوت، حتى ينتهي إلى رسول الله (ﷺ) حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس، فاقتتلوا. فكانت الدعوةُ أول ما كانت: للأنصار، ثم خلصت آخراً لَلْخَزْرَج. وكانوا صُبُراً عند الحرب. فأشرف رسول الله (ﷺ) في ركائبِه، فنظر إلى مُجْتلَد القوم، وهم يجتلدون فقال: «**الآن حمى الوطيس**» ـ وزاد غيره:

«**أنا النبي لا كـذب		أنا ابن عبد المطلب**»

وفي صحيح مسلم: «ثم أخذ رسول الله (ﷺ) حَصَيات، فرمى بها في وجوه الكفار، ثم قال: «**انهزموا، ورب محمد**» فما هو إلا أن رماهم، فما زلت أرى حَدَّهم كليلاً، وأمرهمَ مدبراً. وفي لفظ: أنه نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل بها وجوههم، وقال: «**شاهت الوجوه**»، فما خلق الله منهم إنساناً إلا مُلِيء عينه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين.

وذكر ابن إسحاق عن جبير بن مطعم قال: «لقد رأيت قبل هزيمة القوم ـ والناس يقتتلون يوم حنين ـ مثل النجاد الأسود أقْبَل من السماء، حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فلم أشكَّ أنها الملائكة».

قال ابن إسحاق: «ولما انهزم المشركون أتوا الطائف، ومعهم مالك بن عوف وعسكَر بعضهم بأوطاس، وتوجه بعضهم نحو نخلة، وبعث رسول الله في آثار من توجه قِبَل أوطاس أبا عامر الأشعري. فأدرك من الناس بعض من انهزم، فناوَشُوه القتال، فرُمِي بسهم فقُتِل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ـ وهو ابن عمه ـ فقاتل، ففتح الله عليه، فهزمهم الله، وقتل قاتلَ أبي عامر، فقال رسول الله: «**اللهم اغفر لأبي عامر وأهله، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك**» واستغفر لأبي موسى.

ومضى مالك بن عوف النصري حتى تحصن بحصن ثقيف. وأمر رسول الله بالسَّبي والغنائم أن تجمع، فجمع ذلك كله، ووجَّهوا إلى الجعِرَّانة، وكان السبي: ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة. فاسْتَأنَى بهم رسول الله أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة، ثم بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية، ومائة من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فقال: **أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل**. فقال: ابني معاوية؟ قال: **أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل**، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه، وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين ـ وذكر أصحاب المائة وأصحاب الخمسين ـ وأعطى العباس بن مرداس أربعين، فقال في ذلك شعراً، فكمل له المائة، ثم أمر زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس، ثم فرضها على الناس، فكانت سهامهم: لكل رجل أربعاً من الإبل، وأربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد،

عن أبي سعيد الخدري قال: «لما أعطى رسول الله (ﷺ) ما أعطى من تلك العطايا الكبار في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت، في هذا الفَيء الذي أصبت قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا من قومي، قال: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة**» قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم وجِدَة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي، وعَالَة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بي بين قلوبكم؟**» قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل. ثم قال: «**ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المَنُّ والفضل، قال: «**أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولَصدِّقتكم: أتيتنا مكُذَّبا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فواسيناك، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة من الدنيا[1] تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكَلْتُكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده، لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امْرَأً من الأنصار. ولو سلك الناس شِعْباً وَوَادِياً، وسلكت الأنصار شِعباً وواديًا لسلكت شِعْبَ الأنصار وواديها، الأنصار شِعَار والناس دِثار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**». قال: فبكى القوم، حتى أَخْضَلُوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله (ﷺ) قَسْماً وحَظًّا. ثم انصرف رسول الله (ﷺ) وتفرقوا.

---

(١) اللعاعة بضم اللام ـ الشيء القليل.

وقدمت الشيماء بنت الحارث بن عبد العزي ـ أخت رسول الله من الرضاعة ـ فقالت: يا رسول الله! إني أختك من الرضاعة. قال: «**وما علامة ذلك؟**» قالت: عَضَّة عَضَضْتَنيها في ظهري، وأنا مُتَوَرِّ كَتُك، قال: فعرف رسول الله العلامة، فبسط لها رداءه وأجلسها عليها، وخيَّرها، فقال: «**إن أحببت الإقامة فعندي مُحببة مكرمة، وإن أحببتِ أن أمَتّعك فترجعين إلى قومك**» قالت: بل تُمَتّعْني وتردني إلى قومي، ففعل، فزعمت بنو سعد: أنه أعطاها غلاماً ـ يقال له مكحول ـ وجارية، فزوجت إحداهما من الآخر، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية. وقال أبو عمر: فأسلمت فأعطاها رسول الله ثلاثة أعبد وجارية ونَعَماً وشاءً، وسماها: حذافة، قال: والشيماء لقب.

فصل

وقدم وفد هوازن على رسول الله (ﷺ) وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير بن صُرَد، وفيهم أبو بُرْقان عمّ رسول الله (ﷺ) من الرضاعة، فسألوه أن يَمُنَّ عليهم بالسبي والأموال. فقال: «**إن معي من ترون، وإن أحبَّ الحديث إلى أصدقُه، فأبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم، أم أموالكم؟**» قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، فقال: إذا صليتُ الغداة، فقوموا، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله أن يَرُدَّ علينا سَبْيَنا، فلما صلى الغداة قاموا، فقالوا ذلك. فقال رسول الله (ﷺ): «**أمّا ماكان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس**». فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله (ﷺ) فقال الأقرع بن حابس: أمّا أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أمّا أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس: أمّا أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله. فقال العباس بن مرداس: وَهَّنْتُمُوني، فقال رسول الله (ﷺ): «**إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد كنت أسْتَأْنَيْتُ سبيَهم، وقد خيرتهم فلم يعدِلوا بالأبناء والنساء شيئاً، فمن كان عنده منهنَّ شيء، فطابت نفسه بأن يرده، فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقّه فليرد عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا**»، فقال الناس: قد طيَّبنا لرسول الله (ﷺ) فقال: «**إنا لا نعرف**

من رضي منكم ممن لم يرض، فارجعوا حتى يرفع إلينا عُرَفاؤكم أمركم، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم»، ولم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن، فإنه أبى أن يرد عجوزاً صارت في يديه منهم، ثم ردها بعد ذلك، وكسا رسول الله السَّبْيَ قِبْطية قبطية.

فصل

في الإشارة إلى بعض ماتضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنُّكت الحكمية.

كان الله عز وجل قد وعد رسوله ـ وهو الصادق الوعد ـ أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجاً، ودَانَتْ له العرب بأَسْرِها. فلما تم له الفتح المبين، اقتضت حكمته تعالى، أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألَّبوا لحرب رسول الله (ﷺ) والمسلمين، ليظهرَ أمرُ الله وتمام إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح، وليظهر الله سبحانه رسوله وعباده، وقهره لهذه الشوكة العظيمة، التي لم يَلْقَ المسلمون مثلها، فلا يقاومهم بعدُ أحد من العرب، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين، وتَبدُو للمتوسِّمين[1].

[2]**حدثنا** وكيع، عن عُبيدالله بن أبي زياد، عن ابن أبي نجيح، عن عبدالله بن عمرو قال: من أكل أجور بيوت مكة فإنما يأكل في بطنه نار جهنم.

حدثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عبدالله بن مسلم بن هُرمُز عن عطاء أنه كره الكراء بمكة.

حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ابن جريج قال: قرأت كتاب عمر بن عبدالعزيز إلى الناس: ينهي عن كراء بيوت مكة.

حدثنا إسحاق الأزرق، عن عبدالله بن أبي سليمان قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمير مكة: ألا يدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجراً، فإنه لا يحل لهم.

حدثنا يحيى بن سعيد، عن عُبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر؛ أنه نهى أن تغلق دور مكة دون الحاج، وأنهم يضطربون فيها وجدوا منها فارغًا.

---

(١) ساقها المؤلف قرابة نصف كراسة لمن أرادها. (٢) ١٢٨ أحكام جـ١.

حدثنا [أبو] إسماعيل [يعني المؤدب]، عن عبدالله بن مسلم بن هرمز، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الحرم كله مسجد.

حدثنا إسماعيل بن حفص، عن إسرائيل، عن ثُوَيْر، عن مجاهد، عن ابن عمر: الحرم كله مسجد.

قلت: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**إنما المُشْرِكُونَ نَجَسٌ، فَلَا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هذا**﴾ [التوبة: ٢٨] وهذا لمكة كلها. قال أبو عبيد: فإذا كانت مكة هذه سنتها أنها مناخ من سبق [إليها]، وأنها لا تباع رباعها، ولا يطيب كراء بيوتها، وأنها مسجد لجماعة المسلمين؛ فكيف تكون هذه غنيمة فتقسم بين قوم يحوزونها دون الناس، أو تكون فيئاً فتصير أرض خراج.

[**وهي** أرض من أرض العرب الأميين الذين كان الحكم عليهم: الإسلام أو القتل، فإذا أسلموا كانت أرضهم أرض العشر] ولا تكون خراجاً أبداً؟ ثم جاء الخبر عن النبي (ﷺ) مفسراً حين قال: «**لا تحل غنائمها**». قال: «ليس تشبه مكة شيئاً من البلاد لما خُصت به، فلا حجة لمن زعم أن الحكم على غيرها كالحكم عليها؛ وليست تخلو بلاد العنوة ـ سوى مكة ـ من أن تكون غنيمة، كما فعل رسول الله (ﷺ): [بخيبر] أو تكون فيئاً كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض السواد وغيره من أرض الشام ومصر». انتهى.

فغَلِطَ في مكة طائفتان: طائفة ألحقت غيرها بها فجوزت ألا تقسم ولا يضرب عليها خراج، ولا تكون فيئاً؛ وطائفة شبهت مكة بغيرها فجوزت قسمتها، وضرب الخراج عليها؛ وهي أقبح الطائفتين وأسوؤهم مقالة؛ وبالله التوفيق.

فصل فيما في الشرك والزنى واللواطة من الخبث (١)

وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنى واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه، دون سائر الذنوب وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله تعالى في حق اللوطية: ﴿**وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ**

(١) ٥٩ إغاثة جـ١.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤] وقالت اللوطية: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطاً وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له.

وقال تعالى في حق الزناة: ﴿الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ والخبيثُون لِلْخَبِيثَاتِ﴾. [النور: ٢٦].

فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة.

فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل، فإن الله لا يغفر أن يشرك به، والمخففة: الشرك الأصغر؛ كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، والحلف به[1] وخوفه ورجائه. ونجاسة الشرك عينية. ولهذا جعل سبحانه الشرك نَجَساً - بفتح الجيم - ولم يقل: إنما المشركون نجس - بالكسر - فإن النَجَس عين النجاسة، والنجِس - بالكسر - هو المتنجس. فالثوب إذا أصابه بول أو خمر نجِس. والبول والخمر نَجَس. فأنجس النجاسة الشرك، كما أنه أظلم الظلم. فإن النجَس في اللغة والشرع هو المستقذر الذي يطلب مباعدته والبعد منه، بحيث لا يلمس ولا يشم ولا يرى، فضلاً أن يخالط ويلابس لقذارته، ونُفْرة الطباع السليمة عنه. وكلما كان الحي أكمل حياة وأصح حياء كان إبعاده لذلك أعظم، ونفرته منه أقوى.

فالأعيان النجسة إما أن تؤذي البدن أو القلب، أو تؤذيهما معاً. والنجَس قد يؤذي برائحته، وقد يؤذي بملابسته، وإن لم تكن له رائحة كريهة.

والمقصود: أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة، وتارة تكون معنوية باطنة، فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة، حتى إن صاحب القلب الحي ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها، كما يتأذى من شم رائحة النتن، ويظهر ذلك كثيراً في عَرَقه، حتى ليوجد لرائحة عرقه نتناً. فإن نَتْن الروح والقلب يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره. والعرق يفيض من الباطن.

ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق. وكان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أطيب الناس عرقاً.

---

(١) هذا إذا لم يكن على سبيل التعظيم والخوف منه، كما يحلف أكثر العامة بالأولياء والأنبياء إذ أرادوا عدم الحنث ويحلفون بالله كذباً من غير خوف منه ولا رهبة.

قالت أم سُلَيم، وقد سألها رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه، وهي تلتقطه: «هو من أطيب الطيب»(١).

فالنفس النجسة الخبيثة يقوى خبثها ونجاستها حتى يبدو على الجسد. والنفس الطيبة بضدها، فإذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كأطيب نَفْحَة مسك وُجدت على وجه الأرض، ولتلك كأنتن ريح جِيفة وجدت على وجه الأرض(٢).

والمقصود: أن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله تعالى وأكرهها له، وأشدها مَقْتاً لديه. ورتَّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نَجَس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بَينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يتخذوهم عبيدًا، وهذا لأن الشرك هَضْم لحق الربوبية، وتنقيص لعظمة الألهية، وسوء ظن برب العالمين. . . .

فصل(٣)

في الأمكنة التي يمنع أهل الذمة من دخولها والإقامة بها.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أيها الذينَ آمَنُو إنّما المُشرِكُونَ نَجَسٌ، فَلَا يَقْرَبُوا المَسْجِد الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هذا، وإنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنيكُمُ الله مِنْ فَضلِه إنْ شَاءَ، إنَّ الله عليم حَكيمٌ**﴾ [التوبة: ٢٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد خرج علينا النبي (ﷺ) فقال: «**انطلقوا إلى يهود**» فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس، فقام النبي (ﷺ) فناداهم فقال: «**يا معشر اليهود، أسلموا تسلموا**» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم. فقال: «**ذلك أريد**». فقال: «**أسلموا تسلموا**». فقالوا: قد بلغت

---

(١) رواه مسلم عن ثابت عن أنس بن مالك. وروى البخاري عن أنس «أن أم سليم كانت تبسط للنبي، صلى الله عليه وسلم، نطعاً. فيقيل عندها على ذلك النطع. فإذا قام أخذت من عرقه وشعره فجمعته في قارورة ثم جعلته في سكة قال. فلما حضرت أنس بن مالك الوفاة أوصى أن يجعل في حنوطه» انظر المنتقي (١: ٣١ رقم ٧٢).

(٢) كما جاء ذلك في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في قبض روح المؤمن والكافر. رواه الإمام أحمد بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح.

(٣) ١٧٥ أحكام جـ١.

يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله (ﷺ): «**ذلك أريد**» ثم قالها الثالثة فقال: «**اعلموا أنما الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله**». متفق عليه، ولفظه للبخاري؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يوم الخميس، وما يوم الخميس! قال: اشتد برسول الله (ﷺ) وجعه، فقال: «**ائتوني بكتف أكتب لكم كتابًا لا تضلون بعده أبدًا**»؛ فتنازعوا ـ ولا ينبغي عند نبي تنازع ـ فقالوا: ماله؟ أهجر؟ استَفْهِموه. فقال: «**ذروني، الذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه**». فأمرهم بثلاث فقال: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم**»، والثالثة إما سكت عنها، وإما قالها فنسيتها. متفق عليه، ولفظه للبخاري....

فصل[1]

وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى فعنده: لهم دخول الحرم كله حتى الكعبة نفسها، ولكن لا يستوطنون به. وأما الحجاز فلهم الدخول إليه والتصرف فيه والإقامة بقدر قضاء حوائجهم، وكأنّ أبا حنيفة رحمه الله تعالى قاس دخولهم مكة على دخولهم مسجد رسول الله (ﷺ) ولا يصح هذا القياس، فإن لحرم مكة أحكاماً يخالف بها المدينة، على أنها ليست عنده حَرماً[2].

فإن قيل: الله سبحانه إنما منع المشركين من قربان المسجد الحرام، [و] لم يمنع أهل الكتاب منه: ولهذا أذن مؤذن النبي (ﷺ) يوم الحج الأكبر: «**أنه لا يحج بعد العام مشرك**» والمشركون الذين كانوا يحجون هم عبدة الأوثان لا أهل الكتاب، فلم يتناولهم المنع.

قيل: للناس قولان في دخول أهل الكتاب في لفظ المشركين، فابن عمر وغيره كانوا يقولون: هم من المشركين. قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: لا أعلم شركاً أعظم من أن يقول: المسيح ابن الله وعُزَيْرٌ ابن الله! وقد قال تعالى فيهم: ﴿**اتخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا**

(١) ١٨٨ أحكام جـ١.

(٢) لأن المدينة ـ عند أبي حنيفة ـ كغيرها. قال الماوردي في «الأحكام السلطانية ١٦٢»: «وأباحه ـ أي أباح حرم المدينة ـ أبو حنيفة، وجعل المدينة كغيرها. وفيما قدمناه من حديث أبي هريرة دليل على أن حرم المدينة محظور، فإن قتل صيده، أو عضد شجره، فقد قيل: إن جزاءه سلب ثيابه، وقيل: تعزيره»:

أُمِرُوا إلا لِيعبُدُوا إلهاً وَاحِداً، لاَ إِلَهَ إلا هُوَ، سُبْحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] والثاني: لا يدخلون في لفظ «المشركين»، لأن الله سبحانه جعلهم غيرهم في قوله: ﴿إنْ الذينَ آمَنوا وَالذِينَ هَادُوا وَالصابِئينَ وَالنَّصارىٰ وَالْمَجُوسَ وَالذينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: ١٧]. قال شيخنا: «والتحقيق أن أصل دينهم دينُ التوحيد، فليسوا من المشركين في الأصل، والشرك طارىء عليهم، فهم منهم باعتبار ما عرض لهم، لا باعتبار أصل الدين، فلو قدّر أنهم لم يدخلوا في لفظ الآية دخلوا في عمومها المعنوي، وهو كونهم نَجَساً، والحكم يعم بعموم علّته».

فإن قيل: فالآية نبهت على دخولهم الحَرَمَ عوضاً عن دخول عبّاد الأوثان فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِنْ خِفتُمْ عَيلَةً فَسَوْفَ يُغنيكُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٢٨] فإنها لما نزلت انقطع عنهم ماكان المشركون يجلبون إليهم من الميرة، فأعاضهم الله بالجزية.

قيل: ليس في هذا ما يدل على دخول أهل الجزية المسجد الحرام بوجه ما، بل تؤخذ منهم الجزية وتحمل إلى من بالمسجد الحرام وغيره. على أن الإغناء من فضل الله وقع بالفتوح والفيء والتجارات التي حملها المسلمون إلى مكة.

فإن قيل: فالآية إنما منعت قربانهم المسجد الحرام خاصة، فمن أين لكم تعميم الحكم للحرم كله؟

قيل: المسجد الحرام يراد به في كتاب الله تعالى ثلاثة أشياء: نفس البيت، والمسجد الذي حوله، والحرم كله.

فالأول كقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحَرامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]

والثاني كقوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ كَفَرُوا وَيَصدُّونَ عَنْ سَبيلِ الله وَالْمَسْجِدِ الحَرامِ الَّذي جَعَلْنَاهُ لِلناس سَوَاء الْعَاكِفُ فيهِ وَالْبادِ﴾ [الحج: ٢٥].

على أنه قد قيل: إن المراد به ها هنا الحرمُ كلّه، والناس سواء فيه. والثالث كقوله: ﴿سُبْحانَ الّذي أَسْرى بِعبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ وإنما أسرى به من داره من بيت أم هانىء.

وجميع الصحابة والأئمة فهموا من قوله تعالى: ﴿فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا﴾ [التوبة: ٢٨] [أن المراد] مكة كلها والحرم، لم يخص ذلك أحد منهم بنفس المسجد الذي يطاف فيه.

ولما نزلت هذه الآية كانت اليهود بخيبر وما حولها، ولم يكونوا يمنعون من المدينة، كما في الصحيح أن رسول الله (ﷺ) مات ودرعه مرهونة عند يهودي على طعام أخذه لأهله، فلم يُجلهم رسول الله (ﷺ) عند نزولها من الحجاز، وأمر مؤذنه أن يؤذن بأن «**لا يحج بعد العام مشرك**».

فإن قيل: فما تقولون في دخولهم مساجد الحِل؟

قيل: إن دخلوها بغير إذنٍ مُنعوا من ذلك ولم يمكنوا منه، لأنهم نَجَسٌ، والجُنُبُ والحائض أحسن حالاً منهم، وقد مُنِعا من دخول المساجد[1]. وإن دخلوها بإذن مسلم، ففيه قولان للفقهاء هما روايتان عن أحمد.

وَوَجْهُ الجواز أن رسول الله (ﷺ) أنزل الوفود من الكفار في مسجده، فأنزل فيه وفد نجران ووفد ثقيف وغيرهم.

وقال سعيد بن المسيب: كان أبو سفيان يدخل مسجد المدينة وهو على شركه، وقدم عُمَير بنُ وهبٍ ـ وهو مشرك ـ فدخل المسجد، والنبي (ﷺ) فيه، ليفتك به، فرزقه الله تعالى الإسلام.

وَوَجْهُ المنع أنهم أسوأ حالاً من الحائض والجُنُب، فإنهم نجسٌ بنص القرآن، والحائض والجُنُب ليسا بنجسٍ بنص السنة.

ولما دخل أبو موسى على عمر بن الخطاب وهو في المسجد أعطاه كتاباً فيه حساب عمله، فقال له عمر: ادع الذي كتبه ليقرأه. فقال: إنه لا يدخل المسجد. قال: ولِمَ؟ قال: إنه نصراني. وهذا يدل على شهرة ذلك بين الصحابة ، ولأنه قد انضم إلى حَدَث جنابته حَدَثُ شركه، فتغلّظ المنع.

وأما دخول الكفار مسجد النبي (ﷺ) فكان ذلك لما كان بالمسلمين حاجة إلى ذلك، ولأنهم كانوا يخاطبون النبي في عهودهم، ويؤدون إليه الرسائل، ويحملون منه الأجوبة، ويسمعون منه الدعوة، ولم يكن النبي (ﷺ) ليخرج من المسجد لكل من قَصَدَهُ من الكفار، فكانت المصلحة في دخولهم إذ ذاك أعظم من المفسدة التي فيه، بخلاف الجُنب والحائض، فإنه كان يمكنهما التطهّر والدخولُ

(١) قال ابن قدامة في المغني (ش١٠/٦١٨): «ولأن حدث الجنابة والحيض والنفاس يمنع المقام في المسجد، فحدث الشرك أولى».

إلى المسجد. وأما الآن فلا مصلحة للمسلمين في دخولهم مساجدهم والجلوس فيها، فإن دعت إلى ذلك مصلحة راجحة جاز دخولها بلاإذن. والله أعلم.

(١)**وأجاب**: [أما] سبب وضع الجزية فهو قوله تعالى: ﴿**قاتِلُوا الذينَ لا يُؤمِنُونَ باللهِ وَلا باليَوْمِ الآخِرِ، ولا يُحرِّمُونَ ما حرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَلا يَدِينونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الذين أُوتُوا الكِتَابَ حتى يُعطُوا الجزية عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرون**﴾. [التوبة: ٢٩].

فأجمع الفقهاء على أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب ومن المجوس. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد توقف في أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله (ﷺ) أخذها من مجوس هجر: ذكره البخاري.

وذكر الشافعي أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم. فقال له عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**سنّوا بهم سنة أهل الكتاب**» وهذا صريح في أنهم ليسوا من أهل الكتاب. . . .

(٢)**والمقصود** ذكر بعض الحكمة في إبقاء أهل الكتاب بالجزية، وهذه الحكمة منتفية في حق غيرهم، فيجب قتالهم حتى يكون الدين كله لله.

والمسألة مبنية على حرف: وهو أن الجزية هل وضعت عاصمة للدم، أو مظهراً لصغار الكفر وإذلال أهله؛ فهي عقوبة؟ فمن راعى فيها المعنى الأول قال: لا يلزم من عصمها لدم من خف كفره بالنسبة إلى غيره ـ وهم أهل الكتاب ـ أن تكون عاصمة لدم من يغلظ كفره.

ومن راعى فيها المعنى الثاني قال: المقصود إظهار صَغار الكفر وأهله وقهرهم؛ وهذا أمر لا يختص أهل الكتاب بل يعم كل كافر.

قالوا: وقد أشار النص إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿**حَتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة: ٢٩] فالجزية صغار وإذلال. ولهذا كانت بمنزلة ضرب الرق.

قالوا: وإذا جاز إقرارهم بالرق على كفرهم جاز إقرارهم عليه بالجزية بالأولى، لأن عقوبة الجزية أعظم من عقوبة الرق؛ ولهذا يسترق من لا تجب عليه الجزية من النساء والصبيان وغيرهم. . . .

---

(١) ١ أحكام جـ١. (٢) ١٥ أحكام جـ١.

(١) **فإن قيل**: فالنبي (ﷺ) لم يأخذها من أحد من عبَّاد الأوثان مع كثرة قتاله لهم.

قيل: أجل، وذلك لأن آية الجزية إنما نزلت عام «تبوك» في السنة التاسعة من الهجرة بعد أن أسلمت جزيرة العرب، ولم يبق بها أحد من عبّاد الأوثان، فلما نزلت آية الجزية أخذها النبي (ﷺ) ممن بقي على كفره من النصارى والمجوس. ولهذا لم يأخذها من يهود المدينة حين قدم المدينة، ولا من يهود خيبر؛ لأنه صالحهم قبل نزول آية الجزية. وهذه الشبهة هي التي أوقعت عند اليهود أن أهل خيبر لا جزية عليهم، وأنهم مخصوصون بذلك من جملة اليهود، ثم أكدوا أمرها بأن زوروا كتاباً فيه أن رسول الله (ﷺ) أسقط عنهم الكُلَف والسُّخَر والجزية، ووضعوا فيه شهادة سعد بن معاذ، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهما. وهذا الكتاب كذب مختلق بإجماع أهل العلم من عشرة أوجه...

(٢) **أحدها**: أنَّ فيه «شهادة سعد بن معاذ». وسعد قد توفي قبلَ ذلك في غزوة الخندق(٣).

ثانيها: أن فيه «وكَتَبَ معاوية بن أبي سفيان». هكذا، ومعاوية إنما أسلم زمَنَ الفَتْح، وكان من الطُّلَقاء(٤).

ثالثها: أن الجزية لم تكن نَزَلَتْ حينئذ، ولا يعرفها الصحابة ولا العرب. وإنما أُنْـزِلَت بعـد عام تَبُـوك، وحينئذ وضَعَها النبي (ﷺ) على نصارى نَجْران ويَهُودِ اليَمَن، ولم تؤخذ من يهود المدينة، لأنهم وادَعُوه قبل نزولِها، ثم قَتَل مَنْ قَتَل مِنهم، وأَجلَى بَقِيَّتَهم إلى خيبر وإلى الشام، وصالحه أَهلُ خيبر قبلَ فَرْضِ الجِزْيَة. فلما نزلتْ آيَةُ الجِزية استقرَّ الأمر على ماكان عليه، وابتدأ ضَرْبَها على من لم يتقدَّم له معه صلح، فمِن هاهنا وقعَت الشُّبهةُ في أهل خيبر .

(١) ٦ أحكام جـ١.   (٢) ١٠٢ المنار.

(٣) أي بعـدهـا بشهر، وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة: قال الحافظ ابن حجر في ترجمته في «الإصابة»: «ورُمي سعد بسهم يوم الخندق فعاش بعد ذلك شهراً حتى حكم في بني قُريظة، ثم انتقض جرحه فمات، وذلك في سنة خمس».

(٤) أي زمنَ فتحِ مكة سنة ثمان من الهجرة، بعد فتح خيبر، وقد فُتحت خيبر في سنة سبع من الهجرة. والطلقاء هم الذين خلى عنهم الرسول يوم فتح مكة، وأطلقهم فلم يَسْترقهم.

رابعها: أنَّ فيه «وَضَعَ عنهم الكُلَفَ والسُّخَر». ولم يكن في زمانه كُلَفٌ ولا سُخَرٌ ولا مُكُوس.

خامسها: أنه لم يَجعل لهم عهداً لازماً، بل قال: «**نُقِركم ما شئنا**». فكيف يَضَعُ عنهم الجزية التي يصير لأهل الذمة بها عهدٌ لازِمٌ مؤبَّد، ثم لا يُثْبِتُ لهم أماناً لازماً مؤبداً؟

سادسها: أن مِثلَ هذا مِمَّا تتوفر الهِمَمُ والدواعي على نقله، فكيف يكون قد وقع، ولا يكون عِلمُه عند حَمَلَة السُّنَّة: من الصحابة والتابعين وأَئمَّة الحديث، ويَنفردُ بعِلْمه ونَقْلِه اليهود؟

سابعها: أن أهل خيبر لم يتقدم لهم من الإحسان ما يُوجِبُ وَضْع الجزية عنهم. فإنهم حاربوا الله ورسوله، وقاتلوه وقاتلوا أصحابه، وسَلُّوا السيوف في وجوههم، وسَمُّوا النبي (ﷺ) وآوَوْا أَعداءَه المحاربين له المحرِّضين على قتاله. فمن أَين يقع هذا الاعتناءُ بهم؟ وإسقاطُ هذا الفرض الذي جعله الله عقوبةً لمن لم يَدِنْ منهم بدين الإسلام؟

ثامنها: أن النبي (ﷺ) لم يُسقطها عن الأبعدين، مع عدم معاداتِهم له كأهل اليمن، وأهل نجران. فكيف يضعها عن جيرانه الأدْنَيْن[1]، مع شدَّة معاداتهم له، وكفرهم وعِنادهم؟ ومن المعلوم: أنه كلَّما اشتد كُفرُ الطائفة وتغلَّظَتْ عداوتُهم، كانوا أَحقَّ بالعقوبة لا بإسقاط الجزية.

تاسعها: أن النبي (ﷺ) لو أسقط عنهم الجزية ـ كما ذكروا ـ لكانوا من أحسن الكفار حالاً، ولم يَحسُن بعد ذلك أن يَشترط لهم إخراجَهم من أرضِهم وبلادهم متى شاء، فإن أهل الذمة الذين يُقِرُّون بالجزية لا يجوز إخراجُهم من أرضهم وديارهم، ماداموا ملتزمين لأحكام الذمة فكيف إذا رُوعي جانبهم بإسقاط الجزية، وأُعفوا من الصغار الذي يلحقهم بأدائها؟ فأيُّ صغارٍ بعد ذلك أعظَمُ من نَفْيِهم من بلادهم، وتشتيتهم في أرض الغُرْبَة؟. فكيف يجتمع هذا وهذا؟.

عاشرها: أن هذا لو كان حقًّا لَمَا اجتَمَعَ أصحابُ رسول الله (ﷺ) والتابعون والفقهاءُ كلهم على خلافه، وليس في الصحابة رجلٌ واحدٌ قال: لا تجِبُ

(١) في آخر «الموضوعات الكبرى» للقاري: (عن الخيبريين الأدْنَيْن).

الجـزيةُ على الخيبريَّة(١)، لا في التَّـابعين، ولا في الفقهاء؛ بل قالوا: أَهلُ خَيْبَرَ وغيرهم في الجِزْيَةِ سواءٌ، وعَرَّضوا بهذا الكتاب المكذوب. وقد صرَّحوا بأنه كَذِب، كما ذَكَرَ ذلك الشيخُ أبوحامد، والقاضي أبو الطيِّب، والقاضي أبو يَعلَى وغيرهُم.

وذكَرَ الخطيبُ البغدادي هذا الكتاب، وبيَّنَ أنه كذِبٌ من عِدَّة وجوه(٢). وأُحْضِرَ هذا الكتاب بين يَديْ شيخ الإسلام(٣)، وحَوْلَه اليهود يَزُفُّونه ويُجِلُّونه، وقد غُشِّيَ بالحَرير والدِّيباج، فلما فَتَحَهُ وتأمَّلَه بَزَقَ عليه، وقال: هذا كذِبٌ من عِدَّة أَوجه، وذكَرَها. فقاموا من عنده بالذُّلِّ والصَّغار.

فصــل ومن تلاعب الشيطان بهم أيضاً(٤)

أنهم لما حُرِّمت عليهم الشحوم أذابوها، ثم باعوها، وأكلوا ثمنها، وهذا من عدم فِقْههِمْ وفهمهم عن الله تعـالى دينه. فإنَّ ثمنَها بدلٌ منها فتحريمها تحريمٌ لبدلها والمعاوضة عنها، كما أن تحريمَ الخمر والميْتَةِ والدم ولحم الخنزير يتناولُ تحريم أعيانها وأبدالها .

ومن تلاعبـه بهم أيضاً، اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، وقد لعنهم رسول الله (ﷺ) على ذلك، ولعنته تتناولُ فِعلهم .

---

(١) أي أهل خيبر وهم اليهود.

(٢) وقـد ذكَـرَ ذلـك غيرُواحـد ممن ترجموا للخطيب البغدادي، مثل ياقوت الحموي في «معجم الأدباء» ٤: ١٨، وتاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية» ٣: ١٤، والحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ١٢: ١٠١ ـ ١٠٢، والسخاوي في «الإعلان بالتوبيخ» ص١٠، وقال: كان ذلك من اليهود في سنة ٤٤٧ . وبعد أنِ ذكَرَ الحافظ ابن كثير جوابَ الخطيب البغدادي وكشْفَه كذبَ ذلك الكتاب قال: «وقد سُبِقَ الخطيب إلى هذا النقد، سَبَقه محمد بن جرير، كَما ذكرتُ ذلك في مصنَّف مفرد».
واستُفيدَ من هذا ومما يذكـره المؤلف ابن القيم من مجيء اليهود بالكتاب في زمن الشيخ ابن تيمية، وتكذيب الشيخ للكتاب: أنه قد تكرّر من اليهود محاولَةُ خَدْع المسلمين بهذا الكتاب المزوّر على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في أزمان متعددة، في زمن ابن جرير، وقد ولد سنة ٢٢٤ وتوفي سنة ٣١٠، وفي زمن الخطيب البغدادي، وقد ولد سنة ٣٩٢ وتوفي سنة ٤٦٣، وفي زمن ابن تيمية، وقدولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨ رحمهم الله تعالى.
وصَدَق عبدُالله بن سلام رضي الله عنه إذ قال لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو يَكشف له طبيعة اليهود: إنّ اليهود قومٌ بُهْت. كما رواه البخاري في «صحيحه» ٦: ٢١٦ و٧: ٢١٣ و٨: ١٣٥ . والبُهْت جمع بَهُوت، وهو صيغة مبالغة من البُهْت؛ وهو الباطل الذي يُتَحيَّرُ من بطلانه.

(٣) يعني الشيخَ ابن تيمية رحمه الله تعالى. (٤) ٣١٨ إغاثة جـ٢.

ومن تلاعبه بهم أيضاً: أنهم كانوا يَقْتُلون الأنبياء الذين لا تُنالُ الهداية إلا على أيديهم ، ويتخذون أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله تعالى، يحرمون عليهم ويحلون لهم فيأخــذون بتحـريمهم وتحليلهم. ولا يلتفتـون: هل ذلـك التحريم، والتحليل من عند الله تعالى أم لا؟ .

قال عَدِيُّ بن حاتم: أتيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فسألته عن قوله: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله**﴾ [التوبة: ٣١]

فقلت: يا رسول الله، ما عبدوهم. فقال: «**حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فأطاعوهم. فكانت تلك عبادتهم إيَّاهم**» رواه الترمذي وغيره.

وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان؛ أن يَقتل أو يُقاتل مَنْ هُداه على يديه، ويَتَّخذ مَنْ لم تضمن له عصمته ندًّا لله يحرم عليه، ويُحَلِّلُ له.

ومن تلاعبه بهم: ما كان منهم في شأن زكريا ويحْيى عليهما السلام، وقتْلِهم لهما، حتى سلط الله عليهم بُخْتُنَصَّر وسَنْجاريب وجنودهما. فنالوا منهم ما نالوه .

[(١)] **قال** أبـو عمـر في الجـامـع: باب فساد التقليد ونفيه، والفرق بينه وبين الاتباع، قال أبو عمر: قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه فقـال: ﴿**اتخذوا أَحْبَارَهُم ورُهْبانهم أرباباً من دون الله**﴾ [التوبة: ٣١] روي عن حذيفـة وغيره قال: لم يعبدوهم من دون الله، ولكنهم أحَلُّوا لهم وحرموا عليهم فاتبعـوهم. وقـال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله (ﷺ) وفي عنقي صَلِيب، فقال: يا عدي ألْقِ هذا الوثَنَ من عنقك، وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية ﴿**اتخذوا أَحْبَارَهُم ورُهْبانهم أرباباً من دون الله**﴾ [التوبة: ٣١] قال: فقلت: يا رسول الله إنا لم نتخذهم أرباباً، قال: «**بلى، أليس يُحِلُّون لكم ما حرم عليكم؛ فتحلونه، ويحرمون عليكم ما أحل لكم، فتحرمونه؟**» فقلت: بلى، قال: «**فتلك عبادتهم**».

قلت: الحديث في المُسْنَد والترمذي مطولاً.

وقال أبو البختري في قوله عز وجل: ﴿**اتخذوا أَحْبَارَهُم ورُهْبانهم أرباباً من دون الله**﴾ قال: أما إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم،

(١) ١٧١ أعلام جـ٢.

ولكنهم أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية.

وقال وكيع: ثنا سفيان والأعمش جميعاً، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي ثابت، عن أبي البختري قال: قيل لحذيفة في قوله تعالى: ﴿**اتخذوا أحْبَارَهُم ورُهْبانهم أرباباً من دون الله**﴾: أكانوا يعبدونهم؟ فقال: لا، ولكن كانوا يُحلّون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه.

وقال تعالى: ﴿**وَكَذلِكَ مَا أرسَلنا مِن قَبلكَ في قَريَةٍ من نَّذِيرٍ إلَّا قَالَ مُترفُوهَا إنّا وَجَدنا آباءنَا علىٰ أمّةٍ، وإنّا عَلى آثارهِم مقْتَدونَ قَالَ أو لو جِئتُكُم بأهْدَى مِمَّا وَجَدتُّم عَلَيهِ آباءكُم**﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

فمنعهم الاقتداءُ بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا: ﴿**إنا بِمَا أرسِلتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٤].

وفي هؤلاء ومثلهم قال الله عز وجل: ﴿**إذ تَبَرَّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذابَ، وتَقطَّعَتْ بِهِمُ الأسبابُ، وَقَالَ الَّذِينَ اتبعوا: لو أنَّ لنا كَرَّةً فَنتبرأ مِنهُم كَمَا تَبرءوا مِنَّا، كَذلِكَ يُريهِمُ الله أعمَالَهُم حَسَراتٍ عَليهِم**﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

وقال تعالى معاتباً لأهل الكفر وذامًّا لهم: ﴿**مَا هذهِ التماثِيلُ الَّتي أنتم لَهَا عَاكِفُونَ قَالَوا وَجَدنا آباءنا لَهَا عَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء: ٥٢، ٥٣].

وقال: ﴿**وقَالُوا رَبَّنا إنَّا أَطَعنَا سَادَتنَا وَكُبَراءنَا فأضَلُّونَا السبيلاَ**﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء، وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد ولم يمنعهم كُفرُ أولئك من الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجلاً فكفر وقلد آخر فأذنب وقلد آخر في مسألة فأخطأ وَجْهَها، كان كل واحد مَلوماً على التقليد بغير حجة؛ لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا وإن اختلفت الآثام فيه، وقال الله عز وجل: ﴿**وَمَا كَانَ الله لِيُضِلَّ قَوماً بَعدَ إذ هَداهُم حتَّى يُبينَ لهم مَّا يَتَّقونَ**﴾ [التوبة: ١١٥]....

(١)**ومن** نظر في ذلك وتأمله: علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق

---

(١) ٤٧٠ مدارج جـ٣.

الشهادة. وأعدلها وأظهرها. وصدقه(١) بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده: من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبائح، وعما لا يليق به. وفي كل وقت يُحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد. ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿**هُوَ الَّذِي أرسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفى بالله شَهِيداً**﴾ [الفتح: ٢٨] فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجة، والبيان، والدلالة. وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة، والتأييد. حتى يظهره على مخالفيه. ويكون منصوراً.

(٢)﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفرِ يُضَلُّ به الذينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً ويُحرمونه عاماً**﴾ [التوبة: ٣٧] ومعنى النسيء تأخير رجب إلى شعبان، والمحرم إلى صفر، وأصله مأخوذ من نسأت الشيء إذا أخرته، ومنه النسيئة في البيع. وكان من جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم هذه الأشهر الحرم، فكانوا يتحرجون فيها: عن القتال وعن سفك الدماء، ويأمن بعضهم بعضاً. إلى أن تنصرم هذه الأشهر، ويخرجوا إلى أشهر الحِلِّ، فكان أكثرهم يتمسكون بذلك، ولا يستحلون القتال فيها، وكان قبائل منهم يستبيحونها، فإذا قاتلوا في شهر حرام حَرَّموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحِل، ويقولون: نسأنا الشهر. واستمر ذلك بهم حتى اختلط ذلك عليهم، وخرج حسابه من أيديهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر، ويحجون من قابل في شهر غيره، إلى أن كان العام الذي حج فيه رسول الله (ﷺ) فصادف حجهم شهر الحج المشروع، وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة اليوم التاسع منه، ثم خطبهم فأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى الأصل الذي وضع الله . . . . .

(٣)**وعير** سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين فقال: ﴿**ياأيُّها الَّذِينَ ءامَنُوا مَا لَكُم إذَا قِيلَ لَكُم انفرُوا فِي سَبيلِ الله اثَّاقَلْتُم إلَى الأرضِ أَرضِيتُم بِالحَيوةِ الدُّنيا**

---

(١) الإشارة إلى ما ذكره من الأدلة على صدق الرسول (ﷺ) عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها ا. هـ (ج).
(٢) ٤٠٧ تهذيب السنن جـ٢. (٣) ٩٥ فوائد.

مِن الآخِرةِ فَمَا مَتَاعُ الحيوةِ الدُّنيا فِي الآخرةِ إِلا قَلِيل﴾ [التوبة: ٣٨]. وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها، يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

فصل (١)

لما بايع الرسول (ﷺ) أهل العقبة، أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فعلمت قريش أن أصحابه قد كثروا وأنهم سيمنعونه، فأعملت آراءها في استخراج الحيل؛ فمنهم من رأى الحبس، ومنهم من رأى النفي. ثم اجتمع رأيهم على القتل، فجاء البريد بالخبر من السماء، وأمره أن يفارق المضجع، فبات عليّ مكانه، ونهض الصديق لرفقة السفر، فلما فارقا بيوت مكة اشتد الحذر بالصديق، فجعل يذكر الرصد فيسير أمامه، وتارة يذكر الطلب فيتأخر وراءه، وتارة عن يمينه، وتارة عن شماله، إلى أن انتهيا إلى الغار، فبدأ الصديق بدخوله ليكون وقاية له إن كان ثَمَّ مؤذ، وأنبت الله شجرة لم تكن قبل، فأظلت المطلوب وأضلت الطالب، وجاءت عنكبوت فحازت وجه الغار، فحاكت ثوب نسيجها على منوال الستر(٢)، فأحكمت الشقة حتى عمي على القائف المطلب، وأرسل حمامتين فاتخذتا هناك عشًّا جعل على أبصار الطالبين غشاوة، وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود، فلما وقف القوم على رءوسهم، وصار كلامهم بسمع الرسول والصديق. قال الصديق وقد اشتد به القلق: «يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه». فقال رسول الله (ﷺ): «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**».

لما رأى الرسول حزنه قد اشتد، لكن لا على نفسه قوى قلبه ببشارة: «**لا تحزن إن الله معنا**»، فظهر سر هذا الاقتران في المعية لفظاً، كما ظهر حكماً ومعنى، إذ يقال: رسول الله وصاحب رسول الله، فلما مات (ﷺ) قيل: خليفة رسول الله، ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته، فقيل أمير المؤمنين، فأقاما في الغار ثلاثاً ثم خرجا منه، ولسان القدر يقول: «**لتدخلنها دخولاً لم يدخله أحد قبلك، ولا ينبغي لأحد من بعدك**». فلما استقلا على البيداء، لحقهما سراقة بن مالك، فلما

---

(١) ٧٠ فوائد.

(٢) يأتي في سورة يس إن شاء الله بسط هذا.

شارف الظفر، أرسل عليه الرسول سهماً من سهام الدعاء، فساخت قوائم فرسه في الأرض إلى بطنها، فلما علم أنه لا سبيل له عليهما، أخذ يعرض المال على من قد رد مفاتيح الكنوز، ويقدم الزاد إلى شبعان: «**أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»، كانت تحفة ثاني اثنين مدخرة للصديق دون الجميع، فهو الثاني في الإسلام وفي بذل النفس، وفي الزهد وفي الصحبة، وفي الخلافة وفي العمر، وفي سبب الموت لأن الرسول (ﷺ) مات عن أثر السم، وأبو بكر سم فمات، أسلم على يديه من العشرة: عثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص. وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها، فلهذا جلبت نفقته عليه: «**ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر**»، فهو خير من مؤمن آل فرعون، لأن ذلك كان يكتم إيمانه، والصديق أعلن به؛ وخير من مؤمن آل ياسين؛ لأن ذلك جاهد ساعة، والصديق جاهد سنين.

عاين طائر الفاقة يحوم حول حب الإيثار، ويصيح: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ الله قَرضاً حَسَناً**﴾ [البقرة: ٢٤٥]. فألقى له حب المال على روض الرضا، واستلقى على فراش الفقر، فنقل الطائر الحب إلى حوصلة المضاعفة، ثم علا على أفنان شجرة الصدق، يغرد بفنون المدح. ثم قال في محاريب الإسلام يتلو: ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقَى الَّذِي يُؤتِي مَالَه يَتزَكَّى**﴾ [الليل: ١٧، ١٨].

نطقت بفضله الآيات والأخبار. واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، فيا مبغضيه في قلوبكم من ذكره نار. كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار. أترى لم يسمع الروافض الكفار: ﴿**ثَانِي اثنَينِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ**﴾ [التوبة: ٤٠].

دعي إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجة فما زل ولا كبا، وصبر في مدته من مدى العدى على وقع الشبا، وأكثر في الإنفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا. تالله لقد زاد على السبك في كل دينار دينار. ﴿**ثَانِي اثنَينِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ**﴾.

من كان قرين النبي في شبابه؟ من ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه؟ من الذي أفتى بحضرته سريعاً في جوابه؟ من أول من صلى معه؟ من آخر من صلى به؟ من الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه؟ فاعرفوا حق الجار.

نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ، وأبان من نص الكتاب معنى دق عن

حديد الألحاظ، فالمحب يفرح بفضائله والمبغض يغتاظ.

حسرة الرافضي أن يفر من مجلس ذكره ولكن أين الفرار.

كم وقى الرسول بالمال والنفس؛ وكان أخص به في حياته وهو ضجيعه في الرمس؛ فضائله جلية وهي خلية عن اللبس؛ يا عجبا ممن يغطي عين ضوء الشمس في نصف النهار.

لقد دخلا غاراً لا يسكنه لابث، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث. فقال الرسول: «**ما ظنك باثنين والله الثالث**».

فنزلت السكينة، فارتفع خوف الحادث، فزال القلق، وطاب العيش الماكث، فقام مؤذن النصر ينادي على رءوس منابر الأمصار: ﴿**ثاني اثنين إذ هما في الغار**﴾.

حبه والله رأس الحنيفية، وبغضه يدل على خبث الطوية؛ فهو خير الصحابة والقرابة، والحجة على ذلك قوية. لولا صحة إمامته ما قيل ابن الحنفية.

مهلاً، مهلاً، فإن ذم الروافض قد فار، والله ما أحببناه لهوانا، ولا نعتقد في غيره هوانا. ولكن أخذنا بقول عليٍّ، وكفانا. رضيك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا.

تالله لقد أخذت من الروافض بالثار، تالله لقد وجب حق الصديق علينا، فنحن نقضي بمدائحه، ونقر بما نقرّ به من السني عيناً، فمن كان رافضيًّا فلا يعد إلينا، وليقل: لي أعذار.

(١)**إن** من عرف الله أحبه ولابد(٢)، ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان، وعمر قلبه بالسرور والأفراح، وأقبلت إليه وفود التهاني والبشائر من كل جانب، فإنه لا حزن مع الله أبداً، ولهذا قال حكاية عن نبيه (ﷺ) إنه قال لصاحبه أبي بكر: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾، [التوبة: ٤٠] فدل أنه لا حزن مع الله، وأن من كان الله معه فما له وللحزن! وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله، فمن حصل الله له فعلى أي شيء يحزن؟ ومن فاته الله فبأي شيء يفرح؟

---

(١) ٢٨٠ طريق الهجرتين.

(٢) الضمير يعود إلى الله في قوله أحبه.

[(١)] **فقال** تعالى: ﴿**وَلَو أرادُوا الخُرُوجَ لأعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ولكِن كَرِه الله انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُم وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ**﴾ [التوبة: ٤٦].

والتثبيط ردّ الإنسان عن الشيء الذي يفعله. قال ابن عباس: يريد خذهم وكسلهم عن الخروج. وقال في رواية أخرى: حبسهم. قال مقاتل: وأوحى إلى قلوبهم اقعدوا مع القاعدين.

وقد بين سبحانه حكمته في هذا التثبيط والخذلان قبل وبعد فقال:

﴿**إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ وَارتَابَت قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ وَلَو أرادُوا الخُرُوجَ لأعَدُّوا لَه عُدَّةً ولَكِن كَرِه الله انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُم وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ**﴾ [التوبة: ٤٥، ٤٦].

فلما تركوا الإيمان به وبلقائه وارتابوا بما لا ريب فيه، ولم يريدوا الخروج في طاعة الله ولم يستعدوا له ولا أخذوا أهبة ذلك، كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه. فإن من لم يرفع به وبرسوله أو كتابه رأساً، ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه، ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها بل بدلها كفرًا، فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله سبحانه؛ فثبطه لئلا يقع ما يكره من خروجه وأوحى إلى قلبه قدرًا وكونًا أن يقعد مع القاعدين.

ثم أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء عنهم فقال: ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً**﴾ [التوبة: ٤٧].

والخبال الفساد والاضطراب فلو خرجوا مع المؤمنين؛ لأفسدوا عليهم أمرهم فأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف، قال ابن عباس: ما زادوكم إلا خبالاً عجزاً وجبناً يعني يجبنوهم عن لقاء العدو: بتهويل أمرهم وتعظيمهم في صدورهم. ثم قال: ﴿**ولأوضعوا خلالكم**﴾ [التوبة: ٤٧]أي أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد.

قال ابن عباس: يريد ضعفوا شجاعتكم، يعني بالتفريق بينهم لتفرق الكلمة فيجبنوا عن العدو، وقال الحسن لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات

---

(١) ١٠١ شفاء العليل.

البين. وقال الكلبي: ساروا بينكم يبغونكم العيب قال لبيد

أرانا موضعين لختم عيب وسحر بالطعام وبالشراب

أي: مسرعين ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

تباهن بالعرفان لما عرفنني وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا

أي: أسرع حتى كلت مطيته. ﴿**يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم**﴾ [التوبة: ٤٧]قال قتادة: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم.

وقال ابن إسحاق: وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم، ومعناه على هذا القول.. وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو صحبهم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم. قلت: فتضمن سماعين معنى مستجيبين.

وقال مجاهد وابن زيد والكلبي: المعنى وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم أي: جواسيس.

والقول هو الأول كما قال تعالى: ﴿**سماعون للكذب**﴾ أي قابلون له ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين، فإن المنافقين كانوا مختلطين بالمؤمنين ينزلون معهم ويرحلون ويصلون معهم ويجالسونهم، ولم يكونوا متحيزين عنهم قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم؛ فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفة ولم يخالطها وأرصد بينهم عيوناً له. فالقول قول قتادة وابن إسحاق والله أعلم.

فإن قيل: انبعاثهم إلى طاعته طاعة له فكيف يكرهها، وإذا كان سبحانه يكرهها فهو يحب ضدها لا محالة؛ إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر فيكون قعودهم محبوباً له فكيف يعاقبهم عليه.

قيل: هذا سؤال له شأن وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب، وأجوبة الطوائف على حسب أصولهم.

فالجبرية تجيب عنه بأن أفعاله لا تعلل بالحكم والمصالح، وكل ممكن فهو جائز عليه، ويجوز أن يعذبهم على فعل ما يحبه ويرضاه وترك ما يبغضه ويسخطه والجميع بالنسبة إليه سواء. وهذه الفرقة قد سدت على نفسها باب الحكمة والتعليل.

والقدرية تجيب عنه على أصولها بأنه سبحانه لم يثبطهم حقيقة ولم يمنعهم؛

بل هم منعوا أنفسهم وثبطوها عن الخروج وفعلوا ما لا يريد، ولما كان في خروجهم المفسدة التي ذكرها الله سبحانه ألقى في نفوسهم كراهة الخروج مع رسوله.

قالوا: وجعل سبحانه إلقاء كراهة الانبعاث في قلوبهم كراهة مشيئة من غير أن يكره هو سبحانه انبعاثهم؛ فإنه أمرهم به. قالوا: وكيف يأمرهم بما يكرهه؟ ولا يخفى على من نور الله بصيرته فساد هذين الجوابين وبعدهما من دلالة القرآن.

فالجواب الصحيح: أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره واتباعا لرسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونصرة له وللمؤمنين وأحب ذلك منهم ورضيه لهم ديناً. وعلم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع على هذا الوجه؛ بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين؛ فكان خروجاً يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه. ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه. فكان مكروهاً له من هذا الوجه ومحبوباً له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه، وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه إليه فكرهه، وعاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه.

وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة، حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه ولم يرضه منهم. وهذا الخروج المكروه له ضدان:

أحدهما: الخروج المرضي المحبوب وهذا الضد هو الذي يحبه.

والثاني التخلف عن رسوله والقعود عن الغزو معه. وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضاً. وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد.

فنقول للسائل: قعودهم مبغوض له، ولكن ههنا أمران مكروهان له سبحانه، وأحدهما أكره له من الآخر لأنه أعظم مفسدة، فإن قعودهم مكروه له وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه، ولم يكن لهم بدّ من أحد المكروهين إليه سبحانه؛ فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى؛ فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه، فإن مفسدة قعودهم تختص بهم، ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين فتأمل هذا الموضع.

فإن قلت: فهلا وفقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه، وهو الذي خرج عليه المؤمنون.

قلت: قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مراراً، وأن حكمته سبحانه تأبى أن يضع التوفيق في غير محله وعند غير أهله، فالله أعلم حيث يجعل هداه وتوفيقه وفضله، وليس كل محل يصلح لذلك، ووضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته.

فإن قلت: وعلى ذلك فهلا جعل المحال كلها صالحة.

قلت: يأباه كمال ربوبيته وملكه وظهور آثار أسمائه وصفاته في الخلق والأمر، وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان محبوباً له؛ فإنه يحب أن يذكر ويشكر ويطاع ويوحد ويعبد، ولكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان، وهو محبته لجهاد أعدائه والانتقام منهم وإظهار قدر أوليائه وشرفهم، وتخصيصهم بفضله وبذل نفوسهم له في معاداة من عاداه وظهور عزته وقدرته وسطوته، وشدة أخذه وأليم عقابه وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق ولو تناهوا في العلم والمعرفة إلى الإحاطة بها، ونسبة ما عقلوه منها إلى ما خفي عليهم كنقرة عصفور في بحر.

(١)**فأهل** الانقطاع هم المتخلفون عن صحبة الركب وهذا الوفد هم الذين ﴿كره الله انبعاثهم فثبطهم. وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ [التوبة: ٤٦] فثبط عزائمهم وهممهم أن تسير إليه وإلى جنته، وأمر قلوبهم أمراً كونيًّا قَدَريًّا أن تقعد مع القاعدين المتخلفين عن السعي إلى محابه، فلو عاينتَ قلوبهم حين أمرت بالقعود عن مرافقة الوفد، وقد غمرتها الهموم، وعقدت عليها سحائب البلاء. فأحضرت كل حزن وغم، وأمواج القلق والحسرات تتقاذف بها، وقد غابت عنها المسرات. ونابت عنها الأحزان ـ لعلمت أن الأبرار في هذه الدار في نعيم. وأن المتخلفين عن رفقتهم في جحيم.

وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان. فيذيق الصديق طعم الوعد الذي وعد به على لسان الرسول. فلا يعقله ظن. ولا يقطعه أمل. ولا تعوقه أمنية ـ كما تقدم ـ فيباشر قلبه حقيقة قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعداً حَسَناً فَهو لاَقِيهِ، كَمن مَّتَّعناهُ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا. ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ المُحضَرِينَ﴾

---

(١) ١٦٢ مدارج جـ ٣.

[القصص: ٦١] وقوله تعالى: ﴿وقَدِّمُوا لأنفسِكُم. واتَّقوا الله. وَاعلَمُوا أنّكُم مُلاقُوهُ، وَبشّرِ المُؤمِنِين﴾ [البقرة: ٢٢٣] وأمثال هذه الآيات.

(١) **فإن** قلت: كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه! قلت: لأن إعانته عليه تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه تتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة؛ بحيث يكون وقوعها منه مستلزماً لمفسدة راجحة ومفوتًا لمصلحة راجحة وقد أشار تعالىٰ إلى ذلك في قوله: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعَدُّوا له عُدَّةً، ولكن كره الله انبعاثهم فَثَبَّطَهُمْ، وقيل: اقعدوا مع القاعدين. لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضَعوا خِلالكم، يبغونكم الفتنة وفيكم سَمَّاعُون لهم. والله عليم بالظالمين﴾ [التوبة: ٤٦ ـ ٤٧].

فأخبر سبحانه: أنه كره انبعاثهم مع رسوله، (ﷺ) للغزو. وهو طاعة وقربة، وقد أمرهم به. فلما كرهه منهم ثَبَّطَهُمْ عنه.

ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله (ﷺ) فقال: ﴿لَو خَرَجُوا فِيكُم مَّازادُوكُم إلاَّ خَبالاً﴾ أي فساداً وشرًّا ﴿وَلأوْضَعُوا خِلاَلَكُم﴾ أي سعوا فيما بينكم بالفساد والشر ﴿يبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفيكُم سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي قابلون منهم مستجيبون لهم. فيتولَّد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر، ما هو أعظم من مصلحة خروجهم. فاقتضت الحكمة والرحمة: أن منعهم من الخروج، وأقعدهم عنه.

فاجعل هذا المثال أصلاً لهذا الباب. وقس عليه...

(٢) **قال** تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يقُولُ ائْذَن لي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ في الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] نزلت في الجَدِّ بن قَيْس لما غزا رسولُ الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، تَبُوك قال له: «هل لك يا جَدُّ في بلاد بني الأصفر، تتخذ منهم السراري والوصفاء؟» فقال جَدُّ: ائْذَنْ لي في القعود عنك. فقد عرف قومي أني مُغْرَم بالنساء، وأني أخشى إن رأيت بنات الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأنزل الله تعالى،

---

(١) ٢٠١ مدارج جـ ٢		(٢) ١٥٨ إغاثة جـ ٢.

هذه الآية. قال ابن زيد: يريد لا تفتني بصباحة وجوههن. وقال أبو العالية: لا تُعَرِّضني للفتنة. وقوله تعالى: ﴿أَلاَ في الْفِتْنَةِ﴾ قال قتادة: «ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، والرغبة بنفسه عنه أعظمُ».

فالفتنة التي فَرّ منها ـ بزعمه ـ هي فتنة محبة النساء، وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

ولفظ الفتنة في كتاب الله تعالى يراد بها الامتحان الذي لم يفتتن صاحبه، بل خلص من الافتتان. ويراد بها الامتحان الذي حصل معه افتتان.

فمن الأول: قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ [طـه: ٤٠].

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] وقوله: ﴿أَلاَ في الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

ويطلق على ما يتناول الأمرين، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَنْ يقولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١، ٣] ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي امتحانك وابتلاؤك، تضل بها من وقع فيها، وتهدي من نجا منها[1].

[2]**الوجه** السادس: أن تعلق العبد بما سوى الله تعالى مَضرة عليه، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته، غير مستعين به على طاعته، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك، ولو أحب سوى الله ما أحب، فلابد أن يسلبه ويفارقه، فإن أحبه لغير الله فلابد أن تضره محبته ويعذَّب بمحبوبه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، والغالب أنه يعذب به في الدارين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْها فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

(١) تكملة البحث في الصافات والتغابن / وتقدم في سوره البقرة كما سيأتي في سياق غزوة تبوك آخر السورة إن شاء الله تعالى.

(٢) ٣٥ إغاثة جـ١.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

ولم يصب من قال: إن الآية على التقديم والتأخير، كالجرجاني، حيث قال: ينتظم قوله: «في الحياة الدنيا» بعد فصل آخر ليس بموضعه، على تأويل «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة».

وهذا القول يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهو منقطع، واختاره قتادة وجماعة، وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك، فروا إلى التقديم والتأخير.

وأما الذين رأوا أن الآية على وجهها ونظمها فاختلفوا في هذا التعذيب.

فقال الحسن البصري: يعذبهم بأخذ الزكاة منها والإنفاق في الجهاد، واختاره ابن جرير، وأوضحه. فقال: العذاب بها إلزامهم بها أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان يؤخذ منه ذلك، وهو غير طيب النفس، ولا راج من الله جزاء، ولا من الآخذ منه حمداً ولا شكراً، بل على صغار منه وكره.

وهذا أيضاً عدول عن المراد بتعذيبهم في الدنيا بها، وذهاب عن مقصود الآية.

وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسَبْي أولادهم، فإن هذا حكم الكافر، وهم في الباطن كذلك.

وهذا أيضاً من جنس ما قبله، فإن الله سبحانه أقر المنافقين، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر وتولّى سرائرهم، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه من غنيمة أموالهم وسبي أولادهم، فإن الإرادة هٰهنا كونية بمعنى المشيئة، وما شاء الله كان لابد، وما لم يشأ لم يكن.

والصواب، والله أعلم، أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلّاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبرُ همِّه، وهو حريص بجهده على تحصيلها.

والعذاب هنا هو الألم والمشقة والنصَب، كقوله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**السفر قطعة من العذاب**».

وقوله: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**» أي يتألم ويتوجع، لا أنه يعاقب بأعمالهم.

وهكذا من الدنيا كلُّ همه أو أكبر همه، كما قال صلى الله تعالى وآله وسلم، في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: من حديث أنس رضي الله عنه: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غِناه في قلبه، وجمع له شَملْه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفَرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له** ».

ومن أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيت الشمل وتفريق القلب، وكون الفقر نُصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب، على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه.

وفي الترمذي أيضاً: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال: «**يقول الله تبارك وتعالى: ابن آدم، تَفرّغْ لعبادتي أملأ صدرك غنىً، وأسُد فقرك، وإن لا تفعلْ ملأت يديك شغلاً، ولم أسد فقرك**»

وهذا أيضاً من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه، ومقاساة معاداتهم.

كما قال بعض السلف: «من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب». ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث: هَمٌ لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي. وذلك أن محبها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه.

كما في الحديث الصحيح: عن النبي، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، : «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً**».

وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً...

فصل(١)

وأما الرّغبةُ في الله وإرادةُ وجهه، والشوقُ إلى لقائه فهي رأس مال العبد ومِلاكُ أمره وقِوامُ حياته الطيبة، وأصلُ سعادته وفلاحه ونعيمه وقرَّة عينه، ولذلك خُلق، وبه أُمِرَ، وبذلك أُرسلت الرُّسلُ، وأُنزلت الكتب.

ولا صلاحَ للقلب ولا نعيمَ إلّا بأن تكونَ رغبتهُ إلى الله عز وجل وَحدَه، فيكون هو وحدَه مرغوبه ومطلوبه ومرادَه كما قال الله تعالى: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾ [الشرح: ٧، ٨].

وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضوا مَا آتَاهُمُ الله ورسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا الله سيؤتِينا الله مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى الله رَاغِبُونَ**﴾ [التوبة: ٥٩].

والراغبون ثلاثة أقسام: راغبٌ في الله، وراغبٌ فيما عند الله، وراغبٌ عن الله. فالمحبُّ راغبٌ فيه، والعاملُ راغبٌ فيما عنده، والرَّاضي بالدُّنيا من الآخرة راغبٌ عنه. ومَن كانت رغبتهُ في الله كفاه الله كلَّ مهمّ، وتولّاه في جميع أموره، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعه عن نفسه، ووقاه وقاية الوليد، وصانه من جميع الآفات. ومَن آثر الله على غيره آثره الله على غيره. ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه، ومن عرف الله لم يكن شيءٌ أَحبَّ إليه منه، ولم تبقَ له رغبةٌ فيما سواه، إلّا فيما يُقرّبه إليه ويعينه عَلَى سفره إليه.

ومن علامات المعرفة الهيبةُ فكلّما ازدادت معرفةُ العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته إياه كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العُلَماء**﴾ [فاطر: ٢٨]. أي العلماء به....

(٢)**كان** رهط من المنافقين، منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة، يقال له: مَخْشِيٌّ بن حمير قال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض؟ والله، لكأنَّا بكم غداً مُقَرَّنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين. فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل منا مائة جلدة وأنا ننقلب قبل أن ينزل فينا

---

(١) ٤٣٢ روضة المحبين.
(٢) ٩ زاد المعاد جـ ٣.

قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول الله (ﷺ) لعمار بن ياسر: «**أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا**» فانطلق إليهم عمار. فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت: كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾** [التوبة: ٦٥]. فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي عفا عنه في هذه الآية. وتسمى عبدالرحمن، وسأل الله أن يُقتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر. اهـ.

(١)**وتأمل** قوله الحق: **﴿نَسوا الله فنسيَهُمْ﴾** [التوبة: ٦٧]. وقوله: **﴿وَلا تَكُونُوا كالَّذينَ نَسُوا الله فَأَنْسَاهُمْ أنفُسَهُمْ﴾** [الحشر: ١٩]. كيف عدل فيهم كل العدل بأن نسيهم كما نسوه وأنساهم حظوظ أنفسهم ونعيمها وكمالها وأسباب لذاتها وفرحها، عقوبة لهم على نسيان المحسن إليهم بصنوف النعم، المتحبب إليهم بآلائه فقابلوا ذلك بنسيان ذكره والإعراض عن شكره، فعدل فيهم بأن أنساهم مصالح أنفسهم فعطلوها. وليس بعد تعطيل مصلحة النفس إلا الوقوع فيما تفسد به وتتألم بفوته غاية الألم. . .

(٢)**قال** تعالى: **﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَموالاً وأولاداً فَاستَمتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾** [التوبة: ٦٩]. فذكر تعالى الأصلين: وهما داء الأولين والآخرين، أحدهما: الاستمتاع بالخلاق وهو النصيب من الدنيا، والاستمتاع به متضمن لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر، بخلاف المؤمن فإنه وإن نال من الدنيا وشهواتها؛ فإنه لا يستمتع بنصيبه كله، ولا يذهب طيباته في حياته الدنيا؛ بل ينال منها ما ينال منها ليتقوى به على التزود لمعاده. والثاني: الخوض بالشبهات الباطلة وهو قوله: **﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا﴾** وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تخلق للآخرة، لا تزال ساعية في نيل شهواتها فإذا نالتها، فإنما هي في خوض بالباطل

---

(١) ٣٤٦ مختصر الصواعق جـ ١.   (٢) ٤٠ مفتاح جـ ١.

الذي لا يجدي عليها إلا الضرر العاجل والآجل. ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يبتلي هذه النفوس بالشقاء والنصب في تحصيل مراداتها وشهواتها، فلا تتفرغ للخوض بالباطل إلا قليلاً. ولو تفرغت هذه النفوس الباطولية لكانت أئمة تدعو إلى النار وهذا حال من تفرغ منها كما هو مشاهد بالعيان، وسواء كان المعنى: وخضتم كالحزب الذي خاضوا، أو كالفريق الذي خاضوا فإن الذي يكون للواحد والجمع.

ونظيره قوله تعالى: **﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾** [الزمر: ٣٣، ٣٤]. لكن لا يجري على جمع تصحيح فلا يجيء المسلمون الذي جاءوا، وإنما يجيء غالباً في اسم الجمع كالحزب والفريق، أو حيث لا يذكر الموصوف وإن كان جمعاً كقول الشاعر:

وإن الذي حانت(١) بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

أو حيث يراد الجنس دون الواحد والعدد كقوله تعالى: **﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾** ثم قال: **﴿أولئك هم المتقون﴾**.

ونظيره الآية التي نحن فيها وهي قوله: **﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾**.

أو كان المعنى على القول الآخر: وخضتم خوضاً كالخوض الذي خاضوا؛ فيكون صفة لمصدر محذوف كقولك: اضرب كالذي ضرب، وأحسن كالذي أحسن، ونظائره.

وعلى هذا فيكون العائد منصوباً محذوفاً، وحذفه في مثل ذلك قياس مطرد على القولين، فقد ذمهم سبحانه على الخوض بالباطل واتباع الشهوات، وأخبر أن من كانت هذه حالته فقد حبط عمله في الدنيا والآخرة وهو من الخاسرين.

ونظير هذا قول أهل النار لأهل الجنة، وقد سألوهم كيف دخلوها: **﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾** [المدثر: ٤٣، ٤٦]. فذكروا الأصلين: الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين. وإيثار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات وإطعام ذوي الحاجات، فهذان الأصلان هما ماهما والله ولي التوفيق.

---

(١) في المطبوعة «جاءت تقبح» والصواب ما أثبتناه (ج).

(١)**وقد** أكَّده سبحانه بضَرْبٍ من الأَوْلى، وهو أن مَنْ قبلنا كانوا أقوى منا؛ فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم، ومنه قوله تعالى: ﴿**كَالَّذِينَ مِن قَبلِكُم كَانُوا أَشَدَّ مِنكم قُوَّةً وأَكْثَرَ أموالاً وأولاداً، فاسْتَمتَعُوا بخَلاقِهِم، فاسْتَمتَعتُم بخَلاقِكُم كَمَا استَمتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبلكُم بخلاقِهِمُ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا، أُولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهُم في الدُّنيا وَالآخِرَةِ، وَأُولئكَ هُمُ الخَاسِرُونَ**﴾ [التوبة: ٦٩].

وقد اختلف في محل هذا الكاف وما يتعلق به، فقيل: هو رفع خبر مبتدأ محذوف، أي أنتم كالذين من قبلكم.

وقيل: نَصْب بفعل محذوف، تقديره: فعلتم كفعل الذين من قبلكم، والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل.

وقيل: إن التشبيه في العذاب، ثم قيل: العاملُ محذوف، أي لَعَنَهم وَعَذَّبهم كما لعن الذين من قبل.

وقيل: بل العامل ما تقدم، أي وَعَدَ الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم، ولَعَنهم كَلعنهم، ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم.

والمقصود أنه سبحانه أَلْحَقهم بهم في الوعيد، وسَوَّى بينهم فيه كما تساووا في الأعمال، وكَوْنُهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فَرْقٌ غيرُ مؤثر، فعلَّق الحكم بالوصف الجامع المؤثر، وأَلْغى الوصفَ الفارق، ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء فقال: ﴿**فَاستَمتَعُوا بخَلاقِهِم، فَاستَمْتَعتُم بخَلاقِكُم كَما استَمتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِكُم بِخَلاقِهِم، وَخُضْتُم كَالَّذِي خَاضُوا**﴾ [التوبة: ٦٩]. فهذه هي العلة المؤثرة والوصف الجامع.

وقوله: ﴿**أولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهم**﴾ هو الحكم، والذين من قبل هم الأصل، والمخاطَبُون الفرع.

قال عبد الرزاق في تفسيره: أنا معمر، عن الحسن في قوله: ﴿**فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِم**﴾ قال: بذنبهم، ويروى عن أبي هريرة.

وقال ابن عباس: استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا، وقال آخرون: بنصيبهم من الدنيا.

---

(١) ١٣٤ أعلام جـ ١.

وحقيقة الأمر أن الخَلَاق هو النصيب والحظُّ، كأنه الذي خُلق للإنسان وقُدِّر له، كما يقال: قَسْمه الذي قُسِم له، ونصيبه الذي نصب له أي أثبت، وقِطه الذي قُطَّ له أي قُطِع.

ومنه قولـه تعالى: ﴿**وما لَه فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاق**﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وقول النبي (ﷺ): «**إنما يَلْبَسُ الحرير في الدنيا مَنْ لا خَلَاق له في الآخرة**» والآية تتناول ما ذكره السلف كله، فإنه سبحانه قال: ﴿**كَانُوا أَشَدَّ مِنكُم قوةً**﴾ فبتلك القوة التي كانت فيهم كانوا يستطيعون أن يعملوا للدنيا والآخرة، وكذلك الأموال والأولاد، وتلك القوة والأموال والأولاد هي الخَلَاقُ، فاستمتعوا بقوتهم وأموالهم وأولادهم في الدنيا، ونفس الأعمال التي عملوها بهذه القوة من الخَلَاقَ الذي استمتعوا به، ولو أرادوا بذلـك الله والـدارَ الآخرة لكان لهم خَلاق في الآخرة، فتمتُّعهم بها أَخْذُ حظوظهم العاجلة، وهذا حال مَنْ لم يعمل إلا لدنياه، سواء كان عَمَله من جنس العبادات أو غيرها، ثم ذكر سبحانه حال الفروع فقال: ﴿**فَاستَمْتَعتُم بخَلاقِكُم كَما اسْتَمتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِكُم بخَلاقِهم**﴾ [التوبة: ٦٩]. فدلَّ هذا على أن حكمهم حكمهم، وأنه ينالهم ما نالهم؛ لأن حُكْم النظير حُكْمُ نظيرِه. ثم قال: ﴿**وَخُضتُم كَالَّذِي خَاضُوا**﴾ فقيل: الذي صفة لمصدر محذوف، أي كالخوض الذي خاضوا.

وقيل: لموصوف محذوف، أي كخوض القوم الذي خاضوا، وهو فاعل الخوض.

وقيل: الذي مصدرية كما، أي كخوضهم، وقيل: هي موضع الذين.

والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخَلَاق وبين الخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخَلَاق.

فالأول البِدَع، والثاني اتباع الهوى، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كُذبِّت الرسل، وعُصِي الرب، ودُخِلت النار، وحَلَّت العقوبات، فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات.

ولهـذا كان السلف يقولون: احْذَروُا من الناس صِنْفَين: صاحب هَوى فتنته هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه.

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مَفْتُون، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

وفي صفة الإمام أحمد رحمه الله: عن الدنيا ما كان أصْبَرَه، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته البِدَعُ فنفَاها، والدنيا فأباها، وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُم أئمَّةً يهدُونَ بأمرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بآياتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤]. فبالصبر تُتْرَكُ الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات، كما قال تعالى: ﴿**وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ [العصر: ٣]. وقوله تعالى: ﴿**واذكُرْ عِبَادَنَا إبراَهِيمَ وَإسحَاقَ وَيَعقُوبَ أولي الأيْدِيَ والأبصَارِ**﴾ [ص: ٤٥].

وفي بعض المراسيل: «**إن الله يحبُّ البصَرَ الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**».

فقوله تعالى: ﴿**فاستمتعتم بخلاقكم**﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات وهُو دَاء العُصَاة وقوله: ﴿**وخضتم كالذي خاضوا**﴾ إشارة إلى الشبهات وهو داء المبتدِعَةِ وأهل الأهواء والخصومات، وكثيراً ما يجتمعان فَقَلَّ من تجده فاسدَ الاعتقاد إلا وفسادُ اعتقاده يَظْهر في عمله.

والمقصود أن الله أخبر أن في هذه الأمة مَنْ يستمتع بخَلاقه كما استمتع الذين من قبله بخَلَاقهم، ويخوض كخوضهم، وأنهم لهم من الذَّم والوعيد كما للذين من قبلهم.

ثم حَضَّهم على القياس والاعتبار بمن قبلهم فقال: ﴿**أَلَم يَأتِهِم نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم قَوم نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصحاب مَديَنَ وَالْمُؤتَفِكَاتِ أَتَتهُم رُسُلُهُم بِالبينَاتِ فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُم وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُم يَظْلِمُونَ**﴾ [التوبة: ٧٠]. فتأمل صحةَ هذا القياس وإفادتَهُ لمن عُلِّقَ عليه من الحكم، وأن الأصل والفرعَ قد تساويا في المعنى الذي عُلّق به العقاب، وأكده كما تقدم بضرب من الأوْلى، وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد، فإذا لم يتعذرْ على الله عقابُ

الأقوى منهم بذنْبه فكيف يتعذر عليه عقاب مَنْ هو دونه؟

(١)**قال** عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت؛ لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره. ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء». وقال مطرف بن عبدالله ـ أو غيره: «نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة، أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا».

ومن حَدَّق عين بصيرته في الدنيا والآخرة، علم أن الأمر كذلك.

فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة، أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيم لا يزول، ولا يضمحل؟ فضلاً عن أن يقطعه عن طلب مَنْ نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته، والأنس به، والفرح بقربه، كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة؟ قال الله تعالى: ﴿**وَعَدَ الله المُؤمِنِينَ وَالمُؤمنات جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خالدينَ فِيهَا وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ الله أكبر**﴾ [التوبة: ٧٢]. فيسير من رضوانه ـ ولا يقال له يسير ـ أكبر من الجنات وما فيها.

(٢)**الرابع** والأربعون: أن رضى الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها. لأن الرضى صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى: ﴿**وَرِضْوانٌ مِنَ الله أكبر**﴾ بعد قوله: ﴿**وَعَدَ الله المُؤمِنِينَ وَالمُؤمنات جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خالدينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ الله أكبر ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيمُ**﴾ [التوبة: ٧٢]. وهذا الرضى جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

(٣)**وتأمل** قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ الله المُؤمِنِينَ وَالمُؤمنات جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خالدينَ فِيهَا وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ الله أكبر**﴾ كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكراً مخبراً عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به فأيسر شيء من رضوانه أكبر الجنات وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته؛ ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم أي شيء يريدون، فيقولون: ربنا وأي شيء نريد أفضل

---

(١) ٩٣ مدارج جـ ٣. (٢) ٢١٧ مدارج جـ ٢.

(٣) ١٦٦ بدائع جـ ٢.

مما أعطيتنا؟ فيقول تبارك وتعالى: إن لكم عندي أفضل من ذلك: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

(١) **الخامس** والأربعون: أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات، لم يتخير عليه المسائل. وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك. وجعل ذكره في محل سؤاله. بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره، وبلوغ رضاه. فهذا يُعْطَى أفضل ما يعطاه سائل. كما جاء في الحديث: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**» فإن السائلين سألوه. فأعطاهم الفضل الذي سألوه. والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم، ولا يمنع الرضى سؤاله أسباب الرضى، بل أصحابه مُلِحُّون في سؤاله ذلك.

(٢) فصل في هديه في الجهاد والغزوات

لما كان الجهاد ذرْوَة سَنام الإسلام وقُبَّته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعْلَوْن في الدنيا والآخرة ـ: كان رسول الله (ﷺ) في الذِّروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها، فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان، والدعوة والبيان، والسيف والسِّنان. وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده. ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً، وأعظمهم عند الله قدراً، وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه فقال: ﴿**وَلو شِئنا لَبَعَثْنَا في كُلِّ قَرْيةٍ نَّذِيراً، فَلا تُطعِ الكَافِرِينَ، وَجَاهِدهُم بِهِ جِهاداً كَبيراً**﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]. فهذه سورة مكية، أمره فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن. وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى: ﴿**يَا أيُّها النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّار وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيهِمْ وَمَأوَاهُم جَهَنَّمُ وبِئسَ الْمَصِيرُ**﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة، وورثةِ الرسل. والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه ـ وإن كانوا هم الأقلِّين عدداً ـ فهم الأعظمون عند الله قدراً.

---

(١) ٢١٧ مدارج جـ٢.　(٢) ١٠٢ زاد المعاد جـ٢.

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق، مع شدة المعارض ـ مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه ـ كان للرسل صلوات الله عليهم وسلامه من ذلك الحظ الأوفر. وكان لنبينا صلوات الله وسلامه عليه من ذلك أكمل الجهاد وأتمه.

ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي (ﷺ): «**المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**[1]» كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له. فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً، لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج. فكيف يمكنه جهاد عدوه، والانتصاف منه، وعدوُّه الذي بين جنبيه قاهرٌ له متسلط عليه، لم يجاهده ولم يحاربه في الله؟ بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج، فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما. وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده وهو واقف بينهما، يُثبِّط العبد عن جهادهما، ويخذله ويُرجف به ولا يزال يُخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ، وفوت اللذات والمشتهيات.

[2]**قوله** تعالى: **﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ الله لَئِن آتانا من فضلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** [التوبة: ٧٥]. فهذا نذر مؤكد بيمين وإن لم يقل فيه: فعليَّ؛ إذ ليس ذلك من شرط النذر؛ بل إذا قال: إنْ سلمني الله تصدقت، أو لأَتَصَدَّقن، فهو وعد وعده الله فعليه أن يفي به، وإلا دخل في قوله: **﴿فَأَعْقَبَهُم نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِم إِلَى يَوم يَلْقَونَهُ بِما أَخْلَفُوا الله مَا وَعَدُوهُ وبِما كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾** [التوبة: ٧٧].

فوعد العبد ربَّه نذرٌ يجب عليه أن يفي له به؛ فإنه جعله جزاء وشكراً له على نعمته عليه، فجرى مَجْرَى عقود المعاوَضات لا عقود التبرعات، وهو أولى باللزوم من أن يقول ابتداء: «لله علي كذا» فإن هذا التزام منه لنفسه أن يفعل ذلك، والأول تعليق بشرط وقد وُجِدَ، فيجب فعل المشروط عنده؛ لالتزامه له بوعده.

فإن الالتزام تارة يكون بصريح الإيجاب، وتارة يكون بالوعد. وتارة يكون

(١) أخرجه الترمذي من حديث فضالة بن عبيد. (٢) ١١٢ أعلام جـ ٢.

بالشروع كشروعـه في الجهاد والحج والعمرة. والالتزام بالوعد آكد من الالتزام بالشروع، وآكد من الالتزام بصريح الإيجاب.

فإن الله سبحانه ذم من خالف ما التزمه له بالوعد، وعاقبه بالنفاق في قلبه، ومَدَح مَنْ وفى بها نذره له، وأمر بإتمام ما شرع فيه له من الحج والعمرة، فجاء الالتزام بالوعد آكد الأقسام الثلاثة، وإخلافه يُعْقِبُ النفاق في القلب.

وأما إذا حلف يميناً مجردة: ليفعلن كذا، فهذا حَضٌّ منه لنفسه، وحث على فعله باليمين، وليس إيجاباً عليها، فإن اليمين لا توجِبُ شيئاً ولا تحرمه، ولكنَّ الحالفَ عقد اليمين بالله ليفعلنه، فأباح الله سبحانه له حَلَّ ما عقده بالكفارة، ولهذا سماها الله تَحِلَّة، فإنها تحل عقد اليمين.

وليست رافعة لإثم الحِنْث كما يتوهمه بعض الفقهاء، فإن الحِنْثَ قد يكون واجباً، وقد يكون مستحباً، فيؤمر به أمر إيجاب أو استحباب، وإن كان مباحاً، فالشـارع لم يُبِحْ سبب الإثم، وإنما شَرَعَها الله حَلًّا لعقد اليمين كما شرع الله الاستثناء مانعاً من عقدها.

فظهـر الفـرق بين ما التزم لله وبين ما التزم بالله؛ فالأول ليس فيه إلا الوفاء، والثاني يخيَّرُ فيه بين الوفاء وبين الكفارة حيث يسوغ ذلك.

وسر هذا أن ما التزم له[1] آكد مما التزم به، فإن الأول متعلق بإلـهيته، والثاني بربوبيته؛ فالأول من أحكام ﴿**إياك نعبد**﴾ والثاني من أحكام ﴿**إياك نستعين**﴾ وإياك نعبد قسم الله من هاتين الكلمتين، وإياك نستعين قسم العبد كما في الحديث الصحيح الإلهي: «**هذه بيني وبين عبدي نصفين**»...

(٢)**وأما** ما احتجوا به من قوله تعالى: ﴿**وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحمِلُكُمْ عَلَيهِ**﴾ [التوبة: ٩٢]. والذي دعاهم إلى ذلك، أن جواب إذا هو قوله تعالى: ﴿**تَوَلَّوا وَأَعيُنُهمْ تَفيضُ مِنَ الدَّمْعِ**﴾ [التوبة: ٩٢]. والمعنى: إذا أتوك ولم يكن عندك ماتحملهم عليه تولوا يبكون، فيكون الواو في ﴿**قلت**﴾ مقدرة لأنها

---

(١) أي لله

(٢) ٢١ بدائع جـ ١.

معطوفة على فعل الشرط وهو ﴿**أتوك**﴾ هذا تقرير احتجاجهم ولا حجة فيه؛ لأنه جواب إذا في قوله: ﴿**قلت**﴾ لا أجد والمعنى: إذا أتوك لتحملهم لم يكن عندك ما تحملهم عليه فعبر عن هذا بقوله: ﴿**قلت لا أجد ما أحملكم عليه**﴾ لنكتة بديعة وهي الإشارة إلى تصديقهم له، وأنهم اكتفوا من علمهم بعدم الإمكان بمجرد إخباره لهم بقوله: ﴿**لا أجد ما أحملكم عليه**﴾ بخلاف ما لو قيل: لم يجدوا عندك ما تحملهم عليه، فإنه يكون تبيين حزنهم خارجاً عن إخباره. وكذلك لو قيل: لم تجد ما تحملهم عليه لم يؤد هذا المعنى فتأمله فإنه بديع.

فإن قيل فبأي شيء يرتبط قوله: ﴿**تَوَلَّوا وَّأعيُنُهُم تَفِيضُ**﴾ وهذا عطف على ما قبله فإنه ليس بمستأنف.

فالجواب أن ترك العطف هنا من بديع الكلام لشدة ارتباطه بما قبله ووقوعه منه موقع التفسير؛ حتى كأنه هو وتأمل مثل هذا في قوله تعالى: ﴿**أكَانَ لِلنَّاس عَجَباً أن أوحَينَا إلى رَجُلٍ مِنْهُم أن أنذِرِ الناسَ وَبَشر الَّذين آمنُوا**(١) **أنَّ لَهُم قَدَم صِدقٍ عِندَ ربّهِمْ قَالَ الكَافِرُون إنَّ هذا لَساحر مُّبِينٌ**﴾[يونس: ٢]. كيف لم يعطف فعل القول بأداة عطف لأنه كالتفسير لتعجبهم والبدل من قوله تعالى: ﴿**أكَانَ لِلنَّاس عَجَباً**﴾ [يونس: ٢]. فجرى مجرى قوله: ﴿**وَمَن يَّفعَل ذَلِكَ يَلقَ أثَاماً يُضَاعفَ لَهُ العَذَابُ يومَ القِيَامَةِ وَيَخلُد فِيهِ**(٢) **مهَاناً**﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩]. فلما كان مضاعفة العذاب بدلاً وتفسيراً لأثاماً لم يحسن عطفه عليه. وزعم بعض الناس أن من هذا الباب قول عمر رضي الله عنه في الحديث الصحيح: لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله (ﷺ) لها. فقال: المعنى. أعجبها حسنها وحب رسول الله (ﷺ) وليس الأمر كذلك، ولكن قوله: حب رسول الله (ﷺ) بدل من قوله هذه وهو من بدل الاشتمال والمعنى: لا يغرنك حب رسول الله (ﷺ) لهذه التي قد أعجبها حسنها. ولا عطف هناك ولا حذف وهذا واضح بحمد الله.

...(٣) **من** أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولا سيما حدود المشروع المأمور

---

(١) في المطبوعة بزيادة ﴿**الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ والصواب حذفها كما في المصحف. المراجع.

(٢) في المطبوعة ﴿**فيها**﴾ والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

(٣) ١٤٠ فوائد.

والنهي. **فأعلم** الناس أعلمهم بتلك الحدود، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج منها ما هو داخل فيها. قال تعالى: **﴿الأعرَابُ أَشَدُّ كُفراً ونفاقاً وأَجْدَرُ ألا يَعلَمُوا حُدُودَ ما أنزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ﴾** [التوبة: ٩٧]. .

فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلاً، وبالله التوفيق.

(١)**قال** تعالى: **﴿وَالسَّابِقُونَ الأوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأنصَارِ والَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بإحسانٍ رَّضِيَ الله عَنهُم وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجري تَحْتَهَا الأنهارُ خَالِدينَ فِيهَا أَبداً ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾** [التوبة: ١٠٠]. فأخبر تعالى أنه أعدها للمهاجرين والأنصار وأتباعهم بإحسان، فلا مطمع لمن خرج عن طريقتهم فيها.

وقال تعالى: **﴿إِنَّمَا المُؤمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَت قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَت عَلَيهِمْ آيَاتُه زَادَتهُمْ إِيماناً وَّعَلَى رَبهِمْ يَتَوكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُولئك هُمُ المُؤمِنُونَ حقًّا لَّهُم دَرَجاتٌ عِندَ رَبهِم وَمَغفِرةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾** [الأنفال: ٢ ـ ٤]. فوصفهم بإقامة حقه باطناً وظاهراً وبأداء حق عباده.

وفي صحيح مسلم: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما كان يوم حنين أقبل نفر من صحابة النبي (ﷺ) فقالوا: فلان شهيد وفلان شهيد وفلان شهيد، حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله (ﷺ): «**كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة**» ثم قال رسول الله (ﷺ): «**يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون**» قال: فخرجت فناديتُ: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وللبخاري معناه. وفي الصحيحين: من حديث أبي هريرة؛ أن رسول الله (ﷺ) أمر بلالاً ينادي في الناس: «**إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة**» وفي بعض طرقه «**مؤمنة**»، وفي الحديث قصة.

وفي صحيح مسلم: من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله (ﷺ) قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني من يومي هذا: كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء**

---

(١) ٨٨ حادي الأرواح.

كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم فحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وأن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب» الحديث. . .

(١) **﴿وَالسَّابقونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجرينَ والأنصَار والَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بإحسان رَّضيَ الله عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجري تَحْتَهَا الأنهارُ خَالِدينَ فِيهَا أَبداً ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾** [التوبة: ١٠٠]. فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضى الله عنهم، ورضوا عنه وهم أصحاب رسول الله (ﷺ) وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة. ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط، وإنما خص التابعون بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفيًا ليتميزوا به عمن بعدهم. فقيل: التابعون مطلقاً لذلك القرن فقط، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان، وهو ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه ورضي عن الله.

وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان، ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة للإحسان. فإن الباء ههنا للمصاحبة. والإحسان في المتابعة شرط في حصول رضى الله عنهم وجناته.

(٢)**فنقول**: الكلام في مقامين: أحدهما: في الأدلة الدالة على وجوب اتباع الصحابة، الثاني: في الجواب عن شبه النفاة.

فأما الأول فمن وجوه: أحدها: ما احتج به مالك، وهو قوله تعالى: **﴿وَالسَّابقونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجرينَ والأنصَار والَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بإحسان رَّضيَ الله عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجري تَحْتَهَا الأنهارُ خَالِدينَ فِيهَا أَبداً ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾** [التوبة: ١٠٠]. فوجه الدلالة أن الله تعالى أثنى على من اتبعهم، فإذا قالوا قولاً فاتبعهم متبع عليه قبل أن يعرف صحته فهو متبع لهم، فيجب أن يكون محموداً على ذلك، وأن يستحق الرضوان، ولو كان اتباعهم تقليداً محضاً كتقليد

---

(١) ٤٢ التبوكية.　　(٢) ١٢٣ أعلام جـ ٤.

بعض المفتين لم يستحق من اتبعهم الرضوان، إلا أن يكون عاميًّا، فأما العلماء المجتهدون فلا يجوز لهم اتباعهم حينئذ.

فإن قيل: اتباعهم هو أن يقول ما قالوا بالدليل وهو سلوك سبيل الاجتهاد؛ لأنهم إنما قالوا بالاجتهاد، والدليل عليه قوله: ﴿**بإحسان**﴾ ومَنْ قلدهم لم يتبعهم بإحسان؛ لأنه لو كان مطلق الاتباع محموداً لم يفرق بين الاتباع بإحسان أو بغير إحسان.

وأيضاً فيجوز أن يراد به اتباعهم في أصول الدين، وقوله: ﴿**بإحسان**﴾ أي بالتزام الفرائض واجتناب المحارم، ويكون المقصود: أن السابقين قد وجب لهم الرضوان وإن أساءوا؛ لقوله (ﷺ): «**وما يُدْريك أن الله قد اطَّلَع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

وأيضاً فالثناء على من اتبعهم كلهم، وذلك اتباعهم فيما أجمعوا عليه.

وأيضاً فالثناء على من اتبعهم لا يقتضي وجوبه، وإنما يدل على جواز تقليدهم، وذلك دليل على جواز تقليد العالم كما هو مذهب طائفة من العلماء، أو تقليد الأعلم كقول طائفة أخرى. أما الدليل على وجوب اتباعهم فليس في الآية ما يقتضيه. فالجواب من وجوه: أحدها: أن الاتباع لا يستلزم الاجتهاد لوجوه.

أحدها: أن الاتباع المأمور به في القرآن كقوله: ﴿**فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]. ﴿**واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ﴿**وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمِنِينَ**﴾ [النساء: ١١٥]. ونحوه لا يتوقف على الاستدلال على صحة القول مع الاستغناء عن القائل.

الثاني: أنه لو كان المراد اتباعهم في الاستدلال والاجتهاد لم يكن فرق بين السابقين وبين جميع الخلائق؛ لأن اتباع موجب الدليل يجب أن يتبع فيه كل أحد، فمن قال قولاً بدليل صحيح وجب موافقته فيه.

الثالث: أنه إما أن تجوز مخالفتهم في قولهم بعد الاستدلال أو لا تجوز، فإن لم تجز فهو المطلوب، وإن جازت مخالفتهم فقد خولفوا في خصوص الحكم واتبعوا في أحسن الاستدلال، فليس جعل من فعل ذلك متبعاً لموافقتهم في الاستدلال، بأولى من جعله مخالفاً لمخالفته في عين الحكم.

الرابع: أن من خالفهم في الحكم الذي أفتوا به لا يكون متبعاً لهم أصلاً،

بدليل أن من خالف مجتهداً من المجتهدين في مسألة بعد اجتهاد، لا يصح أن يقال: «اتبعه»، وإن أطلق ذلك فلابد من تقييده بأن يقال: اتبعه في الاستدلال أو الاجتهاد.

الخامس: أن الاتباع افتعال من اتبع، وكون الإنسان تابعاً لغيره نوع افتقار إليه ومَشْي خلفه، وكل واحد من المجتهدين المستدلين، ليس تبعاً للآخر ولا مفتقراً إليه بمجرد ذلك حتى يستشعر موافقته والانقياد له، ولهذا لا يصح أن يقال لمن وافق رجلاً في اجتهاده أو فتواه اتفاقاً: إنه متبع له.

السادس: أن الآية قُصد بها مدح السابقين والثناء عليهم، وبيان استحقاقهم أن يكونوا أئمة متبوعين، وبتقدير ألا يكون قولهم موجباً للموافقة ولا مانعاً من المخالفة - بل إنما يتبع القياس مثلاً - لا يكون لهم هذا المنصب، ولا يستحقون هذا المدح والثناء.

السابع: أن من خالفهم في خصوص الحكم فلم يتبعهم في ذلك الحكم ولا فيما استدلوا به على ذلك الحكم، فلا يكون متبعاً لهم بمجرد مشاركتهم في صفة عامة، وهي مطلق الاستدلال والاجتهاد، ولا سيما وتلك الصفة العامة لا اختصاص لها به، لأن ما ينفي الاتباع أخص مما يثبته. وإذا وجد الفارق الأخص والجمع الأعم - وكلاهما مؤثر - كان التفريق رعاية للفارق أولى من الجمع رعاية للجامع.

وأما قوله: ﴿**بإحسان**﴾ فليس المراد به أن يجتهد، وافَقَ أو خالف؛ لأنه إذا خالف لم يتبعهم فضلاً عن أن يكون بإحسان، ولأن مطلق الاجتهاد ليس فيه اتباع لهم، لكن الاتباع لهم اسم يدخل فيه كل مَنْ وافقهم في الاعتقاد والقول، فلابد مع ذلك أن يكون المتبع محسناً بأداء الفرائض واجتناب المحارم؛ لئلا يقع الاغترار بمجرد الموافقة قولاً.

وأيضاً فلابد أن يحسن المتبع لهم القول فيهم، ولا يقدح فيهم، اشترط الله ذلك لعلمه بأن سيكون أقوام ينالون منهم. وهذا مثل قوله تعالى بعد أن ذكر المهاجرين والأنصار: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِر لَنَا ولإِخوانِنَا الَّذِين سَبقُونَا بِالإِيمانِ وَلاَ تَجعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إنَّكَ رَءوفُ رَحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠]. . .

[1]**وأما** ما زعموا من قولهم: إن علمت قد يكون بمعنى عرفت، واستشهادهم بنحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعلَمهُم نَحْنُ نَعلَمهُم﴾ [التوبة: ١٠١]. وبقوله: ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِم لَا تَعْلَمونهمُ الله يَعلَمُهم﴾ [الأنفال: ٦٠]. فالذي دعاهم إلى ذلك أنهم رأوا علمت قد تعدت إلى مفعول واحد وهذا هو حقيقة العرفان فاستشهاد ظاهر. على أنه قد قال بعض الناس: إن تعدي فعل العلم في هذه الآيات وأمثالها إلى مفعول واحد لا يخرجها عن كونها علماً على الحقيقة، فإنها لا تتعدى إلى مفعول واحد على نحو تعدي عرفت، ولكن على جهة الحذف والاختصار فقوله: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ لا تنفي عنه معرفة أعيانهم وأسمائهم، وإنما تنفي عنه العلم بعدوانهم ونفاقهم وما تقدم من الكلام يدلك على ذلك.

وكذلك قوله: ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ فربما كانوا يعرفونهم ولا يعلمونهم أعداء لهم، فيتعلق العلم بالصفة المضافة إلى الموصوف لا بعينه وذاته.

قال: هذا وإنما مثل من يقول: إن علمت بمعنى عرفت من أجل أنها متعدية إلى مفعول واحد في اللفظ، كمثل من يقول: إن سألت يتعدى إلى غير العقلاء بقولهم: سألت الحائط، وسألت الدار ويحتج بقوله: ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف: ٨٢].

قال: وإنما هذا جهل بالمجاز والحذف وكذلك ما تقدم.

وليس ما قاله هؤلاء بقوي؛ فإن الله سبحانه نفى عن رسوله معرفة أعيان أولئك المنافقين، هذا صريح اللفظ وإنما جاء نفي معرفة نفاقهم من جهة اللزوم فهو (ﷺ) كان يعلم وجود النفاق في أشخاص معينين وهو موجود في غيرهم ولا يعرف أعيانهم، وليس المراد أن أشخاصهم كانت معلومة له معروفة عنده، وقد انطووا على النفاق وهو لا يعلم ذلك فيهم، فإن اللفظ لم يدل على ذلك بوجه.

والظاهر بل المتعين أنه (ﷺ) لو عرف أشخاصهم؛ لعرفهم بسيماهم وفي لحن القول، ولم يكن يخفى عليه نفاق من يظهر له الإسلام ويبطن عداوته وعداوة الله عز وجل. والذي يزيد هذا وضوحاً الآية الأخرى فإن قوله: ﴿تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ

(١) ٦٢ بدائع جـ ٢.

الله وَعَدُوَّكُم وآخرينَ مِن دُونِهِم لا تَعلَمُونَهُم﴾ [الأنفال: ٦٠]. فيهم قولان:

أحدهما: أنهم الجن المظاهرون لأعدائهم من الإنس على محاربة الله ورسوله. وعلى هذا فالآية نص في أن العلم فيها بمعنى المعرفة، ولا يمكن أن يقال: إنهم كانوا عارفين بأشخاص أولئك جاهلين عداوتهم كما أمكن مثله في الإنس.

القول الثاني إنهم المنافقون، وعلى هذا فقوله ﴿**لا تعلمونهم**﴾ إنما ينبغي حمله على معرفة أشخاصهم، لا على معرفة نفاقهم لأنهم كانوا عالمين بنفاق كثير من المنافقين، يعلمون نفاقهم ولا يشكون فيه، فلا يجوز أن ينفي عنهم علم ما هم عالمون به، وإنما ينفي عنهم معرفة أشخاص من هذا الضرب فيكون كقوله تعالى: ﴿**لا تعلمهم نحن نعلمهم**﴾ فتأمله...

(١)**في** حديث أبي لبابة لما بلغ النبي (ﷺ) ارتباطه قال: «**لو أتاني لاستغفرت له وإذ فعل فلست أطلقه حتى يطلقه الله**» فأنزل الله تعالى: ﴿**وآخرُونَ اعترَفُوا بذنُوبِهِم**﴾ [التوبة: ١٠٢]. إلى قوله: ﴿**عَسَى الله أن يتُوبَ عَليهِم**﴾ فأطلقه النبي (ﷺ) حينئذ.

وفي هذا ما يدل على صحة قول المفسرين: أن عسى من الله واجب.

وفيه: أن فاطمة جاءت تحله فقال: لا إلا رسول الله (ﷺ) فقال: «**فاطمة بضعة مني**». **فإن قيل:** فهل يبر الحالف بمثل هذا لو اتفق اليوم.

قيل: لا إما لأنه مختص بالنبي (ﷺ) وإما لأن فاطمة بضعة منه قطعاً والله أعلم.

(٢)**الزكاة** في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح، وكمال الشيء، يقال: زكا الشيء إذا نما. قال الله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَموالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرهُم وَتُزَكِّيهم بهَا**﴾ [التوبة: ١٠٣]. فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة، لتلازمهما. فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدغَل في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكما أن البدن إذا

---

(١) ٢١٢ بدائع جـ ٣.   (٢) ٤٦ إغاثة جـ ١.

استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة: زكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت. فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته. كما قال تعالى: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ [النور: ٣٠] فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

فصل في غزوة تبوك(١)

وكانت في شهر رجب سنة تسع، قال ابن إسحاق: وكانت في زمن عُسْرة في الظهر والزاد والماء، وجَدْبٍ من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون شُخُوصهم على تلك الحال.

وكان رسول الله (ﷺ) قَلَّما يخرج في غزوة إلا كَنَّى عنها، وورَّي بغيرها، إلا ما كان من غزوة تَبوك؛ لبعد الشُّقة، وشدة الزمان، فقال رسول الله (ﷺ) - ذات يوم وهو في جهازه - للجدِّ بن قيس، أحد بني سلمة: «**يا جَدُّ، هل لك العامَ في جِلَاد بني الأصفر؟**» فقال: يا رسول الله! أو تأذنُ لي ولا تَفْتِنِّي، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عَجباً بالنساء منِّي، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر. فأعرض عنه رسول الله (ﷺ) وقال: «**قد أذنت لك**» ففيه نزلت الآية: ﴿**وَمِنهم مَن يقولُ ائْذَنْ لِّي ولا تَفْتنِّي**﴾ [التوبة: ٤٩] وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله فيهم: ﴿**وقالوا: لَا تَنْفِروا في الحَرِّ**﴾. الآية [التوبة: ٨١] ثم إن رسول الله جَدَّ في سفره، وأمر الناس بالجهاز، وحضّ أهل الغنى على النفقة والحُملان في سبيل الله. فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها.

قلت: كانت ثلاثمائة بعير بأحْلاَسِها وأقْتَابها وعُدَّتها، وألف دينار عَيْنًا.

---

(١) ٣ زاد المعاد جـ ٣.

وذكر ابن سعد قال: بلغ رسول الله (ﷺ) أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هِرَقْل قد رَزَق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخم وجُذَام وعامِلة وغسَّان، وقدموا مقدماتهم إلى البَلْقاء، وجاء البَكاءُون ـ وهم سبعة ـ يستحملون رسول الله (ﷺ) فقال: ﴿**لا أجد ما أحْمِلُكم عَلَيهِ، تَوَلَّوا وأعيُنُهُمْ تفيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً ألاَّ يَجِدوُا ما يُنفِقُون**﴾ [التوبة:٩٢] وهم: سالم بن عمير، وعُلْبَةُ بن يزيد، وأبو ليلى المازني، وعمرو بن غنمة، وسلمة بن صَخْر، والعرِبْاض بن سارية، وفي بعض الروايات: وعبدالله بن مغفل ـ ومعقل بن يسار. وبعضهم يقول: البكاءون بنو مُقَرِّن السبعة، وهم من مزينة. وابن إسحاق يعد فيهم: عمرو بن الحمام بن الجَموح. وأرسل أبا موسى أصحابُه إلى رسول الله ليحملهم، فوافاه غضبان، فقال: «**لا والله لا أحملكم، ولا أجد ما أحملكم عليه**» ثم أتاه إبل، فأرسل إليهم. ثم قال: «**ما أنا حملتكم، ولكن الله حملكم، وإني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا كفَّرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير**».

فصل

وقام عُلْبَةُ بن يزيد، فصلى من الليل وبكى، وقال: «اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوَّى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يَحْمِلني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال، أو جسد، أو عِرض»، ثم أصبح مع الناس، فقال النبي (ﷺ): «**أين المتصدق هذه الليلة؟**» فلم يقم إليه أحد، ثم قال: «**أين المتصدق؟ فليقم**» فقام إليه، فأخبره، فقال النبي (ﷺ): «**أَبْشِرْ، فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبتْ في الزكاة المتقبلة**» وجاء المعذِّرون من الأعراب ليؤذن لهم، فلم يعذرهم ـ قال ابن سعد: وهم اثنان وثمانون رجلاً ـ وكان عبدالله بن أُبيٍّ ابن سَلُول قد عسكر على ثَنِيَّة الوَداع في حلفائه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكره بأقل العسكرين، واستخلف رسول الله (ﷺ) على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري ـ وقال ابن هشام سِباع بن عُرفطة. والأول أثبت ـ فلما سار رسول الله (ﷺ) تخلَّف

عبدالله بن أُبيٍّ ومَن كان معه، وتخلف نفر من المسلمين، من غير شك ولا ارتياب، منهم: كعب بن مالك، وهلال بن أُميَّة، ومُرارة بن الربيع، وأبو خيثمة السالمي، وأبو ذر، ثم لحقه أبو خيثمة وأبو ذر وشهدها رسول الله (ﷺ) في ثلاثين ألفا من الناس، والخيل عشرة آلاف فرس، وأقام بها عشرون ليلة، يقصر الصلاة، وهرقل يومئذ بِحمص.

قال ابن إسحاق: ولما أراد رسول الله (ﷺ) الخروج خَلَّف عليَّ بن أبي طالب على أهله، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً وَتَخَفُّفًا منه، فأخذ عليٌّ سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله (ﷺ) وهو نازل بالجُرْفِ، فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلَّفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني، فقال: **«كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارْجِعْ فأخْلُفْني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لاَ نبيَّ بعدي»** فرجع عليّ إلى المدينة. ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله (ﷺ) أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عَريشَيْنِ لهما في حائطه، قد رشَّتْ كل واحدة منهما عريشها، وبَرَّدت له ماء وهيَّأتْ له فيه طعاماً. فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنَعتا له، فقال: رسول الله (ﷺ) في الضَّحِّ والريح والحرّ، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مُهَيَّأ، وامرأة حسناء؟ ما هذا بالنَّصَف. ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما، حتى ألحق برسول الله، فَهَيئا لي زادا، ففعلتا. ثم قَدَّم ناضِحَه، فارْتَحَلَه، ثم خرج في طلب رسول الله (ﷺ) حتى أدركه حين نزل تَبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُمير بن وهب الجُمَحي في الطريق يطلب رسول الله، فترافقا، حتى إذا دنيا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنباً، فلا عليك أن تتخلف عني، حتى آتي رسول الله، ففعل. حتى إذا دنا من رسول الله، وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مُقبل فقال رسول الله (ﷺ): **«كُنْ أبا خيثمة»** قالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل، فسلم على رسول الله، فقال له رسول الله: **«أولى لك يا أبا خيثمة»** فأخبر رسول الله خبَره، فقال له رسول الله: **«أولى لك خيراً»**، ودعا له بخير وقد كان رسول الله (ﷺ) حين مرَّ بالحِجْر بِديَار ثَمُود قال: **«لا تشربوا من مائها شيئاً،**

ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عَجِين عَجَنْتُموه فاعْلِفُوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجنَّ أحد منكم إلا ومعه صاحب له» ففعل الناس، إلا رجلين من بني ساعدة: خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعيره، فأمَّا الذي خرج لحاجته، فإنه خُنق على مَذْهَبه. وأما الذي خرج في طلب بعيره: فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلَي طَيِّء، فأُخْبرَ بذلك رسول الله (ﷺ) فقال: **«ألم أنهكم أن لا يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه»** ثم دعا للذي خُنق على مذهبه فَشُفيِ، وأمَّا الآخر: فأهدته طَيء، لرسول الله (ﷺ) حين قدم المدينة.

قلت: والذي في صحيح مسلم، من حديث أبي حميد، انطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله (ﷺ): **«سَتَهُبُّ عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم منكم أحد، فمن كان له بعير فليَشُدَّ عِقالَه»**. فهَبَّت ريح شديدة. فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طَيء.

قال ابن هشام: بلغني عن الزهري: أنه قال: لما مرّ رسول الله (ﷺ) بالحِجْر سَجّى ثوبه على وجهه، واسْتَحَثَّ راحلته، ثم قال: **«لا تدخلوا بُيُوتَ الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم»**.

قلت: في الصحيحين: من حديث ابن عمر: أن رسول الله (ﷺ) قال: **«لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذَّبين، إلا أن تكونوا باكين. فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم؛ لا يصيبكم مثل ما أصابهم»**. وفي صحيح البخاري: **«أنه أمرهم بإلْقَاء العجين وطَرْحِه»**. وفي صحيح مسلم: **«أنه أمرهم أن يَعْلِفُوا الإبل العجين، وأن يهُرْيقُوا الماء، ويَسْتقُوا من البئر التي كانت تَردها الناقة»**. وقد رواه البخاري أيضاً، وقد حفظ راويه ما لم يحفظه من روى الطرح.

وذكر البيهقي: أنه نادى فيهم: **«الصلاة جامعة»**، فلما اجتمعوا قال: **«عَلاَمَ تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟»** فناداه رجلٌ، فقال: نَعْجَب منهم يا رسول الله فقال: **«ألا أنبئكم بما هو أعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم. استقيموا وسَدِّدُوا، فإن الله عز وجل لا يَعْبَأ بعذابكم شيئاً، وسيأتي الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً»**.

فصل

قال ابن إسحاق: وأصبح الناس ولا ماء معهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله (ﷺ): فدعا رسول الله (ﷺ) فأرسل الله سبحانه سحابة، فأمطرت حتى ارْتَوَى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء. ثم إن رسول الله سار، حتى إذا كان ببعض الطريق ضَلَّت ناقته، فقال زيد بن أبي الصَّلْت ـ وكان منافقاً ـ أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله: «**إن رجلاً يقول** ـ وذكر مقالته ـ **وإني والله لا أعلم إلا ما علَّمني الله، وقد دلني الله عليها. وهي في الوادي في شِعْب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامِها، فانْطَلِقُوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فأتَوْهُ بها**». وفي طريقه تلك خَرَصَ حديقة بعشَرة أوْسُق.

ثم مضى رسول الله (ﷺ) فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: «تخلف فلان» فيقول: «**دَعُوهُ، فإن يك فيه خير فسيُلْحِقُه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه**» وتلوَّم على أبي ذر بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره، ثم خرج يتبع أثر الرسول (ﷺ) ماشياً، ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين، فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله: «**كن أبا ذر**» فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله، والله هو أبو ذر، فقال رسول الله (ﷺ): «**رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبْعَث وحده**»... [1]

[2]فصل في رجوع النبي (ﷺ) من تبوك وما هَمّ المنافقون من الكيد به، وعِصْمة الله إياه

ذكر أبو الأسود في مغازيه عن عروة قال: ورجع رسول الله (ﷺ) قافِلاً من تَبوك إلى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق: مكَر برسول الله ناسٌ من

(١) تركنا بقية سياق الغزوة اختصاراً قرابة نصف كراسة.
(٢) ١٦ زاد المعاد جـ ٣.

المنـافقين، فتآمروا أن يطرحوه من عَقَبة في الطريق، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه، فلما غشيهم رسول الله أُخْبِرَ خبرَهم، فقال: «**من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي، فإنه أوسع لكم**»، وأخذ رسول الله العقبة، وأخذ الناس ببطن الوادي، إلا النفر الذين هَمُّوا بالمكر برسول الله لَمّا سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا، وقد همُّوا بأمر عظيم، وأمر رسول الله عمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، فمشيا معه، وأمر عَمّاراً أن يأخذ بزمام الناقة، وأمر حذيفة أن يسوقها، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وَكْزة القوم من ورائهم قد غشوه، فغضب رسول الله (ﷺ) وأمر حذيفة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب رسول الله، فرجع ومعه مِحْجَن، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضرباً بالمحجن، وأبصر القوم وهم متلثمون، ولا يشعر إلا أن ذلك فعل المسافر، فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة، وظنوا أن مكرهم قد ظُهر عليه، فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله، فلما أدركه قال: «**اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش أنت يا عمار**»، فأسرعوا حتى استووا بأعلاها، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبي (ﷺ) لحذيفة: هل عرفت من هؤلاء الرهط ـ أو الركب ـ أحداً؟ قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان، وقال: كانت ظلمة الليل، وغشيتهم وهم متلثمون، فقال رسول الله (ﷺ): «**هل علمتم ما كان شأن الركب، وما أرادوا؟**» قالوا: لا، والله يا رسول الله، قال: «**فإنهم مكروا ليسيروا معي، حتى إذا اطّلعتُ في العقبة طرحوني منها**» قالوا: أولا تأمر بهم يا رسول الله إذاً، فنضرب أعناقهم؟ قال: «**أكره أن يتحدث الناس، ويقولوا: إن محمداً قد وضع يده في أصحابه، فسمّاهم لهما، وقال: اكتُماهم**».

وقال ابن إسحاق في هذه القصة: «**إن الله قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وسأخبرك بهم إن شاء الله غداً عند وجه الصبح. فانطلق حتى إذا أصبحتَ فاجمعهم**» فلما أصبح قال: «**ادْعُ عبدالله بن أبي، وسعد بن أبي سرح، وأبا خاطر الأعرابي، وعامر** ـ أو أبا عامر ـ **والجِلاس بن سوُيد بن الصامت** ـ وهو الذي قال: لا ننتهي حتى نرمي **محمداً** من العقبة الليلة، وإن كان **محمد** وأصحابه خيراً منا إنا إذاً لغنم، وهو الراعي، ولا عقل لنا وهو العاقل ـ» وأمره أن يدعو مُجَمِّع بن

حارثـة، ومليحًـا التيمي، وهـو الذي سرق طيب الكعبة وارتد عن الإسلام، وانطلق محارباً في الأرض، فلا يُدْرَى أين ذهب. وأمره أن يدعو حِصن بن نُمير الذي أغار على تمر الصدقة فسرقه، وقال له رسول الله: «**ويحك، ما حملك على هذا؟**» قال: حملني عليه: أني ظننت أن الله لا يطلعك عليه، فأما إذا أطلعك الله عليه وعلمت، فأنا أشهد اليوم أنك رسول الله، وإني لم أؤمن بك قط قبل هذه السـاعـة، فأقال رسول الله (ﷺ) عَثْرتَه، وعفا عنه. وأمره أن يدعو طعيمة بن أُبَيْرِق، وعبدالله بن عيينة ـ وهو الذي قال لأصحابه: اسهروا هذه الليلة تسْلَمُوا الدهر كله، فوالله ما لكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل ـ فدعاه، فقال: «**ويحك، ما كان ينفعك من قتلي لو أني قتلتُ؟**» فقال عبدالله: والله يا رسول الله، لا نزال بخير ما أعطاك الله النصر على عدوك، إنما نحن بالله وبك. فتركه رسول الله (ﷺ) وقال: ادعُ مُرَّة بن الربيع ـ وهو الذي قال: نقتل الواحد الفرد، فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين ـ فدعاه رسول الله، فقال: «**ويحك، ما حملك على أن تقول الذي قلت؟**» فقال: يا رسول الله، إن كنت قلت شيئاً من ذلك إنك لعالم به، وما قلت شيئاً من ذلك. فجمعهم رسول الله (ﷺ) ـ وهم اثنا عشر رجلاً ـ الذين حاربوا الله ورسوله، وأرادوا قتله. فأخبرهم رسول الله بقولهم ومنطقهم، وسِرِّهم وعلانيتهم، وأطلع الله سبحانه نبيه على ذلك بعلمه. ومات الاثنى عشر منافقين مُحاربين لله ولرسوله. وذلك قوله عز وجل: ﴿**وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا**﴾ [التوبة: ٧٤] وكان أبو عامر رأسهم. وله بنوا مسجد الضِّرار، وهو الذي كان يقال له: الراهب، فسماه رسول الله: الفاسق، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة. فأرسلوا إليه فقدم عليهم، فلما قدم عليهم أخزاه الله وإياهم، فانهارت تلك العقبة بهم في نار جهنم.

قلت: وفي سياق ما ذكره ابن إسحاق وهَم من وجوه:

أحدها: أن النبي (ﷺ) أسرَّ إلى حذيفة أسماء أولئك المنافقين، ولم يُطلع عليهم أحداً غيره. وبذلك كان يقال لحذيفة: «إنه صاحب السر الذي لا يعلمه غيره» ولم يكن عمر ولا غيره يعلم أسماءهم. وكان إذا مات الرجل وشكُّوا فيه يقول عمر: «انظروا. فإن صلى عليه حذيفة، وإلا فهو منافق منهم».

الثاني: ما ذكرناه من قوله: «فيهم عبدالله بن أبي» وهو وهم ظاهر. وقد ذكر

ابن إسحاق نفسه: أن عبدالله بن أبي تخلف عن غزوة تبوك.

الثالث: أن قوله: «وسعد أبي سَرْح» وهم أيضاً، وخطأ ظاهر؛ فإن سعد بن أبي سرح لم يعرف له إسلام ألبتة، وإنما ابنه عبدالله كان قد أسلم وهاجر، ثم ارتد ولحق بمكة حتى استأمن له عثمان النبي (ﷺ) عام الفتح، فأمنه وأسلم فحسُن إسلامه ـ ولم يظهر منه بعد ذلك شيء ينكر عليه، ولم يكن مع هؤلاء الاثني عشر ألبتة. فما أدري ما هذا الخطأ الفاحش؟

الرابع: قوله: «وكان أبو عامر رأسهم» وهذا وهم ظاهر، لا يخفى على من دون ابن إسحاق، بل هو نفسه قد ذكر قصة أبي عامر هذا في قصة الهجرة: عن عاصم بن عمر بن قتادة؛ «أن أبا عامر لما هاجر رسول الله (ﷺ) إلى المدينة خرج إلى مكة ببضعة عشر رجلاً. فلما افتتح رسول الله مكة خرج إلى الطائف. فلما أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام. فمات بها طريداً وحيداً غريباً». فأين كان الفاسق وغزوة تبوك. ذهاباً وإياباً؟

فصل[1]

فلما دنا رسول الله (ﷺ) من المدينة خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثَنِيَّات الوَداع

وجب الشكر علينا ... ما دعا للَّه داع

وبعض الرواة يَهِمُ في هذا، ويقول: إنما كان ذلك عند مَقدمه المدينة من مكة. وهو وهَم ظاهر. لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمر بها إلا إذا توجّه إلى الشام.

فلما أشرف على المدينة قال: **«هذه طَابة، وهذا أُحُدٌ، جبل يُحِبُّنا ونُحِبُّه»**...

[2]**ولما** دخل رسول الله (ﷺ) المدينة بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس. فجاءه المخلَّفون. فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له. وكانوا بضعة

---

(١) ٢٠ زاد المعاد جـ ٣.

(٢) ٢١ زاد المعاد جـ ٣.

وثـمانين رجلاً. فقبل منهم رسول الله (ﷺ) علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكَـل سرائـرهم إلى الله. وجـاءه كَعْبُ بن مالك. فلما سلَّم عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّم المغضب، ثم قال له: «**تعال**»، قال: فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خَلَّفَكَ؟ ألم تكن قد ابتَعْتَ ظَهْرك؟**» فقلت: بلى والله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سَخَطه بعذر، ولقد أعطيتُ جَدَلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب، ترضى به عني، لَيُوشِكَنَّ الله أن يُسْخِطك عليَّ. ولئن حدثتك حديث صدق، تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله. لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنتُ قَطُّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلَّفت عنك. فقال رسول الله (ﷺ): «**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك**» فقمت. وثار رجال من بني سَلِمة، فاتبعوني يؤنبونني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله (ﷺ) بما اعتـذر إليه المخلفـون. فقـد كان كافيك ذنبَـك استغفـار رسول الله (ﷺ) لك قال: فوالله، مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل الذي قيل لك. فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العامري، وهـلال بن أمية الـواقفي، فذكـروا لي رجلين صالحـين شهدا بدرًا فيهما أسوة. فمضيت حين ذكـروهمـا لي. ونهى رسول الله (ﷺ) المسلمين عن كلامنا - أيُّها الثلاثة - من بين من تخلَّف عنه. فاجتنبنا الناسُ، وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي: فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا: فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله (ﷺ) فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حَرّكَ شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر. فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني. حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفـوة المسلمـين مشيت حتى تَسَوَّرْت جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ - فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلامَ، فقلت: يا أبا قتادة،

أنْشـدك الله، هل تعلمني أحِبُّ الله ورسـولـه؟ فسكت. فعدت له، فنشدته، فسكت، فعدت له فنشدته. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتَوَلَّيْتُ حتى تَسَوَّرت الجدار. فبينا أنا أمشي بسوق المدينة وإذا نَبطِيٌّ من أنباط الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: مَنْ يَدُلُّ على كعب بن مالك فطفِقَ الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غَسَّان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيعة، فالحق بنـا نُواسِـك، فقلت، لما قرأتهـا: وهـذا أيضاً من البلاء، فتيممتُ بها التَّنور. فَسَجَرْتها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسول الله (ﷺ) يأتيني، فقال: إن رسول الله (ﷺ) يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلِّقها، أم ماذا أفعل؟ قال: لا. ولكن اعتزلها ولا تَقْربها، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامـرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، فجـاءت امـرأة هلال بن أمية، فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائـع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «**لا، ولكن لا يقربك**». قلت: والله ما به حركة إلى شيء. والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. قال كعب: فقال لي بعض أهلي، لو استأذنت رسول الله في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله، لا أستأذن فيها رسول الله وما يدريني ما يقول رسول الله، إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب؟ قال: فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كَملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبحَ خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرضُ بما رَحُبَتْ: سمعت صوت صارخ أوفَى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبْشِرْ، فَخَرَرْتُ ساجداً، فعرفت أنْ قد جاء فَرَجٌ من الله، وآذن رسول الله (ﷺ) بتوبة الله علينا حين صلى الفجر. فذهب الناس يبشروننا. وذهب قِبَل صاحبيَّ مبشرون، وركض إليَّ رجلٌ فرسا، وسعى ساع من أسْلَم، فأوفى على ذِرْوة الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نَزَعْتُ له ثَوْبيَّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما، واستعرت

ثوبين فلبستهما. فانطلقت إلى رسول الله (ﷺ) فتلقَّاني الناس فوجاً فَوْجاً يهنئونني بالتوبة وهم يقولون: لِيَهْنِكَ توبة الله عليك. قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله (ﷺ) جالس حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وهنَّأني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره ـ ولا أنساها لطلحة ـ فلما سلَّمتُ على رسول الله قال ـ وهو يَبْرُق وجهُه من السرور ـ **«أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذُ ولدتك أمك»**.

قال: قلت: أهو من عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: **«لا، بل من عند الله»**. وكان رسول الله (ﷺ) إذا سُرَّ اسْتَنَار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر. وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إنَّ من توبتي أن أنْخَلِعَ من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال: **«أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك»**. قلت: فإني أمسك سَهْمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي: أن لا أتحدث إلا صِدْقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله (ﷺ) إلى يومي هذا ما أبلاني. والله ما تعمدت بعد ذلك إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، فأنزل الله تعالى على رسوله: **﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ﴾** ـ إلى قوله ـ **﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾** [التوبة: ١١٧] فوالله ما أنعم الله عليَّ نعمة قطُّ ـ بعد أن هداني للإسلام ـ أعظم في نفسي من صدقي رسولَ الله (ﷺ): أن لا أكون كَذَبته، فأهلِك كما هَلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد، قال: **﴿سَيَحلِفُونَ بِالله لَكُم إذا انقلَبْتُم إلَيْهِمْ﴾** ـ إلى قوله ـ **﴿فَإنَّ الله لا يَرضَى عَنِ القَومِ الفَاسِقِينَ﴾** [التوبة: ٩٥، ٩٦] قال كعب: وكنا تخلَّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرْجَأ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: **﴿وَعَلى الثلاثة الَّذينَ خُلِّفُوا﴾** [التوبة: ١١٨] وليس الذي ذكر الله مما خلفنا: عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرْجَاؤه عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه[1]».

---

(١) رواه البخاري بهذا السياق في التفسير. ورواه أحمد ومسلم، وعند أحمد زيادة يسيرة.

وقال عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا عبدالله بن صالح: حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿**وآخرون اعتَرَفُوا بِذُنوبِهِم خَلطُوا عَمَلاً صالِحاً وآخَرَ سَيّئاً**﴾ [التوبة:١٠٢] قال: كانوا عشرة رهط، تخلفوا عن رسول الله (ﷺ) في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع رسول الله أوْثَقَ سبعةٌ منهم أنفسَهم بسَواري المسجد. وكان مَمَرُّ النبي (ﷺ) إذا رجع في المسجد عليهم، فلما رآهم، قال: «**من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري؟**» قالوا: هذا أبو لُبَابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله، أوثقوا أنفسهم، وحلفوا أنهم لا يطلقهم أحد حتى يطلقهم النبي (ﷺ) ويعذرهم، فقال: «**وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم، حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين**». فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن بالله لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وآخرونَ اعتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَملاً صَالحاً وآخرَ سَيئاً عسى الله أن يَتُوبَ عَلَيهِمْ**﴾ - وعسى من الله واجب - ﴿**إنّ الله غفورٌ رحيم**﴾ فلما نزلت أرسل إليهم النبي (ﷺ) فأطلقهم، وعذرهم، فجاءوا بأموالهم، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق بها عنا، واستغفر لنا، قال: «**ما أمرت أن آخذ أموالكم**»، فأنزل الله: ﴿**خُذْ مِنْ أموَالِهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهم بهَا، وَصَلِّ عليهم**﴾ يقول: استغفر لهم ﴿**إنَّ صَلاَتَكَ سكَنٌ لّهم**﴾ [التوبة:١٠٣] فأخذ منهم الصدقة، واستغفر لهم، وكان ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم بالسواري، فأُرْجِئُوا لا يدرون: أَيُعَذَّبُون، أم يُتاب عليهم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿**لَقَد تابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرينَ وَالأنصَارِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَعَلى الثلاثة الَّذينَ خُلِّفُوا**﴾ إلى قوله: ﴿**إنَّ الله هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ**﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨] تابعه عطية بن سعد(١).

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في التفسير بنحوه.

فصل[1]

في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد[2].

فمنها: جواز القتال في الشهر الحرام ـ إن كان خروجه في رجب محفوظاً ـ على ما قاله ابن إسحاق، ولكن ههنا أمر آخر، وهو أن أهل الكتاب لم يكونوا يحرمون الشهرالحرام، بخلاف العرب. فإنها كانت تحرمه، وقد تقدم في نسخ تحريم القتال قولين. وذكرنا حُجَجَ الفريقين.

ومنها: تصريح الإمام للرعية، وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه، ليَتَأَهَّبُوا له، ويُعِدُّوا له عُدَّتَهُ، وجواز ستر غيره عنهم، والكناية عنه للمصلحة.

ومنها: أن الإمام إذا اسْتَنْفَر الجيش لزمهم النَّفير، ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه، ولا يشترط في وجوب النفير تعيين كل واحد منهم بعينه، بل متى اسْتُنْفِر الجيش لزم كل واحد منهم الخروج معه. وهذا أحد المواضع الثلاثة التي يصير فيها الجهاد فرض عين، والثاني: إذا حصر العدوّ البلد، والثالث: إذا حضر بين الصفين.

ومنها: وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس، وهذا أحد الروايتين عن أحمد. وهي الصواب الذي لا ريب فيه، فإن الأمر بالجهاد بالمال شَقِيقُ الأمر بالجهاد بالنفس في القرآن وقَرِينُهُ، بل جاء مقدماً على الجهاد بالنفس في كل موضع، إلا موضعاً واحداً. وهذا يدل على أن الجهاد به أهم وآكد من الجهاد بالنفس. ولا ريب أنه أحد الجهادين. كما قال النبي (ﷺ): «**من جَهَّزَ غازياً فقد غَزا**» فيجب على القادر عليه، كما يجب على القادر بالبدن، ولا يتم الجهاد بالبدن إلا ببذله ولا ينتصر إلا بالعَدَد والعُدَد، فإن لم يقدر أن يُكثِّر العدد وجب عليه أن يُمِدّ بالمال والعُدَّة، وإذا وجب الحج بالمال على العاجز بالبدن، فوُجوب الجهاد بالمال أولى وأحرى.

ومنها: ما برَّز به عثمان بن عفان من النفقة العظيمة في هذه الغزوة، وسبق به الناس، فقال النبي (ﷺ): «**غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما أخفيت وما أبديت**»، ثم قال: «**ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم**» وكان قد أنفق ألف دينار وثلاثمائة بعير بُعدتها وأحلاسها وأقتابها.

(١) ٢٦ زاد المعاد جـ ٣.
(٢) أي غزوة تبوك.

ومنها: أن العاجز بماله لا يعذر حتى يبذل جهده ويتحقق عجزه، فإن الله سبحانه إنما نفى الحَرَج عن هؤلاء العاجزين، بعد أن أتوا رسول الله (ﷺ) ليحملهم، فقال: ﴿**لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**﴾ [التوبة: ٩٢] فرجعوا يبكون، لما فاتهم من الجهاد. فهذا العاجز الذي لا حرج عليه.

ومنها: استخلاف الإمام إذا سافر رجلاً من الرعية على الضعفاء والمعذورين والنساء والذرية، ويكون نائبه من المجاهدين، لأنه من أكبر العَوْن لهم. وكان رسول الله يستخلف ابن أم مكتوم، فاستخلفه بِضْع عشرة مرة، وأما في غزوة تبوك: فالمعروف عند أهل الأثر: أنه استخلف علي بن أبي طالب، كما في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص، قال: خَلَّف رسول الله (ﷺ) عليّاً في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله، تُخَلِّفني مع النساء والصبيان؟ فقال: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي**» ولكن هذه كانت خلافة خاصة على أهله. وأما الاستخلاف العام: فكان لمحمد بن مسلمة الأنصاري. ويدل على هذا، أن المنافقين لما أرْجَفُوا به، وقالوا: خَلَّفه استثقالاً، أخذ سلاحه، ثم لحق بالنبي (ﷺ) فأخبره فقال: «**كذبوا، ولكن خَلَّفتك لما تركت ورائي، فارجع، فاخْلُفني في أهلي وأهلك**»...

فصل(١)

ومنها: انعقاد اليمين في حال الغضب؛ إذا لم يخرج بصاحبه إلى حد لا يعلم معه ما يقول، وكذلك ينفذُ حكمه، وتصح عقوده. فلو بلغ به الغضب إلى حد الإغلاق لم ينعقد يمينه ولا طلاقه. وقال أحمد في رواية حنبل في حديث عائشة: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**لا طلاق ولا عَتاق في إغلاق**» يريد: الغضب.

ومنها: قوله (ﷺ): «**ما أنا حملتكم. ولكن الله حملكم**» قد يتعلق به الجبري، ولا متعلَّق له به. وإنما هذا مثل قوله: «**والله لا أعطي أحداً شيئاً، ولا أمنع، وإنما أنا قاسم، أضع حيث أُمرت**» فإنه عبدالله ورسوله، إنما يتصرف بالأمر، فإذا أمره ربه بشيء نفذه، فالله هو المعطي والمانع والحامل؛ والرسول منفذ لما أُمِرَ به. وأما قوله تعالى: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ**﴾ [الأنفال: ١٧]

---

(١) ٣٢ زاد المعاد جـ ٣

فالمراد به: القبضة من الحصباء التي رمى بها وُجُوهَ المشركين فوصلت إلى عيون جميعهم. فأثبت الله سبحانه له الرمي باعتبار النبذ والإلقاء. فإنه فعله، ونفاه عنه باعتبار الإيصال إلى جميع المشركين، وهذا فعل الرب تعالى، لا تصل إليه قدرة العبد، والرمي يطلق على الحذف، وهو مَبْدَؤُه، وعلى الإيصال، وهو نهايته.

فصل

ومنها: تركه قتل المنافقين، وقد بلغه عنهم الكفر الصريح، فاحتج به من قال: لا يقتل الزنديق إذا أظهر التوبة، لأنهم حلفوا لرسول الله (ﷺ) أنهم ما قالوا، وهذا إذا لم يكن إنكاراً فهو توبة وإقلاع. وقد قال أصحابنا وغيرهم: من شُهد عليه بالردة، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: لم يكشف عن شيء منه بعد. وقال بعض الفقهاء: إذا جحد الردّة كفاه جحدها. ومن لم يقل بتوبة الزنديق، قال: هؤلاء لم تقم عليهم بينة، ورسول الله (ﷺ) لا يحكم عليهم بعلمه، والذي بلَّغ رسول الله عنهم قولَهم لم يُبلِّغه إياه نصاب البينة، بل شهد به عليهم واحد فقط، كما شهد زيد بن أرقم وحده على عبدالله بن أبي، وكذلك غيره أيضاً: إنما شهد عليه واحد.

وفي هذا الجواب نظر، فإن نفاق عبدالله بن أبيّ وأقواله في النفاق كانت كثيرة جدًّا، كالمتواترة عند النبي (ﷺ) وأصحابه، وبعضهم أَقَرَّ بلسانه، وقال: ﴿**إنما كنا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ**﴾ [التوبة: ٦٥] وقد واجهه بعض الخوارج في وجهه بقوله: «**إنك لم تعدل**» والنبي (ﷺ) لما قيل له: ألا تقتلهم؟ لم يقل: ما قامت عليهم بينة، بل قال: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**».

فالجـواب الصحيح إذن: أنـه كان في ترك قتلهم في حياة النبي (ﷺ) مصلحة تتضمن تأليف القلوب على رسول الله، وجمع كلمة الناس عليه. وكان في قتلهم تنفير، والإسلام بَعْدُ في غُرْبَةٍ، ورسول الله أحرص شيء على تأليف الناس، وأتـرك شيء لما ينفـرهم عن الـدخـول في طاعتـه، وهذا أمر كان يختص بحال حياتـه (ﷺ) وكـذلـك ترك قتـل من طعن عليه في حكمه بقوله في قصة الزبير وخصمه: «**أنْ كان ابنَ عمتك**» وفي قسمه بقوله: «**إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه**

الله» وقول الآخر له: «**إنك لم تعدل**» فإن هذا محض حقه؛ له أن يستوفيه، وله أن يتركه. وليس للأمة بعده ترك استيفاء حقه، بل يتعين عليهم استيفاؤه، ولابُدّ. ولتقرير هذه المسائل موضع آخر. والغرض التنبيه والإشارة.

فصل

ومنها: أن أهل العهد والذمة، إذا أحدث أحد منهم حَدثاً فيه ضرر على المسلمين، انتقض عهده في ماله ونفسه، وأنه إذا لم يقدر عليه الإمام، فدمه وماله هَدَر، وهو لمن أخذه، كما قال في صلح أهل أيلة: «**فمن أَحْدَث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وهو لمن أخذه من الناس**» وهذا لأنه بالإحداث صار مُحَارباً، حكمه حكم أهل الحرب.(١).

فصل(٢)

ومنها تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها، وهدمها كما حرق رسول الله (ﷺ) مسجد الضرار وأمر بهدمه، وهو مسجد يصلى فيه ويذكر اسم الله فيه؛ لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً ومأوى للمنافقين المحاربين لله ورسوله.

وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله: إما بهدم وتحريق وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له. وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار؛ فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله، أحق بذلك وأوجب، وكذلك محال المعاصي والفسوق: كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات، وقد حرق عمر بن الخطاب قرية بكاملها يباع فيها الخمر. وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماه فويسقاً. وحرق قصر سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية. وهم رسول الله (ﷺ) بتحريق بيوت تاركي حضور الجماعة والجمعة، وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم. كما أخبر هو عن ذلك.

---

(١) ساق المؤلف رحمه الله ما تضمنته هذه الغزوة في قرابة كراستين، وهي فوائد عظيمة منوعة نقلنا بعضها في هذه السورة وتركنا الباقي اختصاراً.

(٢) ٣٥ زاد المعاد جـ ٣.

ومنها: أن الوقف لا يصح على غير برّ ولا قُرْبة، كما لم يصح وقف هذا المسجد؛ وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر، كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد. نص على ذلك الإمام أحمد وغيره، فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيُّهما طرأ على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق. فلو وضعا معاً: لم يجز، ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز. ولا تصح الصلاة في هذا المسجد؛ لنهي رسول الله (ﷺ) عن ذلك، ولَعْنِه مَن اتخذَ القبر مسجداً، أو أوْقَدَ عليه سراجاً. فهذا دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله ونبيه، وغُرْبتُه بين الناس كما ترى.

فصل(١)

في أمر مسجد الضرار
الذي نهى الله رسوله أن يقوم فيه، فهدمه

أقبل رسول الله من تبوك حتى نزل بذِي أُوان ـ وبينها وبين المدينة ساعة ـ وكان أصحاب مسجد الضرار أتوه، وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العِلّة والحاجة، والليلة المطيرة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: «**إني على جناح سفر وحالِ شغل ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه**» فلما نزل بذي أوان جاءه خبر المسجد من السماء. فدعا مالك بن الدُّخْشُم ـ أخا بني سلمة بن عوف ـ ومعن بن عدي العجلاني، فقال: «**انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه، فاهدماه وحرِّقاه**»،فخرجا مُسرعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ـ وهم رهط مالك بن الدخشم ـ فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، ودخل إلى أهله، فأخذ سَعَفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً. ثم خرجا يشتدَّان حتى دخلاه ـ وفيه أهلُه ـ فحرقاه وهدماه، فتفرقوا عنه، فأنـزل الله فيه: ﴿**وَالَّـذِينَ اتَّخَذُوا مَسجِداً ضِرَاراً وكُفراً وَتفريقاً بَينَ المؤمِنينَ**﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠] إلى آخر القصة. وذكر ابن إسحاق الذين بنوه، وهم اثنا عشر رجلاً، منهم: ثعلبة بن حاطب.

---

(١) ١٩ زاد المعاد جـ ٣.

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا عبدالله بن صالح: حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: **﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً﴾**: «هم أُناس من الأنصار ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستمِدُّوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي (ﷺ) فقالوا: إنا قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة، فأنزل الله عز وجل: **﴿لا تقم فيه أبدا، لمسجد أُسِّس على التقوى من أول يوم﴾** يعني مسجد قباء **﴿أحقُّ أن تقوم فيه﴾** إلى قوله **﴿فانهارَ به في نار جهنم﴾** يعني قواعده **﴿لا يزال بنيانهم الذي بَنَوْا رِيبَةً في قلوبهم﴾** يعني الشك **﴿إلا أن تَقَطَّع قلوبهم﴾** [التوبة: ١٠٨ - ١١٠] يعني بالموت».

(١)**ومنها** جواز إنْشَاد الشعر للقادم، فرحاً وسروراً به، ما لم يكن معه لَهْوٌ من محرم، كمزْمَار وشَبَّابة وعود، ولم يكن غناء يتضمن رُقْية الفواحش. وما حرم الله. فهذا لا يحرمه أحد. وتعلق أرباب السماع الفسقي به كتعلق من يستحل شرب الخمر المسكر قياساً على أكل العنب وشرب العصير الذي لا يسكر، ونحو هذا من القياسات التي تشبه قياس الذين قالوا: **﴿إِنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِبَا﴾** [البقرة: ٢٧٥].

ومنها: استماع النبي (ﷺ) مدح المادحين له، وترك الإنكار عليهم. ولا يصح قياس غيره عليه في هذا، لما بين المادحين والممدوحين من الفروق. وقد قال: «**احْثُوا في وجوه المداحين التراب**». **ومنها**: ما اشتملت عليه قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا من الحِكَم والفوائد الجمّة، فنشير إلى بعضها:

فمنها: جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله ورسوله، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمره، وفي ذلك من التحذير والنصيحة، وبيان طرق الخير والشر، وما يترتب عليهما؛ ما هو من أهمّ الأمور.

ومنها: جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير، إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع. ومنها: تسلية الإنسان نفسه عما لم يُقَدَّر له من الخير بما قُدِّر له من

---

(١) ٣٦ زاد المعاد جـ ٣.

نظيره، أو خير منه. ومنها: أن بَيْعة العَقَبة كانت من أفضل مشاهد الصحابة، حتى إن كَعْباً كان لا يراها دون مشهد بدر.

ومنها: أن الإمام إذا رأى المصلحة في أن يَسْتُر عن رعيته بعض ما يَهِمُّ به ويقصده من العدو، ويُورِّي به عنه استُحِب له ذلك، أو يتعين بحسب المصلحة.

ومنها: أن الستر والكتمان إذا تضمن مفسدة؛ لم يجز.

ومنها: أن الجيش في حياة النبي (ﷺ) لم يكن لهم ديوان، وأن أولَ من دوَّنَ الديوان عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهذا من سنته التي أمر النبي (ﷺ) باتباعها، وظهرت مصلحتها، وحاجة المسلمين إليها.

فصل(١)

من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه. فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد؛ فالعارف همته تصحيح الأساس وأحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط. قال تعالى: ﴿**أَفَمَن أَسَّسَ بُنيَانَه عَلى تَقوىٰ مِنَ الله ورِضوَانٍ خَيرٌ أم مَّن أَسَّسَ بُنيَانَه عَلى شَفَا جُرفٍ هَارٍ فانهارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**﴾ [التوبة: ١٠٩] فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية، حملت البدن، ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة، ضعف حملها للبدن، وكانت الآفات إليه أسرع شيء. فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه، كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس؛ وهذا الأساس أمران: **صحة** المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه، فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء، فأحكم الأساس، واحفظ القوة،

(١) ١٥٤ فوائد.

ودم على الحمية، واستفرغ إذا زاد بك الخلط والقصد القصد وقد بلغت المراد،
وإلا فما دامت القوة ضعيفة، والمادة الفاسدة موجودة، والاستفراغ معدوماً.

فأقر السلام على الحياة فإنها قد آذنتك بسرعة التوديع

فإذا كمل البناء فبيضه بحسن الخلق والإحسان إلى الناس، ثم حطه بسور من الحذر لا يقتحمه عدو ولا تبدو منه العورة، ثم أرخ الستور على أبوابه، ثم أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركب له مفتاحاً من ذكر الله، به تفتحه وتغلقه، فإن فتحت فتحت بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقته به، فتكون حينئذ قد بنيت حصناً تحصنت فيه من أعدائك، إذا أطاف به العدو ولم يجد منه مدخلاً فييأس منك، ثم تعاهد بناء الحصن كل وقت، فإن العدو إذا لم يطمع في الدخول من الباب نقب عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب، فإن أهملت أمره، وصل إليك النقب، فإذا العدو معك في داخل الحصن، فيصعب عليك إخراجه، وتكون معه على ثلاث خلال: إما أن يغلبك على الحصن ويستولي عليه، وإما أن يساكنك فيه، وإما أن يشغلك بمقابلته عن تمام مصلحتك وتعود إلى سد النقب ولم شعث الحصن.

(١)**قال** تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ اشتَرَى مِنَ المؤمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَموَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعداً عَلَيهِ حَقًّا فِي التَّورَاةِ والإِنجِيلِ وَالقُرآنِ وَمَنْ أَوفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاستَبشِرُوا بِبَيعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾** [التوبة: ١١١] فجعل سبحانه ها هنا الجنة ثمناً لنفوس المؤمنين وأموالهم؛ بحيث إذا بذلوها فيه، استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد وأكده بأنواع من التأكيد.

أحدها: إخبارهم سبحانه وتعالى بصيغة الخبر المؤكد بأداة إن.

الثاني: الإخبار بذلك بصيغة الماضي الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع.

---

(١) ٦٤ حادي الأرواح.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعداً لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة على التي للوجوب إعلاماً لعباده بأن ذلك حق عليه أحقه هو على نفسه.

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقًّا عليه.

السابع: انه أخبر عن محل هذا الوعد وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوراة والإنجيل والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

التاسع: أنه سبحانه وتعالى أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد ويبشر به بعضهم بعضاً بشارة من قد تم له العقد ولزم؛ بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه.

العاشر: أنه أخبرهم إخباراً مؤكداً بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم، والبيع ههنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة وقوله: ﴿**بايعتم به**﴾ أي عاوضتم وثامنتم به.

ثم ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذي وقع العقد وتم لهم دون غيرهم، وهم: التائبون مما يكره، العابدون له بما يحب، الحامدون له على ما يحبون وما يكرهون، السائحون. وفسرت السياحة بالصيام، وفسرت بالسفر في طلب العلم، وفسرت بالجهاد، وفسرت بدوام الطاعة.

والتحقيق فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته، والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال، ولذلك وصف الله سبحانه نساء النبي (ﷺ) اللاتي لو طلق أزواجه بدله بهن بأنهن: سائحات وليست سياحتهن جهاداً ولا سفراً في طلب علم ولا إدامة صيام؛ وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى وخشيته والإنابة إليه وذكره.

وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين: هذه ترك ما يكره وهذه فعل ما يحب، والحمد والسياحة قرينتين: هذا الثناء عليه بأوصاف كماله،

وسياحة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله.

كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينتين في صفة الأزواج: فهذه عبادة البدن، وهذه عبادة القلب.

وجعل الإسلام والإيمان قرينين: فهذا علانية، وهذا في القلب كما في المسند عنه (ﷺ): «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**».

وجعل القنوت والتوبة قرينين: هذا فعل ما يحب، وهذا ترك ما يكره.

وجعل الثيوبة والبكارة قرينتين: فهذه قد وطئت وارتاضت وذللت صعوبتها، وهذه روضة أنف لم يرتع فيها بعد.

وجعل الركوع والسجود قرينين، وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قرينين، وأدخل بينهما الواو دون ما تقدم إعلاماً بأن أحدهما لا يكفي حتى يكون مع الآخر، وجعل ذلك قريناً لحفظ حدوده، فهذا حفظها في نفس الإنسان، وذلك أمر غيره بحفظها.

وأفهمت الآية خطر النفس الإنسانية وشرفها وعظم مقدارها، فإن السلعة إذا خفي عليك قدرها فانظر إلى المشتري لها من هو؟ وانظر إلى الثمن المبذول فيها ما هو؟ وانظر إلى من جرى على يده عقد التبايع. فالسلعة النفس والله سبحانه المشتري لها، والثمن لها جنات النعيم، والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة وأكرمهم عليه، وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه.

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وفي جامع الترمذي: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «**من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية، ألا أن سلعة الله الجنة**» قال: هذا حديث حسن غريب.

[1]**وأما** قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم**﴾ فكان تقديم الأنفس هو الأولى؛ لأنها هي المشتراة في الحقيقة، وهي مورد العقد وهي السلعة التي استامها ربها وطلب شراءها لنفسه، وجعل ثمن هذا العقد رضاه وجنته،

(١) ٧٨ بدائع الفوائد جـ ١.

فكانت هي المقصود بعقد الشراء والأموال تبع لها؛ فإذا ملكها مشتريها ملك مالها فإن العبد وما يملكه لسيده ليس له فيه شيء، فالمالك الحق إذا ملك النفس ملك أموالها ومتعلقاتها؛فحسن تقديمالنفس علىالمال في هذهالآية حسناً لا مزيدعليه.

(١)**ويتعلق** بهذا نوع آخر من التقديم لم يذكره، وهو تقديم الأموال على الأنفس في الجهاد؛ حيث ما وقع في القرآن إلا في موضع واحد وهو قوله: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله﴾**.

وأما سائر المواضع فقدم فيها المال نحو قوله: **﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُم وأنفُسِكُم﴾** [الصف: ١١]. وقوله: **﴿وَجَاهدُوا فِي سَبِيلِ الله بِأموَالِهِمُ وَأنفُسِهِم﴾** [التوبة: ٢٠].

وهو كثير، فما الحكمة في تقديم المال على النفس وما الحكمة في تأخيره في هذا الموضع وحده؟ وهذا لم يتعرض له السهيلي رحمه الله.

فيقال أولاً: هذا دليل على وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس. فإذا دهم العدو وجب على القادر الخروج بنفسه؛ فإن كان عاجزاً وجب عليه أن يكتري بماله، وهذا إحدى الروايتين عن الإمام أحمد والأدلة عليها أكثر من أن تذكر هنا. ومن تأمل أحوال النبي (ﷺ) وسيرته في أصحابه وأمرهم بإخراج أموالهم في الجهاد قطع بصحة هذا القول.

والمقصود تقديم المال في الذكر، وأن ذلك مشعر بإنكار وهم من يتوهم أن العاجز بنفسه إذا كان قادراً على أن يُغزي بماله لا يجب عليه شيء، فحيث ذكر الجهاد قدم ذكر المال فكيف يقال لا يجب به.

ولو قيل: إن وجوبه بالمال أعظم وأقوى من وجوبه بالنفس؛ لكان هذا القول أصح من قول من قال: لا يجب بالمال وهذا بين.

وعلى هذا فتظهر الفائدة في تقديمه في الذكر.

وفائدة ثانية على تقدير عدم الوجوب، وهي أن المال محبوب النفس

---

(١) ٧٧ بدائع الفوائد جـ ١.

ومعشوقها التي تبذل ذاتها في تحصيله وترتكب الأخطار وتتعرض للموت في طلبه، وهذا يدل على أنه هو محبوبها ومعشوقها؛ فندب الله تعالى محبيه المجاهدين في سبيله إلى بذل معشوقهم ومحبوبهم في مرضاته، فإن المقصود أن يكون الله هو أحب شيء إليهم ولا يكون في الوجود شيء أحب إليهم منه، فإذا بذلوا محبوبهم في حبه نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها، وهي بذل نفوسهم له فهذا غاية الحب؛ فإن الإنسان لا شيء أحب إليه من نفسه فإذا أحب شيئاً بذل له محبوبه من نفعه وماله، فإذا آل الأمر إلى بذل نفسه ضن بنفسه وآثرها على محبوبه، هذا هو الغالب وهو مقتضى الطبيعة الحيوانية والإنسانية؛ ولهذا يدافع الرجل عن ماله وأهله وولده، فإذا أحس بالمغلوبية والوصول إلى مهجته ونفسه فر وتركهم، فلم يرض الله من محبيه بهذا بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسهم بعد أن بذلوا له محبوباتها.

وأيضاً فبذل النفس آخر المراتب، فإن العبد يبذل ماله أولاً يقي به نفسه، فإذا لم يبق له مال بذل نفسه، فكان تقديم المال على النفس في الجهاد مطابقاً للواقع.

(1)**فصل**: الكلام على واو الثمانية، قولهم: إن الواو تأتي للثمانية ليس عليه دليل مستقيم وقد ذكروا ذلك في مواضع فلنتكلم عليها واحداً واحداً.

الموضع الأول قوله تعالى: ﴿**التَائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السائحون الراكعون السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمعرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [التوبة: ١١٢]. فقيل الواو في ﴿**والناهون**﴾ واو الثمانية لمجيئها بعد استيفاء الأوصاف السبعة، وذكروا في الآية وجوهاً أخرى:

منها: أن هذا من التفنن في الكلام أن يعطف بعضه ويترك عطف بعضه.

ومنها أن الصفات التي قبل هاتين الصفتين صفات لازمة متعلقة بالعامل وهاتان الصفتان متعديتان متعلقتان بالغير فقطعتا عما قبلهما بالعطف.

ومنها: أن المراد التنبيه على أن الموصوفين بالصفات المتقدمة هم الآمرون

---

(١) ٥١ بدائع جـ٣.

بالمعـروف والناهون عن المنكر، وكل هذه الأجوبة غير سديدة وأحسن ما يقال فيها: إن الصفات إذا ذكرت في مقام التعداد:

فتارة: يتوسط بينها حرف العطف؛ لتغايرها في نفسها، وللإيذان بأن المراد ذكر كل صفة بمفردها.

وتارة: لا يتوسطها العاطف لاتحاد موصوفها وتلازمها في نفسها وللإيذان بأنها في تلازمها كالصفة الواحدة.

وتارة: يتوسط العاطف بين بعضها ويحذف مع بعض بحسب هذين المقامين.

فإذا كان المقام مقام تعداد الصفات من غير نظر إلى جمع أو انفراد؛ حسن إسقاط حرف العطف.

وإن أريد الجمع بين الصفات أو التنبيه على تغايرها؛ حسن إدخال حرف العطف.

فمثال الأول ﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ**﴾ وقوله: ﴿**مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ**﴾ [التحريم: ٥].

ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ**﴾ [الحديد: ٣].

وتأمل كيف اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿**حمٓ تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَـزِيزِ العَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّولِ**﴾ [غافر: ١-٣]. فأتى بالواو في الوصفين الأولين وحذفها في الوصفين[1] الأخيرين؛ لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد؛ لتلازمهما فمن غفر الذنب قبل التوب، فكان في عطف أحدهما على الآخر، ما يدل على أنهما صفتان وفعلان متغايران ومفهومان مختلفان لكل منهما حكمه:

أحدهما: يتعلق بالإساءة والإعراض وهو المغفرة.

والثاني: يتعلق بالإحسان والإقبال على الله والرجوع إليه وهو التوبة، فتقبل هذه الحسنة، وتغفر تلك السيئة، وحسن العطف ههنا هذا التغاير الظاهر، وكلما كان التغاير، أبين، كان العطف أحسن؛ ولهذا جاء العطف في قوله: ﴿**هُو الأَوَّلُ والآخِـرُ والـظَّاهِرُ والباطِنُ**﴾ [الحديد: ٣]. وترك في قوله ﴿**المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ**

---

(١) في نسخة الآخر.

المُؤمِنُ المُهيمِنُ﴾ وقوله: **﴿الخَالِقُ البَارِىء المُصَورُ﴾** [الحشر: ٢٣، ٢٤]. وأما **﴿شَدِيدُ العِقَابِ ذي الطَّول﴾** [غافر:٣]. فترك العطف بينهما لنكتة بديعة، وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، وطوله لا ينافي شدة عقابه بل هما مجتمعان له بخلاف الأول والآخر؛ فإن الأولية لا تجامع الآخرية ولهذا فسرها النبي (ﷺ) بقوله: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء**» فأوليته أزليته وآخريته أبديته.

فإن قلت فما تصنع بقوله: **﴿والظاهر والباطن﴾** فإن ظهوره تعالى ثابت مع بطونه فيجتمع في حقه الظهور والبطون، والنبي (ﷺ) فسر الظاهر بأنه الذي ليس فوقه شيء، والباطن بأنه الذي ليس دونه شيء، وهذا العلو والفوقية مجامع لهذا القرب والدنو والإحاطة.

قلت: هذا سؤال حسن، والذي حسن دخول الواو ههنا أن هذه الصفات متقابلة متضادة، وقد عطف الثاني منهما على الأول للمقابلة التي بينهما، والصفتان الأخريان كالأوليين في المقابلة ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة الآخر إلى الأول، فكما حسن العطف بين الأوليين حسن بين الآخرين.

فإذا عرف هذا فالآية التي نحن فيها يتضح بما ذكرناه معنى العطف وتركه فيها؛ لأن كل صفة لم تعطف على ما قبلها فيها كان فيه تنبيه على أنها في اجتماعها كالوصف الواحد لموصوف واحد؛ فلم يحتج إلى عطف فلما ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما متلازمان مستمدان من مادة واحدة؛ حسن العطف ليتبين أن كل وصف منهما قائم على حدته مطلوب تعيينه لا يكتفى فيه بحصول الوصف الآخر؛ بل لابد أن يظهر أمره بالمعروف بصريحه ونهيه عن المنكر بصريحه.

وأيضاً فحسن العطف ههنا ما تقدم من التضاد، فلما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضدين: أحدهما طلب الإيجاد، والآخر طلب الإعدام، كانا كالنوعين المتغايرين المتضادين فحسن لذلك العطف.

الموضع الثاني: قوله تعالى: **﴿عَسى رَبّهُ إن طَلَّقَكُنَّ أن يُبدلَهُ أزْوَاجاً خَيراً مِنكُن مُسلِمَاتٍ مُؤمِنَاتٍ﴾** [التحريم:٥]. إلى قوله: **﴿ثيبات وأبكاراً﴾** فقيل: هذه واو الثمانية لمجيئها بعد الوصف السابع وليس كذلك، ودخول الواو ههنا متعين؛ لأن الأوصاف

التي قبلها المراد اجتماعها في النساء، وأما وصفا البكارة والثيوبة فلا يمكن اجتماعهما؛ فتعين العطف لأن المقصود أنه يزوجه بالنوعين الثيبات والأبكار.

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُم كَلبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُم**﴾ [الكهف: ٢٢].

قيل: المراد إدخال الواو ههنا لأجل الثمانية وهذا يحتمل أمرين: أحدهما: هذا.

والثاني: أن يكون دخول الواو ههنا إيذاناً بتمام كلامهم عند قولهم: ﴿**سبعة**﴾، ثم ابتدأ قوله: ﴿**وثامنهم كلبهم**﴾ وذلك يتضمن تقرير قولهم: ﴿**سبعة**﴾ كما إذا قال لك: زيد فقيه، فقلت: ونحوي. وهذا اختيار السهيلي، وقد تقدم الكلام عليه، وأن هذا إنما يتم إذا كان قوله: ﴿**وثامنهم كلبهم**﴾ ليس داخلاً في المحكي بالقول والظاهر خلافه والله أعلم.

الموضع الرابع قوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُم إِلَى الجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أَبوَابُهَا**﴾ [الزمر: ٧٣]. فأتى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية وقال في النار: ﴿**حتى إِذَا جَاءوهَا فُتِحَتُ أبوَابُها**﴾ لما كانت سبعة وهذا في غاية البعد ولا دلالة في اللفظ على الثمانية حتى تدخل الواو لأجلها بل هذا من باب حذف الجواب لنكتة بديعة وهي أن تفتيح أبواب النار كان حال موافاة أهلها ففتحت في وجوههم لأنه أبلغ في مفاجأة المكروه. وأما الجنة فلما كانت دار[١] الكرامة وهي مأدبة[٢] الله وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرع لهم أبوابها ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب أتى بالواو العاطفة ههنا الدالة على أنهم[٣] جاءوها بعد ما فتحت أبوابها وحذف الجواب تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقدره كعادتهم في حذف الأجوبة وقد أشبعنا الكلام على هذا فيما تقدم والله أعلم.

[٤]**وتوبة** العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها وتوبة منه بعدها فتوبته

---

(١) في المطبوعة (ذات) والصواب ما أثبتناه كما هو في المخطوطة. المراجع.

(٢) نسخة مائدة كذا في المخطوطة.

(٣) في المطبوعة (أنها) والصواب ما أثبتناه كما في المخطوطة. المراجع.

(٤) ٣١٢ مدارج جـ ١.

بين توبتين من ربه: سابقة ولاحقة فإنه تاب عليه أولاً إذناً وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب العبد. فتاب الله عليه ثانياً، قبولاً وإثابة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتبعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسرَةِ مِنَ بَعدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنهُم. ثُمَّ تَابَ عَلَيهِمُ إِنَّهُ بِهِم رَءوفٌ رَّحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا. حَتَّى إِذَا ضَاقَت عَلَيهِمُ الأَرضُ بِمَا رَحُبَتْ. وَضَاقَتْ عَلَيهِم أَنفُسُهُم. وَظَنُّوا أَن لا مَلْجَأَ مِنَ الله إِلاَّ إِلَيهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا. إِنَّ الله هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨] فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين. فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم. فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم. والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا، هدايته لعبده قبل الاهتداء(١). فيهتدي بهدايته. فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته. فإن من ثواب الهدى، الهدى بعده. كما أن من عقوبة الضلالة، الضلالة بعدها. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهتَدَوا زَادَهُم هُدى﴾[محمد: ١٧]. فهداهم أولاً فاهتدوا، فزادهم هدى ثانياً.

وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُم﴾ [الصف: ٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول، والآخر» فهو المعدُّ. وهو الممدّ. ومنه السبب والمسبب. وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به: «**وأعوذ بك منك**» والعبد تواب. والله تواب. فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد.

---

(١) فقد أعطاه ربه هداية الفطرة ﴿إِنَّا خَلَقنَا الإنسَانَ مِنْ نُطفَةٍ أَمشَاجٍ نَبْتَلِيه. فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعا بَصِيراً. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٢، ٣]. فإن أحسن الاهتداء بهداية الفطرة في سمعه وبصره وفؤاده، وشكر ربه عليها باستعمالها في إيصال المعلومات إلى فؤاده على حقيقتها التي خلقها الله، فعقلها وأحسن ترتيبها والاستفادة منها. زاده الله هدى وزاده من نعمة التفكر والتأمل صفاء ونوراً، اهتدى به إلى الفقه في كلامه وكلام رسوله، صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَنْ لَم يَجعَلِ الله لَه نُوراً فَمَا لَه مِن نُورٍ﴾ [النور: ٤٥].

(١)**فاعلم** الآن: أن التوبة نهاية كل عارف. وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهي نهاية. والحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية. بل هي في النهاية في محل الضرورة.

فاسمع الآن ما خاطب الله به رسوله في آخر الأمر عند النهاية، وكيف كان رسول الله (ﷺ) في آخر حياته أشد ما كان استغفاراً وأكثره، قال الله تعالى: ﴿**لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرينَ وَالأنصَارِ الَّذِينَ اتبعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسرَةِ مِن بَعدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنهُم. ثُمَّ تَابَ عَلَيهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١١٧].

وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوة تبوك. وهي آخر الغزوات التي غزاها (ﷺ) بنفسه. فجعل الله سبحانه «التوبة عليهم» شكراناً لما تقدم من تلك الأعمال. وذلك الجهاد.

وقال تعالى في آخر ما أنزل على رسوله: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصرُ الله وَالفَتْحُ وَرَأَيتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفواجاً فَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّكَ وَاستَغفِرهُ إنه كان تَوَّابَا**﴾ [سورة النصر]. وفي الصحيح؛ أنه (ﷺ) ما صلى صلاة ـ بعد ما نزلت عليه هذه السورة ـ إلا قال فيها: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي**» وذلك في نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه.

ولهذا فهم منها علماء الصحابة ـ كعمر بن الخطاب، وعبدالله بن عباس، رضي الله عنهم ـ: أنه أجل رسول الله (ﷺ) أعلمه الله إياه.

فأمره سبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله، وآخر أمره، على ما كان عليه (ﷺ) مقاماً وحالاً. وآخر ما سُمع من كلامه عند قدومه على ربه: «**اللهم اغفر لي. وألحقني بالرفيق الأعلى**».

وكان، (ﷺ) يختم كل عمل صالح بالاستغفار. كالصوم، والصلاة، والحج، والجهاد. فإنه كان إذا فرغ منه، وأشرف على المدينة، قال: «**آيبُون، تائبُون، لربنا حامدون**».

وشرع أن يُختم المجلس بالاستغفار، وإن كان مجلس خير وطاعة: شرع

(١) ٤٣٥ مدارج جـ ٣.

أن يختم العبد عمل يومه بالاستغفار فيقول عند النوم: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» وأن ينام على سيد الاستغفار ...

فصل[1]

ومنها عِظَمُ مِقْدار الصِّدْق، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة والنَّجَاة من شرهما به، فما أنجى الله من أنجى إلا بالصدق، ولا أهلك من أهلك إلا بالكذب، وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿يَاأَيُّها الَّذينَ آمنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء، وأشقياء، فجعل السعداء هم أهل الصدق والتصديق، والأشقياء: هم أهل الكذب والتكذيب، وهو تقسيم حاصر مطرد منعكس، فالسعادة دائرة مع الصدق والتصديق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب. وأخبر سبحانه وتعالى: أنه لا ينفع العباد يوم القيامة إلا صدقهم.

وجعل عَلم المنافقين الذي تميزوا به: هو الكذب في أقوالهم وأفعالهم. فجميعُ ما نَعَاه عليهم: أصله الكذب في القول والفعل.

فالصدق بريد الإيمان ودليله، ومَرْكبه وسائقه وقائده، وحليته ولباسه، بل هو لُبّه وَرُوحُه.

والكذب بريد الكفر والنفاق، ودليله، ومركبه وسائقه، وقائده وحليته، ولباسه ولُبُّه. فمضادة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد، فلا يجتمع الكذب والإيمان إلا ويَطْرُد أحدهما صاحبه، ويستقر موضعه.

والله سبحانه أنجى الثلاثة بصدقهم، وأهلك غيرهم من المتخلفين بكذبهم، فما أنعم الله على عبد من نعمة بعد الإسلام أفضل من الصدق الذي هو غذاء الإسلام وحياته، ولا ابتلاه ببلية أعظم من الكذب الذي هو مرض الإسلام وفساده. والله المستعان.

---

(١) ٥٠ زاد المعاد جـ ٣.

وقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتبعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسرَةِ مِن بَعدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ. ثُمَّ تَابَ عَلَيهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧] هذا من أعظم ما يُعَرِّف العبدَ قدر التوبة وفضلها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن. فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات، بعد أنْ قَضَوْا نَحْبَهم، وبَذَلُوا نفوسهم وأموالهم وديارَهم لله، وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي (ﷺ)، يوم توبة كعب خيرَ يوم مرَّ عليه مُنذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم، ولا يعرف هذا حقَّ معرفته إلا من عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبودية، وعرف نفسه وصفاتها وأفعالها، وأن الذي قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه كقطرة في بحر. هذا إذا سَلِم من الآفات الظاهرة والباطنة.

فسبحان من لا يَسَعُ عبادَه غيرُ عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا ذلك أو الهلاك. فإن وضع عليهم عدله فَعَذَّب أهل سماواته وأرضه: عَذَّبَهم وهو غير ظالم لهم، وإن رحمهم: فرحمته خير لهم من أعمالهم. ولا ينجي أحداً منهم عملُه.

فصل

وتأمل تكريره سبحانه توبته عليهم مرتين ـ في أول الآية وآخرها ـ فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لفعلها، وتفضل عليهم بقبولها. فالخير كله منه وبه وله. وفي يديه، يُعْطِيه من يشاء إحْسَاناً وفضلاً، ويحرمه من يشاء حكمة وعدلاً.

فصل

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة:١١٨] قد فسرها كعب بالصواب وهو أنهم خُلِّفوا من بين مَن حلف لرسول الله (ﷺ) واعتذر من المتخلفين. فخلَّف هؤلاء الثلاثة عنهم، وأرجأ أمرهم دونهم. وليس ذلك تَخَلُّفهم عن الغزو، لأنه لو أراد ذلك لقال: تخلفوا، كما قال تعالى: ﴿ما كَانَ لأَهلِ المدينَةِ وَمَن حَولَهُم مِنَ الأعرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ الله﴾ [التوبة:١٢٠] وذلك لأنهم

تخلفوا بأنفسهم، بخلاف تخليفهم عن أمر المتخلفين سواهم، فإن الله سبحانه هو الذي خَلَّفهم عنهم، ولم يتخلفوا عنه بأنفسهم. والله أعلم.

(١)**قوله** تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. قال غير واحد من السلَفِ: هم أصحاب محمد (ﷺ) ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فبهم يأتمُّ في صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم وكونه معهم، ومعلوم أن مَنْ خالفهم في شيء - وإن وافقهم في غيره - لم يكن معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذ فيصدق عليه أنه ليس معهم، فتنتفي عنه المعية المطلقة، وإن ثَبَتَ له قِسْط من المعية فيما وافقهم فيه، فلا يصدق عليه أنه معهم بهذا القسط.

وهذا كما نفى الله ورسوله الإيمان المطلق عن الزاني والشارب والسارق والمنتهب؛ بحيث لا يستحق اسمَ المؤمنِ وإن لم ينتف عنه مطلق الاسم الذي يستحق لأجله أن يقال: معه شيء من الإيمان، وهذا كما أن اسم الفقيه والعالم عند الإطلاق لا يقال لمن معه مسألة أو مسألتان من فقه وعلم، وإن قيل: معه شيء من العلم، ففرق بين المعية المطلقة ومطلق المعية، ومعلوم أن المأمور به الأول لا الثاني.

فإن الله تعالى لم يرد منا أن نكون معهم في شيء من الأشياء وأن نُحَصِّلَ من المعية ما يطلق عليه الاسم، وهـذا غلط عظيم في فَهْم مراد الرب تعالى من أوامره؛ فإذا أمرنا بالتقوى والبر والصدق والعفة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحو ذلك، لم يرد منا أن نأتي من ذلك بأقلِّ ما يطلق عليه الاسم وهو مطلق الماهية المأمور بها، بحيث نكون ممتثلين لأمره إذا أتينا بذلك، وتمام تقرير هذا الوجه بما تقدم في تقرير الأمر بمتابعتهم سواء.

(٢)فصل

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «الصدق».

وهي منزلة القوم الأعظم. الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق

---

(١) ١٣٢ أعلام جـ ٤.

(٢) ٢٦٨ مدارج جـ ٢.

الأقوم الذي من لم يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِعَ على شيء إلا قطعه. ولا واجَه باطلاً إلا أرداه وصرعه. مَنْ صال به لم ترد صولته. ومن نطق به عَلَتْ على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومَحَكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال. وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين.

في الجنات: تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين. كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل وَمَعِين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين. وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فقال تعالى: **﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾** [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: **﴿وَمَن يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فَأُولئكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيهِم مِّنَ النبيِّينَ وَالصِّدِّيقينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالحِينَ﴾** فهم الرفيقُ الأعلى **﴿وَحَسُنَ أولئك رفيقاً﴾** [النساء: ٦٩]. ولا يزال الله يُمِدُّهُم بأنعمه وألطافه ومزيده إحساناً منه وتوفيقاً. ولهم مرتبة المعية مع الله. فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه. إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.

وأخبر تعالى أن مَنْ صَدَقَه فهو خير له. فقال: **﴿فإذا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَو صَدَقُوا الله لَكَانَ خيراً لَّهُمُ﴾** [محمد: ٢١].

وأخبر تعالى عن أهل الْبِرِّ، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان، والإسلام، والصدقة، والصبر. بأنهم أهل الصدق فقال: **﴿وَلٰكِنَّ البرَّ مَن آمَنَ بالله وَاليَومِ الآخِرِ وَالمَلائكةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلى حُبِّه ذَوِى القُربىٰ وَاليَتَامىٰ وَالمَسَاكِينَ وَابنَ السَّبيلِ. وَالسَّائِلِينَ وَفي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالموفُونَ بعهدِهِم إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأساءِ وَالضَّرّاءِ وَحِينَ البأسِ أولئكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأولئِكَ هُمُ المتقُونَ﴾** [البقرة: ١٧٧]. وهذا صريح في أن «الصدق» بالأعمال الظاهرة والباطنة. وأن «الصدق» هو مقام الإسلام والإيمان.

(١)**قال** تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَت سُورَةٌ نَّظَرَ بَعضُهُم إِلَى بَعضٍ هَل يَرَاكُم مِن أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُم قَومٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

فأخبر سبحانه عن فعلهم وهو الانصراف، وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره لأنهم ليسوا أهلاً له فالمحل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد، وهؤلاء قلوبهم لا تفقه وقصودهم سيئة.

وقد صرح سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَلَو عَلِمَ اللهُ فِيهِم خَيراً لأَسمَعَهُم وَلَو أَسمَعَهُم لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]. فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعاً تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، وهو الكبر والتولي والإعراض؛ فالأول مانع من الفهم والثاني مانع من الانقياد والإذعان، فأفهام سيئة وقصود ردية وهذه نسخة الضلال وعلم الشقاء كما أن نسخة الهدى وعلم السعادة: فهم صحيح وقصد صالح، والله المستعان.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قلوبهم﴾ [التوبة: ١٢٧]. كيف جعل هذه الجملة الثانية سواء كانت خبراً أو إعادة عقوبة لانصرافهم، فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول. فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لإقبالهم، ولأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم ينلهم الإقبال والإذعان فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن، فجازاهم على ذلك صرفاً آخر غير الصرف الأول، كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول، كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾ [الصف: ٥]. وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه فلا يمكنه من الإقبال عليه.

ولتكن قصة إبليس منك على ذكر تنتفع بها أتم انتفاع، فإنه لما عصى ربه تعالى ولم ينقد لأمره وأصر على ذلك، عاقبه بأن جعله داعياً إلى كل معصية، فعاقبه

(١) ٩٧ شفاء.

على معصيتـه الأولى بأن جعله داعياً إلى كل معصية وفروعها صغيرها وكبيرها، وصـار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق، فمن عقاب السيئة السيئة بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

فإن قيل فكيف يلتئم إنكاره سبحانه عليهم الانصراف والإعراض عنه وقد قال تعالى: ﴿أنَّى[1] يُصرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]. ﴿أَنَّى يُؤفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]. وقال: ﴿فَمَا لَهُم عَنِ التَّذكِرَةِ مُعرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]. فإذا كان هو الذي صرفهم وجعلهم معرضين ومأفوكين فكيف ينفي ذلك عليهم.

قيل: هم دائرون بين عدله، وحجته عليهم فمكنهم وفتح لهم الباب ونهج لهم الطريق وهيأ لهم الأسباب، فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ودعاهم على ألسنة رسله، وجعل لهم عقولاً تميز بين الخير والشر والنافع والضار وأسباب الردى وأسباب الفلاح، وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً فآثروا الهوى على التقوى واستحبوا العمى على الهدى، وقالوا: معصيتك آثر عندنا من طاعتك والشرك أحب إلينا من توحيدك، وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك، فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم وانصرفت عن طاعته ومحبته، فهذا عدله فيهم، وتلك حجته عليهم فهم سدّوا على أنفسهم باب الهـدى إرادة منهم واختياراً، فسـدّه عليهم اضـطراراً؛ فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم وولاهم ما تولوه ومكنهم فيما ارتضوه وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه وهم معرضون فلا أقبح من فعلهم ولا أحسن من فعله، ولو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة ولأنشأهم على غير هذه النشأة. ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل والنور والظلمة والنافع والضار والطيب والخبيث، والملائكة والشياطين والشاء والذياب، ومعـطيهـا آلاتهـا وصفاتها وقواها، وأفعالها ومستعملها فيما خلقت له، فبعضها بطباعها وبعضها بإرادتها ومشيتها، وكل ذلك جار على وفق حكمته، وهو موجب حمده ومقتضى كماله المقدس وملكه التام ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك، إلى ما خفي عليهم بوجه مّا إن هو إلا كنقرة عصفور من البحر.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التوبة والحمد لله رب العالمين

---

(١) في المطبوعة ﴿فأنّى﴾ والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

سورة يونس

آياتها ١٠٩ — ترتيبها ١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **قال** سبحانه: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوحَيْنَا إِلى رَجُلٍ مِنْهُم أن أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الذَينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. [يونس: ١-٢]. فأي عجب من هذا حتى يقول الكافرون: ﴿إنَّ هذا لَساحِرٌ مُّبِينٌ﴾. [يونس: ٢]. وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده، وهدايته، وإنعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله، ﷺ، بطريق الخير والشر وما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمرهم ونهيهم، حتى يقابل ذلك بالتعجب ونسبة ما جاء به إلى السحر، لولا غاية الجهل والظلم؟! وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وإن تعجب فعجبٌ قولُهم﴾ [الرعد: ٥].

(٢) **وقال** تعالى: ﴿إنَّ رَبَّكم اللهُ الذي خَلَقَ السَّموات والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى على العَرْشِ يُدبِّرُ الأَمْرَ ما مِنْ شَفيعٍ إلاَّ مِنْ بَعدِ إِذْنِهِ ذلكُمُ اللهُ رَبُّكُم فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرونَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿هو الذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ ما خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلاَّ بالحَقِّ﴾. [يونس: ٣ ـ ٥]. وقوله: ﴿الٓمٓ. اللهُ لا إلـهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ. نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ﴾. [آل عمران: ١ ـ ٣]. فهذا أمره وتنزيله مصدره الحق، والأول خلقه وتكوينه مصدره الحق أيضًا، فبالحق كان الخلق والأمر وعنه صدر الخلق والأمر. . . .

(٣) **ثم** تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والإضاءة، وكيف جعل لهما بروجًا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة؟ لإقامة دولة السنة وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه، فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون، والإجارات والمعاملات والعدد، وغير ذلك فلولا حلول الشمس والقمر في تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة؛ بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك. وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿هُوَ الذِي جَعَلَ

---

(١) ٢٧١ التبيان. (٢) ٢٣٨ طريق الهجرتين. (٣) ٢٠٩ مفتاح دار السعادة جـ ١.

الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلَّا بالحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ﴾. [يونس: ٥]. وقال تعالى: **﴿وجَعَلْنَا الليلَ والنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لتبتغوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُم ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ﴾**. [الإسراء: ١٢].

(١) **وإذا** فكرت في طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعها لبطل أمر هذا العالم، فكم في طلوعها من الحكم والمصالح. وكيف يكون حال الحيوان لو أمسكت عنه، وجعل الليل عليه سرمدًا والدنيا مظلمة عليه؟ فبأي نور كانوا يتصرفون؟ وكيف كانت تنضج ثمارهم، وتكمل أقواتهم وتعتد صورهم وأبدانهم؟ فالحكم في طلوعها أعظم من أن تخفى أو تُحصى، ولكن تأمل الحكمة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للحيوان هدوء ولا قرار مع شدة حاجتهم إلى الهدوء والراحة. وأيضًا لو دامت على الأرض لاشتد حرها بدوام طلوعها عليها فاحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فاقتضت حكمة الخلاق العليم والعزيز الحكيم أن جعلها تطلع عليهم في وقت دون وقت، بمنزلة سراج يرفع لأهل الدار مليًّا ليقضوا مآربهم، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدءوا، وصار ضياء النهار وحرارته وظلام الليل وبرده على تضادهما وما فيهما، متظاهرين متعاونين على ما فيه صلاح العالم وقوامه.

ثم اقتضت حكمته أن جعل للشمس ارتفاعًا وانحطاطًا لإقامة هذه الفصول الأربعة من السنة وما فيها من قيام الحيوان والنبات. ففي زمن الشتاء تفور الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد فيها مواد النار ويغلظ الهواء بسبب البرد فيصير مادة للسحاب، فيرسل العزيز الحكيم الريح المثيرة فتنشره قزعًا(٢)، ثم يرسل عليه المؤلفة فتؤلف بينه حتى يصير طبقًا واحدًا، ثم يرسل عليه الريح اللاقحة التي فيها مادة الماء فتلقحه كما يلقح الذكر الأنثى فيحمل الماء من وقته، فإذا كان بروز الحمل وانفصاله أرسل عليه الريح الذارية فتذروه وتفرقه في الهواء؛ لئلا يقع صبة واحدة فيهلك ما على الأرض وما أصابه ويقل الانتفاع به. فإذا أسقي ما أمر بسقيه

---

(١) ٣٠٤ مختصر الصواعق جـ ١.	(٢) القزعة: السحابة الخفيفة البيضاء.

وفرغت حاجتهم منه أرسل عليه الرياح السائقة. فتسوقه وتزجيه إلى قوم آخرين وأرض أخرى محتاجة إليه. فإذا جاء الربيع تحركت الطبائع وظهرت المواد الكامنة في الشتاء فخرج النبات، وأخذت الأرض زخرفها وازينت وأنبتت من كل زوج كريم. فإذا جاء الصيف سخن الهواء وتحللت فضلات الأبدان، فإذا جاء الخريف كسر ذلك السموم والحرور. وبرد الهواء واعتدل وأخذت الأرض والشجر في الراحة والجموم والاستعداد للحمل الآخر.

واقتضت حكمته سبحانه أن أنزل الشمس والقمر في البروج وقدر لهما المنازل؛ ليعلم العباد عدد السنين والحساب من الشهور والأعوام، فتتم بذلك مصالحهم وتعلم بذلك آجال معاملاتهم، ومواقيت حجهم وعباداتهم ومدد أعمارهم، وغير ذلك من مصالح حسابهم. فالزم مقدار الحركة، ألا ترى أن السنة الشمسية مسير الشمس من الحمل إلى الحمل؟ واليوم مقدار مسيرها من المشرق إلى المغرب وتحركه الشمس والقمر لكمال الزمان من يوم خلقا إلى أن يجمع الله بينهما ويعزلهما عن سلطانهما، ويرى عابديهما أنهم عبدوا الباطل من دونه(١). قال تعالى: **﴿هُوَ الذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَد السِّنِينَ والحِسَابَ مَا خَلَقَ الله ذَلِكَ إلاَّ بالحَقِّ يُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**. [يونس: ٥]. وقال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا الليلَ والنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهار مُبْصِرةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً منْ رَبِّكم ولِتَعْلَمُوا عَدَد السِّنِينَ والحِسَابَ وكُلَّ شيءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾**. [الإسراء: ١٢].

واقتضت حكمته سبحانه في تدبيره أن فاوت بين مقادير الليل والنهار، ولم يجعلهما دائمًا على حد سواء ولا أطول مما هما عليه وأقصر؛ بل جاء استواؤهما وأخذ أحدهما من الآخر على وفق الحكمة، حتى إن المكان الذي يقصر أحدهما فيه جدًّا، لا يتكون فيه حيوان ونبات كالمكان الذي لا تطلع عليه شمس أو لا تغرب عنه، فلو كان النهار مقدار مئة ساعة أو أكثر أو كان الليل كذلك لتعطلت المصالح التي نظمها الله بهذا المقدار في الليل والنهار.

(١) كذا بالأصل والظاهر أنه سقط بعض كلام حتى صارت الجملة غامضةً.

ثم تأمل الحكمة في إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل، فإنه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء، لم تقتض المصلحة أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها، فلا يمكن فيها شيء من العمل، وربما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم في النهار، و لإفراط الحر فيه فاحتاجوا إلى العمل في الليل في نور القمر من حرث الأرض وقطع الزرع وغير ذلك، فجعل ضوء القمر في الليل معونة للناس على هذه الأعمال، وجعل في الكواكب جزءًا يسيرًا من النور ليسد مسد القمر إذا لم يكن، وجعلت زينة للسماء ومعالم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ودلالات واضحات على الخلاق العليم، وغير ذلك من الحكم التي بها انتظام هذا العالم، وجعلت الشمس على حالة واحدة لا تقبل الزيادة والنقصان لئلا تتعطل الحكم المقصودة منها، وجعل القمر يقبل الزيادة والنقصان؛ لئلا تتعطل الحكم المقصودة من جعله كذلك، وإن كان في نوره من التبريد والتصلب ما يقابل ما في ضوء الشمس من التسخين والتحليل، فتنضم المصلحة وتتم الحكمة من هذا في هذا التسخين والتبريد.

ثم تأمل اللطف والحكمة الإلهية في جعل الكواكب السيارات ومنازلها تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها؛ لأنها لو ظهرت دائمًا أو اختفت دائمًا لفاتت الحكمة المطلوبة منها، كما اقتضت الحكمة أن يظهر بعضها، ويحتجب بعضها فلا تظهر كلها دفعة واحدة، ولا تحتجب دفعة واحدة بل ينوب ظاهرها عن خفيها في الدلالة، وجعل بعضها ظاهرًا لا يحتجب أصلاً بمنزلة الأعلام المنصوبة التي يهتدي بها الناس في الطرق المجهولة في البر والبحر، فهم ينظرون إليها متى أرادوا ويهتدون بها حيث شاءوا.

ثم تأمل حال النجوم واختلاف مسيرها: ففرقة منها لا تريم مراكزها من الفلك، ولا تسير إلا مجتمعة كالجيش الواحد، وفرقة منها مطلقة تنتقل في البروج وتتفرق في مسيرها، وكل واحد منها يسير سيرين مختلفين: أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب، والآخر خاص لنفسه نحو المشرق. وذلك من أعظم الدلالات على الفاعل المختار العليم الحكيم على كمال علمه وحكمته.

وتأمل كيف صار هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه، يدور على

هذا العالم هذا الدوران العظيم السريع المستمر بتقدير محكم لا يزيد ولا ينقص ولا يختل نظامه، بل هو تقدير العزيز العليم، كما أشار تعالى إلى أن ذلك التقدير صادر عن كمال عزته وعلمه قال تعالى: ﴿**فَالِقُ الإِصْبَاحِ وجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيزِ العَلِيمِ**﴾. [الأنعام: ٩٦].

(١)**ثم** تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم سبحانه؟ فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات؛ لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر، وكان يكون الليل دائمًا سرمدًا على من لم تطلع عليهم، والنهار سرمدًا على من هي طالعة عليهم، فيفسد هؤلاء. وهؤلاء.

فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى الغرب، فتشرق على ما استترعنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم.

ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص؛ لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة، وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه.

قال الله تعالى: ﴿**يُولِجُ الليلَ في النَّهَارِ ويُولِجُ النَّهَارَ في الليلِ**﴾. [فاطر: ١٣]. وفيه قولان: أحدهما: أن المعنى: يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

والقول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة.

وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار، في غير زمن

---

(١) ٢٠٩ مفتاح دار السعادة جـ ١.

الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي إليه الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان، ولا يتكون فيه النبات، وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان، ولا نبات، لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب، وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة، ويكون فيها اعتدالان خريفين وربيعين.

ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل والحكمة في ذلك، فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان، وبرد الهواء على الأبدان والنبات، فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان، فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار، ولم يجعله ظلمة داجية حندسًا لا ضوء فيه أصلًا، فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الأعمال، ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتهيأ له بالنهار لضيق النهار أو لشدة الحر، أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان، جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة، كالسفر والحرث وغير ذلك من أعمال أهل الحروث والزروع، فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات، وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس، لئلا يستوي الليل والنهار فتفوت حكمة الاختلاف بينهما، والتفاوت الذي قدره العزيز العليم.

فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام، بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة، ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفًا، بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه وإحسانًا فسبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه!.

(١)**توعد** سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل

---

(١) ٩٥ فوائد.

عن آياته ولم يرج لقاءه. فقال: ﴿إنَّ الذينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بالحَيَاةِ الدُّنْيَا واطْمَأَنُّوا بِهَا والذينَ هُم عنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. [يونس: ٧، ٨]. وعيَّر سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين فقال: ﴿يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا مَا لَكُم إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبيلِ الله اثَّاقَلْتُم إلى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بالحَيَاةِ الدُّنيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا في الآخِرَةِ إلَّا قَلِيل﴾. [التوبة: ٣٨]. وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

ويكفي في الزهد في الدنيا قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُم سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ما أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يُمتَّعُونَ﴾. [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧]. وقوله: ﴿ويَومَ يَحْشُرُهُمْ كأن لَّمْ يَلبَثُوا إلَّا ساعةً مِن النَّهارِ يَتعارَفُونَ بَيْنَهُم﴾. [يونس: ٤٥].

وقوله: ﴿كأَنَّهُم يومَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلَّا ساعَةً مِنْ نهارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهلَكُ إلَّا القَوْمُ الفَاسِقُونَ﴾. [الأحقاف: ٣٥]. وقوله: تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنَ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إلى رَبِّكَ مُنْتَهاهَا. إنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا. كأَنَّهُمْ يومَ يَرَوْنَها لَمْ يَلبَثُوا إلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾. [النازعات: ٤٢ ـ ٤٦].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾. [الروم: ٥٥].

وقوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ في الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لبِثْنَا يَومًا أَوْ بَعْضَ يَومٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ. قَالَ إن لَبِثْتُم إلَّا قَلِيلًا لوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤].

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ المُجرمِينَ يَومَئِذٍ زُرْقًا. يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُم إنْ لَبِثْتُم إلَّا عَشْرًا. نَحنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُم طَرِيقَةً إن لَّبِثْتُم إلَّا يَومًا﴾. [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤]. والله المستعان وعليه التكلان.

(١)**قال** تعالى: ﴿إنَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِم رَبُّهُم بإيمانِهِم تَجْرِي مِنْ تحتِهِم الأَنْهَارُ في جنَّاتِ النَّعيم دَعْوَاهُم فيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وتَحِيَّتُهُم

---

(١) ٢٩٨ حادي الأرواح.

فِيهَا سَلَامٌ وآخِرُ دَعْوَاهُم أَنِ الحمدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ . [يونس: ٩، ١٠].

قال حجاج: عن ابن جريج: أخبرت أن قوله: **﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾** قال: إذا مر بهم الطير ليشتهونه قالوا: سبحانك اللهم وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما اشتهوا، فيسلم عليهم فيردون عليه فذلك قوله تعالى: **﴿وتَحِيَّتُهم فيها سَلَامٌ﴾**. قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم فذلك قوله تعالى: **﴿وآخِرُ دَعْوَاهُم أَنِ الحمدُ لله ربِّ العَالَمِينَ﴾**.

قال سعيد: عن قتادة قوله تعالى: **﴿دعواهُم فيها سُبحَانَك اللهمَّ﴾** يقول: ذلك دعاؤهم فيها وتحيتهم فيها سلام.

وقال الأشجعي: سمعت سفيان الثوري يقول: إذا أرادوا الشيء قالوا: سبحانك اللهم فيأتيهم ما دعوا به.

ومعنى هذه الكلمة: تنزيه الرب تعالى وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به.

وذكر سفيان، عن عبدالله بن موهب: سمعت موسى بن طلحة قال: سئل رسول الله، ﷺ، عن سبحان الله: فقال: «**تنزيه الله عن السوء**».

وسأل ابن الكواء عليًا عنها فقال: كلمة رضيها الله تعالى لنفسه.

وقال حفص بن سليمان بن طلحة بن يحيى بن طلحة عن أبيه، عن طلحة بن عبيدالله قال: سألت رسول الله، ﷺ، عن تفسير سبحان الله فقال: «**هو تنزيه الله عن كل سوء**». فأخبر الله تعالى عن أول دعواهم إذا استدعوا شيئًا قالوا: سبحان الله، وعن آخر دعواهم عندما يحصل لهم، وهو قولهم: الحمد لله رب العالمين. ومعنى الآية أعم من هذا، والدعوى مثل الدعاء، والدعاء يراد به الثناء، ويراد به المسألة.

وفي الحديث: «**أفضل الدعاء: الحمد لله رب العالمين**». فهذا دعاء ثناء وذكر يلهمه الله أهل الجنة، فأخبر سبحانه عن أوله وآخره، فأوله: تسبيح، وآخره: حمد يلهمونها كما يلهمون النفس. وفي هذا إشارة إلى أن التكليف في الجنة يسقط عنهم ولا تبقى عبادتهم إلا هذه الدعوى التي يلهمونها.

وفي لفظة: اللهم إشارة إلى صريح الدعاء، فإنها متضمنة لمعنى، ياالله فهي متضمنة للسؤال والثناء، وهذا هو الذي فهمه من قال: إذا أرادوا الشيء

قالوا: سبحانك اللهم فذكروا بعض المعنى ولم يستوفوه مع أنهم قصروا به، فإنهم أوهموا أنهم إنما يقولون ذلك عندما يريدون الشيء، وليس في الآية ما يدل على ذلك، بل يدل على أن أول دعائهم التسبيح وآخره الحمد، وقد دلَّ الحديث الصحيح على أنهم يلهمون ذلك كما يلهمون النفس فلا تختص الدعوى المذكورة بوقت إرادة الشيء وهذا كما أنه لا يليق بمعنى الآية فهو لا يليق بحالهم والله تعالى أعلم بالصواب.

...[1] **فنقول**: إن الله تعالى وضع الألفاظ بين عباده تعريفًا ودلالة على ما في نفوسهم. فإذا أراد أحدهم من الآخر شيئًا عرفه بمراده وما في نفسه بلفظه، ورتب على تلك الإرادات والمقاصد أحكامها بواسطة الألفاظ، ولم يرتب تلك الأحكام على مجرد ما في النفوس من غير دلالة فعل أو قول، ولا على مجرد ألفاظ مع العلم بأن المتكلم بها لم يرد معانيها ولم يحط بها علمًا.

بل تجاوز للأمة عما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم به، وتجاوز لها عما تكلمت به مخطئة أو ناسية أو مكرهة أو غير عالمة به، إذا لم تكن مريدة لمعنى ما تكلمت به أو قاصدة إليه.

فإذا اجتمع القصد والدلالة القولية أو الفعلية ترتب الحكم. هذه قاعدة الشريعة، وهي من مقتضيات عدل الله وحكمته ورحمته.

فإن خواطر القلوب وإرادة النفوس لا تدخل تحت الاختيار، فلو ترتبت عليها الأحكام لكان في ذلك أعظم حرج ومشقة على الأمة، ورحمة الله تعالى وحكمته تأبى ذلك.

والغلط والنسيان والسهو وسَبْقُ اللسان بما لا يريده العبد بل يريد خلافه والتكلم به مكرهًا وغير عارف لمقتضاه من لوازم البشرية لا يكاد ينفك الإنسان من شيء منه؛ فلو رتب عليه الحكم لحرجت الأمة وأصابها غاية التعب والمشقة؛ فرفع عنها المؤاخذة بذلك كله حتى الخطأ في اللفظ من شدة الفرح والغضب والسكر كما تقدمت شواهده، وكذلك الخطأ والنسيان والإكراه والجهل بالمعنى وسبق اللسان

(١) ١١٧ إعلام جـ٣.

بما لم يرده والتكلم في الإغلاق ولَغْو اليمين؛ فهذه عشرة أشياء لا يؤاخذ الله بها عبده بالتكلم في حال منها؛ لعدم قصده وعقد قلبه الذي يؤاخذه به.

أما الخطأ من شدة الفرح فكما في الحديث الصحيح حديث فَرَحِ الرب بتوبة عبده وقول الرجل: «**أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**».

وأما الخطأ من شدة الغضب فكما في قوله تعالى: ﴿**ولو يُعَجِّلُ الله للناس الشَّرَّ استعجَالَهُم بالخَيْرِ لَقُضِيَ إليهِمْ أَجَلُهُم**﴾. [يونس: ١١]. قال السلف: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله حال الغضب، لو أجابه الله تعالى لأهلك الداعي ومن دعي عليه، فقضى إليهم أجلهم.

وقد قال جماعة من الأئمة: الإغلاق الذي منع النبي، ﷺ، من وقوع الطلاق والعَتَاق فيه هو الغضب. وهذا كما قالوه؛ فإن للغضب سكرًا كسكر الخمر أو أشد.

وأما السكران فقد قال الله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وأَنْتُمْ سُكَارَى حتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**﴾. [النساء: ٤٣]. فلم يرتب على كلام السكران حكمًا؛ حتى يكون عالمًا بما يقول؛ ولذلك أمر النبي، ﷺ، رجلًا يشكك المقر بالزنا ليعلم هل هو عالم بما يقول أو غير عالم بما يقول، ولم يؤاخذ حمزة بقوله في حال السكر: «هل أنتم إلا عبيد لأبي» ولم يكفر من قرأ في حال سكره في الصلاة «أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون».

وأما الخطأ والنسيان فقد قال تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿**رَبَّنَا لا تُؤاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾. وقال الله تعالى: «**قد فعلت**» وقال النبي، ﷺ: «**إن الله قد تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**».

وأما المكره فقد قال الله: ﴿**مَنْ كَفَرَ بالله مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إلَّا مَنْ أُكْرِه وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمَانِ**﴾. [النحل: ١٠٦]. والإكراه داخل في حكم الإغلاق.

وأما اللغو فقد رفع الله تعالى المؤاخذة به حتى يحصل عَقْدُ القلب.

وأما سَبْقُ اللسان بما لم يرده المتكلم فهو دائر بين الخطأ في اللفظ والخطأ في القصد؛ فهو أولى أن لا يؤاخذ به من لغو اليمين، وقد نصَّ الأئمة على مسائل من ذلك تقدم ذكر بعضها.

وأما الإغلاق فقد نص عليه صاحب الشرع، والواجب حَمْلُ كلامه فيه على

عمومه اللفظي والمعنوي؛ فكل مَنْ أغلق عليه باب قصده وعلمه كالمجنون والسكران والمكره والغضبان فقد تكلم في الإغلاق، ومن فسره بالجنون أو بالسكر أو بالغضب أو بالإكراه فإنما قَصَدَ التمثيلَ لا التخصيص، ولو قدر أن اللفظ يختص بنوع من هذه الأنواع لوجَبَ تعميمُ الحكم بعموم العلة؛ فإن الحكم إذا ثبت لعلة تعدّى بتعديها وانتفى بانتفائها. . .

(١)**والله** سبحانه وتعالى رفع المؤاخذة عن المتكلم بكلمة الكفر مكرهًا، لما لم يقصد معناها ولا نواها، فكذلك المتكلم بالطلاق والعتاق والوقف واليمين والنذر مكرهًا، لا يلزمه شيء من ذلك؛ لعدم نيته وقصده، وقد أتى باللفظ الصريح؛ فعلم أن اللفظ إنما يوجب معناه لقصد المتكلم به.

والله تعالى رفع المؤاخذة عمن حدَّث نفسه بأمر بغير تلفظ أو عمل، كما رفعها عمن تلفظ باللفظ من غير قصد لمعناه ولا إرادة، ولهذا لا يكفر من جَرَى على لسانه لفظ الكفر سَبْقًا من غير قصد لفرح أو دهش وغير ذلك، كما في حديث الفرح الإلـهيِّ بتوبة العبد، وضرب مثل ذلك بمن فَقَدَ راحلته عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة، فأيس منها ثم وجدها فقال: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح**». ولم يؤاخذ بذلك، وكذلك إذا أخطأ من شدة الغضب لم يؤاخذ بذلك. ومن هذا قوله تعالى: ﴿**ولو يُعَجِّلُ الله للنَّاسِ الشَّرَّ استِعْجَالَهُم بالخيرِ لَقُضِيَ إليهم أَجَلُهُمْ**﴾.

قال السلف: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله في حال الغضب، ولو استجابه الله تعالى لأهلكه وأهلك مَنْ يَدْعُو عليه، ولكنه لا يستجيبه لعلمه بأن الداعي لم يقصده.

ومن هذا رفعه، صلى الله عليه وآله وسلم، حكم الطلاق عمن طلق في إغلاق، وقال الإمام أحمد في رواية حنبل: هو الغضب، وكذلك فسره أبو داود، وهو قول القاضي إسماعيل بن إسحاق أحد أئمة المالكية ومُقَدَّم فقهاء أهل العراق منهم؛ وهي عنده من لَغْو اليمين أيضًا، فأدخل يمين الغضبان في لغو اليمين وفي

---

(١) ٦٣ أعلام جـ ٣.

يمين الإغلاق، وحكاه شارح أحكام عبدالحق عنه، وهو ابن بزيزة الأندلسي، قال: وهذا قول عليّ وابن عباس وغيرهما من الصحابة إن الأيمان المنعقدة كلها في حال الغضب لا تلزم.

وفي سنن الدارقطني بإسناد فيه لين من حديث ابن عباس يرفعه: «**لا يمين في غَضَب، ولا عتاق فيما لا يملك**». وهو وإن لم يثبت رفعه فهو قول ابن عباس.

وقد فسر الشافعي: «**لا طلاق في إغلاق**» بالغضب، وفسره به مسروق؛ فهذا مسروق والشافعي وأحمد وأبو داود والقاضي إسماعيل، كلهم فسروا الإغلاق بالغضب، وهو من أحسن التفسير؛ لأن الغضبان قد أغلق عليه باب القصد بشدة غضبه وهو كالمكره بل الغضبان أولى بالإغلاق من المكره.

(١) **ذلك** قوله تعالى: **﴿ولَوْ يُعَجِّل الله للنَّاسِ الشرَّ استعجَالَهُم بالخيرِ لقُضيَ إليهم أجَلُهُم﴾**. [يونس: ١١].

قال السلف في تفسيرها: هو الرجل يدعو على نفسه وأهله في وقت الغضب من غير إرادة منه لذلك، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأهلك من دعا عليه، ولكن لرحمته لما علم أن الحامل له على ذلك سكر الغضب لا يجيب دعاءه.

ومن هذا قول الواجد لراحلته بعد يأسه منها وإيقانه بالهلاك: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك**». قال رسول الله، ﷺ: «**أخطأ من شدَّة الفرح**». ولم يكن بذلك كافرًا لعدم قصده. وذكر النبي، ﷺ، ذلك تحقيقًا لشدة الفرح الذي أفضى به إلى ذلك. وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب السكر لأن السكر سببه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل، وسبب اللذة إدراك المحبوب، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك المحبوب قويًا والعقل ضعيفًا حدث السكر، لكن ضعف العقل يكون تارة من ضعف المحبة، وتارة من قوة السبب الوارد، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه.

(٢) **قال** تعالى: **﴿قُلْ لو شَاءَ الله ما تَلَوتُهُ عليكُم ولا أدراكم به فَقَدْ لبِثْتُ فيكُم عُمُرًا منْ قَبْله أفَلا تَعْقِلُونَ﴾**. [يونس: ١٦]. فتأمل هاتين الحجتين

---

(١) ١٦٦ روضة المحبين. (٢) ٩٩ مختصر الصواعق جـ ١.

القاطعتين بهذا اللفظ الوجيز: إحداهما: أن هذا من الله لا من قبلي، ولا هو مقدور لي، ولا من جنس مقدور البشر، وأن الله لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني وأسماعكم وأفهامكم فلم أتمكن من تلاوته عليكم ولم تتمكنوا من درايته وفهمه.

الحجة الثانية: أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به، وأنتم تشاهدوني وتعرفوني وتصحبوني حضرًا وسفرًا، وتعرفون دقيق أمري وجليله وتحققون سيرتي، هل كانت سيرة من هو أكذب الخلق وأفجرهم وأظلمهم؟ فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح سيرة ممن جاهر ربه بالكذب والفرية عليه، وطلب إفساد العالم وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق.

هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أحفظ كتابًا ولا أخطه بيميني، ولا صاحبت من أتعلم منه، بل صاحبتم أنتم في أسفاركم من تتعلمون منه وتسألونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها، ما لم أشارككم فيه بوجه، ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين، والآخرين، وعلم ما كان وما سيكون على التفصيل، فأي برهان أوضح من هذا؟ وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له؟....

(١) **إنه** سبحانه أخبر: أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه كما قال تعالى: ﴿**قُلْ لَو شَاءَ الله ما تَلَوتُهُ عليكُم ولَا أَدْرَاكُم به**﴾. [يونس: ١٦]. وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها أي: هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي، ولا أقدر أن أفتريه على الله ولو كان ذلك مقدورًا لي لكان مقدورًا لمن هو من أهل العلم والكتابة، ومخالطة الناس والتعلم منهم، ولكن الله بعثني به، ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بلساني، فلم يدعني أتلوه عليكم وأن أعلمكم به ألبتة لا على لساني ولا على لسان غيري، ولكنه أوحاه إليَّ وأذن لي في تلاوته عليكم، وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به، فلو كان كذبًا وافتراء كما تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته؛ لأن الكذب لا يعجز عنه البشر، وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه إلا مني ولم تسمعوه من بشر غيري.

ثم أجاب عن سؤال مقدر وهو: أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه،

---

(١) ١١٧ التبيان.

فقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُم عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾. تعلمون حالي ولا يخفى عليكم سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي. ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه ألبتة، ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم، ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه، ولا من بعضه.

وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند الله أوحاه إليَّ وأنزله عليَّ، ولو شاء ما فعل. فلم يمكني من تلاوته ولا أمكنكم من العلم به، بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه، ولم أكن قبل أن يُوحى إليَّ تاليًا له ولا لبعضه.

فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته. اهـ.

(١)**ومن** آياته الباهرة هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض، يدرك بحس اللمس عند هبوبه، يدرك جسمه ولا يرى شخصه، فهو يجري بين السماء والأرض، والطير محلقة فيه سابحة بأجنحتها في أمواجه، كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه، كما تضطرب أمواج البحر، فإذا شاء الله سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولاقحًا للسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل.

وتسمى رياح الرحمة: المبشرات والنشر والذاريات والمرسلات والرخاء واللواقح. ورياح العذاب: العاصف والقاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر وهما في البر. وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيمًا وأودعه عذابًا أليمًا، وجعله نقمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصرًا ونحسًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه، وهي مختلفة في مهابها، فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تهلكه وتعطبه، وأخرى تشده وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه. ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها. فريح تثير السحاب، وريح تلقحه، وريح تحمله على متونها، وريح تغذي

(١) ٢٠٠ مفتاح دار السعادة جـ ١.

النبات. ولما كانت الرياح مختلفة في مهابها وطبائعها جعل لكل ريح ريحًا مقابلتها تكسر سورتها وحدتها، ويبقى لينها ورحمتها، فرياح الرحمة متعددة، وأما ريح العذاب فإنه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لإهلاك ما ترسل بإهلاكه، فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها، وتدفع حدتها بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء يدمر كل ما أتى عليه.

وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا في البر، وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى: **﴿هو الذي يُسَيِّرُكُم في البَر والبحر حتَّى إذا كُنْتُم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهم بريحٍ طَيِّبَة وفَرِحُوا بِهَا جَاءَتها ريحٌ عاصِفٌ وجَاءَهُم المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾**. [يونس: ٢٢]. فإن السفن إنما تسير بالريح الواحدة التي تأتي من وجه واحد، فإذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها، فالمقصود منها في البحر خلاف المقصود منها في البر، إذ المقصود في البحر أن تكون واحدة طيبة لا يعارضها شيء، فأفردت هنا وجمعت في البر.

ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه، من الشدة والقوة والبأس ما يفلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه، فانظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل في الزق مثلاً وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يطق، ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه، فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له، ولم يمتنع منه القوي الشديد، وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها، وثقل ما تحويه، وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فإنه لا يرسب فيه؛ لأن الهواء يمتنع من الغوص في الماء، فتتعلق به السفينة المشحونة الموقرة.

فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به حتى أمن من الغرق، وهذا كالذي يهوي في قليب فيتعلق بذيل رجل قوي شديد يمتنع عن السقوط في القليب فينجو بتعلقه به، فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة، ولا عقدة تشاهد. . .

(١)**ومن** هذا البـاب ذكر الرياح في القرآن جمعًا ومفردة، فحيث كانت في سياق الرحمة أتت مجموعة، وحيث وقعت في سياق العذاب أتت مفردة.

وسر ذلك: أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها ومايكسر سورتها ويصدم حدتها، فينشأ من بينهما ريح لطيفـة تنفع الحيوان والنبات، فكل ريح منها في مقابلها ما يعدلها ويرد سورتها فكانت في الرحمة ريحًا، وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد وحمام واحد لا يقوم لها شيء، ولا يعارضها غيرها حتى تنتهي إلى حيث أمرت لا يرد سورتها ولا يكسر شرتها فتمتثل ما أمرت به، وتصيب ما أرسلت إليه، ولهذا وصف سبحانه الريح التي أرسلها على عاد بأنها عقيم، فقال: ﴿إذ أرْسَلنَا عَليهم الرِّيحَ العَقِيم﴾. [الذاريات: ٤١]. وهي التي لا تلقح ولا خير فيها، والتي تعقم ما مرَّت عليه.

ثم تأمل كيف اطرد هذا إلا في قوله في سورة يونس: ﴿هو الذي يُسَيِّرُكُم في البَرِّ والبَحْرِ حتَّى إذَا كُنْتُم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِم بِريحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحُوا بِهَا جَاءَتهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾. [يونس: ٢٢]. فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الإفراد؛ لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة، سيرها من وجه واحد(٢)، فإذا اختلف عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهـلاك، فالمطلوب هناك ريح واحدة لا رياح، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعًا لتوهم أن تكون ريحًا عاصفة بل هي مما يفرح بها لطيبها.

فلينزه الفَطِنُ بصيرتَه في هذه الرياض المونقة المعجبة التي ترقص القلوب لها فرحًا، ويتغذى بها عن الطعام والشراب والحمد لله الفتاح العليم. فمثل هذا الفصـل يعض عليه بالنواجذ وتثنى عليه الخناصر، فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله، والله الموفق للصواب.

قـوله تعالى: ﴿إنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حتَّى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَت وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهم قَادِرُونَ عَلَيها أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كأَن لَّم

(١) ١١٨ بدائع جـ ١.

(٢) في الأصل: إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها، ولعل الصواب ما أثبتناه. (ج).

(٣) ١٥٣ إعلام جـ١.

تَغْنَ بالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَتفكَّرُونَ﴾. [يونس: ٢٤].

(١) **شبه** سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزيَّن في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها، سُلِبَها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتُعْشِبُ ويَحْسُنُ نباتُها ويروق منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادر عليها، مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيبُ ظنه، وتصبح يداه صِفرًا منها؛ فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس.

ولما كانت الدنيا عُرضة لهذه الآفات، والجنة سليمة منها قال: ﴿والله يَدْعُو إلى دَارِ السَّلامِ﴾. [يونس: ٢٥]. فسماها هنا: دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا، فعمَّ بالدعوة إليها، وخص بالهداية من يشاء، فذاك عدله وهذا فضله.

(٢) **وقال** خالقها سبحانه: ﴿إنَّما مَثَل الحَياة الدُّنيَا كَماءٍ أَنزَلنَاهُ مِنَ السَّماءِ فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون والله يدعو إلى دَارِ السَّلام ويَهدي من يَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ﴾. فأخبر عن خسة الدنيا وزهد فيها، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها.

وقال تعالى: ﴿واضرِب لَهُم مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنيَا كَماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْض فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّياحُ وكَانَ الله على كُلِّ شيءٍ مُقْتَدِرًا المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنيَا والبَاقِياتُ الصَّالِحَاتُ خيرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وخَيرٌ أَمَلاً﴾. [الكهف: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّما الحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينَةٌ وتَفاخُرٌ بَيْنَكم وتَكَاثُرٌ في الأَمْوالِ والأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا

(١) ١٥٣ أعلام جـ١.	(٢) ٩٤ الفوائد.

ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وفي الآخرةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ومَغْفِرَةٌ مِنَ الله ورِضْوَان ومَا الحَيَاةُ الدُّنيَا إلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ﴾. [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والبَنِينَ والقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفضَّةِ والخَيْلِ المَسَوَّمَةِ والأَنْعامِ والحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ. قُل أَؤُنَبِّئُكم بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُم للذينَ اتَّقَوا عِنْدَ رَبِّهم جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحتِهَا الأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا وأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ورِضْوَانٌ مِنَ الله والله بَصِيرٌ بالعِبَادِ﴾. [آل عمران: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بالحَيَاةِ الدُّنيَا ومَا الحياةُ الدّنيَا في الآخِرَةِ إلاَّ مَتَاع﴾ [الرعد: ٢٦] (١).

(٢)**قال** الله عز وجل: ﴿والله يَدْعُو إلى دَارِ السَّلَامِ﴾. [يونس: ٢٥] وهذا حثٌّ على إجابة هذه الدعوة، والمبادرة إليها، والمسارعة في الإجابة.

والتحقيق أن يقال: الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والحور العين، والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة. فإن «الجنة» اسم لدار النعيم المطلق الكامل.

ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه. فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدًا. فأيسر يسير من رضوانه: أكبر من الجنان وما فيها من ذلك. كما قال تعالى: ﴿ورِضْوَانٌ مِنَ الله أَكْبَر﴾. [التوبة: ٧٢]. وأتى به منكرًا في سياق الإثبات. أي: أيُّ شيء كان من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة.

قليل منك يقنعني ولكن قليلك لا يقال له قليل

وفي الحديث الصحيح ـ حديث الرؤية ـ «**فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى وجهه**».

وفي حديث آخر: أنه سبحانه إذا تجلى لهم. ورأوا وجهه عيانًا: نسوا ما هم

---

(١) تقدم آخر البحث في أول هذه السورة على قول الله تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة﴾. الآية.

(٢) ٨٠ مدارج جـ ٢.

فيه من النعيم، وذهلوا عنه، ولم يلتفتوا إليه.

ولا ريب أن الأمر هكذا. وهو أجل مما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال. ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة. فإن المرء مع من أحب. ولا تخصيص في هذا الحكم، بل هو ثابت شاهدًا وغائبًا.

فأي نعيم، وأي لذة، وأي قرة عين، وأي فوز يداني نعيم تلك المعية ولذتها، وقرة العين بها؟ وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب، الذي لا شيء أجل منه، ولا أكمل ولا أجمل: قرة عين ألبتة؟

وهذا ـ والله ـ هو العَلَم الذي شمر إليه المحبون، واللواء الذي أمَّه العافون. وهو روح مسمى «الجنة» وحياتها، وبه طابت الجنة، وعليه قامت.

فكيف يقال لا يعبد الله طلبًا لجنته ولا خوفًا من ناره؟

وكذلك النار ـ أعاذنا الله منها ـ فإن لأربابها في عذاب الحجاب عن الله وإهانته وغضبه وسخطه والبعد عنه، أعظم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم بل التهاب هذه النار في قلوبهم هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم ومنها سرت إليها، فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين هو الجنة، ومهربهم من النار، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(1)**حدثنا** إسحاق بن إبي إسرائيل، حدثنا أيوب بن أبي شبيب الصنعاني قال: كان فيما عرضنا على رباح بن زيد: حدثني عبدالله بن نمير: سمعت عبدالرحمن بن يزيد يقول: سمعت عبدالله بن عمر يقول: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**لا تنسوا العظيمتين**» قلنا: وما العظيمتان يا رسول الله؟ قال: «**الجنة والنار**».

وذكر أبو بكر الشافعي، من حديث كليب بن حرب قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**اطلبوا الجنة جهدكم واهربوا من النار جهدكم، فإن الجنة لا ينام طالبها، وإن النار لا ينام هاربها، وإن الآخرة اليوم محفوفة بالمكاره، وإن الدنيا محفوفة باللذات والشهوات فلا تلهينكم عن الآخرة**».

---

(١) ٧٠ حادي الأرواح.

الباب الحادي والعشرون

في أسماء الجنة ومعانيها واشتقاقاتها ولها عدة أسماء باعتبار صفاتها، ومسماها واحد باعتبار الذات، فهي مترادفة من هذا الوجه، وتختلف باعتبار الصفات، فهي متباينة من هذا الوجه، وهكذا أسماء الرب سبحانه وتعالى، وأسماء كتابه، وأسماء رسله، وأسماء اليوم الآخر، وأسماء النار.

الاسم الأول: الجنة وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة الأعين.

وأصل اشتقاق هذه اللفظة من الستر والتغطية ومنه الجنين؛ لاستتاره في البطن، والجان لاستتاره عن العيون، والمجن لستره ووقايته الوجه، والمجنون لاستتار عقله وتواريه عنه، والجان وهي الحية الصغيرة الرقيقة ومنه قول الشاعر:

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت	فلو جن إنسان من الحسن جنت

أي: لو غطى وستر عن العيون لفعل بها ذلك.

ومنه سمي البستان جنة؛ لأنه يستر داخله بالأشجار ويغطيه، ولا يستحق هذا الاسم إلا موضع كثير الأشجار مختلف الأنواع.

والجُنة بالضم ما يستجن به من ترس أو غيره، ومنه قوله تعالى: **﴿اتَّخذوا أيمانَهم جُنَّة﴾**. [المجادلة: ١٦، المنافقون: ٢]. أي: يستترون بها من إنكار المؤمنين عليهم.

(١)**الاسم** الثاني: دار السلام، وقد سماها الله بهذا الاسم في قوله: **﴿لهم دار السَّلام عند ربِّهم﴾**. [الأنعام: ١٢٧]. وقوله: **﴿والله يدعو إلى دَارِ السَّلامِ﴾**. [يونس: ٢٥]. وهي أحق بهذا الاسم فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه، وهي دار الله واسمه سبحانه وتعالى: السلام الذي سلمها وسلم أهلها **﴿تَحِيَّتُهُم فيها سَلامٌ﴾**. [يونس: ١٠]. **﴿والملائِكَةُ يَدْخُلونَ عليهِم من كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيكُم بِمَا صَبَرتُم﴾**. [الرعد: ٢٣، ٢٤]. والرب تعالى يسلم عليهم من فوقهم كما قال تعالى: **﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَا يَدَّعُون سَلاَمٌ قَوْلاً مِن ربٍّ رحِيمٍ﴾**. [يس: ٥٧ - ٥٨]. وسيأتي حديث جابر في سلام الرب تبارك وتعالى عليهم في الجنة، وكلامهم

---

(١) ٧٢ حادي الأرواح.

كلهم فيها سلام أي: لا لغو فيها ولا فحش ولا باطل، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾. [مريم: ٦٢].

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾. [الواقعة: ٩٠، ٩١]. فأكثر المفسرين حاموا حول المعنى وما وردوه وقالوا أقوالًا لا يخفى بعدها عن المقصود. وإنما معنى الآية والله أعلم: فسلام لك أيها الراحل عن الدنيا حال كونك من أصحاب اليمين أي: فسلامه لك كائنًا من أصحاب اليمين الذين سلموا من الدنيا وأنكادها ومن النار وعذابها، فبشر بالسلامة عند ارتحاله من الدنيا وقدومه على الله كما يبشر الملك روحه عند أخذها بقوله: أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان. وهذا أول البشرى التي للمؤمن في الآخرة.

الاسم الثالث: دار الخلد، وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبدًا كما قال تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. [هود: ١٠٨]. وقال: ﴿إِنَّ هذا لرزقُنَا ما له من نَفَادٍ﴾. [ص: ٥٤]. وقال: ﴿أُكُلُها دائِمٌ وظِلُّها﴾. [الرعد: ٣٥]. وقال: ﴿وما هُم مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾. [الحجر: ٤٨]. وسيأتي إبطال قول من قال من الجهمية والمعتزلة بفنائها أو فناء حركات أهلها إن شاءالله تعالى.

الاسم الرابع: دار المقامة قال تعالى حكاية عن أهلها: ﴿وَقَالُوا الحَمدُ لله الذي أَذْهَبَ عنَّا الحَزَنَ إنَّ رَبَّنَا لَغفورٌ شَكُور. الذي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فيها نَصَبٌ﴾. [فاطر: ٣٤، ٣٥]. قال مقاتل: أنزلنا دار الخلود: أقاموا فيها أبدًا لا يموتون ولا يتحولون منها أبدًا. قال الفراء والزجاج: المقامة مثل الإقامة يقال: أقمت بالمكان إقامة ومقامة ومقامًا.

الاسم الخامس: جنة المأوى، قال تعالى: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى﴾. [النجم: ١٥].

والمأوى: مفعل من أوى يأوى إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به.

وقال عطاء، عن ابن عباس: هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة.

وقال مقاتل والكلبي: هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء.

وقال كعب: جنة المأوى: جنة فيها طير خضر ترتع فيها أرواح الشهداء.

وقالت عائشة رضي الله عنها، وزر بن حبيش: هي جنة من الجنان.

والصحيح: أنه اسم من أسماء الجنة كما قال تعالى: ﴿وأمَّا مَنْ خَافَ مقام ربِّه ونَهى النَّفسَ عن الهوى فإنَّ الجنَّة هي المأوى﴾. وقال في النار: ﴿فإنَّ الجَحِيمَ هي المأوى﴾. [النازعات: ٤١]. وقال: ﴿ومأْوَاكُم النَّار﴾. [الجاثية: ٣٤].

الاسم السادس: جنات عدن، فقيل: هي اسم لجنة من الجنان.

والصحيح: أنه اسم لجملة الجنان، وكلها جنات عدن، قال تعالى: ﴿جنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرَّحمنُ عِبَادَه بالغَيْب﴾. [مريم: ٦١].

وقال تعالى: ﴿جنَّات عَدْنٍ يدْخُلُونَها يُحَلَّونَ فيهَا مِنْ أَسَاورَ مِنْ ذَهَبٍ ولؤلؤًا ولِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾. [فاطر: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾. [التوبة: ٧٢].

والاشتقاق يدل على أن جميعها جنات عدن، فإنه من الإقامة والدوام، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به، وعدنت البلد توطنته، وعدنت الإبل بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه.

قال الجوهري: ومنه جنات عدن أي: إقامة، ومنه سمي المعدِن بكسر الدال؛ لأن الناس يقيمون فيه الصيف والشتاء. ومركز كل شيء معدنه. والعادن الناقة المقيمة في المرعى[1].

[2]**قوله** تعالى: ﴿والله يدْعُو إلى دَارِ السَّلامِ ويَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيم. للذينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وزِيَادَةٌ ولا يَرْهَقُ وُجوههم قَتَرٌ ولا ذِلَّة أُولئكَ أَصْحَابُ الجنَّة هُم فيهَا خَالِدُونَ﴾. [يونس: ٢٥، ٢٦].

فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، كذلك فسرها رسول الله، ﷺ، الذي أنزل عليه القرآن، فالصحابة من بعده.

كما روى مسلم في صحيحه: من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبدالرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب قال: قرأ رسول الله، ﷺ: ﴿للذينَ أَحْسَنُوا الحُسنَى وزِيَادة﴾. قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة: إن لكم عند الله موعدًا ويريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما**

---

(١) بقية الأسماء في مواضعها في القرآن. (٢) ٢٠٥ حادي الأرواح.

هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار؟ فيكشف الحجاب، فينظرون الله، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة».

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مسلم بن سالم البلخي، عن نوح بن أبي مريم، عن ثابت، عن أنس قال: سئل رسول الله، ﷺ، عن هذه الآية: **﴿للذينَ أحسَنُوا الحُسنى وزِيادة﴾**. قال: **«للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى وهي الجنة، والزيادة: وهي النظر إلى وجه الله»**.

وقال محمد بن جرير: حدثنا ابن حميد: حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج، عن عطاء، عن كعب بن عجرة، عن النبي، ﷺ، في قوله تعالى: **﴿للذينَ أحسَنُوا الحُسنى وزِيادة﴾**. قال: **«الزيادة: النظر إلى وجه الرحمن جل جلاله»**. **قلت**: عطاء هذا هو الخراساني وليس عطاء بن أبي رباح.

قال ابن جرير: وحدثنا ابن عبدالرحيم، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، قال: سمعت زهيرًا، وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا صفوان بن صالح: حدثناالوليد بن مسلم: حدثنا زهيربن محمد، قال: حدثني من سمع أبا العالية الرياحي يحدث عن أبيّ بن كعب قال: سألت رسول الله، ﷺ، عن الزيادة في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: **﴿للذينَ أحسَنُوا الحسنى وزِيادة﴾**. قال: **«الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل»**...

وقال أسد السنة: حدثنا قيس بن الربيع، عن أبان، عن أبي تميمة الهجيمي أنه سمع أبا موسى يحدث أنه سمع رسول الله، ﷺ، يقول: **«يبعث الله عز وجل يوم القيامة مناديًا ينادي: يا أهل الجنة بصوت يسمع أولهم وآخرهم، إن الله وعدكم الحسنى، والحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل»**...

(١)**فتأمل** قوله: **﴿أَأَمِنْتُم مَنْ في السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُور. أَمْ أَمِنْتُم مَنْ في السَّماءِ أَنْ يُرسِلَ عَلَيْكم حَاصِبًا﴾**. [الملك: ١٦، ١٧]. كيف

---

(١) ١١٥ بدائع جـ ١.

أفردت هنا لما كان المراد الوصف الشامل والفوق المطلق، ولم يرد سماء معينة مخصوصة.

ولما لم تفهم الجهمية هذا المعنى أخذوا في تحريف الآية عن مواضعها.

وكذا قوله تعالى: **﴿وَمَا يَعْزُبُ عن رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ ولاَ فِي السَّماءِ﴾**. [يونس: ٦١]. بخلاف قوله في سبأ: **﴿عَالِمِ الغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأَرْضِ﴾**. [سبأ: ٣]؛ فإن قبلها ذكر سبحانه سعة ملكه ومحله وهو السموات كلها والأرض.

ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي أفردها إرادة للجنس.

وتأمل كيف أتت مجموعة في قوله تعالى: **﴿وهو الله في السَّموات وفي الأرضِ يَعلَمُ سِرَّكُم وجَهْركم﴾**. [الأنعام: ٣]؛ فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة، وهي: تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية، فالمعنى وهو الإله وهو المعبود في كل واحدة واحدة من السموات ففي كل واحدة من هذا الجنس هو المألوه المعبود، فذكر الجمع هنا أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد.

ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسننة فسر الآية بما لا يليق بها فقال: الوقف التام على **﴿السموات﴾** ثم يبتدىء بقوله: **﴿وفي الأرض يعلم﴾** وغلط في فهم الآية وإن معناها ما أخبرتك به وهو قول محققي أهل التفسير.

وتأمل كيف جاءت مفردة في قوله: **﴿فَوَرَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنَّهُ لحقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُم تنطِقُون﴾**. [الذاريات: ٢٣]. إرادة لهذين الجنسين أي: رب كل ما علا وكل ما سفل، فلما كان المراد عموم ربوبيته أتى بالاسم الشامل لكل ما يسمى سماء وكل ما يسمى أرضًا، وهو أمر حقيقي لا يتبدل ولا يتغير وإن تبدلت عين السماء والأرض.

فانظر كيف جاءت مجموعة في قوله: **﴿يُسَبِّحُ لله ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ﴾**. [الجمعة: ١]. في جميع السور لما كان المراد، الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم وتباين مراتبهم لم يكن بد من جمع محلهم.

ونظير هذا جمعها في قوله: **﴿ولهُ مَنْ في السَّموات والأرضِ ومَنْ عِندهُ لا يَستَكْبِرونَ عن عِبادَتِه ولا يستحسِرُونَ﴾**. [الأنبياء: ١٩].

وكذلك جاءت في قوله: ﴿تُسَبِّحُ له السَّمواتُ السَّبْعُ﴾. [الإسراء: ٤٤]. مجموعة إخبارًا بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها، وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد ولم يقتصر على السموات فقط بل قال: السبع.

وانظر كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿وفي السَّماءِ رِزْقُكُم ومَا تُوعَدُونَ﴾. [الذاريات: ٢٢]. فالرزق: المطر، وما وعدنا به: الجنة، وكلاهما في هذه الجهة لا أنهما في كل واحدة واحدة من السموات فكان لفظ الإفراد أليق بها.

ثم تأمل كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿قُل لا يَعْلَمُ مَنْ في السَّمواتِ والأَرْض الغَيْبَ إلاَّ الله﴾. [النمل: ٦٥]. لما كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السموات أتى بها مجموعة.

وتأمل كيف لم يجئ في سياق الإخبار بنزول الماء منها إلا مفردة حيث وقعت لما لم يكن المراد نزوله من ذات السماء بنفسها بل المراد الوصف، وهذا باب قد فتحه الله لي ولك فلجه، وانظر إلى أسرار الكتاب وعجائبه وموارد ألفاظه جمعًا وإفرادًا وتقديمًا وتأخيرًا إلى غير ذلك من أسراره، فلله الحمد والمنة لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه. فإن قيل: فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس: ﴿قل مَنْ يَرزُقُكم مِنَ السَّماء والأرض أَمَّن يملِكُ السَّمعَ والأَبْصَارَ﴾. [يونس: ٣١]. وبين قوله في سورة سبأ: ﴿قُلْ مَنْ يرزقُكُم مِنَ السَّمواتِ والأَرْض قُلِ الله﴾. [سبأ: ٢٤].

قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقًا، فتدبر السياق تجده نقيضًا لما وقع، فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم ومدبر أمورهم وغيرها، ومخرج الحي من الميت والميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم، أن فاعل هذا هو الله الذي لا إلـه غيره، فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئًا من هذا ولا يستطيعون فعل شيء منه، ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ الله﴾. أي: لابد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه فلابد أن يكون المذكور مما يقرون به، والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه

السماء التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا، فأفردت لفظ السماء هنا فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها، لاسيما والرزق ههنا إن كان هو المطر فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمى سماء لعلوه.

وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿**الله الذي يُرسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبسُطُه في السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ**﴾. [الروم: ٤٨].

والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس فلا يلتفت إلى غيره.

فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا إفراد السماء؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح، ولابد من الوحي الذي به الحياةالحقيقية الأبدية وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطاف والموارد الربانية والتنزلات الإلهية، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق، ولكن القوم لم يكونوا مقرين به فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم بحيث لا يمكنهم إنكاره.

وأما الآية التي في سبأ فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها، ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون فقال: ﴿**قُل مَنْ يَرْزُقكم منَ السَّموات والأَرْض قُل الله**﴾. [سبأ: ٢٤]. ولم يقل: سيقولون الله، فأمر تعالى نبيه، ﷺ، أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع، وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر.

(١)**وأما** تقديم السماء على الأرض ففيه معنى آخر غير ما ذكره وهو: أن غالبًا تذكر السموات والأرض في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته وربوبيته، ومعلوم أن الآيات في السموات أعظم منها في الأرض، لسعتها وعظمها وما فيها من كواكبها

---

(١) ٧٤ بدائع جـ ١.

وشمسها وقمرها وبروجها وعلوها واستغنائها عن عمد تقلها أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها التي الأرض وما فيها كقطرة في سعتها، ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع الناظر البصر فيها كرة بعد كرة ويتأمل استواءها واتساقها وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض وفي كل شيء له آية سبحانه وبحمده.

وأما تقديم الأرض عليها في قوله: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عن رَبِّكَ مِنْ مِثقالِ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ ولَا في السَّماءِ**﴾. [يونس: ٦١]. وتأخيرها عنها في سبأ فتأمل كيف وقع هذا الترتيب في سبأ في ضمن قول الكفار: ﴿**لا تأتينا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى ورَبِّي لتَأْتِيَنَّكُم عالِمِ الغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ في السَّموات ولَا في الأَرْضِ**﴾. [سبأ: ٣]. كيف قدم السموات هنا، لأن الساعة إنما تأتي من قبلها وهي غيب فيها ومن جهتها تبتدىء وتنشأ، ولهذا قدم صعق أهل السموات على أهل الأرض عندها فقال تعالى: ﴿**ونُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ في السَّموات ومَنْ في الأَرْضِ**﴾. [الزمر: ٦٨]. وأما تقديم الأرض على السماء في سورة يونس: فإنه لما كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر وإعلامهم أنه سبحانه عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها وأنه لا يغيب عنه منها شيء؛ اقتضى ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السماء، فتبارك من أودع كلامه من الحكم والأسرار والعلوم، ما يشهد أنه كلام الله وأن مخلوقًا لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبدًا!!

(١)**ومن** ذلك احتجاجه سبحانه على نبوة رسوله، ﷺ، وصحة ما جاء به من الكتاب وأنه من عنده، وكلامه الذي تكلم به، وأنه ليس من صنع البشر بقوله: ﴿**وإن كُنتُم في رَيْبٍ مِما نَزَّلنَا على عَبْدِنَا**﴾. الخ فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي أنزله على عبده، وأنه كلام الله أن يأتي بسورة واحدة مثله، وهذا يتناول أقصر سورة من سوره، ثم فسح له إن عجز عن ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين.

وقال تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وادْعُوا مَنِ استَطَعْتُم مِنْ دُونِ الله إنْ كُنتُم صَادِقِينَ**﴾. [يونس: ٣٨].

---

(١) ٩٧ مختصر الصواعق جـ ١.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾. [هود: ١٣].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾. [الطور: ٣٣، ٣٤].

ثم سجل عليهم تسجيلًا عامًّا في كل مكان وزمان بعجزهم، ولو تظاهر عليه الثقلان فقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾. [الإسراء: ٨٨].

فانظر إلى أي موقع يقع من الأسماع والقلوب هذا الحجاج الجليل القاطع الواضح، الذي لا يجد طالب الحق ومؤثره ومريده عنه محيدًا، ولا فوقه مزيدًا، ولا وراءه غاية، ولا أظهر منه آية، ولا أوضح منه برهانًا، ولا أبلغ منه بيانًا.

وقال في إثبات نبوة رسوله باعتبار المتأمل لأحواله ودعوته وما جاء به: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُم الأَوَّلِينَ. أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ. أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلحَقِّ كَارِهُونَ﴾.
[المؤمنون: ٦٨ ـ ٧٠].

فدعا سبحانه إلى تدبر القول، وتأمل حال القائل، فإن كون القول كذبًا وزورًا يعرف من نفس القول تارة، وتارة من تناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب والفجور والمنكر والخداع والمكر لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يأتي منه من القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق من كل فاحشة وغدر وفجور وكذب، بل قلب هذا وقصده وعمله وقوله يشبه بعضه بعضًا، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضًا. فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله وحينئذ يتحقق لهم ويتبين حقيقة الأمر، وأن ما جاء به أعلى مراتب الصدق.

(١)**قوله** تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعلمِه ولَمَّا يأتِهِم تأويله كذلِكَ كَذَّبَ الذينَ مِنْ قَبلِهم فانظُر كيفَ كانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾. [يونس: ٣٩]. فأخبر أن من قبل المكذبين أصل يعتبر به، والفرع نفوسهم، فإذا ساووهم في المعنى ساووهم في العاقبة.

(١) ١٣٨ أعلام جـ ١.

فائـدة(١)

اختلف ابن قتيبة وابن الأنباري في السمع والبصر، أيهما أفضل، ففضل ابن قتيبة السمع ووافقه طائفة، واحتج بقوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُونَ**(٢) **إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُم مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ**﴾. [يونس: ٤٢-٤٣]. قال: فلما قرن بذهاب السمع ذهاب العقل ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر، كان دليلًا على أن السمع أفضل **قال** ابن الأنباري: هذا غلط وكيف يكون السمع أفضل وبالبصر يكون الإقبال والإدبار، والقرب إلى النجاة، والبعد من الهلاك، وبه جمال الوجه، وبذهابه شينة، وفي الحديث: «**من ذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابًا دون الجنة**».

وأجاب عما ذكره ابن قتيبة بأن الذي نفاه الله تعالى مع السمع بمنزلة الذي نفاه عن البصر، إذ كأنه أراد إبصار القلوب ولم يرد إبصار العيون، والذي يبصره القلب هو الذي يعقله؛ لأنها نزلت في قوم من اليهود كانوا يستمعون كلام النبي، ﷺ، فيقفون على صحته ثم يكذبونه، فأنزل الله فيهم: ﴿**أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ**﴾. أي: المعرضين ﴿**ولو كانوا لا يعقلون**﴾، ﴿**ومنهم من ينظر إليك**﴾ بعين نقص ﴿**أفأنت تهدي العمى**﴾ أي: المعرضين ﴿**ولو كانوا لا يبصرون**﴾.

قال: ولا حجة في تقديم السمع على البصر هنا، فقد أخبر في قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كالأَعْمَى والأَصَمِّ والبَصِيرِ والسَّمِيعِ**﴾. [هود: ٢٤].

قلت: واحتج مفضلو السمع بأن به ينال غاية السعادة من سمع كلام الله وسماع كلام رسوله، قالوا: وبه حصلت العلوم النافعة. وبه يدرك الحاضر والغائب والمحسوس والمعقول فلا نسبة لمدرك البصر إلى مدرك السمع.

قالوا: ولهذا يكون فاقده أقل علمًا من فاقد البصر؛ بل قد يكون فاقد البصر أحد العلماء الكبار بخلاف فاقد صفة السمع، فإنه لم يعهد من هذا الجنس عالم ألبتة.

---

(١) ١٦٤ بدائع جـ ٣.	(٢) في المطبوعة ﴿يستمع﴾ والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

قال مفضلو البصر: أفضل النعيم النظر إلى الرب تعالى، وهو يكون بالبصر، والذي يراه البصر لا يقبل الغلط بخلاف ما يسمع فإنه يقع فيه الغلط والكذب والوهم، فمدرك البصر أتم وأكمل، قالوا: وأيضًا فمحله أحسن وأكمل وأعظم عجائب من محل السمع، وذلك لشرفه وفضله.

قال شيخنا: والتحقيق أن السمع له مزية، والبصر له مزية، فمزية السمع العموم والشمول، ومزية البصر كمال الإدراك وتمامه، فالسمع أعم وأشمل، والبصر أتم وأكمل، فهذا أفضل من جهة شمول إدراكه وعمومه، وهذا أفضل من جهة كمال إدراكه وتمامه.

(١)**وحلف**، ﷺ، في أكثر من ثمانين موضعًا. وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع:

فقال تعالى: ﴿**ويستنبئونك أحقٌّ هو قل إي وربي إنه لحق**﴾. [يونس: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم**﴾. [سبأ: ٣]. وقال تعالى: ﴿**زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير**﴾. [التغابن: ٧].

وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي يذاكر أبا بكر محمد بن داود الظاهري ولا يسميه بالفقيه، فتحاكم إليه يومًا وهو خصم له، فتوجهت اليمين على أبي بكر بن داود فتهيأ للحلف، فقال له القاضي إسماعيل: أوتحلف؟ ومثلك يحلف يا أبا بكر؟ فقال: وما يمنعني من الحلف، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه، قال: أين ذلك؟ فسردها له أبو بكر، فاستحسن ذلك منه جدًا، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم.

وكان، ﷺ، يستثني في يمينه تارة، ويكفرها تارة، ويمضي فيها تارة، والاستثناء يمنع عقد اليمين، والكفارة تحلها بعد عقدها، ولهذا سماها الله ﴿**تحلة**﴾. [التحريم: ٢].

(١) ٨٤ زاد المعاد جـ ١.

الباب السابع[1]

في أن القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه

قال الله عز وجل: ﴿يا أيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَتكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ ربِّكُمْ وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ﴾. [يونس: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿ونُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤمِنينَ﴾. [الإسراء: ٨٢].

وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات. والقرآن شفاء للنوعين. ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النِّحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن. فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانًا. فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك.

ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه. فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانًا بقلبه، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم: بين علوم لا ثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد، وبين ظنون كاذبة لا تغني عن الحق شيئًا، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها؛ وبين علوم صحيحة قد وعَّروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها. فهي **«لحم جمل غثّ على رأس جبل وعر، لا سهل فيُرتَقى، ولا سمين فينتقل»**[2].

وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريرًا وأحسن تفسيرًا، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، كما قيل:

---

(١) ٤٤ إغاثة جـ ١.

(٢) من وصف المرأة الأولى لزوجها في حديث أم زرع الذي رواه البخاري.

لولا التنافس في الدنيا لما وُضِعت		كتب التناظر لا المغني ولا العمد
يحللون بزعم منهم عقدًا		وبالذي وضعوه زادت العقد

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك. ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى؛ والعلم واليقين من كتاب الله تعالى وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين، الذين أخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم، حيث يقول(١):

نهاية إقدام العقول عقال		وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا		وحاصل دنيانا أذًى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا		سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً. ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.

أقرأ في الإثبات: ﴿الرحمنُ على العَرْشِ استَوَى﴾. [طه: ٥]. ﴿إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالحُ يَرْفَعُهُ﴾. [فاطر: ١٠].

وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيْءٌ﴾. [الشورى: ١١]. ﴿ولاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾. [طه: ١١٠] ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

فهذا إنشاده وألفاظه في آخر كتبه. وهو أفضل أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام والفلسفة، وكلام أمثاله في مثل ذلك كثير جدًّا قد ذكرناه في كتاب الصواعق(٢). وغيره. وذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء «آخر أمر المتكلمين الشك، وآخر أمر المتصوفين الشطح». والقرآن يوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد، ولذلك أنزله من تكلم به. وجعله شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

---

(١) هو الفخر الرازي، قال هذا في غير موضع من كتبه، مثل كتاب أقسام اللذات.

(٢) كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. أنفس وأقوى ما ألف في هدم طواغيت الملاحدة، والمتفلسفة والمفتونين بهم من المؤولين والمحرفين للنصوص. وقد طبع مختصره في مكة المكرمة بأمر جلالة الملك العالم العادل الصالح المصلح عبدالعزيز آل سعود، رحمه الله تعالى.

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبًّا للرشد، مبغضًا للغي، فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية.

(1)**وقال** تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتكم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُم وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ وهُدًى ورَحْمَةٌ للمُؤمِنِينَ﴾. [يونس: ٥٧].

فقوله: ﴿هذا بصائر من ربِّكم﴾. عام مطلق، وقوله: ﴿وهدًى ورَحمة لِقَومٍ يُوقِنُون﴾. خاص بأهل اليقين.

ونظير ذلك قوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكم وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدورِ وَهُدًى ورَحْمَةٌ لِلمُؤمِنِينَ﴾.

ونظيره في الخصوص قوله تعالى: ﴿هُدًى للمُتَّقِينَ﴾. [البقرة: ٢]. وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾. [المائدة: ١٦].

ونظيره أيضًا؛ قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وهُدًى ومَوْعِظَةٌ لِلمُتَّقِينَ﴾. [آل عمران: ١٣٨]. وقد أخبر أنه هدى عام لجميع المكلفين. فقال: ﴿إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ ومَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ولَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِم الهُدَى﴾. [النجم: ٢٣].

فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس. والبصائر جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنى مُفعلة، أي مبصرة لمن تبصَّر. ومنه قوله تعالى: ﴿وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾. [الإسراء: ٥٩]. أي مُبَيِّنة موجبة للتَّبصر.

وفعل الإبصار يستعمل لازمًا ومتعديًا. يقال: أبصرته، بمعنى: أريته، وأبصرته، بمعنى: رأيته. فمُبصِرَة في الآية: بمعنى مرئية، لا بمعنى رائية، والذين ظنوها بمعنى رائية غَلِطوا في الآية، وتحيَّروا في معناها.

فإنه يقال: بَصُرَ به، وأبصره، فيُعَدَّى بالباء تارة، والهمزة تارة. ثم يقال:

---

(١) ١٦٩ إغاثة جـ ٢.

أبصرته كذا، أر: أريته إياه، كما يقال: بَصَّرته به. وبَصُر هو به.

فههنا بَصيرة، وتَبْصِرَة، ومُبصِرة. فالبَصيرة: المبينة التي تُبْصر، والتَّبصرةُ مَصْدَرٌ، مثلُ التَّذكرة، وسُمِّي بها ما يُوجب التَّبصرة، فيقال: هذه الآية تَبْصِرةٌ، لكونها آلةَ التبصُّر، ومُوجبه.

فالقرآن بَصيرةٌ وتَبصرَة، وهُدًى وشفَاء، ورحمة، بمعنى عام، وبمعنى خاص. ولهذا يذكرُ الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدًى للعالمين، وموعظةٌ للمتقين، وهُـدى للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، وموعظة للمتقين فهو في نفسه هُدًى ورحمة، وشِفاء وموعظة.

فمن اهتدى به واتَّعظ واستشفى، كان بمنزلة مَن استعمل الدَّواء الذي يحصل به الشفاء، فهو دواء له بالفعل. وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوة، وكذلك الهُدى. فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يُهتدى به ويُرحم ،ويتَّعظ المتقون الموقنون.والهدى في الأصل مصدر هدى يهدي هُدى.

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديًا، كما في الأثر: «**من ازداد علمًا ولم يزدد هدى لم يزدد من الله تعالى إلا بعدًا**». ولكن يسمَّى هُدى؛ لأن من شأنه أن يهدي.

وهذا أحسن من قول من قال: إنه هُدى، بمعنى هادٍ، فهو مصدر بمعنى الفاعل، كعدل بمعنى: العادل، وزور بمعنى: الزائر، ورجل صَوْمٌ أي: بمعنى صائم، فإن الله سبحانه قد أخبر أنه يَهدي به. فالله الهادي، وكتابه الهُدى الذي يهدي به على لسان رسوله، صلى الله عليه وآله وسلم.

فههنا ثلاثة أشياء: فاعل، وقابلٌ، وآلة. فالفاعل: هو الله تعالى، والقابل: قلبُ العبد، والألة: هو الذي يحصل به الهدى، وهو الكتاب المنزَّل، والله سبحانه يهدي خلقه هُدى، كما يقال: دلَّهم دلالة، وأرشدهم إرشادًا، وبيَّن لهم بيانًا. والمقصود: أن المحلَّ القابل هو قلب العبد المتَّقي، المنيب إلى ربه، الخائف منه، الذي يبتغي رضاه، ويهرب من سخطه، فإذا هداه الله فكأنَّه وصل أثر فعله إلى محل قابل، فيتأثر به، فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول، وإذا لم يكن المحل قابلاً وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه، كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء، فإنه لا يؤثر فيه شيئًا، بل لا يزيده إلا ضعفًا

وفسادًا إلى فساده، كما قال تعالى في السورة التي نزلها: ﴿فأمَّا الذينَ آمنوا فزادَتْهُم إيمانًا وهُمْ يَستَبْشِرون. وأمَّا الذينَ في قُلوبهم مَرَضٌ فَزادَتْهُم رجْسًا إلى رِجْسِهِمْ﴾. [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. وقال: ﴿ونُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ ما هُوَ شِفَاءٌ ورَحْمَةٌ للمؤمِنينَ ولاَ يَزِيدُ الظَّالِمينَ إلاَّ خَسَارًا﴾. [الإسراء: ٨٢].

فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحلِّ تارة، ولعدم آلةِ الهدى تارة، ولعدم فعل الفاعل، وهو الهادي، تارة، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

وقد قال سبحانه: ﴿ولوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيرًا لأَسْمَعَهُم ولَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وهُمْ مُعْرِضُون﴾. [الأنفال: ٢٣]. فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها، لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به. وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظةالعالية، التي لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له.

ثم أكَّد الله هذا المعنى في حقهم بقوله: ﴿ولَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وهُمْ مُعْرِضُونَ﴾. فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى، وهي الكِبْرُ والإعراض، وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتَّبعوا الحق، ولم يعملوا به، فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتَّصل الهدى في حقهم بالرحمة.

وأما المؤمنون: فاتَّصل الهدى في حقهم بالرحمة، فصار القرآن لهم هدى ورحمة ولأولئك هدى بلا رحمة .والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة.

فأما العاجلة فما يعطيهم الله تعالى في الدنيا من محبةالخير والبر، وذوق طعم الإيمان، ووجدان حلاوته، والفرح والسرور بأنْ هداهم الله تعالى لما أضل عنه غيرهم، ولما اختلف فيه من الحق بإذنه، فهم يتقلَّبون في نور هُداه، ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم مُتحيِّرًا في الظلمات، فهم أشد الناس فرحًا بما آتاهم ربهم

من الهدى. قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾. [يونس: ٥٨].

فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضله ورحمته.

وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والإيمان والقرآن، وهما اتباع الرسول، وهذا من أعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده. فإن الأمن والعافية والسرور، ولذة القلب ونعيمه وبهجته، وطمأنينته: مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة.

والخوف والهم، والغم، والبلاء، والألم، والقلق: مع الضلال والحيرة.

ومثل هذا بمسافرين، أحدهما قد اهتدى لطريق مقصده، فسار آمنًا مطمئنًا، والآخر قد ضلّ الطريق فلم يَدْرِ أين يتوجه؟ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُنَا ولا يَضُرُّنَا ونُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْد إِذْ هَدَانَا اللهُ كالذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إلى الهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى﴾. [الأنعام: ٧١].

فالرحمة التي تحصل لمن حصل له الهدى، هي بحسب هداه، فكلما كان نصيبه من الهدى أتم كان حظه من الرحمة أوفر، وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين، وهي غير الرحمة العامة بالبرِّ والفاجر.

وقد جمع سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم، فقال تعالى: ﴿أولئك عليهم صَلواتٌ من ربِّهم ورحمة وأولئك همُ المُهْتَدُون﴾ [البقرة: ١٥٧].

(١)﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحمته فبذلك فَلْيَفْرَحُوا﴾. فالفرح بفضله ورحمته تبع للفرح به سبحانه، فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كل أحد بما يفرح به: من حبيب أو حياة، أو مال، أو نعمة، أو ملك. يفرح المؤمن بربه أعظم من هذا كله، ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتى يجد طعم هذه الفرحة والبهجة، فيظهر سرورها في قلبه ونضرتها في وجهه، فيصير له حال من حال أهل الجنة حيث لقَّاهم الله نضرة

---

(١) ٢٨١ طريق الهجرتين.

وسرورًا. ﴿لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾. [الصافات: ٦١]. ﴿وفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنافِسُونَ﴾. [المطففين: ٢٦].

(١)**الوجه** الخامس والعشرون: أن الله سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم، وأخبر أنه خير مما يجمع الناس، فقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وفسر فضل الله بالإيمان، ورحمته بالقرآن، والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق وهما أفضل علم وأفضل عمل.

(٢)قال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: «**فضل الله**» الإسلام و«رحمته» القرآن. فجعلوا «رحمته» أخص من «**فضله**» فإن فضله الخاص: عام على أهل الإسلام، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض. فجعلهم مسلمين بفضله. وأنزل إليهم كتابه برحمته. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يلقى إِلَيْكَ الكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾. [القصص: ٨٦]. وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «**فضل الله**»: القرآن، و«رحمته»: أن جعلنا من أهله.

قلت: يريد بذلك: أن ههنا أمرين.

أحدهما: الفضل في نفسه. والثاني: استعداد المحل لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات. فيتم المقصود بالفضل، وقبول المحل له. والله أعلم.

والفرح: لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى. فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور. كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب. فإذا فقده: تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم.

وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقيب قوله: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ قَد جاءَتكُمُ موعِظَةٌ من ربِّكُم وشِفاءٌ لِمَا في الصُّدورِ وهُدًى ورَحمة للمؤمنينَ﴾. [يونس: ٥٧]. ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته، التي تتضمن الموعظة، وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة. فأخبر سبحانه: أن ما أتى عباده من الموعظة ـ التي هي الأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء

(١) ٥١ مفتاح جـ ١. (٢) ١٥٦ مدارج جـ ٣.

الصدور، المتضمن لعافيتها من داء الجهل، والظلمة، والغي، والسفه ـ وهو أشد ألمًا لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها. وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا. فهناك يحضرها كل مؤلم محزن. وما أتاها من ربها الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به. والرحمة التي تجلب لها كل خير ولذة. وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها. أي هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به. ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به. لا ما يجمع أهل الدنيا منها. فإنه ليس بموضع للفرح. لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة. وهو طيف خيال زار الصب في المنام. ثم انقضى المنام. وولى الطيف. وأعقب مزاره الهجران.

وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مطلق ومقيد.

فالمطلق: جاء في الذم. كقوله تعالى: ﴿**لا تَفرحْ إنَّ الله لا يُحبُّ الفَرحينَ**﴾. [القصص: ٧٦]. وقوله: ﴿**إنَّه لَفَرِح فَخُور**﴾. [هود: ١٠].

والمقيد: نوعان أيضًا. مقيد بالدنيا. يُنسِي صاحبه فضل الله ومنته. فهو مذموم. كقوله: ﴿**حتَّى إذَا فَرِحوا بِما أُوتُوا أخذناهم بَغْتَةً فإذَا هُمْ مُبْلِسُون**﴾. [الأنعام: ٤٤]. والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته. وهو نوعان أيضًا: فضل ورحمة بالسبب. وفضل بالمسبب.

فالأول: كقوله: ﴿**قُلْ بِفَضلِ الله وبِرَحمتِهِ فَبذلك فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون**﴾. [يونس: ٥٨].

والثاني: كقوله: ﴿**فَرِحينَ بِما آتَاهُم الله مِنْ فَضْلِهِ**﴾. [آل عمران: ١٧٥].

فالفرح بالله، وبرسوله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن: من أعلى مقامات العارفين. قال الله تعالى: ﴿**وإذَا مَا أُنْزِلَت سورة فَمنهُم مَن يقول أيُكُم زادَتْهُ هذه إيمانًا فأمَّا الذينَ آمَنُوا فَزادتهم إيمانًا وهُمْ يستبشرونَ**﴾. [التوبة: ١٢٤]. وقال: ﴿**والذيْنَ آتيناهُم الكِتابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إليكَ**﴾. [الرعد: ٣٦]. .

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته

له، وإيثاره له على غيره. فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له: على قدر محبته له، ورغبته فيه. فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته.

فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله.

والاستبشار يكون به قبل حصوله. إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحينَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ. ويَسْتَبْشِرُونَ بالذينَ لم يَلْحَقُوا بهم مِنْ خَلْفِهِم﴾. [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال. ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها، واليأس من حصولها.

والمقصود: أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب، ولذته وبهجته. والفرح والسرور نعيمه. والهم والحزن عذابه. والفرح بالشيء فوق الرضى به. فإن الرضى طمأنينة وسكون وانشراح. والفرح لذة وبهجة وسرور. فكل فَرِحٍ راضٍ. وليس كل راضٍ فرحًا. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط. والحزن يؤلم صاحبه. والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام. والله أعلم(١).

(٢)**وقال** تعالى: ﴿يا أيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتكم موعِظَةٌ منْ رَبِّكُم وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدورِ وهُدًى ورَحمةٌ للمُؤمِنينَ﴾. فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغيِّ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى. والغي مرض شفاؤه الرشد.

وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين.

فقال: ﴿والنَّجم إذَا هَوى مَا ضَلَّ صَاحِبُكم ومَا غَوى﴾. [النجم: ١، ٢].

ووصف رسوله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. خلفاءه بضدهما فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**».

وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاء تامًا لما في الصدور، فمن استشفى به صح وبرىء من مرضه، ومن

---

(١) سيأتي قريباً مزيد بحث للبشرى والفرح والسرور على قوله تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾. (٢) ١٥ إغاثة جـ ١.

لم يستشف به فهو كما قيل:

إذا بلَّ من داء به ظن أنــه نجـا وبه الـداء الـذي هو قاتــله

[(١)] **وليس** المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول، وإن وقع ذلك ضمنًا وتبعًا في بعضها، لأسباب اقتضته لابد منها، هي من لوازم هذه النشأة.

فأوامره سبحانه، وحقه الذي أوجبه على عباده، وشرائعه التي شرعها لهم، هي قرة العيون ولـذة القلوب، ونعيم الأرواح وسرورها، وبها شفاؤها وسعادتها وفلاحها، وكمالها في معاشها ومعادها، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك، كما قال تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتكُمْ مَوعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُم وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدورِ وهُدًى ورَحْمَةٌ للمؤمنِينَ. قُلْ بفضلِ الله وبِرحْمَتِهِ فبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾. [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

قال أبو سعيد الخدري: فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يساف: بالإسلام الـذي هداكم إليه. وبالقرآن الذي علمكم إياه، هو خير مما تجمعون: من الذهب والفضة.

وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة: «فضله: الإسلام، ورحمته: القرآن. وقالت طائفة من السلف: فضله: القرآن، ورحمته: الإسلام.

والتحقيق: أن كلًّا منهما فيه الوصفان، الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿**وكذلِكَ أَوْحَيْنَا إليْكَ رُوحًا مِنْ أمرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي ما الكِتَابُ ولا الإِيمَانُ**﴾. [الشورى: ٥٢].

والله سبحانه إما رفع من رفع بالكتاب والإيمان. ووضع من وضع بعدمهما.

فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفًا في القرآن كقوله: ﴿**لَا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾. [البقرة: ٢٨]. وقوله: ﴿**ولاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَها**﴾. [المؤمنون: ٦٢]. قيل: نعم، إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفًا قط، بل سماها روحًا ونورًا، وشفاء وهدى ورحمة، وحياة، وعهدًا، ووصية، ونحو ذلك.

---

(١) ٣١ إغاثة جـ ١.

(١)قال: ﴿يا أيُّها النَّاسُ قَد جَاءَتكم مَوعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُم وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُور وهُـدًى ورَحْمَة للمُؤمِنينَ﴾. ثم أعاد سبحانه ذكرهما، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وبِرَحمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفرَحُوا﴾.

وقد تنوعت عبارات السلف في تفسير الفضل والرحمة، والصحيح: أنهما الهـدى والنعمـة، ففضله: هداه، ورحمتـه: نعمتـه، ولـذلك يقرن بين الهدى والنعمـة، كقـولـه في سورة الفـاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ المستَقيم. صِراطَ الذينَ أنْعمتَ عليهم﴾.

ومن ذلك قوله لنبيه يذكره بنعمه عليه: ﴿أَلَمْ يجِدْكَ يَتيمًا فَآوَى. وَوَجدَكَ ضَالاً فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾. [الضحى: ٦ - ٨]. فجمع له بين هدايته له وإنعامه عليه بإيوائه وإغنائه.

ومن ذلك قول نوح: ﴿يا قَومِ أَرَأَيْتُم إنْ كُنْت عَلَى بَيِّنَةٍ من رَبِّي وآتَاني رَحمَةً مِنْ عِنده﴾. [هود: ٢٨].

وقـول شعيب: ﴿أرَأَيْتُم إنْ كُنْتُ عَلَى بيِّنـةٍ مِنْ رَبِّي ورَزَقَني مِنْـهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾. [هود: ٨٨].

وقال عن الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وعَلَّمنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾. [الكهف: ٦٥].

وقال لرسوله: ﴿إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ليغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّم مِن ذَنْبِك ومَا تَأَخَّر ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ويَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ويَنْصُرَكَ الله نَصْرًا عَزِيزًا﴾. [الفتح: ١ - ٣].

وقال: ﴿وأَنْزَلَ الله عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَم وكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿ولَولا فَضْلُ الله عَلَيكُم ورَحْمَتُهُ مَا زَكَى منكُم مِنْ أَحَدٍ أبدًا﴾.

ففضله: هدايته، ورحمته إنعامه وإحسانه إليهم وبره بهم. وقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ ولاَ يَشْقَى﴾. [طه: ١٢٣].

---

(١) ١٣٢ فوائد.

والهدى: منعه من الضلال، والرحمة: منعه من الشقاء، وهذا هو الذي ذكره في أول السورة، في قوله: ﴿طه. مَا أَنْزَلْنا عليكَ القُرآنَ لِتَشْقَى﴾. [طه: ١، ٢]. فجمع بين إنزال القرآن عليه ونفي الشقاء عنه، كما قال في آخرها في حق أتباعه: ﴿فَلَا يَضِلُّ ولَا يَشْقَى﴾.

فالهدى والفضل، والنعمة والرحمة، متلازمات لا ينفك بعضها عن بعض.

كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر. قال تعالى: ﴿إنَّ المجرمين في ضَلَالٍ وسُعُرٍ﴾. [القمر: ٤٧]. والسعر: جمع سعير. وهو: العذاب الذي هو غاية الشقاء.

وقال تعالى: ﴿ولَقَد ذَرَأْنَا لجهنَّم كثيراً منَ الجنِّ والإنس لَهُم قُلُوبٌ لَا يفقهون بهَا ولَهم أعين لا يُبْصِرونَ بها ولهم آذانٌ لَا يسمَعُونَ بها أولَئِكَ كالأَنْعَام بَل هُم أَضَلُّ أُولئكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾. [الأعراف: ١٧٩]. وقال تعالى عنهم: ﴿وقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِل مَا كُنَّا في أصحَابِ السَّعيرِ﴾. [الملك: ١٠].

ومن هذا أنه سبحانه يجمع بين الهدى وانشراح الصدر والحياة الطيبة، وبين الضلال وضيق الصدر والمعيشة الضنك. قال تعالى: ﴿فمن يُرِدِ الله أن يهديهُ يَشرَحْ صَدْرَهُ للإِسلَامِ ومَن يُرد أن يُضلَّه يَجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾. [الأنعام: ١٢٥]. وقال: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾. [الزمر: ٢٢].

وكذلك يجمع بين الهدى والإنابة، وبين الضلال وقسوة القلب؛ قال تعالى: ﴿الله يَجْتَبي إليْهِ مَنْ يَشَاءُ ويَهْدِي إليه مَنْ يُنِيب﴾. [الشورى: ١٣]. وقال تعالى: ﴿فوَيْلٌ للقَاسِيَةِ قُلوبُهم مِنْ ذِكْرِ الله أُولئِكَ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾. [الزمر: ٢٢].

والهدى والرحمة وتوابعهما من الفضل والإنعام كله من صفة العطاء، والإضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع. وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه، وذلك كله صادر عن حكمة بالغة، وملك تام، وحمد تام، فلا إلـه إلا الله.

(١)**قال** تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم ما أنزلَ الله لَكُم مِن رِزْقٍ فَجَعلتُم مِنْه حَرَامًا وحَلَالًا قل ءآلله أَذِنَ لَكُم أَمْ على الله تَفْتَرُونَ﴾. [يونس: ٥٩].

---

(١) ٢٤٤ أعلام جـ ١.

فقسم الحكم إلى قسمين: قسم أذن فيه وهو الحق، وقسم افتري عليه وهو ما لم يأذن فيه، فأين أذن لنا أن نقيس البلوط على التمر في جريان الربا فيه؟ وأن نقيس القزدير على الـذهب والفضة، والخردل على البر؟ فإن كان الله ورسوله وصّانا بهذا فسمعًا وطاعة لله ورسوله، وإلا فإنا قائلون لمنازعينا: أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا؟ فما لم تأتنا به وصية من عند الله على لسان رسوله، ﷺ، فهو عين الباطل.

وقد أمرنا الله بردِّ ما تنازعنا فيه إليه وإلى رسوله، ﷺ، فلم يُبح لنا قط أن نردَّ ذلك إلى: رأي ولا قياس ولا تقليد إمام، ولا منام ولا كشوف ولا إلهام، ولا حديث قلب ولا استحسان ولا معقول ولا شريعة الديوان ولا سياسة الملوك، ولا عوائد الناس التي ليس على شرائع المسلمين أضر منها: فكل هذه طواغيت من تحاكم إليها أو دعا منازعه إلى التحاكم إليها فقد حاكم إلى الطاغوت.

[1]**وقال** ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحدًا أقتدي به يقول في شيء: هذا حلال، وهذا حرام، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره كذا، ونرى هذا حسنًا؛ فينبغي هذا، ولا نرى هذا، ورواه عنه عتيق بن يعقوب، وزاد: ولا يقولون حلال ولا حرام، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿**قُل أَرَأَيْتُم ما أَنْزَلَ الله لَكُم مِنْ رِزقٍ فجعلتُم مِنْـهُ حَرَامًا وحَلالاً قُل ءَآلله أَذِنَ لكُم أم على الله تَفْتَرُونَ**﴾. [يونس: ٥٩]. الحلال: ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله.

[2]**وفي** سنن أبي داود: من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله**».

وفيه أيضًا: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله**» قالوا: يا رسول الله: تخبرنا من هم؟ قال: «**هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إنَّ وجوههم لنور وإنهم لعلى نور ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس**» وقرأ هذه الآية:

---

(١) ٣٩ أعلام جـ ١.   (٢) ٤٤١ روضة.

﴿أَلا إنَّ أولِياءَ الله لَا خَوْفٌ عليهم ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. [يونس: ٦٢].

وفي لفظ لغـيره: «إنَّ لله عبـادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء بمكانهم من الله» قالوا: يا رسول الله صفهم لنا، جلهم لنا لعلنا نحبهم قال: «هم قوم تحابـوا بروح الله على غير أمـوال تبـاذلـوهـا ولا أرحام تواصلوها هم نور ووجوههم نور وعلى كراسي من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن النـاس» ثم قرأ هذه الآية: ﴿أَلَا إنَّ أولِيـاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. [يونس: ٦٢]. . . .

(١)**والفرق** بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان:

أن أولياء الرحمن ﴿لا خَوْفٌ عليهم ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. هُمُ ﴿الذينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾. وهم المذكورون في أول سورة البقرة إلى قوله: ﴿هُمُ المُفْلِحُونَ﴾.

وفي وسطها في قوله: ﴿ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بالله واليَومِ الآخِرِ﴾. إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الذينَ صَدَقُوا وأُوْلَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾. [البقرة: ١٧٧]. وفي أول الأنفال إلى قوله: ﴿لهم دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِم ومَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَريم﴾. [الأنفال: ١ - ٤]. وفي أول سورة المؤمنين إلى قوله: ﴿هُم فيهَا خَالِدُونَ﴾. [المؤمنون: ١ - ١١]. وفي آخر سورة الفرقان، [الفرقان: ٦٣ - ٧٧]. وفي قوله: ﴿إنَّ المسلمين والمسلمات﴾. [الأحزاب: ٣٥]. إلى آخر الآية. وفي قوله: ﴿ألا إنَّ أَولياءَ الله لَا خَوْفٌ عليهم ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ الذينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقونَ﴾. وفي قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ الله ورَسُولَهُ ويَخْشَ الله ويَتَّقه فأُولئـكَ هُمُ الفَـائِزُونَ﴾. [النور: ٥٢]. وفي قوله: ﴿إلَّا المُصلِّينَ الذينَ هُم على صَلاتِهِم دَائِمُونَ﴾. إلى قوله: ﴿في جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾. [المعارج: ٢١، ٣٥]. وفي قوله: ﴿التائبون العَابِدونَ الحامِدونَ﴾. [التوبة: ١١٢]. إلى آخر الآية.

فأولياء الـرحمن هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله في الحرم والحل الذين يخالفون غيره لسنته ولا يخالفون سنته لغيرها، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهوًا

---

(١) ٣٢٣ الروح.

ولعبًا، ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن، ولا يؤثرون صحبة الافتان على مرضاة الرحمن، ولا المعازف والمثاني على السبع المثاني.

ولا يشتبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان، وأنى يكون المعرضون عن كتابه وهدي رسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه وقد ضربوا لمخالفته جاشًا، وعدلوا عن هدي نبيه وطريقته. ﴿**وَمَا كَانُوا أَولياءَهُ إن أولياؤهُ إلَّا المُتَّقُونَ ولكنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾. [الأنفال: ٣٤].

فأولياء الرحمن المتلبسون بما يحبه وليهم الداعون إليه المحاربون لمن خرج عنه، وأولياء الشيطان المتلبسون بما يحبه وليهم قولاً وعملاً، يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه، فإذا رأيت الرجل يحب السماع الشيطاني ومؤذن الشيطان، وإخوان الشياطين ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور، علمت أنه من أوليائه. فإن اشتبه عليك فاكشفه في ثلاثة مواطن: في صلاته، ومحبته للسنة وأهلها، ونفرته عنهم، ودعوته إلى الله ورسله وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة فزنه بذلك، لا تزنه بحال ولا كشف ولا خارق ولو مشى على الماء وطار في الهواء.

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيماني والحال الشيطاني، فإن الحال الإيماني ثمرة المتابعة للرسول والإخلاص في العمل وتجريد التوحيد، ونتيجته منفعة المسلمين في دينهم ودنياهم، وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهي.

والحال الشيطاني نسبته إما شرك أو فجور وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهتهم، وهذا الحال يكون لعباد الأصنام والصلبان والنيران والشيطان، فإن صاحبه لما عبد الشيطان خلع عليه حالاً يصطاد به ضعفاء العقول والإيمان، ولا إله إلا الله كم هلك بهؤلاء من الخلق ﴿**ليردُوهُم ولِيَلْبسُوا عليهم دِينَهُم ولَوْ شَاءَ الله مَا فَعَلُوه**﴾. [الأنعام: ١٣٧].

فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب وما جاء به الرسول فهو شيطاني كائنًا ما كان. وقد سمعت بأحوال السحرة وعباد النار وعباد الصليب وكثير ممن ينتسب إلى الإسلام ظاهرًا وهو بريء منه في الباطن، له نصيب من هذا الحال بحسب موالاته للشيطان ومعاداته للرحمن.

وقد يكون الرجل صادقًا ولكن يكون ملبوسًا عليه بجهله، فيكون حاله

شيطانيًا مع زهد وعبادة وإخلاص، لكن لبس عليه الأمر لقلة علمه بأمور الشياطين والملائكة وجهله بحقائق الإيمان.

وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من ليس منهم بل هو متشبه صاحب مخاييل ومخاريق.

ووقع الناس في البلاء بسبب عدم التمييز بين هؤلاء وهؤلاء فحسبوا كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة.

والفرقان أعز ما في هذا العالم وهو نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل، ويزن به حقائق الأمور، خيرها وشرها وصالحها وفاسدها فمن عدم الفرقان وقع ولابد في أشراك الشيطان فالله المستعان وعليه التكلان.

(١)**البشرى:** يراد بها أمران: أحدهما: بشارة المخبِر. والثاني سرور المخبَر.

قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنيَا وفِي الآخِرَةِ﴾. [يونس: ٦٤].

فُسِّرت البشرى بهذا وهذا. ففي حديث عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء رضي الله عنهما عن النبي، ﷺ: «**هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرَى له**».

وقال ابن عباس: بشرى الحياة الدنيا: هي عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله، وفي الآخرة: عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلى الله، تُزفُّ كما تزف العروس، تبشر برضوان الله.

وقال الحسن: هي الجنة. واختاره الزجاج والفراء.

وفسرت بشرى الدنيا بالثناء الحسن، يجري له على ألسنة الناس. وكل ذلك صحيح؛ فالثناء: من البشرى. والرؤيا الصالحة من البشرى، وتبشير الملائكة له عند الموت من البشرى. والجنة من أعظم البشرى. قال الله تعالى: ﴿**وبشِّر الذينَ آمَنوا وعمِلوا الصالحات أنَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾. [البقرة: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿**وأبشروا بالجنَّة التي كنتُم تُوعدون**﴾. [فصلت: ٣٠].

قيل: وسميت بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه. ولذلك كانت نوعين: بشرى سارة، تؤثر فيه نضارة وبهجة، وبشرة محزنة تؤثر فيه بُسورًا وعُبوسًا. ولكن إذا أطلقت كانت للسرور. وإذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به.

---

(١) ١٥٩ مدارج جـ ٣.

(١)**قوله:** «هو أصفى من الفرح» واحتج على ذلك: بأن «الأفراح ربما شابها أحزان» أي: ربما مازجها ضدها. بخلاف السرور.

فيقال: والمسرات ربما شابها أنكاد وأحزان. فلا فرق.

قوله: «ولذلك نزل القرآن باسمه في أفراح الدنيا في مواضع».

يريد: أن الله تعالى نسب الفرح إلى أحوال الدنيا في قوله تعالى: ﴿**حتَّى إذا فَرِحوا بِما أوتُوا أخذناهُم بَغتَةً**﴾. [الأنعام: ٤٤]. وفي قوله تعالى: ﴿**لا تَفرَحْ إنَّ الله لاَ يُحبُّ الفَرِحينَ**﴾. [القصص: ٧٦]. وقوله تعالى: ﴿**إنَّه لفرح فخور**﴾. [هود: ١٠]. فإن الدنيا لا تتخلص أفراحها من أحزانها وأتراحها ألبتة. بل ما من فرحة إلا ومعها ترحة سابقة، أو مقارنة، أو لاحقة. ولا تتجرد الفرحة. بل لابد من ترحة تقارنها. ولكن قد تقوى الفرحة على الحزن فينغمر حكمه وألمه مع وجودها. وبالعكس.

فيقال: ولقد نزل القرآن أيضًا بالفرح في أمور الآخرة في مواضع، كقوله تعالى: ﴿**فَرِحينَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ**﴾. [آل عمران: ١٧٠]. وقوله تعالى: ﴿**فَبِذلِكَ فلْيَفْرَحُوا**﴾. [يونس: ٥٨]. فلا فرق بينهما من هذا الوجه الذي ذكره.

قوله: «وورد اسم السرور في القرآن في موضعين في حال الآخرة».

يريد بهما: قوله تعالى: ﴿**فأمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بيمينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيراً. ويَنْقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسْرُورًا**﴾. [الانشقاق: ٧ - ٩]. والموضع الثاني: قوله: ﴿**ولقَّاهُمْ نَضْرَةً وسُرُورًا**﴾. [الإنسان: ١١]. فيقال: وورد السرور في أحوال الدنيا في موضع على وجه الذم. كقوله تعالى: ﴿**وأمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابَهُ ورَاءَ ظَهرِهِ فَسوفَ يَدعُو ثُبورًا. ويَصْلَى سَعيراً. إنَّه كَانَ في أهلِهِ مَسْرُورًا**﴾. [الانشقاق: ٧ - ٩]. فقد رأيت ورود كل واحد من الفرح والسرور في القرآن بالنسبة إلى أحوال الدنيا وأحوال الآخرة. فلا يظهر ما ذكره من الترجيح.

بل قد يقال: الترجيح للفرح. لأن الرب تبارك وتعالى يوصف به. ويطلق عليه اسمه دون السرور، فدل على أن معناه أكمل من معنى السرور، وأمر الله به في قوله تعالى: ﴿**فبذلكَ فليَفْرَحُوا**﴾. وأثنى على السعداء به في قوله: ﴿**فرحينَ**

---

(١) يعني: صاحب المنازل.

بما آتاهم الله من فضله﴾. [المائدة: ٢٣].

[1]**التوكل** مركب السائر الذي لا يتأتى له السير إلا به، ومتى نزل عنه انقطع لوقته، وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته.

قال الله تعالى: ﴿وعلى الله فَتَوَكَّلُوا إنْ كُنتُم مؤمنينَ﴾. [المائدة: ٢٣].

فجعل التوكل شرطًا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل.

وفي الآية الأخرى: ﴿وقالَ مُوسَى يا قَوْمِ إنْ كُنتُم آمَنْتُم بالله فَعَلَيْهِ تَوكَّلُوا إنْ كُنتُم مُسلمينَ﴾. [يونس: ٨٤]. فجعل دليل صحة الإسلام التوكل.

وقال تعالى: ﴿وعَلى الله فَلْيَتَوكَّلِ المُؤمِنُونَ﴾. [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠، المائدة: ١١، التوبة: ٥١، إبراهيم: ١١، المجادلة: ١٠، التغابن: ١٣]:

فذكر اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم، دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه.

وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا فهو دليل على ضعف الإيمان ولابد.

والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية.

فأما التوكل والعبادة فقد جمع بينهما في سبعة مواضع من كتابه: أحدها: في سورة أم القرآن فقال: ﴿إيَّاكَ نَعبُدُ وإيَّاكَ نَستَعين﴾. [الفاتحة: ٥]. الثاني: قوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿ومَا تَوْفِيقي إلَّا بالله عليْهِ تَوَكَّلْتُ وإليْهِ أُنيب﴾. الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا عليكَ تَوَكَّلْنا وإليْكَ أَنَبْنَا وإليْكَ المَصير﴾. [الممتحنة: ٥]. الرابع: قوله تعالى لنبيه محمد، ﷺ: ﴿واذْكُر اسمَ ربِّكَ وتَبَتَّل إليهِ تَبتِيلًا رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرب لا إلـه إلا هُوَ فاتَّخذْهُ وَكِيلًا﴾. [المزمل: ٨، ٩]. الخامس: قوله: ﴿ولله غَيْبُ السموات والأَرْضِ وإليهِ يرجعُ الأمرُ كُلُّهُ فاعْبُدْهُ وتَوكَّلْ عليْهِ وما رَبُّكَ بغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. [هود: ١٢٣]. السادس: قوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وآتُوا الزَّكاةَ واعْتَصِمُوا بالله هُوَ

(١) ٢٥٥ طريق الهجرتين.

مَوْلاكُم فَنِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصير﴾. [الحج: ٧٨]. السابع: قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إلـه إلاَّ هُوَ عليهِ تَوَكَّلْتُ وإليهِ مَتَاب﴾. [الرعد: ٣٠]. فهذه السبعة المواضع جمعت الأصلين: التوكل وهو الوسيلة، والإنابة وهي الغاية. فإن العبد لابد له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية فأشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها عبادة ربه، والإنابة إليه.

وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة. فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل.

وأما الجمع بين الإيمان والتوكل ففي مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحمنُ آمَنَّا بِهِ وعليْهِ تَوَكَّلْنَا﴾. [الملك: ٢٩]. ونظيره قوله: ﴿وعَلى الله فَتَوَكَّلُوا إنْ كُنتُم مُؤمِنين﴾. [المائدة: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿وعَلَى الله فَلْيَتَوكَّلِ المؤمِنون﴾. [آل عمران: ١٢٢].

وأما الجمع بين التوكل والإسلام ففي قوله تعالى: ﴿وقال مُوسى يا قَومِ إن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بالله فَعَلَيْه توكلوا إن كنتم مُسلمين﴾ [يونس: ٨٤].

وأما الجمع بين التقوى والتوكل ففي مثل قوله تعالى: ﴿يا أيُّهَا النبيُّ اتَّقِ الله ولا تُطِعِ الكافرينَ والمُنَافقينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وتَوَكَّل علَى الله وكَفَى بالله وكِيلًا﴾. [الأحزاب: ١-٣]. وقوله: ﴿ومَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب ومَنْ يَتوكَّلْ على الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾. [الطلاق: ٢، ٣].

وأما الجمع بين التوكل والهداية ففي مثل قول الرسل لقومهم: ﴿وَمَا لَنَا ألاَّ نَتَوَكَّلَ على الله وقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾. [إبراهيم: ١٢]. وقال الله تعالى لنبيه، ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ على الله إنَّكَ عَلى الحَقِّ المُبين﴾. [النمل: ٧٩]. فأمر سبحانه بالتوكل عليه وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل، مصحح له مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: ﴿إنَّكَ على الحَقِّ المُبين﴾. فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد. فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به. فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ كما قالت الرسل لقومهم: ﴿وما لَنَا ألاَّ نتوكَّل على الله وقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾. [إبراهيم: ١٢]. فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم،

وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدًا.

وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان: فصاحب الحق لعلمه بالحق، ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره مضطر إلى توكله على الله، لا يجد بدًّا من توكله.

فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب، وعمله.

وأما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لابد فيه من العلم. وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته.

والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل على ربه؟

وإذا كان على الباطل علمًا وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئنًا واثقًا بربه فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده، فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك.

فلما كان الباطل لا يتعلق به. بل هو مقطوع ألبتة كان صاحبه كذلك.

ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعًا عن ربه، لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله.

فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر. ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب، لشدة الحاجة إليها. والله المستعان وعليه التكلان.

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على

البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل، والله أعلم.

فائدة[1]

قوله تعالى: ﴿وأَوْحَينَا إلى مُوسَى وأخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَومِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا واجْعَلُوا بُيُوتَكُم قِبْلَةً وأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وبَشِّرِ المُؤمِنِينَ﴾. [يونس: ٨٧]. هو من أحسن النظم وأبدعه فإنه ثنى أولاً إذ كان موسى وهرون هما الرسولان المطاعان، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء وإذا تبوءاالبيوت لقومهما فهم تبع لهما.

ثم جمع الضمير فقال: وأقيموا الصلاة لأن إقامتها فرض على الجميع.

ثم وحده في قوله: ﴿وبَشِّرِ المُؤمِنِين﴾. لأنَّ موسى هو الأصل في الرسالة، وأخوه رِدأً ووزيرًا، فكما كان الأصل في الرسالة فهو الأصل في البشارة.

وأيضا فإن موسى وأخاه لما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولاً واحدًا كقوله تعالى: ﴿إنَّا رَسُولُ رَبِّ العالِمِينَ﴾. [الشعراء: ١٦]. فهذا الرسول هو الذي قيل له: وبشر المؤمنين. اهـ.

[2]**وأما** الشد على القلب ففي قوله تعالى: ﴿وقالَ موسَى رَبَّنَا إنَّك آتيتَ فِرعَونَ وملأه زِينة وأَمْوالاً في الحَيَاةِ الدُّنيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عنْ سَبيلك ربَّنا اطمِس على أَمْوالِهِم واشـدُد على قُلُوبِهم فَلا يؤمِنُوا حتَّى يَروا العَـذَابَ الأَليم قال قَد أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾. [يونس: ٨٨، ٨٩]. فهذا الشد على القلب هو الصد والمنع.

ولهذا قال ابن عباس: يريدا منعها، والمعنى: قسِّها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، وهذا مطابق لما في التوراة أن الله سبحانه قال لموسى: اذهب إلى فرعون فإني سأقسِّي قلبه فلا يؤمن حتى تظهر آياتي وعجائبي بمصر.

وهذا الشد والتقسية من كمال عدل الرب سبحانه في أعدائه جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم، كعقوبته لهم بالمصائب ولهذا كان محمودًا عليه فهو حسن منه، وأقبح شيء منهم فإنه عدل منه وحكمة وهو ظلم منهم وسفه، فالقضاء والقدر فعل عادل حكيم غني عليم يضع الخير والشر في أليق المواضع بهما والمقضي المقدر يكون ظلمًا وجورًا وسفهًا وهو فعل جاهل ظالم سفيه.

---

(١) ١٠ بدائع جـ ٤.

(٢) ٩٦ شفاء العليل.

(١)**الأصل** في الدماء حقنها وفي الأبضاع والذبائح تحريمها.

فأبقوا كل شيء على أصله: وهذا غاية الفقه وأسد ما يكون من النظر.

قالوا: ولله تعالى حِكَم في إبقاء أهل الكتابين بين أظهرنا، فإنهم مع كفرهم شاهدون بأصل النبوات والتوحيد واليوم الآخر والجنة والنار؛ وفي كتبهم من البشارات بالنبي، ﷺ، وذكر نعوته وصفاته وصفات أمته ما هو من آيات نبوته وبراهين رسالته، وما يشهد بصدق الأول والآخر.

وهذه الحكمة تختص بأهل الكتاب دون عبدة الأوثان، فبقاؤهم من أقوى الحجج على منكر النبوات والمعاد والتوحيد.

وقد قال تعالى لمنكري ذلك: ﴿**فاسْأَلُوا أهلَ الذِّكْر إنْ كُنتُم لا تَعْلمُونَ**﴾. [النحل: ٤٣]. ذكر هذا عقب قوله: ﴿**ومَا أَرْسَلنَا مِنْ قَبلِكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحِي إليهم فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ**﴾.

يعني: سلوا أهل الكتاب هل أرسلنا قبل محمد رجالاً يُوحى إليهم أم كان محمد بدعًا من الرسل، لم يتقدمه رسول حتى يكون إرساله أمرًا منكرًا لم يطرق العالم رسول قبله؟ وقال تعالى: ﴿**واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلنَا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحمنِ آلهَةً يُعْبَدُونَ**﴾. [الزخرف: ٤٥].

والمراد بسؤالهم سؤال أممهم عما جاؤوهم به: هل فيه أن الله شرع لهم أن يعبد من دونه إلـه غيره؟

قال الفراء: المراد سؤال أهل التوراة والإنجيل، فيخبرونه عن كتبهم وأنبيائهم.

وقال ابن قتيبة: التقدير: واسأل من أرسلنا إليهم رسلاً من قبلك: وهم أهل الكتاب. وقال ابن الأنباري: التقدير: وَسلْ من أرسلنا من قبلك.

وعلى كل تقدير، فالمراد: التقرير لمشركي قريش وغيرهم ممن أنكر النبوات والتوحيد، وأن الله أرسل رسولاً، أو أنزل كتابًا، أو حرم عبادة الأوثان. فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم، وهي من أعلام صحة رسالته، ﷺ، إذ كان قد جاء على ما جاء به إخوانه الذين تقدموه من رسل الله سبحانه، ولم يكن بدعًا من

(١) ١١ أحكام جـ ١.

الرسل، ولا جاء بضد ما جاءوا به، بل أخبر بمثل ما أخبروا به من غير شاهد(١) ولا اقتران في الزمان. وهذه من أعظم آيات صدقه.

وقال تعالى: **﴿فإنْ كُنْتَ في شَكٍّ مِمَّا أنْزَلْنَا إليك فاسأل الذينَ يَقْرءونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾**. [يونس: ٩٤].

وقد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيرادًا. قالوا: كان في شك فأمر أن يسألنا؛ وليس فيها بحمد الله إشكال، وإنما أُتي أشباه الأنعام من سوء قصدهم وقلة فهمهم. وإلا فالآية(٢) من أعلام نبوته، ﷺ.

وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلاً، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه.

كما قال تعالى: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلهَةٌ إلاَّ الله لَفَسَدَتَا﴾**. [الأنبياء: ٢٢]. وقوله: **﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذَنْ لاَبْتَغَوا إلى ذِي العَرْشِ سَبيلاً﴾**. [الإسراء: ٤٢]. وقوله: **﴿قُلْ إنْ كَانَ للرحمن ولدٌ فأنا أوَّل العابدين﴾** [الزخرف: ٨١] وقوله: **﴿ولَقَدْ أُوحِيَ إلَيْكَ وإلى الذينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾**. [الزمر: ٦٥]. ونظائره: فرسول الله، ﷺ، لم يشك ولم يسأل.

وفي تفسير سعيد: عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله، ﷺ، قال: **«لا أشكُّ ولا أسأل»**.

وقد ذكر ابن جريج: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فإن كنت في شك أنك مكتوب عندهم فاسألهم. وهذا اختيار ابن جرير. قال: يقول تعالى لنبيه: فإن كنت يا محمد في شك من حقيقة ما أخبرناك وأنزلنا إليك، من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن أبعثك رسولاً إلى خلقي؛ لأنهم يجدونك مكتوبًا عندهم، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتبهم، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، كعبدالله بن سلام ونحوه من أهل الصدق والإيمان بك منهم،

---

(١) في الأصل: شاعر.

(٢) في الأصل: وإلا في الآية.

دون أهل الكذب والكفر بك، وكذلك قال ابن زيد: قال: هو عبدالله بن سلام. وقال الضحاك: سل أهل التقوى والإيمان من مؤمني أهل الكتاب.

ولم يقع هؤلاء ولا هؤلاء على معنى الآية ومقصودها؛ وأين كان عبدالله بن سلام وقت نزول هذه الأية؟ فإن السورة مكية، وابن سلام إذ ذاك على دين قومه، وكيف يؤمر رسول الله، ﷺ، أن يستشهد على منكري نبوته بأتباعه؟

وقال كثير من المفسرين: هذا الخطاب للنبي، ﷺ، والمراد غيره؛ لأن القرآن نزل عليه بلغة العرب، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره كما يقول متمثلهم: إياك أعني واسمعي يا جارة، وكقوله تعالى: ﴿**يا أيُّها النَّبيُّ اتَّقِ الله ولا تُطعِ الكَافِرينَ والمُنافِقينَ**﴾. [الأحزاب: ١]. والمراد أتباعه بهذا الخطاب.

قال أبو إسحاق: إن الله تعالى يخاطب النبي، ﷺ، والخطاب شامل للخلق؛ والمعنى: وإن كنتم في شك؛ والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر السورة: ﴿**قُل يا أيُّها النَّاسُ إنْ كُنتُم في شَكٍّ مِنْ ديني فَلا أعبُدُ الذينَ تَعبُدونَ مِنْ دونِ الله**﴾. [يونس: ١٠٤].

وقال ابن قتيبة: كان الناس في عصر النبي، ﷺ، أصنافًا، منهم كافر به مكذب، وآخر مؤمن به مصدق، وآخر شاك في الأمر لا يدري كيف هو، فهو يقدم رجلًا ويؤخر رجلًا، فخاطب الله تعالى هذا الصنف من الناس وقال: فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد فسل. قال: ووحد وهو يريد الجمع كما قال: ﴿**يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّكَ بربِّكَ الكريم**﴾. [الانفطار: ٦]. و﴿**يا أيُّها الإنسانُ إنَّك كادحٌ إلى ربِّك كدحًا فمُلاقيه**﴾. [الانشقاق: ٦]. ﴿**وإذَا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعَا ربَّهُ مُنيبًا إليه**﴾. [الزمر: ٨].

وهذا - وإن كان له وجه - فسياق الكلام يأباه فتأمله وتأمل قوله تعالى: ﴿**يقرءونَ الكِتَابَ منْ قَبلِكَ**﴾. [يونس: ٩٤]. وقوله: ﴿**إنَّ الذينَ حَقَّتْ عليهمْ كَلمَةُ رَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ**﴾. [يونس: ٩٦]. وقوله: ﴿**ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأَرْضِ كُلُّهُم جَميعًا أفَأنْتَ تُكرِهُ النَّاسَ حتَّى يَكُونُوا مُؤمِنِينَ**﴾. [يونس: ٩٩].

وهذا كله خطاب واحد متصل بعضه ببعض. ولما عرف أرباب هذا القول أن الخطاب لا يتوجه إلا على النبي، ﷺ، قالوا: الخطاب له والمراد به هذا الصنف

الشاك. وكل هذا فرار من توهم ما ليس بموهوم: وهو وقوع الشك منه والسؤال؛ وقد بينًا أنه لا يلزم إمكان ذلك فضلاً عن وقوعه.

فإن قيل: فإذا لم يكن واقعًا ولا ممكنًا فما مقصود الخطاب والمراد به؟

قيل: المقصود؛ به إقامة الحجة على منكري النبوات والتوحيد، وأنهم مقرون بذلك لا يجحدونه ولا ينكرونه، وأن الله سبحانه أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بذلك، وأرسل ملائكته إلى أنبيائه بوحيه وكلامه، فمن شك في ذلك فليسأل أهل الكتاب، فأخرج هذا المعنى في أوجز عبارة وأدلها على المقصود بأن جعل الخطاب لرسوله الذي لم يشك قط ولم يسأل قط ولا عرض له ما يقتضي ذلك. وأنت إذا تأملت هذا الخطاب بدا لك على صفحاته: من شك فليسأل، فرسولي لم يشك ولم يسأل.

(١)**قوله** تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ على الذينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾** [يونس: ١٠٠].

وإذنه هاهنا قضاؤه وقدره، لا مجرد أمره وشرعه، كذلك قال السلف في تفسير هذه الآية. قال ابن المبارك عن الثوري: بقضاء الله.

وقال محمد بن جرير: يقول جل ذكره لنبيه: وما لنفس خلقها من سبيل إلى أن تصدقك إلا أن يأذن لها في ذلك فلا تجهدن نفسك في طلب هداها، وبلغها وعيد الله ثم خلها فإن هداها بيد خالقها، وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك فإنه سبحانه قال: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِين.وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾**. [يونس: ٩٩، ١٠٠]. أي: لا تكفي دعوتك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوته أن يؤمن. ثم قال: **﴿قُل انظُروا ماذَا في السَّموات والأَرْض وما تُغْني الآياتُ والنُّذُر عن قَومٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾**. [يونس: ١٠١].

قال ابن جرير: يقول تعالى: يا محمد قل لهؤلاء السائلينك الآيات على صحة ما تدعو إليه: من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا أيها القوم ماذا

(١) ٦٠ شفاء العليل.

في السموات من الآيات الدالة على حقيقة [1] ما أدعوكم إليه من توحيد الله : من شمسها وقمرها واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها وفي الأرض من جبالها وتصدعها بنباتها وأقوات أهلها وسائر صنوف عجائبها؟! فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم عظة ومعتبرًا ودلالة، على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على حفظه وتدبيره ظهير، يغنيكم عما سواها من الآيات، وما يغني عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى عليهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار فهم لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدقون به ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة يونس والحمد لله رب العالمين

(١) في المطبوعة «حقية» ولعل الصواب ما أثبتناه. المراجع.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **قوله** تعالى: ﴿**وأنْ استَغْفِروا ربَّكم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ يُمَتِّعكُم مَّتاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّى وَيُؤتِ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضلَهُ**﴾ [هود: ٣] ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين. فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه، ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه، ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر: إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وقال الآخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقد أشار النبي، ﷺ، إلى هذه الجنة بقوله: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر**». **وقال**: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**».

ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الأبرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [الانفطار: ١٣-١٤] يختص بيوم المعاد فقط؛ بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة. وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته؟ وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة القلب فقال: ﴿**وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبراهِيمَ إِذ جَاءَ رَبَّه بِقَلب سَلِيمٍ**﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤]. وقال حاكياً عنه أنه قال: ﴿**يومَ لَا ينفعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَن أَتَى الله بقلب سليم**﴾. [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. . .

. . . (٢) **قال** تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ**

---

(١) ١٦٣/ الجواب الكافي. (٢) ٧٠ روضة المحبين.

عَمَلاً﴾ [الملك:٢] . وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود:٧].

فأخبر سبحانه عن خلق العالم والموتِ والحياة وتزيين الأرض بما عليها؛ أنه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أحسن عملاً فيكون عملُه موافقاً لمحابِّ الرب تعالى، فيوافق الغاية التي خُلِق هو لها وخُلِق لأجلها العالَم، وهي عبوديته المتضمنة لمحبته وطاعته، وهي العملُ الأحسنُ وهو مَوَاقِعُ محبته ورضاه، وقدَّر سبحانه مقاديرَ تخالفها بحكمته في تقديرها، وامتحن خلقه بين أمره وقَدَره ليبلوَهم أيُّهم أحسنُ عملاً. . .

(١) **قال:** ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:٧]. وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢] .

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود:٧].

فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي وقدر أجل الخلق، وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسراء والضراء، فالابتلاء من النعم من الغناء والعافية والجاه والقدرة وتأتي الأسباب، أعظم الابتلائين، والصبر على طاعة الله أشق الصبرين، كما قال الصحابة رضي الله عنهم: «ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر» والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها وأذى الخلق قد تكون أعظم النعمتين. وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها، فالرب تعالى يبتلي بنعمه وينعم بابتلائه. غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره لا يستغني عنهما طرفة عين. والسؤال عن أيهما أفضل؟ كالسؤال عن الحسّ والحركة أيهما أفضل؟ وعن الطعام والشراب أيهما أفضل؟ وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل؟ فالمأمور لا يؤدى إلا بصبر وشكر، والمحظور لا

(١) ١٦٠/ عدة الصابرين.

يترك إلا بصبر وشكر. وأما المقدور الذي يقدَّر على العبد من المصائب فمتى صبر عليه اندرج شكره في صبره كما يندرج صبر الشاكر في شكره.

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه، وأوجب عليه جهادهما في الله، فهو في كل وقت في مجاهدة نفسه حتى تأتي بالشكر المأمور به، ويصبر عن الهوى المنهي عن طاعته، فلا ينفك العبد عنهما غنيًّا كان أو فقيراً معافى أو مبتلى. وهذه هي مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل: وللناس فيها ثلاثة أقوال، وهي التي حكاها أبو الفرج بن الجوزي وغيره في عموم الصبر والشكر أيهما أفضل؟ وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها، والتحقيق أن يقال: أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن فرض استواؤهما في التقوى استويا في الفضل، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى، كما لم يفضل بالعافية والبلاء، وإنما فضل بالتقوى كما قال تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد قال، ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى الناس من آدم وآدم من تراب**»، والتقوى مبنية على أصلين: الصبر والشكر، وكل من الغني والفقير لابد له منهما. فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل.

(١) **وقال** تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الملك: ٢]. وقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ**﴾ [هود: ٧]. فأخبر في هذه الآية أنه خلق السموات والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه، وأخبر(٢) في الآية التي قبلها أنه خلق الموت والحياة ليبتليهم أيضاً فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدر عليهم الموت الذي ينالوا به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب، وأخبر في الآية الأولى أنه زين لهم ما على الأرض ليبتليهم به أيهم يؤثر ما عنده عليه، وابتلى بعضهم ببعض، وابتلاهم بالنعم والمصائب، فأظهر هذا الابتلاء علمه السابق فيهم موجوداً عياناً بعد أن كان غيباً في علمه، فابتلى أبوي الإنس والجن كلاًّ منهما بالآخر، فأظهر ابتلاء آدم ما علمه منه وأظهر ابتلاء إبليس ما علمه منه؛ فلهذا قال للملائكة: ﴿**إِنِّي أَعْلَم مَا لَا تَعلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠]. واستمر هذا الابتلاء في

---

(١) **٣٥** شفاء العليل.

الذرية إلى يوم القيامة فابتلى الأنبياء بأممهم وابتلي أممهم بهم، وقال لعبده ورسوله وخليله إني مبتليك ومبتل بك.

وقال: ﴿وَنَبلُوكُم بِالشر وَالخَير فِتنَةً وَإِلَينَا تُرجَعونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقال: ﴿وَجَعَلنَا بَعضَكُم لِبَعض فِتنة﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفي الحديث الصحيح: أن ثلاثة أراد الله أن يبتليهم: أبرص وأقرع وأعمى، فأظهر الابتلاء حقائقهم التي كانت في علمه قبل أن يخلقهم، فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه وأنه كان أعمى فقيراً، فأعطاه الله البصر والغنى، وبذل للسائل ما طلبه شكراً لله، وأما الأقرع والأبرص فكلاهما جحدا ما كانا عليه قبل ذلك من سوء الحال والفقر: وقال الغنى، إنما أوتيته كابراً عن كابر.

وهذا حال أكثر الناس لا يعترف بما كان عليه أولاً من نقص أو جهل وفقر وذنوب، وأن الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضدّ ما كان عليه وأنعم بذلك عليه.

ولهذا ينبه سبحانه الإنسان على مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره من حال إلى حال، حتى جعله بشراً سويًّا يسمع ويبصر، ويقول وينطق، ويبطش ويعلم، فنسي مبدأه وأوله، وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربه عليه كما قال تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امرِئٍ مِّنهُم أَن يُدخَلَ جَنَّة نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقنَاهُم مِّمَّا يَعلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٨-٣٩].

وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزاً عظيماً من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة، وما بعدها إلى موضع الحجة والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدى لا يرسل إليهم رسولاً ولا ينزل عليهم كتاباً، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقاً جديداً، ويبعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبون ويكذبون رسلي، ويعدلون بي خلقي، وهم يعلمون من أيّ شيء خلقتهم.

ويشبه هذا قوله: ﴿نَحنُ خَلَقنَاكُم فَلَولَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]. وهم كانوا مصدقين بأنه خالقهم، ولكن احتج عليهم بخلقه لهم على توحيده ومعرفته

وصـدق رسله، فدعـاهم منهم ومن خلقـه إلى الإقرار بأسمائه وصفاته وتوحيده وصدق رسله والإيمان بالمعاد.

فصـل[1]

وسبب الخـذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة، بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه؛ كما قال تعالى: ﴿**قَالَ إِنَّـمَا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْـدِي**﴾ [القصص: ٧٨]. أي: على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله. قال الفراء: أي: على فضل عندي، إني كنت أهله ومستحقًا له إذ أعطيته، وقال مقاتل: يقول: على خير علمه الله عندي.

وذكر عبدُالله بن الحارث بن نوفل سليمانَ بن داود، فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي، لِيَبْلُونِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾ [النمل: ٤٠]. ولم يقل: هذا من كرامتي.

ثم ذكر قارون، وقوله: ﴿**إِنَّما أوتيته عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ [القصص: ٧٨]. يعني أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته، وأنه ابتلى به شكره، وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿**وَلَئِن أَذَقنَاهُ رَحمَةً مِّنَّا مِن بَعدِ ضَرَّاءَ مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي**﴾ [فصلت: ٥٠]. أي: أنـا أهله، وحقيق به، فاختصاصي به كاختصاص المالكِ بملكه، والمؤمن يرى ذلك ملكاً لربه وفضلاً منه، منّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها، لم يكن قد منعه شيئاً هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك، رأى فيه أهلاً ومستحقًا، فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة، وعلت بها واستطالت على غيرها، فكان حظهـا منهـا الفرح والفخر. كما قال تعالى: ﴿**وَلَئِن أَذَقنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحمَةً ثُمَّ نَزَعنَاها مِنهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ، وَلَئِن أَذَقنَاهُ نَعمَاءَ بَعدَ ضَرَّاءَ مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِئَاتُ عَنِّي، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ**﴾ [هود: ٩-١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء ـ قوله: ذهب

(١) ٢٠٥/ الفوائد.

السيئات عني ـ ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته، ومَنِّه، لما ذم على ذلك، بل كان محموداً عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر، فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣] فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم؛ وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله ـ سبحانه ـ لها قابلة للنعمة، فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض: هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر: هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك، بل لضده؛ وهو الحكيم العليم.

والصبر(١) نوعان: نوع على المقدور، كالمصائب، ونوع على المشروع، وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي. فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل. فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار. قال النبي ﷺ في حق ابنته: «**مرها فلتصبر ولتحتسب**». وقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]. وقال تعالى: ﴿بَلَى، إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور.

(١) ٥٥/ التبيان.

(١) **قال** في الآية الأخرى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون؟﴾ [هود: ١٣]. وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله ـ وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء. فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل ـ وإنما المعنى: أنزله مشتملاً على علمه. فنزوله مشتملاً على علمه: هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق. ونظير هذا قوله: ﴿قل: أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ [الفرقان: ٦]. ذكر ذلك سبحانه تكذيباً وردًّا على من قال: ﴿افتراه﴾ [الفرقان: ٤].

(٢) **قال** تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس؛ حيث فهموا منها أن من كان له إرادة في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد.

ثم اختلفوا في معناها، فقالت طائفة ـ منهم ابن عباس ـ من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب.

قالوا: والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدمه ونيته وطلبه، جازاه الله في الدنيا بحسناته ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، وأما المؤمن فيجزى في الدنيا بحسناته ويثاب عليها في الآخرة.

قال هؤلاء: فالآية في الكفار بدليل قوله: ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ قالوا: والمؤمن يريد الدنيا والآخرة.

فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، في رواية أبي صالح عنه: نزلت في أهل القبلة.

قال مجاهد: هم أهل الرياء. وقال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله في الدنيا، واختار الفراء هذا القول

(١) ٤٧١ مدارج جـ٣. (٢) ١٧٣ عدة الصابرين.

وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس، وهذا القول أرجح، ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهـذا لا يكون مؤمناً ألبتة؛ فإن العاصي والفاسق ولو بالغا في المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله؛ فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته؛ فأما من لم يرد بعمله وجه الله وإنما أراد به الدنيا وزينتها فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان.

وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية، واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه، في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارىء الذي قرأ القرآن ليقال: فلان قارىء، والمتصدق الذي أنفق أمواله ليقال: فلان جواد، والغازي الذي قتل في الجهاد ليقال: هو جريء.

وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم، فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مراء؛ كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن إدريس قال: أخبرني عبد الحميد بن صالح: حدثنا قطن بن الحباب، عن عبد الوارث، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرقٍ: فرقة يعبدون الله عز وجل للدنيا، وفرقة يعبدون رياء وسمعة، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره. فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا، بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك الدنيا فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدون رياءً وسمعة: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك رياءً وسمعة قال: فإني لم أقبل من ذلك شيئاً اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي فيقولون: بعزتك وجلالك وجهك ودارك فيقول صدقتم اذهبوا بهم إلى الجنة**». هذا حديث غني عن الإسناد، والقرآن والسنة شاهدان بصدقه.

ويدل على صحة هذا القول في الآية قوله تعالى: ﴿**نُوَفِّ إليهم أعمالَهم**

فِيهَا﴾ [هود: ١٥]. وذلك على أنها في قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله، وإنما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس، وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعاً عارضاً يتوب منه ويراجع التوحيد.

وقال ابن الأنباري: فعلى هذا القول المعنى في قوم من أهل الإسلام يعملون العمل الحسن؛ لتستقيم به دنياهم غير متفكرين في الآخرة، وما ينقلبون إليه فهؤلاء يعجل لهم جزاء حسناتهم في الدنيا، فإذا جاءت الآخرة كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه الله ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره.

ثم أورد أصحاب هذا القول على أنفسهم سؤالاً قالوا: فإن قيل الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا في النار، وأجابوا عنه بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله ولم يلتمس به ثواب الآخرة، بل كانت نيته الدنيا فإن الله يبطل إيمانه عند الموافاة فلا يوافي ربه بالإيمان.

قالوا: ويدل عليه قوله: **﴿وحبط مَا صَنَعوا فِيهَا وَبَاطِل مَا كَانُوا يَعمَلوُنَ﴾** [هود: ١٦]. وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه، وأجابت فرقة أخرى بأن الآية لا تقتضي الخلود الأبدي في النار، وإنما تقتضي أن الذي يستحقونه في الآخرة النار، وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد؛ فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين، وهذا جواب ابن الأنباري وغيره. والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل؛ لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها بل أراد الله به والدار الآخرة؛ لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود في النار وإن أدخلها بحبوط عمله الذي له النجاة المطلقة. والإيمان إيمانان: إيمان يمنع من دخول النار وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغي بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود في النار وإن كان مع المرائي شيء منه وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد والله الموفق.

وذلك قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرثَ الآخِرَةِ نَزِد لَهُ فِي حَرثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ

حَرثَ الدُّنيَا نُؤتِهِ مِنهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] ومنه قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصلاَهَا مَذمُوماً مَّدحُوراً وَمَن أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعيَهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعيُهُم مَّشكُوراً﴾ [الإسراء: ١٨-١٩] .

فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضاً ويصدق بعضها بعضاً، وتجتمع على معنى واحد: وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل في غاية سعيه؛ لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن كانت الآخرة مراده ولها يعمل وهي غاية سعيه؛ فهي له. بقي أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة، فإنه داخل تحت حكم الإرادتين فبأيهما يلحق؟ .

قيل: من ها هنا نشأ الإشكال وظن من ظن من المفسرين أن الآية في حق الكافر، فإنه هو الذي يريد الدنيا دون الآخرة وهذا غير لازم طرداً ولا عكساً؛ فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا، فإذا تجردت الإرادتان؛ تجرد موجبهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا؛ فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور، والطاعة والمعصية، والإيمان والشرك في العبد، وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿مِنكُم مَن يُرِيدُ الدُّنيَا وَمِنكُم مَن يُرِيد الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة ولم يكن فيهم منافق؛ ولهذا قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «ما شعرت أن أحداً من أصحاب رسول الله، ﷺ ، يريد الدنيا حتى كان يوم أحد، ونزلت هذه الآية» والذين أرادوا في هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله، ﷺ، بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون.

وها هنا أمر يجب التنبه له وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبداً؛ فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله، فحيث كان مراده بها الدنيا

فهذا لا يجامع الإيمان أبداً، وإن جامع الإقرار والعلم فالإيمان وراء ذلك، والإقرار والمعرفة حاصل لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة، كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول الله، ﷺ، وعرفوه كما عرفوا أبناءهم وهم من أكفر الخلق، فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال قد يجامع هذه المعرفة والعلم، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك لابد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة والله المستعان.

∴ (١) **قالوا:** وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسداًللدين من وجوه:

أحدها: أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله.

وثانيها: أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه، فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه.

وثالثها : أنه إذا أحبها صيرها غايته وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة فانتكس قلبه وانعكس سيره إلى وراء.

فهاهنا أمران: أحدهما: جعل الوسيلة غاية، والثاني: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه حذو القُذَّة بالقذة قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيهِم أَعمَالَهُم فِيهَا وَهُم فِيهَا لَا يُبخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيسَ لَهُم فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ - ١٦].

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصلَاهَا مَذمُوماً مَّدحُوراً﴾ [الإسراء: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرثَ الآخِرَةِ نَزِد لَهُ فِي حَرثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرثَ الدُّنيَا نُؤتِهِ مِنهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضاً وتدل على معنى واحد، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة فحظه ما أراد، وهو نصيبه ليس له نصيب غيره، والأحاديث عن رسول الله، ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له.

---

(١) ٢٤٠ عدة الصابرين.

كحديث أبي هريرة رضي الله عنه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: الغازي، والمتصدق، والقارىء الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب، وهو في صحيح مسلم.

وفي سنن النسائي: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي، ﷺ، فقال يا رسول الله رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله، ﷺ: **«لا شيء له»** فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله، ﷺ: **«لا شيء له»** ثم قال: **«إن الله تعالى لا يقبل إلَّا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه»**، فهذا قد بطل أجره وحبط عمله مع أنه قصد حصول الأجر لما ضم إليه قصد الذكر بين الناس، فلم يخلص عمله لله فبطل كله.

(١)**قوله** تعالى: **﴿مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالبَصِيرِ والسَّمِيعِ، هَل يَستَوِيَانِ مَثَلًا؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾** [هود: ٢٤]. فإنه سبحانه ذكر الكفار، ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون.

ثم ذكر المؤمنين، ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإِخْبَاتِ إلى ربهم، فوصفهم بعبُودية الظاهر والباطن، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم، من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصَمَّ عن سماعه؛ فشبه بمن بَصَرُه أعمى عن رؤية الأشياء وسَمْعُه أصَمُّ عن سَماع الأصوات، والفريق الآخر بصير القلب سميعه، كبصير العين وسميع الأذن؛ فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نَفَى التسويةَ عن الفريقين بقوله: **﴿هَل يَستوِيَان مَثَلًا﴾**.

(٢)**فقال** نوح عليه السلام لقومه: **﴿وَلَا أَقُولُ لَكُم عِندِي خَزَائِنُ الله، وَلَا أَعلَمُ الغَيبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزدَرِي أَعيُنُكُم: لَن يُؤتِيَهُمُ الله خَيراً. الله أَعلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِم. إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [هود: ٣١]. قال الزجاج: المعنى إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره، فليس عَليَّ أن أطلع على ما في أنفسهم. فإذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله.. وهذا معنى حسن.

والذي يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم، إذ أَهَّلَهم لقبول دينه

(١) ١٥٤/ الأعلام / جـ١. (٢) ١٧٠/ المدارج/ جـ٣.

وتـوحيده، وتصديق رسله، والله سبحانه وتعالى عليم حكيم. يضع العطاء في مواضعـه. وتكـون هذه الآية مثـل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعضَهُم بِبعضٍ لِّيَقـولُـوا: أَهؤلاءِ مَنَّ الله عَلَيهُمْ مِن بَينِنَـا؟ أَلَيس الله بِأَعلَم بِالشَّـاكِـرِينَ؟﴾ [الأنعام:٥٣]. فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أَهَّلَهم للهدى والحق، وحَرَمَه رؤساء الكفار، وأهلَ العزة والثروة منهم. كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة. فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده: من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم ومحبته وشكره عليها. وليس كل أحد عنده هذا السر فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء.

. . .(١)**قال** نبي الله هود، صلى الله على نبينـا وعليه وسلم، وقد خوفه قومه بآلهتهم وأوليائهم: ﴿إِنِّي أُشهِـدُ الله، وَاشهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُم، مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

أي مع كونـه سبحانه آخذاً بنواصي خلقه، يُصرفهم كما يشاء، فهو على صراط مستقيم، لا يتصرف فيهم إلا بالعـدل والحكمـة، والإحسـان والرحمة. فقـولـه: «مـاض فيَّ حكمـك» مطابق لقـول هود: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَـاصِيَتِهَـا﴾ وقـولـه: «عـدل في قضـاؤك» مطابق لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ﴾ ثم توسل إلى ربه بأسمائه التي سَمَّى بها نفسه: ما علم العباد منها وما لم يعلموا، ومنها ما استأثر به في علم الغيب عنده. فلا يطلع عليه ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسـلاً. وهـذه الـوسيلة أعـظم الـوسـائل وأحبها إلى الله، وأقربها تحصيلاً للمـطلوب، ثم سألـه أن يجعـل القرآن لقلبه كالربيع الذي يرتع فيه الحيوان. وكذلك القرآن ربيع القلوب، وأن يجعله شفاء همه وغمه. فيكون له بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله، وأن يجعله لحزنه كالجلاء الذي يجلو الطبع والأصدئة، وغيرها. فأحْرِ بهذا العلاج ـ إذا صدق العليل في استعماله ـ أن يزيل عنه داءَه، ويعقبه شفاء تامًّا، وصحة وعافية والله الموفق.

(٢)**قال** هود لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُم، مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلا هُوَ

(١) ٢٧٧/ زاد المعاد/ جـ٣.
(٢) ٢٣/ الفوائد.

آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقوله: «**ماض في حكمك عدل في قضاؤك**» تضمن هذا الكلام أمرين: أحدهما: مضاء حكمه في عبده، والثاني يتضمن حمده وعدله، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وهذا معنى قول نبيه هود: **﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾** ثم قال: **﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**، أي؛ مع كونه مالكاً قاهراً متصرفاً في عباده نواصيهم بيده، فهو على صراط مستقيم، وهو العدل الذي يتصرف به فيهم، فهو على صراط مستقيم، في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه، فخبره كله صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كله مفسدة، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته، وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته. وفرق بين الحكم والقضاء، وجعل المضاء للحكم والعدل للقضاء، فإن حكمه ـ سبحانه ـ يتناول حكمه الديني الشرعي وحكمه الكوني القدري، والنوعان نافذان في العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين قد مضيا فيه ونفذا فيه شاء أم أبى، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه. . .

...[1]**من** أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام. حتى قال له قومه: **﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾** [هود:٥٣]. ومع هذا فبينته من أظهر البينات. وقد أشار إليها بقوله: **﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم، مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

فهذا من أعظم الآيات: أن رجلاً واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جَزِع ولا فزع، ولا خوار، بل واثق مما قاله جازم به، قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم، ومما هم عليه إشهاد واثق به، معتمد عليه، معلم لقومه: أنه وليه وناصره، وأنه غير مسلطهم عليه.

ثم أشهدهم ـ إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة ـ: أنه بريء من دينهم وآلهتهم، التي يوالون عليها ويعادون. ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم، واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو

(١) ٤٦٤/ مدارج/ جـ٣.

يجتمعون كلهم على كيده، وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يُمهلونه. وفي ضمن ذلك: أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك، وأنكم لو رُمْتُموه لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

ثم قرر دعوته أحسن تقرير، وبين أن ربه تعالى وربهم، الذي نواصيهم بيده: هو وليه ووكيله، القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم، فلا يخذل من توكل عليه وآمن به، ولا يُشمت به أعداءه، ولا يكون معهم عليه، فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه ـ في قوله وفعله ـ يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أن من صراطه المستقيم: أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه، وينزل به بأسه؛ فإن الصراط المستقيم: هو العدل الذي عليه الرب تعالى. ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام، ونصره أولياءه ورسلَه على أعدائهم، وأنه يذهب بهم، ويستخلف قوماً غيرهم، ولا يضره ذلك شيئاً. وأنه القائم سبحانه على كل شيء حفظاً ورعاية وتدبيراً وإحصاءً.

فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم؟ وهي شهادة من الله سبحانه لهم، بيَّنها لعباده غاية البيان، وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله. وفي الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: «**ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»(١).

(٢) **النوع** السابع عشر: إخباره سبحانه أنه على صراط مستقيم في موضعين من كتابه أحدهما: قوله حاكياً عن نبيه هود: ﴿**إِنّي تَوَكَّلتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِكُم، مَّا مِن دَابَّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيم**﴾ [هود: ٥٦].

والثاني: قوله: ﴿**وَضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلَينِ أَحَدُهُمَا أَبكَمُ لاَ يَقدِرُ عَلَى شَيءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَولاَهُ أَينَمَا يُوَجِّههُ لا يَأْتِ بِخَيرٍ هَل يَستَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالعَدلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ**﴾ [النحل: ٧٦]. قال أبو إسحاق: أخبر أنه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء فهو لا يشاء إلا العدل.

قال ابن الأنباري: لما قال: ﴿**إلا هو آخذ بناصيتها**﴾، كان في معنى: لا

---

(١) هذا البحث من تفسير الشيخ لقول الله تعالى: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو**﴾. [آل عمران: ١٨] وقد تقدّم هناك بكامله. (٢) ٢٠٢/ شفاء العليل.

تخرج عن قبضته، قاهر بعظيم سلطانه كل دابة فأتبع ذلك قوله: ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ أي أنه على الحق، قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا رجلاً حسن السيرة والعدل والإنصاف قالوا: فلان طريقه حسنة وليس ثم طريق.

وذُكر في معنى الآية أقوال أخر هي من لوازم هذا المعنى وآثاره كقول بعضهم: إن ربي يدل على صراط مستقيم، فدلالته على الصراط من موجبات كونه في نفسه على صراط مستقيم؛ فإن تلك الدلالة والتعريف من تمام رحمته وإحسانه وعدله وحكمته.

وقال بعضهم: معناه: لا يخفى عليه شيء ولا يعدل عنه هارب.

وقال بعضهم: المعنى: لا مسلك لأحد ولا طريق له إلا عليه كقوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ١٤]. وهذا المعنى حق ولكن كونه هو المراد بالآية ليس بالبين، فإن الناس كلهم لا يسلكون الصراط المستقيم حتى يقال: إنهم يصلون سلوكه إليه، ولما أراد سبحانه هذا المعنى قال: ﴿إلينَا مَرجِعُهُم﴾ [لقمان: ٢٣]. ﴿إنّ إلينَا إيَابَهم﴾ [الغاشية: ٢٥]. ﴿إنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] ﴿وأنّ إلى رَبِّكَ المُنتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]. وأما وصفه سبحانه بأنه على صراط مستقيم، فهو كونه يقول الحق ويفعل الصواب، فكلماته صدق وعدل كله صواب وخير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فلا يقول إلا ما يحمد عليه لكونه حقًّا وعدلاً وصدقاً وحكمة في نفسه، وهذا معروف في كلام العرب. قال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم

وإذا عرف هذا فمن ضرورة كونه على صراط مستقيم أنه لا يفعل شيئاً إلا بحكمة يحمد عليها وغاية هي أولى بالإرادة من غيرها، فلا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والإحسان والرحمة والعدل والصواب، كما لا تخرج أقواله عن العدل والصدق.

قال(١) هود عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إنّي تَوَكَّلتُ عَلَى الله رَبّي وَرَبِكُم، مَّا مِن دَآبَةٍ إلا هُوَ آخِذُ بنَاصِيَتِهَا إنَّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ﴾. [هود: ٥٦]. فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء.

(١) ٨٧/ شفاء العليل.

ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم، وقال أبو إسحاق: أي هو سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء، فإنه لا يشاء إلا العدل.

وقال ابن الأنباري: لما قال: ﴿هو آخذ بناصيتها﴾ كان في معنى لا يخرج من قبضته، وأنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابة فأتبع قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا بحسن السيرة والعدل والإنصاف قالوا: فلان على طريقة حسنة وليس ثم طريق.

ثم ذكر وجهاً آخر فقال: لما ذكر أن سلطانه قد قهر كل دابة أتبع هذا قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: لا تخفى عليه مشيئته ولا يعدل عنه هارب، فذكر الصراط المستقيم وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه كما قال: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾.

قلت: فعلى هذا القول الأول يكون المراد أنه في تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولا يظلم مثقال ذرة، ولا يعاقب أحداً بما لم يجنه، ولا يهضمه ثواب ما عمله، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يأخذ أحداً بجريرة أحد، ولا يكلف نفساً ما لا تطيقه، فيكون من باب: (له الملك وله الحمد)، ومن باب: (ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك). ومن باب ﴿الْحَمْدُ لِلَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته ومشيئته، فهو المحمود على هذا التصرف وله الحمد على جميعه.

وعلى القول الثاني المراد به التهديد والوعيد، وأن مصير العباد إليه، وطريقهم عليه لا يفوته منهم أحد كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]. قال الفراء: يقول: مرجعهم إليّ فأجازيهم كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. قال: وهذا كما تقول في الكلام: طريقك عليّ وأنا على طريقك لمن أوعدته، وكذلك قال الكلبي والكسائي، ومثل قوله: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]. على أحد القولين في الآية.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه ﴿ومنها﴾ أي ومن السبيل - ما هو ﴿جائر﴾ عن الحق ﴿ ... شاء لهداكم أجمعين﴾ أخبر عن عموم مشيئته ، وأن طريق الحق عليه موصلة إليه ، فمن سلكها فإليه يصل ومن عدل عنها فإنه يضل عنه.

والمقصود أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده، والله يتصرف في خلقه بملكه وحمده وعدله وإحسانه، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله، وشرعه وقدره، وثوابه وعقابه، يقول الحق ويفعل العدل: ﴿**والله يقول الحق وهو يهدي السبيل**﴾ [الأحزاب: ٥].

(١)﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم، مَّا مِن دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [هود: ٥٦]. فأخبر عن عموم قدرته تعالى وأن الخلق كلهم تحت تسخيره وقدرته، وأنه آخذ بنواصيهم، فلا محيص لهم عن نفوذ مشيئته وقدرته فيهم. ثم عقب ذلك بالإخبار عن تصرفه فيهم وأنه بالعدل لا بالظلم، وبالإحسان لا بالإساءة، وبالصلاح لا بالفساد، فهو يأمرهم وينهاهم إحساناً إليهم، وحماية وصيانة لهم، ولا حاجة إليهم ولا بخلاً عليهم، بل جوداً وكرماً، ولطفاً وبراً، ويثيبهم إحساناً وتفضلاً ورحمة، لا لمعاوضة واستحقاق منهم ودين واجب لهم يستحقونه عليه؛ ويعاقبهم عدلاً وحكمة، لا تشفياً، ولا مخافة، ولا ظلماً كما يعاقب الملوك وغيرهم؛ بل هو على الصراط المستقيم وهو صراط العدل والإحسان، في أمره ونهيه وثوابه وعقابه.

فتأمل ألفاظ هذه الآية وما جمعته من عموم القدرة وكمال الملك، ومن تمام الحكمة والعدل والإحسان، وما تضمنته من الرد على الطائفتين؛ فإنها من كنوز القرآن، ولقد كفت وشفت لمن فتح عليه بفهمها. فكونه تعالى على صراط مستقيم ينفي ظلمه للعباد وتكليفه إياهم ما لا يطيقون، وينفي العيب عن أفعاله وشرعه، ويثبت لها غاية الحكمة والسداد ردًّا على منكري ذلك.

وكون كل دآبة تحت قبضته وقدرته وهو آخذ بناصيتها، ينبغي أن لا يقع في ملكه من أحد المخلوقات شيء بغير مشيئته وقدرته، وأن من ناصيته بيد الله وفي قبضته لا يمكنه أن يتحرك إلا بتحريكه، ولا يفعل إلا بإقداره، ولا يشاء إلا بمشيئته تعالى؛ ردًّا على منكري ذلك من القدرية. فالطائفتان ما وفوا الآية معناها ولا قدروها حق قدرها؛ فهو سبحانه على صراط مستقيم في عطائه ومنعه، وهدايته وإضلاله، وفي نفعه وضره، وعافيته وبلائه، وإغنائه وإفقاره، وإعزازه وإذلاله،

(١) ٧٩/ المفتاح: جـ٢.

وإنعامه وانتقامه، وثوابه وعقابه، وإحيائه وإماتته، وأمره ونهيه، وتحليله وتحريمه، وفي كل ما يخلق وكل ما يأمر به، وهذه المعرفة بالله لا تكون إلا للأنبياء ولورثتهم.

. . . (١)**والدين** دينان: دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي، وكلاهما لله وحده. فالدين كله أمراً أو جزاء لله، والمحبة بأصل كل واحد من الدينين، فإن ما شرعه الله وأمر به فإنه يحبه ويرضاه، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه؛ لمنافاته لما يحبه ويرضاه فهو يحب ضده. فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه، ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضى كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً**» وهذا الدين قائم بالمحبة، وبسببها شرع، ولأجلها شرع، وعليها أسس. وكذلك دينه الجزائي فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وكل من الأمرين محبوب للرب فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله، وهو سبحانه يحب صفاته وأسمائه، ويحب من يحبها. وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذي هو عليه. فهو سبحانه على صراط مستقيم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه، كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿**إِنِّي أُشهِدُ الله، وَاشهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم، مَّا مِن دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ**﴾ [هود: ٥٤-٥٦]. ولما علم نبي الله أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته وبلائه، وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة، والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب في مواضعه والعقوبة في موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء، أوجب له ذلك العلم والعرفان إذا نادي على رءوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله ﴿**إِنِّي أُشهِدُ الله، وَاشهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشرِكُونَ مِن دُونِهِ**﴾. الآية.

(١) ٢٨٠/ الجواب الكافي.

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه، وذل كل شيء لعظمته فقال: ﴿مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا الأمر إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم؟ **ثم** أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم، فكل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه، فلا أخاف ما دونه فإن ناصيته بيده، ولا أخاف جوره وظلمه فإنه على صراط مستقيم، وهو سبحانه ماض في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك وله الحمد، لا يخرج في تصرفه في عباده عن العدل والفضل، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا.

وفي الحديث الصحيح «ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك. ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك. أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء همي وحزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله فرحاً مكانه» وهذا يتناول حكم الرب الكوني والأمري، والقضاء الذي يكون باختيار العبد وبغير اختياره، وكلا الحكمين ماض في عبده، وكلا القضائين عدل فيه. فهذا الحديث مشتق من هذه الآية بينهما أقرب نسب. وبالله التوفيق[1].

[2](**فإن قلت**) فإذا استوى ذكر التاء وتركها في الفعل المتقدم ـ وفاعله مؤنث غير حقيقي ـ فما الحكمة في اختصاصها في قصة شعيب بالفعل وحذفها في قصة صالح ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ قلت: الصيحة في قصة صالح في معنى العذاب والخزي إذ كانت منتظمة بقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]. فصارت الصيحة عبارة عن ذلك الخزي وعن العذاب المذكور في الآية فقوى التذكير.

(١) طرق الشيخ البحث على هذه الآية وآية النحل وآية الحجر في تفسير الفاتحة: وفيها نقلناه هنا وفي سورة النحل برقم.

(٢) ١٢٦/ بدائع / جـ١.

بخلاف قصة شعيب فإنه لم يذكر فيها ذلك. هذا جواب السهيلي.

وعندي فيه جواب أحسن من هذا إن شاء الله، وهو أن الصيحة يراد بها المصدر بمعنى الصياح، فيحسن فيها التذكير، ويراد بها الواحدة من المصدر، فيكون التأنيث أحسن. **وقد** أخبر تعالى عن العذاب الذي أصاب به قوم شعيب بثلاثة أمور كلها مؤنثة اللفظ.

أحدها الرجفة في قوله في الأعراف: **﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾** [الأعراف: ٩١].

الثاني: الظلة بقوله: **﴿فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوم الظُّلَّة﴾**.

الثالث الصيحة **﴿وَأَخَذَتِ الَّذينَ ظَلَموا الصَّيحَة﴾** [هود: ٩٤]. وجمع لهم بين الثلاثة؛ فإن الرجفة بدأت بهم فأصحروا إلى الفضاء خوفاً من سقوط الأبنية عليهم فصهرتهم الشمس بحرها، ورفعت لهم الظلة فأهرعوا إليها يستظلون بها من الشمس فنزل عليهم منها العذاب وفيه الصيحة، فكان ذكر الصيحة مع الرجفة والظلة أحسن من ذكر الصياح، وكان ذكر التاء والله أعلم.

...(1)**قال** الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: **﴿وَلَقَد جَاءَت رُسُلُنَا إبرَاهِيم بالبُشرَى قَالُوا سَلاماً، قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعَجلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رأى أَيدِيَهُم لاَ تَصِلُ إِلَيهِ نَكِرَهُم وَأَوجَسَ مِنهُم خِيفَةً قَالُوا لا تَخَف إِنَّا أُرسِلنَا إِلَى قَوم لُوطٍ. وَامرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَت فَبَشَّرنَاهَا بِإِسحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسحَقَ يَعقُوبَ**. إلى قوله... **يُجَادِلُنَا فِي قَوم لُوطٍ. إِنَّ إِبرَاهِيم...﴾** الآية [هود: ٦٩-٧٥].

وقال تعالى في سورة الصافات **﴿فَبَشَّرنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾** [الصافات: ١٠١].

وقال في الذاريات: **﴿وَبَشَّروهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾**.

وقال في سورة الحجر: **﴿وَنَبِّئهُم عَن ضَيفِ إِبرَاهِيمَ. إِذ دَخَلُوا عَلَيهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَال إِنَّا مِنكُم وَجِلُونَ. قَالُوا لَا تَوجَل إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ**. إلى قوله... **فَلا تَكُن مِن القَانِطِينَ. قَالَ وَمَن يَقنَطُ مِن رَحمَةِ رَبِه إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾** [الحجر: ٥١-٥٦]. وقال تعالى: **﴿يَا زَكرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسمُهُ يَحيَى لَم نَجعَل لَهُ مِن قَبلُ سَمِيًّا﴾** [مريم: ٧].

(١) ١٤/ تحفة المودود.

قال: ﴿فَنَادَتْهُ الملائِكَة وَهُوَ قَائِم يُصَلِّي فِي المِحرَابِ أَنَّ الله يُبَشِّرُكَ بِيَحيَى﴾ [آل عمران: ٣٩]. ولما كانت البشارة تسر العبد وتفرحه، استحب للمسلم أن يبادر إلى مسرة أخيه وإعلامه بما يفرحه.

ولما ولد النبي عليه السلام بشرت به ثويبة أبا لهب وكان مولاها، وقالت: قد ولد الليلة لعبد الله ابن، فأعتقها أبو لهب سروراً به، فلم يضيع الله ذلك له، وسقاه بعد موته في النقرة التي في أصل إبهامه، فإن فاتته البشارة استحب له تهنئته، والفرق بينهما أن البشارة إعلام له بما يسره، والتهنئة دعاء له بالخير فيه بعد أن علم به.

ولهذا لما أنزل الله توبة كعب بن مالك وصاحبيه ذهب إليه البشير، فبشره، فلما دخل المسجد جاء الناس فهنئوه. وكانت الجاهلية يقولون في تهنئتهم بالنكاح: بالرفاء والبنين، والرفاء الالتحام والإتفاق، أي تزوجت زواجاً يحصل به الإتفاق والالتحام بينكما والبنون، فيهنئون سلفاً وتعجيلاً، ولا ينبغي للرجل أن يهنىء بالابن ولا يهنىء بالبنت، بل يهنىء بهما أو يترك التهنئة بهما ليتخلص من سيئة الجاهلية؛ فإن كثيراً منهم كانوا يهنئون بالابن وبوفاة البنت دون ولادتها. وقال أبو بكر بن المنذر في الأوسط: روينا عن الحسن البصري: أن رجلاً جاء إليه، وعنده رجل قد ولد له غلام، فقال له: يهنئك الفارس، فقال له الحسن: ما يدريك فارس هو أم حمار، قال فكيف نقول؟ قال: قل بورك في الموهوب، وشكرت الواهب، وبلغ أشده ورزقت بره، والله أعلم.

(١)﴿فَما لَبِثَ أَن جاء بِعِجلٍ حَنِيذٍ﴾ و«الحنيذ» المشوي على الرضَف وهي الحجارة المحماة. وفي الترمذي عن أم سلمة «أنها قربت إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، جَنباً مشوياً، فأكل منه، ثم قام إلى الصلاة ولم يتوضأ» قال الترمذي: حديث صحيح. وفيه أيضاً عن عبدالله بن الحرث قال: «أكلنا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شواء في المسجد».

وفيه أيضاً: عن المغيرة بن شعبة قال: «ضِفْتُ مع رسول الله، صلى الله

---

(١) ٣٦١/ زاد المعاد/ جـ٣.

عليه وسلم، ذات ليلة، فأمر بجنب فَشُوِي، ثم أخذ الشَّفرة فجعل يحزُّ لي بها منه، قال: فجاء بلال يؤذن للصلاة، فألقى الشَّفرة، فقال: ما له؟ تَرِبت يداه».

أنفع الشواء: شواء الضأن الحَوْلي، ثم العجل اللطيف السمين. وهو حار رطب إلى اليبوسة، كثير التوليد للسوداء، وهو من أغذية الأقوياء والأصحاء، والمرناضين. والمطبوخ أنفع، وأخف على المعدة، وأرطب منه، ومن المطَجَّن. وأردؤه: المشوي في الشمس. والمشوي على الجمر: خير من المشوي باللهب، وهو الحنيذ[1]

وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه «أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره» وفي لفظ «وحيده» ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده.

والذي غرَّ أصحاب هذا القول: إن في التوراة التي بأيديهم «اذبح ابنك إسحاق» قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: «اذبح بكرك ووحيدك» ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله.

وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق؟ والله تعالى قد بشر أم إسحق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿**لا تَخَف إنَّا أُرسِلنَا إلَى قوم لُوطٍ. وَامرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَت فَبَشَّرنَاهَا بإسحاق وَمِن وَرَاء إسحاق يَعقُوب**﴾. فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد ثم يأمر بذبحه.

ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد. وهذا ظاهر الكلام وسياقه.

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجروراً عطفاً على إسحاق، بل لكانت القراءة ﴿**وَمِن وَرَاءِ إسحاق يَعقُوبَ**﴾ أي: ويعقوب من وراء إسحاق،

---

(١) ٢٨/ زاد المعاد / جـ ١.

قيل: لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به، لأن البشارة قول: ﴿وَمِن وَرَاءِ إسحاق يَعقُوبَ﴾ جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية.

ولما كانت البشارة قولاً كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية لا بالقول، كأن المعنى: وقلنا لها: من وراء إسحق يعقوب. والقائل إذا قال: بشرت فلاناً بقدوم أخيه وثقله في أثره: لم يعقل منه إلا بشارته بالأمرين جميعاً. هذا مما لا يستريب ذو فهم فيه ألبتة.

ثم يضعف الجر أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد ومن بعده عمرو لأن العاطف يقوم مقام حرف الجر، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين الجار والمجرور.

ويدل عليه أيضاً: أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة الصافات قال: ﴿فَلَمَّا أَسلَمَا وَتَلَّهُ لِلجَبِينِ. وَنَادَينَاهُ أَن يا إبراهِيمُ، قَد صَدَّقتَ الرُّؤيَا، إنَّا كَذَلِكَ نَجزي المُحسِنِينَ إنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ وَفَدَينَاهُ بِذِبحٍ عَظِيمٍ. وَتَركنَا عَلَيهِ فِي الآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إبرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجزِي المُحسِنِينَ إنَّهُ مِن عِبَادِنَا المُؤمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَبَشَّرنَاهُ بإسحاق نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣-١١٢] فهذه بشارة من الله تعالى له، شكراً على صبره على ما أمر به. وهذا ظاهر جداً في أن المبشَّر به غير الأول، بل هو كالنص فيه.

فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي لما صبر الأب على ما أمر به، وأسلم الولد لأمر الله: جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته، ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدر، أي: مقدراً نبوته، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة، هذا محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارة على نبوته فوقوعها على وجوده أولى وأحرى.

وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه،

وإقامة لذكر الله. **ومعلوم** أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة، دون إسحق وأمه. **ولهذا** اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل. وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل، زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام - كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم - لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة.

وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً، لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه.

ولما ذكر إسحق سماه عليماً، فقال تعالى: ﴿**هَل أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيفِ إِبرَاهِيم المُكرَمِينَ** - إلى أن قال - **قَالوا: لَا تَخَفْ، وَبَشَّروهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ**﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٩] وهذا إسحق بلا ريب؛ لأنه من امرأته، وهي المبشرة به. وأما إسماعيل فمن السرية. **وأيضاً** فإنهما بُشِّرا به على الكبر واليأس من الولد. وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلا، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه - وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد - خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذْ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حصل المقصود، فنسخ الأمر، وفدى الذبيح، وصدَّق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرب.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما يكون قد حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور.

وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل، صلى الله عليه وسلم، غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة

سارة، فأمره الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها، ويسكنها في أرض مكة، لتبرد عن سارة حرارة الغيرة. وهذا من رحمته تعالى ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله؟ هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية؟ بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية. فحينئذ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليرى عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها - على البعد والوحدة، والغربة، والتسليم إلى ذبح الولد - آلت إلى ما آلت إليه: من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه: أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره، قال تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ [القصص: ٥] وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(١)(**وأما** السؤال الثالث والعشرون) وهو ما الحكمة في إفراد السلام والرحمة وجمع البركة.

فجوابه أن السلام إما مصدر محض فهو شيء واحد فلا معنى لجمعه، وإما اسم من أسماء الله فيستحيل أيضاً جمعه فعلى التقديرين لا سبيل إلى جمعه.

وأما الرحمة فمصدر أيضاً بمعنى العطف والحنان، فلا تجمع أيضاً، والتاء فيها بمنزلتها في الخلة والمحبة والرقة ليست للتحديد بمنزلتها في ضربة وتمرة، فكما لا يقال رقات ولا خلات ولا رأفات لا يقال رحمات. وهنا دخول الجمع يشعر بالتحديد والتقييد بعدد، وإفراده يشعر بالمسمى مطلقاً من غير تحديد، فالإفراد هنا أكمل وأكثر معنى من الجمع، وهذا بديع جداً أن يكون مدلول المفرد أكثر من مدلول الجمع، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**﴾ أعم وأتم معنى من أن يقال فلله الحجج البوالغ، وكان قوله: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾

---

(١) ١٨٢/ البدائع/ جـ٢.

[إبراهيم: ٣٤] أتم معنى من أن يقال وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها، وقوله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] أتم معنى من أن يقال حسنات، وكذا قوله: ﴿يَستَبشِرُونَ بِنعمَة مِّنَ الله وَفَضلٍ﴾ [آل عمران: ١٧١] ونظائره كثيرة جداً، وسنذكر سر هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأما البركة فإنها لما كان مسماها كثرة الخير واستمراره شيئاً بعد شيء كلما انقضى منه فرد خلفه فرد آخر، فهو خير مستمر يتعاقب الأفراد على الدوام شيئاً بعد شيء كان لفظ الجمع أولى بها، لدلالته على المعنى المقصود بها، ولهذا جاءت في القرآن كذلك في قوله تعالى: ﴿رَحمَةُ الله وَبرَكَاتُه عَلَيكُمُ أَهلَ البَيتِ﴾ [هود: ٧٣] فأفرد الرحمة وجمع البركة، وكذلك في السلام في التشهد السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

فصل(١)

(واعلم) أن الرحمة والبركة المضافتين إلى الله تعالى نوعان:

أحدهما مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله. والثاني مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها.

فمن الأول قوله في الحديث الصحيح «احتجت الجنة والنار» فذكر الحديث وفيه «فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء» فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة وخص بها أهل الرحمة وإنما يدخلها الرحماء.

ومنه قوله، صلى الله عليه وسلم: «**خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض**».

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن أَذَقنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحمَةً﴾ [الأعراف: ٥٧].

وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديماً وحديثاً وهو قول الداعي: اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك.

وذكره البخاري في كتاب الأدب المفرد له عن بعض السلف، وحكى فيه

(١) ١٨٣/ البدائع/ جـ٢.

الكراهة قال: إن مستقر رحمته ذاته. وهذا بناء على أن الرحمة صفة، وليس مراد الداعي ذلك، بل مراده الرحمة المخلوقة التي هي الجنة.

ولكن الذين كرهوا ذلك لهم نظر دقيق جدًّا وهو أنه إذا كان المراد بالرحمة الجنة نفسها لم يحسن إضافة المستقر إليها، ولهذا لا يحسن أن يقال: أجمعنا في مستقر جنتك؛ فإن الجنة نفسها هي دار القرار وهي المستقر نفسه كما قال: ﴿حَسُنَت مُستَقرًّا ومقَاماً﴾ [الفرقان: ٧٦] فكيف يضاف المستقر إليها، والمستقر هو المكان الذي يستقر فيه الشيء، ولا يصح أن يطلب الداعي الجمع في المكان الذي تستقر فيه الجنة، فتأمله، ولهذا قال: مستقر رحمته ذاته.

والصواب أن هذا لا يمتنع، وحتى لو قال صريحاً: اجمعنا في مستقر جنتك لم يمتنع، وذلك أن المستقر أعم من أن يكون رحمة أو عذاباً، فإذا أضيف إلى أحد أنواعه أضيف إلى ما يبينه ويميزه من غيره، كأنه قيل: في المستقر الذي هو رحمتك لا في المستقر الآخر.

ونظير هذا أن يقول: اجلس في مستقر المسجد، أي: المستقر الذي هو المسجد، والإضافة في مثل ذلك غير ممتنعة ولا مستكرهة.

وأيضاً فإن الجنة وإن سميت رحمة؛ لم يمتنع أن يسمى ما فيها من أنواع النعيم رحمة.

ولا ريب أن مستقر ذلك النعيم هو الجنة، فالداعي يطلب أن يجمعه الله ومن يحب في المكان الذي تستقر فيه تلك الرحمة المخلوقة في الجنة، وهذا ظاهر جدًّا فلا يمتنع الدعاء بوجه والله أعلم.

وهذا بخلاف قول الداعي: (يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث)؛ فإن الرحمة هنا صفته تبارك وتعالى، وهي متعلق الاستغاثة فإنه لا يستغاث بمخلوق؛ ولهذا كان هذا الدعاء من أدعية الكرب لما تضمنه من التوحيد والاستغاثة برحمة أرحم الراحمين؛ متوسلاً إليه باسمين عليهما مدار الأسماء الحسنى كلها وإليهما مرجع معانيها جميعها، وهو اسم (الحي القيوم) فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ولا يتخلف عنها صفة منها، إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفي كمال الحياة، وبهذا الطريق العقلي

أثبت متكلموا أهل الإثبات له تعالى صفة السمع والبصر ، والعلم والإرادة، والقدرة والكلام وسائر صفات الكمال.

وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته؛ فإنه القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته. فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال والغنى التام والقدرة التامة. فكأن المستغيث بهما مستغيث بكل اسم من أسماء الرب تعالى وبكل صفة من صفاته، فما أولى الاستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مظنة تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإنالة الطلبات.

والمقصود أن الرحمة المستغاث بها هي صفة الرب تعالى لا شيء من مخلوقاته.

كما أن المستعيذ بعزته في قوله: (أعوذ بعزتك) مستعيذ بعزته التي هي صفته، لا بعزته التي خلقها يعز بها عباده المؤمنين. وهذا كله يقرر قول أهل السنة إن قول النبي، ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامات**» يدل على أن كلماته تبارك وتعالى غير مخلوقة فإنه لا يستعاذ بمخلوق.

وأما قوله تعالى حكاية عن ملائكته: ﴿**رَبَّنَا وَسِعتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحمَةً وَعِلماً**﴾ [غافر: ٧] فهذه رحمة الصفة التي وسعت كل شيء، كما قال تعالى: ﴿**وَرَحمَتِي وَسِعَت كُلَّ شيءٍ**﴾ [الأعراف: ١٥٦] وسعتها عموم تعلقها بكل شيء كما أن سعة علمه تعالى عموم تعلقه بكل معلوم.

فصل

(**وأما** البركة) فكذلك نوعان أيضاً: .

أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة على تارة، وبأداة في تارة، والمفعول منها مبارك وهو ما جعل كذلك فكان مباركاً بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك؛ ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له عز وجل؛ فهو سبحانه المبارك وعبده ورسوله المبارك كما قال المسيح: ﴿**وَجَعلَنِي مُبَارَكاً أَينَمَا كُنتُ**﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿تَبَارَكَ الَّذي بِيَدِهِ المُلْكُ﴾ [الملك: ١]. ﴿تَبَارَكَ اللهُ أحسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٤]. ﴿تَبَارَكَ الَّذي لَهُ مُلكُ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ وَمَا بَينَهُما وَعِندَه عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِليهِ تُرجَعونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

﴿تَبَارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَى عَبدِهِ﴾. [الفرقان: ١]. ﴿تَبَارَكَ الَّذي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيراً مِن ذَلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠].

﴿تَبَارَكَ الَّذي جَعَلَ في السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ [الفرقان: ١]. أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره؟ وجاءت على بناء السعة والمبالغة: كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها.

وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاظم.

وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله فالبركة كلها منه.

وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم.

وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله؛ ومن هنا قيل معناه تعالى وتعاظم.

وقيل: تبارك: تقدس، والقدس الطهارة.

وقيل: تبارك: أي باسمه يبارك في كل شيء.

وقيل: تبارك: ارتفع، والمبارك المرتفع. ذكره البغوي.

وقيل: تبارك: أي: البركة تكتسب وتنال بذكره.

وقال ابن عباس: جاء[1] بكل بركة.

وقيل معناه: ثبت ودام بها لم يزل ولا يزال. ذكره البغوي أيضاً.

وحقيقة اللفظة أن البركة كثرة الخير ودوامه. ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلا منه تبارك وتعالى.

(١) في نسخة: حاز كل بركة

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعاظم. ومثل هذه الألفاظ ليس معناها: أنه جعل غيره عالياً ولا قدوساً ولا عظيماً، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها: بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى، هذا لازم وهذا متعد؟ فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى: ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً، فتبارك من باب مجد والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل وبارك من باب أعطى وأنعم.

ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس، فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين فقال: مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه. وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب (الفتح المكي) وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركاً، ورسوله مباركاً، وبيته مباركاً والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة وما حول المسجد الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة. وتدبر قول النبي، ﷺ، في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**» فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء؟ أعني ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى. فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفاً وملكاً، وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفاً وملكاً، فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محموداً، فيهبه حمداً من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفاً وملكاً، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفاً وملكاً. وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه، فيصير بذلك مباركاً ﴿**فتبارك الله رب العالمين**﴾ [المؤمنون: ٤] ﴿**وتبارك الذي له ملك**

السمـوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون﴾ [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط، وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه. وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهاً: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» وقال في حديث الشفاعة الطويل: «**فأخرّ ساجـداً لربي فيفتـح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن**» وفي دعاء الهم والغم: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» فدل على أن الله سبحانه وتعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه لا يعلمها ملك مقرّب ولا نبي مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك؛ فلا نغلوا فيه ولا نجفوا عنه وبالله التوفيق.

(١)**وذكـر** ابن أبي الدنيا بإسناده عن كعب قال: كان إبراهيم يشرف على سدوم فيقـول: ويل لك سدوم يومـاً ما لك، فجاءت إبراهيم الرُّسلُ وكلّمهم إبراهيم في أمر قوم لوط قالوا: ﴿**يا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا**﴾ [هود: ٧٦]. قال: ﴿**وَلَمَّا جَاءَت رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِم وَضَاقَ بِهِم ذَرعاً**﴾ [هود: ٧٧] فذهب بهم إلى منزله فذهبت امرأته فجاءه قومه يُهرَعون إليه فقال: ﴿**يَا قَوْمِ هؤلاءِ بَنَاتي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**﴾ [هود: ٧٨] أزوِّجكم بهن ﴿**أَلَيسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ**﴾ [هود: ٧٨] وجعل لوطٌ الأضياف في بيته وقعد عَلى باب البيت وقال: ﴿**لَوْ أَنَّ لي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ [هود: ٨٠] قال: أي: عشيرة تمنعني. قال: ولم يُبْعَث نبيٌّ بعد لوط إلّا في عزّ من قومه، فلما رأت الرّسلُ ما قد لقي لوطٌ في سببهم ﴿**قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيكَ فَأَسرِ بِأَهلِكَ بِقِطعٍ مِنَ اللَّيلِ وَلاَ يَلتَفِت مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا امـرَأَتَـكَ إِنَّـهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُم إِنَّ مَوعِدَهُمُ الصُّبحُ أَلَيسَ الصُّبحُ بِقَرِيبٍ**﴾ [هود: ٨١] فخرج [عليهم] جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضـربـةً طَمَست أعينهم. قال: والطمسُ أن تذهب حتى تستوي، واحتمل مدائنهم حتى سمع أهلُ سماء الدنيا نَبيحَ كلابهم وأصواتَ دُيوكهم، ثم قلبها وأمطر الله عليهم حجـارةً من سِجيلٍ قال: عَلَى أهل بواديهم وعَلَى رُعاتهم وعَلَى مسافريهم، فلم

(١) ٣٩٢/ روضة المحبين

ينفلت منهم إنسان.

وقال مجاهـد: نزل جبريل عليه السلام فأدخل جَناحَه تحت مدائن قوم لوطٍ؛ فرفعها حتى سمع أهل السماء نبيح الكلاب وأصوات الدَّجاج والدِّيكة، ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلَها ثم أُتبعوا بالحجارة.

وفي تفسير أبي صالح: عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: أُغلق لوطٌ عَلَى ضيفـه الباب فخلعوا الباب ودخلوا، فَطَمَسَ جبريل أعينَهم فذهبت أبصارهم فقـالوا: يا لوط جئتنا بالسحرة؟ وتوعدوه، فأوجس في نفسه خيفةً قال: يذهب هؤلاء ونؤذي فقـالوا: لا تخف إنَّا رُسُلُ رَبِّكَ إنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ. قال لوط: الساعةَ. قال جبريل: أَلَيْسَ الصُّبْحُ بقريبٍ؟ قال: فرفعت المدينةُ حتى سمع أهل السماء نبيحَ الكلاب ثم أُقْلِبت ورمُوا بالحجارة.

وقال حُذيفة بن اليَمان: لما أُرسلت الرسلُ إلى قوم لوطٍ لتهلكهم قيل لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطٌ ثلاث مرات، وطريقهم عَلى إبراهيم [قال] فأتوا إبراهيمَ فبشّروه بما بشروه، ﴿**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهيم الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ البُشْرى يجادِلنَا في قَوْمِ لُوطٍ**﴾ [هود: ٧٤] قال: كان مجادلته إياهم أن قال لهم: إن كان فيهم خمسون أتهلكونهم؟ قالوا: لا. قال: أفرأيتم إن كان فيهم أربعون؟ قالوا: لا. قال: فثـلاثون؟ قالوا: لا. حتى انتهى إلى عشرة أو خمسة، فأتَوا لوطاً وهو في أرضٍ يعمل فيها فحسبهم ضيفاً، فأقبل بهم حين أمسى إلى أهله، فأتَوا معه فالتفتَ إليهم فقال: أما تَرَون ما يصنع هؤلاء؟ قالوا: وما يصنعون؟ قال: ما من الناس أحدٌ شرٌّ منهم قال: فانتهى بهم إلى أهله فانطلقت العجوز السوءُ امرأتُه فأتت قومـه فقالت: لقد تضيف لوطاً الليلةَ قومٌ ما رأيت قطُّ أحسنَ وجوهاً ولا أطيبَ ريحـاً منهم، فأقبلوا يُهْرَعُونَ إليه حتى دفعوا الباب حتى كادوا أن يقلبوه عليهم، فقال مَلَكٌ بجناحه فَصفَقَه دونهم، ثم أغلق الباب ثم عَلَوْا الأجاجير(١) فجعل يخاطبهم فقال: ﴿**هؤلاءِ بَنَاتي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**﴾ حتى بلغ ﴿**أَوْ آوي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ. قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إليك**﴾ [هود: ٧٨ ـ ٨١]. فطمس [جبريل] أعينَهم فما بقي أحدٌ منهم تلك الليلة حتى عَمِيَ قال: فباتوا بشرِّ ليلةٍ

(١) الأجاجير: جمع إجّار وهو السطح.

عُمْياً ينتظرون العذاب. قال: وسار بأهله واستأذن جبريلُ عليه السلام في هلاكهم فأُذن له، فارتفع بالأرض التي كانوا عليها فألوى بها حتى سمع أهلُ السماء الدُّنيا ضُغَاءَ كلابهم، وأوقد تحتها ناراً ثم قلبها بهم قال: فسمعت امرأتُه الوَجْبَةَ وهي معه فالتفتت فأصابها العذاب.

قول(١) لوط لقومه: ﴿**يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونِ في ضيفي أليس منكم رجل رشيد**﴾ [هود: ٧٨]. يجمع أنواعاً من الاستعطاف:

أحدها: خطابهم بخطاب الناصح المشفق بقوله: ﴿**يا قوم**﴾، ولم يقل: يا هؤلاء.

الثاني: عرضه بناته عليهم بقوله: ﴿**هؤلاء بناتي**﴾.

الثالث: تنجيز ذلك بالإشارة بلفظ الحضور.

الرابع: ترغيبه فيهن لطهارتهن وطيبهن.

الخامس: تذكيرهم بالله بقوله: ﴿**فاتقوا الله**﴾.

السادس: المطالبة بحفظ الذمام وترك الأذى بقوله: ﴿**ولا تخزون**﴾.

السابع: التوبيخ الشديد بقوله: ﴿**أليس منكم رجل رشيد**﴾.

فصل (٢)

وأما الود فهو خالص الحبّ وألْطَفُه وأَرَقُّه، وهو من الحب بمنزلة الرأْفة من الرحمة، قال الجوهري: وَدِدت الرجل أَوَدُّه وُدًّا إذا أَحببته والودُّ والوُدّ والوَد المَوَدَّة، تقول بودّي أن يكون كذا، وأما قول الشاعر:

أيها العائد المُسائِلُ عنا وبوديكَ أن ترى أكفاني

فإنما أَشبع كسرة الدال ليستقيم له البيت فصارت ياء. والودُّ الوديد بمعنى المودود، والجمع أَوُدٌّ مثل قدْحٍ وأَقدُح وذئبٍ وأَذْؤُب، وهما يتوادّان وهم أَوِدّاء، والوَدُود المحب ورجالٌ وُدَدَاء يستوي فيه المذكر والمؤنث لكونه وصفاً داخلاً عَلَى وصف للمبالغة.

قلت: الوَدُود من صفات الله سبحانه وتعالى أَصله من المَوَدَّة.

واختُلِف فيه عَلَى قولين: فقيل: هو وَدودٌ بمعنى وادٍّ كضَرُوبٍ بمعنى

---

(١) ٢٢٢/ البدائع/ جـ٣. (٢) ٥٢ روضة المحبين.

ضارب، وقَتُول بمعنى قاتلٍ، ونَؤُم بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولاً في صفات الله سبحانه وتعالى فاعل كغفورٍ بمعنى غافر، وشكورٍ بمعنى شاكر، وصبورٍ بمعنى صابر، وقيل: بل هو بمعنى مَوْدُود وهو الحبيب وبذلك فسره البخاري في صحيحه، فقال: الوَدُود الحبيب. والأول أظهر لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤] وبالرحيم في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠] وفيه سرٌّ لطيف وهو أنه [يحب التوابين وأنه] يحبّ عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] فالتائب حبيب الله، فالود أصفى الحب وألطفه.

...[1] **قال** شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨] وقال بعض السلف: إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهي: فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له، المؤتمرين به. وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه. وقد قيل:

يا أيُّها الرجلُ المعلِّمُ غيرَه ... هَلَّا لنفسِك كان ذا التعليمُ؟
تصفُ الدواءَ لذي السِّقام من الضنى ... ومن الضنى تُمسي وأنت سقيمُ
لا تَنْهَ عن خُلُق وتَأتيَ مثلَه ... عارٌ عليك إذا فعلتَ ذميمُ
ابدأْ بنفسك فانْهَهَا عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبلُ ما تقولُ ويُقْتَدى ... بالقول منك وينفعُ التعليمُ

فالعمى عن عيب الواعظ: من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه. ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣] وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ [الأعلى:١٠] وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥] وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥] فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره: شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر. يستحيل حصوله بدونه.

[2]**ومن** كملت عظمة الحق تعالى في قلبه عظمت عنده مخالفته؛ لأن مخالفة

---
(١) ٤٤٧ مدارج جـ١.
(٢) ١٤٥ مدارج جـ١.

العظيم ليست كمخالفة من دونه ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق في كل لحظة ونَفَس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونفس.

وأيضاً فإذا عرف حقارتها ـ مع عظم قدر من خالفه ـ عظمت الجناية عنده، فشمر في التخلص منها. وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به، يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحق به.

ومدار السعادة وقطب رحاها: على التصديق بالوعيد. فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خراباً لا يرجى معه فلاح ألبتة. والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنُّذُر لمن صدق بالوعيد، وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار، والمنتفعون بالآيات، دون من عداهم. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ**﴾ [هود: ١٠٣] وقال: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا**﴾ [النازعات: ٤٥] وقال: ﴿**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ**﴾ [ق: ٤٥] وأخبر تعالى أن أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد، الخائفون منه. فقال تعالى: ﴿**وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ. ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ**﴾

(١)**لما** ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل، وما حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ**﴾ [هود: ٤٥]. فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها، فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية. وإنما كان الصبر والشكر سبباً لانتفاع صاحبهما بالآيات(٢) ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفه صبر ونصفه شكر. فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى؛ فإذا كان مشركاً متبعاً هواه لم يكن صابراً ولا شكوراً، فلا تكون الآيات نافعة له، ولا مؤثرة فيه إيماناً.

(١) ١٣٠ فوائد. (٢) هكذا الأصل ولعل في الكلام سقطاً تقديره «لأن الإيمان» إلخ وبه ينتظم الكلام.

فصـــل(١)

وأما أبدية النار ودوامها فقال فيها شيخ الإسلام: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين.

«**قلت**»: ههنا أقوال سبعة: أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبداً؛ بل كل من دخلها مخلد فيها أبد الآباد بإذن الله وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي.

قال في فصوصه: الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد، والحضرة الإلهية تطلب الثناء المحمود بالذات، فيثني عليها بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل بالتجاوز ﴿**فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ**﴾ [إبراهيم: ٤٧] لم يقل: وعيده؛ بل قال: ﴿**وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ**﴾ [الأحقاف: ١٦] مع أنه توعد على ذلك، وأثنى على إسماعيل بأنه كان صادق الوعد وقد زال الإمكان في حق الحق لما فيه من طلب المرجح:

فلم يبقَ إلا صادقُ الوعد وحدَه ... ومـا لوعيد الحق عين تعـاين
وإنْ دخلوا دارَ الشقـاء فإنهم ... على لذةٍ فيهـا نعيم مبـاين
نعيم جنان الخلد والأمر واحد ... وبينهـما عنـد التجلي تبـاين
يسمى عذاباً من عذوبةِ طَعْمِهِ ... وذاك له كالقشر والقشرُ صاين

وهذا في طرف. والمعتزلة الذين يقولون: لا يجوز على الله أن يخلف وعيده؛ بل يجب عليه تعذيب من توعده بالعذاب، في طرف. فأولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها أصلاً، وهذا عنده لا يعذب بها أحد أصلاً، والفريقان مخالفان لما علم بالاضطرار أن الرسول جاء به وأخبر به عن الله عز وجل.

(الثالث): قول من يقول: إن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخالفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي، ﷺ، فأكذبهم فيه.

وقد أكذبهم الله تعالى في القرآن فيه فقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا**

(١) ٢٥٤ حادى الأرواح.

لَا تَعلَمُونَ، بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَت بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصحَابُ النَّارِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨١].

وقال تعالى: ﴿أَلَم تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُدعَونَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحكُمَ بَينَهُم، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنهُم وَهُم مُعرِضُونَ، ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَاماً مَعدُودَاتٍ وَغَرَّهُم فِي دِينِهِم مَا كَانُوا يَفتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٤].

فهذا القول إنما هو قول أعداء الله اليهود فهم شيوخ أربابه والقائلين به، وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام على فساده.

قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧] وقال: ﴿وَمَا هُم مِنهَا بِمُخرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]. وقال: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخرُجُوا مِنهَا مِن غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج:٢٢].

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخرُجُوا مِنهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]. وقال تعالى: ﴿لَا يُقضَى عَلَيهِم فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنهُم مِن عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وهذا أبلغ ما يكون في الإخبار عن استحالة دخولهم الجنة.

الرابع: قول من يقول: يخرجون منها وتبقى ناراً على حالها ليس فيها أحد يعذب. حكاه شيخ الإسلام، والقرآن والسنة أيضاً يردان على هذا القول كما تقدم.

الخامس: قول من يقول: بل تفنى بنفسها لأنها حادثة بعد أن لم تكن، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه وأبديته، وهذا قول جهم بن صفوان وشيعته ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار.

السادس: قول من يقول: تفنى حياتهم وحركاتهم ويصيرون جماداً لا يتحركون ولا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف إمام المعتزلة طردًا لامتناع حوادث لا نهاية لها، والجنة والنار عنده سواء في هذا الحكم.

السابع: قول من يقول: بل يفنيها ربها وخالقها تبارك وتعالى فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه ثم تفنى ويزول عذابها.

قال شيخ الإسلام: وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم.

وقد روى عبد بن حميد وهو من أجل أئمة الحديث في تفسيره المشهور: حدثنا سليمان بن حرب: حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن قال: قال عمر: «لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه».

وقال: حدثنا حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، أن عمر بن الخطاب قال: «لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه» ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحقاباً﴾ [النبأ:٢٣] فقد رواه عبد وهو من الأئمة الحفاظ وعلماء السنة عن هذين الجليلين سليمان بن حرب وحجاج بن منهال، كلاهما عن حماد بن سلمة، وحسبك به. وحماد يرويه عن ثابت وحميد، وكلاهما يرويه عن الحسن وحسبك بهذا الإسناد جلالة، والحسن وإن لم يسمع من عمر، فإنما رواه عن بعض التابعين ولو لم يصح عنده ذلك عن عمر لما جزم به. وقال: قال عمر بن الخطاب. ولو قدر أنه لم يحفظ عن عمر، فتداول هؤلاء الأئمة له غير مقابلين له بالإنكار والرد مع أنهم ينكرون على من خالف السنة بدون هذا، فلو كان هذا القول عند هؤلاء الأئمة من البدع المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأئمة، لكانوا أول منكر له.

قال: ولا ريب أن من قال هذا القول عن عمر ونقله عنه؛ إنما أراد بذلك جنس أهل النار الذين هم أهلها، فأما قوم أصيبوا بذنوبهم فقد علم هؤلاء وغيرهم أنهم يخرجون منها وأنهم لا يلبثون قدر رمل عالج ولا قريباً منه. ولفظ أهل النار لا يختص بالموحدين بل يختص بمن عداهم كما قال النبي، ﷺ، أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون.

ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [هود:١٠٧] وقوله: ﴿وَمَا هُم مِنها بِمُخرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨] بل ما أخبر الله به هو الحق والصدق الذي لا يقع خلافه؛ لكن إذا انقضى أجلها وفنيت تفنى الدنيا لم تبق ناراً ولم يبق فيها عذاب.

قال أرباب هذا القول: وفي تفسير علي بن أبي طلحة الوالبي: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مثوَاكُم خَالِدِيْنَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨] قال: لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا نارًا.

قالوا: وهذا الوعيد في هذه الآية ليس مختصًا بأهل القبلة فإنه سبحانه قال: ﴿وَيومَ يحشرُهُم جميعاً يَا مَعشرَ الجنِّ قَد استكثَرتُم مِن الإِنسِ وَقَالَ أَولياؤُهُم مِنَ الإِنسِ رَبَّنا استمتَعَ بَعضُنا ببَعضٍ وَبَلغنا أَجلَنَا الَّذي أَجَّلتَ لَنا قَالَ النَّارُ مَثواكُم خَالدينَ فيهَا إِلَّا مَا شاءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ. وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعضَ الظَّالِمِينَ بَعضًا بِمَا كَانُوا يَكسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٢٩] وأولياء الجن من الإنس يدخل فيه الكفار قطعاً؛ فإنهم أحق بموالاتهم من عصاة المسلمين كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلنَا الشَّيَاطِينَ أَولِيَاءَ لِلَّذينَ لَا يُؤمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلطَانٌ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذينَ يَتَولَّونَهُ وَالَّذينَ هُم بِهِ مُشرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُم طَائِفٌ مِنَ الشَّيطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبصِرُونَ وَإِخوَانُهُم يَمُدُّونَهُم فِي الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢] وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَولِيَاءَ مِن دُونِي وَهُم لَكُم عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠] وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَولِيَاءَ الشَّيطَانِ﴾ [النساء: ٧٦] وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزبُ الشَّيطَانِ أَلَا إِنَّ حِزبَ الشَّيطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾(١).[المجادلة: ١٩].

(٢)(**الطبقة** التاسعة): طبقة أهل النجاة، وهي طبقة من يؤدي فرائض الله ويترك محارم الله، مقتصراً على ذلك لا يزيد عليه ولا ينقص منه، فلا يتعدى إلى ما حرم الله عليه، ولا يزيد على ما فرض عليه. هذا من المفلحين بضمان رسول الله، ﷺ، لمن أخبره بشرائع الإسلام فقال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، فقال، صلى الله عليه وسلم: «**أفلح إن صدق**». وأصحاب هذه الطبقة مضمون لهم على الله تكفير سيئاتهم، إذا أدوا فرائضه واجتنبوا كبائر ما نهاهم عنه. قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلًا كَرِيماً﴾ [النساء: ٣١] وصح عنه، ﷺ، أنه قال: «**الصلوات الخمس ورمضان إلى رمضان والجمعة إلى الجمعة مكفرات لما بينهن ما لم تغش كبيرة**» فإن غشى أهل هذه الطبقة كبيرة وتابوا منها توبة نصوحًا لم يخرجوا من طبقتهم، فكانوا بمنزلة من لا ذنب له. فتكفير الصغائر يقع بشيئين: أحدهما الحسنات الماحية، والثاني اجتناب الكبائر. وقد نص عليها سبحانه وتعالى في كتابه فقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ

(١) استطرد المؤلف في البحث في عدة صحائف فراجعها إن شئت. (٢) ٣٨٠/ طريق الهجرتين

الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[النساء: ٣١].

(**الطبقة** العاشرة): طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم، وغشوا كبائر ما نهى الله عنه، ولكن رزقهم الله التوبة النصوح قبل الموت، فماتوا على توبة صحيحة. فهؤلاء ناجون من عذاب الله، إما قطعاً عند قوم، وإما رجاء وظنًّا عند آخرين. وهم موكولون إلى المشيئة، ولكن نصوص القرآن والسنة تدل على نجاتهم وقبول توبتهم، وهو وعد وعدهم الله إياه، والله لا يخلف الميعاد.

فإن قيل: فما الفرق بين أهل هذه الطبقة والتي قبلها؟ فإن الله إذا كفر عنهم سيئاتهم، وأثبت لهم بكل سيئة حسنة كانوا كمن قبلهم أو أرجح؟

قيل: قد تقدم الكلام على هذه المسألة بما فيه كفاية فعليك بمعاودته هناك. وكيف يستوي عند الله من أنفق عمره في طاعته ولم يغش كبيرة، ومن لم يدع كبيرة إلا ارتكبها، وفرط في أوامره، ثم تاب؟ فهذا غايته أن تمحى سيئاته، ويكون لا له ولا عليه. وأما أن يكون هو ومن قبله سواء أو أرجح منه فكلا.

(١)...**وجاءته** ﷺ الغامدية، فقالت: إني قد زنيت فَطَهِّرْني، وإنه ردها، فقالت: تردني كما رددْت ماعزاً فوالله إني لحبلى، فقال: «**اذهبي حتى تَلِدي**»، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، فقالت: هذا قد ولدته، فقال: «**اذْهَبي فأرضعيه حتى تفطميه**»، فلما فطمته أتته به وفي يده كِسْرَة من خبز؛ فقالت: هذا قد فطمته وأكَلَ الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صَدْرها، وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحَجَر فرمى رأسها فنضح الدم عَلى وجهه، فسبها، فسمع نبي الله، ﷺ سبه إياها، فقال: «**مهلا يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابَهَا صاحبُ مَكْس لغفر له**». ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت، ذكره مسلم.

وجاءه ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله إني أصبت حَدًّا فأقمه عليّ، ولم يسأله عنه، وحضرت الصلاة، فصلى مع النبي، ﷺ، فقام إليه الرجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حدًّا فأقم في كتابَ الله، قال: «**أليس قد صليت معنا**»؟

(١) ٣٧٠/ الأعلام/ جـ٤.

قال: نعم، قال: «**فإن الله قد غَفر لك ذنبك ـ أو قال حَدّك ـ**»، متفق عليه.

وقد اختلف في وجه هذا الحديث؛ فقال طائفة: أقر بحد لم يُسَمِّه فلم يَجِبْ على الإمام استفساره(١)، ولو سماه لحده كما حد ماعزاً، وقالت طائفة: بل غفر الله له بتوبته، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وعلى هذا فمن تاب من الذنب قبل القُدْرَة عليه سقطت عنه حقوق الله تعالى كما تسقط عن المحارب، وهذا هو الصواب.

وسأله ﷺ رجل فقال: أصبت من امرأة قبلة، فنزلت ﴿**وأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيلِ. إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذهِبنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكرَى لِلذَّاكرِينَ**﴾ [هود: ١١٤] فقال الرجل: ألي هذه؟ فقال: «**بل لمن عمل بها من أمتي**» متفق عليه.

وقد استدل به من يرى أن التعزير ليس بواجب، وأن للإمام إسقاطه، ولا دليل فيه، فتأمله.

(٢)**وسـأله** ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل لقى امرأة لا يعرفها، فليس يأتي الرجل من امرأته شيء إلا قد أتاه منها، غير أنه لم يجامعها؟ فأنـزل الله تعـالى هذه الآية: ﴿**وأَقِمِ الصـلاة طَرَفَي النهـارِ وزُلفًا من الليل إن الحَسنات يُذْهِبنَ السَّيئَاتِ**﴾ [هود: ١١٤]. فقال له النبي، ﷺ: «**تَوَضَّأ ثم صلِّ**» فقال معاذ: فقلت يارسول الله ألهُ خاصة أم للمؤمنين عامة؟ قال: «**بل للمؤمنين عامة**».

(٣)**قال** الله تعالى: ﴿**فَلَولاَ كَانَ مِنَ القُرُونِ مِن قَبلِكُم أُوْلُو بَقِيَّةٍ يَنهَونَ عَنِ الفَسَادِ فِي الأَرضِ إلاَّ قَلِيلاً مِّمَّن أَنجينَا مِنهُم**﴾ [هود: ١١٦].

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب: يدل على رسوخه في العلم والمعرفة، وفهم القرآن؛ فإن الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي، ﷺ، في قوله: «**بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبي للغرباء**» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**الذين يصلحون إذا فسد الناس**».

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبدالرحمن بن مهدي، عن زهير، عن عمرو بن أبي عمرو ـ مولى المطلب بن حَنْطَب ـ عن المطلب بن حنطب، عن النبيِّ ﷺ

(١) في نسخة: «استفصاله».
(٢) ٢٧٨/ الأعلام/ جـ٤.
(٣) ١٩٤/ مدارج/ جـ٣.

قال: «**طوبى للغرباء**»، قالوا: يارسول الله، ومن الغرباء؟ قال: «**الذين يزيدون إذا نقص الناس**».

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظاً ـ لم ينقلب على الراوي لفظه وهو: «**الذين ينقصون إذا زاد الناس**» ـ فمعناه: الذين يزيدون خيراً وإيماناً وتُقىً إذا نقص الناس من ذلك. والله أعلم.

وفي حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبي للغرباء**» قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: «**النُّزَّاع من القبائل**» وفي حديث عبدالله بن عمرو قال: قال النبي، ﷺ، ذات يوم، ونحن عنده: «**طوبي للغرباء**» قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: «**ناس صالحون قليل في ناس كثير. من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**».

وقال أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل، حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا عثمان بن عبدالله عن سليمان بن هرمز، عن عبدالله بن عمرو، عن النبي، ﷺ، قال: «**إن أحب شيء إلى الله الغرباء**» قيل: ومن الغرباء؟ قال: «**الفرارون بدينهم. يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة**».

وفي حديث آخر: «**بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبي للغرباء**» قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: «**الذين يحيون سنتي، ويعلمونها الناس**». **وقال** نافع: عن مالك: «دخل عمر بن الخطاب المسجد، فوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبي، ﷺ، وهو يبكي، فقال له عمر: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا. ولكن حديثاً حدثنيه حبيبي، ﷺ، وأنا في هذا المسجد. فقال: ما هو؟ قال: «**إن الله يحب الأخفياء الأحفياء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة**».

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون. ولقلتهم في الناس جدًّا: سموا «غرباء»؛ فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات. فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء. وأهل

السنة - الذين يميزونها من الأهواء والبدع - فهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًا، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿**وإن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ**﴾ [الأنعام: ١١٦] فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربة الموحشة. وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. كما قيل:

فليس غريباً من تناءت دياره ولكِنَّ من تَنأَيْنَ عنه غريب

ولما خرج موسى عليه السلام هارباً من قوم فرعون انتهى إلى مدين، على الحال التي ذكر الله، وهو وحيد غريب خائف جائع، فقال: «يا رب وحيد مريض غريب. فقيل له: يا موسى، الوحيد: من ليس له مثلي أنيس. والمريض: من ليس له مثلي طبيب. والغريب: من ليس بيني وبينه معاملة».

فالغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق، وهي الغربة التي مدح رسول الله، ﷺ، أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به: أنه «**بدأ غريباً**» وأنه «**سيعود غريباً كما بدأ**» وأن «**أهله يصيرون غرباء**».

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم. ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقًا، فإنهم لم يأووا إلى غير الله. ولم ينتسبوا إلى غير رسوله، ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم. فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بَقوْا في مكانهم. فيقال لهم: «**ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟** فيقولون: **فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده**».

فهذه «الغربة» لا وحشة على صاحبها، بل هو آنسُ ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا، فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

وفي حديث القاسم عن أبي أمامة عن النبي، ﷺ، قال - عن الله تعالى -: «**إن أغبط أوليائي عندي: لمؤمن، خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاته، أحسنَ عبادة ربه، وكان رزقه كَفافاً، وكان مع ذلك غامضاً في الناس لا يشار إليه**

بالأصابع، وصبر على ذلك حتى لقى الله، ثم حَلَّت منيته، وقَلَّ تُراثه، وقَلَّتْ بَواكيه». **ومن** هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي، ﷺ: «**رُبَّ أشعثَ أغبر، ذي طِمْرَين لا يُؤْبَهُ له، لو أقسم على الله لأبَرَّه**».

وفي حديث أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل، عن النبي، ﷺ، قال: «**ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة**»؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «**كل ضعيف أغْبَر، ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره**» وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب. لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال، وله حال. الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب.

ومن صفات هؤلاء الغرباء ـ الذين غبطهم النبي، ﷺ: التمسك بالسنة، إذا رغب عنها الناس. وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم. وتجريد التوحيد، وإن أنكر ذلك أكثر الناس. وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة. بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا، وأكثر الناس ـ بل كلهم ـ لائِمٌ لهم. فلغربتهم بين هذا الخلق: يعدونهم أهلَ شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنى قول النبي، ﷺ: «**هم النزاع من القبائل**» أن الله سبحانه بعث رسوله، وأهلُ الأرض على أديان مختلفة، فهم بين عُبَّاد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة. وكان الإسلام في أول ظهوره غريباً. وكان من أسلم منهم، واستجاب لله ولرسوله: غريباً في حَيِّه وقبيلته، وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نُزَّاعاً من القبائل، بل آحاداً منهم. تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام، فكانوا هم الغرباء حقًّا. حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجاً. فزالت تلك الغربة عنهم. ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتى عاد غريباً كما بدأ. بل الإسلام الحق ـ الذي كان عليه رسول الله، ﷺ، وأصحابه ـ هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة. فالإسلام الحقيقي غريب جدًّا، وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فِرقة واحدة قليلة جدًّا، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة، ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفس ما جاء به : يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شُحَّهم، وأعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي، ﷺ : «**مروا بالمعروف. وانهوا عن المنكر. حتى إذا رأيتم شُحًّا مطاعاً وهوَى متبعاً، ودنيا مُؤْثَرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يَدَ لك به، فعليك بخاصة نفسك. وإياك وعوامَّهم، فإن وراءكم أياماً صبر الصابر فيهن كالقابض على الجمر**» ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت - إذا تمسك بدينه - أجر خمسين من الصحابة.

ففي سنن أبي داود والترمذي - من حديث أبي ثعلبة الخُشَني - قال: «سألت رسول الله، ﷺ، عن هذه الآية ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيكُم أَنفُسَكُم. لَا يَضُرّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهتَدَيتُم**﴾ [المائدة: ١٠٥] فقال: **بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحًّا مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مُؤثَرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوامَّ، فإن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل قبضٍ على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله**». قلت: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «**أجر خمسين منكم**» **وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم** .**فإذا** أراد المؤمن،الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقهاً في سنة رسوله، وفهماً في كتابه، وأراه ما الناسُ فيه: من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول الله، ﷺ، وأصحابه.

فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط: فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ.

فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقدح فيما هم عليه: فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورَجْله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة، لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده، لفساد عقائدهم، غريب في صلاته؛ لسوء صلاتهم، غريب في طريقه، لضلال وفساد طرقهم. غريب في نسبته، لمخالفة نِسَبهم. غريب في معاشرته لهم؛ لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً. فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع، آمر بالمعروف، ناه عن المنكر بين قوم المعروفُ لديهم منكر والمنكر معروف

النوع الثاني من الغربة

غربة مذمومة: وهي غربة أهل الباطل، وأهل الفجور بين أهل الحق. فهي غربة بين حزب الله المفلحين، وإن كثر أهلها، فهم غرباء على كثرة أصحابهم وأشياعهم، أهل وحشة على كثرة مؤنسهم، يُعرفون في أهل الأرض، ويخفون على أهل السماء.

النوع الثالث: غربة مشتركة، لا تحمد ولا تذم. وهي الغربة عن الوطن، فإن الناس كلهم في هذه الدار غرباء؛ فإنها ليست لهم بدار مقام، ولا هي الدار التي خلقوا لها.

وقد قال النبي، ﷺ، لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل**» وهكذا هو في نفس الأمر؛ لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه، ويعرفه حق المعرفة. ولي من أبيات في هذا المعنى:

وحيَّ على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى. وفيها المخيَّم
ولكننا سَبْيُ العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا، ونَسلم؟
وأيُّ اغتراب فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تَحَكَّم؟
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشَطَت به أوطانه ليس يَنْعَم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة ... من العمر إلا بعد ما يتألم

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريباً، وهو على جناح سفر، لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور؟ فهو مسافر في صورة قاعد. وقد قيل:

وما هـذه الأيام إلا مراحل ... يَحُثُّ بها داع إلى الموت قاصد
وأعجب شيء لو تأملتَ أنها ... منازل تُطْوَى والمسافر قاعد

وقال(١): **﴿وما كان رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرَى بظلمٍ وأهلها مُصلِحون﴾** [هود: ١١٧]. وفي الآية قولان: أحدهما: ماكان ليهلكها بظلم منهم. الثاني: ماكان ليهلكها ليهلكها بظلم منه.

والمعنى على القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم، وهم مصلحون الآن. أي إنهم بعد أن أصلحوا، وتابوا لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

وعلى القول الثاني: إنه لم يكن ظالماً لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون! وإنما أهلكهم وهم ظالمون. فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم. والقولان في آية الأنعام أيضاً **﴿ذَلِكَ أن لَّم يَكُن رَّبُّكَ مُهلِكَ القُرَى بِظُلمٍ وَأَهلُهَا غَافِلُونَ﴾** [الأنعام: ١٣١].

قيل: لم يكن مهلكهم بظلمهم، وشركهم وهم غافلون لم يُنذَروا ولم يأتهم رسول.

وقيل: لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول فيكون قد ظلمهم؛ فإنه سبحانه لا يأخذ أحداً ولا يعاقبه إلا بذنبه. وإنما يكون مذنباً إذا خالف أمره ونهيه. وذلك إنما يعلم بالرسل.

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب، علم أن الله سبحانه قَدَّره سبباً مقتضياً لأثره من العقوبة، كما قدر الطاعة سبباً مقتضياً للثواب.

وكذلك تقدير سائر أسباب الخير والشر. كجعل السم سبباً للموت، والنار سبباً للإحراق والماء سبباً للإغراق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة هود والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢١٧ ـ مدارج / ج١.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قلت** أصل التدلية في اللغة الإرسال والتعليق ويقال: دلَّى الشيء في مهواة؛ إذا أرسله بتعليق، وتدلى الشيء بنفسه ومنه قوله تعالى: ﴿**فَأَرسَلُوا وَارِدَهُم فَأَدلَى دَلوَه**﴾ [يوسف: ١٩] قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها في البئر. ودلاها بالتخفيف، إذ نزعها من البئر، فأدلى دلوه يدليه إدلاء إذا أرسلها، ودلاها يدلوها دلوا، إذا نزعها وأخرجها، ومنه الإدلاء، وهو التوصل إلى الرجل برحم منه، ويشاركه في الاشتقاق الأكبر الدلالة وهي التوصل إلى الشيء بإبانته وكشفه، ومنه الدل وهو ما يدل على العبد من أفعاله، وكان عبدالله بن مسعود يُشَبَّه برسول الله (ﷺ) في هَدْيه ودَلِّه وَسَمتِه، فالهدي الطريقة التي عليها العبد، من أخلاقه وأقواله وأعماله، والدلُّ مايدل من ظاهره على باطنه، والسَّمت هيأته ووقاره ورزانته.

(٢)فصـــل

وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى، المعرضة عنه، المتعوِّضَة بغيره عنه. فإذا امتلأ القلب من محبة الله، والشوق إلى لقائه: دفع ذلك عنه مرض عشق الصور. ولهذا قال تعالى في حق يوسف: ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنهُ السُّوءَ وَالفَحشَاءَ، إنَّه مِن عِبَادِنَا المُخلَصِينَ**﴾ [يوسف: ٢٤] فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق، وما يترتب عليه من السوء والفحشاء، التي هي ثمرته ونتيجته فصَرْفُ المسبب صرف لسببه. ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ. يعني فارغاً مما سوى معشوقه قال تعالى: ﴿**وَأَصبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إن كَادَت لَتُبدي بِه**﴾ [القصص: ١٠] أي فارغاً من كل شيء إلا من موسى لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به.

والعشق مركب من أمرين: استحسان المعشوق، والطمع في الوصول إليه. فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق، وقد أعيت علة العشق على كثير من العقلاء.

---

(١) ١١٥ إغاثة جـ١ (٢) ٣١٩ زاد المعاد جـ٣.

وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن ذكره إلى الصواب.

فنقول: قد استقرت حكمة الله عز وجل في خلقه وأمره على وقوع التناسب، والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع، وهروبه من مخالفه، ونفرته عنه بالطبع. فسرُّ التمازج والاتصال في العالم العلوي والسفلي: إنما هو التناسب والتشاكل والتوافق، وسر التباين والانفصال إنما هو لعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر. فالمثل إلى مثله مائل وإليه صائر، والضد عن ضده هارب وعنه نافر(١).

(٢)**قال** تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصرِفَ عَنه السّوء والفحشَاءَ إنّه مِن عِبَادِنَا المُخلصِين**﴾ [يوسف: ٢٤] فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء فانصرف عنه السوء والفحشاء.

ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص؛ استثناهم من شرطته التي اشترطها للغواية والإهلاك فقال: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لأغوِيَنَّهُم أجمَعِينَ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخلَصِين**﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] قال تعالى: ﴿**إنَّ عِبَادِي لَيسَ لَكَ عَلَيهم سُلطَانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ من الغَاوِينَ**﴾ [الحجر: ٤٢] فالإخلاص هو سبيل الخلاص، والإسلام هو مركب السلامة والإيمان خاتم الأمان.

(٣)فصل

ودواء هذا الداء القتَّال؛ أن يعرف: أن ما ابتلي به من الداء المضاد للتوحيد أولاً. ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه وأن يرجع بقلبه إليه. وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصرِفَ عَنهُ السُّوءَ وَالفَحشَاءَ، إنَّه مِن عِبَادِنَا المُخلَصِينَ**﴾ [يوسف: ٢٤] فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه، فإن القلب إذا خلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور فإنه إنما تمكن من قلب فارغ كما قال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

---

(١) تقدم في آخر الأعراف بقية لهذا البحث. (٢) ٧٢ مفتاح جـ١. (٣) ٢٨٧ الجواب الكافي.

وليعلم العاقل أن العقل والشرع ؛ قد يوجبان : تحصيل المصالح وتكميلها، وإعدام المفاسد وتقليلها . فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه المصلحة والمفسدة وجب عليه أمران : أمر علمي ، وأمر عملي ، فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة ، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إتيان الأصلح له .

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية ، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة ، وذلك من وجوه :

أحدها : الاشتغال بذكر المخلوق وحبه عن حب الرب تعالى وذكره ، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا ؛ إلا ويقهر أحدهما صاحبه ويكون السلطان والغلبة له .

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه فإن من أحب شيئاً غير الله عذب به ولابد، كما قيل :

فما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل حين ... مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم ... ويبكي إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند الفراق ... وتسخن عينه عند التلاق

والعشق وان استلذ به صاحبه فهو من أعظم عذاب القلب .

الثالث: أن العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه يسومه الهوان ، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه . . .

(١)**وقد** سئل أبو الوفا بن عقيل عن هذه المسألة(٢)؟ فقال : ليس ذلك حكماً بالفراسة ، بل هو حكم بالأمارات . وإذا تأملتم الشرع وجدتموه يجوّز التعويل على ذلك . ومال أصحاب مالك رحمه الله إلى التوصل بالإقرار بما يراه الحاكم ؛ وذلك مستند إلى قوله تعالى : ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٥]. ولذا(٣) حكمنا بعقد الأزْج ، وكثرة الخُشُب في الحائط ، ومعاقد القُمُط الخُصِّ ، وما يخص المرأة والرجل في الدعاوى . وفي مسألة العطار والدباغ إذا اختصما في الجلد ، والنجار والخياط إذا تنازعا في المنشار والقدوم ، والطباخ والخباز إذا تنازعا في القِدْر، ونحو ذلك . فهل ذلك إلا اعتماد على الأمارات؟

(١) ٤ الطرق الحكمية . (٢) أي الحكم بالفراسة والقرائن التي يظهر فيها الحق (ج) .
(٣) في نسخة (ومتى) .

وكذلك الحكم في التأمل والنظر في أمر الخنثى، والأمارات على أحد حاليه. والنظر في أمارات جهة القبلة. واللَّوْث في القسامة. انتهى.

والحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الأمارات ودلائل الحال، ومعرفة شواهده، وفي القرائن الحالية والمقالية، كفقهه في جزئيات وكليات الأحكام: أضاع حقوقاً كثيرة على أصحابها. وحكم بما يعلم الناس بطلانه، ولا يشكون فيه، اعتماداً منه على نوع ظاهر، لم يلتفت إلى باطنه وقرائن أحواله.

فههنا نوعان من الفقه، لابد للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس، يميز به بين الصادق والكاذب، والمحق والمبطل. ثم يطابق بين هذا وهذا. فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفاً للواقع.

ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالاتها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد. ومجيئها بغاية العدل، الذي يفصل بين الخلائق(١)، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح: تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها وحُسن فهمه فيها: لم يحتج معها إلى سياسة غيرها ألبتة.

فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها. وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة. علمها من علمها وجهلها من جهلها.

ولا تنس في هذا الموضوع قول نبي الله سليمان (ﷺ) للمرأتين اللتين ادعتا الولد. فحكم به داود (ﷺ) للكبرى. فقال سليمان: «**ائتوني بالسكين أشقه بينكما**» فسمحت الكبرى بذلك، وقالت الصغرى: «**لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها**» فقضى به للصغرى. فأي شيء أحسن من اعتبار هذه القرينة الظاهرة؟

فاستدل برضا الكبرى بذلك، وأنها قصدت الاسترواح إلى التأسِّي بمساواة الصغرى في فقد ولدها وشفقة الصغرى عليه، وامتناعها من الرضا بذلك: دل على أنها أمه، وأن الحامل لها على الامتناع من الدعوى: ما قام بقلبها من الرحمة والشفقة التي وضعها الله في قلب الأم. فاتضحت وقويت هذه القرينة عنده، حتى

(١) في نسخة «يسع الخلائق».

قدمها على إقرارها: فإنه حكم به لها مع قولها «هو ابنها» وهذا هو الحق.

فإن الإقرار إذا كان لعلة اطلع عليها الحاكم لم يلتفت إليه أبدا. ولذلك ألغينا إقرار المريض مريض الموت بمال لوارثه لانعقاد سبب التهمة. واعتماداً على قرينة الحال في قصده تخصيصه.

ومن تراجم قضاة السنة والحديث على هذا الحديث: ترجمة أبي عبد الرحمن النسائي في سننه قال: «التوسعة للحاكم في أن يقول للشيء الذي لا يفعله: أفعل كذا؛ ليستبين به الحق».

ثم ترجم عليه ترجمة أخرى أحسن من هذه. فقال: «الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه، إذا تبين للحاكم من الحق غير ما اعترف به» فهكذا يكون الفهم عن الله ورسوله.

ثم ترجم عليه ترجمة أخرى فقال: «نقض الحاكم ما حكم به غيره ممن هو مثله، أو أجل منه» فهذه ثلاث قواعد.

ورابعة: وهي ما نحن فيه. وهي الحكم بالقرائن وشواهد الحال.

وخامسة: وهي أنه لم يجعل الولد لهما، كما يقوله أبو حنيفة.

فهذه خمس سنن في هذا الحديث.

ومن ذلك: قول الشاهد الذي ذكر الله شهادته، ولم ينكرها، بل لم يعبه، بل حكاها مقرراً لها، فقال تعالى: ﴿**وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ. قَالَتْ: مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ؟ قَالَ: هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي. وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا، إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ: إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**﴾ [يوسف: ٢٥: ٢٨]. فتوصل بقدِّ القميص إلى تمييز الصادق منهما من الكاذب. وهذا لَوْث في أحد المتنازعين، يبين به أولاهما بالحق.

وقد ذكر الله سبحانه اللوث في دعوى المال في قصة شهادة أهل الذمة على المسلمين في الوصية في السفر، وأمر بالحكم بموجبه(١). وحكم النبي (ﷺ)

(١) سورة المائدة الآيات (١٠٦ ـ ١٠٨).

بموجب اللوث في القسامة، وجوز للمدعين أن يحلفوا خمسين يميناً ويستحقوا دم القتيل. فهذا لَوْث في الدماء. والذي في سورة المائدة لوث في الأموال. والذي في سورة يوسف لوث في الدعوى في العِرْض ونحوه.

وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والصحابة معه رضي الله عنهم برجم المرأة التي ظهر بها حمل، ولا زوج لها ولا سيد. وذهب إليه مالك وأحمد - في أصح روايتيه - اعتماداً على القرينة الظاهرة.

وحكم عمر وابن مسعود رضي الله عنهما - ولا يعرف لهما مخالف من الصحابة - بوجوب الحد برائحة الخمر من فيِّ الرجل، أوقَيْئِه خمراً، اعتماداً على القرينة الظاهرة.

ولم يزل الأئمة والخلفاء يحكمون بالقطع إذا وجد المال المسروق مع المتهم. وهذه القرينة أقوى من البينة والإقرار. فإنهما خبران يتطرق إليهما الصدق والكذب، ووجود المال معه نص صريح لا يتطرق إليه شبهة. وهل يشك أحد رأى قتيلاً يَتَشَحَّط في دمه، وآخرَ قائماً على رأسه بالسكين: أنه قتله؟ ولا سيما إذا عُرف بعداوته له. ولهذا جوز جمهور العلماء لولي القتيل أن يحلف خمسين يميناً: أن ذلك الرجل قتله. ثم قال مالك وأحمد: يقتل به. وقال الشافعي: يقضى عليه بديته.

وكذلك إذا رأينا رجلاً مكشوف الرأس - وليس ذلك عادته - وآخر هارباً قدَّامه بيده عمامة، وعلى رأسه عمامة: حكمنا له بالعمامة التي بيد الهارب قطعاً. ولا نحكم بها لصاحب اليد التي قد قطعنا وجزمنا بأنها يد ظالمة غاصبة بالقرينة الظاهرة التي هي أقوى بكثير من البينة والاعتراف.

وهل القضاء بالنكول إلا رجوع إلى مجرد القرينة الظاهرة، التي علمنا بها ظاهراً قرينة ظاهرة، دالة على صدق المدعي، فقدمت على أصل براءة الذمة.

وكثير من القرائن والأمارات أقوى من النكول. والحس شاهد بذلك. فكيف يسوغ تعطيل شهادتها؟.

ومن ذلك: أن النبيّ (ﷺ) أمر الزبير أن يقرر عَمّ حُيَيٍّ بن أخطب بالعذاب على إخراج المال الذي غَيَّبه، وادعى نفاده. فقال له: «**العهد قريب. والمال أكثر من ذلك**» فهاتان قرينتان في غاية القوة: كثرة المال، وقصر المدة التي ينفق كله فيها.

وشرح ذلك. أنه (ﷺ) لما أجْلَى يهود بني النّضير من المدينة، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم، غير الحلقة والسلاح. كان لابن أبي الحقيق مال عظيم، يبلغ مَسْك ثور من ذهب وحُليّ. فلما فتح رسول الله (ﷺ) خيبر ـ وكان بعضها عنوة وبعضها صلحاً ـ ففتح أحد جانبيها صلحاً. وتحصن أهل الجانب الآخر. . .(١).

(٢)«**الشغف**» يقال: شغف بكذا. فهو مشغوف به. وقد شغفه المحبوب. أي وصل حبه إلى شِغَاف قلبه. كما قال النسوة عن امرأة العزيز ﴿**شَغَفَهَا حبًّا**﴾ [يوسف: ٣٠] وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الحب المستولي على القلب، بحيث يحجبه عن غيره.

قال الكلبي: حجبَ حُبُّه قلبها حتى لا تعقل سواه.

الثاني: الحب الواصل إلى داخل القلب. قال صاحب هذا القول: المعنى أحبته حتى دخل حُبُّهُ شِغَاف قلبها، أي داخله.

الثالث: أنه الحب الواصل إلى غشاء القلب. و«الشغاف» غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب. قال السُّدِّي: الشغاف جلدة رقيقة على القلب. يقول: دخله الحب حتى أصاب القلب.

وقرأ بعض السلف ﴿**شَعَفَهَا**﴾ بالعين المهملة. ومعناه: ذهب الحب بها كل مذهب. وبلغ بها أعلى مراتبه، ومنه: شَعَف الجبال، لرءوسها.

(٣)**فصل** وأما الشغف فمن أسمائها أيضاً: قال الله تعالى: ﴿**قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**﴾ قال الجوهري وغيره: والشَّغاف غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب يقال: شَغَفَه الحب أي بلغ شَغافَه، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿**قَدْ شَعَفَهَا حُبًّا**﴾ ثم قال: دخل حُبُّه تحت الشَّغاف.

فصل وأما الشَّعف بالعين المهملة ففي الصحاح: شَعَفه الحُبُّ أي أحرق قلبه، وقال أبو زيدٍ: أمرضه، وقد شُعِف بكذا فهو مشعوفٌ وقرأ الحسن: ﴿**قَدْ شَعَفَهَا حُبًّا**﴾ قال: بطنها [حُبًّا].

---

(١) ذكر المؤلف في بدائع الفوائد بحثاً حول ما تقدم هنا جـ٣ ص١١٨ يحسن الرجوع إليه (ج).

(٢) ٢٨ مدارج جـ٣ (٣) ٢٨ روضة المحبين.

(١)**قالت** امرأة العزيز للنسوة لما أرَتهنّ إياه ليعذرنها في محبته: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢] أي: هذا هو الذي فتنت به وشغفت بحبه، فمن يلومني عَلَىَ محبته وهذا حسن منظره؟ ثم قالت: ﴿وَلَقَد رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:٣٢] أي فمع هذا الجمال، فباطنه أحسنُ من ظاهره، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبُعد عن الخنا، والمحبُّ وإن عَيَّب محبوبَه فلا يجري [عَلَىَ] لسانه إلا محاسنه ومدحه.

ويتعلق بهذا قوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ [الإنسان:١١] فجمّل ظواهرهَم بالنضرة وبواطنهم بالسرور ومثله قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فإنه لا شيء أشهى إليهم وأقرّ لعيونهم، وأنعم لبواطنهم من النظر إليه فنضّر وجوهَهم بالحسن، ونعمّ قلوبَهم بالنظر إليه. وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١] فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ [الإنسان:٢١] أيّ مُطَهِّراً لبواطنهم من كلّ أذىً. فهذا زينة الباطن. ويشبهه قولُه تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً﴾ فهذا زينةُ الظاهر ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦] فهذا زينة الباطن. وينظر إليه من طرف خفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظاً﴾(٢) [الصافات: ٦، ٧] فزيّن ظاهرها بالمصابيح، وباطنها بحفظها من الشياطين.

(٣)من أثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام

هذا بابٌ إنما يدخل منه رجلان:

أحدهما: مَن تمكّن من قلبه الإيمان بالآخرة، وما أعدّ الله فيها من الثواب لمن أطاعه. والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنى الفَوْتَيْن، واختار أسهل العقوبتين.

والثاني: رجلٌ غلب عقلُه عَلَىَ هواه فعلم ما في الفاحشة من المفاسد، وما في العُدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى عَلَىَ الأدنى.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق، صلوات الله وسلامُه عليه،

---

(١) ٢٤٩ روضة. (٢) كانت في النسختين: «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً» وهو جمع من آيتين أخريين كلٍ منهما من سورة. (٣) ٤٩٠ روضة.

بين الأمرين، فاختار عقوبة الدُّنيا بالسجن عَلَى ارتكاب الحرام، فقالت المرأةُ: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ. قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ﴾[1] [يوسف: ٣٢، ٣٣]. فاختار السجن عَلَى الفاحشة، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوَّته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ﴾ فلا يَرْكن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلَّت عنه عصمةُ الله وأحاط به الخذلان.

وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبِّهم إليه: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِم شَيْئاً قَلِيلاً﴾. [الإسراء: ٧٤]. ولهذا كان من دعائه: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**» وكانت أكثر يمينه: «**لاَ وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ**» كيف وهو الذي أُنزل عليه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد جرت سنة الله تعالى في خلقه؛ أن من آثر الألم العاجلَ عَلَى الوصال الحرام أعقبه ذلك في الدُّنيا المسرَّة التامَّة، وإن هلك فالفوز العظيم، والله تعالى لا يضيع ما تحمّل عبده لأجله.

وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله سبحانه وتعالى: «**بعيني ما يتحمّل المتحمّلون من أجلي**». وكل من خرج عن شيءٍ منه لله حفظه الله عليه أو أعاضه الله ما هو أجلُّ منه.

ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون، وعوَّضهم عن أبدانهم التي بذلوها له؛ أبدانَ طيرٍ خُضْرٍ جعل أرواحهم فيها تسرح في الجنة حيث شاءت، وتأوي إلى قناديلَ معلقةٍ بالعرش، ولما تركوا مساكنهم له عوّضهم مساكنَ طيبةً في جنات عدن ذلك الفوز العظيم.

[2]**فصل** وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصِدّيق (ﷺ) من العفاف أعظَم ما يكون، فإن الدّاعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حقّ غيره، فإنه

(١) وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن، وتلك أفعال اختيارية. وهو سبحانه الصارف لها، فالصرف فعله، والانصراف أثر فعله.. وهو فعل النسوة. أ. هـ.

(٢) ٣٤١ روضة.

(ﷺ) كان شابًا والشبابُ مركب الشهوة، وكان عزَباً ليس عنده ما يعوّضه، وكان غريباً عن أهله ووطنه، والمقيمُ بين أهله وأصحابه يستحيي منهم أن يعلموا به فيسقطَ من عيونهم، فإذا تغرَّب زال هذا المانع، وكان في صورة المملوك والعبدُ لا يأنف مما يأنَف منه الحر، وكانت المرأة ذاتَ مَنْصِب وجمالٍ والدّاعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك، وكانت هي المطالبة فيزول بذلك كُلْفَةُ تعرّض الرجل وطلبه وخوفِه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبةُ التامّةُ والمُراودةُ التي يزول معها ظنُّ الامتحان والاختبار لتعلمَ عفافه من فجوره، وكانت في محلّ سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليقَ الأبواب لتأمنَ هجومَ الداخل عَلَى بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة ومع هذا كلّه فعفّ لله ولم يُطِعْها وقدّم حقَّ الله وحقَّ سيدها عَلَى ذلك كلّهِ، وهذا أمرٌ لو ابْتُلي به سواه لم يُعْلم كيف كانت تكون حاله. فإن قيل: فقد همّ بها. قيل: عنه جوابانَ:

أحدهما: أنه لم يَهُمّ بها بل لولا أن رأى برهانَ ربّه لهمّ، هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثاني: وهو الصواب أن همّه كان همَّ خطرات فتركه لله فأثابه الله عليه، وهمُّها كان همَّ إصرار بذلت معه جُهْدَها، فلم تصل إليه فلم يستوِ الهَمّان.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الهمّ همّان: همُّ خطَرات، وهمُّ إصرار، فهمُّ الخَطرات لا يؤاخذ به.

فإن قيل: فكيف قال وقت ظهور براءته: ﴿وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣].

قيل: هذا قد قاله جماعةٌ من المُفسرين وخالفهم في ذلك آخرون أجلُّ منهم.

وقالوا: إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسُف عليه السلام.

والصواب معهم لوجوهٍ: أحدُها: أنه متصلٌ بكلام المرأةِ وهو قولها: ﴿اْلآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥١: ٥٣]. ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قولٍ لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقولُ في مثل هذا لا يحذف لئلا يوقع في اللَّبْس، فإن غايَته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعاً.

الثاني: أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلّمت بقولها: ﴿**الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ**﴾، والسياق صريحٌ في ذلك فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿**ارْجِع إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾ [يوسف: ٥٠]. فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غَيبته ولم يُمكِنْهن إلَّا قولُ الحق فقال النسوة: ﴿**حَاشَ لله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ**﴾ وقالت امرأةُ العزيز: ﴿**أَنَا رَاوَدْتُه عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**﴾.

فإن قيل: لكن قوله: ﴿**ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ الله لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**﴾ الأحسنُ أن يكون من كلام يوسف عليه السلام، أي إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ثم أنه (ﷺ) قال: ﴿**وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٣]. وهذا من تمام معرفته (ﷺ) بربه ونفسه فإنه لما أظهر براءَته ونزاهتَه مما قُذف به، أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكّيها ولا يُبرِّئها فإنها أمّارة بالسوء لكن رحمةَ ربه وفضله هو الذي عصمه، فردّ الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته.

قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفةٌ فالصوابُ أنه من تمام كلامها، فإن الضمائر كلَّها في نَسقٍ واحدٍ يَدُلّ عليه وهو قول النسوة: ﴿**مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ**﴾ وقول امرأة العزيز: ﴿**أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ فهذه خمسة ضمائرَ بين بارزٍ ومستتر ثم اتّصل بها قولُه: ﴿**ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**﴾ فهذا هو المذكور أولاً بعينه فلا شيء يَفْصِل الكلام عن نظمه ويُضْمَرُ فيه قولٌ لا دليل عليه.

فإن قيل: فما معنى قولها: ﴿**لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**﴾ قيل: هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت: ذلك أي قولي هذا وإقراري ببراءته ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته وإن خنته في وجهه في أوّل الأمر، فالآن يعلم أني لم أخُنْه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها وَما أُبرِّيءُ نفسي، ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرِّيءْ نفسها، وهي أن النفس أمّارةٌ بالسوء فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة! أقرّت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن

نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها عَلَى ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبدَه وإلّا فهو عُرْضةٌ للشرّ.

فوازِنْ بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلامَ يوسف عليه السلام لفظاً ومعنى. وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يُسْتَبْعَد أن تقول المرأة هذا وهي عَلَى دين الشرك، فإن القوم كانوا يُقِرُّون بالرَّبِّ سبحانه وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره، ولا تنسَ قولَ سيدها لها في أول الحال: ﴿**وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئِينَ**﴾ [يوسف: ٢٩].

فصل(١)

وأما النفس الأمارة فهي المذمومة فإنها التي تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له كما قال تعالى حاكياً عن امرأة العزيز.

﴿**وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِن أَحَدٍ أَبَداً**﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: ﴿**وَلَوْلَا أَن ثَبَّتناكَ لَقَد كِدتَ تَركَنُ إِلَيهِم شَيئاً قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٤].

وكان النبي (ﷺ) يعلمهم خطبة الحاجة: «**الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له**» فالشر كامن في النفس وهو يوجب سيئات الأعمال فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه؛ هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله. فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين: الأمارة واللوامة، كما أكرمه بالمطمئنة، فهي نفس واحدة تكون أمارة ثم مطمئنة وهي غاية كمالها وصلاحها. وأيد المطمئنة بجنود عديدة، فجعل الملك قرينها وصاحبها الذي يليها

(١) ٢٧٥ الروح.

ويسـددها ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه، ويريها حسن صورته، ويزجرها عن البـاطل ويزهدها فيه ويريها قبح صورته. وأمدها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال البر، وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق تنتابها وتصل إليها من كل ناحية، وكلما تلقتهـا بالقبـول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته في ذلك كله ازداد مددها فتقوى على محاربة الأمارة . . .(١).

(٢)من ترك محبوبه حـراماً فبذل لـه حـلالاً أو أعاضـه اللـه خـيراً منـه

عنوانُ هذا الباب وقاعدته أن من ترك لله شيئاً عوَّضه الله خيراً منه، كما ترك يوسف الصـدّيق عليه السلام امرأة العزيز لله، واختار السجنَ عَلَى الفاحشة؛ فعوّضه الله أن مكّنه في الأرض يتبوأُ منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرةً سائلةً راغبةً في الوصل الحلال فتزوّجها، فلما دخل بها قال: هذا خيرٌ مما كنت تريدين.

فتأمّل كيف جزاه الله سبحانه وتعالى عَلَى ضيق السجن أن مَكّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذلّ له العزيزَ وامرأَته، وأقرَّت المرأة والنّسوةُ ببراءتَه، وهذه سُنّتُه تعالى في عباده قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة.

ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس؛ سخر الله له الريح يسير عَلَى مَتْنِها حيث أراد(٣).

ولما ترك المهـاجـرون ديارَهم لله وأوطـانَهم التي هي أَحبُّ شيءٍ إليهم؛ أعاضهم الله أن فتح عليهم الدُّنيا وملَّكهم شرقَ الأرض وغربَها، ولو اتقى الله السارِقُ وترك سرقة المال المعصوم لأتاه الله مثله حلالاً قال الله تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

(٤)﴿**قـل بفضـل الله وبـرحمته فبذلك فليفرحوا**﴾[يونس: ٥٨]. فالافتخار على ظاهره والافتقار والانكسار في باطنه ولا ينافي أحدهما الآخر.

(١) وسيأتي بحث الأنفس قريباً في سورة الرعد إن شاء الله.　　(٢) ٤٧٥ روضة.

(٣) في ن ونسخة الأمير: حتى غابت الشمس غضباً لله؛ أعاضه الله عنها الريح يركب هو وعسكره على متنها إلخ.　　(٤) ٨٦ مدارج جـ٣

وتأمل قول النبي (ﷺ): «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» فكيف أخبر بفضل الله ومنته عليه. وأخبر أن ذلك لم يصدر منه افتخاراً به على من دونه، ولكن إظهاراً لنعمة الله عليه، وإعلاماً للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله، وعلو منزلته لديه. لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم.

ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزيز: ﴿**اجعَلْني عَلَى خَزَائِنِ الأرضِ إنّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥]. فإخباره عن نفسه بذلك، لمَا كان متضمناً لمصلحة تعود على العزيز وعلى الأمة، وعلى نفسه: كان حسناً. إذ لم يقصد به الفخر عليهم، فمصدر الكلمة والحامل عليها يُحَسِّنها ويُهَجِّنها. وصورته واحدة.

(١)**ومنه** قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿**اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**﴾ فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود، وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظم، وهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره في عيونهم والأول يكبره في قلوبهم وعيونهم، وإنما الأعمال بالنيات.

وكذلك إذا أثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر أو ليستوفي بذلك حقًّا له يحتاج فيه إلى التعريف لحاله، أو ليقطع عنه أطماع السفلة فيه، أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله.

والأحسن في هذا أن يوكل من يعرف به وبحاله؛ فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصير، وهو في الغالب مذموم لما يقترن به من الفخر والتعاظم.

(٢)**قال** شيخنا رضي الله عنه: ومما قد يظن أنه من جنس الحيل التي بينا تحريمها، وليس من جنسها قِصَّة يوسف حين كاد الله له في أخذ أخيه كما قَصَّ ذلك تعالى في كتابه، فإن فيه ضروباً من الحيل الحسنة:

أحدها: قوله لفتيانه: ﴿**اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُم فِي رِحالِهم لَعَلَّهُم يَعرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهلِهم لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ**﴾ [يوسف: ٦٢]. فإنه تسبَّبَ بذلك إلى رجوعهم، وقد ذكروا في ذلك معاني: منها: أنه تخوف أن لا يكون عندهم ورق يرجعون بها. ومنها: أنه خشي أن يضر أخذ الثمن بهم. ومنها: أنه رأى لو ما أخذ

(١) ١٣٩ مفتاح جـ١ (٢) ٢٢٤ أعلام جـ٣.

الثمن منهم. ومنها: أنه أراهم كرمه في رد البضاعة ليكون أدعى لهم إلى العَوْد. ومنها: أنه علم أن أمانتهم تُحْوجهم إلى العَوْد ليردوها إليه؛ فهذا المحتال به عمل صالح.

والمقصود رجوعهم ومجيء أخيه، وذلك أمر فيه منفعة لهم ولأبيهم وله، وهو مقصود صالح، وإنما لم يعرفهم نفسه لأسباب أخر فيها أيضاً منفعة لهم وله ولأبيهم، وتمام لما أراده الله بهم من الخير في البلاء.

الضرب الثاني: أنه في المرة الثانية لما جَهَّزهم بجَهَازهم جعل السِّقَاية في رَحْل أخيه. وهذا القدر تضمن إيهام أن أخاه سارق، وقد ذكروا أن هذا كان بمواطأة من أخيه ورضا منه بذلك، والحق له في ذلك، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِس بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [يوسف: ٦٩]. وفيه قولان:

أحدهما: أنه عرفه أنه يوسُفُ ووطَّنه على عدم الابتئاس بالحيلة التي فعلها في أخذه منهم.

والثاني: أنه لم يصرح له بأنه يوسف، وإنما أراد إني مكان أخيك المفقود فلا تبتئس بما يعاملك به إخوتك من الجفاء.

ومَنْ قال هذا قال: إنه وضع السقاية في رَحْل أخيه والأخ لا يشعر، ولكن هذا خلاف المفهوم من القرآن وخلاف ما عليه الأكثرون، وفيه ترويع لمن لم يستوجب الترويع.

وأما على القول الأول فقد قال كعب وغيره: لما قال له إني أنا أخوك، قال: فأنا لا أفارقك، قال يوسف: فقد علمتَ اغتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى ما لا يحتمل، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقك، قال: فإني أدسُّ صُوَاعي هذا في رَحْلك، ثم أنادي عليك بالسرقة ليتهيأ لي ردك، قال: فافعل؛ وعلى هذا فهذا التصرف إنما كان بإذن الأخ ورضاه.

ومثل هذا النوع ما ذكر أهل السير عن عدي بن حاتم؛ أنه لما هم قومه بالردة بعد رسول الله (ﷺ) كَفَّهم عن ذلك، وأمرهم بالتربص، وكان يأمر ابنه إذا رعى إبل الصدقة أن يبعد، فإذا جاء خاصَمَه بين يدي قومه وهَمّ بضربه، فيقومون

فيشفعون إليه فيه، ويأمره كل ليلة أن يزداد بعداً، فلما كان ذات ليلة أمره أن يبعد بها جدًّا، وجعل ينتظره بعدما دخل الليل وهو يَلُوم قومه على شفاعتهم ومَنْعِهم إياه من ضربه، وهم يعتذرون عن ابنه، ولا ينكرون إبطاءه، حتى إذا انهار الليل ركب في طلبه فلحقه، واستاق الإبل حتى قدم بها عَلَى أبي بكر رضي الله عنهما؛ فكانت صدقات طيء مما استعان بها أبو بكر في قتال أهل الردة.

وكذلك في الحديث الصحيح أن عديًا قال لعمر رضي الله عنه: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى، أعرفك، أسلمت إذ كفروا، ووفيت إذ غدروا، وأقبلت إذ أدبروا، وعرفت إذ أنكروا.

ومثل هذا ما أذن فيه النبي (ﷺ) للوَفْدِ الذين أرادوا قتل كعب بن الأشْرَف أن يقولوا. وأذن للحجاج بن علاط عام خيبر أن يقول.

وهذا كله من الاحتيال المُبَاح؛ لكون صاحب الحق قد أذن فيه ورضي به، والأمر المحتال عليه طاعة لله وأمر مباح.

الضرب الثالث: أنه أذَّنَ مؤذن ﴿أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُم لَسَارِقُونَ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ، وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَابِهِ زَعِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُم كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُه مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ فَبَدَأَ بِأَوعِيَتِهِم قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُم استَخرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إِلَّا أَن يَشَآءَ اللهُ﴾ [يوسف: ٧٠ - ٧٦]. وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين.

أحدهما: أنه من باب المعاريض وأن يوسف نَوَى بذلك أنهم سرقوه من أبيه؛ حيث غَيَّبوه عنه بالحيلة التي احتالوا عليه، وخانوه فيه، والخائن يسمى سارقاً، وهو من الكلام المرموز، ولهذا يسمى خونة الدواوين لصوصاً.

الثاني: أن المنادي هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف، قال القاضي أبو يعلى وغيره: أمر يوسفُ بعض أصحابه أن يجعل الصواع في رَحْل أخيه، ثم قال بعض الموكلين وقد فقدوه ولم يدر من أخذه: ﴿أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُم لَسَارِقُونَ﴾ على ظن منهم أنهم كذلك، من غير أمر يوسف لهم بذلك، أو لعل يوسف قد قال للمنادي: هؤلاء سرقوا، وعَنَى أنهم سرقوه من أبيه، والمنادي فهم سَرِقَةَ الصُّوَاع

فصدق يوسف في قوله، وصدق المنادي، وتأمل حذف المفعول في قوله: ﴿إِنَّكُم لَسَارِقُونَ﴾ ليصح أن يضمن سرقتهم ليوسف فيتم التعريض، ويكون الكلام صدقاً، وذكر المفعول في قوله: ﴿نَفقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ﴾ وهو صادق في ذلك، فصَدَقَ في الجملتين معاً تعريضاً وتصريحاً.

وتأمل قول يوسف: ﴿قَالَ مَعَاذَ الله أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ [يوسف: ٧٩] ولم يقل إلا من سرق، وهو أخصر لفظاً، تحريًا للصدق؛ فإن الأخ لم يكن سارقاً بوجه، وكان المتاع عنده حقًا؛ فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها.

ومثل هذا قول الملكين لداود عليه السلام: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾ [ص: ٢٢-٢٣] أي غلبني في الخطاب، ولكن تخريج هذا الكلام على المعاريض لا يكاد يتأتى، وإنما وجهه أنه كلام خرج على ضرب المثال: أي إذا كان كذلك فكيف الحكم بيننا.

ونظير هذا قول الملك للثلاثة الذين أراد الله أن يبتليهم: «**مسكين وغريب وعابر سبيل، وقد تقطعت بي الحبال، ولا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، فأسألك بالذي أعطاك هذا المال بعيراً أتبلغ به في سَفَرِي هذا**» وهذا ليس بتعريض، وإنما هو تصريح على وجه ضرب المثال وإيهام أني أنا صاحب هذه القضية، كما أوهم الملكان داود أنهما صاحبا القصة ليتم الامتحان.

ولهذا قال نصر بن حاجب: سئل ابن عيينة عن الرجل يعتذر إلى أخيه من الشيء الذي قد فعله، ويحرف القول فيه ليرضيه، لم يأثم في ذلك؟ فقال: ألم تسمع قوله: «**ليس بكاذب مَنْ أصلح بين الناس يكذب فيه**» فإذا أصلح بينه وبين أخيه المسلم خير من أن يصلح بين الناس بعضهم من بعض، وذلك إذا أراد به مرضاة الله، وكره أذى المؤمن، ويندم على ما كان منه، ويدفع شره عن نفسه، ولا يريد بالكذب اتخاذ المنزلة عندهم ولا طمعاً في شيء يصيب منهم؛ فإنه لم يرخص في ذلك، ورخص له إذا كره مَوْجِدَتهم وخاف عداوتهم.

قال حذيفة: إني أشتري ديني بعضه ببعض مخافة أن أقدم على ما هو أعظم منه. قال سفيان: وقال الملكان: ﴿خَصمَانِ بَغَىٰ بَعضُنَا عَلَىٰ بَعضٍ﴾ [ص: ٢٢] أرادامعنى شيء، ولم يكونا خصمين، فلم يصيرا بذلك كاذبين.

وقال إبراهيم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وقال يوسف: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] فبين سفيان أن هذا من المعاريض المباحة.

فصل

وقد احتج بعضُ الفقهاء بقصة يوسف على أنه جائز للإنسان التوصُّلُ إلى أخذ حقه من الغير، بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا مَنْ عليه الحق.

قال شيخنا رضي الله عنه: وهذه الحجة ضعيفة؛ فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه، ولم يكن هذا الأخ ممن ظَلَم يوسف حتى يقال: إنه قد اقتصَّ منه، وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك، نعم تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذي أبيهم والميثاقِ الذي أخذه عليهم، وقد استثنى في الميثاق بقوله: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] وقد أحيط بهم، ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته؛ فإنه كان أكْرَمَ من هذا، وكان في ذلك من الإيذاء لأبيه(١) أعظم مما فيه من إيذاء إخوته، وإنما هو أمر أمره الله به ليبلغَ الكتابُ أجَلَه ويتم البلاء الذي استحق به يعقوب ويوسف كمال الجزاء، وتبلغ حكمة الله التي قضاها لهم نهايتها.

ولو كان يوسف قصد القصاص منهم بذلك، فليس هذا موضع الخلاف بين العلماء؛ فإن الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به، وإنما موضع الخلاف: هل يجوز له أن يسرق أو يخون مَنْ سرقه أو خانه مثل ما سرق منه أو خانه إياه؟ وقصة يوسف لم تكن من هذا الضرب.

نعم، لو كان يوسف أخذ أخاه بغير أمره لكان لهذا المحتج شبهة، مع أنه لا دلالة في ذلك على هذا التقدير أيضاً؛ فإن مثل هذا لا يجوز في شرعنا بالاتفاق، وهو أن يحبس رجل بريء ويعتقل للانتقام من غيره من غير أن يكون له جُرْم.

ولو قدر أن ذلك وقع من يوسف فلابد أن يكون بوحي من الله ابتلاء منه لذلك المعتقل، كما ابتلي إبراهيم بذَبْح ابنه، فيكون المبيح له على هذا التقدير وحياً خاصًّا كالوحي الذي جاء إبراهيم بذبح ابنه، وتكون حكمته في حق المبتلى

(١) في نسخة «من الإيذاء له أعظم مما ـ إلخ».

امتحانه وابتلاءه لينال درجة الصبر على حكم الله والرضا بقضائه، وتكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب في احتباس يوسف عنه، وهذا معلوم من فقه القصة وسياقها ومن حال يوسف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ نَرفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوقَ كُلِّ ذِي عِلمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] فنسب الله تعالى هذا الكيد إلى نفسه كما نَسَبَه إلى نفسه في قوله: ﴿إِنَّهُم يَكِيدُونَ كَيداً وَأَكِيدُ كَيداً﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] وفي قوله: ﴿وَمَكَروا مَكراً وَمَكَرنَا مَكراً﴾ [النمل: ٥٠] وفي قوله: ﴿وَيَمكُرُونَ وَيَمكُرُ الله، وَالله خيرُ الماكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقد قيل: إن تسمية ذلك مكراً وكيداً واستهزاء وخِداعاً من باب الاستعارة ومجاز المقابلة نحو: ﴿وَجَزاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ونحو قوله: ﴿فَمَنِ اعتَدَى عَلَيكُم فاعتدوا عَلَيه بِمثل مَا اعتَدَىٰ عَلَيكم﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقيل وهو أصوب: بل تسميته بذلك حقيقة على بابه.

فإن المكر إيصالُ الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة.

ولكنه نوعان: قبيح وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحَسَن وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له؛ فالأول مذموم والثاني ممدوح، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلاً منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب لا كما يفعل الظلمة بعباده، وإنما السيئة فهي فيعلة مما يسوء، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها؛ فهي سيئة له حسنة من الحَكَمِ العَدْل.

وإذا عرفت ذلك فيوسف الصديق كان قد كيد غير مرة.

أولها: أن إخوته كادوا به كيداً حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه.

ثم إن امرأة العزيز كادَتْهُ بما أظهرت أنه راوَدَهَا عن نفسها ثم أودع السجن.

ثم إن النسوة كادوه حتى استعاذ[1] بالله من كيدهن فصرفه عنه.

وقال له يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إخواتِكَ فَيَكِيْدُوْا لك كَيداً﴾ [يوسف: ٥]. وقال الشاهد لامرأة العزيز: ﴿إِنَّهُ مِن كَيدكُنَّ إِنَّ كَيدَكُنَّ عَظيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]. وقال تعالى في حق النسوة: ﴿فَاستَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصرَفَ عَنهُ كَيدَهُنَّ﴾

(١) في نسخة «حتى استجار بالله من كيدهن».

[يوسف: ٣٤]. وقال للرسول: ﴿ارجعْ إلى رَبِّكَ فَاسأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوةِ اللاتي قَطَّعنَ أيديهُنَّ إنَّ رَبِّي بِكيدِهِنَّ عَليمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] فكاد الله له أحسن كيد وألطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره. وكاد له عوض كيد المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه حتى شهدن ببراءته وعفته.

وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه من الصادقين، فهذه عاقبة مَنْ صبر على كيد الكائد له بَغْياً وعُدْواناً.

فصل

وكيد الله تعالى لا يخرج عن نوعين:

أحدهما: وهو الأغلب: أن يفعل تعالى فعلاً خارجاً عن قدرة العبد الذي كاد له؛ فيكون الكيد قدراً زائداً محضاً ليس هو من باب لا يسوغ، كما كاد أعداء الرسل بانتقامه منهم بأنواع العقوبات.

وكذلك كانت قصة يوسف؛ فإن أكثر ما أمكنه أن يفعل أن ألقى الصُّوَاع في رَحْل أخيه، وأن أذَّنَ مؤذن بسرقتهم، فلما أنكروا قال: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتم كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]. أي جزاء السارق أو جزاء السَّرَقِ ﴿قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ في رَحلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُه﴾ [يوسف: ٧٥]. أي جزاؤه نفس السارق، يستعبده المسروق منه إما مطلقاً وإما إلى مدة، وهذه كانت شريعة آل يعقوب.

ثم في إعراب هذا الكلام وجهان؛ أحدهما: أن قوله: ﴿جَزاؤه مَنْ وُّجِدَ في رَحلِهِ﴾ جملة مستقلة قائمة من مبتدأ وخبر، وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ جملة ثانية كذلك مؤكدة للأولى مُقَررة لها، والفرق بين الجملتين أن الأولى إخبار عن استحقاق المسروق لرقبة السارق، والثانية إخبار أن هذا جزاؤه في شرعنا وحكمنا؛ فالأولى إخبار عن المحكوم عليه، والثانية إخبار عن الحكم، وإن كانا متلازمين، وإن أفادت الثانية معنى الحصر فإنه لا جزاء له غيره.

والقول الثاني: أن ﴿جزاؤه﴾ الأول مبتدأ وخبره الجملة الشرطية، والمعنى جزاء السارق أن مَنْ وجد المسروق في رَحْله كان هو الجزاء، كما تقول: جزاء

السرقـة مَنْ سرق قطعت يدُه، وجـزاء الأعمال مَنْ عمل حسنة فبعشر أو سيئة فبواحدة، ونظائره.

قال شيخنا رضي الله عنه: وإنما احتمل الوجهين لأن الْجَزَاء قد يراد به نفس الحكم باستحقاق العقوبة، وقد يراد به نفس فعل العقوبة، وقد يراد به نفس الألم الـواصل إلى المعاقب؛ والمقصود أن إلهام الله لهم هذا الكلام كيدٌ كاده ليوسف خارج عن قدرته. إذ قد كان يمكنهم أن يقولوا: لا جزاء عليه حتى يثبت أنه هو الذي سرَق؛ فإن مجرد وجوده في رَحْله لا يوجب ثبوت السرقة، وقد كان يوسف عادلاً لا يأخذهم بغير حجة.

وقد كان يمكنهم أن يقولوا: يفعل به ما يفعل بالسراق في دينكم، وقد كان في دين ملك مصر ـ كما قاله أهل التفسير ـ أن يضرب السارق ويغرم قيمة المسروق مرتين، ولو قالوا ذلك لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلزم به غيرهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [يوسف: ٧٦]. أي ما كان يمكنه أخذه في دين ملك مصر؛ إذ لم يكن في دينه طريق له إلى أخذه.

وعلى هذا فقوله: ﴿**إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ استثناء منقطع، أي لكن إن شاء الله أخذه بطريق آخر، أو يكون متصلاً على بابه، أي إلا أن يشاء الله ذلك فيهيىء له سبباً يؤخذ به في دين الملك من الأسباب التي كان الرجل يعتقل بها، فإذا كان المراد من الكَيْد فعلاً من الله ـ بأن ييسر لعبده المؤمن المظلوم المتوكل عليه أموراً يحصل بها مقصـودُه من الانتقـام من الظالم ـ كان هذا خارجاً عن الحيل الفقهية؛ فإن كلامنا في الحيل التي يفعلها العبد، لا فيما يفعله الله تعالى.

بل في قصة يوسف تنبيه على بطلان الحيل وأن مَنْ كاد كيداً محرماً؛ فإن الله يكيده ويعامله بنقيض قصده وبمثل عمله، وهذه سنة الله في أرباب الحيل المحرمة أنه لا يبارك لهم فيما نالوه بهذه الحيل، ويهيىء لهم كيداً على يد من يشاء من خلقه يُجْزَوْنَ به من جنس كيدهم وحيلهم.

وفيها تنبيه على أن المؤمن المتوكل على الله إذا كاده الخلقُ؛ فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة.

وفيها دليل على أن وجود المسروق بيد السارق كافٍ في إقامة الحد عليه، بل هو بمنزلة إقراره، وهو أقوى من البينة، وغاية البينة أن يستفاد منها ظن، وأما وجود المسروق بيد السارق فيستفاد منه اليقين، وبهذا جاءت السنة في وجوب الحد بالحَبَلِ، أو الرائحة في الخمر كما اتفق عليه الصحابة.

والاحتجاج بقصة يوسف على هذا؛ أحسن وأوضح من الاحتجاج بها على الحيل. وفيها تنبيه على أن العلم الخفي الذي يتوصل به إلى المقاصد الحسنة مما يرفع الله به درجات العبد؛ لقوله بعد ذلك: ﴿نرفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾

قال زيد بن أسلم وغيره: بالعلم.

وقد أخبر تعالى عن رفعه درجات أهل العلم في ثلاثة مواضع من كتابه:

أحدها: قوله: ﴿وَتلكَ حُجَّتُنَا آتَينَاهَا إِبرَاهِيمَ عَلَى قَومِهِ، نَرفَعُ دَرَجاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]. فأخبر أنه يرفع درجات من يشاء بعلم الحجة.

وقال في قصة يوسف: ﴿كَذلِكَ كِدنَا لِيُوسُفَ، مَا كَانَ لِيَأخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إِلَّا أَن يَّشَاءَ الله، نَرفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [يوسف: ٨٦]. فأخبر أنه يرفع درجات من يشاء بالعلم الخفي الذي يتوصل به صاحبه إلى المقاصد المحمودة.

وقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُم تَفَسَّحُواْ فِي المَجَالِسِ فَافسَحُواْ يَفسَحِ الله لَكُم، وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُوا يَرفَعِ الله الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُم وَالَّذِينَ أُوتُواْ العِلمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فأخبر أنه يرفع درجات أهل العلم والايمان.

النوع الثاني من كيده لعبده المؤمن: هو أن يُلْهمه تعالى أمراً مباحاً أو مستحبًّا أو واجباً يُوَصله به إلى المقصود الحسن؛ فيكون على هذا إلهامه ليوسف أن يفعل ما فعل هو من كيده تعالى أيضاً، وقد دل على ذلك قوله: ﴿نَرفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ﴾ فإن فيها تنبيهاً على أن العلم الدقيق الموصل إلى المقصود الشرعي صفة مدح، كما أن العلم الذي يخصم به المبطلَ صفةُ مدحٍ؛ وعلى هذا فيكون من الكيد ما هو مشروع، لكن لا يجوز أن يراد به الكيد الذي تستحل به المحرمات أو تسقط به الواجبات؛ فإن هذا كيد لله، والله هو الذي يكيد الكائد ومحال أن يشرع الله تعالى أن يكاد دينه.

وأيضاً فإن هذا الكيد لا يتم إلا بفعل يقصد به غير مقصوده الشرعي.

ومحال أن يشرع الله لعبده أو يقصد بفعله ما لم يشرع الله ذلك الفعل له.

فهذا هو الجواب عن احتجاج المتحيلين بقصة يوسف عليه الصلاة والسلام. وقد تبين أنها من أعظم الحجج عليهم وبالله التوفيق.

(١)**وأما** قياس الشبه فلم يَحْكِهِ الله سبحانه إلا عن المبطلين؛ فمنه قوله تعالى إخباراً عن إخوة يوسف أنهم قالوا لما وجَدُوا الصُّوَاع في رَحْل أخيهم: **﴿إنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبلُ﴾** [يوسف:٧٧]. فلم يَجْمعوا بين الأصلِ والفرعِ بعلة ولا دليلها، وإنما ألحقوا أحَدَهما بالآخر من غير دليل جامع سوى مُجَرَّد الشَّبَه الجامع بينه وبين يوسف، فقالوا: هذا مَقِيس على أخيه، بينهما شَبَه من وجوه عديدة، وذاك قد سرق فكذلك هذا، وهذا هو الجمع بالشبه الفارغ، والقياس بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوي، وهو قياس فاسد، والتساوي في قَرَابة الأُخُوَّة ليس بعلة للتساوي في السرقة لو كانت حقًّا، ولا دليل على التساوي فيها؛ فيكون الجمع لنوع شبه خال عن العلة ودليلها.

(٢)**الصبر** كما تقدم نوعان: اختياري، واضطراري.

والاختياري أكمل من الاضطراري؛ فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري. ولذلك كان صبر يوسف الصديق (ﷺ) عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لما ألقوه في الجب وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبد.

ومن الصبر الثاني: إنشاء الله سبحانه له ما أنشأه من العز والرفعة والملك والتمكين في الأرض، وكذلك صبر الخليل (ﷺ) والكليم وصبر نوحٍ وصبر المسيح وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم عليهم الصلاة والسلام كان صبراً على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله. ولهذا سماهم الله أولى العزم وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال: **﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾** [الأحقاف:٣٥].

(٣)**وفي** كتاب الأدب للبخاري: سئل رسول الله (ﷺ) عن الإيمان؟ **فقال: الصبر، والسماحة»** ذكره عن موسى بن إسماعيل. قال: حدثنا سويد قال: حدثنا

(١) ١٤٨ أعلام جـ١. (٢) ٣١ عدة الصابرين. (٣) ١٦٠ مدارج جـ٢.

عبدالله بن عبيد بن عمير، عن أبيه، عن جده ـ فذكره. وهذا من أجمع الكلام. وأعظمه برهاناً، وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها.

فإن النفس يراد منها شيئان: بذل ما أمرت به، وإعطاؤه. فالحامل عليه: السماحة. وترك ما نهيت عنه، والبعد منه. فالحامل عليه: الصبر.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه بالصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: «الصبل الجميل» هو الذي لا شكوى فيه ولا معه. و«الصفح الجميل» هو الذي لا عتاب معه. و«الهجر الجميل» هو الذي لا أذى معه.

وفي أثر إسرائيلي: «أوحى الله إلى نبي من أنبيائه: أنزلت بعبدي بلائي، فدعاني. فماطلته بالإجابة. فشكاني. فقلت: عبدي، كيف أرحمك من شيء به أرحمك؟». وقال ابن عيينة في قوله تعالى: ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا**﴾ [السجدة: ٢٤]. قال: أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء.

والشكوى إلى الله عز وجل لا تنافي الصبر. فإن يعقوب ـ عليه السلام ـ وعد بالصبر الجميل. والنبي إذا وعد لا يخلف، ثم قال: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزنِي إِلَى اللهِ**﴾ [يوسف: ٨٦]. وكذلك أيوب أخبر الله عنه: أنه وجده صابراً مع قوله: ﴿**مَسَّنِيَ الضُّرُّ. وَأَنتَ أَرحَم الرَّاحِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٣]. .

وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلى الله. كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقة وضرورة. فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟ ثم أنشد:

وإذا عَرَتْـك بَلية فاصـبر لها ... صبر الكريم. فإنـه بك أعلم
وإذا شكـوت إلى ابن آدم إنـما ... تشكـو الرحيم إلى الذي لا يرحم

(١)**وقال** حسان بن أبي جبلة: من بث فلم يصبر، ورواه ابن أبي الدنيا مرفوعاً إلى النبي (ﷺ) وإن صح فمعناه إلى المخلوق لا من بث إلى الله.

وقال حسان بن أبي جبلة أيضاً في قوله تعالى: ﴿**فَصَبرٌ جَمِيلٌ**﴾ [يوسف: ٨٣]. قال: لا شكوى فيه ورفعه ابن أبي الدنيا أيضاً. وقال مجاهد: فصبر جميل في غير

(١) ١٠١ عدة الصابرين

جزع. وقال عمرو بن قيس: فصبر جميل قال: الرضاء بالمصيبة والتسليم.

وقال بعض السلف: فصبر جميل لا شكوى فيه.

وقال همام عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَابيضَّت عَينَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]. قال كظم على حزن فلم يقل إلا خيراً.

وقال يحيى بن المختار عن الحسن: الكظيم الصبور. وقال همام عن قتادة في قوله تعالى ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ أي: كميد أي كمد الحزن.

وقال الحسن: ما جرعتين أحب إلى الله؛ من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر، وجرعة غيظ ردها بحلم.

فصل(١)

ويشبه هذا قول يوسف الصديق ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤيَايَ مِن قَبلُ قَد جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَد أَحسَنَ بِي إِذ أَخرَجَنِي مِنَ السِجنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ البَدوِ مِن بَعدِ أَن نَّزَغَ الشَّيطَانُ بَينِي وَبينَ إِخوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فأخبر أنه يلطف لما يريده فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس، واسمه اللطيف يتضمن: علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: ﴿وَلِيَتَلَطَّف وَلاَ يُشعِرَنَّ بِكُم أَحَداً﴾ [الكهف: ١٩].

فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه وإلقائه في السجن وبيعه رقيقاً ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه محناً ومصائب وباطنها نعماً وفتحاً جعلها الله سبباً لسعادته في الدنيا والآخرة.

ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب، ويأمرهم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشهوات هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.

وقد قال (ﷺ): **«لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك إلا للمؤمن»**. فالقضاء كله خير لمن أعطي الشكر والصبر جالبًا ما جلب.

(١) ٣٤ شفاء.

(١)**وقول** يوسف لأبيه وإخوته: ﴿هَـذا تَأْوِيلُ رُؤيَايَ من قَبلُ قد جَعَلَها رَبِّي حَقّاً وَقَد أَحسَنَ بي إذ أَخرَجَني مِنَ السِجنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. ولم يقل: «أخرجني من الجب» حفظاً للأدب مع إخوته، وتَفَتِّيا عليهم: أن لا يخجلهم بما جرى في الجب. وقال: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِنَ البدوِ﴾ ولم يقل: «رفع عنكم جهد الجوع والحاجة» أدباً معهم. وأضاف ما جرى إلى السبب. ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه. فقال: ﴿مِن بَعدِ أَن نزَغَ الشَّيطَانُ بَيني وَبَينَ إخُوَتي﴾ [يوسف: ١٠٠]. فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه. ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم.

(٢)**قوله** تعالى، عن يوسف نبيه، أنه قال: ﴿أَنتَ وَلِيّ في الدُّنيا وَالآخِرةِ تَوَفَّني مُسلِماً وأَلحِقني بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره ـ سبحانه ـ وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء.

. . .(٣) **قال** الله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. فأثبت لهم إيماناً مع الشرك. وهذا الإيمان وإن لم يؤثر في إخراجهم من النار كما أثر إيمان أهل التوحيد، بل كانوا معه خالدين فيها بشركهم وكفرهم، فإن النار إنما سعرها عليهم الشرك والظلم، فلا يمتنع في الرحمة والحكمة والعدل أن يطفئها ويذهبها بعد أخذ الحق منهم، فيجتمع ضعف أسباب تسعيرها وقوة أسباب زوالها فهذا غير ممتنع في الحكمة الإلهية. ولم يخبر به الرسول بامتناعه وأنه لا يكون في موضع واحد، ولا دل على ذلك نقل ولا عقل. بل الذي دل عليه النقل والإجماع أنهم خالدون فيها أبداً، وأنهم ليسوا بخارجين منها، ولا يموتون فيها؛ ولا يحيون. وهذا متفق عليه بين المسلمين. وإنما الشأن في أمر آخر. . .

(٤) **وقال**: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. أثبت لهم الإيمان به، مع مقارنة الشرك. فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم

---

(١) ٣٨٠ مدارج جـ٢.　　(٢) ٢٠١ فوائد.
(٣) ٣٦٦ مختصر الصواعق جـ١.　　(٤) ٢٨٢ مدارج جـ١.

ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله. وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر. فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان: شرك خفي. وشرك جلي. فالخفي قد يغفر. وأما الجلي فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه. فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار. ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة. لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: مبغوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة. فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة. ولا يظلم مثقال ذرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلعبيدِ﴾. [فصلت:٤٦](1).

(2)**ولما** كانت الدعوة إلى الله والتبليغ عن رسوله شِعَار حزبه المُفْلِحِين، وأتباعه من العالمين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ المُشرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]. وكان التبليغ عنه من عين تبليغ ألفاظه وما جاء به، وتبليغ معانيه كان العلماءُ من أمته منحصرين في قسمين: أحدهما: حفاظ الحديث، وجهابذته، والقادة الذين هم أئمة الأنام وزوامل الإسلام، الذين حفظوا على الأئمة مَعَاقد الدين ومَعَاقله، وحَمَوْا من التغيير والتكدير مواردَه وَمناهله، حتى ورَد مَنْ سَبَقَتْ له من الله الحسنى تلك المناهِلَ صافية من الأدناس لم تَشُبْها الآراء تغييراً، ووردوا فيها عيناً يَشْرَبُ بها عباد الله يفجرونها تفجيراً.

(3)**ولما** كان التبليغُ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ، والصدقَ فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفُتْيَا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق؛ فيكون عالماً بما يبلغ، صادقاً فيه، ويكون مع ذلك حَسَنَ الطريقةِ، مرضِيَّ السيرة، عدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله.

وإذا كان مَنْصِبُ التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا يُنْكَر فضله، ولا يجهل

---

(1) تقدم في سورة المائدة بحث حول هذه الآية ص٨٩ في قوله: «فصل: هاهنا أصل آخر...».

(2) أعلام جـ١ (3) ١٠ أعلام جـ١

قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات؟ . . .

(١)**فحقيق** بمن أقِيمَ في هذا المنصب أن يُعِدَّ له عُدَّتَه، وأن يتأهب له أهْبَتَه، وأن يعلم قَدْرَ المقام الذي أقيم فيه، ولا يكون في صدره حرج من قول الحق والصدع به؛ فإن الله ناصره وهاديه، وكيف وهو المنصب الذي تولاه بنفسه رب الأرباب فقال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُم فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٧]. وكفى بما تولاه الله تعالى بنفسه شرفاً وجلالة؛ إذ يقول في كتابه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيْكُمْ فِي الكَلاَلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]. وليعلم المفتي عمن ينوب في فَتْوَاه، ولْيُوقِنْ أنه مسئول غداً ومَوْقُوف بين يدي الله.

فصل

وأول من قام بهذا المنصب الشريف سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، عبدُ الله ورسوله، وأمينه على وَحْيه، وسفيره بينه وبين عباده؛ فكان يفتي عن الله بوحيه المبين، وكان كما قال له أحكم الحاكمين: ﴿قُلْ مَا أَسأَلُكُم عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ، وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]. فكانت فتاويه (ﷺ) جوامعَ الأحكام، ومشتملة على فصل الخطاب، وهي في وجوب اتِّباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب، وليس لأحدٍ من المسلمين العُدُولُ عنها ما وَجَدَ إليها سبيلاً، وقد أمر الله عباده بالرد إليها حيث يقول: ﴿فإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيءٍ فَرُدُّوه إِلَى اللهِ والرَّسول إن كُنتم تُؤمنونِ بِالله واليومِ الآخِرِ، ذَلكِ خيرٌ وأحْسَنُ تأْويلاً﴾ [النساء: ٥٩].

(٢)**قال** تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

قال الفراء وجماعة: ومن اتبعني معطوف على الضمير في أدعو يعني: ومن اتبعني يدعو إلى أمته كما أدعو. وهذا قول الكلبي قال: حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن والموعظة. ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة.

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿إلى الله﴾، ثم يبتدىء بقوله: ﴿على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾، فيكون الكلام على قوله جملتين، أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية بأنه وأتباعه على بصيرة. والقولان متلازمان

(١) ١١ اعلام جـ١.　(٢) ١٥٤ مفتاح جـ١.

فلا يكون الرجل من أتباعه حقًّا حتى يدعو إلى ما دعا إليه، وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة.

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها؛ فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه؛ بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء.

(١) **فهؤلاء** خلفاء الرسل حقًّا وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علماً وعملاً وهداية وإرشاداً وصبراً وجهاداً، وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه.

قال الله تعالى: **﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً﴾** [النساء: ٦٩]. فذكر مراتب السعداء وهي أربعة وبدأ بأعلاهم مرتبة، ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب، وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

(٢) **وقد** أخبر الله تعالى عن رسوله (ﷺ) أنه قال: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾** وأخبر تعالى عنه أنه سراج منير، وأنه هاد إلى صراط مستقيم، وبأن من اتبع النور الذي أنزل معه هو المفلح لا غيره، وان من لم يحكمه في كل ما تنازع فيه المتنازعون وينقادَ لحكمه، ولا يكون عنده حرج منه فليس بمؤمن. فكيف يجوز على من أخبر الله تعالى عنه بما ذكر أن يكون قد أخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله بما الهدى في خلاف ظاهره، والحق في إخراجه عن حقائقه وحمله على وحشي اللغات ومستكرهات التأويلات...

(٣) **والدعاء** إلى أحكام الله دعاء إلى الله؛ لأنه دعاء إلى طاعته فيما أمر ونهى، وإذاً فالصحابة رضوان الله عليهم قد اتبعوا الرسول (ﷺ) فيجب اتباعهم إذا دعوا إلى الله.

(٤) **قال** تعالى: **﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم**

---

(١) ٧٨ مفتاح جـ١.　(٢) ٦ مختصر الصواعق جـ١.

(٣) ١٣١ أعلام جـ٤.　(٤) ٤٠٢ زاد المعاد جـ٤.

نصرنا﴾ [يوسف: ١١٠]. فلما ذكر أن الرسل هم الذين استيأسوا كان فيه دليل على أنهم قد دخل قلوبهم يأس من غير يقين استيقنوه، لأن اليقين في ذلك، إنما يأتيهم من عند الله كما قال في قصة نوح: ﴿وأُوحي إلى نُوح أَنَّه لن يُؤمِنَ مِن قومِكَ إلَّا مَن قد آمنَ، فلا تَبتئس بِمَا كَانُوا يَفعَلُونَ﴾. [هود: ٣٦]. وقال الله تعالى في قصة إخوة يوسف: ﴿فَلَمَّا استيئَسُوا مِنهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾. [يوسف: ٨٠]. فدل الظاهر على أن يأسهم ليس بيقين.

وقد حدثنا ابن أبي أويس: حدثنا مالك، عن هشام بن عروة عن أبيه، أن عمر بن الخطاب كان يقول في خطبته يعلمهم: «أيها الناس، إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإن المرء إذا يئس من شيء استغنى عنه» فجعل عمر اليأس بإزاء الطمع. وسمعت أحمد بن المعدل ينشد شعراً لرجل من القدماء ويصف ناقة:

صفراء من تِلْدِ بني العباس　　ضُرتها كالظبي في الكناس
تَدرُّ أم تسمع بالإيساس　　فالنفس بين طمع وياس

فجعل الطمع بإزاء اليأس.

حدثنا سليمان بن حرب: حدثنا جرير بن حازم عن الأعمش، عن سلام، عن شرحبيل، قال: سمع حية بن خالد وسواء بن خالد: أنهما أتيا النبي (ﷺ) فقالا: علمنا شيئاً، ثم قال: «لا تيأسا من الخير ما تهزهزت رءوسكما، فإن كان عبد يولد أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ويعطيه».

وحدثنا علي بن عبدالله: حدثنا ابن عيينة قال: قال هشام بن عبد الملك لأبي حازم: «يا أبا حازم، ما مالك؟ قال: خير مالي ثقتي بالله، ويأسي مما في أيدي الناس» قال: وهذا أكثر من أن يحصى، انتهى.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة يوسف والحمد لله رب العالمين

سورة الرعد

ترتيبها ١٣ — آياتها ٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**ثم** تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه ونجومه وبروجه، وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام، وما في طي ذلـك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد، وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات؟ وهل يخفى على ذي بصيرة أن هذا إبداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم؟ ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لاشك عنده في الله، وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الإقرار به فقالت لهم: ﴿**أفي الله شَكٌّ فاطِرِ السَّمَواتِ والأرْضِ**﴾ [إبراهيم: ١٠١]. فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده، فما ينكره إلا مكابر بلسانه. وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه قال تعالى: ﴿**الله الَّذِي رَفَعَ السَّمواتِ بِغير عَمدٍ تَرونها ثُمَّ استوى على العرْش وَسَخر الشَّمْسَ وَالقَمر كُلٌّ يجري لأجَل مسَمًّى يُدَبِّر الأمر يُفصِّل الآيات لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُم تُوقنون وهو الَّذِي مَدَّ الأرْضَ وَجَعَل فِيها رَواسيَ وأنْهاراً وَمِن كُلِّ الثَّمرات جَعل فِيها زَوْجَيْنِ اثنين يُغشِي اللَّيْل النَّهار إنَّ في ذلك لآياتٍ لقَومٍ يَتفكَّرون وفي الأرْضِ قِطَعٌ متَجَاورَاتٌ**﴾ [الرعد: ٢-٤]. وقال تعالى ﴿**إنَّ فِي السَّمواتِ والأرْضِ لآيات للمُؤمِنين وفِي خلْقِكُم وَمَا يَبثُّ من دَابَّةٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**وآياته يُؤمِنون**﴾ [الجاثية: ٣-٦]. وقال تعالى: ﴿**خَلق السَّمواتِ بِغير عمد تَرونَها وألْقَى فِي الأرضِ رَوَاسِي أن تَمِيدَ بكم وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**فِي ضَلَال مُبِين**﴾ [لقمان: ١٠-١١]

(٢)**قال** تعالى: ﴿**وَفِي الأرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاورَات وجنات مِن أعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخيـل صِنـوان وَغـير صِنوان يُسْقَى بماء واحدٍ ونُفَضِّل بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الأكُلِ إنَّ فِي ذَلكَ لآيات لِقَومٍ يَعْقِلُون**﴾ [الرعد: ٤] ثم إنه سبحانه يصرف ما

---

(١) ٢١٢ مفتاح جـ ١. (٢) ١٤٤ طريق الهجرتين.

أخرجه من هذا الماء ويقلبه ويحيل بعضه إلى بعض وينقل بعضه بالمخالطة والمجاورة عن طبيعته إلى طبيعة أخرى. وهذا كما خلق كل دآبة من ماء ثم خالف بين صورها وقواها ومنافعها وأوصافها وما يصلح لها، وأمشى بعضاً عن بطنه وبعضاً على رجلين وبعضاً على أربع، حكمة بالغة وقدرة باهرة. وكذلك سبحانه يقلب الليل والنهار ويقلب ما يوجد فيهما ويقلب أحوال العالم كما يشاء، ويسلك بذلك مسلك الحكمة البالغة التي بها يتم مراده ويظهر ملكه: **﴿ألَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تَبارَكَ الله رَبُّ العَالَمِين﴾** [الأعراف: ٥٤].

(١)**الثالث** والعشرون إن هذه الجمادات والحيوانات المختلفة الأشكال والمقادير والصفات والمنافع والقوى والأغذية والنباتات التي هي كذلك، فيها من الحكم والمنافع ماقد أكثرت الأمم في وصفه وتجربته على مر الدهور، ومع ذلك فلم يصلوا منه إلا إلى أيسر شيء وأقله، بل لو اتفق جميع الأمم لم يحيطوا علمًا بجميع ما أودع واحدًا من ذلك النوع من الحكم والمصالح، هذا إلى ما في ضمن ذلك من الاعتبار والدلالة الظاهرة على وجود الخالق ومشيئته واختياره وعلمه وقدرته وحكمته، فإن المادة الواحدة لا تحتمل بنفسها هذه الصور الغريبة والأشكال المتنوعة والمنافع والصفات، ولو تركبت مع غيرها فليس حدوث هذه الأنواع والصور بنفس التركيب أيضاً، ولا هو مقتض له. فحصول هذا التنوع والتفاوت والاختلاف في الحيوان والنبات من أعظم آيات الرب تعالى ودلائل ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه وأنه فعال لما يريد اختياراً ومشيئة، فتنويع مخلوقاته وحدوثها شيئًا بعد شيء من أظهر الدلالات. وتأمل كيف أرشد القرآن إلى ذلك في غير موضع كقوله تعالى: **﴿وفي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتجاوراتٌ وَجَنَّات مِن أَعْناب وَزَرْع وَنَخيل صِنوان وغير صِنوانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ونُفَضِّل بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأكل إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾** [الرعد: ٤].

وقوله تعالى: **﴿إنَّ فِي خَلْقِ السَّموات والأَرْضِ واختِلَافِ اللَّيْل والنَّهار والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السَّماءِ من ماءٍ فأَحْيَا**

---

(١) ٢٣١ شفاء.

به الأرْض بَعد مَوتِها وَبثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَآبَّة وتصريفِ الرِّياحِ والسَّحاب المُسخَّر بَيْنَ السَّماء والأرضِ لآياتٍ لِقوم يعْقِلُون﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله: ﴿وَمِن آياته خَلق السَّموات والأرض واختلاف ألسِنَتِكُم وألْوَانِكُم إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ للعالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أنْزَل مِنَ السَّماءِ مَاء لَكُم مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيه تُسيمُونَ يُنْبت لَكُم به الزَّرْع وَالزَّيْتُون والنَّخيل والأعنابَ وَمِن كُلِّ الثَّمرات إنَّ فِي ذَلِك لآيَة لِقوم يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠-١١].

(١)**ومن** آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس، والصفات، والمنافع مع أنها قطع متجاورات، متلاصقة. فهذه سهلة، وهذه حزنة، تجاورها وتلاصقها. وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت. وهذه تربة، وتلاصقها رمال. وهذه صلبة، ويلاصقها ويليها رخوة. وهذه سوداء، ويليها أرض بيضاء. وهذه حصى كلها، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر. وهذه تصلح لنبات كذا وكذا وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره. وهذه سبخة مالحة. وهذه بضدها. وهذه ليس فيها جبل، ولا معلم. وهذه مشجرة بالجبال. وهذه لا تصلح إلا على المطر وهذه لا ينفعها المطر، بل لا تصلح إلا على سقى الأنهار، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

فلو سألتها من نوعها هذا التنوع؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به؟ ومن ألقى عليها رواسيها، وفتح فيها السبل، وأخرج منها الماء والمرعى؟ ومن أمسكها عن الزوال؟ ومن بارك فيها، وقدر فيها أقواتها، وأنشأ منها حيوانها ونباتها؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها؟ ومن هيأها مسكناً ومستقراً للأنام؟ ومن يبدأ الخلق منها، ثم يعيده إليها، ثم يخرجه منها؟ ومن جعلها ذلولاً غير مستصعبة ولا ممتنعة؟ ومن وطأ مناكبها، وذلل مسالكها، ووسع مخارجها، وشق أنهارها، وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها؟ ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات؟ ومن بسطها، وفرشها ومهدها وذللها، وطحاها، ودحاها، وجعل ما عليها زينة لها؟ ومن الذي يمسكها أن

---

(١) ١٨٦ التبيان.

تتحرك فتتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور؟ ومن الـذي أنشأ منها النوع الإنساني الذي هو أبدع المخلوقات، وأحسن المصنـوعات، بل أنشأ منها آدم، ونوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمداً صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .وأنشأ منها أولياءه، وأحباءه وعباده الصالحين؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق، والمعادن، والحيوان؟ ومن جعـل بينهـا وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر؛ فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك. ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة ـ كما نشاهده في الصيف ـ فاحـترقت أبـدان الحيوان والنبـات. وبـالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم؟ ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق، والعيون؟ ومن الذي جعل باطنها بيوتاً للأموات وظاهرها بيوتاً للأحياء؟ ومن الذي يحييها بعـد موتهـا فينـزل عليهـا المـاء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس، فتـأخـذ في الحبـل، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج .

فسبحان من جعل السماء كالأب، والأرض كالأم، والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء، أثرت نداوة الطين فيه، وأعانتها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت، وانفلقت عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة. وساق من تحتها وهو العرق. ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه. ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافا مؤلفة، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبـة واحـدة لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية. وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم .

فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق، وصفات كماله وأفعاله، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه، بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشـور. فتـأمـل اجتـماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها. وامتزاجها، وحاجة بعضها إلى بعض، وانفعال بعضها عن بعض، وتأثيره فيه وتأثره به، بحيث لا

يمكنه إلا الاتباع، من التأثر والانفعال، ولا يستقل الآخر بالتأثير، ولا يستغنى عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة على أنها مخلوقة، مصنوعة، مربوبة، مدبرة، حادثة بعد عدمها، فقيرة إلى موجد غنى عنها، مؤثر غير متأثر، قديم غير حادث، تنقاد المخلوقات كلها لقدرته، وتجيب داعي مشيئته، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته، وتحذرهم من بأسه ونقمته، وتحثهم على المبادرة إلى رضوانه وجنته.

فانظر إلى الماء والأرض، كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح، فحركت الماء، وساقته إلى أن قذفته في عمق الأرض، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية، وحصل بها الإنبات. ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته. فحرارة الربيع للإخراج. وحرارة الصيف للإنضاج. هذا وإن الأم واحدة، والأب واحد، واللقاح واحد والأولاد في غاية التباين والتنوع. كما قال تعالى: **﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** [الرعد: ٤].

(١)**قال** تعالى: **﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** [الرعد: ٥]. وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: **﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾**. فعجب قولهم كيف ينكرون هذا. وقد خُلقوا من تراب، ولم يكونوا شيئاً.

والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. فإنكارهم للبعث، وقولهم: **﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾** أعجب.

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان. وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد لإلهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه.

(١) ١٢٦ مدارج جـ ١.

(١) **التعجب** كما يدل على محبة الله للفعل نحو: «**عجب ربك من شاب ليست له صبوة**». «**ويعجب ربك من رجل ثار من فراشه ووطائه إلى الصلاة**». ونحو ذلك فقد يدل على بعض الفعل نحو قوله: ﴿**وَإِنْ تَعجب فَعَجَب قولُهم**﴾ [الرعد: ٥]. وقوله: ﴿**بَل عَجِبْت وَيَسْخَرُونَ**﴾ [الصافات: ١٢] ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُون بالله**﴾ [البقرة: ٢٨]. وقوله: ﴿**وَكَيْفَ تَكفرونَ وَأَنْتُم تُتْلَى عَلَيْكُم آيات الله**﴾ [آل عمران: ١٠١]. وقد يدل على امتناع الحكم وعدم حسنه نحو: ﴿**كَيْفَ يَكون لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ**﴾ [التوبة: ٧]. وقد يدل على حسن المنع منه وأنه لا يليق به فعله نحو: ﴿**كَيْفَ يَهدِي الله قَومًا كَفرُوا بَعْد إيمَانِهِمْ**﴾ [آل عمران: ٨٦].

(٢) **قال** الله تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّه كُرهًا وَوَضَعته كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً**﴾ [الأحقاف: ١٥]. فأخبر تعالى أن مدة الحمل والفطام ثلاثون شهراً، وأخبر في آية البقرة أن مدة تمام الرضاع ﴿**حولين كاملين**﴾، فعلم أن الباقي يصلح مدة للحمل وهو ستة أشهر، فاتفق الفقهاء كلهم على أن المرأة لا تلد لدون ستة أشهر إلا أن يكون سقطاً، وهذا أمر تلقاه الفقهاء عن الصحابة رضى الله عنهم.

فذكر البيهقي وغيره عن حرب بن أبي الأسود الرملي: أن عمر أتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فهمَّ عمر برجمها، فبلغ ذلك عليًّا رضي الله عنه، فقال ليس عليها رجم. فبلغ ذلك عمر، فأرسل إليه فسأله؟ فقال: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرضِعنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَراد أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَة**﴾ [البقرة: ٢٣٣]. وقال: ﴿**وَحَمْلُه وفِصَالُه ثَلَاثُونَ شَهْراً**﴾ [الأحقاف: ١٥]. فستة أشهر حمله وحولين تمام الرضاعة لا حدّ عليها فخلى عنها.

وفي موطأ مالك؛ أنه بلغه أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أتي بامرأة قد ولدت في ستة أشهر، فأمر بها أن ترجم. فقال علي: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: ﴿**وَحَمْلُه وَفِصَالُه ثَلَاثُونَ شَهْراً**﴾ وقال: ﴿**وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ**﴾ [لقمان: ١٤]. فأمر بها عثمان أن ترد فوجدت قد رجمت.

---

(١) ٨ بدائع جـ ٤. (٢) ١٥٨ تحفة المودود.

وذكر داود بن أبي هند: عن عكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لستة أشهر كفاها من الرضاع أربعة وعشرون شهراً، كما قال تعالى: ﴿**وَحَمْلُه وفِصَالُه ثَلاَثُون شَهْراً**﴾ انتهى كلامه.

وقال تعالى: ﴿**يَعْلم مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأرحَام وَمَا تَزْدَادُ**﴾ [الرعد: ٨]. قال ابن عباس: ما تغيض الأرحام: ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها، ووافقه على هذا أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير، وقال مجاهد أيضاً: إذا حاضت المرأة على ولدها كان ذلك نقصاناً من الولد. وما تزداد، قال: إذا زادت على تسعة أشهر كان ذلك تماماً لما نقص من ولدها، وقال أيضاً الغيض: ما رأت الحامل من الدم في حملها وهو نقصان من الولد، والزيادة ما زاد على التسعة أشهر وهو تمام النقصان.

وقال الحسن: ما تغيض الأرحام: ما كان من سقط، وما تزداد: المرأة تلد لعشرة أشهر، وقال عكرمة: تغيض الأرحام: الحيض بعد الحمل، فكل يوم رأت فيه الدم حاملاً ازداد به في الأيام ظاهراً. فما حاضت يوماً إلا ازدادت في الحمل يوماً.

وقال قتادة: الغيض: السقط، وما تزداد، فوق التسعة أشهر، وقال سعيد بن جبير: إذا رأت المرأة الدم على الحمل فهو الغيض للولد فهو نقصان في غذاء الولد وزيادة في الحمل، تغيض وتزداد فعلان متعديان مفعولهما محذوف وهو عائد على ما الموصولة. والغيض: النقصان. ومنه وغيض الماء، وضده: الزيادة.

والتحقيق في معنى الآية أنه يعلم مدة الحمل وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو أنثى. وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله، كما في الصحيح عنه، عليه السلام: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله**:

١ ـ لا يعلم متى مجيء الساعة إلا الله. ٢ ـ ولا يعلم ما في غد إلا الله.

٣ ـ ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله. ٤ ـ ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله.

٥ ـ ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله».

فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه وما يزيد من بدنه وما ينقص، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه كالسقط والتام ورؤية الدم وانقطاعه، والمقصود ذكر مدة إقامة الحمل في البطن وما يتصل بها من زيادة ونقصان ا. هـ. (١)

(٢)**(قاعدة):** الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرَّمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره. وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب.

السبب الثاني: الحياء من الله سبحانه، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه، وأنه بمرأى منه ومسمع ـ وكان حييًا ـ استحيى من ربه أن يتعرض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تزيل النعم ولابد.

فما أذنب عبد ذنبًا إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة نعمة حتى تسلب النعم كلها، قال الله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾** [الرعد: ١١]. وأعظم النعم الإيمان، وذنب الزنى والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها. وقال بعض السلف: أذنبت ذنباً فحرمت قيام الليل سنة. وقال آخر: أذنبت ذنباً فحرمت فهم القرآن. وفي مثل هذا قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

وبالجملة فإن المعاصي نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب، عياذاً بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته.

(٣)**﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾** [الرعد: ١١].

يعقب بعضهم بعضاً، كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر، يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه ويقولون: إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد، ثم أيده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه.

---

(١) سيأتي في سورة الأحقاف زيادة بحث حول هذا إن شاء الله (ج).

(٢) ٢٧٠ طريق الهجرتين. (٣) ١٢٩ الجواب الكافي.

(١)**ومن** عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة. وقد قال تعالى: **﴿وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾** [الشورى: ٣٠]. وقال تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾** [الأنفال: ٥٣]. فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غير غير عليه، جزاء وفاقًا وما ربك بظلام للعبيد. فإن غير المعصية بالطاعة، غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز قال تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾**.

(٢)فصل

ومن عقوباتها أنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة؛ فتزيل الحاصل وتمنع الواصل. فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سبباً وآفة، سببًا يجلبه وآفة تبطله. فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفاتها المانعة منها معصيته. فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها. ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره وسماعًا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصية الله كأنه مستثنى من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم، وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه وواصل إلى الخلق لا إليه، فأي جهل أبلغ من هذا؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلي الكبير.

(٣)**والمقصود** أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما، هي شر وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة وهي بمنزلة طعام لذيذ شهي لكنه مسموم، إذا تناوله الآكل لذ لأكله وطاب له مساغه وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب

---

(١) ٩٧ الجواب الكافي. (٢) ١٤٣ الجواب الكافي. (٣) ٢٠٥ بدائع جـ ٢.

ولابد حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده. وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته؟ فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغير مَا بِقَوم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهم وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَومٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَه وَمَا لَهُم مِنْ دُونِه مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم؛ وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب كما قيل.

إذا كنت في نعمة فارعها　　　　فإن المعاصي تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس. ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له. والمقصود أن هذه الأسباب شرور ولابد. وأما كون مسبباتها شروراً فلأنها آلام نفسية وبدنية فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات. ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]. ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ الله﴾ [الزمر: ٥٦].

وقد فسَّر السلف «دعوة الحق» بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق. ومرادهم: هذا المعنى.

فقال علي رضي الله عنه: دعوة الحق: التوحيد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: الدعاء بالإخلاص. والدعاء الخالص لا

يكون إلا لله. ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

(١) **قال** تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ**﴾ [الرعد: ١٦]. فاحتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلـهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار. والقهر التام يستلزم **الوحدة** فإن الشركة تنافي تمام القهر.

(٢) **وقد** ذكر الله المثلين المائي والناريَّ في سورة الرعد، ولكن في حق المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ**﴾ [الرعد: ١٧]. شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأَوْدِيَة، فقلب كبير يَسَع علماً عظيماً كوادٍ كبير يسع ماءاً كثيراً، وقلبٌ صغير إنما يَسَعُ بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقَدرها، واحتملت قلوبٌ من الهُدى والعلم بقَدرها؛ وكما أن السيل إذا خالط الأرضَ ومَرَّ عليها احتمل غُثَاء وَزَبداً فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات لِيَقْلَعَها ويذهبها كما يثير الدواء وقْت شربه من البدن أخْلاطه فيتكدَّر بها شاربُه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها؛ وهكذا يضربُ الله الحقَّ والباطل، ثم ذكر المثل الناري فقال: ﴿**وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ**﴾ وهو الخَبَثُ الذي يخرج عند سَبْك الذهب والفضَّة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيرمي ويطرح ويذهب جُفَاء؛ فكذلك الشهواتُ والشبهات يرميها قلبُ المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغُثَاء والخَبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم،

(١) ٩٦ مختصر الصواعق جـ ١. (٢) ١٥٢ أعلام جـ١.

كذلك يستقر في قرار القلب وجذْرِه الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره؛ ومَن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبَّرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما، والله الموفق.

[(١)] **قال تعالى: ﴿أَنْزَل مِنَ السَّماء مَاءً فسَالَت أودِيَة بِقَدرِهَا فاحتَمَل السَّيل زَبَداً رَابياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عليْهِ فِي النَّارِ ابتِغَاءَ حِلْيَة أو مَتَاع زَبَدٌ مِثْله كَذلِك يضْرِب الله الحَقَّ والبَاطِلَ﴾** [الرعد: ١٧].

شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم، ثم شبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علماً كثيراً كواد عظيم يسع ماء كثيراً وقلب صغير إنما يسع علماً قليلاً كواد صغير إنما يسع ماء قليلاً. فقال: **﴿فَسَالَت أودِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتَمَل السَّيلُ زَبَدًا رَابِياً﴾** هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفو على وجه القلب، كما يستخرج السيل من الوادي زبداً يعلو فوق الماء.

وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطفت فلا تستقر فيه بل تجفى وترمى فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق، كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاء، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون. ثم ضرب سبحانه لذلك مثلاً آخر. فقال: **﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّار ابتِغاء حِلْيَة أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه﴾** يعني أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذي تلقيه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فإنه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده.

وضرب سبحانه مثلاً بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة، ومثلاً بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق، فآيات القرآن تحيي القلوب كما تحيا الأرض بالماء، وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها،

(١) ٦١ مفتاح جـ١.

وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه. فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم. قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(١)**فضرب** لوحيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة، وبالنار لما يجعل بها من الإضاءة والإشراق، وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها، فوادٍ كبير يسع ماءً كثيراً، ووادٍ صغير يسع ماء قليلاً. كذلك القلوب مُشَبَّهَة بالأودية، فقلب كبير يسع علماً كثيراً وقلب صغير إنما يسع بقدره. وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات، بسبب مخالطة الوحي لها، وإمازته لما فيها من ذلك، بما يحتمله السيل من الزبد. وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها، بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له، وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع. وكذلك في المثل الذي بعده: يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صَفْوه.

وأما ضرب هذين المثلين للعباد، فكما قال في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهم كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوْقَدَ ناراً فلَمَّا أضاءتْ مَا حولَهُ ذَهَبَ الله بنُورِهِمْ وَتَرَكَهُم في ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ فهذا المثل الناري. ثم قال: ﴿أو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْق يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُم فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩] فهذا المثل المائي.

وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم في كتاب المعالم وغيره.(٢)

والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين. قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]. فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾.

(٣)**الوجه** الثاني عشر: أنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين

---

(١) ٢٢ إغاثة جـ١.

(٢) ٤٩ مفتاح جـ١.

لا يبصرون فقال: ﴿أفَمَن يَعلم أنَّما أنْزِل إلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]. فما ثم إلا عالم أو أعمى. وقد وصف أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي في غير موضع من كتابه.

(١) **قوله** تعالى: ﴿أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كَمَنْ هُوَ أعْمَى﴾ قسم الناس قسمين: أحدهما: العلماء بأن ما أنزل إليه من ربه هو الحق. والثاني: العمي فدل على أنه لا واسطة بينهما.

(٢) **الصبر** باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام:

صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها.

وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها.

وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبدالقادر في (فتوح الغيب): «لابد للعبد من أمر يفعله، ونهى يجتنبه، وقدر يصبر عليه».

وهذا الكلام يتعلق بطرفين: طرف من جهة الرب تعالى، وطرف من جهة العبد.

فأما الذي من جهة الرب: فهو أن الله تعالى له على عبده حكمان: حكم شرعي ديني، وحكم كوني قدري. فالشرعي متعلق بأمره والكوني متعلق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر.

وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب، فإن المطلوب إن كان محبوباً له فالمطلوب فعله أما واجباً وأما استحباباً، ولا يتم ذلك إلا بالصبر. وإن كان مبغوضاً له فالمطلوب تركه إما تحريماً وإما كراهة، وذلك أيضاً موقوف على الصبر. فهذا حكمه الديني الشرعي. وأما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها. ففرضه الصبر عليها. وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء وهما وجهان في مذهب أحمد: أصحهما أنه مستحب. فرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث: فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور.

وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث مادام مكلفاً، ولا تسقط عنه هذه الثلاث حتى يسقط عنه التكليف. فقيام عبودية الأمر والنهي

(١) ٨٨ مفتاح جـ ١. (٢) ٢٥ عدة الصابرين.

والقدر على ساق الصبر لا تستوي إلا عليه كما لا تستوي السنبلة إلا على ساقها.

فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر، والشيخ دائماً يحوم على هذه الأصول الثلاثة، كقوله: يا بني افعل المأمور واجتنب المحظور واصبر على المقدور. وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله: **﴿يا بني أَقِمِ الصَّلَاةَ وأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ واصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾** [لقمان: ١٧]. فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر. أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي. وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله: **﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ والَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُم وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ. والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُم عُقْبَى الدَّارِ﴾** [الرعد: ١٩-٢٢].

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف؛ فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه، وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه وبينهم وبين خلقه. ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل. ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله وحق خلقه، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له والقيام: بطاعته والإنابة إليه والتوكل عليه وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه والاستكانة له والخضوع والذلة له والاعتراف له بنعمته وشكره عليها والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها. فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد. وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل.

وأمر أن يوصل ما بيننا وبين رسوله: بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء والرضا لحكمه والتسليم له وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين، صلوات الله وسلامه عليه، فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله.

وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين: بالبر والصلة، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام وذلك مما أمر به أن يوصل. وأمر أن نصل ما بيننا وبين

الزوجات: بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف.

وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء: بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسي ولا نكلفهم فوق طاقتهم.

وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد: بمراعاة حقه وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا.

وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر.

وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس: بأن نأتي إليهم ما نحب أن يأتوه إلينا.

وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم كما يستحي الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه. فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل. ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة، وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب. ولا يمكن أحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوصل.

ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو أخية ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه وهو الصبر فقال: **﴿والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِم﴾** [الرعد: ٢٢]. فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه.

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهو الصلاة فقال: **﴿وأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾**. وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة فقال تعالى: **﴿وَاسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلَى الخَاشِعِين﴾** [البقرة: ٤٥]. وقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابرِينَ﴾** [البقرة: ١٥٣].

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سرًّا وعلانية؛ فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم. ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا: أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يدرءون بالحسنة السيئة فيحسنون إلى من يسيء إليهم فقال: **﴿ويدْرَءونَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئة﴾**. وقد فسَّر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده كما قال تعالى: **﴿إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾** [هود: ١١٤]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«اتبع السيئة الحسنة تمحها»** والتحقيق أن الآية تعم النوعين. والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات

الإسلام والإيمان كلها واشتملت على فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور. وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿**بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا**﴾[آل عمران: ١٢٥] وقوله: ﴿**إِنَّه مَنْ يَتَّقِ ويَصْبِر**﴾ [يوسف: ٩٠]. وقوله: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ورَابِطُوا واتَّقوا الله لَعَلكم تُفْلِحون**﴾ [آل عمران: ٢٠٠].
فكل موضع قرن فيه التقوى فيه بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة: فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور.

(١)**ويذكر** عن علي رضي الله عنه أنه قال: «الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها؛ كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله؛ كتب الله له ستمائة درجة، ومن صبر عن المعصية خوفاً من الله ورجاء ما عنده؛ كتب الله له تسعمائة درجة». وقال ميمون بن مهران: «الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية».

وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُم**﴾ ثم قال: «صبروا على ما أمروا به وصبروا عما نهو عنه». وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلاً في قسم المأمور به والله أعلم.

(٢)**وروى** شعبة بن قيس عن حبيب عن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، : «**أول من يدعي إلى الجنة يوم القيامة الحامدون الذين يحمدون الله في السراء والضراء**». وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم: حدثنا هشام الدستوائي، عن يحيى بن أبي كثير، عن عامر العقيلي، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، : «**عرض علي أول ثلاثة من أمتي يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال، وأول ثلاثة يدخلون النار: فأمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله من ماله، وفقير فخور**».

وروى الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في معجمه واللفظ له من حديث

(١) ٧٤ عدة الصابرين.	(٢) ٨٤ حادي الأرواح.

أبي عشانة المعافري أنه سمع عبدالله بن عمر يقول: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، : «**هل تدرون أول من يدخل الجنة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، تقول الملائكة: ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سمواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا. فيقول: عبادي لا يشركون بي شيئاً تتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لم يستطع لها قضاء فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**».

(١)**ومن** شهادته أيضاً: ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم، واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه. فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب، والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته. بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك. وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر ـ التي فطر عليها الحيوان ـ الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذى. كالأبوال والأنتان. فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة به، والسكون إليه ومحبته. وفطرها على بغض الكذب والباطل، والنفور عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه. ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه. ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره. ولهذا ندب الله عز وجل عباده إلى تدبر القرآن. فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علماً ضروريًا ويقيناً جازماً: أنه حق وصدق. بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق. وأن الذي جاء به أصدق خلق الله، وأبرهم، وأكملهم علماً وعملاً، ومعرفة. كما قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً**﴾ [النساء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤]. فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان. وعلمت علماً ضروريًا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية: من الفرح، والألم، والحب، والخوف ـ أنه من عند الله. تكلم به حقًّا. وبَلَّغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد. فهذا الشاهد في القلب من أعظم

(١) ٤٧١ مدارج جـ ٣.

الشواهد. وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له: «فهل يَرْتَدُّ أحد منهم سخطة لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد».

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله **﴿بَلْ هُو آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾** [العنكبوت: ٤٩]. وقوله: **﴿وَلِيَعلمِ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ أنَّه الحقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا به﴾** [الحج: ٥٤]. وقوله: **﴿وَيَرَى الَّذِينَ أوتُوا العِلْم الَّذِي أنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾** [سبأ: ٦]. وقوله: **﴿أفَمَن يَعْلم أنَّما أنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعْمَى﴾** [الرعد: ١٩]

وقوله ﴿وَيقول الذين كفروا: لولاَ أنزِل عليه آية من ربِّه، قل إن الله يُضِل مَنْ يَشاء وَيَهْدي إليه من أناب﴾ [الرعد:٢٧]. يعني: أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية. بل الله هو الذي يهدي ويضل. ثم نبههم على أعظم آية وأجلها، وهي طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله. فقال: **﴿الَّذِينَ آمنوا وتَطْمَئِنُّ قُلوبهم بِذِكْر الله﴾** أي بكتابه وكلامه **﴿ألا بِذِكر الله تطْمَئِنُّ القُلوب﴾** [الرعد: ٢٨]. فطمأنينة القلوب الصحيحة، والفطر السليمة به، وسكونها إليه؛ من أعظم الآيات؛ إذ يستحيل في العادة؛ أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل.

ومتى[1] انفتح هذا الباب للعبد؛ انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم، ومجريات الخلق. بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحول الناس وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: **﴿أفَمَن هُو قَائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾** [الرعد: ٣٣]. وقوله: **﴿شَهد الله أنَّه لاَ إلهَ إلاَّ هو والملائِكة وأولُو العِلم قائماً بِالقِسْطِ لاَ إلهَ إلاَّ هو العزِيز الحَكِيمُ﴾** [آل عمران: ١٨]. فكل ما تراه في الوجود ـ من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص في نفسك وفي غيرك ـ فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم. فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض: **﴿بَعثنا عَلَيكُم عِباداً لَنَا أوْلِي بَأسٍ شَدِيد فجَاسُوا خِلاَل الدِّيارِ﴾** [الإسراء: ٥].

---

(١) ٤٢٥ مدارج جـ١.

وأما المسألة الحادية والعشرون وهي:[1]
هل النفس واحدة أم ثلاث؟

فقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس: نفس مطمئنة ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُها النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة﴾ [الفجر: ٢٧]. وبقوله تعالى: ﴿لا أقسِم بِيَوم القِيامَة ولاَ أقْسِم بالنَّفْسِ اللَّوامة﴾ [القيامة: ١، ٢]. وبقوله تعالى: ﴿إنَّ النَّفس لأمارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم

فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها: بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغني بمحبته عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه.

فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه، وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه جالس بين يديه، يسمع به ويبصر به ويتحرك به ويبطش به، فتسري تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة، تجذب روحه إلى الله، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره وهو كلامه الذي أنزله على رسوله كما قال تعالى: ﴿الَّذِين آمَنوا وَتَطْمَئِنُّ قُلوبُهم بِذِكرِ الله ألا بِذكـر الله تَطْمئِنُّ القُلوب﴾ [الرعد: ٢٨]. فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره ألبتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور، والثقة به عجز.

قضى الله سبحانه وتعالى قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزاله، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه

(١) ٢٦٧ الروح.

أغراضاً لسهام البلاء؛ ليعلم عباده وأولياؤه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع. وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة؛ أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله؛ فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له وفرح القلب به، فإنه معرف من معرفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله، فلا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب؛ حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش، فيطمئن إليه ويسكن إليه ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه فلو خالفه في ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم. وقال إذا استوحش من الغربة: قد كان الصديق الأكبر مطمئناً بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض يخالفه وما نقص ذلك من طمأنينته شيئاً، فهذا أول درجات الطمأنينة ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه، وهذا أمر لا نهاية له فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي قام عليها بناؤه، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً. وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُم يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينته إلى الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب، فهذا هو المؤمن حقًّا باليوم الآخر كما في حديث حارثة: أصبحت مؤمناً حقًّا. فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، : «**إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟**» قال: عزفت نفسي عن الدنيا وأهلها، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها وأهل النار يعذبون فيها، فقال: «**عبد نور الله قلبه**».

فصل

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها

وإثباتها واعتقادها. وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية، مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما أتاه لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق كما قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُم إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ لِكَيلاَ تَأْسَوا عَلَى ما فَاتَكُم وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم**﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]. وقال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [التغابن: ١١]. قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالاً وإخلاصًا ونصحاً؛ فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدًا فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره؛ بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس التي لأن يخرمن السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم، «**صريح الإيمان**». وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين وباشر قلبه آثارهما، فللتوبة طمأنينة تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يواري عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة، فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب؛ ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر. وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره وتعلق الروح بحبه ومعرفته. فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبداً، ولو انصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في

غاية الانزعاج والقلق والاضطراب ولكن يواريها السكر فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه.

فصـــل

وها هنا سر لطيف يجب التنبيه عليه والتنبه له، والتوفيق له بيد من أزمة التوفيق بيده، وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالاً إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل له مثاله كمال العين بالإبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق، فإذا عدمت هذه الأعضـاء القـوى التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك. وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه والأنس به، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذاباً واضطراباً من العين التي فقدت النور الباصر، ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال؛ إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه، وأن يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك، فحقيقة الأمر أنه لا طمـأنينة له بدون التحقق بـ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. وأقوال المفسرين في الطمأنينة ترجع إلى ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المطمئنة: المصدقة. وقال قتادة: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله. وقال الحسن: المصدقة بما قال الله تعالى. وقال مجاهد: هي النفس التي أيقنت بأن الله ربها المسلمة لأمره فيما هو فاعل بها، وروى منصور عنه قال: النفس التي أيقنت أن الله ربها وضربت[1] جاشا لأمره وطاعته، وقال ابن أبي نجيح عنه: النفس المطمئنة المخبتة إلى الله. وقال أيضاً: هي التي أيقنت بلقاء الله. فكلام السلف في المطمئنة يدور على هذين الأصلين طمأنينة العلم والإيمان وطمأنينة الإرادة والعمل.

---

(١) هكذا ولعله: سكنت أو بردت.

فصل

فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق ومن العجز إلى الكيس ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات، ومن التيه إلى التواضع ومن الفتور إلى العمل فقد باشرت روح الطمأنينة. وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة فهي أول مفاتيح الخير فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم بل أسوأ حالاً منه.

(١)**وقال** تعالى: ﴿**والَّذين آتَيْنَاهم الْكِتَاب يَفْرَحونَ بما أنزل إلَيْكَ**﴾ [الرعد: ٣٦]. فالفرح بالعلم والإيمان والسنة؛ دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره. فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له؛ على قدر محبته له، ورغبته فيه. فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته. فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله والاستبشار يكون به قبل حصوله. إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى: ﴿**فَرِحين بِمَا آتاهم الله مِن فَضْلِه وَيستبشِرونَ بالَّذِينَ لم يلْحَقُوا بهم مِنْ خَلْفِهِم**﴾ [آل عمران: ١٧].

والفرح صفة كمال. ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها، واليأس من حصولها.

والمقصود أن «الفرح» أعلى أنواع نعيم القلب، ولذته وبهجته. والفرح والسرور نعيمه. والهم والحزن عذابه. والفرح بالشيء فوق الرضى به. فإن الرضى طمأنينة وسكون وانشراح. والفرح لذة وبهجة وسرور. فكل فَرِحٍ راضٍ. وليس كل راض فرحًا. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط. والحزن يؤلم صاحبه. والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام. والله أعلم.

(٢)**والفرق** بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر، فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِل إلَيكَ**﴾ [الرعد: ٣٦] فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي فأولياء الله وأتباع رسوله

(١) ١٥٨ بدائع جـ٣. (١) ٣٠٢ الروح.

أحق بالفرح به. وقال تعالى: ﴿وإذَا مَا أُنْزِلَت سُورَةٌ فَمنهم مَن يَقول أَيُّكم زادَتْه هذِه إيماناً فأَمَّا الذِينَ آمنُوا فزَادَتْهُم إيماناً وَهُم يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿قُل بِفَضلِ الله وبِرَحْمَتِه فَبذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُو خَيرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. قال أبوسعيد الخدري: فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يساف: فضل الله ورحمته: الإسلام الذي هداكم إليه: والقرآن الذي علمكم هو خير من الذهب والفضة الذي تجمعون.

وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين: فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن، فهذا فرح القلب وهو من الإيمان ويثاب عليه العبد، فإن فرحه به يدل على رضاه به بل هو فوق الرضا، فالفرح بذلك على قدر محبته فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له. فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه، وله عبودية عجيبة وأثر في القلب لا يعبر عنه. فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه؛ أفضل ما يعطاه بل هو أجل عطاياه. والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا، فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها، فهذا شأن فرح القلب.

وله فرح آخر وهو فرحه بما منّ الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه وبه وكلما تمكن في ذلك قوى فرحه وابتهاجه.

وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن، وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة، فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها ألبتة، فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافاً مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية.

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر، ولقد ضرب له رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مثلاً ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه، وهو فرح رجل قد خرج براحلته التي عليها طعامه وشرابه في سفر ففقدها في أرض دوية مهلكة، فاجتهد في طلبها فلم يجدها فيئس

منهـا فجلس ينتظر الموت، حتى إذا طلع البدر رأى في ضوئه راحلته وقد تعلق زمامها بشجرة فقال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته.

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة، ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه، وهـو أنه لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن لا تثبت لها الجبـال، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح، وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء، وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذي وفوت المحبوب فالحكم لله العلي الكبير.

وهاهنا فرحة أعظم من هذا كله، وهي فرحته عند مفارقته الدنيا إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه وقال له ملك الموت: اخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، اخرجي راضية مرضيًا عنك: ﴿يَاأَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّة ارْجِعي إلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِية فادْخُلِي في عِبَادِي وادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

فلو لم يكن بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بإيثارها، فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح! منها صلاة الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه. ومنها فتح أبواب السماء لها وصلاة ملائكة السماء عليها، وتشييع مقربيها لها إلى السماء الثانية فتفتح ويصلى عليها أهلها ويشيعها مقربوها، هكذا إلى السماء السابعة فكيف يقدر فرحها وقد استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها فوقفت بين يديه وأذن لها بالسجود فسجدت، ثم سمعته سبحانه يقول: اكتبوا كتابه في عليين ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها وما أعد الله له ويلقى أصحابه وأهله؛ فيستبشرون به ويفرحون به ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله؛ فيجدهم على أحسن حال ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر، هذا كله قبل الفرح الأكبر يوم حشر الأجساد بجلوسه في ظل العرش، وشربه من الحوض وأخذه كتابه بيمينه، وثقل ميزانه وبياض وجهه وإعطائه النور التام، والناس في الظلمة وقطعه جسر جهنم بلا تعويق وانتهائه إلى باب الجنـة، وقـد أزلفت له في المـوقف، وتلقي خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة وقدومه على منازله وقصوره وأزواجه وسراريه.

وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه، تتلاشى هذه الأفراح كلها عنده، وإنما يكون هذا لأهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم.

(١)**استدل** على تفضيل النكاح على التخلي لنوافل العبادة بأن الله تعالى عز وجل اختار النكاح لأنبيائه ورسله فقال تعالى: ﴿**وَلَقَد أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُم أَزْوَاجاً وذُرِّيةً**﴾ [الرعد: ٣٨].

وقال في حق آدم: ﴿**وَجَعَل مِنْها زَوجَها لِيَسْكُنَ إلَيْهَا**﴾ واقتطع من زمن كليمه عشر سنين في رعاية الغنم مهر الزوجة، ومعلوم مقدار هذه السنين العشر في نوافل العبادات. واختار لنبيه محمد، ﷺ، أفضل الأشياء فلم يحب له ترك النكاح بل زوجه بتسع فما فوقهن. ولا هدي فوق هديه. ولو لم يكن فيه إلا سرور النبي، ﷺ، يوم المباهاة بأمته.

ولو لم يكن فيه إلا أنه بصدد أنه لا ينقطع عمله بموته.

ولو لم يكن فيه ألا أنه يخرج من صلبه من يشهد لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة.

ولو لم يكن فيه إلا غض بصره وإحصان فرجه عن التفاته إلى ما حرم الله تعالى.

ولو لم يكن فيه إلا تحصين امرأة يعفها الله به ويثيبه على قضاء وطره ووطرها فهو في لذاته وصحائف حسناته تتزايد.

ولو لم يكن فيه إلا ما يثاب عليه من نفقته على امرأته وكسوتها ومسكنها ورفع اللقمة إلى فيها.

ولو لم يكن فيه إلا تكثير الإسلام وأهله وغيظ أعداء الإسلام.

ولو لم يكن فيه إلا ما يترتب عليه من العبادات التي لا تحصل للمتخلي للنوافل.

ولو لم يكن فيه إلا تعديل قوته الشهوانية الصارفة له عن تعلق قلبه بما هو أنفع له في دينه ودنياه. فإن تعلق القلب بالشهوة أو مجاهدته عليها تصده عن تعلقه بما هو أنفع له، فإن الهمة متى انصرفت إلى شيء انصرفت عن غيره.

ولو لم يكن فيه إلا تعرضه لبنات إذا صبر عليهن وأحسن إليهن كن له ستراً من النار.

---

(١) ١٥٨ بدائع جـ٣.

ولو لم يكن فيه إلا أنه إذا قدم له فرطين لم يبلغا الحنث أدخله الله بهما الجنة.

ولو لم يكن فيه إلا استجلابه عون الله له فإن في الحديث المرفوع: «**ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والمجاهد**».

(١)**فصل** ومن هذا قوله تعالى: ﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب**﴾ [الرعد: ٤٣] فاستشهد على رسالته بشهادة الله له. ولابد أن تعلم هذه الشهادة. وتقوم بها الحجة على المكذبين له، وكذلك قوله: ﴿**قُلْ: أيُّ شيْءٍ أكْبَر شَهَادةً؟ قل: الله شَهيد بَيني وبَيْنَكُم**﴾ [الأنعام: ١٩]. وكذلك قوله: ﴿**لَكِن الله يَشْهَد بِمَا أنْزَل إلَيْكَ أنْزَلَهُ بعِلْمه وَالمَلَائِكَةُ يَشهدون وكَفى بالله شَهيداً**﴾ [النساء: ١٦٦]. وكذلك قوله: ﴿**يَس. والقُرآن الحَكِيم إنَّك لَمِن المُرْسَلِين**﴾ [يس: ١-٣] وقوله: ﴿**وَالله يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُوله**﴾ [المنافقون: ١]. وقوله: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله**﴾ [الفتح: ٢٩]. فهذا كله شهادة منه لرسوله. قد أظهرها وبينها. وبيَّن صحتها غاية البيان. بحيث قطع العذر بينه وبين عباده. وأقام الحجة عليهم. فكونه سبحانه شاهداً لرسوله: معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر في ذلك وتأمله؛ علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة. وأعدلها وأظهرها. وصدقه بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده: من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبائح، وعما لا يليق به. وفي كل وقت يُحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد. ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهُدى ودِينِ الحقِّ ليُظْهِره عَلى الدين كُلِّه. وكفى بالله شَهيداً**﴾ [الفتح: ٢٨]. فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجة، والبيان، والدلالة. وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة، والتأييد. حتى يظهره على مخالفيه. ويكون منصوراً.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الرعد والحمد لله رب العالمين

(١) ٤٦٩ مدارج جـ ٣.



بسم الله الرحمن الرحيم

...[1]**الوجه** العشرون: إنه قد يترتب على خلق من يكفر به ويشرك به ويعاديه من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة، ما لم يكن يحصل بدون ذلك.

فلولا كفر قوم نوح لما ظهرت آية الطوفان وبقيت يتحدث بها الناس على ممر الزمان.

ولولا كفر عاد لما ظهرت آية الريح العقيم التي دمرت ما مرت عليه.

ولولا كفر قوم صالح لما ظهرت آية إهلاكهم بالصيحة.

ولولا كفر فرعون لما ظهرت تلك الآيات والعجائب يتحدث بها الأمم أمة بعد أمة، واهتدى من شاء الله فهلك بها من هلك عن بينة، وحي بها من حي عن بينة، وظهر بها فضل الله وعدله وحكمته وآيات رسله وصدقهم، فمعارضة الرسل وكسر حججهم ودحضها والجواب عنها وإهلاك الله لهم من أعظم أدلة صدقهم وبراهينه. ولولا مجيء المشركين بالحد والحديد والعدد والشوكة يوم بدر لما حصلت تلك الآية العظيمة التي يترتب عليها من الإيمان والهدى والخير ما لم يكن حاصلاً مع عدمها. وقد بينا أن الموقوف على الشيء لا يوجد بدونه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، فلله كم عمرت قصة بدر من ربع أصبح آهلاً بالإيمان، وقد فتحت لأولي النهى من باب وصلوا منه إلى الهدى والإيقان!!.

وكم حصل بها من محبوب للرحمن. وغيظ للشيطان وتلك المفسدة التي حصلت في ضمنها للكفار مغمورة جدًّا بالنسبة إلى مصالحها وحكمها، وهي كمفسدة المطر إذا قطع المسافر وبل الثياب، وخرب بعض البيوت بالنسبة إلى مصلحة العامة. وتأمل ما حصل بالطوفان وغرق آل فرعون، للأمم من الهدى والإيمان الذي غمر مفسدة من هلك به حتى تلاشت في جنب مصلحته وحكمته.

فكم لله من حكمة في آياته التي ابتلى بها أعداءه وأكرم فيها أولياءه، وكم له فيها من آية وحجة وتبصرة وتذكرة.

ولهذا أمر سبحانه رسوله أن يذكر بها أمته فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

(١) ٢٢٣ شفاء.

مُوسى بآيَاتِنا أن أَخرِج قومَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ وَذَكِرهُم بأَيَّام الله إنَّ في ذَلكَ لآيَاتٍ لِّكُل صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإذ قَالَ مُوَسى لِقَومِهِ اذكُرُوا نِعمَةَ الله عَلَيكُم إذ أَنجاكُم مِن آلِ فِرعَونَ يَسُومُونَكُم سُوء العَذَابِ وَيُذَبحُونَ أَبنَاءَكُم وَيَستَحيُونَ نِساءَكُم وَفي ذَلِكُم بَلاَءٌ مِّن رَّبِكُم عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٥،٦] فذكرهم بأيامه وإنعامه ونجاتهم من عدوهم وإهلاكهم وهم ينظرون، فحصل بذلك من ذكره وشكره ومحبته وتعظيمه وإجلاله ما تلاشت فيه مفسدة إهلاك الأبناء وذبحهم واضمحلت، فإنهم صاروا إلى النعيم وخلصوا من مفسدة العبودية لفرعون إذا كبروا وسومه لهم سوء العذاب، وكان الألم الذي ذاقه الأبوان عند الذبح أيسر من الآلام التي كانوا تجرعوها باستعباد فرعون وقومه لهم بكثير فحظي بذلك الآباء والأبناء.

وأراد سبحانه أن يُري عباده ما هو من أعظم آياته وهو أن يربى هذا المولود الذي ذبح فرعون ماشاء الله من الأولاد في طلبه، في حجر فرعون وفي بيته وعلى فراشه.

فكم في ضمن هذه الآية من حكمة ومصلحة ورحمة وهداية وتبصرة وهي موقوفة على لوازمها وأسبابها، ولم تكن لتوجد بدونها فإنه ممتنع، فمصلحة تلك الآية وحكمتها غمرت مفسدة ذبح الأبناء وجعلتها كأن لم تكن.

وكذلك الآيات التي أظهرها سبحانه على يد الكريم ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم والعجائب والحكم والمصالح والفوائد التي في تلك القصة التي تزيد على الألف لم تكن لتحصل بدون ذلك السبب الذي كان فيه مفسدة حزونة يعقوب ويوسف، ثم انقلبت تلك المفسدة مصالح اضمحلت في جنبها تلك المفسدة بالكلية، وصارت سبباً لأعظم المصالح في حقه وحق يوسف وحق الإخوة وحق امرأة العزيز وحق أهل مصر وحق المؤمنين إلى يوم القيامة، فكم جنى أهل المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ورسله من هذه القصة من ثمرة، وكم استفادوا بها من علم وحكمة وتبصرة!!.

وكذلك المفسدة التي حصلت لأيوب من مس الشيطان له بنصب وعذاب، اضمحلت وتلاشت في جنب المصلحة والمنفعة التي حصلت له ولغيره عند مفارقة البلاء وتبدله بالنعماء، بل كان ذلك السبب المكروه هو الطريق الموصل إليها والشجرة التي جنيت ثمار تلك النعم منها.

وكذلك الأسباب التي أوصلت خليل الرحمن إلى أن صارت النار عليه برداً وسلاماً: من كفر قومه وشركهم وتكسيره أصنامهم وغضبهم لها وإيقاد النيران العظيمة له وإلقائه فيها بالمنجنيق، حتى وقع في روضة خضراء في وسط النار وصارت آية وحجة وعبرة ودلالة للأمم قرناً بعد قرن. فكم لله سبحانه في ضمن هذه الآية من حكمة بالغة ونعمة سابغة ورحمة وحجة وبينة لو تعطلت تلك الأسباب لتعطلت هذه الحكم والمصالح والآيات!! وحكمته وكماله المقدس يأبى ذلك، وحصول الشيء بدون لازمه ممتنع، وكم بين ما وقع من المفاسد الجزئية في هذه القصة، وبين جعل صاحبها إماماً للحنفاء إلى يوم القيامة!!.

وهل تلك المفاسد الجزئية إلا دون مفسدة الحر والبرد والمطر والثلج بالنسبة إلى مصالحها بكثير. ولكن الإنسان كما قال الله تعالى ظلوم جهول: ظلوم لنفسه، جهول بربه وعظمته وجلاله وحكمته وإتقان صنعه.

وكم بين إخراج رسول الله، (ﷺ)، من مكة على تلك الحال ودخوله إليها ذلك الدخول الذي لم يفرح به بشر حبوراً لله، وقد اكتنفه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، والمهاجرون والأنصار قد أحدقوا به والملائكة من فوقهم، والوحي من الله ينزل عليه وقد أدخله حرمه ذلك الدخول، فأين مفسدة ذلك الإخراج الذي كان كأن لم يكن؟!.

ولولا معارضة السحرة لموسى بإلقاء العصي والحبال حتى أخذوا أعين الناس واسترهبوهم؛ لما ظهرت آية عصا موسى حتى ابتلعت عصيهم وحبالهم، ولهذا أمرهم موسى أن يلقوا أولاً ثم يلقي هو بعدهم.

ومن تمام ظهور آيات الرب تعالى وكمال اقتداره وحكمته أن يخلق مثل جبريل، صلوات الله وسلامه عليه الذي هو أطيب الأرواح العلوية وأزكاها وأطهرها وأشرفها وهو السفير في كل خير وهدى وإيمان وصلاح.

ويخلق مقابله مثل روح اللعين إبليس الذي هو أخبث الأرواح وأنجسها وشرها، وهو الداعي إلى كل شر وأصله ومادته، وكذلك من تمام قدرته وحكمته أن خلق الضياء والظلام والأرض والسماء والجنة والنار[1].

---

(١) بقية البحث نقل منه قسم تقدم في سورة المائدة. جـ٢ ص ٣٤٨

(١) **وقال** تعالى: ﴿وَمَا أَرسَلنَا مِن رَّسُولٍ إلَّا بِلِسَانِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم﴾(٢) [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِم﴾ [النحل: ٤٤] فكل ما بيَّنه رسولُ الله، (ﷺ)، فعن ربه سبحانه، بينه بأمره وإذنه، وقد علمنا يقيناً وقوعَ كل اسم في اللغة على مسماه فيها، وأن اسم البر لا يتناول الخردل، واسم التمر لا يتناول البلوط، واسم الذهب والفضة لا يتناول القزدير، وأن تقدير نصاب السرقة لا يدخل فيه تقدير المهر، وأن تحريم أكلِ الميتة لا يدل على أن المؤمن الطيب عند الله حيًّا وميتاً إذا مات صار نجساً خبيثاً، وأن هذا من البيان الذي وَلّاه الله رسولَه وبعثه به أبعد شيء وأشده منافاة له، فليس هو مما بعث به الرسول قطعاً، فليس إذاً من الدين.

وقد قال النبي، (ﷺ)، : «**ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يَدُلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم**» ولو كان الرأي والقياس خيراً لهم لدلّهم عليه، وأرشدهم إليه، ولقال لهم: إذا أوجَبْتُ عليكم شيئاً أو حرمته فقيسوا عليه ما كان بينه وبينه وَصْفٌ جامع أو ما أشبهه، أو قال ما يدل على ذلك أو يستلزمه، ولما حذّرهم من ذلك أشَدَّ الحذر كما ستقف عليه إن شاء الله. وقد أحكم اللسانُ كلَّ اسم على مسماه لا على غيره.

وإنما بعث الله سبحانه محمداً، (ﷺ)، بالعربية التي يفهمها العربُ من لسانها، فإذا نص سبحانه في كتابه أو نص رسوله على اسم من الأسماء وعلق عليه حكماً من الأحكام، وَجَبَ ألا يوقع ذلك الحكم إلا على ما اقتضاه ذلك الاسم، ولا يتعدى به الوضع الذي وضعه الله ورسوله فيه، ولا يخرج عن ذلك الحكم شيء مما يقتضيه الاسم؛ فالزيادة على ذلك زيادة في الدين، والنقص منه نقص في الدين؛ فالأول القياس، والثاني التخصيص الباطل، وكلاهما ليس من الدين، ومن لم يَقِفْ مع النصوص فإنه تارة يزيد في النص ما ليس منه ويقول: هذا قياس، ومرةً ينقص منه بعض ما يقتضيه ويخرجه عن حكمه ويقول: هذا تخصيص، ومرة يترك النص جملة ويقول: ليس العمل عليه، أو يقول: هذا خلاف القياس أو

(١) ٢٤٥ أعلام جـ ١.
(٢) يأتي إن شاء الله تقسيم اللسان عند قول الله تعالى: ﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليًّا﴾ [مريم: ٥٠].

خلاف الأصول.

(1)**وأما** معرفة الأيام: فيحتمل أن يريد به أيامه التي تخصه، وما يلحقه فيها من الزيادة والنقصان. ويعلم قصرها، وأنها أنفاس معدودة منصرمة. كل نَفَس منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء. فليس لهذه الأيام الخالية قط نسبة إلى أيام البقاء. والعبد منساق زمنه، وفي مدة العمر إلى النعيم أو إلى الجحيم. وهي كمدة المنام لمن له عقل حي وقلب واع. فما أولاه أن لا يصرف منها نفساً إلا في أحب الأمور إلى الله. فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطاً فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه؟ فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربه؟ فالله المستعان ولا قوة إلا به. ويحتمل أن يريد بالأيام: أيام الله التي أمر رسله بتذكير أممهم بها. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَد أَرسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنا أَن أَخرِج قَومَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِرهُم بِأَيَّامِ اللهِ﴾ [إبراهيم: ٥] وقد فسرت ﴿أَيَامِ اللهِ﴾ بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي.

فالأول تفسير ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد. والثاني: تفسير مقاتل.

والصواب: أن أيامه تعم النوعين. وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه. وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدَّث بها «أياماً» لأنها ظرف لها. تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس. أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام. فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر. وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته. قال الله تعالى: ﴿لَقَدَ كَانَ فِي قَصَصِهِمُ عِبرَةٌ لأولي الأَلبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض. وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء. فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل. ويعمي بصيرة القلب. ويصد عن اتباع الحق. ويضل عن الطريق المستقيم. فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة. والعبد إذا اتبع هواه فسدَ رأيه ونظره. فأرَتْهُ نفسه الحَسنَ في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن. فالتبس عليه الحق بالباطل. فأنَّى له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة؟.

(١) ٤٤٨ مدارج جـ١.

(١)**ومن** منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ منزلة «الشكر».

وهي من أعلى المنازل. وهي فوق منزلة «الرضى» وزيادة. فالرضى مندرج في الشكر. إذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان ـ كما تقدم ـ والإيمان نصفان: نصف شكر. ونصف صبر.

وقد أمر الله به. ونهى عن ضده، وأثنى على أهله. ووصف به خواص خلقه. وجعله غاية خلقه وأمره. ووعد أهله بأحسن جزائه. وجعله سبباً للمزيد من فضله وحارساً وحافظاً لنعمته. وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته. واشتق لهم اسماً من أسمائه. فإنه سبحانه هو «الشكور» وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً. وهو غاية الرب من عبده. وأهله هم القليل من عباده. قال الله تعالى: ﴿وَاشكُرُوا نِعمَةَ الله إن كُنتُم إِيَّاهُ تَعبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤] وقال: ﴿وَاشكُرُوا لِي وَلَا تكفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال عن خليله إبراهيم، (ﷺ)، : ﴿إِنَّ إبرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حنِيفاً. وَلَم يكُ مِنَ المُشرِكِين شَاكِراً لأنعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١] وقال عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّه كَانَ عَبداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣] وقال تعالى: ﴿والله أَخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً. وَجَعل لكم السَّمع وَالأبصَارَ وَالأفئدَةَ لَعلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] وقال تعالى: ﴿وَاعبُدوهُ وَاشكُرُوا لَهُ إليه تُرجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَسَيَجزي الله الشَّاكِرينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإذ تَأَذَّنَ رَبكُم لَئِن شَكَرتُم لأزِيدَنَّكُم وَلَئِن كَفرتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِّكُل صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٣].

وسمى نفسه «شاكراً» و«شكوراً» وسمى الشاكرين بهذين الاسمين. فأعطاهم من وصفه. وسماهم باسمه. وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلا.

وإعادته للشاكر مشكوراً كقوله: ﴿إِنَّ هذا كَانَ لَكُم جَزَاءً. وَكَان سَعيكُم مشكُوراً﴾ [الإنسان: ٢٢] ورضى الرب عن عبده به. كقول: ﴿وَإِن تَشكرُوا يَرضَهُ لَكُم﴾ [الزمر: ٧] وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه. كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِن عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

---

(١) ٢٤٢ مدارج جـ ٢.

وفي الصحيحين: عن النبي، (ﷺ)؛ أنه قام حتى تورمت قدماه. فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟**».

وقال لمعاذ: «**والله يا معاذ، إني لأحبك. فلا تنسَ أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**».

وفي المسند والترمذي: من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله، (ﷺ)، كان يدعو بهؤلاء الكلمات: «**اللهم أعني ولا تُعِنْ عليّ. وانصرني ولا تنصر عليّ. وامكُرْ لي ولا تمكر بي. واهدني ويسر الهدى لي. وانصرني على من بغى علي. رب اجعلني لك، شكَّاراً لك. ذكَّاراً لك. رهّاباً لك. مطاوعاً لك. مخبتاً إليك. أوّاهاً منيباً. رب تقبل توبتي. واغسل حوبتي. وأجب دعوتي. وثبت حجتي. واهد قلبي. وسدد لساني. واسْلُل سخيمة صدري**»...

[١] **والشكر** معه المزيد أبداً. لقوله تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرتُم لَأَزِيدَنَّكُم**﴾ [إبراهيم: ٧] فمتى لم تر حالك في مزيد. فاستقبل الشكر.

وفي أثر إلٰهي: يقول الله عز وجل: «**أهلُ ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي. إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعايب**».

وقيل: من كتم النعمة فقد كفرها. ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

وهذا مأخوذ من قوله، (ﷺ): «**إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده**» وفي هذا قيل:

ومن الرزية: أن شكري صامت عما فعلتَ. وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أُسِرها إني إذاً لندى الكريم لسارق

فصل

وتكلم الناس في الفرق بين «الحمد» و«الشكر» أيهما أعلى وأفضل؟ وفي الحديث «**الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره**».

---

(١) ٢٤٦ مدارج جـ ٢.

والفرق بينهما: أن «الشكر» أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته. و«الحمد» أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون: بالقلب خضوعاً واستكانة، وباللسان ثناء واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً. ومتعلقه: النعم، دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه. وهو المحمود عليها. كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم.

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس. فإن الشكر يقع بالجوارح. والحمد يقع بالقلب واللسان.

فصل(١)

النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها. فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرّفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيداً يقيدها به، حتى لا تشرد؛ فإنها تشرد بالمعصية وتقيد بالشكر ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وبصره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها، ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرّفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها.

ويحكى أن أعرابيًا دخل على الرشيد، فقال: «أمير المؤمنين، ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها» فأعجبه ذلك منه، وقال: «ما أحسن تقسيمه!».

(٢) **قوله** تعالى إخباراً عن الكفار أنهم قالوا: ﴿ما نَرَاكَ إلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧] فاعتبروا صورة مجرد الآدمية وشبه المجانسة فيها، واستدلوا بذلك على أن حكم أحد الشبهين حكم الآخر؛ فكما لا نكون نحن رُسُلاً فكذلك أنتم، فإذا تساوينا في هذا الشبه فأنتم مثلُنَا لا مَزِية لكم علينا، وهذا من أبْطَلِ القياس؛ فإن الواقع من التخصيص والتفضيل وجَعْل بعضِ هذا النوع شريفاً وبعضه دَنِيًّا،

---

(١) ١٧١ فوائد. (٢) ١٤٩ أعلام جـ١.

وبعضه مرءوساً وبعضه رئيساً، وبعضه ملِكاً وبعضه سُوقة، يبطل هذا القياس، كما أشار سبحانه إلى ذلك في قوله: ﴿أَهُم يَقسِمُونَ رَحمَةَ رَبِّكَ نحنُ قَسمنا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُم فِي الحَيـاةِ الدُّنيا وَرَفَعنا بَعضهم فَوقَ بَعض دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعضُهُم بَعْضاً سُخرِيًّا وَرَحمَةُ رَبِّكَ خَيرٌ مِمَّا يَجمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وأجابت الرُسلُ عن هذا السؤال بقولهم: ﴿إِن نَحنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثلُكُم وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] وأجاب الله سبحانه عنه بقوله: ﴿اللهُ أَعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَقالَ المَلأُ مِن قَومِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الآخِرَةِ وَأَترَفناهُم فِي الحَياةِ الدُّنيا ما هَذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثلُكُم يَأكُلُ مِمَّا تَأكُلُونَ مِنهُ وَيَشرَبُ مِمَّا تَشرَبُونَ وَلَئِن أَطَعتُم بَشَراً مِثلَكُم إِنَّكُم إِذاً لَخاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤] فاعتبروا المُساواة في البشرية وما هو من خصائصها من الأكل والشرب، وهذا مجرد قياس شَبَه وجَمع صُوري. ونظير هذا قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كانَت تَأتِيهِم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهدُونَنا﴾ [التغابن: ٦].

ومن هذا قياسُ المشركين الربا على البيع بمجرد الشَّبَه الصُّوري، ومنه قياسُهم الميتة على الذكِيِّ في إباحة الأكل بمجرد الشبه....

(١)**قالت** الرسل لقومهم: ﴿وَما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هدَانا سُبُلَنا﴾ [إبراهيم: ١٢] فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً. وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان: فصاحب الحق - لعلمه بالحق، ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره - مضطر إلى توكله على الله، لا يجد بدًّا من توكله. فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب، وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل أدخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لا بد فيه من العلم. وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته.

---

(١) ٢٥٧ طريق الهجرتين.

والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل على ربه؟ وإذا كان على الباطل علماً وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئناً واثقاً بربه فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده، فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك. فلما كان الباطل لا يتعلق به، بل هو مقطوع ألبتة كان صاحبه كذلك. ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعاً عن ربه، لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله. فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر. ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب، لشدة الحاجة إليها. والله المستعان وعليه التكلان. فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل. والله أعلم.

فصل(١)

قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ**﴾ [إبراهيم:١٨]. فشبه تعالى أعمالَ الكفار في بُطْلَانها وعدم الانتفاع بها برَمَادٍ مَرّتْ عليه ريحٌ شديدة في يوم عاصف؛ فشبه سبحانه أعمالهم في حُبُوطها وذَهَابها باطلا كالهَبَاء المنثور؛ لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان وكَوْنَها لغير الله عز وجل وعلى غير أمره، برمادٍ طَيَّرَتْهُ الريحُ العاصفُ فلا يقدر صاحبُه على شيء منه وقتَ شدة حاجته إليه؛ فلذلك قال: ﴿**لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ**﴾ لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثراً من ثواب ولا فائدة نافعة، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، موافقاً لشَرْعه.

(١) ١٧٠ أعلام جـ١.

والأعمال أربعة: فواحِدٌ مقبول وثلاثة مردودة؛ فالمقبول: الخالصُ الصوابُ، فالخالص أن يكون لله لا لغيره، والصواب أن يكون مما شرَعَه الله على لسان رسوله، والثلاثة المردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سرٌّ بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مُرَاده طعْمَةً للنار، وبها تَسعَّر النار على أصحابها، وينشىء الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارًا وعذابًا، كما ينشىء لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيماً ورَوْحاً، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رَمَادا، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وَقودُ النار..

(١) **وباعث** الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاث أحوال:

أحدها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين؛ فيرد جيش الهوى مغلولاً (٢) وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر. والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة وهم الذين قالوا: ﴿رَبُّنَا الله ثُمَّ استَقَامُوا﴾ وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُم تُوعَدُونَ نَحنُ أَوْلِيَاؤُكُم فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وفِي الآخِرةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١] وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده وخصهم بهدايته دون من عداهم.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى؛ فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية؛ فيستسلم البائس للشيطان وجنده فيقودونه حيث شاءوا وله معهم حالتان: إحداهما: أن يكون من جندهم وأتباعهم وهذه حال العاجز الضعيف.

الثانية: أن يصير الشيطان من جنده وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية المتبوع كما قال القائل:

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى
بي الحال حتى صار إبليس من جندي

فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه، وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة. وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من

(١) ٢٠ عدة الصابرين. (٢) لعلها: مغلوبًا.

الصبر. وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء. وجند أصحابها المكر والخداع والأماني الباطلة والغرور والتسويف بالعمل وطول الأمل وإيثار العاجل على الآجل. وهي التي قال في صاحبها، (ﷺ): «**العاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**» وأصحاب هذه الحال أنواع شتى: فمنهم: المحارب لله ورسوله، الساعي في إبطال ما جاء به الرسول، يصد عن سبيل الله ويبغيها جهده عوجاً وتحريفاً ليصد الناس عنها. ومنهم المعرض عما جاء به الرسول، المقبل على دنياه وشهواتها فقط.

ومنهم: المنافق ذو الوجهين، الذي يأكل بالكفر والإسلام.

ومنهم: الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب. ومنهم من إذا وعظ قال: واشوقاه إلى التوبة ولكنها قد تعذرت عليَّ فلا مطمع لي فيها.

ومنهم: من يقول: ليس الله محتاجاً إلى صلاتي وصيامي وأنا لا أنجو بعملي والله غفور رحيم. ومنهم: من يقول: ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته.

فكثر ما استطعت من الخطايا		إذا كان القدوم على كريم

ومنهم: من يقول: ماذا تقع طاعتي في جنب ما قد عملت، وما ينفع الغريق خلاص أصبعه وباقي بدنه غريق.

ومنهم: من يقول: سوف أتوب، وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت وقبلت توبتي. إلى غير ذلك من أصناف المغترين الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فعقله مع الشيطان كالأسير في يد الكافر يستعمله في: رعاية الخنازير وعصر الخمر وحمل الصليب، وهو بقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه عند الله، بمنزلة رجل قهر مسلماً وباعه للكفار وسلمه إليهم وجعله أسيراً عندهم.

وهاهنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها، وهي أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء، ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه. فكما أذل سلطان الله وسلمه إلى

عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب، وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له، سلط عليه عقوبة له.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠]

فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه ها هنا سلطاناً فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقرراً له: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُم وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُم فَأَخْلَفْتُكُم وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُم لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١] قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

والثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء ألبتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخلوهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم.

والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه، كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

(١)**قال** أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة: سمعت ابن أبي الدنيا يقول: إن لله سبحانه من العلوم ما لا يحصى يعطي كل واحد من ذلك ما لا يعطي

---

(١) ١٠١ شفاء.

غيره، لقد حدثنا أبو عبدالله أحمد بن محمد بن سعيد القطان: ثنا عبيد الله بن بكر السهمي، عن أبيه؛ أن قوماً كانوا في سفر فكان فيهم رجل يمر بالطائر فيقول: أتدرون ما تقول هؤلاء؟ فيقولون: لا. فيقول: تقول كذا وكذا؛ فيحيلنا على شيء لا ندري أصادق فيه هو أم كاذب. إلى أن مروا على غنم وفيها شاة قد تخلفت على سخلة لها فجعلت تحنو عنقها إليها وتثغو فقال: أتدرون ما تقول هذه الشاة؟ قلنا: لا. قال تقول: للسخلة الحقي لا يأكلك الذئب كما أكل أخاك عام أول في هذا المكان. قال: فانتهينا إلى الراعي فقلنا له: ولدت هذه الشاة قبل عامك هذا؟ قال: نعم ولدت سخلة عام أول فأكلها الذئب بهذا المكان.

ثم أتينا على قوم فيهم ظعينة على جمل لها، وهو يرغو ويحنو عنقه إليها فقال: أتدرون ما يقول هذا البعير؟ قلنا: لا. قال: فإنه يلعن راكبته ويزعم أنها رحلته على مخيط وهو في سنامه، قال: فانتهينا إليهم فقلنا: يا هؤلاء إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن راكبته ويزعم أنها رحلته على مخيط وأنه في سنامه قال: فأناخوا البعير وحطوا عنه فإذا هو كما قال: فهذه شاة قد حذرت سخلتها من الذئب مرة فحذرت. وقد حذر الله سبحانه ابن آدم من ذنبه مرة بعد مرة وهو يأبى إلا أن يستجيب له إذا دعاه ويبيت معه ويصبح: ﴿وَقَالَ الشَّيطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُم وَعدَ الحَقِّ وَوَعَدتُّكُم فَأَخلَفتُكُم وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيكُم مِّن سُلطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوتُكُم فَاستَجَبتُم لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصرِخِكُم وَمَا أَنتُم بِمُصرِخِيَّ إِنِّي كَفَرتُ بِمَا أَشرَكتُمُونِ مِن قَبلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فائدة(١)

ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس؛ بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر: على المدح والذم وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر والله أعلم.

(١) ٩ بدائع جـ ٤.

[١]**قوله** تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] فشَبَّهَ سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تُثْمِرُ العملَ الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: «الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله» فإنها تُثْمِر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مَرْضيٌّ لله ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير عليّ بن أبي طَلْحة: عن ابن عباس قال: «كلمة طيبة شهادة أن لا إله إلا الله، كشجرة طيبة وهو المؤمن، أصلها ثابت، قول: لا إله إلا الله، في قلب المؤمن، وفرعُها في السماء يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء».

وقال الربيع بن أنس: «كلمة طيبة هذا مثل الإيمان؛ فالإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه، وفرعُه في السماء خشية الله» والتشبيه على هذا القول أَصَحُّ وأظهَرُ وأحسن؛ فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتةِ الأَصْلِ الباسِقَةِ الفَرْعِ في السماء علوًّا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعُها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء.

ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثَباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومُرَاعاتها حق رعايتها.

فمن رَسَخَتْ هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتَّصَفَ قلبُه بها وانْصَبَغَ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغةً منها؛ فَعَرفَ حقيقةَ الإلهية التي يثبتها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتُصَدِّقها جوارحه، ونَفَى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبُه لسانَه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحُه لمن شهد له بالوحدانية طائعةً سالكةً سبلَ ربها[٢] ذُللًا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلًا، كما لا يبتغي القلبُ سوى معبوده الحق بدلًا؛ فلا ريب أن هذه

(١) ١٧١ أعلام جـ١.　(٢) في المطبوعة «ربه» والصواب ما أثبتناه.

الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعِدِ إلى الله كل وقت؛ فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الـرب تعالى. وهذه الكلمة الطيبة تثمر كَلِمَاً كثيراً طيباً يقارنه عملٌ صالح، فيرفع العمل الصالح الكلمَ الطيب كما قال تعالى: ﴿إِلَيه يَصْعَدُ الكلمُ الطيبُ والعملُ الصالحُ يرفعه﴾ [فاطر: ١٠] فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحاً كل وقت.

والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفاً بمعناها وحقيقتها نفياً وإثباتاً مُتَّصفاً بموجبها قائماً قلبُه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رَفَعَتْ هذا العمـلَ من هذا الشـاهـد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها مُتَّصلة، وهي مخرجة لثمرتها كلَّ وقت. ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح.

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ﴾ يعني بالشجرة الطيبة المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض والفرع في السماء، يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض.

وقال عطية العوفي في قوله: ﴿ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يَخْرُجُ منه كلامٌ طيب وعمل صالح يصعد إلى الله.

وقال الـربيع بن أنس: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] قال: ذلك المؤمن، ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وَحْدَه لا شريك له، أصلها ثابت، قال: أصل عمله ثابت في الأرض، وفرعها في السماء، قال: ذِكرُه في السماء، ولا اختلاف بين القولين.

والمقصـود بالمثـل المؤمن، والنخلة مشبهـةٌ به وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبةً فالمؤمنُ المشبه بها أولى أن يكون كذلك، ومن قال من السلف إنها شجرة في الجنة فالنخلة من أشرف أشجار الجنة. وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علمُ الذي تكلم به وحكمته.

فمن ذلك أن الشجرة لابد لها من عروق وساقٍ وفروع ووَرَق وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المشبه المشبه به؛ فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعُها الأعمال، وثمرتُها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسَّمْتِ الصالح والهَدْي والدَّلِّ المرضي، فيستدل على غَرْسِ هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحاً مطابقاً لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقادُ مطابقاً لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسلُه، والإخلاصُ قائم في القلب والأعمالُ موافقة للأمر، والهَدي والدَّلُّ والسَّمْت مُشَابه لهذه الأصول مناسب لها، علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلُها ثابت وفرعُها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس عُلم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجْتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قَرَار. ومنها: أن الشجرة لا تَبْقَى حيةً إلا بمادة تَسْقيها وتُنْميها، فإذا قُطِعَ عنها السقي أوشَكَ أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب إنْ لم يتعاهَدْهَا صاحبُها بِسَقْيها كلَّ وقتٍ بالعلم النافع والعمل الصالح والعَوْد بالتذكُّرِ على التفكر والتفكز على التذكر، وإلا أوشَكَ أن تيبس.

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «**إن الإيمان يَخْلُقُ في القلب كما يَخْلُقُ الثوبُ فجدِّدُوا إيمانَكم**».

وبالجملة فالغَرْسُ إن لم يتعاهده صاحبه أوشَكَ أن يهلك، ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظَّفَهَا عليها وجعلها مادةً لسَقْيِ غراس التوحيد الذي غَرَسَه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لابُدَّ أن يُخَالِطه دَغَل ونَبْت غَريب ليس من جنسه، فإن تَعاهده رَبُّه ونَقَّاه وقَلَعه كمل الغرس والزرع، واستوى، وتم نباته، وكان أوْفَرَ لثمرته، وأطيَبَ وأزكى، وإن تركه أوشَكَ أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته.

ومَنْ لم يكن له فِقْهُ نفس في هذا ومعرفة به فإنه يفوته ربْحٌ كبير وهو لا

يشعر؛ فالمؤمن دائماً سعيُه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التُّكْلَان.

فهذا بعض ما تَضَمَّنه هذا المثَلُ العظيم الجليل من الأسرار والحِكم، ولعلها قَطْرة من بَحْر بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجبُ التوبة والاستغفار، وإلَّا فلو طَهُرَتْ منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكَتِ النفوس، وخلصت الأعمال، وتجرَّدت الهمم للتلقي عن الله ورسوله؛ لَشَاهَدْنَا من معاني كلام الله وأسراره وحِكَمه ما تضمحِلُّ عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق، وبهذا تعرف قدرَ علوم الصحابة ومعارفهم، وأنَّ التفاوت الذي بين علومهم وعلوم مَنْ بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومَنْ يختص برحمته.

فصل

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجْتُثَّتْ من فوق الأرض مالها من قَرَار، فلا عِرْقٌ ثابت، ولا فَرْع عالٍ، ولا ثمرة زاكية، فلا ظِلّ، ولا جَنِيّ، ولا ساقٌ قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مُغْدِق ولا أعلاها مُونِق، ولا جَني لها، ولا تعلو بل تُعلَى.

وإذا تأمل اللبيبُ أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكسبهم وجَدَه كذلك؛ فالخسران الوقوفُ معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه.

قال الضحاك: ضرب الله مثلاً للكافر بشجرة اجْتُثَّتْ من فوق الأرض مالها من قرار، يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيراً ولا يقوله، ولا يجعل الله فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: ومثلُ كلمةٍ خبيثة ـ وهي الشرك ـ كشجرة خبيثة يعني الكافر، اجْتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً، فلا يقبل عملَ المشرك، ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء؛ يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثلُ الكافر، ليس لقوله ولا لعمله

أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلاً لَقِيَ رجلاً من أهل العلم فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًّا ولا في السماء مَصْعَدا، إلا أن تلزم عُنُقَ صاحبها حتى يوافي بها [يوم] القيامة.

وقوله: «اجتثت» أي: استؤصلت من فوق الأرض.

ثم أخبر سبحانه عن فضله وعَدْله في الفريقين: أصحاب الكلم الطيب والكلم الخبيث، فأخبر أنه يُثَبِّتُ الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحْوَجَ ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يُضِل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت، فأضَلّ هؤلاء بعَدْله لظُلْمهم، وثَبَّتَ المؤمنين بفضله لإيمانهم.

وتحت قوله: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧] كنز عظيم مَنْ وُفِّقَ لمظنته وأحْسَنَ استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حُرِمَه فقد حُرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طَرْفَةَ عينٍ فإن لم يثبته وإلا زالَتْ سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خَلْقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَولاَ أن ثَبتنَاك لَقَد كِدْتَّ تَركَنُ إِليهِم شَيئاً قَليلاً﴾ [الإسراء:٧٤].

وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إذ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلاَئِكَةِ أَنّى مَعَكُم فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢] وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: «**وهو يسأله ويثبتهم**» وقال تعالى لرسوله: ﴿وكلًّا نَقُصُّ عَلَيكَ مِن أَنباءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبت بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] فالخلق كلهم قسمان: مُوَفَّق بالتثبيت، ومَخْذُول بترك التثبيت، ومادةُ التثبيتِ أصله ومنشؤه من القول الثابت وفعلِ ما أُمِر به العبدُ، فبهما يثبتُ الله عبدَه، فكل من كان أثبتَ قولاً وأحسنَ فعلاً كان أعظَمَ تثبيتاً.

قال تعالى: ﴿وَلَو أنهُم فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَان خَيراً لَّهُم وأَشَدَّ تثبيتاً﴾ [النساء: ١٦٦] فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً.

والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبدَه في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى

الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلباً، والكاذب من أمْهَن الناس وأخْبَثِهم وأكثرهم تَلَوُّناً وأقلهم ثباتاً، وأهلُ الفِرَاسة يعرفون صدق الصادق من ثَبَات قلبه وقت الإخبار وشجاعَتِهِ ومَهابته، ويعرفون كذبَ الكاذب بضد ذلك؛ ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضُهم عن كلام سَمِعَه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئاً، إلا أني رأيت لكلامه صَوْلَةً ليست بصَولة مُبْطِل، فما مُنِحَ العبدُ منحة أفْضَلَ من منحة القول الثابت. ويجد أهلُ القول الثابت ثمرته أحوجَ ما يكونون إليه في قبورهم ويوم مَعَادهم. كما في صحيح مسلم: من حديث البَراء بن عازب، عن النبي، (ﷺ)، أن هذه الآية نَزَلَت في عذاب القبر.

وقد جاء هذا مبيناً في أحاديث صحاح؛ فمنها ما في المسند: من حديث داود بن أبي هند عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيد قال: كنا مع النبي، (ﷺ)، في جنازة، فقال: **«يا أيها الناس إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه مَلَكٌ بيده مِطْرَاق فأقعده فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول له: صدقت، فيفتح له بابٌ إلى النار فيقال له: هذا منزلك لو كَفَرْتَ بربك، فأما إذ آمنت فإن الله أبْدَلَكَ به هذا، ثم يفتح له بابٌ إلى الجنة، فيريد أن ينهض له، فيقال له: اسْكُنْ، ثم يُفْسَح له في قبره، وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا اهْتَدَيْتَ، ثم يفتح له بابٌ إلى الجنة، فيقال له: هذا منزلك لو آمَنْتَ بربك، فأما إذ كفـرتَ فإن الله أبدلك به هذا، ثم يفتح له باب إلى النار، ثم يقمعه المَلَكُ بالمطراق قمعةً يسمعه خلقُ الله كلهم إلا الثقلين»** قال بعض أصحابه: يا رسول الله، ما مِنَّا من أحد يقوم على رأسه مَلَكٌ بيده مِطْرَاق إلا هيل عند ذلك، فقال: رسول الله، (ﷺ): **﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ وَيَفعَلُ الله مَا يَشَاءُ﴾** [إبراهيم: ٢٧]. وفي المسند نحوه من حديث البراء بن عازب.

وروى المنهـال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء قال: قال رسول الله،

(ﷺ)، وذكَرَ قَبْضَ روحِ المؤمن فقال: «يأتيه آتٍ، يعني في قبره، فيقول: مَنْ رَبُّكَ؟ وما دينُكَ؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، (ﷺ)، قال: فينتهره فيقول: ما ربك؟ وما دينك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حيث يقول الله: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فيقال له: صدقت» وهذا حديث صحيح.

وقال حماد بن سلمة: عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، (ﷺ): ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ﴾ قال: «إذا قيل له في القبر: مَنْ رَبُّكَ؟ وما دينُكَ؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونَبِيِّي محمد، جاءنا بالبينات من عند الله فآمنت به وصدقت، فيقال له: صدقْتَ، على هذا عشْتَ، وعليه مت، وعليه تُبْعَثُ». وقال الأعمش: عن المنهال بن عمرو، وعن زاذان، عن البَرَاء بن عازب قال: قال رسول الله، (ﷺ)، وذكر قَبْضَ روح المؤمن، قال: «فترجِعُ روحه في جَسَده، ويُبْعَثُ إليه ملكان شديدا الانتهار، فيجلسانه ويَنْتَهِرَانه ويقولان: مَنْ ربك؟ فيقول: الله، وما دينك؟ فيقول: الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل أو النبي الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله، فيقولان له: وما يُدْرِيك؟ قال: فيقول: قرأتُ كتابَ الله فآمنتُ به وصَدَّقتُ، فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾» رواه ابن حِبَّان في صحيحه، والإمامُ أحمد.

وفي صحيحه. أيضاً: من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «إن الميت ليسْمَعُ خَفْقَ نعالهم حين يُوَلونَ عنه مُدبْرِين، فإذا كان مؤمناً كانت الصلاةُ عند رأسِهِ، والزكاة عن يمينه، وكان الصيام عن يساره، وكان فعلُ الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيُؤتَى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مَدْخَل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل،

فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس قد دَنَتْ للغروب فيقال له: أخبرنا عن ما نسألك عنه، فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك، فيقول: وعَمَّ تسألوني؟ فيقال له: أرأيْتَ هذا الرجُلَ الذي كان فيكم، ماذا تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد، (ﷺ) فيقال: نعم، فيقول: أشهد أنه رسولُ الله، وأنه جاء بالبينات من عند الله فَصَدَّقناه، فيقال له: على ذلك حَيِيتَ، وعلى ذلك مُتَّ، وعلى ذلك تُبْعَثُ إن شاء الله، ثم يُفْسَحُ له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له فيه، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً. ثم تجعل نسمته في النسم الطيب وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدأ منه من التراب. وذلك قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾».

فصل(١)

وأما المسألة الحادية عشر، وهي أن السؤال في القبر هل هو عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق؟ فقال أبو عمر بن عبد البر في (كتاب التمهيد): والآثار الدالة تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق من كان منسوباً إلى أهل القبلة ودين الإسلام بظاهر الشهادة، وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه، وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام فيثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون.

والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول، وأن السؤال للكافر والمسلم، قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ وَيَفعَلُ الله مَا يَشَاءُ﴾ وقد ثبت في الصحيح؛ أنها نزلت في عذاب القبر حين يسأل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟.

وفي الصحيحين: عن أنس بن مالك، عن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم؛ أنه قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم» وذكر الحديث..

---

(١) ١٠٣ الروح.

[1]**قال** هناد بن السرى في كتاب الزهد: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن شقيق عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ يهودية فذكرت عذاب القبر فكذبتها فدخل النبي، (ﷺ)، عليَّ فذكرت ذلك له فقال: **«والذي نفسي بيده إنهم ليعذبون في قبورهم حتى تسمع البهائم أصواتهم»**.

قلت: وأحاديث المسألة في القبر كثيرة كما في الصحيحين، والسنن: عن البراء بن عازب؛ أن رسول الله، (ﷺ) قال: **«المسلم إذا سئل في قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قول الله ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾**. وفي لفظ: **«نزلت في عذاب القبر يقال له: من ربك؟ فيقول: الله ربي ومحمد نبيي فذلك قول الله ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾»**.

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد مطولاً كما تقدم.

وقد صرح في هذا الحديث بإعادة الروح إلى البدن وباختلاف أضلاعه وهذا بين في أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين.

وقد روى مثل حديث البراء قبض الروح والمسألة والنعيم والعذاب أبو هريرة.. وحديثه في المسند وصحيح أبي حاتم؛ أن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمناً، كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان: ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد أخذت للغروب فيقال له: هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: دعوني حتى أصلي فيقولون: إنك ستصلي، أخبرنا عما نسألك عنه أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وما تشهد عليه؟ فيقول: محمد، أشهد أنه**

(١) ٦٦ الروح.

رسول الله جاء بالحق من عند الله، فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له :هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه، ويعاد الجسد لما بدىء منه وتجعل نسمته في النسم الطيب وهي طير معلق في شجر الجنة قال فذلك قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ﴾» وذكر في الكافر ضد ذلك إلى أن قال: «ثم يضيق عليه في قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التي قال الله تعالى ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحشُرُهُ يومَ القِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾» [طه: ١٢٤].

وفي الصحيحين من حديث قتادة، عن أنس؛ أن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع خفق نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن يقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقول: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة» قال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، «فيراهما جميعاً»، قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً يملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون، ثم رجع إلى حديث أنس قال: «فأما الكافر والمنافق فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقولان: لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين». . . .

(1)**(فصل)** ومن ذلك قوله تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال: ﴿رَبِّ اجعَل هَذَا البَلَدَ آمِناً وَاجْنُبنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعبُدَ الأَصنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فها هنا أمران: تجنيب عبادتها واجتنابه، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم والتجنيب فعله ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

ونظير ذلك قول يوسف الصديق: ﴿رَبِّ السِّجنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدعُونَنِي إليهِ وإلَّا تَصرِف عَنِّي كَيدَهُنَّ أَصبُ إليهِنَّ وأَكُن مِنَ الجَاهِلِينَ فَاستَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنهُ كَيدَهُنَّ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤] وصرف كيدهن هو

(١) ٥٩ شفاء.

صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن وتلك أفعال اختيارية وهو سبحانه الصارف لها، فالصرف فعله والانصراف أثر فعله وهو فعل النسوة.

(١) **(فصل)** ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم إنه قال: ﴿رَبِّ اجعلني مُقيمَ الصلاةِ وَمِن ذُرِّيتي﴾ وقوله: ﴿فاجعَلْ أفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهوي إليهم﴾ [إبراهيم:٣٧] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلنَا في قُلوب الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأفةً وَرَحمَةً وَرَهبَانِيَّةً﴾ [الحديد:٢٧] وقوله حكاية عن زكريا أنه قال عن ولده: ﴿وَاجعَلهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٦]. وقال في الطرف الآخر: ﴿فبِمَا نَقضِهِم مِيثَاقَهم لَعَنَّاهُمْ وَجعَلنا قُلُوبَهُم قَاسِيَةً﴾ [المائدة:١٣] وقال: ﴿وَجَعَلنَا على قُلوبِهِمْ أكِنَّةً أَنْ يَفقَهُوهُ وفي آذانِهِم وَقْراً﴾ وهذه الأكنة والوقر هي شدة البغض والنفرة والإعراض التي لا يستطيعون معها سمعاً ولا عقلاً.

والتحقيق أن هذا ناشىء عن الأكنة والوقر فهو موجب ذلك ومقتضاه.

فمن فسر الأكنة والوقر به فقد فسرهما بموجبها ومقتضاهما وبكل حال، فتلك النفرة والإعراض والبغض من أفعالهم وهي مجعولة لله سبحانه، كما أن الرأفة والرحمة وميل الأفئدة إلى بيته هو من أفعالهم والله جاعله، فهو الجاعل للذوات وصفاتها وأفعاله وإراداتها واعتقاداتها، فذلك كله مجعول مخلوق له وإن كان العبد فاعلاً له باختياره وإرادته.

فإن قيل: هذا كله معارض بقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بحيرَةٍ وَلا سَائِبَة وَلَا وَصِيلَة وَلَا حَامٍ﴾ والبحيرة والسائبة إنما صارت كذلك بجعل العباد لها فأخبر سبحانه أن ذلك لم يكن بجعله.

قيل: لا تعارض بحمد الله بين نصوص الكتاب بوجه ما، والجعل ههنا جعل شرعي أمري لا كوني قدري، فإن الجعل في كتاب الله ينقسم إلى هذين النوعين كما ينقسم إليهما الأمر والإذن والقضاء والكتابة والتحريم كما سيأتي بيانه إن شاء الله، فنفى سبحانه عن البحيرة والسائبة جعله الديني الشرعي أي لم يشرع ذلك ولا أمر به، ولكن الذين كفروا افتروا عليه الكذب وجعلوا ذلك ديناً له بلا علم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِيجعَلَ مَا يُلقى الشَّيطَانُ فِتنَةً للَّذِينَ في قُلُوبِهِم

---

(١) ٥٦ شفاء.

مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣] فأخبر سبحانه أن هذه الفتنة الحاصلة بما ألقى الشيطان هي بجعله سبحانه هذا جعل كوني قدري.

ومن هذا قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه: **«اللهم اجعلني لك شكاراً لك ذكاراً لك رهاباً لك مطواعاً لك مخبتاً إليك أوّاهاً منيباً»** فسأل ربه أن يجعله كذلك وهذه كلها أفعال اختيارية واقعة بإرادة العبد واختياره. وفي هذا الحديث: **«وسدد لساني»** وتسديد اللسان جعله ناطقاً بالسداد من القول ومثله قوله في الحديث الآخر: **«اللهم اجعلني لك مخلصاً»**. ومثله قوله: **«اللهم اجعلني أعظم شكرك وأكثر ذكرك وأتبع نصيحتك وأحفظ وصيتك»**.

ومثله قول المؤمنين: **﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا﴾** [البقرة: ٢٥٠] فالصبر وثبات الأقدام فعلان اختياريان ولكن التصبير والتثبيت فعل الرب تعالى وهو المسئول، والصبر والثبات فعلهم القائم بهم حقيقة.

ومثله قوله: **﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾** [النمل: ١٩] وقال ابن عباس والمفسرون بعده: ألهمني. قال أبو إسحاق: وتأويله في اللغة: كفنى عن الأشياء إلا نفس شكر نعمتك؛ ولهذا يقال في تفسير الموزع: المولع، ومنه الحديث: كان رسول الله، (ﷺ)، موزعاً بالسؤال أي مولعاً به كأنه كف ومنع إلا منه.

وقال في الصحاح: وزعته أزعه وزعا: كففته فاتزع عنه أي كف، وأوزعته بالشيء: أغريته به فأوزع به فهو موزع به واستوزعت الله شكره فأوزعني أي: استلهمته فألهمني، فقد دار معنى اللفظة على معنى ألهمني ذلك واجعلني مغرًى به واكفني عما سواه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة إبراهيم والحمد لله رب العالمين

فهرس سورة الأنعام

فهرس سورة الأعراف

فهـرس سـورة الأنفـال

فهرس سورة التوبة

فهرس سورة يونس

فهرس سورة هود

فهرس سورة يوسف

فهرس سورة الرعد

فهرس سورة إبراهيم

بهذا انتهى بفضل الله وكرمه المجلد الثالث
ويليه إن شاء الله المجلد الرابع

الضوء المنير
على
التفسير

المجلّد الرابع

جمعه الفقير الى ربه العلي عبده
على الحمد المحمّد الصالحي
من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيّم الجوزيّة

الناشر
مؤسّسة النّور للطّباعة والتجليد
بالتّعاون مع
مكتبة دار السّلام

الناشر

مؤسسة النور للطباعة و التجليد

هاتف: ٤١١٨٨٧٤، فاكس: ٤١١٤١٩١

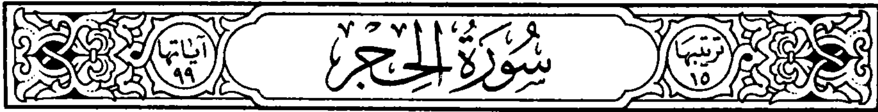
دخنة ـ شارع الشيخ محمد بن إبراهيم

عنيزة-هاتف و فاكس: ٣٦٤١٠٤٠ (٠٦)

بالتعاون مع

مكتبة دارالسلام

الرياض-شارع الضباب-هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢، فاكس: ٤٠٢١٦٥٩



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **قوله** في سورة الحجر: ﴿وَقَالوا: يَا أَيُّهَا الَّذي نُزِّلَ عَلَيهِ الذِّكْر إِنَّكَ لَمجنُون. لو مَا تَأتِينا بالمَلائِكَةِ إن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقينَ﴾ [الحجر: ٦، ٧]. قال الله عز وجل: ﴿مَا نُنَزِّلُ الملائِكَة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين﴾ [الحجر: ٨]. و«الحق» هٰهنا العذاب.

(٢) **قوله** تعالى: ﴿وَمَايَأتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَستَهزِءُونَ. كَذَلِكَ نَسلُكُهُ في قُلُوبِ المُجرِمِينَ. لَا يُؤمِنُونَ بِهِ﴾. [الحجر: ١١ - ١٣] وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين هذا أحدهما، والثاني في سورة الشعراء في قوله: ﴿وَلَو نَزَّلْنَاه عَلَىٰ بَعضِ الأَعجَمِينَ. فَقَرأَهُ عَلَيهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ في قُلُوبِ المُجرِمِينَ. لَا يُؤمِنونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ١٩٨ - ٢٠١].

قال ابن عباس: سلك الشرك في قلوب المكذبين، كما سلك الخرزة في الخيط. وقال أبوإسحاق: أي كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا بمن تقدم من الرسل، كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين.

واختلفوا في مفسر الضمير في قوله: ﴿نسلكه﴾ فقال ابن عباس: سلكنا الشرك وهو قول الحسن.

وقال الزجاج وغيره: هو الضلال، وقال الربيع: يعني الاستهزاء، وقال الفراء: التكذيب، وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، والتكذيب والاستهزاء والشرك كل ذلك فعلهم حقيقة، وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم.

وعندي في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله ﴿لا يؤمنون به﴾ هو الضمير في قوله ﴿سلكناه﴾ فلا يصح أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء، فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين والظاهر اتحاده، فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم وهو القرآن.

فإن قيل: فما معنى سلكه في قلوبهم وهم ينكرونه؟

---

(١) ٢٤٥ مدارج جـ١. (٢) ٦١ شفاء.

قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي سلكناه غير مؤمنين به، فدخل في قلوبهم مكذَّباً به، كما دخل في قلوب المؤمنين مصدقاً به، وهذا مراد من قال إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال، ولكن فسر الآية بالمعنى فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم.

فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به.

قيل: لتقوم عليهم بذلك حجة الله فدخل في قلوبهم وعلموا أنه حق وكذبوا به؛ فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدق به مؤمن به مرضى به، وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفراً من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه. فتأمله فإنه من فقه التفسير والله الموفق للصواب.

(١)**قول** الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شيءٍ إلا عِندنا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]؛ متضمن لكنز من الكنوز، وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه.

وقوله: ﴿وأَنَّ إلىَ رَبِّكَ الْمُنتَهىٰ﴾؛ [النجم: ٤٢] متضمن لكنز عظيم؛ وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به، وإلا فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب. وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل.

وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه.

فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن من شيَءٍ إلَّا عندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]. واجتمع ما يراد له كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنتهىٰ﴾، فليس وراءه ـ سبحانه ـ غاية تطلب، وليس دونه غاية المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن، إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد، فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهىٰ إلى

(١) ٢٠١ فوائد.

اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره، بطل عليه ذلك وزال عنه، وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو ـ سبحانه ـ ظفر بنعيمه ولذته، وبهجته وسعادته أبد الآباد.

العبد دائماً متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج ـ بل مضطر ـ إلى العون عند الأوامر، وإلى اللطف عند النوازل، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهراً وباطناً، ناله اللطف ظاهراً وباطناً، وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها، ناله اللطف في الظاهر وقل نصيبه من اللطف في الباطن.

فإن قلت: وما اللطف الباطن؟[1] فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة، وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذي بين يدي سيده ذليلاً له، مستكيناً ناظراً إليه بقلبه، ساكناً إليه بروحه وسره، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض يجرى عليه سيده أحكامه رضي أو سخط، فإن رضي نال الرضا، وإن سخط فحظه السخط. فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة، يزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها.

[2]**ثم** تأمل هذا الهواء ومافيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان، والممسك لها من داخل بما تستنشق منه، ومن خارج بما تباشر به من روحه فتتغذى به ظاهراً وباطناً، وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل، وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها وينقلها من موضع إلى موضع، فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح، وكذلك تأتيه الأصوات.

وهو أيضاً الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات.

وتأمل منفعة الريح وما يجري له في البر والبحر، وما هيئت له من الرحمة والعذاب. وتأمل كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر، فسخرت له المثيرة أولاً

(١) كذا بالأصل: ولعل الصواب: قيل فهو... (ج). (٢) **٢١٦ مفتاح جـ ١**.

فتثيره بين السماء والأرض. ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية. ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه. ثم يجتمع بعضها إلى بعض، فيصير طبقاً واحداً. ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى فتلقحه بالماء؛ ولولاها لكان جهاماً لا ماء فيه. ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك. ثم سخرت له بعد أعصاره المفرقة التي تبثه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعاً؛ ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فتجعله قطراً.

وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات، ولولاها لكانت عقيماً.

وكذلك الرياح التي تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر.

ومن منافعها أنها تبرد الماء، وتضرم النار التي يراد إضرامها، وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها.

وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح، فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذوى النبات، ومات الحيوان، وفسدت المطاعم وأنتن العالم، وفسد. ألا ترى إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم، الذي لو دام لأتلف النفوس، وأسقم الحيوان وأمرض الأصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار، وأعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو.

فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته كما قال النبي ﷺ في الرياح إنها من روح الله تأتي بالرحمة.

وتنبه للطيفة في هذا الهواء، وهي أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام، وليس نفس الاصطكاك كما قال ذلك من قاله، ولكنه موجب الاصطكاك، وقرع الجسم للجسم، أو قلعه عنه فسببه قرع أو قلع، فيحدث الصوت فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس، فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس، لامتلأ العالم منه ولعظم الضرر به واشتدت مؤنته واحتاج الناس إلى محوه من الهواء، والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلى استبدال الكتاب المملوء كتابة، فإن ما يلقى

من الكلام في الهواء أضعاف ما يودع في القرطاس، فاقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاساً خفيًّا يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ثم يمحى بإذن ربه فيعود جديداً نقيًّا لا شيء فيه فيحمل ما حمل كل وقت. اهـ.

(١)﴿ثُمَّ (٢)قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

فإن نفى كونه من الساجدين أخص من نفى السجود عنه لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية والاستعداد فهو أبلغ في الذم من أن يقال لم يسجد.

(٣)**وقال** عن عدوه إبليس: أنه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِيْنَ﴾ [الحجر: ٤٢]. والغاوي ضدُّ الراشد، والعشق المحرم من أعظم الغيِّ.

ولهذا كان أتباعُ الشعراء وأهل السماع الشعريِّ غاوين. كما سماهم الله تعالى بذلك في قوله: ﴿والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٤]. فالغاوون يتبعون الشعراء، وأصحاب السماع الشعري الشيطاني، وهؤلاء لا ينفكُّون عن طلب وصال، أو سؤال نَوال. كما قال أبوتمام لرجل: أماتعرفني؟ فقال: ومن أعرف بك مني؟

أنت بين اثنتــين تبرز للنـا ... س وكلتا هما بوجهٍ مُذال
لستَ تنفـكُّ طالباً لوصال ... من حبيب، أو راجياً لنوال
أيُّ ماء يَبْقَى لوجهك هذا ... بين ذُلِّ الهوى وذل السؤال...

(٤)**قال** تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. فأخبر عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم، وفي الصحيحين: **«أخلاقهم عَلَى خَلْق رجل واحد على صورة أبيهم آدم عليه السلام ستون ذراعاً في السماء»** والرواية على خلق بفتح الخاء وسكون اللام، والأخلاق كما تكون جمعاً للخلق بالضم فهي جمع للخلق بالفتح، والمراد تساويهم في الطول والعرض

(١) ٥٧ بدائع جـ ٣. (٢) في المطبوعة (وإذ) والصواب ما أثبتناه. (٣) ١٥٠ إغاثة جـ ٢.
(٤) ١١٠ حادي الأرواح.

والسن، وإن تفاوتوا في الحسن والجمال، ولهذا فسره بقوله على صورة أبيهم آدم عليه السلام ستون ذراعاً في السماء.

وأما أخلاقهم وقلوبهم؛ ففي الصحيحين: من حديث أبي هريرة: «**أول زمرة تلج الجنة**» الحديث وقد تقدم، وفيه «**لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشية**».

وكذلك وصف الله سبحانه وتعالى نساءهم بأنهن أتراب، أي: في سن واحدة ليس فيهن العجائز والشواب وفي هذا الطول والعرض والسن من الحكمة ما لايخفى، فإنه أبلغ وأكمل في استيفاء اللذات؛ لأنه أكمل سن القوة مع عظم آلات اللذة، وباجتماع الأمرين يكون كمال اللذة وقوتها؛ بحيث يصل في اليوم الواحد إلى مائة عذراء كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ولا يخفى التناسب الذي بين هذا الطول والعرض؛ فإنه لو زاد أحدهما على الآخر فات الاعتدال، وتناسب الخلقة يصير طولا مع دقة أو غلظاً مع قصر وكلاهما غير مناسب والله أعلم.

(١)**هذا** مرض من أمراض القلب مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكن واستحكم عز على الأطباء دواؤه وأعيا العليل داؤه. وإنما حكاه الله سبحانه في كتابه عن طائفتين من الناس من النساء، وعشاق الصبيان المردان. فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسف. وحكاه عن قوم لوط. فقال تعالى إخباراً عنهم لما جاءت الملائكة لوطاً: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ المدينَةِ يَستَبشِرُونَ قالَ إنَّ هؤُلاءِ ضَيفِي فَلا تَفضَحُونِ وَاتَّقوُا الله وَلاَ تُخزُونِ قَالُوا أوَلَم نَنهَكَ عَنِ العَالِمِينَ قَالَ هَـٰؤُلاءِ بَنَاتِي إن كُنتُم فَاعِلِينَ لَعَمرُكَ إنَّهم لَفِي سَكْرتِهِم يَعمَهُونَ﴾ [الحجر: ٦٧-٧٢].

(٢)**والله** سبحانه إنما حكى عشق الصور في القرآن عن المشركين، فحكاه عن امرأة العزيز، وكانت مشركة على دين زوجها، وكانوا مشركين، وحكاه عن اللوطية، وكانوا مشركين، فقال تعالى في قصتهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. وأخبر سبحانه أنه يصرفه عن أهل الإخلاص، فقال:

---

(١) ٣١٧ زاد المعاد جـ ٣. (٢) ١٥٠ إغاثة جـ ٢.

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّه مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

(١)**ومن** الآيات التي فيها وقائعه سبحانه التي أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم، المخالفين لأمره، وأبقى آثارهم دالة عليهم كما قال تعالى: ﴿وَعَاداً وثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِم﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وقال في قوم لوط: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون؟﴾ [الصافات: ١٣٧] وقال: ﴿فأَخذتهم الصَّيحَةُ مُشرِقِين فجَعَلنَا عَالِيَها سَافِلَهَا وَأَمطَرنَا عَلَيهم حِجَارَةً مِن سِجيلٍ * إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ للمتوسِّمِينَ * وَإنَّها لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٣ ـ ٧٦]. أي بطريق ثابت لا يزول عن حاله، وقال: ﴿وَإِن كَانَ أَصحَابُ الأيكَةِ لَظَالمينَ * فَانتَقَمنَا مِنهم وإنَّهُما لَبِإمام مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨ ـ ٧٩]. أي ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون. وقال تعالى: ﴿وَسَكنتم في مَسَاكِنِ الَّذينَ ظَلَمُوا أَنفُسهمُ وَتَبيَّنَ لَكُم كَيفَ فَعَلنا بِهِم﴾ [إبراهيم: ٤٥]. وقال عن قوم عاد: ﴿فَأَصبَحُواْ لاَ يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُم﴾[الأحقاف: ٢٥] وقال: ﴿أولم يهد لَهُم كَم أَهلكنا مِن قَبلهم مِّنَ القُرُونِ يَمشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٦].

فأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده، لا عدة له ولا عدد، ولا مال. فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته، ويحذرهم من بأسه ونقمته، فتتفق كلمتهم، أو أكثرهم على تكذيبه، ومعاداته. فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر، فيغرق المكذبين كلهم تارة، ويخسف بغيرهم الأرض تارة، ويهلك آخرين بالريح، وآخرين بالصيحة، وآخرين بالمسخ، وآخرين بالصواعق وآخرين بأنواع العقوبات، وينجو داعيهم ومن معه. والهالكون أضعاف أضعافهم عدداً وقوة، ومنعة وأموالاً:

فيالك من آيات حق لو اهتدى	بهن مريد الحق، كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة	فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا ـ إن كانوا على الحق وهم أكثرهم عدداً، وأقوى شوكة ـ بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه، وهلا اعتصموا من عقوبته، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل؟.

(١) ١٨٨ التبيان.

فصل(١)

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيّاكَ نَستَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. منزلة الفراسة.

قال الله تعالى: ﴿إنَّ في ذلك لآيَات لِّلمتوسِّمينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

قال مجاهد رحمه الله: المتفرسين: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة.

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَو نَشَآءُ لأَرَيْناكَهُم فَلَعَرفتهُم بِسِيْمَاهُم وَلَتَعْرِ فَنَّهُمْ في لَحْنِ القَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

فالأول : فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: علَّق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط. بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم. فقال: ﴿ولَتعرِفَنَّهُم في لَحنِ القولِ﴾ وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه. و«اللحن» ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة. ومنه الحديث: «**ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض**».

والثاني: التعريض والإشارة. وهو قريب من الكناية. ومنه قول الشاعر:

وحديث ألذه. وهو مما ... يشتهي السامعون يوزن وزناً
منطق صائب. وتلحن أحيا ... ناً وخير الحديث ما كان لحناً

والثالث: فساد المنطق في الإعراب. وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطأ، وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه. فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر والسماع.

---

(١) ٤٨٢ مدارج جـ ٢.

وفي الترمذي: من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن النبي (ﷺ) قال: «اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله». ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]».

(١)**البصيرة** تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة. وهي نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]. قال مجاهد: للمتفرسين. وفي الترمذي: من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن النبي (ﷺ) أنه قال: «اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله عز وجل» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

و«التوسم» تفعل من السيما. وهي العلامة. فسمى المتفرس متوسماً. لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب. فيستدل بالعيان على الإيمان. ولهذا خَصَّ الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء. لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل، من الأمر والنهي، والثواب والعقاب. وقد ألهم الله ذلك لآدم، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء. وبنوه هم نسخته وخلفاؤه. فكل قلب فهو قابل لذلك. وهو فيه بالقوة. وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة.

وبعث الله رسله مذكِّرين ومنبهين، ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحي. والإيمان. فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد. فيصير نوراً على نور. فتقوى البصيرة، ويعظم النور، ويدوم، بزيادة مادته ودوامها. ولا يزال في تزايد حتى يُرى على الوجه والجوارح، والكلام والأعمال. ومن لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأساً دخل قلبه في الغلاف والأكِنَّة؛ فأظلم، وعمى عن البصيرة؛ فحجبت عنه حقائق الإيمان؛ فيرى الحق باطلاً، والباطل حقًّا، والرشد غيًّا، والغي رشداً. قال تعالى: ﴿كَلَّا، بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم ما كانوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] و«الرين» و«الران» هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانقياد له.

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكن الفراسة. وهي نوعان: فراسة علوية شريفة، مختصة بأهل الإيمان، وفراسة سُفلية دنيئة مشتركة بين المؤمن والكافر.

(١) ١٢٩ مدارج جـ ١.

وهي فراسة أهل الرياضة والجوع والسهر والخلوة، وتجريد البواطن من أنواع الشواغل. فهؤلاء لهم فراسة كشف الصور، والإخبار ببعض المغيبات السفلية التي لا يتضمن كشفها والإخبار بها كمالاً للنفس، ولا زكاة ولا إيماناً ولا معرفة. وهؤلاء لا تتعدى فراستهم هذه السفليات. لأنهم محجوبون عن الحق تعالى. فلا تصعد فراستهم إلى التمييز بين أوليائه وأعدائه، وطريق هؤلاء وهؤلاء.

وأما فراسة الصادقين، العارفين بالله وأمره: فإن همتهم لما تعلقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته، ودعوة الخلق إليه على بصيرة. كانت فراستهم متصلة بالله، متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان. فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه، من الأعيان والأقوال والأعمال. وميزت بين الخبيث والطيب، والمحق والمبطل، والصادق والكاذب. وعرفت مقادير استعداد السالكين إلى الله. فحملت كل إنسان على قدر استعداده، علماً وإرادة وعملاً.

ففراسة هؤلاء دائماً حائمة حول كشف طريق الرسول وتعرفها، وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين. فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة. وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده.

فصل(١)

والفرق بين الفراسة والظن: أن الظن يخطىء ويصيب، وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه وأخبر أن بعضه إثم. وأما الفراسة فأثنى على أهلها ومدحهم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ [الحجر: ٧٥]. قال ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره: أي للمتفرسين.

وقال تعالى: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ**﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ [محمد: ٣٠].

---

(١) ٢٩٠ الروح.

فالفراسة الصادقة لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه.

وفي الترمذي وغيره: من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**».

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله؛ فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه وأضاء له النور بقدر قربه فرأى في ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب. كما ثبت في الصحيح: من حديث أبي هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل، أنه قال: «**ما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي**».

فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيده محبته له، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله فسمع به وأبصر به وبطش به ومشى به، فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هي عليه، فلا تكاد تخطىء له فراسة. فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه فإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه(١).

(٢)**قال** تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

قال غير واحد من السلف: هو عن قول: «لا إله إلا الله»، وهذا حق، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها، فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها.

قال أبوالعالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فالسؤال عماذا كانوا يعبدون هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عماذا أجابوا المرسلين سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها: هل

(١) استمر المؤلف في البحث واستشهد على ما ذكره بآثار وحكايات يرجع إليها لمن أراد (ج).

(٢) ٢٩٧ طريق الهجرتين.

سلكـوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كله إليها. وأمر هذا شأنه حقيق بأن تنعقد[1] عليه الخناصر، ويعض عليه بالنواجذ، ويقبض فيه على الجمر ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يطلب على فضلة، بل يجعل هو المطلب الأعظم وما سواه إنما يطلب على الفضلة. والله الموفق لا إله غيره ولا رب سواه.

[2]**ولما** نزل عليه: ﴿**فـاصدع بما تؤمر**﴾ [الحجر: ٩٤]. فصدع بأمر الله لا تأخـذه فيه لومـة لائم. فدعـا إلى الله الصغـير والكبـير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن والإنس.

ولما صدع بأمر الله وصرح لقومه بالدعوة، وناداهم بسَبِّ آلهتهم، وعيب دينهم: اشتدَّ أذاهم له، ولمن استجاب له من أصحابه، ونالوه، ونالوهم بأنواع الأذى. وهذه سنة الله عز وجل في خلقه، كما قال تعالى: ﴿**مَا يُقَالُ لَكَ إلاَّ مَا قَد قِيـلَ للرُّسُلِ مِن قَبلِكَ**﴾ [فصلت: ٤٣]. وقال: ﴿**وَكَذَٰلك جَعَلنَا لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوًّا شَيَـاطِـينَ الإِنَس وَالجنِّ**﴾ [الأنعـام: ١١٢]. ﴿**وَكَـذَٰلِكَ جَعَلنَا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدُوًّا مِنَ المُجرمينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً**﴾ [الفرقان: ٣١]. ﴿**كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذينَ مِن قَبلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَو مجنُون. أَتَوا صَوا بِهِ بَل هُم قومٌ طَاغُونَ**﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]. فعزَّى الله سبحانه نبيه بذلك، وأن له أسوة بمن تقدمه من المـرسلين، وعـزَّى أتبـاعه بقوله: ﴿**أَم حَسِبتُم أَن تَدخُلُواْ الجنَّة وَلَمَّا يَأتِكُم مَّثَلُ الَّذين خَلَوا مِن قَبلكُم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب**﴾ [البقرة: ٢١٤] وقوله: ﴿**ألم أَحَسِبَ الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فَتَنَّا الذين من قبلهم فلَيَعلمنَّ الله الـذين صدقـوا وليعلمن الكـاذبـين. أم حسب الـذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون. من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآتٍ وهو السميع العليم. ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُكَفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون. ووصينا الإنسان بوالديه حُسنًا وإن جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. والذين آمنوا**

(١) كذا بالأصل ولعلها تعقد (ج).. (٢) ١٠٨ زاد المعاد جـ٢.

وعملوا الصالحات لنُدخلنَّهم في الصالحين. ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذِي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصرٌ من ربك ليقولنَّ إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ [العنكبوت: ١ ـ ١٠].

فصـــل(١)

في لزوم ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لكل عبد إلى الموت.

قال الله تعـالى لرسـوله: ﴿وَاعبد رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ﴾ وقال أهل النـار: ﴿وَكُنَّـا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدينِ حتى أتانَا اليقينُ﴾ واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير. وفي الصحيح ـ في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه ـ أن النبي (ﷺ) قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه». أي الموت وما فيه. فلا ينفك العبد من العبودية مادام في دار التكليف.

بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان: من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله (ﷺ)؟ ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود. فيسجد المؤمنون. ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود. فإذا دخلوا دار الثـواب والعقـاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً.

ومن زعم أنـه يصـل إلى مقـام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه. بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه.

ولهذا كان الواجب على رسول الله (ﷺ)، بل على جميع الرسل ـ أعظم من الواجب على أممهم. والواجب على أولي العزم: أعظم من الواجب على من دونهم. والواجب على أولي العلم: أعظم من الواجب على من دونهم. وكل أحد بحسب مرتبته.

(٢)﴿وَاعبدَ رَبَّكَ حَتى يَأتِيَك اليَقين﴾ [الحجر: ٩٩] واليقين هنا الموت باتفاق

---

(١) ١٠٣ مدارج جـ١.   (٢) ٢٢٤ طريق الهجرتين.

أهل الإسلام، فجاءه (ﷺ) إذ جاءه وإرادته وقصده ونيته في الذروة العليا ونهاية كمالها وتمامها.

[1]فإن الله عز وجل أمره وأمر سائر رسله بعبادته إلى حين انقضاء آجالهم. فقال: ﴿واعْبُدْ رَبَّك حَتَّى يَأْتِيكَ اليقينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وهو الموت بالإجماع كما قال في الآية الأخرى عن الكفار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوم الدِّين. حَتَّى أَتَانَا اليقينُ﴾ وقال (ﷺ): «أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه» قاله لما مات عثمان. وقال المسيح: ﴿إنِّي عَبد الله. آتَاني الكِتَابَ وَجَعَلَني نَبيًّا* وجَعَلَني مُبَاركاً أينما كُنْتُ وَأوصاني بِالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ مَادُمتُ حَيّاً﴾ فهذه وصية الله للمسيح، وكذلك لجميع أنبيائه ورسله وأتباعهم. قال الحسن: لم يجعل الله لعبده المؤمن أجلاً دون الموت.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحجر

والحمد لله رب العالميـــن

---

(١) ١٦٦ مدارج جـ ١.

سُورَةُ النَّحْلِ

ترتيبها ١٦ — آياتها ١٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَالأَنعَامَ خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنهَا تَأكُلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَمَن يَخلُقُ كَمَن لَّا يَخلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤-١٧]. وتأمل كيف وحد سبحانه الآية من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنهُ شَرَابٌ﴾ إلى آخرها [النحل: ١٠]. وختمها بأصحاب الفكرة فأما توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد، وهو الماء الذي أنزل من السماء فأخرج به كلما ذكره من الأرض، وهو على اختلاف أنواعه لقاحه واحد وأمه واحدة فهذا نوع واحد من آياته. وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء موضع فكر وهو نظر القلب وتأمله، لا موضع نظر مجرد بالعين، فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل منه إلى نظر القلب في حكمة ذلك وبديع صنعه والاستدلال به على خالقه وباريه وذلك هو الفكر بعينه. وأما قوله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَومٍ يَعقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]. فجمع الآيات لأنها تضمنت: الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وهي آيات متعددة مختلفة في أنفسها وخلقها وكيفياتها، فإن إظلام الجو لغروب الشمس ومجيء الليل الذي يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته، آية باهرة ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فينهزم عسكر الظلام وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجملته، آية أخرى، ثم في الشمس التي هي آية النهار آية أخرى، وفي القمر الذي هو آية الليل آية أخرى، وفي النجوم آيات أخر كما قدمناه. هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الرياح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أُخر فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل؛ لأنها أعظم مما قبلها وأدل وأبر والأولى كالباب لهذه، فمن استدل بهذه الآيات وأعطاها حقها من الدلالة؛ استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل، ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر، فلما

(١) ٢١٢ مفتاح جـ١ .

دلهم بالآية الأولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التي هي أعظم منها إلى العقل الذي هو فوق الفكر فتأمله. فأما قوله في الآية الثالثة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل:١٣]. فوحد الآية وخصها بأهل التذكر. فأما توحيدها فكتوحيد الأولى سواء فان ما ذرأ في الأرض على اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان، كله في محل واحد فهو نوع من أنواع آياته وإن تعددت أصنافه وأنواعه. وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر، فطريقة القرآن في ذلك أن يجعل آياته للتبصر والتذكر كما قال تعالى في سورة ق: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٧،٨]. فالتبصرة التعقل والتذكرة التذكر والفكر باب ذلك ومدخله فإذا فكر تبصر وإذا تبصر تذكر، فجاء التذكير في الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر، فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل، ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته وأخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر، والعقل، فتأمل ذلك حق التأمل. فإن قلت: فما الفرق بين التذكر والتفكر؟ فإذا تبين الفرق ظهرت الفائدة. قلت: التفكر والتذكر أصل الهدى والفلاح، وهما قطبا السعادة؛ ولهذا وسعنا الكلام في التفكر في هذا الوجه لعظم المنفعة وشدة الحاجة إليه.

قال الحسن: مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذالها أسماع وأبصار. فاعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها هذا حقيقته، فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكر فيها.

فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه، فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته، فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج منه. ما لم يكن حاصلاً عنده فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره مادام عاقلاً؛ لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد؛ بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة.

وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب ويتذكر بها من غفلته؛ فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر، وإما غفلته وزواله بالتذكر.

والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله.

ولو ذهبنا نتتبع ذلك لنفد الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة، وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس: التفكر في آيات الله، وعجائب صنعه، والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته؛ فلذلك عقدنا هذا الكتاب على هذين الأصلين إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد في هذه الدار.

فصل(١)

ثم تأمل العبرة في السمك وكيفية خلقته، وأنه خلق غير ذي قوائم؛ لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء، ولم يخلق له رئة؛ لأن منفعة الرئة التنفس، والسمك لم يحتج إليه لأنه ينغمس في الماء، وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد، يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف من جانبي السفينة، وكسى جلده قشوراً متداخلة كتداخل الجوشن؛ ليقيه من الآفات، وأعين بقوة الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فيقصده.

وقد ذكر في بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخه منافذ فهو يصب الماء فيها بفيه، ويرسله من صماخيه فيتروح بذلك كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه، ثم يرسله ليتروح به. فإن الماء للحيوان البحري كالهواء للحيوان البري، فهما بحران أحدهما ألطف من الآخر: بحر هواء يسبح فيه حيوان البر، وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر، فلو فارق كل من الصنفين بحره إلى البحر الآخر مات، فكما يختنق الحيوان البري في الماء يختنق الحيوان البحري في الهواء.

فسبحان من لا يحصي العادون آياته، ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد، بل إن علموا فيها وجهاً جهلوا منها أوجهاً.

---

(١) ٢٥١ مفتاح جـ١.

فتأمل الحكمة البالغة في كون السمك أكثر الحيوان نسلاً. ولهذا ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة.

وحكمة ذلك أن يتسع لما يتغذى به من أصناف الحيوان، فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباع لأنها في حافات مطموسة جاثمة تعكف على الماء الصافي؛ فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك فاختطفته، فلما كانت السباع تأكل السمك والطير تأكله والناس تأكله والسماك الكبار تأكله ودواب البر تأكله وقد جعله الله سبحانه غذاء لهذه الأصناف؛ اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة، ولو رأى العبد ما في البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف، التي لا يحصيها إلا الله ولا يعرف الناس منها إلا الشيء القليل، الذي لا نسبة له أصلاً إلى ما غاب عنهم؛ لرأى العجب ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التي لا يعلمها إلا هو.

(١)**وتطلق** الروح على القرآن الذي أوحاه تعالى إلى رسوله. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَينَا إِلَيكَ روُحاً مِنْ أَمرنا﴾ [الشورى: ٥٢].

وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله. قال تعالى: ﴿يلقي الرُّوحَ مِن أَمرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَومَ التَّلاقِ﴾ [غافر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ المَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِن أَمرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ أَن أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وسمى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها ألبتة؛ بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحاً لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هبت الأرواح من نحو أرضكم   وجدت لمسراها على كبدي بردا

ومنها الروح والريحان والاستراحة. فسميت النفس روحاً لحصول الحياة بها، وسميت نفساً إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفساً، ومنه النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجاً كليًّا، فإذا دفن

(١) ٢٦٤ الروح.

عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفساً لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وإن الحياة لا تتم إلا به كما لا تتم إلا بالنفس فلهذا قال:

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

ويقال: فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه. كما يقال: خرجت روحه وفارقت، ولكن الفيض الاندفاع وهلة واحدة ومنه الإفاضة وهي الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض إذا اندفع قسراً وقهراً فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي.

(١)**قال** تعالى: ﴿**لِيَحمِلُوا أَوزَارَهُم كَامِلَةً يَومَ القِيَامَةِ وَمِن أَوزارِ الَّذينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرونَ**﴾ [النحل:٢٥]. وقال تعالى: ﴿**وَلَيَحْمِلُن أَثقَالَهُمْ وأَثقالاً مَعَ أَثقَالِهِم**﴾ [العنكبوت:١٣]. .

وهذا يدل على أن من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله (ﷺ) فهو عدوه حقًّا لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته إليه، وهذا من أعظم معاداته، نعوذ بالله من الخذلان.

(٢)**فإن** الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما تولد منها.

ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة؛ فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه؛ لأن اتباعهم له تولد من فعله؛ ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة.

وقد قال تعالى: ﴿**لِيَحمِلُوا أَوزَارَهُم كَامِلَةً يَومَ القِيَامَةِ وَمِن أَوزارِ الَّذينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيرِ عِلْمٍ**﴾ [النحل:٢٥]. وقال تعالى: ﴿**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثقَالَهُمْ وَأَثقَالاً مَعَ أَثقَالِهِم**﴾ [العنكبوت:١٣]. فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره؟.

قيل: التوبة منه بالندم عليه وعدم إجابة دواعيه وموجباته وحبس النفس عن

(١) ٦٢ مفتاح جـ١. (٢) ٧١ عدة الصابرين.

ذلك. **فإن** كان المتولد متعلقاً بالغير، فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان. ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة: أن يبين أن ماكان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده. كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى؛ ليضلوا الناس بذلك؛ أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيهِم وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم: إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم، واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة؛ أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكفر والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم له رياء وسمعة فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان.

(١)**وههنا** أمر يجب التنبيه عليه، وهو أن الجنة إنما تُدخل برحمة الله تعالى، وليس عمل العبد مستقلا بدخولها وإن كان سبباً؛ ولهذا أثبت الله تعالى دخولها بالأعمال في قوله: **﴿بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ﴾** [النحل: ٣٢].

ونفى رسول الله (ﷺ) دخولها بالأعمال بقوله: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**». **ولا** تنافي بين الأمرين لوجهين:

أحدهما: ما ذكره سفيان وغيره قال: كانوا يقولون: النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمته، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال.

والثاني إن الباء التي نفت الدخول هي باء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابلاً للآخر، والباء التي أثبتت الدخول هي باء السببية التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره وإن لم يكن مستقلاً بحصوله.

وقد جمع النبي (ﷺ) بين الأمرين بقوله: «**سدِّوداً وقاربوا وأبشروا واعلموا أن أحداً منكم لن ينجو بعمله**». قالوا: «ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا إلا أن**

(١) ٦٧ حادي الأرواح.

يتغمدني الله برحمته» ومن عرف الله تعالى وشهد مشهد حقه عليه ومشهد تقصيره وذنوبه وأبصر هذين المشهدين بقلبه؛ عرف ذلك وجزم به والله سبحانه وتعالى المستعان.

(١)**قوله** تعالى في سورة النحل: ﴿**وَأَقسَمُوا بِاللهِ جَهدَ أَيمانِهِم لَا يَبعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعداً عَلَيهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لَا يَعلَمُونَ. لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُم كَانُوا كَاذِبِينَ**﴾ [النحل: ٣٨-٣٩]. فذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثه الأموات بعد ما أماتهم:

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذباً، وأنه كان على باطل وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه فيخزيه ذلك أعظم خزي!(٢).

(٣)**حَرّم** الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره فإنها دار الطيبين. ولهذا يقال لهم: ﴿**طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خَالِدِينَ**﴾ [الزمر: ٧٣]. أي: ادخلوها بسبب طيبكم. والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ**﴾ [النحل: ٣٢]. فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر، لم يدخلها بحال. وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر من النار من تلك النجاسة، ثم لا يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيُهَذَّبون ويُنَقَّون من بقايا بقيت عليهم، قَصَّرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة.

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر، وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفاً على الطيب

(١) ١٦١ بدائع جـ٤.	(٢) أصل البحث موصول في سورة البقرة رقم الآية: ٤٠ وكذلك في المائدة على قول الله تعالى: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ [المائدة: ٤٨].

(٣) ٥٦ إغاثة جـ١.

والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب. ولهذا شرع للمتوضىء أن يقول عقيب وضوئه: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التَّوَّابين واجعلني من المتطهرين**[(١)]» فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء. فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته.

وسألت شيخ الإسلام[(٢)] عن معنى دعاء النبي (ﷺ): «**اللهمَّ طهرني من خطاياي بالماء والثلْج والبَرَد**[(٣)]» كيف يطهر الخطايا بذلك؟ وما فائدة التخصيص بذلك؟ وقوله في لفظ آخر: «**والماء البارد**» والحارُّ أبلغ في الإنقاء؟

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفاً، فيرتخي القلب وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذي يمد النار ويوقدها، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه، والماء يغسل الخبث ويطفىء النار، فإن كان بارداً أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدته، فكان أذهب لأثر الخطايا. هذا معنى كلامه، وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح.

فاعلم أن ههنا أربعة أمور: أمران حسيان، وأمران معنويان. فالنجاسة التي تزول بالماء هي ومزيلها حسيان، وأثر الخطايا التي تزول بالتوبة والاستغفار هي ومزيلها معنويان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا. فذكر

(١) روى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**» وزاد الترمذي: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**».

(٢) هو شيخ الإسلام تقي الدين إمام عصره وحجة الله على خلقه القائم لله بالدعوة جاهداً مجاهداً صابراً محتسباً: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني المولود سنة ٦٦١هـ والمتوفى بقلعة دمشق محبوساً ظلماً لقوله الحق إرضاء لله، وإغضاباً لأئمة البدعة في سنة ٧٢٣هـ.

(٣) روى الإمام أحمد ومالك في الموطأ والبخاري ومسلم وأصحاب السنن، إلا الترمذي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا كبر في الصلاة سكت هنيهة، قبل القراءة، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: «**أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب. اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس. اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد**».

النبي، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من كل شطر قسما نَبَّه به على القسم الآخر. فتضمن كلامه الأقسام الأربعة في غاية الاختصار، وحسن البيان. كما في حديث الدعاء بعد الوضوء: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني مِن المتطهرين**» فإنه يتضمن ذكر الأقسام الأربعة. ومن كمال بيانه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وتحقيقه لما يخبر به، ويأمر به: تمثيله الأمر المطلوب المعنوي بالأمر المحسوس. وهذا كثير في كلامه، كقوله في حديث علي بن أبي طالب: «**سل الله الهدى والسداد، واذْكر**(١) **بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سَداد السَّهم**» إذ هذا من أبلغ التعليم. والنصح، حيث أمره أن يذكر إذا سأل الله الهدى إلى طريق رضاه وجنته: كونه مسافراً، وقد ضل عن الطريق، ولا يدري أين يتوجه، فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها، فسأله أن يدله على الطريق، فهكذا شأن طريق الآخرة، تمثيلاً لها بالطريق المحسوس للمسافر. وحاجة المسافر إلى الله سبحانه: إلى أن يهديه تلك الطريق، أعظم من حاجة المسافر إلى بلد إلى من يدله على الطريق الموصل إليها. وكذلك السداد ـ وهو إصابة القصد قولاً وعملاً ـ فمثله مثل رامي السهم، إذا وقع سهمه في نفس الشيء الذي رماه، فقد سدد سهمه وأصاب، ولم يقع باطلاً، فهكذا المصيب للحق في قوله وعمله بمنزلة المصيب في رميه. وكثيراً ما يقرن في القرآن هذا وهذا. فمنه قوله تعالى: ﴿**وتَزَوَّدُوا فإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾ [البقرة: ١٩٧]. أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى. فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين، ومنه قوله تعالى: ﴿**يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذٰلِك خيْرٌ**﴾ [الأعراف: ٢٦]. فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن، وكمال الظاهر والباطن، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى**﴾ [طه: ١٢٣]. فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضاً، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح، ومنه قول امرأة

(١) في المطبوعة «وافكر» والصواب ماذكرناه كما هو في صحيح مسلم ح رقم (٢٧٢٥) المراجع.

العزيز، عن يوسف عليه السلام، لما أرْتْهُ النسوة اللائمات لها في حبه: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ فأرتهن جماله الظاهر. ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:٣٢]. فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره.

فنبه، صلى الله عليه وآله وسلم، بقوله: «**اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد**» على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

وقريب من هذا: أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «كان إذا خرج من الخلاء قال: «**غفرانك** » وفي هذا من السر ـ والله أعلم ـ: أن النَّجْوَ يُثقل البدن ويؤذيه باحتباسه، والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه، فهما مؤذيان مضران بالبدن والقلب، فحمد الله عند خروجه على خلاصه من هذا المؤذي لبدنه. وخفة البدن وراحته، وسأل أن يخلصه من المؤذي الآخر ويريح قلبه منه ويخففه. وأسرار كلماته وأدعيته (ﷺ) فوق ما يخطر بالبال. اهـ

(١)**قال** أبومحمد بن حزم: ومما يبين أن أخبار رسول الله (ﷺ) تفيد العلم أن الله تعالى قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]. فصح أنه (ﷺ) مأمور ببيان القرآن للناس وفي القرآن مجمل كثير كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك مما لا يعلم ما ألزمنا الله تعالى فيه بلفظه، لكن بتبيان رسول الله (ﷺ) فإذا كان بيانه لذلك المجمل غير محفوظ ولا مضمون سلامته مما ليس منه؛ فقد بطل الانتفاع بنص القرآن وبطلت أكثر الشرائع المفترضة علينا فيه، فإن لم ندر صحيح مراد الله تعالى منها مما أخطأ فيه المخطىء أو تعمد فيه الكذب الكاذب ـ ومعاذ الله من هذا ـ قال: وأيضاً فنقول لمن قال: إن خبر الواحد العدل عن مثله مبلغاً إلى النبي (ﷺ) لا يوجب العلم وأنه يجوز فيه تعمد الكذب والوهم، وأنه غير مضمون الحفظ: أخبرونا هل يمكن أن يكون عندكم شريعة فرض أو تحريم أتى بها رسول الله (ﷺ) ومات وهي باقية لازمة للمسلمين غير منسوخة فجهلت؛ حتى لا يعلمها على اليقين أحد من أهل الإسلام في العالم أبدا.

(١) ٣٨٠ مختصر الصواعق جـ ٢.

وهل يمكن عندكم أن يكون حكم موضوع بالكذب أو بخطأ بالوهم؛ قد جاز ومضى واختلط بأحكام الشريعة اختلاطاً لا يجوز أن يميزه أحد من أهل الإسلام في العالم أبداً أم لا يمكن عندكم شيء من هذين الوجهين؟ فإن قالوا: لا يمكنان أبداً بل قد أمنا ذلك؛ صاروا إلى قولنا وقطعوا أن كل خبر رواه الثقة عن الثقة مسنداً إلى رسول الله (ﷺ) في الديانة فإنه حق قد قاله رسول الله (ﷺ) كما هو وأنه يوجب العلم ويقطع بصحته.

ولا يجوز أن يختلط به خبر موضوع أو موهوم فيه لم يقله قط رسول الله (ﷺ) اختلاطاً لا يتميز الباطل فيه من الحق أبداً.

وإن قالوا: بل كل ذلك ممكن كانوا قد حكموا بأن دين الإسلام قد فسد وبطل أكثره، واختلط ما أمر الله تعالى به مع ما لم يأمر به اختلاطاً لا يميزه أحد أبداً، وانهم لا يدرون أبداً ما أمرهم الله به مما لم يأمرهم به، ولا ما وضع الكاذبون والمستخفون بما جاء به رسول الله (ﷺ) إلا بالظن الذي هو أكذب الحديث والذي لا يغني من الحق شيئاً. وهذا انسلاخ من الإسلام وهدم للدين وتشكيك في الشرائع . . . .

(١). . . **فإن** قيل: فما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التي هي أسباب المخافة، وشدة خوف النبي (ﷺ) مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأنه أقرب الخلق إلى الله؟ قيل: عن هذا أربعة أجوبة:

الجواب الأول: أن هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده. وكلما كان العبد أقرب إلى الله كان خوفه منه أشد، لأنه يطالب بما لا يطالب به غيره، ويجب عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها ما لا يجب على غيره.

ونظير هذا في المشاهد أن الماثل بين يدي أحد الملوك المشاهد له أشد خوفاً منه من البعيد عنه، بحسب قربه منه ومنزلته عنده ومعرفته به وبحقوقه، وأنه يطالب من حقوق الخدمة وأدائها بما لا يطالب به غيره فهو أحق بالخوف من البعيد. ومن تصور هذا حق تصوره فهم قوله (ﷺ): «**إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**». . .

---

(١) ٢٨٥ طريق الهجرتين.

...[1]**وأما** قوله تعالى: ﴿**يَخافُون رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ**﴾ [النحل: ٥٠]. هو حجة عليه كما تقدم. ولا يصح تفسير الخوف هنا بالهيبة؛ لوجهين: أحدهما: أنه خروج عن حقيقة اللفظ ووضعه الأصلي بلا موجب، الثاني: أن هذا وصف للملائكة وقد وصفهم سبحانه بخوفه وخشيته، فالخوف في هذه الآية والخشية في قوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون**﴾ [الأنبياء: ٢٨]. فوصفهم بالخشية والإشفاق، ووصفهم بخوف العذاب في قوله تعالى: ﴿**يَبْتَغُونَ إِلىَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَه**﴾ [الإسراء: ٥٧]. وهم خواص خلقه. فإياك ورعونات النفس وحماقاتها وجهالاتها، ولا تكن ممن لا يقدر الله حق قدره، وقد قال النبي (ﷺ): «**إن الله لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم**» فإذا علم المقرب العارف أن الله لو عذبه لم يظلمه، فمن أحق بالخوف منه؟ قوله: وقال في حق العوام: ﴿**يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيه القُلُوبُ والأَبْصارُ**﴾ [التوبة: ٣٧]. هذا من الشطحات القبيحة الباطلة، فإن هذا صفة خواص عباده وعارفيهم، وهم الذين قال فيهم: ﴿**رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَإِقامِ الصَّلاةِ وإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ والأَبْصارُ لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِه**﴾ [النور: ٣٧-٣٨]. فهؤلاء خواص الخلق، وهم أصحاب رسول الله (ﷺ) ومن تبعهم بإحسان، أفلا يستحي من جعل هذا الوصف للعوام؟ ولا ريب أن هذا مصدره: إما جهل مفرط، وإما تقليد لقائل لا يدري لازم قوله. هذا إن أحسن الظن بقائله، وإن كان مصدره غير ذلك فأدهى وأمر. ولولا أن هذه الكلمات ونحوها مهاو ومعاطب في الطريق لكان الإعراض عنها إلى ما هو أهم منها أولى. والله المستعان.

[2]**المثال** الثاني عشر، وقد تقدم ذكره مجملاً فنذكره ههنا مفصلاً: ردّ الجهمية النصوص المتنوعة المحكمة على عُلو الله على خلقه وكونه فوق عباده من ثمانية عشر نوعاً:

أحدها: التصريح بالفوقية مقرونة بأداة (مِنْ) المعينة لفوقية الذات نحو:

---

(١) ٣٤٤ طريق الهجرتين. (٢) ٢٨١ أعلام جـ٢.

﴿يَخافُون رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة كقوله: ﴿وَهُو القَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ﴾

الثالث: التصريح بالعُرُوجِ إليه نحو: ﴿تَعْرُجُ الملاَئِكَةُ والرُّوحُ إليه﴾ [المعارج: ٤]. وقول النبي (ﷺ): «فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم»

الرابع: التصريح بالصعود إليه كقوله: ﴿إليهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه كقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ الله إلَيهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. وقوله: ﴿إنِي مُتَوفِّيك وَرَافِعُكَ إليَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. السادس: التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتاً وقدراً وشرفاً، كقوله: ﴿وَهُوَ العَليُّ العَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿وَهُوَ العَليُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. ﴿إنَّه عَليٌّ حكيم﴾ [الشورى: ٥١].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله: ﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ الله العَزيز الحَكِيم﴾ [الزمر: ١]. ﴿تَنزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالحقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

وهذا يدل على شيئين: على أن القرآن ظهر منه لا من غيره، وأنه الذي تكلم به لا غيره. الثاني: على علوه على خلقه وأن كلامه نزل به الروح الأمين من عنده من أعلى مكان إلى رسوله.

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقربُ إليه من بعض، كقوله: ﴿إنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. وقوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّماوات وَالأرضِ وَمَن عِندَهُ لاَ يَستَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِهِ وَلاَ يَستَحسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]. ففرق بين مَنْ له عموماً، ومن عنده من مماليكه وعبيده خصوصاً، وقول النبي (ﷺ) في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه: «إنه عنده على العرش».

التاسع: التصريح بأنه سبحانه في السماء، وهذا عند أهل السنة على أحد وجهين: إما أن تكون في بمعنى على، وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز حمل النص على غيره.

العاشر: التصريح بالاستواء مقروناً بأداة على مختصاً بالعرش الذي هو أعلى المخلوقات، مصاحباً في الأكثر لأداة «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة، وهو بهذا السياق صريح في معناه الذي لا يفهم المخاطبون غيره من العلو والارتفاع، ولا يحتمل غيره ألبتة.

الحادي عشر: التصريح برفع الأيدي إلى الله سبحانه كقوله (ﷺ): «**إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صِفراً**».

الثاني عشر: التصريح بنزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى أسفل.

الثالث عشر: الإشارة إليه حسًّا إلى العلو كما أشار إليه مَنْ هو أعلم به، وما يجب له ويمتنع عليه من أفراخ الجهمية والمعتزلة والفلاسفة في أعظم مجمع على وجه الأرض يرفع أصبعه إلى السماء، ويقول: اللهم اشهد، ليشهد الجميع أن الرب الذي أرسله ودعا إليه واستشهد هو الذي فوق سماواته على عرشه.

الرابع عشر: التصريح بلفظ الأين الذي هو عند الجهمية بمنزلة متى في الاستحالة، ولا فرق بين اللفظين عندهم ألبتة، فالقائل: «**أين الله**» و«متى كان الله» عندهم سواء، كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأعظمهم بياناً عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه «**أين الله**» في غير موضع.

الخامس عشر: شهادته التي هي أصدق شهادة عند الله وملائكته وجميع المؤمنين لمن قال: «إن ربه في السماء» بالإيمان، وشهد عليه أفراخ جَهْم بالكفر.

وصرّح الشافعي أن هذا الذي وَصَفتْهُ من أن ربها في السماء إيمان.

فقال في كتابه في باب عتق الرقبة المؤمنة، وذكر حديث الأمة السوداء التي سَوَّدت وجوهَ الجهمية وبيضت وجوه المحمدية: فلما وصفت الإيمان قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**» وهي إنما وصَفَتْ كونَ ربها في السماء، وأن محمداً عبده ورسوله؛ فقرنت بينهما في الذكر؛ فجعل الصادقَ المصدوق مجموعهما هو الإيمان.

السادس عشر: إخباره سبحانه عن فرعون أنه رَامَ الصعودَ إلى السماء ليطلع إلى إلٰهِ موسى، فيكذبه فيما أخبر به من أنه سبحانه فوق السماوات، فقال:

﴿يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسبَابَ أَسبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَه مُوسَى وإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]. فكذب فرعون موسى في إخباره إياه بأن ربه فوق السماء. وعند الجهمية لا فرق بين الإخبار بذلك وبين الإخبار بأنه يأكل ويشرب، وعلى زعمهم يكون فرعون قد نزه الرب عما لا يليق به وكذب موسى في إخباره بذلك؛ إذ مَنْ قال عندهم: إن ربه فوق السماوات فهو كاذب، فهم في هذا التكذيب موافقون لفرعون، مخالفون لموسى ولجميع الأنبياء، ولذلك سماهم أئمة السنة «فرعونية».

قالوا: وهم شر من الجهمية؛ فإن الجهمية يقولون: إن الله في كل مكان بذاته، وهؤلاء عطلوه بالكلية، وأوقعوا عليه الوصف المطابق للعدم المحض، فأي طائفة من طوائف بني آدم أثبتت الصانع على أي وجه كان قولهم خيراً من قولهم.

السابع عشر: إخباره (ﷺ) أنه تردَّدَ بين موسى وبين الله ويقول له موسى: «**ارْجِعْ إلى ربك فسَلْه التخفيف**»، فيرجع إليه ثم ينزل إلى موسى فيأمره بالرجوع إليه سبحانه، فيصعد إليه سبحانه ثم ينزل من عنده إلى موسى، عدة مرات.

الثامن عشر: إخباره تعالى عن نفسه وإخبار رسوله عنه: أن المؤمنين يَرَوْنَهُ عِياناً جَهْرَة كرؤية الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر.

والذي تفهمه الأمم على اختلاف لُغاتها وأوهامها من هذه الرؤية؛ رؤية المقابلة والمواجهة التي تكون بين الرائي والمرئي فيها مسافة محدودة غير مُفْرِطة في البعد؛ فتمتنع الرؤية ولا في القرب فلا تمكن الرؤية، لا تَعْقِلُ الأمم غيرَ هذا، فإما أن يروه سبحانه من تحتهم ـ تعالى الله ـ أو من خلفهم أو من أمامهم أو عن أيمانهم أو عن شمائلهم أو من فوقهم.

ولابد من قسم من هذه الأقسام إن كانت الرؤية حقًّا، وكلها باطل سوى رؤيتهم له من فوقهم، كما في حديث جابر الذي في المسند وغيره: «**بَيْنَا أهلُ الجنة في نعيمهم إذ سَطَع لهم نور، فرفعوا رءوسهم، فإذا الجبار قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم**» ثم قرأ قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. ثم يتوارى عنهم، وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم، ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية، ولهذا طرد الجهمية أصلهم وصرَّحُوا بذلك،

وركبوا النفيين معاً، وصَدَّقَ أهلُ السنة بالأمرين معاً، وأقروا بهما، وصار مَنْ أثبت الرؤية ونَفَى علو الرب على خلقه واستواءه على عرشِهِ مذبذباً بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

فهذه أنواع من الأدلة السمعية المحكمة، إذا بسطت أفرادها كانت أَلْفَ دليل على علو الرب على خلقه واستوائه على عرشه.

فترك الجهمية ذلك كله، وردوه بالمتشابه من قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتم﴾ [الحديد: ٤].

وردَّه زعيمهم المتأخر بقوله: ﴿قُل هُوَ الله أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١١]. وبقوله: ﴿لَيسَ كِمِثلِهِ شيءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ثم ردوا تلك الأنواع كلها متشابهة، فسلطوا المتشابه على المحكم وردوه به.

ثم ردوا المحكم متشابهاً؛ فتارة يحتجون به على الباطل، وتارة يدفعون به الحق.

ومن له أدنى بصيرة يعلم أنه لا شيء في النصوص أظهر ولا أبين دلالة من مَضْمُون هذه النصوص؛ فإذا كانت متشابهة فالشريعة كلها متشابهة، وليس فيها شيء محكم ألبتة، ولازم هذا القول لزوماً لا مَحِيدَ عنه: أن ترك الناس بدونها خير لهم من إنزالها إليهم، فإنها أَوْهَمَتْهُمْ وأفهمتهم غيرَ المراد، وأوقعتهم في اعتقاد الباطل، ولم يتبين لهم ما هو الحق في نفسه، بل أُحِيلُوا فيه على ما يستخرجونه بعقولهم وأفكارهم ومقاييسهم.

فنسأل الله مثبت القلوب تبارك وتعالى أن يثبت قلوبنا على دينه وما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا؛ إنه قريب مجيب.

(١)**ومن** ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِن نّعمةٍ فمِن الله﴾. والإيمان والطاعة من أجل النعم بل هما أجل النعم على الإطلاق، فهما منه سبحانه تعليماً وإرشاداً وإلهاماً وتوفيقاً ومشيئة وخلقاً.

ولا يصح أن يقال: إنها أمراً وبياناً فقط، فإن ذلك حاصل بالنسبة إلى الكفار والعصاة، فتكون نعمته على أكفر الخلق كنعمته على أهل الإيمان والطاعة والبر منهم، إذ نعمة البيان والإرشاد مشتركة وهذا قول القدرية، وقد صرح به كثير منهم ولم يجعلوا

(١) ٥٧ شفاء العليل.

لله على العبد نعمة في مشيئته وخلقه فعله وتوفيقه إياه حين فعله، وهذا من قولهم الذي باينوا به جميع الرسل والكتب وطردوا ذلك حين لم يجعلوا لله على العبد منة في إعطائه الجزاء، بل قالوا: ذلك محض حقه الذي لا منة لله عليه فيه.

واحتجوا بقوله: ﴿لَهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ﴾ [فصلت:٨]. قالوا: أي: غير ممنون به عليهم إذ هو جزاء أعمالهم وأجورها.

قالوا: والمنة تكدر النعمة والعطية، ولم يدع هؤلاء للجهل بالله موضعاً وقاسوا منته على منة المخلوق، فإنهم مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات.

وليست المنة في الحقيقة إلا لله فهو المان بفضله وأهل سمواته. وأهل أرضه في محض منته عليهم قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَنَ أَسلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيكُم أَن هَدَاكُم لِلإِيمَانِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧]. وقال تعالى لكليمه موسى: ﴿وَلَقَد مَنَنَّا عَلَيكَ مَرَّةً أُخرَى﴾ [طه:٣٧]. وقال: ﴿وَلَقَد مَنَنَّا على مُوسى وهارُون﴾ [الصافات:١١٤]. وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ استُضعِفُوا فِي الأَرضِ وَنَجعَلَهُم أَئِمَّةً وَنَجعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾ [القصص:٥]. ولما قال النبي (ﷺ) للأنصار «**ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي**» قالوا: الله ورسوله أمن.

وقال الرسل لقومهم: ﴿إِن نَّحنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثلُكُم وَلَكِنَّ الله يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:١١]. فمنه سبحانه محض إحسانه وفضله ورحمته وما طاب عيش أهل الجنة فيها إلا بمنته عليهم، ولهذا قال أهلها ـ وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ـ ﴿**إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم**﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧]. فأجزوا لمعرفتهم بربهم وحقه عليهم: أن نجاهم من عذاب السموم بمحض منته عليهم.

وقد قال أعلم الخلق بالله وأحبهم إليه وأقربهم منه وأطوعهم له:

«**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**».

وقال: «**إن الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم**».

والأول في الصحيح، والثاني في المسند والسنن وصححه الحاكم وغيره. فأخبر سيد العالمين والعاملين أنه لا يدخل الجنة بعمله.

وقالت القدرية: إنهم يدخلونها بأعمالهم لئلا يتكدر نعيمهم عليهم بمشيئة الله، بل يكون ذلك النعيم عوضاً.

وما رمى السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم القدرية عن قوس واحدة؛ إلا لعظم بدعهم ومنافاتها لما بعث الله به أنبياءه ورسله، فلو أتى العباد بكل طاعة وكانت أنفاسهم كلها طاعات لله؛ لكانوا في محض منته وفضله وكانت له المنة عليهم، وكلما عظمت طاعة العبد كانت منة الله عليه أعظم فهو المان بفضله، فمن أنكر منته فقد أنكر إحسانه.

وأما قوله تعالى: ﴿لَهُم أجرٌ غيرُ ممنُونٍ﴾ [فصلت:٨]. فلم يختلف أهل العلم بالله ورسوله وكتابه أن معناه غير مقطوع ومنه: ريب المنون، وهو الموت لأنه يقطع العمر.

قاعدة جليلة(١)

قد فكرت في هذا الأمر، فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ذكرها، ويوزعك شكرها.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعمَةٍ فَمِنَ الله ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيهِ تَجأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣].

وقال: ﴿فَاذكُروا آلاء الله لعلكم تُفلحونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وقال: ﴿وَاشْكُرُوا نِعمَةَ الله إن كُنتُم إِيَّاه تَعبُدُون﴾ [النحل: ١١٤].

وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله، فذكرها وشكرها لا ينال إلا بتوفيقه.

والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده، وتخليته بينه وبين نفسه، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه، فإذا هو مضطر إلى التضرع والابتهال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتى لا تصدر منه.

وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية، فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها، فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه

---

(١) ٢٠٣ فوائد.

الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية والتوبة النصوح.

ثم فكـرت فإذا مدار ذلك على الرغبة والرهبة، وليسا بيد العبد، بل بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء، فإن وفق عبده أقبل بقلبه إليه وملأه رغبة ورهبة، وإن خذله تركه ونفسه ولم يأخذ بقلبه إليه ولم يسأله ذلك، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

ثم فكرت، هل للتوفيق والخذلان سبب، أم هما بمجرد المشيئة لا سبب لهما؟ فإذا سببهما أهلية المحل وعدمها، فهو ـ سبحانه ـ خالق المحال متفاوتة في الاستعداد والقبول أعظم تفاوت، فالجمادات لا تقبل ما قبله الحيوان، وكذلك النوعان، كل منهما متفاوت في القبول؛ فالحيوان الناطق يقبل ما لا يقبله البهيم، وهو متفاوت في القبول أعظم تفاوت. وكذلك الحيوان البهيم متفاوت في القبول، لكن ليس بين النوع الواحد من التفاوت كما بين النوع الإنساني.

فإذا كان المحل(١) قابلاً للنعمة بحيث يعرفها ويعرف قدرها وخطرها، ويشكر المنعم بها ويثني عليه بها ويعظمه عليها، ويعلم أنها من محض الجود وعين المنة من غير أن يكون هو مستحقا لها، ولا هي له ولا به، وإنما هي لله وحده وبه وحده، فوحده بنعمته إخلاصاً وصرفها في محبته شكراً، وشهدها من محض جوده منة، وعرف قصوره وتقصيره في شكرها عجزاً وضعفاً وتفريطاً، وعلم أنه إن أدامها عليه فذلك محض صدقته وفضله وإحسانه، وإن سلبه إياها فهو أهل لذلك مستحق له، وكلما زاده من نعمه ازداد ذلاً له وانكساراً، وخضوعاً بين يديه وقياماً بشكره، وخشيته له ـ سبحانه ـ أن يسلبه إياها، لعدم توفيته شكرها، كما سلب نعمته عمن لم يعرفها ولم يرعها حق رعايتها، فإن لم يشكر نعمته وقابلها بضد ما يليق أن يقابل به، سلبه إياها، ولابد. قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٣]. وهم الذين عرفوا قدر النعمة وقبلوها، وأحبوها وأثنوا على المنعم بها، وأحبوه وقاموا بشكره، وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ**﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(١) المحل القابل للنعمة هو الموفق (ج).

فصــل

وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]. أي: على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله.

قال الفراء: أي: على فضل عندي، إني كنت أهله ومستحقًّا له إذ أعطيته.

وقال مقاتل: يقول: على خير علمه الله عندي.

وذكر عبدالله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود، فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي، لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النحل: ٤٠]. ولم يقل هذا من كرامتي.

ثم ذكر قارون، وقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] يعني أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته، وانه ابتلي به شكره، وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠] أي: أنا أهله، وحقيق به فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه، والمؤمن يرى ذلك ملكاً لربه وفضلاً منه منّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها، لم يكن قد منعه شيئاً هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك، رأى فيه أهلاً ومستحقًّا، فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة، وعلت بها واستطالت على غيرها، فكان حظها منه الفرح والفخر. كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩-١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء ـ قوله: ذهب السيئات عني ـ ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته، ومنّه، لما ذم على ذلك، بل كان محموداً عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها

وفرح وافتخر، فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ البُكمُ الَّذِينَ لاَ يَعقِلُونَ وَلَو عَلِمَ اللهُ فِيهِم خَيراً لأَسمَعَهُم وَلَو أَسمَعَهُم لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣] فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم؛ وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله ـ سبحانه ـ لها قابلة للنعمة، فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض: هذه قابلة للنبات، وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر: هذه تقبل الثمرة، وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته(١) وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك، بل لضده؛ وهو الحكيم العليم.

(٢)**قوله**: ﴿وَيَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَملِكُ لَهُم رِزقاً مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ شَيئاً وَلاَ يَستَطِيعُونَ فَلاَ تَضرِبُوا للهِ الأَمثَالَ﴾ [النحل: ٧٣-٧٤] فنهاهم أَنْ يضربوا له مثلاً من خلقه، ولم ينههم أن يضربوه هو مثلاً لخلقه، فإن هذا لم يقله أحدٌ، ولم يكونوا يفعلونه. فإن الله سبحانه أجل وأعظم وأكبر من كل شيء في فِطَر الناس كلهم. ولكن المشبهون المشركون يَغْلُونَ فيمن يعظمونه فيشبهونهم بالخالق، والله تعالى أجلُّ في صدور جميع الخلق من أن يجعَلُوا غيره أصلاً، ثم يشبهونه سبحانه بغيره.

فالذي يشبهه بغيره، إن قصد تعظيمه، لم يكنْ في هذا تعظيم، لأنه مَثَّل أعظمَ العظماء بما هو دونه، بل بما ليس بينه وبينه نسبة وشبه في العظمة والجلالة، وعاقل لا يفعل هذا.

وإن قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين، لا بالكاملين الممدوحين.

(١) كذا بالأصل ولعلها محبته (ج). (٢) ٢٣٠ إغاثة جـ٢.

ومن هنا يُعْلَمُ أن إثبات صفاتِ الكمال له لا يتضمن التشبيه والتمثيل، لا بالكاملين ولا بالناقصين، وأنَّ نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين.

فانظر إلى الجهمية وأتباعهم، جاءوا إلى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحاً، وجاءوا إلى الكمال والمدح فجعلوه تشبيهاً وتمثيلاً، عكس ما يثبته القرآن، وجاء به من كُلِّ وجه.

(١)**الوجه** الخامس والثلاثون: أنه سبحانه وصف نفسه بأن له المثل الأعلى فقال تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوءِ ولله المَثَلُ الأعلَى وَهُو العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [النحل: ٦٠] وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبدَؤُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهوَنُ عَلَيهِ وَلَهُ المَثَلُ الأعلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [الروم: ٢٧] فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده. وبهذا كان المثل الأعلى، وهو أفعل تفضيل، أي أعلى من غيره. فكيف يكون أعلى وهو عدم محض ونفي صرف، وأي مثل أدنى من هذا؟ تعالى الله عن قول المعطلين علوًّا كبيراً.

فمثل السوء العادم صفات الكمال. ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده وكلامه وحكمته، لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها كان كاملاً. وهي: الإيمان والعلم والمعرفة، واليقين والإخلاص والعبادة لله، والتوكل عليه والإنابة إليه، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، والصبر والرضى والشكر، وغير ذلك من الصفات التي من اتصف بها كان ممن آمن بالآخرة، فلما سلبت تلك الصفات عنهم وهي صفات كمال صار لهم مثل السوء.

فمن سلب صفات الكمال عن الله تعالى وعلوه على خلقه وكلامه وعلمه وقدرته وسائر ما وصف به نفسه؛ فقد جعل لله تعالى مثل السوء ونزهه عن المثل الأعلى، وأن مثل السوء هو العدم وما يستلزمه، وضده المثل الأعلى وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل؛ كان أعلى من غيره.

ولما كان الرب سبحانه هو الأعلى ووجهه الأعلى وكلامه الأعلى وسمعه

(١) ٢١٣ مختصر الصواعق جـ١.

الأعلى وسائر صفاته عليا، كان له المثل الأعلى وهو أحق به من كل ما سواه.

بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان، لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلا من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده؛ فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير. وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة.

ونظير هذا القهر المطلق مع الوحدة فإنهما متلازمان، فلا يكون القهار إلا واحداً إذ لو كان معه كفؤ له، فإن لم يقهره لم يكن قهاراً على الإطلاق، و إن قهره لم يكن له كفؤاً وكان القهار واحداً. فتأمل كيف كان قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧] من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه وتعالى.

فإن قلت فما حقيقة المثل الأعلى؟ قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين واستشكلوا أقوال السلف فيه، فإن ابن عباس وغيره قالوا: مثل السوء العذاب والنار، ولله المثل الأعلى: شهادة (أن لا إله إلا الله) قال قتادة: هو الإخلاص والتوحيد.

وقال الواحدي: هذا قول المفسرين في هذه الآية، ولا أدري لِمَ قيل العذاب مثل السوء والإخلاص المثل الأعلى؟.

قال: وقال قوم: المثل السوء الصفة السوء من احتياجهم للولد وكراهتهم للإناث خوف العيلة والعار، ولله المثل الأعلى الصفة العليا وتنزهه وبراءته من الولد.

قال: وهذا قول صحيح، والمثل كثيراً يرد بمعنى الصفة. وقاله جماعة من المتقدمين. وقال ابن كيسان: مثل السوء ماضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال، والمثل الأعلى نحو قوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وقال ابن جرير: وله المثل الأعلى، هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله إلا هو.

قلت: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي، والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فها هنا أربعة أمور:

ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها. وهذا قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: إنـه ما في قلوب عابـديه وذاكـريه من معـرفتـه وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه. وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه؛ بل يختص به في قلوبهم كما اختص به في ذاته، وهذا معنى قول من قال من المفسرين: أهل السماء يحبونه ويعظمونه. وأهل الأرض يجلونه ويعظمونه، وإن أشرك به من أشرك وعصـاه من عصاه وجحد صفاته من جحدها، فكل أهل الأرض معظمون له مجلون له خاضعون لعظمته.

قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦] فلست تجد أحداً من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره وأعظم من كل ما سواه.

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها عن النقائص والعيوب والمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه.

وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل؛ كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

فعبارة السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها. وقد ضرب الله مثل السوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة، ولا تملك لنفسها ولا لعابديها ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورًا.

وقال الله تعـالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥-٧٦].

فهذان مثلان ضربهما الله لنفسه وللأصنام، للأصنام مثل السوء وله المثل الأعلى وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ. إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

فهذا المثل الأعلى الذي له سبحانه، والأول مثل السوء للصنم وعابديه.

وقد ضرب الله سبحانه للمعارضين بين الوحي وعقولهم مثل السوء؛ بالكلب تارة وبالحمر تارة وبالأنعام تارة، وبأهل القبور تارة وبالعمي الصم وغير ذلك من أمثال السوء التي ضربها لهم ولأوثانهم.

وأخبر عن مثله الأعلى بما ذكره من أسمائه وصفاته وأفعاله، وضرب لأوليائه وعابديه أحسن الأمثال. ومن تدبر القرآن فهم المراد بالمثل الأعلى ومثل السوء. ا. هـ

(1)**وقد** أخبرنا سبحانه عن تفاصيل يوم القيامة وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان وشاهدته عقولهم ولم يعرفوا كنهه. فلا يشك المسلمون أن في الجنة أنهاراً من خمر وأنهاراً من عسل وأنهاراً من لبن، ولكن لا يعرفون كنه ذلك ومادته وكيفيته. إذ كانوا لا يعرفون في الدنيا الخمر إلا ما اعتصر من الأعناب، والعسل إلا ما قذفت به النحل في بيوتها، واللبن إلا ما خرج من الضروع، والحرير إلا ما خرج من دود القز، وقد فهموا معاني ذلك في الجنة من غير أن يكون مماثلاً لما في الدنيا.

كما قال ابن عباس: «ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء والصفات» ولم يمنعهم عدم النظير في الدنيا من فهم ما أخبروا به من ذلك.

فهكذا الأسماء والصفات لم يمنعهم انتفاء نظيرها ومثالها من فهم حقائقها ومعانيها؛ بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها. وهذا هو المثل الأعلى الذي أثبته الله تعالى لنفسه في ثلاثة مواضع من القرآن:

أحدها: قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ**(2) **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [النحل: ٦٠].

الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الروم: ٢٧].

الثالث: قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١]

---

(١) ٨٤ مختصر الصواعق جـ١. (٢) في المطبوعة: زيادة ﴿في السموات والأرض﴾ وهي زيادة غير موجودة في آية النحل ولعله حدث خلط بالآية (٢٧) من سورة الروم. المراجع.

فنفى سبحانه وتعالى المثل عن هذا المثل الأعلى، وهو ما في قلوب أهل سمواته وأرضه من معرفته والإقرار بربوبيته وأسمائه وصفاته وذاته. فهذا المثل الأعلى هو الذي آمن به المؤمنون، وأنس به العارفون وقامت شواهده في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المكملة بالكتب الإلهية المضبوطة بالبراهين العقلية، فاتفق على الشهادة بثبوته العقل والسمع والفطرة. فإذا قال المثبت: يا الله، قام بقلبه رب قيوم قائم بنفسه، مستو على عرشه، مكلم، متكلم، سامع، قدير، مريد، فعال لما يريد، يسمع دعاء الداعين، ويقضي حاجات السائلين، ويفرج عن المكروبين، ترضيه الطاعات، وتغضبه المعاصي، تعرج الملائكة بالأمر إليه، وتنزل بالأمر من عنده.

وإذا شئت زيادة تعريف بهذا المثل الأعلى فعد؛ قوى جميع المخلوقات اجتمعت لواحد منهم، ثم كان جميعهم على قوة ذلك الواحد، فإذا نسبت قوتهم إلى قوة الرب تعالى لم تجد نسبة إليها ألبتة، كما لا تجد نسبة بين قوة البعوضة وقوة الأسد، وإذا قدرت علوم الخلائق اجتمعت لواحد ثم قدرت جميعهم بهذه المثابة كانت علومهم بالنسبة إلى علمه تعالى كنقرة عصفور في بحر، وكذا في حكمته وكماله.

وقد نبهنا سبحانه وتعالى على هذا المعنى بقوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [لقمان: ٢٧].

فقدر البحر المحيط بالعالم مداداً ووراءه سبعة أبحر تحيط به، كلها مداداً يكتب به كلمات الله، نفدت البحار ونفدت الأقلام التي لو قدرت جميع أشجار الأرض من حين خلقت إلى آخر الدنيا ولم تنفد كلمات الله.

وقد أخبر النبي (ﷺ): «**أن السموات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والعرش لا يقدر قدره إلا الله**» وهو سبحانه فوق عرشه يعلم ويرى ما عباده عليه. فهذا هو الذي قام بقلوب المؤمنين المصدقين العارفين به سبحانه المثل الأعلى، فعرفوه به وعبدوه به وسألوه به، فأحبوه وخافوه ورجوه، وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واطمأنوا بذكره وأنسوا بحبه بواسطة هذا التعريف. فلم يصعب عليهم بعد ذلك معنى استوائه على عرشه وسائر ما وصف به نفسه من صفات كماله. إذ قد أحاط علمهم بأنه لا

نظير لذلك ولا مثل له، ولم يخطر بقلوبهم مماثلة شيء من المخلوقين. وقد أعلمهم الله سبحانه على لسان رسوله «**أنه يقبض سمواته بيده والأرض باليد الأخرى ثم يهزهن**» «**وأن السموات السبع والأرضين السبع في كفه كخردلة في كف أحدكم**» «**وأنه يضع السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، وسائر المخلوقات على إصبع**» فأي يد للخلق وأي إصبع تشبه هذه اليد وهذه الإصبع حتى يكون إثباتها تشبيهاً وتمثيلاً؟؟

فقاتل الله أصحاب التحريف والتبديل، ماذا حرموه من الحقائق الإيمانية والمعارف الإلهية، وماذا تعوضوا به من زبالة الأذهان، ونخالة الأفكار؟

وما أشبههم بمن كان غذاؤهم المن والسلوى بلا تعب فآثروا عليه الفوم والعدس والبصل. وقد جرت عادة الله سبحانه أن يذل من آثر الأدنى على الأعلى، ويجعله عبرةً للعقلاء.

فأول هذا الصنف إبليس لعنه الله، ترك السجود لآدم كبراً فابتلاه الله تعالى بالقيادة لفساق ذريته. وعباد الأصنام لم يقروا بنبي من البشر ورضوا بآلهة من الحجر. والجهمية نزهوا الله عن عرشه لئلا يحويه مكان ثم قالوا: هو في الآبار والأنجاس وفي كل مكان. وهكذا طوائف الباطل لم يرضوا بنصوص الوحي فابتلوا بزبالة أذهان المتحيرين، وورثة الصابئين وأفراخ الفلاسفة الملحدين.

(١)**قال** الله تعالى: ﴿**وإنَّ لَكُم فِي الأَنعَامِ لَعِبرةً نُّسقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بينِ فَرثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ**﴾ [النحل: ٦٦]. وقال في الجنة: ﴿**فِيهَا أَنهَارٌ مِن مَّاءٍ غَيرِ آسِنٍ، وَأَنهار مِن لَّبنٍ لَّم يَتَغَيَّرْ طَعمُهُ**﴾ [محمد: ١٥].

وفي السنن مرفوعاً: «**من أطعمه الله طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وارزقنا خيراً منه. ومن سقاه الله لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه. فإني لا أعلم ما يجزى من الطعام والشراب إلا اللبن**»

اللبن ـ وإن كان بسيطاً في الحس ـ إلا أنه مركب في أصل الخلقة تركيباً طبيعيًّا من جواهر ثلاثة: الجبنية، والسمنية، والمائية. فالجبنية: باردة رطبة مغذية للبدن. والسمنية: معتدلة الحرارة والرطوبة، ملائمة للبدن الإنساني الصحيح.

---

(١) ٤٠٠ زاد المعاد جـ ٣.

كثيرة المنافع. والمائية: حارة رطبة، مطلقة للطبيعة، مرطبة للبدن. واللبن على الإطلاق: أبرد وأرطب من المعتدل، وقيل: قوته عند حَلْبه الحرارة والرطوبة. وقيل: معتدل في الحرارة والبرودة. وأجود ما يكون اللبن: حين يحلب. ثم لا يزال تنقص جودته على ممر الساعات. فيكون حين يحلب أقل برودة، وأكثر رطوبة. والحامض بالعكس. ويختار اللبن بعد الولادة بأربعين يوماً. وأجوده: ما اشتد بياضه، وطاب ريحه، ولذ طعمه، وكان فيه حلاوة يسيرة، ودسومة معتدلة، واعتدل قوامه في الرقة والغلظ، وحلب من حيوان فتى صحيح. معتدل اللحم، محمود المرعى والمشرب. وهو محمود يولد دماً جيداً. ويرطب البدن اليابس. ويغذو غذاء حسناً. وينفع من الوسواس والغم، والأمراض السوداية. . .

فصل(١)

ثم تأمل العبرة التي ذكرها الله عز وجل في الأنعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص. السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم.

فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة فينقلب بعضه دماً بإذن الله، وما يسري في عروقها وأغصانها وشعورها ولحومها، فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء قلبه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر إلى طبيعته، ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له إذ به قوام الحيوان، ثم ينصب ثفله إلى الكرش فيصير زبلاً ثم ينقلب باقيه لبناً صافياً أبيض سائغاً للشاربين، فيخرج من بين الفرث والدم حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلباً خرج الدم مشوباً بحمرة، فصفى الله سبحانه الألطف من الثفل بالطبخ الأول، فانفصل إلى الكبد وصار دماً وكان مخلوطاً بالأخلاط الأربعة فأذهب الله عز وجل كل خلط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له: من المرارة والطحال والكلية وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد: فينصب من تلك العروق إلى الضرع فيقلبه الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه، فاستخرج من الفرث والدم. فسل المعطل الجاحد: من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وأتقن هذا الصنع ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير؟!.

(١) ٢٥١ مفتاح جـ ١.

فصل(١)

ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات، فانظر إليها وإلى اجتهادها في صنعـة العسل، وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استـدارة وأحكمهـا صنعاً، فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل، كل هذا بغير مقياس ولا آلة ولا بيكار، وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوحى رَبُّكَ إِلَى النَّحلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً﴾ إلى قوله: ﴿لآيةً لقومٍ يَتفكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لأمر ربها.

اتخذت بيوتها في هذه الأمكنة الثلاثة في الجبال والشقفان وفي الشجر وفي بيوت الناس حيث يعرشون أي يبنون العروش، وهي البيوت فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة ألبتة.

وتأمل كيف أكثر بيوتها في الجبال والشقفان وهو البيت المقدم في الآية، ثم في الأشجار وهي من أكثر بيوتها، وما يعرش الناس وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جدًّا وتأمل كيف أداها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت. أولاً فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمار، ثم آوت إلى بيوتها لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولاً ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لا يستوعر عليها شيء ترعى ثم تعود.

ومن عجيب شأنها أن لها أميراً يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به، فهي مؤتمرة لأمره سامعة له مطيعة، وله عليها تكليف وأمر ونهي وهي رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته، حتى إنها إذا أوت إلى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى ولا تتقدم عليها في العبور؛ بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوزه إلا واحد واحد.

(١) ٢٤٨ مفتاح جـ ١.

ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب، ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها، فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الإحكام والإتقان، فإذا نظرت إلى العامل؛ رأيته من أضعف خلق الله وأجهله بنفسه وبحاله وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلاً عما يصدر عنه من الأمور العجيبة.

ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد ولا يتأمران على جمع واحد، بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه واتفقوا على الأمير الواحد من غير معاداة بينهم، ولا أذى من بعضهم لبعض، بل يصيرون يداً واحدة وجنداً واحداً.

فصل

ومن أعجب ما لا يهتدي له أكثر الناس ولا يعرفونه، وهو النتاج الذي يكون لها: هل هو على وجه الولادة والتوالد أو الاستحالة، فقل من يعرف ذلك أو يفطن له وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين.

وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجيب؛ فإنها إذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التي على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهي الطل فتمصها، وذلك مادة العسل ثم إنها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدها على رجلها كالعدسة، فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل، ثم يقوم يعسو بها على بيته مبتدئاً منه فينفخ فيه، ثم يطوف على تلك البيوت بيتاً بيتاً وينفخ فيها كلها، فتدب فيها الحياة بإذن الله عز وجل فتتحرك وتخرج طيوراً بإذن الله، وتلك إحدى الآيات والعجائب التي قل من يتفطن بها، وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهي، أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش والبناء والنتاج.

فسل المعطل الضال من الذي أوحى إليها أمرها وجعل ماجعل في طباعها؟ ومن الذي سهل لها سبله ذللاً منقادة لا تستعصي عليها ولا تستوعرها، ولا تضل عنها على بعدها؟ ومن الذي هداها لشأنها، ومن الذي أنزل لها من الطل ما إذا جنته ردته عسلاً صافياً مختلفاً ألوانه في غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة من بين أبيض

يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته في المرآة وسمه لي من جاء به وقال: هذا أفخر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه، فإذا طعمه ألذ شيء يكون من الحلوى، ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها؟.

وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله في غالب الأدوية، حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر. ولا هو مذكور في كتبهم أصلاً وإنما كان الذي يستعملونه في الأدوية هو العسل! وهو المذكور في كتب القوم، ولعمر الله إنه لأنفع من السكر وأجدى وأجلى للأخلاط وأقمع لها وأذهب لضررها وأقوى للمعدة وأشد تفريحاً للنفس وتقوية للأرواح، وتنفيذاً للدواء وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن؛ ولهذا لم يجيء في شيء من الحديث قط ذكر السكر، ولا كانوا يعرفونه أصلاً ولو عدم من العالم لما احتاج إليه، ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه ورأوه أقل حدة وحرارة منه، ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة، فإذا لم يوافق من يستعمله؛ كسرها بمقابلها فيصير أنفع له من السكر، وسنفرد إن شاء الله مقالة نبين فيها فضل العسل على السكر من طرق عديدة لا تمنع وبراهين كثيرة لا تدفع، ومتى رأيت السكر يجلو بلغماً ويذيب خلطاً أو يشفي من داء، وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء إلى العروق للطافته وحلاوته، وأما الشفاء الحاصل من العسل فقد حرمه الله كثيراً من الناس حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته.

ولا ريب أن كونه شفاء وكون القرآن شفاء والصلاة شفاء؛ وذكر الله والإقبال عليه شفاء؛ أمر لا يعم الطبائع والأنفس، فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع وهو أعظم الشفاء، وما أقل المستشفين به بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءة، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً، وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والإنابة إليه والفزع إلى الصلاة كم قد شفي به من عليل! وكم قد عوفي به من مريض! وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريباً من مبلغه في الشفاء!.

وأنت ترى كثيراً من الناس بل أكثرهم لا نصيب لهم من الشفاء بذلك أصلاً.

ولقد رأيت في بعض كتب الأطبـاء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة، ذكرها في باب الصاد وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوهاً عديدة، ومن منافعها في الروح والقلب.

وسمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية رحمه الله يقول وقد عرض له بعض الألم فقال له الطبيب: أضر ما عليك الكلام في العلم، والفكر فيه والتوجه والذكر فقال: ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض فإنه عدوها، فإذا قويت عليه قهرته؟ فقال له الطبيب: بلى فقال: له: أنا إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم وظهرت بها يشكل عليها منه فرحت به وقويت؛ فأوجب ذلك دفع العارض. هذا أو نحوه من الكلام.

والمقصود أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء، كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجه عن كونه شفاء لها وهو شفاء لما في الصدور، وإن لم يستشف به أكثر المرضى كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَتكُم مَّوعِظَةٌ مِّن رَّبِّكم وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدى وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنِينَ**﴾ [يونس: ٥٧].

فعم بالموعظة والشفاء وخص بالهدى والمعرفة، فهو نفسه شفاء استشفي به أو لم يستشف به.

ولم يصف الله في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل فهما الشفاء ان: هذا شفـاء القلوب من أمـراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها، وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها.

ولقد أصابني أيام مقامي بمكة أسقام مختلفة ولا طبيب هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن، فكنت أستشفي بالعسل وماء زمزم ورأيت فيهما من الشفاء أمراً عجيباً.

وتأمل إخباره سبحانه وتعالى عن القرآن بأنه نفسه شفاء وقال عن العسل: ﴿**فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ**﴾ [النحل: ٦٩]. وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل فيه شفاء وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه.

فصـــل(١)

وقد اختلف الناس في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]. هل الضمير في «فيه» راجع إلى الشراب أو راجع إلى القرآن؟ على قولين، والصحيح: رجوعه إلى الشراب. وهو قول ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأكثرين. فإنه هو المذكور، والكلام سِيقَ لأجله ولا ذكر للقرآن في الآية. وهذا الحديث الصحيح وهو قوله «صدق الله» كالصريح فيه. والله تعالى أعلم.

(٢)**وقوله** تعالى: ﴿كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ٦٩]. ولم يقل: من الثمرات كلها ففيها الحكمة في الآية قبلها ومزيد فائدة وهو أنه تقدمها في النظم قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ﴾ [النحل: ٦٧]. فلو قال بعدها: كلي من الثمرات كلها لذهب الوهم إلى أنه يريد الثمرات المذكورة قبل هذا، أعني ثمرات النخيل والأعناب؛ لأن اللام إنما تنصرف إلى المعهود فكان الابتداء بكل أحصن للمعنى وأجمع للجنس وأرفع للبس وأبدع في النظم فتأمله.

فصـــل(٣)

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦].

هذان مثلان متضمنان قياسين من قياس العكس، وهو نَفْيُ الحكم لنفي علته وموجبه. ، فإن القياس نوعان:

قياس طرد يقتضي إثباتَ الحكمِ في الفرع لثبوت علة الأصل فيه.

وقياس عكس يقتضي نفيَ الحكم عن الفرع لنفي علة الحكم فيه؛ فالمثل الأول ما ضَرَبَه الله سبحانه لنفسه وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء

---

(١) ١٥٨ زاد المعاد جـ ٣. (٢) ٢١٣ بدائع جـ ١. (٣) ١٦٠ أعلام جـ ١.

ينفق كيف يشاء على عبيده سرًّا وجهراً وليلاً ونهاراً يمينه مَلْأى لا يغيضها نفقة سحَّاء الليل والنهار، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لي ويعبدونها من دوني مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين؟ هذا قول مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس: هو مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه رزقاً حسناً فهو يُنفق منه على نفسه وعلى غيره سرًّا وجهراً، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء؟ والقولُ الأول أشْبَه بالمراد، فإنه أظْهَرُ في بطلان الشرك، وأوْضَحُ عند المخاطَب، وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسباً بقوله: **﴿وَيَعبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَملِكُ لَهُم رِزقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ شَيئاً وَلاَ يَستَطِيعُونَ، فَلاَ تَضرِبُوا لِلَّهِ الأَمثَالَ إِنَّ الله يَعلَمُ وَأَنتُم لاَ تَعلَمُونَ﴾** [النحل: ٧٣-٧٤]. ثم قال: **﴿ضَرَبَ الله مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾** [النحل: ٧٥]. ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحِّدُ كمن رزقه منه رزقاً حسناً، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه، فذكره ابن عباس منبهاً على إرادته لا أن الآية اخْتَصَّتْ به، فتأمله فإنك تجده كثيراً في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فَهْم القرآن، فيظنُّ أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره فيحكيه قوله.

وأما المثل الثاني فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبد من دونه أيضاً؛ فالصنم الذي يُعْبَدُ من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء ألبتة، ومع هذا فأينما أرسَلْته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر متكلم، يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره بالعدل ـ وهو الحق ـ يتضمن أنه سبحانه عالم به، معلم له، راضٍ به، آمر لعباده به، محب لأهله، لا يأمر بسِواه، بل تنزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل، بل أمره وشَرْعُه عَدْل كله، وأهل العدل هم أولياؤه، وهم المجاورون له عن يمينه على منابر من نور.

وأمره بالعدل يتناول الأَمْرَ الشرعي الديني والأَمْرَ القدري الكوني، وكلاهما عَدْل لا جَوْر فيه بوجه ما، كما في الحديث الصحيح: «**اللهم إني عَبْدُك ابنُ عبدك ابنُ أَمَتِكَ، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عَدْل فيَّ قضاؤك**».

فقضاؤه هو أمره الكَوْني، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فلا يأمر إلا بحق وعَدْل، وقضاؤه القائم به حق وعدل، وإن كان في المقضيِّ المقدَّر ما هو جور وظلم فالقضاء غير المقضي، والقدر غير المقدر.

ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم، وهذا نظير قول رسوله شعيب: ﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [هود: ٥٦].

فقوله: ﴿**مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا**﴾ نظير قوله «**ناصيتي بيدك**».

وقوله: ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ نظير قوله: «**عدل فيَّ قضاؤك**» فالأول ملكه، والثاني حَمْده، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق، ولا يأمر إلا بالعدل، ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل؛ فهو على الحق في أقواله وأفعاله، فلا يَقْضِي على العبد بما يكون ظالماً له به، ولا يأخذه بغير ذنبه، ولا ينقصه من حَسَنَاته شيئاً، ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئاً، ولا يؤاخذ أحَداً بذنْب غيره، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه، ويثنى به عليه، ويكون له فيه العواقب الحميدة، والغايات المطلوبة، فإن كونه على صراط مستقيم يأبَى ذلك كله.

قال محمد بن جرير الطبري: وقوله: ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ يقول: إن ربي على طريق الحق، يجازي المحسن من خلقه بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحداً منهم شيئاً، ولا يقبل منهم إلا الإسلام له، والإيمان به، ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل بن أبي نجيح عنه﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ قال: الحق، وكذلك رواه ابن جُرَيج عنه.

وقالت فرقة: هي مثل قوله: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾ [الفجر: ١٤]. وهذا اختلافُ عبارة، فإن كونه بالمِرْصَاد هو مُجَازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقالت فرقة: في الكلام حذف، تقديره: إن ربي يحثكم على صراط

مستقيم ويحضكم عليه؛ وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها فليس كما زعموا، ولا دليل على هذا المقدر، وقد فرق سبحانه بين كونه آمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم؛ وإن أرادوا أن حَثّه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم فقد أصابوا.

وقالت فرقة أخرى: معنى كونه على صراط مستقيم أن مَرَدَّ العباد والأمور كلها إلى الله لا يفوته شيء منها، وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك، وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه ومُوجبه فهو حق

وقالت فرقة أخرى: معناه كل شيء تحت قدرته وقَهْره وفي مِلْكه وقَبْضته، وهذا وإن كان حقًّا فليس هو معنى الآية، وقد فرق بين قوله: ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذُ بنَاصيتها﴾ وبين قوله: ﴿إنَّ ربِّي على صرَاط مُستقيم﴾ فهما معنيان مستقلان

فالقولُ قول مجاهد، وهو قول أئمة التفسير، ولا تحتمل العربية غيرَهُ إلا على استكراه؛ وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أمير المؤمنين على صِرَاطٍ ... إذا اعْوَج الموارد مُسْتَقِيم

وقد قال تعالى: ﴿مَن يَشَأِ الله يُضلِلْهُ، وَمَن يَشَأ يجعلَهُ عَلى صِرَاطٍ مُستَقِيم﴾ [الأنعام: ٣٩]. وإذا كان سبحانه هو الذي جعل رُسُله وأتباعَهم على الصراطِ المستقيم في أقوالهم وأفعالهم فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله، وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقةُ أمره؛ فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حَمْدُه وكماله ومَجْدُه وكماله ومَجْدُه من قول الحق وفعله، وبالله التوفيق.

فصل

وفي الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء، أنه مثلٌ ضَرَبه الله للمؤمن والكافر، وقد تقدم ما في هذا القول(١)، وبالله التوفيق.

(٢)**الوجه** الرابع والثمانون: أن الله سبحانه في القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم أن أعطاهم آلات العلم فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار، ومرة يذكر اللسان الذي يترجم به عن القلب.

---

(١) طرق المؤلف هذا البحث على هذه الآية وعلى آية هود ووسع الكلام في ذلك في تفسير سورة الفاتحة وسورة هود (ج) (٢) ١٠٦ مفتاح جـ١.

فقال تعالى في سورة النعم وهي سورة النحل، التي ذكر فيها أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها، فعدد نعمه فيها على عباده وتعرف بها إليهم واقتضاهم شكرها، وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها فأولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها. قال تعالى: ﴿**والله أَخرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لَا تَعلَمُونَ شَيئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصَارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ**﴾ [النحل:٧٨]. فذكر سبحانه نعمته عليهم بأن أخرجهم لا علم لهم ثم أعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة التي نالوا بها من العلم ما نالوه وانه فعل بهم ذلك ليشكروه. . .

فصل[1]

ثم تأمل حال من عدم البصر وما يناله من الخلل في أموره. ، فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه، ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة، ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرؤه، ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر في عجائب ملك الله.

هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره، فلا يشعر بحفرة يهوي فيها ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز منه ، ولابعدو يهوي نحوه ليقتله، ولا يتمكن من هرب إن طلب، بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى، ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته، فإنه بمنزلة لحم على وضم، ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة.

ومن كمال لطفه أن عكس نور بصره إلى بصيرته فهو أقوى الناس بصيرة وحدساً، وجمع عليه همه فقلبه مجموع عليه غير مشتت؛ ليهنأ له العيش وتتم مصلحته، ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف. هذا حكم من ولد أعمى.

فأما من أصيب بعينيه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية إلى البلية، فالمحنة عليه شديدة، لأنه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المرائي والصور ووجوه الانتفاع ببصره، فهذا له حكم آخر.

---

(١) ٢٦٥ مفتاح جـ ١.

وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية، وتعظم المؤنة على الناس في خطابه، ويتبرمون به، ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم، فهو بينهم شاهد كغائب وحي كميت وقريب كبعيد. وقد اختلف النظار في أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالاً لأموره، الضرير أم الأطرش؟

وذكروا في ذلك وجوهاً، وهذا مبني على أصل آخر وهو أي الصفتين أكمل صفة السمع أو صفة البصر؟ وقد ذكرنا الخلاف فيهما فيما تقدم من هذا الكتاب. وذكرنا أقوال الناس وأدلتهم والتحقيق في ذلك فأي الصفتين كانت أكمل فالضرر بعدمها أقوى.

والذي يليق بهذا الموضع أن يقال: عادم البصر أشدهما ضرراً وأسلمهما ديناً وأحمدهما عاقبة، وعادم السمع أقلهما ضرراً في دنياه وأجهلهما بدينه وأسوأ عاقبة، فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح، وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة، وانفتحت له طرق الشهوات التي يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها فضرره في دينه أكثر وضرر الأعمى في دنياه أكثر، ولهذا لم يكن في الصحابة أطرش، وكان فيهم جماعة أضراء، وقل أن يبتلي الله أولياءه بالطرش ويبتلي كثيراً منهم بالعمى. فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة، فمضرة الطرش في الدين ومضرة العمى في الدنيا، والمعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارثين منه.

(١)**اعلم** أن الله عز وجل جعل للقلوب نوعين من الغذاء: نوعاً من الطعام والشراب الحسي. وللقلب منه خلاصته وصفوه، ولكل عضو منه بحسب استعداده وقبوله.

والثاني: غذاء روحاني معنوي، خارج عن الطعام والشراب: من السرور والفرح، والابتهاج واللذة. والعلوم والمعارف. وبهذا الغذاء كان سماويًّا علويًّا. وبالغذاء المشترك كان أرضيا سفليا. وقوامه بهذين الغذاءين. وله ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس، وغذاء يصل إليه منها.

(١) ٤٠٨ مدارج جـ ٢.

فله ارتباط بحاسة اللمس. ويصل إليه منها غذاء. وكذلك حاسة الشم. وكذلك حاسة الذوق. وكذلك ارتباطه بحاستي السمع والبصر: أشد من ارتباطه بغيرهما. ووصول الغذاء منهما إليه أكمل، وأقوى من سائر الحواس. وانفعاله عنهما أشد من انفعاله عن غيرهما. ولهذا تجد في القرآن اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما. بل لا يكاد يقرن إلا بهما، أو بأحدهما.

قال الله تعالى: **﴿والله أخرجكم مّن بطون أمّهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلّكم تشكرون﴾** [النحل: ٧٨]. وقال تعالى: **﴿ولقد مكّنّاهم فيما إن مّكّنّاكم فيه. وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة. فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم، ولا أفئدتهم مّن شيء. إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم مّا كانوا به يستهزءون﴾** [الأحقاف: ٢٦]. وقال تعالى: **﴿ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها. ولهم أعين لّا يبصرون بها. ولهم آذان لّا يسمعون بها. أولئك كالأنعام، بل هم أضلّ. أولئك هم الغافلون﴾** [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى في صفة الكفار: **﴿صمّ بكم عميٌ فهم لا يعقلون﴾** [البقرة: ١٧١]. وقال تعالى: **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتي في الصّدور﴾** [الحج: ٤٦]. وهذا كثير جدًّا في القرآن.

لأن تأثره بما يراه ويسمعه: أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويشمّه. ولأن هذه الثلاثة: هي طرق العلم. وهي: السمع والبصر والعقل.

وتعلق القلب بالسمع وارتباطه به: أشد من تعلقه بالبصر وارتباطه به. ولهذا يتأثر بما يسمعه من الملذوذات أعظم مما يتأثر بما يراه من المستحسنات. وكذلك في المكروهات سماعاً ورؤية. ولهذا كان الصحيح من القولين: أن حاسة «السمع» أفضل من حاسة «البصر» لشدة تعلقها بالقلب، وعظم حاجته إليها. وتوقف كماله عليها. ووصول العلوم إليه بها، وتوقف الهدى على سلامتها.

ورجحت طائفة حاسة «البصر» لكمال مدركها. وامتناع الكذب فيه.

وزوال الريب والشك به. ولأنه عين اليقين. وغاية مدرك حاسة «السمع» علم اليقين. وعين اليقين أفضل، وأكمل من علم اليقين. ولأن متعلقها رؤية وجه الرب عز وجل في دار النعيم. ولا شيء أعلى وأجل من هذا التعلق.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بين الطائفتين حكماً حسناً. فقال: المدرك بحاسة «السمع» أعم وأشمل. والمدرك بحاسة البصر: أتم وأكمل. فللسمع العموم والشمول، والإحاطة بالموجود والمعدوم، والحاضر والغائب، والحسي والمعنوي، وللبصر التمام والكمال. . . . .

فصل(١)

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال ورفع الجناح والإذن والعفو، وإن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل.

ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع وما يتعلق بها من الأفعال نحو: ﴿**مِن أَصْوَافِها وَأَوبَارِهَا وَأَشعَارِهَا أَثَاثاً**﴾ [النحل: ٨٠]. ونحو ﴿**وَبِالَّنجمِ هُم يَهتَدُونَ**﴾ [النحل: ١٦]. ومن السكوت عن التحريم. ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي وهو نوعان: إقرار الرب تبارك وتعالى وإقرار رسوله إذا علم الفعل.

فمن إقرار الرب تعالى قول جابر: «كنا نعزل والقرآن ينزل».

ومن إقرار رسوله قول حسان لعمر: كنت أنشد وفيه من هو خير منك.

فصل(٢)

النوع العاشر إخباره عن الحكم والغايات التي جعلها في خلقه وأمره كقوله: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ فِرَاشاً وَالسَّماءَ بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخرَج بِهِ مِنَ الثَّمَرات رِزقاً لَّكُم**﴾ [البقرة: ٢٢]. وقوله: ﴿**أَلَم نَجعَلِ الأَرضَ مِهاداً وَالجِبَالَ أَوتَاداً وَخَلَقناكُم أَزوَاجاً وَجَعَلنَا نومَكُم سُبَاتاً وَجَعَلنَا اللَّيلَ لِبَاساً وَجَعَلنَا النَّهارَ مَعَاشاً**﴾ إلى قوله: ﴿**وَأَنزَلنَا مِنَ المُعصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً لِّنخرج بِهِ حَبَّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلفَافاً**﴾ [النبأ: ٦-١٦]. وقوله: ﴿**أَلَم نَجعَلِ الأَرضَ كِفَاتاً أَحيَاءً وَأَموَاتاً وَجَعَلنَا فِيهَا رَوَاسِي شَامِخَاتٍ وَأَسقَينَاكُم مَّاءً فُرَاتاً**﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧]. وقوله: ﴿**وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِن**

(١) ٦ بدائع جـ٤ (٢) ١٩٧ شفاء العليل.

بُيُوتِكُم سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِن جُلُودِ الأَنعَامِ بُيُوتاً تَستَخِفُّونَهَا يَومَ ظَعنِكُم وَيَومَ إِقَامَتِكُم وَمِن أَصوَافِهَا وَأَوبارِهَا وَأَشعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتاعاً إِلَى حِينٍ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكنَاناً وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُم﴾ [النحل: ٨٠-٨١]. وقوله: ﴿فَلينظُر الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنعَامِكُم﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]. وقوله: ﴿وَمِن آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِّن أَنفُسِكُم أَزوَاجاً لِتَسكُنُوا إِلَيهَا﴾ [الروم: ٢١]. وقوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزقاً لَّكُم وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلكَ لِتَجرِيَ فِي البَحرِ بِأَمرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمسَ وَالقَمَرَ دَائِبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٣]. وقوله: ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ البَحرَ لِتَجرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمرِهِ وَلِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢]. إلى أضعاف أضعاف ذلك في القرآن، مما يفيد من له أدنى تأمل، القطع بأنه سبحانه فعل ذلك للحكم والمصالح التي ذكرها وغيرها مما لم يذكره.

وقوله: ﴿وَأَوحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجرِ وَمِمَّا يَعرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فاسلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّختَلِفٌ أَلوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَومٍ يَتفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]. وقوله: ﴿وَالأَنعَامَ خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنهَا تَأكُلُونَ وَلَكُم فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسرَحُونَ وَتَحمِلُ أَثقَالَكُم إِلَى بَلَدٍ لَّم تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُم لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَالخَيلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَركَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخلُقُ مَا لاَ تَعلَمُونَ﴾ [النحل: ٥-٨]. فهل يستقيم ذلك ويصح فيمن لا يفعل لحكمة ولا لمصلحة ولا لغاية هي مقصودة بالفعل. ومعلوم بالضرورة أن هذا الإثبات وهذا النفي متقابلان أعظم التقابل.

فصل(١)

النوع الثامن عشر إخباره بإنعامه على خلقه وإحسانه إليهم وأنه خلق لهم ما في السموات وما في الأرض وأعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة ليتم نعمته عليهم. ومعلوم أن المنعم المحسن لا يكون كذلك ولا يستحق هذا الاسم حتى

(١) ٢٠٢ شفاء العليل.

يقصـد الأنعـام على غيره والإحسـان إليه، فلو لم يفعل سبحانه لغرض الإنعام والإحسان؛ لم يكن منعماً في الحقيقة ولا محسناً إذ يستحيل أن يكون كذلك من لم يقصد الإنعام والإحسان وهذا غني عن التقرير.

ويوضحه أنه سبحانه حيث ذكر إنعامه وإحسانه فإنما يذكره مقروناً بالحكم والمصالـح والمنافع التي خلق الخلق وشرع الشرائع لأجلها كقوله في آخر سورة النحل: **﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيـل تقيكم الحـر وسرابيـل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾** [النحل: ٨١]. فهذا في الخلق.

وقـال في الشرع في أمـره باستقبال الكعبة: **﴿وَمِن حَيثُ خَرَجتَ فَوَلِّ وَجهَكَ شَطرَ المَسجِدِ الحَرَامِ وَحَيثُ مَا كُنتُم فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيكُم حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُم فَلَا تَخشَوهُم وَاخشَونِي وَلِأُتِمَّ نِعمَتِي عَلَيكُم وَلَعَلَّكُم تَهتَدُونَ﴾** [البقرة: ١٥٠].

وقال في أمره بالوضوء والتيمم: **﴿ما يريدُ اللّهُ ليجعلَ عليكم من حَرَجٍ ولكنْ يُريدُ ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾** [المائدة: ٦]. فجعل تمام نعمته في أن خلق ما خلق للإحسان وأمر بماأمر لذلك.

(١)**وهـو** سبحـانه يذكر عباده بنعمه عليهم ويدعوهم بهاإلى معرفته ومحبته وتصديق رسله والإيمان بلقائه، كما تضمنته سورة النعم وهي سورة النحل، من قولـه: **﴿خلق الإنسان من نطفة﴾** إلى قوله: **﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الجِبَالِ أَكنَاناً وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأسَكُم كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعمَتَهُ عَلَيكُم لَعَلَّكُم تُسلِمُونَ﴾** [النحل: ٨١].

فذكرهم بأصول النعم وفروعها وعددها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم ليسلموا له فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم.

ثم أخبر عمن كفره ولم يشكر نعمه بقوله: **﴿يَعرِفُونَ نِعمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾** [النحل: ٨٣].

وقال مجاهد: المساكن والأنعام وسرابيل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش

---

(١) ٣٦ شفاء العليل.

ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم.

وقال عون بن عبد الله يقولون: لولا فلان لكان كذا وكذا.

وقال الفراء وابن قتيبة: يعرفون أن النعم من الله ولكن يقولون هذه بشفاعة آلهتنا. **وقالت** طائفة: النعمة ههنا محمد (ﷺ) وإنكارها جحدهم نبوته. وهذا يروى عن مجاهد والسدّي وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكار فإنه إنكار لما هو أجل النعم أن تكون نعمة.

وأما على القول الأول والثاني والثالث فإنهم لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره...

(١)**الطبقة** السادسة عشرة رؤساء الكفر وأئمته، ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الإيمان وعن الدخول في دينه رغبة ورهبة، فهؤلاء عذابهم مضاعف، ولهم عذابان: عذاب بالكفر، وعذاب بصد الناس عن الدخول في الإيمان. قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ**﴾ [النحل: ٨٨]. فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله.

وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له.

ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به. وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم، وهؤلاء عكسهم، ولهذا كان فرعون وقومه في أشد العذاب، قال تعالى في حقهم: ﴿**النَّارُ يُعرضُوْنَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٦].

وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك، لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعاً له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه، وغرهم فاتبعوه. ولهذا يكون يوم القيامة أمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَة فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ**﴾ [هود: ٩٨].

---

(١) ٤٠٩ طريق الهجرتين.

والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم، وصدهم عن سبيل الله، وعقوبتهم من آمن بالله. فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم.

ولهذا كان في كتاب النبي (ﷺ) لهرقل: «**فإن توليت فإن عليك إثم** الأريسيين». والصحيح في اللفظ أنهم الأتباع. ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذابًا. وهو أول من يكسى حلة من النار؛ لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عصي الله إلا على يديه وبسببه. ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته.

ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر. كما أن الإيمان يتفاوت، فإيمان أفضل من إيمان. فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد بل النار دركات كما أن الجنة درجات. ولا يظلم الله من خلقه أحداً. وهو الغني الحميد.

فصل

وغلظ الكفر الموجب لغلظ العذاب يكون من ثلاثة أوجه:

أحدها: من حيث العقيدة الكافرة في نفسها، كمن جحد رب العالمين بالكلية وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له، فلم يؤمن بالله وملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر. ولهذا لا يقَرُّ أرباب هذا الكفر بالجزية عند كثير من العلماء، ولا تؤكل ذبائحهم. ولا تنكح نساؤهم اتفاقاً لتغلظ كفرهم.

وهؤلاء هم المعطلة والدهرية وكثير من الفلاسفة وأهل الوحدة القائلين؛ بأنه لا وجود للرب سبحانه وتعالى غير وجود هذا العالم.

الجهة الثانية: تغلظه بالعناد والضلال عمداً على بصيرة. ككفر من شهد قلبه أن الرسول حق لما رآه من آيات صدقه، وكفر عناداً وبغياً. كقوم ثمود، وقوم فرعون، واليهود الذين عرفوا الرسول كما عرفوا أبناءهم، وكفر أبي جهل، وأمية بن أبي الصلت وأمثال هؤلاء.

الجهة الثالثة: السعي في إطفاء نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل إليه قدرتهم، فهؤلاء أشد الكفار عذاباً بحسب تغلظ كفرهم.

ومنهم من يجتمع في حقه الجهات الثلاث.

ومنهم من يكون فيه جهتان منها أو واحدة. فليس عذاب هؤلاء كعذاب من هو دونهم في الكفر ممن هو ملبوس عليه لجهله، والمؤمنون من أذاه في سلامة لا ينالهم منه أذى، ولم يتغلظ كفره كتغلظ هؤلاء، بل هو مقر بالله ووحدانيته وملائكته وجنس الكتب والرسل واليوم الآخر. وإن شارك أولئك في كفرهم بالرسول فقد زادوا عليه أنواعاً من الكفر. وهل يستوي في النار عذاب أبي طالب وأبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف وأضرابهم؟

والمقصود أن هذه الطبقة، وهي طبقة الرؤساء الدعاة الصادين عن دين الله ليست كطبقة من دونهم. وقد ثبت عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**أهون أهل النار عذاباً أبو طالب**» ومعلوم أن كفر أبي طالب لم يكن مثل كفر أبي جهل وأمثاله.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إِنَّ الله يَأْمُر بِالعَدلِ وَالإحسَانِ، وَإِيتَاءِ ذِي القُربَى. وَيَنهَىٰ عَنِ الفَحشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغي**﴾ [النحل: ٩٠].

وهؤلاء يزعمون: أن الظلم في حق عباده هو المحرم والمنهي عنه، لا أن هناك في نفس الأمر ظلماً نهى عنه. وكذلك الظلم الذي نزه نفسه عنه هو الممتنع المستحيل. لا أن هناك أمراً ممكناً مقدوراً لو فعله لكان ظلماً. فليس في نفس الأمر عندهم ظلم منهي عنه ولا منزه عنه. إنما هو المحرم في حقه. والمستحيل في حقه، فالظلم المنزه عنه عندهم: هو الجمع بين النقيضين، وجعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد، ونحو ذلك.

والقرآن صريح في إبطال هذا المذهب أيضاً. قال الله تعالى: ﴿**قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطغَيتُهُ. وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَال بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَختَصِمُوا لَدَيَّ وَقَد قَدَّمتُ إِلَيكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلعَبِيدِ**﴾ [ق: ٢٧-٢٩]. أي لا أؤاخذ عبداً بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح. ولهذا قال قبله ﴿**وَقَد قَدَّمتُ إِلَيكُم بِالْوَعِيدِ**﴾ المتضمن لإقامة الحجة، وبلوغ الأمر والنهي. وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه. فذلك الظلم الذي تنزه الله سبحانه وتعالى عنه.

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يعمل مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلماً وَلا**

(١) ٢٣٦ مدارج جـ ١.

هَضْماً﴾ [طه: ١١٢]. يعني لا يُحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ما عمل. ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده: لم يكن لعدم الخوف منه معنى، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

وقال تعالى: **﴿مَن عَمِلَ صَالِحاً فَلِنفسِهِ. وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيها. وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِّلعبيدِ﴾** [فصلت:٤٦]. أي لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله. ولا يمنع المحسن من ثواب عمله.

وقال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ رَبُّك لِيُهلك القُرَىٰ بِظُلمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾** [هود:١١٧]. فدل على أنه لو أهلكهم مع إصلاحهم لكان ظالماً. وعندهم يجوز ذلك. وليس بظلم لو فعل. ويؤولون الآية على أنه سبحانه أخبر أنه لا يهلكهم مع إصلاحهم، وعلم أنه لا يفعل ذلك. وخلاف خبره ومعلومه مستحيل. وذلك حقيقة الظلم. ومعلوم أن الآية لم يقصد بها هذا قطعاً. ولا أريد بها. ولا تحتمله بوجه، إذ يؤول معناها إلى أنه ما كان ليهلك القرى بظلم بسبب اجتماع النقيضين وهم مصلحون. وكلامه تعالى يتنزه عن هذا ويتعالى عنه.

وكذلك عند هؤلاء أيضاً: العبث والسُّدَى والباطل، كلها هي المستحيلات الممتنعة التي لا تدخل تحت المقدور. والله سبحانه قد نَزَّه نفسه عنها. إذ نسبه إليها أعداؤه المكذبون بوعده ووعيده. المنكرون لأمره ونهيه. فأخبر أن ذلك يستلزم كون الخلق عبثاً وباطلاً. وحكمته وعزته تأبى ذلك. قال تعالى: **﴿أَفَحَسِبتُم أَنَّمَا خَلَقنَاكُم عَبَثاً وَأَنَّكُم إِلينَا لَا تُرجَعُونَ؟﴾** [المؤمنون: ١١٥]. أي: لغير شيء، لا تؤمرون ولا تنهون. ولا تثابون ولا تعاقبون. والعبث قبيح. فدل على أن قبح هذا مستقر في الفطر والعقول. ولذلك أنكره عليهم إنكار مُنَبِّه لهم على الرجوع إلى عقولهم وفطرهم. وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلموا أنه لا يليق به، ولا يحسن منه أن يخلق خلقه عبثاً، لا لأمر ولا لنهي، ولا لثواب ولا لعقاب. وهذا يدل على أن حسن الأمر والنهي والجزاء مستقر في العقول والفطر. وأن من جَوَّز على الله الإخلال به فقد نسبه إلى ما لا يليق به، وإلى ما تأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا.

وكذلك قوله تعالى: **﴿أَيَحسَبُ الإنسَانُ أَن يُترك سُدىً؟﴾** [القيامة: ٣٦]. قال الشافعي: مهملاً لا يؤمر ولا ينهى. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. وهما

متلازمان. فأنكر على من يحسب ذلك، فدل على أنه قبيح تأباه حكمته وعزته، وأنه لا يليق به. ولهذا استدل على أنه لا يتركه سدىً بقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ إلى آخر السورة [القيامة: ٣٧-٤٠].

فصل (١)

وأما «الفحشاء والمنكر» فالفحشاء صفة لموصوف قد حذف تجريداً لقصد الصفة. وهي الفعلة الفحشاء، والخصلة الفحشاء. وهي ما ظهر قبحها لكل أحد. واستفحشه كل ذي عقل سليم. ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماها الله «فاحشة» لتناهي قبحها. وكذلك القبيح من القول يسمى فحشاً. وهو ما ظهر قبحه جدًّا من السَّبِّ القبيح، والقذف ونحوه.

وأما «المنكر» فصفة لموصوف محذوف أيضاً. أي الفعل المنكر. وهو الذي تستنكره العقول والفطر. ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم. والمنظر القبيح إلى العين. والطعم المستكره إلى الذوق. والصوت المستنكر إلى الأذن. فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة. كما فَحُش إنكار الحواس له من هذه المدركات.

فالمنكر لها: ما لم تعرفه ولم تألفه. والقبيح المستكره لها: الذي تشتد نفرتها عنه هو الفاحشة. ولذلك قال ابن عباس: «الفاحشة الزنا، والمنكر ما لم يعرف في شريعة ولا سنة».

فتأمل تفريقه بين ما لم يعرف حُسْنه ولم يؤلف، وبين ما استقر قبحه في الفطر والعقول. . . . . . .

(٢)**قال** تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]. وطيب الحياة جنة الدنيا، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟!، وأي عذاب أشد من ضيق الصدر؟!.

---

(١) ٣٧١ مدارج جـ ١.

(٢) ٢٦٧ الجواب الكافي.

وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً وأنعمهم بالاً وأشرحهم صدراً وأسرهم قلباً، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة. قال النبي (ﷺ): «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر**».

ومن هذا قوله (ﷺ): «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**».

ومن هذا قوله، وقد سألوه عن وصاله في الصوم وقال: «**إني لست كهيئتكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني**».

فأخبر، (ﷺ) أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي، وأن ما يحصل له من ذلك أمر مختص به لا يشركه فيه غيره، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه ويغني عنه. . . .

(١)**وكلما** كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد.

وكلما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره، وتنعمه بحبه، وإيثاره لمرضاته. بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك. فعدمه آلم شيء له وأشد عذاباً عليه.

وإنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب؛ لاشتغالها بغيره واستغراقها في ذلك الغير فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها، وهذا بمنزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته، حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ، وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها إلى الله، بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف أضعاف ذلك، لأن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته في الدنيا بالعوض، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له، فكيف بمن مصيبته

(١) ٢٦٨ الجواب الكافي.

بما لا عوض عنه ولا بدل منه ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعاً، فلو قضى الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به وإن الموت ليعد أكبر أمنيته وأكبر حسراته، هذا لو كان الألم على مجرد الفوات، كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية مما لا يقدر قدره؟ فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي.

فاعرض على نفسك الآن أعظم محبوب لك في الدنيا، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه فأصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه، كيف يكون حالك، هذا ومنه كل عوض؟ فكيف بمن لا عوض عنه؟ كما قيل:

من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض

وفي الأثر الإلهي: «**ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب. ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء**».

(1)**وقد** جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته. فقال تعالى: **﴿مَن عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَر أَو أُنثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجزِيَنَّهُم أَجرَهُم بِأَحسَنِ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾** [النحل:٩٧].

وقد فسرت «الحياة الطيبة» بالقناعة والرضى، والرزق الحسن وغير ذلك.

والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه. فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها. ولا نعيم فوق نعيمه، إلا نعيم الجنة.

كما كان بعض العارفين يقول: إنه لَتَمُرُّ بي أوقات أقول فيها، إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقُص فيها طَربا.

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح. فإنه ملكها. ولهذا جعل الله المعيشة الضَّنْك لمن أعرض عن ذكره. وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث. أعني: دار الدنيا، ودار

(١) ٢٥٩ مدارج جـ ٣.

البَرْزخ. ودار القرار. والمعيشة الضنك أيضاً تكون في الدور الثلاث. فالأبرار في النعيم هنا وهنالك. والفجار في الجحيم هنا وهنالك. قال الله تعالى: ﴿**لِلذينَ أَحسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيرٌ**﴾ [النحل: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿**وَأَنِ استَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ يُمَتِّعكُم مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمّى وَيُؤتِ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضلَهُ**﴾ [هود: ٣].

فذكرُ الله سبحانه وتعالى، ومحبته وطاعته، والإقبالُ عليه: ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة. والإعراض عنه والغفلة ومعصيته: كفيل بالحياة المنغصة، والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة اهـ.

(١)**وقد** ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة. فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده. وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت واحدة في مرضات الله ولم يتشعب قلبه بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة، بكل واد منها شعبة، على الله؟!. فصار ذكره محبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه والأنس بقربه هو المتولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره، بل وخطرات قلبه. فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش وبه يمشي وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيى وبه يموت وبه يبعث، كما في صحيح البخاري عنه(ﷺ) فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبضي روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته. ولابد له منه**» فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي، الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه، والمراد به حصر أسباب محبته في أمرين: أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل، وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما تقرب إليه المتقربون ثم بعدها النوافل،

(١) ٢٤٨ الجواب الكافي.

وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله فإذا صار محبوباً لله، أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه وملكت عليه روحه ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة، فصار ذكر محبوبه وحبه مثله الأعلى مالكاً لزمام قلبه مستولياً على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى حبه كلها له.

(١)**ولهذا** جعل سبحانه وحيه الذي يلقيه إلى الأنبياء روحاً، كما قال تعالى: ﴿**يُلقِي الرُّوح مِن أمره عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِه**﴾ [غافر: ١٥]. في موضعين من كتابه(٢)، وقال: ﴿**وكذلكَ أَوْحَيْنا إليكَ رُوحاً مِنْ أمرِنا**﴾ [الشورى: ٥٢]. لأن حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه من قَبلَ وحيه، وعمل به، فقال: ﴿**مَن عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أو أُنثى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَياةً طَيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: ٩٧]. فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة في الدارين. ومثله قوله تعالى: ﴿**وَأَنِ اسْتغفروُا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤتِ كُلَّ ذي فَضلٍ فَضْلَهُ**﴾ [هود: ٣]. ومثله قوله تعالى: ﴿**لِلذينَ أَحسَنُوا في هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيرٌ ولنعم دار المتقين**﴾ [النحل: ٣٠]. ومثله قولَه تعالى: ﴿**لِلذينَ أَحسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ**﴾ [الزمر: ١٠]. فبين سبحانه أنه يُسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يُشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فإنَّ لهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أعمَى**﴾ [طه: ١٢٤]. وقال تعالى، وقد جمع بين النوعين: ﴿**فَمَن يُردِ الله أن يَهدِيَهُ يَشرَح صَدرَهُ للإِسلَامِ وَمَن يُرد أَن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضَيقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجعَلُ الله الرِّجْسَ عَلَى الذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ شرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ**﴾

---

(١) ٢٣ إغاثة جـ ١. (٢) والموضع الثاني في سورة النحل: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [النحل: ٢١].

[الزمر: ٢٢]. فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدر، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدر. وسيأتي في باب طهارة القلب مزيد تقرير لهذا إن شاء الله تعالى.

والمقصود: أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شرّ فيه.

(١)**قال** تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠].

ومعنى «استعذ بالله» امتنع به واعتصم به والجأ إليه، ومصدره الْعَوْذ، والْعِيَاذ، والْمَعَاذ، وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قوله، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لقد عذتِ بمعَاذ**» وأصل اللفظة: من اللَّجَأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب «أطيب اللحم عُوذه» أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به. وناقة عائذ: يعوذ بها ولدها، وجمعها «عُوذ» كحُمرْ. ومنه في حديث الحُدَيبية: «معهم العُوذ المطافيل» والمطافيل: [جمع] مُطْفِلٍ، وهي الناقة التي معها فصيلها.

قالت طائفة ـ منهم صاحب جامع الأصول ـ: استعار ذلك للنساء، أي معهم النساء وأطفالهم. ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته، أي قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها، فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن. وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور مُذْهِب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادة الفاسدة، فهو دواء لما أَمَرَه(٢) فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويُخلي منه القلب ليصادف الدواء محلاً خالياً، فيتمكّن منه، ويؤثر فيه، كما قيل.

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحم ومُضادٍ له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة

---

(١) ٩١ إغاثة جـ ١.

(٢) كذا بالأصل ولعله: أقره. (ج).

النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعي في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله؛ أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لَاحَظَ هذا المعنى، وهو لعمر الله مَلْحَظ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القرءاة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهو محصّل للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارىء القرآن وتستمع لقراءته، كما في حديث أُسَيد بن حُضَير لما كان يقرأ ورأى مثلَ الظُّلَّة فيها مثل المصابيح، فقال، عليه الصلاة والسلام: «**تلك الملائكة**» والشيطان ضد المَلك وعدوُّه. فأمر القارىء أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يُجْلِب على القارىء بخيله ورَجْله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن. وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارىء به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه.

ومنها: أن القارىء يناجي الله تعالى بكلامه، والله تعالى أشد أَذَناً للقارىء الحسن الصوت بالقرآن من صاحب الْقَيْنَة إلى قينته، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أُمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته. قال الشاعر في عثمان.

تمنى كتاب الله أول ليلِهِ ... وآخره لاقى حمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلِّط القارىء تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش

عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارىء هذا، أو هذا؛ وربما جمعها له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهُمّ بالخير، أو يدخل فيه. فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه.

وفي الصحيح عن النبي (ﷺ): «**إن شيطاناً تفلّت عليّ البارحة، فأراد أن يقطع عليّ صلاتي. . .**» الحديث.

وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى؛ كان اعتراض الشيطان له أكثر.

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث سَبْرة بن أبي الفاكِه أنه سمع النبي (ﷺ) يقول: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتُسْلِم وتَذَر دينك ودين آبائك وآباء آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتَذَر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كالفَرَس في الطِّوَل، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد ـ وهو جهاد النفس والمال ـ فقال: تقاتل فتُقتل، فتنكحَ المرأة ويُقْسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد**».

فالشيطان بالرصيد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور: عن مجاهد رحمه الله: «ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عِدَّتِهم» رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

فهو بالرصد، ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارىء، وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحكَم وغيرها.

فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقد قال أحمد في رواية حنبل: «لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة، إلا استعاذ؛ لقوله عز وجل: ﴿**فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرآن فَاسْتَعِذْ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم**﴾

[النحل: ٩٨]». **وقال** في رواية ابن مشيش: «كلما قرأ يستعيذ».

وقال عبدالله بن أحمد: «سمعت أبي إذا قرأ استعاذ، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم».

وفي المسند والترمذي: من حديث أبي سعيد الخدري قال: «كان النبي (ﷺ) إذا قام إلى الصلاة استفتح ثم يقول: **أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: من هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**».

وقال ابن المنذر: جاء عن النبي (ﷺ) أنه كان يقول قبل القراءة: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في الجامع أنه كان يقول: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» وهو رواية عن أحمد؛ لظاهر الآية، وحديث ابن المنذر. وعن أحمد، من رواية عبدالله: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم**» لحديث أبي سعيد، وهو مذهب الحسن وابن سيرين، ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإِفْكِ: أن النبي (ﷺ) جلس وكشف عن وجهه وقال: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم**».

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم**» وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يَسار، واختاره القاضي في المجرد وابن عقيل، لأن قوله: ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل: ٩٨]. ظاهره أنه يستعيذ بقوله «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» وقوله في الآية الأخرى: ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [فصلت: ٣٦]. يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف «إن» لأنه سبحانه هكذا ذكر. وقال إسحاق: الذي أختاره ما ذكر عن النبي (ﷺ): «**اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونفخه ونَفْثِه**». **وقد جاء في الحديث تفسير ذلك**، قال: «وهمزه المُؤتَةُ، ونفخه: الكِبْر ونفثه: الشعر».

(١)**وأما قوله تعالى: ﴿فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرآن فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فعلى ماذكرنا من التعبير عن إرادة الفعل بالفعل هذا هو المشهور.**

(١) ١٩٦ بدائع جـ ١.

وفيه وجه ألطف من هذا، وهو أن العرب تعبر بالفعل عن ابتداء الشروع فيه تارة، وتعبر عن انتهائه تارة فيقولون: فعلت عند الشروع، وفعلت عند الفراغ، وهذا استعمال حقيقي.

وعلى هذا فيكون معنى ﴿قرأت﴾ في الآية ابتداء الفعل أي: إذا شرعت وأخذت في القراءة فاستعذ. فالاستعاذة مرتبة على الشروع الذي هو مبادىء الفعل ومقدمته وطليعته.

فصل(١)

فالقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوّين بأسهل الطرق بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين ودفع إساءتهم بالإحسان. وأخبر عن عظم حظ من لَقَّاه ذلك فإنه ينال بذلك كفّ شر عدوه وانقلابه صديقاً، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغِلّ والحقد وطمأنينة الناس - حتى عدوه - إليه. هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه؛ وهذا غاية الحظ عاجلاً وآجلاً، ولما كان ذلك لا يُنال إلا بالصبر قال: ﴿**وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا**﴾ [فصلت: ٣٥]. فإن النَّزق الطائِش لا يصبر على المقابلة.

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان - أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتُمِدّ الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان، فـ﴿**إنه لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [النحل: ٩٩]. قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة.

والصواب: أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم: لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة. والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطاناً، لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال في سورة الحجر: ﴿**قالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ**

(١) ٩٨ إغاثة جـ ١.

الْمُخْلَصِين. قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

وقال في سورة النحل: **﴿إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾** [النحل: ٩٩-١٠٠]. فتضمن ذلك أمرين: أحدهما نفى سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص. والثاني إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تَوَلَّاه.

ولما علم عدو الله أن الله لا يُسَلِّطه على أهل التوحيد والإخلاص قال: **﴿فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعِينَ. إلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾** [ص: ٨٢-٨٣].

فعلم عدوّ الله أن من اعتصم بالله، عز وجل، وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له السلطان على من تولّاه وأشرك مع الله، فهؤلاء، رَعِيَّته فهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم.

فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع، فكيف ينفيه في قوله: **﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شكٍ﴾**؟ [سبأ: ٢٠-٢١]. قيل: إن كان الضمير في قوله: **﴿وَمَا كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾** عائداً على المؤمنين فالسؤال ساقط، ويكون الاستثناء منقطعاً: أي لكن امتحنّاهم بإبليس، لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، وإن كان عائداً على ما عاد عليه في قوله: **﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾** وهو الظاهر، ليصح الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفي، ويكون المعنى: وما سلّطناه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة. قال ابن قُتيبة: «إن إبليس لما سأل الله تعالى النظْرَة فَأنْظَره قال: **﴿لأغْوِيَنَّهُمْ﴾** [ص: ٨٢]. **﴿وَلأضِلَّنهم. ولآمرنّهم﴾** بكذا [النساء: ١١٩]. **﴿لأتخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً﴾** [النساء: ١١٨]. وليس هو في وقت هذه المقالة مستيقناً أن ما قدّره فيه يتمّ، وإنما قال ظانًّا، فلما اتّبعوه وأطاعوه صَدّق عليهم ما ظنه فيهم، فقال تعالى: وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكين، يعني نعلمهم موجودين ظاهرين فيحق القول ويقع الجزاء».

وعلى هذا فيكون السلطان ههنا على من لم يؤمن بالآخرة وشكَّ فيها، وهم الذين تولوه وأشركوا به فيكون السلطان ثابتًا لا منفيًا، فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات.

فإن قيل: فما تصنع بالتي في سورة إبراهيم حيث يقول لأهل النار: ﴿**وَمَا كانَ لِيَ عليكم مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وهذا وإن كان قَوْلَه فالله سبحانه أخبر به عنه مُقَرِّراً له، لا منكراً، فدَلّ على أنه كذلك.

قيل: هذا سؤال جيد. وجوابه: أن السلطان المنفي في هذا الموضع: هو الحجة والبرهان، أي ما كان لي عليكم من حجة وبرهان أحتج به عليكم، كما قال ابن عباس: «ما كان لي من حجة أحتج بها عليكم» أي: ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، وصدّقتم مقالتي، واتبعتموني بلا برهان ولا حجة.

وأما السلطان الذي أثبته في قوله: ﴿**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ**﴾ فهو تَسلُّطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكنه منهم، بحيث يؤزُّهم إلى الكفر والشرك ويُزْعجهم إليه، ولا يَدَعُهم يتركونه كما قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾ [مريم: ٨٣]. قال ابن عباس: «تُغريهم إغراء» وفي رواية: «تُشليهم إشلاء» وفي لفظ: «تحرضهم تحريضاً» وفي آخر: «تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً» وفي آخر: «توقدهم» أي: تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته، قال الأخفش: «توهجهم».

وحقيقة ذلك: أن «الأزّ» هو التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز؛ لأن الماء يتحرّك عند الغليان. ومنه الحديث: «**لجوفه أزيز كأزيز المرْجَل من البكاء**». قال أبو عبيدة: «الأزيز» الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: ازّ قِدْرَك، أي: أَلْهب تحتها بالنار؛ وأيزت القدر إذا اشتد غليانها، فقد حصل للأزّ معنيان: أحدهما: التحريك، والثاني: الإيقاد والإلهاب، وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب.

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكَّنوا عدوهم من سلطانه

عليهم، بموافقته ومتابعته فلما أعطوا بأيديهم، واستأسروا له، سُلِّط عليهم، عقوبةً لهم. وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ الله لِلكَافِرِينَ على المؤمِنِين سَبيلاً﴾ [النساء: ١٤١]. .(١)

(٢)**وقد** أخبر تعالى أن تسليط الشيطان إنما هو على الذين يتولونه والذين هم به مشركون. فلما تولوه دون الله وأشركوه معه عوقبوا على ذلك بتسليطه عليهم. وكانت هذه الأولوية والإشراك عقوبة خلو القلب وفراغه من الإخلاص والإنابة العاصمة من ضدها. فقد بين أن إخلاص الدين يمنع من سلطان الشيطان لأن فعل السيئات التي توجب العذاب. فإخلاص القلب لله مانع له من فعل ما يضاده، وإلهامه البر والتقوى ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته. وإلهام الفجور عقوبة خلوه من الإخلاص.

فإن قلت: هذا الترك إن كان أمراً وجوديًا عاد السؤال، وإن كان أمراً عدميًا فكيف يعاقب على العدم؟ وقلت: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه؛ فهذا قد يقال: إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو عن أسباب الخير، وهذا العدم ليس بكف للنفس ومنع لها عما تريده وتحبه، بل هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها. والعقوبة على الأمر العدمي هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل. فلله سبحانه عقوبتان:

إحداهما: جعله خاطئاً مذنباً لا يحس بألمها ومضرتها لموافقتها شهوته، وإرادته وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات.

وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسوا مَا ذُكرُوا بِهِ فَتحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شيَءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الأولى. ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِما أُوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الثانية.

وأعط هذا الموضع حقه من التأمل، وانظر كيف ترتبت هاتان العقوبتان

---

(١) بقية البحث على هذه الآية في سورة النساء، ويأتي في سورة سبأ نقلها عن الجواب الكافي (ج).

(٢) ٣٢٧ مختصر الصواعق جـ ١.

إحداهما على الأخرى، لكن العقوبة الأولى عقوبة موافقة لهواه وإرادته، والثانية مخالفة لما يحبه ويتلذذ به.

وتأمل عدل الرب تعالى في هذه وهذه، وأنه سبحانه إنما وضع العقوبة في محلها الأولى بها الذي لا يليق بها غيره. وهذا أمر لو لم تشهده القلوب وتعرفه لما جاز أن ينسب إلى الله تعالى سواه ولا يظن به غيره، فإنه من ظن السوء بمن يتعالى ويتقدس عن كل سوء وعيب.

فإن قلت: هل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده، من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له، أم ذلك محض جعله في قلوبهم؟.

قلت: لا، بل هو محض منته وفعله وهو من أعظم الخير الذي هو في يده، فالخير كله في يديه، ولا يقدر أحدنا يأخذ من الخير إلا ما أعطاه ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قلت: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم ولم يوفقوا له ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم عاد السؤال، وكان منعهم منه ظلماً، ولزمك القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه؟.

قيل: لا يكون بمنعه سبحانه لهم من ذلك ظالماً، وإنما يكون المانع ظالماً إذا منع غيره حقًّا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرَّمه الرب على نفسه، وأما إذا منع غيره ماليس حقًّا له، بل محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالمًا بمنعه.

(1)**فتأمل** حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ واللهُ أَعلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنت مُفتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١]

فقوله: ﴿واللهُ أَعلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أموراً:

منها: الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟.

ومنها: أن الذي بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم.

ومنها: أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى. وأن كلًّا منهما منزل؛ فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني.

---

(١) ١٤٠ التبيان.

فصل(١)

المخرج الثالث: أن يكون مُكْرَهاً على الطلاق أو الحلف به عند جمهور الأمة: من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم، وهو قول أحمد ومالك الشافعي وجميع أصحابهم، على اختلاف بينهم في حقيقة الإكراه وشروطه.

قال الإمام أحمد في رواية أبي طالب: يمين المستكره إذا ضُرِب، ابن عمر وابن الزبير لم يَرَيَاه شيئاً.

وقال في رواية أبي الحارث: إذا طلق المكره لم يلزمه الطلاق، فإذا فعل به كما فعل بثابت بن الأحنف فهو مكره؛ لأن ثابتاً عَصَرُوا رجله حتى طلق، فأتى ابن عمر وابن الزبير فلم يَرَيا ذلك شيئاً، وكذلك قال الله تعالى: ﴿**إلا مَنْ أُكْرِهَ وقلبه مُطْمئن بالإيمان**﴾ [النحل: ١٠٦].

وقال الشافعي رضي الله عنه: قال عز وجل: ﴿**إلا مَنْ أُكْرِهَ وقلبه مُطْمئن بالإيمان**﴾ وللكفر أحكام، فلما وضعها الله تعالى عنه سَقطت أحكام الإكراه عن القول كله؛ لأن الأعظم إذا سقط عن الناس سقط ما هو أصغر منه.

وفي سنن ابن ماجه وسنن البيهقي: من حديث بشر بن بكر، عن الأوزاعي، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن ابن عباس، عن النبي (ﷺ): «**إن الله وَضَعَ عن أمتي**» وقال البيهقي: «**تجاوز لي عن أمتي: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**».

(٢)**الوجه** الحادي والعشرون: قوله: وكذلك أيضاً حذف المضاف مجاز، وقد كثر حتى إن في القرآن الذي هو أفصح الكلام منه أكثر من ثلاثمائة موضع. جوابه من وجهين:

أحدهما أن أكثر المواضع التي ادعى فيها ﴿**وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا**﴾ [الأعراف: ٤] ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ**﴾ [الطلاق: ٨] إلى الحذف في القرآن لا يلزم فيها الحذف ولا دليل على صحة دعواه كقوله إلى أمثال ذلك فادعى أهل المجاز أن ذلك كله من مجاز الحذف وأن التقدير في ذلك كله: أهل

---

(١) ٥١ أعلام جـ ٤. (٢) ٩٨ مختصر الصواعق جـ٢.

القرية وهذا غير لازم؛ فإن القرية اسم للقوم المجتمعين في مكان واحد فإذا نسب إلى القرية فعل أو حكم عليها بحكم أو أُخبر عنها بخبر، كان في الكلام ما يدل على إرادة المتكلم من نسبة ذلك إلى الساكن أو المسكن، أو هو حقيقة في هذا وهذا وليس ذلك من باب الاشتراك اللفظي؛ بل القرية موضوعة للجماعة الساكنين بمكان واحد، فإذا أطلقت تناولت الساكن والمسكن وإذا قيدت بتركيب خاص واستعمال خاص كانت حقيقة فيما قيدت به فقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ [النحل:١١٢] حقيقة في الساكن وكذلك لفظة القرية في عامة القرآن؛ إنما يراد بها الساكن فتأمله، وقد يراد بها المسكن خاصة فيكون في السياق ما يعينه كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] أي: ساقطة على سقوفها وهذا التركيب يعطي المراد. فدعوى أن هذا حقيقة القرية وأن قوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ [الطلاق:٨] ونحوه تحكم بارد لا معنى له، وهو بالضد أولى إذ قد اطرد استعمال القرية إلى الساكن، وحقيقة الأمر أن اللفظة موضوعة للساكن باعتبار المسكن، ثم قد يقصد هذا دون هذا، وقد يرادان معا فلا مجاز ههنا ولا حذف، وتخلصت بهذا من ادعاء الحذف فيما شاء الله من المواضيع التي زعم أنها تزيد على ثلاثمائة.

الوجه الثاني: أن هذا الحذف الذي يزعمه هؤلاء ليس بحذف في الحقيقة؛ فإن قوة الكلام تعطيه، ولو صرح المتكلم بذكره كان عياً وتطويلاً مخلاً بالفصاحة كقوله: ﴿مَا أَفَاءَ الله عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾ [الحشر:٧] قالوا: هذا مجاز تقديرهما: أفاء الله من أموال أهل القرى، وهذا غلط وليس بمجاز ولا يحتاج إلى هذا التقدير، والمعنى مفهوم بدون هذا التقدير فالقائل: اتصل إلي من فلان ألف يصح كلامه لفظاً ومعنى بدون تقدير. فإن من للابتداء في الغاية. فابتداء الحصول من المجرور بمن. وكذلك في الآية اهـ.

(١)**وقد** حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿قل إنما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنها وَمَا بَطَن، وَالإِثمَ وَالبغيَ بِغير الحقِّ، وَأَن تُشرِكُوا بِالله مَا

(١) ٣٨ أعلام جـ ١.

لَم يُنـزِّلُ بِهِ سلطَانـاً، وَأَن تقُـولُوا عَلَى الله مَا لاَ تَعلمونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]. فرتَّبَ المحرماتِ أربعَ مراتبَ، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريماً منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّثَ بما هو أعظم تحريماً منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتفتَرُوا عَلَى الله الكَـذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفتَرُونَ عَلَى الله الكَذِبَ لاَ يُفلِحُونَ مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحـل: ١١٦-١١٧] فتقـدم إليهم سبحـانـه بالـوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال، وهذا بيان منه سبحـانـه أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أن الله سبحانه أحَلّه وحرمه.

(١)**وقوله** تعالى: ﴿إِنَّ إبراهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَم يَكُ مِنَ المُشرِكِينَ شَاكِراً لأَنعُمِهِ اجتَبَاهُ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١].

فهذه أربع أنواع من الثناء افتتحها بأنه أمة والأمة هو القدوة الذي يؤتم به.

قال ابن مسعـود: والأمة المعلم للخير وهي فعلة من الائتمام كقدوة وهو الذي يقتدي به.

والفرق بين الأمة والإمام من وجهين: أحدهما: أن الإمام كل ما يؤتم به سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إماماً كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصحَابُ الأَيكَةِ لَظَالِمِين فَانتَقَمْنا مِنهُم وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩] أي: بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة.

الثاني: أن الأمة فيه زيادة معنى وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل؛ بحيث بقي فيها فرداً وحده فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها في غيره، ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضم أوله فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها، وأتى بالتاء الدالة على الوحدة

(١) ١٧٤ مفتاح جـ ١.

كالغرفة واللقمة. ومنه الحديث: «**إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده**» فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة.

ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم؛ لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد.

الثاني: قوله: ﴿**قانتاً لله**﴾ قال ابن مسعود: القانت المطيع. والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

الثالث: قوله ﴿**حنيفاً**﴾ والحنيف المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة.

الرابع: قوله: ﴿**شاكراً لأنعمه**﴾ والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان: الإقرار بالنعمة، وإضافتها إلى المنعم بها، وصرفها في مرضاته، والعمل فيها بما يجب، فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الأشياء الثلاثة.

والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه.

(١)**والعظة** يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة، ونفس الرغبة والرهبة. فالمنيب المتذكر: شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب. والمعارض المتكبر: شديد الحاجة إلى المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿**ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ، وَالموعِظَةِ الحَسَنَةِ. وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هي أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥] أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة. إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.

وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان. إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك الجدال قد يكون بالتي هي أحسن. وقد يكون بغير ذلك. وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه. فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات

---

(١) ٤٤٥ مدارج جـ١.

التي هي أحسن شيء وأبينــه، وأدلــه على المقصــود. وأوصله إلى المطلوب.
والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

(١)**الله** سبحانه يَجْزِي العبد على ما عمل من خير في الدنيا ولابد، ثم في الآخـرة يوفيه أجـره، كما قال تعـالى: ﴿وَإِنـما تُوَفَّـوْن أُجُـورَكُم يَوْمَ القِيَامةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فما يحصل في الدنيا من الجزاء على الأعمال الصالحة ليس جزاء توفية، وإن كان نوعاً آخر كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَآتيناهُ أَجْرَهُ في الدُّنيا، وإنَّه في الآخرةِ لَمِنَ الصَّالحين﴾ [العنكبوت: ٢٧] وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَآتيناهُ في الدُّنيا حَسَنة، وإنَّه في الآخرة لَمِنَ الصَّالِحِين﴾ [النحل: ١٢٢] فأخبر سبحانه أنه أتى خليله أجْرَهُ في الدنيا من النعم التي أنعم بها عليه في نفسه وقلبه وولده وماله وحياته الطيبة، ولكن ليس ذلك أجر توفية، وقد دل القرآن في غير موضع على أن لكل من عمل خيراً أجر[ين](٢) عمله في الدنيا ويكمل له أجره في الآخرة كقوله تعالى:
﴿لِّلذينَ أَحسَنُـوا فِي هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةٌ ولَدَارُ الآخرة خَيرٌ وَلَنِعمَ دَارُ الْمتقينَ﴾ [النحل: ٣٠] وفي الآيةَ الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِن بَعدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبوئَنَّهُم فِي الدُّنيَا حَسَنَةً وَلَأجرُ الآخرةِ أَكبرُ لو كَانُوا يَعلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١] وقال في هذه السـورة: ﴿مَن عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيبَةً، وَلَنَجزِيَنَّهُم أَجرَهُم بِأَحسَنِ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وقال فيها عن خليله:
﴿وآتَينَاهُ فِي الدُّنيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢] فقد تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع، فإنها سورة النعم التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه مما لا يدرك تفاوته، وأن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعماً أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ استَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ يُمَتِّعكُم مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمّى وَيُؤتِ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضلَهُ﴾ [هود: ٣].

(٣)**وأثنى** سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال: ﴿إن إبراهيم كان أمة

---

(١) ١٦٤ أعلام جـ ٢.
(٢) كذا في الأصل ولعل الصحة حذف مابين المعكوفين (ج) (٣) ١٢٤ عدة الصابرين.

قانِتاً لله حَنيفاً وَلَم يكُ مِنَ المشركين شاكراً لأنعُمه اجتباه وَهَدَاه إلى صِراطٍ مستقيم﴾ [النحل: ١٢٠] فأخبر عنه سبحانه أنه أمة أي قدوة يؤتم به في الخير وأنه قانتًا لله والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه.

ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره؛ بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها ﴿والله أَخرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لاَ تَعلَمُونَ شَيئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصَارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. فهذه غاية الخلق وغاية الأمر فقال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ [آل عمران: ١٢٣] ويجوز أن يكون قوله: ﴿لعلكم تشكرون﴾ تعليلاً لقضائه لهم بالنصر ولأمره لهم بالتقوى ولهما معاً وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر.

وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرسَلنَا فِيكُم رَسُولاً مِنكُم يَتلُوا عَلَيكُم آيَاتِنَا وَيُزَكّيكُم وَيُعَلِمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَيُعَلِمُكُم مَّا لَم تَكُونُوا تَعلَمُونَ فَاذكُرُوني أَذكُرْكم واشكُرُوا لي وَلاَ تَكفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١]. قالوا: فالشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره، والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في الصحيحين: عن النبي (ﷺ) أنه قام حتى تفطرت قدماه فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**». وثبت في المسند والترمذي: أن النبي (ﷺ) قال لمعاذ: «**والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة قال: كان من دعاء النبي (ﷺ): «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

(١)**قوله** تعالى: ﴿وَاصبر وَمَا صَبرُكَ إلا بِالله﴾ [النحل: ١٢٧]. وقول شعيب:

---

(١) ٦٣ شفاء العليل.

﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ [هود: ٨٨]. ومعلوم أن الصبر والتوفيق فعل اختياري للعبد وقد أخبر أنه به لا بالعبد، وهذا لا ينبغي أن يكون فعلاً للعبد حقيقة ولهذا أمر به، وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه وإنما يؤمر العبد بفعله هو، ومع هذا فليس فعله واقعًا به وإنما هو بالخالق لكل شيء، الذي ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن.

فالتصبير منه سبحانه وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد وهو فعل العبد؛ ولهذا أثنى على من يسأله أن يصبره فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفرِغ عَلَيْنَا صَبراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرنَا عَلَى القَومِ الكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذنِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١]. ففي الآية أربعة أدلة:

أحدها: قولهم: ﴿أفرغ علينا صبراً﴾ والصبر فعلهم الاختياري فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: ﴿وثبت أقدامنا﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ فسألوه النصر وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب؛ فيحصل النصر.

وأيضاً فإن كون الإنسان منصوراً على غيره؛ إما أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم وذلك أيضاً بفعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده وأثنى على من طلبه منه.

وعند القدرية لا يدخل تحت مقدور الرب.

والرابع: قوله: ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ وإذنه ها هنا هو الإذن الكوني القدري أي: بمشيئته وقضائه وقدره ليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر؛ فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه ألبتة.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النحل
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)فائـدة

كانت كرامة رسول الله ﷺ بالإسراء مفاجأة من غير ميعاد ليحمل عنه ألم الانتظار ويفاجأ بالكرامة بغتة، وكرامة موسى بعد انتظار أربعين ليلة.

(٢)**تسخير** البراق لحمل رسول الله، ﷺ في ليلة واحدة مسيرة شهرين ذهابًا وإيابًا أعظم من تسخير الريح لسليمان مسيرة شهرين في يوم واحد ذهابًا وإيابًا؛ فإن الريح سريعة الحركة، طبعها الإسراع بما تحمله، وأما البراق فالآية فيه أعظم.

(٣)**شق** صدر النبي، ﷺ، والاعتناء بتطهير قلبه وحشوه إيمانًا وحكمة دليل على أن محل العقل القلب، وهو متصل بالدماغ. واستدل بعض الفقهاء بغسل قلبه، ﷺ، في الطست من الذهب على جواز تحلية المصاحف بالذهب والمساجد، وهو في غاية البعد؛ فإن ذلك كان قبل النبوة، ولم يكن ذلك من ذهب الدنيا، وكان كرامة أكرم بها، ﷺ، وكان من فعل الملائكة بأمر الله، وهم ليسوا داخلين تحت تكاليف البشر. وأبعد منه احتجاج من احتج به على جواز انتفاع الرجل بالحرير تبعًا لامرأته كالفراش واللحاف والمخدة قال: لأن الملك لا حرج عليه والنبي، ﷺ، انتفع بذلك تبعًا. وقد أبعد هذا القائل النجعة وأتى بغير دليل.

(٤)**قول** الملائكة للنبي، ﷺ، ليلة الإسراء: (مرحبًا به) أصل في استعمال هذه الألفـاظ وماناسبها عند اللقاء نحو: أهلاً وسهلاً، ومرحبًا، وكرامة، وخير مقدم، وأيمن مورد ونحوها. ووقع الاقتصار منها على لفظ مرحبًا وحدها لاقتضاء الحال لها، فإن الترحيب هو السعة، وكان قد أفضى إلى واسع الأماكن. ولم يطلق فيها سهلاً لأن معناه وطئت مكانًا سهلاً، والنبي، ﷺ، كان محمولاً.

. . .(٥)**ثم** أسري بروحه وجسده إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى فوق

---

(١) ٢٠٣ البدائع جـ٣. (٢) ٢٠٣ البدائع جـ٣. (٣) ٢٠٤ البدائع جـ٣.

(٤) ٢٠٥ البدائع جـ٣. (٥) ٤٧ الزاد جـ١.

السموات بجسده وروحه إلى الله ـ عز وجل ـ فخاطبه وفرض عليه الصلوات، وكان ذلك مرة واحدة، هذا أصح الأقوال.

وقيل: بل يقال: أسري به، ولا يقال: يقظة ولا منامًا، وقيل: كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة، وإلى السماء منامًا.

وقيل: كان الإسراء مرتين: مرة يقظة، ومرة مناماً.

وقيل: بل أسري به ثلاث مرات، وكان ذلك بعد المبعث بالاتفاق.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**أسرى بعبده**﴾ دون بعث بعبده، وأرسل به، ما يفيد مصاحبته له في مسراه، فإن الباء هنا للمصاحبة، كهي في قوله هاجر بأهله وسافر بغلامه، وليست للتعدية؛ فإن أسرى يتعدى بنفسه، يقال: سري به وأسراه، وهذا لأن ذلك السري كان أعظم أسفاره ﷺ، والسفر يعتمد الصاحب؛ ولهذا كان، ﷺ، إذا سافر يقول: «**اللهم أنت الصاحب في السفر**».

فإن قيل: فهذا المعنى يفهم من الفعل الثلاثي لو قيل سرى بعبده، فما فائدة الجمع بين الهمزة والباء؟ ففيه أجوبة (أحدها) أنهما بمعنى، وإن أسري لازم كَسَرَى تقول: سرى زيد وأسرى، بمعنى واحد، هذا قول جماعة.

والثاني إن أسرى متعد ومفعوله محذوف، أي: أسري بعبده البراق. هذا قول السهيلي وغيره.

ويشهد للقول الأول قول الصديق: أسرينا ليلتنا كلها ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة.

والجواب الصحيح أن الثلاثي المتعدي بالباء يفهم منه شيئان:

أحدهما: صدور الفعل من فاعله (الثاني) مصاحبته لما دخلت عليه الباء.

فإذا قلت سريت بزيد وسافرت به كنت قد وجد منك السري والسفر مصاحبًا لزيد فيه كما قال: ولقد سريت على الظلام بمعشر. ومنه الحديث: «**أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها**» وأما المتعدي بالهمزة فيقتضي إيقاع الفعل بالمفعول فقط كقوله تعالى: ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا**﴾

---

(١) ٢٠٢ البدائع جـ٣.

[سورة النحل: ٧٨]. ﴿**وأخرجناهم من جنات وعيون**﴾ [سورة الشعراء: ٥٧]. ونظائره فإذا قُرن هذا المتعدى بالهمزة أفاد إيقاع الفعل على المفعول مع المصاحبة المفهومة في الباء. ولو أتى بالثاني فُهم منه معنى المشاركة في مصدره وهو ممتنع فتأمله. أ. هـ.

...(1)**قال** القاضي: نص أحمد على أن الإسراء كان يقظة. وحكى له أن موسى بن عقبة قال: أحاديث الإسراء منام فقال: هذا كلام الجهمية. ونقل حنبل أن الرؤية منام. ونقل الأشرم وغيره أنه رآه ولا يطلق سوى ذلك. وقال أبوبكر النجار: رآه إحدى عشرة مرة بالسنة، تسع مرات ليلة المعراج حين كان يتردد بين موسى وبين ربه - عز وجل - ومرتين بالكتاب.

...(2)**وقال** ابن المبارك عن شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**إنه كان عبدًا شكورًا**﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٣]. قال: لم يأكل شيئًا إلا حمد الله عليه، ولم يشرب شرابًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يمش مشيًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه فأثنى الله عليه: إنه كان عبداً شكوراً.

وقال محمد بن كعب: كان نوح إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله. فسماه الله عبداً شكورًا.

وقال ابن أبي الدنيا: بلغني عن بعض الحكماء قال: لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغي أن لا يعصى لشكر نعمته.

...(3)**قوله** تعالى: ﴿**وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا**﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٣]. قال ابن جرير: وكل إنسان ألزمناه ما قضى له أنه عامله، وما هو صائر إليه، من شقاء أو سعادة بعمله، في عنقه لا يفارقه. وهذا ما قاله الناس في الآية، وهو ما طار له من الشقاء والسعادة، وما طار عنه من العمل، ثم ذكر عن ابن عباس قال: طائره عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان وزائل معه أينما زال.

وكذلك قال ابن جريج، وقتادة، ومجاهد: هو عملة. زاد مجاهد: وما كتب له. وقال قتادة أيضاً: سعادته وشقاوته بعمله.

---

(1) ٣٩ البدائع جـ٤.　(2) ١٥٤ عدة الصابرين.　(3) ٦١ شفاء.

قال ابن جرير: فإن قال قائل: (فكيف قال: ألزمناه طائره في عنقه إن كان الأمر على ما وصفت ولم يقل في يديه أو رجليه أو غير ذلك من أعضاء الجسد).

قيل: إن العنق هي موضع السمات، وموضع القلائد والأطوقة، وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه، وإن كان الذي جره عليه لسانه أو فرجه فكذلك قوله: ﴿**ألزمناه طائره في عنقه**﴾. وقال الفراء: الطائر معناه عندهم العمل.

قال الأزهري: والأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى بسعادة من علمه مطيعاً، وشقاوة من علمه عاصيًا، فطار لكلٍّ ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه.

وأما قوله (في عنقه) فقال أبوإسحاق: إنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي لزومه له كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق.

قال أبوعلي: هذا مثل قولهم: طوقتك كذا، وقلدتك كذا، أي صرفته نحوك وألزمتك إياه. ومنه: قلده السلطان كذا، أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق.

وقيل إنما خص العنق لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيرًا أو شرًا، وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغل، فأضيف إلى الأعناق.

قالت القدرية: إلزامه ذلك وَسْمُه به، وتعليمه بعلامة يعرف الملائكة أنه سعيد أو شقي، والخبر عنه، لا أنه ألزمه العمل فجعله لازمًا له.

قال أهل السنة: هذه طريقة لكم معروفة في تحريف الكلم عن مواضعه، سلكتموها في الجسم والطبع والعقل، وهذا لا يعرفه أهل اللغة، وهو خلاف حقيقة اللفظ وما فسره به أعلم الأمة بالقرآن، ولا يعرف ما قلتموه عن أحد من سلف الأمة البتة، ولا فسر الآية غيركم به، ولا يصح حمل الآية عليه؛ فإن الخبر عنه بذلك والعلامة أعلم بها إنما حصل بعد طائره اللازم له من عمله، فلما لزمه ذلك الطائر، ولم ينفك عنه أخبر عنه بذلك وصارت عليه علامة وسمة. ونحن قد أريناكم أقوال أئمة الهدى وسلف الأمة في الطائر، فأرونا قولكم عن واحد منهم

قالـه قبلكم. وكل طائفة من أهل البدع تجر القرآن إلى بدعها وضلالها وتفسره بمذاهبها وآرائها والقرآن بريء من ذلك وبالله التوفيق.

...(١) **الناس** في هذا المقام أربعة أقسام أحدهم من لا يريد ربه ولا يريد ثوابه فهؤلاء أعداؤه حقًّا وهم أهل العذاب الدائم. وعدم إرادتهم لثوابه إما لعدم تصديقهم به، وإما لإيثار العاجل عليه ولو كان فيه سخطه.

والقسم الثاني: من يريده ويريد ثوابه، وهؤلاء خواص خلقه.

قال الله تعالى: ﴿**وإن كُنْتُن تُردْنَ الله ورسُولَهُ والدَّارَ الآخِرة، فإنَّ الله أعدَّ للمُحْسنَاتِ منكُنَّ أجْرًا عظيمًا**﴾ [سورة الإسراء: الآية: ١٩].

فهذا خطابه لخير نساء العالمين، أزواج نبيه، ﷺ. وقال الله تعالى: ﴿**ومن أرَادَ الآخِرَةَ وسعىٰ لها سعيها وهومؤمن فأولئك كان سعيُهُم مشكُورًا**﴾ فأخبر أن السعي المشكور: سعي من أراد الآخرة.

وأصرح منها قوله لخواص أوليائه ـ وهم أصحاب نبيه، ﷺ، ورضي عنهم في يوم أحد: ﴿**منكم منْ يُريدُ الدُّنيا، ومِنكم منْ يُريد الآخرة**﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢]. فقسمهم إلى هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما.

...(٢)**فأعظم** الناس خذلانًا من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله. كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿**لا تَجْعَلْ مع الله إلهًا آخر فتَقْعد مذمومًا مَخْذولاً**﴾ [سورة الإسراء: ٢٢]. مذمومًا لا حامد لك، مخذولاً لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل. وقد يكون مذمومًا منصورًا، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل. وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

(١) ٨١ المدارج جـ٢.	(٢) ٤٥٨ مدارج جـ١.

. . .(١)﴿وقضى ربُّـك ألا تَعْبـدوا إلا إيـاه وبالوالدين إحسـانًا﴾ [سورة الإسراء: ٢٣]. فذكر توحيده وذكر المناهي التي نهاهم عنها والأوامر التي أمرهم بها ثم ختم الآيات بقوله: ﴿كل ذلك كان سيئه عند ربِّكَ مَكْروهًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٨] أي أنه سيء في نفس الأمر عند الله، حتى لو لم يرد به تكليف لكان سيئه في نفسه عند الله مكروهًا له، وكراهته سبحانه له لما هو عليه من الصفة التي اقتضت أن كرهه، ولو كان قبحه إنما هو مجرد النهي لم يكن مكروهًا لله؛ إذ لا معنى للكراهة عندهم إلا كونه منهيًا عنه، فيعود قوله: ﴿كلُّ ذلك كان سيئهُ عنْدَ ربِّك مكروهًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٨] إلى معنى كل ذلك نهى عنه عند ربك، ومعلوم أن هذا غير مراد من الآية.

وأيضا فإذا وقع ذلك منهم فهو عند النفاة للحسن والقبح محبوب لله مرضي له، لأنه إنما وقع بإرادته، والإرادة عندهم هي المحبة لا فرق بينهما، والقرآن صريح في أن هذا كله قبيح عند الله، مكروه مبغوض له، وقع أو لم يقع، وجعل سبحانه هذا البغض والقبح سببًا للنهي عنه؛ ولهذا جعله علة وحكمة للأمر؛ فتأمله والعلة غير المَغْلول.

...(٢)**قال** تعالى عقيب ذكر ما حرمه من المحرمات من عند قوله: ﴿وقَضَى ربُّك أن لا تَعْبُدوا إلَّا إيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿فلا تَقُل لهما أفٍّ ولا تنهرهما﴾ إلى قوله: ﴿ولا تَقْتلوا أولادكم خشية إملاقٍ﴾ إلى قوله: ﴿ولا تَقرَبُوا الزِّنا﴾ إلى قوله: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق﴾ إلى قوله: ﴿ولا تقربوا مالَ اليتيم﴾ إلى قولـه: ﴿ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ به عِلْم﴾ [سورة الإسراء: الآيات: ٢٣ - ٣٨] إلى آخر الآيات، ثم قال: ﴿كلُّ ذلك كان سيِّئُه عند ربك مكروها﴾ وفي الصحيح «إن الله عز وجل كَرِهَ لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

فالسلف كانـوا يستعملون الكـراهـة في معنـاها الذي استعملت فيه في كلام الله ورسـولـه، ولكن المتأخرون اصطلحوا على تخصيص الكراهة بما ليس بمحـرم، وتـركُـهُ أرْجَـحُ من فعله، ثم حمل من حمل منهم كلام الأئمـة على الاصطلاح الحادث، فغَلِطَ في ذلك، وأقبح غلطًا منه من حمل لفظ الكراهة أو لفظ

---

(١) ٩ مفتاح جـ٢١.
(٢) ٤٣ الإعلام جـ١.

«لا ينبغي» في كلام الله ورسوله على المعنى الاصطلاحي الحادث.

وقد اطَّرد في كلام الله ورسوله استعمالُ « لا ينبغي» في المحظور شرعًا أو قدرًا، وفي المستحيل الممتنع كقوله تعالى: ﴿**وما ينبغي للرحمن أن يَتَّخِذَ وَلَدًا**﴾ [سورة مريم: الآية: ٩٢]. وقوله: ﴿**وما عَلَّمْنَاه الشِّعْرَ وما ينبغي له**﴾ [سورة يس: ٦٩] وقوله: ﴿**وما تنزَّلَتْ به الشياطينُ وما ينبغي لهم**﴾ وقوله على لسان نبيه: «**كذَّبَني ابنُ آدَمَ وما ينبغي له، وشتمني ابن آدم وما ينبغي له**» وقوله ﷺ: «**إن الله لا يَنَامُ ولا ينبغي له أن ينام**» وقوله ﷺ في لباس الحرير: «**لا ينبغي هذا للمتقين**» وأمثال ذلك.

والمقصود أن الله سبحانه حَرَّمَ القولَ عليه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، والمفتي يخبر عن الله ـ عز وجل ـ وعن دينه، فإن لم يكن خبره مطابقًا لما شَرَعَه كان قائلاً عليه بلا علم، ولكن إذا اجتهدَ واستفرغ وسْعَه في معرفة الحق وأخطأ لم يلحقه الوعيد، وعفي له عما أخطأ به، وأثيب على اجتهاده، ولكن لا يجوز أن يقول لما أداه إليه اجتهاده ولم يظفر فيه بنص عن الله ورسوله أن الله حرم كذا، وأوجب كذا، وأباح كذا، وأن هذا هو حكم الله....

...[1]**فهمت** الأمة من قوله تعالى: ﴿**إن الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلما**﴾ [سورة النساء: الآية: ١٠] جميع وجوه الانتفاع من اللبس والركوب والمسكن وغيرها.

وفهمت من قوله تعالى: ﴿**فلا تقل لهما أف**﴾ [سورة الإسراء: الآية: ٢٣] إرادة النهي عن جميع أنواع الأذى بالقول والفعل، وإن لم ترد نصوص أخرى بالنهي عن عموم الأذى، فلو بَصَقَ رجل في وجْه والديه وضربهما بالنعل وقال: إني لم أقل لهما أف لَعَدَّهُ الناس في غاية السخافة والحماقة والجهل من مجرد تفريقه بين التأفيف المنهي عنه وبين هذا الفعل قبل أن يبغله نهى غيره، ومَنْعُ هذا مكابرةٌ للعقل والفهم والفطرة، فمن عرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة وجب اتباع مراده. والألفاظ لم تقصد لذواتها، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده ووضَحَ بأيِّ طريق كان: عُمِلَ بمقتضاه، سواء كان بإشارة، أو كتابة، أو بإيماءةٍ أو دلالة عقلية، أو قرينة حالية، أو عادة له مُطردة لا يُخِلُّ بها، أو من مقتضى كماله وكمال

(١) ٢١٨ أعلام جـ١.

أسمائه وصفاته، وأنه يمتنع منه إرادة ما هو معلوم الفساد وترك إرادة ما هو متيقن مصلحته، وأنه يستدل على إرادته للنظير بإرادة نظيره ومثله وشبهه، وعلى كراهة الشيء بكراهة مثله ونظيره ومشبهه، فيقطع العارفُ به وبحكمته وأوصافه على أنه يريد هذا ويكره هذا. ويحب هذا ويبغض هذا، وأنت تجد مَنْ له اعتناء شديد بمذهب رجل وأقواله كيف يفهم مراده من تصرفه ومذاهبه؟ ويخبر عنه بأنه يفتي بكذا، ويقوله، وأنه لا يقول بكذا ولا يذهب إليه، لما لا يوجد في كلامه صريحًا، وجميع أتباع الأئمة مع أئمتهم بهذه المثَابة.

وهذا أمر يعم أهل الحق والباطل، لا يمكن دفعه؛ فاللفظ الخاص قد ينتقل إلى معنى العموم بالإرادة، والعامُّ قد ينتقل إلى الخصوص بالإرادة، فإذا دعي إلى غَدَاء فقال: واللهلا أتغدى، أو قيل له: «نم» فقال: والله لا أنام، أو «اشرب هذا الماء» فقال: والله لا أشرب، فهذه كلها ألفاظ عامة نقلت إلى معنى الخصوص بإرادة المتكلم التي يَقْطع السامعُ عند سماعها بأنه لم يرد النفيَ العام إلى آخر العمر والألفاظ ليست تعبديه...

...[1]**دين** الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وقد قال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ خير الناس النمط الأول الذين يرجع إليهم الغالي، ويلحق بهم التالي. ذكره ابن المبارك عن محمد بن طلحة عن علي. وقال ابن عائشة: ما أمر الله عباده بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، فإما إلى غلو وإما إلى تقصير. وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

وقد مدح تعالى أهل التوسط بين الطرفين المنحرفين في غير موضع من كتابه فقال تعالى: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يُسرِفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قواما**﴾ [الفرقان: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسُطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال: ﴿**وآت ذا القربىٰ حقَّهُ والمسكين وابنَ السَّبيل ولا تبذر تبذيرا**﴾ [الإسراء: ٢٦]. فمنع ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم انحراف في جانب الإمساك، والتبذير انحراف في جانب البذل، ورضاء

(١) ١١٠ الصلاة.

الله فيما بينهما، ولهذا كانت هذه الأمة أوسط، الأمم، وقبلتها أوسط القبل بين القبلتين المنحرفتين. والوسط دائمًا محمي الأطراف، [أما الأطراف] فالخلل إليها أسرع كما قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرافا

فقد اتفق شرع الرب تعالى وقدره على أن خيار الأمور أوساطها.

فصل(١)

والفرق بين الجود والسرف أن الجواد حكيم يضع العطاء مواضعه، والمسرف مبذر، قد يصادف عطاؤه موضعه، وكثيرًا لا يصادفه. وإيضاح ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل في المال حقوقًا، وهي نوعان: حقوق موظفة وحقوق ثانية

فالحقوق الموظفة كالزكاة، والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته.

والثانية: كحق الضيف ومكافأة المهدي، وما وقى به عرضه ونحو ذلك.

فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال، طيبة بذلك نفسه، راضية مؤملة للخلف في الدنيا والثواب في العقبى، فهو يخرج ذلك بسماحة قلب، وسخاوة نفس، وانشراح صدر، بخلاف المبذر فإنه يبسط يده في ماله بحكم هواه وشهوته، جزافًا لا على تقدير، ولا مراعاة مصلحة وإن اتفقت له. فالأول بمنزلة من بذر حبة في الأرض تنبت، وتوخى ببذره مواضع المغل والإنبات، فهذا لا يعد مبذرًا ولا سفيهًا. والثاني بمنزلة من بذر حبه في سباخ وعزاز من الأرض وإن اتفق بذره في محل النبات، بذر بذرًا متراكمًا بعضه على بعض، فذلك المكان البذر فيه ضائع معطل، وهذا المكان بذر بذرًا متراكمًا بعضه على بعض، فلذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقي ولئلا تضعف الأرض عن تربيته.

والله سبحانه هو الجواد على الإطلاق، بل كل جود في العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة في بحار الدنيا، وهي من جوده، ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء. وجوده لا يناقض حكمته، ويضع عطاءه مواضعه وإن خفي على أكثر الناس أن تلك مواضعه، فالله يعلم حيث يضع فضله وأي المحال أولى به(٢).

---

(١) ٢٨٦ الروح. (٢) ذكر ابن القيم في آخر كتاب الروح فروقًا كثيرة عن علم وتحقيق يحسن الرجوع إليها(ج).

...(١)**وسأله** ﷺ رجل فقال: إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق؟ وكيف أمنع؟ فقال: «**تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرَة تطهـرك، وتَصِلُ بها رحمك وأقاربك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين**». فقال: يارسول الله أقلل في، قال: ﴿**فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرًا**﴾ فقال: حسبي، وقال: يارسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم، إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، ولك أجرها، وإثمها على من بَدَّلها**» [ذكره أحمد].

وسئل ﷺ عن الصدقة على أبي رافع مَوْلاه، فقال: «**إنا آلَ محمدٍ لا تحل لنا الصدقة، وإن مولى القوم من أنفسهم**» [ذكره أحمد].

وسـأله ﷺ عمر عن أرضه بخيبر، واستفتاهُ ما يصنعَ فيها، وقد أراد أن يتقـرب بها إلى الله، فقـال: «**إن شئت حبست أصلهـا وتصدَّقت بها**» ففعل. وتصدق عبدُ الله بن زيد بحائط له، فأتاه أبَوَاه فقالا: يارسول الله إنها كانت قيم وجـوهنـا، ولم يكن لنـا مال غيره، فدعـا عبـدالله فقال: «**إن الله قد قبل منك صدقتك، ورَدَّها على أبَوَيْكَ**» فتوارثاها بعد ذلك، [ذكره النسائي].

وسئـل ﷺ: أي الصـدقـة أفضـل؟ فقال: «**المنيحة، أن يمنح أحدُكم الدرهم أو ظهرَ الدابة أو لبن الشاة أو لبن البقرة**» [ذكره أحمد].

وسئل ﷺ مرة عن هذه المسألة، فقال: «**جُهدُ المُقِل، وابْدَأ بمن تعول**» [ذكره أبوداود].

. . .(٢)**وقـد** قال تعالى: ﴿**ولا تَقْرَبوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً**﴾ [الإسراء: ٣٢]. فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه، حتى استقـر فحشـه في العقـول، حتى عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخاري في صحيحـه عن عمر بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا. ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا، وسبيل عذاب في الآخرة وخزي ونكال. ولما

(١) ٢٩٠ الإعلام جـ٤.
(٢) ٢٠٢ الجواب.

كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال: ﴿**إنه كان فاحشةً ومقتًا وساء سبيلاً**﴾ [النساء: ٣٢] وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه فقال ﴿**قد أفلح المؤمنون الذينَ هُم في صلاتِهم خاشعون** ـ إلى قوله ـ **فَمَن ابتَغَىٰ وراء ذلك فأولئك هم العادُونَ**﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٧] وهذا يتضمن ثلاثة أمور: من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين. ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك.

(١)ارتكاب سبيلي الحرام وما يفضي إليه من المفاسد والآلام

حقيق بكل عاقلٍ أن لا يسلك سبيلاً حتى يعلم سلامتها وأمانها وما توصل إليه تلك الطُريق من سلامةٍ أو عطب، وهذان السبيلان هلاك الأوَّلين والآخرين بهما، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما، ويُفضيان بصاحبهما إلى أقبح الغايات وشر موارد الهلكات، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزنى شرَّ سبيل فقال تعالى: ﴿**ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً**﴾ [الإسراء: ٣٢].

فإذا كانت هذه سبيل الزنى فكيف سبيل اللواط التي تَعْدِل الفَعْلة منه في الإثم والعقوبة أضعافها وأضعاف أضعافها من الزنى؟ كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى.

فأما سبيل الزنى فأسوأ سبيل، ومقيل أهلها في الجحيم شرُّ مَقيل، ومستقرُّ أرواحهم في البرزخ في تنور من نار يأتيهم لهبها من تحتهم: فإذا أتاهم اللهب ضجوا وارتفعوا، ثم يعودون إلى موضعهم، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي ﷺ في منامه ورؤيا الأنبياء [وحيٌّ] لا شك فيها. . .

...(٢)**وقال** أبونعيم الفضل بن دُكين: حدثنا عبدالسلام بن شداد، عن غزوان بن جرير، عن أبيه أنهم تذاكروا عند علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الفواحش فقال لهم: هل تدرون أي الزنى أعظم؟ قالوا: يا أمير المؤمنين كله عظيم قال: ولكن سأخبركم بأعظم الزنى عند الله، هو أن يزني الرجل بزوجة الرجل

---

(١) ٣٧٧ الروضة. (٢) ٣٨٢ الروضة.

المسلم فيصير زانيًا، وقد أفسد على الرجل زوجته. ثم قال عند ذلك: إن الناس يُرْسَل عليهم يوم القيامة ريحٌ منتنةٌ حتى يتأذّى منها كلُّ بر وفاجرٍ، حتى إذا بلغت منهم كل مبلغ وألَمَّت أن تمسك بأنفاس الأمم كلهم ناداهم منادٍ يُسمعهم الصوت ويقول لهم: هل تدرون ما هذه الريحُ التي قد آذتكم؟ فيقولون لا ندري والله إلا أنها قد بلغت منّا كل مبلغٍ، فيقال: ألا إنها ريح فروج الزُّناة الذين لقوا الله بزناهم ولم يتوبوا منه، ثم يصرف بهم، فلم يذكر عند الصرف [بهم] جنةً ولا نارًا.

وقال الخرائطي: حدثنا علي بن داود القنطري، حدَّثنا سعيد بن عفير، حدثني مسلم بن علي الخُشَني، عن أبي عبدالرحمن، عن الأعمش، عن شقيق، عن حُذَيفة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**يامعشر المسلمين إياكم والزنى فإن فيه ستَّ خِصالٍ: ثلاثٌ في الدُّنيا وثلاثٌ في الآخرةِ، فأما اللواتي في الدُّنيا فذهاب البهاء، ودوام الفقر، وقصر العمر. وأما اللواتي في الآخرة [فسخطُ الله، وسوءُ الحساب]، ودُخُول النَّارِ**».

ويُذكر عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: المُقيم على الزنى كعابد وثنٍ، ورفعه بعضهم. وهذا أولى أن يُشَبَّه بعابد الوثن من مُدْمِن الخمر، وفي المسند وغيره مرفوعًا: «**مُدْمِنُ الخَمْرِ كعَابِدِ وثَنٍ**». فإن الزنى أعظمُ من شرب الخمر.

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ: ليس بعد قتل النفس أعظم من الزنى.

وفي الصحيحين من حديث أبي وائل عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يارسول الله أيُّ الذنب أعظمُ عند الله؟ قال: «**أن تَجْعَلَ لله نِدًّا وهو خَلَقَكَ**» قال: قلت: ثُم أي؟ قال: «**أن تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**»: قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تَزْني بحليلة جارك**» فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه ﴿**والذين لا يَدْعُون مع الله إلـهًا آخرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حرَّمَ الله إلاَّ بالحَقِّ ولا يزْنُونَ ومَنْ يفعَل ذلك يلق أثامًا**﴾ [الفرقان: ٦٨].

وقال قتيبة بن سعيد: حدثنا ابن لهيعة عن ابن أنعمٍ عن رجل عن عبدالله ابن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الزَّاني بحليلة جاره لا**

ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكيه ويقول له: ادخل النار مع الداخلين»(١).

وذكر سفيان بنُ عُيينة، عن جامع بن شداد، عن أبي وائل، عن عبدالله قال: إذا بُخس المكيال حبس القطر، وإذا ظهر الزنى وقع الطاعون، وإذا كثر الكذب كثر الهرج. وفي الصحيحين(٢) من حديث الأعمش، عن أبي حازم، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُمْ الله يومَ القيامَةِ ولا ينظُرُ إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زان، وملكٌ كَذَّابٌ، وعائلٌ مستكبرٌ»** وذكر سفيان الثوري، عن منصور، عن رِبْعي بن حِرَاش، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ، قال: **«إن الله يُبغضُ ثلاثةً: الشيخُ الزَّاني، والمُقِل المُخْتَال، والبَخيل المَنَّان»**(٣). وذكر الأعمش، عن خيْثَمَة، عن أبي عبدالرحمن، عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ، قال: **«مثل الذي يجلس على فراشِ المغيبة مثلُ الذي ينهشُهُ الأسَاودُ يوم القيامة»**(٤). المغيبة هي التي قد سافر زوجها في جهادٍ أو حجٍ أو غيرهما.

وفي النسـائي وغـيره من حديث بريدة عن النبي ﷺ قال: **«حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كأمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلُف رجلاً من المجـاهدين في أهله إلا نُصِبَ له يوم القيامة فقال: يافلان هذا فلانٌ فخذ من حسناته ما شئت»** ثم التفت النبي ﷺ، إلى أصحابه فقال: **«ما ترون يدع له من حسناته شيئًا؟»** وفي لفظ: **«وإذا خلفه في أهله فخانه قيل له يوم القيامة هذا خانك في أهلك فخذ من حسناته ما شئت فما ظنكم؟»**.

ويكفي في قبح الزنى أن الله سبحانه [وتعالى] مع كمال رحمته شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهد عبادُه المؤمنون تعذيب فاعله. ومن قبحه أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهم الذي لا عقل له كما ذكر

---

(١) قال السيوطي: رواه الخرائطي في مساويء الأخلاق والديلمي في مسند الفردوس.

(٢) فتشت عن هذه الحديث في صحيح البخاري فلم أجده فرجعت إلى الجامع الصغير فوجدته لم يشر فيه إلى رواية البخاري بل قال: رواه مسلم والنسائي.

(٣) قال السيوطي: رواه أحمد وابن حبان والضياء المقدسي.

(٤) قال السيوطي: رواه الطبراني في الكبير والخرائطي في مساويء الأخلاق.

البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا وكنت فيمن رجمهما.

فصل

والزنى يجمع خلال الشر كلها: من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة، فلا تجد زانيًا معه ورعٌ، ولا وفاءٌ بعهدٍ، ولا صدقٌ في حديث، ولا محافظةٌ على صديق، ولا غيرةٌ تامة على أهله. فالغدرُ، والكذب، والخيانة، وقلةُ الحياء، وعدمُ المراقبة، وعدم الأنفة للحرم، وذهاب الغيرة من القلب، من شعَبه وموجباته. ومن موجباته غضبُ الرب بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرّض رجلٌ إلى ملكٍ من الملوك بذلك لقابله أسوءَ مقابلة.

ومنها سوادُ الوجه وظلمته ومايعلوه من الكآبة والمقْت الذي يبدو عليه للناظرين.

ومنها ظلمة القلب وطمس نوره، وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له.

ومنها الفقرُ اللازم. وفي أثر يقول الله تعالى: **«أنا الله مُهْلِكُ الطُّغاة، ومفقر الزُّناة»**.

ومنها أنه يذهب حرمة فاعله، ويسقطه من عين ربه ومن أعين عباده.

ومنها أنه يسلُبه أحسن الأسماء وهو اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن.

ومنها أنه يسلبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»** فسلبه اسم الإيمان المطلق، وإن لم يسلُب عنه مطلقَ الإيمان.

وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخطّ دائرة في الأرض وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خط دائرة أخرى [خارجة عنها] وقال: هذه [دائرة] الإسلام، فإذا زني العبد خرج من هذه ولم يخرج من هذه. ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمى مؤمنًا، كما أن الرجل يكون معه جزءٌ من العلم والفقه ولا يسمى به عالمًا فقيهًا، ومعه جزءٌ من الشجاعة والجود ولا يسمى بذلك شجاعًا ولا جوادًا، وكذلك يكون معه شيءٌ من التقوى ولا يسمى مُتَّقِيًا. ونظائره. فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يُتأوَّل بما يخالف ظاهره والله أعلم.

ومنها أن يعرّض نفسه لسكنى التنور الذي رأى النبيُّ ﷺ، فيه الزُّناة والزواني.

ومنها أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف، ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة كما قال [الله] تعالى: ﴿**الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات**﴾ [النور: ٢٦].

وقد حرم الله [الجنة] على كل خبيث، بل جعلها مأوى الطيبين ولا يدخلها إلا طيب قال الله تعالى: ﴿**الذين تتوفَّاهم الملائكة طيبين يقُولُون سلامٌ عليكم ادخلُوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾ [النحل: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿**وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾ [الزمر: ٧٣].

فإنما استحقوا سلامَ الملائكة ودخولَ الجنة بطيبهم، والزُّناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه جهنم دار الخبيث وأهله، فإذا كان يوم القيامة ميّز الخبيث من الطيب، وجعل الخبيث بعضه على بعضٍ ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم [فلا يدخل النار] طيبٌ، ولا يدخل الجنة خبيث.

ومنها الوحشة التي يضعها الله سبحانه وتعالى في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف على وجهه حلاوةٌ وفي قلبه أنس، ومن جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهه الوحشة ومن جالسه استوحش منه[1]. . . .

...[2] **أما** بعد: فإن الله سبحانه لم يخلق خلقه سدًى هملاً، بل جعلهم موردًا للتكليف، ومحلاً للأمر والنهي، وألزمهم فهم ما أرشدهم إليه مجملاً ومفصلاً، وقسمهم إلى شقي وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلاً، وأعطاهم مواد العلم والعمل: من القلب، والسمع، والبصر، والجوارح، نعمة منه وتفضيلاً.

فمن استعمل ذلك في طاعته، وسلك به طريق معرفته على ما أرشد إليه ولم يبغ عنه عدولاً، فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلاً.

ومن استعمله في إرادته وشهواته، ولم يرع حق خالقه فيه يخسر إذا سئل عن ذلك، ويحزن حزنًا طويلاً. فإنه لابد من الحساب على حق هذه الأعضاء لقوله تعالى: ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها

---

(١) استطرد المؤلف ـ رحمه الله ـ في ذكر مضار الزنى وعرج على مفاسد اللواط في عدة صحائف.

(٢) ٥ الإغاثة جـ١.

عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله**»(١)، فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته. وهو المسئول عنها كلها، لأن كل راع مسئول عن رعيته: كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون. والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن الطريق، وأمدّه من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق.

فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى، والتعرض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ [الإسراء: ٦٥].

فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين، وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين. فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين وشمله استثناء ﴿**إلا عبادك منهمُ المخلصين**﴾ [ص: ٨٣].

...(٢)**وقال** تعالى: ﴿**قل لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذًا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا**﴾ [الإسراء: ٤٢]. قيل المعنى: لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض: ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: ﴿**ولعلاَ بعضهم على بعض**﴾ قال شيخنا ـ رضي الله عنه ـ: والصحيح أن المعنى لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته. فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون

(١) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه في حديث «الحلال بين الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ـ الحديث».

(٢) ٢٧٥ الجواب الكافي.

لكانوا عبيدًا له. قال: ويدل على هذا وجوه: منها قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين يدعـون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه**﴾ [الإسراء: ٥٧]. أي هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ويرجون رحمتي ويخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟ الثاني أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا بل قال: ﴿**لابتغوا إليه سبيلاً**﴾.

وهذا اللفظ إنما يستعمل في القرب كقوله تعالى: ﴿**اتَّقُوا الله وابتُغوا إليه الوسيلة**﴾ [المائدة: ٣٥]. وأما في المغالبة فإنها يستعمل بعلى كقوله: ﴿**فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا**﴾ [النساء: ٣٤].

الثالث أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه وهو سبحانه قال: ﴿**قُلْ لو كان معه آلهة كما يقولون**﴾ [الإسراء: ٤٢] وهم إنما كانوا يقولون إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه قال: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيدًا له فلماذا تعبدون عبيده من دونه.

(١)**وكذلك** قوله سبحانه مقررًا برهان التوحيد أحسن التقرير وأبلغه وأوجزه ﴿**لوكان معه آلهةٌ كما يقولون إذًا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً**﴾ [الإسراء: ٤٢]. فإن الآلهة التي كانوا يثبتونها معه كانوا يعترفون بأنها عبيده ومماليكه ومحتاجة إليه. فلو كانوا آلهة كما يقولون لعبدوه وتقربوا إليه وحده دون غيره، فكيف يعبدونهم دونه؟ وقد أفصح سبحانه بهذا بعينه في قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الـوسيلة أيُّهم أقـرب ويـرجـون رحمته ويخافون عذابه**﴾ أي هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبيدي كما أنتم عبيدي، يرجون رحمتي ويخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟

(٢)(**الأمـر** الثـامن) أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لا نشعر بها؛ لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء وأرواحهم معهم ولا نشعر بحياتهم، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه

(١) ٩٥ الصواعق جـ١. (٢) ٨٨ الروح.

ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل في الجمادات شعورًا وإدراكًا تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات قال تعالى: ﴿**وإن من شيء ألا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل: ﴿**ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ [الإسراء: ٤٤]. فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها.

وقال تعالى: ﴿**إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق**﴾ [ص: ١٨]. والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**يا جبالُ أوبي معه**﴾ [سبأ: ١٠]. والدلالة لا تختص معيته وحده. وكذب على الله من قال: التأويب رجع الصدى؛ فإن هذا يكون لكل مصوت.

وقال تعالى: ﴿**ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدَّواب وكثير من الناس**﴾ [الحج: ١٨] والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس.

وقد قال تعالى: ﴿**ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه**﴾ [النور: ٤١]. فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدها الجاهلون المكذبون.

وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته.

وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له، وقولهما ذلك أي يستمعان كلامه وأنه خاطبهما فسمعا خطابه وأحسنا جوابه، فقال لهما: ﴿**ائتيا طوعًا أو كرها قالتا أتينا طائعين**﴾ [فصلت: ١١]. وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد، فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور، فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك، وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له. كـ ﴿**الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت فقال لهم الله موتُوا ثم أحياهم**﴾ [البقرة: ٢٤٣]. ﴿**أو كالذي مر**

على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عامٍ ثم بعثه قال: كم لبثت قال لبثت يومًا أو بعض يوم﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وكقتيل بني إسرائيل، أو كالـذين قالـوا لموسى: **﴿لن نُؤْمن لك حتى نرى الله جهرة﴾** [البقرة: ٥٥]. فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم، وكأصحاب الكهف، وكقصة إبراهيم في الطيور الأربعة، فإذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعدما بردت بالموت فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة يقضي بها أمره فيها ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها، وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود وبالله التوفيق.

(١)**وقوله: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا﴾** [الإسراء: ٤٥]. على أصح القولين والمعنى جعلنا بين القرآن إذا قرأتـه وبينهم حجـابًـا يحول بينهم وبـين فهمه وتدبره والإيمان به، ويبينه قوله: **﴿وجعلنا على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًا﴾** [الإسراء: ٤٦].

وهذه الثلاثة هي الثلاثة المذكورة في قوله: **﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾** [فصلت: ٦٥].

فأخبر سبحانه أن ذلك جعله، فالحجاب يمنع رؤية الحق، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه.

وقـال الكلبي: الحجـاب ههنا مانع يمنعهم من الوصول إلى رسول الله بالأذى من الرعب ونحوه مما يصدهم عن الإقدام عليه، ووصفه بكونه مستورًا فقيل بمعنى ساتر، وقيل على النسب أي ذو ستر.

والصحيح أنه على بابه أي مستورًا عن الأبصار فلا يرى. ومجيء مفعول بمعنى فاعل لا يثبت، والنسب في مفعول لم يشتق من فعله كمكان مهول أي ذي هول ورجل مرطوب أي ذي رطوبة. فأما مفعول فهو جار على فعله فهو الذي وقع عليه الفعل كمضروب ومجروح ومستور.

(٢)**قال** تعالى، حاكيًا عن اليهود: **﴿وقالوا قلوبنا غُلف﴾** [البقرة: ٨٨] وهو

---

(١) ٩٤ شفاء. (٢) ١٣ الإغاثة جـ١.

جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه، كقُلْف وأقلف، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله. فهي أكنة على القلوب ووَقْرٌ في الأسماع، وعمىً في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى: ﴿**وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا**﴾ ﴿**وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًا**﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦]. فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ولّى أصحابها على أدبارهم نفورًا.

وأشار بالقلب المنكوس ـ وهو المكبوب ـ إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿**فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا**﴾ [النساء: ٨٨]. أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة. وهذا شر القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطل حقًّا ويوالي أصحابه، والحق باطلاً ويعادي أهله، فالله المستعان.

وأشار بالقلب الذي له مادتان إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر. والحكم للغالب وإليه يرجع.

...[1]**الصواب** هو الجواب الثالث وهو جواب صاحب الكشاف وغيره أن المسحور على بابه وهو من سحر حتى جن فقالوا: مسحور مثل مجنون زائل العقل لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول، فهو كالمجنون ولهذا قالوا فيه: ﴿**مُعلَّمٌ مجنون**﴾ [الدخان: ١٤] فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من اتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين ولهذا قال تعالى: ﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا**

---

(١) ٢٢٥ البدائع جـ٢.

يستطيعون سبيلاً﴾ [الفرقان: ٩] مثلوك بالشاعر مرة والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه، فإنه أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلاً ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ، معه حتى ضربوا له أمثالاً برأه الله منها وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلىء صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة لا إله غيره ولا رب سواه.(١)

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**قل كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقًا مما يكبر في صدوركم**﴾ أي إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقًا جديدًا، فكونوا خلقًا لا يفنى ولا يبلى، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك. ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقروا بأن لكم ربًا متصرفًا فيكم، ومالكًا لكم، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته، يميتكم إذا شاء ويحييكم إذا شاء. فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقًا جديدًا بعدما أماتكم، وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك، نافذ المشيئة فيكم، والقدرة فيكم. فكونوا خلقًا لا يقبل الفناء والموت، فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقًا يموت ويحيا، أن يحييكم بعدما أماتكم؟ فهذا استدلال بعجزهم من كونهم خلقًا لا يموت، والذي في الواقعة استدلال بعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت،

(١) هذا نهاية بحث مطول في تفسير المعوذتين حول السحر وفي وصف السحر الذي حصل للنبي ﷺ وغيره. (ج).

(٢) ١٥٠ التبيان.

وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد.

[1]**قوله** تعالى: ﴿**أإذا كنا عظامًا ورفاتًا أإنا لمبعوثون خلقًا جديدًا. قل كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقًا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا. يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً**﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢]. فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل فإنهم قالوا: ﴿**أإذا كنا عظامًا ورفاقًا أإنًا لمبعثون خلقًا جديدًا**﴾ فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أن لا خالق لكم ولا رب، فهلا كنتم خلقًا لا يصيبه التعب كالحجارة والحديد، وما هو أكبر في صدوركم من ذلك، فإن قلتم: لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة وأنشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء ولم يجعلنا حجارة ولا حديدًا فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وإعادتكم خلقًا جديدًا.

وللحجة تقرير آخر وهو، أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منها لكان قادرًا على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال، ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع صلابتها وشدتها بالإفناء والإحالة، فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بافنائه وإحالته ونقله من حال إلى حال؟ فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم من يعيدنا إذا استحالت أجسامنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿**قل الذي فطركم أول مرة**﴾ [الإسراء: ٥١] وهذا الجواب نظير جواب قول السائل: ﴿**من يحيى العظام وهي رميم**﴾ [يسٓ: ٧٨] فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلق المقطوع بالحجاج بذلك وهو قولهم: ﴿**متى هو؟**﴾ فأجيبوا بقوله: ﴿**عسى أن يكون قريبًا. يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً**﴾ [الإسراء: ٥١، ٥٢].

[2]**قوله** تعالى: ﴿**وقالوا: أإذا كنا عظامًا ورفاتًا أئنا لمبعوثون خلقًا جديدًا**﴾ فردَّ عليهم سبحانه ردًا يتضمن الدليل القاطع على قدرته على إعادتهم خلقًا جديدًا فقال: ﴿**قل كونوا حجارةً أو حديدًا. أو خلقًا مما يكبُرُ في صدوركم فسيقولون**

(١) ١٠٢ الصواعق جـ١.   (٢) ١٤٣ الإعلام جـ١.

مَنْ يُعيدنا قُل الذي فطركم أول مرة﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١]. فلما استبعدوا أن يعيدهم الله خلقًا جديدًا بعد أن صاروا عظامًا ورفاتًا قيل لهم: كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقًا مما يكبر في صدوركم، سواء كان الموت أو السماء أو الأرض أو أي خلق استعظمتموه وكبر في صدوركم؛ ومضمون الدليل أنكم مربوبون مخلوقون مقهورون على ما يشاء خالقكم، وأنتم لا تقدرون على تغيير أحوالكم من خلقَة إلى خِلْقة لا تقبل الاضمحلال كالحجارة والحديد، ومع ذلك فلو كنتم على هذه الخلقة من القوة والشدة لنفذت أحكامي فيكم وقدرتي ومشيئتي، ولم تسبقوني ولم تفوتوني، كما يقول القائل لمن هو في قَبْضَته: اصْعَدْ إلى السماء فإني لاحِقكَ، أي لو صعدت إلى السماء لحقتك، وعلى هذا فمعنى الآية لو كنتم حجارة أو حديدًا أو أعظم خلقًا من ذلك لما أعجزتموني ولما فتُّموني.

وقيل: المعنى كونوا حجارة أو حديدًا عند أنفسكم، أي صَوِّرُوا أنفسكم وقَدرُوها خلقًا لا يضمحلُّ ولا ينحل، فإنا سنميتكم ثم نحييكم ونعيدكم خلقًا جديدًا.

وبين المعنيين فرق لطيف، فإن المعنى الأول يقتضي أنكم لو قَدَرْتُم على نَقْل خلقتكم من حالة إلى حالة هي أشد منها وأقوى لنفذت مشيئتنا وقدرتنا فيكم ولم تعجزونا، فكيف وأنتم عاجزون عن ذلك؟.

والمعنى الثاني يقتضي أنكم صوروا أنفسكم وأنزلوها هذه المنزلة، ثم انظروا أتفوتونا وتعجزونا أم قدرتُنَا ومشيئتُنَا مُحيطة بكم ولو كنتم كذلك؟.

وهذا من أبلغ البراهين القاطعة التي لا تعرض فيها شبهة البتة، بل لا تَجدُ العقولُ السليمة عن الإذعان والانقياد لها بُدًّا، فلما علم القوم صحة هذا البرهان وأنه ضروري انتقلوا إلى المطالبة بمن يعيدهم فقالوا: مَنْ يعيدنا؟ وهذا سواء كان سؤالًا منهم عن تعيين المعيد أو إنكارًا منهم له فهو من أقبح التعنت وأبينه، ولهذا كان جوابه: ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾ ولما علم القوم أن هذا جوابٌ قاطع انتقلوا إلى باب آخر من التعنت، وهو السؤال عن وقت هذه الإعادة، فأَنْغَضُوا إليه رءوسهم(١). وقالوا: متى هو؟ فقال تعالى: ﴿قل عسى أن يكون قريبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

---

(١) يقال نغض رأسه، من باب نصر وضرب، أي تحرك، وأنغضه هو، أي حركه كالمتعجب من الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿فسينغضون إليك رءوسهم﴾.

فليتأمل اللبيبُ لُطْفَ موقع هذا الدليل، واستلزامه لمدلوله استلزامًا لا محيد عنه، وما تضمنه من السؤالات والجواب عنها أبلغ جواب وأصحه وأوضحه، فلله ما يفوت المعْرِضين عن تدبُّر القرآن المتعوضين عنه بزبالة الأذهان ونُخَالة الأفكار.

(١)**قال الله تعالى**: ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب ويرجون رحمَتَهُ ويخافُون عذابه**﴾ [الإسراء: ٥٧]. فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة. فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء. قال تعالى: ﴿**من كان يَرجو لقاء الله فإن أجل الله لآتٍ**﴾ [العنكبوت: ٥]. وقال: ﴿**فمن كان يَرجُو لقاءَ ربه فليعمل عملاً صالحًا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا**﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿**أولئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم**﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفي صحيح مسلم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: ـ قبل موته بثلاث ـ «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**».

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**يقول الله ـ عز وجل ـ: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**».

«**الرجاء**» حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة. ويطيِّب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى. والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه. **وقيل:** هو الثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين «التمني» أن «التمني» يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها. ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن «الرجاء» لا يصح إلا مع العمل. . .

(٢)**قوله** «الرجاء» أضعف منازل المريدين.

---

(١) ٣٥ المدارج جـ٢.

(٢) ٤١ المدارج جـ٢.

فليس كذلك، بل هو من أجل منازلهم، وأعلاها وأشرفها. وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله، وقد مدح الله تعالى أهله، وأثنى عليهم. فقال: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسْوة حسنة لمن كان يرجُو الله واليومَ الآخِرَ وذكر الله كثيراً**﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه عز وجل: ﴿**يـاابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي**» وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ، قال: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي. وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم. وإن اقترب إليَّ شبراً، اقتربت إليّ ذراعًا. وإن اقترب إليَّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا. وإن أتاني يمشي أتيتـه هرولة**» [رواه مسلم].

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه. فقال تعالى: ﴿**قُل ادعوا الذين زعمتْم من دونه فلا يملكون كشفَ الضرِّ عنكم ولا تحويلاً. أولئك الذين يدعُون يبتغونَ إلى ربِّهم الوسيلة أيُّهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربِّكَ كان محذورًا**﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني هم عبادي يتقربون إلي بطاعتي ويرجون رحمتي ويخافون عذابي فلماذا تدعونهم من دوني فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء.

(١)**والكلام** على ما ذكره من وجوه(٢):

(أحدها) أن الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها وهي: الخوف، والرجاء، والمحبة. وقد ذكره سبحانه في قوله: ﴿**قل ادْعُوا الذين زعمتْم من دونه، فلا يملكون كشفَ الضرِّ عنكم ولا تحويلاً. أولئك الذين يدعُون يبتغونَ إلى ربِّهم الوسيلة أيُّهم أقرب ويرجون رحمته**

(١) ٢٨٢ المجرتين.
(٢) هذا رد على أبي العباس.

ويخافون عذابه . إن عذاب ربِّكَ كان محذورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

فجمع بين المقامات الثلاثة، فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل مايحبه. ثم يقول: **﴿ويَرْجُونَ رحمَتَهُ ويخافونَ عذابه﴾** فذكر الحب والخوف والرجاء.

والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له؟ وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: **﴿فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتُمْ مؤْمِنين﴾** [آل عمران: ١٧٥]. فجعل الخوف منه شرطًا في تحقق الإيمان، وإن كان الشرط داخلاً في الصيغة على الإيمان فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط في حصوله وتحققه، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقق السبب كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه.

فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه.

وانتفاء الخوف عند انتفاء الإيمان انتفاء للمعلول عند انتفاء علته. فتدبره.

والمعنى: إن كنتم مؤمنين فخافوني، والجزاء محذوف مدلول عليه بالأول عند سيبويه وأصحابه، أو هو المتقدم نفسه، وهو جزاء وإن تقدم كما هو مذهب الكوفيين. وعلى التقديرين فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان. وكل منهما مستلزم للآخر. لكن الاستلزام مختلف، وكل منهما منتف عند انتفاء الآخر، لكن جهة الانتفاء مختلفة كما تقدم.

والمقصود: أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يتخلف عنه. وقال تعالى: **﴿فلا تخشوا الناس واخشَونِ﴾** [المائدة: ٤٤]. وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: **﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا﴾** [الأنبياء: ٩٠] فالرغب: الرجاء والرغبة والرهب الخوف والخشية. . .

(١) الباب الثامن عشر
في ذكر أعلى درجاتهم واسم تلك الدرجة

روى مسلم في صحيحه من حديث عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي**».

وقال أحمد: أنبأنا عبدالرزاق أنبأنا سفيان عن ليث عن كعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صليتم فسلوا الله لي الوسيلة قيل يارسول الله وما الوسيلة؟ قال أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو**» هكذا الرواية: «**أن أكون أنا هو**» ووجهها أن تكون الجملة خبرًا عن اسم كان المستتر فيها ولا يكون «أنا» فصلاً ولاتوكيدًا بل مبتدأ.

وفي الصحيحين من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة**».

هكذا لفظ الحديث«مقامًا» بالتنكير ليوافق لفظ الآية، ولأنه لما تعين وانحصر نوعه في شخصه جرى مجرى المعرفة فوصف بما توصف به المعارف. وهذا ألطف من جعل الذي وعدته بدلاً فتأمله.

وفي المسند من حديث عمارة بن غزية عن موسى بن وردان عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**الوسيلة درجة عند الله عز وجل ليس فوقها درجة فسلوا الله لي الوسيلة**» وذكره ابن أبي الدنيا وقال فيه: «**درجة في الجنة ليس في الجنة درجة أعلى منها فسلوا الله أن يؤتنيها على رؤوس الخلائق**».

وقال أبونعيم أنبأنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال حدثنا عبدالله بن عمران العابدي حدثنا فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: «**جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال يارسول الله والله**

---

(١) ٦٢ حادي الأرواح.

إنك لأحب إلي من نفسي وإنك لأحب إلي من أهلي وأحب إلي من ولدي وإني لأكـون في البيت فأذكـرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي ومـوتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ، حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطع الله والـرسـول فأولئـك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قال الحافظ أبوعبدالله المقدسي لا أعلم بإسناد هذا الحديث بأسًا.

وسميت درجة النبي (ﷺ) الوسيلة لأنها أقرب الدرجات إلى عرش الرحمن وهي أقرب الدرجات إلى الله، وأصل اشتقاق لفظ الوسيلة من القرب وهي فعيلة من وسل إليه إذا تقرب إليه.

قال لبيد: بلى كل ذي رأي إلى الله واسل.

ومعنى الوسيلة من الوصلة، ولهذا كانت أفضل الجنة وأشرفها، وأعظمها نورًا.

وقال صالح بن عبدالكريم: قال لنا فضيل بن عياض أتدرون لِمَ حسنت الجنة؟ لأن عرش رب العالمين سقفها.

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: «نور سقف مساكنكم نور عرشه».

وقال بكر: عن أشعث عن الحسن: «إنما سميت عدن لأن فوقها العرش، ومنها تفجر أنهار الجنة وللحور العدنية الفضل على سائر الحور والقربى والزلفى واحد، وإن كان في الوسيلة معنى التقرب إليه بأنواع الوسائل».

وقال الكلبي: «اطلبوا إليه القربة بالأعمال الصالحة» وقد كشف سبحانه عن هذا المعنى كل الكشف بقـولـه: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الـوسيلة أيهم أقـرب﴾. فقوله أيهم أقرب هو تفسير للوسيلة التي يبتغيها هؤلاء الذين يدعوهم المشركون من دون الله فيتنافسون في القرب منه.

ولما كان رسـول الله (ﷺ) أعـظم الخلق عبـودية لربـه وأعلمهم به وأشـدهم له خشية وأعظمهم له محبة كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله وهي أعلى درجة في الجنة وأمـر النبي (ﷺ) أمتـه أن يسـألـوها له لينالوا بهذا الدعاء زلفى من الله وزيادة الإيمان

وأيضاً فإن الله سبحانه قدرها له بأسباب (منها) دعاء أمته له بها بما نالوه على

يده من الإيمان والهدى صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: «**حلت عليه يروى عليه**» و«**له**» فمن رواه بالام فمعناه حصلت له ومن رواه بعلى فمعناه وقعت عليه شفاعتي والله أعلم.

(١) **وباب** هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته. وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السموات السبع والأرضين في يده كخردلة في يد العبد.

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ**﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقال: ﴿**والله مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ**﴾ [البروج: ٢٠] ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين: اسم العلو الدال على أنه الظاهر وأنه لا شيء فوقه. واسم العظمة الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿**وهُوَ العليُّ العَظيمُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال تعالى: ﴿**وهُو العليّ الكبيرُ**﴾ [سبأ: ٢٣] وقال: ﴿**ولله المَشْرِقُ والمغْربُ فأينَما تُولُّوا فثمَّ وجهُ الله إن الله واسعٌ عليم**﴾ [البقرة: ١١٥] وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا قرب الإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن، قال تعالى: ﴿**وإذا سَأَلَكَ عبادي عَنِّي فإنِّي قَريبٌ أُجِيبُ دَعْوةَ الدَّاعِ إذا دَعانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦].

فهذا قربه من داعيه، وقال تعالى: ﴿**إنَّ رحمَةَ الله قريبٌ من المُحسنين**﴾ [الأعراف: ٥٦] فذكر الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة إيذاناً بقربه تعالى من المحسنين، فكأنه قال: إن الله برحـــمته قريب من المحسنين.

وفي الصحيح عن النبي (ﷺ) قال: «**أقربُ ما يَكُونُ العبدُ مِنْ ربِّه وهُو ساجِد**» و«**أقربُ ما يَكُونُ الرَّبُّ من عبده في جوفِ اللَّيل**» فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون. وفي الصحيح من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي (ﷺ) في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال: «**أيُّها النَّاس أربعوا على**

(١) ٢٢ الهجرتين.

أنفُسِكُمْ فإنَّكم لا تدعونَ أصمَّ ولا غائباً، إنَّ الذي تدعونهُ سَميعٌ قريبٌ، أقربُ إلى أحدكُم من عُنُقِ راحلته» فهذا قربه من داعيه وذاكره، يعني فأي حاجة بكم إلى رفع الأصوات وهو لقربه يسمعها وإن خفضت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سميع قريب. وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر.

(١)**فأخبر** سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس. والبصائر جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنى مُفعِلة، أي مبصرة لمن تبصَّر. ومنه قوله تعالى: ﴿وَآتينا ثَمُودَ النَّاقَةَ مبصرةً﴾ [الإسراء: ٥٩]

أي مبينـة موجبة للتبَّصر. وفعل الإبصار يستعمل لازماً ومتعدياً. يقال: أبصرته، بمعنى أريته، أبصرته، بمعنى رأيته. فمبصرَة في الآية: بمعنى مرئية، لا بمعنى رائية، والذين ظنوها بمعنى رائية غَلطِوا في الآية، وتحيَّروا في معناها.

فإنه يقال: بَصُر به، وأبصره، فيعدى بالباء تارة، والهمزة تارة. ثم يقال: أبصرته كذا، أي أريته إياه، كما يقال: بَصَّرته به. وبَصُر هو به.

فهاهنا بَصيرة، وتَبْصِرةَ، ومُبصِرة. فالبَصيرة: المبينة التي تُبْصر، والتَّبصرةُ مصدرٌ، مثل التَّذكرة، وسُمَّي بها ما يُوجب التَّبصرة، فيقال: هذه الآية تَبصرةٌ، لكونها آلة التبصر، ومُوجبه.

فالقـرآن بصـيرة وتبصرة، وهُدًى وشفاء، ورحمة، بمعنى عام، وبمعنى خاص، ولهذا يذكرُ الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدى للعالمين، وموعظةٌ للمتقين، وهـدى للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، وموعظة للمتقين فهو في نفسه هدى ورحمةٌ، وشفاء وموعظة.

فمن اهتدى به واتعظ واشتفى، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء، فهو دواءٌ له بالفعل. وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوة، وكذلك الهدى.

فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يُهتدى به ويُرْحَم، ويتعظ المتقون الموقنون. **والهدى** في الأصل: مصدرُ هدى يهدي هُدًى.

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديًا، كما في الأثر: «من ازداد علمًا ولم يزدد هُدى لم يزدد من الله تعالى إلا بعدًا» ولكن يسمَّى هُدًى، لأن مِنْ شأنه أن يهدىَ.

(١) ١٦٩ إغاثة جـ٢.

وهذا أحسن من قول من قال: إنه هُدًى، بمعنى هادٍ، فهو مَصْدَرٌ بمعنى الفاعل، كعدل بمعنى العادل، وزور بمعنى الزائر، ورجُل صومٌ أي بمعنى صائم، فإن الله سبحانه قد أخبر أنه يَهْدِي به.

فالله الهادي، وكتابه الهُدَى الذي يهدْي به على لسان رسوله ﷺ. . .

...(١)**فلما** تم خلق آدم عليه السلام في أحسن تقويم، وأكمل صورة وأجملها، وكمُلت محاسنه الباطنة، بالعلم(٢) والحلم والوقار، وتولى ربه سبحانه خلقه بيده، فجاء في أحسن خلق، وأتم صورة، طوله في السماء ستون ذراعًا، قد ألبس رداء الجمال والحسن، والمهابة والبهاء، فرأت الملائكة منظرًا لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجمل، فوقعوا كلهم سجودًا له، بأمر ربهم تبارك وتعالى، فشَقَّ الحسود قميصه من دُبُرٍ، واشتعلت في قلبه نيران الحسد المتين، فعارض النص بالمعقول بزعمه، كفعل أوليائه من المبطلين. وقال: **﴿أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** [الأعراف: ١٢]. فأعرض عن النص الصريح، وقابله بالرأي الفاسد القبيح. ثم أردف ذلك بالاعتراض على العليم الحكيم، الذي لا تجد العقول إلى الاعتراض على حكمته سبيلاً، فقال: **﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾** [الإسراء: ٦٢].

وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى: أخبرني، لم كرمته عليَّ؟ وغَوْرُ هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي؛ لأن المفضول يخضع للفاضل، فلم خالفت الحكمة؟

ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه، وإزرائه به، فقال: **﴿أنا خيرٌ منهُ﴾** [الأعراف: ١٢].

ثم قرر ذلك بحجته الداحضة، في تفضيل مادته وأصله على مادة آدم عليه السلام وأصله. فأنتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود، ومعصيته الرب المعبود. فجمع بين الجهل والظلم، والكِبْرِ والحسد والمعصية، ومعارضة النص بالرأي والعقل، فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها

---

(١) ٢٠١ الإغاثة جـ٢.	(٢) تقدم أول البحث في سورة الأعراف. (ج).

من حيث أراد رفعتها، وأذلها من حيث أراد عزتها، وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مَضَرَّته لم يبلغ منه ذلك المبلغ. ومن كان هذا غِشُّه لنفسه، فكيف يسمع منه العاقل ويقبل، ويواليه؟ قال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدَمَ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن. . الآية﴾

...[1]**قوله** تعالى لأبليس: ﴿اذهب فمن تبِعَكَ مِنْهُم فإنَّ جهنمَ جزاؤكم جزاءً موفورًا﴾ [الإسراء: ٦٣]. أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان (من تبعك) يقتضي الغيبة؛ لأنه اجتمع مخاطب وغائب فغلب المخاطب وجعل الغائب تبعًا له، كما كان تبعًا له في المعصية والعقوبة، فحسن أن يجعل تبعًا له في اللفظ. وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به. وانتصب (جزاء موفورًا) عند ابن مالك على المصدر، وعامله عنده المصدر الأول. قال: والمصدر يعمل في المصدر، تقول: عجبت من قيامك قيامًا، ويعمل فيه الفعل نحو: قام قيامًا، واسم الفاعل كقوله:

فأصبحت لا أقرب الغانيا　　ت مزدجرًا عن هواها ازدجارًا

واسم المفعول هو مطلوب طلبًا. وبعد ففي نصب جزاء قولان آخران:

أحدهما أنه منصوب بما في معنى فإن جهنم جزاؤكم من الفعل؛ فإنه متضمن لتجازون وهو الناصب جزاء.

والثاني إنه حال وساغ وقوع المصدر حالاً ههنا لأنه موصوف. ذكر الزمخشري هذين القولين. وهذا كما تقول خذ عطاءك عطاء موفورًا.

والذي يظهر في الآية أن جزاء ليس بمصدر، وإنما هو اسم للحظ والنصيب فليس مصدر جزيته جزاء، بل هو كالعطاء والنصيب؛ ولهذا وصفه بأنه موفور أي تام لا نقص فيه. وعلى هذا فنصبه على الاختصاص، وهو يشبه نصب الصفات المقطوعة، وهذا كما قال الزمخشري وغيره في قوله تعالى: ﴿للرِّجال نصيبٌ مما تَرَكَ الوالدان والأقربُون وللنِّساءِ نصيبٌ﴾ إلى قوله: ﴿نصيبًا مفرُوضًا﴾ [النساء: ٧] قال نصبه على الاختصاص أي أعني نصيبًا مفروضًا، ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكد كقوله تعالى: ﴿فريضةً من الله﴾ [النساء: ١١].

---

(١) ١٨٥ البدائع جـ٤.

...(١)**وأما** المشي الواجب فالمشي إلى الجمعات والجماعات في أصح القولين لبضعة وعشرين دليلاً، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رَجْلِ الشيطان. قال تعالى: ﴿**وأَجلب عليهم بخيلِكَ ورجلك**﴾ [الإسراء: ٦٤] قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومُشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا.

فواجبه: في الركوب في الغزو، والجهاد، والحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين. وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء. ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله عز وجل.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركُه خير من فعله.

ومباحه الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة(٢).

...(٣)**الله** سبحانه خلق عباده المؤمنين وخلق كل شيء من أجلهم كما قال تعالى: ﴿**ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**﴾ [لقمان: ٢٠]. وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق فقال: ﴿**ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البرِّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلّناهم على كثير ممَّن خلقنا تفضيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٠].

---

(١) ١٢١ المدارج جـ١. (٢) تقدم أصل هذا البحث في آخر تفسير الفاتحة(ج). (٣) ٢٤٠ الهجرتين.

[وقال] لصالحيهم وصفوتهم: ﴿**إن الله اصطَفَى آدَمَ ونوحًا وآلَ إبراهيمَ وآل عمرانَ عَلَى العالَمِين**﴾ [آل عمران: ٣٣]. وقال لموسى: ﴿**واصطنعتُكَ لنفسي**﴾ [طه: ٤١].

واتخذ منهم الخليلين، والخلة أعلى درجات المحبة.

وقد جاء في بعض الآثار: يقول تعالى: «**ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقت كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له**».

وفي أثر آخر يقول تعالى: «**ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب. ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء**».

فالله سبحانه خلق عباده له، ولهذا اشترى منهم أنفسهم، وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم فيما أخبر به على لسان رسوله ﷺ، ليسلموا إليه النفوس التي خلقها له.

وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له، مصطفاة عنده، مرضية لديه. وقدر السلعة يعرف بجلالة قدر مشتريها وبمقدار ثمنها، هذا إذا جهل قدرها في نفسها، فإذا عرف قدر السلعة وعرف مشتريها، وعرف الثمن المبذول فيها، علم شأنها ومرتبتها في الوجود.

فالسلعة أنت، والله المشتري، والثمن جنته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه في دار الأمن والسلام. والله لا يصطفي لنفسه إلا أعز الأشياء وأشرفها وأعظمها قيمة. وإذا كان قداختار العبد لنفسه، وارتضاه لمعرفته ومحبته، وبنى له دارًا في جواره وقربه، وجعل ملائكته خدَمه يسعون في مصالحه في يقظته ومنامه وحياته وموته.

ثم إن العبد أبق عن سيده ومالكه، معرضًا عن رضاه، ثم لم يكفه ذلك حتى خامر عليه وصالح عدوه، ووالاه من دونه وصار من جنده، مؤثرًا لمرضاته على مرضاة وليه ومالكه، فقد باع نفسه ـ التي اشتراها منه إلهه ومالكه وجعل ثمنها جنته والنظر إلى وجهه ـ من عدوه وأبغض خلقه إليه، واستبدل غضبه برضاه، ولعنته برحمته ومحبته. فأي مقت خلى هذا المخدوع عن نفسه لم يتعرض له من ربه؟.

. . . [(١)] **قال** الله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطَّيباتِ وفَضَّلْناهم﴾ الآية [الإسراء: ٧٠].

فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل، والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة الحسنة، والهيئة الشريفة، والقد المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد.

فكم بين حاله وهو نطفه في داخل الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل عليه في جنات عدن ﴿فتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها، والكل مشغول به ساع في مصالحه، والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه.

فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له، والملائكة الموكلون به يحفظونه، والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه.

والأفلاك مسخرة منقادة دائرة فيما فيه مصالحه، والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح رواتب أقواته.

والعالم الجوي مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما أودع فيه.

والعالم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه أرضه وجباله، وبحاره وأنهاره، وأشجاره وثماره، ونباته وحيوانه، وكل ما فيه. **كما** قال تعالى: ﴿الله الذي سخَّر لكم البحرَ لتجري الفلك فيه بأمره﴾ إلى قوله: ﴿يتفكرون﴾. [الجاثية: ١٢، ١٣].

وقال تعالى: ﴿الله الذي خلقَ السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم﴾ [إبراهيم: ٣٢] إلى قوله ﴿كفَّار﴾.

فالسائر في معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعًا وأملأ صواعًا من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه راضيًا بعيش بني جنسه، لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحدًا منهم يقول: لي أسوة بهم وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر. وليست نفائس البضائع إلا لمن امتطى غارب الاغتراب، وطوف في الآفاق حتى رضى من الغنيمة بالإياب، فاستلان ما استوعره البطالون، وأنس بما استوحش منه الجاهلون.

---

(١) ٢٦٣ المفتاح جـ١.

(١)**قوله** سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ﴿**ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلاً**﴾ [الإسراء: ٧٤].

فالتثبيت فعله، والثبات فعل رسوله، فهو سبحانه المثبت، وعبده الثابت.

ومثله قوله: ﴿**يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ ويُضلُّ الله الظالمينَ ويفعلُ الله ما يشاءُ**﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فأخبر سبحانه أن تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين فعله فإنه يفعل ما يشاء.

وأما الثبات والضلال فمحض أفعالهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فبما نَقْضِهم ميثَاقَهم لعنَّاهُم وجَعَلنا قُلُوبَهُم قاسية يُحرِفُونَ الكلِمَ عن مواضِعِه**﴾ [المائدة: ١٣].

فأخبر أنه هو الذي قسى قلوبهم حتى صارت قاسية. فالقساوة وصفها وفعلها، وهي أثر فعله، وهو جعلها قاسية وذلك أثر معاصيهم ونقضهم ميثاقهم وتركهم بعض ما ذكروا به. فالآية مبطلة لقول القدرية والجبرية.

...(٢)**فأكمل** الخلق أكملهم عبودية، وأعظمهم شهودًا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

ولهذا كان من دعائه ﷺ «أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك» وكان يدعو «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، يعلم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئًا، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء، كيف وهو يتلو قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْت تَرْكَنُ إليهم شيئًا قليلاً**﴾ [الإسراء: ٧٤] فضرورته ﷺ إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده.

وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاء، ولهذا كان أقربَ الخلق إلى الله وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه.

وكان يقول لهم: «أيها الناس، ماأحِبُّ أن تَرفعوني فوق منزلتي إنما أنا عبد».

---

(١) ٥٩ شفاء. (٢) ١٠ الهجرتين.

وكان يقول «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**».

وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته، مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال: ﴿**سبحان الذي أسْرَى بعبده ليلاً**﴾ [الإسراء: ١]. وقال: ﴿**وأنه لما قام عبدُ الله يدعُوه**﴾ [الجن: ١٩]. وقال: ﴿**وإن كنتُم في ريَبٍ مما نزلنا على عَبْدِنا**﴾ [البقرة: ٢٣]. وفي حديث الشفاعة: «**أن المسيح يقولُ لهم اذهبوا إلى محمـد عبد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّرَ**»، فنال ذلك المقام بكمال عبوديته وبكمال مغفرة الله له.

(١)**فإن** قيل: قد ذكرتم: أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره. ويعفي للولي عما لا يعفي لسواه. وكذلك العالم أيضًا، يغفر له ما لا يغفر للجاهل. كما روى الطبراني بإسناد جيد ـ مرفوعًا إلى النبي ﷺ ـ: «**إن الله ـ سبحانه ـ إذاجمع النـاس يوم القيـامة في صعيد واحد قال للعلماء: إني كنت أعبد بفتواكم، وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس، وإني لم أضع علمي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم**» هذا معنى الحديث. وقد روي مسندًا ومرسلاً.

فهذا الذي ذكرتم صحيح. وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى: ﴿**يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعَفْ لها العذابُ ضِعْفين**﴾ [الأحزاب: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿**ولولا أن ثبتناك لقد كِدْت تركن إليهم شيئًا قليلاً * إذًا لأذقناك ضِعْف الحياة وضعف الممات. ثم لا تجد لك علينا نصيراً**﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]. أي لولا تثبيتنـا لك لقـد كدت تركن إليهم بعض الشيء. ولـو فعلت لأذقنـاك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممـات، أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة. . . .

...(٢)**قال** تعالى: ﴿**أقم الصلاة لدلوك الشَّمسِ**﴾ فليست اللام بمعنى «في» قطعًا بل قيل: إنها لام التعليل، أي لأجل دلوك الشمس.

---

(١) ٣٣٣ المدارج جـ١

(٢) يراجع فيه الشيخ علي

وقيل : إنها بمعنى «بعد» فإنه ليس المراد إقامتها وقت الدلوك . سواء فسر بالزوال أوالغروب . وإنما يؤمر بالصلاة بعد الدلوك .

(١)**قوله** تعالى : ﴿**وقُرْآن الفجرِ إن قرآن الفجر كان مشهُودًا**﴾ [الإسراء : ٧٨] قيل : يشهده الله ـ عز وجل ـ وملائكته . وقيل : يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون في صلاة الفجر، وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهدها ملائكة الليل والنهار.

واحتج لهذا القول بما في الصحيح من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة**» ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر لقول أبي هريرة : واقرأوا إن شئتم : ﴿**وقُرْآن الفَجْرِ إنَّ قُرْآن الفَجْرِ كان مَشْهُودا**﴾ [رواه البخاري في الصحيح] .

قال أصحاب القول الأول : وهذا لا ينافي قولنا وهو أن يكون الله سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر، وليس المراد الشهادة العامة فإن الله على كل شيء شهيد، بل المراد شهادة خاصة وهي شهادة حضور ودنوّ متصل بدنو الرب ونزوله إلى سماء الدنيا في الشطر الأخير من الليل .

وقد روى الليث بن سعد حدثني زيادة بن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد الأنصاري عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال : «**إن الله ـ عز وجل ـ ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل، فيفتح الذكر في الساعة الأولى الذي لم يره غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت، ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن وهي داره التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهي مسكنه لا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاث وهم النبيون والصديقون والشهداء، ثم يقول : طوبى لمن دخلك . ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته فتنتفض فيقول : قومي بعزتي . ثم يطلع إلى عباده فيقول : هل من مستغفر فاغفر له؟ ألا من سائل يسألني فأعطيه؟ ألا داع يدعوني فأجيبه؟ حتى تكون صلاة الفجر**»

---

(١) ٢١٢ المجرتين.

ولـذلك يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودًا﴾ يشهده الله ـ عز وجل ـ وملائكته ملائكة الليل والنهار(١).

ففي هذا الحديث أن النزول يدوم إلى صلاة الفجر.

وعلى هذا فيكون شهود الله سبحانه لقرآن الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له.

وهذه خاصة بصلاة الصبح ليست لغيرها من الصلاة، وهذا لا ينافي دوام النزول في سائر الأحاديث إلى طلوع الفجر ولاسيما وهومعلق في بعضها على انفجار الصبح، وهو اتساع ضوئه.

وفي لفظ: «حتى يضيء الفجر» وفي لفظ: «حتى يسطع الفجر»، وذلك هو وقت قراءة الفجر، وهذا دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة النبي ﷺ، وخلفائه الراشدين على تقديمها في أول وقتها، فكان النبي ﷺ يقرأ فيها بالستين إلى المائة، ويطيل ركوعها وسجودها، وينصرف منها والنساء لا يعرفن من الغلس، وهذا لا يكون إلا مع شدة التقديم في أول الوقت لتقع القراءة في وقت النزول فيحصل الشهود المخصوص.

مع أنه قد جاء في بعض الأحاديث مصرحًا به دوام ذلك إلى الانصراف من صلاة الصبح رواه الدارقطني في «كتاب نزول الرب كل ليلة إلى سماء الدنيا» من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: **«ينزل الله ـ عز وجل ـ إلى سماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول: من ذا الـذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر أو ينصرف القاريء من صلاة الصبح»** رواه عن محمد جماعة: منهم سليمان بن بلال، وإسماعيل بن جعفر، والدراوردي، وحفص بن غياث، ويزيد بن هارون، وعبدالوهاب بن عطاء، ومحمد بن جعفر، والنضر بن شميل كلهم قال: **«أو ينصرف القاريء من صلاة الفجر»**. **فإن كانت هذه اللفظة محفوظة عن النبي ﷺ، فهي صريحة في المعنى كاشفة للمراد.**

---

(١) يأتي قريبًا بحث مكمل لهذا. (ج)

وإن لم تكن محفوظة وكانت من شك الراوي هل قال هذا أو هذا فقد قدمنا أنه لا منافاة بين اللفظين، وأن حديث الليث بن سعد عن محمد بن زياد يدل على دوام النزول إلى وقت صلاة الفجر، وأن تعليقه بالطلوع لكونه أول الوقت الذي يكون فيه الصعود، كما رواه يونس بن أبي إسحق عن أبيه عن الأغر أبي مسلم قال: شهدت على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على النبي ﷺ، أنه قال: «**إن الله عز وجل يمهل، حتى إذا كان ثلث الليل هبط إلى هذه السماء ثم أمر بأبواب السماءففتحت ثم قال: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأجيبه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من مستغيث أغيثه؟ هل من مضطر أكشف عنه؟ فلا يزال ذلك مكانه حتى يطلع الفجر في كل ليلة من الدنيا، ثم يصعد إلى السماء**» قال الدارقطني: فزاد فيه يونس بن أبي إسحق زيادة حسنة. والمقصود ذكر القرب من الإمام في صلاة الفجر وتقديمها في أول وقتها. والله أعلم.

فصل(1)

وكان ﷺ لا يعين في الصلاة سورة بعينها لا يقرأ إلا بها، إلا في الجمعة والعيدين، وأما في سائر الصلوات فقد ذكر أبوداود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال: «**ما من المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا وقد سمعت** رسول الله ﷺ **يؤم الناس بها في الصلاة المكتوبة**».

وكان من هديه قراءة السورة كاملة، وربما قرأها في الركعتين، وربما قرأ أول السورة.

وأما قراءة أواخر السور وأوساطها: فلم يحفظ عنه.

وأما قراءة السورتين في ركعة: فكان يفعله في النافلة. وأما في الفرض فلم يحفظ عنه.

وأما حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إني لأعرف النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن السورتين في الركعة: الرحمن والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة، والطور والذاريات في ركعة، وإذا وقعت ون في ركعة ـ الحديث» فهذا

(١) ١١١ الزاد جـ١.

حكاية فعل لم يعين محله: هل كان في الفرض أو في النفل؟ وهو محتمل.

وأما قراءة سورة واحدة في ركعتين معًا فقلما كان يفعله. وقد ذكر أبوداود عن رجل من جهينة «أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ في الصبح ﴿إذا زلزلت﴾ في الركعتين كلتيهما، قال: فلا أدري أنسي رسول الله ﷺ، أم قرأ ذلك عمدًا؟».

فصــل

وكان ﷺ يطيل الركعة الأولى على الثانية من صلاة الصبح ومن كل صلاة. وربما كان يطيلها حتى لا يسمع وقع قدم. وكان يطيل صلاة الصبح أكثر من سائر الصلوات.

وهذا لأن قرآن الفجر مشهود، يشهده الله تعالى وملائكته.

وقيل: يشهده ملائكة الليل والنهار. والقولان مبنيان على أن النزول الإلهي هل يدوم إلى انقضاء صلاة الصبح، أو إلى طلوع الفجر؟ وقد ورد فيه هذا وهذا.

وأيضا فإنها لما نقص عدد ركعاتها جعل تطويلها عوضًا عما نقصته من العدد.

وأيضا فإنها تكون عقيب النوم والناس مستريحون.

وأيضا فإنهم لم يأخذوا بعد في استقبال المعاش وأسباب الدنيا.

وأيضا فإنها تكون في وقت تواطأ فيه السمع واللسان والقلب لفراغه. وعدم تمكن الاشتغال فيه، فيفهم القرآن ويتدبره.

وأيضا فإنها أساس العمل وأوله فأعطيت فضلاً في الاهتمام بها وتطويلها. وهذه أسرار إنما يعرفها من له التفات إلى أسرار الشريعة ومقاصدها وحكمها. والله المستعان.

...(1)**وفي** اضطجاعه على شقه الأيمن سر، وهو أن القلب معلق في الجانب الأيسر، فإذا نام الرجل على الجانب الأيسر استثقل نومًا لأنه يكون في دعة واستراحة فيثقل نومه، فإذا نام على شقه الأيمن فإنه يقلق ولا يستغرق في النوم؛ لقلق القلب وطلبه مستقره وميله إليه، ولهذا استحب الأطباء النوم على الجانب الأيسر لكمال الراحة وطيب المنام، وصاحب الشرع يستحب النوم على الجانب الأيمن، لئلا يثقل نومه، فينام عن قيام الليل، فالنوم على الجانب الأيمن: أنفع للقلب، وعلى الجانب الأيسر أنفع للبدن. والله أعلم.

---

(١) ١٧٢ الزاد جـ١.

فصـــل

في هديه ﷺ في قيام الليل

قد اختلف السلف والخلف في أنه: هل كان فرضًا عليه أم لا؟ والطائفتان احتجوا بقوله تعالى: ﴿**ومن الليل فتَهَجد به نافلة لك**﴾ [الإسراء: ٧٩]. قالوا: فهذا صريح في عدم الوجوب.

قال الآخرون: أمره بالتهجد، كما أمره في قوله تعالى: ﴿**ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا**﴾ [المزمل: ١، ٢] ولم يجيء ما ينسخه عنه.

وأما قوله تعالى: ﴿**نافلة لك**﴾ فلو كان المراد به التطوع: لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما المراد بالنافلة: الزيادة، ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع، قال تعالى: ﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة**﴾ [الأنبياء: ٧٢] أي: زيادة على الولد.

وكذلك النافلة في تهجد النبي ﷺ: زيادة في درجاته، وفي أجره. ولهذا خصه بها، فإن قيام الليل في حق غيره مباح ومكفر للسيئات، وأما النبي ﷺ: فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فهو يعمل في زيادة الدرجات، وعلو المراتب، وغيره يعمل في التكفير.

قال مجاهد بن جبر: إنما كان نافلة للنبي ﷺ، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت طاعته نافلة، أي زيادة في الثواب، ولغيره كفارة لذنوبه.

قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا يعلى بن أبي عبيد حدثنا الحجاج بن محمد المصيصي عن ابن جريج عن عبدالله بن كثير عن مجاهد قال: «ما سوى المكتوبة فهو نافلة، من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب، وليست للناس نوافل، وإنما هي للنبي ﷺ، خاصة، والناس جميعًا يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها.

حدثنا محمد حدثنا نصر حدثنا عبدالله حدثنا عمرو عن سعيد وقبيصة عن سفيان عن أبي عثمان عن الحسن في قوله تعالى: ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك**﴾ قال: «لا يكون نافلة إلا للنبي ﷺ».

وذكر عن الضحاك قال: نافلة للنبي ﷺ، خاصة.

...[1]**قال** ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ، بمكة، فأمر بالهجرة، وأنزل عليه ﴿وقل رب أدخلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ، وأخرجني مُخْرَجَ صِدْقٍ، واجعل لي من لَدُنْكَ سلطانًا نصيراً﴾ [الإسراء: ٨٠].

قال قتادة: أخرجه الله من مكة إلى المدينة مخرج صدق، ونبي الله يعلم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله سلطانًا نصيراً. وأراه عز وجل دار الهجرة، وهو بمكة، فقال: «**أريت دار هجرتكم: بسبخة ذات نخل بين لابَتين**».

وذكره الحاكم في صحيحه عن علي بن أبي طالب: أن النبي ﷺ قال لجبرائيل: «**من يهاجر معي؟ قال: أبوبكر الصديق**». . .

...[2]**وقد** أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مَدْخَلَه ومَخْرَجه على الصِّدق. فقال: ﴿وقل ربِّ أدخلني مُدْخَلَ صِدق، وأخرجني مُخْرَج صدق. واجعل لي من لَدنْكَ سلطانًا نصيرا﴾ [الإسراء: ٨٠].

وأخبر عن خليله إبراهيم، ﷺ، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين، فقال: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ [الشعراء: ٨٤].

وبشر عباده بأن لهم عنده قَدَمَ صدق، ومقعد صدق. فقال تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قَدَمَ صدق عند ربهم﴾ [يونس: ٢] وقال: ﴿إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مَدْخل الصدق، ومخرج الصدق. ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله. وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال. وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله، وفي مرضاته، بالظَّفَر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها، كمخرج أعدائه يوم بدر. ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة.

---

(١) ١٤٤ الزاد جـ٢.
(٢) ٢٧٠ الزاد جـ٢.

وكـذلك مدخله ﷺ المـدينـة: كان مدخـل صدق بالله، ولله، وابتغـاء مرضاة الله. فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ماطلبه في الدنيا والآخرة.

بخلاف مدخـل الكـذب الـذي رام أعـداؤه أن يدخلوا به المـدينة يوم الأحزاب؛ فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حِصْن بني قُريظة. فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم.

فكل مدخـل معهم ومخرج كان بالله ولله فصاحبه ضامن على الله. فهو مدخل صدق، ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجًا لا أكون فيه ضامنًا عليك.

يريد: أن لا يكـون المخـرج مخرج صدق. ولـذلك فُسِّر مدخل الصدق ومخـرجه: بخروجه ﷺ من مكة، ودخوله المدينة. ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل. فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه ﷺ. وإلا فمداخله كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق. إذ هي لله وبالله وبأمره، ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحـد من بيتـه ودخل سوقه ـ أو مدخلاً آخر ـ إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب. والله المستعان.

...[1]**والعلم** «اللدني» ما يحصل للعبد من غير واسطة، بل بإلهام من الله، وتعريف منه لعبده، كما حصل للخضر عليه السلام بغير واسطة موسى[2] قال الله تعالى: ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلَّمْنَاهُ من لدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وفرق بين الرحمة والعلم، وجعلهما «من عنده» و«من لدنه» إذ لم ينلهما على

---

(١) ٤٧٥ المدارج جـ٢.

(٢) كان الخضر عبدًا رسولاً في ناحية وموسى عبدًا رسولاً في ناحية أخرى. وكان في موسى بقية من حدة مما تربى عليه في بيت فرعون. فقام خطيبًا، فسأله سائل: «من أعلم الناس؟ فقال: أنا. ولم يرد العلم إلى الله» فعتب الله عليه. وأمره أن يذهب ليتعلم من نبيه الخضر الذي أوحى إليه ربه بأن يعطيه الدروس المناسبة. لتسرعه الذي ظهر بوكز المصري وكزة قضت عليه. كما ورد ذلك في صحيح البخاري.

يد بشر، وكان «من لدنه» أخص وأقرب من «عنده» ولهذا قال تعالى: ﴿**وقل رب أدخلني مُدْخَل صدق. وأخرجني مُخْرَج صدق. واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً**﴾ فـ«السلطان النصير» الذي من لدنه سبحانه: أخص وأقرب مما عنده. ولهذا قال تعالى: ﴿**واجعَل لي من لدُنْكَ سُلطانًا نصيراً**﴾ وهو الذي أيده به. والذي من عنده: نصره بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين**﴾ [الأنفال: ٦٢].

«**والعلم** اللدني» ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له. فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقد سئل «هل خصكم رسول الله ﷺ، بشيء دون الناس؟ - فقال: لا، والذي فَلَقَ الحبة، وبرأ النَّسَمَة، إلا فَهْمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه» فهذا هو العلم اللدني الحقيقي.

وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتقيد بهما: فهو من لدن النفس والهوى، والشيطان، فهو لدني. لكن من لدن مَنْ؟ وإنما يعرف كون العلم لدنيًّا رحمانيًّا: بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ، عن ربه عز وجل. فالعلم اللدني نوعان: لدني رحماني، ولدني شيطاني بطناوي. والمَحَكُّ: هو الوحي. ولا وحي بعد رسول الله ﷺ.

وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد، وكفر مخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم.

والفرق: أن موسى لم يكن مبعوثًا إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأمورًا بمتابعته، ولو كان مأمورًا بها لوجب عيه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه(١). ولهذا قال له «أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم» ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، فرسالته عامة للجن والإنس، في كل زمان. ولو كان موسى وعيسى عليهما السلام حيين لكانا من أتباعه. وإذا نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام فإنما يحكم بشريعة محمد ﷺ.

---

(١) قد حقق العلماء المحققون - كالحافظ ابن حجر، وغيره من علماء السلف - أن الخضر كان رسولاً كموسى عليهما السلام. والقرآن يشير إلى ذلك بقوله: ﴿وما فعلته عن أمري﴾.

فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه، وليتشهد شهادة الحق؛ فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلاً عن أن يكون من خاصة أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم، وبين أهل الاستقامة منهم، فحرِّك تَرَهْ.

...(١)**الاسم** الرابع: الباطل.

والباطل: ضد الحق، يراد به المعدوم الذي لا وجود له، والموجود الذي مَضرَّةُ وجوده أكثرُ من منفعته.

فمن الأول: قول الموحّد: كلُّ إلـه سوى الله باطلٌ، ومن الثاني قوله: السحْر باطلٌ. والكفر باطل، قال تعالى: ﴿**وقل جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ، إن الباطِلَ كان زَهُوقًا**﴾ [الإسراء: ٨١].

فالباطل إما معدوم لا وجود له، وإما موجود لا نفع له. فالكفر، والفسوق، والعصيان والسحر، والغناء، واستماع الملاهي: كله من النوع الثاني.

قال ابن وَهْب: أخبرني سليمان بن بلال عن كثير بن زيد: أنه سمع عبيدالله يقول للقاسم بن محمد: «كيف ترى في الغناء؟ فقال له القاسم: هو باطل. فقال: قد عرفتُ أنه باطل، فكيف ترى فيه؟ فقال القاسم: أرأيتَ الباطل، أين هو؟ قال: في النار، قال: فهو ذاك».

وقال رجل لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ما تقول في الغناء، أحلال هو، أم حرام، فقال: , لا أقول حرامًا إلا ما في كتاب الله. فقال: أفحلالٌ هو؟ فقال: ولا أقول ذلك. ثم قال له: أرأيت الحقَّ والباطل، إذا جاءا يوم القيامة، فأين يكون الغناء؟ فقال الرجل: يكون مع الباطل، فقال له ابن عباس: اذهب فقد أفتيتَ نفسك».

فهذا جواب ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن غناء الأعراب، الذي ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط، والتَّشبيب بالأجنبيات، وأصوات المعازف،

---

(١) ٢٤٣ الإغاثة جـ١.

والآلات المطربات، فإن غناء القوم لم يكن فيه شيء من ذلك، ولو شاهدوا هذا الغناء لقالوا فيه أعظمَ قول؛ فإنه مضرَّته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير، وأعظم من فتنته.

فمن أبطل الباطل أن تأتي شريعةٌ بإباحته، فمن قاسَ هذا على غناء القوم فقياسه من جنس قياس الرِّبا على البيع، والميتة على المذكَّاة، والتحليلِ الملعونُ فاعله على النكاح الذي هو سُنة رسول الله ﷺ. وهو أفضلُ من التخلِّي لنوافِل العبادة، فلو كان نكاحُ التحليل جائزًا في الشرع لكان أفضلَ من قيام الليل، وصيام التطوع، فضلاً أن يُلعنَ فاعلُه.

...[1]**قال** الله تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ من القُرآن ما هُوَ شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾ [الإسراء: ٨٢]. والصحيح: أن «من» ههنا لبيان الجنس لا للتبعيض.

وقال تعالى: ﴿**ياأيُّها الناس قد جاءَتكُم موعظةٌ من ربِّكُم وشِفَاءٌ لما في الصدور**﴾ [يونس: ٥٧].

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة. وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به. وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء لشروطه: لم يقاومه الداء أبدًا.

وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها؟

فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان: إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه، وسببه والحمية منه، لمن رزقه الله فهمًا في كتابه.

وقد تقدم في أول الكلام على الطب بيان إرشاد القرآن العظيم إلى أصوله ومجامعه التي هي: حفظ الصحة والحمية، واستفراغ المؤذي، والاستدلال بذلك على سائر أفراد الأنواع.

وأما الأدوية القلبية: فإنه يذكرها مفصلة، ويذكر أسباب أدوائها

---

(١) ٣٧٧ الزاد جـ١.

وعلاجها. قال: **﴿أولَمْ يَكْفِهم أنا أنزلنا عليكَ الكِتَابَ يُتلَى عليهم؟﴾** [العنكبوت: ٥١]. فمن لم يَشْفِه القرآن فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله.

...[١]**ولا ينكر** عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة، فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان؛ فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور إن لم يتلق هذا التلقي لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها بل لا يزيد المنافقين إلا رجسًا إلى رجسهم، ومرضًا إلى مرضهم. وأين يقع طب الأبدان منه؟

فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيبة، والقلوب الحية. فإعراض الناس عن طب النبوة كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذي هو الشفاء النافع. وليس ذلك لقصور في الدواء، ولكن لخبث الطبيعة، وفساد المحلِّ، وعدم قبوله. والله الموفق[٢].

. . .[٣]**وفي** مسند الإمام من أحمد حديث أسامة بن شريك عن النبي ﷺ، قال: «**إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله**». وفي لفظ: «**إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء. أو دواء. إلا داءً واحدًا**» قالوا: يارسول الله ما هو؟ قال: «**الهرم**» قال الترمذي: هذا حديث صحيح. وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها.

وقد جعل النبي ﷺ، الجهل داء، وجعل دواءه سؤال العلماء.

فروى أبوداود في سننه من حديث جابر بن عبدالله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات فلما قدمنا على النبي ﷺ، أخبر بذلك. فقال: «**قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا. فإنما شفاء العي السؤال. إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده**» فأخبر أن الجهل داء وأن شفاءه السؤال.

---

(١) ١٥٧ الزاد جـ٣. (٢) تقدم في سورة يونس ماله علاقة بهذا البحث. (ج). (٣) ٣ الجواب.

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء فقال تعالى: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعجميًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَت آيَاتُهُ ءَأَعجَمِيٌّ وعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ للذِينَ آمَنُوا هُدىً وشِفَاءٌ**﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال: ﴿**ونُنَزِّلُ من القرآن ما هُوَ شِفَاءٌ ورحمةٌ للمؤْمِنينَ**﴾ [الإسراء: ٨٢].

ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض فإن القرآن كله شفاء كما قال في الآية المتقدمة. فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

...[1]**قال** تعالى: ﴿**قُل كلٌّ يَعْمَلُ عل شَاكِلتِه**﴾ [الإسراء: ٨٤] أي على ما يشاكله ويناسبه ويليق به. كما يقول الناس: «كل إناء بالذي فيه ينضح» فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملأ الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين.

ولو أن ملكًا من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سفلة الناس وسقطهم وغرتهم الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة لقدح الناس في ملكه وقالوا: لا يصلح للملك.

فما الظن بمجاوري الملك الأعظم مالك الملوك في داره، وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه، ومرافقتهم للملأ الأعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم، أفيليق بذلك الرفيق الأعلى والمحل الأسني والدرجات العلى روح سفلية أرضية قد أخلدت إلى الأرض، وعكفت على ما تقضيه طبائعها مما تشارك فيه بل قد تزيد على الحيوان البهيم، وقصرت همتها عليه، وأقبلت بكليتها عليه، لا ترى نعيمًا ولا لذة ولا سرورًا إلا ما وافق طباعها من كل مأكل ومشرب ومنكح من أين كان وكيف اتفق، فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد، وإلا فالقلب والطبع على [شاكلة] قلوب هذه الحيوانات وطباعها، وربما كانت طباع الحيوانات خيراً من طباع هؤلاء وأسلم وأقبل للخير. **ولهذا جعلهم الله** سبحانه شر الدواب فقال تعالى: ﴿**إن شر الدواب عند الله**

(١) ١٠٣ المجرتين.

الصمُّ البكم الذين لا يعقلون، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]، فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكى الخلق وبين شر البرية وشر الدواب في دار واحدة يكونون فيها على حال واحدة من النعيم أو العذاب؟ قال الله تعالى: **﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون﴾** [القلم: ٣٥-٣٦].

...(١)**قال** شفيق بن إبراهيم: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل، والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

[**قلت**] وأصل ذلك: عدم الرغبة والرهبة، وأصله ضعف اليقين، وأصله ضعف البصيرة، وأصله مهانة النفس ودناءتها، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون.

فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيئته، وشرف النفس ونبلها وكبرها.

وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها قال تعالى: **﴿قَدْ أَفلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وقَدْ خَابَ من دَسَّاهَا﴾** [الشمس: ٩، ١٠]؛ أي: أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله، وخاب من صغرها وحقرها بمعاصي الله، فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار. فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش، ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: **﴿قُلْ كُلٌّ يعملُ على شاكِلتِهِ﴾** أي: على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعادته التي ألفها وجبل عليها.

فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم.

---

(١) ١٧٦ الفوائد.

والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته، والثناء عليه والتودد إليه، والحياء منه والمراقبة له، وتعظيمه وإجلاله.

. . .[1]**فإن** قيل فما تقولون في قوله تعالى: **﴿ونفخت فيه من روحي﴾** [الحجر: ٢٩] فأضاف النفخ إلى نفسه وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى كما في قوله: **﴿خلقت بيدي﴾** [ص: ٧٥]. ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «**فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبوالبشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء.**» فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره، ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك، وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده، فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك وقد قال الله تعالى: **﴿فإذا سَوَّيْتُه ونَفَختُ فيه من روحي﴾** [الحجر: ٢٩] فهو الذي سواه بيده وهو الذي نفخ فيه من روحه؟.

قيل هذا الموضع هو الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح، وتوقف فيها آخرون ولم يفهموا مراد القرآن. فأما الروح المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا. وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم: **﴿التي أَحصَنَت فَرْجَها فَنَفخْنَا فيهِ من روحِنا﴾** [الأنبياء: ٩١] وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها وكان النفخ مضافًا إلى الله أمرًا وإذنًا وإلى الرسول مباشرة.

يبقى ههنا أمران (أحدهما) أن يقال فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر فما وجه تسمية المسيح روح الله؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح؟

الثاني أن يقال فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح هو الذي نفخها فيه بإذن الله كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه كما خلقه بيده. **قيل** لعمر الله إنهما سؤالان مهمان:

فأما الأول فالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف

(١) ١٩١ الروح.

إلى الله الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه، وهو روح خاص من بين سائر الأرواح، وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار؛ فإن الله سبحانه وكل بالرحم ملكًا ينفخ الروح في الجنين فيكتب رزق المولود، وأجله، وعمله، وشقاوته، وسعادته. وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه، فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع؛ فإن نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء. وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم، ولا كخلقة سائر النوع من أب وأم، ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص، وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء: خلق الله له بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له، وتعليمه أسماء كل شيء. فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخًا ونفخًا ومنفوخًا منه، فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله، فمنها سرت النفخة في طينة آدم، والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح، هذا هو الذي دل عليه النص. وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده، أو أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم عليها السلام فهذا يحتاج إلى دليل. والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه أن اليد غير مخلوقة والروح مخلوقة، والخلق فعل من أفعال الرب، وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه؟ وهذا مما لا يحتاج إلى دليل. وهذا بخلاف النفخ في فرج مريم فإنه مفعول من مفعولاته، وأضافه إليه لأنه بإذنه وأمره. فنفخه في آدم هل هو فعل له أو مفعول وعلى كل تقدير فالروح التي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة، وهي مادة روح آدم فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد.

فصل

(**وأما** المسألة الثامنة عشر وهي تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها).

فهذه المسألة للناس فيها قولان معروفان حكاهما شيخ الإسلام وغيره،

وممن ذهب إلى تقدم خلقها محمد بن نصر المروزي، وأبومحمد بن حزم، وحكاه ابن حزم إجماعًا، ونحن نذكر حجج الفريقين وما هو الأولى منها بالصواب(١).

فصـــل(٢)

وأما ما احتجت به هذه الطائفة فأما ما أتوا به من اتباع متشابه القرآن والعدول عن محكمه فهذا شأن كل ضال ومبتدع، فمحكم القرآن من أوله إلى آخره يدل على أن الله تعالى خالق الأرواح ومبدعها. وأما قوله تعالى: **﴿قُلِ الرُّوح من أمر ربي﴾** [الإسراء: ٨٥] فمعلوم قطعًا أنه ليس المراد هاهنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به، وإنما المراد بالأمر هاهنا المأمور، وهو عرف مستعمل في لغة العرب، وفي القرآن منه كثير، كقوله تعالى: **﴿أتى أمر الله﴾** أي مأموره الذي قدره وقضاه وقال له كن فيكون، وكذلك قوله تعالى: **﴿فما أَغنَتْ عنهم آلِهتُهُم التي يَدْعُونَ من دون الله من شيءٍ لما جاءَ أمرُ ربك﴾** [هود: ١٠١] أي مأموره الذي أمر به من إهلاكهم. وكذلك قوله تعالى: **﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر﴾** [النحل: ٧٧].

وكذلك الخلق يستعمل بمعنى المخلوق، كقوله تعالى للجنة: «**أنت رحمتي**» فليس في قوله تعالى: **﴿قل الرُّوح من أمر ربي﴾** ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما.

وقد قال السلف في تفسيرها جرى بأمر الله في أجساد الخلق وبقدرته استقر.

وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان. وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف.

وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم.

وقد ثبت في الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن

---

(١) ذكر المؤلف البحث من كل جوانبه فمن أراده فليرجع إليه. (ج). (٢) ١٨٥ الروح.

عبدالله قال: بينا أنا أمشي مع رسول الله ﷺ، في حرة المدينة وهو متكيء على عسيب فمررنا على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح، وقال بعضهم لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء تكرهونه، وقال بعضهم نسأله، فقام رجل فقال: ياأبا القاسم ماالروح؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ، فعلمت أنه يوحى إليه فقمت فلما تجلى عنه قال: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي، وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس، وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب.

وقد تكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة.

فإن قيل فقد قال أبوالشيخ ثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم أنا إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال: بعثت قريش عقبة بن أبي معيط وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبي ﷺ، فقالوا لهم: إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبي وليس على ديننا ولا على دينكم، قالوا: فمن تبعه؟ قالوا: سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لا خير فيه، وأما أشراف قومه فلم يتبعوه، فقالوا: إنه قد أظل زمان نبي يخرج وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل، فائتوه فاسألوه عن ثلاث خصال نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي صادق، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب، سلوه عن الروح التي نفخ الله تعالى في آدم، فإن قال لكم: هي من الله فقولوا: كيف يعذب الله في النار شيئاً هو منه فسأل جبريل عنها فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَيسألُونَك عَنِ الرُّوح قُلِ الرُّوحُ من أمر ربي**﴾ يقول هو خلق من خلق الله ليس هو من الله ـ ثم ذكر باقي الحديث.

قيل مثل هذا الإسناد لا يحتج به فإنه من تفسير السدي عن أبي مالك، وفيه أشياء، منكرة وسياق هذه القصة في السؤال من الصحاح والمسانيد كلها تخالف سياق السدي.

وقد رواها الأعمش والمغيرة بن مقسم عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله قال: مر النبي ﷺ على ملأ من اليهود وأنا أمشي معه فسألوه عن الروح. قال:

فسكت فظننت أنـه يوحي إليه فنزلت: ﴿**ويسألونك عن الرُّوح**﴾ يعني اليهود ﴿**قل الروح من أمر ربي وما أوتوا**(١) **من العلم إلا قليلا**﴾ وكذلك هي في قراءة عبدالله فقالوا: كذلك نجد مثله في التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل رواه جرير بن عبدالحميد وغيره عن المغيرة.

وروى يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال أتت اليهود إلى النبي ﷺ، فسألوه عن الروح فلم يجبهم النبي ﷺ، بشيء فأنزل الله عز وجل: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الرُّوحُ من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾ فهذا يدل على ضعف حديث السدي وأن السؤال كان بمكة؛ فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح في أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود، ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبي ﷺ، ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزله عليه.

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب، فإما أن تكون من قبل الرواة، أو تكون أقواله قد اضطربت فيها. ونحن نذكر ذلك، فقد ذكرنا رواية السدي عن أبي مالك عنه، ورواية داود بن أبي هند عن عكرمة عنه تخالفها، وفي رواية داود بن أبي هند هذه اضطراب فقال مسروق بن المرزبان وإبراهيم بن أبي طالب عن يحيى بن زكريا عنه أن اليهود أتت النبي ﷺ ـ الحديث.

وقال محمد بن نصر المروزي ثنا إسحاق أنا يحيى بن زكريا عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل فقالوا: سلوه عن الروح فنزلت: ﴿**ويسألونك عن الروح**﴾ الآية. وهذا يخالف الرواية الأخرى عنه وحديث ابن مسعود.

وعن ابن عباس رواية ثالثة قال هشيم ثنا أبوبشر عن مجاهد عن ابن عباس قال الروح أمر من أمر الله عز وجل، وخلق من خلق الله، وصور مثل صور بني آدم، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح. وهذا يدل على أنها غير الروح التي في ابن آدم.

(١) هكذا قرأها عبدالله كما في كتب التفسير ـ وكان في الأصل، وما أوتيتم، على القراءة المشهورة.

وعنه رواية رابعة قال ابن منده روى عبدالسلام بن حرب عن خصيف عن مجاهد عن ابن عباس: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي**﴾ قد نزل من القرآن بمنزل كن نقول كما قال الله: ﴿**ويسألونك عن الرُّوح قل الرُّوحُ من أمر ربي**﴾ ثم ساق من طريق خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء: الرقيم والغسلين والروح وقوله تعالى: ﴿**وسخَّر لكم ما في السَّموات وما في الأرض جميعًا منه**﴾ [الجاثية: ١٣].

وعنه رواية خامسة رواها جويبر عن الضحاك عنه أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ، عن الروح فقال: قال الله تعالى: ﴿**قلِ الرُّوح من أمر ربي**﴾ يعني خلقًا من خلقي ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾ يعني لو سئلتم عن خلق أنفسكم وعن مدخل الطعام والشراب ومخرجها ما وصفتم ذلك حق صفته وما اهتديتم لصفتها.

وعنه رواية سادسة روى عبدالغني بن سعيد ثنا موسى بن عبدالرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**ويسألونك عن الرُّوح**﴾ وذلك أن قريشًا اجتمعت فقال بعضهم لبعض: والله ما كان محمد يكذب، ولقد نشأ فينا بالصدق والأمانة، فأرسلوا جماعة إلى اليهود فاسألوهم عنه وكانوا مستبشرين به ويكثرون ذكره ويدعون نبوته ويرجون نصرته موقنين بأنه سيهاجر إليهم ويكونون له أنصارًا، فسألوهم عنه فقالت لهم اليهود: سلوه عن ثلاث، سلوه عن الروح، وذلك أنه ليس في التوراة قصته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح فأنزل الله تعالى: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي**﴾ يريد من خلق ربي عز وجل.

والروح في القرآن على عدة أوجه:

(أحدها) الوحي كقوله تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا**﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿**يُلقي الرُّوح من أمره على من يشاءُ من عباده**﴾ [غافر: ١٥]. وسمي الوحي روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

(الثاني) القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال: ﴿**أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروحٍ منه**﴾.

(الثالث) جبريل كقوله تعالى: ﴿نزلَ به الروحُ الأمين على قَلْبكَ﴾ [الشعراء:١٩٣]. وقال تعالى: ﴿من كان عدوًّا لجبريلَ فإنه نزَّلَهُ على قلبِكَ بإذن الله﴾ [البقرة:٩٧]. وهو روح القدس. قال تعالى: ﴿قل نزَّله رُوح القدس﴾ [النحل:١٠٢].

(الرابع) الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله.

وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿يومَ يَقُومُ الروحُ والملائكةُ صفًّا لا يتكلمون﴾ [النبأ: ٣٨] وأنها الروح المذكورة في قوله: ﴿تنزل الملائكة والروحُ فيها بإذن ربِّهم﴾ [القدر: ٤].

(الخامس) المسيح بن مريم قال تعالى: ﴿إنما المسيحُ عيسى ابنُ مريم رسول الله وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس قال تعالى: ﴿ياأيَّتُها النفس المطمئنة﴾ [الفجر: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿ولا أقسم بالنفس اللَّوامَة﴾ [القيامة: ٢]. وقال تعالى: ﴿إن النَّفس لأمَّارةٌ بالسُّوء﴾ [يوسف: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿أخرِجُوا أنفسَكم﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقال تعالى: ﴿ونفسٍ وما سَوَّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾ [الشمس:٧،٨] وقال تعالى: ﴿كل نفسٍ ذائقةُ الموْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح. والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة.

فصل

وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ [الحجر: ٢٩]. فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها، فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته صفات له غير مخلوقة، وكذلك وجهه ويده سبحانه.

والثاني إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف عن غيره، كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها ملكًا له،

وكذلك ناقة الله، والنوق كلها ملكه وخلقه، لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده. فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد، والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى: ﴿وربُّك يخلقُ ما يشاءُ ويختارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات، فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس. . .

...(١)**احتجاجه** سبحانه على نبوة رسوله ﷺ، وصحة ما جاء به من الكتاب وأنه من عنده وكلامه الذي تكلم به وأنه ليس من صنع البشر بقوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي أنزله على عبده وأنه كلام الله أن يأتي بسورة واحدة مثله، وهذا يتناول أقصر سورة من سوره، ثم فسح له إن عجز عن ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين. وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افتراهُ قُلْ فأتوا بسورةٍ مثلهِ وادْعُوا من استطعتُم من دُون الله إن كنتُمْ صادقينَ﴾ [يونس: ٣٨] وقال تعالى: ﴿أم يقُولُون افتراهُ قُلْ فأتُوا بِعَشْرِ سورٍ مثلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ - الآية﴾ [هود: ١٣] وقال تعالى: ﴿أم يَقُولُون تَقَوَّلَهُ بل لا يُؤْمِنُونَ فليأتُوا بحديثٍ مِثلِه إن كانوا صادِقِين﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]. ثم سجل عليهم تسجيلاً عامًا في كل مكان وزمان بعجزهم ولو تظاهر عليه الثقلان فقال تعالى: ﴿قُلْ لئنِ اجتَمَعَت الإنْسُ والجنُّ على أنْ يأتُوا بمثلِ هذَا القرْآنِ لا يأْتُونَ بمِثْلِهِ ولو كان بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

فانظر إلى أي موقع يقع من الأسماع والقلوب هذا الحجاج الجليل القاطع الواضح الذي لا يجد طالب الحق ومؤثره ومريده عنه محيدًا، ولا فوقه مزيدًا، ولا وراءه غاية، ولا أظهر منه آية، ولا أوضح منه برهانًا، ولا أبلغ منه بيانًا.

. .(٢)**يصف** سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصممها وبكمها. قال تعالى:

---

(١) ٩٧ الصواعق جـ١.　(٢) ١١١ المفتاح جـ١.

﴿ومن كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخِرةِ أعمىٰ وأضلُّ سبيلاً﴾ والمراد عمى القلب في الدنيا.

وقال تعالى: ﴿ونَحْشُرُهُمْ يومَ القيَامةِ عَلى وجُوهِهِم عُميًا وبُكْمًا وصمًّا مأوَاهُم جَهنَّم﴾ لأنهم هكذا كانوا في الدنيا والعبد يبعث على ما مات عليه. واختلف في هذا العمى في الآخرة.

فقيل هو عمى البصيرة؛ بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفار ما في القيامة ورؤية الملائكة ورؤية النار.

وقيل هو عمى البصر، ورجح هذا بأن الإطلاق ينصرف إليه وبقوله: ﴿قالَ ربِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعمىٰ وقَد كُنتُ بصيراً﴾ وهذا عمى العين فإن الكافر لم يكن بصيراً بحجته.

وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار في القيامة بأن الله يخرجهم من قبورهم إلى موقف القيامة بصراء ويحشرون من الموقف إلى النار عميًا قاله الفراء وغيره.

...[1] **قال** تعالى: ﴿**ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًّا**﴾. وقد قيل في هذه الآية أيضًا أنهم عمى وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قوله: ﴿**ونَحْشُرُه يَوْمَ القِيَامَةِ أعْمَى**﴾ [طه: ١٢٤]. قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون، ومن نصر انه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق قال بعضهم: هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمى عن رؤية ما يسرهم وسماعه. ولهذا قد روى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لا يرون شيئًا يسرهم. وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك، فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيها بعد، وهذا مروي عن الحسن. وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿**اخسؤا فيها ولا تُكَلِّمُون**﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم، فيصيرون بأجمعهم عميًا بكمًا صمًّا، لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يسمع منهم

(١) ٤٥ المفتاح جـ١.

إلا الـزفير والشهيق. وهذا منقول عن مقاتل. والذين قالوا المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمى عنها، بل هم عمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا، فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه. وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر وأنه عمى البصر فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانًا، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى من الحق يومئذ ﴿وفصلَ الخِطَاب﴾ [ص: ٢٠]إن الحشر هو الضم والجمع، ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة كقول النبي ﷺ: «**إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً**» وكقوله تعالى: ﴿**وإذَا الوحُوشِ حُشِرَت**﴾ [التكوير: ٥]. وكقوله تعالى: ﴿**وحَشَرنَاهم فلم نُغَادِر مِنْهُم أحدًا**﴾ [الكهف: ٤٧] ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار(١).

...(٢)**قـولـه** سبحـانـه ردًا على الـذين قالوا: ﴿**أإذا كُنَّا عِظَامًا ورُفاتًا أإنَّا لَمبعُوثُونَ خَلقًا جديدًا**﴾ ﴿**أولم يَرَوا أنَّ الله الذي خَلَق السَّمَواتِ والأرْضَ قادرٌ على أن يخلقَ مثلَهُم**﴾ [الإسراء: ٩٨، ٩٩]. أي مثل هؤلاء المكذبين، والمراد به النشأة الثـانية، وهي الخلق الجـديد، وهي المثـل المـذكـور في غير موضـع، وهم هم بأعيانهم، فلا تنافي في شيء من ذلك، بل هو الحق الذي دل عليه العقل والسمع، ومَنْ لم يفهم ذلك حَقَّ فهمِه تخبَّطَ عليه أمرُ المعاد، وبقى منه في أمر مَرِيج.

والمقصود أنه دَلَّهم سبحانه بخلق السموات والأرض على الإعادة والبَعْث، وأكد هذا القياس بضرب من الأولى، وهو أن خَلْق السموات والأرض أكبرُ من خلق الناس، فالقادر على خلق ما هو أكبر وأعظم منكم أقْدَرُ على خلقكم، وليس أول الخلق بأهْوَنَ عليه من إعادته، فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجردُ تكذيبِ الله ورُسُلِه، وتعجيز قدرته، ونسبة علمه إلى القُصُور، والقَدْح في حكمته.

ولهذا يخبر الله سبحانه عَمَّن أنكر ذلك بأنه كافر بربه، جاحد له، لم يُقرَّ بربِّ العالمين فاطر السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿**وإن تعجب فَعَجَبٌ قَولُهُم**

---

(١) يأتي بقية البحث في سورة طه إن شاء الله. (ج).

(٢) ١٤٧ الإعلام جـ١.

أئذا كُنَّا تُرابًا أإنَّا لفي خَلْقٍ جديد أولئك الذين كَفروا برَبِّهم﴾ [الرعد: ٥]، وقال المؤمن للكافر الذي قال: **﴿وما أظُنُّ الساعةَ قائمةً، ولئِن رُدِدْتُ إلى ربي لأجدَنَّ خيرًا منها مُنْقلَبًا﴾** [الكهف: ٣٦،٣٧]. فمنكر المعاد كافر برب العالمين وإن زعم أنه مُقِر به.

...[1]**وقال** تعالى حاكيًا عن موسى أنه قال لفرعون: **﴿لقَدْ علِمتَ ما أنْزل هؤلاءِ إلَّا رب السمَـوات والأرض بَصَائِر وإني لأظُنُّكَ يافِرعون مثبورًا﴾** أي هالكًا، على قراءة من فتح التاء، وهي قراءة الجمهور، وضمها الكسائي وحده، وقـراءة الجمهـور أحسن وأوضـح وأفخم معنى، وبها تقوم الدلالة ويتم الإلزام بتحقيق كفر فرعون وعناده.

ويشهد لها قوله تعالى: **﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحرٌ مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾**. [النمل: ١٣،١٤].

...[2]**الوجه** السادس عشر أنه سبحانه سلى نبيه بإيمان أهل العلم به، وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئًا. فقال تعالى: **﴿وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكثٍ ونزلناه تنْزيلًا قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتُوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرّون للأذقان سُجَّدًا ويقولون سبحان ربِّنا إن كان وعد ربنا لمفعولًا﴾** [الإسراء: ١٠٨].

وهذا شرف عظيم لأهل العلم وتحته أن أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا فسواء آمن به غيرهم أو لا.

...[3]**قوله** سبحانه: **﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدًا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولًا، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا﴾** [الإسراء: ١٠٩]. قال إمـام التفسـير مجاهد: هم قوم من أهل الكتاب لما سمعوا القرآن خروا سجدًا وقالوا: **﴿سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾** كان الله عز وجل وعد على ألسنة أنبيائه ورسله أن يبعث في آخر الزمان نبيًا عظيم الشأن يظهر دينه على الدين كله،

---

(١) ٩٠ مفتاح جـ١. (٢) ٥٠ المفتاح جـ١. (٣) ٤٤ هداية الحيارى.

وتنتشر دعـوته في أقطار الأرض، وعلى رأس أمته تقوم الساعة، وأهل الكتابين مجمعـون على أن الله وعـدهم بهذا النبي، فالسعداء منهم عرفوا الحق فآمنوا به واتبعوه، والأشقياء قالوا نحن ننتظره ولم يبعث بعد رسولاً، فالسعداء لما سمعوا القرآن من الرسول عرفوا أنه النبي الموعود به فخروا سجدًا لله إيمانًا به وبرسوله، وتصديقًا بوعده الذي أنجزه فرأوه عيانًا فقالوا: ﴿سبحانَ ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾.

...[(١)]﴿قـل ادْعُوا الله أو ادْعُوا الرحمن أيًّاما تَدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ [الإسراء: ١١٠] فأي اسم دعـوتمـوه به فإنـما دعوتم المسمى بذلك الاسم، فأخبر سبحانه أنه إله واحد وإن تعددت أسماؤه الحسنى المشتقة من صفاته. ولهذا كانت حسنى، وإلا فلو كانت كما يقول الجاحدون لكماله أسماء محضة فارغة من المعاني ليس لها حقـائق لم تكن حسنى، ولكـانت أسماء الموصوفين بالصفات والأفعال أحسن منها: فدلت الآية على توحيد الذات وكثرة النعوت والصفات.

...[(٢)]**قوله** تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعواالرحمن أيًّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ فهذا الدعاء المشهور وأنه دعاء المسئلة وهو سبب النزول قالوا: كان النبي ﷺ يدعـو ربـه فيقـول مرة: ياالله، ومرة: يا رحمن، فظن الجاهلون من المشركـين أنه يدعو إلهين، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال ابن عباس: سمع المشركون النبي ﷺ يدعو في سجوده يارحمن يارحيم فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا وهو يدعـو مثنى مثنى فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُل ادْعُوا الله أو ادْعُوا الرحمن﴾.

وقيل: إن الدعاء ههنا بمعنى التسمية، كقولهم: دعوت ولدي سعيدًا، وأدعه بعبدالله ونحوه. والمعنى سموا الله أو سموا الرحمن، فالدعاء ههنا بمعنى التسمية، وهـذا قول الزمخشري. والذي حمله على هذا قوله: (**أيًّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى**)، فإن المراد بتعدده معنى أي، وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا.

والمعنى أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى إما الله وإما الرحمن فله الأسماء الحسنى، أي فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى، والضمير في له يعود إلى المسمى. فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية، وهذا

(١) ١٧٤ الصواعق جـ١.

(٢) ٥ البدائع جـ٢.

الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد، بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء، ولكنه متضمن معنى التسمية. فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب. فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في (تدعوا) معنى تسموا فتأمله، والمعنى: أيًّاما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم والله أعلم.

...[1] **والمثال** الثاني مما ادعوا أنه مجاز اسمه سبحانه الرحمن، وقالوا: وصفه بالرحمة مجاز، قالوا: لأن الرأفة والرحمة هي رقة تعتري القلب، وهي من الكيفيات النفسية، والله منزه عنها. وهذا باطل من وجوه (أحدها) أنهم جحدوا حقيقة الرحمة فقالوا إن نسبتها إلى الله تعالى محال، وأنه ليس برحيم بعباده على الحقيقة.وقد سبقهم إلى هذا النفي مشركو العرب الذين قال الله فيهم: ﴿**وإذا قيل لهم اسجُدُوا للرحمن قالوا وما الرحمن**﴾ [الفرقان: ٦٠] فأنكروا حقيقة اسمه الرحمن وأن يسمى بذلك، ولم يكونوا ينكرون ذاته وربوبيته، ولا ما يجعله المعطلة معنى اسم الرحمن من الإحسان؛ فإن أحدًا لم ينكر إحسان الله إلى خلقه، فإن قيل: فلو كان هذا كما ذكرتم لأنكروا اسم الرحيم لأن المعنى واحد (قيل) إنما لم ينكروا الرحيم لأن ورود الرحمن في أسمائه أكثر من ورود الرحيم ولهذا قال: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ [طه: ٥] ﴿**ثم استوى على العرش الرحمن**﴾ [الفرقان: ٥٩] ﴿**إني أخافُ أَن يمسَّك عذاب من الرحمن**﴾ [مريم: ٤٥] ﴿**رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن**﴾ [النبأ: ٣٧] ﴿**الرحمن علم القرآن**﴾ [الرحمن: ١، ٢]. وإنما جاء الرحيم مقيدًا كقوله: ﴿**وكان بالمؤمنين رحيمًا**﴾ [الأحزاب:٤٣]. وقوله: ﴿**إنه بهم رءوف رحيم**﴾ [التوبة: ١١٧]. ومقرونًا باسم الرحمن كما في الفاتحة أو باسم آخر نحو ﴿**العزيز الرحيم**﴾ [الشعراء: مرارًا]، وأيضًا فالرحمن جاء على بناء فعلان الدال على الصفة الثابتة اللازمة الكاملة كما يشعر به هذا البناء نحو: غضبان وندمان وحيران، فالرحمن من صفته الرحمة، والرحيم من يرحم بالفعل، وأيضًا فلا يخلو إنكارهم لهذا الاسم إما أن تكون دلالته على حقيقة الرحمة أولا، فإن كان الأول

(١) ١٠٩ الصواعق جـ٢.

فمن أنكـر أن يكـون حقيقـة فقد وافقهم، وإن لم يكن كذلك فمن المعلوم أن موضوع الاسم وحقيقته صفة الرحمة القائمة بموصوفها، فلو كانت حقيقة الاسم منتفية في نفس الأمر لكان طعنهم أقوى، وكان ذلك بمنزلة وصفه بالأكل والشرب والنوم والجور ونحوها مما لا يليق به. وبالجملة فالذي أنكر أن يكون الله رحمانًا على الحقيقـة هو (جهم بن صفوان) وشيعته، قال الله تعالى: ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه**﴾ [الأعراف: ١٨٠] ومن أعظم الإلحاد في أسـمائه إنكار حقائقها ومعانيها والتصريح بأنها مجازات (وهو) أنواع هذا أحدها (الثاني) جحدها وإنكارها بالكلية (الثالث) تشبيهه فيها بصفات المخلوقين ومعاني أسمائه وأن الثابت له منها مماثل للثابت لخلقه وهذا يذكره المتكلمون في كتبهم، ويجعلونها مقالة لبعض الناس. وهذه كتب المقالات بين أظهرنا لا نعلم ذلك مقالة لطائفـة من بعض الـطوائف البتة، وإنما المعطلة الجهمية يسمون كل من أثبت صفات الكمال لله تعالى مشبهًا وممثلاً، ويجعلون التشبيه لازم قولهم، ويجعلون لازم المذهب مذهبًا، ويسرعون في الرد عليهم وتكفيرهم . . .

...(١)**قال** تعالى: ﴿**وقلِ الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يَكنْ له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذلِّ وكبِّرهُ تكبيراً**﴾ [الإسراء: ١١١]. فلم ينف الولى نفيًا عامًّا مطلقًا. بل نفى أن يكون له ولي من الذلِّ، وأثبت في موضع آخر أن له أولياء بقوله: ﴿**ألا إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [يونس: ٦٢] وقوله: ﴿**الله ولي الـذين آمنوا**﴾ [البقرة: ٢٥٧] فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر، والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل.

...(٢)**ومـوالاتـه** لأوليائـه سلامٌ من أن تكـون عن ذل كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر كما قال تعالى: ﴿**وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذل**﴾[سورة الإسراء: ١١١] فلم ينف أن يكون له ولي مطلقًا، بل نفى أن يكون له ولي من الذل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الإسراء

والحمد لله رب العالميـن

---

(١) ١٦٢ المفتاح جـ١. (٢) ١٣٦ بدائع جـ٢.

سورة الكهف

ترتيبها ١٨ — آياتها ١١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبلُوهُم أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[الكهف:٧]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان. كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك. وخلق السموات والأرض لهذا الابتلاء أيضاً.(٢) فهذه ثلاثة مواضع في القرآن يخبر فيها ـ سبحانه ـ أنه خلق العالم العلوي والسفلي وما بينهما، وأجل العالم وأجل أهله، وأسباب معائشهم التي جعلها زينة للأرض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير ذلك، كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى؛ فهو الأحسن عملاً.

وهذا هو الحق الذي خلق به وله السموات والأرض وما بينهما، وغايته الثواب والعقاب، وفواته وتعطيله هو العبث الذي نزه نفسه عنه، وأخبر أنه يتعالى عنه، وأن ملكه الحق وتفرده بالإلهية وحده وبربوبية كل شيء ينفي هذا الظن الباطل والحسبان الكاذب، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**أَفَحَسِبْتُم أَنَّما خَلَقْنَاكم عَبَثاً وأَنَّكُم إلَيْنَا لا تُرجَعُون * فَتَعَالى اللهُ المَلِكُ الحقُّ لا إلـه إلا هُو ربُّ العرْشِ الكَرِيمِ**﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فنزه ـ سبحانه ـ نفسه عن ذلك، كما نزهها عن الشريك والولد والصاحبة، وسائر العيوب والنقائص من السنة والنوم، واللغوب والحاجة، واكتراثه بحفظ السموات والأرض، وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه، كما يظنه أعداؤه المشركون، يخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئاً منها. فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه، فكذلك يُبطل خلقَه لعباده عبثاً وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته، ويعرف المبطلون منهم أنه كانوا كاذبين، ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم. فمن أنكر ذلك فقد أنكر إلهيته وربوبيته

---

(١) ١٧٠ عدة الصابرين.

(٢) يعني آية سورة هود وآية سورة الملك (ج).

وملكه الحق، وذلك عين الجحود والكفر به ـ سبحانه ـ كما قال المؤمن لصاحبه الذي حاوره في المعاد وأنكره: ﴿أَكَفرتَ بالذي خَلَقَكَ من تُرابٍ ثم مِن نُطفة ثم سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف: ٣٧] فأخبر أن إنكاره للمعاد كفر بذات الرب ـ سبحانه ـ.

...[1]**الفتوة**: هذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس، وكف الأذى عنهم، واحتمال أذاهم. فهي استعمال حسن الخلق معهم. فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله.

والفرق بينها وبين المروءة: أن المروءة أعم منها؛ فالفتوة نوع من أنواع المروءة. فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد، أو متعد إلى غيره. وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضاً به، أو متعلق بغيره. و«الفتوة» إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق. فهي ثلاثة منازل: منزلة التخلق وحسن الخلق. ومنزلة الفتوة. ومنزلة المروءة. وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة، لم تعبر عنها الشريعة باسم «الفتوة» بل عبرت عنها باسم «مكارم الأخلاق» كما في حديث يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال».

وأصل «الفتوة» من «الفتى» وهو الشاب الحديث السن. قال الله ـ تعالى ـ عن أهل الكهف: ﴿إنَّهُم فِتْيَةٌ آمنوا بِرَبِّهِم وَزِدْنَاهم هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. وقال عن قوم إبراهيم إنهم قالوا: ﴿سَمِعنا فَتًى يَذكُرهم يُقال له إبراهِيم﴾ [الأنبياء: ٦٠]. وقال تعالى عن يوسف: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَقَال لِفتيَانِه اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُم فِي رِحَالِهم﴾ [يوسف: ٦٢].

فاسم «الفتى» لا يشعر بمدح ولا ذم، كاسم الشاب والحدَث. ولذلك لم يجيء اسم «الفتوة» في القرآن ولا في السنة ولا في لسان السلف، وإنما استعمله مَنْ بعدهم في مكارم الأخلاق. وأصلها عندهم: أن يكون العبد أبداً في أمر غيره.

...[2]**قوله** ـ تعالى ـ في أصحاب الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلوبهم إذا قَامُوا فقالوا رَبُّنا رَبُّ السَّموات والأرض لن نَدْعُوَ مَن دُونه إلهاً لَقَد قُلنَا إذًا شَطَطاً﴾

---

(١) ٣٤٠ مدارج جـ٢.　(٢) ٦٧ مدارج جـ٣.

[الكهف: ١٤]. وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد، فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر. فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق، وذاقوا حلاوته، وباشر قلوبهم. فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرضِ﴾ الآية.

والربط على قلوبهم: يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش. وفروا بدينهم إلى الكهف.

والربط على القلب عكس الخذلان. فالخذلان حَلُّه من رباط التوفيق؛ فيغفل عن ذكر ربه ويتبع هواه. ويصير أمره فرطًا والربط على القلب شده برباط التوفيق، فيتصل بذكر ربه ويتبع مرضاته ويجتمع عليه شمله.

...(١)**استنبط** أبوالقاسم السهيلي: أن عدة أصحاب الكهف سبعة، قال: لأن الله ـ تعالى ـ حكى قول من قال: ثلاثة، وخمسة، ولم يذكر الواو في قوله: **(رابعهم)** **(سادسهم)**. وحكى قول من قال: إنهم سبعة، ثم قال: **(وثامنهم كلبهم)** [الكهف: ٢٢] قال: لأن الواو عاطفة على كلام مضمر، تقديره: نعم، **﴿وثامنهم كلبهم﴾**.

(٢)**المخرج** الرابع: أن يستثنى في يمينه أو طلاقه. وهذا موضع اختلف فيه الفقهاء. فقال الشافعي وأبوحنيفة: يصح الاستثناء في الإيقاع والحلف، فإذا قال: «أنت طالق إن شاء الله» أو «أنت حرة إن شاء الله» أو «إن كلمت فلاناً فأنت طالق إن شاء الله» أو «الطلاق يلزمني لأفعلن كذا إن شاء الله» أو «أنت علي حرام، أو الحرام يلزمني إن شاء الله» نَفَعَهُ الاستثناء، ولم يقع به طلاق في ذلك كله.

ثم اختلفا في الموضع [الذي] يعتبر فيه الاستثناء، فاشترط أصحاب أبي حنيفة اتصالَه بالكلام فقط، سواء نَواه من أوله أو قَبْل الفراغ من كلامه أو بعده.

وقال أصحاب الشافعي: إن عَقَد اليمين ثم عنَّ له الاستثناء لم يصح. وإن عنَّ له الاستثناء في أثناء اليمين فوجهان؛ أحدهما: يصح، والثاني: لا يصح. وإن نوى الاستثناء مع عَقْد اليمين صح وجهاً واحداً.

(١) ٧٥ تهذيب السنن جـ٨. (٢) ٥٤ أعلام جـ٤.

وقد ثبت بالسنة الصحيحة أن سليمان بن داود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ قال: «**لأطوفَنَّ الليلةَ على كذا وكذا امرأة، تحمل كل امرأة منهم غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقال له الملَك الموكل به: قل إن شاء الله، فلم يقل**»، فقال النبي: «**والذي نَفْسِي بيده لو قالها لقاتلُوا في سبيل الله فرساناً أجمعون**». وهذا صريحٌ في نَفْع الاستثناء المقصود بعد عقد اليمين.

وثبت في السنن عنه ﷺ أنه قال: «**والله لأغْزُوَنَّ قريشاً، والله لأغزُونَّ قُريشاً، والله لأغزُوَنَّ قُريشاً**»، ثم سكت قليلًا ثم قال: «**إن شاء الله**» ثم لم يَغْزُهم، رواه أبوداود. وفي جامع الترمذي من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حلف على يمين فقال: إن شاء الله فلا حِنْثَ عليه**». وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إني فاعلٌ ذَلك غَدًا * إلا أن يَشَاءَ الله واذكُر رَبَّكَ إذا نَسِيتَ**﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

فهذه النصوص الصحيحة لم يشترط في شيء منها [البتة] في صحة الاستثناء ونَفْعِه أن ينويه مع الشروع في اليمين ولا قبلها، بل حديث سليمان صريح في خلافه، وكذلك حديث «**لأغزونَّ قُريشاً**»، وحديث ابن عمر متناول لكل من قال إن شاء الله بعد يمينه، سواء نوى الاستثناء قبل الفراغ أو لم ينوه، والآية دالة على نفع الاستثناء مع النسيان أظْهَرَ دلالة. ومَنْ شرط النية قبل الفراغ لم يكن لذكر الاستثناء بعد النسيان عنده تأثير.

وأيضا فالكلام بآخِره، وهو كلام واحد متصل بعضه ببعض، ولا معنى لاشتراط النية في أجزائه وأبعاضه. وأيضاً فإن الرجل قد يستحضر بعد فراغه من الجملة ما يرفع بعضها، ولا يذكر ذلك في حال تكلمه بها، فيقول: لزيد عندي ألف درهم، ثم في الحال يذكر أنه قَضَاه منها مائة فيقول: إلا مائة، فلو اشترط نية الاستثناء قبل الفراغ لتعذَّر عليه استدراك ذلك وألجيء إلى الإقرار بما لا يلزمه والكذب فيه. وإذا كان هذا في الإخبار فمثله في الإنشاء سواء؛ فإن الحالف قد يَبْدُو له فيعلق اليمين بمشيئة الله، وقد يذهل في أول كلامه عن قصد الاستثناء، أو يشغله شاغل عن نيته، فلو لم ينفعه الاستثناء حتى يكون ناوياً له من أول يمينه

لفات مقصودُ الاستثناء، وحصل الحَرَجُ الذي رفعه الله ـ تعالى ـ عن الأمة به، ولما قال لرسوله إذا نسيه: ﴿واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ﴾ وهذا متناول لذكره إذا نسي الاستثناء قطعاً، فإنه سببُ النزول، ولا يجوز إخراجه وتخصيصه لأنه مُرَاد قطعاً، وأيضاً فإن صاحب هذا القول إن طَرَدَه لزمه ألا يصح مخصِّص من صفة أو بدل أو غاية أو استثناء بإلا ونحوها حتى ينويه المتكلم من أول كلامه. . . .

(١)...**فالتحقيق** في المسألة أن المستثِنيَ إما أن يَقْصِد بقوله: «إن شاء الله» التحقيقَ أو التعليقَ؛ فإن قصد به التحقيقَ والتأكيد وقع الطلاق، وإن قصد به التعليقَ وعدم الوقوع في الحال لم تطلق، هذا هو الصواب في المسألة، وهو اختيار شيخنا وغيره من الأصحاب.

وقال أبوعبدالله بن حمدان في رعايته: قلت: إن قصد التأكيد والتبرك وقع، وإن قصد التعليق وجهل استحالة العلم بالمشيئة فلا. وهذا قول آخر غير الأقوال الأربعة المحكية في المسألة، وهو أنه إنما ينفعه الاستثناء إذا قصد التعليق وكان جاهلاً باستحالة العلم بمشيئة الله ـ تعالى ـ فلو علم استحالة العلم بمشيئته ـ تعالى ـ لم ينعقد الاستثناء. والفرق بين علمه بالاستحالة وجهله بها أنه إذا جهل استحالة العلم بالمشيئة فقد عَلَّق الطلاق بما هو ممكن في ظنه فيصح تعليقه، وإذا لم يجهل استحالة العلم بالمشيئة فقد علقه على محال يعلم استحالته فلا يصح التعليق، وهذا أحد الأقوال في تعليقه بالمحال.

قلت: وقولهم: «إن العلم بمشيئة الرب محال» خطأ محض، فإن مشيئة الرب تُعْلَم بوقوع الأسباب التي تقتضي مسبباتها؛ فإن مشيئة المسبب مشيئة لحكمه، فإذا أوقع عليها بعد ذلك طلاقاً علمنا أن الله قد شاء طلاقها. فهذا تقرير الاحتجاج من الجانبين ولا يخفى ما تضمنه من رجحان أحد القولين والله أعلم.

وقد قدمنا اختلاف الفقهاء في اشتراط نية الاستثناء وزمنها، وأن أضيق الأقوال قول مَنْ يشترط النية من أول الكلام، وأوسع منه قول مَنْ يشترطها قبل فراغه، وأوسع منه قول مَنْ يجوز إنشاءها بعد الفراغ من الكلام، كما يقوله أصحاب أحمد

(١) ٧٧ أعلام جـ٤.

وغيرهم، وأوسع منه قول مَنْ يجوزه بالقرب، ولا يشترط اتصاله بالكلام، كما نص عليه أحمد في رواية المروزي فقال: حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: **«إن شاء الله»** إذ هو استثناء بالقرب، ولم يخلط كلامه بغيره، وقال إسماعيل بن سعيد الشالنجي: سألت أحمد بن حنبل عن الاستثناء في اليمين، فقال: من استثنى بعد اليمين فهو جائز، على مثل فعل النبي ﷺ إذ قال: **«والله لأغزون قريشاً»** ثم سكت ثم قال: **«إن شاء الله»** ولم يبطل ذلك، قال: ولا أقول فيه بقول هؤلاء، يعني من لم يَرَ ذلك إلا متصلاً، هذا لفظ الشالنجي في مسائله.

وأوسَعُ من ذلك قولُ من قال: ينفعه الاستثناء، ويصح ما دام في المجلس، نص عليه الإمام أحمد في إحدى الروايات عنه، وهو قول الأوزاعي كما سنذكره.

وأوسع منه من وجه قول من لا يشترط النية بحال، كما صرح به أصحاب أبي حنيفة. وقال صاحب الذخيرة في كتاب «الطلاق» في الفصل السادس عشر منه: ولو قال لها: «أنت طالق إن شاء الله» ولا يدري أي شيء شاء الله لا يقع الطلاق؛ لأن الطلاق مع الاستثناء ليس بإيقاع، فعلمه وجهله يكون سواء، ولو قال لها: «أنت طالق» فجرى على لسانه من غير قَصْدٍ «إن شاء الله». وكان قصده إيقاع الطلاق لا يقع الطلاق لأن الاستثناء قد وجد حقيقة، والكلام مع الاستثناء لا يكون إيقاعاً....

...[1]**وتفسير** الآية، عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء: أفعل كذا وكذا، حتى تقول: إن شاء الله. فإذا نسيت أن تقولها، فقلها متى ذكرتها. وهذا هو الاستثناء المتراخي، الذي جوزه ابن عباس. وتأول عليه الآية، وهو الصواب..

....**والذي** أجمع عليه المفسرون: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القَرْنين، فقال: **«أخبركم غداً»** ولم يقل: «إن شاء الله» فَتَلَبَّث الوحي أياماً. ثم نزلت هذه الآية، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: معناه إذا نسيت الاستثناء. ثم ذكرت فاستثن. قال: ابن عباس - رضي الله عنهما -: ويجوز الاستثناء إلى سنة.[2]. وقال: عكرمة -

(١) ٤٣١ مدارج جـ٢.

(٢) تقدم قريبًا توجيه كلام ابن عباس - رضي الله عنهما - (ج).

رحمه الله ـ: واذكر ربك إذا غضبت. وقال الضحاك والسدى: هذا في الصلاة. أي إذا نسيت الصلاة فصلِّها متى ذكرتها.

(١)**وأما** قولكم: «إن الاستثناء بابه الأيمان» إن أردتم به اختصاص الأيمان به فلم تذكروا على ذلك دليلاً، وقوله ﷺ: **«مَنْ حلف فقال: إن شاء الله فقد استثنى»**. وفي لفظ آخر: **«مَنْ حلف فقال: إن شاء الله فهو بالخيار؛ فإن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل»** فحديث حسن، ولكن لا يوجب اختصاص الاستثناء بالمشيئة باليمين، وقد قال الله ـ تعالى ـ: **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾** [الكهف: ٢٣، ٢٤]. وهذا ليس بيمين، ويشرع الاستثناء في الوعد والوعيد والخبر عن المستقبل، كقوله: غداً أفعل إن شاء الله، وقد عتب الله على رسوله ﷺ حيث قال لمن سأله من أهل الكتاب عن أشياء: **«غداً أخبركم»** ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوَحْيُ عنه شهراً، ثم نزل عليه: **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً * إلا أن يَشَاء الله واذكُر رَبَّك إذا نَسِيتَ﴾** أي إذا نسيتَ ذلك الاستثناء عقيب كلامك فاذكره به إذا ذكرت، هذا معنى الآية، وهو الذي أراده ابن عباس بصحة الاستثناء المتراخي. ولم يقل ابن عباس قط ولا مَنْ هو دونه: إن الرجل إذا قال لامرأته: «أنت طالق» أو لعبده: «أنت حر» ثم قال بعد سنة «إن شاء الله» إنها لا تطلق ولا يعتق العبد، وأخطأ مَنْ نقل ذلك عن ابن عباس. أو عن أحد من أهل العلم البتة، ولم يفهموا مُراد ابن عباس، والمقصود أن الاستثناء لا يختص باليمين لا شرعاً ولا عرفاً ولا لغةً، وإن أردتم بكون بابه الأيمان كثرتَهُ فيها؛ فهذا لا ينفي دخوله في غيرها....

(٢)**وإن** قال بلسانه: «لا أوري ولا أكني» والتورية والكناية في قلبه، كما لو قال: «لا أستثني» بلسانه وفي نيته الاستثناء ثم استثنى فإنه ينفعه، حتى لو لم ينو الاستثناء ثم عزم عليه واستثنى نفعه ذلك بالسنة الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها بوجه في غير حديث، كقول المَلَكِ لسليمان: قل إن شاء الله، وقول النبي ﷺ: **«إلا الإذْخِرَ»** بعد أن ذَكَّره به العباس. وقوله: **«إن شاء الله»** بعد أن

---

(١) ٧٥ أعلام جـ٤.   (٢) ٣٥٦ أعلام جـ٣.

قال: «**لأغْزُوَنَّ قريشًا**» ثلاث مرات ثم قال بعد الثالثة وسكوته: «**إن شاء الله**» والقرآن صريح في نفع الاستثناء إذا نسيه ولم ينوه في أول كلامه ولا أثناءه في قوله تعالى: ﴿**ولاَ تَقُولن لِشَيْءٍ إنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غداً * إلا أن يشاء الله واذكر ربَّك إِذَا نَسِيتَ**﴾، وهذا إما أن يختصَّ بالاستثناء إذا نسيه كما فسره به جمهور المفسرين، أو يعمه ويعم غيره وهو الصواب.

فأما أن يخرج منه الاستثناء الذي سِيقَ الكلامُ لأجله ويرد إلى غيره فلا يجوز، ولأن الكلام الواحد لا يعتبر في صحته نية كل جملة من جُمله وبعض من أبعاضه؛ فالنص والقياس يقتضي نفع الاستثناء، وإن خطر له بعد انقضاء الكلام، وهذا هو الصواب المقطوع به.

(١)**والإلحاد** في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته [ل. ح د.] فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط. ومنه الملحد في الدين: المائل عن الحق إلى الباطل. قال ابن السكيت: الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه. ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك. وقوله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِه مُلْتَحَداً**﴾ [الكهف: ٢٧]. أي من تعدل إليه، وتهرب إليه، وتلتجيء إليه، وتبتهل إليه، فتميل إليه عن غيره. تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

(٢)**الوجه** السادس: قوله: «الصبر حبس النفس على مكروه، وعقل اللسان عن الشكوى، ومكابدة الغصص في تحمله، وانتظار الفرج عند عاقبته» فيقال: هذا أحد أقسام الصبر، وهو الصبر على البلاء. وأما الصبر على الطاعة فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه، وقد لا يعرض فيه، بل يتحلى بها ويأتي بها محبة ورضى، ومع هذا فالصبر واقع عليها، فإنه حبس النفس على مداومتها والقيام بها. قال الله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ**﴾ [الكهف: ٢٨].

وأما الصبر عن المعصية فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه، وقد لا يعرض فيه، لتمكن الصابر من قهر داعيها وغلبته، وإذا كان ما ذكر من الأمور الأربعة إنما

---

(١) ١٦٩ بدائع جـ١.

(٢) ٢٦٦طريق الهجرتين.

يعـرض في الصبر على البلية فقـوله: «إنه في طريق الخاصة تجلد ومناوأة وجرأة ومنازعة»، ليس كذلك، وإنما فيه التجلد، فأين المناوأة والجرأة والمنازعة؟ وأما لوازم الطبيعة من وجود ألم البلوى فلا تنقلب ولا تعدم فلا يصح أن يقال: إن وجود التألم والتـجلد عليه، وحبس النفس عن التسخط واللسـان عن الشكـوى، جرأة ومنـازعة، بل هو محض العبودية والاستكانة وامتثال الأمر، وهو من عبودية الله المفروضة على عبده في البلاء، فالقيام بها عين كمال العبد، ولوازم الطبيعة لابد منها.

ومن رام أن لا يجد البرد والحر والجوع والعطش والألم عند تمام أسبابها وعللها فقـد رام الممتنـع. وهل يكون الأجر إلا على وجود تلك الآلام والمشاق والصبر عليها؟ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»** وقيل له في مرضه: إنك لتوعك وعكاً شديداً، قال: **«أجل إن لي أجر رجلين منكم»** يعني في وعكه. ولاريب أن ذلك الوعك مؤلم له ﷺ، وأيضاً في مرض موته قال: **«وارأساه»** وهذا إنما هو من وجود ألم الصداع. وكان يقول في غمرات الموت: **«اللهم أعني على سكرات الموت»** وهذا كله لتكميل أجره وزيادة رفعة درجاته ﷺ. وهل كان ذلك إلا محض العبودية وعين الكمال؟ وهل الجرأة والمناوأة والمنازعة إلا في ترك الصبر، وفي التسخط والشكوى؟

(١)**قوله** تعالى: **﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾**[الكهف: ٢٨].
وفي الآية رد ظاهر على الطائفتين وإبطال لقولهما، فإنه ـ سبحانه ـ أغفل قلب العبد عن ذكره فغفل هو، فالإغفال فعل الله، والغفلة فعل العبد.

ثم أخبر عن اتباعه هواه، وذلك فعل العبد حقيقة. والقدرية تحرف هذا النص وأمثاله بالتسمية والعلم، فيقولون: معنى أغفلنا قلبه سميناه غافلاً، أو وجدناه غافـلاً، أي علمناه كذلك، وهذا من تحريفهم، بل أغفلته مثل أقمته وأقعدته وأغنيته وأفقرته، أي جعلته كذلك. وأما أفعلته أو أوجدته كذلك كأحمدته وأجبنته وأبخلته وأعجزته فلا يقع في أفعال الله البتة، إنما يقع في أفعال العاجز أن يجعل جبانًا وبخيلاً وعاجزاً فيكون معناه صادفته كذلك. وهل يخطر بقلب الداعي:

---

(١) ٦٤ شفاء.

اللهم أقدرني أو أوزعني وألهمني أي : سمني واعلمني كذلك؟ وهل هذا إلا كذب عليه وعلى المدعو سبحانه . والعقلاء يعلمون علماً ضروريًا أن الداعي إنما سأل الله أن يخلق له ذلك، ويشاءه له، ويقدره عليه . حتى القدري إذا غابت عنه بدعته وما تقلده عن أشياخه وأسلافه وبقي وفطرته لم يخطر بقلبه سوى ذلك . وأيضاً فلا يمكن أن يكون العبد هو المغفِّلُ لنفسه عن الشيء، فإن إغفاله لنفسه عنه مشروط بشعوره به، وذلك مضاد لغفلته عنه، بخلاف إغفال الرب تعالى له فإنه لا يضاد علمه بما يغفل عنه العبد، وبخلاف غفلة العبد فإنها لا تكون إلا مع عدم شعوره بالمغفول عنه؛ وهذا ظاهر جدًّا. فثبت أن الإغفال فعل الله بعبده، والغفلة فعل العبد .

(١) **وقال** قتادة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ : أضاع نفسه وغبن مع ذلك، تراه حافظاً لماله مضيعاً لدينه . وقال الحسن : «إن العبد لايزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته» .

(٢) **قال** تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتَّبع هواه وكان أمره فرطًا﴾ [الكهف:٢٨] وينبغي أن يعلم أن الهوى وحده لا يستقل بفساد السيئات إلا مع الجهل، وإلا فصاحب الهوى لو جزم بأن ارتكاب هواه يضره ولا بد ضررًا راجحًا لانصرفت نفسه عن طاعته له بالطبع، فإن الله ـ سبحانه ـ جعل في النفس حبًّا لما ينفعها وبغضًا لما يضرها، فلا تفعل مع حضور عقلها ما تجزم بأنه يضرها ضررًا راجحاً، ولها يوصف تارك ذلك بالعقل والحجى واللب. فالبلاء مركب من تزيين الشيطان وجهل النفس، فإنه يزين لها السيئات ويريها أنها في صور المنافع واللذات والطيبات، ويغفلها عن مطالعتها لمضرتها، فتولد من بين هذا التزيين وهذا الإغفال والإنساء لها إرادة وشهوة، ثم يمدها بأنواع التزيين فلا يزال يقوى حتى يصير عزمًا جازمًا يقترن به الفعل، كما زين للأبوين الأكل من الشجرة وأغفلهما عن مطالعة مضرة المعصية .

فالتزيين هو سبب إيثار الخير والشر، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَزَيَّنَ لهم الشَّيطَانُ مَا كَانُوا يعملونَ﴾ [الأنعام:٤٣] وقال : ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآه حَسَنًا﴾

---

(١) ٧٨ إغاثة جـ١ .　　(٢) ١٧١ شفاء.

[فاطر:٨] وقال في تزيين الخير: ﴿وَلَكِن الله حَبَّبَ إليكمُ الإيمانَ وَزَيَّنَه في قُلوبكُم﴾ [الحجرات:٧] وقال في تزيين النوعين: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلهم ثم إلى رَبِّهِم مَرجِعُهم فينبئُهُم بِمَا كَانُوا يعملونَ﴾ [الأنعام:١٠٨].

وتزيين الخير والهدى بواسطة الملائكة والمؤمنين، وتزيين الشر والضلال بواسطة الشياطين من الجن والإنس، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وكَذلِك زَيَّن لِكَثير مِن المشركين قَتْـل أولادِهم شركـاؤهم﴾ [الأنعـام: ١٣٧]. وحقيقة الأمر أن التزيين إنما يغتر به الجاهل؛ لأنه يلبس له الباطل والضار المؤذي صورة الحق والنافع الملائم. فأصل البلاء كله من الجهل وعدم العلم، ولهذا قال الصحابة: كل من عصى الله فهو جاهل، وقال تعالى: ﴿إنَّما التَّوبة على الله لِلَّذين يعملون السُّوء بجَهالةٍ ثم يتُوبون من قريب﴾ [النساء:١٧] وقال: ﴿وإذَا جَاءكَ الَّذين يؤمنون بآياتنا فقُل سلامٌ عَليكم كَتب ربُّكم على نفسه الرحمة أنه من عَمل منكم سوأً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفورٌ رحيم﴾ [الأنعام:٥٤].

(١)**فصل** وأما الإغفال، فقال ـ تعالى ـ ﴿وَلاَ تُطعْ من أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاه وَكَانَ أمرُهُ فُرُطًا﴾ سئل أبوالعباس ثعلب عن قوله: ﴿أغفلنا قلبه عن ذِكرنا﴾ فقال: جعلناه غافلاً، قال: ويكون في الكلام، أغفلته سميته: غافلاً، ووجدته غافلاً. قلت: الغُفل: الشيء الفارغ، والأرض الغُفل التي لا علامة بها، والكتاب الغفل الذي لا شكل عليه، فأغفلناه تركناه غفلاً عن الذكر فارغاً منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي، لأنه ـ سبحانه ـ لم يشأ له الذكر فبقي غافلاً. فالغفلة وصفه، والإغفال فعل الله فيه بمشيئته، وعدم مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، وإذا شاء غفلته امتنع منه الذكر، فإن قيل فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة الرب أضدادها أم إلى مشيئته لوقوعها. قيل القرآن قد نطق بهذا وبهذا، قال ـ تعالى ـ: ﴿أولئك الَّذينَ لم يُرِدِ اللهُ أَن يطهِّر قُلُوبَهُم﴾ [المائدة: ٤١]. وقال: ﴿وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتنَتَهُ فلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شيئًا﴾ [المائدة: ٤١] ﴿وَمَنْ يُرد أَنْ يُضله﴾. فإن قيل: فكيف يكون

(١) ٩٨ شفاء

عدم السبب المقتضي موجبًا للأثر؛ قيل: الأثر إن كان وجوديًا فلابد له من مؤثر وجودي، وأما العدم فيكفي فيه عدم سببه وموجبه فيبقى على العدم الأصلي، فإذا أضيف إليه كان من باب إضافة الشيء إلى دليله، فعدم السبب دليل على عدم المسبب، وإذا سمي موجباً ومقتضياً بهذا الاعتبار فلا مشاحة في ذلك، وأما أن يكون العدم أثراً ومؤثراً فلا. وهذا الإغفال ترتب عليه اتباع هواه وتفريطه في أمره.

قال مجاهد: كان أمره فرطاً أي ضياعاً، وقال قتادة: أضاع أكبر الضيعة، وقال السدى: هلاكاً، وقال أبوالهيثم: أمر فرط أي متهاون به مضيع، والتفريط تقديم العجز، قال أبوإسحاق: من قدم العجز في أمر أضاعه وأهلكه. قال الليث: الفرط الأمر الذي يفرط فيه يقول كل أمر فلان فرط. قال الفراء: فرطًا متروكاً يفرط فيها لا ينبغي التفريط فيه، واتبع ما لا ينبغي اتباعه، وغفل عما لا يحسن الغفلة عنه.

(١)**قال** تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً * أُولَئِكَ لَهُم جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنهارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَساوِرَ مِن ذَهَبٍ ويَلْبَسونَ ثِيابًا خُضراً مِنْ سُنْدُسٍ وإِسْتَبرقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلى الأرائِكِ**﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١].

قال جماعة من المفسرين: السندس ما رَقَّ من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه. وقالت طائفة: ليس المراد به الغليظ ولكن المراد به الصفيق. وقال الزجاج: هما نوعان من الحرير، وأحسن الألوان الأخضر، وألين اللباس الحرير فجمع لهم بين حسن منظر اللباس، والتذاذ العين به وبين نعومته والتذاذ الجسم به. وقال تعالى: ﴿**وَلِبَاسُهُم فِيها حَرِيرٌ**﴾ [الحج: ٢٣]. وههنا مسألة وهذا موضع ذكرها، وهي أن الله ـ سبحانه ـ وتعالى أخبر أن لباس أهل الجنة حرير، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**» متفق على صحته من حديث عمر بن الخطاب وأنس بن مالك. وقد اختلف في المراد بهذا الحديث، فقالت طائفة من السلف والخلف: أنه لا يلبس الحرير في الجنة ويلبس غيره من الملابس. قالوا: وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِبَاسُهُم فيها حَرِيرٌ﴾. [فاطر: ٣٣]. فمن العام المخصوص.

---

(١) ١٤١ حادي الأرواح.

وقال الجمهور: وهذا من الوعيد الذي له حكم أمثاله من نصوص الوعيد التي تدل على أن الفعل مقتض لهذا الحكم، وقد يتخلف عنه لمانع. وقد دل النص والإجماع على أن التوبة مانعة من لحوق الوعيد، ويمنع من لحوقه أيضاً الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين، وشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة فيه، وشفاعة أرحم الراحمين إلى نفسه. فهذا الحديث نظير الحديث الآخر: «**من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة**». وقال تعالى: ﴿**وَجَزَاهُم بِما صَبَرُوا جَنَّة وَحريراً**﴾ [الإنسان: ١٢].

(١)**فصل** في هديه ﷺ فيما يقول من رأى ما يعجبه من أهله وماله. يذكر عن أنس عنه أنه قال: «**ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال أو ولد، فيقول: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت، وقد قال تعالى: ﴿وَلَولَا إذ دَخلت جَنَّتك قُلتَ ماشاء الله لَا قُوة إلا بالله﴾**» [الكهف: ٣٩].

(٢)**قال** تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلنا للمَلَائِكة اسجُدوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلا إبليسَ كَان مِنَ الجنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْر ربِّه أفَتَتَّخِذُونَه وَذريَّته أولياءَ مِن دوني وهُم لكم عَدُوٌّ بِئْسَ للظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾ [الكهف: ٥٠]. يقول ـ سبحانه ـ لعباده أنا أكرمت آباكم، ورفعت قدره، وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له تكريماً وتشريفاً فأطاعوني، وأبىٰ عدوي وعدوه فعصى أمري وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني؟ فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم أعدا عدو لكم؟ فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته. ومن والى أعـداء الملك كان هو وأعـداؤه عنده سواء؛ فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له فهذا محال. هذا لو لم يكن عدو الملك عدوًّا لكم فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة وبين الذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه؟ ونبه ـ سبحانه ـ على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿**وَهُم لكُم عَدُوٌّ**﴾ كما نبه على

---

(١) ٩١ زاد المعاد جـ٢.　　(٢) ١٠٩ الجواب الكافي.

قبحها بقوله - تعالى -: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(١) فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة وما هذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلاً. ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو: إني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة.

(٢)﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَم فَسَجَدُوا إلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتتخِذُونَه وَذُرِّيَتَهُ أَوْلِيَاء مِنْ دُونِي وهُم لَكُم عَدُوٌّ بِئْسَ للظَّالِمِينَ بَدَلا﴾ [الكهف: ٥٠]. فتحت هذا الخطاب: إني عاديت إبليس وطردته من سمائي وباعدته من قربي إذ لم يسجد لأبيكم آدم، ثم أنتم يا بنيه توالونه وذريته من دوني وهم أعداء لكم.

فليتأمل اللبيب مواقع هذا الخطاب وشدة لصوقه بالقلوب والتباسه بالأرواح. وأكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصيحة البالغة، وأعلم عباده أنه لا يرضى لهم إلا أكرم الوسائل وأفضل المنازل وأجل العلوم والمعارف، قال - تعالى -: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُم وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وإِنْ تَشْكُرُوا يَرضَهُ لكُم﴾ [الزمر: ٧].

(٣)**فتأمل** ما تحت هذه المعاتبة وما في طي هذا الخطاب من سوء هذا العبد وما تعرض له من المقت والخزي والهوان، ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه إياه إلى العود إلى وليه ومولاه الحق الذي هو أولى به، فإذا عاد إليه وتاب إليه فهو بمثابة من أسر له العدو محبوباً له، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء إلى محبه اختياراً وطوعاً حتى توسد عتبة بابه، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسداً عتبة بابه واضعاً خده وذقنه عليها، فكيف يكون فرحه به؟ ولله المثل الأعلى. ويكفي في هذا المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ لمن فتح الله عين قلبه فأبصر ما في طيه وما في ضمنه، وعلم أنه ليس كلام مجاز ولا مبالغة ولا تخييل، بل كلام معصوم في منطقه وعلمه وقصده وعمله، كل كلمة منه في موضعها

(١) يأتي تقسيم الفسق في سورة الحجرات، كما يأتي إن شاء الله في تفسير هذه الآية مايحسن الإحالة عليه في تفسيره للمعوذتين (ج). (٢) ١٣٤ طريق الهجرتين. (٣) ٢٤٢ طريق الهجرتين.

ومنزلتها ومقرها لا يتعدى بها عنه ولا يقصر بها. والذي يزيد هذا المعنى تقريراً أن محبة الرب لعبده سبقت محبة العبد له ـ سبحانه ـ فإنه لولا محبة الله له لما جعل محبته في قلبه، فإنه ألهمه حبه وآثره به، فلما أحبه العبد جازاه على تلك المحبة محبة أعظم منها، فإنه من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً، ومن أتاه مشياً أتاه هرولة، وهذا دليل على أن محبة الله لعبده الذي يحبه فوق محبة العبد له. وإذا تعرض هذا المحبوب لمساخط حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذي فر من محبه وآثر غيره عليه، فإذا عاوده وأقبل إليه وتخلى عن غيره، فكيف لا يفرح به محبه أعظم فرح وأكمله. والشاهد أقوى شاهد تؤيده الفطرة والعقل، فلو لم يخبر الصادق المصدوق بما أخبر به من هذا الأمر العظيم لكان في الفطرة والعقل ما يشهد به، فإذا انضافت الشرعة المنزلة إلى العقل المنور فذلك الذي لا غاية له بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(1)**ذمّ** الله تعالى في كتابه مَنْ نسيَ ما تُقَدِّمَ يداه. فقال: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه فأعْرضَ عنها وَنسِيَ ما قَدَّمَتْ يَدَاه**﴾ [الكهف:٥٧]. فإذا طالع جنايته شَمَّر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل، وتخلص مِنْ رِقِّ الجناية بالاستغفار والندم، وطلب التمحيص، وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خَبَث الجناية، كتمحيص الذهب والفضة، وهو تخليصهما من خبثهما. ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص. فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب. ولهذا تقول لهم الملائكة: ﴿**سَلامٌ عَلَيكم طِبْتُم فادْخُلُوها خَالِدينَ**﴾ [الزمر:٧٣] وقال تعالى: ﴿**الَّذين تَتَوفَّاهُمُ الملائِكةُ طيِّبين يَقُولون سلامٌ عليكُمُ ادخُلُوا الجَنَّةَ**﴾ [النحل:٣٢]. فليس في الجنة ذَرَّة خبث.

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة. فإن محصته هذه الأربعة وخلصته: كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، يبشرونهم بالجنة، وكان من الذين ﴿**تَتَنَزَّل عَلَيْهم المَلائِكَةُ**﴾ عند الموت ﴿**أن لا تَخافُوا وَلَا تَحزَنُوا وأَبْشِرُوا بالجنَّةِ الَّتِي كُنْتُم توعَدُونَ * نَحْنُ أولياؤكُم في الحَيَاةِ الدُّنيا وفي الآخرة ولَكُم فيها ما تَشْتَهِي أنفُسُكم**

---

(١) ١٤١ مدارج جـ١.

وَلَكُم فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وإن لم تَفِ هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه، فلم تكن التوبة نصوحاً ـ وهي العامة الشاملة الصادقة ـ ولم يكن الاستغفار كاملاً تامًّا ـ وهو المصحوب بمفارقة الذنب، والندم عليه ـ وهذا هو الاستغفار النافع، لا استغفار من في يده قدح السكر، وهو يقول: أستغفر الله، ثم يرفعه إلى فيه. ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير، ولا المصائب. وهذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف الممحص، وإما لهما: مُحِّص في البرزخ بثلاثة أشياء.

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر، وروعة الفتان، والعَصْرة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يُهدي إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال، من الصدقة عنه، والحج، والصيام عنه، وقراءة القرآن عنه، والصلاة، وجعل ثواب ذلك له.

وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء. قال الإمام أحمد: لا يختلفون في ذلك. وما عداهما فيه اختلاف. والأكثرون يقولون بوصول الحج. وأبوحنيفة يقول: إنما يصل إليه ثواب الإنفاق، وأحمد ومن وافقه: مذهبُهم في ذلك أوسع المذاهب. يقولون: يصل إليه ثواب جميع القرب، بَدَنيِّها وماليها، والجامع للأمرين. واحتجوا بأن النبي ﷺ قال لمن سأله: «يارسول الله، هل بقي من بر أبوى شيء أبرهما به بعد مماتهما؟ قال: «نعم» فذكر الحديث. وقد قال ﷺ: **«من مات وعليه صيام صام عنه وليه»**.

فإن لم تف هذه بالتمحيص، مُحِّص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة. وشدة الموقف. وشفاعة الشفعاء. وعفو الله عز وجل.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلابد له من دخول الكير، رحمة في حقه ليتخلص ويتمحص، ويتطهر في النار. فتكون النار طُهرة له وتَمحيصاً لخبثه. ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، وشدته وضعفه وتراكمه. فإذا خرج خبثه وصُفِّي ذهبه، وصار خالصاً طيباً، أخرج من النار، وأدخل الجنة.

(١)**الوجه** الثالث والثلاثون بعد المائة ما رواه ابن حبان في صحيحه من حديث

(١) ١٥٩ مفتاح جـ١.

أبي هريرة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «سأل موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة، والسابعة لم يكن موسى يحبها. قال: يارب أي عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكر ولا ينسى، قال: فأي عبادك أهدى؟ قال: الذي يتبع الهدى، قال: فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم لنفسه، قال: أي عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه، قال: فأي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قدر عفا، قال: فأي عبادك أغنى؟ قال: الذي يرضى بما أوتي، قال: فأي عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوص»، فأخبر في هذا الحديث أن أعلم عباده الذي لا يشبع من العلم، فهو يجمع علم الناس إلى علمه لنهمته في العلم وحرصه عليه.

ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كماله، وهذا هو الذي حمل موسى على الرحلة إلى عالم الأرض ليعلمه مما علمه الله. هذا وهو كليم الرحمن وأكرم الخلق على الله في زمانه، وأعلم الخلق، فحمله حرصه ونهمته في العلم على الرحلة إلى العالم الذي وصف له، فلولا أن العلم أشرف ما بذلت فيه المهج وأنفقت فيه الأنفاس لاشتغل موسى عن الرحلة إلى الخضر بما هو بصدده من أمر الأمة، وعن مقاساة النصب والتعب في رحلته وتلطفه للخضر في قوله: ﴿**هَل أَتَّبِعُكَ على أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشداً**﴾ [الكهف:٦٦] فلم ير أتباعه حتى استأذنه في ذلك وأخبره أنه جاء متعلماً مستفيداً، فهذا النبي الكريم كان عالماً بقدر العلم وأهله صلوات الله وسلامه عليه.

(١)**الوجه** الرابع والثلاثون أن الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه الذي كتب له التوراة بيده، وكلمه منه إليه أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علماً إلى علمه، فقال: ﴿**وإذْ قال مُوسى لِفَتَاهُ لا أَبرَحُ حتَّى أبلغَ مَجْمَعَ البحْريْن أو أمضِيَ حُقُباً**﴾ [الكهف:٦٠] حرصاً منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه. فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه وقال له: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ على أنْ تُعلِّمَن مما عُلِّمْتَ رُشداً**﴾ فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته وأنه لا يتبعه إلا بإذنه، وقال: ﴿**على أن تعلمن مما علمت رشداً**﴾ فلم يجيء ممتحناً ولا متعنتاً، وإنما جاء متعلماً

---

(١) ٥٥ مفتاح جـ١.

مستزيداً علماً إلى علمه. وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعلم، فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل حتى لقي النصب من سفره في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم، ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه، وفي قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع ذكرها.

(١)**الوجه** السابع والثلاثون أنه ـ سبحانه ـ ذكر فضله ومنته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله بقوله: **﴿وَأَنْزَلَ الله عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلم وكَان فَضلُ الله عَلَيكَ عَظِيماً﴾** [النساء:١١٣] وقد تقدمت هذه الآية. وقال في يوسف: **﴿وَلَمَّا بَلَغ أَشُدَّه آتينَاه حُكماً وَعِلماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِين﴾** [يوسف:٢٢]. وقال في كليمه موسى: **﴿وَلَمَّا بلَغَ أَشُدَّه واسْتَوى آتينَاه حُكْماً وعِلماً وَكَذَلِكَ نَجزي المُحْسِنِينَ﴾** [القصص: ١٤]. ولما كان الذي آتاه موسى من ذلك أمراً عظيماً خصه به على غيره، ولا يثبت له إلا الأقوياء: أولو العزم هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوى، يعني تم وكملت قوته. وقال في حق المسيح: **﴿يا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ اذْكُر نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى والِدتِكَ إِذْ أَيَّدتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكلِّمُ النَّاسَ في المهدِ وَكَهلاً وإِذْ عَلَّمتُكَ الكِتَابَ والحِكمَةَ والتوراةَ والإِنْجيلَ﴾** [المائدة:١١٠]. وقال في حقه ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به. وقال في حق داود: **﴿وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾** [ص:٢٠]. وقال في حق الخضر صاحب موسى وفتاه: **﴿فَوَجَدَا عبداً من عِبَادِنا آتينَاه رحمَةً من عِندِنَا وَعَلَّمناه مِنْ لَدُنَّا علماً﴾** [الكهف: ٦٥] فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته.

(٢)**لما** سافر موسى إلى الخضر وجد فى طريقه مس الجوع والنصب، فقال لفتاه: **﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لقَد لَقِينَا مِنْ سَفرِنَا هَذا نَصَباً﴾** [الكهف:٦٢]؛ فإنه سفر إلى مخلوق. ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب؛ فإنه سفر إلى ربه تعالى. وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين.

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ١.	(٢) ٢٠٣ بدائع جـ٣.

[١]قال الله تعالى: ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لَدُنَّا عِلْماً﴾. وفرق بين الرحمة والعلم. وجعلهما «من عنده» و«من لدنه» إذ لم ينلهما على يد بشر، وكان «من لدنه» أخص وأقرب من «عنده» ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وقُل ربِّ أدخلني مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخرجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعَل لي مِن لَدُنكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ [الإسراء: ٨٠]. فـ«السلطان النَصير» الذي من لدنه سبحانه: أخص وأقرب مما عنده. ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿واجْعَل لي مِن لَدُنْكَ سُلطاناً نَصِيراً﴾ وهو الذي أيده به. والذي من عنده: نصره بالمؤمنين، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]. و«العلم اللدني» ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له. فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقد سئل «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله عبداً في كتابه: فهذا هو العلم اللدني.

[٢]قال تعالى عن موسى وفَتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف: ٦٥] فجمع له بين الرحمة والعلم، وذلك نظيرُ قولِ أصحابِ الكَهْفِ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّء لَنَا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً﴾ [الكهف: ١٠] فإن الرَّشد هو العلم بما ينفع، والعمل به. والرشَد والهُدى إذا أفرد كلٌّ منهما تضمَّن الآخر. وإذا قُرِنَ أحدهما بالآخر، فالهدى هو العلم بالحقِّ، والرَّشد هو العمل به. وضدهما الغيُّ واتباع الهوى.

وقد يقابل الرَّشد بالضرِّ والشر. قال تعالى: ﴿قُلْ إنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَداً﴾ [الجن: ٢١]. وقال مؤمنو الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لا نَدرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بهم رَبُّهُم رَشَداً﴾ [الجن: ١٠].

فالرشد يقابل الغيَّ، كما في قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذوه سَبيلًا وإن يَرَوا سَبيلَ الْغي يتَّخذوه سَبيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]. ويقابل الضُّرَّ والشر، كما تقدم، وذلك لأن الغي سببٌ لحصول الشرِّ والضُّرِّ ووقوعهما بصاحبه.

---

(١) ٤٧٥ مدارج جـ٢. (٢) ١٦٨ إغاثة جـ٢.

فالضرر والشر غاية الغَي وثمرته، كما أن الرحمة والفلاح غاية الهدى وثمرته.

فلهذا يُقابَل كل منهما بنقيضه وسبب نقيضه، فيقابل الهدى بالضلال، كقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشاء وَيهدي مَنْ يَشاء﴾ [النحل:٩٣] وقوله: ﴿إن تَحرص عَلى هُداهم فإنَّ الله لا يهدي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧] وهو كثير.

ويقابل بالضلال والعذاب. كقوله: ﴿فَمن اتَّبع هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣] فقابل الهدى بالضلال والشقاء.

وجمع ـ سبحانه ـ بين الهدى والفلاح، والهدى والرحمة، كما يجمع بين الضلال والشقاء، والضلال والعذاب، كقوله: ﴿إنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٤٧] فالضلال ضدُّ الهدى، والسعر العذاب، وهو ضدُّ الرحمة.

(١)**وأما** قوله عن الغلام أنه طبع يوم طبع كافراً، فالمراد به أنه كتب كذلك وقدر وختم، فهو من طبع الكتاب. ولفظ الطبع لما صار يستعمله كثير من الناس في الطبيعة التي هي بمعنى الخلقة والجبلة ظن الظان أن هذا مراد الحديث. وهذا الغلام الذي قتله الخضر ليس في القرآن ما يبين أنه كان غير بالغ ولا مكلف، بل قراءة ابن عباس تدل على أنه كان كافراً في الحال، وتسميته غلاماً لا يمنع أن يكون مكلفاً قريب العهد بالصغر. ويدل عليه أن موسى لم ينكر قتله لصغره بل لكونه زاكياً ولم يقتل نفساً. لكن يقال: في الحديث الصحيح ما يدل على أنه كان غير بالغ من وجهين، أحدهما: أنه قال: فمر بصبي يلعب مع الصبيان. الثاني: أنه قال: ولو أدرك لأرهق أبويه طغيانًا وكفراً. وهذا دليل على كونه لم يدرك بعد، فيقال: الكلام على الآية على التقديرين، فإن كان بالغاً وقد كفر فقد قتل على كفره الواقع بعد البلوغ ولا إشكال. وإن كان غير بالغ فلعل تلك الشريعة كان فيها التكليف قبل الاحتلام عند قوة عقل الصبي وكمال تمييزه، وإن لم يكن التكليف قبل البلوغ بالشرائع واقعاً فلا يمتنع وقوعه بالتوحيد ومعرفة الله كما قاله طوائف من أهل الكلام والفقه من أصحاب أبي حنيفة وأحمد وغيرهم. وعلى هذا فيمكن أن يكون مكلَّفاً بالإيمان قبل البلوغ، وإن لم يكن مكلفاً بشرائعه. وكفر الصبي المميز عند أكثر العلماء مؤاخذ به، فإذا ارتد صار مرتداً لكن لا يقتل حتى يبلغ.

(١) ٢٩٥ شفاء.

فالغلام الذي قتله الخضر إما أن يكون كافراً بعد البلوغ فلا إشكال، وإما أن يكون غير بالغ وهو مكلف في تلك الشريعة فلا إشكال أيضًا. وأما أن يكون مكلفًا بالتوحيد والمعرفة غير مكلف بالشرائع فيجوز قتله في تلك الشريعة.

وإما أن لا يكون مكلفًا فقتل لئلا يفتتن أبويه عن دينهما، كما يقتل الصبي الكافر في ديننا إذا لم يندفع ضرره عن المسلمين إلا بالقتل.

وأما قتل صبي لم يكفر بعد بين أبوين مؤمنين للعلم بأنه إذا بلغ كفر وفتن أبويه، فقد يقال: ليس في القرآن ولا في السنة ما يدل عليه. وأيضًا فإن الله لم يأمر أن يعاقب أحد بما يعلم أنه يكون منه قبل أن يكونه منه، ولا هو سبحانه يعاقب العباد على ما يعلم أنهم سيفعلونه حتى يفعلونه.

وقائل هذا القول يقول: إنه ليس في قصة الخضر شيء من الإطلاع على الغيب الذي لا يعلمه عموم الناس، وإنما فيها علمه بأسباب لم يكن علم بها موسى، مثل علمه بأن السفينة لمساكين يعملون وراءهم ملك ظالم، وهذا أمر يعلمه غيره. وكذلك كون الجدار كان لغلامين يتيمين وأن أباهما كان رجلاً صالحًا، وأن تحته كنزًا لهما، مما يمكن أن يعلمه كثير من الناس، وكذلك كفر الصبي مما يمكن أنه كان يعلمه كثير من الناس حتى أبوايه، لكن لحبهما له لا ينكران عليه أو لا يقبل منهما. فإن كان الأمر على ذلك فليس في الآية حجة على قولهم أصلاً، وأن ذلك الغلام لم يكفر بعد، ولكن سبق في العلم أنه إذا بلغ كفر، فمن يقول هذا يقول إن قتله دفعًا لشره، كما قال نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

وعلى هذا فلم يكن قبل قيام الكفر به كافرًا. وقراءة ابن عباس، وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين، ظاهرة أنه كان حينئذ كافرًا، فإن قيل: فهذا الغلام كان أبواه مؤمنين، فلو كان مولودًا على فطرة الإسلام وهو بين أبوين مسلمين لكان مسلمًا تبعًا لهما وبحكم الفطرة، فكيف يقتل والحالة هذه. قيل: إن كان بالغًا فلا إشكال، وإن كان مميزًا وقد كفر فيصح كفره وردته عند كثير من العلماء، وأن لا يقتل حتى يبلغ عندهم فلعل في تلك الشريعة يجوز قتل المميز الكافر. وإن كان صغيراً غير مميز فيكون قتله خاصًا به لأن الله أطلع الخضر على أنه لو بلغ لاختار

غير دين الأبوين. وعلى هذا يدل قول ابن عباس لنجدة وقد سأله عن قتل صبيان الكفار فقال: لئن علمت فيهم ما علمه الخضر من الغلام فأقتلهم. فإن قيل: إذا كان مولودًا على الفطرة وأبواه مؤمنين فمن أين جاء الكفر؟ قيل: إنما قال النبي ﷺ ذلك في الغالب، وإلا فالكفر قد يأتيه من قبل غير أبويه. فهذا الغلام إن كان كافرًا في الحال فقد جاء الكفر من غير جهة أبويه. وإن كان المراد أنه إذا بلغ سيكفر باختياره فلا إشكال. . .

(1) **قال** ـ تعالى ـ عن ذي القرنين: ﴿**وآتيناه من كل شيء سببًا**﴾ [الكهف: ٨٤]. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: علمًا، قال قتادة وابن زيد وابن جريج والضحاك: علمًا تسبب به إلى ما يريد، وكذلك قال إسحاق: علمًا يوصله إلى حيث يريد، وقال المبرد: وكل ما وصل شيء بشيء فهو سبب. وقال كثير من المفسرين: آتيناه من كل ما بالخلق إليه حاجة علمًا ومعونة له. وقد سمى الله ـ سبحانه ـ الطريق سببًا في قوله: ﴿**فَأَتْبَعَ سَبَبًا**﴾ [الكهف: ٨٥]. قال مجاهد: طريقًا. وقيل: السبب الثاني هو الأول، أي اتبع سببًا من تلك الأسباب التي أوتيها مما يوصله إلى مقصوده. وسمّى ـ سبحانه ـ أبواب السماء أسبابًا إذ منها يدخل إلى السماء، قال ـ تعالى ـ عن فرعون: ﴿**لَعَلِّي أَبْلُغُ الأسبَابَ * أَسْبَابَ السَّموَاتِ**﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. أي أبوابها التي أدخل منها إليها وقال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وسمّي الحبل سببًا لإيصاله إلى المقصود. قال تعالى: ﴿**فليَمْدُد بسبب إلى السماء**﴾ [الحج: ١٥]. قال بعض أهل اللغة: السبب من الحبال: القوي الطويل، قال: ولا يدعى الحبل سببًا حتى يصعد به وينزل، ثم قيل لكل شيء وصلت به إلى موضع أو حاجة تريدها سبب، يقال: ما بيني وبين فلان سبب أي آصرة رحم، أو عاطفة مودة.

وقد سمّىٰ ـ تعالى ـ وصل الناس بينهم أسبابًا وهي التي يتسببون بها إلى قضاء حوائجهم بعضهم من بعض، قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذابَ وَتَقَطَّعت بِهِم الأسبابُ**﴾ [البقرة: ١٦٦]. يعني الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا، وقال ابن عباس وأصحابه: يعني أسباب المودة الواصلات

(١) ١٨٩ شفاء.

التي كانت بينهم في الدنيا، وقال ابن زيد: هي الأعمال التي كانوا يؤملون أن يصلوا بها إلى ثواب الله. وقيل: هي الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها. وبالجملة فسمى الله - سبحانه - ذلك كله أسبابًا لأنها كانت يتوصل بها إلى مسبباتها، وهذا كله عند نفاة الأسباب مجاز لا حقيقة له، وبالله التوفيق.

(١)**قال** تعالى: ﴿**وَعَرَضْنَا جهنم يومئذٍ للكَافِرين عرْضًا * الذين كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذِكري وكَانوا لا يستطيعُون سَمْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٠، ١٠١]. وهذا يتضمن معنيين أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده وعجائب قدرته، والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولاً ثم يسري منه إلى العين.

(٢)**قال** تعالى في وصف المغترين: ﴿**قل هل نُنبئُكم بالأخسرِينَ أعْمالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهم في الحَياة الدُّنيا وهم يحسبونَ أنَّهم يُحسنُون صُنْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شيء ﴿**وَبَدَا لَهُم مِن الله مَا لَمْ يَكُونُوا يَحتَسِبُونَ**﴾ [الزمر: ٤٧]. وفي أثر معروف: إذا رأيت الله - سبحانه - يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره فإنما هو استدراج يستدرجك به. وشاهد هذا في القرآن في قوله - تعالى -: ﴿**فلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا به فتَحْنَا عَلَيهم أبوَاب كُلِّ شيءٍ حَتَّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أخذْنَاهم بَغْتَةً فإذَا هُم مُبْلسون**﴾ [الأنعام: ٤٤].

وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه، وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور، وطبع النفس الأمارة الاغترار، فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحتاج، والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف. فالشياطين غروا المغترين بالله وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل فأُخذوا على أسوأ أحوالهم وقال - تعالى -: ﴿**وَغَرَّتكُم الأماني حَتَّى جَاءَ أمْرُ اللهِ وَغرَّكُم بالله الغَرُورُ**﴾ [الحديد: ١٤] وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ وَعد الله حقٌّ فَلَا تَغرنَّكُم الحياةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم باللهِ الغَرُورُ**﴾ [فاطر: ٥].

(١) ٩٣ شفاء. (٢) ٢٩٨ الروح.

وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسّه الله برحمة منه وفضل ﴿قَالَ هَذا لِي﴾ أي: أنا أهله وجدير به ومستحق له، ثم قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعة قَائِمَةً﴾ فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله ثم زاد في غروره فقال: ﴿وَلَئِن رُّجِعتُ إلى رَبِّي إنَّ لي عِنده لَلحُسنَى﴾ [فصلت: ٥٠]. يعني الجنة والكرامة، فهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

(١)**وسئل** ﷺ عن الأخسَرين أعمالاً يوم القيامة، فقال: «**هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا إلى من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم**»

(٢)﴿**قل لو كانَ البَحْرُ مِدادًا لِكَلِمات رَبِّي لَنَفِدَ البحرُ قبلَ أن تَنفدَ كلماتُ ربِّي ولو جِئْنَا بِمِثْلِه مَدَدًا**﴾ [الكهف: ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿**وَلَو أن ما في الأرضِ من شجرة أقلامٌ والبَحرُ يَمُدُّه مِن بعده سبعةُ أبحُرٍ ما نَفِدَت كلِماتُ اللهِ إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعنى هذا: أنه لو فُرِض البحرُ مِدادًا(٣)، وبعده سبعة أبحر تُمده كلُّها مِدادًا، وجميع أشجار الأرض أقلامًا، وهو ما قام منها على ساقٍ من النبات، والأشجار المثمرة وغير المثمرة، وتَستمد بذلك المِداد، لَفنِيتْ البحارُ والأقلامُ، وكلماتُ الرَّب لا تفنَى ولا تَنْفَد. فسبحان الله وبحمده عدد خَلْقِه، ورِضا نَفْسِه، وزِنَةَ عَرْشِه، ومِداد كلماته.

فأين هذا مِن وصف من يصفه بأنه ما تكلَّم ولا يتكلَّم، ولا يقوم به كلامٌ أصلًا؟ وَقَولِ من وصَفَ كلامَه بأنه معنى واحد، لا ينقضي ولا يتجزَّأ، ولا له بعضٌ ولا كُلٌّ ولا هو سور وآيات ولا حروف وكلمات.

(٤)**قال** تعالى: ﴿**قُل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي**﴾ [الكهف: ١١٠]. أي كما أنه إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية. فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء، المقيد بالسنة. وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا. واجعله

(١) ٣٩٩ أعلام جـ٤.
(٢) ٣٧ المنار المنيف.
(٣) أي حبرًا يكتب به.
(٤) ١٧٦ الجواب الكافي.

لوجهك خالصًا. ولا تجعل لأحد فيه شيئًا».

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله ـ سبحانه ـ إنما أمر بعبادته خالصة قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾ [البينة: ٥]. فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول الله ـ تعالى ـ: «**أنا أغنى الشركاء** عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء».

وهذا الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر، ومغفور وغير مغفور. والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقًا كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال ـ سبحانه ـ فيه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا**﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: ﴿**تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. ومعلوم أنهم ماسووهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع.

(١) **وقال** ﷺ: «**اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل**». فقيل له: كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يارسول الله؟ فقال: «**قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم**» ذكره أحمد.

وقال ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف على أمّتي الشرك الأصغر**» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُرَاءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟**» ذكره أحمد.

(٢) **الوجه** الثالث والسبعون: أن العلم إمام العمل، وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به. فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديًا به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه. كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح. والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له،

(١)

(٢) ٨٢ مفتاح جـ١.

فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المحك. قال ـ تعالى ـ: ﴿الَّذي خَلَقَ الموتَ وَالحَياةَ لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُم أحسَنُ عَملاً وهو العزيزُ الغفُورُ﴾ [الملك:٢]. قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه. قالوا: ياأبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص أن يكون لله. والصواب أن يكون على السنة. وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرجُو لِقَاءَ رَبِّه فليَعمَلْ عَمَلاً صالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعبَادَةِ رَبِّهِ أحدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. هذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقًا لسنة رسول الله ﷺ مرادًا به وجه الله. ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم؛ فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده. وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده. فلولا العلم لما كان عمله مقبولاً، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة. وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إنَّما يَتقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]. وأحسن ما قيل في تفسير الآية أنه: إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل. وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم. وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه عُلِمَ أنه أشرف شيء وأجله وأفضله، والله أعلم.

(١)**والأعمال** أربعة: واحد مقبول، وثلاثة مردودة؛ فالمقبول ما كان لله خالصًا وللسنة موافقًا، والمردود ما فقد منه الوصفان أو أحدهما، وذلك أن العمل المقبول هو ما أحبه الله ورضيه، وهو ـ سبحانه ـ إنما يحب ما أَمَرَ به وما عُمِلَ لوجهه، وما عدا ذلك من الأعمال فإنه لا يحبها، بل يمقتها ويمقت أهلها، قال ـ تعالى ـ: ﴿الذِي خَلَقَ المَوتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَملاً﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: هو أَخْلَصُ العمل وأَصْوَبه، فسئل عن معنى ذلك، فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا؛ فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرجُو لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَل عَملاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِك بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحدًا﴾.

فإن قيل: فقد بَانَ بهذا أن العَمل لغير الله مردود غير مقبول، والعمل لله وحده مقبول؛ فبقي قسم آخر وهو أن يعمل العمل لله ولغيره، فلا يكون لله مَحْضًا ولا للناس محضًا، فما حكم هذا القسم؟ هل يبطل العمل كله أم يبطل ما كان لغير الله ويصح ماكان لله؟

قيل: هذا القسم تحته أنواع ثلاثة؛ أحدها: أن يكون الباعث الأول على العمل هو الإخلاص، ثم يعرض له الرياء وإرادة غير الله في أثنائه، فهذا المعول فيه على الباعث الأول ما لم يفسخه بإرادة جازمة لغير الله، فيكون حكمه حكم قطع النية في أثناء العبادة وفسخها، أعني قطع ترك استصحاب حكمها. الثاني: عكس هذا، وهو أن يكون الباعث الأول لغير الله، ثم يعرض له قلب النية لله، فهذا لا يحتسب له بما مَضَى من العمل، ويحتسب له من حين قَلَبَ نيته؛ ثم إن كانت العبادة لا يصح آخرها إلا بصحة أولها وجبت الإعادة، كالصلاة، وإلا لم تجب كمن أحرم لغير الله ثم قلب نيته لله عند الوقوف والطواف. الثالث: أن يبتدئها مُريدًا بها الله والناس، فيريد أداء فَرضه والجزاء والشكور من الناس، وهذا كمن يصلِي بالأجرة، فهو لو لم يأخذ الأجرة صلى، ولكنه يصلي لله وللأجرة، وكمن يحج ليسقط الفرض عنه ويقال فلان حج، أو يعطي الزكاة كذلك؛ فهذا لا يقبل منه العمل. وإن كانت النية شرطًا في سقوط الفرض وجبت عليه الإعادة، فإن حقيقة الإخلاص التي هي شرط في صحة العمل والثواب عليه لم توجد، والحكم المعلق بالشرط عَدَمَ عند عَدَمه، فإن الإخلاص هو تجريد القَصْد طَاعةً للمعبود، ولم يؤمر إلا بهذا. وإذا كان هذا هو المأمور به فلم يأت به بقي في عهدة الأمر؛ وقد دلت السنة الصريحة على ذلك كما في قوله ﷺ: **«يقول الله - عز وجل - يوم القيامة: أنا أغْنَى الشركاء عن الشرك، فَمَنْ عَمل عَملاً أشْرَكَ فيه غيري فهو كله للذي أشرك به»**. وهذا هو معنى قوله - تعالى -: **﴿فَمَنْ كَانَ يَرجُو لِقَاء رَبِّه فَلْيَعْمَل عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِك بِعبَادَةِ رَبِّه أحدًا﴾** [الكهف: ١١٠].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الكهف

والحمد لله رب العالميـن



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قول** زكريا ﴿وَلم أَكُنْ بِدعائِك ربِّ شَقيًّا﴾ [مريم: ٤]، فقد قيل إنه دعاء المسألة، والمعنى إنك عودتني إجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان. فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه.

كما حكى أن رجلاً سأل رجلاً وقال: أنا الذي أحسنت إلى وقت كذا وكذا فقال: مرحبًا بمن توسل الينا بنا، وقضى حاجته. وهذا ظاهر ههنا.

ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله.

(٢)**قول** زكريا عليه الصلاة والسلام ﴿وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امْرأتي عاقِرًا فهب لي مِن لدُنك وليًّا * يَرثُني ويرثُ من آل يَعْقوبَ واجعله ربِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥،٦]. فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله، وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله فيسأل الله العظيم ولدًا يمنعهم ميراثه ويكون أحق به منهم.

وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله، فبعدًا لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه، ونسب الأنبياء إلى ماهم برآء منزهون عنه. والحمد لله على توفيقه وهدايته.

ويذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مر بالسوق فوجدهم في تجاراتهم وبيوعاتهم فقال: أنتم ههنا فيما أنتم فيه وميراث رسول الله، ﷺ يقسم في مسجده؟ فقاموا سراعًا إلى المسجد لم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر ومجالس العلم فقالوا: أين ما قلت ياأباهريرة؟ فقال: هذا ميراث محمد ﷺ يقسم بين ورثته وليس بمواريثكم ودنياكم أو كما قال.

(٣)**فصل** وأما الحنين فقال [في الصحاح]: الحنين الشوق وتوقان النفس، تقول منه: حنَّ إليه يحن حنينًا، فهو حان، والحنان الرحمة، تقول منه: حنَّ عليه يحن

---

(١) ٤ البدائع جـ٢.	(٢) ٦٧ المفتاح جـ١.	(٣) ٤٥ الروضة.

حنانًا، ومنه قوله تعالى ﴿وحنانًا من لدنًّا﴾ [مريم: ١٣]. وتحنن عليه ترحم، والعرب تقول: حنانك يا رب وحنانيك بمعنى واحدٍ أي رحمتك. قال امرؤُ القيس:

ويمنحُهـا بنـو شَمَجى بن جَرْمٍ معيزهم حنانَك ذا الحنان[1]. . .

[2]**وأما** السؤال الثالث عشر وهو ما السر في كونه سلم عليهم بلفظ النكرة وشرع لعباده أن يسلموا على رسوله بلفظ المعرفة؟ وكذلك تسليمهم على نفوسهم وعلى عباده الصالحين، فقد تقدم بيان الحكمة في كون السلام ابتداء بلفظ النكرة.

ونزيد هنا فائدة أخرى وهي أنه قد تقدم أن في دخول اللام في السلام أربع فوائـد وهـذا المقام مستغن عنها؛ لأن المتكلم بالسلام هو الله تعالى فلم يقصد تبركًـا بذكـر الاسم كما يقصده العبد. فإن التبرك استدعاء البركة واستجلابها، والعبد هو الذي يقصد ذلك، ولا قصد أيضًا تعرضًا وطلبًا على ما يقصده العبد، ولا قصد العموم، وهو أيضًا غير لائق هنا؛ لأن سلامًا منه سبحانه كاف من كل سلام، ومغن عن كل تحيةٍ، ومقرب من كل أمنية، فأدنى سلام منه ـ ولا أدنى ـ هناك يستغرق الوصف، ويتم النعمة ويدفع البؤس، ويطيب الحياة، ويقطع مواد العطب والهلاك. فلم يكن لذكر الألف واللام هناك معنى.

[3]**وقـد** بان بهذا الفـرق بين سلام الله على رسله وعبـاده وبين سلام العباد عليهم؛ فإن سلام العباد لما كان متضمنًا لفوائد الألف واللام التي تقدمت من قصد التبرك باسمه السلام، والإشارة إلى طلب السلام له وسؤالها من الله باسم السلام، وقصد عموم السلام كان الأحسن في حق المسلِّم على الرسول أن يقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وإن كان قد ورد سلام عليك فالمعرفة أكثر وأصح وأتم معنى، فلا ينبغي العدول عنه ويشح في هذا المقام بالألف واللام والله أعلم.

وقد عرفت بهذا جواب السؤال الرابع عشر وهو ما الحكمة في تسليم الله تعالى على يحيى بلفظ النكرة، وتسليم المسيح على نفسه بلفظ المعرفة.

---

(١) قال في اللسان ما خلاصته: يمنحها رواية الأصمعي أي يعطيها ورواه ابن الأعرابي ويمنعها فرواية الأصمعي تشكر وحمد ودعاء لهم، ورواية ابن الأعرابي تسخط وذم.

(٢) ١٦٦ البدائع جـ٢.   (٣) ١٦٧ البدائع جـ٢.

لا ما يقوله مَن لا تحصيل له أن سلام يحيى جرى مجرى ابتداء السلام في الرسالة والمكاتبة فنكر، وسلام المسيح جرى مجرى السلام في آخر المكاتبة فعرف؛ فإن السورة كالقصة الواحدة. ولا يخفى فساد هذا الفرق فإنهما سلامان متغايران من مسَلِّمين. أحدهما سلام الله تعالى على عباده. والثاني سلام العبد على نفسه فكيف يبنى أحدهما على الآخر.

وكذلك قول من قال: إن الثاني عُرِّف لتقدم ذكره في اللفظ فكانت الألف واللام فيه للعهد، وهذا أقرب من الأول؛ لإمكان أن يكون المسيح أشار إلى السلام الذي سلمه الله على يحيى، فأراد أن لي من السلام في مثل هذه المواطن الثلاثة مثل ما حصل له. والله أعلم.

وأما السؤال الخامس عشر وهو ما الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة؟ فسره والله أعلم أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة. وكلما كان الموضع مظنة ذلك تأكد طلب السلامة وتعلقت بها الهمة، فذكرت هذه المواطن الثلاثة لأن السلامة فيها آكد وطلبها أهم، والنفس عليها أحرص لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقرًّا فيها موطن النفس على صحبتها وسكناها إلى دار هو فيها معرض للآفات والمحن والبلاء، فإن الجنين من حين خرج إلى هذه الدار انتصب لبلائها وشدائدها ولأوائها ومحنها وأفكارها كما أفصح الشاعر بهذا المعنى حيث يقول:

تأمل بكاء الطفل عند خروجه ... إلى هذه الدنيا إذا هو يولد
تجد تحته سرًّا عجيبًا كأنه ... بكل الذي يلقاه منها مهدد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد

ولهذا من حين خرج ابتدرته طعنة الشيطان في خاصرته فبكى لذلك، ولما حصل له من الوحشة بفراق وطنه الأول، وهو الذي أدركه الأطباء والطبائعيون.

وأما ما أخبر به الرسول ﷺ فليس في صناعتهم ما يدل عليه، كما ليس فيها ما ينفيه، فكان طلب السلامة في هذه المواطن من آكد الأمور.

الموطن الثاني خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت. ونسبة الدنيا

إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريبًا وتمثيلاً، وإلا فالأمر أعظم من ذلك وأكبر. وطلب السلامة أيضًا عند انتقاله إلى تلك الدار من أهم الأمور.

الموطن الثالث موطن يوم القيامة، يوم يبعث الله الأحياء، ولا نسبة لما قبله من الدور إليه، وطلب السلامة فيه آكد من جميع ما قبله؛ فإن عطبه لا يستدرك، وعثرته لا تقال، وسقمه لا يداوي، وفقره لا يُسد. فتأمل كيف خص هذه المواطن بالسلام لشدة الحاجة إلى السلامة فيها، واعرف قدر القرآن وما تضمنه من الأسرار وكنوز العلم والمعارف التي عجزت عقول الخلائق عن إحصاء عشر معشارها.

وتأمل ما في السلام مع الزيادة على السلامة من الأنس وذهاب الوحشة، ثم نزل ذلك على الوحشة الحاصلة للعبد في هذه المواطن الثلاثة عند خروجه إلى عالم الابتلاء، وعند معاينته هول المطلع إذا قدم على الله وحيدًا مجردًا عن كل مؤنس إلا ما قدمه من صالح عمل، وعند موافاته القيامة مع الجمع الأعظم ليصير إلى إحدى الدارين التي خلق لها واستعمل بعمل أهلها، فأي موطن أحق بطلب السلامة من هذه المواطن؟ فنسأل الله السلامة فيها بمنه وكرمه ولطفه وجوده وإحسانه.

(١)**قال** الله تعالى لمريم ﴿**وهُزِّي إليكِ بِجِذْعِ النَّخْلةِ تُساقِطْ عَلَيكِ رُطباً جَنيًّا * فَكُلي وَاشرَبي وقَرِّي عَيْنا**﴾ [مريم، ٢٥، ٢٦].

وفي الصحيحين عن عبدالله بن جعفر قال: «رأيت رسول الله ﷺ يأكل القثاء بالرطب».

وفي سنن أبي داود عن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم تكن رطبات فتمرات. فإن لم تكن تمرات حسا حَسَوات من ماء».

طبع الرطب: طبع المياه: حار رطب، يقوى المعدة الباردة ويوافقها، ويزيد في الباه ويخصب البدن، ويوافق أصحاب الأمزجة الباردة، ويغذو غذاء كثيرًا. وهو من أعظم الفاكهة موافقة لأهل المدينة وغيرها من البلاد التي هو فاكهتهم فيها، وأنفعها للبدن، وإن كان من لم يعتده يسرع التعفن في جسده، ويتولد عنه دم ليس بمحمود، ويحدث له من إكثاره منه صداع وسوداء، ويؤذي أسنانه. وإصلاحه: بالسكنجبين ونحوه.

---

(١) ٣٤٩ الزاد جـ٣.

وفي فطر النبي ﷺ، من الصوم عليه، أو على التمر، أو الماء: تدبير لطيف جدًّا؛ فإن الصوم يخلي المعدة من الغذاء، فلا تجد الكبد فيها ما تجذبه وترسله إلى القوى والأعضاء. والحلو أسرع شيء وصولاً إلى الكبد، وأحبه إليها، ولا سيما إن كان رطبا، فيشتد قبولها له، فتنتفع به هي والقوى. فإن لم يكن فالتمر، لحلاوته وتغذيته. فإن لم يكن فحسوات الماء: تطفيء لهيب المعدة، وحرارة الصوم، فتتنبه بعده للطعام وتأخذه بشهوة.

(١)فائدة عزيزة الوجود

احتج المعتزلة على مخلوقية القرآن بقوله تعالى ﴿**خَالِقُ كلِّ شيَءٍ**﴾ [الزمر: ٦٢]. ونحو ذلك من الآيات. **فأجاب** الأكثرون بأنه عام مخصوص يخص محل النزاع كسائر الصفات من العلم ونحوه. **قال** ابن عقيل في الإرشاد: ووقع لى أن القرآن لا يتناوله هذا الإخبار ولا يصلح لتناوله.

قال: لأن به حصل عقد الإعلام بكونه خالقًا لكل شيء، وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلاً تحت الخبر. قال: ولو أن شخصًا قال: لا أتكلم اليوم كلامًا إلا كان كذبًا لم يدخل إخباره بذلك تحت ما أخبر به.

(قلت) ثم تدبرت هذا فوجدته مذكورًا في قوله تعالى في قصة مريم: ﴿**فَإِمَّا تَرِينَّ مِنَ البشَرِ أحـدًا فقُـولي إِني نَذَرتُ للرَّحمن صَومًا فَلن أُكَلِّم اليومَ إِنْسيًّا**﴾ [مريم، ٢٦]. وإنما أمرت بذلك لئلا تسأل عن ولدها فقولها ﴿**فَلَن أُكلِّم اليوم إنسيًّا**﴾ به حصل إخبار بأنها لا تكلم الانس، ولم يكن ما أخبرت به داخلاً تحت الخبر وإلا كان قولها هذا مخالفًا لنذرها.

(٢)**وسئل** ﷺ عن قولـه تعالى: ﴿**يَا أُخْتَ هَارُون**﴾ [مريم: ٢٨] وبين عيسى وموسى عليهما السلام مابينهما، فقال: «**كانوا يسمون بأنبيائهم، وبالصالحين قبلهم**».

(٣)**قوله** سبحانه عن المسيح أنه قال: ﴿**إنِّي عَبدُ الله آتَاني الكِتَابَ وَجَعَلني نَبيًا**

(١) ٢١٨ البدائع جـ٤. (٢) ٢٧١ الإعلام جـ٤. (٣) ١٧٤ المفتاح جـ١.

وَجَعلني مبـاركًا أَيْنما كُنتُ ﴾ [مريم، ٣٠، ٣١]. قال سفيانَ بن عيينة: ﴿وجَعلني مباركًا أينما كنت﴾ قال: معلما للخير.

وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه؛ فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمـه ولهـذا سمى سبحـانه كتابه مباركًا كما قال تعالى: ﴿وَهَذا ذِكرٌ مباركٌ أنزلناه﴾ [الأنبياء، ٥٠]. وقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزلناهُ إليك مُبارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]. ووصف رسوله بأنه مبارك كما في قول المسيح: ﴿وَجَعَلني مُباركًا أَيْنما كُنْتُ﴾ فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله.

(١)**وقال** المسيح: ﴿وجَعَلني مُباركًا أينما كنتُ﴾. قال غير واحد من السلف: معلمًا للخير أينما كنت. وهذا جزء المعنى؛ فالمبارك كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليمًا وإقدرًا ونصحًا وإرادة واجتهادًا. ولهذا يكون العبد مباركًا لأن الله بارك فيه وجعله كذلـك. والله تعـالى متبارك لأن البركة كلها منه، فعبده المبارك وهو المتبارك ﴿تبارَكَ الَّذي نَزَّل الفُرقانَ على عَبده ليكونَ لِلعالمين نَذيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿تَبارَكَ الذي بِيَدهِ الملكُ وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِير﴾ [الملك: ١]. وسنعود إلى هذا المعنى عن قريب إن شاء الله تعالى.

. . .(٢)**أمر** الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعًا وعقلاً وعرفًا؛ ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه وهكذا كان النبي، ﷺ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل: وتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون ﴿هل لك الى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض. لا مخرج الأمر وقال ﴿إلىٰ أن تَزكَّى﴾ ولم يقل إلى أن أزكيك فنسب الفعل اليه هو وذكر لفظ التـزكي دون غيره لما فيه من الـبركة والخير والنماء ثم قال: ﴿وَأَهديَكَ إلىٰ رَبِّـكَ﴾. أكـون كالـدليل بين يديك الذي يسير أمامك، وقال: ﴿إلى ربك﴾ استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيراً ويافعًا وكبيراً. وكذلك

---

(١) ٩٠ جلاء الأفهام. (٢) ١٣٢ البدائع جـ٣.

قول إبراهيم الخليل لأبيه ﴿يَآأبتِ لِمَ تَعبُدُ مالا يَسمَعُ ولاَ يُبصِرُ ولا يُغني عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]. فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: ﴿لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا﴾ ولم يقل لا تعبد ثم قال: ﴿يَا أبتِ إني قد جَاءني مِنَ العِلمِ ما لم يَأتِكَ﴾ [مريم:٤٣]. فلم يقل له إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال: ﴿جَاءَني مِنَ العِلْمِ ما لم يَأتِكَ﴾. ثم قال: ﴿فَاتَّبِعني أَهدِكَ صِراطًا سَويًا﴾ [مريم:٤٣]. وهذا مثل قول موسى لفرعون: ﴿وأَهديك إلى رَّبك﴾. ثم قال: ﴿يا أَبَتِ إِنِّي أخافُ أن يَّمسَّكَ عذابٌ مِنَ الرَّحمٰن فَتَكونَ للشَّيطان وَلِيًّا﴾ [مريم:٤٥]. فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه. وقال: ﴿يمسك﴾ فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن ولم يقل الجبار ولا القهار. فأي خطاب ألطف وألين من هذا.

ونظير هذا خطاب صاحب يس لقومه حيث قال: ﴿يَاقَوم اتَّبِعُوا المُرسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لا يَسأَلُكُم أَجرًا وَهُمْ مُّهتَدُون * وَماليَ لاَ أعبدُ الَّذي فَطَرَني وَإليهِ تُرجَعُون﴾ [يس: ٢٠-٢٢]. ونظير ذلك قول نوح لقومه: ﴿يا قوم إنِّي لكم نذيرٌ مبين * أَنِ اعبُدُوا الله واتَّقُوهُ وأطيعونِ * يَغفِر لَكم مِن ذُنوبكم وَيُؤَخِّركم إلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [نوح:٢-٤]. وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب وألطفه، بل خطاب الله لعباده ألطف خطاب وألينه كقوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الناسُ اعبدُوا ربَّكمُ الذي خَلَقَكُم والَّذين مِنَ قَبلِكُم﴾ [البقرة:٢١]. الآيات. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيها النَّاسُ ضُرِبَ مثلٌ فاستمعوا له إنَّ الذين تدعُون من دونِ الله لَنْ يخلقُوا ذُبابًا ولو اجتمعُوا له﴾[الحج:٧٣]. وقوله: ﴿يا أيُّها الناسُ إنَّ وعدَ الله حقٌ فلا تَغرنَّكم الحيَاةُ الدُنيا ولا يَغرنَّكم بالله الغَرورُ﴾ [فاطر:٥]. وتأمل ما في قوله تعالى: ﴿وإذ قُلنا للمَلائكة اسجُدوا لآدَمَ فَسَجَدوُا إلاَّ إبليَس كانَ مِن الجنِّ فَفَسَق عن أمرِ ربِّه أَفَتَتَّخِذونه وذُريته أولياءَ مِن دُوني وَهُم لَكم عَدُوٌ بئس للظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف:٥٠]. من اللطف الذي سلب العقول. وقوله ﴿أَفَنَضرِبُ عنكم الذِّكرَ صَفْحاً أن كُنتُم قومًا مُّسرفين﴾ [الزخرف:٥]. على

أحد التأويلين أي نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم. وتأمل لطف خطاب نُذر الجن لقومهم وقولهم ﴿ياقَومَنا أجِيبوا دَاعِيَ الله وآمِنوا بِهِ يَغفر لَكم من ذُنُوبِكم وَيجِركُم من عَذَابٍ أليمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

...[1]**وأما** لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه[2] ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء بالكذب. كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه ﴿وَجَعَلنا لَهم لسانَ صِدقٍ عَليًّا﴾ [مريم: ٥٠]. والمراد باللسان هٰهنا: الثناء الحسن. فلما كان الصدق باللسان، وهو محله، أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاء وفاقًا، وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا.

واللغة. كقوله تعالى: ﴿وما أَرسَلنا مِن رَّسُولٍ إلاَّ بِلسَانِ قَومِهِ لِيبُينَّ لهُم﴾ [إبراهيم: ٤]. وقوله: ﴿واختِلافُ أَلسِنَتِكُم وأَلوانِكُم﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ [النحل: ١٠٣]. وهذا لسان عربي مبين.

ويراد به الجارحة نفسها. كقوله تعالى: ﴿لاَ تُحرِّك بِهِ لِسانَكَ لِتعجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦].

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة. وفسر بمحمد ﷺ. وفسر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة «القدم» ما قدموه. وما يقدمون عليه يوم القيامة. وهم قَدَّموا الأعمال والإيمان بمحمد، ﷺ، ويُقْدِمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

فمن فسره بها أراد: ما يَقْـدُمون عليه. ومن فسره بالأعمال وبالنبي، ﷺ: فلأنهم قدموها. وقدموا الإيمان به بين أيديهم. فالثلاثة قَدَم صدق.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى[3].

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته؛ فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله. فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضار. وماللباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل.

---

(١) ٢٧٢ المدارج جـ٢. (٢) الضمير يرجع إلى إبراهيم ﷺ بدعوته في سورة الشعراء.

(٣) تقدم في سورة الإسراء بحث موسع حول هذا على قوله تعالى: ﴿وقل رب ادخلني مدخل صدق﴾ الآية.

ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه. ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما في الترمذي - مرفوعًا - من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: «**الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»...

(١)**قال** الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن عبدالكريم بن معقل بن منبه حدثنا عبدالصمد قال سمعت وهب بن منبه قال: لما رأى موسى النار انطلق يسير حتى وقف منها قريبًا. فذكر الحديث إلى أن قال: فنودي من الشجرة فقيل له: ياموسى. فأجاب سريعًا ولا يدري من دعاه، وما كان سرعة جوابه إلا استئناسًا بالأنس، فقال: لبيك مرارًا، إني أسمع صوتك وأحس وجْسَك ولا أرى مكانك. فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك. فلما سمع موسى هذا علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربه تبارك وتعالى فأيقن به، فقال: كذلك أنت إلهي أسمع أم كلام رسولك فقال: بل أنا الذي أكلمك فادن مني، الحديث قد رواه عبد بن حميد في تفسيره ويعقوب بن سفيان الفسوي.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبدًا نادى جبرائيل أن الله قد أحب فلانا فأحبه**» الحديث والذي تعقله الأمم من النداء إنما هو الصوت المسموع. كما قال تعالى: ﴿**واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب**﴾(٢).

(٣)**المثال** العاشر: مما يظن أنه مجاز وليس بمجاز لفظ النداء الإلهي: وقد تكرر في الكتاب والسنة تكرارًا مطردًا في محاله متنوعًا تنوعًا يمنع حمله على المجاز.

فأخبر تعالى أنه نادى الأبوين في الجنة، ونادى كليمه، وأنه ينادي عباده يوم القيامة.

وقد ذكر سبحانه النداء في تسعة مواضع في القرآن أخبر فيها عن ندائه بنفسه.

ولا حاجة إلى أن يقيد النداء بالصوت فإنه بمعناه وحقيقته باتفاق أهل اللغة، فإذا انتفى الصوت انتفى النداء قطعًا ولهذا جاء إيضاحه في الحديث الصحيح(٤).

---

(١) ٢٨٤ الصواعق جـ٢.

(٢) تكملة البحث في سورة (ق) حول هذه الآية وغيرها (خ).

(٣) ٢٧٧ الصواعق جـ٢.

(٤) بحث المؤلف فيما يلي بحثًا واسعًا في الموضوع ممتعًا لطالب الحق. فراجعه. (ج).

(١)**وذكر** جرير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال كنا جلوسًا إلى كعب والربيع بن خثيم وخالد بن عرعرة في إناس فجاء ابن عباس فقال: هذا ابن عم نبيكم قال: فأوسع له فجلس فقال: ياكعب كل ما في القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء فأخبرني عنهن، ما سجين، وماعليون، وما سدرة المنتهى، وما قول الله لإدريس ﴿**وَرَفَعناهُ مَكَانًا عَلِيًّا**﴾ [مريم: ٥٧].

قال: أما عليون فالسماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. وأما سجين فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار تحت جند إبليس. وأما قول الله سبحانه لإدريس ﴿**وَرَفَعناه مَكَانًا عَلِيًّا**﴾. فأوحى الله إليه إني رافع لك كل يوم مثل أعمال بني آدم، وكلم صديقًا له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت فيؤخره حتى يزداد عملاً فحمله بين جناحيه فعرج به حتى إذا كان في السماء الرابعة لقيه ملك الموت فكلمه في حاجته فقال: وأين هو؟ قال هو ذا بين جناحي قال: فالعجب إني أمرت أن أقبض روحه في السماء الرابعة فقبض روحه.

وأما سدرة المنتهى فإنها سدرة على رؤوس حملة العرش ينتهي إليها علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم فلذلك سميت سدرة المنتهى.

(٢)**قوله** سبحانه: ﴿**فَخَلَفَ من بَعْدِهم خَلف أَضَاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهوَاتِ فَسوفَ يَلقَونَ غيًّا**﴾ [مريم: ٥٩].

قال شعبة بن الحجاج: حدثنا أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبدالله ـ هو ابن مسعود ـ في هذه الآية قال: هو نهر في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر.

قال محمد بن نصر: حدثنا عبيدالله بن سعيد بن إبراهيم حدثنا محمد بن يزيد بن زيان حدثني شرقي بن القطامي قال حدثني لقمان بن عامر الخزاعي قال: جئت أبا أمامة الباهلي فقلت: حدثني حديثًا سمعته من رسول الله، ﷺ، فقال: سمعت من رسول الله ﷺ يقول: ﴿**لو أن صخرة قذف بها من شفير جهنم ما بلغت سبعين خريفًا ثم تنتهي إلى غى وأثام**﴾ قلت: وما غى وأثام؟ قال: «**بئران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل جهنم**». فهذا الذي ذكره الله في كتابه

(١) ١٣٠ الروح. (٢) ١٧ الصلاة.

﴿فَسوف يَلقَون غيًّا﴾ و ﴿أثاما﴾ قال محمد بن نصر: حدثنا الحسن بن عيسى حدثنا عبدالله بن المبارك أخبرنا إبراهيم بن بشير قال أخبرني زكريا بن أبي مريم الخزاعي قال سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: إن ما بين شفير جهنم إلى قعرها مسيرة خمسين خريفًا من حجر يهوى ـ أو قال صخرة تهوى ـ عظمها كعشر عشراوات عظام سمان. فقال مولى لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد: هل تحت ذلك من شيء يا أبا أمامة؟ قال: نعم، غي وأثام.

وقال أيوب بن بشير عن شفي بن ماتع قال: إن في جهنم واديًا يسمى غيًّا يسيل دمًا وقيحًا فهو لمن خلق له، قال تعالى: ﴿فسوف يَلقونَ غيًّا﴾. فوجه الدلالة من الآية أن الله سبحانه جعل هذا المكان من النار لمن أضاع الصلاة واتبع الشهوات، ولو كان مع عصاة المسلمين لكانوا في الطبقة العليا من طبقات النار، ولم يكونوا في هذا المكان الذي هو أسفلها؛ فإن هذا ليس من أمكنة أهل الإسلام بل من أمكنة الكفار. ومن الآية دليل آخر وهو قوله تعالى: ﴿فَسوفَ يلقَوْنَ غيًّا * إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وعَمِلَ صالحًا﴾ فلو كان مضيع الصلاة مؤمنًا لم يشترط في توبته الإيمان فإنه يكون تحصيلاً للحاصل.

(١)**قوله** ﴿رَبُّ السَّماوات والأرضِ وَمَا بَيْنَهُما فَاعْبُدهُ واصطبرْ لِعبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَميًّا﴾ [مريم: ٦٥]. فأخبر أنه لا سمي له عقب قول العارفين به ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بيْنَ أيدِينَا وَمَا خَلفَنَا وما بَيْنَ ذلكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسيًّا رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ وَمَا بيْنَهُمَا فَاعْبُدهُ وَاصْطَبِرِ لِعبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥،٥٤]. فهذا الرب الذي له هذا الجند العظيم ولا يتنزلون إلا بأمره، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم وما بين ذلك، وهو الذي كملت قدرته وسلطانه وملكه، وكمل علمه. فلا ينسى شيئًا أبدًا، وهو القائم بتدبير السماوات والأرض وما بينهما كما هو الخالق لذلك كله؛ وهو ربه ومليكه. فهذا الرب هو الذي لاسمي له لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال. فأما من لا صفة له ولا فعل ولا حقائق لأسمائه، إن هي إلا ألفاظ فارغة من المعاني فالعدم سمي له. . .

---

(١) ٢١٢ الصواعق جـ١.

(١)**وقال** تعالى: ﴿رَبُّ السَّمٰوات والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. قال ابن عباس: «شبهًا ومثلاً، وهو مَنْ يُساميه».

وذلك نفى عن المخلوق أن يكون مشابهًا للخالق، ومماثلاً له، بحيث يستحقُّ العبادة والتعظيم، ولم يقل سبحانه: هل تعلمه سَمِيًّا، أو مشبهًا لغيره، فإن هذا لم يقله أحد. بل المشركون المشبهون جعلوا بعضَ المخلوقات مُشابهًا له، مساميًا، ونِدًّا وعَدْلا، فأنكر عليهم هذا التشبيه والتمثيل.

وكذلك قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَملِكُ لَهُمْ رزقًا مِنَ السَّمٰوات والأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُون * فَلا تَضْرِبُوا لله الأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤].

فنهاهم أنْ يضربوا له مثلاً من خلقه، ولم ينههم أن يضربوه هو مثلاً لخلقه، فإنّ هذا لم يقله أحد، ولم يكونوا يفعلونه؛ فإن الله سبحانه أجلُّ وأعظم وأكبر من كل شيء في فِطَر الناس كلهم. ولكنِ المشبهون المشركون يَغْلُونَ فيمن يعظمونه، فيشبهـونهم بالخالق، والله تعالى أجلُّ في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلاً، ثم يشبهونه سبحانه بغيره.

فالذي يشبهه بغيره، إن قصد تعظيمه، لم يكن في هذا تعظيم، لأنه مَثَّل أعظمَ العظماء بما هو دونه، بل بما ليس بينه وبينه نسبة وشَبَه في العظمة والجلالة، وعاقل لايفعل هذا. وإن قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين، لا بالكاملين الممدوحين.

ومن هنا يُعْلَمُ أن إثبات صفاتِ الكمال له لا يتضمن التشبيه والتمثيل، لا بالكاملين ولا بالناقصين، وأنَّ نفى تلك الصفات يستلزمُ تشبيهه بأنقص الناقصين.

فانظر إلى الجهمية وأتباعهم، جاءوا إلى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحًا، وجاءوا إلى الكمال والمدح فجعلوه تشبيهًا وتمثيلاً، عكس ما يثبته القرآن، وجاء به من كُل وجه.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، هو سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق سبحانه، ولم يقل: ولم يكن هو كفُوًا لأحد، فينفى عن نفسه مشابهته للمخلوق ومكافأته له، إذ كان ذلك أبين وأظهر من أن يُحتاج إلى نفيه.

---

(١) ٢٣٠ الإغاثة جـ٢.

وسر ذلك: أن المقصود أن المخلوق لا يماثله سبحانه في شيء من صفاته وخصائصه. وأما كونه سبحانه هو لا يماثل المخلوق، ولا يشابهه، ولا هو نِدٌّ له ولا كُفُوٌ، فليس فيه مدح له.

فإنه لو مُدح بعضُ الملوك أو غيرهم بأنه لا يشبه الحيوانات، ولا الحجارة، ولا الخشب، ونحو ذلك، لم يُعَدَّ هذا مدحًا، ولا ثناء عليه، ولا كمالاً له، بخلاف ما إذا قيل: لا تجعل للملك ندًّا ولا كفؤا، ولا شبيهًا من رعيته، تعظمه كتعظيمه، وتطيعه كطاعته، فإنه ليس في رعيته من يُساميه، ولا يماثله، ولا يكافؤه: كان هذا غاية المدح.

(١)**قوله** عز وجل: ﴿**ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ من كل شِيعَة أيهم أشدُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ عِتيًّا**﴾ [مريم: ٦٩]. فالشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضا أي تابعه، ومنه الأشياع أي الأتباع. فالفرق بين الشيعة والأشياع أن الأشياع هم التبع، والشيعة القوم الذين شايعوا أي تبع بعضهم بعضا، وغالب ما يستعمل في الذم ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك كهذه الآية وكقوله: ﴿**إنَّ الذِينَ فَرَّقُوا دِينَهم وكَانُوا شِيَعًا**﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقوله: ﴿**وَحِيلَ بَينَهم وبينَ ما يَشتَهُونَ كَما فُعِلَ بأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ**﴾ [سباء: ٥٤]. وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع؛ ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال لتفرقهم واختلافهم. والمعنى لننزعن من كل فرقة أشدهم عتوا على الله وأعظمهم فسادًا فنلقيهم في النار.

وفيه إشارة إلى أن العذاب يتوجه إلى السادات أولاً ثم تكون الأتباع تبعًا لهم فيه كما كانوا تبعا لهم في الدنيا.

(٢)**وقال** أبو هريرة وقد عاد مريضًا فقال له: إن رسول الله ﷺ، قال: «**إن الله عز وجل يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار في الآخرة**».

وقال مجاهد: الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ ﴿**وإنْ منكُم إلَّا وَارِدُها**

---

(١) ١٥٥ البدائع جـ١.
(٢) ٩٢ عدة الصابرين.

كانَ عَلى رِّبك حَتْماً مَقضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، وهذا لم يرد به مجاهد تفسير الورود الذي في القرآن، فإن السياق يأبى حمله على الحمى قطعًا، وإنما مراده أن الله سبحانه وعد عباده كلهم بورود النار فالحمى للمؤمن تكفر خطاياه فيسهل عليه الورود يوم القيامة فينجو منها سريعًا والله أعلم.

ويدل عليه حديث أبي ريحانة عن النبي، ﷺ، «**الحمى كير من كير جهنم وهي نصيب المؤمن من النار**».

(١)**ولما** قال: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**» قالت له حفصة: أليس الله تعالى يقول: ﴿**وإنْ منْكم إلاَّ واردها**﴾ [مريم: ٧١]. قال: «**أولم تسمعي قوله**: ﴿**ثم نُنَجِّي الذينَ اتَّقوا ونَذَرُ الظالمينَ فيهَا جِثيًّا**﴾ [مريم: ٧٢]. فأشكل عليها الجمع بين النصين، وظنت الورود هو دخولها، كما يقال: ورد المدينة إذا دخلها. فأجابها النبي، ﷺ، بأن ورود المتقين غير ورود الظالمين، فإن المتقين يردونها ورودًا ينجون به من عذابها، والظالمين يردونها ورودًا يصيرون جثيًّا فيها به.

وقال له عمر: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ فقال: «**هل قلت إنك تدخله العام؟**» قال: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**» فأشكل على عمر رجوعهم عام الحديبية ولم يدخلوا المسجد الحرام ولا طافوا بالبيت، فبين لهم أن اللفظ مطلق لا دليل فيه على ذلك العام بعينه فتنزيله على ذلك العام غلط، فرجع عمر وعلم أنه قد غلط في فهمه.

(٢)**وذكر** عنه أيضًا: «**حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها، ويصام نهارها**»(٣). وقال: «**حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله**»(٤)، وذكر أحمد عنه: «**من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعًا لا يأخذه سلطان: لم ير النار بعينيه، إلا تحلة**

---

(١) ٢١٩ الصواعق جـ١.

(٢) ١٥٩ الزاد جـ٢.

(٣) رواه من حديث عثمان بن عفان، وقال المنذري: رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد. قال المنذري: بل في إسناده عمر بن راشد اليماني.

(٤) رواه الطبراني، قال المنذري: ورواته ثقات، إلا أن أبا الحبيب العبقري لا يحضرني حاله.

القسم، فإن الله يقول: ﴿وإن مِّنكُم إلاَّ وارِدُها﴾(١) [مريم: ٧١]، وقال لرجل حرس المسلمين ليلة في سفرهم من أولها إلى الصباح على ظهر فرسه، لم ينزل إلا لصلاة أو قضاء حاجة: «قد أوجبت، فلا عليك أن لا تعمل بعدها»(٢). وقال: «من بلغ بسهم في سبيل الله فله درجة في الجنة».

(٣)**قال** الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لِيكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كلاَّ سَيَكفُرون بِعبَادَتِهِم ويَكُونُون عَلَيهم ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال تعالى: ﴿واتَّخذُوا من دُونِ الله آلهةً لَّعلَّهم يُنصرَونَ * لا يَستَطِيعُونَ نَصرَهم وَهُم لهم جُنْدٌ محضَرون﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

فأعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله؛ فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به. وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بنى عليها: التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجعلْ مع الله إلهاً آخرَ فَتقعُدَ مَذمومًا مَخذولا﴾ [الإسراء: ٢٢]. مذمومًا لا حامد لك. مخذولًا لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل. وقد يكون مذمومًا منصورًا، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل. وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

(٤)**الوجه** السابع: أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولابد، عكس ما أمَّله منه، فلابد أن يخذل من الجهة التي قَدَّر أن ينصر منها، ويذم من حيث قدر أن يحمد، وهذا أيضًا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لِيَكونُوا

---

(١) قال المنذري في الترغيب: رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى من حديث أنس. وإسناده لا بأس به في المتابعات و«تحلة» بفتح التاء وكسر الحاء المهملة وتشديد اللام: تكفير القسم والتحلل منه.

(٢) رواه النسائي وأبو داود ـ واللفظ له ـ من حديث سهل بن الحنظلية في قصة غزوة حنين. والرجل هو أنس بن أبي مرثد الغنوي.

(٣) ٤٥٧ المدارج جـ١. (٤) ٤٠ الإغاثة جـ١.

لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾. وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]. أي يغضبون لهم ويحاربون، كما يغضب الجند ويحارب عن أصحابه، وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كَلٌّ عليهم. وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] أي غير تخسير، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٣]. وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]. فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة؛ فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم.

والمقصود: أن هذين الوجهين في المخلوق ضدهما في الخالق سبحانه. فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله والاستعانة به وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به.

(١)**يزيد** ذلك إيضاحًا أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته، فإنه يخذل من تلك الجهة. وهذا أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء أنه ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغيره إلا خذل، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾[يس: ٧٤، ٧٥].

(٢)**قال** تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم: ٨٣]. قال ابن عباس «تُغريهم إغراء» وفي رواية «تُشليهم إشلاء» وفي لفظ «تحرضهم تحريضًا» وفي آخر «تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا» وفي آخر: «توقدهم» أي تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته، قال الأخفش: «توهجهم».

وحقيقة ذلك: أن «الأزّ» هو التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر:

(١) ٦١ الهجرتين. (٢) ١٠٠ الإغاثة جـ١.

الأزيز؛ لأن الماء يتحرك عند الغليان. ومنه الحديث: «**لجوفه أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء**» قال أبو عبيدة «الأزيز» الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: إزّ قِدْرَك، أي ألهِبْ تحتها بالنار؛ وأيزت القدر إذا اشتد غليانها، فقد حصل للأزّ معنيان: أحدهما: التحريك، والثاني: الإيقاد والإلهاب، وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب.

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكّنوا عدوهم من سلطانه عليهم، بموافقته ومتابعته، فلما أعطوا بأيديهم واستأسروا له سُلِّط عليهم، عقوبة لهم. وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿**وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾ [النساء: ١٤١]. فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضادُّ الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تَسَبّبوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تَسبّبوا إليه يوم أُحد بمعصية الرسول ومخالفته، والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطانا، حتى جعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلّطا وقَهْرًا، **فمن وجد خيراً فليَحْمَد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنّ إلا نفسه**.

فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه، والجميع بقضاء مَنْ أَزِمَّة الأمور بيده، ومَرَدُّها إليه، وله الحجة البالغة، فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكن أبتْ حِكمته وحمده وملكه إلا ذلك. ﴿**فللَّهِ الحَمْدُ رَبِّ السَّموَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالَمِينَ * وَلَهُ الكبرِيَاءُ في السَّموَاتِ والأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧].

فصل(١)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً**﴾ [مريم: ٨٣]. فالارسال ها هنا إرسال كوني قدري كإرسال الرياح، وليس بإرسال

(١) ٦٢ شفاء.

ديني شرعي، فهو إرسال تسليط. بخلاف قوله في المؤمنين: ﴿إنَّ عِبادي لَيسَ لَكَ عليهم سُلطانٌ﴾ [الحجر:٤٢]. فهـذا السلطان المنفي عنه على المؤمنين هو الذي أرسل به جنده على الكافرين.

قال أبو إسحاق: ومعنى الإرسال ههنا التسليط تقول: قد أرسلت فلانا على فلان إذا سلطته عليه كما قال: ﴿إنَّ عِبادي ليسَ لَكَ عَليهم سُلطانٌ إلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغَاوِين﴾[الحجر:٤٢]. فأعلم أن من اتبعه هو مسلط عليه.

قلت: ويشهد له قوله تعالى: ﴿إنَّما سُلطانُهُ علىَ الذينَ يَتوَلَّونه والَّذينَ هُمْ بِهِ مُشركُـونَ﴾ [النحل:١٠٠]. وقـولـه: ﴿تَـؤُزُّهم أَزًّا﴾. فالأز في اللغـة التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر الأزيز لتحريك الماء عند الغليان، وفي الحديث «كان لصدر رسول الله، ﷺ، أزيز كأزيز المرجل من البكاء».

وعبارات السلف تدور على هذا المعنى قال ابن عباس: تغريهم إغراءً.

وفي رواية أخرى عنه: تسلهم سلًّا، وفي رواية أخرى: تحرضهم تحريضًا.

وفي أخرى: تزعجهم للمعاصي إزعاجًا. وفي أخرى: توقدهم إيقادًا، أي كما يتحرك الماء بالوقد تحته. قال أبو عبيدة: الأزيز الإلهاب والحركة كالتهاب النار في الحطب يقال: إز قدرك أي ألهب تحتها النار. وائتزت القدر إذا اشتد غليانها، وهذا اختيار الأخفش. والتحقيق أن اللفظة تجمع المعنيين جميعًا.

قالت القدرية: معنى ﴿أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾ خلينا بينهم وبينها ليس معناه التسليط.

قال أبو على: الإرسال يستعمل بمعنى التخلية بين المرسل وما يريد، فمعنى الآية: خلينا بين الشياطين وبين الكافرين ولم يمنعهم منهم ولم يعدهم، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾، قال الواحدى: وإلى هذا الوجه يذهب القدرية في معنى الآية قال: وليس المعنى على ماذهبوا إليه.

وقال: أبو إسحاق: والمختار أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم كما قال تعـالى: ﴿ومن يعش عَن ذِكـر الـرَّحمن نُقَيضْ لَهُ شَيطانًـا فهـو له قَرِيُن﴾ [الزخرف:٣٦]. وقال: ﴿وَقَيَّضنا لَهُمْ قُرنَاء فَزيَّنوا لهم مَا بَين أيديهم وما خَلفَهم﴾ [فصلت:٢٥]، وإنما معنى الإرسال التسليط.

قلت: وهـذا هو المفهوم من معنى الإرسال، كما في الحديث: «**إذا أرسلت كلبك المعلم**» أي سلطته، ولو خلى بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم يبح صيده، وكذلك قوله: ﴿**وَفِي عادٍ إِذ أرسَلْنا عَليهِمُ الرِّيحَ العَقيمَ**﴾ [الذاريات: ٤١]، أي سلطناها وسخرناها عليهم، وكذلك قوله: ﴿**وأرسَلَ عَلَيهم طَيراً أبابيلَ**﴾ [الفيل: ٣]. وكذلك قوله: ﴿**إِنَّا أَرْسَلنَا عَلَيهِمْ صَيحَةً وَاحدةً**﴾ [القمر: ٣١]. والتخلية بين المرسل وبين ما أرسل عليه من لوازم هذا المعنى، ولا يتم التسليط إلا به، فإذا أرسـل الشيء الذي من طبعه وشأنه أن يفعل فعلاً ولم تمنعه من فعله فهذا هو التسليط، ثم إن القـدرية تنـاقضوا في هذا القول فإنهم إن جوزوا منعهم منهم وعصمتهم وإعادتهم فقد نقضوا أصلهم. فإن منع المختار من فعله الاختياري مع سلامة النية وصحة بنيته تدل على أن فعله وتركه مقدور للرب، وهذا عين قول أهل السنة، وإن قالوا: لا يقدر على منعهم وعصمهم منهم وإعادتهم فقد جعلوا قدرتهم ومشيئتهم بفعل ما لا يقدر الرب على المنع منه وهذا أبطل الباطل.

ثم قالت القـدرية: ﴿**تؤزهم أزًا**﴾ تأمرهم بالمعاصي أمرًا، وحكوا ذلك عن الضحاك، وهذا لا يلتفت إليه؛ إذ لا يقال لمن أمر غيره بشيء قد أزه، ولا تساعد اللغـة على ذلـك. ولـو كان ذلك صحيحًا لكان يؤز المؤمنين أيضًا فإنه يأمرهم بالمعاصي أكثر من أمر الكافرين، فإن الكافر سريع الطاعة والقبول من الشيطان، فلا يحتاج من أمره ما يحتاج إليه من أمر المؤمنين، بل يأمر الكافر مرة ويأمر المؤمن مرات، فلو كان الأز الأمر لم يكن له اختصاص بالكافرين.

(١)**وتأمل** حكمـة القـرآن وجـلالتـه كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ولم يقل من شر وسوسته، لتعم الاستعاذة شره جميعه فإن قوله: ﴿**مِن شَرِّ الوَسْواسِ**﴾ [الناس: ٤]، يعم كل شره ووصفَه بأعظم صفاته وأشدها شرًّا وأقواها تأثيرًا وأعمها فسادًا وهي الـوسـوسة التي هي مبادى الإرادة، فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله فيصوره لنفسه، ويمنيه ويشهيه فيصير شهوة،

---

(١) ٢٥٧ المدارج جـ٢.

ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل، ويمنى ويشهى، وينسى علمه بضررها، ويطوى عنه سوء عاقبتها فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا، فإن فتروا حرّكهم، وإن ونوا أزعجهم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ ترأَنَّا أَرسَلنَا الشَّياطينَ على الكافرين تَؤُزُّهم أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]. أى تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة، قد رضى لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم فلا بتلك النخوة والكبر ولا برضاه[1] أن يصير قوادًا لكل من عصى الله كما قال بعضهم:

عجبت من إبليس في تيهه ... وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم في سجدة ... وصار قوادًا لذريته

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضًا. فمن شره أنه لص سارق لأموال الناس، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه فله فيه حظ بالسرقة والخطف.

وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، فيأكل طعام الانس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقًا ويخرج مغيرًا، ويدل على عوراتهم، فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقى في قلوب الناس يقظة ومنامًا أنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس، فيصبح والناس يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب ثم فضحه به. فالرب تعالى يستره والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله، ولم

(١) الظاهر الذي يقتضيه المعنى فلم تمنعه النخوة والكبر أن يصير قواداً لكل من عصى الله اهـ.

يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته. وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة.

(١)**العبودية** نوعان: عامة، وخاصة. فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، بَرِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتخَذَ الرحمنُ وَلَدًا * لقَد جِئتم شَيئًا إدًّا * تَكادُ السَّمٰواتُ يَتَفَطَّرنَ مِنه وَتَنْشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هَدًّا. أن دَعَوْا لِلرَّحمٰنِ وَلَدًا * وما يَنبغي لِلَّرحمٰنِ أن يَتَّخِذ ولدًا * إنْ كلُّ مَن فِي السَّمواتِ والأرضِ إلا آتى الرَّحمٰنِ عَبدًا﴾ [مريم: ٨٨، ٩٣]. فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿وَيومَ يَحشُرهم وما يَعبدونَ من دُون الله فيقول أأنتم أضْلَلتم عِبَادِي هؤلاء﴾ [الفرقان: ١٧]. فسماهم عباده مع ضلالهم. لكن تسمية مقيدة بالإشارة.

وأما المطلقة: فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللهُمَّ فاطِرَ السَّمواتِ والأرض عالمَ الغَيبِ والشهادةِ أنتَ تَحكُمُ بين عبادِكَ فيما كانوا فيه يَخْتلفُون﴾ [الزمر: ٤٦]. وقال: ﴿وما الله يُريد ظلمًا لِّلعِباد﴾ [غافر: ٣١]. وقال: ﴿إنَّ الله قد حَكَمَ بَينَ العِبادِ﴾ [غافر: ٤٨].

فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿ياعِبَادِ لا خَوفٌ عَلَيكُمُ اليَومَ ولا أَنْتُم تَحزنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿وعِبَادُ الرَّحمٰنِ الَّذينَ يَمشُون على الأرض هَونًا وإذا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُوا سَلاما﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال تعالى عن إبليس: ﴿لأُغْوِيَنَّهم أجمعين * إلا عبادَكَ مِنهُمُ المخْلَصين﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]. فقال تعالى عنهم: ﴿إنَّ عِبَادِي ليس لَكَ عَليهِمْ سُلطانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته(٢).

(٣)**وقال** عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال محمد بن المنكدر لأبي حازم: ياأبا حازم ما أكثر من يلقاني فيدعو لي بالخير ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيرًا قط؟ فقال أبو حازم: لا تظن أن ذلك من قبلك ولكن انظر إلى الذي ذلك من قبله فاشكره. وقرأ أبو عبدالرحمن: ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحمٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

---

(١) ١٠٥ المدارج جـ١. (٢) تقدم البحث كاملاً في سورة الفاتحة. (٣) ١٣٨ عدة الصابرين.

(١)**وفي** الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي، ﷺ قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل إنَّ الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض». وفي لفظ لمسلم: «إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه قال فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء قال ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانًا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في السماء إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه ثم يوضع له البغضاء في الأرض». وفي لفظ آخر لمسلم عن سهيل بن أبي صالح قال: كُنَّا بعرفة فمر عمر بن عبدالعزيز وهو على الموسم، فقام الناس ينظرون إليه فقلت لأبي: ياأبتِ إني أرى الله يحب عمر بن عبدالعزيز قال: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحب في قلوب الناس فقال: إني سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن رسول الله، ﷺ، ثم ذكر الحديث. وأخرجه الترمذي ثم زاد في آخره فذلك قول الله تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًّا﴾ [مريم: ٩٦] انتهى، وقال بعض السلف في تفسيرها: يحبهم ويحببهم إلى عباده.

(٢)**وجميع** المعاصي يجتمع فيها هذان الوصفان، وهما العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، فإن التحاب والتآلف إنما هو بالإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لهمُ الرَّحْمٰن وُدًّا﴾ أي يلقي بينهم المحبة، فيحب بعضهم بعضًا، فيتراحمون، ويتعاطفون بما جعل الله لبعضهم في قلوب بعض من المحبة.

وقال ابن عباس: «يحبهم ويحببهم إلى عباده»(٣).

قال هَرم بن حيَّان : «ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله عز وجل إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم».

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة مريم
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٤٣٨ الروضة. (٢) ١٥٤ الإغاثة جـ٢.

(٣) الذي في تفسير ابن كثير (ج ٥ ص ٤٠٦) أن هذا قول سعيد بن جبير ومجاهد والضحاك.



بسم الله الرحمن الرحيم

. . . [(١)] **قالوا:** والأوقات ثلاثة أنواع :

وقت للقادر المستيقظ الذاكر غير المعذور. فهي خمسة.

ووقت للذاكر المستيقظ المعذور وهي ثلاثة. فإن في حقه: وقت الظهر والعصر واحد. ووقت المغرب والعشاء واحد.

ووقت الفجر واحد. فالأوقات في حق هذا ثلاثة. وإذا أخر الظهر إلى أن فعلها في وقت العصر فإنما صلاها في وقتها.

ووقت في حق غير المكلف بنوم أو نسيان. فهو غير محدود البتة، بل الوقت في حقه عند يقظته وذكره. لا وقت له إلا ذلك.

هذا الذي دلت عليه نصوص الشرع وقواعده. وهذا المفرط المضيع خارج عن هذه الأقسام. وهو قسم رابع. فبأيها تلحقونه؟

قالوا: وقد شرع الله سبحانه قضاء رمضان لمن أفطره لعذر، من حيض أو سفر أو مرض، ولم يشرعه قط لمن أفطره متعمداً من غير عذر، لا بنص ولا بإيماء ولا تنبيه، ولا تقتضيه قواعده. وإنما غاية ما معكم: قياسه على المعذور مع اطراد قواعد الشرع على التفريق بينهما، بل قد أخبر الشارع: أن صيام الدهر لا يقضيه عن يوم يفطره بلا عذر، فضلاً عن يوم مثله.

قالوا: وأما قولكم: «إنه كان يجب عليه أمران: العبادة، وإيقاعها في وقتها، فإذا ترك أحدهما بقي عليه الآخر» فهذا إنما ينفع فيما إذا لم يكن أحد الأمرين مرتبطاً بالآخر ارتباط الشرطية، كمن أمر بالحج والزكاة، فترك أحدهما: لم يسقط عنه الآخر. أما إذا كان أحدهما شرطاً في الآخر، وقد تعذر الإتيان بالشرط الذي لم يؤمر بالمشروط إلا به. فكيف يقال: إنه يؤمر بالآخر بدونه، ويصح منه بدون وصفه وشرطه؟ فأين أمر الله بذلك؟ وهل الكلام إلا فيه؟

---

(١) ٣٨٠ مدارج جـ١.

قالوا: وإن قلنا: إنما يجب القضاء بأمر جديد، فلا أمر معكم بالقضاء في محل النزاع. وقياسه على مواقع الإجماع: ممتنع كما بيناه.

وإن قلنا: يجب بالأمر الأول، فهذا فيما إذا كان القضاء نافعاً، ومصلحته كمصلحة الأداء، كقضاء المريض والمسافر والحائض للصوم، وقضاء المغمى عليه والنائم والناسي. أما إذا كان القضاء غير مبرىء للذمة، ولا هو معذور بتأخير الواجب عن وقته، فهذا لم يتناوله الأمر الأول، ولا أمر ثان. وإنما هو القياس الذي علم افتراق الأصل والفرع فيه في وصف ظاهر التأثير مانع للإلحاق. . .

. . .(١)**وأما** (المسألة الخامسة) التي هي قوله: هل تقبل صلاة الليل بالنهار وصلاة النهار بالليل أم لا؟

فهذه المسألة لها صورتان: إحداهما يقبل فيها بالنص والإجماع، وهي ما إذا فاتته صلاة النهار بنوم أو نسيان، فصلاها بالليل، وعكسه. كما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن النبي، ﷺ، قال: «**من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها**» اللفظ لمسلم.

وروى مسلم عنه أيضاً قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها، فإن الله يقول: ﴿وأقم الصَّلاة لِذِكرِي﴾**».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله، ﷺ، حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة حتى إذا أدركه الكرى عرَّس وقال لبلال: «**اكلألنا الليل**(٢) **فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله، ﷺ، وأصحابه، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالا عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله، ﷺ، ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله، ﷺ، أولهم استيقاظاً**» الحديث(٣).

. . .(٤)**قالوا**: وقد قال رسول الله، ﷺ: «**من ترك صلاة العصر حبط عمله**».

وقال: «**الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**» فلو كان يمكنه

(١) ٣٣ كتاب الصلاة. (٢) أي احرسنا بقية الليل، وراقب الليل لأجلنا.

(٣) ساق المؤلف تكملة البحث ثم ذكر الصورة الثانية فيمن ترك الصلاة عمدًا فمن أراده فليراجعه. (ج).

(٤) ٣٧ كتاب الصلاة.

استدراكها بالليل لم يحبط عمله، ولم يكن موتورًا من أعماله بمنزلة الموتور من أهله وماله.

قالوا: وقد صح عنه، ﷺ، أنه قال: «**من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر**»، فكذا من أدرك ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح، ولو كان فعلها بعد المغرب وطلوع الشمس صحيحاً مطلقاً لكان مدركاً، سواء أدرك ركعة أو أقل من ركعة أو لم يدرك منها شيئاً، فإنه ﷺ لم يرد: إن أدرك ركعة صحت صلاته بلا إثم، إذ لا خلاف بين الأمة أنه لا يحل له تأخيرها إلى أن يضيق وقتها عن كمال فعلها، وإنما أراد بالإدراك الصحة والإجزاء، وعندكم تصح وتجزي ولو أدرك منها قدر تكبيرة أو لم يدرك منها شيئاً، فلا معنى للحديث عندكم البتة.

قالوا: والله سبحانه قد جعل لكل صلاة وقتاً محدود الأول والآخر، ولم يأذن في فعلها قبل دخول وقتها ولا بعد خروج وقتها، والمفعول قبل الوقت وبعده أمر غير المشروع، فلو كان الوقت ليس شرطاً في صحتها لكان لا فرق في الصحة بين فعلها قبل الوقت وبعده؛ لأن كلا الصلاتين صلاها في غير وقتها، فكيف قبلت من هذا المفرط بالتفويت ولم تقبل من المفرط بالتعجيل؟

قالوا: والصلاة في الوقت واجبة على كل حال حتى أنه يترك جميع الواجبات والشروط لأجل الوقت. فإذا عجز عن الوضوء والاستقبال، أو طهارة الثوب والبدن وستر العورة، أو قراءة الفاتحة، أو القيام، في الوقت وأمكنه أن يصلي بعد الوقت بهذه الأمور فصلاته في الوقت بدونها هي التي شرعها الله وأوجبها، ولم يكن له أن يصلي بعد الوقت مع كمال هذه الشروط والواجبات.

فعلم أن الوقت مقدم عند الله ورسوله على جميع الواجبات، فإذا لم يكن إلا أحد الأمرين وجب أن يصلي في الوقت بدون هذه الشروط والواجبات، ولو كان له سبيل إلى استدراك الصلاة بعد خروج وقتها لكانت صلاته بعد الوقت مع كمال الشروط والواجبات خيراً من صلاته في الوقت بدونها وأحب إلى الله، وهذا باطل بالنص والإجماع.

قالوا: وأيضاً فقد توعد الله سبحانه من فوت الصلاة عن وقتها بوعيد التارك لها.

قال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾

[الماعون: ٤، ٥]. وقد فسر أصحاب رسول الله، السهو عنها بأنه تأخيرها عن وقتها كما ثبت ذلك عن سعد بن أبي وقاص، وفيه حديث مرفوع.

وقال تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِن بعدِهم خَلفُ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبعوا الشهواتِ فسوف يَلقَون غَيّاً**﴾ [مريم: ٥٩].

وقد فسر الصحابة والتابعون إضاعتها بتفويت وقتها.

والتحقيق أن إضاعتها تتناول تركها، وترك وقتها، وترك واجباتها وأركانها.

وأيضاً فإن مؤخرها عن وقتها عمداً متعد لحدود الله كمقدمها عن وقتها، فما بالها تقبل مع تعدي هذا الحد ولا تقبل مع تعدي الحد الآخر؟

قالوا: وأيضاً فنقول لمن قال إنه يستدركها بالقضاء: أخبرنا عن هذه الصلاة التي تأمر بفعلها، هي التي أمر الله بها، أم هي غيرها؟

فإن قال: هي بعينها، قيل له: فالعامد بتركها حينئذ ليس عاصياً لأنه قد فعل ما أمر الله به بعينه فلا يلحقه الإثم والملامة، وهذا باطل قطعاً.

وإن قال: ليست هي التي أمر الله بها، قيل له: فهذا من أعظم حججنا عليك إذا سلمت أن هذه غير مأمور بها.

ثم نقول أيضاً: ما تقولون فيمن تعمد تفويتها حتى خرج وقتها ثم صلاها، أطاعة صلاته تلك أم معصية؟

فإن قالوا: صلاته طاعة وهو مطيع بها، خالفوا الإجماع والقرآن والسنن الثابتة.

وإن قالوا: هي معصية، قيل: فكيف يتقرب إلى الله بالمعصية، وكيف تنوب المعصية عن الطاعة؟

فإن قلتم: هو مطيع بفعلها عاص بتأخيرها وهو أنه إنما تقرب بالفعل الذي هو طاعة لا بالتفويت الذي هو معصية.

قيل لكم: الطاعة هي موافقة الأمر وامتثاله على الوجه الذي أمر به، فأين أمر الله ورسوله ممن تعمد تفويت الصلاة بفعلها بعد خروج وقتها حتى يكون مطيعاً له بذلك؟ فلو ثبت ذلك لكان فاصلاً للنزاع في المسألة.

قالوا: وأيضاً فغير أوقات العبادة لا تَقبل تلك العبادة بوجه، كما أن الليل لا يقبل الصيام، وغير أشهر الحج لا يقبل الحج، وغير وقت الجمعة لا يقبل الجمعة،

فأي فرق بين من قال: أنا أفطر النهار وأصوم الليل، أو قال: أنا أفطر رمضان في هذا الحر الشديد وأصوم مكانه شهراً في الربيع؟ أو قال: أنا أؤخر الحج من شهره إلى المحرم، أو قال: أنا أصلي الجمعة بعد العشاء الآخرة، أو أصلي العيدين في وسط الشهر، وبين من قال: أنا أؤخر صلاة النهار إلى الليل وصلاة الليل، إلى النهار، فهل يمكن أحداً قط أن يفرق بين ذلك؟

قالوا: وقد جعل الله سبحانه للعبادات أمكنة وأزمنة وصفات، فلا ينوب مكان عن المكان الذي جعله الله مكاناً ميقاتاً لها، كعرفة، ومزدلفة، ومنى، ومواضع الجمار والمبيت، والصفا والمروة، ولا تنوب صفة من صفاتها التي أوجبها الله عليها عن صفة، فكيف ينوب زمان عن زمانها الذي أوجبها الله فيه عنه؟

قالوا: وقد دل النص والإجماع على أن من أخر الصلاة عن وقتها عمداً أنها قد فاتته، كما قال النبي، ﷺ: «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**» وما فات فلا سبيل إلى إدراكه البتة. ولو أمكن أن يدرك لما سمى فائتاً، وهذا مما لا شك فيه لغة وعرفاً وكذلك هو في الشرع . . . .

(١)فصل

وأما المسألة الرابعة وهو قوله هل تحبط الأعمال بترك الصلاة أم لا؟ فقد عرف جوابها مما تقدم. وإنا نفرد هذه المسألة بالكلام عليها بخصوصيتها فنقول:

أما تركها بالكلية فإنه لا يقبل معه عمل، كما لا يقبل مع الشرك عمل؛ فإن الصلاة عمود الإسلام - كما صح عن النبي، ﷺ - وسائر الشرائع كالأطناب والأوتاد ونحوها، وإذا لم يكن للفسطاط عمود لم ينتفع بشيء من أجزائه، فقبول سائر الأعمال موقوف على قبول الصلاة، فإذا ردت عليه ردت سائر الأعمال. وقد تقدم الدليل على ذلك.

(٢)**وأما** تركها أحيانًا فقد روى البخاري في صحيحه من حديث بريدة قال: قال رسول الله، ﷺ: «**بكروا بصلاة العصر، فإن من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**». وقد تكلم قوم في معنى هذا الحديث فأتوا بما لا حاصل له.

---

(١) ٣١ كتاب الصلاة.		(٢) ٣٢ كتاب الصلاة.

قال المهلب: معناه من تركها مضيعاً لها، متهاوناً بفضل وقتها مع قدرته على أدائها، حبط عمله في الصلاة خاصة، أي لا يحصل له أجر المصلي في وقتها، ولا يكون له عمل ترفعه الملائكة، وحاصل هذا القول أن من تركها فاته أجرها.

ولفظ الحديث ومعناه يأبى ذلك، ولا يفيد حبوط عمل قد ثبت وفعل، وهذا حقيقة الحبوط في اللغة والشرع، ولا يقال لمن فاته ثواب عمل من الأعمال أنه قد حبط عمله، وإنما يقال فاته أجر ذلك العمل. وقالت طائفة: يحبط عمل ذلك اليوم لا جميع عمله، فكأنهم استصعبوا حبوط الأعمال الماضية كلها بترك صلاة واحدة، وتركها عندهم ليس بردة تحبط الأعمال، فهذا الذي استشكله هؤلاء هو وارد عليهم بعينه في حبوط عمل ذلك اليوم.

والذي يظهر في الحديث ـ والله أعلم بمراد رسوله ـ أن الترك نوعان:

ترك كلي لا يصليها أبداً فهذا يحبط العمل جميعه.

وترك معين في يوم معين فهذا يحبط عمل ذلك اليوم، فالحبوط العام في مقابلة الترك العام، والحبوط المعين في مقابلة الترك المعين.

فإن قيل: كيف تحبط الأعمال بغير الردة؟

قيل: نعم، قد دل القرآن والسنة والمنقول عن الصحابة أن السيئات تحبط الحسنات، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تُبطُلوا صَدَقَاتكُم بالمنِّ والأذى**﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقال: ﴿**يَاأَيُّها الَّذين آمنُوا لَا ترفعوُا أصواتكُم فوقَ صَوتِ النَّبيِّ وَلا تَجْهَرُوا له بالقولِ كَجَهْرِ بَعضِكُم لِبعضٍ أَن تَحْبَطَ أَعمالُكم وأنتُم لا تَشعُرون**﴾ [الحجرات: ٢].

وقالت عائشة لأم زيد بن أرقم: أخبري زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله، ﷺ إلا أن يتوب ـ لما باع بالعينة ـ.

وقد نص الإمام أحمد على هذا فقال: ينبغي للعبد في هذا الزمان أن يستدين ويتزوج لئلا ينظر مالا يحل فيحبط عمله. وآيات الموازنة في القرآن تدل على هذا، فكما أن السيئة تذهب بالحسنة أكبر منها، فالحسنة يحبط أجرها بسيئة أكبر منها.

فإن قيل: فأي فائدة في تخصيص صلاة العصر بكونها محبطة دون غيرها من الصلوات؟

قيل: الحديث لم ينف الحبوط بغير العصر إلا بمفهوم لقب، وهو مفهوم ضعيف جداً. وتخصيص العصر بالذكر لشرفها من بين الصلوات، ولهذا كانت هي الصلاة الوسطى بنص رسول الله، ﷺ، الصحيح الصريح، ولهذا خصها بالذكر في الحديث الآخر وهو قوله: «**الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**» أي فكأنما سلب أهله وماله فأصبح بلا أهل ولا مال، وهذا تمثيل لحبوط عمله بتركها، كأنه شبه أعماله الصالحة ـ بانتفاعه وتمتعه بها ـ بمنزلة أهله وماله، فإذا ترك صلاة العصر فهو كمن له أهل ومال فخرج من بيته لحاجة وفيه أهله وماله فرجع وقد اجتيح الأهل والمال فبقي وتراً دونهم، وموتوراً بفقدهم، فلو بقيت عليه أعماله الصالحة لم يكن التمثيل مطابقاً.

فصل: والحبوط نوعان عام، وخاص.

فالعام: حبوط الحسنات كلها بالردة، والسيئات كلها بالتوبة.

والخاص: حبوط السيئات والحسنات بعضها ببعض، وهذا حبوط مقيد جزئي، وقد تقدم دلالة القرآن والسنة والآثار وأقوال الأئمة عليه.

ولما كان الكفر والإيمان كل منهما يبطل الآخر ويذهبه كانت شعبة واحد منهما لها تأثير في إذهاب بعض شعب الآخر، فإن عظمت الشعبة ذهب في مقابلتها شعب كثيرة. وتأمل قول أم المؤمنين في مستحل العينة: إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله، ﷺ، كيف قويت هذه الشعبة التي آذن الله فاعلها بحربه وحرب رسوله على إبطال محاربة الكفار، فأبطل الحراب المكروه الحراب المحبوب، كما تبطل محاربة أعدائه التي يحبها، محاربته التي يبغضها. والله المستعان.

. . . (١)**الله** سبحانه قَدَّر مجيء موسى أحوج ما كان الوقت إليه؛ فإن العرب تقول: جاء فلان على قَدَر. إذا جاء وقت الحاجة إليه. قال جرير:

نال الخلافة إذ كانت على قدر ... كما أتى ربه موسى على قدر

وقال مجاهد: على موعد. وهذا فيه نظر. لأنه لم يسبق بين الله سبحانه وبين موسى موعد للمجيء، حتى يقال: إنه أتى على ذلك الموعد.

---

(١) ١٢٧ مدارج جـ٣.

ولكن وجه هذا: أن المعنى «جئت على الموعد الذي وعدنا: أن ننجزه، والقدر الذي قدرنا: أن يكون في وقته» وهذا كقوله تعالى: ﴿**إنَّ الَّذين أُوْتُوا العلمَ مِن قَبْلِهِ إذا يُتلى عَلَيهم يَخرُّون للأذقان سُجَّدًا * وَيَقُولُون سُبحانَ ربِّنا إن كَان وَعدُ رَبِّنا لَمفعولاً**﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]. لأن الله سبحانه وتعالى وعد بإرسال نبي في آخر الزمان يملأ الأرض نوراً وهدى، فلما سمعوا القرآن: علموا أن الله أنجز ذلك الوعد الذي وعد به.

واستشهاده بهذه الآية يدل على محله من العلم؛ لأن الشيء إذا وقع في وقته الذي هو أليق الأوقات بوقوعه فيه: كان أحسن وأنفع وأجدى. كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات إليه، وكما إذا وقع الفَرَج في وقته الذي يليق به.

ومن تأمل أقدار الرب تعالى وجريانها في الخلق علم أنها واقعة في أليق الأوقات بها.

فبعث الله سبحانه موسى أحوج ما كان الناس إلى بعثته. وبعث عيسى كذلك، وبعث محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين أحوج ما كان أهل الأرض إلى إرساله. فهكذا وقت العبد مع الله يعمره بأنفع الأشياء له أحوج ما كان إلى عمارته..

(١)**و الاصطناع** بمعنى الاصطفاء. قال تعالى لموسى: ﴿**واصطَنَعْتُك لِنَفسي**﴾ [طه: ٤١]. والاصطناع في الأصل: اتخاذ الصنيعة. وهي الخير تُسديه إلى غيرك. قال الشاعر:

وإذا اصطنعت صنيعة فاقصد بها | وجه الذي يُولي الصنائع أوْ دَع

قال ابن عباس: اصطنعتك لوحيي ورسالتي.

وقال الكلبي: اخترتُك بالرسالة لنفسي، لكي تحبني وتقوم بأمري.

وقيل: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي، فتكلم عبادي عني.

قال أبو إسحاق: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي، وجعلتك بيني وبين خلقي، حتى صرت في الخطاب والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم.

(١) ٢٩٦ مدارج جـ٣.

وقيـــل مَثَّـــل حالـه بحـال من يراه بعض الملوك ـ لجوامـع خصـال فيه وخصائص ـ أهلاً لكرامته وتقريبه، فلا يكون أحد أقرب منه منزلة إليه، ولا ألطف محلاً فيصطنعه بالكرامة والأثرة، ويستخلصه لنفسه، بحيث يسمع به، ويبصر به، ويطلع على سره.

. . . (١)**فصـل:** وأمـا الفتـون فهو مصدر فَتنه يفتنه فتوناً قال الله تعالى: ﴿وفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ [طه: ٤٠]. أي امتحنَّاك واختبرناك. والفتنة يقال على ثلاثة معانٍ:

أحـدهـا: الامتحـان والاختبـار ومنـه قوله تعالى: ﴿إنْ هِيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. أي امتحانك واختبارك.

والثاني: الافتتان نفسه، يقال: هذه فتنة فلان أي افتتانُه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتقُـوا فِتنةً لَا تُصيبنَّ الَّذينَ ظَلَمُوا منكُم خَاصةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. يقال أصابته الفتنة، وفتنتهُ الدنيا، وفتنته المرأةُ، وأفتنته، قال الأعشى:

لئن فَتَنَتني لَهيَ بالأمس أَفتنت سعيداً فأضحى قد قَلى كل مسلم

وأنكر الأصمعي أفتنته.

والثالث: المفتـون به نفسـه يسمى فتنـةً قال الله تعـالى: ﴿إنَّما أموالكم وأولادكم فتنةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فتنتُهُم إلاَّ أن قَالُوا والله رَبّنَا مَاكُنَّا مُشْرِكِين﴾ [الأنعام: ٢٣]. أي لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه.

وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفتنُون * ذُوقُوا فِتنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤] فقيل المعنى يحرقون، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ماجودته، ودينارٌ مفتون.

قال الخليل: والفَتن الإحراق قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّار [يُفْتَنُون]﴾ [الذاريات: ١٣]. وورقٌ فتينٌ أي فضةٌ محرقة. وافتتن الرجل وفتن إذا أصابته فتنةٌ فذهب مالُه أو عقلُه. وفَتَنَتُه المرأة إذا ولَّهته. وقوله تعالى: ﴿فَإنَّكُم وَمَاتَعْبُدُون * مَاأَنْتُم عَلَيهِ بفاتنين * إلاَّ منْ هُوَ صَالِ الجحيم﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] [أي لاتفتنون على عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلي الجحيم] فذلك الذي يفتتن بفتنتكم إياه.

---

(١) ٤٧ روضة المحبين.

وأما قوله [تعالى]: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُون * بأَيِّكُمُ المفتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦]. فقيل الباء زائدة. وقيل المفتون مصدر، كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب أنَّ يُبصر مضمنٌ معنى يشعر ويعلم قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَ السَّموٰاتِ والأرضَ وَلَمْ يَعْيَ بخلْقِهنَّ بقادِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «المؤمنُ أخُو المؤمن يَسعُهُما الماء والشجرُ ويتعاونان على الفتان» يُروى بفتح الفاء، وهو واحدٌ، وبضمها وهو جمعُ فاتن، كتاجرٍ وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون فما فُتن من فتن إلا بالمحبة.

. . .[(١)]**ومن** فوائد هذه المسألة أن يسئل عن المعنى الذي لأجله قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ علي عيني﴾ [طه: ٣٩] بحرف على وقال تعالى: ﴿تجْرى بِأعيننا﴾ [القمر: ١٤] بالباء ﴿واصنَعِ الفُلكَ بأعيُنِنَا﴾ وما الفرق.

فالفرق أن الآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفياً، وإبداء ما كان مكتوماً، فإن الأطفال إذ ذاك كانوا يغذون ويصنعون سرًّا، فلما أراد أن يصنع موسى ويغذى ويربى على حال أمن وظهور لا تحت خوف واستسرار دخلت على في اللفظ تنبيهًا على المعنى؛ لأنها تعطى الاستعلاء، والاستعلاء ظهور وإبداء، فكأنه يقول سبحانه وتعالى: ولتصنع على أمن لا تحت خوف، وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة.

وأما قوله تعالى ﴿تَجْرى بأعْيننا﴾ [القمر: ١٤] ﴿وَاصنَعِ الفُلكَ بأعينِنَا﴾ [هود: ٣٧]. فإنه إنما يريد برعاية منا وحفظ، ولا يريد إبداء شيء ولا إظهاره بعد كتم، فلم يحتج في الكلام إلى معنى على بخلاف ما تقدم هذا كلامه[(٢)]. ولم يتعرض ـ رحمه الله ـ تعالى لوجه الإفراد هناك والجمع هنا، وهو من ألطف معاني الآية.

والفرق بينهما يظهر من الاختصاص الذي خص به موسى في قوله تعالى: ﴿واصْطَنَعْتُك لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]. فاقتضى هذا الاختصاص الاختصاص الآخر في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ على عينى﴾ [طه: ٣٩]. فإن هذه الإضافة إضافة تخصيص.

وأما قوله تعالى: ﴿تجرى بأعيننا﴾ ﴿واصنَعِ الفُلك بأعيننا﴾ فليس فيه من الاختصاص ما في صنع موسي على عينه سبحانه وتعالى، واصطناعه إياه لنفسه. وما يسنده سبحانه إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع قد يريد به ملائكته كقوله تعالى:

(١) ٥ بدائع جـ٢.   (٢) يعني السهيلي حيث إنه فيما تقدم ينقل الشيخ ابن القيم عنه ويناقشه.

﴿فَإذا قَرأناه فاتَّبِع قُرآنه﴾ [القيامة: ١٨] وقوله: ﴿نَحنُ نَقُصُّ عليك﴾ [الكهف: ١٣]. ونظائره فتأمله.

. . .(١)**قوله** تعالى لكليمه موسى وأخيه هارون ﴿اذْهَبَا إلى فرعون إنه طَغَىٰ فقولا له قَولاً لَّيِناً لَّعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخشى﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]. فأمر تعالى أن يُلِيناَ القولَ لأعظم أعدائه وأشدهم كفراً وأعتاهم عليه؛ لئلا يكون إغلاظُ القول له ـ مع أنه حقيق به ـ ذريعةً إلى تنفيره وعدم صبره لقيام الحجة، فنهاهما عن الجائز لئلا يترتب عليه ما هو أكره إليه تعالى.

(٢)فصل

وأما السؤال السادس عشر وهو ما الحكمة في تسليم النبي، ﷺ، على من اتبع الهدى في كتابه إلى هرقل بلفظ النكرة وتسليم موسى عليهم بلفظ المعرفة؟ فالجواب عنه أن تسليم النبي، ﷺ، تسليم ابتدائي، ولهذا صدر به الكتاب حيث قال: من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، ففي تنكيره ما في تنكير سلام من الحكمة وقد تقدم بيانها.

وأما قول موسى ﴿وَالسَّلام على مَنِ اتبَعَ الهدى﴾ [طه: ٤٧] فليس بسلام تحية؛ فإنه لم يبتدىء به فرعون، بل هو خبر محض؛ فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه فإنه قال له: ﴿فَأَرسِل مَعَنا بَني إسرائيلَ ولاَ تُعَذِّبْهم قد جئناك بآيةٍ من رَّبِّكَ والسَّلامُ عَلى مَن اتَّبع الهدى * إنَّا قد أوحِي إلينا أَنَّ العَذابَ عَلى مَن كَذَّبَ وَتَولى﴾ [طه: ٤٧، ٤٨] أفلا ترى أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمته، وإنما وقع متوسطاً بين الكلامين إخباراً محضاً عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى، ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له مما جبلت النفوس على حبه وإيثاره من السلامة وأنه إن اتبع الهدي الذي جاءه به فهو من أهل السلام. والله أعلم. وتأمل حسن سياق هذه الجمل، وترتيب هذا الخطاب، ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته مع جلالته وعظمته، كيف ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿إنا رسولا ربك﴾، وفي ضمن ذلك إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا

---

(١) ١٥٠ أعلام جـ٣. (٢) ١٦٩ بدائع جـ٢.

لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه وطاعته وقبوله، كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه: أنا رسول مولاك إليك وأستاذك، وإن كان أستاذهما معاً، ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له.

ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم، ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططاً ولم يرهقه من أمره عسراً، بل طلب منه غاية النصف، ثم أخبره بعد الطلب بثلاث إخبارات.

أحدها: قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ من رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلى التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة فقد قامت الحجة.

ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان:

إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى والسلام على من اتبع الهدى.

وإما أن يكذب ويتولى فالعذاب على من كذب وتولى.

فجمعت الآية طلب الإنصاف، وإقامة الحجة، وبيان ما يستحقه السامع المطيع، ومايستحقه المكذب المتولي، بألطف خطاب وأليق قول وأبلغ ترغيب وترهيب.

... (١)**الاستطراد** أسلوب لطيف جداً في القرآن وهو نوعان:

أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلى لازمه، مثل هذا، ومثل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهمْ من خلَق السَّموات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيزُ العَليمُ﴾ ثم استطرد من جوابهم إلى قوله: ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُم الأرضَ مَهداً وَجَعَلَ لَكم فيها سُبُلا لَّعلكُم تَهتَدون * وَالَّذي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بقدرٍ فأنشرنا به بلدةً مَّيتًا كَذلك تُخرجُون * والذي خلق الأزواج كُلَّها وجَعَلَ لكُم مِنَ الفُلكِ والأنعام ماتَركَبُون * لِتَستَووا عَلى ظُهوره﴾ [الزخرف: ٩-١٣]. وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له، وإقامة الحجة عليهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿فمن رَّبُّكما يَامُوسَى * قال رَبُّنا الَّذي أعطىٰ كُلَّ شيء

---

(١) يراجع فيه الشيخ علي

خَلْقَه ثم هَدَى * قال فما بالُ القُرونِ الأُولى * قال عِلمُها عِند رَبِّي في كتابٍ لَّا يَضلُّ ربي ولَا يَنسى﴾ فهذا جواب موسى.

ثم استطرد سبحانه منه إلى قوله: ﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهدا وَسَلَكَ لَكُم فيها سُبُلًا وأنزل من السَّماء مَاء فَأخرجنَا بهِ أَزْواجاً مِن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوا أنعامَكُم إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لأولي النُّهي * مِنها خَلَقناكُم وَفِيهَا نُعيدُكم ومِنها نُخرِجُكم تارةً أخراى﴾ [طه: ٥٣ ـ ٥٥]. ثم عاد إلى الكلام الذي استطرد منه.

والنوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلى النوع كقوله: ﴿وَلَقد خَلَقنا الإنْسانَ مِن سُلالَةٍ مِن طين ثم جَعَلنَاه نُطفَةً في قَرارٍ مَّكِين﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى آخره فالأول آدم، والثاني بنوه ومثله قوله: ﴿هُوَ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَّفسٍ واحدة وَجَعَلَ مِنها زَوجَها لِيَسْكُن إليها فلَمَّا تغشَّاهَا حَمَلَت حَملًا خَفِيفًا فَمرَّت به فَلَمَّا أثقلت دَعَوَا الله رَبَّهما لئِن آتيتنَا صالحًا لَنكُونَنَّ مِنَ الشَّاكرين * فَلَمَّا آتَاهُما صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُركَآءَ فِيما آتاهُما﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠]. إلى آخر الآيات، فاستطرد من ذكر الأبوين إلى ذكر المشركين من أولادهما. والله أعلم.

... (١)وأما المسألة السابعة عشرة وهي أن الهداية هنا من أي أنواع الهدايات فاعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذي أعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَه ثم هَدى﴾ [طه: ٥٠] أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له فله هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به وإن اختلفت أنواعها وصورها. وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند

(١) ٣٥ بدائع جـ٢.

وضعه وطلبه، ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين.

وهدي النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومن الأبنية ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصي عليها، ثم تأوى إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها. ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء.

ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة، فإن من لم يهمل هذه الحيوانات سدى ولم يتركها معطلة بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني ـ الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله على كثير من خلقه ـ مهملاً وسدى معطلاً لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته بل يتركه معطلاً لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه، وهل هذا إلا مناف لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلاله، ولهذا أنكر ذلك على من زعمه، ونزه نفسه عنه، وبين أنه يستحيل نسبة ذلك إليه، وأنه يتعالى عنه فقال تعالى: **﴿أَفَحَسِبتم أنما خَلَقناكُم عَبَثًا وَأَنَّكم إلينا لاتُرجعونَ * فَتعَالى الله المَلكُ الحَقُّ﴾** [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فنزه نفسه عن هذا الحسبان، فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة.

وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع كما هو أصح الطريقين في ذلك.

ومن فهم هذا فهم سر اقتران قوله تعالى: **﴿وَمَا مِن دابةٍ في الأرض وَلَا طائِرٍ يَطيرُ بجناحيه إلا أُمَمٌ أمثالُكم ما فَرَّطنا في الكتاب من شيءٍ ثُم إلى ربِّهم يُحشرون﴾** [الأنعام: ٣٨]. بقوله: **﴿وَقَالُوا لَولاَ نُزِّلَ عَلَيه آيةٌ من رَبِّه قُل إن الله قادرٌ على أن يُنزِّل آيةً ولكنَّ أكثرهم لا يَعلَمُون﴾** [الأنعام: ٣٧]. وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال، والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه بل جعلها أمماً وهداها إلى غاياتها ومصالحها كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟! فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك. وهذه الهداية لا تستلزم الهدي التام؛ فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينتفي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمودُ فَهَدَيناهُم فَاستَحَبُّوا العَمى عَلَى الهُدى﴾ [فصلت: ١٧] أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا. ومنها قوله: ﴿وَإِنَّك لَتهدي إلى صِراطٍ مستقيمٍ﴾ [الزخرف: ٥٢]

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام. وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضلُّ من يَّشاءُ وَيهدي من يَّشاءُ﴾ [فاطر:٨]. وفي قوله: ﴿إن تَحرِصْ عَلىٰ هُداهم فإنَّ الله لايَهدي مَن يُّضلُّ﴾ [النحل:٣٧]. وفي قول النبي، ﷺ: «من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له» وفي قوله تعالى: ﴿إنَّك لا تهدي من أحببتَ﴾ [القصص: ٥٦] فنفى عنه هذه الهداية، وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإنَّك لَتهدي إلىٰ صِراطٍ مستقيم﴾ [الشورى:٥٢].

الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلها إليهما قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذين آمنوا وعملُوا الصَّالِحاتِ يَهديهم رَبُّهم بإيمَانهم تجرى من تحتِهم الأنهارُ في جَنَّاتِ النعيم﴾ [يونس: ٩] وقال أهل الجنة فيها: ﴿الحمد لله الَّذي هَدَانا لهذا﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقال تعالى عن أهل النار: ﴿احشُرُوا الَّذين ظَلَمُوا وأزواجَهُم ومَاكانوا يَعبُدون * مِن دون الله فَاهدُوهُم إلى صِراطِ الجَحِيم﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

إذا عرف هذا فالهداية المسئولة في قوله: ﴿الصراط المستقيم﴾ إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة، فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام.

فإن قيل كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق.

قيل هذه هي المسألة الثامنة عشرة.

وقد أجاب عنها من أجاب بأن المراد التثبيت ودوام الهداية. ولقد أجاب وما أجاب، وذكر فرعاً لا قوام له بدون أصله، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها. ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به وأعظم من ذلك بحول الله.

فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور، وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها.

الأمر الأول معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوباً للرب تعالى مرضياً

له فيؤثره، وكونه مغضوباً له مسخوطاً عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريدًا لجميع مايحب الله منه أن يفعله عازمًا عليه، ومريداً لترك جميع ما نهى الله عازماً على تركه بعد خطوره بالبال مفصلاً، وعازماً على تركه من حيث الجملة مجملاً، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائماً به فعلاً وتركاً، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه، فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية، ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها.

أحدها أمور هُدىَ إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها، فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الثاني أمور هدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث الأمور التي هدي إليها تفصيلاً من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها. فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه.

ويتعلق بالماضي أمر سابع، وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها، وتبديلها بغيرها. وإذا كان كذلك فإنما يقال كيف يسأل الهداية وهي موجودة له، ثم يجاب عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل، فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام. فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، ومالا يريده من رشده أكثر مما يريده، ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعلية فيه، فالمسئول هو أصل الهداية على الدوام تعليماً وتوفيقاً وخلقاً للإرادة فيه وإقداراً له، وخلقاً للفاعلية، وتثبيتاً له على ذلك. فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها، علماً وعملاً، والتثبيت عليها والدوام إلى الممات.

وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره أصلاً وتفصيلاً وتثبيتاً، ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام، فليس له أنفع

ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية. فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يثبت قلوبنا على دينه.

. . . (١)**فصل** فلنرجع إلى ما ساقنا إلى هذا الموضع وهو الكلام على الهداية العامة التي هي قرينة الخلق في الدلالة على الرب تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وتوحيده.

قال تعالى إخبارًا عن فرعون أنه قال: ﴿**فَمن رَّبُكما ياموسى * قال رَبُّنا الذي أعطى كُلَّ شيءٍ خَلقَه ثم هَدَى**﴾ [طه: ٤٩، ٥٠] قال مجاهد: أعطى كل شيء خلقه، لم يعط الإنسان خلق البهائم، ولا البهائم خلق الإنسان. وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى. قال عطية ومقاتل: أعطى كل شيء صورته.

وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه، والمعنى أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له، وهداه لما يصلحه في معيشته، ومطعمه ومشربه، ومنكحه، وتقلبه وتصرفه. هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين فيكون نظير قوله: ﴿**قَدَّرَ فَهَدَى**﴾ [الأعلى: ٣].

وقال الكلبي والسدّي: أعطى الرجل المرأة والبعير الناقة، والذكر الأنثى من جنسه.

ولفظ السدي: أعطى الذكر الأنثى مثل خلقه، ثم هدى إلى الجماع. وهذا القول اختيار ابن قتيبة والفراء.

قال الفراء أعطى الذكر من الناس امرأة مثله، والشاة شاة، والثور بقرة، ثم ألهم الذكر كيف يأتيها. قال أبو إسحاق: وهذا التفسير جائز؛ لأنا نرى الذكر من الحيوان يأتي الأنثى ولم ير ذكراً قد أتى أنثى قبله، فألهمه الله ذلك وهداه إليه.

قال والقول الأول ينتظم هذا المعنى؛ لأنه إذا هداه لمصلحته فهذا داخل في المصلحة.

قلت: أرباب هذا القول هضموا الآية معناها؛ فإن معناها أجل وأعظم مما ذكروه.

وقوله: ﴿**أعطى كل شيء**﴾ يأبى هذا التفسير؛ فإن حمل كل شيء على ذكور الحيوان وإناثه خاصة ممتنع لا وجه له، وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن، ومن لم يتزوج من بني آدم، ومن لم يسافد من الحيوان؟ وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقاً له؟! وأين نظير هذا في القرآن وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه ذكره بأدل عبارة عليه وأوضحها، فقال ﴿**وَأَنَّه خَلَقَ الزَّوجَين**

(١) ٧٨ شفاء.

الـذَّكَـرَ والأنثى﴾ [النجم: ٤٥] فحمل قوله: **﴿أعطى كل شيء خلقه﴾** على هذا المعنى غير صحيح فتأمله.

وفي الآية قول آخر قاله الضحاك قال: أعطى كل شيء خلقه: أعطى اليد البطش، والرجل المشي، واللسان النطق، والعين البصر، والأذن السمع.

ومعنى هذا القول أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له. والخلق على هذا بمعنى المفعول، أي أعطى كل عضو مخلوقه الذي خلقه له، فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله أودعها الأعضاء.

وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه لكن معنى الآية أعم، والقول هو الأول وأنـه سبحـانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له، ولا خالق سواه سبحانه، ولا هادي غيره، فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته.

فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون، ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه عدل إلى سؤال فاسد عن وارد فقال: **﴿فَمَا بَالُ القُرُونِ الأولىٰ﴾** [طه: ٥١] أي فما للقرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده بل عبدت الأوثان.

والمعنى لو كان ما تقوله حقًّا لم يخف على القرون الأولى ولم يهملوه، فاحتج عليه بما يشـاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل. ولهذا صار هذا ميزاناً في ورثته يعـارضـون نصوص الأنبياء بأقوال الزنادقة والملاحدة وأفراخ الفلاسفة والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم.

فأجـابه موسى عن معارضته بأحسن جواب فقال: **﴿عِلمُها عندَ رَبيٍّ﴾** [طه: ٥٢] أي أعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم معلوم لربي قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب، فيجازيهم عليه يوم القيا مة، ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال؛ فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى .وعلى هذا فالكتاب هاهنا كتاب الأعمال.

وقال الكلبي: يعني به اللوح المحفوظ. وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق.

والمعنى على هذا أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها، فيكون هذا من تمام قوله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى فتأمله.

فصل وهو سبحانه في القرآن كثيراً ما يجمع بين الخلق والهداية كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله ﴿اقرأ باسْم رَبِّك الَّذي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَق * اقرأ وَربُّك الأكرم * الَّذي عَلَّمَ بالقَلَم * عَلَّمَ الإنسانَ مَا لَم يعلم﴾ [العلق: ١-٥]. وقوله: ﴿الرَّحمنُ * علَّمَ القُرانَ * خَلَقَ الإنسانَ * عَلَّمهُ البيانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] وقوله: ﴿أَلَم نَجعل لَّهُ عَينين * وَلسانًا وَّشَفَتين * وَهَدَيناهُ النَّجدين * فَلَا اقتَحَمَ العَقَبة﴾ [البلد: ٨-١١]. وقوله: ﴿إنَّا خَلقنَا الإنسانَ من نُّطفة أمشاج نبتليه فجعلناهُ سَميعًا بصيراً * إنَّا هَديناهُ السَّبيلَ إمَّا شَاكرًا وإما كفورًا﴾ [الإنسان: ٢-٣]. وقوله: ﴿أمَّن خلقَ السمواتِ والأرضَ وأنزلَ لكُم مِنَ السَّماءِ مآءً فأنبتنا به حَدَائقَ ذَاتَ بَهجةٍ﴾ [النمل: ٦٠] الآيات ثم قال: ﴿أمَّنْ يَّهْدِيكم في ظُلماتِ البرِّ والبحْرِ﴾ [النمل: ٦٣] فالخلق إعطاء الوجود العيني الخارجي، والهدى إعطاء الوجود العلمي الذهني فهذا خلقه وهذا هداه وتعليمه.

فصل المرتبة الثانية من مراتب الهداية هداية الإرشاد والبيان للمكلفين. وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق، وإن كانت شرطاً فيه، أو جزء سبب، وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب، بل قد يتخلف عنه المقتضي إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأمَّا ثمودُ فَهَديناهُم فَاستحبُّوا العَمَى عَلىَ الهُدى﴾ [فصلت: ١٧]

وقال: ﴿وَمَاكان الله ليُضِلَّ قومًا بعد إذ هَداهم حَتَّى يُبيِّنَ لَهم مَّايتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

فهداهم هدى البيان والدلالة فلم يهتدوا، فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولاً بعد أن عرفوا الهدى فأعرضوا عنه فأعماهم عنه بعد أن أراهموه.

وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه كما قال تعالى: ﴿ذلك بأنَّ الله لم يَكُ مُغيِّراً نِّعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفُسهم﴾ [الأنفال: ٥٣]

وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بها واستَيقنَتْها أنفُسُهم ظُلما وعُلوّاً﴾ [النمل: ١٤] أي جحدوا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها وقال: ﴿كَيفَ يَهدي الله قوماً كفَرُوا بعدَ إيمانهم وشَهِدُوا أنَّ الرسُولَ حقٌّ وجَآءَهُم البيِّنَاتُ والله لا يهدي القوم الظَّالمين﴾. [آل عمران: ٨٦]. وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله حيث قال: ﴿وَإنَّك لتهدي إلى صِراط مُّستقيم﴾. [الشورى: ٥٢].

ونفى عنه ملك الهداية الموجبة، وهي هداية التوفيق والإلهام بقوله: ﴿إِنَّك لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت﴾.

ولهذا قال ﷺ: «بعثت داعياً ومبلغاً وليس إليّ من الهداية شيء، وبعث إبليس مزيناً ومغوياً وليس إليه من الضلالة شيء».

قال تعالى: ﴿والله يَدعُو إلى دارِ السَّلامِ وَيَهدي مَن يَّشاءُ إلىٰ صِراطٍ مستقيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] فجمع سبحانه بين الهدايتين العامة والخاصة فعم بالدعوة حجة مشيئة وعدلاً، وخص بالهداية نعمة مشيئة وفضلاً.

وهذه المرتبة أخص من التي قبلها؛ فإنها هداية تخص المكلفين، وهي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحداً إلا بعد إقامتها عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعذِّبين حتَّى نبعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] وقال: ﴿رُسُلاً مُّبشِّرينَ وَمنذرينَ لِئَلَّا يكونَ لِلنَّاس على الله حُجَّة بعد الرُّسُل﴾ [النساء: ١٦٥]

وقال: ﴿أن تَقولَ نَفسٌ ياحسرتا عَلى ما فَرَّطتُ في جَنب الله وَإن كُنتُ لمنَ السَّاخرين * أو تَقولَ لو أنَّ الله هَدَاني لَكُنتُ من المُتقين﴾ [الزمر: ٥٦، ٦٧].

وقال: ﴿كُلَّما ألقي فيها فوجٌ سَألهم خزَنَتها ألم يأتكُم نَذيرٌ * قَالوا بَلى قد جاءنا نَذيرٌ فَكذَّبنا وَقُلنا ما نَزَّلَ الله من شيَءٍ إن أنتم إلاَّ في ضَلالٍ كَبير﴾ [الملك: ٨، ٩]

فإن قيل كيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى وحال بينهم وبينه.

قيل: حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى، وبيان الرسل لهم، وإراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عياناً، وأقام لهم أسباب الهداية ظاهراً وباطناً، ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب. ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل أو صغر لا تمييز معه، أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهدى ولم يحل بينهم وبينه.

نعم قطع عنهم توفيقه، ولم يرد من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه، فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم، وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه، وهو فعله ومشيئته وتوفيقه، فهذا غير مقدور لهم، وهو الذي منعوه وحيل بينهم وبينه.

فتأمل هذا الموضع واعرف قدره والله المستعان.

فصل

المرتبة الثالثة من مراتب الهداية: هداية التوفيق والإلهام، وخلق المشيئة المستلزمة للفعل. وهذه المرتبة أخص من التي قبلها، وهي التي ضل جهال القدرية بإنكارها، وصاح عليهم سلف الأمة وأهل السنة منهم من نواحي الأرض عصراً بعد عصر إلى وقتنا هذا، ولكن الجبرية ظلمتهم ولم تنصفهم، كما ظلموا أنفسهم بإنكار الأسباب والقوى، وإنكار فعل العبد وقدرته، وأن يكون له تأثير في الفعل البتة، فلم يهتدوا لقول هؤلاء، بل زادهم ضلالاً على ضلالهم وتمسكاً بما هم عليه، وهذا شأن المبطل إذا دعا مبطلاً آخر إلى ترك مذهبه لقوله ومذهبه الباطل، كالنصراني إذا دعا اليهودي إلى التثليث وعبادة الصليب، وأن المسيح إلـه تام غير مخلوق، إلى أمثال ذلك من الباطل الذي هو عليه. وهذه المرتبة تستلزم أمرين أحدهما فعل الرب تعالى وهو الهدى.

والثاني فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر فعله سبحانه، فهو الهادي والعبد المهتدى.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَهدِ الله فهو المهتد﴾ [الإسراء: ٩٧] ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد، ولهذا قال تعالى: ﴿إن تحرص على هُداهُم فإنَّ الله لا يَهدي مَن يُضلُّ﴾ [النحل: ٣٧]

وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له ﷺ ولو حرص عليه، ولا إلى أحد غير الله، وأن الله سبحانه إذا أضل عبداً لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته كما قال تعالى: ﴿مَن يُضلِلِ الله فلَا هَادي لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿مَن يَّشأ الله يُضْلِلهُ وَمَن يَّشأ يجعله عَلى صِراط مُّستقيم﴾ [الأنعام: ٣٩]

وقال تعالى: ﴿أفمن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عمله فرآهُ حَسَناً فإنَّ الله يُضلُّ من يشاءُ ويَهدي مَن يَّشاءُ فلا تذهب نَفسكَ عَلَيهم حَسَراتٍ﴾ [فاطر: ٨]

وقال تعالى: ﴿أفرأيتَ مَن اتخذَ إلهه هَواهُ وأَضَلَّهُ الله عَلى عِلم وَخَتَمَ عَلى سَمعِهِ وَقَلبِهِ وَجَعَلَ على بَصرِهِ غشَاوَةً فمنَ يَّهديه مِن بعد الله أفلَا تَذَكَّرونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَيسَ عَليك هُداهمْ وَلكنَّ الله يَهدي مَن يَشاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال: ﴿وَلو شِئنَا لآتَينا كُلَّ نَفس هُداها﴾ [السجدة: ١٣]

وقال: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يَشَاءُ الله لهَدَىَ النَّاس جميعاً﴾ [الرعد: ٣١]

وقال: ﴿فمن يُرد الله أن يَّهديه يَشرح صَدرَه للإسلامِ ومن يُرد أن يُّضلَّه يجعل صَدرَه ضَيِّقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعد في السَّماءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

وقال أهل الجنة: ﴿الحمدُ لله الَّذي هَدانا لهَذا وَمَا كُنَّا لِنَهتدي لَولاَ أن هَدَانا الله﴾ [الأعراف: ٤٣]. **ولم** يريدوا أن بعض الهدى منه وبعضه منهم بل الهدى كله منه، ولولا هدايته لهم لما اهتدوا.

وقال تعالى: ﴿أليس الله بِكافٍ عَبدَه ويُخوِّفونَك بالَّذينَ مِن دُونه وَمَن يُضلِلِ الله فَما لَهُ مِن هَادٍ * ومن يَهدِ الله فَما لهُ مِن مُّضِلٍّ أليس الله بعزيز ذي انتقام﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧].

وقال: ﴿وَمَا أرسَلنا من رَّسُولٍ إلا بلسانِ قومِهِ ليُبيِّنَ لَهُم فَيُضِلُّ الله مَن يَّشاءُ ويهدي مَن يَّشاءُ وَهُوَ العزيزُ الحكِيم﴾ [إبراهيم: ٤]

وقال: ﴿وَلَقد بَعثنا في كلِّ أُمَّة رسولاً أنِ اعبُدُوا الله وَاجتنبُوا الطَّاغوت فَمنهم مَن هَدىَ الله ومنهُم مَن حقَّت عَليه الضَّلاَلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿يُثبتُ الله الذين آمنُوا بِالقولِ الثَّابتِ في الحيَاةِ الدُّنيا وَفي الآخِرةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالمينَ وَيفعلُ الله مَا يشاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]

وقال تعالى: ﴿كذلِك يُضلُّ الله من يشاءُ ويهدي مَن يَّشاءُ وما يَعلم جنودَ ربِّك إلا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كثيراً ويَّهدي بِهِ كثيراً وَمَا يُضلُّ بِهِ إلا الفَاسِقِين﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال: ﴿يَهدِي بِهِ الله مَن اتَّبَعَ رضوانَه سُبُل السَّلام وَيخرجُهم من الظلماتِ إلى النور بإذنه وَيهديهم إلى صِراطٍ مُّستقيم﴾ [المائدة: ١٦].

وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه.

كما أن الضلال نوعان ضلال عن الصراط فلا يهتدي إليه وضلال فيه، فالأول ضلال عن معرفته، والثاني ضلال عن تفاصيله أو بعضها.

قال شيخنا: ولما كان العبد في كل حال مفتقراً إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو محتاج إلى التوبة منها.

وأمور هدى إلى أصلها دون تفصيلها أو هدى إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلى

تمام الهداية فيها ليزداد هدى.

وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي.

وأمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية.

وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية إلى غير ذلك من أنواع الهدايات فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله وهي الصلاة مرات متعددة في اليوم والليلة انتهى كلامه...

(١)فصل

المرتبة الرابعة: من مراتب الهداية: الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿**احشروُا الذينَ ظلمُوا وَأزواجَهُم وَمَا كانُوا يَعبدُونَ * من دُون الله فَاهدُوهُم إلى صِراط الجحيم**﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى: ﴿**وَالَّذين قُتلوا في سَبيلِ الله فلن يُضِلَّ أعمالَهُم * سيهديهم وَيُصلحُ بالَهم**﴾ [محمد: ٤،٥] فهذه هداية بعد قتلهم فقيل المعنى سيهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح حالهم في الآخرة بإرضاء خصومهم وقبول أعمالهم.

وقال ابن عباس: سيهديهم إلى أرشد الأمور ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا.

واستشكل هذا القول لأنه أخبر عن المقتولين في سبيله بأنهم(٢) سيهديهم واختاره الزجاج، وقال: يصلح بالهم في المعاش وأحكام الدنيا قال: وأراد به يجمع لهم خير الدنيا والآخرة. وعلى هذا القول فلابد من حمل قوله: ﴿**قتلوا في سبيل الله**﴾ على معنى يصح معه إثبات الهداية وإصلاح البال.

(٣)**قوله** تعالى: ﴿**وَعَجِلتُ إليكَ رَبِّ لِتَرضَى**﴾ [طه: ٨٤].

ظاهر الآية: أن الحامل لموسى على العجلة هو طلب رضى ربه، وأن رضاه في المبادرة إلى أوامره، والعجلة إليها. ولهذا احتج السلف بهذه الآية على أن الصلاة في أول الوقت أفضل.

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك. قال: إن رضى الرب في العجلة إلى أوامره.

---

(١) ٨٤ شفاء. (٢) كذا بالأصل ولعله: بأنه (ج). (٣) ٥٩ مدارج جـ٣.

ومن تلاعبه بهم(١)

عبادتهم العجل من دون الله تعالى، وقد شاهدوا ما حلَّ بالمشركين من العقوبة، والأخذة الرَّابيةِ، ونبيُّهم حيٌّ لم يمت.

هذا. وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه، ويصليه النار، ويدقُّه بالمطرقة، ويسطو عليه بالمبرد، ويقلبه بيديه ظهراً لبطن.

ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى. فنسبوا موسى عليه السلام إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دفعاً عن نفسه، بحيث يضربُ به المثلُ في البلادة والذُّلُ. فجعلوه إله كليم الرحمن.

ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى عليه السلام ضالًّا مخطئًا، فقالوا: ﴿فنَسِىَ﴾ [طه:٨٨. قال ابن عباس: «أي ضَلَّ وأخطأ الطريق».

وفي رواية عنه «أي إن موسى ذهب يطلب ربه فَضَلَّ، ولم يعلم مكانه».

وعنه أيضاً «نسى أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم».

وقال السُّدي: «أي ترك موسى إلهه ههنا، وذهب يطلبه».

وقال قتادة «أي إن موسى إنما يطلب هذا، ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر».

هذا هو القول المشهور: أن قوله «فنسى» من كلام السامريِّ وعُبَّاد العجل معه.

وعن ابن عباس رواية أخرى «أن هذا من إخبار الله تعالى عن السامري: أنه نسى، أي ترك ما كان عليه من الإيمان».

والصحيح: القول الأول، والسياق يدل عليه، ولم يذكر البخاري في التفسير غيره، فقال: [فنسى موساهم(٢)] يقولونه: أخطأ الربُّ».

فإنه لما جعله إله موسى استحضر سؤالاً من بني إسرائيل يوردونه عليه، فيقولون له: إذا كان هذه إله موسى، فلأيِّ شيء ذهب عنه لموعد إلهه؟ فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله «فنسى».

وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم.

فانظر إلى هؤلاء، كيف اتخذوا إلهاً مصنوعاً: مصنوعاً من جوهر أرضي، إنما

---

(١) ٣٠٠ إغاثة جـ٢. (٢) زيادة من صحيح البخاري، وانظر شرحه في الفتح (ج ٦ ص ٢٧٠).

يكون تحت التراب، محتاجاً إلى سبك بالنار، وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقاً بمطارق الحديد، مقلباً في النار مرة بعد مرَّة، قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضَّيْم، وجعلوه إله موسى، ونسبوه إلى الضلال، حيث ذهب يطلب إلهاً غيره.

قال محمد بن جرير: وكان سببَ اتخاذهم العجل ما حدثني به عبدالكريم بن الهيثم قال حدثني إبراهيم بن بشار الرَّمادي حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا أبوسعيد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «لما هجم فرعون على البحر، هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم [ذنوب(١)] فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصانُ أن يقتحم في البحر، فمثَلَ له جبريل على فرس أنثى [وَدِيق(٢)] فلما رآها الحصان تَقَحَّم خَلْفَها، قال: وعرف السامريُّ جبريلَ [لأن أمه حين خافت أن يُذبح خلَّفته في غارٍ وأطبقت عليه. وكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه، فيجد في بعض أصابعه لبناً، وفي الأخرى عسلاً، وفي الأخرى سمناً، فلم يزل يغذوه حتى نشأ، فلما عاينه في البحر عرفه](٣). فقبض قبضة من أثر فرسه. قال: أخذ قبضة من تحت الحافر.

قال سفيان: وكان ابن مسعود يقرؤها «فقَبَضْتُ قَبْضةً من أثرِ فرَسِ الرسول».

قال أبو سعيد قال عكرمة عن ابن عباس: «وأُلقي في روع السامري: إنك لا تلقيها على شيء، فتقول: كُن كذا وكذا إلا كان، فلم تزل القبضة معه في يده، حتى جاوز البحر، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر، وأغرق الله آل فرعون، قال موسى لأخيه هارون: اخْلُفني في قَوْمي وأصلحْ، ومضى موسى لموعد ربه. قال: وكان مع بني إسرائيل حُليٌّ من حلي آل فرعون، قد استعاروه، فكأنهم تأثَّموا منه، فأخرجوه لتنزل النارُ فتأكله. فلما جمعوه قال السامري بالقبضةِ التي كانت في يده هكذا. [وأومأ ابن إسحاق بيده هكذا](٤)، فقذفها فيه وقال: كن عجلاً جَسَداً له خُوارٌ، فصار عجلاً جسداً له خوار، فكان يدخل الريح من دُبُره ويخرج

---

(١) -(٢) زيادة من تفسير ابن جرير (ج١ ص٣٢٢) والذنوب: الفرس الوافر الذيل. واستودقت الفرس أرادت الفحل وطلبته. فهي وديق وودوق. (٣) و(٤) زيادة من ابن جرير.

من فيه، يُسمع له صوت: ﴿فقالوا هذا إلهكم وإلهُ مُوسى﴾ [طه: ٨٨] فعكفوا على العجل يعبدونه، فقال هارون: ﴿يَاقوم إنَّما فُتنتمْ بِهِ وإنَّ رَبَّكُمُ الرَّحمنُ فَاتَّبعوني وَأطيعوا أمري * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيهِ عَاكِفين حتَّى يرجعَ إلينَا موسَى﴾ [طه: ٩٠، ٩١].

وقال السُّدِّي «لما أمر الله موسى أن يخرجَ ببني إسرائيل من أرض مصر أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا الحُليَّ من القبط. فلما نجى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر، وأغرق آل فرعون، أتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الله، فأقبل على فرس، فرآه السامريُّ، فأنكره. ويقال: إنه فرس ا لحياة(١). فقال حين رآه: إن لهذا لشأناً، فأخذ من تربة حافر الفرس. فانطلق موسى عليه السلام، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وواعدهم ثلاثين ليلة، فأتمها الله تعالى بعشر. فقال لهم هارون: يابني إسرائيل، إن ا لغنيمة لا تحلُّ لكم، وإن حُليَّ القبط إنما هو غنيمة، فاجمعوها جميعاً واحفروا لها حُفرة فادفنوها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها [وإلا كان شيئاً لم تأكلوه](٢) فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة، وجاء السامريُّ بتلك القبضة، فقذفها، فأخرج الله من الحلي عجلاً جسداً له خوار [وعَدَّت بنو إسرائيل مَوعد موسى. فعدوا الليلة يوماً واليوم يوماً. فلما كان تمام العشرين أخرج لهم العجل](٣) فلما رأوه قال لهم السامري: ﴿هـذا إلهُكم وإلـهُ موسى فَنسى﴾ [طه: ٨٨] يقول: ترك موسى إلهه ههنا، وذهب يطلبه. فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي، فقال لهم هارون: يابني إسرائيل، ﴿إنَّما فُتنتمْ بهِ﴾، يقول: إنما ابتليتم بالعجل ﴿وَإنَّ رَبَّكُمُ الرَّحمنُ﴾ [طه: ٩٠] فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل، لا يقاتلونهم. وانطلق موسى إلى الله يكلمه، فلما كلمه قال له: ﴿مَا أعجَلكَ عَنْ قَومكَ يَاموسى * قال هُمْ أولاءِ عَلَى أثَري وَعَجِلتُ إليكَ رَبِّ لِتَرضَى * قال فَإنَّا قَدْ فَتنَّا قَومَكَ من بَعْدِكَ [وَأضَلَّهُمُ السَّامريُّ](٤) [طه: ٨٣ - ٨٥]. فأخبره خبرهم. قال

---

(١) في ابن جرير: وقال إنه فرس الحياة.

(٢)، (٣)، (٤) زيادات من تفسير ابن جرير. وهذه الروايات ليس فيها شيء مسند إلى رسول الله، ﷺ، وظاهر من

موسى: يارب هذا السامريُّ أمرهم أن يتخذوا العجل. فالروح مَن نفخها فيه؟ قال الرب تعالى: أنا، قال: يارب أنت إذًا أضللتهم».

وقال ابن إسحق عن حكيم بن جُبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان السامري [من أهل باجِرْما](١) وكان من قوم يعبدون

= سياقها أنها إسرائيلية. وظاهر فيها التكلف. والأقرب إلى معنى القرآن وأسلوبه ـ والله أعلم ـ أن السامري كان صانعاً ومثالاً يصنع تلك الصور والتماثيل في مصر للعجول وغيرها. وأنه كان كنوداً حسوداً يحسد موسى على ما وهبه الله من النبوة والرياسة بالحق على بني إسرائيل. فانتهز فرصة ذهابه لميقات ربه، وقال لبني إسرائيل: إن ما تحملون من حلى القبط عليه من صور آلهتهم ومعبوداتهم، وذلك مشاركة لهم في وثنيتهم، فاجمعوا ذلك وألقوه عنكم، فجمعوه وأعطوه إياه، فأخذه وصاغه بصنعته الهندسية على صورة العجل، واحتال عليه حتى جعله يخرج الريح من فمه كشبه خوار العجل. مثل الذي يصنعه اليوم أصحاب السيارات في نفيرها الذي ينبهون به على أصوات مختلفة. ثم أخرجه إلى بني إسرائيل، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، وقد نسي أن يأمركم بعبادته وأنا أبلغكم عنه ذلك، يقول السامري هذا ويفعله يبتغي الرياسة على بني إسرائيل بالباطل والكفر. فعكفلوا عليه يعبدونه طاعة للسامري، حتى جاء موسى غضبان أسفاً. وقال للسامري: (ما خطبك ياسامري؟ قال بصرت بما لم يبصروا به) من فن الهندسة والصياغة فصغت لهم هذا العجل، وقد كنت قبضت قبضة من أثر الرسول، ولم يقل من أثر الملك ولا من أثر جبريل. وليس ثم رسول إلا موسى يقول: أخذت قليلاً من أثرك، يعني من دينك الذي تأثره عن ربك، ولكن ذلك الدين لم يصل إلى قلبي، ولم يجاوز يدي، وقد كان ما أخذته قليلاً قدر ما يقبض الإنسان في يده شيئاً بسيطاً من الطعام ونحوه. ثم طرحت ذلك ونبذته، وكفرت بك وبما جئت به، حسداً لك على ما أوتيت من هذه الرياسة. ويدل على ذلك قوله «فنبذتها» فإنما النبذ يقال لطرح الشيء المكروه، أو الحقير الممتهن. وما يذكر في الروايات الإسرائيلية يدل أنه كان معتزاً بما قبض من أثر فرس جبريل ومكر ما له، فلا يناسبه التعبير بالنبذ. هذا وينبغي أن يفهم قصص القرآن الكريم بنص الآيات فقط، بعيداً كل البعد عما يروى في ذلك من الإسرائيليات. وإن كان قد رواه ابن جرير وابن كثير أوغيرهما. اللهم إلا إذا كان ذلك عن الرسول، ﷺ، فينظر في الرواية، فإن صحت فعلى العين والرأس، وإن لم تفهمها عقولنا القاصرة. فإن قلوبنا المؤمنة تطمئن إليها ولا تجد لها أدنى حرج. أما كانت ضعيفة السند أو واهية، فإنها تضاف إلى الإسرائيليات. وإنما كان لما يروى عن الرسول، لأنه لا يكون من عند بشريته. وإنما يكون من إيحاء الله له. أما ما كان عن الصحابة، فهو بلاشك من بشريتهم وأفهامهم، أو من مسموعاتهم من مسلمة بني إسرائيل، أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه. وأمثالهما، والله أعلم بما أصاب التفسير من أقوالهما وقصصهما، بل وبما أصاب الإسلام كله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) زيادة من تفسير ابن جرير.

البقر، فكان يحب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل. فلما ذهب موسى إلى ربه قال لهم هارون: أنتم قد حملتم أوزاراً من زينة القوم آلِ فرعون وأمتعةً وحُليًّا، فتطهروا منها، فإنها نَجَس، وأوقد لهم ناراً. فقال: اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها، فجعلوا يأتون بها كان معهم من تلك الأمتعة والحلي، فيقذفون به فيها، حتى إذا انكسر الحليُّ فيها، ورأى السامريُّ أثَرَ فرسِ جبريل، فأخذ تراباً من أثرِ حافره، ثم أقبل إلى النار، فقال لهارون: يانبي الله، أُلقي ما في يدي؟ ولا يَظنُّ هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة. فقَذَفه فيها، فقال: كُن عجلاً جسداً له خوار، فكان البلاء والفتنة، فقال: هذا إلهكم وإله موسى، فعكفوا عليه، وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً مثله قط. يقول الله عز وجل: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني السامريَّ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنْ لَا يَرجِعُ إليهمْ قولاً وَلَا يَملِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نفعاً﴾ [طه: ٨٩].

وكان اسم السامري موسى بن ظفر وقع في أرض مصر فدخل في بني إسرائيل[1].

فلما رأى هارون ماوقعوا فيه قال: ﴿يَاقَوم إنَّما فُتنتُم بِهِ وإنَّ رَبَّكُمُ الرَّحمٰن فَاتَّبعوُني وأطيعُوا أمري * قالوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيهِ عَاكِفِينَ حتَّى يَرجعَ إلينا مُوسَى﴾ [طه: ٩٠، ٩١].

فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يَفتتنْ، وأقام مَنْ يعبد العجل على عبـادة العجل، وتَخَوَّف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: ﴿فرَّقْتَ بَيْنَ بني إسرائيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَولي﴾ [طه: ٩٤] وكان له هائباً مطيعاً.

فقـال تعـالى مذكـراً لبني إسرائيل بهذه القصة التي جرت لأسلافهم مع نبيهم. ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِه﴾ [البقرة: ٥١] يعني من بعد ذهابه إلى ربه. وليس المراد من بعدِ موته ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي بعبادة غيرالله تعالى؛ لأن الشِّرْكَ أظلمُ الظلم؛ لأن المشركَ وضَعَ العبادة في غير موضعها.

فلما قَدِمَ موسى عليه السلام ورأى ماأصابَ قومه من الفتنة اشتد غضبه، وألقى الألواح عن رأسه، وفيها كلامُ اللهِ الذي كتبه له، وأخذ برأس أخيه ولحيته، ولم يَعْتِبِ الله عليه في ذلك، لأنه حمله عليه الغضبُ للهِ. وكان الله عز وجل قد

(١) زيادة من تفسير ابن جرير.

أعلمه بفتنة قومه، ولكن لما رأى الحالَ مشاهدةً حدثَ له غضبٌ آخر. فإنه ليس الخبرُ كالمعاينةِ.

. . .(١)**الناس** يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي، يؤمون الصوت، لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة كما قال: ﴿**يَومَئذٍ يَّتبعوُن الداعي لا عِوَجَ له**﴾ [طه: ١٠٨]أي يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه. قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها، وقال الزجاج: المعنى لا عوج لهم عن دعائه، أي لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده.

فإن قلت: إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي، فكيف قال: (لا عوج له) قيل: قالت طائفة: اللام بمعنى عن، أي لا عوج عنه، وقالت طائفة: المعنى لا عوج لهم عن دعائي، كما قال الزجاج، وفي القولين تكلف ظاهر. ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه، كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما. والمعنى لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم لـه.

(٢)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**وخشت الأصوات للرحمن**﴾ [طه: ١٠٨] أي: سكنت وذلت وخضعت(٣).

. . .(٤)**كانت** أم الدرداء رضي الله عنه إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها أسمعت الجبال ما وعدها ربها فيقال ماأسمعها فتقول: ﴿**ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفًا فيذرها قاعًا صفصفًا لاترى فيها عوجًا ولا أمتًا**﴾ فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته. وقد أخبر عنها فاطرها وباريها إنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله فياعجباً من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس

---

(١) ١٢٥ التبيان.　　(٢) ٥٢٠ مدارج جـ١.

(٣) يأتي إن شاء الله البحث عن الخشوع في سورة الحديد والمؤمنون.　　(٤) ٢٢٠ مفتاح جـ١.

بمستنكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه، ولم ينب إليه، ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتع قليلاً فإن أمامه الملين الأعظم: وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم.

. . . (١)**وقال** تعالى: **﴿ومَن يَعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾** [طه: ١١٢] يعني لا يُحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ما عمل. ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده: لم يكن لعدم الخوف منه معنى، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

. . . (٢)**تأمل** أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم قال تعالى: **﴿ولَقَد عهدنا إلى آدمَ من قبل فَنَسِي ولَمْ نجد لهُ عزماً﴾** [طه: ١١٥] والنسيان، سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فسر بهما ههنا، فهو أمر عدمي.

ولهذا قال آدم لما رأى ما دخل عليه من ذلك **﴿رَبَّنا ظَلَمنا أنفسنا وإن لم تَغفرْ لنا وترحمنا لَنَكُوننَّ من الخاسرين﴾** [الأعراف: ٢٣].

فإنه إذا اعترف بنقصه، خص نفسه - بما حصل لها من عدم العلم والصبر - بالنسيان الذي أوجب فوات حظه من الجنة، ثم قال: **﴿وإن لم تَغْفرْ لَنا وتَرحمنا لَنَكونَنَّ مِنَ الخاسِرين﴾**.

فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها وعقابها ويق العبد من ذلك وإلا ضرته آثارها ولابد، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق ونحوه وإلا ضره ولابد. وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما يصلح به النفس وتصير عالمة بالحق عاملة به وإلا خسر، والمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير.

والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقيه السيئات ويرحمه فيؤتيه الحسنات وإلا هلك ولابد، إذ كان ظالماً لنفسه ظلوماً بنفسه، فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحركة بالذات، فإن لم تتحرك إلى الخير تحركت إلى الشر

---

(١) ١٣٦ مدارج جـ١. (٢) ١٠٧ طريق الهجرتين.

فضرت صاحبها، وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفساً؛ لأن ما ليس حساساً متحركاً بالإرادة فليس نفساً.

ففي الصحيح عن النبي، ﷺ، «أصدق الأسماء حارث وهمام» فالحارث الكاسب العامل، والهمام الكثير الهم، والهم مبدأ الإرادة، فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار.

وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعًا إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جزوعًا * وإذا مَسَّهُ الخير منوعًا * إلَّا المُصلِّين**﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢].

فأخبر سبحانه أن الإنسان خلق على هذه الصفة، وأن من كان على غيرها فلأجل مازكاه الله به من فضله وإحسانه.

. . .(١)﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالحاتِ وَهُو مُؤمن فلا يخاف ظُلماً وَلاَ هضما**﴾ [طه: ١١٢] قال المفسرون من السلف والخلف قاطبة: الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم أن ينقص من حسنات ما عمل.

وعند الجبرية أن هذا لو وقع لم يكن ظلماً. ومن المعلوم أن الآية لم ترفع عنه خوف المحال لذاته، وأنه لا يخاف الجمع بين النقيضين، فإنه لا يخاف ذلك، ولو أتى بكل كفر وإساءة. فلا يجوز تحريف كلام الله بحمله على هذا. فإن الخوف من الشيء يستلزم تصور وجوده وإمكانه، وما لا يمكن وجوده يستحيل خوفه.

وأيضاً فإنه لا يحسن أن ينفي الجمع بين الضدين في السياق الذي نفى الله فيه الظلم كقوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَن أساء فَعَلَيها وَمَاربُّك بظَلامٍ للعبيد**﴾ [فصلت: ٤٦] فلا يحسن بوجه أن يقال عقيب هذه الجملة: وما ربك بجامع للعبيد بين الوجود والعدم في آن واحد، وإنما الظلم المنفي هو خلاف ما اقتضاه قوله: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالحِاً فَلِنَفسِهِ وَمَن أسَاء فَعَليها**﴾ [النساء: ١٢٤] وكذلك قوله: ﴿**وَلاَ تُظلمونَ فتيلاً**﴾ [النساء: ٧٧] ﴿**وَلاَ يُظلمونَ نقيراً**﴾ ﴿**وَلاَ يُظلمُون شَيئاً**﴾ [مريم: ٦٠] أي لا يترك من أعمالهم ما هو بقدر الفتيل والنقير، فيكون ظلماً.

وعند الجبرية يجوز أن يترك ثواب جميع أعمالهم من أولها إلى آخرها بغير سبب

(١) ٣١٥ مختصر الصواعق جـ١.

يقتضي تركها إلا مجرد المشيئة والقدرة، ولا يكون ذلك ظلماً وكذلك قوله: ﴿وَمَا ظَلمناهم ولكن كانُوا هُمُ الظَّالمين﴾ [الزخرف: ٧٦] ﴿ومَا ظَلَمناهُم وَلكن ظلموا أنفسهم﴾ بين أنه لم يعاقبهم بغير جرم فيكون ظالمًا لهم، بل عاقبهم بظلمهم أنفسهم.

. . .[1]**وقال** أهل السنة والحديث ومن وافقهم: الظلم وضع الشيء في غير موضعه وهو سبحانه حكم عدل لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يناسبه ويقتضيه العدل والحكمة والمصلحة، وهو سبحانه لا يفرق بين متماثلين، ولا يساوي بين مختلفين، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة، ويضعها موضعها لما في ذلك من الحكمة، ولا يعاقب أهل البر والتقوى. وهذا قول أهل اللغة قاطبة.

وتفسير الظلم بذينيك التفسيرين اصطلاح حادث ووضع جديد.

قال ابن الأنباري: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، يقال: ظلم الرجل سقاءه إذا سقى منه قبل أن يخرج منه زبده. وقال الشاعر:

وصاحب صدق لم ينلني شكاية　　ظلمت وفي ظلمي له عامدا أجر

أراد بالصاحب وطب اللبن وظلمه إياه أن يستقيه قبل أن يخرج زبده.

قال والعرب تقول: هو أظلم من حية، لأنها تأتي الحفر الذي لم تحفره فتسكنه.

ويقال: قد ظلم الماء الوادي، إذا وصل منه إلى مكان لم يكن يصل إليه فيما مضى.

وقال الحسن بن مسعود والفراء: أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه.

قال ومنه قولهم: من أشبه أباه فما ظلم، وقوله: من استرعى الذئب فقد ظلم، يعنون من أشبه أباه فما وضع الشبه في غير موضعه. وهذا القول هو الصواب المعروف في لغة العرب والقرآن والسنة. . . .

. . .[2]**سأل** سائل فقال: إذا كانت الجنة لا موت فيها فكيف يأكلون فيها لحم الطير وهو حيوان قد فارقته الروح فأجيب بأنه يجوز أن لا يكون ميتاً وهذا جواب في غاية الغثاثة.

قال ابن عقيل: وما الذي أحوجه إلى هذا والجنة دار لا يخلق فيها أذى ولا نصب لا مطلقا، بل لا يدخل الداخل إليها ذلك على طريق الإكرام كما قال

---

(١) ٣١٢ مختصر الصواعق جـ١.　　(٢) ١٧٦ بدائع جـ٣.

تعالى: ﴿إنَّ لَكَ أَلا تَجُوع فيها وَلَا تعرىٰ * وأنَّك لا تظمأ فيها ولَا تَضحىٰ﴾ [طه:١١٨] وذلـك مشروط بالـطاعـة، فإذا جاز ذلك في حق آدم علم أنه ليس بواجب في حق الطير، ولا يمتنع في قدرة الله تعالى أن يكون هذا الطائر مشوياً لا عن روح خرجت منه أو عن روح خرجت خارج الجنة وولج الجنة وهو لحم مشوى (قلت) وما الذي أوجب هذا التكلف كله، فالجنة دار الخلود لأهلها وسكانها. وأما الطير فهو نوع من أنواع الأطعمة التي يحدثها الله لهم شيئاً بعد شيء، فهو دائم النوع وإن كان آحاده متصرمة، كالفاكهة وغيرها. وقد ثبت عن النبي، ﷺ، أن المؤمنين ينحر لهم يوم القيامة ثور الجنة الذي كان يأكل منها فيكون نزلهم. فهذا حيوان قد كان يأكل من الجنة فينحر نزلاً لأهلها، والله أعلم.

فصل(١)

الله سبحـانه مهد الأرض لآدم وذريته قبل خلقه فقال: ﴿إنِّي جَاعِلٌ في الأرض خَليفَـةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقضى أن يعـرفه قدر المخالفة وأقام عذره بقوله: ﴿فَأَزَلَّهُما الشَّيطانُ﴾ [البقرة: ٣٦] وتداركه برحمة بقوله: ﴿ثُم اجتبَاهُ رَبُّه﴾ [طه: ١٢٢] يا آدم لا تجزع من كأس خطأ كان سبب كيسك، فقد استخرج منك داء العجب وألبسك رداء العبودية لو لم تذنبوا. لا تحزن بقولي لك اهبطوا منها فلك خلقتها، ولكن اخـرج إلى مزرعـة المجاهدة، واجتهد في البذر، واسق شجرة الندم بساقية الدمع، فإذا عاد العود أخضر فعد لما كان..

...(٢)**تأمل** قوله تعالى: ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ [طه: ١١٧] كيف شرك بينهما في الخروج، وخص الذكر بالشقاء، لاشتغاله بالكسب والمعاش، والمرأة في خدرها.

...(٣) **قولـه** تعالى لآدم: ﴿إنَّ لَكَ ألاَّ تَجُوعَ فيها وَلا تَعْرى وأنّك لَا تَظْمأُ فيهـا وَلَا تضحى﴾ [طـه: ١١٨، ١١٩] فقابل بين الجوع والعُرى دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عُرى الباطن وذُله،

---

(١) ٢٢٣ بدائع جـ٣. (٢) ٢٢٩ بدائع جـ٣.

(٣) ٢٥١ روضة المحبين.

والعُرى جوع الظاهر وذُلّه. فقابل بين نفي ذلّ باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حرُّ الباطن، والضحى حرُّ الظاهر، فقابل بينهما..

...(١)**من** له غرض في دقائق المعاني يتجاوز نظره قالب اللفظ إلى لب المعنى، والواقف مع الألفاظ مقصور النظر على الزينة اللفظية.

فتأمل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ**﴾ [طه: ١٠٨، ١٠٩] كيف قابل الجوع بالعرى والظمأ بالضحى، والواقف مع القالب ربما يخيل إليه أن الجوع يقابل بالظمأ، والعرى بالضحى. والداخل إلى بلد المعنى يرى هذا الكلام في أعلا الفصاحة والجلالة؛ لأن الجوع ألم الباطن، والعرى ألم الظاهر فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظمأ مع الضحى؛ لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن، والضحى موجب لحرارة الظاهر، فاقتضت الآية نفى جميع الآفات ظاهراً وباطناً. وفي هذا الباب حكاية مشهورة وهي أن ابن حمدان قال يوماً للمتنبي قد انتقد عليك قولك:

وقفت وما في الموت شك لواقف		كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة		ووجهك وضاح وثغرك باسم

قالوا ركبت صدر كل بيت على عجز الآخر وكان الأولى أن يقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف		ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة		كأنك في جفن الردى وهو نائم

فليتم المعنى حينئذ؛ لأن انبساط الوجه ووضوحه مع الوقوف في موقف الموت أشبه بأوصاف الكماة، والسلامة من الردى مع مرور الأبطال كلمى هزيمة أعجب في حصول النجاة. وهذا كما انتقد على امرىء القيس قوله:

**كأني لم أركب جوادًا للذة		ولم أبتطن كاعبًا ذات خلخال**(٢)..

(٣)فصل

خلق بدن ابن آدم من الأرض، وروحه من ملكوت السماء، وفرق بينهما،

---

(١) ٢٤٠ بدائع جـ٣.

(٢) (تتمة البحث فيه الجواب لمن أراده) (ج).

(٣) ١٦٧ فوائد.

فإذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه في الخدمة، وجدت روحه خفة وراحة، فتاقت إلى الموضع الذي خلقت منه، واشتاقت إلى عالمها العلوي، وإذا أشبعه ونعمه ونومه واشتغل بخدمته وراحته، أخلد البدن إلى الموضع الذي خلق منه، فانجذبت الروح معه فصارت في السجن، فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه كما يستغيث المعذب.

وبالجملة فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي. وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها، وصارت أرضية سفلية، فترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى وبدنه عندك، فيكون نائماً على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى، تجول حول العرش، وآخر واقف في الخدمة ببدنه، وروحه في السفل تجول حول السفليات. فإذا فارقت الروح البدن التحقت لرفيقها الأعلى أو الأدنى، فعند الرفيق الأعلى كل قرة عين. وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة. وعند الرفيق الأسفل كل هم وغم، وضيق وحزن، وحياة نكدة، ومعيشة ضنك. قال تعالى: ﴿وَمَن أعرضَ عن ذِكري فإنَّ له مَعيشةً ضَنكا﴾ [طه: ١٢٤].

فذكره كلامُه الذي أنزله على رسوله، والإعراض عنه تركُ تدبره والعمل به.

والمعيشة الضنك، فأكثر ما جاء في التفسير، أنها عذاب القبر. قاله ابن مسعود، وأبوهريرة، وأبوسعيد الخدري، وابن عباس، وفيه حديث مرفوع.

وأصل الضنك في اللغة الضيق والشدة. وكل ما ضاق فهو ضنك، يقال: «منزل ضنك، وعيش ضنك»؛ فهذه المعيشة الضنك في مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة، فإن النفس كلما وسعت عليها ضيقت على القلب، حتى تصير معيشة ضنكاً، وكلما ضيقت عليها وسعت على القلب، حتى ينشرح وينفسح. فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة، وسعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة، فآثر أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومها. وأشق البدن بنعيم الروح، ولا تشق الروح بنعيم البدن؛ فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون، والله المستعان.

. . .(١)**ثم** قال تعالى: ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشةً ضَنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾ [طه: ١٢٤].

لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه فقال: ﴿**وَمَن أعْرضَ عَن ذِكري فإن له مَعيشةً ضَنكاً**﴾ [طه: ١٢٤]. أي عن الذكر الذى أنزلته، فالذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل، كقيامي وقراءتي، لا إلى المفعول وليس المعنى: ومن أعرض عن أن يذكرني، بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سنذكره.

وأحسن من هذا الوجه أن يقال الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء لا إضافة المصادر إلى معمولاتها والمعنى ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه؛ فإن القرآن يسمى ذكرًا.

قال تعالى: ﴿**وَهَذا ذِكرٌ مبارك أنزلناه**﴾.

وقال تعالى: ﴿**ذلِكَ نَتلوه عليك مِنَ الآيات والذكر الحكيم**﴾ [آل عمران: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿**وما هو إلا ذكرٌ للعالمين**﴾.

وقال تعالى: ﴿**إنَّ الذين كَفروا بالذِّكر لما جَاءهُم وإنَّه لكتابٌ عزيزٌ**﴾ [فصلت: ٤١].

وقال تعالى: : ﴿**إنَّما تنذرُ من اتَّبَعَ الذِّكر وخشِيَ الرحمنَ**﴾.

وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله.

ونظيره في إضافة اسم الفاعل ﴿**غافر الذَّنْبِ وقابلِ التَّوبِ شديدِ العقابِ**﴾ فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد، وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم، وكذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى: ﴿**تنزيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليمِ*غافرِ الذنب وقابلِ التوب شديدِ العقاب ذي الطَّولِ لا إله إلا هو إليه المصيرُ**﴾[غافر: ٢، ٣].

وقوله تعالى: ﴿**فإنَّ له مَعيشَةً ضنكاً**﴾ فسرها غير واحد من السلف بعذاب القبر، وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر، ولهذا قال:

---

(١) ٤٢ مفتاح جـ١.

﴿وَنحشُرُه يومَ القيامَة أعمى * قال ربِّ لِمَ حَشرتَني أعمى وقد كنتُ بصيراً * قال كذلك أَتَتك آياتُنَا فَنَسِيتها وكذلك اليوم تُنسى﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦] أي تترك في العذاب، كما تركت العمل بآياتنا، فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار.

ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون ﴿النارُ يُعْرضُونَ عَلَيها غُدُوًّا وعَشيًّا﴾ [غافر: ٤٦] فهذا في البرزخ ﴿ويوم تقوم السَّاعة أدخلوا آل فرعونَ أشدَّ العَذاب﴾ [غافر: ٤٦] فهذا في القيامة الكبرى.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوَ ترى إذ الظالمون في غَمراتِ الموتِ والملائكةُ بَاسِطُوا أيديهم أخرجُوا أنفسكُم اليومَ تُجزون عذابَ الهُونِ بِما كُنتُم تَقُولون على الله غيْرَ الحقِّ وكنتُم عن آياته تستَكبِرون﴾ [الأنعام: ٩٣] فقول الملائكة اليوم تجزون عذاب الهون المراد به عذاب البرزخ، الذي أوله يوم القبض والموت.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَو ترى إذ يَتوفَّى الذَّين كَفَروا الملائكة يَضربُون وُجُوههم وأدبَارهم وذُوقوا عذابَ الحريقِ﴾ [الأنفال: ٥٠] فهذه الإذاقة هي في البرزخ وأولها حين الوفاة، فإنه معطوف على قوله: ﴿يَضْربُون وُجُوههم وأدبارهُم﴾ وهو من القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه كنظائره، وكلاهما واقع وقت الوفاة.

وفي الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يُثبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثَّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة﴾ [إبراهيم: ٢٧] قال: نزلت في عذاب القبر، والأحاديث في عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر.

والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى فإن له معيشة ضنكا، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحييه حياة طيبة ويجزيه أجره في الآخرة فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً من ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمن فَلَنُحيينَّه حياةً طيبةً ولنجزينَّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾ [النحل: ٩٧] فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء. وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة.

(١)**وقوله** تعالى: ﴿وَنَحشُره يومَ القيامةِ أعمى قال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى

(١) ٤٤ مفتاح جـ١.

وقد كنتُ بصيراً﴾. اختلف فيه هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر، والذين قالوا هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله: ﴿أسمعْ بهم وأبْصر يوم يأتوننا﴾ [مريم:٣٨].

وقوله: ﴿لقد كُنتَ في غفلةٍ من هذا فكشفنا عنك غطاءَك فَبصرُك اليومَ حديدٌ﴾.

وقوله: ﴿يَومَ يَرون المَلائكة لا بُشري يومئذٍ للمجرمين﴾ [ق: ٢٢]

وقوله: ﴿لترونَّ الجَحيم ثم لترونها عين اليقين﴾ [التكاثر: ٧،٦] ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة كقوله تعالى: ﴿وَتَراهم يُعرَضُون عَلَيها خَاشعين من الـذلِّ يَنظرون من طرف خفي﴾[الشورى: ٤٥] وقوله: ﴿يَوم يُدعون إلى نار جَهنم دَعًّا هذه النار التي كُنْتُم بها تُكذِّبُون أفسحر هذا أم أنتم لا تُبصرُون﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٥] وقوله: ﴿وَرَأى المجرمون النَّار فظَنُّوا أنَّهم مُواقِعوها﴾.

والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا السياق لا يدل إلا عليه لقوله: ﴿قال ربِّ لِمَ حَشَرْتني أعمى وقد كنتُ بَصِيراً﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦] وهو لم يكن بصيراً في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق فكيف يقول وقد كنت بصيراً، وكيف يجاب بقول: ﴿كَذَلك أَتتك آياتُنا فَنَسِيتها وكذلك اليوم تُنسى﴾.

بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله؛ فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله، وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركه ذكره تركه في العذاب.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَّهد الله فهوَ المُهتَد وَمن يُّضلل فَلن تجدَ لهم أولياءَ من دُونِه ونحشرُهم يومَ القيامة على وجوههم عُمياً وبكماً وصمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقد قيل في هذه الآية أيضاً أنهم عمى وبكم وصمم عن الهدى، كما قيل في قوله: ﴿ونحشرُه يومَ القيامة أعمىٰ﴾ قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون.

ومن نصر أنه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق قال بعضهم: هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمى عن رؤية ما يسرهم وسماعه، ولهذا قد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا يرون شيئاً يسرهم.

وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا

كذلك، فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد، وهذا مروى عن الحسن.

وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: **﴿اخْسَؤُا فيها وَلَا تُكلمونِ﴾** [المؤمنون: ١٠٨] فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فيصيرون بأجمعهم عمياً بكماً صماً، لا يبصرون، ولا يسمعون، ولا ينطقون، ولا يسمع منهم بعدها إلا الزفير والشهيق. وهذا منقول عن مقاتل.

والذين قالوا المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمي عنها، بل هم عمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا؛ فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر وأنه عمى البصر؛ فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانًا، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذ.

وفصل الخطاب أن الحشر هو الضم والجمع.

ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة، كقول النبي، ﷺ: «**إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً**»، وكقوله تعالى: **﴿وَإذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾** [التكوير: ٥] وكقوله تعالى: **﴿وَحَشَرناهُم فِلم نُغادِرْ منهم أحداً﴾**.

ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار.

قال تعالى: **﴿يوم نحشرُ المتقين إلى الرحمن وَفداً﴾** [مريم: ٨٥].

وقال تعالى: **﴿احْشروا الذين ظَلموا وأزواجهم وماكانوا يعبدون * من دُون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾** [الصافات: ٢٢، ٢٣].

فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف، وهو حشرهم وضمهم إلى النار؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم **﴿قَالوا يَاويلنا هذا يوم الدين * هذا يومِ الفصل الذي كنتمْ به تكذبون﴾** [الصافات: ٢٠، ٢١]. ثم قال تعالى: **﴿احْشروا الذين ظَلموا وأزواجهم﴾** وهذا الحشر الثاني.

وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني من

الموقف إلى النار، فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، فلكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته، فالقرآن يصدق بعضه بعضًا ﴿**وَلَو كان مِن عندِ غيرِ الله لوَجَدُوا فيه اختلافًا كثيراً**﴾ [النساء: ٨٢].

... [١]**قال** حنبل: قلت لأبي عبد الله: ماأحب إليك مايتقرب به العبد من العمل إلى الله قال: كثرة الصلاة والسجود وأقرب ما يكون العبد من الله[١] إذا عفر وجهه له ساجداً.

يعني بهذا إذا سجد لله على التراب، في هذا بيان أن الصلاة أفضل أعمال الخير.

وروى عنه المروزي أنه قال: كل تسبيح في القرآن صلاة إلا موضع واحد.

قال: ﴿**وإدبار النجُوم**﴾ ركعتين قبل الفجر، ﴿**وأدبار السجود**﴾ [ق: ٤٠] ركعتين بعد المغرب.

قال أبوحفص: والحجة في تفضيل الصلاة على سائر أعمال القرب قوله تعالى: ﴿**واستعينوا بالصبر والصَّلاة**﴾ [البقرة: ٤٥] ﴿**وأمُرْ أهلَكَ بالصَّلاةِ واصطبر عليها**﴾ [طه: ١٣٢]

وكان حذيفة إذا أحزنه أمر صلى. وقال: «**أعني على نفسك بكثرة السجود**» وقال: «**أفضل الأعمال الصلاة لأول وقتها**» وقال: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»، ولأنها تختص بجمع الهمة، وحضور القلب، والانقطاع عن كل شيء سواها، بخلاف غيرها من الطاعات، ولهذا كانت ثقيلة على النفس.

نقل عنه محمد بن الحكم في الرجل يفوته ورده من الليل لا يقرأ به في ركعتي الفجر كان النبي، ﷺ، يخفهما، لكن يقرأ إذا أصبح، أرجو أن يحسب له بقيام الليل.

... [٢]**الوجه** الرابع إخباره أن الدنيا والغنى والمال إنما جعلها متعة لمن لا نصيب له في الآخرة، وأن الآخرة جعلها للمتقين فقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَمدَّن عينيك إلى مَامَتَّعْنا به أزواجًا منهم زَهْرَةَ الحياةِ الدُّنيا لنفتنهم فيه وَرِزقُ رَبِّك خيرٌ وأبقى**﴾ [طه: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿**وَيومَ يُعْرضُ الذين كَفروا على النَّار أذهبتم طيِّباتكُم في**

---

(١) ١١٣ بدائع جـ٤.   (٢) ١٩٥ عدة الصابرين.

حَياتِكُم الدُّنيا واستمتعتم بها﴾ [الأحقاف: ٢٥١] وإلى هذا المعنى أشار النبي ، ﷺ، بقوله لعمر: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة» وسيأتي الحديث.

الوجه الخامس أنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم كقوله: ﴿إنَّهم كَانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرفين﴾ وقوله: ﴿وإذَا أَرَدْنَا أن نُهلِكَ قريةً أمرنَا مُتْرفيها فَفَسقُوا فيها﴾ [الإسراء: ١٦] وقوله تعالى: ﴿لَا تركُضوا وارجعُوا إلى ما أُتْرِفْتُم فيه وَمسَاكِنِكم لَعلكم تُسْألون﴾ [الأنبياء: ١٣].

الوجه السادس أنه سبحانه ذم محب المال فقال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التراثَ أَكْلاً لَمًّا * وتُحبُّون المال حُبًّا جمًّا﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠]. فذمهم بحب المال وعيَّرهم به.

. . .[1]**العارف** لا يأمر الناس بترك الدنيا، فإنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم، فترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة، فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة. فإن صعب عليهم ترك الذنوب، فاجتهد أن تحبب الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه، وصفات كماله ونعوت جلاله، فإن القلوب مفطورة على محبته؛ فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والاستقلال منها والإصرار عليها.

وقد قال يحيى بن معاذ: «طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها».

العارف يدعو الناس إلى الله من دنياهم فتسهل عليهم الإجابة، والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا فتشق عليهم الإجابة؛ فإن الفطام عن الثدي الذي ما عقل الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد، ولكن تخير من المرضعات أزكاهن وأفضلهن، فإن للبن تأثيراً في طبيعة المرتضع، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد، وأنفع الرضاعة ما كان من المجاعة: فإن قويت على مرارة الفطام، وإلا فارتضع بقدر؛ فإن من البشم مايقتل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة طـــه

والحمد لله رب العالميـن

---

(١) ١٦٨ فوائد.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**الله** ـ تعالى ـ جعل العبودية وصفَ أكملِ خلقه، وأقربهم إليه. فقال: **﴿لَّن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أن يَكُونَ عَبْدًا لله ولاَ الملاَئِكَةُ المقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾** [سورة النساء: ١٧٢]. وقال: **﴿إنَّ الَّذِينَ عِند رَبِّك لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾**[سورة الأعراف: ٢٠٦]، وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء **﴿وَلَـهُ مَن فِي السَّمَـوٰاتِ والأَرْضِ﴾**[سورة الأنبياء: ١٩]، ههنا. ثم يبتدىء **﴿ومَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ولا يَسْتَحْسِرُونَ ● يُسَبِّحُونَ الليلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرُون﴾**[الأنبياء: ١٩، ٢٠]. فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي: أن له من في السموات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا. ثم استأنف جملة أخرى، فقال: **﴿ومَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾** يعني: أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني: لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون ـ يقال: حَسَرَ واستحسر، إذا تعب وأعيا ـ بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبنى آدم. فالأول: وصف لعبيد ربوبيته. والثاني: وصف لعبيد إلهيته:

. . . .(٢)**﴿لَوْ كَانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾**[الأنبياء: ٢٢]. فإن قوام السموات والأرض والخليقة بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلها حقًّا، إذ الإله الحق لا شريك له، ولا سميَّ له، ولا مثل له، فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأله الإله الحق، كما أنها لا توجد إلا باستنادها إلى الرب الواحد القهار، ويستحيل أن تستند في وجودها إلى ربين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلى إلهين متساويين.

---

(١) ١٠٢ مدارج جـ١.		(٢) ٥٧ طريق الهجرتين.

إذا عرف هذا، فاعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه ولا في التوكل عليه ولا في العمل له ولا في الحلف به ولا في النذر له ولا في الخضوع له ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إلـه إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره. وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها.

. . . .(١)**ماحتج** به ـ سبحانه ـ على النصارى مبطلاً لدعوى إلهية المسيح كقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] فأخبر ـ تعالى ـ أن هذا الذي أضافه من نسب الولد إلى الله من مشركي العرب والنصارى غير سائغ في العقول إذا تأمله المتأمل. ولو أراد الله أن يفعل هذا لكان يصطفي لنفسه، ويجعل هذا الولد المتخذ من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء من عوارض البشر المجبول على الثبات والبقاء، لا من جواهر هذا العالم الفاني الكثير الأدناس والأوساخ والأقذار.

ولما كان هذا الحجاج كما ترى في هذه القوة والجلالة أتبعه بقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ على البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وقال تعالى: ﴿مَاالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]. وقد تضمنت هذه الحجة دليلين يبطلان إلهية المسيح وأمه.

أحدهما: حاجتهما إلى الطعام والشراب وضعف بنيتهما عن القيام بنفسها، بل هي محتاجة فيما يعينهما إلى الغذاء والشراب، والمحتاج إلى غيره لايكون إلها إذ من لوازم الإلّه أن يكون غنيًا.

---

(١) ١٠٤ مختصر الصواعق جـ١.

الثاني: أن الذي يأكل الطعام يكون منه مايكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه، بل يستحي من التصريح بذكرها. ولهذا ـ والله أعلم ـ عبّر الله ـ سبحانه ـ عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى مايلزمه من هذه الفضلة، فكيف يليق بالرب ـ سبحانه ـ أن يتخذ صاحبة وولدًا من هذا الجنس؟ ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب ولا يكون منه الفضلات المستقذرة اهـ.

(١)**إذا** عرف ذلك فكل حي له إرادة ومحبة وعمل يحسنه، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة. ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده كما لا وجود لها إلا بابداعه وحده.

ولهذا قال تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ولم يقل ـ سبحانه ـ: لما وجدتا، ولكانتا معدومتين، ولا قال: لعدمتا، إذ هو ـ سبحانه ـ قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد، لكن لا يمكن أن تكون على وجه الصلاح والاستقامة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودهما ومعبود ماحوتاه وسكن فيهما، فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد، فإن كل إلّه يطلب مغالبة الآخر والعلو عليه وتفرده دونه بالإلهية. إذ الشرك نقص في كمال الإلهية والإلّه لا يرضى لنفسه أن يكون إلهًا ناقصًا، فإن قهر أحدهما الآخر، كان هو الإلّه وحده، والمقهور ليس بإلّه، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ولم يكن تام الإلهية، فيجب أن يكون فوقهما إلّه قاهر لهما حاكم عليهما، وإلا ذهب كل منهما بما خلق وطلب كل منهما العلو على الآخر، وفي ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيها ملكان متكافئان، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان والشول إذا كان فيه فحلان. وأصل فساد العالم إنما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء. ولهذا لم تطمع أعداء الإسلام فيهم في

---

(١) ٢٧٤ الجواب الكافي.

زمن من الأزمنة إلا في زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم وانفراد كل واحد منهم ببلاد وطلب بعضهم العلو على بعض. فصلاح السموات والأرض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو عل كل شيء قدير، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى.

قال الله تعالى: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ • عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

وقال تعالى: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ • لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ • لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢١ ـ ٢٣].

(١)فصل وأما هديه في الشراب فمن أكمل هدي يحفظ به الصحة

فإنه كان يشرب العسل الممزوج بالماء البارد، وفي هذا من حفظ الصحة مالا يهتدي إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء. فإن شربه ولَعْقه على الريق يذيب البلغم، ويغسل خمل المعدة، ويجلو لزوجتها، ويدفع عنها الفضلات، ويسخنها باعتدال، ويفتح سددها، ويفعل مثل ذلك بالكبد والكلىَ والمثانة، وهو أنفع للمعدة من كل حلو دخلها، وإنما يضر بالعرَض لصاحب الصفراء، لحدته وحدة الصفراء، فربما هيجها. ودفع مضرته لهم بالخل، فيعود حينئذ لهم نافعًا جدًّا، وشربه أنفع من كثير من الأشربة المتخذة من السكر، أو أكثرها، ولاسيما لمن لم يعتد هذه الأشربة ولا ألفها طبعه، فإنه إذا شربها لا تلائمه ملاءمة العسل ولا قريبًا منه.

والمحكم في ذلك: العادة، فإنها تهدم أصولاً، وتبني أصولاً.

وأما الشراب إذا جمع وصُفّيَ الحلاوة والبرودة: فمن أنفع شيء للبدن، ومن

---

(١) ٢٨٩ زاد المعاد جـ٣.

آكد أسباب حفظ الصحة. وللأرواح والقوى والكبد والقلب: عشق شديد له، واستمداد منه، وإذا كان فيه الوصفان حصلت به التغذية، وتنفيذ الطعام إلى الأعضاء، وإيصاله إليها أتم تنفيذ.

والماء البارد: رطب يقمع الحرارة، ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية، ويرد عليه بدل ماتحلل منها، ويرقق الغذاء وينفذه في العروق، واختلف الأطباء: هل يغذى البدن؟ على قولين: فأثبتت طائفة التغذية به، بناء على مايشاهدونه من النمو والزيادة والقوة في البدن به، ولا سيما عند شدة الحاجة إليه.

قالوا: وبين الحيوان والنبات قدر مشترك من وجوه عديدة:

منها: النمو والاغتذاء، والاعتدال. وفي النبات: قوة حس وحركة تناسبه، ولهذا كان غذاء النبات بالماء. فما يُنكَر أن يكون للحيوان به نوع غذاء، وأن يكون جُزءًا من غذائه التام.

قالوا: ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه في الطعام، وإنما أنكرنا أن لا يكون للماء تغذية ألبتة. قالوا: وأيضًا الطعام، إنما يغذى بما فيه من المائية، ولولاها ماحصلت به التغذية. قالوا: ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات. ولا ريب أن ما كان أقرب إلى مادة الشيء حصلت به التغذية، فكيف إذا كانت مادته الأصلية؟ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فكيف ننكر حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق؟

قالوا: وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرِّيُّ بالماء البارد: تراجعت إليه قواه ونشاطه وحركته، وصبر عن الطعام، وانتفع بالقدر اليسير منه، ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام، ولا يحدث له به القوة والاغتذاء. ونحن لا ننكر أن الماء ينفذ الغذاء إلى أجزاء البدن، وإلى جميع الأعضاء. وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به، وإنما ننكر على من سلب قوة التغذية عنه ألبتة، ويكاد قوله عندنا يدخل في إنكار الأمور الوجدانية.

وأنكرت طائفة أخرى حصول التغذية به. واحتجت بأمور يرجع حاصلها إلى عدم الاكتفاء به، وأنه لا يقوم مقام الطعام، وأنه لا يزيد في نمو الأعضاء ولا يخلف عليها بدل ماحللته الحرارة، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية.

فإنهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره ولطافته ورقته، وتغذية كل شيء بحسبه، وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ يغذى بحسبه، والرائحة الطيبة تغذي نوعًا من الغذاء، فتغذية الماء أظهر وأظهر.

والمقصود: أنه إذا كان باردًا وخالطه ما يحليه - كالعسل، أو الزبيب. أو التمر أو السكر - كان من أنفع ما يدخل البدن، وحفظ عليه صحته، فلهذا كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ، البارد الحلو. والماء الفاتر: ينفخ، ويفعل ضد هذه الأشياء.

ولما كان الماء البائت أنفع من الذي يشرب وقت استقائه، قال النبي ﷺ - وقد دخل إلى حائط أبي الهيثم بن التَّيْهان: «**هل من ماء بات في شَنَّة؟**» **فأتاه به، فشرب منه** رواه البخاري، ولفظه: «**إن كان عندكم ماء بات في شَنٍّ، وإلا كرعنا**» والماء البائت: بمنزلة العجين الخمير، والذي شرب لوقته: بمنزلة الفطير.

وأيضًا: فإن الأجزاء الترابية والأرضية تفارقه إذا بات، وقد ذكر أن النبي ﷺ «كان يستعذب له الماء، ويختار البائت منه». وقالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ يُسْتَقَى له الماء من بئر السُّقيا».

(١)**أثنى** - سبحانه - في كتابه على المتفكرين في خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك. فقال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وتأمل كيف خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء. قال الله تعالى: ﴿**وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا**﴾ [النبأ: ١٢]. وقال تعالى -: ﴿**أأنتم أشدُّ خلْقًا أم السماء بناها ● رفع سمكها فسوَّاها**﴾ [النازعات: ٢٧ - ٢٨] وقال: ﴿**وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا**﴾.

فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع، وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات، وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان.

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره	ومن هو فوق العرش فرد موحد

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات، ونصب لهم الدلالات، وأوضح لهم

---

(١) ١٩٧ مفتاح جـ١.

الآيات البينـات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، وأن الله لسميع عليم، فارجع البصر إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ولا تغير في سيرها بل تجري في منازل قد رتبت لها بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها.

(١)**وسئل** البخاري عن الخضر وإلياس، هل هما أحياء؟ فقال: كيف يكون هذا؟ وقد قال النبي ﷺ: **«لا يَبْقَىٰ على رأسِ مئةِ سنةٍ ممن هو اليوم على ظهر الأَرض أحد»** .

وسئل عن ذلك كثيرٌ غيرُهما من الأَئمَّة فقالوا: **﴿وَمَاجَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾** [الأنبياء: ٣٤].

١٢٨ـ وسُئِلَ عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقال: لو كان الخَضِرُ حيًا لوجب عليه أَن يأتي النبيَّ ﷺ، ويجاهد بين يديه، ويَتَعَلَّم منه. وقد قال النبي ﷺ، يوم بدر: **«اللهم إن تَهلِكْ هذه العصابة لاتُعْبَدْ في الأَرض»** ، وكانوا ثلاث مئـةٍ وثـلاثَةَ عشر رجلاً، معروفين بأَسمائهم وأَسماءِ آبائهم وقبائلهم، فأَين كان الخَضِرُ حينئذ؟

قال أبو الفرج بن الجوزي(٢): والدليلُ على أَن الخضر ليس بباقٍ في الدنيا أَربعةُ

(١) ٦٨ المنار المنيف.

(٢) ساق الشيخ أبوالفرج بن الجوزي في كتابه «الموضوعات» ١: ١٩٣ ـ ١٩٩ طائفة من الأحاديث الموضوعة المتعلقة بالخضر: ولم يتعرض فيه إلى هذه الوجوه من الاستدلال على موته عليه السلام، وإنما تعرض لذلك في كتاب مستقل، ألّفه في هذه المسألة وسماه «عُجالة المنتظر في شرح حال الخَضِر». وقد ذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية». وسمّاه بهذا الاسم ونَقَل منه في مواضع ١: ٣٣٠ و ٣٣٤ و ٣٣٥ و ٣٣٦. وأكثرَ الحافظُ ابن حجر النقلَ منه في «الإصابة» في ترجمة الخضر ١: ٤٢٨ ـ ٤٤٨. ولم يُسمّه باسمه العَلَمي.

وقد شَغلَتْ هذه المسألة (حياةُ الخضر) اهتمامَ العلماء قديمًا وحديثًا، فألّفوا فيها تآليف مستقلة، أو توسّعوا في بيانها في كتبهم، نظرًا لاستفحـال الخلاف فيها، فألّف في وفاته أبوالحُسَين بن المنادي المتوفى سنة ٣٣٦، وألّف في حياته عبدالمغيث بن زهير الحربي الحنبلي البغدادي المعاصر لابن الجوزي، والمتوفى قبله سنة ٥٨٣، وألّف ابن الجوزي كتابه المذكور في نقض كتاب عبدالمغيث، وكذلك ألّف الشيخ ابن تيمية =

أشياءَ: القرآنُ، والسُّنَّةُ، وإجماعُ المحقِّقين من العلماء، والمعقول.

١٢٩ـ أما القُرآن: فقولُه تعالى: ﴿وما جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخلد﴾ فلو دام الخضر كان خالدًا . . .

(١)**فصل** والله سبحانه كما هو خالق الخلق، فهو خالق مابه غناهم وفقرهم، فخلق الغنى والفقـر ليبتلي بهما عباده أيهم أحسن عملاً، وجعلهما سببًا للطاعة والمعصية والثـواب والعقـاب، قال تعـالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بالشَّرِّ والخَـيْرِ فِتنَةً وإلَيْنا تُرْجَعُـونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، وكلها بلاء. وقال ابن يزيد: نبلوكم بما تحبـون ومـا تكـرهـون، لننـظر كيف صبركم وشكـركم فيما تحبـون وما تكرهون. وقال الكلبي: بالشر: بالفقر والبلاء، والخير: بالمال والولد، فأخبر ـ سبحانه ـ الغنى والفقر مطيتا الابتلاء والامتحان.

وقـال تعـالى: ﴿فَـأَمَّـا الإنسـانُ إذا ماابْتَلاهُ ربُّهُ فأكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَن ● وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ● كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ـ١٧].

فأَخبر سبحانه أنه يبتلى عبده بإكرامه له وبتنعيمه له وبسط الرزق عليه كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه، وأن كليهما ابتلاء منه وامتحان.

ثم أنكر ـ سبحانه ـ على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده، وأن تضييقه عليه إهانة منه له فقال: ﴿كلا﴾ أي: ليس الأمر كما يقول الإنسان، بل قد ابتلى بنعمتي وأنعم ببلائي. وإذا تأملت ألفاظ الآية وجدت هذا المعنى يلوح على صفحـاتهـا ظاهـرًا للمتـأمـل. وقال تعالى: ﴿وَهُو الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَاآتاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. . . .

= جزءًا في وفاته، كما ذكر ذلك تلميذه المؤلف الشيخ ابن القيم في رسالته: «أسماء مؤلفات ابن تيمية» ص٢٢، التي طبعها المجمع العلمي بدمشق سنة ١٣٧٢. وكذلك ألف الشيخ علي القاريء جزءًا في المسألة سماه «كشف الخدر عن أمر الخضر» وهو مطبوع في روسيا في قازان قديمًا.

ويعـد ما كتبـه الحافظ ابن حجر في «الإصابة» عن الخضر تأليفًا، لطوله واستيعابه ومناقشته الأخبار المحكية في المسألة، وتوسع فيها الحافظ في كتابه «فتح الباري» ٦: ٣٠٩ـ٣١٢. كما أوسع الكلام فيها أيضًا الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» ١: ٣٢٥ـ٣٣٧.

(١) ١٦٩ عدة الصابرين.

(١)**وتنقسم**(٢) بذلك إلى قسمين: أحدهما محبة تنشأ من: الإحسان، ومطالعة الآلاء والنعم؛ فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. ولا أحد أعظم إحسانًا من الله ـ سبحانه ـ فإن إحسانه على عبده في كل نَفَس ولحظة، وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله.

ولاسبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلاً عن أنواعه أو عن أفراده.

ويكفى أن من بعض أنواعه نعمة النفَس التي لاتكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة. فإنه يتنفس في اليوم والليلة أربعة وعشرين ألف نفس. وكل نفس نعمة منه ـ سبحانه ـ فإذا كان أدنى نعمة عليه في كل يوم أربعة وعشرين ألف نعمة فما الظن بما فوق ذلك وأعظم منه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

هذا إلى مايصرف عنه من المضرات وأنواع الأذى التي تقصده، ولعلها توازن النعم في الكثرة. والعبد لا شعور له بأكثرها أصلاً، والله سبحانه يكلأه منها بالليل والنهار، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. وسواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءًا. أو يكون يكلؤكم مضمنًا معنى يجيركم وينجيكم من بأسه. أو كانت «من» البدلية أي من يكلؤكم بدل الرحمن، أي هو الذي يكلؤكم وحده لا كالىء لكم غيره.

ونظير «مِن» هذه قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] على أحد القولين، أي عوضكم وبدلكم، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر:

جارية لم تأكل المرقَّقا ... ولم تذق من البقول الفستقا

أي لم تأكل الفستق بدل البقول، وعلى كلا القولين فهو ـ سبحانه ـ منعم عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره. هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه ـ سبحانه وتعالى ـ فإنه غني عن خلقه من كل وجه، وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه.

---

(١) ٣١٥ طريق الهجرتين.

(٢) أي المحبة.

وفي بعض الآثار يقول تعالى: «**أنا الجواد، ومن أعظم مني جودًا وكرمًا؟ أبيت أكلأ عبادي في مضاجعهم وهم يبارزونني بالعظائم**».

. . . .(١)**قوله** تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [الأنبياء: ٤٧] يجوز أن تكون اللام لام التعليل: أي: لأجل يوم القيامة. وقد قيل: إن «القسط» منصوب على أنه مفعول له، أي نضعها لأجل القسط. وقد استوفى شروط نصبه.

(٢)**قال** الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء: ٤٩] وقال تعالى: ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ**﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٧].

«**الاشفاق**» رقة الخوف. وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه. فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة. فإنها ألطف الرحمة وأرقها. ولهذا قال صاحب المنازل: «الاشفاق: دوام الحذر، مقرونًا بالترحم. وهو على ثلاث درجات.

الأولى: إشفاق على النفس أن تجمح إلى العناد». أي تسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان، ومعاندة العبودية.

«**وإشفاق** على العمل: أن يصير إلى الضياع».

أي يخاف على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله فيها: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا**﴾ [الفرقان: ٢٣] وهي الأعمال التي كانت لغير الله، وعلى غير أمره وسنة رسوله ﷺ. ويخاف أيضًا أن يضيع عمله في المستقبل، إما بتركه. وإما بمعاصي تفرقه وتحبطه. فيذهب ضائعًا. ويكون حال صاحبه كالحال التي قال الله تعالى عن أصحابها: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ**﴾ [البقرة: ٢٦٦] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للصحابة رضي الله عنهم «فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا: الله أعلم. فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال: يا ابن أخي قل. ولا تحقِرَنَّ نفسك. قال ابن عباس: ضُربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟

---

(١) ٣٨٢ زاد المعاد جـ٤. (٢) ٥١٧ مدارج جـ١.

قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله. فبعث الله إليه الشيطان. فعمل بالمعاصي حتى أغرق جميع أعماله» اهـ.

. . .(١)**واقتران** التوراة بالقرآن في غير موضع من الكتاب: كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قالوا سِحْرَانِ تَظاهَرَا وقَالُوا إنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ • قل فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّن عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدىٰ مِنهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص: ٤٨، ٤٩].

وقوله في الأنعام ردًّا على من قال: ﴿مَا أنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِّن شيْءٍ قُلْ مَنْ أنزَلَ الكِتَابَ الَّذي جَآءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وهُدًى للنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]الآية ثم قال: ﴿وَهَذَا كِتابٌ أنزَلْنَاهُ مُبارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ تَمامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤمِنُونَ • وَهَذَا كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال في أول سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ • اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ • نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ مُصَدِّقًا لِّما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوراةَ والإِنجيلَ • مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١ - ٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى وَهَارُونَ الفُرقَانَ وضِيآءً وذِكْرًا لِّلمُتَّقِينَ • الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعةِ مُشْفِقونَ • وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبارَكٌ أنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[الأنبياء: ٤٨ - ٥٠].

ولهذا يذكر سبحانه وتعالى قصة موسى ويعيدها ويبديها، ويسلي رسول الله ﷺ، ويقول رسول الله ﷺ عندما يناله من أذى الناس: «**لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر**» ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنه كائن في أمتي ماكان في بني إسرائيل، حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في هذه الأمة من يفعله**». **فتأمل هذا التناسب بين الرسولين والكتابين والشريعتين؛ أعنى الشريعة الصحيحة التي لم تبدل، والأمتين واللغتين.**

(٢)**ثم** أخبر - تعالى - عن القرآن بأنه ذكر للعالمين. وفي موضع آخر: تذكرة

---

(١) ١١١ جلاء الأفهام.   (٢) ٨٠ التبيان.

للمتقين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر: ذكر مطلق. وفي موضـع آخـر: ذكر مبارك، وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر. وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كون ذكرًا عامًا وخاصًا. وكونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم.

ويذكـرهم بالمبدأ و المعاد، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده. ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه.

ويذكـرهم بنفـوسهم، وأحـوالهـا وآفـاتها، وماتكمل به. ويذكرهم بعدوهم ومايريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم.

ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون، إليه لا يستغنون عنه نفسًا واحدًا. ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها.

ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره، وكذب رسله ويذكرهم بثـوابـه وعقـابه. ولهذا يأمر ـ سبحانه ـ عباده أن يذكروا مافي كتابه، كما قال: ﴿**خُذُوا ماآتَيْنَاكُم بقُوَّةٍ واذْكُرُوا مافِيهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧١].

وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذاكرًا له من أنزل عليه، ثم لقومه. ثم لجميع العالمين. وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

وأما وصفه بأنه ذو الذكر فلأنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر، ومنه الذكر، فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدى وفيه الهدى وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة.

(١)**قـوله** ـ سبحانه ـ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إبراهيمَ رُشْدَه مِن قَبْلُ وكُنَّا به عَالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٥١] وأصح الأقوال في الآية أن المعنى من قبل نزول التوراة فإنه سبحانه قال: ﴿**ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وهارون الفُرقَانَ وضِيَآءً وَّذِكرًا لِّلمتقينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٨] وقال: ﴿**وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبارَكٌ أَنْزَلنَاه أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُون**﴾ [الأنبياء: ٥٠] ثم قال ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ذلك، ولهذا قطعت قبل عن الإضافة، وبنيت لأن المضاف منوى معلوم، وإن كان غير مذكور في اللفظ.

---

(١) ٣٢ شفاء العليل.

وذكر ـ سبحـانه ـ هؤلاء الثلاثة وهم أئمة الرسل وأكرم الخلق عليه: محمد وإبراهيم وموسى. وقد قيل: من قبل أي: في حال صغره، قبل البلوغ، وليس في اللفظ مايدل على هذا، والسياق إنما يقتضى من قبل ماذكر.

وقيل المعنى بقـوله: من قبل، أي: في سابق علمنا، وليس في الآية أيضًا مايدل على ذلك، ولا هو أمر مختص بإبراهيم، بل كل مؤمن فقد قدر الله هداه في سابق علمه. والمقصود قوله: ﴿وكنّا به عالمين﴾ قال البغوي: إنه أهل للهداية والنبوة، وقال أبو الفرج، أي: عالمين بأنه موضع لإيتاء الرشد.

وقـال صاحب الكشاف: المعنى علمه به أنه علم منه أحوالاً بديعة وأسرارًا عجيبة، وصفات قد رضيها وحمدها، حتى أهّله لمخالته ومخالصته، وهذا كقولك في حر من النـاس: أنـا عالم بفـلان، فكـلامـك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف، وهذا كقوله: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقوله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الدخان: ٣٢].

ونـظيـره قولـه: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ ونُوحًا وَآلَ إبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمرانَ على العالَمِين • ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ واللهُ سميعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣ـ ٣٤].

وقريب منه فوله: ﴿ولِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي باركنا فِيهَا وكنَّا بِكُلِّ شيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] حيث وضعنا هذا التخصيص في المحل الذي يليق به من الأماكن والأناسي.

فائدة(١)

الإنابة هي: عكوف القلب على الله ـ عز وجل ـ كاعتكاف البدن في المسجد لا يفـارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته، وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله، ومن لم يعكف قلبه على الله وحده، عكف على التماثيل المتنوعة؛ كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَاهَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُم لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل.

---

(١) ١٩٥ فوائد.

والتماثيل: جمع تمثال، وهي: الصورة الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه؛ عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عبادة الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته، بحيث يكون عاكفًا عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي ﷺ عبدًا لها، ودعا عليه بالتعس والنكس، فقال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**».

. . .[1]**أخبر** الله سبحانه عن كليمه موسى ـ عليه السلام ـ: أنه أحرق العجل الذي عبد من دون الله، ونسَفَه في اليَمِّ. وكان من ذهب وفضة. وذلك مَحْقٌ له بالكلية.

وقال عن خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿**فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا**﴾ [الأنبياء: ٥٨] وهو الفَتات. وذلك نص في الاستئصال.

وروى الإمام أحمد في مسنده والطبراني في المعجم من حديث الفرج بن فضالة عن على بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله بعثني رحمة للعالمين، وهدى للعالمين. وأمرني ربي بمَحْقِ المعازف والمزامير والأوثان، والصليب، وأمر الجاهلية**» لفظ الطبراني. والفرج: حمصى. قال أحمد في رواية: هو ثقة. وقال يحيى: ليس به بأس. وتكلم فيه آخرون. وعلى بن يزيد: دمشقي ضعفه غير واحد. وقال أبو مسهر ـ وهو بلديُّه ـ لا أعلم به إلا خيراً. وهو أعرف به. «والمحق» نهاية الإتلاف.

وأيضًا: فالقياس يقتضي ذلك. لأن محل الضمان: هو ماقَبِلَ المعاوضة. ومانحن فيه لايقبلها ألبتة. فلا يكون مضمونًا. وإنما قلنا: لايقبل المعاوضة. لأن النبي ﷺ قال: «**إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**» وهذا نص. وقال: «**إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه**» والملاهي محرمات بالنص. فحرم بيعها.

وأما قبول مافوق الحد المبطل للصورة لجعله آنية: فلا يثبت به وجوب الضمان،

---

(١) ٢٧٢ الطرق الحكمية.

لسقوط حرمته، حيث صار جزء المحرم، أو ظرفًا له، كما أمر به النبي ﷺ في كسر دِنان الخمر، وشق ظروفها. فلا ريب أن للمجاورة تأثيرًا في الامتهان والإكرام.

وقد قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ • إنَّكُم إذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]. وسئل النبي ﷺ عن القوم: يكونون بين المشركين، يؤاكلونهم ويشاربونهم؟ فقال: «هم منهم» هذ لفظه أو معناه.

فإذا كان هذا في المجاورة المنفصلة فكيف بالمجاورة التي صارت جزءًا من أجزاء المحرم، أو لَصيقة به؟ وتأثير الجوار ثابت عقلاً وشرعًا وعرفًا.

والمقصود أن إتلاف المال ـ على وجه التعزير والعقوبة ـ ليس بمنسوخ . . . . .

(١)**وقال** تعالى يذكر نعمته على داود وسليمان: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القَوْمِ وكُنَّا لِحُكْمِهِم شاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمانَ وكُلًّا آتَينا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

فذكر النبيين الكريمين وأثنى عليهما بالحكم والعلم، وخصّ بفهم القضية أحدهما، وقد ذكرت الحكمين الداوودي والسليماني ووجههما ومن صار من الأئمة إلى هذا، ومن صار إلى هذا، وترجيح الحكم السليماني من عدة وجوه، وموافقته للقياس وقواعد الشرع في كتاب الاجتهاد والتقليد.

(٢)**وعلى** هذا الأصل تبتنى الحكومة المذكورة في كتاب الله ـ عز وجل ـ التي حكم فيها النبيان الكريمان: داود وسليمان صلى الله عليهما وسلم؛ إذ حكَمَا في الْحَرْثِ الذي نَفَشَتْ فيه غنم القوم، والْحَرث: هو البستان.

وقد روى أنه كان بستان عنب، وهو المسمى بالكرم، والنفش: رَعْيُ الغنم ليلاً، فحكم داود بقيمة المتلف، فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة، فدفعها إلى أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تَعَذَّر بيعُها، وَرَضُوا بدفعها ورضى أولئك بأخذها بدلاً عن القيمة، وأما سليمان فقضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمروا البستان حتى يعود كما كان، ولم يضيع

(١) ٥٧ مفتاح جـ١.
(٢) ٣٢٦ أعلام جـ١.

عليهم مُغَلَّه من الإتـلاف إلى حين العَـوْد، بل أعطى أصحابَ البستان ماشية أولئك ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان فيستوفوا من نماء غنمهم نظير مافاتهم من نماء حرثهم، وقـد اعتـبر النـماءين فوجـدهمـا سواء، وهذا هو العلم الذي خَصَّه الله به وأثنى عليه بإدراكه.

وقد تنازع علماء المسلمين في مثل هذه القضية على أربعة أقوال:

أحدها: موافقة الحكم السليماني في ضمان النَّفْش وفي المثل، وهو الحق، وهو أحد القولين في مذهب أحمد، ووجه للشافعية والمالكية، والمشهور عندهم خلافه.

والقول الثـاني: موافقتـه في ضمان النفش دون التضمـين بالمثل، وهذا هو المشهور من مذهب مالك والشافعي وأحمد.

والثالث: موافقته في التضمين بالمثل دون النفش كما إذا رَعَاها صاحبها باختياره دون ما إذا تفلتت ولم يشعر بها، وهو قول داود وَمَنْ وافقه.

والقول الـرابـع: أن النفش لايوجب الضـمان بحال، وماوجب من ضمان الراعي بغير النفش فإنه يضمن بالقيمة لا بالمثل، وهذا مذهب أبي حنيفة.

وماحكم به نبي الله سليمان هو الأقـرب إلى العـدل والقياس، وقـد حكم رسـول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ماأفسدت المواشي بالليل ضمان على أهلهـا، فصـح بحكمـه ضمان النفش، وصـح بالنصـوص السابقة والقياس الصحيح وجوبُ الضمان بالمثل، وصح بنص الكتاب الثناء على سليمان بتفهيم هذا الحكم، فصح أنه الصواب، وبالله التوفيق.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**وأيُّوبَ إذْ نَادَى ربَّهُ أَنِّي مَسَّـنِيَ الضرُّ وأنتَ أرْحَمُ الرَّاحمين**﴾ [الأنبياء: ٨٣] جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته ـ سبحانه ـ وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات، ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره.

---

(١) ٢٠٠ فوائد.

.(١) **وقد** أثنى عليه ـ سبحانه ـ بذلك في قوله: ﴿وذا النُّون إذ ذَّهبَ مغاضبًا فظنَّ أن لَّن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ● فاستَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي المُؤْمِنِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧-٨٨] فكيف ينهي عن التشبه به فيما يثنى عليه ويمدحه به. وكذلك أثنى على أيوب بقوله: ﴿مَسَّنِيَ الضرُّ وأنتَ أرحَمُ الرَّاحِمين﴾. وعلى يعقوب بقوله: ﴿إنما أَشْكُو بَثِّي وحُزْني إِلَى اللهِ﴾[يوسف: ٨٦]. وعلى موسى بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فقير﴾ [القصص: ٢٤].

وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله: «**اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي**» الحديث، فالشكوى إليه ـ سبحانه ـ لاتنافي الصبر الجميل، بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة، وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر. والله ـ تعالى ـ يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه.

وقد ذم ـ سبحانه ـ من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء، كما قال تعالى: ﴿ولَقَدْ أَخَذْنَاهُم بالعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ ومايَتضرَّعُون﴾ [المؤمنون: ٧٦] والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه والرب ـ تعالى ـ لم يرد من عبده أن يتجلد عليه، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ويحب من يشكو مابه إليه. وقيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ماليس يخفى عليه، فقلت ربي يرضى ذل العبد إليه.

والمقصود أنه ـ سبحانه ـ أمر رسوله أن يصبر صبر أولى العزم الذين صبروا لحكمه اختيارًا، وهذا أكمل الصبر، ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم، وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(٢) **وأما** دعوة ذي النون: فإن فيها من كمال التوحيد، والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه لنفسه وذنبه: ماهو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله ـ سبحانه ـ في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه

---

(١) ٣٣ عدة الصابرين. (٢) ٢٧٧ زاد المعاد جـ٣.

يتضمنـان إثبـات كل كمال لله وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم: يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب ويوجب انكساره وبرجوعه إلى الله واستقالته عثرته والاعتراف بعبوديته وافتقاره إلى ربه.

فهاهنا أربعـة أمـور قد وقـع التوسل بها، التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف، اهـ.

(١)**قال** الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَيدْعُونَنَا رَغَبًا ورَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] والفرق بين «الرغبة» و«الرجاء» أن الرجاء طمع. والرغبة طلب. فهي ثمرة الرجاء. فإنه إذا رجا الشيء طلبه. والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف. فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه. ومن خاف شيئًا هرب منه. والمقصود أن الراجي طالب، والخائف هارب.

(٢)﴿وزكريّا إذ نادَىٰ ربَّه﴾ إلى أن قال: ﴿إنهم كَانُوا يُسارِعُونَ في الخيراتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا ورَهَبًا وكانُوا لنا خاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠] أي: رَغَبًا فيما عندنا، ورهبًا من عذابنا. والضمير في قوله: «إنهم» عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين.

و«الرغب والرهب» رجاء الرحمة، والخوف من النار عندهم أجمعين. وذكر ـ سبحانه ـ عباده، الذين هم خواص خلقه، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، وجعل منهـا: استعاذتهم به من النار، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عنَّا عَذابَ جَهنَّمَ إنَّ عذابَها كانَ غرامًا ● إنها سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

وأخبر عنهم: أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار. فقال تعالى: ﴿الَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إنَّنا آمَنَّا فاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦] فجعلوا أعظم وسائلهم إليه: وسيلة الإيمان، وأن ينجيهم من النار.

وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولى الألباب: أنهم كانوا يسألونه جنته. ويتعوذون به من ناره. فقال تعالى: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّموَاتِ والأَرْضِ وَاختِلافِ اللَّيـلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلبَابِ﴾ الآيات إلى آخرها [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٤] ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله: هي الجنة التي سألوها.

---

(١) ٥٥ مدارج جـ٢. (٢) ٧٦ مدارج جـ٢.

وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين • رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين • واجعل لي لسان صدق في الآخرين • واجعلني من ورثة جنة النعيم • واغفر لأبي إنه كان من الضالين • ولا تخزني يوم يبعثون • يوم لا ينفع مال ولا بنون • إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٢ ـ ٨٩] فسأل الله الجنة، واستعاذ به من النار. وهو الخزي يوم البعث. وأخبرنا ـ سبحانه ـ عن الجنة: أنها كانت وعدًا عليه مسئولاً، أي: يسأله إياها عباده وأولياؤه.

(١)**وقد** أثنى الله على أقرب عباده إليه بالخوف عنه فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا﴾ فالرغب الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية. وقال عن ملائكته الذين قد أمنهم من عذابه: ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [النحل: ٥٠] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**» وفي لفظ آخر: «**إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقى**» وكان ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. . . .

(٢)**فصل** النوع الثامن ذكر الحكم الكوني والشرعي عقيب الوصف المناسب له، وتارة بذكر بأن، وتارة يقرن بالفاء، وتارة يذكر مجردًا.

فالأول كقوله: ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠] وقوله: ﴿إن المتقين في جنات وعيون • آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦] وقوله: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ [يوسف: ٢٤] وقوله: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ [الأعراف: ١٧٠].

والثاني كقوله: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا﴾ [المائدة: ٣٨] ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ [النور: ٢].

---

(١) ٢٨٢ طريق الهجرتين.
(٢) ١٩٦ شفاء العليل.

والثالث كقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٧] وهذا في التنزيل يزيد على عدة آلاف موضع، بل القرآن مملوء منه.

فإن قيل: هذا إنما يفيد كون تلك الأفعال أسبابًا لما رتب عليها لا يقتضى إثبات التعليل في فعل الرب وأمره، فأين هذا من هذا؟!

قيل: لما جعل الرب ـ سبحانه ـ هذه الأوصاف عللاً لهذه الأحكام وأسبابًا لها دل ذلك على أنه حكم بها شرعًا وقدرًا لأجل تلك الأوصاف وأنه لم يحكم بها لغير علة ولا حكمة، ولهذا كان كل من نفى التعليل والحكم نفى الأسباب ولم يجعل لحكم الرب الكوني والديني سببًا ولا حكمة هي العلة الغائية، وهؤلاء ينفون الأسباب والحكم. ومن تأمل شرع الرب وقدره وجزاءه جزم جزمًا ضروريًا ببطلان قول النفاة، والله ـ سبحانه ـ قد رتب الأحكام على أسبابها وعللها وبين ذلك خبراً وحسًا وفطرة وعقلاً، ولو ذكرنا ذلك على التفصيل لقام منه عدة أسفار.

فصل(١)

والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى وإن اشتبهت صورتها: أن الإخبار بالحال يقصد المخبر به قصدًا صحيحًا من علم سبب إدانته أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه أو يحذره من الوقوع في مثل ماوقع فيه، فيكون ناصحًا بإخباره له، أو حمله على الصبر بالتأسي به، كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى، فقال: ياابن أخي لقد ذهب ضوء عيني من كذا وكذا سنة فما أعلمت به أحدًا. نفى ضمن هذا الأخبار من حمل الشاكي على التأسي، والصبر مايثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى، ولكن القصد ميز بينهما، ولعل من هذا قول النبي ﷺ لما قالت عائشة وارأساه فقال: «**بل أنا وارأساه**». أي: الوجع القوي بي أنا دونك، فتأسي بي فلا تشتكي.

ويلوح لي فيه معنى آخر، وهو أنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق، فلما شكت إليه رأسها أخبرها أن بمحبها من الألم مثل

(١) ٣١٥ الروح.

الذي بها، وهذا غاية الموافقة من المحب، ومحبوبه يتألم بتألمه، ويسر بسروره حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة، فالمعنى الأول يفهم أنك لا تشتكي واصبري فبي من الوجع مثل مابك فتأسي بي في الصبر وعدم الشكوى.

والمعنى الثاني يفهم إعلامها بصدق محبته لها، أي: انظري قوة محبتي لك كيف واسيتك في ألمك ووجع رأسك فلم تكوني متوجعة وأنا سليم من الوجع بل يؤلمني مايؤلمك كما يسرني مايسرك كما قيل:

وإن أولى البرايا أن تواسيه		عند السرور الذي واساك في الحزن

وأما الشكوى فالإخبار العاري عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلي إلى غيره، فإن شكا إليه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكن ذلك شكوى، بل استعطاف وتملق واسترحام له كقول أيوب: رب **﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٣]. وقول يعقوب: **﴿إِنَّمَا اشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾** [يوسف: ٨٦]. وقول موسى: اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك. وقول سيد ولد آدم: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني! إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليّ غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**». فالشكوى إلى الله ـ سبحانه ـ لاتنافي الصبر بوجه، فإن الله ـ تعالى ـ قال عن أيوب: **﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** [ص: ٤٤] مع إخباره عنه بالشكوى إليه في قوله: **﴿مسني الضر﴾**.

وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل، والنبي إذا قال وفيّ مع قوله: **﴿إِنَّمَا أَشْكُو بثّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾** ولم يجعل ذلك نقصًا لصبره. ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم، كما قال بعضهم لما قال: **﴿مسني الضر﴾** قال تعالى: **﴿إِنَّا وجدْناه صَابِرًا﴾** ولم يقل صبورًا حيث قال: مسنى الضر، وقال

بعضهم: لم يقل ارحمني وإنما قال: أنت أرحم الراحمين، فلم يزد على الإخبار بحاله ووصف ربه. وقال بعضهم إنما شكا مس الضر حين ضعف لسانه عن الذكر فشكا مس ضر ضعف الذكر لا ضر المرض والألم. وقال بعضهم: استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة. وكأن هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافي الصبر.

وغلط أقبح الغلط فالمنافي للصبر شكواه لا الشكوى إليه. فالله يبتلي عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه، ولا يحب التجلد عليه وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه وتذلله له، وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه وقلة صبره، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم اهـ.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠١] قد تقدمت الأحاديث بوقوع أهل السعادة في إحدى القبضتين، وكتابتهم بأسمائهم وأسماء آبائهم في ديوان السعداء قبل خلقهم.

وفي صحيح الحاكم من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت: ﴿**إِنَّكُم وَمَا تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون: فالملائكة وعيسى وعزيرًا يعبدون من دون الله، قال فنزلت: ﴿**إِنَّ الَّذِين سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾ وهذا إسناد صحيح. وقال علي بن المديني ثنا يحيى بن آدم ثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم قال أخبرني أبو رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس أنه قال: آية لا يسأل الناس عنها لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها أو جهلوها فلا يسألون عنها، فقيل له: وما هي؟ فقال لما نزلت: ﴿**إِنَّكُم وَمَاتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُم لَهَا وَارِدُون**﴾ شق ذلك على قريش أو على أهل مكة، وقالوا: يشتم آلهتنا فجاء ابن الزبعري فقال: مالكم؟ قالوا: يشتم آلهتنا قال: وماقال؟ قالوا: قال: ﴿**إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾ قال: ادعوه لي فلما دُعي النبي ﷺ

---

(١) ٢٦ شفاء العليل.

قال: يامحمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله. فقال: لا بل لكل من عبد من دون الله، قال: فقال: ابن الزبعري: خصمت ورب هذه البنية، يعني: الكعبة، ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عزيرًا عبد صالح، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة، وهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيرًا. قال: فضج أهل مكة فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ قال ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] قال هو الضجيج. وهذا الإيراد الذي أورده ابن الزبعري لا يرد على الآية، فإنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿إنكم وماتعبدون من دون الله﴾ ولم يقل: ومن تعبدون. [وما] لما لا يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة والمسيح وعزير، وإنما ذلك للأحجار ونحوها التي لا تعقل.

وأيضًا فإن السورة مكية والخطاب فيها لعباد الأصنام فإنه قال: ﴿إنكم وماتعبدون﴾ فلفظة [إنكم] ولفظة [ما] تبطل سؤاله، وهو رجل فصيح من العرب لا يخفى عليه ذلك، ولكن إيراده إنما كان من جهة القياس والعموم المعنوي الذي يعم الحكم فيه بعموم علته، أي إن كان كونه معبودًا يوجب أن يكون حصب جهنم فهذا المعنى بعينه موجود في الملائكة وعزير والمسيح، فأجيب بالفارق وذلك من وجوه:

أحدها أن الملائكة والمسيح وعزيرًا ممن سبقت لهم من الله الحسنى، فهم سعداء، لم يفعلوا مايستوجبون به النار، فلا يعذبون بعبادة غيرهم مع بغضهم ومعاداتهم لهم. فالتسوية بينهم وبين الأصنام أقبح من التسوية بين البيع والربا والميتة والذكي وهذا شأن أهل الباطل، وإنما يسوون بين مافرق الشرع والعقل والفطرة بينه، ويفرقون بين ماسوى الله ورسوله بينه.

الفرق الثاني: أن الأوثان حجارة غير مكلفة ولا ناطقة، فإذا حصبت بها جهنم إهانة لها ولعابديها لم يكن في ذلك من لا يستحق العذاب بخلاف الملائكة والمسيح وعزير فإنهم أحياء ناطقون فلو حصبت بهم النار كان ذلك إيلامًا وتعذيبًا لهم.

الثالث: أن من عبد هؤلاء بزعمه فإنه لم يعبدهم في الحقيقة فإنهم لم يدعوا إلى

عبادتهم وإنما عبد المشركون الشياطين وتوهموا أن العبادة لهؤلاء، فإنهم عبدوا بزعمهم من ادعى أنه معبود مع الله وأنه معه إلـه.

وقد برأ الله ـ سبحانه ـ ملائكته والمسيح وعزيرًا من ذلك، وإنما ادعى ذلك الشياطين، وهم بزعمهم يعتقدون أنهم يرضون بأن يكونوا معبودين مع الله، ولا يرضى بذلك إلا الشياطين، ولهذا قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَيومَ يَحْشُرُهُم جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلمَلآئِكَةِ أَهَؤُلآءِ إِيَّاكُم كَانُوا يَعْبُدُونَ • قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَل كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿أَلَم أَعْهَدْ إِلَيكُم يَابَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا سُبْحَانَه بَل عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ • لَايَسْبِقُونَه بِالقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِه يَعمَلُونَ • يَعلَمُ مَابَيْنَ أَيدِيهِمْ وَمَاخَلْفَهُم وَلَايَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهُ مُشْفِقُونَ • وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلـهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩] فما عبد غير الله إلا الشيطان وهذه الأجوبة منتزعة من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ فتأمل الآية تجدها تلوح في صفحات ألفاظها، وبالله التوفيق.

والمقصود ذكر الحسنى التي سبقت من الله لأهل السعادة قبل وجودهم.

وقال عبدالرحمن بن أبي حاتم ثنا أبوسعيد بن يحيى بن سعيد ثنا أبوعامر العقدي ثنا عروة بن ثابت الأنصاري ثنا الزهري عن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف أن عبدالرحمن بن عوف مرض مرضًا شديدًا أغمى عليه، فأفاق فقال: أغمى عليّ؟ قالوا: نعم. قال: إنه أتاني رجلان غليظان فأخذا بيدي، فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين. فانطلقا بي، فتلقاهما رجل، وقال: أين تريدان به؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين، فقال: دعاه فإن هذا ممن سبقت له السعادة وهو في بطن أمه.

وقال عبدالله بن محمد البغوي ثنا داود بن رشيد ثنا ابن علية حدثني محمد بن محمد القرشي عن عامر بن سعد قال: أقبل سعد من أرض له، فإذا الناس عكوف على رجل فاطلع، فإذا هو يسب طلحة والزبير وعليًا فنهاه، فكأنما زاده إغراء، فقال: ويلك تريد أن تسب أقوامًا هم خير منك لتنتهين أو لأدعون عليك، فقال:

كأنما يخوفني نبي من الأنبياء، فانطلق فدخل دارًا فتوضأ ودخل المسجد، ثم قال: اللهم إن كان هذا قد سب أقوامًا قد سبقت لهم منك حسنى أسخطك سبه إياهم فأرني اليوم آية تكون للمؤمنين آية، وقال: تخرج بختية من دار بني فلان لا يردها شيء حتى تنتهي إليه ويتفرق الناس، وتجعله بين قوائمها وتطأه حتى طفى قال: فأنا رأيت سعدًا يتبعه الناس يقولون: استجاب الله لك ياأباإسحاق! استجاب الله لك ياأباإسحاق.

وقال تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَاجَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا**﴾ [الحج: ٧٨] أي: الله سماكم من قبل القرآن وفي القرآن فسبقت تسمية الحق ـ سبحانه ـ لهم مسلمين قبل إسلامهم وقبل وجودهم. وقال تعالى ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾[الصافات:١٧١، ١٧٣].

وقال ابن عباس في رواية الوالبي عنه في قوله: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِيْنَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ [يونس: ٢] قال: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول، وهذا لا يخالف قول من قال: إنه الأعمال الصالحة التي قدموها، ولا قول من قال: إنه محمد ﷺ فإنه سبق لهم من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد ﷺ فهو خير تقدم لهم من الله ثم قدمه لهم على يد رسوله ثم يقدمهم عليه يوم لقائه.

(١)**وثبت** في صحيح البخاري من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً ثم** قرأ ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم».

(٢)الفصل الرابع عشر
في الحكمة التي لأجلها يعاد بنو آدم غرلاً

لما وعد الله ـ سبحانه ـ وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، أنه يعيد الخلق كما بدأهم أول مرة، كان من صدق وعده أن يعيده على الحالة التي بدأ عليها من

(١) ١٥٦ جلاء الأفهام.
(٢) ١٢٤ تحفة المودود.

تمام أعضائه وكمالها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وأيضًا فإن الختان إنما شرع في الدنيا لتكميل الطهارة والتنزه من البول، وأهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون، فليس هناك نجاسة تصيب الغرلة، فيحتاج إلى التحرز منها، والقلفة لا تمنع لذة الجماع ولا تعوقه، هذا إن قدر استمرارهم على تلك الحالة التي بعثوا عليها، وإلا فلا يلزم من كونهم يبعثون كذلك أن يستمروا على تلك الحالة التي بعثوا عليها فإنهم يبعثون حفاة عراة بهما، ثم يكسون ويمد خلقهم ويزاد فيه بعد ذلك، يزاد في خلق أهل الجنة وأهل النار، وإلا فوقت قيامهم من القبور يكونون على صورتهم التي كانوا عليها في الدنيا، وعلى صفاتهم وهيئاتهم وأحوالهم فيبعث كل عبد على ما مات عليه، ثم ينشئهم الله سبحانه كما يشاء، وهل تبقى تلك الغرلة التي كملت خلقهم في القبور أو تزول يمكن هذا وهذا ولا يعلم بخبر يجب المصير إليه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١)**وقال** تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ والسجل: الورق المكتوب فيه، والكتاب: نفسُ المكتوب، واللام بمنزلة على: أي نطوى السماء كطىّ الدَّرج على ما فيه من السطور المكتوبة، ثم استدل على النظير بالنظير فقال: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

(٢)الباب الحادي عشر

في ذكر المرتبة الثانية وهي مرتبة الكتابة

وقد تقدم في أول الكتاب ما دل على ذلك من نصوص القرآن والسنة الصحيحة الصريحة فنذكر هنا بعض مالم نذكره قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ • إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]. فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود.

والذكر: أم الكتاب الذي عند الله، والأرض: الدنيا، وعباده الصالحون: أمة

(١) يراجع فيه الشيخ علي

(٢) ٣٩ شفاء العليل.

محمد، ﷺ، هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله، ﷺ، فإنه أخبر بذلك بمكة، وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم ـ تبارك ـ وتعالى أنه كتب في الذكر الأول: أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي، ﷺ، في الحديث المتفق على صحته، «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء**» فهذا هو الذكر الذي كتب فيه أن الدنيا تصير لأمة محمد، ﷺ.

والكتب المنزلة قد أطلق عليها الزبر في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ● بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ**﴾[النحل: ٤٣ ـ ٤٤]. أي أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور والذكر ههنا: الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله، ﷺ، وهما التوراة والأنجيل، والذكر في قوله: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[النحل: ٤٤]، هو القرآن، ففي هذه الآية علمه بما كان قبل كونه وكتابته له بعد علمه، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾ [يس: ١٢]. . . .

(١) **وقد** اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس هي أرض الجنة، وهذا قول أكثر المفسرين. وعن ابن عباس قول آخر: إنها الدنيا التي فتحها الله على أمة محمد، ﷺ، وهذا القول هو الصحيح. ونظيره قوله تعالى في سورة النور: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾[النور: ٥٥]. وفي الصحيح عن النبي، ﷺ، قال: «**زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي مازوى لي منها**».

وقالت طائفة من المفسرين: المراد بذلك أرض بيت المقدس. وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين وليست الآية مختصة بها.

---

(١) ١٣٣ الروح.

(١). . . **وأصح** القولين في قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعَالْمِين﴾ [الأنبياء:١٠٧]. أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم، لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر. **وأما** المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها؛ وأما الأمم النائية عنه، فإن الله ـ سبحانه ـ رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض. ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة وأصدقهم حديثًا، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالا، وأعظمهم عفوا ومغفرة وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا كما روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمرو أنه قال في صفة رسول الله، ﷺ، في التوراة «محمد عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، وأفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا، حتى يقولوا لا إله إلا الله». **وأرحم** الخلق وأرأفهم بهم وأعظم الخلق نفعًا لهم في دينهم ودنياهم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأنبياء

والحمد لله رب العالمين

(١) ٩٨ جلاء الأفهام.



بسم الله الرحمن الرحيم

فائـــدة(١)

المرضع من لها ولد ترضعه، والمرضعة من ألقمت الثدى للرضيع. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾[الحج: ٢]. أبلغ من مرضع في هذا المقام.

فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدى واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

وتأمل رحمك الله تعالى السر البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله ذات حمل، فإن الحامل قد تطلق على المهيئة للحمل وعلى من هي في أول حملها وباديه، فإذا قيل: ذات حمل لم يكن إلا لمن قد ظهر حملها وصلح للوضع كاملاً أو سقطًا، كما يقال: ذات ولد. فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها، وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢)**وقد** يكون سبب السكر غير تناول المسكر: إما ألم شديد يغيب به العقل، حتى يكون كالسكران.

وقد يكون سببه مخوف عظيم هجم عليه وهلة واحدة حتى يغيب عقل من هجم عليه.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيْدٌ﴾[الحج: ٢].

فهم سكارى من الدهش والخوف. وليسوا بسكارى من الشراب، فسكرهم سكر خوف ودهش، لا سكر لذة وطرب.

وقد يكون سببه قوة الفرح بإدراك المحبوب، بحيث يختلط كلامه، وتتغير أفعاله، بحيث يزول عقله، ويُعَرْبِد أعظم من عَرْبدة شارب الخمر. وربما قتله سكر هذا الفرح لسبب طبيعي، وهو انبساط دم القلب وَهْلةً واحدة انبساطًا غير معتاد ـ والدم حامل

---

(١) ٢١ بدائع جـ٤.		(٢) ٣٠٧ مدارج جـ٣.

الحار الغريزي ـ فيبرد القلب بسبب انبساط الدم عنه، فيحدث الموت.

ومن هذا قول سكران الفرح بَوجْد راحلته في المفازة، بعد أن استشعر الموت «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» أخطأ من شدة فرحه.

وسكرة الفرح فوق سكرة الشراب. فصور في نفسك حال فقير معدم، عاشق للدنيا أشد العشق، ظفر بكنز عظيم، فاستولى عليه آمنًا مطمئنًا. كيف تكون سكرته؟ أو من غاب عنه غلامه بمال له عظيم مدة سنين، حتى أضرَّ به العُدْم، فقدم عليه من غير انتظار له بماله كله، وقد كسب أضعافه؟

وقد يوجبه غضب شديد، يحول بين الغضبان وبين تمييزه. بل قد يكون سُكر الغضب: أقوى من سكر الطرب. ولهذا قال النبي، ﷺ: «**لا يَقْضِ القاضي بين اثنين وهو غضبان**».

ولا يستريب من شَمَّ رائحة الفقه: أن الغضب إذا وصل بصاحبه إلى هذه الحال، فطلق: لم يقع طلاقه. وقد نص الإمام أحمد على أن «الإغلاق» الذي قال فيه النبي، ﷺ: «**لا طلاق ولا عتاق في إغلاق**» أنه الغضب. وقال أبو داود: أظنه الغضب. والشافعي سمى نذر اللَّجاج والغضب نَذْر الغَلْق. وذلك لأن الغضبان قد انغلق عليه باب القصد والتمييز بشدة غضبه. وإذا كان الإكراه غلقا فالغضب الشديد أولى أن يسمى غلقا ـ وكذلك السكر غلق والجنون غلق. فالغلق والإغلاق أيضًا كلمة جامعة لمن انغلق عليه باب القصد والتمييز بسبب من الأسباب. **وقد أشبعنا الكلام في هذا في كتابنا المسمى إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان**(1).

. . (2)**قوله** تعالى: ﴿**يَا أَيُّها النَّاسُ إنْ كُنتم في رَيْبٍ من البَعْثِ فَإِنَّا خلقْنَاكُم مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبيِنَ لَكُم وَنُقِرُّ في الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إلىٰ أجَلٍ مُسَمّى ثُمَّ نُخرجُكُم طِفلاً ثُمَّ لِتَبلُغُوا أَشُدَّكُم وَمِنْكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُم مَن يُرَدُّ إلىٰ أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا**﴾[الحج: ٥].

يقول سبحانه: إن كنتم في ريب من البعث فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون،

---

(١) الموجود رسالة صغيرة فهل هناك غيرها. (ج).	(٢) ١٤٠ أعلام جـ١.

ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت. والبعثُ الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقًا جديدًا كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها؟

وقد أعاد سبحانه هذا المعنى وأبداه في كتابه بأوجز العبارات، وأدلِّها، وأفصحها، وأقطعها للعذر، وألزمها للحجة، كقوله تعالى: ﴿**أفرأيتم مَّا تُمنُون * أأنتُم تَخْلقُونه أم نَحنُ الخَالِقُونَ * نَحنُ قَدَّرْنا بينَكُم الموتَ وَمَا نَحْنُ بمسْبُوقِينَ * عَلى أن نُّبَدِّلَ أمْثالَكُم وَننْشِئَكُم فِيما لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَقَد عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُوْلى فَلولاَ تَذَكَّرُونَ**﴾[الواقعة: ٥٨-٦٢] فدلهم بالنشأة الأولى على الثانية، وأنهم لو تذكروا لعلموا أن لا فرق بينهما في تعلق القدرة بكل واحدة منهما.

. . .[1]**قوله** تعالى: ﴿**وَتَرَى الأرضَ هَامِدَةً فَإذَا أَنْزَلنا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزتْ وَرَبَتْ وَأنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوجٍ بَهْيجٍ * ذَلِك بأنَّ الله هُوَ الحَق وأنَّه يُحيِي الموتَىٰ وأنَّه عَلىٰ كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ * وأنَّ السَّاعَةَ آتيةٌ لاَ رَيْبَ فِيْهَا وأنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ**﴾[الحج: ٥-٧].

وقوله تعالى: ﴿**وَمْن آياتِهِ أنَّك تَرى الأرضَ خَاشِعَةً فَإذَا أنزلْنَا عَلَيهَا المَآء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إنَّ الَّذِي أحْيَاهَا لَمحْيِي الموتىٰ إنَّه عَلىٰ كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ**﴾[فصلت: ٣٩].

جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودلَّ بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آيةً ودليلاً على خمسة مطالب.

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته، وإرادته وحياته، وعلمه وحكمته، ورحمته، وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتى. **الثالث:** عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض.

---

(١) ١٤٤ أعلام جـ١.

وقد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل في كتابه مرارًا؛ لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقرب تناوله، وبُعده من كل معارضة وشبهة، وجعله تبصرةً وذكرى كما قال تعالى: ﴿**والأرضَ مَدَدْنَاهَا وأَلقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وأَنبَتْنَا فِيْهَا مِنْ كُلِ زَوجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكرىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيْبٍ**﴾[ق:٧،٨]. فالمنيب إلى ربه يتذكر بذلك، فإذا تَذكر تبصَّرَ به، فالتذكر قبل التبصر، وإن قُدِّمَ عليه في اللفظ كما قال تعالى: ﴿**إنَّ الذَينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإذَا هُمْ مُبصِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والتذكر: تَفَعُّلُ من الذكر، وهو حضور صورةٍ من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهدَهُ على وَجْهه أوجَبَ له البصيرة، فأبْصَرَ مَا جعل دليلاً عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين: التذكر، والتبصر.

فصل[1]

والمجوس تُعظم الأنوار، والنيران، والماء، والأرض. ويقرون بنبوة زرادشت[2] ولهم شرائع يصيرون إليها. وهم فرق شتى.

---

(١) ٢٤٧ إغاثة جـ٢.

(٢) قال المسعودي: هو زرادشت بن استيمان علي الأشهر من نسبه ـ وهو نبي المجوس الذي أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند عوام الناس، واسمه عند المجوس: نسياه. وأتى زرادشت عندهم بالمعجزات الباهرات للعقول، وأخبر عن الكائنات من المغيبات قبل حدوثها من الكليات والجزئيات. ومعجم هذا الكتاب يدور على ستين حرفًا من أحرف المعجم. وليس في سائر اللغات أكثر حروفًا من هذا. ولهم خطب طويل. وأتى زرادشت بكتابهم هذا بلغة يعجزون عن إيراد مثلها، ولا يدركون كنه مرادها. ثم عمل له تفسيرًا عند عجزهم عن فهمه. وسموا التفسير: زندًا. ثم عمل للتفسير تفسيرًا. وسماه: بازندا. ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيرًا لتفسير التفسير وشرحًا لسائر ماذكرنا. وسموا هذا التفسير: بارده. فلم تزل الملوك من الفرس تعمل بما في هذا الكتاب إلى عهد الأسكندر وماكان من قتله دارا بن دارا. فأحرق الأسكندر بعض هذا الكتاب، وفي عهد بهرام بن هرمز من ملوك الفرس الساسانية ـ أتاه ماني بن فديك تلميذ ماردون فعرض عليه مذاهب الثنوية فقتله، وقتل الرؤساء من أصحابه. وفي أيام ماني هذا ظهر اسم الزندقة الذي أضيف إليه اسم الزنادقة. وذلك أن الفرس حين عمل لهم زرادشت تفسير كتابهم وسماه الزند: وعمل لهذا التفسير شرحًا سماه البازند. وكان الزند بالتأويل غير المقدم المنزل، وكان من أورد في شريعتهم شيئًا بخلاف المنزل الذي هو النسياه وعدل إلى التأويل الذي هو الزند. قالوا: هذا زندي. فأضافوه إلى التأويل وأنه منحرف عن الظواهر من المنزل إلى تأويل هو بخلاف التنزيل. فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس وقالوا زنديق. اهـ بتصرف من مروج الذهب. (ج١ ص١٩٣، ٢١٢).

منهم: المزدكية، أصحاب مزدك الموبذ(١). والموبذ عندهم: العالم القدوة. وهؤلاء يرون الاشتراك في النساء والمكاسب كما يشترك في الهواء، والطرق، وغيرها.

ومنهم الخرمية: أصحاب بابك الخرمي(٢). وهم شر طوائفهم، لا يقرون بصانع، ولا معاد، ولا نبوة، ولا حلال، ولا حرام. وعلى مذهبهم: طوائف القرامطة(٣)، والإسماعلية، والنصيرية(٤)، والبشكية، والدرزية، والحاكمية،

---

(١) هو مزدك الذي ظهر في أيام قباذ بن فيروز، والد أنوشروان. وكان ينهى الناس عن المباغضة والقتال. ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال أباح كل شيء من النساء والأموال. وجعل الناس شركاء فيه كاشتراكهم في الماء والكلأ والنار. وقد قتله أنوشروان بن قباذ.

(٢) الخرمية: نسبة إلى خرمة ـ بوزن سكرة، من قرى فارس ـ وهم صنفان. صنف قبل الإسلام. وهم الذين استباحوا المحرمات. وأحلوا البنات والأمهات وهم المزدكية. والصنف الثاني بعد الإسلام. وهم فريقان: بابكية. وهم أتباع بابك الخرمي، الذي ظهر سنة اثنتين وتسعين ومائة بناحية أذربيجان: وكثر بها أتباعه، واستباحوا كل المحرمات. وقتلوا الكثير من المسلمين. وقد جهز إليه بنو العباس جيوشًا كثيرة استمرت في حروبهم عشرين سنة إلى أن كانت وقعة الأفشين معه في سنة اثنتين وعشرين ومائتين فهزمه الأفشين واستباح عسكره وهرب بابك، ثم أسروه بعد فصول طويلة. وكان بابك من أبطال زمانه وشجعانهم. عاث في الأرض فسادًا، وأخاف الإسلام وأهله وغلب على أذربيجان وغيرها. وأراد أن يقيم ملة المجوس. وظهر في أيامه مازيار القائم بالملة المجوسية بمدينة طبرستان. وهو رأس الفرقة الثانية من الخرمية. فعظم شره وكان الخليفة المعتصم مهتمًا بأمر هذين الملعونين جدًا حتى إنه جعل لمن يأتيه بكل واحد منهما حيًا ألف درهم. فلما جاء الأفشين ببابك ضجت بغداد بالتكبير فقطعت أعضاؤه الأربعة ثم قتل وعلقت رأسه وأحرق بالنار. وأما ما زيار فأسر، وأحضر بين يدي المعتصم سنة ست وعشرين ومائتين، فأمر به فضرب أربعمائة وخمسين سوطًا فمات من ساعته تحت العقوبة.

(٣) القرامطة: نسبة إلى حمدان بن الأشعث. عرف بقرمط. لأنه كان قصيراً متقارب الخطو. وكان في ابتداء أمره أكارا من أكرة سواد الكوفة. وهم طائفة من الباطنية: أظهروا أولًا التشيع، ثم دخلوا منه إلى الإلحاد والزندقة. واستباحة المحرمات كلها. وظهر أمرهم في سنة ست وثمانين ومائتين على يد أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي ـ بتشديد النون، نسبة إلى قرية جنابة ـ أخذ الدعوة عن قرمط. ثم بثها فاستجاب له كثير من الأشرار وكان منهم على الإسلام والمسلمين كوائن عظيمة وشر كبير. فكم سفكوا دماء وانتهكوا حرمات. حتى حرمة البيت المشرف فإنهم دخلوا مكة في يوم التروية من سنة سبع عشرة وثلاثمائة وقتلوا حجاج بيت الله وهم محرمون يطوفون بالبيت الذي من دخله كان آمنًا. وقلعوا باب الكعبة. وعروها عن كسوتها وطرحوا القتلى في زمزم. واقتلعوا الحجر الأسود. وذهبوا به إلى القطيف وبقي عندهم حتى رده الخليفة العباسي المطيع لله الفضل بن المقتدر.

(٤) سأل الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن الشافعي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله عن النصيرية =

وسائر العبيدية، الذين يسمون أنفسهم الفاطمية، وهم من أكفر الكفار، كما ستأتي ترجمتهم.

فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهب ويتفاوتون في التفصيل.

= القائلين باستحلال الخمر وتناسخ الأرواح، وقدم العالم، وإنكار البعث والنشور والجنة والنار في غير الحياة الدنيا، وبأن الصلوات الخمس عبارة عن ذكر خمسة أسماء: على وفاطمة، وحسن وحسين ومحسن، وأن الصيام عبارة عن أسماء ثلاثين رجلًا وامرأة يعدونهم في كتبهم، وبأن إلههم علي بن أبي طالب. فهو عندهم الإمام في الأرض والإمام في السماء. فكانت الحكمة في ظهور اللاهوت بهذا الناسوت على رأيهم أن يؤنس خلقه وعبيده ليعلَمهم كيف يعرفونه ويعبدونه. وعندهم لا يصير النصيري نصيريًا حتى يخاطبه معلمه. فيحلفه على كتمان دينه، ومعرفة مشايخه وأكابر أهل مذهبه، وعلى أن لاينصح مسلمًا ولاغيره إلا من كان على دينه، وأن يعرف ربه وإمامه بظهوره في أنواره وأدواره. فيعرف انتقال الاسم والمعنى، في كل حين وزمان. فالاسم عندهم في أول الناس آدم والمعنى شيث: والاسم يعقوب، فكان الاسم فما قدر أن يتعدى منزلته فقال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُ رَبِّيَ﴾ [يوسف: ٥٨] وأما يوسف، فكان المعنى المطلوب فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرَ اللهُ لَكُم﴾ [يوسف: ٩٢] فلم يعلق الأمر بغيره لأنه علم أنه هو الإمام المتصرف. وهكذا يعدون الأنبياء والمرسلين واحدًا واحدًا على هذا النمط إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون: محمد هو الاسم، وعلى هو المعنى ويوصلون العدد على هذا الترتيب في كل زمان إلى وقتنا. فمن حقيقة الخطاب في الدين عندهم: أن عليًا هو الرب، وأن محمدًا هو الحجاب. وأن سلمان الفارسي هو الباب. ويقولون: إن إبليس الأبالسة هو عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ويليه في رتبة الإبليسية أبو بكر - رضي الله عنه - ثم عثمان - رضي الله عنهم وشرفهم وأعلى مراتبهم عن قول أولئك الملحدين. ولمذهبهم الفاسد شعب ترجع إلى هذه الأصول. وقد استولت هذه الطائفة الملعونة على جانب كبير من أرض الشام. وهم معروفون مشهورون بهذا المذهب. وقد أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية في رساله له مستقلة بأن هذه الطائفة الملعونة أكفر من اليهود والنصارى والمشركين. وأن قتالهم أوجب من قتال هؤلاء. وأنهم فرع من القرامطة المجوسية الملعونة. لا يختلفون إلا في الاسم فقط، وهم ينسبون إلى أبي شعيب محمد بن نصير. وكذلك ذكر شيخ الإسلام في كثير من كتبه أن الأسماعيلية على مثل نحلة النصيرية والقرامطة، يقولون بالتناسخ وتأليه عليّ ومن بعده من أئمتهم. والاسماعيلية اليوم كثير في الهند زعيمهم المدعو أغا خان. وكذلك الدرزية الذين يسكنون في جبل الدروز من أرض الشام، وهم الذين يؤلهون الحاكم العبيدي، وكل أولئك من ذيول الدولة الملحدة الملعونة العبيدية التي قامت بالمغرب، ثم كان من قضاء الله أن ملكت مصر وغيرها من البلاد الإسلامية. وأعلنت فيها الكفر والزندقة وسب الصحابة، كما ذكر ذلك المؤرخون، كابن تغري بردي في النجوم الزاهرة. وابن كثير في البداية والنهاية. وقد ألف كثير من الأئمة والعلماء الكتب في تكفيرهم وبيان شنيع مذاهبهم كالإمام أبي بكر البلاقلاني ألف كتاب «كشف الأسرار وهتك الأستار». وذكر عنه الحافظ ابن كثير وغيره أنه قال: هم قوم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض.

فالمجوس شيوخ هؤلاء كلهم، وأئمتهم، وقدوتهم. وإن كان المجوس قد يتقيدون بأصل دينهم وشرائعهم، وهؤلاء لا يتقيدون بدين من ديانات العالم، ولا بشريعة من الشرائع.

(١)**وقال** تعالى: ﴿**فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ**﴾[الحج: ١٥]. قال بعض أهل اللغة السبب من الحبال القوى الطويل.

قال: ولا يدعى الحبل سببًا حتى يصعد به وينزل، ثم قيل لكل شيء وصلت به إلى موضع أو حاجة تريدها سبب، يقال: مابيني وبين فلان سبب، أي آصرة رحم أو عاطفة مودة.

وقد سمى تعالى وصل الناس بينهم أسبابًا وهي التي يتسببون بها إلى قضاء حوائجهم بعضهم من بعض قال تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِم الأَسْبَابُ**﴾ [البقرة: ١٦٦]. يعني الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا.

وقال ابن عباس وأصحابه: يعني أسباب المودة الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا.

وقال ابن زيد: هي الأعمال التي كانوا يؤملون أن يصلوا بها إلى ثواب الله، وقيل: هي الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها.

وبالجملة فسمى الله سبحانه ذلك كله أسبابًا لأنها كانت يتوصل بها إلى مسبباتها. وهذا كله عند نفاة الأسباب مجاز لا حقيقة له وبالله التوفيق.

(٢)و«**الذوق**» مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائم والمنافر. ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن، بل ولا في لغة العرب. قالالله تعالى: ﴿**وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيْقِ**﴾ [الحج: ٢٢، الأنفال: ٥٠]. وقال: ﴿**فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُروْن**﴾ [الأحقاف: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿**هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ**﴾[ص: ٥٧].

وقال: ﴿**فَأَذَاقَها الله لِبَاسَ الجُوْعِ وَالخَوْفِ بِما كَانُوا يَصْنَعُوْنَ**﴾[النحل: ١١٢].

فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس، ليدل على مباشرة المذوق وإحاطته وشموله. فأفاد الإخبار عن إذاقته: أنه واقع مباشر غير منتظر؛ فإن الخوف قد

---

(١) ١٩٠ شفاء العليل. (٢) ٨٧ مدارج جـ٣.

يتوقع ولا يباشر. وأفاد الإخبار عن لباسه: أنه محيط شامل كاللباس للبدن.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**ذاق طعمَ الإيمان: من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا. وبمحمد - ﷺ - رسولاً**».

فأخبر: أن للإيمان طعما، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب.

وقد عبر النبي، ﷺ، عن إدراك حقيقة الإيمان، والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له: بالذوق تارة، وبالطعام والشراب تارة، وبوجود الحلاوة تارة. كما قال: «**ذاق طعم الإيمان**». وقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»...

...(1)**وقال** تعالى: ﴿**إنَّ الله يُدخلُ الَّذين آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ جَنَّاتٍ تَجري مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ يُحلَّون فيها من أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلُؤاً ولِباسُهُم فِيْهَا حَرِيرٌ**﴾ [الحج: ٢٣]. واختلفوا في جر لؤلؤ ونصبه. فمن نصبه ففيه وجهان:

أحدهما أنه عطف على موضع قوله: «من أساور».

والثاني أنه منصوب بفعل محذوف دل عليه الأول أى ويحلون لؤلؤاً.

ومن جره فهو عطف على الذهب ثم يحتمل أمرين:

أحدهما أن يكون لهم أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ.

ويحتمل أن تكون الأساور مركبة من الأمرين معا الذهب المرصع باللؤلؤ. والله أعلم بما أراد.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن رزق حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني عتبة بن سعد قاضي الرى عن جعفر بن أبي المغيرة عن شمر بن عطية عن كعب قال: «إن لله عز وجل ملكا منذ يوم خلق يصوغ حلي أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة لو أن قلبا من حلي أهل الجنة أخرج لذهب بضوء شعاع الشمس فلا تسألوا بعد هذا عن حلى أهل الجنة».

حدثنا الحسن بن يحيى بن كثير العنبري حدثنا أبي عن أشعث عن الحسن قال: «الحلي في الجنة على الرجال أحسن منه على النساء».

(1) ١٤٣ حادي الأرواح.

حدثنا أحمد بن منيع حدثنا الحسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن داود بن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده عن النبي، ﷺ، قال: «**لو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا سواره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم**».

وقال ابن وهب حدثني ابن لهيعة عن عقيل بن خالد عن الحسن عن أبي هريرة قال: إن أبا أمامة حدث أن رسول الله، ﷺ حدثهم وذكر حلى أهل الجنة فقال: «**مسورون بالذهب والفضة مكللون بالدر، عليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة، وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب مرد مكحلون**».

وقد أخرجا في الصحيحين والسياق لمسلم عن أبي حازم قال: «كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة فكان يمد يده حتى يبلغ إبطه فقلت: ياأبا هريرة ماهذا الوضوء؟ فقال: يابني فروخ أنتم ههنا؟ لو علمت أنكم ههنا ماتوضأت هذا الوضوء، سمعت خليلي ﷺ يقول: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**».

وقد احتج بهذا من يرى استحباب غسل العضد وإطالته.

والصحيح أنه لايستحب، وهو قول أهل المدينة. وعن أحمد روايتان.

والحديث لايدل على الإطالة فإن الحلية إنما تكون زينة في الساعد والمعصم لا في العضد والكتف. وأما قوله: «**فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل**» فهذه الزيادة مدرجة في الحديث من كلام أبي هريرة لا من كلام النبي ﷺ.

(1)**وأما** مكة: فإن فيها شيئًا آخر يمنع من قسمتها، ولو وجبت قسمة ماعداها من القرى وهي: أنها لاتملك، فإنها دار النُّسُك ومُتَعَبَّدُ الخلق، وحَرَمُ الرب سبحانه وتعالى، الذي جعله للناس سواءً العَاكف فيه والبَاد، فهي وقف من الله على العالمين، وهم فيه سواء، ومِنى مَناخ من سَبَقَ.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ كفرُوا وَيَصُدُّون عَنْ سَبِيْل اللهِ وَالْمسجدِ الحرام الَّذِي جَعَلْنَاهُ للناس سَوَآءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فيه بِإلحَادٍ بِظُلْم نُذِقْهُ مِن عَذاب أَلِيم**﴾[الحج: ٢٥] والمسجد الحرام هنا، المراد به: الحرم كله، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّما الْمشركُونَ**

---

(١) ٤١٣ زاد المعاد جـ٢.

نَجَسٌ فلا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرامَ بَعْدَ عَامِهِم هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. فهذا المراد به: الحرم كله. وقوله سبحانه: **﴿سُبحانَ الَّذِيْ أَسْرَى بعَبْدِه لَيْلاً من الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إلَى الْمَسْجِد الْأَقْصىٰ﴾** [الإسراء: ١] وفي الصحيح «أنه أسْرَى به من بيت أم هانىء».

وقال تعالى: **﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أهلهُ حَاضِرِي المسجدِ الحرامِ﴾** [البقرة: ١٩٦] وليس المـراد به: حضـور نفس موضع الصلاة اتفاقًا، وإنما هو حضور الحرم، والقرب منه، وسياق آية الحج تدل على ذلك، فإنه قال: **﴿وَمَن يُرِدْ فيه بإلْحَادٍ بظُلم نُذِقْه مِن عذابٍ أليمٍ﴾** وهذا لا يختص بمقام الصلاة قطعًا، بل المراد به: الحرم كله. فالذي جعله للناس سواءً العاكف فيه والباد: هو الذي تَوَعَّدَ من صَدَّ عنـه، ومن أراد الإلحـاد بالظلم فيه. فالحرم ومشاعره كالصفا والمروة والمسعى، ومِنىً وعرفة ومُزْدَلفة: لا يختص بها أحد دون أحد، بل هي مشتركة بين الناس؛ إذْ هي محل نُسُكهم ومُتَعَبَّدِهم، فهي مسجد من الله وقفه ووضعه لخلقه، ولهذا امتنع النبي ﷺ أن يُبْنَى له بيت بمنىً يُظِلهُ من الحرّ، وقال: «مِنىً مناخ من سبق».

ولهذا ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة، ولا إجـارة بيوتهـا. هذا مذهب مجاهـد وعـطاء في أهل مكة، ومالك في أهل المدينة، وأبي حنيفة في أهل العراق، وسفيان الثوري والإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه. وروى الإمام أحمد عن علقمة بن نضلة قال: «كانت رَبَاعُ مكة تدْعى السَّوَائب على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر: مَنِ احتَاج سكن، ومن استغنى أسكن».

وروى أيضًا عن عبدالله بن عمر **«مَنْ أكل أُجُورَ بيوت مكة فإنما يأكل في بطنه نار جهنم»** رواه الدارقطني مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وفيه **«إن الله حَرَّم مكة، فحرام بيع رِبَاعِها وأكل ثمنها»**.

وقال الإمام أحمد: حدثنا معمر عن ليث عن عطاء وطاوس ومجاهد أنهم قالوا: «يكره أن تباع رِبَاع مكة، أو تُكْرَى بيوتها».

وذكر الإمام أحمد عن القاسم بن عبدالرحمن قال: «من أكل من كِرَاء بيوت مكة، فإنما يأكل في بطنه نارًا».

وقال أحمد: حدثنا هشيم حدثنا حجاج عن مجاهد عن عبدالله بن عمر قال: «نهى عن إجارة بيوت مكة، وعن بيع رباعها».

وذكر عن عطاء قال: «نهى عن إجارة بيوت مكة» وقال أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف قال: حدثنا عبدالملك قال: «كتب عمر بن عبدالعزيز إلى أمير مكة، ينهاهم عن إجارة بيوت مكة، وقال: إنه حرام».

وحكى أحمد عن عمر «أنه نهى أن يتخذ أهل مكة للدُّورِ أبوابًا، ليننزل البادي حيث شاء» وحكى عن عبدالله بن عمر عن أبيه «أنه نهى أن تُغْلَق أبوابُ دُورِ مكة، فنهى من لا باب لداره أن يتخذ لها بابًا، ومن لداره باب أن يغلقه. وهذا في أيام الموسم».

قال المجَوِّزُون للبيع والإجارة: الدليل على جواز ذلك: كتاب الله وسنة رسوله وعمل أصحابه وخلفائه الراشدين. قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَراءِ المهَاجِرْينَ الَّذِيْنَ أُخْرِجُوا من دِيَارِهم وأموَالِهِم﴾ [الحشر: ٨] وقال: ﴿فَالَّذِيْنَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقال: ﴿إِنَّما يَنْهَاكُم الله عَنِ الَّذِينَ قَاتَلوكُم فِي الدِّيْنِ وَأَخْرَجُوكُم مِن دِيَارِكُم﴾ [الممتحنة: ٩] وأضاف الدُّور إليهم، وهذه إضافة تمليك. وقال النبي ﷺ - وقد قيل له: أين تنزل غدًا بدارك بمكة؟ - فقال: «**وهل ترك لنا عقيلٌ من رِبَاعٍ؟**» ولم يقل: إنه لا دار لي، بل أقرهم على الإضافة، وأخبر: أن عقيلاً اسْتَوْلَى عليها ولم ينزعها من يده. وإضافة دورهم إليهم في الأحاديث أكثر من أن تذكر، كدار أم هانىء، ودار خديجة، ودار أبي أحمد بن جحش وغيرها. فكانوا يتوارثونها، كما يتوارثون المنقول. ولهذا قال النبي ﷺ: «**وهل ترك لنا عقيل من منزل؟**» وكان عقيل بن أبي طالب هو ورث دور أبي طالب، فإنه كان كافرًا، ولم يرثه علي لاختلاف الدين بينهما، فاستولى عقيل على الدور ولم يزالوا قبل الهجرة وبعدها، بل قبل المبعث وبعده من مات ورث ورثته داره إلى الآن...

(١)**وأما تقديم الرجال على الركبان ففيه فائدة جليلة، وهي أن الله شرط في الحج الاستطاعة، ولابد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم**

---

(١) ٦٩ بدائع جـ١.

من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدم الرجال اهتمامًا بهذا المعنى وتأكيدًا.

ومن الناس من يقول قدمهم جبرًا لهم، لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم وتقول: إن الله لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم، وربما توهموا أنه غير نافع لهم فبدأ بهم جبرًا لهم ورحمة اهـ.

(١)**قرن** الله سبحانه في كتابه بين **الإشراك** وقول الزور، وقال تعالى: ﴿**وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

وفي الصحيحين أيضًا عن النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟** قلنا: بلى يارسول الله، قال: **الشرك بالله، ثم عقوق الوالدين**، وكان متكئًا فجلس، ثم قال: **ألا وقَوْل الزور، ألا وقول الزور**، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت».

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله، وقَتْلُ النفس، وعُقُوق الوالدين، وقول الزور**».

ولا خلاف بين المسلمين أن شهادة الزور من الكبائر.

واختلف الفقهاء في الكذب في غير الشهادة: هل هو من الصغائر أو من الكبائر؟ على قولين هما روايتان عن الإمام أحمد حكاهما أبو الحسين في تمامه.

واحتج مَنْ جعله من الكبائر بأن الله سبحانه جعله في كتابه من صفات شَرِّ البرية، وهم الكفار والمنافقون، فلم يصف به إلا كافرًا أو منافقًا، وجعله عَلَم أهل النار وشِعارهم، وجعل الصدق عَلَم أهل الجنة وشعارهم.

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق؛ فإنه يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصْدُق حتى يكتب عند الله صِدِّيقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**».

وفي الصحيحين مرفوعًا «**آيةُ المنافِقِ ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا اؤتمن خان**».

وقال معمر عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت:

---

(١) ١١٩ أعلام جـ١.

«ماكان خُلُقٌ أبْغَضَ إلى الرسول ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذبة فما تزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة».

وقال مروان الطاطري(١): ثنا محمد بن مسلم ثنا أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت: «ماكان شيء أبْغَضَ إلى رسول الله ﷺ من الكذب، وماجرب على أحد كذبًا فرجع إليه ماكان حتى يعرف منه توبة» حديث حسن رواه الحاكم في المستدرك من طريق ابن وهب عن محمد بن مسلم عن أيوب عن ابن سيرين عن عائشة رضي الله عنها.

وروى عبدالرزاق عن معمر عن موسى بن أبي شيبة أن النبي ﷺ: «**أبطَلَ شهادة رجل في كذبة كذبها**» وهو مرسل، وقد احتج به أحمد في إحدى الروايتين عنه.

وقال قيس بن أبي حازم: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول: «إياكم والكذب، فإن الكذب مُجَانب الإيمان» يروى موقوفًا ومرفوعًا.

وروى شعبة عن سلمة بن كهيل عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: «المسلم يُطْبَع على كل طبيعة غير الخيانة والكذب»، ويروى مرفوعًا أيضًا.

وفي المسند والترمذي من حديث خريم بن فاتك الأسدي، أن رسول الله ﷺ؛ صَلّى صلاة الصبح، فلما انصرف قام قائمًا قال: «**عَدَلَت شهادة الزور الشرك بالله**» ثلاث مرار، ثم تلا هذه الآية: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَولَ الزُّوْرِ حُنَفَآءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِيْنَ بِه**﴾.

وفي المسند من حديث عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**بين يدي الساعة تسليم الخاصة، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق**».

وقال الحسن بن زياد اللؤلؤي: ثنا أبوحنيف قال: كنا عند محارب بن دثار، فتقدم إليه رجلان، فادَّعَى أحدهما على الآخر مالاً، فجحده المدعَى عليه، فسأله البينة، فجاء رجل فشهد عليه، فقال المشهود عليه: لا والله الذي لا إلـهَ إلا هو

(١) مروان بن محمد بن حسان الأسدي الدمشقي الطاطري ـ بفتح الطاءين ـ وثقه أبو حاتم، وقال البخاري: مات سنة عشر ومائتين.

ماشهد عليّ بحق، وماعلمته إلا رجلاً صالحًا، غير هذه الزلة فإنه فَعَلَ هذا لحقد كان في قلبه عليّ، وكان محارب متكئًا فاستوى جالسًا ثم قال: ياذا الرجُلُ سمعتُ ابنَ عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليأتينّ على الناس يومٌ تشيب فيه الولدان، وتَضَع الحوامل مافي بطونها، وتضرب الطير بأذنابها وتضع مافي بطونها من شدة ذلك اليوم، ولاذنب عليها، وإن شاهد الزور لايقار قدماه على الأرض حتى يُقْذَفَ به في النار**» فإن كنْتَ شهدت بحق فاتق الله وأقم على شهادتك، وإن كنت شهدت بباطل فاتق الله وغط رأسك واخرج من ذلك الباب.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣٠، ٣١] فتأمل هذا المثل وَمطابَقتَهُ لحال مَنْ أشرك بالله وتعلّق بغيره، ويجوز لَكَ في هذا التشبيه أمران:

أحدهما أن تجعله تشبيهًا مركبًا، ويكون قد شبه مَنْ أشْرَكَ بالله وعَبَدَ معه غيرَه برجل قد تسبَّب إلى هَلاَكِ نفسه هلاكًا لايُرْجَى معه نجاة، فصَوَّرَ حاله بصورة حال مَنْ خَرَّ من السماء فاختطفته الطيرُ في الهوى فتمزَّق مِزَقًا في حواصلها، أو عَصفَتْ به الريحُ حتى هَوَتْ به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لاتنظر إلى كل فرد من أفراد المشبَّه ومقابِلِه من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرَّقِ، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثَّلِ بالمثلِ به وعلى هذا فيكون قد شَبَّهَ الإيمانَ والتوحيدَ في عُلُوه وسَعَته وشَرَفه بالسماء التي هي مَصْعَده ومَهْبطه، فمنها هَبَطَ إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييقِ الشديدِ والآلام المتراكمة، والطيرَ الذي تخطف أعضاءه وتمَزّقه كل ممزَّقٍ بالشياطين التي يُرْسِلُها الله سبحانه وتعالى عليه وتؤُزُّهُ أزًّا، وتزعجه وتُقْلِقُه إلى مَظَان هلاكه؛ فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعةً من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوى به في مكان سحيق هو هَوَاه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكانٍ وأبعده من السماء.

(١) ١٨٠ أعلام جـ١.

(١)**قال** الله عز وجل: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيرٌ لَّه عِنْدَ رَبِّه﴾ [الحج: ٣٠] قال جماعة من المفسرين «حرمات الله» هٰهنا مغاضبه، ومانهى عنه، و «تعظيمها» ترك ملابستها.

قال الليث: حرمات الله: مالا يحل انتهاكها. وقال قوم: الحرمات: هي الأمر والنهي.

وقال الزجاج: الحرمة ماوجب القيام به، وحرم التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات هٰهنا المناسك، ومشاعر الحج زمانًا ومكانًا.

والصواب: أن «الحرمات» تعم هذا كله. وهي جمع «حرمة» وهي مايجب احترامه، وحفظه: من الحقوق، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن. فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة.

(٢)**قال** الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبتِينَ﴾ ثم كشف عن معناهم. فقال: ﴿الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وَالصَّابِرِيْنَ عَلى مَاأَصَابَهُم وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمما رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُوْنَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وأَخبَتُوا إِلىٰ ربِّهِمْ أُولئكَ أَصحابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُوْنَ﴾ [هود: ٢٣].

و«**الخَبت**» في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض. وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظ «المخبتين» وقالا: هم المتواضعون.

وقال مجاهد: المخبت المطمئن إلى الله عز وجل. قال: والخبت: المكان المطمئن من الأرض.

وقال الأخفش: الخاشعون. وقال إبراهيم النخعي: المصلون المخلصون. وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم. وقال عمرو بن أوس: هم الذين لايظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا(٣).

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون إلى الله عز وجل، ولذلك عُدِّي بإلى، تضمينًا لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله.

(٤)**الذبيحة** تجري مجرى العبادة، ولهذا يقرن الله سبحانه بينهما كقوله: ﴿فَصَلِّ لَربِّكَ وانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِيْ وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

---

(١) ٧٤ مدارج جـ٢.　　(٢) ٣ مدارج جـ٢
(٣) يأتي له زيادة بحث عند قوله تعالى: ﴿فتخبت له قلوبهم﴾.　　(٤) ١٥٥ أعلام جـ١.

وقال تعالى: ﴿والبُدْنَ جعَلْنَاهَا لَكُم مّنْ شَعَآئِرِ الله لَكُم فِيْهَا خيرٌ فَاذكُرُوا اسمَ الله عَلَيهَا صَوَآفّ فإذا وجَبَتْ جُنُوبُهَا فكُلُوا مِنْهَا وأطعِمُوا الْقَانِعَ والْمُعْتَرّ كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُم لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَال الله لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُه التَّقْوىٰ مِنْكُم﴾ [الحج: ٣٦، ٣٧].

فأخبر أنه إنما سخرها لمن يذكر اسمه عليها، وأنه ينالَه التقوى ـ وهو التقرب إليه بها وذكر اسمه عليها ـ فإذا لم يذكر اسمه عليها كان ممنوعًا من أكلها، وكانت مكروهة لله، فأكسبتها كراهيته لها ـ حيث لم يذكر عليها اسمه أو ذكر عليها اسمُ غيره ـ وَصْفَ الخبث فكانت بمنزلة الميتة.

وإذا كان هذا في متروك التسمية وماذكر عليه اسم غير الله فما ذَبَحه عدوُّه المشركُ به الذي هو من أخبث البرية أولى بالتحريم؛ فإن فِعْلَ الذابح وقَصْدَه وخبثه لاينكَرُ أن يؤثر في المذبوح.

كما أن خبث الناكح ووصفه وقصده يؤثر في المرأة المنكوحة، وهذه أمور إنما يصدق بها مَنْ أشرق فيه نور الشريعة وضياؤها، وباشر قلبه بشاشة حكمها وماشتملت عليه من المصالح في القلوب والأبدان، وتلقَّاها صافيةً من مِشْكَاة النبوة، وأحكم العقد بينها وبين الأسماء والصفات التي لم يطمس نور حقائقها ظلمة التأويل والتحريف.

(١)**قال أبوالدرداء ـ رضي الله عنه ـ: ياحبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون** به قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين. وهذا من جواهر الكلام وأدله على كمال فقه الصحابة، وتقدمهم على من بعدهم في كل خير، رضي الله عنهم.

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته، لا ببدنه. والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب، لاتقوى الجوارح. قال تعالى: ﴿ذٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَآئِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوى الْقُلُوب﴾ [الحج: ٣٢]، وقال: ﴿لَنْ يَنَالَ الله لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوىٰ مِنْكُم﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبي ﷺ: **«التقوى ههنا»**، وأشار إلى

---

(١) ١٤٠ فوائد.

صدره. فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة، وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل، أضعاف أضعاف مايقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق؛ فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير.

والتقدم والسبق إلى الله ـ سبحانه ـ إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله، وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل يوافق فيه الإسلام الإحسان.

فأكمل الهدي؛ هدي رسول الله ﷺ، وكان موفيًا كل واحد منهما حقه، فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله، يقوم حتى ترم قدماه...

فصل(1)

فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأيده الله بنصره وبعباده المؤمنين الأنصار، وألَّفَ بين قلوبهم، بعد العداوة والإحَن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلو نفوسهم دونه، وقدَّموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم: رمتهم العرب واليهود عن قَوْس واحدة، وشمَّروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب. والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح، حتى قَويت الشَّوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِيْنَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلىٰ نصرِهِم لَقَدِيْرٌ﴾ [الحج: ٣٩] وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية. وهذا غلط لوجوه.

أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال ولا كان لهم شَوْكة يتمكنَّون بها من القتال بمكة.

الثاني: أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿الَّذِيْنَ أخرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حِقّ إلاّ أنْ يَّقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ [الحج: ٤٠] وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هٰذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] نزلت في

---

(1) ١٥٠ زاد المعاد جـ٢.

الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين.

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿**ياأيها الذين آمنوا**﴾ والخطاب بذلك كله مدني. فأما الخطاب: «ياأيها الناس» فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد وغيره. ولا ريب أن الأمر بالجهاد إنما كان بعد الهجرة. فأما جهاد الحجَّة: فأمر به في مكة، بقوله: ﴿**فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِيْنَ وَجَاهِدْهُمْ** به ـ أي: بالقرآن ـ **جِهَادًا كَبِيْرًا**﴾ [الفرقان: ٥٢] فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، وجهاد الحجة. وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج: فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى في مستدركه من حديث الأعمش عن مسلم البَطِين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبوبكر: أخرجوا نبيهم؟ إنا لله وإنا إليه راجعون. لَيَهْلِكُن، فأنزل الله عز وجل: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِيْنَ يُقَاتَلُوْنَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوْا**﴾ وهي أول آية نزلت في القتال» وإسناده على شرط الصحيحين. وسياق السورة يدل على أن فيها المكي والمدني؛ فإن قصة إلقاء الشيطان في أُمْنِيَّة الرسول مكية. والله أعلم.

فصل

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم، دون من لم يقاتلهم، فقال: ﴿**وَقَاتِلُوا فِيْ سَبِيْلِ اللهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرمًا، ثم مأذونًا به، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين إما فرض عين ـ على أحد القولين ـ أو فرض كفاية ـ على المشهور.

والتحقيق: أن جنس الجهاد فرض عين: إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع.

أما الجهاد بالنفس: ففرض كفاية. وأما الجهاد بالمال: ففي وجوبه قولان. والصحيح: وجوبه؛ لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء، كما قال تعالى:

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وثِقَالاً وجَاهِدُوا بأموالِكُم وأنفُسِكُم فِي سَبِيْلِ اللهِ ذلكُم خيرٌ لَّكُم إنْ كُنْتُم تَعلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وعلق النجـاة من العذاب الأليم ومغفرة الذنب، ودخول الجنة به. فقال: ﴿يَاأيُّها الَّذِيْنَ آمنُوا هَلْ أدلُّكُمْ عَلى تجارةٍ تُنْجِيْكُم مِن عَذابٍ أليم * تؤمِنُوْنَ باللهِ وَرَسُـولِه وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأمْوَالِكُم وأنفُسِكُم ذٰلِكُم خَيْرٌ لَكُم إن كُنتُم تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُم وَيُدخِلْكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تحتِها الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ الْفَوزُ العظِيْمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم مايحبون من النصر والفتح القريب. فقال: ﴿وأخرى تُحِبُّونها﴾ - أي: ولكم خصلة أخرى تحبونها في الجهاد، وهي - ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيْبٌ﴾ [الصف: ١٣].

وأخبـر سبحـانـه أنه ﴿اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ [التوبة: ١١١] وأعـاضهم عليه الجنة، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي: التوراة والإنجيل والقرآن. ثم أكَّد ذلك بإعلامهم أنه لاأحد أوفى بعهـده منه تبارك وتعالى. ثم أكدَّ ذلك بأن أمرهم بأن يستبشِروا ببيعهم الذي عاقدهم عليه. ثم أعلمهم أن ذلك هو الفور العظيم.

فليتأمل العاقد مع ربه عَقْد هذا التبايع، ماأعظم خطره وأجلَّه، فإن الله عز وجل هو المشتري، والثمن جناتُ النعيم، والفوزُ برضاه، والتمتع برؤيته هناك والـذي يجرى على يده هذا العقـد: أشرف رسله، وأكـرمهم عليه من الملائكة والبشر، وأن سِلْعَةً هذا شأنُها لقد هيُئت لأمر عظيم، وخطب جسيم.

قد هَّيؤوك لأمـر لو فَطِنْتَ له ... فاربأْ بنفسك أن تَرعَى مع الهَمَل

مهر المحبة والجنة: بذل النفس والمال لمالكهما، الذي اشتراهما من المؤمنين. فما للجبان المعرض المفلِس وسَوْم هذه السلعة؟ بالله ماهَزُلت فيَسْتامَها المفلسون، ولاكَسَدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد اقيمت للعرض في سوق من يريد، فلم يرض ربُّهـا لها بثمن دون بذل النفـوس، فتـأخَّـر البطالون، وقام المحبون ينتظرون أيُّهم يصلح أن يكون نفسُه الثمن، فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد ﴿أذلةٍ عَلى الْمُؤمِنِينَ أعِزَّةٍ عَلى الْكَافِرِيْنَ﴾ [المائدة: ٥٤]. . . .

(١) **قال** تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

قال الزجَّاج: «تأويل هذا: لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم - في كل شريعة نبي - المكانُ الذي يصلي فيه، فلولا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كان يصلي فيها في شريعته، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد المساجد».

وقال الأزهري: «أخبر الله سبحانه أنه لولا دفعُه بعضَ الناس عن الفساد ببعضهم لهدمت متعبَّدات كل فريق من أهل دينه وطاعته في كل زمان، فبدأ بذكر الصوامع والبيع لأن صلوات من تقدم من أنبياء بني إسرائيل وأصحابهم كانت فيها قبل نزول القرآن؛ وأُخِّرت المساجد لأنها حدثت بعدهم» وقال ابن زيد: «الصلوات صلوات أهل الإسلام تنقطع إذا دخل عليهم العدو». قال الأخفش: «وعلى هذا القول، الصلوات لا تُهدم، ولكن تحل محل فعل آخر، كأنه قال: تركت صلوات».

وقال أبوعبيدة «إنما يعني مواضع الصلوات».

وقال الحسن: «يدفع عن مصليَّات أهل الذمة بالمؤمنين». وعلى هذا القول لا يحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول؛ وهذا ظاهر اللفظ، ولا إشكال فيه بوجه: فإن الآية دلت على الواقع، لم تدل على كون هذه الأمكنة - غير المساجد - محبوبةً مرضيةً له، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة التي كانت محبوبة له قبل الإسلام وأقرَّ منها ماأقرَّ بعده وإن كانت مسخوطة له، كما أقرّ أهل الذمة وإن كان يبغضهم ويمقتهم، ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم. وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين وإن كان يبغضها، وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أقروا عليها شرعًا وقدرًا: فهو يحبّ الدفع عنها وإن كان يبغضها كما يحب الدفع عن أربابها وإن كان يبغضهم.

وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى، وهو مذهب ابن عباس في الآية.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله - هو ابن

---

(١) ٦٦٦ أحكام أهل الذمة جـ٢.

موسى - عن إسرائيل، عن السدي، عمّن حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لهدمت صوامعُ وبِيَع﴾ قال: الصوامع التي يكون فيها الرهبان، والبيع مساجد اليهود، و [الـ] صلوات كنائس النصارى، والمساجد مساجد المسلمين.

قال ابن أبي حاتم: وأخبرنا الأشج، ثنا حفص بن غياث، عن داود، عن أبي العالية قال: ﴿لهدِّمَتْ صَوَامعُ﴾ قال: صوامع وإن كان يشرك به! وفي لفظ: إن الله يحب أن يذكر ولو من كافر! وفي تفسير شيبان عن قتادة: الصوامع للصابئين، والبيع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للمسلمين. . .

(١)**فصل** وههنا عدة أمور عاقب بها الكفار بمنعهم عن الإيمان وهي الختم، والطبع، والأكنة، والغطاء، والغلاف، والحجاب، والوقر، والغشاوة، والران، والغل، والسد، والقفل، والصمم، والبكم، والعمى، والصد، والصرف، والشد على القلب، والضلال، والإغفال، والمرض، وتقليب الأفئدة، والحول بين المرء وقلبه، وإزاغة القلوب، والخذلان، والإركاس، والتثبيط، والتزيين، وعدم إرادة هداهم وتطهيرهم، وإماتة قلوبهم بعد خلق الحياة فيها فتبقى على الموت الأصلي، وإمساك النور عنها فتبقى في الظلمة الأصلية، وجعل القلب قاسيًا لاينطبع فيه مثال الهدى وصورته، وجعل الصدر ضيقًا حرجًا لا يقبل الإيمان.

وهذه الأمور منها مايرجع إلى القلب كالختم والطبع، والقفل والأكنة، والإغفال والمرض ونحوها.

ومنها مايرجع إلى رسوله الموصل إليه الهدى كالصمم والوقر.

ومنها مايرجع إلى طليعته ورائده كالعمى والغشاء.

ومنها مايرجع إلى ترجمانه ورسوله المبلغ عنه كالبكم النطقي وهو نتيجة البكم القلبي، فإذا بكم القلب بكم اللسان.

ولاتصغ إلى قول من يقول إن هذه مجازات واستعارات فإنه قال: بحسب مبلغه من العلم والفهم عن الله ورسوله. وكأن هذا القائل حقيقة القفل عنده أن يكون

---

(١) ٩٢ شفاء العليل.

من حديد، والختم أن يكون بشمع أو طين، والمرض أن يكون حمى بنافض، أو قولنـج أو غيرهما من أمراض البدن، والموت هو مفارقة الروح للبدن ليس إلا، والعمى ذهاب ضوء العين الذي تبصر به.

وهذه الفرقة من أغلظ الناس حجابًا؛ فإن هذه الأمور إذا أضيفت إلى محلها كانت بحسب تلك المحال، فنسبة قفل القلب إلى القلب كنسبة قفل الباب إليه، وكذلك الختم والطابع الذي عليه هو بالنسبة إليه كالختم والطابع الذي على الباب والصنـدوق ونحوهما، وكذلك نسبة الصمم والعمى إلى الأذن والعين، وكذلك موته وحياته نظير موت البدن وحياته، بل هذه الأمور ألزم للقلب منها للبدن. فلو قيل إنها حقيقة في ذلك مجاز في الأجسام المحسوسة لكان مثل قول هؤلاء وأقوى منه وكلاهما باطل، فالعمى في الحقيقة والبكم والموت والقفل للقلب.

ثم قـال تعـالى: ﴿فَـإِنَّهـا لاَتَعْمَى الأَبْصَـارُ وَلكِنْ تَعْمَـى الْقُلُوبُ الَّتِيْ فِي الصُّدُوْرِ﴾ [الحج: ٤٦].

والمعنى أنه معظم العمى وأصله. وهذا كقوله ﷺ: «**إنما الربا في النسيئة**». وقوله: «**إنما الماء من الماء**» وقوله: «**ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس**». وقوله: «**ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان إنما المسكين الذي لا يجد مايغنيه ولايفطن له فيتصدق عليه**». وقوله: «**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

ولم يرد نفي الاسم عن هذه المسميات، إنما أراد أن هؤلاء أولى بهذه الأسماء وأحق ممن يسمونه بها، فهكذا قوله: **لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ وقريب من هذا قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوْهَكُم قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمغـرِبِ وَلكِنَّ الْـبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، وعلى التقديرين فقد أثبت للقلب عمى حقيقة، وهكذا جميع مانسْب إليه.

ولما كان القلب ملك الأعضاء وهي جنوده وهو الذي يحركها ويستعملها، والإرادة والقوى والحركة الاختيارية تنبعث كانت هذه الأمثال أصلاً وللأعضاء تبعًا.

فلنذكر هذه الأمور مفصلة ومواقعها في القرآن فقد تقدم الختم قال الأزهري: وأصله التغطية وختم البذر في الأرض إذا غطاه.

قال أبو إسحاق معنى: ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق منه فلا يدخله شيء كما قال تعالى: ﴿**أم على قلوب أقفالها**﴾ وكذلك قوله: ﴿**طبع الله على قلوبهم**﴾. قلت الختم والطبع يشتركان فيما ذكر ويفترقان في معنى آخر وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة فهو تأثير لازم لا يفارق(١).

(٢)**وأما** معاينة القلب: فهي انكشاف صورة المعلوم له، بحيث تكون نسبته إلى القلب كنسبة المرئي إلى العين.

وقد جعل الله سبحانه القلب يبصر ويعمى كما تبصر العين وكما تعمى.

قال تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لاتَعْمَى الأَبصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِيْ فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦] فالقلب يرى ويسمع، ويعمى ويصم. وعماه وصممه أبلغ من عمى البصر وصممه.

وأما مايثبته متأخرو القوم من هذا القسم الثالث ـ وهو رؤية الروح، وسمعها وإرادتها، وأحكامها، التي هي أخص من أحكام القلب ـ فهؤلاء اعتقادهم أن الروح غير النفس والقلب.

ولاريب أن ههنا أمورًا معلومة، وهي: البدن، وروحه القائم به، والقلب المشاهَد فيه، وفي سائر الحيوان، والغريزة. وهي القوة العاقلة التي محلها القلب. ونسبتها إلى القلب كنسبة القوة الباصرة إلى العين، والقوة السامعة إلى الأذن. ولهذا تسمى تلك القوة قلبًا، كما تسمى القوة الباصرة بصرًا. قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَذِكرىٰ لِمَن كَانَ لَه قَلْبٌ**﴾ [ق: ٣٧] ولم يُرد شكل القلب؛ فإنه لكل أحد، وإنما أراد: القوة والغريزة المودعة فيه.

والروح: هي الحاملة للبدن، ولهذه القوى كلها. فلا قوام للبدن ولا لقواه إلا بها. ولها ـ باعتبار إضافتها إلى كل محل ـ حكم واسم يخصها هناك. فإذا أضيفت إلى محل البصر سميت بصرًا، وكان لها حكم يخصها هناك. وإذا أضيفت إلى محل السمع سميت سمعًا، وكان لها حكم يخصها هناك. وإذا أضيفت إلى محل العقل ـ وهو

---

(١) بقية البحث ذكر عقوبة الله لمن صد عن سبيله وذكرها الشيخ مجموعة هنا وقد حاولنا توزيعها في محالها من القرآن حسب الاجتهاد إلا أن الباحث لايستغني عن مراجعتها في الأصل (ج).

(٢) ٢٤٦ مدارج جـ٣.

القلب ـ سميت قلبًا. ولها حكم يخصها هناك، هي في ذلك كله روح.

فالقوة الباصرة والعاقلة والسامعة والناطقة: روح باصرة وسامعة وعاقلة وناطقة. فهي في الحقيقة هذا العاقل، الفاهم المدرك، المحب العارف، المحرك للبدن، الذي هو محل الخطاب والأمر والنهي ـ هو شيء واحد له صفات متعددة بحسب متعلقاته. فإنه يسمى نفسًا مطمئنة، ونفسًا لوامة، ونفسًا أمّارة. وليس هو ثلاثة أنفس بالذات والحقيقة، ولكن هو نفسٌ واحدة لها صفات متعددة.

فصل(١)

والله سبحانه وتعالى يغار على قلب عبده أن يكون مُعَطَّلاً من حبه وخوفه ورجائه وأن يكون فيه غيرهُ. فالله سبحانه وتعالى خلقه لنفسه واختاره من بين خلقه. كما في الأثر الإلهي: «**ابنَ آدم خلقتك لنفسي وخلقت كلَّ شيءٍ لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عن ماخلقتُك له**».

وفي أثر آخر: «**خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلّت لك برزقك فلا تتعب. ياابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتُّك فاتك كلّ شيء، وأنا خيرٌ لك من كل شيء**».

ويغار عَلَى لسانه أن يتعطّل من ذكره ويشتغل بذكر غيره.

ويغار عَلَى جوارحه أن تتعطل من طاعته وتشتغل بمعصيته، فيقبُح بالعبد أن يغار مولاه الحقُّ عَلَى قلبه ولسانه وجوارحه وهو لا يغار عليها.

وإذا أراد الله بعبده خيرًا سلّط عَلَى قلبه إذا أعرض عنه واشتغل بحبّ غيره أنواعَ العذاب حتى يرجع قلبه إليه.

وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلآء. وهذا من غيرته سبحانه وتعالى عَلَى عبده.

وكما أنه سبحانه وتعالى يغار عَلَى عبده المؤمن فهو يغار له ولحُرمته، فلا يُمَكّن المفسدَ أن يتوصلّ إلى حُرمته غيرةً منه لعبده، فإنه سبحانه وتعالى يدفع عن الذين آمنوا، فيدفع عن قلوبهم وجوارحهم وأهلهم وحريمهم وأموالهم، يتولى سبحانه الدفع عن ذلك كله غيرة منه لهم كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم. والله

(١) ٣٢٦ روضة المحبين.

تعالى يغار عَلَى إمائه وعَبيده من المفسدين شرعًا وقَدَرًا.

ومن أجل ذلك حرَّم الفواحش وشرع عليها أعظمَ العقوبات وأشنعَ القَتَلات لشدة غيرته عَلَى إمائه وعبيده. فإن عُطّلت هذه العقوباتُ شرعًا أجراها سبحانه قَدَرًا.

فصل[1]

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب، وجوز وصولها إليك، واجعل ذلك داعيًا للنفس إلى هجرانها. وأنا أسوق إليك منها طرفًا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

فمنها الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والأقفال على القلوب، وجعل الأكنة[2] عليها، والرين عليها، والطبع عليها، وتقليب الأفئدة والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرب، وإنساء العبد نفسه، وترك إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقًا حرجًا كأنما يصعد[3] في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضًا على مرضها، وإركاسها وإنكاسها، بحيث تبقى منكوسة.

كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: «القلوب أربعة: فقلب أجرد فيه سراج يزهر[4]، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف[5]، فذلك قلب الكافر. وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق. وقلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما».

ومنها التثبيط عن الطاعة والابتعاد عنها.

ومنها جعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام. وبهذا يعلم أن الصمم والبكم والعمى للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالفرض والتبعية ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦]،

---

(١) ١٥٨ الجواب الكافي. (٢) الأكنة الأغطية. (٣) يصعد بتشديد الصاد والعين.

(٤) أي ليس فيه غل ولا غش فهو على أصل الفطرة فنور الإيمان فيه يزهر. (٥) أي مغشي مغطى.

وليس المراد نفى العمى الحسي عن البصر، كيف وَقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾[الفتح:١٧]، وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَىٰ﴾[عبس:١،٢]، وإنما المراد أن العمى التام علي الحقيقة عمى القلب، حتى إن عمى البصر بالنسبة اليه كلا عمى، حتى يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته كما قال النبي ﷺ «**ليس الشديد بالصرعة**(١) **ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب**» وقوله ﷺ: «**ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه**» ونظائره كثيرة.

والمقصود أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم.

ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه فيخسف به إلى أسفل سافلين وصاحبه لا يشعر.

وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالا حول السفليات والقاذورات والرذائل، كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه اليه لايزال جوالا حول البر والخير.

فصل(٢)

قوله ﴿لِيَجْعَلَ مَايُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ[الحج:٥٣]. فهي على بابها وهي لام الحكمة والتعليل.

أخبر الله سبحانه أنه جعل ما ألقاه الشيطان في أمنية الرسول محنة واختبارًا لعباده فافتتن به فريقان، وهم الذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم، وعلم المؤمنون أن القرآن والرسول حق، وأن القاء الشيطان باطل فآمنوا بذلك وأخبتت له قلوبهم. فهذه غاية مطلوبة مقصودة بهذا القضاء والقدر.

والله سبحانه جعل القلوب على ثلاثة أقسام، مريضة وقاسية، ومخبتة، وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافًاوإذعـانًا، أو لاتكون كذلك.

فالأول حال القلوب القاسية الحجرية التي لا تقبل ما يبث فيها، ولا ينطبع فيها الحق، ولا ترتسم فيها العلوم النافعة، ولا تلين لإعطاء الأعمال الصالحة.

وأما النوع الثاني فلا يخلو إما أن يكون الحق ثابتًا فيه لا يزول عنه لقوته مع

---

(١) بضم الصاد وفتح الراء المبالغ في الصراع الذي لايغلب. (٢) ١٩٢ شفاء العليل.

لينه، أو يكون ثابتًا مع ضعف وانحلال. والثاني هو القلب المريض، والأول هو الصحيح المخبت وهو الذي[1] جمع الصلابة والصفاء واللين، فيبصر الحق بصفائه، ويشتد فيه بصلابته، ويرحم الخلق بلينه.

كما في أثر مروى: «القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إلى الله أصلبها وأرقها وأصفاها». كما قال تعالى في أصحاب هذه القلوب ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩].

فهذا وصف منه للمؤمنين الذين عرفوا الإيمان بصفاء قلوبهم، واشتدوا على الكفار بصلابتها، وتراحموا فيما بينهم بلينها.

وذلك أن القلب عضو من أعضاء البدن، وهو أشرف أعضائه وملكها المطاع، وكل عضو، كاليد مثلاً ـ إما أن تكون جامدة ويابسة لا تلتوي ولا تبطش، أو تبطش بضعف، فذلك مثل القلب القاسي.

أو تكون مريضة ضعيفة عاجزة ولضعفها ومرضها فذلك مثل الذي فيه مرض.

أو تكون باطشة بقوة ولين فذلك مثل القلب العليم الرحيم.

فبالعلم خرج عن المرض الذي ينشأ من الشهوة والشبهة؛ وبالرحمة خرج عن القسوة. ولهذا وصف سبحانه من عدا أصحاب القلوب المريضة والقاسية بالعلم والإيمان والإخبات.

فتأمل ظهور حكمته سبحانه في أصحاب هذه القلوب وهم كل الأمة.

فأخبر أن الذين أوتوا العلم علموا أنه الحق من ربهم، كما أخبر أنهم في المتشابه يقولون: **«آمنا به كل من عند ربنا»** وكلا الوصفين موضع شبهة فكان حظهم منه الإيمان وحظ أرباب القلوب المنحرفة عن الصحة الافتتان.

ولهذا جعل سبحانه إحكام آياته في مقابلة ما يلقى الشيطان بإزاء الآيات المحكمات في مقابلة المتشابهات، فالإحكام ههنا بمنزلة إنزال المحكمات هناك، ونسخ ما يلقي الشيطان ههنا في مقابلة رد المتشابه إلى المحكم هناك.

والنسخ ههنا رفع ماألقاه الشيطان لا رفع ماشرعه الرب سبحانه.

وللنسخ معنى آخر وهو النسخ من أفهام المخاطبين مافهموه مما لم يرده ولا دل

(١) في المطبوعة (وهو جمع) والصواب ماأثبتناه (ج).

اللفظ عليه وإن أوهمه، كما أطلق الصحابة النسخ على قوله: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَافِي أَنْفسكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قالوا نسختها قوله: ﴿رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية فهذا نسخ من الفهم لانسخ للحكم الثابت فإن المحاسبة لاتستلزم العقاب في الآخرة ولا في الدنيا أيضًا، ولهذا عمهم بالمحاسبة.

ثم أخبر بعدها أنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. ففهم المؤاخذة التي هي المعاقبة من الآية، تحميل لها فوق وسعها، فرفع هذا المعنى من فهمه بقوله: ﴿ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ إلى آخرها، فهذا رفع لفهم غير المراد من إلقاء الملك، وذاك رفع لما ألقاه غير الملك في أسماعهم أو في التمني.

وللنسخ معنى ثالث عند الصحابة والتابعين وهو ترك الظاهر: إما بتخصيص عام، أو بتقييد مطلق وهذا كثير في كلامهم جدًا.

وله معنى رابع وهو الذي يعرفه المتأخرون وعليه اصطلحوا وهو رفع الحكم بجملته بعد ثبوته بدليل رافع له فهذه أربعة معان للنسخ.

والإحكام له ثلاثة معان، أحدها: الإحكام الذي في مقابلة المتشابه كقوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

والثاني: الإحكام في مقابلة نسخ مايلقى الشيطان كقوله ﴿فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾ وهذا الإحكام يعم جميع آياته، وهو إثباتها وتقريرها وبيانها ومنه قوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[هود: ١].

الثالث: إحكام في مقابلة الآيات المنسوخة كما يقول السلف كثيرًا هذه الآية محكمة غير منسوخة.

وذلك لأن الإحكام تارة يكون في التنزيل، فيكون في مقابلة مايلقيه الشيطان في أمنيته مايلقيه المبلغ أو في سمع المبلغ. فالحكم هنا هو المنزل من عند الله أحكمه الله أي فصله من اشتباهه بغير المنزل، وفصل منه ماليس منه بإبطاله.

وتارة يكون في إبقاء المنزل واستمراره فلا ينسخ بعد ثبوته.

وتارة يكون في معنى المنزل وتأويله، وهو تمييز المعنى المقصود من غيره حتى لايشتبه به.

والمقصود أن قوله: ﴿ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾ هي لام التعليل على بابها. وهذا الاختبار والامتحان مظهر لمختلف القلوب الثلاثة، فالقاسية والمريضة ظهر خبؤها من الشك والكفر، والمخبتة ظهر خبؤها من الإيمان والهدى، وزيادة محبته، وزيادة بغض الكفر والشرك والنفرة عنه. وهذا من أعظم حكمة هذا الإلقاء.

(١)**وفي** المسند وغيره عن النبي ﷺ **«القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أصلبها وأرقها وأصفاها»**.

وقد ذكر سبحانه أنواع القلوب في قوله: ﴿لِيجعَلَ مَايُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَّالْقَاسِيَةِ قُلُوْبُهُم وإنَّ الظَّالِمِيْنَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيْدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِيْنَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم﴾ [الحج: ٥٣، ٥٤] فذكر القلب المريض وهو الضعيف المنحل الذي لاتثبت فيه صورة الحق، والقلب القاسي اليابس الذي لايقبلها ولاتنطبع فيه. فهذان القلبان شقيان معذبان.

ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه، وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به.

قال الكلبي: ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ فترقّ للقرآن قلوبهم.

وقد بين سبحانه حقيقة الإخبات ووصف المخبتين في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخبِتِينَ* الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلوبُهُم وَالصَّابِرِيْنَ عَلىٰ مَاأَصَابَهُم وَالْمقيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

فذكر للمخبتين أربع علامات: وجل قلوبهم عند ذكره، والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهرًا وباطنًا، وإحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم. وهذا إنما يتأتى للقلب المخبت.

قال ابن عباس: المخبتين المتواضعين. وقال مجاهد المطمئنين إلى الله.

وقال الأخفش: الخاشعين. وقال ابن جرير: الخاضعين.

قال الزجاج: اشتقاقه من الخبت وهو المنخفض من الأرض، وكل مخبت متواضع، فالإخبات سكون الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله.

---

(١) ١٠٦ شفاء العليل.

فإن قيل فإذا كان معناه التواضع والخشوع فكيف عدى بإلي في قوله: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣].

قيل: ضمن معنى أنابوا. واطمأنوا وتابوا وهذه عبارات السلف في هذا الموضع.

والمقصود أن القلب المخبت ضد القاسي والمريض، وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مخبتًا إليه وبعضها قاسيًا، وجعل للقسوة آثارًا وللإخبات آثارًا.

من آثار القسوة: تحريف الكلم عن مواضعه، وذلك من سوء الفهم وسوء القصد، وكلاهما ناشيء عن قسوة القلب. ومنها نسيان ماذكر به، وهو ترك ما أمر به علمًا وعملاً.

ومن آثار الإخبات: وجل القلوب لذكره سبحانه، والصبر على أقداره، والإخلاص في عبوديته، والإحسان إلى خلقه.

فصل(١)

و الفرق بين الصبر والقسوة أن الصبر خلق كسبي يتخلق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والجوارح عما لا ينبغي فعله. وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية.

وأما القسوة فيبس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله.

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة (قلب قاس) غليظ بمنزلة اليد اليابسة، (وقلب مائع) رقيق جدًا. فالأول لا ينفعل بمنزلة الحجر، والثاني بمنزلة الماء، وكلاهما ناقص.

وأصح القلوب (القلب الرقيق) الصافي، الصلب فهو يرى الحق من الباطل بصفائه، ويقبله ويؤثره برقته، ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته.

وفي أثر «القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها».

وهذا القلب الزجاجي؛ فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة.

وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسي قال تعالى: ﴿**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله**﴾ [الزمر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ

---

(١) ٢٩٣ الروح.

كَالْحِجَارةِ أَوْ أَشدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]. و قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَايُلقي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلّذيْنَ فِيْ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَّالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣].

فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال، هذا بمرضه، وهذا بقسوته، وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين، ورحمة لأصحاب القلب الثالث، وهو القلب الصافي الذي ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه، وقبل الحق بإخباته ورقته، وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته.

فقال تعالى عقيب ذلك: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِيْنَ أُوتُوا الْعلمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبّكَ فَيُؤْمِنُوْا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِيْنَ آمَنُوا إِلىٰ صِراطٍ مُّسْتَقِيم﴾ [الحج: ٥٤].

(١)**والفرق** بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه:

منها: أن ما كان لله موافقًا لمرضاته وماجاء به رسوله فهو من الملك، و ما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان.

ومنها: أن ماأثمر إقبالاً على الله وإنابة إليه وذكرًا له وهمة صاعدة إليه فهو من القاء الملك، وماأثمر ضد ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أن ماأورث أنسًا ونورًا في القلب وانشراحًا في الصدر فهو من الملك، و ماأورث ضد ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهون من الملك، و ما أورث قلقًا وانزعاجًا واضطرابًا فهو من الشيطان.

فالإلهام الملكي: يكثر في القلوب الطاهرة النقية التي قد استنارت بنور الله، فللملك بها اتصال وبينه وبينها مناسبة، فإنه طيب طاهر لايجاور إلا قلبًا يناسبه، فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان. وأما القلب المظلم الذي قد اسود بدخان الشهوات والشبهات فإلقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك.

(٢)**قال** تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِيَن تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَيَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌ عَزِيْز﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

---

(١) ٣١٣ الروح. (٢) ٩٧ مختصر الصواعق جـ١.

فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه، فمن لم يسمعه فقد عصى أمره، كيف تضمن إبطال الشرك وأسبابه بأوضح برهان في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها، وسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وعاون بعضهم بعضًا بأبلغ المعاونة لعجزوا عن خلق ذباب واحد، ثم بين عجزهم وضعفهم عن استنقاذ مايسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم. فأي شيء أضعف من هذا الإله المطلوب ومن عابده الطالب نفعه وحده؟ فهل قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها، فأقام سبحانه حجة التوحيد وبين ذلك بأعذب ألفاظ وأحسنها، لم يكتنفها غموض، ولم يشنها تطويل، ولم يعبها تقصير، ولم يزر بها زيادة ولا نقص. بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز مالا يتوهمه متوهم ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشأن البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ اهـ.

(١)**ومن** هذا قوله تعالى: **﴿يَاأَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَه إنَّ الَّذِيْنَ تَدعُونَ من دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقوا ذُبَابًا وَّلَو اجْتَمَعُوا لَه وإنْ يَّسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمطلُوبُ * ماقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**.

فضرب لهم سبحانه مثلاً من عقولهم يدلهم على قبح عبادتهم لغيره، وأن هذا أمر مستقر قبحه وهجنته في كل عقل وإن لم يرد به الشرع. وهل في العقل أنكر وأقبح من عبادة من لو اجتمعوا كلهم لم يخلقوا ذبابًا واحدًا، وإن يسلبهم الذباب شيئًا لم يقدروا على الانتصار منه واستنقاذ ماسلبهم إياه، وترك عبادة الخلاق العليم القادر على كل شيء. الذي ليس كمثله شيء، أفلا تراه كيف احتج عليهم بما ركبه في العقول من حسن عبادته وحده وقبح عبادة غيره.

(٢)**قوله** تعالى: **﴿يَاأَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَه إنَّ الَّذِيْنَ تَدعُونَ من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يَسْلُبْهُمُ الذبابُ شيئًا لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب ماقَدَرُوا الله حق قدره إن الله لقويٌّ عزيز﴾**.

حقيق على كل عبد أن يستمع قلبُه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع

---

(١) ٨ مفتاح جـ٢. (٢) ١٨١ أعلام جـ١.

موادَّ الشرك من قلبه، وذلك أن المعبودَ أقلُّ درجاته أن يقدِرَ على إيجاد ماينفع عابدَه وإعدام مايضره. والآلهةُ التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خَلْق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سَلَبهم شيئًا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه، فلاهم قادرون على خَلْق الذباب الذي هو من أضعفِ الحيواناتِ، ولا على الانتصار منه واسترجاع ماسَلَبهم إياه، فلا أعْجَزَ من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله.

وهذا المثلُ من أبلغ ماأنزله الله سبحانه في بُطْلانِ الشرك، وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تَلَاعَبَ بهم أعْظَمَ من تلاعب الصبيان بالكُرَةِ حيث أعْطَوُا الإلٰهية التي مِنْ بعض لوازمها القدرةُ على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات، والغنى عن جميع المخلوقات، وأن يصمد إلى الربِّ في جميع الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإجابة الدعوات، فأعطوها صورًا وتماثيل يمتنع عليها القدرةُ على أقلِّ مخلوقاتِ الإله الحق وأذلها وأصغرِها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك وتعانوا عليه.

وأدل من ذلك على عَجْزهم وانتفاء إلاهيتهم أن هذا الخلقَ الأقلَّ الأذلَّ العاجز الضعيفَ لو اختطَفَ منهم شيئًا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه **لعجزوا** عن ذلك، ولم يقدروا عليه، ثم سَوَّى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: ﴿**ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ**﴾ [الحج:٧٣]. قيل: الطالب العابد والمطلوب المعبود؛ فهو عاجز متعلِّق بعاجز.

وقيل: هو تسوية بين السالب والمسلوب، وهو تسوية بين الإلٰه والذباب في الضعف والعجز؛ وعلى هذا فقيل: الطالبُ الإلٰه الباطل، والمطلوبُ الذبابُ يطلب منه ما استلبه منه.

وقيل: الطالب الذباب، والمطلوب الإلٰه؛ فالذباب يطلب منه مايأخذه مما عليه، والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد والمعبود والمستلِب والمستَلِب؛ فمَنْ جعل هذا إلهًا مع القوي العزيز فما قَدَره حتى قَدْره، ولا عَرَفه حق معرفته، ولا عَظَّمه حق تعظيمه.

(١)**قوله** تعالى: ﴿يَامَرِيمُ اقْنُتِي لِرَبِّكَ واسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] فقد أبعد النجعة فيما تعسفه من فائدة التقديم وأتى بما ينبو اللفظ عنه.

وقال غيره: السجود كان في دينهم قبل الركوع وهذا قائل مالا علم له به.

والذي يظهر في الآية والله أعلم بمراده من كلامه أنها اشتملت على مطلق العبادة وتفصيلها، فذكر الأعم، ثم ماهو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص. فذكر القنوت أولاً وهو الطاعة الدائمة فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة.

ثم ذكر ما هو أخص منه وهو السجود الذي يشرع وحده، كسجود الشكر والتلاوة، ويشرع في الصلاة، فهو أخص من مطلق القنوت. ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة، فلا يسن الإتيان به منفردًا، فهو أخص مما قبله. ففائدة الترتيب النزول من الأعم إلى الأخص إلى أخص منه. وهما طريقتان معروفتان في الكلام. النزول من الأعم إلى الأخص، وعكسها وهو الترقي من الأخص إلى ما هو أعم منه، إلى ما هو أعم ونظيرها ﴿يَاأَيُّها الَّذِيْنَ آمنوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧] فذكر أربعة أشياء أخصها الركوع، ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله.

والذي يزيد هذا وضوحًا الكلام على ماذكره بعد هذه الآية من قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائمينَ وَالرُّكَّع السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦] فإنه ذكر أخص هذه الثلاثة وهو الطواف الذي لايشرع إلا بالبيت خاصة، ثم انتقل منه إلى الاعتكاف ـ وهو القيام المذكور في الحج ـ وهو أعم من الطواف؛ لأنه يكون في كل مسجد ويختص بالمساجد لايتعداها. ثم ذكر الصلاة التي تعم سائر بقاع الأرض سوى مامنع منه مانع أو استثنى شرعًا.

وإن شئت قلت: ذكر الطواف الذي هو أقرب العبادات بالبيت.

ثم الاعتكاف الذي يكون في سائر المساجد.

ثم الصلاة التي تكون في البلد كله، بل في كل بقعة. فهذا تمام الكلام على ماذكره من الأمثلة وله رحمه الله مزيد السبق وفضل التقدم.

---

(١) ٨٠ البدائع جـ١.

(١)**الوجه** الرابع والستون: أن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة، فالله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس. وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته، وتعريف أسمائه وصفاته، وأفعاله وأحكامه، ومراضيه ومساخطه، وثوابه وعقابه، وخصهم بوحيه، واختصهم بتفضيله، وارتضاهم لرسالته إلى عباده، وجعلهم أزكى العالمين نفوسًا وأشرفهم أخلاقًا، وأكملهم علومًا وأعمالاً، وأحسنهم خلقة، وأعظمهم محبة وقبولاً في قلوب الناس، وبرأهم من كل وصم وعيب وكل خلق دنيء، وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم في أممهم؛ فإنهم يخلفونهم على مناهجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة، وإرشادهم الضال، وتعليمهم الجاهل، ونصرهم المظلوم، وأخذهم على يد الظالم، وأمرهم بالمعروف وفعله، ونهيهم عن المنكر وتركه، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين، والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين، والجدال بالتي هي أحسن للمعاندين المعارضين. فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين. قال تعالى: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف:١٠٨] وسواء كان المعنى وأنا ومن اتبعني على بصيرة وأنا أدعوا إلى الله. أو المعنى أدعوا إلى الله على بصيرة والقولان متلازمان، فإنه لا يكون من أتباعه حقًّا إلا من دعا ﷺ إلى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل فهؤلاء خلفاء الرسل حقًّا وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علمًا وعملاً، وهداية وارشادًا، وصبرًا وجهادًا، وهؤلاء هم الصديقون، وهم أفضل أتباع الأنبياء ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبوبكر رضي الله عنه. قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا * ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ عَلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠] فذكر مراتب السعداء أربعة، وبدأ بأعلاهم مرتبة ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب. وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

---

(١) ٧٨ مفتاح جـ١.

(١)**قوله تعالى** : ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّيْنِ مِنَ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ**﴾.[الحج : ٧٨] فأخبر تعالى أنه اجتباهم، وَالاجتباء كالاصطفاء، وَهو افتعال من «اجْتَبَى الشيء يَجْتبيه» إذا ضمه إليه وَحازه إلى نفسه، فهم المجتبوْن الذين اجتباهم الله إليه وجَعَلهم أَهلَه وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين وَالمرسلين.

ولهذا أمرهم تعالى أن يجاهدوا فيه حق جهاده، فيبذلوا له أنفسهم، وَيُفْردوه بالمحبة والعبودية، ويختاروه وحده إلٰهًا معبودًا محبوبًا على كل ما سواه كما اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلٰههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم وجَوَراحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم، فيؤثرونه في كل حال على مَنْ سواه، كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحِبَّاءه وآثرهم بذلك على مَنْ سواهم.

ثم أخبرهم تعالى أنه يَسَّرَ عليهم دينه غاية التيسير، ولم يجعل عليهم فيه من حرج البتة لكمال محبته لهم ورأفته ورحمته وحنانه بهم.

ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحُنَفَاء أبيهم إبراهيم، وهي إفراده تعالى وحده بالعبودية والتعظيم، والحبِّ، والخوفِ والرجاء، والتوكل والإنابة، والتفويض والاستسلام، فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره.

ثم أخبر تعالى أنه نَوَّهَ بهم وأثنى عليهم قبلَ وجودِهم وسَمَّاهم عباده المسلمين قبل أن يظهرهم.

ثم نوَّه بهم وسماهم كذلك بعد أن أوجدهم اعتناء بهم ورفعة لشأنهم وإعلاء لقدرهم.

ثم أخبر تعالى أنه فعل ذلك ليشهد عليهم رسوله ويشهدوا هم على الناس؛ فيكونون مشهودًا لهم بشهادة الرسول شاهدِينَ على الأمم بقيام حجة الله عليهم، فكان هذا التنويه وإشادة الذكر لهذين الأمرين الجليلين ولهاتين الحكمتين العظيمتين.

والمقصود أنهم إذا كانوا بهذه المنزلة عنده تعالى؛ فمن المحال أن يحرمهم كلَّهم الصوابَ في مسألة فيفتي فيها بعضُهم بالخطأ، ولا يفتي فيها غيره بالصواب، ويظفر فيها بالهدى مَنْ بعدهم، والله المستعان.

(١) ١٣٣ أعلام جـ٤.

(١)الفصل الخامس
في ذكر إبراهيم خليل الرحمن ﷺ

وهذا الاسم من النمط المتقدم؛ فإن إبراهيم بالسريانية معناه «أب رحيم» والله سبحانه وتعالى جعل إبراهيم الأب الثالث للعالم؛ فإن أبانا الأول آدم، والأب الثاني نوح. وأهل الأرض كلهم من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَه هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] وبهذا يتبين كذب المعبرين من العجم الذين يزعمون أنهم لايعرفون نوحًا ولا ولده، ولاينسبون إليه، وينسبون ملوكهم من آدم إليهم ولا يذكرون نوحًا في آبائهم. وقد أكذبهم الله عز وجل في ذلك.

فالأب الثالث أب الآباء وعمود العالم، وإمام الحنفاء الذي اتخذه الله خليلاً وجعل النبوة والكتاب في ذريته، ذاك خليل الرحمن، وشيخ الأنبياء كما سماه النبي ﷺ، بذلك. فإنه لما دخل الكعبة وجد المشركين قد صوروا فيها صورته وصورة إسماعيل ابنه وهما يستقسمان بالأزلام. فقال: قاتلهم الله، لقد علموا أن شيخنا لم يكن يستقسم بالأزلام، ولم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتبع ملة أحد من الأنبياء غيره فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيكَ أنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنيفًا وَّمَاكَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] وأمر أمته بذلك فقال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُم وَمَاجَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّيْنِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُم إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هٰذَا﴾ [الحج: ٧٨] «وملة» منصوب على إضمار فعل أي اتبعوا والزموا ملة إبراهيم. ودل على المحذوف ماتقدم من قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِه﴾[الحج: ٧٨] وهذا هو الذي يقال له الإغراء. وقيل: منصوب انتصاب المصادر والعامل فيه مضمون ماتقدم قبله؛ وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: **«أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص. ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وماكان من المشركين»**(٢).

(٣)**وقد** اختلفت عبارات السلف في «حق الجهاد».

---

(١) ١٥٤ جلاء الأفهام. (٢) يأتي البحث كاملًا إن شاء الله في سورة الصافات (ج).

(٣) ١٠٥ زاد المعاد جـ٢

فقال ابن عباس «هو استفراغ الطاقة فيه، وأن لا يخاف في الله لومة لائم».

وقال مقاتل «اعملوا لله حق عمله، واعبدوه حق عبادته».

وقال عبدالله بن المبارك «هو مجاهدة النفس والهوى» ولم يصب من قال: إن الآيتين منسوختان، لظَنِّه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق.

وحق تُقَاته وحق جهاده: هو مايطيقه كل عبد في نفسه. وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز، والعلم والجهل. فحق التقوى وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء.

وتأمل كيف عَقَّب الأمر بذلك ﴿هُوَ اجْتَبَاكُم وَمَاجَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّيْنِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] والحرج: الضيق، بل جعله واسعًا يسعَ كل أحد، كما جعل رزقه يسع كل حي. وكلف العبد بما يسعه العبد. ورزق العبد مايسع العبد. فهو يسع تكليفه، ويسعه رزقه. وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما. قال النبي ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة» أي: بالملة، فهي عصمة حنيفية في التوحيد سمحة في العمل...

(١) **قال تعالى: ﴿وَاعتَصموُا باللهِ هُوَ مَولاَكُم فَنِعْمَ الْمَولىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾** [الحج: ٧٨] **أي: متى اعتصمتم به تولاكم، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان. وهما** العدوان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج. فالنصر على هذا العدوّ أهم، والعبد إليه أحوج. وكمال النصرة على العدو بحسَب كمال الاعتصام بالله.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحج

والحمد لله رب العالمين

(١) يبحث عنه

سورة المؤمنون

ترتيبها ٢٣　　آياتها ١١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **قال** الله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٧]. ولما أنزلت هذه الآيات على النبيّ ﷺ قال: «قَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الجَنَّة» ثم قرأ هذه الآيات:

(٢) **قال** الله ـ تعالى ـ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين» وقال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين. فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن». وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفلَحَ الْمُؤمِنُونَ. الَّذِيْنَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُوْنَ﴾.

و«**الخشوع**» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون. قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨]. أي: سكنت، وذلت، وخضعت. ومنه وصف الأرض بالخشوع. وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]. و«الخشوع» قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه، وقيل: «الخشوع» الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف وَرُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد. وقيل «الخشوع» خمود نيران الشهوة. وسكون دخان الصدور. وإشراق نور التعظيم في القلب. وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن «الخشوع» محله القلب. وثمرته على الجوارح. وهي تظهره. و«رأى النبي ﷺ رجلا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**لو خشع قلب**

(١) ٣٣٩ روضة المحبين.　(٢) ٥٢٠ مدارج جـ١.

هذا لخشعت جوارحه». وقال النبي ﷺ: «التقوى ههنا» - وأشار إلى صدره - ثلاث مرات. وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن.

ورأى بعضهم رجلا خاشع المنكبين والبدن. فقال: يافلان، الخشوع ههنا. وأشار إلى صدره. لاههنا. وأشار إلى منكبيه. وكان بعض الصحابة - رضي الله عنهم - وهو حذيفة، يقول: «إياكم وخشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجَسد خاشعاً والقلب ليس بخاشعٍ».

ورأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة. فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك. ليس الخشوع في الرقاب. إنما الخشوع في القلوب». ورأت عائشة - رضي الله عنها - «شبابا يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك. فقالت: كان عمر بن الخطاب: إذا مشي أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقًا». وقال الفضيل بن عياض: كان يُكرَه أن يُرِي الرجل من الْخشوع أكثر مما في قلبه. وقال حذيفة رضي الله عنه: «أول ما تفقدون من دينكم الْخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، ورب مصلٍّ لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا. وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

. . .(١)**وكذلك** إذا قام إلى الصلاة فإنه يستقبل ربه وهو فوقه فيدعوه من تلقائه لا عن يمينه ولا عن يساره ويدعوه من العلو لا من السفل. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم أبصارهم**». واتفق العلماء على أن رفع البصر إلى السماء للمصلي منهي عنه.

وروى أحمد عن محمد بن سيرين أن النبي ﷺ كان يرفع بصره في الصلاة إلى السماء حتى أنزل الله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُم فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١ - ٢] فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلا للفطرة لأن الداعي السائل الذي أمر بالخشوع وهو الذل والسكون لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه ويسأله، بل يناسبه الإطراق وخفض

(١) ٢٧٥ مختصر الصواعق جـ٢ .

بصره أمامه فليس في هذا النهي ما ينفي كونه فوق سمواته على عرشه، كما زعم بعض جهال الجهمية فإنه لا فرق عندهم بين تحت التحت والعرش بالنسبة إليه، ولو كان كذلك لم ينه عن رفع بصره إلى جهة ويؤمر برده إلى غيرها لأن الجهتين عند الجهمية سواء بالنسبة إليه. وأيضًا فلو كان الأمر كذلك لكان النهي ثابتًا في الصلاة وغيرها.

وقد قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فليس العبد منهيا عن رفع بصره إلى السماء مطلقا، وإنما نهى عنه في الوقت الذي أمر فيه بالخشوع لأن خفض البصر من تمام الخشوع، كما قال تعالى: ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ [القمر: ٧]. وأيضًا فلو كان النهي عن رفع البصر إلى السماء لكون الرب ليس في السماء لكان لا فرق بين رفعه إلى السماء ورده إلى جميع الجهات، ولو كان مقصوده أن ينهي الناس أن يعتقدوا أن الله في السماء أو يقصدوا بقلوبهم التوجه إلى العلو لبين لهم ذلك بيانا شافيا ولم يحملهم فيه على أدب من آداب المصلي وهو إطراقه بين يدي ربه وخشوعه ورمي بصره إلى الأرض كما يفعل بين يدي الملوك فهذا إنما يدل على نقيض قولهم. . . .

(١)**الوجه** السادس والعشرون: أنك إذا تأملت الأحاديث الصحيحة وجدتها مفسرة للآية مشتقة منها. كقوله ﷺ: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإنما يستقبل ربه**». وقوله: «**فالله يقبل عليه بوجهه ما لم يصرف وجهه عنه**». وقوله: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصقن قبل وجهه**». وقوله: **فإن الله بينه وبين القبلة**». وقوله: «**إن الله يأمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت**» رواه ابن حبان في صحيحه والترمذي.

وقال: «**إن العبد إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة، أقبل الله عليه بوجهه فلا ينصرف عنه حتى ينصرف أو يحدث حدث سوء**». وقال: جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه فإذا التفت أعرض الله عنه، وقال: يا ابن آدم أنا خير ممن تلتفت إليه. فإذا أقبل على صلاته أقبل الله عليه، فإذا التفت أعرض الله عنه**». وقال ابن عمر عن النبي ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فلا يتنخمن تجاه وجه الرحمن**». وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ:

(١) ١٨٨ مختصر الصواعق جـ٢.

«**إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن، فإذا التفت قال له: ابن آدم! إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني تلتفت**».

[(1)] **فإذا** قيل: ما تقولون في صلاة من عدم الخشوع: هل يعتد بها أم لا؟

قيل: أما الاعتداد بها في الثواب: فلا يعتد له فيها. إلا بما عَقَل فيه منها. وخشع فيه لربه. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها». وفي المسند مرفوعاً: «**إن العبد ليصلي الصلاة، ولم يكتب له إلا نصفها، أو ثلثها، أو ربعها ـ حتى بلغ عشرها**».

وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم. فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح. ولو اعْتُدَّ له بها ثواباً لكان من المفلحين.

وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا، وسقوط القضاء: فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعاً. وكانت السنن، والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها. وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها. وعدم تعقلها، فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها. فأوجبها أبو عبد الله بن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في إحيائه، لا في وسيطه وبسيطه.

وأحتجوا بأنها صلاة لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها، ويسقط القضاء عنه كصلاة المرائي.

قالوا: ولأن الخشوع والعقل: روح الصلاة ومقصودها ولُبُّها، فكيف يعتد بصلاة فقدت روحها ولبها، وبقيت صورتها وظاهرها؟.

قالوا: ولو ترك العبد واجباً من واجباتها عمداً لأبطلها تركه. وغايته: أن يكون بعضاً من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق في الكفارة، فكيف إذا عدمت روحها، ولبها ومقصودها؟ صارت بمنزلة العبد الميت. إذا لم يعتد بالعبد المقطوع اليد. يعتقه تقرباً إلى الله تعالى في كفارة واجبة. فكيف يعتد بالعبد الميت. وقال بعض السلف: الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك. فما الظن بمن يهدى إليه جارية شَلَّاءَ، أو عوراء، أو عمياء، أو مقطوعة اليد والرجل، أَوْ مريضة، أو دميمة، أو قبيحة، حتى يُهدى إليه جارية ميتة بلا روح وجارية قبيحة.

(١) ٥٢٥ مدارج جـ١.

فكيف بالصلاة التي يهديها العبد، ويتقرب بها إلى ربه تعالى؟ والله طيب لا يقبل إلا طيباً. وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها. كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه.

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع: تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته، وعزل له عنها. فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها، وقد عزل ملكها وتعطل؟.

قالوا: والأعضاء تابعة للقلب، تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده. فإذا لم يكن قائماً بعبوديته، فالأعضاء أولى أن لا يعتدَّ بعبوديتها، وإذا فسدت عبوديته ـ بالغفلة والوسواس ـ فأنَّى تصح عبودية رعيته وجنده ومادتهم منه، وعن أمره يصدرون، وبه يأتمرون؟

قالوا: وفي الترمذي وغيره، مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «**إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل**» وهذا إما خاص بدعاء العبادة، وإما عام له ولدعاء المسألة، وإما خاص بدعاء المسألة الذي هو أبعد. فهو تنبيه على أنه لا يقبل دعاء العبادة الذي هو خاص حقه من قلب غافل.

قالوا: ولأن عبودية من غلبت عليه الغفلة، والسهو في الغالب لا تكون مصاحبة للإخلاص. فإن الإخلاص قصد المعبود وحده بالتعبد. والغافل لا قصد له. فلا عبودية له.

قالوا: وقد قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥] وليس السهو عنها تركها، وإلا لم يكونوا مصلين، وإنما هو السهو عن واجبها: إما عن الوقت، كما قال ابن مسعود وغيره. وإما عن الحضور. والخشوع، والصواب: أنه يعمّ النوعين. فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة. ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب. ولذلك وصفهم بالرياء، ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء.

قالوا: ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط، فهو تنبيه على التوعد بالويل على سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولى لوجوه:

أحدها: أن الوقت يسقط في حال العذر، وينتقل إلى بدله. والإخلاص والحضور لا يسقط بحال. ولا بدل له.

الثاني: أن واجب الوقت يسقط لتكميل مصلحة الحضور. فيجوز الجمع بين

الصلاتين للشغل المانع من فعل إحداهما في وقتها بلا قلب ولا حضور، كالمسافر. والمريض، وذي الشغل الذي يحتاج معه إلى الجمع، كما نص عليه أحمد وغيره.

فبالجملة: مصلحة الإخلاص والحضور، وجمعية القلب على الله في الصلاة: أرجح في نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها. فكيف يظن به أنه يبطلها بترك تكبيرة واحدة، أو اعتدال في ركن، أو ترك حرف، أو شَدَّةٍ من القرآن، أو ترك تسبيحة، أو قول: «سمع الله لمن حمده» أو قول: «ربنا ولك الحمد» أو ذكر رسول الله - ﷺ - بالصلاة عليه. ثم يصححها مع فوت لُبِّهَا، ومقصودها الأعظم. وروحها وسرها. فهذا ما احتجت به هذه الطائفة. وهي حجج - كما تراها - قوة وظهوراً. قال أصحاب القول الآخر: قد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه قال: «**إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان، وله ضراط حتى لا يسمع التأذين. فإذا قضي التأذين أقبل. فإذا ثُوِّب بالصلاة أدبر. فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وبين نفسه، فَيُذَكِّره ما لم يكن يذكر. ويقول: أُذكُر كذا، أُذكر كذا. لما لم يكن يذكر. حتى يَظَلَّ الرجل لا يدري كم صلى. فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس**».

قالوا: فأمره النبي ﷺ في هذه الصلاة التي قد أغفله الشيطان فيها، حتى لم يدر كم صلى: بأن يسجد سجدتي السهو. ولم يأمره بإعادتها، ولو كانت باطلة - كما زعمتم - لأمره بإعادتها.

قالوا: وهذا هو السر في سجدتي السهو، ترغيما للشيطان في وسوسته للعبد، وكونه حال بينه وبين الحضور في الصلاة: ولهذا سماهما النبي ﷺ «المرغمتين» وأمر من سها بهما، ولم يُفَصِّل في سهوه الذي صدر عنه موجب السجود بين القليل والكثير، والغالب والمغلوب. وقال: «**لكل سهو سجدتان**» ولم يستثن من ذلك السهو الغالب، مع أنه الغالب.

قالوا: ولأن شرائع الإسلام على الأفعال الظاهرة. وأما حقائق الإيمان الباطنة: فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب. فلله تعالى حكمان: حكم في الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح. وحكم في الآخرة على الظواهر والبواطن. ولهذا كان النبي ﷺ يقبل علانية المنافقين. ويَكِلُ أسرارهم إلى الله فيُناكحون. ويرثون

ويورثـون، ويعتـد بصـلاتهم في أحكام الدنيا. فلا يكون حكمهم حكم تارك الصـلاة، إذ قد أتـوا بصـورتها الظاهرة، وأحكام الثواب والعقاب. ليست إلى البشر، بل إلى الله، والله يتولاه في الدار الآخرة.

قالوا: فنحن في حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائي، مع أنه لا يسقط عنه العقاب، ولا يحصل له الثواب في الآخرة. فصلاة المسلم الغافل المبتلى بالوسواس وغفلة القلب عن كمال حضوره، أولى بالصحة.

نعم: لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلا ولا آجلا. فإن للصلاة مزيد ثواب عاجل في القلب من قوة إيمانه، واستنارته، وانشراحه وانفساحه ووجود حلاوة العبادة، والفرح والسرور، واللذة التي تحصل لمن اجتمع همه وقلبه على الله، وحضر قلبه بين يديه، كما يحصل لمن قرَّبه السلطان منه، وخصه بمناجاته والإقبال عليه والله أعلى وأجل.

وكذلك ما يحصل لهذا من الدرجات العلى في الآخرة، ومرافقة المقربين.

كل هذا يفـوتـه بفـوات الحضور والخضوع. وأن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً. وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض. وليس كلامنا في هذا كله.

فإن أردتم وجوب الإعادة: لتحصل هذه الثمرات والفوائد: فذاك إليه إن شاء أن يحصلها وإن شاء أن يفوتها على نفسه. وإن أردتم بوجوبها أنا نلزمه بها ونعاقبه على تركها. ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة فلا.

وهذا القول الثاني أرجح القولين. والله أعلم.

(١)**الاسم** الثامن الفردوس، قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠ - ١١] وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا**﴾

والفردوس اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنـات. وأصـل الفـردوس البستـان، والفـراديس: البساتين. قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب. وقال الليث: الفردوس: جنة ذات كروم، يقال: كرم مفردس أي معرش.

---

(١) ٧٥ حادي الأرواح.

وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار وهو اختيار المبرد، وقال: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب: الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وجمعه الفراديس، قال ولهذا سمى باب الفراديس بالشام وأنشد لجرير:

فقلت للركب إذ جد المسير بنا   يابعد بيربن(١) من باب الفراديس

وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين قال حسان:

وإن ثواب الله كل مخلد   جنان من الفردوس فيها يخلد

(٢)الباب السابع عشر

في أطوار بني آدم من وقت كونه نطفة إلى استقراره في الجنة أو النار.

قال الله - تعالى -: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦].

فاستوعب - سبحانه - ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفة بل تراباً وماء إلى حين بعثه يوم القيامة. فأول مراتب خلقه أنه سلالة من طين. ثم بعد ذلك سلالة من ماء مهين، وهي النطفة التي استلت من جميع البدن، فتمكث كذلك أربعين يوماً. ثم يقلب الله - سبحانه - تلك النطفة علقة: وهي قطعة سوداء من دم، فتمكث كذلك أربعين يوماً أخرى. ثم يصيرها - سبحانه - مضغة: وهي قطعة لحم أربعين يوماً، وفي هذا الطور تقدر أعضاؤه وصورته وشكله وهيأته(٣).

(٤)**وقال**: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦].

(١) كذا بالأصل فيصحح (ج).
(٢) ١٤٥ تحفة المودود.
(٣) هنا بحث المؤلف بحثًا مطولاً حول تخليق الجنين وأطواره فمن أراد فليرجع إليه (ج).
(٤) ١٨٨ مفتاح جـ١.

وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والتفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره، إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه، معرض عن التفكر فيه. ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره.

قال الله تعالى: ﴿**قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَه * مِنْ أَيِّ شيَءٍ خَلَقَه * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَه * ثُمَّ السَّبِيْلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَه فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ**﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

فلم يكرر - سبحانه - على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والتراب ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله، هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث.

فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وانتنت كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها.

وكيف جمع - سبحانه - بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد، جعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظاما مجردة لاكسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها. وانظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك.

ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال.

وكيف كساها لحماً ركبه عليها، وجعله وعاء لها وغشاء وحافظاً، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها وهي محفوظة به، وكيف صورها فأحسن صورها،

وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين، وبسطهما، وقسم رءوسهما بالأصابع، ثم قسم الأصابع بالأنامل، وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه.

ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قواماً للبدن وعماداً له وكيف قدرها ربها وخالقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحني والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف، وكيف ركب بعضها في بعض، فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثى، ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط، وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها.

(1)**ومن** حجب الملك في الصدر وأجلسه هناك على كرسي المملكة، وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة في خدمته وذللها له، فهي مؤتمرة إذا أمرها، منتهية إذا نهاها، سامعة له مطيعة تكدح وتسعى في مرضاته، فلا تستطيع منه خلاصاً ولا خروجاً عن أمره.

فمنها رسوله، ومنها بريده، ومنها ترجمانه، ومنها أعوانه وكل منها على عمل لا يتعداه ولا يتصرف في غير عمله، حتى إذا أراد الراحة أوعز إليها بالهدوء والسكون ليأخذ الملك راحته، فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على أعمالها، وذهبت حيث وجهها دائبة لا تفتر، فلو شاهدته في محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة، والعساكر في خدمته، والبُرُدُ تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرأيت له شأنًا عجيبًا، فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التي لا يحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار.

قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] فدعا عباده إلى التفكر في أنفسهم، والاستدلال بها على فاطرها وباريها، ولولا هذا لم نوسع الكلام في هذا الباب، ولا أطلنا النفس إلى هذه الغاية، ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة، والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانًا.

فكم دون القلب من حرس، وكم له من خادم، وكم له من عبيد ولا يشعر به،

(1) ٢٧٠ مفتاح جـ١.

ولله ما خلق له، وهيأ له، وأريد منه، وأعد له من الكرامة والنعيم، أو الهوان والعذاب. فإما على سرير الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظر إلى وجه ربه ويسمع خطابه. وإما أسير في السجن الأعظم بين أطباق النيران في العذاب الأليم.

فلو عقل هذا السلطان ما هيأ له لضن بملكه ولسعى في الملك الذي لا ينقطع ولا يبيد، ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

(١) **قوله** تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدَرٍ فأسكنَّاهُ في الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] وهذا أيضاً على أحد القولين، أي تغور العيون في الأرض فلا يقدر على الماء. قال ابن عباس: يريد أن سيغيض فيذهب. فلا يكون من هذا الباب، بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله.

(٢) **وأما** الإنشاء فإنما وقع إطلاقه عليه سبحانه فعلاً كقوله ﴿وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢]. وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ﴾ [المؤمنون: ١٩] وقوله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي ما لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]. وهو كثير ولم يرد لفظ المنشىء.

وأما العبد فيطلق عليه الإنشاء باعتبار آخر وهو شروعه في الفعل وابتداؤه له، يقول: أنشأ يحدثنا، وأنشأ السير، فهو منشىء لذلك، وهذا إنشاء مقيد وإنشاء الرب إنشاء مطلق وهذه اللفظة تدور على معنى الابتداء أنشأه الله أي ابتدأ خلقه، وأنشأ يفعل كذا ابتدأ، وفلان ينشىء الأحاديث أي يبتدىء وضعها والناشىء أول ما ينشأ من السحاب.

(٣) **أخبر** تعالى عن الأمم التي أطبقت على تكذيب الرسل ودمرها الله ـ تعالى ـ فقال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

فأخبر عن هؤلاء الأمم أنهم تطابقوا على تكذيب رسلهم وأنه عمهم بالإهلاك. وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

ومعلوم قطعاً أن الله ـ تعالى ـ لم يهلك هذه الأمم الكثيرة إلا بعد ما تبين لهم

---

(١) ٩٩ التبيان.
(٢) ١٣٣ شفاء.
(٣) هداية الحيارى.

الهدى فاختاروا عليه الكفر، ولو لم يتبين لهم الهدى لم يهلكهم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وما كُنَّا مُهْلِكِي القُرَى إلَّا وأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فنفعَهَا إيمانُها إلَّا قَوْمَ يُونُسَ لما آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْي في الحياةِ الدُّنْيَا ومَتَّعْنَاهُمْ إلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]. أي فلم يكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس . . .

[1]**الله** ـ سبحانه ـ ذم الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون، والزبر: الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله وما بعث الله به رسوله[2]، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبات وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٣].

فأمر تعالى الرسل بما أمر به أممهم: أن يأكلوا من الطيبات، وأن يعملوا صالحًا، وأن يعبدوه وحده، وأن يطيعوا أمره وحده، وأن لا يتفرقوا في الدين؛ فمضت الرسل وأتباعهم على ذلك، ممتثلين لأمر الله، قابلين لرحمته، حتى نشأت خُلُوفٌ قَطّعوا أمرهم بينهم زبراً، كل حزب بما لديهم فرحون. فمن تدبر هذه الآيات ونزّلها على الواقع تبين له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان.

[3]**فصل** وكل لذة أعقبت ألماً أو منعت لذة أكمل منها فليست بلذة في الحقيقة وإن غالطت النفس في الالتذاذ بها، (فأي لذة) لآكل طعامٍ شهي مسمومٍ يُقطِّع أمعاءه عن قريب؟ وهذه هي لذات الكفار والفُساق بعلوهم في الأرض وفسادهم وفرحهم فيها بغير الحق ومرحهم. وذلك مثل لذة الذين اتخذوا من دون الله أولياء يحبونهم كحب الله فنالوا بهم مَوَدَّة بينهم في الحياة الدنيا. ثم استحالت تلك اللذة أعظم ألمٍ وأمرَّه. ومن ذلك لذة العقائد الفاسدة والفرح بها، ولذة غَلَبة أهل الجوْر والظلم والعدوان والزنى والسرقة وشرب المسكرات. وقد أخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لم يُمكّنهم من ذلك لخير يريده بهم، إنما هو استدراجٌ منه لينيلهم به أعظم الألم قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُم بهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ

(١) ٢١٠ أعلام جـ٢.

(٢) تقدم في سورة النساء بحث في هذا الموضوع يحسن الرجوع إليه. (ج). (٣) ١٧٥ روضة المحبين.

في الخيرات بل لا يشعرون﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] وقال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ [التوبة: ٥٥].

فصل (١)

ومن منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ منزلة «الخوف» وهي من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب. وهي فرض على كل أحد. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾ [البقرة: ٤٠] وقال: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ [المائدة: ٤٤].

ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم. فقال: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ إلى قوله: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١] وفي المسند والترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت: يارسول الله، قول الله: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يزني، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: لا، يا ابنة الصديق. ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق. ويخاف أن لا يُقبل منه».

قال الحسن: عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمناً. و«الوجل» و «الخوف» و «الخشية» و «الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة. قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجارى الأنفاس. وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف. وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام. وهذا سبب الخوف. لا أنه نفسه. وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

والخشية أخص من الخوف. فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فهي خوف مقرون بمعرفة. وقال النبي (ﷺ): **«إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»**.

فالخوف: حركة. والخشية: انجماع، وانقباض، وسكون. فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك: له حالتان. إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة

---

(١) ٥١١ مدارج جـ١.

الخوف. والثاني: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه. وهي الخشية. ومنه: انخش الشيء، والمضاعف والمعتل أخوان. كتقضى البازي وتقضض.

وأما «الرهبة» فهي الإمعان في الهرب من المكروه. وهي ضد «الرغبة» التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه . . .

فصل(١)

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور: أحدها محبة ما يرجوه: الثاني خوفه من فواته. الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني. والرجاء شيء والأماني شيء آخر. فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات. وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): **«من خاف أدلج(٢) ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة». وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو مااقترن به العمل.**

قال الله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * والَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ والَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾** [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١] وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سألت رسول الله (ﷺ) عن هذه الآية، فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: **«لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يتقبل منهم. أولئك يسارعون في الخيرات»** وقد روي من حديث أبي هريرة أيضاً. والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمل أحوال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن. فهذا الصديق(٣) يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن. ذكره أحمد عنه.

---

(١) ٤٧ الجواب الكافي.

(٢) الإدلاج: السير بالليل.

(١)**وقال** في إثبات نبوة رسوله باعتبار المتأمل لأحواله ودعوته وما جاء به ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٨ ـ ٧٠]. فدعا سبحانه إلى تدبر القول وتأمل حال القائل، فإن كون القول كذبا وزوراً يعرف من نفس القول تارة. وتارة من تناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، ويعرف من حال القائل تارة. فإن المعروف بالكذب والفجور والمنكر والخداع والمكر لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يأتي منه من القول والفعل مايتأتى من البار الصادق من كل فاحشة وغدر وفجور وكذب، بل قلب هذا وقصده وعمله وقوله يشبه بعضه بعضًا، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضاً. فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله وحينئذ يتحقق لهم ويتبين حقيقة الأمر وأن ماجاء به أعلى مراتب الصدق.

فصل(٢)

وأما الأدب مع الرسول (ﷺ): فالقرآن مملوء به.

فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل، يسميه معقولاً، أو يحمله شبهة أو شكًا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان. كما وحد المرسِل ـ سبحانه وتعالى ـ بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان. لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل. وتوحيد متابعة الرسول. فلا يحاكم إلى غيره. ولا يرضى بحكم غيره. ولا يقف تنفيذ أمره، وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظمه. فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرفه عن مواضعه. وسمّى تحريفه: تأويلاً، وحملا. فقال: نؤوله ونحمله.

فلأن يلقى العبدُ ربه بكل ذنب على الإطلاق ـ ما خلا الشرك بالله ـ خير له

(١) ٩٨ مختصر الصواعق جـ١. (٢) ٣٨٧ مدارج جـ٢

من أن يلقاه بهذه الحال. ولقد خاطبت يوماً بعض أكابر هؤلاء. فقلت له: سألتك بالله. لو قُدِّر أن الرسول (ﷺ) حي بين أظهرنا. وقد واجهنا بكلامه وبخطابه: أكان فرضاً علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه، أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم؟ فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه. فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأي شيء نسخ؟ فوضع إصبعه على فيه. وبقي باهتاً متحيراً. وما نطق بكلمة.

هذا أدب الخواص معه، لا مخالفة أمره والشرك به، ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم، وعزل كلامه عن اليقين، وأن يستفاد منه معرفة الله، أو يتلقى منه أحكامه، بل المعول في باب معرفة الله: على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة. وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها. والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركاً، لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه. ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره، واستئصال شأفته **﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ * أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾** [المؤمنون: ٦٣ - ٧٤]. .

والناصح لنفسه، العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها. ويتأملها حق تأملها. وينزلها على الواقع: فيرى العجب. ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا «فالحديث لك. واسمعي ياجارة» والله المستعان.

[(١)] **قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ**

---

(١) ١١ مفتاح جـ٢.

جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩-٧١].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن الحق لو اتبع أهواء العباد فجاء شرع الله ودينه بأهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، ومعلوم أن عند النفاة يجوز أن يرد شرع الله ودينه بأهواء العباد وأنه لا فرق في نفس الأمر بين ما ورد به وبين ما تقتضيه أهواؤهم إلا مجرد الأمر وأنه لو ورد بأهوائهم جاز وكان تعبداً وديناً وهذه مخالفة صريحة للقرآن، وأنه من المحال أن يتبع الحق أهواءهم، وأن أهواءهم مشتملة على قبح عظيم لو ورد الشرع به لفسد العالم أعلاه وأسفله وما بين ذلك.

ومعلوم أن هذا الفساد إنما يكون لقبح خلاف ما شرعه الله وأمر به ومنافاته لصلاح العالم علويه وسفليه، وأن خراب العالم وفساده لازم لحصوله ولشرعه، وأن كمال حكمة الله وكمال علمه ورحمته وربوبيته يأبى ذلك ويمنع منه، ومن يقول: الجميع في نفس الأمر سواء، يجوز ورود التعبد بكل شيء سواء كان من مقتضى أهوائهم أو خلافها. ومثل هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ [الأنبياء: ٢٢] أي لو كان في السموات والأرض آلهة تعبد غير الله لفسدتا وبطلتا ولم يقل: أرباب، بل قال: آلهة، والإله هو المعبود المألوه، وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل عقلاً أن يشرع الله عبادة غيره أبداً، وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السموات والأرض، فقبح عبادة غيره قد استقر في الفطر والعقول، وإن لم يرد بالنهي عنه شرع، بل العقل يدل على أنه أقبح القبيح على الإطلاق، وأنه من المحال أن يشرعه الله قط فصلاح العالم في أن يكون الله وحده هو المعبود. وفساده وهلاكه في أن يعبد معه غيره، ومحال أن يشرع لعباده ما فيه فساد العالم وهلاكه، بل هو المنزه عن ذلك.

(١)... **وفي** هذا المشهد:(٢) يتحقق للعبد مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علماً وحالاً، فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الإلهية. فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع. والهدى والضلال، والسعادة والشقاء: كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذي يقلب القلوب،

(١) ٤١١ مدارج جـ١.
(٢) أي مشهد التوحيد.

ويصرفها كيف يشاء. وأنه لا موفَّق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه. وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها، وأرقها وأصفاها، وأشدها وألينها: من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً. فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنـده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه. فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، فتنساق المحابُّ تبعاً لها كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان. ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات، فتنساق المخاوف تبعاً لخوفه. ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعاً لرجائه. فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية، أي بابُ توحيد الإلهية: هو توحيد الربوبية. فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية. ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية، كما يدعـو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر. ويحتج عليهم به، ويقررهم به. ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

وفي هذا المشهـد يتحقق له مقـام ﴿إياك نعبد﴾ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧] أي فأين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله، وعن عبادته وحده، وهـم يشهدون: أنه لا رب غيره، ولا خالق سواه. وكـذلك قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده إلـهـهم ومعبودهم. فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إلـه لهم سواه ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوات السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قل من بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ الآيات [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٨]. .

(١)**وقال** تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ من إلـهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] .

فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقًا فاعلًا، يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضر. فلو كان معه ـ سبحانه ـ إله لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى شركة الإله الآخر معه، بل

(١) ٩٥ مختصر الصواعق جـ١ .

إن قدر على قهره وتفرده بالآلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به. كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض. بمماليكهم إذالم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه. فلابد من أحد أمور ثلاثة:

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه. وإما أن يعلو بعضهم على بعض. وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد، يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه فيكون وحده هو الإلـه وهم العبيد المربوبون المقهورون..

(١) **وقوله:** ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ**﴾ [النحل: ١٧] وقوله: ﴿**والَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ [النحل: ٢٠] وقوله: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُون شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ [الفرقان: ٣] وهو كثير في القرآن. وبه تتم الحجة كما تبين. والمقصود: أن العبد يحصل له هذا المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب، وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم. وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو. ولاسبيل إلى طاعته إلا بمعونته. ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه. فموارد الأمور كلها منه. ومصادرها إليه. وأزمة التوفيق جميعها بيديه، فلا مستعان للعباد إلا به، ولا مُتَّكَلَ إلا عليه. كما قال شعيب خطيب الأنبياء: ﴿**وَمَاتَوْفِيقِي إِلَّا باللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: ٨٨].

(٢) **قال** تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ**﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

والهمزات: جمع هَمزة كتمرات وتمرة. وأصل الهمز الدفع. قال أبوعبيد عن الكسائي: همزته، ولَمَزْتُه، ولهَزته، ونهَزته ـ إذا دفعته. والتحقيق: أنه دفع بنَخْز، وغَمْز يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب. قال ابن عباس والحسن «همزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم». وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم، وهذا قول مجاهد.

وفسرت بخنقهم وهو الموتة التي تشبه الجنون.

وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث، وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنفخ

(١) ٤١٢ مدارج جـ١.   (٢) ٩٥ إغاثة جـ١

والنفث كانت نوعًا خاصًا، كنظائر ذلك.

ثم قال: ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ قال ابن زيد: في أموري، وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن، وقال عكرمة: عند النزع والسياق، فأمره أن يستعيذ من نوعي شر إصابتهم بالهمز وقربهم ودنوّهم منه.

فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه، وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم. ونظير هذا قوله في سورة الأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فأمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

(١)**الأمر** التاسع: أنه ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة، وسمى عذاب القبر ونعيمه وأنه روضة أو حفرة نار، باعتبار غالب الخلق، فالمصلوب والحريق والغريق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعماله، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتها، فقد ظن بعض الأوائل أنه إذا حرق جسده بالنار وصار رمادًا، وذرى بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح: أنه ينجو من ذلك، فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع مافيه، ثم قال: قم، فإذا هو قائم بين يدي الله، فسأله: ماحملك على مافعلت؟ فقال: خشيتك يارب، وأنت أعلم. فما تلافاه أن رحمه، فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التي صارت في هذه الحال حتى لو علق الميت على رءوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه، ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه، فيجعل الله النار

(١) ٩٠ الروح.

على هذا بردًا وسلامًا، والهواء على ذلك نارًا وسمومًا، فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء، ولا يستعصى عليه منها شيء أراده، بل هي طوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين، وكفر به وأنكر ربوبيته.

فصـــل

الأمر العاشر: أن الموت معاد وبعث أول، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل لابن آدم معـادين وبعثـين، يجزي فيهـما الذين أساؤا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنـوا بالحسنى. فالبعث الأول مفـارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول. والبعث الثاني يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار وهو الحشر الثاني. ولهذا في الحديث الصحيح «وتؤمن بالبعث الآخر» فإن البعث الأول لا ينكره أحد وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هاتين القيامتين، وهما الصغرى والكبرى في سورة المؤمنـين وسورة الواقعة وسورة القيامة وسورة المطففين وسورة الفجر وغيرها من السور، وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها داري جزاء المحسن والمسيء، ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثاني في دار القرار. كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقد اقتضى عدله وأوجبت أسماؤه الحسنى وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم، وتعـذيب أبـدان أعدائه وأرواحهم، فلابد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة مايليق به ويذيق بدن الفاجر العاصي له وروحه من الألم والعقوبة مايستحقه، هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس، ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لا دار جزاء لم يظهر فيها ذلك.

وأما البرزخ فأول دار الجزاء فظهر فيها من ذلك مايليق بتلك الدار وتقتضي الحكمـة إظهـاره، فإذا كان يوم القيامة الكبرى وفي أهل الطاعة وأهل المعصية مايستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابها.

فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها، وهو مشتق منه، وواصل إلى أهل البرزخ هناك، كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة، في غير

موضع دلالة صريحة كقوله ﷺ: **«فيفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها ونعيمها»** وفي الفاجر: **«فيفتح له باب إلى النار فيأتيه من حرّها وسمومها»**.

ومعلوم قطعًا أن البدن يأخذ حظه من هذا الباب، كما تأخذ الروح حظها، فإذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب إلى مقعده الذي هو داخله.

وهذان البابان يصل منهما إلى العبد في هذه الدار أثر خفي محجوب بالشواغل والغواشي الحسية والعوارض، ولكن يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه ولا يحسن التعبير عنه فوجود الشيء غير الأحساس به والتعبير عنه.

فإذا مات كان وصول ذلك الأثر إليه من ذينك البابين أكمل، فحكمة الرب تعالى منتظمة لذلك أكمل انتظام في الدور الثلاث. اهـ.

(١)**﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾** [المؤمنون: ١١٥] ثم نزه نفسه عن هذا الحسبان المضاد لحكمته وعلمه وحمده، فقال: **﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾** [المؤمنون: ١١٦].

وتأمل ما في هذين الاسمين وهما الملك الحق من إبطال هذا الحسبان الذي ظنه أعداؤه إذ هو مناف لكمال ملكه ولكونه الحق، إذ الملك الحق هو الذي يكون له الأمر والنهي فيتصرف في خلقه بقوله وأمره، وهذا هو الفرق بين الملِك والمالك، إذ المالك هو المتصرف بفعله، والملك هو المتصرف بفعله وأمره، والرب تعالى مالك الملك فهو المتصرف بفعله وأمره.

فمن ظن أنه خلق خلقه عبثًا لم يأمرهم ولم ينههم، فقد طعن في ملكه، ولم يقدره حق قدره. كما قال ـ تعالى ـ: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾** [الأنعام: ٩١].

فمن جحد شرع الله وأمره ونهيه وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة فقد طعن في ملك الله ولم يقدره حق قدره. وكذلك كونه تعالى إلـه الخلق يقتضى كمال ذاته وصفاته وأسمائه ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها.

فكما أن ذاته الحق، فقوله الحق، ووعده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلها حق، وجزاءه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق.

---

(١) ١٦٤ بدائع جـ٤.

فمن أنكر شيئًا من ذلك فما وصف الله بأنه الحق المطلق من كل وجه، وبكل اعتبار، فكونه حقًا يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه .

فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق عبثًا وأن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. قال الشافعي رحمه الله: مهملاً؛ لا يؤمر ولا ينهى. وقال غيره: لا يجزى بالخير والشر، ولا يثاب، ولا يعاقب والقولان متلازمان. فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب وهو الأمر والنهي، و الآخر ذكر غاية الأمر والنهي وهو الثواب والعقاب .

ثم تأمل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨] فمن لم يتركه وهو نطفة سدى بل قلب النطفة وصرفها حتى صارت أكمل مما هي، وهي العلقة، ثم قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي حتى خلقها فسوى خلقها فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها حتى انتهى كمالها بشرًا سويًا فكيف يتركه سدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له، فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، فكما تدل أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وبارئه، فكذلك تدل على كمال حكمته وعلمه وملكه وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثًا ويتركها سدى بعد كمال خلقها .

وتأمل كيف لما زعم أعداؤه الكافرون أنه لم يأمرهم ولم ينههم علي ألسنة رسله، وإنه لا يبعثهم للثواب والعقاب كيف كان هذا الزعم منهم قولاً بأن خلق السموات والأرض باطل فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

فلما ظن أعداؤه أنه لم يرسل إليهم رسولاً، ولم يجعل لهم أجلاً للقائه، كان ذلك ظنًا منهم أنه خلق خلقه باطلاً .

(١)**قوله:** وأي حكمة في تكليف الثقلين وتعريضهم بذلك للعقوبة وأنواع

---

(١) ٢٦٦ شفاء العليل.

المشاق. فاعلم أنه لولا التكليف لكان خلق الإنسان عبثًا وسدى، والله يتعالى عن ذلك، وقد نزه نفسه عنه، كما نزه نفسه عن العيوب والنقائص.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] قال الشافعي لا يؤمر ولا ينهى، ومعلوم أن ترك الإنسان كالبهائم مهملاً معطلاً مضاد للحكمة، فإنه خلق لغاية كماله. وكماله أن يكون عارفًا بربه محبًا له قائمًا بعبوديته.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقال: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الله يَعْلَمُ مَافِي السَّمَواتِ وَمَافِي الأرض وَأَنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

فهذه المعرفة وهذه العبودية هما غاية الخلق والأمر، وهما أعظم كمال الإنسان، والله تعالى منْ عنايته به ورحمته له عرضه لهذا الكمال، وهيأ له أسبابه الظاهرة والباطنة ومكنه منها. ومدار التكليف على الإسلام والإيمان والاحسان، وهي ترجع إلى شكر المنعم كلها دقيقها وجليلها منه وتعظيمه وإجلاله ومعاملته بما يليق أن يعامل به، فتذكر آلاؤه، وتشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، هذا مع تضمن التكليف لاتصاف العبد بكل خلق جميل وإتيانه بكل فعل جميل وقول سديد، واجتنابه لكل خلق سيء، وترك كل فعل قبيح وقول زور.

فتكليفه متضمن لمكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، وصدق القول والإحسان إلى الخليقة وتكميل نفسه بأنواع الكمالات وهجر أضداد ذلك، والتنزه عنها مع تعريضه بذلك التكليف للثواب الجزيل الدائم ومجاورة ربه في دار البقاء فأي الأمرين أليق بالحكمة هذا أو إرساله هملاً: كالخيل والبغال والحمير، يأكل ويشرب وينكح: كالبهائم أيقتضي كماله المقدس ذلك فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم. وكيف يليق بذلك الكمال طي بساط الأمر والنهي والثواب والعقاب وترك إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع وتقرير الأحكام. وهل عرف الله من جوز عليه خلاف ذلك وهل ذلك إلا من سوء الظن به قال تعالى: ﴿وَمَاقَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَاأَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

فحسن التكليف في العقول كحسن الإحسان والإنعام والتفضل والطول، بل هو من أبلغ أنواع الإحسان والإنعام، ولهذا سمى سبحانه ذلك نعمة ومنة وفضلاً ورحمة، وأخبر أن الفرح به خير من الفرح بالنعم المشتركة بين الأبرار والفجار. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] فنعمة الله هاهنا نعمته بمحمد ﷺ ومابعثه به من الهدى ودين الحق. وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً من أنفسهم يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢ - ٤]. وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقال: ﴿واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨]. وقال لرسوله: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

وهل النعمة والفضل في الحقيقة إلا ذلك وتوابعه وثمرته في القلوب والأبدان في الدنيا والآخرة، وهل في العقول السليمة والفطر المستقيمة أحسن من ذلك وأليق بكمال الرب وأسمائه وصفاته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المؤمنون

والحمد لله رب العالميـن



بسم الله الرحمن الرحيم

...(١)**في** الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكموه أحد بعدي سمعته من النبي، ﷺ، يقول: «**من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويُشرب الخمر، ويظهر الزنى، ويقل الرجال، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد**».

وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه فلابد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة.

قال عبدالله بن مسعود: «ما ظهر الربا والزنى في قرية إلا أذن الله بإهلاكها».

ورأى بعض أحبار بني إسرائيل ابنًا له يغامز امرأة فقال: مهلاً يا بني، فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقيل له «هكذا غضبك لي؟ لا يكون في جنسك خير أبدًا».

وخص سبحانه حد الزنى من بين سائر الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم؛ فإنه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة، فهو أرحم بهم منكم بهم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا وإن كان عامًّا في سائر الحدود، ولكن ذُكر في حد الزنى خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره؛ فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر؛ فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم والوقائع. والواقع شاهد بذلك، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله عز وجل.

(١) ٢٢٠ الجواب الكافي.

وسبب هذه الرحمة أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل، وفي النفوس أقوى الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصور المعشوقة محرمة عليه، ولا يستنكر هذا الأمر، فهو مستقر عند من شاء الله من أشباه الأنعام. ولقد حكي لنا من ذلك شيء كثير أكثره عن ناقصي العقول والأديان كالخدم والنساء.

وأيضا فإن هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضي من الجانبين، فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه، وفيه شهوة غالبة له، فتصور ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد. وهذا كله من ضعف الإيمان.

وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله، ورحمة يرحم بها المحدود فيكون موافقًا لربه سبحانه في أمره ورحمته.

الثالث: أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين فلا يكون في خلوة حيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر.

وحد الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة؛ وذلك لاشتراك الزنى واللواط في الفحش، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره.

فإن في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى؛ فإنه يفسد فسادًا لا يرجى له بعده صلاح أبدًا ويذهب خيره كله، وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه، فلا يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم في البدن.

...[1]**فليس** في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله، فإنهما من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بهما بعد ممن هو طيب، لا يصعد إليه إلا طيب، وكلما ازداد خبثًا ازداد من الله بعدًا.

ولهذا قال المسيح فيما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد: «لا يكون البطَّالون من الحكماء، ولا يلجُ الزناة ملكوت السماء».

(١) ٦٥ إغاثة جـ١.

ولما كانت هذه حال الزنا كان قريبًا للشرك في كتاب الله تعالى، قال الله تعالى: **﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾**. [النور: ٣].

والصواب: القول بأن هذه الآية محكمة يعمل بها لم ينسخها شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم، ولم يأت من ادّعى نسخها بحجة البتة.

والذي أشكل على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى، فإنهم أشكل عليهم قوله: **﴿الزَّانِي لا ينكِحُ إلَّا زانِية أَوْ مُشرِكَة﴾** هل هو خبر أو نهي، أو إباحة؟

فإن كان خبرًا فقد رأينا كثيرًا من الزناة ينكح عفيفة.

وإن كان نهيًا فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهيًا له عن نكاح المؤمنات العفائف، وإباحة له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعًا. فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهًا يصح حملها عليه.

فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة، وهذا فاسد، فإنه لا فائدة فيه، ويصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك؛ فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية، فأي فائدة في الإخبار بذلك؟ **ولما** رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه.

ثم قالت طائفة: هذا عام اللفظ خاص المعنى، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة، وهي عناق البَغِي وصاحبها[1] فإنه أسلم، واستأذن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم في نكاحها. فنزلت هذه الآية.

وهذا أيضًا فاسد، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه، ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها.

وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: **﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾**. [النور: ٣٢]. وهذا أفسد من الكل، فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين، ولا تناقض إحداهما الأخرى، بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى، وحرَّم نكاح الزانية، كما حرَّم

(١) هو مرثد بن أبي مرثد. وكان رجلًا يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وحديثه رواه أبو داود والترمذي والنسائي في كتاب النكاح. وذكره الحافظ ابن كثير في تفسير الآية من سورة النور.

نكاح المعتدة والمحرمة، وذوات المحارم، فأين الناسخ والمنسوخ في هذا؟

فإن قيل: فما وجه الآية؟

قيل: وجهها ـ والله أعلم ـ أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة[١] والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد علِّقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به.

فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله، أو لا يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه، لم يصح النكاح، فيكون زانيًا، فظهر معنى قوله: ﴿**لا يَنْكِحُ إلاَّ زَانيةً أَوْ مُشْرِكَةً**﴾. [النور: ٣]. وتبين غاية البيان، وكذلك حكم المرأة.

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة، ومقتضى العقل، فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قَرْنانًا[٢] دَيُّوثًا زوج بغي، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه، ولهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا: زوج قحبة، فحرَّم الله على المسلم أن يكون كذلك.

فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية، والله الموفق.

ومما يوضح التحريم، وأنه هو الذي يليق بهذه الشريعة الكاملة: أن هذه الجناية من المرأة تعود بفساد فراش الزوج، وفساد النسب الذي جعله الله تعالى بين الناس لتمام مصالحهم، وعده من جملة نعمه عليهم، فالزنا يفضي إلى اختلاط المياه، واشتباه الأنساب، فمن محاسن الشريعة: تحريم نكاح الزانية، حتى تتوب وتستبرأ.

وأيضا فإن الزانية خبيثة، كما تقدم بيانه، والله سبحانه جعل النكاح سببًا للمودة والرحمة، والمودة خالص الحب، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب، زوجًا

(١) قال تعالى في سورة النساء: ﴿**فانْكِحُوا ما طاب لكم من النساء**﴾. [النساء: ٣]. وقال فيها أيضًا: ﴿**وأحلَّ لكم ما وراء ذلكُم أن تبتَغُوا بأمْوالكم مُحصنين غير مسافِحين**﴾. [النساء: ٢٣]. وقال في سورة المائدة: ﴿**والمُحصناتُ مِن المؤمِنات والمحصنات من الذينَ أُوتُوا الكتاب مِنْ قبلكم**﴾.

(٢) القَرْنَانُ: نعت سوء في الرجل الذي لا غيرة له. اللسان ١٣/٣٣٨.

الديوث المشارك في قرينته لزوجته القاموس ١٥٧٩ ـ المراجع.

له، والزوج سمّي زوجًا من الازدواج وهو الاشتباه، فالزوجان الاثنان المتشابهان، والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعًا وقَدَرًا، فلا يحصل معها الازدواج والتراحم والتواد، فلقد أحسن كل الإحسان من ذهب إلى هذا المذهب، ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة.

فأين هذا من قول من جوز أن يتـزوجهـا ويطأها الليلة، وقد وطئها الزاني البـارحة، وقال: ماء الزاني لا حرمة له، فهب أن الأمر كذلك، فماء الزوج له حرمة، فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزاني في رحم واحد؟

والمقصود: أن الله سبحانه سمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة، وإن كان حلالاً، وسمي فاعله جنبًا، لبعده عن قراءة القرآن، وعن الصلاة، وعن المساجد، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء. فكذلك إذا كان حرامًا يبعد القلب عن الله تعالى، وعن الدار الآخرة، بل يحول بينه وبين الإيمان، حتى يحدث طهرًا كاملاً بالتوبة، وطهرًا لبدنه بالماء. وقول اللوطية ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. [الأعراف: ٨٢]. من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. [البروج: ٨]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾. [المائدة: ٥٩].

وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وأنه لا يشوبه بالإشراك.

وهكذا المبتدع: إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يشبها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها. فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة.

إذا لم يكن بد من الصبر فاصطبر ... على الحق ذاك الصبر تُحْمد عقباه

فصل وأما نكاح الزانية(١)

فقد صرح الله سبحانه وتعالى بتحريمه في سورة النور، وأخبر أن من نكحها فهو إما زان أو مشرك. فإنه إما أن يلتزم حكمه سبحانه، ويعتقد وجوبه عليه أو لا، فإن لم يلتزمه ولم يعتقده فهو مشرك، وإن التزمه واعتقد وجوبه وخالفه فهو زان. ثم صرح بتحريمه فقال: ﴿وحُرِّمَ ذلكَ على المُؤْمِنِينَ﴾. [النور: ٣].

ولا يخفى أن دعوى النسخ للآية بقوله: ﴿وأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم﴾ من أضعف ما يقال. **وأضعف** منه: حمل النكاح على الزنا، إذ يصير معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة، والزانية لا يزني بها إلا زان أو مشرك. وكلام الله ينبغي أن يصان عن مثل هذا.

وكذلك حمل الآية على امرأة بَغِيّ مشركة: في غاية البعد عن لفظها وسياقها، كيف وهو سبحانه إنما أباح نكاح الحرائر والإماء بشرط الإحصان. وهو العفة، فقال: ﴿فانْكِحُوهُنَّ بإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بالمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غيْرَ مُسَافِحَاتٍ ولاَ مُتَّخِذاتِ أخْدَان﴾. [النساء: ٢٥].

فإنما أباح نكاحها في هذه الحالة دون غيرها وليس هذا من باب دلالة المفهوم؛ فإن الأبضاع في الأصل على التحريم، فيقتصر في إباحتها على ما ورد به الشرع. وما عداه فعلى أصل التحريم.

وأيضا: فإنه سبحانه قال: ﴿الخَبِيثَاتُ للخَبِيثِينَ والخَبِيثُونَ للخَبيثَاتِ﴾. [النور: ٢٦]. والخبيثات: الزواني، وبهذا يقتضي أن من تزوج بهن فهو خبيث مثلهن.

وأيضا: فمن أقبح القبائح: أن يكون الرجل زوج بَغِيّ، وقبح هذا مستقر في فطر الخلق، وهو عندهم غاية المسبة.

وأيضا: فإن البغي لا يؤمَن أن تفسد على الرجل فراشه، وتعلق عليه أولادًا من غيره، والتحريم يثبت بدون هذا.

وأيضا: فإن النبي، ﷺ، فرق بين الرجل وبين المرأة التي وجدها حبلى من الزنا.

وأيضا: فإن مَرْثَد بن أبي مرثد الغنوي «استأذن النبي، ﷺ، أن يتزوج عَناق. ـ وكانت بغيًا ـ فقرأ عليه رسول الله، ﷺ، آية النور، وقال: لا تنكحها».

(١) ١٣ زاد المعاد جـ٤.

وسأله ﷺ، رجل آخر عن نكاح امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح، فقرأ عليه رسول الله، ﷺ، الآية، ذكره أحمد.

...(١)**وأفتى** ﷺ، بأن الزاني المجلودَ لا ينكح إلا مثله، فأخذ بهذه الفتاوى التي لا معارض لها الإمام أحمد ومَنْ وافقه، وهي من محاسن مذهبه رحمة الله عليه؛ فإنه لم يجوز أن يكون الرجل زوج قَحْبة، ويعضد مذهبه بضعة وعشرون دليلاً قد ذكرناها في موضع آخر.

(٢)**الصحيح** من القولين أن توبة القاذف إكذابه نفسه؛ لأنه ضد الذنب الذي ارتكبه وهتك به عرض المسلم المحصن، فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه؛ لينتفي عن المقذوف العار الذي ألحقه به بالقذف، وهو مقصود التوبة.

وأما من قال: إن توبته أن يقول «أستغفر الله» من القذف، ويعترف بتحريمه، فقول ضعيف؛ لأن هذا لا مصلحة فيه للمقذوف، ولا يحصل له به براءة عرضه مما قذفه به، فلا يحصل به مقصود التوبة من هذا الذنب، فإن فيه حقين:

حقا لله، وهو تحريم القذف. فتوبته منه: باستغفاره، واعترافه بتحريم القذف، وندمه عليه، وعزمه على أن لا يعود. **وحقا** للعبد، وهو إلحاق العار به. فتوبته منه: بتكذيبه نفسه. فالتوبة من هذا الذنب بمجموع الأمرين.

فإن قيل: إذا كان صادقًا قد عاين الزنا، فأخبر به، فكيف يسوغ له تكذيب نفسه وقذفها بالكذب، ويكون ذلك من تمام توبته؟

قيل: هذا هو الإشكال الذي قال صاحب هذا القول لأجله ما قال: إن توبته الاعتراف بتحريم القذف والاستغفار منه. وهو موضع يُحتاج فيه إلى بيان الكذب الذي حكم الله به على القاذف، وأخبر أنه كاذب عنده، ولو كان خبره مطابقًا للواقع. فنقول: **الكذب** يراد به أمران، أحدهما: الخبر غير المطابق لمخبره. وهو نوعان:

كذب عمد، وكذب خطأ. فكذب العمد معروف. وكذب الخطأ ككذب أبي السنابل بن بَعكك في فتواه للمتوفَّى عنها إذا وضعت حملها «أنها لا تحل حتى تتم لها أربعة أشهر وعشرًا» فقال النبي، ﷺ: «**كذب أبو السنابل**». ومنه قوله، ﷺ: «**كذب من قالها**» لمن قال: «حبط عمل عامر. حيث قتل نفسه خطأ». ومنه قول

(١) ٣٤٣ أعلام جـ٤.
(٢) ٣٦٣ مدارج جـ١.

عبـادة بن الصامت «كذب أبو محمد» حيث قال «الوتر واجب». فهذا كله من كذب الخطأ. ومعناه «أخطأ» قائل ذلك.

والثاني من أقسام الكذب: الخبر الذي لا يجوز الإخبار به، وإن كان خبره مطابقًـا لمخـبره. كخبر القاذف المنفرد برؤية الزنا، والإخبار به؛ فإنه كاذب في حكم الله، وإن كان خبره مطابقًا لمخبره. ولهذا قال تعالى: ﴿**فإذْ لَمْ يَأْتُوا بالشُّهَدَاءِ فأُولئِكَ عندَ الله هُمُ الكَاذِبُونَ**﴾. [النور: ١٣]. فحكم الله في مثل هذا: أن يعاقب عقوبة المفتري الكاذب، وإن كان خبره مطابقًا. وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله، كما أخبر الله تعالى به عنه. فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبًا، فأيّ توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه؟

حكم رسول الله ﷺ في اللعان(١)

قال تعـالى: ﴿**والـذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهداءُ إلَّا أَنْفُسهم * فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بالله إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * والخَامِسَةُ أَن لَعْنَةَ الله عليهِ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ * ويَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بالله إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ * والخَامِسَةَ أَن غَضَبَ الله عليهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [النور: ٦ ـ ٩].

وثبت في الصحيحـين من حديث سهـل بن سعـد «أن عويمـرًا العَجْـلاني قال لعاصم بن عدي: أرأيت لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فسَلْ لي رسول الله، ﷺ. فسأل رسول الله، ﷺ، فكره رسول الله، ﷺ، المسائل وعابها، حتى كَبُر على عاصم ما سمع من رسول الله، ﷺ، ثم إن عويمرًا سأل رسول الله، ﷺ، عن ذلك؟ فقال: قد نزل فيك وفي صاحبتك، فاذهب فائت بها، فتلاعنا عند رسول الله، ﷺ. فلما فرغا قال: كذبتُ عليها يا رسـول الله، إن أمسكتهـا، فطلقهـا ثلاثـًا قبل أن يأمره رسول الله، ﷺ» قال الزهري: «فكانت تلك سنة المتلاعنين».

قال سهل: «وكانت حاملاً، وكان ابنها ينسب إلى أمه. ثم جرت السنة: أن يرثها، وترث منه ما فرض الله لها».

(١) ١٨٠ زاد المعاد جـ٤.

وفي لفظ: «فتلاعنا في المسجد ففارقها عند النبي، ﷺ. فقال النبي، ﷺ: «ذلكم التفريق بين كل متلاعنين».

وقول سهل: «وكانت حاملاً إلى آخره» هو عند البخاري من قول الزهري.

وللبخاري «ثم قال رسول الله، ﷺ: انظروا، فإن جاءت به أَسْحَم أَدْعَجَ العينين عظيم الأليتين خَدَلَّج الساقين: فلا أحسب عويمرًا إلا قد صدق عليها. وإن جاءت به أُحَيْمِر كأنه وَحْرَة: فلا أحسب عويمرًا إلا قد كذب عليها فجاءت به على النَّعت الذي نعت به رسول الله، ﷺ، من تصديق عويمر».

وفي لفظ «وكانت حاملاً، فأنكر حملها».

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر «أن فلانًا قال: يا رسول الله، أرأيت لو وجد أحدنا امرأته على فاحشة، كيف يصنع؟ إن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت على مثل ذلك. فسكت النبي، ﷺ، فلم يجبه. فلما كان بعد ذلك أتاه، فقال: إن الذي سألتك عنه قد ابتليت به. فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات في سورة النور ﴿والذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾. [النور: ٦]. فتلاهن عليه. ووعظه وذكره. وأخبره: أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. قال: لا، والذي بعثك بالحق ما كذبت عليها. ثم دعاها فوعظها وذكرها، وأخبرها: أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. قالت: لا والذي بعثك بالحق، إنه لكاذب. فبدأ بالرجل فشهد أربَع شهادات بالله: إنّه لَمِن الصَّادقينَ والخامسةَ أنَّ لعنَةَ الله عليْهِ إنْ كانَ مِنَ الكَاذِبين، ثم ثنَّى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة أنَّ غَضَب الله عليها إنْ كانَ مِنَ الصادقين. ثم فرق بينهما».

وفي الصحيحين عنه قال رسول الله، ﷺ، للمتلاعنين: «**حسابكما على الله. أحدكما كاذب. لا سبيل لك عليها**. قال: يا رسول الله، مالي؟ قال: **لا مال لك. إن كنت صدقت عليها: فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها**». و في لفظ لهما «فرَّق رسول الله، ﷺ، بين المتلاعنين. وقال: «**والله إن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟**». **وفيهما** عنه «أن رجلاً لاعَن على عهد رسول الله، ﷺ، ففرَّق رسول الله، ﷺ بينهما. وألحق الولد بأمه».

وفي صحيح مسلم من حديث ابن مسعود في قصة المتلاعنين: «فشهد الرجل أربع شهادات بالله: إنه لمن الصادقين، ثم لعن الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. فذهبت لتلتعن. فقال لها رسول الله، ﷺ: مَهْ. فأبت. فلعنت. فلما أدبرت. قال: «**لعلها أن تجيء به أسود جَعْدًا**». فجاءت به أسود جعدًا».

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك «أن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك بن سَحْماء، وكان أخا البراء بن مالك لأمه، وكان أول رجل لاعن في الإسلام، فقال النبي، ﷺ: **أبصروها فإن جاءت به أبيض سبطًا قضىء العينين فهو لهلال بن أمية. وإن جاءت به أكحل أدعج أحمش الساقين فهو لشريك بن سحماء**. قال: فأنبئتُ أنها جاءت به أكحل أجعد أحمش الساقين»(١).

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس نحو هذه القصة «فقال له رجل: أهي المرأة التي قال رسول الله، ﷺ: لو رجمتُ أحدًا بغير بينة لرجمت هذه؟ فقال ابن عباس: لا، تلك امرأة كانت تظهر في الإسلام السوء» ولأبي داود في هذا الحديث عن ابن عباس «ففرق رسول الله، ﷺ، بينهما، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب، ولا ترمى، ولا يُرمى ولدُها. ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد. وقضى: أن لا بيت لها عليه، ولا قوت، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ولا متوفى عنها». وفي القصة: قال عكرمة: «فكان بعد ذلك أميرًا على مصر. وما يدعى لأب»(٢).

وذكر البخاري «أن هلال بن أمية قذف امرأته عند رسول الله، ﷺ، بشريك بن سحماء فقال النبي، ﷺ: **البينة أو حَدٌّ في ظهرك**. فقال: يا رسول الله. إذا رأى أحدُنا على امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل رسول الله، ﷺ، يقول: **البينة وإلا حَدٌّ في ظهرك**. فقال: والذي بعثك بالحق، إني لصادق ولينزلنَّ الله ما يُبرىء ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه ﴿**والذين يرمون أزواجهم** - الآيات﴾ فانصرف النبي، ﷺ، إليها. فجاء هلال، فشهد والنبي، ﷺ، يقول: **إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟** فشهدت.

(١) قضىء العين: أي فاسدها. والدعج: سواد في العين. والحمش: قد الساقين.
(٢) قال المنذري (ج ٣ ص ١٦٩) في إسناده عباد بن منصور. وقد تكلم فيه غير واحد. وكان قدريًا داعية.

فلما كانت عند الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها الموجبة، قال ابن عباس فتلكأت، ونكصت حتى ظننا أنها ترجع. ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت. فقال النبي، ﷺ: **أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين، خَدَلَّج الساقين: فهو لشريك بن سحماء**. فجاءت به كذلك. فقال النبي، ﷺ: **لولا ما مضى من كتاب الله: كان لي ولها شأن**».

وفي الصحيحين «أن سعد بن عبادة قال: يا رسول الله، أرأيت الرجل يجد مع امرأته رجلاً أيقتله؟ فقال رسول الله، ﷺ: **لا**. فقال سعد: بلى، والذي بعثك بالحق. فقال رسول الله، ﷺ: **اسمعوا إلى ما يقول سيدكم**».

وفي لفظ آخر «يا رسول الله، إن وجدت مع امرأتي رجلاً أُمْهِلُه حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال: **نعم**».

وفي لفظ آخر «لو وجدت مع أهلي رجلاً لم أهجْه حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال رسول الله، ﷺ: **نعم**. قال: كلا. والذي بعثك بالحق نبيًّا، إن كنت لأعالجه بالسيف قبل ذلك. قال رسول الله، ﷺ: **اسمعوا إلى ما يقول سيدكم. إنه لَغَيُور، وأنا أغيرُ منه، والله أغير مني**».

وفي لفظ «لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مُصَفَّح. فقال النبي، ﷺ: **أتعجبون من غَيْرة سعد؟ فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني. ومن أجل ذلك: حرم الفواحش، ما ظهر منها وما بطن. ولا شخص أغير من الله. ولا شخص أحب إليه العذر من الله. من أجل ذلك: بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين. ولا أحد أحب إليه المدحة من الله. من أجل ذلك: وعد الله الجنة**».

فصل: فاستفيد من هذا الحكم النبوي عدة أحكام

الحكم الأول: أن اللعان يصح من كل زوجين، سواء كانا مسلمين أو كافرين عدلين أو فاسقين، محدودين في قذف أو غير محدودين، أو أحدهما كذلك.

قال الإمام أحمد في رواية إسحاق بن منصور: جميع الأزواج يلتعنون. الحر من الحرة، والأمة إذا كانت زوجة، والعبد من الحرة، والأمة إذا كانت زوجة. والمسلم من اليهودية والنصرانية. وهذا قول مالك وإسحاق وقول سعيد بن المسيب، والحسن وربيعة، وسليمان بن يسار.

وذهب أهل الرأي، والأوزاعي، والثوري، وجماعة إلى أن اللعان لا يكون إلا بين زوجين مسلمين عدلين حُرَّين، غير محدودين في قذف، وهو رواية عن أحمد.

ومأخذ القولين: أن اللعان يجمع وصفين: اليمين، والشهادة، وقد سماه الله سبحانه شهادة، وسماه رسول الله، ﷺ، يمينًا حيث يقول: «**لولا الأيمان لكان لي ولها شأن**». **فمن** غَلَّب عليه حكم الأيمان قال: يصح من كل من يصح يمينه.

قالوا: ولعموم قوله تعالى: ﴿**والذينَ يَرمُون أزواجَهُم**﴾. [النور: ٦]. قالوا: وقد سماه رسول الله، ﷺ، يمينًا.

قالوا: ولأنه مفتقر إلى اسم الله وإلى ذكر القسم المؤكد وجوابه. قالوا: ولأنه يستوي فيه الذكر والأنثى. بخلاف الشهادة.

قالوا: ولو كان شهادة لما تكرر لفظه بخلاف اليمين؛ فإنه قد يشرع فيها التكرار كأيمان القسامة.

قالوا: ولأن حاجة الزوج التي لا تصح منه الشهادة إلى اللعان ونفى الولد كحاجة من تصح شهادته سواء. والأمر الذي نزل به مما يدعو إلى اللعان كالذي ينزل بالعدل الحر. والشريعة لا ترفع ضرر أحد النوعين، وتجعل له فرجًا ومخرجًا مما نزل به، وتدع النوع الآخر في الآصار والأغلال، لا فرج له مما نزل به ولا مخرج، بل يستغيث فلا يُغاث، ويستجير فلا يجار إن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت على مثله، قد ضاقت عنه الرحمة التي وسعت من تصح شهادته. وهذا تأباه الشريعة الواسعة الحنيفية السمحة.

قال الآخرون: قال الله تعالى: ﴿**والذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهم ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إلَّا أَنْفُسُهُم فشَهَادَةُ أَحَدِهم أَرْبَعُ شَهادَاتٍ باللهِ**﴾. [النور: ٦]. وفي الآية دليل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه سبحانه استثنى «أنفسهم» من الشهداء، وهذا استثناء متصل قطعًا، ولهذا جاء مرفوعًا.

والثاني: أنه صرح بأن التعانهم شهادة، ثم زاد سبحانه هذا بيانًا فقال: ﴿**ويدْرَأُ عنْهَا العَذَابَ أَنْ تَشهَدَ أربَعَ شَهادَاتٍ بالله إنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ**﴾. [النور: ٨].

والثالث: أنه جعله بدلاً من الشهود، وقائمًا مقامهم عند عدمهم.

قالوا: وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن النبي، ﷺ، قال: «**لا لِعَانَ بين مملوكين ولا كافرين**». ذكره أبو عمر بن عبدالبر في التمهيد، وذكر الدارقطني من حديثه أيضًا عن أبيه عن جده مرفوعًا «**أربعة ليس بينهم لعان: ليس بين الحر والأمة لعان، وليس بين الحرة والعبد لعان، وليس بين المسلم واليهودية لعان، وليس بين المسلم والنصرانية لعان**». وذكر عبدالرازق في مصنفه عن ابن شهاب قال: «من وصية النبي، ﷺ، لعَتَّاب بن أسد أن لا لعان بين أربع - فذكر معناه».

قالوا: ولأن اللعان جعل بدل الشهادة، قائمًا مقامها عند عدمها، فلا يصح إلا ممن يصح منه، ولهذا تحد المرأة بالتعان الزوج ونُكُولِها، تنزيلاً للعانه منزلة أربعة شهود.

قالوا: وأما الحديث «**لولا ما مضى من الأيمان لكان لي ولها شأن**» فالمحفوظ فيه «**لولا ما مضى من كتاب الله**» هذا لفظ البخاري في صحيحه، وأما قوله «**لولا ما مضى من الأيمان**» فمن رواية عباد بن منصور، وقد تكلم فيه غير واحد، قال يحيى بن معين: ليس بشيء، وقال مهنا عن أحمد: متروك قَدْري، وقال النسائي: ضعيف، وقد استقرت قاعدة الشريعة: أن البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه، والزوج ههنا مُدَّع، فلعانه شهادة، ولو كان يمينًا لم يشرع في جانبه.

قال الأولون: أما تسميته شهادة، فلقول الملتعن في يمينه «أشهد بالله» فسمي بذلك شهادة، وإن كان يمينًا، اعتبارًا بلفظها، قالوا: وكيف؟ وهو مصرح فيه بالقسم، وجوابه. وكذلك لو قال «أشهد بالله» انعقدت يمينه بذلك، سواء نوى اليمين أو أطلق، والعرب تعد ذلك يمينًا في لغتها واستعمالها، قال قيس:

فأشهد عند الله أني أحبها　　فهذا لها عندي فما عندها ليا

وفي هذا حجة لمن قال: إن قوله «أشهد» تنعقد به اليمين، ولو لم يقل «بالله» كما هو إحدى الروايتين عن أحمد.

والثانية: لا يكون يمينًا إلا بالنية، وهو قول الأكثرين، كما أن قوله «أشهد بالله» يمين عند الأكثرين بمطلقه.

قالوا: وأما استثناؤه سبحانه «أنفسهم» من الشهداء، فيقال أولاً «إلا» ههنا صفة بمعنى (غير) والمعنى: ولم يكن لهم شهداء غير أنفسهم، فإن غير وإلا

يتعاوضان الوصيفة والاستثناء، فيستثنى بغير حملاً على إلا، ويوصف بإلا، حملاً على غير.

ويقال ثانيًا: إن «أنفسهم» مستثنين من الشهداء، ولكن يجوز أن يكون منقطعًا على لغة بني تميم. فإنهم يبدلون في الانقطاع كما يبدل أهل الحجاز، وهم في الاتصال.

ويقال ثالثًا: إنما استثنى «أنفسهم» من الشهداء، لأنه نزلهم منزلتهم في قبول قولهم، وهذا قوي جدًّا على قول من يرجم المرأة بالتعان الزوج إذا نكلت وهو الصحيح، كما يأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

والصحيح: أن لعانهم يجمع الوصفين: اليمين والشهادة، فهو شهادة مؤكدة بالقسم والتكرار، ويمين مغلظة بلفظ الشهادة والتكرار، لاقتضاء الحال تأكيد الأمر، ولهذا اعتبر فيه من التأكيد عشرة أنواع: **أحدها**: ذكر لفظ الشهادة.

الثاني: ذكر القسم بأحد أسماء الرب سبحانه وأجمعها لمعاني أسمائه الحسنى، وهو اسم الله جل ذكره.

الثالث: تأكيد الجواب بما يؤكد به المقسم عليه من إنَّ واللام، وإتيانه باسم الفاعل الذي هو صادق وكاذب، دون الفعل الذي هو صدق وكذب.

الرابع: تكرار ذلك أربع مرات.

الخامس: دعاؤه على نفسه في الخامسة بلعنة الله إن كان من الكاذبين.

السادس: إخباره عند الخامسة، أنها الموجبة لعذاب الله، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

السابع: جعل لعانه مقتضٍ لحصول العذاب عليها وهو إما الحد أو الحبس، وجعل لعانها دارئًا للعذاب عنها.

الثامن: أن هذا اللعان يوجب العذاب على أحدهما: إما في الدنيا وإما في الآخرة.

التاسع: التفريق بين المتلاعنين وخراب بيتها وكسرها بالفراق.

العاشر: تأبيد تلك الفرقة ودوام التحريم بينهما.

فلما كان شأن هذا اللعان هذا الشأن، جعل يمينًا مقرونًا بالشهادة، وشهادة مقرونة باليمين، وجعل الملتعن لقبول قوله كالشاهد، فإن نكلت المرأة مضت شهادته وحُدَّتْ، وأفادت شهادته ويمينه شيئين: سقوط الحد عنه، ووجوبه

عليها. وإن التعنت المرأة وعارضت لعانه بلعان آخر منها، أفاد لعانه سقوط الحد عنه دون وجوبه عليها، فكان شهادة ويمينًا بالنسبة إليه دونها؛ لأنه إن كان يمينًا محضة فهي لا تحد بمجرد حلفه، وإن كان شهادة فلا تحد بمجرد شهادته عليها وحده، فإذا انضم إلى ذلك نكولها قوي جانب الشهادة واليمين في حقه بتأكده ونكولها، فكان دليلاً ظاهرًا على صدقه فأسقط الحد عنه وأوجبه عليها، وهذا أحسن ما يكون من الحكم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. وقد ظهر بهذا أنه يمين فيها معنى الشهادة، وشهادة فيها معنى اليمين. . .

فصل(١)

وأما قوله «وجعل للقاذف إسقاط الحد باللعان في الزوجة دون الأجنبية، وكلاهما قد ألحق بهما العار» فهذا من أعظم محاسن الشريعة؛ فإن قاذف الأجنبية مستغنٍ عن قذفها، لا حاجة له إليه البتة؛ فإن زناها لا يضره شيئًا، ولا يفسد عليه فراشه، ولا يعلق عليه أولادًا من غيره، وقذفها عدوان محض، وأذى لمحصنة غافلة مؤمنة، فترتب عليه الحد زجرًا له وعقوبة، وأما الزوجة فإنه يلحقه بزناها من العار والمسبة وإفساد الفراش وإلحاق ولد غيره به، وانصراف قلبها عنه إلى غيره؛ فهو محتاج إلى قذفها، ونفي النسب الفاسد عنه، وتخلصه من المسبة والعار؛ لكونه زوج بَغِي فاجرة، ولا يمكن إقامة البينة على زناها في الغالب، وهي لا تقرُّ به، وقول الزوج عليها غير مقبول، فلم يبق سوى تحالفهما بأغلظ الأيمان، وتأكيدها بدعائه على نفسه باللعنة ودعائها على نفسها بالغضب إن كانا كاذبين. ثم يفسخ النكاح بينهما؛ إذ لا يمكن أحدهما أن يصفو للآخر أبدًا، فهذا أحسن حكم يفصل به بينهما في الدنيا، وليس بعده أعدل منه، ولا أحكم، ولا أصلح، ولو جمعت عقول العالمين لم يهتدوا إليه، فتبارك مَنْ أبان ربوبيته ووحدانيته وحكمته وعلمه في شرعه وخلقه.

(٢)**وقد** جعل الله سبحانه أيمان اللعان من جانب الزوج أولاً، فإذا نكلَت المرأة عن معارضة أيمانه بأيمانها وجب عليها العذاب بالحد، وهو العذاب المذكور في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. [النور: ٢]. فإن المدعي لما ترجح جانبه بالشاهد الواحد شرعت اليمين من جهته، وكذلك أولياء الدَّمِ ترجَّح

---

(١) ١١٠ أعلام جـ٢.		(٢) ١٠١ أعلام جـ١.

جانبهم باللَّوث فشُرعت اليمين من جهتهم، وأكدت بالعدد تعظيمًا لخطر النفس. وكذلك الزوج في اللعان جانبه أرجح من جانب المرأة قطعًا، فإن إقدامه على إتلاف فراشه، ورميها بالفاحشة على رؤوس الأشهاد، وتعريض نفسه لعقوبة الدنيا والآخرة، وفضيحة أهله ونفسه على رؤوس الأشهاد، مما يأباه طباع العقلاء، وتنفرُ عنه نفوسهم، لولا أن الزوجة اضطرَّته بما رآه وتيقنه منها إلى ذلك، فجانبه أقوى من جانب المرأة قطعًا فشرعت اليمين من جانبه. . .

(١)**قالوا:** ولهذا لم يحكم على المرأة في اللعان بمجرد نكولها دون يمين الزوج. فإذا حلف الزوج، ونكلت عن اليمين، حكم عليها.

إما بالحبس حتى تقر أو تلاعن كما يقول أحمد وأبو حنيفة.

وإما بالحد كما يقول الشافعي ومالك. وهو الراجح؛ لأن الله سبحانه وتعالى إنما درأ عنها العذاب بشهادتها أربع شهادات. والعذاب المدروء عنها بالتعانها هو العذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهو عذاب الحدود. ولهذا ذكره معرفًا بلام العهد، فعلم أن العذاب هو العذاب المعهود ذكره أولاً. ولهذا بدأ أولاً بأيمان الزوج لقوة جانبه، ومُكنت المرأة من أن تعارض أيمانه بأيمانها. فإذا نكلت لم يكن لأيمانه ما يعارضها، فعملت عملها، وقواها نكول المرأة، فحكم عليها بأيمانه ونكولها.

فإن قيل: فكان من الممكن أن يبدأ بأيمانها، فإن نكلت حلف الزوج حُدَّت، كما إذا ادعى عليه حقًّا فنكل عن اليمين فإنهاترد على المدعي، ويقضي له، فهلا شُرِع اللعان كذلك والمرأة هي المدعى عليها؟ بل شرع اليمين في جانب المدعي أولاً، وهذا لا نظير له في الدعاوى.

قيل: لما كان الزوج قاذفًا لها كان موجب قذفه أن يحد لها، فمكن أن يدفع الحد عن نفسه بالتعانه، ثم طولبت هي بعد ذلك بأن تقر أو تلاعن. فإن أقرت حدت. وإن أنكرت والتعنت درأت عنها الحد بلعانها، كما له أن يدرأ الحد عن نفسه بلعانه. وكانت البداءة به أولى لأنه مدّع، وأيمانه قائمة مقام البينة. ولكن لما كانت دون الشهود الأربع في القوة مكنت المرأة من دفعها بأيمانها. فإذا أبت أن تدفعها

(١) ١١٧ الطرق الحكمية.

ترجح جانبه، فوجب عليها الحد. فلم تحد بمجرد التعانه، ولا بمجرد نكولها، بل بمجموع الأمرين. وأكدت الأيمان بكونها أربعًا، كما أكدت أيمان المدعين في القسامة بكونها خمسين ولتقوم الأيمان مقام الشهود. . .

(١)**قال** ابن سعد: وفي هذه الغزوة(٢) سقط عِقدٌ لعائشة رضي الله عنها، فاحتبسوا على طلبه، فنزلت آية التيمم.

وذكر الطبراني في معجمه من حديث محمد بن إسحاق: عن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت: «لما كان من أمر عقدي ما كان، قال أهل الإفك ما قالوا، فخرجت مع النبي، ﷺ، في غزوة أخرى، فسقط أيضًا عقدي، حتى حَبس التماسه الناس، ولقيت من أبي بكر ما شاءالله، وقال لي: يا بُنَيَّةُ، في كل سفر تكونين عناء وبلاء، وليس مع الناس ماء، فأنزل الله الرخصة في التيمم».

وهذا يدل على أن قصة العقد التي نزل التيمم لأجلها بعد هذه الغزوة، وهو الظاهر. ولكن فيها: كانت قصة الإفك بسبب فقد العقد والتماسه، فالتبس على بعضهم إحدى القصتين بالأخرى. ونحن نُشير إلى قصة الإفك.

وذلك: أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله، ﷺ، معه في هذه الغزوة بِقُرعة أصابتها ـ وكانت تلك عادته مع نسائه ـ فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقدًا لأختها من جِذع ظِفار، كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه، فالتمسته حتى وجدته فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها، فظنوها فيه، فحملوا الهودج، ولا ينكرون خفَّته، لأنها رضي الله عنها كانت فتيَّة السن، لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها.

وأيضا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفَّته. ولو كان الذي حمله واحد، أو اثنان، لم يخف عليهما الحال.

فرجعت عائشة إلى منازلهم وقد أصابت العقد، فإذا ليس بها داع ولا مُجيب،

---

(١) ٢٨٠ زاد المعاد جـ٢. (٢) أي غزوة المريسيع: وهو اسم للماء. وهي غزوة بني المصطلق.

فاضـطجعت في المنـزل مُتلففة بجلبابها، وظنت أنهم سيفقدونها، فيرجعون في طلبها ـ والله غالب على أمره، يُدبر الأمر من فوق عرشه كما يشاء ـ فغلبتها عيناها فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل ﴿إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُونَ﴾. [البقرة: ١٥٦]. زوج رسول الله، ﷺ؟ وكان صفوان قد عرَّس في أخريات الجيش؛ لأنه كان كثير النوم ـ كما جاء عنه في صحيح أبي حاتم بن حبان، وفي السنن ـ فلما رآها عرفها. وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع، وأناخ راحلته، فقربها إليها فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها، حتى قدم بها ـ وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة ـ فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم على شاكلته وما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبيّ متنفسًا، فتنفس من كرب النفـاق والحسـد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك ويستوشيه، ويشيعه ويذيعه، ويجمعه ويفرقه. وكان أصحابه يتقربون به إليه. فلما قدمـوا المـدينـة أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله، ﷺ، ساكت لا يتكلم. ثم استشار أصحابه في فراقها. فأشار عليه عليّ: أن يفارقها ويأخذ غيرها ـتلويحًا لا تصريحًاـ وأشار عليه أُسامة وغيره بإمساكها، وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء.

فعلي لما رأى أن ماقيل مشكوك فيه: أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين؛ ليتخلص رسول الله، ﷺ، من الهم والغم الذي لحقه من كلام الناس، فأشار بحسم الداء.

وأسامة: لما علم حبَّ رسول الله، ﷺ، لها ولأبيها، وعلم من عِفَّتها وبراءتها وحصانتها وديانتها ما هي فوق ذلك وأعظم منه، وعرف من كرامة رسول الله، ﷺ، على ربـه، ومنـزلته عنده، ودفاعه عنه: أنه لا يجعل ربة بيته وحبيبته من النساء، وبنت صدِّيقه بالمنزلة التي أنزلها بها أرباب الإفك، وأن رسول الله، ﷺ، أكرم على ربه وأعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغيًّا، وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله، ﷺ، أكرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة، وهي تحت رسوله. . .(١).

(٢)**ومن** خصائصها أن الله سبحانه برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها وبراءتها وحيًا يتلى في محاريب المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها

---

(١) ذكر ابن القيم بقية القصة في عدة صحائف.　　(٢) ١٣٤ جلاء الأفهام.

بأنها من الطيبات، ووعدها المغفرة والرزق الكريم. وأخبر سبحانه أن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لها، ولم يكن ذلك الذي قيل فيها شرًا لها ولا خافضًا من شأنها. بل رفعها الله بذلك، وأعلى قدرها، وأعظم شأنها، وصار لها ذكرًا بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء فيا لها من منقبة ما أجلها.

وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشىء عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها حيث قالت: «ولَشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله، ﷺ، رؤيا يبرئني الله بها» فهذه صديقة الأمة وأم المؤمنين، وحب رسول الله، ﷺ، وهي تعلم أنها بريئة منه مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها. قد بلغ أذاهم إلى أبويها وإلى رسول الله، ﷺ. وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها. فما ظنك بمن صام يومًا أو يومين أو شهرًا أو شهرين، وقام ليلة أو ليلتين، وظهر عليه شيء من الأحوال، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات والمكاشفات، والمخاطبات والمنازلات، وإجابة الدعوات، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم، ويغتنم صالح دعائهم، وأنهم يجب على الناس احترامهم، وتعظيمهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم؛ فيتمسح بأثوابهم، ويقبل ثرى أعتابهم، وأنهم من الله بالمكانة التي ينتقم لهم لأجلها ممن تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وأن الإساءة عليهم ذنب لا يكفره شيء إلا رضاهم. ولو كان هذا من وراء كفاية لهان، ولكن من وراء تخلف، وهذه الحماقات والرعونات نتائج الجهل الصميم والعقل الغير المستقيم؛ فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه غافل عن جرمه وذنوبه، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والإزراء على من لعله عند الله خير منه. نسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة. وينبغي للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيمًا وهو عند الله حقيرًا. . .

..[1]**وقال** تعالى: ﴿**الخَبِيثاتُ للخَبيثِينَ والخَبيثونَ للخبيثاتِ والطَّيباتُ للطيبينَ والطَّيبونَ للطَّيِّباتِ**﴾. [النور: ٢٦]. وقد فسرت الآية بأن الكلمات الخبيثات للخبيثين، والكلمات الطيبات للطيبين.

---

(١) ٢٤ زاد المعاد جـ١.

وفسرت بأن النساء الطيبات للرجال الطيبين، والنساء الخبيثات للرجال الخبيثين. وهي تعم ذلك وغيره؛ فالكلمات والأعمال والنساء الطيبات لمناسبها من الطيبين، والكلمات والأعمال والنساء الخبيثة لمناسبها من الخبيثين.

والله سبحانه وتعالى جعل الطيب بحذافيره في الجنة، وجعل الخبيث بحذافيره في النار.

فجعل الدور ثلاثة: دارًا أخلصت للطيبين، وهي حرام على غير الطيبين، وقد جمعت كل طيب، وهي الجنة. ودارًا أخلصت للخبيثين والخبائث، ولا يدخلها إلا الخبيثون، وهي النار. ودارًا امتزج فيها الطيب والخبيث وخلط بينهما، وهي هذه الدار.

ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط، وذلك بموجب الحكمة الإلـٰهية. فإذا كان يوم معاد الخليفة ميز الله الخبيث من الطيب، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم. فعاد الأمر إلى دارين فقط: الجنة وهي دار الطيبين، والنار، وهي دار الخبيثين. وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم، أنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور. وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هي عين عذابهم وآلامهم. فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام، حكمة بالغة، وعزة باهرة قاهرة، ليرى عباده كمال ربوبيته، وكمال حكمته وعلمه، وعدله ورحمته، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين، لا رسله البررة الصادقون قال الله تعالى: ﴿**وأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيمانِهْم لا يبعَثُ الله مَنْ يَموتُ بَلَى وعْدًا عليهِ حقًّا ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ. ليبَيِّنَ لهُمُ الذي يَخْتَلِفُونَ فيه ولِيَعْلَم الذينَ كَفَرُوا أَنَّهم كَانُوا كَاذِبينَ**﴾. [النحل: ٣٨، ٣٩].

...[(١)]**وسئل** عن الاستئناس في قوله تعالى: ﴿**حتى تستأنسوا**﴾ قال: «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحنح ويؤذن أهل البيت» ذكره ابن ماجه.

. . .[(٢)]**قال** تعالى: ﴿**قُلْ للمُؤمِنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبصَارِهِمْ ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إنَّ الله خبيرٌ بِمَا يَصنَعُونَ**﴾[النور: ٣٠]. فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد، عظيمة الخطر جليلة القدر:

(١) ٤١٤ أعلام جـ٤. (٢) ٤٧ إغاثة جـ١.

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى. فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله عز وجل خيرًا منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة. والعين رائد القلب، فيبعث رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك اشتياقًا إليه، وكثيرًا ما يتعب ويتعب رسوله ورائده، كما قيل:

وكنتَ متى أرسلت طرفَك رائدا لقلبك يومًا أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كلَّه أنت قادر عليه ولا من بعضه أنت صابر

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته.

فإن النظر يولد المحبة، فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه. ثم تقوى فتصير صبابة، ينصبُّ إليه القلب بكليته.

ثم تقوى فتصير غرامًا يلزم القلب، كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه.

ثم يقوى فيصير عشقًا، وهو الحب المفرط. ثم يقوى فيصير شغفًا، وهو الحب الذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله. ثم يقوى فيصير تتيمًا. والتتيم التعبد، ومنه تيمه الحب إذا عبده. وتيم الله عبدالله. فيصير القلب عبدًا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدًا له. وهذا كله جناية النظر. فحينئذ يقع القلب في الأسر فيصير أسيرًا بعد أن كان ملكًا، ومسجونًا بعد أن كان مطلقًا، يتظلم من الطرف ويشكوه. والطرف يقول: أنا رائدك ورسولك، وأنت بعثتني. وهذا إنما تبتلي به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له؛ فإن القلب لابد له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلـهه ومعبوده فلابد أن يتعبد قلبه لغيره. قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. [يوسف: ٢٤].

فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه، مع كونها ذات زوج، ويوسف عليه السلام لما كان مخلصًا لله تعالى نجا من ذلك، مع كونه شابًا عزبًا غريبًا مملوكًا.

الفائدة الثانية في غض البصر: نور القلب وصحة الفراسة.

قال أبو شجاع الكرماني: «من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال لم تخطىء له فراسة».

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به، ثم قال بعد ذلك: ﴿**إنَّ في ذلكَ لآياتٍ للمُتَوَسِّمينَ**﴾. [الحجر: ٧٥]. وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة. وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿**الله نُورُ السمواتِ والأرض**﴾ [النور: ٣٥].

وسر هذا: أن الجزاء من جنس العمل. فمن غضَّ بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى. وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه؛ فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها. فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه. وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه. كما في الأثر: «إن الذي يخالف هواه يفرَق الشيطان من ظله».

ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإنه سبحانه جعل العز لمن أطاعه، والذل لمن عصاه. قال تعالى: ﴿**ولله العِـزَّةُ ولِرَسُولِه وللمُومنينَ**﴾ [المنافقون: ٨]. وقال تعالى: ﴿**ولا تهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأَنتُمُ الأَعْلَونَ إنْ كنتُم مُؤمنين**﴾. [آل عمران: ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿**منْ كَانَ يُريدُ العِزَّةَ فللهِ العِزَّةُ جميعًا**﴾. [فاطر: ١٠].

---

(١) ٤٨ إغاثة جـ١.

أي من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله. بالكلم الطيب، والعمل الصالح.

وقال بعض السلف: «الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله».

وقال الحسن: «وإن هَمْلَجتْ بهم البراذين، وطَقْطَقتْ بهم البغال إنَّ ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله عز وجل إلا أن يُذِلَّ من عصاه، وذلك أن من أطاع الله تعالى فقد والاه. ولا يذل من والاه ربه، كما في دعاء القنوت «إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت»(١). . . .

والمقصود أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة، قال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ الله عليكُمْ ورَحْمَتُهُ ما زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ولكِنَّ الله يُزكِّي مَنْ يَشاءُ والله سَميعٌ عليمٌ**﴾. [النور: ٢١]. ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك، وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت ﴿**وإنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ**﴾. [النور: ٢٨]. فإنهم إذا أُمروا بالرجوع لئلا يطلعوا على عورة لا يحب صاحب المنزل أن يُطلع عليها كان ذلك أزكى لهم، كما أن رد البصر وغضه أزكى لصاحبه، وقال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وذَكَرَ اسمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾. [الأعلى: ١٤، ١٥]. وقال تعالى عن موسى عليه السلام في خطابه لفرعون: ﴿**هَلْ لَكَ إلى أَنْ تَزَكَّى**﴾. [النازعات: ١٨]. وقال تعالى: ﴿**ووَيْلٌ للمُشْرِكينَ. الذينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ**﴾. [فصلت: ٦، ٧]. قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إلـه إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلـهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلـهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي ـ وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة ـ فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا. فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح: هو التوحيد. والتزكية جعل الشيء زكيًا، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال: عَدَّلته وفسَّقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿**فلا**

---

(١) ذكر ابن القيم في الجواب الكافي ما هو بمعنى ما تقدم. (ج).

تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾. [النجم: ٣٢]. هو على غير معنى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾. [الشمس: ٩]. أي لا تخبروا بزكاتها وتقولوا: نحن زاكون صالحون مُتَّقون، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾. [النجم: ٣٢]. وكان اسم «زينب» «بَرَّة» فقال: «تزكي نفسها» فسماها رسول الله، ﷺ «زينب»، وقال: «الله أعلم بأهل البر منكم»(١).

(٢) أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾. [النور: ٣٠، ٣١].

فلما كان غضُّ البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمهُ تحريم الوسائل فيُباح للمصلحة الراجحة ويحرم إذا خيفَ منه الفساد ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة لم يأمر سبحانه بغضه مطلقًا، بل أمر بالغضّ منه.

وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال، لا يباح إلا بحقه، فلذلك عمّ الأمر بحفظه.

وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

وفي الصحيح أن الفضل بن عباس رضي الله عنهما كان رديف رسول الله، ﷺ، يوم النحر من مزدلفة إلى منى، فمرَّت ظُعُن يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فحوَّل رسول الله، ﷺ، رأسه إلى الشق الآخر(٣)، وهذا منع وإنكار بالفعل. فلو كان النظر جائزًا لأقره عليه.

وفي الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: «إنَّ الله عزَّ وجل كتبَ على ابن آدمَ حظَّهُ من الزنى أدركَ ذلك لا محالة، فالعينُ تزني وزناها النظر، واللسان يزني وزناه النُّطق، والرِّجل تزني وزناها الخُطى، واليد تزني وزناها البطش، والقلب يهوى

---

(١) بقية البحث سيأتي إن شاء الله تعالى في سورة: ﴿والشمس وضحاها﴾.

(٢) ١٠١ روضة.		(٣) ذكره البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم.

ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»(١). فبدأ بزنى العين لأنه أصل زنى اليد والرجل والقلب والفرج، ونبه بزنى اللسان بالكلام على زنى الفم بالقُبَل، وجعل الفرج مصدقًا لذلك إن حقق الفعل أو مكذبًا [له] إن لم يحققه.

وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصي بالنظر وأن ذلك زناها، ففيه رد على من أباح النظر مطلقًا. وثبت عنه، ﷺ، أنه قال: «يا علي لا تُتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الثانية»(٢).

ووقعت مسألة: ما تقول السادة العلماء في رجل نظر إلى امرأة [نظرة] فعلق حبها بقلبه واشتد عليه الأمر، فقالت له نفسه: هذا كله من أول نظرة فلو أعدت النظر إليها لرأيتها دون ما في نفسك فسلوت عنها، فهل يجوز له تعمد النظر ثانيًا لهذا المعنى؟ فكان الجواب: الحمد لله لا يجوز هذا لعشرة أوجه:

أحدها: أن الله سبحانه أمر بغض البصر ولم يجعل شفاء القلب فيما حرمه على العبد.

الثاني: أن النبي، ﷺ، سئل عن نظر الفجأة وقد علم أنه يؤثر في القلب فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر.

الثالث: أنه صرح بأن الأولى له وليست له الثانية، ومحال أن يكون [داؤه مما له و](٣) دواؤه فيما ليس له.

الرابع: أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لا تَناقُصه، والتجربة شاهدة به. والظاهر أن الأمر كما رآه أول مرة فلا تحسن المخاطرة بالإعادة.

الخامس: أنه ربما رأى ما هو فوق الذي في نفسه فزاد عذابه.

السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه فيزين له ما ليس بحسن لتتم البلية.

السابع: أنه لا يعان على بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوى بما حرمه عليه، بل هو جدير أن تتخلف عنه المعونة.

الثامن: أن النظرة الأولى سهم مسموم من سهام إبليس، ومعلوم أن الثانية أشد سمًّا فكيف يتداوى من السم بالسم؟

(١) قال الحافظ المنذري وقد أورده بنحوه: رواه مسلم والبخاري باختصار والنسائي وأبو داود.

(٢) قال الحافظ المنذري: رواه أحمد والترمذي وأبو داود (٣) زيادة من غذاء الألباب للسفاريني.

التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق عز وجل في ترك محبوب كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضيًّا تركه، فإذاً يكون تركه لأنه لا يلائم غرضه لا لله تعالى، فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله؟

العاشر: يتبين بضرب مثل مطابق للحال وهو أنك إذا ركبت فرسًا حديدًا فمالت بك إلى درب ضيق لا ينفذ ولا يمكنها تستدير فيه للخروج، فإذا همَّت بالدخول فيه فاكبحها لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوة أو خطوتين فصِح بها وردها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها، فإن رددتها إلى ورائها سهل الأمر، وإن توانيت حتى ولجت وسقتها داخلاً ثم قمت تجذبها بذنبها عسر عليك أو تعذر خروجها. فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سوقها إلى داخل؟ فكذلك النظرة إذا أثرت في القلب، فإن عجل الحازم وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر ونقب [عن] محاسن الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة فلا تزال [شجرة الحب](١) تنمى حتى يفسد القلب ويعرض عن الفكر فيما أمر به، فيخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات [والفتن](٢)، ويلقي القلب في التلف. والسبب في هذا أن الناظر التذَّت عينه بأول نظرة فطلبت المعاودة، كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غضَّ أولاً لاستراح قلبه وسلم، وتأمل قول النبي، ﷺ: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس**»(٣) فإن السهم(٤) شأنه أن يسري في القلب فيعمل فيه عمل السم الذي يُسقاه المسموم، فإن بادر واستفرغه وإلا قتله ولابد.

قال المرُّوذِي: قلت لأحمد: الرجل ينظر إلى المملوكة. قال: أخاف عليه الفتنة: كم نظرة قد ألقت في قلب صاحبها البلابل.

وقال ابن عباس: الشيطان من الرجل في ثلاثة: في نظره، وقلبه، وذكره. وهو من المرأة في ثلاثة: في بصرها، وقلبها، وعَجُزِها.

(١، ٢) زيادة من غذاء الألباب. (٣) رواه الإمام أحمد.

(٤) في النسختين: فإن السم ولعل الصواب ما أثبتناه.

فصــل

ولما كان النظر من أقرب الوسائل إلى المحرم اقتضت الشريعة تحريمه، وأباحته في موضع الحاجة. وهذا شأن كل ما حرم تحريم الوسائل فإنه يباح للمصلحة الراجحة، كما حرمت الصلاة في أوقات النهي لئلا تكون وسيلة إلى التشبة بالكفار في سجودهم للشمس، أبيحت للمصلحة الراجحة كقضاء الفوائت، وصلاة الجنازة، وفعل ذوات الأسباب على الصحيح.

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل عن النبي، ﷺ، أنه قال: **«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غضَّ بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه حلاوة يجدها إلى يوم يلقاه»**، أو كما قال.

وقال جرير بن عبدالله رضي الله عنهما: سألت رسول الله، ﷺ، عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري[1] ونظرة الفجأة هي النظرة الأولى التي تقع بغير قصد من الناظر، فما لم يتعمده القلب لا يعاقب عليه، فإذا نظر الثانية تعمُّدًا أثم، فأمره النبي، ﷺ، عند نظرة الفجأة أن يصرف بصره ولا يستديم النظر؛ فإن استدامته كتكريره، وأرشد من ابتلي بنظرة الفجأة أن يداويه بإتيان امرأته، وقال: **«إنَّ معها مثل الذي معها»**[2]، فإن في ذلك التسلي عن المطلوب بجنسه. والثاني: أن النظر يثير قوة الشهوة، فأمره بتنقيصها بإتيان أهله، ففتنة النظر أصل كل فتنة.

كما ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي، ﷺ، قال: **«ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء»**[3].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي، ﷺ: **«اتَّقوا الدنيا واتقوا النساء»**.

وفي مسند محمد بن إسحاق السراج من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي، ﷺ: **«أخوَفُ ما أَخافُ على أُمَّتي النساءُ والخمر»**.

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

(٢) هذا اللفظ في رواية الخطيب والأمر بإتيان الأهل في مثل هاته الحال جاء في أحاديث رواها أحمد ومسلم وأبو داود.

(٣) قال السيوطي: رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفر من كفر ممن مضى إلا من قبل النساء، وكفر من بقي من قبل النساء.

فصل

وفي غض البصر عدة فوائد: أحدها تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظره دامت حسرته، فأضر شيء على القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتد طلبه، ولا صبر له عنه، ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه. . .

(١)**وقد** روى هشام بن الغاز عن مكحول وسليمان بن موسى أن عمر كتب إلى أهل الشام: امنعوا نساءهم أن يدخلن مع نسائكم الحمامات.

وقال أحمد بن حنبل: أكره أن تطلع أهل الذمة على عورات المسلمين.

قال أبو القاسم: وهذا صحيح، إن نساء أهل الذمة لسن بثقات على شيء من أمور المسلمين فلا يؤمن الفساد. وقد نهى رسول الله، ﷺ، أن تباشر المرأة قشعتها(٢) لزوجها حتى كأنه ينظر إليها. يعني: فيفضي ذلك إلى وصف الذمية المسلمة لزوجها الذمي حتى كأنه يشاهدها، فكره أحمد لهذا المعنى. قال: وقد رويت كراهته عن عبدالله بن بشر، وهو من أعلى التابعين من أهل الشام. ثم ساق من طريق عيسى بن يونس عن أبي إسحاق عن هشام بن الغاز أن عبدالله بن بشر كره أن تقبل النصرانية وأن ترى عورتها. قلت: أحمد احتج بقوله تعالى: ﴿ولا يُبدينَ زِينَتهُنَّ إلَّا لِبُعولَتِهِنَّ﴾. [النور: ٣١]. إلى أن قال: ﴿أو نِسائِهِنَّ﴾ فخص نساء المسلمات بجواز إبداء الزينة لهن دون الكوافر. . .

(٣)فصل

وأما تحريم النظر إلى العجوز الحرة الشوهاء القبيحة وإباحته إلى الأمة البارعة الجمال فكذب على الشارع، فأين حرم الله هذا وأباح هذا؟

والله سبحانه إنما قال: ﴿قُلْ للمُؤمِنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾. [النور: ٣٠]. ولم يطلق الله ورسوله للأعين النظر إلى الإماء البارعات الجمال، وإذا خشي الفتنة بالنظر إلى الأمة حرم عليه بلا ريب.

وإنما نشأت الشبهة أن الشارع شرع للحرائر أن يسترن وجوههن عن الأجانب.

(١) ٧٦٥ أحكام أهل الذمة جـ٢. (٢) القشعة: العورة. (٣) ٦١ أعلام جـ٢.

وأما الإماء فلم يوجب عليهن ذلك، لكن هذا في إماء الاستخدام والابتذال، وأما إماء التسرِّي اللاتي جرت العادة بصونهن وحجبهن فأين أباح الله ورسوله لهن أن يكشفن وجوههن في الأسواق والطرقات ومجامع الناس، وأذن للرجال في التمتع بالنظر إليهن؟ فهذا غلط محض على الشريعة، وأكد هذا الغلط أن بعض الفقهاء سمع قولهم: إن الحرة كلها عورة إلا وجهها وكفيها، وعورة الأمة ما لا يظهر غالبًا كالبطن والظهر والساق؛ فظن أن ما يظهر غالبًا حكمه حكم وجه الرجل، وهذا إنما هو في الصلاة لا في النظر، فإن العورة عورتان: عورة في النظر، وعورة في الصلاة؛ فالحرة لها أن تصلي مكشوفة الوجه والكفين، وليس لها أن تخرج في الأسواق ومجامع الناس كذلك، والله أعلم.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**ولَا يَضْرِبْنَ بأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخفينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ**﴾. [النور: ٣١]. فمنعهن من الضرب بالأرجل وإن كان جائزًا في نفسه لئلا يكون سببًا إلى سمع الرجال صوت الخلخال فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهنَّ.

(٢)**ومنزل** «التوبة» أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات. وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية. كما أن حاجته إليها في البداية كذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿**وتُوبُوا إلى الله جميعًا أَيُّهَا المُؤمِنونَ لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾. [النور: ٣١]. وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه. وأتى بأداة «لعلَّ» المشعرة بالترجي، إيذانًا بأنكم إذا تُبتُمْ كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون. جعلنا الله منهم.

(٣) فصل

وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي. وإن كان في حق آدمي: فلابد من أمر رابع: وهو التحلل منه.

---

(١) ١٤٩ أعلام جـ٣. (٢) ١٧٨ مدارج جـ١. (٣) ٣٠٥ مدارج جـ١.

وهذا الذي ذكروه بعض مسمى «التوبة» بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله - كما تتضمن ذلك - تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبًا، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به. هذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين. وهي كلفظة «التقوى» التي تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه. وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور.

فإن حقيقة «التوبة» الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره. فهي رجوع من مكروه إلى محبوب. فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر. ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا المؤمِنُونَ لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾. فكل تائب مفلح. ولا يكون مفلحًا إلا من فعل ما أُمر به وترك ما نُهي عنه. وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾. [الحجرات: ١١]. وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين. فالناس قسمان: تائب وظالم، ليس إلا. فالتائبون هم ﴿**العابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بالمعرُوفِ والنَّاهُونَ عنِ المُنكَرِ والحَافِظُونَ لِحُدودِ اللهِ**﴾. [التوبة: ١١٢]. فحفظ حدود الله: جزء التوبة. والتوبة هي مجموع هذه الأمور. وإنما سمي تائبًا: لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته، كما تقدم.

فإذًا «التوبة» هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى «التوبة» وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

فإذًا «التوبة» هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا. ويدخل في مسماها الإسلام، والإيمان، والإحسان، وتتناول جميع المقامات. ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته. كما تقدم. وهي الغاية التي وُجد

لأجلها الخلق. والأمر والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها، فضلاً عن القيام بها علمًا وعملاً وحالاً. ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن «التوبة» اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم. فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل «التوبة» وآثارها.

(١)**فإن** قيل فقد قال الله تعالى: ﴿**وأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم والصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقراءَ يُغنِهِمُ الله مِنْ فَضْلِه**﴾. [النور: ٣٢].

وقال في الآية الأخرى: ﴿**ولْيَسْتَعْفِفِ الذينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغنِيهُمُ الله مِنْ فَضلِهِ**﴾. [النور: ٣٣]. أمرهم بالاستعفاف إلى وقت الغنى، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر، وأخبر أنه تعالى يغنيهم فما محمل كل من الآيتين؟

فالجواب أن قوله: ﴿**وليَسْتَعْفِفِ الذينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حتَّى يُغنِيهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ**﴾. في حق الأحرار، أمرهم الله تعالى أن يستعفُّوا حتى يغنيهم الله [من فضله] فإنهم إن تزوجوا مع الفقر التزموا حقوقًا لم يقدروا عليها وليس لهم من يقوم بها عنهم.

وأما قوله: ﴿**وأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم والصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وإِمَائِكُمْ**﴾. فإنه سبحانه أمرهم فيها [أن ينكحوا] الأيامى وهن النساء اللواتي لا أزواج لهن، هذا هو المشهور من لفظ الأيّم عند الإطلاق، وإن استعمل في حق الرجل بالتقييد، كما أن العَزَب عند الإطلاق للرجل وإن استعمل في حق المرأة.

ثم أمرهم سبحانه أن يزوّجوا عبيدهم وإماءهم إذا صلحوا للنكاح، فالآية الأولى في حكم تزوجهم لأنفسهم، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم.

وقوله في هذا القسم ﴿**إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ**﴾يعم الأنواع الثلاثة التي ذُكرت فيه، فإن الأيّم تستغني بنفقة زوجها وكذلك الأمة، وأما العبد فإنه لما كان لا مال له وكان ماله لسيده فهو فقير ما دام رقيقًا فلا يمكن أن يُجعل لنكاحة غاية وهي غناه ما دام عبدًا، بل غناه إنما يكون إذا عتق واستغنى بهذا العتق، والحاجة تدعوه إلى النكاح

(١) ٣٤٠ روضة.

في الرق، فأمر سبحانه بإنكاحه، وأخبر أنه يغنيه من فضله إما بكسبه، وإما بإنفاق سيده عليه وعلى امرأته، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغني الذي ينتظر بنكاح الحر والله أعلم. وفي المسند وغيره مرفوعًا: **«ثلاثة حق على الله عونهم: المتزوج يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء»** وذكر الثالث.

(١)**قوله** تعالى: **﴿الله نور السموات والأرض﴾**. [النور: ٣٥]. ومن أسمائه النور.

وقالت المعطلة ذلك مجاز معناه منور السموات والأرض بالنور المخلوق.

قالوا ويتعين المجاز؛ لأن كل عاقل يعلم بالضرورة أن الله تعالى ليس هو هذا النور المنبسط على الجدران، ولا هو النور الفائض من جرم الشمس والقمر والنار، فإما أن يكون مجازه منور السموات، أو هادي أهلها، وبطلان هذا يتبين بوجوه:

الأول: أن النور جاء في أسمائه تعالى، وهذا الاسم مما تلقته الأمة بالقبول وأثبتوه في أسمائه الحسنى. وهو في حديث أبي هريرة الذي رواه الوليد بن مسلم ومن طريقه رواه الترمذي والناس، ولم ينكره أحد من السلف، ولا أحد من أئمة أهل السنة، ومحال أن يسمي نفسه نورًا وليس له نور ولا صفة النور ثابتة له، كما أن من المستحيل أن يكون عليمًا قديرًا سميعًا بصيرًا و لا علم له ولا قدرة، بل صحة هذه الأسماء عليه مستلزمة لثبوت معانيها له، وانتفاء حقائقها عنه مستلزم لنفيها عنه. والثاني: باطل قطعًا فتعين الأول.

الوجه الثاني: أن النبي، ﷺ، لما سأله أبو ذر هل رأيت ربك قال: **«نور أنى أراه»**. رواه مسلم في صحيحه.

وفي الحديث قولان (أحدهما) أن معناه ثم نور أي فهناك نور منعني رؤيته.

ويدل على هذا المعنى شيئان (أحدهما) قوله في اللفظ الآخر في الحديث **«رأيت نورًا»** فهذا النور الذي رآه هو الذي حال بينه وبين رؤية الذات. (الثاني) قوله في حديث أبي موسى **«إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه»**. رواه مسلم في صحيحه...

---

(١) ١٨٨ مختصر الصواعق جـ٢.

فصـــل(١)

والله سبحـانـه وتعالى سمى نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا، ورسوله، ﷺ، نورًا، ودينه نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا يتلألأ قال تعالى: ﴿**اللهُ نُورُ السَّموات والأَرْض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ ولَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ويَضْرِبُ الله الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾. [النور: ٣٥]. وقد فسر قوله تعالى: ﴿**الله نُور السموات والأرض**﴾. بكونه منور السموات والأرض، وهادي أهل السموات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

والنـور يضـاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضـافـة مفعول إلى فاعله، فالأول كقوله عز وجل: ﴿**وأَشْرَقَت الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾. [الزمر: ٦٩]. فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء، ومنه قول النبي، ﷺ، في الدعاء المشهور: «**أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني لا إلـه إلا أنت**»، وفي الأثـر الآخـر: «**أعوذ بوجهك ـ أو بنور وجهك ـ الذي أشرقت له الظلمات**»، فأخبر، ﷺ، أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله، كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي معجم الطبراني والسنة له، وكتاب عثمان الدارمي، وغيرها عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه.

وهذا الذي قاله ابن مسعود رضي الله عنه أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السموات والأرض.

وأما من فسرهـا بأنـه منور السموات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود، والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها.

---

(١) ٩ اجتماع الجيوش.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله، ﷺ، بخمس كلمات فقال: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات**(١) **وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله، ﷺ، هل رأيت ربك؟ قال: «**نور أنّى أراه**». فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معناه كان ثَم(٢) نور، وحال دون رؤيته نور، فأنّى أراه، قال: ويدل عليه أن في بعض الألفاظ الصحيحة هل رأيت ربك؟ فقال: «**رأيت نورًا**»، وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحفه بعضهم فقال: (نوراني أراه) على أنها ياء النسب، والكلمة كلمة واحدة، وهذا خطأ لفظًا ومعنى، وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله، ﷺ، رأى ربه، وكان قوله (أنى أراه) كالإنكار للرؤية حاروا في الحديث، ورده بعضهم باضطراب لفظه، وكل هذا عدول عن موجب الدليل.

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك.

وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة؛ فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال: إنه، ﷺ، رآه عز وجل، ولم يقل بعيني رأسه. ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضي الله عنهما، ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه قوله، ﷺ، في الحديث الآخر: (**حجابه النور**) فهذا النور هو والله أعلم النور المذكور في حديث أبي ذر رضي الله عنه (**رأيت نورًا**).

وقوله تعالى: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾. [النور: ٣٥]. هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن كما قال أبي بن كعب وغيره. وقد اختلف في مفسر الضمير في (نوره) فقيل هو النبي، ﷺ، أي مثل نور محمد، ﷺ.

(١) سبحات وجه الله: نوره. (٢) أي هناك.

وقيل مفسره المؤمن أي مثل نور المؤمن. والصحيح أنه يعود على الله سبحانه وتعالى، والمعنى مثل نور الله سبحانه وتعالى في قلب عبده، وأعظم عباده نصيبًا من هذا النور رسوله، ﷺ، فهذا مع ما تضمنه عود الضمير المذكور وهو وجه الكلام يتضمن التقادير الثلاثة وهو أتم لفظًا ومعنى.

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله، فيضاف إلى الفاعل والقابل، ولهذا النور فاعل وقابل، ومحل وحال، ومادة .**وقد** تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل.

فالفاعل هو الله تعالى مفيض الأنوار الهادي لنوره من يشاء.

والقابل العبد المؤمن، والمحل قلبه، والحال همته وعزيمته وإرادته، والمادة قوله وعمله. وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم.

وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان:

إحداهما طريقة التشبيه المركب وهي أقرب مأخذًا وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن. فتأمل صفة المشكاة وهي كوة تتقد لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقودًا من زيت شجرة في وسط القَراح[1] لا شرقية ولا غربية، بحيث تصيبها الشمس في إحدى طرفي النهار، بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة، والآفات إلى الأطراف دونها، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنها يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به.

والطريقة الثانية طريقة التشبيه المفصل، فقيل المشكاة صدر المؤمن، والزجاجة قلبه، شبه قلبه بالزجاجة لرقتها، وصفائها، وصلابتها، وكذلك قلب

(١) الماء لا يخالطه ثفل والخالص. والأرض لا ماء ولا شجر به.

المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة فهو يحرم ويحسن، ويتحنن ويشفق على الخلق برقته.

وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء.

وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى ويتصلب في ذات الله تعالى، ويغلظ على أعداء الله تعالى، ويقوم بالحق لله تعالى.

وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف «القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها».

والمصباح هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق، وهي مادة المصباح التي يتقد منها.

والنور على النور، نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نورًا على نور. ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع، والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول، ﷺ، هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة بل يتصادقان ويتوافقان.

فهذا علامة النور على النور، عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة، والخيالات الفاسدة من الظنون الجهليات التي يسميها أهلها القواطع العقليات، فهي في صدره ﴿**كظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فوقِهِ مَوْجٌ مِنْ فوقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بعضُها فوقَ بَعضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراهَا وَمَنْ لم يجعلِ الله لَهُ نورًا فما لَهُ مِنْ نُورٍ**﴾. [النور: ٤٠].

فانظر كيف انتظمت هذه الآيات طرائق بني آدم أتم انتظام، واشتملت عليه أكمل اشتمال، فإن الناس قسمان:

أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول، ﷺ، عن الله سبحانه وتعالى، وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه على من قل نصيبه من العقل والسمع أمرها، فيظنها شيئًا له حاصل ينتفع به وهي ﴿**كَسَرابٍ بِقيعَةٍ يَحْسَبهُ الظَّمآنُ**

ماءً حتَّى إذَا جَاءَهُ لَمْ يجِدْهُ شيئًا ووَجَدَ الله عِنْدَه فوفَّاه حِسَابهُ والله سَرِيعُ الحِسَاب أو كظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فوقِهِ مَوْجٌ مِنْ فوقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بعضُها فوقَ بَعضٍ إذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ومَنْ لم يجعل الله لهُ نورًا فما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾. [النور: ٣٩، ٤٠]. وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق أصحاب العلم النافع، والعمل الصالح، الذين صدقوا الرسول، ﷺ، في إخباره ولم يعارضوها بالشبهات، وأطاعوه في أوامره ولم يضيعوها بالشهوات، فلا هم في علمهم من أهل الخوض الخراصين الذين هم في غمرة ساهون، ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الخاسرون. أضاء لهم نور الوحي المبين فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون، وفي ضلالتهم يتهوكون، وفي ريبهم يترددون، مغترين بظاهر السراب، ممحلين مجدبين مما بعث الله تعالى به رسوله، ﷺ، من الحكمة وفصل الخطاب، إن عندهم إلا نخالة الأفكار، وزبالة الأذهان التي قد رضوا بها واطمأنوا إليها، وقدموها على السنة والقرآن **﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾** أوجبه لهم اتباع الهوى ونخوة الشيطان، وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان.

القسم الثاني: أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به، والظلم باتباع أهوائهم الذين قال الله تعالى فيهم: **﴿إنْ يتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنّ وما تَهوى الأنْفُسُ ولَقدْ جَاءَهم من رَبِّهِم الهُدى﴾**. [النجم: ٢٣].

وهؤلاء قسمان، أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى، وهم أهل الجهل والضلال فهؤلاء أهل الجهل المركب الذين يجهلون الحق ويعادونه ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالون أهله، وهم يحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون. فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب الذي يحسبه الظمآن ماءًا حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا. وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما هو إليه.

ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان كما هو حال من أم السراب فلم يجده ماء، بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين سبحانه وتعالى، فحسب له ما عنده من العلم والعمل فوفاه بمثاقيل الذر، وقدم إلى ما

عمل من عمل يرجو نفعه فجعله هباء منثورًا إذ لم يكن خالصًا لوجهه ولا على سنة رسوله، ﷺ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علومًا نافعة كذلك هباء منثورًا، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه.

والسراب ما يُرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري، والقيعة والقاع هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا واد، فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله بسراب يراه المسافر في شدة الحر فيؤمه فيخيب ظنه ويجده نارًا تلظى، فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء، فإذا أتوه وجدوا الله عنده فأخذتهم زبانية العذاب فعتلوهم إلى نار الجحيم، فسُقوا ماء حميمًا فقطع أمعاءهم. وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع، والأعمال التي كانت لغير الله تعالى، صيرها الله تعالى حميمًا سقاهم إياه، كما أن طعامهم من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة التي كانت في الدنيا كذلك لا يسمن ولا يغني من جوع.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿**قلْ هل نُنبِّئكم بالأخسَرينَ أعْمالًا • الذينَ ضَلَّ سَعْيهُمْ في الحَياةِ الدُّنيا وهُمْ يَحسبُونَ أنَّهُمْ يُحسِنُونَ صُنعًا**﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]. وهم الذين عنى بقوله: ﴿**وقَدِمْنَا إلى ماعَمِلُوا منْ عَمَلٍ فجعلنَاهُ هَباء مَنْثورًا**﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهم الذين عنى بقوله: ﴿**كذلِكَ يُريهُمُ الله أعمالَهُمْ حَسَراتٍ عليْهِمْ ومَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّار**﴾. [البقرة: ١٦٧].

والقسم الثاني من هذا الصنف أصحاب الظلمات، وهم المنغمسون في الجهل بحيث قد أحاط بهم من كل وجه، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلًا، فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى كظلمات، جمع ظلمة وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم، والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور، فإن المعرض عما بعث الله تعالى به

محمدًا، ﷺ، من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، وقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم، وإذا قابلت بصيرته الخفاشية[١] ما بعث الله به محمدًا، ﷺ، من النور جد في الهرب منه، وكاد نوره يخطف بصره، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونخالة الأذهان، جال ومال وأبدى وأعاد وقعقع وفرقع، فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحجز في حجرة الحشرات.

وقوله ﴿في بحر لجي﴾ اللجي العميق منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه، وقوله تعالى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فوقِهِ سَحَابٌ﴾. [النور: ٤٠]. تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه، فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض، والضمير الأول في قوله: ﴿يغشاه﴾ راجع إلى البحر، والضمير الثاني في قول: ﴿من فوقه﴾ عائد إلى الموج، ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب، فههنا ظلمات: ظلمة البحر اللجي، وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله، إذا أخرج من هذا البحر يده لم يكد يراها. . .

...[٢]**قال** تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونةٍ لا شَرْقِيَّة ولا غَربيَّة يَكَادُ زَيْتُها يُضِيء ولو لَمْ تَمْسَسْهُ نار﴾ [النور: ٣٥]. وفي الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**كلوا الزيت وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة**».

وللبيهقي وابن ماجه أيضًا عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله، ﷺ: «**ائتدموا بالزيت، وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة**».

الزيت: حار رطب في الأولى. وغلط من قال: يابس، والزيت بحسب زيتونه، فالمعتصر من النضيج: أعدله وأجوده. ومن الفَجِّ: فيه برودة ويبوسة، ومن الزيتون الأحمر: متوسط بين الزيتين، ومن الأسود: يسخن ويرطب باعتدال.

---

(١) نسبة إلى الخفاش وهو الوطواط سُمي لصغر عينيه وضعف بصره.
(٢) ٣٥٢ زاد المعاد جـ٣.

وينفع من السموم، ويطلق البطن، ويخرج الدود. والعتيق منه أشد تسخينًا وتحليلًا. وما استخرج منه بالماء فهو أقل حرارة، وألطف وأبلغ في النفع. وجميع أصنافه ملينة للبشرة، وتبطيء الشيب. وماء الزيتون المالح يمنع من تنفط حرق النار، ويشد اللثة. وورقه ينفع من الحمرة والنملة، والقروح الوسخة، والشرى ويمنع العرق، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا.

(١)**قال** تعالى: ﴿**والذين كَفَرُوا أعمالهم كسراب بقيعة يحسَبَهُ الظمآنُ ماء حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئًا وَوَجَدَ الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريعُ الحساب**﴾. وقال تعالى في وصف المغترين: ﴿**قُلْ هلْ نُنَبِّئُكم بالأخسَرينَ أعمالاً الذينَ ضَلَّ سعيُهمْ في الحياةِ الدُّنيا وهُمْ يَحْسَبونَ أنَّهُمْ يُحسِنُونَ صُنعًا**﴾. [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شيء ﴿**وبَدَا لهم مِنَ الله مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾. [الزمر: ٤٧]. وفي أثر معروف إذا رأيت الله سبحانه يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره فإنما هو استدراج يستدرجك به. وشاهد هذا في القرآن في قوله تعالى: ﴿**فلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بهِ فَتَحْنَا عليْهِمْ أَبْوَابَ كلِّ شيْءٍ حتَّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أخذْنَاهُمْ بَغْتَةً فإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**﴾. [الأنعام: ٤٤]. وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور، وطبع النفس الأمَّارة الاغترار. فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحتاج(٢) والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف، فالشياطين غروا المغترين بالله، وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل فأُخذوا على أسوأ أحوالهم وقال تعالى: ﴿**وغَرَّتكُم الأَمانيُّ حتَّى جاءَ أَمْرُ الله وغرَّكُم بالله الغَـرُور**﴾. [الحديد: ١٤]. وقال تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ وعْدَ الله حَقٌّ فلا تَغُرَنَّكُم الحياةُ الدُّنيا ولا يَغُرنَّكُم بالله الغَرُور**﴾. [فاطر: ٥]. وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل قال ﴿**هذا لي**﴾ أي أنا أهله وجدير به ومستحق له ثم قال: ﴿**وما أَظُنُّ الساعة قائِمةً**﴾ فظن أنه أهل لما أولاه من النعم

---

(١) ٢٩٧ الروح.		(٢) لعله المحاج.

مع كفـــره بالله ثم زاد في غروره فقـــال: ﴿وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾. [فصلت: ٥٠]. يعني الجنـة والكرامة فهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

فصـــل

والفرق بين الرجاء والتمني أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسبـاب الظفر والفوز. (والتمني) حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه. . . (١)

(٢)**قوله** تعالى: **﴿والذينَ كفروا أعمالُهم كسَرَابٍ بِقيعةٍ يَحْسَبهُ الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجـد الله عنـده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب. أو كظُلماتٍ في بحر لجيٍّ يَغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرَجَ يدَهُ لم يَكَدْ يراها ومَنْ لم يجعل الله له نورًا فما له من نور﴾**. [النور: ٣٩، ٤٠].

ذكر سبحـانـه للكافرين مثلين: مثلاً بالسَّراب، ومثلاً بالظلمات المتراكمة، وذلك لأن المُعرضين عن الهُدَى والحق نوعان:

أحدهما مَنْ يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلافُ ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل وأهل البِدَع والأهواء الذين يَظنون أنهم على هُدىً وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتَّبتْ عليها كانت كسرَاب بقيعة يُرَى في عين الناظر ماء ولا حقيقة له، وهكذا الأعمال التي لغير الله وعلى غير أمره، يحسبها العامل نافعةً له وليست كذلك، وهذه هي الأعمال التي قال الله عز وجل فيها: **﴿وقَدِمنا إلى ما عَمِلُوا مِنْ عملٍ فجعلناهُ هَبَاءً مَنْثورًا﴾**. [الفرقان: ٢٣].

وتأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة ـ وهي الأرض القفر الخالية من البناء والشجـر والنبات والعالم ـ فمحلُّ السراب أرض قفر لا شيء بها، والسراب لا

(١) بقية البحث تقدم في سورة البقرة.　　(٢) ١٥٥ أعلام جـ١.

حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى.

وتأمل ما تحت قوله: ﴿**يَحْسَبُهُ الظمآن ماء**﴾ والظمآن الذي قد اشتد عَطَشُه فرأى السَّراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئًا، بل خانه أحوجَ ما كان إليه، فكذلك هؤلاء، لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول، ولغير الله، جُعلت كالسراب، فرفعت لهم أظمأ ما كانوا وأحوج ما كانوا إليها، فلم يجدوا شيئًا، ووجدوا الله سبحانه ثمَّ؛ فجازاهم بأعمالهم ووفَّاهم حسابهم.

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي، ﷺ، في حديث التجلي يوم القيامة «**ثم يُؤتى بجهنم تُعرض كأنها السراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عُزيرَ بن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشرَبُوا، فيتساقطون في جهنم، ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبدُ المسيح بن الله، فيقال لهم: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا، فيقال لهم: اشربوا، فيتساقطون**». وذكر الحديث، وهذه حال كل صاحب باطل، فإنه يخونُه باطله أحوَج ما كان إليه، فإن الباطل لا حقيقة له، وهو كاسمه باطل؛ فإذا كان الاعتقادُ غير مطابق ولا حق كان متعلَّقهُ باطلاً.

وكذلك إذا كانت غايةُ العمل باطلة ـ كالعمل لغير الله، أو على غير أمره ـ بَطَل العملُ ببطلان غايته، وتضرَّر عامله ببطلانه، وبحصول ضد ما كان يؤمله، فلم يذهب عليه عملُه واعتقاده، لا لهُ ولا عليه، بل صار مُعَذَّبًا بفوات نفعه، وبحصول ضد النفع؛ فلهذا قال تعالى: ﴿**وَوَجدَ الله عِنْدَهُ فوفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحِساب**﴾. [النور: ٣٩]. فهذا مَثَلُ الضال الذي يحسب أنه على هُدى.

فصل

النوع الثاني: أصحاب مثل الظلمات المتراكمة، وهم الذين عَرَفُوا الحق والهدى، وآثروا عليه ظُلمات الباطل والضَّلال، فتراكَمَتْ عليهم ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين، وظلمة اتباع الغيّ والهوى، فحالهم كحال مَنْ كان في بحر لجي لا ساحل له وقد غَشيه

موج ومن فوق ذلك الموج موج، ومن فوقه سحاب مظلم، فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يُخرجه الله منها إلى نور الإيمان.

وهذان المثلان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة وهو الماء، والظلمات المضادة للنور نظير المثلين اللذين ضربهما الله للمنافقين والمؤمنين، وهو المثل المائي والمثل الناري، وجعل حظَّ المؤمنين منهما الحياة والإشراق، وحظَّ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور والموت المضاد للحياة.

فكذلك الكفار في هذين المثلين، حظهم من الماء السراب الذي يغر الناظر ولا حقيقة له، وحظهم الظلمات المتراكمة، وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار، وأنهم عدِمُوا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي، فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد.

ويجوز أن يكون المراد به تنويعَ أحوال الكفار، وأن أصحاب المثل الأول هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة، بل على جهل وحُسن ظن بالأسلاف، فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وأصحاب المثل الثاني هم الذين استحبُّوا الضلالة على الهدى، وآثروا الباطل على الحق، وعموا عنه بعد أن أبصروه، وجحدوه بعد أن عرفوه، فهذا حال المغضوب عليهم، والأول حال الضالين؛ وحالُ الطائفتين مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالى: **﴿الله نُورُ السَّموات والأَرْض مَثَلُ نُورِهِ كمشكاةٍ فيها مِصْباحٌ المصباحُ﴾** إلى قوله: **﴿لِيَجزيَهُمُ الله أَحْسَنَ ما عَمِلُوا ويَزِيدَهُم مِنْ فضلِه والله يرزُقُ مَنْ يشاءُ بغيرِ حِسَابٍ﴾**. [النور: ٣٥ - ٣٨]. فتضمنت الآياتُ أوصاف الفِرق الثلاثة: المُنعم علَيهم وهم أهل النور، والضالين وهم أصحاب السَّراب، والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة، والله أعلم.

فالمثل الأول من المثلين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع، والمثل الثاني لأصحاب العلم الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق. ولهذا مَثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشُّبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحاب

مظلم، وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سُحُب الغي والهوى والباطل، فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين، وليطابق بينهما وبين المثلين، يعرف عظمة القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورًا، بل تركهم على الظلمة التي خُلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور؛ فإنه سبحانه وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور.

وفي المسند من حديث عبدالله بن عمر أن النبي، ﷺ، قال: «**إن الله خَلَقَ خلقَهُ في ظلمة، وألقى عليهم من نوره، فمنْ أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ**». فلذلك أقول: جفَّ القلم على علم الله.

فالله سبحانه خلق الخلق في ظلمة، فمن أراد هدايته جعل له نورًا وجوديًا يحيى به قلبه وروحه كما يحيى بَدنَه بالروح التي ينفُخها فيه، فهما حياتان: حياة البدن بالروح، وحياة الروح والقلب بالنور، ولهذا سمى سبحانه الوحي روحًا لتوقف الحياة الحقيقية عليه.

كما قال تعالى: ﴿**يُنَزِّلُ الملائِكَةَ بالرُّوحِ مِنْ أمرِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ**﴾. [النحل: ٢]. وقال تعالى: ﴿**يلقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ**﴾ [غافر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿**وكذلكَ أوحَينَا إليكَ رُوحًا من أَمْرِنا ما كُنْتَ تدرِي ما الكِتَابُ ولا الإيمانُ ولكِنْ جَعَلناهُ نُورًا نَهْدِي به مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبادِنَا**﴾. [الشورى: ٥٢].

فجعل وحيه رُوحًا ونورًا، فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت، ومن لم يجعل له نورًا منه فهو في الظلمات ما لَهُ من نور.

(١)**الأمر** الثامن أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لا نشعر بها؛ لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود. فهذا المغمي عليه، والمسكوت، والمبهوت أحياء، وأرواحهم معهم ولا نشعر بحياتهم. ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه، ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة.

---

(١) ٨٨ الروح.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل في الجمادات شعورًا وإدراكًا تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات قال تعالى: ﴿**وإنْ مِنْ شيءٍ إلاَّ يُسبِّحُ بحمدِهِ ولكنْ لا تَفْقَهُونَ تَسبيحَهُمْ**﴾. [الإسراء: ٤٤]. ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل ﴿**ولكن لا تَفقهون تسبيحهم**﴾؛ فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها. وقال تعالى: ﴿**إنَّا سخَّرنا الجبالَ مَعَهُ يُسبِّحنَ بالعَشيّ والإشْراق**﴾. [ص: ١٨]. والدلالة على الصانع لاتختص بهذين الوقتين، وكذلك قوله تعالى: ﴿**ياجبالُ أوِّبي معه**﴾ والدلالة لاتختص معيته وحده. وكذب على الله من قال: التأويب رجع الصدى؛ فإن هذا يكون لكل صوت. وقال تعالى: ﴿**ألم تَرَ أنَّ الله يسجُدُ له مَن في السمواتِ ومَن في الأرض والشمسُ والقمرُ والنجومُ وَالجْبالُ والشَّجَرُ والدوابُ وكثير من الناس**﴾. والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس. وقد قال تعالى: ﴿**ألم ترَ أنَّ الله يُسَبِّحُ له مَنْ في السَّموات والأَرْض والطيرُ صافَّاتٍ كُلٌّ قدْ عَلِمَ صلاتَهُ وتَسبيحَهُ**﴾. [النور: ٤١]. فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدها الجاهلون المكذبون.

وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته، وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له وقولهما ذلك أي يستمعان كلامه، وأنه خاطبهما فسمعا خطابه وأحسنا جوابه فقال لهما: ﴿**ائتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرهًا قالَتَا أَتَيْنا طَائعِينَ**﴾. [فصلت: ١١].

وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد، فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور، فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك. وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح، فتكلم ومشى، وأكل وشرب، وتزوج وولد له كالذين ﴿**خَرَجُوا مِنْ دِيَارهِمْ وهُم أُلوفٌ حَذَر الموتِ فقالَ لهم الله مُوتُوا ثُمَّ أحياهُمْ**﴾. [البقرة: ٢٤٣]. ﴿**أو كالذي مَرَّ على قَرْيَةٍ وهِيَ خاويةٌ على عُرُوشِها قال أنَّى يُحيي هذه الله بَعْدَ موتِهَا فأَمَاتَهُ الله مائةَ عام ثُمَّ بعثَهُ قال كَمْ لَبِثْتَ قال لَبِثْتُ يومًا أَوْ بَعْضَ يوم**﴾. [البقرة: ٢٥٩]. وكقتيل بني إسرائيل، أو كالذين قالوا لموسى: ﴿**لن نُؤمِنَ لكَ حتَّى نَرَى الله جَهْرَةً**﴾. [البقرة: ٥٥]. فأماتهم الله ثم

بعثهم من بعد موتهم، وكأصحاب الكهف، وكقصة إبراهيم في الطيور الأربعة، فإذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعدما بردت بالموت فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة يقضي بها أمره فيها، ويستنطقها بها، ويعذبها أو ينعمها بأعمالها؟ وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود وبالله التوفيق.

(١)**وقال** تعالى: **﴿والله خَلَقَ كُلَّ دابة من ماءٍ فمنهم من يَمشي على بطنِه ومنهم من يمشي على رجلين ومِنْهم من يَمشي على أرْبَع يخْلُقُ الله مايَشَاءُ إنَّ الله على كل شيءٍ قدير﴾** [النور: ٤٥].

فتأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشيء مع اشتراكها في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها، فنبه على الاشتراك والاختلاف، فيشير إلى يسير منه، فالطير كلها تشترك في الريش والجناح وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت.

واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل وتفاوتها في ماوراء ذلك.

واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف وتفاوتها في غير ذلك.

واشتراك ذوات القرون فيها وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال.

واشتراك حيوانات الماء في كونها سابحة تأوي فيها وتتكون فيها، وتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن عن حصره.

واشتراك الوحوش في البعد عن الناس والتفاوت عنهم وعن مساكنهم، وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره.

واشتراك الماشي منها على بطنه في ذلك وتفاوت نوعه.

واشتراك الماشي على رجلين في ذلك وتفاوت نوعه أعظم تفاوت. وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحيل على جلب مصالحه ودفع مضاره يعجز كثير منها نوع الإنسان.

فمن أعظم الحكم الدلالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما

---

(١) ٢٣١ شفاء.

خلقها له على وفق مشيئته وحكمته. وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل. . .

(١)**والتحقق** بـ ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ علمًا ومعرفة، وعملًا وحالًا: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد؛ فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل. فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدًا. وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته: من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل. فإذا جاء الحق معارضًا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم. فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل. فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى. وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان. فإذا لم يجدوا منه بدًّا أعطوه السكة والخطبة(٢) وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به، ﴿**وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكُمَ بينهُم إذا فريقٌ منهم معرضون. وإنْ يَكُنْ لهمُ الحقُّ يأتُوا إليه مُذْعنينَ. أفي قُلوبهم مَرَضٌ أَمْ ارتَابوا أَمْ يخافُونَ أَنْ يَحِيفَ الله عليهم ورسولُهُ بلْ أُولئكَ هُمُ الظَّالمون**﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم. وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات. وهم أعظم الناس ندامة وتحسرًا، إذا حقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا. ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله. ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ. وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق، وفاز المحقون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا

---

(١) ٥٢ مدارج جـ١.

(٢) السكة: المراد منها الاسم والشعار يضرب على النقود، ويقصد بذلك ما كان عليه الخلفاء في وقته، إذ لم يكن لهم من الخلافة إلا الصور. أما الحكم النافذ في الأمور فلغيرهم.

كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فيا له هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه. . .(١).

(٢)**قال تعالى: ﴿قُلْ أطيعوا الله وأَطِيعُوا الرسولَ﴾ إلى قوله - ﴿البلاغُ المبين﴾.** [النور: ٥٤]. فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه، وليس هذا من باب دلالة المفهوم كما يغلط فيه كثير من الناس، ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة، بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها، إذ ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه، وإلا لم يكن شرطًا له.

إذا ثبت هذا فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته.

وفي إعادة الفعل في قوله تعالى: **﴿قُل أطيعوا الله وأطيعُوا الرَّسول﴾**. دون الاكتفاء بالفعل الأول سر لطيف وفائدة جليلة سنذكرها عن قريب إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿فإنْ تَولّوا فإنَّما عليهِ ما حُمِّل﴾. [النور: ٥٤]. الفعل للمخاطبين، وأصله فإن تتولوا، فحذفت إحدى التائين تخفيفًا. والمعنى أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها، وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم، كما ذكره البخاري في صحيحه عن الزهري قال: «من الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم» فإن تركتم أنتم ما حملتوه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه، فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم، وإنما حمل أداء الرسالة إليكم **﴿وإن تُطيعُوه تَهْتَدُوا ومَا عَلى الرَّسول ِ إلاَّ البَلاغ المُبين﴾**. [النور: ٥٤]. ليس عليه هداهم وتوفيقهم.

(٣)**قال تعالى: ﴿ومَا على الرَّسول ِ إلاَّ البلاغُ المُبين﴾**. وهذا يتضمن بلاغ المعنى، وأنه في أعلى درجات البيان، فمن قال إنه لم يبلغ الأمة معاني كلامه وكلام ربه بلاغًا مبينًا بل بلغهم ألفاظه وأحالهم في فهم معانيه على ما يذكره هؤلاء لم يكن قد شهد له بالبلاغ.

وهذا هو حقيقة قولهم، حتى إن منهم من يصرح به ويقول: إن المصلحة كانت: في كتمان معاني هذه الألفاظ وعدم تبليغها للأمة.

---

(١) تقدم كامل البحث في تفسير سورة الفاتحة.

(٢) ٢٨ الرسالة التبوكية. (٣) ٣٣٨ مختصر الصواعق جـ٢.

إما لمصلحة الجمهور لكونهم لا يفهمون المعاني إلا في قوالب الحسيات وضرب الأمثال. **وإما** لينال الكادحون ثواب كدحهم في استنباط معانيها واستخراج تأويلاتها من وحشي اللغات وغرائب الأشعار، ويغوصون بأفكارهم الدقيقة على صرفها عن حقائقها ما أمكنهم.

وأما أهل العلم والإيمان فيشهدون له بما شهد الله به، وشهدت به ملائكته، وخيار القرون، أنه بلغ البلاغ المبين، القاطع للعذر، المقيم للحجة، الموجب للعلم واليقين لفظًا ومعنى.

والجزم بتبليغه معاني القرآن والسنة كالجزم بتبليغه الألفاظ بل أعظم من ذلك؛ لأن ألفاظ القرآن والسنة إنما يحفظها خواص أمته، وأما المعاني التي بلغها فإنه يشترك في العلم بها العامة والخاصة.

ولما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجمع لأحد مثله قبله ولا بعده في اليوم الأعظم في المكان الأعظم قال لهم: «**أنتم مسئولون عني فما أنتم قائلون**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، ورفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعًا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلاً: «**اللهم اشهد**» فكأنا شهدنا تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله وذلك اللسان الكريم وهو يقول: «**اللهم اشهد**» ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين وأدى رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة، وكشف لهم طرائق الهدى، وأوضح لهم معالم الدين، وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، فلا يحتاج مع كشفه وبيانه إلى تنطع المتنطعين. فالحمد لله الذي أغنانا بوحيه ورسوله عن تكلفات المتكلفين.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمَنُوا ليسْتأذِنْكُمُ الذينَ مَلَكَتْ أيمانُكُمْ والذينَ لم يَبْلُغُوا الحلمَ مِنكُمْ ثلاث مرات**﴾. [النور: ٥٨]. الآية أمر تعالى مماليك المؤمنين ومَنْ لم يبلغ منهم الحلم أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة لئلا يكون دخولهم هجمًا بغير استئذان فيها ذريعة إلى اطلاعهم على عوراتهم وقت إلقاء ثيابهم عند القائلة والنوم واليقظة، ولم يأمرهم بالاستئذان في غيرها وإن أمكن في تركه هذه المفسدة لنُدورها وقلة الإفضاء إليها فجعلت كالمقدمة.

---

(١) ١٤٩ أعلام جـ٣.

(١)فصل

ثم بعد العشر إلى سن البلوغ يسمى مراهقًا ومناهزًا للاحتلام.

فإذا بلغ خمس عشرة سنة عرض له حال آخر، يحصل معها الاحتلام ونبات الشعر الخشن حول القبل، وغلظ الصوت، وانفراق أرنبة الأنف.

والذي اعتبره الشارع من ذلك أمران: الاحتلام والإنبات.

أما الاحتلام فقال: **﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ليستأذنكم الذينَ ملكَت أيمانكم والذينَ لم يبلغوا الحلمَ منكم ثلاث مرات﴾**. ثم قال: **﴿وإذا بلغ الأطفالُ منكُمُ الحلمَ فليستأذِنُوا كما استأذَنَ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ﴾**. [النور: ٥٩].

وقال النبي، ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ**». وقال لمعاذ: «**خذ من كل حالم دينارًا**»، رواهما أحمد وأبو داود، وليس لوقت الاحتلام سن معتاد، بل من الصبيان من يحتلم لاثنتي عشرة، ومنهم من يأتي عليه خمس عشرة وست عشرة، وأكثر من ذلك ـ ولا يحتلم.

واختلف الفقهاء في السن الذي يبلغ به مثل هذا.

فقال الأوزاعي وأحمد والشافعي وأبو يوسف ومحمد: متى كمل خمس عشرة سنة حكم ببلوغه.

ولأصحاب مالك ثلاثة أقوال ـ أحدها: سبع عشرة، والثاني: ثماني عشرة، والثالث: خمس عشرة، وهو المحكي عن مالك.

وعن أبي حنيفة روايتان: إحداهما: سبع عشرة والثانية: ثماني عشرة، والجارية عنده سبع عشرة.

(٢)**ومن** الأدب معه(٣): أن لا يجعل دعاؤه كدعاء غيره. قال تعالى: **﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسولِ بينكم كدُعاءِ بعضِكُم بعضًا﴾** [النور: ٦٣]. وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضًا، بل قولوا: يا رسول الله يانبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاءكم الرسول.

---

(١) ١٨٠ تحفة المودود. (٢) ٢٨٩ مدارج جـ٢. (٣) أي الرسول، ﷺ.

الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا، إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع ـ من خطبة، أو جهاد، أو رباط ـ لم يذهب أحد منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه. كما قال تعالى: ﴿**إنَّما المؤمنونَ الذينَ آمَنُوا باللهِ ورَسولِه وإذَا كانُوا معهُ على أمْرٍ جَامعٍ لم يذهَبُوا حتَّى يستَأْذِنُوه**﴾. [النور: ٦٢]. فإذا كان هذا مذهبًا مقيدًا بحاجة عارضة، لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقه، وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿**فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنتُم لا تَعْلَمُونَ**﴾. [النحل: ٤٣].

ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصُّه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول. ولا يوقف قبول ما جاء به، ﷺ، على موافقة أحد. فكل هذا من قلة الأدب معه، ﷺ، وهو عين الجرأة.

فصل

وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم ـ على اختلاف مراتبهم ـ بما يليق بهم؛ فلكل مرتبة أدب. والمراتب فيها أدب خاص. فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان: أدب يليق به. وله مع الأقران أدب يليق بهم. ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه. ومع الضيف: أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكل حال أدب: فللأكل آداب. وللشرب آداب. وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب. وللبول آداب. وللكلام آداب. وللسكوت والاستماع آداب.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**فليحذر الذينَ يخالِفُونَ عن أمره أنْ تُصيبهم فِتنَةٌ أَوْ يُصيبَهُمْ**

(١) ٣٩٩ مختصر الصواعق جـ٢.

عذابٌ أليمٌ﴾ . [النور: ٦٣]. وهذا يعم كل مخالف بلغه أمره، ﷺ، إلى يوم القيامة ولو كان ما بلغه لم يفده علمًا لما كان متعرضًا بمخالفة ما لا يفيد علمًا للفتنة والعذاب الأليم، فإن هذا إنما يكون بعد قيام الحجة القاطعة التي لا يبقى معها لمخالف أمره عذر.

(١)**وقال** أبو العالية في قوله عز وجل: **﴿إنَّ الذين قالُوا ربُّنَا الله ثمَّ استَقَامُوا﴾** . [فصلت: ٣٠]. قال: أخلصوا لله الدين والعمل والدعوة أن جردوا الدعوة إليه وإلى كتابه وسنة رسوله، ﷺ، فقط لا إلى رأي فلان وقول فلان. وقال سفيان في قوله تعالى: **﴿فليَحْذَرِ الذينَ يُخَالِفُونَ عن أمْرِهِ أنْ تُصيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾** . قال يطبع على قلوبهم. وقال الإمام أحمد إنما هي الكفر.

ولقي عبدالله بن عمر جابر بن زيد في الطواف فقال له: يا أبا الشعثاء إنك من فقهاء البصرة فلا تفت إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلكت.

وقال ابن خزيمة قلت لأحمد بن نصر وحدث بخبر عن رسول الله، ﷺ، أما تأخذ به؟ فقال: أترى على وسطي زنارًا؟! لا تقل لخبر النبي، ﷺ، أتأخذ به وقل أصحيح هو ذا؟ فإذا صح الخبر عن رسول الله، ﷺ، قلت به شئت أم أبيت.

وقال: أفلح مولى أم سلمة أنها كانت تحدث أنها سمعت رسول الله، ﷺ، يقول على المنبر وهي تمتشط «**أيها الناس**» فقالت لماشطتها: كفي رأسي قالت: فديتك، إنما يقول أيها الناس قالت: ويحك أولسنا من الناس. فكفت رأسها وقامت في حجرتها فسمعته يقول: «**يا أيها الناس بينا أنا على حوضي إذ مُر بكم زمرًا فتفرقت بكم الطرق فناديتكم ألا هلم إلى الطريق فينادي مناد إنهم قد بدلوا بعدك فأقول ألا سحقًا سحقًا**». وهذه الطرق التي تفرقت بهم هي الطرق والمذاهب التي ذهبوا إليها وأعرضوا عن طريقه ومذهبه، ﷺ، فلا يجوزون على الطريق التي هو عليها يوم القيامة كما لم يسلكوا الطريق التي كان عليها هو وأصحابه.

وقال عكرمة عن ابن عباس: إياكم والرأي فإن الله رد على الملائكة الرأي وقال: **﴿إنِّي أعلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾** . [البقرة: ٣٠]. وقال لنبيه، ﷺ: **﴿إنَّا أنزلنا إليكَ**

---

(١) ٣٥٤ مختصر الصواعق جـ٢.

الكِتابَ بالحقّ لتحكم بينْ النَّاس بما أَرَاكَ الله﴾ . [النساء: ١٠٥]. ولم يقل بما رأيت.

وقال بعض العلماء: ما أُخرج آدم من الجنة إلا بتقديم الرأي على النص، وما لُعن إبليس وغُضب عليه إلا بتقديم الرأي على النص. ولا هلكت أمة من الأمم إلا بتقديم آرائها على الوحي. ولا تفرقت الأمة فرقًا وكانوا شيعًا إلا بتقديم آرائهم على النصوص.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله، ﷺ، برأي اجتهادًا، والله ما آلو عن الحق وذلك يوم أبي جندل والكتاب بين يدي رسول الله، ﷺ، وبين أهل مكة فقال رسول الله، ﷺ: اكتب بسم الرحمن الرحيم، فقال بل تكتب كما نكتب باسمك اللهم فرضي رسول الله، ﷺ، وأبيت عليه حتى قال رسول الله، ﷺ: «**تراني أرضى وتأبى**». وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُقَدِّموا بَيْنَ يَدَي الله ورسُولِهِ**﴾. [الحجرات: ١]. قال: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النـــور
والحمد لله رب العالميـن

سورة الفرقان
ترتيبها ٢٥ آياتها ٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل(١)

وأما البركة فكذلك نوعان أيضًا. أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة على، تارة وبأداة في تارة. والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركًا بجعله تعالى.

والنوع الثاني بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة. والفعل منها تبارك؛ ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عز وجل، فهو سبحانه المبارك، وعبده ورسوله المبارك كما قال المسيح ﴿**وجَعَلَني مُبارَكًا أَيْنَما كُنْتُ**﴾. [مريم: ٣١]. فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك. وأما صفتَه تبارك فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿**تبارك الله ربّ العالمين**﴾ [الأعراف: ٥٤]. ﴿**تبَارَكَ الذي بيدِهِ المُلك**﴾ [الملك: ١]. ﴿**فتَبَارَكَ الله أحسنُ الخَالقين**﴾ [المؤمنون: ١٤]. ﴿**وتبَارَكَ الذي لهُ مُلكُ السمواتِ والأَرْضِ وما بينهما وعندهُ عِلمُ السَّاعة وإليه تُرجَعون**﴾[الزخرف: ٨٥]. ﴿تبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرقانَ على عبده﴾. [الفرقان: ١]. ﴿**تَبارك الذي إنْ شاءَ جعلَ لك خيراً مِنْ ذلك**﴾ [الفرقان: ١٠]. ﴿تبارَكَ الذي جَعَل في السماءِ بُروجًا﴾. [الفرقان: ٦١]. أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها.

وهذا معنى قول من قال من السلف تبارك تعاظم.

وقال آخر معناه أن تجيء البركات من قبله فالبركة كلها منه.

وقال غيره كثر خيره وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم.

---

(١) ١٨٥ بدائع جـ٢.

وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله.

ومن هنا قيل معناه تعالى وتعاظم.

وقيل: تبارك وتقدس والقدس الطهارة.

وقيل: تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء.

وقيل: تبارك ارتفع والمبارك المرتفع. ذكره البغوي.

وقيل: تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره.

وقال ابن عباس جاء(١) بكل بركة.

وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. ذكره البغوي أيضًا.

وحقيقة اللفظة أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا مواضع من كتابه أو خمسة.

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل؛ فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعاظم. ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليًا ولا قدوسًا ولا عظيمًا، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس. فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنى، هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركًا. فتبارك من باب مجد، والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم.

ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدى لينتظم المعنيين فقال: مجيء البركة كلها من عنده، أو البركة كلها من قبله. وهذا فرع على تبارك في نفسه. وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب الفتح المكي، وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه، فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك. ولهذا كان كتابه مباركًا، ورسوله مباركًا، وبيته مباركًا، والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة. فليلة القدر مباركة، وما حول المسجد الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة وفعلًا منه تبارك وتعالى.

---

(١) في نسخة حاز كل بركة.

وتدبر قول النبي، ﷺ، في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة «**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**».

فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء ـ أعني ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد ـ بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام، ومنه السلام. فالسلام له وصفًا وملكًا.

وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام. وكذا الحمد كله له وصفًا وملكًا فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودًا فيهبه حمدًا من عنده. وكذلك العزة كلها له وصفًا وملكًا، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفًا وملكًا. وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركًا ﴿**فَتَبَارَكَ الله ربُّ العالمين**﴾. [غافر: ٦٤]. ﴿**وتَبَارَكَ الذي لهُ مُلكُ السمواتِ والأرضِ وما بَينَهُمَا وعِندَهُ عِلْمُ السَّاعةِ وإليهِ تُرْجَعُونَ**﴾. [الزخرف: ٨٥]. وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه. وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهًا «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» وقال في حديث الشفاعة الطويل: «**فأخرّ ساجدًا لربي فيفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن**». وفي دعاء الهم والغم: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**». فدل على أن لله سبحانه وتعالى أسماءً وصفاتٍ استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه لا يعلمها ملك مقرّب ولا نبي مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلوا فيه، ولا نجفوا عنه وبالله التوفيق.

[١]. . . **الصواب** هو الجواب الثالث وهو جواب صاحب الكشاف وغيره أن المسحور على بابه وهو من سحر حتى جن فقالوا: مسحور مثل مجنون زائل العقل

---

(١) ٢٢٦ بدائع جـ٤

لايعقل مايقول. فإن المسحور الذي لايتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري مايقول فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه: ﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من اتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين.

ولهذا قال تعالى: ﴿**انْظُر كيفَ ضَرَبُوا لكَ الأَمْثَالَ فضَلُّوا فلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبيلاً**﴾. [الفرقان: ٩]. مثلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه فإنه أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلاً ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله، ﷺ، معه حتى ضربوا له أمثالاً برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم أن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم، فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم يبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلىء صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم فيعجل تطهير الأرض منهم.

فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة لا إلـه غيره ولا رب سواه.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**قُلْ أَذَلِكَ خيرٌ أَمْ جنَّة الخُلْدِ التي وُعِدَ المُتَّقُونَ كانت لهُمْ جزاءً ومصيراً. لهُم فيهَا مايَشاءونَ خالدِينَ كانَ على ربِّكَ وعْدًا مسئولاً**﴾.

[الفرقان: ١٥-١٦] يسأله إياه عباده المؤمنون ويسأله إياه ملائكته لهم.

---

(١) ٦٩ حادي الأرواح.

فالجنة تسأل ربها أهلها، وأهلها يسألونه إياها، والملائكة تسألها لهم، والرسل يسألونه إياها لهم ولأتباعهم، ويوم القيامة يقيمهم سبحانه بين يديه يشفعون فيها لعباده المؤمنين.

وفي هذا من تمام ملكه وإظهار رحمته وإحسانه وجوده وكرمه وإعطائه ما سئل ما هو من لوازم أسمائه وصفاته واقتضائها لآثارها ومتعلقاتها، فلا يجوز تعطيلها عن آثارها وأحكامها، فالرب تعالى جواد له الجود كله يحب أن يسئل ويطلب منه ويرغب إليه، فخلق من يسأله، وألهمه سؤاله، وخلق له ما يسأله إياه. فهو خالق السائل وسؤاله ومسئوله، وذلك لمحبته سؤال عباده له ورغبتهم إليه وطلبهم منه، وهو يغضب إذا لم يسئل.

**الله يغضب إن تركت سؤاله		وبني آدم حين يسئل يغضب**

وأحب خلقه إليه أكثرهم وأفضلهم له سؤالاً، وهو يحب الملحين في الدعاء، وكلما ألح العبد عليه في السؤال أحبه وقربه وأعطاه.

وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه». فلا إله إلا هو، أي جناية جنت القواعد الفاسدة على الإيمان وحالت بين القلوب وبين معرفة ربها وأسمائه وصفات كماله ونعوت جلاله!!! والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

قال أبو نعيم الفضل حدثنا يونس هو ابن أبي إسحاق حدثنا يزيد بن أبي مرثد قال: قال أنس بن مالك، قال رسول الله، ﷺ: «**ما من مسلم يسأل الله الجنة ثلاثًا إلا قالت الجنة اللهم أدخله الجنة. ومن استجار من النار بالله ثلاثًا قالت النار: اللهم أجره من النار**». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن هناد بن السري عن أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن يزيد به.

وقال الحسن بن سفيان حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن ليث عن يونس بن حبان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، ﷺ: «**ماسأل الله عبد الجنة في يوم سبع مرات إلا قالت الجنة يارب إن عبدك فلانًا يسألني فأدخلنيه**».

وقال أبو يعلى الموصلي حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب حدثنا جرير عن يونس عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**ما**

استجـار عبـد من النار سبع مرات إلا قالت النار إن عبدك فلانًا استجار مني فأجره، ولا يسأل عبد الجنة سبع مرات إلا قال الجنة يا رب إن عبدك فلانًا سألني فأدخله الجنة». وإسناده على شرط الصحيحين. . . .

(١)**فقوله** سبحـانـه: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾. [الفرقان: ١٧]. عام في كل عابد ومن عبده من دون الله.

وأما قوله: ﴿**فَيَقُولُ أَأَنْتُم أضللتم عِبادي هؤلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبيل**﴾. [الفرقـان: ١٧]. فقال مجاهد، فيما رواه ورقاء عن ابن أبي نَجيح عنه قال: «هذا خطاب لعيسى وعزير، والملائكة». وروى عنه ابن جُريج نحوه.

وأما عكرمة والضحاك والكلبي، فقالوا: هو عام في الأوثان وعبَدَتِها.

ثم يأذن سبحانه لها في الكلام فيقول: ﴿**أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤلاءِ**﴾. قال مقاتل: يقول سبحانه: «أأنتم أمرتموهم بعبادتكم، أم هم ضلوا السبيل؟ أي أم هم أخطؤا الطريق». فأجاب المعبودون بما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿**سُبْحَانَك ما كانَ ينبَغِي لنا أَنْ نتَّخِذَ منْ دُونِك منْ أُولِيَاءَ**﴾. [الفرقان: ١٨].

وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعُزير، ومن عبدهم المشركون من أولياء الله.

ولهذا قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله [تنزيهًا لك يا ربَّنا وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون] ﴿**ما كَانَ ينبَغِي لنَا أَنْ نتَّخِذَ منْ دُونِكَ مِنْ أُولِياءَ**﴾. نواليهم، بل أنت ولينا من دونهم.

وقال ابن عباس، ومقاتل: «نزّهوا الله وعظموه أن يكون معه إلـه».

وفيها قراءتـان: أشهـرهـا: (نَتَّخِـذَ) بفتـح النون وكسر الخاء، على البناء للفاعل. وهي قراءة السبعة. والثانية: (نُتَّخَذُ) بضم النون وفتح الخاء، على البناء للمفعول، وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع. وعلى كل واحدة من القراءتين إشكال.

فأما قراءة الجمهـور، فإنَّ الله سبحانه إنما سألهم: هل أضلوا المشركين

---

(١) ٢٣٩ إغاثة جـ٢.

بأمرهم إياهم بعبادتهم، أم هم ضلوا السبيل باختيارهم وأهوائهم؟ وكيف يكون هذا الجواب مطابقاً للسؤال؟ فإنه لم يسألهم: هل اتخذتم من دوني من أولياء؟ حتى يقولوا: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَولِيَاءَ﴾ وإنما سألهم: هل أمرتم عبادي هؤلاء بالشرك، أم هم أشركوا من قِبَل أنفسهم؟ فالجواب المطابق أن يقولوا: لم نأمرهم بالشرك، وإنما هم آثروه وارتضوه، أو لم نأمرهم بعبادتنا، كما في الآية الأخرى عنهم ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾. [القصص: ٦٣].

فلما رأى أصحاب القراءة الأخرى ذلك فرُّوا إلى بناء الفعل للمفعول. وقالوا: الجواب يصحّ على ذلك، ويُطابق. إذ المعنى: ليس يصلح لنا أن نُعبد ونُتَّخذ آلهة. فكيف نأمرهم بما لا يصلح لنا، ولا يحسن منًّا؟

ولكن لزم هؤلاء من الإشكال أمر آخر. وهو قوله ﴿مِنْ أَولياء﴾ فإنَّ زيادة «من» لا يحسن إلا مع قصد العموم، كما تقول: ما قام من رجل. وما ضربت من رجل. فأما إذا كان النفي واردًا على شيء مخصوص فإنه لا يحسن زيادة «من» فيه، وهم إنما نفوا عن أنفسهم ما نُسب إليهم من دَعوى المشركين: أنهم أمروهم بالشرك. فنفوا عن أنفسهم ذلك بأنه لا يحسنُ منهم، ولا يليقُ بهم أن يُعبدوا، فكيف ندعو عبادك إلى أن يعبدونا؟ فكان الواجب على هذا: أن تُقرأ (ما كانَ ينبَغِي لنا أن نَتَّخِذَ أولِيَاءَ مِنْ دُونِك). أو (من دُونِكَ أولِياء).

فأجاب أصحاب القراءة الأولى بوجوه:

أحدها: أن المعنى ما كان ينبغي لنا أن نعبدَ غيرك، ونتخذ غيرك وليًّا ومعبودًا. فكيف ندعو أحدًا إلى عبادتنا؟ أي إذا كنَّا نحن لا نعبد غيرك، فكيف ندعو أحدًا إلى أن يعبدنا؟ والمعنى: أنهم إذا كانوا لا يرون لأنفسهم عبادة غير الله تعالى، فكيف يدعون غيرهم إلى عبادتهم؟ وهذا جواب الفرَّاء.

وقال الجرجاني: هذا بالتدريج يصير جوابًا للسؤال الظاهر. وهو أن من عبد شيئًا فقد تولَّاه، وإذا تولاه العابد صار المعبود وليًّا للعابد. يدل على هذا قوله تعالى: ﴿ويومَ يَحْشُرُهُمْ جميعًا ثُمَّ يقولُ للملائِكَةِ أهؤلاءِ إيَّاكُم كَانُوا يَعْبُدون. قالُوا سُبحَانَكَ أنْتَ وليُّنا من دُونِهِمْ﴾. [سبأ: ٤٠، ٤١]. فدل على أن العابد يصير وليًّا للمعبود.

ويصير المعنى كأنهم قالوا: ما كان ينبغي لنا أنْ نأمرَ غيرنا باتخاذنا أولياء،

وأن نتخذ من دونك وليًا يعبدنا. وهذا بسط لقول ابن عباس في هذه الآية.

قال: يقولون: ما توليناهم، ولا أحببنا عبادتهم. قال: ويحتمل أن يكون قولهم «ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء» أن يريدوا معشر العبيد، لا أنفسهم. أي نحن وهم عبيدك. ولا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دونك أولياء. ولكنهم أضافوا ذلك إلى أنفسهم تواضعًا منهم. كما يقول الرجل لمن أتى منكرًا: ما كان ينبغي لي أن أفعل مثل هذا، أي أنت مثلي عبد محاسب، فإذا لم يحسن من مثلي أن يفعل هذا لم يحسن منك أيضًا.

قال: ولهذا الإشكال قرأ من قرأ (نُتَّخذ) بضم النون. وهذه القراءة أقرب في التأويل. لكن قال الزَّجاج: هذه القراءة خطأ؛ لأنك تقول: مااتخذتُ من أحد وليًا، ولا يجوز ما اتخذت أحدًا من ولي؛ لأن «من» إنما دخلت لأنها تنفي واحدًا من معنى جميع. تقول: ما من أحد قائمًا، وما من رجل محبًا لما يضره، ولا يجوز: ما رجل من محب لما يضره.

قال: ولا وجه عندنا لهذا البتة، ولو جاز هذا لجاز في ﴿فَمَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنهُ حَاجِزِينَ﴾. [الحاقة: ٤٧]. ما أحد عنه من حاجزين. فلو لم تدخل «من» لصحَّت هذه القراءة.

قال صاحب النظم: العلة في سقوط هذه القراءة: أن «من» لا تدخل إلا على مفعول لا مفعول دونه، فإذا كان قبل المفعول مفعول سواه لم يحسن دخول «من» كقوله: ﴿ما كانَ لله أَنْ يتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾. [مريم: ٣٥]. فقوله «من ولد» لا مفعول دونه سواه، ولو قال: ما كان لله أن يتخذ أحدًا من ولد، لم يحسن فيه دخول «من»؛ لأن فعل الاتخاذ مشغول بأحد.

وصحح آخرون هذه القراءة لفظًا ومعنى، وأجروها على قواعد العربية.

قالوا: وقد قرأ بها من لا يُرتاب في فصاحته. فقرأ بها زيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو جعفر، ومُجاهد، ونصر بن علقمة، ومكحول، وزيد بن علي، وأبو رجاء، والحسن، وحفص بن حميد، ومحمد بن علي، على خلاف عن بعض هؤلاء. ذكر ذلك أبو الفتح ابن جنِّي. ثم وجَّهها بأن يكون «من أولياء» في موضع

الحال، أي ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء. ودخلت «من» زائدة لمكان النفي. كقولك: اتخذتُ زيدًا وكيلاً، فإذا نَفيْتَ قلت: ما اتخذتُ زيدًا من وكيل. وكذلك أعطيته درهمًا. وما أعطيته من درهم. وهذا في المفعول فيه.

قلت: يعني أن زيادتها مع الحال، كزيادتها مع المفعول. ونظير ذلك أن تقول: ماينبغي لي أن أخدمك متثاقلاً، فإذا أكدت، قلت: من متثاقل.

فإن قيل: فقد صحت القراءتان لفظًا ومعنى، فأيهما أحسن؟

قلت: قراءة الجمهور أحسن وأبلغ في المعنى المقصود، والبراءة مما لا يليق بهم، فإنهم على قراءة الضم: يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء، وعلى قراءة الجمهور: يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم، ولا يحسن منهم أن يتخذوا وليًا من دونه، بل أنت وحدك ولينا ومعبودنا، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئًا، فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك؟ وهذا المعنى أجلّ من الأول وأكبر، فتأمله.

والمقصود: أنه على القراءتين: فهذا الجواب من الملائكة، ومن عبد من دون الله من أوليائه. وأما كونه من الأصنام فليس بظاهر.

وقد يقال: إن الله سبحانه أنطقها بذلك، تكذيبًا لهم، وردًّا عليهم، وبراءة منهم. كقوله: **﴿إذْ تبرَّأَ الذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا﴾**. [البقرة: ١٦٦]. وفي الآية الأخرى: **﴿تبرَّأْنَا إليْكَ ما كانُوا إيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾**. [القصص: ٦٣].

ثم ذكر المعبودون سبب ترك العابدين الإيمانَ بالله تعالى بقولهم: **﴿ولكنْ مَتَّعْتَهُمْ وآباءهُمْ حتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وكَانُوا قومًا بُورًا﴾**. [الفرقان: ١٨]. قال ابن عباس: «أطلت لهم العمر، وأفضلت عليهم، ووسعت لهم في الرزق».

وقال الفرَّاء: ولكنك متعتهم بالأموال والأولاد، حتى نسوا ذكرك، وكانوا قومًا بورًا، أي هلكى فاسدين. قد غلب عليهم الشقاء والخذلان. والبوار: الهلاك والفساد، يقال: بارت السِّلعة، وبارت المرأة، إذا كسدت ولم يحصل لها من يتزوجها.

قال قتادة: والله ما نسي قوم ذكر الله عز وجل إلا باروا وفسدوا.

والمعنى: ما أضللناهم ولكنهم ضلوا.

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بما تَقُولُونَ﴾. [الفرقان: ١٩]. أي كذبكم المعبودون، بقولكم فيهم: إنهم آلهة، وإنهم شركاء، أو بما تقولون إنهم أمروكم بعبادتهم، ودعوكم إليها.

وقيل: الخطاب للمؤمنين في الدنيا، أي فقد كذَّبكم أيها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولونه، مما جاء به محمد، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الله من التوحيد والإيمان. والأول أظهر. وعليه يدل السياق.

ومن قرأها بالياء ـ آخر الحروف ـ فالمعنى، فقد كذبوكم بقولهم، ثم قال: ﴿فَمَا تستَطيعُونَ صَرْفًا ولا نَصْرًا﴾. [الفرقان: ١٩]. إخباراً عن حالهم يومئذ، وأنهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم، ولا نصرها من الله.

قال ابن زيد: ينادي منادٍ يوم القيامة، حين يجتمع جميع الخلائق: ﴿ما لكم لا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]. يقول: من عُبد من دون الله، لا ينصر اليوم من عبده، والعابد لا ينصر إلـهه ﴿بَلْ هُمُ اليومَ مُسْتَسلِمُونَ﴾ـ [الصافات: ٢٦]. فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن، فَواسوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين، إذا سمعوا النداء ﴿وامْتَازُوا اليَومَ أيُّهَا المُجْرِمُونَ. أَلَمْ أَعْهَدْ إليكُمْ يا بَني آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيطَانَ إنَّهُ لكُمْ عَدوٌّ مُبينٌ. وأَنِ اعْبُدُوني هَذا صِراطٌ مُستَقيمٌ. ولَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾. [يس: ٥٩ ـ ٦٢].

... [1]**وقوله** تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكمْ لبَعْضٍ فِتْنَةً﴾[2]. [الفرقان: ٢٠]. وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض:

فامتحن الرسل بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم.

---

(١) ١٦٠ إغاثة جـ٢.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: أي اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع ممن يعصي. ولهذا قال ﴿أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾. وقال محمد بن إسحاق في الآية: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم وأبتليكم بهم. اهـ. ببعض تصرف. وقد مضى قريبًا بهامش صفحة حديث عياض بن حمار الذي رواه أحمد ومسلم «إني مبتليك ومبتل بك».

وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم.

وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم، وينصرونهم، ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاتلونهم؟

وامتحن العلماء بالجهال، هل يعلمونهم، وينصحونهم، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم، وإرشادهم، ولوازم ذلك؟

وامتحن الجهال بالعلماء، هل يطيعونهم، ويهتدون بهم؟

وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك.

وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء.

وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع، والأتباع بالسادة.

وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به.

وامتحن الرجل بامرأته، وامرأته به.

وامتحن الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار، والكفار بالمؤمنين.

وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم. ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم من أتباع الرسل، فتنة لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل، وقالوا: ﴿**لَوْ كَانَ خيراً مَا سَبَقُونَا إليْهِ**﴾. [الأحقاف: ١١]. هؤلاء.

وقالوا لنوح عليه السلام: ﴿**أَنُؤمِنُ لكَ واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ**﴾ [الشعراء: ١١١].

قال تعالى: ﴿**وكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤلَاءِ مَنَّ اللهُ عليْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا**﴾. [الأنعام: ٥٣]. فإذا رأى الشريفُ الرئيسُ المسكينَ الذليلَ قد سبقه إلى الإيمان ومتابعة الرسول حمى وأنف أن يسلم، فيكون مثله، وقال: أسلم فأكون أنا وهذا الوضيع على حد سواء؟

(١)... **قال** تعالى: ﴿**وجَعَلنَا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون**﴾. فهو سبحانه جعل أولياءه فتنة لأعدائه، وأعداءه فتنة لأوليائه، والملوك فتنة للرعية، والرعية فتنة

---

(١) ٢٤٤ شفاء.

لهم، والرجال فتنة للنساء، وهن فتنة لهم، والأغنياء فتنة للفقراء، والفقراء فتنة لهم، وابتلى كل أحد بضد جعله متقابلاً، فما استقرت أقدام الأبوين على الأرض إلا وضدهما مقابلهما، واستمر الأمر في الذرية كذلك إلى أن يطوي الله الدنيا ومن عليها.

وكم له سبحانه في مثل هذا الابتلاء والامتحان من حكمة بالغة، ونعمة سابغة، وحكم نافذ، وأمر ونهي، وتصريف دال على ربوبيته وإلهيته وملكه وحمده.

وكذلك ابتلاء عباده بالخير والشر في هذه الدار هو من كمال حكمته ومقتضى حمده التام.

الوجه الثالث والثلاثون أنه لولا هذا الابتلاء والامتحان لما ظهر فضل الصبر والرضا، والتوكل والجهاد، والعفة والشجاعة، والحلم والعفو والصفح.

والله سبحانه يحب أن يكرم أولياءه بهذه الكمالات ويحب ظهورها عليهم ليثني بها عليهم هو وملائكته، وينالوا باتصافهم بها غاية الكرامة واللذة والسرور، وإن كانت مُرة المبادى فلا أحلى من عواقبها، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

وقد أجرى الله سبحانه حكمته بأن كمال الغايات تابعة لقوة أسبابها وكمالها، ونقصانها لنقصانها، فمن كمل أسباب النعيم واللذة كملت له غاياتها، ومن حرمها حرمها، ومن نقصها نقص له من غاياتها. وعلى هذا قام الجزاء بالقسط والثواب والعقاب، وكفى بهذا العالم شاهدًا لذلك، فرب الدنيا والآخرة واحد، وحكمته مطردة فيهما، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.

(١)... **والمقصود** أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين الله فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق إلا بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم. وقد قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاه هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه، يجعلها الله هباء منثورًا، لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلاً. وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة: أن يرى سعيه كله ضائعًا لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان

---

(١) ٤١ الرسالة التبوكية.

العامل إلى عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم. اهـ.

(١)**وأعظم** الحظوظ وأجداها ما نفع العبد ودام نفعه له، وليس هذا إلا حظه من العلم والدين، فهو الحظ الدائم النافع الذي إذا انقطعت الحظوظ لأربابها فهو موصول له أبد الآبدين، وذلك لأنه موصول بالحي الذي لا يموت، فلذلك لا ينقطع ولا يفوت، وسائر الحظوظ تعدم وتتلاشى بتلاشي متعلقاتها كما قال تعالى: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا**﴾. فإن الغاية لما كانت منقطعة زائلة تبعتها أعمالهم فانقطعت عنهم أحوج ما يكون العامل إلى عمله، وهذه هي المصيبة التي لا تجبر، عياذًا بالله واستعانة به وافتقارًا وتوكلاً عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢)**وقال** تعالى: ﴿**ويومَ يَعضُّ الظَّالمُ على يَديهِ يَقُولُ يا ليتَني اتَّخَذْتُ معَ الرَّسولِ سبيلاً. يا وَيْلتَى ليتَني لَمْ اتَّخِذْ فُلانًا خَليلاً. لقد أَضَلَّني عنِ الذِّكْرِ بعدَ إِذْ جَاءَنِي وكـانَ الشَّيطانُ للإِنْسانِ خَذُولاً**﴾. [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]. فكل من اتخذ غير الرسول يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول، ﷺ، فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا هذا الخليل كنى عنه باسم فلان؛ إذ لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان. فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول، ﷺ. ومآل تلك الخلة إلى العداوة واللعنة. كما قال تعالى: ﴿**الأَخِلاَّءُ يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاَّ المُتَّقين**﴾. [الزخرف: ٦٧]. وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع وحال من تبعوهم في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿**يومَ تُقَلَّبُ وجوهُهُمْ في النَّار يَقُولُونَ يا لَيتَنَا أَطَعْنَا الله وأَطَعْنَا الرَّسُولا. وقالُوا ربَّنَا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبيلا. ربَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذابِ والعَنْهُمْ لَعْنًا كَبيراً**﴾. [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]. تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم: ﴿**ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنًا كبيراً**﴾. وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية. وبالله التوفيق.

---

(١) ٦٧ مفتاح جـ١.

(٢) ٣٥ تبوكية.

(١)... **قال** تعالى: ﴿ويومَ يعضُّ الظَّالمُ على يديه يقولُ يا لَيتَني اتَّخذتُ مع الرسولِ سبيلًا. يا ويلتى ليتني لم أتَّخِذ فُلانًا خليلًا. لقد أضَلَّني عن الذِّكر بعدَ إذْ جَاءَني﴾. [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وقال تعالى: ﴿الأَخِلَّاءُ يومئذٍ بَعضُهُمْ لبعضٍ عَدُوٌّ إلَّا المتَّقين﴾.

وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إنَّما اتَّخذتُم مِنْ دونِ الله أوثَانًا مَوَدَّةَ بينكُمْ في الحياةِ الدُّنيا ثمَّ يومَ القيامَةِ يَكْفُرُ بعضُكُم ببعضٍ ويَلْعَنُ بعضُكم بعضًا ومأوَاكُم النَّارُ وما لَكُمْ مِنْ نَاصرينَ﴾. [العنكبوت: ٢٥].

وهذا شأن كل مشتركين في غرض، يتوادون ماداموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزنًا وألمًا. وانقلبت تلك المودة بغضًا ولعنة، وذمًّا من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيٍ، إذا أُخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادِّين عليه: لابد أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير - كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة - ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذلٌّ وبغض له، ومقت، وذم منهم، ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلًا. وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستغن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيُسِلّ قلبه من بينهم كسلّ الشعرة من

(١) ٤٤٥ مدارج جـ١.

العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحًا ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم(١).

فائدة(٢)

هجر القرآن أنواع، أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه، والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله: ﴿**وقالَ الرَّسولُ يا رَبِّ إنَّ قومِي اتَّخَذُوا هذَا القُرآنَ مَهْجُورًا**﴾. [الفرقان: ٣٠]. وإن كان بعض الهجر أهون من بعض(٣).

فصل(٤)

وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه. وجمع الفكر على تدبره وتعقله. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر.

قال الله تعالى: ﴿**كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إلَيْكَ مُبارَكٌ ليدَّبَّرُوا آياتِهِ وليَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلباب**﴾ [ص: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿**أَفَلا يَتدبَّرونَ القرآنَ أَمْ على قُلُوبٍ أقفالها**﴾.

---

(١) شرح المؤلف بقية مفسدات القلب تركناها اختصارًا. (ج).
(٢) ٨١ فوائد.
(٣) تقدم بقية البحث في سورة الأعراف (ج).
(٤) ٤٥١ مدارج جـ١.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّروا القَوْلَ﴾. [المؤمنون: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعلنَاهُ قُرآنًا عربيًّا لعلَّكُمْ تَعْقِلونَ﴾. [الزخرف: ٣].

وقال الحسن: نزل القرآن لِيُتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر على معاني آياته. فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما. وعلى طرقاتهما، وأسبابهما، وغاياتهما، وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلّ في يده(١) مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتُحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها. وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها. فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميِّز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقًّا، والباطل باطلاً، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال، والغي والرشاد. وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا. فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل، وذكر

---

(١) تل الشيء في يده ـ بالمثناه الفوقية المفتوحة ـ وضعه فيها.

براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم. وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه. وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص. وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه. وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادىء والغايات، في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل. وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل. وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل. وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل. وتناديه كلما فترت عزماته، وونى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل. فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل. وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل. وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ماذكرنا من الحكم والفوائد. . .

فصـــل(١)

في بيان أن تيسر القرآن للذكر ينافي حمله على التأويل المخالف لحقيقته وظاهره

أنـزل الله الكتاب شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، ولذلك كانت معـانيه أشرف المعـاني، وألفـاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعـانيها المرادة منها، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿**ولا يأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بالحقِّ وأَحْسَنَ تَفْسيراً**﴾. [الفرقان: ٣٣]. فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق فهو تفسيره وبيانه.

والتفسير أصله من البيان والظهور، ويلاقيه في الاشتقاق الأكبر الإسفار. ومنه أسفر الفجر إذا أضاء ووضح. ومنه السفر لبروز المسافر من البيوت. ومنه السفـر الـذي يتضمن إظهار ما فيه من العلم. فلابد أن يكون التفسير مطابقًا للمفسر مفهمًا له. ولا تجد كلامًا أحسن تقديرًا ولا أتم بيانًا من كلام الله سبحانه، ولهذا سماه الله بيانًا وأخبر أنه يسره للذكر ويسر ألفاظه للحفظ، ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيه للامتثال.

ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن ميسرًا له بل كان معسرًا عليه، وإذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير. . .

فصـــل(٢)

قوله تعـالى: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَـرهُم يَسمَعُـونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلاَّ كالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سبيلاً**﴾. [الفرقان: ٤٤]. فشبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النـوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام، لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالاً، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون،

---

(١) ٥٩ مختصر الصواعق جـ١.   (٢) ١٥٩ إعلام جـ١.

ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تُفرِّق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره.

والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضلُّ من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضلُّ وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه.

.(١) **إذا** عرف هذا. فهذه الحواس الخمس لها أشباح وأرواح، وأرواحها حظ القلب ونصيبه منها.

فمن الناس من ليس لقلبه منها نصيب إلا كنصيب الحيوانات البهيمية منها، فهو بمنزلتها، وبينه وبينها أول درجة الإنسانية. ولهذا شبه الله سبحانه أولئك بالأنعام، بل جعلهم أضل، فقال تعالى: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُم يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُم إِلَّا كَالأَنعَامِ بَلْ هُم أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾. ولهذا نفى الله عن الكفار السمع والبصر والعقول، إما لعدم انتفاعهم بها، فنُزِّلت منزلة المعدوم. وإما لأن النفي توجه إلى أسماع قلوبهم وأبصارها، وإدراكها. ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور. كقول أصحاب السعير: ﴿**لو كنَّا نسمَعُ أَوْ نعقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعيرِ**﴾. [الملك: ١٠].

ومنه في أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿**وتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وهُمْ لا يُبْصِرونَ**﴾. [الأعراف: ١٩٨]. فإنهم كانوا ينظرون إلى صورة النبي، ﷺ، بالحواس الظاهرة، ولا يبصرون صورة نبوته ومعناها بالحاسة الباطنة، التي هي بصر القلب.

والقول الثاني: أن الضمير عائد على الأصنام. ثم فيه قولان:

أحدهما: أنه على التشبيه، أي كأنهم ينظرون إليك. ولا أبصار لهم يرونك بها.

والثاني: المراد به المقابلة. تقول العرب: داري تنظر دارك. أي تقابلها.

وكذلك السمع: ثابت لهم، وبه قامت الحجة عليهم. ومنتف عنهم، وهو سمع القلب. فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك، كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء، ولم يسمعوه بالروح

(١) ٤١٠ مدارج جـ٢.

الحقيقي، الذي هو روح حاسة السمع، التي هي حظ القلب. فلو سمعوه من هذه الجهة: لحصلت لهم الحياة الطيبة، التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب، ولزال عنهم الصمم والبكم، ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة مَن عُدم السمع والعقل.

فحصول السمع الحقيقي: مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة، التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم؛ فإن بها يحصل غذاء القلب ويعتدل، فتتم قوته وحياته، وسروره ونعيمه، وبهجته. وإذا فقد غذاءه الصالح: احتاج إلى أن يعتاض عنه بغذاء قبيح خبيث. وإذا فسد غذاؤه: خبث ونقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما فسد من غذائه، كالبدن إذا فسد غذاؤه نقص...

(١)**قال** الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيفَ مَدَّ الظِّلَّ ولو شَاءَ لجعَلَهُ سَاكِنًا ثمَّ جَعَلنا الشَّمسَ عليهِ دليلاً. ثمَّ قَبَضْنَاهُ إلينا قَبضًا يسيراً**﴾. [الفرقان: ٤٥، ٤٦]. فأخبر تعالى: أنه بسط الظل ومدَّه، وأنه جعله متحركًا تبعاً لحركة الشمس. ولو شاء لجعله ساكنًا لا يتحرك: إما بسكون المظهر له، والدليل عليه، وإما بسبب آخر.

ثم أخبر: أنه قبضه ـ بعد بسطه ـ قبضًا يسيراً. وهو شيء بعد شيء، لم يقبضه جملة.

فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته، وكمال حكمته. فندب الرب سبحانه عباده إلى رؤية صنعته وقدرته، وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته. ولو شاء لجعله لاصقًا بأصل ما هو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره فلم ينتفع به أحد.

فإن كان الانتفاع به تابعًا لمده وبسطه، وتحوله من مكان إلى مكان. ففي مدِّه وبسطه، ثم قبضه شيئًا فشيئًا: من المصالح والمنافع ما لا يخفى ولا يحصى، فلو كان ساكنًا دائمًا، أو قبض دفعة واحدة: لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس. فمد الظل وقبضه شيئًا فشيئًا لازم لحركة الشمس، على ما قدِّرت عليه من مصالح العالم.

وفي دلالة الشمس على الظلال ما تعرف به أوقات الصلوات، وما مضى

(١) ٢٩٣ مدارج جـ٣.

من اليوم، وما بقي منه. وفي تحركه وانتقاله ما يبرد به ما أصابه من حر الشمس، وينفع الحيوانات والشجر والنبات. فهو من آيات الله الدالة عليه.

وفي الآية وجه آخر، وهو: أنه سبحانه مدَّ الظل حين بنى السماء كالقبّة المضروبة. ودحى الأرض تحتها. فألقت القبة ظلها عليها. فلو شاء سبحانه لجعله ساكنًا مستقرًّا في تلك الحال. ثم خلق الشمس ونصبها دليلاً على ذلك الظل. فهو يتبعها في حركتها، يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص. فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله.

وفيها وجه آخر، وهو: أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تلقي الظلال فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه.

وقوله تعالى: ﴿**قبضناه إلينا**﴾. كأنه يشعر بذلك. وقوله: ﴿**قبضًا يسيراً**﴾ يشبه قوله: ﴿**ذلك حشر علينا يسير**﴾ [ق: ٤٤]. وقوله: ﴿**قبضناه**﴾ بصيغة الماضي لا ينافي ذلك كقوله: ﴿**أتى أمر الله**﴾ [النحل: ١] والوجه في الآية هو الأول.

(١)**ومعنى** الآية التنبيه على هذه الدلالة الباهرة على قدرة الرب سبحانه وعجائب مخلوقاته الدالة عليه، والمعنى: انظر كيف بسط ربك الظل، والظل ما قبل الزوال، والفيء بعده، فمده سبحانه وبسطه عند طلوع الشمس فإنه يكون مديدًا أطول ما يكون، وجعل الشمس دليلاً عليه فإنها هي التي تظهره وتبينه، ثم كلما ارتفعت الشمس شيئًا انقبض من الظل جزء، فلا يزال ينقص يسيرًا حتى ينتهي إلى غايته، فإذا أخذت الشمس في الجانب الغربي انبسط بعد انقباضه شيئًا فشيئًا حتى يصير كهيئته عند طلوعها. ولهذا كان الزوال يعرف بانتهاء الظل في قصره، فإذا أخذ في الزيادة بعد تناهي قصره فقد تحقق الزوال، ولو شاء الله لجعله ساكنًا دائمًا على حالة واحدة فلا يتحرك بالزيادة والنقصان، فالظل أحد الأدلة الدالة على الخالق سبحانه.

---

(١) ٣٤٥ الهجرتين.

فصل(١)

في هديه في الجهاد والغزوات

لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله، ﷺ، في الذروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها، فجاهد في الله حق جهاده، بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده. ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا، وأعظمهم عند الله قدرًا وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، فقال: ﴿**ولو شِئْنَا لَبَعَثْنَا في كلِّ قريةٍ نَذيرًا فلا تُطِعِ الكَافِرينَ وجَاهِدْهُم بهِ جِهادًا كبيرًا**﴾. [الفرقان: ٥١- ٥٢]. فهذه سورة مكية، أمره فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن. وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى: ﴿**يا أيُّهَا النبيّ جَاهِدِ الكُفَّار والمنافقينَ واغْلُظْ عليهم ومأواهُم جهنَّم وبئسَ المَصير**﴾. [التوبة: ٧٣]. فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة، وورثة الرسل. والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه - وإن كانوا هم الأقلِّين عددًا - فهم الأعظمون عند الله قدرًا.

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق، مع شدة المعارض - مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه - كان للرسل صلوات الله عليهم وسلامه من ذلك الحظ الأوفر. وكان لنبينا صلوات الله وسلامه عليه من ذلك أكمل الجهاد وأتمه.

ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي، ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»(٢). كان جهاد النفس مقدمًا على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له. فإنه مالم يجاهد نفسه أولاً، لتفعل ماأمرت به، وتترك مانهيت عنه ويحاربها في الله: لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج. فكيف يمكنه جهاد عدوه، والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه، لم يجاهده ولم يحاربه في الله؟ بل لا

(١) ١٠٢ زاد جـ٢.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث فضالة بن عبيد.

يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج، فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما. وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده. وهو واقف بينهما، يثبِّط العبد عن جهادهما، ويخذِّله ويرجِف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ، وفوت اللذات والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده. فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان. قال تعالى: ﴿إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ فاتَّخِذوه عدوًّا﴾. والأمر باتخاذه عدوًّا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته، فإنه عدو لا يفتر، ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أمر العبد بمحاربتها وجهادها. وقد بلي العبد بمحاربتها في هذه الدار، وسلِّطت عليه امتحانًا من الله له وابتلاء. فأعطى الله العبد مددًا وعدَّة، وأعوانًا وسلاحًا لهذا الجهاد. وأعطى أعداءه مددًا وعدة وأعوانًا وسلاحًا، وبلى أحد الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة، ليبلو أخبارهم، ويمتحن من يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه، كما قال تعالى: ﴿وجَعَلنا بعضَكُم لبعضٍ فِتنة أتَصْبِرُون وكَانَ ربُّك بصيرًا﴾. [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ذلِكَ ولوْ يَشاءُ الله لانْتَصَرَ مِنهم ولكن ليَبْلُوَ بعضَكُمْ بِبَعضٍ﴾. [محمد: ٤]. وقال تعالى: ﴿ولَنَبْلُوَنَّكم حتَّى نَعْلَم المُجاهِدينَ مِنكُمْ والصَّابرِينَ ونَبْلُوَ أخْبارَكُم﴾. [محمد: ٣١]. فأعطى عباده الأسماع والأبصار، والعقول والقوى، وأنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله، وأمدَّهم بملائكته وقال لهم: ﴿أنِّي معكُمْ فثَبِّتُوا الذينَ آمَنُوا﴾. [الأنفال: ١٢]. وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم على حرب عدوهم. وأخبرهم: أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به: لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم، وأنه إن سلَّطه عليهم فلتركهم بعض ما أُمروا به ولمعصيتهم له. ثم لم يؤيسهم ولم يقنطهم، بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم، ويداووا جراحهم، ويعودوا إلى مناهضة عدوهم، فينصرهم عليه، ويظفرهم به فأخبرهم أنه ﴿مَعَ المُتَّقِينَ﴾. [البقرة: ١٩٤]. و﴿مَعَ الذينَ اتَّقَوا والذينَ هُمْ مُحسِنُونَ﴾. [النحل: ١٢٨]. و﴿مَعَ الصابرينَ﴾. [البقرة: ١٥٣]. و﴿مَعَ المُؤمِنينَ﴾. [الأنفال: ١٩]. وأنه يدافع عن عباده المؤمنين، ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل

بدفـاعـه عنهم انتصروا على عدوهم، ولـولا دفـاعـه عنهم لتخـطّفهم عدوهم واجتـاحهم. وهـذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم وعلى قدره. فإن قوى الإيمان قويت المدافعة. فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه(١).

(٢)**الوجه** الخمسـون ما رواه الـترمـذي من حديث أبي جعفر الـرازي عن الربيع بن أنس قال: قال رسول الله، ﷺ: **«من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»**. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب رواه بعضهم فلم يرفعه.

وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله لأن به قوام الإسلام، كما أن قوامه بالجهـاد، فقـوام الـدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنـان، وهذا المشارك فيه كثير. والثاني: الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين؛ لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه.

قال تعـالى في سورة الفـرقان وهي مكية: **﴿ولو شِئنَا لبعَثْنَا في كُلِّ قَريةٍ نَذيرًا. فلاَ تُطِعِ الكَافِرينَ وجَاهِدْهُم بهِ جِهَادًا كبيراً﴾**. [الفرقان: ٥١-٥٢]. فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضًا، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى: **﴿يا أَيُّهَا النَّبيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والمُنَافِقينَ واغْلُظْ عليهِمْ﴾**. [التوبة: ٧٣]. ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن.

والمقصود أن سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله. ولهـذا قال معـاذ رضي الله عنـه: عليكم بطلب العلم فإن تعلمـه لله خشية، ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد.

ولهذا قرن سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر. كما قال تعالى: **﴿لَقَدْ أَرْسَلنَا رُسُلنا بالبَيِّناتِ وأَنْزَلنا مَعَهُمُ الكِتابَ والمِيزَانَ ليقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ وأنزَلنَا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومَنَافعُ للنَّاسِ وليعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ ورُسُلَهُ بالغَيْبِ إنَّ اللهَ قويٌّ عَزيزٌ﴾**. [الحديد: ٢٥].

فذكر الكتاب والحديد إذ بهما قوام الدين كما قيل:

---

(١) ذكر هنا بحثًا ممتعًا فمن أراده فليرجع إليه. (ج).

(٢) ٧٠ مفتاح جـ١.

فما هو إلا الوحي أو حَدٌّ مرهف تميل ظباه أخدعًا كل مايل
فهذا شفاء الداء من كل عاقل وهذا دواء الداء من كل جاهل

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله فسر الصحابة رضي الله عنهم قول الله تعالى: ﴿أطيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأَمْرِ منكُم﴾ [النساء: ٥٩]. بالأمراء والعلماء، فإنهم المجاهدون في سبيل الله، هؤلاء بأيديهم، وهؤلاء بألسنتهم، فطلب العلم من أعظم سبيل الله عز وجل.

(١)**قوله** تعالى: ﴿وكانَ الكَافِرُ على ربِّهِ ظَهِيراً﴾. [الفرقان: ٥٥]. هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائمًا مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه؛ وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه، يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه، كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه. وعبارات السلف على هذا تدور.

ذكر ابن أبي حاتم، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك.

وقال ليث، عن مجاهد، قال: يظاهر الشيطان على معصية الله، يعينه عليها.

وقال زيد بن أسلم: ظهيراً، أي: مواليًا، والمعنى أنه يوالي عدوه على معصيته والشرك به، فيكون مع عدوه معينًا له على مساخط ربه.

فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلـٰهه، قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقرنائه، ولهذا صدر الآية بقوله: ﴿ويَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله ما لا يَنْفَعُهُمْ ولا يَضُرُّهم﴾. [الفرقان: ٥٥]. وهذه العبادة هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديهم، المتضمنة لمعيتهم الخاصة، فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه، بخلاف وليه سبحانه، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه. وهذا المعنى من كنوز القرآن، لمن فهمه وعقله، وبالله التوفيق.

(٢)**وقال** تعالى: ﴿تَبَارَكَ الذي جَعَلَ في السَّماءِ بُرُوجًا وجَعَلَ فيهَا سِرَاجًا وقَمَرًا مُنيراً وهُوَ الذي جَعَلَ الليلَ والنَّهار خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

(١) ٧٨ فوائد. (٢) ٢٠٨ مفتاح جـ١.

شُكُورًا﴾. [الفرقان: ٦١، ٦٢]. **فذكر** تعالى خلق الليل والنهار وأنهما خلفة، أي يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما.

وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر، لا يجامعه، ولا يحاذيه، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثًا حتى يزيله عن سلطانه، ثم يجيء الآخر عقيبه فيطلبه حثيثًا حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما دائمًا يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه.

(١)**قال** تعالى: **﴿وهُوَ الذي جَعَلَ الليلَ والنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُورًا﴾**. قال ابن عباس والحسن وقتادة: عوضًا وخلفًا، يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاته عمل في أحدهما قضاه في الآخر. وقال قتادة: فأدوا لله من أعمالكم خيرًا في هذا الليل والنهار، فإنهما مطيتان يقحمان الناس إلى آجالهم، ويقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، ويجيئان بكل موعود إلى يوم القيامة.

وقال شقيق: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: فاتتني الصلاة الليلة، فقال «أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكَّر أو أراد شكورًا».

(٢)**وأما** الخطوات فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه عند الله تعالى، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنه خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة يتقرب بها وينويها لله، فتقع خطاه قربة، وتنقلب عادته عبادة ومباحاته طاعات.

ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى: **﴿وعِبَادُ الرَّحمنِ الذينَ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْنًا وإذا خاطَبَهُمُ الجَاهِلونَ قالُوا سَلامًا﴾**. [الفرقان: ٦٣].

فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى: **﴿يَعلمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِي الصُّدورُ﴾**. [غافر: ١٩].

---

(١) ١٩٤ زاد جـ١.		(٢) ٢١٧ الجواب.

(١)**قال** الله تعالى: ﴿وعِبَادُ الرَّحمنِ الذينَ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْنًا﴾. أي سكينة ووقارًا متواضعين، غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين. قال الحسن: علماء حلماء. وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون. وإن سُفه عليهم حلموا.

و«**الهون**» بالفتح في اللغة: الرفق واللين. و«الهون» بالضم: الهوان. فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان. والمضموم: صفة أهل الكفران. وجزاؤهم من الله النيران.

(٢)فصل في هديه ﷺ في مشيه وحده، ومع أصحابه

كان إذا مشى تكفَّأ تكفؤًا. وكان أسرع الناس مِشية، وأحسنها وأسكنها، قال أبو هريرة: «ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله، ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع في مشيته من رسول الله، ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كان رسول الله، ﷺ، إذا مشى تكفَّأ تكفؤًا، كأنما ينحَط من صبب». وقال مرة: «إذا مشى تقلَّع».

قلت: والتقلع: الارتفاع من الأرض بجملته، كحال المنحط من الصبب. وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهرج والمهانة والتماوت، فإن الماشي إما أن يتماوت في مشيه، ويمشي قطعة واحدة، كأنه خشبة محمولة، وهي مشية مذمومة قبيحة، وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج، وهي مشية مذمومة أيضًا، وهي دالة على خفة عقل صاحبها، ولا سيما إن كان يكثر الالتفات حال مشيه يمينًا وشمالًا، وإما أن يمشي هَوْنًا وهي مشية عباد الرحمن، كما وصفهم بها في كتابه فقال: ﴿وعِبَادُ الرَّحمنِ الذينَ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْنًا﴾. [الفرقان: ٦٣].

قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار، من غير تكبر ولا تماوت، وهي مشية رسول الله، ﷺ، فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صبب، وكأنما

---

(١) ٣٢٧ مدارج جـ٢. (٢) ٨٧ زاد جـ١.

الأرض تطوى له حتى كان الماشي معه يجهد نفسه ورسول الله، ﷺ، غير مكترث.

وهذا يدل على أمرين: أن مشيته لم تكن مشية بتماوت، ولا بمهانة، بل مشية أعدل المشيات.

والمشيات عشرة أنواع، هذه الثلاثة منها. والرابع: السعي. والخامس: الرمل، وهو أسرع المشي مع تقارب الخطى، ويسمى الخبب.

وفي الصحيح من حديث ابن عمر «أن النبي، ﷺ، خبَّ في طوافه ثلاثًا، ومشى أربعًا».

والسادس: النَّسَلان، وهو العَدْو الخفيف الذي لا يزعج الماشي ويُكربه. وفي بعض المسانيد «أن المشاة شكوا إلى رسول الله، ﷺ، من المشي في حجة الوداع، فقال: «**استعينوا بالنسلان**».

والسابع: الخَوْزَلى، وهي مشية التمايل، وهي مشية يقال: إن فيها تكسرًا وتخنثًا.

والثامن: القهقرى، وهي المشية إلى وراء.

والتاسع: الجَمزى، وهي مشية يثب فيها الماشي وثبًا.

والعاشر: مشية التبختر، وهي مشية أولي العجب والتكبر، وهي التي خسف الله سبحانه بصاحبها لما نظر في عطفيه، وأعجبته نفسه، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة، وأعدل هذه المشيات: مشية الهون والتكفؤ.

وأما مشيه، ﷺ، مع أصحابه: فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم ويقول «**دعوا ظهري للملائكة**» ولهذا جاء في الحديث «**وكان يسوق أصحابه**» وكان يمشي حافيًا ومنتعلاً. وكان يماشي أصحابه فُرادى وجماعة. ومشى في بعض غزواته مرة فانقطعت إصبعه وسال منها الدم فقال:

**هل أنت إلا أصبع دميت		وفي سبيل الله ما لقيت**

وكان في السفر ساقة أصحابه: يزجي الضعيف ويردفه، ويدعو لهم. ذكره أبو داود.

فصل(١)

وأما السؤال العاشر: وهو السر في نصب سلام ضيف إبراهيم الملائكة ورفع سلامه: فالجواب أنك قد عرفت قول النحاة فيه أن سلام الملائكة تضمن

---

(١) ١٥٨ بدائع جـ٢.

جملة فعلية لأن نصب السلام يدل على سلمنا عليك سلامًا. وسلام إبراهيم تضمن جملة اسمية لأن رفعه يدل على أن المعنى سلام عليكم، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر، والفعلية تدل على الحدوث والتجدد، فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه، وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه، ﷺ، وهو مقام الفضل إذ حياهم بأحسن من تحيتهم، هذا تقرير ما قالوه.

وعندي فيه جواب أحسن من هذا وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة فنصب قوله سلامًا انتصاب مفعول القول المفرد، كأنه قيل: قالوا قولاً سلامًا وقالوا سدادًا وصوابًا ونحو ذلك، فإن القول إنما تحكي به الجمل، وأما المفرد فلا يكون محكيًا به بل منصوب به انتصاب المفعول به، ومن هذا قوله تعالى: ﴿**وإذا خاطَبَهم الجَاهِلُونَ قَالُوا سلامًا**﴾. [الفرقان: ٦٣]. ليس المراد أنهم قالوا هذا اللفظ المفرد المنصوب، وإنما معناه قالوا قولاً سلامًا، مثل: سدادًا وصوابًا. وسمي القول سلامًا لأنه يؤدي معنى السلام ويتضمنه من رفع الوحشة وحصول الاستيناس. وحكي عن إبراهيم لفظ سلامه، فأتى به على لفظه مرفوعًا بالابتداء محكيًا بالقول، ولولا قصد الحكاية لقال سلامًا بالنصب؛ لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعًا فعلى الحكاية ليس إلا. فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفعه ونصب ذلك إشارة إلى معنى لطيف جدًا وهو أن قوله سلام عليكم من دين الإسلام المتلقى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء، وأنه من ملة إبراهيم التي أمر الله بها وباتباعها. فحكى لنا قوله ليحصل الاقتداء به والاتباع له، ولم يحك قول أضيافه وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل. والله أعلم. فزن هذا الجواب والذي قبله بميزان غير جائر يظهر لك أقواهما وبالله التوفيق.

فصل

وأما السؤال الحادي عشر وهو نصب السلام من قوله تعالى: ﴿**وإذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلونَ قَالُوا سَلامًا**﴾. ورفعه في قوله حكاية عن مؤمني أهل الكتاب ﴿**سَلامٌ عليكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ**﴾. [القصص: ٥٥]. فالجواب عنه أن الله سبحانه مدح عباده الذين ذكرهم في هذه الآيات بأحسن أوصافهم وأعمالهم فقال: ﴿**وعِبادُ الرَّحمن الذيْنَ يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْنًا وإذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلونَ قَالُوا**

سَلاَمًا﴾. فسلاَماً هنا صفة لمصدر محذوف هو القول نفسه، أي قالوا قولاً سلامًا، أي سدادًا وصوابًا وسليمًا من الفحش والخنا، ليس مثل قول الجاهلين الذين يخاطبونهم بالجهل. فلو رفع السلام هنا لم يكن فيه المدح المذكور، بل كان يتضمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون سلموا عليهم. وليس هذا معنى الآية، ولا مدح فيه، وإنما المدح في الإخبار عنهم بأنهم لا يقابلون الجهل بجهل مثله، بل يقابلونه بالقول السلام، فهو من باب دفع السيئة بالتي هي أحسن التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم. وتفسير السلف وألفاظهم صريحة بهذا المعنى.

وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها، وأحكمها وأوقرها فقال: ﴿**الذين يمشون على الأرض هونًا**﴾ أي بسكينة ووقار. والهون بفتح الهاء من الشيء الهين، وهو مصدر هان هونًا أي سهل، ومنه قولهم: يمشي على هينته ولا أحسبها إلا مولدة، ومع هذا فهي قياس اللفظة فإنها على بناء الحالة والهيئة، فهي فعلة من الهون، وأصلها هونة فقلبت واوها ياء لانكسار ما قبلها فاللفظة صحيحة المادة والتصريف.

وأما الهون بالضم فهو الهوان، فأعطوا حركة الضم القوية للمعنى الشديد وهو الهوان، وأعطوا حركة الفتح السهلة للمعنى السهل وهو الهون. فوصف مشيهم بأنه مشي حلم ووقار وسكينة لا مشي جهل وعنف وتبختر، ووصف نطقهم بأنه سلام فهو نطق حلم وسكينة ووقار لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة، فلهذا جمع بين المشي والنطق في الآية، فلا يليق بهذا المعنى الشريف العظيم الخطير أن يكون المراد منه سلام عليكم فتأمله.

وأما قوله تعالى: ﴿**وإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عنْهُ وقَالُوا لنا أَعْمالُنَا ولَكُمْ أَعْمالُكُم سَلاَمٌ عليكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ**﴾. [القصص: ٥٥]. فإنها وصف لطائفة من مؤمني أهل الكتاب قدموا على رسول الله، ﷺ، مكة فآمنوا به، فعيرهم المشركون وقالوا: قبحتم من وفد، بعثكم قومكم لتعلموا خبر الرجل ففارقتم دينكم وتبعتموه ورغبتم عن دين قومكم، فأخبر عنهم بأنهم خاطبوهم خطاب متاركة وإعراض وهجر جميل، فقالوا: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين. وكان رفع السلام متعينًا لأنه حكاية ما وقع، ونصب السلام في آية الفرقان متعينًا

لأنه تعليم وإرشاد لما هو الأكمل والأولى للمؤمن أن يعتمده إذا خاطبه الجاهل. فتأمل هذه الأسرار التي أدناها يساوي رحلة. والله المحمود وحده على مامن به وأنعم.

وهي المـواهب من رب العباد فما يقـال لولا ولا هلا ولا فلما

[1]**قال** في الصحاح والغرام الوَلوع، وقد أغرم بالشيء أي أُولع به، والغريم الذي عليه الدين، يقال: خذ من غريم السوء ما سنح، ويكون الغريم أيضًا الذي له الدين. قال كُثيِّر عزَّة:

قضى كل ذي دينٍ فوفّى غريمه وعـزَّةُ ممطولٌ مُعنًّى غريمهـا

ومن المادة قوله تعالى في جهنم: ﴿إنَّ عذابَهَا كانَ غَرَامًا﴾. [الفرقان: ٦٥]. والغرام الشر الدائم اللازم والعذاب. قال بشر:

ويـوم النِسّـار ويـوم الجِفـا رِكـانـا عذابًـا وكـانـا غراما

وقال الأعشى:

إن يعـاقِـبْ يكـن غرامًـا يُعـ طِ جزيـلاً فإنـه لا يبـالي

وقال أبوعبيدة: ﴿إنَّ عَذابَهَا كانَ غرامًا﴾. كان هلاكًا ولزامًا لهم. وللطف المحبة عندهم واستعذابهم لها لم يكادوا يطلقون عليها لفظ الغرام، وإن لهج به المتأخرون.

[2]**ومنه** سمي عذاب النار غرامًا للزومه لأهله. وعدم مفارقته لهم، قال تعالى: ﴿إنَّ عذابَهَا كانَ غَرامًا﴾.

[3]**وقوله:** ﴿والذينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلكَ قَوامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. وقوله: ﴿وكُلُوا واشْرَبُوا ولَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ﴾. [الأعراف: ٣١]. فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه. وخير الناس النَّمط الأوسط، الـذين ارتفعـوا عن تقصـير المفرطين، ولم يلحقوا بغلوّ المعتدين. وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطًا، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط. والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها. فخيار الأمور أوساطها. قال الشاعر:

كانت هي الـوسط المحميّ فاكتنفَتْ بها الحـوادثُ حتى أصبحت طرفـا

---

(١) ٥٧ روضة. (٢) ٢٨ مدارج جـ٣. (٣) ١٨٢ إغاثة جـ١.

فصل (١)

وأما الفرق بين الاقتصاد والشح أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين عدل وحكمة، فبالعدل يعتدل في المنع والبذل، وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذي يليق به، فيتولد من بينهما الاقتصاد، وهو وسط بين طرفين مذمومين كما قال تعالى: ﴿ولا تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِك ولا تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾. [الإسراء: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿والذينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذلك قَوَامًا﴾. وقال تعالى: ﴿وكُلُوا واشْرَبُوا ولاَ تُسْرِفُوا﴾. [الأعراف: ٣١].

وأما الشح فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس، ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعًا، والهلع شدة الحرص على الشيء والشره به، فيتولد عنه المنع لبذله، والجزع لفقده كما قال تعالى: ﴿إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إذَا مَسَّهُ الشَرُّ جَزُوعًا. وإذَا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعًا﴾. [المعارج ١٩ - ٢١].

فصل (٢)

والفرق بين الاقتصاد والتقصير أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضدان له: تقصير ومجاوزة. فالمقتصد قد أخذ بالوسط وعدل عن الطرفين. قال تعالى: ﴿والذينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسرفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بينَ ذلكَ قَوَامًا﴾. وقال تعالى: ﴿ولا تجعَلْ يَدَكَ مَغلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ﴾. وقال تعالى: ﴿وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا﴾.

والدين كله بين هذين الطرفين، بل الإسلام قصد بين الملل، والسنة قصد بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر، والغلو مجاوزته وتعديه.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، فإما إلى غلو ومجاوزة، وإما إلى تفريط وتقصير. وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله، ﷺ، وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به، لا من ترك ما جاء

---

(١) ٢٨٩ الروح. (٢) ٣١٣ الروح.

به لأقوالهم وآرائهم .

وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بني آدم ، ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير ، وخوفوا من بُلي بأحدهما بالهلاك . وقد يجتمعان في الشخص الواحد كما هو حال أكثر الخلق ، يكون مقصرًا مفرطًا في بعض دينه غاليًا متجاوزًا في بعضه . والمهدي من هداه الله .

(١)**أصول** المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة : تعليق القلب بغير الله ، وطاعة القوة الغضبية ، والقوة الشهوانية ؛ وهي : الشرك ، والظلم ، والفواحش .

فغاية التعلق بغير الله شرك ، وأن يدعي معه إلـه آخر .

وغاية طاعة القوة الغضبية القتل ، وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا .

ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله : **﴿والذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إلـهًا آخَرَ ولا يَقتُلونَ النَّفْسَ التي حرَّم الله إلَّا بالحقِّ ولا يَزْنُونَ﴾** . [الفرقان : ٦٨] .

وهـذه الثـلاثـة يدعـو بعضهـا إلى بعض ، فالشرك يدعـو إلى الـظلم والفـواحش ، كما أن الإخـلاص والتـوحيد يصرفهـما عن صاحبـه . قال تعالى : **﴿كَذَلِكَ لِنَصرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ﴾** . [يوسف : ٢٤] . فالسوء : العشق ، والفحشاء : الزنا .

وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة ، فإن الشرك أظلم الظلم ، كما أن أعدل العدل التوحيد ؛ فالعدل قرين التوحيد ، والظلم قرين الشرك ، ولهذا يجمع سبحانه بينهما .

أما الأول ففي قوله : **﴿شَهِدَ الله أنَّه لا إلـه إلَّا هُوَ والمَلائِكَةُ وأُولو العِلْمِ قَائِـمًا بالقِسْطِ﴾** . [آل عمران : ١٨] . وأمـا الثاني فكقوله تعالى : **﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ﴾** . لقمان : ١٣] . والفاحشة تدعو إلى الشرك ، والظلم - ولا سيما - إذا قويت إرادتها ، ولم تحصل إلا بنوع من الظلم ، والاستعانة بالسحر والشيطان . , وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك في قوله : **﴿الزَّاني لا يَنْكِحُ إلَّا زَانيةً أَوْ مُشْرِكَةً والزَّانيَةُ لا يَنْكِحُها إلَّا زَانٍ أَوْ مُشرِكٌ وحُرِّمَ ذلكَ علَى المُؤْمِنينَ﴾** . [النور : ٣] . فهذه الثلاثة يجر

---

(١) ٨٠ فوائد .

بعضها إلى بعض، ويأمر بعضها ببعض، ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدًا، وأعظم شركًا، كان أكثر فاحشة، وأعظم تعلقًا بالصور وعشقًا لها(١).

(٢) وروي في الصحيح عنه، ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات** قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: **الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**». وفي الصحيح عنه، ﷺ، أنه سئل: أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك** قيل: ثم أي؟ قال: **أن تقتل ولدك مخافة أن يُطعم معك** قيل: ثم أي؟ قال: **أن تزني بحليلة جارك**» فأنزل الله تعالى تصديقها ﴿**والذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إلـهًا آخَرَ ولاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلَّا بالحَقِّ ولا يَزْنُونَ**﴾ الآية [الفرقان: ٦٨]. واختلف الناس في الكبائر، هل لها عدد يحصرها؟ على قولين. ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددها فقال عبدالله بن مسعود: هي أربعة. وقال عبدالله بن عمر: هي سبعة. وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: هي تسعة. وقال غيره: هي إحدى عشرة. وقال آخر: هي سبعون.

وقال أبو طالب المكي: جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب: وهي الشرك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. وأربعة في اللسان: وهي شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر. وثلاثة في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا. واثنتان في الفرج: وهما الزنا، واللواطة. واثنتان في اليدين وهما: القتل، والسرقة. وواحدة في الرجلين: وهي الفرار من الزحف. وواحدة تتعلق بجميع الجسد: وهي عقوق الوالدين. والذين لم يحصروها بعدد منهم من قال: كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة، وما نهى عنه الرسول، ﷺ، فهو صغيرة. وقالت طائفة: ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة. وما لم يقرن به من ذلك شيء فهو صغيرة.

وقيل: كل ما رتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة، وما لم

---

(١) تكملة البحث في سورة الشورى. (ج).	(٢) ١٦٨ الجواب.

يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة.

وقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

وقيل: كل ما لعن الله أو رسوله فاعله فهو كبيرة.

وقيل: كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عنْهُ نُكَفِّرْ عنكُمْ سيِّئَاتِكم**﴾. [النساء: ٣١].

والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا: الذنوب كلها بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه معصية ومخالفة أمره كبائر، فانظر إلى من عصي أمره وانتهكت محارمه فوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهي مستوية في هذه المفسدة.

قالوا: ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته. ولا فرق في ذلك بين ذنب وذنب.

قالوا: ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى، ولهذا لو شرب رجل خمرًا أو وطيء فرجًا حرامًا وهو لا يعتقد تحريمه لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام. ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان أتى بإحدى المفسدتين. وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول. فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب.

قالوا: ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمره المطاع ونهيه وانتهاك حرمته. وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب. . .

(١)**وفي** جامع الترمذي عن نافع قال: نظر عبدالله بن عمر يومًا إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك. قال الترمذي هذا حديث حسن.

وفي صحيح البخاري أيضًا عن ابن عمر قال: قال رسول الله، ﷺ: «**لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا**».

---

(١) ٢٠١ الجواب.

وذكر البخاري أيضًا عن عمر قال: «من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة يرفعه: «**سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر**».

وفيهما أيضًا عنه، ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**». وفي صحيح البخاري عنه، ﷺ: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا**». هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان معاهدًا في عهده وأمانه، فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن؟ وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا وعطشًا فرآها النبي، ﷺ، في النار والهرة تخدشها في وجهها وصدرها، فكيف عقوبة من حبس مؤمنًا حتى مات بغير جرم، وفي بعض السنن عنه، ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق**».

فصل

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم، كانت تلي مفسدة القتل في الكبر. ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله، ﷺ، في سنته كما تقدم.

قال الإمام أحمد: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنى. وقد أكد سبحانه حرمته بقوله: ﴿**والذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إلـهًا آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلَّا بالحَقِّ ولا يَزْنُـونَ**﴾. [الفرقان: ٦٨]. فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إلَّا مَنْ تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فأولئكَ يُبَدِّلُ الله سيِّئاتِهِم حَسَنات وكانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا**﴾. [الفرقان: ٧٠]. وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح. وهو حقيقة التوبة. قال ابن عباس

(١) ٣٠١ مدارج جـ١.

رضي الله عنهما: «ما رأيت النبي، ﷺ، فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت. وفرحه بنزول ﴿**إنَّا فتحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبينًا لِيَغْفِرَ لكَ الله ما تَقَدَّمَ منْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ**﴾. [الفتح: ١]».

واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟ على قولين:

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها. فبدلهم بالشرك إيمانًا، وبالزنا عفَّة وإحصانًا، وبالكذب صدقًا، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بُدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالاً صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب، وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه. ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا. وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها. فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: إن لي ذنوبًا ما أراها ههنا**» قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله، ﷺ، ضحك حتى بدت نواجذه».

فهذا حديث صحيح. ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر. فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار. ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطي مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه. وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات؛ إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته. فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعـد تمهيد قاعـدة، إذا عُرفت عُرف لطف الاستدلال به ودقته. وهي أن الذنب لابد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه، فلابد إذًا من دخول النار؛ لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث. ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه. فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كِيْرَ الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه. فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح، وهي أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطي مكان كل سيئة حسنة. فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة؛ لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله، وإزالـة النـار بدل منهـا. وهي الأصـل. فهي أولى بالتبـديل مما بعـد الدخول. يوضحه:

الوجه التاسع: وهو أن التائب قد بدَّل كل سيئة بندمه عليها حسنة؛ إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة. والتوبة من كل ذنب حسنة. فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار. فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة. وقد تكون دونها. وقد تكون فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها. يوضحه:

الوجه العاشر: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعًا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على

إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه. كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة. فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله: ﴿يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

وأما في الحديث: فإن الذي عُذِّب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأعطي مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبي، ﷺ، عن كبار ذنوبه. ولما انتهى إليها ضحك، ولم يبين ما يفعل الله بها. وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة. ولكن في الحديث إشارة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله «اخبئوا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها. فيكون تبديلها أعظم موقعًا عنده من تبديل الصغائر. وهو به أشد فرحًا واغتباطًا.

والثاني: ضحك النبي، ﷺ، عند ذكر ذلك. وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقرُّ به على نفسه من الذنوب، من غير أن يقرَّر عليها ولا يسأل عنها، وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع. لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

فصل[1]

و«التوبة» لها مبدأ ومنتهى. فمبدؤها: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، الذي نصبه لعباده، موصلاً إلى رضوانه. وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى:

---

(١) ٣١٤ مدارج جـ١.

﴿وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾. [الأنعام: ١٣٥]. وبقوله: **﴿وإنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ الله الذي لَهُ مَا في السَّموات ومَا في الأَرْضِ﴾**. [الشورى: ٥٢، ٥٣]. وبقوله: **﴿وهُدُوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ وهُدُوا إلى صِرَاطِ الحَمِيدِ﴾**. [الحج: ٢٤].

ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته. فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة: رجع إليه في المعاد بالثواب. وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى: **﴿ومَنْ تَابَ وعَمِلَ صالحًا فإنَّهُ يَتُوبُ إلى الله مَتَابًا﴾**. [الفرقان: ٧١]. قال البغوي وغيره: «يتوب إلى الله متابًا: يعود إليه بعد الموت، متابًا حسنًا يفضل على غيره» فالتوبة الأولى وهي قوله: «ومن تاب» - رجوع عن الشرك. والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجزاء متضمن معنى الأوامر. والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها، فليجعل توبته إلى الله وحده، ولوجهه خالصًا، لا لغيره.

التأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه، ورجع إليه. والمعنى: فليعلم توبته إلى من؟ ورجوعه إلى من؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره.

ونظير هذا - على أحد التأويلين - قوله تعالى: **﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ وإنْ لمْ تَفْعَلْ فمَا بلَّغْتَ رسالَتَهُ﴾**. [المائدة: ٦٧]. أي اعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته.

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولاً بالقصد والعزم على فعلها. ثم إذا قوي العزم وصار جازمًا: وُجد به فعل التوبة. فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها. والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها. والمعنى: فمن تاب إلى الله قصدًا ونية وعزمًا، فتوبته إلى الله عملاً وفعلاً. وهذا نظير قوله، ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**». فالتوبة الصحيحة لها علامات:

---

(١) ١٨٥ مدارج جـ١.

منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين. فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿**أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾. [فصلت: ٣٠]. فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخداع قلبه، وتقطعه ندمًا وخوفًا. وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها. وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿**لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ**﴾. [التوبة: ١١٠]. قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه. وهذا حقيقة التوبة؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرَّط حسرة وخوفًا، تقطع في الآخرة إذا حقَّت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين. فلابد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد. وإنما هي أمر وراء هذا كله. تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلاً خاشعًا، كحال عبد جانٍ آبقٍ من سيده، فأخِذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدًّا ولا عنه غناء، ولا منه مهربًا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته. هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه! وما أعظم جَبْره بها. وما أقربه بها من سيده! فليس شيء أحبَّ إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه والاستسلام له...

(١)... **وجرت** هذه المسألة بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية، فسمعته

---

(١) ٢٤٥ المجرتين.

يحكي هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجردة، فإما سألته وإما سئل عن الصواب منها، فقال: الصواب أن من التائبين من يعود إلى مثل حاله، ومنهم من يعود إلى أكمل منها، ومنهم من يعود إلى أنقص مما كان. فإن كان بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة، وأشد حذرًا، وأعظم تشميرًا، وأعظم ذلًّا وخشية وإنابة، عاد إلى أرفع مما كان. وإن كان قبل الخطيئة أكمل في هذه الأمور ولم يعد بعد التوبة إليها عاد إلى أنقص مما كان عليه. وإن كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع إلى مثل منزلته. هذا معنى كلامه.

قلت: وههنا مسألة هذا الموضع أخص المواضع ببيانها، وهي أن التائب إذا تاب إلى الله توبة نصوحًا فهل تمحى تلك السيئات ويذهب لا له ولا عليه، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة؟ هذا مما اختلف الناس فيه من المفسرين وغيرهم قديمًا وحديثًا.

فقال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، لكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة.

قال ابن عطية: يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة، فيكون ذلك سببًا لرحمة الله إياهم. قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن، ورد على من قال هو في يوم القيامة. قال: وقد ورد حديث في كتاب مسلم من طريق أبي ذر يقتضي أن الله سبحانه يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين بدل سيئاته حسنات، وذكره الترمذي والطبري. وهذا تأويل سعيد بن المسيب في هذه الآية. قال ابن عطية: وهو معنى كرم العفو. هذا آخر كلامه. قلت: سيأتي إن شاءالله ذكر الحديث بلفظه والكلام عليه. قال المهدوي: وروي معنى هذا القول عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما. وقال الثعلبي: قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد ﴿**يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾. [الفرقان: ٧٠]. يبدلهم الله بقبيح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيمانًا، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصانًا. وقال آخرون: يعني يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم حسنات يوم القيامة.

وأصل القولين أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة؟ فمن قال

إنه في الدنيا قال: هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها، وهي حسنات، وهذا تبديل حقيقة. . . .

(١). . . **واحتجت** الطائفة الأخرى التي قالت: هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة بأن قالت: حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة. وهذا إنما يكون في السيئة المحققة، وهي التي قد فعلت ووقعت، فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة.

قالوا: ولهذا قال تعالى: ﴿سَيِّئَاتِهِم حَسَنات﴾. فأضاف السيئات إليهم لكونهم باشروها واكتسبوها، ونكر الحسنات ولم يضفها إليهم لأنها من غير صنعهم وكسبهم، بل هي مجرد فضل الله وكرمه.

قالوا: وأيضًا فالتبديل في الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم. فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات. ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل إليهم فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات، والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها كما قال الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الذينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ﴾. [البقرة: ٥٩]. وأما ما كان من غير الفاعل فإنه يجعله من تبديله هو كما قال الله تعالى: ﴿وبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾. [سبأ: ١٦]. فلما أخبر سبحانه أنه هو الذي يبدل سيئاتهم حسنات دل على أنه شيء فعله هو سبحانه بسيئاتهم، لا أنهم فعلوه من تلقاء أنفسهم، وإن كان سببه منهم، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح.

قالوا: ويدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها: رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها. فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيقول: نعم. لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة. فيقول: رب، قد عملت أشياء لا أراها ههنا**، فلقد رأيت رسول الله، ﷺ، ضحك حتى بدت نواجذه».

(١) ٢٤٧ المجرتين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله، ﷺ: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه. قال: فتعرض عليه، ويخبأ عنه كبارها. فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ وهو مقر لا ينكر وهو مشفق من الكبار. فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. قال فيقول: إن لي ذنوبًا ما أراها**» فلقد رأيت رسول الله، ﷺ، ضحك حتى بدت نواجذه.

قالوا: وأيضًا فروى أبو حفص المستملي عن محمد بن عبدالعزيز بن أبي رِزمة حدثنا الفضل بن موسى القطيعي عن أبي العنبس عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، ﷺ: «**ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات**». قيل: من هم؟ قال: «**الذين بدل سيئاتهم حسنات**». قالوا: وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة، فإنهم إنما سموا أبدالًا لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة بالأعمال الحسنة، فبدل الله سيئاتهم التي عملوها حسنات.

قالوا: وأيضًا فالجزاء من جنس العمل، فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة بدلها الله من صحف الحفظة حسنات جزاء وفاقًا...

فصل(١)

الاسم الثاني والثالث: الزُّور، واللغو.

قال تعالى: ﴿**والذينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وإِذَا مَرُّوا باللَّغوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾. [الفرقان: ٧٢]. قال محمد بن الحنفية: «الزور ههنا الغناء» وقاله ليث عن مجاهد. وقال الكلبي: لا يحضرون مجالس الباطل.

واللغو في اللغة: كل ما يُلغَى ويُطرَح، والمعنى: لا يحضرون مجالس الباطل. وإذا مروا بكل ما يُلغى من قول وعمل أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه، أو يميلوا إليه. ويدخل في هذا: أعياد المشركين، كما فسرها به السلف، والغناء، وأنواع الباطل كلها.

(١) ٢٤١ إغاثة جـ ١.

قال الزجاج: «لا يجالسون أهل المعاصي، ولا يمالئونهم عليها، ومروا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه، والاختلاط بأهله».

وقد رُوي أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: مر بلهو فأعرض عنه. فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنْ أصْبحَ ابنُ مسعودٍ لكريمًا»**(١).

وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله: ﴿**وإذَا سَمِعُوا اللغْوَ أعْرَضُوا عنْهُ وقالُوا لنَا أعْمَالُنَا ولَكُمْ أعمالُكُمْ**﴾. [القصص: ٥٥].

وهذه الآية، وإن كان سبب نزولها خاصًا، فمعناها عامٌّ(٢)، متناول لكل من سمع لغوًا فأعرض عنه، وقال بلسانه أو بقلبه لأصحابه ﴿**لنَا أعْمَالُنَا ولَكُم أعمالُكُم**﴾.

وتأمل كيف قال سبحانه ﴿**لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾. ولم يقل: بالزور؛ لأن «يشهدون» بمعنى: يحضُرون. فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور، فكيف بالتكلُّم به، وفعله؟. والغناء من أعظم الزور.

والزور: يقال على الكلام الباطل، وعلى العمل الباطل، وعلى العين نفسها. كما في حديث معاوية لما أخذ قُصَّة من شعر يُوصَل به، فقال: «هذا الزور»(٣) فالزور: القول، والفعل، والمحلُّ.

---

(١) بهامش الأصل: قوله «إن أصبح يعني» «قد» لأن «إن» المكسورة المسكنة من فوائدها أن تأتي بمعنى «قد» قاله ابن هشام في مغني اللبيب اهـ. والحديث ذكره ابن كثير في تفسير الآية، من طريق ابن أبي حاتم. وفيه «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريمًا».

(٢) ذكر ابن كثير عن ابن إسحاق أنها نزلت في عشرين من نصارى الحبشة وفدوا إلى مكة فسمعوا القرآن من رسول الله، ﷺ، ففاضت أعينهم وأسلموا. فوبخهم أبو جهل في نفر من قريش. فقالوا: سلام عليكم، لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه. لم نأل أنفسنا خيرًا.

(٣) روى مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف أنه «سمع معاوية عام حج على المنبر ـ وتناول قصة من شعر كانت في يد حرسي ـ فقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله، ﷺ، ينهى عن مثل هذا. ويقول: إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم». وفي رواية للبخاري ومسلم عن ابن المسيب قال: «قدم معاوية المدينة فخطبنا، وأخرج كبة من شعر فقال: ما كنت أرى أن أحدًا يفعله إلا اليهود، إن رسول الله، ﷺ، بلغه، فسماه الزور». وفي أخرى للبخاري: أن معاوية قال ذات يوم: «إنكم قد أحدثتم زي سوء، وإن نبي الله، ﷺ، نهى عن الزور».

وأصل اللفظة من الميل. ومنه الزَّوَر، بالفتح. ومنه: زُرت فلانًا، إذا مِلْتُ إليه، وعدلتُ إليه. فالزور: مَيلٌ عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولًا وفعلًا. اهـ.

(١)... **وأما** الشعانين فهي أعياد لهم أيضًا، والفرق بينها وبين الباعوث أنه اليوم والوقت الذي ينبعثون فيه على الاجتماع والاحتشاد. وقولهم: «ولا نرفع أصواتنا مع موتانا» لما فيه من إظهار شعار الكفر، فهذا يعم رفع أصواتهم بقراءتهم وبالنوح وغيره، وكذلك إظهار النيران معهم، إما بالشمع، أو السرج، أو المشاعل ونحوها(٢). فأما إذا أوقدوا النار في منازلهم وكنائسهم ولم يظهروها لم يتعرض لهم فيها. وقد سمى الله سبحانه أعياهم زورًا، والزور لا يجوز إظهاره، فقال تعالى: ﴿والـذينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾. قال عبدالرحمن بن أبي حاتم في «تفسيره»(٣): حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أحمد بن عبدالرحمن بن سعيد الخرار(٤) حدثنا حسين بن عقيل، عن الضحاك: ﴿والذينَ لا يشهَدونَ الزُّورِ﴾: عيد المشركين.

وقال سعيد بن جبير: الشعانين، وكذلك قال ابن عباس: «الزور عيد المشركين».

فصل

وكما أنهم لا يجوز لهم إظهاره فلا يجوز للمسلمين ممالأتهم عليه، ولا مساعدتهم، ولا الحضور معهم باتفاق أهل العلم الذين هم أهله. وقد صرح به الفقهاء من أتباع الأئمة الأربعة في كتبهم، فقال أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن منصور الطبري الفقيه الشافعي: ولا يجوز للمسلمين أن يحضروا أعيادهم؛ لأنهم على منكر وزور، وإذا خالط أهل المعروف أهل المنكر بغير الإنكار عليهم كانوا كالراضين به المؤثرين له، فنخشى من نزول سخط الله على جماعتهم، فيعم الجميع، نعوذ بالله من سخطه...

---

(١) ٧٢١ أحكام جـ٢.

(٢) ولقد كان الخليفة المتوكل صارمًا في هذا كله، فقد أصدر سنة ٢٣٥ أوامره ألا يظهر النصارى في شعانينهم صليبًا، وألا يقرؤوا الصلوات في الشوارع (الطبري ٣/١٣٨٩)، ونهاهم عن إشعال النار في الطرق (المقريزي ٢/٤٩٤).

(٣) قارن بتفسير الطبري ١٩/٣١.

(٤) كذا بالأصل (الخرار) ولعله (الخراز).

(١)**قوله** تعالى: ﴿**والذينَ إذَا ذُكِّرُوا بآياتِ ربِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عليهَا صُمًّا وعُمْيانًا**﴾ [الفرقان: ٧٣]. قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صمًّا لم يسمعوه، وعميانًا لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به. وقال ابن عباس: لم يكونوا عليها صمًّا وعميانًا، بل كانوا خائفين خاشعين. وقال الكلبي: يخرون عليها سمعًا وبصرًا. وقال الفراء: وإذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى، كأنهم لم يسمعوه فذلك الخرور(٢).

وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني. والمعنى على ما ذكر: لم يصيروا عندها صمًّا وعميانًا.

وقال الزجاج: المعني إذا تليت عليهم خرُّوا سجدًا وبكيًّا، سامعين مبصرين، كما أمروا به. وقال ابن قتيبة: أي لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها.

قلت: ههنا أمران، ذكر الخرور، وتسليط النفي عليه. وهل هو خرور القلب، أو خرور البدن للسجود، وهل لمعنى خرورهم عن صمم وعمه، فلهم عليها خرور بالقلب خضوعًا أو بالبدن سجودًا، أو ليس هناك خرور، وعبر به عن القعود.

(٣)**وقال** سعيد بن منصور حدثنا حزم قال: سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله تعالى: ﴿**ربَّنَا هَبْ لنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْينُ**﴾. [الفرقان: ٧٤]. فقال: يا أبا سعيد ما هذه القرة الأعين، أفي الدنيا أم في الآخرة؛ قال: لا، بل والله في الدنيا، قال: وما هي؟ قال: والله أن يُري الله العبد من زوجته من أخيه من حميمه طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولدًا أو والدًا أو حميمًا أو أخًا مطيعًا لله عز وجل.

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله، عليه الصلاة والسلام: «**كلكم مسئول عن رعيته، فالأمير راع على الناس وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو**

---

(١) ٧٩ فوائد.		(٢) الخرور: مصدر خرّ أي:سقط.		(٣) ١٣٤ تحفة.

مسئول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

(١)**الوجـه** الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿والذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَـا وذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا للمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾. وإمام بمعنى قُدوة، وهو يصلح للواحـد والجمـع ،كـالأمة والأسوة. وقد قيل: هو جمع آمم، كصاحب وصِحاب، ورَاجِل ورِجال، وتاجر وتجار. وقيل: هو مصدر كقِتال وضِراب، أي ذَوي إمام. والصواب الوجه الأول، فكل من كان من المتقين وجَب عليه أن يأتم بهم، والتقوى واجبة، والائتمام بهم واجب، ومخالفتهم فيما أفْتَوْا به مخالف للائتمام بهم، وإن قيل «نحن نأتم بهم في الاستدلال وأصول الدين» فقد تقدم من جواب هذا ما فيه كفاية.

(٢) فصـــل

والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها؛ فإن الناصح لله المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه. فقد ناصح الله في عبوديته، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله. فهو يحب الإمامة في الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا يقتدي به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين.

فإذا أحب هذا العبـد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً، وفي قلوبهم مهيبًـا، وإليهم حبيبًا، وأن يكون فيهم مطاعًا لكي يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده لم يضره ذلك، بل يحمد عليه؛ لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع ويعبد ويوحد، فهو يحب ما يكون عونًا على ذلك موصلاً إليه.

ولهـذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ثم قال: ﴿والذينَ يقـولُونَ ربَّنَا هَبْ لنَا من أَزْوَاجِنَا وذُرِّيَّاتِنَا قُرَّة أَعْيُنٍ واجْعَلنَا للمُتَّقِينَ إمامًا﴾. فسألوه أن يقرّ أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته؛ فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة، فإنما

---

(١) ١٣٥ إعلام جـ٤.	(٢) ٣٠٧ الروح.

سألوه ما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين كما قال تعالى: ﴿وجَعَلنَا منهُم أئمَّةً يَهْدُونَ بأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾. [السجدة: ٣٢].

وسؤالهم أن يجعلهم أئمـة للمتقـين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمنّ عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهرًا و باطنًا التي لا تتم الإمامة إلا بها.

وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جل جلاله؛ ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته.

وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف وهي المنازل العالية في الجنة. لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد في الدين كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض، وتعبد القلوب لهم، وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم، مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم. فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان، والحقد والظلم والفتنة، والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقره الله، واحتقار من أكرمه الله. ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك، ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد. والرؤساء في عمى عن هذا، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه، ولاسيما إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيرًا وتصغيرًا كما صغروا أمر الله وحقروا عباده.

(١)**قال تعالى**: ﴿لكنِ الذينَ اتَّقَوْا ربَّهُم لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مبنيَّةٌ﴾. [الزمر: ٢٠]. فأخبر أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة؛ لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل وأنه ليس هناك بناء، بل تتصور النفوس غرفًا مبنية كالعلالي بعضها فوق بعض حتى كأنها ينظر إليها عيانًا. ومبنية صفة للغرف الأولى والثانية، أي لهم منازل مرتفعة، وفوقها منازل أرفع منها.

---

(١) ١٠٢ حادي.

وقال تعالى: ﴿أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾. [الفرقان: ٧٥]. والغرفة جنس كالجنة. وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله، الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم، فبدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم.

وقال تعالى: ﴿وما أَمْوالُكُم ولا أَوْلادُكُم بالتي تُقَرِّبُكُم عِنْدَنا زُلْفى إلاَّ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحًا فأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بما عَمِلُوا وهُمْ في الغُرُفاتِ آمِنُونَ﴾. [سبأ: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿يَغْفِر لكُمْ ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ومَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾. [الصف: ١٢].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفرقان

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**وهو** سبحانه يذكر في سورة الشعراء ما أوقع بالمشركين من أنواع العقوبات، ويذكر إنجاءه لأهل التوحيد. ثم يقول: ﴿**إنَّ في ذَلِكَ لآيةً وما كانَ أكْثَرُهُم مُؤمنينَ. وإنَّ ربَّكَ لَهُوَ العزيزُ الرَّحيمُ**﴾. [الشعراء: ٨، ٩]. فيذكر شرك هؤلاء الذين استحقوا به الهلاك، وتوحيد هؤلاء الذين استحقوا به النجاة. ثم يخبر أن في ذلك آية وبرهانًا للمؤمنين، ثم يذكر مصدر ذلك كله، وأنه عن أسمائه وصفاته. فصدور هذا الإهلاك عن عزته. وذلك الإنجاء عن رحمته. ثم يقرر في آخر السورة نبوة رسوله بالأدلة العقلية أحسن تقرير. ويجيب عن شبه المكذبين له أحسن جواب. وكذلك تقريره للمعاد بالأدلة العقلية والحسية. فضرب الأمثال والأقيسة، فدلالة القرآن: سمعية وعقلية.

(٢)**وإذا** كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله وتزاحم هذه المحبة فإنها تمنع كمال التصديق فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفرًا أو شركًا أكبر، وإن لم تعارضه قدحت في كماله وأثرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب، وهي تحجب الواصل، وتقطع الطالب، وتنكي الراغب. فلا تصلح الموالاة إلا بالمعاداة، كما قال ـ تعالى ـ عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿**أفَرأَيْتُم ما كُنْتُم تَعْبُدُونَ. أَنْتُم وآباؤكُم الأَقْدَمُون. فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إلَّا رَبَّ العَالَمين**﴾ [الشعراء: ٧٥ـ ٧٧]. فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإن ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه.

قال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَت لكُمْ أُسْوةٌ حَسنةٌ في إبراهِيمَ والذينَ مَعَهُ إذْ قَالوا لقومِهِم إنَّا بُرَآءُ مِنكُم ومِمَّا تَعْبُدونَ منْ دُونِ الله كفرْنَا بكُم وبَدا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ العَداوَةُ والبَغْضاءُ أبدًا حتَّى تُؤمِنُوا باللهِ وحْدَهُ**﴾. [الممتحنة: ٤].

(١) ٤٩٢ مدارج جـ٣.		(٢) ٢٦٤ الجواب.

وقال تعالى : ﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ وقَوْمِهِ إنَّني بَرآءٌ مِّمَّا تَعبُدُونَ . إلَّا الـذي فَطَرَنِي فإنَّـهُ سَيهـدِينِ . وجَعَلَهـا كَلِمةً باقِيةً في عَقبهِ لعلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨] . أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة : لا إلـه إلا الله .

وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة .

وهي الكلمـة التي قامت بها الأرض والسمـوات ، وفطر الله عليها جميع المخلوقات ، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد .

وهي محض حق الله على جميع العباد ، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار ، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار .

وهي المنشـور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به ، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه .

وهي كلمـة الإسـلام ومفتاح دار السلام ، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد ومقبـول وطـريد ، وبها انفصلت دار الكفر من دار السلام ، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان .

وهي العمود الحامل للفرض والسنة «ومن كان آخر كلامه لا إلـه إلا الله دخل الجنة» .

وروح هذه الكلمة وسرها : إفراد الرب ـ جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمـه وتعـالى جـده ولا إلـه غيره ـ بالمحبة ، والإجلال ، والتعظيم ، والخوف ، والرجاء ، وتوابع ذلك ، من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه ، بل كل ما كان يحب غيره ، فإنما هو تبعًا لمحبته وكونه وسيلة إلى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يحتسب إلا به ، ولا يستعان في الشدائد إلا به ، ولا يلتجأ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ، ولا يذبح إلا له وباسمه . يجتمع ذلك في حرف واحد وهو : أن لا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو . فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إلـه إلا الله . . . . .

(١). . . **قول** الخليل ﷺ: ﴿الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين. والذي هو يُطْعِمُني ويَسْقِين. وإذَا مَرضتُ فهوَ يَشفين. والذي يُمَيتُني ثمَّ يُحيين. والذي أَطْمَعُ أنْ يغفِرَ لي خَطيئَتي يَومَ الدِّين﴾. [الشعراء: ٧٨-٨٢]. فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال، ونسب إلى نفسه النقص منها وهو: المرض، والخطيئة، وهذا كثير في القرآن ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب الفوائد المكية، وبينا هناك السر في مجيء ﴿الذينَ آتينَاهُمُ الكِتابَ﴾ [البقرة: ١٢١]. و﴿الذينَ أُوتُوا الكِتابَ﴾. [البقرة: ١٤٥]. والفرق بين الموضعين، وأنه حيث ذكر الفعل كان من آتاه الكتاب واقعًا في سياق المدح. وحيث حذفه كان من أوتيه واقعًا في سياق الذم أو منقسمًا، وذلك من أسرار القرآن. ومثله ﴿ثمَّ أورَثْنَا الكِتَابَ الذينَ اصْطَفَينَا مِنْ عِبَادنَا﴾. [فاطر: ٣٢]. وقال: ﴿وإنَّ الذينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهم لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُريب﴾. [الشورى: ١٤]. وقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِم خَلْفٌ ورِثُوا الكِتَابَ يأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾. [الأعراف: ١٦٩]. وبالجملة فالذي يضاف إلى الله ـ تعالى ـ كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه.

(٢). . . **أثنى** الله على خليله عليه السلام بسلامة القلب فقال تعالى: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاءَ ربَّه بقلبٍ سليم﴾. وقال حاكيًا عنه: ﴿يومَ لا ينفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ إلاَّ مَنْ أتَى الله بقلبٍ سليم﴾. والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله. فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد.

ولا يتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد. وبدعة تخالف السنة. وشهوة تخالف الأمر. وغفلة تناقض الذكر. وهوى يناقض التجريد. والإخلاص يعم.

وهذه الخمسة حجب عن الله. وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفرادًا لأشخاص لا تحصر، ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن

(١) ٣١٥ بدائع جـ٣. (٢) ١٦٣ الجواب.

يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم. فليس العبد أحوج إلى شيء منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع منها. فإن الصراط المستقيم يتضمن علومًا وإرادة وأعمالاً وتروكًا ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت.

فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها. وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه. وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه. وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده كسلاً وتهاونًا أو لقيام مانع وغير ذلك. وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله. وما يفعله قد يقوم بشروط الإخلاص فيه وقد لا يقوم. وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم. وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه. وهذا كله واقع سار في الخلق، فمستقل ومستكثر.

فصل(١)

والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله هو القلب الذي قد سلم من هذا وهذا، فهو القلب الذي قد سلم لربه وسلم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره، فهو سليم مما سوى الله وأمره، لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله، فالله وحده غايته، وأمره وشرعه وسيلته وطريقته، لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره، لكن لا تمر عليه إلا وهي مجتازة تعلم أنه لا قرار لها فيه، ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه.

ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك، وسليم من البدع، وسليم من الغي، وسليم من الباطل. وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك يتضمنها.

وحقيقته: أنه القلب الذي قد سلم لعبودية ربه حبًّا وخوفًا وطمعًا ورجاء ففني بحبه عن حب ما سواه وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وسلم لأمره ولرسوله تصديقًا وطاعة كما تقدم، واستسلم لقضائه وقدره، فلم يتهمه، ولم ينازعه، ولم يتسخط لأقداره، فأسلم لربه انقيادًا وخضوعًا وذلاً وعبـودية، وسلم جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهرًا وباطنًا من

(١) ٤١ مفتاح جـ١.

مشكاة رسوله وعرض ما جاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده، وما لم يتبين له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمره وأرجأه إلى أن يتبين له، وسالم أولياءه وحزبه المفلحين الذابّين عن دينه وسنة نبيه، القائمين بها، وعادى أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه الخارجين عنهما الداعين إلى خلافهما.

(١). . . **لما** لكان القلب يوصف بالحياة وضدها. انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة. فالقلب الصحيح: هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال تعالى: **﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ * إلاَّ منْ أَتَى الله بقلبٍ سَليمٍ﴾**. [الشعراء: ٨٨- ٨٩]. والسليم هو السالم، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات، كالطويل والقصير والظريف، فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضًا فإنه ضد المريض، والسقيم، والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره. فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله. فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله، في خوفه ورجائه(١) والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادة ومحبة، وتوكلاً، وإنابة، وإخباتًا، وخشية، ورجاء، وخلص عمله لله. فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فيعقد قلبه معه عقداً محكما على الائتمام والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال، من أقوال القلب، وهي العقائد، وأقوال اللسان. وهي الخبر عما في القلب. وأعمال القلب. وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دِقِّه وجِلِّه، هو ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه

(١) ٧ إغاثة جـ١.

وآله وسلم، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل.

فصل في القلب الميت(١)

والقلب الثاني ضد هذا، وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله: حبًّا وخوفًا، ورجاء، ورضا وسخطًا، وتعظيمًا، وذلًّا. إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه. فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه. فالهوى إمامه. والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه. فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور. ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، ولا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد. الدنيا تسخطه وترضيه. والهوى يصمّه عما سوى الباطل ويُعميه. فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

**عدو لمن عادت، وسلم لأهلها		ومن قَرَّبت ليلى أحبّ وأقربا**

فمخالطة صاحب هذا القلب سَقَم. ومعاشرته سُمٌّ. ومجالسته هلاك.

فصل في القلب المريض

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة. فله مادتان، تمده هذه مرة، وهذه أخرى. وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له، والتوكل عليه: ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة. وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول، حي مخبت لين واع، والثاني يابس ميت، والثالث مريض، فإما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى.

---

(١) ٩ إغاثة جـ١.

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلنا مِنْ قبلِكَ مِنْ رَسول ولا نبيّ إلاَّ إذا تَمَنَّى أَلقَى الشيطانُ في أُمنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ الله ما يُلقِي الشَّيطانُ﴾. [الحج: ٥٢].

(١) **والفرق** بين سلامة القلب والبله والتغفل: أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعلم به، وهـذا بخـلاف البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه. والكمال أن يكون القلب عارفًا بتفاصيل الشر سليمًا من إرادته. قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: لست بخب ولا يخدعني الخب. وكان عمر أعقل من أن يُخْدَعَ، وأورع من أن يَخْدَعَ.

وقال تعالى: ﴿يومَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ * إلاَّ مَنْ أَتَى الله بقلبٍ سليمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من مرض الشبهـة التي توجب اتبـاع الـظن، ومـرض الشهـوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا.

(٢) **وأما** الشرك، فهو نوعان: أكبر وأصغر. فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه. وهو أن يتخذ من دون الله ندًّا، يحبه كما يحب الله. وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين. ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿تالله إنْ كُنَّا لفِي ضَلالٍ مُبينٍ. إذْ نُسَوِّيكُم بربِّ العَالمينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]. مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت. وإنـما كانت هذه التسـوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم. يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله. وكثير منهم ـ بل أكثرهم ـ يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله. ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده. ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم ـ من المشايخ ـ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين. وإذا انتهكت حرمـة من حرمـات آلهتهم ومعبـوداتهم غضبـوا غضب الليث. إذا حَرِد. وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئًا رضوا

(١) ٢٩٧ الروح. (٢) ٣٣٩ مدارج جـ١.

عنه. ولم تتنكر له قلوبهم. وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جَهرة. وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلـهه ومعبوده من دون الله على لسانه دَيْدَنًا له إن قام وإن قعد. وإن عثر وإن مرض وإن استوحش. فذكر إلـهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه. وهو لا ينكر ذلك. ويزعم أنه باب حاجته إلى الله، وشفيعه عنده. ووسيلته إليه. . . .

(١) **ولما** كانت كثرة ذكر الشيء موجبة لدوام محبته، ونسيانه سببًا لزوال محبته أو ضعفها، وكان الله سبحانه هو المستحق من عباده نهاية الحب مع نهاية التعظيم.

بل الشرك الذي لا يغفره الله تعالى هو أن يشرك به في الحب والتعظيم. فيحب غيره ويعظم من المخلوقات غيره. كما يحب الله تعالى ويعظمه قال تعالى: **﴿ومن النَّاسِ مَنْ يتَّخذُ من دونِ الله أَنْدَادًا يُحِبُّونَهم كَحُبِّ الله والذينَ آمَنُوا أَشَدُّ حبًّا لله﴾**. [البقرة: ١٦٥]. فأخبر سبحانه أن المشرك يحب الند كما يحب الله تعالى وأن المؤمن أشد حبًّا لله من كل شيء.

وقال أهل النار في النار: **﴿تالله إنْ كنَّا لفِي ضلالٍ مُبين. إذْ نُسَوِّيكُم بربِّ العالمين﴾**. [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. ومن المعلوم أنهم إنما سووهم به ـ سبحانه ـ في الحب والتألة والعبادة، وإلا فلم يقل أحد قط: إن الصنم أو غيره من الأنداد مساوٍ لرب العالمين في صفاته، وفي أفعاله، وفي خلق السموات والأرض، وفي خلق عابده أيضًا. وإنما كانت التسوية في المحبة والعبادة.

وأضل من هؤلاء وأسوأ حالاً من سوى كل شيء بالله ـ سبحانه ـ في الوجود، وجعله وجود كل موجود كامل أو ناقص. فإذا كان الله قد حكم بالضلال والشقاء لمن سوى بينه وبين الأصنام في الحب، مع اعتقاد تفاوت ما بين الله وبين خلقه في الذات والأوصاف والأفعال فكيف بمن سوى الله بالموجودات في جميع ذلك، وزعم أنه ما عبد غير الله في كل معبود.

فصل(٢)

قال: «وإنما تجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء: بقصر الأمل. والتأمل في

---

(١) ٢٦٦ جلاء. (٢) ٤٤٩ مدارج جـ١.

القرآن. وقلة الخلطة، والتمني. والتعلق بغير الله. والشبع والمنام».

يعني: أن في منزل «التذكر» تجتنى ثمرة «الفكرة» لأنه أعلى منها. وكل مقام تجتنى ثمرته في الذي هو أعلى منه. ولاسيما على ما قرره في خطبة كتابه «أن كل مقام يصحح ما قبله».

ثم ذكر أن هذه الثمرة تجتنى بثلاثة أشياء. أحدها: قصر الأمل، والثاني: تدبر القرآن[1]، والثالث: تجنب مفسدات القلب الخمسة.

فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب. فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مرَّ السحاب، ومبادرة طيِّ صحائف الأعمال. ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط. ويزهده في الدنيا. ويرغبه في الآخرة. فيقوم بقلبه - إذا داوم مطالعة قصر الأمل - شاهدٌ من شواهد اليقين. يريه فناء الدنيا. وسرعة انقضائها. وقلة ما بقي منها. وأنها قد ترحلت مدبرة. ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها. وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال. ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة. وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيتَ إنْ متَّعناهُمْ سِنينَ ثمَّ جاءَهُم ما كانُوا يُوعَدُونَ. ما أَغْنَى عنهُمْ ما كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾. [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]. وقوله تعالى: ﴿ويَومَ يَحْشُرُهم كأَنْ لم يَلْبَثُوا إلَّا ساعةً منَ النَّهارِ يَتعارَفُونَ بَينَهُم﴾. [يونس: ٤٥]. وقوله تعالى: ﴿كأَنَّهُمْ يومَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إلَّا عَشيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾. [النازعات: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يومًا أَوْ بَعضَ يوم. فاسْأَلِ العَادِّينَ. قالَ إنْ لَبِثْتُم إلَّا قليلًا لوْ أَنَّكُم كُنتُم تَعْلَمُونَ﴾. [المؤمنون: ١١٣، ١١٤]. وقوله تعالى: ﴿كأَنَّهُمْ يومَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلبَثُوا إلَّا سَاعَةً مِنْ نَهارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهلَكُ إلَّا القومُ الفَاسِقُونَ﴾. [الأحقاف: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿يَتخَافَتُونَ بينَهُم إنْ لَبِثْتُم إلَّا عَشْرًا. نَحنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إذْ يقُولُ أَمثَلُهُم طَرِيقَةً إنْ لَبِثْتُم إلَّا يَوْمًا﴾.

(١) تقدم في سورة الفرقان.

[طه: ١٠٣، ١٠٤]. وخطب النبي، ﷺ، أصحابه يومًا والشمس على رؤوس الجبال فقال: «**إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه**». ومرَّ رسول الله، ﷺ، ببعض أصحابه. وهم يعالجون خُصًّا لهم قد وهَى. فهم يصلحونه، فقال: «**ما هذا؟**» قالوا: خصٌّ لنا قد وهَى فنحن نعالجه. فقال: «**ما أرى الأمر إلا أعجل من هذا**».

وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها. ثم يقايس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالإيثار.

(١)**قال** تعالى: ﴿**وما تَنَزَّلت بِهِ الشَّياطين وما يَنبَغِي لَهُمْ ومَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾. [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. فنفى فعله وابتغاءه منهم، وقدرتهم عليه. وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين، وأحوال الرسل يعلم علمًا لا يماري فيه ولا يشك، بل علمًا ضروريًا، كسائر الضروريات منافاة أحدهما للآخر، ومضادته له. كمنافاة أحد الضدين لصاحبه، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر. ولهذا وبخ ـ سبحانه ـ من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين. فقال: ﴿**فأَيْن تَذْهَبُونَ**﴾؟ [التكوير: ٢٦]. قال أبو إسحاق: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟

قلت: هذا من أحسن الكلام وأبينه أن تبين للسامع الحق ثم تقول له: إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ قال تعالى: ﴿**فبأيِّ حديثٍ بعدَهُ يُؤمِنُونَ**﴾. [المرسلات: ٥٠]. وقال: ﴿**فَبِأَيِّ حديثٍ بعدَ الله وآياتِهِ يُؤْمِنُونَ**﴾. [الجاثية: ٦]. فالأمر منحصر في الحق والباطل، والهدى والضلال، فإذا عدلتم عن الهدى والحق، فأين العدول، وأين المذهب؟

ونظير هذا قوله: ﴿**فَهَلْ عَسيتُمْ إنْ تولَّيتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ وتُقَطِّعُوا أَرحَـامَكُمْ**﴾. [محمد: ٢٢]. أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم. ونظيره قوله تعالى:

---

(١) ٧٩ تبيان.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بالحقِّ لَمَّا جَاءَهُم فهُمْ في أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾. [ق: ٥]. لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا إلا كان باطلًا، ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود، ونظيره قوله تعالى: ﴿فإنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فاعْلَمْ أنَّما يتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُم﴾. [القصص: ٥٠]. وقد كشف هذا المعنى كل الشكف بقوله عز وجل: ﴿فَذَلِكُمْ الله ربُّكُم الحقُّ فماذا بعدَ الحقِّ إلاَّ الضَّلالُ فأنَّى تُصرَفُونَ﴾. [يونس: ٣٢].

(١) . . . وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿إنَّه لقرآنٌ كريم * في كتَابٍ مَكنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرونَ﴾. [الواقعة: ٧٧ - ٧٩]. وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي، ﷺ، وأن هذا القرآن جاء من عند الله وأن الذي جاء به روح مطهر فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل، ووجدت الآية أخت قوله: ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبَغِي لهم وما يَسْتَطِيعُونَ﴾. [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، ووجدتها دالة أيضًا بألطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به وعمل به، كما فهمه البخاري من الآية فقال في صحيحه في باب ﴿قُلْ فأْتُوا بالتَّوراةِ فاتْلوُهَا﴾. [آل عمران: ٩٣]. «لا يمسه» لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ولا يحمله بحقه إلا المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الذين حُمِّلوا التَّوراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾. [الجمعة: ٥]. وتجد تحته أيضًا أنه لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي إلا القلوب الطاهرة، وأن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه مصروفة عنه، فتأمل هذا النسب القريب وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه. فهذا من الفهم الذي أشار إليه علي رضي الله عنه. . . . .

(٢) لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم، وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق

(١) ٢٦٦ إعلام جـ١.		(٢) ٤٨ فوائد.

في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور، وغلبت عليهم؛ حتى ربى فيها الصغير وهرم عليها الكبير، فلم يروها منكرًا، فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل. فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، وراياتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض والله خير من ظهرها؛ وقلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس.

اقشعرت الأرض وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات وقلت الخيرات، وهزلت الوحوش وتكدرت الحياة من فسق الظلمة، وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح، وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد ادلهم ظلامه، فاعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح، ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح، وكأنكم بالباب وقد أغلق، وبالرهن وقد غلق، وبالجناح وقد علق ﴿وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. [الشعراء: ٢٢٧].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشعراء

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **قال** تعالى: ﴿وإنَّك لتلقى القرآن من لدن حكيمٍ عليم﴾ [النمل: ٦] فأخبر أن مصدر التلقي عن علم المتكلم وحكمته، وماكان كذلك كان صدقًا وعدلاً، وهدى وإرشادًا.

(٢) **النوع** الرابع عشر: إخباره عن صدور الخلق والأمر عن حكمته وعلمه، فذكر هذين الاسمين عند ذكر مصدر خلقه وشرعه، تنبيهًا على أنهما إنما صدرا عن حكمة مقصودة مقارنة للعلم المحيط التام كقوله: ﴿وإنَّك لتلقَّى القرآنَ مِنْ لدُنْ حكيمٍ عليمٍ﴾. وقوله: ﴿تنزيلُ الكتابِ من الله العزيزِ الحكيم﴾. [الزمر: ١]. فذكره العزة المتضمنة لكمال القدرة والتصرف، والحكمة المتضمنة لكمال الحمد والعلم.

وقوله: ﴿والسَّارقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيدِيهُما جزاءً بِما كَسبَا نكالاً من الله والله عزيزٌ حكيمٌ﴾. [المائدة: ٣٨].

وسمع بعض الأعراب قارئًا يقرأها والله غفور رحيم فقال: ليس هذا كلام الله فقال: أتكذب بالقرآن؟ فقال لا، ولكن لا يحسن هذا فرجع القارىء إلى خطئه فقال عزيز حكيم فقال: صدقت.

وإذا تأملت ختم الآيات بالأسماء والصفات وجدت كلامه مختتمًا بذكر الصفة التي يقتضيها ذلك المقام، حتى كأنها ذكرت دليلاً عليه وموجبة له، وهذا كقوله: ﴿إنْ تُعذِّبهم فإنَّهُم عِبادكَ وإنْ تغْفِرْ لهُمْ فإنَّكَ أنْتَ العزيزُ الحكيم﴾. [المائدة: ١١٨]. أي فإن مغفرتك لهم مصدر عن عزة هي كمال القدرة لا عن عجز وجهل.

وقوله: ﴿ذلِكَ تقديرُ العزيزِ العَليم﴾. [يس: ٣٨]. في عدة مواضع من القرآن يذكر ذلك عقيب ذكره الأجرام العلوية وما تضمنه من فلق الإصباح، وجعل الليل سكنًا، وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها، وأخبر أن هذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته

---

(١) ١٦٢ بدائع جـ٤.　　(٢) ٢٠٠ شفاء.

وعلمه ليس أمرًا اتفاقيًا لا يمدح به فاعله ولا يثنى عليه به كسائر الأمور الاتفاقية.

ومن هذا ختمه سبحانه قصص الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء عقيب كل قصة ﴿وإنَّ ربَّكَ لهوَ العَزيزُ الرَّحيم﴾. فإن ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عزة ورحمة، فوضع الرحمة في محلها، وانتقم من أعدائه بعزته، ونجى رسله وأتباعهم برحمته. والحكمة الحاصلة من ذلك بأمر مطلوب مقصود وهي غاية الفعل، لا أنها أمر اتفاقي.

... [(١)] **لا** يكون الجحد إلا بعد الاعتراف بالقلب واللسان.

ومنه قوله تعالى: ﴿وجَحَدوا بها واستَيْقنتْها أنفُسُهم﴾. [النمل: ١٤].

ومنه: ﴿ولكنَّ الظَّالمينَ بآياتِ الله يَجْحَدُون﴾. [الأنعام: ٣٣]. عقيب قوله: ﴿فإنَّهُم لا يُكذِّبُونكَ﴾.

ومنه: ﴿وما يجحد بآياتِنا إلاَّ الظَّالمون﴾. [العنكبوت: ٤٩]. ﴿وما يجحَدُ بآياتنا إلاَّ الكَافِرُون﴾. [العنكبوت: ٤٧].

وعلى هذا لا يحسن استعمال الفقهاء لفظ الجحود في مطلق الإنكار في باب الدعاوى وغيرها لأن المنكر قد يكون محقًا فلا يسمى جاحدًا.

[(٢)] ... **قوله** تعالى: ﴿فلمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنَا مُبْصِرَةً قالوا هَذا سِحْرٌ مُبينٌ وجَحَدُوا بها واستَيْقَنَتْهَا أنفُسُهمْ ظُلمًا وعلوًّا فانْظُر كيْفَ كانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدينَ﴾.

[النمل: ١٤].

فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين - وهو أقوى العلم - ظلمًا منهم وعلوًا لا جهلاً.

[(٣)] **قوله** تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُليمانُ داودَ﴾. [النمل: ١٦]. فهو ميراث العلم والنبوة لا غير. وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم، وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثيرة سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصًا به.

وأيضا: فإن كلام الله يصان عن الإخبار بمثل هذا؛ فإنه بمنزلة أن يقال: مات فلان وورثه ابنه. ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

---

(١) ١١٨ بدائع جـ٤.   (٢) ٩١ مفتاح جـ١.   (٣) ٦٧ مفتاح جـ١.

وأيضا فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال. قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ**﴾ [النمل: ١٥-١٦]. وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب وهو العلم والنبوة. ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾ [النمل: ١٦].

فصل (١)

وهذه النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يومًا ذا شمس فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾. [النمل: ١٨].

فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم اتبعته بما يثبته من اسم الجنس - إرادة للعموم - ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك. وهذا من أعجب الهداية.

وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾. [النمل: ١٧]. ثم قال: ﴿**حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ**﴾. [النمل: ١٨] فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودلَّ على

---

(١) ٦٨ شفاء.

أن ذلك الوادي معروفًا بالنمل كوادي السباع ونحوه.

ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت لا يحطمنكم سليمان وجنوده فجمعت بين اسمه وعينه، وعرَّفته بهما، وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: وهم لا يشعرون، فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكًا من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روى الزهري عن عبدالله بن عبدالله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله، ﷺ، نهى عن قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد.

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي، ﷺ، قال: «**نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج وأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلا نملة واحدة**».

وذكر هشام بن حسان أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة، فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين فجلس عليه ثم تشهد ثم قال: لتنتهن أو ليحرقن عليكن ونفعل ونفعل، قال: فذهبن.

وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة.

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم» ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره، وقال الإمام أحمد: حدثنا(١) قال: خرج سليمان بن داود يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنا عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا

(١) بياض في الأصل.

وترزقنا، وإما أن تهلكنا فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم. ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها قال: فرفعتُ ذلك من الأرض، فطافت في مكانه فلم تجده، فانصرفوا وتركوها قال: فوضعته، فعادت تحاول حمله فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم، فرفعته، فطافت فلم تجده فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مرارًا فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضوًا عضوًا.

قال شيخنا وقد حكيت له هذه الحكاية فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب، والنمل من أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل.

ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ **قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة، وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعدما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ** السنة فوجد حبة ونصف حبة فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قُوتَك كل سنة ثلاث حبات فقالت: نعم، ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها. وهذا من أعجب الهداية والفطنة.

ومن حرصها أنها تكد طول الصيف وتجمع للشتاء علمًا منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه. وهي على ضعفها شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها.

ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فادنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه. فكيف وجدت

رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه؟! فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركـه غيرهـا بالبصر أو بالسمـع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره فتحمله وتذهب به وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاءوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضًا حتى يتساعدوا على حمله ونقله. وهي تأتي إلى السنبلة فتشمهـا فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرًا فلا. ولها صدق الشم، وبعد الهمة، وشدة الحرص، والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائدًا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئًا لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء، أو يتخذ إناء كبيرًا ويملؤه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقي نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك.

وأحمى صانع مرة طوقًا بالنار ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الـطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق وكان ذلك مركزًا له وهو أبعد مكان من المحيط.

فصـــل

وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره.

ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة وخاطبه خطابًا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه. فقال ﴿**أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ**﴾. [النمل: ٢٢].

وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به وهو خبر عظيم له شأن فلذلك قال: ﴿**وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**﴾. [النمل: ٢٢]. والنبأ هو الخبر الذي له شأن والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب. فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب

المخبر لتلقي الخبر وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج.

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفًا مؤكدًا بأدلة التأكيد فقال: ﴿**إِنِّي وَجَدْتُ امرأَةً تَمْلِكُهُمْ**﴾. [النمل: ٢٣]. ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجل الملوك بحيث ﴿**أُوتيت من كلِّ شيءٍ**﴾ يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿**وجدتُها وقَوْمَهَا يَسْجُدُون للشَّمْسِ مِن دُونِ الله**﴾. [النمل: ٢٤]. وحذف أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانًا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها.

ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده. ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبءَ في السموات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض.

قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه. ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عمل إلا ألقى الله عليه رداء عمله.

(١)... (**الوجه** الخامس والأربعون بعد المائة) أن سليمان لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذابًا شديدًا أو يذبحه، إنما نجا منه بالعلم وأقدم عليه في خطابه له بقوله: أحطت بما لم تحط به.

وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم، وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من

(١) ١٧٣ مفتاح جـ١.

خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم.

ومن هذا الحكاية المشهورة أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة فقال لا أعلمها، فقال أحد تلامذته: أنا أعلم هذه المسألة، فغضب الأستاذ وهم به، فقال له أيها الأستاذ لست أعلم من سليمان بن داود، ولو بلغت في العلم ما بلغت، ولست أنا أجهل من الهدهد، وقد قال لسليمان أحطت بما لم تحط به، فلم يعتب عليه ولم يعنفه.

(١)... **من** لوازم ربوبيته تعالى وإلهيته إخراج الخبأ في السموات والأرض من النبات والأقوات والحيوان والمعادن وغيرها. وخبأ السموات ما أودعها من أمره الذي يخرجه كل وقت بفعله وأمره، وهذا من تدبيره لملائكته وتصرفه في العالم العلوي والسفلي. فبإخراج هذا الخبأ تظهر قدرته ومشيئته وعلمه وحكمته.

وكذلك النفوس فيها خبأ كامن يعلمه سبحانه منها فلابد أن يقيم أسبابًا يظهر بها خبأ النفوس الذي كان كامنًا فيها. فإذا صار ظاهرًا عيانًا ترتب عليه أثره إذ لم يكن يترتب على نفس العلم به دون أن يكون معلومًا واقعًا في الوجود.

قال تعالى: ﴿ما كَانَ الله لِيَذَرَ المؤمِنينَ على ما أَنْتُم عليهِ حتَّى يَمِيزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾. [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿وهوَ الذي خَلَقَ السمواتِ والأَرضَ في ستَّةِ أَيَّامٍ وكانَ عرشُهُ على الماءِ لِيَبْلُوكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾. [هود: ٧]. فأخبر أنه خلق العالم العلوي والسفلي ليبلو عباده فيظهر من يطيعه ويحبه ويجله ويعظمه ممن يعصيه ويخالفه.

وهذا الابتلاء والامتحان يستلزم أسبابًا يحصل بها، فلابد من خلق أسبابه، ولهذا لما كان من أسبابه خلق الشهوات وما يدعو إليها وتزيينها فَعَلَ ذلك.

وقال تعالى: ﴿إنَّا جَعَلْنَا ما عَلى الأَرْضِ زينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُم أَيُّهم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾. [الكهف: ٧]. فهذه ثلاثة مواضع في القرآن تبين حكمته في خلق أسباب الابتلاء والاختبار.

فظهر أن من بعض الحكم في خلق عدو الله إخراج خبأ النفوس الخبيثة

---

(١) ٣٤٠ مختصر الصواعق جـ١.

التي شرها وخبثها كامن فيها، فأخرج خبأها بزناد دعوته كما يخرج خبأ النار بقدح الزناد، وكما يخرج خبأ الأرض بإنزال الماء عليها، وكما يخرج خبأ الأنثى بلقاح الذكر لها، وكما يخرج خبأ القلوب الزاكية بإنزال وحيه وكلامه عليها.

فكم له سبحانه من حكمة بالغة، وآية ظاهرة في خلق عدوه إبليس؟ فإن من كمال الحكمة والقدرة إظهار شرف الأشياء الفاضلة بأضدادها.

فلولا الليل لم يظهر فضل النهار ونوره وقدره، ولولا الألم لم يعرف فضل اللذة وشرفها وقدرها. ولولا المرض لم يعرف فضل العافية. ولولا وجود قبح الصورة لم يظهر فضل الحسن والجمال.

ولهذا كان خلق النار وعذاب أهلها فيها أعظم لنعيم أهل الجنة وأبلغ في معرفة قدرها وخطرها، فكان خلق هذا القبيح الشنيع المنظر والمخبر الذي صورته أشنع من باطنه وباطنه أقبح من صورته مكملاً لحسن تلك الروح الزكية الفاضلة التي كمل الله تعالى بصورتها جمال الظاهر والباطن. فلو كان الخلق كلهم على حسن يوسف مثلاً فأي فضيلة وتمييز يكون له؟ ولو كانت الكواكب كلها شموسًا وأقمارًا فأي مزية كانت تكون للنيرين؟

فصل(1)

وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه، كما قال تعالى: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي**﴾. [القصص: ٧٨]. أي: على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله. قال الفراء: أي على فضل عندي، إني كنت أهله ومستحقًا له إذ أعطيته. وقال مقاتل: يقول على خير علمه الله عندي. وذكر عبدالله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود، فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾. [النمل: ٣٩]. ولم يقل هذا من كرامتي، ثم ذكر قارون، وقوله: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي**﴾. يعني أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته، وأنه ابتلى به شكره، وقارون رأى

---

(1) ٢٠٥ فوائد.

ذلك من نفسه واستحقاقه، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ولَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعدِ ضَرَّاء مَسَّتــهُ لَيَقُــولَنَّ هذا لي﴾. [فصلت: ٥٠]. أي: أنــا أهله، وحقيق به، فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه، والمؤمن يرى ذلك ملكًا لربه وفضلاً منه، منَّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها، لم يكن قد منعه شيئًا هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك، رأى فيه أهلاً ومستحقًا، فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة، وعلت بها واستطالت على غيرها، فكان حظها منها الفرح والفخر. كما قال تعالى: ﴿ولَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسانَ مَنَّا رَحمةً ثمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إنَّه لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ. ولَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيئات عنِّي إنَّهُ لَفرِحٌ فَخُورٌ﴾. [هود: ٩-١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء - قوله ذهب السيئات عني- ولو أنه قال: قد أذهب الله السيئات عني برحمته، ومنّه، لما ذم على ذلك، بل كان محمودًا عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخــر. فإذا علم الله سبحــانــه هذا من قلب عبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ شرَّ الـدَّوابِّ عنـدَ الله الصُّمُّ البُكْم الذينَ لا يَعْقِلُونَ. ولوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهم ولَو أَسْمَعَهُم لتوَلَّوا وهُمْ مُعْرِضُونَ﴾. [الأنفال: ٢٢-٢٣]. فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم؛ وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها. فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعــل الله سبحانه لها قابلة للنعمة. فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه. كما خلق أجزاء الأرض هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عبادة، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك، بل لضده، وهو الحكيم العليم.

فصل(١)

من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه، زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله؛ زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه؛ زيد في كبره وتيهه.

وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده؛ فيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام.

وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء: كالملك، والسلطان، والمال.

قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده: ﴿**هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُونِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُر**﴾. [النمل: ٤٠].

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور.

كما أن المحن بلوى منه سبحانه، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب، قال تعالى: ﴿**فأمَّا الإِنْسَانُ إذَا ما ابْتَلاهُ رَبُّهُ فأَكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ فيقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وأَمَّا إِذَا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عليهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ. كلاَّ**﴾. [الفجر: ١٥-١٧]. أي ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته، يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته، يكون ذلك إهانة له مني.

(٢)**وأما** السؤال السابع عشر وهو أن قوله: ﴿**قُلْ الحمدُ للهِ وسَلَامٌ على عِبَادِهِ الذينَ اصْطَفَى**﴾. [النمل: ٥٩]. هل السلام من الله فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه، أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعًا.

فالجواب: عنه أن الكلام يحتمل الأمرين ويشهد لكل منهما ضرب من

---

(١) ١٥٣ فوائد.	(٢) ١٧٠ بدائع جـ٢.

الترجيح فيرجح كونه داخلاً في جملة القول بأمور:

منها اتصاله به وعطفه عليه من غير فاصل، وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعًا على كل واحد منهما، هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع، ولهذا إذا قلت: الحمد لله وسبحان الله فإن التسبيح هنا داخل في المقول.

ومنها أنه إذا كان معطوفًا على المقول كان عطف خبر على خبر وهو الأصل، ولو كان منقطعًا عنه كان عطفًا على جملة الطلب، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب.

ومنها أن قوله ﴿**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى**﴾ ظاهر في أن المسلم هو القائل الحمد لله، ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة، ولم يقل: سلام على عبادي.

ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور:

أحدها مطابقته لنظائره في القرآن من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى كقوله: ﴿**سلام على نوح في العالمين**﴾ ﴿**سلام على إبراهيم**﴾ ﴿**سلام على موسى وهارون**﴾ ﴿**سلام على الياسين**﴾.

ومنها أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون، والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم، وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم.

أما الأول فقال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّك ربِّ العِزَّةِ عمَّا يَصِفُونَ. وسَلامٌ على المُرْسَلينَ**﴾. [الصافات: ١٨٠- ١٨١]. وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيهًا مطلقًا، كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم. وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاؤا به من الكذب والفساد، وأعظم ما جاؤا به التوحيد ومعرفة الله ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم. وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض، وما خالفه هو الباطل والكذب المحال. وهذا المعنى بعينه في قوله ﴿**قل الحمدُ لله وسلام على عبادِهِ الذينَ اصطفى**﴾. فإنه

يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ما جاؤا به من كل باطل. فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه. فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله تعالى كما هو في آخر الصافات.

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره، فمنه قوله تعالى: **﴿قالَ ربِّ احكُمْ بالحَقِّ ورَبُّنَا الرَّحمن المُسْتَعان﴾**. [الأنبياء: ١١٢]. وقوله: **﴿وقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وارْحَمْ وأَنْتَ خيرُ الرَّاحِمِينَ﴾**. [المؤمنون: ١١٨] وقوله: **﴿رَبَّنَا افتَحْ بينَنَا وبَيْنَ قَوْمِنَا بالحَقِّ وأَنْتَ خيرُ الفاتحِينَ﴾**. [الأعراف: ٨٩]. ونظائره كثيرة جدًّا. وفصل الخطاب في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعًا وتنتظمهما انتظامًا واحدًا؛ فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس منه إلا البلاغ، والكلام كلام الرب تبارك وتعالى، فهو الذي حمد نفسه، وسلم على عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك. فإذا قال الرسول: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد به نفسه وسلم به هو على عباده. فهو سلام من الله ابتداء، ومن المبلغ بلاغًا، ومن العباد اقتداء وطاعة. فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

(١)**الوجه** الثامن والعشرون: أن تفضيل الرب تعالى على شيء من خلقه لا يذكر في شيء من القرآن إلا ردًّا على من اتخذ ذلك الشيء ندًّا لله تعالى، فبين سبحانه أنه خير من ذلك الند، كقوله تعالى: **﴿قُلِ الحمدُ لله وسَلاَمٌ على عِبادِهِ الذينَ اصْطَفى آللهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشرِكُونَ﴾**.

وقوله تعالى حاكيًا عن السحرة: **﴿لَنْ نُؤثِرَكَ على ما جَاءنا مِنَ البَيِّنَاتِ والذي فَطَرَنا فَاقْضِ ماأَنْتَ قَاضٍ إِنَّما تقضي هذه الحياة الدُّنيا * إِنّا آمنّا بربنا لِيَغْفِرَ لنا خطايانا وماأكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى﴾** [طه: ٧٢-٧٣] وقوله تعالى: **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾**.

فأما أن يفضل نفسه على شيء معين من خلقه ابتداء، فهذا لم يقع في كلام الله. ولا هو مما يقصد بالإخبار؛ لأن قول القائل ابتداءًا: الله خير من ابن

(١) ١٤١ مختصر الصواعق جـ٢.

آدم، وخير من السماء، وخير من العرش، من جنس قول: السماء فوق الأرض، والثلج بارد والنار حارة، وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح . . .

(١). . . **قوله** تعالى: ﴿**قُلِ الحمدُ لله وسلَامٌ على عبادِهِ الذينَ اصْطفى آلله خير أمّـا يُشْركُـونَ. أمّنْ خَلَقَ السموات والأرض وأنْزَلَ لكُمْ من السَّماء ماء فأنبَتْنَا بهِ حدائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لكُمْ أن تنبتُوا شَجَرها أإلـه مَع الله بلْ هُمْ قومٌ يعْدِلونَ**﴾. إلى آخر الآيات. [النمل: ٥٩-٦٠].

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، فهو الإلـه لهم وحده. فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه. وإن لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه إلـهًا آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية «أإلـهٌ معَ الله فعل هذا»؟ حتى يتم الدليل. فلابد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إلـه فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلـهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنى «هل مع الله إلـه آخر»؟ من غير أن يكون المعنى «فعل هذا» فقوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى. ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير. أي فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إلـه آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلـهًا آخر لا يخلق شيئًا وهو عاجز؟ وهذا كقوله: ﴿**أَمْ جَعَلُوا لله شُركَاءَ خلَقُوا كَخَلْقِهِ فتَشَابَه الخَلْقُ عليهم قُل الله خَالِقُ كلِّ شيءٍ وهُوَ الوَاحِدُ القَهَّار**﴾. [الرعد: ١٦]. وقوله: ﴿**هَذَا خَلْقُ الله فأَرُوني ماذَا خَلَق الذينَ مِنْ دُونِه**﴾.

(٢)**الوجه** الخامس: قوله تعالى: ﴿**قل الحَمدُ لله وسلامٌ على عِبادِهِ الذينَ**

---

(١) ٤١٢ مدارج جـ١. (٢) ١٣١ أعلام جـ٤.

اصْطَفَى﴾. [النمل: ٥٩]. قال ابن عباس في رواية أبي مالك: هم أصحاب محمد، ﷺ، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أورَثْنَا الكِتابَ الذينَ اصْطَفَينا مِنْ عِبادِنا﴾. [فاطر: ٣٢]. وحقيقة الاصطفاء: افتعال من التصفية، فيكون قد صفَّاهم من الأكدار، والخطأ من الأكدار، فيكونون مُصفَّين منه، ولا ينتقض هذا بما إذا اختلفوا؛ لأن الحق لم يَعْدُهم، فلا يكون قول بعضهم كدرًا؛ لأن مخالفته الكدر، وبيانه يزيل كونه كدرًا. بخلاف ما إذا قال بعضهم قولاً ولم يخالف فيه فلو كان قولاً باطلاً ولم يرده راد لكان حقيقة الكدر، وهذا لأن خلاف بعضهم لبعض بمنزلة متابعة النبي، ﷺ، في بعض أموره، فإنها لا تخرجه عن حقيقة الاصطفاء.

(١)...**والله** تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية.

فأما التوكل والعبادة فقد جمع بينهما في سبعة مواضع من كتابه(٢) أحدها في سورة أم القرآن فقال: ﴿إيَّاكَ نَعبُدُ وإيَّاكَ نَستعين﴾. [الفاتحة: ٥]. الثاني: قوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿وما تَوفِيقِي إلاَّ بالله عليْهِ تَوَكَّلتُ وإليْهِ أُنيب﴾. [هود: ٨٨]. الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿ربَّنَا عليك توكَّلنَا وإليكَ أَنبنَا وإليْكَ المَصير﴾. [الممتحنة: ٤]. الرابع قوله تعالى لنبيه محمد، ﷺ: ﴿واذْكُر اسمَ ربِّكَ وتبتَّل إليه تَبتيلاً. ربُّ المشرقِ والمَغْرب لا إلـهَ إلاَّ هُوَ فاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾. [المزمل: ٨، ٩]. الخامس قوله: ﴿ولله غيبُ السَّموات والأَرْضِ وإليْـهِ يُرْجَـعُ الأَمـرُ كلُّهُ فاعْبُدْهُ وتوكَّلْ عليهِ وما رَبُّك بغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. [هود: ١٢٣]. السادس قولـه: ﴿فأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ واعْتَصِمُوا بالله هُوَ مَولاكُمْ فَنِعْمَ المَوْلى ونِعمَ النَّصير﴾. [الحج: ٧٨]. السابع قوله: ﴿قُلْ هُوَ ربِّي لا إلـه إلاَّ هوَ عليهِ تَوَكَّلتُ وإليهِ مَتاب﴾. [الرعد: ٣٠]. فهذه السبعة المواضع جمعت الأصلين: التوكل وهو الوسيلة، والإنابة وهي الغاية. فإن العبد لابد له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية، فأشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها

---

(١) ٢٥٥ طريق الهجرتين.

(٢) ذكرها في طريق الهجرتين ص٥٦ سبعة، وكذا في إغاثة اللهفان ١/٢٧ وعدها سبعة وزاد فيها قول الله تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ فيكون العدد تقريبًا لا حصرًا. (ج).

عبادة ربه، والإنابة إليه. وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة. فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل.

وأما الجمع بين الإيمان والتوكل ففي مثل قوله تعالى: **﴿قُلْ هُوَ الرَّحمنُ آمَنَّا بِهِ وعليْهِ تَوَكَّلنا﴾**. [الملك: ٢٩]. ونظيره قوله: **﴿وعلى الله فتَوَكَّلُوا إنْ كُنتُم مُؤمنينَ﴾** [المائدة: ٢٣]. وقوله تعالى: **﴿وعَلى الله فَلْيَتَوَكَّلَ المُؤمنُونَ﴾** [آل عمران: ١٢١].

وأما الجمع بين التوكل والإسلام ففي قوله تعالى: **﴿وقالَ موسَى ياقَوْمَ إنْ كُنتُم آمَنْتم بالله فَعَلَيهِ تَوَكَّلوا إنْ كُنتُم مُسلمينَ﴾** [يونس: ٨٤].

وأما الجمع بين التقوى والتوكل ففي مثل قوله تعالى: **﴿يا أيُّهَا النَّبي اتَّقِ الله ولا تُطعِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ - إلى قوله تعالى - وتَوَكَّل على الله وكَفَى بالله وكيلاً﴾**. [الأحزاب: ١ - ٣]. وقوله: **﴿ومَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَل لهُ مَخْرجًا. ويَرْزُقهُ مِنْ حَيثُ لا يَحْتَسِب ومَنْ يتوكَّل على الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾**. [الطلاق: ٢، ٣].

وأما الجمع بين التوكل والهداية ففي مثل قول الرسل لقومهم: **﴿وما لَنا ألاَّ نتوكَّلَ على الله وقَدْ هَدَانَا سُبُلَنا﴾**. [إبراهيم: ١٢]. وقال الله تعالى لنبيه، ﷺ: **﴿فَتوكَّلْ على الله إنَّكَ على الحَقِّ المُبين﴾**. [النمل: ٧٩]. فأمر سبحانه بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: **﴿إنَّك على الحَقِّ المُبين﴾**. فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد. فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به. فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ كما قالت الرسل لقومهم: **﴿وَمَا لَنَا ألاَّ نتوكَّل على الله وقَدْ هَدَانَا سُبُلَنا﴾**. فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدًا. وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان: فصاحب الحق - لعلمه بالحق، ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره - مضطر إلى توكله على الله، لا يجد بدًا من توكله. فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب، وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه،

ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه. فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لابد فيه من العلم. وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته. والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل على ربه؛ وإذا كان على الباطل علمًا وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئنًا واثقًا بربه فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده؛ فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية؛ فإنه سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك. فلما كان الباطل لا يتعلق به، بل هو مقطوع البتة كان صاحبه كذلك. ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعًا عن ربه، لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله. فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر. ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية إلخ(١).

(٢)**وقد** أطلق سبحانه على فعله اسم الصنع فقال: ﴿**صُنْعَ اللهِ الذي أَتْقَنَ كلَّ شيءٍ**﴾. [النمل: ٨٨]. وهو منصوب على المصدر لأن قوله تعالى: ﴿**وترى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وهي تَمرُّ مرَّ السَّحاب**﴾. [النمل: ٨٨]. يدل على الصنعة وقيل هو نصب على المفعولية أي انظروا صنع الله. فعلى الأول يكون صنع الله مصدرًا بمعنى الفعل. وعلى الثاني يكون بمعنى المصنوع المفعول؛ فإنه الذي يمكن وقوع النظر والرؤية عليه...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النمل
والحمد لله رب العالمين

---

(١) البقية موجودة في سورة إبراهيم. (٢) ١٣٢ شفاء.



بسم الله الرحمن الرحيم

. . .(١)**قال** تعالى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا إن كادتْ لَتُبدي به﴾ [القصص: ١٠] أي فارغًا من كل شيء إلا من موسى لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به.

. . .(٢)**فتأمل** قصة موسى وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال،ووحيه إلى أمه أن تلقيه في اليم، وسوقه بلطفه إلى دار عدوه الذي قدر هلاكه على يديه، وهو يذبح الأطفال في طلبه، فرباه في بيته، وحجره على فراشه ثم قدر له سببًا أخرجه من مصر وأوصله به إلى موضع لا حكم لفرعون عليه، ثم قدر له سببًا أوصله به إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعيلة. ثم ساقه إلى بلد عدوه فأقام عليه به حجته، ثم أخرجه وقومه في صورة الهاربين الفارين منه، وكان ذلك عين نصرتهم على أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون. وهذا كله مما يبين أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحكم العظيمة، التي لا تدركها عقول الخلق، مع ما في ضمنها من الرحمة التامة والنعمة السابغة، والتعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته.

فكم في أكل آدم من الشجرة التي نهى عنها وإخراجه بسببها من الجنة من حكمة بالغة لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها. وكذلك ما قدره لسيد ولده من الأمور التي أوصله بها إلى أشرف غاياته، وأوصله بالطرق الخفية فيها إلى أحمد العواقب. وكذلك فعله بعباده وأوليائه، يوصل إليهم نعمه، ويسوقهم إلى كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية التي لا يهتدون إلى معرفتها إلا إذا لاحت لهم عواقبها. وهذا أمر يضيق الجنان عن معرفة تفاصيله، ويحصر اللسان عن التعبير عنه.

وأعرف خلق الله به أنبياؤه ورسله، وأعرفهم به خاتمهم وأفضلهم، وأمته في العلم به على مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم من العلم بالله وبأسمائه وصفاته. وهو سبحانه قد أحاط علمًا بذلك كله قبل خلق السموات والأرض،وقدره وكتبه عنده،ثم

(١) ٣١٩ الزاد جـ٣.　(٢) ٣٥ شفاء.

يأمر ملائكته بكتابة ذلك من الكتاب الأول قبل خلق العبد، فيطابق حاله وشانه لما كتب في الكتاب، ولما كتبته الملائكة، لا يزيد شيئًا ولا ينقص مما كتبه سبحانه وأثبته عنده، كان في علمه قبل أن يكتبه، ثم كتبه كما في علمه، ثم وجد كما كتبه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلم أَنَّ الله يَعْلم مَا فِي السَّماء والأرضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى الله يَسِيرُ﴾ [الحج: ٧٠].

والله سبحانه قد علم قبل أن يوجد عباده أحوالهم وما هم عاملون وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار ليظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك وهي في علمه قبل أن يعملوها، فأرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه إعذارًا إليهم وإقامة للحجة عليهم لئلا يقولوا كيف تعاقبنا على علمك فينا؟ وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا؟ فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم حصل العقاب على معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار. وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زين لهم من الدنيا. وبما ركب فيهم من الشهوات. فذلك ابتلاء بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره.

(1)**أما** قوله: ﴿فالتقطه آل فِرْعَون لِيَكُونَ لَهُم عَدُوًّا وحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له؛ فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزنًا لهم وحسرة عليهم؛ فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من أن لا يكون فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته، ويكون في قبضته وتحت تصرفه، فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر، وقد

---

(١) ١٩١ شفاء.

أعلمنا سبحانه أن أفعال عباده كلها واقعة بقضائه وقدره.

...[(١)] **وهذا** الجراد نثرة حُوت من حيتان البحر، ينثره من منخريه. وهو جند من جنود الله ضعيف الخلقة، عجيب التركيب، فيه خلق سبع حيوانات. فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جندًا لا مرد له، ولا يحصى منه عدد ولا عدة. فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك.

فانظر كيف ينساب على الأرض كالسيل، فيغشى السهل والجبل، والبدو والحضر، حتى يستر نور الشمس بكثرته، ويسد وجه السماء بأجنحته، ويبلغ من الجو إلى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه. فسل المعطل من الذي بعث هذا الجند الضعيف الذي لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيوانًا رام أخذه بلية على العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة، فلا يقدرون بأجمعهم على دفعه، بل ينظرون إليه يستبد بأقواتهم دونهم، ويمزقها كل ممزق، ويذر الأرض قفرًا منها، وهم لا يستطيعون أن يردوه ولا يحولوا بينه وبينها.

وهذا من حكمته سبحانه أن يسلط الضعيف من خلقه الذي لا مؤنة له على القوى فينتقم به منه، وينزل به ما كان يحذره منه، حتى لا يستطيع لذلك ردًّا ولا صرفًا. قال الله تعالى: **﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهم أئمة وَنجعَلَهم الوَارِثِينَ وَنُمكِّن لهم فِي الأرض وَنُرِيَ فِرْعَونَ وَهَامَان وَجُنودهمَا مِنْهم مَا كَانوا يَحْذَرُونَ﴾** [القصص: ٦]. فواحسرتاه على استقامة مع الله وإيثار لمرضاته في كل حال يمكن به الضعيف المستضعف حتى يرى من استضعفه أنه أولى بالله ورسوله منه، ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه، فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حق ظالمه، كما أن المسؤول إذا رد السائل فهو في خفارة كذبه، ولو صدق السائل لما أفلح من رده، وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها، ولو أدوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم.

وهذا أيضًا باب عظيم من حكمة الله يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار

---

(١) ٢٥٢ المفتاح جـ١.

ثم التقدير، وتسليط العالم بعضهم على بعض، وتمكين الجناة والبغاة. فسبحان من له في كل شيء حكمة بالغة وآية باهرة، حتى أن الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم، ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شيء.

ولعل هذا الفصل الاستطرادي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة، فإنه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم انتفاعه به جدا والله الموفق. ويحكى أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص، فأرسل الله عليه سيلاً فذهب بالغنم، فجعل يعجب، فأتي في منامه فقيل له أتعجب من أخذ السيل غنمك إنه تلك القطرات التي شبت بها اللبن اجتمعت وصارت سيلاً. فقس على هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط، وأنه قائم على كل نفس بما كسبت، وأنه لا يظلم مثقال ذرة.

والأثر الإسرائيلي معروف أن رجلاً كان يشوب الخمر ويبيعه على أنه خالص، فجمع من ذلك كيس ذهب وسافر به، فركب البحر ومعه قرد له، فلما نام أخذ القرد الكيس وصعد به إلى أعلى المركب، ثم فتحه فجعل يلقيه دينارًا في الماء ودينارًا في المركب، كأنه يقول له بلسان الحال ثمن الماء صار إلى الماء ولم يظلمك.

وتأمل حكمة الله عز وجل في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين، كيف جُوزوا على منع ما للمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحق فمنعتم الغيث، فهلا استنزلتموه ببذل مالله قبلكم.

وتأمل حكمة الله تعالى في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه، فصدهم عنه كما صدوا عباده، صدًّا بصد ومنعًا بمنع.

وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليها كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم وأتلفوها بالربا، جوزوا إتلافًا بإتلاف، فقل أن ترى مرابيًا إلا وآخرته إلى محق وقلة وحاجة.

وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم

برعاياهم وضعفائهم سواء. وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها.

وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم، فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه، وضربت عليهم المكوس والوظائف، وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم، وليس في الحكمة الإلهية أن يولى على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم.

ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك، فلما شابوا شيب لهم الولاة. فحكمة الله تأبى أن يولى علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبدالعزيز، فضلاً عن مثل أبي بكر وعمر، بل ولاتنا على قدرنا، وولاة من قبلنا على قدرهم، وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها. ومن له فطنة إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر ظاهرة وباطنة فيه كما صيرهم في الخلق والأمر سواء. فإياك أن تظن بظنك الفاسد أن شيئًا من أقضيته وأقداره عار عن الحكمة البالغة، بل جميع أقضيته تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب، ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها، كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس، وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت، كما أن الخفاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار.

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ولازمها قطع من الليل مظلم

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية، وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى: ﴿**وعادًا وثمودَ وقَدْ تَبيَّنَ لَكم مِنْ مَسَاكِنِهم** إلى قوله **يَظلمُون**﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠]

وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم، فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها، اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها؛ لتتم المناسبة ويكمل الشبه، وهذا غاية الحكمة. واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير، وكيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها، ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم، كيف تراها بادية عليها، وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية. فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم، بل هم أخف الناس عقولاً وأعظمهم مكرًا وخداعًا وفسقًا، فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين. واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ولا سيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله ﷺ، فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه، فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعًا، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها، ويقوم الإنسان عن رجيعه فيبادر إليه. فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقًا عليهم، فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤوا منهم، ثم والوا كل عدو لهم من النصارى واليهود والمشركين، فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار، وصرحوا بأنهم خير منهم، فأي شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير، فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين.

وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيرًا فأكثر من أن تذكر هاهنا، وقد أفرد لها الحافظ ابن عبدالواحد المقدسي كتابًا. وتأمل حكمته تعالى في عذاب الأمم السالفة بعذاب الاستئصال لما كانوا أطول أعمارًا وأعظم قوى وأعتى على الله وعلى رسله. فلما تقاصرت الأعمار وضعفت القوى رفع عذاب الاستئصال وجعل عذابهم بأيدي المؤمنين. فكانت الحكمة في كل واحد من الأمرين ما اقتضته في وقته.

وتأمل حكمته تبارك وتعالى **في إرسال الرسل في الأمم** واحدًا بعد واحد، كلما

مات واحد خلفه آخر لحاجتها إلى تتابع الرسل والأنبياء لضعف عقولها وعدم اكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق. فلما انتهت النبوة إلى محمد بن عبدالله رسول الله ونبيه أرسله إلى أكمل الأمم عقولاً ومعارف، وأصحها أذهانًا، وأغزرها علومًا، وبعثه بأكمل شريعة ظهرت في الأرض منذ قامت الدنيا إلى حين مبعثه، فأغنى الله الأمة بكمال رسولها وكمال شريعته، ووكلهم بها حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، فلم يحتاجوا معه إلى رسول آخر ولا نبي ولا محدث. ولهذا قال ﷺ: «**إنه قد كان قبلكم في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر**» فجزم بوجود المحدثين في الأمم، وعلق وجوده في أمته بحرف الشرط، وليس هذا بنقصان في الأمة على من قبلهم، بل هذا من كمال أمته على من قبلها، فإنها لكمالها وكمال نبيها وكمال شريعته لا تحتاج إلى محدث، بل إن وجد فهو صالح للمتابعة والاستشهاد، لا أنه عمدة؛ لأنها في غنية بما بعث الله به نبيها عن كل منام أو مكاشفة أو إلهام أو تحديث، وأما من قبلها فللحاجة إلى ذلك جعل فيهم المحدثون.

ولا تظن أن تخصيص عمر رضى الله عنه بهذا تفضيل له على أبي بكر الصديق، بل هذا من أقوى مناقب الصديق، فإنه لكمال مشربه من حوض النبوة، وتمام رضاعه من ثدي الرسالة استغنى بذلك عما يلقاه من تحديث أو غيره، فالذي يتلقاه من مشكاة النبوة أتم من الذي يتلقاه عمر من التحديث. فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه من المعرفة، وتأمل ما فيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير، وأن رسول الله ﷺ أكمل خلقه وأكملهم شريعة، وأن أمته أكمل الأمم. وهذا فصل معترض وهو أنفع فصول الكتاب، ولولا الإطالة لوسعنا فيه المقال وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال، ولقد فتح الله الكريم فيه الباب، وأرشد فيه إلى الصواب، وهو المرجو لتمام نعمته ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١)**وقد** أخبر سبحانه أنه هو الذي جعل أئمة الخير يدعون إلى الهدى وأئمة الشر يدعون إلى النار. فتلك الإمامة والدعوة بجعله، فهي مجعولة له وفعل لهم. قال تعالى عن آل فرعون: ﴿**وَجَعَلْنَاهُم أئِمة يَدْعُون إلى النَّار**﴾ [القصص: ٤١] وقال عن أئمة الهدى: ﴿**وجَعلناهم أئِمة يَهْدون بِأمرنَا**﴾ [الأنبياء: ٧٣] فأخبر أن هذا وهذا

---

(١) ٥٥ شفاء.

بجعله مع كونه كسباً وفعلاً للأئمة. ونظير ذلك قول الخليل: ﴿رَبَّنا واجْعَلنا مُسلِمَين لَك﴾ [البقرة: ١٢٨] فأخبر الخليل أنه سبحانه هو الذي يجعل المسلم مسلمًا.

وعند القدرية هو الذي يجعل نفسه مسلمًا لا أن الله جعله مسلمًا ولا جعله إمامًا يهدي بأمره ولا جعل الآخر إمامًا يدعو إلى النار على الحقيقة، بل هم الجاعلون لأنفسهم كذلك حقيقة، ونسبة هذا الجعل إلى الله مجاز بمعنى التسمية، أي سمنا مسلمين لك، وكذلك جعلناهم أئمة أي سميناهم كذلك وهم جعلوا أنفسهم أئمة رشد وضلال، فمنهم الحقيقة ومنه المجاز والتعبير.

(١)**ومن** ذلك قوله تعالى: ﴿ولَولاَ أنْ تُصيبهم مُصيبة بِما قدَّمت أيديهم فيقولُوا رَبَّنا لَولا أرْسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتِك ونَكونَ مِنَ المؤمنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]. فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة، وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولاً ولم ينزل عليهم كتابًا، فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول وإنزال الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة بحيث استحقوا أن يصابوا بها المصيبة، ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل وهذا هو فصل الخطاب.

وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت للفعل في نفسه، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة. وهذه النكتة هي التي فاتت المعتزلة والكلابية كليهما، فاستطالت كل طائفة منهما على الأخرى لعدم جمعهما بين هذين الأمرين، فاستطالت الكلابية على المعتزلة بإثباتهم العذاب قبل إرسال الرسل، وترتيبهم العقاب على مجرد القبح العقلي، وأحسنوا في رد ذلك عليهم. واستطالت المعتزلة عليهم في إنكارهم الحسن والقبح العقليين جملة، وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلاً على انتفاء القبح واستواء الأفعال في أنفسها، وأحسنوا في رد هذا عليهم. فكل طائفة استطالت على الأخرى بسبب إنكارها الصواب، وأما من سلك هذا المسلك الذي سلكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين إلى رد قوله ولا الظفر عليه أصلاً، فإنه موافق لكل طائفة على ما معها

(١) ٧ المفتاح جـ٢.

من الحق مقرر له، مخالف لها في باطلها منكر له. وليس مع النفاة قط دليل واحد صحيح على نفي الحسن والقبح العقليين، وأن الأفعال المتضادة كلها في نفس الأمر سواء لا فرق بينها إلا بالأمر والنهي، وكل أدلتهم على هذا باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى. وليس مع المعتزلة دليل واحد صحيح قط يدل على إثبات العذاب على مجرد القبح العقلي قبل بعثة الرسل وأدلتهم على ذلك كلها باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى. ومما يدل على ذلك أيضًا أنه سبحـانه يحتج على فساد مذهب من عبد غيره بالأدلة العقلية التي تقبلها الفطر والعقول، ويجعل ما ركبه في العقول من حسن عبادة الخالق وحده وقبح عبادة غيره من أعـظم الأدلة على ذلك. وهذا في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا، ولولا أنه مستقر في العقول والفطر حسن عبادته وشكره، وقبح عبادة غيره، وترك شكره لما احتج عليهم بذلك أصلاً، وإنما كانت الحجة في مجرد الأمر، وطريقة القرآن صريحة في هذا.

...(١)**وقد** قال تعالى: **﴿وَلَولاَ أنْ تُصِيبهم مُصيبة بِما قَدَّمت أيديهم فيقولُوا رَبَّنا لولاَ أرسَلتَ إلينَا رَسُولاً فنتبع آياتِك ونَكُون من المؤمنين﴾** [القصص: ٤٧].

فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم، وأنه سبحانه أرسـل رسوله وأنزل كتابه لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك، فدلت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعًا الذين يقولون إن أعمالهم قبل البعثة ليست قبيحة لذاتها بل إنما قبحت بالنهي فقط.

والذين يقـولـون إنها قبيحـة ويستحقون عليها العقوبة عقلاً بدون البعثة. فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين ودلت على القول الوسط الذي اخترناه ونصرناه أنها قبيحة في نفسها ولا يستحقون العقاب إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة، فلا تلازم بين ثبوت الحسن والقبح العقليين وبين استحقاق الثواب والعقاب، فالأدلة إنما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها، ولم تقتض توقف الحسن والقبح بكل اعتبار عليها، وفرق بين الأمرين.

...(٢)**فصل** في تحريم الإفتاء في دين الله بالرأي المتضمن لمخالفة النصوص، والرأي الذي لم تشهد له النصوص بالقبول.

---

(١) ١١٣ المفتاح جـ٢.		(٢) ٤٧ الإعلام جـ١.

قال الله : ﴿فإن لَّمْ يَستجيبوا لك فاعلَم أنما يتبعون أهواءهم ومَنْ أضَلُّ مِمَّن اتَّبع هَواه بِغير هُدًى مِن الله إنَّ الله لا يهدي القومَ الظالمين﴾ [القصص: ٥٠] فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما، إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكُلُّ ما لم يأتِ به الرسولُ فهو من الهوى.

وقال تعالى: ﴿يا داود إنَّا جَعلنَاك خَليفَةً في الأرْضِ فاحكُم بين النَّاس بالحق ولا تتبعِ الهَوى فيُضِلك عن سبيل الله إن الذين يضِلون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد بما نَسُوا يَومَ الحِساب﴾ [ص: ٢٦] فقسَّم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحقِّ وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه.

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ثُم جَعلنَاكَ عَلى شريعَةٍ مِن الأمْرِ فاتَّبعها ولا تتبع أهواءَ الذينَ لا يعْلَمُون * إنهم لَنْ يُغنوا عنك مِن الله شيئًا وإنَ الظالِمِين بعضُهم أولياء بعضٍ والله ولي المتقين﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩] فقسم الأمر بين الشريعة التي جعله هو سبحانه عليها وأوحى إليه العملَ بها وأمر الأمة بها وبين اتِّباع أهواء الذين لا يعلمون، فأمر بالأول، ونهى عن الثاني.

...(١)**وقد** حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هدى من الله أنه أظلم الظالمين، فقال الله عز وجل: ﴿فَإن لَّمْ يَسْتجيبوا لَكَ فاعْلم أنَّما يَتَّبعون أهْواءهُم ومَن أضَلُّ مِمَّن اتَّبع هواهُ بِغير هُدًى من الله إنَّ الله لا يهدي القوم الظَّالمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدي من اتَّبع هواه، وجعل سبحانه وتعالى المتّبع قسمين لا ثالث لهما: إمّا ما جاء به الرسول ﷺ وإما الهوى، فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباعُ الآخر، والشيطان يُطيف بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلًا ولا إليه طريقًا إلَّا من هواه. فلذلك كان الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله، وإنما تطاق مخالفةُ الهوى بالرغبة في الله وثوابه، والخشية من حجابه وعذابه. ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى، فإن متابعته الداء الأكبر، ومخالفته الشفاء الأعظم. وقيل لأبي القاسم الجُنَيدِ: متى تنال النفوس مُناها؟ فقال: إذا صار داؤها دواها. فقيل له: ومتى يصير داؤها دواها؟ فقال: إذا خالفت هواها، ومعنى قوله يصير داؤها دواها أن داءها هو الهوى، فإذا خالفته تداوت منه بمخالفته.

(١) ٤٣٠ الروضة.

وقيل: إنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه إلى أسفل السافلين. والهوى ثلاثة أرباع الهوان، وهو شارع النار الأكبر، كما أن مخالفته شارع الجنة الأعظم.

...[(١)]**الخامس** عشر أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلَّا وجد في نفسه ذُلًّا، ولا يغتر بصولة أتباع الهوى وكِبْرهم فهم أذلُّ الناس بواطن قد جمعوا بين فضيلتي الكبر والذل.

السادس عشر أن يوازن بين سلامة الدين والعِرض والمال والجاه ونيل اللذّة المطلوبة، فإنه لا يجد بينها نسبة البتَّة فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا.

السابع عشر أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة وميلاً إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد، ومتى أحسّ منه بقوة عزمٍ وشرف نفسٍ وعلو همةٍ لم يطمع فيه إلَّا اختلاسًا وسَرِقة. . .

الثامن عشر أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئًا إلَّا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحق، وإن وقع في القِسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يُوَلي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعةً وقربةً، فما قارن شيئًا إلا أفسده.

التاسع عشر أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخلٌ على ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يُطيف به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله فلا يجد مدخلاً إلَّا من باب الهوى، فيسري معه سريَان السم في الأعضاء.

العشرون أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضادًّا لما أنزله على رسوله، وجعل اتباعه مقابلاً لمتابعة رسله، وقسم الناس [إلى] قسمين: أتباع الوحي، وأتباع الهوى، وهذا كثيرٌ في القرآن كقوله تعالى: ﴿**فَإن لم يستَجيبُوا لك فاعلَم أنَّما**

---

(١) ٥٠٦ الروضة.

يتَّبعون أهواءَهم ﴾ [القصص: ٥٠] وقولِه تعالى: ﴿وَلَئن اتَّبعت أهواءهم بعدَ الذِي جَاءَكَ مِنَ العلم﴾ [البقرة: ١٢٠] ونظائِره.

الحادي والعشرون أن الله سبحانه وتعالى شبّه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى، فشبّههم بالكلب تارة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنه أخْلد إلى الأرض واتَّبع هواه فمثلُه كَمَثل الكَلْب﴾ [الأعراف: ١٧٦] وبالحمر تارة كقوله تعالى: ﴿كأنهم حمر مستنفرة فَرَّت مِن قسوَرة﴾ وقلب صورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة[1].

...[2]**قوله**: ﴿الذِين آتينَاهم الكِتاب يعرِفونه كما يعرفون أبنَاءهم﴾ [البقرة: ١٤٦] ونظائرها نظر فإن الله تعالى حيث قال: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ لم يكونوا إلا ممدوحين مؤمنين، وإذا أراد ذمهم والإخبار عنهم بالعناد وإيثار الضلال أتى بلفظ الذين أوتوا الكتاب مبنيا للمفعول، فالأول كقوله تعالى: ﴿الذِين آتيناهم الكتَابَ مِن قَبْله هم بِه يؤمِنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربِّنا إنَّا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ [القصص: ٥٢]. وكقوله تعالى: ﴿أفغير الله أبتغِي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكِتاب مفصَّلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾ [الأنعام: ١١٤] فهذا في سياق مدحهم والاستشهاد بهم ليس في سياق ذمهم والإخبار بعنادهم وجحودهم كما استشهدهم في قوله تعالى: ﴿قُل كَفى بالله شهيدًا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد: ٤٣] وفي قوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [النحل: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾ [البقرة: ١٢١] واختلف في الضمير في يتلونه حق تلاوته، فقيل: هو ضمير الكتاب الذي أوتوه، قال ابن مسعود: يحلون حلاله ويحرمون حرامه ويقرؤونه كما أنزل ولا يحرفونه عن مواضعه، قالوا: وأنزلت في مؤمني أهل الكتاب.

وقيل هذا وصف للمسلمين، والضمير في يتلونه للكتاب الذي هو القرآن. وهذا بعيد إذا عرف أن القرآن يأباه، ولا يرد على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿الذين

---

(١) أوصلها المؤلف ـ رحمه الله ـ إلى خمسين وبها ختم الكتاب (ج).

(٢) ١٠٢ المفتاح جـ١.

آتيناهم الكِتاب يعرِفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمـون﴾ [البقرة: ١٤٦] بل هذا حجة لنا أيضا لما ذكرنا فإنه أخبر في الأول عن معرفتهم برسوله ﷺ ودينه وقبلته كما يعرفون أبناءهم استشهادًا بهم على من كفر وثناء عليهم، ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبدالله بن سلام وأصحابه، وخص في آخر الآية بالذم طائفة منهم، فدل على أن الأولين غير مذمومين. وكونهم دخلوا في جملة الأولـين بلفظ المضمر لا يوجب أن يقال آتيناهم الكتاب عند الإطلاق؛ فإنهم دخلوا في هذا اللفظ ضمنًا وتبعًا فلا يلزم تناوله لهم قصدًا واختيارًا. وقال تعالى في سورة الأنعام: **﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قُل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون * الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾** [الأنعام: ١٩، ٢٠].

قيل: الرسول وصدقه، وقيل: المذكور هو التوحيد، والقولان متلازمان؛ إذ ذلك في معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين لا في معرض ذم الذين آتاهم الكتاب؛ فإن السورة مكية والحجاج كان فيها مع أهل الشرك، والسياق يدل على الاحتجاج لا ذم المذكورين من أهل الكتاب. وأما الثاني فكقوله: **﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون * ولئن أتيتَ الـذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾** [البقرة: ١٤٥-١٤٦] فهذا شهادته سبحانه للذين أوتوا الكتاب. والأول شهادته للذين آتاهم الكتاب بأنهم يؤمنون.

وقال تعالى: **﴿يا أيُّها الذين أوتوا الكِتاب آمنوا بما نزَّلنا مُصدِّقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوهًا فنردها على أدبارِها﴾** [النساء: ٤٧] وقال تعالى: **﴿وقُل للذين أوتُوا الكِتاب والأميين أأسلمتُم﴾** [آل عمران: ٢٠] وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم وإلا فلم يؤمر ﷺ أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به، ولهذا لا يذكر سبحانه الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب إلا بالذم أيضًا كقوله: **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت﴾** [النساء: ٥١]. وقال تعالى: **﴿ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل﴾**

وقال: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتـولى فريق منهم وهم معـرضون﴾ [آل عمران: ٢٣]. فالأقسام أربعة:

الذين آتيناهم الكتاب، وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح، والذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، لا يكون قط إلا في معرض الذم، والذين أوتوا الكتاب: أعم منه؛ فإنه قد يتناولهما، ولكن لا يفرد به الممدوحون قط، ويا أهل الكتاب: يعم الجنس كله، ويتناول الممدوح منه والمذموم كقوله: **﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾**

وقال في الذم **﴿لم يكن الذين كفرُوا من أهل الكِتاب والمشركِين مُنفَكين﴾** [البينة: ١] وهذا الفصل ينتفع به جدًا في أكبر مسائل أصول الإسلام وهي مسألة الإيمان واختلاف أهل القبلة فيه، وقد ذكرنا فيه نكتًا حسانًا يتضح بها الحق في المسألة والله أعلم.

. . .[1]**قال** ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريبًا من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه، وقبالتهم رجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله، وتلا عليهم القرآن فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبوجهل ابن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب؟! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال؟! ما نعلم ركبًا أحمق منكم أو كما قالوا. فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ماأنتم عليه، لم نأل من أنفسنا خيرًا. ويقال إن النفر من النصارى من أهل نجران، ويقال فيهم نزلت **﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا ـ إلى قوله ـ سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾** [القصص: ٥٢ ـ ٥٥] وقال الزهري: مازلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه.

(١) ٢٦ هداية الحيارى.

...(١)**قال** تعالى: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يَشاء**﴾ [العنكبوت: ٥٦] مع قوله: ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾ [الزخرف: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان، ونفى هداية التوفيق والإلهام. وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: «**من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له**». وقال تعالى: ﴿**إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يُضِل**﴾ [النحل: ٣٧] أي من يضله الله لا يهتدى أبدًا. وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء. وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها، بخلاف الثالثة فإن تخلف الهدى عنها مستحيل. المرتبة الرابعة الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار.

قال تعالى: ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم**﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وأما قول أهل الجنة: ﴿**الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**﴾ [الأعراف: ٤٣] فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم. ولو قيل إن كلا الأمرين مراد لهم، وأنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ. وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلاً مطابقًا لحاله: فقال تعالى: ﴿**قُل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قُل إن هُدى الله هو الهُدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين**﴾ [الأنعام: ٧١].

...(٢)**اعلم** أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال، أو رياسة أوصورة. وتعلق بالآخرة، والاهتمام بها من تحصيل العُدَّة، والتأهب للقدوم على الله عز وجل: فذلك أول فتوحه، وتباشير فجره. فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضى به ربه منه، فيفعله ويتقرب به إليه، وما يسخطه منه، فيجتنبه. وهذا عنوان صدق إرادته، فإن كل من أيقن بلقاء الله، وأنه سائله عن كلمتين ـ يُسأل عنهما الأولون والآخرون ـ ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ لابد أن يتنبه

---

(١) ٨٥ المفتاح جـ١.	(٢) ٣٧٩ المدارج جـ٣.

لطلب معرفة معبوده، والطريق الموصلة إليه. فإذا تمكن في ذلك: فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلاشيء أشوق إليه من ذلك؛ فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته، وتسد عليه الأبواب التي تفرق همَّه وتشت قلبه، فيأنس بها ويستوحش من الخلق.

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها. ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو واللعب، ونيل الشهوات. بحيث إنه إذا دخل في الصلاة ودَّ أن لا يخرج منها. ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله، فلا يشبع منه، وإذا سمعه هدأ قلبه به كما يهدأ الصبي إذا أعطى ما هو شديد المحبة له. ثم يفتح له باب شهود عظمة الله المتكلم به وجلاله، وكمال نعوته وصفاته وحكمته، ومعاني خطابه، بحيث يستغرق قلبه في ذلك حتى يغيب فيه، ويحس بقلبه وقد دخل في عالم آخر غير ما الناس فيه.

ثم يفتح له باب الحياء من الله، وهو أول شواهد المعرفة، وهو نور يقع في القلب، يُريه ذلك النور: أنه واقف بين يدي ربه عز وجل، فيستحي منه في خلواته، وجلواته، ويرزق عند ذلك: دوام المراقبة للرقيب، ودوام التطلع إلى حضرة العلي الأعلى، حتى كأنه يراه ويشاهده فوق سمواته، مستويًا على عرشه، ناظرًا إلى خلقه، سامعًا لأصواتهم، مشاهدًا لبواطنهم. فإذا استولى عليه هذا الشاهد غطى عليه كثيراً من الهموم بالدنيا وما فيها، فهو في وجود والناس في وجود آخر، هو في وجود بين يدي ربه ووليه، ناظرًا إليه بقلبه، والناس في حجاب عالم الشهادة في الدنيا، فهو يراهم وهم لا يرونه، ولا يرون منه إلا ما يناسب عالمهم ووجودهم.

ثم يفتح له باب الشعور بمشهد القيومية، فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده، فيشهده مالك الضر والنفع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، فيتخذه وحده وكيلاً، ويرضى به ربًّا ومدبراً وكافياً. وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دله على خالقه وبارئه، وصفات كماله ونعوت جلاله، فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه، بل يناديه كل من المخلوقات بلسان حاله: اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه، فأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء . . .

...[1]**وقوله: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون * وربك يعلم ما تُكن صدورهم وما يعلنون﴾** [القصص: ٦٨ - ٦٩] أي سبحانه المتفرد بالخلق والاختيار مما خلق، وهو الاصطفاء والاجتباء. ولهذا كان الوقف التام عند قوله ويختار، ثم نفى عنهم الاختيار الذي اقترحوه بإرادتهم، وأن ذلك ليس إليهم، بل إلى الخلاق العليم الذي هو أعلم بمحال الاختيار ومواضعه لا من قال: **﴿لولا نزِّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾** [الزخرف: ٣٠] فأخبر سبحانه أنه لا يبعث الرسل باختيارهم، وأن البشر ليس لهم أن يختاروا على الله، بل هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، ثم نفى سبحانه أن تكون لهم الخيرة كما ليس لهم الخلق.

ومن زعم أن ما مفعول يختار فقد غلط؛ إذ لو كان هذا هو المراد لكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر كان، ولا يصح المعنى ما كان لهم الخيرة فيه وحذف العائد؛ فإن العائد ههنا مجرور بحرف لم يجر الموصول بمثله، فلو حذف مع الحرف لم يكن عليه دليل فلا يجوز حذفه. وكذلك لم يفهم معنى الآية من قال إن الاختيار ههنا هو الإرادة، كما يقوله المتكلمون أنه سبحانه فاعل بالاختيار؛ فإن هذا الاصطلاح حادث منهم لا يحمل عليه كلام الله، بل لفظ الاختيار في القرآن مطابق لمعناه في اللغة، وهو اختيار الشيء على غيره، وهو يقتضي ترجيح ذلك المختار وتخصيصه وتقديمه على غيره، وهذا أمر أخص من مطلق الإرادة والمشيئة.

قال في الصحاح: الخيرة الاسم من قولك: خار الله لك في هذا الأمر والخيرة أيضًا، يقول: محمد خيرة الله من خلقه، وخيرة الله أيضًا بالتسكين. والاختيار الاصطفاء وكذلك التخيير، والاستخارة طلب الخيرة، يقال: استخر الله يخر لك، وخيرته بين الشيئين فوّضت إليه الاختيار. انتهى. فهذا هو الاختيار في اللغة وهو أخص مما اصطلح عليه أهل الكلام، ومن هذا قوله: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله وَرَسُوله أمرًا أن يكونَ لَهُم الخِيَرة مِن أمرِهم﴾** [الأحزاب: ٣٦] وقوله تعالى: **﴿واختار موسى قومَه سَبعين رجُلاً لميقاتِنا﴾** [الأعراف: ١٥٥] أي اختار منهم.

---

(١) ٣١ شفاء.

وبهذا يحصل جواب السؤال الذي تورده القدرية يقولون في الكفر والمعاصي: هل هي واقعة باختيار الله أم بغير اختياره. فإن قلتم: باختياره فكل مختار مرضي مصطفى محبوب، فتكون مرضية محبوبه له. وإن قلتم: بغير اختياره لم يكن بمشيئته واختياره.

وجوابه أن يقال: ما تعنون بالاختيار [أهو] العام في اصطلاح المتكلمين وهو المشيئة والإرادة أم تعنون به الاختيار الخاص الواقع في القرآن والسنة وكلام العرب؟ وإن أردتم بالاختيار الأول فهي واقعة باختياره ـ بهذا الاعتبار ـ لكن لا يجوز أن يطلق ذلك عليها لما في لفظ الاختيار من معنى الاصطفاء والمحبة، بل يقال واقعة بمشيئته وقدرته. وإن أردتم بالاختيار معناه في القرآن ولغة العرب فهي غير واقعة باختياره بهذا المعنى وإن كانت واقعة بمشيئته. فإن قيل فهل تقولون إنها واقعة بإرادته أم لا تطلقون ذلك؟ قيل: لفظ الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة كونية شاملة لجميع المخلوقات كقوله: ﴿**فعّال لما يريد**﴾ [البروج: ١٦] وقوله: ﴿**وإذا أردنا أن نهلك قرْيَة**﴾ [الإسراء: ١٦] وقوله: ﴿**إن كان الله يُريد أن يُغويكم**﴾ [هود: ٣٤] ونظائر ذلك. وإرادة دينية أمرية لا يجب وقوع مرادها كقوله: ﴿**يُريد الله بِكم اليُسر**﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم**﴾ [النساء: ٢٧] فهي مرادة بالمعنى الأول غير مرادة بالمعنى الثاني.

وكذلك إن قيل هل هي واقعة بإذنه أم لا؟ والإذن أيضًا نوعان: كوني كقوله: ﴿**وَمَا هم بِضَارِّين به من أحد إلا بِإذن الله**﴾ [البقرة: ١٠٢]، وديني أمري كقوله: ﴿**ءَالله أذِن لَكُم**﴾ [يونس: ٥٩] وقوله: ﴿**أُذِن للذين يقاتلون بِأنهم ظُلِموا**﴾ [الحج: ٣٩] ولفظ الاختيار مشتق من الخير المخالف للشر، ولما كان الأصل في الحي أنه يريد ما ينفعه وما هو خير سميت الإرادة اختيارًا. وهذا يتضمن أن الإرادة لا ترجح نوعًا على نوع إلا لمرجح رجح ذلك النوع عند الفاعل. والمقصود أنه يذكر العلم عند التخصيصات كقوله تعالى: ﴿**وَلَقد اخترناهم على عِلم على العَالَمين**﴾ [الدخان: ٣٢] لا خلاف بين الناس أن المعنى على علم منا بأنهم أهل الاختيار، فالجملة في موضع نصب على الحال، أي اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم وما يقتضي اختيارهم من قبل خلقهم، ذكر سبحانه اختيارهم وحكمته في اختياره

إياهم، وذكر علمه الدال على مواضع حكمته واختياره.

...(١)**الله** سبحانه وتعالى هو المنفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾ [القصص: ٦٨] وليس المراد ههنا بالاختيار الإرادة، التي يشير إليها المتكلمون، بأنه الفاعل المختار، وهو سبحانه كذلك، ولكن ليس المراد بالاختيار ههنا هذا المعنى، وهذا الاختيار داخل في قوله: ﴿**يخلق ما يشاء**﴾ فإنه لا يخلق إلا باختياره، وداخل في قوله تعالى ﴿**ما يشاء**﴾ فإن المشيئة هي الاختيار.

وإنما المراد بالاختيار ههنا: الاجتباء والاصطفاء، فهو اختيار بعد الخلق، والاختيار العام اختيار قبل الخلق، فهو أعم وأسبق، وهذا أخص وهو متأخر، فهو اختيار من الخلق، والأول اختيار للخلق. وأصح القولين: أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿**ويَخْتَارُ**﴾ ويكون ﴿**مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ**﴾ نفيًا، أي: ليس هذا الاختيار إليهم، بل هو إلى الخالق وحده، فكما أنه المنفرد بالخلق فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، ومحال رضاه، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه.

وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل إلى أن «ما» من قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ**﴾ موصولة، وهي مفعول (ويختار) أي: ويختار الذي لهم الخيرة، وهذا باطل من وجوه.

أحدها: أن الصلة حينئذ تخلو من العائد؛ لأن (الخيرة) مرفوع؛ لأنه اسم «كان» والخبر «لهم» فيصير المعنى: ويختار الأمر الذي كان الخيرة لهم، وهذا التركيب محال من القول.

فإن قيل: يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفًا، ويكون التقدير: ويختار الذي كان لهم الخير فيه، أي: ويختار الأمر الذي كان لهم الخيرة في اختياره. قيل: هذا يفسد من وجه آخر، وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد، فإنه إنما يحذف مجرورًا إذا جُرَّ بحرفٍ جُرَّ الموصول بمثله، مع اتحاد

---

(١) ٥ الزاد جـ١.

المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿يأكُل مما تأكُلون مِنه ويَشْرِبُ مِما تَشْرَبون﴾ [المؤمنون: ٣٣] ونظائره. ولا يجوز أن يقال: جاءني الذي مررت، ورأيت الذي رغبت، ونحوه.

الثاني: أنه لو أريد هذا المعنى لنصب (الخيرة) وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول، فكان يقول: ويختار ما كان لهم الخيرة، أي: الذي كان هو عين الخيرة لهم، وهذا لم يقرأ به أحد البتة، مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير.

الثالث: أن الله سبحانه يحكي عن الكفار اقتراحهم في الاختيار وإرادتهم أن تكون الخيرة لهم، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبين تفرده هو بالاختيار، كما قال تعالى: ﴿وَقالوا لولاَ نُزل هذا القُرآن على رجُلٍ من القريتين عظيم * أهم يقسِمون رحمة ربِّك نحن قَسمنا بينهم معيشَتهم في الحَياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليتخذ بعضُهم بعضًا سُخْرِيًا ورحمة ربِّك خير مما يجمَعون﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢]. فأنكر عليهم سبحانه تخيُّرهم عليه، وأخبر أن ذلك ليس إليهم، بل إلى الذي قسَم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم، ومدد آجالهم، وكذلك هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهكذا هذه الآية بيَّن فيها انفراده بالخلق والاختيار، وأنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، كما قال تعالى: ﴿وإذا جاءَتهم آية قَالوا لَن نُؤْمن حَتَّى نُؤتَى مثل ما أوتي رُسل الله الله أعلم حيث يجعل رِسالَته﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: الله أعلم بالمحلَ الذي يصلح لاصطفائه وكرامته، وتخصيصه بالرسالة والنبوة، دون غيره.

الرابع: أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم: من اقتراحهم واختيارهم، فقال: ﴿مَا كَان لَهم الخِيرة، سُبحان الله وتَعالى عَمَّا يشركون﴾ [القصص: ٦٨] ولم يكن شركهم مقتضيًا لإثبات خالق سواه حتى نَزَّه نفسه عنه، فتأمله. فإنه في غاية اللطف.

الخامس: أن هذا نظير قوله تعالى في الحج ﴿إنَّ الذين تَدعون من دون الله لَن يَخلُقوا ذُبابًا ولو اجتمعوا له وإن يَسْلبهم الذُّباب شيئًا لا يستنقذُوه مِنه ضَعف الطالب والمطلوب * ماقَدروا الله حقَّ قدره إن الله لقوي عزيز﴾ ثم قال: ﴿الله يصطفي من الملائكة رُسُلاً ومِن الناس إن الله سميع بَصير * يعلم ما بين أيديهم

وما خلفهم وإلى الله تُرجع الأمور﴾ [الحج: ٧٣، ٧٦]وهذا نظير قوله: ﴿وَرَبك يعلم ما تُكِن صُدورهم وما يعلنون﴾ [القصص: ٦٩] ونظير قوله: ﴿الله أعلم حيثُ يجعَل رِسَالته﴾ [الأنعام: ١٢٤] فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محالَّ اختياره بما خصصها به، لعلمه بأنها تصلح له دون غيرها. فتدبر السياق في هذه الآيات تجده متضمنًا لهذا المعنى زائدًا عليه. والله أعلم.

السادس: أن هذه الآية مذكورة عقيب قوله تعالى: ﴿وَيَوم يُنادِيهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين * فعَمِيَت عليهم الأنباء يومئذٍ فهم لا يتساءلون * فأما من تاب وآمن وعمل صالِحًا فعسى أن يكون من المفلحين * وربُّك يخلق ما يشاء ويختار﴾ [القصص: ٦٥-٦٧] فكما خلقهم وحده سبحانه، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحًا، فكانوا صفوته من عباده، وخيرته من خلقه، وكان هذا الاختيار راجعًا إلى حكمته وعلمه سبحانه لمن هو أهل له، لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم. فسبحان الله وتعالى عما يشركون.

فصل وإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته، وكمال حكمته وعلمه وقدرته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره. فهذا الاختيار والتخصيص المشهود أثره في هذا العالم من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله، وصدق رسله.

فنشير منه إلى شيء يسير يكون منبهًا على ما وراءه، دالاً على ما سواه. فخلق الله السموات سبعًا، فاختار العليا منها، فجعلها مستقر المقربين من ملائكته، واختصها بالقرب من كرسيه ومن عرشه، وأسكنها من شاء من خلقه، فلها مزية وفضل على سائر السموات، ولو لم يكن إلا قربها منه تبارك وتعالى. وهذا التفضيل والتخصيص مع تساوي مادة السموات: من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء ويختار.

ومن هذا: تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفها، وفي بعض الآثار: «أن الله سبحانه غرسها بيده، واختارها لخيرته من خلقه».

ومن هذا: اختياره من الملائكة المصطفين منهم على سائرهم، كجبريل وميكائيل وإسرافيل، وكان النبي ﷺ يقول: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(١).

فذكر هؤلاء الثلاثة من الملائكة لكمال اختصاصهم واصطفائهم، وقربهم من الله، وكم من ملك غيرهم في السموات، فلم يسم إلا هؤلاء الثلاثة. فجبريل: صاحب الوحي، الذي به حياة القلوب والأرواح. وميكائيل: صاحب القَطر، الذي به حياة الأرض والحيوان والنبات، وإسرافيل: صاحب الصور، الذي إذا نفخ فيه أحيت نفخته بإذن الله الأموات، وأخرجتهم من قبورهم.

وكذلك اختياره سبحانه الأنبياء من ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ وهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ـ واختياره سبحانه الرسل منهم، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ـ على ما في حديث أبي ذر الذي رواه أحمد وابن حبان في صحيحه ـ واختياره أولى العزم منهم، وهم خمسة: المذكورون في سورة الأحزاب والشورى في قوله تعالى: ﴿**وإذْ أخذْنَا مِن النبيين ميثَاقهم ومنك ومن نُوح وإبراهيم ومُوسى وعِيسى ابن مريَم**﴾ [الأحزاب: ٧] وقال تعالى: ﴿**شرعَ لكم من الدِّين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم ومُوسى وعِيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ [الشورى: ١٣] واختار منهم الخليلين: إبراهيم ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم.

ومن هذا: اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس بني آدم، ثم اختار منهم بني كنانة من خزيمة، ثم اختار من ولد كنانة قريشًا، ثم اختار من قريش بني هاشم، ثم اختار من بني هاشم سيد ولد آدم محمدًا ﷺ(٢). وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين، واختار منهم السابقين الأولين، واختار منهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان، واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها. واختار أمته ﷺ على سائر الأمم، كما في مسند الإمام أحمد وغيره من حديث بَهْز بن حكيم بن معاوية بن حَيْدة عن أبيه عن جده قال: قال

(١) رواه مسلم عن عائشة والإمام أحمد عن ابن عمر

(٢) يشير إلى حديث واثلة بن الأسقع الذي رواه مسلم.

رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله» قال علي بن المديني وأحمد: حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده صحيح.

وظهر أثر هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم، وتوحيدهم، ومنازلهم في الجنة، ومقاماتهم في الموقف، فإنهم أعلى من الناس على تَلٍّ فوقهم يشرفون عليهم. وفي الترمذي من حديث بريدة بن الحُصَيب الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف: ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم**» قال الترمذي: هذا حديث حسن. والذي في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في حديث بَعْث النار: «**والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطْر أهل الجنة**» ولم يزد على ذلك، فإما أن تكون أمته شطر أهل الجنة، فأعلمه ربه، فقال: ﴿**إنهم ثمانون صفًا من مائة وعشرين صفًا**﴾ فلا تنافي بين الحديثين، والله أعلم.

(١) الباب الثالث والعشرون

(في خلق الرب تبارك وتعالى بعض الجنان وغرسها بيده تفضيلاً لها على سائر الجنان)

وقد اتخذ الرب تعالى من الجنان دارًا اصطفاها لنفسه وخصها بالقرب من عرشه، وغرسها بيده، فهي سيدة الجنان. والله سبحانه وتعالى يختار من كل نوع أعلاه وأفضله، كما اختار من الملائكة جبريل، ومن البشر محمدًا ﷺ، ومن السموات العليا، ومن البلاد مكة، ومن الأشهر المحرم، ومن الليالي ليلة القدر، ومن الأيام يوم الجمعة، ومن الليل وسطه، ومن الأوقات أوقات الصلاة إلى غير ذلك، فهو سبحانه وتعالى: ﴿**يخلق ما يشاء ويختار**﴾.

وقال الطبراني في معجمه: حدثنا مطلب بن شعيب الأزدي حدثنا عبدالله بن صالح حدثني الليث. قال الطبراني في معجمه وحدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن زيادة بن محمد الأنصاري عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزل الله تعالى في آخر ثلاث ساعات يبقين من الليل فينظر الله في الساعة الأولى**

---

(١) ٧٩ حادي.

منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه غيره فيمحو ما يشاء ويثبت، ثم ينظر في الساعة الثانية إلى جنة عدن وهي مسكنه الذي يسكن فيه، ولا يكون معه فيها أحد إلا الأنبياء والشهداء والصديقون وفيها ما لم تره عين أحد، ولا خطر على قلب بشر، ثم يهبط آخر ساعة من الليل فيقول ألا مستغفر يستغفرني فأغفر له؟ ألا سائل يسألني فأعطيه؟ ألا داع يدعوني فأستجيب له حتى يطلع الفجر» قال تعالى: **﴿وقُرآن الفجر إنَّ قُرآن الفجر كان مشهودًا﴾** [الإسراء: ٧٨] فيشهده تعالى وملائكته. قال الحسن بن سفيان حدثنا أبوالطاهر أحمد بن عمرو بن السرح قال حدثني خالي عبدالرحمن بن عبدالحميد بن سالم حدثنا يحيى بن أيوب عن داود بن أبي هند عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله بنى الفردوس بيده وحظرها على كل مشرك وكل مدمن خمر ومتكبر»**. . .

...(١)**فصل** ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معائشهم، ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور. ثم تأمل الحكمة في غروبهما فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس، وانبعاث القوى الباطنة، وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء. ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس، واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتًا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنه مثل ذلك ليقروا ويهدؤا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين، بهما تمام مصالح العالم. وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل: **﴿قُل أرأيتُم إن جعل الله عليكم الليل سرمَدًا إلى يومِ القيامة من إله غير الله يأتِيكم بضِياء أفلا تسمعون * قُل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمَدًا إلى يومِ القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكُنون فيه أفلا**

---

(١) ٢٠٧ المفتاح جـ١.

تُبصِرون﴾ [القصص: ٧١، ٧٢] خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتسمع فيه الحيوانات مالا تسمع في النهار؛ لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات، وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع. فقوله: **﴿أفلا تسمعون﴾** راجع إلى قوله: **﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾** وقوله: **﴿أفلا تبصرون﴾** راجع إلى قوله: **﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة﴾**.

...(١)**ومما** يدل على أن الفرح من أسباب المكر ما لم يقارنه خوف قوله تعالى: **﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتَّى إذا فرحُوا بما أوتوا أخذنَاهم بغتة فإذا هم مُبلِسون﴾** [الأنعام: ٤٤] وقال قوم قارون له: **﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾** [القصص: ٧٦] فالفرح متى كان بالله، وبما مَنَّ الله به، مقارنًا للخوف والحذر: لم يضر صاحبه، ومتى خلا عن ذلك: ضره ولابد.

...(٢)**وليحذر** كل الحذر من طغيان «أنا» و«لي» و«عندي» فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها إبليس وفرعون وقارون، فـ**﴿أنا خير منه﴾** [الأعراف: ١٢] لإبليس و**﴿لي مُلكُ مصر﴾** [الزخرف: ٥١] لفرعون، و**﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾** [القصص: ٧٨] لقارون.

وأحسن ما وضعت «أنا» في قول العبد، أنا العبد المذنب المخطيء، المستغفر المعترف ونحوه، و«لي» في قوله: لي الذنب، ولي الجرم، ولي المسكنة، ولي الفقر والذل، و«عندي» في قوله: «اغفر لي جِدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي».

...(٣)**الوجه** السابع أنه سبحانه ذم متمنى الدنيا والغنى والسعة فيها ومدح من أنكر عليهم وخالفهم، فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه: **﴿فخرج على قومه في زينته قَال الذين يُريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مِثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العِلم ويْلَكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا ولا يلقاها إلا الصابرون﴾** [القصص: ٧٩ ـ ٨٠] فأخبروا أن ما عند الله خير من الدنيا لمن

---

(١) ١٠٨ المدارج جـ٣.	(٢) ١٠٢ الفوائد.	(٣) ١٩٥ عدة الصابرين.

آمن وعمل صالحًا، ولا يلقى هذه الوصية وهي الكلمة التي تكلم بها الذين أوتوا العلم، أو المثوبة والجنة التي دل عليها قوله: ﴿**ثواب الله خير**﴾ أو السيرة والطريقة التي دل عليها قوله: ﴿**لمن آمن وعمل صالحًا**﴾ وعلى كل حال لا يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء.

وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.

الوجه الثامن أنه سبحانه أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال الذي يحتاج إليه لإقامة الملك، فكيف بما هو زيادة وفضلة فقال تعالى: ﴿**وقال لهم نبيهُم إن الله قَد بَعث لَكم طَالُوت مَلِكًا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحنُ أحقُّ بالملك منه ولم يُؤت سَعَةً من المال قال إن الله اصْطفاه عليكم وَزَاده بسْطَة في العلم والجِسْمِ**﴾ [البقرة: ٢٤٧] فرد الله سبحانه قولهم، وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال كما توهموه، وأن الفضل بالعلم لا بالمال. وقال سبحانه: ﴿**قُل بِفَضْلِ الله وبرحمته فَبذَلك فَلْيفرحُوا هُوَ خيرٌ مما يجْمَعُونَ**﴾ [يونس: ٥٨] ففضله ورحمته العلم والإيمان والقرآن، والذي يجمعونه هو المال وأسبابه، ومثله قوله تعالى: ﴿**أهُم يَقْسِمون رحمة ربك - إلى قوله - ورحمَةُ ربك خيرٌ مما يجْمَعُون**﴾ [الزخرف: ٣٢].

...(١)**النفوس** ثلاثة: نفس سماوية علوية، فمحبتها منصرفة إلى المعارف واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان واجتناب الرذائل، وهي مشغوفة بما يقرّبها من الرفيق الأعلى، وذلك قوتُها وغذاؤها ودواؤها، فاشتغالها بغيره هو داؤها.

ونفس سبعية غضبية، فمحبتها منصرفة إلى القهر والبغي والعُلو في الأرض والتكبر والرِّئاسة على الناس بالباطل، فلذتها في ذلك وشغفها به. ونفسٌ حيوانية شهوانية، فمحبتها منصرفة إلى المأكل والمشرب والمنكح، وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد كما قال الله تعالى: ﴿**إنَّ فِرعون علا في الأرض وجَعل أهْلها شيعًا يستضعِف طائِفة منهم يُذبِّح أبناءهُم ويستحيي نساءَهم إنَّه كان من المفسدين**﴾ [القصص: ٤] وقال في آخر السورة: ﴿**تِلك الدَّار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتَّقين**﴾

---

(١) ٢٧٨ الروضة.

[القصص: ٨٢] والحبُّ في هذا العالم دائرٌ بين هذه النفوس الثلاثة، فأيّ نفسٍ منها صادفت ما يلائم طبعها استحسنته ومالت إليه، ولم تصغ فيه لعاذل، ولم تأخذها فيه لومة لائم. . .

(١)**وأما** احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾، فإنما أتيتم من عدم فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما، فلا أنتم وفقتم لفهم معناها ولا إخوانكم، وإنما وفق لفهم معناها السلف وأئمة الإسلام. ونحن نذكر بعض كلامهم في الآية: قال البخاري في صحيحه يقال: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ إلا ملكه، ويقال إلا ما أريد به وجهه. وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: فأما السماء والأرض فقد زالتا لأن أهلهما صاروا إلى الجنة وإلى النار، وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب؛ إنه سقف الجنة، والله سبحانه وتعالى عليه فلا يهلك ولا يبيد، وأما قوله تعالى: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ فذلك أن الله سبحانه وتعالى أنزل ﴿**كلُّ من عليها فان**﴾ [الرحمن: ٢٦] فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء، فأخبر الله تعالى عن أهل السموات وأهل الأرض أنهم يموتون فقال: ﴿**كل شيء هالك**﴾ يعني ميت ﴿**إلا وجهه**﴾ لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت. انتهى كلامه.

وقال في رواية أبي العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب الاصطخري ذكره أبوالحسين في كتاب الطبقات قال: قال أبوعبد الله أحمد بن حنبل: هذه مذاهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروتها، المعروفين بها، المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب نبينا ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئًا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق. وساق أقوالهم إلى أن قال: وقد خلقت الجنة وما فيها، وخلقت النار ومافيها، خلقهما الله عز وجل وخلق الخلق لهما، ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبدًا.

---

(١) ٤١ حادي.

فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عز وجل: ﴿**كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَه**﴾ [القصص: ٨٨] وبنحو هذا من متشابه القرآن. قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا، والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة، ولا أبدًا، لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء لا للفناء ولم يكتب عليهم الموت. فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع وقد ضل عن سواء السبيل. وخلق سبع سموات بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، والماء فوق السماء العليا السابعة، وعرش الرحمن عز وجل فوق الماء، وإن الله عز وجل على العرش، والكرسي موضع قدميه، وهو يعلم ما في السموات والأرضين السبع وما بينهما، وما تحت الثرى، وما في قعر البحر، ومنبت كل شعرة وشجرة، وكل زرع وكل نبات، ومسقط كل ورقة، وعدد كل كلمة، وعدد الحصا والتراب والرمل ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وأثارهم، وكلامهم وأنفاسهم، ويعلم كل شيء لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو على العرش فوق السماء السابعة، ودونه حجب من نار ونور وظلمة وما هو أعلم بها.

فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله عز وجل ﴿**ونَحن أقْرب إليه من حَبْلِ الوَريدِ**﴾ [ق: ١٦] وقوله: ﴿**وهو مَعكم أينما كُنتم**﴾ وقوله: ﴿**إلا هو معهم أينما كانوا**﴾ وقوله: ﴿**ما يكون من نجْوى ثَلاثة إلا هو رابعهم ولا خَمسَة إلا هو سادِسهم**﴾ [المجادلة: ٧] ونحو هذا من متشابه القرآن.

فقل إنما يعني بذلك العلم؛ لأن الله عز وجل على العرش فوق السماء السابعة العليا يعلم ذلك كله وهو بائن من خلقه، لا يخلو من علمه مكان. وقال في رواية أبي جعفر الطائي محمد بن عوف بن سفيان الحمصي قال الخلال حافظ إمام في زمانه معروف بالتقدم في العلم والمعرفة، كان أحمد بن حنبل يعرف له ذلك ويقبل منه ويسأله عن الرجال من أهل بلده، قال: أملي على أحمد بن حنبل فذكر رسالة في السنة، ثم قال في أثنائها: وأن الجنة والنار مخلوقتان قد خلقتا كما جاء الخبر قال النبي ﷺ: «**دخلت الجنة فرأيت فيها قصرًا ورأيت الكوثر، واطلعت في النار**

فرأيت أكثر أهلها كذا كذا» فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب برسول الله ﷺ وبالقرآن، كافر بالجنة والنار، يستتاب فإن تاب وإلا قتل. وقال في رواية عبدوس بن مالك العطار وذكر رسالة في السنة قال فيها: والجنة والنار مخلوقتان، قد خلقتا كما جاء عن رسول الله ﷺ: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا**» فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب بالقرآن وأحاديث رسول الله ﷺ، ولا أحسبه يؤمن بالجنة والنار. فتأمل هذه الأبواب وما تضمنته من النقول والمباحث والنكت والفوائد التي لا تظفر بها في غير هذا الكتاب البتة، ونحن اختصرنا الكلام في ذلك، ولو بسطناه لقام منه سفر ضخم والله المستعان وعليه التكلان وهو الموفق للصواب.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القصص

والحمد لله رب العالمين

سورة العنكبوت

ترتيبها ٢٩ — آياتها ٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

. . . (١) **وقوله** تعالى: ﴿**الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ـ إلى قوله ـ **أَوَ ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين**﴾ [العنكبوت: ١ ـ ١٠] فليتأمل العبد سياق هذه الآيات وما تضمنته من العِبَر، وكنوز الحِكم، فإن الناس إذا أرسل الله إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا، وإما أن لا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر. فمن قال «آمنا» امتحنه ربه وابتلاه وفَتنه، والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب. ومن لم يقل «آمنا» فلا يَحسب أنه يُعجز الله ويفوته ويسبقه، فإنه إنما يطوي المراحل في يديه.

وكيف يَفِر المرء عنه بذنبه إذا كان يطوي في يديه المراحل

فمن آمن بالرسل وأطاعهم: عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتُلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم ولم يطعهم: عُوقب في الدنيا والآخرة، فحصل له ما يؤلمه. وكان هذا المؤلم له أعظم ألمًا، وأدوم من ألم اتِّباعهم. فلابد من حصول الألم لكل نفس: آمنت، أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة. والمعرض عن الإيمان يحصل له اللذة ابتداء، ثم يصير إلى الألم الدائم.

وسئل الشافعي رحمه الله «أيما أفضل للرجل: أن يُمَكَّن، أو يُبتلى؟ فقال: لا يمكن له حتى يبتلى». والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل، فلما صبروا مكَّنهم، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة. وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول. فأعقلُهم: من باع ألمًا مستمرًا عظيمًا بألم منقطع يسير. وأسفههم : من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر.

فإن قيل: كيف يختار العاقل هذا؟ قيل: الحامل له على هذا: النقد والنسيئة. والنفس موكَّلة بالعاجل: ﴿**كَلَّا بل تُحبون العاجِلة وتَذَرون الآخرة**﴾ [القيامة:

---

(١) ١١٠ الزاد جـ٢.

٢٠، ٢١] ﴿إِنَّ هؤلاء يُحبون العاجِلة ويذَرون وراءهم يومًا ثقيلاً﴾ [الإنسان: ٢٧]
وهذا يحصل لكل أحد؛ فإن الإنسان مدني بالطبع، لابد له أن يعيش مع الناس.
والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبونَ منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب: تارة منهم، وتارة من غيرهم.
كمن عنده دين وتُقى حَلَّ بين قوم فُجَّار ظَلمة، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم، أو سكوته عنهم. فإن وافقهم أو سكت عنهم: سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى، أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلابد أن يُهان ويعاقب على يد غيرهم.
فالحـزم كل الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: «**من أرضَى الله بسَخَط الناس: كفاه الله مُؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله: لم يُغنوا عنه من الله شيئًا**». ومن تأمَّل أحوال العالم رأى هذا كثيراً فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم، هربًا من عقوبتهم.
فمن هداه الله وألهمه رُشده، ووقاه شَرَّ نفسه: امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عدوانهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم، كالمهاجرين والأنصار، ومن ابتُلي من العلماء والعباد وصالحي الولاة والتجار وغيرهم.

ولما كان الألم لا محيص منه البتة: عزَّى الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿**مَن كان يرجُو لِقاء الله فإنَّ أجل الله لآت وهو السميع العَليم**﴾ [العنكبوت: ٥] فضرب لمدة هذا الألم أجلاً، لابد أن يأتي، وهو يوم لقائه. فيلتَذ العبد أعظم لذة بما تحمل من الألم من أجله، وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه: بقدر ما تحمل من الألم في الله، ولله. وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه، ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيَّبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به. ولهذا سأل النبي ﷺ ربَّه الشوقَ إلى لقائه، فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان: «**اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق: أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي. وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة.**

وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا. وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيمًا لا ينفد. وأسألك قُرّة عين لا تنقطع. وأسألك الرضا بعد القضاء. وأسألك بَرْد العيش بعد الموت. وأسألك لذة النظر إلى وجهك. وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضَرَّاء مُضِرة، ولا فتنة مُضِلة. اللهم زيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هُدَاةً مُهتدين».

فالشوق يحمل المشتاق على الجدِّ في السير إلى محبوبه، ويَطْوي له الطريق، ويُقَرِّب عليه البعيد، ويُهوِّن عليه الآلام والمشاقَّ، وهو من أعظم نعمةٍ أنعم الله بها على عبده ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال، هما السبب الذي تنال به. والله سبحانه سميع لتلك الأقوال، عليم بتلك الأفعال، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ويشكرها، ويعرف قدرها، ويحب المنعم عليه بها، فتصلح عنده هذه النعمة ويصلح بها، كما قال تعالى: ﴿**وكَذلك فَتَنَّا بعضهم ببعض لِيَقُولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بينِنا أليس الله بِأعلم بالشاكرين**﴾ [الأنعام: ٥٣]فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه فليقرأ على نفسه ﴿**ألَيْس الله بِأعلم بالشَّاكِرين**﴾.

ثم عزاهم تعالى بعزاء آخر، وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم، وثمرته عائدة عليهم، وأنه غني عن العالمين، ومصلحة هذا الجهاد ترجع إليهم، لا إليه سبحانه وتعالى. ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زُمْرة الصالحين. ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أوذِي في الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله، وهي أذاهم له، ونَيلهم إياه بالمكروه والألم الذي لابد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منهم، وتركه السبب الذي ناله كعذاب الله الذي فرَّ منه المؤمنون بالإيمان. فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فرُّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب. وهذا لضعف بصيرته فرَّ من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففرَّ من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله، فغُبِن كل الغبن، إذ استجار من الرَّمضاء بالنار، وفرَّ من ألم ساعة إلى ألم الأبد وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق.

والمقصود أن الله سبحانه اقتضت حكمته: أنه لابد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكراماته ومن لايصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له ويُخلِّصها بِكِير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غِشّه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السَّبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كِير جهنم، فإذا هُذِّب العبد ونُقي أذن له في دخول الجنة.

ولما دعا ﷺ إلى الله عز وجل: استجاب له عباد الله من كل قبيلة، فكان حائز قصب سَبقهم: صِدِّيق الأمة، وأسبقها إلى الإسلام، أبوبكر رضي الله عنه، فآزره في دين الله، ودعا معه إلى الله على بصيرة. فاستجاب لأبي بكر: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص. وبادر إلى الاستجابة له ﷺ صِدِّيقة النساء خديجة بنت خويلد، وقامت بأعباء الصديقية، وقال لها: «**لقد خشيت على عقلي، فقالت له: أَبْشِر، فوالله لا يُخْزِيك الله أبدًا**» ثم استدلت بما فيه من الصفات الفاضلة، والأخلاق الكريمة والشِّيم الشريفة: على أن من كان كذلك لا يخزى أبدًا. فعلمت بكمال عقلها وسلامة فطرتها أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، والشيم الشريفة: تناسب أشكالها، من كرامة الله، وتأييده وإحسانه. ولا تناسب الخِزي والخذلان، وإنما يناسبه أضدادها. فمن ركّبه الله على أحسن الصفات وأحسن الأخلاق والأعمال: إنما يليق به كرامته، وإتمام نعمته عليه. ومن ركبه على أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال: إنما يليق به مايناسبها. وبهذا العقل والصديقية: استحقّت أن يرسل إليها ربُّها بالسلام منه مع رسوليه: جبريل، ومحمد ﷺ.

...[1]**كمال** العبودية والمحبة والطاعة إنما يظهر عند المعارضة والدواعي إلى الشهوات والإرادات المخالفة للعبودية، وكذلك الإيمان إنما تتبين حقيقته عند المعارضة والامتحان. وحينئذ يتبين الصادق من الكاذب. قال الله تعالى: **﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاس أن يُتْركوا أن يقُولوا آمَنَّا وهُم لا يفتنون * ولقد فتنَّا الذين مِن قَبلِهم**

---
(١) ٣٤٢ الصواعق جـ١.

فليَعلَمَنَّ الله الذين صَدَقُوا وليَعْلَمَنَّ الكَاذِبينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ٣] وقال تعالى: **﴿أم حَسِبتُم أن تدخلوا الجَنة ولما يعلَم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصَّابرين﴾** [آل عمران: ١٤٢]. وقال تعالى: **﴿أم حَسِبتُم أن تَدخُلوا الجَنَّة ولما يأتِكم مَثَل الذين خَلوا من قبلِكم مَسَّتهُم البأساءُ والضراء وزُلْزِلوا﴾** [البقرة: ٢٦٤].

فالجنـة لا ينـالهـا المكلفـون إلا بالجهاد والصبر، فخلق الشياطين وأوليائهم وجندهم من أعظم النعم في حق المؤمنين؛ فإنهم بسبب وجودهم صاروا مجاهدين في سبيل الله، يحبون لله ويبغضون لله ويوالون فيه، ويعادون فيه. ولا تكمل نفس العبد ولا يصلح لها الزكاء والفلاح إلا بذلك.

. . .(١)**قـال** الله تعـالى: **﴿فَمن كَان يَرجُـو لِقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يُشْرِك بعِبادة ربه أحدًا﴾** [الكهف: ١١١] وقال تعالى: **﴿مَن كَان يرجُو لِقاء الله فإن أجل الله لآت﴾** [العنكبوت: ٥].

وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين. ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه، وضرب لهم أجلاً يُسَكِّن نفوسهم ويطمئنها.

. . .(٢)**وفي** أثر آخر «طال شوق الأبرار إلى وجهك وأنا إلى لقائهم أشد شوقا» وهذا في المعنى الذي عبر عنه ﷺ بقوله: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**» وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى: **﴿مَن كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾** لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه وأن قلوبهم لا تهدأ دون لقائه ضرب لهم أجلاً: موعدًا للقائه تسكن نفوسهم به. وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة، ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها، فهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى: **﴿مَن عَمل صَالحًا مِن ذكر أو أنثى وهو مُؤمن فلنحيينَه حَياةً طَيبة﴾** [النحل: ٩٧].

وليس المـراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعـافًا مضاعفة. وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة

---

(١) ٥٤ مدارج جـ٢.		(٢) ٢٤٨ الجواب.

طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده. وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت واحدة في مرضات الله، ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة بكل واد منها شعبة، على الله. فصار ذكره محبوبه الأعلى، وحبه، والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه، هو المتولى عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره، بل وخطرات قلبه. فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن، وبه يحيى، وبه يموت، وبه يبعث كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما روي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه . . . . الحديث» .

(١)**الوجه** الرابع والثلاثون وهو أن أفضل العطاء وأجله على الإطلاق الإيمان وجزاؤه، وهو لا يتحقق إلا بالامتحان والاختبار قال تعالى: **﴿الم * أحسب الناس أن يُتركُوا أن يقولُوا آمنا وهو لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبِقونَا سَاء ما يحكمون * من كان يرجُو لِقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم * ومَن جَاهَد فإنَّما يُجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين﴾** [العنكبوت: ١-٦] .

فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لابد أن يمتحن خلقه ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره، وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل. وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم، وعاقبة أمرهم وما صاروا إليه. وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان، وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك. وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة وهو تبيين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر. وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزى العباد بمجرد علمه فيهم، بل بمعلومه إذا وجد وتحقق، والفتنة هي التي أظهرته وأخرجته إلى الوجود، فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه.

(١) ٢٤٥ شفاء.

ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله وأتباعهم ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة، فإن بين يديه من الفتنة والمحنة والعذاب أعظم وأشق مما فر منه. فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنت، وإما أن لا يقول، بل يستمر على السيئات. فمن قال آمنا امتحنه الرب تعالى وابتلاه لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه، وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط، بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء. ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربه تعالى ويفوته، بل هو في قبضته وناصيتُه بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلي به من قال آمنت، فمن آمن به وبرسله فلابد أن يبتلى من أعدائه وأعداء رسله بما يؤلمه ويشق عليه، ومن لم يؤمن به وبرسله فلابد أن يعاقبه فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين، فلابد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد ثم ينقطع ويعقبه أعظم اللذة، والكافر يحصل له اللذة والسرور ابتداء ثم ينقطع ويعقبه أعظم الألم والمشقة. وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات فيلتذون بها ابتداء ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها، والذين يصبرون عنها يألمون بفقدها ابتداء، ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه وتركوه منها، فالألم واللذة أمر ضروري لكل إنسان، لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير والآجل الدائم العظيم بون. ولهذا كان خاصة العقل النظر في العواقب والغايات، فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه البتة فظنه أكذب الحديث.

فإن الإنسان خلق عرضة للذة والألم، والسرور والحزن، والفرح والغم، وذلك من جهتين: من جهة تركبه وطبيعته وهيئته، فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجهٍ، بل لابد أن يبغي بعضها على بعض فيخرج عن حد الاعتدال، فيحصل الألم. ومن جهة بني جنسه فإنه مدني بالطبع لا يمكنه أن يعيش وحده، بل لا يعيش إلا معهم، وله ولهم لذاذات ومطالب متضادة ومتعارضة لا يمكن الجمع بينها، بل إذا حصل منها شيء فات منها أشياء، فهو يريد

منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته، وهم يريدون منه ذلك، فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب مافاته من إراداته، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وسعوا في تعطيل مراداته كما لم يوافقهم على مراداتهم، فيحصل له من الألم والتعذيب بحسب ذلك. فهو في ألم ومشقة وعناء وافقهم أو خالفهم، ولا سيما إذا كانت موافقتهم على أمور يعلم أنها عقائد باطلة، وإرادات فاسدة، وأعمال تضره في عواقبها، ففي موافقتهم أعظم الألم، وفي مخالفتهم حصول الألم.

فالعقل والدين، والمروءة والعلم، تأمره باحتمال أخف الألمين تخلصا من أشدهما، وبإيثار المنقطع منهما لينجو من الدائم المستمر، فمن كان ظهيراً للمجرمين من الظلمة على ظلمهم، ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم، ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلاً وآجلاً أضعاف أضعاف ما فر منه، وسنة الله في خلقه أن يعذبهم بإنذار من إيمانهم وظاهرهم. وإن صبر على ألم مخالفتهم ومجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة وآجلة تزيد على لذة الموافقة بأضعاف مضاعفة، وسنة الله في خلقه أن يرفعه عليهم ويذلهم له بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه، وإذا كان لابد من الألم والعذاب فذلك في الله وفي مرضاته ومتابعة رسله أولى وأنفع منه في الناس ورضائهم وتحصيل مراداتهم.

ولما كان زمن التألم والعذاب قصيره[1] طويل فأنفاسه ساعات وساعاته أيام وأيامه شهور وأعوام بلىٰ سبحانه الممتحنين فيه بأن ذلك الابتلاء آجلاً ثم ينقطع وضرب لأهله أجلاً للقائه يسليهم به ويشكر نفوسهم ويهون عليهم أثقاله فقال: ﴿**مَن كان يرجو لِقاء الله فإن أجل الله لآتٍ وهو السميع العليم**﴾ [العنكبوت: ٥] فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه وأجل لقاء المبتلى سبحانه وإثباته هان عليه ما هو فيه وخف عليه حمله.

ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه، وكان العامل إذا علم أن ثمرة عمله وتعبه يعود عليه وحده لا يشركه فيه غيره كان أتم اجتهادًا وأوفر سعيًا فقال تعالى: ﴿**ومَن جَاهد فإنما يُجاهَد لِنفسه إن الله لغني عن العالمين**﴾ [العنكبوت: ٦].

(١) في النسخ المطبوعة: فصبره وهو تصحيف: قصيره وهو الصواب لدلالة الكلام بعده. المراجع.

وأيضًا فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه؛ فإنه غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلًا منه عليهم، بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم، ونهاهم عما يعود مضرته عليهم في معاشهم ومعادهم فكانت ثمرة هذا الابتلاء والامتحان مختصة بهم. واقتضت حكمته أن نصب ذلك سببًا مفضيًا إلى تميز الخبيث من الطيب والشقي من الغوي ومن يصلح له ممن لا يصلح. قال تعالى: **﴿مَا كَانَ اللهُ لِيذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخَبِيثَ من الطَّيب﴾** [آل عمران: ١٧٩] فابتلاهم سبحانه بإرسال الرسل إليهم بأوامره ونواهيه واختياره، فامتاز برسله طيبهم من خبيثهم وجيدهم من رديئهم فوقع الثواب والعقاب على معلوم أظهره ذلك الابتلاء والامتحان.

ثم لما كان الممتحن لابد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه؛ لأنه لما أمر به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله. ثم ذكر سبحانه ابتلاء العبد بأبويه وما أمر به من طاعتهما وصبره على مجاهدتهما له على أن يشرك به فيصبر على هذه المحنة والفتنة، ولا يطيعهما، بل يصاحبهما على هذه الحال معروفًا، ويعرض عنهما إلى متابعة سبيل رسله، وفي الإعراض عنهما وعن سبيلهما والإقبال على من خالفهما وعلى سبيله من الامتحان والابتلاء ما فيه. ثم ذكر سبحانه حال من دخل في الإيمان على ضعف عزم وقلة صبر وعدم ثبات على المحنة والابتلاء، وأنه إذا أوذي في الله كما جرت به سنة الله، واقتضت حكمته من ابتلاء أوليائه بأعدائه وتسليطهم عليهم بأنواع المكاره والأذى لم يصبر على ذلك وجزع منه، وفر منه ومن أسبابه كما يفر من عذاب الله، فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب الله لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله.

وهذا يدل على عدم البصيرة وأن الإيمان لم يدخل قلبه ولا ذاق حلاوته حتى سوى بين عذاب الناس له على الإيمان بالله ورسوله وبين عذاب الله لمن لم يؤمن به وبرسله وهذا حال من يعبد الله على حرف واحد لم ترسخ قدمه في الإيمان وعبادة الله، فهو من المفتونين المعذبين وإن فر من عذاب الناس له على الإيمان.

ثم ذكر حال هذا عند نصرة المؤمنين، وأنهم إذا نصروا لجأ إليهم وقال كنت معكم والله سبحانه يعلم من قلبه خلاف قوله.

ثم ذكر سبحانه ابتلاء نوح بقومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وابتلاء قومه بطاعته فكذبوه فابتلاهم بالغرق، ثم بعده بالحرق. ثم ذكر ابتلاء إبراهيم بقومه وما ردوا عليه، وابتلاهم بطاعته ومتابعته. ثم ذكر ابتلاء لوط بقومه وابتلاءهم به وما صار إليه أمره و أمرهم. ثم ذكر ابتلاء شعيب بقومه وابتلاءهم به وما انتهت إليه حالهم وحاله. ثم ذكر ما ابتلي به عادًا وثمودًا وقارون وفرعون وهامان وجنودهم من الإيمان به وعبادته وحده، ثم ما ابتلاهم به من أنواع العقوبات.

ثم ذكر ابتلاء رسوله محمد ﷺ بأنواع الكفار من المشركين وأهل الكتاب، وأمره أن يجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن. ثم أمر عباده المبتلين بأعدائه أن يهاجروا من أرضهم إلى أرضه الواسعة فيعبدونه فيها، ثم نبههم بالنقلة الكبرى من دار الدنيا إلى دار الآخرة على نقلتهم الصغرى من أرض إلى أرض، وأخبرهم أن مرجعهم إليه، فلا قرار لهم في هذه الدار دون لقائه. ثم بين لهم حال الصابرين على الابتلاء فيه بأنه يبوؤهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فسلاهم عن أرضهم ودارهم التي تركوها لأجله وكانت مباء لهم بأن بوأهم دارًا أحسن منها وأجمع لكل خير ولذة ونعيم مع خلود الأبد، وأن ذلك بصبرهم على الابتلاء وتوكلهم على ربهم. ثم أخبرهم بأنه ضامن لرزقهم في غير أرضهم كما كان يرزقهم في أرضهم، فلا يهتموا بحمل الرزق، فكم من دابة سافرت من مكان إلى مكان لا تحمل رزقها.

ثم أخبرهم أن مدة الابتلاء والامتحان في هذه الدار قصيرة جدًّا بالنسبة إلى دار الحيوان والبقاء. ثم ذكر سبحانه عاقبة أهل الابتلاء ممن لم يؤمن به وأن مقامهم في هذه الدار تمتع، وسوف يعلمون عند النقلة منها ما فاتهم من النعيم المقيم، وما حصلوا عليه من العذاب الأليم. وذكر عاقبة أهل الابتلاء ممن آمن به وأطاع رسله وجاهد نفسه وعدوه في دار الابتلاء ما به هاديه وناصره، فأخبر سبحانه أن أجل عطاء وأفضله في الدنيا والآخرة هو لأهل الابتلاء الذين صبروا على ابتلائه وتوكلوا عليه، وأخبر أن أعظم عذابه وأشقه هو للذين لم يصبروا على ابتلائه وفروا منه، وآثروا النعيم العاجل عليه.

فمضمون هذه السورة هو سر الخلق والأمر، فإنها سورة الابتلاء والامتحان، وبيان حال أهل البلوى في الدنيا والآخرة. ومن تأمل فاتحتها ووسطها وخاتمتها وجد في ضمنها أن أول الأمر ابتلاء وامتحان، ووسطه صبر وتوكل، وآخره هداية ونصر والله المستعان .

. . .(١)**ومنه** قوله تعالى: **﴿قُل سِيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثُم الله يُنشيء النشأة الآخِرة﴾** [العنكبوت: ٢٠] يقول تعالى: انظروا كيف بدأت الخلق؛ فاعتبروا الإعادة بالابتداء.

. . .(٢)**وقال** عن إمام الحنفاء أنه قال للمشركين **﴿إنَّما اتَّخذتم مِن دُون الله أوثانًا مودَّة بَينكم في الحياة الدُّنيا ثمَّ يَومَ القيامة يكفُر بعضُكم بِبعض ويَلْعَن بعضُكم بَعضًا﴾** [العنكبوت: ٢٥] ولما كان غاية صلاح العبد في عبادة الله وحده واستعانته وحده كان في عبادة غيره والاستعانة بغيره غاية مضرته.

ومما يوضح الأمر في ذلك ويبينه أن الله سبحانه غني حميد كريم رحيم، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه سبحانه ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانًا وجودًا محضًا، فإنه رحيم لذاته، محسن لذاته، جواد لذاته، كريم لذاته، كما أنه غني لذاته، قادر لذاته، حي لذاته، فإحسانه وجوده وبره ورحمته من لوازم ذاته لا يكون إلا كذلك، كما أن قدرته وغناه من لوازم ذاته فلا يكون إلا كذلك، وأما العباد فلا يتصور أن يحسنوا إلا لحظوظهم . . .

. . . (٣)**وأهل** المعاصي والفسوق وإن كان بينهم نوع مودَّة وتحابٍّ، فإنها تنقلب عداوة وبغضًا، وفي الغالب يتعجل لهم ذلك في الدنيا قبل الآخرة، وأما في الآخرة فـ**﴿الأخِلاء يومئِذٍ بعضهم لِبعض عدوٌّ إلا المتقين﴾** [الزخرف: ٦٧].

وقال إمام الحنفاء **﴿إنَّما اتخذتُم مِن دُون الله أوثَانًا مودَّة بَيْنكم في الحَياة الدُّنيا ثُمَّ يَومَ القِيامة يَكفُر بَعْضُكُم بِبعض ويَلْعَن بعضُكم بعضًا﴾** [العنكبوت: ٢٥]. فالمعاصي كلها توجب ذلك، وتصُدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وذِكر ذلك في الخمر والميسر ـ اللذين هما من أواخِر المحرَّمات ـ تنبيهٌ على ما في غيرهما من ذلك،

---

(١) ١٤٧ الإعلام جـ١. (٢) ٦١ الهجرتين. (٣) ١٥٥ الإغاثة جـ٢.

مما حُرِّم قبلها، وهو أشد تحريمًا منها، فإن ما يوقعه قتلُ النفس، وسَرِقة الأموال، وارتكـاب الفـواحِش من ذلك، وما يَصُد به عن ذكر الله وعن الصلاة أضعاف أضعاف ما يقتضيه الخمر والميسر، والواقع شاهد بذلك.

وكم وقع وهو واقع بين الناس ـ بسبب عشق الصور ـ من العداوة والبغضاء، وزوال الألفة والمحبة، وانقلابها عداوةً.

وأما صده عن ذكر الله، فقلبُ العاشق ليس فيه موضعٌ لغير معشوقه، كما قيل:

ما في الفؤاد لغـير حُبـك موضـعٌ ... كَـلَّا ولا أحـدٌ سـواك يَحُلُّـه

وأما صده عن الصلاة، فهو إن لم يَصُدَّ عن صورتها وأعمالها الظاهرة، فإنه يَصُدُّ عن حقيقتها ومقاصدها الباطنة.

. . .(١)**وسئل** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿**وتأتون في ناديكم المنكر**﴾ [العنكبوت: ٢٩] قال: «**كانوا يخذفون أهل الطريق، ويسخرون منهم، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه**» ذكره أحمد.

. . .(٢)**ثبت** عنه ﷺ أنه قال: «**لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط**» ولم تجئ عنه لعنة الزاني ثلاث مرات في حديث واحد. وقد لعن جماعة من أهل الكبائر فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة، وكرر لعن اللوطية فأكده ثلاث مرات.

وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله، لم يختلف منهم فيه رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله. فظن بعض الناس أن ذلك اختلافًا منهم في قتله فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة، وهي بينهم مسألة إجماع، قالوا: ومن تأمل قوله سبحانه ﴿**وَلَا تقْرَبوا الزنى إنه كَان فَاحِشة وسَاء سبيلًا**﴾ [الإسراء: ٣٢] وقوله في اللواط: ﴿**أتأتون الفاحِشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين**﴾ [الأعراف: ٨٠] تبين له تفـاوت ما بينهـما، فإنـه سبحـانه نكر الفاحشة في الزنى أي هو فاحشة من الفـواحش، وعـرفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة كما تقول: زيد الرجل، ونعم الرجل زيد، أي تأتون الخصلة التي استقر فحشها عند

(١) ٣٩٩ الإعلام جـ٤.   (٢) ٢٣٠ الجواب.

كل أحد، فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسى: ﴿**وَفَعلت فعلتك التي فَعلت**﴾ [الشعراء: ١٩] أي الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد.

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم فقال: ﴿**ما سبقكم بها من أحد من العالمين**﴾ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبو عنه الأسماع وتنفر منه أشد النفور، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى فقال: ﴿**إنَّكم لَتأتُون الرِّجال**﴾ [الأعراف: ٨١] ثم نبه على استغنائهم عن ذلك وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى من قضاء الوطر، ولذة الاستمتاع، وحصول المودة والرحمة التي تَنسي المرأة لها أبويها وتذكر بعلها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات،وتحصين المرأة، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام الرجال على النساء، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين، ومكاثرة النبي ﷺ الأنبياء بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح. والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله وتربو عليه بما لا يمكن حصره وفساده ولا يعلم تفصيله إلا الله عز وجل.

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر عليها الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور وهي شهوة النساء دون الذكور، فقلبوا الأمر وعكسوا الفطرة والطبيعة فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلبوا هم ونكسوا في العذاب على رؤوسهم.

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد فقال: ﴿**بَل أنْتُم قَومٌ مُسرِفونَ**﴾ [الأعراف: ٨١] فتأمل، هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزنى، وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿**ونجَّيناه من القَريَة التي كانت تَعْمَل الخَبائِث**﴾ ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال: ﴿**إنَّهم كانُوا قَومَ سَوءٍ فاسقين**﴾ [الأنبياء: ٧٤] وسماهم مفسدين في قول نبيهم فقال: ﴿**رب انصرني على القوم المفسدين**﴾ وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم عليه

السلام ﴿**إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين**﴾ [العنكبوت: ٣١]. . . .

. . .(١)**وتأمل** حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى: ﴿**وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم** ـ إلى قوله ـ **يظلمون**﴾ [العنكبوت: ٣٨] وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم: فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها لتتم المناسبة ويكمل الشبة، وهذا غاية الحكمة. واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها. ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم كيف تراها بادية عليها وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية، فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم، بل هم أخف الناس عقولاً وأعظمهم مكرًا وخداعًا وفسقًا، فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين. واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ولاسيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله ﷺ؛ فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه؛ فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعًا، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها، ويقوم الإنسان عن رجيعه فيبادر إليه. فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقًا عليهم؛ فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤا منهم ثم والوا كل عدو لهم من النصارى واليهود والمشركين، فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار، وصرحوا بأنهم خير منهم فأي شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير. فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين.

. . .(٢)**وقال** تعالى: ﴿**وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين**﴾ [العنكبوت: ٣٨] وهذا

---

(١) ٢٥٤ المفتاح جـ١. (٢) ٩٢ المفتاح جـ١.

يدل على أن قولهم: ﴿ياهُود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين﴾ إما بهت منهم وجحود، وإما نفي لآيات الاقتراح والعنت ولا يجب الإتيان بها.

وقد وصف سبحانه ثمود بأنها كفرت عن علم وبصيرة بالحق ولهذا قال: ﴿وآتينا ثمودَ الناقة مُبصرة فظَلَمُوا بهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] يعني بينة مضيئة. وهذا كقوله تعالى: ﴿وجَعلنا آية النهار مبصرة﴾ أي مضيئة، وحقيقة اللفظ أنها تجعل من رآها مبصرًا فهي توجب له البصر فتبصره، أي تجعله ذا بصر، فهي موضحة مبينة، يقال: بصر به إذا رآه كقوله تعالى: ﴿فَبَصرُت به عن جُنُب﴾ [القصص: ١١] وقوله: ﴿بَصرُت بما لم يَبصروا به﴾ [طه: ٩٦] وأما أبصره فله معنيان:

أحدهما جعله باصرًا بالشيء أي ذا بصر به كآية النهار وآية ثمود.

والثاني بمعنى رآه كقولك أبصرت زيدًا، وفي حديث أبي شريح العدوي أحدثك قولا قال به رسول الله ﷺ يوم الفتح فسمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به. ومنه قوله تعالى: ﴿فتول عَنهُم حتى حِين * وأبْصِرهم فسوف يُبصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٤، ١٧٥] قيل المعنى أبصرهم وما يقضي عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضي لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة والمراد تقريب المبصر من المخاطب حتى كأنه نصب عينيه ورأى ناظريه.

والمقصود أن الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلال والكفر عن علم ويقين.

ولهذا والله أعلم ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم في سورة والشمس وضحاها؛ لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية وإلى الفاجرة الضالة الغاوية، وذكر فيها الأصلين القدر والشرع، فقال: ﴿فألهمها فُجورَها وتَقواها﴾ [الشمس: ٧] فهذا قدره وقضاؤه ثم قال: ﴿قَد أفْلح مَن زَكَّاها وقد خاب مَن دسَّاها﴾ [الشمس: ٩، ١٠] فهذا أمره ودينه، وثمود هداهم فاستحبوا العمى على الهدى. فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى والتدسية على التزكية والله أعلم بما أراد.

قالوا ويكفي في هذا إخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب

ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل ﴿يَالَيْتنا نُرَد ولا نُكذب بآيات ربِّنا ونَكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفُون مِن قَبْل ولَو رُدوا لَعادوا لِما نُهوا عنه وإنهم لَكاذِبون﴾ [الأنعام: ٢٦، ٢٧] فأي علم أبين من علم من ورد القيامة ورأى ما فيها، وذاق عذاب الآخرة، ثم لو رد إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه.

وقال تعالى: ﴿وَلَو أَنَّنا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتَى وحَشَرنا عَليهم كل شيء قُبلًا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ [الأنعام: ١١١] فهل بعد نزول الملائكة عيانًا، وتكليم الموتى لهم، وشهادتهم للرسول بالصدق، وحشر كل شيء في الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى، ومع هذا فلا يؤمنون ولا ينقادون للحق ولا يصدقون الرسول. . .

. . . [1]**قوله** تعالى: ﴿مَثَل الذين اتخذُوا من دُون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخَذت بَيْتًا وإن أوهَن البيوت لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٤١] فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتًا، وهو أوهن البيوت وأضعفها، وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضْعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا.

كما قال تعالى: ﴿واتخذوا من دُون الله آلِهة ليكُونوا لَهم عِزًّا * كلا سَيكفُرون بِعبادتهم ويكُونون عليهم ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم يُنصرون * لايستطيعون نصرهم وهُم لَهم جُندٌ مُحضَرون﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]. وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُم ولَكِن ظلموا أنفُسهم فما أغنَت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غيرَ تَتْبيب﴾ [هود: ١٠١].

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن مَن اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك،

---

(١) ١٥٤ الإعلام جـ١.

وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخَسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهَن البيوت بيتُ العنكبوت، فكيف نفى عنهم ذلك بقوله: ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾.

فالجواب أنه سبحانه لم يَنْفِ عنهم علمهم بوهَن بيتِ العَنْكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتًا فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يُفيدهم عزًّا وقدرة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه.

. . .(١)**ضرب** الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس. وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر والله أعلم.

. . .(٢)**الوجه** الثاني والعشرون أنه سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهلِ العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها فقال تعالى: ﴿**وَتِلك الأمثَال نَضْرِبُها للنَّاس ومَا يَعقِلها إلا العالِمون**﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول لست من العالمين.

. . .(٣)**وقال** تعالى: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾ أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إلا العالمون، والكفار لا يدخلون في مسمى العالمين فهم لا يعقلونها. وقال تعالى: ﴿**بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي مَن أضل الله**﴾ [الروم: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿**وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية**﴾

---

(١) ٩ البدائع جـ٤.		(٢) ٥١ المفتاح جـ١.

(٣) ٨٨ المفتاح جـ١.

[البقرة: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿قُل هَل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر: ٩]. ولو كان الضلال بجامع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالاً من الذين يعلمون والنص بخلافه، والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار، فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون، وتارة بأنهم لا يعقلون، وتارة بأنهم لا يشعرون، وتارة بأنهم لا يفقهون، وتارة بأنهم لا يسمعون. والمراد بالسمع المنفي سمع الفهم وهو سمع القلب لا إدراك الصوت، وتارة بأنهم لا يبصرون، فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجامعه، ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنهم جاهلون. كقوله تعالى: ﴿وَعِباد الرحمن الذين يمشُون على الأرضِ هونًا وإذا خاطبهم الجاهِلون قَالوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ [القصص: ٥٥]. وقوله تعالى: ﴿خذِ العفو وأمر بالعُرف وأعْرِض عن الجاهلين﴾ [الأعراف: ١٩٩].

. . .(١)**زين** الله به(٢) ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء. وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم.. وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان. قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان. فيجتمع عليه الشياطين، فيقولون: ماهذا؟ **فيقال**: قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه. والله أعلم.

فصل وهو في القرآن على عشرة أوجه. الأول: الأمر به مطلقًا ومقيدًا. الثاني:

---

(١) ٤٢٤ المدارج جـ٢.   (٢) أي الذكر.

النهي عن ضده من الغفلة والنسيان. الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته. الرابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة. الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره. السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له. السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء. الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها. التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته. وأنهم أولو الألباب دون غيرهم. العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

فصل في تفصيل ذلك

أما الأول: فكقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكُروا الله ذكرًا كثيراً * وسَبِّحوه بكرة وأصيلا * هو الذي يُصلي عليهم وملائكته ليُخرجَكم من الظُّلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما**﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]. وقوله تعالى: ﴿**واذْكُر ربَّك فِي نَفسِك تَضَرُّعًا وخِيفة**﴾ [الأعراف: ٢٠].

وفيه قولان: أحدهما: في سرك وقلبك. والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك وأما النهي عن ضده: فكقوله: ﴿**وَلاَ تَكُن مِنَ الغافلين**﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقوله: ﴿**ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنْساهم أنفسهم**﴾ [الحشر: ١٩].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: ﴿**واذْكروا الله كَثِيراً لعلكم تُفلِحون**﴾ [الجمعة: ١٠]. وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكقوله: ﴿**إنَّ المسلمين والمُسلمات** - إلى قوله - **والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغْفِرة وأجرًا عظيمًا**﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالى: ﴿**ياأيُّها الذين آمنوا لا تُلْهِكم أموالُكم ولا أولاَدُكم عن ذِكر الله ومَن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسِرون**﴾ [المنافقون: ٩]. وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: ﴿**فاذْكروني أذكُركُم واشكروا لِي ولا تَكْفُرون**﴾ [البقرة: ١٥٢].

. . .[1]**وأما الإخبار** عنه بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالى: ﴿**اتْلُ ما أوحِي**

---

(١) ٤٢٦ مدارج جـ٢.

إليكَ من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمُنكر ولَذِكرُ الله أكبر﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وفيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء. فهو أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل. وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر، بل إذا تَمَّ الذكر: محق كل خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين، إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر. والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له. ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: **﴿وَلِتُكمِلوا العِدة ولِتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تَشْكُرون﴾** [البقرة: ١٨٥].

وختم به الحج في قوله: **﴿فإذَا قَضيتم مناسِككم فاذكروا الله كذِكركم آباءكم أو أشد ذِكرًا﴾** [البقرة: ٢٠٠].

وختم به الصلاة كقوله: **﴿فإذَا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قيامًا وقُعودًا وعلى جنوبكم﴾** [النساء: ١٠٣].

...(١)**الوجه** السابع عشر أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم، وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم. فقال تعالى: **﴿وكَذلك أنزَلنا إليكَ الكِتاب فالذين آتيناهُم الكِتاب يُؤمنون به ومن هؤلاء مَن يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون * وما كُنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتُوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾** [العنكبوت: ٤٧ ـ ٤٩].

وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها

(١) ٢٠٥ المفتاح جـ١.

محفوظ، وهو في نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بخبرين. أحدهما: أنه ايات بينات. الثاني: أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم. أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم، أي كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم. والقولان متلازمان ليسا بمختلفين. وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله.

. . .(١)**روى** أبوداود في مراسيله عن النبي ﷺ أنه رأى بيد بعض أصحابه قطعة من التوراة فقال: «**كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتابًا غير كتابهم أنزل على غير نبيهم**» فأنزل الله عز وجل تصديق ذلك: ﴿**أَوَلَم يَكفِهم أنا أنزلنا عليك الكِتاب يُتلَى عليهم إن في ذلك لرحمةً وذِكرى لقَوم يؤمنون**﴾ [العنكبوت: ٥١] فهذا حال من أخذ دينه عن كتاب منزل على غير النبي ﷺ فكيف بمن أخذه عن عقل فلان وفلان، وقدمه على كلام الله ورسوله؟.

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسنًا إلا أمرهم به، ولا قبيحًا إلا نهى عنه كما قال ﷺ: «**ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه**» قال أبوذر: «**لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا**».

وعرفهم حالهم بعد القدوم على ربهم أتم تعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع بابًا من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلى ربهم إلا فتحه، ولا مشكلًا إلا بينه وشرحه، حتى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ وجزاه عن أمته أفضل الجزاء.

. . .(٢)**وتقسيم** بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل، وكل ذلك تقسيم باطل، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح، وفاسد، فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها، والباطل ضدها ومنافيها. وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها، وهو مبني على حرف واحد، وهو عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العبادُ في معارفهم

(١) ٩٨ جلاء الأفهام.　　(٢) ٣٧٥ الإعلام جـ٤.

وعلومهم وأعمالهم، وأنه لم يحوج أمته إلى أحدٍ بعده، وإنما حاجتهم إلى مَن يبلغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص، عموم بالنسبة إلى المرسَل إليهم، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه مَن بُعث إليه في أصول الدين وفروعه، فرسالته كافية شافية عامة، لا تحوج إلى سواها، ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلَّفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به.

وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علمًا، وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلِّي، وآداب الجماع، والنوم والقيام والقعود، والأكل والشرب، والركوب والنزول، والسفر والإقامة، والصَّمت والكلام، والعُزلة والخلطة، والغِنى والفقر، والصحة والمرض، وجميع أحكام الحياة والموت. ووصف لهم العرش والكرسي، والملائكة والجن، والنار والجنة، ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأي عين، وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم، وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقَها وجليلها مالم يعرفه نبي لأمته قبله، وعرفهم ﷺ من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ، وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن مالم يعرف به نبي غيره، وكذلك عرفهم ﷺ من أدلة التوحيد والنبوة والمَعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده، اللهم إلا إلى مَن يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه. وكذلك عرفهم ﷺ من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق النصر والظفر مالو علموه وعَقَلوه ورَعَوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبدًا.

وكذلك عرفهم ﷺ من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها، وما يتحرزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه، وكذلك عرفهم ﷺ من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه، وكذلك عرفهم ﷺ من أمور معايشهم مالو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظَمَ استقامة.

وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برُمَّته، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه، فكيف يُظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعةٌ أكمل منها ناقصةٌ تحتاج

إلى سياسة خارجة عنها تكملها، أو إلى قياس، أو حقيقة، أو معقول خارج عنها؟ ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك، وقلة نصيبه من الفهم الذي وفّق الله له أصحابَ نبيه الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عما سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم. وقد كان عمر رضي الله عنه يمنع من الحديث عن رسول الله ﷺ خشية أن يشتغل الناسُ به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم وزَبد أفكارهم وزُبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟ فالله المستعان.

وقد قال الله تعالى: ﴿**أوَ لَم يكفِهم أنا أنزَلنا عليك الكِتاب يُتْلَى عَليهم إن في ذلك لَرحمةً وَذِكرى لِقَومٍ يُؤمنون**﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقال تعالى: ﴿**وأنزلنا عَليكَ الكِتاب تبيانًا لِكُل شيء وهُدى ورحمة وبُشرى للمسلمين**﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿**يَا أيُّها الناس قد جاءتكم موعِظة من ربِّكم وشِفاء لما في الصدور وهُدى ورحمة للمؤمنين**﴾ [يونس: ٥٧].

وكيف يَشفي ما في الصدور كتابٌ لا يفي هو وما تبينه السنة بعُشر مِعشار الشريعة؟ أم كيف يشفي ما في الصدور كتابٌ لا يستفاد منه اليقين في مسألة واحدة من مسائل معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله؟ أو عامَّتها ظواهر لفظية دلالتها موقوفة على انتفاء عشرة أمور لا يعلم انتفاؤها، سبحانك هذا بهتان عظيم!.

ويالله العجب! كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين التي أتى الله بنيانها من القواعد، وقبل استخراج هذه الآراء والمقاييس والأوضاع؟ أهل كانوا مهتدين مكتفين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك؟ حتى جاء المتأخرون فكانوا أعلم منهم وأهدى وأضبط للشريعة منهم، وأعلم بالله وأسمائه وصفاته وما يجب له و[ما] يمتنع عليه منهم؟ فوالله لأن يلقى الله [عبدُه] بكل ذنب ما خلا الإشراك خير من أن يلقاه بهذا الظن الفاسد والاعتقاد الباطل. ا.هـ.

...[1]**فائدة** قال ابن عقيل: الجري في جواز العمل في السلطنة الشرعية

(١) ١٥٢ البدائع جـ٣.

بالسياسة هو الحزم فلا يخلو منه إمام . قال الشافعي : لا سياسة إلا ما وافق الشرع . قال ابن عقيل : السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه الرسول ولا نزل، به وحي . فإن أردت بقولك إلا ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح ، وإن أردت ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة ، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والمثل مالا يجحده عالم بالسنن ، ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف كان رأيًا اعتمدوا فيه على مصلحة وتحريق علي في الأخاديد . وقال :

إني إذا شاهــدت أمــرًا منكــرًا أجـجت نـاري ودعــوت قنــبرًا

ونفى عمر نصر بن حجاج . (قلت) هذا موضع مزلة أقدام وهو مقام ضنك ومعترك صعب ، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق وجرءوا أهل الفجور على الفسـاد ، وجعلوا الشريعـة قاصرة لا تقـوم بها مصـالح العباد ، وسدوا على نفوسهم طرقًا عديدة من طرق معرفة الحق من الباطل ، بل عطلوها مع علمهم قطعًا وعلم غيرهم بأنها أدلة حق ظنًا منهم منافاتها لقواعد الشرع . والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة الشريعة ، فلما رأى ولاة الأمر ذلك وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد على مافهمه هؤلاء من الشريعة أحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها أمر العالم ، فتولد من تقصير أولئك في الشريعة وإحداث هؤلاء ماأحدثوه من أوضاع سياستهم شر طويل ، وفساد عريض ، وتفاقم الأمر وتعذر استدراكه .

وأفرطت طائفة أخرى فسوغت منه ما ينافي حكم الله ورسوله وكلا الطائفتين أُتِيَتْ من تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله ، فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبـه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي به قامت السموات والأرض ، فإذا ظهرت أمارات العدل وتبين وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه . والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وعلاماته في شيء ونفى غيرها من الطرق التي هي مثلها أو أقوى منها ، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل وقيام الناس بالقسط ، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين (لا يقال) إنها

مخالفة له، فلا تقول إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع، بل موافقة لما جاء به، بل هي جزء من أجزائه. ونحن نسميها سياسة تبعًا لمصطلحكم، وإنما هي شرع حق، فقد حبس رسول الله ﷺ في نميمة(١)، وعاقب في تهمة لما ظهر أمارات الريبة على المتهم. فمن أطلق كل متهم وخلى سبيله مع علمه باشتهاره بالفساد في الأرض ونقبه البيوت وكثرة سرقاته وقال لا آخذه إلا بشاهدي عدل فقوله مخالف للسياسة الشرعية، وكذلك منع النبي ﷺ الغال من سهمه من الغنيمة، وتحريق الخلفاء الراشدين متاعه كله، وكذلك أخذه شطر مال مانع الزكاة، وكذلك إضعافه الغرم على سارق ما لا يقطع فيه وعقوبته بالجلد.

وكذلك إضعافه بالغرم على كاتم الضالة. وكذلك تحريق عمر حانوت الخمار، وتحريقه قربة خمر، وتحريقه قصر سعد بن أبي وقاص لما احتجب فيه عن الرعية. وكذلك حلقه رأس نصر بن حجاج ونفيه، وكذلك ضربه صبيغًا، وكذلك مصادرته عماله، وكذلك إلزامه الصحابة أن يقلوا الحديث عن رسول الله ﷺ ليشتغل الناس بالقرآن فلا يضيعوه، إلى غير ذلك من السياسة التي ساس بها الأمة فصارت سنة إلى يوم القيامة وإن خالفها من خالفها.

ومن هذا تحريق الصديق رضي الله عنه للوطي. ومن هذا تحريق عثمان رضي الله عنه للصحف المخالفة للسان قريش. ومن هذا اختيار عمر رضي الله عنه للناس الإفراد بالحج ليعتمروا في غير أشهره فلا يزال البيت الحرام مقصودًا، إلى أضعاف أضعاف ذلك من سياساتهم التي ساسوا بها الأمة، وهي بتأويل القرآن وسنته. وتقسيم الناس الحكم إلى شريعة وسياسية كتقسيم من قسم الطريقة إلى شريعة وحقيقة. وذلك تقسيم باطل فالحقيقة نوعان: حقيقة هي حق صحيح فهي لب الشريعة لا قسيمتها، وحقيقة باطلة فهي مضادة للشريعة كمضادة الضلال للهدى.

وكذلك السياسة نوعان: سياسة عادلة فهي جزء من الشريعة وقسم من أقسامها لا قسيمتها، وسياسة باطلة فهي مضادة للشريعة مضادة الظلم للعدل. ونظير **هذا** تقسيم بعض الناس الكلام في الدين إلى الشرع والعقل هو تقسيم باطل، بل المعقول قسمان: قسم يوافق ما جاء به الرسول ﷺ فهو معقول كلامه

(١) كذا بالأصل ولعلها: تهمة. (ج).

ونصوصه لا قسيم ما جاء به، وقسم يخالفه فذلك ليس بمعقول وإنما هي خيالات وشبه باطلة لظن صاحبها أنها معقولات وإنما هي خيالات وشبهات. وكذلك القياس والشرع فالقياس الصحيح هو معقول النصوص، والقياس الباطل المخالف للنصوص مضاد للشرع.

فهذا الفصل هو فرق ما بين ورثة الأنبياء وغيرهم، وأصله مبني على حرف واحد وهو عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم التي بها صلاحهم في معاشهم ومعادهم، وأنه لا حاجة إلى أحد سواه البتة، وإنما حاجتنا إلى من يبلغنا عنه ما جاء به. فمن لم يستقر هذا في قلبه لم يرسخ قدمه في الإيمان بالرسول.

بل يجب الإيمان بعموم رسالته في ذلك كما يجب الإيمان بعموم رسالته بالنسبة إلى المكلفين، فكما لا يخرج أحد من الناس عن رسالته البتة، فكذلك لا يخرج حق من العلم به والعمل عما جاء به، فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمة إلى سواه. وإنما يحتاج إلى غيره من قل نصيبه من معرفته وفهمه، فبحسب قلة نصيبه من ذلك تكون حاجته، وإلا فقد توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وقد ذكر للأمة منه علمًا، وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي، وآداب الجماع والنوم، والقيام والقعود، والأكل والشرب، والركوب والنزول، ووصف لهم العرش والكرسي، والملائكة، والجنة والنار، ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأي عين، وعرفهم بربهم ومعبودهم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه بما وصفه لهم به من صفات كماله ونعوت جلاله، وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم.

وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها مالم يعرفه نبي لأمته قبله. وعرفهم من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما جلى لهم ذلك حتى كأنهم يعاينوه. وكذلك عرفهم من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع طوائف أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة إلى كلام أحد من الناس البتة.

وكذلك عرفهم من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق الظفر به مالو علموه

وفعلوه لم يقم لهم عدو أبدًا. وكذلك عرفهم من مكائد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها ويحترزون به من كيده ومكره وما يدفعون به شره مالا مزيد عليه. وبذلك أرشدهم في معاشهم إلى ما لو فعلوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة. وبالجملة فقد جاءهم رسول الله ﷺ بخير الدنيا والآخرة بحذافيره، ولم يجعل الله بهم حاجة إلى أحد سواه. ولهذا ختم الله به ديوان النبوة فلم يجعل بعده رسولاً؛ لاستغناء الأمة به عمن سواه، فكيف يظن أن شريعته الكاملة المكملة محتاجة إلى سياسة خارجة عنها، أو إلى حقيقة خارجة عنها، أو إلي قياس خارج عنها، أو إلى معقول خارج عنها. فمن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده. وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك.

قال تعالى: ﴿**أوَ لَم يَكفِهم أنا أنزلنا عليك الكِتاب يُتلى عليهم إن في ذلك لَرَحمة وذِكرى لِقَومٍ يُؤمنون**﴾ [العنكبوت: ٥١] وقال تعالى: ﴿**ونَزلنا عليك الكِتاب تبيانًا لكل شيء وهُدى ورَحمة وبُشرى للمُسلمين**﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالى: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ وقال تعالى: ﴿**يا أيُّها الناسُ قد جاءتكُم موعِظة مِن رَبِّكم وشِفاء لِما في الصدور وهُدى ورَحمة للمؤمنين**﴾ [يونس: ٥٧] وكيف يشفى ما في الصدور كتاب لا يفي بعشر معشار ما الناس محتاجون إليه على زعمهم الباطل. ويالله العجب كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين واستخراج هذه الآراء والمقاييس والأقوال، أهل كانوا مهتدين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك حتى جاء المتأخرون أعلم منهم وأهدى منهم؟! هذا مالا يظنه من به رمق من عقل أو حياء، نعوذ بالله من الخذلان، ولكن من أوتي فهمًا في الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ استغنى بهما عن غيرهما بحسب ما أوتيه من الفهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وهذا الفصل لو بسط كما ينبغي لقام منه عدة أسفار ولكن هذه لفظات تشير إلى ما ورائها.

(١)**الاسم** السابع دار الحيوان، قال تعالى: ﴿**وإن الدار الآخرة لهِي الحَيوان**﴾ [العنكبوت: ٦٤] والمراد الجنة عند أهل التفسير، قالوا: وإن الآخرة يعني الجنة لهي

---

(١) ٧٤ حادي الأرواح.

الحيوان لهي دار الحياة التي لاموت فيها، فقال الكلبي: هي حياة لا موت فيها، وقال الزجاج: هي دار الحياة الدائمة، وأهل اللغة على أن الحيوان بمعنى الحياة، قال أبوعبيدة وابن قتيبة الحياة الحيوان، قال أبوعبيدة الحياة والحيوان والحي بكسر الحاء واحد. قال أبـوعلي يعنى أنها مصادر، فالحياة فعلة كالجلبة، والحيوان كالنزوان والغليان، والحي كالعي قال العجاج: كنا بها إذا الحياة حي، أي إذا الحياة حياة.

وأما أبوزيد فخالفهم وقال: الحيوان ما فيه روح. والموتان والموات ما لا روح فيه. والصواب أن الحيوان يقع على ضربين (أحدهما) مصدر كما حكاه أبوعبيدة. (والثاني) وصف كما حكاه أبوزيد. وعلى قول أبي زيد: الحيوان مثل الحي خلاف الميت، ورجح القول الأول بأن الفعلان بابه المصادر كالنزوان والغليان، بخلاف الصفات فإن بابها فعلان كسكران وغضبان، وأجاب من رجح القول الثاني بأن فعلان قد جاء في الصفات أيضًا قالوا رجل ضميان للسريع الخفيف وزفيان قال في الصحاح: ناقة زفيان سريعة وقوس زفيان سريعة الإرسال للسهم، فيحتمل قوله تعالى: ﴿**وإن الدار الآخرة لهي الحيوان**﴾ معنيين (أحدهما) أن حياة الآخرة هي الحياة لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها، أي لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار، فيكون الحيوان مصدرًا على هذا. (الثاني) أن يكون المعنى أنها الدار التي لا تفنى ولا تنقطع ولا تبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت.

. . .(١)**التوحيد** مفزع أعدائه وأوليائه، فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها ﴿**فإذا رَكِبوا في الفلك دَعوا الله مخلصين له الدِّين فلما نجَّاهم إلى البر إذا هم يُشرِكـون**﴾ [العنكبـوت: ٦٥]. وأمـا أولياؤه فينجيهم به من كربـات الدنيا والآخرة وشدائدها. ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات، وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عُذب به المشركون في الدنيا وما أُعد لهم في الآخرة. ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه؛ لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل. هذه سنة الله في عباده، فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا

(١) ٥٢ فوائد.

فرج الله كربه بالتوحيد، فلا يلقى في الكرب العظام إلا الشرك، ولا ينجى منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها، وبالله التوفيق.

. . .(١)**قال** تعالى: **﴿والذِين جَاهَدوا فِينا لنَهْدينهم سُبُلنا﴾** [العنكبوت: ٦٩].

علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا. فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد، فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد. قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه.

. . .(٢)**ولترجيح** المصالح رتب متفاوتة فتارة تترجح بعموم النفع، وتارة تترجح بزيادة الإيمان، وتارة تترجح بمخالفة النفس، وتارة تترجح باستجلاب مصلحة أخرى لا تحصل من غيرها، وتارة تترجح بأمنها من الخوف من مفسدة لا تؤمن في غيرها. فهذه خمس جهات من الترجيح قل أن يعدم واحدة منها. فإن أعوزه ذلك كان تخلى عن الخواطر جملة، وانتظر ما يحركه به محرك القدر، وافتقر إلى ربه افتقار مستنزل ما يرضيه ويحبه. فإذا جاءته الحركة استخار الله؛ وافتقر إليه افتقارًا ثانيا خشية أن تكون الحركة نفسية أو شيطانية؛ لعدم العصمة في حقه، واستمرار المحنة بعدوه مادام في عالم الابتلاء والامتحان، ثم أقدم على الفعل. فهذا نهاية ما في مقدور الصادقين.

ولأهل الجهاد في هذا من الهداية والكشف ماليس لأهل المجاهدة. ولهذا قال الأوزاعي وابن المبارك: «إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر» يعني أهل الجهاد. فإن الله تعالى يقول: **﴿والذين جاهَدوا فينا لَنهدينَّهم سُبلَنا وإن الله لَمع المحسنين﴾** [العنكبوت: ٦٩].

هذا مايسر الله جمعه من تفسير سورة العنكبوت

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٥٩ فوائد. (٢) ٥١٠ مدارج جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

. . .(١)**فصل:** وأما مراهنة الصديق للمشركين بعلمه وإذنه فروى الترمذي في جامعه من حديث سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس في قول الله تعالى: **﴿الم * غُلبت الروم * في أدنى الأرضِ وهُم من بعد غلبهم سَيغلبون﴾** [الروم: ١ ـ ٣] كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم أولياؤهم أهل الأوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر، رضي الله عنه، فذكره أبوبكر لرسول الله، ﷺ، فقال: «**أما إنهم سيغلبون**» فذكروه لهم فقالوا: اجعلوا بيننا وبينكم أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكروا ذلك للنبي، ﷺ، فقال: «**ألا جعلت إلى دون العشر**» قال سعيد: والبضع ما دون العشر. قال: ثم ظهرت الروم بعد. قال فذلك قوله: **﴿الم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله﴾** [الروم: ١ ـ ٤] قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي جامعه أيضاً عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت **﴿الم * غلبت الروم في أدنى الأرض﴾** إلى قوله: **﴿بضع سنين﴾** وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب وذلك قوله تعالى: **﴿ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾**. وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث. فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبوبكر الصديق يصيح في نواحي مكة: **﴿الم * غُلبت الرُّوم * في أدنى الأرضِ وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع**

---

(١) ٤ الفروسية.

سنين﴾. فقال ناس من قريش: فذلك بيننا وبينكم بزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى. قال: وذلك قبل تحريم الرهان. فارتهن أبوبكر والمشركون وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر كم نجعل البضع؟ وهو ثلاث سنين إلى سبع سنين فسم بيننا وبينك وسطًا ننتهي إليه. قال: فسموا بينهم ست سنين. قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين لأن الله قال: ﴿في بضع سنين﴾ قال: أسلم عند ذلك كثير قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي الجامع أيضًا من حديث ابن عباس أن رسول الله، ﷺ، قال لأبي بكر في مناحبته: «**ألا أخفضت ـ وفي لفظ ألا احتطت ـ فإن البضع من الثلاث إلى التسع**» من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس. وقوله في الحديث «مناحبته» فالمناحبة المخاطرة وهي المراهنة، من النحب وهو النذر، وكلاهما مناحب، هذا بالعقد وهذا بالنذر.

وقوله: «**ألا أخفضت**» يجوز أن يكون من الخفض وهو الدعة. والمعنى هلا نفست المدة فكنت في خفض من أمرك ودعة. ويجوز أن يكون من الخفض الذي هو من الانخفاض أي هلا استنزلتم إلى أكثر مما اتفقتم عليه. وقوله في اللفظ الآخر هلا «**احتطت**» هو من الاحتياط، أي هلا أخذت بالأحوط وجعلت الأجل أقصى ما ينتهي إليه البضع؛ فإن النص لا يتعداه. وقوله: وذلك قبل تحريم الرهان، من كلام بعض الرواة ليس من كلام أبي بكر ولا النبي، ﷺ.

وقد اختلف أهل العلم في إحكام هذا الحديث ونسخه على قولين، فادعت طائفة نسخه بنهي النبي، ﷺ، عن الغرر والقمار قالوا: ففي الحديث دلالة على ذلك، وهو قوله: وذلك قبل تحريم الرهان. قالوا: ويدل على نسخه ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله، ﷺ: «**لاسبق إلا في خف أو حافر أو نصل**» والسبق بفتح السين والباء، وهو الحظ الذي وقع عليه الرهان. وإلى هذا القول ذهب أصحاب مالك والشافعي وأحمد.

وادعت طائفة أنه محكم غير منسوخ، وأنه ليس مع مدعي نسخه حجة يتعين

المصير إليها. قالوا: والرهان لم يحرم جملة فإن النبي ﷺ راهن في تسبيق الخيل كما تقدم، وإنما الرهان المحرم الرهان على الباطل الذي لا منفعة فيه في الدين. وأما الرهان على ما فيه ظهور أعلام الإسلام وأدلته وبراهينه كما راهن عليه الصديق فهو من أحق الحق، وهو أولى بالجواز من الرهان على النضال. وسباق الخيل والإبل أدنى من هذا في الدين وأقوى لأن الدين قام بالحجة، والبرهان، وبالسيف. والقصد الأول إقامته بالحجة والسيف منفذ.

قالوا: وإذا كان الشارع قد أباح الرهان في الرمي، والمسابقة بالخيل والإبل لما في ذلك من التحريض على تعلم الفروسية وإعداد القوة للجهاد فجواز ذلك في المسابقة والمبادرة إلى العلم والحجة الذي به تفتح القلوب ويعز الإسلام وتظهر أعلامه أولى وأحرى. وإلى هذا ذهب أصحاب أبي حنيفة، وشيخ الإسلام ابن تيمية. قال أرباب هذا القول: والقمار المحرم هو أكل المال بالباطل، فكيف يلحق به أكله بالحق. قالوا: والصديق لم يقامر قط في جاهلية ولا إسلام، ولا أقر رسول الله ﷺ على قمار فضلاً عن أن يأذن فيه وهذا تقرير قول الفريقين(١). . .

. . .(٢)**ذكر** سماع الجنة وغناء الحور العين وما فيه من الطرب واللذة. قال تعالى: ﴿**وَيَوم تَقوم الساعة يومئذ يتفرقون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات فهم في روضَة يُحبرون**﴾ [الروم: ١٤، ١٥]. قال محمد بن جرير حدثني محمد بن موسى الحرشي قال حدثنا عامر بن نساف قال سألت يحيى بن أبي كثير عن قوله عز وجل: ﴿**فهم في روضَة يحْبرون**﴾ قال الحبرة اللذة والسماع، حدثنا عبدالله بن محمد الفريابي حدثنا ضمرة بن ربيعة عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير في قوله يحبرون قال السماع في الجنة.

ولايخالف هذا قول ابن عباس يكرمون، وقال مجاهد وقتادة: ينعمون، فلذة الأذن بالسماع من الحبرة والنعيم. وقال الترمذي حدثنا هناد وأحمد بن منيع قالا حدثنا عبدالرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لمجتمعًا للحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها**

(١) تقدم في سورة المائدة بحث يحسن الرجوع إليه لزيادة الفائدة (ج).

(٢) ١٧٩ حادي الأرواح.

يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له». . .

. . . (١)**فصل** فإن أردت سماع غنائهن فاسمع خبره الآن. ففي معجم الطبراني من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أزواج أهل الجَنَّة ليغنين أزواجَهن بأحسن أصواتٍ ما سمِعها أحدٌ قطُّ إن مما يغَنين به: نحن الخيرات الحسان، أزواج قوم كِرام، ينظرونَ بقُرة أعْيان، وإنَّ مما يُغنين به: نحن الخَالدات فلا نَمُتنه، نحن الآمنات فلا نخفْنه، نحن المُقيمَات فلا نظْعَنَّه**» وقد قيل في قوله تعالى: ﴿**فهُم فِي روضَةٍ يُحبَرون**﴾ إنه السماع الطيب ولا ريب أنه من الحَبرة.

. . . (٢)**فصل** فمنَ المحبة النافعة: محبة الزوجة وما ملكت يمينُ الرجل، فإنها مُعينة على ما شرع الله سبحانه له من النكاح وملك اليمين، من إعفاف الرجل نفسه وأهله، فلا تطمح نفسه إلى سواها من الحرام، ويُعِفُّها، فلا تطمح نفسها إلى غيره، وكلما كانت المحبة بين الزوجين أتمَّ وأقوى كان هذا المقصود أتم وأكمل، قال تعالى: ﴿**هُو الذين خلقكم مِن نفس واحدة وجعل منها زوجَها ليسكُن إليها**﴾ [الأعراف: ١٨٩].

. . . (٣)**وأما** محبة النسوان فلا لوم على المحب فيها بل هي من كماله، وقد من الله سبحانه بها على عباده فقال: ﴿**وَمِن آياته أن خَلق لَكم من أنفسِكم أزواجًا لِتسكُنوا إليها وجَعل بَينَكم مودة ورحمة**﴾ [الروم: ٢١] الآية فجعل المرأة سكنًا للرجل يسكن إليها قلبه، وجعل بينهما خالص الحب وهو المودة المقترنة بالرحمة. وقد قال تعالى، عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن ﴿**يُريد الله لِيُبين لَكم ويَهديكم سُنن الذين مِن قبلكم وَيَتوب عليكم والله عليمٌ حَكِيمٌ - إلى قوله - وخُلق الإنسان ضَعيفًا**﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨]. وذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه: كان إذا نظر إلى النساء لم يصبر عنهن.

. . . (٤)**قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تُراب ثم إذا أنتم بشر**

---

(١) ٢٦٥ الروضة.
(٢) ١٣٩ الإغاثة جـ٢.
(٣) ٣٢٤ الجواب.
(٤) ١٨٦ المفتاح جـ١.

تنتشرون * ومن آياته أن خَلق لَكم من أنفُسكم أزواجًا لِتسكُنوا إليها وجَعل بينَكم مودة وَرَحْمَةً إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون- إلى قوله- ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ [الروم: ٢٠، ٢٥]. ونوع سبحانه الآيات في هذه السورة فجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته.

وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون، فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة. فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلاهيته وحكمته ورحمته.

وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون، وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم. فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه.

وجعل إراءتهم البرق وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون؛ فإن هذه أمور مرئية بالأبصار مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته، وإمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها. وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل، فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت له، آية فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال: ﴿ومن آياته يُريكم البَرق خوفًا وطَمَعًا ويُنزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتِها إن في ذلك لآيات لقوم يعقِلون﴾ [الروم: ٢٤] فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور. . .

. . .(١)**قال** تعالى: ﴿ضرب لَكم مثلاً من أنفسِكم هل لكم من ما مَلكت

(١) ١٨٦ الجواب.

أيمانكم من شُركاء فيما رزقناكم﴾ [الروم: ٢٨]. أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكًا له في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا به متفرد وهو الآلهية التي لا تنبغي لغيري ولا تصح لسواي، فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق عظمتي، ولا أفردني بما أنا متفرد به وحدي دون خلقي، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى: **﴿يا أيّها الناس ضُرب مثَل فاستَمِعوا لَه إن الذين تَدعون مِن دون الله لَن يخلقوا ذُبابًا ولو اجتمعوا له ـ إلى قوله ـ لقوي عزيز﴾** [الحج: ٧٣ ـ ٧٤] فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره ممن لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره، وإن يسلبه الذباب شيئًا مما عليه لم يقدر على إنقاذه منه قال تعالى: **﴿ومَا قَدرُوا الله حق قدره والأرضُ جميعًا قبضَته يومَ القيامَة والسماوات مطوِيات بيمينه سُبحانه وتَعالى عما يُشرِكون﴾** [الزمر: ٦٧]. فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البته، بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

. . . (١)**قال** الله تعالى حاكيًا عنهم: **﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾** [الملك: ١٠] وكم يقول لهم في كتابه: **﴿أفلا تعقلون﴾ ﴿لعلكم تعقلون﴾** فينبههم على ما في عقولهم وفطرهم من الحسن والقبح ويحتج عليهم بها ويخبر أنه أعطاهموها لينتفعوا بها، ويميزوا بها بين الحسن والقبيح والحق والباطل.

وكم في القرآن من مَثل عقلي وحسيّ ينبه به العقول على حسن ما أمر به، وقبح ما نهى عنه. فلو لم يكن في نفسه كذلك لم يكن لضرب الأمثال للعقول معنى، ولكان إثبات ذلك بمجرد الأمر والنهي، دون ضرب الأمثال، وتبيين جهة القبح المشهودة بالحس والعقل.

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره. كقوله تعالى: **﴿ضَرب لَكم مَثلاً من أنفُسكم هل لكم من ماملكت أيمانكم من شُركاء فيما رزقناكُم فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخِيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾** [الروم: ٢٨]. يحتج سبحانه عليهم

(٢) ٢٣٩ المدارج جـ١.

بما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكًا له. فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه، ولا يرضى بذلك. فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء تعبدونهم كعبادتي؟ وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر في العقول والفطر. والسمع نَبَّه العقول وأرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك. . .

(١)**قوله** تعالى: **﴿ضَرَبَ لَكم مثلا مِن أنفسكم هل لَكم من ما مَلكت أيمانُكم من شُركاء فيما رزقناكُم فأنتم فيه سواءٌ تَخافونهم كخِيفتكم أنفُسكم كذلك نفصل الآيات لِقوم يعقلون﴾** [الروم: ٢٨] وهذا دليل قياس احْتَجَّ الله سبحانه به على المشركين حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاءَ، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم، لا يحتاجون فيها إلى غيرهم، ومِن أبلغ الحِجَاج أن يأخذ الإنسان من نفسه، ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها، معلوم لها، فقال: هل لكم مما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل؟ أي هل يشارككم عبيدُكم في أموالكم وأهليكم فأنتم وهم في ذلك سواء، تخافون أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها، ويستأثرون ببعضها عليكم، كما يخاف الشريك شريكه. وقال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرثُ بعضكم بعضًا، والمعنى هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار؟ فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عَدَلْتُم بي من خلقي مَن هو مملوك لي؟ فإن كان هذا الحكم باطلاً في فِطركم وعقولكم - مع أنه جائز عليكم ممكن في حقكم؛ إذ ليس عبيدُكم ملكًا لكم حقيقة، وإنما هم إخوانكم جَعَلهم الله تحت أيديكم، وأنتم وهم عبيد لي - فكيف تستجيزون مثلَ هذا الحكم في حقي، مع أن مَن جعلتموهم لي شركاء عبيدي وملكي وخلقي؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول.

(١) ١٥٩ الإعلام جـ١.

(١)الباب الموفي ثلاثين

في ذكر الفطرة الأولى ومعناها واختلاف الناس في المراد بها وأنها لا تنافي القضاء والقدر بالشقاوة والضلال

قال تعالى: ﴿**فأقِم وجْهَك للدين حنيفًا فِطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * مُنيبين إليه واتَّقوه وأقيموا الصلاة ولا تكُونوا مِن المُشرِكين**﴾ [الروم: ٣٠-٣١] وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها**» ثم قرأ أبوهريرة: ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾.

وفي لفظ آخر: «**ما من مولود إلا يولد على هذه الملة**». وقد اختلف في معنى هذه الفطرة والمراد بها، فقال القاضي أبو يعلى: في معنى الفطرة هاهنا روايتان عن أحمد، إحداهما: الإقرار بمعرفة الله تعالى وهو العهد الذي أخذه الله عليهم في أصلاب آبائهم حتى مسح ظهر آدم فأخرج من ذريته إلى يوم القيامة أمثال الذر وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى. فليس أحد إلا وهو يقر بأن له صانعًا ومدبرًا وإن سماه بغير اسمه. قال تعالى: ﴿**ولئِن سألتهم من خلقهم ليقولُن الله**﴾ [الزخرف: ٨٧] فكل مولود يولد على ذلك الإقرار الأول، قال: وليس الفطرة هنا الإسلام لوجهين: أحدهما: أن معنى الفطرة ابتداء الخلقة، ومنه قوله تعالى: ﴿**فاطِر السَّموات والأرضِ**﴾ [فاطر: ١] أي مبتدئها، وإذا كانت الفطرة هي الابتداء وجب أن تكون تلك هي التي وقعت لأول الخليقة وجرت في فطرة المعقول وهو استخراجهم ذرية؛ لأن تلك حالة ابتدائهم؛ ولأنها لو كانت الفطرة هنا الإسلام لوجب إذا ولد بين أبوين كافرين أن لا يرثهما ولا يرثانه مادام طفلاً لأنه مسلم، واختلاف الدين يمنع الإرث، ولوجب أن لا يصح استرقاقه، ولا يحكم بإسلامه بإسلام أبيه لأنه مسلم. قال وهذا تأويل ابن قتيبة، وذكره ابن بطة في

(١) ٢٨٣ شفاء.

الإبانة، قال وليس كل من تثبت له المعرفة حكم بإسلامه كالبالغين من الكفار، فإن المعرفة حاصلة وليسوا بمسلمين، قال وقد أومأ أحمد إلى هذا التأويل في رواية الميموني فقال: الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها. فقال له الميموني: الفطرة الدين: قال: نعم. قال القاضي: وأراد أحمد بالدين المعرفة التي ذكرناها(١). . .

. . .(٢)**وأما** احتجاج أحمد بقول أبي هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾ فهذه الآية فيها قولان: أحدهما أن معناها النهي كما تقدم عن ابن جرير أنه فسرها فقال: أي لا تبدلوا دين الله الذي فطر عليه عباده، وهذا قول غير واحد من المفسرين لم يذكروا غيره. والثاني ما قاله إسحاق وهو أنها خبر على ظاهرها، وأن خلق الله لا يبدله أحد. وظاهر اللفظ خبر فلا يجعل نهيًا بغير حجة، وهذا أصح. وحينئذ فيكون المراد أن ما جبلهم عليه من الفطرة لا يبدل، فلا يجبلون على غير الفطرة، لا يقع هذا أصلاً. والمعنى أن الخلق لا يتبدل فيخلقون على غير الفطرة، ولم يرد بذلك أن الفطرة لا تتغير بعد الخلق، بل نفس الحديث يبين أنها تتغير، ولهذا شبهها بالبهيمة التي تولد جمعاء ثم تجدع، ولا تولد بهيمة مخصية ولا مجدوعة، وقد قال تعالى عن الشيطان: ﴿**ولآمرنهم فليغيرن خلق الله**﴾ [النساء: ١١٩]. فالله أقدر الخلق على أن يغيروا ما خلقهم عليه بقدرته ومشيئته، وإنما تبديل الخلق بأن يخلقوا على غير تلك الفطرة، فهذا لا يقدر عليه إلا الله والله لا يفعله. كما قال: ﴿**لا تبديل لخلق الله**﴾ ولم يقل: لا تغيير؛ فإن تبديل الشيء يكون بذهابه وحصول بدله، ولكن إذا غير بعد وجوده لم يكن الخلق الموجود عند الولادة.

وأما قول القائل لا تبديل للخلقة التي جبل عليها بنو آدم كلهم من كفر وإيمان، فإن عني به ما سبق به القدر من الكفر والإيمان لا يقع خلافه فهذا حق، ولكن ذلك لا يقتضي أن تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس ممتنع، ولا أنه غير مقدور، بل العبد قادر على ما أمره الله به من الإيمان، وعلى ترك ما نهاه عنه من الكفر،

---

(١) تعرض المؤلف للخلاف مطولاً هنا وطرق البحث بعضها في أحكام أهل الذمة. ونص كلامه: وقد استوفيناها في كتابنا في أحكام أهل الملل بأدلتها. إلخ والتسمية غير مطابقة لما ذكرنا من اسم الكتاب (ج).

(٢) ٢٩٤ شفاء.

وعلى أن يبدل حسناته بالسيئات، وسيئاته بالحسنات، كما قال الله: ﴿**إلّا من ظلم ثم بدَّل حسنًا بعد سُوء**﴾ [النمل: ١١].

وهذا التبديل كله بقضاء الله وقدره.، وهذا بخلاف مافطروا عليه حين الولادة، فإن ذلك خلق الله الذي لا يقدر على تبديله غيره وهو سبحانه لا يبدله، بخلاف تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس فإنه يبدله كثيرًا، والعبد قادر على تبديله بإقدار الرب له على ذلك.

ومما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفًا فِطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبدِيل لخلقِ الله**﴾ [الروم: ٣٠] فهذه فطرة محمودة أمر الله بها نبيه فكيف تنقسم إلى كفر وإيمان مع أمر الله تعالى بها. وقد تقدم تفسير السلف ﴿**لا تبديل لخلق الله**﴾ أي لدين الله، أو النهي عن الخصا ونحوه. ولم يقل أحد منهم أن المعنى لا تبديل لأحوال العباد من كفر إلى إيمان وعكسه، فإن تبديل ذلك موجود، ومهما وقع كان هو الذي سبق به القدر. والرب تعالى عالم بما سيكون لا يقع خلاف معلومه، فإذا وقع التبديل كان هو الذي علمه.

...[1]**فصل** وأما تفسير قول النبي ﷺ: «**فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**» أنه أراد به مجرد الإلحاق في أحكام الدنيا دون أن يكون أراد أنهما يغيران الفطرة فهذا خلاف ما يدل عليه الحديث؛ فإنه شبه تكفير الأطفال بجدع البهائم تشبيهًا للتغيير بالتغيير. وأيضًا فإنه ذكر هذا الحديث لما قتل أولاد المشركين، فنهاهم عن قتلهم وقال: «**أليس خياركم أولاد المشركين؟ كل مولود يولد على الفطرة**»، فلو أراد أنه تابع لأبويه في الدنيا لكان هذا حجة لهم يقولون هم كفار كآبائهم. وكون الصغير يتبع أبواه في أحكام الدنيا هو لضرورة بقائه في الدنيا؛ فإنه لابد له من مرب يربيه، وإنما يربيه أبواه، فكان تابعًا لهما ضرورة. ولهذا من سبى منفردًا عنهما صار تابعًا لسابيه عند جمهور العلماء كأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، وغيرهم؛ لكونه هو الذي يربيه. وإذا سبى منفردًا عن أحدهما أو معهما ففيه نزاع بين العلماء، واحتجاج الفقهاء كأحمد وغيره بهذا الحديث على أنه

---

(١) ٢٩٦ شفاء

متى سبى منفردًا عن أبويه يصير مسلمًا إذ يستلزم أن يكون المراد بتكفير الأبوين له مجرد لحاقه لهما في الدين.

ولكن وجه الحجة أنه إذا ولد ولد على الملة فإنما ينقله عنه الأبوان اللذان يغيرانه عن الفطرة، فمتى سباه المسلمون منفردًا عنهما لم يكن هناك من يغير دينه، وهو مولود على الملة الحنيفية، فيصير مسلمًا بالمقتضى السالم عن المعارض. ولو كان الأبوان يجعلانه كافرًا في نفس الأمر بدون تعليم وتلقين لكان الصبي المسبي بمنزلة البالغ الكافر، ومعلوم أن البالغ الكافر إذا سباه المسلمون لم يصر مسلمًا، لأنه صار كافرًا حقيقة. فلو كان الصبي التابع لأبويه كافرًا حقيقة لم ينتقل عن الكفر بالسباء، فعلم أنه كان يجرى عليه حكم الكفر في الدنيا تبعًا لأبويه، لا أنه صار كافرًا في نفس الأمر. تبين ذلك أنه لو سباه كفار ولم يكن معه أبواه لم يصر مسلمًا فهو هنا كافر في حكم الدنيا، وإن لم يكن أبواه هوداه ونصراه، فعلم أن المراد بالحديث أن الأبوين يلقناه الكفر ويعلمانه إياه. وذكر النبي ﷺ الأبوين لأنهما الأصل العام الغالب في تربية الأطفال؛ فإن كل طفل فلابد له من أبوين، وهما اللذان يربيانه مع بقائهما وقدرتهما. ومما يبين ذلك قوله في الحديث الآخر: «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإما شاكرًا وإما كفورًا**» فجعله على الفطرة إلى أن يعقل ويميز، فحينئذ يتبين له أحد الأمرين، ولو كان كافراً في الباطن بكفر الأبوين لكان ذلك من حين يولد قبل أن يعرب عنه لسانه. وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «**إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانًا**» صريح في أنهم خلقوا على الحنيفية، وأن الشياطين اجتالتهم وحرمت عليهم الحلال، وأمرتهم بالشرك. فلو كان الطفل يصير كافرًا في نفس الأمر من حين يولد لكونه يتبع أبويه في الدين قبل أن يعلمه أحد الكفر ويلقنه إياه لم تكن الشياطين هم الذين غيروهم عن الحنيفية وأمروهم بالشرك...

...[(1)] **قال** تعالى: ﴿**فَأَقِم وَجهَك للدِّين حَنِيفًا فِطرت الله التي فطر الناسَ عليها**﴾ [الروم: ٣٠]. فبين سبحانه أن إقامة الوجه وهو إخلاص القصد، وبذل

(١) ٨٧ الروح.

الوسع لدينه، المتضمن محبته وعبادته، حنيفًا مقبلاً عليه، معرضًا عما سواه، هو فطرتـه التي فطر عليهـا عباده. فلو خلوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك ولا اختاروا سواه، ولكن غيرت الفطر وأفسدت كما قال النبي ﷺ «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها** ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿**فِطرت الله التي فَطر الناس عليها لا تَبدِيل لِخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثـر النـاسِ لا يعْلمون * مُنيبين إليه واتقُوه**﴾» [الروم: ٣٠، ٣١]. منيبين نصب على الحال من المفعول أي فطرهم منيبين إليه، والإنابة إليه تتضمن الإقبال عليه بمحبته وحده والإعراض عما سواه.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في مقامي هذا أنه قال كل مال نحلته عبدًا فهو له حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركـوا بي مالم أنـزل به سلطانًـا، وحرمت عليهم ما أحللت لهم**». فأخبر سبحانه أنه إنما فطر عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكـمال طاعتـه وحـده دون غيره، وهـذا من الحق الذي خلقت له، وبه قامت السموات والأرض وما بينهما، وعليه قام العالم ولأجله خلقت الجنة والنار، ولأجله أرسـل رسله وأنزل كتبه، ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره، فكونه سبحانه أهلاً أن يعبد ويحب ويحمد ويثني عليه أمر ثابت له لذاته فلا يكون إلا كذلك . . .

. . . (١)**فصل** قد علمت أن من نزل في منزل «التوبة» وقام في مقامها نزل في جميع منـازل الإسـلام. فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها. ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل، تبيينًا لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة»، وقد أمر الله تعالى بها في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿**وأنِيبوا إلى ربِكم**﴾ [الزمر: ٥٤]

---

(٢) ٤٣٣ المدارج جـ١.

وقال: ﴿**إن إبراهيم لحليمٌ أواه منيب**﴾ [هود: ٧٥]. وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة. فقال: ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهُم كَيف بنيناها وزَيناها - إلى أن قال - تبصرة وذِكرى لِكُل عبدٍ مُنيب**﴾ [ق: ٦ - ٨]. وقال تعالى: ﴿**هُو الذي يُريكم آياته ويُنزل لكم من السماء رزْقًا وما يتذكر إلا من يُنيب**﴾ [غافر: ١٣] وقال تعالى: ﴿**مُنيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة**﴾ [الروم: ٣١].

«**فمنيبين**» منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله: ﴿**فأقم وجهك**﴾؛ لأن هذا الخطاب له ولأمته، أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه. نظيره قوله: ﴿**يا أيُّها النبي إذا طَلقتم النساء**﴾ [الطلاق: ١] ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله: ﴿**فطر الناس عليها**﴾ أي فطرهم منيبين إليه. فلو خلُّوا وفِطرهم لما عدلت عن الإنابة إليه، ولكنها تتحوّل وتتغير عما فُطرت عليه، كما قال ﷺ: «ما **من مولود إلا يولد على الفطرة** - وفي رواية: **على الملة - حتى يعرب عنه لسانه**» وقال عن نبيه داود: ﴿**فاستغفر ربه وخر راكِعًا وأنَاب**﴾ [ص: ٢٤] وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة. فقال: ﴿**وأزْلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ مَن خَشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب مُنيب ادخلوها بسلام**﴾ [ق: ٣١- ٣٤]. وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة، فقال: ﴿**والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابُوا إلى الله لهم البُشرى**﴾ [الزمر: ١٧].

والانابة إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر. قال الله تعالى: ﴿**وإذا مَسَّ الناس ضُرٌّ دعوا ربهم مُنيبين إليه**﴾ [الروم: ٣٣]. فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع. وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿**ثُم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريقٌ منهم بربهم يُشركُون ليكفروا بما آتيناهم**﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والانابة الثانية إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة. وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع. وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم. و«المنيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه. قال صاحب المنازل: «الإنابة في اللغة: الرجوع وهي ههنا الرجوع إلى الحق. وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق إصلاحًا، كما رجع إليه اعتذارًا. والرجوع إليه وفاء، كما رجع إليه عهدًا. والرجوع إليه حالاً، كما رجعت إليه إجابة».

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح في طاعته. كما قال: ﴿**إلا من تاب وآمن وعَمِل عَملاً صالحًا**﴾ [الفرقان: ٧٠] وقال: ﴿**إلا الذين تابوا وأصلحوا**﴾ [البقرة: ١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة. فلابد من توبة وعمل صالح: تركٍ لما يكره، وفعل لما يحب، تخل عن معصيته، وتحل بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك. فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً، فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانيًا. والدين كله: عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته: فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كَلَّم موسى. وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل. وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء. فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم، وعلى هؤلاء بالتعلم. ومدح الموفين بعهده، وأخبر بما لهم عنده من الأجر، فقال: ﴿**ومَن أوفَى بما عاهد عَليه الله فسيؤتيه أجْرًا عظِيمًا**﴾ [الفتح: ١٠] وقال: ﴿**وأوفُوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً**﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال: ﴿**وأوْفوا بعَهد الله إذا عاهدتم**﴾ [النحل: ٩١] وقال: ﴿**والمُوفون بعهْدهِم إذا عَاهدوا**﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة، وعهودهم مع الخلق.

وأخبر النبي ﷺ: أن من علامات النفاق «الغدر بعد العهد». فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به. كما أنه لم يُنِب إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله: «والرجوع إليه حالاً كما رجعت إليه إجابة» أي هو سبحانه قد دعاك

فأجبته بلبيك وسعديك قولاً. فلابد من الإجابة حالاً تُصَدِّق به المقال؛ فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله. فكما رجعت إليه إجابة بالمقال، فارجع إليه إجابة بالحال. . .

. . .(١)**اعلم**: أن الله سبحانه أتقن كل شيء صنعه، وأحسن كل شيء خلقه. فهو عند مبدأ خلقه بريء من الآفات والعلل، تام المنفعة لما هيء وخلق له، وإنما تعرض له الآفات بعد ذلك بأمور أخر من مجاورة أو امتزاج أو اختلاط، أو أسباب أخر تقتضي فساده. فلو ترك على خلقته الأصلية من غير تعلق أسباب الفساد به لم يفسد. ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد في جَوِّه ونباته وحيوانه وأحوال أهله: حادث بعد خلقه، بأسباب اقتضت حدوثه، ولم تزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام والأمراض والأسقام، والطواعين والقحوط والجدوب، وسلب بركات الأرض وثمارها ونباتها، وسلب منافعها أو نقصانها: أمورًا متتابعة، يتلو بعضها بعضًا. فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى: ﴿**ظَهر الفَساد فِي البر والبحر بما كسبت أيدِي الناس**﴾ [الروم: ٤١] ونَزِّل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها. وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزروع، والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناسُ ظلمًا وفجورًا أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلقهم وصورهم، وأشكالهم وأخلاقهم، من النقص والآفات: ما هو من موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم. ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم. وقد روى الإمام أحمد بإسناده أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صُرَّةٌ فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها هذا كان ينبت أيام العدل. وهذه القصة ذكرها في مسنده على إثر حديث رواه. وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة: بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة، ثم بقيت منها بقية مُرصدة لمن بقيت

---

(١) ٣٨٥ الزاد جـ٣.

عليه بقية من أعمالهم، حكمًا قسطًا وقضاء عدلاً. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون «إنه بقية رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل».

وكذلك سلط الله سبحانه وتعالى الريح على قوم سبع ليال وثمانية أيام. ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام، وفي نظيرها عظة وعبرة. وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لابد منه. فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغيث من السماء، والقحط والجدب. وجعل ظلم المساكين والبخس في المكاييل والموازين، وتعدي القوى على الضعيف سببًا لجور الملوك والولاة، الذين لا يرحمون إن استُرحموا، ولا يعطفون إن استُعْطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا، ظهرت في صور ولاتهم[1]. فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها: فتارة بقحط وجدب، وتارة بعدو، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون منها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسلط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزًّا؛ لتحق عليهم الكلمة، وليصير كل منهم إلى ما خلق له.

والعاقل يسير ببصيرته بين أقطار العالم فيشاهده، وينظر مواقع عدل الله وحكمته. وحينئذ يتبين له: أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البوار صائرون، والله بالغ أمره، لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، وبالله التوفيق.

. . .[2]**وقوله تعالى: ﴿ولا تُفسِدوا في الأرضِ بعد إصلاحِها﴾** [الأعراف: ٥٦]
قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره، والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره. قال تعالى: **﴿ظَهر الفَساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾**. وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله

---

(١) تقدم في أول سورة القصص ما هو أبسط من هنا نقلاً عن الشفاء (ج).
(٢) ١٤ البدائع جـ٣.

المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم، وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم وتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر. وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره. ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة؛ فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه، وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله. ومن تدبر هذا حق التدبر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي حق غيره، عمومًا وخصوصًا. ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

. . .[1]**فصل** ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها تحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والمساكن قال تعالى: ﴿**ظَهر الفَساد في البر والبحر بما كسبت أيدِي الناس لِيُذيقَهم بَعض الذي عَمِلوا لعلهم يرجِعون**﴾ [الروم: ٤١]. قال مجاهد: إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد، فيحبس بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد. ثم قرأ ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**﴾ ثم قال: أما والله ما هو بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر. وقال عكرمة: ظهر الفساد في البر والبحر، أما إني لا أقول لكم بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء. وقال قتادة: أما البر فأهل العمود[2]، وأما البحر فأهل القرى والريف. قلت: وقد سمى الله تعالى الماء العذب بحرًا فقال: ﴿**وَمَا يستَوي**

---

(١) ٨٣ الجواب.

(٢) أي أهل الخيام التي يرفعونها على العمود.

البَحرانِ هذا عَذْبٌ فراتٌ سائغٌ شَرابُه وهذا مِلحٌ أجاجٌ﴾ [فاطر: ١٢] وليس في العالم بحر حلو واقفًا، وإنما هي الأنهار الجارية، والبحر المالح هو الساكن؛ فتسمي القرى التي على المياه الجارية باسم تلك المياه. وقال ابن زيد: ﴿ظَهر الفَسادُ في البَرِّ والبحر﴾ قال: الذنوب. قلت: أراد أن الذنب سبب الفساد الذي ظهر، وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله: ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ لام العاقبة والتعليل. أو على الأول فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الأرض بمعاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنبًا أحدث الله لهم. كما قال بعض السلف كلما أحدثتم ذنبًا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة. والظاهر والله أعلم أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ليُذِيقهم بعضَ الذي عَمِلوا﴾ فهذا حالنا، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة. ومن تأثير معاصي الله في الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها. وقد مر رسول الله ﷺ على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أن لا يعلف العجين الذي عجن بمياههم لنواضح الإبل[١] لتأثير شؤم المعصية في الماء. وكذلك شؤم تأثير الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات. وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال: «وجدت في خزائن بعض بني أمية حنطة، الحبة بقدر نواة التمرة وهي في صرة مكتوب عليها: كان هذا ينبت في زمن العدل» وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب.

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن. وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها وإنما حدثت من قرب. وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق فقد روى الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ أنه قال: **«خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعًا ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والخونة والفجرة[٢] يخرج عبدًا من عباده**

---

(١) النواضح: هي الإبل التي يستقي عليها. (٢) جمع ظالم وخائن وفاجر.

من أهل بيت نبيه ﷺ فيملأ الأرض قسطًا كما ملئت جورًا ويقتل المسيح اليهود والنصارى، ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله، وتخرج الأرض بركاتها وتعود كما كانت حتى أن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها، ويكون العنقود من العنب وقر بعير ولبن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من الناس» وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر. ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارًا سارية في الأرض تطلب ما يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار العقوبات، كما أن هذه المعاصي من آثار الجرائم. فتناسبت كلمة الله وحكمه الكوني أولاً وآخرًا، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية، والأخف للأخف، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء.

وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره فإنه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة عن عمره وعمله وقوله ورزقه، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته. وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة.

...(١) **الوجه** العشرون أنه سبحانه استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار. فقال تعالى: **﴿ويوم تقوم الساعة يُقسم المجرمون ما لَبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكُون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لَبثتُم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يومُ البعث ولكِنَّكم كنتم لا تعلمون﴾** [الروم: ٥٥، ٥٦].

(٢)فائدة عظيمة

أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، هو العلم والإيمان. ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله: **﴿وقَال الذِين أوتُوا العِلم والإيمان لقد لَبثتم في كتاب الله إلى يوم البعثِ﴾** [الروم: ٥٦]، وقوله:

(١) ٥٩ المفتاح جـ١.　　(٢) ١٠٢ فوائد.

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتُوا العِلم درجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وهؤلاء هم خلاصة الوجود، ولبه، والمؤهلون للمراتب العالية، ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان، اللذين بهما السعادة والرفعة، وفي حقيقتهما، حتى إن كل طائفة تظن أن ما معها من العلم والإيمان هو هذا الذي به تنال السعادة، وليس كذلك، بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجي، ولا علم يرفع، بل قد سدوا على نفوسهم طرق العلم والإيمان اللذين جاء بهما الرسول ﷺ ودعا إليهما الأمة، وكان عليهما هو وأصحابه من بعده وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم.

فكل طائفة اعتقدت أن العلم ما معها، وفرحت به وتقطعوا أمرهم بينهم زبرًا، كل حزب بما لديهم فرحون، وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص، والعلم وراء الكلام، كما قال حماد بن زيد، قلت لأيوب: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم؟ فقال: الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدم أكثر.

ففرق هذا الراسخ بين العلم والكلام، فالكتب كثيرة جدًّا، والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة، والعلم بمعزل عن أكثرها، وهو ما جاء به الرسول عن الله، قال تعالى: ﴿فمن حاجَّك فيه من بعدِ ما جاءك من العلم﴾ [آل عمران: ٦١]، وقال: ﴿ولَئِن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك مِن العلم﴾ [البقرة: ١٢٠] وقال في القرآن: ﴿أنزله بعلمه﴾ [النساء: ١٦٦]؛ أي وفيه علمه.

ولما بعد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار وسوانح الخواطر والآراء علمًا، ووضعوا فيها الكتب وأنفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيها الزمان. وملأوا بها الصحف مدادًا، والقلوب سوادًا.

. . .(٢) **قال الله تعالى**: ﴿ولا يستخِفَّنك الذين لا يوقِنون﴾ [الروم: ٦٠] وجه استدلاله بالآية في غاية الظهور. وهو أن المتمكن لا يبالي بكثرة الشواغل، ولا بمخالطة أصحاب الغفلات، ولا بمعاشرة أهل البطالات. بل قد تمكن بصبره ويقينه عن استفزازهم إياه، واستخفافهم له. ولهذا قال تعالى: ﴿فاصْبِر إن وَعْد الله حق﴾ [الروم: ٦٠] فمن وفى الصبر حقه، وتيقن أن وعد الله حق: لم يستفزه المبطلون، ولم يستخفه الذين لا يوقنون. ومتى ضعف صبره ويقينه ـ أو كلاهما ـ

---

(١) ١٠٢ الفوائد.　　(٢) ٢١٥ المدارج جـ٣.

استفزه هؤلاء، واستخفه هؤلاء، فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره ويقينه. فكلما ضعف ذلك منه: قوى جذبهم له. وكلما قوى صبره ويقينه: قوى انجذابه منهم وجذبه لهم.

. . . (١) **وقال** تعالى: **﴿فاصْبِرِ إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقِنون﴾** [الروم: ٦٠] فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر؛ فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا. فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين؛ لأنه ذو لب وعقل. ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف، والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الروم
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٥٥ التبيان.



بسم الله الرحمن الرحيم

. . .(١) **قال** تعالى: ﴿ومن النَّاس مَن يشتري لهو الحديث ليضِل عن سبيل الله بغير عِلم ويتَّخِذها هزوًا أولئك لهم عذابٌ مُهين * وإذا تتلى عليه آياتُنا ولَّى مُستكبِرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وَقْرًا فبشرهُ بعذاب أَلِيم﴾ [لقمان: ٦، ٧].

قال الواحدي وغيره: أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث: الغناء، قاله ابن عباس في رواية سعيد بن جُبير ومِقسم عنه، وقاله عبدالله بن مسعود، في رواية أبي الصَّهباء عنه، وهو قول مُجاهد وعِكرمة.

وروى ثَور بن أبي فاختة عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ومن الناس مَن يشتري لهو الحديث﴾ قال: «هو الرجل يشتري الجارية تُغنيه ليلاً ونهارًا».

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: «هو اشتراء المغني والمغنية بالمال الكثير، والاستماع إليه، وإلى مثله من الباطل» وهذا قول مَكحول. وهذا اختيار أبي إسحاق أيضًا.

وقال: أكثر ما جاء في التفسير: أن لهو الحديث ههنا هو الغناء. لأنه يُلهِي عن ذكر الله تعالى .

قال الواحدي: قال أهل المعاني: ويدخل في هذا كلُّ من اختار اللهو، والغناء والمزامير والمعازف على القرآن، وإن كان اللفظ قد ورد بالشراء، فلفظ الشراء يُذكر في الاستبدال، والاختيار، وهو كثير في القرآن. قال: ويدل على هذا ما قاله قتادة في هذه الآية: «لعله أن لا يكون أنفق مالاً»، قال: «وبحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق».

قال الواحدي: وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء، ثم ذكر كلام الشافعي في ردِّ الشهادة بإعلان الغناء. قال: وأما غِناء القِينات: فذلك أشدُّ ما في الباب، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه، وهو ما روي أن النبي ﷺ قال: «من استمع إلى قِينة صُبَّ في أذنيه الآنُك يوم القيامة» الآنك: الرَّصاص المذاب.

---

(١) ٢٣٨ الإغاثة جـ١.

وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعًا إلى النبي ﷺ. ففي مسند الإمام أحمد، ومسند عبدالله بن الزبير الحُميدي، وجامع الترمذي من حديث أبي أمامة، والسياق للترمذي: أن النبي ﷺ قال: «**لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن، ولا تُعلِّموهن، ولا خيرَ في تجارة فيهن، وثَمنهن حرام، في مثل هذا نزلت الآية: ﴿وَمِن الناس مَن يشتري لهو الحديث ليُضِل عن سبيل الله﴾**» وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيدالله بن زَحر عن علي بن يزيد الإلهاني عن القاسم، فعبيد الله بن زحر ثقة، والقاسم ثقة، وعلي ضعيف، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات، سنذكرها إن شاء الله تعالى، ويكفي تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بأنه الغناء، فقد صح ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود.

قال أبو الصهباء: «سألت ابن مسعود عن قوله تعالى: **﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾** فقال: والله الذي لا إلـه غيره، هو الغناء ـ يرددها ثلاث مرات».

وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما أيضًا «أنه الغناء». قال الحاكم أبوعبدالله في التفسير، من كتاب المستدرك «لِيعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحْي والتنزيل عند الشيخين: حديثٌ مسند». وقال في موضع آخر من كتابه: «هو عندنا في حكم المرفوع».

وهذا، وإن كان فيه نظر، فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير مَن بعدهم؛ فهم أعلم الأمة بمراد الله عز وجل من كتابه؛ فعليهم نزل، وهم أولُ من خُوطب به من الأمة، وقد شاهدوا تفسيره من الرسول ﷺ علمًا وعملًا، وهم العرب الفُصحاء على الحقيقة. فلا يُعدل عن تفسيرهم ما وُجِد إليه سبيل.

ولا تعارضَ بين تفسير «لهو الحديث» بالغناء، وتفسيره: بأخبار الأعاجم وملوكها، وملوك الروم، ونحو ذلك مما كان النَّضْر بن الحارث يُحدث به أهل مكة، يشغَلهم به عن القرآن؛ فكلاهما لهو الحديث، ولهذا قال ابن عباس: «لهو الحديث: الباطل والغناء». فمن الصحابة من ذكر هذا، ومنهم من ذكر الآخر، ومنهم من جمعهما.

والغناء أشد لهوًا، وأعظم ضررًا من أحاديث الملوك وأخبارهم، فإنه رُقْية الزِّنا، ومُنبتُ النِّفاق، وشَرَك الشيطان، وخَمرة العقل. وصَدّه عن القرآن أعظم من صد

غيره من الكلام الباطل، لشِدة مَيْلِ النفوس إليه، ورغبتها فيه.

إذا عرف هذا فأهل الغناء، ومُستمعوه لهم نصيب من هذا الذم، بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن، وإن لم ينالوا جميعه؛ فإن الآيات تضمنت ذمَّ من استبدل لهو الحديث بالقرآن ليُضِل عن سبيل الله بغير علمٍ ويتخذها هزوًا. وإذا يُتلى عليه القرآن ولَّى مُستكبِراً كأن لم يسمعه، كأن في أذنيه وقرًا، وهو الثقل والصمم. وإذا علم منه شيئًا استهزأ به. فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفرًا، وإن وقع بعضه للمغنين ومُستمعيهم، فلهم حِصَّة ونصيب من هذا الذم.

يوضحه: أنك لا تجد أحدًا عُنِيَ بالغناء وسماع آلاته، إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى، علمًا وعملًا، وفيه رغبةٌ عن استماع القرآن إلى استماع الغناء، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلى ذاك، وثَقل عليه سماع القرآن، وربما حمله الحالُ على أن يُسكِت القارىء ويستطيل قراءته، ويستزيد المغني ويستقصر نوبته، وأقل ما في هذا: أن يناله نصيبٌ وافر من هذا الذم، إن لم يحظ به جميعه.

والكلام في هذا مع مَن في قلبه بعض حياة يُحسُّ بها. فأما من مات قلبه، وعظُمت فتنته، فقد سدَّ على نفسه طريق النصيحة: **﴿وَمَن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا أولئك الذين لم يُرد الله أن يطَهِّر قلوبهم لهم في الدُّنيا خزْي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾** [المائدة: ٤١].

...[1]**قال** ابن أبي الدنيا: حدثنا هارون بن عبيدالله، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أشرس أبو شيبان الهذلي قال: قلت لفرقد السَّبخي: أخبرني ياأبايعقوب من تلك الغرائب التي قرأت في التوراة. فقال: «ياأباشيبان، والله ماأكذب على ربي - مرتين أو ثلاثًا - لقد قرأت في التوراة: ليكونن مسخ وخسف وقذف في أمة محمد ﷺ في أهل القِبلة، قال: قلت، يا أبا يعقوب ما أعمالهم؟ قال: باتخاذهم القينات، وضَربهم بالدفوف، ولباسهم الحرير والذهب، ولئن بقيتَ حتى ترى أعمالًا ثلاثة، فاستيقِن واستَعِد واحذَر. قال: قلت: ما هي؟ قال: إذا تكافأ

(١) ٢٦٥ الإغاثة جـ١.

الرجال بالرجال، والنساء بالنساء[1]، ورغبت العربُ في آنية العجم، فعند ذلك قلت له: العرب خاصة؟ قال: لا؛ بل أهل القبلة، ثم قال: والله ليقذفن رجال من السماء بحجارة يُشْدَخون بها في طُرقهم وقبائلهم، كما فُعل بقوم لوط، وليمسخن آخرون قردة وخنازير، كما فُعل ببني إسرائيل، وليخسفن بقوم كما خُسف بقارون».

وقد تظاهرت الأخبار بوقوع المسخ في هذه الأمة، وهو مقيد في أكثر الأحاديث بأصحاب الغناء، وشاربي الخمر، وفي بعضها مطلق.

قال سالم بن أبي الجَعد: «ليأتينَّ على الناس زمان يجتمعون فيه على باب رجل ينتظرون أن يخرج إليهم، فيطلبون إليه حاجة، فيخرج إليهم وقد مُسخ قردًا أو خنزيرًا، وليمرَّنَّ الرجل على الرجل في حانوته يبيع، فيرجع إليه وقد مسخ قردًا أو خنزيرًا».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «لا تقوم الساعة حتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه، فيمسخ أحدهما قردًا أو خنزيرًا. فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضي إلى شأنه ذلك حتى يقضي شهوته، وحتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه، فيخسف بأحدهما، فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمشي لشأنه ذلك، حتى يقضي شهوته منه».

وقال عبدالرحمن بن غَنم: «سيكون حَيَّان متجاورين، فيشقُّ بينهما نهر، فيستقيان منه، قبسهم واحد، يقبِس بعضه من بعض، فيُصبحان يومًا من الأيام قد خُسف بأحدهما والآخر حي». وقال عبدالرحمن بن غنم أيضًا: «يوشك أن يقعد اثنان على رحًا يطحنان، فيمسخ أحدهما والآخر ينظر».

وقال مالك بن دينار: «بلغني أن ريحًا تكون في آخر الزمان وظُلَم، فيفزع الناس إلى علمائهم، فيجدونهم قد مسخوا».

قال بعض أهل العلم: إذا اتَّصف القلب بالمكر والخديعة والفسق، وانصبغ بذلك صبغًا تامًّا، صار صاحبه على خُلق الحيوان الموصوف بذلك: من القردة، والخنازير، وغيرهما، ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات

وجهه بدوًا خفيًا. ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهرًا على الوجه، ثم يقوى حتى يقلب الصورة الظاهرة، كما قلب الهيئة الباطنة. ومَن له فِراسة تامة يرى على صور الناس مَسخًا من صور الحيوانات التي تخلقوا بأخلاقها في الباطن، فقل أن ترى مُحتالًا مكّارًا مخادعًا خَتّارًا إلا وعلى وجهه مَسخة قرد، وقلَّ أن ترى رافضيًّا إلا وعلى وجهه مَسخة خنزير، وقل أن ترى شرها نَهِمًا، نفسه نفس كَلبية إلا وعلى وجهه مَسخة كلب، فالظاهر مرتبط بالباطن أتمَّ ارتباطٍ، فإذا استحكمت الصفات المذمومة في النفس قويت على قلب الصورة الظاهرة، ولهذا خوّف النبيُّ ﷺ مَن سابق الإمام في الصلاة بأن يجعل الله صورته صورة حمار ، لمشابهته للحمار في الباطن، فإنه لم يستفد بمسابقة الإمام إلا فساد صلاته، وبطلان أجره، فإنه لا يسلم قبله، فهو شبيه بالحمار في البلادة، وعدم الفِطنة.

إذا عرف هذا فأحق الناس بالمسخ هؤلاء الذين ذُكِروا في هذه الأحاديث، فهم أسرع الناس مسخًا قردة وخنازير، لمشابهتهم لهم في الباطن، وعقوبات الرب تعالى ـ نعوذ بالله منها ـ جاريةٌ على وَفق حكمته وعدله.

وقد ذكرنا شُبه المغنين والمفتونين بالسماع الشيطاني، ونقضناها نقضًا وإبطالًا في كتابنا الكبير في السماع ، وذكرنا الفرق بين ما يحركه سماع الأبيات وما يحركه سماع الآيات، وذكرنا الشبه التي دخلت على كثير من العباد في حضوره، حتى عدُّوه من القُرب. فمن أحب الوقوف على ذلك فهو مستوفىً في ذلك الكتاب، وإنما أشرنا هنا إلى نبذة يسيرة في كونه من مكايد الشيطان وبالله التوفيق.

. . . (١)**فصل** ومن مكايد عدو الله ومصايده، التي كاد بها من قَلَّ نصيبه من العلم والعقل والدِّين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماعَ المُكاءِ، والتَّصْدِية، والغناء بالآلات المحرَّمة، الذي يَصُد القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان. فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رُقية اللواط والزِّنا، وبه يَنالُ العاشق الفاسق من معشوقه غاية المُني. كاد به الشيطان النفوس المبطلة، وحسَّنه لها مكرًا منه وغرورًا، وأوحى إليها الشُّبه

---

(١) ٢٢٤ الإغاثة جـ١.

الباطلة على حُسنه فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجورًا.

فلو رأيتهم عند ذيَّاك السماع وقد خَشَعَت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبَّت انصبابة واحدة إليه. فتمايلوا له ولا كتمايل النَّشوان، وتكسَّروا في حركاتهم ورَقصِهم، أرأيت تكسُّر المخانيث والنسوان؟ ويحقُّ لهم ذلك، وقد خالط خُمارُه النفوس، ففعل فيها أعظم ما يفعل حُمَيَّا الكؤوس. فلغير الله، بل للشيطان، قلوبٌ هناكَ تمزَّق، وأثوابٌ تُشقق، وأموال في غير طاعة الله تُنفق. حتى إذا عمل السكر فيهم عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأَمَله، واستفزَّهم بصوته وحيله، وأجلَب عليهم برجله وخيله، وخز في صدورهم وخزًا، وأزَّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزًّا. فطورًا يجعلهم كالحمير حول المَدَار. وتارة كالذِّباب ترقص وسيط الديار. فيا رحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام. ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام. ويا شماتة أعداء الإسلام. الذين يزعمون أنهم خواصُّ الإسلام[1]. قضوا حياتهم لذة وطربًا. واتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا. مزامير الشيطان أحبُّ إليهم من استماع سُور القرآن. لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرَّك له ساكنًا. ولا أزعج له قاطنًا. ولا أثار فيه وَجدًا. ولا قدم فيه من لواعِج الشوق إلى الله زَندًا، حتى إذا يُتلىَ عليه قرآن الشيطان، ووَلج مزموره سمعه، تفجَّرت ينابيعُ الوَجد من قلبه عَلى عينيه فجرَت، وعلى أقدامه فرقَصت، وعلى يديه فصفَّقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطَربت، وعلى أنفاسِه فتصاعدت، وعلى زَفَراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت.

فيا أيها الفاتن المفتون، البائع حَظَّه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسرٍ مَغبون، هلَّا كانت هذه الأشجان، عند سماع القرآن؟ وهذه الأذواق والمواجيد، عند قراءة القرآن المجيد؟ وهذه الأحوال السَّنيَّات، عند تلاوة السور والآيات؟ ولكن كل امرىء يَصبوا إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكله، والجنسية عِلَّة الضم قدرًا وشرطًا، والمشاكلة سبب الميل عقلاً وطبعًا، فمن أين هذا الإِخاء والنسب؟ لولا التعلق من الشيطان بأقْوى سبب. ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عَقد

---

(١) يقصد الشيخ ـ رحمه الله ـ المتصوفة الذين يتحلقون حلقًا ويقومون فيها يرقصون يتمايلون على أنغام الغناء والآلات.

الإيمان وعهد الرحمن خَلَلًا؟ ﴿أفتتخِذونه وذُريته أولِياء من دوني وهُم لكم عدو بِئس للظالمين بدلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

. . . (١)**فصل** في بيان تحريم رسول الله ﷺ الصريح لآلات اللهو المعازف، وسياق الأحاديث في ذلك.

عن عبدالرحمن بن غَنم قال: حدثني أبوعامر، أو أبومالك الأشعري رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لَيكوننَّ من أمَّتي قوم يَستحِلُّون الحر والحرير والخمر والمعازف**» هذا حديث صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه محتجًا به، وعلَّقه تعليقًا مجزومًا به، فقال: «باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، وقال هشام بن عمَّار : حدثنا صدقة بن خالد حدثنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا عطية بن قيس الكِلابي حدثني عبدالرحمن بن غنم الأشعري قال حدثني أبوعامر، أو أبومالك الأشعري ـ والله ما كذبني ـ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**ليكونن من أمتي أقوام يَستحِلُّون الحر والحرير والخمر والمعازف، ولينزلنَّ** أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم لحاجة. فيقولوا: ارجع إلينا غدًا، فيُبَيتهم الله تعالى ويَضع العلم، ويمسخ آخرين قِردة وخنازير إلى يوم القيامة».

ولم يصنع من قَدح في صحة هذا الحديث شيئًا، كابن حَزْم، نُصْرةً لمذهبه الباطل في إباحة الملاهي، وزعم أنه منقطع، لأن البخاري لم يصل سنده به.

وجواب هذا الوهم من وجوه: . . .

(٢)**ومن** منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «السماع».

وهو اسم مصدر كالنبات. وقد أمر الله به في كتابه، وأثنى على أهله، وأخبر أن البشرى لهم، فقال تعالى: ﴿**واتَّقوا الله واسمعوا**﴾ [المائدة: ١٠٨] وقال: ﴿**واسمعوا وأطيعوا**﴾ [التغابن: ١٦] وقال: ﴿**وَلَو أنَّهم قالوا سمِعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقْوم**﴾ [النساء: ٤٦] وقال: ﴿**فَبشِّر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب**﴾ [الزمر:

---

(١) ٢٥٨ الإغاثة جـ١.　　(١) ٤٨١ المدارج جـ١.

١٧، ١٨] وقال: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤].
وقال: ﴿وإذا سمِعوا ما أنزِل إلى الرَّسول ترى أعينهم تفيض من الدَّمع مما عرفوا من الحق﴾ [المائدة: ٨٣].

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم. فقال: ﴿وَلَو عَلم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم مُعرضُون﴾ [الأنفال: ٢٣].

وأخبر عن أعدائه: أنهم هجروا السماع ونهوا عنه. فقال: ﴿وَقَال الذين كَفروا لا تسمعوا لِهذا القرآن والْغوا فيه﴾ [فصلت: ٢٦].

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه. وكم في القرآن من قوله ﴿أفلا يسمعون﴾ وقال: ﴿أفَلم يَسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقِلون بها أو آذانٌ يسمعون بها﴾ [الحج: ٤٦].

فالسماع أصل العقل، وأساس الإيمان الذي انبنى عليه. وهو رائده وجليسه ووزيره. ولكن الشأن كل الشأن في المسموع. وفيه وقع خبط الناس واختلافهم. وغلط منهم من غلط.

وحقيقة «السماع» تنبيه القلب على معاني المسموع، وتحريكه عنها: طلبًا وهربًا وحبًّا وبغضًا. فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه.

وأصحاب السماع، منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه. فهذا حظه من مسموعه: ما وافق طبعه.

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله. فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته.

ومنهم: من يسمع بالله، لا يسمع بغيره. كما في الحديث الإلهي الصحيح «فبي يسمع وبي يبصر» وهذا أعلى سماعًا، وأصح من كل أحد.

والكلام في «السماع» ـ مدحًا وذمًّا ـ يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع، وحقيقته وسببه، والباعث عليه، وثمرته وغايته. فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويتميز النافع منه والضار، والحق والباطل، والممدوح والمذموم. فأما «المسموع» فعلى ثلاثة أضرب:

أحدها: مسموع يحبه الله ويرضاه، وأمر به عباده، وأثنى على أهله، ورضي عنه به.

الثاني: مسموع يبغضه ويكرهه، ونهى عنه، ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه، لا يحبه ولا يبغضه، ولا مدح صاحبه ولا ذمه. فحكمه حكم سائر المباحات: من المناظر، والمشام، والمطعومات، والملبوسات المباحة. فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله مالا يعلم، وحرم ما أحل الله. ومن جعله دينًا وقُربة يتقرب به إلى الله، فقد كذب على الله، وشرع دينًا لم يأذن به الله، وضاهأ بذلك المشركين.

فأما النوع الأول: فهو السماع الذي مدحه الله في كتابه، وأمر به وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم. وجعلهم أضل من الأنعام سبيلاً. وهم القائلون في النار: ﴿**لَو كُنَّا نسمع أو نعقل ما كُنَّا في أصحاب السَّعير**﴾ [الملك: ١٠] وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسوله. فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه. وهو على ثلاثة أنواع: سماع إدراك: بحاسة الأذن. وسماع فهم وعقل. وسماع فهم وإجابة وقبول. والثلاثة في القرآن.

فأما سماع الإدراك: ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن قولهم ﴿**إنّا سمعنا قُرآنا عجبًا يهدي إلى الرُّشد فآمنا به**﴾ [الأحقاف: ٣٠] فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة. بقوله تعالى: ﴿**فإنّك لا تُسمع الموتى ولا تسمع الصُّم الدُّعاء**﴾ [الروم: ٥٢] وقوله: ﴿**إن الله يُسمع من يشاءُ وما أنت بمسمعٍ من في القبور**﴾ [فاطر: ٢٢].

فالتخصيص ههُنا لإسماع الفهم والعقل. وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة لا تخصيص فيه. ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلَو عَلم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولَو أسمعهم لتولوا وهم مُعرضون**﴾ [الأنفال: ٢٣] أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقيادًا لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سَمْع الإدراك: ﴿**وَلَو أسْمعَهم لتولَّوا وهُم مُعرضُون**﴾ أي ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا، لأن في قلوبهم من

داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سماع القبول والإجابة: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: أنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١] فإن هذا سمع قبول وإجابة مثمر للطاعة.

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة، وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه، واستجابوا له.

ومن سمع القبول: قوله تعالى: ﴿وفِيكم سَمَّاعون لَهم﴾ [التوبة: ٤٧] أي قابلون منهم مستجيبون لهم. هذا أصح القولين في الآية.

وأما قول من قال: عيون لهم وجواسيس، فضعيف. فإنه سبحانه أخبر عن حكمته في تثبيطهم عن الخروج: بأن خروجهم يوجب الخبال والفساد، والسعي بين العسكر بالفتنة، وفي العسكر من يقبل منهم، ويستجيب لهم. فكان في إقعادهم عنهم لطفًا بهم ورحمة، حتى لا يقعوا في عَنت القبول منهم.

أما اشتمال العسكر على جواسيس وعيون لهم: فلا تعلق له بحكمة التثبيط والإقعاد. ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم. وهو سبحانه قد أخبر أنه أقعدهم لئلا يسعوا بالفساد في العسكر، ولئلا يبغوهم الفتنة. وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم، وإقعاد جواسيسهم وعيونهم.

وأيضا فإن الجواسيس إنما تسمى «عيونًا» هذا المعروف في الاستعمال لا تسمى سماعين.

وأيضًا فإن هذا نظير قوله تعالى في إخوانهم اليهود: ﴿سَمَّاعون للكَذِب أكَّالون للسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] أي قابلون له.

والمقصود: أن سماع خاص خاصة المقربين: هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفهمًا، وتدبرًا، وإجابة. وكل سماع في القرآن مدحَ الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه: فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات. وسماع القرآن، لا سماع مزامير الشيطان، وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء، وسماع المراشد، لا سماع القصائد، وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنين والمطربين.

فهذا السماع حادٍ يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح

إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات، إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح من قِبل فالق الإصباح «حَي على الفلاح، حيَّ على الفلاح».

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، وردًّا على ضلالة، وإرشادًا من غَي، وبصيرة من عمى، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى، وحثًّا على تقى، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل.

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد، ونناشدهم بالذي أنزل القرآن هدى وشفاء ونورًا وحياة: هل وجدوا ذلك ـ أو شيئًا منه ـ في الدف والمزمار؟ ونغمة الشادن ومطربات الألحان؟ والغناء المشتمل على تهييج الحب المطلق الذي يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب العلم والعرفان، ومحب الأموال والأثمان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الصلبان؟ فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشيء ساكنه، ويزعج قاطنه، فيثور وجده، ويبدو شوقه، فيتحرك على حسب ما في قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائنًا ما كان. ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقًا في السماع، وحالاً ووجداً وبكاء.

ويالله العجب! أي إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات. لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله، ويعاقب عليه: من غزل وتشبيب بمن لا يحل له من ذَكر أو أنثى؟ فإن غالب التغزل والتشبيب: إنما هو في الصور المحرمة. ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه في امرأته، وأمته وأم ولده، مع أن هذا واقع، لكنه كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود. فكيف يقع لمن له أدنى بصيرة وحياة قلب: أن يتقرب إلى الله، ويزداد إيمانًا وقربًا منه وكرامة عليه، بالتذاذه بما هو بغيض إليه، مقيت عنده، يمقت قائله والراضي به؟ وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع، وسنة نبيه ﷺ؟!

يالله! إن هذا القلب مخسوف به، ممكور به منكوس، لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معـانيه، ومطالعة أسراره، فبلاه بقرآن الشيطان، كما في معجم الطبراني وغيره ـ مرفوعًا وموقوفًا ـ «إن الشيطان قال: يارب، اجعل لي قرآنًا. قال قرآنك الشعر. قال: اجعل لي كتابًا. قال: كتابك الوشم. قال: اجعل لي مؤذنًا. قال مؤذنك المزمار. قال: اجعل لي بيتًا. قال: بيتك الحمام. قال: اجعل لي مصائد. قال: مصـائدك النساء. قال: اجعل لي طعامًا. قال: طعامك مالم يذكر عليه اسمي» والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل القسم الثاني من السماع ما يبغضه الله ويكرهه، ويمدح المعرض عنه. وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه. كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمن رده وإبـطالـه والاعتبـار به وقَصَدَ أن يَعْلَمَ به حُسْنَ ضِدِّه؛ فإنَّ الضِّدَّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ. كما قيل:

وإذا سمعتُ إلى حديثـك زادني حبـا له سمعي حديث سواكـا

وكسمـاع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه، والمعرضين عنه بقوله: **﴿وإذا سَمِعـوا اللَّغـو أعـرَضُوا عَنه﴾** [القصص: ٥٥]. وقوله: **﴿وإذا مَرُّوا باللغو مروا كِرامـا﴾** [الفرقـان: ٧٢] قال محمد بن الحنفية: هو الغناء. وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته؛ فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو ولا يشعر. ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه؛ فإنه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الغنـاء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى. وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القـرآن على أهـل الغنـاء وسـماعه، وتبرُّمهم به، وصياحهم بالقارىء إذا طول عليهم، وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرؤه، فلا تتحرك ولا تطرب ولا تهيج منها بواعث الطلب. فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله. كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات، وتسكن القلوب وتطمئن، ويقع البكاء والوجد، والحركة الظاهرة والباطنة، والسماحة بالأثمان والثياب، وطيب السهر، وتمنى طول الليل. فإن لم يكن هذا نفاقًا فهو آخِيَّة النفاق وأساسه.

تُلي الكتـاب فأطرقـوا لا خِيفـة / لكـنـه إطـراق ساه لاهـي
وأتى الغنـاء فكـالذباب تراقصوا / والله ما رقـصـوا من أجـل الله
دُفٌّ ومـزمـار ونـغمـة شاهـد / فمتى شهـدتَ عبـادة بمـلاهي؟
ثقـل الـكـتـاب عليهـم لما رأوا / تقـييده بأوامـر ونـواهـي
وعـليهـم خفَّ الـغـنـاء لما رأوا / إطـلاقـه في اللهـو دون مناهي
يافِرقـةً ما ضَرَّ دينَ محمـد / وَجـنـى عليه ومَـلَّه إلا هي
سمعـوا له رعْـدًا وبـرقاً إذ حوى / زجـرًا وتخـويفًـا بفعـل مناهي
ورأوه أعـظم قاطـع للنفس عن / شهـواتهـا ياويحـهـا المتنـاهي
وأتى السـماع موافقًـا أغـراضهـا / فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه. . .[١]

. . .[٢]**الاسم** التـاسـع جنـات النعيم قال تعالى: **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جَنَّات النعيم﴾** [لقمان: ٨] وهذا أيضًا اسم جامع لجميع الجنات لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول والمشروب والملبوس، والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج، والمساكن الواسعة، وغير ذلك من النعيم الظاهرِ والباطن.

. . .[٣]**ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾** [لقمان: ١١] فلله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله علَى بطلان الشرك: فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت من شيء مع الله طولبوا بأن يُرُوه إياه، وإن اعترفت أنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت آلهتها باطلاً ومحالاً.

. . .[٤]**فصل** ثم تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكـون مهادًا ومستقرًّا للحيوان والنبات والأمتعة، ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليهـا في مآربهم، والجلوس لراحاتهم، والنوم لهدوئهم، والتمكن من أعمالهم، ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارًا ولا هدوءًا، ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة، وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم، واعتبر ذلك بما يصيبهم من الـزلازل على قلة مكثها، كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها، وقد

(١) بقية البحث مع بقية هذه الأبيات في الأصل لمن أرادها. ٤٨٧ مدارج جـ١ (ج).
(٢) ٧٥ حادي الأرواح. (٣) ٩٦ مختصر الصواعق جـ١. (٤) ٢١٧ مفتاح جـ١.

نبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿وألْقَى في الأرض رواسِي أن تَميد بِكم﴾ [النحل: ١٥] وقوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قَرارًا﴾ [غافر: ٦٤] وقوله: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض مَهْدًا﴾ [الزخرف: ١٠] وفي القراءة الأخرى مهادًا.

وفي جامع الترمذي وغيره من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال عليها فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا: يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال: نعم الحديد. قالوا: يارب هل من خلقك شيء أشد من الحديد قال: نعم النار قالوا: يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال: نعم الريح قالوا: يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال: نعم ابن آدم يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله**».

ثم تأمل الحكمة البالغة في ليونة الأرض مع يبسها، فإنها لو أفرطت في اللين كالطين، لم يستقر عليها بناء ولا حيوان، ولا تمكنا من الانتفاع بها، ولو أفرطت في اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلحها، ولا حفر عيونها ولا البناء عليها، فنقصت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين، فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ما جاء عليه، مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة فتهيأ عليها جميع المصالح.

فصل ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب. وحكمة ذلك أن تتحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها، ثم تفيض فتصب في البحر، فكما أن الباني إذا رفع سطحًا رفع أحد جانبيه وخفض الآخر ليكون مصبًا للماء، ولو جعله مستويًا لقام عليه الماء فأفسده، كذلك جعل مهب الشمال في كل بلد أرفع من مهب الجنوب، ولولا ذلك لبقي الماء واقفًا على وجه الأرض، فمنع الناس من العمل والانتفاع، وقطع الطرق والمسالك، وأضر بالخلق. أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذي أتقن كل شيء.

(١)**الشأن** هو الانشغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر، الذي هو . . .

---

(١) ٥٠٠ المدارج جـ١.

للشيطان. وكذلك النوح ضد الصبر، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في النائحة ـ وقد ضربها حتى بدا شعرها ـ وقال: «لا حرمة لها. إنها تأمر بالجزع، وقد نهى الله عنه. وتنهى عن الصبر، وقد أمر الله به. وتفتن الحي وتؤذي الميت. وتبيع عبرتها. وتبكي شَجو غيرها».

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير. والذي شاهدناه ـ نحن وغيرنا ـ وعرفناه بالتجارب: أنه ماظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم، واشتغلوا بها، إلا سلط الله عليهم العدو، وبلوا بالقَحط والجَدْب وولاة السوء. والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر والله المستعان.

. . .(1)**وأما** إنعام الرب على عبده: فإحسان إليه، وتفضل عليه، ومجرد امتنان. لا لحاجة منه إليه، ولا المعاوضة، ولا لاستعانة به، ولا ليتكثر به من قلة، ولا ليتعزز به من ذلة، ولا ليقوى به من ضعف. سبحانه وبحمده.

وأمره له بالشكر أيضًا: إنعام آخر عليه، وإحسان منه إليه؛ إذ منفعة الشكر ترجع إلى العبد دنيا وآخرة، لا إلى الله. والعبد هو الذي ينتفع بشكره كما قال تعالى: ﴿وَمَن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾ [النمل: ٤٠]. فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وأخرى. فلا يذم ما أتى به من ذلك، وإن كان لا يحسن مقابلة المنعم به، ولا يستطيع شكره، فإنه إنما هو محسن إلى نفسه بالشكر، لا أنه مكافىء به لنعم الرب.

فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافىء نعمه أبدًا، ولا أقلها، ، ولا أدنى نعمة من نعمه. فإنه تعالى هو المنعم المتفضل، الخالق للشكر والشاكر، وما يُشكر عليه. فلا يستطيع أحد أن يحصي ثناء عليه، فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها. فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه تحتاج إلى شكر آخر. وهلم جرًّا .

ومن تمام نعمته سبحانه، وعظيم بره وكرمه وجوده: محبته له على هذا الشكر، ورضاه منه به، وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصة بالعبد، لا تعود منفعته على الله. وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه، ينعم عليك ثم يوزعك شكر

---

(١) ٢٥١ المدارج جـ٢.

النعمة، ويرضى عنك. ثم يعيد إليك منفعة شكرك. ويجعله سببًا لتوالي نعمه واتصالها إليك، والزيادة على ذلك منها.

. . .(١)**ومن** الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله تعالى: ﴿**ووصَّينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهْن وفصاله في عامين أنِ اشكر لي ولوالديك**﴾ [لقمان: ١٤] فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به، توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها، وتذكيرًا لولدها بحقها، وما قاسته من حمله ووضعه مما لم يتكلفه الأب.

. . .(٢)**الرابع** عشر أنه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور أي مما يعزم من الأمور التي إنما يعزم على أجلها وأشرفها فقال: ﴿**ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور**﴾ [الشورى: ٤٣]. وقال لقمان لابنه: ﴿**وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبِر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾ [لقمان: ١٧]. الخامس عشر أنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر وهي كلمته التي سبقت لهم وهي الكلمة الحسنى، وأخبر أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر فقال تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا**﴾ [الأعراف: ١٣٧]. السادس عشر أنه سبحانه علق محبته بالصبر وجعلها لأهله فقال: ﴿**وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا ومَا استكانوا والله يحب الصابرين**﴾ [آل عمران: ١٤٦]. السابع عشر أنه سبحانه أخبر عن خصال الخير أنه لا يلقاها إلا الصابرون في موضعين من كتابه: في سورة القصص في قصة قارون، وأن الذين أوتو العلم قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتي: ﴿**ويلَكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون**﴾ [القصص: ٨٠]. وفي سورة حم السجدة حيث أمر العبد أن يدفع بالتي هي أحسن، فإذا فعل ذلك، صار الذي بينه وبينه عداوة كأنه حبيب قريب ثم قال: ﴿**وما يلقاها إلاَّ الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم**﴾ [فصلت: ٣٥]. الثامن عشر أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور. فقال تعالى: ﴿**ولَقد أرْسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من**

---

(١) ١٤٠ التبيان.

(٢) ٧٦ عدة الصابرين.

الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ [إبراهيم: ٥]. وقال تعالى في لقمان: ﴿ألم تر أن الفُلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إنَّ في ذلك لآيات لكل صبَّار شكورٍ﴾ [لقمان: ٣١]. وقال تعالى: ﴿ومِن آياته الجوار في البحر كالأعلام * إن يشأ يُسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣]. فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن آيات الرب إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

. . . (١)**الصبر** منصور أبدًا، فإن كان صاحبه محقًا كان منصورًا له العاقبة، وإن كان مبطلاً لم يكن له عاقبة. وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعينًا به متوكلاً عليه مفوضًا إليه بريًّا من الحول والقوة إلا به فله من الخِذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك. ونكتة المسألة أن تجريد التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زُمر الأعداء.

قال الامام أحمد: حدثنا داود أنبأنا شعبة عن واقد بن محمد بن زيد عن ابن أبي مُليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: مَن أسخَط الناس برضاء الله عز وجل كفاه الله الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله إلى الناس.

. . . (٢)**المشهد** الثامن: مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإقامة دين الله، وإعلاء كلماته. وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن. فإن أراد أن يُسَلِّم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها. فلا حق له على من آذاه، ولا شيء له قِبله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع؛ فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة رضي الله عنهم. ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنى مكة ـ أعزها الله ـ ولم يَرُد على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

---

(١) ١٥٩ الإعلام جـ٢.　　(٢) ٣٢١ المدارج جـ٢.

ولما عزم الصديق رضي الله عنه على تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم ـ: «تلك دماء وأموال ذهبت في الله، وأجورها على الله، ولا دية لشهيد» فأتفق الصحابة على قول عمر، ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أوذى في الله: حرم الله عليه الانتقام. كما قال لقمان لابنه: ﴿**وأمُر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾ [لقمان: ١٧].

. . .(١)**ومن** قرأ (بموقع النجوم) على الإفراد، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد، والمواقع اسم جنس، والمصادر إذا اختلفت جمعت، وإذا كان النوع واحدا أفردت، قال تعالى: ﴿**إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**﴾ [لقمان: ١٩] فجمع الأصوات لتعدد النوع، وأفرد صوت الحمير لوحدته. فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه. وتعدد المواقع لتعدده، إذ لكل نجم موقع.

. . .(٢)**الله** سبحانه خلق عباده المؤمنين وخلق كل شيء لأجلهم، كما قال تعالى: ﴿**ألم تروا أن الله سخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نِعمه ظاهرة وباطنة**﴾ [لقمان: ٢٠]. وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق.

. . .(٣)**كتب** ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولى القضاء بالرقة: أما بعد، فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن في النعم حجة، وفيها تبعة. فأما الحجة بها فالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها. فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر، أو ركبت من ذنب، أو قصرت من حق. ومر الربيع بن أبي راشد برجل به زمَانةٌ فجلس يحمد الله ويبكي، قيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت أهل الجنة وأهل النار، فشبهت أهل الجنة بأهل العافية، وأهل النار بأهل البلاء، فذلك الذي أبكاني.

وقد روى أبوهريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ «**إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته ولا ينظر إلى من هو فوقه**». قال عبدالله بن

(١) ١٣٨ التبيان. (٢) ٢٤٠ الهجرتين. (٣) ١٣٦ عدة الصابرين.

المبارك: أخبرني يحيى بن عبيد الله قال: سمعت أبي قال: سمعت أبا هريرة فذكره. وقال ابن المبارك: حدثنا يزيد بن إبراهيم عن الحسن قال: قال أبو الدرداء: من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل عمله وحضر عذابه. قال ابن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس رضي الله عنه قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه سلم على رجل فرد عليه السلام فقال عمر للرجل: كيف أنت؟ قال الرجل: أحمد إليك الله قال عمر: هذا أردت منك. قال ابن المبارك: وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرثد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لعلنا نلتقي في اليوم مرارًا يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله عز وجل. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وأسبغ عليكم نِعمه ظاهرة وباطنة﴾ [لقمان: ٢٠] قال: لا إله إلا الله. وقال ابن عيينة: ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله، وأن لا إله إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا.

. . .[1]**وقد** دل القرآن والسنة والعقل الصريح على أن كلمات الله وأفعاله لا تتناهى ولا تنقطع بآخر، ولا تحد بأول قال تعالى: **﴿قُل لو كان البحر مِدادًا لِكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جِئنا بمثله مددًا﴾** [الكهف: ١٠٩]. وقال تعالى: **﴿ولو أن ما في الأرضِ من شجرة أقلامٌ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾** [لقمان: ٢٧] فأخبر عن عدم نفاد كلماته لعزته وحكمته، وهذان وصفان ذاتيان له سبحانه وتعالى لا يكون إلا كذلك. وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره عن سليمان بن عامر قال: سمعت الربيع بن أنس يقول: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله عز وجل كقطرة من هذه البحور كلها.

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك: **﴿ولَو أن ما في الأرضِ من شجرة أقلام. . الآية﴾** وقوله: **﴿قل لو كان البحر مِدادًا. . الآية﴾** يقول سبحانه وتعالى: قل لو كان البحر مدادًا لكلمات الله، والشجر كلها أقلام لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر وكلمات الله تعالى باقية لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر

(١) ٢٥٣ حادي الأرواح.

قدره ولا يثني عليه كما ينبغي، بل هو كما أثنى على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما يقول، ثم إن مثل نعيم الدنيا أوله وآخره في نعيم الآخرة كحبةٍ من خردل في خلال الأرض كلها.

. . . [1]**وأما قوله تعالى: ﴿ولَو أن ما في الأرضِ من شجرة أقلام﴾** فإن الآية سيقت لبيان أن أشجار الأرض لو كانت أقلامًا والبحار مدادًا فكتبت بها كلمات الله لنفدت البحار والأقلام ولم تنفد كلمات الله. فالآية سيقت لبيان الملازمة بين عدم نفاد كلماته وبين كون الأشجار أقلامًا والبحار مدادًا يكتب بها. فإذا كانت الملازمة ثابتة على هذا التقدير الذي هو أبلغ تقدير يكون في نفاد المكتوب، فثبوتها على غيره من التقادير أولى. ونوضح هذا بضرب مثل يرتقي منه إلى فهم مقصود الآية. إذا قلت لرجل لا يعطي أحدًا شيئًا: لو أن لك الدنيا بأسرها ما أعطيت أحدًا منها شيئًا، فإنك إذا قصدت أن عدم إعطائه ثابت على أعظم التقادير التي تقتضي الإعطاء، فلازمت بين عدم إعطائه وبين أعظم أسباب الإعطاء وهو كثرة ما يملكه، فدل هذا على أن عدم إعطائه ثابت على ما هو دون هذا التقدير، وأن عدم الإعطاء لازم لكل تقدير. فافهم نظير هذا المعنى في الآية وهو عدم نفاد كلمات الله تعالى على تقدير أن الأشجار أقلام والبحار مداد يكتب بها. فإذا لم تنفد على هذا التقدير كان عدم نفادها لازمًا له، فكيف بما دونه من التقديرات؟ فافهم هذه النكتة التي لا يسمح بمثلها كل وقت، ولا تكاد تجدها في الكتب، وإنما هي من فتح الله وفضله، فله الحمد والمنة، ونسأله المزيد من فضله. فانظر كيف اتفقت القاعدة العقلية مع القاعدة النحوية، وجاءت النصوص بمقتضاهما معًا من غير خروج عن موجب عقل ولا لغة، ولا تحريف لنص. ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذه الفائدة لساوت رحلة، فكيف وقد تضمن من غرر الفوائد ما لاينفق إلا على تجارة، وأما من ليس هناك فإنه يظن الجوهرة زجاجة، والزجاجة المستديرة المثقوبة جوهرة، ويزري على الجوهري ويزعم أنه لا يفرق بينهما والله المعين.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة **لقمان**

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٥٧ البدائع جـ١.

سُورَةُ السَّجْدَةِ
ترتيبها ٣٢ — آياتها ٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

. . . (١)**وقال** ﴿الله الذي خلق السَّموات والأرضَ وما بينهما في ستَّة أيامٍ ثُم استوى على العرش مالَكم مِن دونه من وَلي ولا شفِيع أفلا تتذَكرونَ * يدبِّر الأَمر من السَّماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مِقداره ألف سنة مما تَعُدون * ذلك عالِم الغَيب والشَّهادة العزيز الرَّحيم * الذي أَحْسن كُلَّ شيَء خلقه وبدأ خلق الإنسان مِن طين * ثُمَّ جَعل نسلَه من سُلالة من ماء مهين * ثم سَوَّاه ونفخ فيه مِن روحه وجعل لَكُم السَّمع والأبصار والأفئدة قَليلاً ما تَشْكُرون﴾ [السجدة: ٤-٩].

فقد تعرف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه، وإن زعم أنه مقر به. والمقصود أن التعبد باسمه الظاهر يجمع القلب على المعبود، ويجعل له ربًّا يقصده، وصمدًا يصمد إليه في حوائجه، وملجأ يلجأ إليه. فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه ويهرب إليه ويفر كل وقت إليه.

وأما تعبده باسمه الباطن فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكل اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلَّصة من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه، وذوقًا صحيحا سليمًا من أذواق أهل الانحراف. فمن رزق هذا فهم معنى اسمه الباطن وصح له التعبد به.

وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام، وضلت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصدّيق، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لنبوّ الافهام عنه، وعزة تخلص الحق من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما في الخارج إلا على من رزقه الله بصيرة في الحق، ونورًا يميز بين الهدى والضلال، وفرقانًا يفرق بين الحق والباطل، ورُزق مع ذلك اطلاعًا على أسباب الخطأ، وتفرق الطرق،

(١) ٢١ الهجرتين.

ومثار الغلط، وكان له بصيرة في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

. . .(١)**وفيها** قوله تعالى: **﴿الله الذي خَلق السَّموات والأرضَ وما بينهما في ستَّة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من وَلي ولا شفيع أفلا تتذكرون * يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرجُ إليه في يوم كان مقداره ألف سَنة مما تعُدون * ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾** [السجدة: ٤-٦].

وتأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين فقوله: **﴿خَلق السموات والأرض وما بينهما في سِتَّة أيام﴾** يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم وأنه لم يزل، وأن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيئته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازمًا لذاته أزلاً وأبدًا غير مخلوق، كما هو قول ابن سينا والنصير الطوسي وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام والكتب، وشهدت به العقول والفطر.

وقوله تعالى: **﴿ثم استوى على العَرش﴾** [السجدة: ٤] يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون: ليس على العرش شيء سوى العدم، وأن الله ليس مستويًا على عرشه، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا رفع المسيح عليه السلام إليه، ولا عرج برسوله محمد ﷺ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبريل عليه الصلاة والسلام ولا غيره، ولا ينزل هو كل ليلة إلى السماء الدنيا، ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم من فوقهم، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عيانًا بأبصارهم من فوقهم، ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق كما أشار إليه النبي ﷺ في أعظم مجامعه في حجة الوداع وجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إلى الناس ويقول: «**اللهم اشهد**».

قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش فوق السموات مستوٍ على عرشه، مثل قوله تعالى: **﴿إليه يَصعد الكلم الطَّيب والعمل الصَّالح يرفَعه﴾** [فاطر: ١٠]

(١) ٤٨ اجتماع الجيوش.

وقوله تعالى: ﴿إذ قال الله ياعيسى إني متوفِّيك ورافِعك إليَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿بل رفعه الله إليه﴾ [النساء: ١٥٨]وقوله تعالى: ﴿ذي المعارج * تعرج الملائكة والرُّوح إليه﴾ [المعارج: ٣-٤]وقوله تعالى: ﴿يخافون ربَّهم مِن فوقِهم﴾ [النحل: ٥٠]وقوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا ثم استوى إلى السَّماء فسوَّاهن سبع سموٰات﴾ [البقرة: ٢٩]وقوله تعالى: ﴿إن ربَّكم الله الذي خَلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشِي الليل النهار يطلبه حثيثًا والشمسَ والقمر والنجوم مُسخَّرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين * ادعوا ربَّكم تضرعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ [الأعراف: ٥٤-٥٥].

. . .[1]**الثامن** والتسعون ما تقدم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ونحن نسوقه ليتبين كم فيه من دليل على بطلان قول الملاحدة وأهل البدع في الروح، وقد ذكرنا إسناده فيما تقدم، قال بينما رسول الله ﷺ ذات يوم قاعد تلا هذه الآية: ﴿وَلو تَرى إذ الظَّالمون في غمرات المَوت﴾ [الأنعام: ٩٣] الآية. ثم قال: «والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار، فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة ينتظمان ما بين الخافقين كأن وجوههم الشمس، فينظر إليهم ما يرى غيرهم ـ وإن كنتم ترون أنه ينظر إليكم ـ مع كل ملك منهم أكفان وحنوط، فإن كان مؤمنًا بشروه بالجنة وقالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله وجنته فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير لك من الدنيا وما فيها ـ فلا يزالون يبشرونه كلهم ألطف به وأرأف من الوالدة بولدها ـ ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل يموت الأول فالأول، ويبرد كل عضو الأول فالأول، ويهون عليه ـ وإن كنتم ترونه شديدًا ـ حتى تبلغ ذقنه، فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم، فيبتدرونها كل ملك منهم أيهم يقبضها، فيتولى قبضها ملك الموت، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قل يَتوفاكُم مَلك الموتِ الذي وُكِّل بكم ثم إلى ربِّكم ترجَعون﴾ [السجدة: ١١] فيتلقاها بأكفان بيض، ثم يحتضنها إليه، فلهو أشد لزومًا من المرأة لولدها، ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك فينشقون ريحًا طيبًا،

(١) ٢٢٨ الروح.

ويتباشرون بها، ويقولون: مرحبًا بالريح الطيبة والروح الطيب، اللهم صل عليه روحًا، وصل على جسد خرجت منه. قال: فيصعدون بها، فتفوح لهم ريح أطيب من المسك، فيصلون عليها ويتباشرون بها، وتفتح لهم أبواب السماء، ويصلي عليها كل ملك في كل سماء تمر بهم، حتى تنتهي بين يدي الجبار جل جلاله فيقول الجبار عز وجل: مرحبًا بالنفس الطيبة، أدخلوها الجنة، وأروها مقعدها من الجنة، واعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم، ثم اذهبوا بها إلى الأرض؛ فإني قضيت أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى. فوالذي نفس محمد بيده لهي أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول: أين تذهبون بي؟ إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه؟ فيقولون: إنا مأمورون بهذا فلابد لك منه، فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه، فيدخلون ذلك الروح بين الجسد وأكفانه». فتأمل كم في هذا الحديث من موضع يشهد ببطلان قول المبطلين في الروح.

...(١)الباب الرابع والستون

في أن الجنة فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال وأن موضع سوط منها خير من الدنيا وما فيها

قال تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجِع يدعون ربَّهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم يُنفِقون * فلا تعلم نفس ما أُخْفِي لهم من قُرة أعين جزاء بما كانوا يعمَلون﴾ [السجدة: ١٦، ١٧] وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقوموا إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قُرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾». وفي لفظ آخر فيهما: «يقول الله عز وجل أعددت

(١) ١٩٧ حادي.

لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرًا بله ما أطلعتكم عليه، ثم قرأ ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾».

وفي صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي قال: «شهدت مع النبي ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ثم قرأ هذه الآية: ﴿تتجافَى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربَّهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفسٌ ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقاب قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب». وقد تقدم حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ: «ألا مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، ومحلة عالية بهية». ولو لم يكن من خطر الجنة وشرفها إلا أنه لا يسأل بوجه الله غيرها لكفاها شرفًا وفضلًا . . .

. . . (1)وقال ابن أبي الدنيا حدثنا محمد بن أبى المثنى البزار حدثنا محمد بن زياد الكلبي حدثنا بشر بن حسين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء بلاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران» ثم قال لها: انطقي قالت: قد أفلح المؤمنون فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ومن يوقَ شُح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [التغابن: ١٦].

وتأمل هذه العناية كيف جعل هذه الجنة التي غرسها بيده لمن خلقه بيده، ولأفضل ذريته، اعتناءً وتشريفًا، وإظهارًا لفضل ما خلقه بيده وشرفه، وميزه بذلك عن غيره وبالله التوفيق. فهذه الجنة في الجنان كآدم في نوع الحيوان.

وقد روى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة عن سعيد عن النبي ﷺ

(١) ٨٠ حادي.

قال: «سأل موسى عليه السلام ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة فيقول: رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟!! فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول له: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب. قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال أولئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتَهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر» ومصداقه من كتاب الله ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سأل موسى ربه من أدنى أهل الجنة منزلة؟ فقال هو رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب. فيقال: ذلك لك ومثله ومثله ومثله ومثله، فيقول في الخامسة: رضيت رب. فيقول: لك هذا وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك[٢] ولذت عينك، فيقول: رضيت رب. قال فأعلاهم منزلة، قال: ذلك الذي أردت غرس كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، ومصداقه في كتاب الله ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾».

. . .[١]**ولما** كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه، وكانوا كلما هموا بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته وروحه رجعوا على حوافرهم، كان عقوبتهم في الآخرة كذلك، قال الله تعالى: ﴿كُلَّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فِيها﴾ [السجدة: ٢٠]. وقال في موضع آخر: ﴿كُلَّما أرادوا أن يخرجوا مِنها من غَم أعِيدوا فِيها﴾ [الحج: ٢٢]. فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومألفه، فلا يزال في غم ذلك حتى يموت، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدُّنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك. فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد

---

(١) ٢٨٣ حادي. (٢) ٤٧٣ الروضة.

الموت، وكان معذَّبا به هناك كما كان قلبه معذبا [به] في الدُّنيا. فليس العشاق والفجرة والظَّلمة في لذة في هذه الدار، وإنما هم يعذَّبون فيها، وفي البرزخ، وفي القيامة، ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم. فإذا حِيل بينهم وبين ما يشتهون أحضِرت نفوسُهم الألم الشديد وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدُّود في لحومهم. فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى، والدُّود يأكل أجسامهم . . .

. . . [(1)] **ومن** منازل ﴿**إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين**﴾ [الفاتحة: ٥] منزلة «اليقين».

وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد. وبه تفاضل العارفون. وفيه تنافس المتنافسون. وإليه شمر العاملون. وعملُ القوم إنما كان عليه. وإشاراتهم كلها إليه. وإذا تزوج الصبر باليقين: ولد بينهما حصول الإمامة في الدين. قال الله تعالى، وبقوله يهتدي المهتدون: ﴿**وجَعلنا مِنهم أئِمة يهدون بأمرِنا لما صَبَروا وكانوا بآياتنا يُوقِنون**﴾ [السجدة: ٢٤].

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين. فقال، وهو أصدق القائلين: ﴿**وفي الأرض آيات للمُوقِنين**﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخص أهلَ اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، فقال: ﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلِك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربِّهم وأولئك هم المفلِحون**﴾ [البقرة: ٤، ٥].

وأخبر عن أهل النار: بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: ﴿**وإذا قيل إنَّ وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين**﴾ [الجاثية: ٣٢]. فـ«اليقين» روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح. وهو حقيقة الصديقية. وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره.

وروى خالد بن يزيد عن السفيانين عن التيمي عن خيثمة عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا تُرضين أحدًا بسخط الله، ولا تحمدنَّ أحدًا على فضل الله، ولا تَذُمنَّ أحدًا على ما لم يؤتك الله؛ فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص، ولايرده عنك كراهية كاره. وإن الله بعدلِه وقسطه جعل الروح**

(١) ٣٩٧ المدارج جـ٣.

والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط». و«اليقين» قرين التوكل. ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين.

(١)**والصواب**: أن التوكل ثمرته ونتيجته. ولهذا حسن اقتران الهدى به. قال الله تعالى: ﴿**فتوكَّل على الله إنك على الحق المبين**﴾ [النمل: ٧٩] فالحق: هو اليقين وقالت رسل الله: ﴿**ومَا لنا ألا نتوكَّل على الله وقد هَدانا سُبُلنا**﴾ [إبراهيم: ١٢].

ومتى وصل «اليقين» إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم. فامتلأ محبة لله، وخوفًا منه ورضى به، وشكرًا له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه...

...(١)**قوله** تعالى عن أصحاب موسى: ﴿**وجعلنا منهم أئِمة يَهدون بأمرنا لما صَبروا وكانوا بآياتنا يُوقِنون**﴾ [السجدة: ٢٤] فأخبر تعالى أنه جعلهم أئمة يأتم بهم مَن بعدهم لصبرهم ويقينهم؛ إذ بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين؛ فإن الداعي إلى الله تعالى لا يتم له أمره إلا بيقينه للحق الذي يدعو إليه، وبصيرته به، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله باحتمال مشاق الدعوة وكف النفس عما يُوهِن عزمه ويضعف إرادته، فمن كان بهذه المثابَة كان من الأئمة الذين يَهدون بأمره تعالى، ومن المعلوم أن أصحاب محمد ﷺ أحقُّ وأولى بهذا الوصف من أصحاب موسى؛ فهم أكمل يقينًا وأعظم صبرًا من جميع الأمم، فهم أولى بمنصب هذه الإمامة. وهذا أمر ثابت بلا شك بشهادة الله لهم وثنائه عليهم، وشهادة الرسول لهم بأنهم خيرُ القرون، وأنهم خيرة الله وصفوته، ومن المحال على مَن هذا شأنُهم أن يخطئوا كلهم الحقَّ، ويظفر به المتأخرون، ولو كان هذا ممكنًا لانقلبت الحقائق، وكان المتأخرون أئمة لهم يجب عليهم الرجوع إلى فتاويهم وأقوالهم، وهذا كما أنه محال حسًّا وعقلاً فهو محال شرعًا، وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة السجدة وبها تم الجزء الرابع
والحمد لله رب العالمين

(١) ٣٩٨ المدارج جـ٢. (٢) ١٣٥ الإعلام جـ٤.

فهرس المجلد الرابع

فهرس سورة الحجر

فهرس سورة النحل

فهرس سورة الإسراء

فهـــرس سورة الكهـف

فهـــرس سورة مريـــم

فهـــرس سورة طـــه

فهــرس سورة الأنبياء

فهـــرس سورة الحج

فهـــرس سورة المؤمنون

فهـــرس سورة النور

فهــرس سورة الفرقان

فهـــرس سورة الشعراء

فهـــرس سورة النمل

فهـــرس سورة القصص

فهـــرس سورة العنكبوت

فهـــرس سورة الروم

فهـــرس سورة لقمان

فهـــرس سورة السجدة

بهذا تم المجلد الرابع من كتاب الضوء المنير على التفسير
ويليه إن شاء الله المجلد الخامس ويبدأ بسورة الأحزاب
والحمد لله رب العالمين

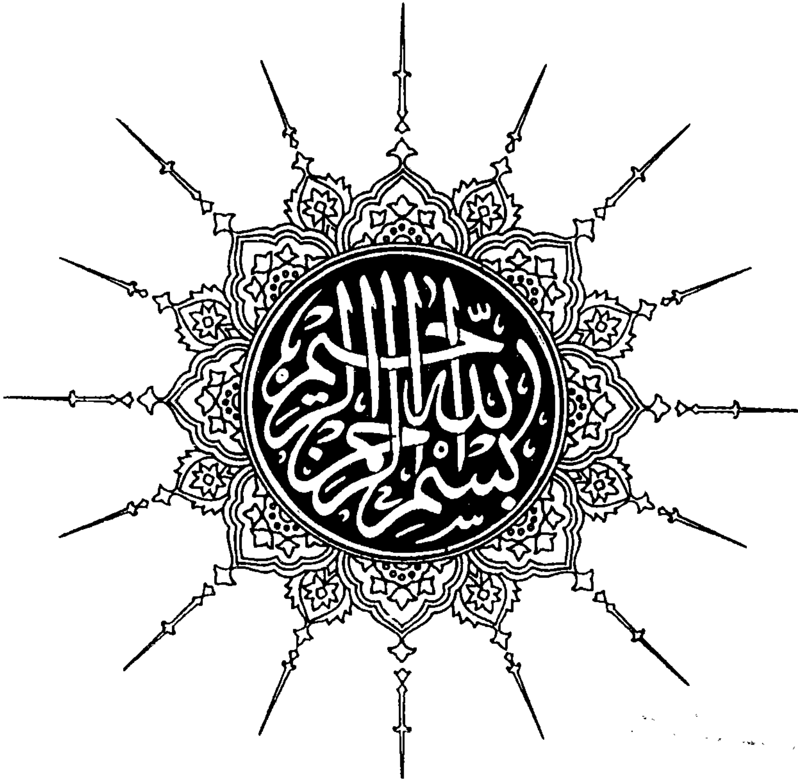
الضَّوْءُ المُنِيرُ
عَلَى
التَّفْسِيرِ

المجلّد الخامس

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده
علي الحمد المحمّد الصالحي

من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيّم الجوزيّة

الناشر
مؤسّسة النُّور للطّباعة والتَّجليد
بالتّعاون مع
مكتبة دار السّلام



الناشر

مؤسسة النور للطباعة و التجليد

هاتف: ٤١١٨٨٧٤ ، فاكس: ٤١١٤١٩١

دخنة-شارع الشيخ محمد بن إبراهيم

عنيزة-هاتف و فاكس: ٣٦٤١٠٤٠ (٠٦)

ت ٣٦٤٨٦٧٨ (٠٦)

بالتعاون مع

مكتبة دارالسلام

الرياض-شارع الضباب-هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢ ، فاكس: ٤٠٢١٦٥٩

سورة الأحزاب

ترتيبها ٣٣ آياتها ٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**تأمل** قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يَاأَيُّها النَّبِيُّ اتَّقِّ اللهَ وَلاَتُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَايُوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * وَتَوكَّلْ عَلى اللهِ وكفىٰ باللهِ وكيلاً**﴾ [الأحزاب: ١-٣]. كيف أمره بتقواه المتضمنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه: محبةً له، وخشيةً، ورجاءً، فإن التَّقوى لاتَتِمّ إلَّا بذلك، واتّباع ماأوحيَ إليه المتضمن لتركه ماسوى ذلك واتباع المنزَل خاصة، وبالتوكل عليه؛ وهو يتضمن اعتماد القلب [عليه] وحده، وثقته [به]، وسكونه إليه دون غيره، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿**ما جَعل اللهُ لرجل من قلبين في جوفه**﴾ [الأحزاب: ٤]، فأنت تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلَّا وجهةٌ واحدة، إذا مال بها إلى جهةٍ لم يَمِلْ إلى غيرها، وليس للعبد قلبان: يطيع الله، ويتّبع أمره، ويتوكل عليه بأحدهما، والآخرُ لغيره، بل ليس إلَّا قلبٌ واحدٌ، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه وإلا انصرف ذلك إلى غيره، ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أُمَّه، واستطرد منه إلى أنه لم يجعل دعيّه ابنه، فانظر: ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب، وله نظائر في القرآن عديدةٌ فمنها قوله: ﴿**هُوَ الَّذي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتيتنا صالحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فلما آتاهما صالحاً جَعَلَا له شُركَاءَ فيما آتاهُمَا فتعالىٰ اللهُ عمَّا يُشرِكُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٩. ١٩٠]. فالنفسُ الواحدةُ وزوجها: آدم وحواء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما: المشركون من أولادهما، ولا يُلْتَفت إلى غير ذلك، مما قيل: إن آدم وحوّاء كانا لا يعيش لهما ولدٌ، فأتاهما إبليس، فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولدٌ فسمياه: عبدالحارث، ففعلا، فإن الله سبحانه اجتباه وهداه، فلم يكن لِيُشرك به بعد ذلك، ونظيرُ هذا الاستطراد قوله: ﴿**يَسْأَلونَك عن الأَهِلَّة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ للنَّاسِ والحَجِّ**﴾[البقرة:

(١) ٣٠٨ روضة المحبين.

١٨٩]، ثم قال: ﴿وَلَيْسَ البِرُّ بأن تأتوا البيوتَ من ظهورِهَا﴾[البقرة: ١٨٩]، فإنَّهم كانوا يفعلون ذلك في الإحرام، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأَهلَّة استطرد منه إلى ذكر ما يفعلونه فيه، وهو كثيرٌ جدًّا.

(١)الفصل الخامس: في أن التسمية حق للأب، لا للأم

هذا مما لا نزاع فيه بين الناس، وأن الأبوين إذا تنازعا في تسمية الولد، فهي للأب، والأحاديث المتقدمة كلها تدل على هذا، وهذا كما أنه يدعى لأبيه لا لأمه، فيقال: فلان ابن فلان، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لأبائِهِم هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾[الأحزاب: ٥]، والولد يتبع أمه في الحرية والرق، ويتبع أباه في النسب، والتسمية: تعريف النسب والمنسوب، ويتبع في الدين خير أبويه ديناً، فالتعريف: كالتعليم والعقيقة، وذلك إلى الأب، لا إلى الأم، وقال النبي ﷺ: ولد لي الليلة مولود، فسميته باسم أبي إبراهيم. وتسمية الرجل ابنه كتسمية غلامه.

(٢)**كان** النبي ﷺ أبا للمؤمنين كما في قراءة أبيّ: ﴿النَّبيُّ أولىٰ بالمؤمِنِيْنَ مِنْ أنفسِهِم﴾ [الأحزاب: ٦]، وهو أب لهم، ولهذا تفرع على هذه الأبوة أن جعلت أزواجه أمهاتهم، فإن أرواحهم وقلوبهم ولدت به، ولادة أخرى غير ولادة الأمهات، فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات: الجهل، والضلال، والغي إلى نور العلم، والإيمان، وفضاء المعرفة، والتوحيد، فشاهدت حقائق أخر وأموراً لم يكن لها بها شعور قبله، قال تعالى: ﴿الٓر كتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ من الظلماتِ إلى النُّورِ بإذنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١] وقال: ﴿هُو الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكمَةَ وإن كانوا من قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المؤمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِم آياتِهِ ويُزكِّيهم ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحكمَةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران: ١٦٤].

(٣)**وبادر** زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ، وكان غلاماً لخديجة، فوهبته لرسول الله ﷺ لما تزوجها، وقدم أبوه وعمه في فدائه، فسألا عن النبي ﷺ؟

(١) ٧٩ تحفة المودود.	(٢) ١٦ طريق الهجرتين.	(٣) ١١٥ زاد المعاد.

فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه، فقال: «ياابن عبدالمطلب، ياابن هاشم، ياابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تَفكُّون العانيَ، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فامْنُنْ علينا، وأحْسِن إلينا في فدائه. قال: ومن هو؟ قالوا: زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «فهلاَّ غيرَ ذلك». قالوا: ماهو؟ قال: «أدعوه فأخيِّره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً». قالا: قد رددتنا على النَّصَف، وأحسنت، فدعاه، فقال: «تعرف هؤلاء؟» قال: نعم. قال: «من هذا؟» قال: هذا أبي، وهذا عمي. قال: «فأنا من قد علمتَ ورأيت، وعرفت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما». قال: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً أبداً، أنت مني مكان الأب والعم، فقالا: ويحك يازيد، أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك، وعلى أهل بيتك؟ قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً، فلما رأى رسولُ الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجْر، فقال: «أشهدكم أن زيداً ابني، يرثني وأرثه». فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما، فانصرفا، ودُعي زيد بن محمد، حتى جاء الله بالإسلام، فنزلت: ﴿ادعوهم لأبائهم﴾ [الأحزاب: ٥]، فدُعي من يومئذ: زيد بن حارثة[1]». قال معمر في جامعه عن الزهري: «ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة، وهو الذي أخبر الله عنه في كتابه: أنه أنعم عليه، وأنعم عليه رسوله، وسماه باسمه».

[2]**قال** تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولىٰ به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أمورًا.

منها: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

ويلزم من هذه الأولـوية والمحبـة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.

ومنها: أن لايكون للعبد حكم على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه

(١) أخرج القصة ابن إسحاق وابن الأثير في أسد الغابة وابن حجر في الإصابة. (٢) ٢١ التبوكية.

للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده، أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط، إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولىٰ به منها.

فيا عجباً! كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب التحكيم، ورضي بحكم غيره، واطمأن إليه أعظم من اطمئنانه إلى الرسول ﷺ، وزعم أن الهدى لا يتلقى من مشكاته، وإنما يتلقى من دلالة العقول، وأن الذي جاء به لا يفيد اليقين؟! إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه، وعما جاء به، والحوالة في العلم النافع إلى غيره، ذلك هو الضلال البعيد.

ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شيء، وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به، فإن شهد له بالصحة قبله، وإن شهد له بالبطلان رده، وإن لم تتبين شهادته له لا بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به.

فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة، واستقام له علمه وعمله، وأقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة.

ومن العجب أن يدعي حصول هذه الأولوية والمحبة التامة من كان: سعيه، واجتهاده، ونصبه في الاشتغال بأقوال غيره، وتقريرها، والغضب، والمحبة لها، والرضا بها، والتحاكم إليها، وعرض ما قاله الرسول عليها! فإن وافقها قبله، وإن خالفها التمس وجوه الحيل، وبالغ في رده ليًّا وإعراضاً، كما قال تعالى: ﴿**وإن تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فإنَّ الله كانَ بِمَا تَعْملون خَبيراً**﴾ [النساء: ١٣٥].

فصل (١)

وأما الأزواج فجمع زوج، وقد يقال: زوجة، والأول أفصح وبها جاء القرآن، قال ـ تعالى ـ لآدم: ﴿**اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنَّة**﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال ـ تعالى ـ في حق زكريا: ﴿**وَأَصْلَحْنَا له زَوْجَهُ**﴾ [الأنبياء: ٩٠]. ومن الثاني: قول ابن عباس رضي الله عنهما في عائشة رضي الله عنها: «إنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة».

وقال الفرزدق:

وإن الذي يبغي ليفسد زوجتي ... كساع إلى أسد الشرى يستبينها

(١) ١٢٩ جلاء الأفهام

وقد جمع على «زوجات» وهذا إنما هو جمع زوجة وإلا فجمع زوج «أزواج».

قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُم فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]، ﴿أَنْتُم وَأَزْوَاجُكُم تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]. وقد وقع في القرآن الإخبار عن أهل الإيمان بلفظ الزوج مفرداً وجمعاً كما تقدم.

وقال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨].

والإخبار عن أهل الشرك بلفظ: «المرأة» وقال تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ إلى قوله: ﴿وامرأته حمالة الحطب في جيدها﴾.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امرأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠]، فلما كانتا مشركتين أوقع عليهما اسم «المرأة».

وقال في فرعون: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرعَوْنَ﴾ [التحريم ١١]، لما كان هو المشرك وهي مؤمنة لم يسمها زوجاً له.

وقال في حق آدم: ﴿اسْكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ﴾[البقرة: ٣٥].

وقال للنبي ﷺ: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]..

وقال في حق المؤمنين: ﴿وَلَهُم فيها أزواجٌ مُطهَّرةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

فقالت طائفة منهم السهيلي وغيره: إنما لم يقل في حق هؤلاء الأزواج لأنهن لسن بأزواج لرجالهم في الآخرة ولأن التزويج حلية شرعية وهو من أمر الدين فجرد الكافرة منه كما جرد منها امرأة نوح وامرأة لوط.

ثم أورد السهيلي على نفسه قول زكريا: ﴿وكانت امرأتي عاقرًا﴾ [مريم: ٥] وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ [الذاريات: ٢٩].

وأجاب بأن ذكر المرأة أليق في هذه المواضع؛ لأنه في سياق ذكر الحمل والولادة فذكر المرأة أولى به، لأن الصفة التي هي الأنوثة هي المقتضية للحمل والوضع، لا من حيث كانت زوجاً.

قلت: ولو قيل: إن السر في ذكر المؤمنين ونسائهم بلفظ الأزواج أن هذا اللفظ مشعر بالمشاكلة والمجانسة والاقتران، كما هو المفهوم من لفظه: فإن الزوجين هما: الشيئان المتشابهان المتشاكلان والمتساويان.

ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «أزواجهم: أشباههم، ونظراؤهم». وقاله الإمام أحمد أيضاً.

ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]. أي قرن بين كل شكل وشكله في النعيم والعذاب. قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في هذه الآية: «الصالح مع الصالح في الجنة والفاجر مع الفاجر في النار»، وقاله الحسن، وقتادة، والأكثرون. وقيل: زوجت أنفس المؤمنين بالحور العين، وأنفس الكافرين بالشياطين، وهو راجع إلى القول الأول.

وقال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾. ثم فسرها: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثنينِ ومن المَعْزِ اثنين﴾ [الأنعام: ١٤٣]. ﴿ومن الإبِلِ اثنين ومن البَقَرِ اثنين﴾ [الأنعام: ١٤٤] فجعل الزوجين هما: الفردان من نوع واحد، ومنه قولهم: «زوجا خف، وزوجا حمام»، ونحوه. ولا ريب أن الله سبحانه قطع المشابهة والمشاكلة بين الكفار والمؤمنين. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]. وقال تعالى في حق مؤمن أهل الكتاب وكافرهم: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب﴾ [آل عمران: ١١٣]. الآية.

وقطع المقارنة سبحانه بينهما في أحكام الدنيا، فلا يتوارثان؛ ولا يتناكحان ولا يتولى أحدهما صاحبه، فكما انقطعت الوصلة بينهما في المعنى انقطعت في الاسم، فأضاف فيها: «المرأة» بلفظ الأنوثة المجرد، دون لفظ المشاكلة والمشابهة.

فتأمل هذا المعنى تجده أشد مطابقة لألفاظ القرآن ومعانيه، ولهذا وقع على المسلمة امرأة الكافر، وعلى الكافرة امرأة المؤمن لفظ: «المرأة» دون «الزوجة» تحقيقاً لهذا المعنى والله أعلم.

وهذا أولى من قول من قال: إنما سمّى صاحبة أبي لهب: «امرأته» ولم يقل لها زوجته لأن أنكحة الكفار لا يثبت لها حكم الصحة بخلاف أنحكة أهل الإسلام، فإن هذا باطل بإطلاقه اسم «المرأة» على امرأة نوح وامرأة لوط، مع صحة ذلك النكاح. وتأمل هذا المعنى في آية المواريث وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَاتَرَكَ

أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢] إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب؛ والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما، ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث.

وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين.

فصـــل

وهذا أليق المواضع بذكر أزواجه ﷺ.

وأولهن: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب وقد تزوجها ﷺ بمكة. وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالته، فآمنت به ونصرته، فكانت له وزير صدق. وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين في الأصح. وقيل: بأربع وقيل: بخمس ولها خصائص.

منها: أنه لم يتزوج عليها غيرها. ومنها: أن أولاده كلهم منها إلا إبراهيم ـ رضي الله عنه ـ فإنه من سريته مارية. ومنها: أنها خير نساء الأمة.

واختلف في تفضيلها على عائشة ـ رضي الله عنها ـ على ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف سألت شيخنا ابن تيمية فقال: اختص كل واحدة منهما بخاصة، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وكانت تسلي رسول الله ﷺ وتثبته وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غرة الإسلام واحتملت الأذى في الله وفي رسوله، وكان نصرتها للرسول في أعظم أوقات الحاجة؛ فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها.

وعائشة ـ رضي الله عنها ـ تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التفقه في الدين، وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع نبيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها، هذا معنى كلامه. قلت: ومن خصائصها أيضاً أن الله ـ سبحانه ـ بعث إليها السلام مع جبريل فبلغها النبي ﷺ ذلك. قال البخاري في صحيحه: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا محمد بن فضيل، عن عمارة، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: **«يارسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب، فيه ولا نصب»**، وهذه ـ لعمر الله ـ خاصة لم تكن لسواها.

وأما ـ عائشة رضي الله عنها ـ فإن جبرائيل سلم عليها على لسان النبي

ﷺ. قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، قال أبو سلمة: إن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ يوماً: «**ياعائشة، هذا جبرائيل يقرئك السلام**». فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ.

ومن خواص خديجة ـ رضي الله عنها ـ: أنها لم تسؤه قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاء، ولا عتب قط ولا هجر. وكفى بهذه منقبة وفضيلة.

ومن خواصها أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة(١). . .

فصل(٢)

وودع رسول الله ﷺ من بالمدينة من اليهود، وكتب بينه وبينهم كتاباً. وبادر حَبْرُهم وعالمهم عبدالله بن سَلام، فدخل في الإسلام، وأبى عامتهم إلا الكفر. **وكانوا** ثلاث قبائل: بنو قَيْنقُاع، وبنو النضير، وبنو قُريظة، وحاربه الثلاثة، فَمَنَّ على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة، وسبى ذريتهم، ونزلت سورة الحشر في بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قريظة.

فصل(٣)

ولما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم، على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم وأموالهم، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة وقسم تاركوه، فلم يصالحوه، ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه.

ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون.

فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه ـ تبارك وتعالى ـ. فصالح يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة: بني قَيْنقُاع، وبني النَّضير، وبني قُريظة، فحاربته بنو قينقاع بعد ذلك بعد

---

(١) استمر المؤلف في ذكر خديجة وبقية زوجات النبي ـ ﷺ ـ قرابة كراسة لمن أراده. (ج).

(٢) ١٤٧ زاد المعاد جـ٢. (٣) ١٨٤ زاد المعاد جـ٢.

بَدْر، وشَرِقوا بواقعة بدر، وأظهروا البغي والحسد، فصارت إليهم جنود الله، يَقْدُمهم عبدالله ورسوله يومَ السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهرًا من مهاجره.

وكانوا حلفاء عبدالله بن أبيٍّ ابنِ سَلول رئيس المنافقين. وكانوا أشجع يهود المدينة، وحاملُ لواء المسلمين يومئذ: حمزة بن عبدالمطلب. واستخلف على المدينة أبا لُبابة بن عبدالمنذر، فحاصرهم خمسة عشرة ليلة، إلى هلال ذي القعدة وهم أول من حارب من اليهود، وتَحَصَّنوا في حصونهم، فحاصرهم أشد الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب ـ الذي إذاأراد خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم، وقذفه في قلوبهم ـ فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في: رقابهم، وأموالهم، ونسائهم، وذريتهم، فأمر بهم فكُتِّفوا، وكلَّمَ عبدُ الله بن أبيٍّ فيهم رسولَ الله ﷺ وأَلَحَّ عليه، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذْرِعات من أرض الشام، فَقَلَّ أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم، وكانوا صاغة وتجاراً، وكانوا نحو الستمائة مقاتل. وكانت دارهم في طرف المدينة، وقبض منهم أموالهم، فأخذ منها رسول الله ﷺ: ثلاث قِسِيٍّ ودِرْعين، وثلاثة أسياف، وثلاثة رِماح، وخَمَّس غنائمهم، وكان الذي تولى جمع الغنائم: محمد بن مَسلمة. والله أعلم.

فصل

ثم نقض العهدَ بنو النضير. قال البخاري: «وكان ذلك بعد بدر بستة أشهر» قاله عروة. وسبب ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم في نفرٍ من أصحابه، وكَلَّمهم أن يعينوه في دِيَةَ الكلابِيَّين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك، وخلا بعضهم ببعض، وسوَّلَ لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحا ويَصْعَد، فيلقيها على رأسه يَشْدَخُه؟ فقال أشقاهم عمرو بن جِحاش: أنا، فقال لهم سَلَّام بن مِشْكَم: لا تفعلوا، فوالله ليُخْبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقضٌ للعهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحيُ على الفور إليه من ربه ـ تبارك وتعالى ـ بما هَمُّوا به، فنهض مسرعاً، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابُه، فقالوا: نهضتَ ولم نشعر بك؟ فأخبرهم بما هَمَّت يهود به.

وبعث إليهم رسولُ الله ﷺ: أن اخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجَّلْتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه، فأقاموا أياماً يتجهزون. وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن أبي: أن لاتخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حِصْنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قُريظة وحلفاؤكم من غطفان، وطَمِعَ رئيسهم حُيَيُّ بن أَخْطَب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فكبَّر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء. فلما انتهىٰ إليهم قاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبدالله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان، ولهذا شبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ قصتهم وجعل مثلهم: ﴿كَمثلِ الشيطانِ إِذْ قال للإنسانِ: اكْفُرْ، فَلَمَّا كفرَ قالَ إنِّي بَريءٌ مِنك﴾ [الحشر: ١٦]. فإن سورة الحشر هي سورة بني النضير، وفيها مبدأ قصتهم ونهايتها.

فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحَرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج عن المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ماحملت الإبل، إلا السلاح: وقبض النبي ﷺ الأموال والحَلقَة، وهي: السلاح، وكانت بنو النضير خالصةً لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يُخَمِّسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يُوجِف عِليها المسلمون بخيل ولا ركاب. وخَمَّس قريظة، قال مالك: «خمس رسول الله ﷺ قريظة، ولم يخمس بني النضير، لأن المسلمين لم يُوجفوا بخيلهم ولا ركابهم على بني النضير، كما أوجفوا على قريظة»، وأجلاهم إلى خيبر، وفيهم حُيَيُّ بن أَخْطب كبيرهم، وقبض السلاح، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، وقال: «هؤلاء في قومهم بمنزلة بني المغيرة في قريش». وكانت قصتهم في ربيع الأول من سنة أربع من الهجرة.

فصل

وأما قريظة: فكانت أشدَّ اليهود عداوة لرسول الله ﷺ، وأغلظهم كفراً، ولذلك جرى عليهم ما لم يجر على إخوانهم.

وكان سبب غزوهم: أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة الخندق، والقوم

معه صُلْح: جاء حُيى بن أخْطب إلى بني قريظة في ديارهم، فقال: قد جئتكم بعِزِّ الـدهـر، جئتكم بقريش على سادتها، وغطْفَان على قادتها، وأنتم أهل الشَّوْكة والسلاح، فَهَلُمَّ حتى نُنَاجز محمداً ونَفْرُغ منه، فقال له رئيسهم: بل جئتني والله بِذُلِّ الـدهر، جئتني بسحاب قد أراق ماءه، فهو يَرْعُدُ وَيَبْرُق، فلم يزل حيي يُخادعه ويَعِدْه ويُمَنيه حتى أجابه، بشرط أن يدخل معهم، في حصنهم يصيبه ما أصابهم، ففعل، ونقضوا عهد رسول الله ﷺ، وأظهروا سَبَّه، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فأرسل يستعلم الأمر، فوجدهم قد نقضوا العهد، فكبر وقال: «أبشروا يا معشر المسلمين». فلما انصرف رسـول الله ﷺ إلى المدينة لم يكن إلا أن وضع سلاحـه، فجـاءه جبريـل، فقال: أوضعت السلاح؟ والله إن الملائكة لم تضع أسلحتهـا، فانهض بمن معـك إلى بني قريـظة، فإني سائـر أمامك أُزَلْزل بهم حصـونَهم، وأقْـذِف في قلوبهم الـرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة، ورسـول الله ﷺ على أثـره في موكبـه من المهاجرين والأنصار، وقال لأصحابه يومئذ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»، فبادروا إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، فأدركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة، كما أمرنا، فصلوها بعد عشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يُرِد منا ذلك وإنما أراد: سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يُعنِّف واحدة من الطائفتين.

واختلف الفقهاء: أيهما كان أصوب؟ فقالت طائفة: الذين أخروها هم المصيبون، ولو كنا معهم لأخرناها كما أخروها، ولَمَا صليناها إلا في بني قريظة، امتثالاً لأمره، وتركاً للتأويل المخالف للظاهر.

وقالت طائفة أخرى: بل الذين صلوها في الطريق في وقتها حازوا قَصَب السبْق، وكانوا أسعد بالفضيلتين، فإنهم بادروا إلى امتثال أمره في الخروج، وبادروا إلى مرضـاته في الصلاة في وقتها، ثم بادروا إلى اللحاق بالقوم، فحازوا فضيلة الجهاد، وفضيلة الصلاة في وقتها، وفهموا ما يراد منهم، وكانوا أفقه من الآخرين، ولا سيما تلك الصلاة، فإنها كانت صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى بنص رسول الله ﷺ الصحيح الصريح الذي لا مَدفَعَ له ولا مطعن فيه، ومجيء السنة بالمحـافـظة عليهـا، والمبـادرة إليها، والتبكير بها، وأن «من فاتته فقد وُتر أهله

وماله»[1]، أو: «**قد حبط عمله**»[2]، فالذي جاء فيها أمر لم يجيء مثله في غيرها.

وأما المؤخرون لها: فغايتهم أنهم معذورون، بل مأجورون أجراً واحداً، لتمسكهم بظاهر النص، وقصدهم امتثال الأمر، وأما أنْ يكونوا هم المصيبون في نفس الأمر، ومن بادر إلى الصلاة وإلى الجهاد مخطئاً: فحاشا وكلا. والذين صلوا في الطريق جمعوا بين الأدلة، وحَصَّلوا الفضيلتين. فلهم أجران. والآخرون مأجورون أيضاً، رضي الله عنهم.

فإن قيل: كان تأخير الصلاة للجهاد حينئذ جائزاً مشروعاً، ولهذا كان عقب تأخير النبي ﷺ العصر يوم الخندق إلى الليل، فتأخيرهم صلاة العصر إلى الليل كتأخيره ﷺ لها يوم الخندق إلى الليل سواء، ولا سيما أن ذلك كان قبل شرع صلاة الخوف؟ قيل: هذا سؤال قوي، وجوابه من وجهين:

أحدهما: أن يقال: لم يثبت أن تأخير الصلاة عن وقتها كان جائزاً بعد بيان المواقيت، ولا دليل على ذلك، إلا قصة الخندق. فإنها هي التي استدل بها من قال ذلك، ولا حجة فيها، لأنه ليس فيها بيان أن التأخير من النبي ﷺ كان عن عمد، بل لعله كان نسياناً، وفي القصة ما يشعر بذلك، فإن عمر لما قال له: «يارسول الله، ما كدتُ أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، قال رسول الله: والله ما صليتها، ثم قام فصلاها» وهذا مشعر بأنه ﷺ كان ناسياً بما هو فيه من الشغل والاهتمام بأمر العدو المحيط به، وعلى هذا يكون قد أخرها بعذر النسيان، كما أخرها بعذر النوم في سفره وصلاها بعد استيقاظه، وبعد ذكره لتتأسى أمته به.

والجواب الثاني: أن هذا ـ على تقدير ثبوته ـ إنما هو في حال الخوف والمسايفة عند الدهَش عن تعقل أفعال الصلاة، والإتيان بها، والصحابة في مسيرهم إلى بني قريظة لم يكونوا كذلك، بل كان حكمهم حكم أسفارهم إلى العدو قبل ذلك وبعده، ومعلوم أنهم لم يكونوا يؤخرون الصلاة عن وقتها، ولم تكن قريظة ممن يخاف فوتهم، فإنهم كانوا مقيمين بدارهم. فهذا منتهى أقدام الفريقين في هذا الموضوع.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر.
(٢) رواه البخاري والنسائي من حديث بريدة بن الحصيب.

فصـــل

وأعطى رسول الله ﷺ الراية علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم. ونازل حصون بني قريظة، وحصرهم خمسًا وعشرين ليلة، ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كَعْبُ بن أسَد ثلاث خصال: إما أن يسلموا، ويدخلوا مع محمد في دينه، وإما أن يقتلوا ذراريهم، ويخرجوا إليه بالسيوف مصلتة يناجزونه حتى يظفروا به، أو يقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه ويكبسوهم يوم السبت، لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه، وأبوا عليه أن يجيبوه إلى واحدة منهن، فبعثوا إليه: أن أرسل إلينا أبا لُبابة بن عبدالمنذر نستشيره، فلما رأوه قاموا في وجهه يبكون، وقالوا: يا أبا لبابة، كيف ترى لنا أن ننزل على حكم محمد؟ فقال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه ـ يقول: إنه الذبح ـ ثم علم من فوره أنه قد خان الله ورسوله، فمضى على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد ـ مسجد المدينة ـ فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبداً. فلما بلغ رسولَ الله ﷺ ذلك قال: «**دعوه حتى يتوب الله عليه**». ثم تاب عليه، وحله رسول الله ﷺ بيده، ثم إنهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فقامت إليه الأوس، فقالوا: يا رسول الله، قد فعلتَ في بني قَيْنُقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا. فأحسن فيهم. فقال: «**ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟**» قالوا: بلى. قال: «**فذاك إلى سعد بن معاذ**». قالوا: قد رضينا. فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة لم يخرج معهم، لجرح كان به فأُركِبَ حماراً، وجاء إلى رسول الله فجعلوا يقولون له ـ وهم كَنَفَتَيْه ـ ياسعد، أجمل إلى مواليك، فأحسن فيهم. فإن رسول الله ﷺ قد حكّمك فيهم لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئاً، فلما أكثروا عليه قال: «لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم»، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة، فنعى إليهم القوم، فلما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابة: «**قوموا إلى سيدكم**»، فلما أنزلوه قالوا: ياسعد، إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك. قال: «وحكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من

ههنا؟ وأعرض بوجهه، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ، إجلالاً له وتعظيمًا ـ قال: نعم، وعليَّ. قال: فإني أحكم فيهم: أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال» فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات». وأسلم منهم تلك الليلة نَفَر قبل النزول، وهرب عمرو بن سعد، فانطلق فلم يُعلم أين ذهب؟ وكان قد أبى الدخول معهم في نقض العهد.

فلما حكم فيهم سعد بذلك أمر رسول الله ﷺ بقتل كل من جَرَت عليه الموسى منهم، ومن لم يُنْبِت ألحقَ بالذرية، فحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، وضربت أعناقهم. وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، ولم يقتل من النساء أحد سِوى امرأة واحدة، كانت طرحت على رأس خَلَّاد بن سُويد بن ثعلبة(١) رحىً فقتلته، وجعل يُذْهَب بهم إلى الخنادق أرسالاً أرسالاً، فقالوا: لرئيسهم كعب بن أسد: يا كعب، ما تراه يَصنَع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الداعيَ لا يَنْزِع، والذاهبَ منكم لا يرجع؟ هو والله القتل.

قال مالك ـ في رواية ابن القاسم ـ: قال عبدالله بن أبيٍّ لسعد بن معاذ في أمرهم: إنهم أحدُ جناحَيَّ، وهم ثلاثمائة دارع وستمائة حاسر. فقال: «قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم».

ولما جيء بحُيَيِّ بن أَخْطَب إلى بين يديه ووقع بصره عليه، قال: أما والله مالمتُ نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يُغْلَب، ثم قال: يا أيها الناس، لا بأس، قَدَرُ الله، ومَلْحَمة كُتبت على بني إسرائيل، ثم حبس فضربت عنقه، واستوهب ثابتُ بن قيس الزَّبيرَ بن باطا وأهلَه وماله من رسول الله، فوهبهم له. فقال ثابت بن قيس للزبير: قد وهَبَكَ لي رسول الله ﷺ. ووهب لي مالك وأهلك، فهم لك، فقال: سألتك بيدي عندك يا ثابت إلا ألحقتني بالأحِبَّة فضربت عنقه، وألحقه بالأحبة من اليهود.

فهذا كله في يهود المدينة، وكانت غزوة كل طائفة منهم عقب كل غزوة من الغزوات الكبار، فغزوة بني قَينقاع: عقبَ بدر. وغزوة بن النضير: عقب غزوة أحد. وغزوة بن قريظة: عقب الخندق.

فصل في غزوة الخندق(١)

وكانت في سنة خمس من الهجرة في شوال، على أصح القولين، إذ لا خلاف أن أُحُداً كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل، وهو سنة أربع. ثم أخْلَفُوه لأجل جدب تلك السنة، فرجعوا، فلما كانت سنة خمس: جاءوا لِحَرْبِه ـ هذا قول أهل السِّير والمغازي.

وخالفهم موسى بن عقبة، وقال: بل كانت سنة أربع. قال أبومحمد بن حزم: وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه، واحتج عليه بحديث ابن عمر في الصحيحين أنه: «عُرِضَ على النبي ﷺ يوم أُحُدٍ، وهو ابن أربع عشرة سنة: فلم يُجِزْهُ، ثم عُرض عليه يوم الخندق، وهو ابن خمس عشرة سنة، فأجازه» قال: فصح أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة، وأجيب عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن ابن عمر أخبر: أن النبي ﷺ رده لما استصغره عن القتال، وأجازه لما وصل إلى السن التي رآه فيها مُطِيقاً. وليس في هذا ما ينفي تجاوزها بسنة أو نحوها. والثاني: أنه لعله كان يوم أحد في أول الرابعة عشرة، ويوم الخندق في آخر الخامسة عشرة.

فصل

وكان سبب غزوة الخندق: أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحُد، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين، وأنه خرج لذلك، ثم رجع للعام المقبل: خرج أشرافهم ـ كَسلَاّم بن أبي الحُقيق، وسَلاَّم بن مِشْكَم وكنانة بن الربيع، وغيرهم ـ إلى قريش بمكة، يُحرِّضونهم على غزو رسول الله ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، ثم خرجوا إلى غَطْفَان، فدعوهم فاستجابوا لهم. ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك، فاستجاب لهم من استجاب، فخرجت قريش ـ وقائدهم أبوسفيان ـ في أربعة آلاف، ووافاهم بنو سُليم بمَرِّ الظهران، وخرجت بنو أسد، وفَزارة، وأشْجَع، وبنو مُرَّة، وجاءت غطفان وقائدهم عُيينة بن حِصن، وكان من وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف.

(١) ٢٨٨ زاد المعاد جـ٢.

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه استشار الصحابة، فأشار عليه سلمان الفارسي بِحَفْر خَندق يحول بين العدو وبين المدينة، فأمر به رسول الله ﷺ، فبادر إليه المسلمون، وعمل بنفسه فيه، وبادروا هجوم الكفار عليهم، وكان في حَفْره من آيات نبوته وأعلام رسالته ماقد تواتر الخبر به. وكان حفر الخندق أمام سَلْع. وسَلْعُ: جبل خلف ظهور المسلمين، والخندق بينهم وبين الكفار. وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، فتحصن بالجبل من خلفه، وبالخندق من أمامه. وقال ابن إسحاق: خرج في سبعمائة. وهذا غلط من خروجه يوم أحد.

وأمر النبي ﷺ بالنساء والذّراري، فَجُعِلُوا في آطام المدينة. واستخلف عليها ابن أم مكتوم. وانطلق حُيَيّ بن أخْطَب إلى بني قريظة، فدنا من حصنهم، فأبىٰ كعب بن أسد أن يفتح له. فلم يزل يكلمه حتى فتح له. فلما دخل عليه قال: لقد جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش على قادتها وسادتها وغطفان وأسد على قادتها وسادتها لحرب محمد. قال كعب: جئتني والله بذلُ الذهر، وبجَهام قد أراق ماءه، فهو يُرعِد ويَبْرُق. فلم يزل به حُيي حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ. ودخل مع المشركين في محاربته، فسر بذلك المشركون. وشرط كعب على حُيَيٍّ: أنه إن لم يظفروا بمحمد: أن يجيء حتى يدخل معه في حصنه، فيصيبه ما أصابه، فأجابه إلى ذلك، ووَفّىٰ له به.

وبلغ رسول الله ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد، فبعث إليهم السعدين ـ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة ـ وخَوَّات بن جبير، وعبدالله بن رواحة، ليعرفوا: هل هم على عهدهم، أو قد نقضوه؟ فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، فانصرفوا عنهم ولَحنُوا إلى رسول الله ﷺ لَحْناً يخبرونه: أنهم قد نقضوا العهد وغدروا، فعظم ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**الله أكبر. أبشروا يا معشر المسلمين**». واشتد البلاء، ونجم النفاق، واستأذن بعض بني حارثة رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة، وقالوا: ﴿**إِنَّ بُيوتَنَا عَوْرَةٌ، وَمَاهِيَ بِعَوْرَة، إن يُرِيدُونَ إلاّ فِراراً**﴾ [الأحزاب: ١٣]. وهمَّ بنو سَلمة بالفشل. ثم ثَبَّت الله الطائفتين.

وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً، ولم يكن بينهم قتال؛ لأجل ما حال الله به من الخندق بينهم وبين المسلمين، إلا أن فَوَارِسَ من قريش ـ منهم عمرو بن عبد وُدٍّ وجماعة معه ـ أقبلوا نحو الخندق، فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه مَكِيدة ما كانت العرب تعرفها، ثم تيمموا مكاناً ضيّقاً من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسَلْع. ودعوا إلى البراز فانتدب لعمرو عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فبارزه فقتله الله على يدي عليّ، وكان من شجعان المشركين وأبطالهم، وانهزم الباقون إلى أصحابهم، وكان شعار المسلمين يومئذ: **حَمَ لا يُنصرون**.

ولما طالت هذه الحال على المسلمين: أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عُيينة بن حصن، والحارث بن عوف، رئيسي غطفان، على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما، وجرت المراوضة على ذلك، فاستشار السَّعْدَين في ذلك، فقالا: «يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا، فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرىً أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف؛ فَصَوَّبَ رأيهما، وقال: «**إنما هو شيء أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد رَمَتْكم عن قَوْسٍ واحدة**».

ثم إن الله عز وجل ـ وله الحمد ـ صنع أمرًا من عنده خذل به العدو، وهزم جموعهم، وفَلَّ حَدَّهم، فكان مما هَيَّأ من ذلك: أن رجلاً من غطفان، يقال له: نُعيم بن مسعود بن عامر رضي الله عنه، جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، إني قد أسلمت، فمرني بماشئت، فقال رسول الله ﷺ: **إنما أنت رجل واحد، فَخَذِّلْ عنا مااستطعت، فإن الحرب خُدْعَة**». فذهب من فوْرِه ذلك إلى بني قريظة، وكان عشيراً لهم في الجاهلية، فدخل عليهم، وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال: يا بني قريظة، إنكم قد حاربتم محمداً، وإن قريشاًإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا استمروا إلى بلادهم راجعين، وتركوكم ومحمداً فانْتَقَمَ منكم، قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لاتقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي. ثم مضى على وجهه إلى قريش، فقال لهم: تعلمون

وُدِّي لكم، ونصحي لكم؟قالوا: نعم. قال: إن يَهُودَ قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه، أنهم: يأخذون منكم رهائن، يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطْفان، فقال لهم مثل ذلك. فلما كان ليلة السبت من شوال بعثوا إلى يهود: إنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكُرَاعُ والخُفّ، فانهضوا بنا حتي نُنَاجِزَ محمدا، فأرسل إليهم اليهود، إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب مَنْ قَبلنا حين أحدثُوا فيه. ومع هذا: فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش: صدقكم والله نعيم. فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان. وأرسل الله ـ عز وجل ـ على المشركين جنداً من الريح، فجعلت تُقَوِّض خيامهم، ولا تدع لهم قِدْراً إلا كفأتها، ولا طُنُباًإلا قلعته، ولا يقرُّ لهم قرار، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف، وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال، وقد تهيؤوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ، وقد رَدَّ الله عدوه بغيظهم، لم ينالوا خيراً، وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعزَّ جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فدخل المدينة ووضع السلاح، فجاءه جبريل وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: **«أوَضَعْتُم السلاح؟ إن الملائكةلم تضع بعد أسلحتها، انهض إلى غزو هؤلاء»** ـ يعني: بني قريظة، فنادى رسول الله ﷺ: **«من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»**. فخرج المسلمون سِرَاعاً، وكان من أمره وأمر بني قريظة ما قدمناه، واستشهد يوم الخندق ويوم قريظة نحو عشرة من المسلمين.

فصـــل(١)

وقد قدمنا أن أبا رافع كان ممن ألَّبَ الأحزاب على رسول الله ﷺ، ولم يُقتل مع بني قريظة، كما قُتل صاحبه حُيَيّ بن أخطب، ورغبت الخزرج في قتله مُسَاوَاةً للأوس من قتل كعب بن الأشرف. وكان الله ـ سبحانه ـ قد جعل هذين الحيَّيْنِ

(١) ٢٩٣ زاد المعذ جـ٢.

يَتَصاولان بين يدي رسول الله ﷺ في الخيرات، فاستأذنوه في قتله، فأذن لهم، فانتدب له رجال كلهم من بني سَلِمة، وهم: عبدالله بن عَتِيك ـ وهو أمير القوم ـ وعبدالله بن أنيس وأبو قتادة، والحارث بن ربْعِي، ومسعود بن سِنَان، وخزاعى بن أسود. فساروا حتى أتوه في خيبر في دارٍ له، فنزلوا عليه ليلاً فقَتلوه، ورجعوا إلى رسول الله ﷺ، وكلهم ادَّعىٰ قتله، فقال رسول الله ﷺ: «أروني أسيافكم». فلما أروه، قال لسيف عبدالله بن أنيس: «هذا الذي قتله، أرى فيه أثر الطعام».

(١)**الأصل** الحادي عشر: أن البلاء الذي يُصيبُ العبدَ في الله لا يخرجُ عن أربعة أقسام، فإنه إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عِرْضه، أو في أهله ومَنْ يُحبُّ، والـذي في نفسه قد يكون بتَلَفِها تارةً، وبتألُّمها بدون التلف، فهذا مجموع ما يُبتلَىٰ به العبد في الله. وأشد هذه الأقسام: المصيبةُ في النفس.

ومن المعلوم: أن الخلق كلَّهم يمـوتـون، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموتاتِ وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القَرْصة، فليس في قتلِ الشهيد مصيبة زائدة على ماهو مُعتادٌ لبني آدم. فمن عَدَّ مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش، فهو جاهل، بل موتُ الشهيدِ من أيسرِ الميتات وأفضلها، وأعلاها، ولكنّ الفارَّ يظنّ أنه بفراره يطول عمره، فيتمتع بالعيش، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظنَّ، حيث يقول: ﴿قُلْ لَن يَنفَعَكُمُ الْفِـرَارُ إنْ فَرَرْتُم مِّنَ المَـوْتِ أَوْ القَتْلِ وَإذاً لا تُمَتَّعُون إلا قليلاً﴾ [الأحزاب: ١٦]. فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفعُ، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفعْ إلا قليلاً، إذ لابدَّ له من الموتِ، فيفوته بهذا القليل ما هو خيرٌمنه وأنفع، من حياة الشهيد عند ربه.

ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إنْ أراد بكُمْ سُوءًا أو أرادَ بِكُمْ رَحْمَةً؟ ولا يجدونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ الله وليًا وَلَا نَصِيراً﴾ [الأحزاب: ١٧].

فأخبر ـ سبحانه ـ أنَّ العبدَ لا يعصمُه أحدٌ من الله، إن أراد به سوءا غيرَ الموت الذي فرَّ منه، فإنه فرَّ من الموت لَمَّا كان يسوؤه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءاً غيرَه لم يعصمه أحد من الله، وأنه قد يَفرّ مما يسوؤه من القتل في سبيل الله،

(١) ١٩٣ إغاثة جـ٢.

فيقعُ فيما يسوؤه مما هو أعظم منه.

وإذا كان هذا في مصيبـة النفس، فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن، فإن مَنْ بَخِلَ بماله أن يُنْفِقَه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته، سَلَبَه الله إيَّاه، أو قَيَّضَ له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً، وإن حبسه وادَّخره منعه التمتع به، ونقله إلى غيره، فيكون له مَهْنَؤه وعـلى مُخَلِّفه وِزْرُه، وكذلك من رَفَّهَ بدَنَه وعِرْضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله، أتعبه الله ـ سبحانه ـ أضعافَ ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناسُ بالتجارُب. قال أبو حازم: «لَمَا يَلْقَى الذي لا يَتَّقِي الله مِنْ مُعالجة الخلق أعظمُ مما يَلْقَى الذي يتقي اللهَ من معالجة التَّقْوَى».

واعتبرْ ذلك بحال إبليسَ. فإن امتنع من السجود لآدم فِراراً أنْ يخضع له ويَذِلّ، وطلب إعزازَ نفسه، فَصَيَّره الله أذلّ الأذلِّين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجـور من ذُريتِـه، فلم يرضَ بالسجود له، ورضي أن يَخْدُم هو وبنوه فُسَّاق ذريته. وكذلك عُبَّادُ الأصنام. أنِفُوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، وأن يعبدوا إلـهاً واحداً سبحانه، ورَضواْ أن يعبدوا آلهةً من الأحجار.

وكذلك كلُّ من امتنع أن يَذِلَّ لله، أو يبذل مالَه في مَرْضاته، أو يتْعِبَ نفسه وبدَنَه في طاعته، لا بدَّ أن يذلَّ لمن لا يسوى، ويَبذل له ماله، ويتعِب نفسه وبَدَنَه في طاعته ومَرْضاته، عقوبة له، كما قال بعض السلف: «مَنْ امتنع أن يمشي مع أخيه خَطَواتٍ في حاجته أمشاه الله ـ تعالى ـ أكثر منها في غير طاعته».

(١)**وفي** صحيح مسلم عن جابـر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله سمى المدينة طيبة [طابة]، ويكره تسميتها يثرب، كراهة شديدة، وإنـما حكى الله ـ تعـالى ـ تسميتها: يثرب، عن المنافقين، فقال: ﴿وَإذْ يقول المنافقون والَّذينَ في قُلُوبهم مَرَضٌ مَّا وَعَدَنا اللهُ ورَسُولُهُ إلا غُرُوراً. وإذ قَالَت طَآئفةٌ منهم يآ أَهْلَ يَثربَ لا مُقامَ لَكُم فَارْجِعُوا﴾** [الأحزاب: ١٢، ١٣]. وفي سنن النسائي من حديث مالك عن يحيى بن سعيد، أنه قال: سمعت أبا الحباب: سعيد بن يسار يقول: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) ٧٨ تحفة المودود.

«أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي: «المدينة» تنفي الناس، كما ينفي الكير خبث الحديد».

فصل[1]

وأما إزاغة القلوب فقال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾ [الصف: ٥]، وقال عن عباده المؤمنين أنهم سألوه: ﴿رَبَّنَا لَاتُزِغْ قُلُوبنا بعد إِذْ هَدَيتنا﴾ [آل عمران: ٨]، وأصل الزيغ: الميل؛ ومنه زاغت الشمس، إذا مالت. فإزاغة القلب: إمالته، وزيغه: ميله عن الهدى إلى الضلال.

والزيغ يوصف به القلب والبصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَناجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقال قتادة ومقاتل: شخصت فرقا، وهذا تقريب للمعنى، فإن الشخوص غير الزيغ، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرق، ومنه شخص بصر الميت، ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر، فمالت عنه، وشخصت بالنظر إلى الأحزاب، وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم، وقال الفراء: زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها، متحيرة تنظر إليه. قلت: القلب إذا امتلأ رعباً شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله.

[2]**وأما** قوله: «وإنما نطق به التنزيل: لفائدة. وهي كونه يبرد حرارة الخوف»[3]، فيقال: بل لفوائد كثيرة أخر مشاهدة.

منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه، ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه ـ سبحانه ـ يحب من عباده أن يؤملوه، ويرجوه، ويسألوه من فضله، لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب ما إلى الجواد: أن يرجى، ويؤمل، ويسأل. وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب

---

(١) ١٠٠ شفاء العليل. (٢) ٥٠ مدارج جـ٢.

(٣) أول البحث ص٤١ جـ٢ من الأصل في الرجاء. والضمير يعود على الرجاء، وقد ناقش الشيخ ابن القيم صاحب المنازل مناقشة حادة فيما تقدم لمن أراد الاطلاع. (ج).

عليه». والسائل راج وطالب. فمن لم يرج الله يغضب عليه.

فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء. وهي التخلص به من غضب الله.

ومنها: أن الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلى الله. ويطيب له المسير. ويحثه عليه. ويبعثه على ملازمته. فلولا الرجاء لما سار أحد. فإن الخوف وحده لا يحرك العبد. وإنما يحركه الحب. ويزعجه الخوف. ويحدوه الرجاء.

ومنها : أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة. ويلقيه في دهليزها، فإنه كلما اشتد رجاؤه، وحصل له ما يرجوه ازداد حبًّا لله تعالى، وشكرًا له، ورضىً به وعنه.

ومنها : أنه يبعثه على أعلى المقامات. وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية، فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعىٰ لشكره.

ومنها : أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها. فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبد بها داعٍ بها. قال الله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ الأَسماءُ الحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾** [الأعراف: ١٨٠]، فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي، فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء، وتعطيل للدعاء بها. ومنها أن المحبة لا تنفك عن الرجاء ـ كما تقدم ـ فكل واحد منهما يَمُدُّ الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكل راج خائف، وكل خائف راج، ولأجل هذا حَسُن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى: **﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا؟﴾** [نوح: ١٣]، قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق : أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالى: **﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أيامَ اللهِ﴾** [الجاثية: ١٤]، قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها : أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه: كان ذلك ألطف موقعاً، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه، وهذا أحد الأسباب والحكَم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار. فعلى قدر رجائهم

وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مَخُوفهم.

ومنها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضىٰ والإنابة وغيرها، ولهذا قَدَّر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة: التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء ـ من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ـ ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة ـ كما تقدم بيانه ـ فإذا فنى عن ذلك، وغاب عنه، فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات. إلى فوائد أخرى كثيرة، يطالعها مَنْ أحسن تأمله وتفكره في استخراجها، وبالله التوفيق.

والله يشكر لشيخ الإسلام سعيه، ويعلي درجته، ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته، فلو وجد مريده سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل، كيف وقد نفعه الله بكلامه؟ وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه. وهو أحد من كان على يديه فتحه يقظة ومناماً؟

وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضوع، فمن كان عنده فضل علم فَلْيَجُدْ به، أو فليعذر، ولا يبادر إلى الإنكار، فكم بين الهدهد ونبي الله سليمان؟ وهو يقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢] وليس شيخ الإسلام أعلم من نبي الله. ولا المعترض عليه بأجهل من هدهد، وبالله المستعان، وهو أعلم.

(١)**فأما** قوله: «الرجاء أضعف منازل المريدين» فليس كذلك، بل هو من أجل منازلهم، وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله.

وقد مدح الله تعالى أهله، وأثنى عليهم. فقال: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾** [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلـهي عن النبي ﷺ ـ فيما يروى عن ربه ـ **عز وجل** ـ: **«ياابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي»**. وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي

---

(١) ٤١ مدارج جـ٢.

ﷺ قال: «يقول الله ـ عز وجل ـ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم، وإن اقترب إليَّ شبراً، اقتربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إليَّ ذراعاً، اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». » رواه مسلم.

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله ـ تعالى ـ: أنهم كانوا راجين له خائفين منه، فقال ـ تعالى ـ: **﴿قُل ادْعُواْ الَّذين زعمتُمْ من دُونِه، فلا يَملِكُون كشف الضُرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاَ، أُوْلَئِكَ الَّذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَب وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾** [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

يقول ـ تعالى ـ: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني: هم عبادي، يتقربون إليَّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني؟ فأثنىٰ عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب، والخوف والرجاء.

(١)**أخرجا** في الصحيحين من حديث أنس قال: «لم يشهد عمي مع رسول الله ﷺ بدراً، قال: فشق عليه، قال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، فإن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، قال: فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له: أين؟ فقال: واها لريح الجنة! أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قتل، قال، فَوُجِدَ في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمة الربيع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه. ونزلت هذه الآية: **﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُواْ الله عَلَيهِ﴾** [الأحزاب: ٢٣]، قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه».

وريح الجنة نوعان: ريح يوجد في الدنيا تشمه الأرواح أحيانًا لا تدركه العباد.

وريح يدرك بحاسة الشم للأبدان كما تشم روائح الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنة في إدراكه في الآخرة من قرب وبعد، وأما في الدنيا فقد يدركه من شاء الله من أنبيائه ورسله، وهذا الذي وجده أنس بن النضر يجوز أن يكون من

(١) ١١٥ حادي الأرواح.

هذ القسم، وأن يكون من الأول، والله أعلم.

(١)**قال** تعالى: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ من النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الذي في قلبه مرضٌ﴾[الأحزاب: ٣٢]، أمرهن أن لا يَلِنَّ في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية الليَّان في منطقها، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يخشنّ في القول بحيث يلتحق بالفحش، بل يقلن قولاً معروفًا.

...(٢)**قوله** تعالى لنساء نبيه: ﴿يَانِساءَ النبيِّ لستُنَّ كَأَحدٍ من النساء إن اتَّقيتُنَّ فلا تَخْضَعنَ بالقَولِ فَيَطْمعَ الذي في قلبه مرضٌ وقُلْنَ قولاً معروفاً﴾ [سورة الأحزاب: ٣٢]. فنهاهن عن الخضوع بالقول، فربما ذهب الوهم إلى الإذن في الإغلاظ في القول والتجاوز، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وقُلْنَ قولاً معروفا﴾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتَّبعَتْهُمْ ذريتهم بإيمان أَلْحَقْنَا بهم ذريَّتَهُم وما أَلَتْنَاهم من عَمَلِهِمْ من شيء﴾ لما أخبر ـ سبحانه ـ بإلحاق الذرية ولا عمل لهم بآبائهم في الدرجة، فربما توهم متوهم أن يُحطّ الآباء إلى درجة الذرية، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وماأَلتناهم من عملهم من شيء﴾ أي مانَقَصْنَا من الآباء شيئاً من أجور أعمالهم، بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم ولم نَحُطّهم إلى درجتهم بنقص أجورهم. . . .

(٣)**الوجه** السابع والثمانون: أنَّ القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته بهما. وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله.

وقد ذكر الله ـ تعالى ـ هذين المرضين في كتابه. أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب، ففي قوله في حق المنافقين: ﴿في قُلُوبهم مَرَضٌ فزادهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿ولِيَقُولَ الذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ [المدّثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْعَل ما يُلقي الشيطانُ فِتنة للذين في قلوبهم مرضٌ والقاسيةِ قُلوبُهم﴾، [الحج: ٥٣]. فهذه ثلاثة مواضع، المراد بمرض القلب فيها: مرض الجهل والشبهة.

وأما مرض الشهوة ففي قوله: ﴿يَانِساء النبي لَسْتُنَّ كَأَحدٍ من النساء إن اتَّقَيْتُنَّ فلا تَخْضَعْنَ بالقول فيطمعَ الذي في قلبه مرضٌ﴾. [الأحزاب: ٣٢] أي لا تلن

(١) ١٤ إغاثة جـ١.	(٢) ١٦٠ أعلام جـ٤.	(٣) ١١٠ مفتاح جـ١.

في الكلام؛ فيطمع الذي في قلبه: فجور وزناء. قالوا: والمرأة ينبغي لها إذا خاطبت الأجانب أن تغلظ كلامها، وتقويه، ولا تلينه وتكسره، فإن ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها.

وللقلب أمراض أخر من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الرياسة والعلو في الأرض، وهذا المرض مركب من: مرض الشبهة والشهوة، فإنه لابد فيه من تخيل فاسد، وإرادة باطلة: كالعجب، والفخر، والخيلاء، والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له، ومحمدتهم، فلا يخرج مرضه عن شهوة، أو شبهة، أو مركب منهما.

وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم، كما قال النبي ﷺ في حديث صاحب الشجة، الذي أفتوه بالغسل فمات: «**قتلوه، قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا؛ إنما شفاء العي السؤال**» فجعل العي وهو عي القلب عن العلم، واللسان عن النطق به: مرضاً، وشفاؤه: سؤال العلماء.

فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان، لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت، وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم، ولهذا سمّى الله ـ تعالى ـ كتابه شفاءً لأمراض الصدور. وقال تعالى: ﴿**يَاأَيُّها الناسُ قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم وشفاء لما في الصُّدور وهُدىً ورحمةٌ للمؤمنين**﴾ [يونس: ٥٧].

ولهذا السبب: نسبة العلماء إلى القلوب: كنسبة الأطباء إلى الأبدان، وما يقال للعلماء: أطباء القلوب، فهو لقدر ما جامع بينهما، وإلا فالأمر أعظم؛ فإن كثيراً من الأمم يستغنون عن الأطباء، ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد، وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب.

وأما العلماء بالله وأمره فهم: حياة الوجود وروحه، ولا يستغنى عنهم طرفة عين، فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء، بل أعظم.

وبالجملة فالعلم للقلب: مثل الماء للسمك، إذا فقده مات، فنسبة العلم إلى القلب: كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن، وكنسبة كلام اللسان إليه، فإذا عدمه كان: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واللسان الأخرس.

فصل(١)

وأما قوله: «وجعل حدّ الرقيق على النصف من حد الحر، وحاجتهما إلى الزجر واحدة» فلا رَيْبَ أن الشارع فَرّق بين الحر والعبد في أحكام، وسَوَّى بينهما في أحكام؛ فسوَّى بينهما في: الإيمان، والإسلام ووجوب العبادات البدنية: كالطهارة، والصلاة، والصوم، لاستوائهما في سببها، وفرق بينهما في العبادات المالية: كالحج، والزكاة، والتكفير بالمال؛ لافتراقهما في سببها، وأما الحدود فلما كان وقوع المعصية من الحر أقبحَ من وقوعها من العبد من جهة كمال نعمة الله تعالى عليه بالحرية، وأن جعله مالكاً لا مملوكاً، ولم يجعله تحت قهر غيره وتصرفه فيه، ومن جهة تمكنه بأسباب القدرة من الاستغناء عن المعصية بما عوّض الله عنها من المباحات، فقابَلَ النعمة التامة بضدها، واستعمل القدرة في المعصية، فاستحق من العقوبة أكثر مما يستحقه مَنْ هو أخفض منه رتبة وأنقص منزلة؛ فإن الرجل كلما كانت نعمة الله عليه أتم كانت عقوبته إذا ارتكب الجرائم أتم؛ ولهذا قال تعالى في حق من أتم نعمته عليهن من النساء: ﴿يَانِساءَ النَّبيِّ مَن يأتِ مِنكُنَّ بفاحشةٍ مُبيِّنةٍ يُضاعَفْ لَها العذابُ ضِعْفينَ وكان ذَلِكَ على اللهِ يَسيراً ومَنْ يقنُتْ مِنكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وتَعْمَل صالحاً نُؤتِها أَجْرَها مَرَّتَينِ وأعْتَدْنا لها رِزقاً كَريماً﴾[الأحزاب: ٣٠ - ٣١]، وهذا على وفق قضايا العقول ومستحسناتها؛ فإن العبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، وشكره له أتم، ومعصيته له أقبح، وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية؛ ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لم ينفعه الله بعلمه، فإن نعمة الله عليه بالعلم أعظم من نعمته على الجاهل، وصدور المعصية منه أقبح من صدورها من الجاهل، ولا يستوي عند الملوك والرؤساء مَنْ عَصاهم من خواصِّهم وحَشَمهم، ومن هو قريب منهم ومن عصاهم من الأطراف والبعداء؛ فجعل حد العبد أخف من حد الحر، جمعاً بين حكمة الزجر وحكمة نقصه، ولهذا كان على النصف منه في: النكاح، والطلاق، والعدة، إظهاراً لشرف الحرية وخطرها، وإعطاء لكل مرتبة حقها من الأمر كما أعطاها حقها من القدر، ولا تنتقض هذه الحكمة بإعطاء العبد في الآخرة أجرين،

(١) ١٠٩ أعلام جـ٢.

بل هذا محض الحكمة؛ فإن العبد كان عليه في الدنيا حقان: حق لله، وحق لسيده، فأعطي بإزاء قيامه بكل حق أجراً، فاتفقت حكمة الشرع والقدر والجزاء، والحمد لله رب العالمين.

(١)**فإن** قيل: فقواعد الشرع تقتضي أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم، وأنه يغفر له ما لا يغفر للعالم، فإن حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل، وعلمه بقبح المعصية وبغض الله لها، وعقوبته عليها: أعظم من علم الجاهل، ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل.

وقد دلت الشريعة، وحكم الله على أن من حُبِيَ بالإنعام وخُصَّ بالفضل والإكرام، ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات، فارتعها في مراتع الهلكات، وتجرأ على انتهاك الحرمات، واستخف بالتبعات والسيئات، أنه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من ليس في مرتبته، وعلى هذا جاء قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يانِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لها العَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يسيرًا**﴾ [الأحزاب]، ولهذا كان حد الحر ضعف حد العبد في الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحر، ومما يدل على هذا الحديث المشهور الذي أثبته أبو نعيم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه**»، قال بعض السلف: يغفر للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يغفر للعالم ذنب، وقال بعضهم أيضًا: إن الله يعافي الجهال ما لا يعافي العلماء.

فالجواب: إن هذا الذي ذكرتموه حق لا ريب فيه، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً: أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره؛ فإن المعصية خبث والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث.

ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر: «**وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم**»، وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم، فأخبر ﷺ أنه شهد بدراً فدل على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من

---

(١) ١٧٦ مفتاح جـ١.

المشهد العظيم، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ماله من الحسنات.

ولما حض النبي ﷺ على الصدقة فأخرج عثمان - رضي الله عنه - تلك الصدقة العظيمة، قال: «**ما ضر عثمان ما عمل بعدها**». وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة: «**أوجب طلحة**».

وهذا موسى كليم الرحمن - عز وجل - ألقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في النبي ﷺ وقال: شاب بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي. وأخذ بلحية هارون، وجره إليه، وهو نبي الله، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه، وربه - تعالى - يكرمه ويحبه، فإن الأمر الذي قام به موسى والعدو الذي برز له، والصبر الذي صبره، والأذى الذي أوذيه في الله، أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور، ولا تغير في وجهه، ولا تخفض منزلته، وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم إن من له ألوف من الحسنات، فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتى أنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته، وداعي شكره على إحسانه، فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحدٍ ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدًا ... فأفعاله اللاتي سررن كثير

والله - سبحانه - يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته، فأيهما غلب كان التأثير له، فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة الذين آثروا محابه ومراضيه، وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم.

وأيضاً: فإن العالم إذا زل فإنه يحسن إسراع الفيئة، وتدارك الفارط، ومداواة الجرح، فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه، فإن زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل. وأيضا فإن معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعده ووعيده وخشيته منه، وإزرائه على نفسه بارتكابه، وإيمانه بأن الله حرمه وأن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به، إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للرب ما يغمر الذنب ويضعف اقتضائه، ويزيل أثره، بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره، فإنه ليس

معه إلا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المردية، فلا يستوي هذا وهذا. وهذا فصل الخطاب في هذا الموضع، وبه يتبين أن الأمرين حق وأنه لامنافاة بينهما، وأن كل واحد من العالم والجاهل إنما زاد قبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرد خطيئته عما يقاومها ويضعف تأثيرها، ويزيل أثرها، فعاد القبح في الموضعين إلى الجهل وما يستلزمه وقلته وضعفه إلى العلم وما يستلزمه ، وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله وبالله التوفيق.

فصــــل(١)

فإن قيل: قد ذكرتم: أن المحب يسامح بها لا يسامح به غيره. ويعفى للولي عما لا يعفى لسواه، وكذلك العالم أيضاً، يغفر له ما لا يغفر للجاهل، كما روى الطبراني بإسناد جيد ـ مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «**إن الله ـ سبحانه ـ إذا جمع الناس يوم القيامة في صعيد واحد، قال للعلماء: إني كنت أُعبد بفتواكم، وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس، وإني لم أضع علمي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم. اذهبوا فقد غفرت لكم**». هذا معنى الحديث. وقد روي مسنداً ومرسلاً.

فهذا الذي ذكرتم صحيح، وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى: ﴿**يانِساءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنّ بفاحشةٍ مُّبَيِّنةٍ يُضَاعَفْ لها العَذَابُ ضِعْفَيْنِ**﴾ [الأحزاب: ٣٠] ﴿**ولَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِم شَيئاً قَلِيلًا. إذاً لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحيَاةِ وَضِعْفَ المَاتِ ثُمّ لاَ تَجِدُ لَك علينا نصيراً**﴾ [الإسراء: ٧٤ـ ٧٥]. أي لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب المات. أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿**ولو تَقَوّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيْلِ. لَأخذْنَا مِنْهُ بِاليَمِين. ثُمّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الوَتِينَ**﴾ [الحاقة: ٤٤ـ ٤٦]، أي لو أتى بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه، وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه، وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه، ومن التّقول عليه ـ سبحانه ـ وكم من راكن إلى أعدائه، ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به، كأرباب البدع كلهم،

(١) ٣٣٣ مدارج جـ١.

المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه.

وماذكرتم من قصة يونس: هو من هذا الباب، فإنه لم يسامح بغضبة. وسجن لأجلها في بطن الحوت، ويكفي حال أبي البشر حيث لم يسامح بلقمة، وكانت سبب إخراجه من الجنة.

فالجواب: أن هذا أيضاً حق، ولا تنافي بين الأمرين، فإن من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره: في إعطائه منها ما حرمه غيره، فَحُبِيَ بالإنعام، وخُصَّ بالإكرام، وخُصّ بمزيد التقريب، وجعل في منزلة الولي الحبيب، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص: بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع، فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذه لنفسه، واصطفائه على غيره، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم. ونعمه عليه أكمل. والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غَفَل وأخَلَّ بمقتضى مرتبته نُبِّه بما لم ينبه عليه البعيد البراني، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضاً، فيجتمع في حقه الأمران.

وإذا أردت معرفة اجتماعهما، وعدم تناقضهما، فالواقع شاهد به، فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس في منزلتهم، ويأخذهم، ويؤدبهم بما لم يأخذ به غيرهم، وقد ذكرنا شواهد هذا وهذا، ولاتناقض بين الأمرين.

(1)**الوجه** الثاني: أن الله ـ سبحانه ـ أنزل على نبيه الحكمة، كما أنزل عليه القرآن، وامتن بذلك على المؤمنين، والحكمة هي: السنة، كما قال غير واحد من السلف، وهو كما قالوا، فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بيوتِكُنَّ مِن آياتِ اللهِ والحِكْمَةِ**﴾[الأحزاب: ٣٤]، فنوع المتلو إلى نوعين: آيات وهي: القرآن، وحكمة وهي السنة والمراد بالسنة ما أخذ عن رسول الله ﷺ سوى القرآن، كما قال ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا إنه مثل القرآن وأكثر**».

وقال الأوزاعي: عن حسان بن عطية: كان جبرائيل ينزل بالقرآن والسنة، ويعلمه إياها، كما يعلمه القرآن، فهذه الأخبار التي زعم هؤلاء: أنه لا يستفاد منها علم، نزل بها جبرائيل من عند الله ـ عز وجل ـ كما نزل بالقرآن. وقال إسماعيل بن

(١) ٣٤٠ مختصر الصواعق جـ٢.

عبدالله: ينبغي لها أن تحفظ عن رسول الله ﷺ فإنها بمنزلة القرآن.

(١) **وقال** تعالى: ﴿**وَما كَانَ لِمؤمنٍ ولا مُؤْمِنةٍ إذا قَضَىٰ الله وَرَسُولهُ أمْراً أن يَكُونَ لَهُم الخِيَرَةُ مِنْ أمرِهِم**﴾ [الأحزاب: ٣٦] فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في أي مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً، فدل على أن ذلك مناف للإيمان، وقد حكى الشافعي - رضي الله تعالى عنه - إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد، ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي - رضي الله عنه، فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبة الاتباع فضلاً عن أنه يعارض بها النصوص وتقدم عليها عياذًا بالله من الخذلان.

(٢) **قال** - تعالى -: ﴿**وما كان لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى الله ورسُولُهُ أمْراً أن يكونَ لَهُمُ الخِيرَةُ مِن أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فقطع - سبحانه وتعالى - التخيير بعد أمره وأمر رسوله. فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره ﷺ، بل إذا أمر فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره إذا خفي أمره، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته، فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع، لا واجب الاتباع، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه، بل غايته: أنه يسوغ له اتباعه، ولو ترك الأخذ بقول غيره لم يكن عاصيًا لله ورسوله، فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه، ويحرم عليهم مخالفته، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله؟

فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه، وكل من سواه فإنما يجب اتباعه على قوله، إذا أمر بما أمر به، ونهى عما نهى عنه، فكان مبلغاً محضاً، ومخبراً لا منشئاً ومؤسساً، فمن أنشأ أقوالاً وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله: لم يجب على الأمة اتباعها، ولا التحاكم إليها، حتى تعرض على ما جاء به الرسول، فإن طابقته ووافقته وشهد لها بالصحة: قبلت حينئذ، وإن خالفته: وجب ردها وإطراحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين: جعلت موقوفة، وكان

---

(١) ٢٧ التبوكية.	(٢) ٥ زاد المعاد جـ١.

أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها وتركه، وأما أنه يجب ويتعين: فكلا. . .

(١) **فاختيار** الرب تعالى لعبده نوعان:

أحدهما: اختيار ديني شرعي، فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَا كان لمؤمنٍ ولامؤمنةٍ إذا قضىَ الله ورسولُهُ أمراً أنْ يَكُونَ لهم الخِيَرَةُ مِن أمرِهم**﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لإيمانه وتسليمه، ورضاه بالله ربًا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً.

النوع الثاني: اختيارٌ كونيٌّ قدري. لا يسخطه الرب، كالمصائب التي يبتلي الله بها عبده، فهذا لا يضره فِراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه، ويدفعها ويكشفها، وليس في ذلك منازعة للربوبية، وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر.

فهذا يكون تارة واجباً، وتارة يكون مستحبا، وتارة يكون مباحاً مستوى الطرفين، وتارة يكون مكروهًا، وتارة يكون حرامًا. وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه ـ مثل قَدر المعائب والذنوب ـ فالعبد مأمور بسخطها، ومنهي عن الرضى بها. وهذا هو التفصيل الواجب في الرضىٰ بالقضاء. . .

(٢) فصل

في تحريم الإفتاء والحكم في دين الله بما يخالف النصوص، وسقوط الاجتهاد والتقليد عند ظهور النص، وذكر إجماع العلماء على ذلك.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قضى اللهُ وَرَسُولُه أمراً أَنْ يكونَ لهُم الخِيَرَةُ مِنْ أَمرِهم وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَه فقدْ ضَلَّ ضلالاً مبيناً**﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال تعالى: ﴿**يَاأَيُّها الَّذيْن آمَنوا لا تُقَدِّموا بين يَدِي الله ورسولِه، واتَّقوا اللهَ إنَّ الله سَمِيْعٌ عَلِيْم**﴾ [الحجرات: ١]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بينهُمْ أَنْ يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون**﴾ [النور: ٥١]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ لتحكُمَ بين النّاسِ بما أَرَاكَ الله ولا تكُن للخائنين خَصيمًا**﴾. [النساء: ١٠٥].

(٣) **وقد** كان السلف الطيب يشتد نكيرهم وغضبهم على مَنْ عارض حديثَ رسول الله برأي أو قياس أو استحسان أو قول أحد من الناس كائناً من كان،

(١) ١٨٨ مدارج جـ٢. (٢) ٢٦٠ أعلام جـ٢. (٣) ٢٤٤ أعلام جـ٤.

ويهجرون فاعل ذلك، وينكرون على مَنْ يضرب له الأمثال، ولا يُسَوِّغون غير الانقياد له والتسليم والتلقي بالسمع والطاعة، ولا يخطر بقلوبهم التوقف في قبوله حتى يشهد له عمل أو قياس أو يوافق قول فلان وفلان، بل كانوا عاملين بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى الله ورسُولُهُ أمراً أن يكونَ لَهُمُ الخِيرَةُ من أَمْرِهِم﴾. وبقوله تعالى: ﴿فلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مما قضيتَ ويسلِّموا تسليماً﴾[النساء: ٦٥].

وبقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيكُم مِنْ رَبِّكم ولا تتبعُوا مِنْ دُونِه أولِيَاء قَلِيلًا ما تَذَكَّرُون﴾ [الأعراف: ٣]، وأمثالها، فدفعنا إلى زمان إذا قيل لأحدهم: «ثبت عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا». يقول: مَنْ قال بهذا؟! ويجعل هذا دفعاً في صدر الحديث، أو يجعل جَهْله بالقائل [به] حُجَّة له في مخالفته وترك العمل به، ولو نصح نفسه لعلم أن هذا الكلام مِن أعظم الباطل، وأنه لايحل له دفع سنن رسول الله ﷺ بمثل هذا الجهل.

وأقبح من ذلك عذره في جهله؛ إذ يعتقد أن الإجماع منعقد على مخالفة تلك السنة، وهذا سوء ظن بجماعة المسلمين، إذ ينسبهم إلى اتفاقهم على مخالفة سنة رسول الله ﷺ. وأَقبحُ من ذلك عذره في دعوى هذا الإجماع، وهو جهله وعدم علمه بمن قال بالحديث، فعاد الأمر إلى تقديم جهله على السنة، والله المستعان.

ولا يعرف إمام من أئمة الإسلام البتة قال: لا نعمل بحديث رسول الله ﷺ حتى نعرف مَنْ عمل به، فإن جهل من بلغه الحديث من عمل به لم يحل له أن يعمل به، كما يقول هذا القائل.

(١)**تزوج** ﷺ زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة وهي ابنة عمته أميمة، وفيها نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْها وَطَرا زَوَّجْنَاكَهَا﴾[الأحزاب: ٣٧] وبذلك كانت تفتخر على نساء النبي ﷺ. وتقول: «زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات». ومن خواصها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان هو وليها الذي زوجها للرسول ﷺ من فوق سمواته، وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت أولاً عند زيد بن حارثة، وكان رسول الله

(١) ٥٣ زاد المعاد جـ٢.

ﷺ تبناه، فلما طلقها زيد زوجه الله تعالى إياها، لتتأسى به أمته في نكاح أزواج من تبنوه.

(١)**وأما** قصة زينب بنت جحش: فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه، وكان يستشير رسول الله ﷺ في فراقها، وهو يأمره بإمساكها، فعلم رسول الله ﷺ أنه سيفارقها ولابد، فأخفى في نفسه أن يتزوجها إذا فارقها زيد، وخشي مقالة الناس: إن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه، فإنه كان تبنى زيداً قبل النبوة، والرب ـ تعالى ـ يريد أن يشرع شرعًا عامًّا فيه مصالح عباده، فلما طلقها زيد، وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه، فجاء زيد، واستدبر الباب بظهره، وعظمت في صدره لما ذكر رسول الله ﷺ فناداها من وراء الباب: يا زينب إن رسول الله ﷺ يخطبك. فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، وقامت إلى محرابها فصلت، فتولى الله عز وجل نكاحها من رسول الله ﷺ بنفسه، وعقد النكاح له من فوق عرشه، وجاء الوحي بذلك ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجناكها**﴾، فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها، فكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بذلك، وتقول: أنتن زوجكن أهلوكن وزوجني الله ـ عز وجل ـ من فوق سبع سموات. فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب، ولا ريب أن النبي ﷺ حبب إليه النساء، كما في الصحيح من حديث أنس ورواه النسائي في سننه، والطبراني في الأوسط عنه ﷺ قال: «**حبب إلى من دنياكم: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**». هذا لفظ الحديث لا ما يرويه بعضهم: «**حبب إليَّ من دنياكم ثلاث**». زاد الإمام أحمد في كتاب الزهد في هذا الحديث: «**أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن**».

وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك وقالوا: ما همه إلا النكاح، فرد الله ـ سبحانه ـ عن رسول الله ﷺ ونافح عنه فقال: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ [النساء: ٥٤]، الآية. وهذا خليل الله إمام الحنفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين، وأحب هاجر، وتسرى بها، وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة، فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة، وهذا سليمان ابنه ـ عليه السلام ـ كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة. وقد سئل رسول الله

(١) ٣٢٥ الجواب الكافي.

ﷺ عن أحب الناس إليه قال: «عائشة رضي الله عنها». وقال عن خديجة: «إني رزقت حبها»، فمحبة النساء من كمال الإنسان قال ابن عباس: «خير هذه الأمة أكثرهم نساء».

(١)فصل في هديه ﷺ في علاج العشق

هذا مرض من أمراض القلب، مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكن واستحكم عَزَّ على الأطباء دواؤه، وأعيا العليل داؤه، وإنما حكاه الله ـ سبحانه ـ في كتابه عن طائفتين من الناس: من النساء وعشاق الصبيان المردان، فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسف، وحكاه عن قوم لوط. فقال تعالى إخباراً عنهم لما جاءت الملائكة لُوطًا: ﴿وجَاء أَهْلُ المدينةِ يَسْتبشِرُون. قال إنَّ هَؤلآءِ ضَيْفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تُخزُونِ. قالوا أو لم نَنْهكَ عن العالمين. قال هؤلاء بنـاتي إنْ كُنْتُم فاعلين. لَعَمْـرُكَ إنَّهم لَفِي سَكْـرَتِهِم يَعْمَهُـون﴾ [الحجر: ٦٧، ٧٢]. وأما ما زعمه بعض من لم يَقْدِرْ رسول الله ﷺ حق قدره: من أنه ابْتُلي به في شأن زينب بنت جَحْشٍ، وأنه رآها فقال: «سبحان مقلِّب القلوب»! فأخـذت بقلبه، وجعل يقول لزيد بن حارثة: «أمسكها» حتى أنزل الله عليه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ الله عَلَيْهِ وَأَنْعمتَ عَلَيه أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتّقِ الله وتُخْفي في نَفْسِـكَ مَاالله مُبْـدِيـهِ وَتَخْشَى النّاسَ وَالله أَحَقُ أَنْ تَخْشَاه﴾ فظن هذا الزاعم: أن ذلك في شأن العشق، وصنف بعضهم كتاباً في العشق، وذكر فيه عشق الأنبياء وذكر هذه الواقعة، وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لايحتمله، ونسبتـه رسول الله ﷺ إلى ما برأه الله منه، فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ قد تَبَنَّاه، وكان يدعى زيد بن محمد، وكانت زينب فيها شَمَم وتَرَفُّع عليه، فشاور رسول الله ﷺ في طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله». وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان يخشى من قالة الناس: أنه تزوج امرأة ابنه. لأن زيداً كان يدعىٰ ابنه. فهذا هو الذي أخفاه في نفسه. وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له. ولهذا ذكر الله ـ سبحانه ـ هذه الآية، يُعَدد فيها نعمه

(١) ٣١٧ زاد المعاد جـ٣.

عليه، لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أَحَلَّ الله له، وأن الله أحق أن يخشاه، فلا يتحرّج مما أحله له لأجل قول الناس، ثم أخبره أنه سبحانه زَوَّجه إياها بعد قضاء زيد وَطَرَه منها لتقتدي أمته به في ذلك. ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبني، لا امرأة ابنه لصلبه، ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُم الّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ﴾[النساء: ٢٣] وقال في هذه السورة: ﴿ما كانَ محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم﴾[الأحزاب: ٤٠] وقال في أولها: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدعِيَاءَكُم أبنَاءَكُم ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُم﴾ [الأحزاب: ٤]، فتأمَّل هذا الذبَّ عن رسول الله ﷺ، ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق.

نعم كان رسول الله ﷺ يحب نساءه، وكان أَحَبُّهُن إليه عائشة - رضي الله عنها - ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد - سوى ربه - نهاية الحب. بل صح أنه قال: **«لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»**. وفي لفظ: **«وإن صاحبكم خليل الرحمن»**.

(١)**فلما** كان رسول الله ﷺ مشتملاً على ما يقتضي أن يحمد مرة بعد مرة سمي محمداً، وهو اسم موافق لمسماه، ولفظ مطابق لمعناه؛ والفرق بين «محمد» و«أحمد» من وجهين:

أحدهما: أن «محمداً» هو المحمود حمداً بعد حمد فهو دال على كثرة حمد، الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه. وأحمد أفعل تفضيل من الحمد يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره، فمحمد زيادة حمد في الكمية و«أحمد» زيادة في الكيفية فيحمد أكثر حمد وأفضل حمد حمده البشر.

الوجه الثاني: أن «محمدًا» هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم «وأحمد» هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره، فدل أحد الاسمين وهو «محمد» على كونه محموداً، ودل الاسم الثاني وهو: «أحمد» على كونه أحمد الحامدين لربه، وهذا هو القياس، فإن أفعل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لا يبنيان إلا من فعل الفاعل، لا يبنيان من فعل المفعول، بناء منهم على أن أفعل التعجب والتفضيل إنما يصاغان من الفعل اللازم لا من المتعدي ولهذا يقدرون نقله من فعل

(١) ١٠٤ جلاء الأفهام.

وفعل إلى بناء فعل بضم العين. قالوا: والدليل على هذا أنه تعدى بالهمزة إلى المفعـول، فالهمزة التي فيه للتعدية، نحو ما أظرف زيداً، وأكرم عمراً وأصلهما ظرف وكرم. . . .

الفصل الثالث(١)

في معنى اسم النبي ﷺ واشتقاقه

هذا الاسم هو أشهـر أسمائه ﷺ، وهو اسم منقول من الحمد، وهو في الأصل اسم مفعول من الحمد، وهو يتضمن الثناء على المحمود ومحبته وإجلاله وتعـظيمه، هذا هو حقيقة الحمد وبنى على زنة «مفعل» مثل معظم، ومحبب، ومسود، ومبجل نظائرها لأن هذا البناء موضوع للتكثير، فإن اشتق منه اسم فاعل فمعناه: من كثر صدور الفعل منه مرة بعد مرة: كمعلم، ومفهم، ومبين، ومخلص، ومفرج ونحوها، وإن اشتق منه اسم مفعول فمعناه: من كثر تكرر وقوع الفعل عليه مرة بعـد أخـرى: إمـا استحقـاقاً، أو وقوعاً، فمحمد هو الذي كثر حمد الحامدين له مرة بعد أخرى، أو الذي يستحق أن يحمد مرة بعد أخرى.

ويقال: حمد فهو محمد كما يقال: علم فهو معلم، وهذا علم وصفة اجتمع فيه الأمران في حقه ﷺ وإن كان علماً مختصًا في حق كثير ممن تسمى به غيره.

وهذا شأن أسماء الرب تعالى، وأسماء كتابه، وأسماء نبيه، هي أعلام دالة على معان هي بها أوصاف، فلا تضاد فيها العلمية الوصف، بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين، فهو: الله، الخالق، الباريء، المصور، القهار، فهذه أسماء له دالة على معان هي: صفاته، وكذلك القرآن، والفرقان، والكتاب المبين، وغير ذلك من أسمائه. وكذلك أسماء النبي ﷺ: «محمد، وأحمد، والماحي، وفي حديث جبير بن مطعم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الـذي يمحـو الله به الكفر**». فذكر رسول الله ﷺ هذه الأسماء مبيناً ما خصه الله به من الفضل، وأشار إلى معانيها وإلا فلو كانت أعلاماً محضة لا معنى لها لم تدل على مدح، ولهذا قال حسان ـ رضي الله عنه ـ: .

وشـق له من اسـمـه ليجـله   فذو العرش محمود وهذا محمد

(١) ٩٢ جلاء الأفهام.

فصل(١)

إذا ثبت هذا فتسميته ﷺ بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مسماه وهو الحمد، فإنه ﷺ محمود عند الله، ومحمود عند ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمود عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم، فإن ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل، وإن كابر عقله: جحوداً، وعناداً، وجهلاً باتصافه بها، ولو علم اتصافه بها لحمده، فإنه يحمد من اتصف بصفات الكمال ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامد له، وهو ﷺ اختص من مسمى الحمد بما لم يجتمع لغيره، فإن اسمه محمد وأحمد، وأمته الحمادون: يحمدون الله في السراء والضراء، وصلاته وصلاة أمته مفتتحة بالحمد، وخطبته مفتتحة بالحمد، وكتابه مفتتح بالحمد، هكذا كان عند الله في اللوح المحفوظ أن خلفاءه وأصحابه يكتبون المصحف مفتتحاً بالحمد، وبيده ﷺ لواء الحمد يوم القيامة، ولما يسجد بين يدي ربه ـ عز وجل ـ للشفاعة، ويؤذن له فيها، يحمد ربه بمحامد يفتحها عليه حينئذ، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾. [الإسراء: ٧٩].

ومن أحب الوقوف على معنى المقام المحمود فليقف على ما ذكره سلف الأمة من: الصحابة، والتابعين فيه في تفسير هذه السورة كتفسير ابن أبي حاتم، وابن جرير، وعبد بن حميد. وغيرها من تفاسير السلف.

وإذا قام في ذلك المقام حمده حينئذ أهل الموقف كلهم: مسلمهم، وكافرهم: أولهم، وآخرهم، وهو محمود ﷺ بما يملأ به الأرض من: الهدى، والإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح، وفتح به القلوب، وكشف به الظلمة عن أهل الأرض، واستنقذهم من أسر الشياطين ومن الشرك بالله والكفر به والجهل به، حتى نال أتباعه شرف الدنيا والآخرة. فإن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بين عباد أوثان، وعباد صلبان، وعباد نيران، وعباد الكواكب، ومغضوب عليهم، قد باؤوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف ربًّا يعبده، ولا بماذا يعبده، والناس يأكل بعضهم بعضًا، من استحسن شيئًا دعا إليه.

(١) ٩٦ جلاء الأفهام.

وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة، وقد نظر الله ـ سبحانه ـ إلى أهل الأرض، فمقتهم: عربهم، وعجمهم، إلا بقايا على آثار دين صحيح، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظلم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدى به من الضلالة، وعلّم به من الجهالة، وكثّر بعد القلة، وأعزّ به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمًّا، وقلوباً غلفاً، فعرف الناس ربهم ومعبودهم: غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ، وأعاد، واختصر، وأطنب في ذكر: أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، حتى تجلت معرفته ـ سبحانه ـ في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشك والريب عنها كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم يدع لأمته حاجة في هذا التعريف: لا إلى من قبله، ولا إلى من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كل من تكلم في هذا الباب: **﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِم أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون﴾**[العنكبوت: ٥١].

روى أبو داود في مراسيله عن النبي ﷺ أنه رأى بيد بعض أصحابه قطعة من التوراة فقال: «**كفى بقوم ضلالة؛ أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم، أنزل على غير نبيهم**»، فأنزل الله ـ عز وجل ـ تصديق ذلك: **﴿أو لم يَكْفِهِم أنا أنزلنا عليك الكتابَ يُتْلىٰ عَلَيْهِم إنَّ في ذلك لرحمةً وذِكرىٰ لِقوم يُؤمِنُون﴾**، فهذا حال من أخذ دينه عن كتاب منزل على غير النبي ﷺ فكيف بمن أخذه عن عقل فلان وفلان، وقدمه على كلام الله ورسوله؟!

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسناً إلا أمرهم به، ولا قبيحاً إلا نهى عنه، كما قال ﷺ: «**ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه**»، قال أبو ذر: «لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً». وعرفهم حالهم بعد القدوم على ربهم أتم التعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع باباً من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلى ربهم؛ إلا فتحه، ولا مشكلاً إلا بينه وشرحه، حتى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ وجزاه عن أمته

أفضل الجزاء. وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وماأرْسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان.

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته.

أما أتباعه: فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت: ظله، وعهده، وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون: فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم، واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها؛ وأما الأمم النائية عنه، فإن الله ـ سبحانه ـ رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة، فانتفعوا بها دنيا وأخرى. والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض.

ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة وأصدقهم حديثاً، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفواً ومغفرة وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، كما روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمرو، أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوارة: «محمد عبدي ورسولي، سميته: المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو، ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، وأفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمًّا وقلوباً غلفاً، حتى

يقولوا: لا إلـه إلا الله». وأرحم الخلق وأرأفهم بهم وأعظم الخلق نفعاً لهم في دينهم ودنياهم . . .(١).

(٢)فصــل
في هديه ﷺ في الذكر

كان النبي ﷺ أكمـل الخلق ذكراً لله ـ عز وجل ـ بل كان كلامه كله في ذكر الله، وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة: ذكراً منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله؛ ووعده ووعيده: ذكراً منه له، وثناؤه عليه بآلائـه، وتمجيده وحمـده وتسبيحـه: ذكـراً منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه، ورغبته ورهبته: ذكراً منه له، وسكوته وصمته: ذكراً منه له بقلبه، فكان ذاكراً لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، فكان ذكره لله يجري مع أنفاسه: قائماً وقاعداً، وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظَعْنِه وإقامته. وكان إذا استيقظ قال: **«الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»**(٣)

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: **«كان إذا هَبَّ من الليل: كبر الله عشراً، وحَمِـدَ الله عشراً، وقـال: سبحـان الله وبحمده عشراً، سبحان الملك القدوس عشراً، وأستغفر الله عشراً، وهلّل عشرا، ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشراً، ثم يستفتح الصلاة»**.

وقالت أيضاً: **«كان إذا استيقظ من الليل قال: لا إلـه إلا أنت سبحانك اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زِدْني علماً، ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتني، وهَبْ لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب»**. ذكرهما أبو داود(٤)

(٥)**الذكر**: عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة . . .

وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكـره استغـراقًـا ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه: نسي في جنب ذكره كل شيء. وحفظ الله عليه كل شيء. وكان له عوضاً

---

(١) البحث مطول من أراده فليرجع إليه (ج). (٢) ٣٧ زاد المعاد جـ٢.

(٣) أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي من حديث حذيفة بن اليمان.

(٤) استمر في ذكر الاستيقاظ وغيره ـ رحمه الله ـ (ج). (٥) ٤٢٣ مدارج جـ٢.

من كل شيء. به يزول الوقْر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار. زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر. وقراءة القرآن. فإن وجدتم. وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان. قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان. فيجتمع عليه الشياطين. فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي. وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن الذكر كان: كالجسد الذي لا روح فيه. والله أعلم.

(١)**الذكر** ثلاثة أنواع: ذكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء على الله بها. وتوحيد الله بها. وذكر الأمر والنهي، والحلال والحرام. وذكر الآلاء والنعماء. والإحسان والأيادي وأنه ثلاثة أنواع أيضاً: ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها، وذكر بالقلب وحده. وهو في الدرجة الثانية. وذكر باللسان المجرد. وهو في الدرجة الثالثة.

(٢) . . . **وذكر** العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له: ذكر قبله. به صار العبد ذاكراً له. وذكر بعده، به صار العبد مذكوراً. كما قال تعالى: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾** [البقرة: ١٥٢]، وقال ـ فيما يروي عنه نبيه ﷺ ـ: **«من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»**.

والذكر الذي ذكره الله به، بعد ذكره له: نوع غير الذكر الذي ذكره به قبل ذكره له، ومن كَثُف فهمه عن هذا فليجاوزه إلى غيره. فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وسألت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يوماً. فقلت له: إذا كان، الرب ـ سبحانه ـ يرضى بطاعة العبد، ويفرح بتوبته، ويغضب من مخالفته، فهل

(١) ٤٣٠ مدارج جـ٢. (٢) ٤٣٣ مدارج جـ٢.

يجوز أن يؤثِّر المحدث في القديم حبًّا وبغضاً وفرحاً وغير ذلك؟

فقال لي: الرب ـ سبحانه ـ هو الذي خلق أسباب الرضى والغضب والفرح، وإنما كانت بمشيئته وخلقه. فلم يكن ذلك التأثُّر من غيره، بل من نفسه بنفسه. والممتنع أن يؤثر غيره فيه. فهذا محال، وأما أن يخلق هو أسباباً ويشاءها ويقدرها تقتضي رضاه ومحبته، وفرحه وغضبه: فهذا ليس بمحال. فإن ذلك منه بدأ وإليه يعود. والله سبحانه أعلم.

(١)**والمقصود:** أن دوام الذكر لما كان سبباً لدوام المحبة، وكان الله سبحانه أحق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال، كان كثرة ذكره من أنفع ما للعبد، وكان عدوه حقًّا هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته.

ولهذا أمر سبحانه بكثرة ذكره في القرآن، وجعله سبباً للفلاح، فقال ـ تعالى ـ: **﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾** [الجمعة: ١٠] وقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا اذْكُرُوا الله ذِكْراً كَثِيراً﴾** [الأحزاب: ٤١]. وقال: **﴿وَالذَّاكِريْنَ الله كَثِيراً والذَّاكِرَاتِ﴾**[الأحزاب: ٣٥].

وقال: **﴿يا أيُّها الذين آمنُوا لاَ تُلْهِكُم أَموالُكُم وَلاَ أَوْلاَدُكُم عَنْ ذِكرِ الله ومَنْ يفعل ذَلِكَ فَأُولئكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾**[المنافقون: ٩].

وقال: **﴿فاذكروني أذكركم﴾** [البقرة: ١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «سبق المفردون، قالوا: يارسول الله! وما المفردون؟ قال: «**الذاكرون الله كثيراً**» وفي الترمذي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أدلكم على خير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى يارسول الله، قال: «**ذكر الله**». وهو في الموطأ موقوف على أبي الدرداء. قال معاذ بن جبل: «ماعمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله» وذكر رسوله ﷺ تبع لذكره.

والمقصود: أن دوام الذكر سبب لدوام المحبة. فالذكر للقلب: كالماء

(١) ٢٦٦ جلاء الأفهام.

للزرع، بل كالماء للسمك لا حياة له إلا به[1]. وهو أنواع: ذكره بأسمائه، وصفاته، والثناء عليه بها.

الثاني: تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده، وهو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين.

الثالث: ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر أهل العلم، بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم.

ومن أفضل ذكره: ذكره بكلامه، قال ـ تعالى ـ: **﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عن ذكري فإنَّ له معيشة ضنكاً ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾** [طه: ١٢٤]. فذكره هنا كلامه الذي أنزله على رسوله. وقال تعالى: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾** [الرعد: ٢٨]. ومن ذكره سبحانه: دعاؤه، واستغفاره والتضرع إليه، فهذه خمسة أنواع من الذكر.

[2] **قال** ـ تعالى ـ: **﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شيْءٍ رَقِيْباً﴾** [الأحزاب: ٥٢]، وقال ـ تعالى ـ: **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَاكُنْتُمْ﴾** [الحديد: ٤]، وقال ـ تعالى ـ: **﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرى﴾** [العلق: ١٤] وقال ـ تعالى ـ: **﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾** [الطور: ٤٨]، وقال ـ تعالى ـ: **﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور﴾** [غافر: ١٩]إلى غير ذلك من الآيات. **وفي** حديث جبريل عليه السلام: أنه «سأل النبي ﷺ عن الإحسان؟ فقال له: **أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

«**المراقبة**» دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي «المراقبة» وهي ثمرة علمه بأن الله ـ سبحانه رقيب عليه ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع على عمله: كل وقت، وكل لحظة، وكل نَفَس، وكل طرفة عين، والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟

قال الجريري: من لم يُحكِّم بينه وبين الله تعالى التقوى، والمراقبة: لم يصل إلى الكشف والمشاهدة. وقيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات

---

(١) قد أوضح المصنف رحمه الله من فوائد الذكر وثمراته ما لم يسبق إليه من كتاب الوابل الصيب من الكلم الطيب فارجع إليه فإنه نافع جدًا.

(٢) ٦٥ مدارج جـ٢.

جوارحه. وقيل لبعضهم: متى يَهُشُّ الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيباً. وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غيره. وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظّم الله، وتصغير ما صغّر الله.

[1]بيان معنى الصلاة على النبي ﷺ

وأصل هذه اللفظة يرجع إلى معنيين: (أحدهما): الدعاء والتبريك. (والثاني): العبادة. فمن الأول قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوالِهِم صَدَقَةً تُطهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهم بهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُم**﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿**وَلاَ تُصلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَتَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ**﴾[التوبة: ٨٤] وقول النبي ﷺ: «**إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب؛ فإن كان صائماً فليصل**»[2]. فسر بها قيل: «فليدع لهم بالبركة»، وقيل: «يصلي عندهم» بدل أكله. وقيل: «إن الصلاة» في اللغة معناها الدعاء.

والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والعابد داع كما أن السائل داع، وبهما فسر قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكم ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠].

وقيل: أطيعوني أثبكم، وقيل: سلوني أعطكم، وفسر بهما قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَني فَإِنِّي قَريبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاع إِذَا دَعَانِ**﴾[البقرة: ١٨٦].

والصواب: أن الدعاء يعم النوعين، وهذا لفظ متواطيء لا اشتراك فيه فمن استعماله في دعاء العبادة قوله تعالى: ﴿**قُلْ آدْعُوا الذين زَعْمَتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرّةٍ في السَّمواتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ**﴾ [سبأ: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذيْنَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُون**﴾[النحل: ٢٠]، وقول تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤكُمْ**﴾[الفرقان: ٧٧]، والصحيح من القولين: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: أي شيء يعبأ بكم لولا عبادتكم إياه. فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل. وقال تعالى: ﴿**ادْعُوا رَبَّكم تَضَرُّعاً وخُفْية إنه لا يُحِبُّ المُعْتَدين. وَلاَ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وادْعُوه خَوْفاً وطمعاً**﴾

(١) ٨١ جلاء الأفهام.　(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة.

وقال تعالى إخباراً عن أنبيائه ورسله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وهذه الطريقة أحسن من الطريقة الأولى؛ ودعوى الخلاف في مسمى الدعاء، وبهذا تزول الإشكالات الواردة على اسم الصلاة الشرعية، هل هو منقول عن موضعه في اللغة فيكون حقيقة شرعية أو مجازاً شرعيًّا. فعلى هذا تكون الصلاة باقية على مسماها في اللغة، وهو الدعاء، والدعاء: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والمصلي من حين تكبيره إلى سلامه بين دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهو في صلاة حقيقة، لا مجازاً، ولا منقولة، لكن خص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ التي يخصها أهل اللغة والعرف ببعض مسماها كالدابة، والرأس، ونحوهما فهذا غاية تخصيص اللفظ وقصره على بعض موضوعه، ولهذا لا يوجب نقلاً ولا خروجًا عن موضوعه الأصلي، والله أعلم.

فصل: هذه الصلاة من الآدمي

وأما صلاة الله ـ سبحانه ـ فنوعان: عامة، وخاصة:

أما العامة: فهي صلاته على عباده المؤمنين قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُم وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ومنه دعاء النبي: ﷺ بالصلاة على آحاد المؤمنين كقوله: «**اللهم صل على آل أبي أوفى**»، وفي حديث آخر أن امرأة قالت له: «صل عليَّ وعلى زوجي، قال: **صلى الله عليك وعلى زوجك**» وسيأتي ذكر هذا الحديث وما شابهه إن شاء الله تعالى.

النوع الثاني: ، صلاته الخاصة على أنبيائه ورسله خصوصاً على خاتمهم وخيرهم محمد ﷺ. فاختلف الناس في معنى الصلاة منه سبحانه على أقوال:

أحدهما: أنها رحمته. قال إسماعيل: حدثنا نصر بن علي، حدثنا محمد بن سواء، عن جويبر، عن الضحاك قال: صلاة الله: رحمته، وصلاة الملائكة: الدعاء.

وقال المبرد: أصل الصلاة الرحمة، فهي من الله رحمة ومن الملائكة رحمة واستدعاء الرحمة من الله. وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين.

والقول الثاني: أن صلاة الله مغفرته. قال إسماعيل ثنا محمد بن أبي بكر، ثنا محمد بن سواء، عن جويبر عن الضحاك: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُم﴾، قال:

(١) تقدم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف تفسيراً موسعًا اهـ.

صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء. وهذا القول هو من جنس الذي قبله وهما ضعيفان لوجوه:

أحدها: أن الله ـ سبحانه ـ فرق بين صلاته على عباده ورحمته فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِيْنَ. اَلَّذِيْنَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيْبَةٌ قَالُوا إِنّا لله وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧] فعطف الرحمة على الصلاة فاقتضىٰ ذلك تغايرهما، هذا أصل العطفَ، وأما قولهم:

وألفى قولها كذبا ومينا

فهو شاذ نادر لا يحمل عليه أفصح الكلام مع أن المين أخص من الكذب.

الوجه الثاني: أن صلاة الله ـ سبحانه ـ خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وأما رحمته فوسعت كل شيء، فليست الصلاة مرادفة للرحمة، لكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمراتها، فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمرتها ومقصودها، وهذا كثيراً ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن والرسول ﷺ يفسر اللفظة بلازمها وجزء معناها كتفسير الريب بالشك، والشك جزء مسمى الريب، وتفسير المغفرة بالستر؛ وهو جزء مسمى المغفرة، وتفسير الرحمة بإرادة الإحسان، وهو لازم الرحمة، ونظائر ذلك كثيرة، قد ذكرناها في أصول التفسير.

الوجه الثالث: أنه لا خلاف في جواز الرحمة على المؤمنين.

واختلف السلف والخلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء على ثلاثة أقوال سنذكرها فيها بعد إن شاء الله تعالى، فعلم أنهما ليسا بمترادفين.

الوجه الرابع: أنه لو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقامت مقامها في امتثال الأمر، وأسقطت الوجوب عند من أوجبها إذا قال: «اللهم ارحم محمداً وآل محمد» وليس الأمر كذلك.

الوجه الخامس: أنه لا يقال لمن رحم غيره ورق عليه فأطعمه أو سقاه أو كساه أنه صلى عليه، ويقال: إنه قد رحمه.

الوجه السادس: أن الإنسان قد يرحم من يبغضه ويعاديه، فيجد في قلبه له رحمة ولا يصلي عليه.

الوجه السابع: أن الصلاة لابد فيها من كلام، فهي ثناء من المصلي على

من يصلي عليه، وتنويه به، وإشارة لمحاسنه وما فيه، وذكره.

ذكر البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال: «صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة». وقال إسماعيل في كتابه: حدثنا نصر بن علي حدثنا خالد بن يزيد عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾[الأحزاب: ٥٦] قال: صلاة الله - عز وجل - ثناؤه عليه، وصلاة الملائكة عليه الدعاء.

الوجه الثامن: أن الله - سبحانه - فرق بين صلاته وصلاة ملائكته، وجمعهما في فعل واحد، فقال: ﴿إن اللَهَ وملائِكَتَهُ يُصَلُّون على النَّبِيِّ﴾ وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة، وإنما هي ثناؤه - سبحانه - وثناء ملائكته عليه، ولا يقال: الصلاة لفظ مشترك ويجوز أن يستعمل في معنييه معاً، لأن في ذلك محاذير متعددة:

أحدها: أن الاشتراك خلاف الأصل، بل لا يعلم أنه وقع في اللغة من واضع واحد، كما نص على ذلك أئمة اللغة منهم المبرد، وغيره وإنما يقع وقوعاً عارضاً اتفاقيًا بسبب تعدد الواضعين، ثم تختلط اللغة فيعرض الاشتراك.

الثاني: أن الأكثرين لا يجوزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز، وما حكى عن الشافعي - رضي الله عنه - من تجويزه ذلك؛ فليس بصحيح عنه، وإنما أخذ من قوله: «إذا أوصى لمواليه وله موال من فوق ومن أسفل تناول جميعهم» فظن من ظن أن لفظ «المولى» مشترك بينهما، وأنه عند التجرد يحمل عليهما، وهذا ليس بصحيح؛ فإن لفظ «المولى» من الألفاظ المتواطئة، فالشافعي، وأحمد - رضي الله عنهما - في ظاهر مذهبهما يقولان بدخول نوعي الموالي في هذا اللفظ، وهو عندهما متواطيء لا مشترك.

وأما ما حكي عن الشافعي رضي الله عنه - أنه قال في مفاوضة جرت له في قوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة: ٦]، وقد قيل له: قد يراد بالملامسة المجامعة، قال: «هي محمولة على الجس باليد حقيقة، وعلى الوقاع مجازاً» فهذا لا يصح عن الشافعي، ولا هو من جنس المألوف من كلامه، وإنما هذا كلام بعض الفقهاء المتأخرين، وقد ذكرنا على إبطال استعمال اللفظ المشترك في معنييه معاً

بضعة عشر دليلاً في مسألة ـ القرء ـ من كتاب التعليق على الأحكام.

فإذا كان معنى الصلاة هو الثناء على الرسول والعناية به وإظهار شرفه وفضله وحرمته، كما هو المعروف من هذه اللفظة، لم يكن الصلاة في الآية مشتركاً محمولاً على معنييه، بل يكون مستعملاً في معنى واحد، وهذا هو الأصل في الألفاظ. وسنعود إلى هذه المسألة ـ إن شاء الله تعالى ـ في الكلام على تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي**﴾.

الوجه التاسع: أن الله ـ سبحانه ـ أمر بالصلاة عليه عقيب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه. والمعنى: أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله فصلوا أنتم أيضاً عليه، فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليماً؛ لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من خير شرف الدنيا والآخرة.

ومن المعلوم أنه لو عبر عن هذا المعنى بالرحمة لم يحسن موقعه ولم يحسن النظم. فينقض اللفظ والمعنى، فيصير التقدير إلى أن الله وملائكته ترحم ويستغفرون لنبيه، فادعوا أنتم له وسلموا، وهذا ليس مراد الآية قطعًا؛ بل الصلاة المأمور بها فيها هي: الطلب من الله، ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناء عليه وإظهار لفضله وشرفه وإرادة تكريمه وتقريبه. فهي تتضمن الخبر والطلب، وسمي هذا السؤال والدعاء منا نحن: صلاة عليه، لوجهين:

أحدهما: أنه يتضمن ثناء المصلي عليه والإشارة بذكر شرفه، وفضله والإرادة والمحبة كذلك من الله ـ تعالى ـ فقد تضمنت: الخبر، والطلب.

والوجه الثاني: أن ذلك سمي منا: صلاة، لسؤالنا من الله أن يصلي عليه. فصلاة الله عليه: ثناؤه، وإرادته لرفع ذكره، وتقريبه. وصلاتنا نحن عليه: سؤالنا الله ـ تعالى ـ أن يفعل ذلك به، وضد هذا في لعنه أعداءه الشانئين لما جاء به، فإنها تضاف إلى الله، وتضاف إلى العبد، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ يَكْتُمُونَ مَاأَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهدى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّناهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابَ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ**﴾[البقرة: ١٥٩]. فلعنة الله لهم تتضمن: مقته، وإبعاده، وبغضه لهم، ولعنة العبد تتضمن: سؤال الله ـ تعالى ـ أن يفعل ذلك بمن هو أهل اللعنة.

وإذا ثبت هذا فمن المعلوم أنه لو كانت الصلاة هي الرحمة لم يصح أن يقال لطالبها من الله: مصلياً، وإنما يقال له: مسترحماً، كما يقال لطالب المغفرة: مستغفراً له، ولطالب العطف: مستعطفاً، ونظائره، ولهذا لايقال لمن سأل الله المغفرة لغيره، قد غفر له، فهو غافر، ولا لمن سأله العفو عنه قد عفا عنه. وهنا قد سمي العبد مصلياً، فلو كانت الصلاة هي الرحمة لكان العبد راحماً لمن صلى عليه، وكانَ يقال: قد رحمه برحمة، ومن رحم النبي ﷺ مرة رحمه الله بها عشرا، وهذا معلوم البطلان. فإن قيل: ليس معنى صلاة العبد عليه ﷺ رحمته، وإنما معناها: طلب الرحمة من الله. قيل: هذا باطل من وجوه:

أحدها: أن طلب الرحمة مشروع لكل مسلم، وطلب الصلاة من الله يختص برسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ عند كثير من الناس، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

الثاني: أنه لو سمي طالب الرحمة: مصلياً، لسمي طالب المغفرة: غافراً، وطالب العفو: عافياً، وطالب الصفح: صافحاً، ونحوه.

فإن قيل: فأنتم قد سميتم طالب الصلاة من الله مصلياً.

قيل: إنما سمي مصلياً لوجود حقيقة الصلاة منه، فإن حقيقتها الثناء، وإرادة الإكرام والتقريب وإعلاء المنزلة، وهذا حاصل من صلاة العبد؛ لكن العبد يريد ذلك من الله ـ عز وجل ـ والله ـ سبحانه ـ يريد ذلك من نفسه أن يفعله برسوله.

وأما على الوجه الثاني، وأنه سمي مصلياً لطلبه ذلك من الله فلأن الصلاة نوع من الكلام الطلبي والخبر والإرادة، وقد وجد ذلك من المصلي بخلاف الرحمة والمغفرة: فإنها أفعال لا تحصل من الطالب، وإنما تحصل من المطلوب منه، والله أعلم.

الوجه العاشر: أنه قد ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: «**أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشراً، وأن الله ـ سبحانه ـ قال له: من صلى عليك من أمتك مرة صليت عليه بها عشرا**»، وهذا موافق للقاعدة المستقرة في الشريعة: أن الجزاء من جنس العمل، فصلاة الله على المصلي على رسوله جزاء لصلاته هو عليه، ومعلوم أن صلاة العبد على رسول الله ﷺ ليست هي رحمة من العبد لتكون صلاة الله عليه من جنسها، وإنما هي ثناء على الرسول

ﷺ وإرادة من الله أن يعلي ذكره، ويزيده تعظيماً وتشريفاً؛ والجزاء من جنس العمل، فمن أثنى على رسول الله ﷺ جزاه الله من جنس عمله بأن يثنى عليه ويزيد تشريفه وتكريمه، فصح ارتباط الجزاء بالعمل ومشاكلته له ومناسبته له.

«من يسر على معسر يسر الله عليه حسابه ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة» «ومن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» «ومن صلى على النبي ﷺ مرة صلى الله عليه بها عشراً»، ونظائره كثيرة. يوضحه:

الوجه الحادي عشر: أن أحداً لو قال عن رسول الله: «رحمه الله» أو قال: «رسول الله رحمه الله» بدل ﷺ لبادرت الأمة إلى الإنكار عليه وعدوه مبتدعاً غير موقر للنبي ﷺ ولا مصل عليه ولا مثنٍ عليه بما يستحقه ولا يستحق أن يصلي عليه بذلك عشر صلوات، ولو كانت الصلاة من الله الرحمة لم يمتنع شيء من ذلك.

الوجه الثاني عشر: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: **﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾** [النور: ٦٣] فأمر سبحانه أن لا يُدعى رسوله بما يدعو الناس بعضهم بعضاً، بل يقال: يا رسول الله، ولا يقال: يامحمد، وإنما كان يسميه باسمه وقت الخطاب الكفار، وأما المسلمون فكانوا يخاطبونه برسول الله، وإذا كان هذا في خطابه فهكذا في مغيبه لا ينبغي أن يجعل ما يدعى به له من جنس ما يدعو به بعضنا لبعض، بل يدعو له بأشرف الدعاء، وهو الصلاة عليه. ومعلوم أن الرحمة يدعى بها لكل مسلم، بل ولغير الآدمي من الحيوانات، كما في دعاء الاستسقاء **«اللهم ارحم عبادك وبلادك وبهائمك»**.

الوجه الثالث عشر: أن هذه اللفظة لا تعرف في اللغة الأصلية بمعنى الرحمة أصلاً، والمعروف عند العرب من معناها إنما هوالدعاء والتبريك والثناء قال:

وإن ذكرت صلى عليها وزمزما

أي برك عليها ومدحها، ولا تعرف العرب قط: **«صلى عليه» بمعنى «رحمه» فالواجب حمل اللفظ على معناه المتعارف في اللغة.**

الوجه الرابع عشر: أنه يسوغ بل يستحب لكل واحد أن يسأل الله أن يرحمه فيقول: اللهم ارحمني كما علم النبي ﷺ الداعي أن يقول: «**اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني**»، فلما حفظها قال: «أما هذا فقد ملأ يديه من الخير».

ومعلوم أنه لا يسوغ لأحد أن يقول: «اللهم صلِّ عليّ» بل الداعي بهذا معتد في دعائه، والله لا يحب المعتدين، بخلاف سؤاله الرحمة، فإن الله يحب أن يسأله عبده: مغفرته ورحمته، فعلم أنه ليس معناهما واحداً.

الوجه الخامس عشر: أن أكثر المواضع التي تستعمل فيها الرحمة لا يحسن أن تقع فيها الصلاة كقوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله: «**إن رحمتي سبقت غضبي**» وقوله: ﴿**إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيْبٌ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ**﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقوله: ﴿**وكانَ بالمؤمنينَ رَحِيْماً**﴾ [الأحزاب: ٤٣] وقوله: ﴿**إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيْمٌ**﴾ [التوبة: ١١٧]، وقول النبي ﷺ: «**الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها**». وقوله: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»، وقوله: «**من لا يرحم لا يُرحَمُ**»، وقوله: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**» وقوله: «**والشاة إن رحمتها رحمك الله**».

فمواضع استعمال الرحمة في حق الله وفي حق العباد لا يحسن أن تقع الصلاة في كثير منها، بل في أكثرها، فلا يصح تفسير الصلاة بالرحمة، والله أعلم.

(١)**وقد** قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَه يُصَلونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾، قال: يباركون عليه، وهذا لا ينافي تفسيرها بالثناء وإرادة التكريم والتعظيم، فإن التبريك من الله يتضمن ذلك، ولهذا قرن بين الصلاة عليه والتبريك عليه، وقالت الملائكة لإبراهيم: ﴿**رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه عليكم أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾[هود: ٧٣] وقال المسيح: ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَاكُنْتُ**﴾ [مريم: ٣١] قال غير واحد من السلف: معلماً للخير أينما كنت، وهذا جزء المعنى، فالمبارك: كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليماً وإقداراً ونصحاً وإرادة واجتهاداً، ولهذا يكون العبد مباركاً لأن الله بارك فيه وجعله كذلك، والله تعالى متبارك لأن البركة كلها منه، فعبده المبارك وهو المتبارك. ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ**

---

(١) ٩٠ جلاء الأفهام.

لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١] وقوله: **﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [الملك: ١]، وسنعود إلى هذا المعنى عن قريب إن شاء الله تعالى. . . . .

وقد رد طائفة من الناس تفسير الصلاة من الله بالرحمة بأن قال: معناها رقة الطبع، وهي مستحيلة في حق الله ـ سبحانه ـ كما أن الدعاء منه ـ سبحانه ـ مستحيل، وهذا الذي قاله هذاعرق جهمي ينض من قلبه على لسانه، وحقيقته إنكار رحمة الله جملة، وكان جهم يخرج إلى الجذمى ويقول: أرحم الراحمين يفعل هذا؟! إنكاراً لرحمته سبحانه.

(١)**وقال** عبيدالله بن عمرو: حدثني بعض إخواني ممن أثق به قال: رأيت رجلاً من أهل الحديث في المنام فقلت: ماذا فعل الله بك؟ قال: رحمني، أو غفر لي. قلت: وبم ذاك؟ قال: إني كنت إذا أتيت على اسم النبي ﷺ كتبت ﷺ. ذكرها محمد بن صالح عن ثوابة عن سعيد بن مروان عنه.

وقد روى الحافظ أبو موسى في كتابه عن جماعة من أهل الحديث أنهم رؤوا بعد موتهم، وأخبروا أن الله غفر لهم بكتابتهم الصلاة على النبي ﷺ في كل حديث.

وقال ابن سنان: سمعت عباساً العنبري، وعلي بن المديني يقولان: ما تركنا الصلاة على النبي ﷺ في كل حديث سمعناه، وربما عجلنا فنبيض الكتاب في كل حديث حتى نرجع إليه.

فصل: الموطن الثاني والعشرون من مواطن الصلاة عليه ﷺ عند تبليغ العلم إلى الناس عند التذكير والقصص، وإلقاء الدرس، وتعليم العلم، في أول ذلك وآخره. قال إسماعيل بن إسحاق في كتابه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا حسين بن علي ـ وهو الجعفي ـ عن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبدالعزيز: «أما بعد: فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك، والصلاة على النبي ﷺ في هذا الموطن لأنه موطن لتبليغ العلم الذي جاء به ونشره في أمته وإلقائه إليهم ودعوتهم إلى سنته

(١) ٢٤٨ جلاء الأفهام.

وطريقته ﷺ. وهذا من أفضل الأعمال وأعظمها نفعًا للعبد في الدنيا والآخرة. . .

التاسعة والثلاثون[1] أنها متضمنة لذكر الله وشكره ومعرفة إنعامه على عبيده بإرساله، فالمصلي عليه ﷺ قد تضمنت صلاته عليه: ذكر الله، وذكر رسوله، وسؤاله أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله، كما عرفنا ربنا وأسماءه وصفاته وهدانا إلى طريق مرضاته، وعرفنا ما لنا بعد الوصول إليه، والقدوم عليه، فهي متضمنة لكل الإيمان، بل هي متضمنة للإقرار بوجوب الرب المدعو وعلمه وسمعه وقدرته وإرادته وصفاته وكلامه، وإرسال رسوله وتصديقه في أخباره كلها وكمال محبته ولا ريب أن هذه هي أصول الإيمان، فالصلاة عليه ﷺ متضمنة لعلم العبد ذلك، وتصديقه به ومحبته له، فكانت من أفضل الأعمال.

الأربعون : أن الصلاة عليه ﷺ من العبد هي دعاء، ودعاء العبد وسؤاله من ربه نوعان: أحدهما: سؤاله حوائجه ومهماته وما ينوبه في الليل والنهار، فهذا دعاء وسؤال وإيثار لمحبوب العبد ومطلوبه.

والثاني: سؤاله أن يثني على خليله وحبيبه، ويزيد في تشريفه وتكريمه، وإثارة ذكره، ورفعه، ولا ريب أن الله ـ تعالى ـ يحب ذلك ورسوله يحبه، فالمصلي عليه ﷺ قد صرف سؤاله ورغبته وطلبه إلى محاب الله ورسوله، وآثر ذلك على طلبه حوائجه ومحابه هو، بل كان هذا المطلوب من أحب الأمور إليه، وآثر عنده فقد آثر ما يحبه الله ورسوله، فقد آثر الله ومحابه على ماسواه، والجزاء من جنس العمل، فمن آثر الله على غيره آثره الله على غيره، واعتبر هذا بما تجد الناس يعتمدونه عند ملوكهم ورؤسائهم إذا أرادوا التقرب والمنزلة عندهم، فإنهم يسألون المطاع أن ينعم على من يعلمونه أحب رعيته إليه، وكلما سألوه أن يزيد في حبائه وإكرامه وتشريفه علت منزلتهم عنده وازداد قربهم منه وحظوا بهم لديه لأنهم يعلمون منه إرادة الإنعام والتشريف والتكريم لمحبوبه، فأحبهم إليه: أشدهم له سؤالاً ورغبة أن يتم عليه إنعامه وإحسانه، هذا أمر مشاهد بالحس، ولا يكون منزلة هؤلاء ومنزلة من سأل المطاع حوائجه هو وفارغ من سؤاله تشريف محبوبه والإنعام عليه واحدة، فكيف بأعظم محب وأجله الأكرم محبوب وأحقه بمحبة ربه له؟ ولو لم يكن من فوائد

(١) ٢٦٩ جلاء الأفهام.

الصلاة عليه إلا هذا المطلوب وحده لكفى المؤمن به شرفاً.

وههنا نكتة حسنة لمن علم أمته دينه، وما جاءهم به، ودعاهم إليه، وحضهم عليه، وصبر على ذلك، وهي أن النبي ﷺ له من الأجر الزائد على أجر عمله مثل أجور من اتبعه، فالداعي إلى سنته ودينه والمعلم الخير للأمة إذا قصد توفير هذا الحظ على رسول الله ﷺ وصرفه إليه وكان مقصوده بدعاء الخلق إلى الله التقرب إليه بإرشاد عباده وتوفير أجور المطيعين له على رسول الله ﷺ مع توفيتهم أجورهم كاملة كان له من الأجر في دعوته وتعليمه بحسب هذه النية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١)**وأما** السؤال الرابع: وهو ما معنى السلام المطلوب عند التحية: «ففيه قولان مشهوران»: أحدهما: أن المعنى اسم السلام عليكم، والسلام هنا هو الله عز وجل. ومعنى الكلام نزلت بركة اسمه عليكم وحلت عليكم، ونحو هذا، واختير في هذا المعنى من أسمائه ـ عز وجل ـ اسم السلام دون غيره من الأسماء، لما يأتي في جواب السؤال الذي بعده، واحتج أصحاب هذا القول بحجج منها: ما ثبت في الصحيح أنهم كانوا يقولون في الصلاة: «السلام على الله قبل عباده، السلام على جبريل، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: «**لا تقولوا السلام على الله، فإن الله هو: السلام، ولكن قولوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**». فنهاهم النبي ﷺ أن يقولوا السلام على الله لأن السلام على(٢) المسلم عليه دعاء له، وطلب أن يسلم، والله ـ تعالى ـ هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له، فيستحيل أن يسلم عليه، بل هو ا لمسلم على عباده، كما سلم عليهم في كتابه حيث يقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزةِ عَمّا يصفونَ وسَلامٌ على المُرْسَلين﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١]، وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْراهِيْمَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إلْ يَاسِينْ﴾ [الصافات: ١٠٩، ٧٩، ١٣٠]، وقال في يحيى: ﴿وسلام عليه﴾ وقال لنوح: ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾. [هود: ٤٨].

ويسلم يوم القيامة على أهل الجنة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَهُمْ فِيْهَا فَاكِهَةٌ

(١) ١٤٠ بدائع جـ٢.　　(٢) في نسخة هو للمسلم عليه.

وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ، [يس: ٥٧، ٥٨]، **فقولاً منصوب على المصدر وفعله ما تضمنه سلام من القول لأن السلام قول.**

وفي مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه(١)، من حديث محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوقهم، فرفعوا رءوسهم فإذا الجبار - جل جلاله - قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: ياأهل الجنة سلام عليكم، ثم قرأ: قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾** [يس: ٥٨]، **ثم يتوارى عنهم فتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم**».

وفي سنن ابن ماجه مرفوعاً: «**أول من يسلم عليه الحق يوم القيامة عمر**».

وقال تعالى: **﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾** [الأحزاب: ٤٤]، فهذا تحيتهم يوم يلقونه - تبارك وتعالى - ومحال أن تكون هذه تحية منهم له، فإنهم أعرف به من أن يسلموا عليه، وقد نهوا عن ذلك في الدنيا، وإنما هذا تحية منه لهم، والتحية هنا مضافة إلى المفعول، فهي التحيةالتي يحيون بها، لا التحية التي يحيونه هم بها، ولولا قوله تعالى في سورة يس: **﴿قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾** لاحتمل أن تكون التحية لهم من الملائكة كما قال تعالى: **﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾** ولكن هذا سلام الملائكة إذا دخلوا عليهم وهم في منازلهم من الجنة يدخلون مسلمين عليهم. وأما التحية المذكورة في قوله: **﴿تَحِيَّتُهُم يوم يَلْقَونَه سَلَامٌ﴾** فتلك تحية لهم وقت اللقاء كما يحيي الحبيب حبيبه إذا لقيه، فماذا حرم المحجوبون عن ربهم يومئذ!!

يكفي الذي غاب عنك غيبته		فذاك ذنب عقابه فيه

والمقصود أن الله - تعالى - يطلب منه السلام، فلا يمتنع في حقه أن يسلم على عباده ولا يطلب له، فلذلك لا يسلم عليه. وقوله ﷺ: «**إن الله هو السلام**» صريح في كون السلام اسماً من أسمائه، قالوا: فإذا قال المسلم: سلام عليكم. كان معناه اسم السلام عليكم. ومن حججهم ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر: «**أن رجلاً سلم على النبي ﷺ فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار، ثم تيمم ورد عليه، وقال: «إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر**»، قالوا: ففي هذا الحديث

---

(١) في نسخة وسنن أبي داود.

بيان أن السلام ذكر الله، وإنما يكون ذكراً إذا تضمن اسماً من أسمائه.

ومن حججهم أيضاً: أن الكفار من أهل الكتاب لا يبدءون بالسلام، فلا يقال لهم: سلام عليكم. ومعلوم أنه لا يكره أن يقال لأحدهم: سلمك الله. وما ذاك إلا أن السلام اسم من أسماء الله، فلا يسوغ أن يطلب للكافر حصول بركة ذلك الاسم عليه. فهذه حجج كما ترى قوية ظاهرة.

القول الثاني أن السلام مصدر بمعنى السلامة وهو المطلوب المدعوّ به عند التحية. ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يذكر[1]، بلا ألف ولام، بل يقول المسلم: سلام عليكم، ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك، بل كان يطلق عليه معرفاً، كما يطلق عليه سائر أسمائه الحسنى، فيقال: ﴿السَّلامُ الْمُؤمِنُ الْمُهيمِنُ الْعَزِيْزُ الجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرِ﴾، فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلى معين فضلاً عن أن يصرفه إلى الله وحده بخلاف المعرف فإنه ينصرف إليه تعيينًا إذا ذكرت أسماؤه الحسنى.

ومن حججهم أيضاً أن عطف الرحمة والبركة عليه في قوله: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته يدل على أن المراد به المصدر، ولهذا عطف عليه مصدرين مثله.

ومن حججهم أيضاً أنه لو كان السلام هنا اسماً من أسماء الله لم يستقم الكلام إلا بإضمار وتقدير يكون به مقيداً ويكون المعنى بركة اسم السلام عليكم فإن الاسم نفسه ليس عليهم ولو قلت اسم الله عليك كان معناه بركة هذا الاسم.

ونحو ذلك من التقدير ومعلوم أن هذا التقدير خلاف الأصل ولا دليل عليه.

ومن حججهم أيضاً أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء وكما يأتي في جواب السؤال الذي بعد هذا ولهذا كان السلام أماناً لتضمنه معني السلامة وأمن كل واحد من المسلم والراد عليه من صاحبه. قالوا: فهذا كله يدل على أن السلام مصدر بمعنى: السلامة، وحذفت تاؤه لأن المطلوب هذا الجنس لا المرة الواحدة منه والتاء تفيد التحديد كما تقدم.

وفصل الخطاب في هذه المسألة أن يقال الحق في مجموع القولين فكل منهما بعض الحق والصواب في مجموعهما، وإنما تبين ذلك بقاعدة قد أشرنا إليها مرارًا.

وهي أن من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل إليه

(١) في نسخة: أنه ينكر بلا وفي المخطوطة منكر بلا ألف.

بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله حتى كأن الداعي مستشفع إليه متوسل إليه به، فإذا قال: «رب اغفر لي وتب علي أنك أنت التواب الغفور». فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه.

وكذلك قول النبي ﷺ لعائشة وقد سألته ما تدعو به إن وافقت ليلة القدر: «**قولي: اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني**».

وكذلك قوله للصديق وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**». وهذا كثيراً جدًّا فلا نطول بإيراد شواهده.

وإذا ثبت هذا فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله وهو السلام الذي يطلب منه السلامة، فتضمن لفظ السلام معنيين: أحدهما ذكر الله، كما في حديث ابن عمر، والثاني طلب السلامة، وهومقصود المسلم، فقد تضمن سلام عليكم اسماً من أسماء الله، وطلب السلامة منه، فتأمل هذه الفائدة.

وقريب من هذا ما روي عن بعض السلف أنه قال في آمين: إنه اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ وأنكر كثير من الناس هذا القول، وقالوا: ليس في أسمائه آمين. ولم يفهموا معنى كلامه، فإنه إنما أراد أن هذه الكلمة تتضمن اسمه ـ تبارك وتعالى ـ فإن معناها: استجب، وأعط ما سألناك، فهي متضمنة لاسمه مع دلالتها على الطلب، وهذا التضمن في سلام عليكم أظهر، لأن السلام من أسمائه ـ تعالى ـ فهذا كشف سر المسألة.

فصل(١)

وأما السؤال الرابع والعشرون وهو: ما الحكمة في تأكيد الأمر بالسلام على النبي ﷺ بالمصدر دون الصلاة عليه في قوله: ﴿**صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسلِيما**﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فجوابه: أن التأكيد واقع على الصلاة والسلام، وإن اختلفت جهة التأكيد، فإنه ـ سبحانه ـ أخبر في أول الآية بصلاته عليه وصلاة ملائكته عليه، مؤكداً لهذا الإخبار بحرف أن مخبراً عن الملائكة بصيغة الجمع المضاف إليه، وهذا يفيد العموم، والاستغراق، فإذا استشعرت النفوس أن شأنه ﷺ عند الله وعند

(١) ١٨٨ بدائع جـ٢.

ملائكته هذا الشأن بادرت إلى الصلاة عليه، وإن لم تؤمر بها، بل يكفي تنبيهها والإشارة إليها بأدنىٰ إشارة، فإذا أمرت بها لم تحتج إلى تأكيد الأمر، بل إذا جاء مطلق الأمر بادرت وسارعت إلى موافقة الله وملائكته في الصلاة عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فلم يحتج إلى تأكيد الفعل بالمصدر، ولما خلا السلام عن هذا المعنى وجاء في حيز الأمر المجرد دون الخبر حسن تأكيده بالمصدر ليدل على تحقيق المعنى وتثبيته ويقوم تأكيد الفعل مقام تكريره، كما حصل التكرير في الصلاة خبراً وطلباً، فكذلك حصل التكرير في السلام فعلاً ومصدراً، فتأمله فإنه بديع جدًّا، والله أعلم، وقد ذكرنا بعض ما في هذه الآية من الأسرار والحكم العجيبة في كتاب تعظيم شأن الصلاة والسلام على خير الأنام، وأتينا فيه من الفوائد بما يساوي أدناها رحلة مما لا يوجد في غيره، ولله الحمد، فلنقتصر على هذه النكتة الواحدة.

فصل

وأما السؤال الخامس والعشرون: وهو ماالحكمة في تقديم السلام على النبي ﷺ في الصلاة قبل الصلاة عليه وهلا وقعت البداءة بما بدأ الله به في الآية.

فهذا سؤال أيضاً له شأن لا ينبغي الإضراب عنه صفحاً وتمشية، والنبي ﷺ كان شديد التحري لتقديم ما قدمه الله والبداءة بما بدأ به.

فلهذا بدأ بالصفا في السعي وقال: نبدأ بما بدأ الله به.

وبدأ بالوجه ثم اليدين ثم الرأس في الوضوء، ولم يخل بذلك مرة واحدة، بل كان هذا وضوءه إلى أن فارق الدنيا لم يقدم منه مؤخراً، ولم يؤخر منه مقدماً قط، ولا يقدر أحد أن ينقل عنه خلاف ذلك؛ لا بإسناد صحيح ولا حسن ولا ضعيف، ومع هذا فوقع في الصلاة والسلام عليه تقديم السلام وتأخير الصلاة.

وذلك لسر من أسرار الصلاة نشير إليه بحسب الحال إشارة، وهو أن الصلاة قد اشتملت على عبودية جميع الجوارح والأعضاء مع عبودية القلب، فلكل عضو منها نصيب من العبودية، فجميع أعضاء المصلي وجوارحه متحركة في الصلاة عبودية لله وذلاً له وخضوعاً، فلما أكمل المصلي هذه العبودية وانتهت حركاته

ختمت بالجلوس بين يدي الرب تعالى جلوس تذلل وانكسار وخضوع لعظمته - عز وجل - كما يجلس العبد الذليل بين يدي سيده، وكان جلوس الصلاة أخشع ما يكون من الجلوس وأعظمه خضوعاً وتذللاً، فإذن للعبد في هذه الحال بالثناء على الله - تبارك وتعالى - بأبلغ أنواع الثناء، وهو التحيات لله والصلوات والطيبات.

وعادتهم إذا دخلوا على ملوكهم أن يحيوهم بما يليق بهم، وتلك التحية تعظيم لهم وثناء عليهم، والله أحق بالتعظيم والثناء من كل أحد من خلقه، فجمع العبد في قوله: التحيات والصلوات والطيبات أنواع الثناء على الله، وأخبر أن ذلك له وصفاً وملكاً، وكذلك الصلوات كلها لله فهو الذي يصلى له وحده لا لغيره، وكذلك الطيبات كلها من الكلمات والأفعال كلها له: فكلماته طيبات، وأفعاله كذلك، وهو طيب لا يصعد إليه إلا طيب، والكلم الطيب إليه يصعد، فكانت الطيبات كلها له ومنه وإليه، له ملكاً ووصفاً، ومنه مجيئها وابتداؤها، وإليه مصعدها ومنتهاها، والصلاة مشتملة على: عمل صالح، وكلم طيب، والكلم الطيب إليه يصعد والعمل الصالح يرفعه، فناسب ذكر هذا عند انتهاء الصلاة وقت رفعها إلى الله تعالى، فلما أتى بهذا الثناء على الرب - تعالى - التفت إلى شأن الرسول الذي حصل هذا الخير على يديه فسلم عليه أتم سلام معرف باللام التي للاستغراق مقروناً بالرحمة والبركة هذا هو أصح شيء في السلام عليه فلا تبخل عليه بالألف واللام في هذا المقام.

ثم انتقل إلى السلام على نفسه وعلى سائر عباد الله الصالحين، وبدأ بنفسه لأنها أهم، والإنسان يبدأ بنفسه، ثم بمن يعول، ثم ختم هذا المقام بعقد الإسلام، وهو التشهد بشهادة الحق التي هي أول الأمر وآخره، وعندها كمل الثناء والتشهد.

ثم انتقل إلى نوع آخر وهو الدعاء والطلب، فالتشهد يجمع نوعي الدعاء: دعاء الثناء والخير، ودعاء الطلب والمسألة، والأول أشرف النوعين، لأنه حق الرب ووصفه، والثاني حظ العبد ومصلحته. وفي الأثر: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

لكن لما كانت الصلاة أتم العبادات عبودية وأكملها شرع فيها النوعين وقدم

الأول منهما لفضله، ثم انتقل إلى النوع الثاني وهودعاء الطلب والمسألة، فبدأ بأهمه وأجله وأنفعه له، وهو طلب الصلاة من الله على رسوله ﷺ وهو من أجل أدعية العبد وأنفعها له في دنياه وأخرته، كما ذكرناه في كتاب تعظيم شأن الصلاة على النبي ﷺ وفيه أيضاً أن الداعي جعله مقدمةبين يدي حاجته وطلبه لنفسه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى في قوله ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه. وكذلك في حديث فضالة بن عبيد إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصلِّ على النبي ﷺ ثم ليدع.

فتأمل كيف جاء التشهد من أوله إلى آخره مطابقاً لهذا منتظماً له أحسن انتظام، فحديث فضالة هذا هو الذي كشف لنا المعنى وأوضحه وبينه فصلوات الله وسلامه على من أكمل لنا دينه وأتم برسالته علينا نعمته وجعله رحمة للعالمين وحسرة على الكافرين.

فصل

وأما السؤال السادس والعشرون: وهو: ماالحكمة في كون السلام وقع بصيغة الخطاب والصلاة بصيغة الغيبة؟ فجوابه: يظهر مما تقدم.

فإن الصلاة عليه طلب وسؤال من الله أن يصلي عليه، فلا يمكن فيها إلا لفظ الغيبة، إذ لا يقال: اللهم صل عليك، وأما السلام عليه فأتى بلفظ الحاضر المخاطب تنزيلاً له منزلة المواجه لحكمة بديعة جدًا وهي أنه ﷺ لما كان أحبّ إلى المؤمن من نفسه التي بين جنبيه، وأولى به منها، وأقرب، وكانت حقيقته الذهنية ومثاله العلمي موجوداً في قلبه، بحيث لا يغيب عنه إلا شخصه كما قال القائل.

مثالك في عيني وذكرك في فمي ومثـواك في قلبي فأين تغيب

ومن كان بهذه الحال فهو الحاضر حقًا، وغيره وإن كان حاضراً للعيان فهو غائب عن الجنان، فكان خطابه خطاب المواجهة والحضور بالسلام عليه أولى من سلام الغيبة تنزيلاً له منزلة المواجه المعاين لقربه من القلب وحلوله في جميع أجزائه بحيث لا يبقى في القلب جزء إلا ومحبته وذكره فيه كما قيل:

لو شق عن قلبي يرى وسطه ذكرك

والتوحيد في سطر لا إلـه إلا الله محمد رسول الله.

ولا تستنكر استيلاء المحبوب على قلب المحب وغلبته عليه حتى كأنه يراه، ولهذا تجدهم في خطابهم لمحبوبهم إنما يعتمدون خطاب الحضور والمشاهدة مع غاية البعد العياني لكمال القرب الروحى فلم يمنعهم بعد الأشباح عن محادثة الأرواح ومخاطبتها، ومن كثفت طباعه فهو عن هذا كله بمعزل وأنه ليبلغ الحب ببعض أهله أن يرى محبوبه في القرب إليه بمنزلة روحه التي لا شيء أدنىٰ إليه منها كما قيل:

يا مقيماً مدا الزمان بقلبي وبعيداً عن ناظري وعياني
أنت روحي إن كنت لست أراها فهي أدنىٰ إليّ من كل داني.....

فصل(١)

وأما السؤال السابع والعشرون وهو: ماالحكمة في ورود الثناء على الله في التشهد بلفظ الغيبة مع كونه سبحانه هو المخاطب الذي يناجيه العبد والسلام على النبي ﷺ بلفظ الخطاب مع كونه غائباً (فجوابه) أن الثناء على الله عامة ما يجيء مضافاً إلى أسمائه الحسنى الظاهرة دون الضمير إلا أن يتقدم ذكر الاسم الظاهر فيجيء بعده المضمر وهذا نحو قول المصلي: ﴿الحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِيْنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٢-٥]. وقوله في الركوع: «**سبحان ربي العظيم**»، وفي السجود: «**سبحان ربي الأعلى**» وفي هذا من السر أن تعليق الثناء بأسمائه الحسنى هو لما تضمنت معانيها من صفات الكمال ونعوت الجلال فأتىٰ بالاسم الظاهر الدال على المعنى الذي يثني به ولأجله عليه تعالى ولفظ الضمير لا إشعار له بذلك، ولهذا إذا كان ولابد من الثناء عليه بخطاب المواجهة أتىٰ بالاسم الظاهر مقروناً بميم الجمع الدالة على جميع الأسماء والصفات نحو قوله في رفع رأسه من الركوع: «**اللهم ربنا لك الحمد**».

وربما اقتصر على ذكر الرب تعالى لدلالة لفظه على هذا المعنى فتأمله فإنه لطيف المنزع جدًّا، وتأمل كيف صدر الدعاء المتضمن للثناء والطلب بلفظة اللهم كما في سيد الاستغفار: «**اللهم أنت ربي لا إلـه إلا أنت خلقتني وأنا عبدك**». الحديث. وجاء الدعاء المجرد مصدراً بلفظ الرب نحو قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣]وقول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣]، وقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَالَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧]. وكان النبي ﷺ يقول بين السجدتين: «**ربِّ اغفِر لي، ربِّ اغفِر لي**» وسر ذلك أن الله تعالى يسئل بربوبيته المتضمنة قدرته

(١) ١٩٣ بدائع جـ٢.

وإحسانه وتربيته عبده وإصلاح أمره ويثني عليه بإلـهيته المتضمنة إثبات ما يجب له من الصفات العلى والأسماء الحسنىٰ. وتدبر طريقة القرآن تجدها كما ذكرت لك. فأما الدعاء فقد ذكرنا منه أمثلة، وهو في القرآن حيث وقع لا يكاد يجيء إلا مصدر باسم الرب.

وأما الثناء فحيث وقع فمصدر بالأسماء الحسنى وأعظم ما يصدر به اسم الله جل جلاله نحو: (الحمد لله) حيث جاء ونحو، (فسبحان الله) وجاء: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ [الصافات: ١٨٠] ونحوه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الأَرْضِ﴾ [الحشر: ١]، حيث وقعت. ونحو: ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف: ٧]. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينْ﴾ [المؤمنون: ١٤]. و﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾ [الفرقان: ١] ونظائره[1].

[2]**وأما** السؤال الثامن والعشرون فقد تضمن سؤالين: أحدهما: ماالسر في كون السلام في آخر الصلاة. والثاني: لم كان معرفاً (والجواب): أما اختتام الصلاة به، فإنه قد جعل الله لكل عبادة تحليلاً منها.

فالتحليل: من الحج بالرمي وما بعده وكذلك التحلل من الصوم بالفطر بعد الغروب فجعل السلام تحليلاً من الصلاة، كما قال النبي ﷺ: **«تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم»**. تحريمها هنا هو بابها الذي يدخل منه إليها. وتحليلها بابها الذي يخرج به منها.

فجعل التكبير باب الدخول، والتسليم باب الخروج، لحكمة بديعة بالغة يفهمها من عقل عن الله وألزم نفسه بتأمل محاسن هذا الدين العظيم وسافر فكره في استخراج حكمه وأسراره، وبدائعه وتغرب عن عالم العادة والإلف، فلم يقنع بمجرد الأشباح حتى يعلم ما يقوم بها من الأرواح، فإن الله لم يشرع شيئاً سدى، ولا خلوا من حكمة بالغة، بل في طوايا ما شرعه وأمر به من الحكم والأسرار التي تبهر العقول ما يستدل به الناظر فيه على ما وراءه، فيسجد القلب خضوعاً وإذعاناً.

فنقول وبالله التوفيق: لما كان المصلي قد تخلى عن الشواغل، وقطع جميع العلائق، وتطهر، وأخذ زينته، وتهيأ للدخول على الله ومناجاته شرع له أن يدخل عليه دخول العبيد على الملوك، فيدخل بالتعظيم والإجلال، فشرع له أبلغ لفظ يدل على هذا المعنى، وهو قول: الله أكبر. فإن في اللفظ من التعظيم والتخصيص والإطلاق في جانب المحذوف المجرور بمن لا يوجد

---

(١) تكملة البحث في سورة المائدة لعلاقته به في طلب المسيح المائدة من ربه (ج). (٢) ١٩٥ بدائع جـ٢.

في غيره، ولهذا كان الصواب أن غير هذا اللفظ لا يقوم مقامه ولا يؤدي معناه، ولا تنعقد الصلاة إلا به كما هو مذهب أهل المدينة وأهل الحديث.

فجعل هذا اللفظ، واستشعار معناه، والمقصود به: باب الصلاة الذي يدخل العبد على ربه منه، فإنه إذا استشعر بقلبه أن الله أكبر من كل ما يخطر بالبال استحيى منه أن يشغل قلبه في الصلاة بغيره، فلا يكون موفياً لمعنىٰ الله أكبر، ولا مؤدياً لحق هذا اللفظ، ولا أتىٰ البيت من بابه، بل الباب عنه مسدود.

وهذا بإجماع السلف أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها وحضره بقلبه. وما أحسن ما قال أبو الفرج ابن الجوزي في بعض وعظه حضور القلب أول منزل من منازل الصلاة، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى، فإذا رحلت عنها أنخت بباب المناجاة، فكان أول قرى الضيف اليقظة، وكشف الحجاب لعين القلب، فكيف يطمع في دخول مكة من لا خرج إلى البادية، وقد تبعث قلبك في كل واد، فربما تفجأك الصلاة وليس قلبك عندك، فتبعث الرسول وراءه فلا يصادفه فتدخل في الصلاة بغير قلب.

والمقصود أنه قبيح بالعبد أن يقول بلسانه: الله أكبر، وقد امتلأ قلبه بغير الله، فهو قبلة قلبه في الصلاة، ولعله لا يحضر بين يدي ربه في شيء منها. فلو قضى حق: الله أكبر، وأتى البيت من بابه، لدخل، وانصرف بأنواع التحف والخيرات، فهذا الباب الذي يدخل منه المصلي وهو التحريم. وأما الباب الذي يخرج منه فهو باب السلام المتضمن أحد الأسماء الحسنى، فيكون مفتتحاً لصلاته باسمه تبارك وتعالى ومختتمًا لها باسمه، فيكون ذاكراً لاسم ربه أول الصلاة وآخرها، فأولها باسمه، وآخرها باسمه، فدخل فيها باسمه، وخرج منها باسمه، مع ما في اسم السلام من الخاصية والحكمة المناسبة لانصراف المصلي من بين يدي الله، فإن المصلي ما دام في صلاته بين يدي ربه فهو في حماه الذي لا يستطيع أحد أن يخفره، بل هو في حمى من جميع الآفات والشرور، فإذا انصرف من بين يديه - تبارك وتعالى - ابتدرته الآفات والبلايا والمحن، وتعرضت له من كل جانب، وجاءه الشيطان بمصائده وجنده، فهو متعرض لأنواع البلايا والمحن فإذا انصرف من بين يدي الله مصحوباً بالسلام لم يزل عليه حافظ من الله إلى وقت الصلاة الأخرى.

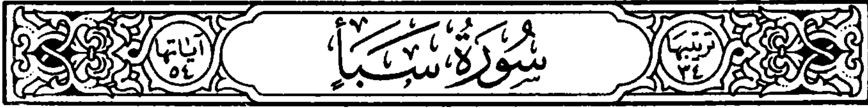
وكان من تمام النعمة عليه أن كون انصرافه من بين يدي ربه بسلام يستصحبه ويدوم له ويبقى معه. فتدبر هذا السر الذي لو لم يكن في هذا التعليق غيره لكان كافياً فكيف وفيه من الأسرار والفوائد ما لا يوجد عند أبناء الزمان والحمد في ذلك لله وحده. فكما أن المنعم به هو الله وحده

فالمحمود عليه هو الله وحده. وقد عرف بهذا جواب السؤال الثاني، وهو مجيء السلام هنا معرفاً ليكون دالاً على اسمه السلام. وليكن هذا آخر الكلام في مسألة: سلام عليكم فلولا قصد الاختصار لجاءت مجلداً ضخماً، هذا ولم نتعرض فيها إلى المسائل المسطورة في الكتب من فروع السلام ومسائله فإنها مملوءة منها فمن أرادها فليأخذها من هنا وهناك والحمد لله رب العالمين.

(١)**الدليل** الحادي عشر. قوله- تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾** [الأحزاب: ٥٧]. وهذه الأفعال أذى لله ورسوله قطعاً، بل أذى الله ورسوله يحصل بدونها. وقال ـ تعالى ـ: **﴿أُولَئِكَ الَّذِيْنَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾** [النساء: ٥٢]، فيجب أن يكون هذا الملعون في الدنيا والآخرة عادم النصير بالكلية، فلو كان ماله ودمه معصومين لوجب على المسلمين نصرته، وكانوا كلهم أنصاره وهذه مخالفة لقوله: **﴿فلن تجد له نصيرا﴾** . . . .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأحزاب
والحمد لله رب العالمين

(١) ٨٢٨ أحكام أهل الذمة جـ٢.



بسم الله الرحمن الرحيم

. . . (١)**وممـا** تقدم بالرتبة ذكر السمع والعلم حيث وقع ؛ فإنه خبر يتضمن التخويف والتهديد فبدأ بالسمع لتعلقه بما قرب كالأصوات وهمس الحركات ، فإن من سمع حسك وخفِيِّ صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك أنه يعلم ، وإن كان علمـه تعالى متعلقًا بما ظهر وبطن وواقعًا على ما قرب وشطن ، ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم فهو أولى بالتقديم .

وأما تقديم الغفور على الرحيم فهو أولى بالطبع ؛ لأن المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمة ، والسلامة تطلب قبل الغنيمة . وفي الحديث أن النبي ، ﷺ ، قال لعمرو بن العـاص : «**أبعثـك وجهًـا يسلمك الله فيه ويغنمك وأرغب لك رغبة من المال**» .

فهذا من الترتيب البديع بدأ بالسلامة قبل الغنيمة ، وبالغنيمة قبل الكسب .

وأما قوله : ﴿**وهو الرحيم الغفور**﴾ في سبأ ، فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة ، فإما بالفضل والكمال ، وإما بالطبع ؛ لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان ، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصهم .

والعمـوم بالـطبـع قبـل الخصـوص كقـولـه : ﴿**فـاكِهـةٌ ونَخْلٌ ورُمَّان**﴾ . [الرحمن : ٦٨] . وكقوله : ﴿**وملائِكتِهِ وجِبْرِيلَ ومِيكال**﴾ . [البقرة : ٩٨] .

(٢)**وأما** تقديم الرحيم على الغفور في موضع واحد وهو أول سبأ ففيه معنى غير ما ذكره يظهره لمن تأمل سياق أوصافه العلى ؛ وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله وهو الرحيم الغفور .

فإنه ابتدأ سبحانه السورة بحمده الذي هو أعم المعارف وأوسع العلوم ، وهو متضمن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله مستلزم لها ، كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله وأوامره فهو المحمود على كل حال ، وعلى كل ما خلقه وشرعه .

ثم عقب هذا الحمـد بملكه الواسع المديد فقال : ﴿**الحمدُ لله الذي لهُ مَا في السَّمواتِ وما في الأَرض**﴾ . [سبأ : ١] .

---

(١) ٦٣ البدائع جـ١ . (٢) ٧٩ البدائع جـ١ .

ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابت له في الآخرة غير منقطع أبدًا، فإنه حمد يستحق لذاته وكمال أوصافه، وما يستحقه لذاته دائم بدوامه لا يزول أبدًا، وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه، فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر؛ فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصًا، والحمد بلا ملك يستلزم عجزًا، والحمد مع الملك غاية الكمال.

ونظير هذا العزة والرحمة، والعفو والقدرة، والغنى والكرم، فوسط الملك بين الجملتين فجعله محفوفًا بحمد قبله وحمد بعده.

ثم عقب هذا الحمد والملك بإسمَي الحكيم الخبير الدالين على كمال الإرادة، وأنها لا تتعلق بمراد إلا لحكمة بالغة، وعلى كمال العلم، وأنه كما يتعلق بظواهر المعلومات فهو متعلق ببواطنها التي لا تدرك إلا بخبرة، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهر والحكمة باطنة، والعلم ظاهر والخبرة باطنة، فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفًا عن الخبرة، فالخبرة باطن العلم وكماله، والحكمة باطن الإرادة وكمالها. فتضمنت الآية إثبات حمده وملكه وحكمته وعلمه على أكمل الوجوه.

ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر وما بطن في العالم العلوي والسفلي فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنهَا وما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيها﴾. [سبأ: ٢].

ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه وهما الرحمة والمغفرة فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم ويهب لهم ذنوبهم ولا يؤاخذهم بها بمغفرته فقال: ﴿وهُوَ الرَّحيمُ الغَفُور﴾. [سبأ: ٢].

فتضمنت هذه الآية سعة علمه ورحمته وحكمته ومغفرته. وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم.

فمن الأول قوله: ﴿ربَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وعِلْمًا﴾. [غافر: ٧].

ومن الثاني ﴿والله عليم حليم﴾ [النساء: ١٢]، فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم، وحملة العرش أربعة اثنان يقولان: سبحانك

اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك.

فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم، لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم. وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا**﴾. ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير.

ولما كان دفع الشر مقدمًا على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع.

ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور.

(١)**وأما** تقديم السماء على الأرض ففيه معنى آخر غير ما ذكره، وهو أن غالبًا تذكر السموات والأرض في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته وربوبيته.

ومعلوم أن الآيات في السموات أعظم منها في الأرض لسعتها وعظمها، وما فيها من كواكبها وشمسها وقمرها وبروجها، وعلوها واستغنائها عن عمد تقلها أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها التي الأرض وما فيها كقطرة في سعتها. ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع الناظر البصر فيها كرة بعد كرة ويتأمل استواءها واتساقها وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض، وفي كل شيء له آية سبحانه وبحمده.

وأما تقديم الأرض عليها في قوله ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾ [يونس: ٦١]. وتأخيرها عنها في سبأ، فتأمل كيف وقع هذا الترتيب في سبأ في ضمن قول الكفار ﴿**لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ**﴾. [سبأ: ٣]. كيف قدم السموات هنا لأن الساعة إنما تأتي من قِبَلها وهي غيب فيها ومن جهتها تبتديء وتنشأ، ولهذا قدم صعق أهل السموات على أهل الأرض عندها فقال تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**﴾. [الزمر: ٦٨].

(١) ٧٤ البدائع جـ١.

وأما تقديم الأرض على السماء في سورة يونس فإنه لَمّا كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر، وإعلامهم أنه سبحانه عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها، وأنه لا يغيب عنه منها شيء اقتضى ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السماء. فتبارك من أودع كلامه من الحكم والأسرار والعلوم ما يشهد أنه كلام الله وأن مخلوقًا لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبدًا(١).

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**وما يعزُبُ عن ربِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ**﴾. بخلاف قوله في سبأ: ﴿**عَالِمِ الغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولَا في الأَرْضِ**﴾. فإن قبلها ذكر سبحانه سعة ملكه ومحله، وهو السموات كلها والأرض، ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي أفردها إرادة للجنس(٣). . .

(٤)**وقد** شهد الله سبحانه لمن يرى أن ما جاء به الرسول من عند الله هو الحق، لا آراء الرجال بالعلم. فقال تعالى: ﴿**ويَرَى الذينَ أُوتُوا العِلْمَ الذِي أُنْزِلَ إليْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ ويَهْدِي إلى صِرَاطِ العَزِيزِ الحميدِ**﴾. [سبأ: ٦].

وقال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى**﴾. [الرعد: ١٩]. فمن تعارض عنده ما جاء به الرسول وآراء الرجال فقدمها عليه أو توقف فيه أو قدحت في كمال معرفته فهو أعمى عن الحق.

(٥)**الوجه** السادس: أن الله تعالى شهد لهم بأنهم أوتوا العلم بقوله: ﴿**ويَرى الذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الذي أُنْزِلَ إليْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ**﴾. وقوله: ﴿**حتَّى إذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قالُوا للذيْنَ أُوتوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا**﴾. [محمد: ١٦]. وقوله: ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنْكُم والذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾. [المجادلة: ١١]. واللام في «العلم» ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي العلم الذي بعث الله به نبيه، ﷺ، وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجبًا.

(٦)**وصف** الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى: ﴿**وقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ**﴾. [سبأ: ١٣].

---

(١) ١١٦ البداع جـ١.

(٢) هذا البحث من المؤلف مبني على إيضاح المؤلف والسهيلي لما ذكره وسيبويه، ص٦١ جـ١ فإن شئت فارجع إليه فهو بحث مطول ومشوق (ج).

(٣) يأتي قريبًا.

(٤) ٦ الصواعق جـ١.

(٥) ١٣١ الإعلام جـ٤.

(٦) ١٢٤ عدة الصابرين.

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين فقال: ما هذا؟ فقال يا أمير المؤمنين: إن الله قال: ﴿وما آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَليل﴾. [هود: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُور﴾. وقال: ﴿إلاَّ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ وقليلٌ ما هُم﴾. [ص: ٢٤] فقال عمر: صدقت.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إنَّهُ كانَ عَبدًا شَكُورًا﴾. [الإسراء: ٣].

وفي تخصيص نوح هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به، فإنه أبوهم الثاني فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلاً إلا من ذريته كما قال تعالى: ﴿وجَعَلنا ذريَّته هُمُ البَاقِينَ﴾. [الصافات: ٧٧]. فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فـ﴿إنه كانَ عبدًا شَكورًا﴾.

وقد أخبر سبحانه إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال: ﴿واشْكُرُوا لله إنْ كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُون﴾. [البقرة: ١٧٢].

وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر فقال تعالى: ﴿يَا مُوسى إنِي اصْطَفَيْتُكَ على النَّاسِ بِرِسَالاتِي وبِكَلامِي فخُذْ مَا آتَيْتُكَ وكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ﴾. [الأعراف: ١٤٤]. وأول وصية وصى الله بها الإنسان بعد ما عقل عنه بالشكر له وللوالدين فقال: ﴿ووَصَّينا الإنْسَانَ بوالدَيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلى وَهْنٍ وفِصَالُهُ في عَامَينِ أنِ اشْكُرْ لي ولِوَالِدَيكَ إليَّ المَصير﴾. [لقمان: ١٤].

وأخبر أن رضاه في شكره فقال تعالى: ﴿وإنْ تَشْكُرُوا يرضَهُ لكُم﴾. [الزمر: ٧].

وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال: ﴿إنَّ إبراهيمَ كانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنيفًا ولَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكينَ * شَاكِرًا لأنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيم﴾. [النحل: ١١٩، ١٢٠]. فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة أي قدوة يؤتم به في الخير، وأنه ﴿قانتًا لله﴾، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه ﴿شاكرًا لأنعمه﴾ فجعل الشكر غاية خليله . . .

(١)**وقال** عبدالله بن أحمد حدثنا أبو موسى الأنصاري حدثنا أبو الوليد عن

---

(١) ١٣٢ عدة الصابرين.

سعيد بن عبدالعزيز قال: كان من دعاء داود: سبحان مستخرج الشكر بالعطاء، ومستخرج الدعاء بالبلاء.

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثني الأعمش عن المنهال عن عبدالله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود أحببني وأحب عبادتي وحببني إلى عبادي، قال: يارب هذا حبك وحب عبادتك فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: تذكرني عندهم؛ فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن. فجل جلال ربنا وتبارك اسمه وتعالى جده وتقدست أسماؤه وجل ثناؤه ولا إلـه غيره.

وقال أحمد: حدثنا عبدالرزاق بن عمران قال: سمعت وهبًا يقول: وجدت في كتاب آل داود: بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فإني أجعل له من بين ذلك مخرجًا، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، ثم أكِله إلى نفسه، كفى بي لعبدي مآلاً، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني، وأجبته قبل أن يدعوني، وإني أعلم بحاجته التي ترفق به من نفسه.

وقال أحمد حدثنا يسار حدثنا حفص حدثنا ثابت قال: كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فيها، قال فعمهم تبارك وتعالى في هذه الآية: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾. [سبأ: ١٣]. . .

الباب التاسع والعشرون(١)

في انقسام القضاء والحكم والإرادة والكتابة والأمر والإذن والجعل والكلمات والبعث والإرسال والتحريم والإنشاء إلى كوني متعلق بخلقه وإلى ديني متعلق بأمره وما يحقق ذلك من إزالة اللبس والإشكال

هذا الباب متصل بالباب الذي قبله وكل منهما يقرر لصاحبه فما كان من كوني فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وما كان من الديني فهو متعلق بإلاهيته وشرعه.

وهو كما أخبر عن نفسه سبحانه له الخلق والأمر، فالخلق قضاؤه وقدره وفعله،

(١) ٢٨٠ شفاء.

والأمر شرعه ودينه، فهو الذي خلق وشرع وأمر، وأحكامه جارية على خلقه قدرًا وشرعًا، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني القدري.

وأما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق.

والأمران غير متلازمين فقد يقضي ويقدر ما لا يأمر به ولا شرعه.

وقد يشرع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره.

ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم.

وينتفي الأمران عما لم يقع من المعاصي والفسق والكفر.

وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي في ما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور.

وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي.

إذا عرف ذلك فالقضاء في كتاب الله نوعان:

كوني قدري كقوله: **﴿فلمَّا قَضْينَا عليهِ المَوْتَ﴾**. [سبأ: ١٤]. وقوله: **﴿وقُضِيَ بَينَهُمْ بالحَقِّ﴾**. [الزمر: ٦٩]. وشرعي ديني كقوله: **﴿وقَضَى رَبُّكَ ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ﴾**. [الإسراء: ٢٣]. أي أمر وشرع ولو كان قضاء كونيًا لما عبد غير الله.

والحكم أيضًا نوعان فالكوني كقوله: **﴿قال ربِّ احْكُم بالحقِّ﴾**. [الأنبياء: ١١٢]. أي افعل ما تنصر به عبادك وتخذل به أعداءك. والديني كقوله: **﴿ذلكم حكم الله يحكُمُ بينَكُم﴾**. [الممتحنة: ١٠] وقوله: **﴿إنَّ الله يَحكُمُ ما يُريدُ﴾**. [المائدة: ١].

وقد يرد بالمعنيين معًا كقوله: **﴿ولا يُشْرِكُ في حُكمِهِ أَحَدًا﴾**. [الكهف: ٢٦]. فهذا يتناول حكمه الكوني وحكمه الشرعي. والإرادة أيضًا نوعان:

فالكونية كقوله تعالى: **﴿فَعَّالٌ لِمَا يُريد﴾**. [البروج: ١٦] وقوله: **﴿وإذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهلِكَ قَرْيَـةً﴾**. [الإسراء: ١٦]. وقوله: **﴿إنْ كانَ الله يُريد أنْ يُغويكُمْ﴾**. وقوله: **﴿ونُريدُ أنْ نَمُنَّ على الذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ﴾** [القصص: ٥]. والدينية كقوله: **﴿يُريدُ الله بكمُ اليُسْرَ ولا يُريدُ بكمُ العُسْرَ﴾**. [البقرة: ١٨٥] وقوله: **﴿والله يُريدُ أنْ يَتوبَ عليكُمْ﴾**. [النساء: ٢٧]. فلو كانت هذه الإرادة كونية لما حصل العسر لأحد منا، ولوقعت التوبة من جميع المكلفين.

وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في مسألة الأمر والإرادة هل هما متلازمان أم لا.

فقالت القدرية الأمر يستلزم الإرادة واحتجوا بحجج لا تندفع.

وقالت المثبتة الأمر لا يستلزم الإرادة واحتجوا بحجج لا تندفع.

والصواب أن الأمر يستلزم الإرادة الدينية، ولا يستلزم الإرادة الكونية، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعًا ودينًا وقد يأمر بما لا يريده كونًا وقدرًا كإيمان من أمره ولم يوفقه للإيمان، مراد له دينًا لا كونًا.

وكذلك أمر خليله بذبح ابنه ولم يرده كونًا وقدرًا، وأمر رسوله بخمسين صلاة ولم يرد ذلك كونًا وقدرًا.

وبين هذين الأمرين وأمر من لم يؤمن بالإيمان فرق، فإنه سبحانه لم يحب من إبراهيم ذبح ولده، وإنما أحب منه عزمه على الامتثال وأن يوطن نفسه عليه. وكذلك أمره محمد، ﷺ، ليلة الإسراء بخمسين صلاة.

وأما أمر من علم أنه لا يؤمن بالإيمان فإنه سبحانه يحب من عباده أن يؤمنوا به وبرسله ولكن اقتضت حكمته أن أعان بعضهم على فعل ما أمره ووفقه له وخذل بعضهم فلم يعنه ولم يوفقه، فلم تحصل مصلحة الأمر منهم وحصلت من الأمر بالذبح.

فصل

وأما الكتابة:

فالكونية كقوله: ﴿كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أنَا ورُسُلِي﴾. [المجادلة: ٢١]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُور مِنْ بعدِ الذِّكْر أنَّ الأَرْضَ يرِثُهَا عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾. [الأنبياء: ١٠٥]. وقوله: ﴿كُتِبَ عليه أنَّهُ من تولاَّهُ فإنَّهَ يُضلُّهُ ويهدِيهِ إلى عَذَابِ السَّعير﴾. [الحج: ٤].

والشرعية الأمرية كقوله ﴿كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ﴾. [البقرة: ١٨٣]. وقوله: ﴿حُرِّمت عليكُمْ أُمَّهاتُكُم﴾. إلى قوله: ﴿كتابَ الله عَليكُم﴾. [النساء: ٢٣، ٢٤]. وقوله: ﴿وكَتَبْنَا عليهِمْ فيهَا أنَّ النَّفْسَ بالنَّفسِ﴾. [المائدة: ٤٥]. فالأولى كتابة بمعنى القدر، والثانية كتابة بمعنى الأمر.

فصل

والأمر الكوني كقوله: ﴿إنَّما أمْرُهُ إذَا أَرَادَ شيئًا أنْ يَقُولَ لهُ كُنْ فَيَكون﴾. [يس: ٨٢]. وقوله: ﴿وما أمرُنَا إلاَّ واحدة كلَمْحٍ بالبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]. وقوله: ﴿وكانَ أمرُ الله مَفْعُولاً﴾. [الأحزاب: ٣٧]. وقوله: ﴿وكان أمرًا مقضِيًا﴾

[مريم: ٢١]. وقوله: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾. [الإسراء: ١٦]. فهذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي؛ فإن الله لا يأمر بالفحشاء، والمعنى قضينا ذلك وقدرناه.

وقالت طائفة بل هو أمر ديني، والمعنى أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا.

والقول الأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الإضمار على خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا إذا لم يمكن تصحيح الكلام بدونه.

الثاني: أن ذلك يستلزم إضمارين أحدهما أمرناهم بطاعتنا. الثاني: فخالفونا أو عصونا ونحو ذلك.

الثالث: أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه كقولك أمرته ففعل، وأمرته فقام، وأمرته فركب لا يفهم المخاطب غير هذا.

الرابع: أنه سبحانه جعل سبب هلاك القرية أمره المذكور.

ومن المعلوم أن أمره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك بل هو سبب للنجاة والفوز.

فإن قيل أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك: قيل: هذا يبطل بالوجه.

الخامس: وهو أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين بل هو سبحانه يأمر بطاعته واتباع رسله المترفين وغيرهم فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين يوضحه.

الوجه السادس: أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال أرسلنا رسلنا إلى مترفيها ففسقوا فيها؛ فإن الإرسال لو كان إلى المترفين لقال من عداهم نحن لم يرسل إلينا.

السابع: أن إرادة الله سبحانه لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم لأنهم معذورون بغفلتهم وعدم بلوغ الرسالة إليهم.

قال تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾. [هود: ١١٧].

فإذا أرسل الرسل فكذبوهم أراد إهلاكها فأمر رؤساءها ومترفيها أمرًا كونيًا قدريًا لا شرعيًا دينيًا بالفسق في القرية فاجتمع أهلها على تكذيبهم وفسق رؤسائهم

فحينئذ جاءها أمر الله وحق عليها قوله بالإهلاك.

والمقصود ذكر الأمر الكوني والديني.

ومن الديني قوله: ﴿إنَّ الله يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحسَانِ﴾. [النحل: ٩٠]. وقوله: ﴿إنَّ الله يَأْمُرُكم أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِهَا﴾. [النساء: ٥٨]. وهو كثير.

فصل

وأما الإذن الكوني فكقوله تعالى: ﴿ومَا هُمْ بِضَارِّين به مِنْ أَحَدٍ إلاَّ بإِذْنِ الله﴾. [البقرة: ١٠٢]. أي بمشيئته وقدره.

وأما الديني فكقوله: ﴿ما قطعْتُم من لِينَةٍ أو تركتمُوهَا قَائِمةً على أُصُولها فبإذْنِ الله﴾. [الحشر: ٥]. أي بأمره ورضاه وقوله: ﴿أَرَأَيْتُم ما أَنْزَلَ الله لكم مِن رزْقٍ فجعلتُمْ منهُ حَرامًا وحَلالاً قل آلله أذِنَ لكُم أم على الله تَفْتَرُون﴾. [يونس: ٥٩]. وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الله﴾. [الشورى: ٢١].

فصل

وأما الجعل الكوني فكقوله: ﴿إنَّا جعلنا في أَعْنَاقِهم أغلاَلاً فهِيَ إلى الأَذْقانِ فهُمْ مُقْمَحُونَ * وجَعلنَا مِنْ بينِ أَيْدِيهِمْ سدًّا ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾. [يس: ٨، ٩]. وقوله: ﴿ويَجعل الرِّجْسَ على الَّذينَ لاَ يَعقِلونَ﴾. وقوله: ﴿والله جَعَلَ لكم مِنْ أنْفُسكُم أَزْواجًا﴾. [النحل: ٧٢]. وهو كثير.

وأما الجعل الديني فكقوله: ﴿ما جَعَلَ الله مِنْ بحِيرةٍ ولا سَائِبَةٍ ولا وَصِيلةٍ ولا حَامٍ﴾. [المائدة: ١٠٣]. أي ما شرع ذلك ولا أمر به، وإلا فهو مخلوق له واقع بقدره ومشيئته. وأما قوله: ﴿جَعَلَ الله الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرامَ قِيامًا للنَّاس﴾. [المائدة: ٩٧]. فهذا يتناول الجعلين فإنها جعلها كذلك بقدره وشرعه وليس هذا استعمالاً للمشترك في معنييه بل إطلاق اللفظ وإرادة القدر المشترك بين معنييه فتأمله.

فصل

وأما الكلمات الكونية فكقوله: ﴿وكذلكَ حقَّتْ كَلِمَةُ ربِّكَ على الذينَ فَسَقُوا أنَّهُم لا يُؤمِنون﴾ [يونس: ٣٣]. وقوله: ﴿وتَمَّت كلمَةُ ربِّك الحُسْنَى على بَني إسرائيلَ بمَا صَبَرُوا﴾. [الأعراف: ١٣٧]. وقوله، ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر من شر ما خلق» فهذه كلماته الكونية التي يخلق بها ويكون،

ولو كانت الكلمات الدينية هي التي يأمر بها وينهى لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار.

وأما الديني فكقوله: ﴿**وإِنْ أَحَدٌ مِنَ المُشرِكينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ**﴾. [التوبة: ٦]. والمراد به القرآن، وقوله، ﷺ، في النساء: «**واستحللتم فروجهن بكلمة الله**» أي بإباحته ودينه وقوله: ﴿**فَانْكِحُوا ما طَابَ لكُمْ مِنَ النِّساءِ**﴾. [النساء: ٣]. وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿**وصَدَّقتْ بكلماتِ ربِّها وكُتُبِه**﴾. [التحريم: ١٢]. فكتبه كلماته التي يأمر بها وينهى ويحل ويحرم، وكلماته التي يخلق بها ويكون، فأخبر أنها ليست جهمية تنكر كلمات دينه وكلمات تكوينه وتجعلها خلقًا من جملة مخلوقاته.

فصل

وأما البعث الكوني فكقوله: ﴿**فإذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عليكُم عِبادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شديدٍ**﴾ [الإسراء: ٥]. وقوله: ﴿**فَبَعَثَ الله غُرابًا يَبْحَثُ في الأَرضِ**﴾. [المائدة: ٣١].

وأما البعث الديني فكقوله: ﴿**هُوَ الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ**﴾. [الجمعة: ٢]. وقوله: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبشِّرينَ ومُنْذِرِينَ**﴾. [البقرة: ٢١٣].

فصل

وأما الإرسال الكوني فكقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلنَا الشَّيَاطِينَ على الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُم أَزًّا**﴾. [مريم: ٨٣]. وقوله: ﴿**وهُوَ الذي أرسَلَ الرِّياحَ**﴾ [الفرقان: ٤٨].

وأما الديني فكقوله: ﴿**هوَ الذي أَرسَلَ رَسُولَهُ بالهُدى ودِينِ الحَقِّ**﴾. [التوبة: ٣٣]. وقوله: ﴿**إنَّا أرْسَلنَا إليكُم رَسُولاً شاهِدًا عَليكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً**﴾. [المزمل: ١٥].

فصل

وأما التحريم الكوني فكقوله: ﴿**وحَرَّمنا عليه المَرَاضِعَ من قَبْلُ**﴾ [القصص: ١٢]. وقوله: ﴿**قال فإنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عليهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً**﴾. [المائدة: ٢٦]. وقوله: ﴿**وحَرامٌ على قرية أهلَكْنَاها أنَّهمْ لا يَرجِعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٩٥]. وأما التحريم الديني فكقوله: ﴿**حُرِّمَتْ عليكُمْ أُمَّهَاتُكُم**﴾. [النساء: ٢٣]. و﴿**حُرِّمَت عليكُمُ المَيتَةُ**﴾. [المائدة: ٣].﴿**وحُرِّمَ عليكُمْ صيدُ البرِّ ما دُمتُم حُرُمًا**﴾. [المائدة: ٩٦].

﴿وأَحَلَّ الله البَيْعَ وحَرَّمَ الرِّبَا﴾. [البقرة: ٢٧٥].

فصل

وأما الإيتاء الكوني فكقوله: ﴿والله يُؤتي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ﴾. [البقرة: ٢٤٧]. وقوله: ﴿قُل اللهم مَالِكَ المُلْكِ تُؤتي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ﴾. [آل عمران: ٢٦]. وقوله: ﴿وآتَيْنَاهُم مُلْكًا عَظيمًا﴾. [النساء: ٥٤]. وأما الإيتاء الديني فكقوله: ﴿ومَا أتاكُم الرَّسولُ فَخُذُوهُ﴾. [الحشر: ٧]. وقوله: ﴿خُذُوا ما آتَيْنَاكم بقُوَّةٍ﴾. [الأعراف: ١٧١]. وأما قوله: ﴿يُؤتي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ ومَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيْراً كَثيراً﴾. [البقرة: ٢٦٩]. فهذا يتناول النوعين فإنه يؤتيها من يشاء أمرًا ودينًا، وتوفيقًا وإلهامًا.

فصل

وأنبياؤه ورسله وأتباعهم حظهم من هذه الأمور الديني منها، وأعداؤه واقفون مع القدر الكوني فحيث ما مال القدر مالوا معه، فدينهم دين القدر، ودين الرسل وأتباعهم دين الأمر. فهم يدينون بأمره، ويؤمنون بقدره. وخصماء الله يعصون أمره، ويحتجون بقدره لايقولون نحن واقفون مع مراد الله[١]. نعم مع مراده الكوني أو الديني ولا ينفعكم وقوفكم مع المراد الكوني ولا يكون ذلكم عذرًا لكم عنده إذ لو عذر بذلك لم يذم أحدًا من خلقه ولم يعاقبه ولم يكن في خلقه عاص ولا كافر ومن زعم ذلك فقد كفر بالله وكتبه كلها وجميع رسله وبالله التوفيق.

[٢]**وسئل** ﷺ، عن سبأ: هل هو أرض أم امرأة، فقال: «**ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب؛ فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة؛ فأما الذين تشاءموا فلخْم وجُذَام وغسَّان وعاملة، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريُّون وحِمْيَر وكِندة ومَذحج وأنمار**» فقال رجل: يارسول الله وما أنمار؟ فقال: «**الذين منهم خثعم وبجيلة**».

[٣]**وهاهنا** نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها وهي أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه

(١) كذا وقع، وهو خطأ، والصواب: «... ويقولون...... نعم مع مراده الكوني لا الديني...» راجع الطبعة المحققة جـ٢ ص٢٩٦. (٢) ٢٧٣ الإعلام جـ٤. (٣) ٢٢ الجواب.

من كان حقه هو أن يتسلط عليه، فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه، يسخره حيث شاء ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه. فكما أذل سلطان الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له سُلِّط عليه عقـوبة له. قال الله تعالى: ﴿فإذَا قَرأْتَ القُرآنَ فاسْتَعذْ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيم * إنَّه ليْسَ لهُ سُلطانٌ على الذينَ آمَنُوا وعلى ربِّهم يَتَوكَّلون * إنَّما سُلطانُهُ على الـذِينَ يَتولَّونَهُ والذينَ هم بهِ مُشركون﴾. [النمل: ٩٨ - ١٠٠]. فإن قيل فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطانًا فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيًا عنه مقررًا له ﴿وقَالَ الشَّيطانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إنَّ اللهَ وَعَدَكُم وعْدَ الحَقّ وَوَعدتُّكُم فأَخْلَفتُكم وما كانَ لي عليكُم مِنْ سُلطانٍ إلاَّ أن دَعوتُكم فاسْتَجَبتُم لي﴾. [إبراهيم: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿ولَقَد صَدَّقَ عليهمْ إبليسُ ظَنَّهُ فاتَّبَعُوهُ إلاَّ فَريقًا مِنَ المُؤمنينَ وما كانَ لهُ عليهِمْ مِنْ سُلطانٍ إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤمنُ بالآخرةِ مِمَّن هُوَ منها في شَكٍّ﴾. [سبأ: ٢٠-٢١].

قيل السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم، وتلاعبه بهم، وسوقه إيَّاهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجـة، فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني أن الله لم يجعل له عليهم سلطانًا ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته؛ فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم.

والمقصـود أن من قصـد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

... [1]**فحججه** سبحانه العقلية التي في كتابه جمعت بين كونها عقلية سمعية ظاهرة واضحة قليلة المقدمات، مثل قوله تعالى فيما حاج به عباده من إقامة التوحيد

---

(١) ٩٤ الصواعق جـ١.

وبطلان الشرك وقطع أسبابه وحسم مواده كلها: ﴿قُلِ ادْعوا الذينَ زَعمْتُم مِنْ دونِ الله لا يَمْلِكُونَ مِثقالَ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولَا في الأَرْضِ وما لَهُمْ فيهما مِنْ شِركٍ وما لهُ منهمْ مِنْ ظَهير * ولا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عندَهُ إلَّا لَمَنْ أَذِنَ لهُ﴾. [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك وسد بها عليهم أبلغ سد وأحكمه. فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو كان لا يرجو منفعة لم يتعلق قلبه به.

وحينئذ فلابد أن يكون المعبود مالكًا للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكًا لمالكها. أو ظهيرًا أو وزيرًا، أو معاونًا له، أو وجيهًا ذا حرمة وقدر يشفع عنده.

فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده.

فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السموات والأرض. فقد يقول المشرك: هي شريكة المالك الحق، فنفى شركها له.

فيقول المشرك: قد يكون ظهيرًا أو وزيرًا أو معاونًا فقال: ﴿وَمَا لهُ مِنْهُم مِنْ ظَهِيرٍ﴾. ولم يبق إلا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم، وأخبر أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه فإن لم يأذن للشافع لم يتقدم بالشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها. وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته، فهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بغير إذنه؟

(١)**وقد** قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلَّق بها المشركون جميعًا، قطعًا يعلم من تأمله وعرفه: أن من اتخذ من دون الله وليًّا، أو شفيعًا. فهو ﴿كَمَثَلِ العَنْكَبوتِ اتَّخَذَتْ بيتًا وإنَّ أَوْهَنَ البيوتِ لَبيتُ العَنْكَبوتِ﴾. [العنكبوت: ٤١].

فقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الذينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِ الله لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولَا في الأَرْضِ وما لَهُمْ فيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ومَا لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهِيرٍ * ولَا تَنفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إلَّا لِمَنْ أَذِنَ لهُ﴾. [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع:

---

(١) ٣٤٣ المدارج جـ١.

إما مالك لما يريده عابده منه. فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك. فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى المِلْكَ، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نورًا، وبرهانًا ونجاة، وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك وموادِّهِ لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له. ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إنما تنقض عُرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه: وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوَّبه وحسنه. وهو لا يعرف: أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره. أو شر منه، أو دونه. فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفَّر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد. ويبدَّع بتجريد متابعة الرسول، ﷺ، ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حيٌّ يرى ذلك عيانًا، والله المستعان.

(١)**قال** البخاري حدثنا الحميدي وعلي بن المديني قالا حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار قال سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يحدث أن النبي، ﷺ، قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كأنه** سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي **الكبير**». الحديث ورواه النسائي في التفسير وابن ماجه وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

---

(١) ٢٧٨ الصواعق جـ٢.

وروى أبـو داود من حديث علي بن الحسـين بن أشكاب حدثنا أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عبـدالله قال قال رسول الله ، ﷺ : «**إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون ولا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبرائيل فإذا جاءهم جبرائيل فزع عن قلوبهم فيقولون: يا جبرائيل ماذا قال ربكم قال الحق، فينادون الحق الحق**». وهذا الإسناد كلهم أئمة ثقات.

وقد فسر الصحابة هذه الآية بما يوافق هذا الحديث الصحيح.

فقال أبـو بكـر بن مردويه في تفسـيره: حدثنا أحمد بن كامل بن خلف حدثنا محمد بن سعد حدثنا أبي حدثنا عمي حدثنا أبي عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**حتَّى إذَا فُزِّعَ عنْ قلوبِهم قالُوا ماذَا قَالَ رَبُّكُم قالوا الحَقّ وهُوَ العَليّ الكَبيرُ**﴾. [سبأ: ٢٣]. قال: لما أوحى الجبار جل جلاله إلى محمد، ﷺ، دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي فلما كشف عن قلوبهم فسألوا عما قال الله تعالى قالوا الحق علموا أن الله تعالى لا يقول إلا حقًّا وأنه منجز ما وعد. قال ابن عباس: وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا فلما سمعوه خروا سجدًا فلما رفعوا رؤوسهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير، وهذا إسناد معروف يروي به ابن جرير وابن أبي حاتم وعبد بن حميد وغيرهم التفسير وغيره عن ابن عباس، وهو إسناد متداول بين أهل العلم وهم ثقات . . .

(١)**فإن** قيل فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّماءِ والأَرْضِ أَمْ مَنْ يملكُ السَّمْعَ والأَبْصَار**﴾. [يونس: ٣١]. وبين قوله في سورة سبأ ﴿**قلْ من يرزقكم من السَّمواتِ والأَرضِ قل الله**﴾. قيل هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقًا فتدبر السياق تجده نقيضًا لما وقع فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ولم يمكنهم إنكاره من كون الـرب تعـالى هو رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم ومدبر أمورهم وغيرها ومخـرج الحي من الميت والميت من الحي، فلما كانـوا مقـرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم إن فاعل هذا هو الله الذي لا إلـه غيره، فكيف يعبدون معه

(١) ١١٧ البدائع جـ١.

غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئًا من هذا ولا يستطيعون فعل شيء منه؟ ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى ﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾. [يونس: ٣١]. أي لابد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه، فلابد أن يكون المذكور مما يقرون به. والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا فأفردت لفظ السماء هنا فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها لا سيما والرزق ههنا إن كان هو المطر فمجيئه من السماء التي هي السحاب فإنه يسمى سماء لعلوه وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿اللهُ الذي يُرسِلُ الرِّياحَ فَتُثيرُ سَحَابًا فيَبْسُطُهُ في السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ﴾. [الروم: ٤٨]. والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك وهذا معلوم بالحس فلا يلتفت إلى غيره[1].

[2]**وقال** تعالى: ﴿ولَوْ تَرَى إذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِم يَرْجِعُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ القَوْلَ يَقُولُ الذِينَ اسْتُضْعِفُوا للذينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُم لَكُنَّا مُؤمِنِين * قالَ الذينَ اسْتَكْبَرُوا للذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكم عَنِ الهُدَى بَعْدَ إذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنتُم مُجْرِمين * وقالَ الذينَ اسْتُضْعِفُوا للذينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الليْلِ والنَّهارِ إذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكفُرَ باللهِ ونَجْعَلَ لهُ أَنْدَادًا﴾. [سبأ: ٣١-٣٣].

فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئًا. وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿إذْ تَبَرَّأَ الذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا ورَأَوُا العَذابَ وتَقَطَّعَت بهِمُ الأَسْبَابُ * وقالَ الذينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُم كَما تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وصح عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه، لا ينقص من أوزارهم شيئًا**». وهذا يدل على أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

نعم لابد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه. والقسمان

---

(١) تكملة البحث تقدم في سورة يونس. (٢) ٤١٢ الهجرتين.

واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضًا:

أحدهما مريد للهدى مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا على طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة.

الثاني معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه. فالأول يقول: يارب لو أعلم لك دينًا خيرًا مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوى ما أنا عليه ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.
والثاني: راض بما هو عليه لا يؤثر غيره عليه ولا تطلب نفسه سواه ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز، وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق. فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزًا وجهلاً، والثاني كمن لم يطلبه بل مات على شركه ـ وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض. فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه. هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر: فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة.
وهو مبني على أربعة أصول:

أحدها أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: **﴿وما كُنّا مُعَذِّبينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾**. [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: **﴿رُسُلاً مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ لئلاَّ يَكُونَ للناس على الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل﴾**. [النساء: ١٦٥]. وقال تعالى: **﴿كُلَّمَا أُلقِيَ فيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُم نَذِير * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبنَا وقُلْنا ما نَزَّلَ الله مِنْ شَيءٍ﴾**. [الملك: ٨-٩].

وقال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِم فَسُحقًا لأَصْحَابِ السَّعيرِ﴾. [الملك: ١١].

وقال تعالى: ﴿يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ منْكُم يَقُصُّونَ عليكُمْ آياتي ويُنْذِرُونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكمْ هذا قالُوا شَهِدْنا على أَنْفُسِنا وغَرَّتهُمُ الحَيَاةُ الدُّنيَا وشَهِدُوا على أَنْفُسِهِم أَنَّهُمْ كانُوا كَافِرِينَ﴾. [الأنعام: ١٣٠].

وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه.

وقال تعالى: ﴿وما ظَلَمْناهُمْ ولكنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾. [الزخرف: ٧٦]. والظالم من عرف ما جاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم(١)؟.

(٢) **وأما** تقديم المال على الولد فلم يطرد في القرآن بل قد جاء مقدمًا كذلك في قوله: ﴿ومَا أَمْوالُكُمْ ولا أَوْلادُكم بالتي تُقَرِّبكُمْ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقوله: ﴿أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ [الأنفال: ٢٨] وقوله: ﴿لا تُلهِكُمْ أموالُكمْ ولا أَولادُكم عن ذِكرِ الله﴾ [المنافقون: ٩].

وجاء ذكر البنين مقدمًا كما في قوله: ﴿قُلْ إن كانَ آباؤُكُم وأبناؤُكُم وإخوانُكمْ وأَزْواجُكم وعَشيرَتُكمْ وأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُموهَا﴾. [التوبة: ٢٤]. وقوله: ﴿زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ والقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ﴾. [آل عمران: ١٤]. فأما تقديم الأموال في تلك المواضع الثلاثة فلأنها ينتظمها معنى واحد وهو التحذير من الاشتغال بها والحرص على تحصيلها حتى يفوته حظه من الله والدار الآخرة فهي في موضع عن الالتهاء بها.

وأخبر في موضع أنها فتنة وأخبر في موضع آخر أن الذي يقرب عباده إليه إيمانهم وعملهم الصالح لا أموالهم ولا أولادهم ففي ضمن هذا: النهي عن الاشتغال بها عما يقرب إليه. ومعلوم أن اشتغال الناس بأموالهم والتلاهي بها أعظم من اشتغالهم بأولادهم. وهذا هو الواقع حتى إن الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحة ولده وعن معاشرته وقربه.

(٣) **وذكر** البيهقي حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة عن

---

(١) تقدم البحث كاملًا في سورة الأعراف. (٢) ٧٤ البدائع جـ١. (٣) ٧٣ الروح.

النبي، ﷺ في هذه الآية: ﴿سُبحَانَ الذي أَسْرَى بعبدِهِ لَيلاً﴾. [الإسراء: ١]. إلا أنه قال: أتي بفرس فحمل عليه قال كل خطوة منتهى أقصى بصره، فسار وسار معه جبريل، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ﴿وما أنفَقْتُم مِنْ شيَءٍ فَهُوَ يُخْلِفهُ وهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. [سبأ: ٣٩]. ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شيء من ذلك قال ياجبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة.

قال ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام على الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها قال ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله وما الله بظلام للعبيد. . .

(١)**قال** تعالى: ﴿قُلْ إنَّما أَعِظُكُم بِوَاحِدة أنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصَاحِبِكم مِنْ جِنَّة إنْ هُوَ إلاَّ نَذيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَاب شَديد﴾. [سبأ: ٤٦].

ولما كان للإنسان الذي يطلب معرفة الحق حالتان:

إحداهما أن يكون مناظرًا مع نفسه. الثانية أن يكون مناظرًا مع غيره، فأمرهم بخصلة واحدة وهي أن يقوموا لله اثنين اثنين، فيتناظران ويتساءلان بينهما واحدًا واحدًا، يقوم كل واحد مع نفسه، فيتفكر في أمر هذا الداعي وما يدعو إليه ويستدعي أدلة الصدق والكذب ويعرض ما جاء به عليها ليتبين له حقيقة الحال. فهذا هو الحجاج الجليل والإنصاف البين والنصح التام.

(٢)**وكمال** هذه السعادة بأمرين آخرين: أحدهما دعوة الخلق إليه والثاني صبره واجتهاده على تلك الدعوة. فانحصر الكمال الإنساني في هذه المراتب الأربع:

إحداها العلم بما جاء به الرسول، ﷺ، والثانية العمل به. والثالثة نشره في الناس ودعوتهم إليه. والرابعة صبره واجتهاده في أدائه وتنفيذه. ومن طلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقًا:

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم ... فقد وضحت للسالكين عيانًا

وقال تعالى لرسوله، ﷺ: ﴿قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فإنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِي وإنِ اهْتَدَيْتُ

(١) ١٠٠ الصواعق جـ١.   (٢) ١٨٨ المدارج جـ٣.

﴿فبما يُوحِي إليَّ ربي إنَّهُ سَميعٌ قَريبٌ﴾. [سبأ: ٥٠]. فهذا نص صريح في أن هدي الرسول، ﷺ، إنما يحصل بالوحي، فيا عجبًا، كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة؟ ولكن ﴿مَنْ يَهْدِ الله فَهُوَ المُهْتَدِ ومَنْ يُضْلِل فَلَنْ تَجِدَ لهُ وليًّا مُرْشِدًا﴾. [الكهف: ١٧]. فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلان، وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى والحمد لله رب العالمين.

(١)**جعل** الله سبحانه وتعالى مفارقة المشتهيات من أعظم العقوبات. فقال تعالى: ﴿وحِيلَ بينَهُمْ وبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بأشْيَاعِهم مِن قَبْلُ إنَّهُمْ كانُوا في شَكٍّ مُريب﴾. [سبأ: ٥٤]. فالفرح والسرور: بالظفر بالمحبوب. والهم والغم والحزن والأسف: بفوات المحبوب. فأطيب العيش: عيش المحب الواصل إلى محبوبه. وأمرُّ العيش: عيش من حيل بينه وبين محبوبه.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُم أَشَدُّ على الرَّحمن عِتِيًّا﴾. [مريم: ٦٩]. فالشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضًا أي تابعه ومنه الأشياع أي الأتباع. فالفرق بين الشيعة والأشياع أن الأشياع هم التبع، والشيعة القوم الذين شايعوا أي تبع بعضهم بعضًا، وغالب ما يستعمل في الذم، ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك كهذه الآية وكقوله: ﴿إنَّ الذينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وكَانُوا شِيَعًا﴾. [الأنعام: ١٥٩]. وقوله: ﴿وحِيْلَ بينَهُم وبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كما فُعِلَ بأَشْيَاعِهِم مِنْ قَبْلُ﴾. وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع. ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال لتفرقهم واختلافهم. والمعنى لننزعن من كل فرقة أشدهم عتوًّا على الله وأعظمهم فسادًا فنلقيهم في النار.

وفيه إشارة إلى العذاب يتوجه إلى السادات أولاً ثم تكون الأتباع تبعًا لهم فيه كما كانوا تبعًا لهم في الدنيا.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة سبأ

والحمد لله رب العالمين

---

(١) التبوكية.



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل(١)

وأما الجمال الظاهر فزينةٌ خص الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾. [فاطر: ١]. قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة. والقلوب كالمطبوعة على محبته كما هي مفطورة على استحسانه. وقد ثبت في الصحيح عنه، ﷺ، أنه قال: «**لا يدخلُ الجنَّةَ مَنْ كانَ في قلبِهِ مِثقالُ ذرَّةٍ من كِبر**» قالوا: يارسول الله: الرجلُ يحبّ أن يكون نعله حسنةً وثوبه(٢) حسنًا فذلك من الكِبر؟ قال: «**لا؛ إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكبْرُ بَطَرُ الحقّ وغَمْطُ النَّاس**»(٣). فبطر الحق جحده ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم. ولا بأس بهذا إذا كان لله.

وعلامته أن يكون لنفسه أشدّ ازدراء واستصغارًا منه لهم. فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة.

فصل

وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده، فالجمال الظاهر نعمة منه أيضًا على عبده يوجب شكرًا. . . .

(٤)**﴿مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾** [فاطر: ٢].

فالعبد لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع إلا بإذن الله، فالأمر كله لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، هو مقلب القلوب، ومصرفها كيف يشاء، المتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع والخفض والرفع، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

وهذا الوجه أعظم لعموم الناس من الوجه الأول، ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر

---

(١) ٢٣٧ روضة المحبين.	(٢) في النسختين: ولونه.
(٣) قال في تيسير الوصول: أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي.	(٤) ٦٠ طريق الهجرتين.

من الأول، لكن من تدبر طريقة القرآن تبين له أن الله ـ سبحانه ـ يدعو عباده بهذا إلى الوجه الأول، فهذا الوجه يقتضي التوكّل على الله والاستعانة به، والدعاء له، ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضًا محبته وعبادته لإحسانه إلى عبده وإسباغ نعمه عليه، فإذا عبده وأحبه وتوكل عليه من هذا الوجه دخل في الوجه الأول.

وهكذا من نزل به بلاء عظيم وفاقة شديدة، أو خوف مقلق فجعل يدعو الله ويتضرَّع إليه حتى فتح له من لذيذ مناجاته له باب الإيمان به، والإنابة إليه وما هو أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولاً، لكنه لم يكن يعرف ذلك أولاً حتى يطلبه ويشتاق إليه، فعرفه إياه بما أقامه له من الأسباب التي أوصلته إليه. والقرآن مملوء من ذكر حاجة العبيد إلى الله دون ما سواه من ذكر نعمائه عليهم، وذكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذات. . . .

. . . (١)**وبالجملة:** من نظر في الموجودات، ولم يقنع بمجرد النظر إليها وحدها: وجدها دالة على أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أكمل منها. وأن هذه الحياة بالنسبة إليها كالمنام بالنسبة إلى اليقظة. وكالظل بالنسبة إلى الشخص.

وسمعها كلها تنادي بما نادى به ربها وخالقها وفاطرها: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ﴾**. [فاطر: ٥].

وتنادي بلسان الحال؛ بما نادى به ربها بصريح المقال: **﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾**. [الكهف: ٤٥].

وقال تعالى: **﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [يونس: ٢٤].

وقال تعالى: **﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا**

(١) ٢٧٩ مدارج جـ٣.

إلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]. ثم ندبهم إلى المسابقة إلى الدار الآخرة الباقية التي لا زوال لها، فقال: **﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾** [الحديد: ٢١].

[1]. . . **ومنها:** حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت. ولكان الحاصل بعضها، لا كلها. فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه ـ سبحانه ـ ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها: من الموالاة فيه ـ سبحانه ـ والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس.

ومنها: عبودية التوبة، والرجوع إليه واستغفاره. فإنه ـ سبحانه ـ يحب التوابين، ويحب توبتهم، فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

ومنها: عبودية مخالفة عدوه، ومراغمته في الله، وإغاظته فيه؛ وهي من أحب أنواع العبودية إليه، فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراغمه ويسوءه. وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس.

ومنها: أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه، وسؤاله أن يجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه.

ومنها: أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلَّ بعدوه بمخالفته، وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المرتبة الشيطانية. فلا يُخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك.

ومنها: أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة. فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته.

ومنها: أن نفس اتخاذه عدوًا من أكبر أنواع العبودية وأجلها. قال الله تعالى: **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾**. [فاطر: ٦]. فاتخاذه عدوًا أنفع شيء للعبد، وهو محبوب للرب.

(١) ١٩٦ مدارج جـ٢.

ومنها أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث. وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد. فخُلِقَ الشيطان مستخرجًا لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل. وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل. فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها، ليترتب عليه آثاره، وما في قوى أولئك من الشر، ليترتب عليه آثاره. وتظهر حكمته في الفريقين. وينفذ حكمه فيهما. ويظهر ما كان معلومًا له مطابقًا لعلمه السابق. وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾. [البقرة: ٣٠]. فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى من وجود من يعصيه ويخالفه. فأجابهم - سبحانه - بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة.

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية هلاك ثمود وقوط لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم بردًا وسلامًا، والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى، وغير ذلك من آياته التي يقول - سبحانه - عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ [الشعراء: ١٧٤، ١٧٥]. فلولا كفر الكافرين، وعناد الجاحدين، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة، التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلى الأبد.

ومنها: أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضًا، ويكسر بعضها بعضًا: هو من شأن كمال الربوبية، والقدرة النافذة، والحكمة التامة، والملك الكامل - وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه، ولو لم تخلق هذه الأسباب - لكن خلقها من لوازم كماله وملكه، وقدرته وحكمته. فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة: تحقيق لذلك الكمال، وموجب من موجباته. فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلـٰهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته. وبالجملة: فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته: أحب إليه سبحانه وتعالى من فواتها، وتعطيلها بتعطيل أسبابها. . . .

(١)**والمعصية** تورث الذل ولابد، فإن العز كل العز في طاعة الله ـ تعالى ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا﴾. [فاطر: ١٠]. أي فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها إلا في طاعته. وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك. قال الحسن البصري: إنهم إن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه. وقال عبدالله بن مبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

(٢)**قال** الله ـ سبحانه ـ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ واللهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. بين ـ سبحانه ـ في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيًّا حميدًا ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي للفقير: فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة. كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازم أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك، إذ ما بالذات لا يعلل، فالفقير بذاته محتاج إلى الغنيّ بذاته، فما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له.

ولهذا كان الصواب في مسألة علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون. فإن الفلاسفة قالوا: علة الحاجة الإمكان. والمتكلمون قالوا: علة الحاجة الحدوث، والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار.

(١) ١٧٦ الجواب الكافي		(٢) ٨ طريق الهجرتين

وفقر العالم إلى الله ـ سبحانه ـ أمر ذاتي لا يعلل، فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته، ثم يستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر.

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه ـ سبحانه ـ كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته ـ تعالى ـ وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا، ويستحيل أن يكون الرب ـ سبحانه ـ إلا غنيًّا، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدًا والرب ربًّا، إذا عُرف هذا، فالفقر فقران: فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروج لبرّ ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا مصنوعًا.

والفقر الثاني: فقر اختياري، هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما معرفة العبد بربه، والثاني: معرفته بنفسه. فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرًا هو عين غناه، وعنوان فلاحه وسعادته.

وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين. فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق. ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام. ومن عرف ربه بالعزّ التام عرف نفسه بالمسكنة التامة. ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل فالله ـ سبحانه ـ أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئًا، ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمرًا مشهودًا محسوسًا لكل أحد.

ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها. وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى، بل لم يزل عبدًا فقيرًا بذاته إلى بارئه وفاطره. فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرًا وباطنًا، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه، ومكّنه من استخدام بني جنسه، وسخر له الخيل والإبل، وسلّطه على دواب الماء، واستنزال الطير من الهواء، وقهر الوحش العادية، وحفر

الأنهار، وغرس الأشجار، وشق الأرض، وتعلية البناء، والتحيّل على مصالحه، والتحرّز والتحفظ لما يؤذيه، ظن المسكين أن له نصيبًا من المُلك، وادعى لنفسه ملكًا مع الله ـ سبحانه ـ ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأن ذلك شخصًا آخر غيره.

كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله، ﷺ، بصق يومًا في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: «**قال الله تعالى: ياابنَ آدم أنَّى تُعْجِزُني وقد خلقْتُكَ من مثل هذه، حتى إذا سوَّيتك وعدلتك مشيت بين بُردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنى أوان الصدقة؟!**» .

(١)**فتأمل** قوله تعالى في الآية: ﴿**أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ**﴾ [فاطر: ١٥]. باسم الله دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر، فإنه كما تقدم نوعان: فقر إلى ربوبيته وهو فقر المخلوقات بأسرها، وفقر إلى ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين.

وهذا هو الفقر النافع، والذي يشير إليه القوم ويتكلمون عليه، ويشيرون إليه هو الفقر الخاص لا العام.

(٢)**فقر** العبد إلى أن يعبد الله ـ سبحانه ـ وحده لا يشرك به شيئًا؛ ليس له نظير فيقاس به، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس، فيقاس بها، لكن بينهما فروق كثيرة، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلـهه الحق الذي لا إلـه إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه، وهو كادح إليه كدحًا فملاقيه، ولابد له من لقائه، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص ويتنعم بهذا في حال، وبهذا في حال، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته.

وأما إلـهه الحق فلابد له منه في كل وقت وفي كل حال، وأينما كان فنفس

---

(١) ١١ طريق الهجرتين　　(٢) ٣٠ إغاثة جـ١

الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، ودلت عليه السنة والقرآن، وشهدت به الفطرة والجنان.

لا كما يقوله من قل نصيبه من التحقيق والعرفان، وبُخس حظه من الإحسان: إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة، لمجرد الابتلاء والامتحان، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالأثمان، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان، كما هي مقالات من بخُس حظه من معرفة الرحمن، وقلَّ نصيبه من ذوق حقائق الإيمان، وفرح بما عنده من زَبَد الأفكار وزبالة الأذهان. بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرة عين الإنسان، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان، وأطيب نعيم ناله من كان أهلاً لهذا الشان، والله المستعان وعليه التكلان.

(١)**قال** تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾. [فاطر: ٢٨]. فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف. قال ابن مسعود: وكفى بخشية الله علماً. ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه منه وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفاً وحبًّا، فالخوف من أجلّ منازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم أليق، ولهم ألزم. فإن العبد إما أن يكون مستقيماً أو مائلاً عن الاستقامة، فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة عل ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف. وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب. فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه. فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه. وإما عدم علمه بسوء عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران. لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان.

فإذا علم قبح الذنب وعلم سوء مغبته وخاف أن لا يفتح له باب التوبة، بل

(١) ٢٨٣ طريق الهجرتين

يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد.

وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو.

وأما إن كان مستقيمًا مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس، لعلمه بأن الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ـ عز وجل ـ، فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه. كما ثبت عن النبي، ﷺ. وكانت أكثر يمينه «**لا ومقلب القلوب، لا ومقلب القلوب**».

(١)**الوجه** الحادي والعشرون: أنه ـ سبحانه ـ أخبر أنهم أهل خشيته، بل خصهم من بين الناس بذلك، فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾. [فاطر: ٢٨].

وهذا حصر لخشيته في أولي العلم. وقال تعالى: ﴿**جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾. [البينة: ٨]. وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء فدل على أن هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا.

(٢)**قوله**: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾. وكل من خشيه فأطاعه بفعل أوامره وترك نواهيه فهو عالم كما قال تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: ٩]. وقال رجل للشعبي: أيها العالم، فقال: لسنا بعلماء؛ إنما العالم من يخشى الله. وقال ابن مسعود: وكفى بخشية الله علمًا وبالاغترار بالله جهلًا.

(٣)**ومن** علامات المعرفة: الهيبة، فكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته إياه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾. أي العلماء به. وقال النبي، ﷺ: «**أنا أعرفكُمْ بالله، وأشدُّكم له خشية**».

ومن عرف الله صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه

(١) ٥١ مفتاح جـ١.	(٢) ١٧٢ شفاء.	(٣) ٤٣٢ روضة المحبين.

خوف المخلوقين، وأنسَ بالله، واستوحش من الناس، وأورثته المعرفة الحياء من الله، والتعظيم له، والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه، والإنابة إليه، والرضا به، والتسليم لأمره.

(١)**ومقام** الخشية جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له. كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾. فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته. قال النبي، ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية**». **ومقام الهيبة جمع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم**.

ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان. ولذلك كان أرفعها وأعلاها. وهو فوق الرضا، وهو يتضمن الصبر من غير عكس. ويتضمن التوكل والإنابة والحب والإخبات والخشوع والرجاء، فجميع المقامات مندرجة فيه. لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له. ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر. والصبر داخل في الشكر. فرجع الإيمان كله شكرًا. والشاكرون هم أقل العباد، كما قال تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [سبأ: ١٣].

(٢)**السبب** الرابع: خوف الله وخشية عقابه، وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده، والإيمان به وبكتابه وبرسوله. وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين، ويضعف بضعفهما. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾. [فاطر: ٢٨].

(٣)**وقوله**: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالمًا إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم.

لكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم للخشية حيث يظن أنه يحصل بدونها، وهذا ممتنع فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها مواجه لها، وأنه لا يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق ونحو ذلك، فأمنه في هذه المواطن دليل عدم علمه، وأحسن أحواله أن يكون معه ظن لا يصل إلى رتبة العلم اليقيني. فإن قيل فهذا ينتقض عليكم بمعصية إبليس فإنها كانت عن علم لا عن جهل.

---

(١) ١٣٦ مدارج جـ١. (٢) ٢٧١ طريق الهجرتين.

(٣) ١٧٢ شفاء العليل.

وبقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى﴾. [فصلت: ١٧]. وقـال: ﴿وَآتَيْنَـا ثَمُـودَ النَّـاقَـةَ مُبْصِرَةً﴾. [الإسراء: ٥٩]. وقـال عن قوم فرعـون: ﴿وَجَحَـدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَـا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًّا﴾. [النمل: ١٤]. وقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾. [العنكبوت: ٣٨]. وقال موسى فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَـائِـرَ﴾. [الإسراء: ١٠٢]. وقـال: ﴿وَمَـا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]. وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾. [الأنعام: ٢٠]. يعني: القرآن أو محمدًا، ﷺ. وقال: ﴿يَاأَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُـونَ﴾ [آل عمـران: ٧١]. وقـال: ﴿فَـإِنَّهُمْ لَا يُكَـذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. والجحود إنكار الحق بعد معرفته وهذا كثير في القـرآن، قيل حجج الله لا تتناقض، بل كلها حق، يصدق بعضها بعضًا، وإذا كان ـ سبحانه ـ قد أثبت الجهالة لمن عمل السوء وقد أقرَّ به وبرسالته، وبأنه حرم ذلـك، وتـوعـد عليه بالعقاب، ومع ذلك يحكم عليه بالجهالة التي لأجلها عمل السوء، فكيف بمن أشرك به وكفر بآياته وعادى رسله، أليس ذلك أجهل الجاهلين؟

وقد سمى تعالى أعداءه جاهلين بعد إقامة الحجة عليهم، فقال: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. فأمره بالإعراض عنهم بعد أن أقام عليهم الحجة وعلموا أنه صادق. وقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾. [الفرقان: ٦٣].

فالجاهلون هنا: الكفار الذين علموا أنه رسول الله، فهذا العلم لا ينافي الحكم على صاحبـه بالجهل، بل يثبت له العلم وينفى عنه في موضع واحد، كما قال ـ تعالى ـ عن السحرة من اليهود: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فأثبت لهم العلم الذي تقوم به عليهم الحجة، ونفى عنهم العلم النافع الموجب لترك الضار.

(١)**عن** ابن عبـاس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾. قال:

---

(١) ٢٩ شفاء العليل.

الذين يقولون: إن الله على كل شيء قدير، وهذا من فقه ابن عباس وعلمه بالتأويل ومعـرفته بحقائق الأسماء والصفات، فإن أكثر أهل الكلام لا يوفون هذه الجملة حقها، ولو كانوا يقرون بها، فمنكرو القدر وخلق أفعال العباد لا يقرون بها على وجهها، ومنكرو أفعال الرب القائمة به لا يقرون بها على وجهها؛ بل يصرحون أنه لا يقدر على فعل يقوم به.

ومن لا يقر بأن الله ـ سبحانه ـ كل يوم هو في شأن يفعل ما يشاء لا يقر بأن الله على كل شيء قدير.

ومن لا يقر بأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وأنه ـ سبحانه ـ مقلب القلوب حقيقة، وأنه إن شاء يقيم القلب أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، لا يقر بأن الله على كل شيء قدير.

ومن لا يقر بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض. وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يقول: «**من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**». وأنه نزل إلى الشجرة فكلم موسى، كلمه منها. وأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة حين تخلو من سكانها. وأنه يجيء يوم القيامة فيفصل بين عباده، وأنه يتجلى لهم يضحك. وأنه يريهم نفسه المقدسة، وأنه يضع رجله على النار فيضيق بها أهلها، وينزوي بعضها إلى بعض.

إلى غير ذلك من شؤونه وأفعاله التي من لم يقر بها لم يقر بأنه على كل شيء قدير. فيا لها كلمة من حبر الأمة وترجمان القرآن. وقد كان ابن عباس شديدًا على القدرية. وكذلك الصحابة، كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

فصـــل(١)

وأما إمـاتة قلوبهم، ففي قوله: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى**﴾ [النمل: ٨٠]. وقوله: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾. [الأنعام: ١٢٢].

وقـوله: ﴿**لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا**﴾ [يس: ٧٠] وقوله: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر: ٢٢]. فوصف الكافر بأنه ميت وأنه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك

(١) ١٠٤ شفاء العليل.

أن القلب الحي هو الذي يعرف، الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل، ولا إرادة للحق وكراهة للباطل، بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما.

وكذلك وصف ـ سبحانه ـ كتابه ووحيه بأنه روح لحصول حياة القلب به، فيكون القلب حيًّا ويزداد حياة بروح الوحي، فيحصل له حياة على حياة، ونور على نور، نور الوحي على نور الفطرة. قال: ﴿**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ [غافر: ١٥]. وقال: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢]. فجعله روحًا لما يحصل به من الحياة، ونورًا لما يحصل به من الهدى والإضاءة، وذلك نور وحياة زائدة على نور الفطرة وحياتها؛ فهو نور على نور، وحياة على حياة.

(١) **المتابعة** هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ**﴾. [فاطر: ٢٩]. وفي قوله: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾. [البقرة: ١٢١]. والمعنى: يتبعون كتاب الله حق اتباعه.

وقال تعالى: ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ**﴾. [العنكبوت: ٤٥]. وقال: ﴿**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَا القُرْآنَ**﴾ [النمل: ٩١-٩٢].

فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى، فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع، يقال: اتل أثر فلان، وتلوت أثره وقفوته، وقصصته: بمعنى تبعت خلفه، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿**والشَّمسِ وضُحَاهَا * والقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا**﴾. [الشمس: ١، ٢]. أي تبعها في الطلوع بعد غيبتها، ويقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضًا، أي يتبع، وسمي تالي الكلام تاليًا لأنه يتبع بعض الحروف بعضًا لا يخرجها جملة واحدة، بل يتبع بعضها بعضًا مرتبة، كلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى، وهذه التلاوة وسيلة وطريقة.

والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنى واتباعه تصديقًا بخبره وائتمارًا بأمره،

---

(١) ٤٢ مفتاح جـ١.

وانتهاء بنهيه، وائتمامًا به، حيث ما قادك انقدت معه. فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقًا.

(١)**قال:** وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، عن الصلت بن دينار، حدثنا عُقبة بن صهبان الهنائي قال: سألتُ عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [فاطر: ٣٢]. فقالت: «يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله، ﷺ، شهد له رسول الله، ﷺ، بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم»، فجعلتْ نفسها معنا.

(٢)**والمقصود** الكلام على مراحل العالمين وكيفية قطعهم إياها، فلنرجع إليه.

فنقول: أما الأشقياء فقطعوا تلك المراحل سائرين إلى دار الشقاء متزودين غضب الرب سبحانه، ومعاداة كتبه ورسله وما بعثوا به، ومعاداة أوليائه والصد عن سبيله، ومحاربة من يدعو إلى دينه، ومقاتلة الذين يأمرون بالقسط من الناس، وإقامة دعوة غير دعوة الله التي بعث بها رسله لتكون الدعوة له وحده.

فقطع هؤلاء الأشقياء مراحل أعمارهم في ضد ما يحبه الله ويرضاه.

وأما السائرون إليه فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وإيثار شهواته ولذاته على مراضي الرب ـ سبحانه ـ وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه، يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع إلى الله. فهذا حال المسلم.

وأما من زين له سوء عمله فرآه حسنًا وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم على الرجوع إلى الله والإنابة إليه أصلاً، فهذا لا يكاد إسلامه أن يكون صحيحًا أبدًا، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان، ونعوذ بالله من الخذلان.

وأما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه، فهممهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة

(١) ٨٦ إغاثة جـ١. (٢) ٢٠٣ طريق الهجرتين.

واجتناب الأعمال القبيحة، فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمره الله، فإذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس فيركع الضحى، ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب، فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى الصف الأول من المسجد فأدى فريضته كما أمر، مكمِّلاً لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من: الخشوع، والمراقبة، والحضور بين يدي الرب. فينصرف من الصلاة وقد أثرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارًا تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه . . .

. . . (١) **ثم** الناس في قطع هذه المراحل قسمان:

فقسم قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاء، فكلما قطعوا منها مرحلة قربوا من تلك الدار وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداته ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره وإبطال دعوته وإقامة دعوة غيرها، فهؤلاء جعلت أيامهم يسافرون فيها إلى الدار التي خلقوا لها واستعملوا بها، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم يسوقونهم إلى منازلهم سوقًا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾. [مريم: ٨٣]. أي تزعجهم إلى المعاصي والكفر إزعاجًا وتسوقهم سوقًا.

القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام. وهم ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله. وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره. وفي نفس السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه: مقصر في الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار.

والمقتصد: اقتصر من الزاد على ما يبلغه، ولم يشد مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالم غانم، لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة.

(١) ١٨٦ طريق الهجرتين.

والسابق بالخيرات: همه في تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسرانًا أن يدخر شيئًا مما بيده ولا يتجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم، فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد، وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيىء به تجارة إلى ذلك البلد لفعل، فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن الله: يرى خسرانًا بينا أن يمر عليه وقت في غير متجر. فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو:

فأما الظالم لنفسه فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة. فمرة يأخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاونًا ووعدًا بالتوبة. فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب. فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب منهما. فإذا ورد القيامة ميز ربحه من خسرانه وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله. وأما المقتصدون فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولا نقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار، ولا بخسوا الحق الذي عليهم.

فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله فيها مشتغلاً بها، قائمًا بأعيانها، مؤديًا واجب الرب فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول. فهو كذلك سائر يومه.

فإذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم، يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر، فيقوم إلى غذائه ووظيفته. فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة، والحج الواجب. وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم.

وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار، ومقربون. وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أهل اليمين، وهم المقتصدون والأبرار والمقربون. وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمى مؤمنًا عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

وقد اختلف في قوله تعالى: ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ**﴾. [فاطر: ٣٣]. هل ذلك راجع إلى الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، أو يختص بالقسمين الأخيرين وهما المقتصد والسابق دون الظالم، على قولين

(١). . . **الحزن:** هو بلية من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهل الجنة: ﴿**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ**﴾ [فاطر: ٣٤]. فحمده على أن أذهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها. وفي الصحيح عن النبي، ﷺ، أنه كان يقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال**». فاستعاذ ﷺ، من ثمانية أشياء كل شيئين منها قرينان:

فالهم والحزن قرينان، وهما الألم الوارد على القلب، فإن كان على ما مضى فهو الحزن، وإن كان على ما يستقبل فهو الهم. فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضي أثر الحزن، وإن كان مصدره خوف الآتي أثر الهم.

والعجز والكسل قرينان، فإن تخلف مصلحة العبد وبعدها عنه إن كان من عدم القدرة فهو عجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو كسل.

والجبن والبخل قرينان، فإن الإحسان يفرح القلب، ويشرح الصدر، ويجلب النعم، ويدفع النقم، وتركه يوجب الضيم والضيق ويمنع وصول النعم إليه، فالجبن ترك الإحسان بالبدن، والبخل ترك الإحسان بالمال.

وغلبة الدين وقهر الرجال قرينان، فإنّ القهر والغلبة الحاصلة للعبد إما منه وإما من غيره، وإن شئت قلت: إما بحق وإما بباطل من غيره.

والمقصود أن النبي، ﷺ، جعل الحزن مما يستعاذ منه. وذلك لأن الحزن يضعف

---

(١) ٢٧٨ طريق الهجرتين.

القلب، ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠]. فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب المصائب التي يبتلى العبد بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما. . .

(١). . . **طريقة** القرآن يقرن بين أسماء الرجاء، وأسماء المخافة كقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة: ٩٨]. وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾. [فاطر: ٣٤]. لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم قالوا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾. وفي هذا معنى التعليل أي بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات وشكر لنا الحسنات.

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [آل عمران: ١٤٧]. فهذا جزاء لشكرهم، أي إن شكرتم ربكم شكركم وهو عليم بشكركم لا يخفى عليه من شكره ممن كفره. والقرآن مملوء من هذا، والمقصود التنبيه عليه.

(٢)**قال** تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]. فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته، فإن العبد على جناح سفر؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار؛ فإذا طال عمره وحسن عمله، كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة؛ فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلى أسفل؛ فالمسافر إما صاعد وإما نازل، وفي الحديث المرفوع: «**خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله**».

فالطالب الصادق في طلبه، كلما خرب شيء من ذاته، جعله عمارة لقلبه وروحه. وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته. وكلما منع شيئًا من لذات دنياه، جعله زيادة في لذات آخرته. وكلما ناله هم أو حزن أو غم، جعله في أفراح آخرته، فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته، إن زاد في حصول

(١) ٩٥ جلاء الأفهام.   (٢) ١٨٩ فوائد.

ذلك وتوفيره عليه في معاده؛ كان رحمة به وخيراً له؛ وإلا كان حرمانًا وعقوبة على ذنـوب ظاهـرة أو باطنة، أو ترك واجب ظاهر أو باطن، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة، وبالله التوفيق.

(١) **قال** تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما: الحليم والغفور، كيف تجد تحت ذلـك؟ أنـه لولا حلمـه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض. وأخبر ـ سبحانه ـ عن كفر بعض عباده أنه ﴿تَكَادُ السَّمَـٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾(٢). [مريم: ٩٠].

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه.

ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره، ونحن معاشر الحمقاء كما قيل:

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجي درج الجنـان لدى النعيم الخـالد

(٣) **وإذا** أردت معرفة صبر الرب ـ تعالى ـ وحلمه والفرق بينهما، فتأمل قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ والْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. [فاطر: ٤١]. وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ ولَـدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمٰواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩١]. وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤١]. على قراءة من فتح اللام.

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فبالحلم أمسكهما. وأمسكهما أن تزولا هو الصبر فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه.

وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد فيمسكهما بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره ـ تعالى ـ فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر، وهو حبس

---

(١) ١١٧ الجواب الكافي.

(٢) يتفطرن يتشققن، وتخر تسقط، وهذا بتشديد الدال أي مهدودة، والآية من سورة مزيم.

(٣) ٣٠٥ عدة الصابرين.

العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها فتأمله.

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعًا: «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم**». وهذا مقتضى الطبيعة، لأن كرة الماء تعلو كرة التراب بالطبع، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره، وكذلك خرور الجبال وتفطير السموات. الرب - تعالى - يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه، فإن ما يأتي به الكفار والمشركون والفجار في مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضي ذلك.

فجعل - سبحانه - في مقابلة هذه الأسباب أسبابًا يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه، تقابل تلك الأسباب التي هي سبب زوال العالم وخرابه فدفعت تلك الأسباب وقاومتها. وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه، فغلب أثر الرحمة أثر الغضب كما غلبت الرحمة الغضب.

ولهذا استعاذ النبي، ﷺ، بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، ثم جمع الأمرين في الذات إذ هما قائمان بها، فقال: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**».

فإن ما يستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه، فهو الذي أذن في وقوع الأسباب التي يستعاذ منها خلقًا وكونًا، فمنه السبب والمسبب، وهو الذي حرك الأنفس والأبدان وأعطاها قوى التأثير، وهو الذي أوجدها وأعدها وأمدها وسلطها على ما شاء، وهو الذي يمسكها إذا شاء، ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها.

فتأمل ما تحت قوله: **أعوذ بك منك** من محض التوحيد وقطع الالتفات إلى غيره، وتكميل التوكل عليه - تعالى - والاستعانة به وحده، وإفراده بالخوف والرجاء، ودفع الضر وجلب الخير، وهو الذي يمس بالضر بمشيئته، وهو الذي يدفعه بمشيئته، وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته، وهو المعيد من فعله بفعله، وهو الذي - سبحانه - خلق ما يصبر عليه وما يرضى به، فإذا أغضبه معاصي الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم أرضاه تسبيح ملائكته وعباده المؤمنين له، وحمدهم إياه، وطاعتهم له، فيعيذ رضاه من غضبه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة فاطر

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله:** ﴿يسٓ. والقرآنِ الحكيم . إنَّكَ لَمِنَ المرسَلِينَ﴾ والصحيح أن «يسٓ» بمنزلة حمٓ والمٓ، ليست اسما من أسماء النبي ﷺ.

وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله. وصحة نبوته ورسالته فتأمَّل قدر المقسم به والمقسم عليه. وقوله تعالى: ﴿عَلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾، وجوز فيه ثلاثة: أن يكون خبرا بعد خبر، فأخبر عنه بأنه رسوله وأنه على صراط مستقيم وأن يكون متعلقا بالخبر نفسه تعلق المعمول بعامله أي أرسلتك على صراط. وهذا يحتاج إلى بيان تقدير: المجعولين على صراط مستقيم، وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره.

(٢)فصل

وأما الغل فقال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ حَقَّ القوْلُ عَلى أَكْثَرِهِم فَهُم لَا يُؤْمِنُونَ. إنَّا جَعلنَا فِي أَعْناقِهِمْ أَغلالاً فهي إلى الأذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ. وَجَعلْنا مِن بينِ أَيْدِيِهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشيناهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٧، ٩]، قال الفراء: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله. قال أبو عبيدة: منعناهم عن الإيمان بموانع.

ولما كان الغل ما نعاً للمغلول من التصرف والتقلُّب، كان الغل الذي على القلب مانعاً من الإيمان. فإن قيل: فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب، فكيف ذكر الغل الذي في العنق.

قيل: ولما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب ذكر محله، والمراد به القلب، كقوله تعالى: ﴿وكُلَّ إنْسَانٍ أَلْزَمناهُ طائره في عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]. ومن هذا قولهم: إثمي في عنقك وهذا في عنقك. ومن هذا قوله: ﴿ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]. شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق.

ومن هذا قال الفراء: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً؛ حبسناهم عن الإنفاق.

قال أبو إسحاق: وإنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي لزومه

(١) ٢٧١ التبيان.　(٢) ١٤٠ شفاء.

كلزوم القلادة من بين مايلبس في العنق. قال أبو علي: هذا مثل قولهم طوّقتك كذا **وقلدتك** كذا، ومنه قلده السلطان كذا أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق. قلت: ومن هذا قولهم: قلدت فلانًا حكم كذا وكذا، كأنك جعلته طوقاً في عنقه، وقد سمّى الله التكاليف الشاقة أغلالاً في قوله: ﴿ وَ يَضعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأَغْــلَالَ الّتي كَانَتْ عَلَيْهِم ﴾ [الأعـراف : ١٥٧]، فشبهها بالأغـلال لشـدتها وصعوبتها، قال الحسن : هي الشدائد التي كانت في العبادة : كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم.

قال ابن قتيبة: هي تحريم الله ـ سبحانه ـ عليهم كثيراً مما أُطلقه لأُمة محمد ﷺ، وجعلها أَغْلالاً، لأن التحريم يمنع كما يقبض الغل اليد.

وقوله ﴿**فهي إلى الأذقان**﴾. قالت طائفة: الضمير يعود إلى الأيدي، وإن لم تذكر لدلالة السياق عليها، قالوا. لأن الغل يكون في العنق، فتجمع إليه اليد، ولذلك سمّى جامعة. وعلى هذا فالمعنى فأيديهم أو فأيمانهم مضمومة إلى أذقانهم، هذا قول الفـراء والزجاج. وقالت طائفة الضمير يرجع إلى الأغلال، وهذا هو الظاهر. وقوله: ﴿**فهي إلى الأذقان**﴾ أي واصلة وملزوزة إليها، فهو غل عريض قد أحاط بالعنق حتى وصل إلى الذقن.

وقوله: ﴿**فهم مقمحون**﴾ قال الفراء والزجاج: المقمح هو الغاض بصره بعد رفع رأسه، ومعنى الأقماح في اللغة: رفع الرأس وغض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه وقمح، وقال الأصمعي: بعير قامح، إذا رفع رأسه على الحوض ولم يشرب.

قال الأزهري: لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورءوسهم صعداً كالإبل الرافعة رءوسها. انتهى.

فإن قيل: فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان.

قيل: أحسن وجه وأبينه، فإن الغل إذا كان في العنق واليد مجموعة إليها منع اليد عن التصرف والبطش، فإذا كان عريضاً قد ملأ العنق، ووصل إلى الذقن منع الرأس من تصويبه، وجعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه لا يستطيع له حركة.

ثم أكد هذا المعنى والحبس بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال ابن عباس: منعهم من الهدى لما سبق في علمه.

والسد الذي جَعَلَ مَن بين أيديهم ومن خلفهم هو الذي سدّ عليهم طريق الهدى، فأخبر ـ سبحانه ـ عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه، وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم وضمت أيديهم إليها وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما، وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئاً.

وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له ثم جحده.وكفر به وعاداه أعظم معاداة وجدت هذا المثل مطابقاً له أتم مطابقة، وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان كما حيل بين هذا وبين التصرف والله المستعان.

فصل(١)

فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا، وخرجوا وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، وعرفوا أن الدَّارَ دَارُ مَنعة، وأن القوم أهل حَلْقة وشَوْكة وبأس: خافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم، ولحوقه بهم، فيشتدُّ عليهم أمره.

فاجتمعوا في دار النَّدوة ولم يتخلَّف أحد من أهل الرأي والحِجَىٰ منهم، ليتشاوروا في أمره، وحَضَرهم وَلِيُّهم وشيخهم: إبليس في صورة شيخ كبير من أهل نَجْد، مشتمل الصَّماء في كسائه، فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ، فأشار كل أحد منهم برأي، والشيخ يَرُدُّه ولا يرضاه.

إلى أن قال أبو جهل: قد فُرِق لي فيه رأى، ما أراكم قد وقعتم عليه. قالوا: ما هو؟ قال: أرى أن نأخذَ من كل قبيلة من قريش غلاماً نَهْداً جَلْداً نسيبًا وسيطاً، ثم نُعطِيه سيفاً صارماً، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك: كيف تصنع؟ ولا يمكنها معاداة القبائل كلها، ونسوق إليهم ديته. فقال الشيخ: لله در الفتى، هذا والله الرأي، قال: فتفرقوا على ذلك، واجتمعوا عليه، فجاءه جبريل بالوحي من عند ربه ـ تبارك وتعالى ـ

(١) ١٣٦ الزاد جـ٢.

فأخبره بذلك، وأمره أن لا ينام في مَضْجَعه تلك الليلة.

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر نصفَ النهار في ساعة لم يكن يأتيه فيها مُتَقَنِّعاً، فقال له: «أخْرِجْ عني مَنْ عندك؟» فقال: إنما هم أهلك يا رسول الله، فقال: «إن الله قد أذن لي في الخروج». فقال أبو بكر: الصحبةَ يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال أبو بكر: فخذ بأبي وأمي إحدىٰ راحِلَتِيَّ هاتين. فقال رسول الله ﷺ: «بالثَّمن»، وأمر عليًّا أن يبيت في مضجعه تلك الليلة».

واجتمع أولئك النفر من قريش يتَطَلَّعُون من صِيْرِ الباب، ويرصُدونه، ويريدون بياته، ويأتمرون أيُّهم يكون أشقاها. فخرج رسول الله ﷺ عليهم، فأخذ حَفْنة من البَطْحاء فجعل يَذُرُّه على رءوسهم، وهم لا يرونه، وهو يتلو: ﴿**وَجَعلْنَا مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ سَدًّا ومن خَلْفهم سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُم لاَ يُبْصِرُون**﴾ [يس: ٩].

ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر: فخرجا من خُوخة في دار أبي بكر ليلاً. وجاء رجل، ورأى القومَ ببابه، فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال: خِبْتُم وخسرتم، قد والله مَرَّ بكم وذَرَّ على رءوسكم التراب، قالوا: والله ما أبصرناه وقاموا يَنفضُون التراب عن رءوسهم، وهم: أبو جهل، والحكم بن العاص، وعقبة بن أبي مُعيَط، والنَّضر بن الحارث، وأُمَيَّة بن خَلَف، وزمعه بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأبي بن خلف، ونُبيه، ومُنَبِّه ابنا الحجاج. فلما أصبحوا قام عليٌّ عن الفراش، فسألوه عن رسول الله ﷺ؟ فقال: لا علمٍ لـي به. ثم مضىٰ رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثور، فدخلاه، وضرب العنكبوت بيتاً على بابه. . . . .

(١)**قال** تعالى: ﴿**إنَّا نَحْنُ نُحيْي المَوْتَى وَنَكْتُبُ ماقَدّموا وَآثارَهُمْ**﴾ [يس: ١٢]. قال ابن عباس: ما أثروا من خير أو شر، فسمى ذلك آثاراً لحصوله بتأثيرهم.

ومن العجب أن المتكلمين يمتنعون من إطلاق التأثير والمؤثر على من أطلق عليه في القرآن والسنة كما قال النبي ﷺ لبني سلمة: «**دياركم تكتب آثاركم**». أي الزموا دياركم ويخصونه بمن لم يقع إطلاقه عليه في كتاب ولا سنة وإن استعمل في حقه الإيثار والاستئثار كما قال أخوة يوسف تالله لقد آثرك الله علينا.

(٢)**قال** تعالى: ﴿**إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيْء**

---

(١) ١٣٤ شفاء. (٢) ٣٩ شفاء.

أحصيناه في إمام مبين﴾. [يس: ١٢]. فجمع بين الكتابين: الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم، والكتاب المقارن لأعمالهم، فأخبر أنه يحييهم بعد ما أماتهم للبعث، ويجازيهم بأعمالهم، ونبه بكتابته لها على ذلك، قال: **﴿ونكتب ما قدموا﴾** من خير أو شر فعلوه في حياتهم: **﴿وآثارهم﴾** ما سنوا من سنة خير أو شر فاقتدي بهم فيها بعد موتهم. وقال ابن عباس في رواية عطاء: آثارهم ما أثروا من خير أو شر، كقوله: **﴿يُنَبأُ الإنْسَانُ يَومئذٍ بِما قَدَّمَ وأخَّر﴾** [القيامة: ١٣].

الإنْسَانُ يَومئذٍ بِما قَدَّمَ وأخَّر﴾ [القيامة: ١٣].

(فإن قلت): قد استفيد هذا من قوله قدموا فما أفاد قوله: آثارهم على قوله.

(قلت): أفاد فائدة جليلة وهو أنه ـ سبحانه ـ يكتب ما عملوه وما تولد من أعمالهم فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر وهو أثر أعمالهم فآثارهم هي أثار أعمالهم المتولدة عنها، وهذا القول أعم من قول مقاتل، وكأن مقاتلاً أراد التمثيل والبيان على عادة السلف في تفسيراللفظة العامة بنوع أو فرد من أفراد مدلولها تقريباً وتمثيلاً لا حصراً وإحاطة.

وقال أنس وابن عباس في رواية عكرمة: نزلت هذه الآية في بني سلمة: أرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، وكانت منازلهم بعيدة، فلما نزلت قالوا: بل نمكث مكاننا. واحتج أرباب هذا القول بما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية: **﴿إنا نحن نحيي الموتىٰ ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾**، فقال رسول الله ﷺ: **«يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم»**.

وقد روى مسلم في صحيحه نحوه من حديث جابر وأنس.

وفي هذا القول نظر فإن سورة يس مكية وقصة بني سلمة بالمدينة إلا أن يقال هذه الآية وحدها مدنية. وأحسن من هذا أن تكون ذكرت عند هذه القصة ودلت عليها وذكروا بها عندها إما من النبي ﷺ وإما من جبريل فأطلق على ذلك النزول، ولعل هذا مراد من قال في نظائر ذلك نزلت مرتين.

والمقصود: أن خطاهم إلى المساجد من آثارهم التي يكتبها الله لهم، قال عمر بن الخطاب: لو كان الله ـ سبحانه ـ تاركاً لابن آدم شيئاً لترك ما عفت عليه الرياح من أثر. وقال مسروق: ما خطا رجل خطوة إلا كتبت له حسنة أو سيئة.

والمقصود أن قوله: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهو الذكر، الذي كتب فيه كل شيء، يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها وحفظه لها والإحاطة بعددها وإثباتها فيه.

(١)... **ومن** هذا ما حكاه الله سبحانه من محاجة صاحب يس لقومه، بقوله: ﴿يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يسٓ: ٢٠-٢١].

فنبه على وجوب الاتباع، وهو كون المتبوع رسولاً لمن ينبغي أن لا يخالف ولا يعصى، وأنه على هداية، ونبه على انتفاء المانع، وهو عدم سؤال الأجر فلا يريد منكم دنيا ولا رئاسة، فموجب الاتباع كونه مهتدياً والمانع منه، منتف، وهو طلب العلو والفساد وطلب الأجر، ثم قال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]. أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفاً لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه، وأنعامه كلها تابعة لإيجاده وخلقه.

وقد جبل الله العقول والفطر والشرائع على شكر المنعم ومحبة المحسن، ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في ذلك، فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع.

ثم أقبل عليهم مخوفاً تخويف الناصح فقال: ﴿وَإِلَيهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ثم أخبر عن الآلهة التي تعبد من دون الله أنها باطلة فقال: ﴿أَءَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُم شيئاً ولا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]. فإن العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه، وأنه إذا أرادني الرحمن الذي فطرني بضر لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ماينقذوني بها من ذلك الضر ولا من الجاه والمكانة عنده ما يشفع لي إليه ولا يخلص من ذلك الضر فبأي وجهة تستحق العبادة ﴿ إني إذاً لفي ضلال مبين﴾ إن عبدت من دون الله من هذا شأنه.

(٢)**ومن** هذا قوله تعالى حاكياً عن صاحب ياسين أنه قال لقومه محتجا عليهم بما تقربه فطرهم وعقولهم: ﴿وَمَا لي لا أعبُدُ الذي فَطَرَني وإليه تُرْجَعُونَ﴾

(١) ١١١ مختصر الصواعق جـ١. (٢) ٨ مفتاح جـ٢.

[يس: ٢٢]. فتأمل هذا الخطاب كيف تجد تحته أشرف معنى وأجله، وهو أن كونه ـ سبحانه ـ فاطراً لعباده يقتضي عبادتهم له، وأن من كان مفطوراً مخلوقاً فحقيق به أن يعبد فاطره وخالقه، ولا سيما إذا كان مرده إليه، فمبدأه منه، ومصيره إليه، وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته، ثم احتج عليهم بما تقربه عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره، وإنها أقبح شيء في العقل وأنكره، فقال: ﴿أأتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلهةً إن يُرِدْنِ الرَّحمنُ بضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِي شَفَاعَتُهُم شيئًا ولا يُنقِذُونِ. إنِّي إذًا لَّفِي ضَلَال مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٣-٢٤]. أفلا تراه كيف لم يحتج عليهم بمجرد الأمر بل احتج عليهم بالعقل الصحيح ومقتضى الفطرة.

(١)**والمعبود** ينبغي أن يكون ربًّا خالقاً، فهذا من أحسن الاحتجاج وأبينه، فقد أسفر لك من المعنى المقصود بالسياق صيحة ووضح لك شرحه وانجلى بحمد الله الإشكال، وزال عن المعنى غطاء الإجمال، وبان أن ابن قتيبة في تفسير الآية وفق للسداد، كما وفق لموافقة أهل السنة في خلق أعمال العباد، ولا تستطل هذا الفصل؛ فإنه يحقق لك فصولاً لا تكاد تسمعها في خلال المذاكرات، ويحصل لك قواعد وأصولاً لا تجدها في عامة المصنفات.

فإن قيل: فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون ما موصولة قيل: نعم قد سبق الوعد بذلك، وقد حان إنجازه، وآن إبـرازه. ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير أن الله ـ سبحانه ـ أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها، وهي إنما صارت أصناماً بأعمالهم، فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم، فإذا كان ـ سبحانه ـ هو الخالق اقتضى صحة هذا الإطـلاق أن يكـون خالقهـا بجملتهـا، أعني مادتها وصورتها، فإذا كانت صورتها مخلوقة لله كما أن مادتها كذلك؛ لزم أن يكون خالقاً لنفس عملهم، الذي حصلت به الصورة لأنه متولد عن نفس حركاتهم. فإذا كان الله خالقها كانت أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوقة له، وهذا أحسن استدلالاً وألطف من جعـل ما مصـدرية. ونظيره من الاستدلال سواء قوله: ﴿وآيةٌ لهُمْ أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُم في الفُلْكِ المَشْحُون. وَخَلَقْنـا لَهُمْ مِنْ مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١-٤٢]

(١) ١٥٠ بدائع جـ١.

والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن، وقد أخبر أنها مخلوقة، وهي إنما صارت سفناً بأعمال العباد.

وأبعد من قال: إن المثل ههنا هو سفن البر وهي الإبل لوجهين. أحدهما أنها لا تسمى مثلاً للسفن لا لغة ولا حقيقة فإن المثلين ما سد أحدهما مسد الآخر. وحقيقة المماثلة أن يكون بين فلك وفلك لا بين جمل وفلك. الثاني: أن قوله: **﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقهُمْ فَلا صَرِيْخَ لَهُمْ﴾** [يس: ٤٣]، عقب ذلك دليل على أن المراد الفلك التي إذا ركبوها قدرنا على إغراقهم فذكرهم بنعمه عليهم من وجهين. أحدهما ركوبهم إياها.

والثاني أن يسلمهم عند ركوبها من الغرق، ونظير هذا الاستدلال أيضاً قوله تعالى: **﴿والله جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيْكُم الحَرَّ وَسَرَابِيْلَ تَقِيْكُمْ بَأْسَكُمْ﴾** [النحل ٨١]. والسرابيل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم، وقد أخبر بأنه ـ سبحانه ـ هو جاعلها، وإنما صارت سرابيل بعملهم. ونظيره: **﴿والله جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بيُوتِكُمْ سَكناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جلُودِ الأَنْعَامِ بيُوتًا﴾** والبيوت التي من جلود الأنعام هي الخيام وإنما صارت بيوتًا بعملهم.

فإن قلت: المراد من هذا كله المادة لا الصورة. (قلت): المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها وقيام صورها بها وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال، والله أعلم.

(١)**وقال** سعيد بن منصور حدَّثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة في قوله تعالى: **﴿إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّة الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾** [يس: ٥٥]، قال: في افتضاض الأبكار. وقال عبدالله بن أحمد حدَّثنا أبو الربيع الزَّهراني ومحمد بن حميد قالا: حدَّثنا يعقوب بن عبدالله حدثنا حفص بن حميد عن بشر بن عطية عن شفيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود في قوله: **﴿إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُون﴾** قال: شغلهم افتضاض العذارى.

وقال الحاكم: أنبأنا الأصم أنبأنا العباس بن الوليد أخبرني شعيب عن الأوزاعي في قوله تعالى: **﴿إِنَّ أصحابَ الجنَّةِ اليومَ في شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾** [يٓس: ٥٥]

(١) ١٧١ حادي الأرواح.

قال: شغلهم افتضاض الأبكار. قال مقاتل: شغلوا بافتضاض العذارى عن أهل النار، فلا يذكرونهم، ولا يهتمون لهم.

وقال أبو الأحوص: شغلوا بافتضاض الأبكار عن السرر في الحجال.

وقال سليمان التيمي عن أبي مجلز قلت لابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿**إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون**﴾ ما شغلهم؟ قال: افتضاض الأبكار.

وقال ابن أبي الدنيا حدَّثنا فضيل بن عبدالواحد حدثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿**في شغل فاكهون**﴾ قال: في افتضاض العذارى.

(١)..... **وفي** سنن ابن ماجه من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**وبينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم؛ فإذا الرب ـ تعالى ـ قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، قال وذلك قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم**».

وفي الصحيحين من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها؛ كما يربي أحدكم فلوَّه، حتى تكون مثل الجبل**» ـ الفلو ـ المُهر بلغ السنة.

وفي صحيح ابن حبان عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً**». وروى ابن وهب قال: أخبرني سعيد بن أبي أيوب عن زهرة بن معبد عن ابن عمر رضي الله عنهما أخبره أنه سمع عقبة بن عامر رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ فأحسن وضوءه، ثم رفع نظره إلى السماء، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ فتحت له ثمانية أبواب الجنة، يدخل من أيها شاء**».

(١) ٥٦ اجتماع الجيوش الإسلامية.

(١)**وقال** القاضي أبو يعلىٰ: فأما قوله في حديث جابر «**بينا أهل الجنة في نعيم إذ سطع لهم نور من فوق رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿سَلامٌ قَوْلاً من رَبٍّ رَحيم﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه قال**: فلا يمتنع حمله على ظاهره، وأنه نور ذاته، لأنه إذا جاز أن تظهر لهم ذاته فيرونها جاز أن يظهر لهم نورها فيرونه، لأن النور من صفات ذاته، وهو قوله: ﴿**وأَشْرَقَتِ الأَرضُ بِنُورِ رَبِّها**﴾ [الزمر: ٦٩]. وذكر في موضع آخر قولين في ذلك ورجح هذا القول قال: وهو أشبه بكلام أحمد.

(٢)**وفي** سنن ابن ماجه وحرب الكرماني من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي عن محمد بن الْمُنْكَدِر، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ في نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُؤوسهُم، فإذا الربُّ قد أشرف عليهم من فوقهم، فيقول: السلام عليكم ياأهل الجنة، وذلك قوله: ﴿سَلاَمٌ قَولاً من رب رحيم﴾ فيرفعون رؤوسهم فينظرونَ إليه وينظرُ إليهم ولا يلتفتون إلى شيء من النعيم حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم وعلى ديارهم ومنازلهم**» لفظ حديث حرب: فما ظنُّ المحبين بلذة النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم؟ وقد كان من دعاء النبي ﷺ: **أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك**». ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه.

(٣)**وذكر** عثمان الدارمي، عن محمد بن كعب القرظي، أنه حدث عمر بن عبدالعزيز قال: إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار، أقبل في ظلل من الغمام والملائكة، فيسلم على أهل الجنة في أول درجةٍ، فيردون عليه السلام. قال القرظي: وهذا في القرآن: ﴿**سَلاَمٌ قولاً من رَبٍّ رحيم**﴾ فيقول: سلوني يفعل بهم ذلك في درجهم حتى يستوي على عرشه، ثم تأتيهم التُّحف من الله تحمله الملائكة إليهم. وقال عبدالواحد بن زيد، عن الحسن: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا، وقال هشام بن حسان عنه أنه تبارك وتعالى يتجلى لأهل الجنة فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة. . . . .

(١) ٢٠٢ مختصر الصواعق جـ٢. (٢) ٤٤٩ روضة المحبين. (٣) ٤٦٥ روضة المحبين.

فصـــل(١)

ثبت بالعقل إمكان رؤيته تعالى، وبالشرع وقوعها في الآخرة، فاتفق الشرع والعقل على إمكان الرؤية ووقوعها، فإن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بموجود، وما كان أكمل وجوداً كان أحق أن يرى، فالباري ـ سبحانه ـ أحق أن يرى من كل ما سواه، لأن وجوده أكمل من كل موجود سواء.

يوضحه: إن تعذر الرؤية: إما لخفاء المرئي، وإما لآفة وضعف في الرائي، والرب سبحانه أظهر من كل موجود، وإنما تعذرت رؤيته في الدنيا لضعف القوة الباصرة عن النظر إليه. فإذا كان الرائي في دار البقاء كانت قوة البصر في غاية القوة لأنها دائمة فقويت على رؤيته تعالى. وإذا جاز أن يرى، فالرؤية المعقولة له عند جميع بني آدم: عربهم وعجمهم وتركهم وسائر طوائفهم: أن يكون المرئي مقابلاً للرائي مواجهاً له بائنا عنه، لا تعقل الأمم رؤية غير ذلك، وإذا كانت الرؤية مستلزمة لمواجهة الرائي ومباينة المرئي لزم ضرورة أن يكون مرئيًّا له من فوقه أو من تحته أو عن يمينه أو عن شماله أو خلفه أو أمامه، وقد دل النقل الصريح على أنهم إنما يرونه سبحانه من فوقهم، لا من تحتهم. كما قال رسول الله ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم ـ ثم قرأ ـ: ﴿سَلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم﴾ ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم**». فلا يجتمع الإقرار بالرؤية وإنكار الفوقية والمباينة. ولهذا فإن الجهمية المغول تنكر علوه على خلقه ورؤية المؤمنين له في الآخرة ومخانيثهم يقرون بالرؤية وينكرون العلو. وقد ضحك جمهور العقلاء من القائلين بأن الرؤية تحصل من غير مواجهة المرئي ومباينته. وهذا رد لما هو مركوز في الفطر والعقول. . . . .

(٢)**قال** تعالى: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيطانَ إِنّه لَكُم عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَأَنِ اعبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾** [يس: ٦٠-٦١].

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة، كما قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ**

(١) ٢٨٠ مختصر الصواعق. (٢) ١٩١ الجواب الكافي.

إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ. قالوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كانوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١] فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته ويوهمهم أنه ملك. كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب، وهي التي تخاطبهم، وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان، فيسجد لها الكفار، فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها. وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان. فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها. وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه. فلا عبدالله ولا رسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالى: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِليكُم يا بني آدم أَنْ لا تعبدوا الشيطان إِنَّه لكم عدُوٌّ مُّبِينٌ وأن اعبدوني هذا صراطٌ مستقيم﴾** [يس: ٦٠، ٦١].

فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول أغراضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه به مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان، ولهذا قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيْعاً يَامَعْشَرَ الجِنِّ قَدْ استَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنس﴾** [الأنعام: ١٢٨]. أي من إغوائهم وإضلالهم. **﴿وَقَال أَوْلياؤُهُمْ مِنَ الإِنس رَبَّنا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وبَلَغْنَا أَجَلَنَا الذي أَجَّلتَ لنا قالَ النَّارُ مَثْواكُم خَالِدِينَ فيها إِلاَّ ما شاءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ﴾** [الأنعام: ١٢٨].

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفره بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في النار، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلـهاً غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلـهية والعظمة والإجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضىٰ به؟ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

(١)**قال** الله تعالى: **﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وما يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكرٌ وقُرآنٌ مُّبِينٌ. لِّيُنذِرَ من كان حيًّا ويَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكافِرِينَ﴾** [يس: ٦٩-٧٠].

---

(١) ٢١٨ مدارج جـ١.

فأخبر سبحانه: أن الناس قسمان: حيٌ قابل للانتفاع، يقبل الإنذار، وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به، لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير ألبتة. فيحق عليه القول بالعذاب. وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان، بلْ لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول. إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءني رسول منك لامتثلت أمرك. فأرسل إليه رسوله. فأمره ونهاه. فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى، فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى: ﴿**وكذلك حقت كلمةُ ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون**﴾ [يونس: ٣٣] وحق عليه العذاب، كقوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كلمةُ ربك على الذين كفروا أَنهُمْ أصحابُ النَّارِ**﴾ [غافر: ٦].

فالكلمة التي حقت كلمتان: كلمة الإضلال، وكلمة العذاب. كما قال تعالى: ﴿**وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلى الْكافِرِيْنَ**﴾ [الزمر: ٧١] وكلمته ـ سبحانه ـ إنما حقّت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته. وحاصل هذا كله: أن الله ـ سبحانه ـ أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم. لا مع مراد أنفسهم. فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم. فاستحقوا كرامته. وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده. وعلم سبحانه منهم: أنهم لا يؤثرون مراده ألبتة. وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم، فأمرهم ونهاهم. فظهر بأمره ونهيه من القدر الذي قدر عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم، ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله، فعاقبهم بظلمهم اهـ.

(١) . . . . **لفظ** اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مفرداً، ومثنى، ومجموعاً. فالمفرد كقوله: ﴿**بِيَدِهِ المُلْكُ**﴾. [تبارك: ١]، والمثنىٰ كقوله: ﴿**خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ [ص: ٧٥]. والمجموع: ﴿**عَمِلتْ أَيْدِينَا**﴾ [يس: ٧٢].

فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد وعدى الفعل بالباء إليهما، فقال: ﴿**خلقت بيديَّ**﴾ وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعد الفعل بالباء. فهذه ثلاثة فروق، فلا يحتمل: ﴿**خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ من المجاز

(١) ٣٨ مختصر الصواعق جـ١.

ما يحتمله ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ فإن كل أحد يفهم من قوله: ﴿عملت أيدينا﴾ مايفهمه من قوله: عملنا وخلقنا كما يفهم ذلك من قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم﴾.

وأما قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثنيت؟ وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد والمراد الإضافة إليه كقوله: ﴿بما قَدَّمت يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. ﴿بما كَسَبَتْ أَيْدِيكُم﴾.

وأما إذا أضيف إليه الفعل ثم عدى بالباء إلى يده مفردة أو مثناة فهو مما باشرته يده. ولهذا قال عبدالله بن عمرو: «**إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثًا: خلق آدم بيده، وغرس جنة الفردوس بيده، وكتب التوراة بيده**».

فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كل شيء مما خلق بالقدرة. وقد أخبر النبي ﷺ أن أهل الموقف يأتونه يوم القيامة فيقولون: «**ياآدم أنت أب البَشَرِ خلقك الله بيده**».

وكذلك قال آدم لموسى في محاجته له: «**اصطفاك الله بكلامه، وخط لك الألواح بيده**». وفي لفظ آخر: «**كتب لك التوراة بيده**». وهو من أصح الأحاديث.

وكذلك الحديث المشهور: «**إن الملائكة قالوا: يارب خلقت بني آدم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال الله تعالى: ألا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له: كن فكان**»؟ وهذا التخصيص إنما فهم من قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فلو كان مثل قوله: ﴿مما عمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ [يس: ٧١]. لكان هو والأنعام في ذلك سواء. فلما فهم المسلمون أن قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. يوجب له تخصيصاً وتفضيلاً بكونه مخلوقاً باليدين على من أمر أن يسجد له وفهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه من خصائصه كانت التسوية بينه وبين قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَروْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً﴾ [يس: ٧١]، خطأً محضاً.

كذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**يقبض الله سمواته بيده والأرض باليد الأخرى**». وقوله ﷺ: «**يمين الله ملأىٰ لا يغيضها نفقة، سحاء[1] الليل والنهار**.

(١) السحاء: كثيرة العطاء.

أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق؟ فإنه لم يغض ما في يمينه وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع . . . » .

(١)**وقال** ـ سبحانه ـ في تثبيت أمر البعث: ﴿**وضَرَبَ لَنَا مَثلاً ونَسِي خَلْقَهُ قال من يُحْيِيَ العظامَ وهي رميمٌ. قُل يُحْيِيها الذي أنشأَهَا أوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾. إلى آخر السورة فلو رام أفصح البشر وأعلمهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو مثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووصف حينئذ الدلالة وصحة البرهان لألفى نفسه ظاهر العجز عن ذلك.

فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضىٰ جواباً، وكان في قوله سبحانه: ﴿**ونسي خلقه**﴾ ما وفى بالجواب، وأقام الحجة، وأزال الشبهة لولا ما أراد الله تعالى من تأكيد حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه تعالى أخبر أن هذا السائل الملحد لو تبين خلق نفسه وبدء كونه لكانت فكرته فيه كافية.

ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله: ﴿**وَنَسِيَ خَلْقَهُ**﴾. وصرح به جواباً له عن مسألته بقوله: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [يس: ٧٩]، فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علماً ضروريًّا إن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية عجز عن الأولى بل كان أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله: ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيله ومواده وصورته وكذلك هو عليم بالخلق الثاني. فإذا كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟ أكد الأمر بحجة تتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة في الأبدان تكون مادتها طبيعية حارة، فقال: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**﴾ [يس: ٨٠] فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتليء بالرطوبة والبرودة. فالذي يخرج الشيء من ضده هو الذي يفعل ما أنكره الملحد من إحياء العظام وهي رميم.

(١) ١٠٠ مختصر الصواعق جـ١.

ثم أكد الدلالة بالتنبيه على أن من قدر على الشيء الأعظم الأكبر فهو على ما دونه أقدر وأقدر فقال تعالى: ﴿**أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ بقَادِرٍ عَلَىٰ أن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**﴾ [يس: ٨١].

فأخبر سبحانه أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما وعجيب خلقهما أقدر على أن يخلق عظاماً صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَوات والأَرْض أَكْبَرُ مِنْ خَلْق النَّاس وَلَكِنَّ أَكثَر النَّاس لا يَعْلَمُونَ**﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوا أَنَّ اللهَ الذي خَلَق السموات والأرضَ ولم يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الموتىٰ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ثم بين ذلك بياناً آخر يتضمن مع إقامة الحجة دفع شبه كل ملحد وجاحد، وهو أنه سبحانه ليس في فعله بمنزلة غيره يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بد معه من آلة ومشارك ومعين، بل يكفي في خلق ما يريد خلقه كن فيكون.

فأخبر أن نفوذ إرادته ومشيئته وسرعة تكوينه وانقياد الكون له. ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله وقوله: ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ فسبحان المتكلم بهذا الكلام الذي جمع مع وجازته وفصاحته وصحة برهانه كل ما تدعو إليه الحاجة من تقرير الدليل وجواب الشبهة بألفاظ لا أعذب منها للسمع ولا أحلىٰ من معانيها للقلب ولا أنفع من ثمراتها للعبد.

(١)**وقد** جمع سبحانه بين النشأتين في قوله: ﴿**وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنثىٰ. من نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى. وَأَنَّ عَلَيهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى**﴾ [النجم: ٤٥-٤٧] وفي قوله: ﴿**أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى**﴾ [القيامة: ٣٧-٣٨]إلى قوله: ﴿**أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى**﴾ [القيامة: ٤٠].

وفي قوله: ﴿**وضَرَبَ لنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قال من يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أنشأها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَليمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم منه تُوقِدُون. أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّموات**

(١) ١٤٠ أعلام جـ١.

والأرضَ بقادرٍ عَلَى أن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وهُوَالخلاقُ العليمُ. إنَّما أمْرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ لَهُ كُن فيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الذي بيدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شيَءٍ وإِلَيْهِ تُرجَعُونَ﴾

فتضمنت هذه الآياتُ عشرة أدلة: أحدها قوله: **﴿أَوَ لَمْ يَرِ الإنسانُ أنَّا خَلَقْناهُ من نطفةٍ﴾** [يس: ٧٧]. فذكره مبدأ خلقه ليدلَّه به على النشأة الثانية.

ثم أخبر أن هذا الجاحِد لو ذكر خَلْقه لما ضربَ المثلَ، بل لما نسي خلقه ضرب المثل؛ فَتَحْتَ قوله: **﴿ونسي خلقه﴾**. ألطفُ جوابٍ وأبينُ دليلٍ، وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئًا: فلانٌ جحدني الإحسان إليه ونسي الثياب التي عليه، والمال الذي معه، والدار التي هو فيها، حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك.

ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جَحَده فقال: **﴿قل يحييها الذي أنْشأَها أول مرة﴾** فهذا جواب واستدلال قاطع، ثم أكد هذا المعني بالإخبـار بعموم علمه لجميع الخلق، فإنَّ تعذُّرَ الإعادة عليه إنما يكون لقصور علمه أو قصور في قدرته، ولا قصور في علم من هو بكل خلق عليم، ولا قدرة فوق قدرة من خلق السماوات والأرض، وإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وبيده ملكوت كل شيء، فكيف تعجز قدرته وعلمه عن إحيائكم بعد مماتكم، ولم تعجز عن النشأة الأولى ولا عن خلق السموات والأرض؟.

ثم أرشد عباده إلى دليل واضح جلي متضمن للجواب عن شُبَهِ المنكرين بألطف الوجوه وأبينها وأقر بها إلى العقل، فقال: **﴿الذي جَعَلَ لَكُم مِن الشَّجر الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾** فإذن هذا دليل على تمام قدرته وإخراج الأموات من قبورهم كما أخرج النار من الشجرة الخضراء.

وفي ذلك جوابٌ عن شبهة من قال من منكري المعاد: الموتُ باردٌ يابس والحياة طَبْعُها الرطوبة والحرارة، فإذا حَلَّ الموتُ بالجسم لم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما، وهذه شبهة تليق بعقول المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل؛ فإن الحياة لا تجامع الموتَ في المحل الواحد ليلزم ما قالوا، بل إذا أوجَدَ الله فيه الحياة وطَبْعهَا ارتَفع الموتُ وطبعه، وهذا الشجر الأخضر طبعُه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة.

ثم ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل، وهو خلق السَّموات والأرض مع

عظمهما وسعتهما وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما، ومَنْ لم تعجز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم؟

ثم قرر هذا المعنى بذكر وَصْفَين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به فقال: **﴿بَلَى وَهُوَ الخَلَّاقُ العليمُ﴾** فكونه خَلّاقاً عليماً يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أراده من الخلق.

ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكمالها لا يَقْصر عنه ولا عن شيء أبداً، فقال: **﴿إنّما أمْرُهُ إذَا أراد شَيْئاً أن يَقُولَ لَهُ كُن فيكون﴾** [يس: ٨٢]، فلا يمكنه الاستعصاء عليه، ولا يتعذر عليه، بل يأتي طائعاً منقاداً لمشيئته وإرادته.

ثم زاده تأكيداً وإيضاحاً بقوله: **﴿فَسُبْحانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾** [يس: ٨٣] فنزَّهَ نفسه عما نَطَق به أعداؤه المنكرون للمعاد معظماً لها بأن ملك كل شيء بيده يتصرف فيه تصرفَ المالكِ الحق في مملوكه الذي لا يمكنه الامتناعُ عن أي تصرف شاءه فيه.

ثم ختم السورة بقوله: **﴿وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** كما أنهم ابتدأوا منه هو فكذلك مرجعهم إليه فمنه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول الآخر، وأن إلى ربك المنتهىٰ.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة يسٓ

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

ترتيبها ٣٧ — آياتها ١٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالى: ﴿**والصَّافَّاتِ صَفًّا**﴾ [الصافات: ١]. أقسم سبحانه بملائكته الصافات للعبودية بين يديه، كما قال النبي ﷺ لأصحابه: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ تتمون الصفوف الأول، وتراصون في الصف**». وكما قالوا عن أنفسهم: ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّون**﴾[الصافات: ١٦٥]. والملائكة الصافات أجنحتها في الهواء. والزاجرات الملائكة التي تزجر السحاب وغيره بأمر الله. فالتاليات التي تتلو لكلام الله.

وقيل: الصافات الطير: كما قال تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوا إِلَىٰ الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ**﴾ [الملك: ١٩]. وقال تعالى: ﴿**وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ**﴾ [النور: ٤١]. والزاجرات الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصي الله. والتاليات: الجامعات لكتاب الله تعالى. وقيل: الصافات القتال في سبيله، فالزاجرات الخيل للحمل على أعدائه. فالتاليات الذاكرين له عند ملاقاة عدوهم.

وقيل: الجامعات الصافات أبدانها في الصلاة، الزاجرات أنفسها عن معاصي الله. فالتاليات آياته، واللفظ يحتمل ذلك كله، وإن كان أحق من دخل فيه وأولىٰ الملائكة، فإن الأقسام كالدليل والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد، وما ذكر من غير الملائكة فهو من آثار الملائكة، وبواسطتها كان.

وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلـهيته وقرر توحيد ربوبيته فقال: ﴿**إِنَّ إِلَـٰهَكُم لَوَاحِدٌ. رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المَشَارِقِ**﴾ [الصافات: ٤، ٥]. من أعظم الأدلَّة على أنه إلـه واحد. ولو كان معه إلـه آخر لكان الإلـه مشاركاً له في ربوبيته، كما شاركه في إلـهيته. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلـهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبوداً وحده بكونه خالقاً رازقاً وحده. وخصَّ المشارق ههنا بالذكر إما لدلالتها على المغارب، إذ الأمر أن المتضايفان كل منهما يستلزم الآخر. وإما لكون المشارق مطلع

---

(١) ٢٧١ التبيان.

الكواكب ومظاهر الأنوار. وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب، وجعلها حفظاً من كل شيطان. فذكر المشارق أنسب بهذا المعنىٰ وأليق. والله تعالى أعلم.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إنَّا زَيَّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد**﴾. فجمل ظاهرها بالكواكب وباطنها بالحراسة من الشياطين.

(٢)فصل

وأما الْوَصَب فهو: ألم الحب ومرضه، فإن أصل الوَصب: المرض، وقَد وَصِب الرجلُ يَوْصَب فهو وصِبٌ، وأوْصبَه الله فهو مُوصَبٌ، والمُوَصَّب بالتشديد الكثير الأوجاع. وفي الحديث الصحيح: «**لَا يُصِيبُ ٱلْمُؤْمِنَ مِن هَمٍّ وَلَا وَصَب حَتَّىٰ ٱلشَّوْكَة يُشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه**»(٣) ووصبَ الشيُ يَصِبُ وُصُوباً إذا دام، تقول: وَصَب الرجلُ عَلَىٰ الأمر إذا داوم عليه، قال الله تعالى: ﴿**وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ**﴾ [الصافات: ٩]. وقال تعالى: ﴿**وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً**﴾ [النحل: ٥٢]. أي الطَّاعة دائمةً.

...(٤)**قال** ابن زيد: ينادي منادٍ يوم القيامة، حتى يجتمع الخلائق: ﴿**مَا لَكُمْ لَا تَناصَرُونَ**﴾ [الصافات: ٢٥]. يقول: مَن عُبد من دون الله، لا ينصرُ اليوم مَنْ عَبدَه، والعابد لا ينصرُ إلـهه. ﴿**بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ**﴾ [الصافات: ٢٦]. فهـذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن، فوَاسُوءَ حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين، إذا سمعوا النداء: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّها الْمُجْرِمُونَ. أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هـٰذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**﴾. [يس: ٥٩ - ٦٢].

---

(١) ٣٠١ مدارج جـ٣.
(٢) ٤٢ روضة المحبين.
(٣) الحديث في صحيح مسلم وغيره بألفاظ متقاربة.
(٤) ٢٤٣ إغاثة جـ٢.

(١)الباب التاسع والخمسون في زيارة أهل الجنة بعضهم بعضاً وتذاكرهم ما كان بينهم في الدنيا

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ. قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ. فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ. قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ. وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٠ ـ ٥٧].

فأخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أن أهل الجنة أقبل بعضهم على بعض يتحدَّثون، ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوال كانت في الدنيا، فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة إلى أن قال قائل منهم: إني كان لي قرين في الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة ويقول ماحكاه الله عنه يقول: أئنك لمن المصدقين بأنا نبعث ونجازى بأعمالنا ونحاسب بها بعد أن مزقنا البلى وكنا تراباً وعظاماً، ثم يقول المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مطلعون في النار لننظر منزلة قريني هذا وما صار إليه، هذا أظهر الأقوال.

وفيها قولان آخران: (أحدهما): أن الملائكة تقول لهؤلاء المتذاكرين الذين يحدث بعضهم بعضاً هل أنتم مطلعون رواه عطاء عن ابن عباس.

والثاني أنه من قول الله ـ عز وجل ـ لأهل الجنة يقول لهم: هل أنتم مطلعون. والصحيح القول الأول، وأن هذا قول المؤمن لأصحابه ومحادثيه والسياق كله والإخبار عنه وعن حال قرينه، قال كعب: «بين الجنة والنار كوى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له في الدنيا اطلع من بعض تلك الكوى».

وقوله: فاطلع أي: أشرف، وقال مقاتل لما قال لأهل الجنة: هل أنتم مطلعون قالوا له: أنت أعرف به منا فاطَّلع أنت فأشرف، فرأىٰ قرينه في سواء الجحيم، ولولا أن الله عرفه إيَّاه لما عرفه، لقد تغير وجهه ولونه، وغيره العذاب أشد تغيير، فعندما قال: تالله إن كدت لتردين، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين.

(١) ١٨٥ حادي الأرواح.

أي إن كدت لتهلكني، ولولا أن أنعم الله عليَّ بنعمته لكنت من المحضرين معك في العذاب.

...(١)**قال** تعالى في شجرة الزَّقُّوم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣]. قال قتادة: لما ذكر الله تعالى هذه الشجرة افتَتَنَ بها الظَلَمَةُ، فقالوا: يكون في النار شجرةٌ والنارُ تأكلُ الشَّجَر؟ فأنزلَ اللهُ عز وجل: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ فأخبرهم أن غذاءها من النار، أي غُذِيَتْ بالنار.

قال ابن قُتيبة: قد تكون شَجَرةُ الزَّقوم نبتاً من النار، ومن جَوْهَرٍ لا تأكله النار، وكذلك سلاسلُ النار وأغلالُها وأنْكالُها، وعقارِبُها، وحَيَّاتها، ولو كانت على ما يُعلم لم تَبْقَ على النار، وإنما دلَّنا اللهُ تعالى على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماء مُتَّفِقَةُ الدّلالةِ، والمعاني مختلفةٌ وما في الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها وجميع آلاتها على مثل ذلك والمقصود: أن هذه الشجرة فتنة لهم في الدنيا، بتكذيبهم بها، وفتنة لهم في الآخرة بأكلهم منها.

وكذلك إخبارُه ـ سبحانه ـ بأن عِدّةَ الملائكة الموكَّلين بالنار تسعةَ عشر، كان فتنةً للكفار، حيث قال عدوُّ الله أبو جَهْلٍ: أيُخَوِّفكم محمدٌ بتسعةِ عَشر، وأنتم الدُّهْم، أفيعْجِزُ كلُّ مائةٍ منكم أن يَبطِشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فقال أبو الأسد: يا معشرَ قريش، إذا كان يومُ القيامة فأنا أمْشي بين أيديكم على الصراط، فأدفعُ عشرة بمَنْكِبِي الأيمن، وتسعة بمنكِبِي الأيسر في النار، ونمضِي فندخل الجنة». فكان ذكرُ هذا العدد فتنةً لهم في الدنيا، وفتنةً لهم يوم القيامة.

والكافرُ مفتونٌ بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مفتون به، ولهذا سألَ المؤمنون أنْ لا يجعلهم فتنةً للذين كفروا، كما قال الحُنفاء: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلذينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٥]، وقال أصحاب موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَومِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

قال مجاهد: المعنى: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذابٍ من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحقِّ ما أصابهم هذا. وقال الزجاج: معناه: لا تُظهرهم علينا، فيظنُّوا أنهم على حَقٍّ، فيُفتنوا بذلك. وقال الفَرّاء: لا تُظهر علينا الكفارَ، فيرَوْا

(١) ١٦٣ إغاثة جـ٢.

أنهم على حق وأنّا على باطل. وقال مقاتل: لا تقتِّرْ علينا الرِّزقَ وتبسُطُه عليهم، فيكون ذلك فتنةً لهم.

وقد أخبرَ الله ـ سبحانه ـ أنه قد فَتن كلًّا من الفريقين بالفريق الآخر، فقال الله: ﴿**وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا**﴾ [الأنعام: ٥٣] فقال الله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٣].

والمقصود: أن الله ـ سبحانه ـ فَتَنَ أصحابَ الشهواتِ بالصُّوَر الجميلة، وفَتن أولـئك بهم. فكلٌّ من النوعين فتنةٌ للآخر، فمن صبرَ منهم على تلك الفتنة نجا مما هو أعظمُ منها، ومن أصابَتْه تلك الفتنةُ سَقط فيها هوشرٌّ منها، فإن تدارَك ذلك بالتَّوبة النَّصوحِ وإلا فسبيلِ مَنْ هَلَكَ، ولهذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ من النساء على الرجال**»(١) أو كما قال.

فالعبدُ في هذه الدار مفتونٌ بشهواته ونفسه الأَمَّارة، وشَيطانه المُغوي المزَيّن، وقُرَنائِه وما يراه، ويُشاهده، مما يَعجزُ صبرُهُ عنه، ويَتفقُ مع ذلك ضعفُ الإيمانِ واليقين، وضعفُ القلب ومَرارةُ الصبر، وذَوْقُ حلاوةِ العاجِل، ومَيْلُ النفس إلى زَهْرةِ الحياة الدنيا، وكونُ العِوَض مؤجَّلاً في دارٍ أخرى غير هذه الدار التي خلق فيها، وفيها نشأ، فهو مكلفٌ بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهَدة لغيبٍ طُلِبَ منه الإيمانُ به:

فوالله، لولا اللهُ يُسْعِدُ عبدَه ... بتوفيقه، واللهُ بالعبد أرحمُ
لما ثبتَ الإيمانُ يوماً بقلبه ... على هذه العِلّاتِ، والأمرُ أعظمُ
ولا طاوعته النفسُ في ترك شهوةٍ ... مخافةَ نارٍ، جَمْرُها يَتضرَّمُ
ولا خاف يوماً من مَقام إلـهه ... عليه بحكم القِسْطِ، إذ ليس يَظلمُ

فصل

والفتنة نوعان: فتنةُ الشبهات. وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات. وقد يجتمعان للعبدِ، وقد ينفردُ بإحداهما. ففتنة الشبهاتِ من ضعفِ البَصيرة، وقلة العلم، ولا سِيَّما إذا اقترنَ بذلك فسادُ القصد، وحصولُ الهوَى، فهنالك الفتنةُ العظمىٰ، والمصيبةُ الكبرَى، فقُلْ ما شئتَ في ضلال سيِّء القصدِ، الحاكم

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

عليه الهَوى لا الهُدَىٰ، مع ضعف بَصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، **فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهوىٰ الأَنْفُسُ﴾** [النجم: ٢٣].

وقد أخبر الله ـ سبحانه ـ أنَّ اتباعَ الهوَىٰ يُضِلُّ عن سبيل الله، فقال: **﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فاحْكُمْ بينَ النَّاسِ بالحقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوى فيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ إِنَّ الذينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بما نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾** [ص: ٢٦].

وهذه الفتنةُ مآلُها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنةُ المنافقين، وفتنة أهل البِدَع، على حَسب مراتب بِدَعِهم. فجميعهم إنما ابتدَعُوا من فتنة الشبهات التي اشْتَبَه عليهم فيها الحقُّ بالباطل، والهدى بالضلال.

ولاينجي من هذه الفتنة إلا تجريدُ اتِّباع الرسول، وتحكيمه في دقِّ الدين وجلِّه، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقَّى عنه حقائقَ الإيمان وشرائعَ الإسلام. وما يُثبتُه لله من الصفات والأفعال، والأسماء، وما ينفيه عنه، كما يتَلقَّىٰ عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادَها، ومقادير نُصُب الزَّكاة ومُستحقيها، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدِّين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمَّة في العلم والعمل، لا يُتلقَّى إلا عنه، ولا يُؤخَذُ إلا منه، فالهدى كلُّه دائِرٌ على أقواله وأفعاله، وكلُّ ما خرج عنها فهو ضلال، فإذا عقد قلبه على ذلك وأعرض عما سواه، ووزَنه بما جاء به الرسول، فإن وافقه قبِلَه، لا لِكون ذلك القائل قالَه، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رَدَّه، ولو قاله مَنْ قاله، فهذا الذي يُنْجِيه من فتنةِ الشُّبُهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنةُ تنشأ تارةً من فهم فاسد، وتارةً من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متَّبع، فهي من عمىً في البصيرة، وفساد في الإرادة.

فصل

وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنةُ الشهوات. وقد جمع ـ سبحانه ـ بين ذكر الفتنتين في قوله: **﴿كالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم كانوا أشدَّ منكُم قُوَّةً وأَكْثَرَ أموالاً وأولاداً**

فاستمتعُوا بخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُم﴾ [التوبة: ٦٩]. أي: تمتعوا بنصيبهم من الـدنيا وشهـواتهـا. والخـلاقُ هو النَّصيبُ المقـدَّر، ثم قال: **﴿وخُضْتم كالذي خَاضُوا﴾** [التوبة: ٦٩] فهذا الخَوْضُ بالباطل، وهو الشبهات.

فأشار ـ سبحانه ـ في هذه الآية إلى ما يحصلُ به فساد القلوب والأديان، من الاستمتاعِ بالخَلاق، والخوضِ بالباطل، لأنَّ فساد الدِّين إما أن يكون باعتقادِ الباطل والتكلُّم به، أو بالعملِ بخلافِ العلم الصحيح. فالأول: هو البدعُ وما والاها، والثاني: فسق الأعمال. فالأول فساد من جهة الشبهات والثاني من جهة الشهوات. ولهذا كان السلف يقولون: «احذروا من الناس صنفين: صاحبَ هَوىً قد فتنـه هواه، وصاحبَ دُنيا أَعْمته دُنياه»(١). وكانوا يقولون: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنةٌ لكل مفتون». وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرعِ، والهوى على العقل. فالأول: أصلُ فتنة الشُّبهة، والثاني: أصلُ فتنة الشهوة.

ففتنـة الشبهـات تُدفـعُ باليقين، وفتنة الشهواتِ تُدفعُ بالصبر، ولذلك جعل ـ سبحانه ـ إمامة الدِّين منوطة بهذين الأمرين، فقال: **﴿وَجَعلْنَا مِنْهُمْ أَئمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لـمَّا صَبَرُوا وكانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾** [السجدة: ٢٤].

فدلَ على أنه بالصَّبرِ واليقينِ تُنالُ الإمامة في الدين. وجمع بينهما أيضاً في قولـه: **﴿وَتَـواصَـوْا بِالْحَقِّ وتَـواصَـوْا بِالصَّـبْرِ﴾**، فتـواصـوا بالحق الذي يَدْفعُ الشبهـاتِ، وبالصبر الذي يكفُّ عن الشهوات، وجمع بينهما في قوله: **﴿وَاذْكُر عِبادَنا إبراهيمَ وإسحاق ويعقوبَ أولي الأيدي والأبْصارِ﴾** [ص: ٤٥].

فالأيدي: القُـوَى والعزائم في ذاتِ الله، والأبصارُ: البصائر في أمر الله. وعبـاراتُ السلف تدور على ذلك. قال ابن عباس: «أولي القوّة في طاعة الله، والمعرفة بالله». وقال الكلبي: «أولي القوّة في العبادة، والبصر فيها». وقال مجاهد: «الأيدي: القوّة في طاعة الله، والأبصار: البصرُ في الحق».

وقال سعيد بن جُبير: «الأيدي: القوّة في العمل، والأبصار: بصرهُم بما هم فيه من دينهم».

(١) تقدم في سورة التوبة تفسير هذه الآية بأوسع مما هنا (ج).

وقـد جاء في حديث مرسـل: «إن الله يُحِبُّ البصرَ النـافِذَ عنـد ورُود الشُبهات، ويحبُّ العقل الكامل عند حُلول الشهواتِ». فبكمالِ العقل والصبر تُدفعُ فتنةُ الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تُدفع فتنة الشبهة، والله المستعان.

(١)الباب السادس
في الصلاة على غير النبي ﷺ تسليماً

أما سائر الأنبياء والمرسلين فيُصلىٰ عليهم ويسلم. وقال تعالى عن نوح: ﴿**وتـركْنَـا عليْـهِ في الآخِـرينَ. سَلاَمٌ على نُوحٍ في العَالَمِينَ. إنَّا كَذَلِكَ نَجْزي المُحْسِنِينَ**﴾ [الصافات: ٧٨ ـ ٨٠]. وقـال عن إبـراهيم خليله: ﴿**وَتركْنَا عليهِ في الآخِرينَ. سَلامٌ عَلى إبراهيمَ**﴾ [الصافات: ١٠٨، ١٠٩]. وقال في موسى وهارون: ﴿**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا في الآخرينَ. سَلاَمٌ على مُوسَى وهارونَ**﴾ [الصافات: ١١٩، ١٢٠]. وقال: ﴿**سَلامٌ على إلْ ياسينَ**﴾ [الصافات: ١٣٠]. فالذي تركه سبحانه على رسوله في الآخرين هو السلام عليهم المذكور.

وقـد قال جماعـة من المفسرين، منهم مجاهـد وغـيره: وتـركنـا عليهم في الآخرين: الثناء الحسن ولسان الصدق للأنبياء كلهم. وهذا قول قتادة أيضاً، ولا ينبغي أن يحكى. هذا قولان للمفسرين كما يفعله من له عناية بحكاية الأقوال.

بل هما قول واحد. فمن قال: إن المتروك هو السلام عليهم في الأخرىٰ نفسه. فلا ريب أن قوله: ﴿**سلام على نوح**﴾ جملة في موضع نصب بتركنا، والمعنى أن العالمين يسلمون على نوح ومن بعده من الأنبياء، ومن فسره بلسان الصدق والثناء الحسن نظر إلى لازم السلام وموجبه، وهو الثناء عليهم، وما جعل لهم من لسان الصدق الذي لأجله إذا ذكروا سلم عليهم. . . .

(٢). . . **الشـرك** والتعـطيل مبنيان على سوء الـظن بالله تعالى، ولهذا قال إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين: ﴿**أَإِفْكاً آلهةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ. فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ العالَمِينَ**﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧]

وإن كان المعنى: ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به، وقد عبدتم معه

---

(١) ٢٧١ جلاء الأفهام.
(٢) ٦٢ إغاثة جـ١.

غيره، وجعلتم له ندًّا؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد: ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟

فإن المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه: من وزير، أو ظهير، أو عون، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته. وإما أن يظن أن الله ـ سبحانه ـ إنما تتم قدرته بقدرة الشريك. وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة، أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم. أو لا يكفي عبده وحده، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج إلى أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به، وتكثُّره به من القِلَّة، وتعززه به من الذِّلة. أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا، وهذا أصل شرك الخلق. أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم، حتى يرفع الوسائط إليه ذلك. أو يظن أن للمخلوق عليه حقًّا، فهو يُقْسِم عليه بحقّ ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعزُّ عليهم ولا يمكنهم مخالفته، وكل هذا تنقص للربوبية، وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة ـ الله تعالى ـ وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، من قلب المشرك، بسبب قسمته ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به، فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه ـ لكفى في شناعته.

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه والتنقص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبىٰ، ولهذا اقتضىٰ حمده سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفره، وأن يُخلّد صاحبه في العذاب الأليم، ويجعله أشقىٰ البرية، فلا تجد مشركاً قط إلا وهو متنقص لله سبحانه، وإن زعم أنه يعظمه بذلك.

كما أنك لا تجد مبتدعاً إلا وهو متنقص للرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة. فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب، أو يزعم أنها هي السنة، إن كان جاهلاً مقلداً، وإن كان مستبصراً في بدعته فهو مشاقّ لله ورسوله.

فصل(١)

ومن الدليل على خلق أعمال العباد قوله ـ تعالى ـ: ﴿**والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم**﴾ [النحل: ٨١] فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل، وهي: الدروع، والثياب المصنوعة، ومادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهم، فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها: صورتها، ومادتها، وهيآتها.

ونظير هذا قوله: ﴿**والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم**﴾ [النحل: ٨٠]، فأخبر ـ سبحانه ـ أن البيوت المصنوعة المستقرة والمنتقلة مجعولة له، وهي إنما صارت بيوتاً بالصنعة الآدمية، ونظيره قوله تعالى: ﴿**وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون**﴾ [يس: ٤١، ٤٢]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خالق الفلك المصنوع للعباد. وأبعد من قال: إن المراد بمثله هو الإبل، فإنه إخراج المماثل حقيقة، واعتبار لما هو بعيد عن المماثلة.

ونظير ذلك قوله تعالى حكاية عن خليله أنه قال لقومه: ﴿**أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وما تعملون**﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]. فإن كانت ما مصدرية كما قدره بعضهم؛ فالاستدلال ظاهر وليس بقوي، إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينحتونه بأيديهم وبين إخبارهم بأن الله خالق أعمالهم من: عبادة تلك الآلهة، ونحتها، وغير ذلك. فالأولى أن تكون ما موصولة أي: والله خلقكم، وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم، فهي مخلوقة له، لا آلهة شركاء معه، فأخبر أنه خلق معمولهم، وقد حله عملهم وصنعهم. ولا يقال: المراد مادته، فإن مادته غير معمولة لهم، وإنما يصير معمولاً بعد عملهم.

فصل(٢): قال أبو القاسم السهيلي: اعلم أن [ما] إذا كانت موصولة بالفعل الذي لفظه: عمل، أو صنع، أو فعل، وذلك الفعل مضاف إلى فاعل غير الباري ـ سبحانه ـ فلا يصح وقوعها إلا على مصدر لإجماع العقلاء من الأنام في الجاهلية والإسلام على أن أفعال الآدميين لا تتعلق بالجواهر والأجسام، لا تقول:

(١) ٥٤ شفاء.

(٢) ١٤٦ بدائع جـ١.

عملت جملاً، ولا صنعت جبلاً ولا حديداً ولا حجراً ولا تراباً، فإذا قلت: أعجبني ما عملت وما فعل زيد، فإنما يعني الحدث فعلى هذا لا يصح في تأويل قوله ـ تعالى ـ: ﴿والله خَلَقَكُمْ وما تَعْمَلُون﴾ إلا قول أهل السنة: إن المعنى والله خلقكم وأعمالكم. ولا يصح قول المعتزلة من جهة المنقول ولا من جهة المعقول، لأنهم زعموا أن [ما] واقعة على الحجارة التي كانوا ينحتونها أصناماً، وقالوا: تقدير الكلام: خلقكم والأصنام التي تعملون، إنكاراً منهم أن تكون أعمالنا مخلوقة لله ـ سبحانه ـ واحتجوا بأن نظم الكلام يقتضي ماقالوا، لأنه تقدم قوله: ﴿أتعبدون ماتنحتون﴾ [الصافات: ٩٥] فما واقعة على الحجارة المنحوتة، ولا يصح غير هذا من جهة النحو ولا من جهة المعنى: أما النحو، فقد تقدم أن [ما] لا تكون مع الفعل الخاص مصدراً، وأما المعنى: فإنهم لم يكونوا يعبدون النحت، وإنما كانوا يعبدون المنحوتات، فلما ثبت هذا وجب أن تكون الآية التي هي رد عليهم وتقييد لهم واقعة على الحجارة المنحوتة والأصنام المعبودة، ويكون التقدير: تعبدون حجارة منحوتة، والله خلقكم وتلك الحجارة التي تعملون. هذا كله معنى قول المعتزلة، وشرح ماشبهوا به. والنظم على تأويل أهل الحق أبدع، والحجة أقطع، والذي ذهبوا إليه فاسد محال، لأنهم أجمعوا معنا على أن أفعال العباد لا تقع على الجواهر والأجسام. فإن قيل: فقد تقول: عملت الصحيفة، وصنعت الجفنة، وكذلك الأجسام معمولة على هذا.

قلنا: لا يتعلق الفعل فيما ذكرتم إلا بالصورة التي هي التأليف والتركيب، وهي نفس العمل. وأما الجوهر المؤلف المركب فليس بمعمول لنا، فقد رجع العمل والفعل إلى الأحداث دون الجواهر، هذا إجماع منا ومنهم، فلا يصلح حملهم على غير ذلك، وأما ما زعموا من حسن النظم وإعجاز الكلام فهو ظاهر، وتأويلنا معدوم في تأويلهم، لأن الآية وردت في بيان استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالخلق وإقامة الحجة على من يعبد ما لا يخلق وهم يخلقون، فقال: ﴿أَتعْبدُونَ ما تَنْحِتُونَ﴾ أي: من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون، وتدعون عبادة من خلقكم وأعمالكم التي تعملون، ولو لم يضف خلق الأعمال إليه في الآية، وقد نسبها إليهم بالمجاز، لما قامت له حجة من نفس الكلام؛ لأنه كان يجعلهم خالقين

لأعمالهم وهو خالق لأجناس أخر، فيشركهم معه في الخلق ـ تعالى ـ الله عن قول الزائغين ولا لعا(١) لعثرات المبطلين فما أدحض حجتهم! وما أوهىٰ قواعد مذهبهم! وما أبين الحق لمن اتبعه، جعلنا الله من أتباعه وحزبه. وهذا الذي ذكرناه قاله أبو عبيد في قول حذيفة أن يخلق صانع الحرم وصنعته، واستشهد بالآية، وخالفه القتيبي في إصلاح الغلط، فغلط أشد الغلط، ووافق المعتزلة في تأويلها، وإن لم يقل بقيلها، هذا آخر كلام أبي القاسم. ولقد بالغ في رد ما لا تحتمل الآية سواه، أو ما هو أولىٰ بحملها وأليق بها، ونحن وكل محق مساعدوه على أن الله خالق العباد وأعمالهم، وأن كل حركة في الكون، فالله خالقها، وعلى صحة هذا المذهب أكثر من ألف دليل من: القرآن، والسنة، والمعقول، والفطر، ولكن لا ينبغي أن تحمل الآية على غير معناها اللائق بها، حرصاً على جعلها عليهم حجة، ففي سائر الأدلة غنية عن ذلك، على أنها حجة عليهم من وجه آخر مع كون [ما] بمعنى الذي، سنبينه إن شاء الله تعالى. والكلام ـ إن شاء الله ـ في الآية في مقامين: أحدهما في سلب دلالتها على مذهب القدرية. والثاني في إثبات دلالتها على مذهب أهل الحق خلاف قولهم. فههنا مقامان: مقام إثبات، ومقام سلب.

فأما مقام السلب، فزعمت القدرية: أن الآية حجة لهم في كونهم خالقين أعمالهم، قالوا: لأن الله ـ سبحانه ـ أضاف الأعمال إليهم، وهذا يدل على أنهم هم المحدثون لها، وليس المراد ههنا نفس الأعمال، بل الأصنام المعمولة، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خالقهم، وخالق تلك الأصنام التي عملوها، والمراد مادتها وهي التي وقع الخلق عليها. وأما صورتها وهي التي صارت بها أصناماً؛ فإنها بأعمالهم، وقد أضافها إليهم فتكون بإحداثهم وخلقهم، فهذا وجه احتجاجهم بالآية.

وقابلهم بعض المثبتين للقدر، وأن الله هو خالق أفعال العباد، فقالوا: الآية صريحة في كون أعمالهم مخلوقة لله، فإن [ما] ههنا مصدرية، والمعنى: والله خلقهم، وخلق أعمالهم، وقرروه بما ذكره السهيلي وغيره.

ولما أورد عليهم القدرية: كيف تكون [ما] مصدرية هنا، وأي وجه يبقى للاحتجاج عليهم إذا كان المعنى: والله خلقكم وخلق عبادتكم وهل هذا إلا تلقين لهم الاحتجاج بأن يقولوا: فإذا كان الله قد خلق عبادتنا للأصنام فهي مرادة له،

---

(١) كذا في المخطوطة والمطبوعة.

فكيف ينهانا عنها؟! وإذا كانت مخلوقة مرادة، فكيف يمكننا تركها؟! فهل يسوغ أن يحتج على إنكار عبادتهم.

أجابهم المثبتون بأن قالوا: لو تدبرتم سياق الآية ومقصودها لعرفتم صحة الاحتجاج؛ فإن الله ـ سبحانه ـ أنكر عليهم عبادة من لا يخلق شيئاً أصلاً وترك عبادة من هو خالق لذواتهم وأعمالهم، فإذا كان الله خالقكم وخالق أعمالكم، فكيف تدعون عبادته وتعبدون من لا يخلق شيئاً لاذواتكم ولا أعمالكم، وهذا من أحسن الاحتجاج. وقد تكرر في القرآن الإنكار عليهم أن يعبدوا ما لا يخلق شيئاً، وسوّى بينه وبين الخالق، لقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. وقوله: ﴿والَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. [النحل: ٢٠]. وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فأروني مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١٠]. إلى أمثال ذلك، فصح الاحتجاج، وقامت الحجة بخلق الأعمال مع خلق الذوات، فهذا منتهىٰ إقدام الطائفتين في الآية كما ترى، والصواب أنها موصولة، وأنها لا تدل على صحة مذهب القدرية، بل هي حجة عليهم مع كونها موصولة.

وهذا يبين بمقدمة نذكرها قبل الخوض في التقرير وهي: أن طريقة الحجاج والخطاب أن يجرد القصد والعناية بحال ما يحتج له وعليه، فإذا كان المستدل محتجاً على بطلان ما قد ادعى في شيء وهو يخالف ذلك، فإنه يجرد العناية إلى بيان بطلان تلك الدعوىٰ، وأن ما ادَّعىٰ له ذلك الوصف هو متصف بضده، لا متصف به، فأما أن يمسك عنه ويذكر وصف غيره فلا.

وإذا تقرر هذا، فالله ـ سبحانه ـ أنكر عليهم عبادتهم الأصنام، وبيّن أنها لا تستحق العبادة ولم يكن سياق الكلام في معرض الإنكار عليهم ترك عبادته، وأن ما هو في معرض الإنكار عبادة من لا يستحق العبادة فلو أنه قال: لا تعبدون الله وقد خلقكم وما تعملون لتعينت المصدرية قطعاً، ولم يحسن أن يكون بمعنىٰ الذي إذ يكون المعنى: كيف لا تعبدونه وهو الذي أوجدكم، وأوجد أعمالكم، فهو المنعم عليكم بنوعي الإيجاد والخلق، فهذا وزان ماقرروه من كونها مصدرية.

فأما سياق الآية فإنه في معرض إنكاره عليهم عبادة من لا يستحق العبادة

فلابد أن يبين فيه معنى ينافي كونه معبوداً، فبيَّن هذا المعنى بكونه مخلوقاً له، ومن كان مخلوقاً من بعض مخلوقاته، فإنه لا ينبغي أن يعبد ولا تليق به العبادة. وتأمَّل مطابقة هذا المعنى لقوله: ﴿والَّذِينَ يدْعون مِن دُونِ اللهِ لا يَخْلُقون شَيْئاً وهُم يُخْلَقُون﴾ [النحل: ٢٠]. كيف أنكر عليهم عبادة آلهة مخلوقة له ـ سبحانه ـ وهي غير خالقة. فهذا يبين المراد من قوله: ﴿واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. ونظيره قوله في سورة الأعراف: ﴿إنَّ الَّذِيْنَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. أي هم عباد مخلوقون كما أنتم كذلك، فكيف تعبدون المخلوق. وتأمَّل طريقة القرآن لو أراد المعنى الذي ذكروه من حسن صفاته وانفراده بالخلق كقول صاحب يس: ﴿ومَـاليَ لا أَعْبُدُ الّذي فَطَرَني﴾ [يس: ٢٢]. فهنا لما كان المقصود إخبارهم بحسن عبادته واستحقاقه لها، ذكر الموجب لذلك، وهي: كونه خالقاً لعابده فاطراً له، وهذا إنعام منه عليه، فكيف يترك عبادته؟! ولو كان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. كان يقتضي أن يقال: ألا يعبدون الله وهو خالقهم، وخالق أعمالهم؛ فتأمَّله فإنه واضح. وقول أبي القاسم في تقرير حجة المعتزلة من الآية أنه لا يصح أن تكون مصدرية وهو باطل من جهة النحو ليس كذلك، أما قوله: إن [ما] لا تكون مع الفعل الخاص مصدراً، فقد تقدَّم بطلانه، إذ مصدريتها تقع مع الفعل الخاص المبهم، لقوله تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وبما كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ وقوله: ﴿بما كنتم تُعَلِّمُونَ الكتاب﴾ وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وبِمَا كُنْتُمْ تَمرحُون﴾ [غافر: ٧٥]. إلى أضعاف ذلك، فإن هذه كلها أفعال خاصة، وهي أخص من مطلق العمل، فإذا جاءت مصدرية مع هذه الأفعال فمجيئها مصدرية مع العمل أولى. قولهم: إنهم لم يكونوا يعبدون النحت، وإنما عبدوا المنحوت حجة فاسدة، فإن الكلام في [ما] المصاحبة للفعل دون المصاحبة لفعل النحت فإنها لا تحتمل غير الموصولة، ولا يلزم من كون الثانية مصدرية كون الأولى كذلك، فهذا تقرير فاسد. وأما تقريره كونها مصدرية أيضاً بما ذكره فلا حجة له فيه. أما قوله: أفعال العباد لا تقع على الجواهر والأجسام، فيقال: مامعنى عدم وقوعها على الجواهر والأجسام؟ أتعني به أن أفعالهم لا تتعلق بإيجادهم، أم تعني به أنها لا تتعلق

بتغييرها وتصويرها، أم تعني به أعم من ذلك وهو المشترك بين القسمين؟ فإن عنيت الأول فمسلم، لكن لا يفيدك شيئاً، فإن كونها موصولة لا تستلزم ذلك، فإن كون الأصنام معمولة لهم لا يقتضي أن تكون مادتها معمولة لهم، بل هو على حد قولهم: عملت بيتاً، وعملت باباً، وعملت حائطاً، وعملت ثوباً، وهذا إطلاق حقيقي ثابت: عقلاً، ولغة، وشرعاً، وعرفاً، لا يتطرق إليه رد، فهذا ككون الأصنام معمولة سواء. وإن عنيت: أن أفعالهم لا تتعلق بتصويرها فباطل قطعاً، وإن عنيت: القدر المشترك فباطل أيضاً، فإنه مشتمل على نفي حقٍ وباطل، فنفي الباطل صحيح، ونفي الحق باطل. ثم يقال: إيقاع العمل منهم على الجواهر والأجسام يجوز أن يطلق فيه العمل الخاص وشاهده في الآية: ﴿**أتعبدون ما تنحتون**﴾. فـ[ما] ههنا موصولة، فقد أوقع فعلهم وهو النحت على الجسم، وحينئذ فأي فرق بين إيقاع أفعالهم الخاصة على الجوهر والجسم، وبين إيقاع أفعالهم العامة عليه، لا بمعنىً أن ذاته مفعولة له، بل بمعنى أن فعلهم هو الذي صار به صنماً، واستحق أن يطلق عليه اسمه، كما أنه بعملهم صار منحوتاً، واستحق هذا الاسم، وهذا بيِّنٌ. وأما قوله بجواب النقض: بعملت الصحيفة، وصنعت الجفنة، أن الفعل متعلق بالصورة التي هي التأليف والتركيب، وهي نفس العمل، فكذلك هو أيضاً متعلق بالتصوير الذي صار الحجر به صنماً منحوتاً سواء. وأما قوله: الآية في بيان استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالخلق فقد تقدم جوابه، وأن الآية وردت لبيان عدم استحقاق معبوديهم للعبادة، لأنها مخلوقة لله، وذكرنا شواهده من القرآن.

فإن قيل: كان يكفي في هذا أن يقال: أتعبدون ما تنحتون. والله خالقه؟! فلما عدل إلى قوله: ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾ علم أنه أراد الاحتجاج عليهم في ترك عبادته ـ سبحانه ـ وهو خالقهم وخالق أفعالهم.

قيل: في ذكر خلقه ـ سبحانه ـ لآلهتهم ولعابديها من بيان تقبيح حالهم وفساد رأيهم وعقولهم في عبادتها دونه ـ تعالى ـ ما ليس في الاقتصار على ذكر خلق الآلهة فقط؛ فإنه إذا كان الله ـ تعالى ـ هو الذي خلقكم وخلق معبوديكم، فهي مخلوقة أمثالكم، فكيف يعبد العاقل من هو مثله، ويتألهه، ويفرده بغاية التعظيم

والإجلال والمحبة؟! وهل هذا إلا أقبح الظلم في حق أنفسكم وفي حق ربكم! وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. ومن حق المعبود أن لا يكون مثل العابد، فإنه إذا كان مثله كان عبداً مخلوقاً، والمعبود ينبغي أن يكون ربًّا خالقاً، فهذا من أحسن الاحتجاج وأبينه، فقد أسفر لك من المعنى المقصود بالسياق: صبحة، ووضح لك شرحه، وانجلىٰ بحمد الله الإشكال، وزال عن المعنى غطاء الإجمال، وبان أن ابن قتيبة في تفسير الآية وفق للسداد، كما وفق لموافقة أهل السنة في خلق أعمال العباد، ولا تستطل هذا الفصل، فإنه يحقق لك فصولاً لا تكاد تسمعها في خلال المذاكرات، ويحصل لك قواعد وأصولاً لا تجدها في عامة المصنفات. فإن قيل: فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون [ما] موصولة.

قيل: نعم، قد سبق الوعد بذلك، وقد حان إنجازه، وآن إبرازه، ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير: أن الله ـ سبحانه ـ أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها، وهي إنما صارت أصناماً بأعمالهم، فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم، فإذا كان ـ سبحانه ـ هو الخالق اقتضىٰ صحة هذا الإطلاق: أن يكون خالقها بجملتها، أعني: مادتها وصورتها، فإذا كانت صورتها مخلوقة لله، كما أن مادتها كذلك، لزم أن يكون خالقاً لنفس عملهم الذي حصلت به الصورة، لأنه متولد عن نفس حركاتهم. فإذا كان الله خالقها كانت أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوقة له، وهذا أحسن استدلالاً وألطف من جعل [ما] مصدرية. ونظيره من الاستدلال سواء قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس ٤١، ٤٢] والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن، وقد أخبر أنها مخلوقة، وهي إنما صارت سفناً بأعمال العباد. وأبعد من قال: إن المثل ههنا هو سفن البر، وهي الإبل لوجهين. أحدهما أنها لا تسمى مثلاً للسفن: لا لغة ولا حقيقة؛ فإن المثلين ما سدّ أحدهما مسدّ الآخر؛ وحقيقة المماثلة أن يكون بين فلك وفلك، لا بين جمل وفلك. الثاني: أن قوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ عقب ذلك دليل على أن المراد الفلك

التي إذا ركبوها قدرنا على إغراقهم فذكرهم بنعمه عليهم من وجهين. أحدهما: ركوبهم إياها. والثاني: أن يسلمهم عند ركوبها من الغرق. ونظير هذا الاستدلال أيضاً قوله تعالى: ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ [النحل: ٨١]، والسرابيل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم، وقد أخبر بأنه سبحانه هو جاعلها، وإنما صارت سرابيل بعملهم. ونظيره: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾. [النحل: ٨٠]. والبيوت التي من جلود الأنعام هي: الخيام، وإنما صارت بيوتاً بعملهم. فإن قلت: المراد من هذا كله المادة لا الصورة.

قلت: المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها، وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها، وقيام صورها بها، وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال، والله أعلم.

(١)الفصل الخامس
في ذكر إبراهيم خليل الرحمن ﷺ

وهذا الاسم من النمط المتقدم، فإن إبراهيم بالسريانية معناه: «أب رحيم» والله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل إبراهيم: الأب الثالث للعالم.

فإن أبانا الأول: آدم، والأب الثاني: نوح. وأهل الأرض كلهم من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ الصافات: ٧٧].

وبهذا يتبين كذب المعبرين من العجم الذين يزعمون أنهم لا يعرفون نوحاً ولا ولده، ولا ينسبون إليه وينسبون ملوكهم من آدم إليهم، ولا يذكرون نوحاً في آبائهم. وقد أكذبهم الله ـ عز وجل ـ في ذلك.

فالأب الثالث: أب الآباء وعمود العالم، وإمام الحنفاء الذي اتخذه الله خليلاً، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، ذاك خليل الرحمن وشيخ الأنبياء، كما سماه النبي ﷺ بذلك. فإنه لما دخل الكعبة وجد المشركين قد صوروا فيها صورته وصورة إسماعيل ابنه وهما يستقسمان بالأزلام. فقال: «**قاتلهم الله، لقد علموا أن شيخنا لم يكن يستقسم بالأزلام**».

---

(١) ١٥٤ جلاء الأفهام.

ولم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتبع ملة أحد من الأنبياء غيره، فقال ـ تعالى ـ: **﴿ثُمَّ أَوْحَينَـا إِلَيْـكَ أَنِ اتبِـعْ مِلةَ إِبْـرَاهِيمَ حَنيفـاً وَمَـا كَانَ مِنَ المُشْرِكِـينَ﴾** [النحل: ١٢٣. وأمر أمته بذلك، فقال ـ تعالى ـ: **﴿هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُم في الدين من حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المُسلِمينَ من قَبْل وَفي هذا﴾** [الحج: ٧٨]. «وملة» منصوب على إضمار فعل أي: اتبعوا، والزموا ملة إبراهيم.

ودل على المحـذوف ما تقـدَّم من قوله: **﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾** [الحج: ٧٨]. وهذا هو الذي يُقال له: الإغراء.

وقيل: منصوب انتصاب المصادر والعامل فيه مضمون ما تقدم قبله؛ وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «**أصبحنا على: فطرة الإسـلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلمًا وماكان من المشركين**». وتأمل هذه الألفاظ كيف جعل الفطرة للإسلام، فإنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكلمة الإخلاص هي: شهادة أن لا إلـه إلا الله.

والملة لإبراهيم فإنه صاحب الملة. وهي التوحيد وعبادة الله ـ تعالى ـ وحده لا شريك له، ومحبته فوق كل محبة. والدين للنبي ﷺ، وهو دينه الكامل وشرعه التام الجامع لذلك كله، وسماه الله ـ سبحانه ـ: «**إماماً، وأمة، وقانتاً، وحنيفاً**».

قال ـ تعالى ـ: **﴿وإِذْ ابْتَلَىٰ إبراهِيمَ رَبُهُ بِكَلماتٍ فَأَتَمَهُنَّ قَال إِني جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماماً قَالَ وَمِن ذُرِيَتِي قَالَ لَا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾** [البقرة: ١٢٤]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه جعله إماماً للناس، وأن الظالم من ذريته لا ينال رتبة الإمامة. والظالم هو المشرك. وأخبر ـ سبحانه ـ أن عهده بالإمامة لا ينال من أشرك به.

وقال تعالى: **﴿إِنَّ إبراهيمَ كانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكينَ. شاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَة وإِنَّهُ فِي الآخِـرَةِ لَمِنَ الصَّـالِحِـينَ﴾** [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢]. فالأمة هو القدوة المعلم للخير. والقانت المطيع لله الملازم لطاعته. والحنيف المقبل على الله المعرض عما سواه. ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسره بلازم المعنى. فإن الحنف هو الإقبـال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى، ويلزمه ميلها عن جهتها.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطرَةَ اللهِ الَّتِي فَطرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. فحنيفاً هو حال مفردة لمضمون قوله: ﴿فأقِمْ وجهك للدين﴾.

ولهذا فسرت: «مخلصاً» فتكون الآية: قد تضمنت الصدق والإخلاص، فإن إقامة الوجه للدين، هو إفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف المفرد لمعبوده لا يريد غيره، فالصدق أن لا ينقسم طلبك، والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك، الأول توحيد الطلب والثاني توحيد المطلوب.

والمقصود: أن إبراهيم عليه السلام هو أبونا الثالث، وهو إمام الحنفاء، ويسميه أهل الكتاب: عمود العالم، وجميع أهل الملل متفقة على تعظيمه وتوليه ومحبته. وكان خير بنيه سيد ولد آدم محمد ﷺ يجله ويعظمه ويبجله ويحترمه.

ففي الصحيحين من حديث المختار بن فلفل، عن أنس بن مالك ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك إبراهيم**» وسماه شيخه، كما تقدم.

وثبت في صحيح البخاري من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم محشورون: حفاة، عراة، غرلاً. ثم قرأ: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ وأول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم**». وكان رسول الله ﷺ أشبه الخلق به، كما في الصحيحين عنه قال: «**رأيت إبراهيم، فإذا أقرب الناس شبهاً به بصاحبكم**». يعني نفسه ﷺ. وفي لفظ آخر: «**فانظروا إلى صاحبكم**». وكان ﷺ يعوذ أولاد ابنته حسناً وحسيناً بتعويذ إبراهيم لإسماعيل وإسحاق. ففي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «**إن أبا كما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**».

وكان ﷺ أول من قرى الضيف، وأول من اختتن، وأول من رأى الشيب. فقال: «**ما هذا يا رب؟**» قال: «**وقار**». قال: «**رب زدني وقاراً**».

وتأمل ثناء الله ـ سبحانه ـ عليه في إكرام ضيفه الملائكة، حيث يقول سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخلوا عليهِ فقالُوا

سَلَاماً قَالَ سلامٌ قومٌ مُنكَرُونَ. فراغ إلى أَهْلِهِ فجاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ. فَقربه إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٢٧] ففي هذا ثناء على إبراهيم من وجوه متعددة:

أحدها: أنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون، وهذا على أحد القولين: أنه إكرام إبراهيم. والثاني: أنهم المكرمون عند الله. ولا تنافي بين القولين، فالآية تدل على المعنيين.

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِذْ دخلوا عليه﴾ فلم يذكر استئذانهم. ففي هذا دليل على أنه ﷺ كان قد عرف: بإكرام الضيفان، واعتياد قراهم، فبقي منزله مضيفة، مطروقاً لمن ورده، لا يحتاج إلى الاستئذان، بل استئذان الداخل دخوله، وهذا غاية ما يكون من الكرم.

الثالث: قوله: سلامٌ بالرفع، وهم سلموا عليه بالنصب، والسلام بالرفع أكمل، فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد، والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، فإبراهيم حياهم بتحية أحسن من تحيتهم، فإن قولهم (سلامًا) يدل على: سلمنا سلامًا. وقوله: (سلام) أي: سلام عليكم.

الرابع: أنه حذف المبتدأ من قوله: ﴿قوم منكرون﴾ فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم قوم منكرون فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام.

الخامس: أنه بنى الفعل للمفعول وحذف فاعله، فقال: ﴿منكرون﴾ ولم يقل: إني أنكركم، وهو أحسن في هذا المقام، وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة.

السادس: أنه راغ إلى أهله ليخبرهم بنزلهم. والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به، وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام، بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر: مكانكم حتى آتيكم بالطعام، ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه.

السابع: أنه ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة، فدل على أن ذلك كان معدًا عندهم، مهيئاً للضيفان، ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم، فيشتريه أو يستقرضه.

الثامن: قوله: ﴿**فجاء بعجل سمين**﴾ دل على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل: فأمر لهم، بل هو الذي ذهب، وجاء به بنفسه، ولم يبعثه مع خادمه، وهذا أبلغ في إكرام الضيف.

التاسع: أنه جاء بعجل كامل، ولم يأت ببعضه منه، وهذا من تمام كرمه ﷺ.

العاشر: أنه سمين لا هزيل، ومعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم، ومثله يتخذ للاقتناء والتربية، فآثر به ضيفانه.

الحادي عشر: أنه قربه إليهم بنفسه، ولم يأمر خادمه بذلك.

الثاني عشر: أنه قربه إليهم، ولم يقربهم إليه، وهذا أبلغ في الكرامة أن تجلس الضيف، ثم يقرب الطعام إليه، ويحمله إلى حضرته، ولا تضع الطعام في ناحية، ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب إليه.

الثالث عشر: أنه قال: ﴿**ألا تأكلون**﴾ وهذا عرض وتلطف في القول، وهو أحسن من قوله: كلوا أو مدوا أيديكم ونحوها. وهذا مما يعلم الناس بعقولهم: حسنه ولطفه، ولهذا يقولون: بسم الله، أو ألا تتصدق، أو ألا تجبر، ونحو ذلك.

الرابع عشر: أنه إنما عرض عليهم الأكل، لأنه رآهم لا يأكلون، ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن في الأكل، بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا، وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل، قال لهم: ألا تأكلون؟!، ولهذا أوجس منهم خيفة، أي: أحسها، وأضمرها في نفسه، ولم يبدها لهم، وهو الوجه.

الخامس عشر: فإنهم لما امتنعوا من الأكل لطعامه خاف منهم، ولم يظهر لهم، فلما علمت الملائكة منه ذلك قالوا: لا تخف وبشروه بالغلام.

فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة، التي هي أشرف الآداب، وماعداها من التكلفات، التي هي تخلف وتكلف، وإنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم، وكفى بهذه الآداب شرفًا وفخرًا، فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين.

وقد شهد الله ـ سبحانه ـ بأنه وفَّى ما أمر به فقال تعالى: ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ**﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وفّى جميع شرائع الإسلام، ووفّى ما أمر به من تبليغ الرسالة، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾

[البقرة: ١٤٢]. فلما أتم ما أمر به من الكلمات جعله الله إماماً للخلائق يأتمون به.

وكان ﷺ كما قيل: قلبه للرحمن، وولده للقربان، وبدنه للنيران، وماله للضيفان.

ولما اتخذه ربه خليلاً - والخلة هي كمال المحبة، وهي مرتبة لا تقبل المشاركة والمزاحمة، وكان قد سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، فوهب له إسماعيل، فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه، فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره - امتحنه بذبحه ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده، فلما استسلم لأمر ربه، وعزم على فعله وظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد: إيثاراً لمحبة خليله على محبته فسح الله ذلك عنه وفداه بالذبح العظيم لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر به فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مشقة، فنسخ في حقه، فصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا: سنة في أتباعه إلى يوم القيامة.

وهو الذي فتح للأمة باب مناظرة المشركين وأهل الباطل، وكسر حججهم وقد ذكر الله - سبحانه - مناظرته في القرآن مع إمام المعطلين، ومناظرته مع قومه المشركين وكسر حجج الطائفتين بأحسن مناظرة، وأقربها إلى الفهم وحصول العلم. قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ**﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال زيد بن أسلم وغيره: بالحجة والعلم؛ ولما غلب أعداء الله معه بالحجة، وظهرت حجته عليهم، وكسّر أصنامهم فكسّر حججهم ومعبودهم، هموا بعقوبته وإلقائه في النار، وهذا شأن المبطلين إذا غلبوا، وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة، كما قال فرعون لموسى، وقد أقام عليه الحجة: ﴿**لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِي لأجعلنَّكَ من المسجونين**﴾ [الشعراء: ٢٩]. فأضرموا له النار، وألقوه في المنجنيق، فكانت تلك السفرة من أعظم سفرة سافرها وأبركها عليه فإنه ما سافر سفرة أبرك، ولا أعظم، ولا أرفع لشأنه، وأقر لعينه منها، وفي تلك السفرة عرض له جبرائيل بين السماء والأرض، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله - تعالى -: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فَاخْشَوْهُم فَزَادَهُم إيماناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ**﴾ [آل عمران: ١٧٣]. قالها نبيكم، وقالها إبراهيم حين ألقي في النار، فجعل

الله سبحانه عليه النار برداً وسلاماً. وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أم شريك أن النبي ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «**كانت تنفخ على إبراهيم**».

وهو الذي بنى بيت الله، وأذّن في الناس بحجه، فكل من حجه واعتمره حصل لإبراهيم من مزيد ثواب الله وإكرامه بعدد الحجاج والمعتمرين، قال - تعالى -: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبْرَاهِيْمَ مُصَلًّى**﴾. [البقرة:١٢٥]. فأمر نبيه ﷺ وأمته أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى تحقيقاً للاقتداء به وإحياء آثاره صلى الله على نبينا وعليه وسلم.

ومناقب هذا الإمام الأعظم والنبي الأكرم أجل من أن يحيط بها كتاب، وإن مدّ الله في العمر أفردنا كتاباً في ذلك يكون قطرة في بحر فضائله أو أقل، جعلنا الله ممن ائتم به، ولا جعلنا ممن عدل عن ملته بمنه وكرمه.

وقد روى لنا عنه النبي ﷺ حديثاً، وقع لنا، متصل الرواية إليه، رويناه في كتاب الترمذي وغيره من حديث القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد اقرىء أمتك السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**». قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(١)**العاشرة:** (مرتبة الخَلة» التي انفرد بها الخليلان: إبراهيم ومحمد - صلى الله عليهما وسلم - كما صح عنه أنه قال: «**إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً**». وقال: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الرحمن**». والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول س قال: «الخلة» لإبراهيم. و«المحبة» لمحمد، فإبراهيم خليله ومحمد حبيبه.

و«الخلة»: هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ولـذا سمي الخليـل خليـلا

وهذا هو السر الذي لأجله - والله أعلم - أمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده وفلْذة كبده، لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلّقت به شعبة من قلبه.

(١) ٣٠ مدارج جـ٣.

و«**الخلة**» منصب لا يقبل الشركة والقسمة. فغار الخليل على خليله: أن يكون في قلبه موضع لغيره. فأمره بذبح الولد. ليخرج المزاحم من قلبه. فلما وَطَّن نفسه على ذلك، وعزم عليه عزماً جازماً: حصل مقصود الأمر، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة، فحال بينه وبينه، وفداه بالذبح العظيم. وقيل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥]. أي عملت عمل المصدق. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥]. نجزي من بادر إلى طاعتنا، فَنُقِرُّ عينه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا، وإبقاء الولد وسلامته: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦]، وهو اختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إيَّاه فيؤثر مرضاته، فيتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معاً(١).

(٢)**منصب** الخلة: منصب لا يقبل المزاحمة بغير المحبوب، وأخذ الولد شعبة من شعاب القلب. غار الحبيب على خليله أن يسكن غيره في شعبة من شعاب قلبه، فأمره بذبحه، فلما أسلم للامتثال، خرجت تلك المزاحمة، وخلصت المحبة لأهلها، فجاءته البشرى، وفديناه بذبح عظيم: ليس المراد أن يعذب، ولكن يبتلي ليهذب، ليس العجب من أمر الخليل بذبح الولد، إنما العجب من مباشرة الذبح بيده، ولولا الاستغراق في حب الآمر لما هان مثل هذا المأمور، فلذلك جعلت آثارها: مثابة للقلوب، تحن إليها أعظم من حنين الطيور إلى أوكارها.

فصل(٣)

وإذا تأمَّلت حكمته ـ سبحانه ـ فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله: كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنح في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان وباطنه فيه الرحمة والنعمة.

فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان.

فتأمل حال أبينا آدم وما آلت إليه محنته من: الاصطفاء، والاجتباء،

(١) تقدم في سورة هود ذكر من هو الذبيح والخلاف فيه. (ج).

(٢) ٢٢٣ بدائع جـ٣. (٣) ٢٩٩ مفتاح جـ١.

والتوبة، والهداية، ورفعة المنزلة، لولا تلك المحنة التي جرت عليه؛ وهي إخراجه من الجنة، وتوابع ذلك، لما وصل إلى ما وصل إليه. فكم بين حالته الأولى وحالته الثانية في نهايته.

وتأمل حال أبينا الثاني نوح ﷺ وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه وأغرق أهل الأرض بدعوته وجعل العالم بعده من ذريتـه. وجعله خامس خمسـة وهم: أولو العزم الذين هم أفضل الرسل، وأمر رسوله ونبيه محمداً ﷺ أن يصبر كصبره، وأثنى عليه بالشكر، فقال: ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً**﴾ فوصفه بكمال الصبر والشكر.

ثم تأمَّل حال أبينا الثالث إبراهيم ﷺ: إمام الحنفاء، وشيخ الأنبياء، وعمود العالم وخليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله.

وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلى أن اتخذه الله خليلاً لنفسه وأمر رسوله وخليله محمداً ﷺ أن يتبع ملته.

وأنبهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ جازاه على تسليمه ولده لأمر الله، بأن: بارك في نسله، وكثّره، حتى ملأ السهـل والجبـل، فإن الله ـ تبـارك وتعالى ـ لا يتكرم عليه أحد، وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمراً، أو فعله لوجهه، بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة، وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة، فلما أمر إبراهيم بذبح ولده فبادر لأمر الله، ووافق عليه الولد أباه، رضاء منهما، وتسليماً، وعلم الله منهما الصدق والوفاء، فداه بذبح عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله. وكان من بعض عطاياه أن بارك في ذريتهما حتى ملؤا الأرض؛ فإن المقصود بالـولـد إنما هو التناسل وتكثير الذرية، ولهذا قال إبراهيم: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّـالِحِينَ**﴾ وقال: ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي**﴾. [إبراهيم: ٤٠].

فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح ولده انقطاع نسله فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسـه ضاعف الله له النسـل وبـارك فيه وكثـره حتى ملؤا الدنيا، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة، وأخرج منهم محمداً ﷺ.

وقد ذكر أن داود ـ عليه السلام ـ أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل، فأمر

بإحضارهم وبعث لذلك نقباء وعرفاء، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم، فمكثوا مدة لا يقدرون على ذلك، فأوحى الله إلى داود: أن قد علمت أني وعدت أباك إبراهيم لما أمرته بذبح ولده فبادر إلى طاعة أمري، أن أبارك له في ذريته حتى يصيروا في عدد النجوم، وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم، وقد أردت أن تحصي عدداً قدرت أنه لا يحصى، وذكر باقي الحديث، فجعل من نسله هاتين الأمتين العظيمتين اللتين لا يحصي عددهم إلا الله خالقهم ورازقهم، وهم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل، هذا سوى ما أكرمه الله به، من: رفع الذكر والثناء الجميل على ألسنة جميع الأمم، وفي السموات بين الملائكة، فهذا من بعض ثمرة معاملته، فتبًّا لمن عرفه ثم عامل غيره! ما أخسر صفقته وما أعظم حسرته!.

(١)**قال - تعالى -: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾** [الصافات: ١٥٩، ١٦٠]. فنزه - سبحانه - عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده وهم الرسل ومن اتَّبعهم، كما قال في الآية الأخرى: **﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وَسَلَامٌ على الْمُرْسَلِينَ. والحمدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينْ﴾**. فنزه نفسه عما يصفه به الواصفون، وسلم على المرسلين لسلامة ماوصفوه به من كل نقص وعيب، وحمد نفسه إذ هو الموصوف بصفات الكمال التي يستحق لأجلها الحمد وينزه عن كل نقص ينافي كماله وحمده.

(٢)**والله** سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم. أما الأول فقال - تعالى -: **﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين﴾**، وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن، يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيهًا مطلقاً كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم، وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد.

---

(١) ٩١ جلاء الأفهام.	(٢) ١٧١ بدائع جـ٢.

أعظم ما جاءوا به التوحيد، ومعرفة الله، ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم. وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض، وما خالفه هو الباطل والكذب المحال. وهذا المعنى بعينه في قوله: **﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾**. [النمل: ٥٩]. فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ماجاءوا به من كل باطل.

فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه، فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله ـ تعالى ـ كما هو في آخر الصافات.

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره فمنه قوله ـ تعالى ـ: **﴿قال رَبِّ احْكُم بالحَقِّ وَرَبُّنا الرَّحْمنُ المُسْتَعَانُ﴾** [الأنبياء: ١١٢]. وقوله: **﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وارْحَمْ وأَنتَ خَيرُ الرَّاحِمِينَ﴾** [المؤمنون: ١١٨]. وقوله: **﴿رَبَّنا افْتَحْ بيننا وبيْنَ قَوْمِنَا بالحقِّ وأَنتَ خَيْرُ الفاتِحِيْنَ﴾**. [الأعراف: ٨٩]. ونظائره كثيرة جدًّا.

وفصل الخطاب: في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعاً وتنتظمهما انتظاماً واحداً، فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس فيه إلا البلاغ، والكلام: كلام الرب ـ تبارك وتعالى ـ فهو الذي حمد نفسه، وسلم على عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك، فإذا قال الرسول: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد به نفسه وسلم به هو على عباده، فهو سلام من الله ابتداء، ومن المبلغ بلاغاً، ومن العباد اقتداء وطاعة، فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

ونظير هذا قوله ـ تعالى ـ: **﴿قل هو الله أحد﴾** فهو توحيد منه لنفسه، وأمر للمخاطب بتوحيده. فإذا قال العبد قل هو الله أحد كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظه قل تحقيقاً لهذا المعنى وأنه مبلغ محض قائل لما أمر بقوله والله أعلم. وهذا بخلاف قوله: **﴿قل أعوذ برب الفلق﴾** [الفلق: ١]، و**﴿قل أعوذ بربِّ الناس﴾** [الناس: ١]، فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة، لا تبليغ لقوله: أعوذ برب الناس. فإن الله لا يستعيذ من أحد، وذلك عليه محال بخلاف قوله: **﴿قل هو الله أحد﴾**، فإنه خبر عن توحيده، وهو ـ سبحانه ـ يخبر عن نفسه بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة، والله المستعان.

فصـــــل(١)

ثم تأمَّل حال الكليم موسى ـ عليه السلام ـ وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهىٰ أمره حتى كلمه الله. تكليماً وقربه منه، وكتب له التوراة بيده، ورفعه إلى أعلىٰ السموات، واحتمل له ما لا يحتمل لغيره، فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت، وأخذ بلحية نبي الله هارون وجره إليه، ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه، وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن رسول الله ﷺ وربه يحبه على ذلك كله، ولا سقط شيء منه من عينه، ولا سقطت منزلته عنده، بل هو الوجيه عند الله القريب، ولولا ما تقدم من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله ومقاسات الأمر الشديد بين فرعون وقومه ثم بني إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم الله لم يكن ذلك.

ثم تأمَّل حال المسيح ﷺ، وصبره على قومه، واحتماله في الله ما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وانتقم من أعدائه، وقطعهم في الأرض ومزقهم كل ممزق، وسلب ملكهم وفخرهم إلى آخر الدهر.

فصـــــل

فإذا جئت إلى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلون الأحوال عليه، من: سلم، وخوف، وغنىً، وفقر، وأمن، وإقامة في وطنه، وظعن عنه، وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذىٰ، من: القول، والفعل، والسحر، والكذب، والافتراء عليه، والبهتان، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله فلم يؤذ نبي ما أوذي، ولم يحتمل في الله مااحتمله ولم يعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وأسمعهم عنده شفاعة، وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفاً وفضلاً وساقه بها إلى أعلىٰ المقامات، وهذا حال ورثته من بعده، الأمثل فالأمثل كل له نصيب من المحنة، يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له.

(١) ٣٠٠ مفتاح جـ١.

ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له جعل خلاقه ونصيبه فيها، فهو يأكل منها رغداً، ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب، يمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش، ويخافون وهو آمن، ويحزنون وهو في أهله مسرور، له شأن ولهم شأن، وهو في واد وهم في واد، همه ما يقيم به جاهه، ويسلم به ماله، وتسمع به كلمته، لزم من ذلك ما لزم، ورضي من رضي، وسخط من سخط، وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه، وأن تكون الدعوة له وحده، فيكون هو وحده المعبود لا غيره، ورسوله المطاع لا سواه.

فلله ـ سبحانه ـ من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة، والنهايات الفاضلة، إلا على جسر المحنة والابتلاء.

كذا المعالي إذا ما رمت تدركها　　فاعبر إليها على جسر من التعب

فالأعمال[1] تشفع لصاحبها عند الله، وتذكّر به إذا وقع في الشدائد. قال تعالى عن ذي النون: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]. وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له، وقال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]. قال له جبريل: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ، وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ؟﴾. [يونس: ٩١].

وفي المسند عنه ﷺ أنه قال: «**إن ما تذكّرون من جلال الله ـ من التسبيح، والتكبير، والتحميد ـ يتعاطفن حول العرش، لهن دويّ كدويّ النحل. يذكّرن بصاحبهن. أفلا يحب أحدكم أن يكون له من يذكر به؟**» ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته. ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك. لأنه قد قام به مما يحبه الله مااقتضى أن يغفر له. ويسامحه ما لا يسامح به المشرك. وكلما كان توحيد العبد أعظم. كانت مغفرة الله له أتم. فمن لقيه لا يشرك به شيئاً ألبتة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت. ولم يعذب بها.

ولسنا نقول: إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد، بل كثير منهم يدخل

---

(١) ٣٢٩ مدارج جـ١.

بذنوبه، ويعذب على مقدار جرمه، ثم يخرج منها، ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قدمناه. ونزيد ههنا إيضاحاً لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه.

اعلم أن أشعة «لا إلـه إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه. فلها نور. وتفاوت أهلها في ذلك النور: قوةً، وضعفاً، لا يحصيه إلا الله تعـالى. فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه: كالشمس. ومنهم: من نورهـا في قلبـه: كالكـوكب الدري. ومنهم: من نورها في قلبه: كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً ومعرفة وحالاً . . . .

(١) **يقطين**: وهو الدباء والقَرْع. وإن كان اليقطين أعم. فإنه في اللغة: كل شجر لا تقوم على ساق، كالبطيخ والقثاء والخيار. قال الله تعالى: ﴿**وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ**﴾. [الصافات: ١٤٦].

فإن قيل: ما لا يقوم على ساق يسمى نَجْماً، لا شجراً. والشجر ماله ساق. قاله أهل اللغة. فكيف قال: ﴿**شجرة من يقطين**﴾؟.

فالجواب: أن الشجر إذا أطلق كان ما له ساق يقوم عليه. وإذا قيد بشيء تقيد به. والفرق بين المطلق والمقيد في الأسماء: باب مهم عظيم النفع في الفهم ومـراتب اللغة. و«اليقطين» المذكور في القرآن: هو نبات الدباء. وثمره يسمى الدباء والقَرْع، وشجره اليقطين. . . .

(٢) فائـــدة

[**أو**] وضعت للدلالة على أحد الشيئين المذكورين معها، ولذلك وقعت في الخبر المشكوك فيه من حيث كان الشك تردداً بين أمرين من غير ترجيح لأحدهما على الآخر، لا أنها وضعت للشك فقد تكون في الخبر الذي لا شك فيه إذا أبهمت على المخـاطب ولم تقصـد أن تبين له: كقوله ـ سبحانه ـ : ﴿**إلى مائة ألفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**﴾ [الصافات: ١٤٧]. أي أنهم من الكثرة بحيث يقال فيهم: هم مائة ألف أو يزيدون. فـ [أو]، على بابها دالة على أحد الشيئين: إما مائة ألف بمجردها،

(١) ٤١٣ زاد المعاد جـ٣. (٢) ١٩٨ بدائع جـ١.

وإما مائة ألف مع زيادة، والمخبر في كل هذا لا يشك.

وقوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]. ذهب في هذه الزجاج كالتي في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩]. إلى أنها [أو] التي للإباحة أي أبيح للمخاطبين أن يشبهوا بهذا أو هذا؛ وهذا فاسد، فإن [أو] لم توضع للإباحة في شيء من الكلام، ولكنها على بابها.

أما قوله: ﴿أو كصيب من السماء﴾، فإنه ـ تعالى ـ ذكر مثلين مضروبين للمنافقين في حالتين مختلفتين فهم لا يخلون من أحد الحالتين فـ [أو] على بابها من الدلالة على أحد المعنيين وهذا كما تقول زيد لا يخلو أن يكون في المسجد أو الدار ذكرت [أو] لأنك أردت أحد الشيئين. وتأمل الآية بما قبلها، وافهم المراد منها، تجد الأمر كما ذكرت لك، وليس المعنى أبحت لكم أن تشبهوهم بهذا وهذا.

وأما قوله فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فإنه ذكر قلوباً ولم يذكر قلباً واحداً، فهي على الجملة قاسية أو على التعيين لا تخلو من أحد أمرين إما أن تكون كالحجارة وإما أن تكون أشد قسوة ومنها ما هو كالحجارة ومنها ما هو أشد قسوة. منها. ومن هذا قول الشاعر:

**فقلت لهم شيئان لابد منهما		صدور رماح أشرعت أو سلاسل**

أي لابد منهما في الجملة ثم فصل الاثنين: بالرماح والسلاسل، فبعضهم له الرماح قتلاً، وبعضهم له السلاسل أسراً، فهذا على التفصيل والتعيين، والأول على الجملة، فالأمران واقعان جملة، وتفصيلهما بما بعد [أو]. وقد يجوز في قوله تعالى: ﴿أو أشد قسوة﴾. مثل أن يكون: ﴿مائة ألف أو يزيدون﴾. وأما [أو] التي للتخيير فالأمر فيها ظاهر. وأما [أو] التي زعموا أنها للإباحة نحو: جالس الحسن أو ابن سيرين، فلم توجد الإباحة من لفظ. [أو]. ولا من معناها، ولا تكون [أو] قط للإباحة، وإنما أخذت من لفظ الأمر الذي هو للإباحة.

ويدل على هذا أن القائلين بأنها للإباحة يلزمهم أن يقولوا: إنها للوجوب إذا دخلت بين شيئين لابد من أحدهما نحو قولك للمكفر أطعم عشرة مساكين أو اكسهم فالوجوب هنا لم يوجد من [أو] وإنما أخذ من الأمر، فكذا: جالس الحسن أو ابن سيرين.

(١)**لفظة** «أو» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِنَ بَعْدِ ذَلِكَ. فَهِيَ كَالحِجَارةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوةً﴾ [البقرة: ٧٤]. وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةَ أَلْف أَوْ يَزِيدُونَ﴾. [الصافات: ١٤٧]. هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة. فإنها إن لم تزد قسوتها على الحجارة فهي كالحجارة في القسوة لا دونها. وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها. فذكر «أو» ههنا كالتنصيص على حفظ المائة الألف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة. والله أعلم.

(٢)**قوله:** «آيس العقول بقوله: [أو] دنا» يعني: أن العقول لا تقدر أن تثبت على معرفة اتصال هو أدنىٰ من قاب قوسين. وهذا بناء على ما فهمه من الآية، وإلا فالعقول غير آيسة من دنو رسوله الملكي من رسوله البشري، حتى صار في القرب منه قاب قوسين أو أدنىٰ من قوسين. فإنه دنو عبد من عبد، ومخلوق من مخلوق. يبقى أن يقال: فما فائدة ذكر «أو»؟ فيقال: هي لتقرير المذكور قبلها، وأن القرب إن لم ينقص عن قدر قوسين لم يزد عليهما. وهذا كقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَة أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]. والمعنى: أنهم إن لم يزيدوا على المائة الألف لم ينقصوا عنها. فهو تقرير لنصية عدد الألف. فتأمله.

(٣)**وفي** الترمذي أنه سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ كم كانت الزيادة؟ قال: «عشرة آلاف».

(٤)**ولهذا** يسمي ـ سبحانه ـ الحجة: سلطانًا قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن فهو الحجة كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأتوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿إن هي إِلَّا أَسْمَاء سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللهُ بهَا مِنْ سُلطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُون﴾ [الروم: ٣٥]. وهذا لأن الحجة تسلط صاحبها على خصمه فصاحب الحجة له سلطان وقدرة على خصمه وإن كان عاجزاً عنه بيده. وهذا هو أحد أقسام النصرة التي نصر الله بها رسله والمؤمنين في الدنيا كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصرُ رُسُلَنَا والَّذِيْنَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنْيَا وَيوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]

(١) ٣٢٠ مدارج جـ١. (٢) ٣٢٢ مدارج جـ٣. (٣) ٤١٠ أعلام جـ٤. (٤) ٢٧ الفروسية.

[(١)] **ومنه** الجِنة بالكسر: الجن كما قال تعالى: ﴿من الجِنَّة والنَّاسِ﴾ [هود: ١١٩]، وذهبت طائفة من المفسرين إلى أن الملائكة يسمون: جنة، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً﴾ [الصافات: ١٥٨]. قالوا: وهذا النسب قولهم: الملائكة بنات الله. ورجحوا هذا القول بوجهين: **أحدهما**: أن النسب الذي جعلوه إنما زعموا أنه بين الملائكة وبينه لا بين الجن وبينه.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ولَقَدْ عَلِمت الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]. أي قد علمت الملائكة أن الذين قالوا هذا القول محضرون للعذاب. والصحيح خلاف ماذهب إليه هؤلاء، وأن الجنة هم الجن أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿من الجنة والناس﴾. وعلى هذا ففي الآية قولان: أحدهما: قول مجاهد قال: قالت كفار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر: فمن أمهاتهم؟ قالوا: سروات الجن. وقال الكلبي: قالوا: تزوج من الجن، فخرج من بينهما الملائكة. وقال قتادة: قالوا: صاهر الجن. والقول الثاني هو: قول الحسن قال: أشركوا الشياطين في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه.

والصحيح قول مجاهد وغيره، وماحتج به أصحاب القول الأول ليس بمستلزم لصحة قولهم، فإنهم لما قالوا: الملائكة بنات الله، وهم من الجن عقدوا بينه وبين الجن نسباً بهذا الإيلاد، وجعلوا هذا النسب متولداً بينه وبين الجن.

وأما قوله: ﴿ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾. فالضمير يرجع إلى الجنة أي: قد علمت الجنة أنهم محضرون الحساب، قاله مجاهد. أي: لو كان بينه وبينهم نسب لم يحضروا للحساب، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذنُوبِكم؟﴾ [المائدة: ١٨]، فجعل ـ سبحانه ـ عقوبتهم بذنوبهم وإحضارهم للعذاب مبطلاً لدعواهم الكاذبة وهذا التقدير في الآية أبلغ في إبطال قولهم من التقدير الأول فتأمله.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الصافات

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٧١ حادي الأرواح.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالى: ﴿**ص والقرآنِ ذِي الذِّكر**﴾ [ص:١] فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر، المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر، ما يدل على المقسم عليه، وكونه حقًّا من عند الله غير مفترى، كما يقوله الكافرون. وهذا معنى قول كثير من المفسرين ـ متقدميهم ومتأخريهم ـ: إن الجواب محذوف، تقديره: إن القرآن لحق، وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك. وأما قول بعضهم: إن الجواب قوله تعالى: ﴿**كم أهلكنا مِن قبلِهم من قرنٍ**﴾ [ص:٣] فاعترض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿**بَلِ الذين كفروا في عِزَّةٍ وشِقاق**﴾ [ص:٢] فبعيد؛ لأن «كم» لا يتلقى بها القسم، فلا تقول: والله كم أنفقت مالاً. وبالله كم أعتقت عبدًا. وهؤلاء لما لم يخفَ عليهم ذلك احتاجوا أن يقدروا ما يتلقى بها الجواب، أي لكم أهلكنا. و أبعد من هذا قول من قال: الجواب وقوله: ﴿**إن كلٌّ إلا كذَّب الرُّسل**﴾ [ص:١٤]. وأبعد منه قول من قال: الجواب ﴿**إن هذا لرزقُنا ماله من نَفَاد**﴾ [ص:٥٤]. وأبعد منه قول من قال: الجواب قوله: ﴿**إن ذلك لحقٌّ تخاصُمُ أهلِ النَّار**﴾ [ص:٦٤]. وأقرب ما قيل في الجواب لفظًا، وإن كان بعيدًا معنى عن قتادة وغيره: إنه في قوله: ﴿**بل الذين كفروا**﴾ كما قال ﴿**قٓ والقُرآن المجيد * بل عجِبوا أن جاءهم منذِرٌ مِنهم**﴾ [ق:١، ٢].

(٢)**تأمل** سر اقتران هذين الاسمين في قوله تعالى: ﴿**إنَّه هو يُبديء ويُعيدُ * وهو الغَفورُ الوَدود**﴾ [البروج:١٣، ١٤] تجد فيه من الرد والإنكار على من قال: لا يعود الود والمحبة منه لعبده أبدًا، ما هو من كنوز القرآن ولطائف فهمه، وفي ذلك ما يهيج القلب السليم ويأخذ بمجامعه ويجعله عاكفًا على ربه ـ الذي لا إله إلا هو ولا رب له سواه ـ عكوف المحب الصادق على محبوبه الذي لا غنى له عنه، ولابد له منه، ولا تندفع ضرورته بغيره أبدًا. واحتجوا أيضًا بأن العبد قد يكون بعد

---

(١) ٨ التبيان.
(٢) ٢٣٣ طريق الهجرتين.

التوبة خيراً منه قبل الخطيئة؛ لأن الذنب يحدث له من الخوف والخشية، والانكسار والتـذلل لله، والتضرع بين يديه، والبكاء على خطيئته والندم عليها، والأسف والإشفاق ما هو من أفضل أحوال العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته. ولم تكن هذه الأمور لتحصل بدون أسبابها، إذ حصول الملزوم بدون لازمه محال. والله يحب من عبـده كسرته وتضرعه وذله بين يديه، واستعطافه وسؤاله أن يعفو عنه ويغفر له ويتجـاوز عن جرمه وخطيئته، فإذا قضى عليه بالذنب فترتبت عليه هذه الآثار المحبوبة له كان ذلك القضاء خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن.

ولهذا قال بعض السلف: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه. وقيل إن في بعض الآثار يقول الله تعالى لداود عليه السلام: ياداود كنت تدخل عليَّ دخول الملوك على الملوك. واليوم تدخل على دخول العبيد على الملوك.

قالوا وقـد قال غير واحـد من السلف: كان داود بعـد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، قالوا: لهذا قال سبحانه: ﴿**فَغَفَرنا له ذلك وإن له عِندنا لزُلفى وحُسنَ مآب**﴾ [صٓ: ٢٥] فزاده على المغفرة أمرين: الزلفى وهي درجة القرب منه، وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف. والثاني: حسن المآب، وهو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله. قالوا: ومن تأمل زيادة القرب التي أعطيها داود بعد المغفرة علم صحة ماقلنا، وأن العبد بعد التوبة يعود خيراً مما كان...

(١)**وقد** أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيله فقال الله تعالى: ﴿**يَاداودُ إنَّا جَعلناك خليفةً في الأرضِ فاحكُم بينَ النَّاس بالحَقِّ ولا تتبعِ الهَوى فيضِلك عن سبيلِ الله**﴾ [صٓ: ٢٦]، ثم ذكر مآل الضالين عن سبيله ومصيرهم فقال: ﴿**إنَّ الذين يَضِلُون عن سبيل اللهِ لهم عذابٌ شديد بما نَسُوا يومَ الحساب**﴾ [صٓ: ٢٦]. وأخـبر سبحـانـه أن باتبـاع الهوى يطبع على قلب العبد فقال: ﴿**أولئك الذين طَبَعَ الله على قلوبهم واتَّبعوا أهواءَهم**﴾ [محمد: ١٦]. وقد أخبر النبي ﷺ أن العاجز هو الذي اتَّبع هواه وتمنَّى على الله. وذكر الإمام أحمد من حديث راشد بن سعد،

(١) ٤٢٨ ﰈ روضة المحبين.

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما تحتَ [ظلّ] السَّماء إله يُعبد أعظم عند الله من هوًى متَّبع . . .

(١) **قال** تعالى في حق نبيه داود: ﴿وإنَّ له عِندنا لزُلفى وحُسنَ مآبٍ﴾ [صٓ: ٢٥] فالزلفى منزلة القرب، وحسنُ المآب: حسن الثواب والجزاء. وقال تعالى: ﴿لِلَّذين أحسنُوا الحُسنَى وزِيادةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فـ«الحسنى» الجزاء. و«الزيادة» منزلة القرب. ولهـذا فُسرت بالنـظر إلى وجه الله عز وجل. وهذان هما اللذان وعدهما فرعون للسحرة إن غلبوا موسى، فقالوا له: ﴿إنَّ لنا لأجرًا إن كُنَّا نحن الغالبين * قال نعم وإنَّكم لمن المقـربـين﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤] وقال تعالى: ﴿وعَد الله المؤمنين والمؤمِنات جَنَّاتٍ تجرِي من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ومساكنَ طيبةً في جنَّاتِ عدنٍ ورضوانٌ من الله أكبر﴾ [التوبة: ٧٢].

(٢) فصل

وقد أنكر تعالى على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين، كالتسوية بين الأبـرار والفجـار فقـال تعـالى: ﴿أم نجعلُ الذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات كالمفسـدين في الأرض أم نجعَـلُ المتقـين كالفجار﴾ [صٓ: ٢٨] وقال تعالى: ﴿أم حَسِبَ الـذين اجـتَرَحُوا السَّيئاتِ أن نَجْعَلَهُم كالذين آمنوا وعمِلوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ [الجاثية: ٢١] فدل على أن هذا حكم سيء قبيح ينزه الله عنه، ولم ينكره سبحانه من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون، وإنما أنكره من جهة قبحه في نفسه، وأنه حكم سيء يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله، ووقوع أفعاله كلها على السداد والعواقب والحكمة. فلا يليق به أن يجعل البر كالفاجر، ولا المحسن كالمسيء، ولا المؤمن كالمفسد في الأرض. فدل على أن هذا قبيح في نفسه، تعالى الله عن فعله.

ومن هذا أيضًا إنكاره سبحانه على من جوز أن يترك عباده سدى فلا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، وأن هذا الحسبان باطل، والله متعال عنه لمنـافـاتـه لحكمتـه وكـمالـه كما قال تعالى: ﴿أيَحسَبُ الإنسانُ أن يُترك سُدىً﴾

---

(١) ٧٦ مدارج جـ٢.   (٢) ١١ مفتاح جـ٢.

[القيامة: ٣٦] قال الشافعي رضي الله عنه: أي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. والقولان واحد؛ لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهي. فهو سبحانه خلقهم للأمر والنهي في الدنيا والثواب والعقاب في الآخرة. فأنكر سبحانه على من زعم أنه يترك سدى إنكارَ من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه، وأنه لا يليق أن ينسب ذلك إلى أحكم الحاكمين.

ومثله قوله تعالى: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا تُرجعون * فتعالى الله الملكُ الحق لا إله إلا هو ربُّ العرشِ الكريم**﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فنزه نفسه سبحانه وباعدها عن هذا الحسبان، وأنه يتعالى عنه، ولا يليق به لقبحه ولمنافاته لحكمته وملكه وإلهيته. أفلا ترى كيف ظهر في العقل الشهادة بدينه وشرعه، وبثوابه وعقابه، وهذا يدل على إثبات المعاد بالعقل كما يدل على إثباته بالسمع. وكذلك دينه وأمره وما بعث به رسله هو ثابت في العقول جملة، ثم علم بالوحي. فقد تطابقت شهادة العقل والوحي على توحيده وشرعه والتصديق بوعده ووعيده، وأنه سبحانه دعا عباده على ألسنة رسله إلى ما وضع في العقول حسنه والتصديق به جملة، فجاء الوحي مفصلاً مبينًا، ومقررًا ومذكرًا لما هو مركوز في الفطر والعقول.

ولهذا سأل هرقل أبا سفيان في جملة ما سأله من أدلة النبوة وشواهدها عما يأمر به النبي ﷺ قال: بم يأمركم؟ قال: يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف، فجعل ما يأمر به من أدلة نبوته فإن أكذب الخلق وأفجرهم من ادعى النبوة وهو كاذب فيها على الله، وهذا محال أن يأمر إلا بما يليق بكذبه وفجوره وافترائه، فدعوته تليق به. وأما الصادق البار الذي هو أصدق الخلق وأبرهم فدعوته لا تكون إلا أكمل دعوة وأشرفها، وأجلها وأعظمها؛ فإن العقول والفطر تشهد بحسنها وصدق القائم بها. فلو كانت الأفعال كلها سواء في نفس الأمر لم يكن هناك فُرقان بين ما يجوز أن يدعو إليه الرسول وما لا يجوز أن يدعو إليه، إذ العرف وضده إنما يعلم بنفس الدعوة والأمر والنهي. وكذلك مسألة النجاشي لجعفر وأصحابه عما يدعو إليه الرسول. فدل على أنه من المستقر في العقول والفطر انقسام الأفعال إلى قبيح وحسن في نفسه، وأن الرسل تدعو إلى حسنِها وتنهى عن قبيحها، وأن ذلك من آيات صدقهم

وبراهين رسالتهم، وهو أولى وأعظم عند أولى الألباب والحجى من مجرد خوارق العادات، وإن كان انتفاع ضعفاء العقول بالخوارق في الإيمان أعظم من انتفاعهم بنفس الدعوة وما جاء به من الإيمان، فطرق الهداية متنوعة رحمة من الله بعباده ولطفًا بهم لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم.

فمنهم من يهتدي بنفس ما جاء به وما دعا إليه من غير أن يطلب منه برهانًا خارجًا عن ذلك، كحال الكُمَّل من الصحابة كالصديق رضي الله عنه. ومنهم من يهتدي بمعرفته بحاله ﷺ وما فطر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال، وأن عادة الله أن لا يخزي من قامت به تلك الأوصاف والأفعال لعلمه بالله ومعرفته به، وأنه لا يخزي من كان بهذه المثابة، كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها له ﷺ: أبشر فوالله لن يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فاستدلت بمعرفتها بالله وحكمته ورحمته على أن من كان كذلك فإن الله لا يخزيه ولا يفضحه، بل هو جدير بكرامة الله واصطفائه ومحبته وتوبته.

وهذه المقامات في الإيمان عجز عنها أكثر الخلق، فاحتاجوا إلى الآيات والخوارق والآيات المشهودة بالحس، فآمن كثير منهم عليها. وأضعف الناس إيمانًا من كان إيمانه صادرًا من المظهر ورؤية غلبته ﷺ للناس، فاستدلوا بذلك المظهر والغلبة والنصرة على صحة الرسالة. فأين بصائر هؤلاء من بصائر من آمن به وأهل الأرض قد نصبوا له العداوة، وقد ناله من قومه ضروب الأذى، وأصحابه في غاية قلة العدد والمخافة من الناس؟ ومع هذا فقلبه ممتلىء بالإيمان، واثق بأنه سيظهر على الأمم، وأن دينه سيعلو كل دين.

وأضعف من هؤلاء إيمانًا من إيمانه إيمان العادة والمربَّى والمنشأ؛ فإنه نشأ بين أبوين مسلمين، وأقارب وجيران وأصحاب كذلك، فنشأ كواحد منهم ليس عنده من الرسول والكتاب إلا اسمها، ولا من الدين إلا ما رأى عليه أقاربه وأصحابه. **فهذا** دين العوائد، وهو أضعف شيء، وصاحبه بحسب من يقترن به، فلو قيض له من يخرجه عنه لم يكن عليه كلفة في الانتقال عنه.

والمقصود أن خواص الأمة ولبابها لما شهدت عقولهم حسن هذا الدين وجلالته

وكماله، وشهدت قبح ما خلفه ونقصه ورداءته، خالط الإيمان به ومحبته بشاشة قلوبهم، فلو خُيِّر بين أن يلقى في النار وبين أن يختار دينًا غيره لاختار أن يقذف في النار وتقطع أعضاؤه ولا يختار دينًا غيره. وهذا الضرب من الناس هم الذين استقرت أقدامهم في الإيمان، وهم أبعد الناس عن الارتداد عنه، وأحقهم بالثبات عليه إلى يوم لقاء الله. ولهذا قال هرقل لأبي سفيان: أيرتد أحد منهم عن دينه سخطة له؟ قال: لا. قال: فكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد. والمقصود أن الداخلين في الإسلام المستدلين على أنه من عند الله لحسنه وكماله، وأنه دين الله الذي لا يجوز أن يكون من عند غيره، هم خواص الخلق. والنفاة سدوا على أنفسهم هذا الطريق فلا يمكنهم سلوكه.

(١)**قال الله تعالى** - حاكيًا عن نبيه سليمان عليه السلام -: ﴿**ردُّوها عليَّ فَطَفِق مَسحًا بالسُّوقِ والأعناق**﴾ [صٓ: ٣٣]. ووجه استشهاده بالآية: أن سليمان عليه السلام كان يحب الخيل، فشغله استحسانها، والنظر إليها - لما عُرضت عليه - عن صلاة النهار، حتى توارت الشمس بالحجاب. فلحقته الغيرة لله من الخيل، إذ استغرقه استحسانها، والنظر إليها عن خدمة مولاه وحقه. فقال: ﴿**ردوها علي**﴾ فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف غيرة لله.

(٢)**وحدثني** داود بن عمر الضبي حدثنا عبدالله بن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأنفسهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان؟ أسكنوهم رياض المسك. ثم يقول للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي». وقال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن الحسن حدثني عبدالله بن أبي بكر حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار في قوله عز وجل: ﴿**وإنَّ له عِندنا لزُلفَى وحُسنَ مآب**﴾ [صٓ: ٢٥]. قال: إذا كان يوم القيامة أمر بمنبر رفيع فوضع في الجنة ثم نودي ياداود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في دار الدنيا قال: فيستفرغ صوت داود نعيم أهل الجنان فذلك قوله تعالى: ﴿**وإن له عندنا لزُلفى وحُسن مآب**﴾ [صٓ: ٢٥].

---

(١) ٤٧ مدارج جـ٣.

(٢) ١٨٢ حادي الأرواح.

وذكر حماد بن سلمة عن ثابت البناني وحجاج الأسود عن شهر بن حوشب قال: «إن الله جل ثناؤه يقول للملائكة: إن عبادي كانوا يحبون الصوت الحسن في الدنيا فيدَعونه من أجلي فأسمعوا عبادي، فيأخذوا بأصوات من تهليل وتسبيح وتكبير لم يسمعوا بمثله قط». وقال عبدالله بن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه: «حدثني علي بن مسلم الطوسي حدثني سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك بن دينار في قوله عز وجل: ﴿**وإن له عِندنا لزُلفى وحسن مآب**﴾ قال: يقيم الله سبحانه داود عند ساق العرش فيقول: ياداود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم فيقول: إلهي كيف أمجدك وقد سلبتنيه في دار الدنيا؟ قال: فيقول الله عز وجل: فإني أرده عليك، قال: فيرده عليه فيزداد صوته قال: فيستفرغ صوت داود نعيم أهل الجنة»...

...(١)**وصف** الله بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه، فقال عن حبيبه أيوب: ﴿**إنّا وجدناه صابِرًا**﴾ [صٓ:٤٤] ثم أثنى عليه. فقال: ﴿**نِعم العبد إنه أوّاب**﴾ [صٓ:٤٤]. وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به. وأثنى على الصابرين أحسن الثناء، وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوبًا، وأجرهم بغير حساب. وقرن الصبر بمقامات الإسلام، والإيمان، والإحسان ـ كما تقدم ـ فجعله قرين اليقين، والتوكل، والإيمان، والأعمال، والتقوى.

وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو الصبر. وأخبر أن الصبر خير لأهله. وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم، كما تقدم ذلك...

...(٢)**قوله** تعالى لنبيه أيوب عليه السلام: ﴿**وخُذ بيدِك ضِغثًا فاضرب به ولا تحنَثْ**﴾ [صٓ:٤٤] فقال شيخنا: الجواب أن هذا ليس مما نحن فيه؛ فإن للفقهاء في موجب هذه اليمين في شرعنا قولين، يعني إذا حلف ليضربَنَّ عبده أو امرأته مائة ضربة، أحدهما: قول من يقول موجبها الضرب مجموعًا أو مُفرقًا، ثم منهم من يشترط مع الجمع الوصول إلى المضروب، فعلى هذا تكون هذه الفتيا موجب هذا اللفظ عند الإطلاق. والقول الثاني: أن موجبه الضرب المعروف، وإذا كان هذا موجبه في شرعنا لم يصح الاحتجاج علينا بما يخالف شرعنا من شرائع من قبلنا؛

(١) ١٦٢ مدارج جـ٢.		(٢) ٢٢١ أعلام جـ٣.

لأنا إن قلنا: «ليس شرعًا لنا مطلقًا» فظاهر، وإن قلنا: «هو شرع لنا» فهو مشروط بعدم مخالفته لشرعنا، وقد انتفى الشرط.

وأيضًا، فمن تأمل الآية علم أن هذه الفُتيا خاصة الحكم؛ فإنها لو كانت عامة الحكم في حق كل أحد لم يَخف على نبي كريم موجب يمينه، ولم يكن في اقتصاصها علينا كبير عبرة؛ فإنما يقص ما خرج عن نظائره لنعتبر به ونستدل به على حكمة الله فيما قَصه علينا. أما ما كان هو مقتضى العادة والقياس فلا يقص. ويدل على الاختصاص قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص:٤٤] وهذه الجملة خرجت مخرج التعليل كما في نظائرها. فعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما أفْتاه بهذا جزاء له على صبره، وتخفيفًا عن امرأته، ورحمة بها، لا أن هذا موجب هذه اليمين. وأيضًا فإن الله سبحانه وتعالى إنما أفْتاه بهذه الفُتيا لئلا يحنث، كما أخبر تعالى.

وهذا يدل على أن كفارة الأيمان لم تكن مشروعة بتلك الشريعة، بل ليس في اليمين إلا البر والحنث، كما هو ثابت في نذر التبرر في شريعتنا؛ وكما كان في أول الإسلام. قالت عائشة رضي الله عنها: «لم يكن أبوبكر يحنث في يمين، حتى أنزل الله كفارة اليمين»، فدلَّ على أنها لم تكن مشروعة في أول الإسلام. وإذا كان كذلك صار كأنه قد نذر ضربها، وهو نذر لا يجب الوفاء به؛ لما فيه من الضرر عليها، ولا يغني عنه كفارة يمين؛ لأن تكفير النذر فرع عن تكفير اليمين، فإذا لم تكن كفارة النذر إذ ذاك مشروعة فكفارة اليمين أولى. وقد علم أن الواجب بالنذر يحتذى به حَذو الواجب بالشرع، وإذا كان الضرب الواجب بالشرع يجب تفريقه إذا كان المضروب صحيحًا، ويجوز جمعه إذا كان المضروب مريضًا مأيوسًا منه عند الكل، أو مريضًا على الإطلاق عند بعضهم، كما ثبتت بذلك السنة عن رسول الله ﷺ، جاز أن يقام الواجب بالنذر مقام ذلك عند العذر. وقد كانت امرأة أيوب عليه السلام ضعيفة عن احتمال مائة ضربة التي حلف أن يضربها إياها، وكانت كريمة على ربها، فخفف عنها برحمته الواجب باليمين بأن أفْتاه بجمع الضربات بالضِّغْثِ كما خفف عن المريض.

ألا ترى أن السنة قد جاءت فيمن نذر الصدقة بجميع ماله أنه يجزيه الثلث، **فأقام** الثلث في النذر مقام الجميع رحمة بالناذر وتخفيفًا عنه. كما أقيم مقامه في

الوصية رحمة بالوارث ونظرًا له. وجاءت السنة فيمن نذرت الحج ماشية أن تركب وتُهدي، إقامة لترك بعض الواجب بالنذر مقام ترك الواجب بالشرع في المناسك عند العجز عنه، كطواف الوداع عن الحائض.

وأفْتَى ابن عباس وغيره مَن نذر ذبح ابنه بشاة إقامة لذبح الشاة مقام ذبح الابن كما شرع ذلك للخليل. وأفتى أيضًا من نذر أن يطوف على أربع بأن يطوف أسبوعين، إقامة لأحد الأسبوعين مقام طواف اليدين. وأفتى أيضًا هو وغيره من الصحابة رضي الله عنهم المريض الميئوس منه والشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم بأن يفطرا ويطعما كل يوم مسكينًا، إقامة للإطعام مقام الصيام.

وأفْتَى أيضًا هو وغيره من الصحابة الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أن تفطرا وتطعما كل يوم مسكينًا، إقامة للإطعام مقام الصيام. وهذا كثير جدًّا. وغير مستنكر في واجبات الشريعة أن يخفف الله تعالى الشيء منها عند المشقة بفعل ما يشبهه من بعض الوجوه كما في الأبدال وغيرها.

لكن مثل قصة أيوب لا يحتاج إليها في شرعنا؛ لأن الرجل لو حَلف ليضربَنَّ أمته أو امرأته مائة ضربة أمكنه أن يكفر عن يمينه من غير احتياج إلى حيلة وتخفيف الضرب بجمعه. ولو نذر ذلك فهو نذر معصية فلا شيء عليه عند طائفة، وعند طائفة عليه كفارة يمين. وأيضًا فإن المطلَق من كلام الآدميين محمول على ما فسر به المطلق من كلام الشارع خصوصًا في الأيمان؛ فإن الرجوع فيها إلى عُرف الخطاب شرعًا أو عادة أولى من الرجوع إلى موجب اللفظ في أصل اللغة، والله سبحانه وتعالى قد قال: **﴿الزَّانيةُ والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ﴾** [النور: ٢] وقال: **﴿والذين يَرْمُون المحصناتِ ثم لم يأتوا بأربعةِ شُهداء فاجلدوهم ثمانين جَلدةً﴾** [النور: ٤].

وفهم الصحابة والتابعون ومَن بعدهم من ذلك أنه ضربات متعددة متفرقة لا مجموعة، إلا أن يكون المضروب معذورًا عذرًا لا يُرجى زواله، فإنه يضرب ضربًا مجموعًا، وإن كان يُرجى زواله فهل يؤخر إلى الزوال، أو يقام عليه مجموعًا؟ فيه خلاف بين الفقهاء. فكيف يقال: إن الحالف ليضربن موجَب يمينه هو الضرب المجموع مع صحة المضروب وقوته؟ فهذه الآية هي أقوى ما يعتمد عليه أرباب

الحيل، وعليها بَنوا حيَلَهم، وقد ظهر بحمد الله أنه لا متمسك لهم فيها البتة.

(١)**أصلُ** كل فتنة إنما هو من تقديم الرأيِ على الشرعِ، والهَوى على العقلِ. فالأول: أصلُ فتنة الشُّبهة، والثاني: أصلُ فتنة الشهوةَ. ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهواتِ تُدفع بالصبرِ، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدِّين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿**وجعلنا مِنهم أئمةً يهْدون بأمرِنا لمَّا صبرُوا وكانو بآياتنا يوقِنون**﴾ [السجدة: ٢٤]. فدلَّ على أنه بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين. وجمع بينهما أيضًا في قوله: ﴿**وتَواصَوا بالحق وتواصَوا بالصبر**﴾ [العصر: ٣] فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكفُّ عن الشهوات. وجمع بينهما في قوله: ﴿**واذكر عِبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أُولي الأيدي والأبصَارِ**﴾ [صٓ: ٤٥].

فالأيدي: القُوى والعزائم في ذات الله. والأبصارُ: البصائر في أمر الله. وعبارات السلف تدور على ذلك. قال ابن عباس «أولى القوة في طاعة الله، والمعرفة بالله». وقال الكلبي: «أولى القوة في العبادة، والبصر فيها». وقال مجاهد: «الأيدي: القوة في طاعة الله، والأبصار: البصرُ في الحق». وقال سعيد بن جُبير: القوة في العمل، والأبصار: بصرُهم بما هم فيه من دينهم».

وقد جاء في حديث مرسل: «إن الله يُحِبُّ البصرَ النافِذَ عند ورُود الشبُهات، ويحب العقل الكامل عند حْلول الشهواتِ». فبكمالِ العقل والصبر تُدفعُ فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تُدفع فتنة الشبهة، والله المستعان.

فصل(٢)

وبصائر الناس في هذا النور الباهر تنقسم إلى ثلاثة أقسام. أحدها: من عدم بصيرة الإيمان جملة، فهو لا يرى من هذا الصنف إلا الظلمات والرعد والبرق، فهو يجعل أصبعيه في أذنه من الصواعق، ويده على عينه من البرق خشية أن يخطف بصره، ولا يجاوز نظره ما وراء ذلك من الرحمة وأسباب الحياة الأبدية. فهذا القسم هو الذي لم يرفع بهذا الدين رأسًا، ولم يقبل هدي الله الذي هدى به عباده ولو جاءته كل آية؛ لأنه ممن سبقت له الشقاوة، وحقت عليه الكلمة. ففائدة إنذار هذا إقامة الحجة عليه ليعذب بذنبه لا بمجرد علم الله فيه.

(١) ١٦٧ إغاثة جـ٢. (٢) ٢٠٣ مفتاح جـ١.

القسم الثاني أصحاب البصيرة الضعيفة الخفاشية الذين نسبة أبصارهم إلى هذا النور كنسبة أبصار الخفاش إلى جرم الشمس، فهم تبع لآبائهم وأسلافهم، دينهم دين العادة والمنشأ، وهم الذين قال فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «أو منقادًا للحق لا بصيرة له في إصابة»، فهؤلاء إذا كانوا منقادين لأهل البصائر لا يتخالجهم شك ولاريب فهم على سبيل نجاة.

القسم الثالث وهو خلاصة الوجود، ولباب بني آدم، وهم أولو البصائر النافذة، الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين، فكانوا منه على بصيرة ويقين ومشاهدة لحسنه وكماله، بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم الأسود، وهذا هو المحك والفرقان بينهم وبين الذين قبلهم. فإن أولئك بحسب داعيهم ومن يقرن بهم، كما قال فيهم علي بن أبي طالب، «أتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق».

هذا علامة من عدم البصيرة، فإنك تراه يستحسن الشيء وضده، ويمدح الشيء ويذمه بعينه إذا جاء في قالب لا يعرفه. فيعظم طاعة الرسول ويرى عظيمًا مخالفته، ثم هو من أشد الناس مخالفة له ونفيًا لما أثبته، ومعاداة للقائمين بسنته. وهذا من عدم البصيرة. فهذا القسم الثالث إنما عملهم على البصائر، وبها تفاوت مراتبهم في درجات الفضل، كما قال بعض السلف وقد ذكر السابقين فقال: إنما كانوا يعملون على البصائر، وما أوتي أحد أفضل من بصيرة في دين الله ولو قصر في العمل. قال تعالى: ﴿**واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار**﴾ [ص: ٤٥] قال ابن عباس: أولي القوة في طاعة الله والأبصار في المعرفة في أمر الله. وقال قتادة ومجاهد: أعطوا قوة في العبادة وبصرًا في الدين. وأعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس، وإن كان مقصرًا في العمل. وتحت كل من هذه الأقسام أنواع لا يحصى مقادير تفاوتها إلا الله. إذا عرف هذا فالقسم الأول لا ينتفع بهذا الباب، ولا يزداد به إلا ضلالة. والقسم الثاني ينتفع منه بقدر فهمه واستعداده. والقسم الثالث وإليهم هذا الحديث يساق، وهم أولو الألباب الذين يخصهم الله في كتابه بخطاب التنبيه والإرشاد، وهم المرادون على الحقيقة بالتذكرة قال تعالى: ﴿**وما يَتذكرُ إلا أولُو الألباب**﴾.

(١)**وقد** أخبر سبحانه وتعالى أنه أخلصهم: **﴿بخالصةٍ ذكرَى الدارِ * وإنهم عندنا لمن المصطفَين الأخيار﴾** [ص: ٤٦ - ٤٧]. ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله سبحانه وتعالى اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناء على رسالته، وواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كراماته: فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليمًا، ومنهم من رفعه مكانًا عليًا على سائرهم درجات. ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلا من طريقهم، ولا دخولا إلى جنته إلا خلفهم، ولم يكرم أحدًا منهم بكرامة إلا على أيديهم؛ فهم أقرب الخلق إليه وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه.

وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم، وبهم عرف الله، وبهم عبد وأطيع وبهم حصلت محابه تعالى في الأرض، وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم المذكورون في قوله تعالى **﴿شَرع لَكم مِنَ الدين ما وصَّى به نوحًا والذي أوحَينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم ومُوسى وعِيسَى﴾** [الشورى: ١٣]. وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق، وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم ﷺ.

(٢)**قال** الله عز وجل: **﴿وإنَّهم عِندنا لمن المصطَفَين الأخيار﴾** [صٓ: ٤٧] «الصفا» اسم للبراءة من الكدر. وهو في هذا الباب سقوط التلوين أما الاستشهاد بالآية: فوجهه أن «المصطفى» مفتعل من الصفوة. وهي خلاصة الشيء، وتصفيته مما يشوبه. ومنه: اصطفى الشيء لنفسه. أي خلصه من شوب شركة غيره له فيه. ومنه «الصَّفِيُّ» وهو السهم الذي كان يصطفيه ﷺ لنفسه من الغنيمة...

...(٣)**كمال** الإنسان مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله بهما سبحانه على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام في قوله تعالى: **﴿واذكر عِبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾** [صٓ: ٤٥].

---

(١) طريق الهجرتين.   (٢) ١٤١ مدارج جـ٣.

(٣) ١٢٣ الجواب الكافي.

فالأيدي القوة في تنفيذ الحق، والأبصار البصائر في الدين. فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه. وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى. القسم الثاني عكس هؤلاء من لا بصيرة له في الدين ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذى للعيون، وحمى الأرواح، وسقم القلوب، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث من له بصيرة في الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف. والمؤمن القوي خير وأحب إلا الله منه. القسم الرابع من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وبين أولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة. يحسب الورم شحمًا والدواء النافع سمًّا.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين ولا هو موضع لها سوى القسم الأول قال الله تعالى: ﴿**وجَعلنا منهم أئمة يهدون بأمرِنا لما صبرُوا وكانوا بآياتنا يوقِنون**﴾ [السجدة: ٢٤]. فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين. وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين على أن من عداهم فهو من الخاسرين فقال تعالى: ﴿**والعَصر * إن الإنسان لفي خسرٍ * إلا الذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ [العصر: ١-٣] فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصي بعضهم بعضًا ويرشده إليه ويحثه عليه.

(١)**فالمناظرة** في العلم نوعان: أحدهما: للتمرن والتدرب على إقامة الحجج ودفع الشبهات. والثاني: لنصرة الحق وكبت الباطل. والأول يشبه السباق والنضال. والثاني يشبه الجهاد وقتال الكفار. وقال تعالى: ﴿**وتِلك حُجَّتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء**﴾ [الأنعام:٨٣]. قال مالك: قال زيد بن أسلم: بالعلم، بعلم الحجة يرفع درجة صاحبه؛ فإن العلم بالحجج، والقوة على

---

(١) ٢٧ الفروسية.

الجهاد مما رفع الله به درجات الأنبياء وأتباعهم كما قال تعالى: **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجات﴾** [المجادلة: ١١] وقال تعالى: **﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾** [صٓ: ٤٥]. فالأيدي القوى التي يقدرون بها على إظهار أمر الله، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه. والأبصار البصائر في دينه.

(١) **ومن** أعظم نعم الله على العبد أن يرفع له بين العالمين ذكره ويعلي قدره، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى: **﴿واذكر عِبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرَى الدار﴾** [صٓ: ٤٥-٤٦] أي خصصناهم بخصيصة وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال: **﴿واجعل لي لِسانَ صِدقٍ في الآخرين﴾** [الشعراء: ٨٤] وقال سبحانه وتعالى عنه وعن بنيه: **﴿ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لِسانَ صدقٍ عليا﴾** [مريم: ٥٠] وقال لنبيه ﷺ: **﴿ورفعنا لك ذكرَك﴾** [الشرح: ٤] فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم. وكل من خالفهم فاته من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم.

(٢) **روى** الوليد بن مسلم عن خليد عن الحسن **﴿مفتَّحةً لهمُ الأبوابُ﴾** [ص: ٥٠] قال أبواب ترى. وذكر أيضًا عن خليد عن قتادة قال: أبواب يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، تتكلم وتكلم، وتفهم ما يقال لها: انفتحي، انغلقي. وقال أبوالشيخ أنبأنا محمد بن عبدالله بن محمد القيسي أنبأنا محمد بن إسحاق أنبأنا أحمد بن الحواري أنبأنا عبدالله بن غياث عن الفزاري قال: «**لكل مؤمن في الجنة أربعة أبواب: فباب يدخل عليه منه زواره من الملائكة، وباب يدخل عليه منه أزواجه من الحور العين، وباب مقفل فيما بينه وبين أهل النار يفتحه إذا شاء ينظر إليهم لتعظم النعمة عليه، وباب فيما بينه وبين دار السلام يدخل منه على ربه إذا شاء**».

---

(١) ١٠٥ الجواب الكافي.	(٢) ٥٥ حادي الأرواح.

وقد روى سهيل بن أبي صالح عن زياد النميري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة ولا فخر**». وفي حديث الشفاعة الطويل من رواية ابن عيينة عن علي بن زيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها**» وهذا صريح في أنها حلقة حسية تحرك وتقعقع.

وروى سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**آخذ بحلقة باب الجنة فيؤذن لي**» ويذكر عن علي رضي الله عنه: «من قال لا إله إلا الله الملك الحق المبين في كل يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر ومن وحشة القبر واستجلب به الغنى واستقرع به باب الجنة».

(١)**قوله** سبحانه: ﴿**جنَّاتِ عدنٍ مفتَّحةً لهم الأبوابُ * متكئين فيها يَدْعُون فيها بفاكهة كثيرة وشرابٍ**﴾ [صٓ: ٥٠-٥١]. كيف تجد تحته معنى بديعًا وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم، بل تبقى مفتحة كما هي. وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها كما قال تعالى: ﴿**مؤصدة * في عَمَدٍ ممددة**﴾ [الهمزة: ٨، ٩] قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب.

قال مقاتل يعني أبوابها عليهم مطبقة، فلا يفتح لها باب، ولا يخرج منها من غم، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد. وأيضًا فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم، وذهابهم وإيابهم، وتبوئهم في الجنة حيث شاؤوا، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم، ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت. وأيضًا إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا.

(٢)**فهم** يتناولونها قيامًا وقعودًا ومضطجعين، فيكون كقوله: ﴿**قطوفها دانية**﴾ ومعنى تذليل القطف تسهيل تناوله، وأهل المدينة يقولون: ذلل النخل أي سوِّ عروقها وأخرجها من السعف حتى يسهل تناولها. وفي نصب دانية وجهان: أحدهما: أنه على الحال عطفًا على قوله متكئين. والثاني: أنه صفة الجنة وقال تعالى: ﴿**فيهما من كل فاكهة زوجان**﴾ [الرحمن: ٥٢] وفي الجنتين الأخريين: ﴿**فيهما فاكهة ونخل ورمان**﴾ [الرحمن: ٦٨] وخص النخل والرمان من بين الفاكهة بالذكر

---

(١) ٤٥ حادي الأرواح.	(٢) ١٢٥ حادي الأرواح.

لفضلهما وشرفهما، كما نص على حدائق النخل والأعناب في سورة النبأ؛ إذ هما من أفضل أنواع الفاكهة وأطيبها وأحلاها وقد قال تعالى: ﴿**ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرةٌ من ربهم**﴾ [محمد: ١٥] وقال الطبراني حدثنا معاذ بن المثنى حدثنا علي بن المديني حدثنا ريحان بن سعيد عن عبادة بن منصور عن أيوب عن أبي قلابة عن إسماعيل عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى**» وقال عبدالله بن الإمام أحمد حدثني عقبة بن مكرم العمي حدثنا ربعي بن إبراهيم بن علية حدثنا عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهبط الله آدم من الجنة عليه السلام وعلمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أنها تغير وتلك لا تغير**». وقد تقدم أن سدرة المنتهى نبقها مثل القلال.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي الــزبـير عن جابـر عن النبي ﷺ قال: «**عرضت على الجنة حتى لو تناولت منها قطفًا أخذته**» وفي لفظ: «**فتناولت منها قطفًا فقصرت عنه يدي**» وقال أبو خيثمة حدثنا عبدالله بن جعفر حدثنا عبيدالله حدثنا ابن عقيل عن جابر قال: «**بينما نحن في صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا ثم تناول شيئًا ليأخذه ثم تأخر فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يارسول الله صنعت اليوم في صلاتك شيئًا ما كنت تصنعه؟ قال: إنه عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه**».

وقال ابن المبارك: أنبأنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «ثمر الجنة أمثال القلال والدلاء، أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد ليس فيه عجم». وقال سعيد بن منصور حدثنا شريك عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: «إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قيامًا وقعودًا ومضطجعين على أي حال شاءوا».

(١)**وفي** الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون**».

---

(١) ٤٧ حادي الأرواح.

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن حميد بن عبدالرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة يا عبدالله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان**. فقال أبوبكر: بأبي أنت وأمي يارسول الله ماعلى من دعي من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ فقال: **نعم وأرجو أن تكون منهم**». . .

(١)**وقال**: ﴿**جَنَّاتِ عدن مفتحةً لهم الأبوابُ * متكئين فيها يَدْعُون فيها بفاكهة كثيرة وشرابٍ**﴾ [ص: ٥٠-٥١]. وقال تعالى: ﴿**يَدْعُون فيها بكل فاكهة آمنين**﴾ [الدخان: ٥٥] وهذا يدل على أمنهم من انقطاعها ومضرتها. وقال تعالى: ﴿**وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة**﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣]وقال تعالى: ﴿**وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة**﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣] أي لا تكون في وقت دون وقت، ولا تمنع ممن أرادها: وقال: ﴿**فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية**﴾ [الحاقة: ٢١-٢٣] والقطوف جمع قطف وهو ما يقطف، والقطف بالفتح الفعل أي ثمارها دانية قريبة ممن يتناولها فيأخذها كيف يشاء. قال البراء بن عازب: يتناول الثمرة وهو نائم. وقال تعالى: ﴿**ودانيةً عليهم ظلالُها وَذُلِّلَت قطوفُها تذليلا**﴾ [الإنسان: ١٤] قال ابن عباس: إذا هَم أن يتناول من ثمارها تدلت له حتى يتناول ما يريد. وقال غيره: قريب إليهم مذللة كيف شاؤوا.

(٢)**وقال** تعالى فيهم(٣): ﴿**وإذ يَتَحَاجُّون في النار فيقول الضعفاءُ للذين استَكْبَرُوا إنَّا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مُغْنُونَ عنا نصيبًا منَ النارِ * قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حَكَمَ بين العباد**﴾ [غافر: ٤٧-٤٨]. وقال فيهم: ﴿**هذا فليَذُوقوه حميمٌ وغساق * وآخرُ من شكلِه أزواجٌ * هذا فوجٌ مقتَحِمٌ معكم لا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار * قالوا بل أنتم لا مرحبًا بكم أنتم قدمتُمُوه لنا فبئس**

(١) ١٢٤ حادي الأرواح. (٢) ٢٩ اجتماع الجيوش.

(٣) الضمير يعود على من تكبر على طاعة الله واتباع رسوله ﷺ.

القرار﴾ [ص: ٥٧-٦٠] أي سننتموه لنا وشرعتموه **﴿قالوا ربَّنا مَن قدَّم لنا هذا فزده عذابًا ضعفًا في النار﴾** [ص: ٦١] فقولهم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار أي داخلوها كما دخلناها، ومقاسون عذابها كما نقاسيه، فأجابهم الأتباع وقالوا: **﴿بل أنتم لا مرحبا بكم أنت قدمتموه لنا﴾**.

وفي الضمير قولان: أحدهما أنه ضمير الكفر والتكذيب وردِّ قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واستبدال غيره به. والمعنى أنتم زينتم لنا الكفر ودعوتمونا إليه وحسنتموه لنا.

وقيل على هذا القول: إنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين. والمعنى على هذا: أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل ورد ما جاءوا به، والشرك بالله سبحانه وتعالى، أي بدأتم به وتقدمتمونا إليه، فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار، أي بئس المستقر والمنزل.

والقول الثاني: إن الضمير في قوله: **﴿أنتم قدمتموه لنا﴾** ضمير العذاب وصلي النار، والقولان متلازمان وهما حق.

وأما القائلون: **﴿ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابًا ضعفًا في النار﴾** فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم به لأنهم الذين حملوهم عليه ودَعَوْهم إليه، ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد من سن لهم الشرك وتكذيب الرسل صلى الله عليهم وسلم ضعفًا وهم الشياطين.

فصل(١)

وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى: **﴿ونفخت فيه من روحي﴾** فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان. صفات لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها. فعلمه، وكلامه، وإرادته، وقدرته، وحياته، صفات له غير مخلوقة، وكذلك وجهه ويده سبحانه.

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه، كالبيت، والناقة، والعبد، والرسول، والروح. فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف عن غيره، كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها

(١) ١٩٠ الروح.

ملكًا له. وكذلك ناقة الله، والنوق كلها ملكه وخلقه، لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبتـه لها وتكـريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده. فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد، والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى: ﴿وربُّك يَخلُقُ ما يشاءُ ويَختار﴾

وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة، ولا من باب إضافة الصفـات. فتـأمـل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس.

(١)**فإن** قيل فما تقـولون في قوله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ فأضاف النفخ إلى نفسه وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى كما في قوله: ﴿خلقت بيدي﴾ ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «**فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبوالبشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء**». فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره، ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك، وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده؛ فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك وقد قال الله تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ فهو الذي سواه بيده وهو الذي نفخ فيه من روحه؟ قيل: هذا الموضع هو الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح، وتوقف فيها آخرون ولم يفهموا مراد القرآن.

فأما الـروح المضـافـة إلى الـرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا.

وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم: ﴿التي أحصنت فَرْجَها فنفخنا فيه من رُوحِنـا﴾ [التحريم:١٢] وقـد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها، وكان النفخ مضافًا إلى الله أمرًا وإذنًا وإلى الرسول مباشرة.

يبقى ههنا أمران: أحدهما أن يقال فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر، فما وجه تسمية المسيح روح الله؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح؟

الثاني أن يقال فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح هو الذي

نفخها فيه بإذن الله كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه كما خلقه بيده؟ قيل: لعَمر الله، إنهما سؤالان مهمان! فأما الأول فالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه، وهو روح خاص من بين سائر الأرواح، وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار؛ فإن الله سبحانه وكل بالرحم ملكًا ينفخ الروح في الجنين، فيكتب رزق المولود، وأجله وعمله، وشقاوته وسعادته. وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه، فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع؛ فإن نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء. وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم، ولا كخلقه سائر النوع من أب وأم، ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص، وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء: خلق الله له بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له، وتعليمه أسماء كل شيء. فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخًا ونفخًا ومنفوخًا منه، فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله، فمنها سرت النفخة في طينة آدم، والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح. هذا هو الذي دل عليه النص، وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده، أو أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم عليها السلام فهذا يحتاج إلى دليل. والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه أن اليد غير مخلوقة، والروح مخلوقة، والخلق فعل من أفعال الرب، وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه؟ وهذا مما لا يحتاج إلى دليل، وهذا بخلاف النفخ في فرج مريم فإنه مفعول من مفعولاته وإضافة إليه لأنه بإذنه وأمره، فنفخه في آدم هل هو فعل له أو مفعول؟ وعلى كل تقدير فالروح التي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة، وهي مادة روح آدم، فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد.

(1)**وقد** قيل: إن طرد إبليس ولعنه إنما كان بسبب التأويل، فإنه عارض النص

(1) ٦٣ مختصر الصواعق جـ١.

بالقياس وقدمه عليه، وتأول لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود، فإنه قال: ﴿أنا خيرٌ مِنه﴾ وهذا دليل قد حذفت إحدى مقدمتيه، وهي: إن الفاضل لا يخضع للمفضول، وطوى ذكر هذه المقدمة كأنها صورة معلومة، وقرر المقدمة الأولى بقوله: ﴿خلقْتني من نارٍ وخلقته من طين﴾ فكانت نتيجة المقدمتين امتناعه من السجود. وظن أن هذه الشبهة العقلية تنفعه بتأويله، فجرى عليه ما جرى، وصار إمامًا لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله إلى يوم القيامة. فلا إله إلا الله والله أكبر. كم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين؟ وأنت إذا تأملت عامة شبه المتأولين رأيتها من جنس شبهته.

والقائل: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل من هنا اشتق هذه القاعدة، وجعلها أصلًا لرد نصوص الوحي التي يزعم أن العقل يخالفها. وعرضت هذه الشبهة لعدو الله من جهة كبره الذي منعه من الانقياد المحض لنصوص الوحي. وهكذا إلحاد كل مجادل في نصوص الوحي إنما يحمله على ذلك كبر في صدره ما هو ببالغه. قال الله تعالى: ﴿إنَّ الذين يُجادِلون في آياتِ الله بغير سلطانٍ أتاهم إن في صُدُورِهم إلا كِبرٌ ما هم ببالِغيه فاستَعِذ باللهِ إنه هو السميعُ البصير﴾ [غافر:٥٦] وكذلك خروج آدم من الجنة إنما كان بالتأويل، وإلا فهو ﷺ لم يقصد بالأكل معصية الرب. ثم اختلف الناس في وجه تأويله. فقالت طائفة: تأول بحمله النهي المطلق على الشجرة المعينة. وغره عدو الله بأن جنس تلك الشجرة هي شجرة الخلد، وأطمعه في أنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة. وفي هذا نظر ظاهر. فإن الله تعالى أخبر أن إبليس قال له: ﴿ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ [غافر: ٢٠] فذكر لهما عدو الله الشجرة التي نهيا عنها، إما بعينها أو بجنسها، وصرح لهما بأنها هي المنهي عنها. ولو كان عند آدم أن المنهي عنه تلك الشجرة المعينة دون سائر النوع لم يكن عاصيًا بأكله من غيرها، ولا أخرجه الله من الجنة ونزع عنه لباسه.

وقالت فرقة أخرى: تأول آدم أن النهي نهي تنزيه لا نهي تحريم فأقدم، وأيضًا فحيث نهى الله تعالى عن فعل الشيء بقربانه لم يكن أصلًا للتحريم كقوله: ﴿ولا تقربوهُن حتَّى يطهرن﴾ [البقرة:٢٢٢]، ﴿ولا تقربوا الزِّنى﴾ [الإسراء:٣٢]، ﴿ولا

تقربوا مال اليتيم﴾ [الإسراء: ٣٤] وأيضًا لو كان للتنزيه لما أخرجه الله من الجنة، وأخبر أنه عصى ربه.

وقالت طائفة: بل كان تأويله أن النهي إنما كان عن قربانهما وأكلهما معًا، لا عن أكل كل منهما على انفراده، لأن قوله: **﴿ولَا تقربَا﴾** نهي لهما عن الجمع، ولايلزم من حصول النهي حال الاجتماع حصوله حال الانفراد. وهذا التأويل ذكره ابن الخطيب[1] في تفسيره، وهو كما ترى في البطلان والفساد. ونحن نقطع أن هذا التأويل لم يخطر بقلب آدم وحواء البتة، وهما كانا أعلم بالله من ذلك وأصح أفهامًا، أفترى فهم أحد من قول الله تعالى: **﴿ولَا تقربوا مال اليَتيم﴾**، **﴿ولا تقربوا الزّنى﴾** ونظائره، أي إنما نهيتكم عن اجتماعكم على ذلك دون انفراد كل واحد منكم به، فيا للعجب من أوراق وقلوب تسود على هذه الهذيانات.

[2]**إن** معارضة الوحي بالعقل ميراث عن الشيخ أبي مرة، فهو أول من عارض السمع بالعقل وقدمه عليه؛ فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عارض أمره بقياس عقلي مركب من مقدمتين حمليتين، إحداهما قوله: **﴿أنا خيرٌ مِنه﴾** فهذه هي الصغرى، والكبرى محذوفة تقديرها: والفاضل لا يسجد للمفضول. وذكر سند المقدمة الأولى، وهو أيضًا قياس حملي حذف إحدى مقدمتيه فقال: **﴿خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾** [ص: ٧٦] المقدمة الثانية كلها معلومة، أي ومن خلق من نار خير ممن خلق من طين. فهما قياسان متداخلان، وهذه يسميها المنطقيون الأقيسة المتداخلة. فالقياس الأول هكذا: أنا خير منه، وخير المخلوقَين لا يسجد لمن هو دونه. وهذا من الشكل الأول. والقياس الثاني هكذا: خلقتني من نار وخلقته من طين. والمخلوق من النار خير من المخلوق من الطين. فنتيجة هذا القياس العقلي: أنا خير منه، ونتيجة الأول: فلا ينبغي أن أسجد له. وأنت إذا تأملت مادة هذا القياس وصورته رأيته أقوى من كثير من قياساتهم التي عارضوا بها الوحي، والكل باطل.

وقد اعتذر أتباع الشيخ أبي مرة عذار (منها) أنه لما تعارض عنده العقل والنقل قدم العقل (ومنها) أن الخطاب بصيغة الضمير في قوله «اسجدوا» ولا عموم له؛

---

(١) هو الفخر الرازي

(٢) ٢٠١ مختصر الصواعق جـ١.

فإن الضمائر ليست من صيغ العموم (ومنها) أنه وإن كان اللفظ عامًّا فإنه خصه بالقياس المذكور (ومنها) أنه لم يعتقد أن الأمر للوجوب، بل حمله على الاستحباب لأنه المتيقن، أو على الرجحان دفعًا للاشتراك والمجاز. (ومنها) أنه حمله على التراخي ولم يحمله على الفور. (ومنها) أنه صان جناب الرب أن يسجد لغيره ورأى أنه لا يليق به السجود لسواه. وبالله تأمل هذه التأويلات، وقابل بينها وبين كثير من التأويلات التي يذكرها كثير من الناس. وفي بني آدم من يصوب رأي إبليس وقياسه، ولهم في ذلك تصانيف، وكان بشار بن برد الشاعر الأعمى على هذا المذهب، ولهذا يقول في قصيدته:

الأرض مظلمة سوداء معتمة		والنار معبودة مذ كانت النار

ولما علم الشيخ أنه قد أصيب من معارضة الوحي بالعقل، وعلم أنه لا شيء أبلغ في مناقضة الوحي والشرع وإبطاله من معارضته بالمعقول أوحى إلى تلامذته وإخوانه من الشبهات الخيالية ما يعارضون بها الوحي، وأوهم أصحابه أنها قواطع عقلية، وقال: إن قدمتم النقل عليها فسدت عقولكم: ﴿وإنَّ الشياطين لَيوُحُون إلى أوليائهم لِيُجادِلُوكم وإن أطعْتُمُوهم إنَّكم لمشْرِكون﴾ [الأنعام: ١٢١]. وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكُلِّ نبيٍّ عدوًّا شياطينَ الإنسِ والجن يوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زُخرُفَ القولِ غرورًا ولو شاء ربُّك ما فعلوه فَذَرْهُم وما يفترون * ولِتَصْغَى إليه أفئِدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة ولِيَرْضَوْه ولِيَقْتَرِفُوا ماهم مُقتَرِفُون * أفغيرَ اللهِ ابتَغِي حكمًا وهو الذي أنزل إليكمُ الكتاب مفصَّلا والذين آتيناهمُ الكتابَ يعلمون أنه منزَّلٌ من ربِّك بالحقِّ فلا تكونَنَّ من الممتَرين * وتمت كلمَةُ ربِّك صدقًا وعدلاً لا مُبدِّل لكلماته وهو السميعُ العليم * وإن تُطع أكثرَ من في الأرض يُضلُّوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظنَّ وإن هم إلا يخرصون * إن ربَّك هو أعلم مَن يَضل عن سبيله وهو أعلم بالمُهتدين﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٧]. الوجه الثاني والثلاثون: في بيان فساد معقول الشيخ الذي عارض به الوحي. وذلك من وجوه (أحدها) أنه قياس في مقابلة النص، والقياس إذا صادم النص وقابله كان قياسًا باطلاً، ويسمى قياسًا إبليسيًّا، فإنه يتضمن معارضة الحق بالباطل. ولهذا كانت عقوبته أن أفسد عليه عقله ودنياه وآخرته. وقد بينا فيما تقدم أنه ما عارض

أحد الوحي بعقله إلا أفسد الله عليه عقله حتى يقول ما يضحك العقلاء.

الثاني: أن قوله: ﴿أنا خيرٌ منه﴾ كذب، ومستنده في ذلك باطل؛ فإنه لا يلزم من تفضيل مادة على مادة تفضيل المخلوق منها على المخلوق من الأخرى؛ فإن الله سبحانه يخلق من المادة المفضولة ما هو أفضل من المخلوق من غيرها، وهذا من كمال قدرته؛ فإن محمدًا ﷺ وإبراهيم وموسى وعيسى ونوحًا والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أفضل من الملائكة.

ومذهب أهل السنة أن صالحي البشر أفضل من الملائكة، وإن كانت مادتهم نورًا ومادة البشر ترابًا؛ فالتفضيل ليس بالمواد والأصول. ولهذا كان العبيد والموالي الذين آمنوا بالله ورسوله خيرًا وأفضل عند الله ممن ليس مثلهم من قريش وبني هاشم. وهذه المعارضة الإبليسية صارت ميراثًا في أتباعه في التقديم بالأصول والأنساب على الإيمان والتقوى، وهي التي أبطلها الله تعالى بقوله: ﴿**يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقناكُم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لِتعارفوا إن أكرمكم عند اللهِ أتقاكم إن الله عليمٌ خبيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال النبي ﷺ: «**إن الله وضع عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء الناس مؤمن تقي وفاجر شقي**». وقال ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى. الناس من آدم وآدم من تراب**». فانظر إلى سريان هذه النكتة الإبليسية في نفوس أكثر الناس، من تفضيلهم بمجرد الأنساب والأصول.

الثالث: أن ظنه أن النار خير من التراب باطل، مستنده ما فيها من الإضاءة والخفة وما في التراب من الثقل والظلمة، ونسي الشيخ مافي النار من الطيش والخفة، وطلب العلو والإفساد بالطبع، حتى لو وقع منها شواظ بقدر الحبة في مدينة عظيمة لأفسدها كلها ومن فيها، بل التراب خير من النار وأفضل من وجوه متعددة.

منها: أن طبعه السكون والرزانة، والنار بخلافه. ومنها أنه مادة الحيوان والنبات والأقوات، والنار بخلافه. ومنها: أنه لا يمكن لأحد أن يعيش بدونه ودون ما خلق منه البتة، ويمكنه أن يعيش برهة بلا نار. قالت عائشة: «**كان يمر بنا الشهر والشهران ما يوقد في بيوتنا نار ولا نرى نارًا**».

قال لها عروة: فما عيشكم؟ قالت: «**الأسودان التمر والماء**». ومنها: أن

الأرض تؤدي إليك بما فيها من البركة أضعاف أضعاف ما تودعه من الحب والنوى، وتربيه لك وتغذيه وتنميه، والنار تفسده عليك وتمحق بركته. ومنها: أن الأرض مهبط وحي الله، ومسكن رسله وأنبيائه وأوليائه، وكفاتهم أحياء وأمواتًا. والنار مسكن أعدائه ومأواهم.

ومنها: أن في الأرض بيته الذي جعله إمامًا للناس وقيامًا لهم، وجعل حجه محطًا لأوزارهم ومكفرًا لسيئاتهم، وجالبًا لهم مصالح معاشهم ومعادهم. ومنها: أن النار طبعها العلو والفساد، والله لا يحب المستكبرين ولا يحب المفسدين. والأرض طبعها الخشوع والإخبات، والله يحب المخبتين الخاشعين.

وقد ظهر بخلق إبراهيم ومحمد وموسى وعيسى والرسل من المادة الأرضية، وخلق إبليس وجنوده من المادة النارية، نعم وخلق من المادة الأرضية الكفار والمشركين، ومن المادة النارية صالحوا الجن، ولكن ليس في هؤلاء مثل إبليس، وليس في أولئك مثل الرسل. فمعلم الخير من المادة الأرضية، ومعلم الشر من المادة النارية.

ومنها: أن النار لا تقوم بنفسها بل لابد لها من محل تقوم به لا تستغني عنه، وهي محتاجة إلى المادة الترابية في قوامها وتأثيرها، والأرض قائمة بنفسها لا تحتاج إلى محل تقوم به، ولا تفتقر في قوامها ونفعها إلى النار. ومنها: أن التراب يفسد صورة النار ويبطلها ويقهرها وإن علت عليه.

ومنها: أن الرحمة تنزل على الأرض فتقبلها وتحيا بها، وتخرج زينتها وأقواتها وتشكر ربها، وتنزل على النار فتأباها وتطفؤها وتمحوها وتذهب بها، فبينها وبين الرحمة معاداة، وبين الأرض وبين الرحمة موالاة. ومنها: أن النار تطفأ عند التكبير، وتضمحل عند ذكر كبرياء الرب، ولهذا يهرب المخلوق منها عند الأذان حتى لا يسمعه، والأرض تبتهج بذلك وتفرح به، وتشهد به لصاحبه يوم القيامة. ويكفي في فضل المخلوق من الأرض أن الله تعالى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء. فهل حصل للمخلوق من النار واحدة من هذه؟

فقد تبين لك حال هذه المعارضة العقلية للسمع وفسادها من هذه الوجوه وأكثر منها، وهي من شيخ القوم ورئيسهم ومعلمهم الأول، فما الظن بمعارضة التلامذة؟

ونحن نقول قولا نقدم بين يديه مشيئة الله وحوله والاعتراف بمنته علينا وفضله

لدينـا، وأنـه محض منتـه وجوده وفضله، فهو المحمود أولاً وآخرًا على توفيقنا له وتعليمنا إياه. إن كل شبهة من شبه أرباب المعقولات عارضوا بها الوحي فعندنا ما يبـطلها بأكثر من الوجوه التي أبطلنا بها معارضة شيخ القوم، وإن مد الله في الأجل أفردنا في ذلك كتابًا كبيرًا.

ولو نعلم أن في الأرض من يقول ذلك ويقوم به تبلغ إليه أكباد الإبل اقتدينا في السير إليه بموسى عليه السلام في سفره إلى الخضر، وبجابر بن عبدالله في سفره إلى عبدالله بن أنيس لسماع حديث واحد، ولكن زهد الناس في عالم قومه. وقد قام قبلنا بهذا الأمر من برز على أهل الأرض في عصره وفي أعصار قبله، فأدرك من قبله وحيدًا وسبق من بعده سبقًا بعيدًا[1].

الوجه الثالث والثلاثون: أنه سبحانه وصف نفسه بأنه ليس كمثله شيء وأنه لا سمي له ولا كفؤ له. وهذا يستلزم وصفه بصفات الكمال التي فات بها شبه المخلوقين واستحق بقيامها أن يكون ﴿**لَيس كمثله شيء**﴾ وهكذا كونه ليس له سمي، أي مثيل يساميه في صفاته وأفعاله، ولا من يكافيه فيها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة صٓ
والحمد لله رب العالمين

---

(١) هو شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ رحمه الله ورضي عنه ـ وله في هذا كتاب العقل والنقل طبع في مصر بهامش كتاب منهاج السنة وهو نفيس جدًا.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **قال** الله تعالى، حاكيًا عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون**﴾ [الزمر: ٣]. ثم شهد عليهم بالكفر والكذب. وأخبر أنه لا يهديهم فقال: ﴿**إن الله لا يهدي من هو كاذِب كفَّار**﴾ [الزمر: ٣].

فهذه حال من اتخذ من دون الله وليًّا، يزعم أنه يقربه إلى الله. وما أعز من يخلص من هذا؟ بل ما أعز من لا يعادي من أنكره.

والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم: أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك. وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه ورضى قوله وعمله، وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء. فإنه سبحانه يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه. فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له: صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعًا من دون الله ربه ومولاه.

و«**الشفاعة**» التي أثبتها الله ورسوله: هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحَّده. والتي نفاها الله: هي الشفاعة الشركية، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء، فيعامَلون بنقيض قصدهم من شفعائهم، ويفوز بها الموحدون.

... (٢) **يقول** تعالى: ﴿**يخلقكم في بطون أمَّهاتكم خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث**﴾ [الزمر: ٦] فإن كل حجاب من هذه الحجب له ظلمة تخصه، فذكر سبحانه أطوار خلقه ونقله فيها من حال إلى حال، وذكر ظلمات الحجب التي على الجنين فقال أكثر المفسرين: هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. فإن كل واحد منها حجاب على الجنين، وقال آخرون: هي ظلمة أصلاب الآباء، وظلمة بطون الأمهات، وظلمة المشيمة، وأضعف من هذا القول قول من قال: ظلمة الليل، وظلمة البطن، وظلمة الرحم؛ فإن الليل والنهار بالنسبة إلى الجنين سواء.

---

(١) ٣٤ مدارج جـ١.

(٢) ١٤٨ تحفة المودود.

وقال بقراط: المرأة إذا حبلت لم تألم من اجتماع الدم الذي ينزل ويجتمع حول رحمها، ولا تحس بضعف كما تحس إذا انحدر الطمث، لأنها لا يثور دمها في كل شهر، لكنه ينزل إلى الرحم كل يوم قليلاً قليلاً نزولاً ساكنًا من غير وجع، فإذا أتى إلى الرحم اغتذى منه الجنين ونما، ثم قال: وعلى غير بعيد من ذلك، إذا خلق للجنين لحم وجسد تكون الحجب، وإذا كبر كبرت الحجب أيضًا وصار لها تجويف خارج عن الجنين، فإذا نزل الدم من الأم جذبه الجنين واغتذى به فيزيد في لحمه، والردى من الدم الذي لا يصلح للغذاء ينزل إلى مجاري الحجب، لذلك تسمى الحجب، التي إذا صار لها تجويف تقبل الدم: المشيمة.

وقال إذا تم الجنين وكملت صورته واجتذب الدم لغذائه بالمقدار اتسعت الحجب، وظهرت المشيمة التي تكون من الآلات التي ذكرنا، فإن اتسع داخلها اتسع خارجها لأنه أولى بذلك، لأن له موضعًا يمتد إليه.

قلت: ومن ههنا لم تحض الحامل، بل ما تراه من الدم يكون دم فساد ليس دم الحيض المعتاد. هذه إحدى الروايتين عن عائشة رضي الله عنها، وهو المشهور من مذهب أحمد الذي لايعرف أصحابه سواه، وهو مذهب أبي حنيفة. وذهب الشافعي في رواية عن عائشة، والإمام أحمد في رواية عنه، اختارها شيخنا إلى أن ما تراه من الدم في وقت عادتها يكون حيضًا.

وحجة هذا القول ظاهرة، وهي عموم الأدلة الدالة على ترك المرأة الصوم والصلاة إذا رأت الدم المعتاد في وقت الحيض، ولم يستثن الله ورسوله حالة دون حالة، وأما كون الدم ينصرف إلى غذاء الولد، فمن المعلوم أن ذلك لا يمنع أن يبقى منه بقية تخرج في وقت الحيض تفضل عن غذاء الولد، فلا تنافي بين غذاء الولد وبين حيض الأم.

وأصحاب القول الآخر يحتجون بقوله عليه السلام: «**لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تستبرأ بحيضة**» فجعل الحيضة دليلاً على عدم الحمل، فلو حاضت الحامل لم تكن الحيضة علمًا على براءة حملها. والآخرون يجيبون عن هذا: بأن الحيضة علم ظاهر، فإذا ظهر بها الحمل تبينا أنه لم يكن دليلاً، ولهذا يحكم بانقضاء العدة بالحيض ظاهرًا. . .

(١)**قال** تعالى: ﴿**إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لِعباده الكفر وإن تشكروا يرضَه لكم**﴾ [الزمر: ٧]. وقال: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ [المائدة: ٣]. وقال: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال: ﴿**يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيمًا * يريد الله أن يخفف عنكم وخُلق الإنسان ضعيفًا**﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

ويتنصل سبحانه إلى عباده من مواضع الظنة والتهمة التي نسبها إليه من لم يعرفه حق معرفته ولا قدره حق قدره: من تكليف عباده ما لا يقدرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به، وخلق السموات والأرض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية، وأنه لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم كما قال: ﴿**وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يطعِمون**﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧]. فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جودًا وإحسانًا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الإرباح كقوله: ﴿**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم**﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿**ومَن عمل صالحًا فلأنفسهم يمهدون**﴾ [الروم: ٤٤].

ولما أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذي يحط عنهم أوزارهم، ويدخلون به عليه، ويرفع به درجاتهم قال تعالى: ﴿**ما يريد الله ليجعل عليكم من حرجٍ ولكن يُريد ليُطَهِّركم وليُتم نعمته عليكم لعلكم تشْكرون**﴾ [المائدة: ٦]. وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿**لن ينال الله لُحومها ولا دِماؤها ولكن يناله التقوى مِنكم**﴾

وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿**ولا تيمَّموا الخبيثَ منه تنفقون ولستُم بآخذيه إلا أن تغمِضوا فيه واعلموا أنَّ الله غني حَميد**﴾ [البقرة: ٢٦٧]. يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة، ولا يوجب له حمدا، بل هو الغني بنفسه

---

(١) ١٣٤ طريق الهجرتين.

الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته. وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائد عليكم. . .[(١)]

[(٢)]**قال** الله تعالى: ﴿**لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية**﴾ [الزمر: ٢٠] فأخبر أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة؛ لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل وأنه ليس هناك بناء، بل تتصور النفوس غرفًا مبنية كالعلالي بعضها فوق بعض، حتى كأنها ينظر إليها عيانًا. ومبنية صفة للغرف الأولى والثانية، أي لهم منازل مرتفعة، وفوقها منازل أرفع منها. وقال تعالى: ﴿**أولئك يجزون الغرفة بما صبروا**﴾ [الفرقان: ٧٥]. والغرفة جنس كالجنة. وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم، فبدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم.

وقال تعالى: ﴿**وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكُم عندنا زُلفى إلا مَن آمن وعمِل صالِحًا فأولئك لهم جزاء الضِّعف بما عملوا وهم في الغُرفات آمنون**﴾ [سبأ: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿**يغفِر لكم ذنوبكم ويُدخِلكم جنات تجرِي من تحتها الأنهار ومساكن طيِّبة في جنَّات عدْنٍ**﴾ [الصف: ١٢].

وقال تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿**رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة**﴾ [التحريم: ١١]. وروى الترمذي في جامعه من حديث عبدالرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لغرفًا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها**»، فقام أعرابي فقال: يارسول الله لمن هي؟ قال: «**لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام**». قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن إسحاق.

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا معاوية بن سلام عن زيد بن سلام قال: حدثني أبوسلام حدثني أبو معانق الأشعري حدثني أبومالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة**

---

(١) بقية البحث مفيد جدًا تركناه اختصارًا فاظفر به وفقك الله لرضاه (ج). (٢) ١٠٢ حادي الأرواح.

غرفًا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام». . .

(١)**وقال** تعالى: **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلمًا لرجل هل يستويان مثلاً﴾** [الزمر: ٢٩]. هذا مثل ضربه الله لمن عبده وحده فسلم له، ولمن عبد من دونه آلهة فهم شركاء فيه متشاكسون عسرون، فهل يستوي في العقول هذا وهذا؟ وقد أكثر تعالى من هذه الأمثال ونوَّعها مستدلاً بها على حسن شكره وعبادته، وقبح عبادة غيره، ولم يحتج عليهم بنفس الأمر، بل بما ركبه في عقولهم من الإقرار بذلك. وهذا كثير في القرآن، فمن تتبعه وجده.

(٢)**قوله** تعالى: **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلمًا لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾**. احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئوا المَلكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سَلِم كله له. فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلهه الحق؟ لا يستويان.

(٣)**قوله** تعالى: **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلمًا لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾**. هذا مثل ضربه الله سبحانه للمشرك والموحِّد؛ فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاكسون، والرجل المتشاكس: الضَّيقُ الخلق. فالمشرك، لما كان يعبد آلهة شتَّى شُبه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، والموحد لما كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبدٍ لرجلٍ واحدٍ، قد سَلم له، وعلم مقاصده، وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحُن الخُلطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه، مع رأفة مالكه به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتولِّيه لمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟

وهذا من أبلغ الأمثال؛ فإن الخالص لمالك واحدٍ يستحق من مَعُونته وإحسانه

---

(١) ٩ مفتاح جـ٢.　(٢) ٢٤٠ مدارج جـ١.　(٣) ١٧ أعلام جـ١.

والتفاتـه إليه وقيامـه بمصـالحـه مالا يستحق صاحب الشركـاء المتشـاكسين. الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون.

(١)**أما** السؤال الأول وهو ما حقيقة هذه اللفظة، فحقيقتها البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب. وعلى هذ المعنى تدور تصاريفها، فمن ذلك قولك «سلمك الله، وسلِم فلان من الشر» ومنه دعاء المؤمنين على الصراط «رب سلم، اللهم سلم». ومنـه سلم الشيء لفـلان أي خلص له وحده فخلص من ضرر الشركة فيه. قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلمًا لرجل﴾. أي خالصًا له وحده لا يملكه غيره. ومنه السلم ضد الحرب قال تعـالى: ﴿وإن جنَحُـوا للسلمِ فاجنَح لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١] لأن كلا من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر. ولهذا يبنى منه على المفاعلة فيقال: المسالمة مثل المشاركة.

ومنه القلب السليم وهو النقي من الغل والدغل. وحقيقته الذي قد سلم لله وحـده، فخلص من دغـل الشرك وغله، ودغـل الـذنوب والمخالفات. بل هو المستقيم على صدق حبـه وحسن معاملته. فهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته. ومنه أخذ الإسلام فإنه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركـاء متشـاكسـون. ولهـذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمشرك به.

ومنه السلم للسلف، وحقيقته العوض المسلم فيه؛ لأن من هو في ذمته قد ضمن سلامتـه لربـه، ثم سمى العقد سلمًا وحقيقته ما ذكرناه (فإن قيل) فهذا ينتقض بقولهم للديغ سليمًا (قيل) ليس هذا بنقض له بل طرد لما قلناه؛ فإنهم سموه سليمًا باعتبار ما يهمه ويطلبه ويرجو أن يؤول إليه حاله من السلامة، فليس عنده أهم من السلامة، ولا هو أشد طلبًا منه لغيرها، فسُمي سليمًا لذلك. وهذا من جنس تسميتهم المهلكة مفازة؛ لأنه لا شيء أهم عند سالكها من فوزه منها أي نجاته، فسميت مفازة لأنه يطلب الفوز منها. وهذا أحسن من قولهم إنما سميت

(١) ١٣٣ بدائع جـ٢.

مفازة وسمي اللديغ سليمًا تفاؤلاً، وإن كان التفاؤل جزءَ هذا المعنى الذي ذكرناه وداخلاً فيه فهو أعم وأحسن.

فإن قيل: فكيف يمكنكم رد السلم إلى هذا الأصل، قيل: ذلك ظاهر؛ لأن الصاعد إلى مكان مرتفع لما كان متعرضًا للهوِي والسقوط، طالبًا السلامة راجيًا لها سميت الآلة التي يتوصل بها إلى غرضه سلمًا لتضمنها سلامته، إذ لو صعد بتكلف من غير سلم لكان عطبه متوقعًا. فصح أن السلم من هذا المعنى.

ومنه تسمية الجنة بدار السلام. وفي إضافتها إلى السلام ثلاثة أقوال: أحدها: أنها إضافة إلى مالكها السلام سبحانه. الثاني: أنها إضافة إلى تحية أهلها؛ فإن تحيتهم فيها سلام. الثالث: أنها إضافة إلى معنى السلامة، أي دار السلامة من كل آفة ونقص وشر. والثلاثة متلازمة، وإن كان الثالث أظهرها؛ فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكها لأضيفت إلى اسم من أسمائه غير السلام وكان يقال: دار الرحمن، أو دار الله، أو دار الملك ونحو ذلك. فإذا عهدت إضافتها إليه ثم جاء دار السلام حملت على المعهود.

وأيضا فإن المعهود في القرآن إضافتها إلى صفتها أو إلى أهلها. أما الأول فنحو دار القرار، دار الخلد، جنة المأوى، جنات النعيم، جنات الفردوس. وأما الثاني فنحو دار المتقين، ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله في القرآن، فالأولى حمل الإضافة على المعهود في القرآن. وكذلك إضافتها إلى التحية ضعيف من وجهين

أحدهما: أن التحية بالسلام مشتركة بين دار الدنيا والآخرة، وما يضاف إلى الجنة لا يكون إلا مختصًا بها، كالخلد والقرار والبقاء. الثاني: أن من أوصافها غير التحية ما هو أكمل منها مثل كونها دائمة وباقية، ودار الخلد. والتحية فيها عارضة عند التلاقي والتزاور، بخلاف السلامة من كل عيب ونقص وشر فإنها من أكمل أوصافها المقصودة على الدوام التي لا يتم النعيم فيها إلا به، فإضافتها إليه أولى وهذا ظاهر.

فصل

وإذا عرف هذا فإطلاق السلام على الله تعالى اسمًا من أسمائه هو أولى من هذا كله وأحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص من كل وجه فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة. فهو سبحانه

سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم. وسلام في صفاته من كل عيب ونقص. وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص، وشر وظلم، وفعل واقع على غير وجه الحكمة. بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار. فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه. وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ونزهه به رسوله. فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل، والسلام من الشريك. ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلامًا مما يضاد كمالها. فحياته سلام من الموت ومن السنة والنوم، وكذلك قيوميته، وقدرته سلام من التعب واللغوب. وعلمه سلام من عزوب شيء عنه، أو عروض نسيان، أو حاجة إلى تذكر وتفكر. وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة.

وكلماته سلام من الكذب والظلم، بل تمت كلماته صدقًا وعدلاً، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه وهو غني عن كل ما سواه. وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك، أو معاون مظاهر، أو شافع عنده بدون إذنه. وإلاهيته سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو. وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه. وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلمًا أو تشفيًا أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء، كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمه. بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضًا لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده وحكمته وعزته.

فهو سلام مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته. وقضاؤه وقدره سلام من العبث والجور والظلم، ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة. وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته، بل شرعه كله حكمة ورحمة ومصلحة وعدل.

وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطيَ. ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضة ولا لحاجة، ومنعه

عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز. واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكـون محتاجًا إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه فهو الغني عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه ولا عرش، ولم يكن به حاجة إليه وهو الغني الحميد.

بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما. ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوّه وسلام مما يضاد غناه. وكماله سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه. وسلام من أن يصير تحت شيء أو محصورًا في شيء تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله.

وغناه وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل. وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذل كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر كما قال: ﴿**وقُلِ الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شَريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الـذُّل**﴾ [الإسراء: ١١١]. فلم ينف أن يكون له ولي مطلقًا، بل نفى أن يكون له ولي من الذل. وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبـة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه، وسلام مما يتقوله المعطلون فيها. وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه تبارك وتعالى. وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني والله المستعان المسئول أن يوفق للتعليق على الأسماء الحسنى على هذا النمط إنه قريب مجيب(١).

(٢)**ولما** نزل قوله تعالى: ﴿**إنك ميِّت وإنَّهم ميتُون * ثم إنَّكم يوم القيمة عند ربِّكم تختصمون**﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١] سئل ﷺ: يارسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا

---

(١) بقية الأجوبة نحيلك عليها في الجزء الثاني بدئت بصحيفة برقم ١٣٧ وانتهت بصحيفة رقم ١٩٧ وقد أخذنا منها ما كان مناسبًا لمواضعه من التفسير. وهي صالحة لأن تكون رسالة مستقلة حيث طرق المؤلف فيها بحوثًا نادرة جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء (ج).

(٢) ٢٧٠ أعلام جـ٤.

في الدنيا مع خواص الذنوب؟ فقال: «**نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذي حق حقه**» فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد.

وسئل ﷺ: كيف يحشر الكافر على وجهه؟ فقال: «**أليس الذي أمْشَاه في الدنيا على رجليه قادِر أن يمشيه في الآخرة على وجهه؟**».

وسئل ﷺ: هل تذكرون أهاليكم يوم القيامة؟ فقال: «**أما في ثلاث مواطن فلا يذكر أحد أحدًا: حيث يوضع الميزان حتى يعلم أيثقل ميزانه أم يخف، وحيث تتطاير الكتب حتى يعلم كتابه من يمينه أو من شماله أو من وراء ظهره، وحيث يوضع الصراط على جِسر جهنم، على حافتيه كلاليب وحَسَك، يحبس الله به مَن يشاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا ينجو**».

وسئل ﷺ: يارسول الله الرجل يحب القوم ولما يعمل بأعمالهم، فقال: «**المرء مع من أَحَبَّ**».

(١)**الوجه** الحادي والأربعون بعد المائة أن الله سبحانه أخبر أنه يجزى المحسنين أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون. وأخبر سبحانه أنه يجزي على الإحسان بالعلم، وهذا يدل على أنه من أحسن الجزاء. أما المقام الأول ففي قوله تعالى: ﴿**والذِي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون**﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥]. وهذا يتناول الجزاءين الدنيوي والأخروي. وأما المقام الثاني ففي قوله تعالى: ﴿**ولَمَّا بلغ أشده آتيناه حُكمًا وعِلما وكذلك نجزي المُحسنين**﴾ [يوسف: ٢٢]. قال الحسن: من أحسن عبادة الله في شبيبته لقاه الله الحكمة عند كبر سنه وذلك قوله: ﴿**ولما بلغ أشُده آتيناه حُكمًا وعِلمًا وكذلك نجزي المُحسنين**﴾ ومن هذا قال بعض العلماء: تقول الحكمة من التمسني فلم يجدني فليعمل بأحسن ما يعلم وليترك أقبح ما يعلم، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفني اهـ.

(٢)**وأما** المسألة الثالثة وهي هل تلاقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا؟ فشواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصيها إلا الله تعالى، والحس والواقع من

---

(١) ١٦٧ مفتاح جـ١. (٢) ٢٣ الروح.

أعدل الشهود بها فتلتقي أرواح الأحياء والأموات كما تلتقي أرواح الأحياء، وقد قال تعالى: ﴿الله يتوفَّى الأنفس حين موتِها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسِل الأخرى إلى أجل مسمًّى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكَّرون﴾ [الزمر: ٤٢].

قال أبو عبدالله بن منده ثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم ثنا عبدالله بن حسين الحراني ثنا جدي أحمد بن شعيب ثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال: بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فيتساءلون بينهم، فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره ثنا عبدالله بن سليمان ثنا الحسين ثنا عامر ثنا أسباط عن السدى في قوله تعالى: ﴿والتي لم تمت في منامها﴾. قال: يتوفاها في منامها فيلتقي روح الحي وروح الميت فيتذاكران ويتعارفان. قال: فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها، وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس. وهذا أحد القولين في الآية، وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولاً، والمرسلة من توفيت وفاة النوم. والمعنى على هذا القول أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى.

والقول الثاني في الآية أن الممسكة والمرسلة في الآية كلاهما توفى وفاة النوم، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله. واختار شيخ الإسلام هذا القول وقال: عليه يدل القرآن والسنة. قال: فإنه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة النوم. وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال، بل هي قسم ثالث.

والذي يترجح هو القول الأول، لأنه سبحانه أخبر وفاتين: وفاة كبرى وهي وفاة الموت، ووفاة صغرى وهي وفاة النوم. وقسم الأرواح قسمين: قسمًا قضى عليها بالموت فأمسكها عنده، وهي التي توفاها وفاة الموت. وقسمًا لها بقية أجل فردها إلى

جسدها إلى استكمال أجلها. وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولاً، فهذه ممسكة وهذه مرسلة، وأخبر أن التي لم تمت هي التي **توفاها** في منامها. فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين وفاة موت ووفاة نوم لم يقل: ﴿**والتي لم تمت في منامها**﴾؛ فإنها من حين قبضت ماتت، وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت، فكيف يقول بعد ذلك ﴿**فيمسك التي قضى عليها الموت**﴾.

ولمن نصر هذا القول أن يقول: قوله تعالى: ﴿**فيُمسك التي قضى عليها الموت**﴾ بعد أن توفاها وفاة النوم، فهو سبحانه توفاها أولاً وفاة نوم، ثم قضى عليها الموت بعد ذلك. والتحقيق أن الآية تتناول النوعين؛ فإنه سبحانه ذكر وفاتين: وفاة نوم ووفاة موت، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى. ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات في النوم أو في اليقظة، ويرسل نفس من لم يمت فقوله: ﴿**يتوفَّى الأنفس** حين موتِها﴾ يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام.

وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والأموات أن الحي يرى الميت في منامه فيستخبره ويخبره الميت بما لا يعلم الحي، فيصادف خبره كما أخبر في الماضي والمستقبل، وربما أخبره بمال دفنه الميت في مكان لم يعلم به سواه، وربما أخبره بدين عليه وذكر له شواهده وأدلته.

وأبلغ من هذا أنه يخبر بما عمله من عمل لم يطلع عليه أحدًا من العالمين. وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تأتينا إلى وقت كذا وكذا فيكون كما أخبر، وربما أخبره عن أمور يقطع الحي أنه لم يكن يعرفها غيره، وقد ذكرنا قصة الصعب بن جثامة وقوله لعوف بن مالك ما قال له، وذكرنا قصة ثابت بن قيس بن شماس وإخباره لمن رآه بدرعه وما عليه من الدين.

وقصة صدقة بن سليمان الجعفري وإخبار ابنه له بما عمل من بعده، وقصة شبيب بن شيبة وقول أمه له بعد الموت جزاك الله خيراً حيث لقنها لا إله إلا الله، وقصة الفضل بن الموفق مع ابنه وإخباره إياه بعلمه بزيارته.

وقال سعيد بن المسيب: التقى عبدالله بن سلام مع سلمان الفارسي فقال أحدهما للآخر: إن مت قبلي فالقني فأخبرني ما لقيت من ربك، وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك. فقال الآخر: وهل تلتقي الأموات والأحياء؟ قال: نعم أرواحهم

في الجنة تذهب حيث شاءت. قال: فمات فلان فلقيه في المنام فقال: توكل وأبشر فلم أر مثل التوكل قط. وقال العباس بن عبدالمطلب: كنت أشتهي أن أرى عمر في المنام فما رأيته إلا عند قرب الحول، فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول: هذا أوان فراغي إن كاد عرشي ليهد لولا أن لقيت رؤوفًا رحيمًا. . .

فصل[1]

وأما المسألة الرابعة وهي أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده

فقد اختلف الناس في هذا فقالت طائفة: تموت الروح وتذوق الموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت. قالوا: وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده قال تعالى: ﴿**كُلُّ من عليها فانٍ * ويبقى وجه ربِّك ذو الجَلال والإكرام**﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]. وقال تعالى: ﴿**كُل شيء هالِك إلا وجهه**﴾ [القصص: ٨٨]. قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت. قالوا: وقد قال تعالى عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿**ربَّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين**﴾ [غافر: ١١]. فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبدن، والأخرى للروح.

وقال آخرون: لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان. قالوا: وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، ولو ماتت الأرواح لا نقطع عنها النعيم والعذاب، وقد قال تعالى: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم**﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠] هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضًا فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في

---

(١) ٤٠ الروح.

عذاب كما سيأتي إن شاء الله تعالى بعد هذا، وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله في جسدها، وقد نظم أحمد بن الحسين الكندي هذا الاختلاف في قوله:

تنـازع الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المـرء سالمـة ... وقيل تشرك جسم المرء في العطب[1]

[2] **فإن** قيل: فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح كما هي أو تموت ثم تحيا؟ قيل قد قال تعالى: ﴿**ونُفخ في الصُّور فصعِق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله**﴾ [الزمر: ٦٨]. فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق.

فقيل: هم الشهداء. هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير. وقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وهذا قول مقاتل وغيره. وقيل: هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم، ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها. قال أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا.

وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور. وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة: ﴿**لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى**﴾ [الدخان: ٥٦]. وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان. وأما قول أهل النار: ﴿**ربَّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين**﴾ [غافر: ١١]. فتفسير هذه الآية التي في البقرة وهي قوله تعالى: ﴿**كيف تكفرون بالله وكُنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم**﴾ [البقرة: ٢٨] فكانوا أمواتًا وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم، ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم، ثم يحييهم يوم النشور.

وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة، وإلا كانت ثلاث موتات. وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها، ففي الحديث الصحيح أن الناس يصعقون يوم القيامة «**فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة يوم الطور**».

فهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وأشرقت الأرض

---

(١) يأتي إيراد على ماسبق في آخر السورة عند قوله: ﴿**ونفخ في الصور**﴾ إن شاء الله (ج).

(٢) ٤١ الروح.

بنوره، فحينئذ تصعق الخلائق كلهم قال تعالى: ﴿**فذرهم حتَّى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون**﴾ [الطور: ٤٥]. ولو كان هذا الصعق موتًا لكانت موتة أخرى. وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء فقال أبو عبدالله القرطبي: ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشى تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور.

قال: وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو: ظاهر حديث النبي ﷺ يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق. ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء. وهذا باطل. (وقال) القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السموات والأرض. قال: فتستقل الأحاديث والآثار. ورد عليه أبو العباس القرطبي فقال: يرد هذا قوله في الحديث الصحيح أنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذًا بقائمة العرش قال: وهذا إنما هو عند نفخة الفزع.

قال أبو عبدالله: قال شيخنا أحمد بن عمرو: الذي يزيح هذا الإشكال إن شاء الله تعالى أن الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا. وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبي ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنه ﷺ اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء، وخصوصًا بموسى. وقد أخبر بأنه مامن مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام. إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم. وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله. فأما صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق؛ **ولذلك** قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «**فأكون أول من يفيق**» فنبينا أول من يخرج

من قبره قبل جميع الناس إلا موسى. فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقًا لأنه حوسب بصعقة يوم الطور. وهذه فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقًا؛ لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمرًا كليًّا، انتهى.

قال أبوعبدالله القرطبي: إن حُمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال، وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله، فالمعنى إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور. قلت: وحمل الحديث على هذا لا يصح لأنه ﷺ تردد هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزي بصعقة الطور، فالمعنى لا أدرى أصعق أم لم يصعق. وقد قال في الحديث: «**فأكون أول من يفيق**» وهذا يدل على أنه ﷺ يصعق فيمن يصعق، وأن التردد حصل في موسى هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق. ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لكان ﷺ قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يمت، وهذا باطل لوجوه كثيرة، فعلم أنها صعقة فزع لا صعقة موت. وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ. وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية والله أعلم.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله في الحديث: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش**» قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا.

والحديثان هكذا (أحدهما) أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق (والثاني) هكذا، أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، ففي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر**»، قال الترمذي: هذا

حديث حسن صحيح. فدخل على الراوي هذا الحديث الآخر، وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ[1] يقول ذلك. فإن قيل: فما تصنعون بقوله: «**فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل**» والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقة النفخة لا من صعقة يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ**﴾ [الزمر:٦٨]. ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة. قيل: هذا والله أعلم غير محفوظ، وهو وهم من بعض الرواة، والمحفوظ ماتواطأت الروايات الصحيحة من قوله: «**فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور**» فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هي صعقة النفخة، وأن موسى داخل فيمن استثني منها. وهذا لا يلتئم على مساق الحديث قطعًا، فإن الإفاقة حينئذ هي إفاقة البعث، فكيف يقول: لا أدري أبعث قبلي أم جوزى بصعقة الطور؟ فتأمله.

وهذا بخلاف الصعقة التي يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم فإنهم يصعقون جميعًا، وأما موسى ﷺ فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكًّا فجعلت صعقة هذا التجلي عوضًا من صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة، فتأمل هذا المعنى العظيم، ولو لم يكن في الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه لكان حقيقًا أن يعض عليه بالنواجذ. ولله الحمد والمنة وبه التوفيق.

[2]**وأما** المسألة الخامسة وهي أن الأرواح بعد مفارقة الأبدان إذا تجردت بأي شيء يتميز بعضها من بعض حتى تتعارف وتتلاقى؟ وهل تشكل إذا تجردت بشكل بدنها الذي كانت فيه وتلبس صورته أم كيف يكون حالها؟ فهذه مسألة لا تكاد تجد من تكلم فيها، ولا يظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل، ولا سيما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلائقها، وليست بداخل العالم ولا خارجه، ولا لها شكل وقدر ولا شخص. فهذا السؤال على أصولهم مما لا جواب لهم عنه. وكذلك من يقول: هي عرض من أعراض البدن، فتميزها عن غيرها

(١) هو جمال الدين المزي محدث الشام ـ مات اثنا عشر صفر سنة ٦٤٢هـ.

(٢) ٤٥ الروح.

مشروط باضمحلال البدن كما تبطل سائر صفات الحي. ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة التي تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل، والقول إنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن. وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها في كتابنا الكبير في معرفة الروح والنفس وبينا بطلان ما خالف هذا القول من وجوه كثيرة، وأن من قال غيره لم يعرف نفسه.

وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالدخول والخروج، والقبض، والتوفي، والرجوع، وصعودها إلى السماء، وفتح أبوابها لها وغلقها عنها فقال تعالى: **﴿ولو ترى إذا الظالِمون في غمرات الموت والملائكة باسِطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾** [الأنعام:٩٣]. وقال تعالى: **﴿يا أيتُها النَّفس المطمئنة * ارجِعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جَنَّتي﴾** [الفجر: ٢٧-٣٠]. وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد وقال تعالى: **﴿ونفس وما سوَّاها * فألهمها فُجورها وتقواهَا﴾** [الشمس: ٧-٨]. فأخبر أنه سوى النفس كما أخبر أنه سوى البدن في قوله: **﴿الذي خلقك فسوَّاك فعدلك﴾** [الانفطار:٧]. فهو سبحانه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه، بل سوى بدنه كالقالب لنفسه، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له.

ومن هاهنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها؛ فإنها تتأثر وتنتقل عن البدن كما يتأثر البدن وينتقل عنها، فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبثها، وتكتسب النفس الطيب والخبث من طيب البدن وخبثه، فأشد الأشياء ارتباطًا وتناسبًا وتفاعلاً وتأثرًا من أحدهما بالآخر الروح والبدن. ولهذا يقال لها عند المفارقة: «اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب» «واخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث».

وقال الله تعالى: **﴿الله يتوفَّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجلٍ مسمًّى﴾** [الزمر:٤٢]. **فوصفها بالتوفي والإمساك والإرسال، كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية. وقد أخبر النبي ﷺ أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت، وأخبر أن الملك يقبضها**

فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ـ والأعراض لا ريح لها، ولا تمسك، ولا تؤخذ من يد إلى يد ـ.

وأخبر أنها تصعد إلى السماء ويصلي عليها كل ملك لله بين السماء والأرض، وأنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتوقف بين يديه ويأمر بكتابة اسمه في ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سجين، ثم ترد إلى الأرض، وأن روح الكافر تطرح طرحًا، وأنها تدخل مع البدن في قبره للسؤال.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن نسمة المؤمن ـ وهي روحه ـ طائر يعلق في شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها. وأخبر أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها. وأخبر أن الروح تنعم وتعذب في البرزخ إلى يوم القيامة.

وقد أخبر سبحانه عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدوًا وعشيًا قبل يوم القيامة. وقد أخبر سبحانه عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهذه حياة أرواحهم ورزقها دارٌ، وإلا فالأبدان قد تمزقت. وقد فسر رسول الله ﷺ هذه الحياة بأن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. وصح عنه ﷺ أن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة. وتعلق بضم اللام أي تأكل العلقة.

وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ماصنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب**»، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ:

﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾

[آل عمران: ١٦٩] الآيات. رواه الإمام أحمد. وهذا صريح في أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها. وسيأتي مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله تعالى.

وإذا كان هذا شأن الأرواح فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان، فإن الأبدان تشتبه كثيرًا، وأما الأرواح فقل ما تشتبه.

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة، وهم متميزون في علمنا أظهر تميز، وليس ذلك التميز راجعًا إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم ما يختص به أحدهم من الآخر، بل التميز الذي عندنا بها علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها. وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته، ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيرًا وبين روحيهما أعظم التباين والتميز، وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين في الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين. فإذا تجردت هاتان الروحان كان تميزهما في غاية الظهور.

وأخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عيانًا: قل أن ترى بدنًا قبيحًا وشكلًا شنيعًا إلا وجدته مركبًا على نفس تشاكله وتناسبه، وقل أن ترى آفة في بدن الا وفي روح صاحبه آفة تناسبها، ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فقل أن تخطىء ذلك. ويحكى عن الشافعي رحمه الله في ذلك عجائب.

وقل أن ترى شكلًا حسنًا وصورة جميلة وتركيبًا لطيفًا إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له. هذا مالم يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد. وإذا كانت الأرواح العلوية وهم الملائكة متميزًا بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم، وكذلك الجن، فتميز الأرواح البشرية أولى.

فصل

وأما المسألة السادسة وهي أن الروح هل تعاد إلى الميت في قبره وقت السؤال أم لا؟

فقد كفانا رسول الله ﷺ أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس حيث صرح بإعادة الروح إليه فقال البراء بن عازب: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وهو يلحد له فقال: «**أعوذ بالله من**

عذاب القبر»، ثلاث مرات ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال: فيصعدون بها، فلا يمرون بها يعني على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ماهذا الروح الطيب فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: مادينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك بهذا؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا من الجنة. قال: فيأتيه من ريحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب قال: فتتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت

على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الريح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح، ثم قرأ رسول الله: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ [الأعراف: ٤٠] **فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشرِكْ بالله فكأنَّما خرَّ من السماء فتخطفه الطَّير أو تهوِي به الريح في مكانٍ سحِيقٍ﴾** [الحج: ٣١]. **فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة»**، رواه الإمام أحمد، وأبوداود. وروى النسائي وابن ماجه أوله. ورواه أبوعوانة الإسفرائيني في صحيحه. وذهب إلى القول بموجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث من سائر الطوائف.

وقال أبومحمد بن حزم في كتاب الملل والنحل له وأما من ظن أن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة فخطأ، إن الآيات التي ذكرناها تمنع من ذلك يعني قوله تعالى: **﴿قَالوا ربَّنا أمَتَّنا اثنتين وأحييتَنا اثنتين﴾** [غافر: ١١] وقوله تعالى: **﴿كيفَ تكفُرون بالله وكُنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتُكم ثم يحييكم﴾** [البقرة: ٢٨].

قال ولو كان الميت يحيا في قبره لكان تعالى قد أماتنا ثلاثًا وأحيانا ثلاثًا، وهذا باطل وخلاف القرآن، إلا من أحياه الله تعالى آية لنبي من الأنبياء، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، ومن خصه نص.

وكذلك قوله تعالى: **﴿الله يتوفَّى الأنفس حين موتِها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويُرسل الأخرى إلى أجل مسمًّى﴾** [الزمر: ٤٢].

فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى جسده إلا إلى الأجل المسمى وهو يوم القيامة. وكذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه رأى الأرواح ليلة أسرى به عند سماء الدنيا من عن يمين آدم أرواح أهل السعادة، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة.

وأخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى أنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور، ولم ينكر على الصحابة قولهم قد جيفوا، وأعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك، فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلاشك، وأما الجسد فلاحس له وقد قال تعالى: ﴿**وما أنت بمُسمع من في القبور**﴾ [فاطر:٢٢] فنفى السمع عمن في القبور وهي الأجساد بلاشك. ولا يشك مسلم أن الذي نفى الله عز وجل عنه السمع هو غير الذي أثبت له رسول الله ﷺ السمع.

قال: ولم يأت قط عن رسول الله ﷺ في خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المسألة، ولو صح ذلك عنه لقلنا به. قال: وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح في القبور إلى الأجساد المنهال بن عمرو وحده، وليس بالقوى، تركه شعبة وغيره، وقال فيه المغيرة بن مقسم الضبي وهو أحد الأئمة: ما جازت للمنهال بن عمرو قط شهادة في الإسلام على ما قد نقل وسائر الأخبار الثابتة على خلاف ذلك.

قال: وهذا الذي قلنا هو الذي صح أيضًا عن الصحابة. ثم ذكر من طريق ابن عيينة عن منصور بن صفية عن أمه صفية بنت شيبة قالت: دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحًا قبل أن يقبر فقيل له هذه أسماء بنت أبي بكر الصديق فمال ابن عمر إليها فعزاها وقال: إن هذه الجثث ليست بشيء وإن الأرواح عند الله فقالت أمه: وما يمنعني وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل.

قلت: ما ذكره أبومحمد فيه حق وباطل، أما قوله: من ظن أن الميت يحيا في قبره فخطأ فهذا فيه إجمال، إن أراد به الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه ويحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس فهذا خطأ، كما قال، والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص.

وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة

المألوفة في الدنيا ليسأل ويمتحن في قبره فهذا حق ونفيه خطأ، وقد دل عليه النص الصحيح الصريح وهو قوله ﷺ: فتعاد روحه في جسده، وسنذكر الجواب عن تضعيفه للحديث إن شاء الله تعالى.

وأما استدلاله بقوله تعالى: ﴿**قَالُوا رَبَّنَا امتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين**﴾ [غافر: ١١] فلا ينفي ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح في الجسد، كما أن قتيل بني إسرائيل الذي أحياه الله بعد قتله ثم أماته لم تكن تلك الحياة العارضة له للمسألة معتدًا بها؛ فإنه حيٍ لحظة بحيث قال فلان قتلني ثم خر ميتًا، على أن قوله: ثم تعاد روحه في جسده لا يدل على حياة مستقرة، وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن وتعلق به والروح لم تزل متعلقة ببدنها وإن بلى وتمزق.

وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام (أحدها) تعلقها به في بطن الأم جنينًا. (الثاني) تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض. (الثالث) تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه. (الرابع) تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليًّا بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة.

وقد ذكرنا في أول الجواب من الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة. (الخامس) تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتًا ولا نومًا ولا فسادًا.

وأما قوله تعالى: ﴿**الله يتوفَّى الأنفس حين موتِها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مُسمًّى**﴾ [الزمر: ٤٢] فإمساكه سبحانه التي قضى عليها الموت لا ينافي ردها إلى جسدها الميت في وقت ما ردًّا عارضًا لا يوجب له الحياة المعهودة في الدنيا.

وإذا كان النائم روحه في جسده وهو حي وحياته غير حياة المستيقظ فإن النوم شقيق الموت، فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحي وبين الميت الذي لم ترد روحه إلى بدنه، كحال النائم المتوسطة بين الحي والميت. **فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة.**

وأما إخبـار النبي ﷺ عن رؤية الأنبياء ليلة أسري به فقد زعم بعض أهل الحديث أن الذي رآه أشباحهم وأرواحهم، قال: فإنهم أحياء عند ربهم، وقد رأى إبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، ورأى موسى قائمًا في قبره يصلي، وقد نعت الأنبياء لما رآهم نعت الأشبـاح، فرأى موسى آدمًـا ضربًا طوالاً كأنه من رجال شنوءة، ورأى عيسى يقطر رأسه كأنما أخرج من ديماس، ورأى إبراهيم فشبهه بنفسه.

ونازعهم في ذلك آخرون وقالوا: هذه الرؤية إنما هي لأرواحهم دون أجسادهم والأجساد في الأرض قطعًا إنما تبعث يوم بعث الأجساد ولم تبعث قبل ذلك، إذ لو بعثت قبل ذلك لكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة، وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور، وهذه موتة ثالثة، وهذا باطل قطعًا. ولو كانت قد بعثت الأجساد من القبور لم يعدهم الله إليها بل كانت في الجنة. وقد صح عن النبي ﷺ أن الله حرم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها هو، وهو أول من يستفتح باب الجنة، وهو أول من تنشق عنه الأرض على الإطلاق لم تنشق عن أحد قبله.

ومعلوم بالضرورة أن جسده ﷺ في الأرض طري مطرًا. وقد سأله الصحابة كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ فقال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء. ولو لم يكن جسده في ضريحه لما أجاب بهذا الجواب. وقد صح عنه أن الله وكّل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام. وصح عنه أنه خرج بين أبي بكر وعمر وقال: هكذا نبعث. هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى في أعلى عليين مع أرواح الأنبياء.

وقد صح عنه أنه رأى موسى قائمًا يصلي في قبره ليلة الإسراء، ورآه في السماء السادسة أو السابعة، فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن في القبر، وإشراف عليه، وتعلق به بحيث يصلي في قبره، ويرد سلام من سلم عليه، وهي في الرفيق الأعلى.

ولا تنافي بين الأمرين فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان، وأنت تجد الروحين المتماثلتين المتناسبتين في غاية التجاور والقرب وإن كان بينهما بعد المشرقين، وتجد الروحين المتنافرتين المتباغضتين بينهما غاية البعد وإن كان جسداهما متجاورين متلاصقين.

وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن، فإنها تصعد إلى ما فوق السموات ثم تهبط إلى الأرض ما بين قبضها ووضع الميت في قبره، وهو

زمن يسير لا يصعد البدن وينزل في مثله، وكذلك صعودها وعودها إلى البدن في النوم واليقظة.

وقد مثلها بعضهم بالشمس وشعاعها فإنها في السماء وشعاعها في الأرض. قال شيخنا: وليس هذا مثلاً مطابقًا فإن نفس الشمس لا تنزل من السماء، والشعاع الذي على الأرض ليس هو الشمس ولاصفتها، بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها، والروح نفسها تصعد وتنزل.

وأما قول الصحابة للنبي ﷺ في قتلى بدر: كيف تخاطب أقوامًا قد جيفوا مع إخباره بسماعهم كلامه، فلا ينفي ذلك رد أرواحهم إلى أجسادهم ذلك الوقت ردًا يسمعون به خطابه، والأجساد قد جيفت، فالخطاب للأرواح المتعلقة بتلك الأجساد التي قد فسدت.

وأما قوله تعالى: ﴿**وما أنت بِمسمع من في القُبور**﴾ [فاطر: ٢٢] فسياق الآية يدل على أن المراد منها أن الكافر الميت القلب لا تقدر على إسماعه إسماعًا ينتفع به، كما أن من في القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعًا ينتفعون به، ولم يرد سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئًا البتة، كيف وقد أخبر النبي ﷺ أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين. وأخبر أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه، وشرع السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع، وأخبر أن من سلم على أخيه المؤمن رد عليه السلام.

هذه الآية نظيرقوله: ﴿**إنَّك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصُّم الدُّعاء إذا ولَّوا مدبِرين**﴾ [النمل: ٨٠]. وقد يقال نفي إسماع الصم مع نفي إسماع الموتى يدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للسماع، وأن قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان إسماعها ممتنعًا بمنزلة خطاب الميت والأصم وهذا حق، ولكن لا ينفي إسماع الأرواح بعد الموت إسماع توبيخ وتقريع بواسطة تعلقها بالأبدان في وقت ما، فهذا غير الإسماع المنفي والله أعلم. وحقيقة المعنى أنك لا تستطيع أن تسمع من لم يشأ الله أن يسمعه إن أنت إلا نذير، أي إنما جعل الله لك الاستطاعة على الإنذار الذي كلفك إياه لا على إسماع من لم يشأ الله إسماعه.

وأما قوله: إن الحديث لا يصح لتفرد المنهال بن عمرو وحده به وليس بالقوى

فهذا من مجازفته ـ رحمه الله ـ فالحديث صحيح لاشك فيه، وقد رواه عن البراء بن عازب جماعة غير زاذان، منهم عدي بن ثابت، ومحمد بن عقبة، ومجاهد.

قال الحافظ أبوعبدالله بن منده في (كتاب الروح والنفس) أخبرنا محمد بن يعقوب بن يوسف ثنا محمد بن إسحاق الصفار أنا أبو النضر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلسنا وجلس كأن على أكتافنا فلق الصخر وعلى رءوسنا الطير فأرم قليلاً ـ والارمام السكوت ـ فلما رفع رأسه قال: «**إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة ودبر من الدنيا وحضره ملك الموت نزلت عليه ملائكة معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة، فجلسوا منه مد البصر، وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه ثم قال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه، فتنسل**[1] **نفسه كما تقطر القطرة من السقاء، فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل من بين السماء والأرض إلا الثقلين، ثم يصعد به إلى السماء فتفتح له السماء ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة إلى العرش مقربو كل سماء، فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه في عليين، ويقول الرب عز وجل: ردوا عبدي إلى مضجعه فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فيرد إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما فيجلسانه ثم يقال له: يا هذا من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: صدقت، ثم يقال له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان صدقت، ثم يقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد رسول الله، فيقولان صدقت، ثم يفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول: جزاك الله خيراً، فوالله ما علمت إن كنت لسريعًا في طاعة الله بطيئًا عن معصية الله، فيقول: وأنت فجزاك الله خيراً فمن أنت؟ فقال: أنا عملك الصالح، ثم يفتح له باب إلى الجنة فينظر إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم**

---

(١) الظاهر، فتسيل. ج.

الساعة. وإن الكافر إذا كان في دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه من السماء ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من نار قال: فيجلسون منه مد بصره، وجاء ملك الموت فيجلس عند رأسه ثم قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى غضب الله وسخطه، فتفرق روحه في جسده كراهية أن تخرج لما ترى وتعاين، فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول، فإذا أخرجت نفسه لعنه كل شيء بين السماء والأرض إلا الثقلين، ثم يصعد به إلى السماء فتغلق دونه، فيقول الرب عز وجل: ردوا عبدي إلى مضجعه فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فترد روحه إلى مضجعه، فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيجلسانه ثم يقولان: ياهذا من ربك؟ فيقول: لا أدري، فينادى من جانب القبر لا دريت، فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: جزاك الله شرًّا فوالله ما علمت إن كنت لبطيئًا عن طاعة الله سريعًا في معصية الله فيقول: ومن أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة» رواه الإمام أحمد، ومحمود بن غيلان وغيرهما عن أبي النضر. ففيه أن الأرواح تعاد إلى القبر وأن الملكين يجلسان الميت ويستنطقانه.

ثم ساقه ابن منده من طريق محمد بن سلمة عن خصيف الجزري عن مجاهد عن البراء بن عازب قال: كنا في جنازة رجل من الأنصار ومعنا رسول الله ﷺ فانتهينا إلى القبر ولم يلحد ووضعت الجنازة وجلس رسول الله.. الحديث.

(١)**قال** تعالى: ﴿**أمِ اتَّخَذوا من دون الله شُفعاء قُل أولو كانوا لا يملكون شيئًا ولا يعْقلون * قل لله الشفاعة جميعًا له ملك السموات والأرض**﴾ [الزمر: ٤٣ - ٤٤].

فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض، وهو الله وحده. فهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه، ليرحم عبده. فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه. فصارت

---

(١) ٢٢٠ إغاثة جـ١.

الشفاعة في الحقيقة إنما هي له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره، بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه، وهي إرادته من نفسه أن يَرحم عبده. وهذا ضدُّ الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومَن وافقهم، وهي التي أبطلها الله سبحانه في كتابه، بقوله: ﴿**واتَّقوا يومًا لا تجزي نفس عن نفس شيئًا ولا يقبَل منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعةٌ**﴾ [البقرة: ١٢٣] وقوله: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبلِ أن يأتي يومٌ لا بيع فيه ولا خُلة ولا شفاعة**﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال تعالى: ﴿**وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلَّهم يتَّقون**﴾ [الأنعام: ٥١] وقال: ﴿**الله الذي خلق السَّموات والأرضَ وما بينهما في ستَّة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع**﴾ [السجدة: ٤].

فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيعٌ من دونه، بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذِن هو لمن يشفع فيه. كما قال تعالى: ﴿**مَا مِن شفيع إلا من بعد إذنِه**﴾ [يونس: ٣] وقال: ﴿**مَن ذا الذي يشفع عِنده إلا بإذنه**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه، ولا الشافع شفيع من دونه، بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين، كالفرق بين الشريك والعبد المأمور. فالشفاعة التي أبطلها الله: شفاعة الشريك فإنه لا شريك له، والتي أثبتها: شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له. ويقول: اشفع في فلان. ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهلَ التوحيد، الذين جَرَّدوا التوحيد وخلَّصوه من تعلُّقات الشرك وشوائبه، وهم الذين ارتضى الله سبحانه. قال تعالى: ﴿**ولا يشفعون إلاَّ لِمن ارتضَى**﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال: ﴿**يومَئذ لا تنفع الشَّفاعة إلاَّ مَن أذِن له الرَّحمن ورضي له قولاً**﴾ [طه: ١٠٩].

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له، وإذنه للشافع فيه. فأما المشرك فإنه لا يرتضيه، ولا يرضى قوله. فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فإنه سبحانه علَّقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع. فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة.

وسر ذلك: أن الأمر كله لله وحده، فليس لأحد معه من الأمر شيء، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقربون. وهم عَبيد محضٌ،

لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدَّمون بين يديه، ولا يفعلون شيئًا إلا بعد إذنه لهم، وأمرهم. ولاسيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا. فهم مملوكون مربوبون، أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه. فإذا أشرك بهم المشرك، واتخذهم شفعاء من دونه، ظنًّا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه. فإن هذا محال ممتنع، شبيهُ قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج. وبهذا القياس الفاسد عُبدت الأصنام، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي. والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق. والرب والمربوب، والسيد والعبد. والمالك والمملوك. والغني والفقير. والذي لا حاجة به إلى أحد قط، والمحتاج من كل وجه إلى غيره.

فالشفعاء عند المخلوقين: هم شركاؤهم؛ فإن قيام مصالحهم بهم. وهم أعوانهم وأنصارهم، الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم. ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم، وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع؛ لأنهم يخافون أن يردُّوا شفاعتهم، فتنتقض طاعتهم لهم، ويذهبون إلى غيرهم. فلا يجدون بُدًّا من قبول شفاعتهم على الكُره والرضى.

فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وكل من في السموات والأرض عبيد له، مقهورون بقهره، مصرَّفون بمشيئته، لو أهلكهم جميعًا لم ينقص من عِزه وسلطانه ومُلكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذَرَّةٍ.

قال تعالى: **﴿لَقد كفَر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريَم قُل فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يُهلك المسيح ابن مريَم وأمه ومَن في الأرض جميعًا ولله مُلك السَّموات والأرضِ وما بينهما [يخلق ما يشاء][1] والله على كلِّ شيء قَديرٌ﴾** [المائدة: ١٧]. وقال سبحانه في سيدةِ آي القرآن، آية الكرسي: **﴿له ما في السموات وما في الأرض مَن ذا الذي يشفَع عنده إلا بإذنه﴾** [البقرة: ٢٥٥]. وقال: **﴿قُل لله الشَّفاعة جميعًا له ملك السموات والأرضِ﴾** [الزمر: ٤٤].

(١) ما بين المعكوفتين سقط من المطبوعة وأثبتناه كما في المصحف. المراجع.

فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وأن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه، فإنه ليس بشريك، بل مملوك محض. بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض.

فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس، ويفعلها بعضهم مع بعض. ولهذا يُطلق نفيها تارة، بناءً على أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس، ويُقيدُها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه، فإنه الذي أذن، والذي قبل، والذي رضي عن المشفوع، والذي وَفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقولِه.

فمتخذ الشفيع مشرك، لا تنفعه شفاعته، ولا يشفع فيه، ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده ومحبوبه، ومَرجوه، ومخوفه الذي يتقرب إليه وحده، ويطلب رضاه، ويتباعد من سَخَطه هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه.

قال تعالى: ﴿**أم اتخذوا من دون الله شفعاء قُل أولو كانوا لا يملكون شيئًا ولا يعقلون قُل لله الشَّفَاعة جَميعًا**﴾ [الزمر: ٤٣ - ٤٤]. وقال تعالى: ﴿**ويعبدون مِن دون الله ما لا يضُرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفَعاؤنا عند الله قُل أتنبئون الله بما لا يعلم في السَّموات ولا في الأرض سُبحانه وتعالى عمَّا يُشرِكون**﴾ [يونس: ١٨].

فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم. وإنما تحصل بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وسِر الفرقِ بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق، وسؤاله للمشفوع عنده، لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده، لا خلقًا، ولا أمرًا، ولا إذنًا، بل هو سبب مُحرك له من خارج. كسائر الأسباب التي تُحرك الأسباب. وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما يوافقه، كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه، وقد يكون عنده ما يُخالفه، كمن يشفع إليه في أمرٍ يكرهه، ثم قد يكون سؤاله، وشفاعته أقوى من المعارض، فيقبل شفاعة الشافع. وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع، فيردها ولا يقبلها. وقد يتعارض عنده الأمران، فيبقى مترددًا بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد، وبين الشفاعة التي تقتضي القبول، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح. فشفاعة الإنسان عند

المخلوق مثله: هي سعيٌ في سبب منفصل عن المشفوع إليه يُحركه به، ولو على كُره منه، فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره[١]، أو يُكرهه على الفعل، إما بقوة وسلطان، وإما بما يرغبه. فلابد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع إما رغبة ينتفع بها، وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته. وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه، فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع، ويأذن له فيها، ويحبها منه، ويرضى عن الشافع، لم يمكن أن توجد.

والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه، ولا لرهبته منه، ولا لرغبته فيما لديه، وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له. فهو مأمور بالشفاعة، مطيع بامتثال الأمر. فإن أحدًا من الأنبياء والملائكة، وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعةٍ ولا غيرها إلا بمشيئة الله تعالى، وخَلقه.

فالرب سبحانه وتعالى هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع، والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل. والشافع عند المخلوق مستغنٍ عنه في أكثر أموره. وهو في الحقيقة شريكه. ولو كان مملوكه وعبده. فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر، والمعاونة، وغير ذلك. كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه: من رزق، أو نصر، أو غيره، فكل منهما محتاج إلى الآخر.

ومن وفقه الله تعالى لفهم هذا الموضع ومعرفته، تبين له حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين ما أثبته الله تعالى من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله، ومَن لم يجعَلِ الله لَه نُورًا فما لَه مِن نُورٍ.

. . . [٢]**حُرموا** والله الوصول بعدولهم عن منهج الوحي وتضييعهم الأصول وتمسكوا بأعجازٍ لا صدور لها، فخانتهم أحرص ما كانوا عليها. وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها. حتى إذا بُعثِر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وتميز لكل قوم حاصلهم الذي حصلوه. وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه، وقَدِموا على ما قَدَّموه ﴿**وبَدا لهم من الله ما لم يَكُونوا يَحتسِبون**﴾ [الزمر: ٤٧] وسُقط في أيديهم عند الحَصاد لَمَّا عاينوا غَلَّة ما بذروه.

---

(١) في نسخة «منزلة من يشفع بأمر غيره».

(٢) ٥ مدارج جـ١.

فيا شِدَّة الحسرة عند ما يعاين المبطل سعيه وكدَّه هباءًا منثورًا؛ ويا عُظم المصيبة عند ما يتبين بوارق أمانيه خُلَّبًا وآماله كاذبة غرورًا. فما ظن من انطوت سريرته على البدعة والهوى، والتعصب للآراء، بربه يوم تُبلى السرائر؟ وما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره في يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذر؟

أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأنواع الخيال؟

هيهات والله. لقد ظن أكذبَ الظن، ومَنَّتهُ نفسه أبين المحال. وإنما ضُمنت النجاة لمن حَكَّم هدى الله على غيره، وتزود التقوى وائتم بالدليل. وسلك الصراط المستقيم، واستمسك من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والله سميع عليم.

(١)**قال** تعالى: ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله**﴾ [النحل: ٥٣] فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة. ولهذا ذم الله سبحانه من آتاه شيئًا من نعمه فقال: ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾ [القصص: ٧٨]. وفي الآية الأخرى: ﴿**فإذا مسَّ الإنسان ضرٌّ دعانا ثم إذا خوَّلناه نعمة منَّا قال إنَّما أوتيته على علم**﴾ [الزمر: ٤٩]. وقال البغوي: **على علم** من الله أني له أهل. وقال مقاتل: على خير علمه الله عندي. ومضمون هذا القول أن الله آتانيه على علمه بأني أهله. وقال آخرون: بل العلم له نفسه، ومعناه أوتيته على علم مني بوجوه المكاسب، قاله قتادة وغيره. وقيل: المعنى قد علمت أني لما أوتيت هذا في الدنيا فلي عند الله منزلة وشرف. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف. قال تعالى: ﴿**بل هي فتنة**﴾ أي النعم التي أوتيها فتنة نختبره فيها، ومحنة نمتحنه بها، لا يدل على اصطفائه واجتبائه وأنه محبوب لنا مقرب عندنا. ولهذا قال في قصة قارون: ﴿**أولَم يعلم أنَّ الله قد أهلك من قبلِه من القرون من هو أشدُّ منه قوة وأكثر جمعًا**﴾ [القصص: ٧٨] فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضاء الله سبحانه عمن آتاه ذلك وشرف قدره وعلو منزلته عنده لما أهلك من آتاه من ذلك

---

(١) ٣٧ شفاء.

أكثر مما آتى قارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة لا محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم، ولهذا قال في الآية الأخرى ﴿**بل هي فتنة**﴾ أي النعمة فتنة لا كرامة: ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾.

ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿**قَد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسِبون * فأصابهم سيئات ما كسبوا**﴾ [الزمر: ٥٠ ـ ٥١]. أي قد قال هذه المقالة الذين من قبلهم لما آتيناهم نعمنا. قال ابن عباس: كانوا قد بطروا نعمة الله إذ آتاهم الدنيا وفرحوا بها وطغوا، وقالوا: هذه كرامة من الله لنا. وقوله: ﴿**فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون**﴾ المعنى أنهم ظنوا أن ما آتيناهم لكرامتهم علينا ولم يكن كذلك؛ لأنهم وقعوا في العذاب ولم يغن عنهم ما كسبوا شيئًا، وتبين أن تلك النعم لم تكن لكرامتهم علينا وهوان من منعناه إياها.

وقال أبو إسحاق: معنى الآية أن قولهم إنما آتانا الله ذلك لكرامتنا عليه وإنا أهله أحبط أعمالهم فكنى عن إحباط العمل بقوله: ﴿**فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون**﴾. ثم أبطل سبحانه هذا الظن الكاذب منهم بقوله: ﴿**أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾ [الزمر: ٥٢]. والمقصود أن قوله: ﴿**على علم عندي**﴾ إن أريد به علمه نفسه، كان المعنى أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة والمعرفة التي توصلت بها إلى ذلك وحصلته بها. وإن أريد به علم الله كان المعنى أوتيته على ما علم الله عندي من الخير والاستحقاق وأني أهله وذلك من كرامتي عليه. وقد يترجح هذا القول بقوله: ﴿**أوتيته**﴾ ولم يقل حصلته واكتسبته بعلمي ومعرفتي، فدل على اعترافه بأن غيره آتاه إياه. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**بل هي فتنة**﴾ أي محنة واختبار، والمعنى أنه لم يؤت هذا لكرامته علينا بل أوتيه امتحانًا منا وابتلاءً واختبارًا هل يشكر فيه أم يكفر.

وأيضا فهذا يوافق قوله: ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمنِ * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن**﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] فهو قد اعترف بأن ربه هو الذي آتاه ذلك، ولكن ظن أنه لكرامته عليه. فالآية على التقدير الأول تتضمن ذم من أضاف النعم إلى نفسه وعلمه وقوته، ولم يضفها إلى فضل الله وإحسانه، وذلك محض الكفر بها؛ فإن رأس الشكر الاعتراف

بالنعمة، وأنها من المنعم وحده، فإذا أضيفت إلى غيره كان جحدًا لها، فإذا قال: أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة التي حصلت بها ذلك فقد أضافها إلى نفسه وأعجب بها كما أضافها إلى قدرته الذين قالوا: ﴿من أشد منا قوة﴾ [فصلت: ١٥]. فهؤلاء اغتروا بقوتهم، وهذا اغتر بعلمه، فما أغنى عن هؤلاء قوتهم ولا عن هذا علمه.

وعلى التقدير الثاني يتضمن ذم من اعتقد أن إنعام الله عليه لكونه أهلاً ومستحقًا لها، فقد جعل سبب النعمة ما قام به من الصفات التي يستحق بها على الله أن ينعم عليه، وأن تلك النعمة جزاء له على إحسانه وخيره. فقد جعل سببها ما اتصف به هو لا ما قام بربه من الجود والإحسان والفضل والمنة، ولم يعلم أن ذلك ابتلاء واختبار له أيشكر أم يكفر؟ ليس ذلك جزاء على ما هو منه. ولو كان ذلك جزاء على عمله أو خير قام به فالله سبحانه هو المنعم عليه بذلك السبب، فهو المنعم بالمسبب والجزاء، والكل محض منته وفضله وجوده، وليس للعبد من نفسه مثقال ذرة من الخير.

وعلى التقديرين فهو لم يضف النعمة إلى الرب من كل وجه، وإن أضافها إليه من وجه دون وجه، وهو سبحانه وحده هو المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعم وأسبابها، فأسبابها من نعمه على العبد وإن حصلت بكسبه، فكسبه من نعمه، فكل نعمة فمن الله وحده، حتى الشكر فإنه نعمة، وهي منه سبحانه، فلا يطيق أحد أن يشكره إلا بنعمته، وشكره نعمة منه عليه، كما قال داود: يارب كيف أشكرك وشكري لك نعمة من نعمك عليَّ تستوجب شكرًا آخر فقال: الآن شكرتني ياداود. ذكره الإمام أحمد.

وذكر أيضًا عن الحسن قال: قال داود: إلهي لو أن لكل شعرة من شعري لسانين يذكرانك بالليل والنهار والدهر كله لما أدّوا مالك عليّ من حق نعمة واحدة.

(والمقصود) أن حال الشاكر ضد حال القائل ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾، ونظير ذلك قوله: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤس قنوط * ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي﴾ [فصلت: ٤٩-٥٠]. قال ابن عباس: يريد من عندي. وقال مقاتل: يعني أنا أحق بهذا. وقال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به وقال الزجاج: هذا واجب بعملي استحققته فوصف الإنسان بأقبح صفتين: إن مسه الشر صار إلى حال القانط ووجم وجوم الآيس، فإذا مسه

الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المتفضل بما أعطاه، فبطر وظن أنه هو المستحق لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث فقال: ﴿**وما أظن الساعة قائمة**﴾ [فصلت: ٥٠]. ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن بعث كان له عند الله الحسنى، فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعًا.

(١)**الوجه** الثاني أن الذنوب والمعاصي أمر مشترك بين الأمم لم تزل في العالم من طبقات بني آدم عالمهم وجاهلهم وزاهدهم في الدنيا وراغبهم وأميرهم ومأمورهم، وليس ذلك أمرًا اختصت به هذه الأمة حتى يقدح به فيها وفي نبيها.

الوجه الثالث أن الذنوب والمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل، بل يجتمع في العبد الإسلام والإيمان والذنوب والمعاصي، فيكون فيه هذا وهذا. فالمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل وإن قدحت في كماله وتمامه.

الوجه الرابع أن الذنوب تغفر بالتوبة النصوح، فلو بلغت ذنوب العبد عنان السماء وعدد الرمل والحصا ثم تاب منها تاب الله عليه. قال تعالى: ﴿**قُل يا عِبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم**﴾ [الزمر: ٥٣]. فهذا في حق التائب، فإن التوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوحيد يكفر الذنوب، كما في الحديث الصحيح الإلهي: «**ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لقيتك بقرابها مغفرة**». فالمسلمون ذنوبهم ذنوب موحد إن قوي التوحيد على محو آثارها بالكلية، وإلا فما معهم من التوحيد يخرجهم من النار إذا عذبوا بذنوبهم.

وأما المشركون والكفار فإن شركهم وكفرهم يحبط حسناتهم، فلا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة، ولا يغفر لهم شيء من ذنوبهم. قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء: ١١٦]. وقال تعالى في حق الكفار والمشركين: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا**﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال رسول الله ﷺ: «**أبى الله أن يقبل من مشرك عملاً**».

فالذنوب تزول آثارها بالتوبة النصوح، والتوحيد الخالص، والحسنات

المـاحية، والمصائب المكفرة لها، وشفاعة الشافعين في الموحدين، وآخر ذلك إذا عذب بما يبقى عليه منها أخرجه توحيده من النار. وأما الشرك بالله والكفر بالرسول فإنه يحبط جميع الحسنات بحيث لا تبقى معه حسنة.

(١)**يذكر** عن بعض العباد: أنه كان يسأل ربه في طوافه بالبيت أن يعصمه، ثم غلبته عيناه، فنام. فسمع قائلاً يقول: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألونني العصمة. فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل وأجود بمغفرتي وعفوي؟ وعلى من أتوب؟ وأين كرمي وعفوي ومغفرتي وفضلي؟ ونحو هذا من الكلام.

يا ابن آدم، إذا آمنت بي ولم تشرك بي شيئًا أقمت حملة عرشي ومَن حوله يسبحون بحمدي ويستغفرون لك وأنت على فراشك. وفي الحديث العظيم الإلهي حديث أبي ذر: «**يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فمن علم أني ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي**» ﴿**قُل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم**﴾ [الزمر: ٥٣].

يا عبدي! لا تعجز فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة. ومنك الاستغفار وعليَّ المغفرة. ومنك التوبة وعليَّ تبديل سيئاتك حسنات».

. . . (٢)**الطاعات** تفتح للعبد أبوابًا من المحبة. لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزًا، وتفريطًا وذنبًا وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر. والسالك بهذه الطريق غريب في الناس، وهم في وادٍ وهو في واد. وهي تسمى طريق الطير، يسبق النائم فيها على فراشه السعاة، فيصبح وقد قطع الطريق، وسبق الركب. بينا هو يحدثك، إذا به قد سبق الطرف وفات السعاة. فالله المستعان. وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له، وفرحه بتوبة عبده. فإنه سبحانه يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

---

(١) ٣٠١ مدارج جـ١. (٢) ٤٣١ مدارج جـ١.

فكلما طالع العبد منن ربه سبحانه عليه قَبْلَ الذنب، وفي حال مواقعته وبعده، وبره به وحلمه عنه، وإحسانه إليه: هاجت من قلبه لواعِج محبته والشوق إلى لقائه؛ فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها. وأي إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي، وهو يُمِده بنعمه، ويعامله بألطافه، ويُسبِل عليه ستره، ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنى عثرة ينالون منه بها بغيتهم، ويردهم عنه، ويحول بينهم وبينه؟ وهو في ذلك كله بعينه، يراه ويطلع عليه. فالسماء تستأذن ربها أن تَحصِبه. والأرض تستأذنه أن تخسِف به. والبحر يستأذنه أن يُغرقه. كما في مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ: «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه: أن يغرق ابن آدم. والملائكة تستأذنه: أن تعاجله وتهلكه. والرب تعالى يقول: دعوا عبدي. فأنا أعلم به، إذ أنشأته من الأرض. إن كان عبدكم فشأنكم به، وإن كان عبدي فمنيّ وإليَّ. عبدي. وعزتي وجلالي إن أتاني ليلاً قبلته، وإن أتاني نهارًا قبلته، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعًا، وإن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن مشي إليَّ هرولت إليه، وإن استغفرني غفرت له، وإن استقالني أقلته، وإن تاب إليَّ تبت عليه، مَن أعظم مني جودًا وكرمًا وأنا الجواد الكريم؟ عبيدي يبيتون يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم في مضاجعهم، وأحرسهم على فُرشهم. من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد. ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد. من تصرف بحولي وقوتي ألَنت له الحديد. ومن أراد مرادي أردت ما يريد. أهل ذكري أهل مجالستي. وأهل شكري أهل زيادتي. وأهل طاعتي أهل كرامتي. وأهل معصيتي لا أقنِّطهم من رحمتي. إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب. لأطهِّرهم من المعايب**».

ولنقتصر على هذا القدر من ذكر «التوبة» وأحكامها وثمراتها. فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلى معرفتها، ومعرفة أحكامها، وتفاصيلها ومسائلها. والله الموفق لمراعاة ذلك، والقيام به عملاً وحالاً. كما وفق له علمًا ومعرفة. فما خاب من توكل عليه، ولاذَ به ولجأ إليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فصـل

قد علمت أن من نزل في منزل «التوبة» وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام. فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها. ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل. تبيينًا لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة» وقد أمر الله تعالى بها في كتابه. وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿**وأَنِيبوا إلى ربِّكم**﴾ [الزمر: ٥٤]. وقال: ﴿**إنَّ إبراهيم لحليم أوَّاه مُنيب**﴾ [هود: ٧٥]. وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة. فقال: ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيَّناها** ـ إلى أن قال ـ **تبصِرة وذِكرى لكلِّ عبدٍ مُنيب**﴾ [ق: ٦ـ٨] وقال تعالى: ﴿**هو الذي يُريكم آياته ويُنزل لَكم من السماء رزقًا وما يتذكر إلا مَن يُنيب**﴾ [غافر: ١٣] وقال تعالى: ﴿**مُنيبين إليه واتقوه وأقِيموا الصَّلاة**﴾ [الروم: ٣١].

«**فمنيبين**» منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله «فأقم وجهك»؛ لأن هذا الخطاب له ولأمته. أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه. نظيره قوله: ﴿**يا أيُّها النبي إذا طلقتم النِّساء**﴾ [الطلاق: ١] ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله: ﴿**فطر النَّاس عليها**﴾ [الروم: ٣٠] أي فطرهم منيبين إليه، فلو خُلُّوا وفِطرهم لما عدلت عن الإنابة إليه، ولكنها تحوَّل وتتغير عما فُطِرت عليه. كما قال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة** ـ وفي رواية: على الملة ـ **حتى يعرب عنه لسانه**» وقال عن نبيه داود: ﴿**فاستغفر ربَّه وخَرَّ راكِعًا وأنَابَ**﴾ [ص: ٢٤] وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة. فقال: ﴿**وأُزلفت الجنة للمُتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لِكُل أوّابٍ حفيظ * مَن خَشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب مُنيب * ادخلوها بسلام**﴾ [ق: ٣١ـ٣٤] وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة. فقال: ﴿**والذِين اجتنَبوا الطَّاغوت أن يعبدوها وأنابُوا إلى الله لَهم البُشرى**﴾ [الزمر: ١٧].

«**والإنـابـة**» إنابتان: إنابة لربوبيته. وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر. قال الله تعالى: ﴿**وإذَا مَسَّ النَّاس ضُرٌّ دعوا رَبَّهم مُنِيبين إليهِ**﴾ [الروم: ٣٣] فهذا عامّ في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع. وهذه «الإنـابة» لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر. كما قال تعالى في حق

هؤلاء: ﴿ثُمَّ إذا أذاقَهم منه رحمةً إذا فريق منهم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم﴾ [الروم: ٣٣ - ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

و«**الإنابة**» الثانية إنابة أوليائه. وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة. وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع. وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم. و«المنيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه. قال صاحب المنازل: «الإنابة في اللغة: الرجوع. وهي ههنا الرجوع إلى الحق. وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق إصلاحًا، كما رجع إليه اعتذارًا. والرجوع إليه وفاء، كما رجع إليه عهدًا. والرجوع إليه حالاً، كما رجعت إليه إجابة».

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح في طاعته. كما قال: ﴿إلَّا مَن تاب وآمن وعمِل عملاً صالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] وقال: ﴿إلا الذين تَابُوا وأصْلَحُوا﴾ [البقرة: ١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة. فلابد من توبة وعمل صالح: تركٍ لما يكره، وفعل لما يحب، تَخَلٍّ عن معصيته، وتَحَلٍّ بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك. فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً. فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانيًا. والدين كله: عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته. فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلَّم موسى. وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل. وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء. فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم، وعلى هؤلاء بالتعلم. ومدح الموفين بعهده، وأخبر بما لهم عنده من الأجر، فقال: ﴿ومَن أوفَى بما عَاهد عَليه الله فسيؤتيه أجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]. وقال: ﴿وأوفُوا بالعهد إنَّ العهد كان مسئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]. وقال: ﴿وأوفُوا بعهد الله إذا عاهدتُم﴾ [النحل: ٩١]. وقال: ﴿والموفون بعهدِهم إذا عاهَدوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة، وعهودهم مع الخلق. وأخبر النبي ﷺ: أن من علامات النفاق «الغدر بعد العهد». فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به، كما أنه لم يُنِب إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به. وقوله: «والرجوع إليه حالاً. كما رجعت إليه إجابة». أي هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولا، فلابد من الإجابة حالا تصدق به المقال. فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله، فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال فارجع إليه إجابة بالحال.

(1)**قاعدة:** كثيراً ما يتكرر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها كقوله تعالى: ﴿**وأَنِيبوا إلى ربِّكم وأَسْلِموا له**﴾ [الزمر: ٥٤]. وقوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿**وما توفِيقي إلاّ بالله عليهِ توكَّلت وإليهِ أُنيب**﴾ [هود: ٨٨]. وقوله: ﴿**تَبْصِرة وذِكرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب**﴾ [ق: ٨] وقوله: ﴿**إن الله يُضِل مَن يَشاء ويَهدي إليه مَن أَنَاب**﴾ [الرعد: ٢٧]. وقوله عن نبيه داود: ﴿**وخَرَّ رَاكِعًا وأناب**﴾ [ص: ٢٤]. والإنابة الرجوع إلى الله وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه. وهي تتضمن المحبة والخشية؛ فإن المنيب محب لمن أناب إليه خاضع له خاشع ذليل.

والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة، فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي. وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد، والحامل عليها العلم والخشية والحذر. ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده، وقد حبب إليه فعل الطاعات وأنواع القربات. وهذه الإنابة مصدرها الرجاء، ومطالعة الوعد والثواب، ومحبة الكرامة من الله.

وهؤلاء أبسط نفوسًا من أهل القسم الأول وأشرح صدورًا، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعًا، ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم فأنابوا بالعبادات، ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء، والافتقار إليه، والرغبة، وسؤال

---

(١) ١٧٣ طريق الهجرتين.

الحاجات كلها منه. ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة، والغنى والكرم، والقدرة فأنزلوا به حوائجهم، وعلقوا به آمالهم، فإنابتهم إليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكن إنابتهم الخاصة إنما هي من هذه الجهة، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة، ومنهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار، كحال الذين قال الله في حقهم: ﴿**وإذا مسكم الضرُّ في البحر ضل من تدعون إلا إياه**﴾ [الإسراء: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿**فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين**﴾ [العنكبوت: ٦٥].

(١)**وسئل** ﷺ عن قوله تعالى: ﴿**والأرضُ جميعًا قبْضَته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه**﴾ [الزمر: ٦٧] أين الناس يومئذ؟ قال: «**على جسر جهنم**».

(٢)**قال** تعالى: ﴿**ومَا قَدروا الله حقَّ قدره والأرضُ جَميعًا قبضَتُه يوم القيامة والسَّماوات مَطويات بيمينه سبحانه وتَعالى عمَّا يُشْرِكون**﴾ [الزمر: ٦٧]. فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه. فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل، وكذلك ما قدره حق قدره من قال إنه لم يرسل إلى خلقه رسولاً ولا أنزل كتابًا. بل نسبه إلى مالا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدي وخلقهم باطلاً عبثًا. وكذا ما قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلي، فنفى سمعه وبصره، وإرادته واختياره، وعلوه فوق خلقه، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد، ونفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم **فأخرجها** عن قدرته ومشيئته، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب، فيكون في ملكه ما لا يشاء ويشاء ما لا يكون. فتعالى الله عن قول أشباه المجوس علوًّا كبيرًا.

وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه يعاقب عبده على ما لا يفعله ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البتة، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله، فيعاقب عبده على فعله، فهو سبحانه الذي جبر العبد عليه، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق. وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده

١) ٢٧٦ أعلام جـ٤.　　(٢)　١٨٧ الجواب الكافي.

على فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحًا فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته ولا فعله البتة ثم يعاقبه عليه؟ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وقول هؤلاء شر قول، وهم أشباه المجوس، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره. وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا حش(١) ولا مكان يرغب عن ذكره، بل جعله في كل مكان، وصانه عن عرشه أن يكون مستويًا عليه: ﴿**إِلَيْهِ يَصعَدُ الكَلم الطَّيب والعمل الصَّالح يرفَعه**﴾ [فاطر: ١٠] وتعرج الملائكة والروح إليه وتنزل من عنده، ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه. فصانه عن استوائه على سرير الملك ثم جعله في كل مكان يأنف الإنسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه.

وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته، ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله، ولا من نفى حقيقة فعله ولم يجعل له فعلاً اختياريًّا يقوم به، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه، واستوائه على عرشه، وتكليمه موسى من جانب الطور، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره.

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدًا، وجعله سبحانه يحل في جميع مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود. وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع أعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم، وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعز، ووضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته، وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أينما ثقفوا. وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب، تعالى عن قول الرافضة علوًّا كبيرًا.

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين: إنه أرسل ملكًا ظالمًا فادعى النبوة لنفسه، وكذب على الله، وأخذ زمانًا طويلاً يكذب على الله كل وقت ويقول: قال الله كذا، وأمر بكذا، ونهى عن كذا، وينسخ شرائع أنبيائه ورسله، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم ويقول: الله أباح لي ذلك، والرب تعالى يظهره ويؤيده، ويعليه ويقويه، ويجيب دعواته، ويمكنه ممن يخالفه،

(١) الحش: بيت الخلاء الذي تقضى فيه الحاجة.

ويقيم الأدلة على صدقه، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره، وتحدث أدلة تصديقه شيئًا بعد شيء إلى يوم القيامة. ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته، تعالى الله عن قول الجاحدين علوًّا كبيرًا. فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر:

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما باسحم داج عوض لا نتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الشقاء، وأن يثيب أعداءه ومن لم يطعه طرفة عين ويدخلهم دار النعيم، وإن كلا الأمرين بالنسبة إليه جائز، وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك، فمعناه للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله. وقد أنكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الإنكار، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام. وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور، ولا يجمع الخلق ليوم يجازي المحسن فيه بإحسانه والمسيء بإساءته، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه، ويكرم المتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته، ويبين لخلقه الذي يختلفون فيه، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذكره فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله. فلله الفضلة من قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله، وسواه المقدم في ذلك لأنه المهم عنده. يستخف بنظر الله إليه، وإطلاعه عليه، وهو في قبضته وناصيته بيده. ويعظم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه.

ويستخفى من الناس ولا يستخفى من الله. ويخشى الناس ولا يخشى الله. ويعامل الخلق بأفضل ماعنده وما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه، وقدمه على كثير من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه - إن ساعد القدر - قام قيامًا لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يستحيي أن يواجه به مخلوقًا مثله، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه؟ وهل

قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال والتعظيم، والطاعة والذل، والخضوع والخوف والرجاء؟ فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكًا في ذلك لكان ذلك جراءة وتوثبًا على محض حقه، واستهانة به وتشريكًا بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلح إلا له سبحانه، فكيف وإنما أشرك معه أبغض الخلق إليه، وأهونهم عليه، وأمقتهم عنده، وهو عدوه على الحقيقة؟ فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان كما قال تعالى: ﴿**ألم أعهَد إليكُم يا بَني آدم أن لا تعبدوا الشَّيطان إنَّه لكم عدُوٌّ مبين * وأن اعبدوني هذا صِراط مُستقيم**﴾ [يس: ٦٠ - ٦١].

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة كما قال تعالى: ﴿**ويومَ يَحشرهم جميعًا ثم يقول للملائِكة أهؤلاء إيَّاكم كانوا يعبُدون * قالوا سُبحانك أنتَ وليُّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجِنَّ أكثرهم بهم مؤمنون**﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١]. فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته ويوهمهم أنه ملك. كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها.

وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان. فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها. وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه. فلا عبد الله ولا رسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالى: ﴿**أَلَم أعْهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشَّيطان إنَّه لكم عدو مُبين * وأن اعبدوني هذا صِراط مُستقِيم**﴾ [يسٓ: ٦٠ - ٦١] فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائنًا من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول أغراضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه به مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان، ولهذا قال تعالى: ﴿**ويوم نحشرهم جميعًا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس**﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم. ﴿**وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم**﴾ [الأنعام: ١٢٨]. فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفره بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في

النار، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلهًا غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله. وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والإجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضى به؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

فصل فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق الله له الخلق (أمر لأجله بالأمر الذي)(١) كان من أكبر الكبائر عند الله، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم. فإن الله سبحانه خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده، والشرك والكبر ينافيان ذلك. ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر، ولا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر(٢).

(٣)**وذكر** ابن أبي الدنيا من حديث أبي اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن عمرو بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية: ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله**﴾ [الزمر: ٦٨]. قال: هم الشهداء يبعثهم الله متقلدين أسيافهم حول عرشه، فأتاهم ملائكة من المحشر بنجائب من ياقوت أزمتها الدر الأبيض برحال الذهب، أعناقها السندس والإستبرق، ونمارقها ألين من الحرير، مد خطاها مد أبصار الرجال، يسيرون في الجنة على خيول يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا ننظر كيف يقضي الله بين خلقه، يضحك الله إليهم وإذا ضحك الله إلى عبد في موطن فلا حساب عليه».

(٤)الباب التاسع
في ذكر عدد أبواب الجنة

قال الله تعالى: ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾ (٥)**وقال** في صفة النار: ﴿**حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها**﴾ بغير واو. فقالت

---

(١) مابين المربعين في الأصل والكلام يتم بدونه.
(٢) تقدم قريبًا قول الله - تعالى -: ﴿ونفخ في الصور﴾ ضمن ما نقل عن كتاب الروح فليرجع إليه من أراده (ج).
(٣) ١٨٧ حادي الأرواح. (٤) ٤٣ حادي الأرواح.

طائفة: هذه واو الثمانية دخلت في أبواب الجنة لكونها ثمانية، وأبواب النار سبعة فلم تدخلها الواو. وهذا قول ضعيف لا دليل عليه، ولا تعرفه العرب ولا أئمة العربية، وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين. وقالت طائفة أخرى: الواو زائدة، والجواب الفعل الذي بعدها كما هو في الآية الثانية وهذا أيضًا ضعيف؛ فإن زيادة الواو غير معروف في كلامهم، ولا يليق بأفصح الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة.

وقالت طائفة ثالثة: الجواب محذوف، وقوله: ﴿**وفتحت أبوابها**﴾ عطف على قوله: ﴿**جاؤها**﴾ وهذا اختيار أبي عبيدة والمبرد والزجاج وغيرهم. قال المبرد: وحذف الجواب أبلغ عند أهل العلم. قال أبو الفتح ابن جني: وأصحابنا يدفعون زيادة الواو ولا يجيزونه، ويرون أن الجواب محذوف للعلم به. بقي أن يقال: فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة وذكره في آية أهل النار؟ فيقال: هذا أبلغ في الموضعين؛ فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم فيفجأهم العذاب بغتة، فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة؛ فإن هذا شأن الجزاء المرتب. على الشرط أن يكون عقيبه، فإنها دار الإهانة والخزي، فلم يستأذن لهم في دخولها ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول.

وأما الجنة فإنها دار الله، ودار كرامته، ومحل خواصه وأوليائه، فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم، ويستشفعون إليه بأولي العزم من رسله، وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم فيقول: «**أنا لها**» فيأتي إلى تحت العرش ويخر ساجدًا لربه، فيدعه ما شاء أن يدعه، ثم يأذن له في رفع رأسه وأن يسأل حاجته، فيشفع إليه سبحانه في فتح أبوابها فيشفعه ويفتحها تعظيمًا لخطرها، وإظهارًا لمنزلة رسوله وكرامته عليه.

وإن مثل هذه الدار التي هي دار ملك الملوك ورب العالمين إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة التي أولها من حين عقل العبد في هذه الدار إلى أن انتهى إليها، وما ركبه من الأطباق طبقًا بعد طبق وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه في فتحها لهم. وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة وحصول الفرح والسرور مما يقدر بخلاف ذلك؛

لئلا يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء، فجنة الله عالية غالية بين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار مالا تنال إلا به.

فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ولهذه الدار؟ فليعد عنها إولى ما هو ألى به، وقد خلق له وهيء له. وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمراً من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة، كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم، مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضًا ويفرح بعضهم ببعض.

وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمرًا يلعن بعضهم بعضًا، ويتأذى بعضهم ببعض. وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدًا واحدًا، فلا تهمل تدبر قوله تعالى: **﴿زمرا﴾** وقال خزنة أهل الجنة لأهلها **﴿سلام عليكم﴾** فبدؤهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه، أي سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم قالوا لهم: **﴿طبتم فادخلوها خالدين﴾**، أي سلامتكم ودخولها بطيبكم فإن الله حرمها إلا على الطيبين، فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود. وأما أهل النار فإنهم لما انتهو إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن وفتحت لهم أبوابها وقفوا عليها وزيدوا على ما هم عليه توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم: **﴿ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾** [الزمر: ٧١] فاعترفوا وقالوا: ﴿بلى﴾ فبشروهم بدخولها والخلود فيها وأنها بئس المثوى لهم.

وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها: ادخلوها، وقول خزنة النار: لأهلها أدخلوا أبواب جهنم، تجد تحته سرًّا لطيفًا ومعنًى بديعًا لا يخفى على المتأمل، وهو أنها لما كانت دار العقوبة، وأبوابها أفظع شيء وأشده حرًّا، وأعظمه غمًّا، يستقبل فيها الداخل من العذاب ماهو أشد منها، ويدنو من الغم والخزي والحزن والكرب بدخول الأبواب فقيل: ادخلوا أبوابها، صغارًا لهم وإذلالاً وخزيًا ثم قيل لهم: لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ولكن وراءها الخلود في النار. **وأما** الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها وتأمل.

(١)فصل: أبواب الجنة بعضها فوق بعض

ولما كانت الجنات درجات بعضها فوق بعض كانت أبوابها كذلك، وباب الجنة العالية فوق باب الجنة التي تحتها. وكلما علت الجنة اتسعت. فعاليها أوسع مما دونه، وسعة الباب بحسب وسع الجنة. ولعل هذا وجه الاختلاف الذي جاء في مسافة ما بين مصراعي الباب؛ فإن أبوابها بعضها أعلى من بعض، ولهذه الأمة باب مختص بهم يدخلون منه دون سائر الأمم، كما في المسند من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي**» الحديث وسيأتي بتمامه إن شاء الله تعالى.

وقال خلف بن هشام البزار ثنا أبوشهاب عن عمرو بن قيس الملائي عن أبي إسحاق عن عاصم بن حمزة عن علي بن أبي طالب قال: «إن أبواب الجنة هكذا بعضها فوق بعض ثم قرأ ﴿**حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها**﴾ إذا هم عندها بشجرة في أصلها عينان تجريان، فيشربون من إحداهما فلا تترك في بطونهم قذى ولا أذى إلا رمته، ويغتسلون من الأخرى فتجري عليهم نضرة النعيم، فلا تشعث رؤسهم، ولا تغير أبشارهم بعد هذا أبدًا، ثم قرأ: ﴿**طبتم فادخلوها خالدين**﴾ فيدخل الرجل وهو يعرف منزله، ويتلقاهم الولدان فيستبشرون برؤيتهم كما يستبشر الأهل بالحميم يقدم من الغيبة. فينطلقون إلى أزواجهم فيخبرونهم بمعاينتهم فتقول: أنت رأيته؟ فيقوم إلى الباب فيدخل إلى بيته فيتكىء على سريره فينظر إلى أساس بيته فإذا هو قد أسس على اللؤلؤ، ثم ينظر في أخضر وأحمر وأصفر ثم يرفع رأسه إلى سماء بينه فلولا أنه خلق له لا لتمع بصره فيقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والله أعلم.

(٢)الباب الرابع والعشرون

في ذكر بوابي الجنة وخزنتها واسم مقدمهم ورئيسهم

قال تعالى: ﴿**وسيق الذين اتَّقوا ربَّهم إلى الجنة زمرًا حتَّى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم**﴾ [الزمر: ٧٣]. والخزنة جمع خازن، مثل حفظة وحافظ، وهو المؤتمن على الشيء الذي قد استحفظه. وروى مسلم في صحيحه

(١) ٥٠ حادي الأرواح. (٢) ٨١ حادي الأرواح.

من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك**». وقد تقدم حديث أبي هريرة المتفق عليه: «**من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب أي فلهلم**. قال أبوبكر: يارسول الله ذاك الذي لا توى(١) عليه فقال النبي ﷺ: **إني لأرجو أن تكون منهم**» وفي لفظ: هل يدعي أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «**نعم وأرجو أن تكون منهم**» لما سمت همة الصديق إلى تكميل مراتب الإيمان(٢).

(٣)الباب الثامن والثلاثون

في كيفية دخولهم الجنة وما يستقبلون عند دخولها

قد تقدم قوله تعالى: ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا**﴾ وقال تعالى: ﴿**يوم نحشر المتقين إلى الرَّحمن وفْدًا**﴾ [مريم: ٨٥] قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن عباد بن موسى العكلي حدثنا يحيى بن سليم الطائفي حدثنا إسماعيل بن عبدالله المكي حدثنا أبوعبدالله أنه سمع الضحاك بن مزاحم يحدث عن الحرث عن علي أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿**يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفْدًا**﴾ قال قلت: يارسول الله ما الوفد إلا ركب؟ قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة عليها رجال الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مثل مد البصر، وينتهون إلى باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان، فإذا شربوا من إحداهما جرت في وجوههم نضرة النعيم، وإذا توضئوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبدًا، فيضربون الحلقة بالصفيحة فلو سمعت طنين الحلقة** .

(٤)**وقال** عبدالله بن محمد البغوي: حدثنا علي، أنبأنا زهير، عن أبي إسحاق، عن عاصم، عن علي رضي الله عنه قال: ﴿**وَسِيق الذِين اتَّقوا رَبَّهم إلى الجَنَّة زُمَرًا**﴾ حتى إذا نتهوا إلى بابٍ من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها

---

(١) بفتح التاء: لا ضياع ولا خسارة، وهو من القوى الهلاك. (٢) إلى آخر الباب مما ذكره المؤلف تعليقًا على هذا الحديث (ج). (٣) ١٠٦ حادي الأرواح. (٤) ٢٦٥ روضة المحبين.

عينان تجريان، فعمدوا إلى إحداهما فكأنما أمروا به فشربوا منها فأذهب الله ما في بطونهم من قذى أو أذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم، ولم تتغير أشعارهم بعدها أبدًا، ولم تشعث رؤوسهم كأنما ادهنوا بالدهان، ثم انتهو إلى الجنة فقالوا: ﴿**سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾ [الزمر: ٧٣] ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يُطيف أهل الدُّنيا بالحميم يقدم عليهم من غيبته فيقولون له: أبشر بما أعدَّ الله تعالى لك من الكرامة، ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العِين فيقول: جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدُّنيا قال: أنت رأيته؟ قال: أنا رأيته وهو بأثري فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكُفَّة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى [أساس] بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صَرحٌ أخضر وأحمر وأصفر من [كل] لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله عز وجل قدَّره لألمَّ أن يُذهب بصره، ثم طأطأ رأسه فإذا أزواجه، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، ثم اتكأوا فقالوا: ﴿**الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كُنَّا لنهتدي لولَا أن هدانا الله**﴾ [الأعراف: ٤٣]. ثم ينادي منادٍ يحيون فلا يموتون أبدًا، ويقيمون فلا يظعنون أبدًا، ويصِحُّون فلا يمرضون أبدًا.

وفي سنن ابن ماجة عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحُلل كثيرة ومقام في أبدٍ في دار سليمة وفاكهة وخُضرة وحبرة ونِعمة في محلة عالية بهية قالوا: نعم يارسول الله نحن المشمرون لها قال: قولوا إن شاء الله فقال القوم: إن شاء الله [تعالى]**».

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزمر

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالى: ﴿غَافِرِ الذنْبِ وقَابِل التَّوب شَديد العِقاب ذِي الطوْل لا إلـه إلا هو﴾ [غافر: ٣] فعطف في الاسمين الأولين دون الآخرين. فقال السهيلي: إنما حسن العطف بين الإسمين الأولين لكونهما من صفات الأفعال، وفعله سبحانه في غيره لا في نفسه، فدخل حرف العطف للمغايرة الصحيحة بين المعنيين، ولتنزلهما منـزلـة الجملتـين، لأنه يريد تنبيه العباد على أنه يفعل هذا ويفعل هذا ليرجوه ويؤملوه. ثم قال: ﴿شديد العقاب﴾ بغير واو، لأن الشدة راجعة إلى معنى القوة والقـدرة، وهو معنى خارج عن صفات الأفعال، فصار بمنزلة قوله: ﴿العزيز العَليم﴾. وكذلك قوله: ﴿ذِي الطَّول﴾ لأن لفظ ذي عبارة عن ذاته.

هذا جوابـه وهـو كما ترى غير شاف ولا كاف، فإن شدة عقابه من صفات الأفعال، وطوله من صفات الأفعال، ولفظة (ذي) فيه لا تخرجه عن كونه صفة فعل كقوله: ﴿عزيز ذو انتقام﴾ بل لفظ الوصف بغافر وقابل أدل على الذات من الوصف بذي، لأنها بمعنى صاحب كذا. فالوصف المشتق أدل على الذات من الوصف بها، فلم يشف جوابه بل زاد السؤال سؤالاً.

فاعلم أن هذه الجملة مشتملة على ستة أسماء كل اثنين منها قسم، فابتدأها بالعـزيز العليم وهمـا اسـمان مطلقان وصفتان من صفات ذاته وهما مجردان عن العطف. ثم ذكر بعدهما اسمين من صفات أفعاله فأدخل بينهما العاطف، ثم ذكر اسمين آخرين بعدهما وجردهما من العاطف. فأما الأولان فتجردهما من العاطف لكونهما مفردين صفتين جاريتين على اسم الله وهما متلازمان فتجريدهما عن العطف هو الأصـل، وهـو موافق لبيان ما في الكتاب العزيز من ذلك كالعزيز العليم، والسميع البصير، والغفور الرحيم(٢).

وأما ﴿غـافِـر الـذنب وقابل التَّوب﴾ فدخل العاطف بينهما لأنهما في معنى الجملتين وإن كانا مفردين لفظًا، فهما يعطيان معنى يغفر الذنب ويقبل التوب، أي هذا شأنه ووصفه في كل وقت، فأتى بالاسم الدال على أن هذا وصفه ونعته،

(١) ١٩١ بدائع جـ١.

(٢) تقدم بحث حول هذه الآية في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿التائبون الحامدون﴾ يحسن الرجوع إليه (ج).

المتضمن لمعنى الفعل، الدال على أنه لايزال يفعل ذلك، فعطف أحدهما على الآخر على نحو عطف الجمل بعضها على بعض، و كذلك الاسمان الأولان. ولما لم يكن الفعل ملحوظًا في قوله: ﴿شديد العِقاب ذي الطول﴾ إذ لا يحسن وقوع الفعل فيهما، وليس في لفظ (ذي) ما يصاغ منه فعل، جرى مجرى المفردين من كل وجه، ولم يعطف أحدهما على الآخر، كما لم يعطف في العزيز العليم فتأمله فإنه واضح.

وأما العطف في قوله: ﴿الذي خَلق فسَوى * والذِي قدَّر فهدي﴾ [الأعلى: ٢، ٣] فلما كان المقصود الثناء عليه بهذه الأفعال وهي جملة دخلت الواو عاطفة جملة على جملة، وإن كانت الجملة مع الموصول في تقدير المفرد فالفعل مراد مقصود، والعطف يصير كلًّا منها جملة مستقلة مقصودة بالذكر، بخلاف ما لو أتى بها في خبر موصول واحد فقيل: ﴿الذي جعل لكم الأرضَ مهْداً﴾ و﴿نزَّل من السماء ماءًا﴾ و﴿خلق الأزواج كلها﴾ [الزخرف: ١٠، ١١، ١٢]. كانت كلها في حكم جملة واحدة. فلما غاير بين الجمل بذكر الاسم الموصول مع كل جملة دل على أن المقصود وصفه بكل من هذه الجمل على حدتها. وهذا قريب من باب قطع النعوت، والفائدة هنا كالفائدة ثَم، وقد تقدمت الإشارة إليها فراجعها. بل قطع النعوت إنما كان لأجل هذه الفائدة، فذلك المقدر في النعوت المقطوعة لهذا المحقق في النعوت المعطوفة، والحمدلله على ما منّ به وأنعم فإنه ذو الطول والإحسان.

تتمة: تأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفتي رحمة قبله وصفه رحمة بعده. فقبله ﴿غَافر الذنب وقابِل التَّوب﴾ [غافر: ٣] وبعده ﴿ذِي الطول ِ﴾ ففي هذا تصديق الحديث الصحيح وشاهد له وهو قوله ﷺ: «**سبقت غضبي**» وقد سبقت صفتا الرحمة هنا وغلبت. وتأمل كيف افتتح الآية بقوله: ﴿تَنزيل الكِتاب﴾ [غافر: ٢] والتنزيل يستلزم علو المنزل من عنده، لا تعقل العرب من لغتها بل ولا غيرها من الأمم السليمة الفطرة إلا ذلك. وقد أخبر أن تنزيل الكتاب منه. **فهذا** يدل على شيئين، أحدهما: علوه تعالى على خلقه. والثاني: أنه هو المتكلم بالكتاب المنزل من عنده لا غيره، فإنه أخبر أنه منه وهذا يقتضي أن يكون منه قولاً كما أنه منه تنزيلاً؛ فإن غيره لو كان هو المتكلم به لكان الكتاب من ذلك الغير، فإن الكلام إنما يضاف إلى المتكلم به.

ومثل هذا: ﴿ولَكِن حق القول مني﴾ [السجدة: ١٣] ومثله: ﴿قُل نزله روح

القُدس من ربك﴾ [النحل: ١٠٢] مثله: **﴿تنزيل من حكيم حميد﴾** [فصلت: ٤٢] فاستمسك بحرف من في هذه المواضع؛ فإنه يقطع حجج شعب المعتزلة والجهمية. وتأمل كيف قال: **(تنزيل من)** ولم يقل تنزيله، فتضمنت الآية إثبات علوه وكلامه[1] وثبوت الرسالة.

ثم قال: ﴿العزيز العليم﴾ فتضمن هذان الإسمان صفتي القدرة والعلم، وخلق أعمال العباد، وحدوث كل ما سوى الله؛ لأن القدرة هي قدرة الله كما قال أحمد بن حنبل. فتضمنت إثبات القدر، ولأن عزته تمنع أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه أو أن يشاء ما لا يكون فكمال عزته تبطل ذلك. وكذلك كمال قدرته توجب أن يكون خالق كل شيء، وذلك ينفي أن يكون في العالم شيء قديم لا يتعلق به خلقه؛ لأن كمال قدرته وعزته يبطل ذلك.

ثم قال: ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ والذنب مخالفة شرعه وأمره فتضمن هذان الاسمان إثبات شرعه وإحسانه وفضله. ثم قال: **﴿شديد العِقاب﴾** وهذا جزاؤه للمذنبين، وذو الطول جزاؤه للمحسنين فتضمنت الثواب والعقاب. ثم قال: **﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾** فتضمن ذلك التوحيد والمعاد. فتضمنت الآيتان إثبات صفة العلو، والكلام، والقدرة، والعلم، والقدر، وحدوث العالم، والثواب والعقاب، والتوحيد والمعاد. وتنزيل الكتاب منه على لسان رسوله يتضمن الرسالة والنبوة.

فهذه عشرة قواعد الإسلام والإيمان تجلى على سمعك في هذه الآية العظيمة ولكن خَودٌ تُزف إلى ضرير مقعد، فهل خطر ببالك قط أن هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءتك لها وسماعك إياها؟ وهكذا سائر آيات القرآن فما أشدها من حسرة وأعظمها من غبنة على من أفنى أوقاته في طلب العلم ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه فالله المستعان.

[2]**وهو** سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم. فمن الأول قوله: **﴿ربنا وسِعت كل شيء رحمة وعِلمًا﴾** [غافر: ٧] ومن الثاني: **﴿والله عليم حليم﴾** فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم. وحملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد

(١) وفي نسخة بدل كلامه: مكانه. (٢) ٨٠ بدائع جـ١.

على عفوك بعد قدرتك. فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم. وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿ربَّنا وسِعت كل شيء رحمة وعِلمًا﴾. ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدمًا على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع. ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور(١).

فصل(٢)

(٣)**والتي** على الأبدان أيضًا نوعان. نوع في الدنيا ونوع في الآخرة، وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما ترتب عليها في الشدة والخفة. فليس في الدنيا والآخرة شر أصلاً إلا الذنوب وعقوباتها. فالشر اسم لذلك كله وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال، وهما الأصلان اللذان كان النبي ﷺ يستعيذ منهما في خطبته بقوله: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**» وسيئات الأعمال من شرور النفس فعاد الشر كله إلى شر النفس، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته.

وقد اختلف في معنى قوله: «**ومن سيئات أعمالنا**» هل معناه السيء من أعمالنا فيكون من باب إضافة النوع إلى جنسه: وتكون بمعنى من. وقيل معناه من عقوباتها التي تسوء فيكون التقدير ومن عقوبات أعمالنا التي تسوءنا. ويرجع هذا القول أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر. فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة وهي تستلزم العقوبات السيئة، فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال، واكتفى بذكرها عنه إذ هي أصله.

ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه وهي السيئات التي تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام. فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه.

ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم: ﴿**وقِهم السيئات ومن تَقِ السَّيئات يومئذٍ فقد رحِمته**﴾ [غافر: ٩] فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها، فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء. وإن

---

(١) يشير إلى آية سورة سبأ وقد تقدم البحث فيرجع إليه من أراده (ج).

(٢) ١٥٤ الجواب الكافي. (٣) ماتقدم تفصيل للعقوبات القدرية والشرعية (ج).

كان قولـه: ﴿ومن تَق السيئـات يومئـذٍ فقد رحِمته﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقـايتهم يومئـذ منهـا. فإن قيل: قد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها الأعمال السيئة، ويكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي ﷺ. ولا يرد علي هذا قوله: (يومئذ) فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم وهي سيئات في نفسها.

وقيل وقاية السيئات نوعان، أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه، والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة فلا يعاقب عليها، فتضمنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا بالجملة الطلبية. وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم. وقـدمـوا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله سبحانه بسعة علمه وسعة رحمتـه، فسعـة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها، وضعفهم عن العصمة، واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم، وما زين لهم من الدنيا وزينتها. وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض، وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم. وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء. ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء.

ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله، وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر، وترك ما يكره فتابوا مما يكره، واتبعوا السبيل الـذي يحبهـا. ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها، وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب، من جملتها دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم إياها يدخلونها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها.

ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة **﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾** أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك؛ فإن العزة كمال القدرة والحكمة كمال العلم. وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما

يشاء ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب. فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر. والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية. وهي إما في القلب وإما في البدن وإما فيهما. وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم عود الأجسام في الدار الآخرة. فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة. ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة؛ لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحى أحس بالألم. فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار، والكسر على الانكسار، والاغتراف على الماء، وفساد البدن على السموم، والأمراض على الأسباب الجالبة لها.

وقد تقارن المضرة الذنب، وقد تتأخر عنه إما يسيرًا وإما مدة كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه. وكثيرًا ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه، ولا يدري أنه يعمل عمله على التدريج شيئًا فشيئًا، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القذة بالقذة. فإن تدارك العبد نفسه بالأدوية والاستفراغ والحمية وإلا فهو صائر إلى الهلاك هذا إذا كان ذنبًا واحدًا لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على الذنب كل يوم وكل ساعة؟ والله المستعان.

(١)فصل

ومنها(٢) حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة، فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال تعالى: ﴿**الذين يَحمِلون العرشَ ومَن حولَه يُسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسِعت كل شيء رحمةً وعِلمًا فاغفر للذين تابُوا واتبعوا سبيلك وقِهم عذابَ الجَحيم * ربنا وأدخِلهم جَنَّات عدْنٍ التي وعدتهم ومَن صَلح مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرياتهم إنَّك أنت العزيز الحكيم * وقِهم السيئات**﴾ [غافر: ٧-٩] فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرهما. فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها.

(٣)**قال** تعالى: ﴿**الذين يحمِلون العرش ومن حوله يُسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربَّنا وسِعت كلَّ شيء رحمةً وعِلما فاغفر للذين تابوا واتَّبعوا سبيلَك وقِهم عذابَ الجَحيم * ربَّنا وأدخِلهم جَنَّات عَدن التي وعدتهم**

(١) ٨٠ الجواب الكافي. (٢) أي من آثار المعاصي وعقوبتها. (٣) ٦٤ مفتاح جـ١.

ومن صَلح من آبـائهم وأزواجهم وذُريـاتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقِهِم السيئات ومن تَق السيئات يومئذٍ فقد رحِمته وذلك هو الفَوز العظيم﴾ . فأي نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء، فإذا طلب العبد العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد الله، فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه ثم تضع أجنحتها له رضًا ومحبة وتعظيمًا. وقال أبوحاتم الرازي سمعت ابن أبي أويس يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: معنى قول رسول الله ﷺ: «تضع أجنحتها» يعني تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلاً من الأيدي.

(١)**وقال** تعالى: ﴿رفيعُ الدرجات ذُو العرش يُلقي الرُّوح من أمْره على من يَشاء مِن عِبادِه ليُنذر يومَ التّلاق﴾ [غافر: ١٥] فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن. ولهذا من فقد هذه الروح: فقد فَقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك. وأما في الآخرة: فله جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا.

(٢)**ثم** ينزل القلب منزل «التذكر» وهو قرين الإنابة. قال الله تعالى: ﴿ومَا يتذكر إلا من يُنيب﴾ [غافر: ١٣]. وقال: ﴿تَبصرة وذِكرى لِكل عَبدٍ مُنيب﴾ [ق:٨] وهو من خواص أولي الألباب. كما قال تعالى: ﴿إنما يتذكر أولُو الألباب﴾ [الرعد: ١٩] وقال تعالى: ﴿وما يذَّكر إلا أولُو الألباب﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(٣)**والتذكر** و«التفكر» منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. والعارف لايزال يعود بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم. قال الحسن البصري: مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت.

قال صاحب المنازل: «التـذكـر فوق التفكر؛ لأن التفكر طلب، والتذكر وجود». يريد أن التفكر التماس الغايات من مباديها. كما قال: «التفكر تلمس البصيرة لاستدراك البغية». وأما قوله: «التذكر وجود» فلأنه يكون فيما قد حصل بالتفكر. ثم غاب عنه بالنسيان. فإذا تذكره وجده فظفر به. و«التذكر» تفعل من الذكر. وهو ضد النسيان. وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب. واختير له بناء التفعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج. كالتبصر والتفهم والتعلم.

---

(١) ١٥٨ مدارج جـ٣. (٢) ٢٥٩ مدارج جـ٣. (٣) ٤٤٠ مدارج جـ١.

فمنزلة «التذكر» من «التفكر» منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه. ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذِكرَى. كما قال في المتلوة: **﴿ولَقد آتينا مُوسَى الهُدى وأورثْنَا بَنِي إسرائِيل الكِتاب * هُدًى وذِكرى لأولِي الألباب﴾** [غافر: ٥٣-٥٤] وقال عن القرآن: **﴿وإنه لتذكرة للمُتَّقين﴾** [الحاقة: ٤٨]. وقال في آياته المشهودة: **﴿أفَلم ينظُروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيَّناها وما لها مِن فُروجٍ * والأرضَ مدَدناها وألقينا فيها رواسي وأنبتْنا فيها من كُل زوجٍ بهيج * تبصِرة وذِكرى لِكل عبدٍ مُنيب﴾** [ق: ٦-٨].

فـ«التبصـرة» آلـة البصر، و«التذكرة» آلة الذكر. وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة؛ لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر. فاستدل بها على ماهي آيات له. فزال عنـه الإعـراض بالإنـابـة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة؛ لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها. فترتيب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب، ثم إن كلا منها يمد صاحبه ويقويه ويثمره.

وقال تعالى في آياته المشهودة: **﴿وكَم أهْلكنا قَبلهم مِن قَرن هُم أشَدُّ مِنهم بَطشًا فنقبُوا في البِلاد هَل مِن مَحيص * إن في ذلك لَذِكرى لِمن كَان لَه قَلْبٌ أو ألقَى السمع وهو شَهِيد﴾** [ق: ٣٦، ٣٧].

والناس ثلاثة: رجل قلبه ميت. فذلك الذي لاقلب له. فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه. الثاني: رجل له قلب حَيٌّ مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب، ليس حاضرًا. فهذا أيضًا لا تحصـل له الـذكـرى، مع استعـداده ووجود قلبه. والثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب، ملقِ السمع. فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة. فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر. والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه. والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حَدَّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب. فهذا هو الذي يراه. فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور. فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟ قيل: فيها سر

لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنى الواو. كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وَقَّاد، مليء باستخراج العبر، واستنباط الحكم. فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نورًا على نور. وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيمانًا وبصيرة. حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه. حتى قيل: إن مثل حال الصديق مع النبي ﷺ، كمثل رجلين دخلا دارًا، فرأى أحدهما تفاصيل مافيها وجزئياته. والآخر: وقعت يده على ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته. لكن علم أن فيها أمورًا عظيمة، لم يدرك بصره تفاصيلها. ثم خرجا فسأله عما رأى في الدار؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه، لما عنده من شواهده، وهذه أعلى درجات الصديقية. ولا تستبعد أن يمنّ الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان؛ فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة: إزداد بها نورًا إلى نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمعَ وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضًا: ﴿**فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**﴾ [البقرة: ٢٦٥] والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما. حتى إن شراب أحد النوعين الصرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجًا. قال الله تعالى: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [سبأ: ٦] فكل مؤمن يرى هذا. ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر.

(١)**قال** تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ**﴾ [غافر: ٣٠، ٣١] بين أن هذا العقاب لم يكن ظلمًا من الله للعباد بل لذنوبهم واستحقاقهم، ومعلوم أن المحال الذي لا يمكن ولا يكون مقدورًا أصلًا لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته ولا فعله ولا يحمد على ذلك، وإنما يكون المدح بترك الأفعال لمن هو قادر عليها، وأن يتنزه عنها لكماله وغناه وحمده. وعلى هذا يتم قوله: «**إني حرمت الظلم على نفسي**» وما شاكله من النصوص.

(١) **ويلي** ذلك(٢) في كبر المفسدة القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، فهذا أشد شيء منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والأمر، وقدح في نفس الربوبية وخصائص الرب. فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثمًا عند الله. فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله؟ كما أن من أقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك لكن جعل معه شريكًا في بعض الأمور تقربًا إليه خير ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكًا. هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول، فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة، إعظامًا له وإجلالاً؟ فداء التعطيل هو الداء العضال الذي لا دواء له. ولهذا حكى الله عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات فقال: **﴿يَاهامان ابن لي صرحًا لعَلى أبلغ الأسباب * أسباب السماوات فأطلع إلى إله مُوسى وإني لأظنه كاذِبًا﴾** [غافر: ٣٦، ٣٧] واحتج الشيخ أبوالحسن الأشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية. وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب وهو كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية) في إثبات العلو

...(٣)**الرابع** عشر: التصريح بلفظ الأين الذي هو عند الجهمية بمنزلة متى في الاستحالة، ولا فرق بين اللفظين عندهم البتة، فالقائل «أين الله» و«متى كان الله» عندهم سواء، كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأعظمهم بيانًا عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه «أين الله» في غير موضع.

الخامس عشر: شهادته التي هي أصدقُ شهادة عند الله وملائكته وجميع المؤمنين لمن قال «إن ربه في السماء» بالإيمان، وشهد عليه أفراخ جَهم بالكفر، وصرَّح الشافعي بأن هذا الذي وَصَفتهُ من أن ربها في السماء إيمان فقال في كتابه في باب عتق الرقبة المؤمنة وذكر حديث الأمة السوداء التي سَوَّدت وجوهَ الجهمية وبيضت وجوه المحمدية: فلما وصفت الإيمان قال: **«أعتقها فإنها مؤمنة»** وهي إنما

---

(١) ١٩٣ الجواب الكافي.

(٢) أي الشرك والكبر، وقد تقدم هذا قريبًا في سورة الزمر استطرد على قول الله تعالى: ﴿وماقدروا الله حق قدره﴾ (ج).

(٣) ٢٨٢ أعلام جـ٢.

وصَفت كون ربها في السماء، وأن محمدًا عبده ورسوله؛ فقرنت بينهما في الذكر؛ فجعل الصادقُ المصدوق مجموعهما هو الإيمان.

السادس عشر: إخباره سبحانه عن فرعون أنه رَامَ الصعودَ إلى السماء ليطلع إلى إلـه موسى فيكذبه فيما أخبر به من أنه سبحانه فوق السماوات، فقال: **﴿يا هامان ابن لي صرحًا لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السماوات فأطلع إلى إلهِ موسى وإني لأظنه كاذبًا﴾** فكذب فرعون موسى في إخباره إياه بأن ربه فوق السماء، وعند الجهمية لافرق بين الإخبار بذلك وبين الإخبار بأنه يأكل ويشرب. وعلى زعمهم يكون فرعون قد نزه الربَّ عما لا يليق به وكذب موسى في إخباره بذلك؛ إذ مَن قال عندهم إن ربه فوق السماوات فهو كاذب، فهم في هذا التكذيب موافقون لفـرعـون مخالفون لموسى ولجميع الأنبياء، ولذلك سماهم أئمة السنة «فرعونية» قالوا: وهم شر من الجهمية؛ فإن الجمهية يقولون: إن الله في كل مكان بذاته، وهؤلاء عطلوه بالكلية، وأوقعوا عليه الوصف المطابق للعدم المحض، فأي طائفة من طوائف بني آدم أثبتت الصانع على أي وجه كان قولهم خيراً من قولهم.

السابع عشر: إخبـاره ﷺ أنه تردَّد بين موسى وبين الله ويقول له موسى: ارجع إلى ربك فسَلْه التخفيف، فيرجع إليه سبحانه ثم ينزل إلى موسى فيأمره بالرجوع إليه سبحانه فيصعد إليه سبحانه ثم ينزل من عنده إلى موسى ثلاث مرات.

(١)**(فصل)** وأما الصد فقال تعالى: **﴿وكذلك زُيِّن لِفرعون سُوء عمله وصد عن السبيـل﴾** [غافر: ٣٧] قرأ أهل الكوفة على البناء للمفعول حملاً على (زين) وقرأ البـاقـون وصَـد بفتـح الصاد ويحتمل وجهين أحدهما: أعرض، فيكون لازمًا. والثاني: يكون صد غيره، فيكون متعديًا. والقراءتان كالآيتين لا يتناقضان.

(٢)**قوله: ﴿ياقوم اتَّبعون أهدِكم سبيل الرَّشاد * ياقوم إنَّما هذه الحياة الدُّنيا مَتاع وإن الآخرة هِي دار القَرار﴾** [غافر: ٣٨، ٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يستمتع بها إلى غيرها وأن الآخرة هي المستقر. وإذا عرفت أن لذات الدنيا متاع وسبيل إلى لذات الآخرة ولذلك ما خلقت الدنيا لذاتها. فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها لم يذم تناولها، بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة. إذا عرف هذا فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر إلى وجه الله جل جلاله، وسماع كلامه، والقرب منه.

(١) ٩٦ شفاء.		(٢) ٣١٨ الجواب الكافي.

كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية «**فوالله ما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه**».

وفي حديث آخـر «إنه إذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم». وفي النسائي ومسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي ﷺ في دعائه «**واسألك اللهم لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك**». وفي كتـاب السنة لعبدالله بن الإمام أحمد مرفوعًا «**كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن من الرحمن فإذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك**».

فإذا عرف هذا فأعظم الأسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطـلاق، وهي لذة معرفته سبحانه، ولذة محبته؛ فإن ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر. فإن الروح والقلب والبدن إنما خلقت لذلك. فأطيب ما في الدنيا معرفته سبحانه ومحبته، وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الـدنيا وسرورهـا. واللذة القـاطعة عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك. فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

(١)**الطبقة** السادسة عشرة: رؤساء الكفر وأئمته، ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الإيمان وعن الدخول في دينه رغبة ورهبة، **فهؤلاء عذابهم مضاعف**، ولهم عذابان: عذاب بالكفر، وعذاب بصد الناس عن الدخول في الإيمان. قال الله تعالى: ﴿**الذين كَفروا وصدُّوا عن سبيل الله زِدنَاهم عذابًا فوقَ العذاب**﴾ [النحل: ٨٨] فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله. وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له، ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به. وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلوا درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم، وهؤلاء عكسهم، ولهذا كان فرعون وقومه في أشد العذاب، قال تعالى في حقهم: ﴿**النَّار يُعرضون عليها غدوًّا وعشِيا ويوم تقوم الساعة أدخِلوا آل فرعون أشدَّ العذاب**﴾ [غافر: ٤٦] وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك؛ لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعًا

(١) ٤٠٩ طريق الهجرتين.

له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه، وغرهم فاتبعوه. ولهذا يكون يوم القيامة أمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿يقدُم قومه يومَ القيامة فأوردهم النَّار﴾ [هود: ٩٨]. والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم، وصدهم عن سبيل الله، وعقوبتهم من آمن بالله.

فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم، ولها كان في كتاب النبي ﷺ لهرقل «**فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**» والصحيح في اللفظ أنهم الأتباع. ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذابًا، وهو أول من يكسى حلة من النار؛ لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عصى الله إلا على يديه وبسببه، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته. ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر. كما أن الإيمان يتفاوت، فإيمان أفضل من إيمان. فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد بل النار دركات كما أن الجنة درجات. ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وهو الغني الحميد.

فصل وغلظ الكفر الموجب لغلظ العذاب يكون من ثلاثة أوجه: (أحدها) من حيث العقيدة الكافرة في نفسها، كمن جحد رب العالمين بالكلية وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له، فلم يؤمن بالله وملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر. ولهذا لا يقر أرباب هذا الكفر بالجزية عند كثير من العلماء، ولا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم اتفاقًا لتغلظ كفرهم. وهؤلاء هم المعطلة، والدهرية وكثير من الفلاسفة، وأهل الوحدة القائلين بأنه لا وجود للرب سبحانه وتعالى غير وجود هذا العالم. (الجهة الثانية) تغلظه بالعناد والضلال عمدًا على بصيرة. ككفر من شهد قلبه أن الرسول حق لما رآه من آيات صدقه، وكفر عنادًا وبغيًا. كقوم ثمود، وقوم فرعون، واليهود الذي عرفوا الرسول كما عرفوا أبناءهم، وكفر أبي جهل، وأمية بن أبي الصلت وأمثال هؤلاء. (الجهة الثالثة) السعي في إطفاء نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل إليه قدرتهم، فهؤلاء أشد الكفار عذابًا بحسب تغلظ كفرهم، ومنهم من يجتمع في حقه الجهات الثلاث. ومنهم من يكون فيه جهتان منها أو واحدة.

فليس عذاب هؤلاء كعذاب من هو دونهم في الكفر ممن هو ملبوس عليه لجهله، والمؤمنون من أذاه في سلامة لا ينالهم منه أذى، ولم يتغلظ كفره كتغلظ

هؤلاء، بل هو مقر بالله ووحدانيته وملائكته وجنس الكتب والرسل واليوم الآخر. وإن شارك أولئك في كفرهم بالرسول فقد زادوا عليه أنواعًا من الكفر. وهل يستوي في النار عذاب أبي طالب وأبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبيّ بن خلف وأضرابهم؟ والمقصود أن هذه الطبقة وهي طبقة الرؤساء الدعاة الصادين عن دين الله ليست كطبقة من دونهم، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**أهون أهل النار عذابًا أبوطالب**»، ومعلوم أن كفر أبي طالب لم يكن مثل كفر أبي جهل وأمثاله.

الطبقة السابعة عشرة: طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعًا لهم يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على أسوة بهم. ومع هذا فهم متاركون لأهل الإسلام غير محاربين لهم، كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أولئك أنفسهم من السعي في إطفاء نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم بمنزلة الدواب.

وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالاً مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع أنه لم يحكم لهؤلاء بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين لا الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم، وإنما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث في الإسلام. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» فأخبر أن أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية، ولم يعتبر في ذلك غير المربي والمنشأ على ما عليه الأبوان. وصح عنه أنه قال ﷺ: «**إن الجنة لا يدخلها إلّا نفس مسلمة**» وهذا المقلد ليس بمسلم، وهو عاقل بمكلف، والعاقل المكلف لا يخرج عن الإسلام أو الكفر.

وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف في تلك الحال، وهو بمنزلة الأطفال والمجانين وقد قدم الكلام عليهم. والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به. فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرًا معاندًا فهو كافر جاهل. فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفارًا، فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله إما عنادًا أو جهلاً وتقليدًا لأهل العناد. فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند فهو متبع لأهل العناد، وقد أخبر الله في القرآن في غير موضع بعذاب

المقلدين لأسلافهم من الكفار، وأن الأتباع مع متبوعهم وأنهم يتحاجون في النار وأن الأتباع يقولون: ﴿ربَّنا هؤلاء أضَلُّونا فآتهم عذابًا ضِعْفًا من النَّار قَال لِكُلٍّ ضعف ولكن لا تعلمون﴾ [الأعراف: ٣٨].

(١)**وقال** تعالى: ﴿وإذْ يَتحاجُّون في النَّار فَيقول الضُّعفاء للذِين استكبَروا إنا كُنَّا لَكم تبعًا فهل أنتم مُغنون عَنَّا نَصِيبًا مِن النَّار * قال الذين استكْبَروا إنا كل فيها إن الله قَد حَكم بَينَ العِباد﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقال تعالى: ﴿ولَو ترى إذ الظالمون موقُوفون عِند ربِّهم يرجِع بعضُهم إلى بعضٍ القولَ يقول الذين استُضعِفوا للذين استكبَروا لولا أنتم لكُنَّا مؤمنين * قال الذينَ استكبَروا للذين اسْتضعِفوا أنحن صَددناكم عن الهُدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استُضعفوا للذين استكبَروا بل مكرُ الليل والنَّهار إذ تأمرونَنا أن نكفر بالله ونجعل له أندَادًا﴾ [سبأ: ٣١-٣٣]. فهـذا إخبـار من الله وتحـذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العـذاب، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئًا، وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿إذ تَبرَّأَ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطَّعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبعوا لو أنَّ لنا كرَّة فنتبرَّأَ مِنهم كما تبرَّؤوا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧] وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه لا ينقص من أوزارهم شيئًا**» وهذا يدل على أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

نعم لابد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعـرفـة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه. والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه **فهم** قسمان أيضًا: أحدهما مريد للهدى مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا على طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة. الثاني معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه. فالأول يقول: يا رب لو أعلم لك دينًا خيرًا مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوى ما أنا عليه ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.

والثاني: راض بما هو عليه لا يؤثر غيره عليه ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز. وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما

(١) ٤١٢ طريق الهجرتين.

بينهما من الفرق: فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزًا وجهلاً. والثاني كمن لم يطلبه بل مات على شركه وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض. فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه.

هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر: فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة. وهو مبنى على أربعة أصول:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿**وما كُنَّا مُعَذبين حتَّى نبعَث رَسُولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿**رُسلاً مبشرين ومُنذرين لئلَّا يكون للنَّاس على الله حُجَّة بعد الرُّسل**﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿**كُلَّما أُلقي فيها فوجٌ سألهم خزنتها ألم يأتِكم نذيرٌ * قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذَّبنا وقُلنا ما نزَّل الله من شيء**﴾ [الملك: ٨،٩]. وقال تعالى: ﴿**فاعترفوا بذنبهم فسُحقًا لأصحاب السَّعير**﴾ [الملك: ١١] وقال تعالى: ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتِكم رُسلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتي ويُنذِرُونَكم لِقاء يومِكم هذَا قالُوا شهدنا على أنفسنا وغرَّتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنَّهم كانوا كافرين**﴾ [الأنعام: ١٣٠]. وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذّب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه، وقال تعالى: ﴿**وما ظلمناهُم ولكن كانوا هم الظَّالمين**﴾ [الزخرف: ٧٦] والظالم من عرف ماجاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ماجاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم؟

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين، أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها. الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها. فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد. وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة

وعدم التمكن من معرفتها فهذا الطي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

الأصـــل الثـالث: أن قيام الحجـة يختلف باختـلاف الأزمنـة والأمكنـة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه، كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له. فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئًا ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما.

الأصل الرابع: أن أفعال الله سبحانه وتعالى تابعة لحكمته التي لا يخل بها، وأنها مقصودة لغاياتها المحمودة وعواقبها الحميدة. وهذا الأصل هو أساس الكلام في هذه الطبقات، إلا من عرف ما في كتب الناس ووقف على أقوال الطوائف في هذا الباب وانتهى إلى غاية مراتبهم ونهاية إقدامهم، والله الموفق للسداد الهادي إلى الرشاد.

وأما من لم يثبت حكمة ولا تعليلاً، ورد الأمر إلى محض المشيئة التي ترجح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح، فقد أراح نفسه من هذا المقام الضنك، واقتحام عقبات هذه المسائل العظيمة، وأدخلها كلها تحت قوله: ﴿**لا يُسأل عمّا يفعَل وهُم يُسألون**﴾ [الأنبياء: ٢٣] وهو الفعال لما يريد، وصدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿**لا يُسأل عمّا يفْعل**﴾ لكمال حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها، وأنه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد يسأل عنه كما يسأل المخلوق، وهو الفعال لما يريد، ولكن لا يريد أن يفعل إلا ما هو خير ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يفعل الشر، ولا الفساد، ولا الجور، ولا خلاف مقتضى حكمته، لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم.

(١)**فصل** أول ذنب عصى الله به أبوا الثقلين: الكبر والحرص. فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلى ما آل إليه. وذنب آدم على نبينا وعليه السلام: كان من الحرص والشهوة. فكان عاقبته التوبة والهداية. وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنب آدم أوجب له إضافته إلى نفسه، والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكبر والإصرار، والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس. وأهـل الشهـوة: المستغفـرون التـائبـون المعترفون بالذنوب، الذين لا

---
(١) ٣٣٢ مدارج جـ٢.

يحتجون عليها بالقدر. مع أبيهم آدم في الجنة. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: التكبر شر من الشرك؛ فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله وغيره .

قلت: ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين. كما قال في سورة الزمر وفي سورة غافر **﴿ادخلوا أبـوابَ جهنَّم خالـدين فيهـا فبئسَ مثْوى المتكَبِّرين﴾** [الزمر: ٧٢ وغافر: ٧٦] وفي سورة النحل: **﴿فادخلوا أبواب جهنم خالِدين فيها فلبئسٍ مثْوى المتكَبِّرين﴾** [النحل: ٢٩] وفي سورة تنزيل: **﴿أليس في جهنم مثْوى للمتكبِّرين؟﴾** [الزمر: ٦٠]. وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم. فقال تعالى: **﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جَبَّار﴾** [غافر: ٣٥]. وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» رواه مسلم. وقال ﷺ: «**الكبر بَطر الحق، وغمط الناس**».

وقال تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يُشرك به﴾** [النساء: ٤٨] تنبيهًا على أنه لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشرك، وكما أن «**من تواضع لله رفعه**» فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه، وصغَّره وحقره. ومن تكبر عن الانقياد للحق ـ ولو جاءه على يد صغير، أو من يبغضه أو يعاديه ـ فإنما تكبره على الله؛ فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته ومنه وله. فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله: فإنما رد على الله، وتكبر عليه، والله أعلم.

(١)**فصل** والفرق بين المهابة والكبر (أن المهابة) أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله. فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور، ونزلت عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة، فحنت إليه الأفئدة، وقرت به العيون، وأنست به القلوب. فكلامه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعمله نور. إن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع.

وأما الكبر فأثر من آثار العجب والبغي من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحلت منه العبودية، ونزل عليه المقت. فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهًا،

---

(١) ٢٨٧ الروح.

لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه ولا يسعهم خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقًا، ويرى حقوقه على الناس، ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، لا يزداد من الله إلا بعدًا، ومن الناس إلا صغارًا وبغضًا.

فصل والفرق بين الصيانة والتكبر أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوبًا جديدًا نقي البياض ذا ثمن، فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاء على بياضه ونقائه، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التي يخشى منها عليه التلوث، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه، وإن أصابه شيء من ذلك على غرة بادر إلى قلعه وإزالته ومحو أثره. وهكذا الصائن لقلبه ودينه تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها، فإن لها في القلب طبوعًا وآثارًا أعظم من الطبوع الفاحشة في الثوب النقي البياض، ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع فتراه يهرب من مظان التلوث، ويحترس من الخلق، ويتباعد من تخالطهم مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذي يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم. بخلاف صاحب العلو فإنه وإن شابه هذا في تحرزه وتجنبه فهو يقصد أن يعلو رقابهم ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لون وذاك لون.

(١)**فمن** ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة. فإن الله سبحانه يقول: ﴿**ادعوني أستجب لكم**﴾ [غافر: ٦٠]. وقال: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريبٌ أجيب دعوة الدَّاع إذا دَعانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦]. وفي سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**». وهذا يدل على أن رضاه في سؤاله وطاعته. وإذا رضي الرب تبارك وتعالى فكل خير من رضاه. كما أن كل بلاء ومصيبة من غضبه. وقد ذكر أحمد في كتاب الزهد أثرًا: «**أنا الله لا إله إلا أنا، إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد**».

وقد دل العقل، والنقل، والفطرة، وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة

(١) ١٧ الجواب الكافي.

لكل شر. فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمة الله بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه. . .

(1)**فإن** القوم لم يكن لهم نصيب من العلم الذي جاءت به الرسل، بل كانوا كما قال الله تعالى: **﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العِلم﴾** [غافر:٨٣]. وما غاية ما يناله الذاكر المعرض عما جاءت به الرسل، وغاية ما نالوا به علمًا بأمور طبيعية فيها الحق والباطل، وأمور رياضية كثيرة التعب قليلة الجدوى، وأمور الهيئة باطلها أضعاف أضعاف حقها. فأين العلم المتلقي من الوحي النازل، إلى الظن المأخوذ عن الرأي الزائل؟ وأين العلم المأخوذ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام عن جبريل عن الله عز وجل إلى الظن المأخوذ عن رأي رجل لم يستنر قلبه بنور الوحي طرفة عين، وإنما معه حدسه وتخمينه؟ ونسبة ما يدركه العقلاء قاطبة بعقولهم إلى ماجاءت به الرسل كنسبة سراج ضعيف إلى ضوء الشمس.

ولا تجد ولو عمرت عمر نوح مسألة واحدة أصلاً اتفق فيها العقلاء كلهم على خلاف ما جاء به الرسل في أمر من الأمور البتة. فالأنبياء لم تأت بما يخالف صريح العقل البتة، وإنما جاءت بما لا يدركه العقل. فما جاءت به الرسل مع العقل ثلاثة أقسام لا رابع لها البتة. ١ ـ قسم شهد به العقل والفطرة. ٢ ـ وقسم يشهد بجملته ولا يهتدي لتفصيله. ٣ ـ وقسم ليس في العقل قوة إدراكه. ٤ ـ وأما القسم الرابع، وهو ما يحيله العقل الصريح ويشهد ببطلانه، فالرسل بريئون منه. وإن ظن كثير من الجهال المدعين للعلم والمعرفة أن بعض ما جاء به الرسل يكون من هذا القسم، فهذا إما لجهله بما جاءت به وإما لجهله بحكم العقل أو لهما. ا. هـ.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة غافر

والحمد لله رب العالمين

---

(1) ١٥٨ تحفة المودود.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** تعالى: ﴿**كِتَابٌ فُصلت آياته**﴾ [فصلت: ٣] أي بينت وأزيل عنها الإجمال، فلو كانت آياته مجملة لم تكن قد فصلت. وقال تعالى: ﴿**وَما على الرَّسول إلا البلاغ المبين**﴾ [النور: ٥٤]. وهذا يتضمن بلاغ المعنى وأنه في أعلى درجات البيان. فمن قال: إنه لم يبلغ الأمة معاني كلامه وكلام ربه بلاغًا مبينًا بل بلغهم ألفاظه وأحالهم في فهم معانيه على ما يذكره هؤلاء لم يكن قد شهد له بالبلاغ. وهذا هو حقيقة قولهم، حتى إن منهم من يصرح به ويقول: إن المصلحة كانت في كتمان معاني هذه الألفاظ وعدم تبليغها للأمة، إما لمصلحة الجمهور ولكونهم لا يفهمون المعاني إلا في قوالب الحسيات وضرب الأمثال، وإما لينال الكادحون ثواب كدحهم في استنباط معانيها واستخراج تأويلاتها من وحشي اللغات وغرائب الأشعار، ويغوصون بأفكارهم الدقيقة على صرفها عن حقائقها ما أمكنهم.

وأما أهل العلم والإيمان فيشهدون له بما شهد الله به وشهدت به ملائكته وخيار القرون أنه بلغ البلاغ المبين، القاطع للعذر، المقيم للحجة، الموجب للعلم واليقين لفظًا ومعنى. والجزم بتبليغه معاني القرآن والسنة كالجزم بتبليغه الألفاظ، بل أعظم من ذلك؛ لأن ألفاظ القرآن والسنة إنما يحفظها خواص أمته، وأما المعاني التي بلغها فإنه يشترك في العلم بها العامة والخاصة. ولما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجمع لأحد مثله قبله ولا بعده في اليوم الأعظم، في المكان الأعظم، قال لهم: «**أنتم مسئولون عني فما أنتم قائلون**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، ورفع إصبعه الكريمة إلى السماء رافعًا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلاً «**اللهم اشهد**» فكأنا شهدنا تلك الإصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله، وذلك اللسان الكريم وهو يقول: «**اللهم اشهد**» ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين، وأدى رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة، وكشف لهم طرائق الهدى، وأوضح لهم معالم الدين، وتركهم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها،

(١) ٣٣٨ الصواعق جـ٢.

فلا يحتاج مع كشفه وبيانه إلى تنطع المتنطعين، فالحمد لله الذي أغنانا بوحيه ورسوله عن تكلفات المتكلفين.

(١)**وقال تعالى: ﴿وَويل للمُشركين * الذين لا يؤتون الزَّكاة﴾** [فصلت: ٦، ٧]، قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء؛ فإن التزكي - وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة - فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا. فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد. والتزكية جعل الشيء زكيًا، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال: عدَّلته وفسَّقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر. وعلى هذا فقوله تعالى: **﴿فلا تزكُّوا أنفسكم﴾** [النجم: ٣٢] هو على غير معنى: **﴿قَد أفلح من زكَّاها﴾** [الشمس: ٩] أي لا تخبروا بزكاتها وتقولوا: نحن زاكون صالحون مُتَّقون، ولهذا قال عقيب ذلك: **﴿هُو أعلم بِمن اتقى﴾** [النجم: ٣٢]. . .

(٢)**قوله تعالى: ﴿وَجعلنا على قُلوبهم أكِنة أن يفقهوه﴾** [الأنعام: ٢٥] وهي جمع كنان، كعنان وأعنة، وأصله من الستر والتغطية، ويقال: كنَّه وأكنه وكنان بمعنى واحد، بل بينهما فرق فأكنه إذا ستره وأخفاه كقوله تعالى: **﴿أو أكنَنتُم في أنفُسكم﴾** [البقرة: ٢٣٥]. وكنه إذا صانه وحفظه كقوله: **﴿بيض مكنون﴾**، ويشتركان في الستر، والكنان ما أكن الشيء وستره وهو كالغلاف. وقد أقروا على أنفسهم بذلك فقالوا: **﴿قُلوبنا في أكِنَّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقْر ومن بيننا وبينك حجاب﴾** [فصلت: ٥]. فذكروا غطاء القلب وهي الأكنة، وغطاء الأذن وهو الوقر، وغطاء العين وهو الحجاب. والمعنى لانفقه كلامك ولا نسمعه ولا نراك، والمعنى: إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ما تقول ولا يراك. قال ابن عباس: قلوبنا في أكنة مثل الكنانة التي فيها السهام. وقال مجاهد: كجعبة النبل. وقال مقاتل: عليها غطاء فلا نفقه ما تقول.

(٣)**قوله ﷺ: «من صلى على جنازة فله قيراط ومن تبعها حتى تدفن فله**

(١) ٤٩ إغاثة جـ١.	(٢) ٩٣ شفاء.	(٣) ١٣٧ البدائع جـ٣.

قيراطان». سئل أبو نصر ابن الصباغ عن القيراطين هل هما غير الأول أو به فقال: بل القيراطان الأول وآخر معه بدليل قوله تعالى: ﴿**مَثنى وثُلاث ورُباع**﴾ [فاطر: ١]. (قلت) ونظير هذا قوله ﷺ: «**من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله**» فهذا مع صلاة العشاء في جماعة قد جاء مصرحًا به في جامع الترمذي كذلك «**ومن صلى العشاء والفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله**» ونظيره أيضًا قوله تعالى: ﴿**أَئِنكم لتكفُرون بالذِي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندَادًا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسَّائلين**﴾ [فصلت: ٩، ١٠]فهي أربعة باليومين الأولين ولولا ذلك لكانت أيام التخليق ثمانية.

(١)**اختلف** الناس هل السماء أشرف من الأرض أم الأرض أشرف من السماء فالأكثرون على الأول. واحتج من فضل الأرض بأن الله أنشأ منها أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين، وبأنها مساكنهم ومحلهم أحياء وأمواتًا. وبأن الله سبحانه وتعالى لما أراد إظهار فضل آدم للملائكة قال: ﴿**إني جاعِل في الأرض خليفة**﴾ [البقرة: ٣٠] فأظهر فضله عليهم بعلمه واستخلافه في الأرض، وبأن الله سبحانه وتعالى وضعها بأن جعلها محل بركاته عمومًا وخصوصًا فقال: ﴿**وجَعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر**﴾ [فصلت: ١٠].

ووصف الشام بالبركة في ست آيات، ووصف بعضها بأنها مقدسة ففيها الأرض المباركة، والمقدسة، والوادي المقدس. وفيها بيته الحرام، ومشاعر الحج، والمساجد التي هي بيوته سبحانه، والطور الذي كلم عليه كليمه ونجيه. وبإقسامه سبحانه بالأرض عمومًا وخصوصًا أكثر من إقسامه بالسماء؛ فإنه أقسم بالطور، والبلد الأمين، والتين والزيتون. ولما أقسم بالسماء أقسم بالأرض معها، وبأنه سبحانه خلقها قبل خلق السماء كما دلت عليه سورة حم السجدة. وبأنها مهبط وحيه، ومستقر كتبه، ورسله، ومحل أحب الأعمال إليه، وهو: الجهاد، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومغايظة أعدائه، ونصر أوليائه، وليس في السماء من ذلك شيء. وبأن ساكنيها من الرسل والأنبياء والمتقين أفضل من سكان

(١) ٢٣ البدائع جـ٤.

السماء من الملائكة كما هو مذهب أهل السنة، فمسكنهم أشرف من مسكن الملائكة. وبأن ما أودع فيها من المنافع والأنهار والثمار والمعارف والأقوات والحيوان والنبات ما هو من بركاتهم لم يودع في السماء مثله. وبأن الله سبحانه قال: **﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾** [الذاريات: ٢٠] ثم قال: **﴿وفي السَّماء رزقكم وما توعَدون﴾** [الذاريات: ٢٢] فجعل الأرض محل آياته، والسماء محل رزقه. ولو لم يكن له فيها إلا بيته وبيت خاتم أنبيائه ورسله حيا وميتًا(١) وبأن الأرض جعلها الله قرارًا وبساطًا، ومهادًا وفراشًا وكفاتًا ومادة للساكن لملابسه وطعامه وشرابه ومراكبه وجميع آلاته ولا سيما إذا أخرجت بركتها وازينت وأنبتت من كل زوج بهيج.

قال المفضلون للسماء: يكفي في فضلها أن رب العالمين سبحانه فيها، وأن عرشه وكرسيه فيها، وأن الرفيق الأعلى الذي أنعم الله عليه فيها، وأن دار كرامته فيها وأنها مستقر أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين يوم الحشر. وأنها مطهرة مبرأة من كل شر وخبث ودنس يكون في الأرض؛ ولهذا لا تفتح أبوابها للأرواح الخبيثة، ولا يلج ملكوتها. ولأنها مسكن من لا يعصون الله طرفة عين، فليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد أو قائم، وبأنها أشرف مادة من الأرض، وأوسع وأنور وأصفى وأحسن خلقة وأعظم آيات. وبأن الأرض محتاجة في كمالها إليها، ولا تحتاج هي إلى الأرض، ولهذا جاءت في كتاب الله في غالب المواضع مقدمة على الأرض، وجمعت وأفردت الأرض فبشرفها وفضلها أتى بها مجموعة، وأما الأرض فلم يأت بها إلا مفردة وحيث أريد تعدادها قال: **﴿ومن الأرض مثلهن﴾**. وهذا القول هو الصواب والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢)**المرتبة** الثانية هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده. وهذه لا تستلزم الاهتداء التام. قال تعالى: **﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾** [فصلت: ١٧] يعني بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فآثروا الضلالة والعمى. وقال تعالى: **﴿وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾** [العنكبوت: ٣٨]. وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثانية. وهي هدى التوفيق والإلهام. قال الله تعالى: **﴿والله يدعو**

---

(١) جواب لو محذوف لعلمه في المقام وتقديره: لكفى ذلك شرفًا.
(٢) ٤٨٤ المفتاح جـ١.

إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [يونس: ٢٥] فعم بالدعوة خلقه وخص بالهداية من شاء منهم.

قال تعالى: **﴿إنَّك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾** [القصص: ٥٦] مع قوله: **﴿وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾** [الشورى: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان، ونفى هداية التوفيق والإلهام. وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: **«من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له»**. وقال تعالى: **﴿إن تحرص على هُداهم فإن الله لا يهدي مَن يُضِلُّ﴾** [النحل: ٣٧] أي من يضله الله لا يهتدي أبدًا وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء.

وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها، بخلاف الثالثة فإن تخلف الهدى عنها مستحيل.

(١)**قال** تعالى: **﴿وقَالوا لجلودهم لِمَ شهِدتم علينا قالوا أنطقَنا الله الذي أنطق كل شيء﴾** [فصلت: ٢١] فالإنطاق فعل الله الذي لا يجوز تعطيله، والنطق فعل العبد الذي لا يمكن إنكاره كما قال تعالى: **﴿فورب السماء والأرض إنَّه لحق مثل ما أنكم تنطِقون﴾** [الذاريات: ٢٣]. فعلم أن كونهم ينطقون هو أمر حقيقي حتى شبه به في تحقيق كون ما أخبر به وأن هذا حقيقة لا مجاز. ومن جعل إضافة نطق العبد إليه مجازًا لم يكن ناطقًا عنده حقيقة فلا يكون التشبيه بنطقه محققًا لما أخبر به فتأمله.

ونظير هذا قوله تعالى: **﴿وأنه هو أضحك وأبكَى﴾** [النجم: ٤٣] فهو المضحك المبكي حقيقة، والعبد الضاحك الباكي حقيقة كما قال تعالى: **﴿فليضحكوا قليلاً وليبكُوا كثيراً﴾** [التوبة: ٨٢]. وقال: **﴿أفَمن هَذا الحديث تعجبون * وتضحَكون ولا تبكُون﴾** [النجم: ٥٩، ٦٠] فلولا المنطِق الذي أنطق، والمضحِك المبكِي الذي أضحك وأبكى لم يوجد ناطق ولا ضاحك ولا باك. فإذا أحب عبداً أنطقه بما يحب وأثابه عليه. وإذا أبغضه أنطقه بما يكرهه فعاقبه عليه وهو الذي أنطق هذا وهذا، وأجرى ما يحب على لسان هذا وما يكره على لسان هذا. كما أنه أجرى على قلب هذا ما أضحكه، وعلى قلب هذا ما أبكاه.

وكذلك قوله تعالى: **﴿هو الذي يُسيركم في البر والبحر﴾** [يونس: ٢٢] وقوله:

---
(١) ١٣٤ شفاء.

﴿**قُل سيروا في الأرض**﴾ [النمل: ٦٩] فالتسيير فعله حقيقة، والسير فعل العبد حقيقة، فالتسيير فعل محض، والسير فعل وانفعال. ومن هذا قوله تعالى: ﴿**فلمَّا قَضى زيدٌ منها وطرًا زوجناكها**﴾ [الأحزاب: ٣٧] فهو سبحانه المزوج ورسوله المتزوج. وكذلك قوله: ﴿**وزَوجناهم بحور عين**﴾ [الطور: ٢٠]فهو المزوج وهم المتزوجون.

وقد جمع سبحانه بين الأمرين في قوله: ﴿**فلما زاغُوا أزاغ الله قُلوبهم**﴾ [الصف: ٥] فالإزاغة فعله والزيغ فعلهم. فإن قيل: أنتم قررتم أنه لم يقع منهم الفعل إلا بعد فعله، وأنه لولا إنطاقه لهم وإضحاكه وإبكاؤه لما نطقوا ولا ضحكوا ولا بكوا، وقد دلت هذه الآية على أن فعله بعد فعلهم، وأنه أزاغ قلوبهم بعد أن زاغوا. وهذا يدل على أن إزاغة قلوبهم هو حكمه عليها بالزيغ لا جعلها زائغة. وكذلك قوله: ﴿**أنطقنا الله**﴾ المراد جعل لنا آلة النطق، وأضحك وأبكى جعل لهم آلة الضحك والبكاء. قيل: أما الإزاغة المترتبة على زيغهم فهي إزاغة أخرى غير الإزاغة التي زاغوا بها أولاً، عقوبة لهم على زيغهم، والرب تعالى يعاقب على السيئة بمثلها، كما يثيب على الحسنة بمثلها، فحدث لهم زيغ آخر غير الزيغ الأول فهم زاغوا أولاً، فجازاهم الله بإزاغة فوق زيغهم.

. . . [1]**لا يستقر** للعبد قدم في المعرفة ـ بل ولا في الإيمان ـ حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه. فالإيمان بالصفات وتعرّفها: هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان. فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان. وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به. وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر. فقال تعالى: ﴿**وما كُنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعُكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسِرين**﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣].

فأخبر سبحانه: أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته: من سوء ظنهم به، وأنه هو الذي أهلكهم. وقد قال في الظانين به ظن السوء: ﴿**عليهِم دائرة السوءِ**

(١) ٣٤٧ مدارج جـ٣.

وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾ [الفتح: ٦]. ولم يجيء مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه. وجحد صفاته وإنكار حقائق أسمائه: من أعظم ظن السوء به.

ولما كان أحب الأشياء إليه: حمده ومدحه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله: كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به، وهو شر من الشرك. فالمعطل شر من المشرك؛ فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوصافه هو، والتشريك بينه وبين غيره في الملك. فالمعطلون أعداء الرسل بالذات. بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل؛ فإنه لولا تعطيل كماله ـ أو بعضه ـ وظن السوء به: لما أشرك به، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه: **﴿أئفكًا آلهة دون الله تُريدون فما ظنكم برب العالمين﴾** [الصافات: ٨٦، ٨٧] أي فما ظنكم به: أن يجازيكم، وقد عبدتم معه غيره؟.

وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟ أظننتم: أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان؟ أم ظننتم: أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده، حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بها كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاسٍ؟ فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده؟ أم ذليل، فيحتاج إلى ولي يتكثر به من القِلة، ويتعزز به من الذِّلة؟ أم يحتاج إلى الولد، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالى الله عن ذلك كله علوًّا كبيراً.

والمقصود: أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه. فلا تجد معطلاً إلا وشركه على حسب تعطيله. فمستقل ومستكثر.

. . . (١)**قال الله** في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السر من القول: **﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾** [فصلت: ٢٣] فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون، كان هذا إساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن. وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به. فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غرورًا وخداعًا من نفسه، وتسويلاً من الشيطان. وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه

(١) ٢٧ الجواب.

بأنه ملاقي الله وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ما عمل، وهو مقيم على مساخطه، مضيع لأوامره، معطل لحقوقه؟ وهو مع هذا يحسن الظن به؟ وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني؟ وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عندي ستة دنانير أو سبعة. فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها. قالت: فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله. ثم سألني عنها فقال: «ما فعلت؟ أكنت فرقت الستة الدنانير؟» فقلت: لا والله، لقد كان شغلني وجعك. قالت: فدعا بها فوضعها في كفه. فقال: «ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده؟» وفي لفظ: «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده؟».

فيالله ماظن أصحاب الكبائر الظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم. فإن كان ينفعهم قولهم حسَّنا ظنوننا بك فلم يعذب ظالم ولا فاسق. فليصنع العبد ماشاء وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنه بالله فإن النار لا تمسّه. فسبحان الله؟! ما يبلغ الغرور بالعبد. وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أئفكًا آلهةً دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين﴾ [الصافات: ٨٧] أي ما ظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسُه. فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه. فالذي حمله على العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله. وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز. كما في الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ: «الكَيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله».

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن. فإن قيل: بل يتأتى ذلك، ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو. قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجل وأكرم

وأجـود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به؛ فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة. فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه. فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرض للعنته، ووقع في محارمه وانتهك حرماته. بل حسن الظن ينفع من تاب ونـدم، وأقلع، وبدل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظن. فهذا حسن ظن، والأول غرور. والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد. ففرق بين حسن الـظن بالله وبـين الغـرة به: قال الله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئِك يرجُون رحمة الله**﴾ [البقرة: ٢١٨] فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا الظالمين والفاسقين. وقال تعالى: ﴿**ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ**﴾ [النحل: ١١٠] فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها فالعالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين**﴾ [فصلت: ٢٤] أي وإن يطلبوا إعتـابنا وإزالة عتبنا عليهم. ويقال: عتب عليه إذا أعرض عنه وغضب عليه ثم يقال: استعتب السيد عبده أي طلب منه أن يزيل عتب نفسه عنه بعوده إلى رضاه، فأعتبه عبده أي أزال عتبه بطاعته. ويقال: استعتب العبد سيده أي طلب منه أن يزيل غضبه وعتبه عنه، فأعتبه سيده أي فأزال عتب نفسه عنه. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿**وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين**﴾ أي وإن يطلبوا إعتابنا وهو إزالة عتبنا عنهم فما هم من المزال عتبهم؛ لأن الآخرة لا تقال فيها عثراتهم ولا يقبل فيها توبتهم.

وقوله: ﴿**لا يُؤذَن للذين كفروا ولا هم يستعتبون**﴾ [النحل: ٨٤] أي لا يطلب منهم إعتابنا. وإعتابه تعالى إزالة عتبه بالتوبة والعمل الصالح، فلا يطلب منهم يوم القيامـة أن يعتبـوا ربهم فيزيلوا عتبـه بطاعتـه واتباع رسله. وكذلك قوله: ﴿**فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذِرتهم ولا هم يستعتبون**﴾ [الروم: ٥٧]. وقول

(١) ١٨١ البدائع جـ٤.

النبي ﷺ في دعاء الطائف: «**لك العتبى**» هو اسم من الإعتاب لا من العتب، أي: أنت المطلوب إعتابه، ولك عليَّ أن أعتبك وأرضيك بطاعتك، فأفعل ما ترضى به عني وما يزول به عتبك علي. فالعتب منه على عبده، والعتبى والإعتاب له من عبده.

فههنا أربعة أمور: العتب وهو من الله تعالى؛ فإن العبد لا يعتب على ربه؛ فإنه المحسن العادل فلا يتصور أن يعتب عليه عبده إلا والعبد ظالم. ومن ظن من المفسرين خلاف ذلك فقد غلط أقبح غلط. الثاني: الإعتاب وهو من الله ومن العبد باعتبارين، فاعتاب الله عبده إزالة عتب نفسه عن عبده، وإعتاب العبد ربه إزالة عتب الله عليه. والعبد لاقدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي يزول بها عتب الله عليه. الثالث: الاستعتاب وهو من الله أيضًا ومن العبد بالاعتبارين. فالله يستعتب عباده أي يطلب منهم أن يعتبوه ويزيلوا عتبه عليهم، ومنه قول ابن مسعود وقد وقعت الزلزلة بالكوفة: إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه. والعبد يستعتب ربه أي يطلب منه إزالة عتبه. الرابع: العتبى وهي اسم الإعتاب. فاشدد يديك بهذا الفصل الذي يعصمك من تخبط كثير من المفسرين لهذه المواضع. ومنه قول النبي ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإما محسن فلعله أن يزداد وإما مسيء فلعله أن يستعتب**» أي يطلب من ربه إعتابه إياه بتوفيقه للتوبة وقبولها منه فيزول عتبه عليه. والاستعتاب نظير الاسترضاء وهو طلب الرضى، وفي الأثر: «إن العبد ليسترضى ربه فيرضى عنه وإن الله ليسترضى فيرضى». لكن الاسترضاء فوق الاستعتاب؛ فإنه طلب رضوان الله، والاستعتاب طلب إزالة غضبه وعتبه، وهما متلازمان.

(1)**وقال** الله تعالى: ﴿**وقَيَّضنا لهم قرناء فزيَّنوا لهم ما بين أيدِيهم وما خلفهم وحقَّ عليهم القول في أممٍ قد خلت من قبلهم من الجن والإنس**﴾ [فصلت: ٢٥].

ومعنى الآية: إن الله قيض للمشركين - أي سبب لهم - قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة ومافيها من الثواب والعقاب، وقيل عكس هذا وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة. وقال الحسن: ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه

(١) ٤١٩ المجرتين.

آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

وفي الآية قول رابع وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق. ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره، وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج: سببنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدَعَوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود أن قوله تعالى: **﴿وحقَّ عليهم القولُ في أممٍ قد خَلت من قبلهم من الجِن والإنس إنَّهم كانوا خاسِرين﴾** [فصلت: ٢٥] أي وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم.

. . .(١)**قوله** تعالى: **﴿وقَيّضنا لهم قُرناء فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾** [فصلت: ٢٥]. قال الكلبي: «ألزمناهم قرناء من الشياطين». وقال مقاتل: «هيأنا لهم قرناء من الشياطين». وقال ابن عباس: «ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة». والمعنى زينوا لهم الدنيا حتى آثروها، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة والإعراض عنها. وقال الكلبي: «زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة: أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث؛ وما خلفهم من أمر الدنيا: ما هم عليه من الضلالة» وهذا اختيار الفراء.

وقال ابن زيد: «زينوا لهم ما مضى من خبث أعمالهم، وما يستقبلون منها» والمعنى على هذا: زينوا لهم ما عملوه فلم يتوبوا منه، وما يعزمون عليه فلا ينوون تركه. فقول عدو الله تعالى: **﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهم من بينِ أيديهم ومِن خلفِهم﴾** [الأعراف: ١٧] يتناول الدنيا والآخرة، وقوله: **﴿وعَن أيمانِهم وعن شمائلهم﴾** [الأعراف: ١٧]

(١) ١٠٥ الإغاثة جـ١.

فإن ملك الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه على فعل الخير، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يُثَبطه عنه، وإن ملك السيئات عن الشمال ينهاه عنها فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يحرِّضه عليها، وهذا يُفصِّل ما أجمله في قوله: ﴿فبعزَّتك لأغوينَّهم أجمعين﴾.

(١)قال الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنُوا وأبْشِروا بالجَنَّة التي كُنتم توعَدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهِي أنفُسكم ولكُم فيها ما تدَّعون * نُزُلاً من غفورٍ رحيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]. فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد، والتثبيت والتعليم، وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوه عنه، والاستغفار له إذا زَلَّ، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام [عنها]، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدُّنيا، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله. فهو أنيسه في الوحدة، ووليُّه ومعلمه، ومثبته ومسكّن جأشه، ومرغبه في الخير، ومحذّره من الشر، يستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهرًا يذكر الله بات معه في شِعاره، فإن قصده عدوٌّ له بسوءٍ وهو نائمٌ دفعه عنه.

(٢)**وقال** بعض السلف: إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان، فإن ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان. ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته، وعند موته، وعند مبعثه. قال الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشِروا بالجَنَّة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدُّنيا وفي الآخِرة﴾ وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له، وأنفعهم وأبرهم به، فثبته وعلمه، وقوى جنانه وأيده.

قال تعالى: ﴿إذ يوحِي رَبُّك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ [الأنفال: ١٢]. ويقول الملك للعبد عند الموت: «لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك»، ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه، في الحياة الدنيا، وعند الموت،

(١) ٢٧٩ الروضة. (٢) ١٤٤ الجواب.

وفي القبر عند المسألة. فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، ويحارب عنه عدوه ويدافع عنه ويعينه عليه، ويعده بالخير ويبشره به.

[1]**باعث** الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين فيرد جيش الهوى مغلولاً. وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر، والواصلون إلى هذه المرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة وهم الذين قالوا: ﴿**ربُّنا الله ثم استقامُوا**﴾ وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿**ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وخصهم بهدايته دون من عداهم.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى، فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية، فيستسلم البائس للشيطان وجنده فيقودونه حيث شاءوا، وله معهم حالتان: إحداهما أن يكون من جندهم وأتباعهم، وهذه حال العاجز الضعيف. الثانية: أن يصير الشيطان من جنده، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط، والمبتدع الداعية المتبوع كما قال القائل:

وكنت امرءًا من جند إبليس فارتقى		بي الحال حتى صار إبليس من جندي

فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه. وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة. وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر. وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء. وجند أصحابها المكر والخداع، والأماني الباطلة، والغرور، والتسويف بالعمل، وطول الأمل، وإيثار العاجل على الآجل. وهي التي قال في صاحبها النبي ﷺ: «**العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**». ضعيف

وأصحاب هذه الحال أنواع شتى، فمنهم المحارب لله ورسوله، الساعي في إبطال ماجاء به الرسول، يصد عن سبيل الله ويبغيها جهده عوجًا وتحريفًا ليصد الناس عنها. ومنهم المعرض عما جاء به الرسول، المقبل على دنياه وشهواتها فقط.

(١) ٢٠ عدة الصابرين.

ومهم المنافق ذو الوجهين، الذي يأكل بالكفر والإسلام. ومنهم الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب. ومنهم من إذا وعظ قال: واشوقاه إلى التوبة ولكنها قد تعذرت عليَّ فلا مطمع لي فيها. ومنهم من يقول ليس الله محتاجًا إلى صلاتي وصيامي، وأنا لا أنجو بعملي والله غفور رحيم. ومنهم من يقول ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته:

فكثر ماستطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

ومنهم من يقول: ماذا تقع طاعتي في جنب ما قد عملت، وما ينفع الغريق خلاص إصبعه وباقي بدنه غريق ومنهم من يقول: سوف أتوب، وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت وقُبلت توبتي. إلى غير ذلك من أصناف المغترين الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فعقله مع الشيطان كالأسير في يد الكافر يستعمله في رعاية الخنازير، وعصر الخمر، وحمل الصليب. وهو بقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه ـ عند الله ـ بمنزلة رجل قهر مسلمًا وباعه للكفار، وسلمه إليهم، وجعله أسيراً عندهم.

فصل: وها هنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها، وهي أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره، وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه، فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه، يسخره حيث شاء، ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه. فكما أذل سلطان الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له سلط عليه عقوبة له. قال الله تعالى: **﴿فإذا قرأت القُرآن فاستعِذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذِين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سُلطانه على الذين يتولونه والذين هُم به مُشركون﴾** [النحل: ٩٨، ١٠٠].

فإن قيل فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطانًا فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيًا عنه مقررًا له: **﴿وقَال الشيطان لما قُضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم**

فأخلفتكم وماكان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتُكم فاستجبتم لي﴾ [إبراهيم: ٢٢].
وقال تعالى: **﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين * وماكان له عليهم من سُلطان إلا لنعلم من يؤمن بالأخرة ممن هو منها فيشَك﴾** [سبأ: ٢٠، ٢١].
قيل السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته. والسلطان الذي نفاه سلطان الحجـة، فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطانًا ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم. والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

فصل: الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً ودولاً بين الجندين فتارة له وتارة عليه، وتكثر نوبات الانتصار وتقل، وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا.

وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الأحوال الثلاث سواء بسواء، فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة، ومنهم من يدخـل النار ثم يدخل الجنة. وهذه الأحوال الثلاث هي أحوال الناس في الصحة والمرض. فمن الناس من تقاوم قوته داءه فتقهره ويكون السلطان للقوة. ومنهم من يقهر داؤه قوته ويكون السلطان للداء. ومنهم من الحرب بين دائه وقوته نوبًا فهو متردد بين الصحة والمرض.

فصل: ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة. ومنهم من يصبر بأدنى حمل على النفس. ومثـال الأول كرجل صارع رجلاً شديدًا فلا يقهره إلا بتعب ومشقة. والثاني كمن صارع رجلا ضعيفًا فإنه يصرعه بغير مشقة. فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمان وجنود الشيطان، ومن صرع جند الشيطان صرع الشيطان. قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لقي رجل من الإنس رجلاً من الجن فصارعه

فصرعه الإنسي فقال: مالي أراك ضئيلاً فقال: إني من بينهم لضليع». فقالوا: أهو عمر بن الخطاب فقال: «من ترونه غير عمر».

وقال بعض الصحابة: «إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر». وذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف أن شيطانًا لقي شيطانًا فقال: مالي أراك شخيبًا. فقال: إنني مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه، وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه، وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار. فقال: لكني مع رجل إن أكل لم يسم الله فآكل أنا وهو جميعًا، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه، وإن دخل داره لم يسم الله فأدخل معه، وإن جامع امرأته لم يسم الله فأجامعها. فمن اعتاد الصبر هابه عدوه، ومن عز عليه الصبر طمع فيه عدوه وأوشك أن ينال منه غرضه.

(١)**فهذا** ما تلخص (٢)لي من جمع أقوال الناس في مصير أرواحهم بعد الموت ولا تظفر به مجموعًا في كتاب واحد غير هذا البتة، ونحن نذكر مأخذ هذه الأقوال وما لكل قول وما عليه وما هو الصواب من ذلك الذي دل عليه الكتاب والسنة على طريقتنا التي من الله بها وهو مرجو الإعانة والتوفيق.

فصل: فأما من قال هي في الجنة فاحتج بقوله تعالى: **﴿فأما إن كان من المقربين * فروحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيم﴾** [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. قال وهذا ذكره سبحانه عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت وقسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام (مقربين) وأخبر أنها في جنة النعيم و(أصحاب يمين) حكم لها بالسلام وهو يتضمن سلامتها من العذاب و(مكذبة ضالة) وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم. قالوا وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعًا، وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة في أول السورة فذكر حالها بعد الموت وبعد البعث.

واحتجوا بقوله تعالى: **﴿ياأيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية* فادخلي في عبادي وادخُلي جنَّتي﴾** [الفجر: ٢٩، ٣٠]. وقد قال غير واحد من

---

(١) ١١٥ الروح.

(٢) يشير المؤلف ـ رحمه الله ـ إلى ماسرده من أقوال الناس عامة. وقد ذكرها واحدًا وعشرين ثم فصلها بقرابة كراستين وناقشها بمالها وماعليها بما لا مزيد عليه. وذكر في آخر كلامه مايلي من قوله: «وأنت إذا تأملت السنن... الخ» (ج).

الصحابة والتابعين: إن هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا يبشرها الملك بذلك. ولا ينافي ذلك قول من قال: إن هذا يقال لها في الآخرة؛ فإنه يقال لها عند الموت وعند البعث. وهذه من البشرى التي قال تعالى: **﴿إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾** [فصلت: ٣٠]. وهذا التنزل يكون عند الموت، ويكون في القبر، ويكون عند البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت. وقد تقدم في حديث البراء بن عازب أن الملك يقول لها عند قبضها: أبشري بروح وريحان، وهذا من ريحان الجنة...[1]

[2]**وأنت** إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب وكان لك بها فضل اعتناء عرفت حجة ذلك، ولا تظن أن الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضها فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضًا، لكن الشأن في فهمها، ومعرفة النفس وأحكامها، وأن لها شأنًا غير شأن البدن، وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعودًا وهبوطًا، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة، وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض، ولذة ونعيم، وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق. وما أشبه حالها في هذا البدن بحال البدن في بطن أمه. وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار.

فلهذه الأنفس أربع دور كل دار أعظم من التي قبلها: (الدار الأولى): في بطن الأم، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث. (والدار الثانية): هي الدار التي نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة. (والدار الثالثة): دار البرزخ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم، بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى. (والدار الرابعة) دار القرار وهي الجنة والنار فلا دار بعدها. والله ينقلها في هذه الدور طبقًا بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها، ولا يليق بها سواها، وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها إليها. ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى، فتبارك الله فاطرها ومنشئها، ومميتها ومحييها، ومسعدها ومشقيها، الذي

(١) تقدم في سورة الزمر		(٢) ١٤٥ الروح.

فاوت بينها في درجات سعادتها وشقاوتها كما فاوت بينها في مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها. فمن عرفها كما ينبغي شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، وله القوة كلها، والقدرة كلها، والعز كله، والحكمة كلها، والكمال المطلق من جميع الوجوه، وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله وأن الذي جاءوا به هو الحق الذي تشهد به العقول وتقر به الفطر وما خالفه فهو الباطل، وبالله التوفيق.

(١) **قال** تعالى: **﴿وَمَن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين﴾** [فصلت: ٣٣]. وقال تعالى: **﴿قُل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومَن اتبعني﴾** [يوسف: ١٠٨]. وسواء كان المعنى أنا ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة، أو كان الوقف عند قوله: **﴿أدعو إلى الله﴾** ثم يبتدىء **﴿على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾** فالقولان متلازمان؛ فإنه أمره سبحانه أن يخبر أن سبيله الدعوة إلى الله، فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسوله ﷺ، وهو على بصيرة، وهو من أتباعه، ومن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله، ولا هو على بصيرة، ولا هو من أتباعه.

فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم والناس تبع لهم؛ والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس. وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له. وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثًا. وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه.

(٢) **الدعاة** جمع داع كقاض وقضاة، ورام ورماة، وإضافتهم إلى الله للاختصاص، أي الدعاة المخصوصون به الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته. وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلاهم قدرًا. يدل على ذلك قوله تعالى: **﴿وَمَن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمِل صالِحا وقال إنني من المسلمين﴾**. قال الحسن: هو المؤمن أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما

(١) ٢٤٩ جلاء الأفهام.　　(٢) ١٥٣ المفتاح جـ١.

أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، فهذا حبيب الله، هذا ولي الله. فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد. قال تعالى: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ادْع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعِظة الحسنة وجَادِلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل: ١٢٥]. جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق. فالمستجيب القابل الزكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة. والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة. والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن. هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية، لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام، والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات. ، وهذا باطل، وهو مبني على أصول الفلسفة، وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

(١)**قوله** تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين﴾ [فصلت: ٣٣]. فهذا احتجاج بما ركب في العقول والفطر لأنه لا قول للعبد أحسن من هذا القول. وقال تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادُوا حرمنا عليهم طيبات أحِلت لهم﴾ [النساء: ١٦٠]. فأي شيء أصرح من هذا حيث أخبر سبحانه أنه حرمه عليهم مع كونه طيبًا في نفسه. فلولا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر لم يكن ليجمع الطيب والتحريم، وقد أخبر تعالى أنه حرم عليهم طيبات كانت حلالاً عقوبة لهم فهذا تحريم عقوبة. بخلاف التحريم على هذه الأمة فإنه تحريم صيانة وحماية، ولا فرق عند النفاة بين الأمرين بل الكل سواء. فإنه سبحانه أمر عباده بما أمرهم به رحمة منه وإحسانًا وإنعامًا عليهم لأن صلاحهم في معاشهم وأبدانهم وأحوالهم وفي معادهم ومآلهم إنما هو بفعل ما أمروا به، وهو في ذلك بمنزلة الغذاء الذي لا قوام للبدن إلا به بل أعظم، وليس مجرد تكليف وابتلاء كما يظنه كثير من الناس. ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة وحمية لهم إذ لا بقاء لصحتهم

(١) ١٠ المفتاح جـ٢.

ولا حفظ لها إلا بهذه الحمية، فلم يأمرهم حاجة منه إليهم وهو الغني الحميد، ولا حرم عليهم ما حرم بخلاً منه عليهم وهو الجواد الكريم، بل أمره ونهيه عين حظهم وسعادتهم العاجلة والآجلة. ومصدر أمره ونهيه رحمته الواسعة وبره وجوده وإحسانه وإنعامه، فلا يسأل عما يفعل لكمال حكمته وعلمه ووقع أفعاله على وفق المصلحة والرحمة والحكمة.

(1)**والرسل** من أولهم إلى خاتمهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أرسلوا بالدعوة إلى الله، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه. فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل مِلَّة على لسان كل رسول. فعَرَّفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفًا مفصلاً، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه، وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم ملائكته، ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم، ويشاهد بواطنهم، كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقرب غِيَره، ويجيب دعوة مضطرهم، ويغيث ملهوفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي، يؤتي الحكمة من يشاء، مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. كل يوم هو في شأن، يغفر ذنبًا ويفرج كربًا، ويفك عانيًا، وينصر مظلومًا، ويقصم ظالمًا، ويرحم مسكينًا، ويغيث ملهوفًا، ويسوق الأقدار إلى مواقيتها، ويجريها على نظامها، ويقدم ما يشاء تقديمه، ويؤخر ما يشاء تأخيره، فأزمة الأمور كلها بيده، ومدار تدبير الممالك كلها عليه، وهذا مقصود الدعوة، وزُبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم، الذي نصبه لرسله وأتباعهم. وهو امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول، وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب، والحوض والميزان والصراط.

فقعدت المعطلة والجهمية على رأس القاعدة الأولى، فحالوا بين القلوب

(١) ٣٤٨ المدارج جـ٣.

وبين معرفة ربها، وسموا إثبات صفاته، وعلوه فوق خلقه، واستواءه على عرشه: تشبيهًا وتجسيمًا وحَشوًا. فنَفَّروا عنه صبيان العقول. وسَمُّوا نزوله إلى سماء الدنيا، وتكلمه بمشيئته، ورضاه بعد غضبه، وغضبه بعد رضاه، وسمعه الحاضر لأصوات العباد، ورؤيته المقارنة لأفعالهم ونحو ذلك: حوادث.

وسموا وجهه الأعلى، ويديه المبسوطتين، وأصابعه التي يضع عليها الخلائق يوم القيامة: جوارح وأعضاء ـ مكرًا منهم كُبّارًا بالناس ـ كمن يريد التنفير عن العسل، فيمكر في العبارة، ويقول: مائع أصفر يشبه العذرة المائعة. أو ينفر عن شيء مستحسن فيسميه بأقبح الأسماء، فِعل الماكر المخادع. فليس مع مخالف الرسل سوى المكر في القول والعمل.

فلما تم للمعطلة مكرهم، وسلك في القلوب المظلمة الجاهلة بحقائق الإيمان، وما جاء به الرسول: ترتب عليه الإعراض عن الله، وعن ذكره ومحبته، والثناء عليه بأوصاف كماله، ونعوت جلاله، فانصرفت قُوى حبها وشوقها وأنسها إلى سواه. وجاء أهل الآراء الفاسدة، والسياسات الباطلة، والأذواق المنحرفة، والعوائد المستمرة: فقعدوا على رأس هذا الصراط، وحالوا بين القلوب وبين الوصول إلى نبيها، وماكان عليه هو وأصحابه، وعابوا مَن خالفهم في قعودهم عن ذلك، ورغب عما اختاروه لأنفسهم، ورموه بما هم أولى به منه. كما قيل: رمتني بدائها وانسَلَّت.

وجاء أصحاب الشهوات المفتونون بها، الذين يعدون حصولها ـ كيف كان ـ هو الظفر في هذه الحياة والبغية، فقعدوا على رأس طريق المعاد، والاستعداد للجنة ولقاء الله، وقالوا: اليوم خمر، وغدًا أمر، اليوم لك، ولا تدري: غدًا لك، أو عليك؟ وقالوا: لا نبيع ذرة منقودة، بدُرَّة موعودة.

خذ ما تراه ودع شيئًا سمع به	في طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحل

وقالوا للناس: خلوا لنا الدنيا. ونحن قد خلينا لكم الآخرة. فإن طلبتم منا ما بأيدينا أحلناكم على الآخرة.

أناس ينقدون عيش النعيم	ونحن نحال على الآخرة
فإن لم تكن مثلما يزعمو	ن فتلك إذًا كرَّة خاسرة

فالايمان بالصفات ومعرفتها، وإثبات حقائقها، وتعلق القلب بها، وشهوده

لها: هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته. وهو روح السالكين، وحاديهم إلى الوصول، ومحرك عزماتهم إذا فتروا، ومُثير هممهم إذا قصروا؛ فإن سيرهم إنما هو على الشواهد، فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له. وأعظم الشواهد: صفات محبوبهم، ونهاية مطلوبهم. وذلك هو العَلَم الذي رُفع لهم في السير فشمروا إليه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «من رأى رسول الله ﷺ فقد رآه غاديًا رائحًا لم يضع لَبِنة على لبنة، ولكن رُفع له عَلم فشمر إليه» ولا يزال العبد في التواني والفتور والكسل، حتى يرفع الله عز وجل له ـ بفضله ومَنّه ـ عَلَمًا يشاهده بقلبه، فيشمر إليه ويعمل عليه.

فإن عطلت شواهد الصفات، ووضعت أعلامها عن القلوب، وطمست آثارها، وضربت بسياط البعد، وأسْبل دونها حجاب الطرد، وتخلفت مع المتخلفين، وأوحى إليها القَدر: أن اقعدي مع القاعدين، فإن أوصاف المدعو إليه، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه: هي الجاذبة للقلوب إلى محبته، وطلب الوصول إليه؛ لأن القلوب إنما تحب من تعرفه، وتخافه وترجوه وتشتاق إليه؛ وتلتذ بقربه، وتطمئن إلى ذكره، بحسب معرفتها بصفاته. فإذا ضُرب دونها حجاب معرفة الصفات والإقرار بها: امتنع منها ـ بعد ذلك ـ ما هو مشروط بالمعرفة، وملزوم لها. إذ وجود الملزوم بدون لازمه، والمشروط بدون شرطه: ممتنع. فحقيقة المحبة، والإنابة والتوكل، ومقام الإحسان: ممتنع على المعطل امتناع حصول المَغَل من معطل البذر، بل أعظم امتناعًا.

كيف تصمد القلوب إلى من ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه، ولا مباينًا له ولا محايثًا؟ بل حظ العرش منه كحظ الآبار والوهاد. والأماكن التي يرغب عن ذكرها؟ وكيف تألهُ القلوب من لا يسمع كلامها، ولا يرى مكانها، ولا يحب ولا يحب، ولا يقوم به فعل البتة، ولا يتكلم ولا يكلم، ولا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء، ولا يقوم به رأفة ولا رحمة ولا حنان، ولا له حكمة، ولا غاية يفعل ويأمر لأجلها؟

فكيف يتصور على ذلك، ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ورؤية وجهه الكريم في جنات النعيم، وهو مستو على عرشه فوق جميع خلقه؟ أم كيف تأله

القلوب من لا يحب ولا يحب، ولا يرضى ولا يغضب ولا يفرح ولا يضحك؟

فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته، والسرور والفرح به، والشوق إلى لقائه، وانتظار لذة النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه! فلو رآها أهلاً لذلك لمنَّ عليها به، وأكرمها به؛ إذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده. والله أعلم حيث يجعل كرامته. ويضع نعمته: ﴿**وكذلك فتنا بعضهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين**﴾ [الأنعام: ٥٣] ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مِثل ما أوتي رُسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ [الأنعام: ١٢٤] ﴿**أهم يقسِمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ ليتخذ بعضهم بعضًا سُخريًّا ورحمة ربك خير مما يجمعون**﴾ [الزخرف: ٣٢] وليس جحودهم صفاته سبحانه، وحقائق أسمائه: في الحقيقة تنزيهًا. وإنما هو حجاب ضَرب عليهم، فظنوه تنزيهًا. كما ضرب حجاب الشرك والبدع المضلة والشهوات المردية على قلوب أصحابها، وزين لهم سوء أعمالهم، فرأوها حسنة.

(١)**فصل**: فالقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوين بأسهل الطرق بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين، ودفع إساءتهم بالإحسان. وأخبر عن عظم حظ من لقّاه ذلك؛ فإنه ينال بذلك كفّ شر عدوه وانقلابه صديقًا، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغِلِّ والحقد، وطمأنينة الناس - حتى عدوه - إليه. هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه؛ وهذا غاية الحظ عاجلاً وآجلاً، ولما كان ذلك لا يُنال إلا بالصبر قال: ﴿**وما يُلقّاها إلا الذين صبروا**﴾ [فصلت: ٣٥] فإن النَّزق الطائش لا يصبر على المقابلة.

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان، أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتُمِد الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان، فـ﴿**إنه ليس له سُلطان على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون**﴾ [النحل: ٩٩].

(١) ٩٨ إغاثة جـ١.

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة. والصواب أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم، لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة. والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطانًا لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده. وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال: ﴿**قال ربِّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط علي مستقيم * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين**﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

وقال: ﴿**إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مُشركون**﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

فتضمن ذلك أمرين، أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص. والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السَّيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنَّه وليٌّ حميم**﴾ [فصلت: ٣٤]. فهذا لدفع شر شياطين الإنس ثم قال: ﴿**وإمَّا ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ فاستعِذ بالله إنَّه هو السَّميع العليم**﴾ [فصلت: ٣٦] فأكد بإن وبضمير الفصل وأتى باللام في «السميع العليم» وقال في الأعراف: ﴿**إنّه سَميع عَليم**﴾.

وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة، والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك. فالسمع لكلام المستعيذ، والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة. وهذا المعنى شامل للموضعين، وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكوا في سمعه لقولهم، وعلمه بهم، كما جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي، أوثقفيان وقرشي، كثيرٌ شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا

---

(١) ٩٦ الإغاثة جـ١.

ولا يسمـع إن أخفينا، فقال الآخر: إن سمع بعضه سمع كله، فأنزل الله عز وجل: ﴿وما كُنتم تَستترون أن يشهد عليكم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودكم ولكن ظننتم أنَّ الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنُّكم الذي ظننتم بربِّكم أردَاكم فأصبحتُم من الخاسرين﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣]. فجاء التوكيد في قوله: ﴿إنَّه هُو السَّميع العَليم﴾ في سياق هذا الإنكار: أي هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون: أنه لا يسمع إن أخفوا، وأنه لا يعلم كثيرًا مما يعملون. وحَسَّن ذلك أيضًا: أن المأمور به في سورة فصّلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم؛ ولهذا عقبه بقوله: ﴿ومَا يلقاها إلا الذين صَبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حَظٍّ عظيم﴾ [فصلت: ٣٥] فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ.

وأيضا فإن السياق ههنـا لإثبـات صفات كماله وأدلة ثبوتها، وآيات ربوبيته وشواهد توحيده ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿ومِن آياته اللَّيل والنهار﴾ [فصلت: ٣٧] وبقوله: ﴿ومِن آياته أنَّك ترى الأرضَ خَاشِعة﴾ [فصلت: ٣٩] فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه «السميع العليم» كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرّفة. والذي في الأعراف في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين ووعد المستعيذ بأن له ربًّا يسمـع ويعلم، وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها، فإنه سميع عليم، وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم، فكيف تُسَـوُّونها به في العبادة؛ فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير، كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلم بأسرار كلامه.

ولما كان المستعاذ منه في سورة «حم المؤمن» هو شر مجادلة الكفار في آياته وما ترتب عليها من أفعالهم المرْئيَّة بالبصر قال: ﴿إنَّ الذين يُجادِلون في آياتِ الله بغير سُلطان أتاهم إن في صُدورهم إلاَّ كِبرٌ ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنَّه هو السَّميع البصـير﴾ [غـافر: ٥٦]. فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عيانًا قال: «إنه هو السميع البصير» وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا، فإنه يرانا هو وقبيلُه من حيث لا نراه، بل هو معلوم بالإيمان وإخبار الله ورسوله.

(١)**فصل** وأما سيرته ﷺ في أوليائه وحزبه: فأمر أن يصبر نفسه مع الذين يدعون

(١) ٢٠٩ الزاد جـ٢.

ربَّهم بالغـداةِ والعَشِي يريدون وجهه، وأن لا تعدو عيناه عنهم، وأمره أن يعفو عنهم، ويستغفر لهم، ويشاورهم في الأمر، وأن يصلي عليهم. وأمره بهجْر من عصاه وتخلف عنه، حتى يتوب ويراجع طاعته، كما هجر الثلاثة الذين خُلِّفُوا، وأمره أن يُقيم الحدود على من أتى مُوجباتها منهم، وأن يكونوا عنده في ذلك سواء، شريفهم ودنِيهُم.

وأمره في دفع عدوه من شياطين الإنس: بأن يدفع بالتي هي أحسن، فيقابل إساءة من أساء إليه بالإحسان، وجهله بالحلم، وظلمه بالعفو، وقطيعته بالصلة. وأخبره أنه إن فعل ذلك عاد عدوه كأنه وليٌّ حميم. وأمره في دفع عدوه من شياطين الجن: بالاستعاذة بالله منهم، وجمع له هذين الأمرين في ثلاثة مواضع من القرآن: في سورة الأعراف، والمؤمنين، وسورة حم السجدة.

فقال في سورة الأعراف: ﴿**خُذ العَفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإمَّا ينزغنَّك مِنَ الشيطان نزْغٌ فاستعِذ بالله إنه سميع عليم**﴾ [الأعراف: ١٩٨-٢٠٠]. فأمره باتقاء شر الجاهلين بالإعراض عنهم، وباتقاء شر الشيطان بالاستعاذة منه. وجمع له في هذه الآية مكارم الأخلاق والشِّيم كلها؛ فإن وليَّ الأمر له مع الرعية ثلاثة أحوال: فإنه لابد له من حق عليهم يلزمهم القيام به، ومن أمر يأمرهم به، ولابد من تفريط وعُدوان يقع منهم في حقه، فأمر بأن يأخذ من الحق الذي له عليهم ما طَوَّعت به أنفسهم، وسمحت به، وسهُل عليهم ولم يشق، وهو العفو الذي لا يلحقهم ببذله ضرر ولا مشقة. وأُمر أن يأمرهم بالعرف، وهو المعروف الذي تعرفه العقول السليمة والفطر المستقيمة، وتُقِرُّ بحسنه ونفعه، وإذا أمر به يأمر به بالمعروف أيضًا، لا بالعُنفِ والغِلظَة. وأمر أن يقابل جهل الجاهلين منهم بالإعراض عنه، دون أن يقابله بمثله. فبذلك يكتفي شرهم.

وقال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿**قل رَبِّ إمَّا تُرِيَني ما يوعدون * رب فلا تجعلني في القوم الظالمين * وإنّا على أن نُريك ما نَعِدهم لقادرون * ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من هَمزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون**﴾ [المؤمنون: ٩٣-٩٨].

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي**

هي أحسن فإذا الـذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم * وما يُلقَّاها إلا الذين صَبروا وما يُلقَّاها إلا ذُو حَظٍّ عظيم * وإمَّا ينزغنَّك من الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إنـه هو السميـع العليم﴾ [حم: ٣٤-٣٦]. فهذه سيرته مع أهل الأرض: إنسهم وجِنِّهم مؤمنهم وكافرهم.

(١) **وقـد** قال تعـالى: ﴿**وإمـا ينزغنك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم**﴾.

ولما كان الشيطان على نوعين: نوع يرى عيانًا، وهو شيطان الإنس، ونوع لا يرى، وهو شيطان الجن: أمر سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يكتفي من شر شيطان الإنس بالإعـراض عنه، والعفو، والدفع بالتي هي أحسن، ومن شيطان الجن بالاستعـاذة بالله منـه. وجمـع بين النـوعـين في سورة الأعراف: (١٩٩) وسورة المؤمنون: (٩٨) وسورة فصلت: (٣٦) والاستعاذة في القراءة والذكر: أبلغ في دفع شر شياطين الجن. والعفو والإعراض والدفع بالإحسان: أبلغ في دفع شر شياطين الإنس، قال:

فما هو إلا الاستـعــاذة ضارعًــا ... أو الدفع بالحسنى هما خير مطلوب
فهـذا دواء الداء من شر ما يُرى ... وذاك دواء الـداء من شر محجوب

فصل فيما يقوله ويفعله من اشتد غضبه

أمره ﷺ أن يطفىء عنـه جمرة الغضب بالـوضـوء والقعـود إن كان قائـمًا، والاضطجاع إن كان قاعدًا، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

ولما كان الغضب والشهـوة جمرتين من نار في قلب ابن آدم: أمر أن يطفئها بالوضوء والصلاة، والاستعاذة من الشيطان الرجيم، كما قال تعالى: ﴿**أتأمُرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾ [البقرة: ٤٤]. وهذا إنما يحمل عليه شدة الشهوة، فأمـرهم بما يطفئـون بها جمرتهـا، وهـو الاستعـانة بالصبر والصلاة، وأمر تعالى بالاستعاذة من الشيطان عند نزغاته.

ولما كانت المعاصي كلها تتولد من الغضب والشهوة، وكان نهاية قوة الغضب: القتل، ونهاية قوة الشهوة: الزنا ـ جمع الله تعالى بين القتل والزنا، وجعلهما قرينين

---
(١) ٩٤ الزاد جـ٢.

في سورة الأنعام وسورة الإسراء وسورة الفرقان وسورة الممتحنة. والمقصود أنه سبحانه أرشد عباده إلى ما يدفعون به شر قوتي الغضب والشهوة من الصلاة والاستعاذة. . .

(١)**فصل**: ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار، وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته. ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن الكريم ويبديه كقوله تعالى: ﴿**ومن آياته الليل والنهار**﴾ [فصلت: ٣٧] وقوله: ﴿**وهو الذي جعل لكم اللَّيل لِباسًا والنوم سُباتًا وجعل النهار نشورًا**﴾ [الفرقان: ٤٧]. وقوله عز وجل: ﴿**وهو الذي خلق الليل والنَّهار والشَّمس والقمر كل في فَلك يسبحون**﴾ [الأنبياء: ٣٣] وقوله عز وجل: ﴿**هو الذي جعل لكم اللَّيل لتسْكنوا فيه والنهار مُبصِرًا**﴾ [يونس: ٦٧]. وهذا كثير في القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته، وكيف جعل الليل سكنًا ولباسًا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب. حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار، يقدم جيشه بشير الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها. فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفًا، منعها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلف ذلك، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. وهذا أيضًا من آياته الباهرة أن يُعمي عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدي بها ولا يبصرها كمن هو واقف في الماء إلى حلقه، وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء. وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع إليه ويسأل.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**وترى الأرضَ هامِدة فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزت وربت**

(١) ٢٠٣ المفتاح جـ١.
(٢) ١٤٤ الإعلام جـ١.

وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾ [الحج: ٥-٧]. وقوله تعالى: **﴿ومِن آياته أنك ترى الأرضَ خاشِعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّت وربَت إنَّ الذي أحياها لُمحيي الموتَى إنه على كل شيء قدير﴾** [فصلت: ٣٩]. جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودلَّ بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلاً على خمسة مطالب أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله. الثاني: أنه يحيى الموتى. الثالث: عموم قدرته على كل شيء. الرابع: إتيان الساعة وأنها لاريب فيها. الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض.

وقد كرر سبحـانه ذكر هذا الدليل في كتابه مرارًا؛ لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقُرب تناوله، وبعده من كل معارضة وشُبهة، وجعله تبصرة وذكرى كما قال تعالى: **﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذِكرى لكل عبد منيب﴾** [ق: ٧، ٨]. فالمنيب إلى ربه يتذكر بذلك، فإذا تذكر تبصَّر به، فالتذكر قبل التبصر، وإن قُدِّم عليه في اللفظ كما قال تعالى: **﴿إن الذين اتَّقوا إذا مسَّهم طائِف من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مُبصِرون﴾** [الأعراف: ٢٠١]. والتذكر: تفَعُّل من الذكر، وهو حضور صورة من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهده على وجهه أوجَب له البصيرة، فأبْصر ما جعل دليلاً عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين: التذكر، والتبصر.

[(١)]**تنبيه**: ثم تأمل هذا الخلق الذي خص به الإنسان دون جميع الحيوان، وهو خلق الحياء، الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء. ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف، ولم يوف بالوعد، ولم يؤد أمانة، ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجل الجميل فآثره والقبيح فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة وكثير من

---

(١) ٢٧٧ المفتاح جـ١.

الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئًا من الأمور المفترضة عليه ولم يرع لمخلوق حقًا، ولم يصل له رحمًا، ولا بر له والدًا.

فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلها من الخلق. قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها. وفي الترمذي وغيره مرفوعًا: «**استحيوا من الله حق الحياء**»، قالوا: وما حق الحياء؟ قال: «**أن تحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وتذكر المقابر والبلى**». وقال ﷺ: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**» وأصح القولين فيه قول أبي عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى: ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾ وقوله: ﴿**كلوا وتمتعوا قليلاً**﴾. وقالت طائفة: هو إذن وإباحة، والمعنى أنك إذا أردت أن تفعل فعلا فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله، وإن كان مما لا يستحيا منه فافعله فإنه ليس بقبيح.

وعندي أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر. وهو في قوة قولهم: من لا يستحي صنع ما يشتهي، فليس بإذن، ولا هو مجرد تهديد، وإنما هو في معنى الخبر. والمعنى أن الرادع عن القبيح إنما هو الحياء فمن لم يستح فإنه يصنع ما شاء. وإخراج هذا المعنى في صيغة الطلب لنكتة بديعة جدًا وهي أن للإنسان آمرين وزاجرين. آمر وزاجر من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي. وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة. فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة. ولابد. فإخراج الكلام في قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال: من لا يستحي صنع ما يشتهي.

(١)**وقال** تعالى: ﴿**مَن عمل صالحًا فلنفسه ومَن أساء فعليها وما ربُّك بظلامٍ للعبيد**﴾ [فصلت: ٤٦] أي لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله. ولا يمنع المحسن من ثواب عمله.

(٢)**فتدبر** قوله تعالى: ﴿**وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تُصبهم سيئة بما قدَّمت أيديهم فإن الإنسان كفور**﴾ [الشورى: ٤٨] كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى بإذا وأتى في إصابة السيئة بأن، فإن ما يعفو الله عنه أكثر. وأتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق الوقوع، وفي حصول السيئة بالمستقبل الدال

---

(١) ١٣٦ المدارج جـ١. (٢) ٤٧ البدائع جـ١.

على أنه غير محقق ولابد. وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم، وأنها مذوقة لهم، والذوق هو أخص أنواع الملابسة وأشدها.

وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه فقال: (منا رحمة)، وأتى في السيئة بباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم. وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقة الرحمة بحرف إن دون الجملة الثانية. وأسرار القرآن أكثر وأعظم من أن يحيط بها عقول البشر. وتأمل قوله تعالى: ﴿**وإذا مسَّكم الضُّر في البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه**﴾ [الإسراء: ٦٧]. كيف أتى بإذا ههنا لما كان مس الضر لهم في البحر محققًا بخلاف قوله: ﴿**لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسَّه الشر فيئوس قنوط**﴾ [فصلت: ٤٩]. فإنه لم يقيد مسَّ الشر هنا بل أطلقه ولما قيده بالبحر الذي هو متحقق فيه ذلك أتى بأداة إذا.

وتأمل قوله تعالى: ﴿**وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسَّه الشر كان يؤسًا**﴾ [الإسراء: ٨٣] كيف أتى هنا بإذا المشعرة بتحقيق الوقوع المستلزم لليأس فإن اليأس إنما حصل عند تحقق مس الشر له فكان الإتيان بإذا هنا أدلَّ على المعنى المقصود من إن بخلاف قوله: ﴿**وإن مسَّه الشر فذو دعاء عريض**﴾ [فصلت: ٥١] فإنهِ بقلة صبره وضعف احتماله متى توقع الشر أعرض وأطال في الدعاء، فإذا تحقق وقوعه كان يؤسًا. ومثل هذه الأسرار في القرآن لا يرقى إليها إلا بموهبة من الله وفهم يؤتيه عبدًا في كتابه. . .

[1]**ومن** أسمائه تعالى «المؤمن» وهو - في أحد التفسيرين - المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم. فهو الذي صدَّق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه. وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم قضاء وخلقًا. فإنه سبحانه أخبر - وخبره الصدق وقوله الحق - أنه لابد أن يري العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم: أن الوحي الذي بلغته رسله حق. فقال تعالى: ﴿**سَنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنَّه الحق**﴾ [فصلت: ٥٣] أي القرآن؛ فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به**﴾ [فصلت: ٥٢]. ثم قال: ﴿**أولم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد**﴾

(١) ٤٦٦ الإعلام جـ٣.

[فصلت: ٥٣] فشهد سبحانه لرسوله بقوله أن ما جاء به حق. ووعده أن يُرِيَ العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضًا.

ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته سبحانه على كل شيء. فإن من أسمائه «الشهيد» الذي لا يغيب عنه شيء. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته. والأول استدلال بقوله وكلماته. والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته. فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته؛ فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا.

قلت: أجل! هو لعمر الله كما ذكرت، وشأنه أجل وأعلى؛ فإن الرب تعالى هو المدلول عليه، وآياته هي الدليل والبرهان.

فاعلم أن الله سبحانه في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته. فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات. وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود: أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص، فالكمال كله، والجمال والجلال والبهاء، والعزة والعظمة والكبرياء: كله من لوازم ذاته. يستحيل أن يكون على غير ذلك. فالحياة كلها له، والعلم كله له، القدرة كلها له، والسمع والبصر والإرادة، والمشيئة والرحمة والغنى، والجود والإحسان والبر، كله خاص له قائم به. وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى مالم يعرفوه.

ومن كماله المقدس: اطلاعه على كل شيء، وشهادته عليه، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته، باطنًا وظاهرًا. ومَن هذا شأنه: كيف يليق بالعباد أن يشركوا به؟ وأن يعبدوا معه غيره؟ وأن يجعلوا معه إلهًا آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يُقِرَّ من يكذِب عليه أعظم الكذب؟ ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته، ويرفع شأنه، ويجيب دعوته، ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر. وهو ـ مع ذلك ـ كاذب عليه مفتر، ساع في الأرض بالفساد.

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء، وقدرته على كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء. ومن ظن ذلك به، وجَوَّزه عليه: فهو من أبعد الخلق من معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة وصفة المشيئة.

والقرآن مملوء من هذه الطريق. وهي طريق الخاصة، بل خاصة الخاصة هم الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله. وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك، فيبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واعٍ عن الله. قال الله تعالى: ﴿**ولَو تقوَّل علينا بعض الأقاويل**﴾ [الحاقة: ٤٤] إلى قوله تعالى ﴿**عنه حاجزين**﴾ أفلا تراه كيف يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل بل لابد أن يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه...

(١)**ومن** الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم، وأدلة نبوتهم يحدثها الله سبحانه وتعالى في الأرض، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل، حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره. كما قال: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ [فصلت: ٥٣]. وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن، بل لابد أن يري الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو وأن رسله صادقون وآيات الأرض أعظم مما ذكر وأكثر، فنبه باليسير منها على الكثير(٢).

(٣)**الرب** تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين: أحدهما النظر في مفعولاته. والثاني: التفكر في آياته وتدبرها. فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة. فالنوع الأول كقوله: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**﴾ [البقرة: ١٦٤]. إلى آخرها. وقوله: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾ [آل عمران: ١٩٠] وهو كثير في القرآن. والثاني كقوله: ﴿**أفلا يتدبرون القُرآن**﴾ [النساء: ٨٢]. وقوله: ﴿**أفلم يدبروا القول**﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقوله: ﴿**كِتابٌ أنزلناه إليك مبارك ليدَّبروا آياته**﴾ [ص: ٢٩]، وهو كثير أيضًا.

(١) ١٨٩ التبيان. (٢) يأتي في الذاريات البحث كاملاً إن شاء الله تعالى. (ج). (٣) ٢٠ الفوائد.

(١)**فأما** المفعولات فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فإن المفعـول يدل على فاعـل فعله، وذلـك يستلزم وجـوده وقدرته ومشيئته وعلمه؛ لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معلوم أو موجود لاقدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة. ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل، وأن فعله ليس بالـطبـع بحيث يكـون واحدًا غير متكرر. وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى. وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته. وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال على غضبه. وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته. وما فيها من الإهانة والإبعاد والخـذلان دال على بغضـه ومقتـه. ومـا فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد. وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكـان المعـاد. وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات. وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها. فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه. فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات.

قال تعالى: ﴿سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتَّى يتبين لهم أنَّه الحق﴾ [فصلت: ٥٣] أي: أن القرآن حق، فأخبر أنه لابد أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق. ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فآياته شاهدة بصدقه، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، فهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل لي على كل شيء، فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه. ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿أفي الله شك﴾ [إبراهيم: ١٠] فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل. فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة فصلت

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الشُّورَىٰ

ترتيبها ٤٢ — آياتها ٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **قوله:** ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فإنه سبحانه ذكر ذلك عقب ذكر نعوت كماله وأوصافه فقال ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ * كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١ـ١١] . فهذا الموصوف بهذه الصفات والأفعال والعلو والعظمة والحفظ والعزة والحكمة والملك والحمد والمغفرة والرحمة والكلام والمشيئة والولاية وإحياء الموتى والقدرة التامة الشاملة والحكم بين عباده وكونه فاطر السموات والأرض وهو السميع البصير. فهذا هو الذي ليس كمثله شيء لكثرة نعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله، وثبوتها على وجه الكمال الذي لا يماثله فيه شيء. فالمثبت لصفات كماله هو الذي يصفه أنه ليس كمثله شيء. وأما المعطل النافي لصفاته وحقائق أسمائه فإن وصفه بأنه ليس كمثله شيء مجاز لا حقيقة له، كما يقول في سائر أوصافه وأسمائه.

(٢) **وقال** تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾[الشورى: ١٠]، وهذا نص صريح في أن حكم جميع ما تنازعنا فيه مردود إلى الله وحده، فهو الحاكم فيه على لسان رسوله. فلو قدم حكم العقل على حكمه لم يكن هو الحاكم بكتابه. وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] فأمر باتباع الوحي المنزل وحده ونهى عما خالفه، وأخبر أن كتابه بينة وهدى وشفاء ورحمة ونور مفصلاً وبرهانا وحجة وبيانا. فلو كان في العقل

(١) ٢١٢ مختصر الصواعق جـ١ .　　(٢) ١٤١ مختصر الصواعق جـ١ .

ما يعارضه ويجب تقديمه على القرآن لم يكن فيه شيء من ذلك، بل كانت هذه الصفات للعقل دونه. (١)قال الله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١].

قلت: وجه تعلقه بإشارة الآية: هو أن الله ـ سبحانه ـ يعيشكم فيما خلق لكم من الأنعام المذكورة. قال الكلبي: يكثركم في هذا التزويج. ولولا هذا التزويج لم يكثر النسل. والمعنى: يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر: من جعله لكم أزواجا. فإن سبب خلقنا وخلق الحيوان: بالأزواج، والضمير في قوله «فيه» يرجع إلى الجعل. ومعنى «الذرء» الخلق، وهو هنا الخلق الكثير، فهو خلق وتكثير. فقيل «في» بمعنى الباء، أى يكثركم بذلك. وهذا قول الكوفيين. والصحيح: أنها على بابها. والفعل تضمن معنى «ينشئكم» وهو يتعدى بفي. كما قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(الواقعة: ٦١) فهذا تفسير الآية.

ولما كانت الحياة حياتين: حياة الأبدان، وحياة الأرواح. وهو ـ سبحانه ـ الذي يحيي قلوب أوليائه وأرواحهم بإكرامه ولطفه وبسطه ـ كان ذلك تنمية لها وتكثيراً وذرءًا. والله أعلم.

(٢)**قوله** سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورى: ١١)، إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك، أو معبود يستحق العبادة والتعظيم، كما يفعله المشبهون والمشركون. ولم يقصد به نفي صفات كماله، وعلوه على خلقه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لرسله، ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم، كما تُرى الشمس والقمر في الصحو. فإنه سبحانه إنما ذكر هذا في سياق رده على المشركين، الذين اتخذوا من دونه أولياء. يوالونهم من دونه. فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ * وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ

(١) ٢٩٩ مدارج جـ٣	(٢) ٢٣١ إغاثة جـ٢.

لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ٦ - ١١].

فتأمل. كيف ذَكَرَ هذا النَّفْيَ تقريرًا للتوحيد، وإبطالاً لما عليه أهلُ الشرك: من تشبيهِ آلهتهمْ، وأوْلِيائهم به، حتى عبدوهم معه. فَحَرَّفَها المحرِّفون وجَعلوها تُرْسًا لهم في نَفْيِ صفات كماله، وحَقَائق أسمائه وأفعاله.

وهذا التشبيهُ الذي أبْطَلُه الله ـ سبحانه ـ نَفْيًا ونَهْياً: هو أصلُ شركِ العالم، وعبادةِ الأصنام. ولهذا نَهى النبيُّ ﷺ، أن يَسْجُدَ أحدٌ لمخلوقٍ مثله(١)، أو يحلف بمخلوق مثله(٢)، أو يُصَلِّي إلى قبرٍ، أو يَتخَذَ عليه مسجدًا، أو يُعلِّق عليه قنديلاً أو يقول القائل: ما شاء الله وشاء فلان، ونحو ذلك، حذراً من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك. وأما إثبات صفات الكمالِ فهو أصلُ التوحيد.

فتبين أن المشبهة هم الذين يُشبهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم والخضوع، والحلف به، والنذر له، والسجود له، والعكوف عند بيته، وحلق الرأس له، والاستغاثة به، والتشريك بينه وبين الله، في قولهم: ليس لى إلا الله وأنتَ، وأنا مُتَّكِلٌ على الله وعليك. وهذا من الله ومنك. وأنا في حسب الله وحسبك، وما شاء الله وشئت. وهذا لله ولك. وأمثال ذلك.

فهؤلاء هم المشبهة حقًّا، لا أهل التوحيد، المثبتون لله ما أثبته لنفسه، والنافون عنه ما نفاه عن نفسه، الذين لا يجعلون له ندًّا من خلقه، ولا عدلا، ولا كفؤا، ولا سَمِيًّا. وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع.

---

(١) روى أحمد بإسناد جيد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر. ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها**» في حديث طويل فيه سجود الجمل للنبي، ﷺ. وروى هذا المعنى أيضًا أبو داود عن قيس بن سعد. ورواه ابن ماجه وابن حبان عن ابن أبي أوفى في قصة قدوم معاذ بن جبل من الشام. وسجوده للنبي، ﷺ، لما رأى أهل الشام يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم.

(٢) روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي، (ﷺ) سمع عمر يحلف بأبيه فقال: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم. فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**» وروى أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن ابن عمر أن النبي، ﷺ قال: «**من حلف بغير الله فقد كفر**» وفي رواية «**فقد أشرك**».

فمن تدبر هذا الفصل حَقَّ التدبر تبين له كيف وقعت الفتنة في الأرض بعبادة الأصنام، وتبين له سرُّ القرآن في الإنكار على هؤلاء المشبهة الممثلة، ولاسيَّما إذا جمعوا إلى هذا التشبيه تعطيل الصفات والأفعال. كما هو الغالب عليهم. فيجمعون بين تعطيل الرب ـ سبحانه ـ عن صفات كماله، وبين تشبيه خلقه به.

(1)**الوجه** الثالث والثلاثون أنه ـ سبحانه ـ وصف نفسه بأنه ليس كمثله شيء. وأنه لا سمي له ولا كفؤ له. وهذا يستلزم وصفه بصفات الكمال التي فات بها شبه المخلوقين واستحق بقيامها أن يكون ليس كمثله شيء وهكذا كونه ليس له سمي، أي مثيل يساميه في صفاته وأفعاله ولا من يكافيه فيها. ولو كان مسلوب الصفات والأفعال والكلام والاستواء والوجه واليدين ومنفيا عنه مباينة العالم ومحايثته واتصاله به وانفصاله عنه وعلوه عليه وكونه يمنته أو يسرته أو أمامه أو وراءه لكان كل عدم مثلا له في ذلك، فيكون قد نفى عن نفسه مماثلة الموجودات وأثبت لها مماثلة المعدومات، فهذا النفي واقع على أكمل الموجودات، وعلى العدم المحض، فإن العدم المحض لا مثل له ولا كفؤ ولا سمي.

فلو كان المراد بهذا نفي صفاته وأفعاله واستوائه على عرشه وتكلمه بالوحي وتكليمه لمن يشاء من خلقه؛ لكان ذلك وصفا له بغاية العدم. فهذا النفي واقع على العدم المحض. وعلى من كثرت أوصاف كماله حتى تفرد بذلك الكمال فلم يكن له شبيه في كماله ولا سمي ولا كفؤ.

فإذا أبطلتم هذا المعنى الصحيح تعين ذلك المعنى الباطل قطعاً، وصار المعنى أنه لا يوصف بصفة أصلاً، فلا يفعل فعلاً، ولا وجه له، ولا يد، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يعلم، ولا يقدر، تحقيقًا لمعنى ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾.

وقال أخوانكم من الملاحدة: ليس له ذات أصلاً تحقيقًا لهذا النفي.

وقال غلاتهم: لا وجود له. تحقيقًا لهذا النفي.

وأما الرسل واتباعهم فإنهم قالوا: إن الله حي. وله حياة، وليس كمثله شيء في حياته. وهو قوي، وله القوة، وليس كمثله شيء في قوته. ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ**

(1) ٢٠٧ مختصر الصواعق جـ١.

الْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] يسمع ويبصر. وليس كمثله شيء في سمعه وبصره. ومتكلم. وله يدان. ومستوٍ على عرشه. وليس له في هذه الصفات مثل: فهذا النفي لا يتحقق إلا بإثبات صفات الكمال، فإنه مدح له وثناء أثنى به على نفسه. والعدم المحض لا يمدح به أحد ولا يكون كمالا له بل هو أنقص النقص. وإنما يكون كمالا إذا تضمن الإثبات كقوله تعالى: **﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾**(البقرة: ٢٥٥)، لكمال حياته وقيوميته.

وقوله ﴿مَنْ ذَا الذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بإذْنِهِ﴾ لكمال غناه وملكه وربوبيته.

وقوله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(فصلت: ٤٦) **﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾**[الكهف: ٤٩]، لكمال غناه وعدله ورحمته، وقوله: **﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾** [ق: ٣٨] لكمال قدرته. وقوله: **﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾** [يونس: ٦١] لكمال علمه. وقوله: **﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾**(الأنعام: ١٠٣) لعظمته وإحاطته بما سواه وأنه أكبر من كل شيء. وأنه واسع، فيُرىٰ ولكن لا يحاط به إدراكا، كما يُعلمُ ولا يُحاط به علمًا، فيُرىٰ ولا يُحاط به رؤية. وهكذا ليس كمثله شيء هو متضمن لإثبات جميع صفات الكمال على وجه الإجمال.

وهذا هو المعقول في فطر الناس. فإذا قالوا: فلان عديم المثل، أو قد أصبح ولا مثل له في الناس. أو ماله شبيه، ولا من يكافيه. فإنما يريدون بذلك أنه تفرد من الصفات والأفعال والمجد بما لا يلحقه فيه غيره. فصار واحدًا في الجنس لا مثيل له، ولو أطلقوا ذلك عليه باعتبار نفي صفاته وأفعاله ومجده؛ لكان ذلك عندهم غاية الذم والنقص له.

فإذا أطلقوا ذلك في سياق المدح والثناء لم يشك عاقل في أنه إنما أراد كثرة أوصافه وأفعاله وأسمائه التي لها حقائق تحمل عليها.

فهل يقول عاقل لمن لا قدرة له ولا علم ولا بصر ولا يتصرف بنفسه ولا يفعل شيئًا ولا يتكلم ولا له وجه ولا يد ولا قوة ولا فضيلة من الفضائل: إنه لا شبه له، ولا مثل له، وأنه وحيد دهره، وفريد عصره، ونسيج وحده، وهل فطر الله الأمم وأطلق ألسنتهم ولغاتهم إلا على ضد ذلك؟ وهل كان رب العالمين أهل الثناء والمجد إلا بأوصاف كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه الحسنى؟ وإلا فبماذا يثني

عليه المثنون! ولأي شيء يقول أعرف الخلق به: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»؟ ومعلوم أن هذا الثناء الذي أخبر أنه لا تحصيه لو كان بالنفي لكان هؤلاء أعلم به منه وأشد إحصاء له فإنهم نفوا عنه حقائق الأسماء والصفات نفياً مفصلاً. وذلك مما يحصيه المحصي بلا كلفة ولا تعب. وقد فصله النفاة وأحصوه وحصروه.

(١)**قال** تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٣ - ١٥].

فأخبر - تعالى - أنه شرع لنا دينه الذي وصّى به نوحا والنبيين من بعده، وهو دين واحد، ونهانا عن التفريق فيه، ثم أخبرنا أنه ما تفرق من قبلنا في الدين إلا بعد العلم الموجب للإثبات وعدم التفرق، وأن الحامل على ذلك التفرق البغي من بعضهم على بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها ولقولها دون غيرها. وإذا تأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيته صادرًا عن هذا بعينه.

ثم أمر سبحانه نبيه أن يدعو إلى دينه الذي شرعه لأنبيائه، وأن يستقيم كما أمره ربه، وحذره من اتباع أهواء المتفرقين.

وأمره أن يؤمن بكل ما أنزله الله من الكتب، وهذه حال المحق أن يؤمن بكل ما سمعه من الحق على لسان أي طائفة كانت.

ثم أمره أن يخبرهم بأنه أمر بالعدل بينهم، وهذا يعم العدل في الأقوال والأفعال والآراء والمحاكمات كلها، فنصبه ربه ومرسله للعدل بين الأمم، فهكذا وارثه ينتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب، ونسبته منها إلى القدر المشترك بينهما من الحق، فهو أولى به وبتقريره وبالحكم لمن خاصم به.

(١) ٥٧ مفتاح جـ٢.

ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد، فما الحامل للتفرق والاختلاف، وهو ربنا وربكم والدين واحد، ولكل عامل عمله لا يعدوه إلى غيره.

ثم قال: ﴿**لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ [الشورى: ١٥] والحجة ههنا هي الخصومة أي للخصومة، ولا وجه لخصومة بيننا وبينكم، بعد ما ظهر الحق، وأسفر صبحه، وبانت أعلامه، وانكشفت الغمة عنه. وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما يظنه بعض من لا يدري ما يقول وأن الدين لا احتجاج فيه.

كيف والقرآن من أوله إلى آخره حجج وبراهين على أهل الباطل قطعية يقينية وأجوبة لمعارضتهم وإفسادا لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين وإخبارًا عن أنبيائه ورسله بإقامة الحجج والبراهين، وأمر لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن، وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج وإفساد حجج الخصم.

وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن.

وقد ناظر النبي، ﷺ جميع طوائف الكفر أتم مناظرة وأقام عليهم ما أفحمهم به من الحجج، حتى عدل بعضهم إلى محاربته بعد أن عجز عن رد قوله وكسر حجته، واختار بعضهم مسالمته ومتاركته، وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم وأخذها بكظمهم وأسرها لنفوسهم، وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له الحجة، ولم يجد إلى ردها سبيلا، وما خالفه أعداؤه إلا عنادًا منهم وميلا إلى المكابرة بعد اعترافهم بصحة حججه وأنها لا تدفع، فما قام الدين إلا على ساق الحجة. فقوله: ﴿**لا حجة بيننا وبينكم**﴾ أى لا خصومة فإن الرب واحد فلا وجه للخصومة فيه ودينه واحد، وقد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبق للاحتجاج والمخاصمة فائدة، فإن فائدة الاحتجاج ظهور الحق ليتبع، فإذا ظهر وعانده المخالف وتركه جحودًا وعنادًا لم يبق للاحتجاج فائدة، فلا حجة بيننا وبينكم أيها الكفار، فقد وضح الحق واستبان، ولم يبق إلا الإقرار به أو العناد، والله يجمع بيننا يوم القيامة فيقضي للمحق على المبطل وإليه المصير. قالوا وها نحن نتحرى القسط بين الفريقين...[1]

[2]**قول** النبي ﷺ: **«الأنبياء أولاد علات»** وفي لفظ **«أخوة من علات،**

(١) بحث المؤلف هنا بحثًا مطولاً إجمالاً وتفصيلاً (ج).

(٢) ٢٠١ بدائع جـ٣.

أمهاتهم شتى، ودينهم واحد». قال الجوهري: بنو العلّات، هم أولاد الرجل من نسوة شتى، سميت بذلك لأن الذي تزوجها علّ أولى كانت قبلها، ثم علّ من الثانية. العلل: الشرب الثاني، يقال له: علَّل بعد نهل، وعلّه يعلّه، إذا سقاه السقية الثانية.

وقال غيره: سموا بذلك، لأنهم أولاد ضرائر، والعلات: الضرائر، وهذا الثاني أظهر: وأما وجه التسمية، فقال جماعة منهم القاضي عياض وغيره، معناه أن الأنبياء مختلفون في أزمانهم، وبعضهم بعيد الوقت من بعض، فهم أولاد علات إذ لم يجمعهم زمان واحد، كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد، وعيسى لما كان قريب الزمان من النبي، ﷺ ولم يكن بينهما نبي كانا كأنهما في زمان واحد، فقال ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ**» قالوا: كيف يارسول الله؟ فقال: **الأنبياء أخوة من علّات**» الحديث.

وفيه وجه آخر أحسن من هذا، وهو أن النبي ﷺ شبه دين الأنبياء الذي اتفقوا عليه من التوحيد وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، والايمان به، وبملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه: بالأب الواحد لاشتراك جميعهم فيه، وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم. فقال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾[الشورى: ١٣].

وقال البخاري في صحيحه: باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد، وذكر هذا الحديث، وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه ورسله من أولهم نوح إلى خاتمهم محمد ﷺ، فهو بمنزلة الأب الواحد. وأما شرائع الأعمال والمأمورات فقد تختلف، فهي بمنزلة الأمهات الشتى التي كان لقاح تلك الأمهات من أب واحد، كما أن مادة تلك الشرائع المختلفة من دين واحد متفق عليه.

فهذا أولى المعنيين بالحديث. وليس في تباعد أزمنتهم ما يوجب أن يشبه زمانهم بأمهاتهم ويجعلون مختلفي الأمهات لذلك، وكون الأم بمنزلة الشريعة، والأب بمنزلة الدين وأصالة هذا وتذكيره. وفرعيته: الأم وتأنيثها واتحاد الأب وتعدد الأم ما يدل على أنه معنى الحديث والله أعلم.

. . .(١)**قال** تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ [الشورى:١٦]. والحجة هي اسم لما يحتج به من حق وباطل. قال تعالى: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**﴾[البقرة:١٥٠]. فإنهم يحتجون عليكم بحجة باطلة: ﴿**فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي**﴾[البقرة:١٥٠]. وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّاكَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الجاثية: ٢٥].

والحجة المضافة إلى الله هي الحق. وقد تكون الحجة بمعنى: المخاصمة، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ**﴾ [الشورى:١٥] أي قد وضح الحق واستبان وظهر، فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة، فإن الجدال شريعة موضوعة للتعاون على إظهار الحق، فإذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة في الخصومة. . .

(٢)**والمقصود** الفرق بين الحجج والبينات. فنقول: الحجج الأدلة العلمية.

والبينات جمع بينة وهي صفة في الأصل، يقال: آية بينة، وحجة بينة، والبينة اسم لكل مايبين الحق من علامة منصوبة، أو أمارة، أو دليل علمي، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ**﴾ [الحديد: ٢٥].

فالبينات الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات، والكتاب هو الدعوة. وقال تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ**﴾ [آل عمران:٩٦: ٩٧] ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار وهو من آيات الله الموجودة في العالم. ومنه قول موسى لفرعون وقومه: ﴿**قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه**﴾ [الأعراف:١٠٧]. **وكان إلقاء العصا وانقلابها حية هو البينة**. . .

(٣)**العبد** دائماً متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج - بل

---

(١) ١٤٥ مفتاح جـ١.
(٢) ١٤٦ مفتاح جـ١.
(٣) ٢٠٢ فوائد.

مضطر - إلى العون عند الأوامر، وإلى اللطف عند النوازل، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهرًا وباطنًا، ناله اللطف ظاهرًا وباطنًا، وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها، ناله اللطف في الظاهر وقل نصيبه من اللطف في الباطن.

فإن قلت: وما اللطف الباطن؟ فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة، وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذى بين يدي سيده ذليلاً له، مستكينًا ناظرًا إليه بقلبه، ساكنًا إليه بروحه وسره، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض يجري عليه سيده أحكامه رضي أو سخط، فإن رضي نال الرضا، وإن سخط فحظه السخط. فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة، يزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها.

(١)**وسأله** ﷺ عُبادة بن الصامت، فقال: رجل أهدى إلي قَوْسًا ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن، وليست بمال، وأرمي عليها في سبيل الله، فقال: «**إن كنت تحبُّ أن تُطوَّقَ طوقًا من نارٍ فاقْبَلْهَا**».

ولا ينافي هذا قوله: «**إن أحَقَّ ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله**» في قصة الرُّقْيَة؛ لأن تلك جَعَالة على الطب؛ فطبَّه بالقرآن، فأخذ الأجرة على الطب، لا على تعليم القرآن، وههنا منعه من أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ فإن الله تعالى قال لنبيه: ﴿**قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال تعالى: ﴿**قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ**﴾ [سبأ: ٤٧] وقال تعالى: ﴿**اتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا**﴾ [يس: ٢١] فلا يجوز أخذ الأجرة على تبليغ الإسلام والقرآن.

(٢)**ونحن** (٣) نمنع من أخذ الأجرة على كل قربة، ونحبط بأخذ الأجر عليها: كالقضاء، والفتيا، وتعليم العلم، والصلاة، وقراءة القرآن، وغيرها؛ فلا يثيب الله عليها إلا لمخلص أخلص العمل لوجهه، فإذا فعله للأجرة لم يثب عليه

---

(١) ٣٣٣ أعلام جـ٤. (٢) ١٦٣ الروح.

(٣) هذا البحث في إهداء القربات والطاعات عامة بتفصيل ومناقشة للأدلة في المسألة السادسة عشرة بكاملها من كتاب الروح بدءًا من ص١٤٥ وانتهاءً بـ ص١٧٧ لمن أراده (ج).

الفاعل ولا المستأجر، فلا يليق بمحاسن الشرع أن يجعل العبادات الخالصة له معاملات تقصد بها المعاوضات والأكساب الدنيوية. وفارق قضاء الديون وضمانها فإنها حقوق الآدميين ينوب بعضهم فيها عن بعض فلذلك جازت في الحياة وبعد الموت.

(١)**استدل** شيعي على الوصية لأهل البيت بقوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

فأجيب بأن قيل: هذه وصية بهم لاوصية إليهم فهي حجة على خلاف قول الشيعة، لأن الأمر لو كان إليهم لأوصاهم ولم يوص بهم.

ونظير هذا الاحتجاج على أن الأمر في قريش لا في الأنصار بقول النبي ﷺ: «**أوصيكم بالأنصار**» فدل على أن الأمر في غيرهم.

قلت وهذا كله خروج عن معنى الآية وماأريد بها، ولا دلالة فيها لواحدة من الطائفتين، فإن معنى الآية: لا أسألكم عليه أجرًا إلا أن تصلوا مابيني وبينكم من القرابة، فإنه لم يكن بطن من قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة فقال: «**لاأسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا، ولكن صلوا بيني وبينكم من القرابة**» **وليست هذه الصلة أجرًا**، فالاستثناء منقطع، فإن الصلة من موجبات الرحم، فهي واجبة على كل أحد، وهذا هو تفسير ابن عباس الذي ذكره البخاري عنه في صحيحه.

(٢)**وقال** تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] ههنا انتهى جواب الشرط، ثم أخبر خبرًا جازمًا غير معلق أنه ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ [الشورى: ٢٤].

(٣)**قوله** تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤] وفي معنى الآية للناس قولان:

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل: إن يشاء الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، حتى لايشق عليك. والثاني قول قتادة: إن يشاء الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي. وهذا القول دون الأول لوجوه:

---

(١) ١٢٩ بدائع جـ٣. (٢) ٤٦٨ مدارج جـ٣. (٣) ١١٥ التبيان.

أحدها: أن هذا خرج جوابًا لهم وتكذيبًا لقولهم: إن محمدًا كذب على الله، وافترى عليه هذا القرآن. فأجابهم بأحسن جواب، وهو أن الله ـ تعالى ـ قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه، فيعود المعنى إلى أنه لو افترى علي لم أمكنه ولم أقره.

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه؛ فإن فيه من علوم الأولين والآخرين، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة، والعلم الذي لا يعلمه إلا الله والبيان التام، والجزالة، والفصاحة والجلالة، والأخبار بالغيوب ما لم يمكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه ـ لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه. فأين هذا المعنى إلى المعنى الذي ذكره الآخرون؟ وكيف يلتئم من حكاية قولهم؟ وكيف يتضمن الرد عليهم؟(١)

(٢)**قال** ابن عقيل: الأموال التي يأخذها القضاة أربعة أقسام: رشوة، وهدية، وأجرة، ورزق.

فالرشوة حرام وهي ضربان: رشوة ليميل إلى أحدهما بغير حق، فهذه حرام عن فعل حرام على الآخذ والمعطي وهما آثمان. ورشوة يعطاها ليحكم بالحق واستيفاء حق المعطي من دين ونحوه، فهي حرام على الحاكم دون المعطي لأنها للاستنقاذ، فهي كجعل الآبق وأجرة الوكلاء في الخصومة.

وأما الهدية فضربان: هدية كانت قبل الولاية فلا تحرم استدامتها. وهدية لم تكن إلا بعد الولاية وهي ضربان. مكروهة وهي الهدية إليه ممن لا حكومة له. وهدية ممن قد اتجهت له حكومة فهي حرام على الحاكم والمهدي.

وأما الأجرة فإن كان للحاكم رزق من الإمام من بيت المال حرم عليه أخذ الأجرة قولًا واحدًا، لأنه إنما أجري له الرزق لأجل الاشتغال بالحكم، فلا وجه لأخذ الأجرة من جهة الخصوم. وإن كان الحاكم لا رزق له فعلى وجهين: أحدهما الإباحة لأنه عمل مباح، فهو كما لو حكاه، ولأنه مع عدم الرزق لا يتعين عليه الحكم فلا يمنع من أخذ الأجرة: كالوصي وأمين الحاكم يأكلان من مال اليتيم بقدر الحاجة.

(١) أوصلها الشيخ إلى عشرة أوجه تأتي إن شاء الله في سورة الحاقة (ج). (٢) ١٤٦ بدائع جـ٣.

وأما الرزق من بيت المال فإن كان غنيًا لا حاجة له إليه، احتمل أن يكره، لئلا يضيق على أهل المصالح، ويحتمل أن يباح لأنه بذل نفسه لذلك، فصار كالعامل في الزكاة والخراج.

قلت: أصـل هذه المسائل عامل الزكاة وقيم اليتيم. فإن الله ـ تعالى ـ أباح لعامل الزكاة جزأ منها، فهو يأخذه مع الفقر والغنىٰ، والنبي ﷺ منعه من قبول الهدية، وقال: «**هلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر هل يهدى إليه أم لا**».

وفي هذا دليل على أن ماأهدي إليه في بيته ولم يكن سببه العمل على الزكاة جاز له قبوله، فيدل ذلك على أن الحاكم إذا أهدى إليه من كان يهدي له قبل الحكم ولم تكن ولايته سبب الهدية فله قبولها.

وأما ناظر اليتيم فالله ـ تعالى ـ أمره بالاستعفاف مع الغنى، وأباح له الأكل بالمعروف مع الفقر. وهو إما اقتراض أو إباحة على الخلاف فيه.

والحاكم فرع متردد بين أصلين: عامل الزكاة، وناظر اليتيم.

فمن نظر إلى عموم الحاجة إليه، وحصول المصلحة العامة به ألحقه بعامل الزكاة، فيأخذ الرزق مع الغنى كما يأخذه عامل الزكاة.

ومن نظر إلى كونه راعيًا منتصبًا لمعاملة الرعية بالأحظ لهم ألحقه بولي اليتيم إن احتاج أخذ وإن استغنى ترك.

وهذا أفقه وهو مذهب الخليفتين الراشدين قال عمربن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة ولي اليتيم، إن احتاج أكل بالمعروف، وإن استغنى ترك. والفرق بينه وبين عامل الزكاة، أن عامل الزكاة مستأجر من جهة الإمام لجباية أموال المستحقين لها وجمعها، فما يأخذ يأخذه بعمله كمن يستأجره الرجل لجباية أمواله.

وأما الحاكم فإنه منتصب لإلزام الناس بشرائع الرب تبارك وتعالى وأحكامه وتبليغها إليهم فهو مبلغ عن الله تعالى عز وجل بفتياه، ويتميز عن المفتي بالإلزام بولايته وقدرته، والمبلغ عن الله تعالى الملزم للأمة بدينه لايستحق عليهم شيئًا، فإن كان محتاجًا فله من الفيء مايسد حاجته، وهذا لون وعامل الزكاة لون فالحاكم مفتي في خبره عن حكم الله ورسوله شاهد فيما ثبت عنده، ملزم لمن توجه عليه

الحق، فيشترط له شروط المفتي، والشاهد، ويتميز بالقدرة على التنفيذ فهو في منصب خلافة من قال: ﴿لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

فهؤلاء هم الحكام المقدر وجودهم في الأذهان المفقودون في الأعيان، الذين جعلهم الله ظلالاً يأوي إليها اللهفان ومناهل يردها الظمآن.

(١)**والفرق** بين الهدية والرشوة وإن اشتبها في الصورة والقصد؛ فإن الراشي قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل، فهذا الراشي الملعون على لسان رسول الله ﷺ، فإن رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشي وحده باللعنة.

وأما المهدي فقصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان، فإن قصد المكافأة فهو معاوض وإن قصد الربح فهو مستكثر.

(٢)فائدة

الجاهل يشكو الله إلى الناس؛ وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم.

ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته. فقال: «ياهذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك». في ذلك قيل:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما		تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس، فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه، فهو ناظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ [النساء: ٧٩] وقوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فالمراتب ثلاثة: أخسها أن تشكو الله إلى خلقه، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه، وأوسطها أن تشكو خلقه إليه.

(٣)**قال** تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]. فكل مايقضى على العبد فهو عدل فيه.

(١) ٢٩٣ الروح.		(٢) ٨٦ فوائد.		(٣) ٢٤ فوائد.

فإن قيل فالمعصية عندكم بقضائه وقدره، فما وجه العدل في قضائها؟ فإن العدل في العقوبة عليها ظاهر. قيل هذا سؤال له شأن، ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور، والظلم ممتنع لذاته.

قالوا: لأن الظلم هو التصرف في ملك الغير، والله له كل شيء، فلا يكون تصرفه في خلقه إلا عدلاً.

وقالت طائفة: بل العدل أنه لايعاقب على ماقضاه وقدره، فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم أنه ليس بقضائه وقدره، فيكون العدل هو جزاؤه على الذنب بالعقوبة، والذم إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر، فزعموا أن من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل، ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر، كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات، فزعموا أنه لايمكنهم إثبات التوحيد إلا بإنكار الصفات، فصار توحيدهم تعطيلاً وعدلهم تكذيبًا بالقدر.

وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين، والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه؛ كتعذيب المطيع ومن لاذنب له، وهذا قد نزه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه، وهو ـ سبحانه ـ وإن أضل من شاء وقضى بالمعصية والغيّ على من شاء، فذلك محض العدل فيه؛ لأنه وضع الإضلال والخذلان في موضعه اللائق به.

كيف ومن أسمائه الحسنى: العدل الذي كل أفعاله وأحكامه: سداد، وصواب، وحق، وهو ـ سبحانه ـ قد أوضح السبل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأزاح العلل، ومكّن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول؛ وهذا عدله، ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله وخلى بينه وبين نفسه، ولم يرد ـ سبحانه ـ من نفسه أن يوفقه فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله.

وهذا نوعان: أحدهما ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه وإيثار عدوه في الطاعة والموافقة عليه، وتناسى ذكره وشكره، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه.

والثاني أن لايشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لايعرف قدر نعمة الهداية ولايشكره عليه، ولايثني عليه بها، ولايحبه فلا يشاؤها له، لعدم صلاحية محله.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]. فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض العدل، كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى العقرب وعلى الكلب العقور، كان ذلك عدلاً فيه، وإن كان مخلوقًا على هذه الصفة. وقد استوفينا الكلام في هذا في كتابنا الكبير في القضاء والقدر.

(١)**فصل** والصبر على الابتلاء ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن تخلق فلابد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاء.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوى، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة، أو الصبر والرضا على أحد القولين، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى، فلابد له منه وإلا تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة.

قال علي بن أبي طالب: مانزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة.

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضى له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه، فلينزل إلى مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه نزل إلى مقام الظلم وتعدي الحق.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه، ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلاً.

الثامن: أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم مالم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته

(١) ٢٧٦ طريق الهجرتين.

وحسن تأثيره. قال الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقال الله تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] وفي مثل هذا قال القائل:

لعلَّ عتبكَ محمودٌ عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه. فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجتباه، وخلع عليه خلع الإكرام، وألبسه ملابس الفضل، وجعل أولياءه وحزبه خدمًا له وعونًا له، وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طرد، وصفع قفاه، وأقصي، وتضاعفت عليه المصيبة، وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أن المصيبة في حقه صارت نعمًا عديدة. ومابين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة، وتشجيع القلب في تلك الساعة. والمصيبة لابد أن تقلع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات، وعن الآخر بالحرمان والخذلان، لأن ذلك تقدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

العاشر: أن يعلم أن الله يربي عبده على السراء والضراء، والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال. فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته. فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة. وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية. فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه: فإما أن يخرج تبرًا أحمر، وإما أن يخرج زغلاً محضًا، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه، ويبقى ذهبًا خالصًا.

فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه: «**اللهم أعني على: ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**».

وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج خبثه ونحاسه وصبره تبرًا خالصًا يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟ فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر. فنسأل الله أن يسترنا بعافيته، ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه.

(١)**فصل** والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الأسباب، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة. ومن أقوى أسبابها الإيمان والمحبة، فكلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه.

وههنا مسألة تكلم فيها الناس، وهي أي الصبرين أفضل: صبر العبد عن المعصية، أم صبره على الطاعة؟ فطائفة رجحت الأول، وقالت: الصبر عن المعصية من وظائف الصدّيقين، كما قال بعض السلف: أعمال البر يفعلها البر والفاجر، ولا يقوى على ترك المعاصي إلا صدّيق.

قالوا: ولأن داعي المعصية أشد من داعي ترك الطاعة، فإن داعي المعصية إلى أمر وجودي تشتهيه النفس وتلتذ به، والداعي إلى ترك الطاعة الكسل والبطالة والمهانة، ولا ريب أن داعي المعصية أقوى.

قالوا: ولأن العصيان قد اجتمع عليه داعي النفس والهوى والشيطان وأسباب الدنيا وقرناء الرجل وطلب التَّشَبُّه والمحاكاة وميل الطبع، وكل واحد من هذه الدواعي يجذب العبد إلى المعصية ويطلب أثره، فكيف إذا اجتمعت وتظاهرت على القلب؟ فأي صبر أقوى من صبر عن إجابتها؟ ولولا أن الله يصبره لما تأتي منه الصبر. وهذا القول كما ترى حجته في غاية الظهور.

ورجحت طائفة الصبر على الطاعة بناء منها على أن فعل المأمور أفضل من ترك المنهيات، واحتجت على ذلك بنحو من عشرين حجة. ولا ريب أن فعل المأمورات إنما يتم بالصبر عليها، فإذا كان فعلها أفضل كان الصبر عليها أفضل.

وفصل النزاع في ذلك أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية: فالصبر على

---

(١) ٢٧٥ طريق الهجرتين.

الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد مثلًا أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الصبح وصوم يوم تطوعًا ونحوه. فهذا فصل النزاع في المسألة. والله أعلم.

[1]**وههنا** للعبد أحد عشر مشهدًا فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه.

أحدها: المشهد الذي ذكره الشيخ رحمه الله. وهو مشهد «القدر» وأن ماجرى عليه: بمشيئة الله وقضائه وقدره. فيراه كالتأذي بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار. فإن الكل أوجبته مشيئة الله، فما شاء الله كان، ووجب وجوده، ومالم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده، وإذا شهد هذا: استراح. وعلم أنه كائن لامحالة. فما للجزع منه وجه. وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

فصل

المشهد الثاني: مشهد «الصبر» فيشهده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، ومايترتب عليه من الغبطة والسرور. ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام. فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة. وعلم أنه إن لم يصبر اختيارًا على هذا - وهو محمود - صبر اضطرارًا على أكبر منه. وهو مذموم.

فصل

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم» فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعشًى في بصيرته. فإنه «مازاد الله عبدًا بعفو إلا عِزًّا» كما صح ذلك عن النبي ﷺ. وعلم بالتجربة والوجود. وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلّ. هذا، وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ماليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

فصل

المشهد الرابع: مشهد «الرضى» وهو فوق مشهد «العفو والصفح» وهذا

(١) ٣١٨ مدارج جـ٢.

لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله . فإذا كان ما أصيب به في الله، وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله . وهذا شأن كل محب صادق، يرضى بما يناله في رضى محبوبه من المكاره. ومتى تسخط به وتشكى منه، كان ذلك دليلاً على كذبه في محبته، والواقع شاهد بذلك، والمحب الصادق كما قيل:

من أجلك جعلت خَدِّي أرضًا   للشامت والحسود حتى ترضى

ومن لم يرض بما يصيبه في سبيل محبوبه، فلينزل عن درجة المحبة. وليتأخر فليس من ذا الشأن.(١)

(٢)**قال** ابن عباس: «إن للحسنة نورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وقوة في البدن. وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه. وظلمة في القلب ووهنًا في البدن. ونقصًا في الرزق. وبغضة في قلوب الخلق» وهذا يعرفه صاحب البصيرة. ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب. ومايعفو الله عنه أكثر.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه: ﴿**أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله . ولهذا قال: «ما أصابك» ولم يقل: ما أُصبت. فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة. فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال: أمر مشهود في العالم. لاينكره ذو عقل سليم. بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره، وتأمله ومطالعته: مما يقوي إيمانه بما جاءت به الرسل. وبالثواب والعقاب. فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم. ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة على ماهو أعظم منها لمن كانت له بصيرة.

(١) ذكرها المؤلف أحد عشر تركنا ذكرها اختصارًا سوى الثامن فهو في سورة لقمان (ج).
(٢) ٤٢٤ مدارج جـ١

كما قال بعض الناس: إذا صدر مني ذنب ولم أبادره. ولم أتداركه بالتوبة: انتظرت أثره السيء. فإذا أصابني ـ أو فوقه أو دونه ـ كما حسبت. يكون هِجِّيراي: أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته. فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا. فجعلت كلما فعلت شيئًا من ذلك حصل لك ما قال من المكروه، لم تزدد إلا علمًا بصدقه وبصيرة فيه. وليس هذا لكل أحد. بل أكثر الناس تَرِين الذنوب على قلبه. فلا يشهد شيئًا من ذلك ولا يشعر به البتة.

وإنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان، وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه. فهو يشاهد هذا وهذا. ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح. فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب السفينة وَتَكَفُّئها ولا سيما إذا انكسرت به وبقي على لوح تلعب به الـرياح. فهكـذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب، إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك، فقلبه في واد آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد: انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم. وما جريات الخلق. بل انتفع بها جريات أهل زمانه ومايشاهده من أحوال الناس، وفهم حينئـذ معنى قولـه تعـالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وقـولـه: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَآ إِلَـهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَآ إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

فكل ماتراه في الوجود ـ من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص في نفسك وفي غيرك ـ فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم. فالمسلط له أعدل العادلين. كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَالَ الدِيَارِ﴾ [الإسراء: ٥].

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات. فإن تداركها من سَقْي بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية، وكان الهلاك.

كما قال بعض السلف: «المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمّىٰ بريد الموت».

فشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه، وجفوها منه، وانسـداد الأبواب في وجهه، وتوعر المسالك عليه، وهوانه على أهل بيته وأولاده

وزوجتـه وإخـوانـه، وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أُتي؟ ووقوعه على السبب الموجب لذلك: مما يقوى إيمانه. فإن أقلع وباشر الأسباب التي تفضي به إلى ضد هذه الحال، رأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة في قلبه بعد ضعفه ووهنه ازداد إيمانًا مع إيمانه. فتقوى شواهد الإيمان في قلبه وبراهينه وأدلته في حال معصيته وطاعته فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

(١)**قـوله** تعـالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلى رَبِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَاغَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٧]. فأخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتـوكـل عليه، وهـذا هو التـوحيد. ثم قال: ﴿وَالَّـذِينَ يَجْتَنِبُـونَ كَبَـائِرَ الإِثْم والفَوَاحِشَ﴾ فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية ثم قال: ﴿وَإِذَا مَاغَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فهذا مخالفة القوة الغضبية، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل، التي هي جماع الخير كله(٢).

(٣)فصـــل

وقالت الحنفية والشافعية والمالكية ومتأخرو أصحاب أحمد: إنه لا قِصَاصَ في اللَّطْمة والضربة، وإنما فيه التعزير، وحكى بعض المتأخرين في ذلك الإجماع، وخـرجـوا عن مَحْض القياس ومـوجَب النصـوص وإجماع الصحابة؛ فإنَّ ضَمَانَ النفوس والأموال مبناه على العدل، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشـورى: ٤٠]. وقـال: ﴿فَمَنِ اعْتَـدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَـدُواْ عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَااعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُم بِهِ﴾

فأمر بالمـماثلة في العقـوبـة والقصاص؛ فيجب اعتبارها بحسب الإمكان، والأمثل هو المأمور به؛ فهذا الملطوم المضروب قد اعْتُدِيَ عليه، فالواجب أن يَفْعَلَ بالمعتدِي كما فعل به، فإن لم يمكن كان الواجبُ ما هو الأقرب والأمثل، وسَقَط ماعجز عنه العبد من المساواة من كل وجه.

---

(١) ٨٠ فوائد.　(٢) أول هذا البحث تقدم في آخر سورة الفرقان (ج).

(٣) ٣١٨ أعلام جـ١.

ولاريب أن لطمة بلطمة وضربة بضربة في محلِّهما بالآلة التي لَطْمه بها أو بمثلها أقربُ إلى المماثلة المأمور بها حسًّا وشرعًا من تعزيره بها بغير جنس اعتدائه وقدره وصفتـه، وهذا هو هَدْيُ رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ومحض القياس وهو منصوص الإمام أحمد، ومَنْ خالفه في ذلك من أصحابه فقد خَرَج عن نص مذهبه وأصوله، كما خرج عن محض القياس والميزان. قال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني في كتابه المترجم له. **باب في القصاص من اللطمة والضربة**.

حدثني إسماعيل بن سعيد قال: سألتُ أحمد بن حنبل عن القصاص من اللطمـة والضربـة، فقـال: «عليه القَـوَد من اللطمة والضربة» وبه قال أبوداود وأبـوخيثمـة وابن أبي شيبـة. وقـال إبـراهيم الجوزجاني: «وبه أقول؛ لما حدثنا شبـابة بن سوار ثنا شعبة عن يحيى بن الحصين قال: سمعت طارق بن شهاب يقول: لَطَمَ أبو بكر رجلاً يومًا لطمة، فقال له: اقتصَّ، فعفا الرجل.

حدثنا شبابة أنبأ شعبة عن مخارق قال: سمعت طارقًا يقول: لطم ابن أخ لخالد بن الوليد رجلاً من مُرَاد، فأقاده خالد منه.

حدثنا أبو بهز حدثنا أبو بكر بن عياش قال: سمعت الأعمش عن كميل بن زياد قال: لطمني عثمان ثم أقادني فعفوت.

حدثني ابن الأصفهـاني حدثنـا عبـدالسـلام بن حرب عن ناجية عن عمه يزيد بن عربي قال: رأيت عليًّا ـ كرم الله وجهه في الجنة ـ أقاد من لطمه.

وحدثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عبدالله بن إسماعيل بن زياد ابن أخي عمرو بن دينار أن ابن الزبير أقاد من لطمة.

ثنا يزيد بن هارون أنا الجريري عن أبي نَضرة عن أبي فراس قال: خطبنا عمر فقال: إني لم أبعث عُمَّالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن إنما بعثتهم ليبلغوكم دينكم وسنة نبيكم ويقسموا فيكم فيئكم، فمن فعل به غير ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه؛ فقام إليه عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين! إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدَّبَ بعض رعيته لتقصنه منه، فقال عمر: أنا لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله، ﷺ، يقص من نفسه؟

ثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن ابن حَرْمَلة قال: تَلاحَى رجلان، فقال أحدهما: ألم أخنقك حتى سلحت؟ فقال: بلى، ولكن لم يكن لي عليك شهود، فاشهدوا على ما قال، ثم رفعه إلى عمر بن عبدالعزيز فأرسل في ذلك إلى سعيد بن المسيب، فقال: يخنقه كما خنقه حتى يحدث أو يفتدي منه، فافتدىٰ منه بأربعين بعيرًا، فقال ابن كثير: أحسبه ذكره عن عثمان، . . .

فصل(١)

والفرق بين العفو والذل: أن العفو إسقاط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق.

بخلاف الذل: فإن صاحبه يترك الانتقام عجزًا وخوفًا ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالا منه.

قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**﴾[الشورى: ٣٩] فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء مالهم عليه؛ ندبهم إلى الخلق الشريف من: العفو والصفح، فقال: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾[الشورى: ٤٠].

فذكر المقامات الثلاثة العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرّمه.

فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو، وهما متنافيان؟ قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم. فلما قدروا ندبهم إلى العفو.

قال بعض السلف في هذه الآية كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا، فمدحهم على عفو بعد قدرة، لا على عفو ذلٍّ وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح ـ سبحانه ـ به نفسه في قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩] والله غفور رحيم.

وفي أثر معروف: حملة العرش أربعة، اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك.

(١) ٢٩٤ الروح.

ولهذا قال المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨]. إي أن غفرت لهم: غفرت عن عزة؛ وهي كمال القدرة، وحكمة؛ وهي كمال العلم، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا، وأحاطت بهم قدرتك، إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام، وجهله بحقيقة ما صدر من المسيء، والعفو من المخلوق ظاهره: ضيم وذل، وباطنه: عز ومهابة، والانتقام ظاهره: عز، وباطنه: ذل، فمازاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما انتقم رسول الله، ﷺ لنفسه قط. وتأمل قوله ـ سبحانه ـ: ﴿هُم يَنْتَصِرُونَ﴾ كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم. ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالبًا، بل لا بد من المجاوزة شرع فيه ـ سبحانه ـ المماثلة والمساواة، وحرم الزيادة، وندب إلى العفو.

والمقصود أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة والذل من أخلاق الأمارة.

ونكتة المسألة أن الانتقام شيء والانتصار شيء. فالانتصار أن ينتصر لحق الله ومن أجله، ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذلِّ حظه ورقِّ هواه، فإنه حينئذ ينال حظًّا من العز الذي قسم الله للمؤمنين، فإذا بغي عليه انتصر من الباغي من أجل عز الله الذي أعزه به غيرة على ذلك العز أن يستضام ويقهر وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستذل، فهو يقول للباغي عليه: أنا مملوك من لا يذل مملوكه، ولا يحب أن يذله أحد، وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغي تشفيًا فيه وإذلالاً له.

وأما النفس المطمئنة التي خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عز توحيدها وإنابتها إلى ربها، فإذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذي أعزها الله به، ونالته منه، وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها.

وقد ضرب لذلك مثل بعبدين من عبيد الغلة حراثين ضرب أحدهما صاحبه فعفا المضروب عن الضارب نصحا منه لسيده، وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد، فلم يجشم سيده خلقه عقوبته وإفساده بالضرب، فشكر العافي على

عفوه، ووقع منه بموقع، وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمّله وألبسه ثيابا يقف بها بين يديه، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم، ولطخ تلك الثياب بالعذرة، أو مزقها، فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأى سيده ولا محبته، وكان الانتصار أحب إليه، وأوفق لمرضاته، كأنه يقول: إنما فعل هذا بك جرأة عليَّ، واستخفافًا بسلطاني، فإذا أمكنه من عقوبته فأذله وقهره، ولم يبق إلا أن يبطش به فذل وانكسر قلبه، فإن سيده يحب منه أن لا يعاقبه لحظه، وأن يأخذ منه حق السيد، فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه.

كما روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه مر برجل، فاستغاث به، وقال: هذا منعني حقي، ولم يعطني إياه، فقال: أعطه حقه، فلما جاوزهما لج الظالم ولطم صاحب الحق، فاستغاث بعلي فرجع، وقال: أتاك الغوث، فقال له: استقد منه، فقال: قد عفوت يا أمير المؤمنين! فضربه عليّ تسع درر، وقال: قد عفا عنك من لطمته، وهذا حق السلطان، فعاقبه علي لما اجترأ على سلطان الله ولم يدعه.

ويشبه هذا قصة الرجل الذي جاء إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال: احملني فوالله لأنا أفرس منك ومن ابنك وعنده المغيرة بن شعبة، فحسر عن ذراعه، وصك بها أنف الرجل، فسال الدم، فجاء قومه إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقالوا: أقدنا من المغيرة، فقال: أنا أقيدكم من وزعة الله؟ لا أقيدكم منه، فرأى أبو بكر أن ذلك انتصارًا من المغيرة، وحمية لله وللعز الذي أعز به خليفة رسول الله، ﷺ، ليتمكن بذلك العز من: حسن خلافته، وإقامة دينه؛ فترك قوده لاجترائه على عز الله وسلطانه الذي أعز به رسوله ودينه وخليفته، فهذا لون، والضرب حمية للنفس الأمارة لون.

(١)**افتى** الزهري لعمر بن عبدالعزيز فيمن أتلف له شجر، فقال الزهري: يغرسه حتى يعود كما كان، وقال ربيعة وأبو الزناد: عليه القيمة، فغلظ الزهري القول فيهما، وقولُ الزهري وحكم سليمان هو موجبُ الأدلة؛ فإن الواجب ضمان المتلف بالمثل بحسب الإمكان، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى

(١) ٢٦ أعلام جـ٢.

عَلَيْكُمْ﴾[البقرة: ١٩٤]، وقال: **﴿والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾** [البقرة: ١٩٤]، وقال: **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾**[النحل: ١٢٦]. وإن كان مثل الحيوان والآنية والثياب من كل وجه متعذرًا فقد دار الأمر بين شيئين: الضمان بالدراهم المخالفة للمثل في الجنس والصفة والمقصود والانتفاع وإن ساوت المضمون في المالية، والضمان بالمثل بحسب الإمكان المساوي للمُتلف في الجنس والصفة والمالية والمقصود والانتفاع، ولا رَيْبَ أن هذا أقربُ إلى النصوص والقياس والعدل.

ونظير هذا ما ثبت بالسنة واتفاق الصحابة من القصاص في اللطمة والضربة، وهو منصوص أحمد في رواية إسماعيل بن سعيد، وقد تقدم تقرير ذلك، وإذا كانت المماثلة من كل وجه متعذرة حتى في المكيل والموزون فما كان أقرب إلى المماثلة فهو أولى بالصواب، ولا رَيب أن الجنس إلى الجنس أقرب مماثلة من الجنس إلى القيمة؛ فهذا هو القياس وموجب النصوص، وبالله التوفيق.

(١)**قال** الله تعالى: **﴿لله مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾**[الشورى: ٤٩ - ٥٠] إلى قوله: **﴿قدير﴾**.

فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال: أحدها من تلد الإناث فقط. الثانية من تلد الذكور فقط. الثالثة من تلد الزوجين الذكر والأنثى وهو معنى التزويج هنا أن يجعل ما يهب له زوجين ذكرًا وأنثى. الرابعة العقيم التي لا تلد أصلًا.

ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر ولا يدرك بالقياس والفكر، وإنما يعلم بالوحي، ما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان، قال: كنت عند النبي، ﷺ، فجاء حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يامحمد! فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يارسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله، ﷺ: «**إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي**». قال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله، ﷺ: «**أينفعك شيء إن حدثتك**»؟ قال: أسمع بأذني فنكت رسول الله، ﷺ، بعود معه، فقال: «**سل**» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله، ﷺ: «**هم في الظلمة دون**

(١) ٢٥٨ مفتاح جـ١.

الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: **«فقراء المهاجرين»** قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ فقال: **«زيادة كبد حوت ذى النون»** قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: **«ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها»** قال: فما شرابهم عليه؟ قال: **«من عين تسمى سلسبيلا»**. قال صدقت. وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه إلا نبي أو رجل أو رجلان؟ قال: **«ينفعك إن حدثتك»** قال: أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: **«ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيّ الرجل منيّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإن علا منيّ المرأة منيّ الرجل أنّثا بإذن الله»** قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي! ثم انصرف، فقال رسول الله، ﷺ: **«لقد سألني عن هذا، الذي سألني عنه، ومالي علم به، حتى أتاني الله به»**.

والذي دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من الماءين جميعًا، فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثى، وكذلك هي تنزل ماءها إلى حيث ينتهي ماؤه، فيلتقي الماآن على أمر قد قدره الله وشاءه، فيخلق الولدمنهما جميعًا، وأيهما غلب كان الشبه له.

كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال بلغ عبدالله بن سلام قدوم النبي ﷺ فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي؟ قال: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أخبرني بهن آنفا جبريل»** فقال عبدالله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: **«أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإنه الرجل إذا غشى المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له وإن سبقت كان الشبه لها»** فقال: أشهد أنك رسول الله، وذكر الحديث.

وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت: [جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت:][(١)] يارسول الله! إن الله لا يستحيي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ قال: **«نعم إذا رأت الماء الأصفر»** فضحكت أم سلمة فقالت: أو تحتلم المرأة؟ فقال رسول الله ﷺ: **«فبم يشبهها الولد»**؟

---

(١) هذه الزيادة من صحيح البخاري وهي غير موجودة بالنسخة المطبوعة (المراجع).

والإينـاث يكـون بغلبة أحد الماءين وقهره للآخر وعلوه عليه، وأن الشبه يكون بالسبق، فمن سبق ماؤه إلى الـرحم كان الشبـه له. وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها، ولا تعلم إلا بالوحي، وليس في صناعتهم أيضا ما ينافيها.

على أن في النفس من حديث ثوبان ما فيها، وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواته حفـظه كما ينبغي، وأن يكـون السؤال إنـما وقـع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث، كما سأل عنه عبدالله بن سلام. ولذلك لم يخرجه البخاري.

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن أبي بكر عن أنس عن النبي، ﷺ، قال: «**إن الله وكّل بالرحم ملكا فيقول: يارب نطفة! يارب علقة! يارب مضغة! فإذا أراد أن يخلقها، قال: يارب أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه**».

أفلا ترى كيف أحـال بالإذكـار والإيناث على مجرد المشيئة وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل، ولم يتعرض الملك لكسبه الذي للطبيعة فيه مدخل، أولا ترى عبدالله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه، ولم يسأل عن الإذكار والإيناث مع أنه أبلغ من الشبه، والله أعلم، وإن كان رسول الله، ﷺ، قد قاله فهو عين الحق وعلى كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث. والله أعلم.

(١)**وأما** الإذكار والإيناث: فليس بسبب طبيعي، وإنما سببه: الفاعل المختار الذي يأمر الملك به، مع تقدير الشقاوة والسعادة، والرزق، والأجل، ولذلك جمع بين هذه الأربع في الحديث «**فيقول الملك: يارب، ذكر؟ يارب، أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك**». وقد رد ـ سبحانه ـ ذلك إلى محض مشيئته، في قوله تعالى: ﴿**يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا**﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠].

والتعليق بالمشيئة ـ وإن كان لا ينافي ثبوت السبب بذلك ـ إذا علم كون الشيء سببًا، دل على سببيته بالعقل وبالنص، وقد قال، ﷺ، في حديث أم سليم: «**ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، فمن أيهما علا ـ أو سبق ـ يكون الشبه**» فجعل للشبه سببين: علو الماء، وسبقه.

(١) ٢٢٠ الطرق الحكمية.

وبالجملة: فعامة الأحاديث إنما هي تأثير سبق الماء وعلوه في الشبه، وإنما جاء تأثير ذلك في الإذكار والإيناث في حديث ثوبان وحده، وهو فرد بإسناده، فيحتمل أنه اشتبه على الراوي فيه الشبه بالإذكار والإيناث، وإن كان قد قاله رسول الله ﷺ: فهو الحق الذي لا شك فيه، ولا ينافي سائر الأحاديث، فإن الشبه من السبق. والإذكار والإيناث: من العلو، وبينهما فرق، وتعليقه على المشيئة لا ينافي تعليقه على السبب، كما أن الشقاوة والسعادة والرزق معلقات بالمشيئة وحاصلة بالسبب، والله أعلم.

(1)**قال** الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوٰتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إنه عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠] فقسم ـ سبحانه ـ حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود، وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد فقد وهبهما إياه، وكفى بالعبد تعرضًا لمقته أن يتسخط ما وهبه.

وبدأ سبحانه بذكر الإناث، فقيل جبرًا لهن لأجل استقبال الوالدين لمكانهما.

وقيل وهو أحسن إنما قدمهن، لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء، لا ما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالبًا، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان.

وعندى وجه آخر: وهو أنه ـ تعالى ـ قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهن، أي هذا النوع المؤخر الحقير عندكم ـ مقدم عندي في الذكر.

وتأمل كيف نكّر ـ سبحانه ـ الإناث، وعرَّف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنزيه كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم. ثم لما ذكر الصنفين معًا، قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك.

والمقصود أن التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية، الذين ذمهم الله سبحانه في قوله: «﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، وقال: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ

(١) ١٠ تحفة المودود.

يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩]، وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧] ومن ههنا عبر بعض المعبرين لرجل قال له: رأيت كأن وجهي أسود، فقال له: ألك امرأة حامل؟ قال: نعم، قال: تلد لك أنثى.

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ﷺ): **«من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهوهكذا وضم إصبعيه»**.

وروى عبدالرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: جاءت امرأة ومعها ابنتان لها تسألني، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فشقتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت هي وابنتاها، فدخل رسول الله (ﷺ) علي بعد ذلك. فحدثته حديثها، فقال رسول الله (ﷺ): **«من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن، كن له ستراً من النار»** رواه ابن المبارك عن معمر عن الزهري عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم عن عروة وهو الصحيح، والحديث في مسند أحمد.

وفيه أيضاً من حديث أيوب بن بشير الأنصاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): **«لا يكون لأحد ثلاث بنات أو بنتان أو أختان، فيتقي الله فيهن ويحسن إليهن إلا دخل الجنة»** ورواه الحميدي عن سفيان عن أبي صالح عن أيوب بن بشير عن سعيد الأعشى عن أبي سعيد عن النبي (ﷺ): **«من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن وصبر عليهن، واتقى الله فيهن دخل الجنة»**.

وقال محمد بن عبدالله الأنصاري عن ابن جريج، حدثني أبوالزبير عن عمر بن نبهان عن أبي هريرة، أن رسول الله (ﷺ) قال: **«من كانت له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وعلى ضرابهن دخل الجنة»** وفي رواية، فقال يارسول الله واثنتين؟ **قال: «واثنتين»**، قال: يارسول الله وواحدة؟ قال: **«وواحدة»**.

وقال البيهقي ثنا أحمد بن الحسين، ثنا الأصم ثنا الحسن بن مكرم، **ثنا عثمان** بن عمر، أنبأ نهاس عن شداد بن عمار عن عوف بن مالك، أن رسول الله (ﷺ) قال: **«من كان له ثلاث بنات ينفق عليهن حتى يبن أو يمتن، كن له حجاباً**

من النار». وقال علي بن المديني ثنا بريد بن زريع ثنا النهاس بن قهتم ثنا شداد وأبوعمار، عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله (ﷺ): «ما من عبد يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن، حتى يبن أو يمتن إلا كن له حجاباً من النار» فقالت امرأة: يارسول الله وابنتان؟ قال: «وابنتان» قال: وقال أبوعمار عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله (ﷺ): «وأنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين في الجنة».

وروى قطر بن خلف عن شرحبيل بن سعد عن ابن عباس قال: قال رسول الله، ﷺ: «ما من مسلم يكون له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبها وصحبتاه إلا أدخلتاه الجنة» وقال عبدالرزاق: أنبأنا معمر عن ابن المنكدر أن النبي عليه السلام قال: «من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فكفهن وآواهن وزوجهن دخل الجنة»، قالوا: أو ابنتان؟ قال: «أو ابنتان»، حتى ظننا أنهم لو قالوا: أو واحدة، قال: أو واحدة، هذا مرسل.

وقال عبدالله بن المبارك عن حرملة بن عمران قال: سمعت أبا غشانة قال سمعت عقبة بن عامر الجهني يقول: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «من كانت له ثلاث بنات فصبر عليهن، فأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته، كن له حجابًا من النار» رواه الإمام أحمد في مسنده. وقد قال تعالى في حق النساء: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء: ١٩].

وهكذا البنات أيضًا قد يكون للعبد فيهن خير في الدنيا والآخرة. ويكفى في قبح كراهتهن أن يكره ما رضيه الله وأعطاه عبده. وقال صالح بن أحمد: كان أحمد إذا ولد له ابنة يقول: الأنبياء كانوا آباء بنات، ويقول: قد جاء في البنات ما قد علمت. وقال يعقوب بن بختان: ولد لي سبع بنات، فكنت كلما ولد لي ابنة دخلت على أحمد بن حنبل، فيقول لي: ياأبا يوسف! الأنبياء آباء بنات، فكان يذهب قوله همي.

(١)**قال** تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى: ٥٢]، فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله،

(١) ٢١ إغاثة جـ١.

ﷺ متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام:١٢٢] أي أومن كان كافرًا ميت القلب، مغمورًا في ظلمه الجهل: فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيًّا بعد موته، مشرقًا مستنيرًا بعد ظلمته؟ فجعل الكافر ـ لا نصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته، وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته:ـ بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به؛ فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله ـ تعالى ـ وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سُدُفِ الظلام.

(١)**الرابع** والأربعون: إن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق، فلو وزن عقله بعقولهم لرجحها. وقد أخبر الله أنه قبل الوحي لم يكن يدري ما الإيمان، كما لم يكن يدري ما الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى:٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[الضحى:٦-٨]، وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر سورة الشورى. فإذا كان أعقل الخلق على الإطلاق إنما حصل له الهدىٰ بالوحي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[سبا:٥٠]، فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام الاهتداء إلى حقائق الايمان بمجرد عقولهم دون نصوص الوحي حتى اهتدوا بتلك الهداية إلى المعارضة بين العقل ونصوص الأنبياء: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا* تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا﴾.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشورىٰ

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١١٦ مختصر الصواعق جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** تعالى: ﴿حمٓ * وَالكِتَابِ المُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[الزخرف: ١-٤]. قال ابن عباس: في اللوح المحفوظ المقرى عندنا. قال مقاتل: إن نسخته في أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ. وأم الكتاب: أصل الكتاب، وأم كل شيء: أصله. والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض. كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[البروج: ٢١-٢٢].

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب.

وقد دل القرآن على أن الرب ـ تعالى ـ كتب في أم الكتاب ما يفعله، وما يقوله؛ فكتب في اللوح أفعاله وكلامه، فـ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب. وقوله: ﴿لدينا﴾ يجوز فيه أن تكون من صلة أم الكتاب أي أنه في الكتاب الذي عندنا. وهذا اختيار ابن عباس.

ويجوز أن يكون من صلة الخبر: أنه عليّ حكيم عندنا، ليس هو كما عند المكذبين به، أي وإن كذبتم به وكفرتم فهو عندنا في غاية الارتفاع والشرف والإحكام...

(٢)**قوله:** ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]، على أحد التأويلين أي نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم.

(٣)**وتأمل** قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ والأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[الزخرف: ١٢-١٤].

كيف نبههم بالسفر الحسي على السفر إليه؟ وجمع لهم بين السفرين.

---

(١) ٤١ شفاء العليل. (٢) (٣) ٢٢٧ أعلام جـ١.

كما جمع لهم الزادين في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[البقرة: ١٩٧] فجمع لهم بين زاد سفرهم وزاد معادهم؟

وكما جمع بين اللباسين في قوله: ﴿يَابَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأعراف: ٢٦]. فذكر سبحانه زينة ظواهرهم وبواطنهم ونبَّههم بالحِسِّيِّ على المعنوي؛ وفَهْمُ هذا القدر زائدٌ على فَهْم مجرد اللفظ ووضعه في أصل اللسان، والله المستعان، وعليه التُّكْلَان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فصـــل(١)

ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه - سبحانه - بهيمة الأنعام: الأسماع والأبصار، ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الإنسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ثم سلبها العقول - على كبر خلقها - التي للإنسان ليتم تسخيره إياها؛ فيقودها ويصرفها حيث شاء، ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته، واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له، فأعطيت من التمييز والإدراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذللت له، وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان، وليظهر أيضًا فضيلة التمييز والاختصاص.

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها، ولم يكن يطيقها لولا تسخيره. قال الله - تعالى -: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفُلْكِ والأنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٣] أي مطيقين ضابطين.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٢].

فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلاً منقادًا ولو أرسل عليه لسواه بالأرض، ولفصله عضوا عضوا.

فسل المعطل من الذي ذلله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات، وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه ومعاده، فإنه لو

(١) ٢٢٤ مفتاح جـ١.

كان يزاول من الأعمال والأحمال ما يزاول الحيوان، لشغل بذلك عن كثير من الأعمال، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلى عدة أناسي يحملون أثقاله وحمله، ويعجزون عن ذلك، وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم، فأعينوا بهذه الحيوانات مع مالهم فيها من المنافع التي لا يحصيها إلا الله، من الغذاء والشراب والدواء واللباس والأمتعة والآلات والأواني والركوب والحرث والمنافع الكثيرة والجمال.

فصل في هديه ﷺ في سفره وعبادته فيه[1]

كانت أسفاره ﷺ دائرة بين أربعة أسفار: سفرة لهجرته، وسفره للجهاد ـ وهو أكثرها ـ وسفره للعمرة، وسفره للحج.

وكان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمها سافر بها معه.

ولما حج سافر بهن جميعًا وكان إذا سافر خرج من أول النهار، وكان يستحب الخروج يوم الخميس. ودعا الله ـ تبارك وتعالى ـ: «**أن يبارك لأمته في بكورها، وكان إذا بعث سرية أو جيشًا بعثهم من أول النهار**»[2] وأمر المسافرين: «**إذا كانوا ثلاثة: أن يؤمروا أحدهم**[3]» و «نهي أن يسافر الرجل وحده». وأخبر: «**أن الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب**»[4]. وذكر عنه، ﷺ، أنه كان يقول حين ينهض للسفر: «**اللهم إليك توجهت، وبك اعتصمت. اللهم اكفني ما أهمني ومالا أهتم له؛ اللهم زودني التقوى، واغفر لي ذنبي، ووجهني للخير أينما توجهت**».

وكان إذا قدمت إليه دابته ليركبها يقول: «**بسم الله**» حين يضع رجله في الركاب، وإذا استوى على ظهرها قال: «**الحمد لله الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون**»، ثم يقول: «**الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله**»،

---

(١) ٢٦٣ زاد المعاد جـ١.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن ولا نعرف لصخر الغامدي عن النبي صلى الله عليه وسلم غير هذا الحديث.

(٣) رواه أبو داود عن أبي سعيد وأبي هريرة.

(٤) رواه أبو داود والنسائي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

ثم يقـول: الله أكـبر، الله أكـبر، الله أكبر، ثم يقول: «**سبحانك، إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**».

وكان يقول: «**اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم هَوِّنْ علينـا سفـرنـا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وَعْثَاءِ السفر وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال**». وإذا رجع قالهن، وزاد فيهن: «**آيبون تائبون، عابدون، لربنا حامدون**».

وكان هو وأصحابه إذا علوا الثنايا كبروا، وإذا هبطوا الأودية سبحوا.

وكـان ﷺ إذا أشرف على قرية يريد دخولها. يقول: «**اللهم رَبَّ السموات السبـع ومـا أظللن، ورب الأرضـين السبـع ومـا أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها**».

وذكر عنه أنه كان يقول: «**اللهم إني أسألك من خير هذه القرية وخير ماجمعت فيها؛ وأعوذ بك من شرها وشر ماجمعت فيها، اللهم ارزقنا جَناها وأعذنا من وَباها، وحَبِّبْنَا إلى أهلها، وحبِّبْ صالحي أهلها إلينا**».

(١)**قوله** تعالى: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾[الزخرف: ١٧-١٨].

احتج سبحـانـه على هؤلاء الـذين جعلوا له البنات بأن أحدهم لا يرضى بالبنات، وإذا بشر أحدهم بالأنثى حصل له من الحزن والكآبة ما ظهر منه السواد على وجهه، فإذا كان أحدكم لا يرضى بالإناث بناتًا، فكيف تجعلونها لي؟! كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَيَجْعَلُونَ للهِ مَا يَكْرَهُونَ**﴾ [النحل: ٦٢].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ ضعف هذا الجنس الذي جعلوه لله، وأنه أنقص الجنسين. ولهذا يحتاج في كماله إلى الحلية وهو أضعف الجنسين بيانًا فقال تعالى: ﴿**أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾ [الزخرف: ١٨]، فأشار بنشأتهن في الحلية إلى أنهن ناقصات فيحتجن إلى حلية يكملن بها. وأنهن عييات فلا يبن حجتهن وقت

---

(١) ١٠٥ مختصر الصواعق جـ١.

الخصومة مع أن في قوله: ﴿أَوَ مَنْ يُنَشأُ فِي الحِلْيَةِ﴾ تعريضًا بما وضعت له الحلية من التزين لمن يفترشهن ويطأهن، وتعريضًا بأنهن لا يثبتن في الحرب فذكر الحلية التي هي علامة الضعف والعجز.

(١) . . . **وقد** أنكر الله ـ سبحانه ـ على مَنْ رد النبوة بأن الله صرفها عن عظماء القرى ومن رؤسائها وأعطاها لمن ليس كذلك بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُون رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

(٢) **الثالث**: أن الله ـ سبحانه ـ يحكي عن الكفار اقتراحهم في الاختيار وإرادتهم: أن تكون الخيرة لهم، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبين تفرده هو بالاختيار، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١ ـ ٣٢] فأنكر عليهم ـ سبحانه ـ تخيرهم عليه، وأخبر أن ذلك ليس إليهم، بل إلى الذي قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم، ومدد آجالهم، وكذلك هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لاغيره، وهكذا هذه الآية بيَّن فيها انفراده بالخلق والاختيار، وأنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَآأُوتِـي رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام: ١٢٤]، أي: الله أعلم بالمحل الذي يصلح لاصطفائه وكرامته، وتخصيصه بالرسالة والنبوة، دون غيره.

(٣) فصل

النوع التاسع: تعليله ـ سبحانه ـ عدم الحكم القدري والشرعي بوجود المانع منه. كقوله: ﴿وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾[الزخرف: ٣٣]. ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي

(١) ٢٥٩ أعلام جـ٢. (٢) ٧ زاد المعاد جـ١. (٣) ١٩٦ شفاء العليل.

الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[الشورى: ٢٧].

وقوله ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٨-٩]. أي آيات الاقتراح لا الآيات الدالة على صدق الرسل التي يقيمها هو سبحانه ابتداء، وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام: ٨، ٩]، فأخبر- سبحانه - عن المانع الذي منع من إنزال الملك عيانا بحيث يشاهدونه، وأن حكمته وعنايته بخلقه منعت من ذلك؛ فإنه لو أنزل الملك ثم عاينوه ولم يؤمنوا لعوجلوا بالعقوبة ولم ينظروا، وأيضًا فإنه جعل الرسول بشراً فيمكنهم التلقى عنه والرجوع إليه، ولو جعله ملكا: فإما أن يدعه على هيئة الملائكة، أو يجعله على هيئة البشر، والأول يمنعهم من التلقي عنه، والثاني لا يحصل مقصودهم إذ كانوا يقولون هو بشر لا ملك. وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾

فأخبر سبحانه عن المانع من إنزال الملائكة وهو أنه لم يجعل الأرض مسكنًا لهم، ولا يستقرون فيها مطمئنين، بل يكون نزولهم لينفذوا أوامر الرب - سبحانه - ثم يعرجون إليه. ومن هذا قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾.

فأخبر- سبحانه - عن حكمته في الامتناع من إرسال رسله بآيات الاقتراح والتشهي، وهي أنها لا توجب الإيمان فقد سألها الأولون فلما أوتوها كذبوا بها فأهلكوا، فليس لهم مصلحة في الإرسال بها بل حكمته - سبحانه - تأبى ذلك كل الإباء.

ثم نبه على ما أصاب ثمود من ذلك، فإنهم اقترحوا الناقة فلما أعطوا ما سألوا ظلموا ولم يؤمنوا، فكان في إجابتهم إلى ما سألوا هلاكهم واستئصالهم، ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[الإسراء: ٥٩] أى لأجل التخويف فهو منصوب نصب المفعول لأجله. قال قتادة: إن الله يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يعتبون أو يذكرون، أو يرجعون. وهذا يعم آياته التي تكون مع الرسل والتي تقع بعدهم في كل

زمان، فإنه ـ سبحانه ـ لا يزال يحدث لعباده من الآيات ما يخوفهم بها ويذكرهم بها.

ومن ذلك قوله: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الأنعام: ٣٧]، أي لا يعلمون حكمته تعالى ومصلحة عباده في الامتناع من إنزال الآيات التي يقترحها الناس على الأنبياء وليس المراد أن أكثر الناس لا يعلمون أن الله قادر، فإنه لم ينازع في قدرة الله أحد من المقرين بوجوده ـ سبحانه ـ ولكن حكمته في ذلك لا يعلمها أكثر الناس.

(١)**وربما** اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا، وأن يغتر به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك؛ فهذا من الغرور. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله ـ عز وجل ـ يعطي العبد من الدنيا على معاصية ما يحب؛ فإنما هو استدراج**» ثم تلا قوله عز وجل(٢): ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عليهم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾[الأنعام: ٤٤]، وقال بعض السلف: إذا رأيت الله ـ عز وجل ـ يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به.

وقد قال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾.

وقد رد ـ سبحانه ـ على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿**فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ(٣) عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا**﴾[الفجر: ١٥-١٧]، أي ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء. وفي جامع الترمذي عنه، ﷺ: «**إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب. ولا يعطي الإيمان إلا من يحب**».

---

(١) ٤١ الجواب الكافي. (٢) المبلس الساكت من الخوف والإبلاس الحيرة. والآية من سورة الأنعام.

(٣) قدر مثل قتر لفظًا ومعنى من التقتير وهو التضييق.

وقال بعض السلف: رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهم لا يعلم.

فائدة جليلة(١)

إذا أصبح العبد وأمسى، وليس همه إلا الله وحده، تحمل الله ـ سبحانه ـ حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته. وإن أصبح وأمسى والدنيا همه، حمله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره؛ كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته، بلي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

قال سفيان بن عيينة: «لاتأتون بمثل مشهور للعرب إلا جئتكم به من القرآن». فقال له قائل: «فأين في القرآن: أعط أخاك تمرة، فإن لم يقبل فأعطه جمرة». فقال في قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ الآية. اهـ.

(٢)**قال** الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٩] فأخبر ـ سبحانه ـ أن من عشى عن ذكره وهو كتابه الذي أنزل على رسوله ﷺ وبارك فيه، فأعرض عنه، وعمي عنه، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه، قيض الله له شيطانًا عقوبة له على إعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذي لايفارقه لا في الإقامة ولا في المسير. وهو مولاه وعشيره الذي هو بئس المولى وبئس العشير.

رضيعـا لبـان ثدي أم تقـاسما		بأسحم داج عوض لايتفـرق

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أن الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنتـه، ويحسب هذا الضال المضل المصدود أنه على طريق هدى حتى إذا جاء

(١) ٨٣ فوائد.		(٢) ١٢٦ الجواب الكافي.

القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر: ياليت بين وبينك بعد المشرقين. فبئس القرين كنت لي في الدنيا. أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني. وصددتني عن الحق وأغويتني حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم.

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية أخبر الله ـ سبحانه ـ أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمّت صارت مسلاة، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزِّي النفس عنه بالتأسي
ألا ياصخر لا أنساك حتى أفارق عيشتي وورود رمسي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار، فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُم أَنَّكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

(١)**وقال** ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٥، ٣٦].

فأخبر ـ سبحانه ـ أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله، فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيض له شيطانًا يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه، وهو يحسب أنه مهتد حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه وعاين هلاكه وإفلاسه، قال: ﴿يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلابد أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم: الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ ولو ظن أنه مهتد، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى، فإذا ضل فإنما أتي من تفريطه وإعراضه، وهذا بخلاف من كان

(١) ٤٤ مفتاح جـ١.

ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر. والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول، وأما الثاني فإن الله لايعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه، كما قال - تعالى -: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥] وقال - تعالى -: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]. وقال - تعالى - في أهل النار: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦]. وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ وإِن كُنتُ لَمِنَ السَاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *بَلَى قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا واسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦ - ٥٩] وهذا كثير في القرآن.

(١)**وقال** تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنا أجعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

والمراد بسؤالهم: سؤال أممهم عما جاؤوهم به هل فيه أن الله شرع لهم أن يعبد من دونه إلـه غيره؟ قال الفراء: المراد سؤال أهل التوراة والإنجيل، فيخبرونه عن كتبهم وأنبيائهم. وقال ابن قتيبة: التقدير: واسأل من أرسلنا إليهم رسلاً من قبلك: وهم أهل الكتاب. وقال ابن الأنباري: التقدير: وسَلْ من أرسلنا من قبلك.

وعلى كل تقدير، فالمراد التقرير لمشركي قريش وغيرهم ممن أنكر النبوات والتوحيد، وأن الله أرسل رسولاً، أو أنزل كتابًا، أو حرم عبادة الأوثان. فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم، وهي من أعلام صحة رسالته ﷺ، إذ كان قد جاء على ماجاء به إخوانه الذين تقدموه من رسل الله - سبحانه - ولم يكن بدعًا من الرسل، ولاجاء بضد ماجاؤوا به، بل أخبر بمثل ماأخبروا به من غير شاهد ولا اقتران في الزمان. وهذه من أعظم آيات صدقه.

(٢)**السلف** هو الذي تقدم. والسالف المتقدم. قال الله - تعالى -: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦] والعرب تسمي أول الرواحل السالفة. ومنه قول النبي - ﷺ -: «الْحَقْ بسلفنا الخير»: عثمان بن مظعون، وقول الصديق: لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي وهي العنق.

---

(١) ١١ أحكام أهل الذمة جـ١.	(٢) ٥١٠ زاد المعاد جـ٤.

(١)**فأما** ماتؤثره كثرة الخلطة فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني أدم حتى يسودّ، ويوجب له تشتتًا وتفرقًا، وهمًّا وغمًّا، وضعفًا، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتَقَسُّم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم. فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان عَلَى أبي‌طالب ـ عند الوفاة ـ أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطَر بعضهم من بعض ـ تنقلب إذا حَقَّت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندمًا، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩] وقال ـ تعالى ـ: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وهذا شأن كل مشتركين في غرض. يتوادون مادامو متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزنًا وألمًا. وانقلبت تلك المودة بغضًا ولعنة، وذمًّا من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزية، إذا أُخذوا وعوقبوا. فكل متساعدين على باطل، متوادِّين عليه: لابد أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير ـ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة ـ ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذَر الحذر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن

(١) ٤٥٤ مدارج جـ١.

لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن أذىً يعقبه عزّ ومحبة له وتعظيم وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. . . . .

(١)**والله** ـ سبحانه وتعالى ـ إنما خلق الخلق لدار القرار، وجعل اللذة كلها بأسرها فيها، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَفِيهَا مَاتَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ**﴾ [الزخرف: ٧١] وقال تعالى: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاأُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ [السجدة: ١٧] وقال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ: مَالَاعَيْنٌ رَأَتْ، وَلَاأُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَاخَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ بَلْهَ مَااطَّلَعْتُمْ**» أي غيرَ ماأطلعتم عليه، وهذا هو الذي قصده الناصح لقومه الشفيقُ عليهم، حيث قال: ﴿**يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**﴾ [غافر: ٣٨ ـ ٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يُتَمَتَّعُ بها إلى غيرها، والآخرة هي المستقر والغاية.

(٢). . . **فليتأمل** العاقلُ هذا الموضع، ولْيُنْزِل نفسه منزلة من قد فاته أعظمُ محبوبٍ وأنفعُه، وهو أفقرُ شيءٍ وأحوجُه إليه، فواتًا لا يُرْجىٰ تداركُه، وحصل عَلَى ضده، فيالها من مصيبة ماأوجعهَا! وحالةٍ ماأفظعهَا! فأين هذه الحال من حالة مَن يلتذ في الدُّنيا بكل مايقصدُ به وجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من: الأكل، والشرب، واللباس، والنكاح، وشفآءِ الغيظ بقهر العدو، وجهاد في سبيله؟! فضلاً عما يلتذ به [من] معرفة ربه وحبه له، وتوحيده، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والإقبال عليه، وإخلاص العمل له، والرضا به وعنه، والتفويض إليه، وفرح القلب وسروره بقربه، والأنس به، والشوق إلى لقائه، كما في الحديث الذي صححه ابن حِبَّان والحاكم: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلىٰ وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلىٰ لِقَائِكَ**»، وهذه اللذةُ لاتزال في الدُّنيا في زيادة مع تنقيصها بالعدو الباطن من الشيطان والهوى والنفس والدنيا والعدوْ الظاهر، فكيف إذا تجرَّدت الروح وفارقت دار الأحزان والآفات واتَّصلت بالرفيق الأعلى ﴿**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا * ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ عَلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠] فإذا أفضى إلى دار النعيم، فهناك من أنواع اللذة والبهجة والسرور مالاعينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولاخطر عَلَى قلب بشر،

(١) ١٧١ روضة المحبين.
(٢) ١٧٤ روضة المحبين.

فبؤسًا وتَعْسًا للنفوس الوضيعة الدنيئة التي لا يَهُزّها الشوقُ إلى ذلك طربًا ولا تتّقدُ نارُ إرادتها لذلك رَغَبًا، ولا تَبعُد عما يَصُدُّ عن ذلك رَهبًا.

(١)الباب التاسع والأربعون

في ذكر آنيتهم التي يأكلون فيها ويشربون وأجناسها وصفاتها

قال - تعالى -: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١] فالصحاف: جمع صحفة، قال الكلبي: بقصاع من ذهب، وقال الليث: الصحفة قصعة مسلنطحة عريضة، الجمع صحاف، قال الأعشى:

والمكاكيك والصحاف من الفضـ ـة والضامرات تحت الرجال

وأما الأكواب: فجمع كوب، قال الفراء: الكوب المستدير الرأس الذي لا أذن له، وأنشد لعدى:

متكئًا تصفق أبوابه يسعى عليه العبد بالكوب

وقال أبوعبيد: الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها، قال أبوإسحاق: واحدها كوب، وهو إناء مستدير لا عروة له: وقال ابن عباس: هي الأباريق التي ليست لها آذان: وقال مقاتل: هي أوان مستديرة الرأس ليس لها عرى، وقال البخاري في صحيحه: الأكواب الأباريق التي لها خراطيم، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧-١٨] الأباريق: هي الأكواب التي لها خراطيم، فإن لم يكن لها خراطيم ولا عرى فهي أكواب. وإبريق: إفعيل من البريق، وهو الصفاء، فهو الذي يبرق لونه من صفائه، ثم سُمِّيَ كل ما كان على شكله إبريقًا وإن لم يكن صافيًا، وأباريق الجنة من الفضة في صفاء القوارير يُرىٰ من ظاهرها ما في باطنها والعرب تسمى السيف: إبريقًا لبريق لونه، ومنه قول ابن أحمر:

تعلقت إبريقًا وعلقت جفنه ليهلك حيا ذا زهاء وخامل

وفي نوادر اللحياني امرأة إبريق إذا كانت براقة.

(٢)**وقال**: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ

---

(١) ١٣٨ حادي الأرواح. (٢) ١٢٤ حادي الأرواح.

كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [ص: ٥٠- ٥١] وقال - تعالى -: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥] وهذا يدل على أمنهم من انقطاعها ومضرتها وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣] وقال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَمَقْطُوعَةٍ ولاَمَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢-٣٣] أي: لاتكون في وقت دون وقت ولاتمنع ممن أرادها، وقال: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢١-٢٣] والقطوف: جمع قطف وهو مايقطف، والقطف بالفتح الفعل أي: ثمارها دانية قريبة ممن يتناولها، فيأخذها كيف يشاء. قال البراء بن عازب: يتناول الثمرة وهو نائم. وقال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤] قال ابن عباس: إذا هَمَّ أن يتناول من ثمارها تدلت له حتى يتناول مايريد. وقال غيره: قريب إليهم مذللة كيف شاءوا فهم يتناولونها قيامًا وقعودًا ومضطجعين، فيكون كقوله: ﴿قطوفها دانية﴾.

(١)**قال** تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣] وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيها ولاَتأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٢-٢٣] وقال تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ من رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٥-٢٦].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأكل أهل الجنة، ويشربون، ولايمتخطون، ولا يتغوطون، ولايبولون، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس»** ورواه أيضًا من رواية طلحة بن نافع عن جابر وفيه، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: **«جشاء ورشح: كرشح المسك يلهمون التسبيح والحمد»**.

وفي المسند وسنن النسائي بإسناد صحيح على شرط الصحيح من حديث الأعمش عن ثمامة بن عقبة عن زيد بن أرقم قال: «جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال: ياأبا القاسم! تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال:

---

(١) ١٣٤ حادي الأرواح.

«نعم والذي نفس محمد بيده؛ إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة»، قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة أذى قال: **«تكون حاجة أحدهم رشحًا يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بطنه»** ورواه الحاكم في صحيحه ولفظه: «أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود، فقال: ياأباالقاسم! ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ - ويقول لأصحابه: إن أقر لي بهذا خصمته - فقال رسول الله ﷺ: **«بلى، والذي نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب والشهوة والجماع»** فقال له اليهودي: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، فقال رسول الله ﷺ: **«حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك، فإذا البطن قد ضمر»** وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبدالله بن الحارث عن عبدالله بن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويًا»** وقد تقدم حديث أنس في قصة عبدالله بن سلام في أول طعام يأكله أهل الجنة وشرابهم على أثره، وحديث أبي سعيد الخدري **«تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفأها الجبار بيده نزلًا لأهل الجنة»**.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزخرف
والحمد لله رب العالمين

سورة الدخان — ترتيبها ٤٤ — آياتها ٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** الله تعالى: ﴿حم * والكتاب المُبين* إنَّا أنزَلناه في ليلةٍ مُباركَةٍ إنا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فيها يُفْرَقُ كلُّ أمرٍ حَكِيم * أَمْرًا من عندنا إنَّا كُنَّا مُرْسِلين﴾ [الدخان: ١-٥] وهذه هي ليلة القدر قطعاً لقوله تعالى: ﴿إنَّا أنزلَناه في لَيْلةِ القَدْرِ﴾ [القدر: ١].

ومن زعم أنها ليلة النصف من شعبان فقد غلط.

قال سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ليلة القدر ليلة الحكم.

وقال سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير: يؤذن للحجاج في ليلة القدر فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم فلا يغادر منهم أحد ولا يزاد فيهم ولا ينقص منهم. وقال ابن علية ثنا ربيعة بن كلثوم قال: قال رجل للحسن و أنا أسمع: أرأيت ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي كل رمضان، وإنها لليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها. **وذكر** يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال يحج فلان ويحج فلان.

وذكر عن سعيد بن جبير في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى.

وقال مقاتل: يقدر الله في ليلة القدر أمر السنة في بلاده وعباده إلى السنة القابلة.

وقال أبوعبدالرحمن السلمي: يقدر أمر السنة كلها في ليلة القدر. وهذا هو الصحيح أن القدر مصدر قدر الشيء يقدره قدراً، فهي ليلة الحكم والتقدير.

وقالت طائفة: ليلة القدر ليلة الشرف والعظمة، من قولهم: لفلان قدر في الناس. فإن أراد صاحب هذا القول أن لها قدراً وشرفاً مع ما يكون فيها من التقدير فقد أصاب، وإن أراد أن معنى القدر فيها هو الشرف والخطر فقد غلط إن الله سبحانه أخبر أن فيها يفرق أي يفصل الله ويبين ويبرم كل أمر حكيم.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كريمٍ﴾

---

(١) ٢٢ شفاء.

(٢) ٥٩ شفاء.

[الدخان: ٢٥ ، ٢٦] وهم إنما خرجوا باختيارهم ، وقد أخبر أنه هو الذي أخرجهم ، فالإخراج فعله حقيقة ، والخروج فعلهم حقيقة ، ولولا إخراجه لما خرجوا .

وهذا بخلاف قوله : ﴿**والله أنبتكم مِنَ الأرضِ نباتاً* ثم يُعيدكم فيها وَيُخرجُكم إخراجاً**﴾ [نوح: ١٧،١٨] .

وقوله: ﴿**هُوَ الَّذي أخْرَجَ الَّذينَ كَفَروا من أهل الكتاب مِن دِيَارِهِم لأول الحَشْرِ**﴾ [الحشر: ٢]. وقوله : ﴿**أخْرَجَكُم من بُطونِ أمَّهاتِكُم**﴾ [النحل: ٧٨] فإن هذا إخراج لا صنع لهم فيه فإنه بغير اختيارهم وإرادتهم .

وأما قوله : ﴿**كما أخْرَجَكَ ربُّك من بيتك بالحَقِّ**﴾ [الأنفال: ٥] فيحتمل أن يكون إخراجاً بقدره ومشيئته فيكون من الأول ، ويحتمل أن يكون إخراجاً يوجبه بأمره فلا يكون من هذا . فيكون الإخراج في كتاب الله ثلاثة أنواع ، أحدها : إخراج الخارج باختياره ومشيئته . والثاني إخراجه قهرًا وكرهًا ، والثالث إخراجه أمرًا وشرعًا .

(١)**النوع** الحادي عشر إنكاره سبحانه على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة ، كقوله : ﴿**أفَحسِبْتُمْ أنَّما خَلَقْناكُمْ عَبثًا**﴾ [المؤمنون: ١١٥] . وقوله : ﴿**أيحسَبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدى**﴾ [القيامة: ٣٦] وقوله : ﴿**وما خَلَقنا السَّمواتِ والأرض وما بينهُما لاعبينَ* مَا خَلقناهما إلا بالحَقِّ**﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]

والحق هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله وهو أنواع كثيرة : منها أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته . ومنها أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع . ومنها أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع .

ومنها أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات . ومنها أن يثيب ويعاقب فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، فيوجد أثر عدله وفضله موجوداً مشهوداً فيحمد على ذلك ويشكر. ومنها أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه . ومنها أن يصدق الصادق فيكرمه ، ويكذب الكاذب فيهينه .

ومنها ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي فيعلم عباده ذلك علماً مطابقاً لما في الواقع . ومنها شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكها وأنه وحده إلهها ومعبودها . ومنها ظهور أثر كماله المقدس ، فإن الخلق والصنع لازم كماله فإنه حي قدير، ومن كان كذلك لم يكن إلا فاعلاً مختاراً .

---

(١) ١٩٨ شفاء.

ومنها أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه الذي يليق به [ومحبته](١) على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه فتشهد حكمته الباهرة.

ومنها أنه سبحانه يحب أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح ولابد من لوازم ذلك خلقاً وشرعاً. ومنها أنه يحب أن يثني عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم. ومنها كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلهيته إلى غير ذلك من الحكم التي تضمنها الخلق. فخلق مخلوقاته بسبب الحق ولأجل الحق، وخلقها ملتبس بالحق، وهو في نفسه حق، فمصدره حق، وغايته حق، وهو يتضمن للحق.

وقد أثنى على عباده المؤمنين حيث نزهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية فقال تعالى: ﴿**ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك**﴾.

وأخبر أن هذا ظن أعدائه لا ظن أوليائه فقال: ﴿**وما خَلَقْنا السماء والأرضَ وما بينهما باطلاً ذلك ظَنُّ الَّذين كَفَرُوا**﴾ [ص: ٢٧].

وكيف يتوهم أنه عرفه من يقول إنه لم يخلق لحكمة مطلوبة له ولا أمر لحكمة ولا نهى لحكمة، وإنما يصدر الخلق والأمر عن مشيئة وقدرة محضة لا لحكمة ولا لغاية مقصودة؟ وهل هذا إلا إنكار لحقيقة حمده؟ بل الخلق والأمر إنما قام بالحكم والغايات فهما مظهران بحمده وحكمته، فإنكار الحكمة إنكار لحقيقة خلقه وأمره؛ فإن الذي أثبته المنكرون من ذلك ينزه عنه الرب ويتعالى عن نسبته إليه؛ فإنهم أثبتوا خلقاً وأمراً لا رحمة فيه ولا مصلحة ولا حكمة، بل يجوز عندهم أو يقع أن يأمر بما لا مصلحة للمكلف فيه البتة وينهي عما فيه مصلحة والجميع بالنسبة إليه سواء، ويجوز عندهم أن يأمر بكل ما نهى عنه وينهي عن جميع ما أمر به ولا فرق بين هذا وهذا إلا لمجرد الأمر والنهي.

ويجوز عندهم أن يعذب من لم يعصه طرفة عين بل أفنى عمره في طاعته وشكره وذكره، وينعم على من لم يطعه طرفة عين بل أفنى عمره في الكفر به والشرك والظلم والفجور، فلا سبيل إلى أن يعرف خلاف ذلك منه إلا بخبر الرسول وإلا فهو جائز عليه. وهذا من أقبح الظن وأسوئه بالرب سبحانه، وتنزيهه عنه كتنزيهه عن الظلم والجور. بل هذا هو عين الظلم الذي يتعالى الله عنه.

والعجب العجاب أن كثيراً من أرباب هذا المذهب ينزهونه مما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال، ويزعمون أن إثباتها تجسيم وتشبيه ولا ينزهونه

(١) كذا بالأصل ولعلها «ومجيئه» (ج).

عن هذا الظلم والجور، ويزعمون أنه عدل وحق، وأن التوحيد عندهم لا يتم إلا به، كما لا يتم إلا بإنكار استوائه على عرشه وعلوه فوق سمواته وتكلمه وتكليمه وصفات كماله، فلا يتم التوحيد عند هذه الطائفة إلا بهذا النفي وذلك الإثبات والله ولي التوفيق.

(١) **قال** تعالى: ﴿**وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق**﴾ [الحجر: ٨٥] وقال الله تعالى: ﴿**وما خَلَقْنا السماءَ والأرضَ ومَا بَيْنهما باطلاً**﴾ [صٓ: ٢٧] وقال تعالى: ﴿**أفَحسبتُم أنَّما خَلَقناكُم عبثاً**﴾ [المؤمنون: ١١٥].

والحق الذي خُلق به ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده التي هي كمالُ محبته والخضوع والذل له، ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب، ولأجل ذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجنَّة والنار. والسمواتُ والأرض إنما قامت بالعدل الذي هو صراط الله الذي هو عليه وهو أحبُّ الأشياء [إلى الله تعالى] قال الله تعالى: حاكياً عن نبيه هود عليه السلام: ﴿**إنّي تَوَكَّلتُ على الله ربي وَرَبِّكُم مَا مِنْ دابةٍ إلاَّ هو آخذٌ بناصيتها إنَّ ربي على صراطٍ مُستقيمٍ**﴾ [هود: ٥٦] فهو على صراطٍ مستقيم في شرعه وقَدَره، وهو العدل الذي به ظهر الخلق والأمر والثواب والعقاب، وهو الحق الذي به وله خُلقت السَّمواتُ والأرض وما بينهما، ولهذا قال المؤمنون في عبادتهم: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذا باطلاً سُبحَانَكَ**﴾ [آل عمران: ١٩١] فنزَّهوا ربهم سبحانه أن يكون خلق السموات عبثاً لغير حكمةٍ ولا غايةٍ محمودة. وهو سبحانه يُحمد لهذه الغايات المحمودة كما يُحمد لذاته وأوصافه، فالغايات المحمودة في أفعاله هي الحكمة التي يحبها ويرضاها..

(٢) **السياق** يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة. وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته. فانظر إلى قوله تعالى: ﴿**ذُقْ إنك أنتَ العَزِيزُ الكَريمُ**﴾ [الدخان: ٤٩] كيف نجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير.

(٣) **قال** تعالى: ﴿**إن المتقين في مقام أمين* في جنات وعيون* يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين**﴾ [الدخان: ٥١-٥٣].

---

(١) ٦٨ روضة المحبين. (١) ٩ بدائع جـ٤. (٢) ١٤١ حادي الأرواح.

وقال تعالى: ﴿**إن الذين آمنُوا وَعَملُوا الصَّالحاتِ إنَّا لا نُضيعُ أجرَ من أَحسَنَ عَملاً* أولئك لهم جناتُ عَدْنٍ تَجْري من تَحْتهمُ الأنهارُ يُحَلَّون فيها مِنْ أساور من ذَهَبٍ ويَلْبَسُون ثياباً خُضْراً من سُنْدُسٍ وإسْتَبْرقٍ مُتَّكِئِينَ فيها على الأرائِكِ**﴾

قال جماعة من المفسرين السندس مارق من الديباج، والإستبرق ماغلظ منه. وقالت طائفة ليس المراد به الغليظ ولكن المراد به الصفيق.

وقال الزجاج هما نوعان من الحرير، وأحسن الألوان الأخضر، وألين اللباس الحرير، فجمع لهم بين حسن منظر اللباس والتذاذ العين به وبين نعومته والتذاذ الجسم به.

وقال تعالى: ﴿**ولباسهم فيها حرير**﴾ [الحج: ٢٣] وههنا مسألة وهذا موضع ذكرها وهي أن الله سبحانه وتعالى أخبر أن لباس أهل الجنة حرير، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**» متفق على صحته من حديث عمر بن الخطاب وأنس بن مالك.

وقد اختلف في المراد بهذا الحديث فقالت طائفة من السلف والخلف: إنه لا يلبس الحرير في الجنة ويلبس غيره من الملابس.

قالوا وأما قوله تعالى: ﴿**وَلِبَاسُهُمْ فيها حَرِير**﴾ فمن العام المخصوص.

وقال الجمهور وهذا من الوعيد الذي له حكم أمثاله من نصوص الوعيد التي تدل على أن الفعل مقتض لهذا الحكم وقد يتخلف عنه لمانع. وقد دل النص والإجماع على أن التوبة مانعة من لحوق الوعيد، ويمنع من لحوقه أيضاً الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين، وشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة فيه، وشفاعة أرحم الراحمين إلى نفسه، فهذا الحديث نظير الحديث الآخر: «**من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة**».

(١)**الاسم** العاشر المقام الأمين قال تعالى: ﴿**إن المتقين في مقام أمين**﴾ والمقام موضع الإقامة، والأمين الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد.

والبلد الأمين الذي قد أمن أهله فيه مما يخاف منه سواهم.

وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ المتَّقِينَ في مقامٍ أَمِين**﴾ [الدخان: ٥١].

(١) ٧٥ حادي الأرواح.

وفي قوله تعالى: ﴿**يَدْعُون فيها بِكُلِّ فاكهةٍ آمنين**﴾ [الدخان: ٥٥].

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك، وأمن الموت فلا يخافون فيها موتًا.

(١)**وأما قوله**: ﴿**لَا يذُوقُون فيها المَوْتَ إلا الموْتَة الأولى**﴾ [الدخان: ٥٦] **فهذا** الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت. وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة؛ إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع. فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم. وهذا جارٍ في كل منقطع. فتأمله فإنه من أسرار العربية.

(٢)**وقال** تعالى: ﴿**إنَّ المتَّقين في مَقَام أمين• في جنَّاتٍ وعيُون• يَّلبَسُون من سُنْدُس وإسْتَبْرَقٍ مُّتقابلين• كَذَلك وَزَوَّجْناهُم بحُورٍ عين• يَدعُون فيها بكُلِّ فاكهةٍ آمِنِينَ• لا يذوقون فيها الموتَ إلاَّ المَوْتَةَ الأولى وَوَقَاهُم ربُّهم عذاب الجحيم**﴾ [الدخان: ٥١ - ٥٦].

فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه واشتماله على الثمار والأنهار، وحسن اللباس وكمال العشرة لمقابلة بعضهم بعضاً، وتمام اللذة بالحور العين، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها، وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتاً.

والحور جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين.

وقال زيد بن أسلم: الحوراء التي يحار فيها الطرف، وعين حسان الأعين.

وقال مجاهد: الحوراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون.

وقال الحسن: الحوراء شديدة بياض العين شديدة سواد العين.

(٣)**وقوله** تعالى: ﴿**وزَوَّجنَاهُم بِحُورٍ عينٍ**﴾ قال أبوعبيدة: جعلناهم أزواجاً كما يزوج النعل بالنعل، جعلناهم اثنين اثنين. وقال يونس: قرناهم بهن، وليس من عقد التزويج قال: والعرب لا تقول تزوجت بها، وإنما تقول: تزوجتها. قال ابن نصر: هذا والتنزيل يدل على ما قاله يونس وذلك قوله تعالى: ﴿**فلما قضى زيد**

---

(١) ٣١٩ مدارج جـ١.　(٢) ١٥٦ حادي الأرواح.　(٣) ١٥٧ حادي الأرواح.

منها وطراً زوجناكها﴾ ولو كان على تزوجت بها. لقال زوجناك بها وقال ابن **سلام**: تميم تقول تزوجت امرأة وتزوجت بها، وحكاه الكسائي أيضاً. وقال **الأزهري**: تقول العرب زوجته امرأة وتزوجت امرأة، وليس من كلامهم تزوجت بامرأة **وقوله** تعالى: **﴿وزوجناهم بحور عين﴾** أي قرناهم. وقال الفراء: هي لغة في أزدشنؤة. قال الواحدي: وقول أبي عبيدة في هذا أحسن؛ لأنه جعله من التزويج الذي هو بمعنى جعل الشيء زوجاً لا بمعنى عقد النكاح. ومن هذا يجوز أن يقال: كان فرداً فزوجته بآخر كمايقال شفعته بآخر، وإنما تمتنع الباء عند من يمنعها إذا كان بمعنى عقد التزويج «قلت» ولا يمتنع أن يراد الأمران معاً فلفظ التزويج يدل على النكاح كما قال مجاهد أنكحناهم الحور، ولفظ الباء تدل على الاقتران والضم وهذا أبلغ من حذفها والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الدخان

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**وأما** قوله: ﴿لكلِّ أفَّاكٍ أثِيم﴾ [الجاثية: ٧]. فالإفك هو الكذب وهو في القول، والإثم هو الفجور وهو في الفعل. والكذب يدعو إلى الفجور كما في الحديث الصحيح: «**إن الكذب يدعو إلى الفجور وإن الفجور يدعو إلى النار**». فالذي قاله صحيح.

وأما كل معتد أثيم ففيه معنى ثانٍ غير ما ذكره وهو أن العدوان مجاوزة الحد الذي حد للعبد، فهو ظلم في القدر والوصف. وأما الإثم فهو محرم الجنس ومن تعاطى تعدى الحدود تخطى إلى الجنس الآخر وهو الإثم.

ومعنى ثالث: وهو أن المعتدي الظالم لعباد الله عدوانًا عليهم (والأثيم) الظالم لنفسه بالفجور، فكان تقديمه هنا على الأثيم أولى، لأنه في سياق ذمه والنهي عن طاعته. فمن كان معتديًا على العباد ظالمًا لهم فهو أحرى بأن لا تطيعه وتوافقه.

وفيه معنى رابع: وهو أنه قدمه على الأثيم ليقترن بما قبله وهو وصف المنع للخير فوصفه بأنه لا خير فيه للناس وأنه مع ذلك معتد عليهم، فهو متأخر عن المناع لأنه يمنع خيره أولاً ثم يعتدي عليهم ثانيًا، ولهذا يحمد الناس من يوجد لهم الراحة ويكف عنهم الأذى وهذا هو حقيقة التصوف، وهذا لا راحة يوجدها ولا أذى يكفه.

(٢)**وقال** تعالى: ﴿**قُل لِلَّذين آمَنُوا يَغفرُوا للذين لا يَرْجُون أيَّام الله**﴾ [الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

(٣)**اعلم** أن ورود [أم] هذه على قسمين، أحدهما: ماتقدمه استفهام صريح بالهمزة: وحكمها ماتقدم وهو الأصل فيها والأخية التي يرجع إليها ماخرج عن ذلك كله.

والثاني ورودها مبتدأة مجردة من استفهام لفظي سابق عليها نحو قوله تعالى: ﴿**أم حَسِبْتَ أن أصحابَ الكَهْف والرَّقيم كانوا من آياتنا عجبًا**﴾ [الكهف: ٩].

وقوله تعالى: ﴿**أم يَقُولون شاعرٌ نَتَرَبَّصُ به ريبَ الْمَنُونِ**﴾ [الطور: ٣٠] **وقوله**: ﴿**أم حسبتُم أن تَدْخُلُوا الجنَّة**﴾ [آل عمران: ١٤٢]. ﴿**أم لم يعرفوا رسولهم**﴾ [المؤمنون:

---

(١) ٦٨ بدائع جـ١.
(٢) ٥١ مدارج جـ٢.
(٣) ٢٠٦ بدائع جـ١.

٦٩] ﴿أم اتَّخَذَ مما يَخْلُقُ بنات﴾ [الزخرف: ١٦] ﴿أم له البَنَاتُ﴾ [الطور: ٣٩] ﴿أم أنا خَيرٌ مِن هذا الذي هوَ مَهينٌ﴾ [الزخرف: ٥٢] ﴿أم أنزلنا عليهم سُلْطانًا﴾ [الروم: ٣٥] وهـو كثير جدًّا تجد فيه أَم مبتدءاً بها ليس قبلها استفهام في اللفظ، وليس هذا استفهام استعلام بل تقريع وتوبيخ وإنكار.

وليس بإخبـار فهـو إذًا متضمن لاستفهـام سابق مدلـول عليه بقوة الكلام وسياقه، ودلت أم عليه لأنها لا تكون إلا بعد تقدم استفهام، كأنه يقول أيقولون صادق أم يقولون شاعر؟ وكذلك: أم يقولون تقوّله أي أتصدقونه أم تقولون تقوّله؟ وكذلك ﴿أَمْ حَسِبْتَ أن أَصْحَابَ الكَهْف﴾ أي أبلغك خبرهم أم حسبت أنهم كانوا من آياتنا عجبًا.

وتأمل كيف تجد هذا المعنى باديًا على صفحات قوله تعالى: ﴿مَالي لا أَرَى الهُدْهُد أم كان مِنَ الغائبين﴾ [النمل: ٢٠] كيف تجد المعنى أحضر أم كان من الغائبين.

وهذا يظهر كل الظهور فيما إذا كان الذي دخلت عليه أم له ضد وقد حصل التردد بينهما فإذا ذكر أحدهما استغني به عن ذكر الآخر لأن الضد يخطر بالقلب وهو عند شعوره بضده.

فإذا قلت مالي لا أرى زيدًا أم هو في الأموات كان المعنى الذي لا معنى للكلام سواه أحي هو أم في الأموات؟

وكذلك قوله تعالى: ﴿أم أَنا خيرٌ مِنْ هذا الذي هو مَهين﴾ معناه أهو خير مني أم أنا خير منه؟ وكذلك قوله تعالى: ﴿أم حَسبتُم أن تَدْخُلُوا الجنة ولما يأتِكُم مثل الَّذين خَلَوا من قَبْلِكم﴾ [البقرة: ٢١٤]. هو استفهام إنكار معادل لاستفهام مقدر في قوة الكلام.

فإذا قلت: لِمَ فعلت هذا أم حسبت أن لا أعاقبك كان معناه أحسبت أن أعاقبك فأقدمت على العقوبة أم حسبت أني لا أعاقبك فجهلتها.

وكذلك قوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلُوا الجَنَّة ولما يَعْلم الله الذين جاهَدوا مِنْكم﴾ [آل عمران: ١٤٢] أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة بغير جهاد فتكونوا جاهلين أم لم تحسبوا ذلك فتكونوا مفرطين.

وكذلك إذا قلت أم حسبت أن تنال العلم بغير جد واجتهاد معناه أحسبت أن تناله بالبطالة والهوينا فأنت جاهل أم لم تحسب ذلك فأنت مفرط. وكذلك ﴿أم حَسِبَ الذينَ اجْتَرَحُوا السيِّئَاتِ أن نَجْعَلهم كالذين آمنوا وعَمِلوُا الصَّالحات﴾

[الجاثية: ٢١] أي أحسبوا هذا فهم مغترون أم لم يحسبوه فما لهم مقيمون على السيئات. وعلى هذا سائر ما يرد عليك من هذا الباب.

وتأمل كيف يذكر سبحانه القسم الذي يظنونه ويزعمونه فينكره عليهم وأنه مما لا ينبغي أن يكون ويترك ذكر القسم الآخر الذي لا يذهبون إليه، فتردد الكلام بين قسمين فيصرح بإنكار أحدهما وهو الذي سيق لإنكاره ويكتفي منه بذكر الآخر. وهذه طريقة بديعة عجيبة في القرآن نذكرها في باب الأمثال وغيرها، وهي من باب الاكتفاء عن غير الأهم بذكر الأهم لدلالته عليه، فأحدهما مذكور صريحاً والآخر ضمناً. ولذلك أمثلة في القرآن يحذف منها الشيء للعلم بموضعه. فمنها قوله تعالى: ﴿**وإذْ قُلْنا** **وإذ نَجَّيْنَاكم** **وإذ فَرَقْنَا**﴾ وهو كثير جدًّا بواو العطف من غير ذكر عامل يعمل في إذ، لأن الكلام في سياق تعداد النعم وتكرار الأقاصيص فيشير بالواو العاطفة إليها كأنها مذكورة في اللفظ لعلم المخاطب بالمراد. ولما خفي هذا على بعض ظاهرية النحاة قال: إن الواو زائدة هنا، وليس كذلك.

ومن هذا الباب الواو المتضمنة معنى رُبَّ فإنك تجدها في أول الكلام كثيراً إشارة منهم إلى تعداد المذكور بعدها من فخر أو مدح أو غير ذلك. فهذه كلها معان مضمرة في النفس وهذه الحروف عاطفة عليها. وربما صرحوا بذلك المضمر كقول ابن مسعود: دع ما في نفسك وإن أفتوك عنه وأفتوك.

ومن هذا الباب حذف كثير من الجوابات في القرآن لدلالة الواو عليها لعلم المخاطب أن الواو عاطفة ولا يعطف بها إلا على شيء كقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا ذَهَبُوا به وَأَجمعوا أن يَجعلوه في غيابة الجُبِّ**﴾ [يوسف: ١٥]. وكقوله تعالى: ﴿**حتى إذا جاءوها وَفُتِحَتْ أبْوابها**﴾ [الزمر: ٧٣]. وهذا الباب واسع في اللغة. فهذا ما في هذه المسألة. وكان قد وقع لي هذا بعينه أمام المقام بمكة، وكان يجول في نفسي فأضرب عنه صفحًا لأني لم أره في مباحث القوم، ثم رأيته بعد لفاضلين من النحاة. أحدهما حام حوله وما ورد ولا أعرف اسمه. والثاني أبوالقاسم السهيلي ـ رحمه الله ـ فإنه كشفه وصرح به وإذا لاحت الحقائق فكن أسعد الناس بها وإن جفاها الأغمار والله الموفق للصواب.

(١)**وقد** قال تعالى: ﴿**أفرأيتَ مَنِ اتخذَ إلههُ هَواه وأَضَلَّه الله على عِلمٍ**﴾ [الزخرف:

---

(١) ٤ شفاء.

٢٣] قال ابن عباس: علم ما يكون قبل أن يخلقه. وقال أيضاً: على علم قد سبق عنده. وقال أيضاً: يريد الأمر الذي سبق له في أم الكتاب. وقال سعيد بن جبير ومقاتل: على علمه فيه. وقال أبوإسحاق: أي على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه. وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين. وقال الثعلبي: على علم منه بعاقبة أمره، قال وقيل: على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، وكذلك ذكر البغوي وأبوالفرج بن الجوزي قال: على علمه السابق فيه أنه لا يهتدي.

وذكر طائفة منهم المهدوي وغيره قولين في الآية هذا أحدهما[1] قال المهدوي: فأضله الله على علم علمه منه بأنه لا يستحقه. قال وقيل: على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر.

وعلى الأول يكون ﴿على علم﴾ حال من الفاعل المعني: أضله الله عالمًا بأنه من أهل الضلال في سابق علمه. وعلى الثاني حال من المفعول، أي أضله الله في حال علم الكافر بأنه ضال.

قلت: وعلى الوجه الأول فالمعنى أضله الله عالمًا به وبأقواله وما يناسبه ويليق به ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنه أهل للضلال وليس أهلاً أن يهدى، وأنه لو هدى لكان قد وضع الهدى في غير محله وعند من لا يستحقه، والرب تعالى حكيم إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها.

فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدر عليه الضلال، وذكر العلم إذ هو الكاشف المبين لحقائق الأمور ووضع الشيء في مواضعه وإعطاء الخير من يستحقه ومنعه من لا يستحقه، فإن هذا لا يحصل بدون العلم، فهو سبحانه أضله على علمه بأحواله التي تناسب ضلاله وتقتضيه وتستدعيه.

وهو سبحانه كثيراً ما يذكر ذلك مع إخباره بأنه أضل الكافر كما قال: ﴿فَمن يُّرِدِ الله أن يَّهْدِيه يَشْرَحْ صَدْرَه للإسلام ومَنْ يُّرِدْ أَنْ يُّضلَّه يَجْعلْ صَدْرهُ ضَيقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ كذلك يجعل الله الرِّجْسَ على الذين لا يُؤْمنونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿يُضلُّ به كثيراً ويَهْدي به كثيراً وما يُضلُّ به إلاَّ الفَاسِقِين۝ الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله من بعد مِيثاقه ويَقطَعُون ما أمر الله به أن يُوصَلَ ويَفسدِون في

(١) ذكر القول الثاني في ص٣٩ واستطرد هنا في البحث جزاه الله خيرًا. اختصرناه فمن أراده فليرجع إليه (ج).

الأرض أولئك هُمُ الخاسِرون﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿والله لا يهدي القَوْم الظَّالمين﴾ [البقرة: ٢٥٨] ﴿والله لا يهدي القَومَ الفَاسِقِينْ﴾ [المائدة: ١٠٨] ﴿إن الله لا يهدي مَنْ هو كاذبٌ كفارٌ﴾ [الزمر: ٣٩] ﴿ويضلُّ الله الظَّالمينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ﴿كذلك يُضلُّ الله مَنْ هُو مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤] ﴿كذلك يَطْبَع الله على كُلِّ قَلْب مُتكبرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ﴿كذلك يَطْبعُ الله على قلوبِ الذَّين لَا يَعْلمُون﴾ [الروم: ٥٩]

وقد أخبر سبحانَه أنه يفعل ذلك عقوبة لأرباب هذه الجرائم وهذا إضلال ثان بعد الإضلال الأول.

كما قال تعالى: ﴿وقولهم قُلوبُنا غُلفٌ بل طَبَعَ الله عَليها بكُفْرهم فلا يُؤمنون إلا قليلاً﴾ [النساء: ١٥٥] وقال تعالى: ﴿وما يُشْعركم أنها إذا جآءتْ لا يُؤمنون * وَنُقَلِّبُ أَفْئدتهم وأَبصارَهم كما لم يؤمنوا به أوَّل مرَّة وَنَذَرهم في طُغْيانِهم يَعْمهُون﴾

(١)**وفي** قوله تعالى: ﴿وأَضَلهُ الله على علمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] قول آخر أنه على علم الضال، كما قيل: على علم منه أن معبوده لا ينفع ولا يضر فيكون المعنى: أضله الله مع علمه الذي تقوم به عليه الحجة لم يضله على جهل وعدم علم هذا يشبه قوله: ﴿فلَا تَجْعَلوُا لله أَنْداداً وأنتمُ تَعلمون﴾ [البقرة: ٢٢] وقوله: ﴿فَصَدهم عن السبيل وكانُوا مُسْتَبْصِرِين﴾ [العنكبوت: ٣٨] وقوله: ﴿وَجَحَدُوا بها وَاسْتَيْقَنَتْها أنفُسهم﴾ [النمل: ١٤] وقوله: ﴿وآتينا ثمودَ النَّاقةَ مُبْصِرَةً فَظَلموا بها﴾ [الإسراء: ٥٩]

وقول موسى لفرعون: ﴿لقد عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤلاءِ إلا ربُّ السَّمواتِ والأرض بَصَائِر﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿الَّذين آتيناهُمُ الكتَاب يَعْرِفُونَه كما يعرفُون أبناءهم وإن فريقًا منهم ليَكْتُمون الحقَّ وهم يعلمون﴾ [البقرة: ١٤٦] وقوله: ﴿فإنهم لا يُكَذِّبُونَك ولكن الظَّالمين بآياتِ الله يَجحَدُون﴾ [الأنعام: ٣٣]. وقوله: ﴿وما كان الله ليُضِلَّ قومًا بعدَ إذْ هَداهم حتى يُبين لهم مَا يَتَّقون﴾ [التوبة: ١١٥]. ونظائره كثيرة.

وعلى هذا التقدير فهو ضال عن سلوك طريق رشده وهو يراها عيانا كما في الحديث: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه» فإن الضال عن الطريق قد يكون متبعًا لهواه عالمًا بأن الرشد والهدى في خلاف ما يعمل.

---

(١) ٣٩ شفاء.

ولما كان الهدى هو معرفة الحق والعمل به كان له ضدان: الجهل، وترك العمل به.

فالأول ضلال في العلم، والثاني ضلال في القصد والعمل. فقد وقع قوله ﴿على علم﴾ في قوله تعالى: ﴿ولقد اخترْنَاهم على عِلمٍ﴾ [الدخان: ٣٢] وفي قوله: ﴿وأضَلَّه الله علىٰ عِلم﴾ [الجاثية: ٢٣] وفي قوله: ﴿قال إنما أُوتيتُهُ على علمٍ﴾

فالأول يرجع العلم فيه إلى الله قولاً واحدًا. والثاني والثالث فيهما قولان، والراجح في قوله ﴿وأضله الله على علم﴾ أن يكون كالأول وهو قول عامة السلف، والثالث فيه قولان محتملان وقد ذكر توجيههما والله أعلم. والمقصود ذكر مراتب القضاء والقدر علمًا وكتابة ومشيئة وخلقًا.

(١)**وأما** الغشاوة فهو غطاء العين كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلى بَصَرِه غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب؛ فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه.

وأنت إذا أبغضت رجلاً بغضاً شديدًا أو أبغضت كلامه ومجالسته تجد على عينيك غشاوة عند رؤيته ومخالطته، فتلك أثر البغض والإعراض عنه وغلظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول. وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته كالعمامة ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك العشاء غشاوة على أعينهم فلا تبصر مواقع الهدى.

(٢)**وهؤلاء** قوم عطَّلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ماحكاه الله عنهم: ﴿وقالوا مَا هِىَ إلاَّ حَيَاتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنحيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهؤلاء فرقتان. فرقة قالت: إن الخالق سبحانه لما خلق الأفلاك مُتحرِّكة أعظم حركة دارت عليه فَأحرقتهُ، ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركاتها. وفرقة قالت: إن الأشياء ليس لها أول البتة...

(٣)**وقال** طاوس: أدركت ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر. وقال أيوب السختياني: أدركت الناس وما كلامهم إلا: إن قضى، إن قدر. وقال عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إنَّا كنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون﴾ [الجاثية: ٢٩] قال: كتب الله أعمال بني آدم وما هم عاملون إلى يوم القيامة. قال:

(١) ٩٦ شفاء.	(٢) ٢٥٥ إغاثة جـ٢.	(٣) ٦٦ طريق الهجرتين.

والملائكة تستنسخ ما يعمل بنو آدم يومًا بيوم فذلك قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وفي الآية قول آخر: إن استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنو آدم بعد أن يعملوه. وقد يقال وهو الأظهر: إن الآية تعم الأمرين، فيأمر الله ملائكته فتستنسخ من أم الكتاب أعمال بني آدم ثم يكتبونها عليهم إذا عملوها فلا تزيد على ما نسخوه من أم الكتاب ذرة ولا تنقصها.

(1) **وقد** قال تعالى: ﴿إِنَّا كنَّا نَستنسخُ ما كنتم تعلمون﴾.

وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ فتستنسخ الملائكة ما يكـون من أعمال بني آدم قبل أن يعملوها فيجدون ذلك موافقًا لما يعملونه، فيثبت الله تعالى منه ما فيه ثواب أو عقاب ويطرح منه اللغو.

وذكر ابن مردويه في تفسير من طرق إلى بقية عن أرطاة بن المنذر عن مجاهد عن ابن عمر يرفعه: «أن أول ماخلق الله القلم فأخذه بيمينه وكلتا يديه يمين فكتب الدنيا ومايكون فيها من عمل معمول من بر أو فجور رطب أو يابس فأحصاه عند الذكر» وقال اقرؤا إن شئتم ﴿هَـذا كتـابُنا يَنْطِقُ عليكم بالحق إنا كنا نَسْتَنسِخُ ماكنتم تعملون﴾. فهل تكون النسخة إلا من شيء قد فرغ منه. وقال آدم ثنا ورقاء عن عطاء بن السائب عن مقسم عن ابن عبـاس ﴿إنـا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون﴾ قال: تستنسخ الحفظة من أم الكتاب مايعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان على مااستنسخ الملك من أم الكتاب.

وفي تفسير الأشجع عن سفيان عن منصور عن مقسم عن ابن عباس قال: كتب في الذكر عنـده كل شيء هو كائن ثم بعث الحفظة على آدم وذريته، وكل ملائكته ينسخون من الذكر مايعمل العباد ثم قرأ: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون﴾.

وفي تفسير الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال: هي أعمال أهل الدنيا الحسنات والسيئات تنزل من السماء كل غداة وعشية ما يصيب الإنسان في ذلك اليوم أو الليلة، الذي يقتل، والذي يغرق، والذي يقع من فوق بيت، والذي يتردى من جبل، والذي يقع، والذي يحرق بالنار، فيحفظوا عليه ذلك كله. وإذا كان الشيء صعدوا به إلى السماء فيجدونه كما في السماء مكتوبًا في الذكر الحكيم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجاثية

والحمد لله رب العالمين

(١) ٢٤ شفاء.

سورة الأحقاف

ترتيبها ٤٦ — آياتها ٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائتونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الاحقاف: ٤] فطالبهم بالدليل السمعي والعقلي.

(٢)**قال** تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الاحقاف: ١٣، ١٤] وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

فبين أن الاستقامة ضد الطغيان. وهو مجاوزة الحدود في كل شيء.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧].

سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة - أبوبكر الصديق رضي الله عنه - عن الاستقامة؟ فقال: «**أن لا تشرك بالله شيئاً**» يريد الاستقامة على محض التوحيد(٣).

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «**الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي. ولا تروغ روغان الثعالب**». وقال عثمان بن عفان - رضي الله عنه -: «**استقاموا: أخلصوا العمل لله**». وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، وابن عباس - رضي الله عنهما -: «**استقاموا أدوا الفرائض**». وقال الحسن: «**استقاموا**

---

(١) ٩٦ مختصر الصواعق جـ١. (٢) ١٠٣ مدارج جـ٢.

(٣) ومن استقام على محض التوحيد الصادق الذين يدين به الصديق. واستقام له توحيده على العلم الصادق بأسماء الله وصفاته، وآثارها في الأنفس والآفاق: استقام في كل شأنه على الصراط المستقيم. فاستقام له كل عمل وكل حال.

على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته». وقال مجاهد: **«استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله»**. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يَمْنة ولا يَسْرة. وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: «يارسول الله! قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: **«قل آمنت بالله. ثم استقم»**. وفيه عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«استقيموا** ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة. ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

والمطلوب من العبد الاستقامة. وهي السداد. فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة. كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«سددوا وقاربوا. واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله»**. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: **«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**. فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها. فأمر بالاستقامة. وهي السداد، والإصابة في النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها. فنقلهم إلى المقاربة. وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم. كالذي يرمي إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة. فلا يركن أحد إلى عمله. ولا يعجب به. ولا يرى أن نجاته به. بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد. والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله. وبالله، وعلى أمر الله. قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة. لا طالب الكرامة. فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة. وربك يطالبك بالاستقامة. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله تعالى روحه ـ يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

(١)**قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾** [الأحقاف: ١٥] فأخبر ـ تعالى ـ أن مدة الحمل

(١) ١٥٨ تحفة المودود.

والفطام ثلاثون شهراً، وأخبر في آية البقرة أن مدة تمام الرضاع حولين كاملين، فعلم أن الباقي يصلح مدة للحمل وهو ستة أشهر، فاتفق الفقهاء كلهم على أن المـرأة لا تلد لدون ستة أشهر إلا أن يكون سقطاً، وهذا أمر تلقاه الفقهاء عن الصحابة رضي الله عنهم.

فذكر البيهقي وغيره عن حرب بن أبي الأسود الرملي [الديلمي] أن عمر أُتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فهَمَّ عمر برجمها، فبلغ ذلك عليًّا ـ رضي الله عنه ـ، فقـال: ليس عليهـا رجم، فبلغ ذلـك عمـر، فأرسـل إليه فسـألـه؟ فقـال: ـ ﴿والـوالداتُ يُرضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَينِ أَرادَ أن يُتِمَّ الرَّضَاعَة﴾ وقال: ﴿وحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾، فستة أشهر حمله، وحولين تمام الرضاعة؛ لا حدّ عليها. فخلى عنها.

وفي موطأ مالك أنه بلغه أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أتي بامرأة قد ولدت في ستة أشهر، فأمر بها أن ترجم، فقال علي: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾ وقال: ﴿وفصاله في عامين﴾، فأمر بها عثمان أن ترد فوجدت قد رجمت. وذكر داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لستة أشهر كفاها من الرضاع أربعة وعشرون شهراً، كما قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾ انتهى كلامه.

وقـال ـ تعالى ـ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨] قال ابن عباس: ما تغيض الأرحام: ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها، ووافقه على هذا أصحابه: كمجاهد وسعيد بن جبير، وقال مجاهد أيضاً: إذا حاضت المرأة على ولدها كان ذلك نقصاناً من الولد وما تزداد، قال: إذا زادت على تسعة أشهر كان ذلك تماماً لما نقص من ولدها. وقال أيضاً الغيض: ما رأت الحامل من الدم في حملها وهو نقصان من الولد، والزيادة ما زاد، وعلى التسعة أشهر وهو تمام النقصان. وقال الحسن: ما تغيض الأرحام ما كان من سقط، وما تزداد المرأة تلد لعشرة أشهر. وقال عكرمة تغيض الأرحام: الحيض بعد الحمل،

فكل يوم رأت فيه الدم حاملاً ازداد به في الأيام ظاهراً، فما حاضت يوماً إلا ازدادت في الحمل يوماً. وقال قتادة: الغيض: السقط وما تزداد فوق التسعة أشهر. وقال سعيد بن جبير: إذا رأت المرأة الدم على الحمل فهو الغيض للولد، فهو نقصان في غذاء الولد وزيادة في الحمل.

تغيض وتزداد: فعلان متعديان، مفعولهما محذوف، وهو عائد على ما الموصولة. والغيض: النقصان، ومنه وغيض الماء، وضده: الزيادة.

والتحقيق في معنى الآية: أنه يعلم مدة الحمل وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو أنثى. وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله، كما في الصحيح عنه ـ عليه السلام ـ: «**مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى مجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله**».

فهو ـ سبحانه ـ المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه وما ينقص، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه: كالسقط، والتام، ورؤية الدم وانقطاعه. والمقصود ذكر مدة إقامة الحمل في البطن وما يتصل بها من زيادة ونقصان.

فصل

وأما أقصاها فقال ابن المنذر: اختلف أهل العلم في ذلك؛ فقالت طائفة: أقصى مدته سنتان، وروي هذا القول عن عائشة. وروي عن الضحاك وهرم بن حيان: أن كل واحد منهما أقام في بطن أمه سنتين وهذا قول سفيان الثوري. وفيه قول ثان: وهو أن مدة الحمل قد تكون ثلاث سنين، روينا عن الليث بن سعد أنه قال: حملت مولاة لعمر بن عبدالله ثلاث سنين. وفيه قول ثالث: أن أقصى مدته أربع سنين، هكذا قال الشافعي.

قلت: وعن الإمام أحمد روايتان: أنه أربع سنين، والثانية سنتان، **قال**: واختلف فيه عن مالك، فالمشهور عنه عند أصحابه مثل ما قال الشافعي، وحكى ابن الماجشون عنه ذلك ثم رجع لما بلغه قصة المرأة التي وضعت لخمس سنين.

وفيه قول آخر [هو: قول رابع]: إن مدة الحمل قد تكون خمس سنين. حكي عن عباد بن العوام أنه قال: ولدت امرأة معنا في الدار لخمس سنين، قال: فولدته وشعره يضرب إلى ههنا، وأشار إلى العنق. قال: ومر به طير فقال: هش. وقد حكي عن ابن عجلان، أن امرأته كانت تحمل خمس سنين: وفيه قول خامس - قاله الزهري: إن المرأة تحمل ست سنين وسبع سنين، فيكون ولدها مخشوشاً في بطنها، قال: وقد أُتي سعيد بن عبدالملك بامرأة حملت سبع سنين.

وقالت فرقة: لا يجوز في هذا الباب التحديد والتوقيت بالرأي، لأنا وجدنا لأدنى الحمل أصلاً في تأويل الكتاب وهو الأشهر الستة، فنحن نقول بهذا ونتبعه ولم نجد لآخره وقتاً. وهذا قول أبي عبيد، ورفع بهذا حديث عائشة، وقال: المرأة التي روته عنها مجهولة، وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم: أن المرأة إذا جاءت بولد لأقل(١) من ستة أشهر من يوم نكحها فالولد له.

(٢)**والمقصود** تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكماً أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه إلى نص آخر متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدراً زائداً على ذلك اللفظ بمفرده.

وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به، وهذا كما فهم ابن عباس من قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أن المرأة قد تَلِدُ لستة أشهر.

وكما فهم الصديقُ من آية الفرائض في أول السورة وآخرها أن الكلالة من لا ولد له ولا والد، وأسقط الإخوة بالجد، وقد أرشد النبي ﷺ عمر إلى هذا الفهم حيث سأله عن الكلالة وراجعه السؤال فيها مرارًا، فقال: يكفيك آية الصيف. . . .

(٣)**وهذا** وأمثاله يدل على أن الطبيعة التي هي منتهى سير الطبائعين، لها رب

(١) كذا بالأصل ولعله [لأكثر] من ستة أشهر (ج). (٢) ٣٥٤ أعلام جـ١.
(٣) ١٦٢ تحفة المودود.

قاهر قادر، يتصرف فيها بمشيئته، وينوع فيها خلقه كما يشاء، ليدل من له عقل على وجوده ووحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله، وإلا فمن أين في الطبيعة المجردة هذا الاختلاف العظيم والتباين الشديد، ومن أين في الطبيعة خلق هذا النوع الإنساني على أربعة أضرب. أحدها: لا من ذكر ولا من أنثى: كآدم ـ عليه السلام ـ الثاني: من ذكر بلا أنثى: كحواء ـ عليها السلام ـ الثالث: من أنثى بلا ذكر: كالمسيح ـ عليه السلام ـ الرابع: من ذكر وأنثى: كسائر النوع، ومن أين في الطبيعة والقوة هذا التركيب والتقدير والتشكيل، وهذه الأعضاء والرباطات والقوى والمنافذ والعجائب التي ركبت في هذه النطفة المهينة، لولا بدائع صنع الله ما وجدت تلك العجائب في مستقذر الماء، ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ـ٨]. ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٥، ٦]. لقد دل ـ سبحانه ـ على نفسه، أوضح دلالة بما أشهده كل عبد على نفسه من: حاله، وحدوثه، وإتقان صنعه، وعجائب خلقه، وآيات قدرته، وشواهد حكمته فيه.

ولقد دعا ـ سبحانه ـ الإنسان إلى النظر في مبدأ خلقه وتمامه، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥ـ٧] وقال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] وهذا في القرآن كثير لمن تدبره وعقله، وهو شاهد منك عليك، فمن أين للطبيعة والقوة المحصورة هذا الخلق، والإتقان والإبداع، وتفصيل تلك العظام، وشد بعضها ببعض على اختلاف أشكالها ومقاديرها ومنافعها وصفاتها، ومن جعل في النطفة تلك العروق واللحم والعصب، ومن فتح لها تلك الأبواب

والمنافذ، ومن شق سمعها وبصرها، ومن ركب فيها لساناً تنطق به، وعينين تبصر بهما، وأذنين تسمع بهما، وشفتين، ومن أودع فيها الصدر وما حواه من المنافع والآلات التي لو شاهدتها لرأيت العجائب.

ومن جعل هناك حوضاً وخزانة يجتمع فيها الطعام والشراب، وساق إليه مجاري وطرقاً ينفذ فيها، فيسقي جميع أجزاء البدن كل جزء يشرب من مجراه الذي يختص به لا يتعداه ـ قد علم كل أناس مشربهم ـ ومن أخدمها تلك القوى التي بها تمت مصالحها ومنافعها، ومن أودع فيها العلوم الدقيقة والصنائع العجيبة وعلمها ما لم تكن تعلم، وألهمها فجورها وتقواها، ونقلها في أطوار التخليق طوراً بعد طور، وطبقاً بعد طبق إلى أن صارت شخصاً حيًّا ناطقاً سميعاً بصيراً، عالماً متكلماً آمراً ناهياً، مسلطاً على طير السماء وحيتان الماء ووحوش الفلوات، عالماً بما لا يعلمه غيره من المخلوقات، ﴿**قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ**﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

فصل

وقد زعم طائفة ممن تكلم في خلق الإنسان أنه إنما يعطى السمع والبصر بعد ولادته وخروجه من بطن أمه، واحتج بقوله تعالى: ﴿**وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل: ٧٨] واحتج أنه في بطن الأم لا يرى شيئاً ولا يسمع صوتاً، فلم يكن لإعطائه السمع والبصر هناك فائدة. وليس ما قاله صحيحاً ولا حجة له في الآية. لأن الواو لا ترتيب فيها بل الآية حجة عليه. . . .

(١)**قال** الزجاج: الأشد من نحو سبع عشرة سنة إلى نحو الأربعين، وقال ابن عباس في رواية عطاء عنه، الأشد: الحلم، وهو اختيار يحيى بن يعمر والسدي، وروى مجاهد عنه: ثلاثًا وثلاثين سنة، وروي عنه أيضاً ثلاثين، وقال الضحاك: عشرين سنة، وقال مقاتل: ثمان عشرة. وقد أحكم الزهري تحكيم اللفظ، فقال: بلوغ الأشد يكون من وقت بلوغ الإنسان مبلغ الرجال إلى أربعين سنة، **قال**: فبلوغ الأشد محصور. الأول محصور النهاية غير محصور ما بين ذلك، فبلوغ الأشد مرتبة

(١) ١٨٢ تحفة المودود.

بين البلوغ وبين الأربعين، ومعنى اللفظة من الشدة: وهي القوة والجلادة، والشديد: الرجل القوي، فالأشد: القوي، قال الفراء: واحدها شدة في القياس، ولم أسمع لها

القوي، فالأشد: القوي، قال الفراء: واحدها شدة في القياس، ولم أسمع لها

بواحد. وقال أبو الهيثم: واحدها شدة كنعمة وأنعم، وقال بعض أهل اللغة: واحدها شدة بضم الشين، وقال آخرون منهم: هو اسم مفرد ـ كالآنك، وليس بجمع ـ حكاها ابن الأنباري.

فصل

ثم بعد الأربعين يأخذ في النقصان وضعف القوى على التدريج.

كما أخذ في زيادتها على التدرج، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿الله(١) الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بعدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ من بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]. فقوته بين ضعفين وحياته بين موتين، فهو: أولاً نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم جنيناً مادام في البطن، فإذا خرج فهو: وليد، فما لم يستتم سبعة أيام، فهو: صديغ ـ بالغين المعجمة لأنه لم يشتد صدغه، ثم مادام يرضع فهو: رضيع، فإذا قطع عنه اللبن فهو: فطيم، فإذا دب ودرج فهو: دارج، قال الراجز:

أم صبي قد حبا أو دارج.

فإذا بلغ طوله خمسة أشبار، فهو: خماسي، فإذا سقطت أسنانه، فهو: مثغور ـ وقد ثغر، فإذا أنبتت بعد سقوطها، فهو: مثغر، بوزن مذكر بالتاء والثاء معاً، فإذا بلغ السبع وما قاربها، فهو: مميز، فإذا بلغ العشر، فهو: مترعرع وناشىء، فإذا قارب الحلم، فهو: يافع، ومراهق ونهام للغلمة، فإذا بلغ، فهو: بالغ، فإذا اجتمعت قوته، فهو: حزوَّر، واسمه في جميع ذلك غلام ـ ما لم يخضر شاربه، فإذا اخضر شاربه وأخذ عذاره في الطلوع، فهو: باقل، وقد بقل وجهه بالتخفيف، ثم هو ما بين ذلك وبين تكامل لحيته: فتى، وشارخ بحصول شرخ الشباب له.

(٢)وقال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ والإنس إِنَّهُم كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨] الآية. فأخبر أن منهم من حق عليه القول، أي وجب عليه العذاب وأنه خاسر، ولا يكون ذلك إلا في أهل

---

(١) في المطبوعة «هو» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

(٢) ٤١٩ طريق الهجرتين.

التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩] أي في الخير والشر يوفونها ولا يظلمون شيئاً من أعمالهم، وهذا ظاهر جدًّا في ثوابهم وعقابهم، وأن مسيئهم كما يستحق العذاب بإساءته فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر،

(١)**قال** تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فالمؤمن لا يذهب طيباته في الدنيا، بل أن يترك بعض طيباته للآخرة. وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته في الدنيا. ومنها علمه بأن أعماله هي زاده. ووسيلته إلى دار إقامته، فإن تزود من معصية الله أوصله ذلك الزاد إلى دار العصاة والجناة، وإن تزود من طاعته وصل إلى دار أهل طاعته وولايته.

ومنها علمه بأن عمله هو وليه في قبره، وأنيسه فيه، وشفيعه عند ربه، والمخاصم والمحاج عنه، فإن شاء جعله له، وإن شاء جعله عليه.

ومنها علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد وتقوم به وتصعد إلى الله به، فبحسب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها.

وأعمال الفجور تهوى به وتجذبه إلى الهاوية وتجره إلى أسفل سافلين، وبحسب قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله إلى حيث يستقر به.

قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم، بل أغلقت عنها، لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة بل أغلقت عنها.

وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم حتى وصلت إلى الله ـ سبحانه ـ فتحت لأرواحهم حتى وصلت إليه ـ تعالى ـ وقامت بين يديه، فرحمها وأمر بكتابة اسمها في عليين.

---

(١) ٢٧٣ طريق الهجرتين.

ومنها خروجه من حصن الله الذي لا ضيعة على من دخله، فيخرج بمعصيته منه إلى حيث يصير نهبًا للصوص وقطاع الطريق.

فما الظن بمن خرج من حصن حصين لا تدركه فيه آفة، إلى خربة موحشة هي مأوى اللصوص وقطاع الطريق، فهل يتركون معه شيئاً من متاعه؟

ومنها أنه بالمعصية قد تعرَّض لمحق بركته. وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علمًا، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علمًا، فخير الدنيا والآخرة بحذافيره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته.

وفي بعض الآثار، يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: **«من ذا الذي أطاعني فشقي بطاعتي؟! ومن ذا الذي عصاني فسعد بمعصيتي؟!»**.

(١)... **قالوا**: وأما الاستدلال بالمعين على العام فلا يتم إلا بالتسوية بين المتماثلين؛ إذ لو جاز الفرقُ لما كان هذا المعينُ دليلاً على الأمر العام المشترك بين الأفراد، ومن أدلة القرآن بتعذيب المعينين الذين عذبهم على تكذيب رُسُله وعصيان أمره على أن هذا الحكم عام شامل على مَنْ سَلكَ سبيلهم واتصف بصفتهم، وهو ـ سبحانه ـ قد نبَّه عباده على نفس هذا الاستدلال، وتعدية هذا الخصوص إلى العموم، كما قال ـ تعالى ـ عقيب إخباره عن عقوبات الأمم المكذِّبة لرسُلهم وما حل بهم **﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾** [القمر:٤٣]. فهذا محض تعدية الحكم إلى مَنْ عدا المذكورين بعموم العلة، وإلا فلو لم يكن حكم الشيء حكم مثله لما لزمت التعدية، ولا تمت الحجة.

ومثل هذا قوله ـ تعالى ـ عقيب إخباره عن عقوبة قوم عادٍ حين رأوا العارض في السماء، فقالوا: **﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾** فقال ـ تعالى ـ: **﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾** [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ[٢] **سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** [الأحقاف:٢٦] **فتأمل قوله:**

(١) ١٣١ أعلام جـ١.

(٢) في المطبوعة «لكم» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف. المراجع.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ كيف تجد المعنى أن حكمكم كحكمهم، وإنا إذا كنا قد أهلكناهم بمعصية رُسُلنا ولم يدفع عنهم ما مُكّنوا فيه من أسباب العيش فأنتم كذلك تسوية بين المتماثلين، وأن هذا محض عدل الله بين عباده.

(١)**فقال** ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُم سَمْعاً وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. فذكر ما يتناول به العلوم وهي السمع والبصر والفؤاد الذي هو محل العقل. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] فأخبروا أنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. فدعاهم إلى استماعه بأسماعهم وتدبره بعقولهم. . .

(٢)فصل

فلما نقضت الصحيفة: وافق موتُ أبي طالب وموت خديجة، وبينهما يسير، فاشتد البلاء على رسول الله، ﷺ، من سفهاء قومه، وتجرؤوا عليه، فكاشفوه بالأذى، فخرج رسول الله، ﷺ، إلى الطائف، رجاء أن يؤووه وينصروه على قومه، ويمنعوه منهم. ودعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ فلم يَرَ مَنْ يؤوى، ولم ير ناصراً، وآذوه مع ذلك أشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينله قومه، وكان معه زيد بن حارثة مولاه، فأقام بينهم عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلدنا. وأغروا به سفهاءهم، فوقفوا له سماطين، وجعلوا يرمونه بالحجارة. حتى دُميَت قدماه. وزيد بن حارثة يقيه بنفسه. حتى أصابه شجاج في رأسه، فانصرف راجعاً من الطائف إلى مكة محزوناً.

وفي مرجعه ذلك: دعا بالدعاء المشهور دعاء الطائف: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، ياأرحم الراحمين، أنت رَبُّ المستضعَفين، وأنت ربي: إلى من تَكِلني؟ إلى بعيد يَتَجهَّمني؟ أم إلى عَدُوٍّ ملكته**

(١) ٩٢ مختصر الصواعق جـ١.   (٢) ١٢٣ زاد المعاد جـ٢.

أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، غير أنَّ عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصَلَح عليه أمر الدنيا والآخرة: أن يَحُلَّ عليَّ غضبك، أو أن ينزل بي سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك» فأرسل ربه تبارك وتعالى إليه ملك الجبال يستأمره أن يُطبق الأخشبين على أهـل مكـة ـ وهما جبلاها اللذان هي بينهما ـ فقال: «لا، بل أَسْتأني بهم، لعل الله يُخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئًا» فلما نزل بنخلة في مرجعه قام يصلي من الليل. فصُرف إليه نَفَرٌ من الجن، فاستمعوا قراءته، ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتى نزل عليه: ﴿وإذْ صرَفْنَا إليك نفرًا من الجنِّ يستَمِعُون القرآن فَلَمَّا حَضرُوه قالوا أنْصِتُوا فلما قُضِيَ وَلَّوْا إلى قومِهم مُنذرين * قالوا يَاقَوْمَنا إنا سَمِعْنَا كتابًا أُنزلَ من بعدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بين يديه يَهْدِي إلى الحقِّ وإلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيم * ياقومنا أَجيبُوا دَاعِيَ الله وآمنوا بهِ يَغْفِرْ لكُم مِن ذُنوبكم ويُجِركُم من عذابٍ أَلِيم * ومن لا يُجِبْ دَاعِيَ الله فليسَ بمعجزٍ في الأرْضِ وليسَ لَهُ من دونه أوليـآءُ أولئك في ضَلَالٍ مُّبينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢]. وأقام بنخلة أيامًا. فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم، وقد أخرجوك ـ يعني قريشًا ـ فقال: «يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا. وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه» ثم انتهى إلى مكـة. فأرسـل رجلًا من خُزاعة إلى مُطْعم بن عدى: «أدخل في جوارك؟» فقال: نعم، ودعا نبيه وقومَه، فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمدًا. فدخل رسول الله ﷺ، ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحرام. فقام المطعم بن عدى على راحلته، فنادى: يامعشر قريش، إني قد أَجَرْتُ محمدًا، فلا يَهجْه أحد منكم، فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدى وولده مُحْدِقون به بالسلاح، حتى دخل بيته.

(١)وقال تعالى: ﴿وَإذْ صرَفْنا إِلَيْكَ نفرًا مِنَ الْجنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حضرُوهُ قَالوا أَنْصِتُوا﴾ ـ إلى قولـه ـ: ﴿أُولَئِكَ في ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ــ٣٠] فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة: (أحدها) أن الله سبحانه وتعالى صرفهم إلى

(١) ٤٢١ طريق الهجرتين.

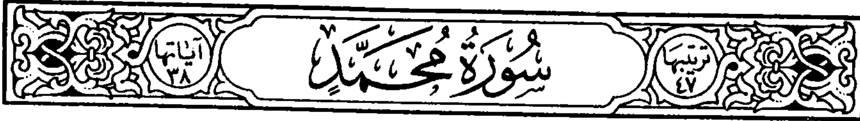
رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه. (الثاني) أنهم ولوا إلى قومهم منذرين. والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، **فعلم** أنهم منـذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول. (الثالث) أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلى صراط مستقيم. وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال مافيه، والتكليف إنـما يستلزم العلم والقـدرة. (الـرابـع) أنهم قالـوا لقومهم: ﴿**ياقَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ**﴾ [الأحقاف: ٣١] وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر. (الخامس) أنهم قالوا: ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ**﴾ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر. (السـادس) أنهم قالـوا: ﴿**مِنْ ذُنُوبِكُمْ**﴾ والذنب مخالفة الأمر. (السابع) أنهم قالـوا: ﴿**وَيُجِـرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ**﴾ وهـذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم. (الثامن) أنهم قالوا: ﴿**وَمَن لايُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ في الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونه أَوْلِياء**﴾ [الأحقاف: ٣٢].

وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن. والآية لا تستلزمه.

ولكن قولـه تعـالى: ﴿**يـامَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُـلٌ مِّنْكُمْ**﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية يدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، والآيات المتقـدمة تدل على ذلك أيضًا. وعلى هذا فيكون اختصاص النبي ﷺ بالبعثة إلى الثقلين هو اختصاصه بالبعثة إلى جميعهم لا إلى بعضهم ومن قبله كان يبعث إلى طائفة مخصوصة...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأحقاف

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)...**تسميته** ﷺ بهذا الاسم(٢) لما اشتمل عليه من مسماه، وهو الحمد. فإنه ﷺ محمود عند الله، ومحمود عند ملائكته. ومحمود عند إخوانه من المرسلين. ومحمود عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم، فإن ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل، وإن كابر عقله جحوداً وعناداً وجهلاً باتصافه بها ولو علم اتصافه بها لحمده، فإنه يحمد من اتصف بصفات الكمال ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامد له.

وهو ﷺ اختص من مسمى الحمد بما لم يجتمع لغيره فإن اسمه: محمد، وأحمد، وأمته الحمادون يحمدون الله في السراء والضراء. وصلاته وصلاة أمته مفتتحة بالحمد، وخطبته مفتتحة بالحمد. وكتابه مفتتح بالحمد، هكذا كان عند الله في اللوح المحفوظ: أن خلفاءه وأصحابه يكتبون المصحف مفتتحاً بالحمد، وبيده ﷺ لواء الحمد يوم القيامة.

ولما يسجد بين يدي ربه - عز وجل - للشفاعة، ويؤذن له فيها يحمد ربه بمحامد يفتحها عليه حينئذ، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الليلِ فَتهجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ [الإسراء: ٧٩].

ومن أحب الوقوف على معنى المقام المحمود فليقف على ما ذكره سلف الأمة من الصحابة والتابعين فيه في تفسير هذه السورة كتفسير ابن أبي حاتم، وابن جرير، وعبد بن حميد. وغيرها من تفاسير السلف. وإذا قام في ذلك المقام حمده حينئذ أهل الموقف كلهم مسلمهم وكافرهم أولهم وآخرهم.

وهو محمود ﷺ بما يملأ به الأرض من الهدى والإيمان والعلم النافع. والعمل الصالح، وفتح به القلوب وكشف به الظلمة عن أهل الأرض واستنقذهم من أسر الشياطين ومن الشرك بالله والكفر به والجهل به حتى نال أتباعه شرف الدنيا

(١) ٩٦ جلاء الأفهام.
(٢) أي النبي محمد ﷺ.

والآخرة. فإن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها فإنهم كانوا بين: عباد أوثان، وعباد صلبان، وعباد نيران، وعباد الكواكب، ومغضوب عليهم، قد باءوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف ربًّا يعبده ولا بماذا يعبده، والناس يأكل بعضهم بعضاً من استحسن شيئاً دعا إليه، وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة.

وقد نظر الله ـ سبحانه ـ إلى أهل الأرض، فمقتهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا على آثار دين صحيح، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظلم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدى به من الضلالة، وعلّم به من الجهالة. وكثّر بعد القلة، وأعزّ به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة، وفتح به أعيناً عميا وآذاناً صمًّا وقلوباً غلفاً، فعرف الناس ربهم ومعبودهم غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ وأعاد، واختصر وأطنب في ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه حتى تجلت معرفته ـ سبحانه ـ في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشك والريب عنها كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم يدع لأمته حاجة في هذا التعريف لا إلى من قبله ولا إلى من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كل من تكلم في هذا الباب: **﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** [العنكبوت: ٥١].

روى أبوداود في مراسيله عن النبي ﷺ أنه رأى بيد بعض أصحابه قطعة من التوراة فقال: **«كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً، غير كتابهم أنزل على غير نبيهم»** فأنزل الله ـ عز وجل ـ تصديق ذلك: **﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** فهذا حال من أخذ دينه عن كتاب منزل على غير النبي ﷺ فكيف بمن أخذه عن عقل فلان وفلان، وقدمه على كلام الله ورسوله؟

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسناً إلا أمرهم به، ولا قبيحاً إلا نهى عنه، كما قال ﷺ: **«ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به ولا من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه»** قال أبوذر: لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكرلنامنه

علماً». وعرفهم حالهم بعد القدوم على ربهم أتم تعريف، فكشف الأمر وأوضحه ولم يدع باباً من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلى ربهم إلا فتحه، ولا مشكلاً إلا بينه وشرحه، حتى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ وجزاه عن أمته أفضل الجزاء. وأصح القولين في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته. أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة. وأما أعداؤه المحاربون له، فالذين عُجِّل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر. وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له. وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها. وأما الأمم النائية عنه فإن الله ـ سبحانه ـ رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض؛ فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض. ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق، فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثاً، وأجودهم، وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفواً ومغفرة، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً. كما روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمرو أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوراة: «**محمد عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، وأفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صمًّا وقلوباً غلفاً، حتى يقولوا: لا إله إلا الله**».

وأرحم الخلق، وأرأفهم بهم، وأعـظم الخلق نفعـاً لهم في دينهم ودنياهم، **وأفصح** خلق الله، وأحسنهم تعبيراً عن المعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة الدالة على المراد، وأصبرهم في مواطن الصبر، وأصدقهم في مواطن اللقاء، وأوفاهم بالعهد والذمة، وأعظمهم مكافأة على الجميل بأضعافه، وأشدهم تواضعاً، وأعظمهم إيثاراً على نفسه. وأشد الخلق ذبًا عن أصحابه، وحماية لهم، ودفاعاً عنهم، وأقوم الخلق بما يأمر به، وأتركهم لما ينهى عنه، وأوصل الخلق لرحمه، فهو أحق بقول القائل:

برد على الأدنـى ومـرحمـة وعـلى الأعـادي مازن جلد

(١)**قـال** تعـالى: ﴿وَالَّـذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾(٢) [محمد: ٤-٦] قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم». وقال محمد بن كعب: يعرفونها كما تعرفون بيوتكم في الدنيا إذا انصرفتم من يوم الجمعة. هذا قول جمهور المفسرين وتلخيص أقوالهم ما قاله أبوعبيدة: عرفها لهم أي: بيّنها لهم، حتى عرفوها من غير استدلال. وقال مقاتل بن حيان: بلغنا أن الملك الموكل بحفظ بني آدم يمشي في الجنة ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله في الجنة فإذا دخل إلى منزله وأزواجه انصرف الملك عنه. وقال سلمة بن كهيل: طرقها لهم. ومعنى هذا أنه طرقها لهم، حتى يهتدوا إليها. وقال الحسن: وصف الله الجنة في الدنيا لهم فإذا دخلوها عرفوها بصفتها. وعلى هذا القول فالتعريف وقع في الدنيا، ويكون المعنى يدخلهم الجنة التي عرفها لهم. وعلى القول الأول يكون التعريف واقعاً في الآخرة، هذا كله إذا قيل: إنه من التعريف. وفيها قول آخر: إنه من العرف، وهو الرائحة الطيبة، وهذا اختيار الزجاج أي: طيبها، ومنه طعام معرف، أي مطيب. وقيل: هو من العرف، وهو التتابع. أي: تابع لهم طيباتها وملاذها.

والقول هو الأول، وأنه ـ سبحانه ـ أعلمها وبينها بما يعلم به كل أحد منزله

---

(١) ١٠٥ حادي الأرواح.

(٢) تقدم في سورة النساء بحثًا على هذه الآية رقم (٩٨) يحسن الرجوع إليه لمن أراده (ج).

وداره فلا يتعداه إلى غيره. وفي صحيح البخاري من حديث قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: **«إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم بدخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا»**.

وفي مسند آخر من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأحوالكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم إذا دخلوا الجنة»**.

(١)**وقال** عبدالله بن بريدة في قوله ـ تعالى ـ: **﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾** [محمد: ١٦] قال: هو عبدالله بن مسعود.

(٢)**قوله** تعالى: **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾** [محمد: ١٠].

فأخبر أن حكم الشيء حكم مثله. وكذلك كل موضع أمر الله ـ سبحانه ـ فيه بالسَّير في الأرض، سواء كان السير الحسي على الأقدام والدوابِّ، أو السير المعنوي بالتفكر والاعتبار، أو كان اللفظ يعمهما وهو الصواب، فإنه يدلُّ على الاعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك، ولهذا أمر ـ سبحانه ـ أولي الأبصار بالاعتبار بما حل بالمكذبين، ولولا أن حكم النظير حكم نظيرِهِ حتى تَعْبُرَ العقولُ منه إليه لما حصل الاعتبار. وقد نفى الله ـ سبحانه ـ عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم فقال ـ تعالى ـ: **﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾** [القلم: ٣٥-٣٦].

فأخبر أن هذا حكم باطل في الفِطَر والعقول، لا تليق نسبته إليه ـ سبحانه ـ. وقال ـ تعالى ـ: **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** [الجاثية: ٢١] وقال ـ تعالى ـ: **﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾** [ص: ٢٨] أفلا تَرَاه كيف ذَكَّرَ العقول ونَبَّه الفِطَر بما أودع

---

(١) ١٧ أعلام جـ١.

(٢) ١٣٢ أعلام جـ١.

فيها من إعطاء النظير حكم نظيره، وعدم التسوية بين الشيء ومخالفه في الحكم؟

وكل هذا من الميزان الذي أنزله الله مع كتابه وجَعَله قَرينه ووزيره فقال - تعالى -: ﴿الله الَّذي أنزَلَ الكِتَابَ بالحَقِّ والمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧] وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيِّنَاتِ وأنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿الرَّحمنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]. فهذا الكتاب، ثم قال: ﴿والسَّماء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزانَ﴾ [الرحمن: ٧] والميزان يُراد به العدلُ والآلة التي يُعرفُ بها العدل وما يضاده.

والقياس الصحيح هو الميزان؛ فالأولى تسميته بالاسم الذي سمَّاه الله به، فإنه يدل على العدل، وهو اسم مدح واجب على كل واحد في كل حال بحسب الإمكان. بخلاف اسم القياس، فإنه ينقسم إلى حق وباطل، وممدوح ومذموم، ولهذا لم يجيء في القرآن مَدْحُه ولا ذَمُّه، ولا الأمر به ولا النهي عنه، فإنه مورد تقسيم إلى صحيح وفاسد. والصحيح هو الميزان الذي أنزله مع كتابه. والفاسد ما يضاده كقياس الذين قاسُوا البيع على الربا بجامعٍ ما يشتركان فيه من التراضي بالمعاوضة المالية، وقياس الذين قاسوا الميتةَ على المذكَّى في جواز أكلها بجامع ما يشتركان فيه من إزهاق الروح هذا بسببٍ من الآدميين وهذا بفعل الله؛ ولهذا تجد في كلام السلف ذمَّ القياس وأنه ليس من الدين، وتجد في كلامهم استعماله والاستدلال به، وهذا حق وهذا حق، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

(١)**قوله** ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجنِّ والإنس لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ وَأُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ في آذانهم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمِيٌ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]

قال ابن عباس: في آذانهم صمم عن استماع القرآن، وهو عليهم عمى، أعمى الله قلوبهم، فلا يفقهون، أولئك ينادون من مكان بعيد مثل البهيمة التي لاتفهم إلا دعاءً ونداءً. وقال مجاهد: بعيد من قلوبهم. وقال الفراء: تقول للرجل

(١) ٩٦ شفاء.

الذي لا يفهم كذلك أنت تنادى من مكان بعيد، قال: وجاء في التفسير: كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون. انتهى. والمعنى: إنهم لا يسمعون ولا يفهمون، كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم.

فصل[1]

وأما القفل، فقال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] قال ابن عباس: يريد على قلوب هؤلاء أقفال، وقال مقاتل: يعني الطبع على القلب، وكأن القلب منزلة الباب المرتج الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن.

وتأمل تنكير القلب وتعريف الأقفال، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: أم على القلوب أقفالها، لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة. وفي قوله: أقفالها بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال: أقفال، لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى القلوب علم أن المراد بها: ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها، والله أعلم.

[2]**وروي** عن عبدالعزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد قال: تلا رسول الله ﷺ قوله ـ عز وجل ـ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] وغلام جالس عند رسول الله ﷺ فقال: بلى والله يارسول الله! إن عليها لأقفالها، ولا يفتحها إلا الذي أقفلها. فلما ولِيَ عمر بن الخطاب طلبه ليستعمله وقال: لم يقل ذلك إلا من عقل.

[3]...**وإلى** هذين الأصلين ندب عباده في القرآن فقال في الأصل الأول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: ٢٤] ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقال في الأصل الثاني: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

(١) ٩٥ شفاء. (٢) ٦٦ طريق الهجرتين. (٣) ١٨٦ مفتاح جـ١.

[يونس: ١٠١] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] ﴿إِنَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ[1] فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا[2] وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٥] ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٢١] ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢].

فصل[3]

ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة، فيصدقه في عزمه وفي فعله. قال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]. فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل.

فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم، فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه.

فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور. ومن صدق الله في جميع أموره، صنع الله له فوق ما يصنع لغيره؛ وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل. فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله.

[4]﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم.

---

(١) في المطبوعة «من ماء» والصواب ما أثبتناه كما في المصحف المراجع.

(٢) في المطبوعة ﴿بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح﴾الآيات. والصواب حذف ذلك لأن هذا في آية (١٦٤) من سورة البقرة وهذه الآيات من سورة الجاثية. المراجع.

(٣) ١٧٦ فوائد.		(٤) ٨٠ التبيان.

ونظيره قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بالحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئاً إلا كان باطلاً، ولا يفعلون شيئاً إلا كان ضائعاً غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود.

ونظيره قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله عز ـ وجل ـ: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]..

(١)**وقال** بعض السَّلَف: ما من عبدٍ إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمرَ الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمرَ الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا خطر له مما وَعَدَ به من لا أصدقُ منه حديثاً، وإذا أراد به غير ذلك تركه عَلَى ما هو عليه، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله، المعرضِ عن ذكره من العقـوبة إلا صدؤه وقسوته وتعطيله عما خُلِقَ له لكفى بذلك عقوبة. وقد روى عبدالعزيز بن أبي روَّاد عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد**» قيل: يارسول الله فما جلاؤها؟ قال: «**تـلاوة القرآن**» وقال بعض العارفين: إن الحديد إذا لم يستعمل غشيه الصدأ حتى يفسده، كذلك القلب إذا عطل من حب الله والشوق إليه وذكره غلبه الجهل حتى يميته ويهلكه...

(٢)**وقال** خالد بن معدان: ما من عبد إلا وله عينان [في وجهه يبصر بهما أمرَ الدُّنيا، وعينان] في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما ما وعده الله بالغيب، وإذا أراد [الله] به غير ذلك تركه على ما [هو] فيه، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقفالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

(٣)**ومما** ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول الإيمان بأن يفك الذي ختم على القلب، وطبع عليه، وضرب عليه القفل ذلك الختم والطبع والقفل، ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيه، ويفتح قفل

(١) ١٨٢ روضة المحبين. (٢) ٤٢٤ روضة المحبين. (٣) ٩٠ شفاء.

قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان. وقرأ قارىء عند عمر بن الخطاب ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. وعنده شاب فقال: اللهم عليها أقفالها، ومفاتيحها بيدك، لا يفتحها سواك. فعرفها له عمر وزادته عنده خيراً. وكان عمر يقول في دعائه: اللهم إن كنت كتبتني شقيًّا فامحني واكتبني سعيداً فإنك تمحو ماتشاء وتثبت، فالرب تعالى فعال لما يريد لا حجر عليه.

وقد ضل ههنا فريقان: القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدوراً للرب، ولا يدخل تحت فعله إذا لو كان مقدوراً له ومنعه العبد لناقض جوده ولطفه.

والجبرية حيث زعمت أنه سبحانه إذا قدّر قدراً أو علم شيئاً فإنه لا يغيره بعد هذا ولا يتصرف فيه بخلاف ما قدره وعلمه.

والطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجر أحد أصلاً وجميع خلقه تحت حجره شرعاً وقدراً. وهذه المسألة من أكبر مسائل القدر، وسيمر بك إن شاء الله في باب المحو والإثبات ما يشفيك فيها.

والمقصود أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم والطبع وفتح ذلك القفل يفتحه من بيده مفاتيح كل شيء، وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه، وإن كان فك الختم وفتح القفل غير مقدور له، كما أن شرب الدواء مقدور له وزوال العلة وحصول العافية غير مقدور، فإذا استحكم به المرض وصار صفة لازمة له لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء، وإن كان غير مقدور له، ولكن لما ألف العلة وساكنها ولم يحب زوالها ولا آثر ضدها عليها مع معرفته بما بينها وبين ضدها من التفاوت، فقد سد على نفسه باب الشفاء بالكلية. والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالاً وهو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه لمحبته وملائمته لنفسه.

فإذا عرف الهدى فلم يحبه ولم يرض به وآثر عليه الضلال، مع تكرر تعريفه: منفعة هذا وخيره، ومضرة هذا وشره، فقد سد على نفسه باب الهدى بالكلية، فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلى من بيده هداه وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه، وأنه إن لم يهده الله فهو ضال، وسأل الله أن يقبل بقلبه وأن يقيه شر نفسه وفقه

وهداه. بل لو علم الله منه كراهية لما هو عليه من الضلال وأنه: مرض قاتل إن لم يشفه منه أهلكه لكانت كراهته وبغضه إياه مع كونه مبتلى به من أسباب الشفاء والهداية، ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال محبته له ورضاه به وكراهته الهدى والحق، فلو أن المطبوع على قلبه المختوم عليه كره ذلك ورغب إلى الله في فك ذلك عنه وفعل مقدوره، لكان هداه أقرب شيء إليه لكن إذا استحكم الطبع والختم حال بينه وبين كراهة ذلك وسؤال الرب فكه وفتح قلبه.

فصل

فإن قيل: فإذا جوزتم أن يكون الطبع والختم والقفل عقوبة وجزاء على الجرائم والإعراض والكفر السابق على فعل الجرائم. قيل هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس، ويظنون بالله ـ سبحانه ـ خلاف موجب أسمائه وصفاته.

والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب ـ سبحانه ـ بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه ـ سبحانه ـ والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان اختياراً، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية، فتأمل هذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧] ومعلوم أن هذا ليس حكماً يعم جميع الكفار بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفاراً قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا، بهذا النوع من العقوبة العاجلة.

كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير وبعضهم بالطمس على أعينهم فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك.

(١) **ومن** منازل إياك نعبد وإياك نستعين: منزلة الفراسة. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ [الحجر: ٧٥] وقال مجاهد ـ رحمه الله ـ: المتفرسين، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة. وقال ـ تعالى ـ في حق المنافقين: ﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ [محمد: ٣٠] فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: علَّق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط. بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم. فقال: ﴿**وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه. و «اللحن» ضربان: صواب وخطأ. فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة. ومنه الحديث: «**ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض**».

والثاني: التعريض والإشارة. وهو قريب من الكناية. ومنه قول الشاعر:

وحديث ألذه. وهو مما ... يشتهي السامعون يوزن وزناً
منطق صائب. وتلحن أحيا ... ناً. وخير الحديث ما كان لحناً

والثالث: فساد المنطق في الإعراب. وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطأ، وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه ـ سبحانه ـ أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه. فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين: النظر والسماع. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله**». ثم تلا قوله: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾» [الحجر: ٧٥].

(٢) **وكما** أن الذلة مضروبة على من خالف أمره: فالعزة لأهل طاعته ومتابعته، **قال الله ـ سبحانه ـ:** ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾

---

(١) ٤٨٢ مدارج جـ٢. (٢) زاد المعاد جـ.

[آل عمران: ١٣٩] وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾

[(١)]... **وقد** وقع الإخبار عن قدرته عليه ـ سبحانه ـ على تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم. فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق. فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن يذهب بهم ويأتي بأطوع وأتقى له منهم في الدنيا. وذلك قوله: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] يعني بل يكونوا خيراً منكم. قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيراً من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم.

وأما ذكره تبديل أمثالهم، ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان. فقال في الواقعة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] وقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨].

قال كثير من المفسرين: المعنى أنا إذا أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك. وفي قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم. فجعلناهم بدلا منهم. قال المهدوي: قوماً موافقين لهم في الخلق مخالفين لهم في العمل، ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول.

وعلى هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣] فيكون استدلالاً بقدرته على إذهابهم والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة محمد

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٢٢ التبيان.

سورة الفتح
ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

...[1]ثم رجع إلى المدينة وفي مرجعه أنزل الله عليه ﴿إنّا فَتَحنا لكَ فَتْحاً مُبيناً * لِيَغْفِر لَكَ الله ما تَقدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَليكَ وَيَهْدِيكَ صِراطاً مُسْتَقيماً * وَيَنْصُرَكَ الله نَصرًا عَزيزًا﴾ [الفتح ١-٣]. فقال عمر: أو فتح هو، يارسول الله؟ قال: نعم. فقال الصحابة: هنيئاً لك يارسول الله فما لنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿هو الذي أَنْزَلَ السَّكينة فِي قُلُوبِ المُؤمنِين﴾ [الفتح :٤]. ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ مسلمًا. فأرسلوا في طلبه رجلين، وقالوا: العهدَ الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به، حتى بلغا ذا الحليفة. فنزلوا يأكلون من تَمْرٍ لهم. فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا جيدًا. فاستله الآخر. فقال: أجل والله يافلان إنه لجيد. لقد جَرَّبت به، ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه. فأمكنه منه، فضربه حتى بَرَدَ، وفَرَّ الآخر يعدو، حتى بلغ المدينة، فدخل المسجد. فقال رسول الله، ﷺ، حين رآه ـ «لقد رأى هذا ذُعراً» فلما انتهى إلى النبي، ﷺ، قال: قُتل والله صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يانبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد ردَدْتَني إليهم، فأنجاني الله منهم، فقال النبي، ﷺ: «ويلُ أمِّهِ مُسْعِرُ حَرْبٍ، لو كان له أحد» فلما سمع ذلك عرفَ: أنه سَيَرُدُّهُ إليهم. فخرج حتى أتى سِيفَ البحر، وينفلت منهم أبو جَنْدل بن سُهيل، فلحق بأبي بصير. فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي، ﷺ: تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأنزل الله ـ عز وجل: ﴿وَهُوَ الذي كفَّ أيدِيَهُم عَنْكم وَأَيْدِيكُم عنهم بِبطْنِ مكةَ من بعدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عليهم ـ حتى بلغ ـ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهلية﴾ [الفتح: ٢٤-٢٦]. وكانت حميتهم: أنهم لم يقروا أنه نبي، ولم يقروا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت[2].

(١) ٣٠٨ الزاد جـ٢. (٢) متفق عليه من حديث عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه.

قلت: في الصحيح «أن النبي ﷺ توضأ ومَجَّ في بئر الحديبية من فمه، فجاشت بالماء» كذلك قال البراء بن عازب، وسلمة بن الأكوع في الصحيحين.

وقال عروة عن مروان بن الحكم والمِسْوَر بن مَخْرَمة «إنه غَرَز فيها سَهْمًا من كنانته» وهو في الصحيحين أيضًا. وفي مغازي أبي الأسود عن عروة «توضأ في الدَّلْو ومضمض فاه. ثم مَجَّ فيه، وأمر أن يُصَبَّ في البئر، ونزع سهمًا من كنانته وألقاه في البئر. ودعا الله تعالى. ففارت بالماء، حتى جعلوا يغترفون بأيديهم منها وهم جلوس على شفيرها» فجمع بين الأمرين. وهذا أشبه. والله أعلم.

وفي صحيح البخاري عن جابر قال «عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ، بين يديه رِكْوة يتوضأ منها، إذ جَهِشَ الناس(١) نحوه. فقال: مالكم؟ قالوا: يارسول الله، ما عندنا ماء نشرب، ولا ماء نتوضأ، إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه أمثال العيون. فشربوا وتوضؤوا. وكانوا خمس عشرة مائة». وهذا غير قصة البئر.

وفي هذه الغزوة: أصابهم ليلة مطر، فلما صلى النبي ﷺ، الصبح قال: «**أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: **أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب. وأما من قال: أمطرنا بنوء كذا وكذا: فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**».

فصل

وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض، وأن يرجع عنهم عامه ذلك، حتى إذا كان العام المقبل قدمها، وخلُّوا بينه وبين مكة. فأقام بها ثلاثًا، وأن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب، والسيوفُ في القُرب، وأن من أتانا من أصحابك لم نَرُدَّه عليك، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا، وأن بيننا وبينك عَيْبةً مَكْفُوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال(٢) فقالوا يارسول الله نعطيهم هذا: فقال: «**من أتاهم منا فأبعده الله. ومن أتانا منهم، فرددناه إليهم: جعل الله له فرجا ومخرجاً**».

---

(١) الجهش: أن يفزع الإنسان إلى الإنسان ويلجأ إليه، وهو مع ذلك يريد البكاء.

(٢) الاسلال: السرقة الخفية. والاغلال: الخيانة.

وفي قصة الحديبية: أنزل الله ـ عز وجل ـ فدية الأذى لمن حلق رأسه: بالصيام أو الصدقة، أو النسك في شأن كعب بن عُجْرة.

وفيها: دعاء رسول الله ﷺ للمحلقين بالمغفرة ثلاثًا، وللمقصرين مرة.

وفيها: نحروا البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة(١)

وفيها: أهدى رسول الله، ﷺ، في جملة هديه جَمَلاً كان لأبي جهل كان في أنفه بُرَةٌ من فضة، ليغيظ به المشركين.

ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ، وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم. وكان في الشرط: أن من شاء أن يدخل في عقده ﷺ دخل. ومن شاء أن يدخل في عقد قريش دخل.

ولما رجع إلى المدينة جاءه نساء مؤمنات، منهن أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيْط، فجاء أهلها يسألونها رسول الله، ﷺ بالشرط الذي كان بينهم. فلم يُرْجعها إليهم، ونَهاه الله عز وجل عن ذلك.

فقيل: هذا نسخٌ للشرط في النساء. وقيل: تخصيص للسنة بالقرآن. وهو عزيز جدًا.

وقيل: لم يقع الشرط إلا على الرجال خاصة. وأراد المشركون أن يعمموه في الصنفين، فأبى الله ذلك.

فصل في بعض ما في قصة الحديبية من الفوائد الفقهية.

فمنها: اعتمار النبي، ﷺ في أشهر الحج. فإنه خرج إليها في ذي القعدة.

ومنها: أن الإحرام بالعمرة من الميقات أفضل، كما أن الإحرام بالحج كذلك؛ فإنه أحرم بهما من ذي الحُلَيفة، وبينها وبين المدينة مَيْلٌ أو نحوه.

وأما حديث «**من أحرم بعمرة من بيت المقدس غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»(٢).

وفي لفظ: «**كانت كفارة لما قبلها من الذنوب**» فحديث لا يثبت. وقد اضطرب فيه إسنادًا ومتنًا اضطرابًا شديدًا.

ومنها: أن سَوْق الهدى مسنون في العمرة المفردة، كما هو مسنون في القران.

ومنها: أن إشعار الهدى سنة، لا مُثْلَةٌ منهيٌّ عنها.

ومنها: استحباب مغايظة أعداء الله؛ فإن النبى ﷺ، أهدى في جملة هديه

---

(١) في المطبوعة «تسعة» والصواب ما أثبتناه. المراجع.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أم سلمة.

جَملًا لأبي جهل، في أنفه برة من فضة، يغيظ به المشركين. وقد قال تعالى في صفة النبي، ﷺ وأصحابه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَه فآزَرَه فاسْتَغْلَظَ فاسْتَوَى على سُوقِه يُعْجِبُ الزُّرَّاعِ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال عز وجل: ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصيبُهم ظَمَأٌ ولاَ نَصَبٌ ولاَ مَخْمَصَةٌ فِي سبيلِ اللهِ ولا يَطَؤُنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكُفَّارَ ولا يَنَالُون من عَدُوٍّ نَيْلًا إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ إن اللهَ لاَ يُضيعُ أَجَرَ الْمُحسِنِين﴾ [التوبة: ١٢٥].

ومنها: أن أمير الجيش ينبغي له أن يبعث العيون أمامه نحو العدو.

ومنها: أن الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة لأن عيينة الخزاعي العينَ: كان كافرًا إذ ذاك. وفيه من المصلحة: أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو، وأخذه أخبارهم.

ومنها: استحباب مشورة الإمام رعيته وجيشه، استخراجًا لوجه الرأي، واستطابة لنفوسهم، وأمنًا لعَتْبهم، وتعَرُّفًا لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض، وامتثالاً لأمر الرب في قوله تعالى: ﴿وَشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقد مدح الله سبحانه وتعالى عباده بقوله: ﴿وأَمْرُهُم شُورَى بينهم﴾ [الشورى: ٣٨].

ومنها: جواز سبي ذراري المشركين إذا انفردوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال.

ومنها: رد الكلام الباطل، ولو نسب إلى غير مكلف؛ فإنهم لما قالوا: «خلأت القصواء» يعني حَرَنَت، فلم تَسِرْ. والخِلاء في الإبل - بكسر الخاء والمد - نظير الحران في الخيل، فلما نسبوا إلى الناقة ماليس من خُلقها وطبعها رَدَّه عليهم، وقال: «ما خلأت، وما ذاك لها بخلق» ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها، وأن الذي حبس الفيل عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التي ظهرت بسبب حبسها، وما جرى بعده.

ومنها: أن تسمية مايلابسه الرجل من مراكبه ونحوها سنة.

ومنها: جواز الحلف، بل استحبابه على الخبر الدِّيني الذي يريد تأكيده. وقد حُفظ عن النبي ﷺ الحلف في أكثر من ثمانين موضعًا، وأمره الله تعالى بالحلف على تصديق ما أخبر به في ثلاثة مواضع: في سورة يونس (٥٣) وسبأ (٣) والتغابن (٧).

ومنها: أن المشركين وأهلَ البدع والفجور والبُغاة والظلمة إذا طلبوا أمرًا يعظمون فيه حُرْمةً من حرمات الله تعالى: أجيبوا إليه، وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن مُنعوا

غيره، فيعاونون على تعظيم ما فيه حرمات الله تعالى، لاعلى كفرهم وبغيهم، ويُمنعون مما سوى ذلك. فكلٌّ من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مرْضٍ له: أجيب إلى ذلك. كائنا من كان، مالم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه. وهذا من أدَقِّ المواضع وأصعبها وأشقها على النفوس. ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق. وقال عمر ما قال، حتى عمل له أعمالاً بعده، والصديق تَلَقَّاه بالرضا والتسليم، حتى كان قلبه فيه على قلب رسول الله ﷺ. وأجاب عمر عما سأل عنه من ذلك بعين جواب رسول الله، ﷺ. وذلك يدلُّ على أن الصديق رضي الله عنه أفضلُ الصحابة وأكملهم وأعرفهم بالله تعالى ورسوله، ﷺ، وأعلمهم بدينه وأقومهم بمحَابِّه، وأشدهم موافقة له. ولذلك لم يسأل عمرُ عما عرض له إلا رسولَ الله، ﷺ وصِدِّيقه خاصة دون سائر أصحابه.

ومنها: أن النبي ﷺ عدلَ ذات اليمين إلى الحديبية. قال الشافعي: بعضها من الحِلِّ، وبعضها من الحَرم. وروى أحمد في هذه القصة «أن النبي ﷺ كان يُصلي في الحرم، وهو مُضْطَرِب في الحِل» وفي هذا: كالدَّلالة على أن مضاعفة الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم، لا يخص بها المسجد الذي هو مكان الطواف. وأن قوله ﷺ: «**صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي**» كقوله تعالى: ﴿**فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**﴾ [التوبة: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [الإسراء: ١] وكان الإسراء من بيت أم هانيء.

ومنها: أن من نزل قريبًا من مكة، فإنه ينبغي له أن ينزل في الحِلِّ، ويصلي في الحرم. وكذلك كان ابن عمر يصنع.

ومنها: جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم.

وفي قيام المغيرة بن شعبة على رأس رسول الله، ﷺ، بالسيف ـ ولم يكن عادته أن يقُام على رأسه وهو قاعد ـ سنةٌ يُقتدى بها عند قدوم رُسُلِ العدو، من إظهار العزِّ والفخر، وتعظيم الإمام وطاعته، ووقايته بالنفوس. وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين. وليس هذا من النوع الذي ذَمَّه النبي صلى ﷺ بقوله: «**من أحب أن يَتَمَثَّل له الرجال**

قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»(١) كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره. وفي بعث البُدْن في وجه الرسول الآخر: دليل على استحباب إظهار شعائر الإسلام لرسل الكفار.

وفي قول النبي، ﷺ للمغيرة: «**أما الإسلام فأقبل. وأما المال فلست منه في شيء**» دليل على أن مال المشرك المعاهد معصوم، وأنه لا يُملك، بل يُرَدُّ عليه؛ فإن المغيرة كان قد صحبهم على الأمان، ثم غَدَر بهم وأخذ أموالهم فلم يتعرض النبي ﷺ، لأموالهم، ولا ذَبَّ عنها، ولا ضمنها لهم؛ لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة.

وفي قول الصديق لعروة بن مسعود: «امصص ببَظر اللات» دليل على جواز التصريح باسم العورة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال، كما أذن النبي، ﷺ أن يُصَرح لمن دعا بدعوى الجاهلية بِهَنِ أبيه، ويقال له: «اعضض أيْرَ أبيك، ولا يَكْنِى له» فلكل مقام مقال.

ومنها: احتمال قلة أدب رسول الكفار، وجهله وجَفوتِه. ولا يُقابَل على ذلك، لما فيه من المصلحة العامة. ولم يقابل النبي ﷺ، عروة على أخذه بلحيته وقت خطابه، وإن كانت تلك عادة العرب، لكن الوقار والتعظيم خلاف ذلك. وكذلك لم يقابل رسول الله ﷺ، رسولي مُسيلمة حين قالا: «نشهد أنه رسول الله» وقال: «لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما». ومنها: طهارة النُخامة، سواء كانت من رأس أو صدر.

ومنها: طهارة الماء المستعمل. ومنها: استحباب التفاؤل، وأنه ليس من الطِّيَرة المكروهة. لقوله لما جاء سهيل بن عمرو «سَهُل أمركم».

ومنها: أن المشهود عليه إذا عُرف باسمه واسم أبيه: أغنى ذلك عن ذكر الجدِّ. لأن النبي، ﷺ لم يزد على «محمد بن عبدالله» وقنع من سهيل بذكر اسمه واسم أبيه خاصة، واشتراط ذكر الجد لا أصل له، ولما اشترى العَدَّاء بن خالد من النبي، ﷺ الغلام فكتب له: «**هذا ما اشترى العَدَّاء بن خالد بن هَوْذة**»(١) فذكر جَدَّه، فهو زيادة بيان، تدل على أن جائز لا بأس به، ولا تدل على اشتراطه، ولما لم يكن في الشهرة بحيث يكتفى باسمه واسم أبيه ذكره. فيشترط ذكر الجد عند الاشتراك في الاسم واسم الأب، وعند عدم الاشتراك يُكْتفى بذكر الاسم واسم الأب. والله أعلم.

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث معاوية بن أبي سفيان.

ومنها: أن مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضَيم على المسلمين: جائز للمصلحة الراجحة. ودفع ما هو شر منه. ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما.

ومنها: أن من حلف على فعل شيء، أو نَذَره، أو وعد غيره به، ولم يعين وقتاً لا بلفظه ولا بنيته: لم يكن على الفَوْر، بل على التراخي.

ومنها: أن الحِلاق نُسك، وأنه أفضل من التقصير، وأنه نسك في العمرة، كما هو نسك في الحج، وأنه نسك في عمرة المحْصَر، كما هو نسك في عمرة غيره.

ومنها: أن المحْصَر ينحر هَدْيه حيث أُحْصِرَ من الحِلِّ والحرم، وأنه لا يجب عليه أن يواعد من ينحره في الحرم إذا لم يصل إليه، وأنه لا يتحلل حتى يصل إلى محله، بدليل قوله: ﴿**والهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّه**﴾ [الفتح: ٢٥].

ومنها: أن الموضع الذي نحر فيه الهدي كان من الحِلِّ، لا من الحرم؛ لأن الحرم كله محل نحر الهدي.

ومنها: أن المحصر لا يجب عليه القضاء؛ لأنه ﷺ أمرهم بالحلق والنحر، ولم يأمر أحدًا منهم بالقضاء، والعمرةُ من العام القابل لم تكن واجبة، ولا قضاءَ عن عمرة الإحصار؛ فإنهم كانوا في عمرة الإحصار ألفًا وأربعمائة وكانوا في عمرة القَضِيَّة دون ذلك، وإنما سميت «عمرة القضية، والقضاء» لأنها العمرة التي قاضاهم عليها، فأضيفت العمرة إلى مصدر فعله.

ومنها: أن الأمر المطلق على الفور، وإلا لم يغضب لتأخيرهم الامتثال عن وقت الأمر، وقد اعْتُذِر عن تأخيرهم الامتثال: بأنهم كانوا يرجون النسخ. فأخروا متأوِّلين لذلك، وهذا الاعتذار أولى أن يعتذر عنه. وهو باطل؛ فإنه ﷺ لو فهم منهم ذلك لم يشتد غضبه عليهم لتأخير أمره، ويقول «مالي لا أغضب؟ وأنا آمر بالأمر فلا أتَّبع» وإنما كان تأخيرهم من السعي المغفور لا المشكور، وقد رضي الله عنهم، وغفر لهم، وأوجب لهم الجنة.

ومنها: أن الأصل مشاركة أمته له في الأحكام، إلا ما خصه الدليل. ولذلك قالت أم سلمة: «**اخرج ولا تكلم أحدا حتى تحلق رأسك، وتنحر هديك**» وعلمت أن الناس سيتابعونه.

فإن قيل: فكيف فعلوا ذلك اقتداء بفعله، ولم يمتثلوه حين أمرهم به؟

قيل: هذا هو السبب الذي لأجله ظن من ظن أنهم أخروا الامتثال طمعًا في النسخ، فلما فعل النبي، ﷺ ذلك علموا حينئذ: أنه حكم مستقر غير منسوخ، وقد تقدم فساد هذا الظن، ولكن لما تَغَيَّظ عليهم، وخرج، ولم يكلمهم وأراهم أنه بادر إلى امتثال ما أمر به، وأنه لم يؤخر كتأخيرهم وأن اتباعهم له وطاعتهم توجب اقتداءهم به، بادروا حينئذ إلى الاقتداء به، وامتثال أمره.

ومنها: جواز صلح الكفار على رد من جاء منهم من المسلمين، وأن لا يرد من ذهب من المسلمين إليهم. هذا في غير النساء. وأما النساء. فلا يجوز اشتراط ردهن إلى الكفار. وهذا موضع النسخ خاصة في هذا العقد بنص القرآن، ولا سبيل إلى دعوى النسخ في غيره بغير موجب.

ومنها: أن خروج البُضْع من ملك الزوج متقوم، ولذلك أوجب الله سبحانه رَدَّ المهر على من هاجرت امرأته وحيل بينه وبينها، وعلى من ارتدت امرأته من المسلمين إذا استحق الكفار عليهم رَدَّ مهور من هاجر إليهم من أزواجهم، وأخبر أن ذلك حكمه الذي حكم به بينهم، ثم لم ينسخه بشيء، وفي إيجابه رَدَّ ما أعطى الأزواج من ذلك: دليل على تَقَوُّمه بالمسمى لا بمهر المثل.

ومنها: أن شرط رد من جاء من الكفار إلى الإمام لا يتناول من خرج منهم مسلمًا إلى غير بلد الإمام، وأنه إذا جاء إلى بلد الإمام لا يجب عليه رده بدون الطلب؛ فإن النبي ﷺ، لم يرد أبا بصير حين جاءه، ولا أكرهه على الرجوع، ولكن لما جاءوا في طلبه مكنّهم من أخذه، ولم يكرهه على الرجوع.

ومنها: أن المعاهدين إذا تسلموه، وتمكنوا منه، فقتل أحدًا منهم لم يضمنه بدية ولا قَوَد، ولم يضمنه الإمام، بل يكون حكمه في ذلك حكم قتله لهم في ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم. فإن أبا بصير قتل أحد الرجلين المعاهدين بذي الحليفة، وهي من حكم المدينة، ولكن كان قد تسلموه، وفَصَل عن يد الإمام وحكمه.

ومنها: أن المعاهدين إذا عاهدوا الإمام، فخرجت منهم طائفة، فحاربتهم وغنمت أموالهم، ولم يتحيزوا إلى الإمام: لم يجب على الإمام دفعهم عنهم، ومنعهم منهم، سواء دخلوا في عقد الإمام وعهده ودينه أو لم يدخلوا، والعهد الذي كان بين النبي ﷺ، وبين المشركين لم يكن عهدًا بين أبي بصير وأصحابه وبينهم.

وعلى هذا: فإذا كان بين بعض ملوك المسلمين وبعض أهل الذمة من النصارى وغيرهم عهد: جاز للملك آخر من ملوك المسلمين أن يغزوهم، ويغنم أموالهم، إذا لم يكن بينه وبينهم عهد، كما أفتى به شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ نصارى مَلَطِيَّة وسبيهم، مستدلاً بقصة أبي بصير مع المشركين.

فصـــل

في الإشارة إلى بعض الحكم التي تضمنتها هذه الهدنة.

وهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها، فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده.

فمنها: أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا. فكانت هذه الهدنة بابًا له ومفتاحًا ومؤذنًا بين يديه، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قدرًا وشرعًا: أن يوطِّيء لها بين يديها بمقدمات وتوطئات تؤذن بها وتدل عليها.

ومنها: أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح، فإن الناس أمِنَ بعضهم بعضًا، واختلط المسلمون بالكفار، ونادوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جَهْرة آمنين، وظهر من كان مختفيًا بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل. ولهذا سماه الله فتحًا مبينًا، قال ابن قتيبة: قضينا لك قضاءً عظيمًا، وقال مجاهد: هو ما قضى الله له بالحديبية.

وحقيقة هذا الأمر: أن «الفتح» في اللغة: هو فتحَ المغلق. والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان بابه مسدودًا مغلقًا حتى فتحه الله وكان من أسباب فتحه صَدُّ رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة: ضَيْمًا وهَضْمًا للمسلمين، وفي الباطن: عزًّا وفتحًا ونصرًا. وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما ورائه من الفتح العظيم، والعز والنصر: من وراء ستر رقيق، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر الصحابة ورءوسهم، ورسول الله ﷺ، يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم:

وربما كان مكروه النفوس إلى		محبوبها سببًا ما مثله سبب

فدخل على تلك الشروط دخول واثق بنصر الله له وتأييده، وأن العاقبة له، وأن تلك الشروط واحتمالها: هو عين النصرة، وهو من أكبر الجند الذي أقامه المشترطون ونصبوه لحربهم، وهم لا يشعرون. فذلوا من حيث طلبوا العز، وقُهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة. وعَزَّ رسول الله ﷺ وعساكر الإسلام من حيث انكسروا لله، واحتملوا الضيم له وفيه. فدار الدور وانعكس الأمر، وانقلب العز بالباطل ذُلًّا بحق، وانقلبت الكَسْرة لله عزًّا بالله، وظهرت حكمة الله وآياته، وتصديق وعده، ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها.

ومنها: ما سببه الله سبحانه للمؤمنين من زيادة الايمان والإذعان، والانقياد على ما أحبوا وكرهوا، وما حصل لهم في ذلك من الرضا بقضاء الله وتصديق موعوده، وانتظار ما وعدوا به، وشهود مِنَّة الله ونعمته عليهم بالسكينة التي أنزلها في قلوبهم أحوج ما كانوا إليها، في تلك الحال التي تزعزع لها الجبال. فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبهم، وقويت به نفوسهم. وازدادوا به إيمانًا.

ومنها: أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذي حكم به لرسوله وللمؤمنين سببًا لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولإتمام نعمته عليه، وهدايته إلى الصراط المستقيم، ونصره النصر العزيز، ورضاه به، ودخوله تحته، وانشراح صدره به، مع ما فيه من الضَّيْم، وإعطاء ما سألوه كان من الأسباب التي نال بها الرسول وأصحابه ذلك. ولهذا ذكره الله سبحانه جزاءً وغاية. وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى وفتحه.

وتأمل كيف وصف سبحانه النصر بأنه «عزيزًا» في هذا الموطن؟ ثم ذكر إنزال السكينة في قلوب المؤمنين في هذا الموطن الذي اضطربت فيه القلوب، وقلقت أشد القلق، فهي أحْوَجُ ما كانت إلى السكينة، فازدادوا بها إيمانًا إلى إيمانهم.

ثم ذكر سبحانه بيعتهم لرسوله، وأكَّدها بكونها بَيْعةً له سبحانه، وأن يَدَه تعالى كانت فوق أيديهم، إذ كانت يَدُ رسول الله ﷺ كذلك وهو رسوله ونبيه. فالعقد معه عقد مع مُرْسِله، وبيعته بيعته، فمن بايعه فكأنما بايع الله، ويد الله فوق يده. وإذا كان الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبَّله فكأنما صافح الله وقبَّل يمينه، فيَدُ رسول الله، ﷺ أولى بهذا من الحجر الأسود.

ثم أخبر: أن نَاكِثَ هذه البيعة إنما يعود نَكْثه على نفسه، وأن للمُوفي بها أجرًا عظيمًا. وكل مؤمن فقد بايع الله على لسان رسوله بَيْعةً على الإسلام وحقوقه فنَاكِثٌ ومُوَفٍّ.

ثم ذكر حال مَنْ تخلَّف عنه من الأعراب، وظَنّهم أسْوَأ الظن بالله: أن يَخْذُلَ رسوله وأولياءه وجنده، ويُظْفِر بهم عَدُوَّهم، فلن يَنْقَلبُوا إلى أهليهم أبدًا. وذلك من جهلهم بالله وأسمائه وصفاته وما يليق به، وجهلهم برسوله وما هو أهْلٌ أن يعامله به ربُّه ومولاه.

ثم أخبر سبحانه عن رضائه عن المؤمنين، بدخولهم تحت البيعة لرسوله، وأنه سبحانه علم ما في قلوبهم حينئذ من الصدق والوفاء، وكمال الانقياد والطاعة، وإيثار الله ورسوله على ما سواه. فأنزل الله السكينة والطمأنينة والرضا في قلوبهم، وأثابهم على الرضا بحُكمهِ والصَّبْرِ لأمره: فتحاً قريبًا، ومغَانِمَ كثيرة يأخذونها. وكان أولَ الفتح والمغانم: فتحُ خيبر ومغانمها. ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر، ووعدهم سبحانه مغانم كثيرة يأخذونها، وأخبرهم أنه عَجَّلَ لهم هذه الغنيمة. وفيها قولان.

أحدهما: أنه الصلح الذي جرى بينهم وبين عدوهم.

الثاني: أنها فتح خيبر وغنائمها.

ثم قال ﴿وكَفَّ أيْدِيَ الناسِ عنكم﴾ [الفتح: ٢٠]. فقيل: أيدي أهل مكة أن يقاتلوهم. وقيل: أيدي اليهود، حين هَمُّوا بأن يَغْتَالُوا مَن بالمدينة بعد خروج رسول الله ﷺ بمن معه من الصحابة منها. وقيل: هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم: من أسَد وغَطْفَان. والصحيح: تَنَاوُلُ الآية للجميع.

وقوله: ﴿ولِتَكُون آيَةً للمؤمنين﴾ [الفتح: ٢٠] قيل: هذه الفَعْلة التي فعلها بكم، وهي كف أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم، فإنهم حينئذ كانوا أهل مكة ومن حولها، وأهل خَيْبَر ومن حولها، وأسد وغطفان، وجمهورَ قبائل العرب أعداء لهم، وهم بينهم كالشامة، فلم يَصِلُوا إليهم بسوءٍ. فمن آيات الله سبحانه: كفّ أيدي أعدائهم عنهم، فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم، وشِدّة عداوتهم، وتولِّي حراستهم وحفظهم في مَشْهدِهم ومغَيبهم.

وقيل: هي فتح خيبر، جعلها آية لعباده المؤمنين، وعلامة على ما بعدها من

الفتوح، فإن الله سبحانه وَعَدَهم مغانم كثيرة، وفتوحا عظيمة؛ فعجل لهم فتح خيبر، وجعلها آية لما بعدها، وجزاءً لصبرهم ورضائهم يوم الحُدَيْبية وشُكْرَانًا، ولهذا خصَّ بها وبغنائمها مَن شَهد الحديبية.

ثم قال: ﴿وَيَهدِيَكم صِرَاطًا مُسْتَقيمًا﴾ [الفتح: ٢٠] فجمع لهم إلى النصر والظَّفر والغنائم الهداية، فجعلهم مَهْدِيين منصورين غانمين، ثم وعدهم مغانم كثيرة وفتوحًا أخرى، لم يكونوا في ذلك الوقت قادرين عليها، فقيل: هي مكة، وقيل: هي فارس والروم، وقيل: الفتوح التي بعد خيبر من مشارق الأرض ومغاربها.

ثم أخبر سبحانه أن الكفار لو قاتلوا أولياءه لَوَلَّى الكفار الأدبار غير منصورين، وأن هذه سُنته في المكذبين من قبلهم، ولا تبديل لسنته.

فإن قيل: فقد قاتلوهم يوم أحد وانتصروا عليهم، ولم يولوا الأدبار؟

قيل: هذا وعد معلق بشرط، مذكور في غير هذا الموضع، وهو الصبر والتقوى، وفات هذا الشرط يوم أحد بفشلهم المنافي للصبر، وتنازعهم وعصيانهم المنافي للتقوى، فصرفهم عن عدوهم ولم يحصل لهم الوعد لانتفاء شرطه.

ثم ذكر سبحانه أنه هو الذي كَفَّ أيدي بعضهم عن بعض، من بعد أن أظْفَرَ المؤمنين بهم؛ لَمَا له في ذلك من الحكم البالغة، التي منها: أنه كان فيهم رجال ونساء قد آمنوا، وهم يكتمون إيمانهم، لم يعلم بهم المسلمون، فلو سلطكم عليهم لأصبتم أولئك بمعَرَّة الجيش، وكان يصيبكم منهم مَعَرَّةُ العدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به. وذكر سبحانه حصول المعرة بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفين بهم؛ لأنها موجب المعرة الواقعة منهم بهم، وأخبر سبحانه أنهم لو زايلوهم وتميزوا منهم لعذَّب أعداءه عذابًا أليمًا في الدنيا، إمَّا بالقتل والأسر وإما بغيره. ولكن دفع عنهم هذا العذاب لوجود هؤلاء المؤمنين بين أظهرهم، كما كان يدفع عنهم عذاب الاستئصال ورسوله بين أظهرهم.

ثم أخبر سبحانه عما جعله الكفار في قلوبهم من حَمِيَّةِ الجاهلية، التي مَصْدرها الجهل والظلم، التي لأجلها صَدُّوا رسوله وعباده المؤمنين عن بيته، ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، ولم يقروا لمحمد بأنه رسول الله، مع تَحَقُّقِهم صدقه، وتَيَقُّنهم صحة رسالته بالبراهين التي شاهدوها، وسمعوا بها في مدة عشرين سنة.

وأضـاف هذا الجَعْـلَ إليهم ـ وإن كان بقضـائه وقدره ـ كما تضاف إليهم سائر أفعالهم، التي هي بقدرتهم وإرادتهم.

ثم أخبر سبحانه أنه أنزل في قلب رسوله وأوليائه من السكينة ماهو مُقَابِلٌ لما في قلوب أعـدائـه من حمية الجـاهلية. فكـانت السكينة حَظَّ رسوله وحزبه، وحميةُ الجاهلية حظَّ المشركين وجندهم. ثم ألزم عباده المؤمنين كلمة التقوى. وهي جنس يعُمُّ كل كلمـة يُتَّقَى الله بها. وأعـلى أنـواعهـا: كلمة الإخلاص. وقد فسرت ببسم الله الرحمن الرحيم. وهي الكلمة التي أبت قريش أن تلتزمها، فألزمها الله أولياءه وحزبه. وإنما حَرمها أعداءه: صيانة لها عن غير كُفْئِها. وألزمها مَن هو أحق بها وأهلهَا، فوضعها في موضعها، ولم يُضَيِّعْها بوضعها في غير أهلها. وهو العليم بمحال تخصيصه ومواضعه.

ثم أخـبر سبحـانـه: أنه صَدَق رسوله رؤياه في دخولهم المسجد آمنين، وأنه سيكون ولابد، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك في هذا العام، والله سبحانه علم من مصلحة تأخيره إلى وقته مالم تعلموا أنتم، فأنتم أحببتم استعجال ذلك، والرب تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته مالم تعلموه، فقدم بين يدي ذلك فتحًا قريبًا؛ تَوْطِئَةً له وتمهيدًا.

ثم أخبرهم بأنه هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ لُيْظهِرَهُ على الدين كله. فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أدْيَان أهل الأرض. ففي هذا تقوية لقلوبهم، وبشارة لهم وتَثْبِيت، وأن يكونوا على ثِقَةٍ من هذا الوعد الذي لابـد أن يُنجـزَه، فلا تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحديبية نُصرةً لعدوه، ولا تخلية عن رسولـه ودينه. كيف؟ وقد أرسله بدينه الحق، ووعده أن يظهره على كل دين سواه؟

ثم ذكـر سبحانه رسوله وحزبه الذين اختارهم له، ومدحهم بأحسن المدح، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل. فكان في هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلبون طالبوا ملك ودنيا. ولهذا لما رآهم نصارى الشام، وشاهدوا هديهم وسيرتهم، وعدلهم وعلمهم

ورحمتهم، وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة، قالوا: ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء. وكان هؤلاء النصارى أعرف بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم. والرافضة تصفهم بضد ما وصفهم الله به في هذه الآية وغيرها ﴿مَن يَهْدِ الله فهو المُهْتَدِ ومَن يُضْلِلْ فلنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف، ١٧].

(١)فصل في الاشارة إلى ما في هذه الغزوة (٢) من الفقه واللطائف

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم، أَمِنَ الناس به، وكلم بعضهم بعضًا، وتناظروا في الإسلام، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه، والمناظرة عليه، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام. ولهذا سماه الله فتحًا في قوله: ﴿إنّا فَتَحْنا لك فَتْحاً مُبِينًا﴾ إذ نزلت في شأن الحديبية، فقال عمر: «يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: نعم» وأعاد سبحانه ذكر كونه فتحًا، فقال: ﴿لقد صَدَقَ الله رسولَهُ الرُّؤْيا ـ إلى قوله ـ فَعَلِمَ ما لم تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [الفتح: ٢٧].

وهذا شأنه سبحانه: أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مُقدمات تكون كالمدخل إليها، المُنَبئة عنها. كما قدم بين يدي قصة المسيح وخلقه من غير أب قصة زكريا وخلق الولد له، مع كونه كبيرًا لا يولد لمثله.

وكما قدم بين يدي نسخ القبلة قصة البيت وبناءه وتعظيمه والتنويه به، وذكر بَانيه. وتعظيمه ومدحه.

ووطّأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له، وقدرته الشاملة له.

وهكذا ماقدم بين يدي مبعث رسوله ﷺ، من قصة الفيل، وبشارات الكُهَّان به وغير ذلك. وكذلك الرؤيا الصالحة لرسوله ﷺ، كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة.

وكذلك الهجرة كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد.

ومن تأمل أسْرَار الشرع والقدر رأى من ذلك ما يَبْهَرُ حكمته الألباب.

(١) ٤٠١ الزاد جـ٢.
(٢) أي غزوة الفتح سرد المؤلف رحمه الله هذه الغزوة في عدة صحائف فمن أرادها فليراجعها (ج).

فصـــل

وفيها: أن أهل العهد إذا حاربوا من هم في ذمة الإمام وجِوَاره وعهده: صاروا حَرْبًا له بذلك، ولم يبق بينهم وبينه عهد، فله أن يُبَيِّتَهم في ديارهم، ولا يحتاج أن يُعلمهم على سواء. وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة، فإذا تحققها صاروا نَابِذِين لعهده.

فصـــل

وفيها: انتقاض عهد جميعهم بذلك: رِدْئهم ومباشريهم، إذ رضوا بذلك، وأقروا عليه ولم ينكروه، فإن الذين أعانوا بني بكر من قريش، بعضهم لم يقاتلوا كلهم معهم، ومع هذا فقد غزاهم رسول الله ﷺ كلهم. وهذا كما أنهم دخلوا في عقد الصلح تبعًا، ولم ينفرد كل واحد منهم بصلح، إذ قد رضوا به وأقروا عليه فكذلك حكم نقضهم العهد. هذا هدي رسول الله ﷺ الذي لا شك فيه كما ترى(١).

. . .(٢) **ولشدة** الحاجة إلى السكينة وحقيقتها وتفاصيلها وأقسامها نشير إلى ذلك بحسب علومنا القاصرة، وأذهاننا الجامدة، وعباراتنا الناقصة، ولكن نحن أبناء الزمان، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، ولكل زمان دولة ورجال.

فالسكينة فعيلة من السكون، وهو طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرها على الجوارح، وهي عامة وخاصة.

فسكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخص مراتبها وأعلى أقسامها كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل، وقد ألقي في المنجنيق مسافرًا إلى ما أضرم له أعداء الله من النار، فيالله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك السفر!

وكذلك السكينة التي حصلت لموسى وقد غشيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم وقد استغاث بنو إسرائيل: ياموسى إلى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا وهذا فرعون خلفنا!

وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له نداءً ونجاءً كلامًا حقيقة سمعه حقيقة بأذنه. وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعبانًا مبينًا.

(١) استمر المؤلف في شرح هذه الغزوة وفقهها في كراسات وهي كبيرة الفائدة ألجأنا طلب الاختصار إلى الإحالة عليها هي وأمثالها (ج).

(٢) ٢٠٠ الأعلام جـ٤.

وكـذلـك السكينـة التي نزلت عليه وقد رأى حبال القوم وعصيهم كأنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة. وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار فلو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآهما.

وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة وأعداء الله قد أحاطوا به، كيوم بدر، ويوم حنين، ويوم الخندق وغيره.

فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإن الكذاب ـ ولاسيما على الله ـ أقلق ما يكون وأخوف ما يكون وأشده اضطرابًا في مثل هذه المواطن؛ فلو لم يكن للرسل صلوات الله وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان، وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك، ولهذا أنزلها الله على المؤمنين في أصعب المواطن أحْوَجَ ما كانوا إليها: **﴿هُوَ الذي أَنْزَلَ السكينةَ في قُلُوبِ الْمُؤمِنِينَ لَيَزْدَادُوا إيمانًا مَعَ إيمانِهِمْ ولله جُنُودُ السَّمواتِ والأَرْضِ وكانَ الله عليمًا حَكيمًا﴾** [الفتح: ٤]، فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم والجنود الداخلة فيهم، وهي السكينـة عنـد القلق والاضـطراب الـذي لم يصـبر عليه مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك يوم الحُدَيبية، قال الله سبحانه وتعالى يذكر نعمته عليهم بإنـزالهـا أحـوج ما كانـوا إليها: **﴿لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ الْمُؤمنين إذْ يُبَايِعُونَكَ تحتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِمْ فأَنْزَلَ السكينَةَ عليهم وأثابَهُمْ فتحا قَريبًا﴾**

لما علم الله سبحانه وتعالى ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخـول بيت الله، وحَبَسُـوا الهـدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم، وقلقت ولم تطق الصبر، فعلم تعالى مافيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفًا، وهو اللطيف الخبير.

وتحتمل الآية وجهًا آخر، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها.

والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إذ جَعَلَ الذينَ كَفَرُوا في قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ * فَأَنزَلَ الله سكينَتَهُ على رَسُوله وعلَى المُؤمِنِين وألْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وكانُوا أَحَقَّ بها وأَهْلَهَا وكَانَ الله بُكلِ شيءٍ عليماً﴾ [الفتح: ٢٦].

لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها جعل الله في قلوب أوليائه سكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم، وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم. فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جندًا من جند الله أيد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم.

وثمرة هذه السكينة الطمأنينة للخبر تصديقًا وإيقانًا، وللأمر تسليمًا وإذعانًا، فلا تدع شبهة تعارض الخبر ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية التي يُبْتَلى بها العبد ليقوى إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه، بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله.

فصـــل

ومنها السكينة عند القيام بوظائف العبودية، وهي التي تورث الخضوع والخشوع، وغَضَّ الطرف، وجمعية القلب على الله تعالى بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه.

والخشـوع نتيجـة هذه السكينـة وثمـرتهـا، وخشوع الجوارح نتيجة خشوع القلب. وقد رأى النبي، ﷺ رجلاً يَعْبَث بلحيته في الصلاة، فقال «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**».

فإن قلت: قد ذكرت أقسامها ونتيجتها وثمرتها وعلامتها، فما أسبابها الجالبة لها؟

قلت سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتى كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء مالا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به.

ولقد جمع النبي، ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة، **وهي قوله في الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه» فتأمل كل مقام من مقامات الدين،**

وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟

والمقصود أن العبد محتاج إلى السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوساوس والخطرات القادحة في أعمال الإيمان لئلا تقوى وتصير هموماً وغموماً وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح لئلا يطمح به مركبه فيجاوز الحد الذي لا يعبر فينقلب ترحاً وحزناً.

وكم ممن أنعم الله عليه بما يفرحه فجمح به مركب الفرح وتجاوز الحد فانقلب ترحاً عاجلاً ولو أعين بسكينة تعدل فرحه لأريد به الخير وبالله التوفيق.

. . .(١)**وأما** تقديم العزيز على الحكيم. فإن كان من الحكم وهو الفصل والأمر فما ذكره من المعنى صحيح. وإن كان من الحكمة وهي كمال العلم والإرادة المتضمنين اتساق صنعه وجريانه على أحسن الوجوه وأكملها ووضعه الأشياء مواضعها وهو الظاهر من هذا الاسم فيكون وجه التقديم أن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وهو سبحانه الموصوف من كل صفة كمال بأكملها وأعظمها وغايتها، فتقدم وصف القدرة لأن متعلقه أقرب إلى مشاهدة الخلق وهو مفعولاته تعالى وآياته. وأما الحكمة فمتعلقها بالنظر والفكر والاعتبار غالباً وكانت متأخرة عن متعلق القدرة. ووجه ثان أن النظر في الحكمة بعد النظر في المفعول والعلم به فينتقل منه إلى النظر فيما أودعه من الحكم والمعاني.

ووجه ثالث أن الحكمة غاية الفعل فهي متأخرة عنه تأخر الغايات عن وسائلها، فالقدرة تتعلق بإيجاده والحكمة تتعلق بغايته، فقدم الوسيلة على الغاية لأنها أسبق في الترتيب الخارجي.

(٢)**قال** تعالى: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾ [الفتح: ٦]، فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك، فإنهم ظنوا به ظن السوء، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده.

---

(١) ٦٧ البدائع جـ١.

(٢) ٦١ الإغاثة جـ١.

ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاث مواضع من كتابه.

وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً وندًا، يحبه، ويخافه، ويرجوه، ويذل له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته؟ قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. أي يجعلون له عَدْلاً في العبادة والمحبة والتعظيم.

وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا ـ وهم في النار ـ أنها كانت ضلالاً وباطلاً، فيقولون لآلهتهم وهم في النار معهم ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧،٩٨].

ومعلوم أنهم ما سووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن آلهتهم خلقت السمٰوات والأرض، وأنها تحيي وتميت، وإنما سووها به في محبتهم لها، وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام.

ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين، وما ذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وأنهم لا يشفعون لعابديهم أبدًا، بل قد حرم الله شفاعتهم لهم، ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، والشفاعة كلها له سبحانه، والولاية له، فليس لخلقه من دونه وليٌّ ولا شفيع.

(١)**وتأمل** قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]. كيف جعل الطاعة لله ولرسوله، والخشية والتقوى له وحده، وقال تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]. كيف جعل التوقير والتعزير للرسول وحده، والتوقير هو التعظيم الصادر عن الهيبة والإجلال. هذه حقيقته، فعلم أن الخوف من أجل مقامات الخواص، وأنهم إليه أحوج وبه أقوم من غيرهم.

---

(١) ٢٩٢ المجرتين.

فصـــل(١)

إذا تبـين هذا فههنـا أصل عظيم يكشف سر المسألة وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به؛ فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته.

ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى: ﴿عَلَيهِمْ دَائرةُ السَّوءِ وغَضِبَ الله عَلَيهم وَلَعَنَهم وأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وسآءَتْ مصيراً﴾.

وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته: ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكم الذي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكم أَرْداكم فَأَصْبَحْتُم مِنَ الخَاسِرِين﴾ [فصلت:٢٣].

وقال تعـالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُون * أإفْكاً آلهةً دونَ الله تُريدُون * فَما ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالمِين﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧].

أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره، وماظنكم به حين عبدتم معه غيره؟ وما ظنكم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص؟ حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنـه غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المتفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه.

(٢)**وأما** المسألة الثانية وهي تعريف الصراط باللام هنا. فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، ألا ترى أن قولك: جالس فقيهًا أو عالمًا ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالم، ولا قولك: أكلت طيبًا كقولك: الطيب؟ ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق**» ثم قال: «**ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق**» فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه.

فإذا عرفت هذا فلو قال اهدنا صراطًا مستقيمًا لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط مستقيم على الإطلاق وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلى الصراط

(١) ١٨٥ الجواب.
(٢) ١٢ البدائع جـ٣.

المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته، وجعله طريقًا إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه. فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن لا شيء مطلق منكر، واللام هنا للعهد العلمي الذهني وهو أنه طلب الهداية إلى شيء معهود قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال، فلم يكن بد من التعريف.

فإن قيل لم جاء منكرًا في قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢]. وقوله تعالى: ﴿وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم﴾ [الشورى:٥٢]. وقوله تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهم إلى صراطٍ مستقم﴾ [الأنعام:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُل إنَّني هَدَاني رَبي إلى صِراطٍ مستقيم﴾ [الأنعام:١٦١].

فالجواب عن هذه المواضع بجواب واحد وهو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم وهداية رسوله إليه، ولم يكن للمخاطبين عهد به، ولم يكن معروفًا لهم فلم يجيء معرفًا بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده. ولا تقدمه في اللفظ معهود تكون اللام مصروفة إليه، وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين الموضعين أعني أن يكون لها معهود ذهني أو ذكرى لفظي، وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع فالتنكير هو الأصل وهذا بخلاف قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]. فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطًا مستقيمًا هدى إليه أنبياءه ورسله، وكان المخاطب سبحانه المسئول عن هدايته عالمًا به دخلت اللام عليه فقال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، وقال السهيلي: إن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ [الفتح:٢]. نزلت في صلح الحديبية وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح ورأوا أن الرأي خلافه. وكان الله - تعالى عما يقولون - ورسوله ﷺ أعلم فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية. فلم يرد صراطًا مستقيمًا في الدين، وإنما أراد صراطًا في الرأي والحرب والمكيدة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإنَكَ لَتَهْدِي إلى صِراطٍ مستقيم﴾ أي: تهدي من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم. ولو قال في هذا الموطن إلى الصراط المستقيم لجعل للكفر وللضلال حظًا من الاستقامة، إذ الألف واللام تنبىء أن مادخلت

عليه من الأسماء الموصولة أحق بذلك المعنى مما تلاه في الذكر أو ما قرب به في الوهم، ولا يكون أحق به إلا والآخر فيه طرف منه.

وغير خاف ما في هذين الجوابين من الضعف والوهن، وأما قوله إن المراد بقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِراطًا مُسْتَقيمًا﴾ [الفتح: ٢]. في الحرب والمكيدة فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله.

وأخبر النبي ﷺ أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها.

ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطًا مستقيمًا؟ وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك، بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذي أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿قل إنَّني هَدَاني رَبِّي إلى صِراطٍ مُسْتَقيم﴾ ثم فسره بقوله تعالى: ﴿دِيْنًا قَيِّمًا مِلَّة إبراهيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِين﴾ [الأنعام: ١٦١] ونصب دينًا هنا على البدل من الجار والمجرور أي هداني دينًا قيمًا.

أفتراه يمكنه ههنا أن يقول إن[1] الحرب والمكيدة فهذا جواب فاسد جدًّا.

وتأمل ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا.

وذلك خمسة أشياء أحدها الفتح المبين. والثاني مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر. والثالث هدايته الصراط المستقيم. والرابع إتمام نعمته عليه. والخامس إعطاءه النصر العزيز.

وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح.

فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع والعمل الصالح والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه بالحجة والبيان والسيف والسنان فهو النصر بالحجة واليد، قهر قلوب المخالفين له بالحجة، وقهر أبدانهم باليد.

وهو سبحانه كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيْ أَرْسَل رَسُولَهُ بالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّين كُلِّه﴾ [الصف: ٩]. في موضعين في سورة براءة وفي سورة الصف، وقال تعالى: ﴿ولقَدْ أرْسَلْنا رُسُلَنا بالبينَاتِ وأنْزَلْنَا مَعَهمُ الكِتَابَ والْمِيزَانَ ليقومَ النَّاسُ بالقِسْط﴾ [الحديد: ٢٥]. فهذا الهدى ثم قال: ﴿وأنْزَلْنَا الحَديدَ فيه بأسٌ شَدِيد﴾. فهذا النصر. فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر.

---

(١) في المخطوطة: أثر الحرب ولعل الصواب: إن الحرب.

وقال تعالى: ﴿**آلم * الله لا إله إلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ * نَزَّلَ عليكَ الكِتَابَ بالحَقِّ مُصَـدِّقـاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيـهِ وَأَنْزَلَ التَّوراةَ والإِنْجِيل * مِنْ قَبْلُ هُدى لِلَّناسِ وأَنْزَلَ الفُرْقَانَ**﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤].

فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان وهوالنصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدى أن كلًّا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل. ولهذا سمى تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانًا كما قال تعالى: ﴿**إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بالله وَمَـا أَنْزَلنا عَلى عَبْدِنَا يومَ الفُرْقَانِ يومَ الْتَقى الْجَمْعَانِ**﴾ [الأنفال: ٤١]. فذكر الأصلين ما أنزله على رسوله يوم الفرقان وهو يوم بدر، وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم.

ومن هذا قولـه تعـالى: ﴿**وَلَقَدْ آتينا مُوسَى وهٰارونَ الفُرْقَانَ وضِياءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِـين**﴾ [الأنبياء: ٤٨]. فالفـرقان نصره له على فرعون وقومه، والضياء والذكر التوراة. هذا هو معنى الآية.

ولم يصب من قال إن الواو زائدة وإن ضياء منصوب على الحال كما بينا فساده في: **الإمالي المكية** فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين الهدى والنصر، وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة. وأما جوابه الثاني عن قوله: ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾ بأنه لو عرف لجعل للكفر والضلال حظًّا من الاستقامة فما أدري من أين جاء له هذا الفهم مع ذهنه الثاقب وفهمه البديع ـ رحمه الله تعالى ـ وما هي إلا كبوة جواد ونبوة صارم.

أفترى قولـه تعـالى: ﴿**وآتَيْنَـاهُمَـا الكِتَـابَ الْمُسْتَبِـينَ * وهَـدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨]. يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة وما ثم غيره إلا طرق الضلال، وإنما الصراط المستقيم واحد وهو ما هدى الله إليه أنبياءه ورسله أجمعين، وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم.

وكذلك تعريفه في سورة الفاتحة هل يقال إنه يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة.

بل يقال: تعريفه ينبىء أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة؛ فإن التعريف في قوة الحصر فكـأنه قيل: لا صراط مستقيم سواه وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة فتأمله هنا وفي نظائره.

فصــــل(١)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وأَلْزَمَهُم كَلِمَةَ التَّقْوىٰ وكانُوا أَحَقَّ بهَا وأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦]. وكلمة التقوى هي الكلمة التي يتقى الله بها وأعلى أنواع هذه الكلمة هي قول لا إله إلا الله، ثم كل كلمة يتقى الله بها بعدها فهي من كلمة التقوى. وقد أخبر سبحانه أنه ألزمها عباده المؤمنين فجعلها لازمة لهم لا ينفكون عنها فبإلزامه التزموها، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها. والتزامها فعل اختياري تابع لإرادتهم واختيارهم فهو الملزم وهم الملتزمون.

فصــــل(٢)

ومما يناسب هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بَالحَقِّ لَتدخُلُنَّ المسجدَ الحَرَامَ إِن شآء الله آمنين مُحَلِّقِينَ رُءوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تخافُون فَعلم مَا لَم تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُون ذَلَكَ فَتْحاً قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٦] بين سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا، وبين لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا، فحصل في العام القابل، وقال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُون ذلكَ فَتحًا قَرِيبًا﴾ وهو صلح الحديبية وهو أول الفتح المذكور في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]. فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر مالم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخل الناس بعضهم في بعض، وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرة لا يخافون، ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب ممن دخل فيه إلى ذلك الوقت، وظهر لكل أحد بغى المشركين وعداوتهم وعنادهم، وعلم الخاص والعام أن محمدًا وأصحابه أولي الحق والهدى، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلا العدوان والعناد؛ فإن البيت الحرام لم يصد عنه حاج ولا معتمر من زمن إبراهيم، فتحققت العرب عناد قريش وعداوتهم، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلى الإسلام، وزاد عناد القوم وطغيانهم وذلك من أكبر العون على نفوسهم، وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم، إلى غير ذلك من الأمور التي علمها الله ولم يعلمها الصحابة ولهذا سماه فتحاً وسئل النبي ﷺ أفتح هو؟ قال: نعم.

---

(١) ٦٠ شفاء.
(٢) ٣٤ شفاء.

. . . (١)**وقد** جمع سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم فقال تعالى: ﴿**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**﴾

قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «نعم العَدْلان، ونعمت العِلاوة». فبالهدى خَلَصُوا من الضلال، وبالرحمة نَجَوا من الشَّقاءِ والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القُرْبِ والكرامَةِ. والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة: الضلالُ عن طريق السعادة، والوقوع في ضِدِّ الرحمة من الألم والعذاب، والذمُّ واللعنُ، الذي هو ضد الصلاة.

ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى كان أكمل المؤمنين إيمانًا أعظمهم رحمة، كما قال تعالى في أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح: ٢٩]. وكان الصديق رضي الله تعالى عنه من أرحم الأمة، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر**» رواه الترمذي.

وكان أعلم الصحابة باتفاق الصحابة، كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «وكان أبوبكر رضي الله عنه أعلمنا به يعني النبي ﷺ» فجمع الله له بين سعة العلم والرحمة.

وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته، وقد وَسِع رَبنا كل شيء رحمةً وعلمًا فوسعت رحمته كل شيء، وأحاطَ بكل شيء علمًا، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحمُ بالعبد من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه.

والعبدُ لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يَسْعَى فيما يضرُّها وُيؤلمها، ويَنْقُصُ حظَّها من كرامته وثوابه، ويُبعدها من قربه، وهو يَظَنُّ أنه ينفعها ويُكرمها، وهذا غاية الجهل والظلم.

والإنسان ظلوم جَهول، فكم من مُكرِم لنفسه بزعمه، وهو لها مُهين، ومُرَفِّهٍ لها، وهو لها مُتعبِ، ومعطيها بعض غرضها ولذتها، وقد حال بينها وبين جميع لذاتها، فلا علم له بمصالحها التي هي مصالحها، ولا رحمة عنده لها، فما يبلغ عدوه منه ما يبلغ هو من نفسه. فقد بَخسها حَظَّها، وأضاع حَقها، وعطَّل مصالحها،

(١) ١٧٢ الإغاثة جـ٢.

وباعَ نعيمها الباقي، ولذتها الدائمة الكاملة، بلذةٍ فانية مَشُوبةٍ بالتنغيص، إنما هي كأضغاث أحلام، أو كطَيفٍ زار في المنام.

وليس هذا بعجيب من شأنه، وقد فقد نصيبه من الهدى والرحمة. فلو هُدي ورُحم لكان شأنه غيرَ هذا الشأن، ولكن الربّ تعالى أعلم بالمحل الذي يصلحُ للهدى والرحمة. فهو الذي يؤتيها العبدَ. كما قال عن عبده الخَضِر. ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾ [الكهف: ٦٥]. ﴿**رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**﴾ [الكهف: ١٠].

فصـــل

ومما ينبغي أن يُعلم: أن الـرَّحمة صفةٌ تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبـد، وإن كَرِهَتها نفسهُ، وشَقَّتْ عليها. فهذه هي الرَّحمةُ الحقيقية. فأرْحَمُ الناسِ بك من شَقَّ عليك في إيصال مصالحك، ودَفْعِ المضارِّ عنك.

فمن رحمة الأب بولده: أن يُكرهه على التأدّب بالعلم والعمل، ويَشُقّ عليه في ذلك بالضَّرْب وغيره، ويمنعَه شهواته التي تعود بضَرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لِقلة رحمته به، وإن ظنَّ أنه يَرحَمُه ويُرَفِّهُهُ ويُريحُهُ، فهذه رحمَةٌ مقرونَةٌ بجهل، كرحمة الأمِّ.

ولهذا كان من تمام رحمة أرحمِ الراحمين: تَسْليطُ أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعُه من كثيرٍ من أغراضهِ وشهواته: من رحمتِـه به، ولكنَّ العبـد لجهله وظُلمه يتّهم ربهُ بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليهِ بابتلائهِ وامتحانهِ . . .

[1]**وقوله:** ﴿**محمد رسول الله**﴾ [الفتح: ٢٩]. فهذا كله شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبَيّنَ صحتها غاية البيان، بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم. فكونه سبحانه شاهدًا لرسوله: معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر في ذلك وتأمله: علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة، وأعدلها وأظهرها. وصدقه بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على

(١) ٤٧٠ المدارج جـ٣.

صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده: من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبائح، وعما لا يليق به.

وفي كل وقت يُحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد. ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿**هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى ودينِ الحَقِّ لِيُظْهِره عَلَى الدِّينَ كُلِّه. وكَفَى بالله شَهيدًا**﴾ [الفتح: ٢٨]. فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجة، والبيان، والدلالة. وظهورًا بالنصر والظفر والغلبة، والتأييد. حتى يظهره على مخالفيه. ويكون منصوراً.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفتح
والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الحُجُرَاتِ
ترتيبها ٤٩ — آياتها ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** تعالى: ﴿**يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تقدِّمُوا بَيْنَ يَدَي الله وَرَسُوله واتَّقُوا الله إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الحجرات: ١]. أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تُفتوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمرًا حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويُمْضِيه. روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا تقولوا خِلَافَ الكتاب والسنة. وروى العوفي عنه قال: نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه. والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل.

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الَّذينَ آمَنُوا لا ترفعوا أصواتَكُم فوقَ صوتِ النَّبيِّ ولا تَجهروا له بالقَوْل كجَهْرِ بَعضِكم لبَعْضٍ أن تَحْبَطَ أعْمَالُكم وأنتم لا تَشعُرُون**﴾ [الحجرات: ٢]. فإذا كان رَفْعُ أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم، فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه؟ أليس هذا أولى أن يكون مُحبطًا لأعمالهم؟.

(٢)**قال** تعالى: ﴿**يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تقدِّمُوا بَيْنَ يَدَي الله وَرَسُوله واتَّقُوا الله إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾. أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فِعلة ـ وإن صغرت ـ إلا ينشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟ أي: لِمَ فعلت؟ وكيف فعلت؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى. وابتغاء الوسيلة إليه؟

ومحل هذا السؤال: أنه، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟.

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول ﷺ في ذلك التعبد، أي هل كان ذلك

(١) ٥١ الإعلام جـ١.		(٢) ٥١ الإغاثة جـ٢.

العمل مما شرعته لك على لسان رسولي، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه؟.

فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة، فإن الله سبحانه لا يقبل عملاً إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص، وهوى يعارض الاتباع. فهذا حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة.

(١)**ومن** الأدب مع الرسول ﷺ: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف. حتى يأمر هو، وينهي ويأذن، كما قال تعالى: ﴿**يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تقدِّمُوا بَيْنَ يَدَي الله وَرَسُوله واتَّقُوا الله إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾. وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ. وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب. أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه. وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر. ولا تنهوا حتى ينهي.

ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته؛ فإنه سبب لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء، ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجبًا لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها؟

ومن الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره. قال تعالى: ﴿**لا تَجْعَلُوا دعاءَ الرسولِ بَيْنَكُمْ كدُعاءِ بَعْضِكم بعضًا**﴾ [النور:٦٣]. وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضا، بل قولوا: يارسول الله، يانبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاءكم الرسولَ.

الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا؛ إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بُدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة. فعلى هذا: المصدرُ مضاف إلى الفاعل، أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوامعه على أمر جامع ـ من خطبة، أو جهاد، أو

(١) ٣٨٩ المدارج جـ٢.

رباط - لم يذهب أحد منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه. كما قال تعالى: ﴿**إنما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ وإذا كَانُوا مَعَهُ على أمرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حتى يَسْتَأْذِنُوه**﴾ [النور: ٦٢]. فإذا كان هذا مذهبًا مقيدًا بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقه، وجليله؟ هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿**فَاسْأَلوا أهلَ الذِّكْرِ إنْ كنتم لا تعلمون**﴾

ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله. بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نَصُّه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول. ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ، وهو عين الجرأة.

(١)**وقال** تعالى: ﴿**إنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُراتِ**﴾ [الحجرات: ٤]. وهذا النداء هو رفع أصواتهم الذي نهى الله عنه المؤمنين وأثنى عليهم بغَضِّها بقوله: ﴿**إنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رسول اللَّهِ**﴾ الآية. [الحجرات: ٣]. وكل ما في القرآن العظيم من ذكر كلامه وتكليمه وأمره ونهيه دال على أنه تكلم حقيقة لا مجازًا وكذلك نصوص الوحي الخاص كقوله تعالى: ﴿**إنَّا أَوْحَيْنَا إليك كَمَا أوْحَيْنَا إلى نُوحٍ**﴾ [النساء: ١٦٣]. قال الجارودي سمعت الشافعي يقول: أنا مخالف ابن علية في كل شيء حتى في قول لا إله إلا الله، أنا أقول لا إله إلا الله الذي كلم موسى من وراء حجاب، وهو يقول لا إله إلا الله الذي خلق كلامه أسمعه موسى. وقد نوع الله تعالى هذه الصفة في إطلاقها عليه تنويعًا يستحيل معه نفي حقائقها، بل ليس في الصفات الإلهية أظهر من صفة الكلام والعلو والفعل والقدرة، بل حقيقة الإرسال تبليغ كلام الرب تبارك وتعالى، وإذا انتفت عنه حقيقة الكلام انتفت حقيقة الرسالة والنبوة. والرب تبارك وتعالى يخلق بقوله وكلامه كما قال تعالى: ﴿**إنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئًا أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [يس: ٨٢]. فإذا انتفت حقيقة الكلام عنه انتفى الخلق. وقد عاب الله آلهة المشركين بأنها لا تكلَّم ولا تكلم عابديها ولا ترجع إليهم قولاً. والجهمية وصفوا الرب تبارك وتعالى بصفة هذه الآلهة. وقد

(١) ٢٨٥ الصواعق جـ٢.

ضرب الله تعالى لكلامه واستمراره ودوامه المثل بالبحر يمده من بعده سبعة أبحر، وأشجار الأرض كلها أقلام فيفنى المداد والأقلام ولا تنفد كلماته، أفهذا صفة من لا يتكلم ولا يقوم به كلام؟ فإذا كان كلامه وتكليمه، وخطابه ونداؤه، وقوله وأمره ونهيه، ووصيته وعهده، وإذنه وحكمه، وإنباؤه وإخباره وشهادته كل ذلك مجازًا لا حقيقة له بطلت الحقائق كلها، فإن الحقائق إنما حقت بكلمات تكوينه ﴿وَيُحِقُ اللَّهُ الحقّ بِكَلِماتِهِ ولو كَرِهَ المُجرمُون﴾ [يونس: ٨٢]. فما حقت الحقائق إلا بقوله وفعله.

(١)**وأما** الأدب مع الخلق: فهـو معاملتهم ـ على اختلاف مراتبهم ـ بما يليق بهم، فلكل مرتبة أدب. والمراتب فيها أدب خاص.

فمع الوالدين: أدب خاص، وللأب منهما: أدب هو أخص به. ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان: أدب يليق به.

وله مع الأقران أدب يليق بهم. ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه، ومع الضيف: أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكل حال أدب: فللأكل آداب. وللشرب آداب. وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب. وللبول آداب. وللكلام آداب، وللسكوت والاستماع آداب.

وأدب المـرء: عنوان سعادته وفلاحه. وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره. فما استُجْلِب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.

فانظر إلى الأدب مع الـوالدين: كيف نَجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة ؟ والإخلال به مع الأم ـ تأويلاً ـ وإقبالاً على الصلاة كيف امتحِن صاحبه بهدم صومعته وضرب الناس له، ورميه بالفاحشة؟.

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان؟.

وانظر قلة أدب عوف مع خالد: كيف حرمه السَّلَب بعد أن بَرَد بيديه؟ .

وانظر أدب الصديق رضي الله عنه مع النبي ﷺ في الصلاة: أن يتقدم بين يديه. فقال: «ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ» كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده؟ فكان ذلك التأخر إلى خلفه، وقد أومأ إليه أن أثبت مكانك جمزًا وسعيًا إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي والله أعلم.

---
(١) ٣٩٠ المدارج جـ٢.

فصـــل(١)

في السرايا والبُعُوث في سنة تسع

ذِكر سَرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم

وذلك في المحرم من هذه السنة. بعثه إليهم في سرية ليغزوهم في خمسين فارسًا، ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فكان يسير الليل ويكْمُنُ النهار، فهجم عليهم في صحـراء، وقد سَرَّحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمع ولَّوا، فأخذ منهم أحد عشر رجلًا، وإحدى وعشرين امرأة، وثلاثين صَبيًّا. فساقهم إلى المدينة، فأنزلوا في دار رَمْلَة بنت الحرث. فقدم فيهم عِدَّة من رؤسائهم: عُطارِد بن حاجب، والزِّبْرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحرث، ونعيم بن سعد، وعمـرو بن الأهتم، وربـاح بن الحـرث، فلما رأوا نساءهم وذراريهم بكوا إليهم، فجاءوا إلى باب النبي ﷺ، فنادوا: يامحمد، أخرج إلينا. فخرج رسول الله ﷺ، وأقام بلال الصلاة، وتعلَّقوا برسول الله يُكلمونه، فوقف معهم، ثم مضى، فصلى الظهر، ثم جلس في صحن المسجد، فقدَّموا عطارد بن حاجب، فتكلم وخطب، فأمـر رسـول الله ثابت بن قيس بن شَمَّاس فأجابهم، وأنزل الله فيهم **﴿إن الذين يُنادُونَك من وراء الحجُرَاتِ أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صَبَرُوا حتى تخْرُجَ إليهم لكـانَ خيراً لَّهُمْ والله غفـورٌ رَّحيمٌ﴾** [الحجـرات: ٤، ٥]. فرد عليهم رسول الله ﷺ الأسرى والسَّبْي. فقام الزِّبرقان شاعرُ بني تميم، فأنشد مفاخرًا:

نحن الكـرام فلا حيٌّ يُعـادلنا ... منـا المـلوك وفينـا تُنْصَبُ البيَعُ
وكـم قَسَرنـا من الأجـياد كلهم ... عنـد النِّهـاب وفضـل العـز يُتَّبعُ
ونحن نُطعم عنـد القَحْط مُطعمنـا ... من الشِّـوَاءِ إذا لم يؤنس القَـزَعُ
بما ترى النـاس تأتينـا سُرَاتُهم ... من كل أرض هَوِيًّا ثم تصـطنـعُ
فننحـر الكُـرمَ عَبـطًا في أرومتنا ... للنـازلـين إذا ما أنـزلـوا شبعـوا
فما ترانـا إلى حي نفـاخـرهـم ... إلا استقادوا فكانوا الرأس يقتطعُ
فمن يفـاخـرنـا في ذاك نعرفـه ... فيرجـع القـوم والأجياد تتبـعُ
إنـا أبَـيْنَـا ولا يأبى لنـا أحـد ... أنـا كذلـك عنـد الفخـر نرتفـعُ

(١) ٤٧٢ الزاد جـ٢.

فقام شاعر الإسلام حسان بن ثابت، فأجابه على البديهة:

إن الــذَّوَائِب من فِهْـرٍ وإخـوتهم قد بيَّنـواْ سُنَّـةً للنــاس تُتَّبَــعُ
يرضى بهم كلُّ مَن كانت سَريرتُه تقـوى الإلـه وكـل الخير مُصطنعُ
قوم إذا حاربــوا ضَرُّوا عدُوَّهــم أوحاولوا النفع في أشياعهم نفعُوا
سَجِــيَّةٌ تلك فيهــم غير مُحْدَثَــةٍ إن الخـلائق فاعلم شرُّهـا البِدَعُ
إنْ كان في النـاس سَبَّاقون بعدهم فكـل سبق لأدْنى سَبقهم تَبَــعُ
لا يرقَـع الناس ما أوْهَتْ أكُفُّهم عنـد الـدفاع ولا يوهون ما رقعواْ
إن سابقوا الناس يومًا فاز سبَقْهم أو وازنـوا أهـل مجد بالندى منعواْ
أعفـة ذُكـرت في الـوحْي عفَّتُهم لا يطمـعــون فلا يرديهم طمـعُ
لا يبـخـلون على جار بفـضـلهم ولا يمـسـهم من مَطْمَــع طَبَــعُ
إذا نصــبــنــا لحي لم نَدبَّ لهم كما يدب إلى الــوحشية الــذرعُ
نسمـو إذا الحـرب نالتنـا مخالبهـا إذا الزعانف من أظفارها خضعوا
لا يفـخــرون إذا نالــوا عدوهم وإن أصـيبــوا فلا خَوَر ولا هَلَع
كأنهُم في الـوغَى والمـوت مكتنف أُسْــدٌ بحليه في أرســاغهــا فَدَع
خذ منهم ما أتوا عفوًا إذا غضبوا ولا يكن همك الأمر الذي صنعوا
فإن في حربهــم فاتــرك عداوتهــم شرًّا يُخاض عليه الـسُّـمُّ والـسلعُ
أكْــرِمْ بقـوم رسـولُ الله شيعتهم إذا تفــاوتـت الأهــواء والـشِّيَعُ
أهــدى لهم مِدْحـتي قلبٌ يوازره فيما أحب لســان حائــك صنَــع
فإنهم أفــضــل الأحــياء كلهــم إن جَدّ بالناس جِدُّ القول أوشمعوا(١)

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لمؤتى له، لَخَطيبُه أخطبُ من خطيبنا، ولشَاعِرهُ أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا. ثم أسلموا، فأجازهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

فصل

قال ابن إسحاق: فلما قدم وفد بني تميم دخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ: أن اُخْرُجْ إلينـا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله من صياحهم، فخرج إليهم.

(١) فسرها السهيلي بمعنى: ضحكوا.

فقالوا: جئنا لنفاخرك، فائْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا، قال: «**نعم، قد أذِنْتُ لخطيبكم، فليَقُمْ**» فقام عطارد بن حاجب، فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنُّ، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالاً عِظامًا، نفعل فيها المعروف. وجعلنا أعَزَّ أهل المشرق وأكثره عددًا، وأيْسَرَهُ عُدَّةً. فمن مِثْلُنَا في الناس؟ ألَسْنَا. رءُوس الناس، وأولى فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عدَدْنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا من الكلام، ولكنا نستحي من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرَف بذلك. أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، أو أمرٍ أفضل من أمرنا. ثم جلس. فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شَمَّاس: «**قُمْ، فأجبه**»، فقام، فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيّه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من فضله: أنْ جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسبًا، وأصدقه حديثًا، وأفضله حَسَبًا، فأنزل عليه كتابه، وائْتَمنه على خلقه. فكان خيْرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان بالله، فآمن به المهاجرون من قومه، وذَوِي رَحِمه، أكرم الناس أحسابًا، وأحسنهم وجوهًا، وخير الناس فِعالاً. ثم كان أولَ الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله ﷺ: نحن، فنحن أنصار الله، ووزَرَاء رسوله ﷺ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله. فمن آمن بالله ورسوله مَنع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا. وكان قتله علينا يسيرًا. أقول هذا، وأستغفر الله العظيم لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم». ثم ذكر قيام الزبرقان وإنْشَادَه، وجواب حسان له بالأبيات المتقدمة. فلما فرغ حسان من قوله. قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل، لمؤتى، لخَطيبُه أخْطَبُ من خطيبنا، ولشاعره أشْعَر من شاعرنا، ولأصواتُهم أحلى من أصواتنا. ثم جَوَّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

فصل (١)

وأما الفسوق: فهو في كتاب الله نوعان: مفرد مطلق. ومقرون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضًا: فسوق كفر، يخرج عن الإسلام. وفسوق لا يخرج عن الإسلام. فالمقرون كقوله تعالى: ﴿**ولكِنَّ الله حَبَّبَ إليكم الإيمانَ وزَيَّنه في**

(١) ٣٥٩ المدارج جـ١.

قُلُوبكم وكَرَّه إليكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيان أولئك هم الرَّاشِدُون﴾

والمفرد ـ الذي هو فسوق كفر ـ كقوله تعالى: **﴿يُضِلُّ به كَثِيراً ويَهْدِي به كَثيراً وما يُضِلُّ به إلا الفَاسِقِين * الذين يَنْقُضُون عهدَ الله﴾** الآية. [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقوله عز وجل: **﴿وَلَقَد أَنْزَلْنا إليك آياتٍ بَيِّنَاتٍ وما يَكفُرُ بها إلا الفاسِقُون﴾** [البقرة: ٩٩]. وقوله: **﴿وأما الذين فَسَقُوا فمأْوَاهُم النَّارُ كلما أَرادُوا أن يَخرُجُوا منها أُعِيدُوا فيها﴾** الآية. [السجدة: ٢٠]. فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق، الذي لا يخرج عن الإسلام: فكقوله تعالى: **﴿وَإِنْ تَفعَلُوا فإنه فُسُوقٌ بكم﴾** [البقرة: ٢٨٢]. وقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءَكُمْ فاسِقٌ بنبأٍ﴾** [الحجرات: ٦]. فإن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط لما بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدِقًا ـ وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية ـ فلما سمع القومُ بمقدمه تَلَقَّوه، تعظيمًا لأمر رسول الله ﷺ. فحدَّثه الشيطان: أنهم يريدون قتله. فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلي. فغضب رسول الله ﷺ، وهَمَّ أن يغزوهم. فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يارسول الله، سمعنا برسولك، فخرجنا نتلقاه ونكرمه، ونؤدي إليه ما قِبَلنا من حق الله، فبدا له في الرجوع، فخشينا أنه إنما رَدَّه من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر، وأمره أن يخفي عليهم قدومه. وقال له: انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار. ففعل ذلك خالد، ووافاهم، فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير. فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر فنزل: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءَكُمْ فاسِقٌ بنبأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾** الآية. و «النبأ» هو الخبر الغائب عن المخبَرِ إذا كان له شأن. و «التبين» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علمًا.

وههنا فائدة لطيفة. وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة. وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل

الصدق، ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته.

وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات أخر. فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته. ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما مَنْ فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو مُتَحَرٍّ للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب: فإن كثر منه وتكرر، بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته. وإن ندر منه مرة ومرتين. ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء. وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله.

والمقصود: ذكر الفسوق الذي لا يخرج إلى الكفر.

والفسوق الذي تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذي ترد به الرواية والشهادة. وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه وهو قسمان: فسق من جهة العمل، وفسق من جهة الاعتقاد. **ففسق** العمل نوعان: مقرون بالعصيان، ومفرد.

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه. والعصيان: هو عصيان أمره. كما قال الله تعالى: ﴿**لا يَعْصُون اللّهَ ما أَمَرَهُمْ**﴾ [التحريم:٦]. وقال موسى لأخيه هرون عليهما السلام: ﴿**ما مَنَعَكَ إذ رأيتَهُمْ ضَلُّوا * ألا تَتَّبعنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي**﴾ [طه: ٩٢:٩٣] وقال الشاعر:

أمــرتُــك أمـرًا جازمًـا فعصيتني　　　فأصبحت مسلوب الإمـارة نادمًـا

فالفسق أخص بارتكاب النهي، ولهذا يطلق عليه كثيرًا. كقوله تعالى: ﴿**وإن تَفْعَلُوا فإنه فُسُوق بكم**﴾ [البقرة:٢٨٢]. والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم. ويطلق كل منهما على صاحبه، كقوله تعالى: ﴿**إلَّا إبليس كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عن أَمْـرِ ربـه**﴾ [الكهف:٥٠]. فسمى مخالفته للأمر فسقًا. وقال: ﴿**وعَصَى آدمُ ربَّه فغوى**﴾ [طه:١٢١]. فسمى ارتكابه للنهي معصية. فهذا عند الإفراد، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهي.

و«التقوى» اتقاء بمجموع الأمرين. وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. ويترك

معصية الله، على نور من الله يخاف عقاب الله.

وفسق الاعتقاد: كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويحرمون ماحرم الله، ويوجبون ما أوجب الله، ولكن ينفون كثيرًا مما أثبت الله ورسوله، جهلًا وتأويلًا، وتقليدًا للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك.

وهؤلاء كالخوارج المارقة، وكثير من الروافض، والقدرية، والمعتزلة، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة في التجهم.

وأما غالية الجهمية: فكغلاة الرافضة، ليس للطائفتين في الإسلام نصيب.

ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: هم مباينون للملة.

فصل[1]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لَعنتُّمْ وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيكُمُ الإيمان وَزَيَّنَه في قُلُوبِكُمْ وكَرَّه إِلَيكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ أولئك هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾ [الحجرات: ٧].

فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم، وهذا لا يقدر عليه سواه، وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره فإنما هو بتزيينه، وذكر أوصافه وما يدعو إلى محبته.

فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين حبه وحسنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وأن ذلك محض فضله ومنته عليهم حيث لم يكلهم إلى أنفسهم، بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده فجاد عليهم به فضلًا منه ونعمة، والله عليم بمواقع فضله ومن يصلح له ومن لا يصلح، حكيم بجعله في مواضعه.

...[2]و«**التوفيق**» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادرًا على فعل ما يرضيه، مريدًا له، محبًّا له، مؤثرًا له على غيره. ويبغض إليه ما يسخطه، ويكرهه إليه. وهذا مجرد فعله، والعبد محل له. قال تعالى: ﴿**ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمانَ وزَيَّنه في قُلوبكم وكَرّه إليكم الكُفْر وَالفُسُوقَ والعِصيان أولئك هم الراشدون * فَضْلًا من الله ونعمَة والله عليمٌ حكيمٌ**﴾ [الحجرات: ٧-٨].

(١) ٥٧ شفاء.
(٢) ٤١٤ المدارج جـ١.

فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له. حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله، ولا يضعه عند غير أهله. وذكر هذا عقيب قوله: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمْر لَعنتُمْ﴾.

ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان﴾.

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له، وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك. فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تُقَدِّموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر. فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان. فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولا تقدمتم به إليها. فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه. فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون: لشق عليكم ذلك، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون. ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان، فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم، ولا سمحت به أنفسكم.

وقد ضُرب للتوفيق والخذلان مثل: ملك أرسل إلى أهل بلد من بلاده رسولاً، وكتب معه إليهم كتابًا يعلمهم أن العدو مُصَبِّحهم عن قريب ومجتاحهم، ومُخَرِّب البلد، ومهلك من فيها. وأرسل إليهم أموالاً ومراكب وزادًا وعُدة وأدلة، وقال: ارتحلوا مع هؤلاء الأدلة، وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه، ثم قال لجماعة من مماليكه: اذهبوا إلى فلان، فخذوا بيده واحملوه ولا تذروه يقعد. واذهبوا إلى فلان كذلك وإلى فلان، وذروا من عداهم؛ فإنهم لا يصلحون أن يساكنوني في بلدي. فذهب خواص مماليكه إلى من أمروا بحملهم. فلم يتركوهم يقرون، بل حملوهم حملاً، وساقوهم سوقًا إلى الملك. فاجتاح العدو من بقي في المدينة وقتلهم وأسر من أسر.

فهل يعد الملك ظالمًا لهؤلاء، أم عادلاً فيهم؟ نعم خص أولئك بإحسانه وعنايته وحرمها من عداهم، إذ لا يجب عليه التسوية بينهم في فضله وإكرامه، بل ذلك فضله يؤتيه من يشاء.

(١)**قد** ذكرنا أن العبد في الذنب له نظر إلى أربعة أمور: نظر إلى الأمر والنهي.

(١) ٢١٩ المدارج جـ١.

ونظر إلى الحكم والقضاء. وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين.

النظر الثالث: النظر إلى محل الجناية ومصدرها، وهو النفس الأمارة بالسوء، ويفيده نظره إليها أمورًا.

منها: أن يعرف أنها جاهلة ظالمة، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح. وَمَنْ وَصفُه الجهلُ والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله البتة. فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل. والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم. ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها.

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها، فهو خير من زكاها؛ فإنه رَبُّها ومولاها، وأن لا يَكِلَه إليها طَرْفَةَ عين؛ فإنه إن وَكَله إليها هلك. فما هلك من هلك إلا حيث وُكِلَ إلى نفسه. وقال النبي ﷺ لحصين بن المنذر: «قل: **اللهم ألهمني رُشْدِي، وَقِنِي شرَّ نفسي**» وفي خطبة الحاجة «**الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا**» وقد قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المُفْلِحُون**﴾ [التغابن: ١٦]. وقال: ﴿**إن النفْسَ لأَمَّارَةُ بالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣].

فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه علم أنها مَنْبَع كل شر ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها ففضلٌ من الله مَنَّ به عليها، لم يكن منها. كما قال تعالى: **ولولا فَضلُ اللهِ عَلَيكُمْ ورَحْمَتُه مازَكَى مِنكم من أَحَد أَبَدًا**﴾ [النور: ٢١]. وقال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إلَيكُمُ الإيمانَ وَزَينَهُ في قلوبِكُم وَكَرَّهَ إليكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصيانَ أولئك هم الرَّاشدون**﴾ [الحجرات: ٧]. فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها. ولكن هو الله الذي مَنَّ بهما، فجعل العبدَ بسببهما من الراشدين ﴿**فَضْلاً من الله ونِعْمةً والله عليمٌ حَكِيمٌ**﴾ [الحجرات: ٨]. «عليم» بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده. «حكيم» فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه في غير موضعه.

(١)**الفرق** الثاني أن عمل الحسنات من إحسان الله ومنه وتفضله عليه

(١) ١٦٨ شفاء.

بالهداية والإيمان كما قال أهل الجنة ﴿الحمد للّهِ الذي هدانا لِهذا وما كُنَّا لِنهتَدِيَ لولا أن هَدَانا الله﴾ [الأعراف: ٤٣].

فخلقُ الرب سبحانه لهم الحياة والسمع والبصر والعقول والأفئدة، وإرسالُ الرسل، وتبليغهم البلاغ الذي اهتدوا به، وإلهامهم الإيمان وتحبيبه إليهم وتزيينه في قلوبهم، وتكريه ضده إليهم كل ذلك من نعمه كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيكُمُ الإيمانَ وَزَينَهُ في قلوبكُم وَكَرَّهَ إليكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصيانَ أولئكِ هم الرَّاشدون * فَضْلاً مِن اللّهِ وَنِعمْةً والله عليمٌ حكيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خير الدنيا والآخرة هو نعمة محضة بلا سبب سابق يوجب ذلـك لهم، ومن غير حول وقوة منهم إلا به، وهو خالقهم وخالق أعمالهم الصالحة وخالق جزائها، وهذا كله منه سبحانه.

بخلاف الشر فإنه لا يكون إلا بذنوب العبد، وذنبه من نفسه.

وإذا تدبر العبد هذا علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله فشكر ربه على ذلك فزاده من فضله عملاً صالحًا ونعمًا يفيضها عليه.

وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه وبذنوبه استغفر ربه وتاب فزال عنه سبب الشر، فيكون دائمًا شاكرًا مستغفرًا، فلا يزال الخير يتضاعف له والشر يندفع عنه.

فصـل(١)

والحقوق نوعان: حق الله، وحق الآدمي؛ فحق الله لا مَدْخَلَ للصلح فيه، كالحـدودِ والـزكـوَات والكفارات ونحوها. وإنما الصلح بين العبد وبين ربه في إقـامتها، لا في إهمالها، ولهذا لا يقبل بالحدود، وإذا بلغت السلطان فلَعَن الله الشافع والمشفوع.

وأما حقـوق الآدميين فهي التي تقبـل الصلح والإسقاط والمعارضة عليها. والصلح العـادل هو الـذي أمـر الله به ورسوله ﷺ كما قال: ﴿فأَصْلِحُوا بينهما بالْعَدْلِ﴾ [الحجرات: ٩]. والصلح الجائر هو الظلم بعينه، وكثير من الناس لا يعتمد العدل في الصلح، بل يصلح صلحًا ظالمًا جائرًا، فيصالح بن الغريمين على دون الطفيف. من حق أحدهما: والنبي ﷺ صالح بين كعب وغريمه، وصالح أعدل

(١) ١٠٨ الإعلام جـ١.

الصلح فأمره أن يأخذ الشطر ويَدَعَ الشطر.

وكذلك لما عزم على طلاق سَودة رضيت بأن تهَبَ له ليلتها وتبقى على حقها من النفقة والكسوة. فهذا أعدل الصلح؛ فإناالله سبحانه أباح للرجل أن يطلق زوجته ويستبدل بها غيرها، فإذا رضيت بترك بعض حقها وأخْذِ بعضه وأن يُمْسِكَها كان هذا من الصلح العادل. وكذلك أرْشَدَ الخصمين اللذين كانت بينهما المواريث بأن يتوخيا الحقَّ بحسب الإمكان ثم يحلل كل منهما صاحبه.

وقد أمر الله سبحانه بالإصلاح بين الطائفتين المقتتلتين أولاً، فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فحينئذ أمر بقتال الباغية لا بالصلح فإنها ظالمة، ففي الإصلاح مع ظلمها هَضم لحق الطائفة المظلومة. وكثير من الظلمة المصلحين يصلح بين القادر الظالم والخصم الضعيف المظلوم بما يرضى به القادر صاحب الجاه، ويكون له فيه الحظ، ويكون الإغماض والحيف فيه على الضعيف، ويظن أنه قد أصلح، ولا يمكن المظلوم من أخذ حقه، وهذا ظلم، بل يمكن المظلوم من استيفاء حقه، ثم يطلب إليه برضاه أن يترك بعض حقه بغير محاباة لصاحب الجاه، ولا يشتبه بالإكراه للآخر بالمحاباة ونحوها.

(١)**ندب** الله سبحانه وتعالى إلى الصلح بين الطائفتين في الدماء فقال: **﴿وإن طَائِفتانِ من المؤمنين اقْتَتَلوا فأصْلِحُوا بينهما﴾**.

ونَدَب الزوجين إلى الصلح عند التنازع في حقوقهما، فقال: **﴿وإن امرأة خافَتْ من بَعْلها نُشوزًا أو إعراضًا فلا جُنَاحَ عليهما أن يُصلِحا بينهما صُلْحًا والصُّلْحُ خير﴾** [النساء:١٢٨]. وقال تعالى: **﴿لا خَيْرَ في كثير من نَجْوَاهم إلا مَنْ أمَرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصْلاحٍ بَيْنَ الناس﴾** [النساء: ١١٤].

وأصلح النبي ﷺ بين بني عمرو بن عوف لما وقع بينهم.

ولما تنازع كعبُ ابن مالك وابن أبي حَدْرَد في دَيْنٍ على ابن أبي حَدْرَد، أصلح النبيُّ ﷺ بأن استوضَعَ من دين كعب الشطرَ و[أمَرَ] غريمه بقضاء الشطر.

وقال لرجلين اختصما عنده «اذْهَبَا فاقْتَسِمَا ثم توخيًا الحقَّ ثم اسْتَهِمَا ثم ليحلل كل منكما صاحبه.

---

(١) ١٠٧ الإعلام جـ١.

فصـــل(١)

والصلح الذي يحل الحرام ويحرم الحلال كالصلح الذي يتضمن تحريم بُضْع حلال، أو إحلال بُضْع حرام، أو إرقاق حر، أو نقل نسب أو ولاء عن محل إلى محل، أو أكل رِبا، أو إسقاط واجب، أو تعطيل حد، أو ظلم ثالث، وما أشبه ذلك؛ فكل هذا صلح جائر مردود.

فالصلح الجائز بين المسلمين هوالذي يعتمد فيه رضي الله سبحانه ورضى الخصمين؛ فهذا أعدل الصلح وأحقه، وهو يعتمد العلم والعدل؛ فيكون المصلح عالمًا بالوقائع، عارفًا بالواجب، قاصدًا للعدل؛ فدرجة هذا أفْضَل من درجة الصائم القائم، كما قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأفْضَلَ من درجة الصائم القائم، قالوا**: بلى يا رسول الله، قال: **إصلاحُ ذاتِ البَيْنْ؛ فإن فساد ذات البين الحالقة، أما إني لا أقول تَحْلق الشَّعْر، ولكن تحلق الدين**» وقد جاء في أثر: أصلحوا بين الناس؛ فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة. وقد قال تعالى: ﴿**إنما المُؤْمنُون إخوَةٌ فأصْلِحُوا بين أخَوَيكُم واتقوا الله لَعَلَّكم تُرحَمُون**﴾ [الحجرات: ١٠].

(١)**قال** تعالى: ﴿**ومَنْ لَّمْ يَتُبْ فأولئك هُمُ الظَّالِمُون**﴾ [الحجرات: ١١]. قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قِسم ثالث البتة. وأوقع اسم «الظالم» على من لم يَتُبْ. ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**يا أيُّها النَّاسُ: تُوبُوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**».

وكان أصحابه يَعُدُّونَ له في المجلس الواحد قبل أن يقوم «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور، مائة مرة، وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ إلى آخرها إلا قال فيها: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**».

وصح عنه ﷺ أنه قال: «**لن ينجى أحدًا منكم عمله. قالوا ولا أنت يارسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**». فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته، وما يستحق جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

---

(١) ١٠٩ الإعلام جـ١.
١٧٨ المدارج جـ١.

فصـــل(١)

ومنها قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمَنُوا اجْتَنِبُوا كثيراً مِنَ الظَنِّ إن بعضَ الظَنِّ إثْمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغتَبْ بعضُكم بَعْضًا أيحبُّ أحَدُكُم أن يأكُلَ لحْمَ أخيه مَيْتا فَكَرِهْتُمُوه واتَّقُوا الله إن الله توابٌ رَّحيمٌ**﴾ [الحجرات:١٢]. وهذا من أحسن القياس التمثيلي، فإنه شَبَّه تمزيق عِرْضِ الأخ بتمزيق لحمه.

ولما كان المُغْتَابُ يمزق عرضَ أخيه في غيبته كانَ بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت.

ولما كان المغتاب عاجزًا عن دَفْعِه عن نفسه بكونه غائبًا عن ذمه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

ولما كان مُقْتَضى الأخوة التراحُمَ والتواصُلَ والتناصر فعلّق عليها المغتاب ضدّ مقتضـاهـا من الذم والعَيْب والطعن كان ذلك نظيرَ تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حِفْظَه وصِيانته والذبّ عنه.

ولما كان المغتاب متمتعًا بعرض أخيه متفكهًا بِغِيبته وذمه متحليًّا بذلك شبِّهَ بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه.

ولما كان المغتاب محبًا لذلك مُعْجَبًا به شبه بمن يحب أكل لحم أخيه ميتًا، ومحبتُه لذلك قَدْرٌ زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدرٌ زائد على تمزيقه.

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحُسْنَ مَوْقِعه ومُطابقة المعقول فيه المحسوس. وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكلِ لحم الأخ ميتًا، ووصفهم بذلك في آخر الآية، والإنكار عليهم في أولها أن يحِب أحدهم ذلك، فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره؟ فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم، وهم أشد شيء نُفْرَةً عنه؛ فلهذا يوجِبُ العقلُ والفِطْرَة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرةً عما هو نظيره ومشبهه، وبالله التوفيق.

(٢)**وقال** ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه**» ذكره مسلم.

---

(١) ١٦٩ الإعلام جـ١.		(٢) ٤٠١ الإعلام جـ٤.

وللامام أحمد ومالك أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: ما الغيبة؟ فقال: «**أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمع**» فقال: يا رسول الله [و] إن كان حقًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إذا قلت باطلاً فذلك البهتان**».

وسئل ﷺ عن الكبائر، فقال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور، وقتل النفس التي حرم الله، والفرار يوم الزحف، ويمين الغموس، وقتل الإنسان ولَدَه خشية أن يطعم معه، والزنا بحليلة جاره، والسحر، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات**» وهذا مجموع من أحاديث.

(١)**والفرق** بين النصيحة والغيبة أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع، أو فتان، أو غاش، أو مفسد، فتذكر ما فيه إذا استشارك في صحبته ومعاملته والتعلق به، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي جهم فقال: «**أما معاوية فصعلوك وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**»، وقال عن بعض أصحابه لمن سافر معه: «**إذا هبطت بلاد قومه فاحذره**».

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهي قربة إلى الله من جملة الحسنات. وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه لتضع منزلته من قلوب الناس فهي الداء العضال ونار الحسنات التي تأكلها كما تأكل النار الحطب.

(٢)فصل في حكمه ﷺ في الكفاءة في النكاح

قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الناسُ إنا خَلَقْنَاكُمْ من ذَكَرٍ وأُنْثىٰ وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقبائَل لتعَارَفُوا إن أكرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكم**﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال تعالى: ﴿**إنَّما المُؤْمِنُون إخوةٌ**﴾ [الحجرات: ١٠]. وقال: ﴿**والمؤْمِنُونَ والمؤمِنَاتُ بعضُهم أولياءُ بَعْض**﴾ [التوبة: ٧١]. وقال تعالى: ﴿**فاستجَابَ لهم ربُّهم أني لا أُضِيعُ عَمَل عامِلٍ مِّنكم من ذَكَرٍ أو أُنْثى بَعْضُكم من بَعضٍ**﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض: إلا بالتقوى. الناس من آدم. وآدم من تراب**».

وقال ﷺ: «**إن آل بني فلان: ليسوا لي بأولياء، إن أوليائي المتقون حيث كانوا،**

(١) ٢٩٣ الروح. (٢) ٤١ الزاد جـ٤.

وأين كانوا». **وفي الترمذي عنه ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخُلقه فانكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، قالوا**: يا رسول الله، وإن كان فيه؟ **فقال: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه» ـ ثلاث مرات»**.

وقال النبي ﷺ لبني بَياضة **«انكحوا أبا هند، وانكحوا إليه»** وكان حجامًا. وزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش القرشية من زيد بن حارثة مولاه. و«زوج فاطمة بنت قيس الفهرية من أسامة بن زيد» و«تزوج بلال بن رباح بأخت عبد الرحمن بن عوف».

وقد قال الله تعالى: ﴿**الطيِّباتُ للطيِّبين والطيِّبون للطَيِّبَاتِ**﴾ [النور: ٢٦]. **وقال** تعالى: ﴿**فَانْكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النساءِ**﴾ [النساء: ٣].

فالذي يقتضيه حكمه ﷺ: اعتبار الدين في الكفاءة أصلًا وكمالًا، **فلا تزوج** مسلمة بكافر، ولا عفيفة بفاجر، ولم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة **أمرًا وراء ذلك**؛ فإنه حرم على المسلمة نكاح الزاني الخبيث، ولم يعتبر نسبًا، ولا صناعة، **ولا** غنى ولا حرفة. فيجوز للعبد القِنِّ نكاح الحرة النسيبة الغنية، إذا كان عفيفًا مسلمًا، وجوز لغير القرشيين نكاح القرشيات، ولغير الهاشميين نكاح الهاشمات، وللفقراء نكاح الموسرات.

وقد تنازع الفقهاء في أوصاف الكفاءة، فقال مالك في ظاهر مذهبه: إنها الدين. وفي رواية عنه: إنها ثلاثة: الدين، والحرية، والسلامة من العيوب. وقال أبو حنيفة: هي النسب، والدين. وقال أحمد في رواية عنه: هي الدين، والنسب خاصة. وفي رواية أخرى: هي خمسة: الدين، والنسب، والحرية، والصناعة، والمال.

(١)**وأما** كلامهم في مسألة «الفقير الصابر، والغني الشاكر» وترجيح أحدهما على صاحبه. فعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق. فالمسألة أيضًا فاسدة في نفسها؛ فإن التفضيل عند الله تعالى بالتقوى، وحقائق الإيمان، لا بفقر ولا غنى، كما قال تعالى: ﴿**إن أكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أتْقَاكُم**﴾ [الحجرات: ١٣]. ولم يقل أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: والفقر والغنى ابتلاء من الله

---

(١) ٤٤٢ المدارج جـ٢.

لعبده. كما قال تعالى: ﴿فأما الإنسانُ إذا ما ابتَلَاه رَبُّه فأكرمَهُ ونَعمه فيَقُولُ رَبيِّ أَكْـرَمَنِ * وأمـا إذا ما ابتَلَاه فقَدَر عليه رزقَه فيقول رَبيِّ أهانَنِ * كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]. أي ليس كل مَنْ وسَّعتُ عليه وأعطيته: أكون قد أكرمته، ولا كل من ضيقت عليه وقَـتَّرت: أكـون قد أهنته؛ فالإكرام: أن يكرم الله العبد بطاعته، والإيمان به، ومحبته ومعرفته. والإهانة: أن يسلبه ذلك.

قال - يعني ابن تيمية - ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر. بل بالتقوى، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة. سمعته يقول ذلك.

وتـذاكـروا هذه المسـألـة عند يحيى بن معاذ. فقال: لا يوزن غدًا الفقر ولا الغنى، وإنما يوزن الصبر والشكر.

(١)**يذكر** الله سبحانه في كتابه تخليقه من ماء الرجل كقوله: ﴿فليَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ من ماءٍ دافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَينِ الصُّلب والتَرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧]. وقوله: ﴿ألم يَكُ نطفةً مِن مَّنِيٍّ يُمْنَى﴾ [القيامة: ٣٧]. ونظائرها من الآيات التي إن لم تختص بماء الـرجل فهي فيهِ أظهر، وإذا كان جزءًا من الواطىء وجزءًا من الأم فكيف كان ملكًا لسيد الأم دون سيد الأب؟ ويخالف القياسَ من وجه آخر، وهو أن المـاء بمنـزلة البَذْر، ولو أن رجلًا أخذ بذر غيره فزرَعَه في أرضه كان الزرعُ لصاحب البذر وإن كان عليه أجرة الأرض.

قيل: لا رَيْبَ أن الولد منعقد من ماء الأب كما هو منعقد من ماء الأم، ولكن إنما تكَوّنَ وصار مالًا متقومًا في بطن الأم؛ فالأجزاء التي صار بها كذلك من الأم أضعافُ أضعافِ الجزء الذي من الأب، مع مساواتها له في ذلك الجزء؛ فهو إنما تَكَوَّن في أحشائها من لحمها ودمها، ولما وضعه الأب لم يكن له قيمة أصلًا، بل كان كما سماه الله ماء مَهينًا لا قيمة له، ولهذا لو نَزَا فحلُ رجلٍ على رَمَكة(٢) آخر كان الولد لمالك الأم باتفاق المسلمين، وهذا بخلاف البَذْر فإنه مال متقوم له قيمة قبل وضعه في الأرض يُعاوَضُ عليه بالأثمان، وعَسْبُ الفحل لا يعاوض عليه، فقياسُ أحدهما على الآخر من أبطل القياس.

فإن قيل: فهلا طردتم ذلك في النسب، وجعلتموه للأم كما جعلتموه للأب.

(١) ٤٦ الإعلام جـ١. (٢) الرمكة - محركة -: الفرس والبرذونة تتخذ للنسل والجمع رمك وجمع الجمع أرماك.

قيل: قد اتفق المسلمون على أن النسَب للأب، كما اتفقوا على أنه يتبع الأم في الحرية والرق، وهذا هو الذي تقتضيه حكمة الله شرعًا وقدرًا؛ فإن الأب هو المولود له، والأم وِعاء وإن تكوَّن فيها.

والله سبحانه جعل الولد خليفة أبيه وشَجْنَته والقائمَ مقامه، ووضع الأنساب بين عباده؛ فيقال: فلان ابن فلان، ولا تتم مَصَالحهم وتعارفُهم ومعاملاتهم إلا بذلك، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلقْناكم من ذَكرٍ وأُنثى وَجَعَلْناكم شُعُوبًا وقبائل لتَعارَفُوا﴾ [الحجرات:١٣]. فلولا ثبوتُ الأنساب من قبل الآباء لما حصل التعارف، ولفَسَد نظام العباد؛ فإن النساء محتجبات عن العيون فلا يمكن في الغالب أن تعرف عين الأم فيشهد على نسب الولد منها. فلو جعلت الأنساب للأمهات لضاعت وفسدت، وكان ذلك مناقضًا للحكمة والرحمة والمصلحة. ولهذا إنما يُدعىَ الناس يوم القيامة بآبائهم لا أمهاتهم.

(١)فصل في قدوم وفد بني أسد

وقدم عليه ﷺ وفد بني أسد: عشرة رهط، فيهم وابصة بن معبد، وطلحة بن خويلد، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه في المسجد، فتكلموا، فقال متكلمهم: «يارسول الله، إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يارسول الله، ولم تَبْعَثْ إلينا بَعْثًا. ونحن لمن وراءنا» قال محمد بن كعب القرظي: فأنزل الله على رسوله: ﴿بل ِ الله يَمُنُّ عَليكُمْ أن هَدَاكم للإيمانِ إن كُنْتُمْ صادقين﴾ [الحجرات:١٧]. وكان مما سألوا رسول الله ﷺ عنه يومئذ العيافة والكهانة، وضرب الحصي، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك كله. فقالوا: «يارسول الله، إن هذه أمور كنا نفعلها في الجاهلية، أرأيت خصلة بقيت؟ قال: وما هي؟ قالوا: الخَطُّ. قال: علمه نبي من الأنبياء. فمن صادف مثل علمه علم».

(٢)﴿قالت الأعرابُ آمنا قل لم تُؤْمِنُوا ولكن قُوْلُوا أَسْلَمنا ولما يدخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكم﴾ [الحجرات:١٤]. فهؤلاء مسلمون، وليسوا بمؤمنين؛ لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه، فذاق حلاوته وطعمه، وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام. وليس هؤلاء كفارًا؛ فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله: ﴿ولكِنْ قُولُوا أَسْلَمنا﴾. ولم

---

(١) ١٠٠ الزاد جـ٣.	(٢) ٩١ المدارج جـ٣.

يرد: قولـوا بألسنتكم، من غير مواطأة القلب؛ فإنه فرق بين قولهم «آمنا» وقولهم «أسلمنـا» ولكن لما لم يذوقـوا طعم الإيمان، قال: «لم تؤمنـوا» ووعـدهم سبحانه وتعالى ـ مع ذلك ـ على طاعتهم أن لا ينقصهم من أجور أعمالهم شيئًا.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه، وهم الذين آمنوا به وبرسوله، ثم لم يرتابوا في إيمانهم. وإنما انتفى عنهم الريب لأن الإيمان قد باشر قلوبهم، وخالطتها بشاشته، فلم يبق للريب فيه موضع. وصَدَّق ذلك الذوقَ: بذلهم أحب شيء إليهم في رضى ربهم تعالى، وهو أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع: حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته؛ فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن: «ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل».

فالذوق والوجد: أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشـك والنفاق: أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد. فاليقين: يثمر الجهاد، ومقامات الإحسان. فعلى حسب قوته تكون ثمرته ونتيجته. والريب والشك: يثمر الأعمال المناسبة له. وبالله التوفيق.

. . . (١)قوله تعالى: ﴿قالتِ الأعْرَاب آمنَّا قل لَمْ تُؤْمِنُوا ولكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]. نفيًا للإيمان المطلق لا لمطلق الإيمان لوجوه:

منها أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا أسلمنا والمنافق لا يقال له ذلك. ومنها أنه قال: ﴿قالت الأعراب﴾ ولم يقل قال المنافقون. ومنها أن هؤلاء الجناة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاء لا نفاقًا وكفرًا.

ومنها أنه قال: ﴿ولما يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكُم﴾. ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم. ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى الإيمان. ومنها أن الله تعـالى قال: ﴿وإن تُطِيعُـوا اللّهَ وَرَسُـولَـه لا يَلِتكُمْ من أعـمالِكُم شَيئًـا﴾ [الحجرات: ١٤]. أي لا ينقصكم. والمنافق لا طاعة له.

ومنها أنه قال: ﴿يمنُّون عليك أنْ أَسْلَمُوا قل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكم﴾ [الحجرات: ١٧].

(١) ١٧ البدائع جـ٤.

فأثبت لهم إسلامًا، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله ﷺ. ولو لم يكن إسلامًا صحيحًا لقال لم تسلموا بل أنتم كاذبون كما كذبهم في قولهم: ﴿**نَشْهَدُ إنك لَرسولُ الله**﴾ [المنافقون: ١]. لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم.

ومنها أنه قال: ﴿**بل اللّهُ يمُنُّ عليكُم**﴾. ولو كانوا منافقين لما منّ عليهم.

ومنها أنه قال: ﴿**أن هَدَاكُمْ للإيمان**﴾. ولا ينافي هذا قوله: ﴿**قل لم تُؤْمِنُوا**﴾ [الحجرات: ١٤]. فإنه نفي الإيمان المطلق ومن عليهم بهدايتهم إلى الإسلام الذي هو متضمن لمطلق الإيمان.

ومنها أن النبي ﷺ لما قسم القسم قال له سعد: أعطيت فلانًا وتركت فلانًا وهو مؤمن فقال: **أو مسلم ثلاث** مرات وأثبت له الإسلام دون الإيمان[1].

وفي الآية أسرار بديعة ليس هذا موضعها.

[2]**وأما** تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف، ويعانَ بها على تحصيل سعادته الأبدية. وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج، فكم من مُسْتَدْرَج بالنعم وهو لايشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه!

وأكثر الخلق عندهم: أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح. ذلك مبلغه من العلم.

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ماكان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو نعمة حقيقة. ومافرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة، والمحنة في صورة المنحة. فليحذر فإنما هو مستدرج. ويميز بذلك أيضًا بين المنة والحجة. فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى!.

فإن العبد بين منة من الله عليه، وحجة منه عليه. ولا ينفك عنهما. فالحكم الديني متضمن لمنته وحجته.

قال الله تعالى: ﴿**لقد مَنَّ الله علىَ المُؤْمنينَ إذْ بَعَثَ فيهم رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهم**﴾ [آل عمران: ١٦٣]. وقال: ﴿**بَل اللهُ يَمُنُّ عَلَيكُمْ أن هَدَاكُم للإيمان**﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال: ﴿**فَلِلهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ**﴾ [الأنعام: ١٤٩].

والحكم الكوني أيضًا متضمن لمنته وحجته. فإذا حكم له كونًا حكمًا مصحوبًا

---

(١) تقدم في سورة المائدة بحث حول هذه الآية (ج).　　(٢) ١٧١ المدارج جـ١.

باتصال الحكم الديني به فهو مِنَّة عليه. وإن لم يصحبه الديني فهو حجة منه عليه.

وكذلك حكمه الديني إذا اتصل به حكمه الكوني. فتوفيقه للقيام به منة منه عليه. وإن تجرد عن حكمه الكوني صار حجة منه عليه. فالمنة: باقتران أحد الحكمين بصاحبه. والحجة: في تجرد أحدهما عن الآخر. فكل علم صحبه عمل يرضي الله سبحانه فهو منة. وإلا فهو حجة.

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منة. وإلا فهي حجة. وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه، والدعوة إليه فهو منة منه. وإلا فهو حجة. وكل مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته، لا لطلب الجزاء ولا الشكور، فهو منة من الله عليه. وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة.

وكل قبول في الناس، وتعظيم ومحبة له، اتصل به خضوع للرب، وذل وانكسار، ومعرفة بعيب النفس والعمل، وبذل النصيحة للخلق فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد، اتصل به عبرة ومزيد في العقل، ومعرفة في الإيمان فهي منة، وإلا فهي حجة.

وكل حال مع الله تعالى، أومقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد فهو منة من الله. وإن صحبه الوقوف عنده والرضى به، وإيثار مقتضاه، من لذة النفس به وطمأنينتها إليه، وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر، ويميز بين مواقع المنن والمحن، والحجج والنعم. فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك ﴿**والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ [البقرة: ٢١٣].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحجرات

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالى: ﴿قٓ والقُرْآنِ المَجِيدِ * بل عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيءٌ عَجِيبٌ﴾ [قٓ: ١، ٢].

الصحيح أن [قٓ، ونٓ، وصٓ]، بمنزلة [حمٓ. وألمٓ. وطسٓ]: تلك حروف مفرد وهذه متعددة. وقد تقدمت الإشارة إلى بعض ما فيها قبل.

وههنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حق من عنده، ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به، لما في القسم من الدلالة عليه، أو لأن المقصود نفس المقسم به كما تقدم بيانه ثم أخذ ـ سبحانه ـ في بيان عجب الكفار من غير عجيب بل بما لا ينبغي أن يقع سواه.

كما قال سبحانه: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ١، ٢]. **فأي عجب من هذا حتى يقول الكافرون**: ﴿إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؟ [يونس: ٧٦].

وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده، وهدايته، وإنعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله ﷺ بطريق الخير والشر وما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمرهم ونهيهم، حتى يقابل ذلك بالتعجب، ونسبة ما جاء به إلى السحر، لولا غاية الجهل والظلم، وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم. كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥].

(٢)**قوله**: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [قٓ: ٣] أي بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه. هذا قول جماعة من المفسرين، منهم ابن عباس وأصحابه. قال ابن عباس: يقدم الذنب ويؤخر التوبة. وقال قتادة، وعكرمة: قدما قدما في معاصي الله لا ينزع عن فجوره.

---

(١) ٢٧٠ التبيان. (٢) ٩٤ التبيان.

(١). . . **وقد** كرر سبحانه ذكر هذا الدليل(٢) في كتابه مرارًا؛ لصحة مقدماته، ووضوح دَلَالته، وقُرْب تَناوله، وبعده من كل معارضة وشُبْهة، وجَعَله تبصرةً وذكرى كما قال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٧، ٨]. فالمنيب إلى ربه يتذكر بذلك، فإذا تذكر تبصَّرَ به، فالتذكر قبل التبصر، وإن قُدِّمَ عليه في اللفظ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. والتذكر: تَفَعُّلٌ من الذكر، وهو حضور صورةٍ من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهدَهُ على وَجْهه أوْجَبَ له البصيرة، فأبْصرَ ما جعل دليلاً عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين: التذكر، والتبصر.

وقد دعا ـ سبحانه ـ الإنسان إلى أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه، ويستدل بذلك على مَعاده وصِدْق ما أخبرت به الرسل؛ فقال في الأول: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ من ماءٍ دافقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّه عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾.

(٣)**قال** تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨]. طلع النخل: ما يبدو من ثمرته في أول ظهوره، وقشره يسمى الكُفُرَّى.

والنضيد: المنضود الذي قد نضد بعضه على بعض، وإنما يقال له نضيد: مادام في كُفُرَّاه، فإذا انفتح فليس بنضيد. **وأما** «الهضيم» فهو المنضم بعضه إلى بعض، فهو كالنضيد أيضًا، وذلك يكون قبل تشقق الكُفُرَّي عنه.

«**والطلع**» نوعان: ذكر وأنثى، والتقليح: هو أن يؤخذ من الذكر ـ وهو مثل دقيق الحنطة ـ فيجعل في الأنثى، وهو التأبير، فيكون ذلك بمنزلة اللقاح بين الذكر والأنثى.

وقد روى مسلم في صحيحه عن طلحة بن عبيد الله قال: «مررت مع رسول الله ﷺ في نخل، فرأي قومًا يُلَقِّحون، فقال: «**ما يصنع هؤلاء**»؟ قالوا:

---

(١)

(٢) يشير إلى ما تقدم من ذكره آية فصلت على قوله تعالى: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة﴾ (ج).

(٣) ٣٦٧ زاد المعاد جـ٣.

يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى قال: «ما أظن ذلك يغني شيئًا»، فبلغهم، فتركوه، فلم يصلح، فقال النبي ﷺ: «إنما هو ظن، فإن كان يغني شيئًا فاصنعوه، فإنما أنا بشر مثلكم، وإن الظن يخطىء ويصيب، ولكن ما قلت لكم عن الله ـ عز وجل ـ فلن أكذب على الله» اهـ.

(١)﴿بَلْ هُم فِي لَبْسٍ مِن خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم أمثالهم. وقد سماه الله ـ سبحانه وتعالى ـ إعادة، والمعاد مثل المبدأ، وسماه: نشأة أخرى، وهي مثل الأولى، وسماه: خلقًا جديدًا، وهو مثل الخلق الأول، كما قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:١٥]. وسماه: أمثالاً وهم هم. فتطابقت ألفاظ القرآن، وصدّق بعضها بعضًا، وبيّن بعضها بعضًا. ولهذا تزول إشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي أخبرت به الرسل عن الله، ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين: إنهم غيرهم من كل وجه. فهذا خطأ قطعًا ـ معاذ الله من اعتقاده ـ بل هم أمثالهم وهم أعيانهم. فإذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة إلا ضيق العطن، صغير العقل، ضعيف العلم.

(٢)**وأما** قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]. فهذه الآية لها شأن وقد اختلف فيها السلف والخلف على قولين، فقالت طائفة: نحن أقرب إليه بالعلم والقدرة والإحاطة، وعلى هذا فيكون المراد قربه ـ سبحانه ـ بنفسه، وهو نفوذ قدرته ومشيئته فيه وإحاطة علمه به والقول الثاني: إن المراد قرب ملائكته منه، وأضاف ذلك إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع على عادة العظماء في إضافة أفعال عبيدها إليها بأوامرهم ومراسيمهم إليهم، فيقول الملك: نحن قتلناهم، وهزمناهم. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨]. وجبرائيل هو الذي يقرؤه على رسول الله ﷺ وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال:١٧]. فأضاف قتل المشركين يوم بدر إليه. وملائكته هم الذين باشروه، إذ هو بأمره، وهذا القول هو أصح من الأول لوجوه: أحدها: أنه ـ سبحانه ـ قيد القرب في الآية بالظرف وهو قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق:١٧]. فالعامل في الظرف ما في قوله ﴿وَنَحْنُ

---

(١) ١٢٤ التبيان. (٢) ٢٦٧ مختصر الصواعق جـ٢.

﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ [ق:١٦]. من معنى الفعل، ولو كان المراد قربه ـ سبحانه ـ بنفسه لم يتقيد ذلك بوقت تلقي الملكين، ولا كان في ذكر التقييد به فائدة، فإن علمه ـ سبحانه ـ وقدرته ومشيئته عامة للتعلق. (الثاني) أن الآية تكون قد تضمنت علمه وكتابة ملائكته لعمل العبد. وهذا نظير قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقريب منه قوله ـ تعالى ـ في أول السورة: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤]. ونحو قوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

الرابع(١) أن قرب الرب تعالى إنما ورد خاصًّا لا عامًّا وهو نوعان: قربه من داعيه بالإجابة، ومن مطيعه بالإثابة، ولم يجيء القرب كما جاءت المعية خاصة وعامة، فليس في القرآن ولا في السنة أن الله قريب من كل أحد، وأنه قريب من الكافر والفاجر. وإنما جاء خاصًّا بقوله تعالى: ﴿وإذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] فهذا قريب من داعيه وسائله»...

(٢)**فإن** قيل: فكيف تصنعون بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ به نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾؟ [ق:١٦].

قيل: هذه الآية فيها قولان للناس.

أحدهما: أنه قربه بعلمه. ولهذا قرنه بعلمه بوسوسة نفس الإنسان. و«حبلُ الوريد» حبل العنق، وهو عرق بين الحلقوم والودَجين الذي متى قطع مات صاحبه. وأجزاء القلب، وهذا الحبل يحجب بعضها بعضًا، وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء.

والقول الثاني: أنه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلى قلبه. فيكون أقرب إليه من ذلك العرق، اختاره شيخنا.

وسمعته يقول: هذا مثل قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]. وقوله: ﴿فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ٨]. فإن جبريل ـ عليه السلام ـ هو الذي قصه عليه بأمر الله. فنسب تعليمه إليه. إذ هو بأمره، وكذلك

(١) كذا في المطبوعة ولعله: الثالث. المراجع.	(٢) ٢٩٠ مدارج جـ٢.

جبريل هو الذي قرأه عليه. كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: فإذا قرأه رسولنا فأنصت لقراءته حتى يقضيها.

قلت: أول الآية يأبى ذلك. فإنه قال: **﴿ولقد خَلْقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نَفْسُه﴾**. قال: وكذلك خلقه للإنسان إنما هو بالأسباب، وتخليق الملائكة. قلت: وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه في تخليق النطفة: «فيقول الملك الذي يخلقه: يارب، ذكر أم أنثى؟ أَسَوِيٌّ أم غير سَوِيّ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك» فهو ـ سبحانه ـ الخالق وحده. ولا ينافي ذلك استعمال الملائكة بإذنه ومشيئته وقدرته في التخليق، فإن أفعالهم وتخليقهم خلق له سبحانه فما ثَمَّ خالق على الحقيقة غيره.

(١)**قال:** وشر حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد. واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به، أو الخير والشر فقط؟ علي قولين: أظهرهما الأول. وقال بعض السلف: كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من ذكر الله وما والاه، وكان الصديق رضي الله عنه يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارد. والكلام أسيرك فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره. والله عند لسان كل قائل و**﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾** [ق:١٨]. وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الآخرة: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد تكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء، مداهن إذا لم يخف على نفسه. والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله. وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين. وأهل الوسط: هم أهل الصراط المستقيم، كفّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة. فلا يرى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلاً أن تضره في آخرته. وأن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله ـ عز وجل ـ وما اتصل به.

(٢)**قال الله تعالى: ﴿قال قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ**

(١) ٢١٦ الجواب الكافي. (٢) ١٣٦ مدارج جـ١.

لا تختصموا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالوَعِيدِ * ما يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيّ وَمَا أَنا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٧-٢٩]. أي لا أؤاخذ عبدًا بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح، ولهذا قال قبله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالوَعِيدِ﴾ المتضمن لإقامة الحجة، وبلوغ الأمر والنهي. وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه. فذلك الظلم الذي تنزه الله سبحانه وتعالى عنه.

(١)**قال** الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

قلت: جعل الله ـ سبحانه ـ كلامه ذكرى، لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة.

أحدها: أن يكون له قلب حي واعٍ، فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

الثاني: أن يصغي بسمعه. فيميله كله نحو المخاطب. فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له. وهو «الشهيد» أي الحاضر غير الغائب. فإن غاب قلبه، وسافر في موضع آخر: لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أن المبصر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مبصرة، وحَدَّق بها نحو المرئي. ولم يكن قلبه مشغولاً بغير ذلك. فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يحدق نحو المرئي، أو حدق نحوه، ولكن قلبه كله في موضع آخر: لم يدركه. فكثيراً ما يمر بك إنسان أو غيره، وقلبك مشغول بغيره. فلا تشعر بمروره. فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره، وكمال الإصغاء(٢).

(٣)قاعدة جليلة

إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم ـ به سبحانه ـ منه إليه(٤) فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كَانَ له قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

(١) ٢٣١ مدارج جـ٣. (٢) تقدم في سورة الحج نقلاً عن المدارج ص٢٤٦ جـ٣ بحث جامع مفيد جدًّا على قول الله ـ تعالى ـ ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ (ج).

(٣) ٣ فوائد. (٤) الضمير الأول في لفظة [منه] عائد إلى من تكلم، والضمير الثاني في لفظة [إليه] عائد إلى من يخاطبه.

فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ إشارة إلى ماتقدم من أول السورة إلى ههنا. وهذا هو المؤثر. وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ فهذا هوالمحل القابل؛ والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِّيُنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يسٓ: ٦٩-٧٠]. أي حي القلب. وقوله: ﴿أو ألقى السَّمع﴾ أي وجه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له؛ وهذا شرط التأثر بالكلام. وقوله: ﴿وهو شهيد﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غائب.

قال ابن قتيبة: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه؛ وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحيّ، ووجد الشرط وهـو الإصغـاء، وانتفى المـانـع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر.

فإن قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه فما وجه دخول أداة «أو» في قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ والموضع موضع [واو] الجمع لا موضع [أو] التي هي لأحد الشيئين. قيل: هذا سؤال جيد، والجواب عنه بأن يقال: خرج الكلام [بأو] باعتبار حال المخاطب المدعو.

فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه تام الفطرة؛ فإذا فكر بقلبه، وجال بفكره، دله قلبه وعقله على صحة القرآن، وأنه الحق وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نورًا على نور الفطرة؛ وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]. وقال في حقهم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَـوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَـاةٍ فِيهَـا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَـاءُ﴾ [النور: ٣٥]. فهذا نور الفطرة على نور الوحي. وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي. قال ابن القيم(١): وقد ذكرنا ماتضمنت هذه الآية من الأسرار والعبر- في كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية. فصاحب القلب

---

(١) كذا بالمطبوعة ولعله سهو من الناسخ. المراجع.

يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن فيجدها كأنها قد كتبت فيه فهو يقرأها عن ظهر قلب.

ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد واعي القلب كامل الحياة فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحيّ الواعي، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام وقلبه لتأمله والتفكر فيه وتعقل معانيه فيعلم حينئذ أنه الحق.

فالأول حال من رأى بعينيه ما دُعِي إليه وأُخبِر به.

والثاني حال من علم صدق المخبر وتيقنه، وقال: يكفيني خبره، فهو في مقام الإيمان، والأول في مقام الإحسان، هذا قد وصل إلى علم اليقين وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر، ودخل به في الإسلام. فعين اليقين نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة؛ فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب: كنسبة الشاهد إلى العين، وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالإبصار، وفي الدنيا بالبصائر، فهو عين يقين في المرتبتين.

فصـــل

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي ويغني عن كلام أهل الكلام ومعقول أهل المعقول.

فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة وانقسام الناس إلى: هالك شقي، وفائز سعيد. وأوصاف هؤلاء وهؤلاء.

وتضمنت إثبات صفات الكمال للّه وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائص والعيوب. وذكر فيها القيامتين الصغرى والكبرى، والعالمين الأكبر وهو عالم الآخرة والأصغر وهو عالم الدنيا.

وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته وإعادته وحاله عند وفاته ويوم معاده وإحاطته ـ سبحانه ـ به من كل وجه حتى علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلمَ بها وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه وشاهد يشهد عليه، فإذا أحضره السائق قال: ﴿هَـٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته، فيقال عند إحضاره: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]. كما يحضر الجاني إلى حضرة السلطان فيقال: هذا فلان قد أحضرته،

فيقول: اذهبوا به إلى السجن، وعاقبوه بما يستحقه.

وتأمل كيف دلت السورة صريحًا على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه، كما ينعم الروح التي آمنت بعينها، ويعذب التي كفرت بعينها، لا أنه ـ سبحانه ـ يخلق روحًا أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها، كما قاله من لا يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، حيث زعم أن الله ـ سبحانه ـ يخلق بدنًا غير هذا البلدن من كل وجه، عليه يقع النعيم والعذاب، والروح عنده عرض من أعراض البدن، فيخلق روحًا غير هذه الروح، وبدنًا غير هذا البدن. وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل، ودل عليه القرآن والسنة وسائر كتب الله تعالى.

وهذا في الحقيقة إنكار للمعاد وموافقة لقول من أنكره من المكذبين، فإنهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام أخر غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها، كيف وهم يشهدون النوع الإنساني يخلق شيئًا بعد شيء، فكل وقت يخلق الله ـ سبحانه ـ أجسامًا وأرواحًا غير الأجسام التي فنيت، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عيانًا؟ وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم بعد أن مزقهم البلى، وصاروا عظامًا ورفاتًا فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء. ولهذا قالوا: ﴿**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**﴾ [الواقعة: ٤٧]. وقالوا: ﴿**ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**﴾.

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه لم يكن ذلك بعثًا ولا رجعًا، بل يكون ابتداء، ولم يكن لقوله: ﴿**قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ**﴾ [ق: ٤]. كبير معنى، فإنه ـ سبحانه ـ جعل هذا جوابًا لسؤال مقدر، وهو أنه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها؛ وتأليفها خلقًا جديدًا. وهو ـ سبحانه ـ يقرر المعاد: بذكر كمال علمه، وكمال قدرته، وكمال حكمته. فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع:

أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معها تميز شخص عن شخص. الثاني: أن القدرة لا تتعلق بذلك.

الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع

الإنساني شيئًا بعد شيء هكذا أبدًا، كلما مات جيل خلفه جيل آخر، فإما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك، فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول:

أحدها تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب من قال: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩]. وقال: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦]. وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.

والثاني: تقرير كمال قدرته كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]. وقوله: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤]. وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ويجمع - سبحانه - بين الأمرين كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الثالث: كمال حكمته كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]. وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧]. وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾. [القيامة: ٣٦]. وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]. وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُم كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

ولهذا كان الصواب؛ أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب - تعالى - وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص. ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]. مختلط لا يحصلون منه على شيء.

ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتئامه، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض، وكيف بسطها، وهيأها بالبسط لما يراد منها، وثبتها بالجبال، وأودع فيها المنافع، وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته، وأن ذلك تبصرة إذا

تأملها العبد المنيب وتبصر بها، تذكَّرَ ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد، فالناظر فيها يتبصر أولاً ثم يتذكر ثانيًا، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

ثم دعاهم إلى التفكر في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم؛ وهو الماء الذي أنزله من السماء، وبارك فيه حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه، ما بين أبيض وأسود، وأحمر وأصفر، وحلو وحامض، وبين ذلك مع اختلاف منافعها وتنوع أجناسها، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها، ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١] أي مثل هذا الإخراج من الأرض، الفواكه والثمار والأقوات والحبوب: خروجكم من الأرض ما غيبتم فيها.

وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة في القرآن في كتابنا: المعالم، وبينا بعض ما فيها من الأسرار والعبر.

ثم انتقل ـ سبحانه ـ إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير وأوجز لفظ وأبعده عن كل شبهة وشك، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلا فكذبوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاك، وصدق فيهم وعيده الذي أوعدتهم به رسله إن لم يؤمنوا، وهذا تقرير لنبوتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه في كتاب، بل أخبر به إخبارًا مفصلاً مطابقًا لما عند أهل الكتاب. ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شيء من ذلك، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان وتناقلته القرون قرنًا بعد قرن، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية.

ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥] يقال لكل من عجز عن شيء عيي به وعيي فلان بهذا الأمر، قال الشاعر:

عيّوا بأمرهم كما   عييت ببيضتها الحمامة

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف:٣٣] قال ابن عباس: يريد أفعجزنا، وكذلك قال مقاتل:

قلت: هذا تفسير بلازم اللفظة وحقيقتها أعم من ذلك، فإن العرب تقول أعياني أن أعرف كذا، وعييت به إذا لم تهتد لوجهه ولم تقدر على معرفته وتحصيله، فتقول: أعياني دواؤك، إذا لم تهتد له ولم تقف عليه؛ ولازم هذا المعنى العجز عنه؛ والبيت الذي استشهدوا به شاهد لهذا المعنى، فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها، ولكن أعياها إذا أرادت أن تبيض أين ترمي بالبيضة، فهي تدور وتجول حتى ترمي بها، فإذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنال، فهي تنقلها من مكان إلى مكان، وتحار أين تجعل مقرها، كما هو حال من عيّ بأمره فلم يدر من أين يقصد له ومن أين يأتيه. وليس المراد بالإعياء في هذه الآية التعب كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] ثم أخبر سبحانه أنهم ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:١٥] أي أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقًا جديدًا.

ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد؛ وهو خلق الإنسان، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد. وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والإرادات والصناعات، كل ذلك من نطفة ماء. فلو أنصف العبد ربه لاكتفى بفكره في نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته. ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن إحاطة علمه به حتى علم وساوس نفسه. ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة، وأن ذلك أدنى إليه من العرق الذي هو داخل بدنه، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق.

وقال شيخنا المراد بقول: نحن؛ أي ملائكتنا، كما قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨] أي: إذا قرأه عليك رسولنا جبريل.

قال ويدل عليه قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق:١٧] فقيد القرب المذكور بتلقي الملكين، ولو كان المراد به قرب الذات لم يتقيد بوقت تلقي الملكين، فلا حجة في

الآية لحلولي ولا معطل. ثم أخبر سبحانه: أن على يمينه وشماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله، ونبهّ بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال التي هي أقل وقوعًا وأعظم أثرًا من الأقوال، وهي غايات الأقوال ونهايتها.

ثم أخبر عن القيامة الصغرى، وهي سكرة الموت، وأنها تجيء بالحق، وهو لقاؤه - سبحانه - والقدوم عليه، وعرض الروح عليه، والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى، ثم ذكر القيامة الكبرى، يقول: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾.

ثم أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم وأن كل أحد يأتي الله - سبحانه - ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه، وهذا غير شهادة جوارحه وغير شهادة الأرض التي كان عليها، له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين، فإن الله سبحانه يستشهد على العبد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين. ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من إقرارهم وشهادة البينة لا بمجرد علمه، فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بينة ولا إقرار؟

ثم أخبر سبحانه أن الإنسان في غفلة من هذا الشأن الذي هو حقيق بأن لا يغفل عنه، وأن لا يزال على ذكره وباله، وقال: ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ [ق:٢٢]. ولم يقل عنه كما قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت:٤٥]. ولم يقل في شك فيه، وجاء هذا في المصدر، وإن لم يجيء في الفعل، فلا يقال: غفلت منه، ولا شككت منه، كأن غفلته وشكه ابتداء منه، فهو مبدأ غفلته وشكه. وهذا أبلغ من أن يقال: في غفلة عنه وشك فيه، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك، ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم، كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتنفتح، فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.

ثم أخبر سبحانه أن قرينه وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة يكتب عمله، وقوله يقول لما يحضره: هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا، قد أحضرته، وأتيتك به، هذا قول مجاهد. وقال ابن قتيبة: المعنى هذا ما كتبته عليه، وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي.

والتحقيق: أن الآية تتضمن الأمرين، أي هذا الشخص الذي وكلت به، وهذا عمله الذي أحصيته عليه، فحينئذ يقال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق:٢٤]، وهذا إما أن يكون خطابًا للسائق والشهيد، أو خطابًا للملك الموكل بعذابه وإن كان واحدًا، وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها، أو تكون الألف منقلبة عن نون التأكيد الخفيفة ثم أجرى الوصل مجرى الوقف. ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات:

أحدها: أنه كفار لنعم الله وحقوقه، كفار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كفار برسله وملائكته، كفار بكتبه ولقائه. الثانية: أنه معاند للحق بدفعه جحدًا وعنادًا.

الثالثة: أنه مناع للخير، وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله، والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه ولا لبني جنسه، كما هو حال أكثر الخلق.

الرابعة: أنه مع منعه للخير معتد على الناس ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب: أي صاحب ريب وشك، ومع هذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب إذا كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك مشرك بالله، قد اتخذ مع الله إلها آخر، يعبده، ويحبه، ويغضب له، ويرضي له، ويحلف باسمه، وينذر له، ويوالي فيه، ويعادي فيه، فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الأمر عليه، وأنه هو الذي أطغاه وأضله، فيقول قرينه: لم يكن لي قوة أن أضله وأطغيه، ولكن كان في ضلال بعيد، اختاره لنفسه، وآثره على الحق، كما قال إبليس لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم:٢٢]. وعلى هذا فالقرين هنا هو شيطانه يختصمان عند الله.

وقالت طائفة: بل قرينه ههنا هو الملك، فيدَّعِي عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه، وطغى، وأنه لم يفعل ذلك كله، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهله حتى يتوب. فيقول الملك: مازدت في الكتابة على ما عمل، ولا أعجلته عن التوبة: ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق:٢٧]. فيقول الرب تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ [ق:٢٨].

وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورتي الصافات والأعراف، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة الزمر، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة الشعراء وسورة ص.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ: أنه لا يبدل القول لديه، فقيل المراد بذلك قوله: ﴿**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [السجدة:١٣]. ووعده لأهل الإيمان بالجنة، وأن هذا لا يبدل ولا يخلف.

قال ابن عباس: يريد ما لِوَعْدِي خلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي.

قال مجاهد قد قضيت ما أنا قاض. وهذا أصح القولين في الآية.

وفيها قول آخر: إن المعنى ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس، كما يغير عند الملوك والحكام. فيكون المراد بالقول، قول المختصمين، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة: قال الفراء: المعنى ما يكذب عندي لعلمي بالغيب. وقال ابن قتيبة: أي ما يحرف القول عندي ولا يزاد فيه ولا ينقص منه. قال: لأنه قال القول عندي ولم يقل قولي، وهذا كما يقال لا يكذب عندي.

فعلى القول الأول يكون قوله: ﴿**وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [ق:٢٩]. من تمام قوله: ﴿**مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ**﴾ في المعنى. أي: ما قلته ووعدت به لابد من فعله، ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور.

وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين: أحدهما أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه، وكمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده. ثم أخبر عن سعة جهنم وأنها كلما ألقى فيها تَقُولُ: هل مِنْ مَّزِيد. وأخطأ من قال: إن ذلك للنفي، أي؛ ليس من مزيد، والحديث الصحيح يرد هذا التأويل. ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع.

إحداها: أن يكون أوّابًا أي رجّاعًا إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره. قال عبيد بن عمير: الأواب الذي يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها. وقال مجاهد: هو الذي إذا ذكر ذنبه في الخلاء استغفر منه. وقال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

الثانية: أن يكون حفيظًا. قال ابن عباس: لما ائتمنه الله عليه وافترضه، وقال قتادة: حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته. ولما كانت النفس لها قوتان؛ قوة الطلب وقوة الإمساك. كان الأواب مستعملاً لقوة الطلب في رجوعه إلى الله ومرضاته وطاعته، والحفيظ مستعملاً لقوة الحفظ في الإمساك عن معاصيه ونواهيه. فالحفيظ الممسك نفسه عما حرم عليه، والأواب المقبل على الله بطاعته.

المقبل على الله بطاعته.

الثالثة: قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق:٣٣]. يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد، ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله.

الرابعة: قوله: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٣]. قال ابن عباس: راجع عن معاصي الله، مقبل على طاعة الله، وحقيقة الإنابة: عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۞ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٤ ـ ٣٥].

ثم خوفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم، وأنهم كانوا أشد منهم بطشًا، ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم، وأنهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا في البلاد، وهل يجدون محيصًا ومنجىً من عذاب الله. قال قتادة: حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدركًا. وقال الزجاج: طوفوا وفتشوا فلم يروا محيصًا من الموت. وحقيقة ذلك: أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أن في هذا الذي ذكر ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

ثم أخبر أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا إعياء تكذيب لأعدائه من اليهود حيث قالوا: إنه استراح في اليوم السابع.

ثم أمر نبيه بالتأسي به ـ سبحانه ـ في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه، كما أنه ـ سبحانه ـ صبر على قول اليهود أنه استراح، ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه.

ثم أمره بما يستعين به على الصبر؛ وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وبالليل وأدبار السجود. فقيل هو الوتر، وقيل الركعتان بعد المغرب.

والأول قول ابن عباس، والثاني قول عمر، وعلي، وأبي هريرة، والحسن بن علي، وإحدى الروايتين عن ابن عباس. وعن ابن عباس رواية ثالثة، أنه التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات. ثم ختم السورة بذكر المعاد ونداء المنادي برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر.

وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد، يوم يسمعون الصيحة بالحق بالبعث، ولقاء الله يوم تشقق الأرض عنهم كما تشقق عن النبات، فيخرجون سراعًا من غير مهلة ولا بطء، ذلك حشر يسير عليه ـ سبحانه ـ.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذ لم يخف عليه وهو ـ سبحانه ـ يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء، ثم أخبره أنه ليس بمسلط عليهم ولا قهار ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ويكرههم عليه، وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده؛ فهو الذي ينتفع بالتذكير، وأما من لا يؤمن بلقائه، ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه، فلا ينتفع بالتذكير.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة قٓ

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

ترتيبها ٥١　　آياتها ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله: ﴿والذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فالحَامِلَاتِ وِقْرًا * فالجَارِياتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾** [الذاريات: ١-٤]. أقسم بالذاريات وهي الرياح تذرو المطر، وتذرو التراب، وتذرو النبات إذا تهشم، كما قال تعالى: **﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾** [الكهف: ٤٥]. أي تفرقه وتنشره. ثم بما فوقها وهي السحاب الحاملات وقراً، أي ثقلا من الماء، وهي روايا الأرض، يسوقها الله ـ سبحانه ـ على متون السحاب.

الرياح كما في جامع الترمذي من حديث الحسن عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله ﷺ جالس في أصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: **«هل تدرون ما هذا؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **«هذا العنان، هذه روايا الأرض، يسوقها الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى قوم لا يشكرونه، ولا يدعونه»**.

ثم أقسم ـ سبحانه ـ بما فوق ذلك، وهي **الجاريات يُسْرا**، وهي النجوم التي من فوق الغمام، و**﴿يُسراً﴾** أي: مسخرة مذللة منقادة. وقال جماعة من المفسرين: إنها السفن تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً. ومنهم من لم يذكر غيره.

واختار شيخنا ـ رحمه الله ـ القول الأول. وقال هو أحسن في الترتيب، والانتقال من السافل إلى العالي؛ فإنه بدأ بالرياح، وفوقها السحاب، وفوقه النجوم، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذي أمرت به بين خلقه.

والصحيح أن **المُقْسِّماتِ أَمرًا** لا تختص بأربعة.

وقيل: هم جبريل يقسم الوحي والعذاب وأنواع العقوبة على من خالف الرسل. وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات، يقسمها بأمر الله. وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله، وإسرافيل يقسم الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور، وهم المدبرات أمراً. وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم. والله أعلم.

وأقسم ـ سبحانه ـ بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة والآية، والدلالة الباهرة على

---

(١) ١٧٤ التبيان.

ربوبيته ووحدانيته، وعظم قدرته. ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها، ولينها وشدتها، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها وتصريفها، وتنوع منافعها، وشدة الحاجة إليها.

فللمطر خمسة رياح: ريح ينشر سحابه، وريح يؤلف بينه، وريح تلقحه، وريح تسوقه حيث يريد الله، وريح تذرو أمامه وتفرقه.

وللنبات ريح، وللسفن ريح، وللرحمة ريح، وللعذاب ريح، إلى غير ذلك من أنواع الرياح. وذلك يقضي بوجود خالق مصرف لها مدبر لها، يصرفها كيف يشاء، ويجعلها رخاء تارة، وعاصفة تارة، ورحمة تارة، وعذاباً تارة؛ فتارة يحيي بها الزرع والثمار. وتارة يعطبها بها، وتارة ينجي بها السفن، وتارة يهلكها بها، وتارة ترطب الأبدان، وتارة تذيبها، وتارة عقيماً، وتارة لاقحة، وتارة جنوباً، وتارة دبوراً، وتارة صبا، وتارة شمالاً، وتارة حارة، وتارة باردة، وهي مع غاية قوتها ألطف شيء، وأقبل المخلوقات لكل كيفية، سريعة التأثر والتأثير، لطيفة المسار بين السماء والأرض. إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك، كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك، يحبسها الله ـ سبحانه ـ إذا شاء، ويرسلها إذا شاء، تحمل الأصوات إلى الأذان، والرائحة إلى الأنف. والسحاب إلى الأرض الجرز، وهي من روح الله تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب.

وهي أقوى خلق الله كما رواه الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: **«لما خلق الله الأرض جعلت تميد. فخلق الجبال، فقال بها عليها، فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال، وقالوا: يارب! هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالوا: يارب! فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال نعم، النار. قالوا: يا رب! فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال نعم، الماء. قالوا: يا رب! فهل من خلقك أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالوا: يا رب! فهل من خلقك أشد من الريح؟ قال نعم، ابن آدم، تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله»**. ورواه الإمام أحمد في مسنده وفي الترمذي في حديث قصة عاد أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر حلقة الخاتم، فلم تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم وقد وصفها الله بأنها عاتية. قال البخاري

في صحيحه: عتت على الخزنة، فلم يستطيعوا أن يردوها.

والمقصود أن الرياح من أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته.

ثم أقسم بالسحاب، وهو من أعظم آيات الله في الجو. في غاية الخفة، ثم يحمل الماء والبرد، فيصير أثقل شيء، فيأمر الرياح، فتحمله على متونها، وتسير به حيث أمرت، فهو مسخر بين السماء والأرض، حامل لأرزاق العباد والحيوان، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله، فإنه لو بقي لأضر النبات والحيوان، فأنشأه - سبحانه - في زمن يصلح إنشاؤه فيه، وحمله من الماء ما يحمله، وساقه إلى بلد شديد الحاة إليه.

فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه؟ وحمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد؟ ومن أغاث بقطره العباد، وأحيا به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم، وأنزله منه، وأفناه بعد الاستغناء عنه، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون إليه وصولاً، فإن لم يجبك جواباً حباك اعتبار مرسل[1] الرياح، من أنشاها بقدرته؟ وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها بشرا بين يدي رحمته، جعلها سبباً لتمام نعمته، وسلطاناً على من شاء بعقوبته؟ ومن جعلها رخاء، وذارية، ولاقحة، ومثيرة، ومؤلفة، ومغذية لأبدان الحيوان، والشجر، والنبات، وجعلها قاصفاً، وعاصفاً، ومهلكة وعاتية؟ إلى غير ذلك من صفاتها. فهل ذلك لها من نفسها وذاتها أم تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته، وأقرت المصنوعات بوحدانيته، بيده النفع والضر، وله الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين؟.

وسل الجاريات يسراً من السفن: من أمسكها على وجه الماء، وسخر لها البحر؟. ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ فمن الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنه لعاقها؟.

---

(١) هكذا في الأصل، وهو خطأ شنيع، وصوابه: «فإن لم يجبك حوارًا أجابك اعتبارًا، وسل الرياح - الخ» أبو رجاء.

ومن الـذي أجـرى لها ريحـاً واحدة تسير بها، ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ويقاومها، فتتموج في البحر يميناً وشمالاً، تتلاعب بها الريح؟.

ومن الذي علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم، الذي يمشي على الماء، فيقطع المسافة البعيدة، ويعود إلى بلده يشق الماء ويمخره، مقبلاً ومدبراً بريح واحدة، تجري في موج كالجبال: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾** [الشورى: ٣٢-٣٤]. ومن الذي حمل في هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة، وأغرق جميع أهل الأرض سواهم؟

وسل الجاريات يسراً من الكواكب، والشمس، والقمر: من الذي خلقها، وأحسن خلقهـا، ورفـع مكـانها، وزين بها قبـة العـالم، وفـاوت بين أشكالها، ومقاديرها، وألوانها، وحركاتها، وأماكنها من السماء.

فمنها الكبـير، ومنهـا الصغـير، والمتوسط، والأبيض، والأحمر، والزجاجي اللون، والـدري اللون، والمتـوسط في قبة الفلك، والمتطرف في جوانبها، وبين ذلك؟ ومنها مايقطع الفلك في شهر، ومنها ما يقطعه في عام. ومنها مايقطعه في ثلاثين عاماً، ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك. ومنها مالايزال ظاهراً لا يغيب بحال، فهو أبدي. ومنها أبدى الخفاء، ومنها ما له حالتان ظهور واختفاء. ومنها ما له حركتان: حركة عرضية من المشرق إلى الغرب، وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق. فحالما يأخذ الكوكب في الغروب فإذا كوكب آخر في مقابلته، وكوكب آخر قد طلع، وهـو آخـذ في الارتفـاع والتصاعد، وكوكب آخر في الربع الشرقي، وكوكب آخر في وسط السماء، وكوكب آخر قد مال عن الوسط، وآخر قد دنا من الغروب، وكأنه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته.

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها. تدل على المعاد كما تدل على المبدأ. وتدل على وجود الخالق، وصفات كماله، وربوبيته وحكمته، ووحدانيته أعظم دلالة. وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله.

فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر، فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه، وقدرته وعلمه، وحكمته، والمبدأ والمعاد، والنبوة. ودلالتها على

هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر. بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية. فهي هداية في هذا وهذا.

وأما دلالة ﴿**الْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً**﴾ وهم الملائكة، فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة.

فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم. فوكل بالشمس والقمر والنجوم، والأفلاك طائفة منهم. ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة. ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، ويحفظ بني آدم طائفة. وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شئون العالم طائفة.

هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن وما فيهم من القوة والشدة، ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام في خدمته، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم....

...(1)فكل حركة في السموات والأرض: من حركات الأفلاك، والنجوم، والشمس، والقمر، والرياح، والسحاب، والنبات، والحيوان، **فهي** ناشئة عن الملائكة الموكَّلين بالسموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً**﴾ [النازعات: ٥]. وقال: ﴿**فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً**﴾ [الذاريات: ٤]. وهي الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل عليهم السلام، وأما المكذبون للرسل، المنكرون للصانع، فيقولون: هي النجوم. وقد أشبعنا الردّ على هؤلاء في كتابنا الكبير المسمى بالمفتاح(2).

وقد دلَّ الكتابُ والسُّنَّة على أصنافِ الملائكة، وأنها موكَّلة بأصناف المخلوقات، وأنه ـ سبحانه ـ وكَّل بالجبال ملائكة، ووكَّل بالسَّحاب والمطَر ملائكة، ووكَّل بالرَّحِم ملائكة تُدَبِّر أمر النُّطْفة حتى يتمَّ خَلْقُها، ثم وكَّل بالعبد ملائكة لِحفْظِه، وملائكةً لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته....

(3)...**ثم** أقسم سبحانه بهذه الأمور على صدق وعده، ووقوع جزائه بالثواب

---

(1) ١٢٥ إغاثة جـ٢.
(2) هو كتاب مفتاح دار السعادة، وهذا البحث فيه في (ج٢ ص١٣٢ ـ ٢٤٠) طبع الخانجي.
(3) ١٧٩ التبيان.

والعقاب فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥]. أي ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن، وهو وعد صدق لا كذب ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦]. أي إن الجزاء لكائن لا محالة.

ويجوز أن تكون (ما) موصولة، والعائد محذوف. والمعنى أن الذي توعدونه لصادق، أي كائن وثابت. وأن تكون مصدرية، أي إن وعدكم لحق وصدق. ووصف الوعد بكونه صادقاً أبلغ من وصفه بكونه صدقاً. ولا حاجة إلى تكلف جعله بمعنى مصدوق فيه. بل هو صادق نفسه، كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه. فوصف كلامه بأنه صادق.

وهذا مثل قولهم: سر كاتم، وليل قائم، ونهار صائم، وماء دافق. ومنه ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]. وليس ذلك بمجاز، ولا مخالف لمقتضى التركيب. وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالاً عليه، مرشداً إليه.

ثم أقسم سبحانه بـ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]. أصل الحبك في اللغة إجادة النسج. يقال: حبك الثوب إذا أجاد نسجه، وحبل محبوك إذا كان شديد الفتل، وفرس محبوك الكفل، أي: مدمجه. وقال شمر: المحبوك في اللغة ما أجيد عمله. ودابة محبوكة: إذا كانت مدمجة الخلق. وقال أبو عبيدة، والمبرد: الحبك: الطريق، وأحدها حباك، وحباك الحمام: طرائق على جناحيه. وحباك الماء طريقه. وقال الفراء: الحبك تكسير كل شيء، كالرمل إذا مرت به الريح والماء الدائم إذا مرت به الريح. وتجعد الشعر حبك أيضاً، واحدها حبيكة، مثل طرق وطريقة، وحباك مثل مثال، ومثل.

والمقصود بهذا كله ما أفصح به ابن عباس، فقال: يريد الخلق الحسن. وروى سعيد بن جبير عنه قال: الحبك حسنها واستواؤها. وقال قتادة: ذات الخلق الشديد. وقال مجاهد: متقنة البنيان. وقال أيضًا: ذات الطرائق.

ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها، كحبك الماء إذا ضربته الريح، وكحبك الرمل، وكحبك الشعر. وقال عكرمة: بنيانها كالبرد المسلسل.

قلت: وفي الحديث في صفة الدجال **«ورأسه حبك»** أي جعد الشعر. ومن أحسن

ما قيل في تفسير الحبك ما ذكره الترمذي في تفسير الجامع من حديث الحسن، عن أبي هريرة أن رسـول الله ﷺ قال: «هـل تدرون ما فوقكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها الرقيع سقف محفوظ، وموج مكفوف» وذكر الحديث(١).

ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩]. فالقول المختلف: أقوالهم في القرآن، وفي النبي ﷺ، وهو خرص كله. فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبم، وآراؤهم، وطرائقهم، وأقوالهم. فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم. فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥]. أي: مختلط ملتبس. وفي ضمن هذا الجواب: أنكم في أقوال باطلة متناقضة، يكذب بعضها بعضاً، بسبب تكذيبهم بالحق. ثم أخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف. فعن هَهُنا فيها طرف من معنى التسبيب، كقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود:٥٣].

---

(١) روى الترمذي في تفسير سورة الحديد عن الحسن عن أبي هريرة قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب. فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون هذا؟» قالوا الله ورسوله أعلم. قال: «هذا العنان. هذه روايا الأرض، يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه» ثم قال: «هل تدرون مافوقكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها الرقيع، سقف محفوظ، وموج مكفوف» ثم قال: «هل تدرون كم بينكم وبينها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينكم وبينها خمسمائة سنة» ثم قال: «هـل تدرون مافوق ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن فوق ذلك سماءين مابينهما مسيرة خمسمائة عام» حتى عد سبع سموات مابين كل سماءين ما بين السماء والأرض، ثم قال: «هل تدرون مافوق ذلـك» قالـوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن فوق ذلك العرش بينه وبين السماء بعد ما بين السماءين» ثم قال: «هل تدرون ما الذي تحتكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها الأرض» ثم قال: «هل تدرون ماالذي تحت ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن تحتها أرضًا أخرى، بينها مسيرة خمسمائة سنة» حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمساةئة سنة. ثم قال: «والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله» ثم قرأ: ﴿هو الأَوَّلُ والآخِرُ والظاهِرُ والباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شيء عليمٌ﴾ [الحديد: ٣] قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة: وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث، فقالوا: إنما هبط على علم الله وسلطانه، وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان، وهو على العرش كما وصف في كتابه اهـ.

وقوله: ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩] أي من سبق في علم الله أنه يضل، ويؤفك، كقوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣]. وقالت طائفة: الضمير يرجع إلى القرآن، وقيل: إلى الإيمان، وقيل: إلى الرسول، والمعنى يصرف عنه من صرف حتى يكذب به.

ولما كان هذا القول المختلف خرصاً وباطلاً. قال: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أي المكذبون ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١]. وجهالة قد غمرت قلوبهم أي غطتها وغشتها، كغمرة الماء وغمرة الموت، فالغمرات ما غطاها من جهل، أو هوى، أو سكر، أو غفلة، أو حب، أو بغض، أو خوف، أو غم، ونحو ذلك. قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]. أي غفلة، وقيل جهالة. ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم، والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه. والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة، والسهو لا يستلزم ذلك.

فصل(١)

وأما الغَمَرَات فهي جمع غَمْرَة، والغَمْرة ما يَغْمُرُ القلب من حب أو سكر أو غفلة. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١]. أي في غفلة قد غَمَرَت قلوبَهم. وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]. ومنه [الماء] الغَمْر الكثير الذي يغطي من دخل فيه. ومنه غَمَرات الموت أي شدائده، وكذلك غَمَرات الحبّ وهو[ما] يغطي قلب المحب فَيَغْمُرُه. ومنه قولهم: رجلٌ غَمْرُ الرِّداء ـ كناية عن السخاء، لأنه يَغْمُرُ العيوب أي يغطيها، فلا يظهر مع السخاء عيب قال كُثَيِّر:

غَمْرُ الرداء إذا تبسم ضاحكاً غَلِقت لضَحْكَته رقابُ المال

وقال القُطاميّ يصف سفينة نوح:

إلى الجُودِيّ حتى صار حِجْراً وكان لذلك الغَمْر انْحسار

أي لذلك الماء الذي غمَر الأرض ومن عليها.

(٢)**ثم قال:** ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢]. استبعاداً للوقوع

---

(١) ٣٨ روضة المحبين.

(٢) ١٨٢ التبيان.

وجحداً. فأخبر تعالى أن ذلك ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣]. والمشهور في تفسير هذا الحرف أنه بمعنى يحرقون، ولكن لفظة على تعطي معنى زائداً على ما ذكروه، ولو كان المراد نفس الحرق لقيل يومهم في النار يفتنون. ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم [على] بمعنى [في]، كما تكون [في] بمعنى [على].

والظاهر أن فتنتهم على النار، قيل: فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها، ووقوفهم عليها فتنة، وعند دخولهم، والتعذيب بها فتنة أشد منها. ومن جعل الفتنة ههنا من الحريق أخذه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠]. واستشهد على ذلك أيضاً بهذه اللفظة التي في الذاريات.

وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه، ولهذا سمى الله الكفر فتنة، فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمى جزاءهم فتنة، ولهذا قال: (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤]. وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها، ففتنوا أولاً بأسباب الدنيا وزينتها. ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم، ثم فتنوا بعذاب الدنيا، ثم فتنوا بعذاب الموت، ثم يفتنون في موقف القيامة، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها، وذلك من أعظم فتنتهم. ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى، وهو الجنات والعيون، وأنهم ﴿آخِذِينَ مَا آتاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الذاريات:١٦]. من الخير والكرامة.

وفي ذلك دليل على أمور: منها قبولهم له. ومنها رضاهم به. ومنها وصولهم إليه بلا مانع ولا عائق. ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم. فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر، أخذوا ماآتاهم من الجزاء كذلك.

ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك، وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له، والقيام بحقوقه، وحقوق عباده. ثم ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه. وقد قيل: إن (ما) نافية، والمعنى ما يهجعون قليلاً من الليل، فكيف بالكثير؟ وهذا ضعيف لوجوه.

أحدها: أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء.

الثاني: أن قيام من نام من الليل نصفه أحب إلى الله من قيام من قامه كله.

الثالث: أنه لو كان المراد بذلك إحياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله ﷺ، وما قام ليلة حتى الصباح.

الرابع: أن الله ـ سبحانه ـ إنما أمر رسوله أن يتهجد بالقرآن من الليل لا في الليل كله، فقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ [الإسراء: ٧٩].

الخامس: أنه ـ سبحانه ـ لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل إنما أمره بقيام النصف، أو النقصان منه، أو الزيادة عليه، فذكر له هذه المراتب الثلاثة، ولم يذكر قيامه كله.

السادس: أنه ﷺ لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء فقال: «**يا عثمان أرغبت عن سنتي؟**» قال: لا والله يارسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «**فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله ياعثمان، فإن لأهلك عليك حقًا، وإن لضيفك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، فصم وأفطر، وصل ونم**[١]». ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلي الليل كله حتى جعلت حبلاً بين ساريتين إذا فترت تعلقت به أنكر ذلك وأمر بحله[٢].

السابع: أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]. وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة، ولهذا جازاهم عن هذا التجافي ـ الذي سَبَبه قلق القلب واضطرابه حتى يقوم إلى الصلاة ـ بقرة الأعين.

الثامن: أن أصحابة الذين هم أول وأولى من دخل في هذه الآية ـ لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل أصلاً. فروى بجير بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس في قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]. قال: كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء.

التاسع: أن في هذا التقرير تفكيكاً للكلام وتقديماً لمعمول العامل المنفي عليه، لأنك تجعل قليلاً مفعول يهجعون، وهو منفي، والبصريون لا يجيزون ذلك وإن أجازه الكوفيون. وفصل بعضهم، فأجازه في الظرف، ولم يجزه في غيره. . .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث عائشة.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك.

(١)**ثم** أخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر. فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة، فباتوا لربهم سجداً وقياماً، ثم تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك. وكان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثاً. وأمره الله ـ سبحانه ـ أن يختم عمره بالاستغفار. وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار. وشرع ﷺ للمتوضىء أن يختم وضوءه بالتوبة. فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار.

(٢)﴿كَانُوا قَلِيلًا من الليل مَا يَهْجَعُون * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]. قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون. وقال النبي، ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة. فإنهما ينفيان الفَقْر والذنوب، كما ينفي الكيرُ خَبَث الحديد» وقال لمن سأله أن يوصيه بشيء يتشبث به: «لا يزال لسانُكَ رَطْبًا من ذكر الله».

والدين كله استكثار من الطاعات، وأحب خلق الله إليه: أعظمهم استكثارًا منها. وفي الحديث الصحيح الإلهي «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه. فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه». فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته، لا لأهل الفناء المستغرقين في شهود الربوبية.

وقال ﷺ لآخر: «عليك بكثرة السجود؛ فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة».

(٣)...**ثم** أخبر ـ سبحانه ـ عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم. فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان، ضد: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٥، ٦]. وأكد إخلاصهم في هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم، الذي لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور. والمحروم المتعفف الذي لا يسأل.

---

(١) ١٨٤ التبيان.
(٢) ٢٦٢ مدارج جـ١.
(٣) ١٨٥ التبيان.

وتأمل حكمة الرب ـ تعالى ـ في كونه حرمه بقضائه، وشرع لأصحاب الجدة إعطاء، وهو أغنى الأغنياء، وأجود الأجودين. فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع، شرع عطاءه بأمره، وحرمه بقدره، فلم يجمع عليه حرمانين.

ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بآياته الأفقية والنفسية، فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]. فآيات الأرض أنواع كثيرة.

منها خلقها وحدوثها بعد عدمها وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا تجحد، فإنها شواهد قائمة بها.

ومنها بروز هذا الجانب فيها عن الماء، مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغموراً به.

ومنها سعتها وكبر خلقها. ومنها تسطيحها، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠]. ولا ينافي ذلك كونها كروية. فهي كرة في الحقيقة، لها سطح يستقر عليه الحيوان.

ومنها أنه جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومساكنه، وجعلها قراراً.

وجعلها مهاداً ذلولاً توطأ بالأقدام، وتضرب بالمعاول والفئوس، وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال، فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها.

وجعلها بساطاً، وجعلها كفاتاً للأحياء، تضمهم على ظهرها، وللأموات تضمهم في بطنها. وطحاها فمدها وبسطها، ووسعها ودحاها، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها، وشق فيها الأنهار، وجعل فيها السبل والفجاج.

ونبه بجعلها مهاداً وفراشاً على حكمته في جعلها ساكنة. وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها، ولا علاقة فوقها، ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفأ فيه تكفأ السفينة. فاقتضت العناية الأزلية والحكمة الإلهية أن وضع عليها رواسي يثبتها بها، لئلا تميد، وليستقر عليها الأنام، وجعلها ذلولاً على الحكمة في أن لم تكن في غاية الصلابة والشدة كالحديد، فيمتنع حفرها وشقها، والبناء فيها، والغرس، والزرع، والنوم عليها، والمشي فيها.

ونبه بكونها قراراً على الحكمة في أنها لم تخلق في غاية اللين والرخاوة والدماثة. فلا تمسك بناء، ولا يستقر عليها الحيوان ولا الأجسام الثقيلة. بل جعلها بين الصلابة والدماثة.

وأشرف الجواهر عند الإنسان الذهب، والفضة، والياقوت، والزمرد، **فلو كانت** الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها، وتعطلت المنافع المقصودة منها. وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر وأنفع وأبرك، وإن كانت تلك أغلى وأعز، فغلاؤها وعزتها لقلتها. وإلا فالتراب أنفع منها، وأبرك، وأنفس.

وكذلك لم يجعلها شفافة، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور. وما كان كذلك لم يقبل السخونة، فيبقى في غاية البرد، فلا يستقر عليه الحيوان، ولا يتأتى فيه النبات. وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس، كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف. فاقتضت حكمته سبحانه أن جعلها كثيفة غبراء، فصلحت أن تكون مستقراً للحيوان، والأنام والنبات.

ولما كان الحيوان الهوائي لا يمكنه أن يعيش في الماء كالحيوان المائي أبرز له جانبها كما تقدم، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه وأنشأ منها طعامه وقوته. وكذلك خلق منها النوع الإنساني، وأعاده إليها ويخرجه منها.

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس، والصفات، والمنافع مع أنها قطع متجاورات، متلاصقة. فهذه سهلة، وهذه حزنة، تجاورها وتلاصقها. وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت. وهذه تربة، وتلاصقها رمال. وهذه صلبة، ويلاصقها ويليها رخوة. وهذه سوداء، ويليها أرض بيضاء. وهذه حصي كلها، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر. وهذه تصلح لنبات كذا وكذا، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره. وهذه سبخة مالحة. وهذه بضدها. وهذه ليس فيها جبل، ولا معلم. وهذه مسجرة بالجبال. وهذه لا تصلح إلا على المطر. وهذه لا ينفعها المطر، بل لا تصلح إلا على سقي الأنهار، فيمطر الله ـ سبحانه ـ الماء على الأرض البعيدة، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

فلو سألتها من نوعها هذا التنوع؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به؟ ومن ألقى عليها رواسيها. وفتح فيها السبل، وأخرج منها الماء والمرعى؟ ومن أمسكها عن الزوال. ومن بارك فيها، وقدر

فيها أقواتها، وأنشأ منها حيوانها ونباتها؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها؟ ومن هيأها مسكنا ومستقراً للأنام؟ ومن يبدأ الخلق منها، ثم يعيده إليها، ثم يخرجه منها؟ ومن جعلها ذلولاً غير مستصعبة ولا ممتنعة. ومن وطأ مناكبها، وذلل مسالكها، ووسع مخارجها، وشق أنهارها، وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها؟ ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات؟ ومن بسطها، وفرشها ومهدها وذللها، وطحاها، ودحاها، وجعل ما عليها زينة لها؟ ومن الذي يمسكها أن تتحرك فتتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور؟ ومن الذي أنشأ منها النوع الإنساني الذي هو أبدع المخلوقات، وأحسن المصنوعات. بل أنشأ منها آدم، ونوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدًا صلى الله وسلم عليهم أجمعين. وأنشأ منها أولياءه، وأحباءه وعباده الصالحين؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق، والمعادن، والحيوان؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر؛ فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك. ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة ـ كما نشاهده في الصيف ـ فاحترقت أبدان الحيوان والنبات.

وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم؟ ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق، والعيون؟ ومن الذي جعل باطنها بيوتاً للأموات وظاهرها بيوتاً للأحياء؟ ومن الذي يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس، فتأخذ في الحبل، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج.

فسبحان من جعل السماء: كالأب، والأرض: كالأم، والقطر: كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء، أثرت نداوة الطين فيه، وأعانتها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت، وانفلقت عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة. وساق من تحتها وهو العرق. ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه. ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافاً مؤلفة، كل ذلك صنع الرب

الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية. وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم. فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق، وصفات كماله وأفعاله، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه، بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور.

فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها وامتزاجها، وحاجة بعضها إلى بعض، وانفعال بعضها عن بعض، وتأثيره فيه وتأثره به، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع، من التأثر والانفعال. ولا يستقل الآخر بالتأثير، ولا يستغني عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة على أنها مخلوقة، مصنوعة، مربوبة، مدبرة، حادثة بعد عدمها، فقيرة إلى موجد غني عنها، مؤثر غير متأثر، قديم غير حادث، تنقاد المخلوقات كلها لقدرته، وتجيب داعي مشيئته، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته، وتحذرهم من بأسه ونقمته، وتحثهم على المبادرة إلى رضوانه وجنته.

فانظر إلى الماء والأرض، كيف لما أراد الرب ـ تعالى ـ امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح، فحركت الماء، وساقته إلى أن قذفته في عمق الأرض، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية، وحصل بها الإنبات. ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح، وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته. فحرارة الربيع للإخراج. وحرارة الصيف للإنضاج. هذا وإن الأم واحدة، والأب واحد، واللقاح واحد والأولاد في غاية التباين والتنوع.

كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

فهذا بعض آيات الأرض. ومن الآيات التي فيها وقائعه ـ سبحانه ـ التي أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم، المخالفين لأمره، وأبقى آثارهم دالة عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وقال في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧]. وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٦] . أي بطريق ثابت لا يزول عن حاله. وقال: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩] . أي ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون. وقال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥] . قوم عاد ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] . وقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ القُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾

فأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده، لا عدة له ولا عدد، ولا مال. فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته، ويحذرهم من بأسه ونقمته، فتتفق كلمتهم، أو أكثرهم على تكذيبه، ومعاداته، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر، فيغرق المكذبين كلهم تارة، ويخسف بغيرهم الأرض تارة، ويهلك آخرين بالريح، وآخرين بالصيحة، وآخرين بالمسخ، وآخرين بالصواعق، وآخرين بأنواع العقوبات، وينجو داعيهم ومن معه. والهالكون أضعاف أضعاف أضعافهم عدداً وقوة، ومنعة وأموالاً:

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق، كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا ـ إن كانوا على الحق وهم أكثرهم عدداً، وأقوى شوكة ـ بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه، وهلا اعتصموا من عقوبته، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل؟

ومن الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرته به، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم، وأدلة نبوتهم يحدثها الله ـ سبحانه ـ وتعالى في الأرض، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل، حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره، كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾

وهذه الإراءة لا تختص بقرن دون قرن، بل لابد أن يُري الله ـ سبحانه ـ أهلَ

كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو، وأن رسله صادقون وآيات الأرض أعظم مما ذكر، وأكثر، فنبه باليسير منها على الكثير.

ثم قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره، وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر، والتفكر في نفسه. فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل. فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه، مرشدة إليه؛ إذا يجده مكوناً من قطرة ماء: لحوماً منضدة، وعظاماً مركبة، وأوصالاً متعددة، مأسورة مشددة بحبال العروق والأعصاب. قد قمطت وشدت، وجمعت بجلد متين، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلاً ما بين كبير وصغير، وثخين ودقيق، ومستطيل ومستدير، ومستقيم ومنحن، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقاً، للاتصال والانفصال، والقبض والبسط، والمد والضم، والصنائع والكتابة.

وجعل فيه تسعة أبواب: فبابان للسمع، وبابان للبصر، وبابان للشم، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس، وباب لخروج الفضلات التي يؤذيه احتباسها. وجعل داخل بابي السمع مرًّا قاتلاً، لئلا تلج فيها دابة تخلص إلى الدماغ فتؤذيه. وجعل داخل بابي البصر مالحاً، لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم. وجعل داخل باب الطعام والشراب حلواً، ليسيغ به ما يأكله ويشربه. فلا يتنغص به لو كان مرًّا أو مالحاً.

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء، مركبين في أعلى مكان منه، وفي أشرف عضو من أعضائه، طليعة له.

وركب هذا النور في جزء صغير جدًّا يبصر به السماء والأرض وما بينهما، وغشاه بسبع طبقات وثلاث رطوبات، بعضها فوق بعض، حماية له وصيانة وحراسة. وجعل على محله غلقاً بمصراعين أعلا وأسفل، وركب في ذيل المصراعين أهداباً من الشعر وقاية للعين، وزينة وجمالاً. وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر، يحجبان العين من العرق النازل. ويتلقيان عنها ما ينصب من هناك.

وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين شغلاً مخصوصاً، ولكل واحد من الرطوبات مقداراً مخصوصاً، لو زاد على ذلك أو نقص منه لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة. وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة. ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض، والشمس والقمر والنجوم، والجبال، والعالم العلوي والسفلي، مع اتساع أطرافه، وتباعد أقطاره.

واقتضت حكمته - سبحانه - أن جعل فيها بياضاً وسواداً، وجعل القوة الباصرة في السواد. وجعل البياض مستقراً لها ومسكناً، وزين كلا منهما بالآخر. وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدم، والحواجب بالأهداب. وجعلها سوداء، إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر، فضعف الإدراك، فإن السواد يجمع البصر، ويمنع من تفرق النور الباصر. وخلق - سبحانه - لتحريك الحدقة وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة، لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين.

ولما كانت العين كالمرآة، التي إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء، جعل - سبحانه - هذه الأجفان متحركة جدًّا بالطبع إلى الانطباق، من غير تكلف، لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات. ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً فإنها لا تزال تراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات. وكما جعل - سبحانه - العينين مؤديتين للقلب ما يريانه، فيوصلانه إليه كماترياه جعلهما مرآتين للقلب، يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض، والخير والشر، والبلادة والفطنة، الزيغ والاستقامة. فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة: وهي فراسة العين، وفراسة الأذن، وفراسة القلب. فالعين مرآة للقلب، وطليعة ورسول.

ومن عجيب أمرها أنها من ألطف الأعضاء، وأبعدها تأثراً بالحر والبرد، على أن الأذن على صلابتها وغلظها لتتأثر بهما أكثر من تأثر العين على لطافتها. وليس ذلك بسبب الغطاء الذي عليها من الأجفان؛ فإنها لو كانت منفتحة لم تتأثر بذلك تأثر الأعضاء اللطيفة.

ومن ذلك: الأذنان، شقهما - تبارك وتعالى - في جانبي الوجه، وأودعهما من الرطوبة ما يكون معيناً على إدراك السمع. وأودعهما القوة السمعية.

وجعل سبحانه في هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات، لتطول المسافة قليلاً، فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته، فلا يصدمها وهلة واحدة، فيؤذيها.

وأيضاً لئلا يفجأها الداخل إليها من الدبيب والحشرات، بل إذا دخل إلى عوجة من تلك الانعطافات وقف هناك، فسهل إخراجه.

وكانت العينان في وسط الوجه والأذنان في جانبيه، لأن العينين محل الملاحة والزينة والجمال، وهما بمنزلة النور الذي يمشي بين يدي الإنسان.

وأما الأذنان فكان جعلهما في الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الإنسان، وأمامه، وعن يمينه، وعن شماله سواء. فتأتي المسموعات إليهما على نسبة واحدة.

وخلقت العينان بغطاء، والأذنان بغير غطاء. وهذا في غاية الحكمة. إذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت، فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء. والصوت عرض لا ثبات له، فكان يزول قبل كشف الغطاء، بخلاف ما تراه العين، فإنه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين.

وجعل ـ سبحانه ـ الأذن عضواً غضروفيًا ليس بلحم مسترخ، ولا عظم صلب، بل هي بين الصلابة واللين، فتقبل بلينها، وتحفظ بصلابتها، ولا تنصدع انصداع العظام، ولا تتأثر بالحر والبرد، والشمس والسموم تأثر اللحم. إذ المصلحة في بروزها لتتلقى ما يرد عليها من الأصوات والأخبار.

ومن ذلك الأنف؛ نصبه سبحانه في وسط الوجه قائماً معتدلاً، في أحسن شكل وأوفقه للمنفعة، وأودعه حاسة الشم، التي يدرك بها الروائح وأنواعها...[1].

[2]**وتأمل** كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿**فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ**﴾ [الذاريات: ٢٣] إرادة لهذين الجنسين، أي رب كل ما علا وكل ما سفل، فلما كان المراد عموم ربوبيته أتى بالاسم الشامل لكل ما يسمى سماء وكل ما يسمى أرضًا، وهو أمر حقيقي لا يتبدل ولا يتغير وإن تبدلت عين السماء والأرض.

فانظر كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ [التغابن: ١] في جميع الصور لما كان المراد الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم وتباين مراتبهم لم يكن بد من جمع محلهم.

---

(١) بحث المؤلف بحثًا مطولاً فمن أراده فليرجع إليه (ج). (٢) ١١٦ بدائع جـ١.

ونظير هذا جمعها في قوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ[(١)] وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وكذلك جاءت في قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾ [الإسراء: ٤٤] مجموعة أخباراً بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد ولم يقتصر على السموات فقط، بل قال: السبع.

وانظر كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوْعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فالرزق المطر وما وعدنا به الجنة وكلاهما في هذه الجهة لا أنهما في كل واحدة واحدة من السموات فكان لفظ الإفراد أليق بها. ثم تأمل كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] لما كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السموات أتى بها مجموعة.

وتأمل كيف لم يجيء في سياق الإخبار بنزول الماء منها إلا مفردة حيث وقعت لما لم يكن المراد نزوله من ذات السماء نفسها، بل المراد الوصف وهذا باب قد فتحه الله لي ولك فلجه وانظر إلى أسرار الكتاب وعجائبه وموارد ألفاظه جمعاً وإفراداً وتقديماً وتأخيراً إلى غير ذلك من أسراره، فلله الحمد والمنة لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه.

[(٢)]...**ومن** تأمل المخلوقات، ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت. كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق. كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّماءِ والأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]. أي إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون، فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق، كما في الحديث: «إنه لَحَقّ مِثْلَ ما أنك ههنا». **فكأنه ـ سبحانه ـ يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق.**

---

(١) في المطبوعة زيادة [ومن في] الأرض وهي غير موجودة بالآية. المراجع. (٢) ١١٠ التبيان.

ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه، ومبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه(١).

(٢)**ورأس** الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله حيث تستولى على الفكر، وتشغل القلب، فإذا صار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره ويتضح له الطريق وتراه ساكناً وهو يباري الريح ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

فصل

فإن قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم، فافتح لي بابه، واكشف لي حجابه، وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه؟ وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا فهل في البين(٣) غير ما ذكروه؟

قلت: سأضرب لك أمثالاً تحتذي عليها وتجعلها إماماً لك في هذا المقصد. قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المُكْرَمِينَ﴾ - إلى قوله - ﴿الحَكِيمُ العَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠] فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية، وتتطلعت إلى معناها وتدبرتها فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم. وإنما امرأته عجبت من ذلك. فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار، وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم، وكيف جمعت أداب الضيافة وحقوقها، وكيف ترعى حق الضيف؟ وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة.

وكيف تضمنت علماً عظيماً من أعلام النبوة، وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي مردها إلى العلم والحكمة، وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها ثم أفصحت وقوعه؟

---

(١) هذا جزء من تفسير قول الله تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون﴾ وهو بكامله موجود في سورة الحاقة اهـ (ج).

(٢) ٥٠ التبوكية. (٣) لعله: البيان.

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة، وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما، وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله وعلى اليوم الآخر.

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة وهم المؤمنون بها، وأما من لا يخاف الآخرة، ولا يؤمن بها، فلا ينتفع بتلك الآيات.

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]. افتتح ـ سبحانه ـ القصة بصيغة موضوعة للاستفهام وليس المراد بها حقيقة الاستفهام. ولهذا قال بعض الناس: إن [هل] في مثل هذا الموضع بمعنى [قد] التي تقتضي التحقيق.

ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به وإحضار الذهن له صدر له الكلام بأداة الاستفهام لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به، فتارة يصدره بألا، وتارة يصدره بهل، فيقول له: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مذكراً به وإما واعظاً له مخوفاً، وإما منبهاً على عظمة ما يخبر به، وإما مقرراً له.

فقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩]. ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١]. و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]. ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]. متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفة ما تضمنته.

ففيه أمر آخر وفيه وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه من جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا. وقوله: ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]. متضمن لثنائه على خليله إبراهيم، فإن في المكرمين قولين:

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف.

والثاني: أنهم مكرمون عند الله، كقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾

[الأنبياء: ٢٦] . هو متضمن أيضاً لتعظيم خليله ومدحه إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم.

وقوله: ﴿فَقَالُوا سَلَاماً قال سَلَامٌ﴾ [الذاريات: ٢٥] . متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك سلاماً، وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم.

ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن. ثم قال: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح.

أحدهما: أنه حذف المبتدأ والتقدير: أنتم قوم منكرون فتذمم منهم، ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش وكان النبي، ﷺ لا يواجه أحداً بما يكرهه، بل يقول: «**ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا**».

الثاني: قوله: ﴿قوم منكرون﴾ فحذف فاعل الإنكار، وهو الذي كان أنكرهم كما قال في موضع آخر ﴿نكرهم﴾ ولا ريب أن قوله: منكرون، ألطف من أن يقول أنكرتم. وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] متضمن وجوهاً من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف، منها قول: ﴿فراغ إلى أهله﴾، والروغان بسرعة واختفاء[1] وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وأن لا يعرض للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبادر[2] على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ ويتناول الإناء بمرأى منه ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه. فلفظة راغ تنفي هذين الأمرين.

وفي قوله: ﴿إلى أهله﴾ مدح آخر لما فيه من الأشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ولا يذهب إلى غير أهله إذ قرى الضيف حاصل عندهم.

(١) كذا في الأصل. وفي لسان العرب (وراغ فلان إلى فلان) أي مال إليه سرًا. ومنه قوله تعالى: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ فقال الفراء: فراغ إلى أهله. معنا رجع إلى أهله في حال إخفاء منه لرجوعه.

(٢) كذا بالأصل ولعله (يتنادر) أو (يتبارد).

وقوله: ﴿فجاء بعجل سمين﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح.

إحدها: خدمة ضيفه بنفسه فإنه لم يرسل به وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه ليتخيروا من أطيب لحمه ماشاؤا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول وهذا من نفائس الأموال ولد البقر السمين فإنهم يعبجون به فمن كرمه هان عليه ذبحه واحضاره.

وقوله: ﴿إليهم﴾ متضمن المدح وآدابًا أخرى وهو احضار الطعام إلى بين يدي الضيف بخلاف من يهيء الطعام في موضع، ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

وقوله: ﴿ألا تأكلون﴾ فيه مدح وآداب أخر فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: **﴿ألا تأكلون﴾** وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف بخلاف من يقول: ضعوا إيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا ونحو هذا. **﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيْفَةً﴾** [الذاريات: ٢٨]. لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفاً أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به، فلما علموا منه ذلك **﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾** [الذاريات: ٢٨] وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل لأن امرأته عجبت من ذلك، فقالت: عجوز عقيم لا يولد لمثلي، فأنىّ لي بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر، وكان بكره وأول ولده. وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى: **﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾** [هود: ٧١]. وهذه هي القصة نفسها.

وقوله تعالى: **﴿فَأَقبلت امْرَأَتُهُ فِي صرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾** [الذاريات: ٢٩] فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

وقوله: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]. فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ، ولم تقل: أنا عجوز عقيم. واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره. وأما في سورة هود، فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم، وصرحت بالعجب. وقوله تعالى: **﴿قَالُوا كَذٰلِكِ قَالَ ربُّكِ﴾** [الذاريات: ٣٠] متضمن لإثبات صفة القول له. وقوله: **﴿إِنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ﴾** [الذاريات: ٣٠]. متضمن لإثبات

صفـة الحكمة والعلم الذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمـه وحكمتـه. وكـذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته. والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال.

فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام.

والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال الرسل وإثبات الثواب والعقاب كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المـطالب العـظيمة بصفة الحكمة والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثًا وسدى وباطلاً، فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب. ولهذا كان أصح القولين: إن المعاد يعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل مايدل العقل على إثباته.

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله ومنته على عباده عن غيرهـا كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس. وإن ساعد التوفيق من الله كتبت في ذلك سفراً كبيراً لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف وحسن البيان والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له الصدر ويكثر معه اليقين بخـلاف غيره من الأدلـة، فإنها على العكس من ذلـك، وليس هذا موضـع التفصيل. والمقصود أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته.

واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة، فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ وتعالى قصة الملائكة في إرسالهم لإهلاك قوم لوط وإرسال الحجارة المسومة عليهم، وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عياناً في هذا العالم وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رُسله وصحة ما أخبروا به عن ربهم. ثم قال: **﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** [الذاريات: ٣٥، ٣٦]. ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام، فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة فهو إخراج نجاة من العذاب ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهراً وباطناً. وقوله: **﴿فما وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين. وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد. وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهـو: إن الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثنى الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس، وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود و المؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧]. فيه دليل على أن آيات الله ـ سبحانه ـ وعجائبه التي فعلها في هذا العالم، وأبقى آثارها دالـة عليه وعلى صدق رسله إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد، ويخشى عذاب الله تعالى، كما قال الله ـ تعالى ـ في موضع آخر: **﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾** [هود: ١٠٣]. وقال تعالى: **﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾** [الأعلى: ١٠]. فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم، ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة، وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ.

والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثاره وكنوزه، ويعتبر بهذا غيره، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١)**قال** الله تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوا إِلَىٰ اللهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلىٰ شيء. وهو نوعان: فرارالسعداء. وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلىٰ الله عز- وجل -. وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه. وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿ففروا إلىٰ الله﴾ فِرُّوا منه إليه، واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبدالله: فِرّوا مما سوىٰ الله إلىٰ الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلىٰ ثواب بالإيمان والطاعة.

(٢)**قال** تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوا إِلَىٰ اللهِ﴾ والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه. وتحت (من) و(إلىٰ) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد فإن الفرار إليه - سبحانه - يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها من المحبة والخشية والإنابة والتوكل وسائر منازل العبودية، فهو متضمن لتوحيد الإلـٰهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر، وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد فإنما أوجبته مشيئة الله وحده، فإن ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم مشيئته. فإذا فر العبد إلىٰ الله فإنما يفر من شيء إلىٰ شيء وجد بمشيئة الله وقدره، فهو في الحقيقة فار من الله إليه.

ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنىٰ قوله ﷺ: «**وأعوذ بك منك**» وقوله: «**لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك**» فإنه ليس في الوجود شيء يفر منه ويستعاذ منه ويلتجأ منه إلا هو من الله خلقاً وإبداعاً. فالفار والمستعيذ فار مما أوجد قدر الله ومشيئته وخلقه إلىٰ ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه.

ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه، مستعيذ بالله منه. وتصور هذين الأمرين

(١) ٤٦٩ مدارج جـ١.
(٢) ٧١ التبوكية.

يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية خوفاً ورجاء ومحبة. فإنه إذا علم أن الذي يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه لم يبق في قلبه خوف من غير خالقه وموجده. فتضمن ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء. ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته لكان ذلك موجباً لخوفه منه مثل من يفر من مخلوق إلىٰ مخلوق آخر أقدر منه، فإنه في حال فراره من الأول خائف منه حذراً أن لا يكون الثاني يعيذه منه، بخلاف ما إذا كان الذي يفر إليه هو الذي قضىٰ وقدر وشاء ما يفر منه، فإنه لا يبقىٰ في القلب التفات إلىٰ غيره.

فتفطن إلىٰ هذا السر العجيب في قوله: «**أعوذ بك منك**» «**ولا ملجأ ولا منجي منك إلا إليك**» فإن الناس قد ذكروا في هذا أقوالاً وقل من تعرض منهم لهذه النكتة التي هي لب الكلام ومقصوده وبالله التوفيق.

فتأمل كيف عاد الأمر كله إلىٰ الفرار من الله إليه، وهو معنىٰ الهجرة إلىٰ الله تعالىٰ. ولهذا قال النبي ﷺ: «**المهاجر من هجر ما نهى الله عنه**» ولهذا يقرن ـ سبحانه ـ بين الإيمان والهجرة في غير موضع لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر.

والمقصود أن الهجرة إلىٰ الله تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه، وأصلها الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلىٰ شيء لابد أن يكون مايهاجر إليه أحب مما هاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه علىٰ الآخر، وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعونه إلىٰ خلاف مايحبه ويرضاه، وقد بُلي بهؤلاء الثلاث فلا يزالون يدعونه إلىٰ غير مرضاة ربه وداعي الإيمان يدعوه إلىٰ مرضاة ربه. فعليه في كل وقت أن يهاجر إلىٰ الله ولا ينفك في هجرته إلىٰ الممات.

فصل

وهذه الهجرة تقوىٰ وتضعف بحسب داعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوىٰ كانت هذه الهجرة أقوىٰ وأتم وأكمل. وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتىٰ لايكاد يشعر بها علماً ولا يتحرك لها إرادة.

والذي يقضي منه العجب أن المرء يوسع الكلام ويفرع المسائل في الهجرة من دار الكفر إلىٰ دار الإسلام وفي الهجرة التي انقطعت بالفتح، وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به في العمر أصلاً، وأما هذه الهجرة التي هي واجبة علىٰ مدىٰ

الأنفـاس لا يحصِّـل فيهـا علماً ولا إرادة، ومـا ذاك إلا للإعـراض عما خلق له والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره. وهذا حال من غشيت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال. والله المستعان. وبالله التوفيق. لا إلـه غيره، ولا رب سواه.

...[1]**ولما** كانت الـدنيا حقيرة عند الله، لاتساوي لديه جناح بعوضة كانت ومافيها في غاية البعد منه، وهذا هو حقيقة اللعنة. وهو ـ سبحانه ـ إنما خلقها مزرعـة للآخرة ومعبراً إليها يتزود منها عباده إليه فلم يكن يقرب منها إلا ماكان متضمنًا لإقامة ذكره ومفضياً إلىٰ محابه، وهو العلم الذي به يعرف الله ويعبد ويذكر ويثنىٰ عليه ويمجد، ولهذا خلقها وخلق أهلها. كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُون**﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال: ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمْر بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أنَّ الله علىٰ كلِّ شيْءٍ قديرٌ وأنَّ الله قد أحاطَ بكَلِّ شيءٍ عِلْماً**﴾ [الطلاق: ١٢] فتضمنت هاتان الآيتان أنه ـ سبحانه ـ إنما خلق السمـوات والأرض ومـا بينهـما ليعـرف بأسـمائـه وصفـاته، وليعبد، فهذا المطلوب، وماكان طريقاً إليه من العلم والتعلم فهو المستثنىٰ من اللعنة واللعنة. واقعـة علىٰ ما عداه إذ هو بعيد عن الله وعن محابـه وعن دينه، وهذا هو متعلق العقـاب في الآخرة، فإنه كما كان متعلق اللعنة التي تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب، والله ـ سبحانه ـ إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضىٰ إليه. وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده.

[2]**الوجه** الثامن: أن الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم. فهو محسن إلىٰ عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحساناً. فهو سبحانه ـ لم يخلق خلقه ليتكثَّر بهم من قِلَّة، ولا ليعتزَّ بهم من ذِلَّة، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإِنسَ إلَّا ليعبدُون * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أن يُطْعِمُون * إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ**﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]. وقال تعالىٰ: ﴿**وَقُلِ الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ**

(١) ٦٩ مفتاح جـ١.
(٢) ٤١ إغاثة جـ١.

﴿مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] فهو سبحانه لا يوالي من يواليه من الذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يوالي أولياءه إحساناً ورحمة ومحبة لهم.

وأما العباد فإنهم كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨] فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحسن بعضهم إلىٰ بعض لحاجته إلىٰ ذلك وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً. ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه. فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلىٰ نفسه، وجعل إحسانه إلىٰ غيره وسيلة وطريقاً إلىٰ وصول نفع ذلك الإحسان إليه. فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلىٰ ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره.

وهو أيضاً إنما يحسن إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلىٰ نفسه بإحسانه إلىٰ الغير، وإما أن يريد الجزاء من الله تعالىٰ في الآخرة، فهو أيضاً محسن إلىٰ نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلىٰ يوم فقره وفاقته، فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص علىٰ ما ينفعه ولا يعجز عنه.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالىٰ، فيما رواه عنه رسوله ﷺ: **«ياعبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني؛ ياعبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أُوفّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»**(١).

(٢)**وينتصل** ـ سبحانه ـ إلىٰ عباده من مواضع الظنة والتهمة التي نسبها إليه من لم يعرفه حق معرفته، ولا قدره حق قدره: من تكليف عباده ما لا يقدرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به. وخلق السموات والأرض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية، وأنه لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧] فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جوداً وإحساناً

---

(١) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي ذر رضي الله عنه في حديثه الطويل. (٢) ١٣٥ طريق الهجرتين.

ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧] ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، ولما أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذي يحط عنهم أوزارهم ويدخلون به عليه ويرفع به درجاتهم، قال تعالىٰ: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧] يقول ـ سبحانه ـ: «إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء»، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمداً، بل هو الغني بنفسه الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته. وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائدته عليكم . . .

(١)**وقال:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فأخبر ـ سبحانه ـ أن الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته، وهو ـ سبحانه ـ كما أنه يحب أن يعبد، يحب أن يحمد ويثنىٰ عليه ويذكر بأوصافه العلي وأسمائه الحسنىٰ. كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه**» وفي المسند من حديث الأسود بن سريع أنه قال: يارسول الله، إني حمدت ربي بمحامد فقال: «إن ربك يحب الحمد».

فهو يحب نفسه ومن أجل ذلك يثني على نفسه. ويحمد نفسه، ويقدس نفسه، ويحب من يحبه ويحمده ويثني عليه.

بل كلما كانت محبة عبده له أقوىٰ كانت محبة الله له أكمل وأتم، فلا أحد أحب إليه ممن يحبه ويحمده ويثني عليه. ومن أجل ذلك كان الشرك أبغض الأشياء إليه لأنه ينقص هذه المحبة ويجعلها بينه وبين من أشرك به، ولهذا لا يغفر الله أن يشرك به لأن الشرك يتضمن نقصان هذه المحبة، والتسوية فيها بينه وبين غيره، ولا ريب أن هذا من أعظم ذنوب المحب عند محبوبه التي يسقط بها من عينه، وتنقص بها

(١) **٢٣٩** طريق الهجرتين.

مرتبته عنده إذا كان من المخلوقين.

فكيف يحتمل رب العالمين أن يشرك بينه وبين غيره في المحبة. والمخلوق لا يحتمل ذلك ولا يرضىٰ به ولا يغفر هذا الذنب لمحبه أبداً، وعساه أن يتجاوز لمحبه عن غيره من الهفوات والزلات في حقه. ومتىٰ علم بأنه يحب غيره كما يحبه لم يغفر له هذا الذنب، ولم يقربه إليه، هذا مقتضىٰ الطبيعة والفطرة.

أفلا يستحي العبد أن يسوي بين إلهه ومعبوده وبين غيره في هذه العبودية والمحبة؟ قال تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾** [البقرة: ١٦٥] فأخبر سبحانه أن من أحب شيئاً دون الله كما يحب الله فقد اتخذه نداً. وهذا معنىٰ قول المشركين لمعبوديهم: **﴿تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

فهذه تسوية في المحبة والتأليه، في الذات والأفعال والصفات.

والمقصود أنه ـ سبحانه ـ يحب نفسه أعظم محبة ويحب من يحبه، وخلق خلقه لذلك، وشرع شرائعه وأنزل كتبه لأجل ذلك، وأعد الثواب والعقاب لأجل ذلك، وهذا هو محض الحق الذي به قامت السموات والأرض وكان الخلق والأمر، فإذا قام به العبد فقد قام بالأمر الذي خلق له فرضي عنه صانعه وبارئه وأحبه إذ كان يحب ويرضىٰ، فإذا صدف عن ذلك وأعرض عنه وأبق عن مالكه وسيده أبغضه ومقته، لأنه خرج عما خلق له وصار إلىٰ ضد الحال التي هو لها، فاستوجب منه غضبه بدلاً من رضاه، وعقوبته بدلاً من رحمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الذاريات

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** - تعالى - : **﴿والطُّورِ * وكتابٍ مَّسطُورٍ * في رَقٍّ منشُورٍ * والبيتِ المعْمورِ * والسَّقفِ المرفُوعِ * والبحرِ المسْجُورِ * إنَّ عذابَ ربِّكِ لَوَاقعٌ * مالَه من دافـعٍ﴾**[الطور: ١ - ٨]. تضمن هذا القسم خمسة أشياء، وهي مظاهر آياته، وقدرته، وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته.

فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران، عند جمهور المفسرين من السلف والخلف، وعرفه ههنا باللام، وعرفه في موضع آخر بالإضافة. فقال **﴿وطُورِ سِينِينَ﴾**[التين: ٣] وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا، والآخرة وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه.

قال عبدالله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه: حدثني محمد بن عبيد بن حبان، قال حدثنا جعفر بن سليمان، قال حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي قال: أوحى الله - عز وجل - إلى الجبال: إني نازل على جبل منكم. قال فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور، فإنه تواضع، وقال: أرضى بما قسم الله لى، فكان الأمر عليه، وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به، وإنه لسيد الجبال.

(الثاني) الكتاب المسطور في الرق المنشور، واختلف في هذا الكتاب، فقيل: هو اللوح المحفوظ؛ وهذا غلط، فإنه ليس برق. وقيل: هو الكتاب الذي تضمن أعمال بني آدم، وقال مقاتل: تخرج إليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور. وهذا وإن كان أقوى وأصح من القول الأول، واختاره جماعة من المفسرين، ومنهم من لم يذكـر غيره، فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله، وأقسم الله به لعظمته وجلالته، وما تضمنه من آيات ربوبيته، وأدلة توحيده وهداية خلقه.

ثم قيل: هو التوراة التي أنزل الله على موسى، وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور، فقال: هو التوراة، ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح لا في رق، إلا أن يقال. هي في رق في السماء وأنزلت في ألواح.

(١) ١٦٥ التبيان.

وقيل هو القرآن؛ ولعل هذا أرجح الأقوال، لأنه ـ سبحانه ـ وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة، بأيدي سفرة، كرام بررة. فالصحف هي الرق، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشورًا، وعلى هذا فيكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب. ويكون ذلك متضمنًا للنبوتين المعظمتين. نبوة موسى، ونبوة محمد. وكثيرًا ما يقرن بينهما وبين محلهما كما في سورة التين والزيتون.

ثم أقسم بسيد البيوت، وهو البيت المعمور. وفي وصفه الكتاب بأنه: مسطور. تحقيق لكونه مكتوبًا مفروغًا منه. وفي وصفه بأنه: منشور. إيذان بالاعتناء به، وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور. وأما البيت المعمور فالمشهور أنه الضراح الذي في السماء الذي رفع للنبي، ﷺ، ليلة الإسراء، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض وقيل: هو البيت الحرام. ولا ريب أن كلا منهما معمور: فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت.

ثم أقسم ـ سبحانه ـ بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته، وهما مظهر آياته، وعجائب صنعته، وهما: السقف المرفوع، وهو السماء فإنها من أعظم آياته قدرًا وارتفاعًا، وسعة وسمكًا، ولونًا، وإشراقًا وهي محل ملائكته، وهي سقف العالم، وبها انتظامه، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار، والسنين والشهور والأيام والصيف والشتاء والربيع والخريف. ومنها تنزل البركات. وإليها تصعد الأرواح، وأعمالها وكلماتها الطيبة.

والثاني: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[الطور:٦]، وهو آية عظيمة من آياته، وعجائبه لا يحصيها إلا الله. واختلف في هذا البحر، هل هو الذي فوق السموات، أو البحر الذي نشاهده؟ على قولين:

فقالت طائفة: هو البحر الذي عليه العرش، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام كما في الحديث الذي رواه أبو داود، من حديث سماك عن عبدالله بن عميرة عن الأحنف بن قيس، قال كنت بالبطحاء في عصابة، فيهم رسول الله، ﷺ، فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: **«ما تسمون هذه؟»** قالوا: السحاب، قال: **«والمزن؟»** قالوا: والمزن، قال: **«والعنان؟»** قالوا: والعنان قال: **«هل**

تدرون ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندري، قال: «إن بعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك، حتى عد سبع سموات، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل مابين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش، مابين أسفله وأعلاه مثل مابين سماء إلى سماء، ثم الله فوق ذلك». وهـذا لا ينـاقض ما في جامع الترمذي «**إن بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام**» إذ المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به، فالخمسائة مقدرة بسير الأبل، والسبعون بسير البريد، وهو يقطع بقدر ما تقطعه الابل سبعة أضعاف وهذا القول في البحر الذي تحت العرش محكى عن علي بن أبي طالب.

والثاني أنه بحر الأرض واختلف في المسجور، فقيل المملوء، هذا قول جميع أهل اللغة. قال الفراء: المسجور في كلام العرب: المملوء. يقال: سجرت الاناء إذا ملأته، قال لبيد:

فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجـاور أقـــــلامها

وقال المبرد: المسجور: المملوء عند العرب، وأنشد للنمر بن تولب:

إذا شاء طالع مسجورة

يريد عينا مملوءة ماء، وكذا قال ابن عباس: المسجورة الممتلىء. وقال مجاهد: المسجور الموقد. قال الليث: السجر إيقادك في التنور تسجره سجرًا، والسجر اسم الحـطب. وهـذا قول الضحـاك وكعب وغـيرهما. قال: البحر يسجر فيزداد في جهنم، وحكي هذا القـول عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنـه ـ. قال:

جهنم، وحكي هذا القول عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ. قال: مسجور.

قال الفراء: وهذا يرجع إلى القول الأول، لأنك تقول: سجرت التنور إذا ملأته حطبًا. ماؤه وذهب، وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف. وهذا القول اختيار أبي العالية. قال أبو زيد: المسجور: المملوء، والمسجور الذي ليس فيه شيء، جعله من الأضداد.

وقد روي عن ابن عباس أن المسجور المحبوس، ومنه ساجور الكلب، وهو القلادة من عود أو حديد ... كه. والمعنى على هذا أنه محبوس بقدرة الله أن يفيض

على الأرض فيغرقها، فإن ذلك مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامرًا للأرض فوقها، كما أن الهواء فوق الماء، ولكن أمسكه الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، وفي هذا حديث ذكره أحمد مرفوعًا «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم**». **وهذا الموضع مما هدم أصول الملاحدة والدهرية، فإنه ليس في الطبيعة ما يقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الأرض، مع كون كرة الماء عالية على كرة الأرض بالذات، ولو فرض أن في الطبيعة ما يقتضي بروز جوانبها لم يكن فيها ما يقتضى تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره.**

وما ذكره الطبائعيون والمتفلسفة أن العناية الإلهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم فنعم، هو كما ذكروا ولكن عناية من يفعل بقدرته ومشيئته، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وهو أحكم الحاكمين ـ غير معقولة. فإن العناية الإلهية تقتضي حياته، وقدرته، ومشيئته، وعلمه، وحكمته، ورحمته، وإحسانه إلى خلقه، وقيام الأفعال به. فإثبات العناية الإلهية مع نفي هذه الأمور ممتنع. وبالله التوفيق.

وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد. وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**وإذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ**﴾[التكوير: ٦]. قال علي وابن عباس: أوقدت فصارت نارًا، ومن قال: يبست وذهب ماؤها، فلا يناقض كونها نارًا موقدة. وكذا من قال: ملئت؛ فإنها تملأ نارًا.

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله، فإن البحر محبوس بقدرة الله، ومملوء ماء، ويذهب ماؤه يوم القيامة، ويصير نارًا: فكل من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني. والله أعلم.

(١)**ومن** آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض التي هي خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى أن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا إمساك الرب ـ تبارك وتعالى ـ له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها هذا طبع الماء.

ولهذا حار عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء

(١) ٢٠٤ مفتاح جـ٢.

طبيعة الماء للعلو عليه وأن يغمره، ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية، والحكمة الإلهية التي اقتضت ذلك لعيش الحيوان الأرضى في الأرض وهذا حق، ولكنه يوجب الاعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيئته وعلمه وحكمته وصفات كماله ولا محيص عنه. وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم»**.

وهذا أحد الأقوال في قوله ـ عز وجل ـ: **﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾** [الطور: ٦]. أنه المحبوس حكاه ابن عطية وغيره. قالوا: ومنه ساجور الكلب وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه، وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض، فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض.

وإذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وألوانها، حتى أن فيها حيوانًا أمثال الجبال لا يقوم له شيء، وحتى أن فيه من الحيوانات ما يرى ظهورها فيظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيعلم أنه حيوان، وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله، حتى الإنسان والفرس والبعير وأصنافها، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر أصلاً، هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان، فترى اللؤلؤة كيف أودعت في كن كالبيت لها، وهي الصدفة تكنها وتحفظها، ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذي في صدفه لم تمسه الأيدي.

وتأمل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر، هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه. ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها، وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لإجرائها، فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء.

قال الله تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾** [الشورى: ٣٢، ٣٣]. وقال الله تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [النحل: ١٤]، فما

أعظمها من آية وأبينها من دلالة، ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيرًا.

وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله ـ سبحانه ـ وقـال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[الحاقة: ١١، ١٢].

(١)**وهذا** عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾[الطور: ٧]. فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه. وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر الله لي، ثلاثا، ثم قضى. وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخنقه العبرة فيبقى في البيت أيامًا ويعاد، يحسبونه مريضًا وكان في وجهه رضي الله عنه، خطان أسودان من البكـاء. وقـال له ابن عباس. مصّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل، وفعل. فقال: وددت أني أنجو؛ لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته، وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

(٢)**وأقسم** ـ سبحانه ـ بهذه الأمور على المعاد والجزاء، فقال: ﴿إِنَّ عذابَ ربِّكَ لَوَاقِعٌ مَّالَهُ مِن دَافِعٍ﴾، [الطور: ٧ ـ ٨]. ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه أخبر ـ سبحـانه ـ أن لا دافع له. وهذا يتناول أمرين: أحدهما أنه لا دافع لوقوعه، والثاني: أنه لا دافع له إذا وقع

ثم ذكر ـ سبحانه ـ وقت وقوعه، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْراً﴾[الطور: ٩، ١٠]. والمـور قد فسر بالحـركة، وفسر بالدوران، وفسر بالتموج والاضطراب، والتحقيق أنه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء، ولهذا فرق بين حركـة السـماء وحركة الجبال. فقال: ﴿وتَسِيرُ الجِبَال سَيراً﴾[الطور: ١٠]، وقال: ﴿وإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣] من مكان إلى مكان. وأما السماء فإنها تتكفأ، وتموج، وتذهب، وتجيء. قال الجوهري: مار الشيء يمور مورًا، ترَهيأ أي: تحرك وجاء وذهب، كما تكفأ النخلة العيدانة، أي الطويلة. ومنه قوله: ﴿يَوْمَ تَمورُ السَّماءُ مَورًا﴾ [الطور: ٩].

---

(١) ٤٩ الجواب الكافي.

(٢) ١٦٩ التبيان.

قال الضحاك: تموج موجًا. وقال أبو عبيدة، والأخفش: تكفأ. وأنشد: للأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة، لا ريث ولا عجل

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها، وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع. فلا علم نافع ولا عمل صالح. بل علومهم خوض بالباطل، وأعمالهم لعب.

ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم، وهم يدعون إليها دعًّا أي يدفع في أقفيتهم وأكتافهم، دفعًا بعد دفع. فإذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا، وقيل لهم: ﴿**هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ**﴾[الطور: ١٤]. وتقولون: لا حقيقة لها، ولا من أخبر بها صادق. ثم يقال: ﴿**أَفَسِحْرٌ هذا**﴾[الطور: ١٥]. الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاءتكم به الرسل: إنه سحر، وإنهم سحرة. فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها، كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق؟

ثم سلب عنهم نفع الصبر الذي كانوا في الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها. فقيل لهم يومئذ: ﴿**فاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا**﴾[الطور: ١٦]، كلاهما سواء عليكم لا يجدي عنكم الصبر ولا الجزع، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب. ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة.

ثم اعلموا بأن الرب ـ تعالى ـ لم يظلمهم بذلك، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذابا، فلم يجدوا من اقترانهم به بدًّا، بل صارت عذابا لازما لهم، كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم، ولزوم العذاب لأهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة، والعقائد الباطلة وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا. فإذا زال ذلك باللزوم في وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالا كليًّا لم يعذبوا عليه في الآخرة، لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، ولم يبق له أثر يترتب عليه، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها، وإن لم تزل

تلك الإرادة والأعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض. وغلب الأقوى الأضعف، وإن تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما الآخر، وكان محل صاحبه جبال الأعراف بين الجنة والنار، فهذا حكم الله وحكمته في خلقه، وأمره ونهيه وعقابه، ولا يظلم ربك أحدًا.

ثم ذكر - سبحانه - أرباب العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون، فذكر مساكنهم وهم في الجنان، وحالهم في المساكن وهو النعيم. وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم: ﴿**فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ**﴾[الطور: ١٨] والفاكه: المعجب بالشيء المسرور المغتبط به، وفعله فكه - بالكسر - يفكه فهو فكه، وفاكه إذا كان طيب النفس، والفاكه البال، ومنه الفاكهة وهي المرح الذي ينشأ عن طيب النفس، وتفكهت بالشيء. إذا تمتعت به، ومنه الفاكهة التي يتمتع بها ومنه قوله: ﴿**فَظَلْتُم تَفَكَّهُونَ**﴾[الواقعة: ٦٥] قيل: معناه تندمون وهذا تفسير يلازم المعنى وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه وإذا زال التفكه خلفه ضده يقال: تحنث إذا زال الحنث عنه، وتحرج، وتحوب وتأثم. ومنه تفكه. وهذا البناء يقال للداخل في الشيء: كتعلم وتحلم، وللخارج منه: كتحرج وتأثم.

والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم فوقاهم مما يكرهون، وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقًا؛ لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب، فكان جزاؤهم مطابقًا لأعمالهم. ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله ﴿**هنيئًا**﴾ فإنهم لو علموا زواله وانقطاعه لنغص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هناء لهم.

ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال: ﴿**مُتَّكِئِينَ عَلَىَ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ**﴾[الطور: ٢٠]، وفي ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض، ومقابلة بعضهم بعضا. كما قال تعالى: ﴿**مُتَّكِئِينْ عَلَيهَا مُتَقَابِلِين**﴾[الواقعة: ١٦]، فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه، ولا يكون بعيدًا منه، قد حيل بينه وبينه، بل سريره إلى جانب سرير من يحبه.

وذكر أزواجهم وأنهم الحور العين، وقد تكرر وصفهم في القرآن بهاتين

الصفتين، قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجًا كما يزوج البعل بالبعل، جعلناهم اثنين اثنين. وقال يونس: قرناهم بهن. وليس من عقد التزويج. واحتج على هذا بأن العرب لا تقول: تزوجت بها، وإنما تقول: تزوجتها. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾[الأحزاب:٣٧]، وفي الحديث: «**زوجتكها بما معك من القرآن**» وقال غيره: العرب تقول: تزوجت بامرأة، وقال الأزهري: العرب تقول: زوجته امرأة، وتزوجت امرأة، ليس في كلامهم تزوجت بامرأة، ومنه قوله - تعالى -: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾[الطور: ٢٠] أي قرناهم وعلى هذا فزوجناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع أي شفعناهم وقرناهم بهن. وقالت طائفة، منهم مجاهد: زوجناهم بهن أي: أنكحناهم إياهن. قلت: وعلى هذا فتلويح فعل التزويج قد دل على النكاح وتعديته بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم، فالقولان واحد. والله أعلم.

وأما الحور العين، فقال مجاهد: التي يحار فيها الطرف باديًا مُخُّ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون. وقال قتادة بحور، أي بيض. وكذا قال ابن عباس.

وقال مقاتل: الحور البيض الوجوه، العين: الحسان الأعين. وعين حوراء: شديدة السواد، نقية البياض، طويلة الأهداب مع سوادها، كاملة الحسن، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد. فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة، كما قال: ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾[الرحمن: ٧٠] فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهن. وقد وصف الله - سبحانه - نساء أهل الجنة بأحسن الصفات، ودل بها وصف بها سكت عنه. . .

(١)**ثم** أخبر - سبحانه - عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة، وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم، ويتم سرورهم وفرحهم. وأخبر - سبحانه - أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى، بل ألحق الأبناء بالآباء، ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم.

ثم أخبر - سبحانه - أن هذا إنما هو فعله في أهل الفضل، وأما أهل العدل فلا

(١) ١٧٣ التبيان.

يفعل بهم ذلك، بل ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾. [الطور: ٢١]. ففي هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الإلحاق، كما في قوله: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِن عَمَلِهِم مِنْ شَيْءٍ﴾[الطور: ٢١] دفع لتوهم حط الآباء إلى درجة الأبناء، وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء فينقص أجر أعمالهم فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وما أَلَتْناهُم مِن عَمَلِهِم مِن شَيْءٍ﴾ أي ما نقصناهم.

(١)**قوله** ـ تعالى ـ: ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الطور: ٢١] فهذه الآية تدل على أن الله ـ سبحانه ـ يلحق ذرية المؤمنين بهم في الجنة، وأنهم يكونون معهم في درجتهم. ومع هذا فلا يتوهم نزول الآباء إلى درجة الذرية، فإن الله لم يلتهم ـ أى لم ينقصهم ـ من أعمالهم شيئًا، بل رفع ذرياتهم إلى درجاتهم مع توفير أجور الآباء عليهم، ولما كان إلحاق الذرية بالآباء في الدرجة إنما هو بحكم التبعية لا بالأعمال، ربما توهم متوهم أن ذرية الكفار يلحقون بهم في العذاب تبعًا وإن لم يكن لهم أعمال الآباء، فقطع تعالى هذا التوهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ﴾. [الطور: ٢١]، وتأمل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بإيمانٍ﴾. [الطور: ٢١]. كيف أتى بالواو العاطفة في اتباع الذرية وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شأنهم، فجعل الخبر مستحقًا بأمرين: أحدهما إيمان الآباء، والثاني اتباع الله ذريتهم إياهم، وذلك لا يقتضي أن كل مؤمن يتبعه كل ذرية له، ولو أريد هذا المعنى لقيل: والذين آمنوا تتبعهم ذرياتهم، فعطف الاتباع بالواو يقتضي أن يكون المعطوف بها قيدا وشرطا في ثبوت الخبر، لا حصوله لكل أفراد المبتدأ. وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: أُتى النبي، ﷺ، بصبي من الأنصار يصلي عليه. فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، لم يعمل شرًّا، ولم يدره. قال: «**او غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلًا، وخلقها لهم. وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلًا، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم**». فهذا الحديث يدل على أنه لا يشهد لكل طفل من أطفال المؤمنين بالجنة، وإن أطلق على أطفال المؤمنين في الجملة أنهم في الجنة، ولا يشهد لمعين بذلك إلا من شهد له النبي ﷺ. فهذا وجه

(١) ٣٩٦ طريق الهجرتين.

الحديث الذي يشكل على كثير من الناس، ورده الامام أحمد وقال: لا يصح . ومن يشك أن أولاد المسلمين في الجنة؟ وتأوله قوم تأويلات بعيدة. . .

(١)**ومن** ذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿**والَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ ألحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ**﴾. [الطور: ٢١]. ولما أخبر ـ سبحانه ـ بإلحاق الذرية ولا عمل لهم بأبائهم في الدرجة فربما توهم متوهم أن يحط الآباء إلى درجة الذرية فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿**وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ**﴾ أي: ما نقصنا من الآباء شيئًا من أجور أعمالهم بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم، ولم نحطهم إلى درجتهم بنقص أجورهم، ولما كان الوهم قد يذهب إلى أنه يفعل ذلك بأهل النار كما يفعله بأهل الجنة قطع هذا الوهم بقوله ـ تعالى ـ: ﴿**كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾[الطور: ٢١]، ومن هذا قوله تعالى: ﴿**إنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ**﴾[النمل: ٩١]، فلما كان ذكر ربوبيته البلدة الحرام قد يوهم الاختصاص عقبه بقوله ﴿**وله كل شيء**﴾ ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلى الله فَهُوَ حَسْبُهُ إنَّ الله بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾[الطلاق: ٣]. فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجيل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله: ﴿**قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾، أى وقتًا لا يتعداه فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له، فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئًا ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدره له، وهذا كثير جدًّا في القرآن والسنة، وهو باب لطيف من أبواب فهم النصوص.

(٢)...**ومن** ذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿**والذين آمنوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمان ألحَقْنَا بِهِمْ** ذُرِّيَّتَهُم وَمَا أَلَتْنَاهُم مِن عَمَلِهِم مِّن شيء كُلُّ أمرىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]. فتأمل كم في هذا الكلام من رفع إيهام. منها قوله ﴿**وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإيمَانٍ**﴾ لئلا يتوهم أن الاتباع في نسب أو تربية أو حرية أو رق أو غير ذلك.

ومنها قوله ﴿**وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ لرفع توهم أن الآباء تحط إلى درجة الأبناء ليحصل الإلحاق والتبعية. فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿**ومَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ**

(١) ١٦٠ أعلام جـ٤. (٢) ٧٠ مختصر الصواعق جـ١.

عَمَلِهِمْ﴾ أي ما نقصنا الآباء بهذا الاتباع شيئًا من عملهم، بل رفعنا الذرية إليهم قرةً لعيونهم وإن لم يكن لهم أعمال يستحقون بها تلك الدرجة.

ومنها قوله: ﴿**كُلُّ امْرِىءِ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾ فلا يتوهم متوهم أن هذا الاتباع حاصل في أهل الجنة وأهل النار، بل هو للمؤمنين دون الكفار، فإن الله ـ سبحانه ـ لا يعذب أحدًا إلا بكسبه وقد يثيبه من غير كسبه.

ومنها قوله: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا**﴾[الأحزاب: ٣٢]، فلما أمرهن بالتقوى التي شأنها التواضع ولين الكلام نهاهن عن الخضوع بالقول لئلا يطمع فيهن ذو المرض. ثم أمرهن بعد ذلك بالقول المعروف دفعًا لتوهم الإذن في الكلام المنكر. لما نهين عن الخضوع بالقول. ومنه قوله تعالى: ﴿**وكُلوا واشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**﴾[البقرة: ١٨٧]، فرفع توهم فهم الخيطين من الخيوط بقوله: ﴿**مِنَ الْفَجْرِ**﴾ ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿**لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ**﴾ [التكوير: ٢٨] فلما أثبت لهم مشيئة فلعل متوهمًا يتوهم استقلالهم بها فأزال ـ سبحانه ـ ذلك بقوله: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ**﴾ [التكوير: ٢٩][1].

فصل[2]

في ارتقاء العبد وهو في الجنة من درجة إلى درجة أعلى منها

قال الإمام أحمد ثنا يزيد أنبأنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، ﷺ: «**إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يارب أنَّىٰ لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك**».

فصل

في إلحاق ذرية المؤمن به في الدرجة وإن لم يعملوا عمله

قال ـ تعالى ـ: ﴿والَّذِينَ آمَنُوا واتَّبعتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلحقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم ومَا أَلَتْنَاهُم مِّن عَمَلِهِم مِّن شَيْء كُلُّ امرىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾. [الطور: ٢١]. وروى قيس عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال، **قال رسول الله، ﷺ: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته وإن كانوا دونه في**

(١) هذا المبحث فيه فوائد كثيرة قبله وبعده. (ج)

(٢) ٢٨٥ حادي الأرواح.

العمـل لتقـربهم عينه ثم قرأ ﴿والَّذِينَ آمنوا واتَّبعتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ أَلحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم وما أَلَتْنَاهُم مِّن عَمَلِهِم من شَيْءٍ﴾ قال: ما نقصنا الآباء مما أعطينا البنين» (وذكر) ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال شريك أظنه حكاه عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: **«إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك أو عملك فيقول يارب قد عملت لى ولهم فيؤمر بالإلحاق بهم ثم تلا ابن عباس ﴿والَّذِينَ آمنوا وأَتَّبَعتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ﴾** إلى آخر الآية.

وقد اختلف المفسرون في الذرية في هذه الآية: هل المراد بها الصغار أو الكبار أو النوعان؟ على ثلاثة أقوال، واختلافهم مبنى على أن قوله: **﴿بإيمان﴾** حال من الذرية التابعين أو المؤمنين المتبوعين فقالت طائفة: المعنى والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمانهم، فأتوا من الإيمان بمثل ما أتوا به ألحقناهم بهم في الدرجات.

قالوا: ويدل على هذا قراءة من قرأ: **﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾**. [الطور: ٢١] **فجعل** الفعل في الاتباع لهم. قالوا: وقد أطلق الله ـ سبحانه ـ الذرية على الكبار كما قال: **﴿ومن ذُرِّيَّتِـه داودَ وسُلَيْـمانَ﴾**[الأنعام: ٨٤]، وقـال: **﴿ذُرِّيَّـةَ من حَمَلْنـا مَعَ نُوحٍ﴾**[الإسراء: ٣]، وقال: **﴿وكُنَّا ذُرِّيَّة مِن بَعْدِهم أَفَتُهْلِكُنَا بما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾** [الأعراف: ١٧٣] وهذا قول الكبار العقلاء. قالوا: ويدل على ذلك مارواه سعيد بن جبير عن ابن عباس يرفعه: **«إن الله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقرّبهم عينه»** فهذا يدل على أنهم دخلوا بأعمالهم، ولكن لم يكن لهم أعمال يبلغوا بها درجة آبائهم فبلغهم إياها وإن تقاصر عملهم عنها. قالوا: وأيضًا فالإيمان هو القول والعمل والنية، وهذا إنما يمكن من الكبار.

وعلى هذا فيكون المعنى أن الله ـ سبحانه ـ **يجمع ذرية المؤمن إليه إذا أتوا من الإيمان بمثل إيمانه إذ هذا حقيقة التبعية وإن كانوا دونه في الإيمان رفعهم الله إلى درجته إقرارًا لعينه وتكميلاً لنعيمه وهذا كما أن زوجات النبي ﷺ معه في الدرجة تبعًـا وإن لم يبلغـوا تلك الـدرجة بأعمالهن. وقالت طائفة أخري: الذرية ههنا الصغـار، والمعنى: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمان الآباء والذرية تتبع الآبـاء وإن كانـوا صغارًا في الإيمان وأحكامه من الميراث والدية والصلاة عليهم**

والدفن في قبور المسلمين وغير ذلك إلا فيما كان من أحكام البالغين ويكون قوله بإيمان على هذا في موضع نصب على الحال من المفعولين أي وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان الآباء. قالوا: ويدل على صحة هذا القول أن البالغين لهم حكم أنفسهم في الثواب والعقاب، فإنهم مستقلون بأنفسهم ليسوا تابعين الآباء في شيء من أحكام الدنيا ولا أحكام الثواب والعقاب لاستقلالهم بأنفسهم ولو كان المراد بالذرية البالغين لكان أولاد الصحابة البالغون كلهم في درجة آبائهم وتكون أولاد التابعين البالغون كلهم في درجة آبائهم وهلم جرا إلى يوم القيامة فيكون الآخرون في درجة السابقين، قالوا: ويدل عليه أيضًا أنه ـ سبحانه ـ جعلهم معهم تبعًا في الدرجة كما جعلهم تبعًا معهم في الإيمان ولو كانوا بالغين لم يكن إيمانهم تبعًا بل إيمان استقلال. قالوا: ويدل عليه أن الله ـ سبحانه ـ جعل المنازل في الجنة بحسب الأعمال في حق المستقلين، وأما الأتباع فإن الله ـ سبحانه ـ يرفعهم إلى درجة أهليهم وإن لم يكن لهم أعمالهم كما تقدم، وأيضًا فالحور العين والخدم في درجة أهليهم وإن لم يكن لهم عمل بخلاف المكلفين البالغين، فإنهم يرفعون إلى حيث بلغتهم أعمالهم. وقالت فرقة منهم الواحدي: الوجه أن تحمل الذرية على الصغار والكبار لأن الكبير يتبع الأب بإيمان نفسه والصغير يتبع الأب بإيمان الأب. قالوا: والذرية تقع على الصغير والكبير والواحد والكثير والابن والأب، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] أي: آباءهم. والإيمان يقع على الإيمان التبعي وعلى الاختياري الكسبي، فمن وقوعه على التبعي قوله: ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ [النساء: ٩٢]. فلو أعتق صغيرًا جاز. قالوا: وأقوال السلف تدل على هذا، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: **إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عيونهم»** ثم قرأ هذه الآية، وقال ابن مسعود في هذه الآية: الرجل يكون له القدم ويكون له الذرية فيدخل الجنة فيرفعون إليه لتقر بهم عينه وإن لم يبلغوا ذلك. وقال أبومجلز: يجمعهم الله له كما كان يحب أن يجتمعوا في الدنيا. وقال الشعبي: أدخل الله الذرية بعمل الآباء الجنة. وقال الكلبي عن ابن عباس: إن كان الآباء أرفع درجة من الأبناء رفع الله الأبناء إلى الآباء. وإن كان الأبناء أرفع درجة من الآباء رفع الله الآباء إلى الأبناء،

وقال إبراهيم: أعطوا مثل أجور آبائهم ولم ينقص الآباء من أجورهم شيئًا، قال: ويدل على صحة هذا القول أن القراءتين كالآيتين فمن قرأ: ﴿**واتبعتهم ذريتهم**﴾ فهذا من حق البالغين الذين تصح نسبة الفعل إليهم كما قال تعالى: ﴿**والسَّابِقُونَ الأَوَّلُـون مِنَ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسانٍ**﴾ [التوبة: ١٠٠] ومن قرأ: ﴿**وأتبعنـاهم ذريـاتهم**﴾ فهذا في حق الصغار الذين أتبعهم الله إياهم في الإيمان حكـمًا فدلت القـرآءتـان على النـوعين. قلت: واختصاص الذرية ههنا بالصغار أظهر لئلا يلزم استواء المتأخرين والسابقين في الدرجات، ولا يلزم مثل هذا في الصغار، فإن أطفال كل رجل وذريته معه في درجته، والله أعلم.

(١) **قال** الله تعالى: ﴿**وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُون**﴾ [الطور: ٢٢] وقال: ﴿**ولَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُون**﴾ [الواقعة: ٢١] وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ «**سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة: اللحم**» ومن حديث بريدة يرفعه «**خير الإدام في الدنيا وأهل الجنة: اللحم**» وفي الصحيح عنه ﷺ: «**فضل عائشة على سائر النساء: كفضل الثريد على سائر الطعام**» والثريد: الخبز واللحم. قال الشاعر(٢):

إذا مـا الخـبـزَ تأدُمـه بلحـم … فـذاك ـ أمانـةَ الله ـ الثريـد

وقال الزهري: أكل اللحم يزيد سبعين قوة. وقال محمد بن واسع: اللحم يزيد في البصر. ويروي عن علي بن أبي طالب «كلوا اللحم، فإنه يصفي اللون، ويُخْمِصُ البطن، ويُحسِّن الخلق» وقال نافع: كان ابن عمر إذا كان رمضان لم يفته اللحم، وإذا سافر لم يفته اللحم، ويذكر عن علي «من تركه أربعين ليلة ساء خلقه» وأما حديث عائشة الذي رواه أبوداود مرفوعًا «**لاتقطعوا اللحم بالسكين: فإنه من صنيع الأعاجم، وانْهَسُوْه نَهْسًا، فإنه أهنأ وأمرأ**»(٣) فرده الإمام أحمد بما صح عنه ﷺ من قطعه اللحم بالسكين في حديثين وقد تقدما.

(٤) **قال الله ـ تعالى ـ**: ﴿**ولَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ**﴾ [الواقعة: ٢١] وفي مسند البزار وغيره مرفوعًا: «**إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه، فيخر مشويًا بين يديك**» ومنـه حلال، ومنـه حرام. فالحـرام: ذو المخلب كالصقـر والبازي والشاهين،

(١) ٣٩١ زاد المعاد جـ٣. (٢) وهو ابن برى، كما في اللسان.

(٣) قال المنذري (٥: ٤: ٣ حديث ٣٦٣٠) في إسناده: أبومعشر السدي المدني واسمه نجيح. كان يحيى بن سعيد القطان لايحدث عنه ويستضعفه جدًا. (٤) ٣٩٧ زاد المعاد جـ٣.

ومايأكل الجيف كالنسر والرَّخَم، واللقلق، والعقعق، والغراب الأبقع والأسود الكبير. وما نهى عن قتله، كالهدهد والصُّرَد، وما أمر بقتله كالحدأة، والغراب.

والحلال أصناف كثيرة، فمنه: الدَّجاج. ففي الصحيحين من حديث أبي موسى «**أن النبي ﷺ أكل لحم الدجاج**» وهو حار رطب في الأولى، خفيف على المعدة سريع الهضم، جيد الخلط، يزيد في الدماغ والمني، ويصفي الصوت. ويحسن اللون، ويقوي العقل، ويولد دمًا جيدًا، وهو مائل إلى الرطوبة، ويقال: إن مداومة أكله تورس النقرس ولايثبت ذلك، ولحم الديك أسخن مزاجًا وأقل رطوبة، والعتيق منه دواء. ينفع القولنج والربو والرياح الغليظة إذا طبخ بماء القرطم، والشبَت، وخصيها محمود الغذاء، سريع الانهضام، والفراريج: سريعة الهضم ملينة للطبع، والدم المتولد منها دم لطيف جدًّا.

(1)**ثم** ذكر إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب، وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم، يشرب أحدهم ويناول صاحبه ليتم بذلك فرحهم وسرورهم.

ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من الغلو من أهله عليه ولحوق الإثم لهم فقال: ﴿**لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ**﴾ [الطور: ٢٣] فنفى باللغو السباب، والتخاصم، والهجر والفحش في المقال، والعربدة. ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**ولا تأثيم**﴾ ولم يقل ولا إثم، أي: ليس فيها مايحملهم على الإثم، ولا يؤثم بعضهم بعضًا بشربها، ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأثمون. قال ابن قتيبة: لا يذهب بعقولهم فيلغوا، ولم يقع منهم مايؤثمهم.

ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم، والمكنون: المصون الذي لاتدنسه الأيدي، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن، وذلك اللون والصفاء والبهجة. بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون، ووصفهم في موضع آخر ﴿**إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا**﴾ [الإنسان: ١٩] ففي ذكره المنثور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم، وذهابهم، ومجيئهم وسعة المكان، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ مايتحدثون به هناك وأنهم يقولون: ﴿**إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا**

(١) **١٧٣** التبيان.

مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] أي: كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر. فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن مَنَّ الله علينا، فأمنا مما نخاف ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسرورًا. فهذا كان مسرورًا مع إساءته. وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم. فبدل الله ـ سبحانه ـ إشفاقهم بأعظم الأمن، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف. فبالله سبحانه المستعان. ثم أخبر عن حالهم في الدنيا. وأنهم كانوا يعبدون الله فيها. فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره، ومحل كرامته، والذي جمع لهم ذلك كله بره ورحمته؛ فإنه هو البر الرحيم، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة والله أعلم.

فصل(١)

في ارتفاع العبادات في الجنة إلا عبادة الذكر فإنها دائمة

روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «**يأكل أهل الجنة فيها، ويشربون، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون، ولا يبولون، ويكون طعامهم ذلك جشاء ورشحًا: كرشح المسك، يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس**». وفي رواية «**التسبيح والتكبير كما تلهمون**» بالتاء المثناة من فوق، أي: تسبيحهم وتحميدهم يجري مع الأنفاس كما تلهمون أنتم النفس.

فصل

في تذاكر أهل الجنة ماكان بينهم في دار الدنيا

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قال قَائِلٌ مِّنْهُمْ إنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ الآيات، وقد تقدم الكلام عليها وقال تعالى: ﴿وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُون * قالوا إنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٥ ـ ٢٧] وذكر ابن أبي الدنيا من حديث الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس يرفعه: «**إذا دخل أهل الجنة فيشتاق الأخوان بعضهم إلى بعض فيسير سرير هذا إلى سرير هذا وسرير هذا إلى سرير هذا، حتى يجتمعا جميعًا فيتكىء هذا، ويتكىء هذا فيقول أحدهما لصاحبه: تعلم متى غفر الله لنا؟**

(١) ٢٩١ حادي الأرواح.

فيقول صاحبه: نعم يوم كذا وكذا، في موضع كذا وكذا فدعونا الله، فغفر لنا» وإذا تذكروا ما كان بينهم فتذاكرهم فيما كان يشكل عليهم في الدنيا من مسائل العلم وفهم القرآن والسنة وصحة الأحاديث أولى وأحرى فإن المذاكرة في الدنيا في ذلك ألذ من الطعام والشراب والجماع، فتذاكر ذلك في الجنة أعظم لذة وهذه لذة يختص بها أهل العلم ويتميزون بها على من عداهم.

(١)**وقال** تعالى: ﴿وأَقْبَلَ بَعْضُهم على بَعْضٍ يَتَسآءَلُون * قالوا إنَّا كُنَّا قَبْلُ في أهلنا **مُشْفِقِين فَمَنَّ الله علينا ووَقَانَا عذابَ السَّمُوم * إنا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إنَّه هُوَ البَرُّ الرَّحِيمُ**﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٨] وقال الطبراني حدثنا الحسن بن إسحاق حدثنا سهل بن عثمان حدثنا المسيب بن شريك عن بشر بن نمير عن القاسم عن أبي أمامة، قال: سئل رسول الله ﷺ: أيتزاور أهل الجنة؟ قال: «**يزور الأعلى الأسفل، ولا يزور الأسفل الأعلى إلا الذين يتحابون في الله يأتون منها حيث شاؤا على النوق محتقبين الحشايا**»(٢) وقال الدورقي: حدثنا أبوسلمة التبوذكي حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: «بلغنا أن أهل الجنة يزور الأعلى الأسفل ولايزور الأسفل الأعلى» وقد تقدم حديث علقمة بن مرثد عن يحيى بن إسحاق عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبدوس حدثنا الحسن بن حماد حدثنا جابر بن نوح عن واصل بن السائب عن أبي سورة عن أبي أيوب يرفعه «**إن أهل الجنة يتزاورون على النجائب**» وقد تقدم فأهل الجنة يتزاورون فيها ويستزير بعضهم بعضًا، وبذلك تتم لذتهم وسرورهم ولهذا قال حارثة للنبي ﷺ وقد سأله: «**كيف أصبحت ياحارثة؟** قال: أصبحت مؤمنًا حقًا، قال: «**إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟**» قال: عزفت(٣) نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يعذبون فيها، فقال: «**عبد نور الله قلبه**» وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عبدالله حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا سعيد بن دينار عن الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاق**

---

(١) ١٨٦ حادي الأرواح.
(٢) أي جعلوا وراءهم الفرش، والحشايا الفرش واحدها حشية.
(٣) عزفت نفسي عن الدنيا أي كرهتها وعافتها ويروى عزفت بضم التاء أي منعتها وصرفتها.

الأخوان بعضهم إلى بعض، قال: فيسير سرير هذا إلى سرير هذا وسرير هذا إلى سرير هذا حتى يجتمعا فيقول أحدهما لصاحبه: تعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا»...

(١)...**وأما** قوله ـ تعالى ـ: **﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّه هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾** فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة والمعنى: إنا كنا من قبل نخلص له العبادة وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره فإن الله ـ سبحانه ـ يسأل من في السموات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي باخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب.

(٢)**ومن** هذا احتجاجه ـ سبحانه ـ على المشركين بقوله ـ تعالى ـ: **﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾** [الطور: ٣٥، ٣٦] فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأوضح عبارة يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل عاقل. ثم قال ـ تعالى ـ: **﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾** وهذا أيضًا من المستحيل أن يكون العبد خالقًا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، كيف يكون خالقًا لنفسه؟ وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقًا خلقهم فهو الإلٰه الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون إلٰهًا غيره وهو وحده الخالق لهم؟

فإن قيل: فما موقع قوله ـ تعالى ـ: **﴿أَمْ خَلَقُوا السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ﴾** من هذه الحجة؟ قيل: أحسن موقع، فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقًا فاطرًا وبين بالقسم الثالث: أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفسوهم ولم يخلقوا السموات والأرض، وأن الواحد القهار الذي لا إلٰه غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض، فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطور

والحمد لله رب العالمين

(١) ٥ بدائع جـ٣.

(٢) ١١٠ مختصر الصواعق جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

فصـــل (١)

ثم أُسْرِيَ برسول الله ﷺ ـ بجسده على الصحيح ـ من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبا على البراق صحبة جبرائيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ. فنزل هناك وصلًّى بالأنبياء إمامًا، وربط البُراق بحلْقة باب المسجد، وقد قيل: إنه نزل ببيت لحم وصلى فيه، ولم يصح ذلك عنه ألبتة. ثم عُرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبرائيل، ففتح له.

فرأى هنالك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرد عليه السلام، ورحب به، وأقر بنبوته، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره.

ثم عُرج به إلى السماء الثانية، فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم. فلقيهما، وسلم عليهما فردًّا عليه، ورحبا به، وأقرا بنبوته. ثم عُرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف. فسلم عليه فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته. ثم عُرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس. فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته. ثم عُرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران. فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقى فيها موسى بن عمران. فسلّم عليه، فرد عليه ورحّب به، وأقرّ بنبوته. فلما جاوزه بكى موسى. فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكى، لأن غلامًا بُعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثرُ مما يدخلها من أمتي.

ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقى فيها إبراهيم. فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته. ثم رُفع إلى سِدْرة المنتهى. ثم رفع له البيت المعمور.

ثم عُرج به إلى الجبار ـ جل جلاله ـ فدنا منه، حتى كان قاب قَوْسين أو أدنى. **فأوحى** إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة. فرجع حتى مرّ على

---

(١) ١٢٥ زاد المعاد جـ٢.

موسى، فقال له: «بِمَ أُمرت؟ قال: بخمسين صلاة. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلكَ. ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل ـ كأنه يستشيره في ذلك ـ فأشار: أن نعم، إن شئت، فعلا به جبرائيل، حتى أتى به الجبار ـ تبارك وتعالى ـ وهو مكانه(١)ـ هذا لفظ البخاري في بعض الطرق ـ فوضع عنه عشرًا، ثم أنزل حتى مرّ بموسى فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف، فلم يزل يتردّد بين موسى وبين الله ـ عز وجل ـ حتى جعلها خمساً: فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال قد استحييت من ربي، ولكن أرضى وأسلم. فلما بعد نادى منادٍ: قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي».

واختلف الصحابة: هل رأى ربه تلك الليلة أم لا؟ فصح عن ابن عباس «أنه رأى ربه» وصح عنه أنه قال: «رآه بفؤاده» وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقالا: إن قوله: **﴿وَلَقَدْ رآهُ نَزْلَةً أُخْرى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾** [النجم: ١٣، ١٤]. إنما هو جبريل» وصح عن أبي ذرٍّ: أنه سأله: «هل رأيت ربك؟ فقال: «**نور، أنَّى أراه؟**» أي حال بيني وبين رؤيته النور، كما قال في لفظ آخر: «**رأيت نورًا**» وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي إتفاق الصحابة على أنه لم يره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، قدس الله روحه: وليس قول ابن عباس: «إنه رآه» مناقضًا لهذا، ولا قوله «رآه بفؤاده» وقد صح عنه أنه قال: «**رأيت ربي تبارك وتعالى**» ولكن لم يكن هذا في الإسراء، ولكن كان في المدينة لما احتُبِس عنهم في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤية ربه ـ تبارك وتعالى ـ تلك الليلة في منامه. وعلى هذا بنى الإمام أحمد، وقال: «نعم، رآه حقًّا، فإن رؤيا الأنبياء حق، ولابد» ولكن لم يقل أحمد: إنه رآه بعيني رأسه يقظة. ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال مرة: «رآه» ومرة قال: «رآه بفؤاده» فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه «أنه رآه بعيني رأسه» وهذه نصوص أحمد

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد. وقد شرحه الحافظ في الفتح (ج ١٣ ص٣٦٨ـ٣٧٥) وذكر اعتراضات الخطابي وابن حزم وغيرهما على شريك في روايته لألفاظ في هذا الحديث تفرد بها: ومنها هذا الموضع. وقد أجاب الحافظ عن هذه الاعتراضات، واستظهر أن المقصود النبي، ﷺ، وأنه بقي في مقامه الأول الذي قام فيه قبل هبوطه.

موجودة، ليس فيها ذلك. وأما قول ابن عباس: «إنه رآه بفؤاده مرتين» فإن كان استناده إلى قوله تعالى: ﴿ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رَأى﴾ [النجم:١١]. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآه نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم:١٣]، والظاهر أنه مستنده - فقد صح عنه ﷺ: أن هذا المْرِئيَّ جبريل، رآه مرتين في صورته التي خُلق عليها. وقول ابن عباس هذا، هو مستند الإمام أحمد في قوله: «رآه بفؤاده» والله أعلم.

وأما قولـه تعالى في سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم:٨] فهو غير الدنو والتدلي في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم: هو دُنو جبريل وتَدَلِّيه، كما قالت عائشة وابن مسعود. والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿عَلَّمَه شَدِيدُ القُوَىٰ﴾ [النجم:٥]، وهو جبريل ﴿ذو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٦-٨]. فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوي. وهو ذو المِرّة - أى القوة - وهو الذي استوى بالأفق الأعلى. وهو الذي دنا فتدلى، فكان من محمد ﷺ قَدْر قاب قَوْسين أو أدنى، فأما الدنو والتدلي الذي في حديث الإسراء: فذلك صريح في أنـه دنـو الـرب - تبارك وتعالى - وتدليه، ولا تَعَرُّضَ في سورة النجم لذلك، بل فيها: أنه «رآه نَزْلة أخرى، عند سِدْرة المُنْتَهىَ» وهذا هو جبريل، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين: مرةً في الأرض، ومرةً عند سدرة المنتهى. والله أعلم.

فصـــل

فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه: أخبرهم بما أراه الله - عز وجل - من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم، وضراوتهم عليه، وسألوه: أن يصف لهم بيت المقدس؟ فجلّاه الله له، حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئا. وأخبرهم عن عِيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها. وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها. فكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلا نفورا، وأبى الظالمون إلا كفورا.

(١)**قوله** تعالى: ﴿والنَّجْمِ إذا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ومَا غَوَى * ومَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٣]، أقسم - سبحانه - بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله

---

(١) ١٥٢ التبيان.

وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغى. واختلف الناس في المراد بالنجم: فقال الكلبى، عن ابن عباس: أقسم بالقرآن إذا نزل منجما على رسوله: أربع آيات، وثلاثا، والسورة. وكان بين أوله وآخره عشرون سنة(١).

وكذلك روى عطاء عنه وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد، واختاره الفراء. وعلى هذا فسمى القرآن نجما، لتفرقه في النزول. والعرب تسمى التفرق تنجما، والمفرق نجما، ونجوم الكتاب أقساطها، ويقول: جعلت مالى على فلان نجوما منجمة كل نجم كذا وكذا وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها، فيقولون: إذا طلع النجم ـ يريدون الثريا ـ حل عليك الدين. ومنه قول زهير، في دية جعلت نجوما على العاقل:

ينجمها قوم لقوم غرامة ** ولم يهرقوا ما بينهم ملء محجم

ثم جعل كل تنجم تفريقا وإن لم يكن موقتا بطلوع نجم. وقوله: (هوي) على هذا القول، أي: نزل من أعلى إلى أسفل. قال أبو زيد: هوت العقاب تهوى هويا ـ بفتح الهاء ـ إذا انقضت على صيد أو غيره. وكذلك قال ابن الأعرابي. وفرق بين الهوى لقوله:

والدلو في أصعادها عجل الهوي.

وقال الليث: العامة تقول الهوى ـ بالضم ـ في مصد هوى يهوى وكذلك قال الأصمعي: هوى يهوى هو بفتح الهاء، إذا سقط إلى أسفل. قال. وكذلك الهوي في السير إذا مضى.

وههنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد بن حزم أقبح غلط فذكر في أسماء الرب تعالى الهوي بفتح الهاء واحتج بما في الصحيح، من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده «**سبحان ربي الأعلى**» الهوي. فظن أبو محمد: أن الهوى صفة للرب وهذا من غلطه رحمه الله. وإنما الهوي على وزن فعيل اسم لقطعة من الليل. يقال: مضى هويّ من الليل، على وزن فعيل. ومضى هزيع منه، أي: طرف وجانب، وكان يقول: «**سبحان ربي الأعلى**» في قطعة من الليل

(١) كذا في الأصل والصواب هو ثلاث وعشرون سنة أ. هـ. (ج).

وجانب منه. وقد صرحت بذلك في اللفظ الآخر. فقالت: كان يقول: «**سبحان ربي الأعلى**» الهوي من الليل.

عدنا إلى قوله: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ**﴾ وقال ابن عباس، في رؤية علي بن أبي طلحة، وعطية: يعني الثريا إذا سقطت وغابت، وهو الرواية الأخرى عن مجاهد. والعرب إذا أطلقت النجم تعنى به الثريا. قال: فباتت تعد النجم وقال أبو حمزة اليماني: يعني النجوم إذا انتشرت يوم القيامة. وقال ابن عباس، في رواية عكرمة: يعني النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع. وهذا قول الحسن. وهو أظهر الأقوال ويكون ـ سبحانه ـ قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله ـ سبحانه ـ آية وحفظًا للوحي من استراق الشياطين له على أن ما أتى به رسوله حق وصدق، لاسبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوى رصدا بين يدي الوحي، وحرسا له، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور. وفي المقسم به دليل على المقسم عليه.

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هويا. ولا عهد في القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ عليه. وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت. وليس بالبين أيضًا القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة. بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً، لعدم ظهوره للمخاطبين، ولا سيما منكروا البعث، فإنه ـ سبحانه ـ إنما استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، فأظهر الأقوال قول الحسن. والله أعلم.

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب مالا يخفى؛ فإن النجوم التي ترمى الشياطين آيات من آيات الله، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله، بها ظهر دينه وشرعه، وأسماؤه، وصفاته وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدما وحرسًا لهذه النجوم الهاوية. ونفى ـ سبحانه ـ عن رسوله الضلال المنافي للهدى، والغي المنافي للرشاد. ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد. فالهدى في علمه، والرشاد في علمه.

وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد، وبهما سعادته وفلاحه. وبهما وصف

النبي، ﷺ خلفاءه، فقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»[1].

فالراشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال، وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو صاحب الهدى ودين الحق، ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي إلا على أجهل خلق الله، وأعماهم قلبًا، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية. ولله در القائل:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ** إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فالناس أربعة أقسام: ضال في علمه، غاو في قصده وعمله. وهؤلاء شرار الخلق، وهم مخالفو الرسل. الثاني مهتد في علمه غاو في قصده وعمله، وهؤلاء هم الأمة الغضبية[2] ومن تشبه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به. الثالث ضال في علمه، ولكن قصده الخير. وهو لا يشعر. الرابع مهتد في علمه راشد في قصده. وهؤلاء ورثة الأنبياء. وهم وإن كانوا الأقلين عددًا فهم الأكثرون عند الله قدرًا، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه.

وتأمل كيف قال ـ سبحانه ـ: ﴿ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ﴾ [النجم: ٢]. ولم يقل ما ضل محمد. تأكيدًا لإقامة الحجة عليهم، بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي، ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمرًا واحدًا قط. وقد نبه على هذا المعنى بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٩]. وبقوله ﴿وما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

فصل

ثم قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى. وبهذا الكمال هداه ورشده، وقال: ﴿وما ينطقُ عَنْ الهَوى﴾ ولم يقل وما ينطق بالهوى، لأن نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف

(١) هو من حديث العرباض بن سارية، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) وهي أمة اليهود، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عند اللهِ من لَّعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عليه وجَعَلَ منهُمُ القِرَدَةَ والخَنَازِيْرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٥٩].

ينطق به، فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن نفسه: فنطقه بالحق، ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي ما نطقه إلا وحي يوحى. وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائدًا إلى القرآن. فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة، وأن كليهما وحي يوحى.

وقد احتج الشافعي لذلك، فقال: لعل من حجة من قال بهذا قوله: ﴿وأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ﴾[النساء:١١٣]. قال ولعل من حجته أن يقول: قال رسول الله، ﷺ لأبي الزاني بإمرأة الرجل الذي صالحه على الغنم والخادم: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الغنم والخادم رد عليك**» الحديث[1]. وفي الصحيحين أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر: ليتني أرى رسول الله، ﷺ حين ينزل عليه الوحي، فلما كان بالجعرانة[2] ساله رجل، فقال: كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبته، بعد ما تضمخ بالخلوق فنظر إليه النبي، ﷺ ساعة ثم سكت، فجاء الوحي، فأشار عمر بيده إلى يعلى، فجاء، فأدخل رأسه، فإذا النبي، ﷺ محرم يغط. ثم سرى عنه. فقال: «**أين السائل آنفا؟**» فجيء به، فقال: «**انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك**».

وقال الشافعي: أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن أبي طاووس عن أبيه أن عنده كتابا نزل به الوحي، وما فرض رسول الله ﷺ من صدقه وعقول[3] فإنما نزل به

---

(١) روى أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة، وزيد بن خالد أنهما قالا: إن رجلا من الأعراب أتى رسول الله، ﷺ. فقال: يارسول الله، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله وقال الخصم الآخر ـ وهو أفقه منه ـ نعم فاقض بيننا بكتاب الله، وأئذن لي. فقال رسول الله، ﷺ: «**قل**» قال: إن ابني كان عسيفا على هذا، فزنى بامرأته، وإني أخبرت أن على ابني الرجم، وافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله، ﷺ: «**والذي نفسي بيده**» ـ الحديث ـ إلى أن قال: «**وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام. واغد يا أنيس ـ لرجل من أسلم ـ على امرأة هذا: فإن اعترفت فارجمها**» قال: فغدا عليها، فاعترفت فأمر بها رسول الله، ﷺ فرجمت.

(٢) مكان قريب من مكة نزله ﷺ في عودته من غزوة حنين ومنه أحرم ليعتمر في رجوعه إلى المدينة العمرة الثالثة.

(٣) جمع عقل، وهو الدية.

الـوحي. وذكـر الأوزاعي عن حسـان بن عطية قال: كان جبريل ينـزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياه. وذكر الأوزاعي أيضًا عن أبي عبيد، صاحب سليمان، أخبرني القاسم بن مخيمرة حدثني ابن فضيلة قال: قيل لرسول الله ﷺ: سعِّر لنا. قال: «**لا تسألني عن سنة أحدثها فيكم، لم يأمرني بها، ولكن سلوا الله من فضله**» وابن فضيلة هذا يسمى طلحة. وقد صح عنه أنه قال: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**» وهذا هو السنة بلاشك، وقد قال تعالى: ﴿**وأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ**﴾ [النساء: ١١٣] وهما القرآن والسنة. وبالله التوفيق.

فصـــل

ثم أخـبر ـ تعالى ـ عن وصف من علمه الوحي والقرآن، مما يعلم أنه مضاد لأوصـاف الشيطان معلم الضـلال والغـواية. فقـال: ﴿**عَلَّمَـه شَدِيْدُ القُوىٰ**﴾ [النجم: ٥] وهذا نظير قوله: ﴿**ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ**﴾ [التكوير: ٢٠] وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة. وقوله: ﴿**ذو مِرَّةٍ**﴾ [النجم: ٦] أي جميل المنظر حسن الصورة ذو جلالة. ليس شيطانا أقبح خلق الله وأشوههم صورة، بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله. وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له. كما تقدم نظيره في سورة التكوير. فوصفه بالعلم والقوة، وجمال المنظر وجلالته. وهـذه كانت أوصـاف الـرسول البشرى والملكى. فكان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وأعلمهم، وأجملهم، وأجلهم. والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك. فهم أقبح الخلق صورة ومعنى. وأجهل الخلق وأضعفهم هما ونفوسا.

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله، ﷺ، وإيحاء الله ما أوحى. فصور ـ سبحانه ـ لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده، إلى أن استوى بالأفق، ثم دنا وتدلى، وقرب من رسوله، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحائه، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ويعاينونها هابطًا من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى. مستويا عليه، ثم نزل وقرب من محمد، ﷺ وخاطبه بما أمره الله به، قائلاً: ربك يقول لك كذا وكذا.

وأخبر ـ سبحانه ـ عن مسافة هذا القرب، بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك، وليس هذا على وجه الشك بل تحقيق لقدر المسافة، وأنها لا تزيد عن قوسين ألبتة

كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ [سورة الصافات: ١٤٧] تحقيق لهذا العدد، وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف رجلا واحدًا ونظيره قوله: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ [البقرة: ٧٤] أي تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها. وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل «أو» في هذه المواضع بمعنى بل، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي، وقول من جعلها بمعنى الواو. فتأمله انتهى.

فصل

ثم أخبر ـ تعالى ـ عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه، وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئًا على خلاف ماهو به، فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك. وفيها قراءتان: إحداهما بتخفيف كذب، والثانية بتشديدها. يقال كذبته عينه وكذبه قلبه وكذبه جسده، إذا أخلف ما ظنه وحدسه. قال الشاعر:

كذبتك عينك أم رأيت بواسط ... غلس الظلام من الرباب خيالا

أي أرتك مالا حقيقة له. فنفى هذا عن رسوله. وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه، و (ما) إما أن تكون مصدرية، فيكون المعنى: ماكذب فؤاده رؤيته، وإما أن تكون موصولة، فيكون المعنى: ماكذب الفؤاد الذي رآه بعينه. وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر، وتوافقهما، وتصديق كل منهما لصاحبه. وهذا ظاهر جدًّا في قراءة التشديد. وقد استشكلها طائفة منهم المبرد، وقال: في هذه القراءة بعد. قال: لأنه إذا رأى بقلبه فقد علمه أيضًا بقلبه، وإذا وقع العلم فلا كذب معه. فإنه إذا كان الشيء في القلب معلومًا. فكيف يكون معه تكذيب؟

قلت: وجواب هذا من وجهين (أحدهما) أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ما هو به فيكذبه قلبه، إذ يريه صورة المعلوم على خلاف ما هي عليه، كما تكذبه عينه، فيقال: كذبه قلبه، وكذبه ظنه، وكذبته عينه. فنفى سبحانه ذلك عن رسوله، وأخبر أن مارآه الفؤاد فهو كما رآه. كمن رأى الشيء على حقيقة ما هو به.

فإنه يصح أن يقال: لم تكذبه عينه.

الثاني أن يكون الضمير في (رأى) عائدًا إلى الرأى لا إلى الفؤاد، ويكون المعنى: ماكذب الفؤاد مارآه البصر. وهذا بحمد الله لا إشكال فيه. والمعنى ماكذب الفؤاد مارآه البصر، بل صدقه. وعلى القراءتين فالمعنى: ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير، ولا اتهم بصره.

ثم أنكر سبحانه عليهم مكابرتهم وجحدهم له على مارآه، كما ينكر على الجاهل مكابرته للعالم ومماراته له على ما علمه. وفيها قراءتان أفتمارونه وأفتمرونه وهذه المماراة أصلها من الجحد والدفع، يقول مريت الرجل حقه إذا جحدته. كما قال الشاعر:

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة لقد مريت أخا ماكان يمريكا

ومنه المماراة، وهي المجادلة والمكابرة. ولهذا عدى هذا الفعل بعلى وهي على بابها، وليست بمعنى عن كما قاله المبرد، بل الفعل متضمن معنى المكابرة. وهذا في قراءة الألف أظهر.

ورجح أبو عبيدة: قراءة من قرأ ﴿أَفتمْرُونه﴾ [النجم:١٢] قال: وذلك أن المشركين إنما شأنهم الجحود لما كان يأتيهم من الوحي، وهذا كان أكثر من المماراة منهم، يعنى أن من قرأ ﴿أفتمارونه﴾ فمعناه أفتجادلونه؟ ومن قرأ ﴿أفتمرونه﴾ معناه أفتجحدونه؟ وجحودهم لما جاء به كان هو شأنهم، وكان أكثر من مجادلتهم له.

وخالفه أبو علي وغيره واختاروا قراءة: ﴿أفتمارونه﴾ قال أبو علي: من قرأ ﴿أفتمارونه﴾ فمعناه أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما علمه وشاهده؟ ويقوي هذا الوجه قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبيَّنَ﴾ [الأنفال:٦]. ومن قرأ ﴿أفتمرونه﴾ كان المعنى أفتجحدونه؟ قال: والمجادلة كأنها أشبه في هذا، لأن الجحود كان منهم في هذا وغيره. وقد جادله المشركون في الإسراء.

قلت: القوم جمعوا بين الجدال والدفع والإنكار. فكان جدالهم جدال جحود ودفع لاجدال استرشاد وتبين للحق: وإثبات الألف يدل على المجادلة، والإتيان بعلى يدل على المكابرة؛ فكانت قراءة الألف منتظمة للمعنيين جميعًا، فهي أولى. وبالله التوفيق.

فصل

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى. فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى. والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى. وقد صح عنه ﷺ أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق عليها مرتين كما في الصحيحين عن زر بن حبيش أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾ [النجم: ٩]. قال: أخبرني ابن مسعود أن النبي، ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح. وفي الصحيحين أيضًا عن عبدالله بن مسعود ﴿**مَاكَذَبَ الفُؤَادُ مَارَأَىٰ**﴾ [النجم: ١١]. قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح. وقال البخاري، عنه: رأى رفرفًا أخضر يسد الأفق[1]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى**﴾ [النجم: ١٣] قال: رأى جبريل عليه السلام. وفي صحيحه أيضًا. عن مسروق قال: كنت متكئا عند عائشة فقالت: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني؛ ألم يقل الله - عز وجل -: ﴿**وَلَقَدْ رَآه بالأُفُقِ المُبِيْنِ**﴾ [التكوير: ٢٣]. ﴿**وَلَقَدْ رَآه نَزْلَة أُخْرى**﴾ [النجم: ١٣]؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله، ﷺ، فقال: «**إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطا من السماء سادًا عظم خلقه ما بين السماء والأرض**»، فقالت: أو لم تسمع أن الله - عز وجل - يقول: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وهوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣]. أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿**وَمَا كانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إنهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [الشورى: ٥١].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨: ٤٣٢ والحاصل أن ابن مسعود كان يذهب في ذلك إلى أن الذي رآه النبي ﷺ هو جبريل، كما ذهبت إلى ذلك عائشة. والتقدير على رأيه: فأوحى - أي جبريل - إلى عبده - أي عبدالله - محمد، لأنه يرى أن الذي دنا فتدلى هو جبريل، وأنه هو أوحى إلى محمد، ﷺ. وكلام أكثر المفسرين من السلف يدل على أن الذي أوحى هو الله، أوحى إلى عبده محمد، ﷺ. ومنهم من قال: إلى جبريل.

قالت: ومن زعم أن محمدًا كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفَرية، والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ وإن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَه**﴾ [المائدة: ٦٧].

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إلَّا اللهُ**﴾ [النمل: ٦٥] ولو كان محمد كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿**وإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيْهِ وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وفي الصحيحين عن مسروق أيضًا قال: سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: سبحان الله! لقد قف شعري مما قلت. وفيهما أيضًا قال، قلت لعائشة: فأين قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**ثم دَنَا فَتَدَلَّى * فكان قَابَ قَوْسَينِ أَوْ أَدْنىٰ**﴾ [النجم: ٨، ٩] قالت: إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال. وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق.

وفي صحيح مسلم: بأن أبا ذر سأله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «**نور أنَّىٰ أراه**». وفي صحيح مسلم أيضًا من حديث أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله، ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم وهو كالتفسير له.

ولا ينافي هذا قوله في حديث الصحيح: حديث الرؤية يوم القيامة «**فيكشف الحجاب، فينظرون إليه**» فإن النور الذي هو حجاب الرب ـ تعالى ـ يراد به الحجاب الأدنى إليه، وهو لو كشف لم يقم له شيء.

كما قال ابن عباس في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ قال: ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى به لم يقم له شيء. وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي أن قوله: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ على عمومه وإطلاقه في الدنيا والآخرة ولا يلزم من ذلك أن لا يرى. بل يرى في الآخرة بالأبصار من غير إدراك. وإذا كانت أبصارنا

لا تقوم لإدراك الشمس على ما هي عليه، وإن رأتها مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق، فالتفاوت الذي بين أبصار الخلائق وذات الرب ـ جل جلاله ـ أعظم وأعظم. ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء من تجلي الرب تسافى الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلي.

وفي الحديث الصحيح المرفوع: **«جنتان من ذهب: آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة: آنيتهما وحليتهما وما فيهما؛ وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة عدن»**.

فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجهه ـ تبارك وتعالى ـ هو المانع من رؤية الذات. ولا يمنع من أصل الرؤية، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى. فإذا تجلى ـ سبحانه ـ لعباده يوم القيامة وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق، وأما أنوار الذات الذي يحجب عن إدراكها فذاك صفة للذات، لا تفارق ذات الرب جل جلاله، ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، وتكفي هذه الاشارة في هذا المقام للمصدق الموقن، وأما المعطل الجهمي فكل هذا عنده باطل ومحال.

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة النجم هو جبريل.

وأما قول ابن عباس: رأى محمد ربه بفؤاده مرتين، فالظاهر أن مستنده هذه الآية. وقد تبين أن المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس. وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الإجماع على ما قالته عائشة. فقال ـ في نقضه على بشر المريسي، في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ أن رسول الله، ﷺ قال: **«رأيت ربي البارحة في أحسن صورة»** فحكى تأويل المريسي الباطل ـ ثم قال: ويلك أن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت إليه. أما أن رسول الله، ﷺ قال في حديث أبي ذر: **«إنه لم ير ربه»** وقال رسول الله ﷺ: **«لن تروا ربكم حتى تموتوا»**. وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية».

وأجمع المسلمون على ذلك، مع قول الله: **﴿لا تدركه الأبصار﴾** يعنون أبصار أهل الدنيا، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك. وروى معاذ بن جبل عن النبي، ﷺ أنه قال: **«صليت ما شاء الله من**

الليل، ثم وضعت جنبي، فأتاني ربي في أحسن صورة». فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم. وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الإمام أحمد: هل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلة الاسراء أم لا على ثلاث روايات:

إحداها: أنه رآه. قال المروزي: قلت لأبي عبدالله يقولون: إن عائشة قالت: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، فبأي شيء يدفع قول عائشة؟ فقال: بقول النبي ﷺ: **«رأيت ربي»** قول النبي ﷺ أكبر من قولها.

وقال: وذكر المروزي في موضع آخر أنه قال لأبي عبدالله ههنا رجل يقول: إن الله يرى في الآخرة، ولا أقول إن محمدًا رأى ربه في الدنيا، فغضب، وقال هذا أهل أن يجفى يسلم الخبر كما جاء. قال: فظاهر هذا أنه أثبت رؤية عين. ونقل حنبل قال قلت لأبي عبدالله النبي ﷺ رأى ربه رؤيا حلم بقلبه؟ قال: فظاهر هذا نفي الرؤية، وكذلك نقل الأثرم وقد سأله عن حديث عبدالرحمن بن عابس عن النبي ﷺ: **«رأيت ربي في أحسن صورة»** فقال معمر مضطرب، لأن معمرًا رواه عن أيوب عن معبد عن عبدالرحمن بن عابس عن النبي ﷺ ورواه حماد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس. ورواه يوسف بن عطية عن قتادة عن أنس. ورواه عبدالرحمن بن يزيد عن جابر عن خالد بن اللجلاج عن عبدالرحمن بن عابس عن رجل من أصحاب النبي، ﷺ. ورواه يحيى بن أبي كثير فقال: عن ابن عباس عن معاذ عن النبي ﷺ. وأصل الحديث واحد، قال الأثرم: فقلت لأبي عبدالله: فإلى أي شيء تذهب؟ فقال: قال الأعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه بقلبه. ونقل الأثرم أن رجلاً قال لأحمد عن الحسين الأشيب أنه قال: لم ير النبي، ﷺ ربه تعالى، فأنكره عليه إنسان، وقال: لم تقول رآه، ولا تقول بعينه ولا بقلبه؟ كما جاء الحديث. فاستحسن ذلك الأشيب. فقال أبو عبدالله: حسن. قال: وظاهر هذا إثبات رؤية لا يعقل معناها، هل كانت بعينه أم بقلبه؟ فهذه نصوص أحمد. وقد جعلها القاضي مختلفة وجعل المسألة على ثلاث روايات، ثم احتج للرواية الأولى بحديث أم الطفيل، وحديث عبدالرحمن بن عابس الحضرمي، ولا دلالة فيهما. لأنها رؤية منام فقط. واحتج لها بما لا يرضى أحمد أن يحتج به، وهو حديث لا يصح عن أبي عبيدة بن

الجراح مرفوعًا: «**لما كانت ليلة أسري بي رأيت ربي في أحسن صورة، فقال فيم يختصم الملأ الأعلى؟**» وذكر الحديث، وهذا غلط قطعًا فإن القصة إنما كانت بالمدينة كما قال معاذ بن جبل احتبس عنا رسول الله ﷺ في صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس. ثم خرج فصلى بنا ثم قال: «**رأيت ربي البارحة في أحسن صورة فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟**» وذكر الحديث. فهذا كان بالمدينة والإسراء كان بمكة. وليس عن الإمام أحمد ولا عن النبي ﷺ نص أنه رآه بعينه يقظة، وإنما حمل القاضي كلام أحمد مالا يحتمله، واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه، وكلام أحمد يصدق بعضه بعضا، والمسألة رواية واحدة عنه، فإنه لم يقل بعينه. وإنما قال رآه، واتبع في ذلك قول ابن عباس رأى محمد ربه، ولفظ الحديث «**رأيت ربى**» وهو مطلق وقد جاء بيانه في الحديث الآخر.

ولكن في رد أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبي، ﷺ إشعار بأنه أثبت الرؤية التي أنكرتها عائشة، وهي لم تنكر رؤية المنام، ولم تقل. من زعم أن محمدًا رأى ربه في المنام فقد أعظم على الله الفرية، وهذا يدل على أحد أمرين: إما أن يكون الإمام أحمد أنكر قول من أطلق نفي الرؤية إذ هو مخالفته للحديث، وإما أن يكون رواية عنه بإثبات الرؤية، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه، وهذا تقييد منه للرؤية وأطلق أنه رآه، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية، واستحسن قول من قال: رآه، ولا يقول بعينه ولا بقلبه. وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة وكيف يقول أحمد رآه بعيني رأسه يقظة ولم يجيء ذلك في حديث قط. فأحمد إنما أتبع ألفاظ الحديث كما جاءت وإنكاره قول من قال لم يره أصلاً لا يدل على إثبات رؤية اليقظة بعينه. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**﴾ [النجم:١٧] قال ابن عباس: ما زاغ البصر يمينا ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر به. وعلى هذا المفسرون، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء، من التفاته يمينا وشمالاً، ومجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانبًا، ولم يمد بصره إلى غير ما أُرِيَ من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما

أُري، دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره، مع ما في ذلك من ثبات الجأش، وسكون القلب، وطمأنينته، وهذا غاية الكمال. وزيغ البصر: التفاته جانبًا، وطغيانه: مده أمامه إلى حيث ينتهي. فنزه في هذه السورة علمه عن الضلال، وقصده وعمله عن الغي، ونطقه عن الهوى، وفؤاده عن تكذيب بصره، وبصره عن الزيغ والطغيان، وهكذا يكون المدح.

تلك المكارم لا قعبان من لبن ** شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

فصل

ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى استطرد منها، وذكر أن جنة المأوى عندها، وأنه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى، وهذا من أحسن الاستطراد، وهو أسلوب لطيف جدًا في القرآن وهو نوعان:

أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلى لازمه، مثل هذا ومثل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾[الزخرف: ٩]، ثم استطرد من جوابهم إلى قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا لعلكُمْ تَهْتَدُون * والذي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُون * والَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفُلْكِ والأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِه﴾ [الزخرف: ١٠-١٣]. وهذا ليس من جوابهم، ولكن تقرير له، وإقامة الحجة عليهم. ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قال: فَمَا بالُ القُرُونِ الأُولىٰ * قال عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي ولاَ يَنْسىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٢]. فهذا جواب موسى ثم استطرد - سبحانه - منه إلى قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أزواجاً مِنْ نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وارْعَوْا أَنْعَامَكُم إنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِّأُولِي النُّهىٰ * مِنْها خَلَقْنَاكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ ومِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٣-٥٥]. ثم عاد إلى الكلام الذي استطرد منه.

والنوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلى النوع كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاه نُطْفةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]. إلى آخره فالأول آدم، والثاني بنوه، ومثله قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين فَلَمَّا آتاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شركَآءَ فِيمَا آتاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]. إلى آخر الآيات، فاستطرد من ذكر الأبوين إلى ذكر المشركين من أولادهما. والله أعلم.

[(١)]**قال الله** ـ تعالى ـ: مخبرًا عن كمال أدب رسوله [في] ليلة الإسراء: **﴿مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾** [النجم: ١٧]. وهذا غاية الأدب، فإن البصر لم يزغ يمينًا و[لا] شمالاً، ولا طمح متجاوزًا إلى ما هو رائيه ومقبل عليه كالمتشارف إلى ما وراء ذلك، ولهذا اشتد نهي النبي ﷺ للمصلي أن يزيغ بصره إلى السماء، وتوعدهم على ذلك بخطف أبصارهم، إذ هذا من كمال الأدب مع من المصلي واقف بين يديه، بل ينبغي له أن يقف ناكس الرأس مطرقًا إلى الأرض، ولولا أن عظمة رب العالمين سبحانه فوق سماواته على عرشه لم يكن فرق بين النظر إلى فوق أو إلى أسفل.

[(٢)]فصل

وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله ـ تعالى ـ عن نبيه، ﷺ، حين أراه ما أراه: **﴿مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾** [النجم: ١٧] وأبو القاسم القشيري صدر باب الأدب بهذه الآية. وكذلك غيره.

وكأنهم نظروا إلى قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت جانبًا، ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمال الأدب. والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المنظور. فالالتفات زيغ. والتطلع إلى ما أمام المنظور: طغيان ومجاوزة. فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة. ولا يتجاوزه.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية. قدس الله روحه.

وفي هذه الآية أسرار عجيبة. وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ: تواطأ هناك بصره وبصيرته. وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره. فالبصيرة مواطئة له. وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حق مشهود بالبصر. فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

(١) ٢٨٢ روضة المحبين. (٢) ٣٨٢ مدارج جـ٢.

ولهذا قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونه عَلَى ما يَرَى**﴾ [النجم: ١١،١٢]. أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر: «**ما كذّب الفؤاد ما رأى**» ـ بتشديد الذال ـ أي لم يكذب الفؤادُ البصرَ، بل صدقه وواطأه لصحة الفؤاد والبصر، أو استقامة البصيرة والبصر، وكون المرئى المشاهد بالبصر والبصيرة حقًّا.

وقرأ الجمهور «**ما كذَب الفؤاد**» بالتخفيف. وهو متعدّ. و «ما رأى» مفعوله: أي ما كذّب قلبُه ما رأته عيناه. بل واطأه ووافقه. فلمواطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤادُ البصرَ. ولم يتجاوز البصر حَدَّه فيطغى، ولم يمل عن المرئي فيزيغ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئي، ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله، والإعراض عما سواه، فإنه أقبل على الله بكليته. وللقلب زيغ وطغيان، كما للبصر زيغ وطغيان، وكلاهما منتف عن قلبه وبصره. فلم يزغ قلبه التفاتًا عن الله إلى غيره. ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه. وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه.

فإن عادة النفوس، إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ماهو أعلى منه وفوقه. ألا ترى أن موسى ـ ﷺ لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية؟ ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام، وفاه حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه ألبتة؟

ولأجل هذا ما عاقه عائق. ولا وقف به مراد، حتى جاوز السموات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه. وقال: «**يقول بنو إسرائيل: إني كريم الخلق على الله، وهذا قد جاوزني وخَلَّفَني علوًّا. فلو أنه وحده؟ ولكن معه كل أمته**» وفي رواية للبخاري: «**فلما جاوزته بكى. قيل: ما يبكيك؟ قال: أبكى أن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي**» ثم جاوزه علوا فلم تعقه إرادة، ولم تقف به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه في مَسْراه يسبق خطوه الطرف. فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلا لحال راكبه، وبُعْدِ شأوه، الذي سبق العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق

لا يختلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مراتب عبوديته له، حتى خرق حجب السموات، وجاوز السبع الطباق، وجاور سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبت إليه هناك أقسام القرب انصبابًا، وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهرًا وباطنًا حجابًا حجابًا، وأقيم مقامًا غبطه به الأنبياء والمرسلون. فإذا كان في المعاد أقيم مقامًا من القرب ثانيًا يغبطه به الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله، مازاغ البصر عنه وما طغى. فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى، وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى: ﴿**يسٓ * وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [يس: ١-٤]. فإذا كان يومُ المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزونه إلى جنات النعيم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

(١)**وسئل** ﷺ عن قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولقد رآه نَزْلَةً أُخرى**﴾ فقال: «إنما هو جبريل عليه السلام، لم أره على صورته التي خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين» ذكره مسلم.

(٢)**وقال** ـ تعالى ـ في وصفه: ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى**﴾ [النجم: ٥، ٦]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذو منظر حسن» وقال قتادة: «ذو خلق حسن» وقال ابن جرير: «عَنَى بالمِرَّة صحةَ الجسم وسلامته من الآفات والعاهات، والجسم إذا كان كذلك من الإنسان كان قويًّا».

والمِرّة واحدة المِرَر، وإنما أُريد به ذو مِرَّة سَوِيَّة، ومنه قول النبي ﷺ: «**لا تَحِلُّ الصدقة لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّة سَوِيٍّ**».

قلت: هذا حجة من قال: المرة القوة في الآية، وهو قول مجاهد وابن زيد، وهو قولٌ ضعيف. لأنه قد وصفه قبل ذلك بأنه (**شَدِيدُ الْقُوَى**).

ولا ريب أن المرَّة في الحديث هي القوَّة، لا المنظر الحسن، فإما أن يقال: المرة تقال على هذا وعلى هذا، وإما أن يقال ـ وهو الأظهر ـ: إن المرة هي الصحة

---

(١) ٢٧٠ أعلام جـ٤.   (٢) ١٢٩ إغاثة جـ٢.

والسلامة من الآفات والعاهات الظاهرة والباطنة، وذلك يستلزم كمال الخلقة وحسنها وجمالها. فإن العاهة والآفة إنما تكون من ضعف الخلقة والتركيب، فهي قوة وصحة تتضمن جمالاً وحسنًا. والله تعالى أعلم.

(١)**قال** الله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٧-٩]. . . .

الشيخ(٢) فهم من الآية: أن الذي دنى فتدلى. فكان ـ من محمد ﷺ قاب قوسين أو أدنى: هو الله عز وجل. وهذا ـ وإن قاله جماعة من المفسرين ـ فالصحيح: أن ذلك هو جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله: ﴿ولقد رَآه نَزْلَةً أُخْرىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤]. هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية؟ فقال: جبريل، لم أره في صورته التي خُلق عليها إلا مرتين» ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه.

أحدها: أنه قال: ﴿عَلَّمَه شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ وهذا جبريل الذي وصفه الله بالقوة في سورة التكوير. فقال: ﴿إنه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

الثاني: أنه قال (ذو مِرَّة) أي حسن الخلق. وهو الكريم المذكور في التكوير(٣).

الثالث: أنه قال: ﴿فَاسْتَوَى * وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَىٰ﴾ وهو ناحية السماء العليا. وهذا استواء جبريل بالأفق الأعلى. وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه.

الرابع: أنه قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنْ أَوْ أَدْنىٰ﴾ فهذا دنو جبريل وتدليه إلى الأرض، حيث كان رسول الله، ﷺ(٤). وأما الدنو والتدلي في حديث المعراج. فرسول الله ﷺ كان فوق السموات. فهناك دنا الجبار جل جلاله منه

---

(١) ٣١٩ مدارج جـ٣.

(٢) يعني صاحب المنازل شيخ الإسلام الإمام الهروي ـ رحمه الله ـ (ج).

(٣) المرة: القوة التي حصلت للحبل ونحوه إذا ضمت الطاقات إلى بعضها مرة بعد مرة.

(٤) يعني حين كان يأتي رسول الله ﷺ في غار حراء. فقد رآه في المرة الأولى في الأفق الأعلى. ثم صار يدنو كل يوم منه شيئًا فشيئًا حتى دخل عليه الغار في تمام الستة الأشهر التي كانت جزءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

وتدلى. فالدنو والتدلي في الحديث: غير الدنو والتدلي في الآية، وإن اتفقا في اللفظ.

الخامس: أنه قال: **﴿ولقد رآه نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ المنتهى﴾** والمرئي عند السدرة: هو جبريل قطعًا، وبهذا فسره النبي ﷺ، فقال لعائشة: **«ذاكِ جبريل»**.

السادس: أن مفسر الضمير في قوله: **«ولقد رآه»** وفي قوله: **«ثم دنى فتدلى»** وفي قوله: **«فاستوى»** وفي قوله: **«وهو بالأفق الأعلى»** واحد.، فلا يجوز أن يخالف بين المفسر والمفسَّر من غير دليل.

السابع: أنه ـ سبحانه ـ ذكر في هذه السورة الرسولين الكريمين: الملكي، والبشري. ونزه البشري عن الضلال والغواية، ونزه الملكي عن أن يكون شيطانًا قبيحًا ضعيفًا. بل هو قوي كريم حسن الخلق. وهذا نظير الوصف المذكور في سورة التكوير سواء.

الثامن: أنه أخبر هناك: أنه «**رآه بالأفق المبين**» وههنا أخبر: أنه «**رآه بالأفق الأعلى**» وهو واحد، وُصف بصفتين. فهو «مبين» وهو «**أعلى**» فإن الشيء كلما علا: بان وظهر.

التاسع: أنه قال: **«ذو مِرَّة»** و **«المرة»** الخلق الحسن المحكم. فأخبر عن حسن خلق الذي عَلَّم النبي ﷺ. ثم ساق الخبر كله عنه نَسَقًا واحدًا.

العاشر: أنه لو كان خبراً عن الرب ـ تعالى ـ لكان القرآن قد دل على أن رسول الله ﷺ رأى ربه ـ سبحانه ـ مرتين: مرة بالأفق. ومرة عند السدرة. ومعلوم أن الأمر لو كان كذلك لم يقل النبي ﷺ لأبى ذر ـ وقد سأله «هل رأيت ربك؟» فقال: **«نور. أنَّى أراه؟»** فكيف يخبر القرآن أنه رآه مرتين، ثم يقول رسول الله ﷺ: **«أنَّىٰ أراه؟»** وهذا أبلغ من قوله: لم أره. لأنه ـ مع النفي ـ يقتضي الإخبار عن عدم الرؤية فقط، وهذا يتضمن النفى، وطرفا من الإنكار على السائل. كما إذا قال لرجل: هل كان كيت وكيت؟ فيقول: كيف يكون ذلك؟

الحادي عشر: أنه لم يتقدم للرب ـ جل جلاله ـ ذكر يعود الضمير عليه في قوله: **﴿ثم دَنَى فَتَدَلَّى﴾** والذي يعود الضمير عليه: لا يصلح له. وإنما هو لعبده.

الثاني عشر: أنه كيف يعود الضمير إلى مالم يذكر. ويترك عوده إلى المذكور، مع كونه أولى به؟.

الثالث عشر: أنه قد تقدم ذكر **«صَاحِبُكُمْ»** وأعاد عليه الضمائر التي تليق به.

ثم ذكر بعده «شديد القوى ذا المرة» وأعاد عليه الضمائر التي تليق به. والخبر كله عن هذين المفسرين. وهما الرسول الملكي، والرسول البشري.

الرابع عشر: أنه ـ سبحانه ـ أخبر: أن هذا الذي دنا فتدلى: كان بالأفق الأعلى وهو أفق السماء. بل هو تحتها قد دنا من رسول رب العالمين، ﷺ ودنو الرب ـ تعالى ـ وتدليه ـ على مافي حديث شريك ـ كان من فوق العرش لا إلى الأرض.

الخامس عشر: أنهم لم يماروه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على رؤية ربه. ولا أخبرهم بها، لتقع مماراتهم له عليها. وإنما ماروه على رؤية ما أخبرهم من الآيات التي أراه الله إياها. ولو أخبرهم الرب تعالى لكانت مماراتهم له عليها أعظم من مماراتهم على رؤية المخلوقات.

السادس عشر: أنه ـ سبحانه ـ قرر صحة ما رآه الرسول، ﷺ، وأن مماراتهم له على ذلك باطلة بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم:١٨] فلو كان المرئي هو الرب ـ سبحانه وتعالى ـ والمماراة على ذلك منهم: لكان تقرير تلك الرؤية أولى، والمقام إليها أحوج. والله أعلم.

(١)**الوجه** التاسع والثلاثون أنه ـ سبحانه ـ سمى الحجة العلمية سلطانًا. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: كل سلطان في القرآن فهو حجة، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبحانه هُوَ الغنيُّ له مَا في السَّموات وما في الأرضِ إن عندكم مِّن سُلطان بهذا أتقولون على اللهِ مَالاَ تَعْلَمونَ﴾ [يونس:٦٨] يعني ما عندكم من حجة بها قلتم إن هو إلا قول على الله بلا علم.

وقال تعالى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُم وآباؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ بهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم:٢٣]. يعني ما أنزل بها حجة ولا برهانا، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَائْتُوا بِكِتَابِكُم إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧]. يعني حجة واضحة فائتوا بها إن كنتم صادقين في دعواكم. إلا موضعًا واحدا اختلف فيه وهو قوله: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٨، ٢٩]. فقيل: المراد به القدرة والملك، أي ذهب عني مالي

(١) ٥٨ مفتاح جـ١.

وملكي، فلا مال لي ولا سلطان. وقيل: هو على بابه، أي انقطعت حجتي، وبطلت فلا حجة لي.

والمقصود أن الله ـ سبحانه ـ سمى علم الحجة سلطانا لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن. فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها: قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة. ومن لم يكن له اقتدار في علمه، فهو إما لضعف حجته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له.

فصل(1)

وأما اللَّمَم فهو طَرَف من الجنون، ورجل ملمومٌ أي به لَمَمٌ. ويقال أيضًا: أصابت فلانًا من الجن لَمَّةٌ، وهو المس، والشيء القليل، قاله الجوهري.

قلت: وأصل اللفظة من المقاربة ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢]. وهي الصغائر. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما رأيت أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: إن العين تزني وزناها النظر، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والفم يزني. وزناه القُبَل، ومنه أَلَمَّ بكذا أي قاربه ودنا منه، وغلامٌ مُلِمٌّ أي قارب البلوغ، وفي الحديث: «إِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمّ»(2)، أي يقرب من ذلك.

(3)**وتوبة** العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها. وتوبة منه بعدها. فتوبته بين توبتين من ربه: سابقة ولاحقة. فإنه تاب عليه أولاً إذنًا وتوفيقًا، وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه؛ ثانيًا: قبولاً وإثابة...

---

(١) ٥٠ روضة المحبين. (٢) الحديث في الصحيحين. يقال: حبطت الدابة حبطًا بالتحريك إذا أصابت مرعى طيبًا فأفرطت في الأكل حتى تنتفخ فتموت. (٣) ٣١٢ مدارج جـ١.

(١)**والذنوب** تنقسم إلى: صغائر وكبائر، بنص القرآن، والسنة، وإجماع السلف، وبالاعتبار. قال الله ـ تعالى ـ: **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾** [النساء: ٣١] وقال ـ تعالى ـ: **﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾** [النجم: ٣٢] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان ـ مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر»**. وأما ما يحكى عن أبي إسحاق الاسفرائيني أنه قال: الذنوب كلها كبائر، وليس فيها صغائر. فليس مراده: أنها مستوية في الإثم، بحيث يكون إثم النظر المحرم، كإثم الوطء في الحرام. وإنما المراد: أنها بالنسبة إلى عظمة من عُصِي بها كلها كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى.

والذي جاء في لفظ الشارع، تسمية ذلك «لَمًا» و «مُحَقَّرات» كما في الحديث **«إياكم وُمحقَّرات الذنوب»** وقد قيل: إن «اللمم» المذكور في الآية من الكبائر. حكاه البغوي وغيره. قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يُلِمَّ بالكبيرة مرة، ثم يتوب منها، ويقع فيها ثم ينتهي عنها، لا يتخذها دأبه. وعلى هذا يكون استثناء «اللمم» من الاجتناب إذ معناه: لا يصدر منهم، ولا تقع منهم الكبائر إلا لمًا.

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر، وهو منقطع. أي لكن يقع منهم اللمم. وحسنَ وقوع الانقطاع بعد الإيجاب ـ والغالب خلافه ـ أنه إنما يقع حيث يقع التفريغ. إذ في الإيجاب هنا معنى النفي صريحًا. فالمعنى: لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش، فحسن استثناء اللمم.

ولعل هذا الذي شجع أبا إسحاق على أن قال: «الذنوب كلها كبائر» إذ الأصل في الاستثناء الاتصال. ولاسيما وهو من موجب.

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر. ثم اختلفوا في فصلين. أحدهما: في «اللمم» ماهو؟ والثاني: في «الكبائر» وهل لها عدد يحصرها، أو حَدٌّ يحدها؟ فلنذكر شيئاً يتعلق بالفصلين.

---

(١) ٣١٥ مدارج جـ١.

فصـــل

فأما «اللمم» فقد روي عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة، ثم لا يعود إليه. وإن كان كبيرًا(١). قال البغوي: هذا قول أبي هريرة، ومجاهد، والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس. قال: وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: «اللمم مادون الشرك» قال السدى: قال أبو صالح: سُئِلْتُ عن قول الله ـ عز وجل ـ: «إلا اللمم؟» فقلت: «هو الرجل يُلِمُّ بالذنب ثم لا يعاوده» فذكرت ذلك لابن عباس فقال: «لقد أعانك عليها ملك كريم».

والجمهور: على أن «اللمم» مادون الكبائر. وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما في صحيح البخاري من حديث طاووس عنه قال: ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «**إنَّ الله كتب على ابن آدم حَظَّه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين: النظر، وزنا اللسان: النطق، والنفس تَمَنَّي وتشتهي، والفرجُ يصدق ذلك أو يكذِّبه**» رواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة. وفيه «والعينان زناهما: النظر. والأذنان: زناهما الاستماع. واللسان: زناه الكلام. واليد: زناها البطش. والرِّجْلُ: زناها الخُطى».

وقال الكلبي «اللمم» على وجهين. كل ذنب لم يذكر الله عليه حَدًّا في الدنيا. ولا عذابًا في الآخرة. فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس، مالم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر: هو الذنب العظيم، يُلِمُّ به المسلم المرة بعد المر ة. فيتوب منه. قال سعيد بن المسيب: هو ما أَلَمَّ بالقلب. أي ما خطر عليه.

قال الحسين بن الفضل: «اللمم» النظر من غير تعمد. فهو مغفور. فإن أعاد النظر فليس بلمم وهو ذنب. وقد روى عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن تغفر اللهم تغفر جَمًّا ✽ ✽ وأي عبد لك لا ألما»

وذهبت طائفة ثالثة إلى أن «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم. فالله

---

(١) معرفة لغة العرب. وضم الآيات والنصوص إلى بعضها، مثل قول الله تعالى: ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾ وأخواتها يدل على أن «اللمم» هو الذنب مهما كان يسارع المؤمن إلى التخلص منه وانتزاع نفسه منه، كرهًا له، ورغبة في الإنابة والرجعة إلى الله ربه. والأظهر: أن الاستثناء متصل.

لا يؤاخذهم به. وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: «أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية» وهذا قول زيد بن ثابت، وزيد بن أسلم.

والصحيح: قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب، كالنظرة، والغمزة، والقبلة، ونحو ذلك. هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم. وهو قول أبي هريرة وعبدالله بن مسعود. وابن عباس، ومسروق، والشعبي. ولا ينافي هذا قول أبي هريرة، وابن عباس في الرواية الأخرى «إنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها» فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا، ويكون على وجهين. كما قال الكلبي، أو أن أبا هريرة، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة ـ ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة في عمره: باللمم. ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مرارًا عديدة. وهذا من فقه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وغور علومهم.

ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث. وإنما يخاف الْعَنَتَ على من اتخذ الذنب عادته، وتكرر منه مرارًا كثيرة. وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا.

ويذكر عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنه «دُفع إليه سارق. فأمر بقطع يده، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ماسرقت غير هذه المرة. فقال: كذبت. فلما قطعت يده، قال: اصدقني كم لك بهذه المرة؟ فقال: كذا وكذا مرة. فقال: صدقت، إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب» أو كما قال. فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم. فهو من جنسه ونظيره. فالقولان عن أبي هريرة، وابن عباس، متفقان غير مختلفين. والله أعلم.

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حينًا بعد حين. فإنه يقال: ألم بكذا. إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت القُبْلة والغَمْزة لَمَاً، لأنها تُلِمُّ بها بعدها. ويقال: فلان لا يزورنا إلا لمامًا. أي حينًا بعد حين. فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية. وليس معنى الآية ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ فإنهم لا يجتنبونه فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال. وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه. فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء، وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه. ثم ذكر المحسنين ووصفَهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. ومضمون هذا: أنه لا يكون محسنًا مجزيًّا بإحسانه، ناجيًا من عذاب الله، إلا من

اجتنب كبائر الإثم والفواحش. فحسُن حينئذ استثناء اللمم، وإن لم يدخل في الكبائر، فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش.

وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه، وإن لم يدخل في نفسه. ولم يتناوله لفظه. كقوله تعالى: **﴿لايَسْمَعُونَ فيها لَغْوًا إلاَّ سَلاَمًا﴾** [مريم:٦٢] **فإن السلام داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيْهَا بَرْدًا ولاَ شَرَابًا * إلاَّ حَمِيمًا وغَسَّاقًا﴾**[النبأ: ٢٤-٢٥]. فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم. فكأنه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئًا إلا سلاما. وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئاً إلا حميًا وغساقا. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحًا، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص، لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله تعالى: **﴿مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْم إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾**[النساء:١٥٧]. فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى: **﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آباؤُكُم مِّنَ النِّساءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾**[النساء:٢٢]. إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو. **﴿وأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾**[النساء:٢٣]. وإن كان المراد به: ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله، فحسن أن يقال: «إلا ما قد سلف». فتأمل هذا فإنه من فقه العربية. . . .

[1]**وأما** الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافًا لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة. وفي الصحيحين من حديث الشعبي عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: **«الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغَموس»**. وفيهما عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي ﷺ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»**؟ ـ ثلاثا ـ قالوا: بلى، يارسول الله. قال: **«الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»** ـ وجلس وكان متكئًا ـ فقال: **«ألا وقول الزور»**، فما زال

(١) ٣٢٠ مدارج جـ١.

يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

وفي الصحيح من حديث أبي وائل عن عمرو بن شُرحبيل عن عبدالله بن مسعود قال: قلت: «يارسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك**». قال قلت: ثم أيّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يَطْعَم معك**». قال قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تُزاني بحليلة جارك**». فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي ﷺ: ﴿**والَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ ولاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بِالحَقِّ ولاَ يَزْنُونَ**﴾[الفرقان: ٦٨].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي، ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**». قالوا: يارسول الله، وما هن؟ قال: «**الشرك بالله. والسحر. وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وأكل الربا. وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف. وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**».

وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم: سمعت حميد بن عبدالرحمن يحدث عن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «**من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل والديه**». قالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل، فيسب أباه. ويَسُبُّ أمه، فيسب أمه**». وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**إن من أكبر الكبائر: استطالة الرجل في عِرض أخيه المسلم بغير حق**».

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «**أكبر الكبائر: الشرك بالله، والأمنُ من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله**».

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر «أسبع هن؟ قال: هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار» وقال: «كل شيء عُصِي الله به فهو كبيرة، من عمل شيئًا منها فليستغفر الله، فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعًا عن الإسلام، أو جاحدًا فريضة، أو مكذبًا بالقدر».

وقال عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه -: «ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله: ﴿**إن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ**

﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾[النساء: ٣١]. فهو كبيرة» وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب أو لعنة، أو عذاب.

وقال الضحاك: هي ما أوعد الله عليه حدًّا في الدنيا، أو عذابًا في الآخرة.

وقال الحسين بن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيرًا، أو عظيمًا. نحو قوله: ﴿إِنَّه كَانَ حُوبًا كَبِيراً﴾ [النساء: ٢] ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]...

(١)**قوله** ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٦، ٣٩] فأخبر أنه ليس على أحد في وزر غيره شيء، وأنه لا يستحق إلا ما سعاه، وأن هذا هو العدل الذي نزه نفسه عن خلافه.

(٢)فصل

وأما المسألة السادسة عشرة: وهي هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعي الأحياء أم لا؟

فالجواب: إنها تنتفع من سعي الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير (أحدهما) ما تسبب إليه الميت في حياته (والثاني) دعاء المسلمين له واستغفارهم والصدقة والحج على نزاع ما الذي يصل من ثوابه هل هو ثواب الإنفاق أو ثواب العمل، فعند الجمهور يصل ثواب العمل نفسه وعند بعض الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق.

واختلفوا في العبادة البدنية: كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر؛ فمذهب الامام أحمد وجمهور السلف: وصولها، وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة، نص على هذا الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال قال: قيل لأبي عبدالله: الرجل يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟ قال: أرجو، أو قال: الميت يصل إليه كل شيء من صدقة أو غيرها. وقال

---

(١) ١٠٨ مفتاح جـ٢.
(٢) ١٤٥ الروح.

أيضًا: اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات، وقل هو الله أحد، وقل: اللهم إن فضله لأهل المقابر.

والمشهور من مذهب الشافعي ومالك إن ذلك لا يصل. وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام: أنه لا يصل إلى الميت شيء البتة لا دعاء ولا غيره.

(1)**الأمر** العاشر: أن الموت معاد وبعث أول، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل لابن آدم معادين وبعثين، يجزي فيهما الذين أساؤا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. فالبعث الأول مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول. والبعث الثاني يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار، وهو الحشر الثاني، ولهذا في الحديث الصحيح «**وتؤمن بالبعث الآخر**» فإن البعث الأول لا ينكره أحد، وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب، وقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ هاتين القيامتين: وهما الصغرى والكبرى في سورة المؤمنين وسورة الواقعة وسورة القيامة وسورة المطففين وسورة الفجر وغيرها من السور، وقد اقتضى عدله وحكمته إن جعلها داري جزاء المحسن والمسيء، ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثاني في دار القرار، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ المَوْتِ وإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُم يَوْمَ القِيَامةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقد اقتضى عدله وأوجبت أسماؤه الحسنى وكما له المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم؛ فلابد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة ما يليق به، ويذيق بدن الفاجر العاصي له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه، هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس.

ولما كانت هذه الدار: دار تكليف وامتحان، لا دار جزاء لم يظهر فيها ذلك.

وأما البرزخ فأول دار الجزاء فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار وتقتضي الحكمة إظهاره، فإذا كان يوم القيامة الكبرى وفي أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابها فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها وهو مشتق منه وواصل إلى أهل البرزخ هناك كما دل عليه القرآن

---

(١) ٩١ الروح.

والسنة الصحيحة الصريحة في غير موضع[1].

[2] **فالدليل** على انتفاعه بما تسبب إليه في حياته ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله، ﷺ قال: **«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**.

فاستثناء هذه الثلاث من عمله، يدل على أنها منه، فإنه هو الذي تسبب إليها وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال، قال رسول الله، ﷺ: **«إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علماً علمه ونشره، أو ولدا صالحا تركه، أو مصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أكراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته»**.

وفي صحيح مسلم أيضًا من حديث جرير بن عبدالله قال، قال رسول الله، ﷺ: **«من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»**. وهذا المعنى روي عن النبي، ﷺ، من عدة وجوه صحاح وحسان. وفي المسند عن حذيفة قال: سأل رجل على عهد رسول الله، ﷺ، فأمسك القوم، ثم أن رجلاً أعطاه فأعطى القوم، فقال النبي، ﷺ: **«من سن خيراً فاستن به كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئًا، ومن سن شرًّا فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئًا»**.

وقد دل على هذا قوله، ﷺ، لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل فإذا كان هذا في العذاب والعقاب ففي الفضل والثواب أولى وأحرى.

فصل

والدليل على انتفاعه بغير ما تسبب فيه: القرآن، والسنة، والإجماع، وقواعد الشرع. أما القرآن فقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا**

(١) تقدم بقية البحث في سورة المؤمنين (ج). (٢) ١٤٦ الروح.

ولإخوانا الذين سبقونا بالإيمان﴾ [الحشر: ١٠] فأثنى الله - سبحانه - عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء.

وقد يمكن أن يقال: إنما انتفعوا باستغفارهم لأنهم سنُّوا لهم الإيمان بسبقهم إليه فلما اتبعوهم فيه كانوا كالمستنين في حصوله لهم، لكن قد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة.

وفي السنن من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله، ﷺ: **«إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء»**.

وفي صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك قال، صلى رسول الله ﷺ على جنازة، فحفظت من دعائه، وهو يقول: اللهم اغفر له وارحمه، وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، وأوسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطاء كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيراً من داره وأهلاً خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار. وفي السنن عن واثلة بن الأسقع قال صلى رسول الله، ﷺ على رجل من المسلمين، فسمعته يقول: **«اللهم إن فلان بن فلان في ذمتك وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحق، فاغفر له، وارحمه، إنك أنت الغفور الرحيم»**.

وهذا كثير في الأحاديث بل هو المقصود بالصلاة على الميت وكذلك الدعاء له بعد الدفن. وفي السنن من حديث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: كان النبي، ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: **«استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل»**.

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب قال كان رسول الله، ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: **السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية...** [1]

(١) استطرد المؤلف رحمه الله في البحث حول وصول الثواب أو عدمه قرابة كراسة وذكر حجج الموصلين والنافين بما لا مزيد عليه لباحث (ج).

(١)**وبالجملة:** فأفضل ما يهدى إلى الميت: العتق، والصدقة، والاستغفار له، والدعاء له، والحج عنه. وأما قراءة القرآن، وإهداؤها له تطوعا بغير أجرة فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج. فإن قيل: فهذا لم يكن معروفا في السلف، ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير، ولا أرشدهم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام، فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه ولكانوا يفعلونه.

فالجواب: أن مورد هذا السؤال إن كان معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار. قيل له: ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟ وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات، وإن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت، فهو محجوج بالكتاب والسنة والاجماع وقواعد الشرع. وأما السبب الذي لأجله لم يظهر ذلك في السلف، فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدى إلى الموتى ولا كانوا يعرفون ذلك البتة ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده(٢) كما يفعله الناس اليوم ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت بل ولا ثواب هذه الصدقة والصوم.

ثم يقال لهذا القائل: لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال: اللهم ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر فلم يكونوا ليشهدوا على الله بايصال ثوابها إلى أمواتهم.

فان قيل: فرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أرشدهم إلى الصوم والصدقة والحج دون القراءة. قيل: هو صلى الله عليه وآله وسلم لم يبتدئهم بذلك، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم. فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له. وهذا سأله عن الصيام عنه فأذن له. وهذا سأله عن الصدقة فأذن له، ولم يمنعهم مما سوى ذلك، وأي فرق بين وصول ثواب الصوم الذي هو مجرد نية وإمساك وبين وصول ثواب القراءة والذكر.

---

(١) ١٧٥ الروح.

(٢) قلت ـ قد مر في أول هذا الكتاب أي كتاب الروح عن الشعبي قال كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرءون القرآن.

والقائل: إن أحدا من السلف لم يفعل ذلك قائل مالا علم له به، فإن **هذه** شهادة على نفي مالم يعلمه، فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه، بل يكفي اطلاع علام الغيوب على نياتهم ومقاصدهم لاسيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط كما تقدم.

وسر المسألة أن الثواب ملك للعامل فاذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله الله اليه، فما الذي خص من هذا ثواب قراءة القرآن وحجر على العبد أن يوصله إلى أخيه، وهذا عمل الناس حتى المنكرين في سائر الأعصار والأمصار من غير نكير من العلماء.

فإن قيل: فما تقولون في الإهداء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

قيل: من الفقهاء المتأخرين من استحبه ومنهم من لم يستحبه ورآه بدعة، فإن الصحابة لم يكونوا يفعلونه، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم له أجر كل من عمل خيرًا من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء، لأنه هو الذي دل أمته على كل خير وأرشدهم ودعاهم إليه، ومن دعا إلى هدى فله من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وكل هدى وعلم فإنما ناله أمته على يده فله مثل أجر من اتبعه: أهداه إليه، أو لم يهده، والله أعلم.

(١)... ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]. فانتهت إليه الغايات والنهايات. وليس له ـ سبحانه ـ غاية ولا نهاية: لا في وجوده، ولا في مزيد جوده. إذ هو «الأول» الذي ليس قبله شيء. و «الآخر» الذي ليس بعده شيء. ولا نهاية لحمده وعطائه. بل كلما ازداد له العبد شكرًا زاده فضلاً، وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة، وكلما ازداد منه قربًا لاح له من جلاله وعظمته مالم يشاهده قبل ذلك. وهكذا أبدًا لا يقف على غاية ولا نهاية. ولهذا جاء **«إن أهل الجنة في مزيد دائم بلا انتهاء»** فإن نعيمهم متصل ممن لا نهاية لفضله ولا لعطائه، ولا لمزيده ولا لأوصافه. فتبارك الله ذو الجلال والإكرام: **﴿إِنَّ هذا لَرِزْقُنا مَالَهُ مِن نَّفَادٍ﴾** [ص:٥٤]، **«ياعبادي، لو أن أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكم وإنسَكُم وَجِنَّكُمْ قاموا في صعيد**

---

(١) ٢٦٨ مدارج جـ٢.

واحد. فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته: ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أدخل البحر».

(١)**قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَى﴾** [النجم:٤٣]، والضحك والبكاء فعلان اختياريان فهو ـ سبحانه ـ المضحك المبكي حقيقة، والعبد هو الضاحك الباكي حقيقة، وتأويل الآية، بخلاف ذلك إخراج للكلام عن ظاهره بغير موجب، ولا منافاة بين ما يذكر من تلك التأويلات وبين ظاهره، فإن إضحاك الأرض بالنبات وإبكاء السماء بالمطر، وإضحاك العبد وإبكاءه بخلق آلات الضحك والبكاء له لا ينافي حقيقة اللفظ وموضوعه ومعناه من أنه جاعل الضحك والبكاء فيه بل الجميع حق.

(٢)**قال** تعالى: **﴿أَفَمِنْ هٰذا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُون وَلا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾** [النجم:٥٩-٦١]. قال عكرمة عن ابن عباس «السُّمود: الغناء في لغة حِمْيَر». يقال: اسمُدي لنا، أي غَنِّي لنا، وقال أبو زَبيد:

وكأن العَزيف فيها غناء ** للندامَى من شارب مَسْمُود

قال أبو عُبيدة: المسمود: الذي غُنِّي له»، وقال عكرمة: «كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا. فنزلت هذه الآية».

وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية من أن: «السُّمود»: الغفلة والسهو عن الشيء، قال المبرِّد: هو الاشتغال عن الشيء بِهَمٍّ أو فرح، يتشاغل به. وأنشد:

رَمى الحَدَثانُ نِسوة آلِ حَرْب ** بمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمودا

وقال ابن الأنباري: السامد اللاهي، والسامد الساهي، والسامد المتكبر، والسامد القائم. وقال ابن عباس، في الآية: وأنتم مستكبرون وقال الضحاك: «أَشِرون بَطِرون» وقال مجاهد «غِضَابٌ مُبَرْطمون» وقال غيره: «لا هُون غافلون معرضون».

فالغناء يجمع هذا كله، ويوجبه. فهذه أربعة عشر اسمًا، سوى اسم الغناء.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النجم
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٥٩ شفاء. (٢) ٢٥٨ إغاثة جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

فائـــــدة[1]

الأجداث: القبور، وفيها لغتان بالثاء والفاء. أهل العالية تقوله بالثاء، وأهل السافلة بالفاء.

[2]... **والثالث**: أن كل واحد منا مأمور بأن يصدق الرسول فيما أخبر به، ويطيعه فيما أمر، وذلك لا يكون إلا بعد معرفة أمره وَخبره. ولم يوجب الله ـ سبحانه ـ من ذلك على الأمة إلا ما فيه حفظ دينها ودنياها وصلاحها في معاشها ومعادها، وَبإهمال ذلك تضيع مصالحها وَتفسد أمورها، فما خراب العالم إلا بالجهل، وَلا عمارته إلا بالعلم. وإذا ظهر العلم في بلد أو محلة قل الشر في أهلها، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر والفساد. ومَنْ لم يعرف هذا فهو ممن لم يجعل الله له نورا.

قال الإمام أحمد: ولولا العلم كان الناس كالبهائم، وقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرتين أو ثلاثا، والعلم يحتاج إليه كل وقت.

الرابع: أن الواجب على كل عبد أن يعرف ما يخصه من الأحكام، ولا يجب عليه أن يعرف مالا تدعوه الحاجة إلى معرفته، وليس في ذلك إضاعة لمصالح الخلق ولا تعطيل لمعاشهم؛ فقد كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قائمين بمصالحهم ومعاشهم وعمارة حروثهم والقيام على مواشيهم والضرب في الأرض لمتاجرهم والصفق بالأسواق، وهم أهدى العلماء الذين لا يُشَقُّ في العلم غبارهم.

الخامس: أن العلم النافع هو الذي جاء به الرسول دون مقدرات الأذهان ومسائل الخَرْصِ والألغاز، وذلك بحمد الله ـ تعالى ـ أيسر شيء على النفوس تحصيله وحفظه وفهمه، فإنه كتاب الله الذي يَسَّره للذكر كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

قال البخاري في صحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه؟

(١) ٢٠٩ بدائع جـ٤. (٢) ٢٣٨ أعلام جـ٢.

وَلم يقـل فتضيع عليه مصـالحـه، وتتعـطل معـايشـه عليه، وسنـة رسـوله وهي بحمـد الله ـ تعـالى ـ مضبوطة محفوظة، وأصول الأحكام التي تدور عليها نحو خمسمائة حديث، وفرشها وتفاصيلها نحو أربعة آلاف حديث وإنما الذي هو في غاية الصعوبة والمشقة مقدرات الأذهان وأغلوطات المسائل والفروع والأصول التي ما أنزل الله بها من سلطان التي كلٌّ مالها في نمو وزيادة وتوليد، والدين كل ماله في غربة ونقصان، والله المستعان.

(١)**الاصطبار:** افتعال من الصبر كالاكتساب والاتخاذ، وهو مشعر بزيادة المعنى على الصبر، كأنه صار سجية وملكة: فإن هذا البناء مؤذن بالاتخاذ والاكتساب، قال تعالى: ﴿**فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ**﴾ [القمر:٢٧]. فالاصطبار أبلغ من الصبر، كما أن الاكتسـاب أبلغ من الكسب، ولهذا كان في العمل الذي يكون على صاحبه، والكسب فيما له، قال ـ تعالى ـ: ﴿**لَها مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ [البقرة: ٢٨٦] تنبيها على أن الثواب يحصل لها بأدنى سعي وكسب، وأن العقاب إنما هو باكتسابها وتصرفها وما تعانيه. وإذا علم هذا فالتلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار الله سبحانه لا يخص الاصطبار، بل يكون مع الصبر ومع التصبر. ولكن لما كان الاصطبار أبلغ من الصبر وأقوى كان بهذا التلذذ والاستبشار أولى. والله أعلم.

(٢)...**ومن** هذا أدلة القرآن بتعذيب المعينين الذين عذبهم على تكذيب رسله وعصيان أمـره على أن هذا الحكم عام شامـل على مَنْ سَلَكَ سبيلهم واتصف بصفتهم. وهـو سبحـانه قد نبه عباده على نفس هذا الاستدلال، وتعدية هذا الخصوص إلى العموم، كما قال ـ تعالى ـ عقيب إخباره عن عقوبات الأمم المكذِّبة لرسلهم ومـا حل بهم: ﴿**أَكُفَّـارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُم أَمْ لَكُم بَراءَةٌ فِي الـزُّبُـرِ**﴾ [القمرة:٤٣]. فهذا مَحْض تعدية الحكم إلى من عدا المذكورين بعموم العِلة وإلا فلو لم يكن حكم الشيء حكم مثلة لما لزمت التعدية ولما تمت الحجة.

فصـــل(٣)

وهذان الضلالان أعني: الضلال والشقاء، يذكرهما ـ سبحانه ـ كثيراً في كلامه، ويخبر أنهما حظ أعـدائـه. ويذكـر ضدهمـا وهمـا: الهـدى والفـلاح كثـيراً ويخبر أنهما حظ أوليائه.

(١) ٢٧ طريق الهجرتين. (٢) ١٣١ أعلام جـ١. (٣) ٣٧ مفتاح جـ١.

أما الأول: فكقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧] فالضلال: الضلال والسعر، هو الشقاء والعذاب، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللهِ وَمَاكَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

وأما الثاني: فكقوله ـ تعالى ـ في أول البقرة وقد ذكر المؤمنين وصفاتهم: ﴿أُولَٓئِكَ عَلى هُدًى مِّن رَّبِّهِم وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]. وكذلك في أول لقمان.

وقال في الأنعام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. ولما كانت سورة أم القرآن أعظم سورة في القرآن وأفرضها قراءة على الأمة وأجمعها لكل ما يحتاج إليه العبد وأعمها نفعًا ذكر فيها الأمرين.

فأمرنا أن نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فذكر الهداية والنعمة وهما الهدى والفلاح.

ثم قال: ﴿غيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فذكر المغضوب عليهم وهم أهل الشقاء، والضالين وهم أهل الضلال، وكل من الطائفتين له الضلال والشقاء، لكن ذكر الوصفين معًا لتكون الدلالة على كل منهما بصريح لفظه. وأيضًا فإنه ذكر ماهو أظهر الوصفين في كل طائفة. فإن الغضب على اليهود أظهر لعنادهم الحق بعد معرفته. والضلال في النصارى أظهر لغلبة الجهل فيهم.

وقد صَح عن النبي ﷺ أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون.

(١)**قال** سفيان عن زياد بن إسماعيل المخزومي ثنا محمد بن عباد بن جعفر ثنا أبوهريرة قال: جاء مشركو قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمون في القدر فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ* إِنَّا كُلَّ شيءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٩] رواه مسلم.

وقد روى الدارقطني من حديث حبيب بن عمرو الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين خصماء الله؟ وهم القدرية، ولكن حبيب هذا قال الدارقطني: مجهول والحديث مضطرب الإسناد ولايثبت.

والمخاصمون في القدر نوعان: أحدهما من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره: كالذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ اللهُ مَاأَشْرَكْنَا وَلَآ آبَاؤُنَا﴾[الأنعام: ١٤٨].

(١) ٢٨ شفاء.

والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق والطائفتان خصماء الله، قال عوف: من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام، إن الله ـ تبارك وتعالى ـ قدر أقدارًا وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى. قال الإمام أحمد: القدر قدرة الله، واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدًّا وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفاء: فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابها وتقديرها، وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيرهم. وسنذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله.

(١)**وقال** علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩] خلق الله الخلق كلهم بقدر، وخلق الخير والشر، فخير الخير السعادة، وشر الشر الشقاوة.

وفي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون، أشيء قضي عليهم، ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت به الحجة؟ قال: قلت: لا، بل فيما قضي عليهم ومضى. قال: أفيكون ذلك ظلمًا؟ قال ففزعت فزعًا شديدًا وقلت: إنه ليس شيء إلا خلقه وملكه: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فقال: سددك الله إنما سألتك لأحرز عقلك، إن رجلاً من مزينة ـ أو جهينة ـ أتى النبي ﷺ فقال: يارسول الله، أرأيت مايعمل الناس ويتكادحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: «**فيما قضي عليهم ومضى**». فقال الرجل: ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «**من كان خلقه الله لإحدى المنزلتين فسيستعمله لها**». وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿**ونَفْسٍ وماسَوَّاها * فأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا**﴾

(٢)**وقال** تعالى: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ**﴾ [القمر: ٥٢] **قال عطاء ومقاتل**: كل شيء فعلوه مكتوب عليهم في اللوح المحفوظ، وروى حماد بن زيد عن داود بن أبي هند عن الشعبي ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ**﴾ [القمر: ٥٢] قال: كتب عليهم قبل أن يعملوه.

(١) ٦٦ طريق الهجرتين.
(٢) ٤٢ شفاء.

وقالت طائفة: المعنى أنه يحصي عليهم في كتب أعمالهم. وجمع أبوإسحاق بين القولين فقال: مكتوب عليهم قبل أن يفعلوه، ومكتوب عليهم إذا فعلوه للجزاء، وهذا أصح، وبالله التوفيق. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: مارأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبوهريرة أن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة: فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمني وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه**».

وفي الصحيح أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لامحالة، فالعينان زناهما النظر، والاذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق الفرج ذلك كله ويكذبه**».

وفي صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين قال: دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم، فقال: «**اقبلوا البشري يابني تميم**» قالوا: قد بشرتنا فاعطنا. مرتين ثم دخل عليه ناس من اليمن، فقال: «**اقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم**» قالوا: قد قبلنا يارسول الله، قالوا: جئنا لنسألك عن هذا الأمر. قال: «**كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض**» فنادى مناد: ذهبت ناقتك ياابن الحصين، فانطلقت، فإذا هي ينقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني تركتها.

فالرب ـ سبحانه ـ كتب مايقوله ومايفعله ومايكون بقوله وفعله، وكتب مقتضى أسمائه وصفاته وآثارها كما في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**».

(١)**الاسم** الحادي عشر والثاني عشر: مقعد الصدق، وقدم الصدق. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ**﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فسمى جنته مقعد صدق لحصول كل مايراد من المقعد الحسن فيها، كما يقال: مودة صادقة، إذا كانت ثابتة تامة، وحلاوة صادقة، وحملة صادقة، ومنه

(١) ٧٦ حادي الأرواح.

الكلام الصدق، لحصول مقصوده منه، وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال، ومنه الصدق في الحديث، والصدق في العمل، والصديق الذي يصدق قوله بالعمل، والصَدق بالفتح : الصلب من الرماح، ويقال للرجال الشجاع : إنه لذو مصدق، أي صادق الحملة، وهذا مصداق هذا أي مايصدقه.

ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالة : ومنه صدقني القتال، وصدقني المودة.

ومنه قدم صدق، ولسان صدق، ومدخل صدق، ومخرج صدق، وذلك كله للحق الثابت المقصود الذي يرغب فيه بخلاف الكذب الباطل الذي لاشيء تحته وهو لا يتضمن أمرًا ثابتًا قط.

وفسر قوم قدم صدق بالجنة، وفسر بالأعمال التي تنال بها الجنة، وفسر بالسابقة التي سبقت لهم من الله، وفسر بالرسول الذي على يده وهدايته نالوا ذلك.

والتحقيق أن الجميع حق، فإنهم سبقت لهم من الله الحسنى بتلك السابقة، أي بالأسباب التي قدرها لهم على يد رسوله وادخر لهم جزاءها يوم القيامة.

ولسان الصدق وهو: لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق.

وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع، وأنه ثناء بحق لا بباطل.

ومدخل الصدق ومخرج الصدق هو: المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه فيه ضامنًا على الله وهو دخوله وخروجه بالله ولله، وهذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبد فإنه لا يزال داخلًا في أمر وخارجًا من أمر، فمتى كان دخوله لله وبالله وخروجه كذلك، كان قد أدخل مدخل صدق، وأخرج مخرج صدق، والله المستعان اهـ.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القمر
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالى: ﴿**الرَّحمٰنُ * علَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإنسانَ * علَّمَه البَيَانَ**﴾ [الرحمن: ١-٤] دلت هذه الكلمات على إعطائه ـ سبحانه ـ مراتب الوجود بأسرها، فقوله: ﴿**خلق الإنسان**﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني، وخص الإنسان بالخلق لما تقدم. وقوله: ﴿**علم القرآن**﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني، فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه، كما أنه إنما صار إنسانا بخلقه، فهو الذي خلقه وعلمه. ثم قال: ﴿**علمه البيان**﴾، والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانًا.

أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات. الثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات، ويترجم عنها فيه لغيره. الثالث: البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ. فيتبين الناظر معانيها، كما يتبين للسامع معاني الألفاظ، فهذا بيان للعين وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب، وكثيراً ما يجمع ـ سبحانه ـ بين هذه الثلاثة كقوله: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾[الإسراء: ٣٦]. وقوله: ﴿**واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَتَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[النحل: ٧٨]. ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع، كقوله: ﴿**صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ**﴾ [البقرة: ١٨] وقوله: ﴿**خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾[البقرة: ٧]. وقد تقدم بسط هذا الكلام.

تنبيه: ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان علمه بما فيه صلاح معاشه ومعاده، ومنع عنه علم مالا حاجة له به، فجهله به لا يضر وعلمه به لا ينتفع به انتفاعا طائلاً. ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير، وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم، فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه والإقرار به ويسر عليه طرق هذه المعرفة، فليس في العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة، وليس في طرق العلوم التي

(١) ٢٧٩ مفتاح جـ١

تنال بها أكثر من طرقها، ولا أدل ولا أبين ولا أوضح، فلكما تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك، وكلما يخطر ببالك وكلما نالته حاسة من حواسك، فهو دليل على الرب - تبارك وتعالى - فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم أجلى منها، وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته، ولهذا قالت الرسل لأممهم ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك ما في وجود الله - سبحانه - ونصب من الأدلة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها، ولا يطيق حصرها إلا الله، ثم ركز ذلك في الفطرة ووضعه في العقل جملة.

ثم بعث الرسل مذكرين به، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]. وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩] وهو كثير في القرآن ومفصلين(١) لما في الفطرة والعقل العلم به جملة.

فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله، ومجازات المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، مودعًا في الفطرة مركوزًا فيها، فلو خليت على ماخلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه، ولأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته في أفعاله وبالثواب والعقاب. ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت ما جحدت...

(٢)**وقد** جمع - سبحانه - بين الأمرين - أعني القرآن ونطق اللسان - وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]. فبهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل، والصحيح من الفاسد، وبها جمعت أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان؛ وكم جلب بها من نعمة، ودفع بها من

(١) قوله: «ومفصلين» معطوف على قوله: مذكرين. من قوله: ثم بعث الرسل مذكرين ا. هـ.

(٢) ١٢٧ التبيان.

نقمة، وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدى بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل فآياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان. ولـولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولاعصب. فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق، ووسطه، وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا، وفي الشفتين، والخيشوم. فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له. فإذا هو حرف[1].

[2] **وتأمل** قوله ـ تعالى ـ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإنسانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] كيف جعـل الخلق والتعليم ناشئًـا عن صفـة الرحمة متعلقًا باسم الرحمن، وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم، وختمها بقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]. فالاسم الذي تبارك هو الاسم الذي افتتح به السورة إذ مجيء البركة كلها منه، وبه وضعت البركة في كل مبارك، فكل ما ذكر عليه بورك فيه، وكل ما أخلي منه نزعت منه البركة، فإن كان مذكى وخلي منه اسمه كان ميتة، وإن كان طعامًا شارك صاحبه فيه الشيطان، وإن كان مدخلاً دخل معه فيه، وإن كان حدثًا لم يرفع عند كثير من العلماء، وإن كان صلاة لم تصح عند كثير منهم، ولما خلق ـ سبحانه ـ الرحم واشتق لها اسمًا من اسمه فأراد إنزالها إلى الأرض وتعلقت به ـ سبحانه ـ فقال: «مه» «فقالت: هذا المقام العائذ بك من القطيعة»، فقال: «**ألا ترضين أن أقطع من قطعك، وأصل من وصلك**» وهي متعلقة بالعرش لها حنحنة كحنحنة المغزل، وكان تعلقها بالعرش رحمة منه بها، وإنزالها إلى الأرض رحمة بخلقه.

ولما علم ـ سبحانه ـ ماتلقاه من نزولها إلى الأرض ومفارقتها لما اشتقت (منه) رحمهـا بتعلقهـا بالعرش واتصالها به، وقوله: «**ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقـطع من قطعك**» ولذلك كان من وصل رحمه لقربه من الرحمن ورعاية حرمة الرحم قد عمر دنياه، واتسعت له معيشته، وبورك له في عمره، ونسيء له في أثره، فإن وصل ما بينه وبين الرحمن ـ جل جلاله ـ مع ذلك وما بينه وبين الخلق بالرحمة

(١) هذا جزء من البحث الكامل وسيأتي في سورة القلم إن شاء الله (ج). (٢) ١٢٣ مختصر الصواعق جـ٢.

والإحسان تم له أمر دنياه وأخراه، وإن قطع ما بينه وبين الرحم وما بينه وبين الرحمن أفسد عليه أمر دنياه وآخرته ومحق بركة رحمته ورزقه وأثره، كما قال ﷺ : «**ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له من العقوبة يوم القيامة من: البغي، وقطيعة الرحم**» فالبغي معاملة الخلق بضد الرحمة، وكذلك قطيعة الرحم، وأن القوم ليتواصلون وهم فجرة فتكثر أموالهم ويكثر عددهم، وأن القوم ليتقاطعون فتقل أموالهم، ويقل عددهم، وذلك لكثرة نصيب هؤلاء من الرحمة، وقلة نصيب هؤلاء منها.

وفي الحديث «**أن صلة الرحم تزيد في العمر**» وإذا أراد الله بأهل الأرض خيراً نشر عليهم أثرًا من آثار اسمه الرحمن، فعمر به البلاد، وأحيا به البلاد، وإذا أراد بهم شرًّا أمسك عنهم ذلك الأثر، فحل بهم من البلاء بحسب ما أمسك عنهم من آثار اسمه الرحمن، ولهذا إذا أراد الله ـ سبحانه ـ أن يخرب هذه الدار ويقيم القيامة أمسك عن أهلها أثر هذا الاسم وقبضه شيئًا فشيئًا حتى إذا جاء وعده قبض الرحمة التي أنزلها إلى الأرض؛ فتضع لذلك الحوامل ما في بطونها، وتذهل المراضع عن أولادها. فيضيف ـ سبحانه ـ تلك الرحمة التي رفعها وقبضها إلى ما عنده من الرحمة فيكمل بها مائة رحمة فيرحم بها أهل طاعته وتوحيده وتصديق رسله وتابعيهم، وأنت لو تأملت العالم بعين البصيرة لرأيته ممتلئًا بهذه الرحمة الواحدة كامتلاء البحر بمائه والجو بهوائه، وما في خلاله من ضد ذلك فهو مقتضى قوه: «**سبقت رحمتي غضبي**» فالمسبوق لابد لاحق. وإن أبطأ، وفيه حكمة لا تناقضها الرحمة فهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، فسبحان من أعمى بصيرة من زعم أن رحمة الله مجاز.

فصل(١)

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير في كونها(٢) جعلت زينة للشجر، وسترًا ولباسًا للثمرة، ووقاية لها من الآفات التي تمنع كمالها، ولهذا إذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها، وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس، فإذا ذهبت الثمرة بقي الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر حتى إذا طفئت تلك الجمرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسي لباسًا

(١) ٢٢٦ مفتاح جـ١. (٢) يعني ورق الشجر الذي ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ قبل ذلك في الأصل (ج).

جديدًا أحسن منه فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها، فلا تخرج منها ورقة إلا بإذنه، ولا تسقط إلا بعلمه، ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرًا آخر، ولرأوا خلقتها بعين أخرى، ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت، وأنها لم تخلق سدًى. قال ـ تعالى ـ: ﴿والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] فالنجم ما ليس له ساق من النبات، والشجر ماله ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بَحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط، فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهًا قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر. وفي أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحًا وسجودًا وصلاة وتأويبًا وهبوطًا من خشيته كما ذكر ـ تعالى ـ ذلك في كتابه، فتارة يخبر عنها بالتسبيح، وتارة بالسجود، وتارة بالصلاة كقوله تعالى: ﴿والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية، قد علم الله دلالته عليه، وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحًا، وفرق بينهما، وعطف أحدهما على الآخر، وتارة يخبر عنها بالتأويب كقوله: ﴿يَاجِبَال أَوِّبِي مَعَه﴾ [سبأ: ١٠] وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت كالعشي والإشراق، أفترى دلالتها على صانعها إنما يكون في هذين الوقتين؟ وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلاً على بطلانه والحمد لله.

(١)...**ومن** هذا المعنى مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين، وتارة مثنيين، وتارة مفردين لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك، فالأول كقوله: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] والثاني كقوله: ﴿رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ﴾ [الرحمن: ١٧، ١٨] والثالث كقوله: ﴿رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ لاَ إِلَـه إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩] فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والجمع والتثنية بحسب مواردها يطلعك على عظمة

(١) ١٢١ بدائع جـ١.

القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد، فحيث جمعت كان المراد بها: مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة، وهي متعددة. وحيث أفردا كان المراد: أفقي المشرق والمغرب. وحيث ثنيا كان المراد: مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما، فإنها تبتدىء صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء: فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقًا واحدًا، ومشرق هبوطها بجملته مشرقًا واحدا، ويقابلها مغرباها فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع. وأما وجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أر أحدًا تعرض له ولا فتح بابه وهو بحمد الله بيِّنٌ من السياق، فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمن.

لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات فذكر أولًا نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعظيم، ثم ذكر سراجي العالم ومظهري نوره وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على ساق وما انبسط منه على وجه الأرض، وهما النجم والشجر. ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة، وأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه، ووسط بينها ذكر الميزان، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان، فأمر بالعدل، ونهى عن الظلم، ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما الحبوب والثمار، ثم ذكر خلق نوعي المكلفين وهما نوع الإنسان ونوع الجان، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السوة وجلالة ورودهما لذلك وقدر موضعهما اللفظ مفردًا ومجموعًا تجد السمع ينبو عنه ويشهد العقل بمنافرته للنظم، ثم تأمل ورودهما مفردين في سورة المزمل لما تقدمها ذكر الليل والنهار فأمر رسوله بقيام الليل، ثم أخبره أن له في النهار سبحا طويلًا، فلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه وذكر النهار وما يكون منه فيه عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب الذين هما مظهر الليل والنهار فكان ورودهما مفردين في هذا السياق أحسن من التثنية والجمع لأن ظهور الليل والنهار هما واحد، فالنهار أبدًا يظهر من المشرق، والليل أبدًا يظهر من المغرب، ثم تأمل مجيئهما مجموعين في سورة المعارج في قوله: ﴿فَلا أُقسِمُ بربِّ المشارِقِ والمغارِبِ إنَّا لقادرون * على أن نُّبدِّلَ خيراً مِّنهُمْ وما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾

[المعارج: ٤٠، ٤١] لما كان هذا القسم في سياق سعة ربوبيته وإحاطة قدرته، والمقسم عليه أرباب هؤلاء والإتيان بخير منهم ذكر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة، ونقله سبحانه لها وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب فمن فعل هذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء وينقل إلى أمكنتهم خيراً منهم.

وأيضا فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور، وقد جعل الله ـ تعالى ـ ذلك بحكمته سببًا لتبدل أجسام النبات وأحوال الحيوانات، وانتقالها من حال إلى غيره، ويبدل الحر بالبرد، والبرد بالحر، والصيف بالشتاء والشتاء بالصيف إلى سائر تبدل أحوال الحيوان والنبات والرياح والأمطار والثلوج وغير ذلك من التبدلات والتغيرات الواقعة في العالم بسبب اختلاف مشارق الشمس ومغاربها كان ذلك تقدير العزيز العليم، فكيف لا يقدر مع ما يشهدونه من ذلك على أن يبدل خيراً منهم، وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ فلا يليق بهذا الموضع سوى لفظة الجمع، ثم تأمل كيف جاءت أيضًا في سورة الصافات مجموعة في قوله: ﴿ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وربُّ المَشَارِقِ﴾ [الصافات: ٥]. لما جاءت مع جملة المربوبات المتعددة وهي السموات والأرض وما بينهما كان الأحسن مجيئها مجموعة لينتظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد، ثم تأمل كيف اقتصر على المشارق دون المغارب لاقتضاء الحال لذلك فإن المشارق مظهر الأنوار وأسباب انتشار الحيوان وحياته وتصرفه ومعاشه وانبساطه، فهو إنشاء مشهود فقدمه بين يدي الرد على منكري البعث، ثم ذكر تعجب نبيه من تكذيبهم واستبعادهم البعث بعد الموت، ثم قدر الموت وحالهم فيه، وكان الاقتصار على ذكر المشارق ههنا في غاية المناسبة للغرض المطلوب، والله أعلم.

(١)**«الفناء»** مصدر فَنِيَ يَفْنَى فَنَاءً إذا اضْمحَلَّ وتلاشَى وعُدم. وقد يطلق على ما تلاشت قواه وأوصافه، مع بقاء عينه، كما قال الفقهاء: لا يقتل في المعركة شيخ فانٍ. وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] أي هالك ذاهب.

...(٢)**الفناء** في الآية الهلاك والعدم. أخبر سبحانه: أن كل من على الأرض يعدم ويموت، ويبقى وجهه سبحانه، وهذا مثل قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وإنهم

---
(١) ١٥٤ مدارج جـ١.
(٢) ٣٦٨ مدارج جـ٣.

مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ومثل قوله: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقة الموت﴾** [آل عمران: ١٨٥] قال الكلبي ومقاتل: لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض. فلما قال ـ تعالى ـ: **﴿كُلُّ شيءٍ هَالكٌ إلاَّ وَجْهَه﴾** [القصص: ٨٨] أيقنت الملائكة بالهلاك، قال الشعبي: إذا قرأت **﴿كُلُّ من عليها فانٍ﴾** فلا تسكت حتى تقرأ **﴿ويَبْقَى وجْهُ رَبِّـكَ ذُو الجَـلَالِ﴾** [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وهذا من فقهه في القرآن وكمال علمه. إذ المقصـود: الإخبـار بفناء من عليها مع بقاء وجهه ـ سبحانه ـ فإن الآية سيقت لتمدحه بالبقاء وحده، ومجرد فناء الخليقة ليس فيه مدحه. إنما المدح في بقائه بعد فناء خلقه. فهي نظير قوله: **﴿كُلّ شيَءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾** [القصص: ٨٨].

(١)**وأما** المسألة الرابعة وهي أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده. فقد اختلف الناس في هذا فقالت طائفة تموت الروح وتذوق الموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت. قالوا وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده قال تعالى: **﴿كُلُّ من عليها فانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ ربِّك ذُو الجَلَالِ والإكرامِ﴾** [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وقال تعالى: **﴿كُلُّ شيَءٍ هالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾** [القصص: ٨٨] قالوا وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت قالوا: وقد قال ـ تعالى ـ عن أهل النار أنهم قالوا: **﴿ربَّنـا أَمَتَّنَـا اثْنَتينْ وأحْيَيْتَنَا اثنَتَينْ﴾** [غافر: ١١] فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبـدن والأخرى للروح. وقال آخرون: لا تموت الأرواح، فإنها خلقت للبقاء، إنما تموت الأبدان. قالوا: وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب، وقد قال ـ تعالى ـ: **﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبيلِ الله أمواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ ربِّهِمْ يُرزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُون بالَّـذِينَ لَمْ يَلْحَقُـوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾** [آل عمـران: ١٦٩، ١٧٠] هذا مع القـطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدمًا محضًا فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في

(١) ٤٠ الروح.

عذاب، كما سيأتي - إن شاء الله - تعالى بعد هذا، وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله في جسدها، وقد نظم أحمد بن الحسين الكندي هذا الاختلاف في قوله:

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

فإن قيل: فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح حية كما هي أو تموت ثم تحيا؟ قيل: قد قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨] فقد استثنى الله - سبحانه - بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق.

فقيل: هم الشهداء. هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير - وقيل هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وهذا قول مقاتل وغيره . . .[1]

..[2]**قال** الله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]. ذكر الحاكم في صحيحه من حديث أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن مما خلق الله لوحًا محفوظًا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة أو مرة، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل مايشاء، فذلك قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

وقال مجاهد والكلبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: من شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر، ويعز ويذل، ويفك عانيا، ويشفي مريضًا، ويجيب داعيًا، ويعطي سائلاً، ويتوب على قوم، ويكشف كربًا، ويغفر ذنبًا، ويضع أقوامًا، ويرفع آخرين، دخل كلام بعضهم في بعض. وقد ذكر الطبراني في المعجم والسنة وعثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرد على المريسي عن عبدالله بن مسعود قال: إن ربكم - عز وجل - ليس عنده ليل ولا نهار، نوّر السموات والأرض نور وجهه، وأن مقدار كل يوم من أيامكم عنده ثنتى عشرة ساعة فيعرض عليه أعمالكم فيها على ما يكره فيغضبه ذلك، وأول من يعلم غضبه حملة العرش يجدونه يثقل عليهم فيسبحه حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة

(١) بحث المؤلف - رحمه الله - هنا بحثًا مطولاً لمن أراده (ج).

(٢) ٢٣ شفاء.

المقربون وسائر الملائكة ثم ينفخ جبريل في القرن، فلا يبقى شيء إلا سمع صوته، فيسبحـون الرحمن ثلاث ساعات حتى يمتلىء الرحمن ـ عز وجل ـ رحمة، فتلك ست ساعات ثم يؤتى بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات فذلك قوله في كتابه: ﴿هو الذي يُصوِّركم في الأرحام كَيفَ يَشَاء﴾ وقوله: ﴿يهب لمن يشاء إناثًا ويَهَبُ لِمَن يَشاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُم ذُكْرَانًا وإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] فتلك تسع ساعـات ثم يؤتى بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله في كتابه ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢] ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] قال: هذا شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى. . .

...**قال** عثمان بن سعيد الدارمي ثنا موسى بن إسماعيل ثنا حماد بن سلمة عن الزبير بن أبي عبدالسلام عن أيوب بن عبيدالله الفهري أن ابن مسعود قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار. فذكر الحديث إلى قوله: فيسبحه حملة العرش، وسرادقـات العـرش، والمـلائكة المقربون، وسائر الملائكة. فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده، لكن بعد خلق السموات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السـابق، وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته، وزيادة تعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه.

(١)**وقـال** تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمواتِ والأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] يغفر ذنبًا، ويفرّج كربًا، ويكشف غمًا، وينصر مظلومًا، ويأخذ ظالمًا، ويفـك عانيًا، ويغني فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويشفي مريضًا، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويعزّ ذليلاً، ويذل عزيزًا، ويعطي سائلا، ويذهب بدولة، ويأتي بأخرى، ويداول الأيام بين النـاس، ويرفـع أقوامًا، ويضع آخرين، يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه، وجرى به قلمه،

(١) ١٢٣ طريق الهجرتين.

ونفذ فيه حكمه، وسبق به علمه، فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرفه عن ذلك.

وفي تفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه من حديث الحماني: حدثنا إسحاق بن سليمان عن معاوية بن يحيى عن يونس بن ميسرة عن أبي إدريس عن أبي الدرداء أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن: ٢٩] فقال: سئل عنها رسول الله ﷺ، فقال: «**من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين**».

(١)...**ثم** خوف ـ سبحانه ـ الإنسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور، ويحصل مافي الصدور، أي ميز، وجمع، وبين، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع ـ سبحانه ـ بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ، في قوله: «**ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا**» فإن الإنسان يواري صدره مافيه من الخير والشر، ويواري قبره جسمه، فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره، فيصير جسمه بارزًا على الأرض، وسره باديًا على وجهه. كما قال تعالى: ﴿**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ**﴾ [الرحمن: ٤١] وقال: ﴿**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾ [القلم: ١٦].

(٢) الباب الثاني والعشرون

في عدد الجنات وأنها نوعان: جنتان من ذهب، وجنتان من فضة

الجنة: اسم شامل لجميع ما حوته من البساتين والمساكن والقصور وهي جنات كثيرة جدًا، كما روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة «أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يانبي الله ألا تحدثني عن حارثة؟ وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء؟ قال: «**ياأم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**». وفي الصحيحين من حديث أبي موسى

(١) ٥٢ التبيان. (٢) ٧٧ حادي الأرواح.

الأشعري عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «**جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**». وقد قال تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٤٦] فذكرهما ثم قال: ﴿**وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٢] فهذه أربع، وقد اختلف في قوله: ﴿**ومن دونهما**﴾ هل المراد به أنهما فوقهما أو تحتهما على قولين، فقالت طائفة: من دونهما، أي أقرب منهما إلى العرش، فيكونان فوقهما. وقالت طائفة: بل معنى من دونهما: تحتهما. قالوا: وهذا المنقول في لغة العرب إذا قالوا هذا دون هذا أي دونه في المنزلة، كما قال بعضهم لمن بالغ في مدحه، أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك. وفي الصحاح دون نقيض فوق وهو تقصير عن الغاية، ثم قال ويقال: هذا دون هذا، أي أقرب منه، والسياق يدل على تفضيل الجنتين الأوليين من عشرة أوجه.

(**أحدها**) قوله: ﴿**ذَوَاتَا أَفْنَانٍ**﴾ [الرحمن:٤٨] وفيه قولان: أحدهما: أنه جمع فنن، وهو الغصن. والثاني: أنه جمع فن وهو الصنف أي ذواتا أصناف شتى من الفواكه وغيرها، ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما.

(**الثاني**) قوله: ﴿**فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ**﴾ [الرحمن: ٥٠] وفي الأخريين ﴿**فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ**﴾ [الرحمن:٦٦] والنضاخة هي الفوارة. والجارية: السارحة، وهي أحسن من الفوارة، فإنها تتضمن الفوران والجريان.

(**الثالث**) أنه قال: ﴿ **فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ**﴾ [الرحمن:٥٢] وفي الأخريين: ﴿**فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**﴾ [الرحمن:٦٨] ولا ريب أن وصف الأوليين أكمل، واختلف في هذين الزوجين بعد الاتفاق على أنهما صنفان.

فقالت طائفة: الزوجان الرطب واليابس الذي لا يقصر في فضله وجودته عن الرطب، وهو يتمتع به كما يتمتع باليابس، وفيه نظر لا يخفى. وقالت طائفة: الزوجان صنف معروف وصنف من شكله غريب. وقالت طائفة: نوعان ولم تزد. والظاهر والله أعلم أنه الحلو والحامض والأبيض والأحمر، وذلك لأن اختلاف أصناف الفاكهة أعجب وأشهى وألذ للعين والفم.

(**الرابع**) أنه قال ﴿**مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ**﴾ [الرحمن: ٥٤] وهذا

تنبيه على فضل الظهائر وخطرها، وفي الأخريين قال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن:٧٦]. وفسر الرفرف بالمحابس والبسط وفسر بالفرش، وفسر بالمحابس فوقها وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأوليين.

(**الخامس**) أنه قال ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَانِ دَانٍ﴾ أي قريب وسهل يتناولونه كيف شاءوا ولم يذكر ذلك في الأخريين.

(**السادس**) أنه قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الرحمن:٥٦] أي قد قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يرون غيرهم لرضاهن بهم ومحبتهن لهم، وذلك يتضمن قصر أطراف أزواجهن عليهن فلا يدعهم حسنهن أن ينظروا إلى غيرهن، وقال في الأخريين: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢] ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها.

(**السابع**) أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه، ولم يذكر ذلك في التي بعدها.

(**الثامن**) أنه قال ـ سبحانه وتعالى ـ في الجنتين الأوليين: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠] وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل فكان جزاؤهم بإحسان كامل.

(**التاسع**) أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين وجعلهما جزاءًا لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه، فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين.

(**العاشر**) أنه قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢] والسياق يدل على أنه نقيض فوق، كما قال الجوهري، فإن قيل: فكيف انقسمت هذه الجنان الأربع على من خاف مقام ربه قيل لما كان الخائفون نوعين كما ذكرنا كان للمقربين منهم الجنتان العاليتان ولأصحاب اليمين الجنتان اللتان دونهما. فإن قيل: فهل الجنتان لمجموع الخائفين يشتركون فيهما أم لكل واحد جنتان وهما البستانان؟ قيل: هذا فيه قولان للمفسرين، ورجح القول الثاني بوجهين: (أحدهما) من جهة النقل و(الثاني) من جهة المعنى. فأما الذي من جهة النقل فإن أصحاب هذا القول رووا

عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «هما بستانان في رياض الجنة» وأما الذي من جهة المعنى فإن إحدى الجنتين جزاء أداء الأوامر. والثانية جزاء اجتناب المحارم «فإن قيل» فكيف قال في ذكر النساء «فيهن» في الموضعين ولما ذكر غيرهن قال «فيهما» قيل: لما ذكر الفرش. قال بعدها: فيهن خيرات حسان، ثم أعاده في الجنتين الأخريين بهذا اللفظ ليتشاكل اللفظ والمعنى، والله أعلم.

فصل(١)

وأما الفرش فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ فوصف الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق، وهذا يدل على أمرين (أحدهما) أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها، لأن بطائنها للأرض، وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة، قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي هبيرة ابن مريم عن عبدالله في قوله: ﴿بطائنها من إستبرق﴾ قال: هذه البطائن قد خبرتم بها فكيف بالظهائر؟ (الثاني) يدل على أنها فرش عالية لها سمك وحشو بين البطانة والظهارة. وقد روى في سمكها وارتفاعها آثار إن كانت محفوظة فالمراد ارتفاع محلها كما رواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، في قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾[الواقعة: ٣٤] قال: ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام، قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد. قيل: ومعناه أن الارتفاع المذكور للدرجات والفرش عليها. قلت: رشدين بن سعد عنده مناكير. قال الدارقطني: ليس بالقوي، وقال أحمد: لا يبالي عمن روى وليس به بأس في الرقاق، وقال: أرجو أنه صالح الحديث، وقال يحيى بن معين: ليس بشيء، وقال أبوزرعة: ضعيف، وقال الجوزجاني: عنده مناكير، ولا ريب أنه كان سيء الحفظ، فلا يعتمد على ما ينفرد به. وقد قال ابن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ، في قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض. وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ فالله أعلم. وقال الطبراني حدثنا المقدام بن داود حدثنا أسد بن

(١) ١٤٧ حادي الأرواح.

موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن مطرف عن عبدالله بن الشخير عن كعب في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وفُرُشٍ مرفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] قال: مسيرة أربعين سنة. قال الطبراني حدثنا إبراهيم بن نائلة حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي حدثنا إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال: «**سئل** رسول الله ﷺ، عن الفرش المرفوعة قال: «**لو طرح فراش من أعلاها هوى إلى قرارها مائة خريف**». وفي رفع هذا الحديث نظر، فقد قال ابن أبي الدنيا حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا معاذ بن هشام، قال: وجدت في كتاب أبي عن القاسم عن أبي أمامة (في قوله عز وجل: ﴿**وفرش مرفوعة**﴾ قال: لو أن أعلاها سقط ما بلغ أسفلها أربعين خريفًا).

(١)**أعظم** الإحسان: الإيمان، والتوحيد، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه: إجلالاً، ومهابة، وحياء، ومحبة وخشية. فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ، وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**» وإذا كان هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وإنما كتب رحمته للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون رسوله، فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان و ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ**﴾ [الرحمن: ٦٠] يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه، قال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إلـه إلا الله، وعمل بما جاء به محمد ﷺ، إلا الجنة وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ، ﴿**هل جَزاء الإحسانِ إلا الإحسان**﴾ [الرحمن: ٦٠] ثم قال هل تدرون ما قال ربكم قالوا: الله ورسوله أعلم قال: يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة.

(٢)**ومن** منازل ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾: منزلة الإحسان، وهي لب الإيمان، وروحه وكماله. وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل. فجميعها منطوية فيها. وكل ما قيل من أول الكتاب إلى ههنا فهو من الإحسان.

---

(١) ١٨ بدائع جـ٣.

(٢) ٤٥٩ مدارج جـ٢.

فالاحسان: جامع لجميع أبواب الحقائق. وهو أن تعبد الله كأنك تراه. أما الآية: فقال ابن عباس والمفسرون: هل جزاء من قال «لا إله إلا الله» وعمل بما جاء به محمد ﷺ، إلا الجنة. وقد روي عن النبي ﷺ، أنه قرأ **﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾** [الرحمن:٦٠] ثم قال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟»(١).

وأما الحديث: فإشارة إلى كمال الحضور مع الله ـ عز وجل ـ ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبته ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان.

(٢)**قال** ـ تعالى ـ: **﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾** [الرحمن:٦٨] ويذكر عن ابن عباس موقوفا ومرفوعًا: «**ما من رمانكم هذا إلا وهو ملقَّح بحبة من رمان الجنة**» والموقوف أشبه. وذكر حرب بن إسماعيل الكرماني وغيره عن علي أنه قال: «كلوا الرمان بشحمه. فإنه دباغ المعدة» حلو الرمان: حار رطب جيد للمعدة، مقو لها بما فيه من قبض لطيف. نافع للحلق والصدر والرئة. جيد للسعال. وماؤه ملين للبطن، يغذو البدن غذاء فاضلاً يسيرًا، سريع التحلل لرقته ولطافته. ويولد حرارة يسيرة في المعدة وريحًا. ولذلك يعين على الباه. ولا يصلح للمحمومين. وله خاصية عجيبة إذا أكل بالخبز، يمنعه من الفساد في المعدة. وحامضه بارد يابس. قابض لطيف. ينفع المعدة الملتهبة، ويدر البول أكثر من غيره من الرمان، ويسكن الصفراء. ويقطع الإسهال، ويمنع القيء، ويلطف الفضول، ويطفىء حرارة الكبد. ويقوي الأعضاء. نافع من الخفقان الصفراوي والآلام العارضة للقلب وفم المعدة، ويقوي المعدة، ويدفع الفضول عنها، ويطفىء المرة الصفراء والدم، وإذا استخرج ماؤه بشحمه، وطبخ بيسير من العسل، حتى يصير كالمرهم، واكتحل به: قطع الصفرة من العين، ونقَّها من الرطوبات الغليظة، وإذا لطخ على اللِّثة نفع من الأكلة العارضة لها، وإن استخرج ماؤهما بشحمهما أطلق البطن وأحدر الرطوبات العفنة الرية، ونفع من حميات الغب المتطاولة.

وأما الرمان المزُّ فمتوسط طبعًا وفعلا بين النوعين. وهذا أميل إلى لطافة

---

(١) تقدم في سورة الأعراف على قوله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ قريبًا من هذا (ج).

(٢) ٣٥١ زاد المعاد جـ٣.

الحامض قليلا وحب الرمان مع العسل طلاء للداحس والقروح الخبيثة. وأقماعه للجراحات. قالوا: ومن ابتلع ثلاثة من جنبذ الرمان في كل سنة أمن من الرمد سنته كلها.

(١)**وصف** الحور قال تعالى في وصفهن: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] المقصورات المحبوسات. قال أبوعبيدة: خدرن في الخيام. وكذلك قال مقاتل، وفيه معنى آخر، وهو أن يكون المراد أنهن محبوسات على أزواجهن لا يرون غيرهم وهم في الخيام، وهذا معنى قول من قال: قصرن على أزواجهن، فلا يردن غيرهم ولا يطمحن إلى من سواهم. وذكره الفراء «قلت» وهذا معنى ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦] لكن أولئك قاصرات بأنفسهن، وهؤلاء مقصورات، وقوله: في الخيام على هذا القول صفة لحور، أي: هن في الخيام، وليس معمولاً لمقصورات، وكأن أرباب هذا القول فسروا: بأن يكن محبوسات في الخيام لا تفارقنها إلى الغرف والبساتين، وأصحاب القول الأول يجيبون عن هذا بأن الله ـ سبحانه ـ وصفهن بصفات النساء المخدرات المصونات، وذلك أجمل في الوصف، ولا يلزم من ذلك أنهن لا يفارقن الخيام إلى الغرف والبساتين كما أن نساء الملوك ودونهم من النساء المخدرات المصونات لا يمنعن أن يخرجن في سفر وغيره إلى منتزه وبستان ونحوه، فوصفهن اللازم لهن القصر في البيت، ويعرض لهن مع الخدم الخروج إلى البساتين ونحوها، وأما مجاهد فقال: مقصورات قلوبهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ، وقد تقدم وصف النسوة الأول بكونهن: قاصرات الطرف. وهؤلاء بكونهن: مقصورات. والوصفان لكلا النوعين فإنهما صفتا كمال فتلك الصفة قصر الطرف عن طموحه إلى غير الأزواج، وهذه الصفة قصر الرجل على التبرج والبروز الظهور للرجال.

تفسير قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠] وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيرَاتٌ حِسَانٌ﴾ فالخيرات جمع خيرة وهي مخففة من خيرة: كسيدة ولينة. وحسان جمع حسنة، فهن خيرات الصفات والأخلاق والشيم، حسان الوجوه قال وكيع: حدثنا سفيان عن جابر عن القاسم عن أبي بزة عن أبي عبيدة عن مسروق عن عبدالله قال: «لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب

(١) ١٥٩ حادي الأرواح.

يدخل عليها في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك؛ لا ترحات ولا ذفرات ولا بخرات ولا طماحات» ا. هـ.

(١)**وأما** البسط والزرابي، فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ**﴾ [الرحمن: ٧٦] وقال تعالى: ﴿**فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾ [الغاشية: ١٣-١٦] وذكر هشام عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: (الرفرف) رياض الجنة (والعبقري) عتاق الزرابي. وذكر إسماعيل بن علية عن أبي رجاء عن الحسن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان**﴾ قال: هي البسط قال وأهل المدينة يقولون هي البسط وأما النمارق فقال الواحدي هي الوسائد في قول الجميع واحدها نمرقة بضم النون وحكى الفراء نمرقة بكسرها وأنشد أبوعبيدة:

إذا ما بساط اللهو مد وقربت ... للذاته أنماطه ونمارقه

قال الكلبي: وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض. وقال مقاتل: هو الوسائد مصفوفة على الطنافس وزرابي بمعنى البسط والطنافس واحدها زربية في قول جميع أهل اللغة والتعبير، ومبثوثة: مبسوطة منشورة.

وأما الرفرف فقال الليث: ضرب من الثياب خضر، تبسط الواحد رفرفة. وقال أبوعبيدة الرفارف البسط وأنشد لابن مقبل:

وأنا لنزالون تغشى نعالنا ... سواقط من أصناف ريط ورفرف

وقال أبو إسحاق قالوا: الرفرف ههنا رياض الجنة وقالوا: الرفرف الوسائد وقالوا: الرفرف المحابس وقالوا: فضول المحابس للفرش. وقال المبرد: هو فضول الثياب التي تتخذ الملوك في الفرش وغيره. قال الواحدي وكان الأقرب: هذا لأن العرب تسمي كسر الخباء والخرقة التي تخاط في أسفل الخباء رفرفًا. ومنه الحديث في وفاة النبي ﷺ، «فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة» قال ابن الأعرابي: الرفرف ههنا طرف البساط فشبه ما فضل من المحابس عما تحته بطرف الفسطاط فسمي رفرفًا. «قلت» أصل هذه الكلمة من الطرف أو الجانب فمنه الرفرف في الحائط، ومنه الرفرف وهو كسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى منها، الواحدة

(١) ١٤٨ حادي الأرواح.

رفرفة، ومنه: رفرف الطير، إذا حرك جناحه حول الشيء يريد أن يقع عليه، والرفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس الواحدة رفرفة، وكل ما فضل من شيء فثني وعطف فهو رفرف. وفي حديث ابن مسعود، في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم:١٨] قال: رأى رفرفًا أخضر سد الأفق وهو في الصحيحين. ا. هـ.

فصل

وأما العبقري فقال أبوعبيدة: كل شيء من البسط عبقري قال ويرون أنها أرض توشي فيها، وقال الليث: عبقر موضع بالبادية كثير الجن، يقال: كأنهم جن عبقر ـ قال أبوعبيدة في حديث النبي ﷺ، حين ذكر عمر: فلم أر عبقريا يفري فريه، وإنما أصل هذا فيما يقال: إنه نسب إلى عبقر وهي أرض يسكنها الجن فصار مثلاً منسوب إلى شيء رفيع وأنشد لزهير:

نخال عليها جبة عبقرية ... جديرون يومًا أن ينالوا فيستعلوا

وقال أبو الحسن الواحدي: وهذا القول هو الصحيح في العبقري.

وذلك أن العرب إذ بالغت في وصف شيء نسبته إلى الجن أو شبهته بهم، ومنه قول لبيد:

* جن الندا رواسيا أقدامها *

وقال آخر يصف امرأة:

جنية ولها جن يعلمها ... رمي القلوب بقوس ما لها وتر

وذلك أنهم يعتقدون في الجن كل صفة عجيبة، وأنهم يأتون بكل أمر عجيب، ولما كان عبقر معروفا بسكناهم نسبوا كل شيء يبالغ فيه إليها، يريدون بذلك أنه من عملهم وصنعهم هذا هو الأصل، ثم صار العبقري اسمًا ونعتًا لكل ما بولغ في صفته. ويشهد لما ذكرنا بيت زهير فإنه نسب الجن إلى عبقر، ثم رأينا أشياء كثيرة نسبت إلى عبقر غير البسط والثياب كقوله في صفة عمر عبقر.

وروى سلمة عن الفراء قال العبقري: السيد من الرجال، وهو الفاخر من الحيوان والجوهر، فلو كانت عبقر مخصوصة بالوشي لما نسب إليها غير الموشى، وإنما ينسب إليها البسط الموشية العجيبة الصنعة كما ذكرنا، كما نسب إليها كل ما بولغ في وصفه. قال ابن عباس: وعبقري يريد البسط والطنافس، وقال الكلبي: هي

الطنافس المجملة. وقال قتادة: هي عتاق الزرابي، وقال مجاهد: الديباج الغليظ، وعبقري جمع واحده عبقرية، ولهذا وصف بالجمع, فتأمل كيف وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ الفرش بأنها مرفوعة، والزرابي بأنها مبثوثة، والنمارق بأنها مصفوفة، فرفع الفرش دال على سمكها ولينها، وبث الزرابي دال على كثرتها، وأنها في كل موضع لا يختص بها صدر المجلس دون مؤخره وجوانبه، ووصف المساند يدل على أنها مهيأة للاستناد إليها دائمًا، ليست مخبأة تصف في وقت دون وقت، والله أعلم.

(1)**ذكر** خيامهم وسررهم وأرائكهم وبشخاناتهم. قال ـ تعالى ـ: ﴿**حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**﴾[الرحمن:٧٢] . وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ، قال: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلاً، فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضًا**» وفي لفظ لهما «**في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن**» وفي لفظ آخر لهما أيضًا: «**الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون**» وللبخاري وحده في لفظ: «**طولها ثلاثون ميلاً**» وهذه الخيم غير الغرف والقصور بل هي خيام في البساتين وعلى شواطىء الأنهار. وقال ابن أبي الدنيا حدثنا الحسين بن عبدالرحمن عن أحمد بن أبي الحواري قال سمعت أبا سليمان قال: «ينشأ خلق الحور العين انشأ، فإذا تكامل خلقهن ضربت عليهم الملائكة الخيام». وقال بعضهم: لما كن أبكارًا وعادة البكر أن تكون مقصورة في خدرها حتى يأخذها بعلها، أنشأ الله ـ تعالى ـ الحور وقصرهن في خدور الخيام حتى يجمع بينهن وبين أوليائه في الجنة، وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن جابر عن القاسم بن أبي بزة عن أبي عبيدة عن مسروق عن عبدالله قال: «لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك، لامزجات ولا زفرات ولابخرات ولا طماحات، حور عين كأنهن بيض مكنون» حدثنا علي بن الجعد حدثنا شعبة عن عبدالملك بن ميسرة قال: سمعت أبا الأحوص يحدث عن عبدالله بن

(1) ١٥٠ حادي الأرواح.

مسعود (في قوله - تعالى -: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] قال در مجوف).

وقال عبدالله بن المبارك: أنبأنا سليمان التيمي عن قتادة عن خليد القصري عن أبي الدرداء قال: «الخيمة لؤلؤة واحدة لها سبعون بابًا كلها من درة». قال ابن المبارك وأخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب». وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا فضيل بن عبدالوهاب حدثنا شريك عن منصور عن مجاهد ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]. قال في خيام اللؤلؤ، والخيمة: لؤلؤة واحدة». حدثني محمد بن جعفر حدثنا منصور حدثنا يوسف بن الصباح عن أبي صالح عن ابن عباس حور مقصورات في الخيام قال الخيمة درة من لؤلؤة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ، ولها ألف باب من ذهب حولها سرادق دوره خمسون فرسخًا يدخل عليه من كل باب منها مالك بهدية من عند الله - عز وجل - وذلك قوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ والله أعلم.

(١)**وأما** السرر فقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠] وقال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٣-١٦] وقال تعالى: ﴿فيها سُرُر مَرفوعة﴾ فأخبر - تعالى - عن سررهم بأنها مصفوفة بعضها إلى جانب بعض، ليس بعضها خلف بعض ولا بعيدًا من بعض، وأخبر أنها موضونة. والوضن في اللغة: النضيد والنسج المضاعف، يقال: وضن فلان الحجر والآجر بعضه فوق بعض فهو موضون. وقال الليث: الوضن نسج السرير وأشباهه، ويقال: درع موضونة مقاربة النسج. وقال رجل من العرب لامرأته: ضني متاع البيت أي قاربي بعضه من بعض، قال أبوعبيدة والفراء والمبرد وابن قتيبة: موضونة منسوجة مضاعفة متداخلة بعضها على بعض، كما توضن حلق الدرع، ومنه سمي الوضين، وهو نطاق من سيور تنسج فيدخل بعضها في بعض، وأنشدوا للأعشى:

ومن نسج داود موضونة ... تساق مع الحي عيرًا فعيرًا

قالوا: موضونة: منسوجة بقضبان الذهب مشتبكة بالدر والياقوت والزبرجد.

---

(١) حادي الأرواح.

قال هشيم: أنبأنا حصين عن مجاهد عن ابن عباس قال: مرمولة بالذهب، وقال مجاهد: موصولة بالذهب. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: موضونة: مصفوفة. فأخبر ـ سبحانه ـ أنها مرفوعة. قال عطاء عن ابن عباس قال: سرر من ذهب، مكللة بالزبرجد والدر والياقوت. والسرير مثل ما بين مكة وأيلة. وقال الكلبي: طول السرير في السماء مائة ذراع، فإذا أراد الرجل أن يجلس عليه تواضع له حتى يجلس عليه، فإذا جلس عليه ارتفع إلى مكانه.

وأما الأرائك فهي جمع أريكة قال مجاهد عن ابن عباس: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾ [الإنسان: ١٣] قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة، فإذا كان سريرًا بغير حجلة لا يكون أريكة وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة ولا تكون أريكة إلا والسرير في الحجلة، فإذا اجتمعا كانت أريكة. وقال مجاهد: هي الأسرة في الحجال. قال الليث: الأريكة: سرير حجلة، فالحجلة والسرير أريكة، وجمعها أرائك وقال أبو إسحاق: الأرائك: الفرش في الحجال. قلت: ها هنا ثلاثة أشياء (أحدها) السرير و(الثانية) الحجلة وهي البشخانة التي تعلق فوقه و(الثالث) الفراش الذي على السرير، ولا يسمى السرير أريكة حتى يجمع ذلك كله. وفي الصحاح الأريكة سرير متخذ مزين في قبة أو بيت فإذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة. والجمع: الأرائك. وفي الحديث أن خاتم النبي ﷺ، كان مثل زر الحجلة وهو الزر الذي يجمع بين طرفيها من جملة أزرارها، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الرحمٰن
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

[(١)] **ذكر** الله ـ تعالى ـ أصناف بني آدم: سعيدهم وشقيهم. قسّم سعيدهم إلى قسمين: سابقين، وأصحاب يمين. فقال: ﴿**والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**﴾ [الواقعة: ١٠] اختلف في تقريرها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من باب التوكيد اللفظي، ويكون الخبر قوله: ﴿**أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ [الواقعة: ١١]. والثاني: أن يكون السابقون الأول مبتدأ والثاني خبر له على حد قولك: زيد زيد. أي زيد الذي سمعت به هو زيد كما قال:

* أنا أبو النجم وشعري شعري *

وكقول الآخر:

* إذ الناس ناس، والزمان زمان *

قال ابن عطية: وهذا قول سيبويه. والثالث: أن يكون الأول غير الثاني، ويكون المعنى: السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات، والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان، وهذا أظهر، والله أعلم. فإن قيل: فما تقول في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه من حديث بريدة بن الحصيب قال: «أصبح رسول الله ﷺ، فدعا بلالاً، فقال: **«يابلال بم سبقتني إلى الجنة؟! فما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي، ودخلت البارحة فسمعت خشخشتك أمامي، فأتيت على قصر مربع مشرف من ذهب، فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد، قلت: أنا محمد، لمن هذا القصر؟ قالوا لعمر بن الخطاب»**، فقال بلال: يارسول الله ما أذنت قط إلا وصليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها ورأيت أن لله على ركعتين، فقال رسول الله ﷺ: **«فبذلك»**. قيل: نتلقاه بالقبول والتصديق، ولا يدل على أن أحدًا يسبق رسول الله ﷺ، إلى الجنة، وأما تقدم بلال بين يدي رسول الله ﷺ، في الجنة فلأن بلالاً كان يدعو إلى الله أولاً بالأذان،

(١) **٨٥** حادي الأرواح.

فيتقدم أذانه بين يدي النبي ﷺ، فتقدم دخوله بين يديه كالحاجب والخادم. وقد روي في حديث «**أن النبي ﷺ، يبعث يوم القيامة وبلال بين يديه ينادي بالأذان**» فتقدمه بين يديه ﷺ، كرامة لرسوله، وإظهارًا لشرفه وفضله؛ لا سبقًا من بلال له، بل هذا السبق من جنس سبقه إلى الوضوء ودخول المسجد ونحوه، والله أعلم.

(١)**قال تعالى: ﴿وأَصْحَابُ اليَمِينِ ماأَصحابُ اليَمِينِ * في سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وماءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾** [الواقعة: ٢٧-٣٣] وقال تعالى: **﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾** [الرحمن: ٤٨] وهو جمع فنن، وهو الغصن. وقال: **﴿فِيهِما فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ ورُمَّانٌ﴾** [الرحمن: ٦٨] والمخضود: الذي قد خضد شوكة أي: نزع وقطع، فلا شوك فيه. هذا قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة وأبي الأحوص وقسامة بن زهير وجماعة، واحتج هؤلاء بحجتين: إحداهما: أن الخضد في اللغة القطع، وكل رطب قضبته فقد خضدته، وخضدت الشجر إذا قطعت شوكة، فهو خضيد ومخضود، ومنه الخضد على مثال الثمر، وهو كل ما قطع من عود رطب، خضد بمعنى: مخضود، كقبض وسلب، والخضاد شجر رخو لا شوك فيه. الحجة الثانية: قال ابن أبي داود حدثنا محمد بن مصفى حدثنا محمد بن المبارك حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا ثور بن يزيد حدثني حبيب بن عبيد عن عتبة بن عبد السلمي قال: «كنت جالسًا مع رسول الله ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يارسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكًا منها! يعني الطلح، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله جعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود**(٢) **فيها سبعون لونًا من الطعام لا يشبه لون آخر**» (الملبود) الذي قد اجتمع شعره بعضه. على بعض وقال عبدالله بن المبارك أنبأنا صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ، يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يومًا فقال: يارسول الله! ذكر الله في الجنة شجرة

---

(١) ١١٧ حادي الأرواح.

(٢) في النهاية خصوة التيس الملبود أي المكتنز اللحم الذي لزم بعضه بعضًا فتلبد، ا.هـ. قال شمر: لم نسمع واحد الخصى إلا خصية بالياء، لأن أصله من الياء كذا في اللسان في مادة خ ص ى ولم يتعرض له صاحب النهاية ا.هـ.

مؤذية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: «وما هي»؟ قال: السدر فإن له شوكًا مؤذيًا، قال: «أليس الله يقول: ﴿في سدر مخضود﴾؟! أخضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة». وقالت طائفة: المخضود هو الموقر حملاً، وأنكر عليهم هذا القول. وقالوا: لا يعرف في اللغة الخضد بمعنى الحمل، ولم يصب هؤلاء الذين أنكروا هذا القول، بل هو قول صحيح وأربابه ذهبوا إلى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما خضد شوكه وأذهبه وجعل مكان كل شوكة ثمرة أو قرت بالحمل، والحديثان المذكوران يجمعان القولين، وكذلك قول من قال: المخضود الذي لا يعقر اليد، ولا يرد اليد عنه شوك، ولا أذى فيه؛ فسره بلازم المعنى، وهكذا غالب المفسرين يذكرون لازم المعنى المقصود تارة وفردًا من أفراده تارة، ومثالاً من أمثلته فيحكيها الجماعون للغث والسمين أقوالاً مختلفة ولا اختلاف بينها.

فصل
في وصف طلح الجنة

وأما الطلح فأكثر المفسرين قالوا: إنه شجرة الموز. قال مجاهد: أعجبهم طلح وج وحسنه، فقيل لهم: ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٩] وهذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري. وقالت طائفة أخرى: بل هو شجر عظام طوال، وهو شجر البوادي الكثير الشوك عند العرب، قال حاديهم:

بشرها دليلها وقالا غدا ترين الطلح والجبالا

ولهذا الشجر نور ورائحة وظل ظليل، وقد نضد بالحمل والثمر مكان الشوك. وقال ابن قتيبة: هو الذي نضد بالحمل أو بالورق والحمل من أوله إلى آخره فليس له ساق بارز. وقال مسروق: ورق الجنة نضيد من أسفلها إلى أعلاها، وأنهارها تجري من غير أخدود. وقال الليث: الطلح: شجر أم غيلان، ليس له شوك أحجن، من أعظم العضاه شوكًا، وأصلبه عودًا، وأجوده صمغًا. قال أبو إسحاق: يجوز أن يعني به شجر أم غيلان، لأن له نورًا طيب الرائحة جدًا، فوعدوا بما يحبون مثله، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على سائر ما في الدنيا، فإنه ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسامي، والظاهر أن من

فسر الطلح المنضود بالموز إنما أراد التمثيل به لحسن نضده، وإلا فالطلح في اللغة هو الشجر العظام من شجر البوادي، والله أعلم. وفي الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿وظل ممدود﴾** ».

(١)**قال** تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ قال أكثر المفسرين: هو الموز. والمنضود: هو الذي قد نُضِّد بعضه على بعض، كالمشط وقيل الطلح: الشجر ذو الشوك نُضِّد مكان كل شوكة ثمرة. فثمرة قد نضد بعضه إلى بعض. فهو مثل الموز. وهذا القول أصح. ويكون مَن ذكر الموز من السلف: أراد التمثيل، لا التخصيص، والله أعلم. وهو حار رطب، أجوده النضيج الحلو، ينفع من خشونة الصدر والرئة والسعال، وقروح الكليتين والمثانة، ويدر البول، ويزيد في المني، ويحرك الشهوة للجماع، ويلين البطن، ويؤكل قبل الطعام، ويضر المعدة، ويزيد في الصفراء والبلغم، ودفع ضرره بالسكر أو العسل.

(٢)الباب الثلاثون

في أن أكثر أهل الجنة هم أمة محمد ﷺ

في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة**»؟ فكبرنا، ثم قال: «**أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة**»؟ فكبرنا، ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك، ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود أو كشعرة سوداء في ثور أبيض**» هذا لفظ مسلم، وعند البخاري: «**وكشعرة سوداء في ثور أبيض**» بغير ألف، وعن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف هذه الأمة منها ثمانون صفا**» رواه الإمام أحمد والترمذي وإسناده على شرط الصحيح، ورواه الطبراني في معجمه من حديث عبدالله بن عباس وفي إسناده خالد بن يزيد البجلي، وقد تكلم فيه، ورواه أيضًا من حديث القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتم وربع الجنة لكم، ولسائر الناس ثلاثة أرباعها**»؟ قالوا: الله ورسوله

---

(١) ٣٦٦ زاد المعاد جـ٣.
(٢) ٩٠ حادي الأرواح.

أعلم، قال: «**كيف أنتم وثلثها**»؟ قالوا: ذاك أكثر، قال: «**كيف أنتم والشطر لكم**»؟ قالوا: ذاك أكثر، فقال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، لكم منها ثمانون صفًا**» قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن القاسم بن عبدالرحمن، إلا الحارث بن خضيرة، تفرد به عبدالواحد بن زياد، وقال عبدالله بن أحمد حدثنا موسى بن غيلان بن هاشم بن مخلد حدثنا عبدالله بن المبارك عن سفيان عن أبي عمرو عن أبيه عن أبي هريرة قال: «لما نزلت ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠] قال رسول الله ﷺ: «**أنتم ربع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلاثا أهل الجنة**» قال الطبراني تفرد برفعه ابن المبارك عن الثوري. وقال خثيمة بن سليمان القرشي حدثنا أبوقلابة هو عبدالملك بن محمد بن بكار الصيرفي حدثنا حماد بن عيسى حدثنا سفيان الثوري عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ، قال: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف أنتم منها ثمانون صفًا**» وهذه الأحاديث قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها وصح سند بعضها، ولا تنافي بينها وبين حديث الشطر لأنه ﷺ، رجا أولاً أن يكونوا شطر أهل الجنة، فأعطاه الله ـ سبحانه ـ رجاءه وزاد عليه سدسًا آخر. وقد روى أحمد في مسنده من حديث أبي الزبير أنه سمع جابرًا يقول: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**أرجو أن يكون من يتبعني من أمتي يوم القيامة ربع أهل الجنة**»، قال فكبرنا، ثم قال: «**فأرجو أن تكونوا الشطر**» وإسناده على شرط مسلم.

(١)**قال** تعالى: ﴿**إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أترابًا * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ**﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٨] أعاد الضمير إلى النساء ولم يجر لهن ذكر لأن الفرش دلت عليهن إذ هي محلهن. وقيل: الفرش في قوله: ﴿**وفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ**﴾ [الواقعة: ٣٤] كناية عن النساء، كما يكنى عنهن بالقوارير والأزر وغيرها، ولكن قوله مرفوعة يأبى هذا، إلا أن يقال: المراد رفعة القدر، وقد تقدم تفسير النبي ﷺ، للفرش وارتفاعها، فالصواب أنها الفرش نفسها ودلت على النساء لأنها محلهن غالبًا. قال قتادة وسعيد بن جبير: خلقناهن خلقًا جديدًا. وقال ابن عباس: يريد

(١) ١٦٠ حادي الأرواح.

نســاء الآدميات. وقال الكلبي ومقاتل: يعني نساء أهل الدنيا العجز الشمط، يقول ـ تعالى ـ خلقناهن بعد الكبر والهرم بعد الخلق الأول في الدنيا، ويؤيد هذا التفسير حديث أنس المرفوع «**هن عجائزكم العمش الرمض**» رواه الثوري عن موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي عنه. ويؤيده ما رواه يحيى الحماني حدثنا ابن إدريس عن ليث عن مجاهد عن عائشة أن رسول الله ﷺ، دخل عليها وعندها عجـوز فقـال: من هذه؟ فقالت إحدى خالاتي، قال: أما إنه لا يدخل الجنة العجـوز، فدخـل على العجـوز من ذلك ماشاء الله، فقال النبي ﷺ: « **﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾** [الواقعة: ٣٥]. **خلقا آخر، يحشرون يوم القيامة: حفاة عراة غرلاً وأول من يكسى إبراهيم خليل الله**»، ثم قرأ النبي ﷺ: **﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾** قال آدم بن أبي إياس حدثنا شيبان عن الزهري عن جابر الجعفي عني زيد بن مرة عن سلمة بن يزيد قال سمعت رسول الله ﷺ، يقول في قوله: **﴿إِنَّا أنشأناهن إنشَاء﴾** قال: «**يعني الثيب والإبكـار الـلاتي كن في الـدنيـا**» قال آدم وحـدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة العجز**» فبكت عجوز، فقال رسول الله ﷺ: «**أخبروها أنها يومئذ ليست بعجوز، إنها يومئذ شابة، إن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿إنا أنشأهن إنشاء﴾**» وقال ابن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق حدثنا مسعدة بن اليسع حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن عائشـة: «أن النبي ﷺ، أتتـه عجـوز من الأنصـار فقالت: يارسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال نبي الله ﷺ: «**إن الجنة لا يدخلها عجوز**»، فذهب نبي الله ﷺ، فصلى ثم رجع إلى عائشة، فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة، فقال ﷺ: «**إن ذلك كذلك إن الله ـ تعالى ـ إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكار**» **وذكر مقاتل قولاً آخر وهو اختيار الزجاج: أنهن الحور العين التي ذكرهن، قيل أنشأهن الله ـ عز وجل ـ لأوليائه، لم يقع عليهن ولادة**» والظاهر أن المراد أنشأهن الله ـ تعالى ـ في الجنة، إنشاء ويدل عليه وجوه:

أحـدها: أنـه قد قال في حق السـابقـين **﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ﴾** إلى قولـه: **﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾** [الواقعة: ١٧-٢٢] فذكر سررهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم وأزواجهم من الحور العين، ثم ذكر أصحاب

الميمنة وطعامهم وشرابهم وفرشهم ونساءهم، والظاهر أنهن مثل نساء من قبلهم خلقن في الجنة.

الثاني: أنه سبحانه قال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان، لأنه ـ سبحانه ـ حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك كقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ٤٧] وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ [الواقعة: ٦٢]

الثالث: أن الخطاب بقوله: ﴿وَكُنْتُم أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] إلى آخره للذكور والإناث، والنشأة الثانية أيضًا عامة للنوعين. وقوله: ﴿إِنَّا أنشأناهُنَّ إنشاءً﴾ [الواقعة: ٣٥] ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء، وتأمل تأكيده بالمصدر، والحديث لايدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف، بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة، فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات بل هي أحق به منهن، فالإنشاء واقع على الصنفين والله أعلم.

وقوله (عربا) جمع عروب، وهن المتحببات إلى أزواجهن. قال ابن الأعرابي: العروب من النساء: المطيعة لزوجها، المتحببة إليه، وقال أبو عبيدة: العروب: الحسنة التبعل. «قلت» يريد حسن مواقعتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع، وقال المبرد: هي العاشقة لزوجها، وأنشد للبيد:

وفي الحدوج(١) عروب غير فاحشة　　ريا الروادف يعشى دونها البصر

وذكر المفسرون في تفسير «العُرُب» أنهن العواشق: المتحببات، الغنجات، الشكلات، المتعشقات، الغلمات، المغنوجات، كل ذلك من ألفاظه. وقال البخاري في صحيحه: عربا مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصبر، تسميها أهل مكة: العربة. وأهل المدينة: الغنجة. وأهل العراق: الشكلة. والعرب: المتحببات إلى أزواجهن، هكذا ذكره في كتاب بدء الخلق. وقال في كتاب التفسير في سورة الواقعة: عربا مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصبر، تسميها أهل مكة: العربة. وأهل المدينة: الغنجة. وأهل العراق: الشكلة. قلت: فجمع ـ سبحانه ـ بين حسن صورتها وحسن عشرتها، وهذا غاية ما يطلب من النساء، وبه تكمل لذة الرجل بهن. وفي قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]

(١) الحدوج جمع حدج بكسر الحاء مراكب النساء. (ع)

إعلام بكمال اللذة بهن، فإن لذة الرجل بالمرأة التي لم يطأها سواه لها فضل على لذته بغيرها. وكذلك هي أيضًا.

(١)**وقد** قرئت الآية بالوجوه الثلاثة، فمن قرأ بالضم أو الفتح فهو: مصدر. ومن قرأ بالكسر فهو بمعنى: المشروب، وعلى الأول يقع التشبيه بين الفعلين، وهو المقصود بالذكر، شبه شربهم من الحميم بشرب الإبل العطاش، التي قد أصابها الهيام وهو داء تشرب منه ولا تروى، وهو جمع أهيم، وأصله هيم بضم الهاء: كأحمر وحمر، ثم قلبوا الضمة كسرة لأجل الياء فقالوا هيم. وأما قراءة الكسر فوجهها أنه شبه مشروبهم بمشروب الإبل الهيم في كثرته وعدم الري به، والله أعلم.

(٢)...**قوله** ـ تعالى ـ في الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أأنتم تَخْلُقُونَهُ أم نحن الخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ﴾ [الواقعة:٥٨-٦٠] كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلاً بها على النشأة الثانية بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * على أن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠-٦١] فإنكم إنما علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون. فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم. وهذا من كمال قدرة الرب ـ تعالى ـ ومشيئته، لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها، فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا، وأقرب إلى العقل والفهم، وأبعد من كل شبهة وشك؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان. . .

(٣)**وكذلك** الحكمة في خلق النار على ما هي عليه كامنة في حاملها، فإنها لو كانت ظاهرة: كالهواء، والماء، والتراب؛ لأحرقت العالم وما فيه، ولم يكن بد من ظهورها في الأحايين للحاجة إليها، فجعلت مخزونة في الأجسام تورى عند الحاجة إليها، فتمسك بالمادة والحطب ما احتيج إلى بقائها، ثم تخبو إذا استغني عنها، فجعلت على خلقة وتقدير وتدبير حصل به الاستمتاع بها والانتفاع مع السلامة من ضررها، ثم في النار خلة أخرى وهي أنها مما خص به الإنسان دون سائر الحيوان، فإن الحيوانات لا تستعمل النار ولا تستمتع بها، ولما اقتضت الحكمة

(١) ٩٧ بدائع جـ٢. (٢) ١٢٤ التبيان. (٣) ٢٣٦ شفاء العليل.

الباهرة ذلك اغتنت الحيوانات عنها في لباسها وأقواتها فأعطيت من الشعور والأوبار مايغنيها عنها وجعلت أغذيتها بالمفردات التي لا تحتاج إلى طبخ وخبز لما كانت الحاجة إليها شديدة جعل من الآلات والأسباب مايتمكن من إثارتها إذا شاء ومن إبطالها.

ومن حكمها هذه المصابيح التي يوقدها الناس فيتمكنون بها من كثير حاجاتهم، ولولاها لكان نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور. وما منافعها في إنضاج الأغذية والأدوية والدفء فلا يخفى، وقد نبه ـ تعالى ـ على ذلك بقوله: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾** [الواقعة: ٧١-٧٣] أي تذكر بنار الآخرة، فيحترز منها، ويستمتع بها المقوون، وهم النازلون بالفيفاء وهي الأرض الخالية، وخص هؤلاء بالذكر لشدة حاجتهم إليها في خبزهم وطبخهم حيث لا يجدون ما يشترونه فيغنيهم عن ما يصنعونه بالنار.

(١)**﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾** [الواقعة: ٧٣] تذكرة تذكر بها الآخرة، ومنفعة للنازلين بالقواء وهم المسافرون، يقال: أقوى الرجل إذا نزل بالقِيِّ، والقَوَى وهي الأرض الخالية، وخص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيها لعباده ـ والله أعلم بمراده من كلامه ـ على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر. والمقصود أنه ـ سبحانه ـ أشهدهم في هذه [الدار] ما أعد لأوليائه وأعدائه في دار القرار، وأخرج إلى هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة على ما هناك من خير وشر، وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياطا يسوق بها عباده المؤمنين، فإذا رأوها حذروا كل الحذر واستدلوا بما رأوه منها وشاهدوه على ما في تلك الدار من المكروهات والعقوبات، وكان وجودها في هذه الدار وإشهادهم إياها وامتحانهم باليسير منها: رحمة منه بهم، وإحسانًا إليهم، وتذكرة، وتنبيها.

(٢)... **وقال** أبوداود الطيالسي في مسنده: حدثنا شعبة عن الحكم عن مجاهد عن

(١) ١٤١ طريق الهجرتين.

(٢) ١١٥ حادي الأرواح.

عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ، قال: «**من ادعى إلى غير أبيه لم يرح رائحة الجنة، وأن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام**». وقد أشهد الله ـ سبحانه ـ عباده في هذه الدار آثارًا من آثار الجنة وأنموذجًا منها من: الرائحة الطيبة، واللذات المشتهاة، والمناظر البهية، والفاكهة الحسنة، والنعيم، والسرور، وقرة العين. وقد روى أبو نعيم من حديث الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله ـ عز وجل ـ للجنة: طيبي لأهلك. فتزداد طيبًا، فذلك البرد الذي يجده الناس بالسحر من ذلك، كما جعل ـ سبحانه ـ نار الدنيا وآلامها وغمومها وأحزانها: تذكرة بنار الآخرة. قال ـ تعالى ـ في هذه النار: ﴿نحن جعلناها تذكرة﴾** » وأخبر النبي ﷺ، أن شدة الحر والبرد من أنفاس جهنم، فلابد أن يشهد عباده أنفاس جنته وما يذكرهم بها، والله المستعان.

فصل(١)

ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من الكمون والظهور، فإنها لو كانت ظاهرة أبدًا كالماء والهواء، كانت تحرق العالم، وتنتشر، ويعظم الضرر بها والمفسدة، ولو كانت كامنة لا تظهر أبدًا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها، فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة في الأجسام، يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته إليها، فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه، فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها، فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها، فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها، فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب، اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع والسلامة من الضرر. قال ـ تعالى ـ: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ**﴾ [الواقعة: ٧١] إلى قوله: ﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ [الواقعة: ٧٤] فسبحان ربنا العظيم! لقد تعرف إلينا بآياته، وشفانا ببيناته، وأغنانا بها عن دلالات العالمين، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة، فنستجير منها، ونهرب إليه منها، ومتاعًا للمقوين وهم: المسافرون، النازلون بالقواء، والقواء هي الأرض الخالية، وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفي والإنس وغير ذلك.

---

(١) ٢١٥ مفتاح جـ١.

فصل

ثم تأمل حكمته ـ تعالى ـ في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات، فلا حاجة بالحيوان إليها، بخلاف الإنسان فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها، وتنبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع، وهي: هذا المصباح الذي يتخذه الناس، فيقضون به من حوائجهم ما شاءوا من ليلهم، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفًا في ظلمة الليل الداجي، وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل، فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك، ثم انظر إلى ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره، كيف يضيء ما حولك كله، فترى به القريب والبعيد. ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفد ولا يضعف.

وأما منافع النار في إنضاج الأطعمة والأدوية، وتجفيف مالا ينتفع إلا بجفافه، وتحليل مالا ينتفع إلا بتحليله، وعقد مالا ينتفع إلا بعقده وتركيبه، فأكثر من أن يحصى. ثم تأمل ما أعطته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو، فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة، كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلاً، فمن أعطى هذا: القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره، وأعطى هذه: القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها، وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم.

(1)**سبحانه** يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره، ولهذا يعظم هذا القسم كقوله: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] وأظهر القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء، فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها، وأيضًا فإنه لم تجر عادته ـ سبحانه ـ باستعمال النجوم في آيات القرآن، ولا في موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية، وجرت عادته باستعمال النجوم في الكواكب في جميع

(١) ١٩٧ مفتاح جـ١.

القرآن. وأيضًا فإن نظير الأقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوي النجم في قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إذا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]. وأيضًا فإن هذا قول جمهور أهل التفسير، وأيضًا فإنه ـ سبحانه ـ يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده هذه طريقة القرآن. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿صٓ والقُرآنِ ذِي الذِّكرِ﴾ [صٓ: ١]، ﴿يٓس * والقرآن الحكيم﴾ [يس: ١، ٢]، ﴿قٓ والقُرْآنِ المجيدِ﴾ [ق: ١]، ﴿حمٓ * والكِتابِ المُبِينِ﴾ [الدخان: ١، ٢] ونظائره. والمقصود أنه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته.

(١)**قوله** تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠] ذكر ـ سبحانه ـ هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى، وأقسام الخلق فيها، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة الأولى، وإخراج النبات من الأرض، وإنزال الماء من السماء، وخلق النار. ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس في القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن. وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن، وأنه تنزيله.

وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها، فقيل: هي آيات القرآن، ومواقعها: نزولها شيئًا بعد شيء. وهذا قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية عطاء، وقول سعيد بن جبير، والكلبي، ومقاتل، وقتادة. وقيل: النجوم هي: الكواكب، ومواقعها: مساقطها عند غروبها. هذا قول أبي عبيدة وغيره. وقيل: مواقعها: انتشارها وانكدارها يوم القيامة، وهذا قول الحسن. ومن حجة هذا القول أن لفظ مواقع تقتضيه، فإنه مفاعل من الوقوع، وهو السقوط. فلكل نجم موقع، وجمعها مواقع. ومن حجة قول من قال: هي مساقطها عند الغروب، أن الرب ـ تعالى ـ يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها، إذ فيها وفي أحوالها الثلاث: آية، وعبرة، ودلالة كما تقدم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بالخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦] وقال: ﴿والنَّجْمِ إذا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] وقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]. ويرجح هذ االقول أيضًا أن

(١) ١٣٧ التبيان.

النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب: كقوله تعالى: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] وقوله: ﴿والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم، وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه: أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي. فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين، مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن، والنجوم آياته المشهودة المعاينة. والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول.

ومن قرأ (بموقع النجوم) على الأفراد، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد، والمواقع اسم جنس، والمصادر إذا اختلفت جمعت، وإذا كان النوع واحدًا أفردت، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] فجمع الأصوات لتعدد النوع، وأفرد صوت الحمير لوحدته. فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه، وتعدد المواقع لتعدده، إذ لكل نجم موقع.

فصل

والمقسم عليه ههنا قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿وإِنَّه لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]. ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى: ﴿لو تعلمون عظيم﴾ فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، ألطف شيء وأحسنه موقعًا. وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيدًا أو تنبيهًا أو احترازًا. كقوله تعالى: ﴿والَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]. فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا﴾ لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم: أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿لا نُكَلِّف نَفْسًا إلا وُسعَهَا﴾ [الأعراف: ٤٢] وهذا أحسن من قول من قال: أنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر. فهما خبران عن مخبر واحد. فإن عدم التكليف

فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا، بل هو حكم شامل لجميع الخلق، مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة محذوفة أي نفسًا منهم، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة.

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧] فاعترض بقوله (سبحانه) بين الجعلين، وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام، من قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد، وتعظيم المقسم به والمخبر عنه، ورفع توهم خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك.

فمن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر:

لو أن الباخلين ـ وأنت منهم ـ رأوك تعلموا منك المطالا

ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر:

فلا هجره يبدو ـ وفي اليأس راحة ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

فقوله: وفي اليأس راحة جواب لتقدير سؤال سائل وما يغني عنك هجره؟ فقال: وفي اليأس راحة، أي المطلوب أحد أمرين: إما يأس مريح، أو وصال صاف.

ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي:

ألا زعمت بنو جعد بأني ـ وقد كذبوا ـ كبير السن فاني

ومنه قول نصيب:

فكدت ـ ولم أخلق من الطير ـ إن بدا سنا بارق نحو الحجاز أطير

فقوله: ولم أخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار لو قال فكدت أطير فيقال له: وهل خلقت من الطير، فاحترز بهذا الاعتراض. وعندي أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا، وهو قوة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز، فأخبر أنه كاد يطير على أنه أبعد شيء من الطيران، فإنه لم يخلق من الطير، فلا عجب طيران من خلق من الطير، وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير، لشدة نزوعه وشوقه إلى جهة محبوبه فتأمله.

ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر:

قد كنت أبكي وأنت راضية حذار هذا الصدود والغضب
إن تم ذا الهجر يا ظلوم ـ ولا تم ـ فما لي في العيش من أرب

وقول الآخر:

إن سليمـي ـ والله يكـلؤهـا ـ ضنـت بشيء ما كان يرزؤهـا

وقول الآخر:

إن الـثـمانـين ـ وبلغـتـهـا ـ قد أحـوجت سمعي إلى ترجمـان

ومنه الاعتراض بالقسم، كقوله:

ذاك الذي ـ وأبيك ـ يعرف مالكا والحق يدفـع ترهـات البـاطـل

ومن اعتراض الاستعطاف قوله:

فمـن لي بعـين الـتي كنـت مرة إلي بها ـ نفسي فداؤك ـ تنـظر

فاعترض بقوله: نفسي فداؤك، استعطافًا.

فتأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ**﴾ [النحل: ١٠١] فقوله: ﴿**والله أعلمُ بما يُنزِّلُ**﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أمورًا: منها الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟ ومنها أن الذي بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم، ومنها أن مصدر الأمرين عن علمه ـ تبارك وتعالى ـ، وأن كلا منهما منزل، فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني.

ومن الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإنسـانَ بِوَالِـدَيْـهِ حَمَلَتْـه أُمُّـهُ وَهْنًـا عَلى وَهْنٍ وفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي ولِوالِدَيْكَ**﴾ [لقمان: ١٤] فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به، توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها، وتذكيرا لولدها بحقها، وما قاسته من حمله ووضعه مما لم يتكلفه الأب.

ومنه قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿**وإذ قَتَلْتُمْ نَفْسًـا فَادَّارأْتُمْ فيها واللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُم تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا**﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣] فاعترض بقوله: ﴿**والله مُخْرِجٌ ما كنتم تكتمون**﴾ [البقرة: ٧٢] بين الجمل المعطوف بعضها على بعض، إعلامًا بأن تدارؤهم وتـدافعهم في شأن القتيل ليس نافعًا لهم في كتمانه، فالله يظهره ولابد ولاتستطل هذا الفصل وأمثاله؛ فإنه يعطيك ميزانًا، وينهج لك طريقًا يعينك على فهم الكتاب، والله المستعان.

فصل

ثم قال: ﴿إِنَّه لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] فوصفه بما يقتضي حسنه، وكثرة خيره، ومنافعه، وجلالته؛ فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله ـ سبحانه ـ وصف نفسه بالكرم. ووصف به كلامه ووصف به عرشه. ووصف به ما كثر خيره، وحسن منظره من النبات وغيره، ولذلك فسر السلف الكريم: بالحسن. قال الكلبي: إنه لقرآن كريم، أي حسن كريم على الله، وقال مقاتل: كرمه الله وأعزه؛ لأنه كلامه، وقال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة، وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر، وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة، وكذلك الكريم في الناس واللئيم.

فصل

ثم قال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨] اختلف المفسرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ. والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٦] ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] فهذا يدل عى أنه بأيديهم يمسونه. وهذا هو الصحيح في معنى الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر. والأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الآية سيقت تنزيهًا للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم، ولا يقدرون عليه. فإن الفعل قد ينتفي عمن يحسن منه، وقد يليق بمن لا يقدر عليه. فنفى عنهم الأمور الثلاثة، وكذلك قوله في سورة عبس: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾

[عبس: ١٣ - ١٦] فوصف محله بهذه الصفات بيانًا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به. وتقدير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر.

الوجه الثاني: أن السورة مكية، والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة. وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية.

الوجه الثالث: إن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ. وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر. وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه.

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨] والمكنون المصون المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩] وهكذا قال السلف. قال الكلبي: مكنون من الشياطين، وقال مقاتل: مستور وقال مجاهد: لا يصيبه تراب ولا غبار. وقال أبو إسحاق: مصون في السماء يوضحه.

الوجه الخامس: أن وصفه بكونه مكنونا نظير وصفه بكونه محفوظًا فقوله: ﴿قرآن كريم في كتاب مكنون﴾ كقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] يوضحه.

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين، وأبلغ في تعظيم القرآن، من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] بالرفع فهذا خبر لفظا ومعنى. ولو كان نهيا لكان مفتوحًا. ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره، إلى معنى النهي. والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته. وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: ﴿إلا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ولم يقل إلا المتطهرون. ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وفي الحديث: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**[1]» فالمتطهر فاعل التطهير، والمطهر الذي طهره غيره، فالمتوضىء متطهر، والملائكة مطهرون.

(١) رواه الترمذي عن أبي إدريس الخولاني عن عمر عن النبي ﷺ، قال: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم =

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن في الإخبار عن كونه مكنونًا كبير فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكنونًا في كتاب، لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنُونًا في كتاب، وهذا أمر مشترك، والآية إنما سيقت لبيان مدحه وتشريفه، وما اختص به من الخصائص، التي تدل على أنه منزل من عند الله، وأنه محفوظ مصون، لا يصل إليه شيطان بوجه ما، ولا يمس محله إلا المطهرون، وهم السفرة الكرام البررة.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه حدثنا أبوالأحوص حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك في قوله: ﴿**لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ [الواقعة: ٧٩] قال: المطهرون: الملائكة. وهذا عند طائفة من أهل الحديث في حكم المرفوع. وقال الحاكم: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع، ومن لم يجعله مرفوعًا فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة. والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن. ويجب الرجوع إلى تفسيرهم. وقال حرب في مسائله: سمعت إسحاق في قوله: ﴿**لا يَمسُّهُ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ [الواقعة: ٧٩] قال: النسخة التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، قال: الملائكة.

وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر. والحديث مشتق من هذه الآية. وقوله: «**لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر**» رواه أهل السنن من حديث الزهري عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده: أن في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ، إلى أهل اليمن في السنن، والفرائض، والديات (أن لا يمس القرآن إلا طاهر) قال أحمد: أرجو أن يكون صحيحًا. وقال أيضًا: لا أشك أن رسول الله ﷺ، كتبه.

= قال: **أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء**». قال الترمذي: وهذا حديث في إسناده اضطراب. ولا يصح عن النبي ﷺ، في هذا الباب كثير شيء. قال البخاري: أبو إدريس لم يسمع من عمر شيئًا ا.هـ.

وقال أبو عمر بن عبدالبر: هو كتاب مشهور عند أهل السير، معروف عند أهل العلم. معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد. لأنه أشبه التواتر في مجيئه، لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة. ثم قال: وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فمتفق عليه إلا قليلاً. وقد رواه ابن حبان في صحيحه، ومالك في موطئه، وفي المسألة آثار آخر مذكورة في غير هذا الموضع.

فصل

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي. قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به. وهذا أيضًا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله، تكلم بها حقا، وأنزله على رسوله وحيا، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه. فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج، ومن لم يؤمن بأن الله ـ سبحانه ـ تكلم به وحيا، وليس مخلوقًا من جملة مخلوقاته، ففي قلبه منه حرج. ومن قال: إن له باطنًا يخالف ظاهره، وإن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه، ففي قلبه منه حرج. ومن قال: إن له تأويلاً لا نفهمه ولا نعمله، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه منه حرج، ومن سلط عليه آل الآرائيين، وهذيان المتكلمين، وسفسطة المسفسطين، وخيالات المتصوفين، ففي قلبه منه حرج. ومن جعله تابعًا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه، ينزله على أقواله، ويتكلف حمله عليها، ففي قلبه منه حرج، ومن لم يحكمه ظاهرًا وباطنا في أصول الدين وفروعه، ويسلم وينقاد لحكمه أين كان، ففي قلبه منه حرج، ومن لم يأتمر بأوامره، وينزجر عن زواجره، ويصدق جميع أخباره، ويحكم أمره ونهيه وخبره، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه، ففي قلبه منه حرج. وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم.

وأنت إذا تأملت قوله: ﴿لَا يَمسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه، وقياس الشيء على نظيره، واعتباره

بمشاكلة، وتأملت المشابهة التي عقدها الله ـ سبحانه ـ وربطها بين الظاهر والباطن ـ فهمت هذه المعاني كلها من الآية، وبالله التوفيق.

فصل

ثم أكد ذلك وقرره وأطده بقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠] وكما أنه لازم لكونه قرآنا كريما في كتاب مكنون فهو ملزوم له. فهو دليل عليه مدلول له. وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين:

أحدهما: أنه المتلكم، وأنه منه نزل، ومنه بدأ، وهو الذي تكلم به. ومن هنا قال السلف: منه بدأ. ونظيره: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣] وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

والثاني: علو الله ـ سبحانه ـ فوق خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول، وتعرفه الفطر: هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل. والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم، وتشهد به عقولهم. وذكر التنزيل مضافًا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم، وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثًا، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم. فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله، وصحة ما جاء به. وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

وقد أشار ـ سبحانه ـ إلى الطريقين في غير موضع من كتابه. كقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. فهذا استدلال بالآيات المعاينة المخلوقة، ثم قال: ﴿أو لم يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] فهذا استدلال بكمال ربوبيته وكمال أوصافه على صدق رسوله فيما جاء به. وهذه الطريق أخص وأقوى وأكمل وأعلى. والأول أعم وأشمل. وقد تقدم بيانها عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤] وأين الاستدلال بأوصاف الرب ـ تعالى ـ وكماله المقدس على ثبوت النبي وبعثه، من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته؟

وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة ـ رضي الله عنها ـ بصفات الرب ـ تعالى ـ وصفات محمد ﷺ، واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوته، وأنه رسول الله حقًّا. وأن من كانت هذه صفات ربه وخالقه تأبى أن يخزيه، وأنه يؤيده، ويعليه، ويتم نعمته عليه(١).

وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين من الفرق مالا يخفى، وإذا حصل للعبد الفقه في الأسماء والصفات انتفع به في باب معرفة الحق والباطل من الأقوال، والطرائق والمذاهب والعقائد أعظم انتفاع، وأتمه، وقد بينا في كتابنا المعالم(٢) بطلان التحيل وغيره من الحيل الربوبية من أسماء الرب وصفاته، وأنه يستحيل على الحكيم أن يحرم الشيء ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات، ثم يبيح التوصل إليه بنفسه بأنواع التحيلات. فأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد؛ إذا ليست حكمة الرب ـ تعالى ـ وكمال علمه وأسمائه وصفاته، تنتقض بإحالة ذلك وامتناعه عليه. فهذا استدلال بالفقه الأكبر في الأسماء والصفات على الفقه العملي في باب الأمر والنهي. وهذا باب حرام على الجهمي المعطل أن يلجه إلى الجنة، حرام عليه ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين ألف سنة. والله العزيز الوهاب لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وبه التوفيق.

ثم وبخهم ـ سبحانه ـ على وضعهم الإدهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به، ويفرق به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوي عنه لا يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به فهو روح الوجود وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور

---

(١) روى البخاري في بدء الوحي من حديث عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ فرجع بها ﷺ، يرجف، فدخل على خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ «لقد خشيت على نفسي»، فقالت: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

(٢) كذا، ولعله كتاب إعلام الموقعين الذي لم يؤلف في أصول الدين مثله ولم ينسج أحد على منواله.

البصـائر، فكيف تطلب المداهنة بها هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة؟ وإنها أنزل بالحق وللحق. والمـداهنـة إنها تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل. فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يدهن به؟.

ثم قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنها هو بالرزق، فرزق البدن الطعام والشراب، ورزق القلب الإيهان والمعرفة بربه وفاطره، ومحبته، والشوق إليه، والأنس بقربه، والابتهاج بذكره، وكان لا حياة له إلا بذلك، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب ـ أنعم ـ سبحـانه ـ على عباده بهذين النوعين من الرزق، وجعل قيام أبـدانهم وقلوبهم بهما. ، ثم فاوت ـ سبحـانـه ـ بينهم في قسمة هذين الرزقين، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته: فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما. ومنهم من قتر عليه في الرزقين.

ومنهم من وسع عليه رزق البدن، وقتر عليه رزق القلب، وبالعكس. وهذا الرزق إنها يتم ويكمل بالشكر. والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه. وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد؛ فإن الله ـ تعالى ـ تأذن أنه لابد أن يزيد الشكور من نعمه، ولابد أن يسليها من لم يشكرها، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر ولإيهان جعلوا رزقهم نفسه تكذيبًا، فإن التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الـرزق وهمـا رزق القلب حقيقة، فهؤلاء جعلوا مكان هذ االرزق التكذيب والكفر، فجعلوا رزقهم التكذيب. وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال: التقـدير، وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون. وقال آخرون: التقدير، وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون. فحذف مضافين معا. وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى. ومن بعض معنى الآية قوله: مطرنا بنوء كذا وكذا[١] فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى. والله أعلم.

---

(١) النوء: النجم مال للغروب، أو سقوط النجم في الغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله. وكانت العرب تقول: إن انتقال الكواكب هو المؤثر في الأمطار.

فصل

ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى، كما ذكر في أولها أحوالهم في القيامة الكبرى، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك إلى ثلاثة. وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون، فوقهم رب قاهر مالك، يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إنكاره. فقال: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣] أي وصلت الروح إلى هذا الموضع، بحيث فارقت ولم تفارق، فهي برزخ بين الموت والحياة، كما أنها إذا فارقت صارت في برزخ بين الدنيا والآخرة، ملائكة الرب ـ تعالى ـ أقرب إلى المختضر من حاضريه من الأنس، ولكنهم لا يبصرون بهم، فلو لا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدينين، ولا مستوعبين ليوم الحساب.

فإن قيل: أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما؟

قيل: هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه، فإنهم إما أن يقروا بأنهم مربوبون مملوكون، عبيد لمالك، قادر، متصرف فيهم، قاهر، آمر؛ ناه، أو لا يقرون بذلك: فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله، وأن لا يجعلوا له ندًّا، ولا شريكا، وهذا هو الذي جاءهم به رسوله، ونزل عليه به كتابه. وإن أنكروا ذلك، وقالوا: إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين، ولا مربوبين وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم. فإن المتصرف في نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك، بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له، سواء الذي هو عبد مملوك من جميع الجهات وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدفع له. ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع، وإنقاد لأجله للعبودية وأذعن، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية والإقرار بالعبودية.

ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة، والاختصار التام، وندائها إلى معناها من أقرب مكان، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام، ودلائل الربوبية والتوحيد، والبعث، وفصل النزاع في معرفة الروح وأنها تصعد، وتنزل، وتنتقل من مكان إلى مكان، وما أحسن إعادة

«لولا» ثانيًا قبل ذكر الفعل الذي يقتضيه الأول. وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاءً واحدا. وذكر الشرطين بين لولا الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل، ثم الموالاة بين الشرط الأول والثاني، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابط بين لولا الأولى والثانية، والشرط الأول والثاني، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه.

فتضمنت الآيتان تقريرًا وتوبيخًا، واستدلالاً على أصول الإيمان: من وجود الخالق - سبحانه - وكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وربوبيته، وتصرفه في أرواح عباده، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده، يذهب بها إذا شاء، ويردها إليهم إذا شاء، ويخلي أبدانهم منها تارة، ويجمع بينها وبينهما تارة، وإثبات المعاد، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه، وإثبات ملائكته، وتقرير عبودية الخلق، وأتى بهذا في صورة تحضيضين، وتوبيخين، وتقريرين، وجوابين، وشرطين، وجزاءين - منتظمة أحسن الانتظام، ومتداخلة أحسن التداخل متعلقًا بعضها ببعض. وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه قال الفراء: وأجيبت ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ﴾ [الواقعة: ٨٣] و﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦] بجواب واحد وهو ﴿تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٧] قال: ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] أجيبا بجواب واحد، وهما شرطان. قال الجرجاني: قوله: (ترجعونها) جواب قوله (فلولا) المتقدمة والمتأخرة، على تأويل: فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها إلى موضعها، إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين، كما تزعمون. يقول تعالى: إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء، ولا إله، ولا رب يقوم بذلك، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ فإذا لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه، فهل دلكم ذلك على أن الأمر إلى مليك قادر قاهر، متصرف فيكم، وهو الله الذي لا إله إلا هو؟ وقال أبو إسحاق: معناه، فهلا ترجعون الروح، إن كنتم غير مملوكين مدبرين؟ فهلا إن كان الأمر كما تزعمون كما يقول قائلكم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] و﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦] أي إن كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلًا فهلا ترجعون الروح إذا بلغت الحلقوم؟ وهلا تردون عن أنفسكم الموت.

قلت: وكان هذا يلتفت إلى قوله تعالى: ﴿**قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ**﴾ [الإسراء: ٥٠] أي إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقًا جديدًا، فكونوا خلقًا لا يفنى ولا يبلى، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك. ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقروا أن لكم ربًّا متصرفًا فيكم، ومالكًا لكم، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته، يميتكم إذا شاء. ويحييكم إذا شاء. فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقًا جديدًا بعدما أماتكم. وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك، نافذ المشيئة فيكم، والقدرة فيكم، فكونوا خلقًا لا يقبل الفناء والموت فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقًا يموت، ويحيا، أن يحييكم بعد ما أتاكم؟ فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقًا لا يموت. والذي في الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت. وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد.

فلما قام الدليل، ووضح السبيل، وتم البرهان على أنهم مملوكون مربوبون، مجزيون محاسبون ـ ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول، والقيامة الصغرى، وهي ثلاث طبقات: طبقة المقربين، وطبقة أصحاب اليمين، وطبقة المكذبين، فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان والجنة. وهذه الكرامات الثلاثة التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التي يعطونها يوم القيامة: فالروح: الفرح والسرور، والابتهاج ولذة الروح، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها، وذلك قوتها وغذاؤها، والريحان: الرزق، وهو الأكل والشرب، والجنة: المسكن الجامع لذلك كله. فيعطون هذه الثلاث في البرزخ، وفي المعاد الثاني.

ثم ذكر الطبقة الثانية، وهي طبقة أصحاب اليمين. ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلامة من الآفات والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين فقال: ﴿**وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ**﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١] والسلام مصدر من سلم، أي فلك السلامة. والخطاب له نفسه. أي: يقال لك السلامة. كما يقال للقادم: لك الهناء، ولك السلامة، ولك البشرى، ونحو ذلك من الألفاظ، كما يقولون: خير مقدم، ونحو

ذلك، فهذه تحية عند اللقاء. قال مقاتل: يسلم الله لهم أمرهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويتقبل حسناتهم. وقال الكلبي: يسلم عليه أهل الجنة، ويقولون: السلامة لك. وعلى هذا فقوله: ﴿من أصْحاب اليَمِين﴾ أي: هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين، فإنه إذا قدم عليهم حيوه بهذه التحية، وقالوا: السلامة لك. وفي الآية أقوال أخر، فيها تكلف وتعسف، فلا حاجة إلى ذكرها.

ثم ذكر الطبقة الثالثة، وهي طبقة الضال في نفسه، المكذب لأهل الحق، وإن له عند الموافاة نزل الحميم، وسكنى الجحيم. ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأي العين لمن آمن بالله ورسوله فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين، وعن درجة اليقين إلى حقه.

ثم أمره أن ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون.

(١)**وأنت** إذا تأملت قوله تعالى: ﴿إِنَّه لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا المُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩] وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي ﷺ، وأن هذا القرآن جاء من عند الله، وأن الذي جاء به روحٌ مطهر، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل، ووجدت الآية أخْتَ قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] وجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر. . .

(٢)... **قلت**: مثاله قوله - تعالى -: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا المُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩].
قال(٣): والصحيح في الآية، أن المراد به: الصحف التي بأيدي الملائكة لوجوه عديدة منها: أنه وصفه بأنه «مكنون» و«المكنون» المستور عن العيون. وهذا إنما هو في الصحف التي بأيدي الملائكة.

ومنها: أنه قال: ﴿لا يَمسُّه إلَّا المطهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] وهم الملائكة. ولو أراد المتوضئين لقال: لا يمسه إلا المتطهرون. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابِين وَيُحِبُّ المتطَهِّرِينَ﴾ فالملائكة مطهرون. والمؤمنون متطهرون.

ومنها: أن هذا إخبار. ولو كان نهيًا لقال: لا يمسَسْه بالجزم. والأصل في الخبر: أن يكون خبرًا صورة ومعنى.

(١) ٢٢٥ أعلام جـ١.	(٢) ٤١٦ مدارج جـ٢.	(٣) أي شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: أن هذا رد على من قال: إن الشيطان جاء بهذا القرآن. فأخبر ـ تعالى ـ: أنه في كتاب مكنون لا تناله الشياطين. ولا وصول لها إليه، كما قال ـ تعالى ـ في آية الشعراء: ﴿**وما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ * وما يَنبَغِي لَهُم وما يَستَطِيعُونَ**﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] وإنما تناله الأرواح المطهرة وهم الملائكة.

ومنها: أن هذا نظير الآية التي في سورة عبس: ﴿**فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ**﴾ [عبس: ١٢-١٦]. قال مالك في موطئه: أحسن ما سمعت في تفسير قوله: ﴿**لا يَمَسُّهُ إلا المطَهَّرُونَ**﴾ [الواقعة: ٧٩] أنها مثل هذه الآية التي في سورة عبس. ومنها: أن الآية مكية من سورة مكية. تتضمن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد، وإثبات الصانع، والرد على الكفار. وهذا المعنى أليق بالمقصود من فرع عملي. وهو حكم مس المحدث المصحف.

ومنها: أنه لو أريد به الكتاب الذي بأيدي الناس: لم يكن في الإقسام على ذلك بهذا القسم العظيم كثير فائدة. إذ من المعلوم: أن كل كلام فهو قابل لأن يكون في كتاب حقًا أو باطلاً. بخلاف ما إذا وقع القسم على أنه في كتاب مصون، مستور عن العيون عند الله. لا يصل إليه شيطان، ولا ينال منه، ولا يمسه إلا الأرواح الطاهرة الزكية. فهذا المعنى أليق وأجل وأخلق بالآية وأولى بلا شك.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: لكن تدل الآية بإشارتها على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر. لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسها إلى المطهرون، لكرامتها على الله. فهذه الصحف أولى أن لا يمسها إلا طاهر. وسمعته يقول في قول النبي ﷺ: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة**» إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت. فكيف تلج معرفة الله ـ عز وجل ـ ومحبته وحلاوة ذكره، والأنس بقربه، في قلب ممتلىء بكلاب الشهوات وصورها؟ فهذا من إشارة اللفظ الصحيحة.

ومن هذا: أن طهارة الثوب الطاهر والبدن إذا كانت شرطًا في صحة الصلاة والاعتداد بها. فإذا أخل بها كانت فاسدة. فكيف إذا كان القلب نجسًا، ولم يطهره صاحبه؟ فكيف يُعْتَدُّ له بصلاته، وإن أسقطت القضاء؟ وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن؟

ومن هذا: أن استقبال القبلة في الصلاة شرط لصحتها. وهي بيت الرب. فتوجه المصلي إليها ببدنه وقالبه شرط. فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلى رب القبلة والبدن؟ بل وجه بدنه إلى البيت، ووجه قلبه إلى غير رب البيت.

وأمثال ذلك من الإشارات الصحيحة التي لا تنال إلا بصفاء الباطن، وصحة البصيرة، وحسن التأمل، والله أعلم.

(١)**وقال** تعالى ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧] أي هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين. وهذه الآية تحتاج إلى تفسير، فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولا بد أن يكون الدليل مستلزمًا لمدلوله بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول لما بينهما من التلازم، فيكون الملزوم دليلاً على لازمه، ولا يجب العكس. ووجه الاستدلال أنهم إذا أنكروا البعث. والجزاء، فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإما أن يقروا بأن لهم ربًّا قاهرًا متصرفًا فيهم، يميتهم إذا يشاء، ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم، وإما ألا يقروا برب هذا شأنه. فإن أقروا آمنوا بالبعث والنشور والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه وكفروا به، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد، فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم. وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضر وهم يعاينون موته. أي فهلا يردون الروح إلى مكانها إن كان لهم قدرة وتصرف وليسوا بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر يمضي عليهم أحكامه وينفذ فيهم أوامره، وهذه غاية التعجيز لهم إذ تبين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ولو اجتمع على ذلك الثقلان، فيا لها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته ـ سبحانه ـ وتصرفه في عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم.

والدين: دينان: دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي، وكلاهما لله وحده. فالدين كله أمرًا أو جزاء لله، والمحبة أصل كل واحد من الدينين، فإن ما شرعه الله وأمر به، فإنه يحبه ويرضاه، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه

(١) ٢٧٩ الجواب الكافي.

ويرضاه، فهو يحب ضده. فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه. ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضى، كما قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا**» وهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع، ولأجلها شرع، وعليها أسس. وكذلك دينه الجزائي فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وكل من الأمرين محبوب للرب، فإنهما بعدله وفضله. وكلاهما من صفات كماله. . . .

(١)**قال** تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. وقال تعالى: ﴿والحَبُّ ذُو العَصْفِ والرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢]. وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «**من عُرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل، طيب الرائحة**». وفي سنن ابن ماجه من حديث أسامة عن النبي ﷺ، أنه قال: «**ألا مشمِّر للجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي - ورب الكعبة - نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مَشيد، ونهر مُطَّرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد، في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية**». قالوا: نعم يارسول الله، نحن المشمرون لها. قال: «**قولوا: إن شاء الله تعالى**». فقال القوم: إن شاء الله تعالى».

الريحان: كل نبت طيب الريح. فكل أهل بلد يخصونه بشيء من ذلك. فأهل الغرب: يخصونه بالآس. وهو الذي يعرفه العرب من الريحان. وأهل العراق والشام: يخصونه بالحَبق. فأما الآس: فمزاجه بارد في الأولى، يابس في الثاينة. وهو مع ذلك: مركب من قوى متضادة. والأكثر فيه: الجوهر الأرضي البارد. وفيه شيء حار لطيف. وهو يجفف تجفيفًا قويًا. وأجزاؤه متقاربة القوة، وهي قوة قابضة حابسة من داخل وخارج معًا، وهو قاطع للإسهال الصفراوي، دافع للبخار الحار الرطب إذا شُمَّ، مفرح للقلب تفريحًا شديدًا، وشمه مانع للوباء، وكذلك افتراشه في البيت، ويبرىء الأروام الحادثة في الحالبين إذا وضع عليها. وإذا دق ورقه وهو غض، وضرب بالخل، ووضع على الرأس قطع الرعاف. وإذا سحق ورقه اليابس وذُرَّ على القروح ذوات الرطوبة نفعها. ويقوي الأعضاء الواهية إذا ضمد به.

---

(١) ٣٤٩ زاد المعاد جـ٣.

وينفع دال الداحس. وإذا ذر على البثور والقروح التي في اليدين والرجلين نفعها. وإذا دُلك به البدن قطع العَرق، ونشف الرطوبات الفضلية، وأذهب نتن الإبط. وإذا جلس في طبيخه نفع من خراريج المقعدة والرحم. ومن استرخاء المفاصل. وإذا صُبَّ على كسور العظام التي لم تلتحم نفعها، ويجلو قشور الرأس وقروحه الرطبة وبثوره، ويمسك الشعر المتساقط ويسوده. وإذا دق ورقه وصب عليه ماء يسير، وخلط به شيء من زيت أو دهن الورد وضمد به: وافق القروح الرطبة، والنِّملة والحمرة، والأورام الحادة، والشرى والبواسير، وحبه نافع من نفث الدم العارض في الصدر والرئة، دابغ للمعدة. وليس بضار للصدر، ولا الرئة لجلاوته.

وخاصيته: النفع من استطلاق البطن مع السعال. وذلك نادر في الأدوية. وهو مدر للبول، نافع من لذع المثانة، وعَض الرتيلاء، ولسع العقارب، والتخلخل بعرقه مضر، فليحذر.

أما الريحان الفارسي الذي يسمى الحبق: فحار في أحد القولين. ينفع شمه من الصداع الحار إذا رش عليه الماء. ويبرد ويرطب بالعَرَض، وبارد في الآخر. وهل هو رطب أو يابس؟ على قولين. والصحيح: أن فيه من الطبائع الأربع. ويجلب النوم، وبزره حابس للإسهال الصفراوي. ومسكن للمغص، ومقو للقلب، نافع للأمراض السوداوية.

(١)**المرتبة** التاسعة من مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه. فإن من ورائه فضاءً وروحًا وريحانًا وراحةً. نسبة هذه الدار إليه: كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار، أو أدنى من ذلك. قال بعض العارفين: لِتكن مبادرتك إلى الخروج من الدنيا كمبادرتك إلى الخروج من السجن الضيق إلى أحبتك، والاجتماع بهم في البساتين المونقة. قال الله ـ تعالى ـ في هذه الحياة: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾

ويكفي في طيب هذه الحياة: مرافقة الرفيق الأعلى، ومفارقة الرفيق المؤذي المنكد، الذي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة، فضلاً عن مخالطته وعِشْرته، إلى الرفيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، في جوار الرب الرحمن الرحيم....

(١) ٢٧٤ مدارج جـ ٣.

(١) **فأما** من قال: هي في الجنة، فاحتج بقوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] قال وهذا ذكره ـ سبحانه ـ عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت، وقسّم الأرواح إلى ثلاثة أقسام: مقربين وأخبر أنها في جنة النعيم. وأصحاب يمين حكم لها بالسلام، وهو يتضمن سلامتها من العذاب. ومكذبة ضالة وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم. قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعًا، وقد ذكر ـ سبحانه ـ حالها يوم القيامة في أول السورة فذكر حالها بعد الموت وبعد البعث واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ**﴾ [الفجر: ٢٧]. . . .

(٢) **ومنها** قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ**﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٩٦]. فذكر هاهنا أحكام الأرواح عند الموت، وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر، وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية، إذ هي أهم وأولى بالذكر، وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما اجعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام.

ومنها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ [الفجر: ٢٧ـ٣٠]. وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك، فقالت طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ مع هؤلاء، فإنه خطاب للنفس التي قد تجردت عن البدن وخرجت منه، وقد فسر ذلك النبي ﷺ، بقوله في حديث البراء وغيره: «**فقال لها: اخرجي راضية مرضيًا عنك**»، وسيأتي تمام تقرير هذا في المسألة التي يذكر فيها مستقر الأرواح في البرزخ إن شاء الله ـ تعالى ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَادْخُلِي فِي عِبَادِي**﴾ [الفجر: ٢٩] مطابق لقوله ﷺ: «**اللهم الرفيق الأعلى**».

---

(١) ١١٥ الروح.
(٢) ٩٤ حادي الأرواح.

وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دلّ عليه القرآن، وبالله التوفيق.

(١)**وأما** قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِين * فَسَلَامٌ لَكَ مِن أَصْحَابِ اليمين**﴾ [الواقعة: ٩٠،٩١] فليس هذا سلام تحية، ولو كان تحية لقال: فسلام عليه، كما قال: ﴿**سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الصافات: ١٠٩] ﴿**سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ**﴾ [الصافات: ٧٩] ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على الله، فذكر أنهم ثلاثة أقسام: مقرب له الروح والريحان وجنة النعيم، ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة فوعده بالسلامة ووعد المقرب بالغنيمة والفوز، وإن كان كل منهما سالمًا غانمًا. وظالم بتكذيبه وضلاله فأوعده بنزل من حميم وتصلية جحيم، فلما لم يكن المقام مقام تحية، وإنما هو مقام إخبار عن حاله ذكر ما يحصل له من السلامة. فإن قيل: فهذا فرق صحيح لكن ما معنى اللام في قوله: لك، ومن هو المخاطب بهذا الخطاب، وما معنى حرف [من] في قوله: ﴿**من أصحاب اليمين**﴾؟ فهذه ثلاثة أسئلة في الآية. قيل: قد وفينا بحمد الله بذكر الفرق بين هذا السلام في الآية وبين سلام التحية وهو الذي كان المقصود، وهذه الأسئلة وإن كانت متعلقة بالآية فهي خارجة عن مقصودنا، ولكن نجيب عنها إكمالاً للفائدة بحول الله وقوته، وإن كنا لم نر أحدًا من المفسرين شفى في هذا الموضع الغليل، ولا كشف حقيقة المعنى واللفظ، بل منهم من يقول: المعنى فمسلم لك إنك من أصحاب اليمين، ومنهم من يقول غير ذلك مما هو حوم على معناها من غير ورود، فاعلم أن المدعو به من الخير والشر مضاف إلى صاحبه بلام الإضافة الدالة على حصوله له. ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ**﴾ [الرعد: ٢٥] ولم يقل عليهم اللعنة إيذانًا بحصول معناها وثبوته لهم، وكذلك قوله: ﴿**وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٨] ويقول في ضد هذا: لك الرحمة، ولك التحية، ولك السلام، ومنه هذه الآية: ﴿**فَسَلَامٌ لَكَ**﴾ أي ثبت لك السلام وحصل لك. وعلى هذا فالخطاب لكل من هو من هذا الضرب، فهو خطاب للجنس، أي: فسلام لك يامن هو من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئًا

(١) ١٤٦ بدائع جـ٢.

لك يامن هو منهم، ولهذا والله أعلم أتى بحرف [من] في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ والجار والمجرور في موضع حال أي سلام لك كائنًا من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئًا لك من أتباع رسول الله وحزبه، أي كائنًا منهم. والجار والمجرور بعد المعرفة ينتصب على الحال، كما تقول أحببتك من أهل الدين والعلم أي كائنًا منهم، فهذا معنى هذه الآية، وهو وإن خلت عنه كتب أهل التفسير، فقد حام عليه منهم من حام وما ورد ولا كشف المعنى ولا أوضحه، فراجع ما قالوه، والله الموفق المانّ بفضله.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الواقعة
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**القاعدة** أن الشيء لا يعطف على نفسه؛ لأن حروف العطف بمنزلة تكرار العامل، لأنك إذا قلت: قام زيد وعمرو، فهي بمعنى قام زيد وقام عمرو. والثاني غير الأول، فإذا وجدت مثل قولهم: كذبًا ومينًا، فهو لمعنى زائد في اللفظ الثاني، وإن خفي عنك، ولهذا يبعد جدًّا أن يجيء في كلامهم جاءني عمر وأبو حفص ورضي الله عن أبي بكر وعتيقه، فإن الواو إنما تجمع بين الشيئين لا بين الشيء الواحد، فإذا كان في الاسم الثاني فائدة زائدة على معنى الاسم الأول كنت مخيراً في العطف وتركه، فإن عطفت فمن حيث قصدت تعداد الصفات وهي متغايرة، وإن لم تعطف فمن حيث كان في كل منهما ضمير هو الأول، فعلى الوجه الأول تقول: زيد فقيه، شاعر، كاتب، وعلى الثاني: فقيه وشاعر وكاتب. كأنك عطفت بالواو الكتابة على الشعر. وحيث لم تعطف أتبعت الثاني الأول، لأنه هو هو من حيث اتحد الحامل للصفات، وأما في أسماء الرب ـ تبارك وتعالى ـ فأكثر ما يجيء في القرآن بغير عطف نحو السميع العليم، العزيز الحكيم، الغفور الرحيم، الملك القدوس السلام إلى آخرها، وجاءت معطوفة في موضعين. أحدهما في أربعة أسماء وهي: الأول والآخر والظاهر والباطن. والثاني في بعض الصفات بالاسم الموصول مثل قوله: ﴿**الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى * والَّذي قَدَّرَ فَهَدَى * والذي أَخْرَجَ المَرعَى**﴾. [الأعلى: ٢-٤]. ونظيره: ﴿**الَّذي جَعَلَ لكُمُ الأرضَ مَهْدًا وجَعَلَ لكُمْ فيها سُبُلاً لَعَلَّكُم تهتدونَ * والَّذي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا به بَلْدَةً مَيتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * والَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا**﴾. [الزخرف: ١٠، ١٢]. فأما ترك العطف في الغالب فلتناسب معاني تلك الأسماء، وقرب بعضها من بعض، وشعور الذهن بالثاني منها شعوره بالأول. ألا ترى أنك إذا شعرت بصفة المغفرة انتقل ذهنك منها إلى الرحمة، وكذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن إلى البصر، وكذلك

---

(١) ١٨٩ بدائع جـ١.

﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]. وأما تلك الأسماء الأربعة فهي ألفاظ متباينة المعاني متضادة الحقائق في أصل موضوعها، وهي متفقة المعاني متطابقة في حق الرب - تعالى - لا يبقى منها معنى بغيره، بل هو أول كما أنه آخر، وظاهر كما أنه باطن. ولا يناقض بعضها بعضًا في حقه، فكان دخول الواو صرفًا لوهم المخاطب قبل التفكر والنظر عن توهم المحال واحتمال الأضداد؛ لأن الشيء لا يكون ظاهرًا باطنًا من وجه واحد؛ وإنما يكون ذلك باعتبارين، فكان العطف ههنا أحسن من تركه لهذه الحكمة هذا جواب السهيلي. وأحسن منه أن يقال: لما كانت هذه الألفاظ دالة على معاني متباينة، وأن الكمال في الاتصاف بها على تباينها أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المعطوفات إيذانًا بأن هذه المعاني مع تباينها فهي ثابتة للموصوف بها. ووجه آخر وهو أحسن منها وهو أن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره يكون في الكلام متضمنا لنوع من التأكيد من مزيد التقرير، وبيان ذلك بمثال نذكره مرقاة إلى فهم ما نحن فيه: إذا كان لرجل مثلاً أربع صفات هو: عالم، وجواد، وشجاع، وغني، وكان المخاطب لا يعلم ذلك أو لا يقرّ به، ويعجب من اجتماع هذه الصفت في رجل، فإذا قلت: زيد عالم وكان ذهنه استبعد ذلك، فتقول: وجواد - أي وهو مع ذلك جواد - فإذا قدرت استبعاده لذلك قلت: وشجاع - أي وهو مع ذلك شجاع وغني - فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد لا يحصل بدونه تدرأ به توهم الإنكار، وإذا عرفت هذا فالوهم قد يعتريه إنكار لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد، فإذا قيل: هو الأول، ربما سرى الوهم إلى أن كونه أولاً يقتضي أن يكون الآخر غيره، لأن الأولية والآخرية من المتضادات، وكذلك الظاهر والباطن إذا قيل: هو ظاهر، ربما سرى الوهم إلى أن الباطن مقابله، فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال على أن الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية، فكأنه قيل: هو الأول، وهو الآخر، وهو الظاهر، وهو الباطن لا سواه، فتأمل ذلك فإنه من لطيف العربية ودقيقها. والذي يوضح لك ذلك أنه لما كان للبلد مثلاً قاض وخطيب وأمير فاجتمعت في رجل حسن أن تقول زيد هو الخطيب والقاضي والأمير، وكان للعطف هنا مزية ليست للنعت المجرد فعطف الصفات ههنا أحسن قطعًا لوهم متوهم أن الخطيب غيره وأن الأمير غيره.

(١)**قوله:** ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّموات والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا ينزلُ مِنَ السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أين ما كُنتم والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾. [الحديد: ٤]. من أدل شيء على مباينة الرب لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته، بل خلقهم خارجًا عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه، فيراهم، وينفذهم بصره، ويحيط بهم: علمًا، وقدرة، وإرادة، وسمعًا، وبصرًا، فهذا معنى كونه ـ سبحانه ـ معهم أينما كانوا، وتأمل حسن هذه المقابلة لفظًا ومعنى بين قوله: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾. [الأنعام: ١٠٣]. فإنه ـ سبحانه ـ لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار، فلا تخفى عليه، فهو العظيم في لطفه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾. [الشورى: ١١]. ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وهو يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾. [الأنعام: ١٠٣](٢).

(٣)**ثم تأمل** الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة، وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يُولِجُ الليلَ فِي النَّهارِ ويُولِجُ النَّهارَ فِي الليلِ﴾. [الحديد: ٦].

وفيه قولان: أحدهما أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

والقول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة. وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار، في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي. الزيادة خمس عشرة ساعة،

(١) ٢٠٩ حادي الأرواح.
(٢) تقدم البحث بكامله في سورة الأنعام (ج).
(٣) ٢٠٩ مفتاح جـ١.

فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان، ولا يتكون فيه النبات، وكل موضع لا تقع عليه الشمس: لا يعيش فيه حيوان، ولا نبات لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب، وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة، ويكون فيها اعتدالان: خريفين وربيعين.

(1)**كيف** تكون حقيقة المعية في حق الرب ـ تعالى ـ ذلك حتى يدعى أنها مجاز لا حقيقة؟ فليس في ذلك ما يدل على أن ذاته ـ تعالى ـ فيهم، ولا ملاصقة لهم، ولا مخالطة، ولا مجاورة بوجه من الوجوه، وغاية ما تدل عليه [مع] المصاحبة والموافقة والمقارنة في أمر من الأمور، وذا الاقتران في كل موضع بحسبه يلزمه لوازم بحسب متعلقه.

فإذا قيل: الله مع خلقه بطريق العموم كان من لوازم ذلك: علمه بهم، وتدبيره لهم، وقدرته عليهم، وإذا كان ذلك خاصًا كقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾. [النحل: ١٢٨]. كان من لوازم ذلك معيته لهم بالنصرة والتأييد والمعونة؛ فمعية الله ـ تعالى ـ مع عبده نوعان: عامة وخاصة، وقد اشتمل القرآن على النوعين، وليس ذلك بطريق الاشتراك اللفظي، بل حقيقتها ما تقدم من الصحبة اللائقة، وقد أخبر الله ـ تعالى ـ أنه مع خلقه مع كونه مستويًا على عرشه، وقرن بين الأمرين كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أين ما كُنتُمْ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾.
[الحديد: ٤]. فأخبر أنه خلق السموات والأرض، وأنه استوى على عرشه، وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه، كما في حديث الأوعال: «**والله فوق عرشه يرى ما أنتم عليه**». فعلوّه لا يناقض معيته، ومعيته لا تبطل علوه، بل كلاهما حق، فمن المعية الخاصة قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابرِينَ**﴾. [البقرة: ١٥٣]. ﴿**وإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾. [العنكبوت: ٦٩]. ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا والَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾.

(١) ٢٦٦ مختصر الصواعق جـ٢.

[النحل: ١٢٨]. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾. [البقرة: ١٩٤]. ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾. [التوبة: ٤٠]. ومن العامة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾. [الحديد: ٤]. وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾. [المجادلة: ٧]. فنبه ـ سبحانه ـ بالثلاثة على العدد الذي يجمع الشفع والوتر، ولا يمكن أهله أن ينقسموا في النجوى قسمين، ونبه بالخمسة على العدد الذي يجمعهما ويمكن أهله أن ينقسموا فيها قسمين فيكون مع كل العددين.

فالمشتركون في النجوى: إما شفع أو وتر فقط، أو كلا القسمين. وأقل أقسام الوتر المتناجين: ثلاثة، وأقل أنواع الشفع: اثنان. وأقل أقسام النوعين إذا اجتمعا خمسة، فذكر أدنى مراتب طائفة الوتر، وأدنى مراتب النوعين إذا اجتمعا. ثم ذكر معيته العامة لما هو أدنى من ذلك أو أكثر.

وتأمل كيف جعل نفسه رابع الثلاثة وسادس الخمسة إذ هو غيرهم ـ سبحانه ـ بالحقيقة لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾. [المائدة: ٧٣]. فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الآلهية.

والعرب تقول: أربع أربعة، وخامس خمسة، وثالث ثلاثة لما يكون فيه المضاف إليه من جنس المضاف كما قال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾. [التوبة: ٤٠]. رسول الله وصديقه، فإن كان من غير جنس، قالوا: رابع ثلاثة، وخامس أربعة، وسادس خمسة.

وقال ـ تعالى ـ في المعية الخاصة لموسى وأخيه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾. [طه: ٤٦]. وقال في العامة: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾. [الشعراء: ١٥]. فتأمل كيف أفرد ضمير نفسه حيث أفرد موسى وأخاه عن فرعون، وكيف جمع الضمير لما دخل فرعون معهما في الذكر! فجعل الخاص مع المعية الخاصة، والعام مع المعية العامة. وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. [ق: ١٦]. فهذه الآية لها شأن(١).

(٢)...**وترسل** الأمانة والرحم على جنبي الصراط، فلا يجوزه خائن ولا قاطع، ويختلف مرورهم عليه بحسب اختلاف استقامتهم على الصراط المستقيم في

(١) تكملة البحث تقدم في بسورة (ق) ويأتي قريباً في المجادلة ما يوضح المعنى إن شاء الله. (ج).

(٢) ١٨٩ تحفة المودود.

الدنيا: فمار كالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل، وساعٍ وماشٍ، وزاحفٍ، وحابٍ حبوًا. وينصب على جنبيه كلاليب لا يعلم قدر عظمها إلا الله - عز وجل - تعوق من علقت به عن العبور على حسب ما كانت تعوقه الدنيا عن طاعة الله ومرضاته وعبوديته، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومقطع بتلك الكلاليب، ومكردس في النار، وقد طفأ نور المنافقين على الجسر أحوج ما كانوا إليه، كما طفأ في الدنيا من قلوبهم، وأعطوا دون الكفار نورًا في الظاهر، كما كان إسلامهم في الظاهر دون الباطن، فيقولون للمؤمنين: قفوا لنا نقتبس من نوركم ما نجوز به، فيقول لهم المؤمنون والملائكة: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا.

قيل المعنى: ارجعوا إلى الدنيا فخذوا من الإيمان نورًا تجوزون به كما فعل المؤمنون، وقيل: ارجعوا وراءكم حيث قسمت الأنوار، فالتمسوا هناك نورًا تجوزون به. ثم ضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب، باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذي يليهم **﴿مِن قَبلِهِ العَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وارْتَبْتُمْ وغَرَّتْكُمُ الْأمانيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وغَرَّكُم باللهِ الغَرُورُ * فاليَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَولَاكُم وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾**. [الحديد: ١٣-١٥].

فإذا جاوز المؤمنون الصراط، ولا يجوزه إلا مؤمن، أمنوا من دخول النار، فيحبسون هنالك على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في دار الدنيا، حتى إذا هذبوا أذن لهم في دخول الجنة. . .

(١)**قال** - تعالى -: **﴿وَغَرَّتكُمُ الأَمَانِيُّ حتَّى جاءَ أمرُ اللهِ وغرَّكم باللهِ الغَرُورُ﴾**. [الحديد: ١٤]. وقال - تعالى -: **﴿يَا أَيُّها النَّاسُ إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ فَلَا تغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنْيَا ولا يَغُرَّنَّكُم باللهِ الغَرُورُ﴾**. [فاطر: ٥]. وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل قال: هذا لي. أي أنا أهله، وجدير به، ومستحق له، ثم قال: **﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾** فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره فقال: **﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إلى رَبِّي إنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾**. [فصلت: ٥٠]. يعني الجنة والكرامة، فهكذا تكون الغرة بالله. فالمغتر بالشيطان مغتر

---

(١) ٢٩٨ الروح.

بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

(١)...**ولما** كان الايمان موجبًا للخشوع وداعيًا إليه قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ**﴾. [الحديد: ١٦]. **دعاهم** من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان. يعني: أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم؟

(٢)**قال** الله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ**﴾. [الحديد: ١٦]. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين». وقال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن» وقال تعالى: ﴿**قَد أَفلَحَ المُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِم خَاشِعُونَ**﴾. [المؤمنون: ١، ٢].

والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون. قال ـ تعالى ـ ﴿**وخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ**﴾. [طه: ١٠٨]. أي سكنت، وذلت، وخضعت. ومنه وصف الأرض بالخشوع. وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات. قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَىٰ الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾. [فصلت: ٣٩].

والخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه. وقيل: الخشوع الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف وَرُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد. وقيل: الخشوع: خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب. وقال الجنيد: الخشوع: تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح، وهي تظهره. ورأى النبي ﷺ، رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**». وقال النبي ﷺ: «**التقوى ههنا**» وأشار إلى صدره ثلاث مرات. وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. ورأى بعضهم رجلاً خاشع المنكبين والبدن. فقال: يا فلان، الخشوع ههنا. وأشار إلى صدره. لا ههنا. وأشار إلى منكبيه.

---

(١) ٥٠٩ مدارج جـ٢. (٢) ٥٢٠ مدارج جـ١.

وكان بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهو حذيفة، يقول: «إياكم وخشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع». ورأى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة. فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك. ليس الخشوع في الرقاب. إنما الخشوع في القلوب». ورأت عائشة ـ رضي الله عنها ـ شبابًا يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك. فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال: أسمع، وإذا ضرب: أوجع، وإذا أطعم: أشبع، وكان هو الناسك حقًّا». وقال الفضيل بن عياض: كان يُكرَه أن يُرِي الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه. وقال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع. وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة. ورب مصل لا خير فيه. ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا. وقال سهل: «من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان». ا. هـ.

(١)**وقال** الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**﴾. [الحديد: ١٩].

وقيل: إن الوقف على قوله ـ تعالى ـ: ﴿**هُمُ الصِّدِّيقُونَ**﴾ ثم يبتدىء ﴿**والشُّهداءُ عندَ ربِّهم**﴾ فيكون الكلام جملتين: أخبر في إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه، وأخبر في الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء، ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين، هنا وفي سورة النساء، وهكذا جاء ذكرهم مقدمًا على الشهداء في كلام النبي ﷺ، في قوله: «**اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيد**»، ولهذا كان نعت الصديقية وصفًا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتًا له رضي الله عنه.

وقيل: إن الكلام كله جملة واحدة، وأخبر عن المؤمنين بأنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم، وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس

(١) ٣٥١ طريق الهجرتين.

يوم القيامة، وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. [البقرة: ١٤٣]. وهم المؤمنون، فوصفهم بأنهم صديقون في الدنيا وشهداء على الناس يوم القيامة، ويكون الشهداء وصفًا لجملة المؤمنين الصديقين.

وقيل: الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله، وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين ويكون قوله: ﴿والشهداء﴾ مبتدأ خبره ما بعده، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيدًا في سبيل الله.

ويرجحه أيضًا أنه لو كان الشهداء داخلاً في جملة الخبر، لكان قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَهُمْ أجرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾. [الحديد: ١٩]. داخلاً أيضًا في جملة الخبر عنهم، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء: أحدها أنهم هم الصديقون، والثاني أنهم هم الشهداء، والثالث أن لهم أجرهم ونورهم. وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الأول. ثم ذكر الخبر الثالث مجردًا عن العطف، وهذا كما تقول: زيد كريم وعالم له مال، والأحسن في هذا تناسب الأخبار بأن تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعًا فتقول: زيد كريم عالم له مال، أو كريم وعالم وله مال. فتأمله.

ويرجحه أيضًا أن الكلام يصير جملاً مستقلة، قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء، وهم الصديقون والشهداء والصالحون، وهم المذكورون في الآية، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضًا حسنًا، فهؤلاء ثلاثة أصناف. ثم ذكر الرسل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيِّنَاتِ﴾. [الحديد: ٢٥]. فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة في سورة النساء، فهؤلاء هم السعداء. ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان: كفار، ومنافقون، فقال ـ تعالى ـ: ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ﴾. [الحديد: ١٩]. وذُكر المنافقون في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ المُنَافِقُونَ والمُنافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾. [الحديد: ١٣]. فهؤلاء أصناف العالم كلهم، وترك ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر المخلط صاحب الشائبتين، على طريقة القرآن في ذكر السعداء والأشقياء دون المخلطين غالبًا لسر اقتضته حكمته. فليحذر صاحب التخليط، فإنه لا ضمان له على الله، ولا هو من أهل وعده المطلق. ولا ييأس من روح الله، فإنه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب، ولكنه بين الجنة والنار واقف بين الوعد والوعيد كل منهما يدعوه إلى

موجبه لأنه أتى بسببه. وهذا هو الذي لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين(١) ولكن غلطوا في تخليده في النار، ولو نزلوه منزلة بين المنزلتين ووكلوه إلى المشيئة، وقالوا: بأنه يخرج من النار بتوحيده وإيمانه لأصابوا، ولكن منزلة بين منزلتين وصاحبهما مخلد في النار! مما لا يقتضيه عقل ولا سمع، بل النصوص الصريحة المعلومة الصحة تشهد ببطلان قولهم، والله أعلم. وأيضًا فصاحب الشائبتين يعلم حكمه من نصوص الوعد والوعيد، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ رتب على كل عمل جزاء في الخير والشر، فإذا أتى العبد بهما كان فيه سبب الجزاءين، والله لا يضيع مثقال ذرة: فإن كان عمل الشر مما يوجب سقوط أثر الحسنة كالكفر كان التأثير، وإن لم يسقطه كالمعصية ترتب في حقه الأثران، ما لم يسقط أحدهما بسبب من الأسباب التي نذكرها إن شاء الله فيما بعد. والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علم غيره شيئاً من ذلك كان له مثل أجره مادام ذلك جاريًا في الأمة على آباد الدهور، وقد صح عن النبي ﷺ، أنه قال لعلي بن أبي طالب: **«والله لإن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمر النعم»**، وصح عنه ﷺ، أنه قال: **«من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئًا»**. وصح عنه ﷺ، أيضًا أنه قال: **«إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**، وصح عنه ﷺ، أنه قال: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**. وفي السنن عنه ﷺ، أنه قال: **«إن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى النملة في حجرها»** وعنه ﷺ أنه قال: **«إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ عظيم وافر»**، وعنه ﷺ: **«العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعد»**، وعنه ﷺ، أنه قال: **«نضّر الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها»**، والأحاديث في هذا كثيرة. وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد، فيالها من مرتبة ما أعلاها! ومنقبة ما أجلّها وأسناها!

(١) أي المعتزلة وأذنابهم.

أن يكون المرء في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة وأوصالاً متفرقة، وصحف حسناته متزايدة يملى فيها الحسنات كل وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب، تلك والله المكارم والغنائم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق نفائس الأنفاس عليها، ويسبق السابقون إليها، وتوفر عليها الأوقات، وتتوجه نحوها الطلبات. فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خير أن يفتح علينا خزائن رحمته، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه. وأصحاب هذه المرتبة يُدعون عظماء في ملكوت السماء كما قال بعض السلف: من عَلِمَ وعمل وعلَّم فذلك يدعى عظيمًا في ملكوت السماء. وهؤلاء هم العدول حقًّا بتعديل رسول الله ﷺ، لهم، إذ يقول فيما يروى عنه من وجوه شد بعضها بعضًا: «**يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدول، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**». وما أحسن ما قال الإمام أحمد في خطبة كتابه في (الرد على الجهمية): «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل: بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرون بنور الله أهل العمى. فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، ومن ضال جاهل قد هدوه. فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم: ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين». وذكر ابن وضَّاح هذا الكلام عن عمر بن الخطاب.

[1]... **مدح** الله ـ سبحانه ـ في كتابه أعمالاً، وأثنى على أصحابها، ولا تحصل إلا بالغناء: كالزكاة، والإنفاق في وجوه البر، والجهاد في سبيل الله بالمال، وتجهيز الغزاة، وإعانة المحاويج، وفك الرقاب، والإطعام في زمن المسغبة.

وأين يقع صبر الفقير من فرحة الملهوف المضطر المشرف على الهلاك إذا أعانه الغني ونصره على فقره ومخمصته؟ وأين يقع صبره من نفع الغني بماله في نصرة دين الله وإعلاء كلمته وكسر أعدائه؟ وأين صبر أبي ذر على فقره إلى شكر الصديق به وشرائه المعذبين في الله وإعتاقهم وإنفاقه على نصرة الإسلام حين قال النبي

(١) ٢٧٦ عدة الصابرين.

ﷺ: «ما نفعني مال أحد ما نفعني مال أبي بكر».

وأين صبر أهل الصفة من إنفاق عثمان بن عفان تلك النفقات العظيمة التي قال له رسول الله ﷺ، في بعضها: «ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم». ثم قال: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما أبديت» أو كما قال.

وإذا تأملتم القرآن وجدتم الثناء فيه على المنفقين أضعاف الثناء على الفقراء الصابرين، وقد شهد رسول الله ﷺ، بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وفسر اليد العليا بالمعطية والسفلى بالسائلة. وقد عدد الله ـ سبحانه ـ على رسوله ﷺ، من نعمه أن أغناه بعد فقره، وكان غناه هو الحالة التي نقله إليها، وفقره الحالة التي نقله منها، وهو سبحانه كان ينقله من الشيء إلى ما هو خير منه.

وقد قيل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]. المراد به الحالتان، أي كل حالة خير لك مما قبلها، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]. فهذا يدخل فيه عطاؤه في الدنيا والآخرة، قالوا: والغناء مع الشكر زيادة فضل ورحمة، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قالوا: والأغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين لتقويتهم إياهم بالصدقة عليهم والإحسان إليهم، وإعانتهم على طاعتهم، فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء زيادة إلى نصيبهم من أجر الإنفاق وطاعتهم التي تخصهم كما في صحيح ابن خزيمة من رواية سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، وذكر شهر رمضان فقال: «من فطّر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء». فقد حاز الغني الشاكر أجر صيامه ومثل أجر الفقير الذي فطّره.

قالوا: ولو لم يكن للغني الشاكر إلا فضل الصدقة التي لمّا تفاخرت الأعمال كان الفخر لها عليهن كما ذكر النضر بن شميل عن قرة عن سعيد بن المسيب أنه حدث عن عمر بن الخطاب قال: ذكر أن الأعمال الصالحة تتباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم. قالوا: والصدقة وقاية بين العبد وبين النار، والمخلص المسر بها مستظل بها يوم القيامة في ظل العرش.

وقد روى عمر وابن الحارث ويزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ، قال: «**إن الصدقة لتطفىء على أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته**».

وقال يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة يرفعه: «**كل امرىء في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس**» قال يزيد: وكان أبو الخير لا يأتي عليه يوم إلا تصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة.

وفي حديث معاذ عن النبي ﷺ: «**والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار**». وروى البيهقي من حديث أبي يوسف القاضي عن المختار بن فلفل عن أنس يرفعه: «**باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة**». وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «**إذا تصدق العبد من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيبًا، أخذها الله بيمينه، فيربيها لأحدكم، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تكون مثل الجبل العظيم**». وفي لفظ للبيهقي في هذا الحديث: «**حتى أن التمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أحد**». وقال محمد بن المنكدر: من موجبات المغفرة: إطعام المسلم السغبان. وقد روي مرفوعًا من غير وجه.

وإذا كان الله ـ سبحانه ـ قد غفر لمن سقى كلبًا على شدة ظمائه، فكيف بمن سقى العطاش، وأشبع الجياع، وكسى العراة من المسلمين، وقد قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشقِّ، تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة**». فجعل الكلم الطيب عوضًا عن الصدقة لمن لا يقدر عليها. قالوا وأين لذة الصدقة والإحسان وتفريحهما للقلب وتقويتهما إياه، وما يلقي الله ـ سبحانه ـ للمتصدقين من المحبة والتعظيم في قلوب عباده والدعاء لهم والثناء عليهم، وإدخال المسرات عليهم من أجر الصبر على الفقر؟ ونعم أن له لأجرًا عظيمًا لكن الأجر درجات عند الله.

قالوا: وأيضًا فالصدقة والإحسان والإعطاء وصف الرب ـ تعالى ـ وأحب عباده إليه من اتصف بذلك، كما قال النبي ﷺ: «**الخلق عيال الله، فأحبّ الخلق إليه أنفعهم لعياله**». **قالوا: وقد ذكر الله ـ سبحانه ـ أصناف السعداء فبدأ بالمتصدقين أولهم فقال ـ تعالى ـ:** ﴿**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ**

والشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُم ونُورُهُمْ﴾. [الحديد: ١٨، ١٩]. فهؤلاء أصناف السعداء ومقدموهم المصدقين والمصدقات، قالوا وفي الصدقة فوائد ومنافع لا يحصيها إلا الله.

فمنها أنها تقي مصارع السوء وتدفع البلاء حتى أنها لتدفع عن الظالم، قال إبراهيم النخعي: وكانوا يرون أن الصدقة تدفع عن الرجل الظلوم، وتطفىء الخطيئة، وتحفظ المال، وتجلب الرزق، وتفرح القلب، وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به، كما أن البخل سوء الظن بالله، وترغم الشيطان ـ يعني الصدقة ـ وتزكي النفس وتنميها، وتحبب العبد إلى الله وإلى خلقه، وتستر عليه كل عيب، كما أن البخل يغطي عليه كل حسنة، وتزيد في العمر، وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم، وتدفع عن صاحبها عذاب القبر، وتكون عليه ظلاً يوم القيامة، وتشفع له عند الله، وتهوِّن عليه شدائد الدنيا والآخرة، وتدعوه إلى سائر أعمال البر، فلا تستعصى عليه، وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك. قالوا: ولو لم يكن في النفع والإحسان إلا أنه صفة الله وهو ـ سبحانه ـ يحب من اتصف بموجب صفاته وآثارها فيحب العليم والجواد والحيي والستير والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف..

(١)**الوجه** الرابع: أن الزهد على أربعة أقسام: أحدها: فرض على كل مسلم، وهو الزهد في الحرام، وهذا متى أخلّ به انعقد سبب العقاب، فلابد من وجود مسببه ما لم ينعقد سبب آخر يضاده. الثاني: زهد مستحب، وهو على درجات في الاستحباب بحسب المزهود فيه، وهو الزهد في المكروه وفضول المباحات والتفنن في الشهوات المباحة. الثالث: زهد الداخلين في هذا الشأن، وهم المشمرون في السير إلى الله وهو نوعان:

أحدهما: الزهد في الدنيا جملة، وليس المراد تخليها من اليد ولا إخراجها وقعوده صفرًا منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية: فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه وإن كانت في يده. فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك. وهذا كحال الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبدالعزيز الذي يُضرب بزهده المثل مع أن خزائن الأموال

(١) ٢٥١ طريق الهجرتين.

تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم ﷺ، حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح، ولا يزيده ذلك إلا زهدًا فيها. ومن هذا الأثر المشهور وقد روي مرفوعًا وموقوفًا: «ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك». والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء: أحدها: علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر، وأنها كما قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾. [الحديد: ٢٠]. وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَو نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. [يونس: ٢٤]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا كَمَاءٍ أَنزلناهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ مُقْتَدِرًا﴾. [الكهف: ٤٥]. وسماها سبحانه: ﴿متاع الغرور﴾ ونهى عن الاغترار بها.

وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين، وحذرنا مثل مصارعهم، وذمّ من رضي بها، واطمأن إليها. وقال النبي ﷺ: «ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب قال في ظلّ شجرة ثم راح وتركها». وفي المسند عنه ﷺ، حديث معناه: إن الله جعل طعام ابن آدم وما يخرج منه مثلاً للدنيا فإنه وإن فوّحه وملحه فلينظر إلى ماذا يصير، فما اغتر بها ولا سكن إليها إلا ذو همة دنية، وعقل حقير، وقدر خسيس. الثاني: علمه أن وراءها دارًا أعظم منها قدرًا وأجل خطرًا وهي دار البقاء، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع». فالزاهد فيها بمنزلة رجل في يده درهم زغل قيل له: اطرحه فلك عوضه مائة ألف دينار مثلاً، فألقاه من يده رجاء ذلك العوض، فالزهد فيها لكمال الرغبة فيما هو أعظم منها زهد فيها. الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئًا كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له مالم يقض له منها، فمتى تيقن ذلك

وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها، فإنه متى تيقن ذلك وثلج له صدره وعلم أن مضمونه منها سيأتيه بقي حرصه وتعبه وكده ضائعًا، والعاقل لا يرضى لنفسه بذلك، فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها، وتثبت قدمه في مقامه. والله الموفق لمن يشاء . . .

(١)**وقال** ـ تعالى ـ: **﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وزينة وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُم وتَكاثُرٌ في الأَموالِ والأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أعجَبَ الكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فتراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطامًا﴾**. [الحديد: ٢٠]. فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهدًا لأولي البصائر، وأنها لعب ولهو، تلهو بها النفوس، وتلعب بها الأبدان، واللهو واللعب لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس، مضيعة للوقت، يقطع بها الجاهلون العمر فيذهب ضائعًا في غير شيء، ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس، فأخذت بالعيون والنفوس استحسانًا ومحبة ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة ولما آثرتها على الآجل الدائم الذي هو خير وأبقى.

قال الإمام: حدثنا وكيع حدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها**».

وفي جامع الترمذي من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرًا منها شربة ماء**» قال الترمذي: حديث صحيح.

وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد، قال رسول الله ﷺ: «**ماالدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بما يرجع وأشار بالسبابة**» وفي الترمذي من حديثه قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة فقال رسول الله ﷺ: «**أترون هذه هانت على أهلها حتى القوها**» قالوا: ومن هوانها القوها يارسول الله. قال: «**فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها**».

(١) ١٧٩ عدة الصابرين.

وفي الترمذي أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة مافيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا أو متعلمًا» والحديثان حسنان.

وقال الإمام أحمد حدثنا هيثم بن خارجة أنبأنا إسماعيل بن عياش عن عبدالله بن دينار النهراني قال: قال عيسى عليه السلام للحوارين بحق أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين بحق أقول لكم أن شركم عملاً عالم يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة إنه لو يستطيع جعل الناس كلهم في عمله مثله.

وقال أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق قال: اخبرني سعيد بن عبدالعزيز عن مكحول قال: قال عيسى بن مريم - عليه السلام - يامعشر الحواريين أيكم يستطيع أن تُبنى على موج البحر دار قالوا: ياروح الله ومن يقدر على ذلك قال: إياكم والدنيا فلا نتخذوها قرارًا.

وفي كتاب الزهد لأحد أن عيسى بن مريم - عليه السلام - كان يقول: بحق أقول لكم إن أكل الخبز وشرب الماء العذب ونومًا على المزابل مع الكلاب كثير لم يريد أن يرث الفردوس.

وفي المسند عنه ﷺ: **«إن الله ضرب طعام ابن آدم مثلاً للدنيا وأن قزَّحه وملحه فلينظر إلى ماذا يصير.**

فصل

ثم أخبر سبحانه وتعالى عنها أنها يفاخر بعضنا بعضًا بها فيطلبها ليفخر بها على صاحبه وهذا حال كل من طلب شيئًا للمفاخره من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد والمفاخرة نوعان مذمومة ومحمودة فالمذمومة مفاخرة أهل الدنيا بها والمحمودة أن يطلب المفاخرة في الآخرة فهذه من جنس المنافسة المأمور بها وهي أن الرجل ينفس على غيره بالشيء ويغار أن يناله دونه ويأنف من ذلك ويحمى أنفه له يقال نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه دونك والتنافس تفاعل من ذلك كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه. وحقيقة المنافسة الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلى الشيء النفيس.

فصــل

ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر في الأموار والأولاد فيحب كل واحد أن يكثر بني جنسه في ذلك، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره مالاً وولدًا، وأن يقال فيه ذلك، وهذا من أعظم مايلهي النفوس عن الله والدار الآخرة، كما قال ـ تعالى ـ: **﴿أَلْهَـاكُمُ التَّكَـاثُرُ * حتَّى زُرْتُمُ المَقَـابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾**. [التكاثر: ١-٤].

والتكاثر في كل شيء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والـدار الآخرة، فهو داخل في حكم هذه الآية. فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثرًا وتفاخرًا، وهذا أسـوأ حالاً عنـد الله ممن يكـاثـر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

فصــل

ثم أخـبر ـ سبحـانه ـ عن مصير الدنيا وحقيقتها، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته، والصحيح ـ إن شاء الله ـ أن الكفار هم الكفار بالله، وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا النعت في كل موضع، ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذي يعرفون به كما ذكرهم به في قوله يعجب الزراع، وإنما خصَّ الكفار به لأنهم أشد إعجابًا بالدنيا، فإنها دارهم التي لها يعملون ويكدحون، فهم أشد إعجابًا بزينتها وما فيها من المؤمنين.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ عاقبة هذا النبات وهو اصفراره ويبسه، وهذا آخر الدنيا ومصيرها، ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك، فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه، كما قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنهـا، ومـطلب نجح لمن سالم، فيها مساجد أنبياء الله، ومهبط وحيه، ومصلى ملائكته، ومتجر أوليائه، فيها اكتسبوا الرحمة وربحوا فيها العافية، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ونعت نفسها وأهلها، فتمثلت ببلائها، وشوقت بسرورهـا إلى السرور تخويفًا وتحذيرًا وترغيبًا، فذمها قوم غداة الندامة، وحمدها

آخرون، ذكرتهم فذكروا، ووعظتهم فاتعظوا، فياأيها الذام للدنيا المغتر بتغريرها متى استذمت إليك، بل متى غرتك؟ أبمنازل آبائك في الثرى، أم بمضاجع أمهاتك في البلا؟ كم رأيت موروثًا؟ كم عللت بكفيك عليلاً؟ كم مرضت مريضًا بيديك تبتغي له الشفاء وتستوصف له الأطباء؟ ثم لم تنفعه شفاعتك ولم تسعفه طلبتك، مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك، ومضجعه مضجعك، ثم التفت إلى المقابر، فقال: ياأهل الغربة! وياأهل التربة! أما الدور فسكنت، وأما الأموال فقسمت، وأما الأزواج فنكحت، فهذا خبر ماعندنا، فهاتوا خبر ما عندكم. ثم التفت إلينا فقال: أما لو أذن لهم لأخبروكم: أن خير الزاد التقوى.

فالدنيا في الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الإطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره وابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة، إنما كان بما زرعوه فيها، وكفى بها مدحًا وفضلاً لأولياء الله، فيها من قرة العيون، وسرور القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم: بذكره، ومعرفته، ومحبته، وعبادته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والأنس به، والفرح بقربه، والتذلل له، ولذة مناجاته والإقبال عليه، والاشتغال به عمن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذي ألقاه من أمره، فأخبر به من شاء من عباده. ولهذا فضّل ابن عقيل وغيره هذا على نعيم الجنة، وقالوا هذا حق الله عليهم، وذاك حظهم ونعيمهم، وحقه أفضل من حقهم. قالوا: والإيمان والطاعة أفضل من جزائه. والتحقيق أنه لا يصح التفضيل بين أمرين في دارين مختلفتين، ولو أمكن اجتماعهما في دار واحدة لأمكن طلب التفضيل، والإيمان والطاعة في هذه الدار أفضل ما فيها، ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله ـ جل جلاله ـ وسماع كلامه، والفوز برضاه أفضل ما في الآخرة، فهذا أفضل ما في هذه الدار، وهذا أفضل ما في الدار الأخرى، ولا يصح أن يُقال: فأي الأمرين أفضل؟ فهذا أفضل الأسباب، وهذا أفضل الغايات، وبالله التوفيق.

فصـــل

ولما وصف ـ سبحانه ـ حقيقة الدنيا، وبيّن غايتها ونهايتها وانقلابها في الآخرة إلى عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب، أمر عباده بالمسابقة والمبادرة إلى ما هو خير وأبقى وأن يؤثروه على الفاني المنقطع المشوب بالأنكاد والتنغيص. ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقال ـ تعالى ـ: **﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاه مِن السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾**. ثم ذكر ـ سبحانه ـ أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وأن الباقيات الصالحات وهي الأعمال والأقوال الصالحة التي يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه. وقال تعالى: **﴿إِنَّما مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَماءٍ أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاختلطَ به نَبَاتُ الأرضِ مِمَّا يَأكُلُ النَّاسُ والأنعامُ حتَّى إذا أخذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أهلُها أنَّهم قادِرونَ عليها أتاهَا أمرُنا ليلاً أو نهارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كأن لَّمْ تَغْنَ بالأمسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ﴾**. [يونس: ٢٤]. ولما أخبر عباده عن آفات هذه الدار دعا عباده إلى دار السلام التي سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء، وعم عباده بالدعوة إليها عدلاً وخصَّ من شاء بالهداية إلى طريقها فضلاً.

وأخبر سبحانه ـ أن الأموال والأولاد لا تقرب الخلق إليه، وإنما يقربهم إليه تقوى الله ومعاملته فيهم. وحذر سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، وأخبر أن من فعل ذلك فهو الخاسر حقيقة لا من قلَّ ماله وولده في الدنيا.

ونهى نبيه ﷺ، أن يمد عينيه إلى ما متع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختبارًا، وأخبر أن رزقه الذي أعده له في الآخرة خير وأبقى من هذا الذي متعوا به، وأخبر ـ سبحانه ـ أنه آتاه السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا في دنياهم، وجعل ما آتاه مانعًا له من مد عينيه إلى ذلك، فهذا العطاء في الدنيا وما ادّخر له من رزق الآخرة خير مما متع به أهل الدنيا؛ فلا تمدنّ عينيك.

(١)**وقال** أبو داود الطيالسي ثنا عبدالمؤمن هو ابن عبدالله قال: كنا عند الحسن فأتاه يزيد بن أبي مريم السلولي يتوكأ على عصا فقال: ياأبا سعيد! أخبرني عن

(١) ٧ شفاء.

قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢]. فقال الحسن: نعم والله إن الله ليقضي القضية في السماء ثم يضرب لها أجلاً أنه كائن في يوم كذا وكذا في ساعة كذا وكذا في الخاصة والعامة، حتى أن الرجل ليأخذ العصا ما يأخذها إلا بقضاء وقدر. قال: ياأبا سعيد والله لقد أخذتها وإني عنها لغني، ثم لا صبر لي عنها، قال الحسن: أو لا ترى.

واختلف في الضمير في قوله: ﴿من قبل أن نبرأها﴾ فقيل: هو عائد على الأنفس لقربها منه. وقيل: هو عائد على الأرض، وقيل: عائد على المصيبة.

والتحقيق أن يقال: هو عائد على البرية التي تعم هذا كله، ودل عليه السياق. وقوله نبرأها فينتظم التقادير الثلاثة انتظامًا واحدًا والله أعلم. وقال ابن وهب: أخبرني عمر بن محمد أن سليمان بن مهران حدثه قال: قال عبدالله بن مسعود: إن أول شيء خلقه الله ـ عز وجل ـ من خلقه القلم، فقال له: اكتب فكتب كل شيء يكون في الدنيا إلى يوم القيامة، فيجمع بين الكتاب الأول وبين أعمال العباد، فلا يخالف ألفًا ولا واواً وميمًا.

وعن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «**إن الله ـ عز وجل ـ خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور شيء اهتدى، ومن أخطأه ضل**»، قال عبدالله: فلذلك أقول: جف القلم بما هو كائن. رواه الإمام أحمد، وقال أبو داود: حدثنا عباس بن الوليد بن مزيد قال: أخبرني أبي قال: سمعت الأوزاعي قال: حدثني ربيعة بن يزيد ويحيى بن أبي عمرو الشيباني قال: حدثني عبدالله بن فيروز الديلمي قال: دخلت على عبدالله بن عمرو بن العاص وهو في حائط له بالطائف، يقال له: الوهط، فقلت: خصال بلغتني عنك تحدث بها عن رسول الله، ﷺ أنه قال: «**من شرب الخمر لم تقبل توبته أربعين صباحًا، وأن الشقي من شقي في بطن أمه**». وقال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل**» فلذلك أقول جف القلم على علم الله. ورواه الإمام أحمد في مسنده أطول من هذا عن عبدالله بن فيروز الديلمي.

(١)**وقوله**: سبحانه: ﴿مَا أَصابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلى اللهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم﴾. [الحديد: ٢٢، ٢٣]. فأخبر سبحانه أنه قدر ما يصيبهم من البلاء في أنفسهم قبل أن يبرأ الأنفس، أو المصيبة، أو الأرض، أو المجموع، وهو الأحسن، ثم أخبر أن مصدر ذلك قدرته عليه، وأنه يسير عليه، وحكمته البالغة التي منها أن لا يحزن عباده على ما فاتهم إذا علموا أن المصيبة فيه بقدره وكتابته ولابد قد كتبت قبل خلقهم؛ هان عليهم الفائت، فلم يأسوا عليه، ولم يفرحوا بالحاصل لعلمهم أن المصيبة مقدرة في كل ما على الأرض، فكيف يفرح بشيء قد قدرت المصيبة فيه قبل خلقه.

ولما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو خوف حصوله نبه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله، وعلى فوته حيث لم يحصل، ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها وعلى الصبر على مرارتها بعد الوقوع، وهذه هي أنواع المصائب فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة، وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ هانت عليه، وخف حملها، وأنزلها منزلة الحر والبرد.

فصل(٢)

والفرق بين رقة القلب والجزع: أن الجزع ضعف في النفس وخوف في القلب، يمده شدة الطمع والحرص، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر، وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولابد: كان الجزع عناء محضًا ومصيبة ثانية، قال ـ تعالى ـ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ ولا فِي أَنفُسِكُم إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ على اللهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلاَ تَأْسَوا عَلى مَا فَاتَكُم وَلاَ تَفْرَحُوا بِما آتاكُم﴾. [الحديد: ٢٢، ٢٣]. فمتى آمن العبد بالقدر، وعلم أن المصيبة مقدرة في الحاضر والغائب لم يجزع ولم يفرح.

ولا ينافي هذا رقة القلب، فإنها ناشئة من صفة الرحمة التي هي كمال، والله ـ سبحانه ـ إنما يرحم من عباده الرحماء، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) ١٩٤ شفاء.
(٢) ٣٠٥ الروح.

وسلم، أرق الناس قلبًا، وأبعدهم من الجزع، فرقة القلب رأفة ورحمة، وجزعه مرض وضعف، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة، فأخذ بأنفاسه، وضيّق عليه مسالك الآخرة، وصار في سجن الهوى والنفس، وهو سجن ضيق الأرجاء، مظلم المسالك، فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد، وامتلأ من محبة الله وإجلاله: رق وصارت فيه الرأفة والرحمة، فتراه رحيمًا، رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، يرحم النملة في جحرها، والطير في وكره، فضلاً عن بني جنسه، فهذا أقرب القلوب من الله، قال أنس: كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، أرحم الناس بالعيال، والله ـ سبحانه ـ إذا أراد أن يرحم عبد أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفه، وأبدله بهما الغلظة والقسوة، وفي الحديث الثابت: **«لا تنزع الرحمة إلا من شقي»**، وفيه: **«من لا يَرحم لا يُرحم»**. وفيه: **«ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**. وفيه: **«أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»**. والصديق ـ رضي الله عنه ـ إنما فضل الأمة بما كان في قلبه من الرحمة العامة زيادة على الصديقية، ولهذا أظهر أثرها في جميع مقاماته حتى في الأسارى يوم بدر، واستقر الأمر على ما أشار به، وضرب له صلى الله عليه وآله وسلم، مثلاً بعيسى وإبراهيم، والرب ـ سبحانه وتعالى ـ هو الرؤوف الرحيم، وأقرب الخلق إليه أعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته، وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد في العالم.

(١)... **الأصل** في العقود كلها إنما هو العدل، الذي بعثت به الرسل، وأنزلت به الكتب، قال ـ تعالى ـ: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾**. [الحديد: ٢٥]. والشارع نهى عن الربا لما فيه من الظلم، وعن الميسر لما فيه من الظلم، والقرآن جاء بتحريم هذا وهذا؛ وكلاهما أكل المال بالباطل، وما نهى عنه النبي، ﷺ، من المعاملات ـ كبيع الغرر، وبيع الثمر قبل بُدُوِّ صلاحه، وبيع السِّنين، وبيع حبل الحبلة، وبيع المزابنة،

(١) ٣٨٧ أعلام جـ١.

والمحاقلة، وبيع الحصاة، وبيع الملاقيح والمضامين، ونحو ذلك ـ هي داخلة إما في الربا وإما في الميسر؛ فالإجارة بالأجرة المجهولة مثل أن يكريه الدار بما يكسبه المكتري في حانوته من المال هو من الميسر، وأما المضاربة والمساقاة والمزارعة فليس فيها شيء من الميسر، بل هي من أقوم العدل. . .

(١)**ورأيت** لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ورضي عنه ـ في ذلك جواب سؤال:

هل السياسة بالضرب والحبس للمتهمين في الدعاوى وغيرها من الشرع أم لا؟ وإذا كانت من الشرع فمن يستحق ذلك، ومن لا يستحقه؟ وما قدر الضرب ومدة الحبس؟

فأجاب: الدعاوى التي يحكم فيها ولاة الأمور ـ سواء سموا قضاة أو ولاة الأحداث، أو ولاة المظالم أو غير ذلك من الأسماء العرفية الاصطلاحية ـ فإن حكم الله ـ تبارك وتعالى ـ شامل لجميع الخلائق، وعلى كل من ولي أمرًا من أمور الناس، أو حكم بين اثنين: أن يحكم بالعدل: فيحكم بكتاب الله وسنة رسوله. وهذا هو الشرع المنزل من عند الله. قال ـ تعالى ـ: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾. [الحديد: ٢٥]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾. [النساء: ٥٨]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾. [المائدة: ٤٨].

فالدعاوى قسمان: دعوى تهمة، ودعوى غير تهمة. فدعوى التهمة: أن يُدَّعى فعل محرم على المطلوب يوجب عقوبته مثل: قتل، أو قطع طريق، أو سرقة، أو غير ذلك من العدوان الذي يتعذر إقامة البينة عليه في غالب الأحوال، أو غير تهمة كأن يدعي عقدًا من بيع أو قرض أو رهن أو ضمان أو غير ذلك(٢). . .

(٣)...**فالواجب** على ولي الأمر فعل ما أمره الله به، وما هو أصلح للمسلمين من إعزاز دين الله، وقمع أعدائه، وإتمام ما فعله الصحابة من إلزامهم بالشروط عليهم، ومنعهم من الولايات في جميع أرض الإسلام؛ ولا يلتفت في ذلك إلى

---

(١) ٩٣ الطرق الحكمية. (٢) بقية البحث مطولة مفيدة جدًا لمن هو راغب في تحقيق معلوماته (ج).
(٣) ٦٨٨ أحكام أهل الذمة جـ٢.

مرجف أو مخذل يقول: إن لنا عندهم مساجد وأسرى نخاف عليهم، فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُه إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. [الحج: ٤٠]. وإذا كان فوروز[١] في مملكة التتار قد هدم عامة الكنائس على رغم أنف أعداء الله، فحزب الله المنصور، وجنده الموعود بالنصر إلى قيام الساعة أولى بذلك وأحق، فإن النبي ﷺ، أخبر أنهم لايزالون ظاهرين إلى يوم القيامة[٢]، ونحن نرجو أن يحقق الله وعد رسوله ﷺ، حيث قال: «**يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها**»، ويكون من أجرى الله ذلك على يديه وأعان عليه، من أهل القرآن والحديث، داخلين في هذا الحديث النبوي، فإن الله بهم يقيم دينه، كما قال: ﴿لقد أرسلنَا رُسُلنا بالبيِّناتِ وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقِسطِ وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنَّاسِ وليعلَمَ اللهُ من يَنصُرُه ورُسُلَه بالغَيْبِ إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. [الحديد: ٢٥].

[٣]**فصل**: ومن بعض حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان، وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان وكان انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين فلم يصادف عنده مايشفيه، ولا وقع دواؤه على الداء الذي فيه، وظن المسلم أنه بضربه بداويه فسطا به ضربًا وقال هذا هو الجواب! فقال الكافر: صدق أصحابنا في قولهم: إن دين الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب! فتفرقا وهذا ضارب وهذا مضروب، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب، فشمّر المجيب ساعد العزم، ونهض على ساق الجد وقام لله قيام مستعين به مفرض إليه متكل عليه في موافقة مرضاته، ولم يقل مقالة العجزة الجهال: إن الكفار إنما

(١) في الأصل (فوروز) أو (نورور) غير واضحة.

(٢) واضح هنا أن ابن القيم يوصي ولي الأمر في عهده بهدم الكنائس المحدثة، ولا ريب أن هذا يستغرب للوهلة الأولى، ولكن ابن القيم كان يعيش في عصر كثرت فيه ضروب التحدي من أهل الذمة للمسلمين. وكان من العسير أن ينسى أهل دمشق ولو امتد الزمان ما فعله النصارى يوم غزا المغول مدينتهم سنة ٦٥٨، فقد أراقوا الخمر على ملابس المسلمين وعلى مساجدهم، وأرغموا أصحاب الحوانيت الوقوف لهم ولصلبانهم، وراحوا يهتفون: «اليوم انتصر دين المسيح» انظر المقريزي. السلوك ٩٨/١ طبعة كاترمير.

(٣) ١٠ هداية الحيارى.

يعاملون بالجلاد دون الجدال، وهذا فرار من الزحف، واخلاد إلى العجز والضعف، وقو أمر الله بمجادلة الكفار بعد دعوتهم إقامة للحجة وإزاحة للعذر **﴿ليهلِك مَنْ هَلَكَ عن بَيْنَةً وَيَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَنِ بَيِّنة﴾** [الأنفال: ٤٢] والسيف إنما جاء منفذًا للحجة، مقومًا للمعاند، وحدًا للجاحد، قال تعالى: **﴿لقد أَرْسَلْنا رُسلَنا بالبيِّنَاتِ وأَنْزَلْنا مَعَهُمْ الكِتَابَ والمِيْزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ وأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فيه بَأْسٌ شديدٌ ومَنَافِعُ لِلّناس ولِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنْصُرُهُ ورُسُلَه بالغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيز﴾** فدين الإسلام قام بالكتاب الهادي ونفذه السيف الماضي.

فما هو إلا الوحي أوحد مرهف — يقيم ضباهُ أخدعي كل مائل
فهذا شفاء الداء من كل عاقل — وهذا دواء الداء من كل جاهل

وإلى الله الرغبة في التوفيق، فإنه الفاتح من الخير أبوابه، والميسر له أسبابه.

(١)**الوجه** الخمسون ما رواه الترمذي من حديث أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع**». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، رواه بعضهم فلم يرفعه، وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله، لأن به قوام الإسلام، كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير، والثاني الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه. قال ـ تعالى ـ في سورة الفرقان وهي مكية: **﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قريَةٍ نذيرًا * فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيراً﴾**. [الفرقان: ٥١، ٥٢]. فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضًا، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا، فقد قال ـ تعالى ـ: **﴿يَاأَيُّها النبيُّ جاهِدِ الكفَّارَ والمُنافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾**. [التحريم: ٩]. ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن. والمقصود أن سبيل الله هي: الجهاد، وطلب العلم، ودعوة الخلق به إلى الله. ولهذا قال معاذ ـ رضي الله عنه ـ: عليكم بطلب العلم، فإن تعلمه لله

(١) ٧٠ مفتاح جـ١.

خشية، ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، ولهذا قرن ـ سبحانه ـ بين الكتاب المنزل والحديد الناصر. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لقد أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبيِّناتِ وأنزلنا معهمُ الكِتَابَ والمِيزَانَ ليَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الحديدَ فيه بَأْسٌ شَدِيدٌ ومنافعُ للنَّاسِ وليعلمَ اللهُ من يَنْصُرُه ورُسُلَهُ بالغيب إنَّ اللهَ قَوِي عَزِيزٌ﴾. [الحديد: ٢٥]. فذكر الكتاب والحديد إذ بهما قوام الدين كما قيل.

(1) **الوجه** التاسع: أن الله ـ سبحانه ـ قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ﴾. [الحديد: ٢٥]. فالكتاب كلامه، والميزان عدله، فأخبر أنه أنزلهما مع رسله، ثم قال: ﴿وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شَدِيدٌ﴾. ولم يقل وأنزلنا معهم الحديد، فلما ذكر كلامه وعدله أخبر أنه أنزلهما مع رسله، ولما ذكر مخلوقه الناصر لكتابه وعدله أطلق إنزاله ولم يقيده بها قيد به إنزال كلامه، فالمسوي بين الإنزالين مخطىء في اللفظ والمعنى.

(2) **والمقصود** الفرق بين الحجج والبينات فنقول: الحجج الأدلة العلمية، والبينات جمع بينة وهي صفة في الأصل يقال آية بينة وحجة بينة، والبينة اسم لكل ما يبين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمي. قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والمِيزَانَ﴾. [الحديد: ٢٥]. فالبينات الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات والكتاب هو الدعوة، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمُ﴾. [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار. ومن من آيات الله الموجودة في العالم... (3)

(4) **وقال** تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ﴾. [الحديد: ٢٥]. دل ذلك على أن في نفس الأمر قسطًا، وأن الله ـ سبحانه ـ أنزل كتابه، وأنزل الميزان، وهو العدل ليقوم الناس بالقسط، أنزل الكتاب لأجله والميزان، فعلم أن في نفس الأمر ما هو قسط وعدل: حسن، ومخالفته: قبيحة. وأن الكتاب والميزان نزلا لأجله.

---

(1) ٢٢١ مختصر الصواعق جـ٢.
(2) ١٤٦ مفتاح جـ١.
(3) تقدمت تكملة هذا في سورة الأعراف (ج).
(4) ٩ مفتاح جـ٢.

ومن ينفي الحسن والقبح يقول ليس في نفس الأمر ما هو عدل حسن وإنما صار قسطًا وعدلاً بالأمر فقط. ونحن لا ننكر أن الأمر كساه حسنًا وعدلاً إلى حسنه وعدله في نفسه، فهو في نفسه قسط حسن، وكساه الأمر حسنًا آخر يضاعف به كونه عدلاً حسنًا، فصار ذلك ثابتًا له من الوجهين جميعًا.

(1)**وقد** ذكر الله ـ سبحانه ـ هذين الأصلين في كتابه في غير موضع، وجعلهما صفة أهل الإيمان، وجعل ضدهما صفة من خرج عن الإيمان، فإن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله، وفهم عنه وأذعن وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ. والقلب الميت المظلم الذي لم يعقل عن الله ولا انقاد لما بعث به رسوله ﷺ، ولهذا يصف ـ سبحانه ـ هذا الضرب من الناس بأنهم: أموات غير أحياء، وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظلمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم، فقلوبهم مظلمة، ترى الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، وأعمالهم مظلمة، وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كلها مظلمة، وقبروهم ممتلئة عليهم ظلمة، وإذا قسمت الأنوار دون الجسر للعبور عليه بقوا في الظلمات، ومدخلهم في النار مظلم، وهذه الظلمة هي التي خلق فيها الخلق أولاً، فمن أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ به السعادة أخرجه منها إلى النور، ومن أراد به الشقاوة تركه فيها، كما روى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل**»، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله. وكان النبي ﷺ، يسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل له نورًا في قلبه وسمعه وبصره وشعره وبشره ولحمه وعظامه ودمه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه، وأن يجعل ذاته نورًا. فطلب ﷺ، النور لذاته ولأبعضاه ولحواسه الظاهرة والباطنة، ولجهاته الست.

وقال أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: المؤمن مدخله من نور، ومخرجه من نور، وقوله نور، وعمله نور. وهذا النور بحسب قوته وضعفه يظهر لصاحبه يوم القيامة، فيسعى بين يديه ويمينه. فمن الناس من يكون نوره كالشمس وآخر كالنجم،

(1) ٥ اجتماع الجيوش الإسلامية.

وآخر كالنحلة السحوق. وآخر دون ذلك حتى أن منهم من يعطى نورًا على رأس إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ أخرى، كما كان نور إيمانه ومتابعته في الدنيا كذلك، فهو هذا بعينه يظهر هناك للحس والعيان، وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِن أَمْرِنَا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا**﴾. [الشورى: ٥٢]. فسمى وحيه وأمره روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، وسماه نورًا لما يحصل به من الهدى واستنارة القلوب والفرقان بين الحق والباطل. وقد اختلف في الضمير في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**ولكن جعلناه نورًا**﴾. فقيل: يعود على الكتاب، وقيل: على الإيمان، والصحيح أنه يعود على الروح في قوله: ﴿**روحًا من أمرنا**﴾.

فأخبر تعالى أنه جعل أمره: روحًا ونورًا وهدى، ولهذا ترى صاحب اتباع الأمر والسنة قد كسي من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجلالة والقبول ما قد حرمه غيره، كما قال الحسن ـ رحمه الله ـ: «إن المؤمن من رزق حلاوة ومهابة». وقال تعالى: ﴿**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ والَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلى الظُّلُمَاتِ**﴾. [البقرة: ٢٥٧]. فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خُلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم، فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾. [الأنعام: ١٢٢]. فإحياؤه ـ سبحانه وتعالى ـ بروحه الذي هو وحيه، وهو روح الإيمان والعلم، وجعل له نورًا يمشي به بين أهل الظلمة، كما يمشي الرجل بالسراج المضيء في الليلة الظلماء، فهو يرى أهل الظلمة في ظلامتهم وهم لا يرونه، كالبصير الذي يمشي بين العميان.

فصل

والخارجون عن طاعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ومتابعتهم يتقلبون في عشر ظلمات: ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى. وظلمة القول. وظلمة العمل. وظلمة المدخل. وظلمة المخرج، وظلمة القبر. وظلمة القيامة.

وظلمة دار القرار. فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاثة.

وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يتقلبون في عشرة أنوار، ولهذه الأمة من النور ماليس لأمة غيرها، ولنبيها ﷺ من النور ما ليس لنبي غيره، فإن لكل نبي منهم نورين، ولنبينا ﷺ تحت كل شعرة من رأسه وجسده نور تام، كذلك صفته وصفة أمته في الكتب المتقدمة، وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحديد:٢٨]. وفي قوله: ﴿تمشون به﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو بالنور، وإن مشيهم بغير النور غير مجد عليهم ولا نافع لهم، بل ضرره أكثر من نفعه، وفيه أن أهل النور هم أهل المشي في الناس ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع، فلا مشي لقلوبهم ولا لأحوالهم ولا لأقوالهم، ولا لأقدامهم إلى الطاعات، وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم، وفي قوله: ﴿تَمْشُون به﴾ نكتة بديعة وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم، كما يمشون بها بين الناس في الدنيا، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدمًا عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه.

(١)**قال** تعالى: ﴿ياأَيُّها الَّذينَ آمنوا اتقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرَسُولِه يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْها﴾[الأنعام:١٢٢]. وقوله تعالى ﴿يَهدي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[المائدة:١٦]. وقوله: ﴿ولَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نشاَءُ مِنَ عِبَادِنَا﴾[الشورى:٥٢].

فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذي لا يدري أين يذهب، فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه، ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع به من دعاة الباطل، فإن الحق متى استقر في القلب قوى به وامتنع مما يضره ويهلكه. ولهذا سمى الله الحجة العلمية سلطانًا، وقد تقدم ذلك. فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه، فإذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوى قلبه.

(١) ١٢٧ مفتاح جـ١.

(١)**وقال** تعالى: ﴿يَاأَيُّها الذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ويَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[الحديد: ٢٨]. فضمن لهم - سبحانه - بالتقوى ثلاثة أمور: أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته، نصيبا في الدنيا، ونصيبا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين. الثاني: أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات. الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل - سبحانه - التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر.

(٢)**ومراتب** العلم والعمل: ثلاثة: «رواية، وهي مجرد النقل وحمل المروى. ودراية، وهي فهمه وتعقل معناه. ورعاية، وهي العمل بموجب ما علمه ومقتضاه. فالنَّقَلة همتهم الرواية. والعلماء همتهم الدراية. والعارفون همتهم الرعاية. وقد ذم الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته. فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوه رَأْفَةً وَرَحْمَةً، وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوها مَا كَتَبْناهَا عَلَيْهِمْ إلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[الحديد: ٢٧].

«**رهبانية**» منصوب «بابتدعوها» على الاشتغال. إما بنفس الفعل المذكور - على قول الكوفيين - وإما بمقدر محذوف مفسر بهذا المذكور - على قول البصريين - أى وابتدعوا رهبانية. وليس منصوبًا بوقوع الجَعْل عليه. فالوقف التام عند قوله «ورحمة» ثم يبتدىء «ورهبانية ابتدعوها» أى لم نشرعها لهم، بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم، ولم نكتبها عليهم. وفي نصب قوله: ﴿إلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مفعول له، أى لم نكتبها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وهذا فاسد، فإنه لم يكتبها عليهم - سبحانه - كيف وقد أخبر: أنهم هم ابتدعوها؟ فهي مبتدعة غير مكتوبة. وأيضًا فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه. فيتحد السبب والغاية. نحو: قمت إكرامًا. فالقائم هو المكرم. وفعل الفاعل المعلل هٰهنا هو «الكتابة» و «ابتغاء رضوان الله» فعلهم، لا فعل الله. فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله. لاختلاف الفاعل.

وقيل: بدل من مفعول «كتبناها» أى ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله.

وهو فاسد أيضًا. إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية. فتكون بدل الشيء

---

(١) **٣٧ التبيان.** (٢) **٦٠ مدارج جـ٢.**

من الشيء ولا بعضها، فتكون بدل بعض من كل، ولا أحدهما مشتمل على الآخر، فتكون بدل اشتمال، وليس بدل غلط.

فالصواب: أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع. أي لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله. ودل على هذا قوله «ابتدعوها» ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية، وأنه هو طلب رضوان الله. ثم ذمهم بترك رعايتها. إذ من التزم لله شيئًا لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه. حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر. كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وهو إجماع - أو كالإجماع - في أحد النسكين.

قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول. فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاء، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتمامًا.

وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة.

والقصد: أن الله - سبحانه وتعالى - ذَمَّ من لم يَرْعَ قُرْبَةً ابتدعها لله - تعالى - حق رعايتها. فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده. وأذن بها وحَثَّ عليها(١).

(٢)**كتاب** للرعاف: كان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله: يكتب على جبهته ﴿وقيل يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ ويَاسماءُ أَقْلِعِي وغِيضَ المَاءُ وقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤] وسمعته يقول: كتبتها لغير واحد فبرأ، قال: ولا يجوز كتابتها بدم الراعف، كما يفعله الجهال، فإن الدم نجس، فلا يجوز أن يكتب به كلام الله تعالى.

كتاب آخر له: خرج موسى عليه السلام برداء، فوجد شعيبًا، فشده بردائه: ﴿يَمْحُو اللهُ مايَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

---

(١) ابتدع النصارى الرهبانية، زاعمين أنها من سنن عيسى ابن مريم وهداه ﷺ، وأكذبهم الله. وبين أنهم هم الذين ابتدعوها من عند أنفسهم. وعيسى عليه السلام بريء منها. فإنها على خلاف الفطرة التي فطر الله الناس عليها والله لا يشرع ما يضاد الفطرة، ولا يحبه. ولذلك فإنهم لم يستطيعوا - ولن يستطيعوا - أن يرعوها حق رعايتها. لأن سنن الله لا يقدر أحد على تبديلها. ففي أديرة الرهبان وأديرة الراهبات آيات بينات على ذلك من ثمرات الفسوق عن أمر الله. وكذلك الصوفية يستنون بسنن هؤلاء المترهبين الفاسقين.

(٢) ٣٨٢ زاد المعاد جـ٣.

كتاب آخر للحزاز: يكتب عليه: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦] بحول الله وقوته.

كتاب آخر له: عند اصفرار الشمس يكتب عليه: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

كتاب آخر للحمىٰ المثلثة: يكتب على ثلاث ورقات لطاف: بسم الله فرت، بسم الله مرت، بسم الله قلت. ويأخذ كل يوم ورقة، ويجعلها في فمه، ويبتلعها بماء.

كتاب آخر لعرق النسا: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم رب كل شيء، ومليك كل شيء، وخالق كل شيء، أنت خلقتني، وأنت خلقت النسا، فلا تسلطه على بأذى، ولا تسلطني عليه بقطع، واشفني شفاء لا يغادر سقما، لا شافي إلا أنت.

كتاب للعرق الضارب: روى الترمذي في جامعه من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -: «أن رسول الله، ﷺ، كان يعلمهم من الحمى ومن الأوجاع كلها أن يقولوا: بسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم من شر عرق نَعَّار، ومن شر حر النار».

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحديد

والحمد لله رب العالمين

فهرس المجلد الخامس

فهـــرس سورة الأحزاب

فهـــرس سورة سبأ

فهرس سورة فاطـــر

فهـــرس سورة يسٓ

فهرس سورة الصافات

فهرس سورة صٓ

فهرس سـورة الزمـر

فهرس سورة غافر

فهرس سورة فصلت

فهرس سورة الشورى

فهرس سورة الزخرف

فهرس سورة الدخان

فهرس سورة الجاثية

فهرس سورة الأحقاف

فهرس سورة محمد

فهرس سورة الفتح

فهرس سورة الحجرات

فهرس سورة قٓ

فهرس سورة الذاريات

فهرس سورة الطور

فهرس سورة النجم

فهـــرس سورة القمر

فهـــرس سورة الرحمٰن

فهـــرس سورة الواقعة

فهـــرس سورة الحديد

انتهى بحمد الله تعالى

المجلد الخامس ويليه إن شاء الله المجلد السادس

الضوء المنير

على

التفسير

المجلد السادس

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمد الصالحي

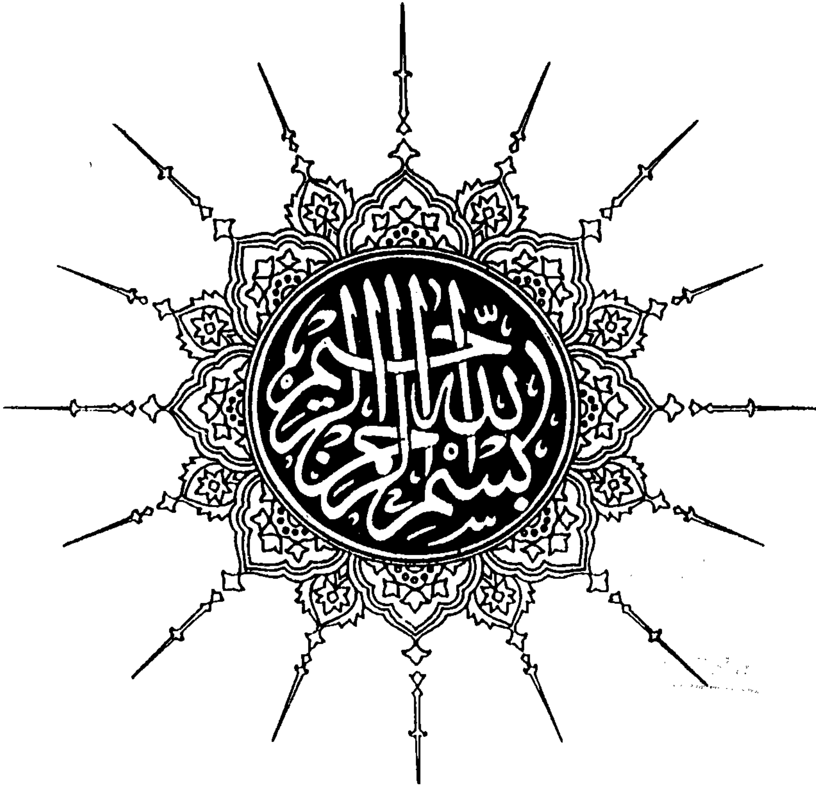
من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيم الجوزية

الناشر

مؤسسة النور للطباعة والتجليد

بالتعاون مع

مكتبة دار السلام



الناشر
مؤسسة النور للطباعة و التجليد
هاتف: ٤١١٨٨٧٤ ، فاكس: ٤١١٤١٩١
دخنة-شارع الشيخ محمد بن إبراهيم
عنيزة-هاتف و فاكس: ٣٦٤١٠٤٠ (٠٦)
ت ٣٦٤٨٦٧٨ (٠٦)

بالتعاون مع
مكتبة دارالسلام

الرياض-شارع الضباب-هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢ ، فاكس: ٤٠٢١٦٥٩



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)حكم رسول الله في الظهار، وبيان ما أنزل فيه ومعنى « العود » الموجب للكفارة

قال ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّنْ نِّسَآئِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * والَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنَ نِّسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنَ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنْ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٢-٤].

ثبت في السنن والمسانيد «أن أوس بن الصامت: ظاهر من زوجته خَوْلة بنت مالك بن ثعلبة ـ وهي التي جادلت فيه رسول الله، ﷺ، واشتكت إلى الله، وسمع الله شكواها من فوق سبع سموات ـ فقالت: يارسول الله، إن أوس بن الصامت تزوجني، وأنا شابة مرغوب فيَّ، فلما خلا سِنِّي، ونَثَرت له ذات بطنى: جعلني كأُمِّه عنده. فقال لها رسول الله ﷺ: **«ما عندي في أمرك شيء»**، فقالت: اللهم إني أشكو إليك». وروي أنها قالت: «إن لي صبية صغارا، إن ضَمَّهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليَّ جاعوا. فنزل القرآن».

وقالت عائشة «الحمد الله الذي وسع سمعه الأصوات. لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله، ﷺ، وأنا في كسر البيت، يخفى عليَّ بعض كلامها. فأنزل الله ـ عز وجل ـ: **﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وتَشْتَكِي إِلَى اللهِ واللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾**[المجادلة: ١]. فقال النبي ﷺ: **«ليعتق رقبة؟»** قالت: لا يجد. قال: **«فيصوم شهرين متتابعين»**. قالت: يارسول الله، إنه شيخ كبير، ما به صيام. قال: **«فليطعم ستين مسكينا»** قالت:

(١) ١٥٨ زاد المعاد جـ٤.

ما عنده شيء يتصدق به. قال: «فإني سأعينه بعَرَق من تمر» قالت: وأنا أعنه بعَرَق آخر. قال: «أحسنتِ، فأطعمي عنه ستين مسكينا، وارجعي إلى ابن عمك».

(١)**والسمع** يراد به إدراك الصوت، ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن، فمن الأول: قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ واللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[المجادلة: ١]. وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع، وذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت وأنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾. والثاني: سمع الفهم كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أى لأفهمهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾[الأنفال: ٢٣]. لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق؛ ففيهم آفتان: إحداهما أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب. والثالث: سمع القبول والإجابة كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَّازَادُوكُمْ إلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾[التوبة: ٤٧]. أى قابلون مستجيبون. ومنه قوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾[المائدة: ٤٢]. أى قابلون له مستجيبون لأهله. ومنه قول المصلى: سمع الله لمن حمده. أي أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه. وقول النبي، ﷺ: «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم**» أى يجيبكم. والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه، ومعاده كان الحيوان البهيم خيرًا منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل.

...(٢)**وسألته** ﷺ خولة بنت مالك فقالت: إن زوجها أوس بن الصامت ظاهر منها، وشكته إلى رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ، يجادلها فيه بقوله: «**اتقي الله فإنه ابن عمك**» فما برحت حتى نزل القرآن: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي

(١) ٧٩ مفتاح جـ١. (٢) ٣٥٣ أعلام جـ٤.

زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ واللهُ يَسمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[المجادلة: ١] الآيات فقال: «**يعتق رقبة**» قالت: لا يجد. قال: «**فيصوم شهرين متتابعين**». قالت: إنه شيخ كبير ما به من صيام قال: «**فليطعم ستين مسكينًا**». قالت: ما عنده من شيء يتصدق به، فأتى ساعته بعَرْق من تمر، قلت: يارسول الله إني أعينه بعَرْق آخر، قال: «**أحْسَنْت اذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكينًا، وارجعي إلى ابن عمك**» ذكره أحمد وأبو داود.

ولفظ أحمد: قالت: فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صَدْرَ سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه وضجر، قالت: فدخل عليَّ يومًا، فراجعته بشيء، فغضب، فقال: أنت على كظهر أمي، ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ، فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا، والذي نفس الخويلة بيده لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكم، قالت: فواثبَني، فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب المرأةُ الشيخَ الضعيفَ، فألقيته عني، ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله، ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خُلُقه، فجعل رسول الله ﷺ، يقول: «**يا خويلة ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه**»، قالت: فوالله ما برحت حتى نزل القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ، ما كان يتغشاه ثم سُرِّيَ عنه، فقال: «**يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك**»، ثم قرأ عليَّ ﴿**قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ**﴾[المجادلة: ١]، إلى قوله: ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[المجادلة: ٤]. قالت: فقال رسول الله، ﷺ: «**مُرِيه فليعتق رقبة**» وذكر نحو ما تقدم. وعند ابن ماجه أنها قالت: يارسول الله أكل شبابي، ونثرت[١] له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرائيل عليه السلام بهؤلاء الآيات.

[٢]**وفي** السنن: «أن سلمة بن صخر البياضى: ظاهر من امرأته مدة شهر

---

(١) أردات: أنها كانت شابة تلد الأولاد عنده. ويقال: امرأة نثور: كثيرة الولد. (٢) ١٥٩ زاد المعاد جـ٤.

رمضـان، ثم واقعهـا ليلة قبـل انسـلاخـه. فقال له النبي، ﷺ: «**أنت بذاك ياسلمة**»؟ قال: قلت: أنا بذاك يارسول الله ـ مرتين ـ وأنا صابر لأمر الله. فاحكم فيَّ بما أراك الله، قال: «**حَرِّر رقبة**». قلت: والذي بعثك بالحق نبيا ما أملك رقبة غيرها ـ وضربت صفحة رقبتي ـ قال: «**فصم شهرين متتابعين**»، قال: فهل أصبتُ الذي أصبت إلا في الصيام؟ قال: «**فأطعم وَسْقًا من تمر ستين مسكينًا**». قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا وَحْشَيْنْ[1]، مالنا طعام. قال: «**فانطلق إلى صاحب صدقة بني زُريقٍ فليدفعها إليك، فأطعم ستين مسكينا وسقا من تمر. وكـل أنت وعيـالك بقيتها**». قال: فَرُحْتُ إلى قومي. فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول ﷺ السَّعة، وحسن الرأي، وقد أمر لي بصدقتكم».

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس «أن رجلا أتى النبي ﷺ، قد ظاهر من امرأته. فوقع عليها، فقال: يارسول الله، إني ظاهرت من امرأتي، فوقعت عليها قبل أن أُكَفِّرَ؟ قال: «**وما حملك على ذلك؟ يرحمك الله**». قال: رأيت خَلْخالها في ضوء القمر. قال: «**فلا تقر بها حتى تفعل ما أمرك الله**» وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وفيه أيضًا عن سلمة بن صخر عن النبي ـ ﷺ ـ في المظاهر يواقع قبل أن يُكَفِّرَ، فقال: «**كفارة واحدة**» وقال: حسن غريب. انتهى. وفيه انقطاع بين سليمان بن يسار وسلمة بن صخر.

وفي مسند البزار عن إسماعيل بن مسلم عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس قال: «أتى رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني ظاهرت من امرأتي، ثم وقعت عليهـا قبل أن أُكَفِّرَ. فقال: رسول الله ﷺ: «**ألم يقل الله ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾** [المجادلة: ٣]؟ فقال: أعجبتني. فقال: «**أمسك حتى تُكَفِّرَ**» قال البزار: لا نعلمه يروى بإسناد أحسن من هذا، على أن إسماعيل بن مسلم قد تُكُلم فيه. وروى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم. فتضمنت هذه الأحكام أمورًا.

أحدها: إبطال ما كانوا عليه في الجاهلية، وفي صدر الإسلام من كون الظهار

(١) الوحش ـ بسكون الحاء ـ الجائع.

طلاقًا، ولو صرح بنيته له، فقال: «أنتِ عليّ كظهر أمي، أعني به الطلاق» لم يكن طلاقًا. فكان ظهارًا. وهذا بالاتفاق إلا ما عساه من خلاف شاذ. وقد نص عليه أحمد والشافعي وغيرهما.

قال الشافعي: ولو ظاهر ـ يريد طلاقًا ـ كان ظهارًا، أو طلق يريد ظهارًا: كان طلاقًا. هذا لفظه، فلا يجوز أن ينسب إلى مذهبه خلاف هذا.

ونص أحمد على أنه إذا قال: «أنت عليَّ كظهر أمي، أعني به الطلاق» أنه ظهار. ولا تطلق به. وهذا لأن الظهار كان طلاقا في الجاهلية فنسخ. فلم يجز أن يعاد إلى الحكم المنسوخ. وأيضًا: فإن أوس بن الصامت إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه، وأجرى عليه حكم الظهار، دون الطلاق. وأيضًا: فإنه صريح في حكمه فلم يجز جعله كناية في الحكم الذي أبطله الله ـ عز وجل ـ بشرعه، وقضاء الله أحق، وحكم الله أوجب.

ومنها: أن الظهار حرام، لا يجوز الإقدام عليه. لأنه ـ كما أخبر الله عنه ـ منكر من القول وزور، فكلاهما حرام. والفرق بين جهة كونه منكرًا، وجهة كونه زورًا: أن قوله: «أنت عليَّ كظهر أمي» يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاءً لتحريمها. فهو يتضمن إخبارًا وإنشاءً. فهو خبر زُور، وإنشاء منكر، فإن الزور: هو الباطل، خلاف الحق الثابت. والمنكر: خلاف المعروف.

وختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[المجادلة: ٢]. وفيه إشعار بقيام سبب الإثم، الذي لولا عفو الله ومغفرته لآخذه به.

ومنها: أن الكفارة لا تجب بنفس الظهار. وإنما تجب بالعود. وهذا قول الجمهور.

وروى الثوري عن ابن أبي نجيح عن طاوس قال: «إذا تكلم بالظهار فقد لزمه» وهذه رواية ابن أبي نجيح عنه. وروى معمر عن ابن طاوس عن أبيه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ قال: «جعلها عليه كظهر أمه، ثم يعود فيطؤها، فتحرير رقبة».

وحكى الناس عن مجاهد: أنه تجب الكفارة بنفس الظهار. وحكاه ابن حزم عن الثوري وعثمان البتي. وهؤلاء لم يخف عليهم: أن العود شرط في الكفارة، ولكن العود عندهم: هو العود إلى ما كان عليه في الجاهلية من التظاهر. كقوله

تعالى في جزاء الصيد: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾[المائدة:٩٥]، أى عاد إلى الاصطياد بعد نزول تحريمه. ولهذا قال: ﴿عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥].

قالوا: ولأن الكفارة إنما وجبت في مقابلة ما تكلم به من المنكر والزور. وهو الظهار دون الوطء، أو العزم عليه.

قالوا: ولأن الله ـ سبحانه ـ لما حرم الظهار، ونهى عنه: كان العود هو فعل المنهي عنه، كما قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وإنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾[الإسراء:٨]. أي إن عدتم إلى الذنب عدنا إلى العقوبة. فالعود هنا: نفس فعل المنهي عنه.

قالوا: ولأن الظهار كان طلاقا في الجاهلية. فنقل حكمه من الطلاق إلى الظهار، ورتب عليه التكفير، وتحريم الزوجة حتى يُكَفِّرَ، وهذا يقتضي أن يكون حكمه معتبرًا بلفظه كالطلاق. . .

(١)**قوله** تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾[المجادلة:٥]. والكبتُ: الإذلال والخزي والتصريع على الوجه، قال النضر(٢) وابن قتيبة: هو الغيظ والحزن(٣)، وقال أهل التفسير: كُبتوا: أهلكوا وأُخزوا وحزنوا، وإذا كان المحاد مكبوتًا فلو كان آمناً على نفسه وماله لم يكن مكبوتًا بل مسرورًا جذلًا(٤) يشفي صدره من الله ورسوله، آمنًا على دمه وماله، فأين الكبت إذن؟

ويدل عليه قوله: ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فَخَوَّفَهم بكَبْتٍ نظير كَبْت مَنْ قبْلَهم: وهو الإهلاك من عنده وأنا بأيدي عباده وأوليائه. وقوله: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] عقيب قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة:٥] دليلٌ على أنّ المحاداة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المحادَّيْن غالبًا، وهذا إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعُلم أن المحادّ

(١) ٨٢٦ أحكام أهل الذمة جـ٢.
(٢) هو النضر بن شميل كما في الصارم ٢٢.
(٣) زاد ابن تيمية في الصارم ٢٢ فائدة لغوية طريفة في هذا المقام حين قال: «وهو في الاشتقاق الأكبر من كبده، كأن الغيظ والحزن أصاب كبده. كما يقال: أحرق الحزن والعداوة كبده».
(٤) في الأصل (اجدلا). والذي في مطبوعة الصارم ٢٣ (جذلان).

ليس بمسالم، فلا يكون له أمان مع المحادّة، وقد جرت[١] سنة الله ـ سبحانه ـ أن الغلبة لرسله بالحجة والقهر، فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك[٢] عدوه.

يوضحه[٣] أن المحادَّة مشاقّة، لأنها من الحد والفَصْل والبَيْنونة، وكذلك المشاقة[٤] من الشق، وكذلك المعاداة من العُدْوة، وهي الجانب يكون أحد العدوّين في شق وجانب وحدّ وعدوه الآخر[٥] في غيرها، والمعنى في ذلك كله معنى المقاطعة والمفاصلة[٦]؛ وذلك لا يكون إلا مع انقطاع الحبل الذي بيننا وبين أهل العهد، لا يكون مع اتصال الحبل أبدًا.

يوضحه أن الحبل وُصْلَةٌ وسبب، فلا يجامع المفاصلة والمباينة.

وأيضًا فإنها إذا كانت بمعنى المشاقة فقد قال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ[٧] اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢، ١٣] فأمر بضرب أعناقهم، وعلّل ذلك بمشاقتهم ومحادَدَتهم[٨]، وكل من فعل ذلك وجب أن يضرب عنقه، وهذا دليل تاسع في المسألة. وترتيبه هكذا: هذا مشاق لله ورسوله، والمشاق لله ورسوله مستحق ضرب العنق، وقد تبينت صحة المقدمتين.

ونظير هذا الاستدلال قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: ٣] والتعذيب في الدنيا هو القتال والإهلاك، ثم علّل ذلك بالمشاقّة، وأخرّ عنهم ذلك التعذيب لِما سبق من كتابِهِ الجلاءَ عليهم، فمن وجدت منه المشاقة [من] غيرهم ممن لم يكتب عليه الجلاء استحقّ عذاب الدنيا الذي أخره عن أولئك. وهذا دليل عاشر في المسألة.

---

(١) في الأصل (جرى).
(٢) كذا بالأصل، والذي في (الصارم ٢٣) ملك.
(٣) في الصارم ٢٣ (وأيضًا، فإن المحادة).
(٤) في الأصل (المساقة) بالسين المهملة.
(٥) في الأصل (والآخر).
(٦) في الأصل (القاطعة والفاصلة) صوابها من الصارم ٢٣.
(٧) كذا بالأصل (يشاقّ) بإدغام القاف، وهي قراءة معروفة، والفك هنا أشهر.
(٨) كذا في الأصل بفكّ الإدغام في لفظة (محادّة)، وهي في الصارم ٢٤ مدغمة.

(١) **وقوله:** ﴿مَايَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] الآية فنبه ـ سبحانه ـ بالثلاثة على العدد الذي يجمع الشفع والوتر، ولا يمكن أهله أن ينقسموا في النجوى قسمين، ونبه بالخمسة على العدد الذي يجمعهما، ويمكن أهله أن ينقسموا فيها قسمين، فيكون مع كل العددين. فالمشتركون في النجوى: إما شفع فقط أو وتر فقط أو كلا القسمين، وأقل أقسام الوتر المتناجين ثلاثة، وأقل أنواع الشفع اثنان، وأقل أقسام النوعين إذا اجتمعا خمسة، فذكر أدنى مراتب طائفة الوتر وأدنى مراتب النوعين إذا اجتمعا. ثم ذكر معيته العامة لما هو أدنى من ذلك أو أكثر.

وتأمل كيف جعل نفسه: رابع الثلاثة، وسادس الخمسة؛ إذ هو غيرهم ـ سبحانه ـ بالحقيقة لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل.

وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الإلهية، والعرب تقول: رابع أربعة، وخامس خمسة، وثالث ثلاثة لما يكون فيه المضاف إليه من جنس المضاف، كما قال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] رسول الله وصديقه، فإن كان من غير جنس قالوا رابع ثلاثة وخامس أربعة وسادس خمسة.

وقال ـ تعالى ـ في المعية الخاصة لموسى وأخيه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقال في العامة: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥].

فتأمل كيف أفرد ضمير نفسه حيث أفرد موسى وأخاه عن فرعون؟ وكيف جمع الضمير لما أدخل فرعون معهما في الذكر؟ فجعل الخاص مع المعية الخاصة والعام مع المعية العامة.

(٢) **المعية** نوعان: عامة. وهي: معية العلم والإحاطة. كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿مَايَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وخاصة: وهي معية القرب، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ

---

(١) ٢٦٦ مختصر الصواعق جـ١.   (٢) ٢٦٥ مدارج جـ٢.

هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩].

فهذه معية قرب. تتضمن الموالاة، والنصر، والحفظ. وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة. وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة. فـ «مع» في لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط، ولا مجاورة، ولا مجانبة. فمن ظن منها شيئًا من هذا فمن سوء فهمه أتي.

وأما القرب: فلا يقع في القرآن إلا خاصا. وهو نوعان: قربه من داعيه بالإجابة. وقربه من عابده بالإثابة.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] ولهذا نزلت جوابًا للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وقد سألوا رسول الله ﷺ: «ربُّنا قريب فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية».

والثاني: قوله ﷺ: «**أقرب مايكون العبد من ربه: وهو ساجد، وأقرب ما يكون الرب من عبده: في جوف الليل**» فهذا قربه من أهل طاعته.

وفي الصحيح: عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر. فارتفعت أصواتنا بالتكبير. فقال: «**ياأيها الناس، اربعوا على أنفسكم. إنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائبًا. إن الذي تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**».

فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه، واستواءه على عرشه، بل يجامعه ويلازمه، فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، ولكنه نوع آخر. والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جدًّا من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي، ويجده أقرب إليه من جليسه، كما قيل:

ألا رُبَّ من يدنو ويزعم أنه ... يحبك والنائي أحب وأقرب

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحباؤه، الذين هو عندهم أولى بهم من أنفسهم، وأحب إليهم منها: يجدون نفوسهم أقرب إليه، وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة، والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون

قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها. هذا مع عدم تأتي القرب منها، فكيف بمن يقرب خلقه كيف يشاء. وهو مستو على عرشه. وأهل الذوق لا يلتفتون في ذلك إلى شبهة معطل بعيد من الله خَليٍّ من محبته ومعرفته. . . .

(١)...**لم يأت** (الحزن) في القرآن ألا منَهيًا عنه ومنفيًا؛ فالنهي عنه كقوله تعالى: ﴿ولا تهنُوا ولا تَحْزَنُوا﴾ [آل‌عمران: ١٣٩] وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧] في غير موضع وقوله: ﴿لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] والنفي كقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُم يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وسر ذلك: أن «الحزن» موقف غير مُسَيِّر، ولا مصلحة فيه للقلب. وأحب شيء إلى الشيطان: أن يُحَزِّن العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠] ونهى النبي ﷺ الثلاثة: «**أن يتناجى اثنان منهم دون الثالث، لأن ذلك يحزنه**».

فالحزن ليس بمطلوب، ولا مقصود، ولا فيه فائدة. وقد استعاذ منه النبي ﷺ، فقال: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن**» فهو قرين الهم. والفرق بينهما: أن المكروه الذي يرد على القلب، إن كل لما يستقبل: أورثه الهم، وإن كان لما مضى: أورثه الحزن. وكلاهما مضعف للقلب عن السير. مُفَتِّر للعزم.

ولكن نزول منزلته ضروري بحسب الواقع، ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخولها: ﴿الحمدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] فهذا يدل على أنهم كان يصيبهم في الدنيا الحزن، كما يصيبهم سائر المصائب التي تجري عليهم بغير اختيارهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَاأَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَاأَجِدُ مَاأَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَايُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] فلم يمدحوا على نفس الحزن. وإنما مُدِحوا على مادَلَّ عليه الحزن من قوة إيمانهم، حيث تخلفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة. ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا على تخلفهم، بل غبطوا نفوسهم به.

وأما قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**مايصيب المؤمن من هَمٍّ ولانَصَب**،

(١) ٥٠٥ مدارج جـ١.

ولاحَزَن إلا كَفَّـرَ الله به خطايـاه» فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد، يكفِّر بها من سيئاته. لايدل على أنه مقام ينبغي طلبه واستيطانه. . . .

(١)**الوجه** التاسع عشر: أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١] وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع.

أحدها هذا. والثاني قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]. والثالث قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾[طه: ٧٥]. والرابع قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦] فهذه أربعة مواضع في ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الـذي هو العلم النـافـع والعمل الصالح، والرابع الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد الذين بهما قوام الدين.

(٢)**الوجـه** السـابـع والستـون: أن النصـوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال: إيمان بالله؛ فهو رأس الأمر، والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها.

والإيمان له ركنان: أحدهما معرفة ماجاء به الرسول والعلم به.

والثاني تصديقه بالقول والعمل، والتصديق بدون العلم والمعرفة محال، فإنه فرع العلم بالشيء المصدق به فإذا العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، ولا تقـوم شجـرة الإيمان إلا على ساق العلم والمعرفة، فالعلم إذا أجل المطالب وأسنى المواهب.

الوجـه الثـامن والستون: أن صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة

---

(١) ٥٠ مفتاح جـ١.

(٢) ٨١ مفتاح جـ١.

والإرادة، والإرادة فرع العلم، فإنها تستلزم الشعور بالمراد، فهي مفتقرة إلى العلم في ذاتها وحقيقتها، والقدرة لاتؤثر إلا بواسطة الإرادة، والعلم لايفتقر في تعلقه بالمعلوم إلى واحدة منهما، وأما القدرة والإرادة فكل منها يفتقر في تعلقه بالمراد والمعلوم إلى العلم، وذلك يدل على فضيلته وشرف منزلته.

الوجه التاسع والستون: أن العلم أعم الصفات تعلقًا بمتعلقه وأوسعها، فإنه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم.

فذات الرب - سبحانه - وصفاته وأسماؤه معلومة له، ويعلم العباد من ذلك ماعلمهم العليم الخبير. وأما القدرة والإرادة فكل منهما خاص التعلق.

أما القدرة؛ فإنما تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب، فهي أخص من العلم من هذا الوجه، وأعم من الإرادة، فإن الإرادة لا تتعلق إلا ببعض الممكنات وهو ما أريد وجوده، فالعلم أوسع وأعم وأشمل في ذاته ومتعلقه.

الوجه السبعون: أن الله - سبحانه - أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، ويأتم بهم من بعدهم. فقال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾** [السجدة: ٢٤]. وقال في موضع آخر: **﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾** [الفرقان: ٧٤] أي أئمة يقتدى بنا من بعدنا.

فأخبر - سبحانه - أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين؛ وهي أرفع مراتب الصديقين. واليقين هو كمال العلم وغايته، فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين، وهي ولاية آلتها العلم يختص الله بها من يشاء من عباده.

الوجه الحادي والسبعون: أن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء، لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء في اليوم مرة أو مرتين، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس، لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحبًا لإيمان أو حكمة، فإن فارقه الإيمان أو حكمة في نفس من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه، وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم فالحاجة إليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب، وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه، فقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه كل وقت.

الوجه الثاني والسبعون: أن صاحب العلم أقل تعبًا وعملاً وأكثر أجرًا، واعتبر هذا بالشاهد: فإن الصناع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم ويريهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال: **«أفضل الأعمال: إيمان بالله، ثم الجهاد»** فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة، والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه وهو أفضل الأعمال مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة، وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال، والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان مايعانيه مفضولاً، ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه، واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة. ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملاً وحجًا وصومًا وصلاة وقراءة منه. قال أبوبكر بن عياش: ماسبقكم أبوبكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه. وهذا موضوع المثل المشهور.

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويدًا وتجي في الأول

(١)**الوجه** السادس والأربعون بعد المائة: إن من نال شيئًا من شرف الدنيا والآخرة، فإنما ناله بالعلم، وتأمل ماحصل لآدم من تميزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها، ثم ماحصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التي تلقاها من ربه.

وما حصل ليوسف من التمكين في الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا، ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقبة الحميدة وكمال الحال التي توصل إليها بالعلم، كما أشار إليها ـ سبحانه ـ في قوله: ﴿كَذٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَاكَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَآءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] جاء في تفسيرها نرفع درجات من نشاء بالعلم، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم.

(١) ١٧٣ مفتاح جـ١

وقال في إبراهيم ﷺ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام:٨٣] فهذه رفعة بعلم الحجة والأول رفعة بعلم السياسة.

وكذلك ماحصل للخضر بسبب علمه من تلميذه كليم الرحمن له وتلطفه معه في السؤال حتى قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦]، وكذلك ماحصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته، ولذلك قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾

وكذلك ماحصل لداود من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء وعدّد ـ سبحانه ـ هذه النعمة بهذا العلم على عباده، فقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وكذلك ماحصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل مارفعه الله به إليه وفضله وكرمه: وكذلك ماحصل لسيد ولد آدم من العلم الذي ذكره الله به نعمة عليه فقال: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

(١)**وللعلم** ست مراتب: أولها حسن السؤال، الثانية: حسن الإنصات والاستماع، الثالثة: حسن الفهم، الرابعة: الحفظ، الخامسة: التعليم، السادسة: وهي ثمرته، وهي العمل به ومراعاة حدوده.

فمن الناس من يحرمه لعدم حسن سؤاله، إما لأنه لا يسأل بحال أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه، كمن يسأل عن فضوله التي لا يضر جهله بها ويدع مالا غنى له عن معرفته، وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين.

ومن الناس من يحرمه لسوء إنصاته فيكون الكلام والمهارات آثر عنده وأحب إليه من الإنصات، وهذه آفة كامنة في أكثر النفوس الطالبة للعلم، وهي تمنعهم علمًا كثيراً ولو كان حسن الفهم.

---

(١) ١٦٩ مفتاح جـ١.

ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال: من كان حسن الفهم رديء الاستماع لم يقم خيره بشره، وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب العلل له قال: كان عروة بن الزبير يحب مماراة ابن عباس، فكان يخزن علمه عنه، وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلطف له في السؤال فيغره بالعلم غرًّا. وقال ابن جريج: لم أستخرج العلم الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به.

وقال بعض السلف: إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق:٣٧].

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه ـ سبحانه ـ أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرت به كل آية ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم، ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب وكان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين.

أحدهما أن يحضره ويشهده لما يلقى إليه، فإن كان غائبًا عنه مسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى مايوعظ به ويرشد إليه.

وهاهنا ثلاثة أمور: أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله: الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق. الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر. فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية. . . .

(١)**قوله تعالى**: ﴿**اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً**﴾ [المنافقون: ٢] وأجننت الميّت واريته في القبر فهو جَنِين. والحب المفرط يستر العقل، فلا يَعْقِل المحب ما ينفعه ويضره، فهو شعبةٌ من الجنون. وأصل المادة من السِّتر في جميع تصاريفها، ومنه أَجَنَّهُ الليل،

(١) ٤٩ روضة المحبين.

وجَنَّ عليه إذا ستره، ومنه الجَنِين لاستتاره في بطن أمه، ومنه الجَنّة لاستتارها بالأشجار، ومنه المِجَنُّ لاستتار الضارب به والمضروب، ومنه الجنّ لاستتارهم عن العيون بخلاف الإنس فإنهم يُؤْنَسُون أي يُرَون، ومنه الجُنَّة بالضم وهي مااستترت به واتّقيت.

..(١)**قلت:** الروح التي تتوفى وتقبض، فهي روح واحدة، وهي النفس، وأما مايؤيد الله به أولياءه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيْمَانَ وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وكذلك الروح الذي أيّدَبها روحه المسيح ابن مريم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ ياعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

وكذلك الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن.

وأما القوى التي في البدن فإنها تسمى أيضًا: أرواحًا. فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشامّ.

فهذه الأرواح قوى مودعة في الأبدان تموت بموت الأبدان، وهي غير الروح التي لاتموت بموت البدن ولا تبلى كما يبلى.

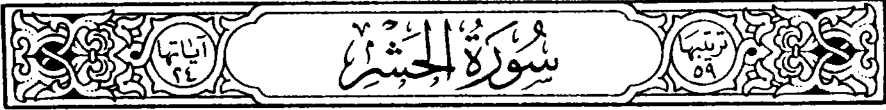
ويطلق الروح على أخص من هذا كله، وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته، ونسبة هذه إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه، وهي الروح التي يؤيد بها أهل ولايته وطاعته، ولهذا يقول الناس فلان فيه روح، وفلان مافيه روح، وهوبوّ، وهو قصبة فارغة ونحو ذلك. فللعلم روح، وللإحسان روح، وللإخلاص روح، وللمحبة والإنابة روح، وللتوكل وللصدق روح، والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانيا، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيًا بهيميًا. والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المجادلة

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٦٦ الروح.



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل(١)

ثم نقض العهد بنو النضير. قال البخاري: «وكان ذلك بعد بدر بستة أشهر» قاله عروة، وسبب ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم في نَفَرٍ من أصحابه، وكَلَّمهم أن يعينوه في دِيَة الكلابِيِّين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك، وخلا بعضهم ببعض، وسَوَّلَ لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله، ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحا ويَصْعَد، فيلقيها على رأسه يَشْدَخُه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جِحاش: أنا. فقال لهم سَلَّام بنَ مِشْكَم: لا تفعلوا، فوالله لَيُخْبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقضٌ للعهد الذي بيننا وبينه. وجاء الوحيُ على الفور إليه من ربه ـ تبارك وتعالى ـ بما هَمُّوا به، فنهض مسرعًا، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابُه، فقالوا: نهضتَ ولم نشعر بك؟ فأخبرهم بما هَمَّت يهود به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: أن أخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أَجَّلْتكم عشرًا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه، فأقاموا أيامًا يتجهزون. وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن أبى: أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حِصْنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قُريظة وحلفاؤكم من غطفان.

وطمع رئيسهم حييُّ بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله، ﷺ، يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فكبَّرَ رسول الله، ﷺ، وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلى بن أبي طالب يحمل اللواء. فلما انتهى إليهم قاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبدالله بن أبى وحلفاؤهم من غطفان، ولهذا شبه الله سبحانه وتعالى قصتهم وجعل مثلهم: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦].

(١) ١٨٥ زاد المعاد جـ٢.

فإن سورة الحشر هي سورة بني النضير، وفيها مبدأ قصتهم ونهايتها، فحاصرهم رسول الله (ﷺ) وقطع نخلهم وحَرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج عن المدينة. فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل، إلا السلاح: وقبض النبي (ﷺ) الأموال والحَلْقَة، وهي السلاح، وكانت بنو النضير خالصةً لرسول الله (ﷺ) لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يُخَمِّسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يُوجِف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب[1].

[2]**وذكر** الحاكم وغيره أن بني النضير لما أجلوا من المدينة أقبل عمر بن سعد فأطاف بمنازلهم فرأى خرابها ففكر. ثم رجع إلى بني قريظة فوجدهم في الكنيسة فنفخ في بوقهم فاجتمعوا. فقال الزبير بن باطا: ياأباسعيد أين كنت منذ اليوم؟ فلم نرك. وكان لا يفارق الكنيسة، وكان يتأله في اليهودية ـ قال: رأيت اليوم عبراً اعتبرنا بها: وأيت إخواننا قد جلوا بعد ذلك العز والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع، قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم، وخرجوا خروج ذل، ولا ـ والتوراة ـ ما سلط هذا على قوم قط لله بهم حاجة. وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف في عزة بنيانه في بيته آمناً، وأوقع بابن سنينة سيدهم. وأوقع ببني قينقاع فأجلاهم وهم جل اليهود، وكانوا أهل عدة وسلاح ونجدة، فحصرهم النبي ـ عليه السلام ـ فلم يخرج إنسان منهم رأسه حتى نهاهم فكلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب.

ياقوم قد رأيتم ما رأيتم فاطيعوني وتعالوا نتبع محمداً، فوالله أنكم لتعلمون أنه نبي وقد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان وأبوعمرو بن حراس، وهما أعلم اليهود، جاءا من بيت المقدس يتوكفان قدومه وأمرانا باتباعه، وأمرانا أن نقرئه منهما السلام ثم ماتا على دينهما ودفناهما بحرتنا، فاسكت القوم فلم يتكلم منهم متكلم، فأعاد هذا الكلام ونحوه، وخوفهم بالحرب والسباء والجلاء.

فقال الزبير بن باطا: قد ـ والتوراة ـ قرأت صفته في كتاب التوراة التي أنزلت على موسى ليس في المثاني التي أحدثنا.

فقال له كعب بن أسد: ما يمنعك يا أبا عبدالرحمن من اتباعه؟ قال: أنت.

(١) تقدم سياق طوائف اليهود في سورة الأحزاب (ج).

(٢) ١٨ هداية الحيارى.

قال ولم ـ فوالتوراة ـ ما حلت بينك وبينه قط؟

قال الزبير: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا، فإن اتبعته اتبعناه، وإن أبيت أبينا.

فأقبل عمر بن سعد على كعب فذكر ما تقاولا في ذلك إلى أن قال كعب: ما عندي في ذلك إلا ما قلت، ما تطيب نفسي أن أصير تابعاً.

وهذا المانع هو الذي منع فرعون من اتباع موسى، فإنه لما تبين له الهدى عزم على اتباع موسى ـ عليه السلام ـ فقال له! وزيره هامان: بينا أنت إله تعبد تصبح تعبد ربا غيرك؟! قال: صدقت.

وذكر ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر، قال: حدثت عن صفية بنت حيي أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، فلما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة غدوا عليه ثم جاءا من العشي، فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته. قال: نعم، قال: فما في نفسك منه قال: عداوته والله ما بقيت.

فهذه الأمة الغضبية معروفة بعداوة الأنبياء قديماً وأسلافهم وخيارهم قد أخبرنا الله ـ سبحانه ـ عن أذاهم لموسى، ونهانا عن التشبه بهم في ذلك، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً**﴾

وأما خلفهم فهم قتلة الأنبياء: قتلوا زكريا وابنه يحيى وخلقاً كثيراً من الأنبياء، حتى قتلوا في يوم سبعين نبيًا، وأقاموا السوق في آخر النهار كأنهم لم يصنعوا شيئاً.

واجتمعوا على قتل المسيح وصلبه فصانه الله من ذلك وأكرمه أن يهينه على أيديهم وألقى شبهه على غيره، فقتلوه، وصلبوه، وراموا قتل خاتم النبيين مراراً عديدة، والله يعصمه منهم. ومن هذا شأنهم لا يكبر عليهم اختيار الكفر على الإيمان لسبب من الأسباب التي ذكرنا بعضها أو سببين أو أكثر.

(١)... و«**الاعتبار**» هو أن يعبر نظره من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن الدليل إلى المدلول، فينتقل إليه بسرعة لطف إدراك، فينتقل ذهنه من الملزوم إلى لازمه. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [الحشر: ٢] و«الاعتبار» افتعال من العبور. وهو عبور القلب من الملزوم إلى لازمه. ومن النظير إلى نظيره.

---

(١) ٣٥٧ مدارج جـ٣.

وهذا «الاعتبار» يضعف ويقوى، حتى يستدل صاحبه بصفات الله ـ تعالى ـ وكـمالـه على ما يفعله، لحسن اعتباره وصحة نظره، وهو اعتبار الخواص واستدلالهم. فإنهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأنه يفعل كذا ولا يفعل كذا. فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحمده، ولا يفعل ما يناقض ذلك.

وقد ذكر ـ سبحانه ـ هذين الطريقين في كتابه. فقال ـ تعالى ـ في الطريق الأولى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ**﴾. ثم قال في الطريق الثانية: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت: ٥٣].

فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به، ومالا يفعله ولا يأمر به. مثال ذلك: أن اسمه «الحميد» ـ سبحانه ـ يدل على أنـه لا يأمر بالفحشاء والمنكر. واسمه «الحكيم» يدل على أنه لا يخلق شيئاً عبثاً. واسمه «الغني» يدل على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

واسمه «الملك» يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه: من قدرته، وتدبيره، وعطائه ومنعـه، وثوابه وعقابه، وبَثِّ رسله في أقطار مملكته، وإعلام عبيده بمراسيمه، وعهوده إليهم، واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد.

فمتى قام بالعبد تعظيم الحق ـ جل جلاله ـ وحسن النظر في الشواهد، والتبصر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قبلةً له...

(١)... **قال** الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧] فأمرنا باتباعه وطاعته فيما سنه وأمر به وما نهى عنه وما حكم به. وقال (ﷺ): «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**» وقال: «**من رغب عن سنتي فليس مني، ومن أحب سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة**» فعرفنا سنته ووجدناها بهذه الآثار المشتهرة التي رويت بالأسانيد الصحيحة المتصلة التي نقلها حفاظ العلماء وثقاتهم بعضهم عن بعض.

ثم نظرنا فرأينا فرقة أصحاب الحديث: لها أطلب، وفيها أرغب، ولها أجمع، ولأصحابها اتبع، فعلمنا يقينا أنهم أهلها دون من عداهم من جميع الفرق، فإن

(١) ٤٢٨ مختصر الصواعق جـ٢.

صاحب كل حرفة أو صناعة إن لم يكن معه دلالة وآلة من آلات تلك الصناعة والحرفة ثم ادعى تلك الصناعة كان في دعواه مبطلاً فإذا كانت معه آلات الصناعة الحرفة شهدت له تلك الآلات بصناعته بل شهد له كل من عاينه قبل الاختبار. . .

(١)**والذي** قال لنا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] هو الذي شرع لنا هذه الزيادة على لسانه(٢) والله ـ سبحانه ـ ولاه مَنْصِبَ التشريع عنه ابتداء، كما ولاه منصب البيان لما أراده بكلامه.

بل كلامه كله بيان عن الله، والزيادة بجميع وجوهها لا تخرج عن البيان بوجه من الوجوه. بل كان السلف الصالح الطيب إذا سمعوا الحديث عنه وَجَدُوا تصديقه في القرآن، ولم يقل أحد منهم قط في حديث واحد أبداً: إن هذا زيادة على القرآن فلا نقبله ولا نسمعه ولا نعمل به، ورسول الله (ﷺ) أجَلُّ في صدورهم وسنتُه أعظم عندهم من ذلك وأكبر.

ولا فرق أصلاً بين مجيء السنة بعدد الطواف وعدد ركعات الصلاة ومجيئها بفرض الطمأنينة وتعيين الفاتحة والنية؛ فإن الجميع بيانٌ لمراد الله أنه أوجب هذه العبادات على عباده على هذا الوجه، فهذا الوجه هو المراد، فجاءت السنة بياناً للمراد في جميع وجوهها، حتى في التشريع المبتدأ، فإنها بيان لمراد الله من عموم الأمر بطاعته وطاعة رسوله، فلا فرق بين بيان هذا المراد وبين بيان المراد من الصلاة والزكاة والحج والطواف وغيرها، بل هذا بيان المراد من شيء، وذاك بيان المراد من أعم منه؛ فالتغريب بيان مَحْض للمراد من قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٥].

وقد صرح النبي (ﷺ) بأن التغريب بيان لهذا السبيل المذكور في القرآن، فكيف يجوز رده بأنه مخالف للقرآن معارض له؟ ويقال: لو قبلناه لأبطلنا به حكم القرآن؟ وهل هذا إلا قَلْبٌ للحقائق؟ فإن حكم القرآن العام والخاص يوجب علينا قبوله فرضاً لا يسعنا مخالفته؛ فلو خالفناه لخالفنا القرآن ولخرجنا عن حكمه ولابد، ولكان في ذلك مُخَالفة للقرآن والحديث معاً. يوضحه الوجه الثاني:

أن الله ـ سبحانه ـ نَصَبَ رسول الله (ﷺ) منصب المبلغ المبين عنه، فكل ما

(١) ٢٩٤ أعلام جـ٢.
(٢) يشير إلى ماتقدم من الأدلة على وجوب قبول السنة على أي وجه وردت (ج).

شرعَه للأمة فهو بيان منه عن الله أن هذا شرعُه ودينه، ولا فرق بين ما يبلغه عنه من كلامه المتلو ومن وَحيه الذي هو نظير كلامه في وجوب الاتباع، ومخالفة هذا: كمخالفة هذا. يوضحه الوجه الثالث:

أن الله ـ سبحانه ـ أمرنا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحَج البيت وصَوْم رمضان، وجاء البيانُ عن رسوله (ﷺ) بمقادير ذلك وصفاته وشروطه؛ فوجب على الأمة قبوله، إذ هو تفصيل لما أمر الله به، كما يجب علينا قبولُ الأصل المفصَّل.

وهكذا أمر الله ـ سبحانه ـ بطاعته وطاعة رسوله؛ فإذا أمر الرسول بأمرٍ كان تفصيلاً وبياناً للطاعة المأمور بها، وكان فرض قبوله كفرض قبول الأصل المفصل، ولا فرق بينهما. يوضحه الوجه الرابع:

أن البيان من النبي (ﷺ) أقسام:

أحدها: بيان نفس الوحي بظهوره على لسانه بعد أن كان خفيًّا.

الثاني: بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلى ذلك كما بين أن الظلم المذكور في قوله: ﴿**وَلَم يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُم بِظُلْمٍ**﴾ [الأنعام: ٨٢] هو الشرك، وأن الحساب اليسير هو العرض، وأن الخيط الأبيض والأسود هما بياض النهار وسواد الليل، وأن الذي رآه نزلة أخرى عند سِدْرَة المنتهي هو جبريل.

كما فسر قوله: ﴿**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ [الأنعام: ١٥٨] أنه طلوع الشمس من مَغْربها. وكما فسر قوله: ﴿**مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ**﴾[إبراهيم: ٢٤] بأنها النخلة.

وكما فسر قوله: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [إبراهيم: ٢٧] أن ذلك في القبر حين يسأل: مَن ربك؟ وما دينك؟

وكما فسر الرعد بأنه ملك من الملائكة موكل بالسحاب.

وكما فسر اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله: بأن ذلك باستحلال ما أحلوه لهم من الحرام، وتحريم ما حرموه من الحلال. وكما فسر القوة التي أمر الله أن نعدها لأعدائه بالرَّمي. وكما فسر قوله: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ [النساء: ١٢٣] بأنه ما يجزي به العبد في الدنيا من النصَب والهم والخوف واللأواء.

وكما فسر الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم. وكما فسر الدعاء في قوله: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠] بأنه العبادة. وكما فسر أدبار النجوم

بأنه الركعتان قبل الفجر وأدبار السجود بالركعتين بعد المغرب، ونظائر ذلك.

الثالث: بيانه بالفعل كما بيّن أوقات الصلاة للسائل بفعله.

الرابع: بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن فنزل القرآن ببيانها، كما سئل عن قذْف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره.

الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحي وإن لم يكن قرآناً، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعدما تَضَمَّخَ بالخلُوق، فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق.

السادس: بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمتعة وصيد المدينة ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك.

السابع: بيانه للأمة جواز الشيء بفعله هو له وعدم نهيهم عن التأسيّ به.

الثامن: بيانه جواز الشيء بإقراره لهم على فعله، وهو يشاهده أو يَعْلَمهم يفعلونه.

التاسع: بيانه إباحة الشيء عفواً بالسكوت عن تحريمه وإن لم يأذن فيه نطقاً.

العاشر: أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه أو إباحته، ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف، فيحيل الربُّ ـ سبحانه وتعالى ـ على رسوله في بيانها كقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] فالحل موقوف على شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته وأهلية المحل، فإذا جاءت السنة ببيان ذلك كله لم يكن الشيء منه زائداً على النص فيكون نسخاً له، وإن كان رفعاً لظاهر إطلاقه.

فهكذا كل حكم منه (ﷺ) زائد على القرآن، هذا سبيله سواء بسواء، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] ثم جاءت السنة بأن القاتل والكافر والرقيق لا يرث، ولم يكن نسخاً للقرآن مع أنه زائد عليه قطعاً، أعني في موجبات الميراث؛ فإن القرآن أوجَبَه بالولادة وحدها، فزادت السنة مع وصف الولادة اتحاد الدين وعدم الرق والقتل، فهلا قلتم: إن هذه زيادة على النص فيكون نسخًا والقرآن لا ينسخ بالسنة كما قلتم ذلك في كل موضع تركتم فيه الحديث لأنه زائد على القرآن. . .

(١)**قال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَّآ أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ**

(١) ٢٨٧ عدة الصابرين.

ولِلرَّسُولِ ﴾ [الحشر:٧] فنزهه ربه ـ سبحانه ـ عن الفقر الذي يسوغ أخذ الصدقة وعوضه عما نزهه عنه بأشرف المال وأجله وأفضله، وهو ما أخذه بظل رمحه وقائم سيفه من أعداء الله الذين كان مال الله بأيديهم ظلماً وعدواناً فإنه خلق المال ليستعان به على طاعته، وهو بأيدي الكفار والفجار ظلماً وعدواناً، فإذا رجع إلى أوليائه وأهل طاعته فاء إليهم ما خلق لهم. ولكن لم يكن غنى رسول الله (ﷺ) وملكه من جنس غنى بني الدنيا وأملاكهم، فإن غناهم بالشيء، وغناه (ﷺ) عن الشيء، وهو الغنى العالي.

وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم، وهو (ﷺ) إنما يتصرف في ملكه تصرف العبد الذي لا يتصرف إلا بأمر سيده. وقد اختلف الفقهاء في الفيء: هل كان ملكاً للنبي (ﷺ) على قولين، وهما روايتان عن أحمد.

والتحقيق أن ملكه له كان نوعاً آخر من الملك، وهو ملك يتصرف فيه بالأمر كما قال (ﷺ): «**والله لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً؛ إنما أنا قاسم، أضع حيث أمرت**»، وذلك من كمال مرتبة عبوديته، ولأجل ذلك لم يورث، فإنه عبد محض من كل وجه لربه ـ عز وجل ـ والعبد لا مال له فيورث عنه.

فجمع الله له ـ سبحانه ـ بين أعلى أنواع الغنى وأشرف أنواع الفقر، فكمل له مراتب الكمال، فليست إحدى الطائفتين بأحق به من الأخرى، فكان (ﷺ) في فقره أصبر خلق الله وأشكرهم، وكذلك في غناه. والله ـ تعالى ـ جعله قدوة للأغنياء والفقراء، وأي غنى أعظم من غنى من عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهباً. وخير بين أن يكون ملكاً نبيًّا وبين أن يكون عبداً نبيًّا، فاختار أن يكون عبداً نبيًّا، ومع هذا فجبيت إليه أموال جزيرة العرب واليمن فأنفقها كلها، ولم يستأثر منها بشيء، بل تحمل عيال المسلمين ودينهم فقال: «**من ترك مالا فلورثته ومن ترك كلا فإلي وعلي**».

فرفع الله ـ سبحانه ـ قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة، كما نزهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة، بل أغناه به عن سواه، وأغنى قلبه كل الغنى، ووسع عليه غاية السعة، فأنفق غاية الإنفاق، وأعطى أجل العطايا، ولا استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقاراً ولا أرضاً، ولا ترك شاة

ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمة ولا ديناراً ولا درهماً، فإذا احتج الغني الشاكر بحاله (ﷺ) لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعله، كما أن الفقير الصابر إذا احتج بحاله (ﷺ) لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يصبر صبره ويترك الدنيا اختياراً لا اضطراراً، فرسول الله (ﷺ) وفى كل مرتبة من مرتبتي الفقر والغنى حقها وعبوديتها.

وأيضاً فإن الله ـ سبحانه ـ أغنى به الفقراء، فما نالت أمته الغنى إلا به، وأغنى الناس من صار غيره به غنيًا. قال علي بن أبي رباح اللخمي: كنت عند مسلمة بن مخلد الأنصاري وهو يومئذ على مصر وعبدالله بن عمرو بن العاص جالس معه، فتمثل مسلمة ببيت من شعر أبي طالب فقال: لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير، فقال عبدالله بن عمرو: ويومئذ كان سيداً كريماً قد جاء بخير كثير. فقال مسلمة: ألم يقل الله ـ تعالى ـ: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ**﴾ [الضحى: ٦-٨] فقال عبدالله بن عمرو: أما اليتيم فقد كان يتيماً من أبويه. وأما العيلة فكلما كان بأيدي العرب إلى القلة يقول: إن العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشيء ومضى وتركها وحذر منها ومن فتنتها، قال وذلك معنى. قوله: ﴿**عائلاً فأغنى**﴾. وأما قوله: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾ [الضحى: ٥] فلم تكن الدنيا لترضيه وهو لا يرضاها كلها لأمته، وهو يحذر منها، وتعرض عليه فيأباها، وإنما هو ما يعطيه من الثواب وما يفتح عليه وعلى أمته من ملك كسرى وقيصر ودخول الناس في الإسلام وظهور الدين إذ كان ذلك محبته ورضاه صلوات الله وسلامه عليه.

وروى سفيان الثوري عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبدالله عن علي بن عبدالله بن عباس عن النبي (ﷺ) قال: «**رأيت ما هو مفتوح بعدي كفراً كفراً فسرني ذلك**» فنزلت ﴿**وَالضُّحَى * واللَّيْلِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾ [الضحى: ١-٥]. قال أعطني ألف قصر من لؤلؤ ترابها المسك في كل قصر ما ينبغي له. . .

(١) **قال الله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فلِلَّهِ ولِلرَّسُولِ**

(١) ٤٦٨ زاد المعاد جـ٣.

وَلِذِي القُرْبَىٰ واليَتَامَى والمَسَاكِينِ وابن السَّبيل كَيْ لَا يكون دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه ومَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا واتَّقُوا الله إنَّ الله شَدِيدُ العِقَاب * لِلْفُقَرَاءِ المُهاجرينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللهِ وَرِضْـوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَه أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * والَّذِينَ تَبَوَّءوا الدَّارَ والإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّون من هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله ﴿والَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ٧ - ١٠].

إلى آخر الآية - فأخبر - سبحانه -. أن ما أفاء على رسوله بجملته: لمن ذُكر في هؤلاء الآيات، ولم يخص منه خُمسه بالمذكورين، بل عمم وأطلق، واستوعب، ويصرف على المصارف الخاصة، وهم أهل الخمس.

ثم على المصارف العامة، وهم المهاجرون والأنصار، وأتباعهم إلى يوم الدين. فالذي عمل به هو وخلفاؤه الراشدون: هو المراد من هذه الآيات.

ولذلك قال عمر بن الخطاب فيما رواه أحمد وغيره عنه: «**ما أحدٌ أحقَّ بهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد. والله ما من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبد مملوك**». ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقَسْمنا من رسول الله (ﷺ) فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغَناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته. ووالله لئن بقيت لهم، ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال، وهو يرعى مكانه».

فهؤلاء المسلمون في آية الفيء: هم المسلمون في آية الخمس، ولم يدخل المهاجرون والأنصار وأتباعهم في آية الخمس، لأنهم المستحقون لجملة الفيء.

وأهل الخمس لهم استحقاقان: استحقاق خاص من الخمس، واستحقاق عام من جملة الفيء. فإنهم داخلون في النصيبين.

وكما أن قسمته من جملة الفيء بين من جعل له ليس قسمة الأملاك التي يشترك فيها المالكون، كقسمة المواريث والوصايا والأملاك المطلقة، بل بحسب الحاجة والنفع، والغناء في الإسلام، والبلاء فيه. فكذلك الخمس في أهله، فإن مخرجهما واحد في كتاب الله.

والتنصيص على الأصناف الخمسة: يفيد تحقيق إدخالهم، وأنهم لا يخرجون

من أهـل الفيء بحال، وأن الخمس لا يعدوهم إلى غيرهم كأصناف الزكاة لا تعـدوهم إلى غيرهم، كما أن الفيء العـام في آية الحشر للمـذكورين فيها، لا يتعداهم إلى غيرهم.

ولهذا أفتى أئمة الإسلام ـ كمالك وأحمد وغيرهما ـ أن الرافضة: لا حق لهم في الفيء. لأنهم ليسوا من المهاجرين ولا من الأنصار، ولا من ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفر لنا ولإخواننا الذين سَبقونا بالإيمان**﴾ [الحشر: ١٠] وهذا مذهب أهل المدينة، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية. وعليه يدل القرآن، وفعل رسول الله (ﷺ) وخلفائه الراشدين. . .

(١)**وههنا** دقيقة ينبغي التفطن لها، وهي أن إيثار المحبوب نوعان: إيثار معاوضة ومتاجرة، وإيثار حب وإرادة.

فالأول: يؤثر محبوبه على غيره طلباً لحظه منه، فهو يبذل ما يؤثره ليعاوضه بخير منه. والثاني يؤثره إجابة لداعي محبته، فإن المحبة الصادقة تدعوه دائماً إلى إيثار محبوبه، فإيثاره هو أجلّ حظوظه، فحظه في نفس الإيثار لا في العوض المطلوب بالإيثار، وهذا لا تفهمه إلا النفس اللطيفة الورعة المشرقة، وأما النفس الكثيفة فلا خبر عندها من هذا، وما هو بعشها فلتدرج.

والدين كله والمعاملة في الإيثار، فإنه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به على نفسك، حتى أن من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر، إذ لو لم يكن محتاجاً إليه لكان بذله سخاء وكرماً. وهذا إنما يصح في إيثار المخلوق، والله ـ سبحانه ـ يؤثر عبده على غيره من غير احتياج منه ـ سبحانه ـ فإنه الغني الحميد. وفي الدعاء المرفوع: «**اللهم زدنـا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وأرض عنا**». وقيل: من آثر الله على غيره آثره الله على غيره.

والفرق بين الإيثار والأثرة: أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك، والأثرة اختصـاصـك به على الغـير. وفي الحديث: «**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا**».

(١) ٢٩٨ طريق الهجرتين.

فإذا عرف هذا فالإيثار إما أن يتعلق بالخلق، وإما أن يتعلق بالخالق. وإن تعلق بالخلق، فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيع عليك وقتاً، ولا يفسد عليك حالاً، ولا يهضم لك ديناً، ولا يسد عليك طريقاً، ولا يمنع لك وارداً.

فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك فإيثار نفسك عليهم أولى، فإن الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحداً كائناً من كان. وهذا في غاية الصعوبة على السالك، والأول أسهل منه. فإن الإيثار المحمود الذي أثنى الله على فاعله: الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩] فأخبر أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقى الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات. فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها، فمن لمي كن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً. فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله. ومما يدل على هذا أنه ـ سبحانه ـ أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [آل عمران: ١٣٣].. وقال تعالى: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ [البقرة: ١٤٨] وقال تعالى: ﴿**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [المطففين: ٢٦]

وقال النبي (ﷺ): «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول لكانت قرعة**». والقرعة إنما تكون عند التزاحم والتنافس لا عند الإيثار، فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلاً للإيثار، بل محلا للتنافس والمسابقة.

ولهذا قال الفقهاء: لا يستحب الإيثار بالقربات. والسر فيه ـ والله أعلم ـ أن الإيثار إنما يكون بالشيء الذي يضيق عن الاشتراك فيه، فلا يسع المؤثِر والمؤثَر، بل لا يسع إلا أحدهما. وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلو اشترك الألوف المؤلفة في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم.

وإن قدِّر التزاحم في عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع ـ بحيث

إذا فعله واحد فات على غيره ـ فإن في العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله كما ثبت عن النبي (ﷺ) في غير حديث، فإذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله.

وأيضاً فإنه إذا فات عليه كان في غيره من الطاعات والقربات عوض منه: إما مساو له، وإما أزيد، وإما دونه. فمتى أتى بالعوض وعلم الله من نيته وعزيمته الصادقة إرادته لذلك العمل الفائت أعطاه الله ثوابه وثواب ما تعوض به عنه، فجمع له الأمرين. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأيضاً فإن المقصود رغبة العبد في التقرب إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه، والمنافسة في محابه. والإيثار بهذا التقرب يدل على رغبته عنه، وتركه له، وعدم المنافسة فيه. وهذا بخلاف ما يحتاج إليه العبد من طعامه وشرابه ولباسه إذا كان أخوه محتاجاً إليه فإذا اختص به أحدهما فات الآخر، فندب الله عبده إذا وجد من نفسه قوة وصبراً على الإيثار به ما لم يخرم عليه ديناً، أو يجلب له مفسدة، أو يقطع عليه طريقاً عزم على سلوكه إلى ربه، أو شوش عليه قلبه بحيث يجعله متعلقاً بالخلق، فمفسدة إيثار هذا أرجح من مصلحته.

فإذا ترجحت مصلحة الإيثار بحيث تتضمن إنقاذ نفسه من هلكة أو عطب أو شدة ضرورة ـ وليس للمؤثر نظيرها ـ تعين عليه الإيثار.

فإن كان به نظيرها لم يتعين عليه الإيثار، ولكن لو فعله لكان غاية الكرم والسخاء والإحسان، فإنه من آثر حياة غيره على حياته وضرورته على ضرورته فقد استولى على أمد الكرم والسخاء، وجاوز أقصاه، وضرب فيه بأوفر الحظ. وفي هذا الموضع مسائل فقهية ليس هذا موضع ذكرها، فإن قيل: ما الذي يسهل على النفس هذا الإيثار. فإن النفس مجبولة على الأثرة لا على الإيثار؟ قيل يسهله أمور:

أحدهما: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها، فإن من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الإيثار، وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته، كما جبلها على بغض المستأثر ومقته، لا تبديل لخلق الله.

والأخلاق ثلاثة: خلق (الإيثار) وهو خلق الفضل. وخلق (القسمة والتسوية) وهو خلق العدل. وخلق (الاستئثار والاستبداد) وهو خلق الظلم. فصاحب

الإيثار محبوب مطاع مهيب، وصاحب العدل لا سبيل للنفوس إلى أذاه والتسلط عليه، ولكنها لا تنقاد إليه انقيادها لمن يؤثرها، وصاحب الاستئثار النفوس إلى أذاه والتسلط عليه أسرع من السيل في حدوره. وهل أزال الممالك وقلعها إلا الاستئثار؟ فإن النفوس لا صبر لها عليه(١)

ولهذا أمر رسول الله (ﷺ) أصحابه بالسمع والطاعة لولاة الأمر وإن استأثروا عليهم، لما في طاعة المستأثر من المشقة أو لكره الاستئثار.

الثاني: النفرة من أخلاق اللئام، ومقت الشح وكراهته له.

الثالث: تعظيم الحقوق التي جعلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمسلمين بعضهم على بعض، فهو يرعاها حق رعايتها، ويخاف من تضييعها، ويعلم أنه إن لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حده، فإن ذلك عسر جدًّا، بل لابد من مجاوزته إلى الفضل، أو التقصير عنه إلى الظلم، فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول في الظلم يختار الإيثار بما لا ينقصه ولا يضره ويكتسب به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، مع ما يجلبه له الإيثار من البركة وفيضان الخير عليه، فيعود عليه من إيثاره أفضل مما بذله. ومن جرب هذا عرفه، ومن لم يجربه فليستقرِ أحوال العالم. والموفق من وفقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

(٢)**قال** الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩].

فالإيثار ضد الشح. فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح: حريص على ما ليس بيده. فإذا حصل بيده شيء شَحَّ عليه، وبخل بإخراجه. فالبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي (ﷺ): «**إياكم والشح! فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**». فالبخيل: من أجاب داعي الشح. والمؤثر: من أجاب داعي الجود.

---

(١) وفي ذلك يقول مصطفى صادق الرافعي:

إن ملكت النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء

يسكن الوحش للوثوب من الأسر فكيف الخلائق العقلاء

(٢) ٢٩١ مدارج جـ٢.

كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء. وهو أفضل من سخاء البذل. قال عبدالله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل. وهذا المنزل: هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

وسمي بمنزل «الإيثار» لأنه أعلى مراتبه، فإن المراتب ثلاث.

إحداها: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه. فهو منزلة «السخاء».

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويُبْقي له شيئاً، أو يبقي مثل ما أعطى، فهو «الجود».

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة «الإيثار» وعكسها «الأثَرة» وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه. وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله (ﷺ) للأنصار رضي الله عنهم: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**» والأنصار: هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾** [الحشر: ٩] فوصفهم بأعلى مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفاً.

وكان قيس بن سعد بن عُبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين. حتى إنه مرض مرة، فاستبطأ إخوانه في العيادة. فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل. فما أمسى حتى كُسرت عتبة بابه، لكثرة من عاده. وقالوا له يوماً: هل رأيت أسخي منك؟ قال: نعم! نزلنا بالبادية على امرأة. فحضر زوجها. فقالت: إنه نزل بك ضيفان. فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم؟ فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها. فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا اليسير. فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت. فبقينا عنده يومين أو ثلاثة، والسماء تمطر. وهو يفعل ذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه. ومضينا. فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا. أيها الركب اللئام. أعطيتموني ثمن قراي؟ ثم إنه لحقنا، وقال: لتأخذنَّه أو لأطاعننكم برمحي. فأخذناه وانصرف.

فتأمل سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخبير ـ سبحانه ـ استئثار الناس على الأنصار بالدنيا ـ وهم أهل الإيثار ـ ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على

نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس. فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك ـ مع كونك من أهل الإيثار ـ فاعلم أنه لخير يراد بك. والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

فصل

و«**الجود**» عشرة مراتب.

أحدها: الجود بالنفس. وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضَنَّ البخيل بها　　والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة. وهو ثاني مراتب الجود. فيحمل الجواد جودهُ على امتهان رياسته، والجود بها. والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإجمام نفسه. فيجود بها تعباً وكدًّا في مصلحة غيره. ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامِره، كما قيل:

مُتَيَّمٌ بالندى لو قاله سائله　　هب لي جميع كَرَى عينيك لم يَنَمِ

الرابعة: الجود بالعلم وبذله. وهو من أعلى مراتب الجود. والجود به أفضل من الجود بالمال. لأن العلم أشرف من المال.

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة. وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: أن لا ينفع به بخيلاً أبداً.

ومن الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحاً.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جواباً شافياً، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصراً عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ في ذلك أمراً عجيباً: كان إذا سئل عن مسألة حُكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح. وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته. فيكون فرحة بتلك المتعلقات، واللوازم: أعظم من فرحة بمسألته. وهذه فتاويه ـ رحمه الله ـ بين الناس. فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل. بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ النبي (ﷺ) عن المتوضىء بماء البحر؟ فقال: «**هو الطهور ماؤه، الحلُّ ميتته**» فأجابهم عن سؤالهم. وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته. كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: «أينقص الرطب إذا جَفَّ؟ قالوا: نعم. قال: فلا. إذن» ولم يكن يخفى عليه (ﷺ) نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم على علة الحكم. وهذا كثير جدًا في أجوبته (ﷺ). مثل قوله: «**إن بعتَ من أخيك ثمرة. فأصابتها جائحة فلا يَحِلُّ لك أن تأخذ من مال أخيك شيئاً. بِمَ يأخذ أحدكم مال أخيه؟ بغير حق؟**» وفي لفظ: «**أرأيت إن منع الله الثمرة: بم يأخذ أحدكم مال أخيه، بغير حق؟**» فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن. وهي مَنْعُ الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع.

وكان خصومه ـ يعني شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يعيبونه بذلك. ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر ـ مثلاً ـ فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان، والعراق، والهند. وأي حاجة بالسائل إلى ذلك؟

ولعمر الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب: الجهل والكبر. وهذا موضع المثل المشهور:

مثل من لم يصل إلى العنقود		لقبوه بحامض. وهو خل

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه. كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه. وذلك زكاة الجاه المطالبُ بها العبد. كما أن التعليم وبَذْلَ العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه. كما قال (ﷺ): «**يُصْبِح على كل سُلاَمَى من أحدكم صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين: صدقة. ويعين الرجل في دابته، فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه: صدقة. والكلمة الطيبة: صدقة، وبكل خُطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة. ويُميط الأذى عن الطريق: صدقة**» متفق عليه.

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضَمْضَم من الصحابة ـ رضي الله

عنهم ـ. كان إذا أصبح قال: «اللهم إنه لا مال لي، أتصدق به على الناس. وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شتمني، أو قذفني: فهو في حلٍّ. فقال النبي (ﷺ): «من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم؟». وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء. وهذه مرتبة شريفة من مراتبه. وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعز له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها. ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود. فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة. وهذا جود الفتوة. قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ به فَهُوَ كَفَّارَةٌ له**﴾ [المائدة: ٤٥] وفي هذا الجود. قال ـ تعالى ـ: ﴿**وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينِ**﴾ [الشورى: ٤٠] فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل، وأذن فيه. ومقام الفضل، وندب إليه. ومقام الظلم، وحرمه.

التاسعة: الجود بالخُلق والبشر والبسطة. وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو. وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وهو أثقل ما يوضع في الميزان. قال النبي (ﷺ): «**لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه**» وفي هذا الجود من المنافع والمسار، وأنواع المصالح ما فيه. والعبد لا يمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه. وهذا الذي قال عبدالله بن المبارك «**إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل**». فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس، فَجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم. وما في أيديهم، تُفَضّل عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال. والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك. والله المستعان.

فصل

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ:

«**الإيثار:** تخصيص واختيار. والأثرة: تحْسُن طوعاً. وتصح كرهاً».

فرق الشيخ بين «الإيثار» و«الأثرة» وجعل «الإيثار» اختياراً و«الأثرة» منقسمة إلى اختيارية، واضطرارية. وبالفرق بينهما يعلم معنى كلامه. فإن «الإيثار» هو البذل، وتخصيصك لمن تؤثره على نفسك، وهذا لا يكون إلا اختياراً.

وأما «الأثرة» فهي استئثار صاحب الشيء به عليك، وحَوْزه لنفسه دونك. فهذه لا يحمد عليها المستأثر عليه. إلا إذا كانت طوعاً. مثل أن يقدر على منازعته ومجاذبته، فلا يفعل. ويدعه وأثرته طوعاً. فهذا حسن، وإن لم يقدر على ذلك كانت أثرة كرهٍ. ويعني بالصحة: الوجود، أي توجد كرهاً. ولكن إنما تحسن إذا كانت طوعاً من المستأثر عليه.

فحقيقة «الإيثار» بذل صاحبه وإعطاؤه. و«الأثرة» استبداله هو بالمؤثر به. فيتركه وما استبدل به: إما طوعاً، وإما كرهاً. فكأنك آثرته باستئثاره حيث خليت بينه وبينه، ولم تنازعه. قال عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ: «بايعنا رسول الله (ﷺ) على السمع والطاعة، في عُسْرِنا، ويُسْرِنا، ومنشَطِنا ومكرهنا، وأثَرةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله» فالسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره: لهم معه ومع الأئمة بعده، والأثرة: عدم منازعة الأمر مع الأئمة بعده خاصة، فإنه (ﷺ) لم يستأثر عليهم.

فصل(١)

...**وفيها:** (٢) كمال محبة الصديق له، وقصده التقرب إليه، والتحبب بكل ما يمكنه، ولهذا ناشد المغيرة أن يَدعه هو يُبشر النبي (ﷺ) بقدوم وفد الطائف، ليكون هو الذي سَرَّه وأفرحه بذلك. وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أو يُؤثره بقربة من القُرب، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر أخاه.

وقول من قال من الفقهاء: لا يجوز الإيثار بالقرب. لا يصح، وقد آثرت

(١) ٤٦٨ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أي قصة ثقيف حيث ساقها الشيخ ـ رحمه الله ـ كاملة مفصلة قبل هذا (ج).

عائشة عمر بن الخطاب بدفنه في بيتها بجوار النبي (ﷺ). وسألها عمر ذلك، فلم تكره له السؤال، ولا لها البذل. وعلى هذا: فإذا سأل الرجل غيره: أن يؤثره بمقامه في الصف الأول: لم يكره له السؤال، ولا لذلك البذل ونظائره.

ومن تأمل سيرة الصحابة وجدهم غير كارهين لذلك، ولا ممتنعين منه. وهل هذا إلا كرمٌ وسخاء، وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها، وتفريح لأخيه المسلم، وتعظيم لقدره، وإجابة له إلى ما سأله، وترغيب له في الخير. وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحاً على ثواب تلك القربة، فيكون المؤثر بها ممن تاجر، فبذل قربة وأخذ أضعافها؟

وعلى هذا: فلا يمتنع أن يؤثر صاحب الماء بمائة من يتوضأ به ويتيمم هو، إذا كان لابد من تيمم أحدهما، فآثره أخاه وحَازَ فضيلة الإيثار، وفضيلة الطُّهر بالتراب. ولا يمنع هذا كتاب ولا سُنَّة، ولا مكارم أخلاق.

وعلى هذا: فإذا اشتد العطش بجماعة عاينوا التلف، ومع بعضهم ماء، فآثر به على نفسه واستسلم للموت. كان ذلك جائزاً، ولم يقُلْ: إنه قاتل لنفسه، ولا أنه فعل محرماً، بل هذا غاية الجود والسخاء، كما قال تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر: ٩].

وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام، وعُدَّ ذلك من مناقبهم وفضائلهم. وهل إهداء القُرب المجمع عليها والمتنازع فيها إلى الميت إلا إيثار بثوابها؟ وهو عين الإيثار بالقرب، فأي فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحرز ثوابها، وبين أن يعمل ثم يؤثر بثوابها؟ وبالله التوفيق.

(١)**المثال** الثالث عشر: ردَّ الرافضة النصوص الصحيحة الصريحة المحكمة المعلومة عند خاص الأمة وعامتها بالضرورة؛ في مَدْح الصحابة، والثناء عليهم، ورضاء الله عنهم، ومغفرته لهم، وتَجاوُزِه عن سيئاتهم، ووجوب محبة الأمة، واتباعهم لهم، واستغفارهم لهم، واقتدائهم بهم بالمتشابه من قوله: «**لا تَرْجعُوا بعدي كفاراً يَضْرِب بعضكم رقاب بعض**» ونحوه.

---

(١) ٢٨٥ أعلام جـ٢.

كما ردوا المحكم الصريح من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم، كفعل إخوانهم من الخَوَارج حين ردُّوا النصوص الصحيحة المحكمة في موالاة المؤمنين ومحبتهم وإن ارتكبوا بعض الذنوب التي تقع مكفرةً بالتوبة النَّصُوح، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين لهم في حياتهم وبعد موتهم، وبالامتحان في البرزخ وفي موقف القيامة، وبشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة، وبصدق التوحيد، وبرحمة أرحم الراحمين.

فهذه عشرة أسباب تمحق أثر الذنوب، فإن عجزت هذه الأسباب عنها فلابد من دخول النار، ثم يخرجون منها؛ فتركوا ذلك كله بالمتشابه من نصوص الوعيد، وردوا المحكم من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم التي يحتمل أن يكونوا قصدوا بها طاعة الله، فاجتهدوا، فأداهم اجتهادهم إلى ذلك، فحصلوا فيه على الأجر المفرد، وكان حظ أعدائهم منه تكفيرهم واستحلال دمائهم وأموالهم، وإن لم يكونوا قصدوا ذلك كان غايتهم أن يكونوا قد أذنبوا، ولهم من الحسنات والتوبة وغيرها ما يرفع موجب الذنب فاشتركوا هم والرافضة في رد المحكم من النصوص وأفعال المؤمنين بالمتشابه منها فكفروهم وخرجوا عليهم بالسيف يقتلون أهل الإيمان ويدعون أهل الأوثان. ففساد الدنيا والدين من تقديم المتشابه على المحكم، وتقديم الرأي على الشرع، والهوى على الهدى، وبالله التوفيق.

(1)**وكذلك** فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها، ثم دَلَّ أهلها عليه وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فرَّ عنه وتركه، وفيه أنزل الله ـ سبحانه ـ: ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الحشر:١٦] وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته؛ فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: (**إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ**﴾ [إبراهيم:٢٢] فأوردهم شر الموارد، وتبرأ منهم كل البراءة.

---

(١) ١٠٩ إغاثة جـ١.

وتكلم النـاس في قول عدو الله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ﴾ [الحشر:١٦] فقال قتادة وابن إسحـاق «صدق عدو الله في قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ﴾ وكذب في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافَ اللهَ﴾ [الأنفال:٤٨] والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه».

وقـالت طائفـة: «إنـما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقابه في الآخرة»، وهذا أصح، وهذا الخوف لا يستلزم إيماناً ولا نجاة. . .

فصـــل(١)

ومن عقوباتها(٢) أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهنالك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللهَ وَلْتَنـظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَـدٍ واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنساهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾

فأمر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه.

وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه أي أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلـك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره، فترى العاصي مهملاً لمصـالح نفسه مضيعاً لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطـاً، قد انفـرطت عليه مصـالح دنياه وآخرته، وقد فرط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة. إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف.

أحـلام نوم أو كـظل زائل　　إن اللبيب بمثلها لايخدع

وأعـظم العقـوبـات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبها من الله وبيعه ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيع من لا غنى له عنه ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض

من كل شيء إذا ضيعته عوض　　وليس في الله إن ضيعت من عوض

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يعوض عن كل شيء سواه ولا يعوض منه شيء، ويغني

---

(١) ٩٢ الجواب الكافي.　　(٢) أي المعاصي (ج).

عن كل شيء، ولا يغني عنه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، ويجير من كل شيء، ولا يجير منه شيء، وكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين؟ وكيف ينسى ذكره، ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم ظلم؟ فما ظلم العبد ربه، ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه، ولكن هو الذي ظلم نفسه.

(١)... **والتحقيق**: أن التوبة بين محاسبتين. محاسبة قبلها، تقتضي وجوبها. ومحاسبة بعدها، تقتضي حفظها. فالتوبة محفوفة بمحاسبتين.

وقد دل على المحاسبة قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾ [الحشر: ١٨] فأمر ـ سبحانه ـ العبد أن ينظر ما قدم لغد. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ماقدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟

والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه. من كمال الاستعداد ليوم المعاد. وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله! وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتـزينوا للعرض الأكبر» ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾ [الحاقة: ١٨] أو قال: «على من لا تخفى عليه أعمالكم».

(٢)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾ [الحشر: ١٩] فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً، وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده، فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه لبقائها على هداها التام الذي أعطاها إياه خالقها.

وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها، فنسى ربه، فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به وتزكوبه وتسعد به في معاشها ومعادها. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**﴾ [الكهف: ٢٨] فغفل عن ذكر ربه، فانفرط عليه أمره وقلبه، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مشتت القلب مضيعه، مفرط الأمر حيران لا يهتدي سبيلاً.

(٣)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾ [الحشر: ١٩]

---

(١) ١٧٠ مدارج جـ١. (٢) ٨٦ مفتاح جـ١. (٣) ٢٥٨ الروح.

فهؤلاء نسوا نفوسهم لا من جميع الوجوه، بل من الوجه الذي به مصالحها وكمالها وسعادتها، وإن لم ينسوها من الوجه الذي منه شهوتها وحظها وإرادتها، فأنساهم مصالح نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها، وعيوبها ونقائصها أن يزيلوها ويجتنبوها، وكمالها الذي خلقت له أن يعرفوه ويطلبوه، فهم جاهلون بحقائق أنفسهم من هذه الوجوه وإن كانوا عالمين بها من وجوه أخر.

(١)**وتأمل** قوله ـ تعالى ـ: ﴿**نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ**﴾ [التوبة: ٦٧] وقوله: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾ [الحشر: ١٩] كيف عدل فيهم كل العدل بأن نسيهم كما نسوه، وأنساهم حظوظ أنفسهم ونعيمها وكمالها وأسباب لذتها وفرحها عقوبة لهم على نسيان المحسن إليهم بصنوف النعم المتحبب إليهم بآلائه فقابلوا ذلك بنسيان ذكره والإعراض عن شكره فعدل فيهم بأن أنساهم مصالح أنفسهم فعطلوها، وليس بعد تعطيل مصلحة النفس إلا الوقوع فيما تفسد به وتتألم بفوته غاية الألم.

(٢)**قوله:** ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾ [الحشر: ١٩] عاقبهم على نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم فنسوا مصالحها أن يفعلوها وعيوبها أن يصلحوها وحظوظها أن يتناولوها.

ومن أعظم مصالحها وأنفع حظوظها؛ ذكرها لربها وفاطرها، وهي لا نعيم لها ولا سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره، وحبه، وطاعته، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فأنساهم ذلك لما نسوه، وأحدث لهم هذا النسيان نسيانًا آخر.

وهذا ضد حال الذين ذكروه ولم ينسوه، فذكرهم مصالح نفوسهم ففعلوها، وأوقفهم على عيوبها فأصلحوها، وعرفهم حظوظها العالية فبادروا إليها، فجازى أولئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمان ومحبته وذكره وشكره فلما خلت قلوبهم من ذلك لم يجدوا عن ضده محيصًا. وهذا يبين لك كمال عدله ـ سبحانه ـ في تقدير الكفر والذنوب عليها، وإذا كان قضاؤه عليها بالكفر والذنوب عدلاً منه عليها فقضاؤه عليها بالعقوبة أعدل وأعدل، فهو ـ سبحانه ـ ماض في عبده حكمه عدل فيه قضاؤه.

وله فيها قضاآن: قضاء السبب، وقضاء المسبب وكلاهما عدل فيه، فإنه لما ترك ذكره، وترك فعل مايحبه، عاقبه بنسيان نفسه، فأحدث له هذا النسيان ارتكاب

(١) ٣٤٦ مختصر الصواعق جـ١. (٢) ١٣٥ شفاء.

مايبغضه ويسخطه بقضائه الذي هو عدل، فترتب له على هذا الفعل والترك عقوبات وآلام لم يكن له منها بدّ، بل هي مترتبة عليه ترتب المسببات على أسبابها، فهو عدل محض من الرب ـ تعالى ـ فعدل في العبد أولاً وآخرًا، فهو محسن في عدله محبوب عليه، محمود فيه يحمده من عدل فيه طوعًا وكرهًا.

قال الحسن: لقد دخلوا النار وأن حمده لفي قلوبهم ماوجدوا عليه سبيلاً.

(١)**قال** ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**الجبار المتكبر**﴾: هو العظيم، وجبروت الله عظمته، والجبار من أسماء الملوك والجبر الملك والجبابرة الملوك. قال الشاعر:

* وأنعم صباحًا أيها الجبر

أي: أيها الملك. وقال السدي: هو الذي يجبر الناس، ويقهرهم على مايريد.

وعلى هذا؛ فالجبار معناه: القهار. وقال محمد بن كعب: إنما سمي الجبار لأنه جبر الخلق على ما أراد، والخلق أدق شأنًا من أن يعصوا ربهم طرفة عين إلا بمشيئته: قال الزجاج: الجبار الذي جبر الخلق على ماأراد. وقال ابن الأنباري: الجبار في صفة الرب ـ سبحانه ـ الذي لا ينال، ومنه قولهم: نخلة جبارة، إذا فاتت يد المتناول.

فالجبار في صفة الرب ـ سبحانه ـ ترجع إلى ثلاثة معان: الملك، والقهر، والعلو. فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سميت جبارة.

ولهذا جعل ـ سبحانه ـ اسمه الجبار مقرونًا بالعزيز والمتكبر، وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة تضمن الاسمين الآخرين، وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة وهي: الخالق، البارىء، المصور؛ فالجبار المتكبر يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم العزيز، كما أن البارىء المصور تفصيل لمعنى اسم الخالق.

فالجبار من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك، ولهذا كان من أسمائه الحسنى. وأما المخلوق فاتصافه بالجبار ذم له ونقص، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار**﴾.

وقال ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ: ﴿**وما أنت عليهم بجبار**﴾ أي: مسلط تقهرهم وتكرههم على الإيمان. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس**».

---

(١) ١٢١ شفاء.

سورة الممتحنة

ترتيبها ٦٠ — آياتها ١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**الكافر** مفتونٌ بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مفتون به، ولهذا سأل المؤمنون ربَّهم أن لا يجعلهم فتنة للذين كفروا، كما قال الحنفاء: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. [الممتحنة: ٤، ٥]. وقال أصحاب موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. [يونس: ٨٥].

قال مجاهد: المعنى، لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذابٍ من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحقِّ ما أصابهم هذا. وقال الزجاج: معناه: لا تُظهرهم علينا، فيظنُّوا أنهم عل حَقٍّ، فيُفتنوا بذلك. وقال الفرّاء: لا تُظهر علينا الكفارَ، فيرَوْا أنهم على حق وأنّا على باطل. وقال مقاتل: لا تقتِّرْ علينا الرِّزق وتبسُطه عليهم، فيكون ذلك فتنةً لهم.

وقد أخبر الله ـ سبحانه ـ أنه قد فتن كلاًّ من الفريقين بالفريق الآخر، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾. فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾. [الأنعام: ٥٢].

(٢)**قوله** تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. [الممتحنة، ٨، ٩].

فإن الله ـ سبحانه ـ لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبيّن الله ـ سبحانه ـ أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو من الإحسان الذي يحبه ويرضاه، وكتبه على كل شيء؛ وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة، ولا ريب أن جعل الكفر بالله وتكذيب رسوله موجبًا وشرطاً في الاستحقاق من أعظم موالاة الكفار المنهي عنها، فلا يصح

(١) ١٦٣ إغاثة جـ٢. (٢) ٣٠١ أحكام أهل الذمة جـ١.

من المسلم، ولا يجوز للحاكم تنفيذه من أوقاف الكفار؛ فأما إذا وقفوا ذلك فيما بينهم، ولم يتحاكموا إلينا ولا استفتونا[١] عن حكمه لم يتعرض لهم فيه، وحكمه حكم عقودهم وأنكحتهم الفاسدة.

وكذلك وقف المسلم عليهم فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم أو على أقاربه وبني فلان ونحوه، ولا يكون الكفر موجبا وشرطا في الاستحقاق ولا مانعا منه. . .

... **وأما** الوقف على كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرهم التي يقيمون فيها شعار الكفر فلا يصح من كافر ولا مسلم. . .

[٢]**وذكر** ابن أبي شيبة عن معتمر بن سليمان عن معمر عن الزهري «إن أسلمت ولم يسلم زوجها، فهما على نكاحهما، إلا أن يفرق بينهما سلطان» ولا يعرف اعتبار العدة في شيء من الأحاديث، ولا كان النبي، ﷺ، يسأل المرأة: هل انقضت عدتها أم لا؟.

ولا ريب أن الإسلام لو كان بمجرده فرقة لم يكن فرقة رجعية بل بائنة. فلا أثر للعدة في بقاء النكاح. وإنما أثرها في منع نكاحها للغير. فلو كان الإسلام قد نجز الفرقة بينهما لم يكن أحق بها في العدة.

ولكن الذي دل عليه حكمه ﷺ: أن النكاح موقوف. فإن أسلم قبل انقضاء عدتها فهي زوجته، وإن انقضت عدتها فلها أن تنكح من شاءت، وإن انقضت عدتها فلها أن تنكح من شاءت. وإن أحبت انتظرته، فإن أسلم كانت زوجته من غير حاجة إلى تجديد نكاح. ولا نعلم أحدًا جدد للإسلام نكاحه ألبتة، بل كان الواقع أحد أمرين: إما افتراقهما ونكاحها غيره، وإما بقاؤهما عليه، وإن تأخر إسلامها أو إسلامه. وأما تنجيز الفرقة، أو مراعاة العدة: فلا نعلم أن رسول الله ﷺ، قضى بواحدة منهما، مع كثرة من أسلم في عهده من الرجال وأزواجهن، وقرب إسلام أحد الزوجين من الآخر، وبعده منه.

ولولا إقراره ﷺ، الزوجين على نكاحهما ـ وإن تأخر إسلام أحدهما عن الآخر بعد صلح الحديبية وزمن الفتح ـ لقلنا بتعجيل الفرقة بالإسلام، من غير اعتبار

(١) في الأصل: استغنونا.
(٢) ٢٨ زاد المعاد جـ٤.

عدة، لقوله تعالى ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. [الممتحنة: ١٠]. وقوله: ﴿ولا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ﴾. [الممتحنة: ١٠]. وأن الإسلام سبب الفرقة. وكل ماكان سببًا للفرقة تعقبه الفرقة، كالرضاع والخلع والطلاق. وهذا اختيار الخلال وأبي بكر صاحبه، وابن المنذر، وابن حزم. وهو مذهب الحسن وطاوس وعكرمة وقتادة والحكم، قال ابن حزم: وهو قول عمر بن الخطاب، وجابر بن عبدالله، وابن عباس. وبه قال حماد بن زيد، والحكم بن عتيبة، وسعيد بن جبير، وعمر بن عبدالعزيز، وعدي بن عدي الكندي، والشعبي وغيرهم. قلت: وهو أحد الروايتين عن أحمد.

ولكن الذي أنزل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ﴾. [الممتحنة: ١٠]. ﴿لا هُنَّ حِلٌّ لهُمْ ولا هُمْ يَحِلُّون لَهُنَّ﴾. [الممتحنة: ١٠]. لم يحكم بتعجيل الفرقة. فروى مالك في موطئه عن ابن شهاب قال «كان بين إسلام صفوان بن أمية وبين إسلام امرأته ـ فاختة ـ بنت الوليد بن المغيرة نحو من شهر. أسلمت يوم الفتح. وبقي صفوان حتى شهد حنينا والطائف، وهو كافر، ثم أسلم. ولم يفرق النبي ﷺ، بينهما. واستقرت عنده امرأته بذلك النكاح» قال ابن عبدالبر: وشهرة هذا الحديث أقوى من إسناده.

وقال: ابن شهاب «أسلمت أم حكيم يوم الفتح، وهرب زوجها عكرمة، حتى أتى اليمن. فدعته إلى الإسلام فأسلم وقدم فبايع النبي ﷺ، فبقيا على نكاحهما». ومن المعلوم يقينا: أن أبا سفيان بن حرب خرج فأسلم عام الفتح قبل دخول النبي ﷺ، مكة ولم تسلم هند امرأته حتى فتح رسول الله مكة. فبقيا على نكاحهما.

وأسلم حكيم بن حزام قبل امرأته. وخرج أبوسفيان بن الحارث، وعبدالله بن أبي أمية عام الفتح. فلقيا النبي ﷺ، بالأبواء، فأسلما قبل منكوحتيهما فبقيا على نكاحهما ولم يعلم أن رسول الله، ﷺ، فرق بين أحد ممن أسلم وبين امرأته.

وجواب من أجاب بتجديد نكاح من أسلم: في غاية البطلان. ومن القول على رسول الله ﷺ، بلا علم. واتفاق الزوجين في التلفظ بكلمة الإسلام معاً في لحظة واحدة: معلوم الانتفاء.

ويلي هذا القول: مذهب من يقف الفرقة على انقضاء العدة، مع مافيه. إذ

فيه آثار ـ وإن كانت منقطعة ـ ولو صحت لم يجز القول بغيرها. قال ابن شُبْرُمة «كان الناس على عهد رسول الله ﷺ يُسلم الرجل قبل المرأة، والمرأة قبل الرجل، فأيُّهما أسلم قبل انقضاء عدة المرأة. فهي امرأته. وإن أسلم بعد العدة: فلا نكاح بينهما» وقد تقدم قول الترمذي في أول الفصل. وماحكاه ابن حزم عن عمر، فما أدرى من أين حكاه؟ والمعروف عنه: خلافه. فإنه ثبت عنه من طريق حماد بن سلمة عن أيوب وقتادة كلاهما عن ابن سيرين عن عبدالله بن يزيد الخطمي «أن نصرانيًا أسلمت امرأته، فخيرها عمر بن الخطاب، إن شاءت فارقته، وإن شاءت أقامت عليه . . .

(١)**قال** المعجلون للفرقة: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾. [الممتحنة: ١٠].

قالوا: فهذا حكم الله الذي لا يحل لأحد أن يخرج عنه، وقد حرَّم فيه رجوع المؤمنة إلى الكافر، وصرح ـ سبحانه ـ بإباحة نكاحها؛ ولو كان في عصمة الزوج حتى يسلم في العدة أو بعدها لم يجز نكاحها، لا سيما والمهاجرة تستبرأ بحيضة. وهذا صريح في انقطاع العصمة بالهجرة.

وقوله: ﴿**وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ**﴾ [الممتحنة: ١٠] صريح في أن المسلم مأمور ألا يمسك عصمة امرأته إذا لم تسلم، فصح أن ساعة وقوع الإسلام منه تنقطع عصمة الكافرة منه. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**﴾ [الممتحنة: ١٠] صريح في تحريم أحدهما على الآخر في كل وقت، فهذه أربعة أدلة من الآية؛ ودعونا من تلك المنقطعات والمراسيل والآثار المختلفة، ففي كتاب الله الشفاء والعصمة.

قال الآخرون: مرحبًا وأهلاً وسهلاً بكتاب الله، وسمعًا وطاعة لقول ربنا،

(١) ٣٣٨ أحكام أهل الذمة جـ١.

ولكن تأولتم الآية على غير تأويلها، ووضعتموها على غير مواضعها، وليس فيها مايقتضي تعجيل الفرقة إذا سبق أحدهماالآخر بإلغائها[١]، ولا فهم هذا منها أحد قط من أصحاب رسول الله ﷺ ولا من التابعين، ولا يدل على ما ذهبتم إليه أصلاً. . .

[٢]**قلت:** وكان شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ رحمه الله ورضي عنه ـ يضعف هذا القول جدًّا، ويذهب إلى خروج البضع من ملكه متقوم ويحتج عليه بالقرآن.

قال: لأن الله ـ تعالى ـ أمر المسلمين أن يردوا إلى من ذهبت امرأته إلى الكفار مهره إذا أخذوا من الكفار مالا بغنيمة أو غيرها فقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِن فَاتَكُم شَيءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فآتوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا**﴾ [الممتحنة: ١١] ومعنى عاقبتم: أصبتم منهم عقبى، وهي الغنيمة. هذا قول المفسرين، والمقصود أنه قال: ﴿**فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا**﴾ وهو المهر.

وقال ـ تعالى ـ في هذه القصة ﴿**وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ**﴾. [الممتحنة: ١٠]. فأمر المسلمين أن يسألوا مهور نسائهم ويسأل الكفار مهور نسائهم اللاتي هاجرن وأسلمن، ولولا أن خروج البضع متقوم لم يكن لأحد الفريقين عى الآخر مهرا.

واختلف أهل العلم في رد مهر من أسلم من النساء إلى أزواجهن في هذه القصة هل كان واجبًا أو مندوبًا على قولين أصلهما أن الصلح هل كان قد وقع على رد النساء أم لا.؟

والصحيح أن الصلح كان عامًّا على رد من جاء مسلماً مطلقاً ولم يكن فيه تخصيص بل وقع بصيغة من المتناولة للرجال والنساء ثم أبطل الله منه رد النساء وعوض منه رد مهورهن وهذه شبهة من قال إن حكم هذه الآية منسوخ ولم ينسخ منه إلا رد النساء خاصة وكان رد المهور مأموراً به.

والظاهر أنه كان واجبًا لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿**واسْأَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وليسْأَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمّ**﴾. [الممتحنة: ١٠]. فثبت أن رد المهور حق لمن يسأله، فيجب رده إليه. قال الزهري: ولولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ، وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يرد الصداق.

وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد، فلما نزلت هذه الآية أقر

(١) في الأصل: بألف أوها.	(٢) ١٦٦ بدائع جـ٣.

المسلمون بحكم الله ـ تعالى ـ وأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله ـ تعالى ـ فيما أمر من رد نفقات المسلمين إليهم فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُم فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ [الممتحنة: ١١].

فهذا ظاهر القرآن يدل على أن خروج البضع من ملك الزوج متقوم.

قلت: ويدل عليه أن الشارع كما جعله متقوماً في دخوله، فكذلك في خروجه، لأنه لم يدخله إلى ملك الزوج إلا بقيمة. وحكم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في المفقود بما حكموا به من رد صداق امرأته إليه بعد دخول الثاني بها؛ دليل على أنه متقوم في خروجه وهذا ثابت عن خمسة من الصحابة منهم: عمر وعلي.

قال أحمد: أي شيء يذهب من خالفهم؟ فهذا القرآن والسنة وأقوال الخلفاء الراشدين دالة على تقويمه، ولو لم يكن له قيمة لما صح بذل نفائس الأموال فيه، بل قيمته عند الناس من أغلى القيم، ورغبتهم فيه من أقوى الرغبات، وخروجه عن ملك الرجل من أعظم المغارم حتى يعده غرما أعظم من غرم المال. قلت لشيخنا: لو كان خروجه من ملكه متقوما عليه لكانت المرأة إذا وطئت بشبهة يكون المهر للزوج دونها، فحيث كان المهر لها دل على أن الزوج لم يملك البضع، وإنما يملك الاستمتاع، فإذا خرج البضع عنه لم يخرج عنه شيء كان مالكه.

فقال لي: الزوج إنما ملك البضع ليستمتع به، ولم يملكه ليعارض عليه، فإذا حصل لها بوطء الشبهة عوض كان لها لأن عقد النكاح لم يقتض ملك الزوج المعاوضة عن بضع امرأته فصار مايحصل لها بجناية الواطيء بمثابة مايحصل لها بغيره من أروش الجنايات.

قلت له: فما تقول في خلع المريض بدون مهر المثل؟ فقال: هو يملك إخراج البضع مجانًا بالطلاق، فإذا أخذ منها شيئًا فقد زاد الورثة خيراً. قال: ونحن إنما منعناه من المحاباة فيما ينتقل إلى الورثة، لأنه يفوته عليهم، وبضع الزوجة لا حق للورثة فيه البتة، ولا ينتقل إليهم، فإذا أخرجه بدون مهر المثل لم يفوتهم حقًّا ينتقل إليهم، انتهى.

قلت: وأما منع الأب من خلع ابنته بشيء من مالها فليست مسألة وفاق، **بل فيها قولان مشهوران**، ونحن إذا قلنا: إن الذي بيده عقدة النكاح هو الأب، وأن

له أن يعفو عن صداق ابنته قبل الدخول، وهو الصحيح لبضعة عشر دليلا قد ذكرتها في موضع آخر، فكذلك خلعها بشيء من مالها، بل هو أولى لأنه إذا ملك إسقاط مالها مجانًا، فلأن يملك إسقاطه ليخلصها من رق الزوج وأسره ويزوجها بمن هو خير لها منه أولى وأحرى. وهذه رواية عن أحمد ذكرها أبو الفرج في مبهجه وغيره، واختارها شيخنا. وأما قولكم: إنه يخرج من ملكه قهرًا بغير عوض فيما إذا طلق عليه الحاكم لإعسار أو عنت أو غيرها.

فجوابه: أن الشارع إنما ملكه البضع بالمعروف، وإنما ملكه بحقه، فإذا لم يستمتع به بالمعروف الذي هو حقه أخرجه الشارع عنه، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾. [النساء: ١٩]. وقال: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾. [البقرة: ٢٢٨]. وقال: ﴿**فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أو تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾. [البقرة: ٢٢٩]. فأوجب الله على الزوج أحد الأمرين: إما أن يمسك بمعروف، وإما أن يسرح بإحسان، فإذا لم يمسك بمعروف ولم يسرح بإحسان سرح الحاكم عليه قهرًا.

قلت لشيخنا: فلو قتلت الزوجة لم يجب للزوج المهر على قاتلها مع كونه قد أخرج البضع عن ملكه وفوته إياه فلو كان خروجه متقوماً لوجب له على القاتل المهر.

فقال: النكاح معقود على مدة الحياة، فإذا قتلت زال وقت النكاح وانقضى أمده، فلا يجب للزوج شيء بعد ذاك، كما لو ماتت. قلت له: فلو أفسد مفسد نكاحها بعد الدخول لأستقر المهر على الزوج، ولم يرجع على المفسد، فضعف هذا القول، وقال: عندي إنه يرجع به: وهو المنصوص عن أحمد، وهو مبني على هذا الأصل، فإذا ثبت أن خروج البضع من ملكه متقوم فله قيمته على من أخرجه من ملكه.

(١)**قال:** ذكر بعضهم أنه يجوز أن يقول: أنا مؤمن، ولا يقول أنا ولي. وفرق بينهما، فإن الله ـ تعالى ـ أمر من ظهر منه الإيمان أن يسمى مؤمناً قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ**﴾. [الممتحنة: ١٠]. الآية ولم يأمر من ظهر منه ذلك أن يسمى وليًا، ولا فرق بينهما، فإن الله قد وصف الولي بصفة المؤمن فقال: ﴿**وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَه إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ**﴾. [الأنفال: ٣٤]. وهذه صفة المؤمن، ثم لا يجوز أن يصف نفسه بأنه ولي، وكذلك المؤمن، ولأنه إنما يكون وليًا بتوليه لطاعات الله

(١) ١٠٦ بدائع جـ٣.

وقيامه بها كالمؤمن.

قلت: هذه حجة من منع قول القائل: أنا مؤمن بدون استثناء، كما لا يقول: أنا ولي. ومن فرق بينهما أجاب بأنه لا يمكنه العلم بأنه ولي، لأن الولاية هي القرب من الله ـ عز وجل ـ فولي الله هو القريب منه المختص به.

والولاء هو في اللغة القرب ولهذا علامات وأدلة وله أسباب وشروط وموجبات، وله موانع وآفات وقواطع، فلا يعلم العبد هل هو ولي الله أم لا.

وأما الإيمان فهو أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ويلتزم أداء فرائضه وترك محارمه، وهذا يمكن أن يعلمه من نفسه، بل ويعلمه غيره منه.

والذي يظهر لي من ذلك أن ولاية الله ـ تعالى ـ نوعان: عامة وخاصة، فالعامة ولاية كل مؤمن فمن كان مؤمناً لله تقيا كان له وليا وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه ولا يمتنع في هذه الولاية أن يقول: أنا ولي إن شاء الله. كما يقول: أنا مؤمن إن شاء الله.

والولاية الخاصة إن علم من نفسه أنه قائم لله بجميع حقوقه، مؤثر له على كل ماسواه في جميع حالاته، قد صارت مراضى الله ومحابه هي همه ومتعلق خواطره يصبح ويمسي وهمه مرضاة ربه، وإن سخط الخلق، فهذا إذا قال: أنا ولي لله كان صادقا.

وقد ذهب المحققون في مسألة: أنا مؤمن إلى هذا التفصيل بعينه، فقالوا له: أن يقول آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يقول: أنا مؤمن. لأن قوله أنا مؤمن يفيد الإيمان المطلق الكامل الآتي صاحبه بالواجبات التارك للمحرمات بخلاف قوله آمنت بالله. وفي الصحيحين عن عائشة قالت: كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ، يمتحنهن بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿**يَاأَيُّها النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ باللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ولا يَقْتُلْنَ أولادَهُنَّ**﴾. [الممتحنة: ١٢]. إلى آخر الآية، قالت عائشة: فمن أقرت بهذا من المؤمنات فقد أقرت بالمحنة، وكان رسول الله ﷺ، إذا أقررن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ، «**انطلقن فقد بايعتكن**» ولا والله مامست يدُ رسول الله ﷺ، يد امرأة قط، غير أنه يبايعهن بالكلام. قالت عائشة: والله ما أخذ رسول الله ﷺ، على النساء قط إلا بما أمره الله، ومامست كف رسول الله ﷺ، كف امرأة قط، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن: «**قد بايعتكن**» كلاما.



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل(١)

وأما إزاغة القلوب: فقال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾. [الصف: ٥]. وقال عن عباده المؤمنين أنه سألوه: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بعدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]. وأصل الزيغ الميل، ومنه زاغت الشمس إذا مالت. فإزاغة القلب: إمالته، وزيغه: ميله عن الهدى إلى الضلال. والزيغ يوصف به القلب والبصر، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾. [الأحزاب: ١٠]. وقال قتادة ومقاتل: شخصت فرقا، وهذا تقريب للمعنى، فإن الشخوص غير الزيغ، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرق، ومنه شخص بصر الميت، ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر، فمالت عنه، وشخصت بالنظر إلى الأحزاب، وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم. وقال الفراء: زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها متحيرة تنظر إليه.

قلت: القلب إذا امتلأ رعباً شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله.

(٢)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ واللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾. [الصف: ٥]. فعاقبهم ـ سبحانه ـ بإزاغة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء.

ونظيره قوله ـ تعالى ـ: ﴿ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. [الأنعام: ١١٠]. ولهذا قيل: من عرض عليه حق فرده فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه. ومن هنا قيل: لا رأي لصاحب هوى؛ فإن هواه يحمله على رد الحق فيفسد الله عليه رأيه وعقله.

(١) ١٠٠ شفاء.　　(٢) ٩٩ مفتاح جـ١.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾. [النساء: ١٥٥].

أخبر ـ سبحانه ـ أن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سبباً لطبع الله على قلوبهم ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾. [النساء: ١٥٥]. حتى صارت غلفا، والغلف جمع أغلف وهو القلب الذي قد غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه، وكل شيء في غلافه فهو أغلف، وجمعه غلف. يقال: سيف أغلف، وقوس غلفاء، ورجل أغلف وأقلف إذا لم يختتن، والمعنى: قلوبنا عليها غشاوة وغطاء، فلا تفقه ماتقول يامحمد، ﷺ، ولم يصنع شيئًا من قال: إن المعنى أنها غلف للعلم والحكمة أي أوعية لها فلا يحتاج إلى قولك ولا تقبله استغناء بما عندهم لوجوه:

أحدها: أن غلف جمع أغلف: كقلف وأقلف، وحمر وأحمر، وجرد وأجرد، وغلب وأغلب، ونظائره، والأغلف من القلوب هو الداخل في الغلاف، هذا هو المعروف من اللغة.

الثاني: أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال: قلب فلان غلاف لكذا، وهذا لا يكاد يوجد في شيء من نثر كلامهم ولا نظمه، ولا نظير له في القرآن فيحمل عليه، ولا هو من التشبيه البديع المستحسن، فلا يجوز حمل الآية عليه.

الثالث: أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾، والأكنة هنا هي الغلف التي قلوب هؤلاء فيها، والأكنة: كالأوعية والأغطية التي تغطي المتاع، ومنه الكنانة لغلاف السهام.

الرابع: أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذي ذكروه، ولا يحسن مقابلته بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾. [النساء: ١٥٥]. وإنما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التي ادعوها، كما قيل لهم لما ادعوا ذلك: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. [الإسراء: ٨٥]. وأما هنا فلما ادعوا أن قلوبهم في أغطية وأغشية لا تفقه قوله قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سببًا لأن طبع على قلوبهم . . .

(١)**فإن** قيل: فالزيغ الأول من فعلهم، وهو مخلوق لله فيهم على غير وجه

(١) ١٣٥ شفاء.

الجزاء، وإلا تسلسل الأمر. قيل: بل الزيغ الأول وقع جزاء لهم وعقوبة على تركهم الإيمان والتصديق لما جاءهم من الهدى. وهذا الترك أمر عدمي لا يستدعي فاعلا، فإن تأثير الفاعل إنما هو في الوجود لا في العدم. فإن قيل: فهذا الترك العدمي له سبب أو لا سبب له. قيل سببه عدم سبب ضده فبقي على العدم الأصلي.

(١)... **والمقصود** أن اسم النبي، ﷺ، في التوراة (محمد) كما هو في القرآن: محمد. وأما المسيح فإنما سماه (أحمد) كما حكاه الله عنه في القرآن. فإذن تسميته بأحمد وقعت متأخرة عن تسميته محمدًا في التوراة ومتقدمة على تسميته محمداً في القرآن فوقعت بين التسميتين محفوفة بهما.

وقد تقدم أن هذين الاسمين صفتان في الحقيقة والوصفية فيهما لا تنافي العلمية، وأن معناهما مقصود، فعرف عند كل أمة بأعرف الوصفين عندها، فمحمد مفعل من الحمد، وهو الكثير الخصال التي يحمد عليها حمداً متكرراً حمداً بعد حمد. وهذا إنما يعرف بعد العلم بخصال الخير وأنواع العلوم والمعارف والأخلاق والأوصاف والأفعال التي يستحق تكرار الحمد عليها.

ولا ريب أن بني إسرائيل هم أولو العلم الأول. والكتاب الذي قال الله فيه ﴿**وكَتَبْنَا لَهُ فِي الألْوَاحِ مِن كُلِّ شيْءٍ مَّوْعِظَةً وتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شيْءٍ**﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ولهذا كانت أمة موسى أوسع علوما ومعرفة من أمة المسيح. ولهذا لا تتم شريعة المسيح إلا بالتوراة وأحكامها، فإن المسيح ـ عليه السلام ـ وأمته محالون في الأحكام عليها، والإنجيل كأنه مكمل لها متمم لمحاسنها، والقرآن جامع لمحاسن الكتابين.

فعرف النبي ﷺ عند هذه الأمة باسم محمد الذي قد جمع خصال الخير التي يستحق أن يحمد عليها حمدًا بعد حمد.

وعرف عند أمة المسيح بأحمد الذي يستحق أن يحمد أفضل مما يحمد غيره، والذي حمده أفضل من حمد غيره، فإن أمة المسيح أمة لهم من الرياضات والأخلاق والعبادات ماليس لأمة موسى، ولهذا كان غالب كتابهم: مواعظ، وزهد، وأخلاق، وحض على الإحسان، والاحتمال، والصفح، حتى قيل: إن الشرائع ثلاث:

شريعة عدل وهي شريعة التوراة فيها الحكم والقصاص.

(١) ١١٣ جلاء الأفهام.

وشريعة فضل وهي شريعة الإنجيل مشتملة على العفو ومكارم الأخلاق والصفح والإحسان، كقوله: من أخذ رداءك فاعطه ثوبك، ومن لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن سخرك ميلا فامش معه ميلين، ونحو ذلك.

وشريعة جمعت هذا وهذا؛ وهي شريعة القرآن، فإنه يذكر العدل ويوجبه والفضل ويندب إليه، كقوله: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾. [الشورى: ٤٠]. فجاء اسمه عند هذه الأمة بأفعل التفضيل، الدال على الفضل والكمال، كما جاءت شريعتهم بالفضل المكمل لشريعة التوراة، وجاء في الكتاب الجامع لمحاسن الكتب قبله بالاسمين معاً. فتدبر هذا الفضل وتبين ارتباط المعاني بأسمائها ومناسبتها لها، والحمد لله المان بفضله وتوفيقه . . .

وقول أبي القاسم: إن اسم محمد (ﷺ) إنما ترتب بعد ظهوره إلى الوجود، لأنه حينئذ حمد حمداً مكرراً، فكذلك يقال في اسمه: أحمد أيضاً سواء، وقوله في اسمه أحمد: إنه تقدم لكونه أحمد الحامدين لربه، وهذا يقدم على حمد الخلائق له، فبناء منه على أنه تفضيل من فعل الفاعل، وأما على القول الآخر الصحيح فلا يجيء هذا. وقد تقدم تقرير ذلك والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

(١)... **وموسى** ـ عليه السلام ـ كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر. أمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات، وحرمت عليهم الغنائم، وعجل لهم من العقوبات ما عجل، وحُمِّلُوا من الآصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم.

وكان موسى (ﷺ) من أعظم خلق الله هيبة ووقاراً، وأشدهم بأساً وغضباً لله، وبطشاً بأعداء الله، وكان لا يستطاع النظر إليه.

وعيسى (ﷺ): كان في مظهر الجمال. وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان. وكان لا يقاتل، ولا يحارب. وليس في شريعته قتال ألبتة. والنصارى يحرم عليهم دينهم القتال. وهم به عصاة لشرعه. فإن الإنجيل يأمرهم فيه: أن «من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن نازعك ثوبك فأعطه

(١) ٤٥٧ مدارج جـ٢.

رداءك، ومن سخرك ميلاً فامش معه ميلين» ونحو هذا. وليس في شريعتهم مشقة، ولا آصار، ولا أغلال. وإنما النصارى ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم. ولم تكتب عليهم.

وأما نبينا (ﷺ): فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في الله. وهذا اللين والرأفة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع. فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال. وأمته أكمل الأمم. وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات. ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجاباً له وفرضاً. وبالفضل ندباً إليه واستحباباً. وبالشدة في موضع الشدة. وباللين في موضوع اللين. ووضع السيف موضعه. ووضع الندى موضعه. فيذكر الظلم ويحرمه. والعدل ويوجبه. والفضل ويندب إليه في بعض آيات، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿**وجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل ﴿**فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ**﴾ فهذا فضل ﴿**إنّه لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا تحريم للظلم. وقوله: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فعاقبوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ به**﴾ [النحل: ١٢٦] فهذا إيجاب للعدل، وتحريم للظلم: ﴿**وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابرينَ**﴾ [النحل: ١٢٦] ندب إلى الفضل. وقوله: ﴿**وإن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٧٩] تحريم للظلم ﴿**وإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ**﴾ عدل ﴿**وَأَن تَصَدَّقُوا خيرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٨٠] فضل. وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وحمية.

حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة، وهداهم لما ضَلَّتْ عنه الأمم قبلهم، ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أُخرجت للناس، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم، كما كمل نبيهم (ﷺ) من المحاسن بما فرقه في الأنبياء قبله، وكمل في كتابه من المحاسن بما فرقها في الكتب قبله، وكذلك في شريعته. فهؤلاء «الضنائن» وهم المجتبون الأخيار. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**هو اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨] وجعلهم شهداء على الناس. فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم.

وتفصيل تفضيل هذه الأمة وخصائصها يستدعى سِفْراً، بل أسفاراً. وذلك

فضل الله يؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضل العظيم.

[(١)]... **وأما** «أحمد» فهو أفعل التفضيل، أي هو أحمد من غيره، أي أحق بأن يكون محموداً أكثر من غيره، يقال: هذا أحمد من هذا: أي هذا أحق بأن يحمده من هذا، فيكون تفضيل على غيره في كونه محموداً فلفظ «محمد» يقتضي زيادة في الكمية، ولفظ أحمد يقتضي زيادة في الكيفية.

ومن الناس من يقول: معناه أنه أكثر حمداً لله من غيره، وعلى هذا فيكون بمعنى الحامد والحماد، وعلى الأول بمعنى المحمود. وإن كان الفار قليط بمعنى الحمد فهو تسمية بالمصدر مبالغة في كثرة الحمد، كما يقال: رجل عدل ورضى ونظائر ذلك، وبهذا يظهر سر ما أخبر به القرآن عن المسيح من قوله: ﴿**وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ [الصف: ٦] فإن هذا هو معنى الفار قليط كما تقدم. وفي التوراة ما ترجمته بالعربية: «وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاك: ها أنا قد باركت فيه، وأثمره، وأكبرهُ بمأذ مأذ» هكذا هذه اللفظة «مأذ» على وزن عمر.

وقد اختلف فيها علماء أهل الكتاب فطائفة يقولون: معناها جدًّا جدًّا، أي كثيراً كثيراً، فإن كان هذا معناها فهو بشارة بمن عظم من بنيه كثيراً كثيراً، ومعلوم أنه لم يعظم من بنيه أكثر مما عظم من محمد (ﷺ).

وقالت طائفة أخرى: بل هي صريح اسم محمد، قالوا: ويدل عليه أن ألفاظ العبرانية قريبة من ألفاظ العربية فهي أقرب اللغات إلى العربية.

[(٢)]... **وتأمل** كيف اشْتُقَّ للنبي (ﷺ) من وصفه اسمان مطابقان لمعناه وهما «أحمد، ومحمد» فهو لكثرة ما فيه من الصفات المحمودة «محمد» ولشرفها وفضلها على صفات غيره «أحمد» فارتبط الاسم بالمسمى ارتباط الروح بالجسد.

[(٣)]**فصل** في أنه لو لم يظهر محمد بن عبدالله (ﷺ) لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور نبوته تصديق لنبواتهم وشهادة لها بالصدق، فإرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أشار ـ سبحانه ـ إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿**بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الصافات: ٣٧] فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه؛ فمجيئه هو نفس

---

(١) ٦١ هداية الحيارى. (٢) ١٨ هداية الحيارى.

(٣) ١٥٩ هداية الحيارى.

صدق خبرهم، فكأن مجيئه تصديقاً لهم إذ هو تأويل ما أخبروا به. ولا تنافي بين هذا وبين القول الآخر: إن تصديقه المرسلين شهادته بصدقهم وإيمانه بهم، فإنه صدقهم بقوله ومجيئه، فشهد بصدقهم بنفس مجيئه، وشهد بصدقهم بقوله.

ومثل هذا قول المسيح: ﴿**مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ [الصف: ٦] فإن التوراة لما بشرت به وبنبوته كان نفس ظهوره تصديقاً لها.

ثم بشر برسول يأتي من بعده، فكان ظهور الرسول المبشر به تصديقاً له، كما كان ظهوره تصديقاً للتوراة فعادة الله في رسله أن السابق يبشر باللاحق، واللاحق يصدق السابق، فلو لم يظهر محمد بن عبدالله ولم يبعث لبطلت نبوة الأنبياء قبله، والله ـ سبحانه ـ لا يخلف وعده ولا يكذب خبره.

وقد كان بشر إبراهيم وهاجر بشارات بينات، ولم نرها تمت ولا ظهرت إلا بظهور رسول الله (ﷺ)، فقد بشرت هاجر من ذلك بما لم تبشر به امرأة من العالمين غير مريم ابنة عمران بالمسيح على أن مريم بشرت به مرة واحدة، وبشرت هاجر بإسماعيل مرتين، وبشر به إبراهيم مراراً.

ثم ذكر الله ـ سبحانه ـ هاجر بعد وفاتها كالمخاطب لها على ألسنة الأنبياء، ففي التوراة «إن الله ـ تعالى ـ قال لإبراهيم: قد أجبت دعاءك في إسماعيل، وباركت عليه، وكبرته، وعظمته» هكذا في ترجمة بعض المترجمين. وأما في الترجمة التي ترجمها اثنان وسبعون حبراً من أحبار اليهود فإنه يقول: «وسيلد اثنى عشر أمة من الأمم».

وفيها «لما هربت هاجر من سارة ترائى لهاملك الله، وقال يا هاجر! أمة سارة من أين أقبلت وإلى أين تذهبين؟! قالت: هربت من سيدتي، فقال لها الملك: ارجعي إلى سيدتك، واخضعي لها، فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً تسميه إسماعيل؛ لأن الله قد سمع بذلك خشوعك، وهو يكون عين الناس، ويكون يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته».

وفي موضع آخر قصة إسكانها وابنها إسماعيل في برية فاران.

وفيها: «فقال لها الملك: يا هاجر! ليفرح روعك، فقد سمع الله ـ تعالى ـ

صوت الصبي، قومي فاحمليه، وتمسكي به، فإن الله جاعله لأمة عظيمة، وأن الله فتح عليها، فإذا ببئر ماء، فذهبت، وملأت المزادة منه وسقت الصبي منه، فكان الله معهما ومع الصبي حتى تربى، وكان مسكنه في برية فاران. فهذه أربع بشارات خالصة لأم إسماعيل نزلت اثنتان منها على إبراهيم. واثنتان على هاجر.

(١)... **وفي** التوراة أيضاً بشارات أخر بإسماعيل وولده، وأنهم أمة عظيمة جدًّا، وأن نجوم السماء تحصى ولا يحصون، وهذه البشارة إنما تمت بظهور محمد بن عبدالله وأمته. فإن «بني إسحاق» كانوا لم يزالوا مطرودين مشردين خولاً للفراعنة والقبط، حتى أنقذهم الله بنبيه وكليمه موسى بن عمران، وأورثتهم أرض الشام، فكانت كرسي مملكتهم، ثم سلبهم ذلك، وقطعهم في الأرض أمماً، مسلوباً عزهم وملكهم: قد أخذتهم سيوف السودان، وعلتهم أعلاج الحمران حتى إذا ظهر النبي (ﷺ) تمت تلك النبوات، وظهرت تلك البشارات بعد دهر طويل وعلت بنو إسماعيل على من حولهم فهشموهم هشماً، وطحنوهم طحناً، وانتشروا في آفاق الدنيا، ومدت الأمم أيديهم إليهم بالذل والخضوع، وعلوهم علو الثريا فيما بين الهند والحبشة والسوس الأقصى وبلاد الترك والصقالبة والخزر، وملكوا ما بين الخافقين، وحيث ملتقى أمواج البحرين، وظهر ذكر إبراهيم على ألسنة الأمم، فليس صبي من بعد ظهور النبي (ﷺ) ولا امرأة ولا حر ولا عبد ولا ذكر ولا أنثى إلا وهو يعرف إبراهيم وآل إبراهيم.

وأما «النصرانية» وإن كانت قد ظهرت في أمم كثيرة جليلة، فإنه لم يكن لهم في محل إسماعيل وأمه هاجر سلطان ظاهر ولا عز قاهر البتة، ولا صارت أيدي هذه الأمة فوق أيدي الجميع، ولا امتدت إليهم أيدي الأمم بالخضوع، وكذلك سائر ما تقدم من البشارات التي تفيد بمجموعها العلم القطعي بأن المراد بها محمد بن عبدالله (ﷺ) وأمته، فإنه لو لم يقع تأويلها بظهوره (ﷺ) لبطلت تلك النبوات.

ولهذا لما علم الكفار من أهل الكتاب أنه لا يمكن الإيمان بالأنبياء المتقدمين إلا بالإيمان بالنبي الذي بشروا به قالوا نحن في انتظاره ولم يجيء بعد.

ولما علم بعض الغلاة في كفره وتكذيبه منهم أن هذا النبي في ولد إسماعيل

---

(١) ١٦١ هداية الحيارى.

أنكروا أن يكون لإبراهيم ولد اسمه إسماعيل، وأن هذا لم يخلقه الله . ولا يكثر على أمـة البهت وإخوان القرود وقتلة الأنبياء مثل ذلك، كما لم يكثر على المثلثة عباد الصليب الذين سبوا رب العالمين أعظم مسبة أن يطعنوا في ديننا وينتقصوا نبينا (ﷺ) . ونحن نبين أنهم لا يمكنهم أن يثبتوا للمسيح فضيلة ولا نبوة ولا آية ولا معجزة إلا بإقرارهم أن محمداً رسول الله ؛ وإلا فمع تكذيبه لا يمكن أن يثبت للمسيح شيء من ذلك البتة . .

(١)... **قوله** تعالى : ﴿**يَـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الصف : ١٠] فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة التي الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم ، فقال : ﴿**تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**﴾ فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها . فقال : ﴿**ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الصف : ١١] يعنى أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة .

فكأنها قالت : فما لنا في الجهاد من الحظ؟ فقال : ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ ـ مع المغفرة ـ ﴿**وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [الصف : ١٢]

فكأنها قالت : هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال : ﴿**وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الصف : ١٣] فلله ما أحلى هذه الألفاظ! وما ألصقها بالقلوب! وما أعظمها جذباً لها وتسييراً إلى ربها! وما ألطف موقعها من قلب كل محب! وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها! فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم .

(٢)... **ولما** علم ـ سبحانـه ـ أن آدم ونبيه قد بلوا بهذا العدو وسلط عليهم ؛ أمدهم بعساكر وجند يلقونه بها ، وأمد عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم بها ، وأقـام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي هي بالإضافة إلى الآخرة : كنفس واحد من أنفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف

(١) ٣٥٥ طريق الهجرتين.　　(٢) ١٢٨ الجواب الكافي.

كتبه وهي: التوراة، والإنجيل، والقرآن، ثم أخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشتري من هو، وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد، فأي فوز أعظم من هذا، وأي تجارة أربح منه؟! ثم أكد ـ سبحانه ـ معهم هذا الأمر بقوله: ﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمنُوا هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى تِجَارَةٍ تُنجيكُمْ مِّن عَذَابٍ أَلِيم * تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ وتُجَاهِدُونَ في سَبيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُم وأَنفُسِكُم ذَلِكُم خيرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلْكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحتِهَا الأنهارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عدنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ * وأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتحٌ قَرِيبٌ وبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣] ولم يسلط ـ سبحانه ـ هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات إليه، إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات وأقربهم إليه وسيلة...

(١)... **وكل** الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُون وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا في التَّوْرَاةِ والإِنجِيلِ والقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة. فتاجروا أيها المفلسون، ويامن لا يقدر على هذا الثمن ههنا ثمن آخر فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن: ﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بالمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ والحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبشِّرِ المُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] ﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجيكُم مِّن عَذَابٍ أَلِيم * تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ وتُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لكُمْ إِن كُنتُمْ تعْلَمُونَ﴾. [الصف: ١٠، ١١] والمقصود أن الذنوب تنسي العبد حظه من هذه التجارة الرابحة وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفى بذلك عقوبة، والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الصف

والحمد لله رب العالمين

(١) ١٤٢ الجواب الكافي.



بسم الله الرحمن الرحيم

فائـدة(١)

لما كانت الأيام متماثلة لا يتميز يوم من يوم بصفة نفسية ولا معنوية لم يبق تمييزها إلا بالأعداد، ولذلك جعلوا أسماء أيام الأسبوع مأخوذة من العدد نحو الاثنين والثلاثاء والأربعاء. أو بالأحداث الواقعة فيها: كيوم بعاث، ويوم بدر، ويوم الفتح، ومنه يوم الجمعة. وفيه قولان: أحدهما لاجتماع الناس فيه للصلاة، والثاني وهو الصحيح: لأنه اليوم الذي جمع فيه الخلق وكمل، وهو اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين لفصل القضاء.

وأما يوم السبت فمن القطع، كما تشعر به هذه المادة، ومن السبات لانقطاع الحيوان فيه عن التحرك والمعاش. والنعال السبتية التي قطع عنها الشعر، وعلة السبات التي تقطع العليل عن الحركة والنطق، ولم يكن يومًا من أيام تخليق العالم، بل ابتداء أيام التخليق الأحد وخاتمتها الجمعة، هذا أصح القولين، وعليه يدل القرآن وإجماع الأمة: على أن أيام تخليق العالم ستة، فلو كان أولها السبت لكان سبعة.

وأما حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه: خلق الله التربة يوم السبت فقد ذكر البخاري في تاريخه: أنه حديث معلول، وأن الصحيح أنه قول كعب، وهو كما ذكر لأنه يتضمن أن أيام التخليق سبعة، والقرآن يرده. واعلم أن معرفة أيام الأسبوع لا يعرف بحس ولا عقل ولا وضع يتميز به الأسبوع عن غيره، وإنما يعلم بالشرع، ولهذا لا يعرف أيام الأسبوع إلا أهل الشرائع، ومن تلقى ذلك عنهم وجاورهم. وأما الأمم الذين لا يدينون بشريعة ولا كتاب فلا يتميز الأسبوع عندهم من غيره، ولا أيامه بعضها من بعض، وهذا بخلاف معرفة الشهر والعام، فإنه بأمر محسوس.

فائـدة: في اليوم وأمس وغد، وسبب اختصاص كل لفظ بمعناه. اعلم أن أقرب الأيام إليك يومك الذي أنت فيه، فيقال: فعلت اليوم. فذكر الاسم العام،

---

(١) ٨٤ بدائع جـ١.

ثم عرف بأداة العهد، ولا شيء أعرف من يومك الحاضر فانصرف إليه، **ونظيره** الآن من آن والساعة من ساعة. وأما أمس وغد، فلما كان كل واحد منهما **متصلاً** بيومك اشتق له اسم من أقرب ساعة إليه فاشتق اليوم الماضي أمس الملاقي للمساء وهـو أقرب إلى يومك من صاحبه أعني صباح غد، فقالوا: أمس. وكذلك غد اشتق الاسم من الغدو وهو أقرب إلى يومك من مسائه أعني: مساء غد. . .

(١)... **وذكر** أيضًا عن ابن عباس قال: ما من يوم إلا وليلته قبله إلا يوم عرفة، فإن ليلته بعده. قلت: هذا ما اختلف فيه. وحكى عن طائفة أن ليلة اليوم بعده. والمعروف عند الناس أن ليلة اليوم قبله، ومنهم من فصل بين الليلة المضافة إلى اليوم: كليلة الجمعة والسبت والأحد وسائر الأيام، والليلة المضافة إلى مكان أو حال أو فعـل: كليلة عرفـة وليلة النفـر، ونحو ذلك فالمضافة إلى اليوم قبله، والمضافة إلى غيره بعده، واحتجوا له بهذا الأثر المروي عن ابن عباس، ونقض عليهم بليلة العيد، والذي فهمه الناس قديمًا وحديثًا من قول النبي ﷺ: **﴿لا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، ولا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي﴾** أنها الليلة التي تسفر صبيحتها عن يوم الجمعة، فإن الناس يسارعون إلى تعظيمها وكثرة التعبد فيها عن سائر الليالي، فنهاهم ﷺ عن تخصيصها بالقيام، كما نهاهم عن تخصيص يومها بالصيام، والله أعلم.

(٢)فصـــل

وكان من هديه ﷺ تعظيم هذا اليوم وتشريفه، وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره. وقـد اختلف العلماء: هل هو أفضل من يوم عرفة؟ على قولين، **هما** وجهان لأصحاب الشافعي. وكان ﷺ يقرأ في فجره بسورتي (الٓمٓ تنزيل) و(هل أتى على الإنســان) ويظن كثـير ممن لا علم عنـده أن المراد: تخصيص هذه الصلاة بسجـدة زائـدة، ويسمـونها سجـدة الجمعـة. وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة استحب قراءة سورة أخرى فيها سجدة. ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة في فجر الجمعة، دفعًا لتوهم الجاهلين.

وسمعت شيخ الإســلام ابن تيمية يقـول: إنـما كان النبي ﷺ يقرأ هاتين

(١) ١٩٤ بدائع جـ٣. (٢) ٢٠٦ زاد المعاد جـ١.

السورتين في فجر الجمعة، لأنهما تضمنتا ما كان ويكون في يومها، فإنهما اشتملتا على خلق ـ آدم عليه السلام ـ وعلى ذكر المعاد، وحشر العباد، وذلك يكون يوم الجمعة. وكان في قراءتهما في هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون، والسجدة جاءت تبعًا، ليست مقصودة، حتى يقصد المصلي قراءتها حيث اتفقت. فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة.

الخاصية الثانية: استحباب كثرة الصلاة على النبي ﷺ، فيه وفي ليلته، لقوله ﷺ: ﴿**أكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة وليلة الجمعة**﴾ ورسول الله ﷺ، سيد الأنام، ويوم الجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه في هذا اليوم مزية ليست لغيره، مع حكمة أخرى، وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنما نالته على يده، فجمع الله لأمته به بين خيري الدنيا والآخرة، فأعظم كرامة تحصل لهم فإنما تحصل يوم الجمعة، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيد لهم في الدنيا، ويوم فيه يُسْعِفُهم الله ـ تعالى ـ بطلباتهم وحوائجهم، ولا يرد سائلهم، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده ﷺ. فَمن شُكره وحمده وأداء القليل من حقه ﷺ: أن نكثر من الصلاة عليه، في هذا اليوم وليلته.

الخاصية الثالثة: صلاة الجمعة التي هي من آكد فروض الإسلام، ومن أعظم مجامع المسلمين، وهيٍ أعظم من كل مجمع يجتمعون فيه وأفرضه، سوى مجمع عرفة، ومن تركها تهاونًا بها طبع الله على قلبه، وقرب أهل الجنة يوم القيامة وسبقهم إلى الزيادة يوم المزيد، بحسب قربهم من الإمام يوم الجمعة وتبكيرهم.

الخاصية الرابعة: الأمر بالاغتسال في يومها، وهو أمر مؤكد جدًّا، ووجوبه أقوى من وجوب الوتر، وقراءة البسملة في الصلاة، ووجوب الوضوء من مس النساء، ووجوب الوضوء من مس الذكر، ووجوب الوضوء من القهقهة في الصلاة، ووجوب الوضوء من الرعاف والحجامة والقيء، ووجوب الصلاة على النبي ﷺ، في التشهد الأخير، ووجوب القراءة على المأموم. وللناس في وجوبه **ثلاثة أقوال**: النفي، والإثبات، والتفصيل بين من به رائحة يحتاج إلى إزالتها، **فيجب عليه، ومن هو مستغن عنه، فيستحب له. والثلاثة لأصحاب أحمد**(١).

---

(١) ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ في خواص يوم الجمعة وأحكامها قرابة ثلاث كراسات (ج).

(١)... **تزكية** النفوس مُسلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم: دعوة، وتعليمًا، وبيانًا، وإرشادًا، لا خلقًا ولا إلهامًا. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**هو الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإنْ كَانوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [الجمعة: ٢] وقال تعالى: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُم رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُم آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُون * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي ولا تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة: ١٥١،١٥٢].

وتزكية النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجيء بها الرسل: فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه(٢)، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب. فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم(٣)، والله المستعان.

فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخُلُق كسبيًّا، أو هو أمر خارج عن الكسب؟ قلت: يمكن أن يقع كسبيًّا بالتخلق والتكلف. حتى يصير له سَجية وملكة، وقد قال النبي ﷺ، لأشج عبدالقيس رضي الله عنه: «**إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم، والإناة**». فقال: أخلقين تخلقت بهما. أم جبَلني الله عليهما؟ فقال: «**بل جبلك الله عليهما**». فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله. فدل على أن من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب. وكان النبي ﷺ، يقول في دعاء الاستفتاح: «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت**» فذكر الكسب والقَدر، والله أعلم.

(٤)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**هُو الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّنَ رَسُولاً مِّنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيه مَن يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ**﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٤]. فالأولون هم الذين أدركوا رسول الله

(١) ٣١٥ مدارج جـ٢.
(٢) بل كالذي يعالج نفسه بجهله وسفهه.
(٣) لأنهم يبلغون عن الله. **والله معهم رقيب ومعين.**
(٤) التبوكية.

ﷺ، وصحبـوه، والآخرون هم الذين لم يلحقوهم، وهم كل من بعدهم على منهاجهم إلى يوم القيامة، فيكون التأخر وعدم اللحاق بهم في الزمان وفي الآية قول آخر: إن المعنى: لما يلحقوا بهم في الفضل والرتبة، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق في الرتبة. والقولان كالمتلازمين، فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا في الفضل ولا في الزمان. فهؤلاء الصنفان هم السعداء. وأما من لم يقبل هدى الله الذي بعث به رسوله، ولم يرفع به رأسًا، فهو من الصنف الثالث، وهم ﴿الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

(١)﴿ذَلِـكَ فَضْـلُ اللهِ يُؤْتِيـهِ مَن يَشاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤] يعني: وبعث في أخرين منهم لما يلحقوا بهم. وقد اختلف في هذا اللحاق المنفي، فقيل: هو اللحـاق في الـزمان. أي يتأخر زمانهم عنهم. وقيل: هو اللحاق في الفضـل والسبق، وعـلى التقديرين، فامتن عليهم ـ سبحانه ـ بأن علمهم بعد الجهل، وهداهم بعد الضلالة، ويالها من منة عظيمة فاتت المنن، وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَـارًا بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥] فقـاس مَن حمَّله ـ سبحـانه ـ كتابه ليؤمن به، ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظَهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه، كحمارٍ على ظهره زَامِلَة أسفارٍ لا يدري ما فيها، وحظُّه منها حملها على ظهره ليس إلا؛ فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره؛ فهذا المثل وإن كان قد ضُرِبَ لليهود فهو متنـاول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤدِّ حقه، ولم يَرعَه حق رعايته.

(٣)**قـوله** تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ [الجمعة: ٥] الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالين عند من حمل أسفار الحكمة وحمل ماسواها

---

(١) ٥٨ مفتاح جـ١.　　(٢) ١٦٥ أعلام جـ١.

(٣) ٢٧ اجتماع الجيوش الإسلامية.

ولا يشعر ذلك إلا بما يزيد فيه من الكد والتعب.

(١)... **وكان** إذا عرض له في خطبته عارض اشتغل به، ثم رجع إلى خطبته، وكان يخطب، فجاء الحسن والحسين يتعثران في قميصين أحمرين، فقطع كلامه، فنـزل فحملهما، ثم عاد إلى منبره، ثم قال: «**صدق الله العظيم ﴿إنَّما أموالُكم وأولَادُكم فِتنـةٌ﴾** [التغابن: ١٥] **رأيت هذين يتعثران في قميصيهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما**». وجاء سليك الغطفاني، وهو يخطب، فجلس فقال له: «**قم يا سليـك فاركـع ركعتين، وتجوز فيهما**» ثم قال: وهو على المنبر «**إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين، وليتجوز فيهما**» وكان يقصر خطبته أحيانًا ويطيلها أحيانًا بحسب حاجة الناس. وكانت خطبته العارضة أطول من خطبتـه الـراتبـة، وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد، ويحرضهن على الصدقة، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجمعة

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٩٨ زاد المعاد جـ١.

سورة المنافقون

ترتيبها ٦٣ — آياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**الطبقة** الخامسة عشرة: طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله. وهؤلاء المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار. قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً**﴾ [النساء: ١٤٥] . فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركات النار. لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال ـ تعالى ـ في حقهم: ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**﴾ [المنافقون: ٤] . ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرًا وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم ـ وهم في الباطن على خلاف دينهم ـ أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحًا ومساء، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم. فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**﴾ لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًّا من الكفار المجاهرين.

ونظير ذلك قول النبي ﷺ: «**ليس المسكين الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس؛ ولا يفطن له فيتصدق عليه**» فليس هذا نفيًا لاسم المسكين عن الطّواف، بل إخبار بأن هذا القانع الذي لا يسمونه مسكينًا أحق بهذا الاسم من الطواف الذي يسمونه

(١) ٤٠٢ طريق الهجرتين.

مسكينًا. ونظيره قوله ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب**» ليس نفيًا للاسم عن الصرعة، ولكن إخبار بأن من يملك نفسه عند الغضب أحق منه بهذا الاسم. ونظيره قوله ﷺ: «**ما تعدون المفلس فيكم**»؟ قالوا: من لا درهم له ولا متاع، قال: «**المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، ويأتي قد لطم هذا، وضرب هذا وأخذ مال هذا، فيقتص هذا؛ من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من سيئاتهم، ثم طرح عليه، فألقي في النار**». ونظيره قوله ﷺ: «**ما تعدون الرقوب فيكم**»؟[1] قالوا: من لا يولد له. قال: «**الرقوب من لم يقدم من ولده شيئًا**» ومنه عندي قوله ﷺ: «**الربا في النسيئة**»، وفي لفظ «**إنما الربا في النسيئة**» هو إثبات لأن هذا النوع هو أحق باسم الربا من ربا الفضل، وليس فيه نفي اسم الربا عن ربا الفضل. فتأمله.

والمقصود أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء، ولهذا يستهزأ بهم في الآخرة، وتعطى نورًا يتوسطون به على الصراط ثم يطفِىء الله نورهم، ويقال لهم: ﴿**ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالتَمِسُوا نُورًا**﴾ ويضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿**بِسُورٍ لَهُ بَابٌ باطِنُه فِيهِ الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ * يُنادُونَهُمْ أَلَم نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى ولَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُم وَارْتَبْتُمْ وغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ**﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه، وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان مالم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرًا وأخبث قلوبًا، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين. ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهم آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فهم لا يفقهون**﴾ [المنافقون: ٣].

(١) الرقوب: الزوجان إذا لم يعش لهما ولد.

وقال ـ تعالى ـ فيهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [االبقرة:١٨]. وقال ـ تعالى ـ في الكفار: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. فالكافر لم يعقل. والمنافق أبصر، ثم عمي، وعرف ثم تجاهل، وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر. ومن كان هكذا كان أشد كفرًا، وأخبث قلبًا، وأعتى على الله ورسله، فاستحق الدرك الأسفل. . .

(١)**قال** ـ تعالى ـ عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]. وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: ٧٤]، أي: أموالاً ومناظر. قال الحسن: هو الصور. وفي صحيح مسلم عنه ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» قالوا: ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك، وإنما نفى نظر المحبة. قالوا: وقد حرم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة، وذلك من أعظم جمال الدنيا. وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى ما مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]. وفي الحديث: «**البذاذة من الإيمان**»، وقد ذم الله المسرفين، والسرف، كما يكون في الطعام والشراب؛ يكون في اللباس.

وفصل النزاع: أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيأة ثلاثة أنواع، منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه مالا يتعلق به مدح ولا ذم. فالمحمود منه ما كان لله، وأعان على طاعة الله، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، كما كان النبي ﷺ، يتجمل للوفود؛ وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه. والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر، والخيلاء والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية العبد، وأقصى مطلبه؛ فإن كثيرًا من النفوس ليس لها همة في سوى ذلك. وأما مالا يحمد ولا يذم، هو ما خلا عن هذين القصدين، وتجرد عن الوصفين.

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة، وآخره سلوك، فيعرف الله ـ سبحانه ـ بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء، ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده أن يجمل لسانه

(١) ١٨٥ الفوائد.

بالصـدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه، وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكـروهة والختان وتقليم الأظفار، فيعرفه بصفات الجمال، ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة، والسلوك.

(١)**وفي** مرجعهم من هذه الغزوة: قال رأس المنافقين ابن أبيّ: ﴿**لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**﴾ [المنافقون: ٨]. فبلَّغها زيدُ بن أرقم رسولَ الله ﷺ، وجاء ابن أُبي يعتذر، ويحلف ما قال، فسكت عنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيد في سورة المنافقين، فأخذ النبي ﷺ، بأذنه فقال: «**أبشر، فقد صدقك الله**»، ثم قال: «**هـذا الذي وفى الله بأذنه**»، فقال له عمر: يا رسول الله، مُرْ عَبَّاد بن بِشر فليضرب عنقه. فقال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟».

(٢)... **والعزة** تتضمن القوة، ولله القوة جميعًا. يقال: عزّ يعَز بفتح العين إذا اشتـد وقوي، ومنه الأرض العزاز: الصلبة الشديدة، وعزّ يعِز بكسر العين إذا امتنـع ممن يرومه، وعز يعُز بضم العين إذا غلب وقهر، فأعطوا أقوى الحركات ـ وهي الضمـة ـ لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفها وهي الفتحة لأضعف هذه المعاني، وهو كون الشيء في نفسه صلبًا، ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه، والحركة المتوسطة وهي الكسرة للمعنى المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه. فاعطوا الأقوى للأقوى، والأضعف للأضعف، والمتوسط للمتوسط.

ولاريب أن قهر المربوب عما يريده من أقوى أوصاف القادر، فإن قهره عن إرادته وجعله غير مريد كان أقـوى أنـواع القهر، والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذمًّا له بخلاف الكبر. قال رجل للحسن البصري: إنك متكبر. فقال: لست بمتكبر، ولكني عزيز.

وقـال تعـالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِـزَّةُ وَلِـرَسُـولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المنافقون: ٨]. وقال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وقال النبي ﷺ: «**اللهم أعز الإسلام بأحد**

(١) ٢٨٨ زاد المعاد جـ٢.

(٢) ١٠٨ طريق الهجرتين.

هذين الرجلين: عمر بن الخطاب، أو أبي جهل بن هشام» وفي بعض الآثار: أن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك، ولا يجدونها إلا في طاعة الله عز وجل.

وفي الحديث: «**اللّهم أعِزَّنا بطاعَتك ولا تُذِلَّنا بِمعصيتِك**»، وقال بعضهم: من أراد عزًّا بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة، وغنى بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة. فالعزة من جنس القدرة والقوة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن القويّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**».

(١)... **قال تعالى: ﴿يَـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِن أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾** [التغابن: ١٤]، **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾**[المنافقون: ٩]. فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم، ولم يرضهم بسخط الله، وراقب الله فيهم ولم يراقبهم في الله، وآثر الله عليهم ولم يؤثرهم على الله، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه وأحيى حب الله خوفه ورجاءه فيه، فهذا هو الذي يكتب عليهم، وتكون معاملته لهم كلها ربحًا، بشرط أن يصبر على أذاهم ويتخذه مغنمًا لا مغرمًا وربحًا لا خسرانًا.

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة البتة إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره، وفهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: **﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾** [يونس: ١٠٧]، قال النبي ﷺ، لعبدالله بن عباس: «**واعلَم أنَّ الخليقَة لَو اجتَمَعُوا على أن يَنفَعوك لم يَنفعوك إلاَّ بشيء كَتبه الله لكَ، ولو اجتمعُوا على أن يَضرُّوك لم يَضرُّوك إلاَّ بشيء كَتَبه الله عليكَ**». وإذا كانت هذه حال الخليقة فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع. والله أعلم.

هذا مايسر الله جمعه من تفسير سورة المنافقون

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٦٣ طريق الهجرتين.



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل(١)

والطمأنينة إلىٰ أسماء الرب ـ تعالىٰ ـ وصفاته نوعان: طمأنينة إلىٰ الإيمان بها وإثباتها واعتقادها، وطمأنينة إلىٰ ما تقضيه وتوجبه من آثار العبودية، مثاله الطمأنينة إلىٰ القدر وإثباته، والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلىٰ مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له علىٰ دفعها فيسلم لها، ويرضىٰ بها، ولا يسخط، ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسىٰ علىٰ ما فاته، ولا يفرح بما آتاه، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها: كالسمع، والبصر، والعلم، والرضا، والغضب، والمحبة؛ فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلىٰ أمره امتثالاً وإخلاصًا ونصحاً، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليد، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس، التي لأن يخر من السماء إلىٰ الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي ﷺ صريح الإيمان. وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلىٰ سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين، وباشر قلبه آثارهما، فللتوبة طمأنينة تقابل

(١) ٢٦٩ الروح.

ما في المعصية من الانـزعـاج والقلق، ولـو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يوارىٰ عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة، فإن لكل شهوة سكراً يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب، ولهذا ترىٰ العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمـر. وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلىٰ سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره، وتعلق الروح بحبه ومعرفته؛ فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبداً، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب، ولكن يواريها السكر، فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه.

(١)... **حذر** الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد، فقال ـ تعالى ـ: ﴿**يَاأَيُّها الَّـذِينَ آمَنُـوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْـوَالُكُمْ ولا أَولادُكُمْ عن ذكر الله**﴾ [المنافقون: ٩] وقال ـ تعالى ـ: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عُدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُم**﴾ [التغـابن: ١٤] وليس المـراد من هذه العـداوة ما يفهمه كثير من الناس إنها عداوة البغضـاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للأباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية ﴿**يَـا أَيُّهَـا الَّـذِيْنَ آمَنُـوا إِنَّ من أَزْوَاجِكُمْ وأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْـذَرُوهُمْ**﴾ [التغابن: ١٤] قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ـ ﷺ ـ فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وأَوْلادِكُم عَدُوًّا لَّكُمْ**﴾ [التغابن: ١٤] الآية قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده وفي الحديث «**الولد مبخلة مجبنة**» وقال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني **زيد بن واقد قال حدثني عبد الله** بن بريدة **قال** سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ **يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسـول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله ﴿إِنَّمَا**

(١) ٦٥ عدة الصابرين.

أَمْوَالُكُمْ وأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] **نظرت إلىٰ هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتىٰ قطعت حديثي ورفعتهما»**. وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة: الرحمة، والشفقة، واللطف بالصغار.

(١)... **وتطلق** الفتنة علىٰ أعمَّ من ذلك، كقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** [التغابن: ١٥] قال مقاتل: «أي بلاء، وشغل عن الآخرة. قال ابن عباس: فلا تطيعوهم في معصية الله تعالىٰ». وقال الزَّجاج: أعلمهم الله ـ عزّ وجلَّ ـ أن الأموال والأولاد مما يفُتنون به. وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده. لأنه ربما عصىٰ الله ـ تعالىٰ ـ بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم، إلا من عَصَمه الله ـ تعالىٰ ـ.

ويشهد لهذا ما روي أن النبي ﷺ «كان يخطب، فجاء الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ وعليهما قميصان أحمران يَعْثُران، فنزل النبي ﷺ إليهما فأخذهما، فوضعهما في حِجْره على المنبر، وقال: «صدق الله **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** [التغابن: ١٥] **رأيتُ هذين الصبيين، فلم أصبر عنهما**»(٢). وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «لا يقولنّ أحدُكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مُشْتَمِلٌ علىٰ فتنة، لأن الله ـ تعالىٰ ـ يقول: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** [التغابن: ١٥] فأيُّكم استعاذ فليَسْتَعِذْ بالله تعالىٰ من مُضِلَّات الفتن».

هذا مايسر الله جمعه من تفسير سورة التغابن
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٦٠ إغاثة.

(٢) تقدم في تفسير سورة الجمعة نقلاً عن زاد المعاد بلفظ «صدق الله العظيم. .» (ج).

سورة الطلاق

ترتيبها ٦٥ — آياتها ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على النـاس. وقال أبو العالية: مخرجاً من كل شدة. وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة. فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجاً. وقال الحسن: مخرجاً مما نهاه عنه ﴿ومَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته. يكفيه كل ما أهمه. و«الحسْب» الكافي ﴿حَسْبُنَا اللهُ﴾ [التوبة: ٥٩] كافينا الله. وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبتة. فإنه ـ سبحانه ـ لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل. وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة. فإنه لا أشرحَ للصدر، ولا أوسع له – بعد الإيمان – من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به.

(٢)...**فإن قلت**: فما معنىٰ التوكل والاستعانة؟.

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق، والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس. وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس. فيوجب له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حال الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همِّه على إنزال ما ينوبه بهما. فهذه حال المتوكل. ومن كل هكذا مع الله، فالله كافيه ولا بد. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ومَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه. و«الحسب» الكافي. فإن كان – مع هذا – من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل

(١) ٤٧١ مدارج جـ١. (٢) ٨٢ مدارج جـ١.

التقوى فهو القسم الرابع . . .

(١)**قال** الله ـ تعالىٰ ـ: **﴿ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾** [الطلاق: ٢، ٣] فأخبر اللهُ ـ سُبحانه وتعالىٰ ـ أنه إذا اتقاه بترك أخذ ما لا يَحِلّ له؛ رَزَقَه [الله] من حيث لا يحتسب، وكذلك الزاني لو ترك ركوب ذلك الفرج حراماً [لله] لأثابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خيرٌ منه حلالاً .

وقال الإمام أحمد: حدّثنا هشيم، حدّثنا عبد الرَّحمن بن إسحاق، عن مُحَارِب بن دِثَار، عن صِلَة، عن حُذيفة بن اليَمان ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**النَّظْرَةُ إلىٰ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَهُ خَوْفَ الله أَثَابَهُ الله إيماناً يَجِدُ حَلاَوَتَهُ في قلبِهِ**». وقال عمرُ بن شَبَّة: حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدّثنا عَنْبَسَةُ بن عبد الرحمن، حدّثنا أبو الحسن المدَني، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نَظَرُ الرَّجُلِ في مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ؛ فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذٰلِكَ السَّهْمِ أَعْقبهُ الله عِبَادَةً تَسرُّهُ**».

(٢)... **قال** بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق: ٣] ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه ـ سبحانه ـ كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن؛ لجعل له مخرجاً من ذلك، وكفاه، ونصره. وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في (كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وبينا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله. وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر

---
(١) ٤٧٦ روضة المحبين.	(٢) ٢٤٠ بدائع جـ٢.

فيه. وهـذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره؛ فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناما لا يفتر عنه، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا، فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر حتىٰ يهلك أحدهما، فإذا جبذ روحه عنه، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضـاً، فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية. وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والـروح اشتغـاله بعدوه وتعلق الدنيا بالشهوات واللذات، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ [الطلاق: ٤] فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره، وقـال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢،٣] وهـذا أيضاً ييسر عليه بتقواه. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهِ يُكَفِّرْ عَنهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ [الطلاق: ٥] وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه.

(١)...**وأخبر:** أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه. وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاءً معلومًا وجعل نفسـه جزاء المتـوكـل عليه وكفـايتـه. فقـال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّه مَخْرَجاً﴾ [الطلاق: ٢]: ﴿ومَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْه سَيِّئَاتِه﴾ [الطلاق: ٥] ﴿ومَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِن أمْـره يُسْراً﴾ [الطلاق: ٤]: ﴿ومَن يُطِعِ اللهَ والـرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عليْهِم مِنَ النَّبِيين﴾ [النساء: ٦٩] ثم قال في التوكل: ﴿وَمَن يَتَوكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

فانظر إلىٰ هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره. وهذا يدل علىٰ

(١) ١٢٨ مدارج جـ٢.

أن التوكل أقوىٰ السبل عنده وأحبها إليه. وليس كونه وكل الأمور إلىٰ نفسه بمناف لتوكل العبد عليه. بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلىٰ نفسه. لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة: صارت حالة التوكل قطعاً على من هذا شأنه، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه، وأن العبد لا يملك شيئاً منها. فهو لا يجد بدًّا من اعتماده عليه، وتفويضه إليه، وثقته به من الوجهين: من جهة فقره، وعدم ملكه شيئاً ألبتة. ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه. والتوكل ينشأ من هذين العلمين.

فإن قيل: فإذا كان الأمر كله لله، وليس للعبد من الأمر شيء، فكيف يوكل المالك على ملكه؟ وكيف يستنيبه فيما هو ملك له، دون هذا الموكل؟ فالخاصة لما تحققوا هذا نزلوا عن مقام التوكل وسلموه إلىٰ العامة. وبقي الخطاب بالتوكل لهم دون الخاصة. قيل: لما كان الأمر كله لله ـ عز وجل ـ وليس للعبد فيه شيء البتة. كان توكله على الله تسليم الأمر إلىٰ من هو له، وعزل نفسه من منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به، إلىٰ تصرفه بربه، وكونه به ـ سبحانه ـ دون نفسه. وهذا مقصود التوكل.

وأما عزل العبد نفسه عن مقام التوكل: فهو عزل لها عن حقيقة العبودية.

وأما توجه الخطاب به إلىٰ العامة: فسبحان الله! هل خاطب الله بالتوكل في كتابه إلا خواص خلقه، وأقربهم إليه، وأكرمهم عليه؟ وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكلين، والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه.

وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل. فمن لا توكل له: لا إيمان له، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وعَلَىٰ الله فَتَوَكَّلُوا إنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة: ٢٣] وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وعَلَى الله فَلْيَتَوكَّل الْمؤْمِنُونَ**﴾ [إبراهيم: ١١] وقال ـ تعالى ـ: ﴿**إنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذيْنَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإذَا تُلِيَتْ عَلَيهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيْمَاناً وعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [الأنفال: ٢] وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة. وأخبر ـ تعالىٰ ـ عن رسله بأن التوكل ملجأهم ومعاذهم. وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه. وقال: ﴿**وقال مُوسىٰ يا قَوم إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ باللهِ فَعَلَيهِ تَوَكَّلُوا إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا**﴾ [يونس: ٨٤، ٨٥] فكيف يكون من أوهى السبل، وهذا شأنه؟ والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل(١)

والفرق بين التوكل والعجز: أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله، وثقة به، والتجاء إليه، وتفويضاً إليه، ورضاً بما يقضيه له لعلمه بكفايته ـ سبحانه ـ وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم المتوكلين، وكان يلبس لامته ودرعه، بل ظاهر يوم أحد بين درعين، واختفىٰ في الغار ثلاثة فكان متوكلاً في السبب، لا على السبب.

وأما العجز فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما، فإما أن يعطل السبب عجزاً منه، ويزعم أن ذلك توكل ولعمر الله أنه لعجز وتفريط، وإما أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر، ولم يعلق قلبه به تعلقاً تامًّا بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب فهذا توكله عجز وعجزه توكل.

وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطاً (فأحد الطرفين) عطل الأسباب محافظة على التوكل (والثاني) عطل التوكل محافظة على السبب (والوسط) علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكل على الله في نفس السبب، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور ومخدوع متمن كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل في حصول الولد، وعطل الحرث والبذور وتوكل في حصول الزرع، وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والري، فالتوكل نظير الرجاء، والعجز نظير التمني، فحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلاً له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره. والرب ـ سبحانه ـ قد أمر عبده بالاحتيال، وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعىٰ ويطلب رزقه في ضمان ذلك، كما قدره ـ سبحانه ـ ودبره واقتضته حكمته، وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه، وأخبره أنه ـ سبحانه ـ الملي بالوكالة الوفي بالكفالة. فالعاجز من رمىٰ هذا كله وراء ظهره، وقعد كسلان، طالباً للراحة،

(١) ٣١٠ الروح.

مؤثراً للدعة، يقول: الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، وسيأتيني ما قدر لي على ضعفي، ولن أنال ما لم يقدر لي مع قوتي، ولو أني هربت من رزقي كما أهرب من الموت للحقني، فيقال له: نعم هذا كله حق، وقد علمت أن الرزق مقدر، فما يدريك كيف قدر لك، بسعيك أم بسعي غيرك، وإذا كان بسعيك فبأي سبب ومن أي وجه، وإذا خفي عليك هذا كله، فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفواً بلا سعي ولا كد، فكم من شيء سعيت فيه فقدر لغيرك، وكم من شيء سعىٰ فيه غيرك فقدر لك رزقاً! فإذا رأيت هذا عياناً فكيف علمت أن رزقك كله بسعي غيرك؟ وأيضاً فهذا الذي أوردته عليك النفس يجب عليك طرده في جميع الأسباب مع مسبباتها حتىٰ في أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فهل تعطلها اعتماداً على التوكل أم تقوم بها مع التوكل؟ بلىٰ لن تخلو الأرض من متوكل: صبر نفسه لله، وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب فسكن قلبه إلىٰ الله، واطمأن إليه، ووثق به، وكان هذا من أقوىٰ أسباب حصول رزقه، فلم يعطل السبب، وإنما رغب عن سبب إلىٰ سبب أقوىٰ منه فكان توكله أوثق الأسباب عنده، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه، وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك أو من كماله، فلم يتسع قلبه للأمرين، فأعرض عن أحدهما إلىٰ الآخر، ولا ريب أن هذا أكمل حالاً ممن امتلأ قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه، وأكمل منهما من جمع الأمرين، وهي حال الرسل والصحابة، فقد كان زكريا نجاراً، وقد أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتماداً على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين. ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم؟ وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل وعمروا أموالهم وأصلحوها وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت اقتداء بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله .

[1]فصل وأما عدة الآيسة والتي لم تحض

فقد بينها ـ سبحانه ـ في كتابه، فقال: ﴿**وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن**

(١) ٣٩٩ زاد المعاد جـ٤ .

نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤] وقد اضطرب الناس في حد الإياس اضطراباً شديداً: فمنهم من حَدَّه بخمسين سنة. وقال: لا تحيض المرأة بعد الخمسين. وهذا قول إسحاق، ورواية عن أحمد. واحتج أرباب هذا القول بقول عائشة: «إذا بلغت خمسين خرجت من حد الحيض» وحَدَّه طائفة بستين سنة. وقالوا: لا تحيض بعد الستين. وهذه رواية ثانية عن أحمد. وعنه رواية ثالثة: الفرق بين نساء العرب وغيرهم. فحده ستون في نساء العرب، وخمسون في نساء العجم. وعنه رواية رابعة: أن ما بين الخمسين والستين دم مشكوك فيه. تصوم وتصلي، وتقضي الصوم المفروض. هذا اختيار الخرقي. وعنه رواية خامسة: أن الدم إن عاد بعد الخمسين وتكرر فهو حيض، وإلا فلا. وأما الشافعي: فلا نص له في تقدير الإياس بمدة. وله قولان بعد. أحدهما: أنه يعرف بإياس أقاربها. والثاني: أنه يعتبر بإياس جميع النساء، فعلى القول الأول: هل المعتبر جميع أقاربها، أو نساء عصباتها، أو نساء بلدها خاصة؟ فيه ثلاثة أوجه، ثم إذا قيل: يعتبر بالأقارب: فاختلفت عادتهن: هل يعتبر بأقلهن عادة منهن، أو بأكثرهن، أو بأقصر امرأة في العالم عادة؟ على ثلاثة أوجه، والقول الثاني للشافعي: أن المعتبر جميع النساء، ثم اختلف أصحابه: هل لذلك حد أم لا؟ على وجهين. أحدهما: ليس له حد. وهو ظاهر نصه. والثاني: له حد. ثم اختلفوا فيه على وجهين. أحدهما: أنه ستون سنة. قاله أبو العباس بن القاص، والشيخ أبو حامد. والثاني: اثنان وستون. قاله الشيخ أبو إسحاق في المهذب، وابن الصباغ في الشامل. وأما أصحاب مالك: فلم يحدوا سن اليأس بحد ألبتة.

وقال آخرون - منهم شيخ الإسلام ابن تيمية -: اليأس مختلف باختلاف النساء، وليس له حد يتفق عليه في النساء. والمراد بالآية: أن إياس كل امرأة من نفسها، لأن اليأس ضد الرجاء. فإذا كانت المرأة قد يئست من الحيض ولم ترجه: فهي آيسة، وإن كان لها أربعون، أو نحوها، وغيرها: لا تيأس منه، وإن كان لها خمسون. وقد ذكر الزبير بن بكار: أن بعضهم قال: لا تلد لخمسين سنة إلا عربية، ولا تلد لستين سنة إلا قرشية. وقال: «إن هند بنت أبي عبيدة بن عبيد الله بن ربيعة ولدت موسىٰ بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن

أبي طالب ولها ستون سنة» وقد صح عن عمر بن الخطاب في امرأة طلقت فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم ارتفع حيضها: لا تدري ما رفعه «أنها تتربص تسعة أشهر. فإن استبان بها حمل، وإلا اعتدت ثلاثة أشهر» وقد وافقه الأكثرون على هذا، منهم مالك، وأحمد، والشافعي، في القديم. قالوا: تتربص غالب مدة الحمل، ثم تعتد عدة الآيسة، ثم تحل للأزواج، ولو كانت بنت ثلاثين سنة أو أربعين. وهذا يقتضي أن عند عمر بن الخطاب، ومن وافقه من السلف والخلف تكون المرأة عندهم آيسة قبل الخمسين، وقبل الأربعين. وأن اليأس عندهم ليس وقتاً محدوداً للنساء. بل مثل هذه تكون آيسة، وإن كانت بنت ثلاثين، وغيرها لا تكون آيسة، وإن بلغت الخمسين. وإذا كانوا فيمن ارتفع حيضها - ولا تدري ما رفعه - جعلوها آيسة بعد تسعة أشهر، فالتي تدري ما رفعه - إما بدواء يعلم أنه لا يعود معه، وإما بعادة مستقرة لها من أهلها وأقاربها - أولى أن تكون آيسة، وإن لم تبلغ الخمسين. وهذا بخلاف ما إذا ارتفع لمرض، أو رضاع، أو حمل. فإن هذه ليست آيسة. فإن ذلك يزول.

فالمراتب ثلاث. أحدها: أن ترتفع ليأس معلوم متيقن، بأن تنقطع عاماً بعد عام، ويتكرر انقطاعه أعواماً متتابعة. ثم يطلق بعد ذلك. فهذه تتربص ثلاثة أشهر بنص القرآن. سواء كانت بنت أربعين، أو أقل أو أكثر. وهي أولى بالتربص بثلاثة أشهر من التي حكم فيها الصحابة والجمهور بتربصها تسعة أشهر، ثم ثلاثة. فإن تلك كانت تحيض وطلقت وهي حائض، ثم ارتفع حيضها بعد طلاقها، لا تدري ما رفعه؟ فإذا حكم فيها بحكم الآيسات بعد انقضاء غالب مدة الحمل، فكيف بهذه؟ ولهذا قال القاضي إسماعيل في أحكام القرآن: إذا كان الله ـ سبحانه ـ قد ذكر اليأس مع الريبة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ**﴾ [الطلاق: ٤] ثم جاء عن عمر بن الخطاب لفظ موافق لظاهر القرآن، لأنه قال: «أيما امرأة طلقت، فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم ارتفعت حيضتها، لا تدري ما رفعها. فإنها تنتظر تسعة أشهر، ثم تعتد ثلاثة أشهر» فلما كانت لا تدري ما الذي رفع الحيضة: كانت موضع الارتياب، فحكم فيها بهذا الحكم. وكان اتباع ذلك ألزم وأولى من قول من يقول:

إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، فيرتفع حيضها وهي شابة: أنها تبقىٰ ثلاثين سنة معتدة. وإن جاءت بولد لأكثر من سنتين: لم يلزمه. فخالف ما كان من إجماع المسلمين الذين مضوا، لأنهم كانوا مجمعين على أن الولد يلحق بالأب ما دامت المرأة في عدتها. فكيف يجوز أن يقول قائل: إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، ويكون بينها وبين زوجها أحكام الزوجات ما دامت في عدتها، من الموارثة وغيرها، فإن جاءت بولد لم يلحقه؟ وظاهر عدة الطلاق: أنها جعلت من الدخول الذي يكون منه الولد. فكيف تكون المرأة معتدة والولد لا يلزم؟

قلت: هذا إلزام منه لأبي حنيفة، فإن عنده أقصر مدة الحمل سنتان، والمرتابة في أثناء عدتها لا تزال في عدة حتى تبلغ سن اليأس، فتعتد به، وهو يلزم الشافعي في قوله الجديد سواء، إلا أن مدة الحمل عنده أربع سنين. فإذا جاءت به بعدها لم يلحقه، وهي في عدتها منه، قال القاضي إسماعيل: واليأس يكون بعضه أكثر من بعض، وكذلك القنوط، وكذلك الرجاء، وكذلك الظن، ومثل هذا يتسع الكلام فيه، فإذا قيل: منه شيء أنزل على قدر ما يظهر من المعنىٰ فيه، فمن ذلك أن الإنسان يقول: قد يئست من مريضي، إذا كان الأغلب عنده: أنه لا يبرأ، ويئست من غائبي إذا كان الأغلب عنده: أنه لا يقدم، ولو قال: إذا مات غائبه، أو مات مريضه، قد يئست منه: لكان الكلام عند الناس على غير وجهه، إلا أن يتبين معنى ما قصد له في كلامه، مثل أن يقول: كنت وَجلاً في مرضه، مخافة أن يموت، فلما مات وقع اليأس، فينصرف الكلام على هذا وما أشبهه، إلا أن أكثر ما يلفظ باليأس: إنما يكون فيما هو الأغلب عند اليأس أنه لا يكون. وليس واحداً من اليأس. والطامع يعلم يقيناً أن ذلك الشيء يكون، أو لا يكون، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿والقَوَاعِدُ مِنَ النِّساءِ اللَّاتي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فلَيْسَ عَلَيهِنَّ جُناحٌ أنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غيرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠] والرجاء ضد اليأس، والقاعدة من النساء: قد يمكن أن تتزوج. غير أن الأغلب عند اليأس فيها: أن الأزواج يرغبون عنها، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨] والقنوط: شبه اليأس، وليسوا يعلمون يقيناً أن المطر لا يكون، ولكن اليأس داخلهم حين تطاول إبطاؤه، وقال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿حَتَّىٰ إذَا اسْتَيْأَسَ

الرُّسُلُ وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنا﴾ [يوسف: ١١٠] فلما ذكر أن الرسل هم الذين استيأسوا كان فيه دليل على أنهم قد دخل قلوبهم يأس من غير يقين استيقنوه، لأن اليقين في ذلك إنما يأتيهم من عند الله، كما قال في قصة نوح: **﴿فلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾** [هود: ٣٦] وقال الله تعالىٰ في قصة إخوة يوسف: **﴿فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾** [يوسف: ٨٠] فدل الظاهر على أن يأسهم ليس بيقين، وقد حدثنا ابن أبي أويس، حدثنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه، أن عمر بن الخطاب كان يقول في خطبته يعلمهم «أيها الناس، إن الطمع فقر، وإن اليأس غني، وإن المرء إذا يئس من شيء استغنىٰ عنه» فجعل عمر اليأس بإزاء الطمع.

وسمعت أحمد بن المعدل ينشد شعراً لرجل من القدماء يصف ناقة:

صفـراء من تِلْدِ بني العبـاس ضُرتهـا كالظبي في الكنـاس
تَـدِرُّ أم تسمـع بالإيسـاس فالنفس بين طمع ويـاس

فجعل الطمع بإزاء اليأس، حدثنا سليمان بن حرب حدثنا جرير بن حازم عن الأعمش عن سلام عن شرحبيل، قال: سمع حية بن خالد وسواء بن خالد: أنهما أتيا النبي ﷺ فقالا: علمنا شيئاً، ثم قال: «**لا تيأسا من الخير ما تهزهزت رءوسكما، فإن كل عبد يولد أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ويعطيه** » وحدثنا علي بن عبد الله حدثنا ابن عيينة قال: قال هشام بن عبد الملك لأبي حازم: «**يا أبا حازم، ما مالك؟** قال: خير مالي ثقتي بالله، ويأسي مما في أيدي الناس» قال: وهذا أكثر من أن يحصى، انتهىٰ.

قال شيخنا: وليس للنساء في ذلك عادة مستمرة، بل فيهن من لا تحيض وإن بلغت، وفيهن من تحيض حيضاً يسيراً يتباعد ما بين أقرائها، حتىٰ تحيض في السنة مرة، ولهذا اتفق العلماء علىٰ أن أكثر الطهر - بين الحيضتين - لا حد له، وغالب النساء يحضن كل شهر مرة. ويحضن ربع الشهر، ويكون طهرهن ثلاثة أرباعه، ومنهن من تطهر الشهور المتعددة لقلة رطوبتها، ومنهن من يسرع إليها الجفاف فينقطع حيضها وتيأس منه، وإن كان لها دون الخمسين، بل والأربعين، ومنهن من لا يسرع إليها الجفاف، فتجاوز الخمسين وهي تحيض، قال: وليس في الكتاب ولا السنة تحديد اليأس بوقت، ولو كان المراد بالآيسة من المحيض مَنْ لها

خمسون سنة، أو ستون سنة، أو غير ذلك لقيل: واللائي يبلغن من السن كذا وكذا، ولم يقل «يئسن» وأيضاً: فقد ثبت عن الصحابة أنهم جعلوا من ارتفع حيضها قبل ذلك يائسة كما تقدم، والوجود مختلف في وقت يأسهن، غير متفق. وأيضاً: فإنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿واللَّائي يئِسْنَ﴾ [الطلاق: ٤] ولو كان له وقت محدود لكانت المرأة وغيرها سواء في معرفة يأسهن، وهو ـ سبحانه ـ قد خص النساء بأنهن اللائي يئسن كما خصهن بقوله: ﴿واللَّائي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤] فالتي تحيض هي التي تيأس: وهذا بخلاف الارتياب، فإنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿إن ارْتَبْتُمْ﴾ [الطلاق: ٤] ولم يقل: إن أرتبتن، أي إن أرتبتم في حكمهن وشككتم فيه. فهو هذا.

هذا هو الذي عليه جماعة أهل التفسير، كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث جرير وموسىٰ بن أعين - واللفظ له - عن مطرف بن طريف عن عمر بن سالم عن أبيٍّ بن كعب قال: «قلت: يا رسول الله إن ناساً بالمدينة يقولون في عِدَدِ النساء ما لم يذكر الله في القرآن: الصغار والكبار وأولات الأحمال، فأنزل الله ـ سبحانه ـ في هذه السورة ﴿واللَّائِي يئِسْنَ مِنَ المحِيض مِن نِّسائِكُم إنِ ارْتَبْتُم فعِدَّتُهُنَّ ثلاثةُ أشْهُر واللَّائي لَمْ يحِضْنَ وَأولاتُ الأحْمالِ أجَلُهُنَّ أن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] فأجل إحداهن أن تضع حملها، فإذا وضعت فقد قضت عدتها، ولفظ جرير «قلت: يا رسول الله، إن ناساً من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء، قالوا: لقد بقي من عدد النساء عدد لم يذكرن في القرآن: الصغار والكبار واللاتي انقطع عنهن الحيض، وذوات الحمل، قال: فأنزلت التي فى النساء القصرىٰ ﴿واللَّائي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيْضِ مِن نِّسَائِكُمْ إن ارْتَبْتُمْ﴾» ثم روي عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿واللائي يَئِسْن مِنَ الْمَحِيْضِ من نِّسائِكُمْ﴾ يعني «الآيسة العجوز التي لا تحيض، أو المرأة التي قعدت عن الحيضة، فليست هذه من القروء في شيء» وفي قوله: ﴿إنِ ارْتَبْتُمْ﴾ في الآية، يعني «إن شككتم فعدتهن ثلاثة أشهر» وعن مجاهد ﴿إن ارتبتم﴾ «لم تعلموا عدة التي قعدت عن الحيض، أو التي لم تحض فعدتهن ثلاثة أشهر، فقوله تعالى: ﴿إن ارتبتم﴾ يعني إن سألتم عن حكمهن، ولم تعلموا حكمهن وشككتم فيه: فقد بيناه لكم، فهو بيان لنعمته على مَنْ طلب ذلك، ليزول ما عنده من الشك والريب، بخلاف

المعرض عن طلب العلم.

وأيضاً: فإن النساء لا يستوين في ابتداء الحيض، بل منهن من تحيض لعشر، أو اثنتي عشرة، أو خمس عشرة، أو أكثر من ذلك، فلذلك لا يستوين في آخر سن الحيض الذي هو سن اليأس، والوجود شاهد بذلك. وأيضاً فإنهم تنازعوا فيمن بلغت ولم تحض: هل تعتد بثلاثة أشهر، أو بالحول، كالتي ارتفع حيضها. ولا تدري ما رفعه؟ وفيه روايتان عن أحمد.

قلت: والجمهور على أنها تعتد بثلاثة أشهر، ولم يجعلوا للصغر الموجب للاعتداد بها حدًّا، فكذلك يجب أن لا يكون للكبر الموجب للاعتداد بالشهور حدًّا، وهو ظاهر. ولله الحمد.

فصل وأما عدة الوفاة: فتجب بالموت

سواء دخل بها أو لم يدخل اتفاقاً. كما دل عليه عموم القرآن والسنة. واتفقوا على أنهما يتوارثان قبل الدخول، وعلى أن الصداق يستقر إذا كان مسمى؛ لأن الموت لما كان انتهاء للعقد وانقضاء له. استقرت به الأحكام، فتوارثا، واستقر المهر، ووجبت العدة.

واختلفوا في مسألتين. إحداهما: وجوب مهر المثل، إذا لم يكن المهر مسمىٰ. فأوجبه أحمد وأبو حنيفة والشافعي في أحد قوليه. ولم يوجبه مالك والشافعي في القول الآخر. وقضىٰ بوجوبه رسول الله ﷺ. كما جاء في السنة الصحيحة الصريحة من حديث بَرْوَع بنت واشِق. وقد تقدم. ولو لم ترد به السنة لكان هو محض القياس. لأن الموت أجرى مجرى الدخول في تقرير المسمىٰ، ووجوب العدة. والمسألة الثانية: هل يثبت تحريم الربيبة بموت الأم، كما ثبت بالدخول بها؟ وفيه قولان للصحابة. وهما روايتان عن أحمد.

والمقصود: أن العدة فيه ليست للعلم ببراءة الرحم؛ فإنها تجب قبل الدخول، بخلاف عدة الطلاق. وقد اضطرب الناس في حكمة عدة الوفاة وغيرها: فقيل: هي لبراءة الرحم. وأورد على هذا القول وجوه كثيرة. منها: وجوبها قبل الدخول في الوفاة. ومنها: أنها ثلاثة قروء، وبراءة الرحم يكفي فيها حيضة، كما في المستبرأة. ومنها: وجوب ثلاثة أشهر في حق من يُقطع ببراءة رحمها لصغرها أو

كبرها. ومن الناس من يقول: هو تعبد لا يعقل معناه. وهذا فاسد، لوجهين:

أحدهما: أنه ليس في الشريعة حكم إلا وله حكمة: وإن لم يعقلها كثير من الناس أو أكثرهم. الثاني: أن العِدَدَ ليست من العبادات المحضة. بل فيها من المصالح رعاية حق الزوجين، والولد، والناكح.

قال شيخنا: والصواب أن يقال: إن عدة الوفاة هي حرم لانقضاء النكاح ورعاية لحق الزوج. ولهذا تُحِدُّ المتوفى عنها في عدة الوَفاة رعاية لحق الزوج. فجعلت العدة حريماً لحق هذا العقد الذي له خطر وشأن. فيحصل بها فصل بين نكاح الأول ونكاح الثاني. ولا يتصل النكاحان. ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما عظم حقه: حرم نساؤه بعده؟ وبهذا اختص الرسول. لأن أزواجه في الدنيا هن أزواجه في الآخرة، بخلاف غيره. فإنه لو حرم على المرأة أن تتزوج بغير زوجها لتضررت المتوفى عنها. وربما كان الثاني خيراً لها من الأول، ولكن لو تأيمت على أولادها من الأول لكانت محمودة على ذلك مستحبًّا لها. وفي الحديث «**أنا وامرأة سَفْعَاء الخدين كهاتين يوم القيامة**» - وأَوْمَأَ بالوسطى والسبابة - امرأة تأيمت من زوجها ذات منصب وجمال، وحبست نفسها على يتامى لها، حتى بانوا أو ماتوا. وإذا كان المقتضى لتحريمها قائماً فلا أقل من مدة تربصها. وقد كانت في الجاهلية تتربص سنة، فخففها الله ـ سبحانه ـ بأربعة أشهر وعشر. وقيل لسعيد بن المسيب: ما بال العشر؟ قال: «فيها ينفخ الروح» فيحصل بهذه المدة براءة الرحم حيث يحتاج إليه، وقضاء حق الزوج إذا لم يحتج إلىٰ ذلك.

فصل وأما عدة الطلاق: فهي التي أشكلت

فإنها لا يمكن تعليلها بذلك؛ لأنها إنما تجب بعد المَسِيس، ولأن الطلاق قطع للنكاح. ولهذا يتنصف فيه المسمى. ويسقط فيه مهر المثل.

فيقال - والله الموفق للصواب -: عدة الطلاق وجبت ليتمكن الزوج فيها من الرجعة. ففيها حق للزوج، وحق لله، وحق للولد، وحق للناكح الثاني. فحق الزوج: ليتمكن من الرجعة في العدة. وحق الله: لوجوب ملازمتها المنزل، كما نص عليه سبحانه. وهو منصوص أحمد ومذهب أبي حنيفة، وحق الولد: لئلا يضيع نسبه، ولا يدري لأي الواطئين. وحق المرأة: لما لها من النفقة زمن العدة،

لكونها زوجة ترث وتورث.

ويدل على أن العدة حق للزوج: قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩] فقوله: ﴿فمالكم عليهن من عدة﴾ دليل على أن العدة للرجل على المرأة وأيضًا فإنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فجعل الزوج أحق بردها في العدة. وهذا حق له، فإذا كانت العدة ثلاثة قروء وثلاثة أشهر: طالت مدة التربص، لينظر في أمره: هل يمسك ويفيء أو يطلق؟ وكان تخيير المطلق كتخيير المولى. لكن المولى جعل له أربعة أشهر، كما جعل مدة التسيير أربعة أشهر[1]، لينظروا في أمرهم.

ومما يبين ذلك أنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وبلوغ الأجل: هل الوصول والانتهاء. وبلوغ الأجل في هذه الآية مجاوزته. وفي قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] مقاربته ومشارفته. ثم فيه قولان. أحدهما: أنه حد من الزمان. وهو الطعن في الحيضة الثالثة، أو انقطاع الدم منها، أو من الرابعة، وعلى هذا: فلا يكون مقدوراً لها، وقيل: بل هو فعلها. وهو الاغتسال، كما قاله جمهور الصحابة. وهذا كما أنه بالاغتسال يحل للزوج وطؤها. ويحل لها أن تمكنه من نفسها، فالاغتسال عندهم شرط في النكاح الذي هو العقد. وفي النكاح الذي هو الوطء، وللناس في ذلك أربعة أقوال.

أحدها: أنه ليس شرطاً، لا في هذا ولا في هذا، كما يقوله من يقوله من أهل الظاهر.

والثاني: أنه شرط فيهما، كما قاله أحمد وجمهور الصحابة كما تقدم حكايته عنهم.

والثالث: أنه شرط في نكاح الوطء لا في نكاح العقد. كما قاله مالك والشافعي.

والرابع: أنه شرط فيهما، أو ما يقوم مقامه، وهو الحكم بالطهر بمقتضىٰ وقت صلاة وانقطاعه لأكثره، كما يقوله أبو حنيفة. فإذا ارتجعها قبل غسلها لأجل وطئه لها وإلا كان لأجل حلها لغيره، وبالاغتسال يتحقق كمال الحيض وتمامه، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ

(١) في قوله في سورة براءة: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾.

أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] والله ـ سبحانه ـ أمرها أن تتربص ثلاثة قروء. فإذا مضت الثلاثة فقد بلغت أجلها، وهو ـ سبحانه ـ لم يقل: إنها عقيب القرأين تبين من الزوج، بل خيرَّ الزوج عند بلوغ الأجل بين الإمساك والتسريح. فظاهر القرآن ما فهمه الصحابة: أنه عند انتهاء القروء الثلاثة: يخير الزوج بين الإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان. وعلى هذا: فيكون بلوغ الأجل في القرآن واحداً لا يكون قسمين. بل يكون باستيفاء المدة واستكمالها. وهذا كقوله ـ تعالىٰ ـ إخباراً عن أهل النار: **﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾** [الأنعام: ١٢٨] وقوله: **﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُم فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾** [البقرة: ٢٣٤] وإنما حمل من قال: «إن بلوغ الأجل هو مقارنته» أنها بعد أن تحل للخطَّاب لا يبقى الزوج أحق برجعتها. وإنما يكون أحق بها ما لم تحل لغيره، فإذا حل لغيره أن يتزوجها صار هو خاطباً من الخطاب. ومنشأ هذا: ظن أنها ببلوغ الأجل تحل لغيره. والقرآن لم يدل على هذا، بل القرآن جعل عليها أن تتربص ثلاثة قروء، وذكر أنها إذا بلغت أجلها فإما أن تمسَك بمعروف، وإما أن تُسَرح بإحسان.

وقد ذكر ـ سبحانه ـ هذا الإمساك أو التسريح عقيب الطلاق، فقال: **﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾** [البقرة: ٢٢٩] ثم قال: **﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾** [البقرة: ٢٣٢] وهذا هو تزويجها بزوجها الأول المطلق الذي كان أحق بها. فالنهي عن عَضْلهن مؤكد لحق الزوج، وليس في القرآن أنها بعد بلوغ الأجل تحل للخطاب، بل فيه: أنه في هذه الحال إما أن يمسك بمعروف، أو يسرح بإحسان. فإن سرح بإحسان حلت حينئذ للخطاب.

وعلى هذا: فدلالة القرآن بينت أنها إذا بلغت أجلها، وهو انقضاء ثلاثة قروء بانقطاع الدم، فإما أن يمسكها قبل أن تغتسل فتغتسل عنده، وإما أن يسرحها، فتغتسل وتنكح من شاءت. وبهذا يعرف قدر فهم الصحابة، وأن من بعدهم إنما يكون غاية اجتهاده أن يفهم ما فهموه ويعرف ما قالوه.

فإن قيل: فإذا كان له أن يرتجعها في جميع هذه المدة ما لم تغتسل، فلم قيد التخيير ببلوغ الأجل؟ قيل: ليتبين أنها في مدة العدة كانت متربصة لأجل حق

الـزوج. والتربص الانتظار، وكانت منتظرة: هل يمسكها، أو يسرحها؟ وهذا التخيير ثابت له من أول المدة إلىٰ آخرها، كما خير المولى بين الفيئة وعدم الطلاق، وهنا لما خيره عند بلوغ الأجل كان تخييره قبله أولى وأحرى، لكن التسريح إنما يمكن إذا بلغت الأجل، وقبل ذلك هي في العدة، وقد قيل: إن تسريحها بإحسان مؤثر فيها حين تنقضي العدة، ولكن ظاهر القرآن يدل على خلاف ذلك. فإنه ـ سبحانه ـ جعل التسريح بإحسان عند بلوغ الأجل. ومعلوم أن هذا الترك ثابت من أول المدة. فالصواب: أن التسريح إرسالها إلىٰ أهلها بعد بلوغ الأجل ورفع يده عنها. فإنه كان يملك حبسها مدة العدة. فإذا بلغت أجلها فحينئذ إن أمسكها كان له حبسها، وإن لم يمسكها كان عليه أن يسرحها بإحسان. ويدل على هذا قوله ـ تعالىٰ ـ في المطلقة قبل المسيس ﴿فَمَا لَكُم عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهَنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٩] فأمر بالسراح الجميل، ولا عدة. فعلم أن تخلية سبيلها: إرسالها، كما يقال: سَرّح الماء والناقة: إذا مكنهما من الذهاب وبهذا الإطلاق والسراح يكون قد تم تطليقها وتخليتها، وقبل ذلك لم يكن الإطلاق تامًّا، وكان له أن يمسكها وأن يسرحها، وكان مع كونه مطلقاً قد جُعل أحق بها من غيره مدة التربص، وجعل التربص ثلاثة قروء لأجله.

ويؤيد هذا أشياء أحدها: أن الشارع جعل عدة المختلعة حيضة، كما ثبت بالسنة: وأقر به عثمان بن عفان وابن عباس وابن عمر وحكاه أبو جعفر النحاس في ناسخه ومنسوخه: إجماع الصحابة وهو مذهب إسحاق وأحمد بن حنبل في أصح الراويتين عنه دليلاً كما سيأتي تقرير المسألة عن قريب إن شاء الله تعالىٰ.

(١)... ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُم مِّنْ وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦] ويقال: وجد فلان وجداً ووُجداً - بضم الواو وفتحها وكسرها - إذا صار ذا جدة وثروة. ووُجِد الشيء كذا وكذا، فهو موجود، وأوجده الله، ويقال: وجد الله الشيء كذا وكذا على غير معنى أوجده. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِن عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] فالله ـ سبحانه ـ أوجده على علمه، بأن يكون على صفة. ثم وجده بعد إيجاده على تلك الصفة التي علم أن سيكون عليها.

(١) ٤١٤ مدارج جـ٣.

وأما «الواجد» في أسمائه سبحانه: فهو بمعنى ذو الوُجد والغنى. وهو ضد الفاقد. وهو كالموسع ذي السَّعة. قال تعالىٰ: ﴿**والسَّماءَ بَنَيْنَاها بأيْدٍ وإنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾ [الذاريات:٤٧] أي ذوو سعة وقدرة وملك. كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَمَتِّعُوهُنَّ على المُوسِعِ قَدَرُه وَعَلى المُقْتِر قَدَرُه**﴾ [البقرة:٢٣٦] ودخل في أسمائه ـ سبحانه ـ: الواجد، دون «الموجد» فإن «الموجد» صفة فعل. وهو معطي الوجود. كالمحيي معطي الحياة وهذا الفعل لم يجيء إطلاقه في أفعال الله في الكتاب ولا في السنة. فلا يعرف إطلاق: أوجد الله كذا وكذا. وإنما الذي جاء «خلقه وبرَأه، وصَوَّره وأعطاه خلقه» ونحو ذلك. فلما لم يكن يستعمل فعله لم يجيء اسم الفاعل منه في أسمائه الحسنىٰ. فإن الفعل أوسع من الاسم. ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالاً لم يتسم منها بأسماء الفاعل. كأراد، وشاء، وأحدث. ولم يسم «بالمريد» و «الشائي» و «المحدث» كما لم يسم نفسه «بالصانع» و «الفاعل» و «المتقن» وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه. فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء.

وقد أخطأ - أقبح خطإ - من اشتق له من كل فعل اسما وبلغ بأسمائه زيادة على الألف. فسماه «الماكر، والمخادع، والفاتن، والكائد» ونحو ذلك. وكذلك باب الإخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به. فإنه يخبر عنه بأنه «شيء وموجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد» ولا يسمىٰ بذلك.

فأما «الواجد» فلم تجيء تسميته به إلا في حديث تعداد الأسماء الحسنىٰ. والصحيح: أنه ليس من كلام النبي ﷺ. ومعناه صحيح . . .

[١]...**الوجه** الرابع: وهو أن الله ـ سبحانه ـ نص في كتابه على إجارة الظئر، وسمىٰ ما تأخذه أجراً. وليس في القرآن إجارة منصوص عليها في شريعتنا إلا إجارة الظئر بقوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ**﴾ [الطلاق:٦]. قال شيخنا: وإنما ظن الظانّ أنها خلاف القياس، حيث توهم أن الإجارة لا تكون إلا على منفعة. وليس الأمر كذلك. بل الإجارة تكون على كل ما يستوفى مع بقاء أصله. سواء كان عيناً أو منفعة، كما أن هذه العين هي التي توقف وتُعار، فما استوفاه الموقوف عليه والمستعير بلا عوض، يستوفيه المستأجر

(١) ٥١٩ زاد المعاد جـ٤.

بالعوض. فلما كان لبن الظئر مستوفى مع بقاء الأصل جازت الإجارة عليه، كما جازت على المنفعة. وهذا محض القياس. فإن هذه الأعيان يحدثها الله شيئاً بعد شيء وأصلها باق، كما يحدث الله المنافع شيئاً بعد شيء وأصلها باق.

يوضحه الوجه الخامس: وهو أن الأصل في العقود: وجوب الوفاء، إلا ما حرمه الله ورسوله: فإن المسلمين على شروطهم إلا شرطًا أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً فلا يحرم من الشروط والعقود إلا ما حرم الله ورسوله. وليس مع المانعين نص بالتحريم البتة. وإنما معهم قياس قد علم بأن بين الأصل والفرع فيه من الفرق ما يمنع الإلحاق، وأن القياس الذي مع من أجاز ذلك أقرب إلىٰ مساواة الفرع الأصلي. وهذا ما لا حيلة فيه: وبالله التوفيق.

(1) فصل في فتواه ﷺ في نفقة المعتدة وكسوتها

ثبت أن فاطمة بنت قيس طلقها زوجها البتة، فخاصمته في السكن والنفقة إلىٰ رسول الله ﷺ قالت: لم يجعل لي سكنىٰ ولا نفقة. وفي السنن أن النبي ﷺ قال: «**يا بنت آل قيس إنما السكنىٰ والنفقة على من كانت له رجعة**»، ذكره أحمد.

وعنده أيضاً «**إنما السكنىٰ والنفقة للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنىٰ**». وفي صحيح مسلم عنها: طلقني زوجي ثلاثاً، فلم يجعل لي رسول الله ﷺ سكنىٰ ولا نفقة.

وفي رواية لمسلم أيضاً أن أبا عمرو بن حفص خرج مع علي - كرم الله وجهه - إلىٰ اليمن، فأرسل إلىٰ امرأته بتطليقة بقيت من طلاقها، وأمر عياش بن أبي ربيعة والحارث بن هشام أن ينفقا عليها، فقالا: والله ما لها نفقة، إلا أن تكون حاملاً، فأتت النبي ﷺ، فذكرت له قولهما، فقال: «**لا نفقة لك**» فاستأذنته في الانتقال، فأذن لها، فقالت له: أين يا رسول الله؟ فقال: «**عند ابن أم مكتوم**» وكان أعمىٰ، تضع ثيابها عنده ولا يراها، فلما مضت عدتها أنكحها النبي ﷺ أسامة بن زيد، فأرسل إليها مروان قبيصة بن ذؤيب يسألها عن الحديث، فحدثته، فقال: لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة، سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، فقالت فاطمة حين بلغها قولُ مروان: بيني وبينكم القرآن، قال - تعالى -: ﴿لا

(1) ٣٥٧ أعلام جـ٤.

تُخْرِجُوهُنَّ من بُيُوتِهِنَّ ولا يَخْرُجْنَ﴾ [الطلاق:١] الآية، قالت: هذا لمن كانت له مُرَاجعة، فأي أمر يحدث بعد الثلاث؟. وأفتىٰ النبي ﷺ بأن للنساء على الرجال رزقهن وكسوتهن بالمعروف، ذكره مسلم.

وسئل ﷺ: ما تقول في نسائنا؟ فقال: «**أَطْعِمُوهُنَّ مما تأكلون، واكسوهن مما تلبسون، ولا تضربوهن، ولا تقبحوهن**» ذكره مسلم.

وسألته ﷺ هند امرأة أبي سفيان فقالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، قال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**» متفق عليه.

فتضمنت هذه الفتوىٰ أموراً، أحدها: أن نفقة الزوجة غير مُقَدَّرة، بل المعروف ينفي تقديرها، ولم يكن تقديرها معروفاً في زمن رسول الله ﷺ ولا الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم. الثاني: أن نفقة الزوجة من جنس نفقة الولد كلاهما بالمعروف. الثالث: انفراد الأب بنفقة أولاده. الرابع: أن الزوج أو الأب إذا لم يبذل النفقة الواجبة عليه فللزوجة والأولاد أن يأخذوا قدر كفايتهم بالمعروف. الخامس: أن المرأة إذا قَدَرَتْ على أخذ كفايتها من مال زوجها لم يكن لها إلىٰ الفسخ سبيل. السادس: أن ما لم يقدره الله ورسوله من الحقوق الواجبة فالمرجع فيه إلى العرف. السابع: أن ذم الشاكي لخصمه بما هو فيه حال الشكاية لا يكون غيبة، فلا يأثم به هو ولا سامعه بإقراره عليه. الثامن: أن من منع الواجب عليه وكان سبب ثبوته ظاهراً فلمستحقه أن يأخذ بيده إذا قدر عليه، كما أفتىٰ به النبي ﷺ هنداً، وأفتىٰ به ﷺ الضيف إذا لم يَقْرِه مَنْ نزل عليه كما في سنن أبي دَاود عنه ﷺ أنه قال: «**ليلة الضيف حق على كل مسلم، فإن أصبح بفنائه محروماً كان ديناً عليه إن شاء اقتضاه وإن شاء تركه**» وفي لفظ «**مَنْ نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه**» وإن كان سبب الحق خفيًّا لم يجز له ذلك، كما أفتىٰ النبي ﷺ في قوله: «**أَدّ الأمانة إلىٰ من ائتمنك، ولا تخن من خانك**».

(١)**قال** تعالىٰ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦] وقال

---

(١) ٧٠ مفتاح جـ١.

تعالىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ قَدِيْرٌ وأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق:١٢].

فتضمنت هاتان الآيتان أنه ـ سبحانه ـ إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليعرف بأسمائه وصفاته وليعبد، فهذا المطلوب، وما كان طريقاً إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة، واللعنة واقعة على ما عداه إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه، وهذا هو متعلق العقاب في الآخرة، فإنه كما كان متعلق اللعنة التي تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب، والله ـ سبحانه ـ إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضىٰ إليه. وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده.

(١)**ولما** كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الأعمال ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكل والمحبة والإنابة والخشية والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة فإن قيل: فالعلم إنما هو وسيلة إلىٰ العمل ومراد له، والعمل هو الغاية، ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة، فكيف تفضل الوسائل على غايتها.

قيل كل من العلم والعمل ينقسم قسمين: منه ما يكون وسيلة، ومنه ما يكون غاية، فليس العلم كله وسيلة مراده لغيرها، فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ قديرٌ وأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شيء عِلْماً﴾ [الطلاق:١٢]. فقد أخبر ـ سبحانه ـ أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَاعْلَمْ أَنه لَا إِلٰـه إِلَا اللهُ﴾ [محمد:١٩] فالعلم بوحدانيته تعالىٰ وأنه لا إلـه إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفي به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يعرف الرب ـ تعالىٰ ـ بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن يعبد بموجبها ومقتضاها. فكما

(١) ١٧٨ مفتاح جـ١.

أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها فكذلك العلم به ومعرفته. وأيضاً فإن العلم من أفضل أنواع العبادات كما تقدم تقريره، فهو متضمن للغاية والوسيلة.

وقولكم: إن العمل غاية، إما أن تريدوا به العمل الذي يدخل فيه عمل القلب والجوارح أو العمل المختص بالجوارح فقط، فإن أريد الأول فهو حق وهو يدل على أن العلم غاية مطلوبة لأنه من أعمال القلب كما تقدم وإن أريد به الثاني وهو عمل الجوارح فقط فليس بصحيح، فإن أعمال القلوب مقصودة ومرادة لذاتها، بل في الحقيقة أعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها، فإن الثواب والعقاب والمدح والذم وتوابعها هو للقلب أصلاً وللجوارح تبعاً.

وكذلك الأعمال المقصودة بها أولاً صلاح القلب واستقامته وعبوديته لربه ومليكه وجعلت أعمال الجوارح تابعة لهذا المقصود مرادة له، وإن كان كثير منها مراداً لأجل المصلحة المترتبة عليه فمن أجلها صلاح القلب وزكاته وطهارته واستقامته، فعلم أن الأعمال منها غاية ومنها وسيلة، وأن العلم كذلك.

وأيضاً فالعلم الذي هو وسيلة إلىٰ العمل فقط إذا تجرد عن العمل لم ينتفع به صاحبه فالعمل أشرف منه.

وأما العلم المقصود الذي تنشأ ثمرته المطلوبة منه من نفسه فهذا لا يقال إن العمل المجرد أشرف منه، فكيف يكون مجرد العبادة البدنية أفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه في خلقه وأمره ومن العلم بأعمال القلوب وآفات النفوس والطرق التي تفسد الأعمال وتمنع وصولها من القلب إلىٰ الله، والمسافات التي بين الأعمال والقلب وبين القلب والرب تعالىٰ، وبما تقطع تلك المسافات إلىٰ غير ذلك من علم الإيمان وما يقويه وما يضعفه، فكيف يقال: إن مجرد التعبد الظاهر بالجوارح أفضل من هذا العلم، بل من قام بالأمرين فهو أكمل، وإذا كان في أحدهما فضل ففضل هذا العلم خير من فضل العبادة، فإذا كان في العبد فضلة عن الواجب كان صرفها إلىٰ العلم الموروث عن الأنبياء أفضل من صرفها إلىٰ مجرد العبادة، فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطلاق

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)حكم رسول الله ﷺ الذي بينه عن ربه تبارك وتعالى فيمن حرّم أمته أو زوجته أو متاعه

قال - تعالى -: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: ١، ٢] ثبت في الصحيحين أنه ﷺ شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش. فاحتالت عليه عائشة وحفصة، حتىٰ قال: «لن أعود له». وفي لفظ: «وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحدًا».

وفي سنن النسائي عن أنس «أن رسول الله ﷺ كانت لـه أمة يطؤها فلم تزل بـه عائشـة وحفصـة حتىٰ حرمها فأنزل الله - عز وجل - ﴿يا أيُّها النَّبِيُّ لِمَ تُحِرِّمُ مَا أحلَّ اللهُ لَكَ﴾».

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: «إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها. وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي جامـع الترمذي عن عائشة قالت: «آلىٰ رسول الله ﷺ من نسائه وحرم فجعل الحرام حلالاً. وجعل في اليمين كفارة» هكذا رواه مسلمة(٢) بن علقمة عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة. ورواه علي بن مسهر وغيره عن الشعبي عن النبي ﷺ مرسلاً. وهو أصح. انتهىٰ كلام أبي عيسىٰ.

وقولها: «جعل الحرام حلالاً» أي جعل الشيء الذي حرمه وهو «العسل، أو الجارية» حلالاً، بعد تحريمه إياه. وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الله بن هبيرة عن قبيصة بن ذؤيب قال: سألت زيد بن ثابت، وابن عمر عمن قال لامرأته «أنت عليَّ حرام؟ فقالا جميعاً: كفارة يمين».

وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن مسعود قال في التحريم: «هي يمين يكفرها». قال ابن حزم: وروي ذلك عن أبي بكر

(١) ١٤٣ زاد المعاد جـ٤.
(٢) في المطبوعة: «مسلم» والصواب ما أثبتناه كما عند الترمذي. المراجع.

الصديق وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما.

وقال الحجاج بن منهال: حدثنا جرير بن حازم قال: «سألت نافعاً مولى ابن عمر عن الحرام: أطلاق هو؟ قال: لا، أو ليس قد حرم رسول الله ﷺ جاريته، فأمره الله ـ عز وجل ـ أن يكفِّر عن يمينه، ولم يحرمها عليه. . . .

(١)فصل وأما من قال: إنه يمين مكفرة بكل حال

فمأخذ قوله: إن تحريم الحلال - من الطعام والشراب واللباس - يمين يكفر بالنص والمعنى وآثار الصحابة. فإن الله سبحانه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيْمٌ * قَدْ فَرَضَ اللهُ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: ١، ٢].

ولا بد أن يكون تحريم الحلال داخلاً تحت هذا الفرض، لأنه سببه. وتخصيص محل السبب من جملة العام ممتنع قطعاً، إذ هو المقصود بالبيان أو لا. فلو خص لخلا سبب الحكم عن البيان، وهو ممتنع، وهذا استدلال في غاية القوة.

فسألت عنه شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فقال: يعم التحريم، لكنه يمين كبرى في الزوجة، كفارتها كفارة الظهار، ويمين صغرى فيما عداها، كفارتها كفارة اليمين بالله، قال: وهذا معنىٰ قول ابن عباس وغيره من الصحابة ومن بعدهم «إن التحريم يمين تكفر». فهذا تحرير المذاهب في هذه المسألة نقلاً، وتقريرها استدلالاً. ولا يخفى على من آثر العلم والإنصاف، وجانب التعصب والاعتساف، ونُصرة ما بنى عليه من الأقوال: الراجحَ من المرجوح، والله المستعان.

فصل وقد تبين بما ذكرنا

أن من حرم شيئاً غير الزوجة، من الطعام، والشراب، واللباس، أو أمته: لم يحرم عليه بذلك، وعليه كفارة يمين، وفي هذا خلاف في ثلاثة مواضع:

أحدها: أنه لا يحرم، وهذا قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: يحرم تحريماً مقيداً، تزيله الكفارة، كما إذا ظاهر من امرأته، فإنه لا يحل له وطؤها حتىٰ يكفِّر، ولأن الله ـ سبحانه ـ سمىٰ الكفارة في ذلك تَحِلّة، وهي ما يوجب الحل، فدل على

(١) ١٥٢ زاد المعاد جـ٤.

ثبـوت التحريم قبلها، ولأنه سبحانه قال لنبيه ﷺ ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] ولأنه تحريم لما أبيح له، فيحرم بتحريمه، كما لو حرم زوجته.

ومنازعوه يقولون: إنما سميت الكفارة تَحِلَّة من الحَلِّ، الذي هو ضد العقد. لا من الحِلِّ الذي هو مقابل التحريم. فهي تحل اليمين بعد عقدها، وأما قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ الله لَكَ﴾ فالمراد: تحريم الأمة أو العسل ومنع نفسه منه، وذلك يسمى تحريماً. فهو تحريم بالقول لا إثبات للتحريم شرعاً.

وأما قياسه على تحريم الزوجة بالظهار، أو بقوله: «أنت علي حرام» فلو صح هذا القياس لوجب تقـديم التكفير على الحنث، قياساً على الظهار، إذ كان في معناه. وعندهم لا يجوز التكفير إلا بعد الحنث. فعلى قولهم: يلزم أحد أمرين ولا بد: إمـا أن يفعله حرامـاً، وقـد فرض الله تحلة اليمين. فيلزم كون المحرَّم مفروضاً، أو من ضرورة المفروض. لأنه لا يصل إلى التحلة إلا بفعل المحلوف عليه، أو إنه لا سبيل له إلىٰ فعله حلالاً، لأنه لا يجوز تقديم الكفارة، فيستفيد بها الحل. وإقدامه عليه - وهو حرام - ممتنع. هذا ما قيل في المسألة من الجانبين.

وبعدُ فلها غور، وفيها دقة وغموض. فإن من حرم شيئاً فهو بمنزلة من حلف بالله على تركه. ومن حلف على تركه: لم يجز له هتك حرمة المحلوف به بفعله إلا بالتزام الكفارة. فإذا التزمها جاز له الإقدام على فعل المحلوف عليه ويأذن له فيه. وإنما يأذن له فيه ويبيحه إذا التزم ما فرض الله من الكفارة. فيكون إذنه له فيه، وإباحته بعد امتناعه منه بالحلف أو التحريم: رخصة من الله له، ونعمة منه عليه، بسبب التزامه لحكمه الذي فرض له من الكفارة، فإذا لم يلتزمه بقى المنع الذي عقده على نفسه إصراً عليه. فإن الله إنما رفع الآصار عمن اتقاه والتزم حكمه. وقد كانت اليمين في شرع من قبلنا يتحتم الوفاء بها، ولا يجوز الحنث، فوسع الله على هذه الأمة، وجوز لها الحنث بشرط الكفارة، فإذا لم يكفر - لا قبلُ ولا بعد - لم يوسـع له في الحنث. فهذا معنى قوله: «إنه يحرم حتى يكفِّر» وليس هذا من مفردات أبي حنيفة، بل هو أحد القولين في مذهب أحمد. . . .

(١)**قال** تعالىٰ: ﴿وإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) ٧٦ التبيان.

والْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره وأعوانه ومعلمه فهو المهدي، والله هاديه وناصره.

(١)الباب الخامس عشر

* في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم *

قال الله ـ تعالىٰ ـ: **﴿يآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وأَهْلِيكُم ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ﴾** [التحريم: ٦]. قال علي رضي الله ـ عنه ـ: علموهم وأدبوهم. وقال الحسن: مروهم بطاعة الله، وعلموهم الخير.

وفي المسند وسنن أبي داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال رسول الله ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع**» ففي هذا الحديث ثلاثة آداب: أمرهم بها، وضربهم عليها، والتفريق بينهم في المضاجع.

وقد روى الحاكم عن أبي النضر الفقيه ثنا محمد بن حمويه ثنا أبي ثنا النصر بن محمد عن الثوري عن إبراهيم بن مهاجر عن عكرمة حدثنا ابن عباس عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**افتحوا على صبيانكم أول كلمة [بـ] لا إلـه إلا الله، ولقنوهم عند الموت: لا إلـه إلا الله**».

وفي تاريخ البخاري من رواية بشر بن يوسف عن عامر بن أبي عامر سمع أيوب بن موسىٰ القرشي عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن**»، قال البخاري: ولم يصح سماع جده من النبي.

وفي معجم الطبراني من حديث سماك عن جابر بن سمرة قال، قال رسول الله ﷺ: «**لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين**». وذكر البيهقي من حديث محمد بن الفضل بن عطية وهو ضعيف عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس قال: قالوا: يارسول الله! قد علمنا ما حق الوالد، فما حق الولد؟ قال: «**أن يحسن اسمه، ويحسن أدبه**».

قال سفيان الثوري: ينبغي للرجل أن يكره ولدِه على طلب الحديث فإنه

(١) ١٣٣ تحفة المودود.

مسئول عنه، وقال: إن هذا الحديث عِزٌّ، من أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها. وقال عبد الله بن عمر: أدب ابنك فإنك مسئول عنه، ماذا أدبته؟ وماذا علمته؟ وهو مسئول عن برك وطواعيته لك.

وذكر البيهقي من حديث مسلم بن إبراهيم حدثنا شداد بن سعيد عن الحريري عن أبي سعيد وابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «**من ولد له ولد، فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ فليزوجه، فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثماً، فإنما إثمه على أبيه**». وقال سعيد بن منصور حدثنا حزم قال سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله ـ تعالى ـ: ﴿**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ**﴾ [الفرقان: ٧٤] فقال يا أبا سعيد ما هذه القرة الأعين، أفي الدنيا أم في الآخرة؟ قال: لا. بل والله في الدنيا، قال وما هي؟: قال والله أن يُرِي اللهُ العبدَ من زوجته، من أخيه، من حميمه: طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلىٰ المرء المسلم من أن يرىٰ ولداً أو والداً أو حميماً أو أخاً مطيعاً لله عز وجل.

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث نافع عن ابن عمر قال، قال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**كلكم مسئول عن رعيته؛ فالأمير راع على الناس، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده، وهو مسئول عنه ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته**».

* فصل - ومن حقوق الأولاد العدل بينهم في العطاء والمنع *

ففي السنن ومسند أحمد وصحيح ابن حبان من حديث النعمان بن بشير قال، قال رسول الله ﷺ: «**اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم**». وفي صحيح مسلم أن امرأة بشير قالت: أنحل ابني غلاماً، وأشهد لي رسول الله ﷺ، فأتىٰ رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: إن ابنة فلان سألتني أن أنحل ابنها غلامي. قال: «**له إخوة؟**» قال: نعم، قال: «**كلهن أعطيت ما أعطيته؟**» قال: لا، قال: «**فليس يصلح هذا، وإني لا أشهد إلا على حق**». ورواه الإمام أحمد، وقال فيه: «**لا تشهدني على جور، إن لابنك عليك من الحق أن تعدل بينهم**».

وفي الصحيحين عن النعمان بن بشير أن أباه أتى به النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: إني نحلت ابني هذا غلاماً كان لي، فقال رسول الله ﷺ: «**أكل ولدك نحلت مثل هذا؟**» قال: لا، فقال: «**ارجعه**».

وفي رواية لمسلم - فقال: «**فعلت هذا بولدك كلهم؟**» قال: لا، قال: «**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم**»، فرجع أبي في تلك الصدقة.

وفي الصحيح: «**أشهد على هذا غيري**» وهذا أمر تهديد، لا إباحة، فإن تلك العطية كانت جوراً بنص الحديث، ورسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يأذن لأحد أن يشهد على صحة الجور، ومن ذا الذي كان يشهد على تلك العطية، وقد أبى رسول الله ﷺ أن يشهد عليها، وأخبر أنها لا تصلح، وأنها جور، وأنها خلاف العدل. ومن العجب أن يحمل قوله: «**اعدلوا بين أولادكم**» على غير الوجوب، وهو أمر مطلق مؤكد ثلاث مرات، وقد أخبر الآمر به أن خلافه جور، وأنه لا يصلح، وأنه ليس بحق، وما بعد الحق إلا الباطل، هذا والعدل واجب في كل حال فلو كان الأمر به مطلقاً لوجب حمله على الوجوب، فكيف وقد اقترن به عشرة أشياء تؤكد وجوبه فتأملها في ألفاظ القصة.

وقد ذكر البيهقي من حديث أبي أحمد بن عدي حدثنا القاسم بن مهدي حدثنا يعقوب بن كاسب حدثنا عبد الله بن معاذ عن معمر عن الزهري عن أنس: أن رجلاً كان جالساً مع النبي ﷺ فجاء بني له فقبله وأجلسه في حجره، ثم جاءت بنته فأخذها فأجلسها إلى جنبه، فقال ـ النبي عليه الصلاة والسلام ـ: «**فما عدلت بينهما**»، وكان السلف يستحبون أن يعدلوا بين الأولاد في الصلة.

وقال بعض أهل العلم: إن الله ـ سبحانه ـ يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده، فإنه كما أن للأب على ابنه حقًّا فللابن على أبيه حق، فكما قال تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً**﴾ [العنكبوت: ٨] قال تعالى: ﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ**﴾ [التحريم: ٦].

قال علي بن أبي طالب: علموهم وأدبوهم، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، وَبِذِي الْقُرْبَىٰ**﴾ [النساء: ٣٦].

وقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**اعدلوا بين أولادكم**»، فوصية الله

للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم، قال الله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدىً، فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغاراً فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كباراً، كما عاتب بعضهم ولده على العقوق، فقال: يا أبت إنك عققتني صغيراً فعققتك كبيراً، وأضعتني وليداً فأضعتك شيخاً.

فصل(١)

ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه، فإنه ينشأ عما عوده المربى في صغره من: حرد، وغضب، ولجاج، وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش، وحدّة، وجشع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز فضحته ولابد يوماً ما، ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم، وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها.

وكذلك يجب أن يجتنب الصبي إذا عقل: مجالس اللهو والباطل، والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء، فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر، وعز على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، يحتاج صاحبه إلىٰ استجداد طبيعة ثانية، والخروج عن حكم الطبيعة عسر جدًّا.

وينبغي لوليه أن يجنبه الأخذ من غيره غاية التجنب، فإنه متىٰ اعتاد الأخذ صار له طبيعة، ونشأ بأن يأخذ لا بأن يعطي، ويعوده البذل والإعطاء، وإذا أراد الولي أن يعطي شيئاً أعطاه على يده ليذوق حلاوة الإعطاء، ويجنبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السم الناقع، فإنه متىٰ سهل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعادة الدنيا والآخرة وحرمه كل خير.

ويجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة، بل يأخذه بأضدادها ولا يريحه إلا بما يجم نفسه وبدنه للشغل، فإن الكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة، إما في الدنيا وإما في العقبىٰ وإما فيهما، فأروح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أروح الناس، فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا

(١) ١٤٢ تحفة المودود.

يوصل إليها إلا على جسر من التعب.

قال يحيىٰ بن أبي كثير: لا ينال العلم براحة الجسم، ويعوده الانتباه آخر الليل، فإنه وقت قسم الغنائم وتفريق الجوائز، فمستقل ومستكثر ومحروم، فمتى اعتاد ذلك صغيراً سهل عليه كبيراً.

فصل

ويجنبه فضول الطعام والكلام والمنام ومخالطة الأنام، فإن الخسارة في هذه الفضلات، وهي تفوت على العبد خير دنياه وآخرته، ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب، فإن تمكينه من أسبابها والفسح له فيها يفسده فساداً يعز عليه بعده صلاحه، وكم من أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه وإعانته له على شهوته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء.

فصل

والحذر كل الحذر من تمكينه من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره، أو عشرة من يخشى فساده أو كلامه له أو الأخذ من يده، فإن ذلك الهلاك كله، ومتى سهل عليه ذلك فقد سهل الدياثة؛ ولا يدخل الجنة ديوث، فما أفسد الأبناء مثل تفريط الآباء وإهمالهم واستسهالهم شرر النار بين الثياب، فأكثر الآباء يعتمدون مع أولادهم أعظم ما يعتمده العدو الشديد العداوة مع عدوه وهم لا يشعرون، فكم من والد حرم ولده خير الدنيا والآخرة، وعرضه لهلاك الدنيا والآخرة، وكل هذا عواقب تفريط الآباء في حقوق الله وإضاعتهم لها وإعراضهم عما أوجب الله عليهم من العلم النافع والعمل الصالح، حرمهم الانتفاع بأولادهم، وحرم الأولاد خيرهم ونفعهم لهم هو من عقوبة الآباء.

فصل

ويجنبه لبس الحرير، فإنه مفسد له ومخنث لطبيعته، كما يجنبه اللواط وشرب الخمر والسرقة والكذب، وقد قال النبي ﷺ: **«يحرم الحرير والذهب على ذكور أمتي، وأحل لإناثهم»**، والصبي وإن لم يكن مكلفاً فوليه مكلف، لا يحل له تمكينه من المحرم، فإنه

يعتاده ويعسر فطامه عنه، وهذا أصح قول العلماء، واحتج من لم يره حراماً عليه بأنه غير مكلف، فلم يحرم لبسه للحرير كالدابة وهذا من أفسد القياس، فإن الصبي وإن لم يكن مكلفاً فإنه مستعد للتكليف، ولهذا لا يمكن من الصلاة بغير وضوء، ولا من الصلاة عرياناً ونجساً، ولا من شرب الخمر والقمار واللواط.

فصــل

ومما ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق له فلا يحمله على غيره ما كان مأذوناً فيه شرعاً، فإنه إن حمل على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه وفاته ما هو مهيأ له، فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ واعياً، فهذه من علامات قبوله وتهيؤه للعلم، لينقشه في لوح قلبه ما دام خالياً، فإنه يتمكن فيه، ويستقر ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية، وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له في العلم ولم يخلق له، مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك ورأى عينه مفتوحة إلىٰ صنعـة من الصنائع مستعداً لها قابلاً لها وهي صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكنه منها. هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه، فإن ذلك ميسر على كل أحد لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة، والله أعلم.

(١)فصل فإذا صار ابن عشر ازداد قوة وعقلاً

واحتمالاً للعبادات فيضرب على ترك الصلاة، كما أمر به النبي ـ عليه السلام ـ وهذا ضرب تأديب وتمرين، وعند بلوغ العشر يتجدد له حال أخرى يقوىٰ فيها تمييزه ومعـرفتـه، ولذلك ذهب كثير من الفقهاء إلىٰ وجوب الإيمان عليه في هذا الحال، وأنه يعاقب على تركه، وهذا اختيار أبي الخطاب وغيره، وهو قول قوي جدًّا، وإن رفـع عنه قلم التكليف بالفروع، فإنه قد أعطىٰ آلة معرفة الصانع والإقرار بتوحيده وصدق رسله، وتمكن من نظر مثله واستدلاله كما هو متمكن من

(١) ١٧٩ تحفة المودود.

فهم العلوم والصنائع، ومصالح دنياه فلا عذر له في الكفر بالله ورسوله مع أن أدلة الإيمان بالله ورسوله أظهر من كل علم وصناعة يتعلمها . . . .

(١)... **وسمعت** شيخنا ـ رحمه الله ـ يقول: تنازع أبوان صبيًا عند بعض الحكام فخيره بينهما، فاختار أباه، فقالت له أمه: اسأله: لأيّ شيء يختار أباه؟ فسأله. فقال: أمي تبعثني كل يوم للكتاب، والفقيه يضربني، وأبي يتركني ألعب مع الصبيان. فقضى به للأم، وقال: أنتِ أحق به.

قال شيخنا: وإذا ترك أحد الأبوين تعليم الصبي وأمره الذي أوجبه الله عليه: فهو عاص، ولا ولاية له عليه. بل كل من لم يقم بالواجب في ولايته فلا ولاية له. بل إما أن يرفع يده عن الولاية، ويقام من يفعل الواجب. وإما أن يضم إليه من يقوم معه بالواجب؟ إذ المقصود طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان.

قال شيخنا: وليس هذا الحق من جنس الميراث الذي يحصل بالرحم والنكاح والولاء، سواء كان الوارث فاسقاً أو صالحاً، بل هذا من جنس الولاية التي لا بد فيها من القدرة على الواجب والعلم به وفعله بحسب الإمكان.

قال: فلو قدر أن الأب تزوج امرأة لا تراعي مصلحة ابنته ولا تقوم بها، وأمها أقوم بمصلحتها من تلك الضرة، فالحضانة هنا للأم قطعاً.

قال: ومما ينبغي أن يعلم: أن الشارع ليس عنه نص عام في تقديم أحد الأبوين مطلقاً، ولا تخيير الولد بين الأبوين مطلقاً. والعلماء متفقون على أنه لا يتعين أحدهما مطلقًا. بل لا يقدم ذو العدوان والتفريط على البر العادل المحسن. والله أعلم.

(٢)**قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُها النَّاسُ والحِجَارَةُ﴾** [التحريم: ٦] قال ابن عباس وغيره: أدبوهم وعلموهم.

وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع. فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة. وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

(٣)... **قوله** تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

المراد الأمر في الدنيا لأن الآخرة ليس فيها أمر ولا نهي على الملائكة ولا غيرهم؛

---

(١) ٢٧٠ زاد المعاد جـ٤. (٢) ٣٧٥ مدارج جـ٢. (٣) ١٠٥ بدائع جـ٣.

لأن التعبد زائل. وفي البخاري عن علي: اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل. قلت: هذا وهم منه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فإن الله ـ تعالىٰ ـ يأمر الملائكة يوم القيامة بأخذ الكفار والمجرمين إلىٰ النار، وسوقهم إليها، وتعذيبهم فيها، ويأمر عباده بالسجود له فيخرون سجداً إلا من منعه الله من السجود، ويأمر المؤمنين فيعبرون الصراط، ويأمر خزنة الجنة بفتحها لهم، ويأمر خزنة النار بفتحها لأهلها، ويأمر ملائكة السموات بالنزول إلىٰ الأرض، ويأمر بشأن البعث كله وما بعده، فالأمر يومئذ لله، ولا يعصى الله فى ذلك اليوم طرفة عين، وأوامره ذلك اليوم: للثواب والعقاب والشفاعة وغيرهم تضبطها قدرة الخالق، فكيف يقال: ليس في الآخرة أمر ولا نهي، حتى يقال: لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون في الدنيا. أفترى الله ـ عز وجل ـ لا يأمرهم يوم القيامة في أمر النار بشيء فلا يعصونه فيه.

نعم ليست الآخرة دار حرث، وإنما هي دار حصاد، وأوامر الرب ونواهيه ثابتة في الدارين، وكذلك أوامر التكليف ثابتة في البرزخ ويوم القيامة، وحكاه الأشعري في مقالاته عن أهل السنة في تكاليف من لم تبلغه الدعوة في الدنيا: أن يكلفوا يوم القيامة، فقول القائل: الآخرة ليست دار تكليف ولا أمر ولا نهي: قول باطل، ودعوىٰ فاسدة. والله الموفق.

(١)**قال** الله ـ تعالىٰ ـ: **﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا تُوبُوا إلىٰ الله تَوبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ويُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ﴾** [التحريم: ٨] فجعل وقاية شر السيئات - وهو تكفيرها - بزوال ما يكره العبد. ودخول الجنات - وهو حصول ما يحب العبد - منوطاً بحصول التوبة النصوح. و«النصوح» على وزن فعول، المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة. كالشَّكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة. وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنَصَح إذا خلص. فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه. والنصح ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها. ومرجعها إلىٰ شيء واحد. فقال عمر بن

(١) ٣٠٩ مدارج جـ١.

الخطاب، وأبي بن كعب ـ رضي الله عنهما ـ: «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلىٰ الضَّرْع» وقال الحسن البصري: «هي أن يكون العبد نادماً على ما مضىٰ، مجمعاً على أن لا يعود فيه» وقال الكلبي: «أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن» وقال سعيد بن المسيب: «توبة نصوحاً، تنصحون بها أنفسكم» جعلها بمعنىٰ ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب. وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنىٰ المفعول، أي قد نصح فيها التائب ولم يَشُبْها بغش. فهي إما بمعنىٰ منصوح فيها، كركوبة وحَلوبة، بمعنىٰ مركوبة ومحلوبة، أو بمعنىٰ الفاعل. أي ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان.

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء.

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها. بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل. فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه. والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها. ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب. وهي أكمل ما يكون من التوبة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١)...**وذكر** ابن أبي داود في تفسيره عن وهب بن منبه قال: إن الملائكة حين

---

(١) ٣٩٥ روضة المحبين.

دخلوا على لوط ظن أنهم أضياف ضافوه فاحتفل لهم، وحرص على كرامتهم. وخالفته امرأته إلى فساق قومه، فأخبرتهم أنه ضاف لوطاً أحسن الناس وجهاً وانضرهم جمالاً وأطيبهم ريحاً. فكانت هذه خيانتَها التي ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه. [وفيه] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[التحريم: ١٠] قال: والله ما زَنتا ولا بغت امرأة نبيّ قطّ. فقيل له: فما كانت خيانة امرأة نوح وامرأة لوطٍ؟ فقال: أما امرأة نوحٍ فكانت تخبر أنه مجنون، وأما امرأة لوطٍ فإنها كانت تَدُلّ عَلَى الضيف.

وقال أبو مسلم الليثي في مسنده: حدَّثنا سليمان بن داود، حدّثنا عبد الوارث، حدّثنا القاسم بن عبد الرحمن، حدّثنا عبد الله بن محمد بن عقيل قال: سمعت جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: « **إنَّ أخْوَفَ مَا أخَافُ عَلَى أمَّتي مِنْ بَعْدِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ**»(١).

وقال هشام بن عمّار: حدثنا عبد العزيز الدَّراوَرْدِي عن عمرو بن أبي عمرو، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**لعن الله من وقع على بهيمة، ولعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط**» رواه الإمام أحمد.

وقال القعنبي: حدَّثنا عبد العزيز هو الدَّرَاوَرْدي، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لعن الله من تولى غير مواليه، ولعن الله من غير تخوم الأرض، ولعن الله من كمه أعمىٰ عن السبيل، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط: ثلاثاً، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من وقع على بهيمة**»(٢). **هذا** الإسناد على شرط البخاري.

وقال أبو داود الطيالسي حدثنا بشر بن المفضَّل، عن خالد الحَذّاء، عن محمد بن سيرين، عن أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله

(١) قال السيوطي: رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم.

(٢) قال ابن حجر الهيثمي في الزواجر: رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي.

ﷺ: «**إذا باشر الرجلُ الرجلَ فهما زانيان**» وفي لفظٍ: «**إذا أتى الرجلُ الرجلَ**»(١).

وفي المسند والسنن من حديث عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقتلوا الفاعل والمفعول به**». وفي لفظ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»(٢). وإسناده على شرط البخاري.

وروى سهيل بن أبي صالح [عن أبيه]، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فارجموه**» أو قال: «**فاقتلوا الفاعل والمفعول به**».

وحرق اللوطية بالنار أربعة من الخلفاء: أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك(٣). . . .

(٤) **قوله** تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِيْنَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ كانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِن عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِين * وضَرَبَ اللهُ مَثَلا لِلَّذِيْنَ آمَنُوا امْرأَةَ فِرْعَوْنَ إذ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً في الجَنَّةِ ونَجِّني من فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ ونَجِّني من القَوْمِ الظَّالِمِين * وَمَرْيَمَ ابنةَ عِمْرَانَ الَّتي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فنفخْنَا فيهِ مِن رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ**﴾ [التحريم: ١٠-١٢] فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكفار، ومثلين للمؤمنين، فتضمن مثلُ الكفار أن الكافر يُعاقَبُ على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لُحْمَةِ نسب أو وُصْلَة صهر أو سبب من أسباب الاتصال؛ فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وُصْلَةُ القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوُصْلَةُ التي كانت بين لوط ونوح وامرأتيهما، فلما لم يُغْنِيا عنهما من الله شيئاً ﴿**وقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِين**﴾ [التحريم: ١٠] **قطعت الآيةُ** حينئذٍ طمعَ من ركب معصية الله وخالف أمره، ورجا أن ينفعه صلاحُ غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد

(١) قال السيوطي: رواه البيهقي في السنن.

(٢) قال ابن حجر في الزواجر: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي.

(٣) ذكره الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب وغيره.

(٤) ١٨٨ أعلام جـ١.

الاتصال، فلا اتصال فَوْقَ اتصال البُنُوة والأبوة والزوجية، ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيمُ عن أبيه، ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئاً، قال الله - تعالى -: ﴿لن تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم يَوْمَ القِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُم﴾ [الممتحنة: ٣]. وقال - تعالى -: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً﴾ [الانفطار: ١٩] وقال - تعالىٰ -: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ [البقرة: ٤٨] وقال: ﴿واخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِه وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَن وَالِدِه شيئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣] وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة أن مَنْ تعلقوا به من دون الله من قَرَابة أو صهر أو نكاح أو صُحْبة ينفعهم يوم القيامة، أو يُجِيرُهم من عذاب الله، أو هو يشفع لهم عند الله، وهذا أصل ضلالِ بني آدم وشِرْكِهم، وهو الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الذي بعث الله جميعَ رسله، وأنزل جميعَ كتبه بإبطاله، ومُحَاربة أهله ومُعَاداتهم.

فصل

وأما المثلان اللذان للمؤمنين، فأحدهما امرأةُ فرعونَ، ووَجْهُ المثلِ أن اتصال المؤمن بالكافر لا يَضُرُّه شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً في الآخرة، وإن تَضَرَّرَ بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمرَ الله فتأتي عامةً؛ فلم يَضُرَّ امرأةَ فرعونَ اتصالُها به وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأةَ نوحٍ ولوطٍ اتصالُهما بهما وهما رسولا رب العالمين.

المثل الثاني للمؤمنين مريمُ التي لا زَوْجَ لها، لا مؤمن ولا كافر، فذكر ثلاثة أصناف من النساء: المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التي لها وُصْلَة بالرجل الكافر، والمرأة العَزَبُ التي لا وُصْلَة بينها وبين أحد: فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئاً.

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة؛ فإنها سِيقَتْ في ذكر أزواج النبي ﷺ، والتحذير من تظاهرهن عليه، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويُرِدْنَ الدارَ الآخرةَ لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالها بهما، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة.

قال يحيىٰ بن سلام : ضرب الله المثلَ يحذر عائشة وحَفْصَة ، ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة .

وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضاً اعتبارٌ آخَرُ، وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً قَذْفُ أعداء الله : اليهود لها ، ونسبتُهم إياها وابنها إلىٰ ما بَرَّأهما الله عنه ، مع كونها الصديقَةَ الكبرىٰ المصطفاة على نساء العالمين ؛ فلا يضر الرجل الصالح قَدْحُ الفجار والفساق فيه ، وفي هذا تَسْلِية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإِفْكِ ، وتَوْطِين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها ، كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذيرٌ لها ولحفصة مما اعتمدَتَاه في حق النبي ﷺ ؛ فتضمنت هذه الأمثال التحذيرَ لهن والتخويف ، والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد ، والتسليةَ وتوطينَ النفس لمن أوذِيَ منهن وكذب عليه! وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ، ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التحريم
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)(**وأما** البركة) فكذلك نوعان أيضاً. أحدهما بركة هي فعله ـ تبارك وتعالىٰ ـ والفعل منها بارك، ويتعدىٰ بنفسه تارة وبأداة [على] تارة وبأداة [في] تارة، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركاً بجعله تعالىٰ. والنوع الثاني بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة. والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له ـ عز وجل ـ فهوـ سبحانه ـ المبارِك وعبده ورسوله المبارَك كما قال المسيح: ﴿**وَجَعَلَنِيْ مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ**﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارَك. وأما صفته تبارك فمختصة به ـ تعالىٰ ـ كما أطلقها على نفسه بقوله ﴿**تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾ [الملك: ١] ﴿**فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ**] [المؤمنون: ١٤] ﴿**وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وعِنْدَه عِلْمُ السَّاعَةِ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٥] ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ**﴾ [الفرقان: ١] ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَآءَ جَعَلَ لَكَ خيراً مِن ذٰلِكَ**﴾[الفرقان: ١٠] ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً**﴾ [الفرقان: ٦١] **أفلا** تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها. وهذا معنىٰ قول من قال من السلف تبارك: تعاظم. وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه. وقال غيره: كثّر خيره وإحسانه إلىٰ خلقه. وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل: تزايد عن كل شيء، وتعالىٰ عنه في صفاته وأفعاله.

---

(١) ١٨٥ بدائع جـ٣.

ومن هنا قيل معناه: تعالىٰ وتعاظم. وقيل تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة. وقيل: تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء. وقيل: تبارك ارتفع، والمبارك المرتفع، ذكره البغوي. وقيل: تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره. وقال ابن عباس: بكل بركة. وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذكره البغوي أيضاً.

وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلاً منه تبارك وتعالىٰ.

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنىٰ الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل: تعالىٰ وتقدس وتعاظم. ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عالياً ولا قدوساً ولا عظيماً هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالى المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنىٰ؟ هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنىٰ ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً، فتبارك من باب مجد والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطىٰ وأنعم.

ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فَسَّرَ من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين فقال مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه. وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب الفتح المكي وبينا هناك أن البركة كلها له تعالىٰ ومنه، فهو المبارِك ومن ألقى عليه بركته فهو المبارَك، ولهذا كان كتابه مباركاً ورسوله وبيته مباركاً والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة: فليلة القدر مباركة وما حول المسجد الأقصىٰ مبارك وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة.

وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: **«اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام»**.

فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعنى: ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنىٰ، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفاً وملكاً.

وقد تقدم بيان هذا في وصفه ـ تعالىٰ ـ بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفاً وملكاً فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محموداً فيهبه حمداً من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفاً وملكاً، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عزّ من عباده فبإعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفاً وملكاً. وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته، الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركاً ﴿**فَتَبَارَكَ الله رَبُّ العَالَمِينَ**﴾ [غافر: ٦٤] ﴿**وتَبَارَكَ الَّذِي له مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ وما بَيْنَهُما وعِنْدَه عِلْمُ السَّاعةِ وإليْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه. وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلىٰ الله وأعظمهم عنده جاهاً: «**لا أحصي ثناءاً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» وقال في حديث الشفاعة الطويل: «**فأخرّ ساجداً لربي فيفتح عليّ من محامده بها لا أحسنه الآن**» وفي دعاء الهم والغم: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» فدل على أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ له أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه، لا يعلمها ملك مقرّب ولا نبي مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلوا فيه ولا نجفوا عنه، وبالله التوفيق.

(١)**الوجه** الثالث والسبعون: إن العلم إمام العمل وقائد له والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه.

كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح. والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المحك.

---

(١) ٨٢ مفتاح جـ١.

قال تعالىٰ: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ**﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه. قالوا: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتىٰ يكون خالصاً صواباً. فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. وقد قال تعالىٰ: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحَداً**﴾ [الكهف: ١١٠]. فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ مراداً به وجه الله.

ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولاً، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة، وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧].

وأحسن ما قيل في تفسير الآية: إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله والله أعلم.

(١)**الوجه** الأربعون أن الله ـ تعالىٰ ـ وصف أهل النار بالجهل وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم، فقال ـ تعالى ـ حكاية عنهم: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١٠] فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون، والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال.

وقال تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ**

---

(١) ٥٩ مفتاح جـ١.

بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فأخبر سبحانه أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث وهي: العقل والسمع والبصر. كما قال في موضع آخر ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال تعالىٰ: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾

وقال تعالىٰ: ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ [الأحقاف: ٢٦] فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم وشبههم بالأنعام تارة، وتارة بالحمار الذي يحمل الأسفار، وتارة جعلهم أضل من الأنعام وتارة جعلهم شر الدواب عنده، وتارة جعلهم أمواتاً غير أحياء، وتارة أخبر أنهم في ظلمات الجهل والضلال، وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقراً وعلى أبصارهم غشاوة، وهذا كله يدل على قبح الجهل وذم أهله وبغضه لهم، كما أنه يحب أهل العلم ويمدحهم ويثني عليهم كما تقدم، والله المستعان.

[1]**واعلم** أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلوماً بالعقل، مستقراً في الفطر، فلا وثوق بشيء من قضايا العقل. فإن هذه القضية من أجل القضايا البديهيات، وأوضح ما ركب الله في العقول والفطر. ولهذا يقول ـ سبحانه ـ عقيب تقرير ذلك: ﴿**أفلا تعقلون**﴾ ﴿**أفلا تذكرون**﴾.

وينفي العقل عن أهل الشرك، ويخبر عنهم بأنهم يعترفون في النار: أنهم لم يكونوا يسمعون ولا يعقلون. وأنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل.

وأخبر عنهم أنهم ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٧١].

وأخبر عنهم أن سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم لم تغن عنهم شيئاً. وهذا **إنما** يكون في حق من خرج عن موجب العقل الصريح والفطرة الصحيحة.

ولو لم يكن في صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن في قوله تعالىٰ: ﴿**انظروا**﴾ و﴿**فاعتبروا**﴾ و﴿**سيروا في الأرض فانظروا**﴾ فائدة. فإنهم يقولون: **عقولنا**

---

(١) ٤٩١ مدارج جـ٣.

لا تدل على ذلك. وإنما هو مجرد إخبارك. فما هذا النظر والتفكر والاعتبار والسير في الأرض؟ وما هذه الأمثال المضروبة، والأقيسة العقلية والشواهد العيانية؟ أفليس في ذلك أظهر دليل على حسن التوحيد والشكر؟

وقبح الشرك والكفر مستقر في العقول والفطر. معلوم لمن كان له قلب حي، وعقل سليم، وفطرة صحيحة؟ قال تعالى: **﴿ولَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُم يَتَذَكَّرُون﴾** [الزمر: ٢٧]. وقال تعالى: **﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضرِبُها لِلنَّاسِ وما يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُون﴾** [العنكبوت: ٤٣]. وقال تعالىٰ: **﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لذِكرىٰ لِمَنْ كَانَ له قَلْبٌ أو أَلْقَي السَّمْعَ وهُوَ شَهِيْدٌ﴾** [ق: ٣٧]. وقال تعالىٰ: **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بها فإنَّها لا تَعْمَىٰ الأَبْصَارُ ولٰكن تَعْمَىٰ القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور﴾** [الحج: ٤٦]. وقال تعالىٰ: **﴿كَـذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتفكَّرُونَ﴾** [البقرة: ٢١٩]. وقال تعالىٰ: **﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّموات والأَرْض وما تُغْنِي الآياتُ والنُّذُرُ عن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾** [يونس: ١٠١]. وقال تعالىٰ: **﴿ويَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لعَلَّهُمْ يَتذَكَّرُونَ﴾** [إبراهيم: ٢٥].

ومن بعض الأدلة العقلية: ما أبقاه الله ـ تعالىٰ ـ من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم، وما حل بهم، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد وإعزازهم. وجعل العاقبة لهم. قال تعالىٰ: **﴿وَعَاداً وثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾** [العنكبوت: ٣٨]. وقال في ثمود: **﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وكانُوا يَتَّقُونَ﴾** [النمل: ٥٢، ٥٣]. وقال في قوم لوط: **﴿إِنّا مُنزلون علىٰ أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِما كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوم يَعْقِلُونَ﴾** [العنكبوت: ٣٤، ٣٥]. وقال تعالىٰ: **﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآياتٍ لِّلْمُتوسِّمِينَ * وإِنَّها لَبِسَبيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * وإِن كَانَ أَصحابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِين * فَانْتَقَمْنَا مِنْهم وإِنَّهُما لبِإمامٍ مُّبِينٍ﴾** [الحجر: ٧٥، ٧٩].

وقال تعالىٰ في قوم لوط: **﴿وَإِنَّكُمْ لتَمُرُّون عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وبِاللَّيلِ أَفَلَا تَعْقِلُون﴾** [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

(١)**اعتراف** العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان. أطاع أم عصىٰ. فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذٰلك إليه، وتمكنه من العلم به. سواء علم أو جهل. فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهىٰ عنه. فقصر عنه ولم يعرفه. فقد قامت عليه الحجة. والله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه. فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه. قال الله تعالىٰ: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال ﴿**كُلَّمَا أُلْقِيَ فيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خزَنَتُها أَلَم يَأتِكُمْ نَذير * قالوا بَلىٰ قَدْ جاءَنَا نَذيرٌ فَكَذَّبنَا وقلنا ما نَزَّلَ الله من شيءٍ**﴾ [الملك: ٨، ٩].

(٢)**ومن** ذٰلك احتجاجه ـ سبحانه ـ على إثبات علمه بالجهات كلها بأحسن دليل وأوضحه وأصحه، حيث يقول: ﴿**وَأسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ ثم قرر علمه بذلك بقوله: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤] وهذا من أبلغ التقرير. فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه، وإذا كنتم مقرين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه؟ وهذا التقرير مما يصعب على القدرية فهمه، فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور. فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بها. ولهذا طرد غلاة القوم ذٰلك ونفوا علمه، فكفَّرهم السلف قاطبة. وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين، أعني تقدير أن يكون [من] في محل رفع على الفاعلية أو في محل نصب على المفعولية. فعلىٰ التقدير الأول ألا يعلم الرب مخلوقه ومصنوعه؟ ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتىٰ عجزت عنه الأفهام. والخبير الذي انتهىٰ علمه إلىٰ الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها، فكيف يخفى علىٰ اللطيف الخبير ما تخفيه الضمائر وتجنه الصدور.

(٣)**قوله** تعالىٰ: ﴿**وأسِرُّوا قَوْلَكُمْ أو اجْهَرُوا به إنهَ عَلِيمٌ بذاتِ الصُّدُورِ ألا**

---

(١) ٢١٠ مدارج جـ١.　(٢) ٥٥ شفاء.　(٣) ١٠٩ مختصر الصواعق جـ١.

يَعْلَمُ من خَلَقَ وهو اللطيفُ الخبيرُ﴾ [الملك: ١٣-١٤] وذات الصدور كلمة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض أي صاحبة الصدور فإنها لما كانت فيها قائمة بها نسبت إليها نسبة الصحبة والملازمة.

وقد اختلف في إعراب (من خلق) هو النصب أو الرفع.

فإن كان مرفوعاً فهو استدلال على علمه بذلك لخلقه له، والتقدير أنه يعلم ما تضمنته الصدور، كيف لا يعلم الخالق ما خلقه، وهذا الاستدلال في غاية الظهور والصحة، فإن الخلق يستلزم حياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته.

وإن كان منصوباً فالمعنىٰ ألا يعلم مخلوقه وذكر لفظة (من) تغليباً ليتناول العلم العاقل وصفاته على التقديرين، فالآية دالة على خلق ما في الصدور كما هي دالة على علمه سبحانه به.

وأيضاً فإنه ـ سبحانه ـ خلقه لما في الصدور دليلاً على علمه بها، فقال: **﴿أَلَا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ﴾** [الملك: ١٣] أي كيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي خلقه، فلو كان ذلك غير مخلوق له لبطل الاستدلال به على العلم، فخلقه ـ سبحانه ـ للشيء من أعظم الأدلة على علمه به، فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم، فلم يبق ما يدل على علمه بما ينطوي عليه الصدر إذا كان غير خالق لذلك، وهذا من أعظم الكفر برب العالمين وجحد لما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم، وعلم بالضرورة إنهم ألقوه إلىٰ الأمم كما ألقوا إليهم أنه إلـه واحد لا شريك له.

(١)**نبه** سبحانه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول. فاستيقظت لتنبيهه العقول الحية، واستمرت على رقادها العقول الميتة، فقال في صفة العلم **﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** [الملك: ١٤] فتأمل صحة هذا الدليل مع غاية إيجاز لفظه واختصاره. وقال: **﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾** [النحل: ١٧] فما أصح هذا الدليل وما أوجزه. وقال ـ تعالىٰ ـ في صفة الكلام: **﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا**

---

(١) ١٥٩ مختصر الصواعق جـ١.

يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٨] نبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدي لا يصلح أن يكون إلهاً. وكذلك قوله في الآية الأخرىٰ عن العجل **﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا﴾** [طه: ٨٩] فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع دليلاً على عدم الإلهية. وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يكلم ويتكلم ويملك لعباده الضر والنفع وإلا لم يكن إلهاً، وقال تعالىٰ: **﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾** [البلد: ٨-١٠] نبه بهذا الدليل العقلي القاطع أن الذي جعلك تتصرف وتتكلم وتعلم أولىٰ أن يكون بصيراً متكلماً عالماً، وأي دليل عقلي قطعي أقوىٰ من هذا وأبين وأقرب إلىٰ العقول؟ وقال تعالىٰ: في آلهة المشركين المعطلين **﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أم لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بها﴾** [الأعراف: ١٩٥] فجعل ـ سبحانه ـ عدم البطش والسمع والمشي والبصر لهم دليلاً على عدم إلهية من عدمت منه هذه الصفات، وقد وصف الله ـ سبحانه ـ نفسه بضد صفة أوثانهم وبضد ما وصفه به المعطلة والجهمية، فوصف نفسه بالسمع والبصر والفعل باليدين والمجيء والإتيان. وذكر ضد صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصفات فيها دليلاً على عدم إلهيتها. فتأمل آيات التوحيد والصفات في القرآن على كثرتها وتفننها واتساعها وتنوعها تجدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها وأنه المتفرد بذلك الكمال، فليس له فيه شبيه ولا مثيل. وأي دليل في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبره وملك السموات والأرض وقيومهما؟ فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع الكمال له فأي قضية تصح في العقل بعد هذا؟ ومن شك في أن صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب والرضىٰ والفرح والرحمة كمال فهو ممن سلب خاصة الإنسانية وانسلخ من العقل، بل من شك أن إثبات الوجه واليدين وما أثبته لنفسه معهما كمال فهو مصاب في عقله. ومن شك أن كونه يفعلَ باختياره ما شاء ويتكلم إذا شاء، وينزل إلىٰ حيث يشاء، ويجيء إلىٰ حيث شاء غير كمال فهو جاهل بالكمال. والجماد عنده أكمل من الحي الذي تقوم به الأفعال الاختيارية.

(١) **قوله تعالى** : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] أخبر - سبحانه - أنه جعل الأرض ذلولاً منقادة للوطء عليها، وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها. وأخبر - سبحانه - أنه جعلها مهاداً وفراشاً، وبساطاً وقراراً وكفاتاً. وأخبر أنه دحاها وطحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطرق، وأجرى فيها الأنهار والعيون، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها. ومن بركتها أن الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها.

ومن بركتها أنك تودع فيها الحب، فتخرجه لك أضعافَ أضعاف ما كان.

ومن بركتها أنها تحمل الأذىٰ على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتوارى منه كل قبيح وتخرج له كل مليح.

ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها وتضمه وتؤويه، وتخرج له طعامه وشرابه؛ فهي أحمل شيء للأذىٰ وأعوده بالنفع، فلا كان من التراب خير منه وأبعد من الأذىٰ وأقرب إلىٰ الخير.

والمقصود أنه - سبحانه - جعل لنا الأرض كالجمل الذلول، الذي كيفما يُقاد يَنقـاد، وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولاً؛ فالماشي عليها يطأ على مناكبها، وهو أعلى شيء فيها، ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان، وهي أعاليه. قالوا وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر. وقالت طائفة، بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه.

والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي. وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له، فإن سطح الكرة أعلاها، والمشي إنما يقع في سطحها. وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول. ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها، فذللها لهم ووطأها وفتق فيها السبل والطرق التي يمشون فيها وأودعها رزقهم، فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن.

(١) ١٧ فوائد.

ثم نبه بقوله: ﴿وإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] على أنّا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل. فلا يحسن أن نتخذه وطناً ومستقراً، وإنما دخلناه لنتزود منه إلىٰ دار القرار، فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن ومستقر.

فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته، وقدرته وحكمته ولطفه، والتذكير بنعمه وإحسانه، والتحذير من الركون إلىٰ الدنيا واتخاذها وطناً ومستقراً، بل نسرع فيها السير إلىٰ داره وجنته. فلله ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه، والحث على السير إليه والاستعداد للقائه والقدوم عليه، والإعلام بأنه ـ سبحانه ـ يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيي أهلها بعد ما أماتهم، وإليه النشور.

(١)**قال** الله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هَـٰذا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هَـٰذا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠-٢١] فجمع ـ سبحانه ـ بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلىٰ من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برِزْقه، فلا بد له من ناصر ورازق. والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين. ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره. وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

ويذكر أن الله ـ تعالىٰ ـ أوحى إلىٰ بعض أنبيائه «**أدرك لي لطيف الفطنة، وخفيَّ اللطف، فإني أحب ذلك. قال: يا رب وما لطيف الفطنة؟ قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أنا أوقعتها فاسألني أرفعها. قال: وما خفي اللطف؟ قال: إذا أتتك حَبَّة فاعلم أني أنا ذكرتك بها**» وقد قال تعالىٰ عن السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] فهو ـ سبحانه ـ وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويَكْلَؤُه.

---

(١) ٣٣ إغاثة جـ١.

(١)**كتاب** لوجع الضرس: يكتب على الخد الذي يلي الوجع: بسم الله الرحمـٰن الرحيم: ﴿**قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُم وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأفئِدةَ قليلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ [الملك: ٢٣] وإن شاء كتب ﴿**وَلَهُ مَا سَكَنَ في الليل والنَّهار وهو السميعُ العليمُ**﴾ [الأنعام: ١٣].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الملك
والحمد لله رب العالمين

(١) ٣٨٣ زاد المعاد جـ٣.



بسم الله الرحمن الرحيم

[١]**قوله** تعالىٰ: ﴿**نٓ والقَلَمِ وما يَسْطُرُون * ما أنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّك بِمَجْنُونٍ**﴾ [القلم: ١-٢] الصحيح أن «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب ـ سبحانه ـ بعض السور، وهي أحادية، وثنائية، وثلاثية، ورباعية، وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسماً به، وإما مخبراً عنه، ما خلا سورتين سورة «كهيعص» و«ن» كقوله: ﴿**الٓمٓ ذٰلك الكتاب**﴾ [البقرة: ١] ﴿**الٓمٓ الله لا إله إلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّوم نَزَّلَ عليك الكتابَ**﴾ [آل عمران: ١] ﴿**الٓمٓصٓ كِتَابٌ أُنزِل إليك**﴾ [الأعراف: ١] ﴿**الٓمٓر تلك آياتُ الكتاب**﴾ [الرعد: ١] وهكذا إلىٰ آخره.

ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالتها. إذ هي مباني كلامه وكتبه، التي تكلم - سبحانه ـ بها، وأنزلها على رسله، وهدىٰ بها عباده، وعرفهم بواسطتها نفسه، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، ووعيده، ووعده، وعرفهم بها الخير والشرّ، والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصىٰ ما في أنفسهم. بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة، وأوصله إلىٰ المقصود، وأدلّه عليه.

وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته. ولهذا عاب ـ سبحانه ـ على من عبد إلـٰهاً لا يتكلم، وامتن على عباده بأن أقدرهم علىٰ البيان بها بالتكلم. **فكان** في ذكر هذه الحروف التنبيه علىٰ كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه، فهي أولىٰ أن يقسم بها من الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والنجوم، وغيرها

(١) ١٢٦ التبيان.

من المخلوقات. فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته، وحكمته وكماله وكلامه، وصدق رسله.

وقد جمع سبحانه بين الأمرين - أعني القرآن ونطق اللسان - وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿**الرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ [الرحمـٰن: ١-٤].

فبهذه الحروف علّم القرآن، وبها علّم البيان. وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان. وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت. وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل. والصحيح من الفاسد، وبها جمع أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان؛ وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة؟ وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدىٰ بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل؟ فآياته ـ سبحانه ـ في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان.

ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب.

فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصىٰ الحلق، ووسطه. وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا، وفي الشفتين، والخيشوم. فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له. فإذا هو حرف.

فألهم ـ سبحانه ـ الإنسان بضم بعضها إلىٰ بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها. ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلىٰ بعض وإذا هي كلام دال علىٰ أنواع المعاني، أمراً ونهياً، وخبراً، واستخباراً ونفياً، وإثباتاً. وإقراراً، وإنكاراً وتصديقاً، وتكذيباً، وإيجاباً واستحباباً. وسؤالاً، وجواباً. إلىٰ غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمه ونثره، ووجيزه، ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق، كل ذلك صنعته ـ تبارك وتعالىٰ ـ في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلىٰ ظاهره، في مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين. فهذا شأن الحرف المخلوق.

وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات فشأنه أعلىٰ وأجل.

وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور. كما افتتحت بالإقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية. فهي دالة علىٰ كمال قدرته سبحانه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال رحمته، وعنايته بخلقه، ولطفه وإحسانه.

وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدللت بها على المبدأ والمعاد، والخلق والأمر، والتوحيد والرسالة. فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. وأن القرآن كلام الله. تكلم به حقًّا، وأنزله على رسوله وحياً. وبلغه كما أوحى إليه صدقاً، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف. واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها. وبالله التوفيق.

ثم أقسم سبحانه بـ ﴿**الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ [القلم: ١]. فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدىٰ آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي. وقيد به الدين. وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم. وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد فوطدت به الممالك. وأمنت به السبل والمسالك. وأقام في الناس أبلغ خطيب وأنصحه. وأنفعه لهم وأنصحه. وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم. وطبيباً يبريء بإذنه من أنواع الألم: يكسر العساكر العظيمة علىٰ أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك. والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشي المرقوم. ويودعها حكمه فتصير بوادر الفهوم، والأقلام نظام للأفهام. وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت.

والأقلام متفاوتة في الرتب. فأعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق.

كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما اكتب؟**

قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة».

واختلف العلماء. هل القلم أول المخلوقات أو العرش؟ على قولين. ذكرهما الحافظ أبو يعلىٰ الهمداني. أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر. قال: قال رسول الله ﷺ **«قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام، وعرشه على الماء»** فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش. والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا.

ولا يخلو قوله: **«إن أول ما خلق الله القلم»** إلىٰ آخره. إما أن يكون جملة أو جملتين. فإن كان جملة - وهو الصحيح - كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: اكتب. كما في لفظ **«أول ما خلق الله القلم قال له اكتب»** بنصب أول، والقلم فإن كان جملتين وهو مروي برفع أول والقلم، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، ليتفق الحديثان. إذ حديث عبد الله بن عمر صريح في أن العرش سابق على التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم وفي اللفظ الآخر **«لما خلق الله القلم قال له اكتب»**.

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها. وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به.

القلم الثاني قلم الوحي، وهو الذي يكتب به وحي الله إلىٰ أنبيائه ورسله. وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم. والعالم خدم لهم. وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدم لأقلامهم.

وقد رفع النبي ﷺ ليلة الإسراء إلىٰ مستوىٰ يسمع فيه صريف الأقلام: فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالىٰ من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي.

والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله. وهو قلم الفقهاء والمفتين، وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه. فإليه التحاكم في الدماء والأموال والفروج والحقوق. وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده وأصحابه

حكام وملوك على أرباب الأقلام. وأقلام العالم خدم لهذا القلم.

القلم الرابع قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان. وحاجة الناس إلىٰ أهله تلتحق بالضرورة.

القلم الخامس التوقيع عن الملوك ونوابهم، وسياس الملك، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام، والمشاركون للملوك في تدبير الدول. فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

القلم السادس قلم الحساب، وهو القلم الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل. الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب. ومبناه على الصدق والعدل فإذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة.

القلم السابع قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلىٰ اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم و خصوص، فهذا له النفوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

القلم الثامن قلم الشهادة، وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق، وتصان عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويشهد للمحق بحقه، وعلى المبطل بباطله. وهو الأمين على الدماء، والفروج، والأموال، والأنساب، والحقوق، ومتىٰ خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد، وباستقامته يستقيم أمر العالم. ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

القلم التاسع قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام، وتفسيره، وتعبيره، وما أريد منه. وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي، كاشف له، وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته، وأمانته، وتحريه

للصدق، والطرائق الحميدة، والمناهج السديدة، مع علم راسخ، وصفاء باطن، وحس مؤيد بالنور الإلـٰهي، ومعرفة بأحوال الخلق وهيآتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام، وأعمها جولاناً، وأوسعها تصرفاً، وأشدها تشبثاً بسائر الموجودات: علويها وسفليها، وبالماضي والحال والمستقبل، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه.

القلم العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه. وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلىٰ أمة، ومن قرن إلىٰ قرن فيحصر ما مضىٰ من العالم وحوادثه في الخيال، وينقشه في النفس، حتىٰ كأن السامع يرىٰ ذٰلك ويشهده. فهو قلم المعاد الروحاني، وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال فترّاه بقلبك، وتشاهده ببصيرتك.

القلم الحادي عشر قلم اللغة، وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها، وما يتبع ذٰلك من أحوالها ووجوهها، وأنواع دلالتها علىٰ المعاني، وكيفية الدلالة وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها. وهذا القلم واسع التصرف جدًّا بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها.

القلم الثاني عشر القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ورفع سنة المحقين، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم، وتهافتهم، وخروجهم عن الحق، ودخولهم في الباطل وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم. وهم الداعون إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال. وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل، وعدو لكل مخالف للرسل. فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن.

فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأن الله ـ سبحانه ـ أقسم به في كتابه، وتعرف إلىٰ غيره

بأن علّم بالقلم، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم. ولقد أبدع أبو تمام، إذ يقول في وصفه:

لك القلم الأعلىٰ الذي بشباته يصاب من الأمر الكلي والمفاصل
له ريقة طل، ولكن وقعها بآثاره في الغرب والشرق وابل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأرىٰ الجنا اشتارته أيد عواسل
له الخلوات اللاء لولا نجيها لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح إذا استنقطته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطىٰ الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا، وتقوضت لنجواه - تقويض الخيام - الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخنصران وسددت ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف ضنا وسمينا خطبه وهو ناحل

والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالًّا عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر المكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون، ولا تصدر إلا من عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلىٰ درجات العلوم؟ بل العلوم التي تضمنها ليس في قوىٰ البشر الإتيان بها، ولا سيما من أمي لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلىٰ أنواع الفصاحة، سليماً من الاختلاف، بريًّا من التناقض، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله، ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم فكيف يتأتىٰ ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثيراً من الحيوان أن يميزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك.

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة.

ولو أن رجلًا أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر متساوية الأجزاء

يصدق بعضها بعضاً، أو قال قصيدة كذلك. أو صنف كتاباً كذلك، لشهد له العقلاء بالعقل. ولما استجاز أحد رميه بالجنون مع إمكان - بل وقوع - معارضتها ومشاكلتها والاتيان بمثلها أو أحسن منها، فكيف يرمىٰ بالجنون من أتىٰ بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته، وعرفهم من الحق ما لا تهتدى عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الأولياء، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسمعها إلا التسليم له والانقياد والإذعان، طائعة مختارة وهي ترىٰ عقولها أشد فقراً وحاجة إلىٰ ما جاء به، ولا كمال لها إلا بما جاء به؟. فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي. ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق. وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها. ويكفي في عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل، والقلوب بالإيمان والتقوىٰ. فكيف يكون متبوعهم مجنوناً وهذا حال كتابه وهديه، وسيرته، وحال أتباعه؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم. فنفىٰ عنه الجنون بنعمته عليه.

وقد اختلف في تقدير الآية، فقالت فرقة: الباء في ﴿**بِنِعْمَةِ رَبِّكَ**﴾ باء القسم، فهو قسم آخر اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه، كما يقول. ما أنت بالله بكاذب. وهذا التقدير ضعيف جدًّا؛ لأنه قد تقدم القسم الأول، فكيف يقع القسم الثاني في جوابه؟ ولا يحسن أن تقول: والله ما أنت بالله بقائم، وليس هذا من فصيح الكلام ولا عهد في كلامهم. وقالت فرقة: العامل في (بنعمة ربك) أداة معنىٰ النفي، أو معنىٰ أنفي عنك الجنون بنعمة ربك.

ورد أبو عمر بن الحاجب، وغيره هذا القول بأن الحروف لا تعمل معانيها، وإنما تعمل ألفاظها.

وقال الزمخشري يتعلق ﴿**بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾ منفيًّا كما يتعلق بعاقل مثبتاً، في قولك: أنت بنعمة الله عاقل، يستويان في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمراً، وما ضرب زيد عمراً، يعمل الفعل مثبتاً ومنفيًّا إعمالاً واحداً، ومحله النصب على الحال، أي ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك. ولم

تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله؛ لأنها زائدة لتأكيد النفي. واعترض عليه بأن العامل إذا تسلط على محكوم به وله معمول فإنه يجوز فيه وجهان:

أحدهما نفي ذلك المعمول فقط، نحو قولك: ما زيد بذاهب مسرعاً، فإنه ينتفي الإسراع دون القيام، ولا يمتنع أن يثبت له ذهاب في غير إسراع. والثاني ينفي المحكوم به، فينتفي معموله بإنتفائه، فينتفي الذهاب في هذه الحال، فينتفي الإسراع بإنتفائه. فإذا جعل ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ معمولاً لمجنون لزم أحد الأمرين. وكلاهما منتف جزماً.

وهذا الاعتراض هنا فاسد؛ لأن المعنىٰ إذا حصل ما أنت بمجنون منعماً عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعاً، ولا يصح نفي المعمول وثبوت العامل في هذا الكلام، ولا يفهم منه من له آلة الفهم، وإنما يفهم الآدمي من هذا الكلام أن الجنون انتفىٰ عنك بنعمة الله عليك، وانتفىٰ عنا ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا.

ثم أخبر سبحانه عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وأخراه فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣] أي غير مقطوع، بل هو دائم مستمر. ونكّر الأجر تنكير تعظيم. كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [النازعات: ٢٦] و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ [هود: ١٠٣] [الشعراء: ٨] و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق: ٣٧] و﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً﴾ [النبأ: ٣١] و﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٠] وهو كثير، وإنما كان التنكير للتعظيم لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف، ولا يناله التعبير.

ثم قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته، لمن منحه الله فهماً. ولقد سئلت أم المؤمنين[1] عن خلقه ﷺ، فأجابت بما شفىٰ وكفىٰ، فقالت: كان خلقه القرآن. فهم سائلها أن يقوم لا يسألها شيئاً بعد ذلك. ومن هذا قال ابن عباس وغيره: أي علىٰ دين عظيم.

وسمى الدين خلقاً، لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة، وإرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة، موافقة للعدل والحكمة، والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق،

(١) هي عائشة ـ رضي الله عنها ـ سألها سعد بن هشام بن عامر عن وتر النبيِّ ﷺ وعن خلقه. وحديثها أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وهو في المنتقىٰ رقم (١٢٠٢).

تُصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقاً، هي أزكىٰ الأخلاق، وأشرفها، وأفضلها.

فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن. فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً له، وتبييناً وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه ونـدب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، وتبليغه. والجهاد في إقامته، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن. وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنىٰ، فاكتفىٰ به واشتفىٰ.

فإذا كانت أخلاق العباد، وعلومهم، وإراداتهم، وأعمالهم مستفادة من القلم ومـا يسـطرون، وكان في خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم، إذ وصلوا به إلىٰ ذٰلك، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلىٰ الأخلاق، وأفضل العلوم، والأعمال، والإرادات، التي لا تهتدي العقول إلىٰ تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون، هو أم هم؟ وقد علموا هم والعقـلاء ذلـك في الـدنيا. ويزداد علمهم في البرزخ، وينكشف، ويظهر كل الظهور في الآخرة، بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به.

(١)**قال** تعالىٰ: ﴿**نٓ والقَلَمِ وما يَسْطُرُون * ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وإنَّ لك لأجراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عظيمٍ**﴾ [القلم: ١-٤].

قالت عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. فاكتفىٰ بذلك السائل، وقال فهمت(٢) أن أقوم ولا أسأل عن شيء بعدها فهذه الأخلاق ونحوها هي ثمرة شجرة العلم.

وأما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاء

(١) ١١٦ مفتاح جـ١.
(٢) كذا بالأصل ولعل الصواب (فهممت). المراجع.

والشح والبخل، ولهذا قيل في حد البخل (جهل مقرون بسوء الظن)، ومن ثمرته الغش للخلق والكبر عليهم والفخر والخيلاء والعجب والرياء والسمعة والنفاق والكذب وإخلاف الوعد والغلظة على الناس، والانتقام ومقابلة الحسنة بالسيئة والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وترك القبول من الناصحين، وحب غير الله ورجائه والتوكل عليه وإيثار رضاه على رضا الله، وتقديم أمره على أمر الله، والتماوت عند حق الله والوثوق بها عند حق نفسه والغضب لها، والانتصار لها فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتىٰ ينتقم بأكثر من حقه، وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضباً لله، فلا قولا في أمره ولا بصيرة في دينه.

ومن ثمرتها الدعوة إلىٰ سبيل الشيطان وإلىٰ سلوك طرق البغي واتباع الهوىٰ وإيثار الشهوات على الطاعات، وقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ووأد البنات وعقوق الأمهات وقطيعة الأرحام وإساءة الجوار وركوب مركب الخزي والعار.

وبالجملة فالخير بمجموعه ثمر يجتنى من شجرة العلم، والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل، فلو ظهرت صورة العلم للأبصار لزاد حسنها على صورة الشمس والقمر، ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر، بل كل خير في العالم فهو من آثار العلم الذي جاءت به الرسل ومسبب عنه. وكذلك كل خير يكون إلىٰ قيام الساعة وبعدها في القيامة، وكل شر وفساد حصل في العالم ويحصل إلىٰ قيام الساعة وبعدها في القيامة فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل في العلم والعمل.

ولو لم يكن للعلم أب ومرب وسائس ووزير إلا العقل الذي به عمارة الدارين، وهو الذي أرشد إلىٰ طاعة الرسل وسلم القلب والجوارح ونفسه إليهم وانقاد لحكمه وعزل نفسه وسلم الأمر إلىٰ أهله لكفىٰ به شرفاً وفضلاً.

وقد مدح الله ـ سبحانه ـ العقل وأهله في كتابه في مواضع كثيرة منه وذم من لا عقل له وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل، فهو آلة كل علم وميزانه الذي به يعرف صحيحه من سقيمه وراجحه من مرجوحه، والمرآة التي يعرف بها الحسن من القبيح. وقد قيل العقل ملك، والبدن روحه وحواسه. وحركاته كلها

رعية له، فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل إليها كلها. ولهذا قيل: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه. وروى أنه لما أهبط آدم من الجنة أتاه جبريل. فقال: إن الله أحضرك: العقل والدين والحياء، لتختار واحداً منها. فقال: أخذت العقل. فقال الدين والحياء: أمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان فانحازا إليه.

والعقل: عقلان: عقل غريزة وهو أب العلم ومربيه ومثمره، وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته فإذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، واستقام له أمره، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب، وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالاً منه، وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما. ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزي. ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب.

والتحقيق أن صاحب العقل الغريزي الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتىٰ منها الإحجام وترك انتهاز الفرصة، لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها.

وصاحب العقل المكتسب يؤتىٰ من الإقدام، فإن علمه بالفرص وطرقها يلقيه على المبادرة إليها، وعقله الغريزي لا يطيق رده عنها فهو غالباً يؤتىٰ من إقدامه، والأول من إحجامه، فإذا رزق العقل الغريزي عقلاً إيمانيًّا مستفاداً من مشكاة النبوة لا عقلاً معيشيًّا نفاقيًّا يظن أربابه أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون، فإنهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ويسالموهم ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم، وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إيثار للراحة والدعة، ومؤنة الأذىٰ في الله والموالاة فيه والمعاداة فيه، وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك في الآجلة، فإنه ما ذاق طعم الإيمان من لم يوال في الله ويعاد فيه، فالعقل كل العقل ما أوصل إلىٰ رضا الله ورسوله، والله الموفق المعين.

(١)**قال** الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وإنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

---

(١) ٣٠٤ مدارج جـ٢.

قال ابن عباس ومجاهد: لعلي دين عظيم، لا دين أحب إليّ ولا أرضىٰ عندي منه. وهو دين الإسلام. وقال الحسن - رضي الله عنه -: هو آداب القرآن. وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله. وينهي عنه من نهي الله.

والمعنى: إنك لعلىٰ الخلق الذي آثرك الله به في القرآن.

وفي الصحيحين. أن هشام بن حكيم «سأل عائشة - رضي الله عنها - عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً».

(١)**قوله** تعالىٰ: ﴿**وإنك لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيْمٍ**﴾ [القلم: ٤] قال الإمام أحمد: عن ابن عبينة قال ابن عباس: «لعلي دين عظيم» وسئلت عائشة عن خلق النبي ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» والدين فيه معنىٰ الإذلال والقهر وفيه معنىٰ الذل والخضوع والطاعة، فلذلك يكون من الأعلىٰ إلىٰ الأسفل كما يقال دنته فأدان أي قهرته فذل، قال الشاعر:

هو أدنى الزمان أذكر هذا الدين فأصبحوا بغرة وصيان

ويكون من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ كما يقال دنت الله ودنت لله، وفلان لا يدين الله ديناً ولا يدين الله بدين. فدان الله أي أطاع الله وأحبه وأخافه، ودان لله أي خشع له وخضع وذل وانقاد. والدين الباطن لا بد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر، وسمىٰ الله تعالى يوم القيامة يوم الدين لأنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب.

(٢)**وقد** اختلف في تقدير قوله: ﴿**بأيِّكُمُ المفتُون**﴾ [القلم: ٦] فقال أبو عثمان المازني: هو كلام مستأنف، والمفتون عنده مصدر، أي: بأيكم الفتنة. والاستفهام عن أمر دائر بين أثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعاً، فتعين حصوله للآخر. والجمهور على خلاف هذا التقدير. وهو عندهم متصل بما قبله، ثم لهم فيه أربعة أوجه:

---

(١) ٢٧٩ الجواب الكافي. (٢) ١٣٦ التبيان.

(أحدها) أن الباء زائدة، والمعنى: أيكم المفتون. وزيدت في المبتدأ كما زيدت في قولك: بحسبك أن تفعل. قاله أبو عبيد.

(الثاني) أن المفتون بمعنىٰ الفتنة، أي ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة. والباء على هذا ليست بزائدة. قاله الأخفش.

(الثالث) أن المفتون مفعول على بابه، ولكن هنا مضاف محذوف تقديره بأيكم فتون المفتون، وليست الباء زائدة قاله الأخفش أيضاً.

(الرابع) أن الباء بمعنىٰ في، والتقدير في أي فريق منكم النوع المفتون، والباء على هذا ظرفية. وهذه الأقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة إلىٰ شيء منه. و(ستبصر) مضمن معنىٰ تشعر وتعلم، فعدى بالباء كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وإذا دعاك اللفظ إلىٰ المعنىٰ من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد.

(١)**وأما** قوله [تعالىٰ]: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦]. فقيل: الباء زائدة. وقيل: المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب أن يبصر مضمّن معنىٰ يشعر ويعلم قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «**المؤمن أخو المؤمن، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان**». يروى بفتح الفاء وهو واحدٌ وبضمها وهو جمع فاتن كتاجر وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون فما فتن من فتن إلا بالمحبة.

(٢)**المداراة** صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتىٰ يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق.

وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة وقد آلمته فجاءه الطبيب المداري الرفيق فتعرف حالها ثم أخذ في تليينها حتىٰ إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتىٰ أخرج ما فيها ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده

---

(١) ٤٩ روضة المحبين. (٢) ٢٨١ الروح.

ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم ثم يذر عليها بعدنبات اللحم ما ينشف رطوبتها ثم يشد عليها الرباط ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت، والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء فاسترها عن العيون بخرقة، ثم اله عنها فلا تزال مادتها تقوىٰ وتستحكم حتىٰ عظم فسادها. وهذا المثل أيضاً مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة فتأمله. . .

(١)**وأما** تقديم هماز على مشاء بنميم ففيه معنىٰ آخر غير ما ذكره وهو أن همزه عيب للمهموز وإزراء به وإظهار لفساد حاله في نفسه فإن قاله يختص بالمهموز لا يتعداه إلىٰ غيره.

والمشي بالنميمة يتعداه إلىٰ من ينم عنده، فهو ضرر متعد. والهمز ضرره لازم للمهموز إذا شعر به ما ينقل من الأذىٰ اللازم إلىٰ الأذىٰ المتعدي المنتشر.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿**إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * ولا يَسْتَثْنُونَ**﴾ [القلم: ١٧، ١٨] أي لم يقولوا إن شاء الله؛ فمن حلف فقال إن شاء الله فقد استثنى؛ فإن الاستثناء استفعال من ثنيت الشيء، كأن المستثنىٰ بإلاَّ قد عاد على كلامه فثنى آخره على أوله بإخراج ما أدخله أولاً في لفظه، وهكذا التقيد بالشرط سواء؛ فإن المتكلم به قد ثَنَى آخر كلامه على أوله فقيد به ما أطلقه أولاً، وأما تخصيص الاستثناء بإلا وأخواتها فعرفٌ خاص للنحاة. . .

(٣)**ومن** ذلك: أن جداد النخل عملٌ مباح أيَّ وقت شاء صاحبه، لكن لما قصد به أصحابه في الليل حرمان الفقراء عاقبهم الله تعالىٰ بإهلاكه. ثم قال: ﴿**وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [القلم: ٣٣] ثم جاءت السنة بكراهة الجداد بالليل، لكونه ذريعة إلىٰ هذه المفسدة. ونصّ عليه غير واحدٍ من الأئمة. كأحمد بن حنبل وغيره.

(٤)**النوع** الثاني عشر إنكاره ـ سبحانه ـ أن يسوي بين المختلفين أو يفرق بين المتماثلين وأن حكمته وعدله يأبىٰ ذلك.

---

(١) ٦٩ بدائع جـ١.　(٢) ٧٣ أعلام جـ٤.　(٣) ٣٧٨ إغاثة جـ١.　(٤) ١٩٩ شفاء.

أما الأول فكقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. فأخبر أن هذا حكم باطل جائر يستحيل نسبته إليه كما يستحيل نسبة الفقر والحاجة والظلم إليه.

ومنكرو الحكمة والتعليل يجوزون نسبة ذلك إليه بل يقولون بوقوعه.

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. فجعل ـ سبحانه ـ ذلك حكماً سيئاً يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه فضلاً عن أن ينسب إليه.

بل أبلغ من هذا أنه أنكر على من حسب أن يدخل الجنة بغير امتحان له وتكليف يبين به صبره وشكره، وإن حكمته تأبىٰ ذلك.

كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦].

فأنكر عليهم هذا الظن والحسبان لمخالفته لحكمته.

وأما الثاني وهو أن لا يفرق بين المتماثلين فقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. وقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]. وقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. وقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]. وقوله: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقوله: ﴿سنّةَ من قد أرسلنا قَبلكَ من رسُلنا ولا تجد لسنَّتِنَا تحويلاً﴾ [الإسراء: ٧٧].
وقوله: ﴿سُنَّةَ اللهِ الّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣].
وقوله: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الذين خلو مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فسنته سبحانه عادته المعلومة في أوليائه وأعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرتهم وإهانة أولئك وإذلاهم وكبتهم.

وقال تعالىٰ: ﴿إنَّ الذين يحادُّون الله ورسوله كبتُوا كما كُبِتَ الذين منْ قبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ١٥].

والقرآن مملوء من هذا يخبر تعالىٰ أن حكم الشيء في حكمته وعدله حكم نظيره ومماثله، وضد حكم مضاده ومخالفه، وكل نوع من هذه الأنواع لو استوعبناه لجاء كتاباً مفرداً.

(١)**قال** الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أفنجْعَلُ المُسلِمِينَ كالمُجْرِمِين * ما لكمْ كيْفَ تحكمُون﴾ [القلم: ٣٥-٣٦] فأنكر عليهم الحكم بهذا وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الإخبار لينبه العقول على أن هذا مما تحيله الفطر وتأباه العقول السليمة، وقال تعالىٰ: ﴿لا يستوي أصحابُ النَّار وأصحابُ الجنَّة أصحابُ الجنَّة هم الفائزون﴾ [الحشر: ١٩] وقال تعالىٰ: ﴿أمْ نجعلُ الَّذين آمنُوا وعملُوا الصالحات كالمُفْسدين في الأرض أمْ نجعلُ المتَّقين كالفجَّار﴾ [صٓ: ٢٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ هلْ يستوي الذين يعلمُون والَّذين لا يعلمُون إنَّما يتذكَّروا أُولوا الألْباب﴾[الزمر: ٩] بل الواحد من الخلق لا تستوي أعاليه وأسافله. فلا يستوي عقبه وعينه، ولا رأسه ورجلاه. ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر. فالله عز وجل قد خلق الخبيث والطيب والسهل والحزن والضار والنافع. وهذه أجزاء الأرض: منها ما يصلح جلاء للعين، ومنها ما يصلح للأتون والنار. وبهذا ونحوه يعرف كمال القدرة وكمال الحكمة: فكمال القدرة بخلق الأضداد، وكمال الحكمة تنزيلها منازلها ووضع كل منها في موضعه.

والعالم من لا يلقي الحرب بين قدرة الله وحكمته - فإن آمن بالقدرة قدح في الحكمة وعطلها، وإن آمن بالحكمة قدح في القدرة ونقصها - بل يربط القدرة

---

(١) ١٠٤ طريق الهجرتين.

بالحكمة، ويعلم شمولها لجميع ما خلقه الله ويخلقه، فكما أنه لا يكون إلا بقدرته ومشيئته فكذلك لا يكون إلا بحكمته. وإذا كان لا سبيل للعقول البشرية إلىٰ الإحاطة بهذا تفصيلاً، فيكفيها الإيمان بما تعلم وتشاهد منه، ثم تستدل على الغائب بالشاهد وتعتبر ما علمت بما لم تعلم.

(١)**قال** أبو محمد بن حزم: وقد جاء عن عمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن من ترك صلاة فرض واحدة متعمداً حتىٰ يخرج وقتها فهو كافر مرتد. قالوا: ولا نعلم لهؤلاء مخالفاً من الصحابة، وقد دل على كفر تارك الصلاة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة.

أما الكتاب فقد قال تعالىٰ: ﴿**أفنجْعلُ المُسلمين كالمُجرمِيْن، ما لكُمْ كيفَ تحْكُمُون. أم لكُمْ كتابٌ فيه تدْرسُون. إن لكم فيه لما تخيرَّون. أم لكم أيْمانٌ علينا بالغةٌ إلىٰ يوم القيامة**﴾ إلىٰ قوله ﴿**يوم يُكْشَفُ عن ساقٍ ويدْعون إلىٰ السُّجود فلا يستطيعُون. خاشعةً ابصارهم ترهقهم ذلَّةٌ، وقد كانُوا يُدْعون إلىٰ السُّجود وهُمْ سالمُون**﴾ [القلم: ٣٥-٤٣].

فوجه الدلالة من الآية أنه سبحانه أخبر أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين، وأن هذا الأمر لا يليق بحكمته ولا بحكمه.

ثم ذكر أحوال المجرمين الذين هم ضد المسلمين فقال: ﴿**يومَ يُكشفُ عن ساقٍ**﴾ [القلم: ٤٢] وأنهم يدعون إلىٰ السجود لربهم تبارك وتعالىٰ فيحال بينهم وبينه فلا يستطيعون السجود مع المسلمين عقوبة لهم علىٰ ترك السجود له مع المصلين في دار الدنيا. وهذا يدل على أنهم مع الكفار والمنافقين الذين تبقىٰ ظهورهم إذا سجد المسلمون كصياصي البقر. ولو كانوا من المسلمين لأذِن لهم بالسجود كما أذن للمسلمين.

(٢)**فإن قيل**: فالآخرة دار جزاء، وليست دار تكليف، فكيف يمتحنون في غير دار التكليف؟

فالجواب: أن التكليف إنما ينقطع بعد دخول دار القرار، وأما في البرزخ

---

(١) ١٥ الصلاة. (٢) ٤٠٠ طريق الهجرتين.

وعرصات القيامة فلا ينقطع، وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسألة الملكين في البرزخ وهي تكليف.

وأما في عرصة القيامة فقال تعالىٰ: ﴿**يوْم يكْشفُ عنْ ساقٍ ويدْعون إلىٰ السجود فلا يستطيعُون**﴾ [القلم: ٤٢].

فهذا صريح في أن الله يدعو الخلائق إلىٰ السجود يوم القيامة، وأن الكفار يحال بينهم وبين السجود إذ ذاك، ويكون هذا التكليف بما لا يطاق حينئذ حسًّا عقوبة لهم، لأنهم كلفوا به في الدنيا وهم يطيقونه فلما امتنعوا منه وهو مقدور لهم كلفوا به وهم لا يقدرون عليه حسرة عليهم وعقوبة لهم.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿**وقدْ كانُوا يدْعون إلىٰ السجُود وهمْ سالِمُون**﴾ [القلم: ٤٢] دعوا إليه في وقت حيل بينهم وبينه كما في الصحيح من حديث زيد بن أسلم عن عطاء عن أبي سعيد رضي الله عنه «أن ناساً قالوا: يارسول الله، هل نرىٰ ربنا» – فذكر الحديث بطوله، إلىٰ أن قال: فيقول: «**تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيقول المؤمنون: فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً – مرتين أو ثلاثاً – حتىٰ إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون نعم. فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقىٰ من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقاً واحداً كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رءوسهم**» وذكر الحديث.

وهذا التكليف نظير تكليف البرزخ بالمسألة، فمن أجاب في الدنيا طوعاً واختياراً أجاب في البرزخ، ومن امتنع من الإجابة في الدنيا منع منها في البرزخ، ولم يكن تكليفه في الحال وهو غير قادر قبيحاً، بل هو مقتضىٰ الحكمة الإلـٰهية، لأنه مكلف وقت القدرة وأبىٰ، فإذا كلف وقت العجز وقد حيل بينه وبين الفعل كان عقوبة له وحسرة.

والمقصود أن التكليف لا ينقطع إلا بعد دخول الجنة أو النار.

وقد تقدم أن حديث الأسود بن سريع صحيح، وفيه التكليف في عرصة القيامة، فهو مطابق لما ذكرنا من النصوص الصحيحة الصريحة. فعلم أن الذي تدل عليه الأدلة الصحيحة وتأتلف به النصوص ومقتضىٰ الحكمة هذا القول. والله أعلم.

(١)**وحدثنا** عبدالله بن داود عن سفيان في قوله: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهم مِنْ حيثُ لا يَعْلَمُون**﴾ قال يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر.

وقال غير سفيان: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة. وسئل ثابت البناني عن الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين.

وقال يونس في تفسيرها: إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقىٰ عليها ثم شكر الله بما أعطاه أعطاه أشرف منها، وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله وكان تضييعه الشكر استدراجاً.

وقال أبو حازم: نعمة الله فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها إني رأيته أعطاها أقواماً فهلكوا. وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية، وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.

(٢)**ونهاه** سبحانه أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولي العزم فقال: ﴿**فاصْبِرْ لِحُكْم ربِّك ولا تكُنْ كصاحب الحوُت إذ نادىٰ وهو مكظُوم**﴾ [القلم: ٤٨]. وهاهنا سؤال نافع وهو أن يقال: ما العامل في الظرف وهو قوله: ﴿«**إذ نادىٰ**﴾ ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه إذ يصير المعنىٰ لا تكن مثله في ندائه.

وقد أثنىٰ الله ـ سبحانه ـ عليه في هذا النداء فأخبر أنه نجاه به فقال: ﴿**وذَا النُّون إذْ ذهَب مُغاضباً فظنَّ أن لنْ نقْدر عليه فنادَىٰ في الظُّلمَات أن لَّا إلـه إلَّا أنتْ سبْحانكَ إنِّي كنُت من الظَّالمينْ فاسْتجبْنا له ونجيَّنْاه من الغمِّ وكذٰلك نُنْجي المُؤْمنين**﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ قال: «**دعوة أخي ذي النـون إذ دعا بها في بطن الحوت ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله عنه: لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**».

---

(١) ١٣٩ عدة الصابرين. (٢) ٣٢ عدة الصابرين.

فلا يمكن أن ينهي عن التشبه به في هذه الدعوة وهي النداء الذي نادىٰ به ربـه. وإنما نهىٰ عن التشبه به في السبب الذي أفضىٰ به إلىٰ هذه المناداة وهي مغاضبته التي أفضت به إلىٰ حبسه في بطن الحوت وشدة ذلك عليه حتىٰ نادىٰ ربه وهو مكظوم. والكظيم والكاظم الذي قد امتلأ غيظاً وغضباً أو همًّا وحزناً عليه فلم يخرجه.

(١)**وكثير** من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية وقد قال تعالى لنبيه: ﴿**وإن يكادُ الَّذين كفرُوا ليُزلقونَك بأبْصارهم لما سمعُوا الذكْر**﴾ [القلم: ٥١].

وقال: ﴿**قل أعوذُ بربِّ الفلقِ. من شرِّ ما خلقَ. ومنْ شرِّ غاسقٍ إذا وقبَ. ومن شرِّ النفَّاثات في العُقد. ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسدَ**﴾ [الفلق: ١-٥].

فكل عائن حاسد. وليس كل حاسد عائناً. فلما كان الحاسد أعم من العائن: كانت الاستعـاذة منـه استعاذة من العائن، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين، تصيبه تارة، وتخطئه تارة. فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه ولا بد وإن صادفته حَذِراً شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهام: لم تؤثر فيه، وربما رُدَّت السهام علىٰ صاحبها. وهذا بمثابة الرمي الحسِّي سواء. فهذا من النفوس والأرواح، وذاك من الأجسام والأشباح. وأصله: من إعجاب العائن بالشيء ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سُمِّها بنظرها إلىٰ المعين.

وقد يَعين الرجل نفسه. وقد يَعين بغير إرادته، بل بطبعه. وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني. وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عُرِفَ بذلك حبسه الإمام، وأجرىٰ له ما ينفق عليه إلىٰ الموت. وهذا هو الصواب قطعاً.

والمقصود العلاج النبوي لهذه العلة. وهو أنواع.

وقد روىٰ أبو داود في سننه عن الرّباب - جدة عثمان بن حكيم الأنصاري - عن سهـل بن حنيف قال: مررنـا بسيل. فدخلتُ فاغتسلت فيه، فخـرجت محمـوماً، فنما ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ. فقال: «**مروا أبا ثابت يتعوذ**». قالت: فقلت: يا سيدي، والـرقى صالحة؟ فقال: «**لا رقية إلا في نفس، أو حُمَةٍ، أو**

(١) ٢٤٨ زاد المعاد جـ٣.

لَدْغة». و«النفس» العين. يقال: أصابت فلاناً نفسٌ، أي عين. والنافس: العائن. و«اللدغة» بدال مهملة وغين معجمة وهي ضربة العقرب ونحوها.

فمن التعوذات والرقى: الإكثار من قراءة المعوذتين وفاتحة الكتاب، وآية الكرسي. ومنها: التعوذات النبوية، نحو: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**» ونحو «**أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامَّة، ومن كل عين لامَّة**» ونحو «**أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر: من شر ما خلق، وذرأ، وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمٰن**».

ومنها: «**أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن هَمَزات الشياطين، وأن يحضرون**».

ومنها: «**اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتك التامات، من شر ما أنت آخذ بناصيته. اللهم أنت تكشف المأثَم والمغرم. اللهم إنه لا يُهزم جندك، ولا يُخلف وعدك. سبحانك وبحمدك**».

ومنها: «أعوذ بوجه الله العظيم، الذي لا شيء أعظم منه، وبكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر. وأسماء الله الحسنىٰ، ما علمت منها وما لم أعلم: من شر ما خلق، وذرأ وبرأ، ومن شر كل ذي شر لا أطيق شره، ومن شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته. إن ربي على صراط مستقيم».

ومنها: «**اللهم أنت ربي لا إلـه إلا أنت، عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً: وأحصىٰ كل شيء عدداً**»[١].

[٢]**ويندفع** شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب.

(١) استمر المؤلف في ذكر الرقى وأحكام العائن قرابة كراسة وسيأتي قريبًا إن شاء الله في تفسير سورة الفلق في بدائع الفوائد بحثاً موسعاً حول الحسد والسحر وغيرها من ذكر سحر اليهود وغيرهم.

(٢) ٢٣٨ بدائع جـ٢.

أحدها: التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجأ إليه وهو المقصود بهذه السورة والله تعالىٰ سميع لاستعاذته عليم بها يستعيذ منه.

والسمع هنا المراد به سمع الإجابة لا السمع العام فهو مثل قوله: سمع الله لمن حمده. وقول الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيْعُ الدُّعَآء﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر لاقتضاء حال المستعيذ ذلك فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه ويعلم كيده وشره فأخبر الله ـ تعالىٰ ـ هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته أي مجيب عليم بكيد عدوه يراه ويبصره لينبسط أمل المستعيذ ويقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ السميع العليم في الأعراف وحم السجدة وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في سورة حم المؤمن فقال: ﴿**إن الذين يجادلُون في آيات الله بغير سُلْطان أتاهم إن في صُدُورهم إلا كبْر ما هم ببالغيْهِ فاسْتعْذ بالله إنَّهُ هو السميْعُ البصيرُ**﴾ [غافر: ٥٦] لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة ترىٰ بالبصر، وأم نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية والله أعلم.

(**السبب** الثاني) تقوىٰ الله وحفظه عند أمره ونهيه فمر اتقىٰ الله تولىٰ الله حفظه ولم يكله إلىٰ غيره قال تعالى: ﴿**وإنْ تصْبرُوا وتتَّقوُا لا يضرُكُم كيدُهم شيئاً**﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**» فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر.

(**السبب** الثالث) الصبر على عدوه وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بإذاه أصلًا فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل علىٰ الله ولا يستطل تأخيره وبغيه فإنه كلما بغىٰ عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر فبغيه سهام يرميها من نفسه إلىٰ نفسه. ولو رأى

المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه ولكن لضعف بصيرته لا يرىٰ إلا صورة البغي دون آخره ومآ له وقد قال تعالىٰ: ﴿**ومنْ عاقبَ بمثْلِ ما عُوقبَ بهِ ثمَّ بُغيَ عليْهِ لينْصرنَّهُ الله**﴾ [الحج: ٦٠].

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفىٰ حقه أولاً فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه، بل بغىٰ عليه وهو صابر، وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله أنه لو بغىٰ جبل على جبل جعل الباغي منهما دكًا.

(**السبب** الرابع) التوكل على الله فمن يتوكل على الله فهو حسبه والتوكل من أقوىٰ الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذىٰ الخلق وظلمهم وعدوانهم وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً.

وفرق بين الأذىٰ الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه وبين الضرر الذي يتشفىٰ به منه، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال: ﴿**وَمن يَتَوكَّلْ عَلَىٰ الله فهُو حسْبُه**﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً من ذلك وكفاه ونصره.

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في (كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة وبينا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلىٰ التوكل أعظم وأشد وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

(**السبب** الخامس) فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوىٰ الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومنامًا لا يفتر عنه وهو يتمنىٰ أن يتماسك الروحان ويتشبثا.

فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرىٰ عدم القرار ودام الشر حتىٰ يهلك أحدهما فإذا جبذ روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به وأن لا يخطره بباله فإذا خطر بباله بادر إلىٰ محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولىٰ به بقىٰ الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضاً فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية(١).

(٢)**أخبر** ـ تعالىٰ ـ عن القرآن بأنه ذكر للعالمين. وفي موضع آخر تذكرة للمتقين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق. وفي موضع آخر ذكر مبارك. وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

ويجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكراً عامًّا وخاصًّا، وكونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم. ويذكرهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرهم بالرب ـ تعالىٰ ـ وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده، ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه. ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالها وآفاتها، وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم. ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً. ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلىٰ نعم أخرىٰ أكبر منها ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصىٰ أمره، وكذب رسله ويذكرهم بثوابه وعقابه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القلم

والحمد لله رب العالمين

---

(١) بقية البحث في سورة الفلق. (٢) ٨٠ التبيان.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**ووكّل** بالرياح ملائكةً تصرّفها بأمره وهم خزنتها. قال الله تعالى: ﴿**وأما عادٌ فأهلكوا بريح صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ**﴾ [الحاقة: ٦] وقال غير واحد من السلف عتت على الخُزَّان فلم يقدروا على ضبطها «ذكره البخاري في صحيحه».

(٢)**قوله** تعالىٰ: ﴿**إنا لَمّا طغَى المَآء حمَلْناكُمْ في الجارِيةِ لِنجْعلهَا لكم تذكرَةً وتعيها أُذنٌ وَّاعيةٌ**﴾ [الحاقة: ١١-١٢].

قال قتادة: أذن سمعت وعقلت عن الله ما سمعت.

وقال الفراء: لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتي بعد، فالوعي توصف به الأذن كما يوصف به القلب، يقال: قلب واع، وأذن واعية، لما بين الأذن والقلب من الارتباط، فالعلم يدخل من الأذن إلىٰ القلب، فهي بابه والرسول والموصل إليه العلم، كما أن اللسان رسوله المؤدىٰ عنه، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعى وأنها إذا وعت وعي القلب.

وفي حديث جابر في المثل الذي ضربته الملائكة للنبي ﷺ ولأمته، وقول الملك له: أسمع سمعت أذنك وعقل قلبك، فلما كان القلب وعاءاً والأذن مدخل ذلك الوعاء وبابه، كان حصول العلم موقوفاً على حسن الاستماع وعقل القلب، والعقل هو ضبط ما وصل إلىٰ القلب وإمساكه حتى لا يتفلت منه.

ومنه عقل البعير والدابة والعقال لما يعقل به.

وعقل الإنسان يسمىٰ عقلاً لأنه يعقله عن اتباع الغي والهلاك، ولهذا يسمىٰ حجراً لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ما حواه فعقل الشيء أخص من علمه ومعرفته لأن صاحبه يعقل ما علمه فلا يدعه يذهب كما تعقل الدابة التي يخاف شرودها.

(١) ٦٥ روضة المحبين.	(٢) ١٢٥ مفتاح جـ١.

وللإدراك مراتب بعضها أقوىٰ من بعض، فأولها الشعور، ثم الفهم، **ثم** المعرفة، ثم العلم، ثم العقل.

ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التي ركبها الله في الإنسان.

فخير القلوب ما كان واعياً للخير ضابطاً له، وليس كالقلب القاسي الذي **لا** يقبله. فهذا قلب حجري، ولاكالمائع الأخرق الذي يقبل، ولكن لا يحفظ **ولا** يضبط، فتفهيم الأول كالرسم في الحجر، وتفيهم الثاني كالرسم على الماء، بل خير القلوب ما كان ليناً صلباً يقبل بلينه ما ينطبع فيه، ويحفظ صورته بصلابته، فهذا تفهيمه كالرسم في الشمع وشبهه.

فصل(١)

ومن ذلك قوله: ﴿**فلا أُقْسِمُ بِمَا تُبصِرُونَ * وما لا تُبصِرُونَ * إنه لقولُ رَسُولٍ كريمٍ**﴾ [الحاقّة: ٣٨-٤٠] إلىٰ آخرها.

قال مقاتل: بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه. وقال قتادة: أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما لا يبصر. وقال الكلبي: تبصرون من شيء وما لا تبصرون من شيء.

وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة، وما يرىٰ وما لا يرىٰ، ويدخل في ذلك الملائك كلهم والجن والإنس، والعرش والكرسي، وكل مخلوق، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته، وهو سبحانه يصرف الأقسام كما يصرف الآيات.

ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرىٰ وما لا يرىٰ آية، ودليل علىٰ صدق رسوله، وأن ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامه، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن. ومن تأمل المخلوقات، ما يراه منها ومالا يراه واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت. كما أن سائر الموجودات ما يرىٰ منها وما لا يرىٰ حق.

---

(١) ١٠٩ التبيان.

كما قال تعالىٰ: ﴿**فَوربِّ السَّمآءِ والأرْضِ إنَّه لحقٌ مثْل ما أنكُمْ تَنْطِقُونَ**﴾ [الذاريات: ٣٣] أي إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون، فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق، كما في الحديث: «**إنه لحق مثل ما أنك ههنا**» فكأنه ـ سبحانه ـ يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق.

ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه، ومبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ المقسم عليه فقال: ﴿**إنَّه لقولُ رسُولٍ كَرِيم**﴾ [الحاقة: ٤٠] وهذا رسوله البشري محمد ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل. فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً، ولناقض ذلك إضافته إلىٰ رسوله الملكي في سورة التكوير.

ثم بيّن ـ سبحانه ـ كذب أعدائه وبهتهم في نسبة كلامه تعالىٰ إلىٰ غيره، وأنه لم يتكلم به، بل قاله، من تلقاء نفسه، كما بين كذب من قال: ﴿**إنْ هذا إلاَّ قوْلُ البَشر**﴾ [المدثر: ٢٥]. فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر، وسيصليه الله سقر.

ثم أخبر سبحانه أنه تنزيل من رب العالمين، وذلك يتضمن أموراً:

(أحدها) أنه تعالىٰ فوق خلقه كلهم، وأن القرآن نزل من عنده.

(والثاني) أنه تكلم به حقيقة، لقوله: ﴿**مِن رَّبِّ العالَمين**﴾ [الواقعة: ٨٠] ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير. ونظير هذا قوله: ﴿**ولـٰكن حقَّ القولُ منِّي**﴾ [السجدة: ١٣]. ونظيره قوله: ﴿**قل نزَّله رُوحُ القُدُس من رَّبِّكَ بالحقِّ**﴾ [النحل: ١٠٢]. وقوله: ﴿**تنـزيلُ الكتابِ من اللهِ العزِيْزِ الحْكيمِ**﴾ [الزمر: ١].

وقوله: ﴿**تنزْيلٌ منْ حكيم حمْيد**﴾ [فصلت: ٤٢]. وما كان من الله فليس بمخلوق، ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر وما في السموات والأرض جميعاً منه، وهو مخلوق؛ لأن ذلك كله أعيان قائمة بنفسها وصفات وأفعال لتلك الأعيان، فإضافتها إلىٰ الله ـ سبحانه ـ وأنها منه إضافة خلق، كإضافة بيته، وعبده، وناقته، وروحه، وبابه – إليه.

بخلاف كلامه فإنه لا بد أن يقوم بمتكلمه؛ إذ كلام من غير متكلم كسمع من غير سامع، وبصر من غير مبصر، وذلك عين المحال، فإذا أضيف إلىٰ الرب كان بمنزلة إضافة سمعه، وبصره، وحياته، وقدرته، وعلمه، ومشيئته إليه.

ومن زعم أن هذه إضافة مخلوق إلىٰ خالق فقد زعم أن الله لا سمع له، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا مشيئة تقوم به. وهذا هو التعطيل الذي هو شر من الإشراك. وإن زعم أن إضافة السمع، والبصر، والعلم، والحياة والقدرة إضافة صفة إلىٰ. موصوف، وإضافة الكلام إليه إضافة مخلوق إلىٰ خالق فقد تناقض، وخرج عن موجب العقل والفطرة والشرع ولغات الأمم، وفرّق بين متماثلين حقيقة، وعقلاً، وشرعاً، وفطرة، ولغة.

وتأمل كيف أضافه ـ سبحانه ـ إلىٰ الرسول بلفظ القول، وأضافة إلىٰ نفسه بلفظ لكلام في قوله: ﴿**حتَّى يسمعَ كلامَ اللهِ**﴾ [التوبة: ٦].

فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله، فيقول: قلت كذا وكذا. وقلت له: ما أمرتني أن أقوله كما قال المسيح: ﴿**مـا قُلتُ لهم إلا ما أمـرْتني به**﴾ [المائدة: ١١٧]. والمرسِل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا. كما قال تعالىٰ: ﴿**قُل لعبادِي الذَّين آمنُوا يُقيْمُوا الصلاَة**﴾ [إبراهيم: ٣١] ﴿**وقُل لِّعبادي يقُولُوا التَّي هي أحْسن**﴾ [الإسراء: ٥٣] ﴿**قُل للْمؤْمنين يغُضُّوا منْ أبصْارِهم**﴾ [النور: ٣٠] ونظائره.

فإذا بلغ الرسول ذلك صحّ أن يقال: قال الرسول كذا. وهذا قول الرسول – أي قاله مبلغاً – وهذا قوله مبلغاً عن مرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في

موضع واحد، بل قيل للصديق - وقد تلا آية - هذا كلامك وكلام صاحبك فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي. هذا كلام الله.

فصل

الأمر الثالث ما تضمنه قوله: ﴿تنْزِيلٌ منْ ربِّ الْعالمين﴾ [الواقعة: ٨٠] أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبىٰ أن يتركهم سدىٰ: لا يأمرهم، ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلىٰ ما ينفعهم، ويحذرهم ما يضرهم. بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة.

فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره، ونسبه إلىٰ ما لا يليق به تعالىٰ: ﴿فَتَعَالَىٰ اللهُ الْملكُ الحقُّ لا إلـه إلاَّ هُو ربُّ العرْشِ الكريْم﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ثم أقام ـ سبحانه ـ البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقوّل عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه لما أقره، ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبىٰ أن يقر من تَقَوّل عليه، وافترىٰ عليه، وأضل عباده، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب، وخالف الخلق. فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره علىٰ ذلك؟

بل كيف يليق به أن يؤيده، وينصره، ويعليه، ويظهره، ويظفره، بأهل الحق: يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلاً: إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟.

بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر. ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها. فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها. ثم يعجز الخلق عن معارضته، ثم يصدقه بكلامه وقوله، ثم يقيم الدلالة القاطعة علىٰ أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله.

فمن أعظم المحال، وأبطل الباطل، وأبين البهتان أن يجوز علىٰ أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفتري عليه، الذي هو شر الخلق

على الإطلاق. فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعاً، ولا عرف الله، ولا هذا هو رب العالمين، ولا يحسن نسبة ذلك إلىٰ من له مسكة من عقل، وحكمة، وحجىٰ. ومن فعل ذلك فقد أزرىٰ بنفسه، ونادىٰ على جهله.

وأذكر في هذا مناظرة جرت لي مع بعض اليهود.

قلت له - بعد أن أقضىٰ في نبوة النبي ﷺ - إلىٰ أن قلت له: إنكار نبوته يتضمن القدح في رب العالمين وتنقصه بأقبح التنقص، فكان الكلام معكم في الرسول، والكلام الآن في تنزيه الرب تعالىٰ.

فقال: كيف تقول مثل هذا الكلام؟ فقلت له: بيانه عليّ.

فأسمع الآن: أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولاً وإنما كان ملكاً قاهراً قهر الناس بسيفه «حتىٰ دانوا له، ومكث ثلاثاً وعشرين سنة يكذب على الله، ويقول: أوحي إلي ولم يوح إليه، وأمرني ولم يأمره، ونهاني ولم ينهه، وقال الله كذا ولم يقل ذلك، وأحل كذا وحرم كذا، وأوجب كذا، وكره كذا، ولم يحل ذلك ولا حرمه ولا أوجبه، بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذباً مفترياً على الله وعلىٰ أنبيائه، وعلىٰ رسله وملائكته. ثم مكث من ذلك ثلاث عشرة سنة يستعرض عباده: يسفك دماءهم، ويأخذ أموالهم، ويسترق نساءهم وأبناءهم، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته، وهو في ذلك كله يقول: الله أمرني بذلك، ولم يأمره.

ومع ذلك فهو ساع في تبديل أديان الرسل، ونسخ شرائعهم، وحل نواميسهم فهذه حاله عندكم. فلا يخلو إما أن يكون الرب ـ تعالىٰ ـ عالماً بذلك مطلعاً عليه من حاله، يراه ويشاهده أم لا.

فإن قلتم: إن ذلك جميعه غائب عن الله لم يعلم به قدحتم في الرب تعالىٰ، ونسبتموه إلىٰ الجهل المفرط، إذ لم يطلع علىٰ هذا الحادث العظيم ولا علمه ولا رآه.

وإن قلتم: بل كان ذلك بعلمه وإطلاعه ومشاهدته.

قيل لكم: فهل كان قادراً على أن يغير ذلك ويأخذ على يده، ويحول بينه وبينه أم لا؟.

فإن قلتم: ليس قادراً على ذلك نسبتموه إلىٰ العجز المنافي للربوبية، وكان هذا الإنسان هو وأتباعه أقدر منه على تنفيذ إرادتهم.

وإن قلتم: بل كان قادراً، ولكن مكنه ونصره وسلطه على الخلق، ولم ينصر أولياءه وأتباع رسله نسبتموه إلىٰ أعظم السفه والظلم والإخلال بالحكمة.

هذا لو كان مخلي بينه وبين ما فعله، فكيف وهو في ذلك كله ناصره ومؤيده، ومجيب دعواته ومهلك من خالفه وكذبه، ومصدقه بأنواع التصديق، ومظهر الآيات على يديه التي لو اجتمع أهل الأرض كلهم علىٰ أن يأتوا بواحدة منها لما أمكنهم ولعجزوا عن ذلك. وكل وقت من الأوقات يحدث له من أسباب النصر والتمكين والظهور والعلو وكثرة الأتباع أمراً خارجاً عن العادة. فظهر أن من أنكر كونه رسولاً نبيًّا فقد سب الله وقدح فيه، ونسبه إلىٰ الجهل والعجز والسفه.

قلت له: ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم الله في الأرض وقتاً ما، ثم قطع دابرهم، وأبطل سنتهم، ومحا آثارهم وجورهم. فإن أولئك لم يعيدوا شيئاً من هذا، ولا أيدوا. ونصروا، وظهرت علىٰ أيديهم الآيات، ولا صدقهم الرب تعالىٰ بإقراره ولا بفعله ولا بقوله، بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول، كفرعون ونمرود وأضرابهما.

ولا ينتقض هذا بمن ادعىٰ النبوة من الكذابين؛ فإن حاله كانت ضد حال الرسول من كل وجه. بل حالهم من أظهر الأدلة علىٰ صدق الرسول.

ومن حكمة الله ـ سبحانه ـ أن أخرج مثل هؤلاء إلىٰ الوجود ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين، وكان ظهورهم من أبين الأدلة على صدق الرسل.

والفرق بين هؤلاء وبينهم، فبضدها تتبين الأشياء، والضد يظهر حسنه الضد، فمعرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحق وبراهينه.

فلما سمع ذلك قال: معاذ الله لا نقول: إنه ملك ظالم، بل نبي كريم من اتبعه فهو من السعداء، وكذلك من اتبع موسىٰ فهو كمن اتبع محمداً.

قلت له: بطل كل ما تموهون به بعد هذا؛ فإنكم إذا أقررتم أنه نبي صادق فلا بد من تصديقه في جميع ما أخبر به، وقد علم أتباعه وأعداؤه بالضرورة أنه دعا

الناس كلهم إلىٰ الإيمان، وأخبر أن من لم يؤمن به فهو كافر مخلد في النار، وقاتل من لم يؤمن به من أهل الكتاب وسجل عليهم بالكفر، واستباح أموالهم ودماءهم ونساءهم وأبناءهم. فإن كان ذلك عدواناً منه وجوراً لم يكن نبيًّا، وعاد الأمر إلىٰ القدح في الرب تعالىٰ، وإن كان ذلك بأمر الله ووحيه لم يسع أحداً مخالفته وترك أتباعه، ويلزم تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر.

(١)**قال** تعالىٰ: ﴿**ولو تقوَّل علينْا بعْضَ الأقَّاويلِ * لأخذْنا منْهُ بالْيمِين * ثم لقطعْنا منْهُ الوتينُ**﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦] أي لو أتىٰ بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه. وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه. وقد أعاذه الله من الركون إلىٰ أعدائه بذرة من قلبه. ومن التقوّل عليه ـ سبحانه ـ. وكم من راكن إلىٰ أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به. كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينـه. وما ذكرتم في قصة يونس: هو من هذا الباب. فإنه لم يسامح بغضبة. وسجن لأجلها في بطن الحوت. ويكفي حال أبي البشر حيث لم يسامح بلقمة. وكانت سبب إخراجه من الجنة. . .

(٢)**وقد** أرشد ـ سبحانه ـ إلىٰ هذا المسلك في غير موضع من كتابه فقال: ﴿**ولو تقوَّل علينْا بعضَ الأقاويل * لأخذْنا منه باليمينْ * ثم لقطعْنا منْهُ الوتينْ * فما منكم من أحدٍ عنْه حاجزين**﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٧] يقول سبحانه: لو تقول علينا قولاً واحداً من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوحه إليه لما أقررناه، ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه. هذا أحدا لقولين. قال ابن قتيبة: في هذا قولان:

أحدهما: أن اليمين القوة والقدرة، وأقام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في ميامنه قلت: وعلىٰ هذا تكون اليمين من صفة الأخذ، وهذا قول ابن عباس في اليمين.

قال: ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر، وهذا أن الكلام ورد علىٰ ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقب، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل خذ بيده، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم: خذ بيده، واسفع بيده فكأنه قال:

(١) ٣٣٣ مدارج جـ١ (٢) ١١٤ التبيان.

لو كذب علينا في شيء (مما بلغ) إليكم عنا لأخذنا بيمينه، ثم عاقبناه بقطع الوتين. وإلىٰ هذا المعنىٰ ذهب الحسن ا هـ.

فقد أخبر ـ سبحانه ـ أنه لو تقول عليه شيئاً من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة. فإن كذبا على الله ليس ككذب علىٰ غيره، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه.

ويقوله: ﴿**ثُمَّ لقطعْنا منْه الوتِين**﴾ [الحاقة: ٤٦] والوتين: نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتىٰ يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوىٰ ومات صاحبه، هذا قول جميع أهل اللغة.

قال ابن قتيبة: ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه، ولكنه أراد لو كذب علينا لأمتناه أو قتلناه، فكان كمن قطع وتينه.

قال: ومثله قوله ﷺ: «**ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان قطع أبهري**»[1] والأبهر: عرق يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه، فكأنه قال: فهذا أوان قتلني السم، فكنت كمن انقطع أبهره[2].

ثم قال تعالىٰ: ﴿**فَمَا منْكُمْ منْ أحدٍ عنْه حاجزين**﴾ [الحاقة: ٤٧] أي لا يحجزه مني أحد ولا يمنعه مني.

الموضع الثاني قوله تعالىٰ: ﴿**أم يقُولُون افْترىٰ عَلَى الله كذباً فإن يشَأ الله يخْتمْ علىٰ قلْبِك ويمْحُو الله الباطل ويُحقُّ الحق بكلماتِهِ إنه عليمٌ بذاتِ الصُّدور**﴾ [الشورىٰ: ٢٤] وفي معنىٰ الآية للناس قولان:

---

(١) رواه البخاري معلقاً: ووصله البزار وغيره عن عائشة رضي الله عنها. والأبهر عرق في الظهر. وفي النهاية: ما زالت أكلة خيبر تعادني - بضم التاء وتشديد الدال - وأتىٰ للأبهر بمعان كثيرة. وقال الحافظ في الفتح (٧: ٣٣٨) قال ابن إسحاق: لما اطمأن النبي ﷺ بعد فتح خيبر أهدت إليه زينب بنت الحارث. امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية كانت سألت: أي عضو من الشاة أحب إليه؟ قيل لها الذراع. فكثرت فيها من السم. فلما تناول الذراع لاك منها مضغة ولم يسقط. وأكل معه بشر بن البراء فأساغ لقمته فمات.

(٢) تقدم في تفسير آية ﴿**شهد الله أنه لا إلـه إلا هو**﴾ الآية في سورة آل عمران بحث على هذه الآية قريباً من هذا (ج).

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، حتىٰ لا يشق عليك.

والثاني: قول قتادة: إن يشأ الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي. وهذا القول أقوىٰ من الأول لوجوه:

(أحدهما) أن هذا خرج جواباً لهم وتكذيباً لقولهم: إن محمداً كذب علىٰ الله وافترىٰ عليه هذا القرآن. فأجابهم بأحسن جواب، وهو أن الله تعالىٰ قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم علىٰ قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلىٰ ما فيه، فيعود المعنىٰ إلىٰ أنه لو افترىٰ عليّ لم أمكنه ولم أقره.

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه؛ فإن فيه من علوم الأولين والآخرين، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة، والعلم الذي لا يعلمه إلا الله والبيان التام، والجزالة، والفصاحة والجلالة والأخبار بالغيوب ما لم يمكن من ختم علىٰ قلبه أن يأتي به ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته علىٰ قلبه ويسرته بلسانه - لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه. فأين هذا المعنىٰ إلىٰ المعنىٰ الذي ذكره الآخرون؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم؟ وكيف يتضمن الرد عليهم؟.

(الوجه الثاني) أن مجرد الربط علىٰ قلبه بالصبر علىٰ أذاهم يصدر من المحق والمبطل، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما، ولا يكون فيه رد لقولهم، فإن الصبر علىٰ أذىٰ المكذب لا يدل بمجرده علىٰ صدق المخبر.

(الثالث) أن الربط علىٰ قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه، ولا يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب، ولا هو المعهود في القرآن، بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظ في القرآن كقوله: ﴿**خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ**﴾ [البقرة: ٧] وقوله: ﴿**افرَأَيْت من اتَّخذ إلـهَهُ هواهُ وأضلهُ الله علىٰ علم وختمَ علىٰ سمْعهِ وقلْبه وجعَلَ علىٰ بصرهِ غِشاوةً**﴾ [الجاثية: ٢٣] ونظائره، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله: ﴿**وربطْنَا علىٰ قُلُوبِهِمْ إذْ قامُوا فقالُوا ربَّنا ربُّ**

السَّمٰوات والأَرْض﴾ [الكهف: ١٤] وقـوله: **﴿وأَصْبحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسىٰ فارغاً إنْ كادتْ لتُبدي به لولآ أَنْ ربطْنا علىٰ قلْبها﴾** [القصص: ١٠].

والإنسان يسوغ له في الدعاء أن يقول: اللهم اربط على قلبي، ولا يحسن أن يقول: اللهم اختم علىٰ قلبي.

(الرابع) أنـه سبحانه حيث يحكي أقوالهم «إنه افتراه، لا يجيبهم عليه هذا الجواب، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئاً، بل كان يأخذه ولا يقـدرون علىٰ تخليصه كقوله: **﴿أم يقُولُون افْتراهُ قلْ إن افتريتُه فلَا تمْلكُون لي من الله شيئاً﴾** [الأحقاف: ٤] وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه، وتارة بإقامة الأدلة القاطعة على أنه الحق وأنهم هم الكاذبون المفترون، وهذا هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر.

(الخامس) أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره ولا مكّنه. وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير.

(السادس) أنه لا دلالة في سياق الآية علىٰ الصبر بوجه ما: لا بالمطابقة؛ ولا التضمن، ولا اللزوم. فمن أين يعلم أنه أراد ذلك، ولم يستمر هذا المعنىٰ في غير هذا المعنىٰ، فيحمل عليه، بخلاف كونه يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه، فقد ذكره في مواضع.

(السابع) أنه ـ سبحانه ـ أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه كما قال تعالىٰ: **﴿قُل لو شاء الله ما تلوتُه عليكُم ولا أدْراكم به﴾** [يونس: ١٦]. وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها، أي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي، ولا أقدر أن أفتريه على الله ولو كان ذلك مقدوراً لي لكـان مقـدوراً لمن هو من أهـل العلم والكتـابة ومخالطة الناس والتعلم منهم، ولكن الله بعثني به، ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بلساني، فلم يدعني أتلوه عليكم وأن أعلمكم به ألبتة لا علىٰ لساني ولا علىٰ لسان غيري، ولكنه أوحاه إلىٰ وأذن لي في تلاوته عليكمُ، وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به. فلو كان كذباً وافـتراءًا كما تقـولـون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته، لأن

الكذب لا يعجز عنه البشر، وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه إلا مني ولم تسمعوه من بشر غيري.

ثم أجاب عن سؤال مقدر وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه، فقال: ﴿**فقد لبثْتُ فيكُمْ عُمُراً من قَبْلِهِ**﴾ [يونس: ١٦] تعلمون حالي ولا يخفىٰ عليكم سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي. ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه ألبتة، ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم، ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه، ولا من بعضه، وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند الله أوحاه إليّ وأنزله عليّ ولو شاء ما فعل. فلم يمكني من تلاوته ولا أمكنكم من العلم به، بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه، ولم أكن قبل أن يوحى إليّ تالياً له ولا لبعضه. فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته.

ومن هذا قوله ـ سبحانه ـ: ﴿**ولَئِن شئْنا لنذْهبنَّ بالَّذي أوْحيْنا إليك ثُمَّ لا تجدُ لك به علَيْنا وكيلاً**﴾ [الإسراء: ٨٦] وهذا هو المناسب لقوله: ﴿**أمْ يقُولون افْترىٰ على الله كذباً فإن يشأ الله يخْتم على قلْبك**﴾ [الشورىٰ: ٢٤] ولقوله: ﴿**ولو تقوَّل علينا بعضَ الأقاويلِ لأخذْنا منْه باليَمين**﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥] وبرهان مستقل مذكور في القرآن علىٰ وجوه متعددة والله أعلم.

(الثامن) أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات، كقوله تعالىٰ: ﴿**ولئِن شئْنا لنذْهبنَّ بالَّذي أوْحيْنا إليك**﴾ [الإسراء: ٨٦] وقوله: ﴿**إن يشأْ يُذْهبْكُمْ أيُّها النَّاسُ ويأتِ بآخرين**﴾ [النساء: ١٣٣] وقوله: ﴿**إنْ يشأْ يُسْكن الرِّيْحَ فيظْللن رواكد علىٰ ظهْره**﴾ [الشورىٰ: ٣٣] وقوله: ﴿**إن نشأ نخْسِفْ بهمُ الأرْض أو نُسْقطْ عليهمْ كسفاً من السَّمآء**﴾ [سبأ: ٩] ونظائره لم يأت إلا فيما كان مابعد فعل المشيئة منفيًا.

(التاسع) أن الختم علىٰ القلب لا يستلزم الصبر، بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف، بخلاف الربط على

القلب فإنـه يستلزم الصبر، كما قال تعـالىٰ: ﴿**ويُنـزِّل عليكُمْ من السَّـمآء مآءً لِيُـطَهِّرَكُمْ به ويُذْهبَ عنكُمْ رجْز الشَّيطان وليرْبطَ علىٰ قُلُوبكم**﴾ [الأنفال: ١١] ومعنىٰ الربط في اللغة الشد. ولهذا يقال لكل من صبر علىٰ أمر: ربط قلبه، كأنه حبس قلبه عن الاضطراب.

ومنـه يقال: هو رابط الجأش. وقد ظن الواحدي أن «على» زائدة، والمعنىٰ يربط قلوبكم، وليس كما ظن، بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر، فإنه يقال ربط الفرس والدابة ولا يقال ربط عليها. فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه. كأنـه أحاط عليه بالربط. فلهذا قيل: ربط علىٰ قلبه، وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه.

والمقصود أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

(العاشر) أن الختم هو شد القلب، حتىٰ لا يشعر ولا يفهم، فهو مانع يمنع العلم والقصد. والنبي ﷺ كان يعلم قول أعدائه: إنه افترىٰ القرآن، ويشعر به، فلم يجعل الله علىٰ قلبه مانعاً من شعوره بذلك وعلمه به. فإذا قيل الأمر كذلك، ولكن جعل الله علىٰ قلبه مانعاً من التأذي بقولهم. قيل: هذا أولىٰ أن يسمىٰ ختماً، وقـد كان يؤذيه قولهم ويحـزنهم، كما قال تعـالىٰ: ﴿**قدْ نعْلمُ إنَّه ليحُزُنُك الَّذي يقُولُون**﴾ [الأنعام: ٣٣] وكان وصول هذا الآذىٰ إليه من كرامة الله له، فإنه لم يؤذ نبي ما أوذيٰ. فالقول في الآية هو قول قتادة. والله أعلم.

ثم أخـبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقي، فيبصر ما ينفعه فيأتيه، وما يضره فيجتنبه، ويتذكر به أسماء الرب تعالىٰ وصفاته وأفعاله فيؤمن، ويتـذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه، وما يزكيها ويطهرها ويعليها، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها. ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار، وعلم الخير والشر. فهو التذكرة على الحقيقة، تذكرة حجة للعالمين، ومنفعة وهداية للمتعلمين.

ثم قال ـ سبحانه ـ: ﴿**وإنَّا لنعْلمُ أنَّ منْكُمْ مُكذِّبينَ**﴾ [الحاقة: ٤٩] أي لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم.

ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات، حين لا ينفعهم التحسر. وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله، حتىٰ إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة.

ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين، فقيل، هو من باب إضافة الموصوف إلىٰ صفته، أي الحق اليقين، نحو مسجد الجامع، وصلاة الأولىٰ. وهذا موضع يحتاج إلىٰ تحقيق فنقول، وبالله التوفيق:

ذكر الله ـ سبحانه ـ في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، كما قال تعالىٰ: ؟﴿**كَلَّا لو تعْلمُون علْم اليقينْ * لترونَّ الجحيْمَ * ثُمَّ لترونَّها عَيْـنَ اليقِين**﴾ [التكاثر: ٥-٧] فهذه ثلاث مراتب لليقين: أولها علمه، وهو التصديق التام به، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلاً، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله، وتيقنهم صدق المخبر.

(**المرتبة** الثانية) عين اليقين وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالىٰ: ﴿**ثُمَّ لترونَّها عينْ اليقـينْ**﴾ [التكاثر: ٧] وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة: فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر.

وفي المسند للإمام أحمد مرفوعاً: «**ليس الخبر كالمعاين**» وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه، وطمأنينة لقلبه. فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان.

وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك حيث قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»(١) ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، معاينة بعد سماع.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة عن أبي هريرة.

(**المرتبة** الثالثة) مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة الشيء بالإحساس به. كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتىٰ يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين. ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب، فلهذا قال: ﴿**وإنَّه لحقُّ اليقينْ**﴾ [الحاقة: ٥١] فإن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها، فحينئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقىٰ لها حق اليقين، وهذه أعلى مراتب الإيمان وهي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين. وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاث مثالاً.

فقال: إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندي عسل أريد أن أطعمك منه فصدقته كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين.

وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلىٰ صفته.

بل من إضافة الجنس إلىٰ نوعه فإن العلم والعين والحق أعم من كونها يقيناً فأضيف العام إلىٰ الخاص، مثل بعض المتاع وكل الدراهم. ولما كان المضاف والمضاف إليه في هذا الباب يصدقان علىٰ ذات واحدة بخلاف قولك: دار عمرو وثوب زيد ظن من ظن أنها من إضافة الموصوف إلىٰ صفته، وليس كذلك، بل هي من باب إضافة الجنس إلىٰ نوعه، كثوب خز وخاتم فضة، فالمضاف إليه قد يكون مغاير للمضاف لا يصدقان علىٰ ذات واحدة، وقد يجانسه فيصدقان علىٰ مسمىٰ واحد والله أعلم.

ثم ختم السورة بقوله: ﴿**فسبِّحْ باسْم ربِّك العظيم**﴾ [الحاقة: ٥٣]. وهي جديرة بهذه الخاتمة، لما تضمنته من الأخبار عن عظمة الرب تعالىٰ وجلاله.

وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة.

وذكر عظمته تعالىٰ في إرسال رسوله وإنزال كتابه، وأنه تعالىٰ أعظم وأجل وأكبر عند أهل سمواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذاباً متقولاً عليه، مفتري عليه، يبدل دينه، وينسخ شرائعه، ويقتل عباده، ويخبر عنه بما لا حقيقة له، وهو سبحانه

مع ذلك يؤيده وينصره، ويجيب دعواته، ويأخذ أعداءه، ويرفع قدره، ويعلي ذكره. فهو سبحانه ـ العظيم ـ الذي تأبىٰ عظمته أن يفعل ذلك بمن أتىٰ بأقبح أنواع الكذب والظلم. فسبحان ربنا العظيم، وتعالىٰ عما ينسبه إليه الجاهلون علوًا كبيراً.

(١)**(فإن قيل)**: فما الفائدة في دخول الباء في قوله: **﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾** ولم تدخل في قوله **﴿سبِّح اسْم ربِّك الأعلىٰ﴾** [الأعلىٰ: ١] قيل: التسبيح يراد به التنزيه والذكر المجرد دون معنىٰ آخر.

ويراد به ذلك مع الصلاة وهو ذكر وتنزيه مع عمل؛ ولهذا تسمىٰ الصلاة تسبيحاً. فإذا أُريد التسبيح المجرد فلا معنىٰ للباء، لأنه لا يتعدىٰ بحرف جر، لا تقول: سبحت بالله.

وإذا أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة أدخلت الباء تنبيهاً علىٰ ذلك المراد كأنك قلت. سبح مفتتحاً باسم ربك أو ناطقاً باسم ربك كما تقول صلِّ مفتتحاً أو ناطقاً باسمه.

ولهذا السر والله أعلم دخلت اللام في قوله تعالىٰ: **﴿سبَّح لله ما في السَّموات والأرض﴾** [الحديد: ١] والمراد التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة ولم يقل في موضع: سبح الله ما في السموات والأرض. كما قال: **﴿ولله يسْجُدُ منْ في السَّمواتِ والأرْض﴾** [الرعد: ١٥].

وتأمل قوله تعالىٰ **﴿إنَّ الذين عند ربِّك لا يستكبْرُون عن عبادتِهِ ويسبِّحونه ولهُ يسجُدُون﴾** [الأعراف: ٢٠٦] فكيف قال ويسبحونه لما ذكر السجود باسمه الخاص فصار التسبيح ذكرهم له وتنزيههم إياه.

(٢)**وعبر** لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة. فقال: المعنى سبح ناطقا باسم ربك، متكلما به. وكذا **﴿سبح اسم ربك﴾** المعنى سبح ربك ذاكرا اسمه.

وهذه الفائدة تساوي رحلة لكن لمن يعرف قدرها. فالحمد لله المنان بفضله ونسأله تمام نعمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحاقة

والحمد لله رب العالمين

(١) ٢٠ بدائع جـ١.
(٢) ١٩ بدائع جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وإذا مسَّه الخيرُ مَنُوعاً**﴾ [المعارج: ١٩-٢١] وهذا تفسير الهلوع، وهو شدة الحرص الذي يترتب عليه الجزع والمنع.

فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خلق الإنسان كذلك، وذلك صريح في أن هلعه مخلوق لله، كما أن ذاته مخلوقة. فالإنسان بجملته: ذاته وصفاته وأفعاله وأخلاقه مخلوق لله، ليس في شيء خلق لله وشيء خلق لغيره، بل الله خالق الإنسان بجملته وأحواله كلها. فالهلع فعله حقيقة، والله خالق ذلك في حقيقة، فليس الله ـ سبحانه ـ بهلوع ولا العبد هو الخالق لذلك.

(٢)**ويضاد** الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة، والمنع عند ورود النعمة قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إذا مسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وإذا مسَّه الخيرُ منُوعاً**﴾ [المعارج: ١٩-٢١]. وهذا تفسير الهلوع قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع، وقد ولع بالكسر فهو هلع وهلوع.

وفي الحديث «**شر ما في العبد شح هالع وجبن خالع**» قلت: هنا أمران: أمر لفظي وأمر معنوي، فأما اللفظي فإنه وصف الشح بكونه هالعاً صاحبه، وأكثر ما يسمىٰ هلوعاً ولا يقال هالع له، فإنه لا يتعدىٰ، ففيه وجهان: أحدهما أنه علىٰ النسب: كقولهم: ليل نائم، وسر كاتم، ونهار صائم، ويوم عاصف. كله عند سيبويه علىٰ النسب، أي ذو كذا كما قالوا: تامر ولابن.

والثاني أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير. وأما المعنوي فإن الشح والجبن أردىٰ صفتين في العبد، ولا سيما إذا كان شحه هالعاً، أي ملق له في الهلع، وجبنه خالع أي قد خلع قلبه من مكانه، فلا سماحة ولا شجاعة ولا

(١) ٦٠ شفاء.
(٢) ٣٠٢ عدة الصابرين.

نفع بماله ولا ببدنه. كما يقال: لا طعنة ولا جفنة ولا يطرد ولا يشرد بل قد قمعه وصغّره وحقّره ودسّاه الشح والخوف والطمع والفزع.

وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستظامة والاستكانة وباء بها سريعاً، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعاً، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح فلا احتمال ولا إفضال، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها في البدن وإخفائها وتحقيرها، والله المستعان.

(١)**ذم** الإنسان وأنه خلق هلوعاً، لا يصبر على شر ولا خير، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع إلا من استثنىٰ بعد ذلك من الناجين من خلقه. فذكر منهم ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِم حَافِظُون * إِلَّا علىٰ أزْواجِهِم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانُهُم فإنَّهم غيرُ ملومين * فَمَنِ ابْتغىٰ وَرَآءَ ذَلِكَ فأوْلَئكَ هُمُ العَادُون**﴾ [المعارج: ٢٩-٣١] وأمر الله - تعالىٰ - نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، مطلع عليها ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ [غافر: ١٩] ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج. فإن الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر، ثم تكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة. ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه. اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط على ثغورها فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار، ويُتبر ما علا تتبيراً.

(٢)**و«الأدب»** هو الدين كله، فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب؛ حتىٰ يقف بين يدي الله

---

(١) ٢٠٢ الجواب الكافي. (٢) ٣٨٤ مدارج جـ٢.

طاهراً. ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته. للوقوف بين يدي ربه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة. فقال ـ تعالى ـ: ﴿**خُذُوا زِينَتَكُم عِنْدَ كلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف: ٣١] فعلق الأمر بأخذ الزينة، لا بستر العورة، إيذاناً بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة.

وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال. وكان يلبسها وقت الصلاة. ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي.

ومعلوم: أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يحب أن يرىٰ أثر نعمته على عبده. لا سيما إذا وقف بين يديه. فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهراً وباطناً.

ومن الأدب: نهي النبي ﷺ المصلي «أن يرفع بصره إلىٰ السماء».

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً، خافضاً طرفه إلىٰ الأرض. ولا يرفع بصره إلىٰ فوق.

قال: والجهمية - لما لم يفقهـوا هذا الأدب، ولا عرفوه - ظنوا أن هذا دليل أن الله ليس فوق سمـواتـه، على عرشه. كما أخبر به عن نفسه. واتفقت عليه رسله. وجميع أهل السنة.

قال: وهذا من جهلهم. بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول ﷺ على نقيض قولهم. إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلىٰ الأرض. ولا يرفع بصره إليهم. فما الظن بملك الملوك سبحانه؟.

وسمعته يقول - في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود - إن القرآن هو أشرف الكلام. وهو كلام الله. وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد. فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولىٰ به.

ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة. كما

ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة، وغيرهم. رضي الله عنهم. والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان. كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

ومن الأدب مع الله، في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليمنىٰ على اليسرىٰ حال قيام القراءة، ففي الموطإ لمالك عن سهل بن سعد «أنه من السنة» و «كان الناس يؤمرون به» ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء. فعظيم العظماء أحق به.

ومنها: السكون في الصلاة. وهو الدوام الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾ [المعارج: ٢٣] قال عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ هُمْ على صَلَاتِهِم دَائِمُون**﴾ [المعارج: ٢٣] أهم الذين يصلون دائماً؟ قال: لا. ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما.

أمران: الدوام عليها. والمداومة عليها. فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالىٰ: ﴿**والَّذِينَ هُمْ علىٰ صَلَاتِهِمْ يُحافِظُون**﴾ [المعارج: ٣٤] وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة.

وأدبه في استماع القراءة: أن يلقىٰ السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوي. ويعظم الله تعالىٰ، حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه. ويتضاءل ويتصاغر في نفسه. حتىٰ يكون أقل من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ: هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهراً وباطناً.

ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علماً وعملاً وحالاً. والله المستعان.

(١)**قال** ـ تعالىٰ ـ: ﴿**والَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ**﴾ [المعارج: ٣٣] فيكون قائماً

(١) ٢٦٦ الجواب الكافي.

بشهادته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقالبه، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت. ومنهم من تكون مضطجعة. ومنهم من تكون إلىٰ القيام أقرب. وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن، فروح ميتة وروح مريضة إلىٰ الموت أقرب، وروح إلىٰ الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ «**إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت رُوحُه لها رَوْحاً**» فحياة هذا الروح بهذه الكلمة فكما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات علىٰ هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوىٰ وعيشها أطيب عيش، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رِبِّهِ ونَهَىٰ النَّفْسَ عن الهَوَىٰ * فإنَّ الجَنَّةَ هيَ المَأْوَىٰ**﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلىٰ لقائه والفرح به والرضىٰ عنه وبه مأوىٰ روحه في هذا الدار.

فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً. والأبرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً منْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ [النحل: ٩٧] وطيب الحياة: جنة الدنيا...

(١)**ينبه** ـ سبحانه ـ الإنسان علىٰ مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره من حال إلىٰ حال حتىٰ جعله بشراً سويًّا، يسمع ويبصر ويقول وينطق ويبطش ويعلم فنسىٰ مبدأه وأوله، وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربه عليه، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**أَيَطْمَعُ كل امْرِيءٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جنَّةَ نَعِيمٍ * كلاَّ إنَّا خَلَقْنَاهُمْ ممَّا يعلمُون**﴾ [المعارج: ٣٨-٣٩] وأنت إذا تأملت ارتباط إحدىٰ الجملتين بالأخرىٰ وجدت تحتها كنزاً عظيماً من كنوز المعرفة والعلم، فأشار ـ سبحانه ـ بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلىٰ موضع الحجة والآية الدالة علىٰ وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به من ذلك أن يتركهم

(١) ٣٦ شفاء.

سدىً، لا يرسـل إليهم رسولاً ولا ينزل عليهم كتاباً وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقاً جديداً أو بعثهم إلىٰ دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكفرون ويكذبون رسلي ويعدلون بي خلقي وهم يعلمون من أيّ شيء خلقتهم.

(١)**قوله** عز وجل: ﴿**فلَا أُقْسِمُ بربِّ المشارقِ والمغاربِ إنَّا لقادرُون * علىٰ أن نُبـدِّلَ خيراً مّنْهُمْ وما نَحْنُ بمسبُوقِينَ**﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١] أقسم ـ سبحانه ـ برب المشارق والمغارب. وهي إما مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها.

وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب، فكذلك جمع في موضع، وأفرد في موضع، وثنىٰ في موضع آخر، فقال: ﴿**ربُّ المشرقيْنْ وربُّ المغربيْنْ**﴾ [الرحمن: ١٧] فقيل: هما مشرقا الصيف والشتاء، وجاء في كل موضع ما يناسبه، فجاء: في سورة الـرحمن ﴿**ربُّ المشرقـيْنْ وربُّ المغـربـيْنْ**﴾ [الـرحمن: ١٧] لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات، فذكر فيها الخلق والتعليم، والشمس، والقمر، والنجوم، والشجر، والسـماء، والأرض، والحب، والثمر والجن والإنس ومادة أبي البشر وأبي الجن، والبحرين والجنة والنار، وقسم الجنة إلىٰ جنتين عاليتين وجنتين دونهما، و أخبر أن في كل جنة عينين، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين، والمغربين.

وأما سورة ﴿**سـأَلَ سائِلٌ**﴾ فإنه أقسم ـ سبحانه ـ علىٰ عموم قدرته وكمالها، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم. فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع؛ إذ هو أدل على المقسم عليه، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب. فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالىٰ على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين، وينشئهم فيما لا يعلمون. فيأتي بهم في نشأة أخرىٰ، كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع، ويذهب (بها) في مغرب.

وأما في سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد، لما كان المقصود ذكر ربوبيته، ووحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذلك يجب

---

(١) ١٢١ التبيان.

أن يتفـرد بالـربـوبية والتوكل عليه وحده. فليس للمشرق والمغرب رب سواه. فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إلـه ولا وكيل سواه.

وكذلك قال موسىٰ لفـرعون حين سأله: ﴿وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] فقال: ﴿ربُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وما بَيْنَهُما إنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وفي ربـوبيته ـ سبحانه ـ للمشارق والمغارب تنبيه علىٰ ربوبيته السموات وما حوته من الشمس، والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين. وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه.

ثم قال: ﴿إنَّـا لَقَـادِرُونَ * علىٰ أَنْ نُبَـدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠-٤١] أي لقادرون علىٰ أن نذهب بهم ونأتي بأطوع لنا منهم وخيراً منهم، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيراً﴾ [النساء: ١٣٣] وقوله: ﴿وما نحن بمسْبوقين﴾ أي لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني. وعبر عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿وما نحنُ بمسبوقين﴾ [الواقعة: ٦٠] لأن المغلوب يسبقه الغالب إلىٰ ما يريده فيفوت عليه. ولهذا عدّى بـ [على] دون [إلى] كما في قوله: ﴿وما نحنُ بمسبوقين * علىٰ أنْ نُبدِّلَ أَمْثالَكُم﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] فإنه لما ضمّنه معنىٰ مغلوبين ومقهورين عداه بعلىٰ، بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه. فالأول بمعنىٰ غلبته وقهرته عليه. والثاني بمعنىٰ وصلت إليه قبله.

فصـــل

وقد وقع الإخبار عن قدرته ـ سبحانه ـ على تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم.

فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها في الجمع والفرق.

فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته علىٰ أن يذهب بهم ويأتي بأطوع وأتقىٰ له منهم في الدنيا. وذلك قوله: ﴿وإنْ تتولَّوا يستبدلْ قوماً غيركُمْ ثمَّ لا يكُونُوا أمثالَكم﴾ [محمد: ٣٨] يعني بل يكونوا خيراً منكم. قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيراً من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم.

وأما ذكره تبديل أمثالهم، ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان. فقال في الواقعة: **﴿نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الموتَ وَمَا نَحْنُ بمسْبُوقين * على أن نُبدِّلَ أَمْثالَكُمْ ونُنْشِئَكُمْ فيما لا تَعْلَمُونَ﴾** [الواقعة: ٦٠، ٦١] وقال في سورة الإنسان: **﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وإِذَا شِئْنَا بدَّلْنا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾** [الإنسان: ٢٨]. قال كثير من المفسرين: المعنىٰ أنا إذا أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك.

وفي قوله: **﴿وإذا شئنا بدَّلْنا أَمْثَالَهُم تَبْدِيلاً﴾** [الإنسان: ٢٨] إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم. فجعلناهم بدلاً منهم. قال المهدوي: قوماً موافقين لهم في الخلق مخالفين لهم في العمل، ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول.

وعلى هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالىٰ: **﴿إنْ يَشأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّها النَّاسُ ويأتِ بآخَرِينَ﴾** [النساء: ١٣٣] فيكون استدلالاً بقدرته على إذهابهم والإتيان بأمثالهم علىٰ إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

ثم استدل ـ سبحانه ـ بالنشأة الأولىٰ فذكرهم بها فقال: **﴿ولقد علمتُمُ النشأةَ الأُولىٰ فلولاَ تذكَّرُونَ﴾** [الواقعة: ٦٢] فنبههم بما علموه وعاينوه علىٰ صدق ما أخبرتهم به رسله من النشأة الثانية.

والذي عندي في معنىٰ هاتين الآيتين، وهما آية الواقعة والإنسان أن المراد بتبديل أمثالهم الخلق الجديد والنشأة الآخرة التي وعدوا بها.

وقد وفق الزمخشري لفهم هذا من سورة الإنسان، فقال: وبدلنا أمثالهم في شد الأسر، يعني النشأة الأخرى. ثم قال: وقيل وبدلنا غيرهم ممن يطيع، وحقه أن يأتي بـ [إن] لا بـ [إذا]، كقوله: **﴿وإنْ تتولَّوا يسْتبدلْ قوماً غيْركم﴾** [محمد: ٣٨].

قلت: وإتيانه بـ [إذا] التي لا تكون إلا للمحقق الوقوع يدل علىٰ تحقق وقوع هذا التبديل وأنه واقع لا محالة. وذلك هو النشأة الأخرىٰ التي استدل علىٰ إمكانها بقوله: **﴿ولقد علمتُم النشأة الأُولىٰ﴾** [الواقعة: ٦٢] واستدل بالمثل علىٰ المثل، وعلى ما أنكروه بما عاينوه وشاهدوه، وكونهم أمثالهم هو إنشاؤهم خلقا جديدًا بعينه فهم هم بأعيانهم وهم أمثالهم فهم أنفسهم يعادون.

فإذا قلت: المعاد هذا هو الأول بعينه صدقت، وإن قلت: هو مثله صدقت،

فهو هو معاد أو هو مثل الأول. وقد أوضح هذا ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿**بَلْ هُمْ في لبْسٍ منْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ [قٓ: ١٥] فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم أمثالهم. وقد سماه الله – سبحانه وتعالىٰ ـ إعادة، والمعاد مثل المبدأ، وسماه نشأة أخرىٰ وهي مثل الأولىٰ، وسماه خلقاً جديداً وهو مثل الخلق الأول كما قال: ﴿**أَفَعَيِينَا بالخَلْقِ الأوَّلِ بَلْ هُمْ في لبس من خِلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ [قٓ: ١٥] وسماه أمثالاً وهم هم. فتطابقت ألفاظ القرآن وصدّق بعضها بعضاً، وبيّن بعضها بعضاً. ولهذا تزول إشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي أخبرت به الرسل عن الله.

ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين: إنهم غيرهم من كل وجه. فهذا خطأ قطعاً – معاذ الله من اعتقاده –، بل هم أمثالهم وهم أعيانهم. فإذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة إلا ضيق العطن، صغير العقل، ضعيف العلم.

وتأمل قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**أفرأيتم مَّا تُمْنُوْن أأنْتُم تَخْلُقُونه أَمْ نَحْنُ الخالِقُونَ نحْنُ قدَّرْنا بيْنكُمُ المَوْتَ**﴾ [الواقعة: ٥٩، ٦٠] كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلاً بها على النشأة الثانية بقوله: ﴿**وما نحنُ بمسبُوقين على أن نبدِّل أمثالكُم ونُنْشِئَكُمْ في مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] فإنكم إنما علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيها لا تعلمون. فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم. وهذا من كمال قدرة الرب تعالىٰ ومشيئته، لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها.

فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا وأقرب إلىٰ العقل والفهم، وأبعد من كل شبهة وشك؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان. وقال في سورة الإنسان: ﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاهُم وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ**﴾ فهذه النشأة الأولىٰ ثم قال: ﴿**وإذا شئنا بدَّلْنا أَمْثَالَهُم تَبْدِيلاً**﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأخرىٰ. ونظير هذا ﴿**وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَىٰ * من نُّطْفَةٍ إذا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ**﴾ [النجم: ٤٥-٤٧] وهذا في القرآن كثير جدًّا، يقرن بين النشأتين مذكراً للفطر والعقول بإحداهما علىٰ الأخرىٰ. وبالله التوفيق.

فصـــل

فلما أقام عليهم الحجة وقطع المعذرة قال: ﴿فَذَرْهُم يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُون﴾ [المعارج: ٤٢].

وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسي ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه. فالأول ضد العلم النافع. والثاني ضد العمل الصالح. فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب. وهذا شأن كل من أعراض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ حالهم عند خروجهم من القبور. فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كأَنَّهُمْ إلىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

أي يسرعون. والنصب العلم والغاية التي تنصب فيؤمونها. وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه؛ فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلىٰ الداعي، يؤمون الصوت، لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨] أي يقبلون من كل أوب إلىٰ صوته وناحيته، لا يعرجون عنه. قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها. وقال الزجاج: المعنىٰ لا عوج لهم عن دعائه، أي لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده.

فإن قلت: إذا كان المعنىٰ لا عوج لهم عن دعوتي، فكيف قال: (لا عوج له).

قيل: قالت طائفة: اللام بمعنىٰ [عن] أي لا عوج عنه.

وقالت طائفة: المعنىٰ لا عوج لهم عن دعائي، كما قال الزجاج وفي القولين تكلف ظاهر. ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه، كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما. والمعنىٰ لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له.

ثم قال تعالىٰ: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ [المعارج: ٤٤] فوصفهم بذل الظاهر، وهو خشوع الأبصار، وذل الباطن، وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم.

وقريب من هذا قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥]. ونظيره قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾ [يونس: ١٦].

وضد هذا قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨] فنفىٰ عنه الجوع الذي هو ذل الباطن والعري الذي هو ذل الظاهر.

وضده أيضاً قوله: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة عزّ الظاهر وجماله، والسرور عز الباطن وجماله.

ومثله أيضاً قوله: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوراً﴾. [الإنسان:٢١]. فجمع لهم بين زينة الظاهرة والباطن.

ومثل قوله: ﴿يابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْآتِكُم وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن.

ومثله قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمآءَ الدُّنْيَا بزينَةٍ الكَوَاكِبِ * وحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ [الصافات: ٦-٧] فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظُ من كل شيطان رجيم.

ومثله قوله أيضاً: ﴿وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُورَكُم وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر: ٦٤]. وقريب منه قوله تعالىٰ: ﴿وتزودُوا فإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾

ومنه قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُم فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]. فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن.

ومنه قول امرأة العزيز: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فيه وَلَقَدْ راودتُّهُ عن نَّفْسِهِ فاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة، فوصفته بجمال الظاهر والباطن، فكأنها قالت: هذا ظاهره، وباطنه أحسن من ظاهره.

وهذا كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن قدراً وشرعاً. والله أعلم بالصواب.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المعارج

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**من** أعظم الظلم والجهل؛ أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿مَّالَكُمْ لا تَرْجُونَ لله وَقَاراً﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه، والتوقير: العظمة. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وتوقِّروهُ﴾

قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًّا ولا تشكرونه. وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم. وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة، وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته.

وهذه الأقوال ترجع إلىٰ معنىً واحد؛ وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته، وحدوه وأطاعوه وشكروه. فطاعته سبحانه، واجتناب معاصيه، والحياء منه بحسب وقاره في القلب.

ولهذا قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره، فيقرن اسمه به؛ كما تقول: قبح الله الكلب والخنزير والنتن، ونحو ذلك؛ فهذا من وقار الله.

ومن وقاره أن لا تعدل به شيئاً من خلقه، لا في اللفظ، بحيث تقول: والله وحياتك، مالي إلا الله وأنت، وما شاء الله وشئت، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة، فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله؛ بل أعظم كما عليه أكثر الظلمة والفجرة.

ولا في الخوف والرجاء، ويجعله أهون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه، ويقول: هو مبني علىٰ المسامحة، ولا يجعله علىٰ الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه.

ولا يكون الله ورسوله في حد وناحية، والناس في ناحية وحد، فيكون الحد والشق الذي فيه الناس، دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله.

---

(١) ١٨٧ فوائد.

ولا يعطي المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه، ويعطي الله في خدمته بدنه، ولسانه دون قلبه وروحه. ولا يجعل مراد نفسه مقدماً علىٰ مراد ربه.

فهذا كله من عدم وقار الله في القلب، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقاراً ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره؛ فذاك وقار بغض، لا وقار حب وتعظيم.

ومن وقار الله أن يستحي من إطلاعه علىٰ سره وضميره؛ فيرىٰ فيه ما يكره. ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس.

والمقصود أن من لا يوقر الله وكلامه، وما آتاه من العلم والحكمة، كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه.

القرآن والعلم وكلام الرسول ﷺ صلات من الحق وتنبيهات وروادع وزواجر واردة إليك، والشيب زاجر ورادع وموقظ قائم بك. فلا ما ورد إليك وعظك، ولا ما قام بك نصحك، ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك، فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظاً وانزجاراً، وهو يطلب من غيره أن يتعظ وينزجر بالنظر إلىٰ مصابه. فالضرب لم يؤثر فيه زجراً، وهو يريد الانزجار ممن نظر إلىٰ ضربه. من سمع بالمثلات والعقوبات والآيات في حق غيره، ليس كمن رآها عياناً في غيره: فكيف بمن وجدها في نفسه؟ ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ**﴾ [فصلت: ٥٣] فآياته في الآفاق مسموعة معلومة، وآياته في النفس مشهودة مرئية، فعياذاً بالله من الخذلان. قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال: ﴿**وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [الأنعام: ١١١].

والعاقل المؤيد بالتوفيق يعتبر بدون هذا، ويتمم نقائص خلقته بفضائل أخلاقه وأعماله، فكلما امتحىٰ من جثمانه أثر، زاد إيمانه أثر، وكلما نقص من قوىٰ بدنه، زاد في قوة إيمانه ويقينه ورغبته في الله والدار الآخرة، وإن لم يكن هكذا فالموت خير له، لأنه يقف به على حد معين من الألم والفساد، بخلاف العيوب والنقائص مع

طول العمر، فإنها زيادة في ألمه وهمه وغمه وحسرته، وإنما حسن طول العمر ونفع ليحصل التذكر والاستدراك، واغتنام الفرص والتوبة النصوح؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل علىٰ حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته؛ فإن العبد علىٰ جناح سفر؛ إما إلىٰ الجنة وإما إلىٰ النار.

فإذا طال عمره وحسن عمله، كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة؛ فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل.

وإذا طال عمره وساء عمله، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلىٰ أسفل؛ فالمسافر إما صاعد وإما نازل. وفي الحديث المرفوع: «**خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله**».

فالطالب الصادق في طلبه، كلما خرب شيء من ذاته، جعله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئاً من لذات دنياه، جعله زيادة في لذات آخرته، وكلما ناله همّ أو حزن أو غمّ، جعله في أفراح آخرته، فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته، إن زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في معاده؛ كان رحمة به وخيراً له؛ وإلا كان حرماناً وعقوبة علىٰ ذنوب ظاهرة أو باطنة، أو ترك واجب ظاهر أو باطن، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب علىٰ هذه الأربعة، وبالله التوفيق.

(١)... **ومنها:** أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف. فكل راج خائف، وكل خائف راج، ولأجل هذا حَسُن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً﴾ [نوح: ١٣]. قال كثير من المفسرين: المعنىٰ ما لكم لا **تخافون لله عظمة**؟ قالوا: والرجاء بمعنىٰ الخوف.

والتحقيق: أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِيْنَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾

(١) ٥١ مدارج جـ٢.

[الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق فيه برجاء ربه، فأعطاه مارجاه: كان ذلك ألطف موقعاً، وأحلىٰ عند العبد. وأبلغ من حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكَم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذ الدار. فعلىٰ قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مَخُوفهم.

ومنها: أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضىٰ والإنابة وغيرها. ولهذا قَدَّر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه. فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء – من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله – ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته. وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة كما تقدم بيانه.

(١)... **قال** تعالىٰ: ﴿مَّالَكُمْ لا تَرْجُونَ لله وَقَاراً﴾ [نوح: ١٣] قالن ابن عباس ومجاهد: لاترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: مالكم لاتعظمون لله حق عظمته؟ وقال الكلبي: لاتخافون لله عظمة.

قال البغوي: و«الرجاء» بمعنىٰ المَخُوف. و«الوقار» العظمة. اسم من التوقير. وهو التعظيم: وقال الحسن: لاتعرفون لله حقًّا، ولاتشكرون له نعمة.

وقال ابن كيسان: لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم علىٰ توقيركم إياه خيراً.

وروح العبادة: هو الإجلال والمحبة. فإذا تخلىٰ أحدهما عن الآخر فسدت. فإذا اقترن بهذين الثناء علىٰ المحبوب المعظم. فذلك حقيقة الحمد. والله سبحانه أعلم.

(٢)**ومن** أعظم مكايده التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالىٰ فتنته: ما أوحاه قديماً وحديثاً إلىٰ حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور. حتىٰ آل الأمر فيها إلىٰ أن عُبد أربابُها من دون الله، وعُبدتْ قَبورهم، واتُّخذت أوثاناً،

(١) ٤٩٥ مدارج جـ. (٢) ١٧٢ إغاثة جـ١.

وبُنيت عليها الهياكل، وصُوِّرت صورُ أربابها فيها، ثم جُعلت تلك الصور أجساداً لها ظل، ثم جُعلت أصناماً، وعبدت مع الله تعالىٰ.

وكان أولُ هذا الداء العظيم في قوم نوح، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه، حيث يقول: **﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً * وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُوا لاتَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولاتَذَرُنَّ وَدّاً ولاَسُوَاعاً ولاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً * وَقَدْ أَضَلُّوا كثيراً﴾** [نوح: ٢١-٢٤].

قال ابن جرير: «وكان من خبر هؤلاء- فيما بلغنا -: ما حدثنا به ابن حُميد حدثنا مهْران عن سفيان عن موسىٰ عن محمد بن قيس: أن يَغوثَ ويَعوق ونَسرا كانوا قوماً صالحين من بني آدم. وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوقَ لنا إلىٰ العبادة إذا ذكرناهم. فصوّرهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم» قال سفيان عن أبيه عن عِكْرمة قال: «كان بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ عشرة قرون، كلهم على الإسلام» حدثنا ابن عبد الأعلىٰ حدثنا عبد الرزاق(١) عن مَعْمر عن قتادة في هذه الآية قال: «كانت آلهةً يعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك. فكان وَدٌّ لكَلْب بدَوْمَة الجَنْدَل، وكان سُواع لهُذَيل. وكان يَغوث لبَني غُطَيف من مُراد. وكانَ يَعوقُ لِهَمْدَان. وكان نَسر لذي الكُلاع من حِمْير». وقالَ الوالِبِي: عن ابن عباس «هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح عليه السلام».

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسىٰ حدثنا هشام عن ابن جُريج قال: قال عطاء عن ابن عباس «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ. أما وَدّ فكانت لكلب بدُومَة الجَنْدل. وأما سُواع فكانت لهذيل. وأما يَغُوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطَيف بالجُرْف عند سَبأ. وأما يعوق فكانت لهمْدان. وأما نَسْر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع؛ وكان أوّل ما كاد به عُبَّاد الأصنام من جهة العكوف

---

(١) كذا في الأصول. والذي في تفسير ابن جرير - الطبعة الأميرية - حدثنا ابن عبد الأعلىٰ قال حدثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة.

علىٰ القبور، وتصاوير أهلها، ليتذكروهم بها، كما قَصَّ الله ـ سبحانه ـ قصصهم في كتابه، فقال: ﴿**وقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولَا تذَرُنَّ ودّاً ولا سُواعاً ولا يغُوث ويَعُوقَ وَنَسْراً**﴾ [نوح: ٢٣].

قال البخاري في صحيحه: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحىٰ الشيطانُ إلىٰ قومهم: أن انصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون إليها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعْبَد حتىٰ إذا هلك أولئك ونُسِخَ العلم عبُدتْ».

وقال ابن جرير عن محمد بن قَيْس قال «كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم، الذبن كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم، كان أشوقَ لنا إلىٰ العبادة، إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليسُ، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسْقَون المطَرَ، فعبدوهم».

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: أخبرني أبي قال: «أوّلُ ما عبُدت الأصنامُ أنّ آدم ـ عليه السلام ـ لما مات جعله بنو شَيْثٍ بن آدم في مَغارة في الجبل الذي أُهبط عليه آدم بأرض الهند، ويقال للجبل: نوذ[1]، وهو أخصب جبل في الأرض».

قال هشام: فأخبرني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «فكان بنو شيث ـ عليه السلام ـ يأتون جَسَدَ آدم في المغارة، فيعظمونه، ويَترَحَّمون عليه، فقال رجل من بني قابيل بن آدم: يابني قابيل، إن لبني شيث دَوَار[2] يدورون حولَه ويعظمونه وليس لكم شيء فنَحتَ لهم صنماً، فكان أوّلَ من عملها».

قال هشام: وأخبرني أبي قال: «كان وَدٌّ، وسُواعُ، ويَغُوثُ، ويَعُوق، ونَسْر: قومـاً صالحين، فماتوا في شهر، فجَزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني

---

(١) نوذ – بالنون المفتوحة – عن كتاب الأصنام طبعة دار الكتب. وبهامشه لطابعه أحمد زكي باشا: قال أبو عبيد البكري في معجم ما استعجم: الراهون جبل بالهند: وهو الذي أنزل عليه آدم. وإليه ينسب الحجر الراهوني. قال الهمداني: إنما هو جبل الراهوم بالميم – لأن الرهام لا تكاد تفارقه. قال: والعجم تسميه نوذ، أو يوذ: شكّ الهمداني.

(٢) الدوار – بتخفيف الواو مفتوحة – الطواف.

قابيل: ياقوم، هل لكم أن أعملَ لكم خمسة أصنام علىٰ صورهم؟ غير أني لا أقدرُ أن أجعل فيها أرواحاً، فقالوا: نعم. فنحت لهم خمسة أصنام علىٰ صورهم ونصبها لهم. . . .

(١) **وكان** من تلك الأصنام ذو الخلصة وكان مَرْوَةً بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكان له بيت بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة وكان سدنتها بنو أمامة من باهِلة بن أعْصُرَ(٢) وكانت تعظمها وتُهدِي لها خَثْعَمُ وبجيلة، [وأزْدُ السَّرَاةِ ومن قاربهم من بُطونَ العرب من هَوازن(٢)] فقال رسُول الله صلى الله تعالىٰ عليه وآله وسلم لجرير(٣): «**ألا تكْفيني ذا الخَلَصَة؟**» فسار إليه بأحْمَس، فقاتلته خَثعَمُ وباهِلَة دونه، فظفر بهم(٤). **وهَدَم بيتَ ذِي الخلصة وأضرم فيه النار فاحترق** (٥). **وذو الخلصة** اليوم عَتبةُ باب مسجد تَبالَة.

وكان لدَوْس صَنمٌ يقال له: «ذو الكَفَّين» فلما أسلموا بعثَ رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وآله وسلم الطُّفيلَ بن عَمْرو فَحَرَّقه. وكان لبني الحارث بن يَشْكُرَ [بن مُبشر من الأزد(٦)] صنم يقال له «ذو الشَّرَى». وكان لقُضَاعةَ ولَخْمْ وجُذام. وعامِلةَ وغَطْفان، صَنمٌ في مَشارِف الشام يقال له «الأُقيصر». وكان لمُزَيْنة صَنمٌ يقال له «نُهم» وبه كانت تسمى عبدنُهْم (٧).

---

(١) ٢١٥ إغاثة جـ٢.

(٢) الزيادة من كتاب الأصنام.

(٣) في الأصنام - بعد أن ذكر قصة رجل قتل أبوه فاستقسم عند ذي الخلصة فخرج السهم ينهاه عن الأخذ بثأره فقال شعراً يهجو به ذا الخلصة، ثم قال هشام: فلما فتح رسول الله ﷺ مكة، وأسلمت العرب، ووفدت عليه وفودها. قدم عليه جرير بن عبد الله مسلماً. فقال له: يا جرير، ألا تكفيني ذا الخلصة؟ فقال: بلىٰ. فوجهه إليه. فخرج حتىٰ أتىٰ بني أحمس من بجيلة، فسار بهم إليه.

(٤) في الأصنام: فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مائة رجل. وأكثر القتل في خثعم. وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم. فظفر بهم.

(٥) قال هشام: وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تذهب الدنيا حتىٰ تصطك أليات نساء دوس علىٰ ذي الخلصة. يعبدونه كما كانوا يعبدونه**».

(٦) الزيادة من كتاب الأصنام.

(٧) ثم قال هشام: وكان سادن «نهم» يسمىٰ خزاعي بن عبدنهم من مزينة، ثم من بني عداء. فلما =

وكان لأزْدِ السراة صنم يقال له «عائم»[1]]. وكان لعَنَزَة صنم يقال له «سُعَير»[2]. وكان لِطَيِّيءٍ صنم يقال له «الفَلْس» [3].

وكان لأهل كلِّ دار من مكة صنم في دارهم، كان يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخرَ ما يصنعُ في منزله: أنْ يتمسَّحَ به، وإذا قدِم من سفره، كان أولَ ما يَصْنع إذا دخلَ منزله: أنْ يتمسَّحَ به.

قال ابن إسحاق: وكان لخولان صنَمٌ يقال له: عَمّ أنَس[3] بأرض خَوْلان، يَقسمون له من أنعامهم، وحروثهم، قَسْماً بينه وبين الله، بزعمهم، فما دَخلَ في

= سمع بالنبي ﷺ ثار إلىٰ الصنم، فكسره، وأنشأ يقول:

ذهبتُ إلىٰ نُهْمٍ لأذْبحَ عنده ... عَتِيْرَةَ نُسْكٍ، كالذي كنتُ أفعل
فقلت لنفسي حين، راجعتُ عَقْلَها ... أهذا إلهٌ؟ أيُّكم ليس يعقل؟
أبَيْتُ، فديني اليوم دينُ محمد ... إلهُ السماء الماجِدُ المتفضِّل

ثم لحق بالنبي ﷺ. فأسلم وضمن له إسلام قومه مزيناً.

(١) ثم قال هشام: فخرج جعفر بن أبي خلاس الكلبي عن ناقته، فمرت به - وقد عترت عنزة عنده - فنفرت ناقته منه. فأنشأ يقول:

نَفَرَتْ قَلُوصِي من عَتَائرَ صُرِّعتْ ... حَوْل السُّعَيْر، تَزُوره ابنا يَقْدُمِ
وجموعُ يَذْكُرَ مُهْطِعين جنابَه ... ما إن يُحِيْرُ إليهمُ بتكلُّمِ

قال أبو المنذر: «يقدم» و«يذكر» ابنا عنزة. فرأىٰ هؤلاء يطوفون حول السعير.

(٢) «الفلس» بفتح الفاء وسكون اللام، وضبط بهامش نسخة الأصنام عن الخازمي - بضم الفاء. وعن ابن دريد في الجمهرة بكسر الفاء. وذكر عن إجماع ثقات النسابين أنه بفتحها وسكون اللام.

قال هشام أبو المنذر: وكان أنفاً أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له «أجأ» أسود، كأنه تمثال إنسان وكانوا يعبدونه ويهدون إليه: ويعترون عنده عتائرهم، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له ولم تخفر حويته، وكانت سدنته بنو بولان - بفتح الباء وسكون الواو - وبولان هو الذي بدأ بعبادته. فكان آخر من سدنه منهم رجل يقال له «صيفي» إلىٰ أن قال: فلم يزل الفلس يعبد حتىٰ ظهرت دعوة النبي ﷺ فبعث إليه علي بن أبي طالب فهدمه.

(٣) قال هشام: وكان لخولان صنم يقال له «عميانس» بضم العين ثم ميم ساكنة. ثم باء مفتوحة بعدها ألف ثم نون مضمومة - بأرض خولان. وفي الهامش مانصه: بهامش نسخة الخزانة الزكية عبارة هذا نصتها. «عم أنس» في السيرة. قال أحمد زكي باشا - طابع الأصنام والمعلق عليها - وقد حذا اليعمري حذو ابن هشام. ثم قال: لم يرد الاسم «عم أنس» في كتب اللغة المعتبرة التي وقعت لي اهـ. وقد ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (ج ٢ ص ١٩١) عن ابن إسحاق: قال وكان لخولان بأرضهم صنم يقال له «عم أنس» اهـ.

حق الله من حَقّ عم أنس[1] ردُّوه عليه، ومَا دخَل في حقِّ الصنم من حق الله الذي سَمَّوْ له تركوه له وفيهم أنزل الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَجَعَلُوا الله مِمَّا ذَرأ مِنَ الحرْث والأنعَام نصيباً فقالُوا هذا لله بزَعْمِهِمْ وَهَذا لِشُركائنا فمَا كان لِشُركائهم فلا يَصِلُ إلىٰ الله وما كانَ لله فهو يصلُ إلىٰ شُركَائِهِمْ سَاءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة نوح
والحمد لله رب العالمين

(١) في الأصنام «عميانس».



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**الفصل** الثاني في المستعاذ به، وهو الله وحده رب الفلق * ورب الناس ملك الناس، إلـٰه الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

وقد أخبر ـ تعالىٰ ـ في كتابه عن من استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغياناً ورهقاً. فقال حكاية عن مؤمني الجن. ﴿**وأنَّه كانَ رجالٌ من الإِنس يعوذونَ برجالٍ من الجنِّ فزادُوهُم رَهَقاً**﴾ [الجن: ٦].

جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسىٰ في أرض قفر. قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم حتىٰ يصبح أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً أي طغياناً وإثماً وشرًّا يقولون: سدنا الإنس والجن.

والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشياناً لما كان محظوراً من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

واحتج أهل السنة علىٰ المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات**» وهو ﷺ **لا يستعيذ بمخلوق أبداً**.

ونظير ذلك قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك**» فدل علىٰ أن رضاه وعفوه من صفاته وأنه غير مخلوق(٢). . .

(٣)**قوله** تعالىٰ: ﴿**فإمَّا يأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدىً**﴾ [البقرة: ٣٨] هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله: ﴿**اهْبطَا منْهَا جميعاً بعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عدُوٌّ**﴾ [طه: ١٢٣].

ثم قال: ﴿**فإمَّا يأْتينَّكُمْ مني هُدىً**﴾ [البقرة: ٣٨] وكلا الخطابين لأبوي الثقلين،

---

(١) ٢٠٣ بدائع جـ٢.		(٢) تتمة البحث في تفسير سورة الفلق نقلًا عن البدائع (ج).

(٣) ٣٧ مفتاح جـ١.

وهو دليل علىٰ أن الجن مأمورون منهيون داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة وأن نبينا بعث إليهم كما بعث إلىٰ الإنس كما لا خلاف بينهم أن مسيئهم مستحق للعقاب.

وإنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة فالجمهور علىٰ أن محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار.

وقيل بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالحي ذريته خاصة. وحُكِي هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ.

واحتج الأولون بوجوه. أحدها هذه الآية فإنه ـ سبحانه ـ أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى. وهذا مستلزم لكمال النعيم.

ولا يقال: إن الآية إنما تدل علىٰ نفي العذاب فقط.

ولا خلاف أن مؤمنيهم لا يعاقبون لأنا نقول لو لم تدل الآية إلا علىٰ أمر عدمي فقط لم يكن مدحاً لمؤمني الإنس ولما كان فيها إلا مجرد أمر عدمي وهو عدم الخوف والحزن.

ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به أن من اتبع هدىٰ الله الذي أنزله حصل له غاية النعيم واندفع عنه غاية الشقاء، وعبر عن هذا المعنىٰ المطلوب بنفي الأمور المذكورة لاقتضاء الحال لذلك، فإنه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره ـ سبحانه ـ أنه معطيه وذريته عهداً من اتبعه منهم انتفىٰ عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء. ومعلوم أنه لا ينتفي ذلك كله إلا بدخول دار النعيم ولكن المقام بذكر التصريح بنفي غاية المكروهات أولىٰ.

الثاني قوله تعالىٰ: ﴿وإذْ صرَفْنَا إليْكَ نَفراً من الجنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فلمَّا حضَرُوهُ قالُوا أنصِتُوا فلمَّا قُضِيَ ولَّوا إلىٰ قومِهم مُّنْذِرينَ * قالُوا ياقوْمَنا إنَّا سَمِعْنا كِتَاباً أُنْزِلَ مِن بعْدِ مُوسىٰ مُصدِّقاً لِّما بيْنَ يَدَيْه يَهْدِي إلىٰ الحَقِّ وإلىٰ طَريقٍ مُّسْتَقِيمٍ * ياقَوْمَنَا أجيْبُوا دَاعِيَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لكُمْ مِّن ذُنُوْبكُم وَيُجِرْكُمْ مِنْ عذابٍ

أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١]. فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم إخباراً مقرراً أن من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب، ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلاً بقوله: ﴿ويُجِرْكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار، فكل من غفر الله له فلا بد من دخوله الجنة.

الثالث قوله ـ تعالىٰ ـ في الحور العين: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُمْ ولا جانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤] فهذا يدل علىٰ أن مؤمني الجن والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور فدل علىٰ أن مؤمنيهم يتأتىٰ منهم طمث الحور العين بعد الدخول كما يتأتىٰ من الإنس، ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الإخبار عنهم بذلك.

الرابع قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فإنْ لَّمْ تفعلُوا ولنْ تفعلُوا فاتَّقُوا النَّارَ الَّتي وقُودُها النَّاسُ والحجارةُ أُعدَّتْ للكافرين * وبشِّرِ الذِينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أنَّ لهم جنَّاتٍ تَجْرِي من تحْتها الأنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا منْها من ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذي رُزِقْنا منْ قبلُ وأُتُوا به مُتَشَابِهًا ولهُمْ فيها أزْواجٌ مُطهَّرةٌ وهُمْ فيها خالدُونَ﴾ [البقرة: ٢٤-٢٥] والجن منهم مؤمن ومنهم كافر، كما قال صالحوهم: ﴿وأنَّا منَّا المُسْلِمُون ومنَّا القاسِطُونَ﴾ فكما دخل كافرهم في الآية الثانية وجب أن يدخل مؤمنهم في الأولىٰ.

الخامس قوله عن صالحيهم. ﴿فمَنْ أسْلَم فأُولَئكَ تحرَّوا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤] والرشد هو الهدىٰ والفلاح وهو الذي يهدي إليه القرآن ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد، بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم.

السادس قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿سَابِقُوا إلىٰ مغْفرةٍ من رَّبِّكُمْ وجنَّةٍ عرضُها كعرْضِ السَّمآءِ والأرْضِ أُعدَّتْ للَّذِين آمنُوا بالله ورُسُله ذٰلك فضلُ الله يؤْتيه من يشاءُ والله ذو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة.

السابع قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿والله يدْعو إلىٰ دارِ السَّلامِ ويَهْدِي من يشآءُ إلىٰ صِراطٍ مُّستَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]. عم ـ سبحانه ـ بالدعوة وخصّ بالهداية المفضية إليها فمن

هداه إليها فهو ممن دعاء إليها فمن اهتدىٰ من الجن فهو من المدعوين إليها.

الثامن قوله ـ تعالىٰ ـ: **﴿ويَوْمَ يحْشُرُهُمْ جميعاً يا معْشَرَ الجنِّ قدِ استكْثَرْتُمْ من الإنْسِ وقالَ أوْليآؤُهُم مِّنَ الإنْسِ ربَّنا اسْتَمْتَعَ بعضُنَا ببَعْضٍ وبَلَغْنَا أجلَنَا الَّذي أجَّلْتَ لنا قال النَّارُ مثْواكم خالدين فيها إلاَّ ما شآء اللهُ إنَّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بعضَ الظَّالمين بعْضاً بما كانُوا يكْسِبُونَ * يامعْشَرَ الجنِّ والإنْسِ ألَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنكُم يقُصُّونَ عليكُمْ آياتي ويُنْذِرُونكُمْ لقآءَ يومِكُمْ هذا قالوا شهِدْنَا علىٰ أنْفسنَا وغرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا وشهِدُوا علىٰ أنفسِهِم أنهُم كانُوا كافرين * ذٰلك أن لَّمْ يَكُن ربُّكَ مُهْلِكَ القُرَىٰ بظُلْمٍ وأهلُها غافلُونَ * ولكُلٍّ درجاتٌ ممّا عَمِلُوا﴾** [الأنعام: ١٢٨-١٣٢]. وهذا عام في الجن والإنس، فأخبرهم ـ تعالىٰ ـ أن لكلهم درجات من عمله فاقتضىٰ أن يكون لمحسنهم درجات من عمله كما لمحسن الإنس.

التاسع قوله ـ تعالىٰ ـ: **﴿إنَّ الَّذين قالُوا ربُّنا اللهُ ثُمَّ اسْتقامُوا تتنزَّلُ عليهْمُ الْملآئكةُ ألاَّ تخافُوا ولا تحْزنُوا وأبشرُوا بالجنَّةِ التي كنْتُمْ تُوعدون﴾** [فصلت: ٣٠] وقوله تعالىٰ: **﴿إنَّ الَّذينَ قالُوا ربُّنا اللهُ ثُمَّ استقامُوا فلاَ خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزْنُون * أُولَئك أصحْابُ الجنَّةِ خالديْن فيها جزآءً بِمَا كانُوا يعْملُونَ﴾** [الأحقاف: ١٣، ١٤].

ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة. أحدها عموم الاسم الموصول فيها.

الثاني ترتيبه الجزاء المذكور علىٰ المسألة ليدل علىٰ أنه مستحق بها، وهو قول: ربنا الله، مع الاستقامة، والحكم يعم بعموم علته فإذا كان دخول الجنة مرتباً علىٰ الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة علىٰ أمره فمن أتىٰ ذلك استحق الجزاء.

الثالث أنه قال: **﴿فلاَ خوفٌ عليهِمْ ولا هم يحْزنُون * أولَئك أصحْابُ الجنَّةِ خالدِين فيهَا جزآءً بِمَا كانُوا يعْملُون﴾** [الأحقاف: ١٣، ١٤] فدل علىٰ أن كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة، وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالىٰ: **﴿فمنْ تبِعَ هُدايَ فلاَ خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزنُونَ﴾** [البقرة: ٣٨] وأنه متناول للفريقين، ودلت هذه الآية علىٰ أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

العاشر أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله، فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته أولىٰ، فإن رحمته سبقت غضبه، والفضل أغلب من العدل، ولهذا لا يدخل

النار إلا من عمل أعمال أهل النار. وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيراً قط، بل ينشيء لها أقواماً يسكنهم إياها من غير عمل عملوه، ويرفع بها درجات العبد من غير سعي منه، بل بما يصل إليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها إليه بخلاف أهل النار، فإنه لا يعذب فيها بغير عمل أصلاً. وقد ثبت بنص القرآن وإجماع الأمة أن مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، فمحسنهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون.

لكن قيل: إنهم يكونون في ربض الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحجة عنده، فإن ثبتت حجة يجب اتباعها، وإلا فهو مما يحكى ليعلم، وصحته موقوفة على الدليل، والله أعلم.

(١)**الطبقة** الثامنة عشرة: طبقة الجن.

وقد اتفق المسلمون على أن منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر. قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وأنَّا مِنَّا الصَّالحُونَ ومنَّا دُونَ ذٰلك كُنَّا طرائقَ قِدَداً﴾ [الجن: ١١].

قال مجاهد: يعنون مسلمين وكافرين: وقال الحسن والسدي: أمثالكم، فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة. وقال سعيد بن جبير: ألواناً شتى. وقال ابن كيسان: شيعاً وفرقاً. ومعنى الكلام: أصنافاً مختلفة ومذاهب متفرقة. ثم قيل في إعراب الآية ﴿ومنَّا دُونَ ذٰلك﴾ [الجن: ١١] قوم دون ذلك فحذف الموصوف وأقام صفته مقامه كقوله: ﴿وَما مِنَّا إلَّا لهُ مقامٌ معْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي إلا من له مقام معلوم، وكقوله: ﴿ومنَ الَّذينَ هادُوا سمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١] أي فريق سماعون، وكقوله: ﴿من الَّذينَ هادُوا يُحرِّفُونَ الْكلِمَ عن مواضعه﴾ [النساء: ٤٦] أي فريق يحرفون، وكقوله على أظهر القولين: ﴿ومنَ الَّذِينَ أشْرَكُوا يَوَدُّ أحَدُهُمْ﴾ [البقرة: ٩٦] أي فريق يودّ أحدهم، وقال الشاعر:

فظلوا ومنهم دمعه سابق لهم		وآخر يذري دمعة العين بالمهل

أي ومنهم من دمعه. وقولهم: ﴿كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً﴾ [الجن: ١١] بيان لقولهم:

(١) ٤١٤ طريق الهجرتين.

﴿مِنَّا الصَّالِحُونَ ومِنَّا دُون ذٰلك﴾ [الجن: ١١] أي كنا ذوي طرائق - وهي المذاهب - واحدها طريقة وهي المذهب، والقدد جمع قدة، كقطعة وقطع وزنا ومعنىٰ. وهي من القد وهو القطع.

وقيل: كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة في اختلافها، وعلىٰ هذا فالمعنىٰ: كنا طرائق قدداً وليس بشيء.

وأضعف منه قول من قال: إن طرائق منصوب علىٰ الظرف، أي كنا في طرق مختلفة كقوله: عسل الطريق الثعلب. وهذا مما لا يحمل عليه أفصح الكلام. وقيل: المعنىٰ كانت طرائقنا طرائق قدداً، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

وقال تعالىٰ إخباراً عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُون ومنَّا القاسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤] فالمسلمون الذين آمنوا بالله ورسوله منهم، والقاسطون الجائرون العادلون عن الحق، قال ابن عباس: هم الذين جعلوا لله أنداداً، يقال: أقسط الرجل إذا عدل، فهو مقسط. ومنه: ﴿وأقسِطْوا إنَّ الله يحبُّ المُقسِطين﴾ [الحجرات: ٩]، وقسط إذا جار فهو قاسط ﴿وأمَّا القاسِطُونْ فكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [الجن: ١٥].

قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلىٰ ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار. وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار. فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفار.

وهذا كما قسّم - سبحانه - بني إسرائيل إلىٰ هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وقَطَّعْناهمْ في الأرْضِ أُمماً منهُمُ الصَّالحونَ ومنهُمْ دُونَ ذٰلك﴾ [الأعراف: ١٦٨] فهؤلاء الناجون منهم، ثم ذكر الظالمين، وهم خلف السوء الذين خلفوا بعدهم.

ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولاً ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف أخر ليس شيء منها للجن، وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون. فليس في الجن صنف من هؤلاء، بل حليتهم الصلاح.

وذهب شذاذ من الناس إلىٰ أن فيهم الرسل والأنبياء محتجين علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿يامعْشرَ الجْنِّ والإنْسِ ألمْ يأْتِكُمْ رسُلُ منكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وبقوله:

﴿وَإِذْ صرَفْنا إليْكَ نفرًا منَ الجْنِّ إلىٰ قوله مُنذرين﴾ وقد قال الله تعالىٰ: ﴿رُسلاً مُبشِّرينَ ومنـذْرينَ﴾ [النساء: ١٦٥] وهذا قول شاذ لا يلتفت إليه، ولا يعرف به سلف من الصحـابـة والتابعين وأئمة الإسلام، وقوله تعالىٰ: ﴿ألَمْ يأْتكُمْ رسلٌ منكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] لا يدل علىٰ أن الرسل من كل واحدة من الطائفتين، بل إذا كانت الرسل من الإنس، وقد أمرت الجن باتباعهم صح أن يقال للإنس والجن: ألم يأتكم رسل منكم.

ونظير هذا أن يقال للعرب والعجم: ألم يجئكم رسل منكم يامعشر العرب والعجم، فهـذا لا يقتضي أن يكـون من هؤلاء رسل ومن هؤلاء. وقال تعالىٰ: ﴿وجعَلَ القمَرَ فيهنَّ نوراً﴾ [نوح: ١٦] وليس في كل سماء قمر وقوله تعالىٰ: ﴿ولَّوْا إلىٰ قومهِمْ مُنْـذرين﴾ [الأحقاف: ٢٩] فالإنذار أعم من الرسالة والأعم لا يستلزم الأخص، قال تعـالىٰ: ﴿فلوْلَا نفرَ منْ كلِّ فرْقةٍ منهُمْ طائفةٌ ليتفقَّهُوا في الدِّين ولينذرُوا قومهُمْ إذا رجعُوا إليهمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] فهؤلاء نذر وليسوا برسل. قال غير واحد من السلف: الرسل من الإنس، وأما الجن ففيهم النذر قال تعالىٰ: ﴿وَما أرسلْنا من قبلكَ إلاَّ رجالاً نُوحيْ إليهمْ منْ أهلِ القُرىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩] فهذا يدل علىٰ أنه لم يرسل جنيًّا ولا امرأة ولا بدويًّا.

وأما تسميته تعالىٰ الجن رجالاً في قوله: ﴿وأنَّهُ كان رجالٌ من الإنْسِ يعوذُون برجـالٍ منَ الجنِّ﴾ [الجن: ٦] فلم يطلق عليهم الرجال، بل هي تسمية مقيدة بقوله: ﴿منَ الجْنِّ﴾ فهم رجال من الجن ولا يستلزم ذلك دخولهم في الرجال عند الإطلاق كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب ونحوه.

(فصل) وقد اتفق المسلمون علىٰ أن كفار الجن في النار، وقد دلَّ علىٰ ذلك القرآن في غير موضع كقوله تعالىٰ: ﴿ولـٰكن حقَّ القولُ مني لأملأنَّ جهنَّمَ من الجنَّةِ والنَّاس أجْمعِين﴾ [السجدة: ١٣] وقوله تعالىٰ: ﴿لأملأنَّ جهنَّمَ منْك وممَّنْ تبعكَ منهُمْ أجمعِين﴾ [ص: ٨٥] الآية فلمؤها منه به وبكفار ذريته. وقال تعالىٰ: ﴿ادْخُلُوا في أُممٍ قدْ خلتْ منْ قبلكُمْ من الجنِّ والإنسِ في النَّار﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقال تعالىٰ حكايةً عن مؤمنهم: ﴿وأنَّا منَّا المُسلمُونَ ومنَّا القاسطُون﴾ - إلىٰ قوله - ﴿حطباً﴾

[الجن: ١٤، ١٥]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ولقدْ ذرأنا لجهنمَّ كثيراً منَ الجنِّ والإنْس﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فكُبْكِبُوا فيها همْ والغاوُون وجُنودُ إبْليس أجْمعون﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥] وجنوده إن لم يختص بالشياطين فهم داخلون في عمومه.

وبالجملة فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع الأنبياء ووجوب اتباعهم لهم.

فأما شريعتنا فأجمع المسلمون علىٰ أن محمدًا ﷺ بعث إلىٰ الجن والإنس، وأنه يجب علىٰ الجن طاعته، كما يجب علىٰ الإنس. وأما قبل نبينا ﷺ فقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا في أمم قدْ خلَتْ منْ قبْلكُمْ من الجنِّ والإنْس في النَّار﴾ [الأعراف: ٣٨] يدل علىٰ أن الأمم الخالية من كفار الجن في النار، وذلك إنما يكون بعد إقامة الحجة عليهم بالرسالة.

وقد دلت سورة الرحمٰن علىٰ تكليفهم بالشرائع كما كلف الإنس، ولهذا يقول في إثر كل آية (الرحمٰن): ﴿فبأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان﴾ فدل ذلك علىٰ أن السورة خطاب للثقلين معاً، ولهذا قرأها رسول الله ﷺ علىٰ الجن قراءة تبليغ، وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن ردًّا منهم، فإنهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم ﴿فبأَيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكذِّبان﴾: لا نكذب بشيء من آلائك ربنا فلك الحمد.

ولما كان أبوهم هو أول من دعا إلىٰ معصية الله، وعلىٰ يده حصل كل كفر وفسوق وعصيان، فهو الداعي إلىٰ النار، وكان أول من يكسى حلة من النار يوم القيامة يسحبها وينادي «واثبوراه» فأتباعه من أولاده وغيرهم خلفه ينادون «واثبوراهم، حتىٰ قيل: إن كل عذاب يقسم علىٰ أهل النار يبدأ به فيه، ثم يصير إليهم.

(فصل) وأما حكم مؤمنيهم في الدار الآخرة: فجمهور السلف والخلف علىٰ أنهم في الجنة. وترجم علىٰ ذلك البخاري في صحيحه[١] فقال: (باب ثواب الجن وعقابهم) لقوله تعالىٰ: ﴿يا معْشر الجنِّ والإنْس ألمْ يأْتكُمْ رسلٌ منكُمْ يقصُّون عليكُمْ آياتي﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية. بخساً نقصاً.

قال مجاهد: ﴿وجَعَلُوا بينهُ وبيْنَ الجنَّةِ نسباً﴾ [الصافات: ١٥٨] قال كفار قريش:

(١) كتاب بدء الخلق ٥٩ باب ١٢.

الملائكة بنات الله، وأمهاتهم بنات سروات الجن. قال الله تعالىٰ: ﴿**ولقَدْ علمتِ الجنـةُ إنَّهمْ لمحْضرُون**﴾ [الصافات: ١٥٨] ستحضر للحساب. ثم ذكر حديث أبي سعيد «إذا كنت في غنمك أو باديتك فأذَّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدىٰ صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة، سمعته من رسول الله ﷺ. هذا ما ذكره في الباب.

وقد ذهب جمهور الناس إلىٰ أن مؤمنيهم في الجنة. وحُكي عن أبي حنيفة وغيره أن ثوابهم نجاتهم من النار. واحتج لهذا بقوله تعالىٰ حكاية عنهم: ﴿**ياقوْمنا أجيبُوا دَاعِيَ الله**﴾ [الأحقاف: ٣١] الآية فجعل غاية ثوابهم إجارتهم من العذاب الأليم.

وأما الجمهـور فقالوا: مؤمنهم في الجنة كما أن كافرهم في النار. ثم اختلفوا فأطلق أكثر الناس دخول الجنة ولم يقيدوه. وقال سهل بن عبد الله: يكونون في ربض الجنة، يراهم المؤمنون من حيث لا يرونهم.

فهذه مذاهب الناس في أحكامهم في الآخرة.

وأما أحكامهم في الدنيا فاختلف الناس: هل هم مكلفون بالأمر والنهي، أم هم مضـطرون علىٰ أفعالهم؟ علىٰ قولين حكاهما أبو الحسن الأشعري في كتاب (المقالات) له فقال: واختلف الناس في الجن، هل هم مكلفون، أم مضطرون؟ فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم: هم مأمورون منهيون، وقد أمروا ونهوا، وهم مختارون. وزعم زاعمون أنهم مضطرون.

قلت: الصواب الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنهم مأمورون منهيون مكلفون بالشريعة الإسلامية. وأدلة القرآن والسنة علىٰ ذلك أكثر من أن تحصر. فإضافة هذا القول إلىٰ المعتزلة بمنزلة أن يقال: ذهبت المعتزلة إلىٰ القول بمعاد الأبدان، ونحو ذلك مما هو من أقوال سائر أهل الإسلام.

وقـال الله تعـالىٰ: ﴿**أُولـئِكَ الَّذين حقَّ عليهْمُ القولُ في أُمم ٍ قدْ خلتْ منْ قبلهمْ منَ الجنِّ والإنْس إنَّهُمْ كانوا خاسرين**﴾ [الأحقاف: ١٨] فأخبر أن منهم من حق عليه القول أي وجب عليه العذاب وأنه خاسر، ولا يكون ذلك إلا في أهل التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم.

ثم قال بعد ذلك ﴿**ولكُلٍّ درجاتٌ مِما عملُوا**﴾ [الأنعام: ١٣٢] أي في الخير والشر يوفونها، ولا يظلمون شيئاً من أعمالهم، وهذا ظاهر جدًّا في ثوابهم وعقابهم، وأن مسيئهم كما يستحق العذاب بإساءته، فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر. وقال الله تعالىٰ: ﴿**وقيَّضْنا لهُمْ قُرناءَ فزَيَّنُوا لهُمْ ما بيْنَ أيْديهِمْ وما خلْفهُمْ وحقَّ عليهِمُ القولُ في أمم ٍ قدْ خلتْ منْ قبلهِمْ مِّن الجنِّ والإنس**﴾ [فصلت: ٢٥] الآية. ومعنىٰ الآية: أن الله قيض للمشركين - أي سبّب لهم - قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

وقيل عكس هذا وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة.

وقال الحسن: ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

وفي الآية قول رابع وهو أن التزيين كله راجع إلىٰ أعمالهم فزينوا لهم ما بين أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد. وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق.

ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر، فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتىٰ لم يذكر البغوي غيره، وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج: سببّنا لهم قرناء: نظراء من الشياطين حتىٰ أضلوهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتىٰ آثروه علىٰ الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلىٰ التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود أن قوله تعالىٰ: ﴿**وحقَّ عليهِمُ القولُ في أُمم ٍ قدْ خلتْ منْ قبلهِمْ مِّن الجنِّ والإِنْس إنَّهم كانُوا خاسِرِين**﴾ [فصلت: ٢٥] أي وجب عليهم العذاب مع

أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل علىٰ تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم، وقال تعالىٰ: ﴿**ويوْم يحشرُهمْ جميعاً يامعشرَ الجنِّ قدْ استكثرْتُمْ منَ الإنْس وقالَ أولياؤُهُمْ منَ الإنْس ربَّنا استمْتعَ بعضُنا ببعْضٍ وبلغنا أجلنا الّذي أجّلْت لنا**﴾ - إلىٰ قوله تعالىٰ - ﴿**إلاَّ ماشاءَ اللهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٨] وهذا صريح في تكليفهم، فإن هذا القول يقال للجن في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله، وعبادتهم لهم دون الله، ليستعينوا بهم علىٰ شهواتهم وأغراضهم. فإنهم كانوا يستوحونهم، ويعوذون بهم، ويذبحون لهم وبأسمائهم، ويوالونهم من دون الله، كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان. فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض، ولهذا يقول تعالىٰ للملائكة يوم القيامة - وقد جمع العابدين والمعبودين -: ﴿**أهؤُلاء إيَّاكُمْ كانُوا يعبُدُون قالُوا سُبْحانكَ أنْت وليُّنا منْ دُونهمْ بلْ كانُوا يعبُدُون الجنَّ أكْثرهُمْ بهمْ مؤْمنُون**﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] فهؤلاء عباد الجن وأولياء الشياطين. وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده. وكثير منهم ملبوس عليه، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر. وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلىٰ هذا الشرك بالجن فقال:

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم		وأنت إلٰهي ربنا ورجاؤنا

ولهذا يقولون: في القيامة: ﴿**ربَّنا استمْتعَ بعضُنا ببعْضٍ وبلغنْا أجلنا الّذي أجلْت لنا**﴾ [الأنعام: ١٢٨] قال الله تعالىٰ: ﴿**النّارُ مثْواكمْ خالدين فِيها إلاّ ما شاءَ اللهُ**﴾ فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب. وهو كثير في القرآن. ومما يدل علىٰ تكليفهم أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿**يا معْشر الجنِّ والإنْس ألمْ يأْتكُمْ رسلٌ منكُمْ يقصُّون عليكُمْ آياتي**﴾ - إلىٰ قوله تعالىٰ - ﴿**كافرين**﴾ [الأنعام: ١٣٠] فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشهدوا علىٰ أنفسهم بالكفر، دل ذلك علىٰ تكليفهم وتوجه الخطاب إليهم. وقال تعالىٰ: ﴿**وإذْ صرفْنا إليكَ نفراً منَ الجنِّ يسْتمعُونَ القرْآن فلمّا**

حضرُوه قالُوا أنصتُوا﴾ - إلىٰ قوله - **﴿أُولـئكِ في ضَلال مُبين﴾** [الأحقاف: ٢٩-٣٢] فهذا يدل علىٰ تكليفهم من وجوه متعددة:

(أحدها) أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ صرفهم إلىٰ رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه.

(الثاني) أنهم ولوا إلىٰ قومهم منذرين. والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

(الثالث) أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلىٰ الحق، وهذا القول منهم يدل علىٰ أنهم عالمون بموسىٰ وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلىٰ صراط مستقيم. وهذا يدل علىٰ تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون علىٰ امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

(الرابع) أنهم قالوا لقومهم: **﴿ياقوْمنا أجيبُوا داعِيَ اللهِ وآمنُوا به﴾** [الأحقاف: ٣١] وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

(الخامس) أنهم قالوا: **﴿يغْفرْ لكُمْ من ذُنوبكُمْ﴾** والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر.

(السادس) أنهم قالوا: **﴿منْ ذنُوبكُمْ﴾** والذنب مخالفة الأمر.

(السابع) أنهم قالوا: **﴿ويجركُمْ من عذابٍ أليمٍ﴾** [الأحقاف: ٣١] وهذا يدل علىٰ أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

(الثامن) أنهم قالوا: **﴿ومَن لا يُجبْ داعيَ الله فليْسَ بمُعجزٍ في الأرْضِ وليْسَ لهُ من دُونه أوْلياء﴾** [الأحقاف: ٣٢] وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم. وقد استدل بها علىٰ أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسىٰ كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن. والآية لا تستلزمه، ولكن قوله تعالىٰ: **﴿يامعْشرَ الجنِّ والإنْسِ ألمْ يأْتكُمْ رسلٌ منكُمْ﴾** [الأنعام: ١٣٠] الآية يدل علىٰ أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، والآيات المتقدمة تدل علىٰ ذلك أيضاً.

وعلى هذا فيكون اختصاص النبي ﷺ بالبعثة إلىٰ الثقلين هو اختصاصه بالبعثة إلىٰ جميعهم لا إلىٰ بعضهم، ومن قبله كان يبعث إلىٰ طائفة مخصوصة. وأيضاً قال ـ تعالىٰ ـ عن نبيه سليمان: ﴿**ومنَ الجنِّ منْ يعملُ بينَ يديْه بإذْن ربِّهِ ومنْ يزغْ منهُمْ عنْ أمْرنا نذقْهُ منْ عذابِ السَّعير**﴾ [سبأ: ١٢] وهذا محض التكليف. وقد تقدم قوله حكاية عنهم: ﴿**وأنَّا منَّا المُسلِمُون ومنَّا القاسطُون فمنْ أسلَمَ**﴾ – إلىٰ قوله تعالىٰ – ﴿**لجهنَّمَ حطَباً**﴾ [الجن: ١٤، ١٥].

وقد صح أن رسول الله ﷺ قرأ عليهم القرآن وأنهم سألوه الزاد لهم ولدوابهم فجعل لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه، وكل بعرة علف لدوابهم. ونهانا عن الاستنجاء بهما. ولو لم يكن في هذا إلا قوله تعالىٰ: ﴿**وَما كنَّا معذِّبينَ حتَّىٰ نبعَثَ رسُولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]. وقد أخبر أنه يعذب كفرة الجن لكفىٰ به حجة علىٰ أنهم مكلفون باتباع الرسل.

ومما يدل علىٰ أنهم مأمورون منهيون بشريعة الإسلام ما تضمنته سورة الرحمٰن، فإنه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ذكر خلق النوعين في قوله تعالىٰ: ﴿**خلَقَ الإنْسانَ منْ صلْصالٍ كالفخَّارِ * وخلقَ الجانَّ من مارجٍ منْ نار**﴾ [الرحمٰن: ١٤، ١٥].

ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم، وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده، وتخويفهم من وعيده، وتهديدهم بقوله تعالىٰ: ﴿**سنفرُغُ لكُمْ أيُّها الثَّقلان**﴾ [الرحمٰن: ٣١] وتخويفهم من عواقب ذنوبهم، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام.

ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم. وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون.

وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمٰن من أولها إلىٰ آخرها فسكتوا **فقال: «لقد قرأتها علىٰ الجن ليلة الجن، وكانوا أحسن مردوداً منكم: كنت كلما أتيت علىٰ آية ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكذِّبانَ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب**

فلك الحمد» وهذا يدل علىٰ ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به. وقوله في هذه السورة ﴿سنفرُغُ لكُمْ أيُّها الثَّقَلان﴾ [الرحمٰن: ٣١] وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع.

قال قتادة: معناه فراغ الدنيا وانقضاؤها، ومجيء الآخرة والجزاء فيها، والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء. والفراغ في اللغة علىٰ وجهين: فراغ من الشغل، وفراغ بمعنىٰ القصد. وهو في هذا الموضع بالمعنىٰ الثاني، وهو قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء. وقوله: ﴿يامعْشرَ الجنِّ والإنْس إنِ استطَعْتُمْ أنْ تنفُذُوا مِنْ أقْطارِ السمٰوات والأرْض فانفُذُوا﴾ [الرحمٰن: ٣٣] فيها قولان:

أحدهما إن استطعتم أن تنفذوا ما في السموات والأرض علماً - أي أن تعلموا ما فيها - فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي إلا ببينة من الله. وعلىٰ هذا فالنفوذ ههنا نفوذ علم الثقلين في السموات والأرض.

الثاني إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم، فإنكم تحت سلطاني وفي محل ملكي وقدرتي أين كنتم. وقال الضحاك: معنىٰ الآية: إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فإنه مدرككم. وهذه الأقوال علىٰ أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا.

وفي الآية تقرير آخر، وهو أن يكون هذا الخطاب في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً. كما قال تعالىٰ: ﴿ويـاقوْمِ إنِّي أخـافُ عليكُمْ يوْم التَّنـادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] قال مجاهد: فارّين غير معجزين، وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندّوا هرباً، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً، فيرجعون إلىٰ المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿والْمَلَكُ عَلَىٰ أرْجائِها﴾ [الحاقة: ١٧] وقوله تعالىٰ: ﴿يامعْشر الجنِّ والإنْس إن استطعتُمْ أنْ تنفُذُوا منْ أقطارِ السمٰوات والأرْض فانفُذُوا﴾ [الرحمٰن: ٣٣] وهذا القول أظهر. والله أعلم.

فإذا بده الخلائق ولوا مدبرين يقال لهم: ﴿إن استطعتُم أن تَنْفُذُوا من أقطار

السموات والأرض فانفذوا﴾ أي إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتىٰ لا يقدر علىٰ عذابكم فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعـدهـا يدل علىٰ هذا القول، فإن قبلها ﴿**سنفرُغُ**﴾ [الرحمٰن: ٣١] الآية وهذا في الآخرة، وبعدها: ﴿**فإذا انشقَّتِ السَّماءُ فكانتْ وردةً كالدِّهان**﴾ [الرحمٰن: ٣٧] وهذا في الآخـرة. وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن، فإنه أتىٰ فيه بصيغة العموم وهي قوله تعالىٰ: ﴿**يا معْشر الجنِّ والإنْس**﴾ [الأنعام: ١٣٠] فلابد أن يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه. وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. وقال تعالىٰ: ﴿**إن استطَعْتُمْ**﴾ ولم يقل إن استطعتما. لإرادة الجماعة كما في آية أخرىٰ: ﴿**يامعْشرَ الجنِّ والإنْس ألمْ يأْتكُمْ**﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿**يُرْسلُ عليْكُما**﴾ [الرحمٰن: ٣٥] ولم يقل يرسل عليكم لإرادة الصنفين أي لا يختص به صنف عن صنف، بل يرسل ذلك علىٰ الصنفين معاً. وهذا وإن كان مراداً بقوله تعالىٰ: ﴿**إن استَطْعْتُمْ**﴾ فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن، أي من استطاع منكم.

وحسن الخطاب بالتثنية في قوله تعالىٰ: ﴿**عليْكُما**﴾ أمر آخر. وهو موافقة رءوس الآي، فاتصلت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما. والله أعلم. قال ابن عباس: الشواظ: اللهب الذي لا دخان فيه، والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿**فيوْمَئِذٍ لا يُسْألُ عنْ ذنبهِ إنْسٌ ولا جانٌ**﴾ [الرحمٰن: ٣٩] فأضاف الـذنوب إلىٰ الثقلين، وهذا دليل علىٰ أنهما سويًّا في التكليف. واختلف في هذا السؤل المنفي، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلىٰ المـوقف، لا يسـألون حينئذ ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلىٰ الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك. وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة، أي قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها، وإنما يحاسبهم عليها.

فصل فإذا علم تكليفهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها، وحشرهم يوم القيامة للثواب والعقاب، علم أن محسنهم في الجنة كما أن مسيئهم في النار.

وقد دل علىٰ ذلك قوله ـ تعالىٰ ـ حكاية عن مؤمنهم: ﴿**وأنَّا لمَّا سمعْنا الهُدىٰ آمنَّا بهِ فمنْ يؤْمن بربِّه**﴾ [الجن: ١٣] الآية. وبهذه الحجة احتج البخاري. ووجه الاحتجاج بها أن البخس المنفي هو نقصان الثواب، والرهق الزيادة في العقوبة علىٰ ما عمل، فلا ينقص من ثواب حسناته ولا يزداد في سيئاته.

ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿**ومنْ يعملْ منَ الصَّالحاتِ وهُو مؤْمنٌ فلا يخافُ ظُلماً ولا هضْماً**﴾ [طه: ١١٢] أي لا يخاف زيادة سيئاته ولا نقصان حسناته.

وأيضاً فقد قال ـ تعالىٰ ـ في سورة الرحمٰن: ﴿**ولمنْ خافَ مقامَ ربِّه جنَّتانِ * فبأيِّ آلاءِ ربِّكُم تُكذِّبان**﴾ [الرحمٰن: ٤٦، ٤٧] وذكر ما في الجنتين إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**لمْ يطْمثْهُنَّ إنْسٌ قبلهُمْ ولا جانٌ**﴾ [الرحمٰن: ٧٤]، وهذا يدل علىٰ أن ثواب محسنهم الجنة من وجوه:

أحدها: أن «من» من صيغ العموم، فتناول كل خائف.

الثاني: أنه رتب الجزاء المذكور علىٰ خوف مقامه، فدل علىٰ استحقاقه به.

وقد اختلف في إضافة المقام إلىٰ الرب هل هي من إضافة المصدر إلىٰ فاعله، أو إلىٰ مفعوله؟ على قولين:

أحدهما: أن المعنىٰ ولمن خاف مقامه بين يدي ربه، فعلىٰ هذا هو من إضافة المصدر إلىٰ المفعول.

والثاني أن المعنىٰ ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه، فهو من باب إضافة المصدر إلىٰ فاعله.

وكذلك القولان في قوله تعالىٰ: ﴿**وأمَّا منْ خافَ مقامَ ربِّه ونهَىٰ النفْسَ عنِ الهوَىٰ**﴾ [النازعات: ٤٠]. ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿**ذٰلك لمنْ خافَ مقامِي وخافَ وعيدِ**﴾ [إبراهيم: ١٤] فهذه ثلاثة مواضع. وقد يقال: الراجح هو الأول، وأن المعنىٰ خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه:

أحدهما: أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر، فإذا

خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم. كقوله تعالىٰ: ﴿فَلا تخافُوهُمْ وخافُون﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقوله تعالىٰ: ﴿ذٰلكَ لمنْ خشيَ ربَّهُ﴾ [البينة: ٨] وقوله تعالىٰ: ﴿يخافُون ربهُمْ منْ فوقهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالىٰ: ﴿إنَّ الَّذين يخْشونَ ربَّهُمْ بالغيْب لهمْ مغفِرة وأجرٌ كَبير﴾ [الملك: ١٢].

ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم، وإنما مدحهم بخوفه وخشيته. وقد يذكر الخوف متعلقاً بعذابه كقوله تعالىٰ: ﴿يرْجُون رحْمتهُ ويخافُونَ عذابهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن.

الثاني: أن هذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿وأنْذِرْ به الَّذينَ يخافُون أنْ يُحشرُوا إلىٰ ربِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١] فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه. والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

الثالث: أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن بلقائه وباليوم الآخر والبعث بعد الموت. وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين، فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل، وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل.

وأما مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه، فهذا يقرّ به المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه.

وأما مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل.

فإن قيل: إذا كان المعنىٰ أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوىٰ التقديران، فمن أين رجحتم أحدهما؟

قيل: التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد، ولهذا خوفنا تعالىٰ في قوله: ﴿يوْم يقومُ النَّاسُ لربِّ الْعالَمين﴾ [المطففين: ٦]، ولأنه مقام مخصوص مضاف إلىٰ الله وذلك في يوم القيامة، بخلاف مقام الله علىٰ العبد فإنه كل وقت.

وأيضاً فإنه لا يقال لقدرة الله علىٰ العبد واطلاعه عليه وعلمه به: مقام الله، ولا هذا من المألوف إطلاقه علىٰ الرب.

وأيضاً فإن المقام في القرآن والسنة إنما يطلق علىٰ المكان كقوله: ﴿**عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مقاماً محمُوداً**﴾ [الإسراء: ٧٩] وقوله تعالىٰ: ﴿**كَمْ تركُوا مِنْ جنَّاتٍ وعُيُونٍ وزُروعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ**﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿**خيرٌ مَّقاماً وأحسنُ ندِيًّا**﴾ [مريم: ٧٣]. والمقصود أن قوله تعالىٰ: ﴿**ولمنْ خافَ مقامَ ربِّه جنَّتانِ**﴾ [الرحمن: ٤٦] يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان.

(الثالث) قوله عقيب هذا الوعد ﴿**فبأيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكذِّبان**﴾.

(الرابع) أنه ذكر في وصف نسائهم أنهن: ﴿**لم يطْمِثْهُنَّ إنسٌ قَبْلَهُمْ ولا جانٌّ**﴾ [الرحمن: ٧٤] وهذا والله أعلم معناه أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم. ومما يدل علىٰ أن ثوابهم الجنة قوله تعالىٰ: ﴿**إنَّ الَّذين آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ إنَّا لا نُضيعُ أجرَ منْ أحْسنَ عملاً * أُولـٰئِكَ لهُمْ جنَّاتُ عدْنٍ تجري من تحتِهِمُ الأَنْهارُ**﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١] وأمثال هذه من العمومات.

وقد ثبت أن منهم المؤمنين فيدخلون في العموم، كما أن كافرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد. ودخول مؤمنهم في آيات الوعد أولىٰ من دخول كافرهم في آيات الوعيد، فإن الوعد فضله والوعيد عدله، وفضله من رحمته وهي تغلب غضبه.

وأيضاً فإنه لا دار للمكلفين سوىٰ الجنة والنار، وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه. وأيضاً فقد ثبت أنهم إذا أجابوا داعي الله غفر لهم وأجارهم من عذابه، وكل من غفر له دخل الجنة ولا بد، وليس فائدة المغفرة إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار.

وأيضاً فإنه قد ثبت أن الرسول مبعوث إليهم، وأنهم مكلفون باتباعه، وأن مطيعهم لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم، لقوله تعالىٰ: ﴿**ومنْ يُطعِ اللهَ والرَّسُولَ فأُولـٰئِكَ معَ الَّذينَ أنعَمَ اللهُ عليهِمْ منَ النَّبِيِّينَ والصدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحينَ وحسُنَ أُولـٰئِكَ رفيقاً**﴾ [النساء: ٦٩].

وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا وأنهم يقولون: ﴿**فاغْفرْ للذَّينَ تابُوا واتَّبعُوا سبيلكَ وقِهِمْ عذابَ الجحيمِ * ربَّنا وأدْخلهُمْ جنَّاتِ عدْنِ الَّتي وعدْتَهُمْ**﴾ [غافر: ٧، ٨].

فدل علىٰ أن كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجّنة. وقد ثبت في حق مؤمنهم الإيمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم فتعين دخولهم الجنة، والله أعلم.

وإذا ثبت تكليفهم بانقسامهم إلىٰ المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك، فهم في الموازنة علىٰ نحو طبقات الإنس المتقدمة، إلا أنهم ليس فيهم رسول. وأفضل درجاتهم درجة الصالحين ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها، فقد دل القرآن علىٰ انقسامهم إلىٰ ثلاثة أقسام: صالحين، ودونهم، وكفار. وزاد عليهم الإنس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين. والله أعلم.

فهذا ما وصل إليه الإحصاء من طبقات المكلفين في الدار الآخرة، وهي ثمان عشرة طبقة، وكل طبقة منها لها أعلىٰ وأدنىٰ ووسط. وهم درجات عند الله.

والله تعالىٰ يحشر الشكل مع شكله والنظير مع نظيره ويقرن بينهما في الدرجة. قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**احْشرُوا الَّذينَ ظلمُوا وأزْواجهُمْ وما كانُوا يعْبُدُونَ منْ دونِ الله**﴾ [الصافات: ٢٢]. قال الإمام أحمد وقبله عمر بن الخطاب: ﴿**أزواجهم**﴾ أشباههم ونظراءهم، وقال تعالىٰ: ﴿**وإذا النُّفُوسُ زوِّجتْ**﴾ [التكوير: ٧].

روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال: يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء في النار. وقال الحسن وقتادة: يلحق كل امريء بشيعته، اليهودي باليهودي، والنصراني بالنصراني. وقال الربيع بن خيثم: يحشر الرجل مع صاحب عمله.

وفي الآية ثلاثة أقوال أخر: أحدها: أن تزويج النفوس اقترانها بأجسادها وردها إليها. الثاني: تزويجها اقترانها بأعمالها. الثالث: أنه تزويج المؤمنين الحور العين، وتزويج الكفار بالشياطين. والقول الأول أظهر الأقوال. ، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجن

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**سئل** عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿**إنا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ [المزمل: ٥]. فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة وقال: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهلٌ لذلك. وقال: لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلاً لشيء حتى يسأل مَن هو أعلم منه، وما أفتيت حتى سألت ربيعة ويحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، ولو نهياني انتهيت. قال: وإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل، ولا يجيب أحد منهم عن مسألة حتى يأخذ رأي صاحبه مع ما رزقوا من السَّداد والتوفيق والطهارة، فكيف بنا الذين غَطَّت الذنوب والخطايا قلوبنا؟

وكان رحمه الله إذا سئل عن مسألة فكأنه واقف بين الجنة والنار. وقال عطاء بن أبي رباح: أدركت أقوامًا إن كان أحدهم لَيُسأل عن شيء فيتكلم وإنه ليُرعد. وسئل النبي ﷺ: أيُّ البلادِ شر؟ فقال: «**لا أدري حتى أسأل جبريل**». فسأله فقال: أسواقها. وقال الإمام أحمد: مَن عرض نفسه للفُتيا فقد عرضها لأمر عظيم، إلا أنه قد تلجيء الضرورة. وسئل الشعبي عن مسألة، قال: لا أدري، فقيل: ألا تستحي من قولك لا أدري وأنت فقيه أهل العراق؟ فقال: لكن الملائكة لم تستح حين قالوا: ﴿**لا عِلم لَنا إلا ما عَلَّمتنا**﴾ [البقرة: ٣٢].

وقال بعض أهل العلم: تَعلّم: لا أدري، فإنك إن قلت: لا أدري علَّموك حتى تدري، وإن قلت أدري سألوك حتى لا تدري. وقال عتبة بن مسلم: صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهرًا، فكان كثيرًا ما يُسْأَل فيقول: لا أدري.

---

(١) ٢١٨ أعلام جـ٤.

وكان سعيد بن المسيب لا يكاد يفتي فتيا ولا يقول شيئًا إلا قال: اللهم سلمني وسلم مني . . .

[1]**وناشئة** الليل أول ساعاته. قلت: هذا قد قاله غير واحد من السلف: إن ناشئة الليل أوله التي منها ينشأ الليل. والصحيح أنها لا تختص بالساعة الأولى، بل هي ساعاته ناشئة، بعد ناشئة كلما انقضت ساعة نشأت بعدها أخرى. وقال أبوعبيدة ناشئة الليل ساعاته وآناؤه ناشئة بعد ناشئة. قال الزجاج: ناشئة الليل كلما نشأ منه أي حدث منه فهو ناشئة. قال ابن قتيبة: هي آناء الليل وساعاته مأخوذة من نشأت تنشأ نشأ، أي ابتدأت وأقبلت شيئًا بعد شيء، وأنشأها الله فنشأت. والمعنى أن ساعات الليل الناشئة. وقول صاحب الصحاح منقول عن كثير من السلف قال علي بن الحسين: ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء. وهذا قول أنس وثابت وسعيد بن جبير والضحاك والحكم واختيار الكسائي قالوا: ناشئة الليل: أوله. وهؤلاء راعوا معنى الأولية في الناشئة.

وفيها قول ثالث: إن الليل كله ناشئة وهذا قول عكرمة وأبي مجلز ومجاهد والسدى وابن الزبير وابن عباس في رواية قال ابن أبي مليكة سألت ابن الزبير وابن عباس عن ناشئة الليل فقالا: الليل كله ناشئة. فهذه أقوال من جعل ناشئة الليل زمانًا. وأما من جعلها فعلاً ينشأ بالليل فالناشئة عندهم اسم لما يفعل بالليل من القيام وهذا قول ابن مسعود ومعاوية بن قرة وجماعة، قالوا: ناشئة الليل: قيام الليل. وقال آخرون: منهم عائشة إنما يكون القيام ناشئة إذا تقدمه نوم، قالت عائشة ناشئة الليل القيام بعد النوم، وهذا قول ابن الأعرابي قال: إذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت فتلك النشأة، ومنه ناشئة الليل فعلى قول الأولين ناشئة الليل بمعنى (من) إضافة نوع إلى جنسه أي ناشئة منه وعلى قول هؤلاء إضافة بمعنى (في) أي طاعة ناشئة فيه. والمقصود أن الإنشاء ابتداء سواء تقدمه مثله كالنشأة الثانية أو لم يتقدمه كالنشأة الأولى.

(١) ١٣٣ شفاء.

(١)**قال الله ـ تعالى ـ: ﴿واذكر اسم ربِّك وتبتَّل إليه تبتيلا﴾** [المزمل: ٨].

و«التبتل» الانقطاع. وهو تفعل من البَتل وهو القطع. وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفًا وفضلاً. وقطعت منهن. ومصدر «بتَّل» «تبتلاً» كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل ـ مصدر تفعل ـ لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذانًا بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بَتِّل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتلاً. ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن. وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.

(٢)**وأما** في سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد، لما كان المقصود ذكر ربوبيته، ووحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده. فليس للمشرق والمغرب رب سواه. فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إلـه ولا وكيل سواه، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله: **﴿وَمَا ربُّ العالمين﴾** [الشعراء: ٢٣] فقال: **﴿ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقِلون﴾** [الشعراء: ٢٨].

وفي ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته السموات وما حوته من الشمس، والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين. وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه. ثم قال: **﴿إنَّا لقادِرون على أن نُبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين﴾** [المعارج: ٤٠، ٤١]. أي لقادرون على أن نذهب بهم، ونأتي بأطوع لنا منهم وخيراً منهم، كما قال تعالى: **﴿إن يشأ يذهِبكم أيها الناس ويأتِ بآخرين وكان الله على ذلك قديرًا﴾** [النساء: ١٣٣]. وقوله: **﴿وما نحن بِمسبوقين﴾** أي لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني.

وعبر عن هذا المعنى بقوله: **﴿وما نحن بمسبوقين﴾** لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه. ولهذا عدى بـ [على] دون [إلى]، كما في قوله:

(١) ٢٩ مدارج جـ٢. (٢) ١٢٢ التبيان.

﴿وما نحن بمسبوقين على أن نبدِّل أمثالكم﴾ [الواقعة: ٦٠] فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بـ[على]، بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه. فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه. والثاني بمعنى وصلت إليه قبله.

(١)**قوله** تعالى: **﴿إنَّا أرسلنا إليكم رسُولاً شاهدًا عليكم كما أرسلْنا إلى فِرعون رَسُولاً فعصى فِرعونُ الرسولَ * فأخذناه أَخْذًا وَبِيلاً﴾** [المزمل: ١٥، ١٦] فأخبر سبحانه أنه أرسل محمدًا ﷺ إلينا كما أرسل موسى إلى فرعون، وأن فرعون عصى رسوله فأخذه أخذًا وبيلاً، فهكذا مَن عصى منكم محمدًا ﷺ، وهذا في القرآن كثير جدًّا فقد فتح لك بابه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المزمل
والحمد لله رب العالمين

(١) ١٣٨ أعلام جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)فصل في ترتيب الدعوة ولها مراتب

المرتبة الأولى: النبوة. الثانية: إنذار عشيرته الأقربين. الثالثة: إنذار قومه. الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله. وهم العرب قاطبة. الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

فصل وأقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفيًا، ثم نزل عليه: ﴿فاصدَعْ بما تؤمَرُ وأعرِضْ عن المشرِكينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فأعلن ﷺ بالدعوة، وجاهر قومه بالعداوة، واشتد الأذي عليه وعلى المسلمين، حتى أذن الله لهم بالهجرتين.

(٢)**ترتيب** سياق هديه مع الكفار والمنافقين، من حين بُعث إلى حين لقي الله ـ عز وجل ـ أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق. وذلك أولُ نبوته. فأمره أن يقرأه في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه: ﴿ياأَيُّها المُدَّثرُ * قُمْ فأنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢] فنبَّأه بقوله (اقرأ) وأرسله بـ(يا أيها المدثر) ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر مَن حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بِضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمَر بالكَفِّ والصبر والصفح، ثم أُذِنَ له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزَله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله الله. . .

(٣)**فصل** في مبعثه ﷺ، وأول ما نزل عليه: بعثه الله على رأس أربعين، وهي سِنُّ الكمال. وقيل: ولها تبعث الرسل. وأما ما يذكر عن المسيح: أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة، فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه.

---

(١) ٣٨ زاد المعاد جـ١. (٢) ٢٠٧ زاد المعاد جـ٢. (٣) ٣٧ زاد المعاد جـ١.

وأول ما بُدِىءَ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة: الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة: ثلاث وعشرون سنة. فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة والله أعلم.

ثم أكرمه الله ـ تعالى ـ بالنبوة، فجاءه الملك وهو بغار حراء، وكان يحب الخلوة فيه. فأول ما أنـزل عليه: ﴿**اقرأ باسم ربِّك الذي خَلَقَ**﴾ [العلق: ١] هذا قول عائشة والجمهور. وقال جابر: «أول ما أنزل عليه يا أيها المدثر» والصحيح قول عائشة، لوجوه.

أحدها: أن قوله «ما أنا بقارىء» صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئًا.

الثاني: الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإنذار، فإنه إذا قرأ في نفسه أنذر بما قرأه، فأمره بالقراءة أولاً ثم بالإنذار بما قرأه ثانيًا.

الثالث: أن حديث جابر، وقوله «أول ما أنزل من القرآن (يا أيها المدثر)» قول جابر، وعائشة أخبرت عن خبره ﷺ عن نفسه بذلك.

الرابع: أن حديث جابر ـ الذي احتج به ـ صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولاً، قبل نزول (يا أيها المدثر) فإنه قال: «**فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، فرجعت إلى أهلي، فقلت: زملوني، دثروني، فأنزل الله** ﴿**ياأيُّها المُدَّثرُ**﴾ [المدثر: ١]. وقد أخبر: أن الملك الذي جاءه بحراء أنزل عليه: ﴿**اقرأ باسم ربِّك الذي خَلق**﴾ [العلق: ١] فدل حديث جابر على تأخر نزول (يا أيها المدثر) والحجة في روايته، لا في رأيه والله أعلم.

(١)**أكمل** الخلق عند الله عز وجل: من كَمَّل مراتب الجهاد كلها. والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد. ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتمُ أنبيائه ورسله. فإنه كمل مراتب الجهاد، وجاهد في الله حق جهاده. وشرع في الجهاد من حين بُعث إلى أن توفاه الله عز وجل. فإنه لما نزّل الله عليه: ﴿**يـاأيُّها المـدَّثـرُ * قمْ فأنـذرْ * وربَّـك فكبرّْ * وثِيَابَك فطهِّرْ**﴾ [المدثر: ١-٤] شمَّر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلاً

(١) ١٠٨ زاد المعاد جـ١.

ونهارًا، وسرًّا وجهارًا. ولما نزل عليه: ﴿**فاصدع بما تُؤمر**﴾ [الحجر: ٩٤] فصَدع بأمر الله، لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى والأحمر والأسود والجن والإنس. . .

(١)**وسئل** ﷺ: متى وجبت لك النبوة؟ فقال: «**وآدم بين الروح والجسد**» صححه الترمذي. وسئل ﷺ: كيف كان بَدْء أمرك؟ فقال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي، رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قُصُور الشام**» ذكره أحمد.

وسأله ﷺ أبوهريرة: يارسول الله، ما أول ما رأيت من النبوة؟ قال: «**إني لَفِي الصحراء ابن عشرين سنة وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا برجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لأحد قط، وأرواح لم أجدها لخلق قط وثياب لم أرها على خلق قط، فأقبلا يَمشيان حتى أخذ كل منهما بِعضُدي لا أجد لأخذهما مسًّا، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا قصر ولا هَصْر، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فحوى أحدهما صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئًا كهيئة العَلقة ثم نبذها فطرحها، ثم قال له: أدخِل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هزَّ إبهام رجلي اليمنى فقال: اغدُ سليمًا، فرجعت بها رقة عَلى الصغير ورَحمة على الكبير**» ذكره أحمد.

(٢)**فلما** كمل له أربعون أشرق عليه نور النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده. ولا خلاف أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين.

واختلف في شهر المبعث، فقيل: لثمان مضين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل. هذا قول الأكثرين. وقيل: بل كان ذلك في رمضان. واحتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿**شَهر رَمضان الذي أنزِل فيه القُرآن**﴾ [البقرة: ١٨٦].

---

(١) ٤١١ أعلام جـ٤. (٢) ٣٣ زاد المعاد جـ١.

قالوا: أول ما أكرمه الله ـ تعالى ـ بنبوته أنزل عليه القرآن. وإلى هذا ذهب جماعة، منهم يحيى الصَّرصري، حيث يقول في نونيته:

وأتت عليه أربعون، فأشرقت   شمس النبوة منه في رمضان

والأولون قالوا: إنما كان إنزال القرآن في رمضان جملة واحدة، في ليلة القدر، إلى بيت العزة، ثم أنزل منجمًا ـ بحسب الوقائع ـ في ثلاث وعشرين سنة. وقالت طائفة: «أنزل فيه القرآن» أي: في شأنه وتعظيمه وفرضَ صومه. وقيل: كان ابتداء المبعث في شهر رجب. وكمّل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة.

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

المرتبة الثانية: ما كان يلقيه الملك في رُوعه وقلبه، من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي: أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله. فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته**».

المرتبة الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له. وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا.

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشدَّه عليه، فيتلبس به الملك، حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت تَرُضُّها.

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السموات ليلة المعراج: من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه، بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن

عمران. وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن. وثوبتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء.

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة، وهي تكليم الله له كفاحًا من غير حجاب. وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربه ـ تبارك وتعالى ـ وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف، وإن كان جهور الصحابة ـ بل كلهم ـ مع عائشة، كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعًا للصحابة.

(1)**وقال** تعالى: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: ٤]. قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب. فكني عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك، والشعبي، والزهري، والمحققين من أهل التفسير. قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا غدر. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني ـ بحمد الله ـ لا ثوبَ غادرٍ لبستُ. ولا مِن غَدرَةٍ أتقَنع

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب. وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب. وقال أبي بن كعب: لا تلبسها على الغدر، والظلم والإثم. ولكن البسها وأنت بَرٌّ طاهر.

وقال الضحاك: عملك فأصلح. قال السدى: يقال للرجل، إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب. وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب. وقال سعيد بن جبير: وقلبك وبيتك فطهر. وقال الحسن والقرطبي: وخلقك فحسن. وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها. لأن المشركين كانوا لا يتطهرون، ولا يطهرون ثيابهم. وقال طاوس: وثيابك فقصر. لأن تقصير الثياب طهرة لها. والقول الأول: أصح الأقوال.

ولاريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق. لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن. ولذلك أمر القائم بين يدي الله ـ عز وجل ـ بإزالتها والبعد عنها.

والمقصود: أن «الورع» يطهر دنس القلب ونجاسته. كما يطهر الماء دنس

(١) ٢٠ مدارج جـ٢.

الثوب ونجاسته. وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة. ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله. ويؤثر كل منهما في الآخر. ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب، وجلود السباع، لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع. وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي. يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها، حتى إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر، وليسا عليهما.

وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة. فقال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

قال إبراهيم بن أدهم: الورع ترك كل شبهة، وترك مالا يعنيك هو ترك الفضلات. وفي الترمذي مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة! كن ورعاً تكن أعبد الناس**».

(١)الباب التاسع
في طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه

هذا الباب، وإن كان داخلاً فيما قبله، كما بينا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة، ولكنا أفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته، وشدة الحاجة إليها، ودلالة القرآن والسنة عليها. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**يا أيُّها المدثِّر * قم فأنذِر * ورَبَّك فكبِّر * وثِيابك فطهِّر**﴾ [المدثر: ١-٤]. وقال تعالى: ﴿**أولئك الذين لم يُردِ الله أن يطهرَ قلوبهُم لَهم في الدُّنيا خِزْيٌ ولَهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ**﴾ [المائدة: ٤١]. وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق.

قال الواحدي: اختلف المفسرون في معناه، فروى عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «يعني من الإثم، ومما كانت الجاهلية تجيزه». وهذا قول قتادة ومجاهد، قالا «نفسك فطهرها من الذنب» ونحوه قول الشَّعبي وإبراهيم

(١) ٥٢ إغاثة جـ١.

والضحاك والزُّهري. وعلى هذا القول: «الثياب» عبارة عن النفس، والعرب تَكْنِي بالثياب عن النفس. ومنه قول الشَّمَّاخ:

رموها بأثواب خفاف، فلا ترى　　　لها شَبهاً إلا النعام المنَفَّرا

رموها يعني الركاب[1] بأبدانهم. وقال عنترة:

فشككتُ بالرمح الأصمِّ ثيابه　　　ليس الكريم على القَنَى بمُحَرَّم

يعني نفسه.

وقال في رواية الكلبي: يعني لا تغدر، فتكون غادرًا دنس الثياب، وقال سعيد بن جبير: «كان الرجل إذا كان غادرًا قيل: دنس الثياب، وخبيث الثياب». وقال عكرمة: «لا تلبس ثوبك على معصية، ولا على فُجْرَة» وروي ذلك عن ابن عباس، واحتج بقول الشاعر:

وإني بحمد الله لا ثوب غادر　　　لبست، ولا من خِزية أتقنع[2]

وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية: «وعملك فأصلح» وهو قول أبي رزين ورواية منصور عن مجاهد وأبي رَوْق، وقال السُّدى: «يقال للرجل إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب» قال الشاعر:

لَا هُمَّ إنَّ عامِرَ بن جَهْمِ　　　أوْذَم حَجًّا في ثِياب دُسْمِ[3]

يعني أنه متدنس بالخطايا، وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب وصفوا الصالح بطهارة الثوب، قال امرؤ القيس:

ثيابُ بَني عَوف طَهارىٰ نَقيَّة

يريد أنهم لا يغدرون، بل يفون، وقال الحسن: «خُلقُك فحسنهُ»، وهذا قول القرطبي، وعلى هذا: الثياب عبارة عن الخلق، لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه.

---

(١) وفي نسخة «يغني الإبل».

(٢) الذي في تفسير ابن جرير: «ولا من غدرة أتصنع» وسمى الشاعر: غيلان بن سلمة.

(٣) أو ذم الحج: أوجبه على نفسه. والدسم: جمع دسم، أي دنس. يقول: أحرم بالحج وهو متلطخ بالذنوب.

وروى العَوفي عن ابن عباس في هذه الآية: «لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب» والمعنى طهـرها من أن تكون مغصوبة، أو من وجه لا يحل اتخاذها منه، وروي عن سعيد بن جبير: «وقلبك. ونيتك فطهر» وقال أبوالعباس: الثياب اللباس، ويقال: القلب، وعلى هذا ينشد:

فسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنسلي

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين، وابن زيد. وذكر أبوإسحاق: «وثيابك فقصر»، قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجرَّ على الأرض لم يُؤمَن أن يصيبه ما ينجسه، وهذا قول طاوس. وقال ابن عرفة: «معنـاه: نساءك طهرهن» وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس. قال تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُم ليلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكُم هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وأنتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ**﴾ [البقرة: ١٨٧]. ويكنى عنهن بالإزار، ومنه قول الشاعر:

ألا أبـلغ أبـا حَفْصٍ رسـولاً فِدًى لك من أخي ثقـةٍ: إزاري

أي أهلي، ومنه قول البراء بن معرور للنبي ﷺ ليلة العَقَبة، «**لَنمنعَنَّك مِمَّا نمنع منهُ أُزُرَنَا**» أي نساءنا.

قلت: الآية تعمُّ هذا كله، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلـك لفـظًا فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يُكسب القلب هَيئة خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك، ولذلك حرم لبس جلود النُّمور والسِّباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في عدة أحاديث صحاح لا معارض لها، لما تُكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانـات، فإن الملابسة الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفخر والخيلاء.

والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى

أن يكون مأمورًا به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس، فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا.

(١)**وكذلك** إخباره ـ سبحانه ـ بأن عِدة الملائكة الموكَّلين بالنار تسعة عشر، كان فتنة للكفار، حيث قال عدو الله أبو جهل: أيخوفكم محمدٌ بتسعة عشر، وأنتم الدُّهْمُ، أفيعجـزُ كل مائـة منكم أن يبـطِشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فقال أبـو الأسـد: يامعشر قريش، إذا كان يومُ القيامـة فأنـا أمشي بين أيديكم على الصراط، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار، ونمضِي فندخل الجنة. فكان ذكر هذا العدد فتنة لهم في الدنيا، وفتنة لهم يوم القيامة.

(٢)**قال** تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّار إلا ملائكةً وما جعلنا عِدَّتَهُم إلَّا فِتنةً للذينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ ويَزْدَادَ الّذينَ آمنوا إيمانًا ولا يَرْتَابَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ والمُؤْمِنُونَ وليقولَ الذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ والكافِرُونَ ماذا أرادَ اللهُ بهذا مَثَـلاً**﴾ [المدثر: ٣١]. أخـبر الله ـ سبحانه ـ عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر ـ سبحانه ـ خمس حكم: فتنة الكافرين. فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم. وقوة يقين أهل الكتاب، فيقـوى يقينهم بمـوافقـة الخـبر بذلـك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلقٍ من رسول الله ﷺ، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه. وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به. وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

فهذه أربعة حكم: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب. والخامسة: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعمي قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿**مَاذا أرادَ اللهُ بهذا مثلاً**﴾.

وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمًى، فلا يدري ما يراد به.

(١) ١٦٣ إغاثة جـ٢. (٢) ١٤ إغاثة جـ١.

واليقين وعدم الريب في هذا الموضع، إن رجعا إلى شيء واحد، كان ذكر عدم الريب مقررًا لليقين ومؤكدًا له، ونافيًا عنه ما يضاده بوجه من الوجوه، وإن رجعَا إلى شيئين، بأن يكون اليقين راجعًا إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة، وعدم الريب عائدًا إلى عموم ما أخبر الرسول به. لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم إلا من جهة الرسل على صدقه، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعد صدق الرسول ﷺ، ظهرت فائدة ذكره. والمقصود: ذكر مرض القلب وحقيقته. . .

(١)**قوله** ـ تعالى ـ: ﴿**كلَّا والقمر * والليل إذ أدبر * والصُّبح إذا أسفر * إنها لَإحدى الكبر * نذيرًا للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر**﴾ [المدثر: ٣٢، ٣٧].
أقسم سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه. وحكمته وعلمه، وعنايته بخلقه، ما هو معلوم بالمشاهدة.

وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها، مما لا نراه من الملائكة، وما فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر: من الليل والنهار، وكل ذلك آية من آياته، ودلالة من دلائل ربوبيته.

ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما، وجرمهما، ونورهما، وحركتهما على نهج واحد، لا ينيان ولا يفتران دائبين، ولا يقع في حركتهما اختلاف بالبطء، والسرعة، والرجوع، والاستقامة، والانخفاض، والارتفاع، ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه، ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشمس القمر، ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار، بل لكلٍّ حركة مقدرة، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر. كما أن له تأثيرًا ومنفعة لا يشركه فيها الآخر.

وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر، وأمر آمر، وتدبير مدبر، بهرت حكمته العقول، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل، وفوق ما علمه الناس من الحكم التي في خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم، ولا تنتهي إلى مباديها أوهامهم.
فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما، وكمال حكمته، ولطف تدبيره، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا: ﴿**ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سُبحَانَكَ فقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾

(١) ١٠٢ التبيان.

ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق، يبدو فيه النور كخيط متسخن، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره، فيصير أضوأ شيء وأحسنه وأجمله، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأول فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين، وحساب آجال العالم: من مواقيت حجهم، وصلاتهم، ومواقيت أجائرهم، ومداييناتهم، ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة.

وقد ذكر ـ سبحانه ـ ذلك في ثلاث آيات من كتابه. أحدها قوله: ﴿**يسألونك عن الأهلة قُلْ هي مواقيتُ للنَّاسِ والحجِّ**﴾ [البقرة: ١٨٩]. والثانية قوله: ﴿**هو الذي جعلَ الشَّمسَ ضياءً والقمرَ نورًا وقدَّرهَ منازلَ لِتَعْلَمُوا عددَ السِّنينَ والحسابَ ما خلقَ اللهُ ذلك إلا بالحقِّ يفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمونَ**﴾ [يونس: ٥]. والثالثة قوله: ﴿**وجَعَلْنَا الليلَ والنهارَ آيتين فَمَحَوْنَا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهارِ مُبْصِرَةً لتبتَغُوا فضلاً من ربِّكُم ولتعْلَمُوا عدَدَ السنينَ والحسابَ وكلَّ شيءٍ فَصّلنَاه تَفْصَيلاً**﴾ [الإسراء: ١٢]. فلولا ما يحدثه الله ـ سبحانه ـ في آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه لم يعلم ميقات الحج، والصوم والعدد، ومدة الرضاع، مدة الحمل، ومدة الإجارة، ومدة آجال الحاملات.

فإن قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس، قيل: هذا وإن كان ممكنا إلا أنه يعسر ضبطه ولا يقف عليه إلا الأحاد من الناس، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس، وأقل اضطرابًا واختلافًا، ولا يحتاج إلى تكلف حساب، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه.

فالحكمة البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر، وأنفع، وأصلح، وأقل اختلافًا من تقديرها بسير الشمس. فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، في مصالح دينهم ودنياهم، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب، وكمال حكمته، وعلمه وتدبيره. فشهادة الحق

بتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها. فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين: بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير، ولا يمكن عدمها.

فإذا تأمل البصير القمر مثلاً، وافتقاره إلى محل يقوم به، وسيره دائبًا لا يفتر، مسيَّر، مسخر، مدبر، وهبوطه تارة، وارتفاعه تارة، وأفوله تارة، وظهوره تارة، وذهاب نوره شيئًا فشيئًا، ثم عوده إليه كذلك. وسبب ضوئه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف. علم قطعًا أنه مخلوق مربوب مسخر، تحت أمر خالق قاهر مسخر له. كما يشاء. وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلاً، وأن هذه الحركة فيه لابد أن تنتهي إلى الانقطاع والسكون. وأن هذا الضوء والنور لابد أن ينتهي إلى ضده. وأن هذا السلطان لابد أن ينتهي إلى العزل.

وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين، ويذهب بهما حيث شاء، ويرى المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التي عبدوها من دونه. كما يرى عباد الكواكب انتثارها، وعباد السماء انفطارها، وعباد الشمس تكويرها، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها في النار أحقر شيء وأذله وأصغره. كما أرى عباد العجل في الدنيا حاله ومبارد عباده تسحقه وتمحقه. والريح تمزقه وتذروه وتنسفه في اليم. وكما أرى الأصنام في الدنيا صورها مكسرة مخردلة ملقاة بالأمكنة القذرة، ومعاول الموحدين قد هشمت منها تلك الوجوه، وكسرت تلك الرءوس، وقطعت تلك الأيدي والأرجل، التي كانت لا يوصل إليها بغير التقبيل والاستلام. وهذه سنة الله التي لا تبدل، وعادته التي لا تحول: أنه يُرِي عابد غيره حال معبوده في الدنيا والآخرة، وإن كان المعبود غير راض بعبادة غيره ويريه تبريه منه، ومعاداته له أحوج ما يكون إليه: ﴿**ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة**﴾ [الأنفال: ٤٢]. ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها ـ لو تأملت خطها ـ ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ولو شاء ـ تعالى ـ لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير، وجعل التغيير في

الشمس. ولو شاء لغيرهما معًا، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة. ولكن يُري عباده آياته في أنواع تصاريفها ليدلهم على أنه الله الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين، الفعال لما يريد: ﴿ألا له الخلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤]. وأما تأثير القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنبات، وفي المياه، وجزر البحر ومده، وبحرانات الأمراض، وتنقلها من حال إلى حال، وغير ذلك من المنافع، فأمر ظاهر.

فصــل

وأما إقسامه ـ سبحانه ـ بـ ﴿واللَّيلِ إذ أدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] فلما في إدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود بالعيان، بينما الحيوان في سكون الليل قد هدأت حركاتهم، وسكنت أصواتهم، ونـامت عيونهم، وصـاروا إخـوان الأموات، إذ أقبل من النهار داعيه، وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات، وارتفعت منهم الأصوات، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور، يقول قائلهم «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»[1]. فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذي يبدىء ويعيد. فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهّار.

فمن تأمـل حال الليل إذا عسعس وأدبر، والصبح إذا تنفس وأسفر، فهزم جيوش الظلام بنفسه، وأضاء أفق العالم بقبسه، وفل كتائب الكواكب بعساكره، وأضحـك نواحي الأرض بتبـاشـيره وبشـائـره. فيالهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهـما، وكـمال ربـوبيتـه، وعظم قدرته وحكمته. فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيمًا لسلطان الليل والنهار. فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فكيف كان الناس يسعون في معاشهم؟ ويتصرفون في أمورهم؟ والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقـد لذة النور وروحه؟ وأي ثمار ونبات

---

(١) روى البخاري في صحيحه في باب وضع اليد تحت الخد اليمنى عن حذيفة قال: كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول: **«اللهم باسمك أموت وأحيا»** وإذا استيقظ قال: **«الحمد لله الذي أحيانا بعد ماأماتنا وإليه النشور»**.

وحيوان كان يوجد؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات؟ ولولا غروبها لم يكن للنـاس هدو ولا قرار، مع علم حاجتهم إلى الهدو لراحة أبدانهم وجموم حواسهم. فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ما هدأوا ولا قروا ولا سكنوا، بل جعله أحكم الحاكمين سكنًا ولباسًا، كما جعل النهار ضياءً ومعاشًا.

ولـولا الليل وبرده لاحترقت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليها، وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلهـا سراجًـا يطلع على العـالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت استغنائهم عنه. فطلوعه لمصلحتهم، وغيبته لمصلحتهم، وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه. فلو جعل الله سبحانه النهار سرمدًا إلى يوم القيامة، والليل سرمدًا إلى يوم القيامة لفاتت مصالح العالم، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده.

وتأمل حكمته ـ سبحانه ـ في ارتفاع الشمس، وانخفاضها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما في ذلك من مصالح الخلق. ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجـر والنبات، فيتولد منها مواد الثمار، ويكثف الهواء، فينشأ منه السحاب، وينعقد فيحدث المطر الذي به حياة الأرض ونماء أبدان الحيوان والنبات، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع. وفي الصيف يحرم الهواء، فينضج الثمار، وتشتد الحبوب، ويجفف وجه الأرض، فيتهيأ العمل. وفي الخريف يصفو الهواء، وتبرد الحرارة، ويمتد الليل، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين؛ ففي هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي.

والمقصود أن بحركة هذين النيرين تتم مصالح العالم، وبذلك يظهر الزمان، فإن الزمان مقدار الحركة. فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل إلى مثلهـا. والسنة القمرية مقدرة بسير القمر، وهو أقرب إلى الضبط. واشترك الناس في العلم به، وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما في منازلهما، لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير. فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا

تتعداه لما وصل ضوؤها وشعاعها إلى كثير من الجهات، فكان نفعها يفقد هناك فجعل الله ـ سبحانه ـ طلوعها دولاً بين الأرض لينال نفعها وتأثيرها البقاع، فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسطه من نفعها. واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة، ويأخذ كل منهما من صاحبه، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة.

فلو زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً أو أكثر لاختل نظام العالم وفسد أكثر الحيوان والنبات، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضًا وتعطلت المصالح، ولو استويا دائمًا لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان. فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم.

ولهذا يذكر ـ سبحانه ـ هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**وآيةٌ لهُمُ الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذا هُمْ مُّظلمون * والشمسُ تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيزِ العليم**﴾ [يس: ٣٧-٣٨]. وقال تعالى: ﴿**قُل أئنَّكُم لَتكفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرضَ في يومين وتجعلون له أندادًا ذلك ربُّ العالمين * وجعلَ فيها رواسِيَ من فوقِهَا وبَارَكَ فيها وقدَّر فيها أقواتَها في أربعةِ أيامٍ سواءٍ للسَّائلين * ثم استوى إلى السَّماءِ وهي دُخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعًا أو كَرْهًا قالتا أتينا طائِعِين * فقضاهُنَّ سَبْعَ سمواتٍ في يومين وأَوْحَى في كلِّ سماءٍ أَمْرَهَا وزيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بمصابيحَ وحِفْظاً ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ**﴾ [فصلت: ٩-١٢].

وقال تعالى: ﴿**فَالِقُ الإِصْبَاحِ وجَعَلَ الليلَ سَكَنًا والشَّمسَ والقمرَ حُسبانًا ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ**﴾ [الأنعام: ٩٦] فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية وما ينشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه، وأنه قدره بهاتين الصفتين. وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره، وعلمه بالمغيبات.

فصـــل

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة وهي : القمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السنة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته. فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه.

فصرف ـ سبحانه ـ الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها، وجعلها للفطر تارة، وللسمع تارة، وللمشاهدة تارة، فجعلها آفاقية، ونفسية، ومنقولة، ومعقولة، ومشهودة بالعيان، ومذكورة بالجنان. فأبى الظالمون إلا كفورا ﴿**واتخذوا من دونه آلهة لا يَخْلُقُونَ شيئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ولا يَمْلِكُونَ لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا يملكون مَوْتًا ولا حَيَاةً ولا نُشورًا**﴾ [الفرقان: ٣].

ولما أقام الحجة وبيّن المحجة ارتهن كل نفس بكسبها، وآخذها بذنبها، واستثنى من أولئك من قبل هداه واتبع رضاه، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين. وسلكوا غير سبيل المجرمين، الذين ليسوا من المصلين، ولا من مطعمي المسكين، وهم من أهل الخوض مع الخائضين، المكذبين بيوم الدين. فهذه أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم في جملة الهالكين: (الأولى): ترك الصلاة، وهي عمود الإخلاص للمعبود. (الثانية): ترك إطعام المسكين الذي هو من مراتب الإحسان للعبيد، فلا إخلاص للخالق ولا إحسان للمخلوق، كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ يراءون * ويَمْنَعُونَ المَاعُونَ**﴾ [الماعون: ٦، ٧]. وقال: ﴿**لا يأتون الصلاةَ إلا وَهُم كُسَالىٰ ولا يُنفِقُونَ إلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾ [التوبة: ٥٤]. وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله: ﴿**الذين**

يُقيمُونَ الصلاةَ ومِمّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]. وقال: **﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عن المضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفًا وَطَمَعًا ومما رَزَقْناهُم يُنْفِقُونَ﴾** [السجدة: ١٦].
وقرن ـ سبحانه ـ بين هذين الأصلين في غير موضع في كتابه: فأمر بهما تارة، وأثنى على فاعليهما تارة، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة، فإن مدار النجاة عليهما، ولا فلاح لمن أخل بهما.

الصفة الثالثة والرابعة: الخوض بالباطل والتكذيب بالحق، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق، واجتمع لأصحاب (اليمين) الإخلاص، والإحسان والتصديق بالحق، والتكلم به، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ويقينهم وكلامهم. واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركًا، وبالإحسان إساءة، وباليقين شكًّا وتكذيبًا، وبالكلام النافع خوضًا في الباطل. فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين، أي لم يكن لهم من شفيع فيهم، لأن الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأسًا، وجفلوا عن سماعها كما تجفل حمر الوحش من الأسد أو من الرماة.

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره، وإقامة الحجة عليهم بإثبات المشيئة لهم، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية، وأن ذلك إليه لا إليهم، فالأول عدله، والثاني فضله، فالأول يوجب السعي والطلب والحرص على ما ينجيهم، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم، بل أشد. والثاني يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم. والله المستعان وعليه التكلان.

فصــل(١)

لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة؛ فإن قام لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه، فقد أدى شكر نعمته عليه فيه، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطّل أمر الله ونهيه فيه، عطله الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته، ولـه عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقر به منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت، تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة، تأخر، فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر، ولا وقوف في الطريق البتة. قال تعالى: ﴿**لمن شاء منكم أن يتقدَّمَ أو يتأخَّرَ**﴾ [المدثر: ٣٧].

(٢)**والقصد**: أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفـظه مترق على درجـات الكمال. فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص. فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولابد. فالعبد سائر لا واقف. فإما إلى فوق. وإما إلى أسفل. إما إلى أمام وإما إلى وراء. وليس في الطبيعة، ولا في الشريعة وقوف البتة. ماهو إلا مراحل تطوى أسرع طَيٍّ إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطىء. ومتقدم ومتأخر. وليس في الطريق واقف البتة. وإنما يتخالفون في جهة المسير. وفي السرعة والبطء: ﴿**إنَّها لإحدى الكُبَر * نَذِيرًا للبشرِ * لمن شاءَ مِنْكُم أن يَتَقَـدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ**﴾ [المدثر: ٣٥-٣٧] ولم يذكر واقفًا. إذ لا منزل بين الجنة والنار. ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة. فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة، فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل مجد في طلب شيء لابد أن يعرض له وقفة وفتور. ثم ينهض إلى طلبه، قلت: لابد من ذلك. ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجِمَّ نفسه، ويعدها للسير. فهذا وقفته سير. ولا تضره الوقفة. فإن «لكل عمل شِرَّة، ولكل شرة فترة».

---

(١) ١٩٢ فوائد.	(٢) ٢٦٧ مدارج جـ١.

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه، وجاذب جذبه من خلفه. فإن أجابه أخَّره ولابد. فإن تداركه الله برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع. ووثب وجمز واشتد سعيًا ليلحق الركب. وإن استمر مع داعي التأخر، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دَرَكًا. وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض. فإنها أخطر منه وأصعب.

وبالجملة: فإن تدارك الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه، وتخليصه. وإلا فهو في تأخر إلى الممات. راجع القهقرى، ناكص على عقيبه، أو مول ظهره. ولا قوة إلا بالله. والمعصوم من عصمه الله.

(١)**الدليل** الثاني قوله تعالى: **﴿كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رهينةٌ إلاّ أصحابَ اليمين * في جنَّاتٍ يتساءلون * عن الْمجْرمينَ ماسَلَكَكُم في سَقرَ * قالوا لم نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * ولم نَكُ نُطْعِمُ المِسكِينَ * وكُنَّا نخُوضُ مَعَ الخائِضِين * وكُنَّا نُكذِّبُ بيوم الدِّينِ * حتّى أتانا اليَقِينُ﴾** [المدثر: ٣٨ـ٤٧] فلا يخلو إما أن يكون كل واحد من هذه الخصال هو الذي سلكهم في سقر وجعلهم من المجرمين أو مجموعها. فإن كان كل واحد منها مستقلاً بذلك فالدلالة ظاهرة، وإن كان مجموع الأمور الأربعة فهذا إنما هو لتغليظ كفرهم وعقوبتهم، وإلا فكل واحد منها مقتضٍ للعقوبة، إذ لا يجوز أن يضم مالا تأثير له في العقوبة إلى ما هو مستقل بها.

ومن المعلوم أن ترك الصلاة وما ذكر معه ليس شرطًا في العقوبة على التكذيب بيوم الدين، بل هو وحده كاف في العقوبة. فدل على أن كل وصف ذكر معه كذلك، إذ لا يمكن قائلاً أن يقول: لا يعذب إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة، فإذا كان كل واحد منها موجبًا للإجرام ـ وقد جعل الله سبحانه المجرمين ضد المسلمين ـ كان تارك الصلاة من المجرمين السالكين في سقر.

وقد قال: **﴿إنَّ المُجرِمينَ في ضَلَالٍ وسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ في النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِم ذُوقُوا مسَّ سَقَرَ﴾** [القمر: ٤٧ـ٤٨]. وقال تعالى: **﴿إنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانوا**

---

(١) ١٦ الصلاة.

من **الَّذِينَ آمنوا يَضْحَكُونَ﴾** [المطففين: ٢٩]. فجعل المجرمين ضد المؤمنين المسلمين.

(١)**ونظير** هذا قول أهل النار لأهل الجنة وقد سألوهم كيف دخلوها؟ **﴿قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الـدين﴾** فذكروا الأصلين الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين. وإيثـار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات وإطعام ذوي الحاجات فهذان الأصلان هما ما هما، والله ولي التوفيق.

(٢)**قوله** ـ تعالى ـ في تشبيه مَن أعرض عن كلامه وتدبُّره: **﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾** [المدثر: ٤٩، ٥١] شبههم في إعراضهم ونُفورهم عن القرآن بحُمر رأت الأسد أو الرُّماة ففرَّت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحُمر، وهي لا تعقل شيئًا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عن ما يهلكها ويعقرها، وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضًا وحَضَّه على النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدرًا زائدًا على الفعل المجرد فكأنها تواصَت بالنفور، وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى أن القسْوَرة استنفرها وحملها على النفور ببأسه وشدته.

---

(١) ٤١ مفتاح جـ١.	(٢) ١٦٤ أعلام جـ١.

سورة القيمة

ترتيبها ٧٥ — آياتها ٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) **قوله**: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامةِ * ولا أُقْسِمُ بالنَّفسِ اللوامةِ﴾ [القيامة: ١، ٢] فقد تضمن الإقسام ثبوت الجزاء، ومستحق الجزاء، وذلك يتضمن إثبات الرسالة، والقرآن، والمعاد. وهو ـ سبحانه ـ يقسم على هذه الأمور الثلاثة، ويقررها أبلغ التقرير، لحاجة النفوس إلى معرفتها، والإيمان بها. وأمر رسوله أن يقسم عليها، كما قال تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لَحَقٌّ﴾ **وقال** تعالى: ﴿وقال الذين كَفَرُوا لا تأتينا الساعةُ قُلْ بَلى وربي لتأتِيَنَّكُم﴾ [سبأ: ٣]. وقال تعالى: ﴿زعم الذين كفروا إن لن يُبْعَثُوا قُلْ بَلىَ وَرَبِّي لتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بما عملتم وذلك عَلَى اللهِ يسيرٌ﴾ [التغابن: ٧]. فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها، يأمر نبيه ﷺ أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد.

فأقسم سبحانه لعباده، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه، فأبىٰ الظالمون إلا جحودًا وتكذيبًا.

واختلف في النفس المقسم بها ههنا، هل هي خاصة أو عامة؟ على قولين، بناء على الأقوال الثلاثة في اللوامة. فقال ابن عباس: كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانًا. ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته، واختاره الفراء. قال: ليس من نفس، برة ولا فاجرة، إلا وهي تلوم نفسها. إن كانت عملت خيرًا قالت: هلا ازددت خيرًا؟ وإن كانت عملت سوءًا قالت: يا ليتني لم أفعل.

والقول الثاني، أنها خاصة، قال الحسن: هي النفس المؤمنة، وأن المؤمن ـ والله ـ لا تراه إلا يلوم نفسه على كل حالة، لأنه يستقصرها في كل ما تفعل، فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر يمضي قدمًا، لا يعاتب نفسه.

---

(١) ١٠ التبيان.

والقول الثالث: أنها النفس الكافرة وحدها، قاله قتادة ومقاتل. وهي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله.

قال شيخنا(١): والأظهر أن المراد نفس الإنسان مطلقًا. فإن نفس كل إنسان لوامة، كما أقسم بجنس النفس في قوله: ﴿**ونَفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها**﴾ [الشمس: ٧، ٨] فإنه لابد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمره. ثم هذا اللوم قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا، كما قال تعالى: ﴿**فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا يا ويلنا إنا كنَّا طاغين**﴾ [القلم: ٣٠، ٣١]. وقال تعالى: ﴿**يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**﴾ [المائدة: ٥٤]. فهذا اللوم غير محمود. وفي الصحيحين في قصة احتجاج آدم وموسى «أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن أخلق؟» فحج آدم موسى فهو ـ سبحانه ـ يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله: ﴿**إن الإنسان لربه لكنود**﴾ [العاديات: ٦]. وعلى جزائها كقوله: ﴿**فوربك لنسألنهم أجمعين**﴾ [الحجر: ٩٢]. وعلى تباين عملها كقوله: ﴿**إن سعيكم لشتى**﴾ [الليل: ٤]. وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك.

وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة ومحل الكسب، وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر، ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويلهمها إياه فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه. ولأنها متلومة مترددة، لا تثبت على حال واحدة، فهي محتاجة إلى من يعرفها ماهو أنفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره، وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لومًا بحق، قد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه، ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن، وأنها لا غنى لها عن ذلك، ولا صلاح، ولا فلاح

---

(١) أي شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ.

بدونه البتة، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر.

(١)**قال** ابن عبدالبر: هذا الحديث أصل عظيم لأهل الحق في إثبات القدر، وأن الله قضى أعمال العباد، فكل أحد يصير لما قدر له مما سبق في علم الله، وليس فيه حجة للجبرية وإن كان في بادىء الرأي يساعدهم، وقال القرطبي: إنما غلبه بالحجة، لأنه علم من التوراة أن الله تاب عليه. فكان لومه على ذلك نوع جفاء، قال الحافظ: وقد أنكر القدرية الحديث، لأنه صريح في إثبات القدر السابق وتقرير النبي ﷺ لآدم على الاحتجاج به وشهادته بأنه غلب موسى، وقد أطال الحافظ في الجواب على ذلك من وجوه عدة: منها ما قال ابن عبدالبر: هذا مخصوص بآدم، لأن المناظرة وقعت بينهما بعد أن تاب الله عليه، قال ـ تعالى ـ: ﴿**فتلقَّى آدمُ من رَّبِّـه كلماتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾ [البقرة: ٣٧] فحسن منه أن ينكر على موسى لومه، وإلا فلا يجوز لأحد أن يقول لمن لامه على ارتكاب المعصية: هذا سبق في علم الله وقدره قبل أن يخلقني، فإن الأمة اجتمعت على لوم من وقعت منه المعصية.

(٢) **قوله** ـ تعالى ـ: ﴿**لا أقسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ**﴾ [القيامة: ١، ٢]. وقد تقدم ذكر هذين القسمين ومناسبة الجمع بينهما في الذكر، وكون الجواب غير مذكور، وأنه يجوز أن يكون مما حذف لدلالة السياق عليه والعلم به، ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم به، وكونه آية، ولم يقصد به مقسماً عليه معيناً. فكأنه يقول: اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسماً بها لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا.

(٣) **وقع** في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿**ياأيتُها النفس المطمئنة**﴾ [الفجر: ٢٧] وبقوله تعالى: ﴿**لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللّوامة**﴾

(١)   (٢) ٩٢ التبيان.   (٣) ٢٦٧ الروح.

[القيامة: ١-٢]وبقوله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ [يوسف: ٥٣]. والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه . . .

(١)**أما** اللوامة فاختلف في اشتقاق هذه اللفظة، هل هي من التلوم، وهو التلون والتردد، أو هي من اللوم؟ وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين. قال سعيد بن جبير: «قلت لابن عباس: ما اللوامة؟ قال: هي النفس اللؤوم». وقال مجاهد: «هي التي تُندِّم على ما فات وتلوم عليه». وقال قتادة: «هي الفاجرة» وقال عكرمة: «تلوم على الخير والشر» وقال عطاء عن ابن عباس: «كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانًا، وتلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته». وقال الحسن: «إن المؤمن ـ والله ـ ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليَمْضِي قُدُمًا لا يعاتب نفسه». . . فهذا عبارات من ذهب إلى أنها من اللوم.

وأما من جعلها من التلوم فلكثرة ترددها وتلومها، وأنها لا تستقر على حال واحدة. والأول أظهر؛ فإن هذا المعنى لو أريد لقيل: المتلومة. كما يقال: المتلونة والمترددة. ولكن هو من لوازم القول الأول، فإنها لتلومها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه. فالتلوّم من لوازم اللوم.

والنفس قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا. والحكم للغالب عليها من أحوالها، فكونها مطمئنة وصف مدح لها. وكونها أمّارة بالسوء وصف ذم لها. وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه.

والمقصود: ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمارة عليه. وله علاجان: محاسبتها، ومخالفتها، وهلاك القلب من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها

---

(١) ٧٧إغاثة جـ١

واتباع هواها، وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمَنَّى على الله**» دان نفسه: أي حاسبها.

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيّنوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية».

وذكر أيضًا عن الحسن قال: لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه: وماذا أردت تعملين؟ وماذا أردت تأكلين؟ وماذا أردت تشربين، والفاجر يمضي قُدُماً لا يحاسب نفسه».

فصل(١)

وأما النفس اللوامة وهي التي أقسم بها ـ سبحانه ـ في قوله: ﴿**ولا أقسِم بالنَّفس اللَّوامة**﴾ [القيامة: ٢]. فاختلف فيها فقالت طائفة: هي التي لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظة من التلوم، وهو التردد، فهي كثيرة التقلب والتلون، وهي من أعظم آيات الله، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب، وتتلون في الساعة الواحدة فضلاً عن اليوم والشهر والعام، والعمر ألوانًا متلونة، فتذكر، وتغفل، وتقبل، وتعرض، وتلطف، وتكشف، وتنيب، وتجفو، وتحب، وتبغض، وتفرح، وتحزن، وترضى، وتغضب، وتطيع، وتعصي، وتتقي، وتفجر، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها فهي تتلون كل وقت ألوانًا كثيرة فهذا قول.

وقالت طائفة اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا، فقالت فرقة: هي نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المجردة، قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا يقول: ماأردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى، أو نحو هذا من الكلام.

---

(١) ٢٧٤ الروح.

وقال غيره: هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه على ذنب، بل يلومها وتلومه على فواته. وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين فإن كل أحد يلوم نفسه برًّا كان أو فاجرًا فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

وقالت فرقة أخرى هذا اللوم يوم القيامة، فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئًا على إساءته وإن كان محسنًا على تقصيره.

وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافي بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة. لكن اللوامة نوعان: لوامة ملومة وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته، ولوامة غير ملومة وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله واحتملت ملام اللائمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم. فهذه قد تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللوام، فهي التي يلومها الله عز وجل(١).

(٢)**ثم** أنكر على الإنسان بعد هذه الآية حسبانه وظنه: أن الله لا يجمع عظامه بعد مافرقها البلى. ثم أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه. وعلى هذا فيكون ـ سبحانه ـ قد احتج على فعله لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه. وأخبر عن فعله بأنه لا يلزمهم من القدرة وقوع المقدور. والمعنى: بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه. ودل على هذا المعنى المحذوف قوله (بلى) فإنها حرف إيجاب لما تقدم من النفي. فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه. فدلت الآية على الفعل، وذكرت القدرة لإبطال قول المكذبين.

وفي ذكر البنان لطيفة أخرى، وهي أنها أطرافه، وآخر ما يتم به خلقه. فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه، مع دقتها وصغرها ولطافتها، فهو على ما دون ذلك أقدر، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل: إنا

---

(١) تقدم البحث في سورة يوسف في الكلام على النفس الأمارة (ج).　　(٢) ٩٣ التبيان.

نجمع ونسوي أكثرها تفرقًا، وأدقها أجزاء، وآخر أطراف البدن، وهي عظام الأنامل ومفاصلها.

وقالت طائفة: المعنى قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير، وحافر الحمار لا نفرق بينهما، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئًا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتي لما يريد من الحوائج. وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين. والمعنى على هذا القول: إنا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها.

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول، وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التي فرقها. ولم يجمعها، والأول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها، وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه، فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو اذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده، ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سبق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت. ويرجح القول الثاني ـ ولعله قول جمهور المفسرين، حتى أن فيهم من لم يذكر غيره ـ وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد. وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة، وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف، ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها. ففي هذا أعظم الأدلة عى قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور، وأنه لا يرعوي ولا يخاف يومًا يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيًّا، بل هو مريد للفجور ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده. وهذا ضد الذي يخاف الله والدار الآخرة فهذا لا يندم على ما مضى منه ولا يقلع في الحال، ولا

يعزم في المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار، وهذا ضد التائب المنيب.

ثم نبه ـ سبحانه ـ على الحامل له على ذلك، وهو استبعاده ليوم القيامة وليس هذا استبعـادًا لزمته مع إقراره بوقوعه، بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه في موضع آخر قوله: ﴿**ذلك رجعٌ بعيد**﴾ [ق: ٣] أي بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه. هذا قول جماعة من المفسرين، منهم ابن عباس وأصحابه. قال ابن عبـاس: يقـدم الـذنب ويؤخـر التـوبـة. وقـال قتادة، وعكرمة: قدما قدما في معاصي الله، لا ينزع عن فجوره.

وفي الآية قول آخـر، وهو أن المعنى بل يريد الإنسان ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامـة. وهـذا قول ابن زيد، واختيار ابن قتيبة وأبي إسحاق قال هؤلاء: ودليل ذلك قوله: ﴿**يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [القيامة: ٦] ويرجع هذا القول لفظة (بل) فإنها تعطي أن الإنسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة، بل هو مريد التكذيب به، ويرجحه أيضًا أن السياق كله في ذم المكذب بيوم القيامة لا في ذم العاصي والفاجر، وأيضًا فإن ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد. فإنه قال: ﴿**أيحسبُ الإنسانُ أن لن نجمعَ عِظَامَه بلىٰ قَادِرِين على أن نُسوِّيَ بَنَانَه**﴾. فأنكر ـ سبحانه ـ عليه حسبانه أن الله لا يجمع عظامه. ثم قرر قدرته على ذلك. ثم أنكر عليه إرادة التكذيب بيوم القيامة. فالأول حسبان منه لا يحييه بعد موته، والثاني تكذيب منه بيوم البعث وأنه يريد أن يكذب بما وضح وبان دليل وقوعه وثبوته فهو مريد للتكذيب به.

ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال: ﴿**يسأل أيَّانَ يومَ القيامةِ**﴾ [القيامة: ٦]. فالأول إرادة التكـذيب، والثاني نطق بالتكذيب وتكلم به. وهذا قول قوي كما ترى. لكن ينبغي إفراغ هذه الألفاظ في قوالب هذا المعنى. فإن لفظة (يفجر) إنما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب وحذف الموصول مع ماجره وإبقاء الصلة خلاف الأصل. فإن أصحاب هذا القول قالوا تقديره ليكفر بما أمامه. وهذا المعنى صحيح لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبينة.

فالجواب أن الأمر كذلك لكن الفعل إذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم إعطاؤه حكمه من جميع الوجوه، بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلاً، وما يضمنه معنى فعل آخر ويجري على المضمن أحكامه لفظًا وأحكام الفعل الآخر معنى، فيكون في قوة ذكر الفعلين مع غاية الاختصار. ومن تدبر هذا وجده كثيرًا في كلام الله تعالى.

فلفظ (يفجر) اقتضت (أمامه) بلا واسطة حرف ولا اسم موصول، فأعطيت ما اقتضته لفظًا واقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول، فأعطيته معنى. فهذا وجه هذا القول لفظًا ومعنى. والله أعلم.

ثم أخبر سبحانه عن حال هذا الإنسان إذا شاهد اليوم الذي كذب به، فقال: **﴿فإذا بَرِقَ البصرُ وخَسَفَ القمرُ وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ يقولُ الإنسانُ يومئذ أينَ المفرُّ﴾** [القيامة: ٧-١٠] فبرق بصره أي يشخص بها يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها، وخسف القمر ذهب ضوؤه وانمحى، وجمع الشمس والقمر، ولم يجتمعا قبل ذلك، بل يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعد ما فرقها البلى ومزقها، ويجمع للإنسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وأخره من خير أو شر. ويجمع ذلك من جمع القرآن في صدر رسوله. ويجمع المؤمنين في دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر إليه، ويجمع المكذبين في دار الهوان، وهو قادر على ذلك كله، كما جمع خلق الإنسان من نطفة من مني يمنى، ثم جعله علقة مجتمعة الأجزاء بعد ما كانت نطفة متفرقة في جميع بدن الإنسان، وكما يجمع بين الإنسان وملك الموت، ويجمع بين الساق والساق: إما ساق الميت أو ساق من يجهز بدنه من البشر، ومن يجهز روحه من الملائكة، أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة. فكيف (أنكر) هذا الإنسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه، وأن يجمع مع بني جنسه ليوم الجمع، وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه، وعبوديته فلا يترك سدى مهملاً معطلاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب فلا يجمع عليه ذلك.

فما أجمع هذه السورة لمعان الجمع، والضم. وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين. وبالنفس اللوامة التي اجتمع فيها

همومهـا وغمومها، وإرادتها، واعتقاداتها. وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد، والقيامة الصغـرى، والكـبرى، وأحـوال النـاس في المعاد، وانقسام وجوههم إلى ناظرة منعمة، وباسرة معذبة. وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ينتقل من مكان إلى مكان. فتجمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراق، ويقول الحاضرون: ﴿**من راقٍ؟**﴾ [القيامة: ٢٧]. أي من يرقى من هذه العلة التي أعيت على الحاضرين، أي التمسوا له من يرقيه. والرقية آخر الطب.

وقيل: من يرقى بها ويصعد، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى الأول تكون من رقى يرقي: كرمى يرمي. وعى الثاني من رقي يرقى: كشقي يشقى. ومصدره الرقاء ومصدر الأول الرقية. والقول الأول أظهر لوجوه (أحدها) أنه ليس كل ميت يقول حاضروه. من يرقى بروحه وهذا إنما يقوله من يؤمن برقي الملائكة بروح الميت، وأنهم ملائكـة رحمة، وملائكة عذاب بخلاف التماس الرقية وهي الدعاء فإنه قل ما يخلو منه المحتضر. (الثاني) أن الروح إنما يرقى بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال من يرقى بها. وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها إلى الله. (الثالث) أن فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع، وأما الراقي إلى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه، و(من) إنما يسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه. (الرابع) أن مثل هذا السؤال إنما يراد به تحضيض وإثارة اهتمام إلى فعل يقع بعد (من) نحو قوله: ﴿**مَن ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا**﴾ [البقرة: ٢٤٥]. أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها كقوله: ﴿**مَن ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفعل الراقي إلى الله لا يحسن فيه واحد من الأمرين هنا بخلاف فاعل الرقية، فإنه يحسن فيه الأول. (الخامس) أن هذا خرج على عادة العـرب وغـيرهم في طلب الـرقية لمن وصل إلى مثل تلك الحال، فحكى الله ـ سبحانه ـ ما جرت عادتهم بقوله وحذف فاعل القول، لأنه ليس الغرض متعلقًا بالقائل بل بالقول، ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا من يرقى بروحه، فكان حمل الكـلام على ما ألف وجـرت العـادة بقوله أولى، إذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه

ويسمعونه. (السادس) أنه لو أريد هذا المعنى لكان وجه الكلام أن يقال: من هو الراقي، ومن الراقي؟ ولا وجه للكلام غير ذلك، كما يقال: من هو القائل منكما كذا وكذا؟ وفي الحديث «من القائل كلمة كذا». (السابع) أن كلمة من إنما يسأل بها عن التعيين كما يقول: من الذي فعل كذا، ومن ذا الذي قاله. فيعلم أن فاعلا وقائلاً فعل وقال، ولا يعلم تعيينه، فيسأل عن تعيينه بمن تارة وبأي تارة وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقي بالروح إلى الله.

فإن قيل: بل علموا أن ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه، ولم يعلموا تعيينه فيسأل عن تعيين أحدهما. قيل: هم يعلمون أن تعيينه غير ممكن، فكيف يسألون عن تعيين مالا سبيل للسامع إلى تعيينه. ولا إلى العلم به. (الثامن) أن الآية إنما سيقت لبيان يأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه وتحقق أسباب الموت، وأنه قد حضر ولم يبق شيء ينجع فيه ولا مخلص منه، بل هو قد ظن أنه مفارق لا محالة. فالحاضرون قد علموا أنه لم يبق لأسباب الحياة المعتادة تأثير في بقائه، فطلبوا أسبابًا خارجة عن المقدرو تستجلب بالرقى والدعوات، فقالوا: من راق؟ أي من يرقى هذا العليل من أسباب الهلاك. والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدي الدواء. (التاسع) أن مثل هذا إنما يراد به النفي والاستبعاد، وهو أحد التقديرين في الآية، أي لا أحد يرقى من هذه العلة بعد ما وصل صاحبها إلى هذه الحال. فهو استبعاد لنفي الرقية لا طلب لوجودالراقي، كقوله: ﴿**قال من يحيي العظام وهي رميم**﴾ [يسٓ: ٧٨] أي لا أحد يحييها، وقد صارت إلى هذه الحال. فإن أريد بها هذا المعنى استحال أن يكون من الرقى، وإن أريد بها الطلب استحال أيضًا أن يكون منه. وقد بينا أنها في مثل هذا إنما تستعمل للطلب أو للإنكار. وحينئذ فتقول في (الوجه العاشر) إنها إما أن يراد بها الطلب أو الاستبعاد، والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين، ولا سبيل إلى حمل واحد من هذه المعاني على الرقي لما بيناه. والله أعلم.

(١)**وفي** الصحيحين من حديث أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**جنَّتان من ذهب آنيتها وحِليتهما وما فيهما، وجنَّتان من فِضة آنيتهما وحِليتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلَّا رِداء الكِبرياء على وجهه في جنَّة عدنٍ**». وذكر عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا أبو الربيع، حدَّثنا جرير بن عبدالحميد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبدالله بن الحارث، عن كعب قال: ما نظر الله إلى الجنة إلا قال: طيبي لأهلك فزات طيبًا على ما كانت، وما من يوم ٍ كان عيدًا في الدُّنيا إلا يخرجون في مقداره إلى رياض الجنة، ويبرز لهم الربُّ تبارك وتعالى وينظرون إليه، وتسفي عليهم الريح بالطيب والمسك فلا يسألون ربهم - تبارك وتعالى - شيئًا إلا أعطاهم، فيرجعوه إلى أهلهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضِعفًا. وقال عبد بن حُميد: أخبرني شبابة عن إسرائيل، حدثنا ثوير بن أبي فاختة سمعت ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر [إلى] خدمه ونعيمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية**» ثم تلا هذه الآية: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] رواه الترمذي في جامعه عنه.

وذكر عثمان بن سعيد الدَّارمي، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - رفعه [إلى] النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنَّة إذا بلغ منهم النَّعيم كل مبلغ وظنوا أن لا نعيم أفضل منه تجلَّى لهم الرَّبُّ - تبارك وتعالى - فنظروا إلى وجه الرَّحمن فنسوا كل نعيم عاينوه حين نظروا إلى وجه الرَّحمن**». وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. قال: حسَّنها الله - تعالى - بالنظر إليه - سبحانه - وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى ربها - عز وجل -: قال أبو سليمان الدَّاراني: لو لم يكن لأهل المحبة أو قال المعرفة إلا هذه الآية: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] لاكتفوا بها (٢).

---

(١) ٤٥٢ روضة المحبين.

(٢) ذكر المؤلف - رحمه الله - آثارًا كثيرة في هذا الكتاب وغيره اكتفينا بما ذكرناه اختصاراً (ج).

[(١)]**ومن** أسرار هذه السورة أنه ـ سبحانه ـ جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن: فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر إليه. فلا أجمل لبواطنهم. ولا أنعم، ولا أحلى من النظر إليه، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه، وهي إشراقه، وتحسينه، وبهجته، وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿**ولقَّاهم نضرة وسرورا**﴾ [الإنسان: ١١].

ونظيره قوله: ﴿**يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سوآتكم وريشا**﴾ [الأعراف: ٢٦] هذا جمال الظاهر وزينته ثم قال: ﴿**ولباس التقوى ذلك خير**﴾ فهذا جمال الباطن. ونظيره قوله: ﴿**إنّا زينا السماء الدُّنيا بزينة الكواكب**﴾ فهذا جمال ظاهرها، ثم قال: ﴿**وحفظًا من كل شيطان مارد**﴾ [الصافات: ٦، ٧] فهذا جمال باطنها.

ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعد أن قالت ليوسف ﴿**اخرُجْ عليهنَّ فلمَّا رأينَهُ أكْبَرَنْه وقطَّعن أيديهنَّ وقُلْنَ حاشَ لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملكٌ كريمٌ قالتْ فذلكُنَّ الذي لُمتُنَني فيه وَلَقَدْ راودتُّهُ عن نَّفْسِهِ فاستَعْصَمَ**﴾ [يوسف: ٣٠-٣١]. فذكرها لهذا هو من تمام وصفها لمحاسنه، وأنه في غاية المحاسن ظاهرًا وباطنًا، وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه قوله: ﴿**إنَّ لكَ أن لَا تجوعَ فيها ولا تَعْرَىٰ وأنك لا تظمأُ فِيهَا ولَا تَضْحَىٰ**﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] فقابل بين الجوع والعري، لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر. وقابل بين الظمأ، وهو حر الباطن، والضحى، وهو حر الظاهر بالبروز للشمس وقريب من هذا قوله: ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾ [البقرة: ١٩٧] في ذكر الزاد الظاهر الحسي والزاد الباطن العنوي. فهذا زاد سفر الدنيا. وهذا زاد سفر الآخرة. ويلم به قوله هود: ﴿**يا قوم استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه يرسِلِ السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوة إلى قوتِكم**﴾ [هود: ٥٢]. فالأول القوة الظاهرة المنفصلة عنهم والثاني الباطنة المتصلة بهم. ويشبهه قوله: ﴿**فما له من قوة ولا ناصر**﴾ [الطارق: ١٠] فنفى عنهم الدافعين: الدافع من أنفسهم والدافع من خارج، وهو الناصر.

---

(١) ٩٨ التبيان.

ومن أسرارهـا أنها تضمنت إثبات قدرة الرب على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله، وهـذا على أحـد القـولين في قوله: ﴿**بلى قادرين على أن نسوي بنانه**﴾ [القيامة: ٤] فأخبر أنه قادر عليه، ولم يفعله ولم يرده، وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿**وأنزلنا من السماءِ ماءً بقدرٍ فأسكنّاه في الأرضِ وإنَّا على ذهاب به لقَادِرُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٨] وهذا أيضًا على أحد القولين، أي تغور العيون في الأرض فلا يقدر على الماء قال ابن عباس: يريد أن سيغيض فيذهب. فلا يكون من هذا الباب، بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله.

وأصرح من هذين الموضعين قوله ـ تعالى ـ: ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم**﴾ [الأنعام: ٦٥] وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: «**أعوذ بوجهك**» ولكن قد ثبت عنه ﷺ أنه لابد أن يقع في أمته خسف، ولكن لا يكون عامًّا، وهذا عذاب من تحت الأرجل. وروي أنه كان في الأمة قذف أيضًا. وهذا عذاب من فوق، فيكون هذا من باب الأخبار بقدرته على ما سيفعله، وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال، فهو من القدرة على مالا يريده، وقد صرح ـ سبحانه ـ بأنه لو شاء لفعل مالم يفعله في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا**﴾ [يونس: ٩٩] وقوله: ﴿**ولو شئنا لآتينا كُلَّ نفسٍ هُدَاهَا**﴾ [السجدة: ١٣] ونظائره. وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة، وبه تبين فساد قول من قال: إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبله، وأن الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة، فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقًا خطأ. والله أعلم.

ومن أسرارها أنها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته، ثم يقرأه بعد فراغه عليه. فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه. أو يسأل عما أشكل عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر الله ـ تعالى ـ هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه هذا أحدها، والثاني قوله: ﴿**وكذلك أنزلناه قُرءانًا عربيًّا وصرَّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذِكرًا * فتعالىٰ اللهُ الملكُ الحقُّ ولا تعجلْ بالقرآنِ من قبلِ أن يُقْضَىٰ إليك وحيُهُ وقل رب زدني علمًا**﴾ [طه: ١١٣، ١١٤]. والثالث قوله: ﴿**سنُقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله**﴾ [الأعلى: ٦، ٧] فضمن لرسوله أن لا ينسى ما أقرأه إياه. وهذا يتناول القراءة وما بعدها.

وقد ذم الله سبحانه في هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة، وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وإيثاره ما يبقى، ورتب كل ذم ووعيد في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة، فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة، وإثاره لها، واستعجاله بنصيبه، وتمتعه به قبل أوانه، ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون. وكذلك تكذيبه وتوليه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة، والرب ـ سبحانه ـ وصف نفسه بضد ذلك، فلم يعجل على عبده، بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي، وأيقن بالموت، وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولي، والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله، ويحدث له الذكر شيئًا بعد شيء، ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال، وينبهه على مبدئه: من كونه نطفة من مني يمنى، ثم علقة، ثم خلقا سويًّا، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ولا بالعقوبة إذ كذب خبره، وعصى أمره. بل كن خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناة ولهذا ذم الإنسان بالعجلة بقوله: ﴿**وكان الإنسانُ عَجُولاً**﴾ [الإسراء: ١١] وقال: ﴿**خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلٍ سَأُورِيكُم آياتي فلا تَسْتَعْجِلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٧].

ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل. وهذا أحد القولين، لأصحابنا وغيرهم، وهو الصواب، فإن الله ـ سبحانه ـ أنكر على من حسب أنه يترك سدى: فلا يؤمر، ولا ينهى، ولايثاب، ولا يعاقب. ولم ينف ـ سبحانه ـ ذلك بطريق الخبر المجرد، بل نفاه نفي مالا يليق نسبته إليه، ونفى منكر على من حكم

به وظنه. ثم استدل ـ سبحانه ـ على فساد ذلك، وبين أن خلقه الإنسان في هذه الأطوار، وتنقله فيها طورًا بعد طور حتى بلغ نهايته، يأبى أن يتركه سدى، فإنه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العبث والعيب والنقص.

وهذه طريقة القرآن في غير موضع كما قال تعالى: ﴿**أفحسبتم إنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا تُرْجَعُونَ فتعالى اللهُ الملكُ الحقُّ لا إله إلا هو ربُّ العرشِ الكريمِ**﴾ [المؤمنون: ١١٦] فجعل كمال ملكه، وكونه ـ سبحانه ـ الحق، وكونه لا إله إلا هو، وكونه رب العرش المستلزم لربوبيته لكل ما دونه، مبطلًا لذلك الظن الباطل، والحكم للكاذب، وإنكار هذا الحسبان عليهم مثل إنكاره عليهم حسبانهم أنه لا يسمع سرهم ونجواهم، وحسبان أنه لا يراهم ولا يقدر عليهم، وحسبان أنه يسوي بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم، وغير ذلك مما هو منزه عنه تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص، وأن نسبة ذلك كنسبة ما يتعالى عنه مما لا يليق: من اتخاذ الولد، والشريك، ونحو ذلك، مما ينكره ـ سبحانه ـ على من حسبه أشد الإنكار. فدل على أن ذلك قبيح ممتنع نسبته إليه، كما يمتنع أن ينسب إليه سائر ما ينافي كماله المقدس.

ولو كان نفي تركه سدى إنما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك: ﴿**أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً**﴾ [القيامة: ٣٧] إلى آخره، مما يدل أن تعطيل أسمائه وصفاته ممتنع، وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها، فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وكذلك يستلزم إرسال رسله وإنزال كتبه، وبعث العباد ليوم يجزى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه ولم يثبت له الملك الحق، ولذلك كان منكر ذلك كافرًا بربه، وإن زعم أنه يقر بصانع العالم، فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال، والمستحق لنعوت الكمال. كما أن المعطل لكلامه وعلوه على خلقه لم يؤمن به سبحانه، فإنه آمن برب لا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يصعد إليه قول، ولا عمل، ولا ينزل من عنده ملك، ولا أمر، ولا نهي، ولا ترفع إليه الأيدي. ومعلوم أن هذا الذي آمن به رب مقدر في ذهنه، ليس هو رب العالمين وإله المرسلين.

وكذلك إذا اعتبرت اسمه الحي وجدته مقتضيًا لصفات كماله من علمه، وسمعه وبصره، وقدرته، وإرادته، ورحمته، وفعله ما يشاء. واسمه القيوم مقتض لتدبير أمر العالم العلوي والسفلي، وقيامه بمصالحه. وحفظه له، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحي القيوم، وإن أقر بذلك ألحد في أسمائه، وعطل حقائقها، حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها، وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القيامة
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**الخامس** والثلاثون أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه، وهذا شأنه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في كل من خانه في أمر من الأمور، فإنه يفسده عليه. وقال المعتصم يوماً لبعض أصحابه: يافلان إذا نُصر الهوىٰ ذهب الرأي. وسمعت رجلاً يقول لشيخنا: إذا خان الرجلُ في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد أو قال نَسيهَ، فقال الشيخ: هكذا من خان الله [تعالىٰ] ورسوله في مسائل العلم.

السادس والثلاثون أن من فسح لنفسه في اتباع الهوىٰ ضيّق عليها في قبره ويوم مَعاده، ومن ضيّق عليها بمخالفة الهوىٰ وسع عليها في قبره ومعاده، وقد أشار الله ـ تعالىٰ ـ إلىٰ هذا في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وجزاهُمْ بِمَ صَبَرُوا جنَّةً وحَريراً**﴾ [الإنسان: ١٢] فلما كان في الصبر الذي هو حبسُ النفس عن الهوىٰ خشونةٌ وتضييقٌ جازاهم علىٰ ذلك نعومة الحرير وسعةَ الجنة. وقال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ في هذه الآية: جزاهم بما صبروا عن الشهوات

(٢)**وقد** تقدم الكلام علىٰ ـ قوله تعالىٰ ـ: ﴿**إنَّ الأبْرارَ يَشْرَبُونَ من كَأْسٍ كَانَ مزَاجُها كَافُورًا * عيْناً يشْربُ بها عبادُ الله يفجِّرُونها تفْجيراً**﴾ [الإنسان: ٥، ٦] وعلىٰ قوله: ﴿**ويُسقُونَ فيها كَأْساً كان مِزاجُها زنجبيْلاً * عيْناً فيها تُسمَّىٰ سَلْسَبِيلاً**﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨] فقالت فرقة: سلسبيلاً جملة مركبة من فعل وفاعل وسبيلاً منصوب علىٰ المفعول أي سل سبيلاً إليها، وليس هذا بشيء، وإنما السلسبيل كلمة مفردة وهي اسم للعين نفسها باعتبار صفتها.

ولقد شفىٰ قتادة ومجاهد في اشتقاق اللفظة، فقال قتادة سلسة فهم يصرفونها حيث شاءوا وهذا من الاشتقاق الأكبر. وقال مجاهد: سلسة السيل حديدة

---

(١) ٥١٢ روضة المحبين. (٢) ١٣٦ حادي الأرواح.

الجرية، وقال أبو العالية والمقابلان تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم، وهذا من سلاستها وحدة جريتها. وقال آخرون: معناها طيبة الطعم والمذاق، وقال أبو إسحاق: سلسبيل صفة لما كان في غاية السلاسة فسميت العين بذلك. وقال ابن الأنباري: الصواب في سلسبيل أنه صفة للماء، وليس باسم للعين. واحتج علىٰ ذلك بحجتين:

إحداهما أن سلسبيلاً مصروف ولو كان اسماً للعين لم يصرف للتأنيث والعلمية.

الثانية أن ابن عباس قال: معناه أنها تنسل في حلوقهم انسلالاً.

قلت: ولا حجة له في واحدة منهما، أما الصرف فلاقتضاء رءوس الآي له كنظائره؛ وأما قول ابن عباس فإنما يدل علىٰ أن العين سميت بذلك باعتبار صفة السلالة والسهولة.

فقد تضمنت هذه النصوص أن لهم فيها الخبز واللحم والفاكهة والحلوىٰ وأنواع الأشربة من الماء واللبن والخمر وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء. وأما المسميات فبينها من التفاوت مالا يعلمه البشر.

فإن قيل: فأين يشوي اللحم وليس في الجنة نار؟.

فقد أجاب عن هذا بعضهم بأنه يشوي بـ «كن». وأجاب آخرون بأنه يشوىٰ خارج الجنة ثم يؤتىٰ به إليهم.

والصواب أنه يشوىٰ في الجنة بأسباب قدرها العزيز الحكيم لإنضاجه وإصلاحه كما قدر هناك أسباباً لإنضاج الثمر والطعام علىٰ أنه لا يمتنع أن يكون فيها نار تصلح لاتفسد شيئاً وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**مجامرهم الألوة**» و(المجامر) جمع مجمر وهو البخور الذي يتبخر بإحراقه (والألوة) العود المطري فأخبر أنهم يتجمرون به أي يتبخرون بإحراقه لتسطع لهم رائحته.

وقد أخبر سبحانه أن في الجنة ظلالاً والظلال لابد أن تفيء مما يقابلها فقال: ﴿**هم وأزواجهم في ظلال علىٰ الأرائك متكئون**﴾. وقال: ﴿**إن المتقين في ظلال وعيون**﴾ وقال: ﴿**وندخلهم ظلاً ظليلاً**﴾ فالأطعمة والحلوىٰ والتجمر تستدي

أسباباً تتم بها والله ـ سبحانه ـ خالق السبب والمسبب وهو رب كل شيء ومليكه **لا** إلـه إلا هو.

وكذلك جعل لهم ـ سبحانه ـ أسباباً تصرف الطعام من الجشاء والعرق الذي يفيض من جلودهم، فهذا سبب إخراجه وذاك سبب إنضاجه.

وكـذلك جعـل في أجوافهم من الحرارة ما يطبخ ذلك الطعام ويلطفه ويهيئه لخروجه رشحاً وجشاءًا.

وكذلك ماهناك من الفواكه والثمار يخلق لها من الحرارة ما ينضجها ويجعل سبحانه أوراق الشجـر ظلالهـا فرب الدنيا والآخرة واحد، وهو الخالق للأسباب والحكم مايخلقه في الدنيا والآخرة، والأسباب مظهر أفعاله وحكمته، ولكنها تختلف، ولهذا يقع التعجب من العبد لورود أفعاله ـ سبحانه ـ علىٰ أسباب غير الأسباب المعهودة المألوفة، وربما حمله ذلك علىٰ الإنكار والكفر، وذلك محض الجهل والظلم، وإلا فليست قدرته ـ سبحانه وتعالىٰ ـ مقصورة عن أسباب أخر ومسببات ينشئها منها كما لا تقصر قدرته في هذا العالم المشهود عن أسبابه ومسبباته، وليس هذا بأهون عليه من ذلك.

ولعل النشأة الأولىٰ التي أنشأها الرب سبحانه ـ وتعالىٰ ـ فيها بالعيان والمشاهدة أعجب من النشأة الثانية لتي وعدنا بها إذا تأملها اللبيب.

ولعل إخراج هذه الفواكه والثمار من بين هذه التربة الغليظة والماء والخشب والهواء المناسب لها أعجب عند العقل من إخراجها من بين تربة الجنة ومائها وهوائها.

ولعل إخراج هذه الأشربة التي هي غذاء ودواء وشراب ولذة من بين فرث ودم ومن قيء ذباب أعجب من إجرائها أنهاراً في الجنة بأسباب أخر.

ولعل إخراج جوهري الذهب والفضة من عروق الحجارة من الجبال **وغيرها** **أعجب** من إنشائها هناك من أسباب أخر.

ولعـل إخـراج الحرير من لعاب دود القز وبنائها علىٰ أنفسها القباب البيض والحمر والصفر أحكم بناء أعجب من إخراجه من أكمام تنشق عنه شجر هناك **قد** أودع فيها وأنشىء منها.

ولعل جريان بحار الماء بين السماء والأرض علىٰ ظهور السحاب أعجب من جريانها في الجنة في غير أخدود.

وبالجملة فتأمل آيات الله التي دعا عباده إلىٰ التفكر فيها وجعلها آيات دالة علىٰ كمال قدرته وعلمه ومشيئته وحكمته وملكه وعلىٰ توحده بالربوبية والإلهية.

ثم وازن بينها وبين ما أخبر به من أمر الآخرة والجنة والنار تجد هذه أدل شيء علىٰ تلك، شاهدة لها وتجدهما من مشكاة واحدة ورب واحد وخالق واحد ومالك واحد فبعداً لقوم لا يؤمنون.

(1)**قال** تعالىٰ: ﴿**ويُسقَونَ فيْها كأساً كان مزاجُها زنجبيْلاً**﴾ [الإنسان: ١٧] وذكر أبو نعيم في كتاب الطب النبوي، من حديث أبي سعيد الخدري قال: «أهدىٰ ملك الروم إلى رسول الله ﷺ جَرَّة زنجبيل، فأطعم كل إنسان قطعة، وأطعمني قطعة».

الزنجبيل: حار في الثانية، رطب في الأولىٰ، مسخن معين علىٰ هضم الطعام ملين للبطن تليينا معتدلاً. نافع من سدد الكبد العارض عن البرد والرطوبة، ومن ظلمة البصر الحادثة عن الرطوبة: أكلا، واكتحالا. معين علىٰ الجماع، وهو محلل للرياح الغليظة الحادثة في الأمعاء والمعدة.

وبالجملة: فهو صالح للكبد والمعدة الباردتي المزاج، وإذا أخذ منه مع السكر وزن درهمين بالماء الحار أسهل فضولاً لزجة لعابية، ويقع في المعجونات التي تحلل البلغم وتذيبه، والمزي منه: حار يابس يهيج الجماع، ويزيد في المني، ويسخن المعدة والكبد، ويعين علىٰ الاستمراء، وينشف البلغم الغالب علىٰ البدن، ويزيد في الحفظ ويوافق برد الكبد والمعدة ويزيل بلتها الحادثة عن أكل الفاكهة، ويطيب النكهة ويدفع به ضرر الأطعمة الغليظة الباردة.

---

(١) ٣٥٤ زاد المعاد جـ٣.

ذكر خدمهم وغلمانهم[(١)]

قال تعالىٰ: ﴿يَطُوفُ عليهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ بأكوَابٍ وأباريْقَ وكأْسٍ من مَّعينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ويَطُوفُ عليهم ولدانٌ مخلَّدون إذَا رأيْتهم حسبْتُهم لُؤلُؤاً منْثُوراً﴾ [الإنسان: ١٩]. قال أبو عبيدة والفراء: مخلدون لا يهرمون ولا يتغيرون. قال والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يمشط: إنه لمخلد، وإذا لم تذهب أسنانه من الكبر قيل: هو مخلد. وقال آخرون: مخلدون: مقرطون مسورون أي في آذانهم القرطة وفي أيديهم الأساور. وهذا اختيار ابن الأعرابي، قال: مخلدون: مقرطون بالخلدة. وجمعها خلد وهي القرطة.

وروى عمرو عن أبيه: خلد جاريته إذا حلاها بالخلد وهي القرطة، وخلد إذا أسن ولم يشب، وكذلك قال سعيد بن جبير مقرطون.

واحتج هؤلاء بحجتين: إحداهما أن الخلود عام لكل من دخل الجنة فلابد أن تكون الولدان موصوفين بتخليد مختص بهم وذلك هو القرطة.

الحجة الثانية: قول الشاعر:

ومخلدات باللجين كأنما　　أعجازهن رواكد الكثبان

وقال الأولون: الخلد هو البقاء قال ابن عباس غلمان لا يموتون، وقول ترجمان القرآن في هذا كاف، وهو قول مجاهد والكلبي ومقاتل. قالوا: لا يكبرون ولا يهرمونولا يتغيرون.

وجمعت طائفة بين القولين، وقالوا: هم ولدان لا يعرض لهم الكبر والهرم وفي آذانهم القراطة فمن قال مقرطون أراد هذا المعنىٰ أن كونهم ولدان أمر لازم لهم وشبههم سبحانه باللؤلؤ المنثور لما فيه من البياض وحسن الخلقة.

وفي كونه منثوراً فائدتان (إحداهما) الدلالة علىٰ أنهم غير معطلين بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم.

و(الثاني) أن اللؤلؤ إذا كان منثوراً ولا سيما علىٰ بساط من ذهب أو حرير كان

---

(١) ١٥٣ حادي الأرواح.

أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعاً في مكان واحد.

وقد اختلف في هؤلاء الولدان هل هم من ولدان الدنيا أم أنشأهم الله في الجنة إنشاء على قولين؟ فقال على بن أبي طالب والحسن البصري: هم أولاد المسلمين الذين يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم يكونون خدم أهل الجنة وولدانهم إذ الجنة لا أولاد فيها.

قال الحاكم أنا عبد الرحمن بن الحسن ثنا إبراهيم بن الحسين ثنا آدم ثنا المبارك ابن فضالة عن الحسن في قوله: ﴿**وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ**﴾ [الإنسان: ١٩] قال لم يكن لهم حسنات ولا سيئات فيعاقبون عليها فوضعوا بهذا الموضع. ومن أصحاب هذا القول من قال: هم أطفال المشركين فجعلهم الله خدماً لأهل الجنة.

واحتج هؤلاء بما رواه يعقوب بن عبد الرحمن الفاري عن أبي حازم قال المديني عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم فهم خدم أهل الجنة**» يعني الأطفال قال الدارقطني ورواه عبد العزيز الماجشون عن ابن المنكدر عن يزيد الرقاشي عن النبي ﷺ انتهى. ورواه فضيل بن سليمان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن أنس وهذه الطرق ضعيفة. فيزيد: واهٍ وفضيل بن سليمان: متكلم فيه، وعبد الرحمن بن إسحاق: ضعيف.

قال ابن قتيبة واللاهون من لهيت عن الشيء إذا غفلت عنه وليس هو من لهوت. وأصحاب القول الأول لا يقولون إن هؤلاء أولاد ولدوا لأهل الجنة فيها وإنما يقولون هم غلمان أنشأهم الله في الجنة كما أنشأ الحور العين.

قالوا: وأما ولدان أهل الدنيا فيكونون يوم القيامة أبناء ثلاث وثلاثين لما رواه ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبداً وكذلك أهل النار**» رواه الترمذي.

والأشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون من الجنة كالحور العين خدماً لهم وغلماناً كما

قال تعالىٰ: ﴿ويطُوفُ عليهم غلْمانٌ لَّهُمْ كأنهُمْ لُؤلُؤ مكْنُون﴾ وهؤلاء غير أولادهم فإن من تمام كرامة الله تعالىٰ لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم ولا يجعلهم غلماناً لهم.

وقد تقدم في حديث أنس عن النبي ﷺ: «**أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وفيه يطوف علىٰ ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون**» والمكنون المستور المصون الذي لم تبتذله الأيادي. وإذا تأملت لفظة الولدان ولفظة ويطوف عليهم واعتبرتها بقوله: ﴿ويطُوفُ عليهُم غلْمانٌ لَّهُمْ﴾ وضممت ذلك إلىٰ حديث أبي سعيد المذكور آنفاً علمت أن الولدان غلمان أنشأهم الله تعالىٰ في الجنة خدماً لأهلها والله أعلم.

(١)**قال** تعالىٰ: ﴿وإذا رأيْتَ ثمَّ رأيْتَ نَعِيماً وملْكاً كَبيراً﴾ [الإنسان: ٢٠] قال ابن أبي نجيح عن مجاهد «ملكاً كبيراً قال: عظيماً: وقال استئذان الملائكة عليهم لاتدخل الملائكة عليهم إلا بإذن.

وقال كعب في قوله تعالىٰ: ﴿وإذا رأيْتَ ثمَّ رأيتَ نعيْماً ومُلْكاً كبيراً﴾ [الإنسان: ٢٠] يرسل إليهم ربهم الملائكة فتأتي الملائكة فتستأذن عليهم الملائكة.

وقال بعضهم الخدم ولا يدخل عليهم الملائكة إلا بإذن.

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أنه ذكر مراكب أهل الجنة ثم تلا ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾.

وقال ابن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول في قوله عز وجل: ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾. قال الملك الكبير أن رسول الله يأتيه بالتحفة واللطف فلا يصل إليه حتىٰ يستأذن له عليه فيقول للحاجب استأذن علي ولي الله، فإني لست أصل إليه، فيعلم ذلك الحاجب حاجباً آخر وحاجباً بعد حاجب، ومن داره إلىٰ دار السلام باب يدخل منه علىٰ ربه إذا شاء بلا إذن، فالملك الكبير أن رسول رب العزة لايدخل عليه إلا بإذن وهو يدخل علىٰ ربه بلا إذن.

وقال ابن أبي الدنيا حدثنا صالح بن مالك حدثنا صالح المري حدثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك يرفعه: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة من يقوم علىٰ رأسه عشرة آلاف خادم»...

---

(١) ١٩٤ حادي الأرواح.

(١)**وقال:** ﴿**عَاليهُمْ ثيابُ سُنْدُس خُضْرٌ وإستبرقٌ**﴾ [الإنسان: ٢١] وتأمل ما دلت عليه لفظة «عـاليهم» من كون ذلك اللباس ظاهراً بارزاً يجمل ظواهرهم ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال.

وقد اختلف القراء السبعة في نصب «عاليهم» ورفعه على قراءتين.

واختلف النحاة في وجه نصبه هل هو على الظرف أو على الحال على قولين.

واختلف المفسرون هل ذلك للولدان الذين يطوفون عليهم فيطوفون وعليهم ثياب السندس والإستبرق أو للسادات الذين يطوفون عليهم الولدان فيطوفون على ساداتهم وعلى السادات هذه الثياب، وليس الحال ههنا بالبين ولا تحته ذلك المعنى البديع الرائع. فالصواب أنه منصوب على الظرف، فإن عالياً لما كان بمعنى فوق أجرى مجراه، قال أبو علي: وهذا الوجه أبين وهو أن عالياً صفة فجعل ظرفاً كما كان قوله: ﴿**والرَّكْبُ أسْفلَ مِنْكُم**﴾ [الأنفال: ٤٢] كذلك.

وكما قالـوا هو ناحية من الـدار، وأما من رفع عاليهم فعلى الابتداء وثياب سندس خبره، ولا يمنع من هذا إفراد عال وجمع الثياب، لأن فاعلاً قد يراد به الكثرة كما قال:

ألا إن جيراني العشية رائح　　دعتهم دواع من هوى ومناوح

وقال تعالى: ﴿**مستكبرين به سامراً تهجرون**﴾.

ومن رفع خضراً أجراه صفة للثياب وهو الأقيس من وجوه: أحدها المطابقة بينهما في الجمع. الثاني موافقته لقـولـه تعـالى: ﴿**ويَلْبَسُـونَ ثِيَـاباً خُضْراً**﴾ [الكهف: ٣١]. الثـالث تخلصـه من وصف المفـرد بالجمع، ومن جر أجراه صفة للسندس على إرادة الجنس، كما يقال: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض.

وتترجح القراءة الأولى بوجه رابع أيضاً وهو أن العرب تجيء بالجمع الذي هو في لفظ الواحد فيجرونه مجرى الواحد كقوله تعالى: ﴿**الذي جعلَ لكُم من الشَّجر الأخْضَر ناراً**﴾ [يس: ٨٠] وكقوله: ﴿**كأنَّهُمْ أعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ**﴾ [الحاقة: ٧] فإذا

(١) ١٤٢ حادي الأرواح.

كانوا قد أفردوا صفات هذا النوع من الجمع فإفراد صفة الواحد وإن كان في معنىٰ الجمع أولى. وفي استبرق قراءتان الرفع عطفاً علىٰ ثياب والجر عطفاً علىٰ سندس.

وتأمل كيف جمع لهم بين نوعي الزينة الظاهرة من اللباس والحلي، كما جمع لهم بين الظاهرة والباطنة كما تقدم قريباً فجمل البواطن بالشراب الطهور، والسواعد بالأساور، والأبدان بثياب الحرير.

(١)قاعدة

للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة. وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول، هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف. قال تعالىٰ: ﴿**ومِنَ الَّليْلِ فاسْجُدْ له وسبِّحْه ليْلاً طويلاً * إنّ هٰؤلآءِ يُحِبُّون العاجلةَ ويذَرُون ورآءهم يوماً ثقيْلاً**﴾ [الإنسان: ٢٦-٢٧].

(٢)**قوله** تعالىٰ: ﴿**نحْنُ خلقناهم وشدَدْنا أسْرَهم**﴾ [الإنسان: ٢٨] قال ابن عباس: أي خلقهم، وقال أبو عبيدة: الأسر. شدة الخلق يقال: فرس شديد الأسر. قال: وكل شيء شددته: من قتب أو غيره، فهو مأسور. وقال المبرد: الأسر القوى كلها. وقال الليث: الأسر قوة المفاصل والأوصال. وشد الله أسر فلان، أي قوىّ خلقه. وكل شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر. وقال الحسن: شددنا أوصالهم بعضها إلىٰ بعض، بالعروق والعصب. . . .

(٣)**وقال** في سورة الإنسان: ﴿**نحْنُ خلقْناهمُ وشددْنا أسْرهم**﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأولىٰ ثم قال: ﴿**وإذا شْئِنَا بدَّلْنا أمثالهُمْ تبْديلاً**﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأخرىٰ. ونظير هذا ﴿**وأنَّه خلقَ الزوُجيْنِ الذَّكر والأُنْثىٰ * منْ نُّطْفةٍ إذا تُمْنَىٰ وأنَّ عليهِ النَّشْأة الأُخْرىٰ**﴾ [النجم: ٤٥-٤٦] وهذا في القرآن كثير جدًا، يقرن بين النشأتين مذكراً للفطر والعقول بإحداهما علىٰ الأخرىٰ. وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الإنسان

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٠٠ فوائد. (٢) ٢٣ التبيان. (٣) ١٢٤ التبيان.



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل(١)

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**والمرسلات عرفاً * فالعاصفات عصفاً * والناشرات نشراً * فالفارقات فرقاً * فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً * إنما توعدون لواقع**﴾ [المرسلات: ١-٧] فسرت المرسلات بالملائكة، وهو قول أبي هريرة، وابن عباس في رواية مقاتل وجماعة، وفسرت بالرياح، وهو قول ابن مسعود وإحدىٰ الروايتين عن ابن عباس وقول قتادة. وفسرت بالسحاب، وهو قول الحسن، وفسرت بالأنبياء، وهو رواية عطاء عن ابن عباس. قلت: الله سبحانه يرسل الملائكة، ويرسل الأنبياء، ويرسل الرياح، ويرسل السحاب، فيسوقه حيث يشاء، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، فإرساله واقع علىٰ ذلك كله، وهو نوعان: إرسال دين يحبه ويرضاه، كإرسال رسله وأنبيائه، وإرسال كون وهو نوعان: نوع يحبه ويرضه، كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه. ونوع لا يحبه، بل يسخطه ويبغضه كإرسال الشيطان علىٰ الكفار.

فالإرسال المقسم به ههنا مقيد بالعرف.

فإما أن يكون ضد المنكر، فهو إرسال رسله من الملائكة، ولا يدخل في ذلك إرسال الرياح، ولا الصواعق، ولا الشياطين. وأما إرسال الأنبياء فلو أريد لقال: والمرسلين، وليس بالفصيح تسمية الأنبياء مرسلات. وتكلف الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ، فلم يطلق في القرآن جمع ذلك إلا جمع تذكير لا جمع تأنيث، وأيضاً فاقتران اللفظة بما بعدها من الأقسام لا يناسب تفسيرها بالأنبياء، وأيضاً فإن الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقوله: ﴿**تالله لقد أرسلنا إلىٰ أمم من قبلك**﴾ وقوله: ﴿**وإنك لمن المرسلين**﴾ وقوله: ﴿**يس**

(١) ٨٩ التبيان.

والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين﴾ وإن كان العرف من التابع، كعرف الفرس وعرف الديك، والناس إلىٰ فلان عرف واحد، أي سابقون في قصده والتوجه إليه.

جاز أن تكون المرسلات الرياح. ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات. وجاز أن تكون الملائكة. وجاز أن يعم النوعين لوقوع الإرسال عرفاً عليهما. ويؤيده أن الرياح موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها.

ويؤيد كونها الرياح عطف العصافات عليها بفاء التعقيب والتسبب، فكأنها أرسلت، فعصفت. ومن جعل المرسلات الملائكة قال: هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف الرياح، والأكثرون علىٰ أنها الرياح. وفيها قول ثالث أنها تعصف بروح الكافر، يقال عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه. قال الأعشىٰ: تعصف بالدراع والحاسر * حكاه أبو إساحق. وهو قول متكلف.

فإن المقسم به لابد أن يكون آية ظاهرة تدل علىٰ الربوبية، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن بها فإنما يقسم عليه، وإنما يقسم سبحانه بملائكته وكتابه، لظهور شأنهما، ولقيام الأدلة والأعلام الظاهرة الدالة علىٰ ثبوتهما.

وأما (الناشرات نشراً) فهو استئناف قسم آخر، ولهذا أتىٰ به بالواو وما قبله معطوف علىٰ القسم الأول بالفاء. قال ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة: هي الرياح تأتي بالمطر.

ويدل علىٰ صحة قولهم قوله تعالىٰ: **﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾** يعني أنها تنشر السحاب نشراً، وهو ضد الطي. وقال مقاتل: هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم. وقاله مسروق، وعطاء عن ابن عباس. وقالت طائفة: هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها ـ وقيل: تنشر أوامر الله في الأرض والسماء. وقيل: تنشر النفوس، فتحييها بالإيمان.

وقال أبو صالح: هي الأمطار تنشر الأرض، أي تحييها.

قلت: ويجوز أن تكون الناشرات لازماً لا مفعول له، ولا يكون المراد أنهن نشرن كذا، فإنه يقال: نشر الميت: حي، وأنشره الله: إذا أحياه، فيكون المراد بها الأنفس التي حييت بالعرف الذي أرسلت به المرسلات، أو الأشباح والأرواح

والبقاع التي حييت بالرياح المرسلات. فإن الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات، والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها.

لكن هنا أمراً ينبغي التفطن له، وهو أنه سبحانه جعل الأقسام في هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر، وجعل العاصفات معطوفاً علىٰ المرسلات بفاء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد، ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتىٰ فيه بالواو، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء، فأوهم هذا أن الفارقات والملقيات مرتبط بالناشرات، وأن العاصفات مرتبط بالمرسلات.

وقد اختلف في الفارقات والأكثرون علىٰ أنها الملائكة. ويدل عليه عطف الملقيات ذكراً عليها بالفاء، وهي الملائكة بالاتفاق.

وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر أجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل، فألقت الذكر علىٰ الرسل إعذاراً وإنذارًا.

ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها. وقال: هي تفرق السحاب ههنا وههنا، ولكن يأبىٰ ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها.

ومن قال: الفارقات أي القرآن يفرق بين الحق والباطل فقوله يلتئم مع كون الناشرات الملائكة أكثر من التئامه إذا قيل: إنها الرياح.

ومن قال: هي جماعات الرسل فإن أراد الرسل من الملائكة فظاهر. وإن أراد الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول.

ويظهر - والله أعلم بما أراد من كلامه - أن القسم في هذه الآية وقع علىٰ النوعين: الرياح، والملائكة. ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح الله، وقد جعله الله تعالىٰ نشوراً.

وحياة القلوب والأرواح بالملائكة. فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة. ولهذا - والله أعلم - فصل أحد النوعين من الآخر بالواو، وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء.

وتأمل كيف موقع القسم في هذه السورة علىٰ المعاد والحياة الدائمة الباقية، وحال السعداء والأشقياء فيها، وقررها بالحياة الأولىٰ في قوله: ﴿**ألم نخلقكم من**

ماء مهين﴾ فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذلك، فحسن الإقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة. وهو الرياح، والملائكة. فكان في القسم بذلك أبين دليل وأظهر آية علىٰ صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة.

ولهذا كان المكذب بعد ذلك في غاية الجحود والعناد والكفر، فاستحق الويل. بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

فلا أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع، ولا أعظم منه موقعاً فإنه تكرر عشر مرات، ولم يذكر إلا في أثر دليل أو مدلول عليه عقيب مايوجب التصديق ومايوجب التصديق به فتأمله.

(١)**قال** تعالىٰ: **﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾** وقال: **﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾** فالأمر منحصر في الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، فإذا عدلتم عن الهدىٰ والحق، فأين العدول، وأين المذهب؟!

ونظير هذا قوله: **﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾** أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم. ونظيره قوله تعالىٰ: **﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾** لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئاً لا كان باطلاً، ولا يفعلون شيئاً إلا كان ضائعاً غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلىٰ المقصود، ونظيره قوله تعالىٰ: **﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾** وقد كشف هذا المعنىٰ كل الكشف بقوله عز ـ وجل ـ: **﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنىٰ تصرفون﴾**.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المرسلات

والحمد لله رب العالمين

(١) ٨٠ مفتاح جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**فائدة:** في النوم فائدتان: إحداهما: انعكاس الحرارة إلى الباطن فينهضم الطعام. والثانية: استراحة الأعضاء التي قد كلّت بالأعمال.

(٢)**وضابط** الانقطاع أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه، وإن لم يدخل في نفسه. ولم يتناوله لفظه. كقوله تعالى: ﴿**لا يَسْمَعُونَ فيها لغْوًا إلاّ سَلَامًا**﴾ [مريم: ٦٢]. فإن «السلام» داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله: ﴿**لا يذُوقُون فيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إلَّا حَمِيًا وغسَّاقًا**﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]. فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم. فكأنه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئًا إلا سلامًا. وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئًا إلا حميمًا وغساقًا. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحًا، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص، لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله تعالى: ﴿**مَالَهُم بِه مِن عِلْمٍ إلَّا اتِّباعَ الظنِّ**﴾ [النساء: ١٥٦]. فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى: ﴿**ولَا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤكُم مِنَ النِّساء إلَّا ماقَد سَلَفَ**﴾ [النساء: ٢٢]. إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو. وكذلك: ﴿**وأنْ تَجْمعوا بين الأختَيْنِ إلَّا ما قَدْ سَلَفَ**﴾ [النساء: ٢٣]. وإن كان المراد به: ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله، فحسن أن يقال «إلا ما قد سلف». فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

(٣)**حمل** ابن عباس قوله تعالى: ﴿**هَذا فليَذُوقُوه حَميمٌ وغَسَّاقٌ**﴾ [صٓ: ٥٧]. وقوله: ﴿**لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إلَّا حَمِيًا وغَسَّاقًا**﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]. قال:

---

(١) ٢٠٩ بدائع جـ٤. (٢) ٣١٨ مدارج جـ١. (٣) ٢١٦ بدائع جـ٢.

هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرها. وكذلك قال مقاتل ومجاهد هو الذي انتهى برده. . .

(١) **وقال** تعالى: ﴿**إنَّ للمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِق وأعْنَابًا وكَوَاعِبَ أتْرَابًا**﴾ [النبأ: ٣١-٣٣]. فالكواعب جمع كاعب وهي الناهد. قال قتادة ومجاهد والمفسرون. قال الكلبي: هن الفلكات اللواتي تكعب ثديهن وتفلكت، وأصل اللفظة من الاستدارة، والمراد أن ثديهن نواهد كالرمان ليست متدلية إلى أسفل، ويسمين نواهد وكواعب.

(٢) **وقال** الإمام أحمد: حدثنا هشيم أنبأنا حصين عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿**وكأسًا دِهَاقا**﴾ [النبأ: ٣٤] قال: هي المتتابعة الممتلئة. قال: وربما سمعت العباس يقول اسقنا وادهق لنا.

(٣) **الدليل** على حشر الوحوش وجوه (أحدها) قوله تعالى: ﴿**وإذا الوُحُوشُ حُشِرَت**﴾ [التكوير: ٥]. (الثاني) قوله تعالى: ﴿**ومامِن دآبَّةٍ في الأرض ولاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بجَنَاحَيهِ إلاَّ أممٌ أمثَالُكم مَا فَرَّطنَا في الكِتَابِ مِن شيءٍ ثمَّ إلى رَبِّهم يُحْشَرُون**﴾ [الأنعام: ٣٨]. (الثالث) حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وأنها تجيىء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها. وهو متفق على صحته. (الرابع) حديث أبي ذر أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: «**ياأبا ذر أتدري فيما ينتطحان؟**» قال: قلت: لا. قال: «**لكن الله يدري وسيقضي بينهما**» رواه أحمد في مسنده. (الخامس) الآثار الواردة في قوله تعالى: ﴿**يَومَ يَنْظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَت يَدَاهُ وَيَقُولُ الكَافِرُ يَالَيْتَني كُنتُ تُرابا**﴾ [النبأ: ٤٠]. وأن الله ـ تعالى ـ يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني ترابًا. فتكون ترابا فعندها يقول الكافر: ﴿**يَا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا**﴾.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النبأ
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٦٣ حادي الأرواح. **(٢) ١٣٦ حادي الأرواح**. **(٣) ١٨٣** بدائع جـ٣.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

ترتيبها ٧٩ — آياتها ٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** ـ تعالى ـ: ﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * والنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * والسَّابِحَاتِ سبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّراتِ أَمْرًا**﴾ [النازعات: ١-٥] فهذه خمسة أمور. وهي صفات الملائكة.

فأقسم ـ سبحانه ـ بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال، إذ ذلك من أعظم آياته، وحذف مفعول النزع والنشط؛ لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقييد به، وأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول. كقوله: ﴿**فأمَّا مَن أعْطى واتَّقى**﴾ [الليل: ٦] ونظائره، فكان نفس النزع هو المقصود لاعين المنزوع.

وأكثر المفسرين على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم، وهم جماعة كقوله: ﴿**تَوَفَّته رُسُلُنَا**﴾ [الأنعام: ٦١]. وقوله: ﴿**إنَّ الذين تَوَفَّاهُم الملاَئِكَةُ**﴾ [النساء: ٩٧]. وأما قوله: ﴿**قُل يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوتِ الذي وُكِّلَ بِكُم**﴾ [السجدة: ١١]. فإما أن يكون واحدًا، وله أعوان، وإما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة كقوله: ﴿**وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّها وكُتُبِهِ**﴾ [التحريم: ١٢]. وقوله: ﴿**وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا**﴾ [النحل: ١٨].

والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة، والإغراق في النزع هو أن يجتذبه إلى آخره، ومنه إغراق النزع في جذب القوة، بأن يبلغ بها غاية المد، فيقال: أغرق في النزع، ثم صار مثلاً لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره.

والغرق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام، أقيم مقامه الإعطاء والتكلم.

---

(١) ٨٣ التبيان.

واختلف الناس: هل النازعات متعد أو لازم؟ فعلى القول الذي حكيناه يكون متعديًا، وهذا قول علي، ومسروق، ومقاتل، وأبي صالح، وعطية عن ابن عباس. وقال ابن مسعود: هي أنفس الكفار، وهو قول قتادة، والسدى، وعطاء عن ابن عباس. وعلى هذا فهو فعل لازم، وغرقًا على هذا معناه: نزعا شديدًا أبلغ ما يكون وأشده.

وفي هذا القول ضعف من وجوه:

أحدها: أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة، فهي السابحات والمدبرات، والنازعات.

الثاني: أن الإقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين، ولا في اللفظ ما يدل عليه.

الثالث: أن النزع مشترك بين نفوس بني آدم، والإغراق لا يختص بالكافر.

وقال الحسن: النازعات هي النجوم، تنزع من المشرق إلى المغرب. وغرقًا هو غروبها قال: تنزع من ههنا وتغرق ههنا. واختاره الأخفش وأبوعبيد.

وقال مجاهد: هي شدائد الموت وأهواله، التي تنزع الأرواح نزعًا شديدًا، وقال عطاء، وعكرمة: هي القسى، والنازعات على هذا القول بمعنى النسب أو ذوات النزع التي ينزع بها الرامي، فهو النازع.

قلت: النازعات اسم فاعل من نزع، ويقال: نزع كذا. إذا اجتذبه بقوة، ونزع عنه إذا خلاه وتركه، بعد ملابسته له، ونزع إليه إذا ذهب إليه ومال إليه. وهذا إنما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل إلى الشيء أو الميل عنه، وأحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة، لأن هذه القوة فيها أكمل، وموضع الآية فيها أعظم. فهي التي تغرق في النزع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه، والنفس الإنسانية أيضًا لها هذه القوة، والنجوم أيضًا تنزع من أفق إلى أفق. فالنزع حركة شديدة، سواء كانت من ملك، أو نفس إنسانية، أو نجم، والنفوس تنزع إلى أوطانها، وإلى مألفها، وعند الموت تنزع إلى ربها، والمنايا تنزع النفوس. والقسي تنزع بالسهام، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان، وتنزع ما وكلت بنزعه، والخيل تنزع في أعنتها نزعًا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها.

فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب تعالى، فإنه هو الذي خلقها وخلق محلها، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك. ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أراد التمثيل. وإن كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف.

فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم: فهم النازعات التي تنزع الأرواح من الأجساد، والناشطات التي تنشطها أي: تخرجها بسرعة وخفة، من قولهم: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وأنا أنشط بكذا أي أخف له وأسرع. والسابحات التي تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء. فالسَّابقات التي تسبق وتسرع إلى ما أمرت به لا تبطىء عنه ولا تتأخر. فالمدبِّرات أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها. وهذا أولى الأقوال.

وقد روي عن ابن عباس: أن (النَّازعات) الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف. (والنَّاشِطَاتِ) الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة. واختار الفراء هذا القول، فقال: هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها، وتنزع نفس الكافر. قال الواحدي: إنما اختار ذلك، لما بين النشط والنزع من الفرق في الشدة واللين، فالنزع الجذب بشدة، والنشط الجذب برفق ولين. (والناشطات) هي النفوس التي تنشط لما أمرت به، والملائكة أحق الخلق بذلك، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به.

وقيل: (السَّابِحَاتِ) هي النجوم تسبح في الفلك، كما قال تعالى: ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس: ٤٠] وقيل: هي السفن تسبح في الماء، وقيل: هي نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة إلى ربها.

قلت: والصحيح أنها الملائكة، والسياق يدل عليه، وأما السفن والنجوم فإنما تسمى جارية وجواري كما قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾ [الشورى: ٣٢]. وقال: ﴿**حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**﴾ [الحاقة: ١١]. وقال: ﴿**الْجَوَارِ الْكُنَّسِ**﴾ [التكوير: ١٦] ولم يسمها سابحات وإن أطلق عليها فعل السباحة، كقوله: ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس: ٤٠]. ويدل عليه ذكره السابقات بعدها

والمدبرات بالفاء، وذكره الثلاثة الأول بالواو، لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله، فإنها نزعت ونشطت وسبحت فسبقت إلى ما أمرت به فدبرته. ولو كانت السابحات هي السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء فتأمله.

قال مسروق، ومقاتل، والكلبي: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات: ٤] هي الملائكة قال مجاهد وأبوروق: سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والإيمان والتصديق. قال مقاتل: تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. وقال الفراء، والزجاج: هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء إذ كانت الشياطين تسترق السمع. وهذا القول خطأ لا يخفى فساده، إذ يقتضي الاشتراك بين الملائكة والشياطين في إلقائهم الوحي، وأن الملائكة تسبقهم به إلى الأنبياء. وهذا ليس بصحيح. فإن الوحي الذي تأتي به الملائكة إلى الأنبياء لا تسترقه الشياطين، وهم معزولون عن سماعه وإن استرقوا بعض ما يسمعونه من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث، فالله سبحانه صان وحيه إلى الأنبياء أن تسترق الشياطين شيئًا منه، وعزلهم عن سمعه.

ولو أن قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التي تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل إلقاء الكلمة التي استرقها لكان له وجه، فإن الشيطان يبدر مسرعًا بإلقائه إلى وليه، فتسبقه الملائكة في نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه، وربما ألقى الكلمة قبل إدراك الشهاب له.

وفسرت ﴿السَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ بالأنفس السابقات إلى طاعة الله ومرضاته. وأما ﴿الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ فأجمعوا على أنها الملائكة، قال مقاتل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت: يدبرون أمر الله تعالى في الأرض، وهم ﴿الْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾. قال عبدالرحمن بن سابط: جبريل موكل بالرياح وبالجنود، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، وملك الموت موكل بقبض الأنفس، وإسرافيل ينزل بأمر الله عليهم. وقال ابن عباس: هم الملائكة، وكّلهم الله بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها، بعضهم لبني آدم يحفظون ويكتبون، وبعضهم وكلوا بالأمطار

والنبات والخسف والمسخ، والرياح والسحاب، انتهى.

وقد أخبر أن الله وكل بالرجم ملكًا، وللرؤيا ملك موكل بها، وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها، وعمل آلاتها، وأوانيها، وغراسها وفرشها، ونمارقها وأرائكها، وللنار ملائكة موكلة بعمل مافيها وإيقادها، وغير ذلك.

فالدنيا وما فيها، والجنة والنار، والموت وأحكام البرزخ - قد وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ماشاء الله من ذلك. ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم الإيمان إلا به.

وأما من قال: إنها النجوم فليس هذا من قول أهل الإسلام، ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئًا من الخلق، بل هي مدبرة ومسخرة. كما قال الله تعالى: ﴿**وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ**﴾ [الأعراف: ٥٤] فالله سبحانه هو المدبر بملائكته لأمر العالم العلوي والسفلي.

قال الجرجاني: وذكر السابقات والمدبرات بالفاء وما قبلها بالواو، لأن ما قبلها أقسام مستأنفة، وهذان القسمان منشآن عن الذي قبلهما كأنه قال: فاللاتي سبحن فسبقن. كما نقول قام فذهب، أوجب الفاء أن القيام كان سببًا للذهاب ولو قلت: قام وذهب لم تجعل القيام سببًا للذهاب.

واعترض عليه الواحدي، فقال: هذا غير مطرد في هذه الآية، لأنه يبعد أن يجعل السبق سببًا للتدبير، مع أن السابقات ليست الملائكة في قول المفسرين.

قلت: الملائكة داخلون في السابقات قطعًا. وأما اختصاص السابقات بالملائكة فهذا محتمل. وأما قوله: يبعد أن يكون السبق سببًا للتدبير فليس كما زعم، بل السبق المبادرة إلى تنفيذ ما يؤمر به الملك، فهو سبب للفعل الذي أمر به، وهو التدبير، مع أن الفاء دالة على التعقيب، وأن التدبير يتعقب السبق بلا تراخ. بخلاف الأقسام الثلاثة. والله أعلم.

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق، وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن. أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة، والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسمًا عليه بعينه. وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه

وإن لم يذكر لفظًا، ولعل هذا مراد من قال: إنه محذوف للعلم به، لكن هذا الوجه ألطف مسلكًا. فإن المقسم به إذا كان دالاً على المقسم عليه مستلزمًا استغنى عن ذكره بذكره. وهذا غير كونه محذوفًا لدلالة مابعده عليه فتأمله.

ولعل هذا قول من قال: إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء، وحذف المضاف. فإن معناه صحيح، لكن على غير الوجه الذي قدروه. فإن إقسامه ـ سبحانه ـ بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمله.

(١)**إن** الملائكة موكَّلة بالعالم العُلوي والسفلي، تدبّره بأمر الله ـ عز وجل ـ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**فالمُدبِّرات أمْرًا**﴾ [النازعات: ٥]. وقال: ﴿**فالمقسِّماتِ أمرًا**﴾. وقال تعالى: ﴿**والمُرْسلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا**﴾ [المرسلات: ١-٥]. وقال: ﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * والسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أمْرًا**﴾

وقد وكَّل الله ـ سبحانه ـ بالأفلاك والشمس والقمر ملائكة تحرّكها، ووكل بالرياح ملائكة تصرّفها بأمره وهم خَزنتها. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وأمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**﴾ [الحاقة: ٦]. وقال غير واحد من السلف: عَتت على الخُزَّان فلم يقدروا على ضبطها (ذكره البخاري في صحيحه). ووكّل بالقطر [ملائكة، وبالسحاب] ملائكة تسوقه إلى حيث أمرت [به].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**بينَا رَجُلٌ بفلاةٍ مِن الأرض إذ سَمِع صَوتًا فِي سحَابَةٍ يقول: اسْقِ حديقَة فُلانٍ فتتبعَ السَّحابَةَ حَتَّى انتهت إلى حَديقةٍ فأفرَغت ماءَها فيها، فنظر فإذا رجلٌ في الحديقة يُحَوِّل الماءَ بِمسحَاةٍ، فقال له: ما اسمك ياعبدالله؟ فقال فُلَانٌ. الاسم الذِي سَمعه في السَّحابة: فقال: إنِّي سَمِعت قَائِلًا يَقُول فِي هذه السَّحابة اسْقِ حَديقةَ فُلانٍ، فما تصنَعُ في هذه الحديقة؟ فقال: إنِّي أنظُر ما يَخرُجُ منها فأجعله ثلاثة أثلاثٍ: ثُلُثٌ أتصَدَّق بِه، وثُلُث أُنْفِقُه عَلَى عِيَالي، وثُلُثٌ أرُدُّه فِيهَا**».

(١) ٦٤ روضة المحبين.

ووكّل الله ـ سبحانه ـ بالجبال ملائكة، وثبت عن النبي ﷺ أنه جاءه ملك الجبال يسلّم عليه ويستأذنه في هلاك قومه إن أحبّ، فقال: بَل أستأني لَهم لعل الله أن يُخرج من أصلابهم مَن يَعْبد الله لا يُشرِك بِه شَيئًا. ووكّل بالرَّحم ملكًا يقول: يا رب نطفة؟ يارب علقة؟ يا رب مضغة؟ يا رب ذكرٌ أم أنثى؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ وشقيٌّ أم سعيد؟. ووكّل بكل عبدٍ أربعةً من الملائكة في هذه الدنيا: حافظان عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله، ومعقباتٌ من بين يديه ومن خلفه أقلُّهم اثنان يحفظونه من أمر الله، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بمساءلة الموتى ملائكة في القبور. ووكّل بالرحمة ملائكة، وبالعذاب ملائكة، وبالمؤمن ملائكة يثبتونه ويؤزونه إلى الطاعات أزًّا، ووكّل بالنار ملائكة يبنونها ويوقدونها، ويصنعون أغلالها وسلاسلها، ويقُومون بأمرها، ووكّل بالجنة ملائكة يبنونها ويفرشوها، ويصنعون أرائكها وسُررها وصحافها ونمارِقها وزرابيها. فأمر العالم العُلوي والسُّفلي والجنة والنار بتدبير الملائكة بإذن ربهم ـ تبارك وتعالى ـ وأمره: ﴿**لا يَسْبِقُونَه بِالقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِه يَعْمَلونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٧]. و﴿**لَا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]. فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره، وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره ليس بهم عجزٌ عنها، بخلاف من يترك ما أمِر به عجزًا فلا يعصي الله ما أمره، وإن لم يفعل ما أمره به.

وكذلك البحار قد وُكِّلت بها ملائكة تسجرها وتمنعها أن تفيض على الأرض فتغرق أهلَها، وكذلك أعمال بني آدم خيرُها وشرُّها قد وُكّلت بها ملائكة تحصيها وتحفظها وتكتبها، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتِم إلا به. وهي خمس: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

وإذا عُرف [ذلك عرف] أن كل حركةٍ في العالم فسببها الملائكة، وحركتُهم طاعةُ الله بأمره وإرادته، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب تعالى شرعًا وقدَرًا، والملائكة هم المنفذون ذلك بأمره، ولذلك سُمُّوا ملائكةً من الألوكة وهي الرسالة، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره.

(١) **عذاب** القبر حق، وقد قيل: ولابد من انقطاعه، لأنه من عذاب الدنيا، والدنيا وما فيها فانٍ منقطع، فلابد أن يلحقهم الفناء والبلاء، ولا يعرف مقدار مدة ذلك. يجوز أن يحشر الله العباد يوم القيامة عراة في وقت خروجهم من قبورهم يوم البعث، ثم يكسوا الله المؤمن حلل الجنان ويجعل على الكافر والعصاة سرابيل القطران. والتعبد في الآخرة بترك التكشف زائل.

المحشر هل هو في أرض من أراضي الجنة، أو في أرض من أراضي الدنيا، أو في موضع لا من الجنة ولا من النار، فقد قيل أول حشر الناس عند قيامهم من قبورهم في هذه الأرض التي ماتوا ودفنوا فيها، ثم يحولون إلى الأرض التي تسمى الساهرة، فهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]. والساهرة هي التي يحاسبون عليها، فإذا فرغوا من الحساب، وجازوا على الصراط، وميّز بين المجرمين والمؤمنين، ضرب بينهم بسور، فكان ما وراء السور مما يلي الجنة من أرض الجنة، وصار مادون السور مما يلي النار من أرض جهنم وموضع الحساب يصير من جهنم.

(٢) **كثير** من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرياسة الأخلاق التي كان يعامله بها قبل الرياسة فلا يصادفها، فينتقض ما بينهما من المودة، وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحي، وذلك غلط، فإن للرياسة سكرة: كسكرة الخمر أو أشد. ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية، فسكرتها فوق سكرة القهوة بكثير.

ومحال أن يرى من السكران أخلاق الصاحي وطبعه، ولهذا أمر الله ـ تعالى ـ أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعًا وعقلاً وعرفًا، ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبي ﷺ يخاطب رءوساء العشائر والقبائل.

وتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ *

(١) ١٠٥ بدائع جـ٣. (٢) ١٣٢ بدائع جـ٣.

وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]. فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر. وقال ـ تعالى ـ: ﴿إلى أن تزكى﴾ [النازعات: ١٨] ولم يقل: إلى أن أزكيك. فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره لما فيه من البركة والخير والنماء. ثم قال: ﴿وأهديك إلى ربك﴾ [النازعات: ١٩]. أكون كالدليل بين يديك الـذي يسير أمامك. وقال: إلى ربك، استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيراً ويافعًا وكبيراً..

(١)**ثم** قرر سبحانه بعد هذا القسم أمر المعاد، ونبوة موسى المستلزمة لنبوة محمد ﷺ، إذ من المحال أن يكون موسى نبيًّا ومحمد ليس نبيًّا مع أن ما يثبت نبوة موسى فلمحمد نظيره أو أعظم منه. وقرر ـ سبحانه ـ تكليمه لموسى بندائه له بنفسه. فقـال: ﴿إذ نَادَاه ربُّـه﴾ [النازعات: ١٦]. فأثبت المستلزم للكلام والتكليم. وفي موضع آخر أثبت النجاء والنداء. والنجاء نوع من التكليـم، ومحال ثبوت النوع بدون الجنس.

ثم أمره أن يخاطبه بألين خطاب فيقول له: ﴿هَل لَكَ إلى أن تَزكى * وأهدِيك إلى ربِّك فتخشَى﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

(أحـدها) إخـراج الكـلام مخرج العرض ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام وهو ألـطف. ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين: ﴿ألاَّ تأكُلون﴾ [النازعات: ٢٧] ولم يقل: كلوا.

(الثاني) قولـه: ﴿إلى أن تزكى﴾ والتـزكي: النـماء، والـطهـارة، والبركة، والزيادة. فعرض عليه أمرًا يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

(الثالث) قوله: ﴿تزكى﴾ ولم يقل: أزكيك، فأضاف التزكية إلى نفسه. وعلى هذا يخاطب الملوك.

(الرابع) قوله: ﴿وأهدِيكَ﴾ أي أكون دليلاً لك. وهاديًا بين يديك. فنسب الهداية إليه، والتزكي إلى المخاطب. أي أكون دليلًا لك وهاديًا فتزكى أنت كما تقول للرجل: هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ماشئت؟ وهذا أحسن من قوله أعطيك.

---

(١) ٨٨ التبيان.

(الخامس) قوله: ﴿إلى ربّك﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول مادل عليه، وهو أنه يدعوه ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده، ورباه بنعمه: جنينًا، وصغيرًا وكبيرًا، وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام. كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك؟ وتقول للولد: ألا تطيع أباك الذي رباك.

(السادس) قوله: ﴿فتخشى﴾ أي إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته. لأن من عرف الله خافه. ومن لم يعرفه لم يخفه. فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته. وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

(السابع) أن في قوله: ﴿هل لَّك﴾ فائدة لطيفة. وهي أن المعنى هل لك في ذلك حاجة أو أرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك، لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعي. فكأنه يقول: الحاجة لك وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك، فقابل هذا بغاية الكفر والعناد. وادعى أنه رب العالمين: هذا. وهو يعلم أنه ليس بالذي خلق فسوى، ولا قدّر فهدى، فكذب الخبر، وعصى الأمر، ثم أدبر يسعى بالخديعة والمكر، فحشر جنوده فأجابوه، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى، واستخفهم فأطاعوه، فبطش به جبار السموات والأرض بطشة عزيز مقتدر، وأخذه نكال الآخرة والأولى، ليعتبر بذلك من يعتبر، فاعتبر بذلك من خشي ربه من المؤمنين، وحق القول على الكافرين.

ثم أقام ـ سبحانه ـ حجته على العالمين بخلق ماهو أشد منهم وأكبر، وأعظم وأعلى وأرفع، وهو خلق السماء وبناؤها، ورفع سمكها وتسويتها، وإظلام ليلها، وإخراج ضحاها، وخلق الأرض ومدها وبسطها وتهيئتها لما يراد منها، وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم، وأرسى الجبال فجعلها رواسي للأرض، لئلا تميد بأهلها، وأودعها من المنافع ما يتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم. فمن قدر على ذلك كله كيف يعجز عن إعادتكم خلقًا جديدًا؟

فتأمل دلالة المقسم به المذكور في أول السورة على المعاد والتوحيد وصدق

الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور. وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجًا إلى جواب. والله أعلم.

(١) **فارجع** الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانيًا، وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعًا أو بصرًا أو عقلاً أو قدرة أو علمًا أو روحًا، بل عظمًا واحدًا من أصغر عظامها، بل عرقًا من أدق عروقها، بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك.

بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين، فمن هذا صنعه في قطرة ماء! فكيف صنعه في ملكوت السموات، وعلوها، وسعتها، واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وعجائب شمسها، وقمرها، وكواكبها، ومقاديرها وأشكالها، وتفاوت مشارقهاو مغاربها، فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقًا، وأتقن صنعًا، وأجمع العجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات. قال الله ـ تعالى ـ: **﴿أأنتم أشد خلقًا أم السماء * بناها رفع سمكها فسوّاها﴾** [النازعات: ٢٧، ٢٨]. وقال ـ تعالى ـ: **﴿إنَّ في خَلْقِ السَّموات والأرض واختِلافِ اللَّيل والنَّهار والفُلك التي تجري في البحر بما ينفَعُ النَّاس﴾** إلى قوله: **﴿لآياتٍ لقوم يعْقلون﴾** [البقرة: ١٦٤]. فبدأ بذكر خلق السموات. وقال تعالى: **﴿إنَّ في خَلقِ السَّموات والأرضِ واخْتِلاف اللَّيل والنَّهار لآياتٍ لأولي الألبَاب﴾** [آل عمران: ١٩٠].

وهذا كثير في القرآن: فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر، ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخبارًا عن عظمها وسعتها، وإما إقساماً بها، وإما دعاءًا إلى النظر فيها، وإما إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالاً منه ـ سبحانه ـ بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته.

---

(١) ١٩٦ مفتاح جـ١.

(١)**من** تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. واللوامة في قوله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]. وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠]. وأما الشيطان فذُكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة. فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره؛ فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركبُه وموضع شره، ومحل طاعته، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله ﷺ: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**» كما تقدم ذلك في الباب الذي قبله.

وقد جمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين الاستعاذة من الأمرين في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «أن أبابكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: يارسول الله! علمني شيئًا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «**قل: اللهم عالمَ الغيب والشهادة، فاطر السماوات والأرض، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشِرْكِه، وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أجُرَّه إلى مسلم، قُلْه إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك**».

(٢) **وقد** اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يُدخَلُ عليه ـ سبحانه ـ ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها.

فإن الناس على قسمين: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعًا لها تحت أوامرها. وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها، فصارت طوعًا لهم منقادة لأوامرهم. قال بعض العارفين: انتهى سفرالطالبين إلى الظفر بأنفسهم. فمن

(١) ٩٠ إغاثة. (٢) ٧٥ إغاثة جـ١.

ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك. قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وآثر الحَياةَ الدُّنْيَا * فإنَّ الجَحِيمَ هِيَ المأْوَى * وأمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه ونَهَى النَّفسَ عَنِ الهَوى * فإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المأْوَى**﴾ [النازعات: ٣٧ـ٤١].

فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهى النفس عن الهوى. والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة. وهذا موضع المحنة والابتلاء، وقد وصف ـ سبحانه ـ النفس في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة، والأمَّارة بالسوء، واللوّامة.

فاختلف الناس: هل النفس واحدة، وهذه أوصاف لها. أم للعبد ثلاث أنفس؟ نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة.

فالأول قول الفقهاء والمتكلمين. وجمهور المفسرين، وقول محققي الصوفية، والثاني قول كثير من أهل التصوف.

والتحقيق: أنه لا نزاع بين الفريقين؛ فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها. فإذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة، وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى فهي متعددة، وما أظنهم يقولون: إن لكل أحد ثلاث أنفس: كل نفس قائمة بذاتها، مساوية للأخرى في الحدّ والحقيقة، وأنه إذا قبض العبد قبضت له ثلاث أنفس، كل واحدة مستقلة بنفسها.

وحيث ذكر ـ سبحانه ـ النفس، وأضافها إلى صاحبها؛ فإنما ذكرها بلفظ الإفراد، وهكذا في سائر الأحاديث، ولم يجيء في موضع واحد «نفوسك» و«نفوسه» ولا «أنفسك» و«أنفسه» وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم، كقوله: ﴿**وإذَا النُّفـوسُ زُوِّجَتْ**﴾ [التكوير: ٧]. أو عند إضافتها إلى الجمع؛ كقوله ﷺ: «**إنما أنفسنا بيد الله**». ولو كانت في الإنسان ثلاث أنفس لجاءت مجموعة إذا أضيفت إليه ولو في موضع واحد.

(١)**وأما** الهوى فهو ميلُ النَّفس إلى الشيء، وفعله هوِي يَهْوَى هوًى، مثل عَمِي يَعْمَى عمىً. وأما هوى يَهْوَى بالفتح فهو السقوط، ومصدره الهُوِيُّ، ويقال:

(١) ٢٦ روضة المحبين.

الهوى أيضًا على نفس المحبوب قال الشاعر:

إن التي زعمت فؤادك ملَّها خُلقت هواك كما خُلِقْت هوًى لها

ويقال: هذا هوى فلان وفلانةٌ هواه أي مهويَّته ومحبوبته، وأكثر ما يُستعمل في الحب المذموم، كما قال الله تعالى: ﴿**وأمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى**﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ويقال: إنما سمي هوًى لأنه يهوى بصاحبه. وقد يستعمل في الحب الممدوح استعمالاً مقيَّدًا. ومنه قول النبي ﷺ: «**لَا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاه تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ** ». وفي الصحيحين عن عُروة قال: كانت خولةُ بنت حكيم من اللائي وهبْن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أما تستحي المرأة أن تهبَ نفسها للرجل؟ فلما نزلت ﴿**تُرْجِي مَنْ تَشاء مِنْهُنَّ**﴾ [الأحزاب: ٥١]. قلت: يارسول الله ماأرى ربَّك إلا يسارع هواك...

(١)**الخامس** والأربعون: أن أعدَى عدوٍّ للمرء شيطانُه وهواه، وأصدق صديق له عقلُه والملك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطى بيده للعدو، واستأسر له، وأشمته به وساء صديقَه ووليّه، وهذا هو بعينه هو جَهدُ البلاء، ودركُ الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

السادس والأربعون: أن لكل عبدٍ بداية ونهاية، فمن كانت بدايتُه اتباعَ الهوى، كانت نهايته الذلَّ والصغارَ والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يُعَذَّب به في قلبه كما قال القائل:

مآرب كانت في الشباب لأهلها عِذابًا فصارت في المشيب عَذابا

فلو تأمَّلت [حال] كل ذي حال سيئةٍ زَرية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايتُه مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايتُه العزَّ والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس. قال أبو علي الدّقاق: من ملك شهوته في حال شبيبته أعزَّه الله ـ تعالى ـ في حال كهولته. وقيل للمهلب بن أبي صُفْرة. بمَ نلتَ ما نلت؟ **قال:** بطاعة الحزم وعصيان الهوى، فهذا في بداية الدُّنيا

(١) ٥١٦ روضة المحبين.

ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الجنة نهايةَ من خالف هواه، والنارَ نهايةَ من اتَّبع هواه.

(١)**فأما** مخالفة الهوى فلم يجعل الله للجنة طريقًا غير مخالفته، ولم يجعل للنار طريقًا غير متابعته، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**فأمَّا مَنْ طَغى * وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا * فإنَّ الجَحِيمَ هِيَ المأوَى * وأمَّا مَن خَافَ مقامَ ربِّه ونَهى النَّفس عن الهَوى * فإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المـأوَى**﴾[النازعات: ٣٧-٤١]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ ربِّه جَنَّتَانِ**﴾[الرحمن: ٤٦]. قيل: هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقامَ ربه عليه في الدُّنيا، ومقامَه بين يديه في الآخرة فيتركها لله.

(٢)**كتاب** لعسر الولادة: قال الخلال: حدثني عبدالله بن أحمد قال: رأيت أبي يكتب للمرأة إذا عسر عليها ولادتها في جام أبيض، أو شيء نظيف، يكتب حديث ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «**لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، كأنهم يوم يرون ما يوعدون، لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلى عشية أو ضحاها**».

قال الخلال: أنبأنا أبوبكر المروزي: أن أباعبدالله جاءه رجل، فقال: ياأباعبدالله، تكتب لامرأة قد عسرت عليها ولادتها منذ يومين، فقال: قل له يجيء بجام واسع وزعفران. ورأيته يكتب لغير واحد.

ويذكر عن عكرمة عن ابن عباس قال: مرَّ عيسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم على بقرة قد اعترض ولدها في بطنها، فقالت: ياكلمة الله! ادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، فقال: يا خالق النفس من النفس، ويا مخلص النفس من النفس، ويا مخرج النفس من النفس، خلصها، قال: فرمت بولدها، فإذا هي قائمة تشمه. قال: فإذا عسر على المرأة ولدها. فاكتبه لها. وكما تقدم من الرقى، فإن كتابته نافعة، ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعله الله فيه.

---

(١) ٤٢٨ روضة.

(٢) ٣٨١ زاد المعاد جـ٣.

كتاب آخر لذلك: يكتب في إناء نظيف: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّت * وأذِنَت لِرَبِّهَا وَحُقَّت * وإذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وأَلْقَتْ مَا فِيها وَتَخَلَّتْ**﴾ [الانشقاق: ١-٤] وتشرب منه الحامل، ويرش على بطنها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النازعات
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** تعالى: ﴿وأمَّا مَن جَاءَكَ يَسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهّى﴾ [عبس: ٨، ١٠]. يقال: لهى عن الشيء يَلهى: كغَشِيَ يَغْشَى إذا غفل، ولها به يَلهو، إذا لعب؛ وفي الحديث: «**فلها رسول الله ﷺ بشيء كان في يديه**» أي اشتغل به، ومنه الحديث الآخر: «**إذا استأثر الله بشيء فالْهَ عنه**». وسئل الحسن: عما يجده الرجل من البلة بعد الوضوء والاستنجاء؟ فقال: الْهَ عنه. وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد لها عن حديثه، وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ لرجل بعثه بمال إلى أبي عبيدة، ثم قال للرسول: «تَلهَّ عنه، ثم انظر ماذا يصنع به» ومنه قول كعب بن زهير:

وقال كُلُّ صَديق كنت آمله   لا أُلهينَّك؛ إني عنك مشغولُ

أي لا أشغلك عن شأنك وأمرك، وفي المسند «**سألت ربي أن لا يعذب اللاهين من أمتي**» وهم البُلهُ الغافلون الذين لم يتعمدوا الذنوب، وقيل: هم الأطفال الذين لم يقترفوا ذنباً.

(٢)**وإذا** تأملت ما دعا الله ـ سبحانه ـ في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به ـ سبحانه وتعالى ـ وبوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، من عموم قدرته، وعلمه، وكمال حكمته، ورحمته، وإحسانه، وبره، ولطفه، وعدله، ورضاه، وغضبه، وثوابه، وعقابه. فبهذا تعرّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته. ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله ـ سبحانه ـ في كتابه ليستدل بها على غيرها، فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب ـ سبحانه ـ إلى التفكر، فيه والنظر في غير موضع من كتابه: كقوله تعالى: ﴿**فلينظر الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ**﴾ [الطارق: ٥] وقوله تعالى: ﴿**وفي أنفُسِكم أفلا تُبصِرُون**﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال تعالى: ﴿**يا أيُّها النَّاسُ**

(١) أعلام جـ٤.   (٢) ١٨٧ مفتاح جـ١.

إن كُنْتُم في ريبٍ مِنَ البعثِ فإنَّا خَلقناكُم من تُرابٍ ثُمَّ مِن نطفةٍ ثُمَّ من علقَةٍ ثمَّ من مُضغةٍ مُخلَّقةٍ وغَيرِ مُخلَّقةٍ لِنُبيِّنَ لكم ونُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ إلى أجلٍ مُسمَّى ثُمَّ نُخرجكم طِفلاً ثُمَّ لِتَبلغوا أشُدَّكم ومنكم من يُتوفَّى ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ [الحج: ٥]. وقال تعالى: ﴿أيَحسَبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدًى ألم يَكُ نطفة من مَنِيٍّ يُمنى ثم كان علقة فَخَلَقَ فَسَوَّى فجَعَلَ منه الزَّوْجَيْنِ الذَكَرَ والأنثى ألَيْسَ ذلك بقادرٍ على أن يُحْيِيَ الموتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠]. وقال تعالى: ﴿ألم نَخلقكم من ماءٍ مهينٍ فجعلنَاه في قرارٍ مكينٍ إلى قدرٍ معلومٍ فقَدَرنَا فَنِعْمَ القادِرُون﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣]. وقال تعالى: ﴿أو لم ير الإنسانُ أنا خَلقناه من نُطفةٍ فإذا هو خَصيمٌ مُبينٌ﴾ [يسٓ: ٧٧]. وقال: ﴿ولقد خَلقنا الإنسان من سُلالةٍ من طِينٍ ثُمَّ جَعلناه نُطفةً في قَرارٍ مكينٍ ثُمَّ خَلقنَا النُّطفةَ علَقةً فخلقْنا العَلقَةَ مُضغَةً فَخلقنا المُضغة عظامًا فكسَونا العِظامَ لحمًا ثُمَّ أنشأناه خَلقًا آخر فتَبَارَكَ اللهُ أحسنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره. إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره. قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أكفره من أيِّ شيءٍ خَلَقَه من نُطفةٍ خَلقَه فقدَّره ثُمّ السَّبِيلَ يَسَّره ثُمّ أماتَهُ فأقبرَه ثُمَّ إذَا شَاءَ أَنْشَرَه﴾ [عبس: ١٧-٢٢]. فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ: النطفة والعلقة والمضغة والتراب، ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله، هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث (**فانظر الآن إلى النطفة**) بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وانتنت. كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها.

وكيف جمع ـ سبحانه ـ بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف **قادهما** بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه. وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد، جعل لهما قرارًا مكينًا، لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه.

ثم قلّب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء، تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم، مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظامًا مجردة لا كسوة عليها، مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها.

(وانظر) كيف قسّم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك. ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال، وكيف كساها لحمًا ركبه عليها، وجعله وعاء لها، وغشاء وحافظًا، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها. وهي محفوظة به، وكيف صورها فأحسن صورها، وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ.

(1)**وقال** تعالى: ﴿**فَلينْظُر الإنسان إلى طَعامِه * أنَّا صَبَبْنا الماءَ صبًّا * ثم شَقَقْنَا الأرضَ شقًّا * فأنبتنا فيها حبًّا * وعِنبًا وقَضبًا * وزيتُونًا ونَخلاً * وحَدائِقَ غُلبًا * وفَاكِهةً وأبًّا**﴾ [عبس: ٢٤-٣١]. فجعل ـ سبحانه ـ نظره في إخراج طعامه من الأرض دليلاً على إخراجه هو منها بعد موته، استدلالاً بالنظير على النظير.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة عبس

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٤٧ أعلام جـ١.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قرأ** قارىء: ﴿**إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ**﴾ [التكوير: ١-٣]. وفي الحاضرين أبو الوفاء بـن عقيل. فقال له قائل: يا سيدي هب أنـه أنشر الموتى للبعث والحساب، وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقـاب، فلم هدم الأبنية، وسـير الجبـال، ودكّ الأرض، وفطر السماء، ونثر النجوم، وكوّر الشمس؟! فقال: إنما بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها، وجعـل ما فيهـا للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر، فلما انقضت مدة السكنى، وأجلاهم من الدار خربها لانتقال الساكن منها. فأراد أن يعلمهم بأن السكـونـين كانت معمورة بهم، وفي إحالة الأحوال، وإظهار تلك الأهوال، وبيان المقدرة بعد بيان العزة وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا آلهتهم قد انهدمت، وأن معبـوداتهم قد انتثـرت وانفطرت، ومحالها قد تشققت. ظهرت فضائحهم، وتبين كذبهم، وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر، له رب يصرفه، كيف يشاء، تكذيبًا للملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم. فكم لله من حكمة في هدم هذه الدار، ودلالة على عظم عزته وقدرته وسلطانه وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانها لمشيئته، فتبارك الله رب العالمين(٢).

(٣)**الدليل** على حشر الوحوش وجوه: (أحدها) قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وإذا الوُحوشُ حُشِرَتْ**﴾ [التكوير: ٥]. (الثاني) قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ومَا من دابّة في الأرضِ ولا طائِرِ**

---

(١) ١٨٢ بدائع جـ٣.

(٢) ساق المؤلف ـ رحمه الله ـ هذه القصة في كتابه مفتاح دار السعادة ٢/١٦٣ قريبًا من هذا السياق.

(٣) ١٨٣ بدائع جـ٣.

يطيرُ بجنَاحَيْه إلا أممٌ أمثالُكم ما فَرَّطْنَا في الكتابِ من شيءٍ ثُمَّ إلى ربهم يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. (الثالث) حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وإنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، وهو متفق على صحته. (الرابع) حديث أبي ذر أن النبي، ﷺ، رأى شاتين ينتطحان فقال: «يا أبا ذر! أتدري فيما ينتطحان؟!» قال: قلت: لا. قال: «لكن الله يدري وسيقضي بينهما» رواه أحمد في مسنده. (الخامس) الآثار الواردة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظرُ المَرءُ ما قَدَّمتْ يَداه ويقولُ الكَافِرُ يا لَيتَني كُنتُ تُرابًا﴾ [النبأ: ٤٠]. وأن الله ـ تعالى ـ يجمع الوحوش، ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني ترابًا. فتكون ترابًا؛ فعندها يقول الكافر: ﴿يا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا﴾.

(١)**قوله** سبحانه: ﴿فلا أقسِم بِالخُنَّسِ * الجَوارِ الكُنَّس * واللَّيلِ إذا عَسْعَسَ * والصُّبحِ إذا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٥-١٨]. أقسم ـ سبحانه ـ بالنجوم في أحوالها الثلاثة. من طلوعها، وجريانها، وغروبها. هذا قول علي، وابن عباس، وعامة المفسرين. وهو الصواب.

والخنس جمع خانس. والخنس الانقباض والاختفاء، ومنه سمي الشيطان خناسًا، لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه. ومنه قول أبي هريرة فانخنست(٢). والكنس جمع كانس، وهو الداخل في كناسه، أي في بيته. ومنه تكنست المرأة إذا دخلت في هودجها، ومنه كنست الظباء، إذا أوت إلى أكناسها.

والجواري جمع جارية، كغاشية وغواش. قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل. وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم قالوا: الكواكب تخنس بالنهار، فتختفي ولا ترى، وتكنس في وقت غروبها. ومعنى تخنس ـ على هذا القول ـ تتأخر عن البصر، وتتوارى عنه بإخفاء النهار لها، وفيه

---

(١) ٧٢ التبيان.

(٢) روى أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة أن النبي ﷺ لقيه في بعض طرق المدينة وهو جنب، فانخنس منه فذهب فاغتسل. ثم جاء، فقال له: «**أين كنت يا أبا هريرة؟ فقال: كنت جنبًا، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة. فقال: سبحان الله، إن المؤمن لا ينجس**».

قول آخر، وهو أن خنوسها رجوعها، وهي حركتها الشرقية، فإن لها حركتين حركة بفعلها وحركة بنفسها، فخنوسها حركتها بنفسها راجعة، وعلى هذا فهو قسم بنوع من الكواكب، وهي السيارة، وهذا قول الفراء. وفيه قول ثالث، وهو أن خنوسها وكنوسها واختفاءها وقت مغيبها، فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها، وهذا قول الزجاج.

ولما كان للنجوم حال ظهور، وحال اختفاء، وحال جريان، وحال غروب أقسم - سبحانه - بها في أحوالها كلها. ونبه بخنوسها على حال ظهورها؛ لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لا يزال مختفيًا: إنه قد خنس، فذكر - سبحانه - جريانها وغروبها صريحًا، وخنوسها وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع، فالطلوع أول جريانها. فتضمن القسم طلوعها، وغروبها وجريانها، واختفاؤها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته.

وليس قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر لوجوه: (أحدها) أن هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة. (الثاني) اشتراك أهل الأرض في معرفته بالمشاهدة والعيان. (الثالث) أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقًا، بل لاتزال ظاهرة في الفلوات. (الرابع) إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء. قال الواحدي: هو من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، والبقر والظباء أنوفهن خنس، والبقرة خنساء، والظبي أخنس. ومنه سميت الخنساء(١) لخنس أنفها، ومعلوم أن هذا أمر خفي يحتاج إلى تأمل، وأكثر الناس لا يعرفونه، وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية يشترك في معرفتها الخلائق، وليس الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في أنف ابن آدم، فالآية فيه أظهر. (الخامس) أن كنوسها في أكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات في بيته الذي يأوي فيه ولا أظهر منه، حتى يتعين للقسم. (السادس) أنه لو كان جمعًا للظبي لقال الخُنْس - بالتسكين - لأنه جمع أخنس، فهو كأحمر وحمر، ولو أريد به

(١) هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة الصحابية رضي الله عنها.

جمع بقرة خنساء لكان على وزن فعلاء أيضًا، كحمراء وحمر، فلما جاء جمعه على فعل ـ بالتشديد ـ استحال أن يكون جمعًا لواحد من الظباء والبقر؛ وتعين أن يكون جمعًا لخانس، كشاهد وشهد، وصائم وصوم، وقائم وقوم، ونظائرها. (السابع) أنه ليس بالبين إقسام الرب ـ تعالى ـ بالبقر والغزلان، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه.

كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهي النفس الإنسانية. ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله، وهو القرآن. ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء، وشمسها وقمرها، ونجومها. ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه، وهو الليالي العشر.

وإذا أراد ـ سبحانه ـ أن يقسم بغير ذلك أدرجه في العموم، كقوله: ﴿**فلا أقسم بما تُبصرون وما لا تُبصِرون**﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وقوله: ﴿**الذكر والأنثى**﴾ في قراءة رسول الله، ﷺ، ونحو ذلك. (الثامن) أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم، وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد. وبهذا احتج أبوإسحاق على أنها النجوم. فقال: هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش. (التاسع) أنه لو أراد ذلك ـ سبحانه ـ لبينه وذكر ما يدل عليه، كما أنه لما أراد بالجواري السفن قال: ﴿**ومن آياته الجَوار في البحر كالأعلام**﴾ [الشورى: ٣٢]. وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق مايدل على أنها البقر والظباء. وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التي ذكرناها وغيرها. (العاشر) أن الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للسالكين ورجوم للشياطين وبين المقسم عليه ـ وهو القرآن، الذي هو هدىً للعالمين، وزينة للقلوب، وداحض لشبهات الشيطان ـ أعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن. والله أعلم[1].

---

(١) تعرض المؤلف لهذا البحث في مفتاح دار السعادة، ص١٩٠ جـ٢.

فصـــل

واختلف في عسعسة الليل، هل هي إقباله أم إدباره؟ فالأكثرون على أن عسعس بمعنى: ولى وذهب وأدبر. هذا قول علي وابن عباس وأصحابه. قال الحسن: أقبل بظلامه، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد.

فمن رجح الإقبال قال: أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإقبال الليل وإقبال النهار. فقوله: ﴿**والصُّبح إذا تَنفَّس**﴾ [التكوير: ١٨] مقابل لليل إذا عسعس. قالوا: ولهذا أقسم الله بـ﴿**اللَّيـل إذا يَغشى والنَّهار إذا تَجلَّى**﴾ [الليل: ١، ٢] وبالضحى. قالوا: فغشيان الليل نظير عسعسته، وتجلي النهار نظير تنفس الصبح، إذ هو مبدؤه وأوله.

ومن رجح أنه إدباره احتج بقوله ـ تعالى ـ: ﴿**كلَّا والقَمر * واللَّيل إذ أدبر * والصُّبح إذا أسفر**﴾ [المدثر: ٣٢-٣٤] فأقسم بإدبار الليل وإسفار الصبح، وذلك نظير عسعسة الليل، وتنفس الصبح.

قالوا: والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل، وإقبال النهار. فإنه عقيبه من غير فصل. فهذا أعظم في الدلالة والعبرة، بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار، فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما، ولأن بينهما زمنًا طويلاً. فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ. فذكر سبحانه حالة ضعف هذا، وإدباره، وحالة قوة هذا وتنفسه. وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه. وهذا هو القول. والله أعلم.

فصــل

ثم ذكر ـ سبحانه ـ المقسم عليه، وهو القرآن، وأخبر أنه قول رسول كريم، وهو ههنا جبريل قطعًا. لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به. وأما الرسول الكريم في الحاقة فهو محمد، ﷺ، لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه أنه قوله. فقال: ﴿**وما هُو بِقول شَاعرٍ قَليلًا ما تُؤمنون * ولا بِقول كَاهِنٍ قَليلًا ما تَذكَّرون**﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢] فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري تارة، وإضافته إلى كل

واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده، وإلا تناقضت النسبتان. ولفظ الرسول يدل على ذلك. فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله.

وهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمدًا، ﷺ، وأن كلًّا منهما بلغه عن الله، فهو قوله مبلغًا، وقول الله الذي تكلم به حقًّا. فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلمًا بالقرآن وهو كلامه حقًّا في هاتين الآيتين، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى، وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ، فجبريل سمعه من الله، ومحمد، ﷺ، سمعه من جبريل(١).

ووصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه: كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السموات، أمين، فهذه خمس صفات تتضمن تذكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين. فناهيك بهذا السند علوًّا وجلالة: قول الله سبحانه بنفسه تزكيته.

الصفة الأولى كون الرسول الذي جاء به إلى محمد ﷺ كريمًا ليس كما يقول أعداؤه: إن الذي جاء به شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث، لئيم، قبيح المنظر، عديم الخير، باطنه أقبح من ظاهره، وظاهره أشنع من باطنه، وليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شيء عن الكرم.

والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد ﷺ كريم، جميل المنظر، بهي الصورة، كثير الخير، طيب مطيب، معلم الطيبين. وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر، فهو مما أجراه ربه على يده، وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني أنه ذو قوة كما قال في موضع آخر: ﴿**عَلَّمه شَدِيدُ القُوىٰ**﴾ [النجم: ٥] وفي ذلك تنبيه على أمور:

أحدها: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئًا، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه، ومعاضد له، ومواد له وناصر،

(١) تقدم في سورة الحاقة بحث قريب من هذا، (ج).

كما قال تعالى: ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكةُ بعدَ ذَلِكَ ظَهيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره، وأعوانه، ومعلمه، فهو المهدي المنصور، والله هاديه، وناصره.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول، فقد عادى صاحبه ووليه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مؤد له كما أمر به لأمانته، فهو القوي الأمين، وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة، أو ولاية، أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب لها القوي عليه، الأمين على فعله، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قويًّا أمينًا معظمًا ذا مكانة عنده، مطاعًا في الناس، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات. وهذا يدل على عظمة شأن المرسل، والرسول، والرسالة، والمرسل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده، المطاع في الملأ الأعلى، الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف، ذوي الأقدار والرتب العالية.

(1)**وقد** أثنى الله ـ سبحانه ـ على عبده جبريل في القرآن أحسن الثناء، ووصفه بأجل الصفات فقال: ﴿فلا أقسم بالخُنَّس * الجَوارِ الكُنَّس * واللَّيل إذا عَسْعَسَ * والصِّبح إذا تَنَفَّس * إنَّه لقولُ رسولٍ كريمٍ * ذِي قُوة عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ * مُطاعٍ ثَمَّ أمينٍ﴾ [التكوير: ١٥-٢١]. فهذا جبريل، فوصفه بأنه رسوله، وأنه كريم عنده، وأنه ذو قوة ومكانة عند ربه ـ سبحانه ـ، وأنه مطاع في السموات. وأنه أمينٌ على الوحي.

فمن كرمه على ربه: أنه أقرب الملائكة إليه. قال بعض السلف: منزلته من ربه منزلة الحاجب من الملك.

ومن قوته: أنه رفع مدائن قوم لوط على جناحه، ثم قلبها عليهم. فهو قويّ على تنفيذ ما يؤمر به، غير عاجز عنه، إذ تطيعه أملاك السموات فيما يأمرهم به عن الله تعالى. قال ابن جرير في تفسيره، عن إسماعيل بن أبي خالد عن

(١) ١٢٨ إغاثة جـ٢.

أبي صالح: أمينٌ على أن يدخل سبعين سُرادقًا من نور بغير إذن.

ووصفه بالأمانة يقتضي صدقه ونصحه، وإلقاؤه إلى الرسل ما أُمِرَ به من غير زيادة ولا نقصان ولا كتمان. وقد جمع له بين المكانة والأمانة والقوة والقرب من الله.

ونظير الجمع له بين المكانة والأمانة: قول العزيز ليوسف عليه السلام: ﴿**إنَّك اليَـوم لدَينَا مَكِين أمينٌ**﴾ [يوسف: ٥٤] والجمع بين القوة والأمانة: نظير قول ابنة شعيب في موسى عليه السلام: ﴿**إن خير من استأجرت القوي الأمين**﴾ . . .

(١)**وقوله**: ﴿**عِند ذي العرش مَكين**﴾ [التكوير: ٢٠] أي له مكانة ووجاهة عنده، وهو أقرب الملائكة إليه، وفي قوله: ﴿**عِند ذِي العَرشِ**﴾ إشارة، إلى علو منزلة جبريل، إذ كان قريبًا من ذي العرش سبحانه.

وفي قوله: ﴿**مُطَاعٍ ثَمَّ**﴾ [التكوير: ٢١] إشارة إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد ﷺ. وفيه إشارة أيضًا إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعًا في الأرض، كما أن جبريل مطاع في السماء، وأن كلا من الرسولين مطاع في محله وقومه. وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع.

وفي وصفه بالأمانة إشارة إلى حفظه ما حمله، وأدائه له على وجهه.

ثم نزه رسـولـه البشري وزكاه عما يقول فيه أعداؤه. فقال: ﴿**ومَا صَاحِبكم بِمجنون**﴾ [التكوير: ٢٢]. وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين.

ثم أخبر عن رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل. وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج، يرى بالعيان، ويدركه بالبصر، لا كما يقول المتفلسفة، ومن قلدهم: إنه العقل الفعال، وأنه ليس مما يدرك بالبصر، وحقيقته عندهم أنه خيال موجـود في الأذهـان لا في الأعيان، وهـذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل.

(١) ٧٧ التبيان.

ولهذا كان تقرير رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى. فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها. ومن أنكرها كفر قطعًا. وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق.

وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره. وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك[1] فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى. وإن كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه. فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة.

ثم نزه رسوليه كليهما ـ أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم ـ عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل، والتبديل، والتغيير، الذي يوجب التهمة، فقال: ﴿**وما هو على الغيب بضَنين**﴾ [التكوير: ٢٤]. فإن الرسالة لايتم مقصودها إلا بأمرين: أدائها من غير كتمان، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان. والقراءتان كالآيتين، فتضمنت إحداهما ـ وهي قراءة الضاد ـ تنزيهه عن البخل. فإن الضنين هو البخيل، يقال ضننت به أضن، بوزن بخلت به أبخل ومعناه؛ ومنه قول جميل بن معمر:

أجود بمضنون التلاد وإنني بسرك عمن سألني لضنين

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس بخيلاً بما أنزل الله. وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم.

وأجمع المفسرون على أن الغيب ههنا القرآن والوحي. وقال الفراء، يقول تعالى: يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه، فلا يضن به عليكم، وهذا معنى حسن جدًا، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمن لا يعرف قدره، ويذمه ويذم من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله.

---

(١) في كتاب الرد على بشر المريسي الجهمي. وهو من أنفس ما كتب في بيان عقيدة أهل السنة من السلف. وفي الرد على الجهمية وغيرهم من أهل العقائد الزائغة الضالة.

وقال أبوعلي الفارسي: المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده، ويخفيه حتى يأخذ عليه حلوانًا. وفيه معنى آخر، وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به فلا يخاف أن ينتقض، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به، كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب. فإن كذبهم أضعاف صدقهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه، بل هو خائف من ظهور كذبه، فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب واثقًا به، مقيمًا عليه، مبديًا له في كل مجمع، ومعيدًا مناديًا به على صدقه، مجلبًا به على أعدائه من أعظم الأدلة على صدقه.

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء، فمعناه المتهم، يقال: ظننت زيدًا بمعنى اتهمته، وليس من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذاك يتعدى إلى مفعولين، ومنه ما أنشده أبو عبيدة:

أمـا وكتـاب الله لا عن شناءة		هجـرت، ولكن المحب ظنـين

والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص؛ وهذا يدل على أن الضمير يرجع إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة. ثم قال: ﴿**وما صاحِبكم بمجنُون**﴾ [التكوير: ٢٤]. ثم قال: (وماهو) أي وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل.

واختار أبوعبيدة قراءة الظاء لمعنيين: أحدهما: أن الكفار لم يبخلوه. وإنما اتهموه، فنفى التهمة أولى من نفى البخل. الثاني: أنه قال: ﴿**على الغيب**﴾ ولو كان المراد البخل لقال بالغيب، لأنه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا.

قلت: ويرجحه أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكي، من الأمانة، فنفى عنه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين. ويرجحه أيضًا أنه ـ سبحانه ـ نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب. فإن ذلك لو كان كذبًا، فإما أن يكون منه، أو ممن علمه، وإن كان منه، فإما أن يكون تعمده أو لم يتعمده، فإن كان من معلمه فليس هو بشيطان رجيم. وإن كان منه مع التعمد فهو المتهم، ضد الأمين.

وإن كان عن غير تعمد فهو المجنون. فنفى ـ سبحانه ـ عن رسوله ذلك كله،

وزكى سند القرآن أعظم تزكية. فلهذا قال ـ سبحانه ـ: **﴿وما هُو بِقول شيطَانٍ رَّجِيمٍ﴾** [التكوير: ٢٥]. ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه، ولا يحسن منه كما قال تعالى: **﴿وما تنَزَّلت به الشَّياطين * وما ينبغي لهم وما يستطِيعون﴾** [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. فنفى فعله وابتغاءه منهم، وقدرتهم عليه. وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين، وأحوال الرسل يعلم علمًا لا يماري فيه ولا يشك، بل علمًا ضروريًا، كسائر الضروريات ـ منافاة أحدهما للآخر. ومضادته له. كمنافاة أحد الضدين لصاحبه، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر.

ولهذا وبخ ـ سبحانه ـ من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين. فقال: **﴿أينَ تَذْهبُون﴾** [التكوير: ٢٦]. قال أبو إسحاق: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟.

قلت: هذا من أحسن اللازم وأبينه، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له: إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ قال تعالى: **﴿فَبأي حديثٍ بعده يؤمِنون﴾** [المرسلات: ٥٠]. وقال: **﴿فبأي حديثٍ بعد الله وآياته يُؤمِنون﴾** [الجاثية: ٦]. فالأمر منحصر في الحق والباطل، والهدى والضلال، فإذا عدلتم عن الهدى والحق، فأين العدول؟، وأين المذهب؟.

ونظير هذا قوله: **﴿فهل عَسيتُم إن توليتم أن تُفسِدوا في الأرضِ وتُقَطِّعوا أرحَامَكم﴾** [محمد: ٢٢] أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم.

ونظيره قوله ـ تعالى ـ: **﴿بَل كذَّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمرٍ مَريج﴾** [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا إلا كان باطلًا ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود.

ونظيره قوله ـ تعالى ـ: **﴿فإن لَّم يستجيبُوا لك فاعلم أنَّما يتَّبعون أهواءهم﴾** [القصص: ٥٠]. وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله ـ عز وجل ـ:

﴿فذَلِكم الله ربُّكم الحقُّ فماذا بعد الحق إلا الضَّلال فأنَّى تُصرَفُون﴾ [يونس: ٣٢].

فصل

ثم أخبر - تعالى - عن القرآن بأنه ذكر للعالمين. وفي موضع آخر تذكرة للمتقين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق. وفي موضع آخر ذكر مبارك. وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرًا عامًّا وخاصًّا، وكونه ذا ذكر. فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم. ويذكرهم بالمبدأ والمعاد. ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده. ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه. ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالهم وآفاتها، وما تكمل به. ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم. ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفسًا واحدًا. ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها. ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره، وكذب رسله. ويذكرهم بثوابه وعقابه.

ولهذا يأمر - سبحانه - عباده أن يذكروا ما في كتابه، كما قال: ﴿خُذوا ما آتيناكم بقوَّة واذكروا ما فيه لعَلَّكم تتَّقون﴾ [الأعراف: ١٧١]. وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذاكرًا له من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين. وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

وأما وصفه بأنه ذو الذكر فلأنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر، ومنه الذكر. فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدى وفيه الهدى، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة.

وقوله سبحانه: ﴿لمن شاء مِنكم أن يستقِيم﴾ [التكوير: ٢٨] بدل من العالمين. وهو بدل بعض من كل. وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين، فإن جهة كونه ذكرًا للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكرًا لأهل

الاستقامة، فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع، فكما أن البدل أخص من المبدل منه، فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه. ولابد من هذا فتأمله.

وقوله: ﴿لمن شَاءَ مِنكم﴾ رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له، أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سببًا فيه.

وقوله: ﴿ومَا تَشاءون إلا أن يَشاء الله﴾ [التكوير: ٢٩] ردّ على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، بل متى شاء العبد الفعل وجد، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد، بل هو يفْعله بدون مشيئة الله.

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين. فإن قال الجبري: هو سبحانه لم يقل: إن الفعل واقع بمشيئة العبد، بل أخبر أن الاستقامة تحصل عند المشيئة، ونحن قائلون بذلك، وقال القدري قوله: ﴿ومَا تَشاءون إلا أن يَشَاء الله﴾ مختلفة، فمشيئة العبد هي الموجبة للفعل التي بها يقع، ومشيئة الله لفعله هو أمره بذلك، ونحن لا ننكر ذلك.

فالجواب أن هذا من تحريف الطائفتين. أما الجبري فيقال له: اقتران الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه وشكله وسائر أغراضه التي لا تأثير لها في الفعل. فإن نسبة جميع أغراضه إلى الفعل في عدم التأثير نسبة إرادية عندك، والاقتران حاصل بجميع أغراضه، فما الذي أوجب تخصيص المشيئة؟ سوى الله ـ سبحانه ـ في فطر الناس أو عقولهم، أو شرائعهم، بين نسبة المشيئة والإرادة إلى الفعل، ونسبة سائر أغراض الحي إذا كان عندك ليس إلا مجرد الاقتران عادة؟ والاقتران العادي حاصل مع الجميع.

وأما القدري فتحريفه أشد، لأنه حمل المشيئة على الأمر وقال: المعنى وما تشاءون إلا بأمر الله، وهذا باطل قطعًا، فإن المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك، وإنما استعملت في مشيئة التكوين كقوله: ﴿ولو شاء ربُّك ما فَعلوه﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقوله:

﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: **﴿ولو شِئنا لآتينا كلَّ نَفس هُداها﴾** [السجدة: ١٣]. وقوله: **﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى النَّاس جميعًا﴾** [الرعد: ٣١]. ونظائر ذلك، مما لا يصح فيه حمل المشيئة على الأمر ألبتة.

والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد، وأدلة العقل الصريح، أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فما لم يشأ لم يكن ألبتة، كما أن ما شاء كان ولابد.

ولكن ههنا أمرًا يجب التنبيه عليه، وهو أن مشيئة الله ـ سبحانه ـ تارة تتعلق بفعله، وتارة تتعلق بفعل العبد، فتعلقها بفعله وهو أن يشاء من نفسه إعانة عبده وتوفيقه وتهيئته للفعل، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته، ولا يكفي في وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئة عبده، دون أن يشاء فعله. فإنه ـ سبحانه ـ قد يشاء من عبده المشيئة وحدها، فيشاء العبد الفعل ويريده ولا يفعله، لأنه لم يشأ من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

وقد دل على هذا قوله تعالى: **﴿وما تَشاءون إلَّا أن يشاءَ اللهُ ربُّ العَالَمين﴾** [التكوير: ٢٩]. وقوله: **﴿وما يذكرون إلَّا أن يشاء الله﴾** [المدثر: ٥٦].

وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر، والأسباب والمسببات، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب، ولكل منهما عبودية مختص بها: فعبودية الآية الأولى: والاجتهاد، واستفراغ الوسع، والاختيار، والسعي. وعبودية الثانية: الاستعانة بالله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، واستنزال التوفيق، والعون منه، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء، ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

وقوله: **﴿ربُّ العالَمين﴾**. ينتظم ذلك كله، ويتضمنه، فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها. وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التكوير
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**إذا** أذنب العبد الموحد المتبع سبيل الله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله. إذا نام العبد المؤمن بات في شعاره(٢) ملك، فملك المؤمن من يرد عليه، ويحارب، ويدافع عنه، ويعلمه، ويثبته، ويشجعه. فلا يليق به أن ينسىٰ جواره، ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده. فإنه ضيفه وجاره. وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لزوم الإيمان وموجباته. فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران وأبرهم؟

وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه(٣) وقال: «لا جزاك الله خيرًا» كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان. قال بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: «إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم». ومن ألأم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره.

وقد نبه ـ سبحانه ـ على هذا المعنى بقوله: ﴿**وإنَّ عليكُم لحَافِظِين * كِرامًا كاتِبين * يعلَمون ما تَفعلون**﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم. والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم. وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟ والله المستعان.

(٤)**من** نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه. كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيم ألبتة. بل التفاوت الذي بين النعيمين:

---

(١) ١٤٦ الجواب الكافي.

(٢) الشعار ما يلي الجسم من الثياب.

(٣) أي دعا الملك على العبد.

(٤) ١٠١ الجواب الكافي.

كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الأبرار لفِي نَعيمٍ * وإِنَّ الفُجَّار لَفِي جَحيم**﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك: أعني دار الدنيا ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم. وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟

وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدرو إعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله؟ بكل واد منه شعبة، وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله، فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحب شيئًا غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه وأنواع المعارضات، فإذا سلبه اشتد عذابه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجى عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده. وألم الحجاب عن الله. وألم الحسرة التي تقطع الأكباد. فالهم والغم الحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم. بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله إلى أجسادها. فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر. . .

(١)... **فقلوب** أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي: في جحيم قبل الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿**إِنَّ الأبرار لَفي نعيم * وإِنَّ الفُجَّار لَفِي جَحيم**﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] هذا في دورهم الثلاث. ليس مختصًا بالدار الآخرة. وإن كان تمامه وكماله وظهوره: إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى: ﴿**وإِنَّ للَّذين ظَلموا عَذابًا دُون ذلِك**﴾ [الطور: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿**ويَقولون مَتى هذا الوعدُ إن كنتم صادِقين قل**

---

(١) ٢٤٤ شفاء.

عسى أن يكون رَدِف لكم بعضُ الذي تَستعجِلون﴾ [النمل: ٧١، ٧٢].

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكر فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حِسيّ فيطرحه عن قلبه، ويقطع التفاته عنه. ويجعل إقباله على غيره. لئلا يشعر به جملة. فلو زال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم. فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثارًا محبوبة لذيذة طيبة. لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة. لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصي آلامًا وآثارًا مكروهة، وحزازات تُرْبِى على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة.

قال ابن عباس: إن للحسنة نورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وأن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق. وهذا يعرفه صاحب البصيرة ويشهده من نفسه ومن غيره. فما حصل للعبد مكروه قط إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر. قال الله تعالى: **﴿وما أصابكم من مُصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفُو عن كثير﴾** [الشورى: ٣٠].

(١)**الوجه** الثلاثون أن يوم المعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها، ولهذا يقول ـ سبحانه ـ: **﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار﴾**. وقال: **﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾**. وقال: **﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله﴾** [الانفطار: ١٩]. حتى أن الله ـ سبحانه ـ ليتعرف إلى عباده ذلك اليوم بأسماء وصفات لم يعرفوها في هذه الدار، فهو يوم ظهور المملكة العظمى والأسماء الحسنى والصفات العلى. فتأمل ما أخبر به الله ورسوله من شأن ذلك اليوم وأحكامه وظهور عزته ـ تعالى ـ وعظمته وعدله وفضله ورحمته وآثار صفاته المقدسة التي لو خلقوا في دار البقاء لتعطلت، وكماله سبحانه ينفي ذلك.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الانفطار

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٤٤ شفاء.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**وإذَا كالوهم أو وزَنوهم**﴾ [المطففين: ٣] أي بايعوهم كيلاً أو وزنًا. وأما قوله: ﴿**اكتالوا على الناس**﴾ [المطففين: ٢] فإنما دخلت (على) لتؤذن أن الكيل على البائع للمشتري، ودخلت التاء في اكتالوا، لأن افتعل في هذا الباب كله للأخـذ، لأنها زيادة على الحـروف الأصلية تؤذن بمعنى زائـد على معنى الكلمة، لأن الآخذ للشيء: كالمبتاع والمكتال والمشتري ونحو ذلك يدخل فعله من التناول والاجترار إلى نفسه، والاحتمال إلى رحله مالا يدخل فعل المعطى والمبايع.

ولهذا قال ـ سبحانه ـ: ﴿**لها ما كسَبت وعليها ما اكتسبَت**﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني من السيئات، لأن الـذنـوب يوصـل إليها بواسطة الشهوة والشيطان والهوى، والحسنة تنال بهبة الله من غير واسطة شهوة ولا إغراء عدو. فهذا الفرق بينهما على ما قاله السهيلي. وفيه فرق أحسن من هذا، وهو أن الاكتساب يستدعي التعمل والمحاولة والمعاناة، فلم يجعل على العبد إلا ما كان من هذا القبيل الحاصل بسعيه ومعاناته وتعمله.

وأما الكسب فيحصل بأدنى ملابسة حتى بالهَمِّ بالحسنة ونحو ذلك؛ فخص الشر بالاكتساب والخير بأعم منه، ففي هذا مطابقة للحديث الصحيح: «**إذا هم عبـدي بحسنـة فاكتبـوها، وإن هم بسيئة فلا تكتبوها**». وأما حديث الواسطة وعدمها فضعيف، لأن الخير أيضًا بواسطة الرسول والملك والإلهام والتوفيق، فهذا في مقابلة وسائط الشر، فالفرق ما ذكرناه، والله أعلم.

(٢)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**كلَّا بل ران على قُلوبهم ما كانوا يكسِبون**﴾ [المطففين: ١٤]. قال أبوعبيدة: غلب عليها، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرون على الميت، فيذهب به. ومن هذا حديث اسيفع جهينة، وقول عمر: فأصبح قدرين

(١) ٧٤ بدائع جـ٢.　(٢) ٩٤ شفاء.

به أي غلب عليه وأحاط به الرين. وقال أبومعاذ النحوي: الرين أن يسود القلب من الذنوب. والطبع: أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين. والأقفال أشد من الطبع وهو أن يقفل على القلب.

وقال الفراء: كثرت الذنوب والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. وقال أبو إسحاق: ران غطى يقال: ران على قلبه الذنب يرين رينًا أي غشيه، قال: والرين كالغشاء يغشى القلب ومثله الغين. قلت: أخطأ أبو إسحاق فالغين ألطف شيء وأرقه. قال: رسول الله، ﷺ، «**وإنه ليغان على قلبي، وأني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**».

وأما الرين والران فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها. وقال مجاهد: هو الذنِب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب. وقال مقاتل: غمرت القلوب أعمالهم الخبيثة. وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة عن رسول الله، ﷺ، قال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كلَّا بل رَان على قُلوبهم ما كانوا يكسبون﴾**» [المطففين: ١٤]. قال الترمذي: هذا حديث صحيح. وقال عبدالله بن مسعود كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله. فأخبر ـ سبحانه ـ أن ذنوبهم التي اكتسبوها أو جبت لهم رينا على قلوبهم، فكان سبب الران منهم وهو خلق الله فيهم، فهو خالق السبب ومسببه، لكن السبب باختيار العبد، والمسبب خارج عن قدرته واختياره.

(١)... **المكاشفة** الصحيحة علوم يحدثها الرب ـ سبحانه وتعالى ـ في قلب العبد، ويطلعه بها على أمور تخفى على غيره. وقد يواليها وقد يمسكها عنه بالغفلة عنها، ويواريها عنه بالغين الذي يغشى قلبه. وهو أرق الحجب، أو بالغيم. وهو أغلظ منه، أو بالران، وهو أشدها.

(١) ٢٢٢ مدارج جـ٣.

فالأول: يقع للأنبياء ـ عليهم السلام ـ. كما قال النبي، ﷺ، : «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله أكثر من سبعين مرة**».

والثاني: يكـون للمؤمنـين. والثـالث: لمن غلبت عليه الشقوة. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**كلَّا بل رانَ على قُلوبهم ما كَانوا يكْسِبون**﴾ [المطففين: ١٤]. قال ابن عباس وغيره: هو الذنب بعد الذنب يُغَطِّي القلب، حتى يصير كالران عليه.

والحجب عشرة: حجـاب التعطيل، ونفي حقائق الأسماء والصفات. وهو أغلظها. فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله، ولا يصل إليه ألبتة إلا كما يتهيأ للحجَر أن يصعد إلى فوق.

الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القوليّة: كحجاب أهل الأهواء، والمقالات الفاسدة على اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العملية. كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد، والفخر والخيلاء ونحوها.

السادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهـل الكبـائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم، وزهاداتهم واجتهاداتهم. فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك. فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة. فأهل الكبائر الظاهرة: أدنى إلى السلامة منهم. وقلوبهم خير من قلوبهم.

السابع: حجاب أهل الصغائر.

الثامن: حجاب أهل الفضلات، والتوسع في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين، المشمرين في السير عن المقصود.

فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ تحول بينه وبين هذا الشأن. وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر: عنصرالنفس، وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى. فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب ألبتة.

وهذه الأربعة العناصر: تفسد القول، والعمل، والقصد، والطريق، بحسب غلبتها وقلتها. فتقطع طريق القول والعمل والقصد: أن يصل إلى القلب. وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق: أن يصل إلى الرب. فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك. وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون. فإن حاربهم وخَلَص العملُ إلى قلبه دار فيه. وطلب النفوذ من هناك إلى الله. فإنه لا يستقر دون الوصول إليه: ﴿**وأنَّ إلى ربِّك المُنتهى**﴾ [النجم: ٤٢]. فإذا وصل إلى الله ـ سبحانه ـ أثابه عليه مزيدًا في إيمانه ويقينه، ومعرفته وعقله. وجَمَّل به ظاهره وباطنه. فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال. وصرف عنه به سيىء الأخلاق والأعمال. وأقام الله ـ سبحانه ـ من ذلك العمل للقلب جندًا يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه. فيحارب الدنيا بالزهد فيها، وإخراجها من قلبه، ولا يضره أن تكون في يده وبيته، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة. يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوى. فإن الشيطان مع الهوى لا يفارقه. ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق، والوقوف معه، بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه. ويحارب النفس بقوة الإخلاص...

(١)**قوله** ـ تعالى ـ: ﴿**كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومَئِذٍ لمحجوبون**﴾ [المطففين: ١٥] ووجه الاستدلال بها أنه ـ سبحانه وتعالى ـ جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه، فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضًا محجوبين عنه. وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة فذكر الطبراني وغيره عن المزني قال: سمعت الشافعي يقول في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**كلَّا إنَّهم عن ربِّهم**

(١) ٢٠٧ حادي الأرواح.

يومئذ لمحجوبون﴾ [المطففين: ١٥] فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة. وقال الحاكم: حدثنا الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان قال. حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ماتقول في قول الله ـ عز وجل ـ: **﴿كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومئِذٍ لَمحجوبُون﴾** [المطففين: ١٥]. فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى. قال الربيع فقلت: ياأباعبدالله وبه تقول؟ قال: نعم وبه أدين الله، ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبدالله عز وجل. ورواه الطبراني في شرح السنة من طريق الأصم أيضًا.

وقال أبوزرعة الرازي: سمعت أحمد بن محمد بن الحسين يقول: سئل محمد بن عبدالله بن: الحكم هل يرى الخلق كلهم ربهم يوم القيامة المؤمنون والكفار؟ فقال محمد بن عبدالله: ليس يراه إلا المؤمنون. قال محمد وسئل الشافعي عن الرؤية فقال: يقول الله ـ تعالى ـ: **﴿كلَّا إنهم عن ربِّهم يومئِذٍ لمحجوبون﴾**. ففي هذا دليل على أن المؤمنين لا يحجبون عن الله عز وجل.

([1]**وذكر**) جرير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال: كنا جلوسًا إلى كعب والربيع بن خثيم وخالد بن عرعرة في أناس فجاء ابن عباس فقال: هذا ابن عم نبيكم قال: فأوسع له فجلس. فقال: ياكعب كل ما في القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء، فأخبرني عنهن: ما سجين؟ وما عليون؟ وما سدرة المنتهى؟ وما قول الله لإدريس: **﴿ورَفعناه مكانًا عليًّا﴾** [مريم: ٥٧]؟ قال: أما عليون فالسماء السابعة فيها أرواح المؤمنين، وأما سجين فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار تحت جند إبليس، وأما قول الله سبحانه لإدريس: **﴿ورَفعناه مكانًا عليًّا﴾** فأوحى الله: إليه إني رافع لك كل يوم مثل أعمال بني آدم، وكلم صديقًا له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت فيؤخره حتى يزداد عملاً فحمله بين جناحيه فعرج به حتى إذا كان في السماء الرابعة لقيه ملك الموت فكلمه في حاجته فقال: وأين هو؟ قال: هو ذا بين جناحي قال: فالعجب إني أمرت أن أقبض روحه في

(١) ١٣٠ الروح.

السماء الرابعة. فقبض روحه. وأما سدرة المنتهى، فإنها سدرة على رءوس حملة العرش، ينتهى إليها علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم فلذلك سميت سدرة المنتهى.

(١) **قال** تعالى: ﴿**كَلَّا إنّ كِتاب الأبرارِ لَفِي علِّيين * وما أدراك ما عِلِّيُّون * كِتابٌ مرقـوم * يشهـده المقرَّبون**﴾ [المطففين: ١٨-٢١]. فأخبر ـ تعالى ـ أن كتابهم كتاب مرقوم تحقيقًا لكونه مكتوبًا كتابة حقيقة. وخص ـ تعالى ـ كتاب الأبرار بأنه يكتب ويوقـع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين. ولم يذكر شهـادة هؤلاء لكتـاب الفجار تنويهًا بكتاب الأبرار وما وقع لهم به، وإشهارًا له وإظهارًا بين خواص خلقه، كما يكتب الملوك تواقيع من تعظمه بين الأمراء وخواص أهـل المملكة تنويهًا باسم المكتوب له وإشادة بذكره، وهذا نوع من صلاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وملائكته على عبده.

وروى الإمام أحمد في مسنده وابن حبان وأبوعوانة الإسفراييني في صحيحيهما من حديث المنهال عن زاذان عن البراء بن عازب قال: **خرجنا مع رسول الله، ﷺ، إلى جنازة، فجلس رسول الله، ﷺ، على القبر، وجلسنا حوله، كأن على رءوسنا الطير، وهو يلحد له، فقال: أعوذ بالله من عذاب القبر ـ ثلاث مرات ـ ثم قال: إن المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، تنزلت إليه الملائكة: كأن على وجوههم الشمس مع كل واحد منهم حنوط وكفن، فجلسوا منه مد بصره، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة! أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين. . الحديث.**

(٢) **ذكر** يعلى بن عبيد عن الأجلح عن الضحاك قال: إذا قبض روح العبد المؤمن عرج به إلى السماء الدنيا، فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة حتى ينتهي به إلى سدرة المنتهى، قلت للضحاك: لم سميت سدرة المنتهى؟ قال: لأنه ينتهي إليها كل شيء من أمر الله ـ

---

(١) ٥٥ حادي الأرواح.　　(٢) ١٣٠ الروح.

عز وجل ـ لا يعدوها فيقول: ربي! عبدك فلان، وهو أعلم به منهم فيبعث الله إليه بصك مختوم يؤمنه من العذاب، قوله تعالى: **﴿كلَّا إنَّ كِتاب الأبْرارِ لَفِي عِليين * وما أدراك ما عِلِّيون * كِتابٌ مرقومٌ * يشهدُه المقرَّبون﴾** [المطففين: ١٨، ٢١]. وهذا القول لا ينافي قول من قال: هم في الجنة، فإن الجنة عند سدرة المنتهى، والجنة عند الله، وكأن قائله رأى أن هذه العبارة أسلم وأوفق. وقد أخبر الله ـ سبحانه ـ أن أرواح الشهداء عنده، وأخبر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أنها تسرح في الجنة حيث شاءت.

(١)... **الأصل** الثاني كمال النعيم في الدار الآخرة أيضًا به سبحانه: برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه. لا كما يزعم من يزعم أنه لا لذة في الآخرة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح، بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق تعالى أعظم مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، وفي دعاء النبي، ﷺ، الذي رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان والحاكم في صحيحيهما: «**أسألُك لَذَّة النَّظر إلى وَجهك، والشَّوق إلى لِقائِك، في غير ضرَّاء مُضِرَّة، ولا فِتنةٍ مُضِلَّة**» ولهذا قال ـ تعالى ـ في حق الكفار: **﴿كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومَئِذٍ لمحْجُوبُونَ * ثُمَّ إنَّهم لصالُوا الجَحيم﴾** [المطففين: ١٥، ١٦]. فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذب به أعداءه، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التي ينعم بها أولياءه، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته وسماع كلامه والدنو منه وقربه . . .

(٢)**الوجه** الرابع: أن أفضل نعيم الآخرة وأجلّه وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب عز وجل، وسماع خطابه، كما في صحيح مسلم عن صُهيب، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن يُنجِز كموه، فيقولون: ماهو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويُجرنا من**

(١) ٥٩ طريق الهجرتين.
(٢) ١٣٢ إغاثة جـ١.

النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه».

وفي حديث آخر: «**فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ماداموا ينظرون إليه**» فبين عليه الصلاة والسلام أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة، لم يعطهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحب إليهم لأن ما يحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين البتة. ولهذا قال ـ سبحانه وتعالى ـ في حق الكفار: ﴿**كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومَئِذٍ لمحجُوبون * ثُمَّ إنَّهم لصَالوا الجَحيم**﴾ [المطففين: ١٥، ١٦]. فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه سبحانه، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة، ونعيم التمتع برؤيته.

وذكر ـ سبحانه ـ هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة، فقال في حق الأبرار: ﴿**إنَّ الأبْرار لَفِي نَعيم * على الأرائِك ينظُرُون**﴾ [المطففين: ٢٢، ٢٣]. ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم، ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون: ﴿**ثم إنهم لصالُوا الجحيم**﴾ [المطففين: ١٦]. وتأمل كيف قابل ـ سبحانه ـ ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: ﴿**وإذا رأوهم قالُوا إنَّ هؤلاء لَضالُّون**﴾ [المطففين: ٣٢]. فقال تعالى: ﴿**فاليوم الذين آمنوا من الكُفَّار يَضْحَكُونَ**﴾ [المطففين: ٣٤]. مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: ﴿**عَلى الأرَائِك يَنظُرُون**﴾ [المطففين: ٣٥]. فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجله وأعظمه هو الله سبحانه، والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿**إنَّ هؤلاء لَضَالُّون**﴾ فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولابد، إما بخصوصه

وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك، خصوصًا أو عمومًا.

(١)**ومن** أعظم الضر: حجاب القلب عن الرب. وهو أعظم عذابًا من الجحيم، قال ـ تعالى ـ: ﴿**كلَّا إنهم عن ربِّهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنَّهم لصالوا الجحيم**﴾ [المطففين: ١٥، ١٦].

(٢)... **وإضعاف** المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود. فإن العبد ـ كما جاء في الحديث ـ «**إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر صقل قلبه، وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرى، حتى تعلو قلبه، وذلك الران الذي قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كلَّا بل ران على قُلوبهم ما كانوا يكسِبون﴾** [المطففين: ١٤]». فالقبائح تسود القلب. وتطفيء نوره. والإيمان هو نور في القلب. والقبائح تذهب به أو تقلله قطعًا.

فالحسنات تزيد نور القلب والسيئات تطفيء نور القلب. وقد أخبر الله ـ عز وجل ـ أن كسب القلوب سبب للران الذي يعلوها. وأخبر أنه أركس المنافقين بما كسبوا فقال: ﴿**والله أركسهم بما كسَبوا**﴾ [النساء: ٨٨]. وأخبر أن نقض الميثاق الذي أخذه على عباده سبب لتقسية القلب فقال: ﴿**فبما نقضِهم مِيثاقهم لعَّناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يُحرِّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًّا مما ذُكِّروا به**﴾ [المائدة: ١٣]. فجعل ذنب النقض موجبًا لهذه الآثار: من تقسية القلب، واللعنة، وتحريف الكلم، ونسيان العلم.

فالمعاصي للإيمان: كالمرض والحمى للقوة، سواء بسواء. ولذلك قال السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت.

فإيمان صاحب القبائح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه.

وهذه الأمور الثلاثة ـ وهي صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان ـ هي أرفع من باعث العامة على الورع. لأن صاحبها أرفع همة، لأنه عامل على تزكية نفسه وصونها، وتأهيلها للوصول إلى ربها. فهو يصونها عما يشينها عنده.

---

(١) ٢٢٠ مدارج جـ٣.　　(٢) ٢٤ مدارج جـ٢.

ويحجبها عنه. ويصون حسناته عما يسقطها ويضعها. لأنه يسير بها إلى ربه. ويطلب بها رضاه. ويصون إيمانه بربه: من حبه له، وتوحيده، ومعرفته به، ومراقبته إياه عما يطفيء نوره، ويذهب بهجته، ويوهن قوته.

(١)**ثلاث** فوائد من فوائد تجنب القبائح:

إحداها: صون النفس. وهو حفظها وحمايتها عما يشينها، ويعيبها ويزري بها عند الله ـ عز وجل ـ وملائكته، وعباده المؤمنين وسائر خلقه. فإن من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها، وزكاها وعلاها، ووضعها في أعلى المحال. وزاحم بها أهل العزائم والكمالات. ومن هانت عليه نفسه وصغرت عنده ألقاها في الرذائل. وأطلق شِناقها، وحل زمامها وأرخاه. ودساها ولم يصنها عن قبيح. فأقل ما في تجنب القبائح: صون النفس.

وأما «توفير الحسنات» فمن وجهين:

أحدهما: توفير زمانه على اكتساب الحسنات. فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعدًا لتحصيلها.

والثاني: توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها، بموازنة السيئات وحبوطها، كما تقدم في منزلة التوبة: أن السيئات قد تحبط الحسنات، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها. فلابد أن تضعفها قطعًا، فتجنبها يوفر ديوان الحسنات. وذلك بمنزلة من له مال حاصل. فإذا استدان عليه، فإما أن يستغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسيئات سواء.

(٢)**فبمحاسبتها** يطلع على عيوبها ونقائصها. فيمكنه السعي في إصلاحها.

الثاني: ملاطفة الخلق. وهي معاملتهم بما يحب أن يعاملوه به من اللطف. ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة. فإن ذلك ينفرهم عنه، ويغريهم به، ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته. فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف. فإن معاملة الناس بذلك: فإما أجنبي، فتكسب مودته ومحبته. وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته. وإما عدو ومبغض، فتطفيء بلطفك جمرته.

---

(١) ٢٤ مدارج جـ٢.
(٢) ٥١١ مدارج جـ٢.

وتستكفي شره. ويكون احتمالك لمضض لطفك به، دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

الثالث: مراقبة الحق سبحانه. وهي الموجبة لكل صلاح وخير عاجل وآجل. ولا تصح الدرجتان الأولتان إلا بهذه. وهي المقصود لذاته وما قبله وسيلة إليه، وعون عليه. فمراقبة الحق سبحانه وتعالى: توجب إصلاح النفس، واللطف بالخلق.

(١)**وقوله:** ﴿**رحيق مختوم**﴾ [المطففين: ٢٥]. يقول: الخمر ختم بالمسك. وقال علقمة عن ابن مسعود: ﴿**ختامه مسك**﴾ قال: خلطه وليس بخاتم ثم يختم. قلت: يريد والله أعلم أن آخره مسك يخالطه فهو من الخاتمة ليس من الخاتم. وقال زيد بن معاوية: سألت علقمة عن قوله تعالى: ﴿**خِتامه مسك**﴾ فقرأتها (خَاتمه مسك) فقال لي: ليست خاتمه ولكن اقرأه ﴿**خِتامه مسك**﴾ قال: علقمة: ختامه خلطه ألم تر أن المرأة من نسائكم تقول للطيب أن خلطه من مسك لكذا وكذا. وذكر سعيد بن منصور حدثنا أبومعاوية عن الأعمش عن عبدالله بن مرة عن مسروق: الرحيق الخمر المختوم، يجدون عاقبتها طعم المسك.

وبهذا الإسناد عن مسروق عن عبدالله في قوله تعالى: ﴿**ومزاجه من تسنيم**﴾ قال تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفا. وكذلك قال ابن عباس يشرب منها المقربون صرفًا، وتمزج لمن دونهم. وقال مجاهد: ختامه مسك يقول طينة. وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير. ولفظ الآية أوضح منه، وكأنه والله أعلم يريد ما يبقى في أسفل الإناء من الدردي.

وذكر الحاكم من حديث آدم حدثنا شيبان عن جابر عن ابن سابط عن أبي الدرداء في قوله: ﴿**ختامه مِسك**﴾ قال: هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها. قال آدم وحدثنا أبو شيبة عن عطاء قال: التسنيم اسم العين التي يمزج بها الخمر.

(٢)**قال تعالى:** ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ [المطففين: ٢٦]. وبين

---

(١) ١٣٥ حادي الأرواح.　　(٢) ٤٨ مدارج جـ٣.

«المنافسة» و«الغبطة» جمع وفرق، وبينهما وبين «الحسد» أيضًا جمع وفرق.

فالمنافسة تتضمن مسابقة واجتهادًا وحرصًا. والحسد: يدل على مهانة الحاسد وعجزه، وإلا فنافس من حسدته. فذلك أنفع لك من حسده، كما قيل:

إذا أعـجبتـك خلال امـرئ فكُنْـه. يَكُنْ منـك ما يعجبـك
فليس على الجـود والمكـرمـا ت إذا جئـتهـا حاجب يحجبـك

و«الغبطة» تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط، واستحسان لحاله.

(١)**والفرق** بين المنافسة والحسد أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذي تشاهد من غيرك فتنافسه فيه حتى تلحقه أو تجاوزه، فهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر. قال تعالى: ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ [المطففين: ٢٦]. وأصلها من الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلبًا ورغبة فينافس فيه كل من النفسين الأخرى. وربما فرحت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحض بعضهم بعضًا عليه مع تنافسهم فيه. وهي نوع من المسابقة. وقد قال تعالى: ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾ [البقرة: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿**سابِقوا إلى مغفرة من ربِّكم وجنَّة عرضُها كعرض السَّماء والأرض**﴾ [الحديد: ٢١]. وكان عمر بن الخطاب يسابق أبابكر - رضي الله عنهما - فلم يظفر بسبقه أبدًا. فلما علم أنه قد استولى على الإمامة قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا. وقال: والله ما سابقته إلى خير إلا وجدته قد سبقني إليه. والمتنافسان كعبدين بين يدي سيدهما يتباريان ويتنافسان في مرضاته ويتسابقان إلى محابه، فسيدهما يعجبه ذلك منهما ويحثهما عليه. وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده.

والحسد خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ليس فيها حرص على الخير، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها، وتتمنى أن لوفاته كسبها حتى يساويها في العدم. كما قال تعالى: ﴿**ودُّوا لو تكفرون كما كفرُوا فتكونون سواء**﴾ [النساء: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿**ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردوُّنكم من بعد**

(١) ٣٠٦ الروح.

إيمانكم كفَّارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبينَّ لهم الحق﴾ [البقرة: ١٠٩].

فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل. والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة. فمن جعل نصب عينيه شخصًا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيرًا. فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه. وهذا لا نذمه.

وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة كما في الصحيح عن النبي، ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق**». فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المطففين

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**ومن** ذلك إقسامه ﴿**بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق**﴾ [الانشقاق: ١٦-١٨]. فأقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل.

(أحدها) الشفق، وهو في اللغة الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة، وكذلك هو في الشرع. قال الفراء، والليث، والزجاج، وغيرهم: الشفق: الحمرة في السماء. وأصل موضوع الحرف لرقة الشيء. ومنه شيء شفق لا تماسك له لرقته، ومنه الشفقة وهو الرقة. وأشفق عليه إذا رق له. وأهل اللغة يقولون: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها. ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذي يدخل وقت العشاء الآخرة بغيبوبته هو الحمرة، فإن الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حدًّا لوقت المغرب. فإذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الأفق فدخل وقت العشاء. وأما البياض فإنه يمتد وقته بطول لبثه، ويكون حاصلاً مع بعد الشمس عن الأفق. ولهذا صح عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أنه قال: الشفق: الحمرة. والعرب تقول: ثوب مصبوغ كأنه الشفق، إذا كان أحمر، حكاه الفراء. وكذلك قال الكلبي: الشفق: الحمرة التي تكون في المغرب. وكذلك قال مقاتل: هو الذي يكون بعد غروب الشمس في الأفق قبل الظلمة. وقال عكرمة: هو بقية النهار. وهذا يحتمل أن يريد به تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التي هي آية النهار. وقال مجاهد: هو النهار كله. وهذا ضعيف جدًّا. وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق، وظن أنه النهار. وهذا ليس بلازم.

(الثاني) قسمه بالليل وما وسق، أي وما ضم وحوى وجمع. والليل وما ضمه وحواه آية أخرى، والقمر آية، واتساقه آية أخرى. والشفق يتضمن إدبار النهار، وهو آية، وإقبال الليل، وهو آية أخرى. فإن هذا إذا أدبر خلفه الآخر، يتعاقبان لمصالح

(١) ٦٨ التبيان.

الخلق. فإدبار النهار آية. وإقبال الليل آية، وتعقب أحدهما الآخر آية، والشفق الذي هو متضمن الأمرين آية. والليل آية، وما حواه آية، والهلال آية، وتزايده كل ليلة آية، واتساقه ـ وهو امتلاؤه نورًا ـ آية، ثم أخذه في النقص آية.

وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته، مستلزمة للعلم بصفات كماله. ولهذا شرع ـ عند إقبال الليل وإدبار النهار ـ ذكر الرب ـ تعالى ـ بصلاة المغرب. وفي الحديث: «**اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك، وأصوات دعائك وحضور صلواتك: اغفر لي**»(١). كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار. ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله: ﴿**والليلِ إذْ أدبَر * والصُّبحِ إذا أَسْفَرَ**﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤]. وهو يقابل إقسامه بالشفق، ونظيره إقسامه: ﴿**والليلِ إذا عَسْعَسَ * والصُّبحِ إذا تَنَفَّسَ**﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

ولما كان الرب ـ تبارك وتعالى ـ يحدث عن كل واحد من طرفي إقبال الليل والنهار وإدبارهما ما يحدثه، ويبث من خلقه ما شاء. فينشر الأرواح الشيطانية عند إقبال الليل، وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار، فيحدث هذا الانتشار في العالم أثره ـ شرع ـ سبحانه ـ في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين، مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين، وعند انصرام إحداهما واتصال الأخرى بها، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال، ومن حكم إلى حكم، وذلك مبدأ ومعاد يومي، مشهود للخليقة كل يوم وليلة، فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد، وزمان العالم في مبدأ ومعاد: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**﴾ [العنكبوت: ١٩].

وقوله: ﴿**لتَركبُنَّ طَبَقًا عن طَبَقٍ**﴾ [الانشقاق: ١٩]. الظاهر أنه جواب القسم، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه، ولتركبن وما بعده مستأنف.

وقرىء (ولتركبَن) بضم الباء للجمع، وبفتحها. فمن فتحها فالخطاب عنده للإنسان، أي لتركبن أيها الإنسان. وقيل: هو النبي، ﷺ، خاصة. وقيل: ليست التاء للخطاب، لكنها للغيبة، أي لتركبن السماء طبقًا عن طبق. ومن

ضمها فالخطاب للجماعة ليس إلا. فمن جعل الكناية للسماء قال: المعنى لتركبن السماء حالاً بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالى، من الانشقاق، والانفطار والطي، وكونها كالمهل مرة، وكالدهان مرة، وموارنها وتفتحها، ، وغير ذلك من حالاتها، وهذا قول عبدالله بن مسعود، رضي الله عنه. ودل على السماء ذكر الشفق والقمر. وعلى هذ فيكون قسمًا على المعاد وتغيير العالم.

ومن قال الخطاب للنبي، ﷺ، فله ثلاثة معان: لتركبن سماء بعد سماء، حتى تنتهي إلى حيث يصعدك الله. هذا قول ابن عباس في رواية مجاهد وقول مسروق والشعبي، قالوا: والسماء طبق، ولهذا يقال للسموات السبع: الطباق.

والمعنى الثاني لتصعدن درجة بعد درجة، ومنزلة بعد منزلة، ورتبة بعد رتبة، حتى تنتهي إلى محل القرب والزلفى من الله.

والمعنى الثالث لتركبن حالاً بعد حال من الأحوال المختلفة التي نقل الله فيها رسوله، ﷺ، من الهجرة، والجهاد، ونصره على عدوه، وإدالة العدو عليه تارة، وغناه وفقره، وغير ذلك من حالاته التي تنقل فيها إلى أن بلغ ما بلغه إياه.

(١)**قوله: ﴿لتركبن طبقًا عن طبق﴾** أي حالاً بعد حال، فأول أطباقه كونه نُطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنينًا ثم مولودًا ثم رضيعًا ثم فطيمًا، ثم صحيحًا أو مريضًا، غنيًّا أو فقيرًا، معافًا أو مبتلى، إلى جميع أحوال الإنسان المختلفة عليه إلى أن يموت، ثم يبعث، ثم يوقف بين يدي الله تعالى، ثم يصير إلى الجنة أو النار، فالمعنى ـ لتركبن: حالاً بعد حال، ومنزلاً بعد منزل، وأمرًا بعد أمر.

قال سعيد بن جبير وابن زيد: لتكونن في الآخرة بعد الأولى، ولتصيرن أغنياء بعد الفقر، وفقراء بعد الغنى، وقال عطاء: شدة بعد شدة، والطبق والطبقة: الحال، ولهذا يقال: كان فلان على طبقات شتى، قال عمرو بن العاص: لقد كنت على طبقات ثلاث: أي أحوال ثلاث.

قال ابن الأعرابي ـ الطبق: الحال على اختلافها، وقد ذكرنا بعض أطباق الجنين في البطن من حين كونه نطفة إلى وقت ولادته. ثم نذكر أطباقه بعد ولادته

---

(١) ١٧٥ تحفة المودود.

إلى آخرها. فنقول: الجنين في الرحم بمنزلة الثمرة على الشجرة في اتصالها بمحلها اتصالاً قويًّا، فإذا بلغت الغاية لم يبق إلا انفصالها لثقلها وكمالها وانقطاع العروق الممسكة لها. فهكذا الجنين تنهتك عنه تلك الأغشية وتنفصل العروق التي تمسكه بين المشيمة والرحم، وتنصب تلك الرطوبات المزلقة، فتعينه بإزلاقها وثقله، وانهتاك الحجب، وانفصال العروق على الخروج، فينفتح الرحم انفتاحًا عظيمًا جدًّا، ولابد من انفصال بعض المفاصل العظمية، ثم تلتئم في أسرع زمان، وقد اعترف بذلك حذاق الأطباء والمشرحين، وقالوا: لا يتم ذلك إلا بعناية إلـهية وتدبير تعجز عقول الناس عن إدراك كيفيته، فتبارك الله أحسن الخالقين. . .

(١)**ومن** قال: الخطاب للإنسان أو لجملة الناس فالمعنى واحد، وهو تنقل الإنسان حالاً بعد حال، من حين كونه نطفة إلى مستقره من الجنة أو النار، فكم بين هذين من الأطباق والأحوال للإنسان.

وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا. قال ابن عباس، رضي الله عنهما: لتصيرن الأمور حالاً بعد حال. وقيل لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال، من النطفة، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى كونه حيًّا، إلى خروجه إلى هذه الدار، ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره، ثم ركوبه بعد ذلك طبقًا آخر، وهو طبق البلوغ، ثم ركوبه طبق الأشد، ثم طبق الشيخوخة، ثم طبق الهرم، ثم ركوبه طبق ما بعد الموت في البرزخ، وركوبه في أثناء هذه الأحوال أطباقًا عديدة، لايزال ينتقل فيها حالاً بعد حال إلى دار القرار. فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد، ثم يفعل الله ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يشاء.

واختار أبوعبيدة قراءة الضم، وقال: المعنى بالناس أشبه منه بالنبي، ﷺ، فإنه ذكر قبل الآية: من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله، ثم ذكر بعدها قوله: ﴿**فما لهم لا يؤمنون**﴾ [الانشقاق: ٢٠]. فذكر كونهم طبقًا بعد طبق. قال الواحدي: وهذا قول أكثر المفسرين. قالوا: لتركبن حالاً بعد حال، ومنزلاً بعد منزل، وأمرًا بعد أمر. قال سعيد بن جبير، وابن زيد: لتكونن في الآخرة بعد الأولى، ولتصيرن

---

(١) ٧١ التبيان.

أغنياء بعد الفقر، وفقراء بعد الغنى. وقال عطاء: شدة بعد شدة. وقال أبوعبيدة: لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب والاختلاف على الرسل.

وأنت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية، وتغيير الله ـ سبحانه ـ للعالم، وتصريفه لها كيف أراد، ونقله إياه من حال إلى حال، وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له. ومحال أن يكون فاعله غير قادر، ولاحي، ولا مريد، ولا حكيم، ولا عليم. وكلاهما في الامتناع سواء.

فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته، وتوحيده، وصفات كماله، وصدقه، وصدق رسله، وعلى المعاد. ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿**فما لَهم لا يؤمنون**﴾ [الانشقاق: ٢٠] إنكارًا على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام.

وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك، بأفصح عبارة وأبينها وأجزلها وأوجزها. فالمعنى أشرف معنى، والعبارة أشرف عبارة: غاية الحق بغاية البيان والفصاحة. ﴿**بَل الذين كفَروا يُكذِّبون**﴾ [الانشقاق: ٢٢] ولا يصدقون بالجن جحودًا وعنادًا: ﴿**والله أعلم بما يوعون**﴾ [الانشقاق: ٢٣] بما يضمرون في صدورهم ويكتمونه، وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه، فيجازيهم عليه بعلمه وعدله: ﴿**إلا الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات فلهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ**﴾[1] [الانشقاق: ٢٥].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الانشقاق
والحمد لله رب العالمين

(١) يأتي تفسير قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ مبسوطا في سورة التين (ج).



بسم الله الرحمن الرحيم

(1)ومن ذلك اقسامه سبحانه: ﴿والسَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ﴾ [البروج: ١] التي تنزلها الشمس والقمر. وفسرت بالنجوم، أو نوع منها. وفسرت بالقصور العظام، وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته، فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء، والشكل الكري، لا يتميز منه جانب عن جانب بطول، ولا قصر ولا وضع، بل هو متساوي الجوانب. فجعل هذه البروج في هذه الكرة علىٰ اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر، ولا عالم، ولا مريد، ولا حي، ولا حكيم، ولا مباين للمفعول، وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم ربًّا بائناً قادراً، فاعلاً بالاختيار، عالماً بتفاصيله حكيماً مدبراً له.

فبروج السماء هي منازلها، أو منازل السيارة التي فيها، من أعظم آياته ـ سبحانه ـ فلهذا أقسم بها مع السماء.

ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة، وهو المقسم به وعليه. كما أن القرآن يقسم به وعليه. ودال علىٰ وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأبىٰ أن يتركهم سدىٰ، ويخلقهم عبثاً. وبغير ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها ـ سبحانه ـ علىٰ إمكانه تارة، وعلىٰ وقوعه تارة، وعلىٰ تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة. فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان.

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود، مطلقين غير معينين، وأعم المعاني فيه أنه المدرِك والمدرَك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني به، وماعداه من الأقوال ذكرت علىٰ وجه التمثيل، لا علىٰ وجه التخصيص.

---

(١) ٥٦ التبيان.

فإن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟

قيل: هي بحمد الله في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة علىٰ ربوبيته وإلهيته.

فأقسم بالعالم العلوي، وهي السماء وما فيها من البروج، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها. ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدراً، الذي هو مظهر ملكه، وأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله، وهو الشاهد والمشهود.

وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه، وهم شهود علىٰ ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم. وأيضًا فالشاهد هو المطلع والرقيب، والمخبر والمشهود، وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد.

فمن نوّع الخليقة إلىٰ شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين، كما نوعها إلىٰ مرئي لنا وغير مرئي، كما قال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * ومالاتُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩] كما نوّعها إلىٰ أرض وسماء، وليل ونهار، وذكر وأنثىٰ، وهذا التنويع والاختلاف من آياته ـ سبحانه ـ كذلك نوّعها إلىٰ شاهد ومشهود.

وفيه سر آخر، وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود عليه، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك، فكيف يكون المخلوق شاهداً رقيباً حفيظاً علىٰ غيره، ولا يكون الخالق ـ تبارك وتعالىٰ ـ شاهداً علىٰ عباده، مطلعاً عليهم رقيباً؟!

وأيضا فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله، فإنهم شاهدون علىٰ العباد، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه، كما أقسم باليوم الموعود، وهو المقسم به وعليه، وأيضاً فيوم القيامة مشهود، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] يشهده الله وملائكته والإنس والجن، والوحوش من آياته، والمشهود من آياته.

وأيضا فكلامه مشهود، كما قال تعالىٰ: ﴿وقُرْآنَ الْفَجْرِ إن قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨] تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. فالمشهود من أعظم

آياته وكذلك الشاهد، فكل ماوقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم، فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا علىٰ سبيل التمثيل. وأيضًا فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون. فالكتاب مشهود، والمقربون شاهدون.

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب، لأن القصد التنبيه علىٰ المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة. ويبعد أن يكون الجواب ﴿**قُتِلَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ**﴾ [البروج: ٤] الذين فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود.

ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعود علىٰ جانب الأخدود، شاهدين مايجري علىٰ عباد الله ـ تعالىٰ ـ وأوليائه عياناً، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة، ولا يعيبون عليهم ديناً سوىٰ إيمانهم بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض.

وهذا الوصف يقتضي إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم، فعاملوهم بضد مايقتضىٰ أن يعاملوا به. وهذا شأن أعداء الله دائماً، ينقمون علىٰ أوليائه ماينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله، كما قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ ياأَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ منَّا إِلَّا أن آمنَّا بالله وماأُنْزِلَ إلَيْنا وماأُنزِلَ من قبْلُ وأَنَّ أكثرَكُمْ فاسِقُونَ**﴾ [المائدة: ٥٩].

وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم، فقالوا: ﴿**أَخْرِجُوهُم من قَرْيَتِكُم إِنَّهُم أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ٨٢].

وكذلك أهل الإشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده.

وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها.

وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله.

وكذلك الرافضة ينقمون علىٰ أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم، وترضيهم عنهم وولايتهم إياهم، وتقديم من قدّمه رسول الله ﷺ منهم، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها.

وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون علىٰ أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ماخالفه. وكل هؤلاء لهم نصيب، وفيهم شبه من أصحاب الأخدود. وبينهم وبينهم نسب قريب أو بعيد.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق، حيث لم يتوبوا، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم. وهذا غاية الكرم والجود. قال الحسن: انظروا إلىٰ الكرم والجود، يقتلون أولياءه، ويفتنونهم، وهو يدعوهم إلىٰ التوبة والمغفرة.

انظروا إلىٰ كرم الرب ـ تعالىٰ ـ يدعوهم إلىٰ التوبة، وقد فتنوا أولياءه، فحرقوهم بالنار، فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه، ولو كان منه ماكان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرّق بالنار من آمن بالله وحده، وعبده وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم، وألحقهم بأوليائه.

(1)**ويفرح** ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، ويكفر عنه ذنوبه، ويوجب له محبته بالتوبة، وهو الذي ألهمه إياها ووفقه لها وأعانه عليها، وملأ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ سماواته من ملائكته، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، واستعمل حملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين والاستغفار لذنوبهم ووقايتهم عذاب الجحيم، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم جناته. فانظر إلىٰ هذه العناية وهذا الإحسان وهذا التحنن والعطف والتحبب إلىٰ العباد واللطف التام بهم، ومع هذا كله بعد أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه، ينزل كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا، يسأل عنهم، ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلىٰ سؤاله، فيدعو مسيئهم إلىٰ التوبة، ومريضهم إلىٰ أن يسأله أن يشفيه، وفقيرهم إلىٰ أن يسأله غناه، وذا حاجتهم يسأله قضاءها كل ليلة، ويدعوهم إلىٰ التوبة، وقد حاربوه، وعذبوا أولياءه، وأحرقوهم بالنار، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾ [البروج: ١٠] وقال بعض السلف: انظروا إلىٰ كرمه كيف عذبوا أولياءه وحرقوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلىٰ التوبة. فهذا الباب يدخل منه كل أحد إلىٰ محبته ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فإن نعمته علىٰ عباده مشهودة لهم، يتقلبون فيها علىٰ عدد الأنفاس واللحظات.

---

(١) ٣١٧ طريق الهجرتين.

وقد روي في بعض الأحاديث مرفوعاً: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني بحب الله**» فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن والإحسان ورؤية النعم والآلاء، وكلما سافر القلب فيها ازدادت محبته وتأكدت، ولا نهاية لها فيقف سفر القلب عندها، بل كلما ازداد فيها نظراً، ازداد فيها اعتباراً وعجزاً عن ضبط القليل منها، فيستدل بما عرفه علىٰ مالم يعرفه، والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ دعا عباده إليه من هذا الباب، حتىٰ إذا دخلوا منه دعوا من الباب الآخر، وهو باب الأسماء والصفات، الذي إنما يدخل منه إليه خواص عباده وأوليائه، وهو باب المحبين حقًّا الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحد منهم، بل كلما بدا له منه علم ازداد شوقاً ومحبة وظمأ. فإذا انضم داعي الإحسان والإنعام إلىٰ داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدها نقصاً وأبعدها من كل خير، فإن الله فطر القلوب علىٰ محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً منه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ولا شيء أكمل منه ولا أجمل، فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وهو الذي لا يحد كماله، ولا يوصف جلاله وجماله، ولا يحصي أحد من خلقه ثناءًا عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه.

[1]**ثم** ذكر ـ سبحانه ـ جزاء أوليائه المؤمنين، ثم ذكر شدة بطشه، وأنه لا يعجزه شيء، فإنه هو المبديء المعيد. ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، يغفر لمن تاب إليه ويوده ويحبه، فهو ـ سبحانه ـ الموصوف بشدة البطش، أو مع ذلك هو الغفور الودود، المتودد إلىٰ عباده بنعمه، الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه. وهو الودود أيضاً أي المحبوب، قال البخاري في صحيحه: الودود: الحبيب.

والتحقيق أن اللفظ يدل علىٰ الأمرين، علىٰ كونه وادًّا لأوليائه ومودوداً لهم. فأحدهما بالوضع. والآخر باللزوم. فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه،

(١) ٥٨ التبيان.

وقال شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه. وكذلك قد يرحم من لا يحب والرب ـ تعالىٰ ـ يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحب لو كان منه ما كان.

(١)«**الودود**» من أسماء الرب تعالىٰ. وفيه قولان:

أحدهما: أنه المودود. قال البخاري رحمه الله في صحيحه «الودود الحبيب».

والثاني: أنه الوادُّ لعباده. أي المحب لهم. وقرنه باسمه «الغفور» إعلاماً بأنه يغفر الذنب، ويحب التائب منه، ويَوَدُّه. فحظ التائب: نيل المغفرة منه.

وعلى القول الأول «الودود» في معنىٰ يكون سر الاقتران. أي اقتران «الودود بالغفور» استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسم «الغفور».

(٢)**ثم قال** ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ [البروج: ١٥] فأضاف العرش إلىٰ نفسه، كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة. وهذا يدل علىٰ عظمة العرش، وقربه منه سبحانه، واختصاصه به، بل يدل علىٰ غاية القرب والاختصاص، كما يضيف إلىٰ نفسه «بذو» صفاته القائمة به. كقوله ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ [الذاريات: ٥٨] ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٧] ويقال: ذو العزة، وذو الملك وذو الرحمة ونظائر ذلك. فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لا فرق أن يقال: ذو العرش، وذو الأرض.

ثم وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها. وسعة أفعاله، وكثرة خيره ودوامه. وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة، فليس له من المجد شيء.

والمخلوق إنما يصير مجيداً بأوصافه وأفعاله. فكيف يكون الرب ـ تبارك وتعالىٰ ـ مجيداً. وهو معطل عن الأوصاف والأفعال؟ تعالىٰ الله عما يقول المعطلون علوًّا كبيراً، بل هو المجيد الفعال لما يريد.

---

(١) ٢٨ مدارج جـ٣. (٢) ٥٩ التبيان.

والمجد في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير، وأحسن ماقرن اسم المجيد إلىٰ الحميد، كما قالت الملائكة لبيت الخليل ـ عليه السلام ـ: ﴿رحْمَةُ الله وبركاتُهُ عليكُمْ أهلَ البيْتِ إنَّه حميدٌ مجيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني علىٰ الرب تعالىٰ بأنه حميد مجيد. وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: «ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد».

فالحمد والمجد علىٰ الإطلاق لله الحميد المجيد، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال. والمجيد العظيم الواسع القادر الغني؛ ذو الجلال والإكرام.

ومن قرأ (المجيد) بالكسر فهو صفة لعرشه ـ سبحانه ـ وإذا كان عرشه مجيداً فهو ـ سبحانه ـ أحق بالمجد. وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس، وقال: لم يسمع في صفات الخلق مجيد، ثم خرجها علىٰ أحد الوجهين، إما علىٰ الجوار، وإما أن يكون صفة لربك. وهذا من قلة بضاعة هذا القائل. فإن الله ـ سبحانه ـ وصف عرشه بالكرم، وهو نظير المجد. ووصفه بالعظمة. فوصفه ـ سبحانه ـ بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك، لسعته وحسنه وبهاء منظره، فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات وأجمله، وأجمعه لصفات الحسن، وبهاء المنظر، وعلو القدر والرتبة والذات، ولا يقدر قدر عظمته وحسنه، وبهاء منظره إلا الله. ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه. والسموات السبع والأرضون السبع في الكرسي - الذي بين يديه - كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقة في الفلاة. قال ابن عباس: السموات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس، فكيف لايكون مجيداً وهذا شأنه؟ فهو عظيم كريم مجيد. وأما تكلف هذا المتكلف جره إلىٰ الجوار، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد، وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلىٰ ذلك.

وقوله: ﴿فعَّالٌ لِّمَا يُريدُ﴾ [البروج: ١٦] دليل علىٰ أمور:

(أحدها) أنه ـ سبحانه ـ يفعل بإرادته ومشيئته.

(الثاني) أنه لم يزل كذلك، لأنه لم يزل كذلك، لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء علىٰ نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادماً لهذا

الكمال في وقت من الأوقات. وقد قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**أفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أفَلا تَذَكَّرُونَ؟**﴾ [النحل: ١٧] وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

(الثالث) أنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن «ما» موصولة عامة، أي يفعل كل مايريد أن يفعله. وهذا في إرادته المتعلقة بفعله. وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر. فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل وإن أراده، حتىٰ يريده من نفسه أن يجعله فاعلاً، وهذه هي النكتة التي خفيت علىٰ القدرية والجبرية، وخبطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها، فإن هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله الرب فاعلاً، وليستا متلازمتين، وإن لزم من الثانية الأولىٰ من غير عكس، فمتىٰ أراد من نفسه أن يعين عبده، وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله، وقد يريد فعله، ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل، فلا يوجد الفعل.

فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر إلىٰ قول النبي ﷺ، حاكياً عن ربه قوله للعبد يوم القيامة «**قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب أبيك: أن لاتشرك بي شيئاً**» ولم يقع هذا المراد، لأنه لم يرد من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

(الرابع) أن فعله ـ سبحانه ـ وإرادته متلازمان. فما أراد أن يفعله فعله، ومافعله فقد أراده. بخلاف المخلوق، فإنه يريد مالا يفعل، وقد يفعل مالا يريد. فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

(الخامس) إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، وهذا هو المعقول في الفطر، وهو الذي يعقله الناس من الإرادة، فشأنه ـ تعالىٰ ـ أنه يريد علىٰ الدوام، ويفعل مايريد.

(السادس) أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله. فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا. وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يُرِي نفسه لعباده، وأن يتجلىٰ لهم كيف شاء، وأن يخاطبهم ويضحك إليهم، وغير ذلك مما

يريد سبحانه - لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعال لما يريد. وإنما تتوقف صحة ذلك علىٰ إخبار الصادق به. فإذا أخبر به وجب التصديق به، وكان رده ردًّا لكماله الذي أخبر به عن نفسه. وهذا عين الباطل. وكذلك إذا أمكن إرادته ـ سبحانه ـ محو ماشاء، وإثبات ما شاء أمكن فعله، وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس.

وقد اشتملت هذه السورة علىٰ اختصارها من التوحيد علىٰ وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة، وعدم النظير. والحمد المتضمن لصفات الكمال، والتنزيه عن أضدادها، مع محبته وإلهيته. وملكه السموات والأرض، المتضمن لكمال غناه، وسعة ملكه. وشهادته علىٰ كل شيء المتضمن لعموم اطلاعه علىٰ ظواهر الأمور وبواطنها. وإحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها. ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة، وتفرده بالإبداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته. وتصرفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة وانقيادها لقدرته، فلا يستعصىٰ عليه منها شيء. ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته. ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبًا إلىٰ عباده محبًّا لهم.

ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوي عليه، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم. وكونه فعالاً لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته، وغير ذلك من أوصاف كماله.

فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين، تكفي من فهمها. فالحمد لله الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب وتبارك الذي نزل الفرقان علىٰ عبده.

ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به، وكذب رسله، تحذيراً لعباده من سلوك سبيلهم، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم.

ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته، وهو محيط بهم. ولا أسوأ حالاً ممن عادىٰ من هو في قبضته، ومن هو قادر عليه من كل وجه، وبكل اعتبار. فقال: ﴿**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِمْ**

مُحِيطٌ﴾ [البروج: ١٩-٢٠] فهـذا أعجب عجب ممن كَفر بمن هو محيط به، وآخذ بناصيته قادر عليه.

ثم وصف كلامه بأنه مجيد، وهو أحق بالمجد من كل كلام. كما أن المتكلم به له المجد كله. فهو المجيد، وكلامه مجيد، وعرشه مجيد.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قرآن مجيد، كريم. لأن كلام الرب ليس كما يقول الكافرون: شعر، وكهانة، وسحر.

وقد تقدم أن المجد السعة، وكثرة الخير، وكثرة خير القرآن لا يعلمها إلا من تكلم به وقوله: ﴿**فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**﴾ [البروج: ٢٢] أكثر القراء علىٰ الجر، صفة للوح.

وفيه إشارة إلىٰ أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به، لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه، وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان علىٰ الزيادة فيه والنقصان.

فوصفه ـ سبحانه ـ بأنه محفوظ في قوله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَلْنَا الذِّكرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]. ووصف محله بالحفظ في هذه السورة، فالله ـ سبحانه ـ حفظ محله، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف. كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البروج

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(1)**ومن** ذلك إقسامه ـ سبحانه ـ: ﴿**والسَّماءِ والطَّارِقِ**﴾ [الطارق: ١] وقد فسره بأنه ﴿**النَّجْمُ الثَّاقِبُ**﴾ [الطارق: ٣] الذي يثقب ضوؤه، والمراد به الجنس لا نجم معين. ومن عينه بأنه الثريا، أو زحل، فإن أراد التمثيل فصحيح، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه.

والمقصود أنه ـ سبحانه ـ أقسم بالسماء ونجومها المضيئة. وكل منها آية من آياته الدال علىٰ وحدانيته، وسمىٰ النجم طارقًا، لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذي يطرق الناس، أو أهله ليلاً.

قال الفراء: ما أتاك ليلاً فهو طارق. وقال الزجاج، والمبرد: لا يكون الطارق نهارًا. ولهذا تستعمل العرب الطروق في صفة الخيال كثيرًا، كما قال ذو الرمة:

ألا طرقت مي هيومًا بذكرها وأيدي الثريا جنح بالمغارب

وقال جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة، فارجعي بسلام

ولهذا قيل: أول من رد الطيف جرير، فلم يزل الناس علىٰ قبوله وإكرامه كالضيف. فالطيف والضيف كلاهما لا يرد. وقال الآخر:

ألا طرقت من آخر الليل زينب عليك سلام، هل لما فات مطلب؟

فصل

والمقسم عليه ههنا حال النفس الإنسانية، والاعتناء بها، وإقامة الحفظة عليها. وأنها لم تترك سدىٰ، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها، **فأقسم** ـ سبحانه ـ أنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها وقولها، ويحصي ما تكتسب من خير أو شر.

---

(١) ٦٣ التبيان.

واختلف القـراء في «لمـا» فشـددها بعضهم، وخففها بعضهم. فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنىٰ إلا، وهي تكون بمعنىٰ إلا في موضعين.

(أحدهما) بعد إن المخففة مثل هذا الموضع، أو المثقلة مثل قوله: ﴿وإنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّك أعْمَالَهم﴾ [هود: ١١١].

(والثاني) في باب القسم، نحو سألتك بالله لما فعلت. قال أبو علي الفارسي: من خفف كانت عنده هي المخففة من الثقيلة، واللام في خبرها هي الفارقة بين إن النافية والخفيفة [وما] زائدة، وإن هي التي يتلقي بها القسم، كما يتلقىٰ بالمثقلة. ومن قرأهـا مشددة كانت [إن] عنده نافية بمعنىٰ [ما ولما] في معنىٰ [إلا]. قال سيبويه، عن الخليل - في قولهم: نشدتك بالله لما فعلت - قال المعنىٰ: إلا فعلت.

ثم نبه ـ سبحانه ـ الإنسان علىٰ دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه علىٰ طريقة القـرآن في الاستـدلال علىٰ المعـاد بالمبدأ، فقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مَمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥] أي فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذي ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر علىٰ إعادته.

ثم أخبر سبحانه أنه خلقه من ماء دافق. والدفق صب الماء، يقال دفقت الماء فهو مدفوق ودافق ومندفق. فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك، كالمكسور، والمضروب.

والمتدفق: المطاوع لفعل الفاعل. تقول. دفقته فأندفق، كما تقول: كسرته فانكسر. والدافق قيل: إنه فاعل بمعنىٰ مفعول؛ كقولهم: سر كاتم، وعيشة راضية.

وقيل: هو علىٰ النسب؛ لا علىٰ الفعل، أي ذي دفق، أو ذات. ولم يرد الجريان علىٰ الفعل. وقيل - وهو الصواب - إنه اسم فاعل علىٰ بابه؛ ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق. فإن اسم الفاعل هو من قام به الفعل، سواء فعله هو أو غيره كما يقال: ماء جار، ورجل ميت، وإن لم يفعل الموت، بل لما قام به من الموت نسب إليه علىٰ جهة الفعل. وهذا غير منكر في لغة أمة من الأمم، فضلاً عن أوسع اللغات وأفصحها.

وأما العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية، فإنها اللائقة بهم، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها. كأنها رضيت بهم ورضوا بها. وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط فتأمله. وإذا كانوا يقولون: الوقت الحاضر والساعة الراهنة - وإن لم يفعلا ذلك، فكيف يمتنع أن يقولوا: ماء دافق، وعيشة راضية؟.

ونبه ـ سبحانه ـ بكونه دافقًا علىٰ أنه ضعيف غير متماسك. ثم ذكر محله الذي يخرج منه، وهو بين الصلب والترائب. قال ابن عباس: صلب الرجل، وترائب المرأة، وهو موضع القلادة من صدرها، والولد يخلق من المائين جميعًا.

وقيل: صلب الرجل وترائبه وهي صدره، فيخرج من صلبه وصدره. وهذه الآية الدالة علىٰ قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجه اللبن الخالص من بين الفرث والدم.

(1)**وقد** دعا ـ سبحانه ـ الإنسان إلىٰ أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه، ويستدل بذلك على مَعَاده وصدْق ما أخبرت به الرسل؛ فقال في الأول: ﴿**فَلْيَنْظُرِ الإِنسانُ مِمَّ خُلق * خُلِقَ من مَّآءٍ دافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ * إنَّه عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ**﴾ [الطارق: ٥-٩] فالدافق علىٰ بابه، ليس فاعلاً بمعنىٰ مفعول كما يَظُنُّه بعضهم، بل هو بمنزلة: ماء جارٍ وواقِفٌ وساكِنٍ، ولا خلاف أن المراد بالصُّلْب: صلبُ الرجل.

واختلف في الترائب فقيل: المراد بها ترائبه أيضًا، وهي عظام الصَّدْر مابين التَّرْقُوة إلىٰ الثَّنْدُوَة. وقيل: المرادُ ترائبُ المرأة، والأول أظهر؛ لأنه سبحانه قال: ﴿**يَخْرُجُ من بين الصُّلْبِ والتَّرآئِبِ**﴾ ولم يقل يخرج من الصُّلْب والتَّرائب، فلابد أن يكون ماء الرجل خارجًا من بين هذين المختلفين كما قال في اللبن: يخرج ﴿**مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ**﴾ [النحل: ٦٦]. وأيضًا فإنه ـ سبحانه ـ أخبر أنه خلَقه من نطفة في غير موضع، والنطفة هي ماء الرجل، كذلك قال أهل اللغة.

قال الجوهري: والنطفة: الماء الصافي قَلَّ أو كَثُرَ، والنطفة: ماء الرجل، والجمع نُطَفُ. وأيضًا فإن الذي يُوصَفُ بالدَّفْق والنضح إنما هو ماء الرجل، ولا يقال نَضَحَت المرأة الماء ولا دَفَقَتْه.

(1) ١٤٥ أعلام جـ١.

والذي أوجَبَ لأصحاب القول الآخر ذلك أنهم رأوا أهلَ اللغة قالوا: الترائب مَوْضِعُ القلادة من الصَّدْر، قال الزجاج: أهلُ اللغة مُجْمِعون علىٰ ذلك، وأنشدوا لامريء القيس:

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضاء غَيْرُ مُفَاضَةٍ * تَرَائِبُهَا مَصْقُولَة كَالسَّجَنْجَلِ

وهذا لا يدلّ علىٰ اختصاص الترائب بالمرأة، بل يُطْلَق علىٰ الرجل والمرأة، قال الجوهري: التَّرائب عِظَامُ الصدر ما بين التَّرْقُوة إلىٰ الثَّنْدُوة.

وقوله: ﴿إنه عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨] الصحيحُ أن الضمير يرجع علىٰ الإنسان، أي إن الله علىٰ رَدِّه إليه لقادر يوم القيامة، وهو اليوم الي تُبْلَىٰ فيه السرائر، ومَنْ قال: «إن الضمير يرجع علىٰ الماء أي إن الله علىٰ رَجْعه في الإحليل أو في الصدر أو حَبْسه عن الخروج لقادر» فقد أبْعَد، وإن كان الله سبحانه قادرًا علىٰ ذلك، ولكنَّ السياق يأباه، وطريقة القرآن - وهي الاستدلالُ بالمبدأ والنشأة الأولىٰ علىٰ المَعَاد والرجوع إليه - وأيضًا فإنه قيده بالظرف، وهو ﴿يوم تُبْلَىٰ السَّرآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]. والمقصود أنه ـ سبحانه ـ دعا الإنسان أن ينظر في مَبْدَأ خلقه ورزقه، فإن ذلك يدلُّه دلالةً ظاهرة علىٰ مَعَاده ورجوعه إلىٰ ربه.

(١)**وإذا** تأملت ما دعا الله ـ سبحانه ـ في كتابه عباده إلىٰ الفكرْ فيه أوقعك علىٰ العلم به ـ سبحانه وتعالى ـ وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه، فبهذا تعرّف إلىٰ عباده وندبهم إلىٰ التفكر في آياته.

ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها علىٰ غيرها. فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه إلىٰ التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَفي أنْفُسِكُمْ أفَلا تُبْصِرُون﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال تعالىٰ: ﴿يَأيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ البَعْث فإنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ تُراب ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغير مُخَلَّقَةٍ لنُبيِّنَ لكم ونُقِرُّ في الأَرْحَام ما نشآءُ إلىٰ أجلٍ مُسَمًّى ثم

(١) ١٨٧ مفتاح جـ١.

نُخْـرِجُكم طِفْلاً ثم لِتَبلُغُوا أشُدَّكم ومنكم مَن يُتوفَّىٰ ومِنْكُمْ من يُرَدُّ إلىٰ أرْذلِ الْعُمُرِ لِكَيلاَ يَعْلَم مِنْ بعدِ علمٍ شَيْئًا﴾[1] [الحج: ٥].

[2]**قال** تعالىٰ: **﴿فَلْيُنظرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِق * خُلِق من مآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ من بينَ الصُّلْبِ والتَّرآئِبِ *﴾** [الطلاق: ٥-٧].

قالَ الـزجـاج: قال أهل اللغة: التريبة موضع القلادة من الصدر، والجمع ترائب. وقال أبو عبيدة: الترائب: معلق الحلي من الصدر، وهو قول جميع أهل اللغة. قال عطاء وابن عباس: يريد صلب الرجل، وترائب المرأة: وهو موضع قلادتها، وهذا قول الكلبي ومقاتل وسفيان وجمهور أهل التفسير، وهو المطابق لهذه الأحاديث، وبذلك أجرىٰ الله العادة في إيجاد ما يوجده من بين أصلين: كالحيوان والنبات وغيرهما من المخلوقات، فالحيوان ينعقد من ماء الذكر وماء الأنثىٰ، كما ينعقـد النبات من الماء والتراب والهواء. ولهذا قال ـ تعالىٰ ـ: **﴿بَدِيعُ السَّماوَاتِ والأرْضِ أنىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ولَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾** [الأنعام: ١٠١].

فإن الولد لا يتكون إلا من بين الذكر وصاحبته، ولا ينتقض هذا بآدم وحواء أبوينا ولا بالمسيح، فإن الله ـ سبحانه ـ مزج تراب آدم بالماء حتىٰ صار طينًا، ثم أرسل عليه الهواء والشمس حتىٰ صار كالفخار، ثم نفخ فيه الروح، وكانت حواء مستلة منه وجزأ من أجزائه، والمسيح خلق من ماء مريم ونفخة الملك، وكانت النفخة له كالأب لغيره.

[3]**ثم** ذكر الأمر المستدل عليه والمعاد بقوله: **﴿إنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾** [الطارق: ٨] أي علىٰ رجعه إليه يوم القيامة، كما هو قادر علىٰ خلقه من ماء هذا شأنه. هذا هو الصحيح في معنىٰ الآية. وفيها قولان ضعيفان: أحدهما قول مجاهد: علىٰ رد الماء في الإحليل لقادر. والثاني قول عكرمة والضحاك. علىٰ رد الماء في الصلب. وفيه

---

(١) بحث المؤلف في عموم الحكم الكثيرة في مخلوقات الله والتفكر فيها بحثًا موسعًا يطلعك على أبواب من العلم فاظفر بها إن شئت (ج).

(٢) ١٦٦ تحفة المودود.		(٣) ٦٥ التبيان.

قول ثالث قال مقاتل: إن شئت رددته من الكبر إلىٰ الشباب، ومن الشباب إلىٰ الصبا، إلىٰ النطفة.

والقول الصواب هو الأول لوجوه:

(أحدها) أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ علىٰ المعاد.

(الثاني) أن ذلك أدل علىٰ المطلوب من القدرة علىٰ رد الماء في الإحليل.

(الثالث) أنه لم يأت لهذا المعنىٰ في القرآن نظير في موضع واحد. ولا أنكره أحد حتىٰ يقيم سبحانه الدليل عليه.

(الرابع) أنه قيد الفعل بالظرف وهو قوله: ﴿**يوم تبلىٰ السرائر**﴾ وهو يوم القيامة، أي أن الله قادر علىٰ رجعه إليه حيًّا في ذلك اليوم.

(الخامس) أن الضمير في (رجعه) هو الضمير في قوله: ﴿**فَمَا لَهُ مِن قُوَةٍ ولا نَاصِرٍ**﴾ [الطارق: ١٠] وهذا للإنسان قطعًا لا للماء.

(السادس) أنه لا ذكر للإحليل، حتىٰ يتعين كون المرجع إليه. فلو قال قائل: علىٰ رجعه إلىٰ الفرج الذي صب فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول، ولم يكن أولىٰ منه.

(السابع) أن رد الماء إلىٰ الإحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف، ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة، وإن كان مقدورًا للرب تعالىٰ، ولكن هو لم يجره ولم تجر به العادة. ولا هو مما تكلم الناس فيه، نفيًا أو إثباتًا، ومثل هذا لا يقرره الرب ولا يستدل عليه وينبه علىٰ منكريه، وهو سبحانه إنما يستدل علىٰ أمر واقع ولا بد، إما قد وقع ووجد أو سيقع.

فإن قيل: فقد قال تعالىٰ: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أن لَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِيْنَ عَلَىٰ أن نُّسوِّىٰ بَنَانَه**﴾ [القيامة: ٣، ٤] أي نجعله كخف البعير قيل: هذه أيضًا فيها قولان: أحدهما هذا. والثاني ـ وهو الأرجح ـ أن تسوية بنانه إعادتها كما كانت، بعد ما فرقها البلىٰ في التراب(١).

(الثامن) أنه سبحانه دعا الإنسان إلىٰ النظر فيما خلق منه ليرده نظره عن تكذيبه

(١) تقدم في سورة القيامة مبسوطًا (ج).

بما أخبر به، وهو لم يخبره بقدرة خالقه علىٰ رد الماء في إحليله بعد مفارقته له، حتىٰ يدعوه إلىٰ النظر فيما خلق منه، ليستقبح منه صحة إمكان رد الماء.

(التاسع) أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ خلقه ورد الماء في الإحليل بعد خروجه، ولا تلازم بينهما، حتىٰ يجعل أحدهما دليلاً علىٰ إمكان الآخر، بخلاف الارتباط الذي بين المبدأ والمعاد، والخلق الأول والخلق الثاني، والنشأة الأولىٰ والنشأة الثانية. فإنه ارتباط من وجوه عديدة، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر. فحسن الاستدلال بأحدهما علىٰ الآخر.

(العاشر) أنه سبحانه نبه بقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] علىٰ أنه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه، فلا يضيع منه شيء.

ثم نبه بقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨] علىٰ بعثه لجزائه علىٰ العمل الذي حفظ وأحصىٰ عليه. فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته، فمبدؤه محفوظ عليه ونهايته الجزاء عليه، ونبه علىٰ هذا بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] أي تختبر. وقال مقاتل: تظهر وتبدو، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه. والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله. فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر. فتختبر ذلك اليوم، حتىٰ يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها. وما كان لله مما لم يكن له.

قال عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما-: يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زينًا في الوجوه، وشينًا فيها. والمعنى تختبر السرائر بإظهارها. وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم.

وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحًا، فتبدو سريرته علىٰ وجهه نورًا وإشراقًا وحياءًا، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعًا لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته علىٰ وجهه سوادًا وظلمة وشينًا. وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا

إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها. قال الشاعر:

فإن لها في مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلىٰ السرائر

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن حال الإنسان في يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله. لا بقوة منه ولا بقوة من خارج، وهو الناصر. فإن العبد إذا وقع في شدة، فإما أن يدفعها بقوته أو قوة من ينصره. وكلاهما معدوم في حقه. ونظيره قوله سبحانه: ﴿**لَا يَسْتَطِيْعُون نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ولا هم مِّنَّا يُصْحَبُون**﴾ [الأنبياء: ٤٣].

ثم أقسم ـ سبحانه ـ بـ ﴿**والسَّماءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * والأرضِ ذاتِ الصَّدْعِ**﴾ [الطارق: ١١، ١٢]. فأقسم بالسماء ورجعها بالمطر، والأرض وصدعها بالنبات. قال الفراء: تبدي بالمطر ثم ترجع به، في كل عام. وقال أبو إسحاق: الرجع المطر، لأنه يجيء ويرجع ويتكرر. وكذلك قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: تبدي بالمطر ثم ترجع به. في كل عام.

والتحقيق أن هذا علىٰ وجه التمثيل. ورجع السماء هو إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال، علىٰ مرور الأزمان. ترجعه رجعًا، أي تعطيه مرة بعد مرة. والخير كله من قبل السماء يجيء. ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به، وحسن تفسيره به ومقابلته بصدع الأرض عن النبات، وفسر الصدع بالنبات، لأنه يصدع الأرض أي يشقها. فأقسم ـ سبحانه ـ بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النبات، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالىٰ الدالة علىٰ ربوبيته.

وأقسم علىٰ كون القرآن حقًا وصدقًا فقال: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وما هو بِالْهَزْل**﴾ [الطارق: ١٣، ١٤] كما أقسم في أول السورة علىٰ حال الإنسان في مبدئه ومعاده.

والقول الفصل هو الذي يفصل بين الحق والباطل، فيميز هذا من هذا، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومصيب الفصل الذي ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره، كما قال: أصاب الفصل وأصاب المرء. إذا أصاب بكلامه نفس المعنىٰ المراد، ومنه فصل الخطاب.

وأيضا فالقول الفصل ببيان المعنىٰ ضد الإجمال. فكون القرآن فصلاً يتضمن هذه المعاني كلها، ويتضمن كونه حقًّا ليس بالباطل، وجدًا ليس بالهزل.

ولما كان الهزل هو الذي لا حقيقة له - وهو الباطل واللعب - قابل بين الفصل والهزل. وإنما يكيد المكذبون ويحيلون، ويخادعون لرده، ولا يردونه بحجة، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده.

وكيده ـ سبحانه ـ استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتىٰ يأخذهم علىٰ غرة، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ [الأعراف: ١٨٣] فالإنسان إذ أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتىٰ يطمئن إليه، فيأخذه كما يفعل الملوك، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنًا لا قبح فيه، فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم، حتىٰ إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة. ثم قال: ﴿**فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا**﴾ [الطارق: ٨] أي أنظرهم قليلاً، ولا تستعجل لهم، والرب تعالىٰ هو الذي يمهلهم.

وإنما خرج الخطاب للرسول علىٰ جهة التهديد والوعيد لهم. أو علىٰ معنىٰ انتظر بهم قليلاً. ورويدا في كلامهم يكون اسم فعل، فينصب بها الاسم نحو رويدًا زيدًا، أي خله وأمهله، وارفق به.

الثاني: أن يكون مصدرًا مضافًا إلىٰ المفعول، نحو رويد زيد، أي إمهال زيد، نحو ضرب الرقاب.

الثالث: أن يكون نعتًا منصوبًا، نحو قولك: ساروا رويدًا. تقول العرب: ضعه رويدًا، أي وضعًا رويدًا. وفي حديث عائشة في خروج النبي ﷺ بالليل من عندها إلىٰ البقيع «فخرج رويدًا، وأجاف الباب رويدًا.

ويجوز في هذا الوجه وجهان: أحدهما أن يكون حالاً. والثاني أن يكون نعتًا لمصدر محذوف، فإن أظهرت المنعوت تعين الوجه الثاني. ورويدًا في هذه الآية هو من هذا النوع الثالث. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطارق

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**الهداية** لها أربع مراتب وهي مذكورة في القرآن.

المرتبة الأولىٰ: الهداية العامة، وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمي لمصالحه التي بها قام أمره، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلىٰ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ والَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١-٣].

فذكر أمورًا أربعة: الخلق والتسوية والتقدير والهداية، فسوىٰ خلقه، وأتقنه، وأحكمه، ثم قدر له أسباب مصالحه في معاشه وتقلباته وتصرفاته وهداه إليها. والهداية تعليم، فذكر أنه الذي خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك في أول سورة أنزلها علىٰ رسولـه، وقد تقدم ذلك. وقال ـ تعالى ـ حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يامُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الذي أعْطَى كُلَّ شيَءٍ خَلْقَه ثم هُدَى﴾ [طه: ٤٩-٥٠] وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها.

المرتبة الثانية: هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده، وهذه لاتستلزم الاهتداء التام. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهدَيْنَاهُمْ فاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] يعني بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فآثروا الضلالة والعمى.

وقال تعالى: ﴿وعَادًا وَثَمُودَ وقَدْ تَبيَّنَ لكم منّ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لهم الشَّيْطانُ أعمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبْيلِ وكَانُوا مُسْتَبْصِرِين﴾ [العنكبوت: ٣٨] وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثـانية. وهي هدى التـوفيق والإلهـام. قال الله ـ تعـالى ـ: ﴿والله يَدْعُـو إلى دَارِ السَّلامِ وَيهدِي من يشآءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيم﴾ [يونس: ٢٥] فعم بالـدعـوة خلقه وخص بالهداية من شاء منهم. قال ـ تعالى ـ: ﴿إنَّك لاَ تَهْدِي من أحْبَبْتَ ولـكِنَّ الله يَهْدِي من يشآءُ﴾ [القصص: ٥٦] مع قوله: ﴿وإنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان

(١) ٨٤ مفتاح جـ١.

ونفي هداية التوفيق والإلهام. وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: «**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**». وقال ـ تعالى ـ: **﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾** [النحل: ٣٧] أي من يضله الله لا يهتدي أبدًا.

وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء. وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدي عنها بخلاف الثالثة، فإن تخلف الهدى عنها مستحيل.

المرتبة الرابعة: الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار. قال ـ تعالى ـ: **﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وأَزْوَاجَهُمْ ومَاكَانُوا يَعْبُدُون من دُون الله فَاهْدُوهم إلى صراطِ الْجَحِيمْ﴾** [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وأما قول أهل الجنة: **﴿الحمدُ الله الَّذي هَدَانا لهذا ومَا كُنَّا لِنَهْتَدي لولا أنْ هَدَانا الله﴾** [الأعراف: ٤٣] فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم.

ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وإنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ، وقد ضرب الله ـ تعالى ـ لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلاً مطابقًا لحاله: فقال ـ تعالى ـ: **﴿قُلْ أَنَدْعُوا من دُون الله مَالاَ يَنْفَعُنَا ولاَ يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أعْقَابِنَا بعدَ إذْ هَدَانَا الله كَالَّذي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرانَ له أصحابٌ يَدْعُونه إلى الهُدَى ائتنا قُلْ إنَّ هُدىَ الله هو الهدى وأُمْرنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالَمين﴾** [الأنعام: ٧١].

(١)**والهداية** هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره. فالمهتدي هو العامل بالحق المريد له، وهي أعظم نعمة لله على العبد. ولهذا أمرنا ـ سبحانه ـ أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق، فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله.

ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه، وأن كل ما يعلم أنه

(١) ٨٣ مفتاح جـ١.

حق لا تطاوعه نفسه على إرادته ولو أراده لعجز عن كثير منه، فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل.

أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه، وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه أم خرج فيه عن الحق، فيتوب إلى الله ـ تعالى ـ منه، ويستغفره، ويعزم على أن لا يعود؟

وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه، فإنه ابن وقته، فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال، هل هو صواب أم خطأ؟

وأما المستقبل فحاجته في الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق.

وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطرارًا لها، وأن مايورده بعض الناس من السؤال الفاسد، وهي إنا إذا كنا مهتدين فأي حاجة بنا أن سأل الله أن يهدينا، وهل هذا إلا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب، وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علمًا بحقيقتها ومسماها، فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى: ثبتنا على الهداية، وأدمها لنا. ومن أحاط علمًا بحقيقة الهداية وحاجة العبد لها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له، وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة، لا سيما والله ـ تعالى ـ خالق أفعال القلوب والجوارح، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة، ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع موجب الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له، فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه، بل لابد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه. ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الغي في قلبه كل منها مانع. وصول أثر الهداية إليه، فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تامًّا، فحاجته إلى هداية الله له مقرونة بأنفاسه، وهي أعظم حاجة للعبد.

وذكر النبي ﷺ في الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب، فإن فطر السموات والأرض توسل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ الخلق عليها.

فذكر كونه فاطر السموات والأرض، والمطلوب تعليم الحق والتوفيق، له فذكر علمه ـ سبحانه ـ بالغيب والشهادة، وأن من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه. وهو بمنزلة التوسل إلى الغني بغناه وسعة كرمه أن يعطي عبده شيئًا من ماله.

والتوسل إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده وبعفوه أن يعفو عنه وبرحمته أن يرحمه ونظائر ذلك، وذكر ربوبيته ـ تعالى ـ لجبريل وميكائيل وإسرافيل.

وهذا والله أعلم لأن المطلوب هدى يحيا به القلب، وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله ـ تعالى ـ على أيديهم أسباب حياة العباد.

أما جبريل فهو صاحب الوحي الذي يوحيه الله إلى الأنبياء، وهو سبب حياة الدنيا والآخرة.

وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذي به سبب حياة كل شيء.

وأما إسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور فيحيي الله الموتى بنفخته، فإذا هم قيام لرب العالمين.

(١)الباب الرابع عشر

في الهدي والضلال ومراتبهما والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله، فإن أفضل مايقدر الله لعبده وأجل مايقسمه له الهدى، وأعظم مايبتليه به، ويقدره عليه الضلال.

وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال.

وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه ـ سبحانه ـ يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله ـ سبحانه ـ وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه. ولابد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن، **فأما** مراتب الهدي فأربعة:

(١) ٦٥ شفاء.

إحداها الهدي العام، وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها ومايقيمها وهذا أعم مراتبه.

المرتبة الثانية: الهدىٰ بمعنىٰ البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده وهذا خاص بالمكلفين، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى، وأعم من الثالثة.

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء، وهي هداية التوفيق ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى وإرادته والقدرة عليه للعبد، وهذه الهداية التي لايقدر عليها إلا الله عز وجل.

المرتبة الرابعة: الهداية يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار.

(فصل)

فأما المرتبة الأولى فقد قال ـ سبحانه ـ: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾ [الأعلى: ١-٣] فذكر ـ سبحانه ـ أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية. وجعل التسوية من تمام الخلق، والهداية من تمام التقدير، قال عطاء: خلق فسوى، أحسن ماخلقه.

وشاهده قوله ـ تعالى ـ: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾ [السجدة: ٧] فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال، فالخلق: الإيجاد. والتسوية: إتقانه وإحسان خلقه.

قال الكلبي: خلق كل ذي روح فجمع خلقه وسواه باليدين والعينين والرجلين. وقال مقاتل: خلق لكل دابة مايصلح لها من الخلق، وقال أبو إسحاق: خلق الإنسان مستويًا، وهذا تمثيل، وإلا فالخلق والتسوية شامل للإنسان وغيره، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**﴾ [الشمس: ٧] وقال: ﴿**فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ**﴾ [البقرة: ٢٩] فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته ﴿**مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ**﴾ [الملك: ٣] ومايوجد من التفاوت وعدم التسوية فهو راجع إلى عدم إعطاء التسوية للمخلوق؛ فإن التسوية أمر وجودي تتعلق بالتأثير والإبداع، فما عدم منها فلعدم إرادة الخالق للتسوية، وذلك أمر عدمي يكفي فيه عدم الإبداع والتأثير.

فتأمل ذلك؛ فإنه يزيل عنك الإشكال في قوله: ﴿مَاتَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ فالتفاوت حاصل بسبب عدم مشيئة التسوية، كما أن الجهل والصمم والعمى والخرس والبكم يكفي فيها عدم مشيئة خلقها وإيجادها.

وتمام هذا يأتي أن شاء الله في باب دخول الشر في القضاء عند قول النبي ﷺ: «**والشر ليس إليك**». والمقصود أن كل مخلوق فقد سواه خالقه ـ سبحانه ـ في مرتبة خلقه وإن فاتته التسوية من وجه آخر لم يخلق له.

(1)**لاتتم** الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين: نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها، واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، ومافي ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع مايعقب من الحسرة والأسف. فطالبها لاينفك من همٍّ قبل حصولها، وهمٍّ في حال الظفر بها، وغمٍّ وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها، وشرف مافيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ماههنا، فهي كما قال الله – سبحانه –: ﴿**وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [الأعلى: ١٧]؛ فهي خيرات كاملة دائمة. وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هذان النظران آثر مايقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على أن لايترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل، واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل.

وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة، فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها، إما أن يصدق بأن ماهناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لايصدق، فإن لم يصدق بذلك كان عادمًا للإيمان رأسًا،

(١) ٩٣ فوائد.

وإن صدق بذلك ولم يؤثره، كان فاسد العقل سيء الاختيار لنفسه.

وهذا تقسيم حاضر ضروري لاينفك العبد من أحد القسمين منه، فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل. وماأكثر مايكون منهما! ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه، وصرفوا عنها قلوبهم واطرحوها ولم يألفوها وهجروها ولم يميلوا إليها وعدوها سجناً لا جنة فزهدوا فيها حقيقة الزهد. . .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأعلى
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**تأمل** الحكمة العجيبة في الجبال، الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لاحاجة إليها، وفيها من المنافع مالا يحصيه إلا خالقها وناصبها.

وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ: بالذي نصب الجبال، وأودع فيها المنافع، آلله أمرك بكذا وكذا؟ قال: «**اللهم نعم**».

فمن منافعها: أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حاصلاً لشراب الناس إلى حين نفاده، وجعل فيها ليذوب أولاً فأولاً، فتجيء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية، فينبت في المروج والوهاد والرُّبا، ضروب النبات والفواكه والأدوية التي لايكون مثلها في السهل والرمل، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحل جملة، وساح دفعه: فعدم وقت الحاجة إليه، وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك مامرت عليه، فيضر بالناس ضررًا لايمكن تلافيه، ولادفعه لأذيته.

ومن منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع، وهي أيضًا أكنان للناس والحيوان.

ومن منافعها ماينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرجية وغيرها.

ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل، حتى أن فيها مايكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة.

وفيها من المنافع مالا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه.

ومن منافعها أيضًا أنها ترد الرياح العاصفة، وتكسر حدتها، فلا تدعها تصدم ماتحتها، ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية.

(١) ٢١٨ مفتاح جـ١.

ومن منافعها أيضًا أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال، ولولاها خربت السيول في مجاريها مامرت به، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن.

ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها في الطرقات، فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق، ولهذا سماها الله أعلامًا فقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلَامِ**﴾ [الشورى: ٣٢] فالجواري هي السفن، والأعلام: الجبال. واحدها علم قالت الخنساء:

وأن صخرًا لتأتم الهداة به　　كأنه علم في رأسه نار

فسمى الجبل علمًا من العلامة والظهور.

ومن منافعها أيضًا ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لاتكون في السهول والرمال، كما أن ماينبت في السهول والرمال لاينبت مثله في الجبال، وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم، لايحيط به إلا الخلاق العليم.

ومن منافعها أنها تكون حصونًا من الأعداء، يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم، كما يتحصنون بالقلاع، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن.

ومن منافعها ماذكره الله ـ تعالى ـ في كتابه أن جعلها للأرض أوتادًا، تثبتها، ورواسي بمنزلة مراسي السفن، وأعظم بها من منفعة وحكمة.

هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع، وجدتها في غاية المطابقة للحكمة، فإنها لوطالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها، والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء، فلم يتمكنوا من الانتفاع بها، ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل، ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والأكنان، ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها، ولما حصل لهم بها الانتفاع التام، فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه.

ولقد دعانا الله سبحانه في كتابه إلىٰ النظر فيها وفي كيفية خلقها فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وإِلَىٰ السَّمآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وإِلَىٰ الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-١٩] فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته.

هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته، وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة، إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها.

ومنها الجبل الذي كلم الله عليه موسىٰ كليمه ونجيه.

ومنها الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه إليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه.

ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سورًا على بيته، وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما، وجعله من مناسكهم وتعبداتهم.

ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات.

فلله كم به من ذنب مغفور، وعثرة مقالة وزلة معفو عنها، وحاجة مقضية وكربة مفروجة، وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة.

كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم، والوفد الأكرم، الذين جاءوا من كل فج عميق، وقوفًا لربهم مستكينين لعظمته خاشعين لعزته، شعثًا غبرًا حاسرين عن رءوسهم يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم، فيدنو منهم ثم يباهي بهم الملائكة، فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام.

ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته، وهو في غاره فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم، فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك.

فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال، فجعل منها جبالًا هي مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه، فهي تهوىٰ إليها كلما ذكرتها، وتهفو نحوها.

كما اختص من الرجال من خصه بكرامته، وأتم عليه نعمته ووضع عليه **محبته** منه، فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين، ووضع له القبول في الأرض بينهم.

وإذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلاني وجبل بني فلان وجبل كذا

خذ ماتراه ودع شيئًا سمعت به في طلعة الشمس مايغنيك عن زحل

هذا وإنها لتعلم أن لها موعدًا، ويومًا تنسف فيها نسفًا، وتصير كالعهن من هوله وعظمه، فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له.

وكانت أم الدرداء رضي الله عنها إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها، أسمعت الجبال ماوعدها ربها فيقال ماأسمعها فتقول: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾**

فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته وقد أخبر عنها فاطرها وباريها إنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله.

فيا عجبًا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلىٰ عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولاتخشع ولا تنيب، فليس بمستنكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظة، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلاً فإن أمامه الملين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم.

فصــل

ولما اقتضت حكمته ـ تبارك وتعالى ـ أن جعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمل لينتفع بكل ذلك في وجهه، ويحصل منه ماخلق له، وكانت الأرض بهذه المثـابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف، ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه، إما بعلمهم وإما بدونه، ثم يرد إليها ماخرج منها.

وجعلها ـ سبحانه ـ كفاتًا للأحياء مادامو على ظهرها، فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها فكانت كفاتًا لهم تضمهم على ظهرها أحياءًا وفي بطنها أمواتًا، فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو المخاض، أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها، وتخرج أثقالها، فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول: رب هذا مااستودعتني، وتخرج كنوزها بإذنه ـ تعالى ـ ثم تحدث أخبارها، وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر.

فصــل

ولما كانت الـرياح تجول فيهـا، وتدخل في تجاويفها، وتحدث فيها الأبخرة، وتخفق الرياح، ويتعذر عليها المنفذ أذن الله ـ سبحانه ـ لها في الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام، فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم. كما قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض: إن ربكم يستعتبكم، وقال عمر بن الخطاب وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم، وقال: لئن عادت لاأساكنكم فيها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الغاشية

والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الفَجْرِ

ترتيبها ٨٩ — آياتها ٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالى: ﴿**والفَجْرِ * ولَيَالٍ عَشْرٍ * والشَفْعِ والوَتْرِ * والليْلِ إذا يَسْرِ * هَلْ في ذلِكَ قَسَمٌ لِّذي حِجْرٍ**﴾ [الفجر: ١-٥] قيل جوابه: ﴿**إن رَبَّكَ لَبَالْمِرْصَادِ**﴾ [الفجر: ١٤] وهذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة.

والثاني قوله: ﴿**إن ربك لَبالْمِرْصَادِ**﴾ [الفجر: ١٤] ذكر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة، وهي عاد، وثمود، وفرعون. فذكر عقوبتهم، ثم قال مقرراً ومحذرًا: ﴿**إن ربَّك لبالْمِرْصادِ**﴾ [الفجر: ١٤] فلا نرى تعلقه بذلك دون القسم.

وأحسن من هذا أن يقال: إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالاً معظمة، من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من شعائر الله، المتضمنة خضوع العبد لربه، فإن الحج والنسك عبودية محضة لله، وخضوع لعظمته.

وذلك ضد ماوصف به عادًا وثمود، وفرعون، من العتو، والتكبر، والتجبر، فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله، وهؤلاء الأمم عتوًا وتكبروا عن أمر ربهم.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**مامن أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر**» قيل: يارسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله لم يرجع من ذلك بشيءٍ**».

فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب ـ عز وجل ـ به.

﴿**والفَجْرِ**﴾ إن أريد به جنس الفجر، كما هو ظاهر اللفظ، فإنه يتضمن وقت

(١) ١٨ التبيان.

صلاة الصبح، التي هي أول الصلوات. فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات، وختمه بقوله: ﴿والَّليْلِ إذا يَسْرِ﴾ المتضمن لآخر الصلوات.

وإن أريد بالفجر فجر مخصوص، فهو فجر يوم النحر وليلته، التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام، ومارؤي الشيطان في ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فيها. وذلك الفجر: فجر يوم النحر الذي هو أفضل الأيام عند الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**أفضل الأيام عند الله يوم النحر**» رواه أبو داود بإسناد صحيح. وهو آخر أيام العشر. وهو يوم الحج الأكبر، كما ثبت في صحيح البخاري وغيره.

وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله ﷺ: «**إن الله بريء من المشركين ورسوله، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان**».

ولا خلاف أن المؤذن أذن بذلك في يوم النحر، لا يوم عرفة، وذلك بأمر رسول الله ﷺ، امتثالاً وتأويلاً للقرآن.

وعلى هذا فقد تضمن القسم: المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله، والخضوع له والتواضع لعظمته، ولهذا قال الخليل ـ عليه السلام ـ: ﴿**إنَّ صَلاَتي ونُسُكِيْ ومحْيَايَ ومَمَاتي لله رَبِّ الْعالَمِين**﴾ [الأنعام: ١٦٢] وقيل لخاتم الرسل ﷺ: ﴿**فَصَّلِ لربْك وانْحَرْ**﴾ [الكوثر: ٢] بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده، بل يشركون به، ويستكبرون عن عبادته، كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد، وثمود، وفرعون.

وذكر ـ سبحانه ـ من جملة هذه الأقسام ﴿**الشَّفْعِ والوَترِ**﴾، إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر، في الأمكنة والأزمنة والأعمال: فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، والجمرات وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفة وتر، وأما الأعمال: فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع. وهو الأصل، فإن الله وتر، يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها وتر، والوتر يوتر الشفع، فتكون كلها وتراً. كما قال النبي ﷺ: «**صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة توتر لك ماقد صليت**». وأما

الزمان: فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع، وهذا قول أكثر المفسرين.

وروى مجاهد عن ابن عباس: الوتر آدم، وشفع بزوجته حواء. وقال في رواية أخرى: الشفع آدم وحواء، والوتر الله وحده. وعنه رواية ثالثة، الشفع يوم النحر، والوتر اليوم الثالث. وقال عمران بن حصين، وقتادة: الشفع والوتر هي الصلاة، وروى فيه حديثًا مرفوعاً. وقال عطية العوفي، الشفع الخلق، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وخَلَقْنَاكُم أزْواجًا﴾ [النبأ: ٨] والوتر هو الله، وهذا قول الحكم، قال: كل شيء شفع والله وتر. وقال أبو صالح: خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، والله وتر واحد. وهذا قول مجاهد، ومسروق. وقال الحسن: الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر، وقال ابن زيد: الشفع والوتر الخلق كله من شفع ووتر، وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة.

وذكرت أقوال أخر، هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين:

أحدهما: أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات.

والثاني: أن الوتر الخالق، والشفع المخلوق، وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق، فهو نظير ماتقدم في قوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحاها﴾ [الشمس: ١]. نظير ماذكر في قوله: ﴿وشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]. وماذكر في قوله: ﴿واللَّيْلِ إذَا يَغْشَى * والنَّهار إذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأنْثَىٰ﴾

وقال ههنا: ﴿والليل إذا يَسْرِ﴾ وفي سورة المدثر: أقسم بالليل إذا أدبر. وفي سورة التكوير: أقسم بالليل إذا عسعس، وقد فسر بأقبل، وفسر بأدبر. فإن كان المراد إقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة، وهي حالة إقباله، وحالة امتداده وسريانه، وحالة إدباره، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه.

وعرف الفجر باللام إذ كل أحد يعرفه، ونكر الليالي العشر، لأنها إنما تعرف بالعلم. وأيضًا فإن التنكير تعظيم لها. فإن التنكير يكون للتعظيم.

وفي تعريف الفجر مايدل على شهرته، وأنه الفجر الذي يعرفه كل أحد ولايجهله. فلما تضمن هذا القسم ماجاء به إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم كان في ذلك مادل على المقسم عليه، ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذٰلِكَ

قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥] فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة. وذلك يحتاج إلى حجر بحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى، ويحمله على اتباع الرسل، لئلا يصيبه ماأصاب من كذب الرسل كعاد، وفرعون، وثمود.

ولما تضمن ذلك مدح الخاضعين والمتواضعين ذكر حال المستكبرين المتجبرين الطاغين. ثم أخبر أنه صب عليهم سوط عذاب. ونكره إما للتعظيم، وإما لأن يسيرًا من عذابه استأصلهم وأهلكهم، ولم يكن معه بقاء ولاثبات. ثم ذكر حال الموسع عليهم في الدنيا والمقتر عليهم.

وأخبر أن توسعته على من وسع عليه - وإن كان إكرامًا له في الدنيا - فليس ذلك إكرامًا على الحقيقة، ولا يدل على أنه كريم عنده، من أهل كرامته ومحبته.

وأن تقتيره على من قتر عليه لايدل على إهانته له، وسقوط منزلته عنده، بل يوسع ابتلاءًا وامتحانًا، ويفتر ابتلاءًا وامتحانًا فيبتلى بالنعم، كما يبتلى بالمصائب.

وهو ـ سبحانه ـ يبتلى عبده بنعمة تجلب له نقمة، وبنعمة تجلب له نعمة أخرى، وبنقمة تجلب له نقمة أخرى، وبنقمة تجلب له نعمة، فهذا شأن نعمه ونقمه سبحانه.

وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله. وهم هؤلاء الأمم الثلاث: قوم عاد، اغتروا بقوتهم. وثمود، اغتروا بجناتهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم. وقوم فرعون، اغتروا بالمال والرياسة، فصارت عاقبتهم إلى ماقص الله علينا. وهذا شأنه دائمًا مع كل من اغتر بشيء من ذلك، لابد أن يفسده عليه، ويسلبه إياه. ثم ذكر ـ سبحانه ـ حال الإنسان في معاملته لمن هو أضعف منه، كاليتيم والمسكين. فلا يكرم هذا، ولا يحض على طعام هذا. ثم ذكر حرصه على جمع المال وأكله، وحبه له. وذلك هو الذي أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين.

(١)**من علامات السعادة والفلاح، أن العبد كلما زيد في علمه؛ زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله؛ زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره؛ نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله؛ زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه؛ زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.**

---

(١) ١٥٢ الفوائد.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه؛ زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله؛ زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله؛ زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه؛ زيد في كبره وتيهه. وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده؛ فيسعد بها أقوام ويشقي بها أقوام. وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء: كالملك، والسلطان، والمال. قال ـ تعالى ـ عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده: ﴿**هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُونِي أأشْكُرُ أم أكْفُرُ**﴾ [النمل: ٤٠] فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور، كما أن المحن بلوى منه ـ سبحانه ـ فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب. قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَأَمَّا الإنْسَانُ إذا مَا ابْتَلاَه رَبُّه فأكْرَمَهُ وَنَعَّمَه فَيقُولُ رَبِّي أكْرَمَنِ وأمَّا إذَا ماابْتَلاَه فَقَدَر عليه رِزْقُه فَيَقُولُ رَبِّي أهَانَنِ كَلا**. . . . .﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته، يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته، يكون ذلك إهانة له مني.

(١).. **إذا** أعطاك(٢) ماأعطاك بلاسؤال: تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولامبعدًا عن مرضاته. ولاتظن أن عطاءه كلَّ ماأعطى لكرامة عبده عليه؛ ولامنعه كل مايمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده. قال الله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الإِنْسَانُ إذا مَاابْتَلاَه رَبُّه فَأَكْرَمَه ونَعَّمَه فَيقُولُ رَبِّي أكْرَمَن وأمَّا إذا مَاابْتَلاَه فَقَدر عليه رِزْقَه فيقولُ رَبِّي أهانَنِ * كَلاَّ**﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] أي ليس كل من أعطيتُه ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وماذاك لكرامته عليّ. ولكنه ابتلاء مني: وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخَوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقَدَر لايفضل عنه، فذلك من هوانه

---

(١) ٨٠ مدارج جـ١.

(٢) الضمير يعود إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ والبحث تجده في تفسير سورة الفاتحة بكامله وكذلك يوجد في سورة المائدة بحث نفيس حول هذا (ج).

عليّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف مافاته من سَعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

فرد الله ـ سبحـانه ـ على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ، فأخبر أن الإكرام والإهانة لايدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه ـ سبحانه ـ يوسع على الكافر لالكرامته، ويُقَتِّر على المؤمن لالإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهـو الغني الحميد. فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥].

(١)**قوله:** ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ**﴾ [البقرة: ٢١٠] ونظائره.

قيل: هو من مجاز الحذف، تقديره: وجاء أمر ربك. وهذا باطل من وجوه.

أحدها: إنه إضمار ما لا يدل اللفظ عليه بمطابقة ولا تضمن ولا لزوم. وادعاء جذف ما لا دليل عليه يرفع الوثوق من الخطاب، ويطرق كل مبطل على ادعاء إضمار مايصحح باطله.

الثاني: أن صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف، بل الكلام مستقيم تام قائم المعنى بدون إضمار فإضماره مجرد خلاف الأصل، فلا يجوز.

الثالث: إنه إذا لم يكن في اللفظ دليل على تعيين المحذوف كان تعيينه قولاً على المتكلم بلا علم وإخباراً عنه بإرادة مالم يقم به دليل على إرادته وذلك كذب عليه.

الرابع: أن في السياق ما يبطل هذا التقدير وهو قوله: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ**﴾ فعطف مجيء الملك على مجيئه ـ سبحانه ـ يدل على تغاير المجيئين، وأن مجيئه ـ سبحانه ـ حقيقة. كما أن مجيء الملك حقيقة بل مجيء الرب ـ سبحانه ـ أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك.

الرابع: أن في السياق ما يبطل هذا التقدير وهو قوله: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ**﴾

---

(١) ١٠٦ مختصر الصواعق جـ٢.

فعطف مجيء الملك على مجيئه ـ سبحانه ـ يدل على تغاير المجيئين، وأن مجيئه ـ سبحانه ـ حقيقة. كما أن مجيء الملك حقيقة بل مجيء الرب ـ سبحانه ـ أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك. وكذلك قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُوْنَ إلَّا أنْ تَأْتِيهُمُ الملائِكَةُ أوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ففرق بين إتيان الملائكة وإتيانَ الرب وإتيان بعض آيات ربك، فقسّم ونوّع، ومع هذا التقسم يمتنع أن يكون القسمان واحدًا فتأمله. ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل هذا اللفظ على مجازه وقالوا: هذا يأباه التقسيم والترديد والاطراد.

الخامس: أنه لو صرح بهذا المحذوف المقدر لم يحسن، وكان كلامًا ركيكًا، فادعى صدق مايكون النطق به مشتركًا باطلاً، فإنه لو قال: هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكةُ أو يأتي ملك ربك أو أمر ربك أو يأتي بعض آيات ربك كان مستهجنًا.

السادس: إن اطراد نسبة المجيء والإتيان إليه ـ سبحانه ـ دليل الحقيقة، وقد صرحتم بأن من علامات الحقيقة الاطراد فكيف كان هذا المطرد مجازاً.

السابع: أنه لو كان المجيء والإتيان مستحيلاً عليه، لكان كالأكل والشرب والنوم والغفلة وهكذا هو عندكم سواء، فمتى عهدتم إطلاق الأكل والشرب والنوم والغفلة عليه ونسبتها إليه نسبة مجازية وهي متعلقة بغيره، وهل في ذلك شيء من الكمال البتة. فإن قوله: ﴿وجاء ربك﴾ و﴿أتى﴾ و﴿يأتي﴾ عندكم في الاستحالة مثل نام وأكل وشرب، والله ـ سبحانه ـ لا يطلق على نفسه هذه الأفعال ولا رسوله ﷺ لا بقرينة ولا مطلقة فضلاً عن تطرد نسبتها إليه، وقد اطرد نسبه المجيء والإتيان والنزول والاستواء إليه مطلقاً من غير قرينة تدل على أن الذي نسب إليه ذلك غيره من مخلوقاته، فكيف تسوغ دعوى المجاز فيه.

الثامن: أن المجاز لو كان ثابتًا فإنما يصار إليه عند تعذر الحمل على الحقيقة إذ هي الأصل، فما الذي أحال حمل ذلك على حقيقته من عقل أو نقل أو اتفاق من اتفاقهم حجة. فأما النقل والاتفاق: فهو من جانب الحقيقة فلا ريب. وأما العقل: فإنكم تزعمون أنكم أولى به منهم، وهم قد أبطلوا جميع عقلياتكم التي

لأجلها ادعيتم أن نسبة المجيء والإتيان والنزول والاستواء إلى الله مجاز من أكثر من ثلاثمائة وجه.

وقد ذكرناها فيما تقدم فسلم لهم النقل، واتفق السلف، فكيف والعقل الصريح من جانبهم كما تقدم تقريره، فإن من لا يفعل شيئًا ولا يتمكن من فعل يقوم به بمنزلة الجماد.

التاسع: أن هذا الذي ادعوا حذفه وإضماره يلزمهم فيه كما لزمهم فيما أنكروه، فإنهم إذ قدروا «**وجاء أمر ربك**»«**ويأتي أمره**» «**ويجيء أمره**» «**وينزل أمره**» فأمره هو كلامه، وهو حقيقة، فكيف تجيء الصفة، وتأتي، وتنزل دون موصوفها، وكيف ينزل الأمر ممن ليس هو فوق سمواته على عرشه.

ولما تفطن بعضهم لذلك قال أمره بمعنى مأموره، فالخلق والرزق بمعنى المرزوق فركب مجازًا على مجاز بزعمه ولم يصنع شيئًا، فإن مأموره هو الذي يكون ويخلق بأمره وليس له عندهم أمر يقوم به فلا كلام يقوم به، وإنما ذلك مجاز من مجاز الكناية عن سرعة الانفعال بمشيئته تشبيهًا بمن يقول: كن فيكون الشيء عقيب تكوينه، فركبوا مجازًا، على مجاز ولم يصنعوا شيئًا، فإن هذا المأمور الذي يأتي إن كان ملكًا فهو داخل في قوله: ﴿**أَوْ تَأْتِيهُمُ الْمَلَائِكَةُ**﴾ وإن كان شيئًا غير الملك فهو آية من آياته فيكون داخلاً في قوله: ﴿**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾.

العاشر: أن ما ادعوه من الحذف والإضمار: إما أن يكون في اللفظ مايقتضيه ويدل عليه أو لا، فإن كان الثاني لم يجز ادعاؤه وإن كان الأول كان كالملفوظ به وعلى التقديرين فلا يكون مجازًا، فإن المدلول عليه يمتنع تقديره.

(1)**وأما** المسألة العشرون: وهي هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران؟ فاختلف الناس في ذلك (فمن قائل): إن مسماهما واحد، وهم الجمهور ومن قائل: إنهما متغايران.

ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته فنقول: النفس تطلق على أمور:

---

(١) ٢٦٤ الروح.

أحدها: الروح). قال الجوهري: النفس: الروح. يقال: خرجت نفسه، **قال** **أبو خراش**:

نجا سالمًا والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزر

أي بجفن سيف ومئزر.

والنفس: الدم يقال: سالت نفسه، وفي الحديث: «**مالا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه**».

والنفس: الجسد قال الشاعر:

نبئت أن بني تميم ادخلوا أبناءهم تامور نفس المنذر

والتامور: الدم. والنفس: العين يقال: أصابت فلانًا نفس أي عين.

قلت: ليس كما قال، بل النفس هاهنا الروح، ونسبة الإضافة إلى العين توسع، لأنها تكون بواسطة النظر المصيب، والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم.

قلت: والنفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها، كقوله ـ تعالى ـ: **﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾** [النور: ٦١] وقوله ـ تعالى ـ: **﴿ولاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾** [النساء: ٢٩] وقوله ـ تعالى ـ: **﴿يومَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾** [النحل: ١١١] وقوله ـ تعالى ـ: **﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾** [المدثر: ٣٨].

وتطلق على الروح وحدها كقوله ـ تعالى ـ: **﴿يَآأَيَّتُها النفْسُ المُطْمئِنَّةُ﴾** [الفجر: ٢٧] وقوله تعالى: **﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾** [الأنعام: ٩٣] وقوله ـ تعالى ـ: **﴿وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الْهوَى﴾** [النازعات: ٤٠] وقوله ـ تعالى ـ: **﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾** [يوسف: ٥٣].

وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وتطلق الروح على القرآن الذي أوحاه الله ـ تعالى ـ إلى رسوله، قال تعالى: **﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رَوُحًا مِنْ أَمْرِنا﴾** [الشورى: ٥٢].

وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله، قال ـ تعالى ـ: **﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى من يشآءَ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يومَ التَّلاقِ﴾** [غافر: ١٥] وقال ـ تعالى ـ: **﴿يُنَزِّلُ الملآئِكَةَ بالرُّوحِ من أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّه لا إِلَـه إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُون﴾** [النحل: ٢].

وسمى ذلك روحًا لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لاتنفع صاحبها البتة، بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحًا لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو، ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هبت الأرواح من نحو أرضكم وجدت لمسراها على كبدي بردًا

ومنها الروح والريحان والاستراحة. فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها وسميت نفسًا إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تفنس الشيء إذا خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسًا، ومنه النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجًا كليًا، فإذا دفن عادت إليه فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفسًا لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وأن الحياة لا تتم إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس، فلهذا قال:

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

ويقال: فاضت نفسه، وخرجت نفسه، وفارقت نفسه: كما يقال: خرجت روحه، وفارقت، ولكن الفيض: الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة وهي الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض إذا اندفع قسرًا أو قهرًا، فالله ـ سبحانه ـ هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي.

ثم ختم السورة بمدح النفس المطمئنة، وهي الخاشعة المتواضعة لربها، وما تؤول إليه من كرامته ورحمته. كما ذكر قبلها حال النفس الأمارة، وما تؤول إليه من شدة عذابه ووثاقه.

[1]... **جعل** الله ـ سبحانه ـ الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب.

وفي قوله تعالى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطَمَئِنَّةُ ارْجِعِى إلى رَبِّك﴾ دليل على أنها

(١) ٥١٣ مدارج جـ٢.

لاترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة، فهناك ترجع إليه، وتدخل في عباده، وتدخل جنته، وكان من دعاء بعض السلف: «اللهم هَبْ لي نفسًا مطمئنة إليك».

(١)**فالنفس** إذا سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة، وهي التي يقال لها عند الوفاة ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى ربك رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: ٢٧].

قال ابن عباس: ﴿**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾ [الفجر: ٢٧] يقول: المصدقة. وقال قتادة: «هو المؤمن، اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله». وقال الحسن: «المطمئنة بما قال الله. والمصدقة بما قال». وقال مجاهد: «هي المنيبة المخبتة التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جَأْشِها لأمره وطاعته، وأيقنت بلقائه».

وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه. فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره. واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته. واطمأنت إلى الرضى به ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا. واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحَسْبِهِ وضمانه. فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلٰهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لاغنى لها عنه طرفة عين.

وإذا كانت بضد ذلك فهي أمارة بالسوء تأمر صاحبها بما تهواه: من شهوات الغيّ، واتباع الباطل، فهي مأوى كل سوء، وإن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه. وقد أخبر ـ سبحانه ـ أنها أمارة بالسوء، ولم يقل «آمرة» لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله، لامنها. فإنها بذاتها أمارة بالسوء؛ لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة، إلا من رحمه الله، والعدل والعلم طاريء عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها. فلم تكن أمارة لا بموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين مازكت منهم نفس واحدة.

(١) ٧٦ إغاثة جـ١.

فإذا أراد الله ـ سبحانه ـ بها خيراً جعل فيها ماتزكو به وتصلح : من الإرادات والتصـورات وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التي خلقت عليها من الجهل والظلم . وسبب الظلم : إما جهل ، وإما حاجة . وهي في الأصل جاهلة . والحاجة لازمة لها ، فلذلك كان أمرها بالسوء لازمًا لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله .

وبهـذا يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة ، ولاتشبهها ضرورة تقاس بها ، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك . . .

(١)**قال** عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ : «إذا توفى العبد المؤمن أرسل الله إليه ملكين . وأرسل إليه بتحفة من الجنة . فيقال : أخرجي أيتها النفس المطمئنة ، أخرجي إلى روح وريحان . ورب عنك راض» .

وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف .

أحدها: أنه عند الموت . وهو الأشهر . قال الحسن : إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها . ورضيت عن الله ، فيرضى الله عنها .

وقـال آخـرون : إنـما يقـال لها ذلـك عنـد البعث . هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة .

وقال آخرون : الكلمة الأولى – وهي : ﴿ارْجِعِي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧] – تقال لها عند الموت . والكلمة الثانية – وهي : «فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» – تقال لها يوم القيامة .

قال أبـو صالـح : «ارجعي إلى ربك راضية مرضية» هذا عند خروجها من الدنيا . فإذا كان يوم القيامة قيل لها : «فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي» .

والصواب: أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ، ويوم القيامة . فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا . وحينئذ فهي في الرفيق الأعلى ، إن كانت مطمئنة إلى الله ، وفي جنته . كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة . فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلـك . وحينئـذ فيكـون تمام الرجوع إلى الله ودخول الجنة . فأول ذلك عند الموت . وتمامه ونهايته : يوم القيامة ، فلا اختلاف في الحقيقة .

---

(١) ١٧٨ مدارج جـ٢ .

(١)... **وأما** الرضى عنه: فهو رضى العبد بما يفعله به، ويعطيه إياه. ولهذا لم يجيء إلا في الثواب والجزاء. كقوله تعالى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارجِعِي إلى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته. كقوله تعالى: ﴿خَالِدِيْن فِيْها أَبَدًا رَضِيَ الله عَنْهُمْ ورَضُوا عنه ذلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّه﴾

والرضى به: أصل الرضى عنه، والرضى عنه: ثمرة الرضى به.

وسر المسألة: أن الرضى به متعلق بأسمائه وصفاته. والرضى عنه: متعلق بثوابه وجزائه. وأيضا: فإن النبي ﷺ علق ذوَق طعم الإيمان بمن رضي بالله ربًّا. ولم يعلقه بمن رضي عنه، كما قال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً**» فجعل الرضى به قرين الرضى بدينه ونبيه. وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام، التي لا يقوم إلا بها وعليها.

وأيضا: فالرضى به ربًّا يتضمن توحيده وعبادته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجاءه ومحبته، والصبر له وبه. والشكر على نعمه: يتضمن رؤية كل مامِنْهُ نعمةً وإحسانًا، وإن ساء عبدَهُ.

فالرضا به يتضمن «شهادة أن لا إلـه إلا الله». والرضى بمحمد رسولاً. يتضمن «شهادة أن محمدًا رسول الله». والرضى بالإسلام دينًا: يتضمن التزام عبوديته، وطاعته وطاعة رسوله. فجمعت هذه الثلاثة الدين كله.

وأيضا: فالرضى به ربًّا يتضمن اتخاذه معبودًا دون ماسواه. واتخاذه وليًّا ومعبودًا، وإبطال عبادة كل ماسواه.

وقد قال تعالى لرسوله: ﴿أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال: ﴿أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٣] وقال: ﴿قُلْ أغيرَ الله أَبْغِي رَبًّا وهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فهذا هو عين الرضى به ربًّا.

وأيضا: فإنه جعل حقيقة الرضى به رَبًّا: أن يسخط عبادة مادونه. فمتى سخط العبد عباده ماسوى الله من الآلهة الباطلة، حبًّا وخوفًا، ورجاء وتعظيمًا، وإجلالاً - فقد تحقق بالرضى به ربًّا، الذي هو قطب رحى الإسلام.

(١) ١٨٤ مدارج جـ٢.

وإنما كان قطب رحى الدين: لأن جميع العقائد والأعمال، والأحوال: إنما تبنى على توحيد الله ـ عز وجل ـ في العبادة، وسخط عبادة ماسواه. فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رحى تدور عليه . . .

(١)**الناس** في هذه الدار على جناح سفر كلهم، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده، ونازل على من يسر بالنزول عليه. وطالب الله والدار الآخرة، إنما هو ظاعن إلى الله في حال سفره، ونازل عليه عند القدوم عليه، فهذه همته في سفره وفي انقضائه: ﴿**يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً * فادْخُلِي في عِبَادِي * وادْخُلِي جَنَّتِيْ**﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، وقالت امرأة فرعون: ﴿**رَبِّ ابْنِ لِيَ عِنْدَكَ بَيْتًا في الجَنَّةِ**﴾، فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة، فإن الجار قبل الدار.

(٢)**والمقصود** التنبيه على بعض أحوال النفس المطمئنة واللوامة والأمارة، وماتشترك فيه النفوس الثلاثة، ومايتميز به بعضها من بعض، وأفعال كل واحدة منها واختلافها ومقاصدها ونياتها، وفي ذلك تنبيه على ماوراءه، وهي نفس واحدة تكون أمارة تارة ولوامة أخرى ومطمئنة أخرى، وأكثر الناس الغالب عليهم الأمارة، وأما المطمئنة فهي أقل النفوس البشرية عددًا وأعظمها عند الله قدرًا، وهي التي يقال لها: ﴿**ارْجِعِي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فادْخُلِي في عِبَادِيَ * وادْخُلِي جَنَّتِي**﴾.

والله ـ سبحانه ـ وتعالى المسئول المرجو الإجابة أن يجعل نفوسنا مطمئنة إليه عاكفة بهمتها علية، راهبة منه، راغبة فيما لديه، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن لايجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطًا ولا يجعلنا من ﴿**الأخسَرِيْن أعْمالاً الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيا وهُمْ يَحْسَبُون أنَّهُمْ يُحْسِنُون صُنْعاً**﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفجر

والحمد لله رب العالمين

---

(١)

(٢) ٣٢٦ الروح.



بسم الله الرحمن الرحيم

[(١)] **وأما** سورة ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا البَلَدِ﴾ [البلد: ١] فذكر فيها جواب القسم. وهو قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسانَ في كَبدٍ﴾ [البلد: ٤] وفسر الكبد بالاستواء وانتصاب القامة. قال ابن عباس، في رواية مقسم: منتصبًا على قدميه. وهذا قول أبي صالح، والضحاك، وإبراهيم، وعكرمة، وعبد الله بن شداد.

قال المنذر: سمعت أبا طالب يقول: الكبد الاستواء والاستقامة. وفسر بالنصب. هذا قول مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ورواية عن علي، وعن ابن عباس. قال الحسن: لم يخلق الله خلقًا يكابد مايكابد ابن آدم. وقال سعيد بن أبي الحسن[(٢)]: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وقال قتادة: يكابد أمر الدنيا والآخرة، فلا تلقاه إلا في مشقة.

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: يعني حمله وولادته، ورضاعه، وفصاله، ونبت أسنانه وحياته، ومعاشه، ومماته. كل ذلك شدة. قال مجاهد: حملته أمه كرها، ووضعته كرهًا، معيشته في شدة. فهو يكابد ذلك.

وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأمر، وهي معاناة شدته ومشقته، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوله وصعوبته. والكبد شدة الأمر.

ومنه تكبد اللبن، إذا غلظ واشتد. ومنه الكبد لأنها دم يغلظ ويشتد. وانتصاب القامة والاستواء من ذلك، لأنه إنما يكون عن قوة وشدة، فإن الإنسان مخلوق في شدة. بكونه في الرحم، ثم في القماط والرباط، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف، ومكابدة المعيشة، والأمر والنهي، ثم مكابدة الموت

---

(١) ٢٢ التبيان.

(٢) كذا في الأصل. وفي تفسير ابن كثير: وروى من طريق أبي مودود، سمعت الحسن قرأ هذه الآية فقال: يكابد أمرًا من أمر الدنيا وأمرًا من أمر الآخرة.

ومابعده في البرزخ، وموقف القيامة، ثم مكابدة العذاب في النار ولا راحة له إلا في الجنة.

وفسر الكبد بشدة الخلق وإحكامه وقوته، ومنه قول لبيد:

ياعين هلا بكيت أربد، إذ قمنا وقام الخصوم في كبد؟[1]

أي في شدة وعناء. وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ**﴾.

قال ابن عباس: أي خلقهم، وقال أبو عبيدة: الأسر شدة الخلق يقال: فرس شديد الأسر. قال وكل شيء شددته: من قتب أو غيره، فهو مأسور. وقال المبرد: الأسر القوى كلها. وقال الليث: الأسر قوة المفاصل والأوصال. وشد الله أسر فلان، أي قوى خلقه. وكل شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر. وقال الحسن: شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض، بالعروق والعصب. وقال مجاهد: هو الشرج، يعني موضع البول والغائط. إذا خرج الأذى تقبضًا.

والمقصود أنه ـ سبحانه ـ أقسم في سورة البلد على حال الإنسان وأقسم ـ سبحانه ـ بالبلد الأمين وهو مكة أم القرى.

ثم أقسم بالوالد وماولد. وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين. وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان، وأصل السكان. فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم. وقوله: ﴿**وأنْتَ حِلٌّ بِهَذا الْبَلَدِ**﴾ [البلد: ٢] فيه قولان:

أحدهما: أنه من الإحلال، وهو ضد الإحرام.

والثاني: أنه من الحلول وهو ضد الظعن. فإن أريد به المعنى الأول فهو حلال ساكن البلد. بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر، ويرجع، ولأن أمنه إنما تظهر به النعمة عند الحل من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام هو في أمان، والحرمة هناك للفعل لا للمكان. والمقصود هو ذكر حرمة المكان، وهي إنما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما ينقض أمنه، ولكن على هذا ففيه تنبيه، فإنه إذا أقسم به، وفيه

(١) هو من قصيدة يرثي بها أخاه أربد. أولها.

ما إن تعدى المنون من أحد لا والد مشفق، ولا ولد

الحلال، فإذا كان فيه الحرام، فهو أولى بالتعظيم والأمن.

وكذلك إذا أريد المعنى الثاني وهو الحلول، فهو متضمن لهذا التعظيم، مع تضمنه أمرًا آخر. وهو الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع، وقد اشتمل على خير العباد، فجعل بيته هدى للناس، ونبيه إمامًا وهاديًا لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه. كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية.

وفي الآية قول ثالث، وهو أن المعنى: وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين، الذي يأمن فيه الطير والوحش والجاني. وقد استحل قومك فيه حرمتك، وهم لا يعضدون به شجرة، ولا ينفرون به صيدًا. وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد. وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم، موقعها من أحسن موقع وألطفه. فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله.

ثم أنكر ـ سبحانه ـ على الإنسان ظنه وحسبانه أن لن يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد والشدة والقوة التي يكابد بها الأمور. فإن الذي خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادرًا في نفسه، فهذا برهان مستقل بنفسه، مع أنه متضمن للجزاء الذي مناطه القدرة والعلم، فنبه على ذلك بقوله: ﴿**أَيَحْسَبُ أن لَّنْ يَقْـدِرَ عليـه أحَـدٌ**﴾ [البلد: ٥] وبقوله: ﴿**أَيَحْسَبُ أن لَّمْ يرهُ أحَدٌ**﴾ [البلد: ٧] فيحصى عليه ماعمل من خير وشر، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه.

ثم أنكر ـ سبحانه ـ على الإنسان قوله: ﴿**أَهْلَكْت مالاً لُّبَدًا**﴾ [البلد: ٦] وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض، فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه. إذ لو أنفقه في وجوهه التي أمر بإنفاقه فيها، ووضعه مواضعه، لم يكن ذلك إهلاكًا له، بل تقربًا به إلى الله، وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه. وذلك ليس بإهلاك له. فأنكر سبحانه افتخاره، وتبجحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له.

ثم وبخه بقوله: ﴿**أيحسب أن لَّمْ يَرَه أحَدٌ**﴾ [البلد: ٧] وأتى ههنا بلم، الدالة على

المضي، في مقابلة قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا﴾ فإن ذلك في الماضي. أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه؟

(١)**وقال** ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَه عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠] فذكر هنا العينين التي يبصر بهما فيعلم المشاهدات. وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر، وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل، وهو قول أكثر المفسرين.

وتدل عليه الآية الأخرى ﴿إنَّا هَدَيْنَاه السَّبِيلَ إما شَاكِرًا وإمَّا كَفُورًا﴾ [الأنبياء: ٣] والهداية تكون بالقلب والسمع فقد دخل السمع في ذلك لزومًا، وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم، فذكر آلات العلم والتعليم، وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه التي تعرف بها إلى عباده.

ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة التي هي أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها، خصها ـ سبحانه وتعالى ـ بالذكر في السؤال عنها. فقال: ﴿إنَّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها.

قال ابن عباس: يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد، والله ـ تعالى ـ أعطى العبد السمع ليسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده، والقلب ليعقلها ويفقهها، والبصر ليرى آياته، فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته، فالمقصود بإعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه.

(٢)**ثم** ذكر برهانًا مقدرًا أنه ـ سبحانه ـ أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما. فكيف يعطيه البصر من لم يره؟ وكيف يعطيه آلة البيان، من الشفتين واللسان، فينطق، ويبين عما في نفسه، ويأمر وينهي من لا يتكلم ولا يكلم، ولا يخاطب، ولا يأمر، ولا ينهى؟ وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه؟ ومن جعل غيره عالمًا بنجدي الخير والشر - وهما طريقاهما - أليس هو أولى وأحق بالعلم منه. ومن هداه إلى هذين الطريقين، كيف يليق به أن يتركه سدى،

(١) ١٠٧ مفتاح جـ١. (٢) ٢٥ التبيان.

لا يعرفه مايضره وماينفعه في معاشه ومعاده؟ وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين؟ فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله، وصدق رسله، ووعده.

وهذه أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه وجده من أعظم الأدلة على صحتها وثبوتها، فتكفي الإنسان فكرته في نفسه وخلقه. والرسل بعثوا مذكرين بما في الفطر والعقول، مكملين له، لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته. ومع هذا فقامت عليه حجته ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه، التي لا يصل إليها حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من الرق، ليخلصه الله من رق نفسه ورق عدوه. وإطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة، وبالاخلاص له - سبحانه - بالإيمان الذي هو خالص حقه عليه. وهو تصديق خبره وطاعة أمره، وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالبر والرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بها، فيكون صابرًا رحيمًا في نفسه، معينًا لغيره على الصبر والرحمة. فمن لم يقتحم هذه العقبة، وهلك دونها هلك منقطعًا عن ربه، غير واصل إليه، بل محجوبًا عنه.

والناس قسمان: ناج، وهو من قطع العقبة، وصار وراءها. وهالك وهو من دون العقبة، وهم أكثر الخلق، ولا يقتحم هذه العقبة إلا المضمرون، فإنها عقبة كؤود شاقة، لا يقطعها إلا خفيف الظهر. وهم أصحاب الميمنة. والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر، ولم يطيعوا الأمر. فهم: (أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة). قد أطبقت عليهم؛ فلا يستطيعون الخروج منها؛ كما أطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة، المنافية لما أخبرت به رسله، فلم تخرج قلوبهم منها. كذلك أطبقت عليهم هذه النار، فلم تستطع أجسامهم الخروج منها.

فتأمل هذه السورة على اختصارها، وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان. وبالله التوفيق.

وأيضا فإن طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة، تهديدًا وتخويفًا لترتب الجزاء عليهما، كما قال - تعالى -: ﴿**قُلْ هُوَ القَادِرُ على أن يَبْعَثَ عَليكم عذابًا من فوَقْكم**﴾ [الأنعام: ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿**أرأيتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إذا صَلَّى * أرأَيْتَ**

إنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أو أمَرَ بالتَّقْوى * أرأيْتَ إن كَذَّبَ وتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بأنَّ الله يَرَى﴾ [العلق: ٩-١٤]. وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤمِنُون﴾ [التوبة: ١٠٥]. وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبون أنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهم وَنجواهم بَلى وَرُسُلُنا لديهم يَكْتُبُون﴾ [الزخرف: ٨٠] وهذا كثير جدًّا في القرآن.

وليس المراد به مجرد الإخبار بالقدرة والعلم، لكن الإخبار مع ذلك بما يترتب عليها من الجزاء بالعدل، فإنه إذا كان قادرًا أمكن مجازاته، وإذا كان عالمًا أمكن ذلك بالقسط والعدل، ومن لم يكن قادرًا لم يمكن مجازاته. وإذا كان قادرًا لكنه غير عالم بتفاصيل الأعمال ومقادير جزائها لم يجاز بالعدل؛ والرب ـ تعالى ـ موصوف بكمال القدرة، وكمال العلم، فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته وإرادته فحينئذ يجب على العاقل أن يطلب النجاة منه بالإخلاص والإحسان، فهو اقتحام العقبة المتضمن للتوبة إلى الله ـ تعالى ـ والإحسان إلى خلقه.

وقال: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١] وهو فعل ماض، ولم يكرر معه «لا» إما استعمالاً لأداة «لا» كاستعمال «ما». وإما إجراء لهذا الفعل مجرى الدعاء. نحو فلا سلم ولا عاش. ونحو ذلك. وإما لأن العقبة قد فسرت بمجموع أمور: فاقتحامها فعل كل واحد منها. فأغنى ذلك عن تكريرها. فكأنه قال: فلا فك رقبة، ولا أطعم، ولا كان من الذين آمنوا.

وقراءة من قرأ: ﴿فَكَّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣] فالفعل، كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر. لأن قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٢] على حد قوله: ﴿وما أدْرَاكَ ما الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣] ﴿وما أدْرَاك مايومُ الدِّين﴾ [الانفطار: ١٧] ﴿وما أدْرَاك مَاهِيَه * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١٠، ١١] ونظائره، تعظيمًا لشأن العقبة وتفخيمًا لأمرها. وهي جملة اعتراض بين المفسِّر والمفسَّر. فإن قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يوم ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذا مَقْرَبَةٍ * أو مسكينًا ذا مَتْرَبَةٍ * ثم كَانَ مِنَ الَّذِين آمَنُوا﴾ [البلد: ١٣-١٧] تفسير لاقتحام العقبة مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا إلى الجنة واقتحامه بفعل هذه الأمور. فمن فعلها فقد اقتحم العقبة. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧] وهذا عطف على

قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولاً. وأيضًا فإن من قرأها بالمصدر المضاف فلا بد له من تقدير، وهو: ماأدراك مااقتحام العقبة؟ واقتحامها فك رقبة. وأيضًا فمن قرأها بالفعل فقد طابق بين المفسر ومافسره.

ومن قرأها بالمصدر فقد طابق بين المفسر وبعض مافسره، فإن التفسير إن كان لقوله: ﴿اقتحم﴾ طابقه بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِيْنَ آمَنُوا﴾ ومابعده دون ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ ومايليه، وإن كان لقوله: ﴿العقبة﴾ طابقه ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ أو إِطْعَامٌ﴾ دون قوله: ﴿ثم كَان مِنَ الَّذين آمَنُوا﴾ وما بعده، وإن كانت المطابقة حاصلة معنى، فحصولها لفظاً ومعنى أتم وأحسن.

واختلف في هذه العقبة، هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ فقالت طائفة: العقبة ههنا مثل ضربه الله ـ تعالى ـ لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر. وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل. قال الحسن: عقبة والله شديدة: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان.

وقال مقاتل: هذا مثل ضربه الله، يريد أن المعتق رقبة، والمطعم اليتيم والمسكين، يقاحم نفسه وشيطانه، مثل أن يتكلف صعود العقبة، فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة، وهذا قول أبي عبيدة.

وقالت طائفة: بل هي عقبة حقيقة، يصعدها الناس. قال عطاء: هي عقبة جهنم. وقال الكلبي: هي عقبة بين الجنة والنار. وهذا قول مقاتل: إنها عقبة جهنم.

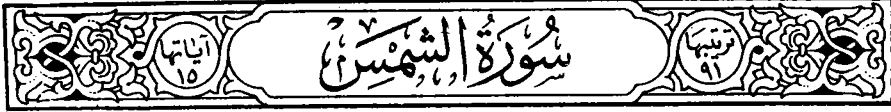
وقال مجاهد والضحاك: هي الصراط، يضرب على جهنم. وهذا لعله قول الكلبي. وقول هؤلاء أصح نظرًا وأثرًا ولغة. قال قتادة: فإنها عقبة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله.

وفي أثر معروف «إن بين أيديكم عقبة كؤودًا لا يقتحمها إلا المخفون» أو نحو هذا. وأن الله سمى الإيمان به، وفعل ماأمر، وترك مانهى: عقبة. فكثيراً مايقع في كلام السلف الوصية بالتضمر لاقتحام العقبة.

وقال بعض الصحابة، وقد حضره الموت، فجعل يبكي، ويقول: مالي لاأبكي وبين يدي عقبة كؤود، أهبط منها إما إلى جنة، وإما إلى نار. فهذا القول أقرب إلى الحقيقة، والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله (وما أدراك) في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البلد

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل[1]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿والشَّمْسِ وَضُحَاها * والقَمَرِ إذا تَلاَها * والنَّهارِ إذا جَلَّاها * واللَّيْلِ إذا يَغْشَاهَا * والسمآءِ ومابَنَاها * والأرْضِ وماطَحَاهَا * وَنفْسٍ وَمَاسَوَّاها * فَألْهَمَها فُجورَهَا وتَقْوَاها﴾ [الشمس: ١-٨] قال الزجاج وغيره: جواب القسم ﴿قد أفْلَحَ من زَكَّاها﴾ [الشمس: ٩] ولما طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب.

وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخالق، والمخلوق، فأقسم بالسماء وبانيها، والأرض وطاحيها، والنفس ومسويها.

وقد قيل: إن: مصدرية، فيكون الإقسام بنفس فعله ـ تعالى ـ فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه، وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده.

ولما كانت حركة الشمس والقمر، والليل والنهار أمرًا يشهد الناس حدوثه شيئًا فشيئًا، ويعلمون أن الحادث لابد له من محدِث، وكان العلم بذلك منزَّلًا منزلة ذكر المحدِث له لفظًا، فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة.

ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع، وهو استدلال صحيح، قد نبه عليه القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّموات والأرْضِ لآيَاتٍ لأُولي الألْبَاب﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنهما قديمتان ذكر مع الإقسام بهما بانيهما ومبدعهما.

وكذلك النفس، فإن حدوثها غير مشهود، حتى ظن بعضهم قدمها، فذكر مع

(١) ١٣ التبيان.

الإقسام بها مسويها وفاطرها، مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض، وجعلها سقفًا لهذا العالم، والطحو هو مد الأرض وبسطها، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع، وهو متضمن لنضوب الماء عنها، وهو مما حير عقول الطبائعيين، حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونه هذا الجانب المعين دون غيره، مع استواء الجوانب في الشكل الكرى، يقتضي تخصيصًا. فلم يجدوا بُدًّا أن يقولوا: عناية الصانع اقتضت ذلك.

قلنا: فنعم إذًا، ولكن عناية من لا مشيئة له، ولا إرادة ولا اختيار، ولا علم بمعين أصلًا، كما تقولونه فيه محال، فعنايته تقتضي ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله، وأنه الفاعل يفعل باختياره مايريد.

وكذلك النفس أقسم بها وبمن سواها وألهمها فجورها وتقواها. فإن من الناس من يقول: قديمة لا مبدع لها. ومنهم من يقول: بل هي التي تبدع فجورها وتقواها، فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبدعها، وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى. فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها.

وذكر لفظ التسوية، كما ذكره في قوله: ﴿**مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ * الَّذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ**﴾ [الانفطار: ٦، ٧] وفي قوله: ﴿**فَإذا سَوَّيْتُه ونَفَخْتُ فِيْهِ مِن رُّوْحَي**﴾ [صٓ: ٧٢] إيذانًا بدخول البدن في لفظ النفس. ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقوله: ﴿**فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُم**﴾ [النور: ٦١] ﴿**ولا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم**﴾ [النساء: ٢٩] ﴿**لولا إذْ سَمِعْتُمُوه ظَنَّ الْمُؤْمِنُون والمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا**﴾ [النور: ١٢] ونظائره. وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية. وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها.

(١)**قوله:** ﴿**هَلْ لَّكَ إلى أَنْ تزكَّى**﴾ [النازعات: ١٨] أي تعمل بطاعة الله تعالى،

(١) ٥٠ إغاثة جـ١.

فتصير زاكيًا، ومثله قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

وقد اختلف في الضمير المرفوع في قوله: (زكاها). فقيل: هو الله. أي أفلحت نفس زكاها الله عز وجل، وخابت نفس دسَّاها. وقيل: إن الضمير يعود على فاعل (أفلح)، وهو «مَن» سواء كانت موصولة أو موصوفة، فإن الضمير لو عاد على الله - سبحانه - لقال: قد أفلح من زكاه، وقد خاب من دسّاه.

والأولون يقولون: «من» وإن كان لفظها مذكرًا فإذا وقعت على مؤنث جاز إعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث، مراعاة للمعنى، وبلفظ المذكر مراعاة للفظ، وكلاهما من الكلام الفصيح. وقد وقع في القرآن اعتبار لفظها ومعناها، فالأول كقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥] فأفرد الضمير؛ والثاني كقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢].

قال المرجحون للقول الأول: يدل على صحة قولنا: ماروواه أهل السنن من حديث ابن أبي مُليكة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: أتيت ليلة، فوجدت رسول الله ﷺ يقول: «**ربِّ أعطِ نفسي تقواها، وزَكِّها، أنت خير من زكَّاها، أنت وليها ومولاها**» فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية، وأن الله - تعالى - هو الذي يزكي النفوس، فتصير زاكية، فالله هو المزكِّي، والعبد هو المزكَّىٰ.

والفرق بينهما فرق مابين الفاعل والمطاوع. قالوا: والذي جاء في القرآن من إضافة الزكاة إلى العبد إنما هو بالمعنى الثاني، دون الأول. كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] وقوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى؟﴾ [النازعات: ١٨] أي تقبل تزكية الله تعالى لك، فتزكَّى.

قالوا: وهذا هو الحق فإنه لا يفلح **إلا من زكّاه الله** - تعالى - وقالوا: وهذا اختيار ترجمان القرآن ابن عباس، فإنه قال في رواية علي بن أبي طلحة وعطاء والكلبي: «قد أفلح من زكّى الله - تعالى - نفسه» وقال ابن زيد: «قد أفلح من زكى الله نفسه» واختاره ابن جرير.

قالوا: ويشهد لهذا القول أيضًا قوله في أول السورة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨].

قالوا: وأيضًا فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ أخبر أنه خالق النفس وصفاتها، وذلك **هو** معنى التسوية.

قال أصحاب القول الآخر: ظاهر الكلام ونظمه الصحيح: يقتضي أن يعود الضمير على «من» أي: أفلح من زكى نفسه. هذا هو المفهوم المتبادر إلى الفهم، بل لا يكاد يفهم غيره، كما إذا قلت: هذه جارية قد ربح من اشتراها. وصلاة قد سعد من صلاها، وضالَّة قد خاب من آواها. ونظائر ذلك.

قالوا: والنفس مؤنثة، فلو عاد الضمير على الله ـ سبحانه ـ لكان وجه الكلام: قد أفلحت نفس زكاها، أو أفلحت من زكاها، لوقوع «مَن» على النفس.

قالوا: وإن جاز تفريغ الفعل من التاء لأجل لفظ «مَن» كما تقول: قد أفلح من قامت منكن، فذاك حيث لا يقع اشتباه والتباس. فإذا وقع الاشتباه لم يكن بدٌّ من ذكر ما يزيله.

قالوا: و«مَن» موصلة بمعنى الذي. ولو قيل: قد أفلح الذي زكاها الله لم يكن جائزًا، لعود الضمير المؤنت على الذي. وهو مذكر.

قالوا: وهو ـ سبحانه ـ قصد نسبة الفلاح إلى صاحب النفس إذا زكى نفسه. ولهذا فرغ الفعل من التاء، وأتى: بـ «مَن» التي هي بمعنى الذي. وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، حتى أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما.

(1)**وقوله**: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ من زَكَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩] الضمير مرفوع في ﴿**زكاها**﴾ عائد على ﴿**من**﴾ وكذلك هو في ﴿**دَسَّاها**﴾ المعنى قد أفلح من زكى نفسه. وقد خاب من دساها؛ هذا القول هو الصحيح. وهو نظير قوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنَ تَزَكى**﴾ [الأعلى: ١٤] وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح كقوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤمِنُون الَّذِيْنَ هُمْ في صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١-٢] إلى آخر الآيات.

وقوله: ﴿**الَّذِين يُؤْمِنُون بالغَيْب ويُقِيْمُونَ الصَّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون * والَّذِين يُؤْمِنُون بمَا أُنْزِلَ إِلَيكَ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبالآخرة هم يُوقِنُون * أولئك**

(١) ١٤ التبيان.

على هُدًى من رَبِّهِمْ وَأولئك هم الْمُفْلِحُون﴾ [البقرة: ٢-٤].

وقوله: ﴿إنَّما كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إذا دُعُوا إلى الله وَرَسُوله لِيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أن يُقولُوا سَمِعْنا وأَطَعْنا وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾ [النور: ٥١] ونظائره.

قال الحسن: قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله. وقاله قتادة. وقال ابن قتيبة: يريد أفلح من زكى نفسه، أي نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف. وقد خاب من دساها أي نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي.

والفاجر أبدًا خفي المكان، زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس. فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه، وقمعها. ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها.

وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين.

وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام(١) لتخفى أماكنها على الطالبين. فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها، وأنشد:

وبوأت بيتك في معلم　　رحيب المباحات والمسرح
كفيت العفاة طلاب القرى　　ونبح الكلاب لمستنبح

وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن قوله: **﴿وقد خَابَ من دَسَّاها﴾** [الشمس: ١٠]: فقال دسيٌّ معناه دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، وعلى هذا فالمعنى أخفى نفسه في الصالحين، يرى الناس أنه منهم وهو منطو على غير ما ينطوي عليه الصالحون.

وقالت طائفة أخرى: الضمير يرجع إلى الله ـ سبحانه ـ قال ابن عباس في

(١) اليفاع المكان المرتفع. والولجة موضع أو كهف تستتر فيه المارة الجمع أولاج، والهضم ـ بكسر الضاد ـ المطمئن من الأرض.

رواية عطاء: قد أفلحت نفس زكاها الله وأصلحها. وهذا قول مجاهد، وعكرمة، والكلبي، وسعيد بن جبير، ومقاتل.

قالوا: سعدت نفس، وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة، حتى عملت بها، وخابت وخسرت نفس أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها.

قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها، لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره، وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق، وقضاء متقدم.

قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة. قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿**فألهمها فجورها وتقواها**﴾. قالوا: ويشهد له حديث نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة[1] عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله، ﷺ، وهو يقول: «**رب أعط نفسي تقواها، وزكها، أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها**».

قالوا: فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر: أن النبي، ﷺ، كان إذا قرأ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩] وقف ثم قال: «**اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها**»[2].

قالوا: وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له ـ سبحانه ـ فإنه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى. وهو مزكيها ومدسيها، فليس للعبد في الأمر شيء ولا هو مالك من أمر نفسه شيئًا.

قال أرباب القول الأول: هذا القول، وإن كان جائزًا في العربية، حاملاً للضمير المنصوب على معنى من، وإن كان لفظها مذكرًا، كما في قوله: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إليك**﴾ [يونس: ٤٢] جمع الضمير، وإن كان لفظ من مفردًا، حملاً على نظمها. فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر، وههنا قد تقدم لفظ

---

(١) كذا هنا. وفي تفسير ابن كثير قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن نافع عن ابن عمر عن صالح بن سعيد عن عائشة وذكره. ثم قال ابن كثير: تفرد به.

(٢) رواه الحافظ ابن كثير في تفسيره من طريق الطبراني وابن أبي حاتم.

من، والضمير المرفوع في ﴿زكَّاها﴾ يستحقه لفظًا ومعنى. فهو أولىٰ به، **ثم يعود** الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظًا ومعنى فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه. وأما عود الضمير الذي يلي من على الموصول السابق وهو قوله: ﴿وما سَوَّاها﴾ وإخلاء جاره الملاصق له وهو (من) ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على من، ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة. فهذا يجوز، لو لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه، فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه ولم تدع الضرورة إليه؛ فالحمل عليه ممتنع.

قالوا: والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه:

أحدها: أن فيه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره كما هي طريقة القرآن.

الثاني: أن فيه زيادة فائدة، وهي إثبات فعل العبد وكسبه، وما يثاب وما يعاقب عليه، وفي قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَها وتَقْوَاها﴾ [الشمس: ٨] إثبات القضاء والقدر السابق. فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيراً ما يقترنان في القرآن. كقوله: ﴿إنَّه تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهَ * وما يَذْكُرُونَ إلاَّ أَن يَشآءَ اللهُ﴾ [المدثر: ٥٤-٥٦]. وقوله: ﴿لِمَن شآءَ مِنْكُمْ أن يَسْتَقِيْمَ * وما تشآءُون إلا أن يشآءَ الله رَبُّ الْعَالَمِين﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩. فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية.

الثالث: أن قولنا يستلزم قولكم، دون العكس. فإن العبد إذا زكّى نفسه ودساها، فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه. بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر ألبته.

[1]**فإن** الله ـ سبحانه ـ هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من **الأهلية والاستعداد**، التي جعلها فيه كامنة: كالنار في الزناد. فألهمه ومَكَّنه، **وعرفه وأرشده**. وأرسل إليه رسله. وأنزل إليه كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهَّله **بها لكماله** إلى الفعل. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاها * فَأَلْهَمَها فُجُورَها

(١) ٣٨١ مدارج جـ٢.

وَتَقْوَاها * قد أَفْلَحَ من زَكَّاها * وقد خَابَ من دسَّاها﴾ [الشمس: ٧-١٠] فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام: ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى. وأن ذلك نالها منه امتحانًا واختبارًا. ثم خص بالفلاح من زكاها فنَمَّاها وعَـلَّاها. ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه. وهي التقوى. ثم حكم بالشقاء على من دساها، فأخفاها وحقرها، وصغرها وقمعها بالفجور. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١)**ومن** عقـوبـاتها(٢) أنها تصغر النفس وتقمعها وتدسها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها قال تعالى: ﴿قَد أَفْلَحَ من زكَّـاها وقد خَابَ من دسَّاها﴾ [الشمس: ٩، ١٠] والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله.

وأصل التدسية الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدُسُّه في التُّراب﴾ [النحل: ٥٩] فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، ويتوارى من الخَلق من سوء ما يأتي به. قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق.

فالطاعة والبر يكبر النفس ويعزها ويعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى. وبهذا الذل حصل لها هذا العـز والشرف والنمو. فما صغَّر النفس مثل معصية الله، وما كبرّها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله.

(٣)فصـل

ومن ذلك إخباره سبحانه بأنه هو الذي يلهم العبد فجوره وتقواه. والإلهام: الإلقاء في القلب لا مجرد البيان والتعليم كما قاله طائفة من المفسرين إذ لا يقال لمن بيّن لغيره شيئًا وعلّمه إياه: إنه قد ألهمه ذلك، هذا لا يعرف في اللغة البتة، بل الصـواب ما قالـه ابن زيد وقـال: جعـل فيهـا فجـورها وتقواها وعليه حديث

(١) ١٠٣ الجواب الكافي. (٢) أي المعاصي. (٣) ٥٥ شفاء.

عمران بن حصين أن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى النبي، ﷺ، فقال: يارسول الله أريت ما يعمل الناس فيه ويكدحون، أشيء قُضِيَ عليهم ومضى عليهم من قدر سابق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: «**بل شيء قُضِيَ عليهم ومضى**»، قال: ففيم العمل؟ قال: «**من خلقه الله لاحدى المنزلتين استعمله بعمل أهلها**».

وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ [الشمس: ٧، ٨] فقراءته هذه الآية عقيب إخباره بتقديم القضاء والقدر السابق يدل على أن المراد بالإلهام استعمالها فيما سبق لها لا مجرد تعريفها، فإن التعريف والبيان لا يستلزم وقوع ما سبق به القضاء والقدر، ومن فسر الآية من السلف بالتعليم والتعريف، فمراده تعريف مستلزم لحصول ذلك لا تعريف مجرد عن الحصول، فإنه لا يسمى إلهامًا، وبالله التوفيق.

(١)**وذكر** في هذه السورة ثمود، دون غيرهم من الأمم المكذبة.

فقال شيخنا: هذا ـ والله أعلم ـ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنبًا وعذابًا منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد، ومدين، وقوم لوط، وغيرهم. ولهذا لما ذكرهم وعادا قال: ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**﴾ [فصلت: ١٥] ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾ [فصلت: ١٧].

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ماذكر عن أولئك من التجبر والتكبر، والأعمال السيئة، كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما. فكان في قوم لوط ـ مع الشرك ـ إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها. وفي قوم عاد ـ مع الشرك ـ التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم: ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ [فصلت: ١٥]. وفي أصحاب مدين ـ مع الشرك ـ الظلم في الأموال. وفي قوم فرعون ـ مع الشرك ـ الفساد في الأرض

---

(١) ١٧ التبيان.

والعلو. وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم.

فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية، التي لا يقوم لها شيء. وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم. فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم. بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم، وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان، وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال. فإذا كان عذاب هؤلاء - وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم - فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده، وسفك دماءهم، كان أشد عذابًا.

ومن اعتبر أحوال العالم قديمًا وحديثًا، وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون.

قلت: وقد يظهر في تخصيص ثمود ههنا بالذكر، دون غيرهم، معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد ثلجت له صدورهم، واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة، كما قال - تعالى - فى وصفهم: ﴿وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى على الهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] وقال: ﴿وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] أي موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم. فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود في ذلك الهدى والبصيرة بمزيد. ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال: ﴿فأما عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وقالوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوةً﴾ [فصلت: ١٥] ثم قال: ﴿وأما ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُم فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] ولهذا أمكن عادًا المكابرة، وأن يقولوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] ولم يمكن ذلك ثمود، وقد رأوا البينة عيانًا. وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى

بعد تيقنه والبصيرة التامة، فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه. وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشمس
والحمد لله رب العالمين

سورة الليل
ترتيبها ٩٢ — آياتها ٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل[1]

ومن ذلك قسمه ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**والليلِ إذا يَغشى * والنهارِ إذا تجلَّى * وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثى**﴾ [الليل: ١-٣] وقد تقدم ذكر القسم عليه وأنه سعي الإنسان في الدنيا، وجزاؤه في العقبى. فهو ـ سبحانه ـ يقسم بالليل في جميع أحواله، إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئًا بعد شيء.

وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة. ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها: ﴿**والنَّهارِ إذَا جَلَّاها * واللَّيْل إذا يَغْشَاهَا**﴾ [الشمس: ٣،٤] وأقسم به وقت سريانه كما تقدم. وأقسم به وقت إدباره. وأقسم به إذا عسعس. فقيل معناه أدبر، فيكون مطابقًا لقوله: ﴿**واللَّيْل إذ أدْبَرَ * والصُّبْح إذا أَسْفَرَ**﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤] وقيل: معناه أقبل، فيكون كقوله: ﴿**والليل إذا يَغْشَى * والنَّهارِ إذا تجلى**﴾ [الليل: ١، ٢] فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار. وعلى الأول يكون القسم واقعًا على انصرام الليل ومجيء النهار عقيبه، وكلاهما من آيات ربوبيته.

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه، ذكره وأنثاه، وقابل بين الذكر والأنثى، كما قابل بين الليل والنهار. وكل ذلك من آيات ربوبيته. فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية. فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار، بواسطة الشمس فيها.

---

(١) ٣٥ التبيان.

وأقسم ـ سبحانه ـ بزمان السعي، وهو الليل والنهار، وبالساعي، وهو الذكر والأنثى، على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى، وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه ـ سبحانه ـ لا يسوى بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى.

ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء.

فقال: ﴿فَأَمَّا من أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بالحَسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وأما مَن بَخِلَ واسْتَغْنَى * وكَذَّبَ بالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى﴾ [الليل: ٥-١٠].

فتضمنت الآيتان ذكر شرعه، وذكر الأعمال وجزائها، وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى، وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها، ولا يظلم ربك أحد. وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته، وطاوعته نفسه، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة، والإخلاص، والتوبة، والشكر، وإعطاءه الإحسان، والنفع بماله، ولسانه وبدنه، ونيته، وقصده، فتكون نفسه نفسًا مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة.

فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة، التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدى، فتعطى خيرها لنفسها ولغيرها، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها، وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا، فهي ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل. فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى، وهي اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى.

وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسير له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى،

فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات.

وقال تعالى: ﴿وَمن يَتَّقِ الله يَجعل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]. فأخبر أنه ييسر على المتقي مالا ييسر على غيره. وقال تعالى: ﴿ومن يتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْه مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢]. وهذا أيضًا ييسر عليه بتقواه. وقال تعالى: ﴿ومن يَتَّقِ الله يُكَفِّرْ عنه سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ له أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]. وهذا يتيسر عليه بازالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه. وقال: ﴿يَأَيُّها الَّذِين آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ويُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئَاتِكم ويَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]. وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة، والنصر، والعلم، والنور، والفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير. وقال تعالى: ﴿واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾ [آل عمران: ١٣٥]. والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر. وقال تعالى: ﴿يَأَيُّها الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا الله وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤتِكُمْ كِفلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ويَجْعَل لَّكُم نُورًا تَمْشُون به ويَغْفِرْ لكم﴾ [الحديد: ٢٨] فضمن لهم ـ سبحانه ـ بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته: نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة. وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل ـ سبحانه ـ التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر.

السبب الثالث: التصديق بالحسنى، وفسرت بلا إلـه إلا الله. وفسرت بالجنة، وفسرت بالخلف، وهي أقوال السلف. واليسرى صفة لموصوف محذوف أي: الحالة والخلة اليسرى، وهي فعلى من اليسرى.

والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء. فمن فسرها بلا إلـه إلا الله فقد فسرها بمفرد يأتي بكل جمع. فإن التصديق الحقيقي بلا إلـه إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب

هذه الكلمة. فلا يكون العبد مصدقًا بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه.

ولا يكون مؤمنًا بالله إلـه العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله.

ولا يكون مؤمنًا بأن الله لا إلـه إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه، ويسلها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفية في الحقيقة والخارج.

ولا يكون مصدقًا بها من نفى الصفات العليا، ولا من نفى كلامه وتكليمه، ولا من نفى استواءه على عرشه، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله، ﷺ إليه، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه، وما وصفه به رسوله، ﷺ.

ولا يكون مؤمنًا بهذه الكلمة مصدقًا بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور.

ولا يكون مصدقًا بها من زعم أنه يترك خلقه سدى، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله. وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وهو تفصيل لا إلـه إلا الله.

فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله. وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها.

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله. ومن فسرها بالخلف ذكر نوعًا من الجزاء. فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه. والتحقيق أنها تتناول الأمرين.

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث ـ وهي الإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى، من العلم والعمل، وتضمنته من الهدى ودين الحق. فإن

النفس لها ثلاث قوى: قوة البذل والإعطاء، وقوة الكف والامتناع، وقوة الإدراك والفهم. ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والإرادة، وقوة البغض والنفرة.

فهذه القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها. ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى. وفساد قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء. وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء.

فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهي عنه، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها، فقد زكّى نفسه، وأعدها لكل حالة يسرى، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى.

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد: فعل المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر. وإن شئت قلت: الدين طلب وخبر، والطلب نوعان: طلب فعل، وطلب ترك. فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها: فالإعطاء فعل المأمور، والتقوى ترك المحظور، والتصديق بالحسنى تصديق الخبر. فانتظم ذلك الدين كله.

وأكمل الناس من كملت له هذ القوى[1] الثلاث، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها. فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء. ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع. ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرادية وبالعكس، فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها، ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى.

قال ابن عباس: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٧] أي نهيئه لعمل الخير، تيسر

(١) في الأصل المطبوع: التقوى والصواب ما أثبتناه لدلالة الكلام عليه ولعله تصحيف. المراجع.

عليه أعمال الخير. وقال مقاتل، والكلبي، والفراء: نيسره للعود إلى العمل الصالح.

وحقيقة اليسرى أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرى. وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجرى الخير، وييسر على قلبه، ويديه ولسانه، وجوارحه. فتصير خصال الخير ميسرة عليه، مذللة له منقادة، لا تستعصى عليه، ولا تستصعب، لأنه مهيأ لها، ميسر لفعلها. يسلك سبلها ذللاً، وتقاد له علماً وعملاً. فإذا خاللته قلّت هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها　　　يصلح للدنيا وللدين

﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ﴾ فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به **﴿وَاسْتَغْنَى﴾** بترك التقوى عن ربه، فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهي عنه **﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾** فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه **﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾** [الليل: ٨-١٠] قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي.

وقال مقاتل: يعسر عليه أن يعطى خيراً. وقال عكرمة، عن ابن عباس: نيسره للشر. قال الواحدي: وهذا هو القول، لأن الشر يؤدي إلى العذاب، فهو الخلة العسرى. والخير يؤدى إلى اليسر، والراحة في الجنة، فهو الخلة اليسرى يقول: سنهيؤه للشر، بأن يجريه على يديه. قال الفراء: العرب تقول قد يسرت غنم فلان، إذا تهيأت للولادة، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها، أي: يسرت ذلك على أصحابها. انتهى.

والتيسير للعسرى يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير، فيجرى الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه.

فإن قيل: كيف قابل اتقى باستغنى؟ وهل يمكن العبد أن يستغنى عن ربه طرفة عين؟

قيل: هذا من أحسن المقابلة، فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب مانهاه عنه. فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص، فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء، ويجانب مايكرهه غاية المجانبة، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره. فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعًا لحال تارك التقوى، ومبالغة في ذمه، بأن فَعَلَ فِعْلَ المستغني عن ربه، لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين. فلله ما أحلى هذه المقابلة! وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها، والشرور كلها وأسبابها!!

فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه، وتجلى لهم فيه، فهم لا يطلبون أثرًا بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل، والصدق بالمين.

وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر، وإزالة كل لبس وإشكال فيها. وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه. ولهذا أجاب بها النبي، ﷺ، من أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر. فأجاب بفصل الخطاب وأزال الاشكال.

ففي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**مامنكم من أحد إلا وقد عُلِمَ مقعده من الجنة والنار**» قيل: يارسول الله! أفلا ندع العمل، ونتكل على الكتاب؟ قال: «**اعملوا، فكل ميسر لما خلق له**» ثم قرأ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى * وصَدَّقَ بالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُه لِلْيُسْرَى**﴾.

فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع، وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله ـ سبحانه ـ الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي. وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقًا، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء دون الابتداء هدم أصله، ونقض قاعدته.

والنبي، ﷺ، أخبر بمثل ما أخبر به الرب ـ تعالى ـ: «**أن العبد ميسر لما خلق**

له» لا مجبور، فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة.

وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين. فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق. وكانوا إذا استشكلوا شيئًا سألوه عنه، وكان يجيبهم بما يزيل الأشكال، ويبين الصواب، فهم العارفون بأصول الدين حقًا، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين ومن سلك سبيلهم.

وفي الحديث استدلال النبي، ﷺ، على مسائل أصول الدين بالقرآن، وإرشاده الصحابة لاستنباطها منه، خلافًا لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه. وعبر عن ذلك بقوله: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين.

وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة، ومنهم من خلق للشقاوة، خلافًا لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة، ولكن اختاروا الشقاوة، ولم يخلقوا لها.

وفيه إثبات الأسباب، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له. وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب، ومطابقتها له.

فتأمل قوله، ﷺ: **«اعملوا فكل ميسر لما خلق له»** ومطابقته لقوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى**﴾ إلى آخر الآيتين، كيف انتظم الشرع والقدر، والسبب والمسبب؟ وهذا الذي أرشد إليه النبي، ﷺ، هو الذي فطر الله عليه عباده، بل الحيوان البهيم، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك.

فلو قال كل أحد: إن قدر لي كذا وكذا فلابد أن أناله. وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله، فلا أسعى ولا أتحرك، لعد من السفهاء الجهال، ولم يمكنه طرد ذلك أبدًا، وإن أتى به في أمر معين. فهل يمكنه أن يطرد ذلك من مصالحه جميعها، من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه. وهروبه مما يضاد بقاءه وينافى مصالحه، أم يجد نفسه غير منفكة ألبتة عن قول النبي، ﷺ: **«اعملوا فكل ميسر لما خلق له»**. فإذا كان هذا في مصالح الدنيا، وأسباب منافعها، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة، وأسباب السعادة والفلاح فيها، ورب الدنيا والآخرة واحد، فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه، ويستعمل في إرادة العبد وأغراضه وشهواته.

وهل هذا إلا محض الظلم والجهل، والإنسان ظلوم جهول، ظلوم لنفسه، جهول بربه. فهذا الذي أرشد إليه النبي، ﷺ، وتلا عنده هاتين الآيتين، موافقًا لما جعله الله في عقول العقلاء، وركب عليه فطر الخلائق، حتى الحيوان البهيم، وأرسل به جميع رسله، وأنزل به جميع كتبه.

ولو اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع، وتعطلت مصالح العالم، وفسد أمر الدنيا والدين. وإنما يستروح إلى ذلك معطلوا الشرائع، ومن خلع ربقة الأوامر والنواهي من عنقه. وذلك ميراث من إخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه، وعارضوا شرعه بقضائه وقدره، كما حكى الله ـ سبحانه ـ ذلك عنهم في غير موضع من كتابه.

كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُوا لو شَآءَ الله ما أَشْرَكْنَا ولا آبَآؤُنا ولا حَرَّمْنَا مِنْ شيءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الذين من قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكم من عِلْمٍ فَتُخْرِجُوه لَنَا إن تَتَّبِعُون إلا الظَنَّ وإنْ أَنْتُمْ إلا تَخْرُصُون * قل فلله الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَو شَآءَ لهداكم أَجْمَعِين﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩]. وقال تعالى: ﴿وقَال الَّذين أَشْرَكُوا لو شَآءَ الله مَاعَبَدْنا مِنْ دُونِه مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ ولا آبَآؤُنا ولا حَرَّمْنا مِنْ دُونه مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلَّا البَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَو شَآءَ الرَّحْمَنَ ماعَبَدْناهم مَالَهم بِذَلِكَ مِنْ عِلم إن هم إلا يَخْرُصُون﴾ [الزخرف: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وإذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ الله قَالَ الذين كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ من لو يشآءُ الله أَطْعَمَهُ إن أَنْتم إلا في ضَلالٍ مُبِين﴾ [يس: ٤٧].

فإن قيل: فالإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى، هي من اليسرى، بل هي أصل اليسرى، من يسرها للعبد أولاً؟ وكذلك أضدادها؟

قيل: الله ـ سبحانه ـ هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر وخلق خلقه قسمين: أهل سعادة، فيسرهم لليسرى، وأهل شقاوة، فيسرهم للعسرى. واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع

عقوبته في موضع لا تصلح له. كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما، ولا يليق بهما. بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك. ومن جعل محل المسك والرجيع واحدًا فهو من أسفه السفهاء.

(١)الباب السابع في أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضى ترك الأعمال، بل يقتضي الاجتهاد والحرص

يسبق إلى أفهام كثير من الناس أن القضاء والقدر إذا كان قد سبق فلا فائدة في الأعمال، وأن ماقضاه الرب ـ سبحانه ـ وقدره لابد من وقوعه؛ فتوسط العمل لافائدة فيه، قد سبق إيراد هذا السؤال من الصحابة على النبي، ﷺ، فأجابهم بما فيه الشفاء والهدى.

ففي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله، ﷺ، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «**مامنكم من أحد مامن نفس منفوسة، إلا كتب مكانها من الجنة والنار وإلّا قد كتبت شقية أو سعيدة**» فقال رجل: يارسول الله! أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة**» ثم قرأ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى * وصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وأما مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وكَذَّب بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾ [الليل: ٥-١٠] وفي بعض طرق البخاري: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟

وعن أبي الزبير عن جابر بن عبدالله قال: جاء سراقة بن مالك بن جعثم فقال: يارسول الله بيِّن لنا ديننا كأننا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال: «**لا، بل فيما جفت به الأقلام**

(١) ٢٤ شفاء.

وجرت به المقادير»، قال: ففيم العمل؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر**» رواه مسلم.

وعن عمران بن حصين قال: قيل: يارسول الله! أعلم أهل الجنة من أهل الناس فقال: «**نعم**»، قيل: ففيم يعمل العاملون؟ فقال: «**كل ميسر لما خلق له**». متفق عليه. وفي بعض طرق البخاري: «**كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له**».

ورواه الإمام أحمد أطول من هذا فقال: ثنا صفوان بن عيسى ثنا عروة بن ثابت عن يحيى بن عقيل عن أبي نيعم عن أبي الأسود الدؤلي قال: غدوت على عمـران بن حصين يومًا من الأيام فقال: إن رجلاً من جهينة أو مزينة أتى إلى النبي، ﷺ، فقال: يارسول الله! أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، شيء قُضِيَ عليهم أو مضى عليهم في قدر قد سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم واتخذت عليهم الحجة؟ قال: «**بل شيء قُضِيَ عليهم**» قال: فلِمَ يعملون إذًا يارسـول الله؟ قال: «**من كان الله ـ عز وجل ـ خلقه لواحدة من المنزلتين فهيأه لعملها وتصديق ذلك في كتاب الله**» ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْوَاها**﴾.

وقال المحـامـلي: ثنـا أحمـد بن المقدام ثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت أبا سفيان يحدث عن عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر أنه قال: نزل ﴿**فمنهم شقي وسعيد**﴾ فقال عمر: يانبي الله علام نعمل: على أمر قد فرغ منه، أو لم يفـرغ منه؟ قال: «**لا، على أمر قد فرغ منه، قد جرت به الأقلام، ولكن كلٌّ ميسر**» ﴿**فَأَمَّا من أَعْطَى وَأَتَّقَى * وَصَدَّقَ بالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وأما مَن بَخِلَ واسْتَغْنىٰ * وكَذَّب بالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾ [الليل: ٥-١٠] فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: ما كنت أشد اجتهادًا مني الآن؛ وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة ودقة أفهامهم وصحة علومهم فإن النبي، ﷺ، أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب، فإن العبد ينال ماقدر له بالسبب الذي أقدر عليه، ومكن منه، وهيء له، فإذا أتى

بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب، وكلما زاد اجتهادًا في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه.

وهذا كما إذا قدر له أن يكون من أعلم أهل زمانه فإنه لا ينال ذلك إلا بالاجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه. وإذا قدر له أن يرزق الولد لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو التسرى والوطىء. وإذا قدر له أن يستغل من أرضه من المغل كذا وكذا لم ينله إلا بالبذر وفعل أسباب الزرع. وإذا قدر الشبع والرى فذلك موقوف على الأسباب المحصلة لذلك من الأكل والشرب واللبس.

وهذا شأن أمور المعاش والمعاد فمن عطل العمل اتكالاً على القدر السابق فهو بمنزلة من عطل الأكل والشرب والحركة في المعاش وسائر أسبابه اتكالاً على ماقدر له.

وقد فطر الله ـ سبحانه ـ عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية، بل فطر الله على ذلك سائر الحيوانات، فهكذا الأسباب التي بها مصالحهم الأخروية في معادهم، فإنه ـ سبحانه ـ رب الدنيا والآخرة، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسر كلا من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة فهو مهيأ له ميسر له.

فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهادًا في فعلها من القيام بها منه أسباب معاشه ومصالح دنياه، وقد فقه هذا كل الفقه من قال: ماكنت أشد اجتهادًا مني الآن.

فإن العبد إذا علم أن سلوك هذا الطريق يقضى به إلى رياض مونقة وبساتين معجبة ومساكن طيبة ولذة ونعيم لا يشوبه نكد ولا تعب كان حرصه على سلوكها واجتهاده في السير فيها بحسب علمه بما يفضى إليه.

لهذا قال أبو عثمان النهدي لسلمان لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحًا مني بآخره، وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة وهيأه ويسره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله **أعم** من فرحه بالأسباب التي تأتي بها، فإنها سبقت له من الله قبل الوسيلة منه، وعلمها الله وشاءها وكتبها وقدرها وهيأ له أسبابها

لتوصله إليها، فالأمر كله من فضله وجوده السابق، فسبق له من الله سابقة السعادة ووسيلتها وغايتها، فالمؤمن من أشد فرحًا بذلك من كون أمره مجعولاً إليه كما قال بعض السلف: والله ماأحب أن يجعل أمري إليّ، إنه إذا كان بيد الله خيراً من أن يكون بيدي، فالقدر السابق معين على الأعمال ومايحث عليها ومقتض لها، لا أنه مناف لها وصادّ عنها، وهذا موضع مزلة قدم من ثبتت قدمه فاز بالنعيم المقيم، ومن زلت قدمه عنه هوى إلى قرار الجحيم؛ فالنبي، ﷺ، أرشد الأمة في القدر إلى أمرين هما سببا السعادة، الإيمان بالأقدار، فإنه نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره، وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر، فأبى المنحرفون إلا القدح بإنكاره في أصل التوحيد أو القدح بأثباته في أصل الشرع، ولم تتسع عقولهم التي لم يلق الله عليها من نوره للجمع بين ماجمعت الرسل جميعهم بينه، وهو القدر والشرع والخلق والأمر، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. والنبي، ﷺ، شديد الحرص على جمع هذين الأمرين للأمة، وقد تقدم قوله: «**احرص على ماينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز**» وإن العاجز من لم يتسع للأمرين وبالله التوفيق.

(١)**فإن** قيل: فلِمَ جعل هذا لا يليق به إلا الكرامة، وهذا لا يليق به إلا الإهانة؟ قيل: هذا سؤال جاهل، لا يستحق الجواب، كأنه يقول: لم خلق الله كذا وكذا؟ فإن قيل: وعلى هذا، فهل لهذا الجاهل من جواب، لعله يشفى من جهله؟.

قيل: نعم، شأن الربوبية خلق الأشياء وأضدادها، وخلق الملزومات ولوازمها، وذلك هو محض الكمال، فالعو لازم وملزوم للسفل، والليل لازم وملزوم للنهار، وكمال هذا الوجود بالحر والبرد، والصحو والغيم.

ومن لوازم الطبيعة الحيوانية: الصحة والمرض، واختلاف الإرادات والمرادات، ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع.

(١) ٤٣ التبيان.

ولولا خلق المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات. وظهور أحكامها وآثارها لابد منه، إذ هو مقتضى الكمال المقدس، والملك التام.

وإذا أعطيت اسم الملك حقه ـ ولن تستطيع ـ علمت أن الخلق والأمر، والثواب والعقاب والعطاء والحرمان، أمر لازم لصفة الملك، وأن صفة الملك تقتضى ذلك ولابد، وأن تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع.

فالملك الحق يقتضى إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمر العباد، ونهيهم، وثوابهم، وعقابهم، وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة.

كما تستلزم حياة الملك، وعلمه، وإرادته، وقدرته، وسمعه، وبصره، وكلامه، ورحمته، ورضاه، وغضبه، واستواءه على سرير ملكه، يدبر أمر عباده. وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على أرض مونقة، وكنوز من المعرفة، وبالله التوفيق.

فصل

ثم قال تعالى: ﴿إن عَلَينا لَلْهُدَى * وإنَّ لَنا لَلآخرةَ والأُولىٰ﴾ [الليل: ١٢، ١٣] قيل: معناه، إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على الله البيان، بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته. اختاره أبو إسحاق، وهو قول مقاتل، وجماعة، وهذا المعنى حق. ولكن مراد الآية شيء آخر.

وقيل: المعنى: إن علينا للهدى والإضلال، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية عطاء: يريد، أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي. قال الفراء: فترك ذكر الإضلال، كما قال: ﴿سَرابِيلَ تَقِيْكُمْ الحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي والبرد. وهذا أضعف من القول الأول. وإن كان معناه صحيحًا. فليس هو معنى الآية.

وقيل، المعنى: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ وهذا قول مجاهد، وهو أصح الأقوال في الآية. قال الواحدي: علينا

للهدى، أي: إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته.

وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع: ههنا، وفي النحل في قوله: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ**﴾ وفي الحجر في قوله: ﴿**هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ**﴾ [الحجر: ٤١] وهو معنى شريف جليل، يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد. **والهدى** هو: الصراط المستقيم، فمن سلكه أوصله إلى الله، فذكر الطريق والغاية. فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى الله.

فهذه أشرف الوسائل، وغايتها أعلى الغايات. ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه. فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئًا. وأن الدنيا والآخرة جميعًا له وحده. فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده.

فتضمنت الآيتان أربعة أمور، هي المطالب العالية: ذكر أعلى الغايات. وهو الوصول إلى الله ـ سبحانه ـ وأقرب الطريق والوسائل إليه، وهي طريقة الهدى. وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها. وتوحيد المطلوب، وهو الحق. فلا يعدل عنه إلى غيره. فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذه غاية العلم والفهم. وبالله التوفيق.

والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطريق الموصلة. والانقطاع. وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور، أو في بعضها. فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافى اتباع الأمر.

فالأول: يوقع في الشرك والرياء.

والثاني: يوقع في المعصية والبطالة.

والثالث: يوقع في البدعة ومفارقة السنة. فتأمله.

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة. والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق

الثلاثة. **ولما** أقام ـ سبحانه ـ الدليل، وأنار السبيل، وأوضح الحجة، وبين المحجة، أنذر عباده عذابه الذي أعده لمن كذب خبره، وتولى عن طاعته. وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم، كما جعل أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص. فهذا الصنف هو الذي يجنب عذابه. كما قال: **﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾** [الليل: ١٧-١٨] فهذا المتقي المحسن لا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه.

وفي الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم، وإن حمل منهم شيئًا بادر إلى جزائهم عليه، لئلا يتبقى لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده، ليس للمخلوق جزاء على نعمته. ونبه بقوله: **﴿تجزى﴾** على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله، ﷺ، على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام، فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها.

وهذا يدل على أن الصديق ـ رضي الله عنه ـ أول وأولى من ذكر في هذه الآية، وأنه أحق الأمة بها. فإن عليًا ـ رضى الله عنه ـ تربى في بيت النبي، ﷺ. فلرسول الله ﷺ، عنده نعمة غير نعمة الإسلام، يمكن أن تجزى.

ونبه سبحانه بقوله: **﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾** [الليل: ٢٠] على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. بخلاف من تطوق نعم المخلوقين ومننهم، فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم، ويترك لأجلهم.

ولهذا كان من كمال الاخلاص أن لا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس، لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه، وطلب مرضاته. فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب، فهذا الطريق أقصد الطرق إليه، وأقربها وأقومها. وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الليل

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**ومن** ذلك إقسامه ـ سبحانه ـ: ﴿والضُّحَىٰ * واللَّيلِ إذا سَجَى﴾ [الضحىٰ: ١، ٢] على إنعامه على رسوله، ﷺ، وإكرامه له، وإعطائه مايرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته، وحكمته، ورحمته، وهما الليل والنهار.

فتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحىٰ الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمدًا ربه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضور الوحى ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضًا فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار، وهو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة. فهذان للحسن، وهذان للعقل.

وأيضًا فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدًا، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه. وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها.

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع الترك، والقلى البغض، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه. وأطلق ـ سبحانه ـ أن الآخرة خير له من الأولى، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن

(١) ٤٦ التبيان.

الدار الآخرة خير له مما قبلها. ثم وعده بما تقر به عينه، وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى، وهذا يعم مايعطيه من القرآن، والهدى، والنصر، وكثرة الاتباع، ورفع ذكره، وإعلاء كلمته، ومايعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، ومايعطيه في الجنة.

وأما مايغتر به الجهال، من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار!! فهذا من غرور الشيطان لهم، ولعبه بهم، فإنه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى.

وهو ـ سبحانه ـ يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسوله حدًّا يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحدًا من أمتي النار على أن يدعه فيها، بل ربه ـ تبارك وتعالى ـ يأذن له، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه.

(1)... **ومنهم** من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة. فاتكلوا عليه: كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾ [الضحىٰ: ٥] قال: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته. وهذا من أقبح الجهل وأبين الكذب عليه. فإنه، ﷺ، يرضى بما يرضى به ربه ـ عز وجل ـ والله ـ تعالى ـ يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر. فحاشا رسوله أن يرضى بمالا يرضى به ربه تبارك وتعالى. وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٥٣] وهذا أيضًا من أقبح الجهل. فإن الشرك داخل في هذه الآية وهو رأس الذنوب وأساسها. ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين. فإنه يغفر ذنب كل تائب أي ذنب كان. ولو كان الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها. وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة. وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه. فإنه سبحانه ههنا عمم وأطلق فعلم أنه أراد التائبين وفي سورة النساء خصص وقيد فقال: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مادون ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] **فأخبر الله** ـ

---

(١) ٢٣ الجواب الكافي.

سبحانه ـ أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر مادونه. ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره. وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَآأَيُّهَا الإِنْسَانُ ماغَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] فيقول: كرمه.

وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته. وهذا جهل قبيح. وإنما غره به الغرور؛ وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه.

وأتى ـ سبحانه ـ بلفظ الكريم، وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به، ولا إهمال حقه. فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه. واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به. وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لَا يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَىٰ * الَّذي كَذَّب وتَولَّى﴾ [الليل: ١٥، ١٦] وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين﴾ [البقرة: ٢٤] ولم يدر هذا المغتر أن قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم. ولو كانت جميع جهنم فهو ـ سبحانه ـ لم يقل لا يدخلها بل قال: ﴿لا يَصْلَاها إِلَّا الأَشْقَى﴾ ولا يلزم من عدم صليها. عدم دخولها فإن الصلي أخص من الدخول، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم. ثم هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضمونًا له أن يجنبها. وأما قوله في النار أعدت للكافرين فقد قال في الجنة: ﴿أُعِدَّت لِلْمُتَّقِينْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن تدخلها الفساق والظلمة. ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان ولم يعمل خيرًا قط.

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتى يقول بعضهم: يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر. ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء. وهي إنما تكفر مابينهما إذا اجتنبت الكبائر. فرمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انظمام ترك الكبائر إليها. فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر. فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها غير تائب منها. هذا محال. على أنه لا يمتنع أن يكون صوم

يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفر لجميع ذنوب العام على عمومه. ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع. ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير. فإذا لم يصر على الكبائر تساعد الصوم وعدم الإصرار. وتعاونًا على عموم التكفير. كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر. مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ ماتُنْهَون عَنْه نُكَفِّرْ عَنْكم سَيِّئَاتِكم﴾ [النساء: ٣١] فعلم أن جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما، وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل.

وكاتكال بعضهم على قوله، ﷺ، حاكيًا عن ربه: «**أنا عند حسن ظني عبدي ربي، فليظن بي ماشاء**» يعني ماكان في ظنه فأنا فاعله به، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسّن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات، فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في المشاهدة، فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به. ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا. فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته. وأحسن الناس ظنًا بربه أطوعهم له. كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل. وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل.

فكيف يكون حسن الظن بربه من هو شارد عنه، حال مرتحل في مساخطه ومايغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه.

وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة. وعادى أولياءه ووالى أعداءه. وجحد صفات كماله، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسله، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر. وكيف يحسن الظن به من يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب....

(١)**ثم** ـ ذكر سبحانه ـ نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغنائه بعد الفقر. فكان محتاجًا إلى من يؤويه ويهديه ويغنيه، فآواه ربه وهداه، وأغناه. فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر. فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها، فأوصاه ـ سبحانه ـ باليتامى والفقراء والمتعلمين. قال مجاهد، ومقاتل: لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيمًا. وقال الفراء: لا تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه. وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى، تأخذ أموالهم وتظلمهم فغلظ الخطاب في أمر اليتيم. وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره، وهو نهي لجميع المكلفين(٢).

(٣)**الرابع** والأربعون: أن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق، فلو وزن عقله بعقولهم لرجحها.

وقد أخبر الله أنه قبل الوحي: لم يكن يدري ما الإيمان، كما لم يكن يدري ما الكتاب. فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨] وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر سورة الشورى.

فإذا كان أعقل الخلق على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠] فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون نصوص الوحي حتى اهتدوا بتلك الهداية إلى المعارضة بين العقل ونصوص الأنبياء ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ

---

(١) ٤٧ التبيان.

(٢) تقدم في سورة الحشر مايتعلق بهذه السورة نقلاً عن عدة الصابرين عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ (ج).

(٣) ١١٦ مختصر الصواعق جـ١.

يَتفَطَّرْنَ مِنْه وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٩، ٩٠].

(١)**قال** الله تعالى: **﴿ووجدكَ عائلاً فأغنى﴾** [الضحىٰ: ٨] وفي الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه أغناه من المال بعد فقره: وهذا قول أكثر المفسرين. لأنه قابله بقوله: «عائلاً» والعائل: هو المحتاج. ليس ذا العيلة. فأغناه من المال.

والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه. وأغناه به عن سواه. فهو غنى قلب ونفس، لا غنى مال. وهو حقيقة الغنى.

والثالث: ـ وهو الصحيح ـ أنه يعم النوعين: نوعي الغنى، فأغنى قلبه. وأغناه من المال.

(٢)**وأجمع** المفسرون أن العائل هو الفقير. يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر.

(٣)... **الثناء** على المنعم، المتعلق بالنعمة نوعان: عام، وخاص.

فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمته، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى: **﴿وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾** [الضحىٰ: ١١] وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة، والإخبار بها. وقوله: أنعم الله عليَّ بكذا وكذا.

قال مقاتل: يعني أشكر ماذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة.

والتحدث بنعمة الله شكر. كما في حديث جابر مرفوعًا: **«من صُنع إليه معروف فليَجزِ به. فإن لم يجد مايَجْزِي به فليُثْنِ. فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره. وإن كتمه فقد كفره، ومن تَحلَّى بما لم يُعْطَ كان كَلابس ثوبي زور»**.

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها والكاتم لها. والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها. فهو متحلٍ بما لم يعطه.

وفي أثر آخر مرفوع: **«من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر. والجماعة رحمة. والفرقة عذاب»**.

(١) ٤٤٩ مدارج جـ٢. (٢) ١١٤ عدة الصابرين. (٣) ٢٤٨ مدارج جـ٢.

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة.

قال الزجاج: أي بَلِّغ ماأرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله.

وقال الكلبي: هو القرآن. أمره أن يقرأه.

والصواب: أنه يعم النوعين، إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها، وإظهارها من شكرها.

(١)**﴿وأما السَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾** [الضحى: ١٠] قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة لا تنهره. إذا سألك. فقد كنت فقيراً، فإما أن تطعمه. وإما أن ترده ردًّا لينًا. قال الحسن: إما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك، ولكن طالب العلم. وهذا قول يحيى بن آدم قال: إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره. والتحقيق أن الآية تتناول النوعين.

وقوله: ﴿وأما بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] قال مجاهد: بالقرآن. وقال الكلبي: بمعنى أظهرها، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يقرئه ويعلمه. وروى أبو بشر، عن مجاهد: حدث بالنبوة التي أعطاك الله.

وقال الزجاج: بلغ ماأرسلت به. وحدث بالنبوة التي آتاك، وهي أجل النعم.

وقال مقاتل: أشكر هذه النعمة التي ذكرت في هذه السورة.

والتحقيق أن النعم تعم هذا كله فأمر أن لا ينهر سائل المعروف، والعلم وأن يحدث بنعم الله عليه في الدين والدنيا.

(٢)**والفرق** بين التحدث بنعم الله والفخر بها إن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها شاكر له ناشر لجميع ما أولاه مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء وبعث النفس على الطلب من دون غيره وعلى محبته ورجائه فيكون راغباً إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها.

---

(١) ٤٧ التبيان.　　(٢) ٣٠٢ الروح.

وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة.

قال النعمان بن بشير إن للشيطان مصالي وفخوخاً وإن من مصاليه وفخوخه البطش بنعم الله والكبر على عباد الله والفخر بعطية الله والهون في غير ذات الله.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الضحىٰ

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)الموطن الخامس من مواطن الصلاة عليه ﷺ الخطب كخطبة الجمعة، والعيدين، والاستسقاء، وغيرها

وقد اختلف في اشتراطها لصحة الخطبة. قال الشافعي وأحمد - رحمهما الله - في المشهور من مذهبهما: لا تصح الخطبة إلا بالصلاة عليه ﷺ. وقال أبو حنيفة ومالك: تصح بدونها. وهو وجه في مذهب أحمد.

واحتج لوجوبها في الخطبة بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لك صَدْرَك * وَوَضَعْنَا عَنْك وِزْرَكَ * الَّذي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ [الشرح: ١-٤] قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «رفع الله ذكره، فلا يذكر إلا ذُكِرَ معه» وفي هذا الدليل نظر. لأن ذكره ﷺ مع ذكر ربه هو الشهادة له بالرسالة إذا شهد لمرسله بالوحدانية. وهذا هو الواجب في الخطبة قطعًا، بل هو ركنها الأعظم، وقد روى أبو داود، وأحمد، وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: «**كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء**» واليد الجذماء: المقطوعة. فمن أوجب الصلاة على النبي ﷺ، في الخطبة دون التشهد فقوله في غاية الضعف.

وقد روى يونس عن شيبان عن قتادة ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ فقال: «**رفع الله** ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا ابتدأها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله».

وقال عبد بن حميد: أخبرني عمرو بن عون عن هشيم عن جويبر عن الضحاك: ﴿**ورفعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي، ولا يجوز خطبة ولا نكاح إلا بذكرك.

وقال عبدالرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ قال: «**لا أذكر إلا ذكرت معي: الأذان أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد**

أن محمدًا رسول الله» فهذا هو المراد من الآية، وكيف لا يجب التشهد الذي هو عقد الإسلام في الخطبة، وهو أفضل كلماتها، وتجب الصلاة على النبي ﷺ، فيها.

والدليل على مشروعية الصلاة على النبي ﷺ، في الخطبة ماوراه عبدالله بن أحمد حدثنا أبي حدثنا منصور بن أبي مزاحم حدثنا خالد حدثني عون بن أبي جحيفة كان أبي من شرط عليٍّ(١) وكان تحت المنبر فحدثني: «أنه صعد المنبر ـ يعني عليًا ـ رضي الله عنه ـ فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وقال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، والثاني عمر» وقال: ويجعل الله الخير حيث شاء.

وقال محمد بن الحسن بن جعفر الأسدي حدثنا أبو الحسن علي بن محمد الحميري حدثنا عبدالله بن سعيد الكندي حدثنا حميد بن عبدالرحمن الرواسي قال: سمعت أبي يذكر عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله أنه كان يقول بعد مايفرغ من خطبة الصلاة، ويصلي على النبي ﷺ: «اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينة في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، اللهم بارك لنا في أسماعنا وأبصارنا(٢) وأزواجنا وقلوبنا وذرياتنا».

وروى الدارقطني من طريق ابن لهيعة عن الأسود بن مالك الحضرمي عن يحيى بن ذاخر المعافري قال: «ركبت أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة. فذكر حديثًا، وفيه: فقام عمرو بن العاص على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه حمدًا موجزًا، وصلى على النبي ﷺ، ووعظ الناس، فأمرهم ونهاهم».

وفي الباب حديث ضبة بن محصن «أن أبا موسى كان إذا خطب: فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ودعا لعمر. فأنكر عليه ضبة الدعاء لعمر قبل الدعاء لأبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ فرفع ذلك إلى عمر ـ رضي الله عنه فقال لضبة: أنت أوفق وأرشد». فهذا دليل على أن الصلاة على النبي ﷺ، في الخطب كان أمر مشهورًا معروفًا عند الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

وأما وجوبها فيعتمد دليلًا يجب المصير إلى مثله.

(١) الشرط جمع شرطة، وهو الجندي الذي يقوم بالحراسة لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) في النسخة المطبوعة: «أبصانا» وهو تصحيف ماذكرناه. المراجع.

(١)... **وإذا** عرفت هذه الفوائد الأربع فقول الرادّ: وعليك السلام. بالتعريف متضمن للدلالة على أن مقصوده من الرد مثل ما ابتدئ به، وهو هو بعينه، فكأنه قال ذلك السلام الذي طلبته لي مردود عليك، وواقع عليك، فلو أتى بالردِّ منكرًا لم يكن فيه إشعار بذلك، لأن المعرف وإن تعدد ذكره واتحد لفظه فهو شيء واحد بخلاف المنكر، ومن فهم هذا فهم معنى قول النبي ﷺ: «**لن يغلب عسر يسرين**» فإنه أشار إلى قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ [الشرح: ٥-٦] فالعسر(٢) وإن تكرر مرتين فتكرر بلفظ المعرفة فهو واحد، واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران، فالعسر محفوف بيسرين: يسر قبله ويسر بعده، فلن يغلب عسر يسرين.

وفائدة ثانية وهي أن مقامات رد السلام ثلاثة: مقام فضل. ومقام عدل. ومقام ظلم. فالفضل أن يرد عليه أحسن من تحيته، والعدل أن ترد عليه نظيرها، والظلم أن تبخسه حقه وتنقصه منها، فاختير للراد أكمل اللفظتين وهو المعرف بالأداة التي تكون للاستغراق والعموم كثيرًا ليتمكن من الإتيان بمقام الفضل.

وفائدة ثالثة وهي أنه قد تقدم أن المناسب في حقه تقديم المسلم عليه على السلام فلو نكره، وقال: عليك سلام. لصار بمنزلة قولك: عليك دين، وفي الدار رجل. فخرجه مخرج الخبر المحض، وإذا صار خبرًا بطل معنى التحية، لأن معناها الدعاء والطلب، فليس بمسلم من قال: عليك سلام، إنما المسلم من قال: سلام عليك فعرف سلام الراد باللام إشعارًا بالدعاء للمخاطب وأنه راد عليه التحية طالب له السلامة من اسم السلام. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشرح

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٥٥ بدائع جـ٢.

(٢) في الأصل المطبوع «فاليسر» والصواب ما أثبتناه لدلالة الكلام عليه (ج).



بسم الله الرحمن الرحيم

فصــل(١)

ومن ذلك إقسامه: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣] فأقسم ـ سبحانه ـ بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام، والأمم الكثيرة.

فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين، ومنبتهما. وهو أرض بيته المقدس. فإنها أكثر البقاع زيتونًا وتينًا.

وقد قال جماعة من المفسرين: إنه ـ سبحانه ـ أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما. فإن التين فاكهة مخلصة من شواء التنغيص، لا عجم له(٢) وهو على مقدار اللقمة، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم. ويدخل في الأدوية، ومزاجه من أعدل الأمزجة، وطبعه طبع الحياة: الحرارة، والرطوبة، وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات. وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه، ويزيد في القوة، ويوافق الباءة، وينفع من البواسير والنقرس، ويؤكل رطبًا ويابسًا.

وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر. فإن عوده يخرج ثمرًا، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصبغ للآكلين، وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق مالا يخفى، وشجره باق على مر السنين المتطاولة، وورقه لا يسقط، وهذا الذي قالوه حق.

ولا ينافي أن يكون منبته مرادًا. فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة. فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما، وهو مظهر عبدالله ورسوله وكلمته وروحه عيسى ابن مريم.

(١) ٢٨ التبيان. (٢) العَجَمُ محركًا وكغراب، نوى كل شيء.

كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه، وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله، سيد ولد آدم. وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل. فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنّى بموضع مظهر الكليم. ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله، وأكرم الخلق عليه.

ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى (جاء الله من طور سيناء؛ وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران) فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع. ثم ثنى بنبوة المسيح، ثم ختمه بنبوة محمد ﷺ. وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها، ونبوة محمد ﷺ، وعليهما بعدهما بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم. ولما كان الغالب على بني إسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقًا للواقع، ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي.

(١)... **الوجه** الثاني قال في التوراة في السفر الخامس: «أقبل الله من سيناء، وتجلى من ساعير، وظهر من جبال فاران، ومعه ربوات الإظهار عن يمينه» وهذه متضمنة للنبوات الثلاثة: نبوة موسى، ونبوة عيسى، ونبوة محمد ﷺ.

فمجيئه من «سينا» وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى، ونبأه عليه إخبار عن نبوته. وتجليه من ساعير هو مظهر المسيح من بيت المقدس، «وساعير» قرية معروفة هناك إلى اليوم، وهذه بشارة بنبوة المسيح. «وفاران» هي مكة، وشبه - سبحانه - نبوة موسى بمجيء الصبح، ونبوة المسيح بعدها بإشراقه وضيائه، ونبوة خاتم الأنبياء بعدهما باستعلاء الشمس وظهور ضوئها في الآفاق، ووقع الأمر كما أخبر به سواء.

فإن الله - سبحانه - صدع بنبوة موسى ليل الكفر فأضاء فجره بنبوته، وزاد الضياء، والإشراق بنبوة المسيح، وكمل الضياء واستعلن وطبق الأرض بنبوة محمد صلوات الله وسلامه عليهم.

(١) ٥٣ هداية الحيارى.

وذكر هذه النبوات الثلاثة التي اشتملت عليها هذه البشارة نظير ذكرها في أول سورة ﴿**وَالتِّينِ والزَّيْتُون * وطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**﴾ [التين: ١-٣].

فذكر أمكنة هؤلاء الأنبياء وأرضهم التي خرجوا منها. ﴿**والتين والزيتون**﴾ والمراد بهما منبتهما وأرضهما، وهي الأرض المقدسة التي هي مظهر المسيح. ﴿**وطور سينين**﴾ الجبل الذي كلم الله عليه موسى، فهو مظهر نبوته. ﴿**وهذا البلد الأمين**﴾ مكة حرم الله وأمنه، التي هي مظهر نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليهم، فهذه الثلاثة نظير تلك الثلاثة سواء.

قالت اليهود: «فاران» هي أرض الشام، وليست أرض الحجاز، وليس هذا ببدع من بهتهم وتحريفهم. وعندهم في التوراة: إن إسماعيل لما فارق أباه سكن في برية فاران. هكذا نطقت التوراة. ولفظها «وأقام إسماعيل في برية فاران، وأنكحته أمه امرأة من [جرهم] ولا يشك علماء أهل الكتاب أن فاران مسكن لآل إسماعيل، فقد تضمنت التوراة نبوة تنزل بأرض فاران، وتضمنت نبوة تنزل على عظيم من ولد اسماعيل، وتضمنت انتشار أمته واتباعه حتى يملؤا السهل والجبل كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ولم يبق بعد هذا شبهة أصلاً أن هذه هي نبوة محمد ﷺ، التي نزلت بفاران على أشرف ولد إسماعيل حتى ملأت الأرض ضياءًا ونورًا وملأ أتباعه السهل والجبل. ولا يكثر على الشعب الذي نطقت التوراة بأنهم عادموا الرأي والفطانة أن ينقسموا إلى جاهل بذلك وجاحد مكابر معاند: ولفظ التوراة فيهم: إنهم لشعب عادم الرأي وليس فيهم فطانة.

ويقال لهؤلاء المكابرين: أي نبوة خرجت من الشام فاستعلت استعلاء ضياء الشمس، وظهرت فوق ظهور النبوتين قبلها، وهل هذا إلا بمنزلة مكابرة من يرى الشمس قد طلعت من المشرق فيغالط ويكابر ويقول بل طلعت من المغرب.

[1]**وأقسم** بها على بداية الإنسان ونهايته. فقال: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ**

(١) ٣٩ التبيان.

تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أي في أحسن صورة وشكل واعتدال: معتدل القامة، مستوى الخلقة، كامل الصورة، أحسن من كل حيوان سواه.

والتقويم تصيير الشيء على ماينبغي أن يكون في التأليف والتعديل. وذلك صنعته تبارك وتعالى، في قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء.

وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده، وقدرته، وحكمته، وعلمه، وصفات كماله. ولهذا يكررها كثيرًا في القرآن لمكان العبرة بها. والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته، وعلى المبدأ والمعاد.

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلاً أنزل عليهم كتبه، يعرفون العباد بربهم، وحقوقه عليهم، وينذرونهم بالله ونقمته، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه.

ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين، منهم من أجاب، ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين. فذكر حال الأكثرين، وهم المردودون إلى أسفل سافلين. والصحيح أنه النار. قاله مجاهد، والحسن، وأبو العالية. قال على بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: هي النار بعضها أسفل من بعض. وقالت طائفة، منهم قتادة، وعكرمة، وعطاء، والكلبي، وإبراهيم: إنه أرذل العمر، وهو مروي عن ابن عباس. والصواب القول الأول لوجوه:

أحدها: أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين، لا في لغة ولا عرف، وإنما أسفل سافلين هو سجين الذي هو مكان الفجار، كما أن عليين مكان الأبرار.

الثاني: أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جدًّا، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر.

الثالث: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر فليس ذلك مختصًا بالكفار، حتى يستثنى منهم المؤمنين.

الرابع: أن الله ـ سبحانه ـ لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار، بل جعله لجنس بني آدم، فقال: ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّى وَمِنْكُم مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ

بَعدِ عِلْمٍ شيئًا﴾ [الحج: ٥] فجعلهم قسمين: قسما متوفى قبل الكبر، وقسما مردودا إلى أرذل العمر، ولم يسمه أسفل سافلين.

الخامس: أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، وهو ـ سبحانه ـ قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجرًا غير ممنون.

السادس: أن قول من فسره بأرذل العمر يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم. ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس. فيكونَ قد ترك الإخبار عن المقصود الأهم. وأخبر عن أمر يعرف بالحس والمشاهدة. وفي ذلك هضم لمعنى الآية وتقصير بها عن المعنى اللائق بها.

السابع: أنه ـ سبحانه ـ ذكر حال الإنسان في مبدئه ومعاده. فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم، ومعاده رده إلى أسفل سافلين أو إلى أجر غير ممنون. وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده. فما لأرذل العمر، وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه؟

الثامن: أن أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس، وإخراج الكلام عن ظاهره والتكلف البعيد له. فإنهم إن قالوا: إن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين كابروا الحسن. وإن قالوا: إن من النوعين من يرد إلى أرذل العمر احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء.

فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم، إذا ردوا إلى أرذل العمر، بل تجرى عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة. فهذا ـ وإن كان حقًا ـ فإن الاستثناء إنما وقع من الرد لا من الأجر والعمل.

ولما علم أرباب هذا القول مافيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة. فقالوا: من قرأ القرآن لايرد إلى أرذل العمر. وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما: أن الاستثناء عام في المؤمنين، قارئهم وأميهم، وأنه لا دليل على ما ادعوه. وهذا لا يعلم بالحس، ولا خبر يجب التسليم له بقتضيه، والله أعلم.

التاسع: أنه ـ سبحانه ـ ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين، فإذا لم يؤمن به، وأشرك به، وعصى رسله، نقله منها إلى أسفل سافلين، وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين. فتلك نعمته عليه، وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته.

العاشر: أن نظير هذه الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أجرٌ غَيْرِ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤، ٢٥] فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿غَيْرُ مَمْنُون﴾ أي غير مقطوع ولا منقوص، ولا مكدر عليهم، وهذا هو الصواب. وقالت طائفة: غير ممنون به عليهم، بل هو جزاء أعمالهم؛ ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل، وهو قول كثير من القدرية. قال هؤلاء: إن المنة تكدر النعمة. فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه.

وهذا القول خطأ قطعًا، أُتيَ أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق على المخلوق، وهذا من أبطل الباطل، فإن المنة التي تكدر النعمة هي منة المخلوق على المخلوق، وأما منة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها، فإنها منة حقيقة.

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسلاَمَكُمْ بَلِ الله يَمُنُّ عليكم أن هَدَاكم لِلإِيمَانِ إنْ كنتم صادقين﴾ [الحجرات: ١٧] وقال تعالى: ﴿ولَقَدَ مَنَنَّا على مُوسىٰ وهارون * ونَجَيَّنَاهُمَا وقَومَهُمَا مِنَ الكَرْبِ العَظِيْمِ﴾ [الصافات: ١١٤، ١١٥] فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الأخرة. وقال لموسى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيَك مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه: ٣٧]. وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ الله عَلَينا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهم﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية. وقال: ﴿ونُرِيْدُ أَن نَّمُنَّ

عَلَى الذين اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] الآية.

وفي الصحيح أنَ النبي ﷺ، قال للأنصار: «**ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟**» فجعلوا يقولون له: الله ورسوله أمن. فهذا جواب العارفين بالله ورسوله. وهل المنة كل المنة إلا لله المان بفضله الذي جميع الخلق في منته؟ وإنما قبحت منة المخلوق لأنها منة بما ليس منه، وهي منة يتأذى بها الممنون عليه.

وأما منة المنان بفضله التي ماطاب العيش إلا بمنته، وكل نعمة منه في الدنيا والآخرة فهي منة يمن بها على من أنعم عليه، فتلك لا يجوز نفيها. وكيف يجوز أن يقال إنه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دخول الجنة؟ وهل هذا إلا من أبطل الباطل؟

فإن قيل: هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء، وليس مرادهم ما ذكر، وإنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به، وإن كانت لله فيه المنة عليهم، فإنه لا يمن عليهم به، بل يقال: هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، وهذا أجركم، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لا نمن عليكم بما أعطيناكم.

قيل: وهذا أيضًا هو الباطل بعينه، فإن ذلك الأجر ليست الأعمال ثمنًا له، ولا معاوضة عنه. وقد قال أعلم الخلق بالله ﷺ: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[1] فأخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده. وكما أنه ـ سبحانه ـ المان بإرسال رسله، وبالتوفيق لطاعته وبالإعانة عليها، فهو المان بإعطاء الجزاء، وذلك كله محض منته وفضله وجوده، لا حق لأحد عليه، بحيث إذا وفاه إياه لم يكن له عليه منه. فإن كان في الدنيا باطل فهذا ليس منه في شيء.

فإن قيل: كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بأن حق العباد عليه إذا

---

(١) في البخاري ومسلم.

وحدوه أن لا يعذبهم(١) وقد أخبر عن نفسه أن حقًّا عليه نصر المؤمنين.

قيل: لعمر الله هذا من أعظم منته على عباده، أن جعل على نفسه حقًّا بحكم وعده الصادق: أن يثيبهم، ولا يعذبهم إذا عبدوه ووحدوه. فهذا من تمام منته، فإنه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه وإجابة سائليه.

ما للعباد عليه حق واجب　　　كلا، ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا　　　فبفضله، فهو الكريم الواسع

وقوله سبحانه: ﴿**فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ**﴾ [التين: ٧] أصح القولين أن هذا خطاب للإنسان، أي فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان، وهذا البرهان؟ فتقول: إنك لا تبعث ولا تحاسب، ولو تفكرت في مبدأ خلقك، وصورتك، لعلمت أن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خلقًا جديدًا، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول.

وأيضًا فإن الذي كمل خلقك في أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين، كيف يليق به أن يتركك سدى، لا يكمل ذلك بالأمر والنهي، وبيان ما ينفعك ويضرك، ولا تنقل لدار هي أكمل من هذه، ويجعل هذه الدار طريقًا لك إليها فحكمة أحكم الحاكمين، تأبى ذلك، وتقضى خلافه. قال: منصور: قلت لمجاهد: ﴿**فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ** بالدِّين﴾ عنى به محمدًا؟ فقال: معاذ الله، إنما عنى به الإنسان. وقال قتادة: الضمير للنبي ﷺ، واختاره الفراء. وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان.

يقال: كذب الرجل، إذا قال الكذب، وكذبته أنا إذا نسبته إلى الكذب ولو اعتقدت صدقه. وكذبته إذا اعتقدت كذبه وإن كان صادقًا. قال تعالى: ﴿**فإن كذبوك فقد كذبت رسل من قبلك**﴾ وقال: ﴿**فإنهم لا يكذبوك**﴾ فالأول بمعنى وأن ينسبوك إلى الكذب، والثاني بمعنى لا يعتقدون أنك كاذب، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته، جحودًا وعنادًا، هذا أصل هذه اللفظة، ويتعدى

(١) في حديث معاذ المتفق عليه وفيه: «**وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**».

الفعل إلى الخبر بنفسه، وإلى خبره بالباء، وبقى. فيقال: كذبته بكذا، وكذبته فيه، والأول أكثر استعمالاً ومنه قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُم﴾ [ق: ٥] وقوله: ﴿وكَذَّبُوا بآيَاتِنَا﴾ [النساء: ٢٨].

إذا عرف هذا، فقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ اختلف في «ما» هل هي بمعنى أي شيء يكذبك، أو بمعنى من الذي يكذبك؟ فمن جعلها بمعنى أي شيء، تعين على قوله أن يكون الخطاب للإنسان، أي: فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذبًا بالدين، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق؟ ومن جعلها بمعنى: فمن الذي يكذبك، جعل الخطاب للنبي ﷺ، قال الفراء: كأنه يقول، من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما تبين له من خلق الإنسان ماوصفناه؟

وقال قتادة: فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين؟

وعلى قول قتادة والفراء إشكال من وجهين:

أحدهما: إقامة [ما] مقام [من] وأمره سهل.

والثاني: أن الجار والمجرور يستدعى متعلقًا، وهو يكذبك أي فمن يكذبك بالدين؟ فلا يخلو إما أن يكون المعنى[فمن]يجعلك كاذبًا بالدين، أو مكذبًا به، ولا يصح واحد منهما. أما الثاني والثالث فظاهر. فإن كذبته ليس معناه جعلته مكذِّبًا أو مكذَّبًا . وإنما معناه نسبته إلى الكذب. فالمعنى على هذا فمن يجعلك بعد كاذبًا بالدين، وهذا إنما يتعدى إليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثي، فلا يقال: كذب كذا، وإنما يقال كذب به.

وجواب هذا الإشكال أن قوله: كذب بكذا معناه كذب المخبر به ثم حذف المفعول به لظهور العلم به، حتى كأنه نسى وعدوا الفعل إلى المخبر به، فإذا قيل من يكـذبك بكذا؟ فهو بمعنى كذبوك بكذا سواء، أي نسبوك إلى الكذب في الإخبار به، بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور، فإن الخطاب إذا كان للإنسان، وهـو المكـذب، أي فاعل التكذيب، فكيف يقال له: مايكذبك؟ أي يجعلك مكذبًا. والمعروف كذبه إذا جعله كاذبًا لا مكذبًا. ومثل فسقه إذا جعله فاسقًا، لا مفسقًا لغيره.

وجواب هذا الإشكال: أن صدق وكذب ـ بالتشديد ـ يراد به معنيان: (أحدهما) النسبة. وهي إنما تكون للمفعول كما ذكرتم (والثاني) الداعي والحامل على ذلك، وهو يكون للفاعل. قال الكسائي: يقال، ماصدقك بكذا، أو ماكذبك بكذا، أي ماحملك على التصديق والتكذيب.

قلت وهو نظير ماأجرأك على هذا، أي ماحملك على الاجتراء عليه، وماقدمك وماأخرك، أي مادعاك، وحملك على التقديم والتأخير. وهذا استعمال سائغ موافق للعربية وبالله التوفيق.

(١)... **ثم** ختم السورة بقوله: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينْ**﴾ [التين: ٨] وهذا تقرير لمضمون السورة، من إثبات النبوة، والتوحيد، والمَعَاد، وحكمه بتضمن نصره لرسوله على من كذبه، وجحد ماجاء به، بالحجة والقدرة والظهور عليه، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه، وإن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعد ماظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونقله في أطوار التخليق، حالاً بعد حال، إلى أكمل الأحوال. فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته؟ فالله ماأخصر لفظ هذه السورة، وأعظم شأنها، وأتم معناها. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التين

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٣٥ التبيان.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**أول** سورة أنزلها الله في كتابه سورة القلم فذكر فيها ما مَنَّ به على الإنسان من تعليمـه مالم يعلم. فذكر فيها فضله بتعليمه، وتفضيله الإنسان بما علمّه إياه، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم.

فقال تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مالم يَعْلَمْ**﴾ [الفلق: ١-٥].

فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصًا وعمومًا. فقال: ﴿**الذي خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم**﴾.

وخص الإنسـان من بين المخلوقـات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته، وإنه لا إلـه غيره ولا رب سواه.

وذكـر هنا مبدأ خلقه من **علق** لكون العلقة مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النـطفـة، فهي مبدأ تعلق التخليق، ثم أعاد الأمر بالقرآءة مخبراً عن نفسه بأنه الأكرم، وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه فإنه الخير كله بيديه والخير كله منه، والنعم كلها هو موليها، والكمال كله والمجد كله له فهو الأكرم حقًّا.

ثم ذكر تعليمه عمومًا وخصوصًا. فقال الذي علم بالقلم، فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصًا. فقال: ﴿**عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ**﴾ فاشتملت هذه الكلمات على أنـه معـطى المـوجـودات كلها بجميع أقسامها. فإن الوجود له مراتب أربع:

إحداها: مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله: ﴿**خلق**﴾.

(١) ٥٨ مفتاح جـ١.

المرتبة الثانية: الذهنية المدلول عليها بقوله: ﴿**عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ**﴾.

المرتبة الثالثة والرابعة: اللفظية والخطية، فالخطية مصرح بها في قوله الذي علم بالقلم، واللفظية من لوازم التعليم بالقلم، فإن الكتابة فرع النطق، والنطق فرع التصور.

فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها، وأنه ـ سبحانه ـ هو معطيها بخلقه وتعليمه فهو الخالق المعلم. وكل شيء في الخارج فبخلقه وجد. وكل علم في الذهن فبتعليمه حصل. وكل لفظ في اللسان أو خط في البنان فبإقداره وخلقه وتعليمه. وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إلـه إلا هو الرحمن الرحيم.

والمقصود أنه ـ سبحانه ـ تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بهذا شرفًا وفضلًا له.

(١)**تنبيه** ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين: البيان النطقي، والبيان الخطي، وقد اعتد بهما ـ سبحانه ـ في جملة من اعتد به من نعمه على العبد، فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ من علق * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذي عَلَّمَ بِالقلم * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ١-٥] إعطاء الوجود الخارجي.

ثم ذكر ثانيًا خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة، والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم، وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة، وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها، إما مادة الأصل وهو التراب والطين، أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهين. وذكر في هذا الموضع أول مبادىء تعلق التخليق وهو العلقة، فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة.

ثم ذكر ثالثًا التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده، إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب

(١) ٢٧٨ مفتاح جـ١.

المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين، للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لا نقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف.

وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاءًا حافظًا للعلم من الضياع: كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان.

فنعمة الله ـ عز وجل ـ بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم.

والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإنه الذي بلغ به ذلك، وأوصله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه الله وإياه وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم فإنه علمه فتعلم، كما أنه علمه الكلام فتكلم.

هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به. ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات. ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه. ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد.

فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم، فقف وقفة في حال الكتابة، وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد، وضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم، وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل، فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك، ثم حرّك بها بنانك حتى صارت نقشًا عجيبًا، معناه أعجب من صورته، فتقضى به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ويترجم عنك، ويتكلم على لسانك، ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك مالا يجدي من ترسله، سوى من علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم.

والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث: مرتبة الوجود الذهني، والوجود اللفظي، والوجود الرسمي، فقد دل التعليم بالقلم على أنه ـ سبحانه ـ هو المعطي

لهذه المراتب. ودل قوله: ﴿خلق﴾ على أنه يعطى الوجود اللفظي.

فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها، على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقًا وتعليمًا.

وذكر خلقين وتعليمين خلقًا عامًّا، وخلقًا خاصًّا، وتعليمًا خاصًّا، وتعليمًا عامًّا، وذكر من صفاته هاهنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير، وكل كمال.

فله كل كمال وصفًا، ومن كل خير فعلاً، فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه، لا من حاجة دعته إلى ذلك، وهو الغني الحميد.

(١)**قال** تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦-٧] ولم يقل: إن استغنى، بل جعل الطغيان ناشئًا عن رؤية غنى نفسه، ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل، بل قال: ﴿وأَمَّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٨-١٠] وهذا ـ والله أعلم ـ لأنه ذكر موجب طغيانه، وهو رؤية غنى نفسه، وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى، وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته، فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين ولا يجد بدًّا من امتثال أوامره، ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه إعطاء ماوجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال. وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى، وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: ﴿لِلَّذينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وزيادة﴾ [يونس: ٢٦].

ومن فسرها بشهادة أن لا إله إلا الله، فلأنها أصل الإحسان، وبها تنال الحسنى. ومن فسرها بالخلف في الإنفاق، فقد هضم المعنى حقه، وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخلف جزءًا من أجزاء الحسنى.

والمقصود أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما مناف للفقر والعبودية.

(٢)... **قال** تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧] فإذا

---

(١) ١٤ طريق الهجرتين.		(٢) ١٠٧ مدارج جـ٣.

كان هذا غِنى بالحطام الفاني، فكيف بالغنى بما هو أعلى من ذلك وأكثر؟ فصاحب هذا إن لم يصحبه حذر المكر: خيف عليه أن يسلبه وينحط عنه.

و«**المكر**» الذي يخاف عليه منه: أن يُغَيِّب الله ـ سبحانه ـ عنه شهود أوليته في ذلك ومنته وفضله، وأنه محض منته عليه، وأنه به وحده، ومنه وحده. فيغيب عن شهـود حقيقة قوله تعالى: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ**﴾ [النحل: ٥٣]. وقوله: ﴿**قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّه للهِ**﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقوله: ﴿**وإن يَمْسَسْكَ الله بضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وإن يُرِدْكَ بِخَيرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيْبُ بِهِ مَن يشآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُـوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [يونس: ١٠٧]. وقوله: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلقَى إليك الكتـابُ لا رحمـةً مِن رَّبِّـك**﴾ [القصص: ٨٦]. وقوله: ﴿**ولَولاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُه مازَكَى مِنْكُمْ مِن أَحَدٍ أَبدًا وَلكِنَّ اللهَ يُزَكِّى مَنْ يَشآء**﴾. [النور: ٢١]. وأمثال ذلك.

فيغيبه عن شهود ذلك، ويحيله على معرفته في كسبه وطلبه، فيحيله على نفسه التي لها الفقر بالذات، ويحجبه عن الحِوالة على الملِيء الوَفِيِّ الذي له الغنى التام كله بالذات، فهذا من أعظم أسباب المكر. والله المستعان.

(١)**ولو** بلغ العبد من الطاعة مابلغ، فلا ينبغي له أن يفارقه هذا الحذر. وقد خافـه خيار خلقـه، وصفـوتـه من عباده. قال شعيب ﷺ، وقد قال له قومه: ﴿**لَنُخْرِجَنَّكَ ياشُعَيْبُ والذين آمَنُوا مَعَكَ من قَرْيَتِنا أو لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنا قَالَ أَوَ لو كُنَّا كَارِهين قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى الله كَذِبًا إن عُدْنا في مِلَّتكم بعد إذ نَجَّانَا الله مِنْهَا**﴾ إلى قولـه: ﴿**عَـلَى الله تَوَكَّلْنـا**﴾ [الأعـراف: ٨٨، ٨٩] فردَّ الأمر إلى مشيئة الله ـ تعالى ـ وعلمه، أدبًا مع الله، ومعرفة بحق الربوبية، ووقوفًا مع حد العبودية.

وكـذلـك قال إبراهيم ﷺ، لقومه ـ وقد خوفوه بآلهتهم ـ فقال: ﴿**وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُون به إلَّا أَن يشآءَ رَبِّي شَيئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ علمًا**﴾ [الأنعام: ٨٠] فرد الأمر إلى مشيئة الله وعلمه. وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ الله فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إلَّا القَوْمَ الخَاسِرُون**﴾ [الأعراف: ٩٩].

(١) ١٠٧ مدارج جـ٣.

فائـــدة[(١)]

ماالفائدة في إبدال النكرة من المعرفة وتبيينها بها، فإن كانت الفائدة في النكرة فلم ذكرت المعرفة؟ وإن كانت في المعرفة فما بال ذكر النكرة؟!

قيل: هذا فيه نكتة بديعة، وهي أن الحكم قد يعلق بالنكرة السابقة فتذكر، ويكون الكلام في معرض أمر معين في الجنس مدحًا أو ذمًّا، فلو اقتصر على ذكر المعرفة لا ختص الحكم به، ولو ذكرت النكرة وحدها لخرج الكلام عن التعرض لذلـك المعـين، فلما أريد الجنس أتى بالنكـرة ووصفت إشعـارًا بتعليق الحكم بالوصف، ولما أتى بالمعرفة كان تنبيهًا على دخول ذلك المعين قطعًا.

ومثال ذلـك قولـه تعـالى: ﴿لَنَسْفَعًـا بِالنَّـاصِيَـةِ * نَاصِيَـةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٥، ١٦] فإن الآية كما قيل نزلت في أبي جهـل ثم تعلق حكمها بكل من اتصف به فقال: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ تعيينًا ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾ تعدية وتعميمًا[(٢)] ولذلك اشترط في النكرة في هذا الباب أن تكون منعوتة لتحصل الفائدة المذكورة وليتبين المراد.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العلق
والحمد لله رب العالمين

(١) ٨ بدائع جـ٢.
(٢) ماأثبتناه في المخطوطة وفي المطبوعة «لعدمه وتنبيهًا» (ج).



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**وسئل** ﷺ عن ليلة القَدْر، أفي رمضان أو في غيره؟ قال: «**بل في رمضان**» فقيل: تكون مع الأنبياء ماكانوا فإذا قُبضوا رُفِعَتْ أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: «**بل هي إلى يوم القيامة**» فقيل: في أي رمضان هي؟ قال: «**الْتَمِسُوها في العَشْر الأول، أو في العشر الآخر**» فقيل: في أي العشرين؟ قال: «**ابتغوها في العشر الأواخر، لاتسألني عن شيء بعدها**» فقال: أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي، فغضب غضبًا شديدًا وقال: «**التمسوها في السبع الأواخر، لاتسألنَّ عن شيء بعدها**» ذكره أحمد، والسائل أبو ذر.

وعند أبي داود أنه ﷺ سئل عن ليلة القدر فقال: «في كل رمضان».

وسئل عنها أيضًا فقال: «كم الليلة؟» فقال السائل: ثنتان وعشرون، فقال: «هي الليلة» ثم رجع فقال: «أو القابلة» يريد ثلاثًا وعشرين، ذكره أبو داود.

وسأله ﷺ عبدالله بن أنيس: متى نلتمس هذه الليلة المباركة؟ فقال: «**التمسوها هذه الليلة**» وذلك مساء ليلة ثلاث وعشرين.

وسألته ﷺ عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إن وافقتها فبِمَ أدعو؟ قال: «**قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعْفُ عني**» حديث صحيح.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القدر
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٨٩ أعلام جـ٤.

سُورَةُ البَيِّنَة — ترتيبها ٩٨ — آياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل [1]

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإخلاص».

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَّهُ الِّدينَ﴾. [البينة: ٥]. وقال: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصًا له الدين * ألَا لله الِّدينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ الله أعْبُدُ مُخْلِصًا لَّه دِيْني، فَاعْبُدوا ماشِئْتُمْ مِنْ دُونِه﴾ [الزمر: ١٤، ١٥] وقال له: ﴿قُلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحياي ومَماتي لله رَبِّ العَالَمِيْنْ * لا شَرِيْكَ لَهُ وَبذلِكَ أُمِرْتُ وأنَا أوَّلُ الْمُسلِمِيْنْ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقال: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: ياأباعلي، ماأخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا. لم يقبل. وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا: لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرجوُ لقآءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا. ولايُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَن أحْسَنُ دِينًا مِمن أسْلَمَ وَجْهَهِ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله. والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته. وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناه هَبآءً مَنْثورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهي الأعمال التي كانت على غير السنة. أو أريد بها غير وجه الله.

---

(١) ٨٩ مدارج جـ٢

قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -: «**إنك لن تُخَلَّف، فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله تعالى: إلا ازددت به خيراً، ودرجة ورفعة**».

وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث لا يَغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر. ولزوم جماعة المسلمين. فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» أي لا يبقى فيه غِلٌّ، ولا يحمل الغِلَّ مع هذه الثلاثة، بل تنفى عنه غِلَّه. وتُنقيه منه. وتخرجه عنه. فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش. وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. فهذه الثلاثة تملؤه غلاًّ ودَغَلاً. ودواء هذا الغل، واستخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل: يقاتل رياء، ويقاتل شجاعة. ويقاتل حمية: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**».

وأخبر عن أول ثلاثة تُسَعَّر بهم النار: قاريء القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قاريء، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله.

وفي الحديث الصحيح الإلـهي يقول الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به. وأنا منه بريء**».

(١)﴿**وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِيْنَ لَهُ الّدين**﴾ [البينة: ٥]. فنفى سبحانه أن يكون أمر عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية.

ومعلوم أن إخلاص النية للمعبود أصل لنية أصل العبادة فإذا لم يأمرهم إلا بعمل هو عبادة قد أخلص عاملها النية فيها لربه عز وجل.

ومعلوم أن النية جزء من العبادة، بل هي روح العبادة كما تبين علم أن

---

(١) ١٨٩ بدائع جـ٣

العمل الذي لم ينو ليس بعبادة ولامأمور به، فلا يكون فاعله متقربًا به إلى الله تعالى، وهذا مما لا يقبل نزاعًا.

ومن نكت المسألة أن يفرق بين الأفعال التي لاتقع إلا منوية عادة وبين الأفعال التي تقع منوية وغير منوية.

فالأولى كالوضوء المرتب عضوًا بعد عضو، فإنه لا يكاد يتصور وقوعه من غير نية، فإن علم الفاعل بما يفعله وقصده له هو النية، والعاقل المختار لا يفعل فعلًا إلا مسبوقًا بتصوره وإرادته، وذلك حقيقة النية فليست النية أمرًا خارجًا عن تصور الفاعل وقصده لما يريد أن يفعله.

وبهذا يعلم غلط من ظن أن للتلفظ مدخلًا في تحصيل النية. فإن القائل إذا قال: نويت صلاة الظهر أو نويت رفع الحدث. إما أن يكون مخبرًا أو منشئًا. فإن كان مخبرًا فإما أن يكون إخباره لنفسه أو لغيره وكلاهما عبث لا فائدة فيه، لأن الإخبار إنما يفيد إذا تضمن تعريف المخبر مالم يكن عارفًا به، وهذا محال في إخباره لنفسه.

وإن كان إخبارًا لغيره بالنية فهو عبث محض، وهو غير مشروع ولامفيد، وهو بمثابة إخباره له بسائر أفعاله من صومه وصلاته وحجه وزكاته، بل بمنزلة إخباره له عن إيمانه وحبه وبغضه، بل قد تكون في هذا الإخبار فائدة، وأما إخبار المأمومين أو الإمام أو غيرهما بالنية فعبث محض ولايُصح أن يكون ذلك إنشاء، فإن اللفظ لاينشيء وجود النية وإنما إنشاؤها إحضار حقيقتها في القلب لا إنشاء اللفظ الدال عليها. فعلم بهذا أن التلفظ بها عبث محض فتأمل هذه النكتة البديعة...

(١)**قال** تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ١١٠].

أي كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده،

(١) ١٧٦ الجواب الكافي

فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية. فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة. وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا. واجعله لوجهك خالصًا. ولا تجعل لأحد فيه شيئًا» وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله ـ سبحانه ـ إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى: ﴿**وماأُمِروا إلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ**﴾ [البينة: ٥] فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول الله تعالى[1]: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء**» وهذا الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر ومغفور وغير مغفور. والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقًا كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أندادًا**﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: ﴿**تَالله إنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إذْ نُسَوِّيْكم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] ومعلوم أنهم ماسووهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع والتذلل وهذا غاية الجهل والظلم...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البينة

والحمد لله رب العالمين

---

(١) في الحديث القدسي.



بسم الله الرحمن الرحيم

فائـــدة(١)

إذا غصب مالاً وبنى به رباطًا أو مسجدًا أو قنطرة فهل ينفعه ذلك أو يكون الثـواب للمغصـوب منـه؟ قال ابن عقيل: لاثواب على ذلك لواحد منهما: أما الغاصب فعلية العقوبة وجميع تصرفاته في مال الغير آثام متكررة. وأما صاحب المـال فلا وجـه لثوابه، لأن ذلك البناء لما يكن له فيه نية ولا حسبة وما لم يكن للمكلف فيه عمل ولا نية فلا يثاب عليه، وإنما يطالب غاصبه يوم القيامة فيأخذ من حسناته بقدر ماله.

قلت: في هذا نظر، لأن النفع الحاصل للناس متولد من: مال هذا، وعمل هذا. والغاصب وإن عوقب على ظلمه وتعديه واقتص المظلوم من حسناته فما تولد من نفـع النـاس بعمله له، وغصب المـال عليه وهو لو غصبه وفسق به لعوقب عقوبتين فإذا غصبه وتصدق به أو بنى به رباطًا أو مسجدًا أو فك به أسيرًا فإنه قد عمل خيرًا وشرًّا ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيْرًا يَرَه * ومَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة شَرًّا يَرَه**﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

وأما ثواب صاحب المال فإنه وإن لم يقصد ذلك فهو متولد من مال اكتسبه فقد تولد من كسبه خير لم يقصده فيشبه مايحصل له من الخير بولده البار وإن لم يقصد ذلك الخير.

وأيضا فإن أخذ ماله مصيبة فإذا انفق في خير فقد تولد له من المصيبة خير والمصائب إذا ولدت خيرًا لم يعدم صاحبها منه ثوابًا، وكما أن الأعمال إذا ولدت خيرًا أثيب عليه وإن لم يقصده، فالمصائب إذا ولدت خيرًا لم يمنع أن يثاب عليه وإن لم يقصده، والله أعلم.

---

(١) ١٧١ بدائع جـ٣

(١)**وسئل** ﷺ عن الخمر؛ فقال: «**ما أنزل عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الْفَاذَّة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهْ ومن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرة شرًّا يره﴾**» ذكره مسلم.

وسألته ﷺ أم سَلَمة فقالت: إني ألبس أوْضاحًا من ذهَب، أكنز هو؟ قال: «**مابلغ أن تؤدي زكاته فزكي فليس بكنز**» ذكره مالك.

وسئل ﷺ: في المال حق سوى الزكاة؟ قال: «**نعم**»، ثم قرأ: ﴿**وآتَى المالَ عَلَى حُبِّه**﴾ [البقرة: ١٧٧] ذكره الدارقطني.

وسألته ﷺ امرأة فقالت: إن لي حليًّا، وإن زوجي خفيف ذات اليد، وإن لي ابن أخ، أفيجزيء عني أن أجعل زكاة الحلي فيهم؟ قال: «**نعم**».

وذكر ابن ماجه أن أبا سيارة سأله فقال: إن لي نخلاً، فقال: «**أد العشر**» فقلت: يارسول الله أحْمِهَا لي، فحماها لي.

وسأله ﷺ العباس عن تعجيل زكاته قبل أن يَحُول الحول، فأذن له في ذلك، ذكره أحمد.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزلزلة
والحمد لله رب العالمين

(١) ٢٨٩ أعلام جـ٤.

سورة العاديات

ترتيبها ١٠٠ — آياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

[(١)] **الله** ـ سبحانه وتعالى ـ أقسم بالخيل في كتابه، وذلك يدل على شرفها وفضلها عنده، قال تعالى: ﴿**والعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا**﴾ [العاديات: ١-٣] أقسم ـ سبحانه ـ بالخيل تعدو في سبيله. والضبح صوت في أجوافها عند جريها. فالموريات قدحًا. توري النار بحوافرها عندما تصك الحجارة. ﴿**فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا**﴾ [العاديات: ٤] النقع الغبار تثيره الخيل عند عدوها، والضمير في [به] قيل: يعود على القدح، وهو ضعيف، فإن الغبار لا يثار بالقدح.

وقيل عائد على المغار المدلول عليه بقوله: فالمغيرات أي: أثرن بالمغار غبارًا لكثرة جولانها فيه. ويجوز أن يعود على المغار الذي هو مصدر أي الغبار بسبب الإغارة. ويجوز أن يعود على العدو المفهوم من لفظ العاديات. والضمير في [به] الثانية مثل الأولى.

وقيل عائد على النقع أي وسطن جمعًا ملتبسات بالنقع وعلى هذا فجمع هنا بجمع العدو، وهذا قول ابن مسعود.

وقال علي: المراد بها إبل الحاج، أقسم الله ـ سبحانه ـ بها لعدوها في الحج الذي هو في سبيله، وجمع الذي وسطن به هو مزدلفة أخرت وقت الصبح. والقول الأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن المستعمل بالضبح إنما هو الخيل، ولهذا قال أهل اللغة: الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت، قال الله تعالى: ﴿**والعَادِيَات ضَبْحًا**﴾ ويقال أيضاً: ضبح الثعلب.

الثاني: وصفها بأنها توري النار من الحجار عند عدوها، وهذا مشهود في الخيل

(١) ١٢ الفروسية.

لقرع سنابكها من الحديد الصفا فيتولد قدح النار من بينهما، كما يتولد من الحديد والصوان عند القدح.

الثالث: أنه وصفها بالإغارة وهي وإن استعملت للابل كما كانت قريش تقول: «أشرق ثبير كيما نغير» لكن استعمالها في إغارة الغزو أكثر.

الرابع: أنه ـ سبحانه ـ وقت الإغارة بالضبح، والحاج عند الصبح لا يغيرون، وإنما يكونون بموقف مزدلفة، وقريش إذ ذاك لم تكن تغير حتى تطلع الشمس فلم تكن تغير بالصبح قريش ولا غيرها من العرب. في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان في الغزو لا يغير حتى يصبح، فإذا أصبح فإن سمع أذانًا أمسك وإلا أغار.

الخامس: أنه ـ سبحانه ـ عطف توسط الجمع بالفاء التي هي للترتيب بعد الإغارة وهذا يقتضي أنها أغارت وقت الصبح فتوسط الجمع بعد الإغارة. ومن المعلوم أن إبل الحاج لها إغارتان. إغارة في أول الليل إلى جمع، وإغارة قبل طلوع الشمس منها إلى منى. والإغارة الأولى قبل الصبح ولا يمكن الجمع بينهما وبين وقت الصبح وبين توسط جمع وهذا ظاهر.

السادس: أن النقع هو الغبار وجمع مزدلفة وماحوله كله صفا، وهو واد بين جبلين لا غبار به تثيره الابل، والله أعلم بمراده من كلامه.

(1)**ومن** ذلك إقسامه ـ سبحانه ـ: **﴿والعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيْرَاتِ صُبْحًا﴾** [العاديات: ١-٣].

وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك، **فقال علي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ: هي إبل الحاج، تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى، وهذا اختيار محمد بن كعب، وأبي صالح، وجماعة من المفسرين.**

وقال عبدالله بن عباس: **هي خليل الغزاة، وهذا قول أصحاب ابن عباس، والحسن، وجماعة، واختاره الفراء، والزجاج.**

قال أصحاب الإبل. السورة مكية، ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد. وإنما

---

(١) ٤٨ التبيان.

أقسم بها يعرفونه ويألفونه، وهي إبل الحاج إذا عدت من عرفة إلى مزدلفة، **فهي** عاديات، والضبح والضبع مد الناقة ضبعها في السير، يقال ضبحت وضبعت بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة، وقد اختار هذا القول:

فكان لكم أجري جميعًا وأصبحت　　بي البازل الوجناء في الآل تضبح

قالوا: فهي تعدو ضبحًا، فتوري بأخفافها النار من حك الأحجار بعضها ببعض فتثير النقع - وهو الغبار - بعدوها، فيتوسط جمعًا، وهي المزدلفة.

قال أصحاب الخيل: المعروف في اللغة أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدون، والمعنى والعاديات ضابحة، فيكون ضبحًا مصدرًا على الأول، وحالاً على الثاني.

قالوا: والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحًا، وهو صوت يسمع من أجوافها، ليس بالصهيل ولا الحمحمة، ولكن صوت أنفاسها في أجوافها من شدة العدو. وقال الجرجاني: كلا القولين قد جاء في التفسير، إلا أن السياق يدل على أنها الخيل، وهو قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ والإيراء لايكون إلا للحافر، لصلابته. وأما الخف فيه لين واسترخاء. انتهى.

قالوا: والضبح في الخيل أظهر منه في الإبل، والإيراء لسنابك الخيل أبين منه لاخفاف الإبل. قالوا: والنفع هو الغبار، وإثارة الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل، والضمير في [به] عائد على المكان الذي تعدو فيه.

قالوا: وأعظم مايثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو، لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان.

وأما حمل الآية في إثارة الغبار في وادي محسر عند الإغارة، فليس بالبين، ولا يثور هناك غبار في الغالب، لصلابة المكان.

قالوا: وأما قولكم إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد، فهذا لايلزم، لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت في غزو، فأغارت فأثارت النقع، وتوسطت جمع العدو. وهذا أمر معروف. وذكر خيل المجاهدين أحق مادخل في هذا الوصف، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص. فإن هذا

شأن خيل المقاتلة. وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين. والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل به الغزو والظفر، والنصر على الأعداء، فيعدوا طالبة للعدو وهاربة منه، فيثير عدوها الغبار لشدته، وتوري حوافرها وسنابكها النار من الأحجار، لشدة عدوها، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء.

فهذا من أعظم آيات الرب تعالى، وأدلة قدرته وحكمته. فذكرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعدائهم، ويدركون به تأثرهم.

كما ذكرهم - سبحانه - بنعمه عليهم في خلق الإبل التي تحمل أثقالهم من بلد إلى بلد، فالإبل أخص بحمل الأثقال، والخيل أخص بنصرة الرجال، فذكرهم بنعمه بهذا وهذا، وخص الإغارة بالصبح لأن العدو لم ينتشروا إذ ذاك ولم يفارقوا محلهم، وأصحاب الإغارة حامون مستريحون، يبصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا أهبتهم، بل هم في غرتهم وغفلتهم، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر، فإن سمع مؤذنًا أمسك، وإلا أغار.

ولما علم أصحاب الإبل أن أخفافها أبعد شيء من وري النار تأولوا الآية على وجوه بعيده. فقال محمد بن كعب: هم الحاج إذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة، وعلى هذا فيكون التقدير: فالجماعات الموريات، وهذا خلاف الظاهر. وإنما الموريات هي العاديات، وهي المغيرات.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس: هم الذين يغيرون، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم، كأنهم أخذوه من قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ**﴾ [الواقعة: ٧١] وهذا إن أريد به التمثيل، وأن الآية تدل عليه فصحيح، وإن أريد به اختصاص الموريات فليس كذلك، لأن الموريات هي العاديات بعينها. ولهذا عطفها عليه بالفاء التي للتسبب، فإنها عدت فأورت.

وقال قتادة: الموريات هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين، وهذا ليس بشيء، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها.

وأضعف منه قول عكرمة: هي الألسنة توري نار العداوة بعظيم ماتنتكلم به. وأضعف منه ماذكر عنه مجاهد: هي أفكار الرجال، توري نار المكر والخديعة في الحرب.

وهذه الأقوال إن أريد أن اللفظ دل عليها وأنها هي المراد فغلط. وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب.

وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ. وهو الذي ينحو إليه المتأخرون. وتفسير على المعنى. وهو الذي يذكره السلف. وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط: أن لايناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحًا في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم. فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا.

وأضعف من ذلك كله قول ابن جريج: قدحًا، يعني: فالمنجحات أمرًا، يريد البالغين بنجحهم فيما طلبوه، وعطف قوله: ﴿فَأَثَرْنَ﴾ ﴿فَوَسَطْنَ﴾ وهما فعلان على العاديات، والموريات لما فيه من معنى الفعل.

وكان ذكر الفعل في أثرن ووسطن أحسن من ذكر الاسم لأنه سبحانه قسم أفعالها إلى قسمين: وسيلة، وغاية، فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإبراء والإغارة، والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع. فهن عاديات موريات مغيرات. حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع. فالأول شأنهن الذي أعددن له، والثاني فعلهن الذي انتهين إليه، والله أعلم.

فصـــل

فهذا شأن القسم، وأما شأن المقسم عليه فهو حال الإنسان، وهو كون الإنسان كنودًا بشهادته على نفسه، أو شهادة ربه عليه، وكونه بخيلاً لحبه المال.

والكنود للنعمة.

وفعله كند يكند كنودًا، مثل كفر يكفر كفورًا، والأرض الكنود التي لاتنبت شيئًا، وامرأة كندى أي كفور للمعاشرة، وأصل اللفظ منع الحق والخير، ورجل كنود إذا كان مانعًا لما عليه من الحق. وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وأصحابه ـ رحمهم الله تعالى ـ: هو الكفور، وقيل: هو البخيل الذي يمنع رفده، ويجيع عبده، ولا يعطي في النائبة. وقال الحسن: هو اللوام لربه، يعد المصائب، وينسى النعم.

[1]**ولو** علم هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه ومصابه منها. وأنه أولى بكل ذم وظلم وأنها مأوى كل سوء. ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: «كفور جحودٌ لنعم الله». وقال أبو عبيدة: «هو قليل الخير» والأرض «الكنود» التي لا نبت بها. وقيل: التي لاتنبت شيئًا من المنافع. وقال الفضل بن عباس: «الكنود: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان». . .

[2]**وأما** قوله: ﴿وإنَّه عَلَى ذلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧] فقال ابن عباس: يريد أن ربه على ذلك لشهيد. وقيل: إن الإنسان لشهيد على ذلك، إن أنكر بلسانه أشهد ربه عليه حاله.

ويؤيد هذا القول سياق الضمائر. فإن قوله: ﴿وإنَّه لِحُبِّ الْخَيْرَ لِشَدَيْدٌ﴾ [العاديات: ٨] للإنسان فافتتح الخبر عن الإنسان بكونه كنودًا، ثم ثنّاه بكونه شهيدًا على ذلك، ثم ختمه بكونه بخيلاً بماله لحبه إياه.

---

(١) ١٩١ مدارج جـ١.　　(٢) ٥١ التبيان.

ويؤيد قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه أتى بعلي. فقال: ﴿وإنَّه عَلى ذلِكَ لَشَهِيْدٌ﴾ أي مطلع عالم به. كقوله: ﴿ثُمَّ الله شهيدٌ على مايَفْعلون﴾ [يونس: ٤٦] ولو أريد شهادة الإنسان لأتى بالباء. فقيل وإنه بذلك لشهيد. كما قال تعالى: ﴿ما كَانَ لِلْمُشْرِكين أن يَعْمُروا مسَاجِدَ الله شَاهِدِينْ عَلَى أنْفُسِهم بالكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] فلو أراد شهادة الإنسان لقال: وإنه على نفسه لشهيد. فإن كنوده المشهود به، ونفسه هي المشهود عليها.

ثم قال تعالى: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ والخير هنا المال باتفاق المفسرين. والشديد البخيل من أجب حب المال، فحب المال هو الذي حمله على البخل. هذا قول الأكثرين. وقال ابن قتيبة: بل المعنى: إنه لشديد الحب للخير، فتكون االلام في قوله: ﴿لحب الخير﴾ متعلقة بقوله: ﴿لشديد﴾ على حد تعلق قولك: إنه لزيد لضارب. **ومنعت** طائفة من النحاة أن يعمل مابعد اللام فيها قبلها، وهذه الآيات حجة على الجواز فإن قوله: ﴿لربه﴾ معمول ﴿لكنود﴾، وقوله ﴿على ذلك﴾ معمول ﴿لشهيد﴾.

ولا وجه للتكلف البارد في تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور. فالحق جواز أن لزيد لضارب. فوصف ـ سبحانه ـ الإنسان بكفران نعم ربه، وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور للنعم، ولا محسن إلى خلقه، بل بخيل بشكره، بخيل بماله، وهذا ضد المؤمن الكريم، فإنه مخلص لربه، محسن إلى خلقه. فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل.

وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه. كقوله: ﴿فَوَيلٌ لِّلْمُصَلِّين * الَّذين هُمُ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُون * الَّذين هُمْ يُراءون * ويَمْنَعُونَ الماعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧] فالرياء ضد الاخلاص. ومنع الماعون ضد الإحسان. **وكذلك** قوله تعالى: ﴿إن الله لاَ يُحِبُّ مَنْ كان مُخْتالاً فَخورًا * الذين يَبْخَلُونَ ويأمُرُون النَّاسَ بالبُخْلِ ويَكْتُمُونَ ماآتاهُمُ الله مِن فَضْله﴾

فاختياله وفخره من كفره وكنوده، وهذا ضد قوله: ﴿الذين يُؤْمِنُون بالغَيْب ويُقِيْمُونَ الصَّلاةَ ومما رَزَقْنَاهم يُنْفقون﴾ [البقرة: ٣] وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا الله

ولاتُشْرِكوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا﴾ [النساء: ٣٦] وكذلك ذكر الخلقين الذميمين في قوله: ﴿والذين يُنْفِقُون أمْوالَهم رئآءَ النَّاسِ ولا يؤمِنُون بالله ولا بالْيَوْم الآخر﴾ [النساء: ٣٧] ونظيره ﴿وَماذَا عليهم لَوْ آمَنُوا بِالله واليَوْمِ الآخِرِ وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهَم الله﴾ [النساء: ٣٨].

ونظيره ماتقدم في سورة الليل من ذم المستغني البخيل، ومدح المعطي المصدق بالحسنى. ونظيره قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَه﴾ [الهمزة: ١، ٢] فإن الهمزة واللمزة من الفخر، والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل. وذلك مناف لسرِّ الصلاة والزكاة ومقصودهما.

ثم خوف ـ سبحانه ـ الإنسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور، ويحصل مافي الصدور، أي ميز، وجمع، وبين، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع ـ سبحانه ـ بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله: «**ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا**»(١) فإن الإنسان يواري صدره مافيه من الخير والشر، ويواري قبره جسمه، فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره، فيصير جسمه بارزًا على الأرض، وسره باديًا على وجهه. كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ المُجرِمُون بِسَيْمَاهُمْ﴾ [الرحمٰن: ٤١] وقال: ﴿سَنَسِمُه عَلَى الخُرْطُوم﴾ [القلم: ١٦].

ومفعول العلم «إن» علمت فيه، وكسرت لمكان اللام. وقيد سبحانه كونه خبيرًا بهم ذلك اليوم وهو خبير بهم في كل وقت إيذانًا بالجزاء، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم والمراد لازمه والله سبحانه وتعالى أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العاديات *

والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه البخاري وغيره وذلك في غزوة الأحزاب، وهي الخندق حين شغل المشركون النبي ﷺ عن صلاة العصر.

(*) في ترتيب سور المصحف تأتي سورة القارعة بعد سورة العاديات ولكن الشيخ علي الصالحي رحمه الله تعالى لم يقف على كلام لابن القيم رحمه الله تعالى حول سورة القارعة لذا وجب التنبيه حتى لا يظن أحد أن هذا خطأ منا أو سهو وقعنا فيه (الناشر).



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** ـ تعالى ـ: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**﴾ إلى آخرها، أخلصت هذه السورة للوعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها.

فقوله ـ تعالى ـ: ﴿**ألهاكم**﴾؛ أي شغلكم على وجه لاتعذرون فيه، فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه، فإن كان بقصد، فهو محل التكليف، وإن كان بغير قصد، كقوله ﷺ في الخميصة: «**إنها ألهتني آنفًا عن صلاتي**»، كان صاحبه معذورًا، وهو نوع من النسيان.

وفي الحديث: «فلها ﷺ عن الصبي» أي ذهل عنه، ويقال، لها بالشيء؛ أي اشتغل به، ولها عنه؛ إذا انصرف عنه.

واللهو للقلب، واللعب للجوارح، ولهذا يجمع بينهما، ولهذا كان قوله: ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾ أبلغ في الذم من شغلكم، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل، وقلبه غير لاه به. فاللهو هو ذهول وإعراض.

والتكاثر تفاعل من الكثرة: أي مكاثرة بعضكم لبعض. وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وإن كل ما يكاثر به العبد غير سوى طاعة الله ورسوله، ومايعود عليه بنفع معاده فهو داخل في هذا التكاثر.

فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولاسيما إذا لم يحتج إليه.

والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعه وتوليدها.

والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله. فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها.

---

(١) ٣٠ الفوائد.

وفي صحيح مسلم، من حديث عبدالله بن الشخير أنه «انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾، قال: يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ماتصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت» هـ.

(١)**الوجه** التاسع أنه ـ سبحانه ـ أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك، فقال تعالى: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثم كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾.

فأخبر ـ سبحانه ـ أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت، فزاروا المقابر، ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر، وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذانًا بأنهم غير مستوطنين ولامستقرين في القبور، وأنهم فيهـا بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها، كما كانوا في الدنيا كذلـك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار، ولم يعين سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره: إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به، كما يقال شغلك اللعب واللهو، ولم يذكر مايلعب ويلهو به.

وإما إرادة الإطلاق وهو كل ما يكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغي به وجه الله أو عمل لا يقر به إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

وفي صحيح مسلم من حديث عبدالله بن الشخير أنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾ قال: يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ماتصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت.

ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدًا مؤكدًا إذا عاين تكاثره هباءًا منثورًا، وعلم دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعًا وغرورًا فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسره أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذب بتكاثره

(١) ١٩٦ عدة الصابرين.

في دنياه ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثره إذ أفـاد منـه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحظ به من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين.

فياله تكاثرًا ما أقله وزرءًا ما أجله، وغنى جالبًا لكل فقر، وخيرًا توصل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: ياليتني قدمت لحياتي، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ * كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَـةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها، ورجعة يسـألهـا فلا يجاب إليها. وتأمل قوله أولا «رب» استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه ـ تبارك وتعالى ـ فقال: ﴿ارجعونِ﴾.

ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال له: كلا، لاسبيل لك إلى الرجعى، وقد عمرت مايتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استقاله، وأن يفسح له في المهلة ليتـذكـر ما فاته، أخبرـ سبحانه ـ أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحًا لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله بلسانه، وأنه لوردّ لعاد لما نُهِيَ عنه، وأنه من الكاذبين، فحكمة أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ماسأل، فإنه لا فائدة في ذلك ولورُدَّ لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى. . .

(١)**وقوله: ﴿كَلَّا لَو تَعْلَمُون عِلْمَ الْيَقِينِ﴾** [التكاثر: ٥] جوابه محذوف دل عليه ماتقدم، أي لما ألهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وألهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التي لايشـك ولايماري في صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه وترتب أثره عليه، فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه، قد لايكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه

(١) ٢٠١ عدة الصابرين.

أشد، فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء. وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ في أهل بدر:

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم　　لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

وقوله: ﴿كَلَّا سوفَ تَعْلَمُون * ثم كَلَّا سَوفَ تَعْلَمُون﴾ [التكاثر: ٣، ٤].

قيل: تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿كلا سَيَعْلَمُون * ثم كَلَّا سيعلمون﴾ [النبأ: ٤، ٥]. وقيل ليس تأكيدًا بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر. هذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط «ثم» بين العلمين وهي مؤذنة بتراخي مابين المرتبتين زمانًا وخطرًا.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ماكان عليه ثم يعلم في القبر ومابعده ذلك علمًا هو فوق العلم الأول.

الرابع: أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر.

قال الترمذي: حدثنا أبوكريب حدثنا حكام بن سليم الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زرّ عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: مازلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾.

قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: ﴿كلَّا سوف تعلمون﴾ في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمِ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِين﴾ [التكاثر: ٦، ٧] فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها، ثم ختم السورة بالاخبار المؤكد: بواو القسم، ولام التأكيد، والنون الثقيلة، عن سؤال النعيم، **فكل أحد يُسْأَل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم**

لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا؟

فالأول سؤال عن سبب استخراجه والثاني عن محل صرفه.

كما في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**لاتزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسْأَلَ عن خمس، عن: عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وفي ماذا عمل فيما علم**».

وفيه أيضًا عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسْأَلَ عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه**» قال: هذا حديث صحيح.

وفيه أيضًا من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول مايُسْأَلُ عنه العبد يوم القيامة يعني من النعم أن يقال له: ألم نصح جسمك، ونرويك من الماء البارد**».

وفيه أيضًا من حديث الزبير بن العوام - رضي الله عنه - قال: لما نزلت ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال الزبير: يارسول الله فأي النعيم نُسْأَلُ عنه، وإنما هو الأسودان التمر والماء. قال: «**أما أنه سيكون**» قال: هذا حديث حسن.

وعن أبي هريرة نحوه وقال: إنما هو الأسودان العدو حاضر سيوفنا على عواتقنا، قال: «**إن ذلك سيكون**» وقوله: «**إن ذلك سيكون**» إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم. وأما أن يرجع إلى السؤال أي: أن السؤال يقع عن ذلك وإن كان تمرًا وماء، فإنه من النعيم.

ويدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح وقد أكلوا معه رطبًا ولحمًا وشربوا من الماء البارد «**هذا من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة**» فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفي الترمذي من حديث أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**يجاء**

بالعبد يوم القيامة كأنه بذج فيوقف بين يدي الله ـ تعالى ـ فيقول الله: أعطيتك، وخوّلتك، وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يارب جمعته وثمرته فتركته أوفر ماكان فارجعني آتك به فإذا عبيد لم يقدم خيراً، فيمضى به إلى النار».

وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله: ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا ومالاً وولدًا، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وترتع، أفكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا. فيقول له اليوم: أنساك كما نسيتني»** قال: هذا حديث صحيح.

وقد زعم طائفة من المفسرين: أن هذا الخطاب خاصّ بالكفار، وهم المسئولون عن النعيم، وذكروا ذلك عن الحسن ومقاتل واختار الواحدي ذلك واحتج بحديث أبي بكر: لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ إنما ذلك للكفار ثم قرأ: ﴿**وَهَلْ نُجَازِيْ إِلَّا الْكَفُورَ**﴾ [سبأ: ١٧].

قال الواحدي والظاهر يشهد بهذا القول لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم.

والمعنى أيضًا يشهد بهذا القول، وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم توبيخًا لهم هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم. قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن، قال: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل مايقتضى اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب **ببعض المتصفين بذلك**.

ويدل على ذلك قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت؟ الحديث وهو في صحيح مسلم. وقائل ذلك قد يكون مسلمًا وقد يكون كافرًا.

ويدل عليه أيضًا الأحاديث التي تقدمت وسؤال الصحابة النبي ﷺ **وفهمهم** العموم حتى قالوا له: وأي نعيم نُسْأَلُ عنه وإنما هو الأسودان؟ فلو كان الخطاب مختصًا بالكفار لبين لهم ذلك وقال: ما لكم ولها إنما هي للكفار؟ فالصحابة فهموا التعميم والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهمهم العموم.

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح.

والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه ونحن نسوقه بلفظه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «**وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوما**» فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته قالت: مرحبًا وأهلاً فقال لها رسول الله ﷺ: «**وأين فلان؟**» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني. قال: فانطلق فجاءهم بعذق[1] فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذا، فأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ: «**أياك والحلوبة**» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**» فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضًا فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر وقع من المسلمين كثيرًا، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر. وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أولُ

(١) العذق بالفتح النخلة بحملها، والعذق بالكسر الكباسة. مختار الصحاح.

من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المستأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿يَآأَيُّها الذَّين آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ونظائره، كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين فقوله: ﴿أهاكم التكاثر﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله، فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر، ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه.

قيل: هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار، لأنه لم يمكنهم حمله على العموم، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به.

وجواب هذا أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: ﴿وكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١] ﴿وكَانَ الإِنْسان قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّه لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] ﴿وحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّه كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢] ﴿إِن الإِنْسَان لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] ونظائره كثيرة، فالإنسان من حيث هو عارٍ عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح، وإنما الله ـ سبحانه ـ هو الذي يكمله بذلك، ويعطيه إياه، وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه، فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له، وجعله مريدًا للآخرة مؤثرًا لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملتهٍ بالتكاثر في الدنيا ولا بد.

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار، فَيقال: الوعيد المذكور مشترك، وهو العلم عند معاينة الآخرة، فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلاً له في الدنيا، وليس في قوله: ﴿سوفَ تَعْلَمُونَ﴾ مايقتضي دخول النار فضلاً عن التخليد فيها، وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عيانًا.

وقد أقسم الرب ـ تبارك وتعالى ـ أن لا بد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم، فليس في جملة هذه السورة ماينفي عموم خطابها.

وأما ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار، فباطل قطعًا إما عليه وأما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة تردّه، وبالله التوفيق.

ولايخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير التكاثر الملهي وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها، ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل ارقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود.

وتأمل تعليقه ـ سبحانه ـ الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها.

وأيضًا فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه، فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولست بالأكثر منهم حصىً		وإنما العزّة للكاثرِ

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم، إذ لم يتكاثروا بها، وكل من كاثر إنسانًا في دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة.

فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه، وتكمل به، وتزكو، وتصير مفلحة فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك، وينافسها في هذه المكاثرة، ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد.

وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر ملهٍ عن الله والدار الآخرة وهو صائر إلى غاية القلة فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان.

والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفي، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولا وأحسن عملاً وأغزر علما، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذمومًا ولا قادحا في إخلاص العبد، بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج - رضي الله عنهم - في تصاولهم بين يدي رسول الله، ﷺ، ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره، وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر - رضي الله عنهما -، فلما تبين له مدى سبقه له قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا.

فصل

ومن تأمل حسن موقع «كلا» في هذا الموضع فإنها تضمنت ردعا لهم وزجرًا عن التكاثر ونفيًا وإبطالا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به.

فتضمنت اللفظة نهيًا ونفيًا وأخبرهم - سبحانه - أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علمًا بعد علم، وأنهم لابد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية، بعد رؤية وأنه - سبحانه - لابد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها.

فلله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة وأبلغها موعظة وتحذيرًا وأشدها ترغيبًا في الآخرة وتزهيدًا في الدنيا على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقًّا وبلغها رسوله عنه وحيا.

فصل

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة، وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار، فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة الى المستقر. فهاهنا ثلاثة أمور: عبور

السبيل في هذه الدنيا وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار. . . .

(١)**الفرق** بين علم اليقين وعين اليقين: كالفرق بين الخبر الصادق والعيان. وحق اليقين: فوق هذا. وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك: أن عنده عسلا، وأنت لا تشك في صدقه، ثم أراك إياه، فازددت يقينًا، ثم ذُقت منه.

فالأول: علم اليقين. والثاني: عين التقين. والثالث: حق اليقين.

فعلمنا الآن بالجنة والنار: علم يقين. فإذا أرلفت الجنة في الموقف للمتقين. وشاهدها الخلائق. وبرزت الجحيم للغاوين. وعاينها الخلائق. فذلك: عين اليقين. فإذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار: فذلك حينئذ حق اليقين[١].

(٢)**قال** قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود وعن العبادة.

وقال تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾[التكاثر: ٨]. قال محمد بن جرير: يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله ـ عز وجل ـ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟

وقال قتادة «إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه».

والنعيم المسئول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف في حقه، فيسأل عن شكره. ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

فإذا كان العبد مسئولاً ومحاسبًا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾[الإسراء: ٣٤]؛ فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾[الحشر: ١٩] يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم

---

(١) ٤٠٣ مدارج جـ٢.

(٢) تقدم في سورة الحاقة بحث حول مراتب اليقين لمن أراده (ج).

القيامة من الأعمال: أمن الصالحات التي تنجيه، أم من السيئات التي توبِقُه؟

قال قتادة «مازال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد».

والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التكاثر

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالى: ﴿والعَصْرِ * إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتَوَاصَوا بالحَقِّ وتَوَاصَوا بالصَّبرِ﴾ [العصر: ١-٣] قال الشافعي - رضي الله عنه - لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم.

وبيان ذلك: أن المراتب أربع وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله.

إحداها معرفة الحق. الثانية: عمله به. الثالثة: تعليمه من لا يحسنه. الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به، وتعليمه، فذكر - تعالى - المراتب الأربع في هذه السورة.

وأقسم - سبحانه - في هذه السورة بالعصر: أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عرفوا الحق، وصدقوا به، فهذه مرتبة.

وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق، فهذه مرتبة أخرى.

وتواصوا بالحق، وصّى به بعضهم بعضًا: تعليمًا وإرشادًا، فهذه مرتبة ثالثة.

وتواصوا بالصبر، صبروا على الحق ووصّى بعضهم بعضًا بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة.

وهذا نهاية الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل.

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله

---

(١) ٥٦ مفتاح جـ١.

الذي جعل كتابه كافيًا عن كل ماسواه، شافيًا من كل داء هاديًا إلى كل خير.

(١)... **وبعد،** فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعمل الصالح. وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين.

كما قال تعالى: **﴿والْعَصْرِ * إن الإنسانَ لَفي خُسْرٍ * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحق وتواصوا بالصبر﴾**.

أقسم - سبحانه - أن كل أحد خاسر إلا من كَمَّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما - كان حقيقًا بالإنسان أن يُنفق ساعات عمره - بل أنفاسه - فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران. وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره، واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه، فإن الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد. والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجرته.

(٢) **قال** تعالى: **﴿وَالْعَصْرِ * إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَواصَوْا بالْحَقِّ وتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾** [العصر: ١-٣]. فأقسم - سبحانه وتعالى - بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة، على أن كل واحد في خسر، إلا من كمّل قُوَّته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العلمية بالعمل بطاعته. فهذا كماله في نفسه، ثم كمّل غيره بوصيته له بذلك، وأمره إياه بهِ، وبملاك ذلك، وهو الصبر. فكمَّلَ نفسه بالعلم النافِع والعمل الصالح، وكمَّل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته له بالصبر عليه، ولهذا قال الشافعي - رحمه الله -: «لو فكر الناس في سورة: والعصر، لكفتهم».

---

(١) ٦ مدارج جـ١. (٢) ٢٥ إغاثة جـ١.

وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة: يخبر ـ سبحانه ـ أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، أو علموه وخالفوه، واتبعوا غيره.

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا تتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث همّام بالطبع، كما قال النبي ﷺ: «**أصدق الأسماء: حارث وهمام**».

فالحارث الكاسب العامل، والهمّام المريد، فإن النفس متحركة بالإرادة. وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مرادًا يكون مُتَصَوَّرًا لها، متميزًا عندها، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته، وأرادته ولا بد. . . .

(1)**الاجتماع** بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها.

ولكن فيه ثلاث آفات: إحداها: تزين بعضهم لبعض، الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة. الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح، إما للنفس الأمارة وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته. وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله - سبحانه - بحكمته الطيبات للطيبين، والطيبين للطيبات، وعكس ذلك.

---

(١)

(١)**ومن** ذلك إقسامه (بالعصر) على حال الإنسان في الآخرة. هذه السورة على غاية اختصارها لها شأن عظيم. حتى قال الشافعي رحمه الله: لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم.

والعصر المقسم به، قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار. وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته. وقيل: المراد صلاة العصر. وأكثر المفسرين على أنه الدهر. وهذا هو الراجح. وتسمية الدهر عصرًا أمر معروف في لغتهم. قال:

ولن يلبث العصران يوم وليلة　　　إذا طلبا أن يدركا ماتيمما

ويوم وليلة بدل من العصران، فأقسم ـ سبحانه ـ بالعصر لمكان العبرة والآية فيه. فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدره العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام. وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبة تارة، واختلافهما في الضوء، والظلام، والحر، والبرد، وانتشار الحيوان، وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون، والسنين، والأشهر، والأيام، والساعات ومادونها - آية من آيات الرب تعالى، وبرهان من براهين قدرته وحكمته.

فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها. ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان، والفاعلين وأفعالهم على المعاد.

وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد. وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيرًا وشرًّا تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به.

وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.

وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿**إن الإنسان لفي خسر**﴾ فإنه ضيق الاستثناء وخصصه، فقال: ﴿**إلَّا الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتواصَوا بالحَقِّ وتَوَاصَوا**

(١) ٥٣ التبيان.

بالصَّـبْرِ﴾ [العصر: ٣]. ولمـا قال: **﴿ثم رَدَدْنَـاهُ أسْفَـلَ سَافِلِين﴾** [التين: ٥] وسع الاستثنـاء وعممـه، فقـال: **﴿إلا الـذين آمَنُـوا وعَمِلُوا الصَّـالِحَـاتِ﴾** ولم يقل (وتواصوا) فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح، فصار في خسر.

ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين. فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة. وقد تكون فرضًا على الأعيان. وقد تكون فرضًا على الكفاية. وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يستحب.

والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب.

فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصلوا بالصبر حصل لهم من الربح ماخسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم. فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء. وهو ـ سبحانه ـ إنما قال: **﴿إن الإنْسَان لَفِي خُسْرٍ﴾** [العصر: ٢] ومن ربح في سلعـة وخسر في غيرهـا قد يطلق عليه أنـه في خسر، وأنـه ذو خسر، كما قال عبـد الله بن عمـر ـ رضي الله عنهـما ـ: لقد فرطنا في قراريط كثيرة[١] فهذا نوع تفريط، وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك.

ولما قال في سورة التين: **﴿ثُمَّ رَدَدْنَاه أسْفَلَ سَافِلِين﴾** قال: **﴿إلا الَّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات﴾** فقسم الناس إلى هذين القسمين فقط.

ولما كان الإنسان له قوتان: قوة العلم وقوة العمل. وله حالتان حالة يأتمر فيها بأمـر غيره، وحـالـة يأمر فيها غيره، استثنى ـ سبحانه ـ من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به من الإنسان الذي هو في خسر.

---

(١) رواه البخاري في باب فضل اتباع الجنازة. قال الحافظ: أي من عدم المواظبة على حضور الدفن. لأن ابن عمر كان يصلي على الميت ثم ينصرف.

فإن العبد له حالتان حالة كمال في نفسه، وحالة تكميل لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحق، وصبر عليه.

فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع، والعمل الصالح، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك. وقوله تعالى: ﴿**وتواصَوا بالحَقِّ وتَوَاصَوا بالصَّبْرِ**﴾ إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين. كقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُون بِأُمرِنا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بآيَاتِنَا يُوْقِنُون**﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

والصبر نوعان: نوع إلى المقدور، كالمصائب. ونوع على المشروع.

وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي. فذاك صبر على الإرادة والفعل. وهذا صبر عن الإرادة والفعل.

فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار. قال النبي ﷺ في حق ابنته: «**مرها فَلتصبر ولتحتسب**»(١).

وقال تعالى: ﴿**إلاَّ الذين صَبَرُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أولئك لَهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ**﴾ [هود: ١١]. وقال تعالى: ﴿**بَلى إنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا**﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وقال: ﴿**وإن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا**﴾ [آل عمران: ١٢٠].

فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور. وقال تعالى: ﴿**فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون**﴾.

فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر. فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وماخفوا ولا استخفوا. فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين، لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر

(١) ابنته هي زينب، بعثت إليه أن ابنًا لها قبض، فائتنا. فأرسل يقرىء السلام ويقول: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى**» - الحديث رواه البخاري وغيره في كتاب الجنائز عن أسامة بن زيد.

عنـده خفيف طائش تلعب به الأهـواء والشهـوات، كما تلعب الـرياح بالشيء الخفيف. والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العصر
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**وقوله:** ﴿وَيلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: ١، ٢] فإن الهمزة واللمزة من الفخر، والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل. وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة مقصودهما.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الهمزة *
والحمد لله رب العالمين

(١) ٥٢ التبيان.

(*) في ترتيب سور المصحف تأتي سورتا الفيل وقريش بعد سورة الهمزة ولكن الشيخ علي الصالحي رحمه الله لم يقف على كلام لابن القيم رحمه الله حول هاتين السورتين لذا وجب التنبيه على ذلك (الناشر).



بسم الله الرحمن الرحيم

فصل(١)

فإذا قدر أن قومًا اضطروا إلى السكنى في بيت إنسان، لا يجدون سواه، أو النزول في خان مملوك، أو استعارة ثياب يستدفئون بها، أو رحى للطحن، أو دلو لنزع الماء، أو قِدْر، أو فأس، أو غير ذلك: وجب على صاحبه بذله بلا نزاع، لكن هل له أن يأخذ عليه أجرًا؟ فيه قولان للعلماء، وهما وجهان لأصحاب أحمد.

ومن جوز له أخذ الأجرة حرم عليه أن يطلب زيادة على أجرة المثل.

قال شيخنا: والصحيح أنه يجب عليه بذل ذلك مجانًا، كما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هم يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ [الماعون: ٤- ٧] قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة: «هو إعارة القِدْر والدلو والفأس ونحوهما».

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ - وذكر الخيل - قال: «**هي لرجل أجر، ولرجل سِتْر، وعلى رجل وِزْر، فأما الذي هي له أجر: فرجل ربطها في سبيل الله، وأما الذي هي له ستر: فرجل ربطها تَغنِّيًا وتعففًا، ولم ينس حق الله في رقابها، ولا في ظهورها**». وفي الصحيحين عنه أيضًا: «**من حق الإبل: إعارة دلوها، وإطراق فحلها**». وفي الصحيحين عنه: «**أنه نهى عن عسب الفحل**» أي عن أخذ الأجرة عليه، والناس يحتاجون إليه، فأوجب بذله مجانًا، ومنع من أخذ الأجرة عليه. وفي الصحيحين عنه أنه قال: «**لا يمنعن جار جاره أن يغرز خشبة في جداره**».

ولو احتاج إلى إجراء مائه في أرض غيره، من غير ضرر لصاحب الأرض. فهل

---

(١) **٢٨٠ الطرق الحكمية.**

يجبر على ذلك روايتان عن أحمد يجبر والإجبار قول عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. . . .

(١)**الدليل** الثالث: قوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون**﴾ [النور: ٥٦].

فوجه الدلالة أنه ـ سبحانه ـ علق حصول الرحمة لهم بفعل هذه الأمور، فلو كان ترك الصلاة لا يوجب تفكيرهم وخلودهم في النار لكانوا مرحومين بدون فعل الصلاة، والرب ـ تعالى ـ إنما جعلهم على رجاء الرحمة إذا فعلوها.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿**فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون**﴾ [الماعون: ٤، ٥].

وقد اختلف السلف في معنى السهو عنها، فقال سعد بن أبي وقاص ومسروق بن الأجدع وغيرهما: هو تركها حتى يخرج وقتها، وروى في ذلك حديث مرفوع، قال محمد بن نصر المروزي: حدثنا سفيان بن أبي شيبة حدثنا عكرمة بن إبراهيم حدثنا عبد الملك بن عمير عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه سأل النبي ﷺ عن ﴿**الذين هم عن صلاتهم ساهون**﴾ قال: «**هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها**».

وقال حماد بن زيد: حدثنا عاصم عن مصعب بن سعد قال قلت لأبي: ياأبتاه أرأيت قول الله: ﴿**الذين هم عن صلاتهم ساهون**﴾ أينا لا يسهو؟ أينا لا يحدث نفسه؟ قال: إنه ليس ذاك، ولكنه إضاعة الوقت.

وقال حيوة بن شريح: أخبرني أبو صخر أنه سأل محمد بن كعب القرظي عن قوله: ﴿**الذين هم صلاتهم ساهون**﴾، قال: هو تاركها، ثم سأله عن ﴿**الماعون**﴾، قال: منع المال عن حقه.

إذا عرف هذا فالوعيد بالويل اطرد في القرآن للكفار كقوله: ﴿**وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون**﴾ [فصلت: ٦، ٧].

وقوله: ﴿**ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن**

(١) ١٦ الصلاة.

لَم يَسْمَعْها﴾ إلى قوله: ﴿ولهم عذابٌ مُهينٌ﴾ [الجاثية: ٧-٩].

وقوله: ﴿وَيَلٌ لِلْكَافِرين مِنْ عَذَابٍ شدِيدٍ﴾ إلا في موضعين، وهما ﴿ويل للمطففين﴾ و﴿ويلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَة﴾ [الهمزة: ١١] فعلق الويل بالتطفيف والهمز واللمز. وهذا لا يكفر به بمجرده.

فويل تارك الصلاة إما أن يكون ملحقًا بويل الكفار أو بويل الفسَّاق. فإلحاقه بويل الكفار أولى لوجهين:

أحدهما أنه قد صح عن سعد بن أبي وقاص في هذه الآية أنه قال: لو تركوها لكانوا كفارًا ولكن ضيعوا وقتها.

الثاني ما سنذكره من الأدلة على كفره.

(١)**الدليل** السادس: قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإنْ تَابُوا وأقَامُوا الَّصلاةَ وآتُوا الَّزكَاةَ فإخْوَانُكم في الدِّيْن﴾ [التوبة: ١١] فعلق إخوتهم للمؤمنين بفعل الصلاة، فإذا لم يفعلوا لم يكونوا إخوة، فلا يكونون مؤمنين لقوله تعالى: ﴿إنَّمَا الْمُؤْمِنُون إخْوَةٌ﴾.

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿فلا صَدَّقَ ولا صَلَّى * ولكن كَذَّبَ وتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١-٣٢] فلما كان الإسلام وتصديق الخبر والانقياد للأمر جعل ـ سبحانه ـ له ضدين: عدم التصديق، وعدم الصلاة. وقابل التصديق بالتكذيب، والصلاة بالتولي فقال: ﴿ولـكِن كَذَّب وتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣٢] فكما أن المكذب كافر، فالمتولي عن الصلاة كافر، فكما يزول الإسلام بالتكذيب، يزول بالتولي عن الصلاة.

قال سعيد عن قتـادة: ﴿فـلا صَدَّقَ ولا صَلَّى﴾ لا صَدَق بكتـاب الله ولا صلى لله، ولكن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته ﴿أوْلى لَكَ فأوْلى * ثُمَّ أوْلى لَكَ فَأوْلى﴾ [القيامة: ٣٤-٣٥] وعيد على إثر وعيد.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿يآأيُّها الذين آمَنُوا لا تُلْهِكُم أموَالُكم ولا أولاَدُكم عَنْ ذكِر الله ومن يَفْعَلْ ذلك فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُون﴾ [المنافقون: ٩].

قال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يقول: هي الصلاة المكتوبة.

ووجه الاستدلال بالآية أن الله حكم بالخسران المطلق لمن ألهاه ماله وولده عن

(١) ١٨ الصلاة.

الصلاة، والخسران المطلق لا يحصل إلا للكفار. فإن المسلم ولو خسر بذنوبه ومعاصيه فآخر أمره إلى الربح. يوضحه أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أكد خسران تارك الصلاة في هذه الآية بأنواع من التأكيد:

أحدها: إتيانه بلفظ الاسم الدال على ثبوت الخسران ولزومه، دون الفعل الدال على التجدد والحدوث.

الثاني: تصدير الاسم بالألف واللام المؤدية لحصول كمال المسمى لهم، فإنك إذا قلت: زيد العالم الصالح. أفاد ذلك إثبات كمال ذلك له، بخلاف قولك عالم صالح.

الثالث: إتيانه ـ سبحانه ـ بالمبتدأ والخبر معرفتين، وذلك من علامات انحصار الخبر في المبتدأ، كما في قوله تعالى: ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ٥] وقوله تعالى: ﴿**والكَافِرُون هُمُ الظَّالِمُون**﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ المؤمنون حقًّا**﴾ [الأنفال: ٤] ونظائره.

الرابع: إدخال ضمير الفصل. بين المبتدأ والخبر، وهو يفيد مع الفصل فائدتين أخريين: قوة الإسناد، واختصاص المسند إليه بالمسند كقوله: ﴿**وإنَّ الله لَهُوَ الغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [الحج: ٦٤] وقوله: ﴿**والله هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ [المائدة: ٧٦] وقوله: ﴿**إنَّ الله هوُ الغَفُورُ الرَّحِيْمُ**﴾ [الشورى: ٥] ونظائر ذلك.

الدليل التاسع: قوله ـ سبحانه ـ: ﴿**إنَّما يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا الذين إذا ذُكِّرُوا بها خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [السجدة: ١٥].

ووجه الاستدلال بالآية أنه سبحانه نفى الإيمان عمن إذا ذكروا بآيات الله لم يخروا سجدًا مسبحين بحمد ربهم.

ومن أعظم التذكير بآيات الله التذكير بآيات الصلاة، فمن ذُكِّر بها ولم يتذكر ولم يصل لم يؤمن بها؛ لأنه ـ سبحانه ـ خص المؤمنين بها بأنهم أهل السجود، وهذا من أحسن الاستدلال وأقربه: فلم يؤمن بقوله تعالى: ﴿**وَأَقِيْمُوا الصَّلَاةَ**﴾ [البقرة: ٤٣] إلا من التزم إقامتها.

(١).... **فالمؤمن** له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه. كقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧] فالرياء ضد الإخلاص. ومنع الماعون ضد الاحسان.

(٢)**الدليل** العاشر: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ذكر هذا بعد قوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦، ٤٩] ثم توعدهم على ترك الركوع وهو الصلاة إذا دعوا إليها، ولا يقال: إنما توعدهم على التكذيب، فإنه ـ سبحانه تعالى ـ إنما أخبر عن تركهم لها وعليه وقع الوعيد.

على أنا نقول: لا يصر على ترك الصلاة إصرارًا مستمرًا من يصدق بأن الله أمر بها أصلاً، فإنه يستحيل في العادة والطبيعة أن يكون الرجل مصدقًا تصديقًا جازمًا أن الله فرض عليه كل يوم وليلة خمس صلوات، وأنه يعاقبه على تركها أشد العقاب، وهو مع ذلك مصر على تركها: هذا من المستحيل قطعًا، فلا يحافظ على تركها مصدق بفرضها أبدًا، فإن الإيمان يأمر صاحبه بها، فحيث لم يكن في قلبه ما يأمر بها فليس في قلبه شيء من الإيمان.

ولا تصغ إلى كلام من ليس له خبرة ولا علم بأحكام القلوب وأعمالها.

وتأمل في الطبيعة بأن يقوم بقلب العبد إيمان بالوعد والوعيد والجنة والنار وأن الله فرض عليه الصلاة وأن الله يعاقبه معاقبة على تركها، وهو محافظ على الترك في صحته وعافيته وعدم الموانع المانعة له من الفعل، وهذا القدر هو الذي خفي على من جعل الإيمان مجرد التصديق وإن لم يقارنه فعل واجب ولا ترك محرم، وهذا من أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية.

ونحن نقول: الإيمان هو التصديق، ولكن ليس التصديق مجرد اعتقاد صدق المخبر دون الانقياد له، ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانًا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمدًا رسول الله كما يعرفون أبناءهم

(١) ٥٢ التبيان.	(٢) ١٩ الصلاة.

مؤمنين مصدقين، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي يعتقدون أنك صادق ﴿ولَـٰكِنَّ الـظَّالِمِينْ بآياتِ الله يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] والجحود لا يكون إلا بعد معرفة الحق، قال ـ تعالى ـ: ﴿وجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْها أنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. . . .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الماعون
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** أبونعيم الفضل: حدثنا أبوجعفر هو الرازي: حدثنا ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ [الكوثر: ١] قال: الخير الكثير.

وقال أنس بن مالك: نهر في الجنة. وقالت عائشة: هو نهر في الجنة، ليس يدخل أحد إصبعيه في أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر. وهذا معناه والله أعلم: أن خرير ذلك النهر يشبه الخرير الذي يسمعه حين يدخل أصبعيه في أذنيه.

وفي جامع الترمذي من حديث الحريري عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة: بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد**» قال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا ابن ثوبان عن عطاء بن قرة عن عبدالله بن سمرة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن يسقيه الله ـ عز وجل ـ من الخمر في الآخرة فليتركه في الدنيا، ومن سره أن يكسيه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا، وأنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعًا لكان مايحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعًا**».

وذكر الأعمش عن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبدالله قال: «إن أنهار الجنة تفجر من جبل مسك» وهذا موقوف صحيح.

وذكر ابن مردويه في مسنده حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم حدثنا عبدالله بن محمد بن النعمان حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا الحرث بن عبيد حدثنا أبوعمران الجوني عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**هذه**

---

(١) ١٣٠ حادي الأرواح.

الأنهار تشخب من جنة عدن في جوبة، ثم تصدع بعد أنهارًا».

وقال ابن أبي الدنيا حدثنا يعقوب بن عبيدة حدثنا يزيد بن هارون حدثنا الحريري عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك قال: «أظنكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض؟ لا والله أنها لسائحة على وجه الأرض إحدى حافتيها اللؤلؤ والأخرى الياقوت، وطينها المسك الأذفر، قال: قلت ماالأذفر: قال: الذي لاخلط له. ورواه ابن مردويه في تفسيره عن محمد بن أحمد حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى حدثنا مهدي بن حكيم حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا الحريري عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ فذكره هكذا رواه مرفوعًا.

وقال أبوخيثمة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أنه قرأ هذه الآية ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ [الكوثر: ١] فقال رسول الله ﷺ: «**أعطيت الكوثر فإذا هو يجري ولم يشق شقا، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ فضربت بيدي إلى تربته فإذا مسك أذفر، وإذا حصباؤه اللؤلؤ**». وذكر سفيان الثوري عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن مسروق في قوله تعالى: ﴿**نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ**﴾ [الشعراء: ١٤٨] قال: من أصلها إلى فروعها أو كلمة نحوها.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة**».

وقال عثمان بن سعيد الدارمي حدثنا سعيد بن سابق حدثنا مسلمة بن علي عن مقاتل بن حبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**أنزل الله من الجنة خمسة أنهار: سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناح جبريل ﷺ فاستودعها الجبال، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، فذلك قوله: ﴿وأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مآءٍ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاه فِي الأَرْضِ وإِنـاً علىٰ ذَهـابٍ به لَقَادِرُون﴾** [المؤمنون: ١٨] **فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل جبريل فرفع من الأرض**

القرآن والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه، وهذه الأنهار الخمسة، فرفع ذلك كله إلى السماء، فذلك قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض، فقد حرم أهلها خيري الدنيا والآخرة» ورواه أحمد بن عدي في ترجمة مسلمة هذا مع أحاديث غيره، وقال: عامة أحاديثه غير محفوظة، وبالجملة فهو من الضعفاء، قال البخاري: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك، وقال أبوحاتم: لا تشتغل به.

(١)**وسئل** ﷺ عن الكوثر، فقال: «**هو نهر أعْطَانيه ربي في الجنة، هو أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيورًا أعناقها كأعناق الجزر**» قيل: يارسول الله إنها لنَاعمة، قال: «**آكلُهَا أنْعَمُ منها**».

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الكوثر
والحمد لله رب العالمين

---

(١) أعلام جـ٤.

سورة الكافرون

ترتيبها ١٠٩ — آياتها ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: ١٣] لأن للرعد صوت عظيم من جرم عظيم والمسبح لا محالة أعظم فاستحقاقه للتسبيح من حيث يستحقه العظيمات من خلقه لا من حيث كان يعلم، ولا تقل العقل في هذا الموضع، فإذا تأملت ماذكرناه استبان لك قصور من قال: إن مامع الفعل في هذا كله سوى الأول في تأويل المصدر، وأنه لم يقدر المعنى حق قدره فلا لصناعة النحو وفق ولا لفهم التفسير رزق، وأنه تابع الحز وأخطأ المفصل وحام، ولكن ماورد المنهل. وأما قوله ـ عز وجل ـ: ﴿لا أعبد ماتعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ فما على بابها لأنها واقعة على معبوده ﷺ، على الإطلاق لأن امتناعهم من عبادة الله ليس لذاته، بل كانوا يظنون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا جاهلين به فقوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدْ﴾ [الكافرون: ٣] أي لا أنتم تعبدون معبودي ومعبوده هو ﷺ،كان عارفًا به دونهم وهم جاهلون به، هذا جواب بعضهم.

وقال آخرون: إنها هنا مصدرية لا موصولة، أي: لا تعبدون عبادتي، ويلزم من تنزيههم عن عبادته تنزيههم عن المعبود، لأن العبادة متعلقة به، وليس هذا بشيء إذ المقصود براءته من معبوديهم وإعلامه أنهم بريئون من معبوده ـ تعالى ـ فالمقصود المعبود لا العبادة.

وقيل: إنهم كانوا يقصدون مخالفته ﷺ، حسدًا له وأنفة من اتباعه، فهم لا يعبدون معبوده لا كراهية لذات المعبود، ولكن كراهية لاتباعه ﷺ، وحرصًا على مخالفته في العبادة، وعلى هذا فلا يصح في النظم البديع والمعنى الرفيع إلا لفظ [ما] لإبهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية.

---

(١) ١٣٣ بدائع جـ١.

وقيل في ذلك: وجه رابع، وهو قصد ازدواج الكلام في البلاغة والفصاحة مثل قولـه: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ ﴿وَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] فكـذلك ﴿لَا أَعْبُدُ مَاتَعْبُدُونَ﴾ ومعبودهم لا يعقل، ثم ازدوج مع هذا الكلام قولـه: ﴿ولا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَاأَعْبد﴾ [الكافرون: ٥] فاستوى اللفظان وإن اختلف المعنيان، ولهذا لا يجيء في الإفراد مثل هذا، بل لا يجيء إلا من كقوله: ﴿قل من يهديكم﴾ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ﴾ [يونس: ٣١] ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ﴾ [يونس: ٣١] ﴿أَمَّنْ يَهْدِيْكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٣] ﴿أَمَّن يُجِيْبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعَاه﴾ [النمـل: ٦٢] ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْق﴾ [النمـل: ٦٤] إلى أمثال ذلك، وعندي فيه وجه خامس أقرب من هذا كله، وهو أن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلاً للعبادة مستحقًّا لها فأتي بها الدالة على هذا المعنى، كأنه قيل: ولا أنتم عابدون معبودي، الموصوف بأنه المعبود الحق، ولو أتى بلفظة [من] لكانت إنما تدل على الـذات فقط، ويكون ذكر الصلة تعريفًا لا أنه هو جهة العبادة، ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهلاً لأن يعبد تعريف محض أو وصف مقتضى لعبادته فتأمله، فإنـه بديع جدًّا، وهذا معنى قول محققي النحاة: إن ما تأتي لصفات من يعلم ونظيره ﴿فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُم مِنَ النسآءِ﴾ [النساء: ٣] لما كان المراد الوصف، وأنه هو السبب الداعي إلى الأمر بالنكاح وقصده هو الطيب، فتنكح المرأة الموصوفة به أتى بها دون، من وهذا باب لا ينخرم، وهو من ألطف مسالك العربية. وإذ قد أفضى الكلام بنا إلى هنا، فلنذكر:

فائدة ثانية على ذلك، وهي تكرير الأفعال في هذه السورة.

ثم فائدة ثالثة، وهي كونه كرر الفعل في حق نفسه بلفظ المستقبل في الموضعين وأتى في حقهم بالماضي.

ثم فائـدة رابعـة: وهي أنـه جاء في نفي عبـادة معبـودهم عنـه بلفظ الفعل المستقبل، وجاء في نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل.

ثم فائدة خامسة: وهي كون إيراده النفي هنا بـ[لا] دون [لن].

ثم فائدة سادسة: وهي أن طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفى عبادة ماسوى الله: ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد والنفي المحض ليس بتوحيد. وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات، وهذا حقيقة لا إلـه إلا الله، فلم جاءت هذه السورة بالنفي المحض، وماسر ذلك.

وفائدة سابعة: وهي ماحكمة تقديم نفي عبادته عن معبودهم، ثم نفى عبادتهم عن معبوده.

وفائدة ثامنة: وهي أن طريقة القرآن إذا خاطب الكفار أن يخاطبهم بالذين كفروا والذين هادوا كقوله: ﴿ياأَيُّهَا الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا اليوم﴾ [التحريم: ٧] ﴿قل ياأَيُّها الذين هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُم أَولِيَآءُ لله﴾ [الجمعة: ٦] ولم يجيء: ياأيها الكافرون إلا في هذا الموضع، فما وجه هذا الاختصاص؟

وفائدة تاسعة: وهي هل في قوله: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ معنى زائد على النفي المتقدم، فإنه يدل على اختصاص كل بدينه ومعبوده، وقد فهم هذا من النفي فما أفاد التقسيم المذكور.

وفائدة عاشرة: وهي تقديم ذكرهم ومعبودهم في هذا التقسيم والاختصاص، وتقديم ذكر شأنه وفعله في أول السورة.

وفائدة حادية عشرة: وهي أن هذه السورة قد اشتملت على جنسين من الأخبار:

أحدهما: براءته من معبودهم، وبراءتهم من معبوده، وهذا لازم أبدًا.

الثاني: إخباره بأن له دينه ولهم دينهم! فهل هذا متاركة وسكوت عنهم، فيدخله النسخ بالسيف، أو التخصيص ببعض الكفار أم الآية باقية على عمومها وحكمها غير منسوخة ولا مخصوصة؟

فهذه عشر مسائل في هذه السورة، فقد ذكرنا منها مسألة واحدة، وهي وقوع [ما] فيها بدل [من] فنذكر المسائل التسع مستمدين من فضل الله مستعينين بحوله وقوته متبرئين إليه من الخطأ، فما كان من صواب فمنه وحده لا شريك له، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه.

فأما المسألة الثانية: وهي فائدة تكرار الأفعال، فقيل فيه وجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿**لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُون**﴾ نفي للحال والمستقبل، وقوله: ﴿**ولا أَنْتُمْ عَابِدُون ماأَعْبُدُ**﴾ مقابله أي: لا تفعلون ذلك.

وقوله: ﴿**ولا أنا عَابِدٌ مَّاعَبَدتُّم**﴾ أي: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي، فقال: ماعبدتم، فكأنه قال: لم أعبد قط ماعبدتم.

وقوله: ﴿**ولا أَنْتُمْ عَابِدُون ما أعبد**﴾ مقابله أي: لم تعبدوا قط في الماضي ماأعبده أنا دائمًا. وعلى هذا فلا تكرار أصلاً وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضيًا وحالاً ومستقبلاً عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه، وهذا إن شاء الله أحسن ماقيل فيها، فلنقتصر عليه ولا نتعداه إلى غيره، فإن الوجوه التي قيلت في مواضعها فعليك بها.

وأما المسألة الثالثة وهي تكرير الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه وبلفظ الماضي حين أخبر عنهم، ففي ذلك سر وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله له عن الزيغ والانحراف عن عبادة معبوده والاستبدال به غيره، وأن معبوده واحد في الحال والمآل على الدوام لا يرضى به بدلاً، ولا يبغى عنه حولاً بخلاف الكافرين، فإنهم يعبدون أهواءهم، ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم، فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبودًا وغدًا غيره فقال: ﴿**لا أعبد ماتعبدون**﴾ يعني الآن ﴿**ولا أنتم عابدون ماأعبد**﴾ أنا الآن أيضًا. ثم قال: ﴿**ولا أنا عابد ماعبدتم**﴾ يعني ولا أنا فيما يستقبل يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون.

وأشبهت ماهنا رائحة الشرط، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي، وهو مستقبل في المعنى كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط كأنه يقول: مهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا.

فإن قيل: وكيف يكون فيها الشرط وقد عمل فيها الفعل، ولا جواب لها وهي موصولة فما أبعد الشرط منها. قلنا: لم نقل إنها شرط نفسها، ولكن فيها رائحة منه، وطرف من معناه لوقوعها على غير معين، وإبهامها في المعبودات وعمومها،

وأنت إذا ذقت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط باديًا على صفحاته.

فإذا قلت لرجل ما تخالفه في كل مايفعل: أنا لا أفعل ماتفعل. ألست ترى معنى الشرط قائمًا في كلامك وقصدك، وأن روح هذا الكلام مهما فعلت من شيء فإني لا أفعله.

وتأمل ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿**قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾ [مريم: ٢٩] كيف تجد معنى الشرطية فيه حتى وقع الفعل بعد [من] بلفظ الماضي والمراد به المستقبل، وأن المعنى من كان من المهد صبيًا فكيف نكلمه، وهذا هو المعنى الذي حام حوله من قال من المفسرين والمعربين أنه كان هنا[1] بمعنى يكون لكنهم لم يأتوا إليه من بابه، بل ألقوه عطلاً من تقدير وتنزيل وعزب فهم غيرهم عن هذا للطفه ودقته، فقالوا: كان زائدة، والوجه ماأخبرتك فخذه عفوًا، لك غنمه، وعلى سواك غرمه. هل على[2] من في الآية قد عمل فيها الفعل، وليس لها جواب، ومعني الشرطية قائم فيها، فكذلك في قوله: ﴿**ولا أنا عابد ماعبدتم**﴾ وهذا كله مفهوم من كلام فحول النحاة: كالزجاج وغيره.

فإذا ثبت هذا فقد صحت الحكمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضي في قوله: ﴿**ولا أنا عابد ماعبدتم**﴾ بخلاف قوله: ﴿**ولا أنتم عابدون ماأعبد**﴾ لبعد [ما]فيها عن معنى الشرط تنبيها من الله على عصمة نبيه أن يكون له معبود سواه، وأن يتنقل في المعبودات تنقل الكافرين.

وأما المسألة الرابعة: وهي أنه لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل، وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة وباسم الفاعل أخرى، فذلك والله أعلم لحكمة بديعة. وهي أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت، فأتى أولاً بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت، فأفاد في النفي الأول أن هذا لا يقع مني، وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال: عبادة

---

(١) في الأصل المطبوع «نبيًا» والصواب ماذكرناه (ج).

(٢) في المخطوطة: هذا مع أن في الآية ولعل الصواب هذا على أن (من) في الآية (ج).

غير الله لا تكون فعلاً لي ولا وصفًا، فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي.

وأما في حقهم، فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي إن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتف عنكم، فليس هذا الوصف ثابتًا لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة لم يشرك معه فيها أحدًا، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره، كما قال أهل الكهف: ﴿وَاذِ اعْتَزَلْتُمُوهم وما يَعْبُدُونَ إلَّا الله﴾ [الكهف: ١٦] أي: اعتزلتم معبودهم إلا الله، فإنكم لم تعتزلوه، وكذا قال المشركون عن معبودهم: إنَّما نَعْبُدُهم لِيُقَرِّبُونا إلى الله زُلْفَى فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفى الوصف، لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتًا على عبادة الله موصوفًا بها.

فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبده المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلاً، لم يلتفت إلى غيره، ولم يشرك به أحدًا في عبادته، وأنه عبده وأشرك به غيره، فليس عابدًا لله ولا عبدًا له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل أحد، ولا يدركه إلا من منحه الله فهما من عنده، فله الحمد والمنة.

وأما المسألة الخامسة: وهي أن النفي في هذه السورة أتى بأداة [لا] دون [لن]، فلما تقدم تحقيقه عن قرب أن النفي بـ[لا] أبلغ منه بـ[لن] وأنها أدل على دوام النفي وطوله من [لن] وإنها للطول والمد الذي في نفيها طال النفي بها واشتد، وأن هذا ضد مافهمته الجهمية والمعتزلة من أن [لن] إنما تنفي المستقبل ولا تنفي الحال المستمر النفي في الاستقبال. وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد نجده في غير هذا التعليق، فالإتيان بـ[لا] متعين هنا، والله أعلم.

وأما المسألة السادسة: وهي اشتمال هذه السورة على النفي المحض، فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة، فإنها سورة براءة من الشرك، كما جاء في وصفها أنها براءة من الشرك، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين،

ولهذا أتي بالنفي في الجانبين تحقيقًا للبراءة المطلوبة، هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحًا فقوله: ﴿**لا أعبد ماتعبدون**﴾ براءة محضة ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ إثبات أن له معبودًا يعبده وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات. وطابقت قول إمام الحنفاء ﴿**إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُون إِلَّا الَّذي فَطَرَني**﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]. وطابقت قول الفئة الموحدين ﴿**وَإِذ اعْتَزَلْتُمُوهُم وما يَعْبُدُون إِلَّا الله**﴾ [الكهف: ١٦].

فانتظمت حقيقة لا إلـه إلا الله، ولهذا كان النبي ﷺ، يقرنها بسورة ﴿**قل هو الله أحد**﴾ في سنة الفجر وسنة المغرب، فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد وأنه إلـه أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفوًا أحد، فيكون له نظير. ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها.

فتضمنت السورة إثبات مايليق بجلاله من صفات الكمال ونفي مالا يليق به من الشريك أصلًا وفرعًا ونظيرًا، فهذا توحيد العلم والاعتقاد، والثاني توحيد القصد والإرادة، وهو أن لا يعبد إلا إياه فلا يشرك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود، وسورة ﴿**قل ياأيها الكافرون**﴾ مشتملة على هذا التوحيد.

فانتظمت السورتان نوعي التوحيد، وأخلصتا له، فكان ﷺ، يفتتح بهما النهار في سنة الفجر، ويختم بهما في سنة المغرب. وفي السنن أنه كان يوتر بهما، فيكونا خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار، ومن هنا تخريج جواب.

المسألة السابعة: وهي تقديم براءته من معبودهم، ثم اتبعها ببراءتهم من معبوده فتأمله.

وأما المسألة الثامنة: وهي إثباته هنا بلفظ ﴿**ياأيها الكافرون**﴾ دون ياأيها الذين كفروا فسره والله أعلم إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفًا ثابتًا له لازمًا لا يفارقه فهو حقيقي أن يتبرأ الله منه، ويكون هو أيضًا بريئًا من الله، فحقيق

بالموحد البراءة منه، فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر، وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة، فكأنه يقول كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائمًا أبـدًا، ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر وهذا واضح.

وأما المسألة التاسعة: وهي ماهي الفائدة في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ﴾ [الكافرون: ٦] وهل أفاد هذا معنى زائدًا على ماتقدم.

فيقـال في ذلـك من الحكمة والله أعلم: إن النفي الأول أفاد البراءة، وإنه لا يتصور منه، ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم، وهم أيضًا لا يكونون عابدين لمعبوده.

وأفاد آخر السورة إثبات ماتضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضًا، فقال له: لا تدخل في حدِّي ولا أدخل في حدِّك، لك أرضك، ولي أرضي.

فتضمنت الآية أن هذه الـبراءة اقتضت أنـا اقتسمنا خطتنا بيننا، فأصابنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به، لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك بالله والكفر به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصون به، لا نشرككم به.

فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه.

وهذه المعاني ونحوها إذا تجلت لقلوب رافلة في حللها، فإنها تسبي القلوب، وتأخذ بمجامعها، ومن لم يصادف من قلبه حياة، فهي خود تزف إلى ضرير مقعد، فالحمد لله على مواهبه التي لا منتهى لها، ونسأله إتمام نعمته.

وأما المسألة العاشرة: وهي تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه، وفي أول السورة قدم مايختص به على مايختص بهم، فهذا من أسرار الكلام وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها، فإن السورة لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم، ورضي كل بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة، وقد برز النصيبين وميز القسمين، وعلم أنهم راضون بقسمهم

الدون الذي لا أردىٰ منه، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف والحظ الأعظم بمنزلة من اقتسم هو وغيره سما وشفاء، فرضي مقاسمه بالسم، فإنه يقول له: لا تشاركني في قسمي، ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك، ولي قسمي، فتقديم ذكر قسمه ههنا أحسن وأبلغ، كأنه يقول. هذا هو قسمك الذي آثرته بالتقديم، وزعمت أنه أشرف القسمين وأحقهما بالتقديم.

فكان في تقديم ذكر قسمه من التهكم به والنداء على سوء اختياره وقبح مارضيه لنفسه من الحسن والبيان مالا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه، والحاكم في هذا هو الذوق، والفطن يكتفي بأدنى إشارة، وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه كثرة البيان. ووجه ثان وهو أن مقصود السورة براءته ﷺ، من دينهم ومعبودهم، هذا هو لبها ومغزاها.

وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني مكملاً لبراءته ومحققًا لها، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أول السورة ثم جاء قوله: ﴿لَكُمْ دِيْنُكُمْ﴾ مطابقًا لهذا المعنى أي: لا أشارككم في دينكم، ولا أوافقكم عليه، بل هو دين تختصون أنتم به، لا أشرككم فيه أبدًا، فطابق آخر السورة أولها فتأمله.

وأما المسألة الحادية عشرة: وهي أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه، هل هو إقرار فيكون منسوخًا أو مخصوصًا أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص.

فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة.

وقد غلط في السورة خلائق، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف؛ لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم.

وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم، وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه.

وهذه السورة أخلصت التوحيد ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم.

ومنشأ الغلط ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا

الاقرار زال بالسيف فقالوا: منسوخ. وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار، وهم من لا كتاب لهم، فقالوا: هذا مخصوص.

ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريرًا لهم أو إقرارًا على دينهم أبدًا، بل لم يزل رسول الله ﷺ في أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشداء على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه والتهديد والوعيد كل وقت وفي كل ناد.

وقد سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم وعيب دينهم، ويتركونه وشأنه، فأبىٰ إلا مضيًّا على الإنكار عليهم وعيب دينهم.

فكيف يقال: إن الآية اقتضت تقريره لهم، معاذ الله من هذا الزعم الباطل. وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم، وأن ما هم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدًا، فإنه دين باطل فهو مختص بكم، لا نشرككم فيه، ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق.

فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص، أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال لكم دينكم ولي دين. بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده.

وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسل ﷺ، أهل سنته، وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به الداعين إلى غير سنته، إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته: لكم دينكم ولنا ديننا. لا يتقضى هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذه براءة منها، وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان.

فهذا مافتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة والنبذة المشيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها، من غير استعانة بتفسير ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيه، بل هي استملاء مما علمه الله وألهمه بفضله وكرمه. والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها، ولبالغت في استحسانها.

وعسى الله المان بفضله الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعـين على تعليق تفسير هذا النمط وهذا الأسلوب. وقد كتبت علي مواضع متفـرقة من القرآن بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس، والله المرجو إتمام نعمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الكافرون

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)«**فو الله إني لأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة**» وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «**رب اغفر لي وتب عَلَيَّ، إنك أنت التواب الغفور**» مائة مرة.

وماصلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿**إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفَتْحُ**﴾ إلى آخرها. إلا قال فيها: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم غفر لي**».

وصح عنه ﷺ، أنه قال: «**لن يُنْجِيَ أحدًا منكم عَمَلُه**». قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**».

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

(٢).... **وقد** قال عمر بن الخطاب للصحابة: ماتقولون في: ﴿**إذا جَآءَ نَصرُ الله والفَتْحُ**﴾ السورة؟ قالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره، فقال لابن عباس: ماتقول أنت؟ قال: هو أجلُ رسول الله ﷺ، أعلمه إياه، فقال: ماأعلم منها غير ماتعلم، وهذا من أدق الفهم وألطفه، ولا يدركه كل أحد، فإنه ـ سبحانه ـ لم يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو ـ سبحانه ـ من نعمة فَتْحِه على رسوله ودخول الناس في دينه، وهذا ليس بسبب للاستغفار، فعلم أن سبب الاستغفار غيره، وهو حضور الأجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتَّوْبة النصوح والاستغفار بين يديه ليلقى ربه طاهرًا مطهرًا من كل ذنب، فيقدم عليه مسرورًا راضيًا مرضيًا عنه، ويدل عليه أيضًا قوله: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ**﴾ [النصر: ٣] وهو ﷺ، كان يسبح بحمده دائمًا، فعلم أن المأمور به من

(١) ١٧٨ مدارج جـ١.　　(٢) ٣٥٣ أعلام جـ١.

ذلك التسبيح بعد الفتح ودخول الناس في هذا الدين أمر أكبر من ذلك المتقدم، وذلك مقدمة بين يدي انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وأنه قد بقيت عليه من عبودية التسبيح والاستغفار التي ترقيه إلى ذلك المقام بقية فأمره بتوفيتها، ويدل عليه أيضًا أنه ـ سبحانه ـ شرع التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال، فشرعها في خاتمه الحج وقيام الليل، وكـان النبي ﷺ، إذا سَلَّم من الصـلاة استغفـر ثلاثًـا، وشرع للمتوضىء بعد كمال وضوئه أن يقول: «**اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتـطهـرين**» فعلم أن التـوبـة مشروعـة عقيب الأعـمال الصالحة، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجًا، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها، فشرع له الاستغفار عقيبها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النصر

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥].

فسماها امرأته بعقد النكاح الواقع في الشرك. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون**﴾ [التحريم: ١١] فسماها امرأته. والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ غالبهم إنما ولدوا من نكاح كان قبل الإسلام في حال الشرك، وهم ينسبون إلى آبائهم انتسابًا لا ريب فيه عند أحد من أهل الإسلام، وقد أسلم الجم الغفير في عهد النبي ﷺ، فلم يأمر أحدًا منهم أن يجدد عقده على امرأته، فلو كانت أنكحة الكفار باطلة لأمرهم بتجديد أنكحتهم. وقد كان رسول الله ﷺ يدعو أصحابه لآبائهم، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام(٢).

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المسد
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٣٠٨ أحكام أهل الذمة جـ١.

(١) تقدم في سورة الأحزاب عند ذكر زوجات النبي ﷺ ماله علاقة بهذا لمن أراده (ج) انظر في هذا الكتاب جـ٤ ص٨.



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)فائدة جليلة

مايجري صفة أو خبراً على الرب تبارك ـ وتعالى ـ أقسام :

أحدها: مايرجع إلى نفس الذات : كقولك : ذات، وموجود، وشيء .

الثاني: مايرجع إلي صفات معنوية : كالعليم، والقدير، والسميع .

الثالث: مايرجع إلى أفعاله نحو: الخالق والرازق .

الرابع: مايرجع إلى التنزيه المحض، ولابد من تضمنه ثبوتًا إذ لا كمال في العدم المحض : كالقدوس، السلام .

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة، لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد نحو: المجيد، العظيم الصمد. فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه : استمجد المرخ والغفار، وأمجد الناقة علفًا. ومنه ﴿ذو(٢) العَرْشِ المجيدُ﴾ [البروج ١٥] صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه. وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ، لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه، كما تقول: اغفر لي، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم. ولا يحسن أنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه. ومنه الحديث الذي في

(١) ١٥٩ بدائع جـ١ .

(٢) في المطبوعة «ربُّ» والصواب ماأثبتناه كما في المصحف المراجع .

المسند والترمذي «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**» ومنه «**اللهم أني أسألك بأن لك الحمد لا إلـه إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام**» فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده، وأنه الذي لا إلـه إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند المسئول وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد، أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصّره الله.

ولنرجع إلى المقصود، وهو وصفه ـ تعالى ـ بالاسم المتضمن لصفات عديدة.

فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال.

وكذلك الصمد قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده. وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده. وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد، وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم. واشتقاقه يدل على هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن يربوع وبالسيد الصمد

والعرب تسمى أشرافها بالصمد، لاجتماع قصد القاصدين إليه، واجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم. **فتأمله** فإنه من أشرف المعارف.

وأما صفات السلب المحض، فلا تدخل في أوصافه ـ تعالى ـ إلا أن تكون متضمنة لثبوت: كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام المتضمن

لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتا كقوله تعالى: ﴿لا تَأْخُذُه سِنَةٌ وَلاَ نَومٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله تعالى: ﴿ومَامَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] متضمن لكمال قدرته، وكذلك قوله: ﴿ولا يَعْزُبُ عن رَبّكَ من مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦١] متضمن لكمال علمه، وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ﴾ [الاخلاص: ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَد﴾ [الإخلاص: ٣] متضمن لتفرده بكماله وأنه لا نظير له، وكذلك قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] متضمن لعظمته، وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب، ويجب أن يعلم هنا أمور:

أحدها: أن مايدخل في باب الإخبار عنه ـ تعالى ـ أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته: كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه. فإنه يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليها منها كمالها، وهذا كالمريد والفاعل والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلاً وخبراً.

(١)**التاسع** عشر: أن من أسمائه الحسنى مايكون دالاً على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولاً لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كما تقدم بيانه: كاسمه العظيم، والمجيد، والصمد. كما قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه. هذه صفته لا تنبغي إلا

(١) ١٦٨ بدائع جـ١.

له، ليس له كفـوًا أحـد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار، هذا لفظه. وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى، ففسر الاسم دون معناه ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يحط بهذا علماً بخس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه، فتدبره.

(١)**وهو** سبحانه قد وصف نفسه بأنه ﴿لَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] بعد وصفـه نفسـه بأنه الصمد. والصمد السيد الذي كمل في سؤدده. ولهذا كانت العرب تسمي أشرافها بهذا الاسم لكثرة الأوصاف المحمودة للمسمى به. قال شاعرهم:

ألا بكـر الناعي بخير بني أسـد　　بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

فإن الصمـد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه. ولهـذا قال جمهـور السلف، منهم ابن عباس: الصمد الذي كمل سؤدده. وهو العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، الحليم الذي كمل حلمه، الرحيم الذي كملت رحمته، الجواد الذي كمل جوده. ومن قال: إنه الذي لا جوف له فقوله لا يناقض هذا التفسير، فإن اللفظة من الاجتماع، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال ولا جوف له، فإن مالم يكن أحد كفوًا له لما كان صمدًا كاملاً في صمدانيته، فلو لم يكن له صفات كمال ونعوت جلال، ولم يكن له علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر، ولا يقوم به فعل، ولا يفعل شيئًا ألبتة، ولا له حياة ولا إرادة، ولا كلام ولا وجـه، ولا يد، ولا هو فوق عرشـه ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يحب، ولا يبغض، ولا هو فاعل لما يريد، ولا يُرىٰ، ولا يمكن أن يُرىٰ، ولا يشار إليه، ولا يمكن أن يشار إليه لكان العدم المحض كفوا له فإن هذه الصفة منطبقة على المعدوم. فلو كان مايقوله المعطلون هو الحق لم يكن صمدًا وكان العدم كفوا له. . .

(٢) **وقوله** تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] هو سلب عن المخلوق

---

(١) ٢١١ مختصر الصواعق جـ١.　　(٢) ٢٣١ إغاثة جـ٢.

مكافأته ومماثلته للخالق سبحانه، ولم يقل: ولم يكن هو كفوًا لأحد، فينفي عن نفسه مشابهته للمخلوق ومكافأته له، إذ كان ذلك أبينُ وأظهر من أن يُحتاج إلى نفيه.

وسر ذلك: أن المقصود أن المخلوق لا يماثله ـ سبحانه ـ في شيء من صفاته وخصائصه، أما كونه سبحانه هو لا يماثل المخلوق، ولا يشابهه، ولا هو نِدٌّ له ولا كُفْؤٌ، فليس فيه مدح له.

فإنه لو مُدح بعضُ الملوك أو غيرهم بأنه لا يشبه الحيوانات، ولا الحجارة، ولا الخشب، ونحو ذلك، لم يُعَدَّ هذا مدحًا، ولا ثناء عليه، ولا كمالًا له، بخلاف ما إذا قيل: لا تُجعل للملك ندًا ولا كفؤا، ولا شبيهًا من رعيته، تعظمه كتعظيمه، وتطيعه كطاعته، فإنه ليس في رعيته من يُساميه. ولا يماثله، ولا يكافئه: كان هذا غاية المدح.

(١)**ونظير** هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ فهو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده، فإذا قال العبد: قل هو الله أحد. كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظة (قل) تحقيقًا لهذا المعنى، وأنه مبلغ محض، قائل لما أمر بقوله، والله أعلم. وهذا بخلاف قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة، لا تبليغ لقوله أعوذ برب الناس، فإن الله لا يستعيذ من أحد، وذلك عليه محال، بخلاف قوله: ﴿قل هو الله أحد﴾ فإنه خبر عن توحيده، وهو سبحانه يخبر عن نفسه، بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة والله المستعان.

(٢)**ولما** كان القرآن شطرين: شطرًا في الدنيا، وأحكامها ومتعلقاتها، والأمور الواقعة فيها، من أفعال المكلفين وغيرها. وشطرًا في الآخرة، ومايقع فيها، وكانت سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَت﴾ قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر، فلم يذكر فيها إلا الآخرة، ومايكون فيها من أحوال الأرض وسكانها: كانت تعدل نصف القرآن.

---

(١) ١٧٢ بدائع جـ٢.   (٢) ١٧٠ زاد المعاد جـ١.

فأحرى بهذا الحديث أن يكون صحيحًا. والله أعلم.

ولهذا كان ﷺ، يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الطواف، لأنهما سورتا الإخلاص والتوحيد، وكان يفتتح بهما عمل النهار، ويختمه بهما، ويقرأ بهما في الحج الذي هو شعار التوحيد.

فصـــل

وكان ﷺ، يضطجع بعد سنة الفجر على شقه الأيمن، هذا الذي ثبت عنه في الصحيحين من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عنه ﷺ، أنه قال: «**إذا صلى أحدكم الركعتين قبل صلاة الصبح فليضطجع على جنبه الأيمن**» قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

وسمعت ابن تيمية يقول: هذا باطل، وليس بصحيح. وإنما الصحيح عنه الفعل لا الأمر بها، والأمر تفرد به عبدالواحد بن زياد، وغلط فيه، انتهى.

وأما ابن حزم ومن تابعه: فإنهم يوجبون هذه الضجعة. ويبطل ابن حزم صلاة من لم يضطجعَها بهذا الحديث. وهذا مما تفرد به عن الأمة. ورأيت مجلدًا لبعض أصحابه قد نصر فيه هذا المذهب، وقد ذكر عبدالرزاق في المصنف عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين «أن موسى ورافع بن خديج وأنس بن مالك رضي الله عنهم كانوا يضطجعون بعد ركعتي الفجر، ويأمرون بذلك» وذكر عن معمر عن أيوب عن نافع: أن ابن عمر كان لا يفعله ويقول: كفى بالتسليم.

(١)**وقد** اختلف الفقهاء أي الصلاتين آكد: سنة الفجر، أو الوتر، على قولين: ولا يمكن الترجيح باختلاف الفقهاء في وجوب الوتر. فقد اختلفوا أيضًا في وجوب سنة الفجر.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل، والوتر خاتمته. ولذلك كان النبي ﷺ، يصلي سنة الفجر والوتر بسورتي

(١) ١٦٨ زاد المعاد جـ١.

الإخلاص، وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل، وتوحيد المعرفة والإرادة، وتوحيد الاعتقاد والقصد. انتهى.

فسورة ﴿**قل هو الله أحد**﴾ متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى: من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة لجميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية وغناه وأحديته، ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه.

وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي، الذي يباين معتقده جميع فرق الضلال والشرك. ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن.

فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر، ونهي، وإباحة. والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه، فأخلصت سورة ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته، فعدلت ثلث القرآن، وخَلَّصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصت سورة ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ من الشرك العملي الإرادي القصدي. ولما كان العلم قبل العمل، وهو إمامه وقائده وسائقه، والحاكم عليه، ومنزله منازله: كانت سورة ﴿**قل هو الله أحد**﴾ تعدل ربع القرآن، والحديث بذلك في الترمذي التواتر. و ﴿**قُلْ يَآأَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾ تعدل ربع القرآن، والحديث بذلك في الترمذي من رواية ابن عباس - رضي الله عنهما - يرفعه « ﴿**إذا زُلْزِلَت**﴾ **تعدل نصف القرآن، و** ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ **تعدل ثلث القرآن، و** ﴿**قُلْ يَآأَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾ **تعدل ربع القرآن**[1]» ورواه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد.

---

(١) رواه الترمذي من حديث أنس في فضل إذا زلزلت - من رواية الحسن بن سلم بن صالح العجلي عن ثابت عن أنس - ثم قال: هذا حديث غريب. لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن سلم. وروى حديث ابن عباس في فضل سورة الاخلاص وإذا زلزلت، ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة العترى عن عطاء عن ابن عباس اهـ. والحسن بن سلم قال عنه الحافظ

ولما كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس، لأجل متابعتها هواها، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه، لما لها فيه من نيل الأغراض، وإزالته وقلعه منها أصعب، وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته، لأن هذا يزول بالعلم والحجة، ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ما هو عليه، بخلاف شرك الإرادة والقصد، فإن صاحبه يرتكب مايدله العلم على بطلانه وضرره، لأجل غلبة هواه، واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه. فجاء من التأكيد والتكرار في سورة ﴿**قُلْ يَآأَيُّها الْكَافِرُون**﴾ المتضمنة لإزالة الشرك العملي مالم يجيء مثله في سورة ﴿**قُلْ هُوَ الله أحد**﴾.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الإخلاص
والحمد لله رب العالمين

= في التهذيب: شيخ مجهول، له حديث واحد في فضل إذا زلزلت. أخرجه الترمذي واستغربه. وكذا فعل الحاكم أبو أحمد. وقال ابن حبان: ينفرد عن الثقات بما لا يشبه حديث الاثبات. وقال عن يمان: قال الدوري عن ابن معين: ليس حديثه بشيء. وقال البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث يروى المناكير.

سورة الفلق

آياتها ٥ — ترتيبها ١١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل[1]

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَٰهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٦] وقوله: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]. وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، ومن المعلوم أن الإعاذة من الشيطان الرجيم ليست بإماتته ولا تعطيل آلات كيده، وإنما هي بأن يعصم المستعيذ من أذاه له، ويحول بينه وبين فعله الاختياري له، فدل على أن فعله مقدور له ـ سبحانه ـ إن شاء سلطه على العبد، وإن شاء حال بينه وبينه، وهذا على أصول القدرية باطل، فلا يثبتون حقيقة الإعاذة، وإن أثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد، وجعلوا الآية ردًّا على الجبرية، والجبرية أثبتوا حقيقة الإعاذة ولم يثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد، بل الاستعاذة فعل الرب حقيقة، كما أن الإعاذة فعله، وقد ضل الطائفتان عن الصراط المستقيم، وأصابت كل طائفة منهما فيما أثبتته من الحق.

[2]... **وبالجملة** فالكلمة الجامعة لهذا هي الكلمة التي أثنى بها رسول الله ﷺ على ربه حيث يقول: «**والشر ليس إليك**» فالشر لا يضاف إلى من الخير بيديه، وإنما ينسب إلى المخلوق: كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

فأمره أن يستعيذ به من الشر الذي في المخلوق، فهو الذي يعيذ منه وينجي منه.

وإذا أخلى العبد قلبه من محبته والإنابة إليه وطلب مرضاته، وأخلى لسانه من

---

(١) ٦٣ شفاء. (٢) ٣٥١ مختصر الصواعق.

ذكره والثناء عليه، وجوارحه من شكره وطاعته فلم يرد من نفسه ذلك ونسي ربه، لم يرد الله ـ سبحانه ـ أن يعيذه من ذلك الشر، ونسيه كما نسيه، وقطع الإمداد الواصل إليه منه، كما قطع العبد العبودية والشكر والتقوى التي تناله من عباده. قال تعالى: ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحومُها وَلا دِماؤُها وَلَكِنْ يَنالُه التَّقْوىٰ مِنْكُم﴾ [الحج:٣٧]، فإذا أمسك العبد عما ينال ربه منه، أمسك الرب عما ينال العبد من توفيقه

وقد صرح ـ سبحانه ـ بهذا المعنى بعينه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَذَرُهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. أي نخلي بينهم وبين نفوسهم التي ليس لهم منها إلا الظلم والجهل. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا الله فأنْسَاهُمْ أنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أنْ يُطَهِّرَ قُلوبَهُمْ﴾ فعدم إرادته تطهيرهم وتخليته بينهم وبين نفوسهم أوجب لهم من الشر ما أوجبه.

فالذي إلى الرب وبيديه ومنه هو الخير، والشركان منهم مصدره، وإليهم كان منتهاه. فمنهم ابتدئت أسبابه بخذلان الله ـ تعالى ـ لهم تارة، وبعقوبته لهم به تارة، وإليهم انتهت غايته ووقوعه.

فتأمل هذا الموضع كما ينبغي، فإنه يحل عنك إشكالات حار فيها أكثر الناس، ولم يهتدوا إلى الجمع بين: الملك، والحمد، والعدل، والحكمة.

(١)**روى** مسلم في صحيحه من حديث قيس بن أبي حازم عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألم تر**(٢) **آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط: أعوذ برب الفلق، وأعوذ برب الناس**».

وفي لفظ آخر من رواية محمد بن إبراهيم التيمي عن عقبة: «أن رسول الله ﷺ قال له: «**ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟**» قلت: بلى. قال: «**قل: أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس**». وفي الترمذي: حدثنا قتيبة، نا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر قال: «**أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة**». قال: هذا حديث غريب.

---

(١) ١٩٨ بدائع جـ٢.

(٢) قال النووي في شرح مسلم ضبط نر بالنون المفتوحة وبالياء المضمومة وكلاهما صحيح.

وفي الترمذي والنسائي وسنن أبي داود عن عبد الله بن حبيب قال: «خرجنا في ليلة مطر وظلمة نطلب النبي ﷺ ليصلي لنا فأدركناه، فقال: «قل»، فلم أقل شيئاً، ثم قال: «قل»، فلم أقل شيئاً، ثم قال: «قل» قلت: يارسول الله ما أقول؟ قال: «**قل: قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء**». قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي الترمذي أيضاً من حديث الجريري عن أبي هريرة عن أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذهما، وترك ما سواهما، قال: وفي الباب عن أنس وهذا حديث غريب».

وفي الصحيحين عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا آوىٰ إلى فراشه نفث في كفيه بـ«قل هو الله أحد، والمعوذتين جميعاً» ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه من جسده. قالت عائشة: فلما اشتكىٰ كان يأمرني أن أفعل ذلك به».

قلت: هكذا رواه يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة ذكره البخاري ورواه مالك عن الزهري عن عروة عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا اشتكىٰ يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عليه بيده رجاء بركتها»، وكذلك: قال معمر عن الزهري عن عروة عنها: «أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في مرضه الذي قبض فيه بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهن، وأمسح بيده نفسه لبركتها، فسألت ابن شهاب كيف كان ينفث؟ قال: ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه». ذكره البخاري أيضاً، وهذا هو الصواب أن عائشة كانت تفعل ذلك، والنبي ﷺ لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك.

وأمّا أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا[1] ولعل بعض الرواة رواه بالمعنىٰ فظن أنها لما فعلت ذلك وأقرها على رقيته أن يكون مسترقياً، فليس أحدهما بمعنى الآخر، ولعل الذي كان يأمرها به إنما هو المسح على نفسه بيده، فيكون هو الراقي لنفسه، ويده لما ضعفت عن التنقل على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على

(١) كيف والنبي ﷺ سيد المتوكلين، وقال ـ عليه السلام ـ: «يدخل الجنة سبعون ألفاً وهم قوم لا يرقون ولا يسترقون ولا يكوون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون». وقد يقال: فعل ذلك لبيان الجواز تأمّل.

بدنه، ويكون هذا غير قراءتها هي عليه، ومسحها على يديه، فكانت تفعل هذا وهذا، والذي أمرها به إنما هو تنقل يده لا رقيته، والله أعلم.

والمقصود الكلام على هاتين السورتين وبيان عظيم منفعتهما وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيراً خاصًّا في دفع السحر والعين وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطَّعام والشراب واللباس.

فنقول والله المستعان: قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول: وهي أصول الاستعاذة. أحدها: نفس الاستعاذة. والثانية: المستعاذ به. والثالثة: المستعاذ منه.

فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين، فلنعقد لهما ثلاثة فصول: الفصل الأول في الاستعاذة. والفصل الثاني في المستعاذ به. والثالث في المستعاذ منه.

الفصـــل الأول

اعلم أن لفظ: عاذ، ومـا تصرف منهـا تدل على التحـرز والتحصن والنجاة وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذاً، كما يسمى ملجأ ووزراً.

وفي الحديث: أن ابنة الجون لما أدخلت على النبي ﷺ فوضع يده عليها قالت: أعـوذ بالله منـك، فقـال لها: «**لقد عذت بمعاذ الحقي بأهلك**». فمعنىٰ أعوذ ألتجيء وأعتصم وأتحرز.

وفي أصله قولان: أحدهما أنه مأخوذ من الستر، والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة. فأما من قال: إنه من الستر، قال: العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها عُوَّذ بضم العين وتشديد الواو وفتحها، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها سموه عوذاً، فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه، واستجن به منه.

ومن قال: هو لزوم المجاورة. فإن العرب تقول: للحم إذا لصق بالعظم فلم

يتخلص منه عوذ لأنه اعتصم به واستمسك به، فكذلك العائذ، قد استمسك بالمستعـاذ به واعتصم به ولـزمـه، والقولان حق والاستعاذة تنتظمهما معاً، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه متمسك به معتصم به، قد استمسك قلبه به، ولزمه كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفاً.

وقصده به فهرب منه، فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقى نفسه عليه، ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه، وفر إليه، وألقىٰ بنفسه بين يديه، واعتصم به، واستجار به، والتجأ إليه.

وبعد فمعنىٰ الاستعـاذة القـائم بقلبه وراء هذه العبارات، وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة.

ونظير هذا التعبير عن معنى محبته وخشيته وإجلاله ومهابته، فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك، ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك، لا بمجرد الصفة والخبر كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعنين لم تخلق له شهوة أصلاً فلو قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه، فإذا وصفتها لمن خلقت فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق.

وأصل هذا الفعل أعوذ بتسكين العين وضم الواو، ثم أعل بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو، فقالوا: أعوذ على أصل هذا الباب ثم طردوا إعلاله، فقالوا في اسم الفاعل: عائذ، وأصله عاوذ، فوقعت الواو بعد ألف فاعل، فقلبوها همزة، كما قالـوا: قائم، وخـائف، وقالوا في المصدر: عياذاً بالله، وأصله عواذاً كلواذ، فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها، ولم تحصنها حركتها، إلا أنها قد ضعفت بإعلالها في الفعل، وقالوا: مستعيذ. وأصله مستعوذ: كمستخرج، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها(١)، قلبت الواو قبلها كسرة، فقلبت ياء على أصل الباب.

---

(١) لعل صواب العبارة فكسر ما قبل الواو فقلبت إلخ أو نحو ذلك.

فإن قلت: فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل كقوله: فاستعذ بالله. ولم تدخل في الماضي والمضارع بل الأكثر أن يقال: أعوذ بالله، وعذت بالله دون أستعيذ وإستعذت.

قلت: السين والتاء دالة على الطلب، فقوله: أستعيذ بالله، أي أطلب العياذ به، كما إذا قلت: أستخير الله. أي: أطلب خيرته وأستغفره أي أطلب مغفرته وأستقيله أي أطلب إقالته، فدخلت في الفعل إيذاناً لطلب هذا المعنى من المعاذ فإذا قال المأمور: أعوذ بالله فقد امتثل ما طلب منه، لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام وبين طلب ذلك، فلما كان المستعيذ هارباً ملتجئاً معتصماً بالله أتى بالفعل الدال على ذلك، دون الفعل الدال على طلب ذلك فتأمله.

وهذا بخلاف ماإذا قيل استغفر الله فقال: استغفر الله، فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله فإذا قال: أستغفر الله كان ممتثلاً لأن المعنى: أطلب من الله أن يغفر لي. وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين، فيقول: أستعيذ بالله، أي: أطلب منه أن يعيذني، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه. فالأول مخبر عن حاله وعياذه بربه، وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه.

والثاني: طالب سائل من ربه أن يعيذه كأنه يقول: أطلب منك أن تعيذني؛ فحال الأول أكمل. ولهذا جاء عن النبي ﷺ في امتثال هذا الأمر: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ وأعوذ بكلمات الله التامات ـ وأعوذ بعزة الله وقدرته**». دون أستعيذ؛ بل الذي علمه الله إيَّاه أن يقول: ﴿**أعوذ برب الفلق**﴾ ﴿**أعوذ برب الناس**﴾ دون أستعيذ؛ فتأمل هذه الحكمة البديعة.

فإن قلت: فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به فقال: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ ﴿**وقل أعوذ برب الناس**﴾، ومعلوم أنه إذا قيل: قل الحمد لله، وقل: سبحان الله؛ فإن امتثاله أن يقول: الحمد لله، وسبحان الله، ولا يقول: قل سبحان الله.

قلت: هذا هو السؤال الذي أورده أبيّ بن كعب على النبي ﷺ بعينه، وأجابه عنه رسول الله ﷺ. فقال البخاري في صحيحه: حدَّثنا قتيبة، ثنا سفيان، عن عاصم، وعبدة عن زر[1]، قال: «سألت أبيٍّ بن كعب عن المعوذتين فقال: سألت رسول الله ﷺ فقال: قيل لي: فقلت: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ».

ثم حدَّثنا علي بن عبدالله، ثنا سفيان، ثنا عبدة بن أبي لبابة، زر بن حبيش، وحدَّثنا عاصم عن زر قال: «سألت أبيٍّ بن كعب قلت: أبا المنذر: إن أخاك ابن مسعود يقول: كذا وكذا، فقال: إني سألت رسول الله ﷺ فقال قيل لي فقلت قل فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ».

قلت: مفعول القول محذوف وتقديره قيل لي قل، أو قيل لي هذا اللفظ. فقلت كما قيل لي. وتحت هذا من السر أن النبي ﷺ ليس له في القرآن إلا بلاغة لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه، بل هو المبلغ له عن الله.

وقد قال الله له: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ فكان يقتضي البلاغ التام أن يقول: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ كما قال الله. وهذا هو المعنى الذي أشار النبي ﷺ إليه بقوله: «**قيل لي فقلت**»، أي: أني لست مبتدئاً، بل أنا مبلغ، أقول كما يقال لي: وأبلغ كلام ربي كما أنزله إليَّ. فصلوات الله وسلامه عليه، لقد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، وقال كما قيل له، فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول هذا القرآن العربي. وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به.

ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول، وأنه ﷺ بلّغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه حتى أنه لما قيل له، قل: قال: هو قل. لأنه مبلغ محض، وما على الرسول إلا البلاغ.

(١) هو ابن حبيش الآتي بعد.

الفصـل الثـاني

في المستعاذ به، وهو الله وحده: رب الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إلـه الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

وقد أخبر ـ تعالى ـ في كتابه عن من استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغياناً ورهقـاً، فقـال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿**وأنَّه كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرجال ٍ مِنَ الجنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً**﴾ [الجن: ٦].

جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه: فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح، أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً، أي طغياناً وإثماً وشرًّا يقولون سدنا الإنس والجن.

والرهق في كلام العـرب الإثم وغشيان المحـارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشياناً لما كان محظوراً من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

واحتـج أهـل السنة على المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات**». وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوق أبداً.

ونظير ذلك قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك**».

فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته، وأنه غير مخلوق. وكذلك قوله: «**أعوذ بعزة الله وقدرته**». وقوله: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات**»، وما استعاذ به النبي ﷺ غير مخلوق، فإنه لا يستعيذ إلا بالله أو بصفة من صفاته.

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإلـه، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الفلق وإلى الناس، ولابد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها.

وقد قررنا في مواضع متعددة أن الله ـ سبحانه ـ يدعىٰ بأسمائه الحسنى فَيُسْأَل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه، وقد قال النبي ﷺ في هاتين السورتين: «**إنه ما تعوذ المتعوذون بمثلهما**»، فلابد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضياً للمطلوب وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه، وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث، وهو الشيء المستعاذ منه فتتبين المناسبة المذكورة فنقول.

الفصل الثالث

في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين:

الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوعَ ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالاً بصاحبه.

وإما شر واقع به من غيره وذلك الغير. إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان، أو ليس نظيره وهو الجني، وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمى[1]، وغيرها.

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما.

فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة:

أحدها: شر المخلوقات التي لها شر عموماً. الثاني: شر الغاسق إذا وقب. الثالث: شر النفاثات في العقد. الرابع: شر الحاسد إذا حسد.

فنتكلم عن هذه الشرور الأربعة، ومواقعها، واتصالها بالعبد، والتحرز منها قبل وقوعها، وبماذا تدفع بعد وقوعها. وقبل الكلام في ذلك لابد من بيان الشر: ما هو؟ وما حقيقته؟

---

(١) جمع حمة كثبة وهو السم أو الإبرة التي يضرب بها الزنبور والحية ونحو ذلك أو يلدغ بها.

فنقول: الشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه، وليس له مسمى سوى ذلك. فالشرور هي الآلام وأسبابها، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم هي شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة، لكنها شرور لأنها أسباب الآلام. ومفضية إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة، وعلى الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل وغير ذلك من الأسباب التي تصيبه مفضية إلى مسبباتها ولابد، ما لم يمنع السببية مانع أو يعارض السبب ما هو أقوى منه، وأشد اقتضاء لضده، كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان وعظمة الحسنات الماحية وكثرتها، فيزيد في كميتها وكيفيتها على أسباب العذاب فيدفع الأقوىٰ للأضعف، وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة كأسباب الصحة والمرض، وأسباب الضعف والقوة.

والمقصود أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما، هي شر وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة، وهي بمنزلة طعام لذيذ شهي لكنه مسموم إذا تناوله الآكل لذ لآكله وطاب له مساغه، وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب ولابد، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده. وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته!!

فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه، ولا يغيرها عنه، حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ** ﴾ [الرعد: ١١].

ومن تأمَّل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب كما قيل.

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل

شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس.

ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له.

والمقصود أن هذه الأسباب شرور ولابد. وأما كون مسبباتها شروراً فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم، والغموم، والأحزان، والحسرات.

ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

فلو تيقظ حق التيقظ، لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول: ﴿**يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**﴾ [الفجر: ٢٤] و﴿**يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ**﴾ [الزمر: ٥٦].

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين، فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم وإما سبب يفضي إليه. فكان يتعوّذ في آخر الصلاة من أربع، وأمر بالاستعاذة منهن، وهي: عذاب القبر، وعذاب النار. فهذان أعظم المؤلمات. وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال. وهذان سبب العذاب المؤلم فالفتنة سبب العذاب. وذكر الفتنة خصوصاً وعموماً. وذكر نوعي الفتنة لأنها إما في الحياة وإما بعد الموت، ففتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدة.

وأما فتنة الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ فعادت الاستعاذة إلى الألم والعذاب وأسبابها، وهذا من آكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به في التشهد الأخير.

وأوجبه ابن حزم في كل تشهد، فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته.

ومن ذلك قوله: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل،

والجبن والبخل، وضلع الدين[1] وغلبة الرجال». فاستعاذ من ثمانية أشياء، كل اثنين منها قرينان.

فالهم والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذباتها. والفرق بينهما أن الهم توقع الشر في المستقبل. والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح، فإن تعلق بالماضي سمي حزناً، وإن تعلق بالمستقبل سمي همًّا.

والعجز والكسل قرينان؛ وهما من أسباب الألم لأنهما يستلزمان فوات المحبوب، فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم إرادته، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل.

والجبن والبخل قرينان؛ لأنهما عدم النفع بالمال والبدن، وهما من أسباب الألم، لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة. والبخل يحول بينه دونها أيضاً، فهذا الخلقان من أعظم أسباب الآلام

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان؛ وهما مؤلمان للنفس، معذبان لها. أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين. والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال. وأيضاً فضلع الدين قهر بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره.

ومن ذلك تعوذه ﷺ «من المأثم والمغرم»، فإنهما يسببان الألم العاجل.

ومن ذلك قوله: **«أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك»**. فالسخط سبب الألم، والعقوبة هي الألم، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها.

---

(١) ضلع الدين: ثقله.

فصل

والشر المستعاذ منه نوعان: أحدهما موجود يطلب رفعه، والثاني معدوم يطلب بقاؤه على العدم، وأن لا يوجد، كما أن الخير المطلق نوعان: أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته، وأن لا يسلبه. والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله، فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم.

وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله ـ تعالى ـ حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أن آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لنا ذُنوبَنَا وكَفِّر عَنَّا سَيِّئاتِنا﴾؛ فهذا الطلب لدفع الشر الموجود، فإن الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه، ثم قال: ﴿وَتَوفَّنا مع الأَبْرَار﴾ فهذا طلب لدوام الخير الموجود، وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه، فهذان قسمان.

ثم قال: ﴿رَبَّنا وآتِنَا ما وَعدتَّنا على رُسُلِكَ﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه، ثم قال: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يومَ القِيامَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤]، فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم، وهو خزي يوم القيامة، فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب، قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما: المغفرة، ودوام الإسلام إلى الموت، ثم أتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة، وهما أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة.

فإذا عرف هذا فقوله ﷺ في تشهد الخطبة: «**نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**» يتناول الاستعاذة من شر النفس الذي هو معدوم، لكنه فيها بالقوة، فيسأل دفعه وأن لا يوجد. وأما قوله: من «**سيئات أعمالنا**» ففيه قولان:

أحدهما: أنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت، فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعاذة من الشر المعدوم الذي لم يوجد ومن الشر الموجود، فطلب دفع الأول ورفع الثاني.

والقول الثاني: أن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها، وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضاً لكنه دفع المسبب، والأول دفع

السبب فيكـون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه، وعلى الأول يكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه، فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها، وعلى الثاني يكون من باب إضافة المسبب إلى سببه، والمعلول إلى علته، كأنه قال: من عقوبة عملي، والقولان محتملان، فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به، فإن مع كل واحد منهما نوعاً من الترجيح، فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس، فشر النفس يولد الأعمال السيئة، فاستعاذ من صفة النفس ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة، وهذان جماع الشر، وأسباب كل ألم، فمتى عوفي منهما عوفي من الشر بحذافيره، ويترجح الثاني بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل، وأسبابها شر النفس، فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها، والقولان في الحقيقة متلازمان، والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر.

فصل

ولما كان الشر له سبب هو مصدره، وله مورد ومنتهىٰ، وكان السبب إما من ذات العبد وإما من خارج، ومورده ومنتهاه إما نفسه وإما غيره، كان هنا أربعة أمور.

شر مصدره من نفسه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره تارة أخرى.

وشر مصدره من غيره، وهو السبب فيه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره أخرى.

جمع النبي ﷺ هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصديق أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسىٰ وإذا أخذ مضجعه: «**اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إلـه إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم**».

فذكر مصدري الشر وهما: النفس، والشيطان. وذكر مورديه ونهايتيه، وهما عوده على النفس أو على أخيه المسلم، فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظ وأخصره وأجمعه وأبينه.

فصــل

فإذا عرف هذا فلنتكلم على الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين:

الشـر الأول العام في قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَاخَلَقَ﴾ وما ههنا موصولة ليس إلا، والشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول لا إلىٰ خلق الرب ـ تعالى ـ الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شر فيه بوجه ما.

فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى، فإن ذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما.

وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها أصلاً، ولو فعل الشر ـ سبحانه ـ لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنىٰ، ولعاد إليه منه حكم ـ تعالى وتقدس عن ذلك ـ. وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض، إذ هو محض العـدل والحكمة، وإنما يكون شرًّا بالنسبة إليهم، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به تعالى.

ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة، فإنه خالق الخير والشر. ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على بال:

أحدهما: أن ما هو شر أو متضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولاً منفصلاً، يكون وصفاً له ولا فعلاً من أفعاله.

الثاني: أن كونـه شرًّا هو أمر نسبي إضافي فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه، فله وجهان هو من أحدهما خير، وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ خلقاً وتكويناً ومشيئة لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها.

وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مباديء معرفتها فضلاً عن حقيقتها، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله ـ سبحانه ـ هو الغني الحميد، وفاعل الشر لا يفعله لحاجته المنافية لغناه أو لنقصه، وعيبه المنافي لحمده فيستحيل صدور الشر من الغني الحميد

فعلاً. وإن كان هو الخالق للخير والشر، فقد عرفت أن كونه شرًّا هو أمر إضافي وهو نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه، فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك باباً عظيماً من معرفة الرب ومحبته ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء.

وقد بسطت هذا في كتاب التحفة المكية، وكتاب الفتح القدسي، وغيرهما. وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة. أحدها: أن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمراً وحكماً، لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموماً بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، مشكور عليه، يستحق عليه الحمد من عباده والثناء عليه والمحبة، وكذلك الحكم يقتل من يصول عليهم في دمائهم وحرماتهم، وجلد من يصول عليهم في أعراضهم، فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم في دنياهم، فكيف عقوبة من يصول على أديانهم، ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به رسله، وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به؟! أفليس في عقوبة هذا الصائل خير محض وحكمة وعدل وإحسان إلى العبيد، وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي، فالشر ما قام به من تلك العقوبة، وأما ما نسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل، فهو عين الخير والحكمة، فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم والسر الذي يطلعك على مسألة القدر، ويفتح لك الطريق إلى الله ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه، وإنه سبحانه كما أنه البر الرحيم الودود المحسن، فهو الحكيم الملك العدل، فلا تناقض حكمته رحمته، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه؛ وكلاهما مقتضىٰ عزته وحكمته، وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته، ولا يلتفت إلى قول من غلظ حجابه عن الله أن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء، ولا فرق أصلاً، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة.

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلاً بالرد على هذه المقالة وإنكارها أشـد الإنكـار وتنزيه نفسه عنها. كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥]. وقوله ﴿أَمْ حَسِبَ الذين اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُم كَالَّـذِين آمَنُـوا وعَمِلُوا الصَّـالحـات سواءً مَحْيَـاهُم ومَمَـاتُهُمْ سآءَ ما يَحْكُمُـونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. وقـولـه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحِات كالْمُفسِدِين في الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾. [ص: ٢٨].

فأنكر ـ سبحانه ـ على من ظن هذا الظن، ونزه نفسه عنه، فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته، وعزته وإلـٰهيته: لا إلـه إلا هو تعالَى عما يقول الجاهلون علوًّا كبيراً.

وقد فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان ومكافأة(١) الصنع الجميل بمثله وزيادة، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار واستهجنته أعظم الاستهجان. وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام في موضع العقوبة والانتقام.

كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحريمهم ودمائهم فأكرمه غاية الإكرام ورفعه وكرمه، فإن الفطر والعقول تأبىٰ استحسان هذا، وتشهد على سفه من فعله.

هذه فطرة الله التي فطر النـاس عليها، فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المحال بها وأحقها بالعقوبة، وأنها لو أوليت النعم لم تحسن بها ولم تلق، ولظهرت مناقضة الحكمة، كما قال الشاعر:

نعـمـة الله لا تعـاب ولـكـن		ربـما استـقبحت على أقـوام

فهكـذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمـل بإعدائه الصادين عن سبيله، السـاعـين في خلاف مرضاته الذين يرضون إذا غضب، ويغضبون إذا رضي، ويعطلون ما حكم به، ويسعون في أن تكون الدعوة لغيره والحكم لغيره والطاعة لغيره، فهم مضادون في كل ما يريد، يحبون ما يبغضه، ويدعون إليه، ويبغضون

---

(١) معطوف على مجرور [على] وهو استقباح ا هـ.

ما يحبه، وينفرون عنه، ويوالون أعداءه وأبغض الخلق إليه، ويظاهرونهم عليه وعلى رسوله. كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ الكافِرُ عَلَىٰ رَبِّه ظَهِيْراً﴾ [الفرقان: ٥٥]، وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إبليسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسقَ عن أمر ربِّه أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّتَه أولياءَ مِنْ دُوْنِي وَهُمْ لك عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠].

فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوة وعتابا وجلالة وتهديداً، كيف صدره بإخبارنا أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا، فأبى ذلك، فطرده، ولعنه، وعاداه من أجل إبائه عن السجود لأبينا، ثم أنتم توالونه من دوني، وقد لعنته وطردته إذ لم يسجد لأبيكم، وجعلته عدوًّا لكم ولأبيكم فواليتموه وتركتموني، فليس هذا من أعظم الغبن وأشد الحسرة عليكم، ويوم القيامة يقول تعالى: أليس عدلاً مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا، فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة إذا ذهبوا مع أوليائهم وبقي أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد، فيتجلىٰ لهم ويقول: ألا تذهبون حيث ذهب الناس فيقولون: فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده، فيقول: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها فيقولون: نعم إنه لا مثل له. فيتجلى لهم، ويكشف عن ساق فيخرون له سجداً.

فيا قرة عيون أوليائه بتلك الموالاة! ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم وبقوا مع مولاهم الحق! فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

ولا تستطل هذا البساط فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله ونزولها منه منازلها في الدنيا لتنزل في جوار ربها في الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقا.

فصـــل

إذا عرف هذا عرف معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك**»، وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال: والشر لا يتقرب به إليك. وقول من قال: والشر لا يصعد إليك، وأن هذا الذي قالوه، وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب به إليه، فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر.

بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق، فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته ـ تبارك وتعالى ـ عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، وإن دخل في مخلوقاته، كقوله: ﴿**قُل أعوذُ بِربِّ الفَلَقِ * مِنْ شَرِّ ما خَلَق**﴾ وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به، كقوله: ﴿**والكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُون**﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿**واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِين**﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿**فَبِظُلمٍ مِنَ الذيْن هَادُوا**﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله: ﴿**ذلك جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِم**﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقوله: ﴿**وَما ظَلَمْناهُمْ ولـكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِين**﴾ [الزخرف: ٧٦]، وهو في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا عشر معشاره، وإنما المقصود التمثيل.

وتارة يحذف فاعله كقوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿**وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهم رَشَداً**﴾ [الجن: ١٠]، فحذفوا فاعل الشر ومريده وصرحوا بمريد الرشد.

ونظيره في الفاتحة: ﴿**صِراطَ الذِينَ أَنْعَمتَ عَلَيْهِمْ غيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيْهِمْ ولاَ الضَّآلِيْن**﴾ [الفاتحة: ٧]، فذكر النعمة مضافة إليه ـ سبحانه ـ والضلال منسوباً إلى من قام به، والغضب محذوفاً فاعله.

ومثله قوله الخضر في السفينة ﴿**فَأَرَدْتُّ أَنْ أَعِيْبَها**﴾ [الكهف: ٧٩]، وفي الغلامين: ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَبِّكَ**﴾ [الكهف: ٨٢].

ومثله قوله: ﴿**ولـكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيـمَانَ وزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصْيَانَ**﴾ [الحجرات: ٧]، فنسب هذا التزيين المحبوب إليه.

وقال: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ من النِّساءِ والبَنِيْنْ**﴾ [آل عمران: ١٤]، فحذف الفاعل المزين.

ومثله قول الخليل ﷺ: ﴿**الـذي خَلَقني فَهـوَ يَهْدِين * والـذي هُوَ يُطْعِمني وَيسْقِينْ * وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينْ * وَالَّذِي يُميْتُني ثُمَّ يُحْيِينْ * والَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئتي يَومَ الدِّين**﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٢]، فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعـال، ونسب إلى نفسـه النقص منهـا، وهو المرض والخطيئة، وهذا كثير في القرآن، ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب الفوائد المكية(١)، وبينا هناك السر في مجيء و﴿**الَّذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب**﴾ [البقرة: ١٤٦]، ﴿**الَّذين أُوتُوا الكِتاب**﴾ [البقرة: ١٠١]، والفرق بين الموضعين وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعاً في سياق المدح. وحيث حذفه كان من أوتيه واقعاً في سياق الذم أو منقسماً، وذلك من أسرار القرآن.

ومثله : ﴿**ثم أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذين اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ وقال: ﴿**وإِنَّ الذين أُوْرِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ منه مُريب**﴾ [الشورى: ١٤]، وقوله: ﴿**فخلَفَ من بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ورِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنىٰ**﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وبالجملة فالذي يضاف إلى الله ـ تعالى ـ كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه.

فصـــل

وقد دخل في قوله تعالى: ﴿**مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**﴾ الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من: حيوان، أو غيره، إنسيًّا، أو جنيًّا، أو هامة، أو دابة، أو ريحاً، أو صاعقة أي نوع كان من أنواع البلاء.

فإن قلت: فهـل في «ما» ههنا عموم، قلت: فيها عموم تقييدي وصفي لا عموم إطلاقي. والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه.

---

(١) ذكرنا في المقدمة أن جنس هذه الإحالة تنطبق على مفتاح دار السعادة حيث ذكر هذا المبحث فيه بتفصيل (ج).

وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله. فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض، والخير كله حصل على أيديهم، فالاستعاذة من شر ما خلق تعم شر كل مخلوق فيه شر، وكل شر في الدنيا والآخرة، وشر شياطين الإنس والجن وشر السباع والهوام وشر النار والهواء وغير ذلك.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل منه**». رواه مسلم.

وروى أبو داود في سننه عن عبدالله بن عمر قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: «**يا أرض! ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد**». وفي الحديث الآخر: «**أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزها بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما نزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلاّ طارقاً يطرق بخير يا رحمن**».

فصل

الشر الثاني: شر الغاسق إذا وقب، فهذا خاص بعد عام، وقد قال أكثر المفسرين إنه الليل. قال ابن عباس: الليل إذا أقبل بظلمته من الشرق، ودخل في كل شيء وأظلم، والغسق الظلمة يقال: غسق الليل وأغسق إذا ظلم. ومنه قوله تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ**﴾ [الإسراء: ٧٨].

وكذلك قال الحسن ومجاهد: الغاسق إذا وقب: الليل إذا أقبل ودخل، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس. وقال مقاتل: يعني ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار. وفي تسمية الليل غاسقاً قول آخر: أنه من البرد، والليل أبرد من النهار، والغسق: البرد. وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى: ﴿**هَذَا فَلْيَذُوقُوه حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ**﴾ [ص: ٥٧]. وقوله: ﴿**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً * إِلَّا حَمِيماً وغَسَّاقاً**﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]، قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرها. وكذلك قال مجاهد ومقاتل: هو الذي انتهى برده.

ولا تنافي بين القولين، فإن الليل بارد مظلم، فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فقط اقتصر على أحد وصفيه، والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة، فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولىٰ بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ برب الفلق الذي هو الصبح، والنور، ومن شر الغاسق الذي هو الظلمة، فناسب الوصف المستعاذ به للمعنى المطلوب بالاستعاذة، كما سنزيده تقريراً عن قريب إن شاء الله.

فإن قيل: فما تقولون فيما رواه الترمذي من حديث ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبدالرحمن عن أبي سلمة عن عائشة قالت: أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال: «**يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب**»، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وهذا أولى من كل تفسير فيتعين المصير إليه.

وقيل هذا التفسير حق، ولا يناقض التفسير الأول، بل يوافقه، ويشهد بصحته، فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً**﴾ فالقمر هو آية الليل وسلطانه، فهو أيضاً غاسق إذا وقب وهذا خبر صدق، وهو أصدق الخبر، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب وتخصيص النبي ﷺ له بالذكر لا ينفي شمول الاسم لغيره.

ونظيره هذا قوله في المسجد الذي أسس على التقوى، وقد سئل عنه؟ فقال: «**هو مسجدي هذا**»، ومعلوم أن هذا لا ينفي كون مسجد قباء مؤسساً على التقوى مثل ذاك.

ونظير أيضاً قوله في علي وفاطمة والحسن والحسين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ: «**اللهم هؤلاء أهل بيتي**» فإن هذا لا ينفي دخول غيرهم من أهل بيته في لفظ: أهل البيت، ولكن هؤلاء أحق من دخل في لفظ أهل بيته.

ونظير هذا قوله: «**ليس المسكين هذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس شيئاً، ولا يفطن له فيتصدق عليه**»، وهذا لا ينفي اسم المسكنة عن الطواف، بل ينفي اختصاص الاسم به وتناول المسكين لغير السائل أولى من تناوله له.

ونظير هذا قوله: «**ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب**» فإنه لا يقتضي نفي الاسم عن الذي يصرع الرجال، ولكن يقتضي أن ثبوته للذي يملك نفسه عند الغضب أولىٰ، ونظيره الغسق والوقوب وأمثال ذلك. فكذلك: قوله في القمر: هذا هو الغاسق إذا وقب لا ينفي أن يكون الليل غاسقاً، بل كلاهما غاسق.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم أن المراد به القمر إذا خسف واسود، وقوله: وقب أي دخل في الخسوف أوغاب خاسفاً.

قيل: هذا القول ضعيف ولا نعلم به سلفاً، والنبي ﷺ لما أشار إلى القمر وقال هذا الغاسق إذا وقب لم يكن خاسفًا إذ ذاك، وإنما كان هو مستنير ولو كان خاسفاً لذكرته عائشة، وإنما قالت: نظر إلى القمر، وقال: «**هذا هو الغاسق**» ولو كان خاسفاً لم يصح أن يحذف ذلك الوصف منه، فإن ما أطلق عليه اسم الغاسق باعتبار صفة لا يجوز أن يطلق عليه بدونها لما فيه من التلبيس.

وأيضاً فإن اللغة لا تساعد على هذا، فلا نعلم أحداً قال: الغاسق: القمر في حال خسوفه. وأيضاً فإن الوقوب لا يقول أحد من أهل اللغة: إنه الخسوف، وإنما هو الدخول من قولهم: وقبت العين إذا غارت. وركية وقبا: غار ماؤها. فدخل في أعماق التراب.

ومنه الوقب: للثقب الذي يدخل فيه المحور، وتقول العرب: وقب يقب وقوباً إذا دخل.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: إن الغاسق هو الثريا إذا سقطت، فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها، وترتفع عند طلوعها، قيل: إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل، وإن أراد أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما، فهذا يحتمل أن يدل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وتنبيهه، وأما أن يختص اللفظ به فباطل.

فصل

والسبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو: أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشياطين وفي الصحيح أن النبي ﷺ أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين، ولهذا قال: «**فاكتفوا صبيانكم واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء**». وفي حديث آخر: «**فإن الله يبث من خلقه ما يشاء**»، والليل هو محل الظلام، وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار، فإن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة على أهل الظلمة. وروي أن سائلاً سأل مسيلمة: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: في ظلماء حندس.

وسأل النبي ﷺ كيف يأتيك؟ فقال: «**في مثل ضوء النهار**» فاستدل بهذا على نبوته، وإن الذي يأتيه ملك من عند الله، وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان، ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم والشياطين تجول فيها وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع وهو فيه أثبت وأمكن.

فصل

ومن ههنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع، فإن الفلق: الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام وعسكر المفسدين في الليل، فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب، أو كن، أو غار، وتأوي الهوام إلى أحجرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها، فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها ويقهر عسكرها وجيشها. ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم.

قال تعالى: ﴿**اللهُ وليُّ الذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ من الظُّلماتِ إلى النُّورِ والَّذين**

كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: **﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُه فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾** [الأنعام: ١٢٢].

وقال في أعمال الكفار: **﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَات بعْضُها فَوْقَ بعْضٍ إِذَا أَخْرجَ يَدَهُ لم يَكَدْ يراها ومن لم يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾** [النور: ٤٠]، وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم: **﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيْهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِيٌّ يُوْقَدُ من شَجَرةٍ مُبارَكةٍ زَيْتُونَةٍ لا شُرْقيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيء ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ على نورٌ يَهدي اللهُ لنوره من يشاء﴾** [النور: ٣٥] فالإيمان كله نور ومآله إلى نور، ومستقره في القلب المضيء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة، والكفر والشرك كله ظلمة ومآله إلى الظلمات، ومستقره في القلوب المظلمة، والمقترن بها الأرواح المظلمة، فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة، ومن شر ما يحدث فيها، ونزل هذا المعنى على الواقع يشهد بأن القرآن، بل هاتان السورتان من أعظم أعلام النبوة وبراهين صدق رسالة محمد ﷺ ومضادة لما جاء به الشياطين من كل وجه، وأن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون، فما فعلوه، ولا يليق بهم، ولا يتأتى منهم، ولا يقدرون عليه.

وفي هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قصر المتكلمون غاية التقصير في دفعها وما شفوا في جوابها، وإنما الله سبحانه هو الذي شفى وكفى في جوابها، فلم يحوجنا إلى متكلم ولا إلى أصولي ولا نظار، فله الحمد والمنة لا نحصي ثناء عليه.

فصـــل

واعلم أن الخلق كله فلق، وذلك أن فلقاً فعل بمعنى مفعول: كقبض وسلب وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص.

والله ـ عز وجـل ـ فالق الإصباح، وفالق الحب والنوى، وفالق الأرض عن النبـات، والجبـال عن العيون، والسحـاب عن المـطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة: فلقاً وفرقاً. يقال: هو أبيض من فرق الصبح وفلقه، وكما أن في خلقه فلقاً وفرقاً، فكذلك أمره كله فرقان يفرق بين الحق والباطل، فيفرق ظلام الباطل بالحق، كما يفرق ظلام الليل بالإصبـاح، ولهذا سمي كتابه الفرقان، ونصره فرقاناً لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه، ومنه فلقه البحر لموسى، وسماه فلقاً، فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع، وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته وأن العباد لا يقدرون قدره: وأنه ﴿تَنْزِيْلٌ مِنْ حِكِيْمٍ حَمِيْدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

فصـــل

الشر الثالث: شر النفاثات في العقد، وهذا الشر هو شر السحر، فإن النفاثات في العقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر والنفث هو: النفخ مع ريق وهو دون التفل وهو مرتبة بينهما والنفث فعـل السـاحـر فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقدة نفخاً معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الأمر الشرعي.

فإن قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟ قيل في جوابه: إن هذا خرج على السبب الواقع، وهو: أن بنات لبيد بن أعصم سحـرن النبي ﷺ، هذا جواب أبي عبيدة وغـيره، وليس هذا

بسديد، فإن الذي سحر النبي ﷺ هو لبيد بن أعصم كما جاء في الصحيح.

والجـواب المحقق أن النفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفـاثـات، لأن تأثـير السحـر إنما هو جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير والله أعلم.

ففي الصحيح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: «أن النبي ﷺ طب حتى إنه ليخيل إليه أنه صنع شيئاً وما صنعه، وأنه دعا ربه، ثم قال: «**أشعرت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه**»، فقالت عائشة: وما ذاك يارسول الله؟ قال: «**جاءني رجـلان فجلس أحـدهما عند رأسي والآخر عند رجليّ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: الآخر مطبوب، قال: من طبه، قال: لبيد بن الأعصم، قال: فيماذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في ذروان بئر في بني زريق**»، قالت عائشة رضي الله عنها: فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة فقال: «**والله لكأن ماءها نقاعة الحنا، ولكأن نخلها رءوس الشيـاطـين**»، قال: فقلت له: يارسـول الله هلا أخـرجته؟ قال: «**أما أنا فقد شفاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شرًّا**» فأمر بها فدفنت.

قال البخاري: وقال الليث وابن عيينة عن هشام في مشط ومشاقة. ويقال إن المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاقة من مشاقة الكتان. قلت: هكذا في هذه الرواية إنه لم يخرجه اكتفاء بمعافاة الله له وشفائه إياه.

وقد روى البخاري من حديث ابن عيينة قال: أول من حدثنا به ابن جريج يقول: حدثني آل عروة عن عروة فسألت هشاماً عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا، فقال ياعائشة: «**أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال لبيد بن الأعصم رجل من بني زريق حليف ليهود، وكان منافقاً، قال: وفيم قال؟**

في مشط ومشاقة، قال: وأين قال؟ في جف طلع ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان، قال: فأتى البئر حتى استخرجه فقال: هذه البئر التي أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رءوس الشياطين، قال: فاستخرج، قالت: فقلت: أفلا أي تنشرت، قال: **أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًّا»**. ففي هذا الحديث أنه استخرجه وترجم البخاري عليه باب: هل يستخرج السحر.

وقال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب ويؤخذ عن امرأته أيحل عنه وينشر؟ قال: لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه.

فهذان الحديثان قد يظن في الظاهر تعارضهما فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه الأول فيه أنه لم يستخرجه، وحديث ابن جريج عن هشام فيه أنه استخرجه، ولا تنافي بينهما، فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه ثم دفنه بعد أن شفي، وقول عائشة: هلا استخرجته أي هلا أخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه فأخبرها بالمانع له من ذلك، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك، فيقع الإنكار، ويغضب للساحر قومه، فيحدث الشر، وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة، فأمر بها فدفنت ولم يستخرجها للناس، فالاستخراج الواقع غير الذي سألت عنه عائشة، والذي يدل عليه أنه ﷺ إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه، ولم يجيء إليه لينظر إليها، ثم ينصرف إذ لا غرض له في ذلك، والله أعلم. وهذا الحديث: ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته.

وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشد الإنكار، وقابلوه بالتكذيب. وصنف بعضهم فيه مصنفاً مفرداً حمل فيه على هشام، وكان غاية ما أحسن القول فيه أن قال: غلط واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء، قال: لأن النبي ﷺ لا يجوز أن يسحر، فإنه يكون تصديقاً لقول الكفار: ﴿**إِنْ تَتَّبِعُونَ إلا رَجُلاً مَسْحُوراً**﴾ [الفرقان: ٨].

قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى: ﴿**وإِنِّي لأَظُنُّكَ يامُوسَىٰ مَسْحُوراً**﴾ [الإسراء: ١٠١]. وقال قوم صالح له: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِيْنَ**﴾ [الشعراء: ١٥٣]. وقال قوم شعيب له: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِيْنَ**﴾.

قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا، فإن ذلك ينافي حماية الله لهم وعصمتهم من الشياطين.

وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم، فإن هشاماً من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه، فما للمتكلمين؟ وما لهذا الشأن؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة.

وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدةٍ، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين، قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدَّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد بن أرقم، قال: سحر النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود فاشتكىٰ لذلك أياماً قال: فأتاه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، وعقد لذلك عقداً، فأرسل رسول الله ﷺ عليًّا فاستخرجها، فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام رسول الله ﷺ كأنما أنشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قط.

وقال ابن عباس وعائشة: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدنت إليه اليهود، فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود فنزلت هاتان السورتان فيه.

قال البغوي: وقيل كانت مغروزة بالدبر، فأنزل الله ـ عز وجل ـ هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية، سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست(*) آيات، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال. قال: وروى أنه لبث فيه ستة أشهر، واشتد عليه ثلاثة أيام، فنزلت المعوذتان.

قالوا: والسحر الذي أصابه كان مرضاً من الأمراض عارضاً شفاه الله منه ولا نقص في ذلك، ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوز على الأنبياء، وكذلك الإغماء

(*) في الأصل المطبوع: خمس آية وسورة الناس ستة آيات. والصواب ما أثبتناه. المراجع.

فقد أغمي عليه ﷺ في مرضه، ووقع حين انفكت قدمه وجحش شقه(١) وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته ونيل كرامته، وأشد الناس بلاء الأنبياء فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به من القتل والضرب والشتم والحبس، فليس ببدع أن يبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر، كما ابتلي بالذي رماه فشجه، وابتلي بالذي ألقى على ظهره السلا وهو ساجد وغير ذلك، فلا نقص عليهم، ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالهم وعلو درجاتهم عند الله.

قالوا: وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «**يا محمد أشتكيت؟ فقال: نعم. فقال: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك**». فعوذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد لما اشتكىٰ فدل على أن هذا التعوذ مزيل لشكايته ﷺ وإلا فلا يعوذه من شيء وشكايته من غيره.

قالوا: وأما الآيات التي استدللتم بها لا حجة لكم فيها، أما قوله ـ تعالى ـ عن الكفار أنهم قالوا: ﴿**إن تتبعون إلا رجلًا مسحوراً**﴾ [الإسراء: ٤٧]، وقول قوم صالح له: ﴿**إنما أنت من المسحرين**﴾، فقيل: المراد به من له سحر، وهي الرئة، أي: أنه بشر مثلهم، يأكل ويشرب، ليس بملك، ليس المراد به السحر، وهذا جواب غير مُرْضٍ وهو في غاية، البعد فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور، ولا يعرف هذا في لغة من اللغات، وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر فقالوا: ﴿**ما أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا**﴾ [يس: ١٥]، ﴿**أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلَنَا**﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿**بَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسولاً**﴾ [الإسراء: ٩٤]. وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السحر، وهي الرئة، وأي مناسبة لذكر الرئة في هذا الموضع؟ ثم كيف يقول فرعون لموسى: ﴿**إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَىٰ مَسْحُوراً**﴾ [الإسراء: ١٠١]. أفتراه ما علم أنه له سحراً، وأنه بشر، ثم كيف يجيبه موسى بقوله: ﴿**إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فرعونُ مَثْبُوراً**﴾ [الإسراء: ١٠٢]. ولو أراد بالمسحور أنه بشر لصدقه موسى، وقال: نعم أنا

---

(١) في الحديث أنه ﷺ سقط من فرس فجحش شقه أي انخدش جلده اهـ. نهاية.

بشر أرسلني الله إليك، كما قالت الرسل لقومهم، لما قالوا لهم: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ [إبراهيم: ١٠]، فقالوا: ﴿إِنْ نَّحْنُ إِلَّا بَشرٌ مِثْلُكُم﴾ [إبراهيم: ١١]. ولم ينكروا ذلك، فهذا الجواب في غاية الضعف وأجابت طائفة منهم: ابن جرير وغيره: بأن المسحور هنا هو معلم السحر الذي قد علمه إيَّاه غيره، فالمسحور عنده بمعنى ساحر أي: عالم بالسحر، وهذا جيد، إن ساعدت عليه اللغة، وهو أن من علم السحر يقال له: مسحور، ولا يكاد هذا يعرف في الاستعمال ولا في اللغة، وإنما المسحـور من سحـره غيره: كالمطبوب والمضروب والمقتول (وبابه) وأما من علم السحر فإنه يقال له: ساحر بمعنى أنه عالم بالسحر وإن لم يسحر غيره، كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيْمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، ففرعون قذفه بكونه مسحوراً، وقومه قذفوه بكونه ساحراً، فالصواب هو الجواب الثالث، وهو جواب صاحب الكشاف وغيره: أن المسحور على بابه، وهو من سحر حتى جن، فقالوا: مسحور: مثل مجنون زائل العقل، لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول، فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه: ﴿مُعلَّمٌ مَجْنُـون﴾ [الدخان: ١٤]، فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصـاب به النـاس، فإنـه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من أتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿آنـظُرْ كَيْفَ ضَرَبُـوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعونَ سَبِيْلاً﴾ [الفرقان: ٩]، مثلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرىٰ، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه، فإن أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلاً، ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ معه حتى ضربوا له أمثالاً برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم، فإنه ـ سبحانه ـ كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم فيبتليهم بما شاء من أذىٰ الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلىٰ بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلىء صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة، لا إلـه غيره ولا رب سواه.

فصـــل

وقـد دلَّ قولـه: ﴿ومِنْ شَرِّ النَّفَّـاثَاتِ في العُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر وأن له حقيقة.

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل، ولا حل ولا عقد، قالوا: وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين، لا حقيقة له سوى ذلك، وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف، وما يعرفه عامة العقلاء.

والسحر الذي يؤثر مرضاً وثقلاً وحلاًّ وعقداً وحبًّا وبغضاً ونزيفاً، وغير ذلك من الآثار الموجودة تعرفه عامة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه.

وقـوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ في العُقَدِ﴾ دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً، كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه.

وأيضاً: فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به، مع أن هذا تغير في إحساسهم، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم، وماالفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟ فإذا غيّر إحساسه حتى صار

يرى الساكن متحركاً، والمتصل منفصلاً، والميت حيًّا، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب إليه بغيضاً والبغيض إليه محبوباً، وغير ذلك من التأثيرات.

وقـد قال ـ تعالى ـ عن سحرة فرعون: إنهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فبيَّن سبحانه أن أعينهم سحرت، وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي، وهو الحبال والعصي، مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها، وهي الشياطين، فظنوا أنها تحركت بأنفسها، وهذا كما إذا جر من لا يراه حصيراً أو بساطاً فترى الحصير والبساط ينجر، ولا ترى الجار له، مع أنه هو الذي يجره، فهكذا حال الحبال والعصي التبستها الشياطين، فقلبتها كتقلب الحية، فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها، والشياطين هم الذين يقلبونها، وإما أن يكون التغيير حدث في الرائي حتى رأى الحبال والعصي تتحرك، وهي ساكنة في أنفسها.

ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا، فتارة يتصرف في نفس الرأي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به، وتارة يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها.

وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت، فهذا باطل من وجوه كثيرة.

فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالاً، بل حركة حقيقية، ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس، ولا يسمى ذلك سحراً، بل صناعة من الصناعات المشتركة، وقد قال تعالى: ﴿**فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعىٰ**﴾ ولو كانت تحركت بنوع حيلة كما يقوله المنكرون، لم يكن هذا من السحر في شيء، ومثل هذا لا يخفىٰ. وأيضاً: لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء، لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال، ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها.

وأيضاً: فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة، بل يكفي فيها

حذاق الصناع، ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة، وخضوعه لهم، ووعدهم بالتقريب والجزاء.

وأيضاً فإنه لا يقال في ذلك: إنه لكبيركم الذي علَّمكم السحر، فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها. وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده فلنرجع إلى المقصود.

فصل

الشر الرابع: شر الحاسد إذا حسد وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود فنفس حسده شر يتصل بالمحسود من نفسه وعينه وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] فحقق الشر منه عند صدور الحسد والقرآن ليس فيه لفظة مهملة.

ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدًا إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك، ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاه عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه ووجهت إليه سهام الحسد من قبله، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولا بد فقوله تعالى: ﴿إذا حسد﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل.

وقد تقدم في حديث أبي سعيد الصحيح رقية جبريل النبي ﷺ وفيها «**بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك**» فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد، ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها إذ لو نظر إليه نظر ساه عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئًا، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة وانسمت واحتدت فصارت نفساً غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة فأثرت في المحسود تأثيرًا بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد فربما أعطبه وأهلكه بمنزلة من فوق سهماً نحو رجل عريان فأصاب منه

مقتلاً وربما صرعه وأمرضه والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر.

وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة وهي في ذلك بمنزلة الحية التي إنما يؤثر سمها إذا عضت واحتدت فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث فتحدث فيها تلك الكيفية السم فتؤثر في الملسوع.

وربما قويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها حتى تؤثر بمجرد نظرة فتطمس البصر وتسقط الحبل كما ذكره النبي ﷺ في الأبتر وذي الطفيتين منها وقال: «**اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر ويسقطان الحبل**»، فإذا كان هذا في الحيات فما الظن في النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية وأنسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها، فالله كم من قتيل وكم من سليب وكم من معافي عاد مضني على فراشه يقول طبيبه لا أعلم داءه ما هو، فصدق ليس هذا الداء من علم الطبائع، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها، ومعرفة تأثيراتها في الأجسام والطبائع وانفعال الأجسام عنها، وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس، والمحجوبون منكرون له، ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه، وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى، وهل الأنفعال والتأثر وحدوث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة والآثار الغريبة إلا من الأرواح والأجسام آلتها بمنزلة آلة الصانع، فالصنعة في الحقيقة له والآلات وسائط في وصول أثره إلى الصنع.

ومن له أدنى فطنة، وتأمل أحوال العالم ولطفت روحه وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها كل ذلك بتقدير العزيز العليم خالق الأسباب والمسببات رأى عجائب في الكون وآيات دالة على وحدانية الله وعظمته وربوبيته، وإن ثم عالماً آخر تجري عليه أحكام أخر تشهد آثارها وأسبابها غيب عن الأبصار، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين الذي اتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه.

ولا نسبة لعالم الأجسام على عالم الأرواح، بل هو أعظم وأوسع وعجائبه أبهر وآياته أعجب.

وتأمل هذا الهيكل الإنساني إذا فارقته الروح كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل وتلك الصنائع الغريبة وتلك الأفعال العجيبة وتلك الأفكار والتدبيرات كيف ذهبت كلها مع الروح وبقى الهيكل سواء هو والتراب، وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك أو يعاديك ويخف عليك ويثقل ويؤنسك ويوحشك إلا ذلك الأمر الذي وراء الهيكل المشاهد بالبصر، فرب رجل عظيم الهيولا كبير الجثة خفيف على قلبك حلو عندك، وآخر لطيف الخلقة صغير الجثة أثقل على قلبك من جبل وماذاك إلا للطافة روح ذاك وخفتها وحلاوتها، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها، وبالجملة فالعلق والوصل التي بين الأشخاص والمنافرات والبعد إنما هي للأرواح أصلاً والأشباح تبعاً.

فصل

والعاين والحاسد يشتركان في شيء، ويفترقان في شيء، فيشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه، فالعائن تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته. والحاسد يحصل له ذلك عند غيب المحسود وحضوره أيضاً. ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه، وربما أصابت عينه نفسه، فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في المعين. وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿**وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر**﴾. [القلم: ٥١]، إنه الإصابة بالعين، فأرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ﷺ فنظر إليه قوم من العائنين، وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حجته.

وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيعينها، ثم يقول لخادمه: خذ المكتل والدرهم وائتنا بشيء من لحمها، فما تبرح حتى تقع فتنحر.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه! فما

تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منهـا طائفة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين، ويفعل به كفعله في غيره، فعصم الله رسوله، وحفظه، وأنزل عليه: ﴿وإن يَكَادُ الَّذِين كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهم﴾. هذا قول طائفة:

وقالت طائفة أخرى: منهم ابن قتيبة: ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعـداوة والبغضاء يكاد يسقطك، قال الزجاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك.

وهذا مستعمل في الكلام. يقول القائل: نظر إليّ نظراً كاد يصرعني.

قال: ويدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، فيحدُّون إليه النظر بالبغضاء.

قلت: النظر الذي يؤثِّر في المنظور قد يكون سببه شدة العداوة والحسد، فيؤثر نظره فيه، كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة، فإن العدو إذا غاب عن عدوه قد يشغل نفسه عنه، فإذا عاينه قبلاً اجتمعت الهمة عليه وتوجهت النفس بكليتها إليه، فيتأثر بنظره. حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يحم، ومنهم من يحمل إلى بيته، وقد شاهد الناس من ذلك كثيراً.

وقد يكون سببه الإعجاب وهو الذي يسمونه بإصابة العين، وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين، وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين، فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه، فيصاب بذلك. قال عبدالرزاق بن معمر عن هشام بن قتيبة، قال: هذا ما حدَّثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«العين حق» «ونهى عن الوشم»**.

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة عن عامر عن عبيد بن رفاعة: **«أن أسماء بنت عميس قالت: يارسول الله: إن ابني جعفر تصيبهم العين أفنسترقي لهم؟ قال: نعم، فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»**.

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة، فهو نظر يكاد يزلقه، لولا حفظ الله وعصمته، فهذا أشد من نظر العائن، بل هو جنس من نظر العائن فمن قال: إنه من الإصابة بالعين، أراد هذا المعنى، ومن قال: ليس به، أراد أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب، فالقرآن حق. وقد روى الترمذي من حديث أبي سعيد: «**أن النبي ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان**». فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها:

وفي الترمذي من حديث علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير حدثني حابس بن حبة التميمي، حدثني أبي: «**أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لا شيء في الهام، والعين حق**». وفيه أيضاً من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: «**كان رسول الله ﷺ يقول لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا**». وفي الباب عن عبدالله بن عمرو، وهذا حديث صحيح.

والمقصود أن العائن حاسد خاص، وهو أضر من الحاسد، ولهذا ـ والله أعلم ـ إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بد، وليس كل حاسد عائناً، فإذا استعاذ من شر الحسد دخل فيه العين، وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

وأصل الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها، فالحاسد عدو النعم، وهذا الشر هو من نفسه(١) وطبعها ليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها، بل هو من خبثها وشرها، بخلاف السحر، فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى، واستعانة بالأرواح الشيطانية، فلهذا ـ والله أعلم ـ قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر؛ لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن، فالحسد من شياطين الإنس والجن، والسحر من النوعين.

وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن وهو الوسوسة في القلب، فذكره في السورة الأخرىٰ كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله.

---

(١) في نسخة أخرى: هو من نفس الحاسد وطبعها. المراجع.

فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه، بل هو أذى من أمر خارج عنه، ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق.

والوسواس إنما يؤذي العبد من داخل بواسطة مساكنته له، وقبوله منه، ولهذا يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوساوس التي تقترن بها الأفعال والعزم الجازم، لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر، فإنه لا يعاقب عليه، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته، فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة، وكثيراً ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة، ولهذا اليهود أسحر الناس وأحسدهم، فإنهم لشدة خبثهم فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم، وقد وصفهم الله في كتابه بهذا وهذا، فقال: ﴿وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَان ومَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفُروا يُعلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وما أُنْزلَ على المَلَكيْنِ ببابلَ هَارُوتَ ومارُوتَ وما يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُر فَيَتَعَلَّمُون مِنْهُما مَا يُفرِّقُونَ بِهِ بينَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بضَآرِيْنَ بِهِ مِنْ أَحدٍ إِلَّا بإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضرُّهُمْ ولاَ يَنْفَعُهم ولَقَدْ عَلِموا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَه في الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلبِئْسَما شَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَو كَانُوا يعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ١٠٢] والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس، وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما في[1] موضع غير هذا إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين، وشدة حاجة الخلق إليهما، وإنه لا يقوم غيرهما مقامهما.

وأما وصفهم بالحسد فكثير في القرآن: كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ ما آتَاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]، وفي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَو يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِكُمْ كُفاراً حَسَداً مِنْ عند أَنْفُسِهِمْ مِن بَعْد مَا تبينَ لَهُمْ الْحَقُّ﴾

(١) الجار والمجرور خبر قوله: والكلام على أسرار هذه الآية اهـ.

والشيطان يقارن الساحر والحاسد، ويحادثهما، ويصاحبهما؛ ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان، لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبىٰ أن يسجد له حسداً، فالحاسد من جند إبليس، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه، وربما يعبده من دون الله حتى يقضي له حاجته، وربما يسجد له.

وفي كتب «السحر والسر المكتوم» من هذا عجائب. ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوىٰ وأنفذ؛ ولهذا سحر عباد الأصنام أقوىٰ من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوىٰ من سحر المنتسبين إلى الإسلام، وهم الذين سحروا رسول الله ﷺ.

وفي الموطأ عن كعب قال: «كلمات أحفظهن من التوراة لولاها لجعلتني يهود حماراً: أعوذ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنىٰ، ما علمت منها، وما لم أعلم، من شر ما خلق وذرأ وبرأ».

والمقصود أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر. لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود، والشيطان يقترن به، ويعينه، ويزين له حسده، ويأمره بموجبه. والساحر بعلمه وكسبه وشركه واستعانته بالشياطين.

فصل

وقوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] يعم الحاسد من الجن والإنس، فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، كما حسد إبليس أبانا آدم وهو عدو لذريته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوه عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس، والوسواس يعمهما كما سيأتي بيانهما، والحسد يعمهما أيضاً، فكلا الشيطانين حاسد موسوس. فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعاً.

فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم، وتضمنت شروراً أربعة يستعاذ منها. شرًّا عاماً وهو شر ما خلق. وشر الغاسق إذا وقب. فهذان نوعان.

ثم ذكر شر الساحر والحاسد، وهي نوعان أيضاً، لأنهما من شر النفس الشريرة، وأحدهما يستعين بالشيطان، ويعبده، وهوالساحر، وقلما يتأتىٰ السحر بدون نوع عبادة للشيطان، وتقرب إليه: إما بذبح باسمه، أو بذبح يقصده به هو، فيكون ذبحاً لغير الله، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق. والساحر وإن لم يسم هذه عبادة للشيطان فهو عبادة له، وإن سماه بما سماه به، فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه لا لاسمه ولفظه، فمن سجد لمخلوق وقال: ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة، كما أقبلها بالنعم، أو هذا إكرام لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله، فليسمه بما شاء.

وكذلك من ذبح للشيطان، ودعاه، واستعاذ به، وتقرب إليه بما يحب، فقد عبده، وإن لم يسم ذلك عبادة، بل يسميه استخداماً ما، وصدق هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ويعبده، كما يفعل هو به.

والمقصود أن هذا عبادة منه للشيطان، وإنما سماه استخداماً. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَيَومَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهٰؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُون قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِمْ مُؤْمِنُون﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]. فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين، وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة ولبئس المولى ولبئس العشير، فهذا أحد النوعين.

والنوع الثاني: من يعينه الشيطان وإن لم يستعن به، وهو الحاسد لأنه نائبه وخليفته، لأن كليهما عدو نعم الله ومنغصها على عباده.

فصـــل

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إذا حسد﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك، ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد، إلا من عصمه الله.

وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف، لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر لها، بل يعصيها طاعة لله وخوفاً وحياء منه وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله، وبغضاً لما يحبه الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمنى زيادة الخير له بخلاف ما إذا حقق ذلك، وحسد، ورتب على حسده مقتضاه من الأذىٰ بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم هذا كله حسد تمني الزوال. وللحسد ثلاث مراتب: أحدها هذه.

الثانية: تمني استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن الله أو قلة دينه، فهو يتمنىٰ دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد عدو نعمة الله، وعدو عباده وممقوت عند الله تعالى وعند الناس، ولا يسود أبداً، ولا يواسي، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبداً إلا قهراً، يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها، فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

والحسد الثالث حسد الغبطة وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها،**

ويعلمها الناس» فهذا حسد غبطة الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، وأن يكون من سباقهم وعليتهم ومصلهم لا من فساكلهم، فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة مع محبته لمن يغبطه، وتمني دوام نعمة الله عليه فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما، فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود، فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعيذ بولي النعم ومووليها، كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليَّ: أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني، ويزيلها عني، وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نعم المولىٰ ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على فهو حسبه**﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فلا تستبطيء نصره ورزقه وعافيته، فإن الله بالغ أمره، وقد جعل الله لكل شيء قدرا، لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ومن لم يخفه أخافه من كل شيء. وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّه لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا وعلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَتَوَلَّونه والَّذِيْنَ هُمْ به مُشْرِكُون**﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠] وقال: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مؤمنين**﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم بأوليائه ويعظمهم في صدوركم، فلا تخافوهم، وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم.

فصل

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب.

أحدها: التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجوء إليه، وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته عليم بما يستعيذ منه.

والسمع هنا المراد به سمع الإجابة، لا السمع العام، فهو مثل قوله: «**سمع الله لمن حمده**». وقول الخليل ﷺ: ﴿**إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ**﴾

ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك، فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته، أي مجيب عليم بكيد عدوه، يراه، ويبصره لينبسط أمل المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن: كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده، ولا نراه بلفظ السميع العليم في [الأعراف، وحم السجدة] وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون، ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في [سورة حم المؤمن] فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ يُجَادِلُون فِي آيَاتِ اللهِ بَغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبرٌ مَّاهُمْ بِبَالِغِيْهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ**﴾ [غافر: ٥٦]، لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة ترى بالبصر. وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب، يتعلق بها العلم فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية، والله أعلم(١).

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتَّقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: ﴿**وإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهم شَيئاً**﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «**احفظ الله يحفظك،**

---

(١) سيأتي لهذا البحث زيادة تحت عنوان: قاعدة نافعة. (ج).

احفظ الله تجده تجاهك» فمن حفظ الله حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر؟!

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل: الصبر عليه، والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه، وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه، ولو رأى المبغي عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله. وقد قال تعالى: ﴿**وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ**﴾ [الحج: ٦٥].

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولا، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه، بل بُغي عليه وهو صابر.

وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله: أنه لو بَغَى جبل على جبل جعل الباغي منهما دكًا.

السبب الرابع: التوكل على الله ﴿**فمن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى، لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وأضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه ـ سبحانه ـ كاف عبده، المتوكل عليه، وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً من ذلك، وكفاه، ونصره. وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة

العبد إليه في: ﴿كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولـة وأنـه من مقامات العوام وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة وبينا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه وهذا من أنفع الأدوية وأقوىٰ الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإيَّاه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء فإذا علق روحه وشبثها به، وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناماً لا يفـتر عنه وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبث، فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر، حتى يهلك أحدهما فإذا جبذ روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله.

فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به، بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضاً، فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ماتأكله أكل بعضهـا بعضـاً، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه، وتعلق روحه به، ولا يرى شيئاً ألم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها، فوثقت بالله وسكنت إليه، واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق، ووعده صدق، وأنه لا أوفىٰ بعهده من الله، ولا أصدق منه قيلاً، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها ولا يقوى على هذا إلا .**بالسبب** السادس وهو الإقبال على الله والإخلاص له، وجعل محبته وترضيه

والإنـابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها، تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئاً فشيئاً، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه، وذكره كما يذكر المحب التام المحبة لمحبوبه المحسن إليه، الذي قد امتلأت جوانحه من حبه، فلا يستطيع قلبـه انصرافاً عن ذكره، ولا روحه انصرافاً عن محبته. فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معموراً بالفكر في حاسده والباغي عليه، والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه.

هذا ما لايتسـع له إلا قلب خراب، لم تسكن فيه محبـة الله وإجلاله وطلب مرضاته، بل إذا مسه طيف من ذلك، واجتاز ببابه من خارج ناداه حرس قلبه: إياك وحمى الملك، اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حل فيها، ونزل بها ما لك ولبيت السلطان الذي أقام عليه اليزك وأدار عليه الحرس وأحاطه بالسور؟!

قال ـ تعالى ـ حكاية عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] وقال تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الحجر: ٤٢]. وقال: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَىٰ الَّذِيْنَ آمَنُوا وعَلَىٰ رَبِّهِم يَتوكَّلُون إنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَىٰ الَّذِيْنَ يَتَوَلَّوْنَه والَّذين هُمْ بِهِ مُشْرِكُون**﴾ [النحل: ١٠٠]. وقال في حق الصديق يوسف ﷺ: ﴿**كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنا الْمُخْلَصِين**﴾ [يوسف: ٢٤] فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، وصار داخل اليزك، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه: ﴿**ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيْه مَنْ يَشَآءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيْمِ**﴾.

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه. فإن الله تعالى يقول: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكم**﴾ [الشورى: ٣٠] وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ: ﴿**أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيْبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكِم**﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره.

وفي الدعاء المشهور: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**». فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل، فأغلظ له، ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك. فدخل، فسجد لله، وتضرع إليه وتاب، وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به علي.

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بُغِيَ عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح.

وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقىٰ فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولابد، فما أسعده من عبد! وما أبركها من نازلة نزلت به! وما أحسن أثرها عليه! ولكن التوفيق والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فما كل أحد يوفق لهذا، لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيراً عجيباً في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفىٰ به، فما يكاد العين والحسد والأذىٰ يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه، وصدقته عليه من الله جنة راقية وحصن حصين. وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها.

ومن أقوى الأسباب حسد الحاسد والعائن، فإنه لا يفتر ولا يني ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود، فحينئذٍ يبرد أنينه، وتنطفيء ناره، لا أطفأها الله، فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وهو كفران النعمة، وهو باب إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكرًا يقاتلون عنه، وهو نائم على فراشه، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر، والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرًّا وبغياً وحسداً ازددت إليه إحساناً وله نصيحة وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون، فضلاً عن أن تتعاطاه.

فاسمع الآن قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] وقال: ﴿**أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ [القصص: ٥٤] وتأمَّل حال النبي ﷺ الذي حكى عنه نبينا ﷺ[1] أنه ضربه قومه حتى أدموه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[2] كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه.

أحدها عفوه عنهم. والثاني: استغفاره لهم. الثالث اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون. الرابع استعطافه لهم بإضافتهم إليه، فقال: ﴿**اغْفِر لقومي**﴾ كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به. هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي، فهبه لي.

---

(١) هذه الجملة ليست في بعض الأصول ولعل حذفها هو الصواب فإن المعروف أن نبينا ﷺ هو الذي ضربه قومه إلى آخره ا هـ. وكذا في المخطوطة.

(٢) متفق عليه. المراجع.

واسمع الآن ماالذي يسهل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به. اعلم أن لك ذنوباً بينك وبين الله، تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها، ويغفرها لك، ويهبها لك. ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله.

فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم، ليعاملك الله هذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك، يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقاً، فانتم بعد ذلك أواعف وأحسن أو أترك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك.

فمن تصور هذا المعنى، وشغل به فكره، هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه. هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم، وهم يسيئون إليه، فقال: «**لا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك**»(١).

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإنه كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير، وهو مسيء إليه، وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرًا لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خبزاً.

هذا مع أنه لابد له مع عدوه وحاسده من احدىٰ حالتين.

إما أن يملكه بإحسانه، فيستعبده، وينقاد، له ويذل له ويبقى من أحب الناس إليه.

وأما أن يفتت كبده، ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه.

ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة، والله هو الموفق المعين، بيده الخير كله، لا إلـه غيره، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه.

---

(١) أخرجه مسلم. المراجع.

وفي الجملة ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجله وآجله، سنذكرها في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه، فهو الذي يحسن عبده بها، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه.

قال تعالى: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**».

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه، وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً واشتغالاً به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمناً فالله يدافع عنه ولابد.

وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه، فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مَزَجَ مُزِجَ له، وإن كان مرة ومرة، فالله له مرة ومرة، كما قال بعض السلف: من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة. ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين.

قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء، فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلى الله، وإقباله عليه، وتوكله عليه، وثقته به، وأن لا يخاف معه

غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره ولا يستغيث بسواه ولا يرجو إلا إيَّاه.

ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه، وخذل من جهته، فمن خاف شيئاً غير الله سلَّط عليه، ومن رجا شيئاً سوى الله خذل من جهته وحرم خيره، هذه سنة الله في خلقه ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فصــل

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة الهامة التي لا غنىٰ للعبد عنها في دينه ودنياه. ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث في العقد.

وقد افترق العالم في هذ المقام أربع فرق:

ففرقة أنكرت تأثير هذا وهذا، وهم فرقتان:

فرقة اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن، وأنكرت تأثيرهما البتة، وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات.

وفـرقـة أنكرت وجودهما بالكلية وقالت: لا وجود لنفس الآدمي سوى هذا الهيكـل المحسـوس وصفـاته وأعراضه فقط، ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به، وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبـين إلى الإسـلام. وهو قول شذوذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة.

الفرقة الثانية أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن وأقرت بوجود الجن والشياطين وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم.

الفرقة الثالثة: بالعكس أقرَّت بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأنكرت وجود الجن والشياطين، وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها، وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم، وهؤلاء يقولون: إنما يوجد في العالم من التـأثـيرات الغـريبة والحوادث الخارقة، فهي من تأثيرات النفس، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها بغير واسطة شيطان منفصل، وابن

سينا وأتباعه على هذا القول حتى أنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب، ويقولون إنما هي من تأثيرات النفس في هيولي العالم، وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل ليسوا من أتباع الرسل جملة.

الفرقة الرابعة: وهم أتباع الرسل وأهل الحق أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأقروا بوجود الجن والشياطين، وأثبتوا ما أثبته الله تعالى من صفاتها وشرهما، واستعاذوا بالله منه، وعلموا أنه لايعيذهم منه ولا يجيرهم إلا الله، فهؤلاء أهل الحق، ومن عداهم مفرط في الباطل أو معه باطل وحق، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فهذا ما يسر الله من الكلام على سورة الفلق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفلق
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

وأما سورة الناس: فقد تضمنت أيضاً: استعاذة، ومستعاذاً به، ومستعاذ منه، فالاستعاذة تقدمت. وأما المستعاذ به فهو الله: ﴿**رَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَـٰهِ النَّاسِ**﴾ فذكر ربوبيته للناس، وملكه إياهم، وإلاهيته لهم، ولابد من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان كما تقدم. فنذكر أولاً معنى هذه الإضافات الثلاث، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة.

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم، وجلب مصالحهم، وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم. هذا معنى ربوبيته لهم، وذلك يتضمن قدرته التامة، ورحمته الواسعة، وإحسانه، وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وإجابة دعواتهم، وكشف كرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم، المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم، فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره، فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلـٰهية فهو إلـٰههم الحق، ومعبودهم الذي لا إلـٰه لهم سواه، ولا معبود لهم غيره. فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلـٰههم ومعبودهم فلا ينبغي أن يجعلوا معه

شريكاً في إلـٰهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه.

وهذه طريقـة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهٰية والعبادة.

وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلـٰهنا، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى، ولا يخاف، ولا يرجى ولا يحب سواه، ولا يذل لغيره، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه، لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه: إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومتولي شأنك، وهو ربك فلا رب سواه، أو تكون مملوكه وعبده الحق، فهو ملك الناس حقًّا وكلهم عبيده ومماليكه.

أو يكون معبودك وإلـٰهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك.

وهو الإلـٰه الحق: إلـٰه الناس الذي لا إلـٰه لهم سواه.

فمن كان ربهم وملكهم وإلـٰههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغـيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلى غير حماه، فهو كافيهم، وحسبهم، وناصرهم، ووليهم، ومتولي أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلـٰهيته لهم، فكيف لا يلتجىء العبد عند النوازل، ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلـٰهه، فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدىٰ الأعداء وأعظمهم عداوة وأشدهم ضرراً وأبلغهم كيداً.

ثم إنه ـ سبحانه ـ كرر الاسم الظاهر، ولم يوقع المضمر موقعه، فيقول: رب الناس، وملكهم، وإلهٰهم، تحقيقاً لهذا المعنى وتقوية له، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة.

والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة.

وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب، وأخَّر الإلـٰهية لخصوصها لأنه ـ

سبحانه - إنما هو إلـه مَنْ عبده ووحده واتخذه دون غيره إلـهاً، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلـهه، وإن كان في الحقيقة لا إلـه له سواه، ولكن ترك إلـهه الحق، واتخذ إلـهاً غيره.

ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلـهية، لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلـههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلـهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق الملك الحق، الإلـه الحق، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، واستعبدهم بإلـهيته.

فتأمل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام وأحسن سياق: رب الناس، ملك الناس، إلـه الناس. وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنىٰ.

وأما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنى فإن الرب هو: القادر، الخالق، الباريء، المصور، الحي، القيوم، العليم، السميع، البصير، المحسن، المنعم، الجواد، المعطي، المانع، الضار، النافع، المقدم، المؤخر، الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، إلى ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما الملك فهو الآمر الناهي، المعز المذل، الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى: كالعزيز، الجبار، المتكبر، الحكم، العدل الخافض، الرافع، المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الوالي، المتعالي، مالك الملك، المقسط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما الإلـه فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح: إن الله أصله الإلـه،

---

(١) باديه أي الذي يظهر منه بالنسبة إلى الخافي يسيرا هـ.

كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه، إلا من شذ منهم، وإن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ.

فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنىٰ.

فكان المستعيذ بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ ويمنع من الوسواس الخناس، ولا يسلط عليه. وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر، وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه وإن باديه[1] إلى الخافي يسير.

فصــل

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة، فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد، وهو شر من خارج، وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه، وهو شر من داخل. فالشر الأول لا يدخل تحت التكليف، ولا يطلب منه الكف عنه، لأنه ليس من كسبه، والشر الثاني في سورة الناس يدخل تحت التكليف، ويتعلق به النهي، فهذا شر المعائب والأول شر المصائب، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما.

فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

فصــل

إذا عرف هذا فالوسواس فعلال من وسوس وأصل الوسوسة الحركة أو الصوت الخفي لا يحس، فيحترز منه. فالوسواس الإلقاء الخفي في النفس: إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من أُلقي إليه. وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد.

ومن هذا وسوسة الحلي، وهو حركته الخفية في الأذن، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها سميت وسوسة لقربها وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس وهو الاذن، فقيل وسوسة الحلي، لأنه صوت مجاور للأذن: كوسوسة الكلام الذي يلقيه الشيطان في أذن من يوسوس له. ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس،

ويؤكده عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وسوس وسوسة، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه.

ونظير هذا ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه: كالدوران، والغليان، والنزوان وبابه.

ونظير ذلك: زلزل، ودكدك، وقلقل، وكبكب الشيء، لأن الزلزلة حركة متكررة، وكذلك الدكدكة والقلقلة، وكذلك كبكب الشيء، إذا كبه في مكان بعيد، فهو يكب فيه كبًّا بعد كب كقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُوْن﴾

ومثله رضرضه إذا كرر رضّه مرة بعد مرة، ومثله ذرذره إذا ذره شيئاً بعد شيء، ومثله صرصر الباب إذا تكرر صريره، ومثله مطمط الكلام إذا مطّه شيئاً بعد شيء، ومثله كفكف الشيء إذا كرر كفه، وهو كثير.

وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنىٰ الثلاثي المضاعف لم يصب، لأن الثلاثي لا يدل على تكرار بخلاف الرباعي المكرر فإذا قلت: ذر الشيء، وصر الباب، وكف الثوب، ورض الحب لم يدل على تكرار الفعل، بخلاف. ذرذر، وصرصر، ورضرض ونحوه، فتأمله فإنه مطابق للقاعدة العربية، في الحذو بالألفاظ حذو المعاني وقد تقدَّم التنبيه على ذلك فلا وجه لإعادته.

وكذلك قولهم: عج العجل، إذا صوّت، فإن تابع صوته، قالوا: عجعج، وكذلك: ثج الماء إذا صب، فإن تكرر ذلك قيل ثجثج، والمقصود أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها قيل وسوس[1].

(١) ما يلي هذا بحث لغوي مطول اختصرناه (ج).

فصــل

وأما الخنـاس: فهـو فعـال من خنس يخنس إذا توارىٰ واختفىٰ. ومنه قول أبي هريرة: «لقيني النبي ﷺ في بعض طرق المدينة وأنا جنب، فانخنست منه».

وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور، فليست لمجرد الاختفاء، ولهذا وصفت بها الكـواكب في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، قال قتادة: هي النجـوم تبـدو بالليل، وتخنس بالنهـار، فتختفي ولا تُرى. وكـذلك قال ـ علي رضي الله عنه ـ: هي الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى.

وقالت طائفة الخنس هي الراجعة التي ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق، وهي السبعة السيارة، قالوا: وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء والخناس مأخوذ من هذين المعنيين، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخير.

فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وانبسط عليه، وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه، واستعاذ به، انخنس، وانقبض: كما ينخنس الشيء ليتوارى، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضـاً تجمـع ورجوع، وتأخر عن القلب إلى خارج، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء. وخنس وانخنس يدل على الأمرين معاً. قال قتادة: الخنّاس له خرطوم: كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبد ربه خنس.

ويقال: رأسه كرأس الحية، وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يمنيه ويحدثه، فإذا ذكر الله خنس، وإذا لم يذكره عاد ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه، وجيء من هذا الفعـل بوزن فعال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس إيذاناً بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن ذلك دأبه وديدنه، لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحياناً، بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر، فإن ذكر الله هو مقمعته التي يقمع بها: كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعصي ونحوها.

فذكر الله يقمـع الشيطان ويؤلمـه ويؤذيه: كالسياط والمقـامع التي تؤذي من

يضرب بها. ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مضنى مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

وفي أثر عن بعض السلف: إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي الرجل بعيره في السفر، لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة فشيطانه معه في عذاب شديد، وليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة، ولهذا يكون قويًا عاتياً شديداً، فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلابد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه..

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً، حتى يعزم عليها العبد، وجاء بناء الخناس على وزن الفعّال الذي يتكرر منه نوع الفعل، لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة، فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنييهما.

فصل

وقوله: ﴿الذي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥] صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولاً، ثم ذكر محلها ثانياً، وأنها في صدور الناس.

وقد جعل الله للشيطان دخولاً في جوف العبد، ونفوذاً إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وكل بالعبد، فلا يفارقه إلى الممات.

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن علي بن حسين عن صفية بنت حيي قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً، فحدَّثته، ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: **«على رسلكما، إنها صفية بنت حيي»** فقالا: سبحان الله! يارسول الله! فقال: **«إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً ـ أو قال ـ شيئاً»**.

وفي الصحيح أيضاً عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا قُضي أقبل،**

فإذا ثُوّب بها أدبر، فإذا قُضي أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول: اذكر كذا اذكر كذا حتى لا يدري أثلاثاً صلي أم أربعاً؟ فإذا لم يدر أثلاثاً صلي أم أربعاً سجد سجدتي السهو».

ومن وسوسته ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته**».

وفي الصحيح أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: «يارسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه مالأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، قال: «**الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**».

ومن وسوسته أيضاً أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله، ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال: ﴿**إني نَسِيْتِ الحُوتَ ومَا أَنْسَانِيْهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَه**﴾. [الكهف: ٦٣].

وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه فإن قوله: ﴿**مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ**﴾ يعم كل شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شرًّا وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً، وهي الوسوسة التي هي مباديء الإرادة، فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه، ويمنيه، ويشهيه، فيصير شهوة ويزينها له، ويحسنها، ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهي وينسى علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً، فإن فتروا حرّكهم، وإن ونوا أزعجهم.

كما قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِيْنَ عَلَىَ الكَافِرِيْن تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾

[مريم: ٨٣]. أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبدِ تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة، قد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبىٰ أن يسجد لأبيهم، فلا بتلك النخوة والكبر ولا(١) برضاه أن يصير قوادًا الكل من عصى الله، كما قال بعضهم:

عجبت من إبليس في تيهه		وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم في سجدة		وصار قواداً لذريته

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها، أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضاً. فمن شره: أنه لص سارق لأموال الناس، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه، فله فيه حظ بالسرقة والخطف.

وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقاً ويخرج مغيراً، ويدل على عوراتهم فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومناماً أنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا: أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدثون به. وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه، ثم وسوس إلى الناس بما فعل، وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب، ثم فضحه به، فالرب تعالى يستره، والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته، فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله، ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته، وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة. ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقداً تمنعه من اليقظة.

كما في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام: ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت**

---

(١) الظاهر الذي يقتضيه المعنىٰ فلم تمنعه النخوة والكبر أن يصير قواداً لكل من عصىٰ الله ا هـ.

عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلىٰ انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان».

ومن شره أنه يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح، قال: «**ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في أذنه**». رواه البخاري.

ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته.

ويكفي من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم.

وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالغ في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة.

ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة للنار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين.

ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض، وقصد أن تكون الدعوة له، وأن يعبد من دون الله فهو ساعٍ بأقصىٰ جهده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته، وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض. ويكفي من شره أنه تصدَّىٰ لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار، فرد الله كيده عليه وجعل النار على خليله برداً وسلاماً.

وتصدى للمسيح ﷺ حتى أراد اليهود قتله وصلبه، فرد الله كيده، وصان المسيح ورفعه إليه. وتصدى لزكريا ويحيى حتى قتلا.

واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم في الأرض ودعوىٰ أنه ربهم الأعلىٰ.

وتصدى للنبي ﷺ وظاهر الكفار على قتله بجهده والله تعالى يكبته ويرده خاسئاً.

وتفلت على النبي ﷺ بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو في الصلاة، **فجعل** النبي ﷺ يقول: «**ألعنك بلعنة الله**».

وأعان اليهود على سحرهم للنبي ﷺ . فإذا كان هذا شأنه وهمته في الشر فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته.

ولا يمكن حصر أجنـاس شره فضلاً عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس، لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر.

الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونوابه، فإن يأس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى.

المرتبة الثانية من الشر وهي البدعة وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي، لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضاً نائبه وداعياًمن دعاته، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى.

المرتبة الثالثة: من الشر وهي الكبائر على اختلاف أنواعها فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع، من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر و﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ١٩]. هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم، ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به.

وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات.

وأما ذنـوب أولئـك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورتهم وقصد لفضيحتهم، **والله**

سبحانه بالمرصاد لا تخفىٰ عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى.

المرتبة الرابعة وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها كما قال النبي ﷺ: «**إيَّاكُم ومحقرات الذنوب، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض**» وذكر حديثاً معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتووا. ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى.

المرتبة الخامسة وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظاً لوقته شحيحاً به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلى.

المرتبة السادسة وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلىٰ منه، وقل من يتنبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأىٰ فيه داعياً قويًا ومحركاً إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان، فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول هذا الداعي: من الله وهو معذور، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل.

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم.

ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في

الأرض. وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا يخطر بقلوبهم، والله يمن بفضله على من يشاء من عباده.

فإذا أعجـزه العبد من هذه المراتب الست وأعى عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذىٰ والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فكره وليمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا يني فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلَّا الموت. ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقىٰ الله.

فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانك تزن به الناس وتزن به الأعمال، فإنه طلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان، ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعاً لمن تدبره ووعاه.

فصـــل

وتأمل السر في قوله تعالى: ﴿**يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**﴾ [الناس: ٥] ولم يقل في قلوبهم والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع في الصـدر ثم تلج في القلب فهـو بمنـزلـة الدهليز له، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصـدر ثم تتفـوق على الجنود، ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: ﴿**وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما في صُدُورِكم وَلِيُمَحِّصَ مَافي قُلُوبِكم**﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب فهو موسوس في الصدر ووسوته واصلة إلى القلب ولهذا قال تعالى: ﴿**فَوَسْوَسَ إليهِ الشَّيْطَانُ**﴾ [طه: ١٢٠]. ولم يقل فيه لأن المعنى أنه ألقىٰ إليه ذلك وأوصله فيه فدخل في قلبه.

فصـــل

وقـولـه تعالى: ﴿من الجِنَّةِ والنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]. اختلف المفسرون في هذا الجـار والمجـرور بم يتعلق. فقـال الفراء، وجماعة هو بيان للناس الموسوس في صدورهم. والمعنىٰ يوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والإنس، أي الموسوس في صدورهم قسمان، إنس وجن، فالوسواس يوسوس للجني كما يوسوس للإنسي.

وعلى هذا القول فيكون من الجنة والناس نصب على الحال لأنه مجرور بعد معرفة على قول البصريين، وعلى قول الكوفيين نصب بالخروج من المعرفة هذه عبارتهم. ومعناها أنه لما لم يصلح أن يكون نعتاً للمعرفة انقطع عنها فكان موضعه نصباً. والبصريون يقدرونه حالاً أي كائنين من الجنةوالناس وهذا القول ضعيف جدًّا لوجوه:

أحدها: أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدور الجني ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي ويجري منه مجراه من الإنسي، فأي دليل يدل على هذا حتى يصح حمل الآية عليه.

الثـاني: أنه فاسد من جهة اللفظ أيضاً فإنه قال: الذي يوسوس في صدور الناس، فكيف يبين الناس بالناس، فإن معنىٰ الكلام على قوله يوسوس في صدور الناس الذين هم أو كائنين من الجنة والناس، أفيجوز أن يُقال في صدور الناس الذين هم من الناس وغيرهم هذا ما لا يجوز ولا هو استعمال فصيح.

الثالث أن يكون قد قسم الناس إلىٰ قسمين: جنة وناس، وهذا غير صحيح فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه.

الرابع أن الجنة لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه لا أصلاً واشتقاقاً ولا استعمالاً ولفـظهـا يأبىٰ ذلـك. فإن الجن إنما سموا جنًّا من الاجتنان وهو الاستتار فهم مستترون عن أعين البشر، فسموا جنًّا لذلك من قولهم جنه الليل وأجنه إذا ستره وأجن الميت إذا ستره في الأرض قال:

ولا تبـك ميتاً بعـد ميتٍ أجنـه　　　علي وعـبـاس وآل أبي بكـر

يريد النبي ﷺ ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم**﴾ [القصص: ٢٩]، ومنه المجن لاستتار المحارب به من سلاح خصمه، ومنه الجنة لاستتار داخلها بالأشجار، ومنه الجُنة بالضم لما يقي الإنسان من السهام والسلاح، ومنه المجنون لاستتار عقله.

وأما الناس فبينه وبين الإنس مناسبة في اللفظ والمعنىٰ، وبينهما اشتقاق أوسط وهو عقد(١) تقاليب الكلمة إلىٰ معنىٰ واحد.

والإنس والإنسان مشتق من الإيناس، وهو الرؤية والإحساس.

ومنه قوله: ﴿**آنَسَ من جَانِبِ الطُّورِ نَاراً**﴾ [القصص: ٢٩] أي: رآها. ومنه ﴿**فإن آنستُم منهم رُشْداً**﴾ [النساء: ٦]. أي أحسستموه ورأيتموه فالإنسان سمي إنساناً لأنه يونس أي يرىٰ بالعين، والناس فيه قولان أحدهما: أنه مقلوب من أنس وهو بعيد، والأصل عدم القلب، والثاني: وهو الصحيح أنه من النوس وهو الحركة المتتابعة، فسمي الناس ناساً للحركة الظاهرة والباطنة، كما سمي الرجل حارث وهمام وهما أصدق الأسماء، كما قال النبي ﷺ لأن كل أحد له هم وإرادة، وهي مبدأ، وحرث وعمل هو منتهىٰ، فكل أحد حارث وهمام والحرث والهم حركتا الظاهر والباطن، وهو حقيقة النوس، وأصل ناس نوس تحركت الواو وقبلها فتحة فصارت ألفاً، هذان هما القولان المشهوران في اشتقاق الناس، وأما قول بعضهم أنه من النسيان وسمي الإنسان إنساناً لنسيانه.

وكذلك الناس سموا ناساً لنسيانهم فليس هذا القول بشيء، وأين النسيان الذي مادته [ن س ى] إلى الناس الذي مادته [ن و س] وكذلك أين هو من الإنس الذي مادته [ا ن س و]. كذلك أين هو من الإنس الذي مادته ا ن س و.

وأما إنسان فهو فعلان من [أ ن س] والألف والنون في آخره زائدتان لا يجوز فيه غير هذا البتة إذ ليس في كلامهم أنس حتى يكون إنساناً إفعالاً منه، ولا يجوز أن يكون الألف والنون في أوله زائدتين، إذ ليس في كلامهم انفعل، فيتعين أنه

---
(١) معناه رجوع تقاليب الكلمة أي تصرفاتها إلى معنىٰ واحد.

فعلان من الإنس ولو كان مشتقاً من نسي لكان نسياناً لا إنساناً.

فإن قلت: فهلا جعلته إفعلالاً وأصله إنسيان كليلة إصحيان ثم حذفت الياء تخفيفاً فصار إنساناً.

قلت: يأبىٰ ذلك عدم إفعلال في كلامهم، وحذف الياء بغير سبب ودعوىٰ ما لا نظير له وذلك كله فاسد.

على أن الناس قد قيل إن أصله الأناس فحذفت الهمزة فقيل الناس. واستدل بقول الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الغافلينا

ولا ريب أن أناساً فعال ولا يجوز فيه غير ذلك البتة، فإن كان أصل ناس أناساً فهو أقوىٰ الأدلة على أنه من أنس ويكون الناس كالإنسان سواء في الاشتقاق ويكون وزن ناس على هذا القول عال لأن المحذوف فاؤه، وعلى القول الأول يكون وزنه فعل لأنه من النوس.

وعلى القول الضعيف يكون وزنه فلع لأنه من نسي فقلبت لامه إلى موضع العين فصار ناساً ووزنه فلعاً.

والمقصود أن الناس اسم لبني آدم فلا يدخل الجن في مسماهم فلا يصح أن يكون من الجنة والناس بياناً لقوله: ﴿**فِي صُدُورِ النَّاسِ**﴾ [الناس: ٥]. وهذا واضح لا خفاء فيه.

فإن قيل: لا محذور في ذلك فقد أطلق على الجن اسم الرجال كما في قوله تعالى: ﴿**وأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ من الإنْسِ يَعُوذُون بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ**﴾[الجن: ٦]. فإذا أطلق عليهم اسم الرجال لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم الناس.

قلت: هذا هو الذي غر من قال: إن الناس اسم للجن والإنس في هذه الآية.

وجواب ذلك: أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعاً مقيداً في مقابلة ذكر الرجال من الإنس ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقاً.

وأنت إذا قلت إنسان من حجارة أو رجل من خشب ونحو ذلك لم يلزم من ذلك وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب.

وأيضاً فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجني أن يطلق عليه اسم الناس وذلك لأن الناس والجنة متقابلان.

وكذلك الإنس والجن فالله سبحانه يقابل بين اللفظين كقوله: ﴿**يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ**﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وهو كثير في القرآن.

وكذلك قوله: ﴿**مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ**﴾ يقتضي أنهما متقابلان فلا يدخل أحدهما في الآخر بخلاف الرجال والجن فإنهما لم يستعملا متقابلين فلا يقال: الجن والرجال، كما يقال الجن والإنس وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم في أن الجن لا يدخلون في لفظ الناس، لأنه قابل بين الجنة والناس، فعلم أن أحدهما لا يدخل في الآخر.

فالصواب القول الثاني وهو أن قوله: ﴿**من الجِنَّةِ والنَّاسِ**﴾ بيان للذي يوسوس. وأنهم نوعان إنس، وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس والإنسي أيضاً يوسوس إلى الإنسي، فالموسوس نوعان: إنس وجن، فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب وهذا مشترك بين الجن والإنس، وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن، والجني لا يحتاج إلى تلك الواسطة لأنه يدخل في ابن آدم ويجري منه مجرى الدم، على أن الجني قد يتمثل له ويوسوس إليه في أذنه كالأنسي. كما في البخاري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الملائكة تحدث في العنان والعنان الغمام بالأمر يكون في الأرض فتستمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**». فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن.

ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكهما في الوحي الشيطاني، قال تعالى: ﴿**وَكَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً**﴾ [الأنعام: ١١٢].

فالشيطان يوحي إلى الإنسي باطله ويوحيه الإنس إلى إنسي مثله فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني ويشتركان في الوسوسة.

وعلى هذا فتزول تلك الإشكالات والتعسفات التي ارتكبها أصحاب القول الأول. وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعي الشياطين: شياطين الإنس، والجن.

وعلى القول الأول إنما تكون الاستعاذة من شر شياطين الجن فقط فتأمَّله، فإنه بديع جدًّا.

فهذا ما من الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين وله الحمد والمنة وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط فما ذلك على الله بعزيز والحمد لله رب العالمين ونختم الكلام على السورتين بذكر.

قاعـدة نافعـة

فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه.

وذلك عشرة أسباب. أحدها: الاستعاذة بالله من الشيطان.

قال تعـالى: ﴿وإمَّـا يَنْزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ﴾. [فصلت: ٣٦]، وفي موضع آخر: ﴿إنه سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ﴾. [الأعراف: ٢٠٠].

وقد تقدم أن السمع المراد به ههنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام. وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة (هو) الدال على تأكيد النسبة واختصاصها، وعرف الوصف بالألف واللام في سورة (حم) لاقتضاء المقام لهذا التأكيد، وتركه في سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه فإن الأمر بالاستعاذة في سورة (حم) وقـع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم، كما قال الله تعالى.

والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا، بل يريه أن هذا ذل وعجز ويسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الانتقام ويزينه له، فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه، وأن لا يسيء إليه ولا يحسن فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه، وآثر الله وما عنـده على حظه العـاجـل، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال فيه: ﴿وإما يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذ باللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ العِلِيْمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وأما في سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان، بل بالإعراض، وهذا سهل على النفوس غير مستعصي عليها، فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان فقال: ﴿**وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ باللهِ إنَّهُ سَمِيْعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقد تقدَّم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله في (حم المؤمن). ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ**﴾ [غافر: ٥٦]. وفي صحيح البخاري عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد قال: «كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**[1] **ذهب عنه ما يجد**».

الحرز الثاني: قراءة هاتين السورتين فإن لهما تأثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه. ولهذا قال النبي ﷺ: «**ماتعوذ المتعوذون بمثلهما**». وقد تقدَّم أنه كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة. وتقدم قوله ﷺ: «**إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثاً حين يمسي وثلاثاً حين يصبح كفته من كل شيء**».

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي ففي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتىٰ آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فقال النبي ﷺ: «**صدقك وهو كذوب ذاك الشيطان**». وسنذكر إن شاء الله تعالى السر الذي لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا التأثير العظيم في التحرز من الشيطان واعتصام قارئها بها في كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله وتأييده.

(١) في نسخة بحذف الرجيم والعمل على الرواية.

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة ففي الصحيح من حديث سهل عن عبدالله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان**».

الحرز الخامس: قراءة خاتمة سورة البقرة فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى[1] الأنصاري قال: «قال رسول الله ﷺ: **من قرأ الآيتين من آخر سورة البقـرة في ليلة كفتـاه**». وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان**».

الحرز السادس: أول سورة حم المؤمن إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، مع آية الكرسي في الترمذي من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: **من قرأ: حم المؤمن إلى: ﴿إليه المصير﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح**». وعبدالرحمن المليكي وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته.

الحرز السابع: لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة. ففي الصحيحين من حديث سمي مولىٰ أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك**». فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله عليه.

الحرز الثامن: وهو من أنفع الحروز من الشيطان كثرة ذكر الله عز وجل، ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمر يحيى بن**

(١) في نسخة ابن مسعود.

زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها وأنه كاد أن يبطيء بها فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم فقال يحيى: أخشىٰ إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ وقعدوا على الشرف فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدّ إليّ فكان يعمل ويؤدِّي إلى غير سيده فأيكم يرضىٰ أن يكون عبده كذلك، وأن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدىٰ نفسه منهم. وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتىٰ على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله قال النبي ﷺ: وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن ادعىٰ دعوى الجاهلية فإنه من جثاء جهنم، فقال رجل: يارسول الله وإن صلى وصام، قال: وإن صلى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله». قال الترمذي هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال البخاري الحارث الأشعري له صحبة وله غير هذا الحديث.

فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة: قل أعوذ برب الناس فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس والخناس، الذي إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمّع

وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقىٰ إليه الوساوس التي **هي** مباديء الشر كله فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل.

الحرز التاسع: الوضوء والصلاة وهذا من أعظم ما يتحرز به منه ولا سيما **عند** توارد قوة الغضب والشهوة فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض**».

وفي أثر آخر: «إن الشيطان خلق من نار وإنما تطفأ النار بالماء». فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة، فإنها نار والوضوء يطفئها والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

الحرز العاشر: إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة. فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه في القلب والاشتغال به والفكرة في الظفر به فمبدأ الفتنة من فضول النظر كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه**»، أو كما قال ﷺ. فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كماقال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر

وقال الآخر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً ... لقلبك يوماً أتبعتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وقال المتنبي:

وأنا الذي جلب المنية طرفه ... فمن المطالب والقتيل القاتل

ولي من أبيات:

يا رامياً بسهـام اللحظ مجتهـداً		أنـت الـقتيل بما ترمي فلا تصب
وبـاعث الـطرف يرتاد الشفاء له		توقـه إنـه يرتـد بالـعـطب
ترجـو الشفـاء بأحداق بها مرض		فهل سمعت ببرء جاء من عطب
ومـفـنياً نفسـه في إثـر أقبحهم		وصـفـا للطخ جمال فيه مستلب
وواهبـاً عمـره في مثـل ذا سفهـاً		لو كنت تعرف قدر العمر لم تهب
وبـائعـاً طيب عيش مالـه خطر		بطيف عيش من الآلام منتـهب
غبنت والله غبنـاً فاحشـاً فلو اسـ		ترجعت ذا العقـد لم تغبن ولم تخب
وواردا صفـو عيش كله كدر		أمـامك الورد صفواً ليس بالكذب
وحاطب الليل في الظلماء منتصباً		لكـل داهـية تدن من العـطب
شاب الصبا والتصابي بعد لم يشب		وضـاع وقتـك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها		والضي في الأفـق الشرقي لم يغب
وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت		عن أفقـه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والـدنيا قد ارتحلت		ورسل ربك قد وافتك في الطلب
ما في الديار وقد سارت ركائب من		تهواه للصب من سكنى ولا أرب
فأفـرش الخـد ذياك الـتراب وقل		ما قاله صاحب الأشواق في الحقب
ما ربـع مية محفـوفـاً يطوف به		غيلان أشهى له من ربعك الخرب
ولا الخدود إن أدمين من ضرج[1]		أشهى إلى ناظري من خدك الترب
منـازلاً كان يهواهـا ويألـفـهـا		أيام كان منـال الوصل عن كثب
فكـلما جليت تلك الـربـوع له		يهوي إليهـا هوى المـاء في صبب
أحيا له الشـوق تذكار العهود بها		فلو دعـا القلب للسلوان لم يجب
هذا وكم منـزل في الأرض يألفـه		وما له في سواها الدهر من رغب
ما في الخيام أخو وجد يريحك إن		بثثتـه بعض شأن الحب فاغـترب

(١) في القاموس تضرج لخد أحمار فالضرج الاحمرار.

وأسر في غمـرات الليل مهتـدياً   بنفحـة الطيب لا بالنار والحطب
وعـاد كل أخـي جبن ومعجـزة   وحارب النفس لأتلقيك[1] في الحرب
وخـذ لنفسـك نوراً تستضيء به   يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب
فالجسر ذو ظلمات ليس يقـطعـه   إلا بنـور ينجي العبـد في الكرب

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء.

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر كلها مداخل للشيطان فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «**وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم**». وفي الترمذي أن رجلاً من الأنصار توفي فقال بعض الصحابة: «طوبىٰ له فقال النبي ﷺ: **فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه**».

وأكثر المعـاصي إنـما تولـدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان فإن جارحتيمها لا يملان ولا يسئمان بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلىء لم يبق فيه إرادة للطعـام وأمـا العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

وأما فضول الطعام فهو داعٍ إلى أنواع كثيرة من الشر فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ويثقلها عن الطاعات وحسبك بهذين شرًّا، فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونها فمن وقي شر بطنه فقد وقي شرًّا عظيماً والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام.

ولهذا جاء في بعض الآثار: ضيقوا مجاري الشيطان بالصوم. وقال ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطن**». ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة

(١) في النهـاية الحـرب بالتحريك نهب مال الإنسان وتركه لا شيء له فأطعني جارب النفس لئلا تسلب الفضيلة أو رأس مالك وهو العمر.

عن ذكر الله عز وجل وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ومناه وشهاه وهام به في كل واد. فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

وأما فضـول المخـالـطة فهي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخـالطة والمعاشرة من نعمة وكم زرعت عن عداوة وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات، وهي في القلوب لا تزول فضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة. ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه للشر.

أحدها من مخالطته كالغذاء لا يستغني عنه في اليوم والليلة فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه، هكذا على الدوام وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته وهم من لا يستغني عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتـاج إليه من أنـواع المعـاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من.

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه.

فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومـع ذلك فلابد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضرباً عليك فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منـزلتها، بل إن تكلَّم فكلامه كالعصىٰ تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه

بكلامه وفرحه به، فهو يحدث من فيه كلما تحدث ويظن أنه مسك يطيب به المجلس وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يوماً عند شيخنا قدّس الله روحه رجلاً من هذا الضرب والشيخ يحمله وقد ضعفت القوىٰ عن حمله فالتفت إليّ وقال: مجالسة الثقيل حمى الربع ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمىٰ فصارت لها عادة أو كما قال.

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة. ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلىٰ بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثّرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله ﷺ الداعون إلى خلافها الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين. وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير قالوا: أنت من المشبهين.

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهىٰ الله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المفتنين. وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين. وإن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين. وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين، فالحزم كل الحزم التماس مرضات الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا

تبالي بذمهم ولا بغضهم، فإنه عين كمالك كما قال.

وإذا أتتـك مذمتي من ناقص فهي الشهـادة لي بأني فاضـل

وقال آخر:

وقـد زادني حبًّـا لنـفسي أنـني بغيض إليَّ كل امريء غير طائل(١)

فمن كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم وهي فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة، واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان، فقد أخذ بنصيبه من التوفيق، وسد على نفسه أبواب جهنم، وفتح عليها أبواب الرحمة، وانغمر ظاهره وباطنه، ويوشك أن يحمد عند المهات عاقبة هذا الدواء فعند المهات يحمد القوم التقي، وفي الصباح يحمد القوم السري والله الموفق لا رب غيره ولا إلـه سواه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الناس

والحمد لله رب العالمين

(١) معناه: غير كريم.

كلمة لابد منها

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي بلغ البلاغ المبين، وأرشد السائرين، وأنار السبيل، وأوضح المحجة وأقام الحجة، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد:

يقول الله تعالى: ﴿**قل كُلٌّ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً**﴾. [الإسراء: ٨٤]. وقال رسول الله ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١).

وقال أيضًا ﷺ: «**إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمًا علّمه ونشره، وولداً صالحاً تركه...**»(٢).

وغير خافٍ ما لابن القيّم رحمه الله من جهود مباركة، ووقفات سديدة رشيدة، وغوص في بحور الأحاديث والآيات، ينتقي درر المعاني وجواهر الدلالات، ولما كان هذا الكنز الدفين حول تفسير كلام رب العالمين مبثوثا في بطون كتب هذا الإمام الرباني والعلامة السلفي، وكان من العسير على طالب

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته رقم (١٦٣١) وأبوداود في كتاب الوصية، باب فيما جاء في الصدقة عن الميت رقم (٢٨٨٠). والترمذي في كتاب الأحكام، باب في الوقف رقم (١٣٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب ثواب معلم الناس الخير رقم (٢٤٢). وحسنه المنذري والألباني كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٧٤).

العلم الوقوف عليها كلها أو أكثرها والاسترشاد بها، وظلت هذه الفوائد والأبحاث والفرائد ردحاً من الزمن لا يطلع عليها كثير من الناس، فقد قيض الله عز وجل لانجاز هذا العمل، وإخراج هذه المكنونات وجمع شتاتها ولمِّ شعثها وتأليف مبعثرها في سلك واحد، وانتظامها في عقد بديع طريف فريد، ألا وهو الشيخ الفاضل علي الحمد المحمد الصالحي ـ غفر الله له ورحمه رحمة واسعة ـ فقد عكف الشيخ على مؤلفات ابن القيم أكثر من خمس عشرة سنة يقرأ وينقب ويلتقط ويجمع كل شاردة وواردة، ويرتب ويضع كل بحث في موضعه من السورة على حسب ترتيب المصحف فكان هذا المجموع الذي بين يديك ـ أيها القاريء الكريم ـ كما تراه في ثوب قشيب وحلة زاهية.

ومما ينبغي التنبيه عليه ولفت النظر إليه أن أكثر حواشي الكتاب من التعليقات والتخريجات ليست من صنيع الشيخ ـ رحمه الله ـ بل هو أخذها ممن حققوا وعلقوا على كتب ابن القيّم من الطبعات التي أشار إليها الشيخ في المقدمة، فإذا كان للشيخ ـ رحمه الله ـ تعليق أو حاشية كتب في نهايتها (ج) دلالة عليه.

ومما ينبغي أن يشار إليه أيضًا أن الشيخ ـ رحمه الله ـ وقد كان كبر سنه وأدركته الشيخوخة فكان كلما وقف على بحث أو فائدة أو نادرة صورها من هنا ومن هناك وكان في بعض الأحيان يختلط عليه الأمر فينسى أن يعزو بعض ما نقله إلى مصدره، فقد تجد أيها القاريء الكريم نقلاً ثم لا تجد عزوه في الحاشية، فهذا إما نسيان من الشيخ أو خطأ غير مقصود.

ومم شارك معنا في إنجاز هذا العمل الأخ أبوعبد الرحمن عزت الروبي والأخ أبوعبدالله فكري محمود حفظهما الله وكان الشيخ علي بين الحين والآخر يتابع معنا حتى أخرجنا الجزءين الأول والثاني إلى حيز الوجود وانشرح صدر الشيخ وقرت عينه برؤية ثمرة جهوده، ولكن المرض ظل يعاود الشيخ بين الفينة والأخرى فأسند الشيخ إليَّ عمل فهارس الكتاب: الأجزاء الأربعة المتبقية وعندما انتهينا من الجزءين الثالث والرابع وراجعهما الشيخ ووقع على الموافقة بالطباعة ولما كان

الجزءان في المطبعة أوشكا على الانتهاء كان الشيخ يعاني من آلام المرض وسكرات الموت وغربت شمس حياته في يوم الأربعاء الموافق ٢١/ ٥/ ١٤١٥هـ

وانتهينا من الجزءين الخامس والسادس بعد وفاة الشيخ وقد أصبح رهين اللحد عند رب رحيم فعسىٰ أن يكون هذا العمل له نوراً وبرهانًا وفوزاً وفلاحًا في يوم يجزي الله الصادقين بصدقهم، سائلين الله ـ عز وجل ـ للشيخين الفاضلين ابن القيّم وعلي الصالحي أن يتغمدهما بوافر رحمته وعميم كرمه وجوده وإحسانه وأن يحشرنا وإياهما في زمرة رسوله الأمين محمد بن عبدالله ﷺ كما نسأله سبحانه أن ينفعنا بما علمنا ويعلمنا ما ينفعنا ويرزقنا العمل بالعلم النافع وأن يختم لنا ولكم بخاتمة الخير والسعادة ويوفقنا إلى محبته ومرضاته إنه ولي ذلك والقادر عليه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبـــهـــا

صبري بن سلامة شاهين

مكتبة دار السلام بالرياض

في اليوم الثاني من شهر رجب ١٤١٥هـ

فهرس المجلد السادس

فهـــرس سورة المجادلة

فهرس سورة الحشر

فهرس سورة الممتحنة

فهـرس سورة الصف

فهرس سورة الجمعة

فهرس سورة المنافقون

فهرس سورة التغابن

فهرس سورة الطلاق

فهرس سورة التحريم

فهــرس سورة الملك

فهرس سورة القلم

فهرس سورة الحاقة

فهرس سورة المعارج

فهرس سورة نوح

فهرس سورة الجن

فهرس سورة المزمل

فهرس سورة المدثر

فهرس سورة القيامة

فهرس سورة الإنسان

فهرس سورة المرسلات

فهرس سورة النبأ

فهرس سورة النازعات

فهرس سورة عبس

فهرس سورة التكوير

فهرس سورة الانفطار

فهرس سورة المطففين

فهرس سورة الانشقاق

فهرس سورة البروج

فهرس سورة الطارق

فهرس سورة الأعلىٰ

فهرس سورة الغاشية

فهرس سورة الفجر

فهرس سورة البلد

فهرس سورة الشمس

فهرس سورة الليل

فهرس سورة الضحى

فهرس سورة الشرح

فهرس سورة التين

فهرس سورة العلق

فهرس سورة القدر

فهرس سورة البينة

فهرس سورة الزلزلة

فهرس سورة العاديات

فهـرس سـورة التكاثر

فهرس سورة العصر

فهـرس سورة الهمزة

فهرس سورة الماعون

فهرس سورة الكوثر

فهرس سورة الكافرون

فهرس سورة النصر

فهرس سورة المسد

فهرس سورة الإخلاص

فهـرس سـورة الفلـق

فـهـرس سـورة الناس

بهذا ينتهي المجلد السادس والأخير
من كتاب الضوء المنير على التفسير
والحمد لله رب العالمين

نبذة مختصرة عن حياة الشيخ علي الحمد المحمد الصالحي(*) ١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ رحمه الله

أولا: نسبه ومولده ونشأته:

هو الشيخ أبو محمد علي الحمد المحمد الصالح العبد الله الصالحي.

ولد - رحمه الله - في مدينة عنيزة بمنطقة القصيم سنة **١٣٣٣**هـ من أسرة أمية، وكان والده حمد محبًّا للعلم والعلماء، وكان يأمل في ابنه علي أن يكون من العلماء، فحرص أبوه على ذلك، واجتهد، فكان يدفعه لحفظ القرآن ويشجعه حتى أتمه في سنٍّ مبكر، كما كان يزج به في حلقات العلم والعلماء حتى حفظ كثيراً من المتون والأشعار، ودرس أمهات الكتب وهو في سن مبكر وقد لازم شيخه عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ولما رأى الشيخ فيه وفور النجابة وتوقد الذكاء عهد إليه تدريس النشأ، فأجاد وأفاد، ثم انتسب إلى المعهد العلمي بالرياض ثم انتسب إلى كلية الشريعة ثم انتسب إلى المعهد العالي للقضاء، وكان في كل ذلك مثال الجد والاجتهاد والحيوية والنشاط، فَدَرِسَ ودرَّس، وأجاد وأبدع وحسن مدخله ومخرجه - رحمه الله -.

ثانيا: شيوخه:

لازم الشيخ علي - رحمه الله - كثيراً من العلماء وكان من أهم وأقرب شيوخه إليه والذين أثروا في حياته العلمية هو فضيلة العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي وفضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وفضيلة الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم آل الشيخ وفضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي - رحمهم الله جميعاً -. وكذلك درس على يد سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله تعالى وفضيلة الشيخ عبدالله بن حميد رحمه الله.

(*) هذه النبذة أفادنا بها أولاد الشيخ علي الصالحي - رحمه الله - وفضيلة الشيخ عبدالله المعتاز حفظه الله وفضيلة الشيخ محمد العثمان القاضي. أمين المكتبة الصالحية بعنيزة. حفظه الله. ونشر في جريدة الجزيرة عدد ٨٠٨٤ في ١٤١٥/٦/١٣هـ وفي جريدة المدينة العدد ١١٥٧٢ في ١٤١٥/٧/٤هـ.

ثالثا: تلاميـــذه:

قد أسند الشيخ السعدي إلى الشيخ علي تدريس صغار طلبة العلم وهو في سن مبكر. أما تلاميذه ومن تعلموا على يديه فهم جمع غفير ومن أبرزهم وأشهرهم وأفضلهم فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ـ حفظه الله تعالى ـ.

وكذلك من أبرزهم: عبد الرحمن اليوسف الشبل، وسليمان الأشقر الزامل، وعبد الله الصالح اليحيا، وعبد العزيز الغرير، وعبد الله وعبد العزيز السليمان القاضي ومحمد عثمان القاضي ومحمد وصالح الونين وغيرهم.

رابعا: أعماله ومؤلفاته:

كان الشيخ علي ـ رحمه الله ـ من أهم المؤسسين لمكتبة عنيزة العامرة بأمهات الكتب، وقد كان يعمل مديراً لمستودعات الكتب بدار الإفتاء في السبعينات الهجرية وأنشأ مؤسسة النور للطباعة والتجليد، والتي تعتبر من أقدم مطابع المملكة، وكان لهذه المؤسسة ـ بعد فضل الله تعالى ـ الأثر الكبير في إعادة طباعة أمهات الكتب، وظل الشيخ علي ـ رحمه الله ـ في مجال طباعة الكتب ونشر العلم حتى أرهقته الشيخوخة فعاد إلى عنيزة عام ١٣٩٠هـ وهناك لم يتوقف نشاطه من أجل خدمة العلم والعلماء، وكان يأتي إلى الرياض بين الحين والآخر من أجل متابعة ومراجعة كتاب «الضوء المنير على التفسير».

أما الكتب التي ألفها وجمعها وقام على تحقيقها فهي:

١ ـ كتاب الضوء المنير على التفسير.

فقد قام فضيلة الشيخ علي ـ رحمه الله ـ بجمع كلام العلامة ابن القيم من خلال مؤلفاته حول التفسير قرابة خمسة عشر عاما حتى جمع هذا السفر الجليل، وهو يتكون من ستة أجزاء طبع عام ١٤١٥هـ.

٢ ـ كتاب التنبيهات حول المقام ومنى طبع ١٣٩٤هـ.

٣ ـ كتاب العطار والقاسم في الميزان طبع في ١٣٨٤هـ.

٤ ـ كتاب دعوة المسلمين إلى احترام شعائر الدين طبع ١٤١٣هـ وترجم إلى الإنجليزية.

أما الكتب التي طبعها على نفقته وحسابه الخاص فهي:

١ ـ كتاب تنبيه الغافلين طبع ١٤١١هـ.

٢ ـ كتاب مجموع ابن رميح طبع ١٤١٤هـ.
٣ ـ الربع الأول من تفسير القرآن باللغة الإنجليزية.
٤ ـ تفسير معاني القرآن الكريم كاملاً باللغة الإنجليزية.
٥ ـ رسالة الحسن بن أيوب. تحت الطبع وغيرها كثير من رسائل أهل العلم.

وهذا بجوار المشاريع الخيرية داخل وخارج المملكة مما كان لها الفضل بعد الله ـ عز وجل ـ في تعليم وتفهيم الكثيرين مبادىء الإسلام وأمور الدين.

خامسا: صفاته وأخلاقه:

كان ـ رحمه الله ـ جم الخلق، جواداً، يبذل المعروف، ويدعو إليه، ويكف عن الشر، ويحذر منه مع كونه جلداً صبوراً حازماً نشيطاً في زهد وإقبال على الآخرة، لا يخشى في الله لومة لائم، كان قويًّا في الحق، لا يحابي أحداً، ولا يداهن، وكان تقيًّا محسنا صدوقا، وبالجملة ففقده خسارة فادحة لا تعوض، وثلمة لا تسد، إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وخَلَفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿**أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها**﴾ قال: هو موت العلماء والصالحين. وقال الشاعر:

الأرض تحيا إذا ماعاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ماالغيث حلَّ بها ... وإن أبىٰ عاد في أطرافها التلف

هذا مانحسبه عنه والله حسيبه.

سادسا: وفاته:

كان ـ رحمه الله ـ دائماً يقول: أنا لم أعرف اللعب واللهو في حياتي ،ولا أضيع أوقاتي فيما لا يفيد، فإما في عمل الدنيا وإما في عمل الآخرة.

أصيب ـ رحمه الله ـ بمرض تليف الرئة، واشتد عليه المرض، ووافاه الأجل وهو منهمك في مراجعة كتاب «الضوء المنير» في الأجزاء الأخيرة منه وفارق الدنيا في يوم الأربعاء **٢١** من شهر جمادى الأولى سنة **١٤١٥هـ** بعد حياة حافلة بالجد والعمل الدءوب، وله من العمر ثلاثة وثمانون عاماً فرحمه الله رحمة واسعة، وجعل مستقره دار كرامته، ونفع الله بعلومه وجهوده إلى يوم الدين، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.